تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الحادي عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على كماله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، سيدنا محمد ﷺ وجميع صحبه وحزبه.

أما بعد: فإني لمَّا فرغتُ من تفسير الجزء التاسع من القرآن.. قصدت البداية في تفسير الجزء العاشر منه، وبالله أعتضد، ومن فيضه أستمد، وأقول وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى
الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ
وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي
الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي
أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
(٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي
جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ
هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] أمر بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم، وكان ذلك مستتبعاً لأخذ الغنائم منهم.. ناسب أن يذكر ما يرضيه سبحانه وتعالى في قسمة الغنائم على الوجه الذي شرعه.

والجمهور على أنّ هذه الآية نزلت في غزوة بدر، وعلى أنّ ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالىٰ لمّا أمر بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة.. اقتضى ذلك وقائع وحروباً، فذكر بعض أحكام الغنائم، وكان في ذلك تبشيرٌ للمؤمنين بغلبتهم للكفار وقسم ما يحصل منهم من الغنائم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى[3] لمّا ذكر نعمه على رسوله، وعلى المؤمنين يوم بدر.. أردف ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوِّهم:

١ ـ الثبات وتوطين النفس على اللِّقاء، مع عدم التواني والتكاسل.

٢ ـ ذكر الله كثيراً، وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم؛ تنبيهاً على أنَّ الإنسان يجب أن لا يخلو قلبه من ذكره في أشد الأوقات حرجاً، وقد طلب إلينا الثبات والطاعة لله ورسوله حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات، ومحاسن الأداب التي تكون سبب الظفر في القتال، ونهاهم عن التنازع.. قفى على ذلك بنهيهم عما كان عليه مشركو قريش حين خرجوا لحماية العير، من البطر والكبرياء، والصد عن سبيل الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لمَّا خرجت قريش من مكة إلى بدر.. خرجوا بالقيان ـ جمع قينة: المرأة المغنية ـ والدفوف فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة قال: لمَّا أنزل الله على نبيه ﷺ بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، أيُّ جمع؟ وذلك قبل بدر، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريشٌ.. نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً بالسيف يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فكانت ليوم بدر، فأنزل فيهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ الآية، وأنزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية، وملأت أعينهم وأفواهم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينه وفاه، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، وأنزل في إبليس: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غرَّ هؤلاء دينهم، فأنزل الله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ أي: أنَّ كلَّ ما غنمتموه من الأموال، وأخذتموه من الكفار المحاربين قهراً، حالة كونه كائناً من شيء، أي: قليلاً كان أو كثيراً، حقيراً كان أو جليلاً، ولكن خصَّص الإجماع من عموم الشيء الأسارى؛ فإن الخيرة فيهم إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؛ أي: فإن خمس ما غنمتموه لله؛ أي: مفوض أمره إلى الله تعالى، يصرف في المواضع التي أمر الصرف إليها، وهي الخمسة المذكورة بعد لفظ الجلالة، والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم والتبرك؛ لأن الدنيا والآخرة كليهما لله تعالى؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وأنَّ المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين عليه، وأمَّا أربعة أخماسها الباقية.. فللغانمين، للفارس منهم ثلاثة أسهم، وللراجل سهمٌ.

والمعنى: واعلموا أيها المؤمنون أن ما غنمتموه من الكفار المحاربين قهراً، حالة كونه من شيء يتمول، ولو قليلاً.. فأربعة أخماسه حقٌّ لكم، وأن خمسه الباقي مصروفٌ لمن جعله الله مستحقاً له، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ...﴾ إلخ؛ أي: يصرف خمس ذلك الخمس؛ أي: يخمس ذلك الخمس، فيصرف خمسه للرسول ﷺ في حال حياته، يصنع فيه ما شاء، أما[1] بعد وفاته ﷺ: يصرف خمس الخمس الذي كان له إلى مصالح المسلمين العامَّة، من سد الثغور، وشراء السلاح، وبناء المساجد والمدارس والقناطر، وطريق الدعوة إلى الله تعالى، وهذا مذهب الشافعي. وقال مالك: الرأي فيه إلى الإمام. وقال أبو حنيفة: سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته ﷺ، وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية اهـ. «بيضاوي».

وخرج بقولنا: قهراً.. ما أخذ منهم من غير قتال، فهو فيء، كالجزية، وعشر التجارة، وتركة المرتد والكافر المعصوم الذي لا وارث له، وحكمه معلوم

(١) البيضاوي.

من كتب الفروع.

وظاهر الآية: أن خمس الغنيمة يقسم ستة أقسام، وبه قال أبو العالية وطائفة. ومعنىٰ الآية على هذا القول، أي: واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين.. فاجعلوا أولاً خمسه لله تعالى، ينفق فيما يرضيه تعالى من مصالح الدين العامة؛ كالدعوة للإسلام، وإقامة شعائره، وعمارة الكعبة وكسوتها، ثم أعطوا للرسول من كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة، ثم أعطوا منه ذوي القربى الخ. ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: ويصرف خمسٌ لأصحاب قرابة النبي ﷺ، من أهله وعشيرته ـ نسباً وولاءً ـ المسلمين، وقد خصَّ النبي ﷺ ذلك ببني هاشم وبني أخيه المطلب، دون بني عبد شمس ونوفل، سواءٌ فيه أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، روىٰ البخاري عن مطعم بن جبير ـ من بني نوفل ـ قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان ـ من بني عبد شمس ـ إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما بنوا المطلب وبنو هاشم شيءٌ واحدٌ» وسر هذا: أنَّ قريشاً لمّا كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة وحصرتهم في الشعب لحمايتهم له ﷺ.. دخل معهم فيه بنو المطلب، ولم يدخل بنو عبد شمس، ولا بنو نوفل، مع ما كان من عداوة بني أمية بن عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام، فقد ظلَّ أبو سفيان يقاتل النبيَّ ﷺ، ويؤلِّبُ عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله، ودانت له العرب بفتح مكة، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي وقاتله.

﴿و﴾ خمس يصرف إلى ﴿اليتامىٰ﴾ الفقراء من سائر المسلمين، غير يتامى بني هاشم وبني المطلب، وهم: أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم ﴿و﴾ خمسٌ يصرف لـ ﴿المساكين﴾؛ أي: ذوي الحاجة من المسلمين، من غير بني هاشم وبني المطلب ﴿و﴾ خمس يصرف لـ ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: المنقطع في سفره ـ المحتاج، ولا معصية بسفره ـ من المسلمين.

والحكمة في تقسيم الخمس علىٰ هذا النحو: أن الدولة التي تدير سياسة

الأمة لا بدَّ لها من المال؛ لتستعين به على القيام بالمصالح العامة، كشعائر الدين، والدفاع عن الأمة، وهو ما جعل لله في هذه الآية، ثم نفقة رئيس حكومتها، وهو سهم الرسول فيها، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته، وهو سهم ذوي القربى، ثم ما يكون لذوي الحاجات من ضعفاء الأمة، وهم الباقون.

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولاً به في كثير من الدول مع اختلاف شؤون الاجتماع والمصالح العامة، فالمال الذي يرصد للمصالح العامة يدخل في موازين الوزارات المختلفة، ما بين جهرية وسرية، ولا سيما الأمور الحربية، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك، أو رئيس جمهورية، منه ما هو خاصٌّ بشخصه، ومنه لأسرته وعياله، ومن موازين الدولة: ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما.

وكذلك اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، لا تجعل لهم الدول في هذا العصر حقاً في أموال الدولة، وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التي تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين في وقت الحاجة فحسب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام؛ أي: إنه ذكر على سبيل التبرك، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه؛ لأنه هو الحاكم فيه، فيقسمه كيف شاء، وليس المراد منه أنَّ لله سهماً مفرداً؛ لأن ما في السموات والأرض.. فهو لله، وبهذا قال الحسن، وقتادة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، فقالوا: سهم الله وسهم رسوله واحدٌ، وذكر الله للتعظيم، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور، وهو الراجح كما مرَّ، وكأنَّ التركيب حينئذٍ: واعلموا أنَّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله وللرسول خمساً واحداً من أخماس خمسه، ولذي القربى خمساً واحداً منها، ولليتامى خمساً واحداً منها، وللمساكين خمساً واحداً منها، ولابن السبيل خمساً واحداً منها.

فصل

واختلف العلماء[1]: هل الغنيمة والفيء اسمان لمسمًّى واحد أم يختلفان في التسمية؟.

فقال عطاء بن السائب: الغنيمة: ما ظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوةً، وأما الأرض فهي فيءٌ. وقال سفيان الثوري: الغنيمة: ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوةً بقتال، وفيه الخمس، وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة، والفيء: ما صولحوا عليه بغير قتال، وليس فيه خمس، فهو لمن سمَّىٰ اللَّهُ. وقيل: الغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار عنوةً عن قهر وغلبة، والفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركابٍ؛ كالعشور، والجزية، وأموال الصلح، والمهادنة، وقيل: إن الفيء والغنيمة معناهما واحدٌ، وهما اسمان لشيء واحد.

والصحيح: أنهما يختلفان، فالفيء: ما أخذ من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، والغنيمة: ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه أو ركاب. فذكر الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية حكم الغنيمة، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾، يعني: من أي شيء كان، حتى الخيط والمخيط، فإنَّ لله وللرسول خمسه، وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإنّما أضافه لنفسه تعالىٰ لأنّه هو الحاكم فيه، فيقسمه كيف شاء، وليس المراد منه أنَّ سهماً منه لله مفرداً، لأنَّ الدنيا والآخرة كلها لله تعالىٰ كما مرَّ.

ورویٰ الجعفي عن هارون عن أبي عمرو[2]: ﴿فإنّ لله﴾ بكسر الهمزة، وحكاها ابن عطية عن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، ويقوّي هذه القراءة قراءة النخعي: ﴿فلِلَّهِ خُمُسُه﴾. وقرأ الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿خُمْسَه﴾

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

بسكون الميم، وقرأ النخعي: ﴿خِمْسَه﴾ بكسر الخاء على الإتباع، يعني: إتباع حركة الخاء لحركة ما قبلها، كقراءة من قرأ: ﴿والسماءِ ذاتِ الحِبك﴾ بكسر الحاء إتباعاً لحركة التاء، ولم يعتد بالساكن؛ لأنّه حاجز غير حصين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وصدّقتم وحدانيته، شرطٌ جوابه محذوف، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على الجلالة؛ أي: وآمنتم بالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمدٍ ﷺ، وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي ﷺ، والذي أنزله على عبده محمدٍ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية، وقيل: المراد ما أنزله عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذٍ، قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ متعلّق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ والمراد بيوم الفرقان: يوم بدر، سمي به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى فرَّق فيه بين الحق بنصره والباطل بخذلانه؛ لأنه حكم فيه بالنصرة والغنيمة للنبي ﷺ وأصحابه، والقتل والهزيمة لأبي جهل وأصحابه. وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بدل من يوم الفرقان؛ أي: يوم التقىٰ وتقاتل فيه والتحم جمع المؤمنين وجمع الكافرين، وهو يوم بدر، وهو[1] أول مشهد شهده رسولُ الله ﷺ، وكان رئيس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة، أو لسبع عشرة خلت من رمضان، في السنة الثانية من الهجرة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسع مئة، فهَزم المشركين، وقَتل منهم زيادةً على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

والمعنى: إن كنتم أيها المؤمنون أمنتم بالله، وبما أنزل علىٰ عبده محمد ﷺ في يوم بدر، الذي هو يومٌ فرّق الله فيه بين الحق والباطل، ويوم التقىٰ واقتتل فيه جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان وقبول.. فاعلموا أن خمس الغنيمة مصروفٌ إلى هذه المصارف الخمسة، واقطعوا أطماعكم عنه، واقنعوا بالأخماس الأربعة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، لا

---

(١) الخازن.

يعجزه شيء، ومن قدرته: أن نصركم على قلتكم، وجوعكم، وضعفكم، وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر، وأيّد رسوله وأنجز وعده له.

وقرأ زيد بن عليّ[1]: ﴿على عُبُدِنا﴾ بضمتين، كقراءة من قرأ: ﴿وعُبُد الطاغوت﴾ بضمتين، و﴿عَبْدنا﴾ علىٰ قراءة الجمهور هو الرسول ﷺ، كما مرَّ بيانه، و﴿عُبُدِنا﴾ علىٰ هذه القراءة هو الرسول ومن معه من المؤمنين.

و﴿إذ﴾ في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم﴾: بدل من يوم الفرقان؛ أي: إن كنتم آمنتم بما أنزلنا على عبدنا ذلك اليوم، في الوقت الذي أنتم كائنون مستقرون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بالجانب القريب إلىٰ المدينة من ذلك الوادي، يعني: وادي بدر ﴿وَهُم﴾؛ أي: أعداؤكم المشركون نازلون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾؛ أي: بالجانب البعيد من المدينة من ذلك الوادي.

والعدوة ـ مثلثة العين ـ جانب الوادي. والدنيا: ـ مؤنث الأدنى ـ وهو الأقرب. والقصوى: ـ مؤنث الأقصى ـ وهو الأبعد، كما سيأتي في مبحث التصريف.

والمعنى[2]: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا علىٰ عبدنا في ذلك اليوم، في الوقت الذي كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادي إلى المدينة، وفيه نزل المطر لا في غيره، والأعداء في الجانب الأبعد عنها، ولا ماء فيه، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام، ويجوز أن يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوفاً، تقديره: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم، إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأدنىٰ من المدينة، وهم ـ أي المشركون ـ نازلون بشفير الوادي الأقصىٰ من المدينة مما يلي مكة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ أي: والحال أن العير التي خرج المسلمون للقائها التي يقودها أبو سفيان وأصحابه قادماً بها من الشام بطعام. . كائنون

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بمكانٍ أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة على القتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾؛ أي: لخالف بعضكم بعضاً في الميعاد؛ هيبةً منهم؛ لكثرتهم وقلتكم؛ أي: ولو أعلم كل منكم الآخر بالخروج للقتال.. لاختلفتم في الميعاد؛ أي: لتخلفتم عن الميعاد؛ أي: المواعدة؛ أي: التواعد، بمعنىٰ: أنكم لم توفوا بما أعلمتم به، بل تتخلفون عن الخروج.

والمعنى[1]: أي ولو تواعدتم أنتم وهم علىٰ القتال، وعلمتم مالهم ومالكم.. لاختلفتم في الميعاد؛ كراهةً للحرب لقلَّتكم، وعدم إعداد العُدَّة لها، وانحصار همكم في العير، ويأساً من الظفر بها، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال؛ لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكباراً وعناداً، لا اعتقاداً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين في[2]: ﴿العِدْوة﴾ في الموضعين، وباقي السبعة بالضم. وقرأ الحسن وقتادة وزيد بن علي وعمرو بن عبيد بالفتح، وأنكر أبو عمرو الضم، وقال الأخفش: لم يسمع من العرب إلا الكسر. وقال أبو عبيد: الضم أكثرهما. وقال اليزيديُّ: الكسر لغة الحجاز. انتهى. وقرىء: ﴿بالعِدْية﴾ بقلب الواو ياء؛ لكسرة العين، ولم يعتدوا بالساكن؛ لأنه حاجز غير حصين. وقرأ زيد بن علي: ﴿القصيا﴾ وقد ذكرنا أنه القياس، وذلك لغة تميم.

وقرأ زيد بن علي: ﴿أسفلُ﴾ بالرفع، اتسع في الظرف فجعله نفس المبتدأ مجازاً.

فائدة لطيفة: قال الزمخشري: فإن قلتَ[3]: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم؟

---

(١) المراغي. (٣) الكشاف.

(٢) البحر المحيط.

قلتُ: الفائدة فيه: الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين وشتات أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالىٰ، ودليلٌ على أنَّ ذلك أمر لم يتيسَّر إلا بحوله سبحانه وتعالىٰ وقُوَّته، وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوىٰ التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا، وهي غبار تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشىٰ فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، وكانت الحماة دونها تضاعف حميتهم، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم؛ ليبعثهم الذب عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل تجهيداتهم في القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالإنحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط هممهم، ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم، ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم، وقصارى شدتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر. انتهىٰ، وهو كلام حسن.

﴿وَلَٰكِن﴾ جمع الله تعالى بينكم وبينهم على هذه الحال بغير ميعاد؛ ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: ليمضي الله سبحانه وتعالى ويوجد أمراً وشأناً كان مفعولاً في سابق علمه،وهو النصرة والغنيمة للنبيِّ وأصحابه، والهزيمة والقتل لأبي جهل وأصحابه، ويكون استيلاء المؤمنين على المشركين معجزةً دالةً على صدق الرسول ﷺ.

أي[1]: ولكن تلاقيتم واقتتلتم على غير موعد ولا رغبةٍ في القتال؛ ليقضي الله سبحانه ويظهر لكم أمراً وشيئاً كان وسبق في علمه وحكمته أنه واقع لا محالة، وهو القتال المفضي إلى خزيهم، ونصركم عليهم، وصدق وعده لرسوله، وإظهار دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها، ولم يكن في ظن

---

(١) المراغي.

الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة.

واللام في ﴿لِيَقْضِيَ﴾ متعلقة بمحذوف، كما قدَّرنا آنفاً بقولنا: ولكن جمعهم ليقضي. وجملة قوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة﴾: بدلٌ من الجملة التي قبلها، أعني: ليقضي؛ أي: جمع الله بينكم؛ ليموت من مات عن بينةٍ رآها، وعبرةٍ عاينها، وحجةٍ قامت عليه، ويعيش من عاش عن بينة رآها، وعبرة شاهدها، وحجة عليه؛ لئلا يكون له حجةٌ ومعذرةٌ. وقيل: الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام؛ أي: ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح ويقين بأنه دين الحق، ويصدر كفر من كفر عن وضوح وبينة، لا عن مخالجة شبهةٍ. وقال قتادة: ليضل من ضلَّ عن بينة، ويهتدي من اهتدى على بينة، وفي «الفتوحات»: ﴿لِيَهْلِكَ﴾[1]؛ أي: يدوم على الهلاك؛ أي: الكفر ﴿وَيَحْيَىٰ﴾؛ أي: يدوم على الحياة، أي: الإيمان. انتهىٰ.

والخلاصة: فعل ذلك بكم؛ ليترتب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من الكفار من هلك عن حجةٍ بينةٍ، واضحةٍ، مشاهدةٍ بالبصر على حقية الإسلام، بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين، بحيث تنتفي الشبهة، ولا يكون هناك مجالٌ للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها، فيزداد يقيناً بالإيمان، ونشاطاً في الأعمال.

وقرأ الأعمش، وعصمة عن أبي بكر عن عاصم[2]: ﴿ليهلَك﴾ بفتح اللام. وقرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزيّ وأبو بكر: ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بيائين على الأصل. وقرأ الباقون بياء واحدة علىٰ الإدغام، وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف، والفك والإدغام لغتان مشهورتان.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَسَمِيعٌ﴾ بكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفرهم وإيمانهم، لا يخفى عليه شيء من أقوال الكافرين والمؤمنين، ولا من عقائدهم وأفعالهم، فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الصادرة عن عقيدة، والأعذار التي يعتذر بها عن تقصيره في أعماله، ويعلم ما يكنُّه من ذلك ومن غيره، ويجازي كلاً بحسب ما يسمع ويعلم.

والخلاصة:[(١)] أنَّ غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم - كما بشرهم النبي ﷺ - وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم - كما أنذرهم الرسول ﷺ - ولا مجال في ذلك للمكابرة والتأويل.

وختم بهاتين الصفتين؛ لأنَّ الكفر والإيمان يستلزمان النطق باللسان، والاعتقاد بالجَنَانِ، فهو سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد نعمة الله عليك؛ إذ يريك المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾؛ أي: في نومك قبل يوم بدر ﴿قَلِيلًا﴾ عددهم مع كثرتهم، وقال أبو حيان: والمراد بالقلة هنا قلة القدر واليأس والنجدة، وأنهم مهزومون مصروعون، ولا يحمل على قلة العدد؛ لأنَّه ﷺ رؤياه حقٌّ، وقد كان علم أنهم ما بين تسع مئة إلى ألف، فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد. انتهى.

قال مجاهد[(٢)]: أراهم الله في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، وكان ذلك تثبيتاً. وقال محمد بن إسحاق: فكان ما أراه الله من ذلك نعمةً من نعمه عليهم، يشجعهم بها على عدوهم، فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم.

وقيل: لما أُري النبيُّ ﷺ كفارَ قريش في منامه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه.. قالوا: رؤيا النبي ﷺ حق، فصار ذلك سبباً لجرائتهم على عدوهم، وقوةً لقلوبهم. وقال الحسن: إن هذه الإراءة كانت في اليقظة، والمراد من المنام: العين؛ لأنّها موضع النوم. قال الزجاج: هذا مذهب حسن، ولكن الأول أسوغ في العربية؛ لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ...﴾ إلخ، فدل بهذا على أنَّ هذه رؤية الالتقاءة واليقظة، وأن تلك رؤية النوم.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

وقيل: الظرف في ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: متعلق بـ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ المذكورين قبله، والمعنى[1]: حينئذٍ: إنَّ الله سبحانه وتعالى سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدد عدوك وعدوهم قليلاً في الرؤيا المنامية، فتخبر بها المؤمنين، وتطمئن قلوبهم، وتقوي آمالهم بالنصر، فيجترئون عليهم.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ﴾؛ أي: ولو أراك يا محمد المشركين في منامك ﴿كَثِيرًا﴾ عددهم، وذكرت ذلك لأصحابك.. ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾، أي: لجبنتم، ولتأخرتم عن حربهم وقتالهم؛ أي: لو أراكهم كثيراً.. لذكرته لأصحابك، ولو سمعوا ذلك.. لجبنوا ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ معطوف على ما قبله عطف سبب على مسبب، وسيذكر مقدماً في قوله الآتي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾؛ أي: ولاختلفتم في أمر القتال، ولتفرقت آراؤكم في الفرار والثبات. وانظر إلى محاسن القرآن، فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ؛ لأنه معصوم، بل قال: ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارةً إلى أصحابه؛ أي:[2] ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً.. لفشل أصحابك وخافوا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء في أمر القتال؛ إذ منهم القوي الإيمان والعزيمة، فيطيع الله ورسوله ويقاتل، ومنهم الضعيف الذي يثبط عن القتال، بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول ﷺ، كما تقدم في قوله: ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾.

وعبارة «الخازن» هنا قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني: اختلفتم في أمر الإقدام عليهم، أو الإحجام عنهم، وقيل: معنى التنازع في الأمر: الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد إلى ناحية، والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم. انتهت.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَلَّمَ﴾؛ أي: سلمكم، وحفظكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم، وقيل: معناه: ولكن الله تعالى سلمكم وعصمكم

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

من الفشل والتنازع، وتفرق الآراء، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان والهزيمة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بالخطرات التي تقع في القلوب من الصبر والجزع والجراءة والجبن، ولذلك دبر ما دبر.

والمعنى: أنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فيحجم عن القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث في النفس الطمأنينة والصبر فيحملها على الإقدام، ويسخر لكل منهما الأسباب التي تفضي إلى ما يريده منها.

والخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾.. للرسول ﷺ وللمؤمنين جميعاً، وأرى: بصرية يقظانية، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا يا معشر المؤمنين نعمة الله تعالى عليكم؛ إذ يبصركم الكفار وقت التقائكم وتقابلكم في المعركة ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: أراكم إياهم حالة كونهم قليلاً في أعينكم ونظركم، حتى قال قائلٌ من المسلمين لآخر: أتراهم سبعين؟ قال: هم نحو المئة، وهم في نفس الأمر ألفٌ، تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، ولتزداد جراءة المؤمنين عليهم. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾؛ أي: في أعين الكفار ونظرهم؛ أي: يريهم إياكم قليلاً في أعينهم ونظرهم، حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب محمد آكلة جزور؛ أي: قليلٌ، يشبعهم. جزور واحدٌ، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال، وقلل الله المؤمنين في أعين المشركين قبل التحام الحرب؛ لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سبباً لانكسارهم، ولأنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، فلما التحم القتال.. أرى الكفار المسلمين مثلي الكفار، وكانوا ألفاً، فرأوا المسلمين قدر ألفين؛ ليهابوا، وتضعف قلوبهم وشوكتهم، ويتمكن المسلمون منهم، وتكون الدائرة عليهم.

واللام في قوله: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ متعلقةٌ بمحذوف، تقديره: فعل بكم وبهم ذلك التقليل؛ ليظهر الله سبحانه وتعالى أمراً كان مقضياً في سابق علمه، من إعلاء كلمة الإسلام، ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك، وخذلان أهله.

والخلاصة[1]: أنّ الله سبحانه وتعالى فعل ذلك؛ ليقدم كل منكم ومنهم على قتال الآخر، فهذا واثق بنفسه مدل ببأسه، وهذا متكل على ربه واثق بوعده، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم؛ ليقضي بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، ومن ثم هيَّأ الأسباب وقدرها تقديراً.

فإن قلت[2]: قد قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وقال في هذه الآية: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، فما فائدة هذا التكرار؟

قلتُ: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة؛ ليحصل استيلاء المسلمين على المشركين على وجه القهر والغلبة؛ ليكون ذلك معجزةً دالة على صدق رسول الله ﷺ، والمقصود من ذكره في هذه الآية: أنَّ الله سبحانه وتعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضاً؛ للحكمة التي قضاها، فلذلك قال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: ترد ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ كلها، يفعل فيها ما يريد، ويقضي في شأنها ما يشاء، ولا تجري على ما يظنه العبيد. وقرىء بالبناء للفاعل، أي: تصير وترجع وتعود إلى الله تعالى في الآخرة، فيجازي كل عامل على قدر عمله، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو يغفر.

فائدة: فإن قيل[3]: ما فائدة تكرار الرؤية ها هنا، وقد ذكرت في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟

قلتُ: يجاب عنه بجوابين:

---

(1) المراغي.
(2) الخازن.
(3) زاد المسير.

أحدهما: أنَّ الأولى كانت في المنام، والثانية في اليقظة، فلا تكرار.

والثاني: أنَّ الأولى للنبي ﷺ خاصةً، والثانية له ولأصحابه.

فإن قيل: تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى من تقليلهم لمكان إعزازهم؟

قلتُ: يجاب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنهم لو كثروا في أعينهم.. لم يقدموا عليهم، فلم يكن قتال. والقتال سبب النصر، فقللهم لذلك.

والثاني: أنه قللهم؛ لئلا يتأهب المشركون كل التأهب؛ فإذا تحقق القتال.. وجدهم المسلمون غير مستعدين، فظفروا بهم.

والثالث: أنه قللهم؛ ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم فيغلبهم المسلمون، فيكون ذلك آيةً للمشركين، ومنبِّهاً على نصرة الحق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: إذا قابلتم جماعة كافرة وحاربتموها. وترك[1] وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء اسم غالب للقتال ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالهم وجدوا في المحاربة، ولا تنهزموا إذا لم يزيدوا على الضعف، بأن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله، ولا يحدثوها بالتولي ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بالقلب واللسان في أثناء القتال ذكرا ﴿كثيرا﴾ ومن الذكر ما يقع حال القتال من التكبير.

والمعنى[2]: كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم. أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال، وذلك عند لقاء العدو وقتاله. وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله تعالى، وقيل: المراد من هذا الذكر: هو الدعاء على العدوِّ، وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى، فأمر الله سبحانه

---

(١) النسفي. (٢) الخازن.

وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء.

والخلاصة: أنكم إذا لقيتم[1] أعداءكم الكفار.. فاثبتوا لهم، ولا تفروا أمامهم؛ فإن الثبات قوة معنوية طالما كان هو السبب في النصر والغلب بين الأفراد والجيوش.

انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان، فيعيا كل منهما وتضعف قوته، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعاً، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة، فيكون له الفَلْجُ والفوز على خصمه، وهكذا في الحروب، فإن من أهم أسباب النصر فيها: الثبات وعدم اليأس، بل الثبات نافع في كل أعمال البشر، فهو الوسيلة في الفوز والنجاح فيها.

وأكثروا من ذكر الله تعالى في أثناء القتال بقلوبكم: بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه، وبأن النصر بيده ومن عنده، يؤتيه من يشاء، وبألسنتكم: بالتكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، وبالدعاء على الأعداء بنحو قولكم: اللهم أخذلهم واقطع دابرهم واجعل الدائرة عليهم، والتضرع إليه مع اليقين بأنه لا يعجزه شيء.

وفي ذلك إيماءٌ إلى أنه يجب على العبد أن لا يفتر عن ذكر الله تعالى، أكثر ما يكون همًّا وأشغل ما يكون قلباً، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا بمرادكم من النصرة والمثوبة؛ فإن الثبات وذكر الله تعالى هما وسيلتان من وسائل الفوز في القتال في الدنيا، وفي نيل الثواب في الآخرة.

فإن قلت[2]: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال، وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز؟

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

قلتُ: المراد من الثبات هو: الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة، وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة، بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفي غيره، ﴿و﴾ أطيعوا ﴿رسوله﴾ ﷺ كذلك، فهو المبين لكلام ربه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، وهو القائد الأعظم في القتال، فطاعته هي جماع النظام، والنظام ركن من أركان الظفر، وهو المشاور لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾؛ أي: ولا تختلفوا في أمر القتال كما فعلتم في أحد ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾؛ أي: فتجبنوا عن القتال؛ فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: شدتكم وقوتكم ودولتكم. وقرأ أبو حيوة وأبان وعصمة عن عاصم: ﴿ويذهب﴾ بالياء ونصب الباء، وقرأ الحسن وإبراهيم: ﴿فتفشِلوا﴾ بكسر الشين. قال أبو حاتم: وهذا غير معروف. وقال غيره: هي لغة؛ أي: لا يكن منكم تنازعٌ واختلافٌ؛ فإن ذلك مدعاةٌ للفشل والخيبة وذهاب القوة فيتغلب عليكم العدو.

وأصل الريح[1]: الهواء المتحرك، ثم استعيرت للقوة والغلبة؛ لأنه لا يوجد في الأجسام ما هو أقوى منها، فهي تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع، ومن ثم يقال: هبت رياح فلان: إذا جرى أمره على ما يريد، كما يقال: ركدت رياحه: إذا ضعف أمره. ومن استعارة[2] الريح للدولة والقوة قول الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُونَا

وقال شاعر الأنصار:

قَدْ عَوَّدَتْهُمْ صَبَاهُمْ أَنْ يَكُوْنَ لَهُم ... رِيْحُ ٱلْقِتَالِ وَأَسْلَابُ ٱلَّذِيْنَ لَقُوْا

وقيل: المراد بالريح: ريح الصبا؛ لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، كما يدل

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

عليه قوله ﷺ: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور» وعن النعمان بن مقرِّن قال: (شهدت رسول الله ﷺ، فكان إذا لم يقاتل من أول النهار.. أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر) أخرجه أبو داود.

ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأن الله مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة، وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ أنَّ رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس.. قام فيهم، فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وأسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مُنْزِلَ الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا» متفق عليه.

والمعنى: واصبروا على الشدائد، وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده، وكثرة عدده، فالله مع الصابرين، يمدهم بمعونته وتأييده، ومن كان الله معيناً له.. فلا يغلبه غالبٌ، ويا حبَّذا هذه المعية، التي لا يغلب من رزقها غالبٌ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرةً.

ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وهم قريش، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في الاستكبار والفخر ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ مكة، لحماية العير، حالة كونهم ﴿بَطَرًا﴾؛ أي: بطرين، فرحين مرحين، أشد البطر والفرح، أو خرجوا لأجل البطر والفرح، والبطر: شدة الفرح، أو الطغيان، أو كفران النعم، ﴿وَ﴾ حالة كونهم ﴿رئاء الناس﴾؛ أي: مرائين الناس، أو لأجل الرياء، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة.. أتاهم رسول أبي سفيان، وقال: ارجعوا إلى مكة؛ فقد سلمت عيركم، فأبوا إلا إظهار الجلادة والقوة

والشجاعة، وأيضاً لما وردوا الجحفة.. بعث الخفاف الكناني إلى أبي جهل - وهو صديق له - بهدايا مع ابن له، فلما أتاه.. قال: إنَّ أبي يقول: إن شئت أن أمدك بالرجال.. أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي.. فعلت. فقال أبو جهل: قل لأبيك: جزاك الله خيراً، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد.. فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس.. فوالله إن بنا على الناس لقوةً، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً، فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وننحر الجزور في بدر، فيثني الناس علينا بالشجاعة والسماحة، وقد بدَّلَهم الله شرب الخمر بشرب كأس الموت، وبدل ضرب الجواري على نحو الدفوف بنوح النائحات، وبدل نحر الجزور بنحر رقابهم؛ حيث قتل منهم سبعون، وأسر سبعون.

واعلم: أنَّ النِّعم إذا كثرت من الله تعالىٰ على العبد، فإن صرفها إلى مرضاته تعالى وعرف أنها من الله تعالى.. فذاك هو الشكر، وإن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمغالبة بالكثرة على أهل الزمان.. فذاك هو البطر. والرياء: إظهار الجميل ليراه الناس، مع إبطان القبيح. والفرق بين الرياء والنفاق: أن النفاق: إظهار الإيمان مع إبطان الكفر، والرياء: إظهار الطاعة مع إبطان المعصية.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تمتثلوا ما أمرتم به، وتنتهوا عمَّا نهيتهم عنه، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن اتي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوةٍ ونعم لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة. وظاهر النظم الكريم أن قوله: ﴿بَطَرًا﴾ متعلق بخرجوا، وهو لا يوافق الواقع؛ لأن خروجهم كان لغرضٍ مهم، وهو المنع عن عيرهم، والحقُّ: أن يكون علة لمعلول محذوف، تقديره: خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم، ولم يرجعوا بعد نجاتها بطراً، فهو علة لهذا المقدر، وهو قولنا: لم يرجعوا، وعلة الخروج: منعهم عن عيرهم كما قدرنا، كما ذكره في «الفتوحات».

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله، بمعاداة النبيِّ ﷺ والمؤمنين، معطوفٌ على ﴿بَطَرًا﴾ على كلا التأويلين.

والمعنى: ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرين مرائين، صادين عن سبيل الله، أو خرجوا للبطر والرياء والصد عن سبيل الله تعالى. والصد: إضلال الناس، والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية، ويجوز أن يكون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفاً على ﴿خَرَجُواْ﴾ والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصدِّ عن سبيل الله.

وإنّما ذكر البطر والرياء بصيغة الاسم، والصد بصيغة الفعل؛ لأنَّ أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على المفاخرة والرياء، وأما صدهم عن سبيل الله.. فإنّما حصل في الزمان الذي ادَّعىٰ فيه النبيُّ ﷺ النبوة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ بعلمه؛ أي: عالم بما جاؤوا لأجله؛ أي: إنَّه تعالى عالم بجميع الأشياء، ظواهرها وبواطنها، لا يخفى عن علمه شيءٌ؛ لأنّه محيط بأعمال العباد كلِّها، فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين.

وفي هذا زجر شديد، وتهديد أكيد على الرياء والتصنع والبطر والكبرياء، وأنه سيجازي عليها أشد الجزاء ﴿و﴾ اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم ﴿إذ زين﴾ وحسن ﴿لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: إبليس بوسوسته ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخبيثة، في معاداة النبي ﷺ والمؤمنين، وخروجهم من مكة، فإنَّ المشركين حين أرادوا السير والخروج إلى بدر.. خافوا من بني بكر بن كنانة؛ لأنهم كانوا قتلوا منهم رجلاً واحداً قبل ذلك، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصوَّر لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم ـ وهو من بني بكر بن كنانة، وكان من أشرافهم ـ في جندٍ من الشياطين، ومعه رايةٌ. ﴿وَقَالَ﴾ إبليس للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: لا غالب عليكم اليوم من بني كنانة ومن محمد ﷺ وأصحابه؛ أي: وقال لهم بما ألقاه في قلوبهم، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون قربات، حتى قالوا: اللهم انصر إحدى الفئتين، وأفضل الدينين.

﴿و﴾ قال لهم: ﴿إني جار لكم﴾؛ أي: حافظكم من مضرتهم وناصركم عليهم، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ والتقى الجمعان - جمع المسلمين وجمع الكافرين - بحيث ترى كل فئة الأخرى، أي: فلمَّا قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن تصطلي نار القتال معه، ورأى إبليس نزول الملائكة من السماء.. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجع إبليس إلى خلفه هاربا: أي: رجع القهقرىٰ وتولى إلى الوراء، وهي الجهة التي فيها العقبان، والمراد: أنَّه كفَّ عن تزيينه لهم وتغريره بهم، وكان إبليس في صف المشركين، وهو آخذٌ بيد الحارث بن هشام ﴿و﴾ قال له الحارث: إلى أين تترك نصرتنا يا سراقة في هذه الحالة، أما تزعم أنك جار لنا، وجعل الحارث يمسكه. ﴿قال﴾ إبليس: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: إني بريء من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾؛ أي: لأني أبصر ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ أي: ما لا تبصرون من نزول الملائكة مع جبريل، وإني أرى جبريل بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقود الفرس، ولم تروه، ودفع إبليس في صدر الحارث وانطلق وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكني بتسليط الملائكة عليَّ، وانهزم المشركون. فلمَّا قدموا مكة.. قالوا: هزم الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا وكذا، فحلف لهم، فلما أسلموا.. علموا أنَّ ذلك كان شيطاناً. وقيل: لما رأى إبليس الملائكة ينزلون من السماء.. خاف أن يكون الوقت الذي أنظر إليه قد حضر، فقال ما قال؛ إشفاقاً على نفسه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عاداه وعادى أولياءه، قاله الشيطان بسطاً لعذره حينئذٍ، فهو تعليل لما قبله؛ أي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ لأنه شديد العقاب، أو مستأنف من محض كلامه تعالىٰ؛ تهديداً لإبليس وجنده.

وقال قتادة[1]: قال إبليس: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق. وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب، ما به مخافة الله. ولكن إنه لا قوة له ولا منعة، فأوردهم

(١) الخازن.

وأسلمهم، وتلك عادة عدو الله إبليس لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل... أسلمهم وتبرأ منهم. وقيل: إنه خاف أن يهلك فيمن هلك، وقيل: خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله، فلا يطيعوه. وقيل: معنىٰ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾: أعلم صدق وعده لأولياءه؛ لأنه كان على ثقة من أمر ربه.

فإن قلت[1]: كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر، وإذا تشكل بصورة البشر.. فكيف يسمى شيطاناً؟

قلتُ: إنَّ الله عز وجل أعطاه قوةً وأقدره على ذلك، كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر، لكن النفس الباطنة لم تتغير، فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة.

والخلاصة[2]: أنّ جند الشيطان كانوا منبثين في المشركين، يوسوسون لهم - بملابستهم لأرواحهم الخبيثة - بما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم - بملابستهم لأرواحهم الطيبة - ما يثبتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقةً بوعد الله بنصرهم، فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما.. فر الشيطان بجنوده من بين المشركين؛ لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين (وهما ضدان لا يجتمعان، ولو اجتمعا.. لقضى أقواهما، وهم الملائكة على أضعفهما، وهم الشياطين).

فخوف الشيطان من الملائكة إنَّما كان من إحراق الملائكة لجنوده، لا على المشركين، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق متلاشٍ أمامه لا يبقى منه شيء.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: متعلق بـ ﴿زين﴾ أو باذكر محذوفاً؛ أي: واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم حين يقول المنافقون ومن في حكمهم من مرضى القلوب، أو: واذكروا إذ يقول المنافقون وهم قومٌ من

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

الأوس والخزرج ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وارتياب في الدين، وهم قوم من قريش، أسلموا ولم يقو إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا، منهم: عتبة بن ربيعة، وقيس بن الوليد، وأبو قيس الفاكه، والحارث بن زمعة، وعديُّ بن أمية، والعاص بن منبه، فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ﷺ.. خرجوا معهم إلى بدر، فلمَّا نظروا إلى قلة المسلمين.. ارتابوا وارتدوا، وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾؛ أي: توحيدهم، حين أقدموا على ما أقدموا عليه من الخروج لحرب قريش مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، توهماً منهم أنهم ينصرون عليهم؛ أي: اغتروا بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، حيث خرجو وهم ثلاث مئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ظناً منهم أنهم على الحق، ينصرون ولا يغلبون، فأولئك المرضى الذين خرجوا مع قريش كلهم قتلوا في بدر مع المشركين، ولم يذكر أن أحداً من المنافقين خرج إلى بدر مع المسلمين.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه.. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى حافظه وناصره؛ لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يغلبه شيء، فيسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضىٰ وحكم، لا يسوي بين أوليائه وأعدائه، فيوصل الثواب إلى أوليائه، والعقاب إلى أعدائه.

وهذا الكلام يتضمَّن الرد على من قال[1]: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فكأنه قيل: هؤلاء في لقاء عدوهم هم متوكلون على الله، فهم الغالبون ومن يتوكل على الله.. ينصره ويعزه؛ فإن الله عزيز لا يغالب بقوة ولا بكثرة، حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها، أو حاكم بنصره من يتوكل عليه، فيديل القليل على الكثير.

والمعنى[2]: أي ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه، وأنه لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده.. يكفه ما يهمه وينصره

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم؛ لأنه العزيز الغالب على أمره، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه بمقتضى سننه في نظام العالم، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل.

الإعراب

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

﴿وَاعْلَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّمَا﴾: أن حرف نصب ومصدر، ما: موصولة في محل النصب اسمها، وكان القياس فصلها من أنَّ، لكن ثبت وصلها في خط المصحف العثماني، وثبت فصلها أيضاً في بعضها، كما ذكره الجزري. ﴿غَنِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: أن ما غنمتموه. ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف، تقديره: حال كونه كائناً من شيء ما قليلاً كان أو كثيراً. ﴿فَأَنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالاسم؛ لما في اسم أنَّ من العموم ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿أنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿خُمُسَهُ﴾: اسمها مؤخر ومضاف إليه، تقديره: فإن خمسه كائنٌ لله، وجملة أن اسمها وخبرها في محل الرفع خبرٌ ﴿أنَّ﴾ الأولى: ولكنّه خبر سببيٌ، تقديره: واعلموا أن الذي غنتموه من شيء فكائنٌ خمسه لله وللرسول، وجملة ﴿أنَّ﴾ الأولى في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم، تقديره: واعلموا كون خمس الذي غنتموه من شيء لله، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: معطوف على ذي القربىٰ، وكذا ﴿وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ معطوفان عليه.

﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾

على كونه فعل شرط لها. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، تقديره: إنْ كنتم مؤمنين، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مؤمنين بالله.. فاعلموا ذلك، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأنزلنا. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بأنزلنا. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، بدل من يوم الفرقان. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقدير. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضىٰ من الزمان بدل من يوم الفرقان ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والباء بمعنى في، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للعدوة ﴿وَهُم﴾ مبتدأ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾: خبره، والجملة في محل الجر معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مضافاً إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: صفة لـ﴿العدوة﴾. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ مبتدأ. ﴿أَسْفَلَ﴾: منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لأسفل، والجملة من المبتدأ، والخبر في محل النصب، حال من الظرف الذي قبله، وهو قوله: ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، والتقدير: إذ أنتم كائنون بالعدوة الدنيا، وهم كائنون بالعدوة القصوى، حالة كون الركب كائنين في مكان أسفل منكم، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ في محل الجر معطوف على أنتم؛ أي: وإذ الركب أسفل منكم، ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات»: وإيضاح ما في المقام أن ﴿الركب﴾: مبتدأ و ﴿أَسْفَلَ﴾ أفعل تفضيل، استعمل بمعنى صفة لمكان محذوف أقيم مقامه، فهو مع متعلقه خبرٌ،

والجملة حال من الظرف الذي قبله، يعني: بـ﴿العدوة﴾. اهـ كرخي. وفي السمين: قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ الأحسن في هذه الواو، والواو التي قبلها الداخلة على هم أن تكون عاطفةً ما بعدها على: ﴿أنتم﴾؛ لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم، ويجوز أن تكونا واوي حالٍ، و﴿أَسۡفَلَ﴾ منصوب على الظرف النائب عن الخبر، وهو في الحقيقة صفةٌ لظرف مكان محذوف؛ أي: والركب في مكان أسفل من مكانكم اهـ. ﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾: متعلق به، والجملة جواب لو الشرطية، وجملة لو الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿لِّيَقۡضِيَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿يقضي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل. ﴿أَمۡرٗا﴾ مفعول به، وجملة ﴿كَانَ مَفۡعُولٗا﴾: صفة لأمراً، وجملة يقضي مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لقضاء الله أمراً كان مفعولاً، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: ولكن جمع الله بينكم؛ لقضائه وإمضائه أمراً كان مقضياً في سابق علمه، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة لو الشرطية.

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يهلك﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. ﴿مَنۡ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ متعلق بيهلك، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿يهلك﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لهلاك من هلك عن بينة، الجار والمجرور معطوف بعاطف مقدر على الجار والمجرور قبله، على كونه متعلقاً بمحذوف، تقديره: ولكن جمع الله بينكم لقضائه أمراً مفعولاً، ولهلاك من هلك عن بينة، وحياة من

حيَّ عن بينة، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ فعل مضارع معطوف على يهلك ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿حَيَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة صلة من الموصولة. ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ متعلق بيحيى، ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿لَسَمِيعٌ﴾: ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿سميع﴾ خبر أول لإنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ يريكهم الله، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعولان وفاعل. ﴿فِى مَنَامِكَ﴾: متعلق به ﴿قَلِيلًا﴾: مفعول ثالث لأرىٰ؛ لأن رأى الحلمية تنصب مفعولين بلا همزة، فإذا دخل عليها الهمز.. نصبت ثلاثة مفاعيل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾: فعل وثلاثة مفاعيل، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة الجواب ﴿فشلتم﴾ فعل وفاعله، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على فشلتم، واللام فيه لام الربط مؤكدة للأولى ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: متعلق به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ونصب، ولفظ الجلالة: اسمها ﴿سَلَّمَ﴾ فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على الله ومفعوله محذوف، تقديره: سلَّمكم الله من الفشل والتنازع، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية على كونها مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق بعليم، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتلعيل ما قبلها.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف،

تقديره: واذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بيريكموهم، وجملة ﴿ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ حال من المفعول الثاني الذي هو الهاء، ورأى هنا بصرية تنصب مفعولاً واحداً بلا همز، واثنين مع الهمز كما هنا. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾: فعل ومفعول، و﴿الواو﴾ فيه واو الحال. ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من فاعل يريكموهم ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، واللام فيه لام كي، وجملة ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ صفة لـ﴿أَمْرًا﴾، وجملة ﴿يقضي﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: لقضاء الله أمراً كان مفعولاً، الجار والمجرور متعلق بيريكموهم، أو متعلق بمحذوف، تقديره فعل الله بكم وبهم ذلك التقليل؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً، وكرَّر هذا التعليل؛ لاختلاف الفعل المعلَّل به، أولاً: اجتماعهم بغير ميعاد، وثانياً: تقليل المؤمنين قبل الالتحام، ثم تكثيرهم في أعين الكفار، كما مر في مبحث التفسير. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بترجع ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لأيُّ، وجملة النداء مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إذا ﴿اثبتوا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، وجملة إذا جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾. ﴿كَثِيرًا﴾:

منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: ذكراً كثيراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة معطوفة على جملة إذا على كونها جواب النداء، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أطيعوا﴾. ﴿فَتَفْشَلُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفا السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تفشلوا﴾ وجملة تفشلوا صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن تنازعكم ففشلكم وذهاب ريحكم. ﴿وَاصْبِرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَطِيعُوا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: خبره، وجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بلا الناهية. ﴿كَالَّذِينَ﴾: خبر تكونوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾، ﴿خَرَجُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: متعلق به ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: منصوبان على الحال من فاعل ﴿خَرَجُوا﴾؛ أي: بطرين ومرائين، أو على أنهما مفعولان لأجله؛ أي: لأجل البطر والرياء، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿خَرَجُوا﴾ أي: حالة كونهم بطرين ومرائين وصادين عن سبيل الله، أو معطوفة على جملة ﴿خَرَجُوا﴾ على كونها صلة

الموصول. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بمحيط، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما يعملونه. ﴿مُحِيطٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضىٰ، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا إذْ زَيَّن لهم الشيطان، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿زَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فاعل. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿زَيَّنَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الشيطان. ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية، ﴿غَالِبَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالخبر، ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ وجملة ﴿لا﴾ في محل النصب مقول قال. ﴿وَإِنِّى﴾: ناصب واسمه، ﴿جَارٌ﴾ خبره. ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق به؛ لأنَّه بمعنىٰ مجير، وجملة إنَّ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لا﴾ علىٰ كونها مقول قال.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت ما قال لهم الشيطان، وأردت بيان عاقبة أمره معهم.. فأقول لك ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿نَكَصَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة جواب لمَّا، لا محل لها من الإعراب، وجملة لمَّا

في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿نَكَصَ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضي معطوف على: ﴿نَكَصَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الشيطان ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿بَرِيٓءٌ﴾ خبره. ﴿مِّنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿بَرِيٓءٌ﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال: ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ ﴿أرى﴾؛ لأنَّها بصرية تتعدىٰ لمفعول واحد، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَرَوْنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لما، أو صفةٌ لها والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا ترونه، ورأى بصرية أيضاً. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنِّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال، ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، إنْ كان من كلام الله، أو في محل النصب مقول قال إنْ كان من تمام كلام الشيطان.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ يقول المنافقون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول يقول ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَتَوَكَّلْ﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يغلب، وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾

تعليلية ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بالجواب المحذوف، تقديره: ومن يتوكل على الله يغلب أعداءه؛ لكون الله عزيزاً حكيماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾: الغُنم[1] والمغنم والغنيمة لغةً: ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادي، وقولهم: الغرم بالغنم؛ أي: يقابل به. وشرعاً: ما حصل للمسلمين من الكفار الحربين بإيجاف خيلٍ، أو ركاب. والفيء: كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك، بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتصير الدار دار الإسلام، وهو لكافة المسلمين، وليس فيه الخمس. والنفل: ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها. والسلب: ما احتوت عليه يد القتيل من ثياب وسلاح ومركوب يستحقه القاتل.

﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ والعدوة[2] ـ بضم العين وكسرها ـ وقرىء بفتحها، لغات كلها بمعنى واحد، وهو: شط الوادي وشفيره، سميت بذلك؛ لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها؛ أي: منعته. وفي «المختار»: العدوة ـ بضم العين وكسرها ـ جانب الوادي وحافته. وقال أبو عمرو: هي المكان المرتفع اهـ. وفي «البحر»: العدوة: شط الوادي، وتسمَّىٰ شفيراً وضفة، سميت بذلك؛ لأنَّها عدت ما في الوادي من ماء أن يتجاوزه؛ أي: منعته.

وقال الشاعر:

عَـدَتْـنِـيْ عَـنْ زِيَـارَتِـهَـا ٱلْـعَـوَادِيْ ... وَقَـالَـتْ دُوْنَـهَـا حَـرْبٌ زَبُـوْنُ

ويسمى الفضاء المساير للوادي عدوةً؛ للمجاورة اهـ.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: القصو[1]: البعد، والقصوى: تأنيث الأقصى، ومعظم أهل التصريف فصلوا في الفعلى مما لامه واو، فقالوا: إن كان اسماً.. أبدلت الواو ياءً، ثم يمثلون بما هو صفةٌ، نحو: الدنيا، والعليا، والقصيا، وإن كان صفة.. أقرت، نحو: الحلوىٰ، تأنيث الأحلى، ولهذا قالوا: شذ القصوى ـ بالواو ـ وهي لغة الحجاز. والقصيا: لغة تميم، وذهب بعض النحويين إلى أنه إن كان اسماً.. أقرت الواو، نحو: حزوى، وإن كان صفة.. أبدلت، نحو: الدنيا والعليا، وشذ إقرارها، نحو: الحلوى، ونص على ندور القصوى ابن السكيت.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وفي «القاموس»: والركب: ركبان الإبل، وهو اسم جمع لراكب، أو جمع له، وهو العشرة فصاعداً، وقد يكون للخيل، والجمع أركب وركوب اهـ. ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ وفي «المختار»: والميعاد: المواعدة ووقتها ومكانها اهـ. ومثله في «القاموس». ﴿من حي﴾[2] يقرأ بتشديد الياء، وهو الأصل؛ لأن الحرفين متماثلان متحركان، فهو مثل شد ومد، ومنه قول عبيد:

عَـيُّـوْا بِـأَمْـرِهِـمُ كَـمَـا عَـيَّـتْ بِـبَـيْـضَـتِـهَـا ٱلْـحَـمَـامَـهْ

ويقرأ بالإظهار، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّ الماضي حمل على المستقبل، وهو يحيا، فكما لم يدغم في المستقبل.. لم يدغم في الماضي، وليس كذلك شد ومد؛ فإنه يدغم فيهما جميعاً. والوجه الثاني: أن حركة الحرفين مختلفة، فالأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، واختلاف الحركتين كاختلاف الحرفين، ولذلك أجازوا في الاختيار: لججت عينه، وضبب البلد، إذا كثر ضبه، ويقوي ذلك أنَّ الحركة الثانية عارضة، فكانت الياء ساكنة، ولو سكنت.. لم يلزم الإدغام، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن، والياءان أصلٌ، وليست الثانية بدلاً من واو، فأما الحيوان.. فالواو فيه بدلٌ من الياء، وأما الحواء... فليس من لفظ الحية، بل من حوي يحوي إذا جمع، ذكره أبو البقاء.

﴿لَفَشِلْتُمْ﴾؛ أي: لجبنتم، يقال: فشل يفشل فشلاً، كطرب يطرب طرباً،

---

(١) البحر. (٢) العكبري.

كذا في «المختار».

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: حاربتم جماعة، وفي «المصباح»: الفئة: الجماعة، ولا واحد لها من لفظها، وتجمع على فئات، وقد تجمع بالواو والنون؛ جبراً لما نقص منها اهـ.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: في «القاموس» و«المختار»: إن الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة، والرحمة والنصرة والدولة ـ بفتح الدال ـ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: هم أهل مكة، حين خرجوا لحماية العير، والبطر[1]: إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى، أو الرياسة، ويعرف ذلك في الحركات المتكلفة والكلام الشاذ، وفي «الشهاب» و«زاده»: البطر[2] والأشر ـ بفتحتين ـ: الطغيان في النعمة، بترك شكرها وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضاه الله تعالى، وقيل: معناهما: الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها اهـ. والرئاء: أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به، وفي «السمين»: والرئاء: مصدر راءىٰ، كقاتل قتالاً، والأصل: ريايا، فالهمزة الأولىٰ: بدل من ياء هي عين الكلمة، والثانية بدل من ياء هي لام الكلمة؛ لأنها وقعت طرفاً بعد ألف زائدة، والمفاعلة في رئاءً على بابها. اهـ. منه في سورة البقرة. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مجير ومعين وناصر لكم، والألف في ﴿جَارٌ﴾ بدل[3] من واو، لقولك: جاورته.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾؛ أي: قربت كل منهما من الأخرى، وصارت بحيث تراها وتعرف حالها. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجع القهقرى، وتولى إلى الوراء.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: والمنافق: من يظهر الإسلام

---

(١) المراغي.
(٢) الشهاب وزاده.
(٣) العكبري.

ويسر الكفر، هم أهل المدينة من الأوس والخزرج، والذين في قلوبهم مرض: هم ضعاف الإيمان، ملأت قلوبهم الشكوك والشبهات، فتزلزل اعتقادهم حيناً وسكن حيناً آخر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إفادة للتشريف والتكريم.

ومنها: الطباق بين لفظ الدنيا والقصوى، في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾، وبين لفظ يهلك ويحيا، في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ شبه الكفر بالهلاك بجامع الضرر، والإيمان بالحياة بجامع النفع، فاستعير اسم المشبه به ـ الذي هو الهلاك والحياة ـ للمشبه ـ الذي هو الكفر والإيمان ـ فاشتق من الهلاك بمعنى الكفر يهلك بمعنى يكفر، ومن الحياة بمعنى الإيمان يحيا بمعنى يؤمن، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ فالمضارع فيه بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ لأنها كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبت ريح فلان، إذا أقبل أمره على ما يريد، وفي «البيضاوي»: والريح هنا مستعارٌ للدولة من حيث إنّها ـ في تمشي أمرها ونفاذه ـ مشبهة بها في هبوبها ونفاذها اهـ.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وفي قوله:

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ﴾ ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾، ولكن التكرار هنا لفظيٌّ؛ لأن الإراءة الأولى حلمية، والثانية بصرية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ
فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)
الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي
الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ
سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا
لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)
۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ
فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ
اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا
مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات، لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين[1] حال هؤلاء

---

(١) المراغي.

الكفار - من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطراً ورئاء الناس، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم. . أردف ذلك بذكر أحوالهم حين موتهم، وبيان العذاب الذي يصل إليهم في ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لمَّا بين حال مشركي قريش في قتالهم له ﷺ ببدر. . قفىٰ على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبي ﷺ وقاتلوه، وهم اليهود الذين كانوا في بلاد الحجاز. قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآيات في ستة رهط من اليهود، منهم: ابن تابوت. وقال مجاهد: نزلت في يهود المدينة، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف، وهو فيهم كأبي جهل في مشركي مكة. ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين فيما سلف أن اليهود الذين عقدوا العهود مع النبي ﷺ، وبها أمنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم، قد خانوه ونقضوا العهود وساعدوا عليه أعداءه المشركين الذين أخرجوه من دياره ووطنه، وتبعوه إلى مهجره يقاتلون فيه لأجل دينهم، وبذلك صاروا هم والمشركون سواء. . أردف ذلك ذكر ما يجب على المؤمنين في معاملتهم أثناء الحرب، التي أصبحت لا مناص منها بما أحدثوه من الخيانة والغدر والبداءة بالعدوان، وذلك سنة من سنن الاجتماع البشري؛ إذ حصول الصراع بين الحق والباطل، والقوة والضعف أمرٌ لا مندوحة منه.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما اتفق في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا تكميل آلةٍ ولا عدةٍ، وأمره تعالى بالتشريد وبنبذ العهد للناقضين. . كان ذلك سبباً للأخذ في قتاله والتمالؤ عليه، فأمره تعالى والمؤمنين

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا أمر رسوله ﷺ بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء، وربما كان جنوحهم لها مظنة الخداع والمكر، ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب وضروب الإيذاء والشر، وامتن عليه بتأييده له بنصره وبالمؤمنين، إذ سخرهم له، وألَّف بين قلوبهم باتباعه.. قفَّى على ذلك بوعده بكفايته، له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف بين قلوبهم في حال الحرب والسلم، وجعل هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه، كما إذا بدأ العدو بالحرب، أو نقض العهد أو خان في الصلح.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في ستة رهط من اليهود، فيهم ابن التابوت.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه أبو الشيخ أيضاً عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على النبي ﷺ فقال: يا محمد، قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم؟ فاخرج فإنَّ الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه البزّار بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر.. قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وله شواهد: أخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

جبير عن ابن عباس قال: لمَّا أسلم مع النبي ﷺ تسعةٌ وثلاثون رجلاً وامرأةٌ، ثم إن عمر أسلم فكانوا أربعين.. نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: لمَّا أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر.. نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لمَّا أسلم عمر... أنزل الله في إسلامه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده عن ابن عباس قال: لمَّا افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرةً.. ثقل ذلك عليهم وشق، فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين، فأنزل الله فيه ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج البخاري[1] (ج ٩/ ص ٣٨٢) قال: حدثنا يحيى بن عبد الله السلمي أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا جرير بن حازم قال: أخبرني الزبير بن الخريت عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾.. شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ولو رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب، وعاينت وشاهدت إذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت ويأخذونها، يعني: الذين قتلوا ببدر، أو مطلقاً حالة كون الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: تضرب الملائكة وجوه الذين كفروا وظهورهم

(١) البخاري.

بسياطٍ من نار ﴿وَ﴾ حالة كون الملائكة تقول لهم وقتئذٍ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: باشروا العذاب المحرق وادخلوه أيها الكفرة. وجواب لو محذوف، تقديره: لرأيت أمراً عظيماً، ومنظراً فظيعاً، وعذاباً شديداً ينالهم في ذلك الوقت. واختلفوا[1] في وقت هذا الضرب، فقيل: هو عند الموت، تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار، وقيل: إنَّ الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم. وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين.. ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولَّوا أدبارهم.. ضربت الملائكة أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر، يعني: يضربون جميع أجسامهم، وتقول الملائكة لهم عند القتل: ذوقوا عذاب الحريق، قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار، فتلتهب النار في جراحاتهم. وقال ابن عباس: تقول الملائكة لهم ذلك بعد الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة، تقول لهم الزبانية: ذوقوا عذاب الحريق.

والمعنى[2]: ولو عاينت وأبصرت يا محمد حال الكفار حين يتوفّاهم الملائكة، فينزعون أرواحهم من أجسادهم ضاربين وجوههم وأقفيتهم، قائلين لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

وقرأ ابن عامر والأعرج[3]: ﴿تتوفى﴾ بالتاء، وذكر في قراءة غيرهما؛ لأن تأنيث الملائكة مجاز، وحسنه الفصل. وهذا الضرب والكلام من عالم الغيب، فلا يقتضي أن يراه الذين يحضرون وفاتهم، ولا أن يسمعوا كلامهم حين يقولون ذلك لهم؛ أي: لو رأيت ذلك.. لرأيت أمراً عظيماً هائلاً يرد الكافر عن كفره، والظالم عن ظلمه إذا هو علم عاقبة أمره.

وقد روي أن ضرب الوجوه والأدبار كان ببدر، كان المؤمنون يضربون من

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أقبل من المشركين من وجوههم، والملائكة يضربون من أدبارهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب والقول حاصلٌ بكم أيها الكفار ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: بسبب ما كسبته وعملته أيديكم وجوارحكم وقلوبكم من الكفر والمعاصي ﴿و﴾ الأمر والشأن ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بمعذب لعبيده بغير جرم اجترموه، وذنب اكتسبوه، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب، كتمَّار وبقَّال؛ أي: ليس منسوباً إلى الظلم، فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالىٰ، ويحتمل كون ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ معطوفاً على ﴿ما﴾؛ أي: ذلك العذاب بسبب ما كسبته أيديكم من المعاصي، وبسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يظلمكم؛ إذ أنتم مستحقون العذاب، فتعذيبكم عدلٌ منه؛ لأنه سبحانه قد أرسل إليكم رسله، وأنزل عليكم كتبه، وأوضح لكم السبيل، وهداكم النجدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وحاصل المعنى: أي هذا العذاب الذي ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم من سيء الأعمال في حياتكم الدنيا من كفر وظلم، وهذا يشمل القول والفعل، ونسب ذلك إلى الأيدي - وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجل وسائر الحواس، أو بتدبير العقل - من أجل أن العادة قد جرت بأن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها، وبسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً من عبيده، فلا يعذب أحداً منهم إلا بجرم اجترمه، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه، وقد وقع ذلك منكم، فأنتم الظالمون لأنفسكم، فلوموها ولا لوم إلا عليها. روى مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ «إنَّ الله يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا... يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل آل فرعون، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر كدأب آل فرعون؛ أي: فعلهم وعادتهم في الكفر والتكذيب والتعذيب كعادة قوم فرعون وفعلهم، وفعل من قبلهم من الأمم الخالية في كفرهم وتعذيبهم، فجوزي

هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر، كما جوزي آل فرعون بالإغراق.

وأصل الدأب في اللغة[1]: إدامة العمل، يقال: فلان يدأب في كذا وكذا؛ أي: يداوم عليه، ويتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة دأبا؛ لأنَّ الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها.

قال ابن عباس: معناه: إن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام رسولٌ من الله تعالىٰ فكذبوه، فكذلك هؤلاء لمَّا جاءهم محمدٌ ﷺ بالصدق.. كذبوه، فأنزل الله بهم عقوبته، كما أنزل بآل فرعون. وجملة قوله: ﴿كفروا بآيات الله﴾ مفسرةٌ لدأب آل فرعون؛ أي: دأبهم هذا هو أنَّهم كفروا بآيات الله؛ أي: أنكروا الدلائل الإلهية.

والمعنى[2]: عادة كفار قريش فيما فعلوه من الكفر، وفيما فعل بهم من العذاب كعادة آل فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم من الأمم الماضية، الذين من عادتهم أنهم كفروا بآيات الله الكونية، والمنزلة على رسله، وأنكروها. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ﴾؛ أي: فأخذ الله سبحانه وتعالى تلك الأمم الماضية وأهلكها متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها؛ أي: أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونصر رسله والمؤمنين بهم، وكما كانت سننه تعالى في أولئك الماضين أن أخذهم بذنوبهم.. فسنته في هؤلاء المشركين كذلك؛ فقد نصر رسوله محمداً ﷺ والمؤمنين في بدر، وأهلك هؤلاء المشركين بذنوبهم. وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ معترضة[3] مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى قويٌّ لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، شديد العقاب لمن استحق عقابه وكفر بآياته وجحد حججه، وقد جعل لكل شيءٍ أجلا.

وروى البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي موسىٰ الأشعري أن النَّبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه.. لم يفلته». والإشارة بقوله:

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا...﴾ إلخ، إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ، وخبره: ما بعده، والجملة جاريةٌ مجرى التعليل لما حلَّ بهم من عذاب الله، والمعنى: ذلك الذي ذكر من أخذه لقريش بكفرها بنعم الله عليها؛ إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته فكذبوه وأخرجوه من بينهم وحاربوه.. كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم؛ أي: تعذيب الكفرة بما قدمت أيديهم حاصلٌ بسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يكن مغيراً ومبدِّلاً بنقمةٍ ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾؛ أي: لم يكن مبدلاً نعمة أنعم بها على قوم كائناً من كان، كالعقل وإزالة الموانع؛ أي: لم يكن مبدِّلاً إياها بنقمةٍ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾؛ أي: حتىٰ يغيِّر ويبدِّل أولئك القوم ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال؛ أي: ما لهم من الحال إلىٰ حال أسوأ منه، فإذا صرفوا تلك النعمة إلى الفسق والكفر.. فقد غيَّروا نعمة الله تعالى على أنفسهم، فاستحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح بالمحن، يعني: أنَّ[1] الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف، وبعث إليهم محمداً ﷺ، فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها، وكذبوا رسوله محمداً ﷺ، وغيروا ما بأنفسهم، فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب، قال السدي: نعمة الله: هو محمدٌ ﷺ أنعم به على قريش، فكفروا به وكذَّبوه، فنقله الله تعالى إلى الأنصار.

وقولنا: إلى حال أسوأ منه: إشارةٌ[2] إلى دفع ما يقال من أن آل فرعون ومشركي مكة لم يكن لهم حالٌ مرضية حتى يقال أنهم غيَّروها إلى حال مسخوطة، فغير الله نعمته عنهم إلى النقمة، وتقرير الدفع: أنَّ قوله: ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعم الحال المرضية والقبيحة، فكما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة.. كذلك تغير الحال المسخوطة إلى ما هو أسوأ منها، وأولئك كانوا قبل بعثة محمد ﷺ كفرةً عبدة أصنام، فلمَّا بعث النبي ﷺ بالآيات البينات.. كذبوه وعادوه وتحزبوا على إراقة دمه، فغير الله نعمة إمهالهم بمعاجلتهم بالعذاب، هذا حاصل ما في «الكشاف»، اهـ «زاده».

---

(١) الخازن. (٢) زاده.

وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ داخلة معها في التعليل؛ أي: ذلك بسبب أنَّ الله لم يك مغيراً... إلخ، بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقوله مكذبوا الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يأتون وما يذرون، وهو مجازيهم على ما يقولون وما يعملون، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، وقرىء[1] بكسر الهمزة على الاستئناف.

وفي الآية[2] إيماءٌ إلى أنَّ نعم الله تعالى على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواماً بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتةً لهم متمكنةً منهم.. كانت تلك النعم ثابتةً لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال.. غيَّر الله حالهم وسلب نعمتهم منهم، فصار الغنيُّ فقيراً، والعزيز ذليلاً، والقويُّ ضعيفاً.

وليست[3] سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطةً بسعة الثروة، ولا كثرة العدد، كما كان يظن بعض المشركين، وحكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وكذلك لا يحابي الله تعالى بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوةٍ، أو بما دونها، فيؤتيهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إليهم، كما كان هو شأن بني إسرائيل في غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب بنسبهم، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم إذا تبعوا سننهم واغتروا بدينهم، وإن كانوا من أشد المخالفين له. ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبرٌ لمحذوف كما مرَّ نظيره، تقديره: دأب هؤلاء المشركين من أهل مكة في الكفر والتكذيب والتعذيب ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: كعادة قوم فرعون ﴿و﴾ عادة ﴿الذين من قبلهم﴾؛ أي: من قبل قوم فرعون، من قوم نوح وهود

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

وصالح ولوط؛ أي: هؤلاء المشركون غيروا ما بأنفسهم تغييراً كتغيير الأمم الماضية، فهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كذب آل فرعون ومن قبلهم بأنه تعالى ربَّاهم وأنعم عليهم، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، كما كذب أهل مكة ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾؛ أي: أهلكنا الذين من قبل قوم فرعون ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ذنوبهم﴾ ومعاصيهم من الكفر والتكذيب بآيات الله تعالىٰ، أهلكنا بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمسخ، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قومه في البحر، بانطباقه عليهم بعدما خرج ونجا منه بنو إسرائيل مع موسىٰ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف في بدر، حين غيَّروا ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: وكل من الأمم المكذبة، من الأولين والآخرين ﴿كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر والمعصية، ولأنبيائهم بالتكذيب، ولسائر الناس بالإيذاء والإيحاش، فالله تعالى إنَّما أهلكهم بسبب ظلمهم، اللهم أهلك الكفرة والمشركين، وطهِّر الأرض من الفجرة والفاسقين، فإنك أنت القهار الجبار، القادر المنتقم يا خير المنتقمين.

فإن قلت[1]: ما الفائدة في تكرير هذه الآيات مرة ثانية؟

قلتُ: فيها فوائد:

منها: أنَّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول، لأنَّ الآية الأولى فيها ذكر أخذهم، وفي الآية الثانية ذكر إغراقهم، فهذه تفسير للأولى.

الفائدة الثانية: أنَّه ذكر في الآية الأولى أنَّهم كفروا بآيات ربهم، وفي الآية الثانية أنَّهم كذَّبوا بآيات ربهم، ففي الآية الأولى إشارة إلى أنَّهم أنكروا آيات الله وجحدوها، وفي الآية الثانية إشارة إلى أنَّهم كذَّبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها.

الفائدة الثالثة: أنَّ تكرار هذه القصة للتأكيد. وفي قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادة دلالةٍ على كفران النعم وجحود الحق، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ

---

(١) الخازن.

بالذنوب اهـ. من «الخازن». وفي «الفتوحات»: كررَّه؛ لأنَّ الأول إخبارٌ عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله، وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم، والثاني إخبارٌ عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله، وهو الإهلاك والإغراق. وقيل: غير ذلك. انتهت.

وعبارة المراغي هنا: ولا تكرار؛ لأنَّ الدَّأب[1] الأول في بيان كفرهم بجحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة، وفي تعذيب الله إياهم في الآخرة، فهو دأبٌ وعادةٌ فيما يتعلَّق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته، وفي الجزاء الدائم على الكفر به الذي يبتدىء بالموت وينتهي بدخول النار.

والدَّأبُ الثاني: في تكذيبهم بآيات ربهم ونعمه، من حيث إنَّه هو المربي لهم، ويدخل في ذلك تكذيب الرسل وعنادهم وإيذاؤهم، وكفر النعم المتعلِّقة ببعثهم، وفي الجزاء على ذلك بتغيير حالهم وعذابهم في الدنيا.

وخلاصة ذلك: أنَّ ما دوَّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض ومن عقاب الله إياها.. جارٍ على سننه تعالى المطردة في الأمم، لا بسلب نعمة منهم، ولا بإيقاع أذىً بهم، وإنَّما عقابه لهم أثرٌ طبيعيٌّ لكفرهم وظلمهم لأنفسهم، وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوي.. فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها، ثم فعلوا ذلك.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي: إنَّ أقبح ما يدب على الأرض وأخسه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في علمه وحكمه هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يرجى منهم إيمان، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل[2] من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدل البعض؛ للبيان والتخصيص، قيل: ﴿مِن﴾ صلةٌ، يعني: الذين عاهدتهم على ترك الحرب لك،

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وعلى ترك المساعدة لمن يحاربك. وقيل: هي للتبعيض؛ لأنَّ المعاهدة مع بعض القوم، وهم الرؤساء والأشراف ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله؛ أي: لا يخافون عقاب الله تعالى في نقض العهد، أو لا يخافون[1] سبة الغدر وما فيه من العار والنار؛ لأنَّ عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم.. أن يتقي نقض العهد، حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقون بكلامه، فبيَّن الله عز وجل أنَّ مَنْ جمع بين الكفر ونقض العهد.. فهو من شرِّ الدَّواب.

وجعلهم شرَّ الدواب لا شرَّ الناس؛ إيماءً إلى انسلاخهم عن الإنسانية، ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان؛ لعدم تعقلهم بما فيه رشادهم.

والمعنى[2]: إنَّ هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله تعالى.. هم هؤلاء الذين عاهدت منهم؛ أي: أخذت منهم عهدهم على ترك محاربتك والمساعدة لمن يحاربك، ثم هم ينقضون عهدهم الذي عاهدتهم في كل مرة من مرات المعاهدة، والحال أنهم لا يتقون النقض، ولا يخافون عاقبته، ولا يتجنبون أسبابه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[3]: هم قريظة، فإنَّ رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم مرةً ثانية فنقضوا العهد أيضاً، وساعدوا معهم على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة رسول الله ﷺ.

وحاصل معنى الآيتين: أنّ شرَّ ما يدبّ على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان:

١ ـ الإصرار على الكفر والرسوخ فيه، بحيث لا يرجى إيمان جملتهم، أو

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

إيمان جمهورهم؛ لأنَّهم إمَّا رؤساء حاسدون للرسول ﷺ معاندون له، جاحدون بآياته المؤيِّدة لرسالته على علم منهم، وفيهم يقول سبحانه: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ وإمَّا مقلدون جامدون على التقليد، لا ينظرون في الدلائل والآيات، وقد لقَّبهم الله سبحانه وتعالى بالدَّواب ـ وهو اللفظ الذي غلب استعماله في ذوات الأربع ـ؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضلُّ من العجماوات؛ لأنَّ لها منافع، وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

٢ ـ نقض العهد، وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهداً أقرَّهم فيه علىٰ دينهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، فنقض كل منهم عهده، بما مرَّ آنفاً عن ابن عباس رضي الله عنه.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى أنه قد تكرر منهم نقض العهد.. أردف ذلك بذكر ما يجب أن يعاملوا به، فقال: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾؛ أي: فإن تجد يا محمد هؤلاء الناقضين لعهدهم معك ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾؛ أي: في أثناء الحرب؛ أي: فإمَّا تصادفنهم وتظفر بهم في الحرب وتتمكن منهم ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم﴾؛ أي: ففرق وخوف بسبب تنكيلك بهم وعقوبتك لهم ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾؛ أي: من ورائهم؛ أي: من سواهم من سائر الكفار الذين يريدون محاربتك، كأهل مكة. ومعنى[1] الآية: إنَّك يا محمد إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد.. فافعل بهم فعلاً من القتل والتنكيل تفرِّق بهم جمع كلِّ ناقضٍ للعهد، حتى يخافكم من وارءهم من أهل مكة واليمن ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾؛ أي: لعل الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون بما يقع لهؤلاء الناقضين من التعذيب؛ أي[2]: إذا فعلت بقريظة العقوبة.. فرقت شمل قريش؛ إذ يخافون منك أن تفعل بهم مثل ما فعلت بحلفائهم، وهم قريظة، فأمر رسول الله ﷺ أن يفرِّقهم في ذلك الوقت تفريقاً عنيفاً موجباً للاضطراب،

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

والضميران في ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الظاهر عودهما على ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: إذا رأوا ما حلَّ بالناقضين تذكروا اهـ. «سمين».

وقرأ الأعمش بخلاف عنه[1]: ﴿فشرِّذ﴾ ـ بالذال المعجمة ـ بدل الدال المهملة، وكذا في محصف عبد الله، قالوا: ولم نحفظ هذه المادة في لغة العرب، وقال الزمخشري: فشرِّذ ـ بالذال المعجمة ـ بمعنىٰ ففرِّق، وقال قطرب: ـ بالذال المعجمة ـ التنكيل، ـ وبالمهملة ـ التفريق.

وقرأ أبو حيوة والأعمش بخلاف: ﴿مِنْ خلِفهم﴾ جاراً ومجروراً، ومفعول ﴿فشرِّد﴾ محذوف؛ أي: ناساً من خلفهم يعملون مثل عملهم، أو فشرد أمثالهم من الأعداء.

والخلاصة[2]: أنَّك تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم في الحرب.. فنكِّل بهم أشد التنكيل؛ حتى يكون ذلك سبباً لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة النادة عن أمكنتها، وإنّما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان في هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم وتجديده لعهدهم بعد نقضه؛ لئلا ينخدع مرةً أخرى بكذبهم؛ لما جبل عليه من الرحمة، وحب السلم. واعتبار الحرب ضرورةً تترك إذا زال سببها كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وهم قد أوهموه المرة بعد المرة أنَّهم يرغبون في السلم، واعتذروا عن نقضهم العهد، وكانوا في ذلك مخادعين.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال، فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال.

روى البخاري ومسلم أنَّ النبي ﷺ خطب في بعض أيامه التي لقي فيها العدو فقال: «أيها الناس، لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم.. فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم».

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وفي ذلك إيماءٌ إلى شيئين:

١ ـ أنّ الحرب ليست محبوبة عند الله، ولا عند رسوله، وإنّما هي ضرورة يراد بها منع البغي والعدوان، وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ أنَّ استعمال القوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم.. أمر لا بد منه للعظة والاعتبار، حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم، ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما في الصدور من الأحقاد، والتمتع بالمغانم من مال وعقار. وبعد أن ذكر حكم ناقض العهد حين سنوح الفرصة.. قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾؛ أي: وإن توقعت يا محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ وغشاً ونكثاً للعهد، بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تدل عليها ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فاطرح وارم إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على جهرٍ، لا على سرٍّ؛ أي: فاقطع[1] عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها، بأن تنبذ إليهم عهدهم، وتنذرهم بأنك غير مقيد به، ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح، لا خداع فيه ولا استخفاء. والحكمة في هذا: أنَّ الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقاً.

والمعنى[2]: أعلمهم ـ قبل حربك إياهم ـ أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يتوهَّمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم؛ أي: لا تحاربهم قبل إعلامهم بنقض العهد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: الناقضين للعهود؛ أي: يعاقبهم، وهذه الجملة تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف. قال ابن عطية: والذي[3] يظهر من ألفاظ القرآن أنَّ أمر بني قريظة انتهى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأ تبارك

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانةً؛ أي: إنَّ الخيانة مبغوضةٌ بجميع ضروبها، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرةً.

روى البيهقي أنَّ النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته.. فوفِّ عهده مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله، ومن كانت بينك وبينه رحم.. فصلها مسلماً كان أو كافراً، ومن ائتمنك على أمانةٍ.. فأدِّها إليه مسلماً كان أو كافراً».

وعبارة «المراح» هنا قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي[1] وإن تعلمنَّ يا محمد من قوم من المعاهدين نقض عهد بأمارات ظاهرة.. فاطرح إليهم عهدهم على طريق ظاهر مستوٍ، بأن تعلمهم قبل حربك إياهم أنك قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، ولا تبادرهم بالحرب ـ وهم على توهم بقاء العهد ـ فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ في العهود.

والحاصل: إن ظهرت الخيانة بأمارات ظاهرة من غير أمرٍ مستفيض.. وجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم الحرب، ذلك كما في قريظة، فإنهم عاهدوا النبي ﷺ، ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم عليه ﷺ، وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به.. فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد وإعلامهم بالحرب، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة، فإنهم لمَّا نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي ﷺ.. وصل إليهم جيش النبي ﷺ بمرِّ الظهران، وذلك على أربع فراسخ من مكة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ قرأ ابن عامر[2] وحفص عن عاصم ـ بالياء التحتية ـ أي: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ من قريش أنفسهم فاتوا من عذابنا بهربهم يوم بدر. وقرأ الباقون بالتاء الفوقية، على مخاطبة النبي ﷺ، أو أيّ

---

(١) المراح. (٢) المراح.

مخاطب؛ أي: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا الذين خلصوا منك يوم بدر فائتين من عذابنا ﴿إِنَّهُمْ﴾ بهذا الفرار ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله تعالى من الانتقام منهم، إمّا بالقتل في الدنيا، وإمّا بعذاب النار في الآخرة. وقرأ ابن عامر ﴿أنّهم﴾ - بفتح الهمزة - على التعليل ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾، أي: وهيئوا أيها المسلمون لحرب الكفار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ وقدرتم عليه وأمكن لكم ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، أي: من كل ما يتقوى به في الحرب، من كل ما هو آلة للجهاد، كالسيف والرماح والقوس. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾؛ أي: ومن الخيل المربوط المهيأ، المقتنىٰ للجهاد عليه، سواء كان من الفحول، أو من الإناث. وروي أنه كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف، وإناث الخيل عند البيات والغارات، حالة كونكم ﴿تُرْهِبُونَ﴾ وتخوفون ﴿بِهِۦ﴾، أي: بذلك الإعداد، أو بما ذكر من القوة والخيل المربوط. وقرىء ﴿تخزون﴾ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كفار مكة، وذكر أوّلاً عدو الله؛ تعظيماً لما هم عليه من الكفر، وتقوية لذمهم، وأنه يجب لأجل عدواتهم أن يقاتلوا ويبغضوا، ثم قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على سبيل التحريض على قتالهم؛ إذ في الطبع أن يعادي الإنسان من عاداه، وأن يبغي له الغوائل. ذكره أبو حيان في «البحر» ﴿و﴾ ترهبون به قوماً ﴿آخرين﴾ من أعدائكم ﴿مِن دُونِهِمْ﴾؛ أي: من غير كفار مكة ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾؛ أي: لا تعلمون أنتم أيها المؤمنون أولئك الآخرين، على ما هم عليه من العداوة لكم، أي: فإنَّ تكثير آلات الجهاد كما يرهب الأعداء الذين تعلمون كونهم أعداءً لكم.. كذلك يرهب الأعداء الذين لا تعلمون أنهم أعداء، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ أي: الله سبحانه وتعالى لا غيره يعلم أولئك الآخرين؛ أي: كونهم أعداء لكم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: من مال قلَّ أو جلَّ من آلةٍ وسلاحٍ وصفراء وبيضاء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله في الجهاد، وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يخلف لكم من العاجل، ويوفَّر لكم أجره في الآخرة، أي: يعطي لكم عليه أجراً وافراً كاملاً ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تنقصون من أجوره شيئاً، ولو مثقال ذرة، بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾، ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾.

وقرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص[1]: ﴿يحسبن﴾ ـ بالياء التحتية ـ وقرأ الباقون: ﴿تحسبن﴾ ـ بالمثناة فوق ـ كما مرَّ آنفاً، فعلى القراءة الأولى: يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأول محذوفاً؛ أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، ومفعوله الثاني: ﴿سبقوا﴾، ومعناه: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم، وعلى القراءة الثانية: يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والثاني ﴿سَبَقُوٓا۟﴾، وقرىء: ﴿إنَّهم سبقوا﴾ وقرىء: ﴿يِحسبن﴾ بكسر الياء.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿ولا يحسب﴾ ـ بفتح الياء من تحت والسين، وحذف النون ـ وينبغي أن يخرَّج على حذف النون الخفيفة؛ لملاقاة الساكن، فيكون كقوله:

لاَ تُهِينَ ٱلْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ ... تَرْكَعَ يَوْمَاً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقرأ ابن عامر: ﴿أنهم لا يعجزون﴾ ـ بفتح الهمزة ـ والباقون بكسرها، وكلا القراءتين مفيدة؛ لكون الجملة تعليلية. وقرأ ابن محيصن: ﴿لا يعجزوني﴾ ـ بكسر النون، وياء بعدها ـ. وقال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أنَّ المعنىٰ: إنهم لا يعجزونني، وتحذف النون الأولى؛ لاجتماع النونين. وقرأ طلحة: بكسر النون من غير تشديد ولا ياءٍ. وعن ابن محيصن: تشديد النون وكسرها، أدغم نون الإعراب في نون الوقاية، وعنه أيضاً: بفتح النون وتشديد الجيم وكسر النون. قال النحاس: وهذا خطأ من وجهين: أحدهما: أنَّ معنى عجزه: ضعفه وضعف أمره، والآخر: أنَّه كان يجب أن يكون بنونين اهـ. وقرأ الحسن وأبو حيوة وعمرو بن دينار: ﴿ومن رُبُط الخيل﴾ ـ بضم الراء والباء ـ وعن أبي حيوة والحسن أيضاً. ﴿رُبْط﴾ ـ بضم الراء وسكون الباء ـ وذلك نحو كتاب وكتب. وقرأ الحسن ويعقوب وابن عقيل لأبي عمرو: ﴿ترهبون﴾ مشدداً عدي بالتضعيف كما عدي بالهمزة، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أنَّ الحسن

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

قرأ ﴿يرهبون﴾ بالياء من تحت وخففها، انتهى.

وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد: ﴿تخزون به﴾ مكان ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾. وقرأ السلمي: ﴿عدواً لله﴾ بالتنوين ولام الجر. قال صاحب «اللوامح»: فقيل: أراد به اسم الجنس، ومعناه أعداءً لله.

فصل

واعلم: أنَّ الله[1] سبحانه وتعالى أمر المؤمنين في هذه الآية بالاستعداد للحرب التي لا بُدَّ منها؛ لدفع العدوان، وحفظ الأنفس والحق والفضيلة، ويكون ذلك الاستعداد بأمرين:

١ ـ إعداد المستطاع من القوة؛ ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان، فالواجب على المسلمين في هذا العصر صنع المدافع والطيارات والقنابل والدبابات والرصاص، وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر وغيرها.

روىٰ مسلم عن عقبة بن عامر أنَّه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول: «ألا إنَّ القوة الرمي» قالها ثلاثاً، وذلك أنَّ رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربةٍ، أو نحو ذلك، وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها، فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفةً في عصره ﷺ.

٢ ـ مرابطة الفرسان في ثغور البلاد وحدودها: إذ هي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

---

(١) المراغي.

والحكمة في هذا: أن يكون للأمة جندٌ دائم مستعدٌّ للدفاع عنها إذا فجأها العدو على غرةٍ، وقوام ذلك الفرسان؛ لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها، ولا يزال للفرسان نصيب كبير في الحرب في هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية في الدول الحربية.

ومعنى قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ أي: أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة؛ لترهبوا عدو الله ـ الكافرين به وبما أنزله على رسوله ـ وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر؛ إذ لا شيء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب، فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات.. خافوهم. وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه:

١ ـ يجعل أعدائهم لا يعينون عدوّاً آخر عليهم.

٢ ـ يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم.

٣ ـ ربَّما حملهم ذلك على الدخول في الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ أي: وترهبون به أناساً غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم، وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون ين هاتين العدواتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر، ممن لا تعلمون الآن عدواتهم، بل يعلمهم الله، وهو علام الغيوب.

والخلاصة: أنّ تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين تعلمون أنهم أعداء لكم.. يرهب الأعداء الذين لا تعلمون أنهم أعداء لكم، فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعاً، ويمنعهم من الإقدام على القتال. وهذا ما يسمىٰ في العصر الحديث: السلام المسلح.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يعطكم الله عليه الجزاء

الوافي التام ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنه لا يحلقكم ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم، فإن القوي المستعد لمقاومة المعتدي قلَّما يعتدي عليه أحد، وإن اعتدى عليه.. فقلَّ أن يظفر به.

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة في سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإنفاق الكثير من المال، ومن ثم رغب سبحانه عباده المؤمنين في الإنفاق في سبيله، ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوفَّىٰ إليهم، إمّا في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فحسب.

ولمَّا كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب.. أكده بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾؛ أي: وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم والصلح ولم يعتز بقوته.. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾؛ أي: فمل إليها واقبلها منهم؛ لأنَّك أولى بالسلم منهم. وقرأ[1] أبو بكر عن عاصم والأعمش والمفضل وابن محيصن: ﴿للسِّلم﴾ - بكسر السين - وقرأ الباقون بفتحها. وقرأ الأشهب العقيليّ: ﴿فاجنُح﴾ - بضم النون - وقرأ الباقون بفتحها، والأولى لغة قيس، والثانية لغة تميم. قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هي مؤوَّلة بالخصلة أو الفعلة.

أي: وإن[2] مال الكفار للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد.. فاقبله منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: وفوض الأمر فيما عقدته معهم إلى الله؛ ليكون عوناً لك على السلامة، ولكي ينصرك عليهم إذا نقضوا العهد، ولا تخف غدرهم ومكرهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعلون وبنياتهم، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع - وإن خفي عليك - فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويرد كيدهم في نحرهم. وقد اختلف أهل العلم: هل هذه الآية منسوخة أو محكمة؟.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

فقيل: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقيل: ليست منسوخة؛ لأنَّ المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصةً بأهل الكتاب.

وقيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح.. جاز أن يجابوا عليه. وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزةٍ وقوةٍ، لا إذا لم يكونوا كذلك.. فهو جائز، كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك. وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرَّر في مواطنه. انتهى من «الشوكاني».

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾؛ أي: وإن يرد الكفار بإظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم ويفترصوا الفرص، كانتظار الغرة التي تمكِّنهم من أهل الحق أو الاستعداد للحرب.. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فاعلم أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ كافيك من شرورهم وناصرك عليهم. ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ وقواك ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ في يوم بدر، وفي سائر أيامك ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار، وهذه الجملة معللة لما قبلها؛ أي: لا تخف من خداعهم ومكرهم؛ فإنَّ الله الذي قواك عليهم بالنصر في يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخداع والنكث.

أي: إنَّ(١) من آثار عنايته تعالىٰ بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك، وجعلهم أمةً متحدةً متآلفةً متعاونةً على نصرك، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات، كالملائكة التي تثبت القلوب يوم بدر، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: وهو الذي ألف وجمع بين قلوب المؤمنين على الإيمان بك وبذل النفس والمال في مناصرتك بعد التفرق والتعادي الذي كان أثر حروبٍ طويلة وضغائن موروثة، كما كان بين الأوس

---

(١) المراغي.

والخزرج من الأنصار.

وظاهر قوله[1]: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ العموم، وإنَّ ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيَّد الله بها رسوله. وقال جمهور المفسرين: المراد الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة، فألَّف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ. وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والحمل على العموم أولىٰ؛ فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً، ولا يحترم ماله ولا دمه، حتى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية. وجملة قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - أي: لو بذلت يا محمد ما في الأرض من معادنها وزخارفها ﴿جَمِيعًا﴾ لتحصيل التأليف والجمع بينهم ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ما قدرت على تحصيل التأليف والتوفيق بين قلوبهم، جملة مقررة لمضمون ما قبلها.

والمعنى: أنَّ ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع مافي الأرض.. لم يتم له ما طلبه من التأليف؛ لأنَّ أمرهم في ذلك قد تفاقم جدّاً، أي[2]: إنه لولا نعمة الله عليهم بأخوة الإيمان التي هي أقوى من أخوة الأنساب والأوطان.. لماأمكنك أن تؤلِّف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، فالضغائن الموروثة والدماء المسفوكة في الأنصار لا تزول بالأعراض الزائلة، وإنَّما تزول بصادق الإيمان الذي هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، كما أن التآلف بين أغنياء المهاجرين وفقرائهم وأشرافهم وعامتهم على ما كان بينهم من فوارق في الجاهلية وجمع كلمة البيوت والعشائر مع رسوخ العدوات والإحن.. لم يكن مما ينال بالمال والآمال في المغانم ونحوها، على أن شيئاً من ذلك لم يكن في يد الرسول ﷺ أول الإسلام، وإن كان قد صار في يده شيء كثير منه في المدينة بنصر الله له في قتال المشركين واليهود جميعاً.

---

(١) الشوكاني.   (٢) المراغي.

وكذلك جمع كلمة المهاجرين والأنصار على ما يدل[1] به كل منهما بميزة لا تتوافر لسواه، فالمهاجرون لهم مزية القرب من الرسول، والسبق إلى الإيمان، والأنصار لهم ميزة المال والقوة، وإنقاذ الرسول وقومه من ظلم مشركي مكة، وإيواؤهم ومشاركتهم لهم في أموالهم، فكل هذا من عوامل التحاسد والتنازع، لولا فضل الله وعنايته. ومن ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾؛ أي: جمع بين قلوبهم بعظيم قدرته وبديع صنعه؛ إذ هداهم إلى الإيمان الذي دعوتهم إليه فتألفت قلوبهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور؛ أي: إنه تعالى الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين، ولا كيد الماكرين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره ونفوذ نهيه وأمره وفي جميع أفعاله، فينصر الحق على الباطل، ويفضل الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ليس تكراراً لما قبله، فإن الأول مقيد بإرادة الخداع؛ حيث قال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ فهذه كفاية خاصة، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، كفاية عامة غير مقيدة.

والواو في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف، والمعنىٰ حينئذٍ: حسبك الله وحسبك المؤمنون، أي: كافيك الله وكافيك المؤمنون. ويحتمل أن تكون بمعنى مع، كما تقول: حسبك وزيداً درهمٌ، والمعنى: كافيك وكافي المؤمنين الله؛ لأنَّ عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى كافٍ لك يا محمد كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم وكافٍ لمن اتبعك وأيدك من المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى الأخير أرجح وأوضح من الأول وإن كان من حيث العربية ضعيفاً. وقيل: يجوز أن

(١) يقال: دل بعطائه إذا افتخر به على أقرانه اهـ م ج.

يكون المعنىٰ: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله، على كونه مبتدأ خبره محذوف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم والرسول الرحيم ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حث المؤمنين ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾؛ أي: على قتال أعدائهم ورغبهم فيه؛ لدفع عدوان الكفار وإعلاء كلمة الحق والعدل أهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما.

والخلاصة: حثهم على ما يقيهم أن يكونوا حرضاً أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين.

ثم بشرهم؛ تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأنَّ الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾؛ أي: إن يوجد منكم أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟﴾؛ أي: يقهروا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم ﴿مِاْئَتَيْنِ﴾ من الكافرين الذين جرِّدوا من هذه الصفات الثلاث، أي: إن يكن منكم عشرون.. فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مئتين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوٓا۟﴾ ويقهروا ﴿أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهذا وعد من الله تعالى وبشارة بأنَّ الجماعة من المؤمنين إن صبروا.. غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده.

والخلاصة(١): ليصبرن الواحد لعشرة، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية سواء قلوا أو كثروا، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم إذا بدؤوهم بالقتال.

وإنما يجب هذا الحكم عند حصول هذه الشروط المذكورة(٢):

منها: أن يكون المؤمن شديد الأعضاء قوياً جلداً.

ومنها: أن يكون قوي القلب، شديد البأس، شجاعاً غير جبان.

ومنها: أن يكون غير متحرف لقتالٍ، أو متحيزٍ إلى فئة، فعند حصول هذه

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الشروط وجب على الواحد أن يثبت للعشرة.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ سببية متعلقة بـ ﴿يَغْلِبُوٓا﴾ في الموضعين، أي: أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة، بسبب أنَّهم، أي: أنَّ الكفار قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر، لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب، وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل في إقامة سننه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة الدنيوية، أو الشهادة والسعادة الأخروية. وأنتم تقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالىٰ، وإعلاءً لكلمته، وابتغاءً لمرضاته، وهم إنما يقاتلون للحمية الجاهلية وإثارةً للعدوان، وهم يعتمدون على قوتهم، والمسلمون يستغيثون بربهم بالتضرع، ومن كان كذلك.. كان النصر أليق به.

وبالجملة: فحالهم يخالف حالكم في كل ما تقدَّم، ولا سيما منكري البعث والجزاء منهم، كمشركي العرب في ذلك العصر واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية وحب الشهوات، فهم أحرص على الحياة منكم؛ لعدم اعتقادهم بسعادةٍ أخرويةٍ إلاَّ أنَّ أهل الكتاب يظنون أنَّهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم.

وفي الآية(١) إيماءٌ إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم، ومن ثم كانت المئة من الكافرين دون العشرة من المؤمنين الصابرين، وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى، حين كانوا يعملون بهداية دينهم، وكانوا بها أرباب ملك واسع وعزٍ وجاهٍ عريضٍ، ودانت لهم الشعوب الكثيرة، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية.. زال مجدهم وسؤددهم، وذهبت ريحهم، ونزع منهم أكثر ذلك الملك. ثم لمَّا شقَّ ذلك عليهم واستعظموه.. خفف عنهم، ورخص لهم؛ لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾؛ أي: في هذا الزمن الحاضر الذي قل فيه عددكم

---

(١) البيضاوي.

وعدتكم.. ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنكُمْ﴾ أيها المؤمنون أمر القتال، ورفع عنكم ما فيه مشقةٌ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في الأبدان عن قتال عشرة أمثالكم، لا في الإيمان؛ لكثرة العبادة والتعب، فرحمكم الله وأكرمكم بالتخفيف، وأيضاً علم الله سبحانه وتعالى ضعف من يأتي بعد الصدر الأول عن القتال، فخفف الله عن الجميع ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾؛ أي: يوجد منكم ﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ على شدائد القتال ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾؛ أي: يتغلبوا على مئتين من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ على شدائد القتال ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾؛ أي: يتغلبوا على مئتين من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾؛ أي: وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة القتال.. ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾، أي: يتغلبوا على ألفين من الأعداء. وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بإرادته وتيسيره: متعلقٌ بـ ﴿يَغْلِبُوا﴾ في الموضعين، وهو خبرٌ بمعنى الأمر؛ أي: فليثبت الواحد منكم لرجلين من الكفار، وقد استمر هذا الأمر إلى يوم القيامة. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف بنصره ومعونته، فكيف لا يغلبون؟ قال[1] سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الآية.. شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرَّ الواحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٔانَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: فلمَّا خفف الله عنهم من العدة.. نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار، وتحريم الفرار عليه منهما، سواء طلباه أو طلبهما، وسواء وقع ذلك وهو واقفٌ في الصف مع العسكر، أو لم يكن هناك عسكرٌ.

والخلاصة: أنَّ أقل حال للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المئة

---

(١) المراغي.

منهم على المئتين، والألف على الألفين، وإنَّ هذه رخصة خاصة بحال الضعف، كما كان الحال كذلك في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات، وهو وقت غزوة بدر، حين كان المؤمنون لا يجدون ما يكفيهم من القوت، ولم يكن لديهم إلا فرسٌ واحدٌ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدِّين للحرب، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملي الأهبة والعدة.

ولمَّا كملت للمؤمنين القوة.. كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم، وما تمَّ لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده القدوة في ذلك، فقد كان الجيش الذي أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدي ثلاثة آلاف، وكان الجيش الذي قاتلهم من الروم ومتنصرة العرب مئةً وخمسين ألفاً.

وقد[1] قيل في نكتة التنصيص على غلب العشرين للمئتين، والمئة للألف: أنَّ سراياه ﷺ التي يبعثها كان لا ينقص عددها عن العشرين، ولا يجاوز المئة، وقيل: في التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المئة للمئتين، والألف للألفين: بشارةٌ للمسلمين بأنَّ عساكر الإسلام يجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره، لا بقوتهم ولا جلادتهم، ثم بشرهم بأنَّه مع الصابرين، وفيه الترغيب إلى الصبر، والتأكيد عليهم بلزومه، والتوصية به، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر؛ لأنَّ من كان الله معه.. لم يستقم لأحد أن يغلبه. وقد اختلف أهل العلم: هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿حرص﴾ ـ بالصاد المهملة ـ وهو من الحرص، وهو قريب من قراءة الجمهور ـ بالضاد ـ.

وقرأ الكوفيون: ﴿يكن منكم مئة﴾ على التذكير فيهما، ورواها خارجة عن

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

نافع، وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وابن عامر على التأنيث، وقرأ أبو عمرو على التذكير في الأولىٰ، ولحظ ﴿يَغْلِبُوٓا۟﴾ والتأنيث في الثانية؛ ولحظ ﴿صَابِرَةٌ﴾ وقرأ الأعرج على التأنيث كلها، إلا قوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه على التذكير بلا خلاف، وقرأ المفضل عن عاصم: ﴿وعلم﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ والعربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ والكسائي وابن عمر والحسن والأعرج وابن القعقاع وقتادة وابن أبي إسحاق: ﴿ضُعفا﴾ هنا وفي الروم ـ بضم الضاد وسكون العين ـ وقرأ عيسى بن عمر بضمهما، وحمزة وعاصم بفتح الضاد وسكون العين، وهي كلها مصادر وعن أبي عمرو بن العلاء: ضم الضاد لغة الحجاز، وفتحها لغة تميم. وقرأ ابن القعقاع: ﴿ضعفاء﴾ جمع ضعيف، كظريف وظرفاء، وحكاها النقاش عن ابن عباس.

الإعراب

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع بمعنى الماضي؛ أي: بمعنى رأيت؛ لأنَّ لو الامتناعية ترد المضارع ماضياً، كماأنَّ أن الشرطية ترد الماضي مضارعاً، وفاعله: ضمير يعود على محمد، أو على أيٍّ مخاطب، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وهو محذوف، تقديره: ولو ترى حال الكفرة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو ترى حال الكفرة ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.. لرأيت أمراً فظيعاً عجيباً، وجملة لو الشرطية: مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾. ﴿يَتَوَفَّى﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول مقدم على الفاعل للاهتمام به. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: معطوف على وجوههم، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الملائكة.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة لقول محذوف، تقديره: ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق. ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لذلك القول المحذوف، وجملة القول المحذوف في محل النصب على الحال على كونها معطوفة على جملة يضربون.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب ما قدمته أيديكم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما قدمته أيديكم ﴿وَأَنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾: خبر ليس، والباء زائدة. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: متعلق بظلام، وجملة أنَّ في تأويل مصدر معطوف على ما الموصولة على كونه مجروراً بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب ما قدمته أيديكم، وكائن بسبب عدم كون الله ظلاماً للعبيد.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر للمبتدإ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء المشركين كائن كدأب آل فرعون، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَفَرُوا﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تفسير لـ ﴿دأب آل فرعون﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على كفروا؛ لأنَّ الفاء فيه عاطفة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أخذهم﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿قَوِيٌّ﴾: خبره. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبر ثانٍ لأنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة

لتعليل ما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، وعلامة جزمه سكون ظهر على النون المحذوفة للتخفيف على حدِّ قول ابن مالك:

وَمِنْ مُضَارِعٍ لِكَانَ مُنْجَزِمْ   تُحْذَفُ نُوْنٌ وَهُوْ حَذْفٌ مَا ٱلْتُزِمْ

وحذفت الواو من ﴿يك﴾؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ أصله: يكون، دخل الجازم عليه فسكنت النون، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو؛ لالتقائهما، فصار يكن، ثم حذفت النون؛ للتخفيف، فصار: يك، واسمها: ضمير يعود على الله. ﴿مُغَيِّرًا﴾: خبرها. ﴿نِّعْمَةً﴾: مفعول مغيراً، وجملة يكون في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب عدم كون الله مغيراً نعمة. الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسببِ عدم تغيير الله نعمة أنعمها على قوم، والجملة اسمية مستأنفة ﴿أَنْعَمَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب صفة لنعمة، ولكنها سببية. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنْعَمَهَا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُغَيِّرُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، تقديره: ما كان بأنفسهم من الحال، وجملة ﴿يُغَيِّرُوا۟﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى: تقديره: إلى تغييرهم ما بأنفسهم، الجار والمجرور متعلق بيكون، أو بمغيراً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول له. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة أنَّ في محل الجر معطوفة على جملة أن في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ على قراءة الفتح، وعلى قراءة كسر همزة إن ـ فالجملة مستأنفة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور خبر لمحذوف، تقديره: دأبهم كدأب آل فرعون، والجملة مستأنفة، كررت؛ للإطناب في الذم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على آل فرعون. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ والجملة مفسرة لدأب أل، فرعون لا محل لها من الإعراب ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾. ﴿وَأَغْرَقْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أهلكنا﴾. ﴿وَكُلٌّ﴾: مبتد وسوَّغ الابتداء بالنكرة.. قصد العموم. ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة كان في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، وجمع الضمير في كانوا وفي ظالمين؛ مراعاةً لمعنىٰ ﴿كل﴾؛ لأنَّ كلاً متى قطعت عن الإضافة.. جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها أخرى، وإنما اختير هنا مراعاة المعنىٰ؛ لأجل الفواصل، ولو روعي اللفظ فقط، فقيل: وكلٌّ كان ظالماً.. لم تتفق الفواصل اهـ «سمين».

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بشر ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ اعتراضية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين البدل والمبدل منه، أو معطوفةٌ على جملة الصلة، وعبارة أبي السعود هنا قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه، وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع، لا يلويهم صارف، ولا يثنيهم عاطف أصلاً، جيء به على وجه الاعتراض، لا أنه

عطفٌ على ﴿كَفَرُوا﴾ داخلٌ معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل. انتهت.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من الموصول قبله بدل بعض من كل، أو عطف بيان له، أو خبر لمحذوف، تقديره: هم الذين. ﴿عَٰهَدتَّ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يَنقُضُونَ﴾.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور من نقض العهد، وأردت بيان ما تفعل معهم.. فأقول لك: ﴿إما تثقفنهم﴾. ﴿إما﴾ ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة ﴿ما﴾ زائدة لتأكيد معنى الشرط. ﴿تثقفن﴾ فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾ متعلق به ﴿فَشَرِّدْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية ﴿شَرِّد﴾: فعل أمر في محل الجزم بإن الشرطية على كونه جواباً لها مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِهِم﴾: متعلق بشرد. ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول شرِّد. ﴿خَلْفَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقةً لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿ما﴾ زائدة. ﴿تَخَافَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بأن مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾: متعلق به. ﴿خِيَانَةً﴾: مفعول به. ﴿فَٱنۢبِذْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية ﴿انبذ﴾ فعل أمر في محل الجزم بإن مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: عهدهم. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق بانبذ. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: حال من الفاعل الذي هو ضمير انبذ، والمفعول الذي هو ضمير إليهم، تقديره: حالة كونك وكونهم مستوين في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به؛ لئلا يتهموك بالغدر، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ خبرها، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿سَبَقُوٓا﴾ في محل النصب مفعول ثان لحسب، ومفعولها الأول محذوف، تقديره: أنفسهم، والمعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُم﴾ متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿ٱسْتَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما

استطعتموه. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ جار ومجرور حال من ما الموصولة، أو من العائد المحذوف، تقديره: حالة كونه بعض قوة. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿تُرْهِبُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تُرْهِبُونَ﴾: في محل النصب حالٌ من فاعل ﴿أعدوا﴾، تقديره: حالة كونكم مرهبين لهم، ويجوز أن يكون حالاً من مفعوله وهو الموصول؛ أي: أعدوه حال كونه مرهباً به.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾: معطوف على ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾. ﴿مِن دُونِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لآخرين. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأنَّ علم هنا بمعنى عرف، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿آخرين﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثالثة لآخرين. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم لـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بما، على كونه فعل شرط لها. ﴿مِن شَىْءٍ﴾: حال من ﴿ما﴾. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿يُوَفَّ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ ﴿ما﴾، على كونه جواب شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير إليكم؛ أي: يوف إليكم حالة كونكم غير مظلومين فيه، وجملة ما الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿جَنَحُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بإن، على كونه فعل شرط لها. ﴿لِلسَّلْمِ﴾: متعلق به. ﴿فَٱجْنَحْ﴾:

﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية ﴿اجنح﴾ فعل أمر في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿لَهَا﴾: متعلق به، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿فَاجْنَحْ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿السَّمِيعُ﴾: خبر أول لإنَّ. ﴿الْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يُرِيدُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَخْدَعُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بإن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿يُرِيدُوا﴾، تقديره: وإن يريدوا خداعهم إياك، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فصالحهم ولا تخش منهم، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿حَسْبَكَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿اللَّهُ﴾: خبرها، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ لأنَّ جملتها مسوقة لتعليل الجواب المحذوف، كما قدَّرناه آنفاً. ﴿هُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَيَّدَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِنَصْرِهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَيَّدَكَ﴾. ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾.

﴿وَأَلَّفَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿أَيَّدَكَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَلَّفَ﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَنفَقْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول

﴿أَنفَقْتَ﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلةٌ لما، أو صفةٌ لها. ﴿جَمِيعًا﴾: تأكيدٌ لما الموصولة، أو حال منها، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿أَلَّفْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لو الشرطية، وجملة لو الشرطية مستأنفة. ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَلَّفْتَ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾. ناصب واسمها. ﴿أَلَّفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لكن، وجملة لكن معطوفة على جملة لو الشرطية. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفةٌ. ﴿حَسْبُكَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره، والجملة الاسمية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. وقال(١) قوم: ﴿حَسْبُكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله؛ أيْ: يكفيك الله. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: في ﴿مَنَ﴾ ثلاثة أوجه من الإعراب:

أحدها: جره عطفاً على الكاف في ﴿حَسْبُكَ﴾؛ أي: حسبك يا محمد وحسب من اتبعك من المؤمنين.. الله. وهذا الوجه في المعنى أوضح وأظهر وأسلم من الإشكال، ولكن هذا الوجه من حيث العربية لا يجوز عند البصريين؛ لأنَّ العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز عندهم، كما قال ابن مالك:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَىٰ عَطْفٍ عَلَىٰ   ضَمِيْرِ خَفْضٍ لاَزِمَاً قَدْ جُعِلاَ

والثاني: موضعه نصب بعامل محذوف دلَّ عليه الكلام، تقديره: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، وهذا الوجه واضح أيضاً.

---

(١) العكبري.

والثالث: موضعه رفع، وهو على وجهين:

أحدهما: أنَّه معطوف على لفظ الجلالة، فيكون خبراً آخر للمبتدأ، كقولك: القائمان زيد وعمرو، ولم يثن حسبك؛ لأنه مصدر. وقال قوم: هذا الوجه ضعيف من حيث المعنى؛ لأنَّ الواو للجمع، ولا يحسن ههنا، كما لا يحسن في قولهم: ما شاء الله وشئت، وثم هنا أولى، إلا أن يقال: إن الواو هنا بمعنى ثم.

والثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وحسبك من اتبعك من المؤمنين من حيث النصر، ولا يلزم على هذا الوجه التشريك بين الله وبين غيره؛ لأنَّ الكلام جملتان.

وليس فيه اعتماد على غير الله؛ لأنَّ المؤمنين ما التفت إليهم إلا لإيمانهم وكونهم حزب الله، فرجع الأمر فيهم إلى الله. انتهى أبو البقاء مع زيادة وتصرف.

﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ فعل ومفعول، وفعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور حال من فاعل اتبعك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على النبي، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَرِّضِ﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع تام بمعنى يوجد، مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق به. ﴿عِشْرُونَ﴾ فاعل. ﴿صَٰبِرُونَ﴾: صفة لـ ﴿عِشْرُونَ﴾، ويصح أن تكون ﴿يَكُن﴾ ناقصة. ﴿يَغْلِبُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه جواب الشرط لها. ﴿مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إِن يَكُن﴾: جازم. ومجزوم. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق

به ﴿مِّائَةٌ﴾: فاعل. ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿أَلْفًا﴾. مفعول به، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة إن الأولى ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لِـ ﴿أَلْفًا﴾، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أنَّ﴾ حرف نصب، و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿قَوْمٌ﴾: خبر أنَّ، وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب عدم فقههم. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾ في الموضعين.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنى حرف التعريف، والظرف متعلق بـ ﴿خَفَّفَ﴾ الآتي. ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَفَّفَ﴾ ﴿وَعَلِمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَفَّفَ﴾ ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لأن ﴿ضَعْفًا﴾ اسم أنَّ مؤخر، وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسدَّ مفعولي ﴿علم﴾، تقديره: وعلم كون ضعف فيكم ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفصيل. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع تام مجزوم بـ ﴿إن﴾ ﴿مِّنكُم﴾: متعلق به ﴿مِّائَةٌ﴾: فاعل ﴿يَكُن﴾. ﴿صَابِرَةٌ﴾: صفة مئة. ﴿يَغْلِبُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿مِائَتَيْنِ﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة ﴿خَفَّفَ﴾ على كونها مفصلة لها. ﴿وَإِن يَكُن﴾: جازم ومجزوم. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَلْفٌ﴾: فاعلٌ. ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه جواباً لها. ﴿أَلْفَيْنِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها تفصيلاً لـ ﴿خَفَّفَ﴾. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾ في الموضعين. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: ظهورهم وأقفيتهم. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ والذوق: قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم. والحريق: بمعنى المحرق ـ فعيل بمعنى مفعل ـ ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بذي ظلم، ففعال صيغة نسب، على حد قول ابن مالك:

وَمَـعَ فَـاعِـلٍ فِـعَـالٌ وَفُـعِـلْ   فِيْ نَسَبٍ أَغْنَىٰ عَنِ ٱلْيَا فَقُبِلْ

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: وفي «المصباح»: ثقفت الشيء ثقفاً ـ من باب تعب ـ أخذته، وثقفت الرجل في الحرب: أدركته، وثقفته: ظفرت به، وثقفت الحديث: فهمته بسرعة، والفاعل ثقيفٌ، وبه سمي حيٌّ من اليمن اهـ. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾؛ أي: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد، يقال: شرد إذا فرق وطرد، والمشرد: المفرق المبعد. ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: والنبذ: الطرح والرمي. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي: على طريق واضح، لا خداع فيه ولا خباءة ولا ظلم. ﴿سَبَقُوٓاْ﴾؛ أي: أفلتوا من الظفر بهم ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾؛ أي: لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم، بل سيجزيهم على كفرهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾: الإعداد: تهيئة الشيء للمستقبل. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾: والمراد بالقوة: جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو، فكل ما هو آلة يستعان به في الجهاد.. فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: والرباط ـ بكسر أوله في الأصل ـ: مصدر سماعي لرابط؛ لأنَّ فعالا لا يكون مصدراً قياسياً إلا إذا كان الفعل يقتضي الاشتراك، كقاتل وخاصم، وهنا ليس كذلك، وفي «السمين»: وقال الزمخشري: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط بمعنى مربوط، كفصيلٍ وفصالٍ، والمصدر هنا مضافٌ لمفعوله اهـ. والرباط والمربط: الحبل الذي تربط به الدابة، ورباط الخيل: حبسها واقتناؤها. وفي «المصباح»: ربطته رباطاً من باب ضرب، ومن باب قتل لغة ـ شددته. والرباط: ما تربط به القربة وغيرها، والجمع ربط، مثل: كتاب وكتب، ويقال للمصاب: ربط الله على قلبه بالصبر، كما يقال: أفرغ الله عليه الصبر؛ أي: ألهمه.

والرباط: اسم من رابط مرابطة ـ من باب قاتل ـ إذا لازم ثغر العدو، والرباط الذي يبنى للفقراء مولد، ويجمع في القياس على رُبُط ـ بضمتين ـ ورباطات اهـ.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾: والإرهاب والترهيب: الإيقاع في الرهبة، وهي الخوف المقترن بالاضطراب. ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾: يقال: جنح للشيء وإليه: إذا مال، يقال: جنحت الشمس إذا مالت إلى جانب الغرب الذي تغيب في أفقه، يقال: جنح ـ من باب دخل وخضع ـ جنوحاً، والجنوح: الميل، وجنحت الإبل: أمالت أعناقها، ويقال: جنح الليل إذا أقبل، قال النضر بن شميل: جنح الرجل إلى فلان ولفلان إذا خضع له، والجنوح: الاتباع أيضاً لتضمنه الميل، ومنه الجوانح للأضلاع لميلها على حشوة الشخص، والجناح من ذلك؛ لميلانه على الطائر اهـ. «سمين». ﴿إِلَى ٱلسَّلَمِ﴾: وفي «المصباح»: والسلم ـ بكسر السين وفتحها ـ، ويذكَّر ويؤنَّث، الصلح وضد الحرب، والإسلام دين السلم والسلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: التحريض في اللغة: الحث على الشيء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه، كأنه في الأصل إزالة الحرض، وهو الهلاك اهـ. «الخازن». وفي «البيضاوي»: الحرض: أن ينهكه المرض حتى يشرف على الموت اهـ. وفي «المصباح»: حرض حرضا ـ من باب تعب ـ إذ أشرف على الهلاك، فهو حرض ـ بفتح الراء ـ تسميةً بالمصدر مبالغةً، وحرّضته على الشيء تحريضاً اهـ. وفي «المختار»: والتحريض على القتال: الحث عليه اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ لأنه كناية عن ضرب أجسادهم، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل. وفي قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ لأن المعنىٰ: بما قدمته أنفسكم، فاليد هنا عبارة عن القدرة، وحسن هذا المجاز كون اليد آلة العمل، والقدرة هي المؤثرة، فحسن جعل اليد كناية عن القدرة اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ لأنَّ الذوق حقيقة في المطعومات، فشبه مباشرة العذاب بذوق الطعام بجامع الوصول إلى المقصود في كل.

ومنها: الاعتراض التذييليُّ المقرر لمضمون ما قبله في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ ﴿يَغْلِبُوا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التخييلية في قوله: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ لأن النبذ حقيقة في الطرح، وهو هنا مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد بعد اليوم، فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه، وأثبت النبذ له تخييلاً.

ومنها: الاحتباك الذي هو من المحسنات البديعية في قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ والاحتباك هو أن يحذف من كلٍّ من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر. وفي «الكرخي»: وأثبت في الشرطية الأولى قيداً ـ وهو ﴿صَابِرُونَ﴾ ـ وحذفه من الشرطية الثانية، وأثبت في الثانية قيداً ـ وهو ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ـ وحذفه من الأولى، والتقدير: مئتين من الذين كفروا، ومئة صابرة، فحذف من كل منهما ما أثبت في الآخر، وهو غاية الفصاحة، وهذا الاحتباك جارٍ في الجمل المذكورة بعد قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع منها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ
يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ
أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟
وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ
وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ
﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟
ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ . . .﴾: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى(١) لمَّا ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها. . أردف ذلك بذكر أحكام الأسرىٰ، لأنَّ أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالباً، كما وقع في وقعة بدر، كما يقع في كل زمان.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لمَّا أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى. . شقَّ عليهم أخذ أموالهم، فأنزل الله هذه الآية؛ استمالةً لهم وترغيباً في الإسلام، ببيان ما فيه

(١) المراغي.

من خير الدنيا والآخرة، وتهديداً وإنذاراً لهم ببقائهم على الكفر وخيانته، وبشارة للنبي ﷺ بحسن العاقبة والظفر له ولمن تبعه من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم وما يجب أن يعمل مع الأسرى.. ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضهم لبعض، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث.

أسباب النزول

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم (ج ٣/ ص ٣٣٩) قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي حدثنا سعيد بن مسعود حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر، فقال: قومك وعشيرتك، فخلِّ سبيلهم. فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، قال: فلقي النبيُّ ﷺ عمر قال: «كاد أن يصيبنا بلاءٌ في خلافك»، هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت على شرط مسلم.

وروى[1] ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر.. جيء بالأسارى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة:

---

(١) المراغي.

أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس ـ وهو يسمع ما يقول ـ أقطعت رحمك؟ فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، فقال أناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناسٌ: يأخذ بقول عمر: وقال أناس: يأخذ: بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله ليلين قلوب رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وإنَّ مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾. أنتم عالةٌ، فلا يفلتن أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق» فقال عبد الله رضي الله عنه: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء؛ فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ . . .﴾ إلى آخر الآيتين.

وروى[1] أحمد من حديث ابن عباس قال: لما أسروا الأسارى ـ يعني يوم بدر ـ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟»، قال: لا والله، لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان ـ نسيبٌ لعمر ـ، فأضرب عنقه، ومكن فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد.. جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان،

---

(١) المراغي.

قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء.. أبكي، وإن لم أجد بكاءً.. تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرةٍ قريبةٍ منه - وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾».

وفي هذا الحديث تصريحٌ بأنَّ الذين طلبوا منه ﷺ اختيار الفداء كثيرون، وإنّما ذكر في أكثر الروايات أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنَّه أول من أشار بذلك، ولأنه أكبرهم مقاماً، وروى ابن المنذر عن قتادة قال: أراد أصحاب محمدٍ الفداء يوم بدر، ففادوهم بأربعة آلاف «أربعة آلاف درهم».

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ سبب نزولها[١]: ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم تحلَّ الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها»، فلمَّا كان يوم بدر.. وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم، فأنزل الله ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ إلى آخر الآيتين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ...﴾ الآية، روى الحاكم والبيهقي في «سننه» وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنَّ هذه الآية نزلت في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسيراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر، فلم تبلغه النوبة حتى أسر، فقال العباس: كنت مسلماً إلا أنهم أكرهوني، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن يكن ما تذكره حقاً.. فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك.. فقد كان علينا» قال العباس: فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب عليَّ، فقال: «أمَّا شيء أخرجت لتستعين به علينا.. فلا»، قال وكلَّفني رسول الله فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية، وفداء نوفل بن

---

(١) المراغي.

الحارث، فقال العباس: تركتني يا محمد أتكففُ قريشاً، فقال رسول الله ﷺ: أين الذهب الذي دفعته إلى أمِّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني، فإن حدث بي حادث.. فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل؟»، فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني ربي»، قال: فإني أشهد أنَّك صادقٌ، وأن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحدٌ إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، وأما إذ أخبرتني بذلك.. فلا ريب.

قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك إلى الآن عشرون عبداً، وإنَّ أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، وما أحب أنَّ لي بها جميع أموال مكة، وأنا انتظر المغفرة من ربي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورِّث أرحامنا المشركين، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل، ترثني وأرثك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال: آخىٰ رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها.. لورثته، فنزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ...﴾ الآية، فصارت المواريث ـ بعد ـ للأرحام والقرابات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء، وما يليق به، ولكن المراد به: النبي محمدٌ ﷺ بقرينة المقام. ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ من الكفار؛ أي: أن يحبس كافراً قدر عليه وصار في يده أسيراً، ويترك قتله للفداء والمنّ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: حتى[1] يبالغ ويكثر في قتال المشركين في نواحي الأرض ويغلبهم ويقهرهم، فإذا حصل ذلك.. فله أن يقدم على الأسر، فيأسر الأسارىٰ، بل اللائق به الآن قتلهم بلا فداء؛ إظهاراً لقوة المسلمين وعزة الإسلام. أخبر[2] الله سبحانه وتعالى أنَّ قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم، ثمَّ لما كثر المسلمون.. رخَّص الله في ذلك، فقال: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله تعالى.

والمعنى[3]: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء، إلا بعد أن يثخن في الأرض؛ أي: إلا بعد أن يعظم شأنه فيها، ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه؛ لأن الملك والدولة إنَّما تقوى وتشتد بالقتال والقتل، كما قال:

لَا يَسْلَمُ ٱلشَّرَفُ ٱلرَّفِيْعُ مِنَ ٱلأَذَىٰ حَتَّىٰ يُرَاقَ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ ٱلدَّمُ

مع أنَّ كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام علىٰ ما لا ينبغي، ومن ثم أمر الله سبحانه به.

وخلاصة ذلك: أنَّ اتخاذ الأسرى إنَّما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل، ففي المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين، وفي الحالة العامة ـ التي تعم كلَّ معركة وكل قتال ـ فبإثخانهم في الأرض بالقوة العامة والسلطان الذي يرهب الأعداء.

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بما قبتضم من الفداء ﴿عَرَضَ﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ الفاني الزائل ونفعها، وسمي عرضاً؛ لأنَّه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر، أي: تريدون بأسركم عرض الدنيا، وهو المال الذي تأخذونه من الأسرىٰ فداءً لهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ﴾ ويرضى لكم ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾؛ أي: ثواب الآخرة الباقي بما يشرِّعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما دمتم تعملون بها، التي منها الإثخان بالقتل، ويدخل في ذلك: الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة على إرادة الإثخان في الأرض والسيادة فيها؛ لإعلاء كلمة الحق، وإقامة العدل.

وفي ذلك إنكارٌ لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التي تقتضيها الحكمة والرحمة، وما كان للنبي ﷺ إقرار مثل هذا العمل، ومن ثم عاتبهم الله سبحانه وتعالى بما فعلوا بعد بيان سنة النبيين، كما عاتب رسوله أيضاً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يغالب، يغلب أولياءه على أعدائه، وينصرهم عليهم، ويجعل الغلبة لهم، ويمكنهم من أعدائهم قتلاً وأسراً ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبَّره لخلقه، يعلم ما يليق بكل حال، كما أمر بالإثخان، ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخير بين أخذ الفداء وبين المنِّ لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين، ولا تتم لهم العزة.. إلا بتقديم الإثخان في الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية، بمثل فداء الأسرى من المشركين، وهم في عنفوان قوتهم وشوكتهم وكثرتهم.

وعلى هذه القاعدة[1]: جرت الدول العسكرية في العصر الحديث، فإذا رأت من البلاد التي تحتها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة.. نكلت بأهلها أشد التنكيل، فتخرِّب البلاد وتقتل الأبرياء مع المشاغبين، بل لا تتعفف عن قتل النساء والأطفال بنيران المدافع وقذائف الطائرات والدبابات، ولكنَّ الإسلام -

---

(١) المراغي.

وهو دين الرحمة والعدل ـ لا يبيح شيئاً من ذلك.

وقرأ أبو الدرداء وأبو حيوة[1]: ﴿ما كان للنَّبي﴾ معرفاً، والمراد به في التعريف والتنكير: الرسول محمدٌ ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً، وهو هنا على حذف مضاف؛ أي: ما كان لأصحاب نبيٍّ، أو لأتباع نبي، فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع بعده في قوله: تريدون عرض الدنيا، ولم يجيء التركيب: تريد أو يريد عرض الدنيا؛ لأنَّه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنَّما فعله جمهور مباشري الحرب. وقرأ أبو عمرو: ﴿أن تكون﴾ على تأنيث لفظ الجمع، وباقي السبعة والجمهور على التذكير على المعنى، لكن في قراءة[2] التاء الفوقية. تتعين الإمالة في ﴿أسرى﴾، وعلى قراءة الياء التحتية تجوز الإمالة وتركها. اهـ.

وقرأ الجمهور والسبعة. ﴿أَسْرَىٰ﴾ على وزن فعلىٰ، وهو قياس فعيل بمعنى مفعول إذا كان آفةً، كجريح وجرحى. وقرأ يزيد بن القعقاع والمفضل عن عاصم: ﴿أسارى﴾ وشبِّه فعيلٌ بفعلان، نحو كسلان وكسالى، كما شبهوا كسلان بأسير فقالوا فيه جمعاً: كسلى، قاله سيبويه، وهما شاذَّان، وزعم الزجاج أنَّ أسارىٰ جمع أسرىٰ، فهو جمع جمع.

وقرأ أبو جعفر ويحيىٰ بن يعمر ويحيىٰ بن وثَّاب: ﴿حتى يثخِّن﴾ مشدَّداً، ﴿عدوه﴾ بالتضعيف، والجمهور بالتخفيف، وعدوه بالهمزة؛ إذ كان قبل التعدية ثخن. وقرىء: ﴿يريدون﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿الآخرة﴾ بالنصب، وقرأ سليمان بن جمَّاز المدني بالجر، واختلفوا في تقدير المضاف المحذوف، فمنهم من قدره: عرض الآخرة، قال: وحذف لدلالة عرض الدنيا عليه، قال بعضهم: وقد حذف العرض في قراءة الجمهور، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، فنصب. وممن قدره عرض الآخرة: الزمخشريُّ قال: على التقابل، يعني: ثوابها. انتهىٰ.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

فصل فيما يتعلق بعصمة الأنبياء

قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الأنبياء، وبيانه من وجوه:

الأول: أنَّ قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ صريح في النهي عن أخذ الأسارى، وقد وجد ذلك يوم بدر.

الوجه الثاني: أنَّ الله سبحانه وتعالى أمر النبيَّ ﷺ وقومه بقتل المشركين يوم بدر، فلمَّا لم يقتلوهم، بل أسروهم.. دلَّ ذلك على صدور الذنب منهم.

الوجه الثالث: أنَّ النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء، وهو محرمٌ، وذلك ذنب.

الوجه الرابع: أنَّ النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء، وخوف العذاب، وقرب نزوله.

والجواب عن الوجه الأول: أنَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.. يدل على أنَّه كان الأسر مشروعاً، ولكن بشرط الإثخان في الأرض، وقد حصل؛ لأنَّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلاً من عظماء المشركين وصناديدهم، وأسروا سبعين، وليس من الإثخان في الأرض قتل جميع الناس، فدلَّت الآية على جواز الأسر بعد الإثخان، وقد حصل.

والجواب عن الوجه الثاني: أنَّ الأمر بالقتل إنما كان مختصاً بالصحابة، لإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه، وإذا ثبت أنَّ الأمر بالقتل كان مختصاً بالصحابة.. كان الذنب صادراً منهم، لا من النبي ﷺ.

والجواب عن الوجه الثالث: ـ وهو أنَّ النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرَّم ـ فنقول: لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرَّماً، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.. فهو عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه، ولا يدل على تحريم الفداء؛ إذ لو كان حراماً في علم الله تعالى.. لمنعهم من أخذه مطلقاً.

والجواب عن الوجه الرابع: ـ وهو أنَّ النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان ـ: يحتمل أن يكون لأجل أنَّ بعض الصحابة لمَّا خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر. . استوجب بذلك الفعل العذاب، فبكى النبي ﷺ؛ خوفاً وإشفاقاً من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل، وهو الأسر، وأخذ الفداء، والله أعلم.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ﴾: أي: لولا حكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَبَقَ﴾ إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده؛ لأنَّ هذا كان اجتهاداً منهم؛ لأنهم نظروا في أنَّ استبقاءهم ربَّما كان سبباً في إسلامهم، وأنَّ فداءهم يتقوى به على الجهاد، وخفي عليهم أنَّ قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم، أو ما كتب في اللوح من أنه لا يعذب أهل بدر، أو أنَّه لا يعذب قوماً لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم، و[1] فيما ذكر من الاستشارة دلالةٌ على جواز الاجتهاد، فيكون حجةً على منكري القياس.

وخبر المبتدأ بعد لولا محذوف وجوباً، تقديره: لولا كتاب من الله سبق موجودٌ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب شديد، ولكنَّه لم يمسكم؛ لسبق الكتاب بما ذكر آنفاً.

وقيل المعنى[2]: ولولا كتاب من الله تعالى سبق في علمه الأزلي أن لا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تسغفرونه من ذنوبكم. . لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم. وأخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال: اختلف الناس في أسارى بدر، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: فادهم، وقال عمر: اقتلهم، فقال قائل: أرادوا قتل رسول الله ﷺ وهدم الإسلام، ويأمره أبو بكر بالفداء! وقال قائل: لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه. . ما أمر بقتلهم.

فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر، ففاداهم، فنزل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن كاد ليمسنا في

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب.. ما أفلت إلا عمر».

وبعد أن عاتبهم الله سبحانه وتعالى على أخذ الفداء.. أباح لهم أكل ما أخذوه، وعدَّه من جملة الغنائم التي أباحها لهم في أول السورة، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ والفاء فيه عاطفة على محذوف، تقديره: قد أبيحت لكم الغنائم، فكلوا من كل ما غنتم وأخذتم من الكفار قهراً، سواء كان من الفدية المذكورة أو غيرها حالة كونه ﴿حَلَٰلًا﴾ لكم بإحلاله سبحانه لكم، وحالة كونه ﴿طَيِّبًاۚ﴾؛ أي: مستلذاً في نفسه، لا خبث فيه، مما حرم لذاته، كالدم، ولحم الخنزير. روي أنهم أمسكوا عن الغنائم في بدر، ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت هذه الآية.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في مخالفة أمر ونهيه في المستقبل؛ أي: خافوا عقاب الله في أن تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس، كفاراً كانوا أو مسلمين قبل أن يحله لكم ربكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لذنبكم، بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أوَّلاً، لإعزاز الحق وأهله وإذلال الشرك وكبت حزبه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم؛ إذ أباح لكم ما أخذتم وأباح لكم الانتفاع به.

وخلاصة ما تقدم من الآيات: أنه ليس من سنة الأنبياء ولا مما ينبغي لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين؛ لئلا يفضي أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم، ومافعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال.. كان ذنباً سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذي تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى وجعل كلمة الذين كفروا السفلىٰ، ولولا كتابٌ من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى، وعلى خلاف سننه.. لمسَّهم عذاب عظيم في أخذهم ذلك، وأنَّه أحلَّ لهم ما أخذوا، وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله تعالى لهم، والله غفور رحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم والرسول الرحيم ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ وسلطتكم وقهركم ﴿مِّنَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الذين أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم

الفداء: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: إيماناً وعزماً على طاعة الله ورسوله في جميع التكاليف، وتوبةً من الكفر وجميع المعاصي.. ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ويعوضكم في هذه الدنيا رزقاً ﴿خَيْرًا﴾ وأنفع لكم ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف منكم قبل الإيمان من كفركم وقتالكم لرسول الله ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن آمن وتاب من كفره وآثامه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين من أهل طاعته، فيشملهم بعنايته وتوفيقه، ويعدهم للسعادة في الدنيا والآخرة، وفي ذلك من الحض على الإسلام والدعوة إليه ما لا يخفىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ معرفاً وابن محيصن: ﴿من أسرى﴾ منكراً، وقتادة وأبو جعفر وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم وأبو عمرو من السبعة: ﴿من الأُسَارى﴾ ـ بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف ـ وبالإمالة. واختلف عن الحسن وعن الجحدري. وقرأ الأعمش: ﴿يثبكم خيراً﴾ من الثواب، وقرأ الحسن وأبو حيوة وشيبة وحميد: ﴿مما أخذ﴾ مبنياً للفاعل.

ولمَّا ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً.. ذكر من هو على ضد ذلك منهم، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾؛ أي: وإن يرد ـ يا محمد ـ هؤلاء الأسرى ـ الذين أسرتموهم في بدر وفاديتموهم بالمال ـ بما قالوا لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ﴿خِيَانَتَكَ﴾؛ أي: مخادعتك ومماكرتك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة.. فاعلم أنَّه ليس ذلك بمستبعد منهم؛ ﴿فـ﴾ إنَّهم ﴿قد﴾ فعلوا ما هو أعظم من ذلك، وهو أنَّهم ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الأسر والظفر بهم بما أقدموا عليه من كفرهم بالله ومحاربتهم رسوله ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: مكَّنك منهم بأن نصرك عليهم في يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت، وأسرت من أسرت ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم ونياتهم من الخيانة وضدِّها ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما

---

(١) البحر المحيط.

فعله بهم.

وحاصل معنى الآية: أي وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين.. فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال؛ فإنَّهم قد خانوا الله من قبل، فنقضوا الميثاق الذي أخذه الله على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية، وبما آتاهم من العقل الذي يتدبرون به سنن الله في خلقه، فيمكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم وعددك وعددهم، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد، والله تعالى عليم يعلم ما يضمرونه وما يستحقونه من عقاب، حكيم، يفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين، وفي الآية من العبر:

١ ـ أنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغي والعدوان.

٢ ـ أن فيها بشارةً للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التي علمت مما تقدم.

وبعد ما ذكر الله سبحانه وتعالى تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم، وما يجب أن يعمل مع الأسرى.. ختم السورة بذكر ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضىٰ الإيمان والهجرة، وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضهم لبعض؛ ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به.

وقسم المؤمنين أربعة أقسام، وبين حكم كل من تلك الأقسام ومنزلته من بينها:

١ ـ المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولىٰ قبل غزوة بدر إلىٰ صلح الحديبية.

٢ ـ الأنصار الذين كانوا بالمدينة، وآووا النبيَّ ﷺ والمهاجرين عند

هجرتهم إليهم.

٣ ـ المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤ ـ المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية.

وسمى الله سبحانه وتعالى المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم؛ لأنهم هجروا وتركوا أوطانهم وفارقوها؛ طلباً لما عند الله تعالى، وإجابةً لداعيه، وسمى الأنصار أنصاراً؛ لأنهم نصروا دين الله ورسوله ﷺ، فقال:

أولاً ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة، وفارقوا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله ﷺ وسبقوا إلى الهجرة، بأن هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾؛ أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في الجهاد ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ؛ أي في طاعته؛ إعلاءً لكلمة الله التي هي الكلمة العليا كلمة الإسلام؛ أي: صرفوا أموالهم إلى السلاح وأنفقوها على المحتاجين وبذلوا أنفسهم بمباشرة القتال، وبالخوض في المهالك.

أمَّا ما كان من بذل الأموال.. فهو قسمان:

١ ـ ما ينفق في التعاون والهجرة، والدفاع عن دين الله ونصر دينه، وحماية رسول الله ﷺ.

٢ ـ ما يكون بسخاء النفس، بترك ما تركوه في أوطانهم عند خروجهم منها.

وما كان من بذل الأنفس.. فهو ضربان أيضاً:

١ ـ قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عددهم وعددهم.

٢ ـ ما يكون قبل القتال من احتمال المشاقّ، ومغالبة الشدائد، والصبر على الاضطهاد، والهجرة من البلاد، وما يصحب ذلك من سغب وتعب، ونحو ذلك.

ثانياً - ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا﴾ الرسول محمداً ﷺ والمهاجرين؛ أي: أسكنوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة ﴿وَنَصَرُوا﴾ هم وأمنوهم من المخاوف، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين، شاركهم أهلها في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وقاتلوا من قاتلهم، وعادوا من عاداهم، ومن جراء هذا.. جعل الله حكمهم حكم المهاجرين في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة - والإشارة إلى كل من الموصولين - ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي: يكونون يداً واحدةً على الأعداء، ويكون حب كلٍ واحد للآخر جارياً مجرى حبه لنفسه؛ أي: يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولَّونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال وما يتعلق به من الغنائم؛ لأنَّ حقوقهم ومرافقهم مشتركةٌ، ويجب عليهم كفاية المحتاج وإغاثة المضطر منهم، وقيل: بعضهم أولياء بعض في الميراث والنصرة، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

ثالثاً - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله، وبالقرآن ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿مَا لَكُم﴾ أيها المهاجرون والأنصار ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾؛ أي: من ولاية الذين لم يهاجروا ونصرتهم وتعظيمهم، أو من ميراثهم بأن كان بينكم وبينهم قرابة وعصوبة ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة، وما من ميراثكم لهم من شيء حتى يهاجروا، فإن هاجروا.. فلهم مثل مالكم من المناصرة أو الموارثة.

والمعنى: أنَّ المؤمنين المقيمين في أرض المشركين، وتحت سلطانهم وحكمهم ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم، أما من أسره الكفار من دار الإسلام.. فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السعي في فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضاً.

وقرأ الأعمش وابن وثَّاب وحمزة: ﴿ولايتهم﴾ بالكسر، وباقي السبعة والجمهور بالفتح، وهما لغتان، قاله الأخفش. وقيل: هي بفتح الواو، خاصَّة

بالنصرة والمعونة والنسب والدين، وبكسرها في الإمارة وتولي الأمور العامة؛ لأنَّها من قبيل الصناعات والحرف.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: وإن طلب منكم أيها المهاجرون والأنصار هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا النصرة لهم على المشركين ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لهم؛ أي: فواجب عليكم النصر لهم ﴿إِلَّا﴾ إن استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من المشركين ﴿بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُم﴾؛ أي: وبين أولئك القوم ﴿مِّيثَٰقٌ﴾ وعهد على ترك القتال، كأهل مكة الذين بينكم وبينهم صلح الحديبية الذي عقدتموه لهم على ترك القتال عشر سنين فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته؛ إذ الميثاق مانع من ذلك.

والمعنى: أنّه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار، أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وطلبوا نصركم عليهم.. فعليكم أن تساعدوهم بشرط: أن يكون الكفار حَرْبيين، لا عهد بينكم وبينهم، أما إن كانوا معاهدين.. فيجب الوفاء بعهدهم، ولا تباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بما تعلمون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره؛ كي لا يحل بكم عقابه، فعليكم أن تقفوا عند حدوده، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم، وتتوخوا فيها الحق والعدل، وتتقوا الهوى الذي يصد عن ذلك.

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرًّا وجهراً.. امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية، فشعار أهلها: الوفاء بالعهود، والبعد عن الخيانة والغدر. وقرأ السلمي والأعرج ﴿بما يعملون﴾ بالياء على الغيبة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريقٌ واحدٌ تجاه المسلمين، وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، فإن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود، فلمَّا ظهرت دعوة محمد ﷺ.. تعاونوا على إيذائه ومحاربته، والمشركون واليهود والنصارى لمَّا

اشتركوا في عداوة محمدٍ ﷺ.. صارت هذه الجهة سبباً لانضمام بعضهم إلى بعض، وقرب بعضهم من بعض، وتلك العداوة لمحض الحسد، لا لأجل الدين؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان في غاية الإنكار لدين صاحبه.

ولم يكن في الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يتولَّون المشركين وينصرونهم على النبي ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم، فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر، وفي هذا تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾؛ أي: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل بين المسلمين، ومن قطع المحبة بينهم وبين الكفار.. ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾؛ أي: تحصل فتنة ﴿فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ومفسدة عظيمة، فإنَّ المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم.. ربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار، وإنَّ المسلمين لو كانوا متفرقين.. لم يظهر منهم جمع عظيم، فيصير ذلك سبباً لجراءة الكفار عليهم، وقال ابن عطية: والفتنة: المحنة بالحرب وما أنجز معها من الغارات والجلاء والأسر، والفساد الكبير: ظهور الشرك. وقال[1] البغوي: الفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام اهـ. وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي: ﴿كثير﴾ ـ بالثاء المثلثة ـ وروي أنَّ الرسول ﷺ قرأ: ﴿وفسادٌ عريض﴾ وقال الزمخشري: أي: إنْ لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولِّي بعضهم بعضاً حتى في التوراث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرباتهم كلا قرابة.. تحصل فتنة في الأرض، ومفسدة عظيمة؛ لأنَّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدةً على الشرك.. كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً اهـ.

والخلاصة[2]: إنْ لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن الوفاء بالعهود ـ والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم وينبذوه على سواءٍ. . يقع من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم، بتخاذلكم الذي يفضي إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم، واضطهادكم في دينكم بصدكم عنه، كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة.

ثم فضل الله سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار على غيرهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وَجَٰهَدُوا﴾؛ أي: قاتلوا الكفار ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله تعالىٰ، لإعلاء كلمته. لم يقل هنا بأموالهم وأنفسهم؛ اكتفاءً بما سبق ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا﴾؛ أي: وطّنوا محمداً ﷺ وأصحابه بالمدينة ﴿وَنَصَرُوا﴾ محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم بدر ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً يقيناً؛ أي: هم المؤمنون حقَّ الإيمان وأكمله، دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تامة من ربهم، كاملة ساترة لجميع ما فرط منهم من السيئات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: ثواب جسيم وجزاء حسن في الآخرة؛ لأنهم قد تركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال، وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية، وعملوا ما يقرِّبهم من ربهم في دار النعيم.

فإنْ قلت[1]: ما معنى هذا التكرار؟

قلتُ: ليس فيه تكرار؛ لأنَّه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى حكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، ثم ذكر في هذه الآية ما منَّ به عليهم من المغفرة والرزق الكريم، وقيل: إنَّ إعادة الشيء مرةً بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به، فلما ذكرهم أولاً، ثم أعاد ذكرهم ثانياً. . دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلوِّ درجاتهم، وهذا هو الشرف العظيم.

---

(١) الخازن.

ثم أخبر سبحانه بأنَّ من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار.. فهو من جملتهم؛ أي: من جملة المهاجرين الأولين والأنصار في استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان، والمغفرة والرزق الكريم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنْ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد الهجرة الأولىٰ، وقبل فتح مكة؛ لأنَّ الهجرة انقطعت بفتح مكة؛ لأنَّها صارت دار إسلام بعد الفتح ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة بعد المهاجرين الأولين، بأن هاجروا بعد صلح الحديبية في السنة السادسة، وقبل الفتح، والسابقون: هم الذين هاجروا قبلها ﴿وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في بعض مغازيكم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: من جملتكم أيها المهاجرون الأولون والأنصار في المناصرة والموالاة، يعني[1] أنهم منكم، وأنتم منهم، فلهم مالكم، لكن فيه دلالةٌ على أنَّ مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة؛ لأنَّ الله سبحانه ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين، وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أنَّ المهاجرين الأولين أفضل وأشرف.. لما صحَّ هذا الإلحاق.

ثم بيَّن سبحانه بأنَّ أولي الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم وقرابة في التوارث والتناصر والموالاة، فقال: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ﴾؛ أي: أصحاب القرابات والأرحام، جمع رحم - بزنة قفل وكتف - وأصله: رحم المرأة، وهو موضع تكوين الولد، سمي به الأقارب لأنهم من رحم واحد؛ أي: وأولوا الأرحام، وأصحاب القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق ﴿بِبَعْضٍ﴾ من المهاجرين والأنصار الأجانب في التناصر والتعاون والتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كلِّ عهد ﴿فِي كِتَٰبِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه الذي كتبه، وأوجبه على عباده المؤمنين، من صلة الأرحام، والوصية للوالدين وذي القربىٰ، وفي حكمه الذي بينه في كتابه بالسهام المذكورة في سورة النساء، أي: بعضهم أولىٰ بعض في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة المذكورة في الآية السابقة.

---

(١) الخازن.

والخلاصة[1]: أن القريب ذا الرحم أولىٰ من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره، ومقدم عليه في جميع الولايات المتعلقة به، كولاية النكاح، وصلاة الجنازة وغيرها، وإذا وجد قريبٌ وبعيد يستحقان البر والصلة.. فالقريب أولىٰ، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ابدأ بنفسك، فتصدق عليها؛ فإن فضل شيء.. فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك.. فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء.. فهكذا وهكذا»، أي: فللمستحق من الأجانب.

وأخرج[2] أبو داود الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخىٰ النبي ﷺ بين أصحابه، وورَّث بعضهم من بعض - بالهجرة والإخاء - حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب.

وتمسَّك أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام، وأجاب عنه الشافعي بأنه: لمَّا قال ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.. كان معناه في حكم الله الذي بيَّنه في سورة النساء، فصارت هذه الآية مقيَّدةً بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم، وما بقي فللعصبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾؛ أي: عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه، فهو سبحانه إنَّما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة، والعهود والمواثيق، وصلة الأرحام، وأحكام القتال والغنائم، وسنن التشريع والأحكام عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

زادنا الله تعالى علماً بفقه كتابه، ووفَّقنا للعمل بأحكامه وآدابه، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه هو السميع القريب المجيب.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

أهم ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الأحكام

وجملة ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الموضوعات سبعة عشر:

١ ـ تعليل أفعاله وأحكامه بمصالح الخلق، كقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾.

٢ ـ كفاية الله تعالى رسوله مكر مشركي قريش من مكة حين ائتمارهم على حبسه طيلة حياته أو نفيه في بلده، أو قتله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٣ ـ امتناع تعذيب المشركين ما دام الرسول فيهم، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾.

٤ ـ استغاثة الرسول ربَّه، وإمداده بالملائكة، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

٥ ـ كراهة مجادلة الرسول فيما يأمر به، ويرغب فيه من أمور الدين ومصالح المسلمين بعد أن تبين لهم أنه الحق، كما قال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

أمَّا المجادلة والمراجعة في المصالح الحربية والسياسية قبل أن يتبين الحقُّ فيها.. فمحمودةٌ؛ إذ بها تتم المشاورة التي عمل بها النبي ﷺ في مواطن كثيرة.

٦ ـ أنَّ من شأن صادق الإيمان أن يتوكل على الله تعالى؛ أي: يكل إليه أموره وحده، فلا يتكل على مخلوق مربوب الخالق مثله، فكلُّ المخلوقات سواءٌ في الخضوع لسننه، ومن شأن المؤمن المتوكل أن يطلب كل شيء من سببه خضوعاً لسننه في نظام خلقه، فإذا جهل الأسباب أو عجز عنها.. وكل أمره فيها إلى ربه داعياً أن يعلمه ما جهل منها، وأن يسخِّر له ما عجز عنه من جمادٍ، أو حيوان، أو إنسان، كما قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وبيَّن فائدة ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٧ ـ أنَّ الظلم في الأمم يقتضي عقابها في الدنيا بالضعف والانحلال الذي قد يفضي إلى الزوال أو فقد الاستقلال، وإنَّ هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها، لا على مقترفي الظلم وحدهم، كما قال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

٨ ـ أنَّ الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد، فإنَّ حب المال والولد من الغرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف إذا لم تهذب بهدي الدين وحسن التربية والتعليم، كما قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٩ ـ أن تقوى الله في الأعمال العامة والخاصة تكسب صاحبها ملكة يفرق بها بين الحق والباطل، والخير والشر، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

١٠ ـ أن تغير أحوال الأمم وتنقلها في الأطوار من نعم إلى نقم، أو بالعكس أثرٌ طبيعي لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والآداب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١١ ـ وجوب إعداد الأمة بكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها، وذلك يشمل السلاح، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد كثرت أنواعه من بريٍّ وبحريٍّ وهوائيٍّ، ومرابطة الفرسان في ثغور البلاد؛ لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على الأمة ومصالحها، أو على أفرادها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٢ ـ تفضيل السلم على الحرب إذا جنح لها العدو؛ لأنَّ الحرب ضرورةٌ من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٣ ـ المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق في الحرب والسلم، وتحريم الخيانة سراً وجهراً ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

١٤ ـ وجوب معاملة ناقض العهد بالشدة التي يكونون بها عبرةً ونكالاً لغيرهم تمنعهم من الجرأة والإقدام على العودة لمثل ذلك ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

١٥ ـ جعل الغاية من القتال الديني حرية الدين ومنع الفتنة فيه، حتى لا يرجع المشركون أحداً عن دينه ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

١٦ ـ إتقاء التنازع والتفرق حال القتال؛ لأنَّه سبب الفشل وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقد جرت على ذلك الدول في العصر الحديث، فإنها تبطل تنازع الأحزاب زمن الحرب، وتكتفي بالشورى العسكرية التي شرعها الإسلام، وعمل بها النبي ﷺ في غزوة بدر، وفرضت عليه في غزوة أحد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

١٧ ـ منع اتخاذ الأسرى ومفاداتهم بالمال في حال الضعف، وجواز ذلك حين الإثخان في الأرض بالقوة والعزة والسيادة، مع ترغيب الأسرى في الإيمان وإنذارهم أن يخونوا المسلمين بعد إطلاقهم بمنٍّ أو فداءٍ.

موضوعات السور المكية والمدنية

واعلم: أن أمهات المسائل التي ذكرت في السور المكية: هي أصول الإيمان من الاعتقاد بوحدانية الله، والتصديق بالوحي والرسالة والبعث والجزاء وقصص الرسل مع أقوامهم، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة، وجاء في أثناء محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول، ودحض شبهاتهم، وإبطال ضلالاتهم، والنعي على خرافاتهم.

وأمهات ما جاء في السور المدنية: قواعد التشريع التفصيلية ومحاجة أهل الكتاب، ببيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسلهم، فكثر في سورة البقرة محاجة اليهود، وكثر في سورة آل عمران محاجة النصارىٰ، وكثر في سورة المائدة محاجة الفريقين، وكثر في سورة النساء الأحكام المتعلقة بالمنافقين، وكثر

في سورة التوبة فضائح المنافقين، والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه ومعاني كلامه.

الإعراب

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَبِيٍّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لكان على اسمها ﴿أَن يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن المصدرية ﴿لَهُۥٓ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ليكون على اسمها ﴿أَسْرَىٰ﴾: اسم يكون مؤخر، والتقدير: ما كان لنبي أن يكون أسرى كائناً له، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً عن خبرها، تقديره: ما كان كون أسرى لنبي كائناً له؛ أي: لائقاً به، وجملة كان مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿يُثْخِنَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى إلىٰ، وفاعله ضمير يعود على نبي ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتىٰ بمعنىٰ إلى تقديره: إلى إثخانه في الأرض، الجار والمجرور متعلق بكان. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿لَّوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة أولىٰ لكتاب. ﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كتاب، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لكتاب، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً: لقيام جواب لولا مقامه، تقديره: لولا كتابٌ من

الله سبق موجود ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، على حدِّ قول ابن مالك:

وَبَعْدَ لَوْلاَ غَالِبَاً حَذْفُ ٱلْخَبَرْ

﴿اللام﴾ رابطة لجواب لولا، ﴿مسَّكم﴾ فعل ومفعول. ﴿فِيمَآ﴾ ﴿في﴾ حرف جر وسبب ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بفي. ﴿أَخَذْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ، تقديره: فيما أخذتموه. الجار والمجرور متعلق بمسَّ. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل مسَّ. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لعذاب، وجملة ﴿مسَّ﴾ جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة لولا مستأنفة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾.

﴿فَكُلُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ﴿كلوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كُلُوا﴾ ﴿غَنِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، والعائد محذوف، تقديره: مما غنمتموه. ﴿حَلَـٰلًا﴾: حال من ما الموصولة، أو من عائدها المحذوف، أو نعت لمصدر محذوف، تقديره: أكلاً حلالاً. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة حلالاً، أو حال ثانية. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معترضة؛ لاعتراضها بين العلة ومعلولها. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة إنَّ مستأنفة معلِّلة لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادىٰ نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لأيُّ، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قُل﴾. ﴿فِىٓ أَيْدِيكُم﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿من﴾ الموصولة ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ حال مِنْ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من الضمير المستكن في الظرف قبله.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إن﴾ حرف شرط ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَعْلَمِ﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به؛ لأنَّ علم هنا بمعنى عرف ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾: فعل ومفعولان، مجزوم بإنْ، على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، وجملة إنْ الشرطية في محل النصب مقول قل ﴿مِّمَّآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾. ﴿أُخِذَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ما ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أُخِذَ﴾ وجملة ﴿أُخِذَ﴾ صلة لما، أو صفة لها. ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ على كونه جواباً لإن الشرطية، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ ﴿غَفُورٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، مجزوم على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب وجوباً؛ لاقترانه بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم على كونه جواباً لها. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة. ﴿فَأَمْكَنَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أمكن﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعوله محذوف، تقديره: فأمكنك ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة

الموصول. ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾: معطوفان على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ أيضاً. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على الموصول الأول. ﴿ءَاوَواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾: معطوف على ﴿ءَاوَواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدل من ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل بعض من كل ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر: في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾: معطوف عليه ﴿مَا﴾: نافية ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾: جار ومجرور، حال ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قُدِّمت عليها ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿شَيْءٍ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والتقدير: ما شيء كائن لكم حال كونه كائناً من ولايتهم، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره: جملة كبرى في ضمنها جملة صغرىٰ مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنىٰ إلىٰ. ﴿يُهَاجِرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتىٰ بمعنىٰ إلىٰ، تقديره: إلى مهاجرتهم، والجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلَّق به الخبر.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ متعلق به ﴿فَعَلَيْكُمُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب، ﴿عليكم﴾ خبر مقدم ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بإن على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بالنصر ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿وَبَيْنَهُم﴾ معطوف عليه ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾: والعرض: ما يعرض ولا يدوم، سمي به حطام الدنيا؛ لأنَّه حدث قليل اللبث.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: اختلف[1] المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق، ما هو؟ على أقوال:

الأول: ما سبق في علم الله من أنَّه لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرَّمة على سائر الأمم.

والثاني: أنَّه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخَّر، كما في الحديث الصحيح: «إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، قد غفرت لكم».

القول الثالث: هو أنَّه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

القول الرابع: أنَّه لا يعذِّب أحداً بذنب فعله جاهلاً؛ لكونه ذنباً.

القول الخامس: أنَّه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

القول السادس: أنَّه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك، وذهب ابن جرير الطبري إلى أنَّ هذه المعاني كلَّها داخلة تحت اللفظ، وأنَّه يعمها.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾، أي: لأصابكم ولحلَّ بكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾؛ أي: بسبب ما أخذتم من الفداء، أو لأجل ما أخذتم. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: حسن إيمان، وصلاح نيةٍ وخلوص طوية ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم في الدنيا، أو ثواباً في الآخرة.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾؛ أي: مخادعتك، والخيانة: مصدر خان يخون، وأصل يائه الواو، فقلبت ياءً؛ لانكسار ما قبلها، ووقوع الألف بعدها.

---

(١) الشوكاني.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا﴾ أصله: أأووا ـ بهمزتين ـ أولاهما: همزة أفعل الرباعي، وثانيتهما: فاء الكلمة؛ لأنَّ ثلاثيه أوى بهمزة واحدة، يقال: أوى البيت، أو إلى البيت يأوي أوياً وإواءً نزل فيه، وآواه البيت يؤويه إيواءً: أنزله فيه.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: يقرأ بكسر الواو وفتحها، قيل[1]: هما لغتان، وقيل: المكسور مصدرٌ؛ تشبيهاً بالعمل والصناعة، كالكتابة والإمارة اهـ. «بيضاوي». يعني: إنَّ فعالة ـ بالكسر في المصدر ـ إنما يكون في الصناعات، وما يزول كالكتابة والإمارة والزراعة والحراثة والخياطة والولاية.. ليست من هذا القبيل إلا على التشبيه اهـ. زكريا، والمفتوح: معناه الموالاة في الدين، وهي النصرة اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حَتَّى يُثْخِنَ﴾؛ لأنَّ الثخانة حقيقة في الغلظة والصلابة، فاستعمل هنا في لازمه الذي هو القوة.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ شبه منافع الدنيا ولذاتها بالعرض الذي هو من صفات الأجرام وأحوالها، بجامع عدم الثبات والدوام في كلٍّ، فاستعار لها لفظ عرض على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿الدُّنْيَا﴾ ولفظ ﴿الْآخِرَةَ﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿خِيَانَتَكَ﴾ و﴿خَانُوا﴾ في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا﴾.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: الجناس المماثل في: ﴿هاجروا﴾ ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾، والمغاير في قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التوبة

سورة التوبة[1] مدنيةٌ بإجماع المفسرين، قال ابن الجوزي: سوى آيتين في آخرها ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، فإنَّهما نزلتا بمكة، وهي مئة وتسع وعشرون آية، وقيل: مئة وثلاثون آية، وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمةً، وعشرة آلافٍ وأربع مئة وثمان وثمانون حرفاً.

التسمية: ولهذه السورة أسماء عشرة[2]:

منها: سورة التوبة؛ لأنَّ فيها التوبة على المؤمنين.

ومنها: سورة براءة؛ لأنَّ فيها ذكر براءة الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ من المشركين، وهذان الاسمان مشهوران.

ومنها: المقشقشة، قاله ابن عمر؛ لأنَّها تقشقش من النفاق؛ أي تبرىء منه.

ومنها: المبعثرة؛ لأنَّها تبعثر عن أخبار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها.

ومنها: الفاضحة، قاله ابن عباس؛ لأنَّها فضحت المنافقين.

ومنها: سورة العذاب، قاله حذيفة.

ومنها: المخزية؛ لأنَّ فيها خزي المنافقين.

ومنها: المدمدمة؛ لأنَّ فيها هلاك المنافقين.

ومنها: المشردة؛ لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم.

ومنها: المثيرة؛ لأنَّها أثارت مخازي المنافقين، وكشفت عن أحوالهم،

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

وهتكت أستارهم.

وعن سعيد بن جبير قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تقول: ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: بل سورة النضير. أخرجاه في «الصحيحين».

فصلٌ في بيان سبب ترك كتابة البسملة في أول هذه السورة

وقد اختلف العلماء في سقوط البسملة من أولها على أقوال[1]:

عن المبرد وغيره أنَّه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهدٌ فأرادوا نقضه.. كتبوا إليهم كتاباً، ولم يكتبوا فيه بسملةً، فلمَّا نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين.. بعث بها النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب، فقرأها عليهم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت عليَّ بن أبي طالب: لِمَ لا تكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾؟ قال: لأنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ ووضعتموها في السبع الطِّوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء.. دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر

---

(١) الشوكاني والخازن.

القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنَّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ ووضعتها في السبع الطوال.

وأخرج أبو الشيخ عن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة، أسورتان أم سورة؟ قال: سورتان.

وقال محمد بن الحنفية[1]، قلت لأبي - يعني عليَّ بن أبي طالب -: لِمَ لَمْ تكتبوا في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾؟ قال: يا بنيَّ إنَّ براءة نزلت بالسيف، وإن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمانٌ.

وسئل سفيان بن عيينة عن هذا، فقال: لأنَّ للتسمية رجَّةً، والرجة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين. وسئل أبي بن كعب عن هذا، فقال: إنَّها نزلت في آخر القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمر في كل سورة بكتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾، ولم يأمر في براءة بذلك، فضمت إلى الأنفال؛ لشبهها بها.

وقيل: إن الصحابة اختلفوا في سورة الأنفال وسورة براءة، هل هما سورة واحدةٌ أم سورتان؟ فقال بعضهم: سورة واحدة؛ لأنَّهما نزلتا في القتال، ومجموعهما معاً مئتان وخمس آيات، فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال. وقال بعضهم: هما سورتان. فلمَّا حصل هذا الاختلاف بين الصحابة.. تركوا بينهما فرجةً؛ تنبيهاً على قول من يقول إنهما سورتان، ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾؛ تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة، وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك، وهي آخر غزواته ﷺ، وقد كان الاستعداد لها وقت القيظ - أي: شدة الحر - زمن العسرة، وفي أثنائها ظهر من علامات نفاق المؤمنين ما كان خفيًّا. قيل: وأولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة، فأرسل النبيُّ ﷺ عليًّا ليقرأها على المشركين في الموسم.

---

(١) الخازن.

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة. ثم اختلف[1] العلماء في ابتداء هذه السورة بها، فقال ابن حجر من الشافعية: بالحرمة. وقال الرملي: بالكراهة. وفي الأثناء: يكره عند الأول ويجوز عند الثاني، ومذهب مالك كذلك. وقد أشار إلى ذلك صاحب «الشاطبية» بقوله:

وَمَهْمَا تَصِلْهَا أَوْ بَدَأْتَ بَرَاءَةً لِتَنْزِيلِهَا بِالسَّيْفِ لَسْتَ مُبَسْمِلاَ
وَلاَ بُدَّ مِنْهَا فِيْ ٱبتِدَائِكَ سُوْرَةً سِوَاهَا وَفِيْ ٱلأَجْزَاءِ خُيِّرَ مَنْ تَلاَ

ومما ورد في فضلها: ما أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ والبيهقي في «الشعب» عن أبي عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلَّموا سورة براءة، وعلِّموا نسائكم سورة النور.

ومنه ما رُوي: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما نزل عليَّ القرآن إلا آية آيةً، إلا سورة براءة وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإنَّهما نزلتا ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة».

الناسخ والمنسوخ فيها: قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة التوبة مدنية، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، فيها سبع آيات منسوخات:

أولاهنَّ: قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية (١ ـ ٣) التوبة، نسخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (٥) التوبة.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية (٣٤) التوبة، نسخت بالزكاة الواجبة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الآية (٣٩)، نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ (١٢٢).

(١) الصاوي.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية (٤٣)، نسخت بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (٦٢) النور.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية (٨٠)، نسخت بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية (٦) المنافقون.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية (٧). هذه الآية والتي تليها منسوختان بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى
ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ
وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟
سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ
ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ (٨) ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ
ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لما قبلها[١]: أنَّ سورة براءة كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما في أصول الدين وفروعه، وفي التشريع الذي جله في أحكام القتال والاستعداد له وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضي لذلك، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين

---

(١) المراغي.

المؤمنين بعضهم مع بعض، والكافرين بعضهم مع بعض، وأحوال المؤمنين الصادقين، والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضىٰ القلوب، فما بدىء به في الأنفال.. تمم به في براءة، وهاك أمثلةً لذلك:

١ ـ تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب.

٢ ـ ذكر في الأنفال صدَّ المشركين عن المسجد الحرام، وأنَّهم ليسوا بأوليائه، وجاء في براءة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات.

٣ ـ ذكرت العهود في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها.

٤ ـ ذكر في سورة الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة.

٥ ـ جاء في سورة الأنفال ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وفصل ذلك في براءة أتم تفصيل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم وضلالاتهم على الوجه الذي سبق تفصيله.. أردف ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم، والأمان الذي أعطي لهم للضرب في الأرض.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر براءة الله ورسوله من المشركين وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض أحراراً، ثم ذكر

---

(١) المراغي.

دعوتهم إلى التوبة من الشرك وإنذارهم سوء العاقبة، ثم أمر بما يترتب على النبذ ـ وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التي وقتت بها ـ بمناجزة المشركين بكل أنواع القتال المعروفة في ذلك العصر، من قتل وأسر وحصر وقطع طرق الوصول عليهم إلا من يستجير بالرسول يسمع كلام الله، فإنه يجار حتى يسمعه.. أردف ذلك ببيان أنَّ هذا النبذ وما يترتب عليه إنَّما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين، أو دونه.

قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم، حتى مراعاة القرابة والوفاء، ونحوهما مما يمدح عندهم.. أردف ذلك بذكر السبب في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين عداوة المشركين للمؤمنين.. أردف ذلك بما سيكون من أمرهم بعدذلك، وهو لا يعدو أحد أمرين، فصلهما في هاتين الآيتين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه[2] الآيات الآتية التي أُمر عليٌّ بن أبي طالب بالنداء بها يوم النحر ـ وهي أربعون آية تنتهي إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ـ براءة من جهة الله ورسوله، واصلة ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: هذه الآيات دالة على البراءة، أي: على التبري والتباعد من الله ورسوله، أي: على انقطاع الوصلة بينهما وبين المشركين، و﴿من﴾ ابتدائية، وقرىء شاذاً: ﴿من الله﴾ ـ بكسر النون ـ على أصل التقاء الساكنين، ذكره أبو البقاء. أي: تبرّؤ وتباعدٌ مبتدأ من الله ورسوله من عهود المشركين الناقضين للعهد؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أذن في معاهدة المشركين،

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدهم، ثم إن المشركين نقضوا العهد، فأوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما يحذرهم من ذلك، وقيل لهم: اعلموا أنَّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم من المشركين، ونسب[1] البراءة إليهما من قبل أنَّه تشريع جديد شرعه الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ بتنفيذه، ونسب معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين ـ وإن كان الرسول هو الذي عقد العهد ـ؛ لأنه عقده بوصف كونه الإمام والقائد لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه، فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات، وللقادة من أهل الحل والعقد الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه منها ومن أحكام الحرب والصلح. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿براءةً﴾ بالنصب، قال ابن عطية: أي: الزموا، وفيه معنى الإغراء. وقال الزمخشري: اسمعوا براءةً، قال البغوي: لمَّا خرج رسول الله ﷺ[2] إلى تبوك.. كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمره الله بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير[3]: اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، ومن له عهد دون أربعة أشهر فيكمَّل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهدٌ مؤقت.. فأجله إلى مدته مهما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ولما سيأتي في الحديث «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ.. فعهد إلى مدته» وهذا أحسن الأقوال وأقواها، واختاره ابن جرير رحمه الله اهـ.

رُوي[4]: أنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يحجَّ سنة تسع، فقيل له: إن المشركين يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فقال: «لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»، فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، وبعث

---

(1) المراغي.
(2) البغوي.
(3) ابن كثير.
(4) المراح.

معه أربعين آية من صدر براءة، ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليًّا على ناقته العضباء، ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يؤذِّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله ﷺ من كل شرك، ولا يطوف بالبيت عريانٌ، فسار أبو بكر أميراً على الحجاج، وعليٌّ بن أبي طالب يؤذِّن ببراءة، فلمَّا كان قبل يوم التروية بيوم.. قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس، وحدثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحجَّ، والعرب في تلك السنة على معاهداتهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج، حتى إذا كان يوم النحر.. قام عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذَّن في الناس بالذي أمر به، وقرأ عليهم أول سورة براءة، وقال عليٌّ: بعثت بأربع: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد.. فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد.. فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في الحج، فقال المشركون لعليٍّ عند ذلك: أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وإنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف. ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر حجة الوداع، وقال: «إن الزمان قد استدار...» الحديث.

وقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ مقول لقول محذوف، هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين مبين لما يجب عليهم أن يقولوه للمشركين الذين برىء الله ورسوله من عهودهم؛ أي: فقولوا أيها المسلمون للمشركين: سيحوا في الأرض؛ أي: سيروا في نواحي الأرض كيف شئتم، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين، لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتل ولا قتال مدة أربعة أشهر، تبتدىء من عاشر ذي الحجة من سنة تسع للهجرة ـ وهو يوم النحر الذي بلِّغوا فيه هذه الدعوة ـ وتنتهي في عاشر شهر ربيع الآخر من سنة عشر. قال الكلبي: إنّما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك.. فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

والحكمة في تحديد هذه المدة[١]: ليكون لهم فسحة من الوقت للنظر والتفكير في عاقبة أمرهم، والتخير بين الإسلام والاستعداد للقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم، وهذا منتهى ما يكون من السماحة والرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين، حتى لا يقال: إنه أخذهم على غرة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: غير فائتي عذاب الله تعالى، وأن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم، بل للطف بكم؛ ليتوب من تاب منكم؛ أي: اعلموا أني أمهلتكم وأطلقت لكم، فافعلوا كل ما أمكنم فعله من إعداد الآلات وتحصيل الأسباب، فإنكم لا تعجزون الله، بل الله يعجزكم ويأخذكم؛ لأنكم في ملكه ﴿و﴾ اعلموا أيضاً ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب.

والمعنى[٢]: واعلموا أنَّكم لن تعجزوا الله تعالى، ولن تفوتوه فتجدوا مهرباً منه إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله، بل سيسلط عليكم المؤمنين ويؤيِّدهم بنصره الذي وعدهم به، والعاقبة للمتقين، فقد جرت سنة الله بخزي الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة، كما جاء في مشركي مكة ومن نحا نحوَهم: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ خبر لمحذوف، تقديره: أي وهذه الآيات الآتي ذكرها أذان وإعلام صادر من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ واصل ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافة، غير مختص بقوم دون قوم، واقع ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو يوم العيد؛ لأنَّ فيه تمام معظم أفعال الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن[٣] علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر،

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

فقال: «يوم النحر» أخرجه الترمذي، قال: ويروى موقوفاً عليه، وهو أصح. وعن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: «أيُّ يوم هذا؟» فقالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» أخرجه أبو داود. وقيل: هو يوم عرفة؛ لأنَّ الوقوف بعرفه معظم أفعال الحج، ويروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب.

ووصف الحج بالأكبر؛ احترازاً عن العمرة، فهي الحج الأصغر، لأنَّ أعمالها أقلُّ من أعمال الحج؛ إذ يزيد عليها بأمور، كالرمي والمبيت، فكان أكبر بهذا الاعتبار.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ على حذف الجار، والتقدير: أي: هذه الآيات أذان وإعلام صادر من الله ورسوله إلى الناس كافة بأن الله سبحانه وتعالى بريء من موالاة المشركين الناقضين للعهد، ورسوله بريءٌ منهم أيضاً.

فإن قلت[1]: لا فرق بين قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١﴾ وبين قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فما فائدة هذا التكرار؟

قلت: المقصود من الآية الأولى: البراءة من العهد، ومن الآية الثانية: البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذي يدل على صحة هذا الفرق: أنَّه قال في أولها ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى﴾ يعني بريءٌ إليهم، وفي الثانية: بريء منهم.

والمعنى: وهذا الآتي من الآيات إعلامٌ[2] من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ بالبراءة من عهود المشركين وموالاتهم وسائر خرافات شركهم وضلالهم في وقت يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام، وهو يوم الحج الأكبر الذي هو يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، ويجتمع فيه الحجاج لإتمام مناسكهم في مِنى.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

وقرأ الضحاك وعكرمة وأبو المتوكل[1]: ﴿وإِذْن﴾ بكسر الهمزة وسكون الذال. وقرأ الحسن والأعرج: ﴿إِن الله﴾ بكسر الهمزة والفتح على تقدير: بأن والكسر على إضمار القول على مذهب البصريين، أو لأن الأذان في معنى القول، فكسرت على مذهب الكوفيين، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي وأبو رزين وأبو مجلز وأبو رجاء ومجاهد وابن يعمر: ﴿ورسولَه﴾ بالنصب عطفاً على لفظ اسم إنَّ، وأجاز الزمخشري أن ينصب على أنه مفعول معه، وقرىء بالجر شاذًّا، ورويت عن الحسن، وخرجوا على العطف على الجوار، كما أنهم نعتوا وأكدوا على الجوار، وقيل: هي واو القسم، وهذا تخريج ضعيف جدًّا، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ هنا مع ما ثبت من النهي عن الحلف بغير الله، وروي أن أعرابيًّا سمع من يقرأ بالجر، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله.. فأنا بريءٌ منه: فلبَّبه القارىء إلى عمر، فحكى الأعرابيُّ قراءته، فعندها أمر عمر بتعليم العربية، وأما قراءة الجمهور بالرفع، فعلى الابتداء. والخبر محذوف؛ أي: ورسوله بريء منهم، وحذف لدلالة ما قبله عليه، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

ثم أكد ما يجب أن يبلِّغوه بلا تأخير بقوله: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أيها المشركون من الشرك.. ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ أي: فالتوب خير لكم في الدارين لا شر؛ أي: قولوا لهم أيها المبلِّغون، فإن تبتم ورجعتم عن شرككم وعن خيانتكم وغدركم، بنقض العهد وقبلتم هدى الإسلام.. فذلك المتاب خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ في هدايته سعادتكم فيهما ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، أي: أعرضتم عن المتاب من الشرك ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۙ﴾، أي: غير فائتين من عذاب الله، فإن الله قادرٌ على إنزال أشد العذاب بكم، والمعنى: وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة.. فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه، ولا فائتيه، فلن تفلتوا من حكم سننه، ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغلب كما قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا رسالتك ولم

---

(١) الخازن.

يؤمنوا بالله وملائكته واليوم الآخر ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة وهذا من أنباء الغيب التي لا تعلم إلا بوحي من الله عز وجل، وفي استعمال البشارة فيما يسوء ويكره، ضرب من التهكم بهم، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، فالبشارة على سبيل الاستهزاء، كما يقال إكرامهم الشتم وتحيتهم الضرب، أو المعنى أخبرهم بالقتل بعد أربعة أشهر، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج[1]: إنه استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم، وقال في «الكشاف»: إنه مستثنى من قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والتقدير: فقولوا لهم: سيحوا في الأرض إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط الميثاق ولم يضروكم؛ أي: لم يقع منهم أيُّ نقص وإن كان يسيراً.

وفيه دليلٌ على أنه كان من أهل العهد من خان بعهده، ومنهم من ثبت عليه فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ، بنقض عهد من نقض وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدته ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾؛ أي: ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم، وقرأ عطاء بن السائب الكوفي وعكرمة وأبو زيد وابن السميقع ﴿ينقضوكم﴾ بالضاد المعجمة، وهو على حذف مضاف؛ أي: ثم لم ينقضوا عهدكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، لدلالة الكلام عليه.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾؛ أي: إلى وقت أجلهم تسعة أشهر، كما سيأتي قريباً، والمعنى[2]: لا تمهلوا الناكثين للعهد فوق أربعة أشهر، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم، بل أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، بشرط أن لا ينقضوا شيئاً من شروط الميثاق، ولا يضاروكم ولا يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم؛ أي: فلا تجعلوا الوافين كالغادرين، وهم بنو ضمرة حيٌّ من كنانة، أمر الله رسوله ﷺ، بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، فإنهم ما غدروا من

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

هذين الوجهين.

وفي ذلك[1] إيماءٌ إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقوداً، وإلى أنَّ العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته، وإلى أنَّ من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدوِّ المعاهد لنا على ذلك العهد بحذافيره، بنصه وفحواه، فإن نقص شيئاً منه وأخل بغرض من أغراضه.. عد ناقضاً له، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ ويدخل في الإخلال مظاهرة أحد من الأعداء على المسلمين؛ لأن المقصود من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعامل بينهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين يتقون نقض العهد، وخفر الذمم وسائر المفاسذ التي تخل بالنظام، وتمنع جريان العدل بين الناس.

وفي ذلك إيماء إلى أنَّ مراعاة حقوق العهد تدخل في حدود التقوى، وإلى أن التسوية بين الوفيِّ والغادر منافية لذلك، وإن كان المعاهد مشركاً.

وقد ورد في تنفيذ أمر الله بهذه البراءة والأذان بها؛ أي: التبليغ العلني، أحاديث في الصِّحاح، أشهرها: أنَّ النبي ﷺ جعل أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج سنة تسع، وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحجَّ أنهم يمنعون منه بعهد ذلك العام، ثم أردفه بعليٍّ كرم الله وجهه ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر، لينظروا في أمرهم، وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لنبذ العهود وما يتعلق بها، من أول سورة براءة وهي نحو أربعين آية.

وقد كان من عادة العرب أنَّ العهود ونبذها إنما يكون ممن عاقدها أو من أحد عصبته القريبة، وإنَّ عليًّا اختصَّ بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر، وكان يساعده على ذلك بعض الصحابة كأبي هريرة.

---

(١) المراغي.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذِّنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، ألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب: وأمره أن يؤذِّن ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾: أي: انقضى ومضى وخرج ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؛ أي: الباقي منها من وقت نبذ العهد، وهو يوم النحر، والباقي منها خمسون يوماً ينقضي بانقضاء المحرم، فالمراد بالأشهر الحرم على هذا المعنى الأشهر المعروفة التي هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ثلاثة سرد، واحدٌ فردٌ، وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله تعالى، بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم، منهم الضحاك والباقر وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير.

وقيل: المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وسميت حرماً؛ لأن الله سبحانه حرَّم فيها على المسلمين دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم، منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وغيرهم.

وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة، ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد وعمر وابن شعيب ومحمد ابن إسحاق وقتادة وغيرهم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين خاصَّةً ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: في أيِّ مكان وجدتموهم من حلٍّ أو حرم، وفي أيِّ وقت، قال الشوكاني[1]: وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا من

(١) فتح القدير.

خصته السنة، وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب، الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كلَّ آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم. انتهى.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾؛ أي: وأسروهم والأخيذ الأسير ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾؛ أي: وامنعوهم من إتيان المسجد الحرام ومن التقلب في البلاد، وقرىء: ﴿وحاصروهم﴾ شاذًا ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ﴾؛ أي: لأجل مراقبتهم ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: في كل ممر وطريق يسلكونه، لئلا ينبسطوا في البلاد.

والمعنى[1]: فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم عليكم فيها قتال المشركين.. فافعلوا معهم كل ما ترونه موافقاً للمصلحة، من تدابير الحرب وشؤونها؛ لأنَّ الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي منحتموه، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية:

١ ـ قتلهم في أي مكان وجدوا فيه من حل أو حرم.

٢ ـ أخذهم أسارى، وقد أبيح هنا الأسر الذي حظر في سورة الأنفال بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الإثخان، وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد.

٣ ـ حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمعقل أو حصن، بأن يحاط بهم، ويمنعوا من الخروج والانفلات، حتى يسلموا أو ينزلوا على حكمهم بشرط ترضونه، أو بدون شرط.

٤ ـ القعود لهم كل مرصد؛ أي: مراقبتهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه، ورؤية تجولهم وتقلبهم في البلاد.

وهذه الآية تسمى: آية السيف، إذ جاء الأمر فيها بالقتال، وقد كان مؤجلاً ومنسّاً إلى أن يقوى المسلمون، وكان الواجب عليهم في حال الضعف الصبر على الأذى.

---

(١) المراغي.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك الذي يحملهم على عدواتكم وقتالكم ودخلوا في الإسلام، بأن نطقوا بالشهادتين ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة كما تقيمونها في الأوقات الخمسة، والصلاة مظهر الإسلام وأكبر أركانه وهي مطلوبة من الغني والفقير والأمير والمأمور، وهي حق الله على عباده، تزكى أنفسهم وتهذب أخلاقهم وتؤهلهم للقيام بحقوق عباده. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأدوا الزكاة المفروضة في أموال الأغنياء للفقراء والمصالح العامة ﴿فَخَلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: واتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم، إذا كانوا مقاتلين، وبالكف عن حصرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكف عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما سبق من الشرك، وغيره من سيئاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحمهم فيمن يرحم من عباده، وقد جاء في الأثر: «الإسلام يجب ما قبله».

وفي الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجبان لمن يؤدِّيهما حقوق المسلمين، من حفظ الدم والمال، إلا بما يوجب عليه الشرع من جناية تقتضي حدًّا معلوماً أو جريمةٍ توجب تعزيراً أو تغريماً.

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك.. عصموا مني دمائم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

والخلاصة: أن اشتراط الأشياء الثلاثة للكف عن قتال المشركين للتحقق من دخولهم في جماعة المسلمين بالفعل، والتزامهم شرائع الإسلام وإقامة شعائره، إذ مقتضى الشهادة الأولى: ترك عبادة غير الله تعالى، ومقتضى الشهادة الثانية: طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى، واكتفى من أركان الإسلام بالصلاة التي تجب في اليوم والليلة خمس مرات لأنها الرابطة الدينية والروحية

الاجتماعية بين المسلمين، وبالزكاة؛ لأنها الرابطة المالية الاجتماعية، فمن أقامهما.. كان أجدر بإقامة غيرهما.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرت بقتالهم وقتلهم بعد انقضاء الأشهر الحرم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: استأمنك؛ أي: طلب منك الأمان والجوار ليسمع كلام الله منك، أو لحاجة أخرى.. ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فأمنه حتى يسمع قراءتك لكلام الله، ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه، ونقل عن ابن عباس أنه قال: إن رجلاً من المشركين، قال لعلي بن أبي طالب: إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله، أو لحاجةٍ أخرى.. فهل نقتل؟ فقال علي: لا، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾؛ أي: ثم أوصله إلى ديار قومه التي يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم، ثم بعد ذلك يجوز قتالهم وقتلهم، والمعنى: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، إلا من طلب منكم الأمان، ليعلم ما أنزل الله تعالى وأمر به من دعوة الإسلام، فإنَّ بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغاً مقنعاً، ولم يسمعوا شيئاً من القرآن، أو لم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة عليهم، فأعرضوا وعادوا الداعي وقاتلوه؛ لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشرك وتسفيه ما كان عليه آباؤهم منه.

والخلاصة: وإن استأمنك أيها الرسول الكريم أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله، ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه أو ليلقاك، وإن لم يذكر سبباً.. فأجره وأمنه على نفسه وأمواله؛ لكي يسمع أو لكي يراك، فإنّ هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فإن اهتدى وآمن عن علم وإقناع.. فذاك، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن فيه على نفسه، ويكون حُرًّا في عقيدته، حيث لا يكون للمسلمين سلطان عليه، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير غدر.

والمراد بالسماع: أن يسمع المقدار الذي تقوم به الحجة، ويتبين به بطلان الشرك، وحقيقة التوحيد، والبعث، وصدق الرسول في تبلغيه عن الله فإنه إذا ألقى إليه السمع.. لا يلبث أن يظهر له الحق إذا لم تصده العصبية والعدوان للداعي،

فإن لم يفعل ذلك.. كان له شأنه: وكانت له حريته، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين في دار الإسلام وهو على هذا الحال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إجارة المستجير من المشركين، وإعطاء الأمان له إلى أن يسمع كلام الله ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم قوم لا يعلمون﴾؛ أي: لا يفقهون ولا يدرون ما الكتاب وما الإيمان، وما أعرضوا إلا عن جهل وعصبيةٍ واغترارٍ بالقوة وإصرارٍ على الجفوة، فإذا هم شعروا بضعفهم وصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم، وطلبوا الأمان لهذا السبب أو لغرض آخر يترتب عليه إمكان تبليغهم الدعوة وإسماعهم كلام الله.. أجيبوا إلى ذلك؛ لأنَّ هذه الطريق المثلى لتعليمهم وهدايتهم، والرسول صلوات الله عليه إنما أرسل مبشراً ونذيراً.

وفي الآية إيماءٌ إلى أن التقليد في الدِّين غير كاف، وأنه لا بد من النظر والاستدلال؛ لأنه لو كان كافياً.. لوجب أن لا يمهل الكافر بل يقال له: إما أن تؤمن، وإما أن نقتلك؟ فأمهلناه ليحصل له النظر والاستدلال، فإن ظهر على المشرك علامات القبول للحق، ببحثه عن الدليل والتفكير فيه.. أمهل، وترك، وإن ظهر أنه معرض عن الحق.. لم يلتفت إليه ووجب تبليغه إلى مأمنه.

والاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ للتعجب المتضمن للإنكار والاستبعاد وفي الآية إضمار، والمعنى كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله يَأْمَنُون به من عذابه؟ أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد. وقيل[1] معنى الآية: محالٌ أن يثبت لهؤلاء عهدٌ، وهم أضدادٌ لكم مضمرون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا بحدِّثوا به أنفسهم، ثم استدرك على ذلك فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؛ أي: عند قرب أرض الحرم يوم الحديبية، ولم ينقضوا ولم ينكثوا، فلا تقاتلوهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم

(١) الشوكني.

﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ أي: فدوموا لهم على عهدهم ولا تقاتلوهم، قيل: هم بنو بكر، وقيل: بنو كنانة وبنو ضمرة، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد أحدٌ إلا قريش وبنو الدِّيل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض العهد، وهم بنو ضمرة، وهذا القول هو الصواب وإنما[1] كان صواباً؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد، وذلك قبل فتح مكة؛ لأن بعد الفتح كيف يقول لشيءٍ قد مضى: فما استقاموا لكم.. فاستقيموا لهم، وإنما هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ كما نقصكم قريشٌ ولم يظاهروا عليكم أحداً، كما ظاهرت قريشٌ بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله ﷺ، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا، ويتقون نقضه، تعليلٌ للأمر بالاستقامة المذكور قبله والاستفهام في قوله: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾: تعجبيٌ إنكاري أيضاً كرره للتأكيد؛ والتقدير: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله، وعند رسوله، والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم؛ أي: إن يظفروا بكم ويغلبوكم ويعلوا عليكم ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾؛ أي: لا يحفظوا ولا يراعوا ﴿فِيكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلّٗا﴾ أي: قرابة ورحماً، وقرىء ﴿إيلاً﴾ بوزن ريح ﴿وَلَا﴾ يراعون فيكم ﴿ذِمَّةٗۚ﴾؛ أي: عهداً؛ أي: لا يتركونكم لأجل القرابة التي بينكم وبينهم ولا للعهد الذي عاهدوه لكم.

والمعنى[2]: كيف لا تقتلونهم وهم إن يغلبوكم لا يحفظوا في شأنكم قرابةً ولا ضماناً، بل يؤذونكم ما استطاعوا، وقوله: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر، فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ...﴾ الخ. أي: يقولون بألسنتهم كلاما حلواً طيباً من الوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، مجاملةً لكم وتطيباً لقلوبكم ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ أي: تمتنع قلوبهم ذلك الذي يقولونه بألسنتهم من الإيمان والوفاء بالعهد؛ أي تخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين، فإنهم لا يضمرون لكم

---

(١) الخازن.　　(٢) المراح.

إلا الشر والإيذاء إن قدروا ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: كاذبون ناقضون للعهد خارجون عن الحق، مذمومون عند جميع الناس، وفي جميع الأديان، والمعنى: هم يخادعونكم[١]، حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسولٍ، يرون أنه يرضيكم، سواء أكان عهداً، أم وعداً أم أيماناً مؤكدة، وقلوبهم مملوءة ضغناً وحقداً ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فهم إن ظهروا عليكم.. نكثوا العهود وحنثوا بالأيمان وفتكوا بكم بقدر ما يستطيعون، وإنما يفعلون ذلك؛ لأنَّ أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء، فليس لهم مروءة رادعةٌ، ولا عقيدة وازعة، ولا يتعففون عن الغدر، وعما يجر إلى سوء الأحدوثة وثلم العرض، وإنما وصف الأكثر؛ لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهودهم، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى، وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم.

فإن قلت:[٢] إن الموصوفين بهذه الصفة كفار، والكفر أخبث وأقبح من الفسق، فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم، وما الفائدة في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، مع أنَّ الكفار كلهم فاسقون؟

قلتُ: قد يكون الكافر عدلاً في دينه، وقد يكون فاسقاً خبيث الفسق في دينه، فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين: أنهم نقضوا العهد، وبالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم، فيكون أبلغ في الذم، وإنما قال: أكثرهم، ولم يقل: كلهم فاسقون؛ لأنَّ منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه، وأكثرهم نقضوا العهد، فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقيل[٣]: معنى وأكثرهم: وكلهم فاسقون، قاله: ابن عطية والكرماني.

﴿اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾؛ أي: استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها؛ أي: تركوا آيات الله الآمرة بالاستقامة في كل أمر وأخذوا بدلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا لأجل تحصيل الشهوات، والمعنى استبدلوا آيات الله بالأعراض

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

الفانية والشهوات الزائلة، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي ﷺ، وحملتهم تلك الأكلة على نقض العهد، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ، بسبب تلك الأكلة ﴿فَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا الناس عن ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: عن الدخول في دين الله تعالى، أو صدُّوا الناس عن سبيل البيت الحرام، حيث كانوا يصدُّون الحجاج والعمار عنه، أو معنى فصدوا عن سبيله؛ أي: فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بئس ما كانوا يعملونه من الشرك ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام.

وحاصل المعنى: أنهم[1] استبدلوا بآيات الله الدالة على توحيده بالعبادة وعلى الوحي والرسالة وما فيها من الهداية للناس وعلى البعث والجزاء على الأعمال ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش، وكثرة الأموال، فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام، وما يقتضيه من الوفاء، وصدوا غيرهم أيضاً، وجعله قليلاً؛ لأنه زائلٌ غير باق، وما عند الله باق دائم، وهو خير وأبقى، روي أن أبا سفيان لمَّا أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية.. صنع لهم طعاماً استمالهم به، فأجابوه إلى ما طلب ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: قبح عملهم الذي يعملونه، من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى، والصد عن دين الله، وما جاء به رسول الله ﷺ، من البينات والهدى.

وقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾؛ أي: لا يرقب هؤلاء المشركون الناقضون للعهد ولا يحفظون ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾ أيَّ مؤمن كان، سواء كان منكم أيها المخاطبون، أو من غيركم ﴿إِلًّا﴾؛ أي: قرابةً ورحماً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾؛ أي: ولا عهداً؛ أي: لا يلتفتون إلى قرابته ولا إلى عهده، إذا قدروا عليه.. قتلوه، فلا تبقوا أنتم عليهم، كما لا يبقوا عليكم إذ ظهروا عليكم، ولا تكرار[2] هنا؛ لأن الأول: على الخصوص،

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

حيث قال: فيكم، والثاني: على العموم، حيث قال: في مؤمن، كما أشرنا إليه في الحل آنفاً؛ أي: ومن أجل هذا الكفر الذي رسخ فيهم لا يرعون في مؤمن يقدرون على الفتك به قرابةً تقتضي الود، ولا ذمةً توجب الوفاء بالعهد، ولا ربًّا يحرم الخيانة والغدر، فذنب المؤمن عندهم أنه لا ينقض عهداً ولا يستحل غدراً ولا يقطع رحماً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون الناقضون للعهد ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾؛ أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام أو البالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى، والعلة في هذا رسوخهم في الشرك وكراهتهم للإيمان وأهله، فلا علاج لهم إلا الرجوع عن الكفر، والاعتصام بالإيمان، والتمسك بفضائل الأخلاق، وما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ أي: فإن رجع هؤلاء المشركون، الذين أمرتكم بقتالهم عن شركهم بالله تعالى، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدوها بشروطها وأركانها ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، كرر[1] هذا الشرط؛ لاختلاف جزائه مع جزاء الأول، إذ جزاء الشرط في الأول تخلية سبيلهم في الدنيا، وفي الثاني أخوَّتهم لنا في الدين، وهي ليست عين تخليتهم، بل سبيلها ﴿فـ﴾ هم ﴿إخوانكم في الدين﴾ الذي أمركم به، لَهُمْ مَالَكُمْ، وعليهم ما عليكم، وبهذه الأخوة يزول كل ما كان بينكم من إحن وعداوات، ولا تعارف أجمل من التعارف في المساجد؛ لإقامة الصلوات، وأداء الصدقات، بمواساة الغني للفقير، وهذه المزية الدنيوية كانوا محرومين منها، إذ كان بعضهم حرباً لبعض إلا ما كان من عهد أو جوار.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: وإنا نبين حجج آياتنا وأدلة أحكامنا، ونوضحها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لقوم يفهمون ما نبين لهم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته، وهذه[2] الجملة اعتراضية، للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين، أو خصال

---

(١) الفتوحات. (٢) البيضاوي.

التائبين، ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾؛ أي: نقضوا عهودهم التي بينكم وبينهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾؛ أي: من بعد ما عاهدوكم على أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم، والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد، كفار قريش، وفي «أبي السعود» ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ عطف[1] على قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ أي: وإن لم يفعلوا ذلك، بل نقضوا أيمانهم من بعد عهدهم الموثق بها، وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القول إلى حسبما ينبىء عنه، قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ﴾ الآية وثبتوا على ما هم عليه من النكث، لا أنهم ارتدوا بعد الإيمان كما قيل اهـ.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: عابوا دينكم بالتكذيب، وتقبيح الأحكام، وفي هذا دليل على الذمي، إذا طعن في دين الإسلام وعابه ظاهراً لا يبقى له عهد، وعطف[2] ﴿وَطَعَنُواْ﴾ على ما قبله، مع أن نقض العهد كافٍ في إباحة القتل؛ لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم وقيل معناه: وإن نكثوا أيمانهم بطعنهم في دينكم فيكون عطف تفسيرٍ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ أي: قاتلوا رؤساء المشركين وقادتهم، والمراد: قاتلوا الكفار بأسرهم، فإنهم صاروا بذلك ذوي تقدم في الكفر أحقاء بالقتل والقتال، قال ابن عباس[3]: نزلت في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش، وهم الذين نقضوا عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وقيل: أراد جميع الكفار، وإنما ذكر الأئمة لأنهم الرؤساء والقادة، ففي قتالهم قتال الأتباع، وقال مجاهد: هم فارس والروم، وقيل غير ذلك، وقال ابن عطية: أصوب ما في هذا أن يقال: إنه لا يعني بها معين؛ وإنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين للعهود من الكفرة إلى يوم القيامة من غير تعيين ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؛ أي: إنهم لا عهود لهم على الحقيقة؛ لأنهم لا يعدون نقضها محذوراً، وهم لمَّا لم يفوا بها.. صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان، وإن أجروها على ألسنتهم.

---

(١) أبو السعود.

(٢) زاده.

(٣) الخازن.

والمعنى: أي وإن نكث[1] هؤلاء ما أبرمته أيمانهم من الوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم، واستهزؤوا به، وصدوا الناس عنه، ومن ذلك الطعن في القرآن، وفي النبي ﷺ، كما كان يفعل شعراؤهم، الذين أهدر النبي ﷺ، دماءهم.. فقاتلوهم، فهم أئمة الكفر، وحملة لوائه، المقدمون على غيرهم بزعمهم، فهم الأجدر بالقتل والقتال ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾؛ أي: إن عهودهم لا قيمة لها، فهي مخادعة لسانية، لا يقصد الوفاء بها، كما قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: قاتلوهم رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونكث الأيمان ونقض العهود، والعودة إلى قتالكم كلما قدروا عليه.

وفي ذلك[2] إيماء: إلى أن القتال لا يكون اتباعاً لهوى النفس، أو إرادة منافع الدنيا، من السلب والنهب وإرادة الانتقام، وهذه مزيّة الإسلام إذ جعل الحرب ضرورةً لإرادة منع الباطل وتقرير الحق.

وقرأ الحرميان[3] - نافع وابن كثير - وأبو عمرو: ﴿أيمة الكفر﴾ بإبدال الهمزة الثانية ياءً، وروي عن نافع مد الهمزة وقرأ باقي السبعة وابن أبي أريس عن نافع بهمزتين وأدخل هشام بينهما ألفاً، وأصله: أأممة، بوزن أفعلة، جمع إمام أدغموا الميم في الميم، فنقلت حركتها إلى الهمزة قبلها، وقرأ الجمهور: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الحسن وعطاء وزيد بن علي وابن عامر: ﴿لا إيمان لهم﴾ بكسر الهمزة؛ أي: لا إسلام وتصديق لهم ولا يعطون الأمان بعد النكث والطعن، ولا سبيل إليه، وبقراءة الفتح استشهد أبو حنيفة على أن يمين الكافر لا يكون يميناً، وعند الشافعي يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

الإعراب

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ①﴾.

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هذه الآيات الآتية براءة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ تقديره: صادرةٌ من الله ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾، معطوف على الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة ومتعلق المبتدأ محذوف اكتفاء بذكره في المنفي وفراراً من التكرار في اللفظ، تقديره: من المشركين؛ أي: من الوفاء بعهودهم إذا نقضوها. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ كما تقول: برئت إليك من كذا، وقيل: إن ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نعت لها، و﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ خبرها ﴿عَٰهَدتُّم﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: عاهدتموهم ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ حال من الموصول، أو من العائد المحذوف.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَسِيحُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم براءة الله سبحانه، وبراءة رسوله ﷺ، من المشركين، وأردتم بيان ما تقولون لهم.. فأقول لكم: قولوا لهم: سيحوا في الأرض، ﴿سيحوا﴾ فعل وفاعل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق به، الجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف، وجملة القول المحذوف في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَسِيحُوا۟﴾ ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا عدم إعجازكم الله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خبره ومضاف إليه وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿وَأَذَٰنٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهذه الآية الآتي ذكرها أذان ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة له، أو متعلق به ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿بَرَآءَةٞ﴾ ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أذان﴾ أو صفة له أيضاً، والتقدير: وهذه الآية الآتي ذكرها ﴿أذان﴾ صادر من الله ورسوله، واصل إلى المشركين ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ﴾: ظرف ومضاف إليه ﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡحَجِّ﴾ والظرف متعلق بما تعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقيل[1]: متعلق بـ ﴿أذان﴾ وهو فاسد من وجهين:

أحدهما: وصف المصدر قبل عمله.

والثاني: للفصل بينه وبين معموله بأجنبي وهو الخبر. اهـ «سمين». ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿بَرِيٓءٞ﴾ خبره ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ متعلق به وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: ببراءة الله من المشركين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أذان﴾ ﴿ورسولُه﴾: بالرفع، باتفاق السبعة: مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ورسوله بريء منهم، وحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ أو معطوف على الضمير المستتر في بريء أو معطوف على محل اسم ﴿أَنَّ﴾ وهذا[2] عند من يجيز ذلك في المفتوحة قياساً على المكسورة وقريء شاذاً بالجر على المجاورة، أو على أن ﴿الواو﴾ للقسم وقرىء شاذًا أيضاً بالنصب، على أنه مفعول معه.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم براءة الله ورسوله منكم، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم..

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

فنقول لكم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تُبْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر و﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: فقولوا لهم أيها المبلِّغون: فإن تبتم.. فهو خير لكم ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَاعْلَمُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ والشرطية على كونه جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة. ﴿إن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لعذاب.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿عَٰهَدتُّم﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول والعائد محذوف، تقديره: إلا الذين عاهدتموهم ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أو من العائد المحذوف ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعولان إن جعلنا ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولاً ثانياً ويجوز نصبه على المصدرية؛ أي: شيئاً من النقصان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾. ﴿فَأَتِمُّوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم هذا الاستثناء وأردتم بيان ما يلزمكم فيهم..

فأقول لكم: أتموا إليهم عهدهم ﴿أتموا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أتموا﴾ على تضمينه بمعنى: أدوا إليهم ﴿عَهْدَهُمْ﴾، مفعول به ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿عَهْدَهُمْ﴾ تقديره: حالة كونه تاماً إلى انقضاء مدتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلتم لهم سيحوا في الأرض أربعة أشهر، وأردتم بيان حكمهم إذا انقضت تلك الأشهر.. فأقول ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿انسَلَخَ الْأَشْهُرُ﴾: فعل وفاعل ﴿الْحُرُمُ﴾: صفة له، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾ والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿فَاقْتُلُوا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً ﴿اقتلوا المشركين﴾ فعل وفاعل، ومفعول والجملة، جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة ﴿حَيْثُ﴾ في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الضم، لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بـ ﴿اقتلوا﴾ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حَيْثُ﴾ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَاقْتُلُوا﴾ وكذلك قوله ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا﴾. معطوفان على ﴿فَاقْتُلُوا﴾ ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿اقعدوا﴾ ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ منصوب على الظرفية بـ ﴿اقعدوا﴾ أو بنزع الخافض والخافض(١) المقدر هو: على، أو الباء الظرفية، أو في.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم إن لم يتوبوا، فإن تابوا... إلخ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَابُوا۟﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف عليه أيضاً، ﴿فَخَلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿خَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على ذلك المحذوف ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لها ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وإن استجارك ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أَحَدٌ﴾ ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٌ﴾ والجملة: جملة مفسرة لذلك المحذوف، لا محل لها من الإعراب ﴿فَأَجِرْهُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿أجره﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: فعل ومفعول منصوب بأن المضمرة وجوباً، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٌ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره إلى سماعه كلام الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿فَأَجِرْهُ﴾ ﴿ثم﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَبْلِغْهُ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم، معطوف على ﴿أجره﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿أبلغ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿أنَّ﴾: حرف نصب و﴿الهاء﴾: اسمها ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾ وجملة

﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: سبب عدم علمهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم علمهم كلام الله تعالى ودينه والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم عليه وجوباً للزومه الصدارة ﴿يَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ ﴿عَهْدٌ﴾: اسم ﴿يَكُونُ﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَهْدٌ﴾؛ أي: عهد كائن عند الله، أو متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وجملة ﴿يَكُونُ﴾ مستأنفة وقال أبو[1] البقاء: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ اسم يكون ﴿عَهْدٌ﴾ وفي الخبر ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كيف وقدم للاستفهام وهو مثل قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾.

والثاني: أنه للمشركين، و﴿عنده﴾ على هذين: ظرف للعهد، أو لـ ﴿يَكُونُ﴾ أو للجار أو هي وصف الـ ﴿عَهْدٌ﴾.

والثالث: الخبر عند الله وللمشركين تبين، أو متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ و﴿كَيْفَ﴾ حال من الـ ﴿عَهْدٌ﴾ انتهى. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب على الاستثناء ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾ فعل وفاعل ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ظرف متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: إلا الذين عاهدتموهم ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم الاستثناء المذكور، وأردتم بيان حكمهم.. فأقول لكم ﴿ما﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما

(١) العكبري.

﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿استقيموا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿مَآ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية محل النصب مقول، لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ليكون المحذوفة، تقديرها: كيف يكون عهد للمشركين عند الله وعند رسوله ﷺ، وجملة يكون المحذوفة: مستأنفة ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال و﴿إن﴾ حرف شرط ﴿يَظْهَرُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿لَا يَرْقُبُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿فِيكُمْ﴾ متعلق به ﴿إِلًّا﴾ مفعول به ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ معطوف عليه وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب حال من المشركين المحذوف تقديره: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، حالة كونهم لا يرقبون فيكم إلاًّ ولا ذمة، إن يظهروا عليكم؟ ﴿يُرْضُونَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حالهم عند عدم الظفر، فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به ﴿قَلِيلًا﴾ صفة له، والجملة مستأنفة ﴿فَصَدُّوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿صدوا﴾

فعل وفاعل ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿سَآءَ مَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿سَآءَ﴾ محذوف تقديره: ساءهم إن قلنا ﴿سَآءَ﴾ متصرف متعد إلى المفعول بمعنى: عابهم ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة وفي «الفتوحات»: يجوز في ﴿سَآءَ﴾ أن يكون على بابه من التصرف والتعدي، ومفعوله محذوف، أي: ساءهم الذي كانوا يعملونه، أو عملهم وأن يكون جارياً مجرى بئس، فيحول إلى فعل بالضم، ويمتنع تصرفه، ويصير للذم، ويكون المخصوص بالذم محذوفاً تقديره: عملهم هذا. اهـ. «سمين».

﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾ متعلق به ﴿إِلًّا﴾ مفعول به ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ معطوف عليه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ خبر والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: هذا الحكم المذكور فيهم إن لم يتوبوا ﴿فَإِن تَابُوا۟...﴾ إلخ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿تَابُوا۟﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في محل الجزم معطوفان على تابوا ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً ﴿إخوانكم﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿إخوانكم﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿نفصل﴾ وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ مفعول به ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿وَطَعَنُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿قاتلوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿لَآ﴾ نافية للجنس، تعمل عمل إن ﴿أَيۡمَٰنَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَآ﴾ وجملة ﴿لَآ﴾ النافية في محل الرفع خبر ﴿إِن﴾ وجملة ﴿إِن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَنتَهُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: مأخوذ من برىء من الدين، يبرأ براءة، إذا أسقط عنه، وبرىء من الذنب ونحوه، إذا تركه وتباعد عنه، وأصل[1] البراءة في اللغة: انقطاع العصمة، يقال: برئت من فلان، أبرأ براءة؛ أي: انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علاقة، وقيل، معناها: هنا التباعد مما تكره مجاورته، ﴿عَٰهَدتُّم﴾ والمعاهدة[2]: عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها، وكان كل فريق يضع يمينه في يمين الآخر، ويوثقونها بالأيمان، ومن جراء ذلك سميت أيماناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؛ أي: لا عهود لهم ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والسياحة في الأرض: الانتقال والتجول فيها، ويراد بها هنا: حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر، لا يتعرض المسلمون لهم فيها بقتال، يقال: ساح فلان في الأرض، يسيح سياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه سيح الماء في الأرض وسيح الخيل. ﴿غَيۡرُ

(١) الخازن. (٢) المراغي.

مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تفوتونه بالهرب والتحصن ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والخزي: الذل والفضيحة بما فيه عار ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والأذان: الإعلام بما ينبغي أن يعلم ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ هو يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، ويجتمع فيه الناس لإتمام مناسكهم.

﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: من شروط الميثاق، فلم يقتلوا أحداً منكم ولم يضروكم ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾؛ أي: لم يعاونوا ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي، كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله: الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فأستعير لانقضاء الشهر، يقال: سلخت الشهر، تسلخه سلخاً وسلوخاً، بمعنى: خرجت منه، ويقال: سلخت المرأة درعها نزعته قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

والحُرُم: واحدها حرام، وهي الأشهر التي حرم الله فيها قتالهم في الأذان والتبليغ بقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾. ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، يقال: رصدت فلاناً، أرصده إذا ترقبته؛ أي: أقعدوا لهم على كل مرصد، قال أبو حيان[1] المرصد: مفعل من رصد يرصد، من باب قتل، يكون مصدراً وزماناً ومكاناً، وقال عامر بن الطفيل:

وَلَقَدْ عَلِمْتَ وَمَا أَخَالُكَ نَاسِيَاً ... أَنَّ ٱلْمَنِيَّةَ لِلْفَتَىٰ بِٱلْمَرْصِدِ

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ يقال: استجاره إذا طلب جواره؛ أي: حمايته وأمانه، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه، حتى يسمون النصير جاراً ﴿فَأَجِرۡهُ﴾؛ أي: أمنه ﴿مَأۡمَنَهُۥۚ﴾؛ أي: مسكنه الذي يأمن فيه على نفسه، وهو دار قومه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: ما الإسلام وما حقيقته، فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة.

﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ يقال: ظهر عليه، إذا غلبه وظفر به ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾

---

(١) البحر المحيط.

يقال: رقب الشيء إذا رعاه وحاذره؛ لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه، ومنه: فلان لا يرقب الله في أموره؛ أي: لا ينظر إلى عقابه ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ والإلُّ القرابة، قال ابن مُقْبل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوْا قَطَّعُوْا ٱلإِلَّ وَأَعْرَاقَ ٱلرَّحِمْ

وفي «السمين»[1] قوله: ﴿إِلًّا﴾ مفعولٌ به لـ﴿يَرْقُبُوا﴾. وفي ٱلإِلّ أقوال لأهل اللغة:

أحدها: أن المراد به العهد، قاله أبو عبيدة وابن زيد والسدّي.

الثاني: أن المراد به القرابة، وبه قال الفراء.

الثالث: أن المراد به الله تعالى؛ أي: هو اسمٌ من أسمائه.

الرابع: أنَّ الإلَّ الجؤار، وهو رفع الصوت عند التحالف، وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا.. جأروا بذلك جؤاراً.

الخامس: أنه من ألَّ البرق إذا لمع، ويجمع الإلُّ في القلَّة على أُلٍّ، والأصل أأْلُلٌ، بزنة أفلس، فأبدلت الهمزة الثانية ألفاً، لكونها بعد أخرى مفتوحة، وأدغمت اللام في اللام، وفي الكثرة على إلالٍ، كذئب وذئاب، والألُّ بالفتح: قيل: شدة القنوط، قال الهروي: في الحديث: «عجب ربكم من ألكم وقنوطكم» اهـ. وفي «القاموس»: الإلُّ بالكسر: العهد والحلف وموضعٌ والجؤار والقربة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية، واسم الله تعالى وكل اسم آخره إل أو إيل فمضاف إلى الله تعالى، والرخاء والأمان والجزع عند المصيبة، ومنه ما روي: «عجب ربكم من إلكم» فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر اهـ.

﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ والذمة والذمام: العهد الذي يلزم من ضيعه الذم، ونقض العهد عندهم من العار، فيكون مما كرر لاختلاف لفظه، إذا قلنا إن الإلَّ العهد أيضاً، فهو كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وقيل: الذمة[2] الضمان، يقال: هو في ذمتي، أي: في ضماني وبه سمي أهل الذمة، لدخولهم

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

في ضمان المسلمين، وقال: الراغب: الذِّمام: ما يذم الرجل على إضاعته من عهد. وكذلك الذمة والمَذَمَة والمِذَمة. يعني بالفتح والكسر، وقيل: لي ذمة فلا تهتكها، وقال غيره: سميت ذمة؛ لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم، يقال لها: ذمة وقال الأزهري: الذمة الأمان، وفي الحديث «يَسْعى بذمتهم أدناهم» اهـ «سمين».

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ يقال: أبى يأبىٰ، إذا اشتد امتناعه. فكل إباء امتناعٌ، من غير عكس، ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع، ومجيء[1] مضارعه على يفعل بفتح العين شاذٌّ. ومنه قلى يَقَلىٰ في لغةٍ، ومنه آبي اللحم لرجلٍ من الصحابة وقال الشاعر:

أَبَــىٰ ٱلــلَّــهُ إلاَّ عَــدْلَــهُ وَوَفَــاءَهُ فَلاَ ٱلنُّكْرُ مَعْرُوْفٌ وَلاَ ٱلْعُرْفُ ضَائِعُ

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾؛ أي[2] خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء من قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرتها.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ ووزن[3] أئمة أفعلة؛ لأنه جمع إمام، كحمار وأحمرة وزمام وأزمة، والأصل أأممة، فألتقى ميمان، فأريد إدغامهما، فنقلت حركة الميم الأولى للساكن قبلها، وهو الهمزة الثانية، فأدى ذلك إلى اجتماع همزتين ثانيتهما مكسورة، فالبصريون يوجبون إبدال الثانية ياء، وغيرهم يحقق، أو يسهل بين بين، ومن أدخل الألف.. فللخفة حتى يفرق بين الهمزتين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرارُ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وفي قوله: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وفي قوله: ﴿كَيْفَ﴾ لإفادة التأكيد.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿براءة﴾ لإفادة التفخيم.

ومنها: التقييد بأنها من الله ورسوله، لزيادة التفخيم والتهويل.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأن البشارة بالعذاب تهكم.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿بَرِىٓءٌ﴾ و﴿بَرَآءَةٌ﴾ وبين ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ و﴿فَأَجِرْهُ﴾ وبين ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ و﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أيها المشركون.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنه كناية عن عقد الأمان لهم أربعة أشهر؛ أي: يباح لكم أن تعقدوا الأمان لهم أربعة أشهر بعد نقضهم العهد المطلق، أو المقيد بدونها أو فوقها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ شبه انقضاء الشهر وخروجه بانسلاخ الجلد من الحيوان، بجامع الانفصال في كل، ثم اشتق من الانسلاخ بمعنى الانقضاء، انسلخ بمعنى: انقضى، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. أو يقال[1]: شبه خروج المتزمن عن زمانه، بانفصال المتمكن عن مكانه، كما ذكره الشوكاني.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ لزيادة التقبيح عليهم، حيث وصفهم بكونهم رؤساء في الكفر، وكان مقتضى الظاهر، فقاتلوهم.

---

(١) الشوكاني.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾؛ لأن[1] النكث في الأصل الرجوع إلى خلف، ثم استعمل في النقض مجازاً، بجامع أن كلاً متأخر عن مطلوبه، وفيه المقابلة أيضاً؛ لأنه مقابل لقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾ لمزيد[2] التشنيع والتقبيح عليهم؛ لأن مقام الذم كمقام المدح، البلاغة فيه الإطناب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ لأنّ[3] الطعن هنا مجاز عن العيب؛ لأنه حقيقة في الإصابة بالرمح أو العود وشبهه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنه اعتراض بين الشرطين بين قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ لإفادة الحث والتحريض على تأمل ما فصَّله تعالى من الأحكام.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الصاوي.

(٢) الصاوي.

(٣) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ
وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ
﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ
مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ
﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى
ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ
وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] بقتال أئمة الكفر.. ذكر السبب الذي يبعث على قتالهم، ولعل الله سبحانه وتعالى قد علم أن في نفس

---

(١) المراغي.

جماعة من المؤمنين كرهاً لقتال من بقي من المشركين بعد فتح مكة وظهور الإسلام، لأمنهم من ظهورهم عليهم، ورجائهم في إيمانهم، وعلم أنه يوجد من المنافقين من يزينون لهم ذلك، والله يريد أن تطهر جزيرة العرب من الشرك وأدران الوثنية، ويمحص المؤمنين من النفاق ومثالبه، من جراء هذا أعاد الكرَّة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد، المعتدين عليهم بالحرب، الذين بدؤوهم بالقتال وهموا بإخراج الرسول أو حبسه أو قتله.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر البراءة من المشركين وأنواعاً من قبائحهم توجب البراءة منهم.. ذكروا أنهم موصوفون بصفاتٍ حميدةٍ توجب انتفاء البراءة منها، كونهم عامري المسجد الحرام، روي أنه أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك، وطفق عليٌّ يوبخ العباس، فقال: الرسول ﷺ، واقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول، فقال العباس: تظهرون مساوينا وتكتمون محاسننا، فقال: أو لكم محاسن، قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردّاً عليهم.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنها مكملة[2] لما قبلها، مبينة أنَّ عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون، من عمارة المسجد وسقاية الحاج فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا أعلن براءته وبراءة رسوله من المشركين، وآذنهم بنبذ عهودهم، بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم.. عَزَّ ذلك على بعض المسلمين، وتبرَّم به ضعفاء الإيمان، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

النبيُّ ﷺ، يوم فتح مكة، وكان موضع الضعف، نصرة القرابة وعصبية النسب، إذ كان لا يزال الكثير منهم أولو قرابة من المشركين، يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجةٌ وبطانةٌ منهم.

من أجل هذا، بين الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد، ونيل ما بشر الله به أهله من رحمته ورضوانه ودخول جناته لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين، وإيثار حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد، والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] أبو الشيخ عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة، حين جعلوا يقتلون بني بكرٍ بمكة، وأخرج عن عكرمة، قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وأخرج عن السدي ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال: هم خزاعة حلفاء النبي ﷺ، يشف صدورهم من بني بكر.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات، أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليٍّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: قال العباس، حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد.. لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ...﴾ الآية.

وأخرج مسلم وابن حبان وأبو داود عن النعمان بن بشير، قال: كنت[2] عند رسول الله ﷺ، في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل

---

(١) لباب النقول. (٢) مسلم.

مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة.. دخلت على رسول الله ﷺ لأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فدخل بعد الصلاة، فاستفتاه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وأخرج[1] الفريابي عن ابن سيرين قال: قدم عليٌّ بن أبي طالب مكة، فقال للعباس: أي عم، ألا تهاجر، ألا تلحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعمر المسجد وأحجب البيت، فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية وقال لقوم سماهم: ألا تهاجروا ألا تلحقوا برسول الله ﷺ؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ...﴾ الآية كلها، وأخرج عبد الرزاق، عن الشعبي نحوه، وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي، قال: افتخر طلحة بن شيبة والعباس وعليٌّ بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال عليٌّ: لقد صليت إلى القبلة قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ الآية كلها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾؛ أي: هلاَّ تقاتلون أيها المؤمنون ﴿قَوْمًا﴾ من كفار مكة ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؛ أي: نقضوا عهودهم التي عاهدوكم يوم الحديبية، حيث نقضوها بإعانتهم لبني بكر، الذين هم حلفاؤهم، بإعطاء السلاح لهم على خزاعة، الذين هم حلفاؤكم، وألا هنا: للتحضيض، كما قاله السيوطي في «تفسير الجلالين» وهو الطلب بحثٍّ وإزعاج، ودخول[2] حرف التحضيض على مستقبلٍ حث على الفعل وطلبٌ له، وعلى الماضي توبيخٌ على ترك الفعل، وأدواته خمسةٌ: ألا بالتخفيف، وألاّ بالتشديد، وهلاَّ، ولولا، ولوما، كما ذكرته

(١) لباب النقول.
(٢) الفتوحات القيومية على الآجرومية.

في «الفتوحات القيومية».

وقال أبو حيان[1]: وألا هنا حرف عرض وهو الطلب برفق ولين ومعناه هنا: الحض على قتالهم، وزعموا أنها مركبةٌ من همزة الاستفهام ولا النافية، فصار فيها معنى التحضيض اهـ وليس هذا الزعم بشيءٍ يعتد.

فالمعنى:[2] قاتلوا قوماً اجتمعت فيهم أسبابٌ ثلاثةٌ، كل منها يقتضي قتالهم، فما بالكم باجتماعها؟ وهي نقض العهد، وإخراج الرسول، وقتال حلفائكم ﴿وَهَمُّوا﴾؛ أي: أرادوا ﴿بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الكريم محمدٍ ﷺ، من مكة، لكن لم يخرجوه، بل خرج باختياره بإذن الله تعالى له في الهجرة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: والحال أنهم بدؤوكم بالقتال يوم بدر أول مرة؛ لأنهم حين سلمت العير، قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه، أبو بدؤوا بقتال خزاعة، حلفاء النبي ﷺ؛ لأن إعانة بني بكر عليهم بالسلاح قتالٌ معهم، فالإعانة على القتال تسمى قتالاً وقرأ زيد بن عليّ ﴿بدوكم﴾ بوزن رموكم: بغير همزٍ ووجهه: أنه سهل الهمزة من بدأت بإبدالها ياءً، كما قالوا في قرأت قريت، فصار كرميت، فلما أسند الفعل إلى واو الضمير سقطت، فصار بدوكم كرموكم، ذكره أبو حيان في «البحر» والاستفهام في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع؛ أي: أتخافون أيها المؤمنون أن ينالكم منهم مكروه، حتى تتركوا قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه فقال: ﴿فَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَحَقُّ﴾ وأجدر وأولى ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك أمره، وقوله: ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ بدل اشتمال من لفظ الجلالة الواقع مبتدأً؛ أي: فخشية الله تعالى أحق وأولى لكم من خشيتهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مذعنين بأنه تعالى هو الضار النافع فاخشوه، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتالهم.

وحاصل المعنى: أي قاتلوا هؤلاء المشركين لأسبابٍ ثلاثة:

١ ـ أنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

وأصحابه على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحراراً في دينهم، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بني بكر على خزاعة ـ حلفاء النبي ﷺ ـ ليلاً بالقرب من مكة، على ماءٍ يسمى الهجير، وكان هذا من أفظع أنواع الغدر، ولمَّا علم بذلك الرسول ﷺ. . قال: «لا نُصِرت إن لم أنصركم» وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

٢ ـ أنهم هَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أو حبسه حتى لا يبلِّغ رسالته، أو قتله بأيدي عصبةٍ من بطون قريش، ليتفرق دمه في القبائل فتتعذَّر المطالبة به، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

٣ ـ أنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر، حين قالوا بعد العلم بنجاة عيرهم: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر، وتعزف على رؤوسنا القيان، وكذا في أحد والخندق وغيرهما. وبعد أن أورد البراهين والحجج الموجبة لقتالهم، قال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾؛ أي: أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجبناً ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾؛ أي: فالله أحق أن تخشوا مخالفة أمره، وترك مخالفة عدوه، إذ المؤمن حق الإيمان لا يخشى إلا الله؛ لأنه يعلم أنه هو الذي بيده النفع والضر، ولا يقدر أحد على مضرة أو نفع إلا بمشيئته، فإن خشي غيره بمقتضى سننه تعالى في أسباب الضر والنفع. . فلا ترجح خشيته على خشية الله، بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره.

وخلاصة ما سلف: أنه بعد تلك الحجج التي تقدم ذكرها، لم يبق من سببٍ يمنع قتالهم إلا الخشية لهم والخوف من قتالهم، وخشية الله أحق وأجدر إن كنتم مؤمنين حقاً، كيف وقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة مع ضعفكم وقوتهم، وقلتكم وكثرة عددهم، وفي الآية إيماءٌ إلى أن المؤمن يجب عليه أن يكون أشجع الناس، وأعلاهم همةً، ولا يخشى إلا الله.

وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم وفند الشبه المانعة من ذلك. .

أمرهم به أمراً صريحاً مع وعده لهم بالنصر وإظهار المؤمنين عليهم، وهذه العدة من أخبار الغيب في وقعةٍ معينة، وقد صدق الله وعده فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾؛ أي: قاتلوا أيها المؤمنون المشركين الذين نقضوا العهد وبدؤوا بالقتال، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم؛ أي: قاتلوهم كما أمرتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك . . ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: يقتلهم بسيوفكم ورماحكم وسلاحكم، والمراد بالتعذيب هنا: القتل.

فإن قلت[1]: كيف الجمع بين قوله: هنا ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ وبين قوله: في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾؟

قلت: المراد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ عذاب الاستئصال، يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعاً وأنت فيهم، وبالعذاب هنا قتل من نقض العهد، والفرق بين العذابين: أن عذاب الاستئصال يتعدى إلى المذنب وغير المذنب، وإلى المخالف والموافق، وعذاب القتل لا يتعدى إلا إلى المذنب المخالف. ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾؛ أي: يذلهم بالقهر والأسر وينزل بهم الذل والهوان ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ﴾؛ أي: يبرىء داء قلوب طائفة ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ مما أصابهم من أذى المشركين، ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه . . فإنه يشفى ويفرح بذلك، ويعظم سروره ويصير ذلك سبباً لقوة اليقين وثبات العزية، قال مجاهد والسدي: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وكان يومئذٍ في خزاعة مؤمنون كثير، حيث أعانت قريش بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، حتى قتلوا منهم، ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر، حين أخذ النبيُّ ﷺ وأصحابه ثأرهم منهم يوم فتح مكة ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾؛ أي: يذهب الله سبحانه وتعالى وجد قلوب طائفة من المؤمنين المذكورين وحزنها بما ناله من بني بكر من الفتك، روي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السيف إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر» ذكره البغوي بغير سند.

---

(١) الخازن.

وقد وفى الله سبحانه وتعالى بما وعدهم، من الأمور الخمسة، والآية من المعجزات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في جواب الأمر بالقتال خمسة أمور، وقوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ مستأنفٌ ولم يجزم[1]؛ لأن توبته على من يشاء ليست جزاء على قتال الكفار؛ أي: ويهدي الله سبحانه وتعالى من يشاء هدايته من أهل مكة وغيرهم إلى الإسلام، فيمنُّ عليه بالتوبة من الشرك والكفر، ويهديه إلى الإسلام، كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين، ثم مَنَّ الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة، فأسلموا ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الأزلية بالسعادة، فيتوب عليه ويهديه إلى الإسلام وهو العليم بما لا تعلمون من استعدادهم في الحال والاستقبال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه لهم من الأحكام، لإقامة دينه وإظهاره على الدين كله.

ومن سننه تعالى: تفاوت البشر في العقائد والأخلاق والأعمال، وقابليَّة التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات، بحسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع.

وقرأت فرقة[2]: ﴿ويذهب غيظ﴾ فعلاً لازماً غيظ فاعل به، وقرأ زيد بن عليّ كذلك، إلا أنه رفع الباء، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ رفعاً وهو استئناف، وقرأ زيد بن عليّ والأعرج وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفيُّ وعمرو بن عبيد وعمر ابن فائد وأبو عمرو ويعقوب فيما روي عنهما: ﴿ويتوبَ الله﴾ بنصب الباء جعله داخلاً في جواب الأمر من طريق المعنى، قيل: ويمكن أن تكون التوبة داخلة في الجزاء.

و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى همزة الاستفهام التوبيخي، وبل التي للإضراب الانتقالي، أي: بل أظننتم أيها المؤمنون ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾؛ أي: أن

---

(١) الكرخي.
(٢) البحر المحيط.

يترككم الله سبحانه وتعالى بدون تكليفكم بالقتال الذي سئمتموه ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾؛ أي: والحال أنه لم يظهر الله سبحانه وتعالى الذين جاهدوا منكم بالإخلاص؛ أي: لم يميزهم عن غيرهم، ممن جاهدوا بدون إخلاص، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ عطف على ﴿جَٰهَدُواْ﴾ داخل في الصلة؛ أي: ولم يظهر الذين لم يتخذوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَلَا رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿وَلِيجَةً﴾؛ أي: بطانة وأصدقاء من الكفار؛ أي: أم حسبتم أن يترككم الله سدى بلا امتحان بالتكاليف، والحال أنه لم يميز بين المجاهدين المخلصين الذين لم يتخذوا وليجةً وبطانةً من الكفار، وبين غيرهم ممن لم يخلصوا في جهادهم واتخذوا وليجةً من الكفار؛ أي: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق، الذي يستحق به الثواب والعقاب.

والمعنى: كيف تحسبون أنكم تتركون، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، ولم يتبين المتخذ وليجةً من غير المتخذ؟

والخلاصة[1]: أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم، بغير فتنةٍ ولا امتحانٍ، ولم يتبين المجاهدون المخلصون منكم، الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانةً من المشركين، من المنافقين الذين اتخذوا لأنفسهم وليجة، من المشركين الذين يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة الإسلامية، ويقفونهم على سياسة الأمة المحمدية، كما يفعل المنافقون في كل زمان؟

وقد عبَّر سبحانه عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين، وعن عدم تميزهم من المنافقين وضعفاء الإيمان بعدم علمه بهم؛ لأن عدم علمه بالشيء دليلٌ على عدم وجوده، ولا يظهر هؤلاء الممتازون إلا بالابتلاء بالشدائد، وذلك أنه لما فرض القتال.. تبين المنافق من غيره، ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي أعداءهم، وقد مضت سنته تعالى بأن التكليف الذي يشق على الأنفس هو الذي يمحص ما في

---

(١) المراغي.

القلوب، ويطهر السرائر بقدر ما فيها من حسن الاستعداد، ويبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء استعدادها.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من موالاة المشركين وغيرها، فيجازيكم عليه، فيجب على الإنسان أن يبالغ في أمر النية ورعاية القلب.

وخلاصة المعنى: أظننتم أن تتركوا قبل أن يتم التمحيص والتمييز بين الصادقين في جهادهم، والكاذبين فاسدي السريرة، ومتخذي الوليجة، وهو لم يعلم الصادقين في الجهاد؛ لأنهم لم يتميزوا من غيرهم بالفعل، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود له، إذ لا يخفى عليه شيءٌ من أمركم وهو الخبير بكل ما تعملون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، مناسبةً لقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ وقرأ الحسن ويقعوب في رواية رُوَيْسٍ وسلاَّم: بالياء على الغيبة التفاتاً.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يصح ولا يستقيم للمشركين ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ تعالى ومتعبداته بدخولها والقعود فيها وخدمتها، فإذا دخل الكافر بغير إذن المسلم.. عزر، وإن دخل بإذنه.. لم يعزر، لكن لا بد من حاجة، فيشترط للجواز الإذن والحاجة، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن: (أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد، وهو كافر) حالة كونهم ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ قولاً وفعلاً، حال من فاعل يعمروا؛ أي: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين، عمارة متعبدات الله، والكفر بالله قولاً؛ لأنهم يقولون في طوافهم: لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك، مع قولهم: نحن نعبد اللات والعزى، وفعلاً؛ لأنهم كلما طافوا.. سجدوا للأصنام، فلم يزدادوا بذلك إلا بعداً من الله ومن مساجده.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَعۡمُرُواْ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم، من عمر

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

يعمر، من باب قتل، وقرأ ابن السميقع: ﴿أن يُعمِروا﴾ بضم الياء وكسر الميم، من أعمر الرباعي؛ أي: أن يعينوا على عمارته، وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن والجحدري ويعقوب: ﴿مسجد الله﴾ بالإفراد وقرأ باقي السبعة، ومجاهد وقتادة، وأبو جعفر والأعرج وشيبة: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالجمع، ومن قرأ بالإفراد: فيحتمل أن يراد به المسجد الحرام لقوله: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أو الجنس، فيندرج فيه سائر المساجد، ويدخل المسجد الحرام دخولاً أوليًّا، ومن قرأ: بالجمع فيحتمل، أن يراد به المسجد الحرام، وإنما جمعه؛ لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، فكان عامره عامر المساجد، وأن يراد به سائر المساجد، كما هو ظاهر اللفظ. وقرأ زيد بن علي ﴿شَٰهِدُونَ﴾ على إضمار ﴿هم شاهدون﴾.

وحاصل الآية: أي ما كان[1] من شأن المشركين ولا مما ينبغي لهم، أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الأعظم، وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة، أو الخدمة والولاية عليه، ولا أن يزوروه حجاجاً أو معتمرين، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر، قولاً وعملاً، بعبادتهم للأصنام، والاستشفاع بها، والسجود لما وضعوه منها في البيت عقب كل شوط من طوافهم، وقولهم حينئذٍ: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً، هو لك تملكه وما ملك.

إذ في عملهم هذا جمع بين الضدين، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية، بعبادته تعالى وحده، وذلك لا يقع إلا من المؤمن الموحد، لكنهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه في العبادة.

وخلاصة ذلك: أنهم يجمعون بين أمرين لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح، عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من الأصنام والأوثان، وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾؛ أي: إنهم كفروا كفراً صريحاً، معترفاً به لا تمكن المكابرة فيه، والمراد بالعمارة الممنوعة

---

(١) المراغي.

عن المشركين للمساجد: الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها، كأن يكون الكافر ناظراً للمسجد وأوقافه، أما استخدام الكافر في عمل لا ولاية فيه، كنحت الحجارة والبناء والنجارة.. فلا يدخل في ذلك.

وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجداً بناه كافر، أو أوصى ببنائه أو ترميمه، إذا لم يكن في ذلك ضرر ديني ولا سياسي، كما لو عرض اليهود الآن على المسلمين أن يعمروا المسجد الأقصى، بترميم ما كان قد تداعى من بنائه، أو بذلوا لذلك مالاً.. لم يقبل منهم؛ لأنهم يطمعون في الاستيلاء على هذا المسجد، فربما جعلوا ذلك ذريعةً لادعاء حق لهم فيه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون الكافرون بالله، وبما جاء به رسوله قد ﴿حَبِطَتۡ﴾ وبطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، وقرى الضيف، وصلة الرحم، ونحو ذلك، مما كانوا يعملونه في دنياهم، فلم يبق له أثرٌ ما في صلاح أنفسهم، ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده، فصارت هباءً منثوراً.

ونحو هذه الآية قوله: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود ودوام؛ لكفرهم الذي أحبط أحسن أعمالهم ودسَّى أنفسهم، حتى لم يبق لها أدنى استعداد لجوار ربهم في دار الكرامة والنعيم.

وقرأ زيد بن علي(١): ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بالياء نصباً على الحال، وفي النار هو الخبر، كما تقول: في الدار زيد قاعداً ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بنحو البناء والتزيين بالفرش والسرج، وقال أبو حيان(٢): ويتناول عمارتها رمَّ ما تهدّمَ منها، وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر ـ ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله ـ، وصونها عما لم تبن له، من الخوض في أحوال الدنيا، وفي

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد.. فاشهدوا له بالإيمان»، انتهى.

وقرأ الجحدري وحماد بن أبي سلمة، عن ابن كثير: ﴿مسجد الله﴾ بالإفراد وقرأ السبعة وجماعة بالجمع، ذكره في «البحر»، والظاهر: أن الجمع هنا حقيقة؛ لأن المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد أقطار الأرض؛ أي: إنما يصح أن يعمر المساجد عمارة يعتد بها ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ تعالى؛ لأن المساجد موضعٌ يعبدون الله فيه، فمن لم يكن مؤمناً بالله.. لا يبني موضعاً يعبد الله فيه ﴿و﴾ آمن بـ ﴿اليوم الآخر﴾؛ لأن الاشتغال بعبادة الله لا تفيد إلا في القيامة، فمن أنكر القيامة، لا يعبد الله، ومن لا يعبد الله، لا يبني بناءً لعبادة الله تعالى.

ولم[1] يذكر الإيمان بالرسول؛ لأن الإيمان باليوم الآخر إنما هو متلقف من أخبار الرسول، فتضمن الإيمان بالرسول، أو لم يذكر لما علم وشهر من أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما، مقترنين مزدوجين، كأنهما شيءٌ واحدٌ لا ينفك أحدهما عن صاحبه، فانطوى تحت ذكر الإيمان بالله الإيمان بالرسول ﷺ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وآدابها، فإن المقصود الأعظم من بناء المساجد: إقامة الصلوات ﴿وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أدى الزكاة المفروضة لمستحقيها، وإنما اعتبر[2] إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المسجد؛ لأن الإنسان إذا كان مقيماً للصلاة، فإنه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد بذلك الحضور، وإذا كان مؤدِّياً للزكاة.. فإنه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين، لطلب أخذ الزكاة، فتحصل عمارة المسجد بذلك الحضور، ولأنَّ[3] الإنسان لا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مقيماً للصلاة، مؤدِّياً للزكاة؛ لأن الصلاة والزكاة واجبان، وعمارة المسجد نافلةٌ، ولا يشتغل الإنسان بالنافلة، إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: ولم يخف في باب الدين غير الله تعالى، ولم يترك أمر الله لخشية

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

الناس، ولم يختر على رضا الله رضا غيره، وإنما قلنا في باب الدين؛ لأن الخشية عن المحاذير جبلية، لا يكاد الرجل العاقل يتمالك عنها.

والمعنى: أن[1] المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله على الوجه الذي بينه في كتابه ـ من توحيده، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه عباده، ويجزي فيه كل نفس بما كسبت ـ مع إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الجامع بين أركانها وآدابها، وتدبر تلاوتها وأذكارها، وبذا تكسب من يقيمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه، ومع إعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، ومع خشية الله دون غيره، مما لا ينفع ولا يضر، كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله تعالى، خوفاً من ضرره أو رجاءً لنفعه.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: فيرجوا أولئك الموصوفون بالصفات الأربعة أن يكونوا من المهتدين؛ أي: من الذين سبقت لهم الهداية في علمه؛ أي: فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام، هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حسًّا ومعنًى، بحسب سننه تعالى في أعمال البشر وتأثيرها في نفوسهم، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنان النعيم، لا أولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإسلام، وقيل: (عسى) في كلام الله للوجوب والتحقق، والمعنى حينئذٍ: فحقيقٌ واجبٌ كون أولئك الموصوفين بالصفات السابقة من المهتدين.

وفي ذلك[2] قطعٌ أطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة.. جعل حاله حال من ترجى له الهداية، فكيف بمن هو عار

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

منها؟ وفي ذلك ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة، فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث الواردة في عمارة المساجد وبنائها

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قال: «من غدا إلى المسجد، أو راح.. أعدَّ الله له في الجنة نزلاً، كلما غدا أو راح» متفق عليه. والنزل: ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله ﷺ، ولامه الناس.. قال: إنكم أكثرتم، وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله.. بنى الله له بيتاً في الجنة» متفق عليه. وأخرجه الترمذي وفي رواية: «بنى الله له في الجنة مثله».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً، صغيراً كان أو كبيراً.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه الترمذي.

وعن عمرو بن عبسة، أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً ليُذكر الله فيه.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه النسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ بنى لله مسجداً، ولو كمفحص - الموضع الذي تفحص التراب عنه، وتكشفه لتبيض فيه - قطاةٍ لبيضها.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه أحمد.

وروى الشيخان وأبو داود وابن ماجه: أنَّ امرأة كانت تقُمُّ المسجد - تَكْنِسُهُ - فماتت، فسأل عنها النبي ﷺ، فقيل له: ماتت، فقال: «أفلا كنتم آذنتموني بها لأصلي عليها، دلوني على قبرها» فأتى قبرها فصلى عليها.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد.. فاشهدوا له بالإيمان». وتلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ...﴾ الآية،

أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

والاستفهام في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ للإنكار، وهو كلام مستأنف خوطب به المشركون، التفاتاً من الغيبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا...﴾ إلخ، وقيل: خوطب به المؤمنون الذين تنازعوا أيّ الأعمال أفضل.

والسقاية والعمارة مصدران، كالسعاية والحماية، فالسقاية: إسقاء الحجاج، وإعطاء الماء لهم، والعمارة: تعمير المسجد تعميراً حسياً أو معنوياً، كما مر، ولا بد من تقدير مضاف، ليتفق الموضوع والمحمول، إما في الآخر، والتقدير: أجعلتم أيها المشركون، أو المؤمنون، سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام ﴿كـ﴾ عمل ﴿من آمن بالله﴾ سبحانه وتعالى، أو كإيمان من أمن بالله. وإما في الأول، والتقدير: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الذين هم المشركون، كمن آمن بالله في الفضيلة وعلو الدرجة، ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن الزبير وغيره: ﴿أجعلتم سُقاة الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرامِ﴾ جمع ساقٍ وعامر، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير مضاف.

والمراد[1]: أنه لا ينبغي أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة في الفضيلة كمن آمن بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في طاعته لإعلاء كلمته، فإنَّ السقاية والعمارة، وإن كانتا من أعمال البر والخير، فأصحابهما لا يدانون أهل الإيمان والجهاد في علوِّ المرتبة وشرف المقدار.

والمعنى[2]: أنَّ الله تعالى أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين، فأنكر عليهم ذلك ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين، وتفاوتهم وعدم استوائهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر، المجاهدة في سبيله، ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون؛ أي: إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين.. فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟!

أي: لا يساوي الفريق الأول الفريق الثاني، لا في صفته، ولا في عمله في حكم الله، ولا في مثوبته وجزائه عليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فضلاً عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركي قريش، الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها.

ثم حكم عليهم بالظلم، وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يهديهم إلى الحق في أعمالهم، ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم، إذ ليس من سننه تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدي الظالم إلى شيء من ذلك، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت، وحفظ مفتاحه، وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذي يزع النفس عن البغي والظلم، ويحبب إليها الحق والعدل، ويرغبها في الخير وعمل البر، ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا للفخر والرياء، وعلى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهما مصدران كما مرَّ، وقرأ عبد الله بن الزبير والباقر وأبو حيوة وابن أبي وجرة السعديُّ وسعيد بن جبير: ﴿سُقاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرامِ﴾ جمع ساق كرام ورماة وجمع عامر، كصانع وصنعة، وكامل وكملة إلا أن ابن جبير نصب المسجد على إرادة

---

(١) البحر المحيط.

التنوين في عمرة، وقرأ الضحاك: ﴿سُقاية﴾ بضم السين ﴿وعمرة﴾ بنى الجمع على فعال، كرخل ورخال الرخل: الأنثى من أولاد الضأن وكان المناسب أن يكون بغيرها، لكنه أدخل الهاء كما دخلت في حجارة.

ثم صرح بالفريق الفاضل، وبين مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وبجميع ما يجب الإيمان به، مبتدأ. ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾؛ أي: فارقوا أوطانهم من مكة إلى المدينة، طلباً لرضا الله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ الكافر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي في طاعته لإعلاء كلمته، لا للحمية والوطنية باذلين ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ النفيسة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ العزيزة ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ خبر المبتدأ؛ أي: أعظم درجة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل، والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد، اللذين رأى بعض المسلمين أو المشركون أنهما من أفضل القربات بعد الإسلام أو أنهما أفضل من الإسلام؛ أي: أحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة؛ أي: فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد، بنوعيه النفسي والمالي، أعلى مرتبة وأعظم كرامةً ممن لم يتصف بهما، كائناً من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون - المهاجرون المجاهدون ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بمثوبة الله تعالى وكرامته، دون من لم يكن مستجمعاً لهذه الصفات الثلاث، وإن سقى الحاج وعمر المسجد الحرام، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد، ولا ثواب للكافر عليهما في الآخرة، فإن الكفر بالله ورسله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية، وإن فرض فيها حسن النية. ثم بين سبحانه ذلك الفوز العظيم بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾؛ أي: يبشر هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين ﴿رَبُّهُم﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ تعالى، أي: بمنفعة خالصة دائمة، مقرونة بالتعظيم من قبل الله تعالى، جزاء على إيمانهم الخالص ﴿و﴾ بـ ﴿رضوان﴾ كامل لا يشوبه سخط على جهادهم الذي فيه بذل الأنفس والأموال ﴿و﴾ بـ ﴿جناتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم في مقابلة هجرتهم.

أي[1]: يبشرهم ربهم في كتابه على لسان رسوله وعلى لسان ملائكته حين الموت برحمةٍ منه ورضوان كامل من لدنه، لا يشوبه سخط، وجنات تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمه وكماله حال، كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبَّداً، لا نهاية له، لا يموتون ولا يخرجون منها، والتنوين في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم والنعيم[2] المقيم الدائم المستمرّ، الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود، تأكيدٌ له، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل؛ أي: أعطاهم الله تعالى هذه الأجور العظيمة، لكون الأجر الذي عنده عظيماً، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

ولمَّا وصف[3] الله سبحانه وتعالى المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال.. قابلهم على ذلك التبشير بثلاث، وبدأ بالرحمة التي هي النجاة من النيران في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة ترك الأوطان، ثم ثلث بالجنات التي هي المنافع العظيمة في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الأنفس والأموال، وإنما خصوا بالأجر العظيم؛ لأنَّ إيمانهم أعظم الإيمان.

وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف وحميد بن هلال[4]: ﴿يَبشُرهم﴾ بفتح الياء وضم الشين خفيفةً. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿ورُضوان﴾ بضم الراء، وتقدم ذكر ذلك في أوائل آل عمران، وقرأ الأعمش: بضم الراء والضاد معاً. قال أبو حاتم: لا يجوز هذا. انتهى، وينبغي أن يجوز فقد قالت العرب: سلطان، بضم اللام، وأورده الصرفيون في أبنية الأسماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: إن ما عند الله من الأجر على الإيمان، وصالح العمل الذي من أشقه الهجرة والجهاد، عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذي تفضل به ومنحه لعباده

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

المكرمين، ولا سيما على الإيمان الكامل، الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل والسكن، وعلى إنفاق المال الذي هو أحب شيء إلى النفس، وعلى بذل النفس، التي هي أعز شيء على الإنسان.

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء، ما بين روحي وجسماني:

فالأول: الرحمة والرضوان، والرضوان: هو نهاية الإحسان، وهو أعلى النعيم، وأكمل الجزاء، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ وما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

والثاني: هو النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾؛ أي: أقاربكم؛ أي: لا تجعلوا آباءكم وإخوانكم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء وبطانةً لأنفسكم، تفشون إليهم أسراركم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: إن أحب الآباء والإخوان الكفر واختاروه ﴿عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ بالله ورسوله، وأقاموا عليه وتركوا الإيمان.

والمعنى[1]: أي لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، تنصرونهم في القتال، وتظاهرون لأجلهم الكفار، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين، وما يستعدون به لقتال المشركين، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان، فإن في ذلك قوةً

---

(١) المراغي.

للمشركين على قتال المؤمنين، دحضاً لشوكتهم، وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام إلى نزول هذه السورة، فقد كتب حاطب بن أبي بلتعة، وهو من أهل بدر، وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركي مكة خفيةً، يعلمهم بما عزم عليه النبي ﷺ من قتالهم؛ ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافؤنه عليه بحماية ما كان له عندهم من قرابة، وفي ذلك نزلت سورة الممتحنة، للنهي عن موالاة أعداء الله وأعدائهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وهم على تلك الحال في الدين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتولون لهم ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم ولجماعتهم، بوضعهم الموالاة في غير موضعها، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة والمودة في محل العداوة وقد حملهم على هذا الظلم نعرة القرابة وحمية الجاهلية، وذكر[1] الآباء والإخوان لأنهم أهل الرأي والمشورة، ولم يذكر الأبناء هنا لأنهم في الغالب تبع لآبائهم، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿أن استحبوا﴾، بفتح الهمزة، جعله تعليلاً وغيره بكسرها جعله شرطاً.

والخطاب[2] في هذه الآية للمؤمنين كافة وهو حكمٌ باقٍ إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وقالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة، فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر، ثم حكم على من يتولىٰ من استحب الكفر على الإيمان، من الآباء والإخوان بالظلم، فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدِّها. ولمَّا نزلت هذه الآية السابقة.. قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا.. ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا، وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: حواشيكم ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ أي: زوجاتكم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: أهلكم الأدنون الذين تعاشرونهم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

كالأعمام وأبنائهم، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ بالإفراد بغير ألف. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن: ﴿وعشائركم﴾ بالألف على الجمع ﴿وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾؛ أي: أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ﴾ كسادها؛ أي: عدم رواجها وربحها بفراقكم لها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾؛ أي: منازل تحبون الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾؛ أي: أعجب عندكم ﴿مِّنَ﴾ طاعة ﴿الله﴾ والهجرة إلى ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، بالحبِّ الاختياري والقراء على[2] نصب ﴿أحبَّ﴾؛ لأنه خبر ﴿كان﴾ وكان الحجاج بن يوسف يقرأ: ﴿أحبُّ﴾ بالرفع ولحنه يحيى بن يعمر، وتلحينه إياه ليس من جهة العربية، وإنما هو لمخالفة إجماع القراء النقلة، وإلا فهو جائز في علم العربية على أن يضمر في ﴿كان﴾ ضمير الشأن. ويلزم ما بعدها بالابتداء والخبر، وتكون الجملة في موضع نصب على أنها خبر ﴿كان﴾ ﴿و﴾ من ﴿جهادٍ في سبيله﴾؛ أي: في طاعته ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: فانتظروا عذاب الله، مقيمين بمكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقضائه فيكم وهو عقوبته التي تحل بكم عاجلاً أو آجلاً، وهذا أمر تهديد وتخويف، وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة، وفيه بُعد، فقد روي أن هذه السورة نزلت بعد الفتح، ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: لا يرشد القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الضلال، وفي هذا دليلٌ على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا.. وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا، ليبقى الدين سليماً.

ومعنى الآية[3]: قل لهم يا محمد: وإن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها، من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال، والتجارة على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله الذي وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة.. فانتظروا حتى يأتي أمر الله؛ أي: عقوبته التي تحل بكم عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها في أربعة:

١ ـ مخالطة الأقارب، وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر الباقي بلفظ العشيرة.

٢ ـ الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.

٣ ـ الرغبة في تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة.

٤ ـ الرغبة في الأوطان والدور التي بنيت للسكنى.

وخلاصة ذلك: إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله، ومن المجاهدة في سبيله.. فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة.

وبتفصيل ما تقدم في الآية نجد أنها حوت أموراً ثمانية من أفضل ما يحب:

١ ـ حب الأبناء للآباء وهو غريزيٌّ في النفوس، فالولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته وطبائعه، من جسمية وخلقية، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم في أسواقهم وفي معاهد الحج، كما قال تعالى حاثًّا على ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٢ ـ حب الآباء للأبناء وهو غريزيٌّ أيضاً، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه، أو أشد، ويحرم نفسه كثيراً من الطيبات إيثاراً له بها في حاضر أمره ومستقبله، ويكابد الأهوال، ويركب الصعاب، ويقوم بتربيته وتعليمه، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣ ـ حب الإخوة وهو يلي في المرتبة حب البنوة والأبوة، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون في الكفاح في الحياة والبيوت التي سلمت فطرة أهلها وكرمت أخلاقهم، يحبون إخوتهم كأنفسهم وأولادهم، ويوقرون كبيرهم ويرحمون

صغيرهم، ويكفلون من تركه أبوه صغيراً فيتربى مع أولادهم كأحدهم.

٤ ـ حب الزوجة، وبالزوجية يتحد بشران، يتمم وجود كل منهما وجود الآخر، وينتجان بشراً مثلهما، ومن ثم امتن الله علينا به فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

٥ ـ حب العشيرة، وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر، في مواطن القتال والنزال، والذود عن الحمى والحريم، وهو يكون على أشده في أهل البداوة ومن على مقربة منهم من أهل الحضر.

٦ ـ حب الأموال المقترفة؛ أي: المكتسبة، وهو أقوى من حب الأموال الموروثة؛ لأنَّ عناء النفس في جمعها يجعل لها في قلبه منزلة لا تكون لما يجيء من المال عفواً.

٧ ـ حب التجارة التي يخشى كسادها في حال الحرب، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة تجارة يخشون كسادها في ذلك الحين؛ لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين، وكانت أسواقها تنصب في موسم الحج، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة.

٨ ـ حب المساكن الطيبة المرضية، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة في مكة، كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكن، لما فيها من المرافق وأسباب الراحة.

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروهاً مبغوضاً لدى النفوس، فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

أما حبه تعالى: فيجب أن يكون فوق هذه الأنواع لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام، وتسخير منافع الدنيا للناس، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان في آلاء الله في خلقه، وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وكذلك حب رسوله، يجب أن يكون فوق هذه أيضاً فإنه ﷺ كان المثل الأعلى في أخلاقه وآدابه، وقد أرسله الله تعالى هدايةً للعالمين إلى يوم الدين.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الخارجين من حدود الدين والشريعة، ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد.

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التي يهتدي إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، ومن ثم هم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله.

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل حب الله ورسوله ﷺ:

منها: ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعاً: «ثلاث من كن فيه.. وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وعنه أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع، والذكر الحق: هو ذكر القلب مع حسن النية وصحة القصد، وتأمُّل سنن الله وآياته في الخلق، وأن تذكر حين رؤية كل شيء من صنع الله تعالى وسماع كل صوت من مخلوقات الله أنه يسبح بحمده تعالى، ويدل على قدرته وحكمته ورحمته.

ومن أقام فرائض الله كما أمر وترك معاصيه كما نهى.. فإنه يصل بفضل الله تعالى إلى المقام الذي أشار إليه في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته.. كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي

يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» رواه البخاري.

الإعراب

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

﴿أَلَا﴾ حرف تحضيض مضمَّن معنى التوبيخ ﴿تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل النصب صفة ﴿قَوۡمٗا﴾ ﴿وَهَمُّواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿هموا﴾ ﴿وَهُم﴾ مبتدأ ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بدؤوا﴾ وجملة ﴿بدؤوا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿هموا﴾ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي مضمن معنى الإنكار ﴿تخشوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر و﴿الفاء﴾: عاطفة مضمنة معنى التعليل، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ على كونها معلَّلة لها ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر بدل اشتمال من المبتدأ؛ أي: فخشية الله أحق وأجدر بكم ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاخشوا الله تعالى. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من

الإعراب ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿وَيَنصُرْكُمْ﴾ فعل ومفعول معطوف عليه أيضاً وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿ينصركم﴾ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه معطوف عليه أيضاً ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمٍ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه معطوف عليه أيضاً، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿عَلَىٰ مَن﴾ جار ومجرور متعلق بيتوب ﴿يَشَاءُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاء التوبة عليه ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان والجملة مستأنفة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى الهمزة التي للاستفهام الإنكاري، وبل التي للإضراب الانتقالي ﴿حَسِبْتُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر ساد[1] مسد مفعولي حسب تقديره: بل أظننتم ترككم. ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿لَمَّا﴾ حرف نفي وجزم ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لمَّا﴾ والجملة في محل النصب، حال من واو ﴿تُتْرَكُوا﴾ ﴿جَاهَدُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿جَاهَدُوا﴾ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ جازم وفعل وفاعل معطوف على ﴿جَاهَدُوا﴾ على كونها صلة الموصول، أو في محل النصب حال من واو ﴿جَاهَدُوا﴾ تقديره: ﴿جَاهَدُوا﴾ حال كونهم غير متخذين وليجة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَتَّخِذُوا﴾ أو في محل المفعول الثاني إن كان الاتخاذ بمعنى التصيير ﴿وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفان على الجلالة

(١) إعراب النحاس.

﴿وَلِيجَةً﴾ مفعول به، أو مفعول أول ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿خَبِيرٌ﴾ خبره ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿خَبِيرٌ﴾ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة بـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسماً مؤخراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: ما كان عمارة مساجد الله كائنة للمشركين مستحقةً لهم وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ حال من واو ﴿يَعْمُرُوا۟﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بـ ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَفِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿في النار﴾: متعلق بـ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة أولئك.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه ﴿مَنْ﴾ موصولة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ وكذلك جملة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفة عليه ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة مضمنة معنى التعليل أو استئنافية ﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمها ﴿أَن يَكُونُواْ﴾ ناصب وفعل ناقص واسمه ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ خبره وجملة ﴿يَكُونُواْ﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ ولكنه في تأويل اسم الفاعل، تقديره: عسى أولئك كونهم مهتدين؛ أي: عسى أولئك كائنين من المهتدين، والمعنى: حق كونهم من المهتدين، وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أو مستأنفة.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري ﴿جعلتم﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ مفعول أول ومضاف إليه ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ معطوف عليه ﴿كَمَنْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لـ ﴿جعل﴾ ولكنه على تقدير مضاف كما مر في بحث التفسير؛ أي: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كائنين كإيمان من آمن بالله ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة لـ ﴿اليوم﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿من﴾ الموصولة ﴿وَجَٰهَدَ﴾ فعل ماض ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَهَاجَرُواْ

﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ معطوفان عليه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق به أيضاً ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أموالهم﴾ ﴿أَعْظَمُ﴾ خبر المبتدأ ﴿دَرَجَةً﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَعْظَمُ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ متعلق ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾ صفة الرحمة ﴿وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾ معطوفان على رحمة ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿نَعِيمٌ﴾ وهو مبتدأ مؤخر ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة له والجملة الاسمية في محل الجر صفة لجنات. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة من ضمير ﴿لَّهُمْ﴾ أو من ضمير ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر مقدم ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أي من الإضافة وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، مجزم بـ ﴿لا﴾ الناهية ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ مفعول أول، ومضاف إليه ﴿وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ معطوف عليه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثان، لـ ﴿تَتَّخِذُوٓا۟﴾ والجملة الفعلية جواب النداء ﴿إِنِ﴾ حرف شرط ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ﴾ فعل وفاعل

ومفعول، في محل الجزم بـ ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ لتضمينه معنى اختاروا، وجواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن استحبوا الكفر على الإيمان لا تتخذوهم أولياء، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً ﴿أولئك﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة. وإن شئت قلت ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ اسمها ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ﴾ معطوفات على ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿أموال﴾ ﴿وَتِجَـٰرَةٌ﴾: معطوف عليه أيضاً ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿تجارة﴾ ﴿أَحَبَّ﴾: خبر كان ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق به ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة ﴿وَجِهَادٍ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿وَجِهَادٍ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إِن﴾

الشرطية في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَأْتِيَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَأْتِيَ﴾ والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره: إلى إتيان الله ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تربصوا﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ يقال: هَمَّ بالشيء يهم هماً ـ من باب رد ـ إذا أراده. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أصله أتخشيونهم تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار تخشون بوزن تفعون ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ وفي «المختار» الغيظ غضب كامن للعجز، تقول: غاظه: من باب باع فهو مغيظٌ، انتهى.

﴿وَلِيجَةً﴾ وفي «المصباح» ولج الشيء في غيره يلج ـ من باب وعد ـ ولوجاً دخل، وأولجته إيلاجاً أدخلته، والوليجة البطانة، اهـ ويراد بها هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين، وفي «السمين» والوليجة فعيلة، من الولوج، وهو الدخول والوليجة من يداخلك في باطن أمورك، وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء وليس منه، فهو وليجة، والرجل في القوم وليس منهم يقال له: وليجة ويستعمل بلفظ واحد للمفرد والمثنى والمجموع، وقد يجمع على ولائج وولج، كصحيفة وصحائف وصحف اهـ.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ المساجد جمع مسجد: وهو في الأصل مكان السجود، ثم صار علماً على البيت الذي يعبد الله وحده فيه، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ وعمارة المسجد، تطلق تارة على لزومه والإقامة فيه للعبادة، أو لخدمته بتنظيفه أو ترميمه، أو نحو ذلك، وتطلق أخرى على زيارته للعبادة فيه، ومنها: النسك المخصوص المسمى

بالعمرة، وفي «المصباح»: عمرت الدار عمراً، من باب قتل، بنيتها والاسم العِمارة بالكسر، اهـ وفي «المختار»: وعمرت الخراب عمراً، من باب كتب فهو عامر؛ أي: معمور، اهـ.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ السقاية: الموضع الذي يسقى فيه الماء في المواسم وغيرها، ولكن المراد بها هنا المصدر؛ أي: إسقاء الحجاج، وإعطاء الماء لهم، وسقاية العباس موضع بالمسجد الحرام، يستقي فيه الناس، وهو حجرة كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم، لا تزال ماثلة إلى الآن، ولكن جعلها السعوديون الآن تحت الأرض، وقد يراد[١] بالسقاية الحرفة، كالحجابة، وهي سدانة البيت، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش، وقد أقرَّهما الإسلام وفي الحديث «كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» وقد كانت قريش تسقي الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام وفي «السمين» قوله ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الجمهور على قراءتهما مصدرين، على فعالة بكسر الفاء، كالصيانة والوقاية والتجارة، ولم تقلب الياء لتحصنها بتاء التأنيث، بخلاف رداءة وعباءة لطرو تاء التأنيث فيهما، وحينئذٍ فلا بد من حذف مضاف، إما من الأول، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كمن آمن بالله، وإما من الثاني، تقديره: أجعلتم السقاية والعمارة كإيمان من آمن، أو كعمل من آمن، كما مر.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ و﴿أَعْظَمُ﴾[٢]: اسم تفضيل يجوز أن يبقى هنا على بابه من التفضيل، ويكون ذلك على تقدير: اعتقاد المشركين بأنَّ في سقايتهم وعمارتهم فضيلةً، فخوطبوا على اعتقادهم، أو يكون التقدير: أعظم درجة من الذين آمنوا ولم يهاجروا، ولم يجاهدوا، وقيل: أعظم ليس على بابه، بل هو كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ وكأنه قيل: عظيمون درجة، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: بالمكانة لا بالمكان.

﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ استحب كذا وأحبه بمعنى واحد فالسين والتاء فيه زائدتان ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه اللائق به؛ لأنهم وضعوا المحبة في غير موضعها ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ والعشيرة[1]: الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد، وعشيرة الرجل ذوو قرابته الأدنون الذين يعاشرونه، ومن شأنهم التعاون والتناصر، وهو اسم جمع، وقرأ أبو بكر وحماد: ﴿عشيراتكم﴾ بجمع السلامة، فقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات، وإنما يجمعونها على عشائر جمع تكسير ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ والاقتراف: الاكتساب، يقال: اقترف إذا اكتسب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الدنو، والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة: الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، وكسادها عدم نفاقها، لفوات وقت بيعها، بالهجرة ومفارقة الأوطان، يقال: كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له نَفاق ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ جمع مسكن، وهو المنزل المتخذ سكناً، والمراد بها هنا: المنازل التي تعجبهم وتميل إليها أنفسهم، ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله والتربص الانتظار و﴿أمره﴾ عقوبته عاجلاً أو أجلاً، كما مر ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وفي «التحرير» الفسق هنا: الكفر، ويدل عليه ما قابله من الهداية والكفر ضلال، والضلال: ضد الهداية، وإن كان ذلك في المؤمنين الذين لم يهاجروا، فيكون الفسق: الخروج عن الطاعة، فإنهم لم يمتثلوا أمر الله تعالى ولا أمر رسوله ﷺ في الهجرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة والفصاحة والبيان والبديع أنواعاً:

فمنها: التحضيض المضمن معنى التوبيخ في قوله: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ وهو

(١) الشوكاني.

الطلب بحثٍّ وإزعاج، فالمعنى: قاتلوا قوماً... إلخ.

ومنها: ذكر اسم الجلالة مكان الضمير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾؛ أي: بالقتال؛ لأنه مجاز عن إعانتهم لبني بكر على خزاعة قال أبو السعود: الإعانة على القتال بإعطاء السلاح تسمى قتالاً مجازاً اهـ.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وفي قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾؛ لأنه كلام مستأنف، خوطب به المشركون التفاتاً من الغيبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وفيه أيضاً مجاز الحذف؛ لأنه على تقدير؛ أجعلتم أهل سقاية الحاج كما مر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ وهو الجمع بين فعلين من نوع واحد، أحدهما منفي والآخر مثبت؛ لأن الأول هنا في قوة المنفي لدخول همزة الاستفهام الإنكاري عليه.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأن المراد النهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من أفراد المشركين، بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

ومنها: مراعاة اللفظ تارةً والمعنى أخرى في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ فيه مراعاة لفظ (من) وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه مراعاة معناها.

ومنها: المزاوجة في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية وهي أن يزواج؛ أي: يقارن بين أمرين فأكثر في الشرط والجزاء.

ومنها: تعريف جزئي الكلام مع الإتيان بضمير الفصل، إفادة للحصر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ أي: هم الفائزون لا غيرهم.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وفيه أيضاً تخصيص الصلاة والزكاة بالذِّكر، تفخيماً لشأنهما، وإظهارا لفضلهما.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ للتفخيم والتعظيم؛ أي: برحمة لا يبلغها وصف واصف.

ومنها: الإتيان بصيغة الأمر مراداً به التهديد والوعيد، في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ نظير قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ شبه الدوام بالإقامة، فاشتق منه مقيم بمعنى دائم، على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ
عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ
جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)
قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩)
وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم
بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓا۟
أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟
إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر فيما قبلها أنَّ[1] الخير

(١) المراغي.

والمصلحة للمؤمنين في ترك ولاية أولي القربى من الكافرين، وفي إيثار حب الله ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها، مما يحب.. أبان فيها أن نصر الله للمؤمنين في المواطن الكثيرة، لم يكن بقوة العصبية، ولا بقوة المال، ولا بما يشترى به من الزاد والعتاد، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول، الذي جاءهم بذلك الدين القويم، وإن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين، كان ابتلاءً لهم على عجبهم بكثرتهم، ورضاهم عنها، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية، لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها. وقال أبو حيان[١]: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم قوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ واستطرد بعد ذلك بما استطرد ذكرهم تعالى نصره إياهم في مواطن كثيرة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر[٢] النبي ﷺ أبا بكر حين أمَّره على الحج سنة تسع من الهجرة أن يبلغ الناس، أنه لا يحج بعد هذا العام مشركٌ، ثم أمر عليًّا أن يتبع أبا بكر، فيقرأ على الناس أول سورة براءة يوم الحج الأكبر وينبذ إليهم عهدهم، وأن الله بريءٌ من المشركين ورسوله.. قال الناس: يا أهل مكة، ستعلمون ما تلقون من الشدة، لانقطاع السبل، وفقد الحمولات، فنزلت هذه الآية لدفع تلك الشبهة، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: كان المشركون يجيؤون إلى البيت. ويجيؤون معهم بالطعام، يتجرون فيه، فلما نهوا أن يأتوا البيت.. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً. . .﴾ الآية، قال: فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم، وأسلم أهل اليمن، وجاءهم الناس من كل فج.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أحكام المشركين، في إظهار البراءة من عهودهم، وفي إظهار البراءة منهم في أنفسهم، وفي وجوب مقاتلتهم، وإبعادهم عن المسجد الحرام.. أردف ذلك بحكم قتال أهل الكتاب، وبيان الغاية منه، وفي ذلك توطئةٌ للكلام في غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب والخروج إليها في زمن العسرة والقيظ - شدة الحر - وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وهتك حجب كفرهم، وتمحيص المؤمنين، وإن كان النبي ﷺ لم يقاتل فيها الروم، لما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر(1) في الآيات السابقة أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح.. أردف ذلك بشرح المجمل في هذه الآيات، فنقل عنهم، أنهم أثبتوا لله ابناً، وهذا بمنزلة الشرك بالله، فإن طرق الشرك مختلفة، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، يحرمون ويحللون، وأنهم يسعون في إبطال الإسلام وإخفاء الدلائل الدالة على صدق رسوله، وصحة دينه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر في الآيات السالفة أن اليهود والنصارى، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونِ الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، فعبدوا غيره من دونه.. أردف ذلك بذكر سيرة جمهرة هؤلاء الرؤساء الدِّينيين في معاملاتهم مع الناس، ليعرف المسلمون حقيقة أحوالهم، والدواعي التي تحملهم على إطفاء نورالله، ببيان أن أكثرهم عباد شهوات وأرباب أهواء، وذوو أطماع وحرص على أموال الناس بالباطل، وأنه ما حملهم على مقاومة الإسلام إلا خوف ضياع تلك اللذات، وفوات تلك

---

(١) المراغي.

الشهوات، ثم أوعد الباخلين الذين يكنزون الذهب والفضة في صناديقهم ولا ينفقونها في سبل البر والخير بالعذاب الأليم، وفي نار جهنم يوم يحمى على تلك الأموال المكنوزة، فتصير كالنار التهاباً، ثم تكوى بها الجباه والجنوب والظهور، ويقال لهم: هذا جزاء صنيعكم في الدنيا، منعتموه البائس الفقير، لتتمتعوا به، فكان جزاؤكم أن صار وبالاً عليكم، وميسماً تكتوون به على جنوبكم وظهوركم، فلم تنتفعوا به في دين ولا دنيا.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] البيهقي في «الدلائل»، عن الربيع بن أنس، أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب من قلة، وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام، يتجرون فيه، فلما نهوا أن يأتوا البيت.. قال المسلمون: من أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير، قال: لمَّا نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.. شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وأخرج مثله عن عكرمة وعطية العوفي والضحاك وقتادة وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى ومحمد بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله في ذلك ﴿وَقَالَتِ

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

﴿ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه البخاري عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها. فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا عليَّ حبشياً.. لسمعت وأطعت.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ وأماكن ﴿كَثِيرَةٍ﴾ للحرب، توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، وفي مشاهد تلتقون فيها أنتم وهم في صعيد واحد للطعان والنزال إحقاقاً وإظهاراً لدينه.

روى أبو يعلى عن جابر، أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون، قاتل بنفسه في ثمانٍ، منها: بدر، وأُحد، والأحزاب، والمصطلق، وخيبر، ومكة، وحنين، والطائف.

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون، واختار جمع من العلماء، أن المغازي والسرايا كلها ثمانون ولم يقع في بعضها قتال، ونصرهم في كل قتال إما نصراً كاملاً وهو الأكثر، وإما نصراً مشوباً بشيء من التربية على ذنوب اقترفوها، كما في أُحد إذ نصرهم أوّلاً ثم أظهر عليهم العدو، لمخالفتهم أمر القائد الأعظم،

---

(١) البخاري.

في أهم أوامر الحرب، وهو حماية الرماة لظهورهم، وكما في حنين من الهزيمة في أثناء المعركة والنصر التام في آخرها.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾؛ أي: ولقد نصركم الله سبحانه وتعالى أيضاً يوم قتالكم مع هوازن، في وادي حنين، فهوازن قبيلة حليمة السعدية، مرضعة رسول الله ﷺ وحنين اسم واد بين مكة والطائف، بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، وذلك لما فتح رسول الله ﷺ مكة وقد بقيت أيام من شهر رمضان.. خرج في شوال، في تلك السنة، وهي سنة ثمان من الهجرة، متوجهاً إلى حنين لقتال هوازن وثقيف، والظرف في قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ أي: إذ أفرحت وبشرت أنفسكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾؛ أي: كثرة عددكم وعُددكم بدل من يوم؛ أي: نصركم يوم حنين إذ أعجبت أنفسكم كثرة عددكم وعُددكم، إذ كنتم اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتحوا بمكة، وألفان من الطلقاء، وهم الأسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا، وهم أسلموا بعد فتح مكة في هذه المدة القليلة، وكان الكفار من هوازن وثقيف أربعة آلاف فقط، ومعهم أمداد من سائر العرب، فقال قائل منكم - قيل اسمه سلمة بن سلامة الأنصاري - افتخاراً بكثرتكم: لن نغلب اليوم من قلة؛ أي: من أجلها؛ أي نحن كثيرون فلا نغلب، فأحزنت تلك الكلمة رسول الله ﷺ، فكانت الهزيمة عليكم؛ أي: فكانت الهزيمة عقوبة لكم على هذا الغرور والعجب، وتربيةً للمؤمنين حتى لا يغتروا بالكثرة مرةً أخرى ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾، أي: فلم تدفع عنكم كثرتكم ﴿شَيْئًا﴾ من عار الغلب والهزيمة ولم تفدكم في مقاومة العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ الواسعة من شدة الخوف ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: مع رحبها وسعتها، فالباء[1] بمعنى مع، و﴿ما﴾ مصدرية والمعنى: إن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليكم بسبب ما حل بكم من الخوف والوجل، فلم تجدوا وسيلةً للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾؛ أي: انهزمتم حالة كونكم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾؛ أي: مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم، لا تلوون على شيء، وثبت رسول الله ﷺ، وثبت

---

(١) الشوكاني.

طائفة قليلة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفر لهم.

وقال البراء بن عازب[1]: كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم.. انكشفوا وأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه ﷺ إلا عمه العباس، وهو آخذ بلجام بغلته، وابن عمه أبا سفيان حرب بن الحارث بن عبد المطلب، وهو آخذ بركابه، وقد أسلم هو والعباس يوم الفتح، وهو ﷺ يركض بغلته الشهباء نحو الكفار، لا يبالي وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ثم قال للعباس: «ناد المهاجرين والأنصار» وكان العباس رجلاً صيتاً، فجعل ينادي: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقاً واحداً، وأخذ رسول الله ﷺ بيده كفا من الحصى، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه» فما زال أمرهم مدبراً وحدهم كليلاً حتى هزمهم الله تعالى، ولم يبق منهم يومئذٍ أحد إلا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: رحمته التي يحصل بها سكون وثبات وأمن ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين، هم الذين لم ينهزموا، وقيل: الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا؛ أي: ثم[2] أفرغ الله سكينةً وطمأنينة من عنده على رسوله ﷺ، بعد أن عرض له الأسف والحزن على أصحابه، حين وقوع الهزيمة لهم، فما ازداد إلا ثباتاً وشجاعة وإقداماً على العدو ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا معه، وأحاطوا ببغلته الشهباء وعلى سائر المؤمنين الصادقين، فأذهب روعهم، وأزال حيرتهم، وأعاد إليهم ما كان قد زلزل من ثباتهم وشجاعتهم وخصوصاً حين سمعوا نداءه ﷺ ونداء عمه العباس إذ دعاهم بأمره.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

﴿وَأَنزَلَ﴾ الله تعالى مع هذه السكينة من السماء ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، بل وجدتم أثرها في قلوبكم بما عاد إليها من الثبات وشدة البأس، وهم الملائكة أنزلهم لتقوية قلوب المؤمنين، بإلقاء الخواطر الحسنة في قلوبهم، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، لا للقتال؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا في يوم بدر، ﴿وَعَذَّبَ﴾ أعداءكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله بالقتل والأسر والسبي، وهم قوم مالك بن عوف الدهماني، وقوم كنانة بن عبد يا ليل الثقفي ﴿وَذَٰلِكَ﴾ التعذيب بالقتل والأسر ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله ورسوله في الدنيا، ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب الذي وقع عليهم في الدنيا بالأسر والخذلان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ التوبة عليه من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تحط بهم خطيئات الشرك وخرافاته، ولم يختم على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً؛ أي: وهو تعالى غفور لهم، يتجاوز عمّا سلف منهم من الكفر والمعاصي، رحيم بهم يتفضل عليهم، ويثيبهم بالأجر والجزاء.

فصلٌ في وفد هوازن وإسلامهم وغنائمهم

وروي عن المسور بن مخرمة وغيره، أن ناساً منهم[1] جاؤوا رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس، وأبر الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، فقال ﷺ «إن ما عندي ما ترون، إن خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً وهي مفاخر الآباء الذراري والنساء، فقام رسول الله ﷺ، فقال: «إن هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده أسير، وطابت نفسه أن يرده.. فشأنه ـ أي: فيلزم شأنه ـ ومن لا.. فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه»،

(١) المراغي.

قالوا: قد رضينا وسلمنا، فقال ﷺ: «إنا لا ندري، لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفائكم، فليرفعوا ذلك إلينا» فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا، ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم، فقد كان فيها من الإبل اثنا عشر ألفاً، ومن الغنم ما لا يحصى عدداً، ومن الأسرى ستة آلاف من نسائهم وصبيانهم، وكان فيها غير ذلك، ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها، فلا نطيل الكلام بذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ أي: أنجاس فاسدوا الاعتقاد، يشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ويأكلون الميتة والدم، وهي أقذار حسية، ويستحلون القمار والزنا، ويستبيحون الأشهر الحرم، وهي: أرجاس معنوية فمن أجل هذا ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: بعد هذه السنة التي حصل فيها النداء بالبراءة من المشركين، وهي السنة التاسعة من الهجرة؛ أي: لا تمكنوهم بعد هذا العام، أن يدخلوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم، فضلاً عن دخول البيت نفسه وطوافهم فيه عراةً، يشركون بربهم في التلبية، وإذا صلوا.. لم تكن صلاتهم إلا مكاءً وتصدية.

تنبيه: واعلم أن بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام(1):

١ ـ **الحرم**: فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال، لظاهر الآية، وبذلك قال الشافعي وأحمد ومالك: فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم.. لا يأذن له في دخوله الحرم، بل يخرج إليه بنفسه، أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وأبو حنيفة يجيز للمعاهد دخول الحرم بإذن الخليفة أو نائبه.

٢ ـ **الحجاز**: وهو ما بين عدن إلى ريف العراق في الطول، ومن جدة وماوالاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً، ويجوز للكافر دخولها

---

(1) المراغي.

بالإذن، ولكن لا يقيمون فيها أكثر من ثلاثة أيام، روى مسلم عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، فلا أترك فيها إلا مسلماً» وفي رواية لغير مسلم: وأوصى، فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» فلم يتفرغ لذلك أبو بكر، وأجلاهم عمر في خلافته، وأخرج مالك في «الموطأ» مرسلاً: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وروي عن مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم».

٣ ـ **سائر بلاد الإسلام**: فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم، وقرأ الجمهور: ﴿نَجَس﴾، بفتح النون والجيم، وهو مصدر نجس نجساً بكسر الجيم وضمها في الماضي؛ أي: قذر قذراً، وقرأ أبو حيوة[1]: ﴿نِجْس﴾ بكسر النون وسكون الجيم، وهو اسم فاعل، من نجس، فخففوه بعد الاتباع، كما قالوا: في كبِد كبْد، وفي كرش كرش، وقرأ ابن السميقع: ﴿أنجاس﴾ فيحتمل أن يكون جمع نجس المصدر، وجمع نجس اسم فاعل.

ولما امتنع المشركون من دخول الحرم، وكانوا يتجرون ويأتون مكة بالطعام، وكانت معايش أهل مكة من التجارات، فخافوا الفقر وضيق العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.. أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون بسبب امتناع المشركين من مكة ﴿عَيْلَةً﴾؛ أي: فقراً بسبب قلة جلب الأقوات، وضروب التجارات التي كان يجلبها المشركون، من أرباب المزارع في الشعاب، والوديان من البلاد ذات البساتين والمزارع، كالطائف وأرباب المتاجر ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ورزقه وعطائه من وجه آخر ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ذلك، وفضله كثير، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنىٰ مما كانوا قبل ذلك، فقد تعددت وسائل الغنى فيما بعد، وصدق

(١) البحر المحيط.

وعده، فأرسل الله تعالى عليهم السماء مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر ميرهم، وأسلم أهل جدة وحنين وأهل اليمن وصنعاء وتبالة، وصاروا يجلبون الطعام لأهل مكة، وأسلم أولئك المشركون، ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب، بما فتح الله عليهم من البلاد، فكثرت الغنائم، وتوجه إليهم الناس من كل فجٍّ، ومهد الله لهم سبل الرزق، من إمارة وتجارة وزراعة وصناعة، وكان نصيب مكة من ذلك عظيماً بكثرة الحاج، وأمن طرق التجارة.

وقيد[1] هذا الغني بمشيئته التي لا يشك مؤمن في حصول ما تتعلق به، لتقوية إيمانهم بربهم واتكالهم عليه دون كسبهم وحده، وإن كانوا مأمورين به، لأنه من سننه في خلقه، ولكن لا يجوز أن ينسوا توفيقه وتأييده لهم، فهو الذي نصرهم وأغناهم، وسيزيدهم نصراً وغنًى.

وقال أبو حيان[2]: وعلق بالمشيئة، لأنه يقع في حق بعض دون بعض، وفي وقت دون وقت. وقيل: لإجراء الحكم على الحكمة، فإن اقتضت الحكمة والمصلحة إغناءكم. . أغناكم، وقال القرطبي: إعلاماً بأن الرزق لا يأتي بحيلة ولا اجتهاد، وإنما هو فضل الله. ويروى للشافعي:

لَوْ كَانَ بِٱلْحِيَلِ ٱلْغِنَىٰ لَوَجَدْتَنِيْ   بِنُجُوْمِ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاءِ تَعَلُّقِيْ
لَكِنَّ مَنْ رُزِقَ ٱلْحِجَا حُرِمَ ٱلْغِنَىٰ   ضِدَّانِ مُفْتَرِقَانِ أَيَّ تَفَرُّقِ
وَمِنَ ٱلدَّلِيْلِ عَلَىٰ ٱلْقَضَاءِ وُكَوْنِهِ   بُؤْسُ ٱللَّبِيْبِ وَطِيْبُ عَيْشِ ٱلْأَحْمَقِ

وقرأ ابن مسعود وعلقمة من أصحابه: ﴿عائلة﴾، وهو مصدر كالعاقبة، والعافية والقابلة أو نعت لمحذوف؛ أي: حالاً عائلة. وقيل: معناه: خصلةً شاقةً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، عليم بأحوالكم وبمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لكم، فلا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب، وحكيم فيما يشرعه لكم، من أمرٍ ونهي، كأمركم بقتال

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

المشركين بعد انقضاء عهودهم، ونهيكم عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد عامهم هذا، ونهيكم عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم منهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والخطاب في قوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ للنبي ﷺ وأصحابه.

والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله، ولا بمجيء اليوم الآخر؛ لأن[1] اليهود مثنِّية، والنصارى مثلِّثة، فإن قلت:[2] اليهود والنصارى، يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟

قلت: إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك.. فليس بمؤمن بالله، بل هو مشرك بالله، وقيل: من كذب رسولاً من رسل الله.. فليس بمؤمن بالله، واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء، فليسوا بمؤمنين بالله، وأما إيمانهم باليوم الآخر.. فليس كإيمان المؤمنين، وذلك يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون فيها ولا ينكحون، ومن اعتقد ذلك.. فليس إيمانه كإيمان المؤمنين، وإن زعم أنه مؤمن ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى في الكتاب ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: ولا ما حرم رسوله محمد ﷺ في السنة، من الخمر والخنزير، وسائر المحرمات، كالربا وأخذ أموال الناس بالباطل، أو المعنى: ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله المرسل إليهم في التوارة والإنجيل؛ أي: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوهما وأتوا بأحكام كثيرة من عند أنفسهم.

والمعنى: أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ولا يتمسكون دين الحق، الذي هو دين الإسلام، أو لا يعتقدون صحة دين الإسلام الذي هو الدين الحق، حالة كون هؤلاء المذكورين

---

(١) النسفي. (٢) الخازن.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: من الذين أعطوا التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾؛ أي: قاتلوهم حتى يعطوا الجزية، أو يسلموا؛ أي: حتى يقبلوا إعطاء الجزية لكم، والمراد بإعطائها التزامها بالعقد. وإن لم يجيء وقت دفعها، ذكره في «الفتوحات». والجزية: هي ما يعطي المعاهد من أهل الكتاب على عهده، وهي الخراج المضروب على رقابهم، سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس: أعطى عن يد، وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم، ولا يرسلون بها على يد غيرهم؛ أي: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً، غير نسيئةً، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ، وقيل: يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم، لأن ترك أروحهم عليهم بقبول الجزية ومنهم نعمة عظيمة ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم أذلاء مقهورون، منقادون لحكم الإسلام، يجرون إلى الموضع الذي يقبض منهم فيه بالعنف، حتى يؤدوها عن يدهم.

وحاصل معنى الآية(١): قاتلوا أهل الكتاب إذ هم جمعوا أربع صفات، هي العلة في عدواتهم للإسلام، ووجوب خضوعهم لحكمه ما داموا في دار الإسلام، إذ لو أجيز لهم حمل السلاح.. لأفضى ذلك إلى قتال المسلمين في دارهم ومساعدة من يهاجمهم فيها، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي ﷺ لهم وجعلهم حلفاء له، وأجاز لهم الحكم فيما بينهم بشرعهم، وسمح لهم بالعبادة على النحو الذي يريدون، وكذلك فعل مع نصارى الروم في حدود البلاد العربية.

وهذه الأمور الأربعة التي أسند إليهم تركها، هي أصول كل دين إلهي، ومن ثم، أمر بقتال الذين لا يقيمونها، وهي:

١ - أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وقد شهد القرآن بأنَّ اليهود والنصارى فقدوا

---

(١) المراغي.

الإيمان، بهدم أساسه، وهو التوحيد، إذ قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يشرعون لهم العبادات، ويحرمون ويحللون، فيتبعونهم، وبذا أشركوهم في الربوبية، ومنهم من أشرك به في الألوهية، كالذين قالوا: عزير ابن الله، والذين قالوا: المسيح ابن الله، أو هو الله.

٢ ـ أنهم ﴿لا﴾ يؤمنون ﴿بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إذ هم يقولون: إن حياة الآخرة حياة روحانية محضة، يكون الناس فيها كالملائكة، لكنا نؤمن بأن الإنسان لا تنقلب حقيقته، بل يبقى مؤلفاً من جسد وروح، ويتمتع بنعيم الأرواح والأجساد، ولا يوجد فيما بين يدي اليهود والنصارى من التوراة نصوص صريحة في البعث والجزاء بعد الموت، بل فيها إشارات غير صريحة في ذلك.

٣ ـ أنهم ﴿لا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فاليهود لا يحرمون ما حرم في شرعهم الذي جاء به موسى، ونسخ بعضه عيسى، ولا يلتزمون العمل بما حرم، فقد استحلوا أكل أموال الناس بالباطل، كالربا وغيره، واتبعوا عادات المشركين في القتال والنفي، ومفاداة الأسرى، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم في التوراة مما لم ينسخه الإنجيل، فأباحوا جميع محرمات الطعام والشراب، إلا ما ذبح للأصنام، فقد ثبت في كتبهم أن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها، وأكلوا أثمانها، وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها.

٤ ـ أنهم ﴿لا يدينون دين الحق﴾ إذ أن ما يتقلدونه إنما هو دين تقليدي، وضعه لهم أساقفتهم وأحبارهم بآرائهم الاجتهادية، وأهوائهم المذهبية، لا دين الحق الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى وعيسى عليهما السلام.

والخلاصة: قاتلوا أيها المؤمنون من وصفوا بتلك الصفات الأربعة إذا وجد منهم ما يقتضي القتال، كالاعتداء عليكم، أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم، كما فعل بكم الروم وكان ذلك سبباً لغزوة تبوك؛ أي: قاتلوهم إلى أن تأمنوا عدوانهم، بإعطائكم الجزية، بشرط أن تكون صادرة عن يد؛ أي: من قدرة واسعة فلا يظلموا ولا يرهقوا، وبشرط أن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم، وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما

يشاهدون من عدلكم، وفضائلكم التي يرونها رأي العين.

فإن أسلموا.. عمَّ الهدى والعدل، وإن لم يسلموا وأعطوا الجزية.. وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم، وإعطاؤهم حريتهم في دينهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون، ويسمون حينئذٍ: أهل الذمة إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله، أما الذين يعقد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق، يعترف به الطرفان.. فيسمون: المعاهدين، أو أهل العهد، ولقب[1] أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب وإن كان عاماً خص به اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين لديها، كما قال تعالى: مخاطباً لمشركي العرب ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

فصلٌ في الجزية

واعلم[2]: أن قدر الجزية أقلها دينار، ولا يجوز أن ينقص عنه، ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط، ويدل عليه ما روي عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ لما وجهه إلى اليمن.. أمره أن يأخذ من كل حالم؛ أي: محتلم ديناراً أو عدله من المعافرية - ثياب تكون باليمن - أخرجه أبو داود، فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ ديناراً، ولم يفرق بين الغني والفقير والمتوسط، وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء، وإنا تؤخذ من الأحرار البالغين، وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط دينارين، وعلى كل فقير ديناراً، وهو قول أصحاب الرأي، ويدل عليه ما روي أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورِق أربعين درهماً، ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام، أخرجه مالك في «الموطأ».

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وقال أصحاب الشافعي: أقل الجزية دينار، لا يزاد على الدينار إلا بالتراضي، فإذا رضي أهل الذمة بالزيادة.. ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغني أربعة دنانير.

وقال العلماء: إنما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل، بخلاف أهل الشرك، حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوارة والإنجيل، قبل النسخ والتبديل، وأيضاً فإن بأيديهم كتباً قديمة، فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد ﷺ وصحة نبوته، فأمهلوا لهذا المعنى، وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب، إقرارهم على كفرهم، بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وإمهالهم، رجاء أن يعرفوا الحق، فيرجعوا إليه، بأن يؤمنوا ويصدقوا إذا رأوا محاسن الإسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله، ولا يدينون دين الحق.. بيَّن في هذه الآية الآتية ما أجمله في تلك فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً، ومن جوز ذلك على الله.. فقد أشرك به؛ لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح، فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ لعائن الله تعالى عليهم؛ أي: قال بعضهم وهم يهود المدينة؛ لأن قول بعضهم لازم لجميعهم وهم سلام ابن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، أو فنحاص بن عازوراء ﴿عُـزَيْرٌ﴾ بن شرخيا ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

روى[1] ابن إسحاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك، وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ كما مر بيان ذلك في الأسباب، وإسناد هذا القول إليهم جملة، وإن كان قد صدر من بعضهم مَبنيٌّ على أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها

(١) المراغي.

العامة فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه.. يؤاخذون به كلهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

وسبب هذا القول منهم أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت الذي فيه التوراة، وأنساهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فتضرع عزير إلى الله تعالى ودعاه أن يرد إليه التوراة، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله تعالى، إذ نزل نور من السماء، فدخل جوفه فعادت التوراة إليه، فأعلم قومه، وقال: يا قوم قد آتاني الله تعالى التوراة، وردها علي، فتعلموا منه عن ظهر لسانه، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت، عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت.. فوجدوه مثله، فقالوا: ما جمع التوراة في صدر عزير وهو غلام إلا لأنه ابنه.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾؛ أي: قال بعضهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى بن مريم ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذا قول القدماء منهم، كانوا يريدون به المحبوب أو المكرم، ثم سرت إليهم وثنية الهنود، فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقةً وعلى أن ابن الله بمعنى ﴿ٱللَّهِ﴾ وبمعنى روح القدس إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة.

روي أن أتباع عيسى كانوا على الدين الحق، بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة، يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان، حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود، وكان في اليهود رجل شجاع، يقال له: بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال بولس لليهود: إن كان الحق مع عيسى.. فقد كفرنا، والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلنا النار، ودخلوا الجنة، فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا، ثم إنه أتى إلى النصارى. فقالوا: له من أنت؟ قال: أنا عدوكم بولس، قد نوديت من السماء: إنه ليست لك توبة حتى تتنصر وقد تبت، فأدخله النصارى الكنيسة، ومكث سنة في بيت فيها، ولم يخرج منها حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج، وقال: قد نوديت: إن الله قد قبل توبتك،

فصدقوه وأحبوه، وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عهد إلى أربعة رجال، اسم واحد منهم: نسطور، والآخر يعقوب، والثالث ملكان، والرابع، من أهل الروم، فعلَّم نسطوراً أن عيسى ومريم والله آلهة ثلاثة، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان، وأنه ابن الله، وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال عيسى، وعلم رجلاً آخر من الروم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً ولكنه الله، ثم دعا كل واحد منهم في الخلوة، وقال له: أنت خليفتي فادع الناس لما علمتك، وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني وأني غداً أذبح نفسي لمرضاة ربي ثم دخل المذبح فذبح نفسه، فتفرقوا ودعوا الناس إلى مذاهبهم، واختلفوا، ووقع القتال بينهم، فكان ذلك سبب قولهم: المسيح ابن الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي قالوه في عزير وفي المسيح ﴿قَوْلُهُم﴾؛ أي: قول صادر واقع من غير فائدة ولا برهان، يقولونه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وتلوكه ألسنتهم مجرد عن المعنى، خال عن الفائدة، لا يؤيده برهان، ولا يتجاوز حركة اللسان، بل البرهان دال على عكسه، لاستحالة إثبات الولد لمن هو بريءٌ عن الحاجة، واتخاذ الصاحبة.

ووجه(١) تقييده بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا من الفم: أن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرد دعوى لا معنى تحتها، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات، التي ليس فيها إلا كونها خارجةً من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها، وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد، كمافي كتبت بيدي، ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه، لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأشباه ذلك.

---

(١) الشوكاني.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ أي: يشابهون في قولهم ذلك ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلهم، وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

وفي معنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا من قبل أقوال لأهل العلم:

الأول: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم: واللات، والعزى، ومناة، بنات الله.

القول الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين أن الملائكة بنات الله.

الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيراً ابن الله، وأن المسيح ابن الله.

وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى دعاء عليهم بالهلاك؛ لأن من قاتله الله.. هلك، وقيل: هو تعجب من شناعة قولهم، وقيل، معنى قاتلهم الله: لعنهم الله تعالى، وطردهم من رحمته ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن توحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وبه تجزم كل العقول، ويلغه عن الله كل رسول إلى قول لا يقبله عقل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله، الذي خلق هذا الكون العظيم، ودبر أمره، ولا ينبغي لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شؤونه ولداً من جنسه، مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون﴾.

وقرأ عاصم والكسائي: ﴿عُزَيْرٌ﴾ منوناً على أنه عربي، وباقي السبعة: بغير تنوين، ممنوع الصرف، للعجمة والعلمية، كعاذر وعيذار وعزرائيل، وعلى كلتا القراءتين فـ﴿ابن﴾ خبر، وقرأ عاصم، وابن مصرف ﴿يضاهؤن﴾، بالهمز، وباقي السبعة: بغير همز، ثم فصل قوله من قبل ﴿يضاهؤن﴾ قول الذين كفروا من قبل بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾؛ أي: اتخذ كل من اليهود والنصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾؛ أي: علماءهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾؛ أي عبادهم ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، كالربا والرشوة والخمر والخنزير، وتحريم ما أحل الله تعالى، كالسوائب والبحائر، أو في السجود لهم

﴿وَ﴾ اتخذت النصارى زيادة على ما مر ﴿المسيح﴾ عيسى ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ ربًّا معبوداً بعد ما قالوا: إنه ابن الله.

والمعنى: اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساءهم في الدين أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم، وهم علماء الدين، أرباباً بما أعطوهم من حق التشريع فيهم، وإطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم؛ أي: عبادهم الذين يخضع ويركع لهم العوام أرباباً كذلك.

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين، فاتخاذهم أرباباً يقتضي بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء، مدوناً كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان، ولو غير مدون، سواء قالوه تبعاً لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم، وانفردت النصارى باتخاذهم المسيح ربًّا وإلهاً يعبدونه، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقةً، ويصرحون بذلك، واليهود لم يقصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم، ثم دونوه، فكان هو الشرع العام، وعليه العمل عندهم، والنصارى غيَّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية، واستبدلوا بها شرائع أخرى في العبادات والمعاملات جميعاً، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاؤوا، وحرمان من شاؤوا من رحمة الله وملكوته، والله يقول: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهى عنه من المحرمات.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾؛ أي: اتخذ هؤلاء الكفار ما ذكر أرباباً من دون الله، والحال أنهم ما أمروا في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله عظيم الشأن، هو الله تعالى؛ أي[1] اتخذوا رؤساءهم أرباباً من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الربُّ هو الذي يجب أن يعبد وحده،

---

(١) المراغي.

والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى، ومن اتبعهما فيما جاء به من عند الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً، بما شرعه لهم، وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه، ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وهذه الجملة صفة لـ﴿إِلَـٰهًا﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود غيره تعالى في حكم الشرع ولا في نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأي والهوى، جهلاً بصفات الألوهية، إذ ظنوا أن لبعض المخلوقات سلطاناً غيبياً، وقدرة على الضر والنفع، من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ما لله، إما بالذات، وإما بالوساطة والشفاعة لديه.

﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه وتمجَّد اللّه له تعالى ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد رؤساء اليهود والنصارى ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: دين الله الذي هو دين الإسلام ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ أي: بتكذيبهم وألسنتهم يعني[1] يريد هؤلاء إبطال دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، بتكذيبهم إياه، وقيل المراد من النور: الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ، وهي أمور:

أحدها: المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي ﷺ، الدالة على صدقه.

وثانيها: القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه.

وثالثها: أن دينه الذي أمر به، وهو دين الإسلام، ليس فيه شيء سوى تعظيم الله، والثناء عليه، والانقياد لأمره، ونهيه واتباع طاعته، والأمر بعبادته والتبري من كل معبود سواه، فهذه أمور نيرة، ودلائل واضحة، في صحة نبوة محمد ﷺ، فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير.. فقد خاب سعيه وبطل عمله.

---

(١) الخازن.

وهذه الجملة تمثيل[1] لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوة نبي الصدق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم، قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه، ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمداً ﷺ بمزيد النصر، وإعلاء الكلمة، وإظهار الدين بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويمتنع، ولا يريد كل شيء ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ ويظهر ﴿نُورَهُۥ﴾ ويعلي كلمته، ويتم الحق، الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ.

وخلاصة ما سلف[2]: أنهم يريدون أن يطفؤوا نور الله الذي شرعه لهداية عباده، وركنه الركين، وأساسه المتين: توحيد الربوبية والألهية، فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذي هو كنور القمر، فيجعله بدراً كاملاً يعم نوره الأرض كلها.

وجواب لو في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف[3] تقديره: ولو كره الكافرون تمام نوره.. لأتمه ولم يبال بكراهتهم، وجملة لو معطوفة على[4] مقدر، تقديره: ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك، وحتى لو كرهوا، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

والمعنى[5]: ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون بعد تمامه، كما كانوا يكرهونه من قبل، حين بدء ظهوره، فهم يكيدون له ويفترون عليه، ويطعنون فيه وفيمن جاء به، ويحاولون إخفاءه، أما اليهود.. فكانوا في أول الإسلام أشد الناس عداوةً لأهله، فهم في ذلك كمشركي العرب سواء.

ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على النبي ﷺ، قصدوا إطفاء نوره ببث البدع فيه، وتفريق كلمة أهله، كما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعليّ كرم الله وجهه والغلو في ذلك وإلقاء الشقاق بين المسلمين، ثم في

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.

الفتنة بين عليّ ومعاوية، ولولا ذلك.. لما قتل أولئك الألوف من صناديد المسلمين، ثم ما كان من منافقيهم من الإسرائيليات الكاذبة التي لا تزال مبثوثة في تضاعيف كتب التفسير والحديث والتاريخ.

وأما النصارى: فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم، وأكرم النجاشي من لجأ إليه من مهاجريهم، ومنعهم من تعدي المشركين عليهم، ثم انقلب الأمر بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب، فتودد اليهود للمسلمين؛ لأنهم أنقذوهم من ظلم النصارى واستعبادهم، وصار نصارى أوروبا المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين، ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد؛ لأنهم رأوا من عدل المسلمين ما فضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم، إلى أن جاءت الحروب الصليبية، فغلا نصارى أوروبا في عداوة المسلمين، ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر، كما هو مشاهد معروف.

ثم بين إتمام نوره فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾ وبعث ﴿رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ، حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي بالقرآن أو بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو دين الإسلام والملة الحنيفية، وهذه الجملة بمنزلة التعليل لما قبلها؛ أي: إنه تعالى كفل إتمام هذا النور بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق، الذي لا يغيره دين آخر ولا يبطله شيء آخر.

ثم ذكر الغاية من إرسال محمد ﷺ، خاتم النبين بدين الحق، فقال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾؛ أي؛ ليعلي هذا الدين، الذي هو دين الإسلام ويرفع شأنه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على جميع الأديان كلها بالحجة والبرهان والهداية والعرفان والسيادة والسلطان، ولم يكن لدين من الأديان مثل ما للإسلام من التأثير الروحي والعقلي والمادي والاجتماعي والسياسي، وإظهاره على الدين كله بأن لا يعبد الله إلا به، فإن المسلمين قد قهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس

على بلادهم، وغلبوا عباد الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند، فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد حصل، وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

وروي عن أبي هريرة أنه قال: هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الإسلام غالباً على جميع الأديان، وتمام هذا إنما يحصل عند نزول عيسى عليه السلام، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الإظهار.. لأظهره الله تعالى، فجواب ﴿لو﴾ محذوف، كما قدرناه مثل ما مر، سواء بسواء، وقد وصفهم هنا بالشرك بعد أن وصفهم بالكفر، للدلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرسول وتكذيبه، والشرك بالله، وفي الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الأديان يكون بالرغم من جميع الكفار المشركين منهم، وغير المشركين، وهذا آخر الآيات التي أمر عليٌّ بالتأذين بها في موسم الحج.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان، المتخذين لهم أرباباً.. ذكر هنا حال المتبوعين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾؛ أي: علماء اليهود ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ أي: علماء النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ليأخذون الأموال من سفلتهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ أي: بالوجوه الباطلة، كالرشوة في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع وغير ذلك، وعبر عن أخذ الأموال بالباطل بالأكل؛ لأن المقصود الأعظم من جمع الأموال الأكل، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده، وأثبت هذا الأكل للكثير منهم؛ لأنَّ فيهم من لم يتلبس بذلك، بل بقي على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان كثير من الذين يدعون العلم في الإسلام، ممن لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس؛ أي: يمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن الدخول في دين الله الذي هو دين الإسلام في زمان محمد ﷺ، لئلا يفوتهم ما يأخذونه من سفلتهم، أو يمنعونهم في كل زمان عما كان حقًّا في شريعتهم قبل نسخها، بسبب أكلهم أموال الناس بالباطل.

والمعنى: إن كثيراً من الأحبار والرهبان أشربت قلوبهم حب المال والجاه، فمن أجل حب المال أكلوا أموال الناس بالباطل، ومن أجل حب الجاه.. صدوا عن سبيل الله، فإنهم لو أقروا بصدق محمد ﷺ، وصحة دينه.. لزمهم أن يتابعوه فيبطل حكمهم، وتزول حرمتهم، ومن ثم كانوا يبالغون في المنع من متابعته، وصد الناس عنه.

وأكل الأموال بالباطل: أخذها بغير حق شرعي، ويقع ذلك على صور مختلفة منها:

١ ـ أخذها رشوة لأجل الحكم، أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل، ويقوم به صاحب السلطة الدينية أو المدنية، رسمية كانت، أو غير رسمية.

٢ ـ أخذها بالربا، وهو فاش عند اليهود وأحبارهم، يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين، ويأكلونه معهم، مستحلين له بنص توارتهم المحرفة بدلاً من نهيهم عنه.

٣ ـ أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بنيت بأسمائهم هدايا ونذوراً.

٤ ـ بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد في الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله في قضاء حاجاتهم، وشفاء مرضاهم اعتقاداً منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يرد شفاعتهم، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفاً في الكون، يقضون به الحاجات، من دفع الضر عمن شاؤوا، وجلب الخير لمن أحبوا، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون، وقالوا: إنها لا تنافي التوحيد الذي جاءت به الرسل.

٥ ـ أخذها جعلاً على مغفرة الذنوب، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتَراف، فيأتي الرجل أو المرأة لدى القسيس، أو الراهب الذي يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب، فيخلو به أو بها، فيقص عليه الخاطىء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها، لأجل أن يغفرها له، وهم

يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله.

٦ ـ أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام أو تحريم الحلال؛ إرضاءً لشهوات الملوك وكبار الأغنياء، أو الانتقام من أعدائهم.

٧ ـ أخذها من أموال مخالفيهم في الجنس أو الدين خيانة وسرقةً، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وصدهم عن سبيل الله[1]: هو منعهم الناس عن معرفة الله، معرفة صحيحة، وعبادته على الوجه الذي يرضيه، ولا عجب فهم مشركون غير موحدين ـ كما علمت مما سلف ـ فهم لا يعبدون الله بما شرعه الله، بل بما شرعه البشر واليهود، قد كفروا بالمسيح، وهو المصلح الأكبر في شريعتهم، والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسيين، وجل عبادتهم من صلاة وصيام لم تكن في عهد المسيح، ومن أنكى طرقهم في الصد عن سبيل الله: الطعن في النبي الأعظم ﷺ، والكتاب الكريم؛ أي القرآن.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ أي: يجمعونهما ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: ولا ينفقون تلك الكنوز ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته؛ أي: لا يؤدون زكاتها، فقد أخرج مالك والشافعي عن ابن عمر، قال: ما أُدي زكاته.. فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته.. فهو كنز، وإن كان ظاهراً.

وأخرج ابن عدي والخطيب عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أي مال أديت زكاته.. فليس بكنز».

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾.. كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يبقي لولده مالاً بعده، فقال عمر: أنا أفرج

---

(١) المراغي.

عنكم، فانطلق وتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم»، فكبر عمر رضي الله عنه ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة، التي إذا نظر إليها الرجل.. سرته، وإذا أمرها.. أطاعته، وإذا غاب عنها.. حفظته»، وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال؛ لكونهما أثمن الأشياء، وغالب ما يكنز، وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز، وقرأ الجمهور: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ بالواو على الاستئناف، وهو عام يندرج فيه من يكنز من المسلمين، وقرأ ابن مصرف: ﴿الَّذِينَ﴾ بغير واو، وهو ظاهر في كونه من أوصاف من تقدم، ويحتمل الاستئناف والعموم، واختلفوا[1] في المراد بهؤلاء الذين ذمهم بسبب كنز الذهب والفضة، فقيل: هم أهل الكتاب، قاله معاوية بن أبي سفيان؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل، ثم وصفهم بالبخل الشديد، وهو جمع المال، ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه. وقال ابن عباس والسدي: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين، وذلك أنه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل.. حذر المسلمين من ذلك، وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه.

وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين. ووجه هذا القول: أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل، ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه، سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين.

أخرج البخاري عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة ـ موضع بين مكة والمدينة ـ فإذا بأبي ذر، فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت في الشام

---

(١) الخازن.

فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك كلام، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أُمر عليَّ عبد حبشي.. لسمعت وأطعت.

وإنما قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ ولم يقل: ينفقونهما؛ لأنه أعاد الضمير إلى المال المكنوز، وهي أعيان الذهب والفضة، وقبل أعاد الضمير إلى الفضة؛ لأنه أغلب أموال الناس.

واختلف أهل العلم في المال الذي أديت زكاته، هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز، ومن القائلين بالقول الأول أبو ذرٍّ، وقيده بما فضل عن الحاجة، ومن القائلين بالقول الثاني: عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهو الحق لما تقدم من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: فأخبرهم يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم، جملة تهكمية خبر عن الموصول، وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة، لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل: منصوب بمحذوف، تقديره: أي: أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم في ذلك اليوم الذي يحمى ويوقد فيه على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم؛ أي: بأن توضع فيها وتضرم عليها النار الحامية، حتى تبيض من شدة الحرارة، وتصير مثلها ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾؛ أي: فتحرق بتلك الكنوز المحماة ﴿جِبَاهُهُمْ﴾؛ أي: جباه كانزيها جمع جبهة وهي أعلى الوجه، والمراد بها ما أقبل منهم كله ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ جمع جنب، والمراد بها جهة اليمين واليسار ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ جمع ظهر، والمراد بها ما أدبر منهم كله؛ أي: فتلصق بجباهم وجنوبهم وظهورهم، حتى

يصل الحر إلى أجوافهم.

وخص[1] الجباه والجنوب والظهور بالذكر لكون التألم بكيِّها أشد، لما في داخلهامن الأعضاء الشريفة وقيل: ليكون الكي في الجهات الأربع من قدام وخلف، وعن يمين وعن يسار، وقيل: لأن الجمال في الوجه، والقوة في الظهر والجنبين والإنسان، إنما يطالب المال للجمال والقوة، وقيل: لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئاً.. تبدو منه آثار الكراهة والمنع، فعند ذلك يكلح وجهه، وتجتمع أسارير جبهته، فيتجعد جبينه، ثم إن كرر السائل الطلب.. نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانباً، ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال.. ولاه ظهره، وأعرض عنه واستقبل جهةً أخرى، وهي نهاية في الرد، وغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل، وهذا دأب مانعي البر والإحسان، وعادة البخلاء، فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة.

وقيل[2]: خصت هذه الأعضاء دون بقية الجسد؛ لأنهم يستقبلون بالوجوه الناس، وأساريرهم منبسطة غبطة لعظم الثروة، ويستقبلون الفقراء ووجوههم منقبضة من العبوس، لينفروا ويحجموا عن السؤال، ولأن الجنوب والظهور كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة، اضطجاعاً واستلقاءً، ويعرضون بها عن لقاء المساكين، وطلاب الحاجات، فلا يكون لهم في جهنم استراحة، فيما سوى الوقوف، إلا بالانكباب على الوجوه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي الآية[3] إيماء إلى أنه يحمىٰ عليها بأعيانها، والله قادر على إعادتها، وأمور الآخرة من عالم الغيب، فلا ندرك كنهها ولا صفتها فنفوض الأمر فيها إلى عالم الغيب، وعلينا الاعتبار بما فيها من إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق.

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله.. إلا

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره» وروىٰ عنه «من آتاه الله مالاً، فلم يؤدِّ زكاته. . . مثل له شجاع - ذكر الحيات - أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه - العظمان الناتئان تحت الأذنين - يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﷺ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾» وتقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم توبيخاً لهم: ﴿هَـٰذَا﴾ الكي جزاء ﴿مَا كَنَزْتُمْ﴾ وجمعتم في الدنيا لمنفعة أنفسكم، فكان اليوم سبب مضرتها، وتعذيبها أو هذا الميسم الذي تكوون به، هو المال الذي كنزتموه لأنفسكم، لتنفردوا بالتمتع به، ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ أي: فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكنزونه وتجمعونه من الأموال، هذا إن قلنا ﴿مَا﴾ موصولة ويصح كونها مصدرية؛ أي: فذوقوا وبال كنزكم له، وجزاء إمساككم إياه، عن النفقة في سبيل الله، وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته ومنفعته.

وخلاصة هذا: أن ما كنتم تظنونه من منفعة كنزه لأنفكسم، لا يشارككم فيها أحد. . قد كان لكم ضراً، وعليكم ضداً، فقد صار في الدنيا لغيركم، وعذابه في الآخرة لاحقاً بكم، وإن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذي نراه في المسلمين عامةً، حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدهم عن دينهم، بخل أغنيائهم، إذ لو وجهوا هممهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل، لتعليم النشىء العلوم الدينية والدنيوية، من فنون الحرب، وصنع الأسلحة. . لأمكنهم أن يخرجوا للأمة رجالاً، يحفظون الدين والملك، ويعيدون إليها مجدها الزائل، ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام، ويدخلونهم فيه أفواجاً أفواجاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ بالياء وقرأ الحسن وابن عامر: في رواية ﴿تُحمَى﴾ بالتاء، وقرأ أبو حيوة: ﴿فيكوى﴾ بالياء، لكون المسند إليه مجازي التأنيث ووقع الفصل أيضاً.

الإعراب

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

﴿تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾.

﴿لَقَدۡ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نصر﴾ وعلامة جره الفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، لصيغة منتهى الجموع ﴿كَثِيرَةٖ﴾ صفة ﴿مَوَاطِنَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بفعل محذوف معطوف على ﴿نَصَرَكُمُ﴾ تقديره: ونصركم يوم حنين، ويصح عطفه على محل قوله: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ عطف ظرف الزمان من غير واسطة في على ظرف المكان المجرور بها، ولا غرابة في نسق ظرف زمان على مكان، أو بالعكس ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿نصر﴾ المحذوف الذي تعلق به ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ على كونها بدلاً من ﴿يوم﴾ ﴿أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ فعل ومفعول ﴿كَثۡرَتُكُمۡ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر، مضاف إليه ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ﴾ الفاء عاطفة وجازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على الكثرة ﴿عَنكُمۡ﴾ متعلق به ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة أعجب.

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾.

﴿وَضَاقَتۡ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ فاعل ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر ومعية ﴿ما﴾ مصدرية ﴿رَحُبَتۡ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: مع رحبها، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الأرض تقديره: وضاقت عليكم الأرض حالة كونها متلبسة برحبها وسعتها ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿ضاقت﴾ ﴿مُّدۡبِرِينَ﴾: حال من تاء ﴿وَلَّيۡتُم﴾ مؤكدة لعاملها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٦﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه،

والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿جُنُودًا﴾: مفعول به ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿جُنُودًا﴾ ﴿وَعَذَّبَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه والجملة مستأنفة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَعَذَّبَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَتُوبُ﴾ ﴿عَلَىٰ مَن﴾: متعلق بـ ﴿يَتُوبُ﴾ أيضاً ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاء التوبة له ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مبتدأ ﴿نَجَسٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية جواب النداء ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لا﴾: ناهية ﴿يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْمَسْجِدَ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية، على كونها مفرعة عليها ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَقْرَبُوا۟﴾ ﴿هَٰذَا﴾: صفة لـ ﴿عَامِهِمْ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: جازم، وفعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة تسويفية ﴿سوف﴾: حرف تنفيس ﴿يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿إن﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: إن شاء إغناءكم وجواب إن: محذوف دل عليه ما قبله تقديره: إن شاء يغنيكم وجملة إن الشرطية مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول له ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان له وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة لليوم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما حرمه الله ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، حال من اسم الموصول، أو من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أُوتُواْ﴾ فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول لآتى؛ لأنه بمعنى أعطى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿آتى﴾ والجملة صلة الموصول ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والمفعول الأول محذوف، تقديره: إياكم، والجملة الفعلية صلة أن

المضمرة، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى إعطائهم إياكم الجزية الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ ﴿عَن يَدٍ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿يُعْطُوا۟﴾؛ أي: حالة كونهم مسلمين لها بأيديهم لا بواسطة غيرهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال ثانية من واو ﴿يُعْطُوا۟﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ، وخبر والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال، والعامل فيه القول، ويجوز أن يعمل فيه معنى الإشارة، ويجوز أن تتعلقَّ ﴿الباء﴾ بـ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ ذكره أبو البقاء ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: فعل وفاعل ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ﴾ مفعول، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من اليهود والنصارى ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة مسوقة للدعاء عليهم ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام تعجبي، بمعنى: كيف في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، أو بالحال، مبني على السكون، والعامل فيه ما بعده ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل مرفوع والجملة جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾: معطوف على ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾. ﴿أَرۡبَابٗا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أو صفة، لـ﴿أَرۡبَابٗا﴾ أو حال من واو ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾؛ أي: حال كونهم مجاوزين الله ﴿وَٱلۡمَسِيحَ﴾ معطوف على أحبارهم ﴿ٱبۡنَ﴾ صفة له ﴿مَرۡيَمَ﴾ مضاف إليه، والمفعول الثاني بالنسبة إليه محذوف؛ أي: ربًّا وانظر لم ثبتت الألف في ابن هنا مع أنه صفة بين علمين؛ لأن المسيح لقب وهو من أقسام العلم، ذكره في «الفتوحات» ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿لِيَعۡبُدُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يعبدوا﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، ﴿إِلَٰهٗا﴾ مفعول به ﴿وَٰحِدٗاۖ﴾ صفة أولى لـ ﴿إِلَٰهٗا﴾ وجملة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صفة ثانية لـ ﴿إِلَٰهٗا﴾ والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام والتقدير: وما أمروا إلا لعبادتهم إلهاً واحداً، واللام فيه بمعنى الباء ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة تقديره: أسبحه تعالى سبحاناً؛ أي: أنزهه تنزيهاً وجملة التسبيح مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ ﴿عن﴾ حرف جر ﴿ما﴾ موصولة، أو مصدرية، وجملة ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: عن إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سبحان﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُطۡفِـُٔواْ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون إطفاءهم نور الله بأفواههم. ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أن

﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فعل ومفعول منصوب بـ ﴿أَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إلا إتمامه نوره. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك، وحتى لو كرهوا والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو كره الكافرون تمامه.. لأتمه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول والجملة صلة الموصول ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ متلعق بأرسل ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف على الهدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾ متعلق به ﴿كُلِّهِۦ﴾ توكيد لـ﴿ٱلدِّينِۚ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾ تقديره: لإظهاره إياه على الدين كله الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرْسَلَ﴾ وجملة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ معطوفة على محذوف، تقديره: ولو لم يكره المشركون إظهاره.. لأظهره ولو كرهوا ذلك، كما مر في مبحث التفسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: جملة ندائية مستأنفة ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾: ناصب واسمه﴿مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿كَثِيرًا﴾ ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾: معطوف على الأحبار ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ ﴿اللام﴾: لام الابتداء ﴿يأكلون أموال الناس﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ متعلق بـ ﴿يأكلون أموال الناس﴾ أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً متلبساً بالباطل، أو حال من واو ﴿يأكلون﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يأكلون﴾ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ متعلق به،

ومفعول الصد محذوف، تقديره: ويصدون الناس.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَالْفِضَّةَ﴾ معطوف على ﴿الذَّهَبَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَكْنِزُونَ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم ﴿بشرهم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لـ ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَلِيمٍ﴾ أو بمحذوف تقديره: بعذاب أليم يصيبهم يوم يحمى ﴿يُحْمَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: متعلق به و﴿جَهَنَّمُ﴾ ممنوع من الصرف، للعلمية والتأنيث المعنوي، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾ ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿تكوى﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿بِهَا﴾؛ متعلق به ﴿جِبَاهُهُمْ﴾: نائب فاعل ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ معطوفان عليه، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُحْمَىٰ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿كَنَزْتُمْ﴾ فعل وفاعل ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كنزتموه لأنفسكم، والجملة الاسمية مقول لقول محذوف، تقديره: وتقول الملائكة لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم، وجملة القول المحذوف معطوفة على جملة ﴿تكوى﴾ ﴿فَذُوقُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية، ﴿ذوقوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها مفرعة عليها ﴿مَا﴾ موصولة،

أو موصوفة، أو مصدرية في محل النصب مفعول به ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه وجملة ﴿تَكْنِزُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كنتم تكنزونه أو جزاء كنزكم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي مَوَاطِنَ﴾؛ أي: أماكن كثيرة ـ جمع موطن ـ وهو مقر الإنسان، ومحل إقامته، كالوطن، والمراد بالمواطن: مشاهد الحرب ومواقعها. وفي «المصباح» الوطن: مكان الإنسان ومقره، والجمع أوطان، مثل: سبب وأسباب، والموطن مثل الوطن، والجمع مواطن كمسجد ومساجد، والموطن أيضاً: المشهد من مشاهد الحرب اهـ. قال الشاعر:

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طِحْتُ كَمَا هَوَىٰ ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قِنَّةِ ٱلنِّيْقِ مُنْهَوِيْ

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وحنين: واد بين مكة والطائف، على ثلاثة أميال من الطائف، وثمانية عشر ميلاً من مكة، وقيل: وادٍ إلى جنب ذي المجاز، وغزوته: تسمى غزوة أوطاس وغزوة هوازن، وهوازن: قبيلة حليمة السعدية، وكانت تلك الغزوة في شوال، سنة ثمان عقيب رمضان، الذي وقع فيه فتح مكة، قال الشاعر:

نَصَرُوْا نَبِيَّهُمُ وَشَدُّوْا أَزْرَهُ ... بِحُنَيْنٍ يَوْمَ تَوَاكُلَ ٱلأَبْطَالُ

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾؛ أي: لم تدفع الكثرة والإغناء إعطاء ما يدفع الحاجة ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ وفي «المختار» الرحب بالضم: السعة، يقال: منه فلان رحيب الصدر، والرحب بالفتح الواسع وبابه ظرف وقرب، والمصدر رحابة كظرافة، ورحب كقرب ﴿مُّدْبِرِينَ﴾؛ أي: هاربين ولا تلوون على شيء ﴿سَكِينَتَهُ﴾ والسكينة: الهيئة النفسية التي تحصل من سكون النفس واطمئنانها، وهي ضد الانزعاج، وقد تطلق على الرزانة والوقار، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ النجس: من نجس الشيء، من باب فهم إذا كان قذراً غير نظيف، والاسم النجاسة، وفي «الخطيب»: النجس مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والتثنية والجمع،

وفي «القاموس» النجس بالفتح والكسر وبالتحريك، وككتف عضد ضد الطاهر، وقد نجس كسمع وكرم اهـ وفي «المصباح»: إنه من باب تعب، وفي لغة من باب قتل اهـ.

وقال الراغب: النجاسة: القذارة، وهي ضربان: ضرب يدرك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، وهذا ما وصف الله به المشركين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ويقال: نجسه إذا جعله نسجاً، ونجسه أزال نجسه، ومنه تنجيس العرب، وهي شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبي، ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان، والناجس والنجيس داء خبيث لا دواء له اهـ.

والمعنى: إنما المشركون ذوو نجس، لأن معهم الشرك، الذي هو بمنزلة النجس، أو أنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها، مبالغةً في وصفهم بها، وعن ابن عباس أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين، ذكره في «الفتوحات».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة: الفقر يقال: عال الرجل يعيل عيلاً وعيلةً؛ من باب باع إذا افتقر، فهو عائل، وأعال كثر عياله، وهو يعول عيالاً كثيرين؛ أي: يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم، وفي «المصباح» العيلة بالفتح: الفقر، وهو مصدر عال يعيل، من باب سار إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِيْ ٱلْفَقِيْرُ مَتَىٰ غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِيْ ٱلْغَنِيُّ مَتَىٰ يَعِيْلُ

والجمع عالة، وهو في تقدير فعلة مثل كافر وكفرة، وعيلان بالفتح: اسم رجل، ومنه: قيس بن عيلان قال بعضهم: ليس في كلام العرب عيلان، بالعين المهملة إلا هذا. اهـ. وفي «المختار» وعيال الرجل من يعولهم، وواحد العيال عيِّل، كجيِّد، والجمع عيائل كجيائد، وأعال الرجل كثرت عياله، فهو معيل. والمرأة معيلةٌ قال الأخفش: أي: صار ذا عيال، اهـ ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ والفضل: العطاء والتفضل: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ يقال: فلان يدين بكذا، إذا اتخذه

ديناً وعقيدةً، ودين الحق: هو الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على أنبيائه، وهو من دان يدين، من باب باع يبيع.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ والجزية: ضرب من الخراج، يضرب على الأشخاص، لا على الأرض، وجمعها جزًى بالكسر وفي «البحر»: الجزية: ما أخذ من أهل الذمة على مقامهم في بلاد الإسلام، سميت بذلك لأنهم يجزونها؛ أي: يقضونها، أو لأنا نجزي بها من مُنَّ عليهم بالإعفاء عن القتل. اهـ ووزنها فعلة، من جزى يجزي، كرمى يرمي إذا كافأ عما أسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن ﴿عَن يَدٍ﴾ واليد: السعة والقدرة وفي «زاده»: اليد قد تجعل كنايةً عن الانقياد، يقال: أعطى فلان بيده إذا سلم وانقاد؛ لأن من أبى وامتنع.. لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، كأنه قيل: قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد، دون أن يكرهوا عليه، فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الإكراه.. لا يبقى عقد الذمة اهـ.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ والصَّغار، والصغر: ضد الكبر، ويكون في الأمور الحسية والمعنوية، والمراد به هنا: الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التي بها تصغر أنفسهم لديهم، بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بالتنوين: أي: تنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالأولى بناءً على أنه عربي، وليس فيه إلا علة واحدة، والثانية بناء على أنه أعجمي، ففيه العلتان العلمية والعجمة، وعلى كل هو مبتدأ و﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبر، فلذلك ثبتت الألف في ابن؛ لأنها لا تحذف منه، إلا إن كان صفة. اهـ شيخنا، ذكره في «الفتوحات» وعزير: هو الذي يسميه أهل الكتاب عزرا، وينتهي نسبه إلى العازار بن هارون ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ أي: يشابهون ويحاكون، قرأ العامة: يضاهون بضم الهاء بعدها واو، وقرأ عاصم: بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة بعدها واو، كما مر في مبحث القراءة، فقيل: هما بمعنى واحد، وهو المشابهة، وفيه لغتان ضاهأت وضاهيت، بالهمزة والياء والهمزة لغة ثقيف، وقيل: الياء فرع عن الهمزة، كما قالوا: قرأت وقريت وتوضأت وتوضيت وأخطأت وأخطيت، اهـ

«سمين» وفي «المصباح» ضاهأه مضاهأة، مهموز عارضه وباراه، ويجوز التخفيف، فيقال: ضاهيته مضاهاة، وهي مشاكلة الشيء بالشيء وفي الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يضاهون خلق الله»؛ أي: يعارضون بما يعملون، والمراد المصورون، اهـ. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جملة أصلها الدعاء، ثم كثر استعمالها، حتى قيلت على وجه التعجب في الخير أو الشر، وهم لا يريدون الدعاء ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ والإفك: صرف الشيء عن وجهه، يقال: أفك فلان؛ أي: صرف عقله عن إدراك الحقائق، ورجل مأفوك العقل.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ والأحبار: جمع حبر - بالفتح والكسر - وهو العالم من اليهود، والكسر أفصح؛ لأنه يجمع على أفعال دون فعول، وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيد: هو بالفتح، وقال الأصمعي: لا أدري أنه بالفتح أو بالكسر. وكعب الحبر - بالكسر -: منسوب إلى الحبر الذي يكتب به؛ لأنه كان صاحب كتب، والحبرة كالعنبة برد يماني، والجمع حبر كعنب، وحبران والرهبان جمع راهب، وهو لغة الخائف، وعند النصارى: هو المتبتل المنقطع للعبادة، وهم علماء النصارى، كما أن الأحبار علماء اليهود.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ حيث شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي، بضيق الأرض مع سعتها على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿نَجَسٌ﴾؛ أي: هم كالنجس في خبث

بواطنهم واعتقاداتهم، فحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً، أو هو مجاز عن خبث الباطن وفساد العقيدة، فيكون استعارة لذلك، كما في «الشهاب».

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ لأنهم إنما نهوا عن الاقتراب للمبالغة في المنع من دخول الحرم، ونهي المشركين أن يقربوا راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم من ذلك، اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ لأنه كناية عن الانقياد والاستسلام.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ لأن أحبارهم راجع لليهود، ورهبانهم راجع للنصارى.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي: كالأرباب في الطاعة والعبادة لهم جمع رب، وهو الإله؛ لأنه حذف فيه الأداة ووجه الشبه وهو الاتباع والطاعة لهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ شبه تكذيبهم بآيات الله، بإخماد النار، فاستعار له اسم المشبه به ثم اشتق من الإطفاء، بمعنى التكذيب يطفئوا بمعنى: يكذبوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿نور الله﴾ حيث شبه شرائع الله سبحانه وتعالى التي منها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة وحججه النيرة الدالة على وحدانيته بالنور الحسي، كالشمس بجامع الاهتداء في كل؛ لأنها يهتدى بها إلى الصواب والحق، كما يهتدى بالنور الحسي إلى المحسوسات.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ وقوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي
الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا
مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)
إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ
لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ
الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ الآية، مناسبة(١)

---

(١) البحر المحيط.

هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر أنواعاً من قبائح أهل الشرك، وأهل الكتاب.. ذكر أيضاً نوعاً منه، وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى؛ لأنه حكم في وقت بحكم خاص، فإذا غيروا ذلك الوقت.. فقد غيروا حكم الله تعالى، وهذه الآيات[1] عود على بدء إلى الكلام في أحوال المشركين، وقد كان الكلام في قتال أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ من قبيل الاستطراد، اقتضاه ما قبله، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن الكلام السابق في حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم، من خروجهم من هداية الدين في العقائد والأعمال، والفضائل التي تهذب النفوس وتزكيها، والكلام هنا في غزوة تبوك، والمراد بها: قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام، وجميعهم نصارى، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها.

قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما توعد من لم ينفروا مع الرسول ﷺ، وتثاقلوا حين استنفرهم، وضرب لهم من الأمثال ما ضرب.. أتبعه بالأمر الجزم الذي لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد في التخلف، وترك الطاعة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما رغبهم في الجهاد في سبيل الله، وبين أن فريقاً منهم تباطؤوا وتثاقلوا.. أردف ذلك ببيان أن فريقا منهم تخلفوا عنه، مع ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد، وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنوه ﷺ في القعود والتخلف ليأذن لهم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ. . .﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن جرير عن أبي مالك، قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرَّم صَفراً، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية، قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير في الصيف، حين طابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟. . .﴾ الآية، أخرج[٢] ابن أبي حاتم، عن نجدة بن نفيع، قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ، أحياءً من العرب، فتثاقلوا عنه فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فأمسك عنهم المطر، فكان عذابهم.

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن حضرمي، أنه ذكر له أن أناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً، أو كبيراً فيقول: إني آثم فأنزل الله ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي، قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ، لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾؛ أي: إن عدد الشهور التي تتكون منها السنة القمرية ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في حكمه وتقديره وعلمه، لا عند الناس أهل الجاهلية؛ لأنهم كانوايجعلونه ثلاثة عشر شهراً أو أربعة عشر، ليتسع لهم الوقت، وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ رد عليهم؛ أي إن عدد شهور السنة في حكمه تعالى، لا بالنظر إلى ما ابتدعه الناس ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة ولا نقصان، مثبتة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: مرتبة على هذا الترتيب المعروف فيها أول ما خلق الله السموات والأرض فقوله[1]: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ بدل من قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ والتقدير: إن عدد شهور السنة عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض اثنا عشر شهراً، هي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة.

وفائدة الإبدالين: تقرير الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله تعالى في كتاب الله، وثابت في علمه من أول ما خلق الله هذا العالم.

ويجوز أن يكون ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ صفة اثنا عشر؛ أي: اثنا عشر شهراً مثبتة في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ، وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء، ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً وبعضها أكثر وبعضها أقل.

والمعنى: أن[2] مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهراً فيما كتبه الله وأثبته من نظام سير القمر، وتقديره: منازل منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن، والمراد بقوله: يوم خلق السموات والأرض الوقت الذي خلقهما فيه باعتبار تمامه، ونهايته في جملته، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله، وخلق كل منهما وما فيهما، وقال «البيضاوي»: والمعنى أن هذا الأمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة اهـ. والمراد بها شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل، وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم، وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم كالعدد ومدة الحمل والرضاع وآجال الدين.

وأيام هذه الشهور[1] ثلاث مئة وخمسة وخمسون يوماً، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورةً تامةً، وهي ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية، فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء، وتارة في الصيف.

قال المفسرون: وسبب نزول هذه الآية، من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية، فكان يقع حجهم تارة في وقته، وتارة في المحرم، وتارة في صفر، وتارة في غير ذلك من سائر الشهور، فأعلم الله عز وجل أن عدة شهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها، وهو قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: في علمه وحكمه اثنا عشر شهراً اهـ «خازن».

﴿مِنْهَآ﴾؛ أي: من تلك الشهور الاثني عشر ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾؛ أي: محترمةٌ ثلاثةٌ سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد رجب، كما ورد ذلك في السنة المطهرة، وإنما سميت[2] حرماً: لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال، حتى إن أحدهم لو لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه في هذه

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

الأربعة أشهر.. لم يزعجه، ولما جاء الإسلام.. لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً، ولأن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف، وكذلك السيئات أيضاً أشد فيها من غيرها، فلا يجوز انتهاك حرمتها ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تحريم الأشهر الأربعة هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي[1]: الدِّين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانت العرب وَرِثوه منهما، فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها، حتى أحدثت النسيء فغيروا، وقيل: أراد بالدين القويم: الحكم الذي لا يغير ولا يبدل، والقيِّم هنا بمعنى الدائم الذي لا يزول، وقيل: المعنى ذلك؛ أي: كون شهور السنة اثني عشر شهراً هو الدين القيم، أي: الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوفى، فالدين إذاً بمعنى الحساب، كما في قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه - يعني حاسب نفسه - وعمل لما بعد الموت».

فالواجب على المسلمين الأخذ بهذا الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم وبيعاتهم وأجل ديونهم، وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ﴾، أي: في هذه الأشهر الحرم الأربعة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها، وقيل: الضمير يعود إلى الأشهر كلها الحرم وغيرها.

والمعنى: فلا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات؛ لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصي والفساد مطلقاً في جميع الأوقات إلى الممات.

والقول الأول أولى، وهو قول أكثر المفسرين، وقال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً.

فإن قلت: لِمَ خص هذه الأربعة بالتحريم؟

قلت: إن الأنفس[2] مجبولة بطبعها على الظلم والفساد، والامتناع عنه على

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

الإطلاق شاق على النفس، فخص الله سبحانه وتعالى بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام، ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات، فربما تركها في باقي الأوقات، فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة، سبباً لترك الظلم والمعاصي في غيرها من الأشهر، فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعض، بمزيد التشريف والتعظيم، وكذلك الأمكنة أيضاً.

وقد ذهب[1] جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ، لهذه الآية ولقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف، ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم، كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم، للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام، وهو ذو القعدة، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما.. فقد أُجيب عنه بأنه لم يبتدىء محاصرتهم في ذي القعدة، بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع.

وعبارة «المراغي» هنا قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2]؛ أي: فلا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظم حرمتها، وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضي ترك المحرمات فيها، تنشيطاً للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها ويطهرها، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه، ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة، كالصلوات الخمس، وخص يوم الجمعة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين تذكيراً وموعظة حسنة تقوي في المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى، وخص رمضان بوجوب صيامه في كل سنة، وخص أياماً معدودات من ذي الحجة بأداء مناسك الحج، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً للسفر لأداء النسك، وحرم مكة وما حولها في جميع السنة، لتأمين الحج والعمرة التي تؤدىٰ في كل وقت، وحرم رجب في وسط السنة، لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه، انتهت.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم ﴿كَمَا﴾ أنهم ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛ أي: بأجمعهم مجتمعين على قتالكم.

والمعنى[1]: تعاونوا وتناصروا على قتالهم، ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم، وكونوا عباد الله مجتمعين، متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين، كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة.

وفيه[2] دليل على وجوب قتال المشركين، وأنه فرض على الأعيان، إن لم يقم به البعض.

والمعنى: أي[3] قاتلوهم جميعاً، وكونوا يداً واحدةً على دفع عدوانهم وكف أذاهم، كما يقاتلونكم كذلك، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره، لا للانتقام ولا للعصبية ولا لكسب المال، كما هو دأبهم في قتال قويهم لضعيفهم، فأنتم حينئذٍ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: مع أوليائه، الذين يخشونه في أداء المأمورات واجتناب المنهيات بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم، لما

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتق الظلم والعدوان في الأرض، وأسباب الفشل والخذلان في القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء، ومخالفة سنن الله في الاجتماع.. يكن الله معه ومن كان الله معه، فلا يغلبه أحد.

وقرأ ابن القعقاع وهبيرة عن حفص[1]: بإسكان العين مع إثبات الألف في ﴿اثْنَا عَشَرَ﴾ وهو جمع بين ساكنين على غير حده كما روي: «التقت حلقتا البطان». بإثبات ألف حلقتا، وقرأ طلحة: بإسكان السين ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾؛ أي: إن تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، كتأخير حرمة المحرم إلى صفر ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾؛ أي: كفر زائد على الكفر الأصلي الذي كان فيهم من الكفر بالله ورسوله، أي: إن تأخير الحرمة التي جعلها لشهر واحد وشرعها فيه إلى شهر آخر وجعلها له كفر بما شرعه الله تعالى في ذلك الشهر، زائد على كفرهم بالله ورسوله، وإنما سمى الله سبحانه وتعالى النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم ومعصيةٌ من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والمعنى: هو زيادة كفر على كفرهم، وسبب هذه الزيادة أنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحرم، ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسيء، فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحرم، فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم؛ لأن ضم هذا العمل إلى الأنواع المتقدمة من الكفر زيادة في الكفر.

وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها.. قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم.. حرموا بدله شهر صفر، وهكذا في غيره، وكان الذي يحملهم على هذا أنَّ كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة بعضهم على بعض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يَضُرُّ بِهِم تواليها، وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه

---

(١) البحر المحيط.

بقدره من غير الأشهر الحرم، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر.. أخروه إلى ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا، يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوايحجون في كل شهر عامين، فحجوا في ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذا باقي شهور السنة، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة، ثم حج رسول الله ﷺ، في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجة شهر ذي الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض فيما روى الشيخان وغيرهما عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظنا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه»، ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»، قلنا: نعم، قال: «اللهم اشهد».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، مهموزاً على وزن فعيل، وقرأ الزهري وحميد

---

(١) البحر المحيط.

وأبو جعفر وورش عن نافع والحلواني: ﴿النسيّ﴾ بتشديد الياء من غير همز، وروي ذلك عن ابن كثير، سهل الهمزة بإبدالها ياءً، وأدغم الياء فيها كما فعلوا من نبيء وخطيئة، فقالوا: نبي وخطية بالإبدال والإدغام، وفي كتاب «اللوامع»: قرأ جعفر بن محمد والزهري والأشهب: ﴿النسي﴾ بالياء من غير همز، مثل الندي وقرأ السلمي وطلحة والأشهب وشبل ﴿النسء﴾، بإسكان السين، وقرأ مجاهد: ﴿النُسوء﴾ على وزن فعول، بفتح الفاء، وهو التأخير ورويت هذه عن طلحة والسلمي.

وقوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ ابن مسعود[1] وحفص وحمزة والكسائي ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد مبنياً للمجهول، وهو المناسب لقوله: ﴿زين﴾ الآتي، والمعنى أن كبارهم أضلوهم وحملوهم على ذلك النسيء، والتأخير وقرأ باقي السبعة وابن مسعود في رواية عنه والحسن ومجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون ويعقوب: بضم الياء وكسر الضاد مبنياً للفاعل، والمعنى حينئذ يضل الله بالنسيء والتأخير الذين كفروا، أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم، أو المعنى يضل به رؤساء الذين كفروا تابعيهم، والآخذين بأفعالهم، وهذا المعنى أحسن في تفسير قراءة من قرأ: ﴿يضل﴾ بالبناء للفاعل، كما في «الخازن» ورويت قراءة البناء للفاعل عن الأعمش وأبي رجاء.

وفي «زاد المسير» قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به اهـ.

وقرأ أبو رجاء: ﴿يَضَلُّ﴾ بفتحتين من ضللت بكسر اللام، أضل بفتح الضاد، منقولاً فتحها من فتحة اللام، إذ الأصل أضلل، وقرأ النخعي ومحبوبٌ عن الحسن: ﴿نُضِلُّ﴾ بالنون المضمومة وكسر الضاد؛ أي: نضل نحن.

﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾؛ أي: يحلون هذا النسيء والتأخير؛ أي: يحلون هذا المؤخر تحريمه ﴿عَامًا﴾؛ أي: في العام الذي يريدون أن يقاتلوا في المحرم ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: ويحرمون التأخير ﴿عَامًا﴾ آخر وهو العام الذي يتركون المحرم على تحريمه؛ أي: يفعلون ذلك التحليل عاماً والتحريم عاماً آخر ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا﴾؛ أي: ليوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿عِدَّةَ﴾؛ أي: عدد ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ من الأشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة، ولا ينقصون ولا ينظرون إلى أعيان الأربعة الأشهر، التي حرمها الله تعالى ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بخصوصه يعني المحرم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم ما أحلوا شهراً من الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال، إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة، كما حرم الله، فيكون ذلك موافقة في العدد، لا في الحكم، وقال ابن عباس: الذين شرعوا النسيء هم بنو مالك من كنانة، وكانوا ثلاثةً، قيل: أول من شرعه عمرو بن يحيى، وقيل: رجل، يقال له نعيم بن ثعلبة، وقيل غير ذلك.

وكان من عادتهم في ذلك أن يقوم رجل من كنانه في أيام منى، حيث يجتمع الحجيج، فيقول: أنا الذي لا يرد قضاء لي، فيقولون: صدقت، فأخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالاً، ثم صاروا ينسؤون غير المحرم ويسمون النسيء باسم الأصل، فتغير أسماء الشهور كلها، فيسمون صفر محرماً وربيع الأول صفراً، وهكذا، وبذلك يعلم أن النسيء تشريع ديني ملتزم غيّروا به ملة إبراهيم، اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومن ثم سماه الله زيادة في الكفر؛ أي: إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله، زائد على شركهم بالله وكفرهم به، إذ حق التشريع له وحده، فمنازعته في ذلك شرك في ربوبيته، وهم يضلون به سائر الكفار، الذين يتبعونهم فيه ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم إذ واطؤوا عدة ما حرم الله من الشهور في ملته، ولم يزيدوا ولم ينقصوا، وإن قدموا وأخروا مع أن المقصد في ذلك العدد والتخصيص، لا مجرد العدد، وإذا لم يفعلوا ذلك.. فقد استحلوا ما حرم الله تعالى.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾؛ أي: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي

يعملونها، ومن جملتها النسيء، حتى حسبوا هذا القبيح، حسناً بهذه الشبهة الباطلة، إذا اكتفوا بالعدد، ولم ينقصوا منه شيئاً، ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المصرين على كفرهم المستمرين عليه، فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

أي: لا يهديهم إلى الحكمة في أحكام شرعه وجعلها مبنية على مصالح الناس في دينهم ودنياهم، أفراداً وجماعات، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين، من آثار الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم وما يوسوس لهم به الشيطان، فيوقعهم في الشقاء والخسران.

وقرأ الأعمش وأبو جعفر[1]: ﴿ليواطيوا﴾ بالياء المضمومة، وقرأ الجمهور: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ زيد بن علي: ﴿زَيَّن لهم سوءَ أعمالهم﴾ بفتح الزاي والياء والهمزة، والأولى أن يكون المعنى: زَيَّن لهم ذلك الفعل سوء أعمالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع، بعد رجوعه ﷺ من الطائف، وفيما لابسها من هتك ستر المنافقين، وضعفاء الإيمان وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق إلا آيتين جاءتا في آخرها، وإلا ما جاء في أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرياً على سنة القرآن في أسلوبه الذي اختص به.

وتبوك موضع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، فهي تبعد عن المدينة (٦١٠كم)، أربع عشرة مرحلة، وعن دمشق (٦٩٣كم).

---

(١) البحر المحيط.

غزوة تبوك

وكان السبب في هذه الغزوة: ما بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة، من أن هرقل جمع أهل الروم وأهل الشام، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء، وكان ﷺ قليلاً ما يخرج في غزوة إلا ورّىٰ عنها بغيرها، إلا ما كان من غزوة تبوك، وذلك لبعد المسافة وشدة الزمان وكثرة العدو، ليأخذ الناس أهبتهم، فأمرهم بالجهاد وبعث إلى مكة وقبائل العرب، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله، وهي آخر غزواته ﷺ، وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، فجهز عشرة آلاف، وأنفق عليها عشرة آلاف دينار، غير الإبل والخيل وهي تسع مئة بعير ومئة فرس، وغير الزاد وما يتعلق بذلك، حتى ما تربط به الأسقية فقال النبي ﷺ: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها» وأنفق غيره من الأغنياء، وأول من جاء بالنفقة أبو بكر، فجاء بجميع ماله، أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنصف ماله وجاء ابن عوف بمئة أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وكذا طلحة، وبعثت النساء بكل ما يقدرون عليه من حليهن، فلما تجهز رسول الله ﷺ بالناس وهم ثلاثون ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وكان الخيل عشرة آلاف فرس.. خلَّف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل: عليّ بن أبي طالب وتخلف عبد الله بن أبي، ومن كان معه من المنافقين، بعد أن خرجوا إلى ثنية الوداع متوجهاً إلى تبوك، وعقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر، ورايته العظمى للزبير، وراية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواءً ورايةً، ولمَّا نزلوا بتبوك وجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة من مائها، فمضمض بها فاه، ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت، وارتووا هم وخيلهم وركابهم، وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل: عشرين ليلة، فأتاه يُحَنَّةُ ـ بضم التحتية وفتح الحاء المهملة والنون المشددة، ثم تاء تأنيث ـ بن رؤبة ـ بضم الراء فهمزة ساكنة فموحدة ـ صاحب أيلة وأهدى له بغلة بيضاء فكساه النبي ﷺ رداء، وصالحه على إعطاء الجزية بعد أن عرض عليه الإسلام، فلم يسلم فكتب له ولأهل أيلة كتاباً تركه عندهم ليعملوا به

وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك، وأشاروا عليه بعدم مجاوزتها، فانصرف هو المسلمون راجعين إلى المدينة، ولمَّا دنا من المدينة.. تلقاه الذين تخلفوا، فقال لأصحابه: «لا تكلموا رجلاً منهم، ولا تجالسوهم، حتى آذن لكم» فأعرض عنهم المسلمون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه إلى آخر ما في القصة، اهـ من «سيرة الحلبي».

والاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ؛ أي: أي شيء يمنعكم من ذلك و﴿ما﴾: مبتدأ و﴿لكم﴾: خبره وجملة ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ حال من ضمير المخاطبين وأصله تثاقلتم فأبدلت التاء ثاء، ثم أدغمت في الثاء، ثم اجتلبت همزة الوصل توصلاً إلى النطق بالساكن، وقرأ ابن مسعود والأعمش ﴿تثاقلتم﴾ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ ظرف لهذه الحال مقدم عليها، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا بما جاء به محمد ﷺ، أي شيء ثبت لكم من الأعذار حال كونكم متثاقلين ومشتهين الإقامة في أرضكم في وقت قول الرسول لكم انفروا؛ أي: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله ﷺ «إذ استنفرتم.. فانفروا» والاسم النفير اهـ «خازن».

أي: يا أيها الذين آمنوا، ما الذي عرض لكم، مما يخل بالإيمان أو بكماله، من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم، وإخلادكم إلى الراحة واللذة في الأرض، حين قال لكم الرسول: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق، الذي هو سبيل سعادتكم، فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ وكان من أسباب تثاقلهم أمور:

١ - الزمن كان وقت حر شديد.

٢ - أنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين.

٣ - أنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام.

٤ ـ أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر؛ لأن رجباً وافق أكتوبر في تلك السنة، فاقتضى اجتماع هذه الأسباب تثاقل الناس عن تلك الغزوة.

روى ابن جرير عن مجاهد، قال: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين، وبعد الطائف أمروا بالنفير في الصيف حين اخترمت النخل ـ اجتني ثمرها ـ وطابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فقالوا: منا الثقيل، وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله.

وكان من دأب النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يوري بغيرها، لما تقتضيه المصلحة من الكتمان، إلا في هذه الغزوة، فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر.

وكانت حكمة[١] الله في إخراجهم، وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالاً تمحيص المؤمنين وخزي المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين، والاستفهام في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ استفهام توبيخ وتعجب؛ أي: أرضيتم بالحياة الدنيا وغرورها ﴿مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: بدل نعيم الآخرة؛ أي: أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلاً من سعادة الآخرة الكاملة الباقية، ومن يفعل ذلك.. فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: فما التمتع بلذائذ الدنيا ﴿فِى﴾ مقابلة نعيم ﴿ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل السرور القليل سفه.

أي: فما هذا الذي تتمتعون به في الدنيا مشوباً بالمنغصات والآلام إذا قيس بما في الآخرة من النعيم المقيم والرضوان من المولى إلا شيء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلاً منه.

روى أحمد ومسلم والترمذي عن المسور أن النبي ﷺ، قال: «والله ما في

---

(١) المراغي.

الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم ثم يرفعها فلينظر بم يرجع». أي: إن نعيم الدنيا في قلته وقلة زمنه، إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله.

وفي الآية[١] دليل على وجوب الجهاد في كل حال، وفي كل وقت؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن الجهاد واجباً.. لما عاتبهم على ذلك التثاقل، ويؤيد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾؛ أي: إن لم تخرجوا أيها المؤمنون إلى ما طلبكم الرسول ﷺ للخروج إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي وجيعاً[٢] في الآخرة؛ لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة، وقيل: إن المراد به احتباس المطر في الدنيا، قال نجدة بن رفيع: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب، فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم؛ أي[٣]: يهلكهم الله بسبب فظيع هائل، كقحط وظهور عدو ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ عنكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم وأطوع يطيعونه ويطيعون رسوله؛ لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس، وقيل: هم أهل اليمن، نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ وإعزاز دينه فإن سارعوا معك إلى الخروج إلى حيث استنفروا.. حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل، وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه.. حصلت النصرة بغيرهم، وحصلت العُتْبَىٰ لهم، لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم.

والمعنى: أن الله يأتي بعد إهلاككم بدلكم بقوم مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا، كأهل اليمن وأبناء فارس، والضمير في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ إما[٤] راجع إلى الله؛ أي: ولا تضروا الله بتثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه شيئاً من الضرر،

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) البيضاوي.
(٤) الخازن.

فهو سبحانه الغني عنكم في كل أمر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وكل من في السموات والأرض مسخر بأمره، ولكن جعل للبشر شيئاً من الاختيار، ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم، وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإما عائد على محمد؛ أي: ولا تضروا محمداً ﷺ شيئاً من الضرر، فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: والله سبحانه قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه، وقادر على إهلاككم والإتيان بغيركم إن أصررتم على عصيان رسوله، وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه، ممن يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولا يخشون في الحق لومة اللائمين، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

ثم رغبهم ثانية في الجهاد، فأبان لهم أنه تعالى المتكفل بنصره على أعداء دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وهو قد فعل ذلك به، وهو في قلة من العدد والعدو في كثرة، فكيف وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾؛ أي: إن لم تنصروا الرسول الذي استنصركم في سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله، وأعداء رسوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: فسينصره الله بقدرته وتأييده؛ كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: حين أجمع المشركون على القتل به واضطروه إلى الخروج والهجرة، حال كونه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق، وقرأت[1] فرقة: ﴿ثاني اثنين﴾ بسكون ياء ﴿ثاني﴾ قال ابن جني: حكاها أبو عمرو ووجهه: أنه سكن الياء تشبيهاً لها بالألف وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدل بعض، والغار ثقب في الجبل المسمى ثوراً، وهو المشهور بغار ثور، وهو جبل قريب من مكة؛ أي: فقد نصره الله إذ هما في غار جبل ثور، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدل ثانٍ؛ أي: حين يقول محمد ﷺ، لصاحبه في الغار، وهو أبو بكر الصديق، لمَّا رأى منه أمارة الحزن ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ولا تخف

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَنَا﴾ بنصره ومعونته وحفظه وتأييده، فلن يطلع المشركون علينا، ولن يصلوا إلينا، والمراد بالمعية الولاية الدائمة، التي لا يحوم حول صاحبها شيء من الحزن، اهـ «كرخي».

وكان[١] الصديق قد حزن على رسول الله ﷺ، لا على نفسه فقال له: يا رسول الله، إذا مت أنا.. فأنا رجل واحد، وإذا مت أنت.. هلكت الأمة والدين.

روي: أن قريشاً ومن بمكة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فأمره الله تعالى أن يخرج أول الليل إلى الغار، فخرج هو وأبو بكر أول الليل إلى الغار، وأمر ﷺ علياً أن يضطجع على فراشه، ليمنع السواد من طلبه، حتى يبلغ إلى ما أمر الله به، فلما وصل إلى الغار.. دخل أبو بكر فيه أولاً يلتمس ما فيه، فقال له النبي ﷺ: «مالك؟» فقال: بأبي أنت وأمي الغار مأوى السباع والهوام، فإن كان فيه شيء كان بي لا بك، وكان في الغار جحر فوضع عقبه عليه؛ لئلا يخرج ما يؤذي الرسول، فلما طلب المشركون الأثر وقربوا.. بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره فجعل يمسح الدموع عن خده، وروي لما دخلا الغار.. بعث الله تعالى حمامتين، فباضتا في أسفله والعنكبوت نسجت عليه، فقال ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم»، فجعلوا يترددون حول الغار، ولا يرون أحداً، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة، هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث، فراجعها، إن أردت تمامها.

روى البخاري ومسلم من حديث أنس، قال: حدثني أبو بكر قال: كنت مع النبي ﷺ، في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه.. لأبصرنا تحت قدميه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، وقال[٢] أبو بكر رضي الله عنه شعراً من بحر البسيط:

قَالَ ٱلنَّبِيُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوَقِّرُنِي   وَنَحْنُ فِي سَدَفٍ مِنْ ظُلْمَةِ ٱلْغَارِ

---

(١) المراح.   (٢) البحر المحيط.

لاَ تَخْشَ شَيْئَاً فَإِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُنَا وَقَدْ تَكَفَّلَ لِيْ مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تَخْشَىٰ بَوَادِرَهُ كَيْدُ ٱلشَّيَاطِيْنِ قَدْ كَادَتْ لِكُفَّارِ
وَٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ طُرَّاً بِمَا صَنَعُوْا وَجَاعِلُ ٱلْمُنْتَهَىٰ مِنْهُمْ إِلَىٰ ٱلنَّارِ

وخلاصة ذلك[1]: إن لا تنصروه بالنفر لما استنفركم له.. فإن الله قد ضمن له النصر، فهو ينصره كما نصره في الوقت الذي اضطرّه المشركون إلى الهجرة، حين كان ثاني اثنين في الغار، وكان صاحبه قد ساوره الحزن، فقال له: لا تحزن إن الله معنا، ونحن لا نكلف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾؛ أي: طمأنينته التي يسكن عندها القلب ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على رسوله، وقيل: على صاحبه أبي بكر، لأن الرسول معصوم عن الخوف ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾؛ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ﴾ من عنده ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأُحد، وقيل: بل هم ملائكة أيده بهم في حال الهجرة، يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار، ويصرفونها عنهما، فقد خرج والشبان المتواطؤون على قتله وقوف ولم ينظروه.

وهذه[2] الجملة معطوفة على جملة ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: كلمة الشرك وهي دعوتهم إليه ونداؤهم للأصنام هي ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ أي: السافلة الحقيرة الزاهقة المنمحقة المضمحلة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ وهي دينه المبنيُّ على أساس توحيده تعالى، والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة، والخالي من شوائب الشرك، وخرافات الوثنية، أو كلمة لا إله إلا الله، وكلمة الدعوة إلى الإسلام ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ أي: العالية الظاهرة بظهور نور الإسلام وإزالة سيادة المشركين في تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وأتى بضمير الفصل تأكيدا لفضل كلمته في العلو وإشعاراً بأنها المختصة به دون غيرها.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ بتشديد الياء ومجاهد ﴿وأيده﴾ بالتخفيف وقرأ[2] الأعمش ويعقوب: ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب حملاً على جعل؛ أي: وجعل كلمة الله وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم وقال أبو حيان وقراءة الجمهور بالرفع أثبت في الأخبار وعن أنس رأيت في مصحف أبيٍّ ﴿وجعل كلمته هي العليا﴾ انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره قاهر على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لخلقه إذ يضع الأشياء في مواضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته، وأذل من ناوأه من المشركين.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾؛ أي: اخرجوا أيها المؤمنون مع نبيكم إلى غزوة تبوك حالة كونكم ﴿خِفَافًا﴾ في الخروج لنشاطكم له ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿ثقالا﴾ عنه لمشقته عليكم، وقيل: منفردين ومجتمعين، وقيل: فقراء وأغنياء وقيل: شباباً وشيوخاً، وقيل: رجالاً وفرساناً، وقيل: ذوي عيال وغير ذوي عيال، وقيل: ذوي أشغال وغير ذوي أشغال، وقيل: أصحاء ومرضى، وقيل: عزاباً ومتأهلين، وقيل غير ذلك.

وقيل[3]: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الآية، وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ من باب التخصيص، لا من باب النسخ، على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم.

والصحيح[4]: القول الأول وأنها منسوخة، ولأن الجهاد من فروض

---

(1) البحر المحيط.
(2) الشوكاني.
(3) الشوكاني.
(4) الخازن.

الكفايات، ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك، وأن النبي ﷺ خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال، فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفاية ليس على الأعيان، ومحل[1] النسخ قوله: ﴿وَثِقَالًا﴾، وأما ﴿خِفَافًا﴾ فلا نسخ فيه على كل قول والله أعلم.

أي: انفروا على كل حال من يسرٍ أو عسرٍ، وصحة أو مرض، وغنى أو فقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك، مما ينتظم في مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

فإذا أعلن النفير العام.. وجب الامتثال إلا حال العجز التام، وهو ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ويؤيد هذا التعميم في عموم الأحوال قول أبي أيوب الأنصاري، وقد شهد المشاهد كلها، إلا غزوة واحدة، قال الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً، وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدي النبي وعمله، ففتحوا البلاد وسادوا العباد، لكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغني بألفاظه، ذلوا وضعفوا واستكانوا، وسادتهم الشعوب الأخرى، وتقوض ملكهم من أطرافه وأصبحوا من المستضعفين، وصاروا عبيداً لأعدائهم.

﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ أعداءكم الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ويفسدون في الأرض وابذلوا ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في إقامة ميزان العدل وإعلاء كلمة الحق، فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه.. وجب عليه ذلك، ومن قدر على أحدهما، وجب عليه ما كان في مقدرته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرتم به من النفر والجهاد الذي هو الوسيلة في حفظ كيان الأمم وعلو كلمتهم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من القعود والتثاقل في دينكم ودنياكم، أما في الدين فلا سعادة إلا لمن ينصر الحق، ويقيم العدل، باتباع هدى الدين والعمل بالشرع الحكيم، وأما في الدنيا، فإنه لا

---

(١) الفتوحات.

عزٌّ للأمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية التي هي وسيلة لدفاع العدو وكبح جماحه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه، فانفروا وجاهدوا في سبيل الله وبادروا إليه وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون، فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه.

ولما أمرهم بالنفير تخلف بعض المنافقين، لأعذار ضعيفة، وتخلف ناس آخرون من المؤمنين، فأنزل الله في أثناء السفر قوله ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ أي: متاعا قريب المنال وغنيمةً سهلة المأخذ، والعرض: ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: متوسطاً بين القريب والبعيد، يعني: سهلاً قريباً ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ في الخروج إلى تبوك طمعاً في تلك المنافع؛ أي لخرجوا معك.

والمعنى[1]: لو كان ما دعوتهم إليه منفعة قريبة المنال ليس في الوصول إليها كبير عناء وسفراً هيناً، لا تعب فيه ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ وأسرعوا بالنفر إليه إذ حب المنافع المادية والرغبة فيها طبيعي في الإنسان، ولا سيما إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال، وكان من يسعى إليها ممن لا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب المقيم والأجر العظيم، كأولئك المنافقين.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافة التي تقطع بمشقة، والشقة[2]: السفر البعيد؛ لأنه يشق على الإنسان سلوكه، فتخلفوا عن الجهاد، بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة.

أي: ولكنَّك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفراً شاقاً، لأنك استنهضتهم وقت الحر وزمن القيظ، وحين الحاجة إلى الكن، فتخلفوا جبناً وحباً للراحة والسلامة.

والخلاصة: لو كان العرض قريباً، والغنيمة سهلة، والسفر قاصداً.. لاتبعوك، طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم، ولكن لما كان السفر بعيداً

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.

وكانوا يتعظمون غزو الروم، لا جرم أنهم تخلفوا لهذا السبب.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا رجع النبي ﷺ من هذا الجهاد، يحلفون بالله، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ أي: المتخلفون عن الغزو عند رجوعك من غزوة تبوك، وهم عبد الله بن أبي وجُدُّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهم، كما قال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ قائلين ﴿بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ الخروج إلى الجهاد بوجود الزاد والراحلة وانتفاء الأعذار المانعة منه ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى غزوة تبوك، فما كان تخلفنا إلا لاضطرار، وقال البيضاوي: هذه[1] الجملة سادة مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات، لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه اهـ.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب بامتهان اسم الله بالحلف الكاذب، لستر نفاقهم وإخفائه، تأييداً للباطل بالباطل، وتقويةً للإجرام بالإجرام، فإن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك، روي أنه ﷺ قال: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع».

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أيمانهم وحلفهم بالله، وقولهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، فهم كانوا للخروج مطيقين، إذ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء الأجسام ذوي يسرة في المال، وقرأ الأعمش وزيد بن علي ﴿لَوُ استطعنا﴾ بضم الواو، فرَّ من ثقل الكسرة على الواو، وشبهها بواو الجمع، عند تحريكها لالتقاء الساكنين، وقرأ[2] الحسن: بفتحها، كما جاء ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ بالأوجه الثلاثة، ثم عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ في إذنه لمن تخلف عنه من المنافقين، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يا محمد، ما وقع منك، من ترك الأولى والأكمل؛ أي: عفا عنك ما أدَّاك إليه اجتهادك من الإذن لهم حين استأذنوك وكذبوا عليك في الاعتذار، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ للعتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ، حيث

---

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.

وقع منه الإذن في القعود لمن استأذنه قبل أن يتبين له من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه ومن هو كاذب فيه، والعتاب: هو لوم الحبيب حبيبه على أمر غير لائق به؛ أي: لأي سببٍ، ولأي شيء أذنت لهم في القعود والتخلف كما أرادوا، وهلا تأنيت في الإذن لهم وتوقفت عنه ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾؛ أي: حتى ينجلي وينكشف لك ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في اعتذارهم بعدم الاستطاعة من جهة المال، أو من جهة البدن ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فيما يعتذرون به؛ أي: حتى يتبين لك الفريقان فتعامل كلّاً بما ينبغي أن يعامل به، فإن الكاذبين لا يخرجون أذنت لهم أو لم تأذن، فكان من الأجدر بك والأولى لك، أن تتلبث أو تمسك عنه اختباراً.

والمعنى: عفا الله عنك يا محمد، ما كان منك من إذنك لهؤلاء المنافقين، الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك.

روي عن مجاهد في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ هم ناس قالوا: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم، فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم، فاقعدوا. وقال ابن عباس، لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذٍ، حتى نزلت سورة براءة، قيل[1]: إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أخذه للفداء وإذنه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما، وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه لرسوله ﷺ.

فإن قلت: هذا العتاب المذكور هنا، يعارض ما رخص له ﷺ في سورة النور، بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؟

قلتُ: يمكن الجمع بين الآيتين، بأن العتاب هنا متوجه إلى الأذن قبل الاستثبات، حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات، والله أعلم.

---

(١) البيضاوي.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء»[1]: وليس عفا هنا بمعنى: غفر، بل كما قال النبي ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق» ولم تجب عليهم قط؛ أي لم يلزمكم ذلك، ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول: (العفو لا يكون إلا عن ذنب) مَنْ لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا عنك؛ أي: لم يلزمك ذنب، ثم ذكر سبحانه: أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد بلا عذر، بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود.. شق عليه ذلك، فقال: ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ في ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله بل الخلص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن، فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف من غير عذر، فحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنةً للتأني في أمرهم، بل دليلاً على نفاقهم، ذكره أبو السعود.

والمعنى: ليس[2] من شأن المؤمنين بالله - الذي كتب عليهم القتال - وباليوم الآخر الذي يوفى فيه كل عامل جزاء ما عمل، أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، إذا جد ما يدعو إلى ذلك، بل يُقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ بل هم يستعدون له وقت السلم بإعداد القوة ورباط الخيل وهم بالأولى لا يستأذنونك في التخلف عنه بعد إعلان النفير العام، وأقصى ما يقع من فريق منهم هو التثاقل والتباطؤ إذا كان النصر بعيداً.

واعلم: أنه قد تقدم لنا أن هذه السورة تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين، ومن ثم نقل البغوي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شؤونهم بهذا التفصيل حتى

---

(١) الخازن بتصرف.

(٢) المراغي.

نزلت هذه السورة، وهذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يسارعون إلى طاعته؛ أي: والله عليم بمن خافه فاتقاه باجتناب ما يسخطه، وفعل ما يرضيه بالمسارعة إلى طاعته في عدوه، وجهادِهِ بماله ونفسه، وليس من دأبهم أن يستأذنوا بالتخلف كراهيةً للقتال. وفي[1] الآية إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات ولا فضائل العادات كقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، وسائر أعمال المعروف.

ثم صرح بما فهم من الكلام السابق زيادة في التوكيد والتقرير، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ يا محمد في التخلف عن الجهاد معك من غير عذر ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بتوحيده (و) لا بـ ﴿اليوم الآخر﴾ وهم المنافقون، فهؤلاء يرون بذل المال مغرماً يفوت عليهم بعض المنافع، وهم لا يرجون ثواباً عليه كما يرجو المؤمنون، ويرون الجهاد بالنفس آلاماً ومتاعب، وذكر[2] الإيمان بالله أولاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين؛ لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله، قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطف على الصلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء بالماضي، للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم، وهو الشك، وأنما أضاف[3] الشك والارتياب إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً، فإذا دخله الشك، كان ذلك نفاقاً؛ أي: إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم؛ أي: شكت قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ﴾ حال كونهم ﴿فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المفرق قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ أي: يتحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين.

والمعنى: فهؤلاء الذين يتسأذنونك ليسوا بمؤمنين، بل كانوا مرتابين حائرين، لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق، فلم تطمئن به قلوبهم، ولم تذعن له نفوسهم فهم متحيرون في أمرهم، مذبذبون في عملهم، يوافقون المؤمنين فيما سَهلَ أداؤه من عبادات الإسلام، من صلاة وصيام،

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

ويلتمسون الخلاص فيما شق عليهم من تكاليفه، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة للهرب من القيام بشيء منها.

وقد جاء في بعض الروايات: أن عدد هؤلاء كان تسعةً وثلاثين رجلاً ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ إلى الغزو معك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾؛ أي: لهيؤوا للخروج ﴿عُدَّةً﴾؛ أي: أهبةً من الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك، مما يحتاج إليه المسافر لمثل هذا السفر البعيد، وقد كانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾؛ أي: ولكن لم يرد نهوضهم للخروج معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أي: حبسهم بالكسل.

أي: ولو[1] كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك.. لأعدوا له عدة، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يُحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو عدةً، ولكن كره الله انبعاثهم وخروجم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا، ولكن تثبطوا؛ لأن كراهة الله انبعاثهم، تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانعباث: الخروج؛ أي: حبسهم الله عن الخروج معك، وخذلهم؛ لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس.. أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، وقيل المعنى: لو أرادوا الخروج.. لأعدوا له عدة، ولكن ما أرادوه؛ لكراهة الله له.

والانبعاث في الأصل[2]: توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشيء بقوة، كبعث الرسل وبعث الموتى، والتثبيط: التعويق عن الأمر والمنع منه.

والخلاصة: كره الله نفيرهم وخروجهم مع المؤمنين، لما فيه من الضرر العائق لهم عما أحبه من نصرهم، فثبطهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف التي هي مقتضى سننه من تأثير النفاق فيها، ومن ثم لم يعدوا للخروج عدته،

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

لأنهم لم يريدوه، وإنما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من المخالفة والعصيان.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾؛ أي: قال لهم الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة: تخلفوا مع المتخلفين، وقيل: قاله بعضهم لبعض، وقيل: قاله لهم رسول الله ﷺ غضباً عليهم، وقيل: هو عبارة عن الخذلان؛ أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، خذلاناً لهم، ومعنى ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؛ أي: مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان، وفيه من الذم لهم والإزراء عليهم والتنقيص بهم ما لا يخفى.

أي: وقال لهم الرسول ﷺ بعبارة تدل على السخط لا على الرضا: اقعدوا مع الأطفال والزمنى والعجزة والنساء، وهم قد حملوه على ظاهره لموافقته لما يريدون.

وها هنا يتوجه سؤال، وهو أن خروج المنافقين مع رسول الله ﷺ إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة، فإن كان فيه مصلحة.. فلم قال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؟ وإن كان فيه مفسدةٌ، فلم عاتب نبيه ﷺ في إذنه لهم في القعود؟

والجواب عن هذا السؤال: أن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبره بتلك المفسدة بقوله: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ بقي أن يقال: فلم عاتب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟ فنقول: إنه ﷺ أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وقيل: إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالقعود، اهـ «خازن».

وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية ﴿عُده﴾ بضم العين من غير تاء. قال صاحب «اللوامح»: لما أضاف.. جعل الكناية نائبةً عن التاء، فأسقطها. وقال أبو حاتم: هو جمع عدةٍ كبرةٍ وبرٍّ ودرةٍ ودرٍ، وقرأ زر بن حبيش

وأبان عن عاصم: ﴿عِدَّهُ﴾ بكسر العين وهاء إضمار. قال ابن عطية: وهو عندي اسم لما يعد كالذبح والقتل للعدو، سمي قتلاً إذ حقه أن يقتل، وقرىء أيضاً: ﴿عِدَّة﴾ بكسر العين وبالتاء دون إضافةٍ أي: عدةً من الزاد والسلاح.

الإعراب

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عِدَّةَ﴾ اسمها ﴿الشُّهُورِ﴾ مضاف إليه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عِدَّةَ﴾؛ لأنه مصدرٌ ﴿اثْنَا عَشَرَ﴾ عدد مركب، معرب الصدر مبنيُّ العجز ﴿اثْنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وعلامة رفعه الألف، نيابةً عن الضمة؛ لأنه ملحق بالمثنى ﴿عَشَرَ﴾ جزء خبر مبني على الفتح، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿شَهْرًا﴾ منصوب على التمييز ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة لأثنى عشر أو بدل من ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ إن قلنا إنه مصدر لا جثةٌ، أو بدلٌ ثان من ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ فعل ومفعول ﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَرْبَعَةٌ﴾؛ لأنها صفة نكرة قدمت عليها ﴿أَرْبَعَةٌ﴾ مبتدأ ﴿حُرُمٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة لـ﴿اثْنَا عَشَرَ﴾ أو مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿الدِّينُ﴾ خبر ﴿الْقَيِّمُ﴾ صفه لـ ﴿الدِّينُ﴾ والجملة مستأنفة ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن تحريمها هو الدين القيم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم ﴿لا تظلموا﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فِيهِنَّ﴾ متعلق به ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿كَافَّةً﴾ حال من واو ﴿وَقَاتِلُوا﴾ أو من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ ولكنه مصدر جامد في

تأويل المشتق، كما سيأتي في مبحث التصريف، تقديره: حالة كونكم أو كونهم مجتمعين، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟﴾ ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه و﴿ما﴾ مصدرية ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿كَآفَّةً﴾ إما حال من واو الفاعل، أو كاف المخاطبين، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كقتالهم إياكم ﴿كَآفَّةً﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: وقاتلوا المشركين كافة، قتالاً كائناً كقتالهم إياكم كافة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟﴾ أو مستأنف، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في تأويل مصدر سادٌ مسد مفعولي علم؛ أي: واعلموا كون الله مع المتقين.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾ متعلق بـ ﴿زِيَادَةٌ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة ﴿يُضَلُّ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿به﴾ متعلق به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفعل صلة الموصول ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿عَامًا﴾ ظرف متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الموصول، أو مفسرة للضلال لا محل لها من الإعراب ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ معطوف على ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يواطئوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة بعد لام كي ﴿عِدَّةَ مَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عدة ما حرمه، وجملة ﴿يواطىء﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾ تقديره: لمواطأتهم عدة ما حرمه الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يحرمونه﴾ ﴿فَيُحِلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿يحلوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يواطئوا﴾ ﴿مَا﴾ في محل النصب مفعول ﴿فَيُحِلُّوا۟﴾ ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾

فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما حرمه ﴿زُيِّنَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والأصل زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنه ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول به ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة و﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿مَا﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي، في محل الرفع مبتدأ ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: أي شيء ثابت لكم، والجملة الاسمية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، لا جواب لها ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصِّيغة ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ والظرف متعلق بـ ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ الآتي وإن شئت قلت: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ فعل ماض وفاعل ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من كاف المخاطبين في ﴿لَكُمُ﴾ والتقدير: أيُّ شيء ثبت لكم من الأعذار، حال كونكم متثاقلين في وقت قول الرسول لكم: انفروا؛ أي: أخرجوا في سبيل الله ﴿أَرَضِيتُم﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي التعجبي الإنكاري ﴿رضيتم﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق به ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة والجملة الاستفهامية مستأنفة ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما ذكره أبو البقاء: أي: حالة كونها بدلاً من الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿ما﴾ نافية

﴿مَتَٰعُ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من المبتدأ، على رأي سيبويه، تقديره: حالة كونه منسوباً إلى الآخرة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلٌ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية مسوقة لتعليل النفي المفهوم من الجملة الاسمية، والتقدير: لا ترضوا الحياة الدنيا بدل الآخرة لكون متاع الدنيا قليلاً. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف من حيث المعنى، تقديره: فما متاع الحياة الدنيا محسوباً في الآخرة، فمحسوباً: حال من متاع، وقال الحوفي: إنه متعلق بـ ﴿قَلِيلٌ﴾ وهو خبر المبتدأ، قال: وجاز أن يتقدم الظرف على عامله المقرون بإلا؛ لأن الظروف تعمل فيها روائح الأفعال، ولو قلت: ما زيد إلا عمراً يضرب.. لم يجز، اهـ «سمين».

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في لام ﴿لا﴾، ﴿لا﴾ نافية ﴿تَنفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بإن الشرطية، على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به، أو مفعول مطلق ﴿أَلِيمًا﴾ صفة لـ ﴿عذابا﴾ والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ معطوف على ﴿يعذب﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿قَوْمًا﴾ مفعول به ﴿غَيْرَكُمْ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ لأنه بمعنى مغايرين إياكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على يعذب أيضاً﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ثان ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

﴿إِلَّا﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في لام

﴿لا﴾ النافية، ﴿لا﴾ نافية ﴿تَنصُرُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فسينصره الله تعالى، وجملة الشرط مع جوابه المحذوف مستأنفة ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بـ ﴿لام﴾ التعليل المقدرة المدلول عليها بـ ﴿الفاء﴾ التعليلية المتعلقة بالجواب المحذوف، الذي قدرناه آنفاً ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿ثَانِىَ﴾ منصوب على الحال من الهاء في ﴿أَخْرَجَهُ﴾ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ مضاف إليه، ولكنه في تأويل مشتق، تقديره: إذ أخرجه الذين كفروا، حالة كونه واحداً من اثنين؛ أي: حالة كونه منفرداً عن جميع الناس، إلا أبا بكر الصديق، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، والظرف بدل من ﴿إِذْ﴾ قبله بدل بعض من كل، فيفرض زمن إخراجه ممتداً، بحيث يصدق على زمن استقرارهما في الغار، وزمن القول المذكور، والبدل في هذا وما بعده بدل بعض من كل، ولا بد من هذا التكلف لتصح البدلية، وإلا فزمن الإخراج مباين لزمن حصولهما في الغار، إذ بين الغار ومكة مسيرة ساعة ﴿هُمَا﴾ مبتدأ ﴿فِى ٱلْغَارِ﴾ خبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾ والظرف بدل أيضاً من ﴿إِذْ﴾ الأولى بدل بعض من كل ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُ﴾ وإن شئت قلتَ: ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَحْزَنْ﴾ فعل

مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على أبي بكر، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿مَعَنَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل و﴿الفاء﴾ عاطفة الجملة على جملة قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ مفعول به ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿أنزل﴾ ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزل﴾ ﴿بِجُنُودٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَيَّد﴾ ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به وجازم؛ لأنَّ رأى بصرية، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿جنود﴾ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول أول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أيد﴾ ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ مفعول ثان لجعل ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿هِىَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْعُلْيَا﴾ خبر المبتدأ والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة أو معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱنفِرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان من واو ﴿ٱنفِرُوا﴾ ﴿وَجَٰهِدُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱنفِرُوا﴾ ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على ﴿أموالكم﴾ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾ خبره ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة مستأنفة ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾ فعل واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون خيريته.. فلا تتثاقلوا عنه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ

بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَوْ﴾ حرف شرط ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ما فهم من السياق، تقديره: لو كان ما دعوتهم إليه ﴿عَرَضًا﴾ خبرها ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿عَرَضًا﴾ ﴿وَسَفَرًا﴾ معطوف على ﴿عَرَضًا﴾ ﴿قَاصِدًا﴾ صفة ﴿سفراً﴾ ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية ﴿اتبعوك﴾ فعل وفاعل ومفعول وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَٰكِنۢ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿بَعُدَتْ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ فاعل وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الاستدراك ﴿لَوِ﴾ حرف شرط ﴿ٱسْتَطَعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوِ﴾ ﴿لَخَرَجْنَا﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوِ﴾ ﴿خرجنا﴾ فعل وفاعل ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف حال من فاعل ﴿خرجنا﴾؛ أي: حالة كوننا مصاحبين بكم، وجملة ﴿خرجنا﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعاً، كما في «الفتوحات» وجملة ﴿لَوِ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وسيحلفون لكم. قائلين: لو استطعنا.. لخرجنا معكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة بدل من جملة قوله ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره والجملة الاسمية مستأنفة ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿كاذبون﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ سادة مسد مفعولي عَلم معلقة عنها باللام.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَنكَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لِمَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر ﴿م﴾ اسم استفهام إنكاري، في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة، فرقاً بينها وبين الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَذِنتَ﴾ المذكور بعده ﴿أَذِنتَ﴾ فعل وفاعل ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به أيضاً، وجاز تعلقهما بعامل واحد مع اتحادهما لفظاً لاختلاف معناهما؛ لأن الأولى للتعليل،

والثانية للتبليغ، كما في «الجمل» والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ ﴿لَكَ﴾ متعلق به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل وجملة ﴿صَدَقُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: إلى تبين الذين صدقوا وظهورهم لك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَذِنتَ﴾ ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد، وعلم هنا بمعنى: عرف.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿أَن يُجَـٰهِدُوا۟﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ معطوف عليه والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في مجاهدتهم بأموالهم وأنفسهم، والجار المحذوف متعلق بـ ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾ مبتدأ وخبر ﴿بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق به والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة الصلة ﴿فَهُمْ﴾ مبتدأ و﴿الفاء﴾ تفريعية عاطفة، ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿فِى رَيْبِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ وجملة ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مفرعة معطوفة على جملة ﴿ارتابت قلوبهم﴾.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ حرف شرط وفعل وفاعل ومفعول ﴿لَأَعَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿لو﴾ و﴿اللام﴾ رابطة للجواب ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿أعدوا﴾ ﴿عُدَّةً﴾ مفعول به وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفعل ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ مفعول به، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فعل ومفعول و﴿الفاء﴾ عاطفة وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿كَرِهَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ نائب فاعل محكى لـ ﴿قيل﴾ وجملة ﴿قيل﴾ معطوفة على جملة ﴿ثبطهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ ﴿عِدَّةَ﴾ اسم مصدر لعد الشيء، يعده: من باب رد إذا أحصاه، والشهور: جمع شهر، وهو في الأصل اسم للهلال، سميت به الأيام؛ أي: إن عدد شهور السنة القمرية ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ والكتاب: هو اللوح المحفوظ ﴿حُرُمٌ﴾ بضمتين واحدها حرام من الحرمة، بمعنى: التعظيم ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: الدين: الشرع، والقيم: الصحيح المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿كَآفَّةً﴾: مصدر في موضع الحال، كما تقدم في مبحث الإعراب، ومعناه: جميعاً ولا يثنى ولا يجمع ولا تدخله أل ولا يتصرف فيه بغير الحال، اهـ. كرخي.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ والنسيء: من نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة إذا أخره؛ أي: الشهر الذي أنسىء تحريمه؛ أي: أخر عن موضعه وقال الكسائي: يقال: نسأه وأنسأه إذا أخره، وقال الجوهري وأبو حاتم: النسيء فعيل، بمعنى: مفعول من نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته، ثم حول إلى نسيء كما حول مقتول إلى قتيل، ورجل ناسىء وقوم نسأة، مثل فاسق وفسقة، انتهى. وقال الطبري: النسيء بالهمز معناه: الزيادة، انتهى، فإذا قلت أنسأ الله أجله، بمعنى: أخر، لزم من ذلك الزيادة في الأجل، فليس النسيء مرادفاً للزيادة، بل قد يكون منفردا عنها في بعض المواضع، وإذا كان النسيء مصدراً كان الإخبار عنه بمصدر واضحاً، وإذا

كان بمعنى مفعول فلا بد من إضمارٍ إما في النسيء؛ أي: إن نسأ النسيء، أو في زيادة؛ أي: ذو زيادة، وبتقدير هذا الإضمار يُردُّ على ما يرد على قوله: ولا يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ لأنه يكون المعنى: إنما المؤخر زيادة، والمؤخر الشهر، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر ذكره في «البحر».

وفي «المختار»: والنسيئة كالفعيلة التأخير، وكذا النسآء، بالفتح والمد، التأخير والنسيء في الآية، فعيل بمعنى: مفعول، من قولك نسأه، من باب: قطع؛ أي: أخره فهو منسوء فحول منسوء إلى نسيء، كما حول مقتول إلى قتيل، والمراد: تأخيرهم حرمة المحرم إلى صفر، انتهى.

﴿انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ النفر والنفور: الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط، يقال: نفرت الدابة والغزال، نفوراً ونفر الحجيج من عرفات نفراً واستنفر الملك العسكر إلى القتال، وأعلن النفير العام، فنفروا خفافاً وثقالاً وفي «الخازن» يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه، ومنه قوله ﷺ «إذا استنفرتم، فانفروا» والاسم النفير، اهـ ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾؛ أي: تباطأتم وملتم عن الجهاد إلى القعود في الأرض، وأصله تثاقلتم، فأبدلت التاء ثاءً مثلثة ثم أدغمت في الثاء، ثم اجتلبت همزة الوصل، توصلا إلى النطق بالساكن، فصار اثاقلتم ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمتاع ما يتمتع به من لذات الدنيا ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ والغار: النقب العظيم في الجبل، والمراد هنا غار جبل ثور، يجمع على غِيران، مثل: تاج وتيجان وقاع وقيعان، والغار أيضاً نبت طيب الريح، والغار أيضاً: الجماعة والغاران: البطن والفرج، وألف الغار منقلبةٌ عن واوٍ، اهـ «سمين».

﴿لِصَاحِبِهِ﴾ والصاحب: هو أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ سكينته والسكينة: سكون النفس واطمئنانها، وهو ضد الانزعاج والاضطراب و﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هي التوحيد و﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هي الشرك والكفر.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا على الصفة التي يخفف عليكم الجهاد فيها، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها، وهذان الوصفان يدخل تحتهما

أقسام كثيرة، كما أشرنا إليها في مبحث التفسير.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ والعرض بفتحتين: ما يعرض لك من متاع الدنيا ومنافعها، مما لا ثبات له ولا بقاء، وليس في الوصول إليه كبير عناء ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ ويقال: سير قاصد، وسفر قاصد؛ أي: هين لا مشقة فيه، من القصد وهو الاعتدال ﴿الشُّقَّةُ﴾ والشقة الطريق، لا تقطع إلا بعناء ومشقة، فهي مشتقة من المشقة كما في «السمين» ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ والعفو: التجاوز عن التقصير، وترك المؤاخذة عليه ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان، فإذا دخله الشك، كان ذلك نفاقاً اهـ «خازن».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين يحلون ويحرمون في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ وبين ﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ وبين كلمة ﴿اللَّهِ﴾ وكلمة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وبين قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وبين ﴿الصَّادِقِينَ﴾ و﴿الْكَاذِبِينَ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله ﴿كَافَّةً﴾ وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وفي لفظ ﴿الدُّنْيَا﴾ و﴿الآخرة﴾ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ...﴾ إلخ.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وفي قوله: ﴿أعدوا له عدة﴾ وفي قوله: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ من إطلاق الكل، وإرادة البعض؛ لأن المراد بها الشهور القمرية.

ومنها: إبهام الفاعل استهجاناً له في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ إن كان المزين الشيطان، أو للتفخيم إن قلنا: المزين هو الله.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار؛ لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها، بالنسبة للآخرة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ لأنها استعارة عن الشرك، كما أن كلمة الله استعارة عن الإيمان والتوحيد، وفي قوله: ﴿وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾؛ لأنه استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على سالكها.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ إظهاراً بعظم فضله، وجلالة قدره.

ومنها: تقديم المسرة على المضرة، في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ حيث قدم العفو على العتاب، وقد أحسن من قال: إن من لطف الله بنبيه: أن بدأه بالعفو قبل العتب.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنه أسند الإرتياب والشك إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان، فإذا دخله الشك كان ذلك نفاقاً كما مرَّ.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا
فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل
لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ
تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ
عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ
مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ
﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ
﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا
آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ
رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن استئذانهم في التخلف عن القتال إنما كان ستراً لنفاقهم وتغطية لعصيانهم.. أردف ذلك ببيان المفاسد التي كانت تنجم من خروجهم لو خرجوا وحصرها في أمور ثلاثة:

١ ـ الاضطراب في الرأي وفساد النظام.

٢ ـ تفريق الكلمة بالسعي فيما بينكم بالنميمة.

٣ ـ أنَّ فيكم ناساً من ضعفاء الإيمان، يسمعون كلامهم ويقبلون قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنها سيقت لبيان أقوالٍ قالها المنافقون، بعضها قيلت جهراً، وبعضها أكنوه في أنفسهم، وأعذارٍ سيعتذرون بها غير ما سبق منهم، وشؤونٍ أخرى لهم أكثرها من أنباء الغيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر اعتذار المنافقين بالمعاذير الكاذبة، وتعللالتهم الباطلة في التخلف عن القتال، وذكر ما يجول في نفوسهم من كراهتهم للرسول ﷺ والمؤمنين، وأنهم يتربصون بهم الدوائر.. أردف ذلك ببيان أن نفقاتهم على الجهاد في هذه الحال، طوعاً أو كرهاً، لن يتقبلها الله تعالى، ولا ثواب لهم عليها، لما يبطنونه في صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر الله تعالى، فهم إن فعلوا شيئاً من أركان الدين.. فإنما يفعلونه رئاء الناس، وخوفاً على أنفسهم من الفضيحة إذا هم تركوها، وإن أموالهم الكثيرة إنما هي عذاب لهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أن المنافقين يظهرون غير ما يضمرون، فإذا هم طلبوا الإذن خوف الفتنة كانوا كاذبين، وذكر أنهم يتمنون أن تدور الدوائر على المؤمنين.. أردف ذلك بذكر غلوهم في النفاق، وأنهم لا يتحرجون أن يحلفوا الأيمان الفاجرة لستر نفاقهم خوف الفضيحة، وأنهم يتمنون أن يجدوا أي السبل للبعد عن المؤمنين، فيلجؤوا إليها مسرعين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما

قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أن المنافقين لا يتحرجون عن كاذب الإيمان إذا وجدوا في ذلك طريقاً لخدعة المؤمنين في تصديقهم بأنهم مؤمنون كما هم مؤمنون، كي يأمنوا جانبهم، وأنهم يجدون في البعد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. أردف ذلك بذكر سوءة أخرى من سوآتهم، وهي: أنهم يتمنون الفرص للطعن على النبي ﷺ، حتى يوقعوا الريب في قلوب ضعفاء الإيمان من المسلك الذي يوافق أهواءهم، وقد وجدوا من ذلك قسمة الصدقات والمغانم، فولجوا هذا الباب، وقالوا ما شاؤوا أن يقولوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] من يعيب الرسول في قسم الصدقات، بأنه يعطي من شاء ويحرم من يشاء، أو يخص أقاربه أو يأخذ لنفسه ما بقي، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون.. بيَّن تعالى مصرف الصدقات، وأنه ﷺ إنما قسم على ما فرضه الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[3]: ما أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك.. قال للجدِّ بن قيس: «يا جُدَّ بن قيس، ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، إني امرؤٌ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أُفتتِن، فأْذن لي ولا تفتنِّي، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث جابر بن عبد الله، مثله وأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس، أن النبي ﷺ، قال: «اغزوا، تغنموا بنات بني الأصفر». فقال ناس من المنافقين: إنه ليفتنكم بالنساء، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: قال الجدُّ بن قيس: إني إذا رأيت النساء.. لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينك بمالي. قال: ففيه نزلت هذه الآية ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ قال: لقوله: أعينك بمالي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل» قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: «دعه، فإن له أصحاباً، يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ينظر في قذذه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل، إحدى يديه ـ أو قال: ثدييه ـ مثل ثدي المرأة» أو قال: «مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين غفلة من الناس» قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني سمعت من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وروى[2] ابن جرير عن داود بن أبي عاصم: قال: أتى النبي ﷺ بصدقةٍ فقسمها ها هنا وها هنا، حتى ذهبت ورأى ذلك رجلٌ من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت هذه الآية.

---

(١) البخاري. (٢) المراغي.

ومجموع الروايات يدل على أن أشخاصاً من منافقي المدينة قالوا ذلك لحرمانهم من العطية، ولم يقله أحد من المهاجرين، ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبي ﷺ في منى.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم؛ أي: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود ﴿فِيكُمْ﴾؛ أي: في جيشكم وفي جمعكم، وقيل: في بمعنى: مع؛ أي: معكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: إلا فساداً وشراً، وأصل الخبال: اضطراب ومرض يؤثر في العقل، كالجنون، والمراد به هنا الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف، قيل: هذا الاستثناء متصل والمستثنى منه محذوف، والمعنى: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، والمتصل ما كان المستثنى فيه من جنس المستثنى منه، فالخبال بعض المستثنى منه المحذوف؛ لأنه داخل في الشيء، وقيل: منقطع، والمعنى: ما زادوكم قوةً ولا شدةً، ولكن خبالاً، وقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ معطوف على ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾ والمفعول محذوف؛ أي: ولأسرعوا ركائب نمائمهم وإفساداتهم ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾؛ أي: بينكم.

والمعنى: ولأسرعوا بينكم بالإفساد، بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين، وقال الحسن: معناه: لأسرعوا بالنميمة، وخط في المصحف ﴿ولا أوضعوا﴾ بزيادة الألف؛ لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من تلك الألف أثرٌ في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحها ألفاً أخرى، ونحوه: أو لا أذبحنه ذكره النسفي.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿ما زادكم﴾ بغير واو؛ أي: ما زادكم خروجهم إلا خبالا وفساداً، وقرأ محمد بن القاسم: ﴿لأسرعوا بالفرار﴾ وقرأ مجاهد

---

(١) البحر المحيط.

ومحمد بن زيد: ﴿ولأوفضوا﴾؛ أي: أسرعوا كقوله: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ وقرأ ابن الزبير: ﴿ولأرفضوا﴾ بالراء من رفض، إذا أسرع في مشيه رفضاً ورفضاناً، والخلال جمع الخلل، وهو الفرجة بين الشيئين، وجملة قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ حال[1] من فاعل أوضعوا؛ أي: ولأسرعوا فيما بينكم، حال كونهم باغين؛ أي: طالبين لكم الفتنة؛ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، وذلك أنهم يقولون للمؤمنين: لقد جمعوا لكم كذا وكذا، ولا طاقة لكم بهم، وإنكم ستهزمون منهم، وسيظرون عليكم، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل.

والمعنى: يطلبون لكم، ما تفتنون به بإلقاء الرعب في قلوبكم، وبإفساد نياتكم، وقيل معناه: يطلبون لكم العيب والشر، وجملة قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ حال إما من مفعول ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أو من فاعله، وجاز ذلك؛ لأن في الجملة ضميريهما، قال مجاهد: يعني وفيكم في خلالكم عيون لهم، يؤدون إليهم أخباركم، وما يسمعون منكم، وهم الجواسيس، فاللام على هذا المعنى للتعليل، وقال قتادة: وفيكم مطيعون لهم، يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم، وذلك؛ لأنهم يلقون إليهم أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب، فيقبلونها منهم، فاللام على هذا المعنى لتقوية التعدية، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فإن قلت: كيف[2] يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع المنافقين؟

قلتُ: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤساءهم، فإذا قالوا قولاً.. ربما أثر في قلوب ضعفة المؤمنين، في بعض الأحوال. اهـ «خازن».

ومعنى الآية[3]: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود معكم.. ما زادوكم قوةً ومنعةً وإقداماً كما هو الشأن في القوى المتحدة في العقيدة

---

(١) الفتوحات.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

والمصلحة، بل زادوكم اضطراباً في الرأي، وضعفاً في القتال، ومفسدةً للنظام، كما حدث مثل ذلك في غزوة حنين، فقد ولى المنافقون الأدبار في أول المعركة، وولى على أثرهم ضعفاء الإيمان من طلقاء فتح مكة، ومن ثم اضطرب نظام الجيش، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر وتفكير، كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال، ولأوضعوا؛ أي: ولأسرعوا في الدخول فيما بينكم، سعياً بالنميمة، وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تثبيطكم عن القتال، وتهويل أمر العدو، وإيقاع الرعب في قلوبكم، وفيكم ناس من ضعفاء الإيمان، أو ضعفاء العزم، يسمعون كلامهم، فإذا ألقوا إليهم شيئاً مما يوجب ضعف العزائم.. قبلوه، وفتروا بسببه عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغي.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم علماً يحيط بظواهرهم وبواطنهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر، وبما هم مستعدون له في كل حال مما وقع، ومما لم يقع، فأحكامه فيهم على علم تام، لا ظن فيه ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول ﷺ في الإذن لهم، ولا ينافي[1] حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدم من عتابه على الإذن لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله فيما يأتي في هذه السورة ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ الآية، وقال في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين.

والخلاصة: أن وجه[2] العتاب على الإذن في قعودهم مع ما قص الله تعالى من المفاسد التي تترتب على خروجهم أنهم لو قعدوا بغير إذن منه.. لظهر نفاقهم

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بين المسلمين بادىء ذي بدء فلم يستطيعوا مخالطتهم ولا السعي فيما بينهم بالأراجيف وقالة السوء التي يقبح أثرها وتسوء عاقبتها.

والذي تثبته هذه الآية: أن خروجهم شرٌ لا خير فيه، وهو ضعف لا قوةٌ، ولكنه ﷺ لم يكن يعلم أنهم لا يخرجون إذا لم يأذن لهم، فهذا من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله وهو لم يعلمه قبل نزول هذه الآيات.

وقد كان من حكمة الله تعالى في تربية رسوله ﷺ وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده فيها، لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه، فيحرصوا على العمل بها ولا يحكموا أهواءهم فيها، وكذلك كان السلف الصالح يسيرون على نهجه ويهتدون بهديه.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: لقد ابتغى وطلب هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين وتفريق شملهم؛ أي: لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنكم ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يوم أحد، حين انصرف بأصحابه عنكم، حين اعتزل بثلث الجيش، في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحدٍ، وطفق يقول للناس: أطاع النبي الولدان ومن لا رأي له، فعلام نقتل أنفسنا، وكان من رأيه عدم الخروج إلى أحد، فرجع بمن اتبعه من المنافقين، وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة فيرجعون، ولكن عصمهما الله تعالى من الفتنة.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾؛ أي: ودبروا لك المكايد والحيل في إبطال دينك ورد أمرك، فكان لهم خوض مع اليهود ومع المشركين في كل ما فعلا من عدواته ﷺ وقتال المؤمنين، وقرأ مسلمة بن محارب[1]: ﴿وقلَبوا﴾ بتخفيف اللام.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ غاية لمحذوف تقديره: واستمروا على تقليب الأمور وتدبير المكايد لك وإثارة الفتنة بين المسلمين وتنفير الناس عن قبول

---

(١) البحر المحيط.

الحق، حتى جاء الحق والنصر الإلهي الذي وعده لك ربك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ظهر دين الله وعلا شرعه وغلب دينه بظهور الأسباب التي تقوي شرع محمد ﷺ، كالتنكيل باليهود الغادرين الناكثين للعهود، والنصر على المشركين بفتح مكة، ودخول الناس في الإسلام أفواجاً ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: والحال، أنهم كارهون لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم أنف منهم.

وفي الآيتين[1] تسليةٌ لرسوله ﷺ والمؤمنين على تخلف المنافقين، وبيان ما ثبطهم الله تعالى، لأجله، وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم، تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه. ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود في المدينة ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ أي: ولا توقعني في الفتنة؛ أي: في العصيان والمخالفة، بأن لا تأذن لي فإنك إن منعتني من القعود، وقعدت بغير إذنك.. وقعت في الإثم، وقيل معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج، وقيل معناه أي: ومن المنافقين ناسٌ يستأذنوك في التخلف عن القتال، حتى لا يفتنوا بنساء الروم، روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: لجد بن قيس: يا جد، هل لك في جلاد بني الأصفر؛ أي: في جهاد ملوك الروم، قال الجد: يا رسول الله، قد علمت الأنصار أنى مغرم بالنساء، فلا تفتني ببنات بني الأصفر، وإني أخشى إن رأيتهن.. أن لا أصبر عنهم، ولكني أعينك بمالي، فقال رسول الله ﷺ، وهو معرضٌ عنه: «قد أذنت لك» فنزلت الآية، كما سبق في مبحث الأسباب، وبنو الأصفر هم أولاد الأصفر بن روم بن عيصو بن إسحاق، أو لأن جيشاً من الحبشة غلب عليهم، فوطىء نساءهم فولد لهم أولادٌ صفر، اهـ «قاموس».

(1) الخازن م.

وقد ردَّ الله شبهته وشبهة من وافقه عليها، بقوله: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتهبوا أيها المخاطبون ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ العظيمة، وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل، ﴿سَقَطُواْ﴾؛ أي: وقعوا.

والمعنى[1]: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة، فإن أعظم أنواع الفتن الكفر بالله ورسوله، والتمرد عن قبول التكليف؛ أي[2]: فليعلموا أنهم بمقالتهم هذه سقطوا، وتردوا في هاوية الفتنة، حيث اعتذروا بالمعاذير الكاذبة، من حيث يزعمون إتقاء التعرض للإثم، ثم بالنظر إلى جمال نساء الروم، وشغل القلب بمحاسنهم، وفي التعبير[3] بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة.

وقرأ ورشٌ[4]: بتخفيف همزة ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ بإبدالها واواً لضمة ما قبلها، وقال النحاس ما معناه: إذا دخلت الواو أو الفاء على إئذن، فهجاؤها في الخط ألف وذال، ونون بغير ياء، أو ثم فالهجاء ألف وياء وذال ونون، والفرق: أن ثم يوقف عليها، وتنفصل بخلافهما، وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ولا تُفتني﴾ بضم التاء الأولى من أفتن، الرباعي، قال أبو حاتم: هي: لغة تميم، وهي أيضاً قراءة ابن السميقع، ونسبها ابن مجاهد إلى إسماعيل المكي، وجمع الشاعر بين اللغتين فقال:

لَئِنْ فَتَنَتْنِيْ فَهِيَ بِٱلأَمْسِ أَفْتَنَتْ   سَعِيْداً فَأَمْسَىٰ قَدْ قَلاَ كُلَّ مُسْلِمِ

وقرىء[5]: ﴿سقط﴾؛ أي: مراعاة للفظ من.

ثم توعدهم على ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب، لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) أبو السعود.

الخروج منها بحال من الأحوال.

أي: وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله، وجحد آياته وكذب رسله، جامعةٌ لهم يوم القيامة، وكفى بها نكالاً ووبالاً. وهذا وعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها، وبيانٌ بأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار، وإنما تحيط النار بمن أحاطت بهم خطاياهم، حتى لا رجاء في توبتهم منها، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا محمد في بعض الغزوات، كيوم بدر ﴿حَسَنَةٌ﴾ من ظفر أو غنيمةٍ أو انقياد بعض ملوك الأطراف ﴿تَسُؤْهُمْۖ﴾؛ أي: تحزنهم لشدة عداوتهم لك، والحسنة: كل ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوهما؛ أي: إن كل ما يسرك من النصر والغنيمة، كما حدث يوم بدر يورثهم كآبة وحزناً لفرط حسدهم وشدة عدواتهم، ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: شدة، وإن صغرت كانكسار جيش وهزيمة كما حدث يوم أحد ﴿يَقُولُواْ﴾ معجبين بآرائهم حامدين ما صنعوا ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾؛ أي: أخذنا حذرنا وعملنا بالحزم، ولزمنا بالاحتياط حين اعتزلنا عن المسلمين، وتخلفنا عن الخروج معهم للقتال، وجاملنا مع الكفرة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه المصيبة، ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك.

والمعنى: احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم من المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾؛ أي: وينصرفوا ويرجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث التي يقولون فيها هذا القول، أو يعرضوا عن النبي ﷺ، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فرح البطر والشماتة، ومسرورون بما أصابك من المصيبة وبسلامتهم منها.

فإن قلت: لم قابل الله هنا الحسنة بالمصيبة، ولم يقابلها بالسيئة، كما قال: في سورة آل عمران ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ﴾؟

قلت: لأن الخطاب هنا للنبي ﷺ، وهي في حقه مصيبة يثاب عليها، لا

سيئة يعاتب عليها، والتي في آل عمران خطاب للمؤمنين اهـ «شهاب».

ثُمَّ لما قالوا هذا القول.. أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين، الذين يفرحون بمصائبك ويحزنون بمسارك بياناً، لبطلان اعتقادهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ أي: إلا ما خط لنا، وكتب علينا في اللوح المحفوظ، بحسب سننه تعالى في خلقه، من نصر وغنيمة، أو تمحيص وشهادة، ولا يتغير ذلك بموافقتكم أو مخالفتكم، فالأمور كلها بقضائه تعالى.

والمعنى: لن يصيبنا، ولن يحصل لنا خيرٌ ولا رخاء، ولا أمن، ولن يقع علينا شر ولا شدة ولا خوف، إلا وهو مقدر لنا، مكتوب علينا عند الله سبحانه وتعالى، فإذا صرنا مغلوبين صرنا مستحقين للأجر العظيم، وإن صرنا غالبين صرنا مستحقين للثواب في الآخرة، وفزنا بالمال الكثير والثناء الجميل في الدنيا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: ناصرنا ومتولي أمورنا بتوفيقنا ونصرنا، وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون، وليتقوا به؛ أي: فنحن نتوكل عليه ونلتجأ إليه، فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمةٍ.

ومن حق[1] المتوكل على الله وحده أن يقوم بما أوجبه عليه في شرعه، ويهتدي بسننه في خلقه، من الأخذ بأسباب النصر المادّية والمعنوية، كإعداد العدة، وإتقاء التنازع الذي يولد الفشل ويفرق الكلمة، ثم بعد ذلك يكل الأمر إلى الله فيما لا تصل إليه الأيدي من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح.

ويقابل التوكل بهذا المعنى إتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها، حتىٰ إذا أدركهم العجز خانهم الصبر، وأدركهم اليأس، حين حلول البأس واتكال ذوي الأوهام الذين يتعلقون بالأماني والأحكام حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم.. نكصوا على أعقابهم، وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين، وهو إنما

---

(١) أبو السعود.

وعد أولياءه لا أولياء الشيطان وذوي الخرافات والأوهام وقرأ[1] ابن مسعود، وابن مصرف: ﴿هل يصيبنا﴾ مكان ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ وقرأ ابن مصرف أيضاً، وأَعْيَنُ قاضي الري: ﴿هل يصيّبنا﴾ بتشديد الياء، وهو مضارع فَيْعَلَ، نحو: بيطر، لا مضارع فَعَّلَ، إذ لو كان كذلك لكان صوب مضعف العين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ وتنتظرون ﴿بِنَآ﴾ أيها الجاهلون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين الحسنتين، إما النصرة، أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، فالنصرة مآلها إلى الغلبة والاستيلاء، والشهادة مآلها إلى الجنة، والحسنى: تأنيث الأحسن، والاستفهام[2] فيه للتقريع والتوبيخ مع الإنكار؛ أي: ما تنتظرون بنا إلا إحدى الحالتين الشريفتين، النصر أو الشهادة، وذلك لأن[3] المسلم إذا ذهب إلى الغزو، فإن صار مغلوباً مقتولاً.. فاز بالاسم الحسن في الدنيا، وهي الرجولية والشوكة، وبالثواب العظيم الذي أعده الله للشهداء في الآخرة، وإن صار غالباً.. فاز في الدنيا بالمال الحلال، والاسم الجميل، وفي الآخرة بالثواب العظيم، وقرأ البزي وابن فليح: ﴿هل تربصون﴾ بإظهار اللام، وتشديد التاء، وقرأ الكوفيون: بإدغام اللام في التاء، وقرأ الباقون: بإظهار اللام، وتخفيف التاء، ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر المؤمنين ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِكُمْ﴾ أيها المنافقون إحدى السوأتين؛ أي: إحدى الحالتين الخسيستين، إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾؛ أي: بقارعة سماوية، لا كسب لنا فيها، كما فعل بالأمم المكذبة لرسلها، كأن ينزل عليكم صاعقةً من السماء، كما نزلت على عاد وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر؛ أي: أو أن يأذن لنا بقتالكم إن أغراكم الشيطان بإظهار كفركم؛ أي: إنّ[4] المنافق إذا قعد فيه بيته.. كان مذموماً منسوباً إلى الجبن وضعف القلب، والرضا بأمر يشاركه فيه النسوان والصبيان والعاجزون، ثم يكون أبداً خائفاً على نفسه وولده وماله، وإن إذن الله في قتله.. وقع في القتل والأسر والنهب مع

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

(٤) المراح.

الذل، وإن مات.. انتقل إلى العذاب الدائم في الآخرة.

والمعنى: أو يصيبكم بأيدي المؤمنين، بأن يظفرنا بكم، ويظهرنا عليكم، وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿إلا حدى﴾ بإسقاط الهمزة، قال ابن عطية: فوصل ألف إحدى، وهذه لغة، وليست بالقياس، وهذا نحو قول الشاعر:

يَابَا ٱلْمُغِيْرَةِ رُبَّ أَمْرٍ مُعْضَلٍ

وقول الآخر:

إِنْ لَمْ أُقَاتِلْ فَٱلْبِسَنِّي بُرْقُعَا

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا إحدى الحالتين الشريفتين ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ أي: منتظرون وقوعكم في إحدى الحالتين الخسيستين، وقال الحسن[2]: فتربصوا مواعيد الشيطان، إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

والمعنى: فتربصوا بنا إنا معكم متربصون من عاقبتنا وعاقبتكم، إن أصررتم على كفركم، وظهر أمركم، فنحن على بينة من ربنا، ولا بينة لكم، فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا، والدين لا يأمر بقتل المنافق ما دام يظهر الإسلام، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين القائلين: ذرونا نكن مع القاعدين، ونعينكم بالأموال، كالجد بن قيس وأشباهه حين قال للنبي ﷺ: إئذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، كما مر في مبحث الأسباب.

﴿أَنفِقُواْ﴾ أموالكم ﴿طَوْعًا﴾ واختياراً؛ أي: من غير إلزام من الله ورسوله ﴿أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: إلزاماً، منهما وسمى[3] الإلرام إكراهاً؛ لأن إلزام المنافقين بالإنفاق كان شاقاً عليهم كالإكراه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

والمعنى[1]: أنفقوا طائعين، من قبل أنفسكم أو مكرهين بالإنفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ ذلك الإنفاق؛ لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله، وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين.. فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله، بل أنفقه رياء وسمعة، فإنه لا يقبل منه.

وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي النساء والأحقاف[2]: ﴿كرها﴾ بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في الأحقاف: بالضم، من المشقة، وفي النساء والتوبة: بالفتح، من الإكراه، والباقون: بفتح الكاف في جميع ذلك.

وقال الشوكاني قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين.. فلن يتقبل منكم، وقيل: هو أمر في معنى الخبر؛ أي: أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول.

وجملة قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرد والعتوُّ، والمراد به هنا: الكفر؛ أي: لأنكم كنتم قوما منافقين؛ أي: كافرين في الباطن.

وخلاصة معنى الآية: قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين: أنفقوا من أموالكم ما شئتم في الجهاد، أو في غيره من النفقات التي أمر الله بها وحث في شرعه عليها حال التطوع تقيةً وحفظاً للنفس وكرهاً وخوفاً من العقوبة، فمهما أنفقتم فلن يتقبل منكم ما دمتم في شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة، لأنكم قوم فاسقون؛ أي: خارجون من دائرة الإيمان، والله إنما يتقبل من المؤمنين.

ثم بين سبحانه وتعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾؛ أي: وما منع هؤلاء المنافقين قبول نفقاتهم ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾؛ أي: إلا كفرهم بالله وبرسوله ﷺ، والاستثناء[1] من أعم الأشياء؛ أي: ما منعهم قبول نفقاتهم شيءٌ من الأشياء إلا كفرهم و﴿ما﴾ عطف عليه.

وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي[2]: ﴿أنْ يُقْبل﴾ بالياء، وباقي السبعة: بالتاء، و﴿نَفَقَتُهُمْ﴾ بالجمع، وزيد بن علي بالإفراد، وقرأ الأعرج بخلاف عنه: ﴿أن تقبل﴾ بالتاء، من فوق نفقتهم بالإفراد، وفي هذه القراءات، الفعل مبني للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿أن نَقْبَل منهم نفقتهم﴾ بالنون ونصب النفقة، وقال الزمخشري: وقراءة السلمي: ﴿أن نقبل منهم نفقاتهم﴾ على أن الفعل لله تعالى. انتهى.

والمعنى: أي وما منع[3] قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق، وكفرهم برسالة رسوله، وما جاء به من الهدى والبينات ﴿و﴾ إلا أنهم ﴿لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾؛ أي: وإلا عدم إتيانهم مواضع فعل الصلاة ومساجدها إلا وهم كسالى، جمع كسلان؛ أي: متثاقلون في الإتيان إلى الصلاة، وذلك؛ لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً، فلذلك ذمهم مع فعلها، والمعنى: ولا يصلون إلا رياء وتقية، لا إيماناً بوجوبها، ولا قصداً إلى ثوابها واحتساباً لأجرها، ولا تكميلاً لأنفسهم بما شرعه الله تعالى، لأجلها لأنها لا يأتونها إلا وهم متثاقلون كسالى، لا تنشرح لها نفوسهم، ولا تنشط لها أبدانهم، ﴿و﴾ إلا أنهم ﴿لا ينفقون﴾ أموالهم في مصالح الجهاد وغيره ﴿إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لذلك الإنفاق غير طيبة به أنفسهم، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم تضرب عليهم ينتفع بها المؤمنون، وهم ليسوا منهم، فلا نفع لهم بما أنفقوا لا في الدنيا ـ وهو واضح ـ ولا في الآخرة، إذ لا يؤمنون بها.

والحاصل: أنه جعل[4] المانع من القبول، ثلاثة أمور:

---

(١) أبو السعود.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) الشوكاني.

الأول: الكفر.

والثاني: أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل والتثاقل؛ لأنهم لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، فصلاتهم ليست إلا رياءً للناس، وتظهراً بالإسلام الذي يبطنون خلافه.

والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً؛ لأنهم يعدون إنفاقها وضعاً لها في مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله.

وعبارة «زاده»: أي[1] ما منعهم قبول نفقتهم إلا كفرهم وكسلهم في إتيان الصلاة، وكونهم كارهين الإنفاق. انتهت.

فإن قيل[2]: الكفر سبب مستقل، لعدم القبول، فما وجه التعليل بمجموع الأمور الثلاثة، وعند حصول السبب المستقل، لا يبقى لغيره أثر؟

قلنا: أجاب الإمام بأنه إنما يتوجه على قول المعتزلة، القائلين: بأن العلل مؤثرة في الحكم، وأما أهل السنة، فإنهم يقولون هذه الأسباب معرفةٌ غير موجبة للثواب ولا للعقاب، واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائزٌ. اهـ «شهاب».

والخطاب في قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ يا محمد ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾؛ أي: كثرة أموالهم ﴿ولا أولادهم﴾؛ أي: ولا كثرة أولادهم، الخطاب للنبي ﷺ، ولكن المراد جميع المؤمنين، والسامعين، أي فلا تعجبك أيها السامع كثرة أموالهم ولا أولادهم التي هي من أكبر النعم وأجلها ولا يجولن بخاطرك أنهم قد صفا لهم نعيمها في الدنيا، وقد حرموا ثوابها في الآخرة، فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾؛ أي: بتلك الأموال والأولاد ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يحصل لهم من الغم والحزن، عندئذٍ

---

(١) زاده.

(٢) الشهاب.

يغنمها المسلمون، ويأخذوها قسراً من أيديهم، مع كونها زينة حياتهم، وقرة أعينهم، وكذا في الآخرة، يعذبهم بعذاب النار، بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصدق به.

وقيل[1]: إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا: هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما، فإذا حصلا، ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما، ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما، فعلى هذا القول لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية، وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصلٌ لكل أحد من بني آدم، مؤمنهم وكافرهم، فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا؟

وأجيب عن هذا الإيراد: بأنَّ المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا التعذيب، وهو أنَّ المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة، وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا، فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا، وأما المنافق.. فإنه لا يعتقد كون الآخرة له، وأنه ليس له فيها ثواب، فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة، والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا، فثبت بهذا الاعتبار أنَّ المال والولد، عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين.

وقال مجاهد وقتادة[2]: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة؛ لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فيعذبون بما ينفقون ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: ويريد الله سبحانه وتعالى، أن تخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم كافرون، لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء، وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة، فيعذبون بها في الآخرة إثر ما عذبوا بها في الدنيا، لموتهم على الكفر الذي يحبط أعمالهم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ويحلف هؤلاء المنافقون بالله للمؤمنين كذباً إذا جالسوهم ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾؛ أي: لمن جملتكم في الدين، والملة، والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه ﴿وَمَا هُم﴾؛ أي: والحال أنهم ليسوا ﴿مِّنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم، دون بواطنهم؛ أي: ليسوا من أهل ملتكم ودينكم بل هم أهل شك ونفاق ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: يخافونكم، فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ أي: يخافون أن ينزل بهم، ما نزل بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام، ويحلفون لكم تقيةً منكم، لا عن حقيقة ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾؛ أي: لو وجد هؤلاء المنافقون ﴿مَلْجَـًٔا﴾؛ أي مهرباً وحرزاً، يلتجؤون إليه، ويحفظون فيه نفوسهم، تحصناً منكم، من رأس جبل أو قلعه أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ جمع مغارة، بمعنى: غار؛ أي: كهوفاً في الجبل، يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾؛ أي: مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات؛ أي: سرباً تحت الأرض يندسون ويختفون فيه منكم كالآبار، وأنفاق اليربوع، وقوله: أو مغارات أو مدخلاً من عطف الخاص على العام، لدخولهما في الملجأ ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾؛ أي: لالتجؤوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه؛ أي: لو حصلوا واحداً من هذه الثلاثة، لولَّوا إليه؛ أي لصرفوا وجوههم ورجعوا إليه؛ أي: إلى أحد هذه الوجوه الثلاثة، التي هي شرُّ الأمكنة ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أنهم ﴿يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون إليه إسراعا لا يرد وجوههم عنه شيء، لشدة تأذيهم من الرسول، ومن المؤمنين من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام، والمعنى: لو[١] وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة، لولَّوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين.

والخلاصة:[٢] أنهم لشدة كرههم للقتال معكم، ولبغض معاشرتهم إياكم ولعظيم الخوف من ظهور نفاقهم لكم، يتمنون الفرار منكم، والعيش في مكان يعتصمون به من انتقامكم منهم، حتى لو استطاعوا السكنى في الحصون والقلاع، أو في كهوف الجبال ومغاراتها، أو في أنفاق الأرض وأسرابها.. لولَّوا إليه

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

مسرعين، كالفرس الجموح، لا يردهم شيء عن ذلك.

وإنما وصفهم الله سبحانه وتعالى بتلك الأوصاف، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ مع كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم؛ لأنهم كانوا بين عشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، ولم يقدروا على ترك ذلك وفراقه، فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإخفاء الكفر، ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ، ولأهل الإيمان به، وبالغ الحقد عليهم.

وعبارة «زاده» هنا: أي إنهم[1] وإن كانوا يحلفون لكم أنهم منكم، إلا أنهم كاذبون في ذلك وإنما يحلفون خوفاً من القتل، ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى بعض الحصون والغيران، والسروب التي تحت الأرض، لدخلوه تستراً عنكم واستكراهاً لرؤيتكم ولقائكم، انتهت.

وقرأ الجمهور: ﴿مُدَّخلا﴾ وأصله مدتخل، مفتعل، من ادَّخل، وهو بناء تأكيد ومبالغةٍ، ومعناه: السرب والنفق في الأرض كما مر وقال النحاس: الأصل فيه متدخلٌ، قلبت التاء دالاً، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ومسلمة بن محارب وابن محيصن ويعقوب وابن كثير بخلاف عنه ﴿مَدْخَلا﴾ بفتح الميم من دخل الثلاثي. وقرأ محبوب عن الحسن: ﴿مُدْخَلاً﴾ بضم الميم من أدخل الرباعي، وروي ذلك عن الأعمش وعيسى بن عمر، وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش ﴿مُدَّخَّلاً﴾ بتشديد الدال والخاء معا، أصله متدخَّلٌ، فأدغمت التاء في الدال وقرأ أُبيٌّ ﴿مُنْدَخلاً﴾ بالنون من إنْدخَل، وقال أبو حاتم قراءة أُبيٍّ ﴿مُتْدَخَّلاً﴾ بالتاء وقرأ الأشهب العقيلي ﴿لوالوا إليه﴾؛ أي: لتابعوا إليه، وسارعوا، وروى ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نوفل، عن أبيه عن جده، وكانت له صحبةٌ أنه قرأ: ﴿لوالوا إليه﴾ من الموالاة، وأنكرها سعيد بن مسلم، وقال: أظنها ﴿لَوألوا﴾ بمعنى للجؤوا إليه، وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي: وهذا مما جاء فيه

---

(١) زاده.

فاعل وفعل بمعنى واحد، ومثله ضاعف وضعف، انتهى. وقال الزمخشري: وقرأ أبيٌّ ﴿متدخلاً لوألُوا إليه﴾؛ أي: لالتجؤوا إليه، انتهى، وعن أبيٍّ ﴿لَولَّوا وجوههم إليه﴾ وقرأ أنس بن مالك والأعمش ﴿وهم يَجْمَزون﴾ قيل: يجمحون ويجمزون ويشدون واحدٌ، وقال ابن عطية يجمزون يُهَرْولون، ومنه قولهم في حديث الرجم: «فلما أذلقته الحجارة جمز».

ولَّما[1] كان العطف بـ ﴿أو﴾ عاد الضمير إليه مفرداً، على قاعدة النحو في ﴿أوْ﴾ فاحتمل من حيث الصناعة أن يعود على الملجأ، أو على المدخل، فلا يحتمل في الظاهر أن يعود على المغارات لتذكيره، وأما بالتأويل فيجوز أن يعود عليها.

ثم شرع سبحانه وتعالى في ذكر نوع آخر من قبائحهم فقال: ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يا محمد ويعيبك سرًّا ويطعن عليك ﴿فِي﴾ قسمة ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ والزكوات المفروضة بين الناس إذ يزعمون أنك تحابي فيها، وتؤتي من تشاء من الأقارب وأهل المودة، ولا تراعي العدل في ذلك، قيل: وفر الرسول ﷺ قسم أهل مكة في الغنائم استعطافاً لقلوبهم، فضجَّ المنافقون. وقرأ الجمهور: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم مخففة، وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة، عن ابن كثير والحسن: وأبو رجاء وغيرهم: بضمها، وهي قراءة المكيِّين، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ الأعمش: ﴿يُلَمِّزكُ﴾، بالتشديد، وروى أيضاً حماد بن سلمة، عن ابن كثير: ﴿يلامزك﴾ وهي مفاعلة من واحدٍ، ثم بيَّن سبحانه أسباب هذا اللَّمْز، وأن منشأه حرصهم على حطام الدنيا، فقال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ﴾؛ أي: فإن أعطي هؤلاء اللامزون ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الصدقات، قدر ما يريدون في الكثرة، ولو بغير حق، كأن أظهروا الفقر كذباً واحتيالاً ﴿رَضُواْ﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ، ولم يعيِّبوه، واستحسنوا قسمته، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الدين في شيء ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾؛ أي: من الصدقات

(١) البحر المحيط.

ما يريدونه ويطلبونه ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾؛ أي: فاجئوك بالسخط، وبادروك بالغضب واللمز، وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء، إذ لا هَمَّ لهم، إلا المنفعة الدنيوية، ونيل حطام الدنيا. وفائدة إذا الفجائية إفادة أنَّ الشرط مفاجىء للجزاء، وهاجمٌ عليه، وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء على حد قوله:

وَتَخْلُفُ ٱلْفَاءَ إِذَا ٱلْمُفَاجَأَةْ

والأصل فهم يسخطون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما أعطاهم الله تعالى من الغنائم وغيرها، وذكر[1] الله للتعظيم والتنبيه على أنَّ مافعله الرسول، كان بأمره تعالى، والأصل ما أتاهم الله ﴿و﴾ أعطاهم ﴿رسوله﴾ ﷺ، بقسمة الغنائم والصدقت، كما أمره الله تعالى ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا الله في كل حال ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: وسيعطينا الله سبحانه ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه بما يرد علينا من الغنائم والصدقات ﴿و﴾ يقسم لنا ﴿رسوله﴾ على وفق ما أمره الله تعالى به، لا يبخس أحداً منَّا شيئاً يستحقه في شرع الله، وقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَى﴾ فضل ﴿ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ وفي رزقه طامعون، أي: وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم، والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم، أي: لو فعلوا ذلك المذكور.. لكان خيراً لهم من الطمع في غير مطمع، ومن همز الرسول ولمزه.

والخلاصة[2]: أنهم لو رضوا من الله نعمته، ومن الرسول قسمته، وعلقوا أملهم بفضل الله وكفايته، وبما سينعم به عليهم في مستأنف الأيام، وبأن الرسول يعدل في القسمة.. لكان في ذلك الخير كل الخير لهم.

وفي ذلك إيماءٌ إلى أن المؤمن يجب أن يكون قانعاً بكسبه، وما يناله بحق من صدقة ونحوها، مع توجيه قلبه إلى ربه، ولا يرغب إلا إليه في الحصول على

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

رغائبه التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية.

ولمَّا لمز[1] المنافقون رسول الله ﷺ وعابوه في قسم الصدقات.. بيَّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية، أن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية، ومصرفها إليهم، ولا تعلق لرسول الله ﷺ منها بشيءٍ، ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً، فلم يلمزونه ويعيبون عليه؟ فلا مطعن لهم فيه، بسبب قسم الصدقات، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ أي: إنما الزكوات الواجبة مصروفةٌ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وما عطف عليه من سائر الأصناف السبعة، وإنما أداة حصرٍ، وتعريف الصدقات للجنس؛ أي: جنس هذه الصدقات مقصورٌ على هذه الأصناف المذكورة، لا يتجاوزها، بل هي لهم لا لغيرهم، وقد اختلف العلماء، هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأول: الشافعي وجماعةٌ من أهل العلم، وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم.

الأول منها: الفقراء، جمع فقير وهو[2] من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، بأن لم يكن له مالٌ ولا كسبٌ أصلاً، أوْ كانا له ولا يقعا موقعاً من كفايته، كمن يحتاج إلى عشرة، وكان عنده أربعة وما دونها، مأخوذ من الفقار، كأنه أصيب في فقاره، وهو أسو حالاً من المسكين.

وثانيهما: ما ذكره بقوله ﴿وَ﴾ مصروفة لـ ﴿المساكين﴾ جمع مسكين، والمسكين: من له مال، أو كسب، يقع موقعاً من كفايته ولا يكفيه تمام حاجته، كمن يحتاج إلى عشرة وعنده خمسةٌ، أو ما فوقها إلى تسعة، ومعنى وقوعه موقعاً من كفايته: أن يسد نصف حاجته، وما فوقه دون تمامها، مأخوذٌ من السكون، كأنَّ العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ وأنه عليه السلام كان يسأل المسكنة، ويتعوذ من الفقر، وقيل: بالعكس، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

---

(١) البيضاوي بزياده. (٢) الشوكاني.

والأولى في بيان ماهية المسكين[1]: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

والصنف الثالث: ما ذكره بقوله ﴿و﴾ مصروفةٌ لـ ﴿العاملين عليها﴾؛ أي: على الصدقات من جابٍ وقاسم وكاتب وحاشر، وهم[2] السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها، ووضعها في جهتها، فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، هذا قول ابن عمر، وبه قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك: يعطون الثمن من الصدقات، وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أنَّ الشافعي، يقول: هو أجرة عمل، تتقدر بقدر العمل، والصحيح أن الهاشمي والمطلبيَّ لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات، لما روي عن أبي رافع أنَّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من بني مخزوم على الصدقات، فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم منهم». أخرجه الترمذي والنسائي.

والصنف الرابع: ما ذكره بقوله ﴿و﴾ مصروفةٌ لـ﴿المؤلفة قلوبهم﴾؛ أي: ومصروفةٌ لأقوام ضعفاء النية في الإسلام، فتستألف قلوبهم على الإسلام بإعطائهم من الزكاة، والمؤلفة: هم قوم يراد استمالتهم إلى الإسلام، أو تثبيتهم فيه، أو كف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم في الدفاع عنهم، أو نصرهم على عدوٍّ لهم، فأقسامها كثيرة مذكورة في كتب الفروع.

تنبيهٌ: [3] وإنما أضاف في الآية الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك، وإلى الأربعة الأخيرة بفي الظرفية، للإشعار بإطلاق الملك في

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

الأربعة الأولى، وتقييده في الأربعة الأخيرة بما إذا صرفت في مصارفها المذكورة، فإذا لم يحصل الصرف في مصارفها، استرجعت بخلافه في الأولى، كما هو مقرر في الفقه.

والصنف الخامس: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفة ﴿في﴾ فك ﴿ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: الأرقاء من الرق. فهو معطوف على قوله ﴿للفقراء﴾؛ أي فسهمهم مصروف في المكاتبين، ليستعينوا به في أداء النجوم، فيعتقوا كما هو مذهب الشافعي والليث بن سعد، أو مصروفٌ في عتق الرقاب، يشترى به عبيدٌ فيعتقون، كما هو مذهب مالك وأحمد وإسحاق، وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان، نصف للمكاتبين من المسلمين، ونصف يشترى به رقاب ممَّن صلوا وصاموا، وقدم إسلامهم، فيعتقون من الزكاة.

والصنف السادس: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفةٌ في فك ﴿الغارمين﴾ والمديونين في طاعة الله، من أسر الديون، مأخوذ من الغرم، وهو في اللغة: لزوم ما يشق على النفس، وسمي الدَّين غرماً، لكونه شاقاً على الإنسان، والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان:

قسم ادَّانوا لأنفسهم في غير معصية، فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مالٌ يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاء.. فلا يعطون.

وقسم ادَّانوا في المعروف وإصلاح ذات البين، فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء. أما من استدان في معصية فلا يعطىٰ من الصدقات شيئاً.

والصنف السابع: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفةٌ ﴿في سبيل الله﴾ وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ومثوبته، والمراد به الغزاة، والمرابطون للجهاد، فيعطون من الصدقات ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم، وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء، والحق: أن المراد بسبيل الله، مصالح المسلمين العامة، التي بها قوام أمر الدين والدولة، دون الأفراد، كتأمين طرق الحج، وتوفير الماء والغذاء، وأسباب الصحة للحجاج، إن لم يوجد مصرف آخر، وليس منها حج

الإفراد؛ لأنه واجب على المستطيع فحسب، ويدخل في ذلك جميع وجوه الخير، من تكفين الموتى، وبناء الجسور، والحصون، وعمارة المساجد، ونحو ذلك.

والصنف الثامن: ما ذكره بقوله: ﴿وَ﴾ مصروفةٌ في معونة ﴿ابن السبيل﴾ والسبيل الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، وهو المنقطع عن بلدة في سفر غير المعصية، لا يتيسَّر له فيه شيء من ماله، إن كان له مال، فهو غنيٌّ في بلده، فقير في سفره، فيعطىٰ لفقره العارض ما يستعين به على العودة إلى بلده، وفي ذلك عناية بالسياحة، وتشجيع عليها، على شرط أن يكون سفره في غير معصية، ويكون هذا من أسباب التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وسهولة طرق الوصول في العصر الحاضر، ونقل الأخبار في الزمن القليل، جعلت نقل المال من بلد إلى آخر ميسوراً بلا كلفة، فيسهل على الغني في بلده أن يجلب ماله في أي وقتٍ أراد وإلى أي مكان طلب، فلا يعطى حينئذٍ من الصدقات، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ فرض الله سبحانه وتعالى، صرف الصدقات لهؤلاء الأصناف المذكورة، فريضةً كائنةً منه؛ أي: محتمةً عنده.

والمعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف، هو حكم لازم، فرضه الله على عباده، ونهاهم عن مجاوزته، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، والتقدير: إنما الصدقات مصروفةٌ هي لهؤلاء الأصناف المذكورة حالة كونها فريضةً من الله سبحانه وتعالى، وقرىء: ﴿فريضة﴾ بالرفع على معنى: تلك الصدقات فريضة من الله تعالى، يعني: أنَّ هذه الأحكام التي ذكرها في هذه الآية فريضةٌ واجبةٌ من الله تعالى، ويجوز قطعه إلى النصب؛ أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده، وبأحوالهم وبحوائجهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه ودبَّره لهم، تطهيراً لأنفسهم وتزكية لها، وشكراً لخالقهم على ما أنعم به عليهم، كما قال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ لا

يدخل في تدبيره وشرعه نقصٌ ولا خللٌ.

فصل في بيان حكمة إيجاب الزكاة على الأغنياء، وصرفها إلى المحتاجين من الناس(١)

ذكروا في بيان حكمتها ستة أوجه:

الوجه الأول: أن المال محبوب بالطبع، وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال، وصفة الكمال محبوبة لذاتها، والمال سبب لتحصيل تلك القدرة، فكان المال محبوباً بالطبع، فإذا استغرق القلب في حب المال.. اشتغل به عن حب الله عز وجل، وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل، فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال، الذي هو سبب البعد عن الله، فيصير سبباً للقرب من الله عز وجل، بإخراج الزكاة منه.

الوجه الثاني: أنَّ كثرة المال توجب قسوة القلب، وحبَّ الدنيا، والميل إلى شهواتها ولذاتها، فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة، ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب.

الوجه الثالث: سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن؛ لأنَّ التكاليف البدنية غير شاقة على العبد، وإخراج المال شاق على النفس، فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد، ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال، ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبةً بها نفسه من العاصي المانع لها.

الوجه الرابع: أنَّ المال مال الله، والأغنياء خزان الله، والفقراء عيال الله، فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم الأغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله، فيثيب العبد المؤمن المطيع، المسارع إلى امتثال الأمر المشفق على عياله، ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، قال: «إن الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ـ وربما قال: يعطي ـ ما

---

(١) الخازن.

أمر به، فيعطيه كاملاً موفراً، طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين» متفق عليه.

الوجه الخامس: أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال، التي بأيدي الأغنياء، فأوجب الله عز وجل نصيباً للفقراء في ذلك المال تطييباً لقلوبهم.

الوجه السادس: أنَّ المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك.. بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال، فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء، حتى لا يصير ذلك المال معطلاً بالكلية.

الإعراب

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَوْ﴾ حرف شرط ﴿خَرَجُوا﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿فِيكُم﴾ متعلق بـ ﴿خَرَجُوا﴾ أو حال من فاعله تقديره: لو خرجوا حال كونهم مصاحبين لكم ﴿مَّا﴾ نافية ﴿زَادُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿خَبَالًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿زادوا﴾ ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ ﴿أوضعوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿زَادُوكُمْ﴾ ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أوضعوا﴾ ومفعول ﴿أوضعوا﴾ محذوف تقديره، ولأوضعوا ركائب نمائمهم بينكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أوضعوا﴾؛ أي: لأسرعوا فيما بينكم حال كونهم باغين؛ أي: طالبين الفتنة لكم اهـ. «سمين» ﴿وَفِيكُمْ﴾: خبر مقدم ﴿سَمَّاعُونَ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿لهم﴾ متعلق به والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أو من واوه، أو مستأنفة كما مر في مبحث التفسير ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ متعلق به والجملة مستأنفة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ

ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق به والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب ﴿وَقَلَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱبْتَغَوُا۟﴾ ﴿لَكَ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأُمُورَ﴾ مفعول به ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: فاعل ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾ وجملة ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: واستمروا على تقليب الأمور إلى مجيء الحق، وظهور أمر الله ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب حال من الحق؛ أي: حتى جاء الحق حالة كونهم كارهين مجيئه وظهوره.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّن﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾: مقول محكي لـ ﴿يَقُولُ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱئْذَن﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لِّى﴾ متعلق به والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾ ناهية ﴿تَفْتِنِّىٓ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية وعلامة جزمه سكون النون المدغمة في نون الوقاية، والنون للوقاية والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿فِى ٱلْفِتْنَةِ﴾ متعلق بـ ﴿سَقَطُوا۟﴾. ﴿سَقَطُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وإنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنَّ﴾ حرف نصب ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمها ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿محيطة﴾ خبر ﴿إن﴾ ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق به، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

﴿سَقَطُواْ﴾ وقال أبو السعود: هذه الجملة وعيد لهم على ما فعلوا، معطوفة على الجملة السابقة، داخلة تحت التنبيه اهـ.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جوابَه لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿حَسَنَةٌ﴾ وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم على كونه فعل شرط لها ﴿يَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الأولى ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُواْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿أَخَذْنَآ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُواْ﴾ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾: فعل وفعل معطوف على ﴿يَقُولُواْ﴾ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من الضمير في ﴿يَقُولُواْ﴾ و﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ لا من الأخير فقط، لمقارنة الفرح لهما معاً. ذكره أبو السعود.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قُل﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ ناصب وفعل ومفعول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿يُصِيبَنَآ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿لنا﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كتبه الله لنا ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يتوكل﴾ قدم عليه لإفادة الحصر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية

كما في الجمل، و﴿اللام﴾: لام الأمر ﴿يتوكل المؤمنون﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر والجملة معطوفة على جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام التوبيخي الإنكاري. ﴿تَرَبَّصُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِنَآ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

﴿وَنَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الفعلية، على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، والتقدير: ونحن نتربص بكم إصابة الله إياكم بعذاب من عنده ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ جار ومجرور، معطوف على قوله ﴿بِعَذَابٍ﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، كما في الشوكاني؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلته لكم، وأردتم بيان ما هو اللائق بكم.. فأقول لكم ﴿تربصوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَكُم﴾ ظرف متعلق بما بعده ﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَنفِقُواْ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنفِقُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: مصدران في محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَنفِقُواْ﴾ ولكنه في تأويل المشتق؛ أي طائعين أو كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ ناصب وفعل ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الإنفاق المفهوم مما قبله، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿قَوْمًا﴾ خبره ﴿فَاسِقِينَ﴾ صفته، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول، مسوقٌ لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿مَنَعَهُمْ﴾ فعل ومفعول أول ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿تُقْبَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَن﴾. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به. ﴿نَفَقَاتُهُمْ﴾ نائب فاعل ﴿تُقْبَلَ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿منع﴾ والتقدير: وما منعهم قبول نفقاتهم منهم، فإن منع يتعدى لمفعولين بنفسه، وقد يتعدى إلى الثاني بحرف الجر، وهو: (من) أو (عن)، وهنا تعدى بنفسه إليهما، وإن كان حذف حرف الجر مع أن، وأنَّ، مقيساً مطرداً، ولذا قدره بعضهم هنا، وقال أبو البقاء: ﴿أَن تُقْبَلَ﴾ بدل اشتمال، من (هم) في منعهم. اهـ «شهاب». ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَبِرَسُولِهِ﴾ معطوف على ﴿بِاللَّهِ﴾ وكرر الباء إشعاراً إلى تعدد كفرهم، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿منع﴾ تقديره: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾ على كونها خبراً لـ ﴿أَنَّ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ ﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل في محل الرفع، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾ والمعنى: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله ورسوله، وكسلهم في إتيان الصلاة، وكونهم كارهين الإنفاق. اهـ «زاده».

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكورة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُعْجِبْكَ﴾ فعل ومفعول ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر زائد لتقوية العامل ﴿يعذبهم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وكذا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إنما يريد الله تعذيبه إياهم بها في الحياة الدنيا، وكذا في الآخرة ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يعذب﴾ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من ضمير ﴿أَنفُسُهُمْ﴾؛ لأن المضاف جزء المضاف إليه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَمِنكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم ﴿وَمَا﴾: نافية ﴿هُم﴾ مبتدأ ﴿مِّنكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إن﴾

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿قَوْمٌ﴾ خبره، وجملة ﴿يَفْرَقُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾ وجملة ﴿لكن﴾ جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط ﴿يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾: فعل وفاعل ومفعول به لأن وجد هنا بمعنى: أصاب، فيتعدى إلى مفعول واحد ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾: معطوفان على ملجأ، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿ولّوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ وجملة ﴿لَوْ﴾ مستأنفة ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَجْمَحُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ولّوا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَّن﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ وما بينهما، اعتراض ﴿يَلْمِزُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ متعلق به ﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: تفصيلية ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿أُعْطُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به ﴿رَضُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة تفصيلية لجملة ﴿يَلْمِزُكَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ﴿يُعْطَوْا۟﴾ فعل ونائب فاعل، مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ ﴿مِنْهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿إِذَا﴾ فجائية، قائمة مقام فاء الجزاء في ربط الجواب وجوباً لكون الجواب جملة اسمية، كما قال ابن مالك:

وَتَخْلُفُ ٱلْفَاءَ إِذَا ٱلْمُفَاجَأَةْ

﴿هُمۡ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسۡخَطُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنْ﴾ الأولى.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿رَضُواْ﴾ خبره، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف؛ لأن ﴿لو﴾ الشرطية لا يليها إلا الفعل، تقديره: ولو ثبت رضاؤهم ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿رَضُواْ﴾ ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما آتاهم الله إياه؛ لأنَّ آتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط، الضمير المحذوف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿رَضُواْ﴾ ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿حَسۡبُنَا﴾ خبر مقدم ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ في محل المفعول الثاني، ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰغِبُونَ﴾ ﴿رَٰغِبُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ وفي «الفتوحات»: هاتان الجملتان، أعني قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ كالشرح لقوله: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، فلذلك لَمْ يتعاطف؛ لأنهما كالشيء الواحد، فشدة الاتصال منعت العطف.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ مبتدأ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة مستأنفة ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: معطوف على الفقراء ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ﴾ معطوف على الفقراء أيضاً ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ﴾: معطوف على الفقراء ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: نائب فاعل للمؤلفة ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، معطوف على ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أيضاً ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾: حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ولكن بعد تأويلها بمشتق، تقديره: إنما الصدقات مصروفة هي للفقراء ومن بعدهم، حالة كونها مفروضة لهم، من الله تعالى ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لفريضة. أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف. تقديره: فرض الله ذلك لهم فريضة كائنةً منه ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول له ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وأصل الخبال: اضطراب ومرض يؤثر في العقل، كالجنون. اهـ «خازن» وقيل: الخبال: الاضطراب في الرأي، والفساد في العمل، كضعف القتال، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾: يقال: وضعت الناقة، تضع، إذا أسرعت في سيرها، وأوضعتها أنا اهـ «سمين» ويقال: وضع الرجل، إذا عدا مسرعاً، وأوضع راحلته، إذا حملها على الإسراع، والخلال: جمع خلل، كجمل وجمال، وخلال الأشياء ما يفصل بينها من فروج ونحوها، وفي الشوكاني الإيضاع: سرعة السير، ومنه قول ورقة بن نوفل:

يَا لَيْتَنِيْ فِيْهَا جَذَعْ أَخُبُّ فِيْهَا وَأَضَعْ

ويقال: أوضع البعير إذا أسرع السير، وقيل: الإيضاع سير الخبب، والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال؛ أي: الفُرج التي تكون بين الصفوف ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ والفتنة: التشكيك في الدين، والتخويف من الأعداء، وقيل: الفتنة هنا الشرك ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يقال: قلب لك الأمر، إذا اجتهد فيه، ودبر لك فيه بالمكر والحيل والمكايد، وتقليب الشيء: تصريفه في كل وجه من وجوهه، والنظر في كل ناحية من أنحائه، والمراد: أنهم دبروا الحيل والمكايد، ودوروا الأراء في كل وجه لإبطال دينك. ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ والحسنة: كل ما يسر بها صاحبها، كالنصر والغلبة على الأعداء ﴿المصيبة﴾ كل ما يصيبك من المكاره ﴿الْحُسْنَيَيْنِ﴾ تثنية الحسنى، مؤنث الأحسن ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدران، بمعنى: المشتق.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ والإعجاب: السرور بالشيء، مع نوع من الافتخار به، مع اعتقاد أنه ليس لغيره مثله اهـ «خازن»، وهذا المعنى، إنما يناسب في إعجاب الشخص بمال نفسه، يقال: أعجب بماله، أو ولده؛ أي: فرح به، وما هنا في إعجاب المرء بمال غيره، والمعنى عليه: لا تستحسن أموالهم وأولادهم، ولا تخبر برضاك بها.

وفي «المصباح»: ويستعمل التعجب على وجهين:

أحدهما: ما يحمده الفاعل، ومعناه: الاستحسان والإخبار عن رضاه به.

والثاني: ما يكرهه، ومعناه: الإنكار والذم له، ففي الاستحسان، يقال: أعجبني - بالألف - وفي الذم والإنكار عجبت، وزان تعبت. اهـ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يقال: زهقت الروح، إذا خرجت من باب ذهب ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ في «المختار» فرق فرقاً - من باب تعب - إذا خاف، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أفرقته اهـ. والفَرَق بالتحريك: الخوف الشديد الذي يفرق بين القلب وإدراكه ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ والملجأ المكان الذي يلجأ إليه الخائف ليعتصم به، كحصن أو قلعةٍ، أو جزيرة في بحرٍ، أو قنةٍ في جبل ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ والمغارات، جمع مغارة: وهي الكهف في الجبل، يغور فيه الإنسان ويستتر ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ والمدخل، بالتشديد: السرب في الأرض، يدخله الإنسان بمشقة، وفي «السمين» ﴿مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ الملجأ: الحصن، وقيل: المهرب، وقيل: الحرز، وهو مفعل، من لجأ إليه، يلجأ؛ أي: انحاز، يقال: ألجأته إلى كذا؛ أي: اضررته إليه فالتجأ،

والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان، والظاهر منها هنا المكان، والمغارات جمع مغارة، وهي مفعلة من غار يغور، فهي كالغار في المعنى، وقيل: المغارة: السرب في الأرض كنفق اليربوع، والغار: الثقب في الجبل، وهذا من أبدع النظم، ذكر أولاً الأمر الأعم، وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الغيران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن، وهي الجبال، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة، وهي السروب، وهي التي عبر عنها بالمدخل. اهـ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون، والجماح: السرعة التي تتعذر مقاومتها، وفي «المصباح»: جمح الفرس براكبه، يجمح بفتحتين، من باب خضع جماحاً بالكسر، وجموحاً استعصى حتى غلبه، فهو جموح بالفتح، وجامح يستوى فيه المذكر والمؤنث اهـ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اللمز: العيب والطعن في الوجه، والهمز: الطعن في الغيبة، وفي «المصباح»: لمزه لمزاً ـ من باب ضرب ـ إذا عابه. وبه قرأ السبعة: ومن باب قتل لغة، وأصله الإشارة بالعين ونحوها. اهـ فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة بالعين ونحوها، سواء كان على وجه الاستنقاص أو لا، وأما اللمز: فهو خاص بكونه على وجه العيب، وفي «السمين» قرأ العامة: يلمزك بكسر الميم، من لمزه يلمزه إذا عابه، وأصله الإشارة بالعين وغيرها، وقال الأزهري: أصله الدفع، يقال: لمزته؛ أي: دفعته. وقال الليث: هو الغمز في الوجه. ومنه ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ أي: كثير هذين الفعلين، وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة وغيرهما: بضمها، وهي لغتنا في المضارع اهـ.

﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ يقال: رغبه ورغب فيه، إذا أحبه، ورغب عنه إذا كرهه، ورغب إليه إذا طلبه وتوجه إليه ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ جمع صدقة: وهي الزكاة الواجبة على النقد والأنعام والزرع والتجارة، سميت صدقة لإشعارها بصدق باذلها في الإيمان. والفقير: من لا مال له يقع موقعاً من كفايته، فيحتاج للمسألة لقوته وكسوته. والمسكين: من له مال قليل يقع موقعاً من كفايته، ولا يكفيه تمامها، كما مر في بحث التفسير، وقيل بالعكس فيهما. والعامل عليها: هو الذي يولّيه السلطان أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾:

هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى لإسلام، أو التثبيت فيه، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: وللإنفاق في إعانة الأرقاء لفكاكهم من الرق ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾؛ أي: الذين عليهم غرامة من المال تعذر عليهم أدائها، من الغرم، وأصله لزوم شيء شاق، ومنه قيل للعشق: غرام، ويعبر به عن الهلاك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ وغرامة المال فيها مشقة عظيمة اهـ «سمين» ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وفي الطريق الموصل إلى مرضاة الله ومثوبته، والمراد بهم كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات، كالغزاة، والحجاج الذين انقطعت بهم السبل، ولا مورد لهم من المال، وطلبة العلم، والفقراء ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافر الذي بعد عن بلده، ولا يتيسر له إحضار شيء من ماله، فهو غني في بلده فقير في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي فرض الله ذلك فريضة، ليس لأحد فيها رأي، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ﴾ شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الركائب المسماة بالإيضاع، وهو إسراع سير البعير، ثم استعير لسرعة الإفساد لفظ الإيضاع، ثم اشتق منه أوضعوا، بمعنى: أسرعوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وأصل الاستعارة: ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم، ثم حذف النمائم، وأقيم المضاف إليه مقامها، لدلالة سياق الكلام على أن المراد النميمة، ثم حذف الركائب. قاله الطيبي. اهـ زكريا.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند، أو السوار بالمعصم.

ومنها: جمع المؤكدات في هذه الجملة إنَّ واللام واسمية الجملة للدلالة على الثبات والدوام.

ومنها: ما يسمى بالمقابلة، التي هي من المحسنات البديعية في قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ...﴾ الآية، وفي قوله: ﴿قُلْ هَلْ

تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ...﴾ الآية؛ لأنه في معنى: ونحن نتربص بكم إحدى السوءيين.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وبين الرضا والسخط في قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، وفيه أيضا إظهار الاسم الجليل مكان الإضمار، لتربية الروعة والمهابة.

ومنها: تكرار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

ومنها: ذكر الأعم ثم الأخص في قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ حيث ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر المغارات التي يختفى فيها في أعلى الأماكن. وهي الجبال، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة، وهي السروب التي عبر عنها بالمدخل.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ...﴾ الآية، ففي الآية قصر الموصوف على الصفة؛ أي: الصدقات مقصورة على الاتصاف، بصرفها لهؤلاء الثمانية، لا تتجاوز هذه الصفة إلى أن تتصف بصرفها لغيرهم.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ
الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ
(٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)
أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
(٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً
فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية

---

(١) المراغي.

لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن من دلائل نفاقهم الطعن في أفعاله ﷺ، كإيذاء الذين لمزوه في قسمة الصدقات.. أردف ذلك بذكر من طعن في أخلاقه وشمائله الكريمة، بقولهم: إن محمداً أذنٌ، نحلف له فيصدقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أفعال المنافقين الخبيثة، وذكر ما أعده لهم من العذاب في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك بذكر صفات المؤمنين الذين زكت نفوسهم وطهرت سرائرهم، وما أعدَّه لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ...﴾ الآية، سبب نزولها(١): ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان نَبْتَلُ بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه، فيسمع منه وينقل حديثه إلى المنافقين، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك، في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!».

ثم أخرج من وجه آخر، عن ابن عمر نحوه، وسمى الرجل عبد الله بن أبي، وأخرج عن كعب بن مالك، قال مخشيُّ بن حمير ـ بالتصغير ـ: لوددت أني

---

(١) لباب النقول.

أقاضي على أن يضرب كل رجل منكم مئة، على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن، فبلغ النبيَّ ﷺ، فجاؤوا يعتذرون، فأنزل الله ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ . . .﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله أحد، فقتل يوم اليمامة لا يعلم مقتله إلا من قتله، وأخرج ابن جرير عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنۡهُمُ﴾؛ أي: ومن المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾؛ أي: جماعة يؤذون رسول الله ﷺ بأقوالهم وأفعالهم، ويعيبونه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ سامعة؛ أي: يسمع من كل أحد ما يقوله، ويقبله، ويصدقه، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ما هو جدير بالقبول، لوجود أمارات الصدق فيه، وما لا ينبغي قبوله، وهذا عيب في الملوك والرؤساء، لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وإبعاد الناصحين، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه ﷺ كان يعاملهم بأحكام الشريعة، كما يعامل عامة المؤمنين، بالبناء على الظاهر، فظنوا أنه يصدق كل ما يقال له.

قال الجوهري[1]: يقال رجل أذن، إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع، ومرادهم: أقمأهم الله تعالى أنهم إذا آذوا النبي، وبسطوا فيه ألسنتهم، وبلغه ذلك. . اعتذروا له، وقبل ذلك منهم؛ لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه، أنه: أذن مبالغةً؛ لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع، حتى كأنَّ جملته أذن سامعةٌ، ونظيره قولهم للربيئة؛ أي الجاسوس: عين، وإيذاؤهم له هو قولهم ﴿هُوَ﴾؛ أي: محمد ﷺ، ﴿أُذُنٌۚ﴾ سامعةٌ، ليس له ذكاءٌ؛ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما

---

(١) الشوكاني.

يقال له، ولا يفرق بين الصحيح والباطل، اغترارا منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جناياتهم، كرماً وحلماً وتغاضياً، ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، نعم هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ لا أذن شرٍّ، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه.

أي[1]: أنه أذن، ولكنه نعم الأذن؛ لأنه أذن خير، لا كما تزعمون، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا ما يعتقد أنه الحق، وما فيه المصلحة للخلق، وليس بأذن في سماع الباطل، كالكذب والنميمة والجدل والمراء، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه، كما هو شأن الملوك والزعماء، الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم، وحملهم على إيذاء من يبتغون إيذاءه. وقرأ جمهور القراء[2]: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ﴾ بالتثقيل، وقرأ نافع: ﴿هو أُذْنٌ قل أُذْنُ خيرٍ﴾ بإسكان الذال فيهما.

وقرأ الجمهور أيضاً[3]: ﴿أُذُنُ خيرٍ﴾ بالإضافة، وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن علي وأبا بكر عن عاصم في رواية: ﴿قل أذنٌ خيرٌ﴾ وجوزوا في ﴿أُذُنٌ﴾، أن يكون خبر مبتدأ محذوف، و﴿خَيْرٌ﴾ خبر ثان لذلك المحذوف؛ أي: هو أذن هو خير لكم؛ لأنه ﷺ يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء خلقكم، وأن يكون ﴿خيرٌ﴾ صفةً لـ﴿أذن﴾؛ أي: أذنٌ ذو خير لكم.

ثم بيَّن الله سبحانه كونه ﷺ، أذن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة، وبما يوحى إليه مما فيه خيركم وخير غيركم ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويصدق المؤمنين الصادقي الإيمان من المهاجرين والأنصار، ويقبل قولهم فيما يخبرونه، لما علمه من آيات إيمانهم الذي يوجب عليهم الصدق فيما يحدِّثونه به، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه ﷺ لا يؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم، ولا يصدقهم في أخبارهم، وإن وكدوها بالأيمان اغتراراً

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير.

(٣) البحر المحيط.

بلطفه وأدبه ﷺ، إذ كان لا يواجه أحداً بما يكره، وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه.

وعدى[1] فعل الإيمان بالباء إلى الله؛ لأنه قصد به التصديق بالله، الذي هو ضد الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد به السماع من المؤمنين أخبارهم، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدقه لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ كيف ينبىء عن الباء.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾؛ أي: وهو ﷺ رحمة للذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، لا لمن أظهر الإسلام وأسر الكفر نفاقاً، إذ هو نقمة عليه في الدارين.

وإنما قال منكم[2]؛ لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فبيَّن الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله: إنه رحمة للمؤمنين المخلصين، لا للمنافقين، وقيل: في كونه ﷺ رحمةً؛ لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر، ولا ينقب عن أحوالهم، ولا يهتك أسرارهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أُذُنُ﴾، والمعنى عليه: هو أنه أذن خيرٍ، وأنه هو رحمة للمؤمنين، وقرأ حمزة وأبي وعبد الله والأعمش: ﴿ورحمةٍ﴾ بالجر عطفاً على ﴿خيرٍ﴾، والمعنى عليه: إنه أذن خير، وأذن رحمةٍ فالجملة من يؤمن ويؤمن اعتراضٌ بين المتعاطفين، قال النحاس: وهذا عند أهل العربية بعيدٌ، يعني قراءة الجر؛ لأنه قد تباعد بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض اهـ وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿رحمةً﴾ بالنصب على أنه مفعول لأجله، لفعل محذوف دلَّ عليه أذن خير؛ أي: يأذن لكم ويستمع رحمةً لكم، فحذف لدلالة أذن خير لكم عليه.

---

(١) النسفي.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ، بالقول، أو بالفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع شديد الإيلام في الدنيا والآخرة، وأبرز[١] اسم الرسول ولم يأت به ضميراً على نسق يؤمن بلفظ الرسول تعظيماً لشأنه، وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين، من النبوة والرسالة، وإضافته زيادة في تشريفه، وحتّم على من آذاه بالعذاب الأليم، وحقَّ لهم ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ عام، يندرج فيه هؤلاء الذين آذوه هذا الإيذاء، وغيرهم.

وفي هذه الآية[٢]، وما في معناها: دليلٌ على أن إيذاء الرسول ﷺ كفرٌ إذا كان فيما يتعلق برسالته؛ لأن ذلك ينافي الإيمان، وأما إيذاؤه في شؤونه البشرية، والعادات الدنيوية، فحرام لا كفر، كإيذاء الذين كانوا يطيلون الجلوس في بيوته لدى نسائه بعد الطعام، وفيهم نزل ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم في ندائه ويسمونه باسمه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ وإيذاؤه[٣] ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، كإيذائه في حال حياته، كالخوض في أبويه، وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيًّا، فالإيمان به ﷺ مانعٌ من تصدي المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله وسلامه عليه إيذاءً ما، فهذا الذنب من أكبر الذنوب، ومعصيةٌ من أعظم المعاصي.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يحلف المنافقون ويقسمون بالله ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون على أنهم ما قالوا ما حكي عنهم، من طعن الرسول ﷺ، وطعن المؤمنين ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون، بالأيمان الكاذبة، وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبي ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ وإلى المؤمنين.. جاء المنافقون، فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله، ومن معه من المؤمنين، فنعى الله ذلكم عليهم، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ أحق بالإرضاء من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا الله، وآمنوا به، وتركوا النفاق.. لكان ذلك أولى لهم، وكان من الواجب أن يرضوهما بالإخلاص والتوبة والمتابعة، وإيفاء حقوقه ﷺ في باب الإجلال مشهداً ومغيباً، لا بإتيانهم بالأيمان الفاجرة.

وإفراد الضمير في قوله[1]: ﴿يُرۡضُوهُ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهيِّ بإفراده بالذِّكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله، فإرضاء الله إرضاء لرسوله، أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، كما قال سيبويه: ورجحه النحاس، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد، أو الضمير راجعٌ إلى المذكور، وهو يصدق عليهما، وقال الفراء: المعنى: ورسوله أحق أن يرضوه، والله افتتاح كلام، كما تقول: ما شاء الله، وشئت، وفي التعبير بـ﴿يُرۡضُوهُ﴾ دون يرضوهما، إشعارٌ بأن إرضاء رسوله، هو عين إرضائه تعالى؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وجواب قوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ محذوف، تقديره: إن كانوا مؤمنين.. فليرضوا الله ورسوله بالطاعة، فإنهما أحق بالإرضاء؛ أي إن كان هؤلاء المنافقون مصدِّقين بوعد الله، ووعيده في الآخرة، كما يدعون ويحلفون.. فليرضوهما، وإلاَّ كانوا كاذبين، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهراً معلوماً باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيوحي إلى رسوله ﷺ من أمور الغيب مافيه المصلحة للمؤمنين، وفي الآية عبرة للمنافقين في زماننا وفي كل زمان، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس، وبخاصةٍ الملوك والوزراء، الذين يتقربون إليهم فيما لا يرضي ربهم، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل، وأقذر السبل، ثم وبخهم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته

---

(١) الشوكاني.

بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾؛ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون، وهو استفهام، معناه التوبيخ والإنكار، كما ذكره أبو حيان ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: من يخالف الله ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ ﷺ بتعدي حدوده، أو بلمز الرسول في أعماله، كقسمة الصدقات، وفي أخلاقه وشمائله، كقولهم: هو أُذُنٌ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: فحق أن له نار جهنم؛ أي، فكون نار جهنم له أمر ثابت؛ أي: فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة، حالة كونه ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أبداً لا مخلص له منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الخالد هو ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والذل البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، والهوان الذي يصغر دونه كل خزي وذل في الدنيا وهو ثمرات نفاقهم.

وقرأ الحسن والأعرج[(١)]: ﴿ألم تعلموا﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب، فالظاهر أنه التفات، فهو خطاب للمناقين، قيل: ويحتمل أن يكون خطاباً للمؤمنين، فيكون معنى الاستفهام التقرير. وإن كان خطاباً للرسول.. فهو خطاب تعظيم، والاستفهام فيه للتعجب، والتقدير: ألا تعجب من جهلهم في محادة الله تعالى، وقرأ الباقون: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ بالياء التحتية وفي مصحف أُبيٍّ ﴿ألم تعلم﴾ قال ابن عطية: على خطاب النبي ﷺ. انتهى. والأولى أن يكون خطاباً للسامع. قال أهل المعاني: ﴿ألم تعلم﴾ الخطاب لمن حاول تعليم إنسان شيئاً مدةً وبالغ في ذلك التعليم فلم يعلم، فقال له: ألم تعلم بعد المباحث الظاهرة، والمدة المديدة، وحسن ذلك؛ لأنه طال مكث النبي ﷺ معه، وكثر منه التحذير عن معصية الله، والترغيب في طاعة الله، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فحق أن له نار جهنم، أو فالواجب أن له النار، والفاء رابطةٌ جواب الشرط، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿فإن له﴾ بالكسر في الهمزة، حكاها عنه أبو عمرو الداني، وهي قراءة محبوب عن الحسن، ورواية أبي عبيدة عن أبي عمرو، ووجهه في العربية قوي؛ لأن الفاء تقتضي الاستئناف والكسر مختار؛ لأنه لا يحتاج إلى إضمار بخلاف الفتح.

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: يخاف المنافقون، قيل: هو خبر ليس بأمر. وقال الزجاج: هو خبر بمعنى الأمر، فهو على تقدير ليحذر المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي على المؤمنين، وقرىء بالتخفيف وبالتشديد ﴿سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿تُنَبِّئُهُم﴾: أي: تخبر المؤمنين ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: بما في قلوب المنافقين، من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين، وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوءٍ ويسترونه، ويخافون الفضيحة، ونزول القرآن في شأنهم.

ويجوز[1] أن تكون الضمائر للمنافقين؛ فإنَّ النازل فيهم كالنازل عليهم، من حيث إنه مقروءٌ، ومحتجٌ به عليهم.

والمعنى: يخاف المنافقون أن ينزل في شأنهم سورة تفضحهم بإظهار ما في قلوبهم للمؤمنين، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم، وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيءٍ.

والخلاصة: أنهم يحذرون أن تنزل سورة في شأنهم، وبيان حالهم، فتكون في ذلك فضيحتهم وكشف عوراتهم، وإنذارهم ما قد يترتب عليه من عقابهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أمر تهديد على حد ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾؛ أي: افعلوا الاستهزاء بالله وبرسوله وبآياته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخْرِجٌ﴾ ومظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ من إنزال سورة تهتك ستركم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم، والمعنى؛ أي: قل لهم استهزئوا، فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين أمركم، من قرآن أو وحي.

ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد على فعلهم، وكونه سبباً لإخراجه تعالى ما يحذرون ظهوره من مخبآت سرائرهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد هؤلاء المستهزئين عما قالوه من الطعن في الدين،

---

(١) البيضاوي.

وثلب المؤمنين، بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معتذرين عما قالوا ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولم نكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين؛ أي: إنما كنا نخوض ونتحدث بالحديث الباطل الذي لا معنى له، نقطع به عنا الطريق كحديث الركب المسافرين في الطريق لتقصر عليه المسافة، ﴿وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: نضحك بما نقول، ولا نقصد معناه.

أي: إنك إن سألتهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها، بأنهم لم يكونوا جادين ولا منكرين، بل هازلين لاعبين للتسلي والتلهي، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول، لجهلهم أن اتخاذ الدين هزواً ولعباً كفرٌ محضٌ، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وقال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ويدخل في عموم الآية المبتدعون في الدين، والذين يخوضون في الداعين، إلى الكتاب والسنة، ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما.

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك، إذ نظر إلى أناس بين يديه يقولون: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات.. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: «احبسوا على هؤلاء الركب»، فأتاهم، فقال: «قلتم كذا، وقلتم كذا»، قالوا: يا نبيَّ الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون.

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ حقه الدخول على كان، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبأ بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم، حيث جعل المستهزأ به والياً لحرف الاستفهام؛ أي: أكنتم تستهزئون، وتسخرون بالله؛ أي: بفرائض الله وحدوده وأحكامه وبآياته؛ أي: وبكتابه وبرسوله محمد ﷺ.

والمعنى: كيف تقدمون على الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ولا يستقيم ذلك

لمن له عقل؛ أي: قل لهم[1]: إن الخوض واللعب في صفات الله وشرعه وآياته المنزلة ورسوله استهزاء بها، إذ كل ما يلعب به، فهو مستخف به، وكل مستخف به، فهو مستهزأ به.

وقصارى ذلك: ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله، فقصرتم ذلك عليهما، فهل ضاقت عليكم سبل القول، فلم تجدوا ما تخوضون فيه، وتلعبون به غير هذا، ثم بعدئذٍ تظنون أن معاذيركم بمثل هذا تقبل، وتدلون بها بلا خوف ولا خجل؟ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالاعتذارات الباطلة، فلن نقبلها منكم؛ أي لا تذكروا هذا العذر الباطل، لدفع هذا الجرم العظيم، فإنَّ ذلك غير مقبول منكم؛ لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم، فهو كما يقال: عذر أقبح من الذنب. ونقل الواحدي عن أئمة اللغة، أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم: اعتذر المنزل إذا درس واعتذرت المياه إذا انقطعت، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث التصريف؛ أي: لا تعتذروا فـ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور، ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ أي: بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: إن نعف عن جماعة منكم هذا الاستهزاء، لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كمخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أخرى منكم لإجرامهم وإصرارهم عليه، ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم كانوا مجرمين﴾؛ أي: مصرين مستمرين على الإجرام والنفاق، لم يتوبوا منه، قال الزجاج: الطائفة: الجماعة، قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب.

وخلاصة ذلك: أن من تاب من كفره ونفاقه.. عفي عنه، ومن أصر عليه، وأظهره.. عوقب به.

روي[2]: أن الطائفتين كانوا ثلاثة، فالواحد: طائفة، وهو جهير بن حمير

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

والاثنان: طائفة، وهما وديعة بن جذام وجدُّ بن قيس، فالذي عفى عنه جهير بن حمير؛ لأنه كان ضحك معهم، ولم يستهزىء معهم، فلما نزلت هذه الآية، تاب من نفاقه، وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية، تقشعر منها الجلود، وتخفق منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه.

وقرأ زيد بن ثابت[1] وأبو عبد الرحمن وزيد بن علي وعاصم من السبعة: ﴿إن نَّعْفُ﴾ بالنون ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون ﴿طائفة﴾ بالنصب، ولقيني شيخنا الأديب الكامل أبو الحكم، مالك بن المرحل المالقي بغرناطة، فسألني: قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر بن الطباع؟ فقلت: قراءة عاصم، فأنشدني:

لِعَاصِمٍ قِرَاءَةٌ لِغَيْرِهَا مُخَالِفَهْ   إنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَهْ

وقرأ باقي السبعة ﴿إن تُعفَ عن طائفة تعذب طائفة﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الجحدري: ﴿إن يَعف﴾ ﴿يُعذب﴾ مبنيًا للفاعل فيهما؛ أي: إن يعف الله، وقرأ مجاهد ﴿إن تعف﴾ بالتاء مبنيًا للمفعول ﴿تعذب﴾ مبنياً للمفعول بالتاء أيضاً، قال ابن عطية: على تقدير إن تعف هذه الذنوب. وقال الزمخشري: الوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف، كما تقول سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفة، فأنث لذلك، وهو غريب، والجيد قراءة العامة: ﴿إن يعف عن طائفة﴾ بالتذكير و ﴿تعذب طائفة﴾ بالتأنيث. انتهى.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قيل[2] كانوا ثلاث مئة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وكنَّ مئة وسبعين ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: متشابهون في صفة النفاق والأفعال الخبيثة؛ أي: أنَّ[3] أهل النفاق رجالاً ونساءً يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، كما قال تعالى في آل إبراهيم وآل عمران: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾. وقال الشاعر:

تِلْكَ العَصَا مِنْ هَذِهِ العُصَيَّهْ   هَلْ تَلِدُ الحَيَّةُ إلاَّ حَيَّهْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ثُم بين ذلك التشابه فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: إن بعضهم يأمر بعضاً بالمنكر، وهو كل[1] قبيح عقلاً أو شرعاً كالكذب والخيانة، وإخلاف الوعد، ونقض العهد، كما جاء في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: وينهى بعضهم بعضاً عن المعروف، وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال، كما حكى الله تعالى عنهم، بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن كل خير، من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله، والقبض كناية عن الشح، كما أن البسط كناية عن الكرم، واقتصر[2] من منكراتهم الفعلية في هذه الآية على الامتناع عن البذل؛ لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالةً على النفاق، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: نسوا وتركوا أن يتقربوا إليه بفعل، ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولم يكن يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركهم من رحمته وفضله، والنسيان هنا الترك؛ لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، أو المعنى: فجازاهم على مافعلوا بحرمانهم من لطفه، وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة.

ثم حكم عليهم بالفسق؛ أي: الخروج عن طاعته إلى معاصيه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الناكبين عن الصراط المستقيم إلى سبل الشيطان ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسق، الذي هو الانسلاخ من كل خير؛ أي: هم أكثر الناس فسوقاً وخروجاً من جميع الفضائل، حتى من الكفار، الذين يعتقدون صحة عقائدهم الباطلة، فهم لا يبلغون مبلغهم في الفسوق والخروج من طاعة الله، والانسلاخ من فضائل الفطر السليمة، ثم بين سبحانه ما أعدَّ لهم ولأمثالهم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

من العقاب جزاءً لهم على أعمالهم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هؤلاء ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بالكفر جميعاً ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يصلونها حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها مكثاً مؤبداً لا نهاية له، فالنار المخلدة من أعظم العقوبات، وقدم المنافقين في الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام شر من الكفار، ولا سيما المتدينين منهم بأديان محرفة أو منسوخة، كأهل الكتاب وفي هذه الآية دليلٌ على أن وعد يقال في الشر، كما يقال في الخير: ﴿هِيَ﴾؛ أي: نار جهنم ﴿حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كافيتهم عقوبةً ولا شيء أبلغ منها، ولا يمكن الزيادة عليها ﴿و﴾ مع ذلك فقد ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى: أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: نوعٌ آخر من العذاب دائم، لا ينفك عنهم، كالزمهرير والسموم.

والمعنى: أن نار جهنم فيها من الجزاء ما يكفيهم، عقاباً لهم في الآخرة على أعمالهم، وعليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة، بحرمانهم من رحمته، التي لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون، ولهم عذاب مقيم دائم، غير عذاب جهنم، كالسموم الذي يلفح وجوههم، والحميم الذي يصهر ما في بطونهم، والضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وحرمانهم من لقاء الله تعالى وكرامته، والحجاب دون رؤيته، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾.

ثم شبه سبحانه وتعالى حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم، ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ والكاف فيه خبر لمبتدأ محذوف، ولكنه مع تقدير مضاف؛ أي: فعلكم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ كفعل الكفار الذين كانوا من قبلكم من الأمم الماضية، في الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وقبض الأيدي عن الخيرات، فقد ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أكثر منكم قوةً في الأبدان ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾؛ أي: أجمع منكم إياها ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾؛ أي: تمتع أولئك الكفار وانتفعوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا وشهواتها مدة حياتهم،

وخاضوا في تكذيب أنبيائهم واستهزائهم، وفتنوا بدنياهم، وغروا بشهواتهم، وخرجوا من الدنيا مفتونين مغرورين محرومين من رحمة الله تعالى ونعيم الآخرة.

والمعنى: أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله ﷺ والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم في أقوام الأنبياء السابقين، فتنتم بأموالكم وأولادكم، كما فتنوا وغروا بها، ولكنهم كانوا أشد منكم قوةً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً، وقد كان جل مطلبهم وسعيهم، هو التمتع بنصيبهم وحظهم الدنيويِّ، من الأموال والأولاد، فأطغتهم الدنيا، وأغرتهم لذاتها، ولم يكن لهم مقاصد شريفة من الحياة كالتي يقصدها أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة، من إعلاء كلمة الحق، وإقامة ميزان العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخرجوا من الدنيا مفتونين مغرورين محرومين.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ أي: فأنتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ حذوتم حذوهم، وسلكتم سبيلهم، وتمتعتم بنصيبكم وحظكم من ملاذ الدنيا وشهواتها ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: استمتعتم استمتاعاً كاستمتاع الكفار الذين خلوا من قبلكم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية، وفتنتم بها، كما فتنوا بها، فأنتم أولى بالعقاب منهم.

والمعنى: أي وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم، فأنتم فعلتم بدينكم ودنياكم كما فعل الذين كانوا من قبكلم، ولم تفضلوا عليهم بشيءٍ من الاسترشاد بكلام الله وهدي رسوله، إذ لم تعلموا شيئاً من الفضائل التي تزكي النفوس وتجعلها أهلاً للسعادة، فكنتم أجدر بالعقاب منهم؛ لأنهم أوتوا من القوة والأموال فوق ما أوتيتم، ولم يروا من آيات الله ما رأيتم.

فإن قلت: ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرةً ثم في حق المنافقين ثانياً ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً، والثاني مغن عن الأول؟

قلت: فائدة ذكر الاستمتاع في الأولين أولاً: تمهيدٌ لذم حال المخاطبين، بأن قرر وبين حال الأولين، ثم عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك

بياناً لوجه الشبه، وتكريره ثانياً تأكيدٌ ومبالغةٌ في ذم المخاطبين، وتقبيح حالهم، ولم يسلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني، وهو قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ حيث لم يقل: وخاضوا وخضتم كخوضهم، اكتفاءاً بالتمهيد الأول فاستغنى عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني. اهـ «زاده» بتصرف.

وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ معطوف على قوله: واستمتعتم؛ أي: وخضتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ، ودخلتم أشد الدخول في إيذاء الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وفي الطعن بالإسلام ﴿كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾؛ أي: خوضاً كخوض الفريق الذي خاضوا في تكذيب أنبيائهم وطعنهم من الذين كانوا من قبلكم؛ أي: ودخلتم في الباطل، كما دخلوا فيه مع ما بين حالكم وحالهم من الفوارق التي كانت تقتضي أن تكونوا أهدى منهم سبيلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المستمتعون بخلاقهم وحظوظهم، والخائضون في الأباطيل، فالإشارة إلى كل من المشبهين والمشبه بهم، فهي لمجموع الفريقين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بطلت حسناتهم بسبب الفقر، والانتقال من العز إلى الذل، ومن القوة إلى الضعف، وبسبب الموت وفي الآخرة بسبب أنهم يعاقبون أشد العقاب.

والمعنى: حبطت أعمالهم الدنيوية، فكان ضررها أكبر من نفعها لهم، لإسرافهم وإفسادهم في الأرض، وكذلك أعمالهم الدينية في الآخرة من عبادات، وصلة رحم وصدقة، وقرى ضيف، فلم يكن لهم أجر عليها ينقذهم من عذاب النار ويدخلهم الجنة، إذ شرط قبولها في الآخرة الإيمان والإخلاص.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالأفعال الذميمة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، حيث أتعبوا أنفسهم في الرد على الأنبياء، فما وجدوا منه إلا فوات الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلا حصول العقاب بهم في الدنيا والآخرة، فهم خسروا في مظنة الربح والمنفعة.

ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ ثم نبههم وحذرهم سوء عاقبة أعمالهم،

فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ أي: ألم يأت أولئك المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ففيه رجوع إلى الغيبة عن الخطاب، ففيه التفات ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم، حيث عصوا رسلهم، وخالفوا أمر ربهم، فأخذهم العذاب المستأصل في الدنيا؛ أي: ألم يأتهم خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فعل بهم، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال، في المشبه بهم، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم؛ لأن بلادهم وهي الشام والعراق واليمن، قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام فيه للتقرير على حدّ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ كما في «الجمل» وقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ بدل تفصيل من الموصول؛ أي: ألم يأتهم نبأ قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان، ونبأ عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم، ونبأ ثمود الذين أهلكوا بالصيحة، ونبأ قوم إبراهيم الذين حاولوا إحراقه، وهم نمروذ وأتباعه، وأهلكوا بسلب النعمة عنهم والهدم، وبتسليط البعوضة على دماغ نمروذ، ونبأ أصحاب مدين، الذين هم قوم شعيب، أهلكوا بالظلة أو بالرجفة، ونبأ أصحاب المؤتفكات؛ أي: القرى المنقلبات، التي جعل الله عاليها سافلها، الذين هم قوم لوط أهلكوا بالخسف الذي نزل بهم وهم فيها، وأمطروا حجارةً من سجيل، وإنما[1] اقتصر على هذه الستة؛ لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليها ويعرفون أخبار أهلها، كما مر آنفاً.

﴿أَتَتْهُمْ﴾؛ أي: جاءت تلك الأمم الماضية ﴿رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات، الدالة على صدقهم فكذبوهم، وخالفوا أمرنا، كما فعلتم أيها المنافقون والكفار المعاصرون لمحمد ﷺ، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فتعجل لكم العقوبة، كما عجلت لهم، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ أي: ظالماً لهم، بتعجيل العقوبة لهم؛ لأنه حكيم حليم، فلا يعاقب أحداً بغير جرم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

---

(١) الخازن.

حيث عرضوها للعقوبة بالكفر والتكذيب للأنبياء.

والمعنى[1]: وما كان من سنة الله، ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب، وقد أعذرهم وأنذرهم، ليجتنبوه، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بجحودهم وعنادهم، وعدم مبالاتهم، بإنذار رسلهم، وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسالته ﷺ والمنافقين ليبين لهم أن سنة الله تعالى في عباده واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بد أن يحل بهم من العذاب مثل ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا، وقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم في أول غزوة، وهي غزوة بدر، ثم خذل من بعدهم في سائر الغزوات، وما زال المنافقون يكيدون له في السر، حتى فضحهم الله بهذه السورة، فتاب أكثرهم ومات زعيمهم عبد الله بن أبي بغيظه وكفره، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده، وبهذا التمحص كانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، نشر الله بها أعلام دينه، حتى سادت العالم جميعه.

ولمَّا وصف الله سبحانه وتعالى المنافقين بالأعمال الخبيثة، والأحوال الفاسدة، ثم ذكر بعده ما أعد لهم، من أنوع الوعيد في الدنيا والآخرة.. عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: والمصدقون بوحدانية الله ورسالة رسوله من الرجال، والمصدقات من النساء، بعضهم أنصار بعض آخر، وأصدقاؤه في الدين والمعاونة بتسديد الله وتوفيقه وهدايته، لا بمقتضى الطبيعة، وهوى النفس، بل قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف، بسبب ما جمعهم من أمر الدين، وضمهم من الإيمان بالله ورسوله.

والولاية: ضد العداوة، فتشمل ولاية النصرة، وولاية الأخوة والمودة، ونصرة النساء: تكون فيما دون القتال، من الأعمال المتعلقة بتعبئة الجيوش، من

(١) المراغي.

الأمور المالية والبدنية، وكان نساء النبي ﷺ، ونساء أصحابه، يخرجن مع الجيش يسقين الماء، ويجهزن الطعام، ويحرضن على القتال، ويرددن المنهزم من الرجال، قال حسان بن ثابت:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فإن قلت: لِمَ قال سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وقال في وصف المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ فما الفائدة في التفرقة بينهما في الوصف؟

قلت: فرق بينهما لأن المؤمنين بينهم أخوة ومودة وتعاون وتراحم، حتى شبه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان يشد بعضه بعضاً، وبينهم ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل، وإعلاء كلمة الله تعالى، أما المنافقون فيشبه بعضهم بعضاً في الشكوك والذبذبة، وما يتبعها من الجبن والبخل، وهما يمنعان من التناصر ببذل النفس والمال، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام، وما لا يشق من الأعمال، ومن ثم أَكْذَبَ الله منافقي المدينة في وعدهم لليهود حلفائهم، بنصرهم على النبي ﷺ والمؤمنين إذا قاتلوهم، في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، ثم بين أوصافهم الحميدة، كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه، وترك عبادة غيره؛ أي: يأمرون غيرهم بالإيمان بالله ورسوله، واتباع ما أمر به ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عما هو منكر في الدين والشرع، غير معروف فيه، من الشرك والمعاصي والبدع ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدون الصلاة المفروضة، بإتمام الأركان والشرائط ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدون الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، وخصَّ[1] إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من بين جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال

(١) الشوكاني.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه في السر والعلن.

والحاصل[1]: أن الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين في هذه الآية بصفاتٍ خمسٍ، تفاد مثلها في المنافقين:

١ - أنهم يأمرون بالمعروف، والمنافقون يأمرون بالمنكر.

٢ - أنهم ينهون عن المنكر، والمنافقون ينهون عن المعروف، وهاتان الخصلتان سياج الفضائل، ومنع فشوِّ الرذائل.

٣ - أنهم يؤدون الصلاة على أقوم وجه وأكمله بخشوع وإخبات لله، وحضور القلب في مناجاته، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة.. قاموا وهم كسالى، يراؤون الناس.

٤ - أنهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم، وما وفقوا له من التطوع، والمنافقون يقبضون أيديهم، والمنافقون وإن كانوا يصلون لم يكونوا يقيمون الصلاة، وكانوا يزكون وينفقون، ولكن خوفاً أو رياءً لا طاعةً لله تعالى، كما قال سبحانه ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ...﴾ الآية.

٥ - أنهم يستمرون على الطاعة، بترك ما نهوا عنه وفعل ما أمروا به، بقدر الطاقة وبضد ذلك المنافقون فإنهم فاسقون خارجون عن حظيرة الطاعة كما تقدم.

ثم ذكر ما يكون لهم من حسن العاقبة، وعظيم الجزاء على جميل أفعالهم فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة من المؤمنين والمؤمنات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يفيض عليهم آثار رحمته، ويتعهدهم برحمته في الدنيا والآخرة باستمرارهم على طاعته، وطاعة رسوله، ويقابل هذا نسيانه تعالى للمنافقين ولعنه إياهم.

وزيدت[2] السين فيه للتأكيد والمبالغة؛ أي: للدلالة على تحقيق ذلك وتقرر

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

ألبتة بمعونة المقام كما هنا، إذ السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير، فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه بشارة ووعداً، تمحضت لتأكيد الوقوع اهـ. كرخي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يمنع من مراده من رحمةٍ أو عقوبةٍ، ولا يمتنع عليه شيء من وعده ووعيده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لعباده، لا يضع شيئاً منهما في غير موضعه.

والإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان للوعد المذكور، ذكره أبو السعود. وبعد أن بين صفاته روحمته لهم إجمالاً.. بين ما وعدهم به، من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلاً، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الجارية في الجنة، اللبن، والماء، والخمر، والعسل، حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبداً لا نهاية له ﴿و﴾ وعدهم ﴿مساكن طيبة﴾؛ أي: منازل حسنة يسكنون فيها من الدرِّ والياقوت تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش، أو قد طيبها الله بالمسك والريحان، ويقال: جميلةً ويقال: طاهرةً ويقال: عامرةً كائنة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وخلود وإقامة مؤبدة، فجنات عدن، هي جنات الإقامة والخلود كقوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وقيل: إنه منزل من منازل دار النعيم، كالفردوس الذي هو أوسط الجنة أو أعلاها، روي عن أبي هريرة: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما، كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

تتمة: والجنَّات[1]: البساتين الملتفة الأشجار، التي تجن ما تحتها؛ أي:

---

(١) المراغي.

تغطيه وتستره، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها، والمساكن الطيبة في جنات عدن هي الدور والخيام، التي يطيب لساكنها المقام فيها، لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة التي بها تتم راحة المقيم فيها وسروره، والعدن: الإقامة والاستقرار، يقال: عدن في مكان كذا، إذا أقام فيه وثبت.

والمراد[1] بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار: البساتين التي يتحير في حسنها الناظر؛ لأنه سبحانه وتعالى، قال: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ﴾، والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه، فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين، فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها، والجنات الأخرى هي البساتين التي يتنزهون فيها، فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، والفرق بينهما.

والمعنى: ومنازل طيبةً كائنةً في محلات تسمى بجنة عدن، روى الطبري، بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة، قالا: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ قال: «قصر من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً، على كل فراش زوجة من الحور العين»، وفي رواية: «في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من طعام، وفي كل بيت سبعون وصيفةً، ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع»، ولكن هذا الحديث ضعفه أئمة الحديث، وبعضهم جعله من الموضوعات، وهو حديث منكر من دسائس الوضاعين، ككعب الأحبار وغيره، قال ابن القيم: لم يثبت في نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجتين لكل رجل.

وروى بسنده عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ «عدن داره ـ يعني

---

(١) الخازن.

دار الله ـ التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه، ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة، النبيين والصدقين والشهداء، يقول الله عز وجل: طوبى لمن دخلك»، هكذا رواه الطبري، فإن صحت هذه الرواية.. فلا بد من تأويلها، فقوله: «عدن داره»، يعني: دار الله، وهو من باب حذف المضاف، تقديره عدن دار أصفياء الله التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته، والمقربين من عباده.

وعن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أخرجه البخاري ومسلم.

وقال عبد الله بن مسعود: ﴿عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة، يعني وسطها، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً، يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديق أو شهيد، وقال عطاء بن السائب: ﴿عَدْنٍ﴾ نهر في الجنة خيامه على حافتيه، وقال مقاتل والكلبي: عدن: أعلى درجة في الجنة، فيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصور الدر والياقوت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش، فتدخل عليها كثبان المسك الأبيض.

قال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل هذا الكلام: أن في جنان عدن قولين:

أحدهما: أنه اسم علم لموضع معين في الجنة، وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول.

قال صاحب «الكشاف»: و﴿عدن﴾ علم بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والقول الثاني: أنه صفة للجنة، قال الأزهري: ﴿العدن﴾ مأخوذ من قولك عدن بالمكان، إذا أقام يعدن عدونا، فبهذا الاشتقاق قالوا: الجنات كلها جنات عدن، انتهى من «الخازن».

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ جملة مستأنفة؛ أي: رضوان قليل يسير من الله الذي ينزله عليهم أكبر وأعلى وأفضل من ذلك النعيم المقيم كله الذي أعطاهم إياه، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه، وإن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا رضاً لا سخط بعده، ولا يكدره نكد، يا من بيده الخير كله. وقرأ الأعمش: ﴿ورضوان﴾ بضمتين، قال صاحب «اللوامع» وهي: لغة. اهـ «البحر».

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمور الثلاثة، من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ومن المساكن الطيبة، من الرضوان الأكبر ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، لا ما يطلبه المنافقون والكفار، من التنعم بطيبات الدنيا، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون أي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً» متفق عليه.

الإعراب

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾.

﴿وَمِنْهُمُ﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾. ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل

معطوف على ﴿يُؤْذُونَ﴾ ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ مقول محكي، أو مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو أذن خير لكم، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿خَيْرٍ﴾ مضاف إليه، ويقرأ: بالرفع، على أنه صفة ﴿أُذُنُ﴾ والتقدير: أذنٌ ذو خير لكم، ذكره أبو البقاء ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٍ﴾ أو صفة له، ويجوز أن يكون ﴿خَيْرٍ﴾ بمعنى أفعل؛ أي: أذن أكثر خيراً لكم ﴿يُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿أُذُنُ﴾ بمعنى محمد، والجملة في محل الرفع صفة ﴿أُذُنُ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جملة معطوفة على ما قبلها، و﴿اللام﴾ في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ زائدة، دخلت عليه لتفرق بين يؤمن، بمعنى: يصدق، ويؤمن بمعنى: يثبت الأمان، كما تقدم في بحث التفسير بأوضح بيان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع معطوف على ﴿أُذُنٌۚ﴾؛ أي: هو أذن ورحمة، ويقرأ: بالجر عطفاً على ﴿خَيْرٍ﴾ فيمن جر خيراً ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿رحمة﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِنكُمْۚ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل الصلة؛ أو من الموصول ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به أيضاً ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يرضوكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ على كونه بدل اشتمال من ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: يحلفون بالله لكم، لإرضائهم إياكم، والخطاب فيه للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ معطوف عليه ﴿أَحَقُّ﴾ خبر

عنهما ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول والجملة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، والتقدير: والله ورسوله أحق بإرضائهم إياهما منكم، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿يَحْلِفُونَ﴾؛ أي: يحلفون لكم لإرضائكم، والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء منكم؛ أي يعرضون عما يهمهم ويشتغلون بما لا يَعْنِيهم، ذكره أبو السعود ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كَانُوا﴾ فعل ماض ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ خبرها، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، دل عليه السياق، والتقدير: إن كانوا مؤمنين.. فليرضوا الله ورسوله بطاعتهما، فإنهما أحق بالإرضاء، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي وفيه معنى التقرير ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿يَعْلَمُوٓا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لم﴾ ﴿أَنَّهُۥ﴾ أن حرف نصب ومصدر و﴿الهاء﴾ اسمها من اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لها ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسمها مؤخر ﴿خَٰلِدًا﴾ حال من الضمير، المجرور باللام ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدًا﴾ وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع، على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فجزاؤه كون نار جهنم له خالداً فيها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل الرفع، خبر لـ﴿أنَّ﴾ الأولى، وجملة ﴿أن﴾ الأولى في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، تقديره: ألم يعلموا كون جزاء من يحادد الله ورسوله نار جهنم، وجملة علم جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾

خبره ﴿الْعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿الْخِزْيُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ ناصب وفعل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿سُورَةٌ﴾: نائب فاعل والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يحذر المنافقون تنزيل سورة عليهم، الجملة الفعلية مستأنفة ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُورَةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿سُورَةٌ﴾ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي. وإن شئت، قلت ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مُخْرِجٌ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿مُخْرِجٌ﴾ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تحذرونه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: عن استهزائهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾ فعل مضارع، مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: وإن سألتهم.. يقولون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر

﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿نَخُوضُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿وَنَلْعَبُ﴾ معطوفة على جملة ﴿نَخُوضُ﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَبِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على ﴿كنتم بالله﴾ ومجرور متعلق بـ ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوفان على الجلالة ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبله ﴿إِن نَّعْفُ﴾ جازم وفعل مجزوم على كونه فعل شرط له، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَن طَآئِفَةٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿طَآئِفَةٍ﴾ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ فعل ومفعول، مجزوم على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ سببية ﴿أن﴾ حرف نصب، والهاء اسمها وجملة ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾ وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب كونهم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُعَذِّبْ﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: مبتدأ أول ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾: معطوف عليه ﴿بَعْضُهُم﴾: مبتدأ ثان، ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿يَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱلْمُنكَرِ﴾: متعلق به، والجملة

الفعلية مستأنفة، مفسرة لما قبلها، وجملة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَأْمُرُونَ﴾: وكذلك جملة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوفة عليها. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿نسيهم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير، يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسُوا۟﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ اسمها ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ معطوفان على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ مفعول ثان، والجملة مستأنفة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من المفعول الأول، وهو مجموع الأصناف الثلاثة، غير أنها حال مقدرة، إذ وقت الوعد لم يكونوا ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب، حال من ﴿جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَعَدَ﴾ ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَعَدَ﴾ أيضاً.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: حالكم كائن كحال الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور صلة الموصول ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدَّ﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الذين من قبلهم ﴿قُوَّةً﴾ تمييز محول عن اسم كان منصوب باسم التفضيل أعني أشد

﴿وَأَكْثَرَ﴾ معطوف على ﴿أَشَدَّ﴾ ﴿أَمْوَٰلًا﴾ تمييز منصوب بـ ﴿أكثر﴾ ﴿وَأَوْلَـٰدًا﴾ معطوف عليه ﴿فَاسْتَمْتَعُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿استمتعوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانُوٓا۟﴾ ﴿بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ متعلق به ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم﴾ معطوف على ﴿استمتعوا﴾ ﴿بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ متعلق به ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية ﴿اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ جار ومجرور صلة الموصول ﴿بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ متعلق باستمتع وجملة استمتع صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره فاستمتعتم بخلاقكم استمتاعاً كائناً كاستمتاع الذين من قبلكم.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾

﴿وَخُضْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استمتعتم﴾ ﴿كَالَّذِى﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، ولكنه على حذف مضاف تقديره: وخضتم في الباطل خوضاً كائناً، كخوض الفريق الذي خاضوا من قبلكم ﴿خَاضُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول وأتى في العائد بضمير الجمع نظراً لمعنى الذي لأنه هنا عبارة عن الفريق ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿فِى الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿حَبِطَتْ﴾ ﴿وَالْـَٔاخِرَةِ﴾ معطوف على الدنيا ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿الْخَـٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف جزم ﴿يَأْتِهِمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بلم ﴿نَبَأُ الَّذِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾: بدل الموصول بدل بعض من كل ﴿وَعَادٍ﴾: معطوف على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَثَمُودَ﴾

معطوف عليه أيضاً مجرور بالفتحة، للعلمية والتأنيث المعنوي ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾: معطوف عليه أيضاً وكذلك ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: معطوفان عليه أيضاً ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان نبأهم كما ذكره أبو السعود. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: أتتهم رسلهم بالبينات، فكذبوهم فأهلكوا ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿يظلمهم﴾: فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لظلمه إياهم الجار والمجرور متعلق بمحذوف، خبر كان، تقديره: فما كان الله مريداً لظلمه إياهم، وجملة كان معطوفة على ذلك المحذوف ﴿وَلَكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قدمه عليه للاهتمام به، ولرعاية الفاصلة وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ أول ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ معطوف عليه ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿يَأْمُرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان خصالهم الحميدة ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَأْمُرُونَ﴾ ﴿عَنِ الْمُنكَرِ﴾ متعلق به، وكذلك جملة قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: معطوفات عليها أيضاً ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان عاقبتهم الحسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان

له، الجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل وجملة ﴿تَجْرِى﴾ في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ولكنها صفة سببية ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق به ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة أولى ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، صفة ثانية لـ ﴿مساكن﴾ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه، بما بعده ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رضوان﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر لـ ﴿رضوان﴾ والجملة مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر المبتدأ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ الأذى: ما يؤلم الحي المدرك في بدنه، أو في نفسه، ولو ألماً خفيفاً، يقال: أوذي بكذا، أذًى، وتأذى تأذّياً إذا أصابه مكروه يسير ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ والأذن: هو الذي يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله، ويصدقه، ويقولون: رجل أذن؛ أي: يسرع الاستمتاع والقبول، وفي «المختار» أذن له، إذا استمع، وبابه طرب، ورجل أُذن بالضم، إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع، اهـ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي؛ يصدقهم لما علم فيهم من علامات الإيمان، الذي يوجب عليهم الصدق ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يخالفه ويخاصمه، وأصل المحادة في اللغة من الحد؛ أي: الجانب كأن كل واحد من المتخاصمين في محل غير محل صاحبه اهـ «خازن» يعني: أن المحادة من الحد، وهو طرف الشيء كالمشاقة من الشق بالكسر. وهو الجانب

ونصف الشيء المنشق منه، وهما بمعنى المعاداة، من العدوة بالضم: وهي جانب الوادي؛ لأن العدو يكون في غاية البعد عمن يعاديه عداء البغض، بحيث لا يتزاوران ولا يتعاونان، فكأنَّ كلا منهما في شق وعدوة غير التي فيها الآخر، إذ هما على طرفي نقيض، وهكذا المنافقون يكونون في الجانب المقابل للجانب الذي يحب الله لعباده، والرسول لأمته من الحق والخير، والعمل الصالح.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الحذر: الإحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه، ﴿مُخْرِجٌ﴾: من الإخراج والإخراج: إظهار الشيء الخفي المستتر، كإخراج الحب والنبات من الأرض ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ والخوض: الدخول في البحر، أو في الوحل، وكثر استعماله في الباطل، لما فيه من التعرض للأخطار ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ والاعتذار الإدلاء بالعذر، وهو ما يراد به محو أثر الذنب وترك المؤاخذة عليه، من عذر الصبي يعذره؛ أي: ختنه تطهيراً له، بقطع عذرته؛ أي: قلفته، وفي «الفتوحات» والاعتذار: التنصل من الذنب، وأصله من تعذرت المنازل؛ أي: درست وانمحت آثارها، فالمعتذر يزاول محو ذنبه، وقيل: أصله من العذر، وهو القطع، ومنه العذرة؛ لأنها تقطع، قال ابن الأعرابي: ويقولون اعتذرت المياه؛ أي: انقطعت، فكأن المعتذر يحاول قطع الذم عنه، اهـ «سمين» ﴿عَن طَآئِفَةٍ﴾ والطائفة: الجماعة من الناس، والقطعة من الشيء، يقال: ذهبت طائفة من الليل، ومن العمر، وأعطاه طائفةً من ماله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقال: وعده في الخير والشر، والاختلاف إنما هو بالمصدر، فمصدر الأول: وعد، ومصدر الثاني: وعيد فاستعمل وعد في الشر، كما هنا، وفي الخير، فيما سيأتي في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ..﴾ إلخ وفي «المصباح» وعده وعداً يستعمل في الخير والشر، ويعدى بنفسه وبالباء، فيقال: وعده الخير وبالخير، وشراً وبالشر، وإذا أسقطوا لفظ الخير والشر.. قالوا في الخير: وعده وعداً، وعدةً، وفي الشر وعده وعيداً، فالمصدر فارق، وأوعده خيراً وشرًّا بالألف أيضاً، وقد أدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة، يقال: أوعده بالسجن اهـ.

﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾؛ أي: متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كما تقول: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد، لا افتراق بيننا ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو إما شرعي، وهو ما يستقبحه الشرع وينكره، وإما فطري، وهو ما تستنكره العقول الراجحة، والفطر السليمة، لمنافاته للفضائل، والمنافع الفردية، والمصالح العامة، وضده المعروف في كل ذلك ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ وقبض الأيدي يراد به الكف عن البذل، وضده بسط اليد ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تركوا أوامره حتى صارت عندهم بمنزلة المنسي ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾؛ أي: فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الطاعة المنسلخون عن فضائل الإيمان ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ واللعن الطرد والإبعاد من الرحمة، والإهانة والمذلة ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ والمقيم الثابت الذي لا يتحول ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾؛ أي: بنصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق، بمعنى التقدير: فإنه ما قدر لصاحبه، كما في «البيضاوي».

﴿وَخُضۡتُمۡ﴾؛ أي: دخلتم في الباطل وتلبستم به ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ يقال: حبط العمل إذا فسد، وذهبت فائدته ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: من الخسارة والخسارة في التجارة تقابل الربح فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾؛ أي: المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها، جمع مؤتفكة، من الائتفاك، وهو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفله بالخسف، وهي قرى قوم لوط، يقال: أَفَكَهُ إذا قلبه، وبابه ضرب وفي «السمين» والمؤتفكات؛ أي: المنقلبات، يقال: أفكته فأتفك؛ أي: قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف ومنه ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩﴾؛ أي: يصرف اهـ.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ أي: منازل يطيب العيش فيها، جمع مسكن، وهو من أوزان منتهى الجموع؛ لأنه على زنة مفاعل كمساجد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾ لما فيه من إطلاق اسم الجزء

على الكل، للمبالغة في استماعه، كأنه عين آلة الاستماع، وفي «المصباح» أنه مجاز مرسل، كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئة؛ أي: طليعة وجاسوساً؛ لأن العين هي المقصودة منه، فصارت كأنها الشخص كله.

ومنها: إبراز اسم الرسول في قوله: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ حيث لم يأت به ضميراً ولم يقل: يؤذونه تعظيماً لشأنه عليه السلام، وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين، النبوة والرسالة، وفيه أيضاً إضافة إليه زيادةً في تشريفه.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الإشارة بالبعيد عن القريب، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ لأن قبض الأيدي كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الكرم والجود.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، لأنه مجاز عن الترك، ففيه إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لأن فيه التفاتاً عن الغيبة في قوله: المنافقون إلى الخطاب لزيادة التقريع والتوبيخ.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ...﴾ الآية، والغرض منه: الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس عن الشيء النفيس.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ﴾ فهو رجوع إلى الغيبة عن الخطاب، ففيه التفات وفيه أيضاً الاستفهام التقريري، حملاً لهم على الإقرار بما بعد النافي.

ومنها: تقديم المفعول في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لمجرد الاهتمام به، مع مراعاة الفاصلة، من غير قصدٍ إلى قصر المظلومية عليهم، كما ذكره أبو السعود.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ تسجيلاً عليهم بأنهم يستحقون جهنم باسم النفاق، وفي قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إشعارا بأنهم يستحقون ذلك الجزاء بصفة الإيمان، وزيادة في التقرير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على التحقير والتقليل.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ
(٧٣) يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ
وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٧٤) ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ
عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن
فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ (٧٦) فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (٧٧) أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ
وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (٧٨) ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ
وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ
أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ
أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ
يَفۡقَهُونَ (٨١) فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ
طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم
بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ (٨٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف[1] المؤمنين بشريف الصفات، ووعدهم بأجزل الثواب، وأرفع الدرجات.. أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين، وإنذارهم بالجهاد، كالكفار المجاهرين بكفرهم، إذا هم استرسلوا في إظهار ما ينافي الإسلام، من الأقوال والأفعال، كالقول الذي قالوه وأنكروه بعد أن أظهره

---

(١) المراغي.

الله عليه، وكذبهم في إنكارهم.

وجهادهم أن لا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين، فيقابلون بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر، إلى نحو ذلك مما سيذكر.

وقال أبو حيان[1]: لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى وعيد غير المؤمنين، وكانت السورة قد نزلت في المنافقين.. بدأ بهم في ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ ولمَّا ذكر أمر الجهاد، وكان الكفار غير المنافقين أشد شكيمة، وأقوى أسباباً في القتال، وأنكاءً بتصديهم للقتال، قال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فبدأ بهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين، أغناهم الله تعالى بعد فقرٍ وإملاقٍ، وقد كانوا يلجؤون إلى الله وقت البأساء والضراء، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له، والطاعة لشرعه، إذا هو كشف ضرهم وأغناهم بعد فقرهم، فلما استجاب دعاءهم.. نكصوا على أعقابهم، وكفروا النعمة، وهضموا حقوق الخلق، ومثل هؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر بخل المنافقين، وشحهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله.. أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا في جرمهم على هذا الحد، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين، وذمهم في صدقاتهم غنيهم وفقيرهم، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حدّ لم يعد لهم فيه أدنى حظٍ من الإسلام، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول، ودعائه لهم، لرسوخهم في الكفر بالله ورسوله وعدم الرجاء في إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر بعض سوءات المنافقين من اعتذارهم للمؤمنين عن الخروج معهم للقتال، ولمزهم في قسمة الصدقات، وفي

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

إعطائهم.. عاد إلى الكلام في ذكر حال الذين تخلفوا عن القتال في غزوة تبوك وظلوا في المدينة، وبيان ما يجب من معاملة هؤلاء بعد الرجوع إليها، وقد نزل ذلك أثناء السفر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[١] ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الجلاس بن سويد بن الصامت ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقال: لئن كان هذا الرجل صادقاً.. لنحن شر من الحمير، فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ، فحلف بالله ما قلت، فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟...﴾ الآية، فزعموا أنه تاب وحسنت توبته.

ثم أخرج عن كعب بن مالك نحوه، وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك، قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين، يقول والنبي ﷺ، يخطب: إن كان هذا صادقاً.. لنحن شر من الحمير، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحد القائل: فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ، جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان»، فطلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك»، فانطلق الرجل: فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟...﴾ الآية، وأخرج[٢] قتادة، قال: إن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، وظهر الغفاري على الجهيني، فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة.. ليخرجن الأعز منها الأذل، فسعى رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فسأله، فجعل يحلف بالله

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

ما قال، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، عن ابن عباس، قال: همَّ رجلٌ، يقال له: الأسود، بقتل النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا...﴾.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن عكرمة، أن مولى بني عدي بن كعب، قتل رجلاً من الأنصار، فقضى النبيُّ ﷺ، بالدية اثني عشر ألفاً، وفيه نزلت: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قال: بأخذهم الدية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ الآية، أخرج[1] الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل»، بسند ضعيف، عن أبي أمامة، أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه» قال: والله لئن آتاني الله مالاً.. لأوتين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتَّخذ غنماً فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة، فتنحى بها، وكان يشهد الصلاة ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها، ثم نمت فتنحى بها فترك الجمعة والجماعات، ثم أنزل الله على رسوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فاستعمل على الصدقات رجلين، وكتب لهما كتاباً فأتيا ثعلبة، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: انطلقا إلى الناس، فإذا فرغتم.. فمروا بي، ففعلا، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فانطلقا فأنزل الله عز وجل ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ الحديث بطوله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الشيخان، عن أبي مسعود، قال: لما نزلت آية الصدقة.. كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء آخر فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزل: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ...﴾

---

(١) لباب النقول.

الآية وورد نحو هذا من حديث أبي هريرة، وأبي عقيل، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وعميرة بنت فهد بن رافع، أخرجها كلها ابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس، قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجل: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ الآية.

وأخرج عن محمد بن كعب القرظي. قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم محمد ﷺ، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: جاهد المجاهرين بالكفر، بالسيف والسِّنان ﴿و﴾ جاهد ﴿المنافقين﴾؛ أي: الساترين كفرهم بإظهار الإسلام بالحجة واللسان، لا بالسيف، لنطقهم بكلمتي الشهادة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واشدد على كلا الفريقين بالفعل والقول، ولا ترأف عليهم والغلظ: نقيض الرأفة، وهو شدة القلب، وخشونة الجانب، قيل: وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح المذكور في القرآن.

والأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمرٌ لأمته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عن النفاق، ويؤمنوا بالله تعالى.

والمعنى: يا أيها النبي ابذل جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين، اللتين تيعشان بين ظهرانيك، بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك، وعاملهما بالغلظة والشدة، التي توافق سوء حالهما.

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا، أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة، أو

امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه، وعن ابن عباس: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان؛ أي: بالحجة والبرهان.

وكان كفار اليهود يؤذون النبي ﷺ حتى بتحريف السلام عليه، بقولهم: السام عليكم، والسام: الموت، فيقول: «وعليكم» ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر، فجرأهم هذا على أذاه ﷺ، بنحو قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ فأمره الله تعالى في هذه الآية بالغلظة على الفريقين، في جهاده التأديبي لهم، لأن أمثالهم لا علاج له إلا هذا.

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة، لأنه موقف وسط بين رحمته ولينه للمؤمنين المخلصين، وشدته في قتاله لأعدائه المحاربين، يجب فيه إقامة العدل، واجتناب الظلم، وأثر عن عمر أنه قال: أذلوهم، ولا تظلموهم، وفي هذه الغلظة تربية للمنافقين، وعقوبة لهم، يرجى أن تكون سبباً في هداية من لم يطبع الكفر على قلبه، ولم تحط به خطايا نفاقه، فتقطيب وجهه ﷺ في وجوههم تحقيرٌ لهم، يتبعه فيه المؤمنون، ومن ير أنه محتقرٌ بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره.. يضق صدره، ويحاسب نفسه، ويثب إلى رشده، ويتب إلى ربه، وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين، وإسلام ألوف الألوف من الكافرين، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: ومسكنهم ومنزلهم في الآخرة نار جهنم؛ أي: لا مأوى لهم يلجؤون إليه، إلا دار العذاب، التي لا يموت من أوى إليها، ولا يحيا حياة طيبة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي وقبح المرجع لهم هي ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان عاقبة أمرهم.

والخلاصة: أنهم قد اجتمع لهم عذابان عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة، وعذاب الآخرة، بأن تكون جهنم مأواهم.

ثم ذكر سبحانه، الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار، وهي أنهم أظهروا الكفر بالقول، وهموا بشر ما يغرى به من الفعل، وهو الفتك برسول الله ﷺ، وقد أظهره الله عليه، وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم، ويحلفون على إنكارهم

ليصدقهم كدأبهم من قبل، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ويخوضون في آيات الله وفي رسوله، استهزاءً خرجوا به من الإيمان الذي يدعونه إلى الكفر الذي يكتمونه، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: يحلف ويقسم لك، يا محمد، هؤلاء المنافقون باسم الله تعالى على أنهم ﴿مَا قَالُوا﴾ تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم، ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر، التي رويت عنهم، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد قالوا كلمة الكفر، التي نسبت إليهم بتوافقهم على شتم النبي ﷺ، وطعنهم على دينه ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾؛ أي: أظهروا الكفر وجاهروا بالحرب بتلك الكلمة بعد أن أظهروا الإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن.

والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم، على تقدير صحة إسلامهم ﴿وَهَمُّوا﴾؛ أي: قصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾؛ أي بما لم يصيبوا، ولم يقدروا على تحصيله، قيل: هو همهم بقتل رسول الله ﷺ، ليلة العقبة في غزوة تبوك، كما قاله ابن كثير، وقيل: هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبي، وقيل غير ذلك.

ولم يذكر القرآن تلك الكلمة التي قالوها؛ لأنه لا ينبغي ذكرها، ولئلا يتبعد بتلاوتها، وأصح ما قيل فيها: ما رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرةٍ، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء.. فلا تكلموا» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ إلى آخر ما سبق في أسباب النزول، وأما همهم بما لم ينالوا فهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة عند منصرفه من تبوك.

روي: أنّ[1] المنافقين هموا بقتله ﷺ عند رجوعه من تبوك، وهم خمسة عشر رجلاً، قد اتفقوا على أن يدفعوه ﷺ عن راحلته ليقع في الوادي فيموت،

---

(١) المراح.

فأخبره الله تعالى بما دبروه، فلما وصل إلى العقبة التي بين تبوك والمدينة.. نادى مناديه بأمره، أن رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد غيره، واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي وسلك النبي ﷺ العقبة، وكان ذلك في ليلة مظلمة، فجاء المنافقون وتلثموا وسلكوا العقبة، وكان النبي ﷺ، قد أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام ناقته ويقودها، وأمر حذيفة أن يسوقها من خلفها، فبينما النبي ﷺ يسير في العقبة.. إذ زحمه المنافقون، فنفرت ناقته حتى سقط بعض متاعه، فصرخ بهم، فولوا مدبرين وعلموا أنه اطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي، واختلطوا بالناس، فصار حذيفة يضرب الناقة، فقال له النبي ﷺ: «هل عرفت أحد منهم؟» قال: لا فإنهم كانوا متلثمين، والليلة مظلمة، قال: «هل علمت مرادهم؟»، قال: لا، قال النبي ﷺ: «إنهم مكروا، وأرادوا أن يسيروا معي في العقبة، فيزحمونني عنها، وإنّ الله أخبرني بهم وبمكرهم» فلما أصبح.. جمعهم، وأخبرهم بما مكروا به، فحلفوا بالله ما قالوا بتكذيب النبي ﷺ ونسبته إلى التصنع في ادعاء الرسالة، ولا أرادوا فتكه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قالوا: أولا تأمرنا بهم يا رسول الله، إذاً فنضرب أعناقهم؟ قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه» فسماهم لهما، وقال: «اكتماهم».

والصحيح[1] في عددهم: ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «في أمتي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ـ خراج ودمل كبير يظهر في الجوف، يقتل صاحبه كثيراً ـ سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم؛ أي: كأنه سراج من النار.

(١) المراغي.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا﴾؛ أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون، وما كرهوا من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة، والهم بالانتقام ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله ﷺ من فضله بالغنائم، التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة، وكانوا كسائر الأنصار فقراء، فأغناهم الله تعالى ببعثة الرسول ونصره، وبما آتاه من الغنائم، كما وعده، ومن ثم قال ﷺ للأنصار: «كنتم عالةً فأغناكم الله بي».

فإن[1] هؤلاء المنافقين، كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحرزون الغنيمة، وبعد قدومه ﷺ أخذوا الغنائم، وفازوا بالأموال، ووجدوا الدولة. وقتل للجلاس مولى، فأمر له رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى وذلك يوجب عليهم أن يكونوا محبين له ﷺ، مجتهدين في بذل النفس والمال لأجله، فعملوا بضد الواجب، فوضعوا موضع شكره ﷺ أن كرهوه وعابوه.

﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ من النفاق، وما يصدر عنه من مساوي الأقوال والأفعال، كما وقع للجلاس بن سويد، فإنه تاب وحسنت توبته ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدنيا والآخرة، أما في[2] الدنيا فبما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والعمل لما فيه السعادة في الآخرة ومعاشرة الرسول ﷺ، ومشاهدة فضائله، وأخوة المؤمنين، بعضهم لبعض، وما فيها من الود والوفاء الكامل، والإيثار على النفس إلى نحو ذلك.

وأما في الآخرة: فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين، من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: يعرضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بقتلهم وسبي أولادهم وأزواجهم، واغتنام أموالهم؛ لأنه لما ظهر كفرهم بين الناس.. صاروا مثل أهل الحرب. فيحل قتالهم ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بالنار

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

وغيرها، من أفانين العقاب.

والمعنى[1]: وإن أعرضوا عما دعوا إليه من التوبة، وأصروا على النفاق، وما ينشأ منه من المساوي الخلقية والنفسية.. يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع، كما قاله سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ فهم في جزع دائم، وهمّ ملازم.

وأما في الآخرة: فحسبك ما تقدم من وعيدهم بتلك النار، التي تطلع على الأفئدة ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: من حافظ يحفظهم من عذاب الدنيا ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذهم من عذاب الآخرة.

أي: وما لهم في الأرض كلها من يتولى أمورهم، ولا من ينصرهم ويدافع عنهم، إذ من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجيره، أما في الدنيا: فقد أغلقت في وجوههم الأبواب، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصر بالمؤمنين والمؤمنات، دون المنافقين والمنافقات، وقد قضىٰ الإسلام على جوار الجاهلية، وعلى أحلافهم من أهل الكتاب في الحجاز بالقتل والجلاء، وأما في الآخرة: فقد تظاهرت النصوص، على أنه لا ولي ولا ظهير للكفار والمنافقين ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾؛ أي: من أعطى الله سبحانه وتعالى عهده وميثاقه، بقوله: والله ﴿لَئِنْ آتَانَا﴾ الله سبحانه وتعالى، وأعطانا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجوده وكرمه وعطائه مالاً وثروةً، وأغنانا عن غيرنا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ أي: لنشكرن له نعمته بالصدقة منها، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ﴾ جملة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ من المؤمنين، القائمين بواجبات الدين، التاركين لمحرماته، والصالح ضد المفسد، والمفسد هو الذي بخل بما يلزمه في حكم الشرع؛ أي: ولنعملن عمل أهل الصلاح بأموالنا من صلة الرحم به، والإنفاق في سبيل الله، كإعداد العدة للجهاد، وبذل المستطاع لخير الأمة وصلاحها، بما يرقى بها في مختلف شؤونها، وقرأ الأعمش شاذاً:

---

(١) المراغي.

﴿لنصدقن ولنكونن﴾ بالنون الخفيفة، واللام الأولى؛ أعني قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ لام القسم. كما أشرنا إليه في الحل، واللام الثانية؛ أعني قوله: ﴿لنصدقن﴾، لام الجواب للقسم ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾؛ أي: فلما رزقهم الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم ما طلبوا ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وعطائه ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بما آتاهم وأمسكوه عن الإنفاق في سبيل الله، فلم يتصدقوا منه بشيء، كما حلفوا به ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾؛ أي: وأعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، وإصلاح حالهم وحال أمتهم، كما عاهدوا الله عليه ﴿وَهُم﴾؛ أي: والحال أنهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم عن طاعة الله تعالى في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده.

والمعنى: لم يكن ذلك التولِّي عارضاً طارئاً، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوةٍ، بحافز نفسيٍّ، ملك عليهم أمرهم، ومنعهم عن التصدق، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجب عليهم.. لا يذكرون، وإذا دعوا لا يستجيبون.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، وأورثهم بسبب البخل الذي وقع منهم، والإعراض عن الإنفاق ﴿نِفَاقًا﴾ وكفراً كائناً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متمكناً منها، مستمرًّا فيها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يلقون الله سبحانه وتعالى، ويرونه في الآخرة، وحكمة الجمع في هذه الضمائر مع أن سبب نزولها في شخص واحد: الإشارة إلى أن حكم هذه باق لكل من اتصف بهذا الوصف، من أول الزمان إلى آخره، وليس مخصوصاً بثعلبة، وهذا التفسير على أن الضمير في أعقبهم إلى الله تعالى، وقيل: إن الضمير يرجع إلى البخل، والمعنى عليه: فأعقبهم ذلك البخل بما عاهدوا الله عليه، والتولِّي عنه بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان، نفاقاً كائناً في قلوبهم متمكنًا منها، وملازماً لها إلى يوم يلقون بخلهم؛ أي: جزاء بخلهم؛ أي: ملازماً لها إلى يوم الحساب في الآخرة؛ لأنه لا رجاء معه في التوبة، يعني: أنه سبحانه حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، فيوافونه على النفاق، فيجازيهم عليه، ومعنى ﴿أعقبهم﴾ أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، ثم ذكر الله سبحانه سببين هما من أخس أوصاف

المنافقين، إخلاف الوعد، والكذب، فقال: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ والباء فيه وفيما بعده للسببية؛ أي: فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم، بسبب إخلافهم وتركهم لما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقرأ أبو رجاء: ﴿يكذِّبون﴾ بالتشديد؛ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ، أي: أنَّ سنة الله في البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق في القلب ويقويه، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوةً ورسوخاً في النفس. وهكذا جميع الأخلاق والعقائد، تقوَّىٰ وترسَّخ بالعمل الذي يصدر منها، فهؤلاء لما كان قد رسخ في قلوبهم خلف الوعد واستمرار الكذب.. مكن ذلك النفاق في قلوبهم، بمقتضى سننه وتقديره.

أخرج ابن جرير، وابن مردويه والبيهقي، عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية، أن رجلاً من الأنصار، يقال له: ثعلبة، أتى مجلساً، فأشهدهم، قال: لئن آتاني الله من فضله.. آتيت كل ذي حق حقه، وتصدقت، وجعلت منه للقرابة، فابتلاه الله، فآتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله تعالى شأنه في القرآن اهـ.

وكان[1] ثعلبة في ابتداء أمره صحيح الإسلام، لكنه صار منافقاً في آخر أمره، فصح كونه من المنافقين، اهـ شيخنا.

وفي «الشهاب» قيل: كان ثعلبة قبل ذلك ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ حتى لقب بحمامة المسجد، ثم رآه النبيُّ ﷺ يسرع الخروج من المسجد عقب الصلاة، فقال له رسول الله ﷺ «ما لك تفعل فعل المنافقين؟» فقال: إني افتقرت ولي ولامرأتي ثوب واحد، أجيء به للصلاة، ثم أذهب فأنزعه لتلبسه وتصلي به، فادع الله أن يوسع في رزقي... إلى آخر ما في القصة اهـ.

قال بعض العلماء[2]: إنما لم يقبل رسول الله ﷺ صدقة ثعلبة لأن الله

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

سبحانه وتعالى، منعه من قبولها منه، مجازاة له على إخلافه ما عاهد الله عليه، وإهانةً له على قوله: إنما هي جزية، أو أخت الجزية، فلما صدر هذا القول منه.. ردت صدقته عليه، إهانة له، وليعتبر غيره به، فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها، ويرى أنها واجبة عليه ويثاب على إخراجها ويعاقب على منعها.

وفي «الخازن»: وهذا أحد قولين في سبب نزولها، والآخر: أنه حاطب بن أبي بلتعة، قال ابن السائب: إنَّ حاطب بن أبي بلتعة، كان له مال بالشام، فأبطأ عليه، فجهد لذلك جهداً شديداً، فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله، يعني ذلك المال.. لأصدقن منه، ولأصلن قرابتي، فلما آتاه ذلك المال.. لم يف بما عاهد الله عليه، فأنزل الله هذه الآية اهـ.

وحاصل ما في المقام: أن ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله، لئن آتاه من فضله.. ليصدقن، وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة، فلما آتاه الله من فضله ما سأل.. لم يَفِ بما عاهد الله عليه، بلا تعيين واحد منهم.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد، وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر.. فليجتهد في الوفاء به.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ رجوع لما سبق، في قوله: المنافقون والمنافقات، لا بقيد كونهم الذين عاهدوا الله، إذ الآيات الواردة في خصوص المعاهدين قد انقضت بقوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع المضمن للإنكار.

وقرأ عليٌّ وأبو عبد الرحمن والحسن(١): ﴿تعْلَمُوا﴾ بالتَّاء خطاباً للمؤمنين على سبيل التقرير؛ أي: ألم يعلم المنافقون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾؛ أي: جميع ما يسرونه من النفاق ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: جميع ما يتناجون به ويتحدثونه فيما بينهم، من الطعن على النبي ﷺ وعلى أصحابه وعلى دين

---

(١) البحر المحيط.

الإسلام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ أي: ما غاب عن الخلق، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة، كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين.

أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون به، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان، ولَمْزِ الرسول، أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر الكامن في أعماق نفوسهم، الذي يخصون به من يثقون به، ممن هو مشارك لهم في النفاق، وأن الله تعالى يعلم الغيوب كلها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ محله[1] إما الرفع على الابتداء، وخبره قوله الآتي: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهو أوضح الإعراب فيه، أو النصب على الذم، أو الجر، بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم، وقرىء: ﴿يَلمُزون﴾ بضم الميم؛ أي: أولئك المنافقون الذين يلمزون ويعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يلمزون المتطوعين والمتبرعين من المؤمنين، ويعيبونهم في شأن الصدقات التي هي أظهر آيات الإيمان، ويذمونهم في أكمل فضائلهم، ويقولون: ما فعلوها لوجه الله، وإنما فعلوها رئاء الناس، سخر الله منهم، فلَمْزُهم[2] هنا في مقدارها وصفة أدائها لا فيها نفسها، واللمز هناك؛ أي: في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ في قسمتها، وقد جاء في بعض الروايات:

أن النبي ﷺ حث على الصدقة، فجاء عمر بصدقة، وجاء عثمان بصدقة عظيمة، وكثير من أصحابه بصدقات، فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء، وأما أبو عقيل: فإنما جاء بصاعه ليذكِّر بنفسه، فيعطىٰ من الصدقات، والله غني عن صاعه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ معطوف[3] على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

عطف خاص على عام، وليس معطوفاً على البيان، لإيهام أن المعطوف ليس من المؤمنين؛ أي: ويلمزون الفقراء الذين لا يجدون إلا طاقتهم، ويعيبونهم ويطعنونهم في صدقاتهم القليلة؛ أي: يعيبون الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ معطوف على الصلة؛ أعني يلمزون، فالصلة أمران: اللمز، والسخرية.

والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم، فيسخرون منهم؛ أي: يستهزئون بهم؛ لحقارة ما يخرجونه في الصدقة، وعدِّه من الحماقة والجنون، مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، وخص هؤلاء بالذكر، وإن كانوا داخلين في المتطوعين؛ لأنَّ مجال لمزهم عند المنافقين أوسع، والسخرية منهم أشد، وهم أهل الإجلال والإكبار، والأحق بالثناء عند المؤمنين.

وقرأ ابن هرمز وجماعة شذوذاً[1]: ﴿جَهْدهم﴾ بالفتح. والجُهد بالضم: الطاقة، وبالفتح: المشقة، وقيل: هما لغتان، ومعناهما واحد، وقال الشعبي: بالضم: القوت. وبالفتح: في العمل، وقيل: بالضم، شيءٌ قليل يعاش به. وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ خبر المبتدأ السابق، في قوله الذين يلمزون؛ أي[2]: جازاهم على ما فعلوه من السخرية المؤمنين، بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم في الدنيا بفضيحتهم وقتلهم، وهو خبر ليس بدعاء عليهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة.

والمعنى: أي فجازاهم الله بمثل ذنبهم، فجعلهم سخريةً للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحتهم في هذه السورة، ببيان مخازيهم وعيوبهم، وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمؤمنين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع في الآخرة.

ثم بيَّن سبحانه عقابهم وسواهم بالكافرين، فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

محمد ﷺ إن شئت ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إن شئت، وهذا كلام خرج مخرج الأمر، ومعناه: الخبر، تقديره استغفارك لهم وعدمه سواء، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائهما.

والحاصل: أن هذا الأمر تخيير له ﷺ في الاستغفار وتركه، ومعناه: إخبار باستواء الأمرين؛ أي: إن شئت فاستغفر لهم، وإن شئت فلا تستغفر لهم، فاستغفارك لهم وعدمه سواء، وقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بيانٌ لاستحالة المغفرة لهم بعد المبالغة في الاستغفار، إثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه، ذكره أبو السعود، ومعنى قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ أي: إن[1] تدع لهؤلاء المنافقين وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها وترك فضيحتهم بها، أو لا تدع لهم بالمغفرة فلن يغفر الله لهم؛ أي لن يستر الله عليهم، ولن يعفو عنهم، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً كما في سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول، فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى أنه لن يغفر الله لهم، وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ، ويراد بالسبعين في مثل هذا الأسلوب: الكثرة لا العدد المعين، فالمراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار لهم.. فلن يستجاب لك فيهم، وقد كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله، فيتوب عليهم، ويغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» رواه ابن ماجه، وقال الضحاك: ولما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد رخَّص لي، فسأزيدن على السبعين، لعل الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله سبحانه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

وقد ذهب بعض الفقهاء[2]: إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

قبول الزيادة عليه، ويدل على ذلك، ما روي عن النبي ﷺ، أنه قال: «لأزيدن على السبعين» وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً، فقال: إن السبعة عدد شريف؛ لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة، والأعضاء السبعة، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وقيل: خصت السبعين بالذكر؛ لأنه ﷺ كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة، فكأنه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة، بإزاء تكبيراتك على حمزة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: امتناع المغفرة لهم، ولو بعد المبالغة في الاستغفار، ليس لعدم الاعتداد باستغفارك، بل بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وفي «الكرخي» ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اليأس من الغفران لهم، بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، لا ببخل منا، أو قصورٍ فيك، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنها. اهـ؛ أي: ذلك المذكور بسبب[1] جحودهم وحدانية الله تعالى، وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه، من العلم بالسر والنجوى وسائر الغيوب، وجحودهم وحيه لرسوله ﷺ وبما أوجبه من أتباعه، وجحودهم بعثه للموت، وجزاءهم على أعمالهم، لم يعف عن ذنوبهم، ولا عمَّا دسُّوا به أنفسهم من الآثام والمعاصي ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: المتمردين الخارجين عن الطاعة، المتجاوزين لحدودها، والمراد[2] هنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق؛ أي: أنَّ سنة الله سبحانه قد جرت فيمن أصرُّوا على فسوقهم، وتمرَّدوا في نفاقهم، وأحاطت بهم خطاياهم، أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان، فلا يهتدون إليهما سبيلاً.

والمعنى: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله، وطاعة رسوله، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه، لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره، وهو عدم يأسه من

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

إيمانهم، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ...﴾ الآية، ذكره البيضاوي.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: المخلفون من هؤلاء المنافقين، الذين تركهم رسول الله ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾؛ أي: بقعودهم في بيوتهم في المدينة ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بعد خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، أو مخالفين الله ورسوله، وإنما فرحوا بذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من أجر عظيم، لا تذكر معه راحة القعود في البيوت شيئاً، والمخلفون اسم مفعول، من خلف إذا ترك، فالمخلفون المتروكون، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة، أو الذين خلفهم وأقعدهم الكسل أو خلفهم الله تعالى، بتثبيطه إياهم، لما علم في ذلك من الحكمة الخفية، أو خلفهم كسلهم، أو نفاقهم، كما ذكره أبو السعود ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾؛ أي: بقعودهم، يقال قعد قعوداً ومقعداً؛ أي: جلس ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ظرف زمان، بمعنى بعد خروج رسول الله إلى تبوك، وإليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمرو الأخفش، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وأبي حيوة، وعمرو بن ميمون ﴿خلف﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، أو مفعول لأجله، والعامل فيه إما فرح، وإما مقعد؛ أي: فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله ﷺ، حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه، أو بقعودهم لمخالفتهم له، وإليه ذهب الطبري والزجاج، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: ﴿خلف﴾ بضم الخاء وسكون اللام، أو منصوب على المصدرية، بفعل مقدر مدلول عليه، بقوله: ﴿مقعدهم﴾ لأنه في معنى تخلفوا؛ أي: تخلفوا خلاف رسول الله.

وقرأ ابن مسعود وابن يعمر والأعمش وابن أبي عبلة[1]: ﴿خلف رسول الله﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، وقرىء: ﴿خلف﴾ بضم الخاء وسكون اللام

---

(١) زاد المسير.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن في المجاهدة إتلاف المال والنفس، سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لوجود الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال المنافقون بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله؛ أي: لا تخرجوا مع محمد ﷺ إلى غزوة تبوك في الحر الشديد، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي موعدهم في الآخرة ﴿أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ من حر الدنيا ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يعلمون أنَّ مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

والمعنى[1]: أنكم أيها المنافقون، كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حرًّا مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناهٍ أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وجواب لو، في قوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ محذوف تقديره: لو كانوا يفقهون أنها كذلك.. لما فعلوا ما فعلوا.

وقرأ عبيد الله[2]: ﴿يعلمون﴾ مكان يفقهون، وينبغي أن يحمل ذلك على معنى التفسير؛ لأنه مخالف لسواد ما أجمع المسلمون عليه.

وحاصل معنى الآية: أي[3] وقالوا لإخوانهم في النفاق إغراءً لهم بالثبات على المنكر، وتثبيطاً لعزائم المؤمنين: لا تنفروا في الحر، قل لهم أيها الرسول، مفنداً آراءهم، ومسفهاً أحلامهم: نار جهنم التي أعدها الله لمن عصاه وعصى

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

رسوله أشد حرًّا في تلك الأيام في أوائل فصل الخريف، إذ هذا الحر مما تحتمله الجسوم، ولا يلبث أن يخف ويزول، ونار جهنم حرها شديد دائم، يلفح الوجوه، وينضج الجلود، فهم لو كانوا يعقلون ذلك، ويعتبرون به.. لما خالفوا وقعدوا، ولما فرحوا بقعودهم، بل لحزنوا وبكوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾؛ أي: فليضحك[1] هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرحين بمقعدهم خلافه قليلاً في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة مكان ضحكهم في الدنيا، وهذا وإن ورد بصيغة الأمر، إلا أن معناه الإخبار.

والمعنى: إنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة؛ لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل، وإنما جيء[2] بهما على صيغة الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم، لا يكون غيره، وانتصاب ﴿جَزَآءً﴾ على المصدرية بعامل محذوف، تقديره: يجزون ذلك البكاء الكثير في الآخرة جزاءً ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ما كانوا يكسبون﴾ه في الدنيا من المعاصي؛ أي: يجزون به جزاء على ما يقولونه، ويعملونه من المعاصي. أو المعنى[3]: إن الأجدر بهم، بحسب ما تقتضيه حالهم، وتستوجبه جريمتهم، أن يضحكوا قليلاً ويبكوا كثيراً في الدنيا، لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف من أجر، وما سيحملونه في الآخرة من وزر، وما يلاقونه في الدنيا من خزي وضرٍّ، جزاء لهم على ما اجترحوا من العصيان، وارتكبوا من الإثم والبهتان، وكما يدين الفتى يدان.

ونحو الآية قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم.. لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً يظهر النفاق، وترتفع الأمانة وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن غير الأمين،

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

أناخ بكم الشرف الجون، الفتن كأمثال الليل المظلم»، الشرف بضمتين جمع شارف، وهي الناقة الكبيرة السن، والجون السود.

ثم بين ما يجب أن يعاملوا به في الدنيا قبل الآخرة، مما يقتضي تركهم الفرح، والغبطة في دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام فقال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى يا محمد، من غزوة تبوك، وردَّك من سفرك هذا، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إلى طائفة من المنافقين المتخلفين عنك في المدينة، وإنما قال إلى طائفة منهم؛ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين، بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين، الذين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم، كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك، وقيل: إنما قال: إلى طائفة؛ لأن منهم من تاب عن النفاق، وندم على التخلف.

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك؛ أي: ليخرجوا معك في غزوة أو غيرها، مما تخرج لأجله ﴿فَقُل﴾ لهم يا محمد إخراجاً لهم عن ديوان الغزاة، وإبعاداً لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ في سفر من الأسفار، ولن يكون لكم أبداً شرف الصحبة بالخروج معي للجهاد في سبيل الله تعالى، ما دمت ودمتم ﴿وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء لا بالخروج والسفر إليهم ولا بغير ذلك، كأن يهاجم المؤمنون في عقر دارهم، كما حدث يوم وقعة الأحزاب.

وقرىء[1]: ﴿معي﴾ في الموضعين بفتح الياء، وقرىء: بسكونها فيهما، ثم بين سبب النهي عن صحبتهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتخلفون ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ عن الغزو ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهي غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُوا۟﴾ عن الجهاد ﴿مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾؛ أي: مع النساء والصبيان والرجال العاجزين، كالمرضى والزمنىٰ، الذين لا يكلفون القيام بشرف الجهاد دفاعاً عن الحق، وإعلاءً لكلمة الله تعالى، وجملة

---

(١) الشوكاني.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ للتعليل؛ والفاء في قوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها.

والمعنى[1]: لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا عدوًا؛ لأنكم رضيتم لأنفسكم بخزي العقود والتخلف أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج، إذ طلب إليكم أن تنفروا، فلم تنفروا، وعصيتم الله ورسوله، فاقعدوا أبداً مع الذين تخلفوا عن النفر، من الأشرار المفسدين، الذين خرجوا عن سبيل المهتدين، وربما كان المراد بالمخالفين الصبيان والعجزة والنساء، كما مرَّ آنفاً.

والخالفين[2] جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم: من تخلَّف عن الخروج، وقيل: المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين من قولهم: فلان خالف أهل بيته، إذا كان فاسداً فيهم، من قولك: خلف اللبن، إذا فسد بطول المكث في السقاء، ذكر معناه الأصمعيُّ، وقرأ[3] مالك بن دينار وعكرمة مع ﴿الخلفين﴾، وهو مقصورٌ من الخالفين.

وفي الآية[4]: دليلٌ على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه، وخداع وبدعة.. يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم، وذمهم وطردهم، وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

(٤) الخازن.

النداء مستأنفة ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب للنداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿وَٱغْلُظْ﴾ فعل أمر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَٰهِدِ﴾ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله، كما ذكره أبو السعود. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر عن المخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: وبئس المصير هي.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما صدر عنهم، من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم، والغلظة عليهم، كما ذكره أبو السعود ﴿مَا﴾ نافية ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: يحلفون بقولهم: والله ما قالوا ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة لقسم محذوف ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة مسوقة لبيان حالهم. ﴿وَكَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿وَهَمُّوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على قالوا أيضاً ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿لَمْ يَنَالُوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل والجملة صلة لـ ﴿ما﴾: أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لم ينالوه.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿نَقَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿نَقَمُوٓا۟﴾ تقديره: وما نقموا إلا إغناء الله ورسوله

إياهم من فضله ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَتُوبُوا﴾: فعل وفعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير مستتر فيه، يعود على التوب المفهوم مما قبله، تقديره: هو ﴿خَيْرًا﴾: خبرها منصوب ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بخيراً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَتَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾: على كونه فعل شرط لها ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿عَذَابًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، أو مفعول ثان ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: متعلق بـ ﴿عذاب﴾ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: معطوف عليه ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لـ ﴿ما﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: اسم ﴿ما﴾ مؤخر ﴿مِن﴾: زائدة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف عليه، والتقدير: وما ولي ولا نصير كائناً هو لهم، حالة كونه في الأرض، وجملة ﴿ما﴾ في محل النصب، حال من هاء ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ والتقدير: يعذبهم الله عذاباً أليماً، حالة كونهم عادمي ولي ونصير في الأرض.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، كما تقدم نظيرها ﴿منهم﴾: جار

ومجرور خبر مقدم ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ والجملة صلة الموصول، وفيه معنى القسم؛ لأنه بمعنى أقسم بالله. وقال في قسمه ﴿لَئِنْ﴾: و﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿ءَاتَىٰنَا﴾: فعل ومفعول أول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: مالاً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق به وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية، محذوف لدلالة جواب القسم عليه تقديره: إن آتانا من فضله، نتصدق، ونكون من الصالحين، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لـ ﴿قال﴾ المقدر، كما مر آنفاً ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، وكررت لتدل على أنَّ ما بعدها جواب القسم، لا جواب الشرط ﴿نصدَّقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿المنافقين﴾ والجملة جواب القسم. لا جواب الشرط، وقد اجتمع هنا قسم وشرط، فالمذكور وهو قوله: لنصدقن... إلخ، جواب القسم وجواب الشرط محذوف كما قدرناه آنفاً على حد قول ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وفي الكرخي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فيه معنى القسم: فلذلك أجيب بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه، و﴿اللام﴾: للتوطئة، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له اهـ. ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿نكونن﴾ فعل مضارع ناقص: في محل الرفع مبني على الفتح، واسمها ضمير يعود على ﴿المنافقين﴾ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على كونها جواب القسم.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قسمهم هذا، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك ﴿لما﴾: حرف

شرط غير جازم ﴿ءَاتَىٰهُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللهُ﴾ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ متعلق به، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فلمَّا آتاهم مالاً من فضله، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب ﴿بَخِلُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿به﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿بَخِلُوا۟﴾ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مبتدأ وخبر، الجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تولوا﴾ وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿أعقبهم نفاقا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿بخلوا﴾ ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿نِفَاقًا﴾. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أعقبهم﴾ أو صفة ثانية لـ ﴿نِفَاقًا﴾؛ أي: نفاقاً مستمراً إلى يوم يلقون ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فعل وفاعل، ومفعول: والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمِ﴾ ﴿بِمَآ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَخْلَفُوا۟﴾ ﴿وَعَدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَخْلَفُوا۟﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إخلافهم الله فيما وعدوه ﴿وَبِمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الباء﴾: حرف جر و﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْذِبُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: وبتكذيبهم الله ورسوله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: بما أخلفوا الله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمَّن معنى الإنكار ﴿لم﴾ حرف

جزم ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ فعل ومفعول به، لأنه علم بمعنى عرف ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة يعلم في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لعلم؛ لأنه بمعنى عرف تقديره: ألم يعلموا علم الله سبحانه وتعالى سرهم ونجواهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ناصب واسمه، وخبره والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ الأولى، تقديره: وكون الله تعالى علام الغيوب.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الضمير في المطوعين ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب، معطوف على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿جُهْدَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَلْمِزُونَ﴾ على كونها صلة الموصول ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ فعل أمر ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَوْ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم

بـ ﴿إِن﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿سَبْعِينَ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: استغفاراً سبعين ﴿مَرَّةً﴾ منصوب على التمييز ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿لن يغفر الله﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿لن﴾ ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أن﴾ حرف نصب و﴿الهاء﴾ اسمها ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب كفرهم بالله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الجار والمجرور خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب كفرهم بالله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: متعلق به ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ظرف بمعنىٰ بعد، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿مقعدهم﴾ وقد تقدم لك في مبحث التفسير، ما يجري فيه، من أوجه الإعراب، استعجالاً للفائدة ﴿وَكَرِهُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَرِحَ﴾ ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾: متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف عليه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، تقديره: وكرهوا مجاهدتهم في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم.

﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كرهوا﴾ ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَنفِرُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية ﴿فِي الْحَرِّ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿أَشَدُّ﴾ خبره ﴿حَرًّا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانُوا﴾ فعل شرط لِـ ﴿لَّوْ﴾ وجوابها محذوف، تقديره: لو كانوا يفقهون شدة حرارتها.. ما تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية معترضة بين جمل المقول، وفي «أبي السعود» قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته تعالى، غير داخل تحت القول المأمور به، مؤكِّدٌ لمضمونه اهـ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريغ و﴿اللام﴾: لام الأمر، مبنية على السكون، لاتصالها بالفاء ﴿يضحكوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره ضحكاً قليلاً، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ على كونها مَقُولاً لـ﴿قُلْ﴾ ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فعل وفاعل ومفعول مطلق، مجزوم بـ ﴿لام﴾ الأمر معطوف على ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مفعول لأجله؛ أي: بسبب الأمر بقلة الضحك وكثرة البكاء، جزاؤهم بعملهم، أو منصوب على المصدرية، بفعل مقدر، تقديره: يجزون، ذلك جزاء ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور صفة لـ ﴿جَزَاءً﴾ أو متعلق به، لتعديته به ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها؛ أي: على ما سرد من أمرهم، كذا قالوا، أو ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور فيما سبق، وأردت بيان شأنك فيهم..

فأقول لك ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ صفة لـ ﴿طَآئِفَةٍ﴾ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿استئذنوك﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿رَّجَعَكَ﴾ ﴿لِلۡخُرُوجِ﴾ متعلق به ﴿فَقُل﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَّن﴾ ﴿مَعِيَ﴾ متعلق به ﴿أَبَدٗا﴾ منصوب على الظرفية متعلق به ـ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قل﴾ ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لن تقاتلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَّن﴾ معطوف على ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾ ﴿مَعِيَ﴾ متعلق به ﴿عَدُوًّاۖ﴾ مفعول به ﴿إِنَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿رَضِيتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾ متعلق به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ ظرف متعلق ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قل﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿اقعدوا﴾ فعل وفاعل ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿اقعدوا﴾ أو حال من فاعل ﴿اقعدوا﴾ والجملة في محل الرفع، معطوفة مفرعة على جملة ﴿رَضِيتُم﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ جاهد، من باب فاعل الرباعي فيه معنى المشاركة. يقال: جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة، والجهاد والمجاهدة: استفراغ الجهد والوسع في مدافعة العدو، وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، مجاهدة الشيطان، مجاهدة النفس والهوى، ويشير إلى هذه كلها قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وقال ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» وقال: «جاهدوا الكفار

بأيديكم وألسنتكم» والجهاد باللسان، إقامة الحجة والبرهان، كما مر والجهاد باليد: الجهاد بالسيف، وبكل الوسائل الحربية ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ من الغلظة، وهي الخشونة، والشدة في المعاملة، وهي ضد اللين ﴿وَمَا نَقَمُوٓا﴾ نقم منه الشيء إذا أنكره وعابه عليه، من باب ضرب ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد، أصله لنتصدقن من باب تفعل الخماسي، فقلبت التاء صاداً، فأدغمت الصاد في الصاد، فصار لنصَّدَّقن بتشديد الصاد، والدال.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يقال: أعقبت فلاناً ندامةً، إذا صيرت عاقبة أمره نادمة وحسرة وخسارة.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ وفي «المصباح» لمزه لمزاً من باب ضرب إذا عابه، وقرأ بها السبعة ومن باب قتل لغة، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، كما مر المطَّوِّعين بتشديد الطاء والواو، جمع المطوع بمعنى: المتبرع بغير ما وجب عليه، فأصله المتطوعين، لأنه اسم فاعل من تطوع الخماسي، فقلبت التاء طاء، وأدغمت الطاء في الطاء، فصار المطوعين بتشديد الطاء ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ جمع الصدقة، ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ والجهد: بالضم والفتح، الطاقة وهي: أقصى ما يستطيعه الإنسان، وقال القرطبي: الجهد الشيء اليسير الذي يعيش به المقل ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يستهزئون منهم، احتقاراً وفي «المصباح» سخرت منه سخراً، من باب تعب، هزئت به، والسِّخريُّ، بالكسر اسم منه، والسُّخريُّ بالضم، لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم أو جارية أو دابة، بلا أجرٍ ولا ثمنٍ، والسخري بالضم، بمعناه، وسخرته في العمل، بالتثقيل استعملته مجاناً وسخر الله الإبل، ذللها وسهلها اهـ وفيه أيضاً هزئت به أهزأ. مهموز من باب تعب، وفي لغة من باب نفع، سخرت منه اهـ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ جمع مخلف، اسم مفعول من خلف، كما مر، والفاعل الكسل؛ أي: الذين خلفهم، وأقعدهم الكسل، والفرح: الشعور بارتياح النفس وسرورها.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم. يقال: قعد قعوداً ومقعداً، إذا جلس وأقعده غيره، ذكر معناه الجوهري، ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ والخلاف والمخالفة بمعنى،

ويستعمل خلافه بمعنى بعده، يقال: جلست خلاف فلان، وخلفه؛ أي: بعده، ومنه ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ردك[1] الله، خطاب للنبي ﷺ بعدم جمعهم معه في مشاهد الخير بعد ذلك، ويؤخذ من ذلك: أن أهل الفسوق والعصيان لا يرافقون ولا يشاورون.

ورجع: إما لازم، فبابه جلس، ومصدره الرجوع، وإما متعد، وبابه قطع، ومصدره الرجع، كالرد، كما في «المختار» وفي «الكرخي» ومعنى الرجع تصيير الشيء إلى المكان الذي كان فيه، يقال: رجعته رجعا كقولك رددته ردًّا. اهـ.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهي[2] الخرجة إلى غزوة تبوك، ومرة مصدر، كأنه قيل أول خرجه دعيتم إليها، لأنها لم تكن أول خرجة خرجها الرسول ﷺ للغزاة، فلا بد من تقييدها، إذ الأولية تقتضي السبق، وقيل: التقدير: أول خرجه خرجها الرسول لغزوة الروم بنفسه، وقيل: أول مرة قبل الاستئذان.

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ أي: أقيموا وليس أمراً بالعقود الذي هو نظير الجلوس، وإنما المراد منعهم من الخروج معه، قال أبو عبيدة: الخالف، الذي خلف بعد خارج، فقعد في رحله، وهو الذي يستخلف عن القوم، وقيل: الخالفين، المخالفين، من قولهم: عبد خالف؛ أي: مخالف لمولاه، وقيل: الأخساء الأدنياء، من قولهم: فلان خالفة قومه، لأخسّهم وأرذلهم.

ودلت هذه الآية على توقي صحبة من يظهر منه مكرٌ وخداع وكيد، وقطع العلاقة معه، والاحتراز منه، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الصاوي.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كأنه قال: ليس له صفة تكره وتعاب إلا أنه ترتب على قدومه إليهم هجرته عندهم إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة، وهذه ليست صفة ذم، فحينئذٍ ليست له صفة تُذم أصلاً، وهو من باب قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

ومن باب قول الآخر:

مَا نَقَمُوْا مِنْ بَنِيْ أُمَيَّةَ إِلاَّ أَنَّهُمْ يَحْلَمُوْنَ إِنْ غَضِبُوْا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ ٱلْمُلُوْكِ وَلاَ يَصْلُحُ إِلاَّ عَلَيْهِمُ ٱلْعَرَبُ

وفي «البحر» قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ الجملة كلام أجري مجرى التهكم به، كما تقول: مالي عندك ذنب، إلا أني أحسنت إليك، فإن فعلهم يدل على أنهم كانوا لِئاماً.

ومنها: اللف[1] والنشر المرتب في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ فقوله: ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ راجع لقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وقوله: ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ راجع لقوله: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ وفي قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ وهي من المحسنات البديعية.

ومنها: جناس الاشتقاق بين يعلم وعلام في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

ومنها: أن التنوين في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للتهويل والتفخيم.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

ومنها: المقابلة[2] المعنوية بين قوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، وقوله: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ لأن الفرح من ثمرات المحبة.

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَلْمِزُونَ﴾؛ لأن اللمز حقيقة في الإشارة بالعين ونحوها، ثم استعير للتعييب والتغيير.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وفيه أيضا من المحسنات البديعية المشاكلة.

ومنها: الاعتراض التذييلي في قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنه كلام معترض من جهته تعالى، غير داخل تحت القول المأمور به، مؤكدٌ لمضمونه، كما في «أبي السعود».

ومنها: التعريض[١] بالمؤمنين بتحملهم المشاق العظيمة، في قوله: ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: كرهوا أن يجاهدوا كالمؤمنين الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد في سبيل الله، وآثروا ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن
سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أمر رسوله فيما سبق، بإهانة المنافقين، وإذلالهم بمنعهم من الخروج معه إلى الغزوات.. أردف ذلك بذكر إهانة أخرى لهم، وهي منع الرسول أن يصلي على من مات منهم بعد إعلامه بحقيقة أمرهم، وفي مقدمتهم زعيمهم الأكبر عبد الله بن أبي والاثنا عشر الذين أرادوا اغتيال الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ...﴾ الآية، مناسبة

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيّن أنَّ المنافقين عملوا الحيل، والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله ﷺ، والقعود عن الغزو.. أردف ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ.. استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التخلف عن الغزو، وقالوا لرسول الله ﷺ: دعنا نكن مع الضعفاء والزَّمنىٰ العاجزين عن القتال.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لمَّا قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر فيما سبق المعذورين، والذين كذبوا الله ورسوله، وذكر وعيدهم على سوء صنيعهم.. أردف ذلك بذكر أصنافٍ ثلاثةٍ، أعذارها مقبولةٌ، ثم أردف هذا بذكر شر الأعذار، وهو استئذان الأغنياء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ سبب نزوله: ما روي عن ابن عمر، قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول.. جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي، فقام عمر بن الخطاب، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، أتصلي عليه، وقد نهاك ربك، أن تصلي على المنافقين؟ قال: «إنما قد خيرني الله، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيد على السبعين». فقال عمر: إنه منافق فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فترك الصلاة عليهم، وروي ذلك من حديث عمر وأنس وجابر وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني، إذا أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ الآية، وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس، قال:

أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابةٌ من أصحابه، فيهم عبد الله بن معقل المزني، فقال: يا رسول الله، احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاءٌ، وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقةً ولا محملاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية، وقد ذكرت أسمائهم في المبهمات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمد بعد الآن؛ أي: بعد عبد الله بن أبي ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المنافقين، الذين تلخفوا عن الخروج معك، وقوله: ﴿مَّاتَ﴾ صفة لأحد، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لتأييد النفي، منصوب بالنهي؛ أي: لا تصل أبداً بعد اليوم على أحد مات منهم؛ لأن المقصود من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكفار ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ولا تقف عند قبره للدفن، أو الزيارة أو الدعاء له بالتثبيت، كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم، فإنه ﷺ كان إذا دفن الميت. . وقف على قبره ودعا له.

روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت. . وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

ثم بيَّن سبب نهيه عن الصلاة عليهم ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله في السِرِّ مدَّة حياتهم ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن حظيرة الإسلام مفارقون أمر الله ونهيه، فليسوا أهلاً للصلاة عليهم، ولا للاستغفار لهم بالقيام عند قبورهم.

فإن قلت: لِمَ وصفهم بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر، لأن الفسق أدنى حالاً من الكفر، فالكفر يشمله وغيره، فما الفائدة في وصفهم بكونهم فاسقين بعد وصفهم بالكفر؟.

قلتُ: إن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، بأن يؤدِّي الأمانة، ولا يضمر

لأحد سوءاً، وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع، وإضمار السوء للغير، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد، ولما كان المنافق بهذه الصفة الخبيثة.. وصفهم الله تعالى بكونهم فاسقين، بعد أن وصفهم بالكفر، ولما نزلت هذه الآية.. ما صلى رسول الله ﷺ على منافق، ولا قام على قبره بعدها.

روى أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن ابن عباس، قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي.. دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف.. قلت: أتصلِّي على عدو الله، عبد الله بن أبي، القائل: كذا وكذا، والقائل: كذا وكذا؟ أعدِّد أيامه، ورسول الله ﷺ، يبتسم، حتى إذا أكثرت، قال: «يا عمر أخر عني، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له.. لزدت عليها» ثم صلى عليه، ومشى معه حتى قام على قبره، إلى أن فرغ منه، فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فما صلَّى رسول الله ﷺ على منافق بعد، حتى قبضه الله عز وجل.

وقد حكم كثير من العلماء[1]، كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين والغزالي، وغيرهم بعدم صحة هذا الحديث، لمخالفته للآية من وجوه:

١ - جعل الصلاة على ابن أبي سبباً لنزول الآية، وسياق القرآن صريح في أنها نزلت في سفر غزوة تبوك، سنة ثمان، وابن أبي مات في السنة التي بعدها.

٢ - قول عمر للنبي ﷺ: وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبي، وقوله بعده، فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة.

---

(١) المراغي.

٣ ـ قوله إنه ﷺ قال: إن الله خيَّره في الاستغفار لهم وعدمه، إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كالحديث، ولم يكن فيها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم، فـ(أو) فيها: للتسوية لا للتخيير.

وهناك[١] روايات أخرى في الصلاة على ابن أبي من طريق ابن عمر، ومن طريق جابر، وإنما ذكرنا هذا الحديث مع ما علمت من رأى أئمة الحديث فيه وحكمهم بأنه لا يقبل، لما ذكروا من الأسباب؛ لأنه قلما يخلو تفسير من ذكره، وقل أن تجد من يشير إلى شيء مما يدل على ضعفه واضطرابه، لمخالفته لظاهر الآية، فرأينا أن نجعلك على بينةٍ من أمره، إذا أنت قرأته.

فصل

وقد وقع في الأحاديث[٢] التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي بن سلول صورة اختلاف في الروايات، ففي حديث ابن عمر: أنه لما توفي عبد الله بن أبي. . أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه، وأن يصلي عليه، فأعطاه قميصه، وصلَّى عليه، وفي حديث عمر بن الخطاب ـ من أفراد البخاري ـ أن رسول الله ﷺ دعا له ولم يصل عليه، وفي حديث جابر: أن النبي ﷺ أتاه بعد ما أدخل في حفرته، فأمر به فأخرج فوضعه على ركبته، ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه.

ووجه الجمع بين هذه الروايات: أنه ﷺ أعطاه قميصه فكفن فيه، ثم إنه صلى عليه، وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنه ﷺ صلى عليه أولاً، كما في حديث ابن عمر، ثم إن رسول الله ﷺ أتاه ثانياً، بعدما أدخل حفرته، فأخرجه منها، ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه، لينفث عليه من ريقه، ثم إنه ﷺ ألبسه قميصه بيده الكريمة، فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطيبياً لقلب ابنه عبد الله، فإنه كان من فضلاء الصحابة، وأصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة، وأشرحهم صدراً.

ويروى أن النبي ﷺ كُلِّم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: «وما يغني

عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه» ويروي أنه أسلم ألف من قومه لمَّا رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ، وفي رواية عن جابر، قال: لما كان يوم بدر، أتي بالأسارى وأتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي مقدراً عليه، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه له. اهـ «الخازن».

ثم أكد ما تقدَّم من النهي عن الاغترار بالأموال والأولاد؛ لأن الأمر جد خطير، يحتاج إلى التوكيد إذ هما أعظم الأشياء جذباً للقلوب، وجلباً للخواطر للاشتغال بالدنيا، فيجب التحذير منهما مرةً بعد أخرى، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ يا محمد أموالهم وأولادهم؛ أي: كثرتها واغترارهم بها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بتمتيعهم بالأموال والأولاد ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ ويتعبهم ﴿بِهَا﴾؛ أي بمكابدتهم الشدائد في شأنها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وتخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: مغرورون بها عن نعيم الآخرة، أي: فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها.

وقد جاء[1] مثل هذا النص فيما سبق، إلا أن زيادة ﴿لا﴾ في الآية السابقة للنهي عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على حدته، وهو شامل لمن كانت له إحدى المزيتين أو كلاهما، والنهي في هذه الآية عن الإعجاب بها مجتمعين، وهذا أدعى إلى الإعجاب بهما.

فصلٌ للكلام على هذه الآية في بحثين

البحث الأول: في وجه تكرارها[2]، والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأنٌ في تقرير ما نزل أولاً، وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بالٍ، ولا يغفل عنه، ولا ينساه، وأن يعتقد أنَّ العمل به مهم، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه، وهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى، وبالجملة

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

فالتكرار يراد به التأكيد، والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به، وقيل أيضاً: إنما كرر هذا المعنى؛ لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين، كان لهم أموالٌ وأولاد عند نزولها، وبالآية الأخرى أقواماً آخرين منهم.

البحث الثاني: في بيان وجه ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين، وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالفاء، وقال، هنا: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالواو، والفرق بينهما: أنه عطف الآية الأولى على قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق، لشدة المحبة للأموال والأولاد، فحسن العطف عليه بالفاء في قوله: فلا تعجبك، وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها، فلهذا أتى بحرف الواو، وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ بزيادة لا وأسقطها هنا، فقال: ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ والسبب فيه: أن حرف ﴿لا﴾ دخل هناك لزيادة التأكيد في شأن الأولاد، فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد، وكان إعجابهم بأولادهم أكثر من إعجابهم بأموالهم، وفي إسقاط حرف ﴿لا﴾ هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين، وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ بزيادة حرف اللام، وقال هنا: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ بإسقاطها وزيادة حرف أن، والسبب في ذلك، التنبيه على أنَّ التعليل في أحكام الله محال، وأنه أينما ورد حرف اللام، فمعناه: أن كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ومعناه: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله، وقال أيضاً في الآية الأولى ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بزيادة لفظ الحياة، وقال هنا: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإسقاطه، والحكمة في إسقاطه هنا: التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث إنها لا تستحق أن تذكر، ولا تسمى حياةً، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا، تنبيهاً على كمال دناءتها وخستها، فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ عليك يا محمد ﴿سُورَةٌ﴾ من سور القرآن، كلا أو بعضاً

يحتمل أن يراد بالسورة بعضها؛ لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز، ويحتمل أن يراد جميع السورة، فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة، لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان، والأمر بالجهاد بـ ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: داوموا على إيمانكم بالله تعالى ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ ﷺ في المستقبل، ويصح أن تكون مصدرية، كما أشرنا إليه بتقدير الباء، ومفسرة لما في الإنزال من معنى القول والوحي، والقولان ذكرهما أبو السعود.

فإن قلت: كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين، فهو من باب تحصيل الحاصل؟

قلت: معناه: الأمر بالدوام على الإيمان وبالجهاد في المستقبل، وقيل: إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد، في كل ساعة، وقيل: إنَّ هذا الأمر، وإن كان ظاهرهُ العموم، لكن المراد به الخصوص، وهم المنافقون، والمعنى حينئذٍ: إن أخلصوا الإيمان بالله، وجاهدوا مع رسوله، وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد؛ لأنَّ الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً، فكأنه قيل للمنافقين: الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولاً، وتجاهدوا مع رسوله ثانياً حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة.

والمعنى: وإذا أنزلت عليك يا محمد سورة من القرآن، مشتملةٌ على الأمر بإخلاص الإيمان، وعلى الأمر بالجهاد مع رسوله في المستقبل ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ في التخلف عن الغزو ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ وأصحاب الغنىٰ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من المنافقين أي: استأذنك أصحاب السعة في المال والقدرة على الجهاد بالبدن من رؤساء المنافقين وكبرائهم، كعبد الله بن أبي وجدِّ بن قيس، ومعتب ابن قشير. وخصهم بالذكر؛ لأنَّ الذم لهم ألزم، لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد؛ أو لأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال أولوا الطول لك ﴿ذَرْنَا﴾؛ أي: أتركنا يا محمد عن الخروج معك ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ في البيوت من النساء والصبيان. وقيل: مع المرضى والزمنىٰ: أي: إن تركتنا وسامحتنا من الخروج للغزو نكون مع الضعفاء من الناس، والساكنين

في البلد بعذر.

والمعنى: أنه كلما أنزلت سورةٌ، تدعو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله، والجهاد مع رسوله ﷺ.. استأذنك أولوا المقدرة على الجهاد، المفروض عليهم بأموالهم وأنفسهم في التخلف عن الجهاد، وقالوا: دعنا نكن مع القاعدين في بيوتهم من الضعفاء والزمنىٰ، العاجزين عن القتال والنساء والصبيان، غير المخاطبين بالجهاد.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ وفي هذا تصريح بجبنهم، ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان.

﴿رَضُوا۟﴾؛ أي: رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم ﴿بِأَن يَكُونُوا۟﴾ في البلد ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: مع النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالفة، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف، وهو من لا خير فيه؛ أي: أن يكونوا مع النساء اللاتي ليس عليهن فرض الجهاد، وهذا منتهى الجبن، وتعافه النفس الكريمة، التي لا ترضى بالمذلة، ثم بين العلة في قبولهم هذا الذل، فقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم على قلوب هؤلاء المنافقين، ومنعت من حصول الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله تعالى في الأمر بالجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة.

والمعنى: أن الله تعالى قد ختم على قلوبهم، فلا تقبل جديداً من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها، وصار وصفاً لازماً لها، لأن النفاق قد أثر فيها، بحسب سنة الله في الارتباط بين العقائد والأعمال، فهم لا يفهمون ما أمروا به فَهْم تدبر واعتبار، فيعملوا به.

والمقصود من الاستدراك: في قوله: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخره، الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم، وأخلص نيةً على حد قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا

بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولكن الرسول محمدٌ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به وكانوا ﴿مَعَهُۥ﴾ في كل المهام الدينية ولا يفارقونه ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ وقاموا بالواجب خير قيام، عملاً بداعي الإيمان وأمر الله في القرآن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجاهدون في سبيل الله ﴿لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾؛ أي منافع الدارين، النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة؛ أي: لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر، ومحو كلمة الكفر، وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل، والتمتع بالغنائم، والسيادة في الأرض دون المنافقين الجبناء، الذين ألفوا الذلة والهوان، ولم يكونوا أهلاً للقيام بهذه الأعباء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: هم الفائزون بسعادة الدنيا، وسعادة الآخرة، دون المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم بما له من الأثر في أخلاقهم وأعمالهم.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ إلى آخره، كلام مستأنف مسوق لبيان ما لهم من الخيرات الأخروية؛ أي: هيأ الله سبحانه وتعالى لهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٖ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الأربعة الماء واللبن والخمر والعسل حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبَّداً، لا نهاية له، لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخيرات والفلاح وإعداد الجنات، الموصوفة بتلك الصفة هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم الذي لا فوز وراءه.

وقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب، إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة، والمعذرون: هم المعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ هم سكان البوادي، وهم أخص من العرب، إذ العربي من تكلم باللغة العربية، سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة، وهؤلاء[1] المعذرون هم أسد وغطفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك.. أغارت طيءُ على أهالينا ومواشينا،

(١) المراغي.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم، وسيغنيني الله عنكم» واختلفت الروايات فيهم، بين قائل بصدقهم في الاعتذار، وقائل بكذبهم فيه، وظاهر كلام ابن عباس أنهم صادقون في اعتذارهم، وعليه يكون المراد بالذين كذبوا الله ورسوله جماعةً غيرهم من المنافقين.

أي: وجاء إليك يا محمد المعذرون؛ أي: الذين أتوا بأعذار كاذبة، وتكلفوا عذراً بباطل من الأعراب؛ أي: من سكان البوادي من بني غفار أو من أسد وغطفان على الخلاف فيه ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف عن غزوة تبوك، فلم يعذرهم الله تعالى ﴿وَقَعَدَ﴾ عن الجهاد بغير إذن ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ادعائهم الإيمان وهم منافقوا الأعراب الذين لم يجيئوا إلى الرسول ولم يعتذورا.

وقال أبو عمرو بن العلاء[1]: إن قوماً تكلفوا عذراً بباطل، فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ وتخلف آخرون لا لعذر، ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى، فهم المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم منافقوا الأعراب، الذين ما جاؤوا وما اعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله، يعني: في ادعائهم الإيمان، فمنافقوا الأعراب قسمان: قسم جاء واعتذر بالأعذار الكاذبة، وقسمٌ لم يجيء ولم يعتذر.

والمعنى[2]: وجاء الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك، امتثالاً للنفير العام من أولي التعذير، وقعد عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين أظهروا الإيمان بهما، كذباً وإيهاماً على غير اعتقاد صادق، قال أبو عمرو: كان كلا الفريقين مسيئاً، فأوعد المكذبين وبعض المعتذرين بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين الذين في قلوبهم مرض عذاب أليم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار؛ أي: سيصيب الذين استمروا على الكفر منهم، لا من أسلم منهم عذاب أليم.

---

(١) الخازن. (٢) البيضاوي.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بفتح العين وتشديد الذال، وسيأتي لك بيان أصله في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والضحاك والأعرج وأبو صالح وعيسى بن هلال ويعقوب والكسائي في رواية عنه: ﴿المعذِرون﴾ من أعذر الرباعي، وقرأ مسلمة: ﴿المُعَذِّرون﴾ بفتح العين، وتشديد الذال، من تعذر، بمعنى اعتذر، قال أبو حاتم: أراد المتعذرين والتاء لا تدغم في العين لبعد المخارج، وهي غلط منه أو عليه، وقرأ الجمهور: ﴿كَذَبُواْ﴾ بالتخفيف؛ أي: في إيمانهم فأظهروا ضدًّ ما أخفوه، وقرأ أُبَيٌّ والحسن، في المشهور عنه، ونوحٌ وإسماعيل: ﴿كذّبوا﴾ بالتشديد؛ أي: لم يصدقوه تعالى ولا رسوله، وردوا عليه أمره، والتشديد أبلغ في الذم.

ولمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد، واعتذروا بأعذار باطلة.. عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقة الصحيحة وعذرهم، وأخبر: أن فرض الجهاد عنهم ساقط، فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ جمع ضعيف والضعيف: هو الصحيح في بدنه، العاجز عن الغزو، وتحمل مشاق السفر والجهاد، مثل الشيوخ والصبيان والنساء، ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً، ويدل على أنَّ هؤلاء الأصناف هم الضعفاء: أنَّ الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرض فقال سبحانه ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فأما المرضى.. فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة، وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿وَلَا عَلَى﴾ الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فيه من الزاد والراحلة والسلاح وسائر مؤونة السفر؛ لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج؛ أي: إثم في التخلف عن الغزو، وقال الإمام الفخر الرازي: ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج؛ لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة، إما بحفظ متاعهم، أو بتكثير سوادهم، بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالًا عليهم، فإن ذلك طاعة مقبولة، ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطاً معيناً، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾ بالإيمان به، والعمل بشريعته، وترك ما

يخالفها، كائناً ما كان، ويدخل تحته دخولاً أولياً نصح عباده، ومحبة المجاهدين في سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه، والقيام بمصالح بيوتهم، وإيصال الخير إلى أهاليهم، وإخلاص الإيمان والعمل لله تعالى، والاحتراز عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن ﴿و﴾ نصحوا لـ﴿رسوله﴾. بتصديق رسالته، وقبول ما جاء به في كل ما يأمر به، أو ينهى عنه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، ومحبته وتعظيم سننه، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة، وقد ثبت في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ، قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»، وقرأ أبو حيوة: ﴿إذا نصحوا الله ورسوله﴾ بنصب الجلالة وجملة قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالقول والفعل ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ مُقرِّرةٌ لمضمون ما سبق؛ أي: ليس على المعذورين المخلصين الناصحين من سبيل؛ أي: طريق عقاب، ومؤاخذةٍ على تخلفه؛ أي: ليس على من أحسن، فنصح لله ولرسوله، في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع، طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه، والمعنى: إنه سد بإحسانه طريق العقاب عن نفسه.

و﴿من﴾ في قوله[1] ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ مزيدة للتأكيد، وعلىٰ هذا المعنى المذكور فيكون لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضوعاً موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً، كأنه قال: ما عليهم من سبيل، ويحتمل أن يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة معلِّلة.

ويستنبط من قوله[2]: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أنَّ كلَّ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مخلصاً من قلبه، ليس عليه سبيل في نفسه وماله، إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع ﴿رَّحِيمٌ﴾ بجميع عباده جملة تذييلية،

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

والحاصل(١): أن التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة:

١ ـ **الضعفاء**: وهم من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد، كالشيوخ والعجزة والنساء والصبيان، وذوي العاهات التي لا تزول، كالكساح والعمى والعرج.

٢ ـ **المرضى**: وهم من عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، وعذرهم ينتهي إذا شفوا منها.

٣ ـ **الفقراء**: الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا ما خرجوا، ولا ما يكفي عيالهم، وقد كان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال، فالفقير ينفق على نفسه، والغني ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته، كما فعلوا في غزوة تبوك.

والخلاصة: أن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم؛ أي: لا ضيق عليهم ولا إثم في قعودهم عن الجهاد الواجب، على شرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ أي: يخلصوا لله في الإيمان وللرسول في الطاعة، بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية، ولا سيما المجاهدين منها، من كتمان السر، والحث على البر، ومقاومة الخائنين ـ في السر والجهر.

روى البخاري ومسلم عن جابر، قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾؛ أي: ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذة المحسنين، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أن كلَّ ناصح لله ورسوله.. فهو محسن، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه في الحرج، ثم قفى ذلك بذكر الصفح عنهم، والتجاوز عن سيئاتهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى كثير المغفرة، واسع الرحمة، يستر على المقصرين ضعفهم في أداء الواجبات، ما داموا مخلصين النصح لله ورسوله، ويدخلهم في زمرة الصالحين من عباده.

أما المنافقون المسيئون فلا يغفر لهم، ولا يرحمهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن النفاق الذي كان سبباً في ارتكاب هذه الآثام، وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في «الصحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً، ما سرتم من مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، إلا وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: «حبسهم العذر» وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ إلخ والعطف على جملة ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك، إلخ من سبيل، ويجوز أن يكون عطفاً على الضعفاء؛ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك... إلخ حرجٌ.

والمعنى: أنَّ من جملة المعذورين هؤلاء الذين إذا ما أتوك لتحملهم، إلخ وقرأ معقل بن هارون: ﴿لنحملهم﴾ بنون الجماعة.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين، أتبعه بذكر قسم رابع فقال: ﴿وَلَا﴾ حرج ولا إثم في التخلف عنك في الخروج إلى غزوة تبوك ﴿عَلَى﴾ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ على الرواحل، فيخرجوا معك، فلم تجد ما تحملهم عليه ﴿قُلۡتَ﴾ لهم ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ وجواب إذا قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾؛ أي: انصرفوا من مجلسك ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ أي: انصرفوا من عندك، والحال أن أعينهم تسيل من الدموع ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله؛ أي: رجعوا من عندك، والحال

أنهم يبكون بكاءً شديداً لأجل الحزن والأسف على عدم وجدانهم ما ينفقون ويركبون في خروجهم معك للجهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته. وهؤلاء، وإن دخلوا في عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل، قد خصوا بالذكر اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنهم قسم مستقل.

وعدم وجود ما يحملون عليه يدخل فيه مراكب النقل، البرية والبحرية والهوائية في هذا العصر، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها في كل سفر بحسبه، ويفقد العذر بوجوده، أو المعنى: وليس على من أتوك يسألونك أن تحملهم إلى غزوة تبوك، ثم خرجوا من عندك يبكون لعدم وجدان ما ينفقون في الجهاد سبيل في لومهم، ولذلك سموا البكائين، وهم سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عتمة، وعبد الله بن مغفل، وعبد الله بن زيد، فإنهم أتوا رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون، فحمل العباس منهم اثنين، وعثمان ثلاثةً، زيادةً على الجيش الذي جهزه وهو ألفٌ، وحمل يامين بن عمرو النضريُّ اثنين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من عليه السبيل من المتخلفين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: طريق العقوبة والمؤاخذة، والطريق هي الأعمال السيئة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن الغزو، والقعود عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾؛ أي: والحال أنهم واجدون للأهبة، قادرون على الخروج معك؛ أي إنما الإثم والحرج في التخلف على الذين يستأذنونك فيه، وهم قادرون على الجهاد، وعلى الإنفاق لغناهم، ثم ذكر السبب في استحقاقهم المؤاخذة، فقال: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف، والخالفين من النساء والأطفال والمُعذِّرين من المفسدين وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف، إيثاراً للدعة والراحة، وجملة قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم على قلوبهم، وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم، بحسب سنن الله في

أمثالهم، معطوفة على جملة ﴿رَضُواْ﴾؛ أي: سبب الاستئذان مع الغنى، أمران: **أحدهما**: الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالف، **والثاني**: الطبع من الله على قلوبهم ﴿فَهُمْ﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه الربح لهم حتىٰ يختاروه على ما فيه الخسران؛ أي: لا يعلمون ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا.. فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو، وأما في الآخرة.. فالثواب والنعيم الدائم، الذي لا ينقطع فهم لا يعلمون حقيقة أمرهم، ولا سوء عاقبتهم، وما هو سبب ذلك من أعمالهم، فهم قد رضوا بالمهانة في الدنيا، بانتظامهم في سلك النساء والأطفال، إلا أنَّ تخلف الأفراد عن القتال الذي تسعى إليه الشعوب والأمم يعد من مظاهر الخزي والعار، وقد جعله الدين من أقوى آيات الكفر والنفاق، وأما سوء عاقبتهم، فيكفي فيه فضيحتهم في هذه السورة، كفاء إحجامهم عن الجهاد في سبيله، وما أعده لهم من العذاب العظيم، والخزي والنكال في نار الجحيم، وتقدم نظير هذه الجملة آنفاً، وذكره ثانياً: للتأكيد، وعبر هنا بالعلم، وهناك بالفقه إشارة إلى أن معناهما واحد، إذ الفقه هو العلم، والعلم هو الفقه. ذكره الصاوي.

الإعراب

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُصَلِّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة على ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿مَّاتَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿لا تصل﴾ وجملة قوله: ﴿وَلَا تَقُمْ﴾: معطوفة على جملة ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ ﴿عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ متعلق به ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة، لتعليل ما قبلها ﴿وَمَاتُواْ﴾: فعل

وفاعل، معطوف على ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: جملة اسمية في محل النصب حال، من فاعل ﴿ماتوا﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾: فعل ومفعول ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعل ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿بِهَا﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، تقديره: إنما يريد الله تعذيبه إياهم بها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُعَذِّبَهُم﴾ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: جملة اسمية في محل النصب، حال من ضمير الغائبين في ﴿أَنفُسُهُمْ﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿أَنْ﴾ حرف مصدر ونصب ﴿ءَامِنُوا۟﴾ فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بباء مقدرة، تقديره: وإذا أنزلت سورة بإيمانهم بالله ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامِنُوا۟﴾ ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾؛ أي: وإذا أنزلت سورة بالإيمان بالله وبالجهاد مع رسوله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ فعل ومفعول ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ عطفاً تفسيريًا، فهو مغن عن بيان ما استأذنوا فيه، وهو القعود، ذكره أبو السعود، ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ مقول محكي، وإن

شئت قلت: ﴿ذَرۡنَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿نَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، مجزوم بالطلب السابق، واسمه ضمير يعود على المتكلمين ﴿مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ خبر ﴿نَكُن﴾ وجملة ﴿نَكُن﴾ في محل لنصب مقول قالوا، على كونها جواب الطلب.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿رَضُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، أعني قوله: ﴿استئذنك﴾ ﴿بِأَن﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر ﴿أن﴾: حرف مصدر ﴿يَكُونُواْ﴾ فعل مضارع ناقص، منصوب بـ ﴿بِأَن﴾ ﴿والواو﴾: اسمها ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ خبرها، وجملة ﴿يكون﴾ في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: رضوا بكونهم مع ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَضُواْ﴾ ﴿وَطُبِعَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ نائب فعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَضُواْ﴾ ﴿فَهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾ خبره، الجملة معطوفة مفرعة على جملة طبع.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك، على محذوف، تقديره: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد مَنْ هو خير منهم، ذكر البيضاوي، ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف عليه ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾، متعلق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿جَٰهَدُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية، في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمُ﴾ خبر مقدم ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ مبتدأ ثاني مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع، خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره، مستأنفة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان كونهم مفلحين ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير لهم ﴿فِيهَاۚ﴾ متعلق به ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ حال من ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ ﴿لِيُؤْذَنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يؤذن﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، نائب فاعل، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: للإذن لهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جاء﴾ ﴿كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولَهُۥۚ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية، صلة الموصول ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: جار ومجرور، خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مقدم على اسمها ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله وكذا قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، في محل النصب، مفعول ﴿يَجِدُونَ﴾ وجملة ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد، أو

الرابط محذوف، تقديره: ما ينفقونه ﴿حَرَجٌ﴾ اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخر عن خبرها، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذ نصحوا لله ولرسوله ليس عليهم حرج، وجملة ﴿إِذَا﴾ معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المتعاطفين ﴿مَا﴾: نافية ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ خبر مقدم ﴿مِن سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، أو صفة له، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾؛ أي: وعلى الذين إلخ ﴿حَرَجٌ﴾ أو معطوف على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليهم سبيل ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿أَتَوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول فعل شرط لـ ﴿إِذَا﴾ ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿تحملهم﴾: فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لحملك إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَتَوْكَ﴾ ﴿قُلْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض، معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿أَتَوْكَ﴾ على كونها فعل شرط لها، وفيه أوجه أخرى ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَآ﴾: نافية ﴿أَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على محمد ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَجِدُ﴾ ﴿أَحْمِلُكُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿مَآ﴾ أو صفة لها ﴿تَوَلَّواْ﴾: فعل وفاعل جواب إذا، وجملة إذا صلة الموصول ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَفِيضُ﴾: خبره ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية، في محل النصب حال من فاعل

﴿تَوَلَّوا﴾ ﴿حَزَنًا﴾ مفعول لأجله ﴿تَفِيضُ﴾ ﴿ألا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿يَجِدُوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَجِدُوا﴾ وجملة ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما ينفقونه، وجملة ﴿يَجِدُوا﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها، في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً لأجله لحزناً تقديره: حزنا لعدم وجدانهم ما ينفقون، فيكون علل فيض الدمع، بالحزن، وعلل الحزن، بعدم وجدان النفقة، ويكون التقدير: وأعينهم تفيض من الدمع لأجل الحزن، لعدم وجدان ما ينفقونه.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: مبتدأ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ ﴿رَضُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الاستئذان؛ أي: لأنهم رضوا ﴿بِأَن﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر و﴿أن﴾ مصدرية ﴿يَكُونُوا﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾: خبر ﴿يَكُونُوا﴾ وجملة ﴿يَكُونُوا﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَضُوا﴾؛ أي: رضوا بكونهم مع الخوالف ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿رَضُوا﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿طبع﴾ ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية، معطوفة مفرعة على جملة ﴿طبع الله﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أبداً، اسم لزمان بعد زمان تكلمك إلى ما لا نهاية له، وهو هنا: لتأبيد النفي ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾؛ أي: لا تقف عليه، ولا تتولَّ دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان، إذا كفاه أمره، وناب عنه فيه،

كما في «الخازن» ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ والطول: بالفتح، الغنىٰ والثروة، وقد يراد به الفضل والمنة، من طال عليه طولاً، ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا﴾؛ أي: دعنا واتركنا، تقول: ذره؛ أي: دعه وهو يذره؛ أي: يدعه، ولا يقال منه: وذر، ولا واذر، ولكنه تركه، وهو تارك، لأنه من الأفعال التي ليس لها مصدر ولا ماض، ولا اسم فاعل.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا أصله: رضيوا، بوزن فرحوا، استثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء، فصار رضوا، بوزن فعوا و﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة من صفة النساء، وهذه صفة ذم، وقال النحاس: يجوز أن تكون الخوالف من صفة الرجال، بمعنى: أنها جمع خالفة، يقال: رجل خالفة؛ أي: لا خير فيه، فعلى هذا، يكون جمعاً للذكور باعتبار لفظه، وقال بعضهم: إنه جمع خالف، يقال: رجل خالف؛ أي: لا خير فيه، وهذا مردود، فإن فواعل لا يكون جمعاً لفاعل وصفاً لعاقل إلا ما شذ، من نحو: فوارس ونواكس، وهوالك اهـ «سمين».

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾: وهي جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والدين، وقيل: المراد به: النساء الحسان، كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ ومفرده خيرة بالتشديد، ثم خفف مثل: هينة وهينة ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ جمع معذر، من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد، وهو يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له، وقد يكون أصله المعتذرون، من اعتذر، والمعتذر إما صادق أو كاذب، وقال أبو حيان: قرأ الجمهور: ﴿المُعذِّرون﴾ بفتح العين وتشديد الذال، فاحتمل وزنين:

أحدهما: أن يكون فعَّل، بتضعيف العين، ومعناه: تكلف العذر ولا عذر له، **والثاني**: أن يكون وزنه افتعل، وأصله اعتذر، كاختصم، فأدغمت التاء في الذال، ونقلت حركتها إلى العين، فذهبت ألف الوصل، ويؤيِّده قراءة سعيد بن جبير: ﴿المعتذرون﴾ بالتاء، من اعتذر. وممن ذهب إلى أن وزنه افتعل الأخفش والفراء وأبو عبيد وأبو حاتم والزجاج وابن الأنباري ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ بفتح

الهمزة: سكان البوادي الناطقون بالعربية، والعربي: من نطق بالعربية مطلقاً، سكن البوادي أم لا، فهو أعم من الأعراب، وبكسرها مصدر أعرب الكلام، إذا بين، ويطلق على المعنى المصطلح عند النحاة ﴿كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أظهروا الإيمان بهما كذباً، يقال: كذبته نفسه، إذا حدثته بالأماني والأوهام التي لا يبلغها، وكذبته عينه إذا أرته ما لا حقيقةً له ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ جمع ضعيف كشرفاء جمع شريف، وهو الهرم ومن خلق في أصل البنية شديد النحافة والضؤولة، بحيث لا يمكنه الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: جمع مريض كجريح وجرحى، والمريض: من عرض له المرض، أو كان زمناً، ويدخل فيه العمى والعرج ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ هم الفقراء ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ يقال: حمله على البعير أو غيره، إذا أركبه إياه، أو أعطاه إياه ليركبه، وكأنَّ الطالب لظهر يركبه، يقول: لمن يطلب منه: احملني ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تفيض فيضاً، مبتدأ من الدمع، أي: من كثرته وفي «البيضاوي» تفيض من الدمع، أي: يفيض دمعها، فإن ﴿مِن﴾ البيانية مع مجرورها، في محل نصب على التمييز المحول عن الفاعل، يقال: فاض يفيض فيضاً، إذا انصبَّ عن امتلاءٍ، والدمع ماء العين الملح الحار.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وفي قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ لأن الخوالف حقيقةٌ في الأعمدة التي في أواخر بيوت الحيِّ مجاز في النساء، شبه النساء لكثرة لزومهن البيوت بالخوالف؛ أي: بالأعمدة التي تكون في البيوت، على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية، وقال الآلوسي: الخوالف: النساء المقيمات في دار الحي، بعد رحيل الرجال، ففيه استعارة، وإنما سمي النساء خوالف، تشبيهاً

لهن بالخوالف، وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحيّ، فشبهت لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت، انتهى.

ومنها: الاستهجان والمبالغة في الذم لهم، في قوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ لأن الخوالف: النساء، فكونهم رضوا بأن يكونوا قاعدين مع النساء في المدينة أبلغ ذم لهم وتهجينٍ؛ لأنهم نزلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة، اللواتي لا مدافعة عندهن ولا غنى. ذكره في «البحر المحيط».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾؛ لأن المراد بالمحسنين: المتخلفون للعذر، وهم الضعفاء والمرضى والفقراء، فحق العبارة أن يقال: ما عليهم من سبيل، وإنما أتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين اهـ «أبو السعود».

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلخ؛ لأنهم داخلون في الذين لا يجدون ما ينفقون، ذكرهم اعتناء بشأنهم، أفاده في «روح البيان».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ لأن الفيض مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية؛ لأن الامتلاء سبب للفيض، الذي هو انصباب الدمع بكثرةٍ، فالمجاز في المسند أو الفيض على حقيقته، والمجاز في إسناده إلى العين للمبالغة، كجرى النهر، ذكره في «الفتوحات».

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

شعر

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ ... وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونُ
وَرُبَّمَا نِيلَ بِاَصْطِبَارٍ ... مَا قَبْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُونُ[1]

(١) وكان الفراغ بحمد الله سبحانه وتعالى، من مُسوَّدة هذا المجلد الحادي عشر، في الليلة الثامنة، أوائل الليل من شهر الله المبارك، شهر شوال، من شهور سنة عشرٍ وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية (٨/ ١٠/ ١٤١٠ هـ) بحارة الرشد بالمسفلة، من مكة المكرمة، زادها الله شرفاً، وختم عمرنا فيها بالإيمان الصادق، والإسلام الكامل، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد، وآله وصحبه وجنده آمين والحمد لله رب العالمين.

تَمَّ بعون الله تعالى وتوفيقه المجلد الحادي عشر، من تفسير «حدائق الروح والريحان؛ في روابي علوم القرآن»، ويليه المجلد الثاني عشر، إن شاء الله تعالى، وأوله قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، آية رقم (٩٤) من سورة التوبة.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه في تاريخ (١٧/ ١١/ ١٤١١ هـ).

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِكْمَالِهِ ... وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَىٰ إِفْضَالِهِ
ثُمَّ صَلاَتُهُ مَعَ سَلاَمِهِ ... عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَخَيْرِ آلِهِ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثاني عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ ... وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ

عَجَباً لِلطَّالِبِ كَيْفَ يَنَامُ ... وَكُلُّ النَّوْمِ عَلَىٰ ٱلطَّالِبِ حَرَامُ

مَنْ رَامَ ٱلْعِلْمَ بِغَيْرِ كَدٍّ ... سَيُدْرِكُهَا حِيْنَ شَابَ ٱلْغُرَابُ

آخر

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ ... وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ

آخر

يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا ... يَا رَبَّنَا بَارِكْ لَنَا فِيْ أَعْمَارِنَا

يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا ... كُنْ وَافِياً لَنَا مُرَادَنَا

وَلِبَنِيْ تِسْعٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ ... مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حَمْداً لِمَنْ وَفَّقَنا بشرحِ كتابه، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه وآله وأصحابه، صلاة وسلاماً مستمِرَّينِ إلى يوم حشره وحسابه.

أما بعدُ: فإني لما فرغْتُ من الجزء العاشر من الكتاب والقرآن الكريم.. ابتدَرْتُ إلى الشروع في الجزء الحادي عشر مسابقةً لِلمَنِيَّةِ، فقلت:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ

﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المعذرين، ومن لا سبيل إلى مؤاخذتهم ولا حرج عليهم.. ذكر في هذه الآيات ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ بعد عودتهم.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أنهم يصدر منهم الاعتذار.. أخبر أنهم سيؤكدون ذلك الاعتذار الكاذب بالحلف، وأن سبب الحلف هو طلبهم أن يعرضوا عنهم، فلا يلوموهم ولا يوبخوهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم.. بيَّن في هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنيهم ومنافقيهم كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات.. أردف ذلك بذكر منازل أعلىٰ من منازلهم، وهي منازل السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هي شر الجميع، مرنت على النفاق، وحذقت فنونه، وحال طائفة أخرىٰ بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه، وهؤلاء يرجىٰ لهم التوبة والغفران من ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] شرح أحوال منافقي المدينة ثم أحوال

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

منافقي الأعراب، ثم بين أن في الأعراب من هو مخلص صالح، ثم بيَّن رؤساء المؤمنين من هم.. ذكر في هذه الآية أن منافقين حولكم من الأعراب وفي المدينة لا تعلمونهم؛ أي: لا تعلمون أعيانهم، أو لا تعلمونهم منافقين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه ابن جرير بسنده أن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك.. جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلىٰ الله، وصدقته حديثي، فقال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك، كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي، شرَّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ...﴾ الحديث، رجاله رجال الصحيح ونحوه في «صحيح البخاري» في ختام حديث كعب بن مالك في كتاب المغازي باب غزوة تبوك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما[1] أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال: إنها نزلت في بني مقرن من مزينة الذين نزلت فيهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾. وقال[2] عبد الرحمن بن معقل بن مقرن المزني: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا هذه الآية: يعني ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ...﴾ الآية، يريد الستة أو السبعة الإخوة علىٰ الخلاف في عددهم وبنيهم.

---

(١) لباب النقول. (٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا، وندموا وأيقنوا بالهلاك، وقالوا: نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد، واللّهِ لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ففعلوا وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم، فرجع رسول الله ﷺ من غزوته، فقال: من هؤلاء الموثقون بالسواري؟. فقال رجل: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم. فقال: «لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ الآية. فلما نزلت.. أطلقهم، وعذرهم وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، فجعل أناس يقولون هلكوا إذ لم ينزل عذرهم، وآخرون يقولون: عسىٰ الله أن يتوب عليهم حتىٰ نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه، وزاد: فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف[2] لبيان ما يتصدرون له عند العود إليهم. روي أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلاً، فلما رجع رسول الله ﷺ.. جاءوا يعتذرون إليه بالباطل، والخطاب لرسول الله وأصحابه؛ فإنهم كانوا يعتذرون إليهم أيضاً لا إليه فقط، وتخصيص الخطاب في قوله: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ حيث لم يقل: قولوا، لما أن الجواب وظيفته فقط، وأنه متولي أمورهم ورئيسهم، وأما الاعتذار

---

(١) لباب النقول. (٢) أبو السعود.

فكان له وللمؤمنين. ا هـ «أبو السعود».

وقيل: إنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ؛ أي: يعتذر هؤلاء المنافقون وهم بضعة وثمانون رجلاً كما مر آنفاً إليكم أيها الرسول والمؤمنون في التخلف عن الخروج معكم للغزو بالأعذار الكاذبة الباطلة ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلىٰ أولئك المنافقين المتخلفين عنكم المعتذرين إليكم. وإنما قال[1]: إليهم، ولم يقل إلىٰ المدينة؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها. ثم أخبر الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بما يجيب به عليهم فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ إلينا عن تخلفكم عنا بما عندكم من الأعذار الباطلة؛ لأننا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نصدقكم فيما تقولون من المعاذير أبداً، كأنهم ادعوا أنهم صادقون في اعتذارهم؛ لأن غرض المعتذر أن يصدَّق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار؛ لأننا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى من أخباركم؛ أي: قد أعلمنا الله فيما سلف بعض أحوالكم مما في ضمائركم من الخبث والنفاق والمكر. وإنما قال: ﴿نَبَّأَنَا﴾ ولم يقل: نبأني؛ إيماءً إلىٰ أنه أمَره أن ينبىء بذلك أصحابه، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضي أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به. وفي هذا من التشهير بهم والخزي لهم ما لا خفاء فيه ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَمَلَكُمْ﴾ أي: ويرى الله سبحانه وتعالى ويعلم ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد، هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه؟، فالتنفيس بالنسبة إلى عملهم لا إلى علم الله.
وقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف علىٰ الاسم الشريف، ووسط مفعول الرؤية إيذاناً بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة والمعنىٰ[2]: وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد، وهو الذي سيدل إما علىٰ إصراركم علىٰ النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم، وأما أقوالكم فلا يعتد بها مهما وكدتموها بالأيمان، فإن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم، وشهد لكم

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

عملكم بصلاح طويتكم. . فإن الله يتقبل منكم توبتكم، ويغفر لكم حوبتكم، ويعاملكم الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا، وصدقوا، وشهدت لهم أعمالهم بذلك وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق والاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها. . فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم، والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين.

وفي هذا: إيماء إلى الرغبة في توبتهم حين سنوح الفرصة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾؛ أي: ثم ترجعون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: إلى عالم ما غاب، وخفي عنا من ضمائركم وغيرها ﴿وَ﴾ عالم ﴿الشهادة﴾؛ أي: عالم ما شوهد، وظهر لنا من ظواهركم وغيرها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم عند وقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في كتابه الكريم في هذه السورة وفي غيرها: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ولا يخفى ما في قوله[1]: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ من التهديد، والتخويف الشديد لما اشتمل عليه من وضع الظاهر موضع المضمر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم، مما يكتمونه، ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه. ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤوا به من الأعذار الباطلة بالحلِف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو وغرضُهم من هذا التأكيد: هو أن يُعرِض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم، ولا يؤاخذونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، كما يفيده ذكر الرضا من بعد فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾؛ أي: سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الإيمان، ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ من سفركم ورجعتم إليهم ﴿لتعرضوا عن﴾ العتب عليـ﴿هم﴾ والتوبيخ لهم على قعودهم مع الخالفين، من العجزة والنساء والأطفال، وعلى البخل بالنفقة والمال، ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأعرضوا عنهم، إعراضَ الإهانة

(١) الشوكاني.

والتحقير لا إعراض الصفح وقبول العذر.

روى مقاتل أن النبي ﷺ قال حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم». قال أهل المعاني: إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت. ثم ذكر العلة في سبب الإعراض عنهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: إن بواطنهم خبيثة نجسة، وأعمالهم قبيحة؛ أي: إن في نفوسهم قذراً معنوياً يجب الاحتراس منه؛ خوف سريان عدواه وميل النفوس إليه، كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التي ربما تصيبه، إذا لم يحتط لها، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾؛ أي: ومسكنهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم النار، يعني: وكفتْهم النارُ عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الخبيثة؛ أي: يجزون بها جزاء كسبهم، وهذا من تمام التعليل، فإن من كان من أهل النار.. لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير؛ أي: ومرجعهم الأخير نار جهنم؛ جزاء لهم بما كسبوا في الدنيا من أعمال النفاق وغيرها، مما دنس نفوسهم، وزادهم رجساً على رجسهم. ثم زاد في تأكيد نفاقهم فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلف لكم هؤلاء المنافقون ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ بالحلف، وتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم، وهذا أهم الأغراض لديهم، فلاحظّ لهم من إظهار الإسلام سواه، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد.. لكان غرضهم الأول، إرضاء الله ورسوله. ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فإن رضيتم عنهم، أيها المؤمنون بما حلفوا لكم، وقبلتم عذرهم، وساعدتموهم على ما طلبوا.. فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعته، وطاعة رسوله، بما في قلوبهم من النفاق، والشك؛ أي: فإن الله تعالى ساخط عليهم، بسبب فسوقهم، وخروجهم عن أمره ونهيه.

وفي هذا: إيماء إلى نهي المخاطبين عن الرضا عنهم، والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، وأن من يرضى عنهم، من المؤمنين.. يكون فاسقاً مثلهم، محروماً من رضوان الله. وأن من يتوب منهم ويُرضي الله ورسوله.. يخرج من حدود سخطه، ويدخل في حظيرة مرضاته، ولا يعد حينئذٍ فاسقاً.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال المنافقين بالمدينة.. ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم، ومن نفاق غيرهم؛ لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله، فقال: ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾؛ أي: جنس أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا﴾ مجاهراً ﴿وَنِفَاقًا﴾ مبطناً من أهل الحضر، لتوحشهم، واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وبعدهم عن أهل العلم ﴿وَأَجْدَرُ﴾ وأحق بـ ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ﴾ وتكاليف وفرائض وأحكام ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾؛ إذ ليس كلهم كما ذكر، على ما ستحيط به خبراً، كما ذكره «أبو السعود»: أي: إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين:

١ ـ أن كفارهم ومنافقيهم أشدّ كفراً ونفاقاً من أمثالهم، من أهل الحضر، ولا سيما، من يقيم منهم في المدينة، فهم أغلظ طباعاً، وأقسى قلوباً؛ لأنهم أفنوا جلَّ أعمارهم في رعي الأنعام، وحمايتها من ضواري الوحوش، إلّا أنهم محرومون من العلوم الكسبية، والآداب الاجتماعية.

٢ ـ أنهم أحق وأحرى من أهل الحضر، بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، من الهدى والبينات في كتابه، وما أتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود؛ تارة بالقول، وأخرى بالفعل، وكان صحابته في المدينة وما حولها، يتلقون عنه الكتاب حين نزوله، ويشهدون سنته في العمل به، ويرسل عمّاله إلى البلاد التي افتتحت، يبلغون الناس القرآن، ويحكمون به وبسنّة رسوله المبينة له، وكلّ هذا لم يكن مستطاعاً لأهل البوادي، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية.

روى أبو داود والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من بدا جفا، ومن اتبع الصّيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعداً». ذاك أن السلاطين قلما يرضون عمن يصارحهم القول، ويؤثرهم بالنصح، ولا يزداد منهم قرباً، إلا المراؤون، الذين يعينونهم على الظلم، ويثنون عليهم بالباطل.

فإن قلت: وصفُ العرب بأنهم جاهلون بذلك، ينافي صحةَ الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ؟

قلتُ: لا منافاة؛ إذ وصفهم بالجهل إنما هو في أحكام القرآن ـ كما أشرنا في الحل ـ لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام، بل في بيان معاني الألفاظ، لأن القرآن والحديث جاءا بلغتهم ا هـ «كرخي».

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من فرائضه؛ أي: واسع العلم بشؤون عباده، وأحوالهم، من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما شرعه لهم، وفي جزائهم، من نعيم مقيم، أو عذاب أليم. ثم قسم سبحانه الأعراب إلى قسمين:

القسم الأول منهما: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي يعد ﴿مَا يُنفِقُ﴾؛ أي: يصرفه في سبيل الله، ويتصدق به، ﴿مَغْرَمًا﴾؛ أي: غرامةً وخسراناً؛ إذ لا يحتسبه قربة عند الله، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفق رياءً، أو تقيةً، والمغرم التزام ما لا يلزم؛ أي: ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم في الجهاد رياءً وتقيةً، ويعدّون ذلك من المغارم التي يجب على المرء أداؤها طوعاً أو كرهاً، لدفع المكروه عن أنفسهم، أو قومهم، ولا منفعة لهم فيها، لا في الدنيا، وهو واضح، ولا في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث. قال الضحاك: وهم بنو أسد وغطفان.

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾؛ أي: ينتظر ﴿بِكُمُ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾؛ أي: دوائر الزمان، وصروفه، وتقلباته عليكم؛ أي: ينتظر أن تتقلب الأمور عليكم، بموت الرسول ﷺ، فينعدم الإسلام بموته، أو بغلبة المشركين عليكم، فتذهب قوتكم، فيتخلص من إعطاء الصدقة، والدوائر، جمع دائرة وهي، الحالة المنقلبة عن النعمة، إلى البليّة، وأصلها ما يحيط بالشيء، ودوائر الزمان، نوبه وتصاريفه ودوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه. والمعنى؛ أي: وينتظرون أن تحُلَّ بكم نوائب الزمان، وأحداثه التي تدور بالناس، وتحيط بهم، فتبدل قوتكم ضعفاً وانتصارَكم هزيمةً، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم، إذ يستغنون عن إظهار

الإسلام نفاقاً، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما أعيتهم الحيل.. صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ؛ ظناً منهم، أن الإسلام يموتُ بموته. ثم دعا سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أولئك الأعراب، الذين يتربصون بكم الدوائر، لا على غيرهم، ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: دائرةُ البلاء والحُزن والمصيبة والعذاب، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: عليهم الدائرةُ السيئة، والمصيبة الشديدة، والعاقبة القبيحة؛ والمعنى: أنّ عليهم وحدهم الدائرة السوء، تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة، إلّا ما يسرهم من نصر الله، وتوفيقه لهم، وما يسوء أعداءهم، من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو(١): ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ هنا وفي سورة الفتح ثانية بالضم. وباقي السبعة بالفتح. فالفتح مصدر قال الفراء: سوأته سوأً ومساءة وسوائية. والضمُّ الاسم وهو الشر والعذاب. والفتح ذم الدائرة. وهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وُصِفَتْ الدائرة بالمصدر، كما قالوا: رجل سوء، في نقيض رجل صدق. وقال المبرد: ﴿السوء﴾ بالفتح الرداءة، ولا يجوز ضم السين في رجل سوء، قاله أكثرهم، وقد حُكيَ بالضم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه، مما يعبر عن شعورهم، واعتقادهم في نفقاتهم؛ إذ تحدثوا بذلك فيما بينهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه في سرائرهم، وسيحاسبهم على ما يسمع ويعلم، من قول وفعل، ويجزيهم به.

وبعد أن بين سبحانه القسم الأول من الأعراب، وهم المنافقون.. ذكر **القسم الثاني منهما**: وهم المؤمنون الصادقون. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ في السر والعلانية؛ أي: ومن الأعراب من يؤمن بالله، ويثبت له القدرة، وكمال التصرف في الكون، ويؤمن بمجيء اليوم الآخر، الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت. قال مجاهد: هم بنو مقرن بن مزينة، وهم الذين قال فيهم:

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾. ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾؛ أي: ويجعل ما يتصدق به ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، أي: سبباً لقربه عند الله تعالى، ووسيلة لحصول مرضاته تعالى له، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ ﷺ معطوف على قربات؛ أي: ويتخذ ما ينفقه سبباً لحصول دعواته ﷺ له؛ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين، بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ أي: يقصد بصدقاته، حصول مرضاة الله تعالى له، وحصول دعواته ﷺ له، وقال أبو البقاء: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ معطوف على ما ينفق تقديره، ويتخذ صلوات الرسول قربات عند الله. انتهى. والقربات[1]. جمع قربة، وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى، تقول منه قربت لله قرباناً. والجمع قرب وقربات، والمعنى، أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات، ﴿عند الله و﴾ سبباً لـ ﴿صلوات الرسول﴾؛ أي: لدعوات الرسول لهم.

ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا القسم من الأعراب، تقرباً إلى الله مقبول، واقع على الوجه الذي أرادوه فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إن نفقتهم، ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾ إلى الله في الدرجات، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى، ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: في جنته التي هي محل الرحمة الواسعة الدائمة، أي[2]: وقد بين الله تعالى جزاءهم، على ما انطوت عليه نفوسهم، من صدق الإيمان وإخلاص النية في الإنفاق في سبيل الله، فأخبر بقبول نفقتهم، وإثابتهم عليها، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾؛ أي: ألا إن تلك النفقة التي اتخذت لهم، قد تقبلها الله، وأثاب عليها بما وعد به في قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: سيرحمهم الله تعالى برحمته الخاصة بمن رضي عنهم، وهي هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى جنات النعيم. والمراد بإدخالهم في الرحمة؛ أن تكون محيطة بهم شاملة لهم، وهم مغمورون فيها وهذا أبلغ في إثباتها لهم من مثل قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. والسين في ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾، للدلالة على تحقق الوقوع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ لسيئاتهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث وفقهم لهذه الطاعات؛ أي: إنه تعالى، واسع

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

المغفرة والرحمة، لمن يخلصون في أعمالهم، فهو يغفر لهم، ما فرط منهم من ذنب، أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم، إلى خير العمل، وحسن المصير. وهذا وعد منه تعالى لهم بواسع الرحمة والغفران، كما أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، تهديد للأولين، عقب الدعاء عليهم.

وقرأ ورش[1]: ﴿قُرُبة﴾ بضم الراء، وباقي السبعة: بالسكون، وهما لغتان، ولم يختلفوا في قربات بالضم، فإن كان جمع قربة.. فجاء بالضم على الأصل في الوضع وإن كان جمع قربة بالسكون.. فجاء بالضم إتباعاً لما قبله كما قالوا: ظلمات في جمع ظلمة. وهذا القسم الأخير قال[2] مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة. وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة» فقال رجل: خابوا وخسروا، قال: «نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة» متفق عليه.

وفي رواية أن الأقرع بن حابس، قال للنبي ﷺ: إنما تابعك سراقُ الحجيج، من أسلم وغفار ومزينة، وأحسبه قال: وجهينة، فقال النبي ﷺ: أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة، وأحسبه قال: وجهينة خيراً من بني تميم، وبني عامر وأسد وغطفان قال: خابوا وخسروا، قال: «نعم».

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها». متفق عليه. زاد مسلم في رواية له: «أما إني لم أقلها لكنْ الله قالها». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله»، متفق عليه. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أصناف الأعراب.. ذكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى الإسلام

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

والإيمان ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الهجرة، والنصرة حالة كونهم، ﴿مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾؛ أي: من الذين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة، ﴿و﴾ حالة كونهم من، ﴿الأنصار﴾؛ أي: من الذين نصروا النبي ﷺ، وآووه، وهم أهل المدينة، من الأوس والخزرج، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾؛ أي: والذين اتبعوا السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، في الهجرة والنصرة حالة كونهم ملتبسين، ﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾؛ أي: بعمل صالح ونية صادقة، قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار، سوى السابقين الأولين، فعلى هذا القول، يكون الجميع من الصحابة. وقيل: هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار، في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة، وخبر المبتدأ، قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أكرمهم الله تعالى بقبول طاعاتهم، وأعمالهم الحسنة، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ سبحانه وتعالى، بما أفاض عليهم من نعمه الدينية والدنيوية.

واختلف العلماء[(١)] في السابقين الأولين من المهاجرين. قيل: هم الذين صلوا إلىٰ القبلتين، وهو قول سعيد بن المسيب وطائفة. وقيل: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية، وهو قول: الشعبي، أو هم الذين شهدوا بدراً، وهو قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار. ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها. قال أبو منصور البغدادي: أجمع أصحابنا على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون منهم، ثم البدريون، ثم أصحاب أُحُدْ ثمَّ أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

وأما السابقون من الأنصار[(٢)]: فهم الذين بايعوا رسول الله، ﷺ، ليلة العقبة الأولى، وكانوا ستة أنفار، ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر رجلاً، ثم أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين رجلاً، فهؤلاء سباق الأنصار. ثم بعث رسول الله، ﷺ، مصعب بن عمير إلى أهل المدينة، يعلمهم القرآن. فأسلم على يده خلق كثير، من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة، وذلك قبل أن يهاجر رسول الله، ﷺ إلى المدينة.

---

(١) الشوكاني.　　(٢) الخازن.

والحاصل[1]: أن الله سبحانه وتعالى، ذكر في هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هي خيرها:

١ - السابقون الأولون من المهاجرين، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين، ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يمكنون أحداً من الهجرة متى كان ذلك في طاقتهم، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم، إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا في ذلك الوقت.. كانوا من المؤمنين الصادقين، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة، ثم العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.

٢ - السابقون الأولون من الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة، في منى في المرة الأولى، سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين.

٣ - الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة، حال كونهم محسنين، في أفعالهم وأقوالهم فإذا اتبعوهم في ظاهر الإسلام.. كانوا منافقين مسيئين، غير محسنين في هذا الاتباع وإذا تبعوهم محسنين في بعض أعمالهم ومسيئين في بعض.. كانوا مذنبين.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ أي: هؤلاء المذكورون جميعاً رضي الله سبحانه وتعالى عنهم في إيمانهم وإسلامهم، فقبل طاعتهم، وتجاوز عن زلاتهم، وبهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين، وأهل الكتاب، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من الشرك، وهداهم من الضلال، وأعزهم بعد الذل، وأغناهم بعد الفقر.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ معطوف على رضي؛ أي: وهيأ لهؤلاء المذكورين، من الطبقات الثلاث في الآخرة، ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿تَحْتَهَا﴾؛ أي: تحت أشجارها وغرفها. وقرأ ابن كثير: ﴿من تحتها﴾ بزيادة

---

(١) المراغي.

﴿من﴾ ومعلوم أن قراءته الصلة، فليتنبه القارىء إذا قرأ بزيادة منْ لصلة الميم في المواضع الثلاثة، وهي اتبعوهم وعنهم وأعدّ لهم، لئلا يقع في التلفيق ا هـ شيخنا ذكره «الجمل».

﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة حالة كونهم ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: زمناً لا نهاية له ولا انقضاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرضوان، والجنات؛ أي: نيل ذلك هو، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، الذي لا فوز وراءه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه قرنين، أو ثلاثة. متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً ـ وفي رواية: أحدكم ـ أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». متفق عليه.

والمعنى[١]: لو أن أحداً، عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله.. ما بلغ هذا القدر اليسير التافه، من أعمال الصحابة، وإنفاقهم؛ لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة.

قال أبو حيان[٢]: ولما بين الله سبحانه وتعالى، فضائل الأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعدّ لهم من النعيم.. بين حال هؤلاء السابقين، وما أعد لهم ـ وشتان ما بين الإعدادَين والثناءين ـ هناك قال: ألا إنها قربة لهم، وهنا رضي الله عنهم، وهناك: سيدخلهم الله في رحمته، وهنا: وأعدَّ لهم جنات تجري، وهناك ختم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ا هـ.

وقرأ[٣] عمر بن الخطاب والحسن وقتادة وعيسى الكوفي وسلام وسعيد بن

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

أبي سعيد وطلحة ويعقوب: ﴿والأنصار﴾ برفع الراء، عطفاً على والسابقون. فيكون الأنصار جميعهم، مندرجين في هذا اللفظ، وعلى قراءة الجمهورة: وهي الجر، يكونون قسمين: سابق أول، وغير أول، ويكون المخبر عنهم بالرضا، سابقيهم.

وقرأ ابن كثير: ﴿من تحتها﴾ بإثبات من الجارّة، وهي ثابتة في مصاحف مكة، وباقي السبعة، بإسقاطها على ما رسم في مصاحفهم. وعن عمر بن الخطاب، أنه كان يرى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد بن ثابت: إنها بالواو، فقال: ائتوني بأُبَيّ، فقال: تصديق ذلك في كتاب الله، في أول الجمعة، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ وأوسط الحشر، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وآخر الأنفال، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾. وروي أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك، فقال: أبي، فدعاه، فقال: أقرأنيه رسولُ الله ﷺ ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا وُفِّقْنَا وقْعة لا يبْلُغُها أحدٌ بعدنا.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى، كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث، ورضاه عنهم، بين حال منافقي أهل المدينة ومن حولها، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أيها المؤمنون، وهو خبر مقدم؛ أي: وممن حول بلدتكم؛ يعني المدينة، أي: وممن هم نازلون حول المدينة وخارجها، قريباً منكم حال كونهم ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ أي: من سكان البوادي أقوام ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: مبطنون بالكفر، مظهرون بالإسلام. قال البغوي والواحدي: هم من قبائل جهينة ومُزينة وأشجع وأسلم وغفار، نازلون حول المدينة، وأشعر بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ حيث عبر بمن التبعيضية، أن فيهم مؤمنين صادقين، دعا لهم النبي، ﷺ، ومدحهم. فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار، موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيره». وعنه أيضاً: أنه ﷺ قال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إني لم أقلها، لكن قالها الله تعالى».

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ من الأوس والخزرج؛ أي: وممن هم نازلون في جوف المدينة، وداخلها أقوام ﴿مَرَدُواْ﴾؛ أي: ثبتوا واستمروا ومرنوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ولجوا فيه وأبوا غيره. وقال ابن زيد: أقاموا عليه، ولم يتوبوا منه كعبد الله بن أبي، وأصحابه، ثبتوا على النفاق، ولم يتوبوا منه؛ أي: وكذلك من أهل المدينة نفسها، ناس منافقون من الأوس والخزرج، سوى من أعلم الله رسوله بهم، في هذه السورة، بما صدر منهم، من أقوال وأفعال تنافي الإيمان. هؤلاء الذين كانوا حول المدينة، وهؤلاء الذين كانوا من أهل المدينة، مرنوا على النفاق وحذقوه، حتى بلغوا الغاية في إتقانه، فلا يشعر أحد نفاقهم، إذ هم يتقون جميع الأمارات، والشبه التي تدل عليه. وجملة قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾؛ أي: لا تعلم، أنت يا محمد، نفاقهم بفطنتك، ودقيق فراستك، لحذقهم في التقية، وتباعدهم عن مثار الشبهات مبينة للجملة الأولى وهي ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾؛ أي: ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه، حتى خفي أمرهم عليك يا محمد، فكيف سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه، ﷺ بأعيانهم، لا من حيث الجملة، فإنّ للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة قوله: ﴿نحن نعلمهم﴾ بأعيانهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت.. مقررة لما قبلها، لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق، ورسوخهم فيه، على وجه يختفي على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه، لعلمه بما يخفى، وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

وهؤلاء أخفى نفاقاً ممن قال الله فيهم: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾. وهؤلاء لم يعلمه الله بأعيانهم، ولا فضحهم بأقوال قالوها، ولا بأفعال فعلوها، كما فضح غيرهم، في هذه السورة، لأنهم يتحامون ما يكون شبهة في إيمانهم، وضررهم مقصور عليهم، لا يعدوهم إلى سواهم.

والحكمة في إخبارنا بحالهم، أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا أن يفضحهم الله، كما فضح غيرهم، وليتوب منهم، من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾؛ أي: سنعذب هؤلاء المنافقين في الحياة الدنيا ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ أولاهما: ما يصيبهم به من

المصائب في الأموال، والأولاد، وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم، وثانيتهما: آلام الموت، وزهوق أنفسهم، وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم، وأدبارهم في ذلك الحين، ﴿ثُمَّ﴾ بعد تعذيبنا إياهم في الدنيا مرتين، ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ أي: يرجعون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إلى عذاب جهنم، وبئس المصير، وبانضمامه للمرتين، يصير عذابهم ثلاث مرات، مرتين في الدنيا، ومرة في الآخرة. وقيل: مرة في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في الآخرة.

والخلاصة: أنهم يعذبون في الدنيا، بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمائر، وعذاب الخوف من الفضيحة على رؤوس الأشهاد في الظاهر، ثم عذاب النار وبئس القرار. فإن قلت: كيف نفى عنه علمه بحال المنافين هنا، وأثبته في قوله: ولَتَعرِفَنَّهُم في لحن القول.

فالجواب: أن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، فلا تنافي ا هـ «كرخي».
﴿و﴾ من أهل المدينة أقوام، ﴿آخرون﴾ سوى المذكورين، ليسوا من المنافقين، ولا من السابقين، ﴿اعْتَرَفُوا﴾؛ أي: أقروا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي هي تخلفهم عن غزوة تبوك، وأظهروا الندامة عليها، ﴿خَلَطُوا﴾؛ أي: جمعوا ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما سبق لهم في الإسلام، من الأعمال الصالحة، وخروجهم مع رسول الله، ﷺ في سائر الغزوات، ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو تخلفهم عن غزوة تبوك؛ أي: خلطوا كل واحد من العمل الصالح، والعمل السيء، بالآخر، وهم أقوام من المسلمين، تخلفوا عن رسول الله، ﷺ، في غزوة تبوك بلا عذر ولا استئذان، ثم ندموا على تخلفهم، وربطوا أنفسهم بسواري المسجد، كأبي لُبابة وأصحابه، كما مر في أسباب النزول، أي: وهناك[1] فريق آخر، ممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة، ليسوا منافقين، ولا من السابقين الأولين، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل، بالسيء منه، والسيء بالصالح، فلم يكونوا من الصالحين الخلص، ولا من المنافقين، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات، كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح، ولم

---

(١) المراغي.

يستأذنوا كاستئذان المرتابين، ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين، ثم كانوا حين قعودهم، ناصحين لله ورسوله، شاعرين بذنوبهم، خائفين من ربهم، وقد بين سبحانه حالهم بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أي: حقق الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي: أن يقبل توبتهم، المفهومة من قوله: اعترفوا بذنوبهم.

قال الزمخشري: فإن قلت[1]: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً، فما المخلوط به؟

قلت: كل واحد مخلوط ومخلوط به؛ لأن المعنى، خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بالآخر، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً، واللبن مخلوطاً به. وإذا قلته: بالواو، جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ا هـ.

والمعنى: أنهم محلُّ الرجاء لقبول توبتهم، بتوفيقهم للتوبة الصحيحة، التي هي سبب المغفرة والرحمة، وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب، وسوء عاقبته، وتوبيخ الضمير، حين تصور سخط الله، والخوف من عقابه، ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم، والعزم على عدم العود إلى اقترافه، والعزم على العمل بضده، ليمحو أثره من نفسه.

ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته؛ أي: إنه تعالى يقبل توبتهم؛ لأنه كثير المغفرة للتائبين، واسع الرحمة للمحسنين. وفي معنى الآية قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قال جماعة من العلماء: إن هذه الآية، أرجى آية في القرآن، في توقع رحمة الله، للمذنبين الذين يجترحون السيئات، ثم يتوبون إلى ربهم، ويقلعون عن ذنوبهم.

---

(١) الفتوحات.

ولما أظهر هؤلاء التوبة عن تخلفهم عن غزوة تبوك، وهم أقروا بأن السبب المؤدي لذلك التخلف حبهم للأموال.. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يأخذ منهم الزكوات الواجبة عليهم، فقال: ﴿خُذْ﴾ يا محمد، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ أي: من أموال هؤلاء، ومن أموال غيرهم، من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها، من نقد وأنعام وأموال تجارة، ﴿صَدَقَةً﴾ بمقدار معين، في الزكاة المفروضة، أو بمقدار غير معين، في صدقة التطوع حالة كونك، ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يا محمد، بتلك الصدقة من دنس الذنوب والبخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾؛ أي: تزكي يا محمد أنفسهم بتلك الصدقة، وترفعهم إلى منازل الأبرار، بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.

ونسبت التزكية إلى الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾؛ لأنه: الخالق، الموفق للعبد، بفعل ما تزكو به نفسه، وتصلح، ونسبت إلى الرسول، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ لأنه: هو المربى للمؤمنين على ما تزكو به نفوسهم، ويعلو قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية، وبيانه لكتاب الله تعالى، فهو القدوة الحسنة لهم. ونسبت إلى الفاعل لها في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾؛ لأنه: قد فعل، ما كان سبباً في طهارة نفسه، وزكاتها من صدقات، ونحوها من أعمال البر. وأما النهي عن تزكية النفس، في نحو قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾. فذاك في تزكية النفس، بدعوى اللسان فقط، دون عمل يؤيدها.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واستعطف عليهم يا محمد، وادع لهم؛ أي: للمتصدقين، واستغفر لهم عند أخذ الزكاة منهم. قال الشافعي رحمه الله: والسنة للإمام إذا أخذ الصدقة، أن يدعو للمتصدق، ويقول آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهوراً. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾؛ أي: إن دعاءك واستغفارك لهم ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: رحمة وطمأنينة لقلوبهم، يذهب به اضطراب نفوسهم، وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم،

بأخذك لها، ووضعها في مواضعها.

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم، ومن ملائكته استغفارهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ومن المؤمنين على النبي ﷺ دعاؤهم له، بما أمرهم به في الصلاة بعد التشهد الأخير. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم بذنوبهم، وسميع لدعائك لهم، سماع قبول وإجابة ﴿عَلِيمٌ﴾ بندمهم وتوبتهم منها، وإخلاصهم في صدقاتهم، وطيب أنفسهم بها، عليم بما فيه الخير والمصلحة لهم، وهو الذي يثيبهم عليها. وقد روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: «اللهم صل على فلان» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وقرأ الحسن[1]: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ من أطهر الرباعي وأطهر وطهّر للتعدية من طهر. وقرأ الأخوان حمزة والكسائي وحفص: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ هنا وفي هود، ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بالإفراد وباقي السبعة بالجمع ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم، قبل توبتهم وصدقتهم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾، الصحيحة، ﴿عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، المخلصين؛ لاستغنائه عن طاعة الطائعين، وعدم مبالاته لمعصية المذنبين، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه، لا رسول، ولا من دونه، ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: ويقبل الصدقات الصادرة عن خلوص نية، ويثيب عليها، ويضاعف ثوابها، كما وعد ذلك في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾. وفي الآية حَضٌّ علىٰ التوبة والصدقة والترغيب فيهما.

وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه، بعد أمره لرسوله، ﷺ بأخذها، تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها. والاستفهام[2] في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾: للتقرير، وهو حمل المخاطب على الاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته، أو نفيه، أو

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

للتحضيض، والتأكيد. ومعناه: إن ذلك ليس لرسول الله، ﷺ، وإنما الله سبحانه وتعالى، هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ا هـ كرخي. والقصد به، تهييجهم إلى التوبة والصدقة.

﴿و﴾ ألم يعلموا ﴿أن الله﴾، سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: هو الذي يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين، الذين ينيبون إلى ربهم، وأنه تعالى، هو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، بالتائبين الذي يثيبهم على ما قدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصروا على ذنب، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وجاء في الحديث «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» رواه الترمذي. وهذه الجملة تأكيد لقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم. وروى الشيخان، عن أبي هريرة، أن النبي، ﷺ قال: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله تعالى. وفي مصحف[1] أبي وقراءة الحسن بخلاف عنه ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ بالتاء على الخطاب وهو إما خطاب للتائبين أو لجماعة من المؤمنين.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين أو لجميع الناس، ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، ما شئتم من الأعمال الحسنة والسيئة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عَمَلَكُمْ﴾ خيراً كان أو شراً؛ أي: فسيرى الله سبحانه وتعالى أعمالكم المستقبلة ويعلمها خيراً كانت أو شراً كما يرى أعمالكم الماضية ويعلمها فالاستقبال بالنظر إلى الأعمال وإلا فعلم الله حاصل لا استقبال فيه. وفيه ترغيب عظيم للمطيعين، ووعيد شديد للمذنبين، فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل، فإن الله تعالى يرى أعمالكم

---

(١) البحر المحيط.

ويجازيكم عليها، ﴿و﴾ يراه ﴿رسوله﴾ ﷺ بإطلاع الله إياه على أعمالكم، كما أطلعه على أعمالكم الماضية بفضيحتكم عليها، ﴿و﴾ يراه ﴿المؤمنون﴾ بما قذف الله تعالى في قلوبهم. من محبة الصالحين وبغض المذنبين.

والمعنى[1]: وقل لهم أيها الرسول، اعملوا لدنياكم وآخرتكم لأنفسكم وأمتكم، فالعمل هو مناط السعادة، لا الاعتذار عن التقصير، ولا دعوى الجد والتشمير، وسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً، فيجب عليكم أن تراقبوه في أعمالكم، وتتذكروا أنه عليم بمقاصدكم، ونياتكم، فجدير بمن يؤمن به، أن يتقيه في السر، والعلن، ويقف عند حدود شرعه، وسيراه رسوله والمؤمنون، ويزنونه بميزان الإيمان، الذي يفرق بين الإخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس. روى أحمد والبيهقي: أن النبي، ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماءٍ ليس لها باب ولا كوة.. لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان».

وفي الآية: إيماء إلى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، تلي مرضاة الله ورسوله. وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: «مروا على النبي، ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال، النبي، ﷺ وجبت، ثم مروا بأخرى، فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت، قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، متفق عليه. وقال ابن عباس: ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن.

ثم ذكر سبحانه وتعالى بوعيد شديد، فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾؛ أي: وسترجعون بعد الموت، ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: إلى الله الذي يعلم ما غاب عن عباده، وما شوهد لهم؛ أي إلى الله الذي يعلم ما تسرونه، وما تعلنونه، وما تخفونه، وما تبدونه، وفي تقديم الغيب على الشهادة، إشعار بسعة علمه تعالى، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون

---

(١) المراغي.

عقب ردّهم إليه فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم الله سبحانه وتعالى، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا، فيجازيكم عليه فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويتفضل على من يشاء من عباده؛ لأن المجازاة من الله تعالى في الآخرة، لا تحصل إلا بعد الإخبار بعمله، ليعرف كل أحد أن الذي وصل إليه عدل لا ظلم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾؛ أي: ومن المتخلفين عن غزوة تبوك أقوام آخرون؛ أي: غير الذين مردوا على النفاق، وغير الذين اعترفوا بذنوبهم، مرجون؛ أي: بل هم مرجون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بل هم مؤخرون عن التوبة إلى قضاء الله تعالى وحكمه فيهم بما شاء إما التوبة وإما التعذيب. وقرأ[1] الحسن وطلحة وأبو جعفر وابن نصاح والأعرج ونافع وحمزة والكسائي وحفص: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ و ﴿ترجي﴾ في سورة الأحزاب بغير همزة. وقرأ باقي السبعة: ﴿مرجؤن وتجرىء﴾ بالهمز وهما لغتان.

كان[2] المتخلفون عن الجهاد في غزوة تبوك، أقساماً ثلاثة:

الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق وهم أكثر المتخلفين.

والثاني: المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم، وتابوا، وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول، واستغفاره، فتاب الله عليهم، كأبى لبابة وأصحابه.

والثالث: المؤمنون الذين حاروا في أمرهم، ولم يعتذروا للرسول، ﷺ؛ لأنهم، لا عذر لهم، وأرجؤوا توبتهم واعتذارهم إلى رسول الله، ﷺ، صريحاً وإنما وجد منهم الندم والحزن، فإرجاء الله تعالى الحكم القاطع في أمرهم، لأسباب ستذكر، والفرق بين القسم الثاني، والقسم الثالث: أن القسم الثاني، سارعوا إلى التوبة فقبل الله توبتهم، والقسم الثالث توقفوا، ولم يسارعوا إلى التوبة، فأخر الله أمرهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: هم الثلاثة، الذين خلفوا عن التوبة، وهم مرارة ـ بضم الميم ـ ابن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

غزوة تبوك، في جملة من قعد من المخالفين، كسلاً وميلاً إلى الدعة والراحة والتمتع بطيب الثمار والتفيؤ بالظلال لا شكاً ونفاقاً. وكانت طائفة منهم، ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه. وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء، وأرجئت أي أخرت توبة هؤلاء، حتى نزلت آية ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، الآية. ومعنى ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن المتخلفين، ناس آخرون مؤخرون إلى أمر الله وحكمه فيهم بما شاء، وهم أولئك النفر، الذين سبق ذكرهم، وكانوا تخلفوا عن رسول الله، ﷺ مع الهم باللحاق به، ولم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق. فلما قدم النبي، ﷺ من تبوك.. قالوا لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا لرسول الله، ﷺ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، من الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد، فنزل فيهم، قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ الآية. فنهى النبي، ﷺ، عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم، وإرسالهن إلى أهاليهن، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية. وكانت مدة ما بين نزول الآيتين، خمسين ليلة، بقدر مدة التخلف؛ إذ كانت غيبته، ﷺ عن المدينة، خمسين ليلة، لأنهم، لما تمتعوا بالراحة في المدينة مع تعب غيرهم في السفر.. عوقبوا بهجرهم تلك المدة فلما مضت خمسون ليلة.. نزلت توبتهم بقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية.

ومعنى قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا ولم يتوبوا من التخلف، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا عنه؛ أي: إن أَمْرهم دَائِرٌ بين هذين، التعذيبِ والتوبةِ، وإما هنا إما للشك بالنسبة إلى المخاطبين، وإما للإبهام بالنسبة إلى الله، بمعنى: أنه تعالى، أبهم على المخاطبين كما في «السمين».

وقد أبهم الأمر عليهم وعلى الناس، فلا يدرون ماذا ينزل بهم، هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم، كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم، أو يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة، كما حكم على الخالفين من المنافقين. وحكمة إبهام الأمر

عليهم، إثارة الغم والحزن في قلوبهم، لتصح توبتهم. وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخاطبتهم تربيةً للفريقين على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد؛ لإعلاء كلمة الحق، ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين.

وهذه الجملة، في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في ﴿مرجون﴾، والتقدير، وآخرون مرجون هم إلى أمر الله حالة كونهم إما معذبين، وإما متوباً عليهم، كما سيأتي في بحث الإعراب.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلح حالَ عباده، ويربيهم ويزكيهم، أفراداً وجماعات ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح، إذا عملوا بها.

ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم في كتابه، كما أن تكرار تلاوتها في مختلف الأوقات، مما يوقع في قلوب المؤمنين الرهبة والخوف، ويفيدهم عظة وتهذيباً.

الإعراب

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾، أو الجواب محذوف دل عليه ما قبلها. ﴿رَجَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ إلىٰ آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُل﴾. ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾: ناصب وفعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، أعني: المؤمنين، والجملة في محل

النصب مقول القول. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة في محل النصب مقول القول. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أنها المتعدية إلىٰ مفعولين، أحدهما ضمير التكلم.

والثاني: قوله من أخباركم، وعلىٰ هذا، ففي ﴿مِنْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنها غير زائدة، والتقدير: قد نبأنا الله أخباراً من أخباركم، أو جملة من أخباركم، فهو في الحقيقة صفة للمفعول المحذوف.

والثاني: أن ﴿مِنْ﴾ زائدة عند الأخفش،؛ لأنه لا يشترط فيها شيئاً. والتقدير: قد نبأنا الله أخباركم.

الوجه الثاني: من الوجهين الأولين: أنها متعدية لثلاثة، كأعلم، فالأول والثاني ما تقدم، والثالث محذوف؛ اختصاراً للعلم به، والتقدير: نبأنا الله من أخباركم كذباً ونحوه ا هـ «سمين».

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: واقعاً، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قُل﴾ ﴿وَرَسُولُهُ﴾: معطوف علىٰ الجلالة.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿تُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تُرَدُّونَ﴾ ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: معطوف على الغيب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿سيرى﴾ على كونها، مقولا لـ ﴿قُل﴾ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الثاني، والجملة، معطوفة على جملة تردون ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ إن قلنا: ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية إن قلنا: ﴿ما﴾ مصدرية تقديره: بعملكم.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿سَيَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿لَكُمْ﴾ والجملة بدل من ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أو تفسير له كما في «أبي السعود» ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ ﴿لِتُعْرِضُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿تعرضوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، مجرور ﴿باللام﴾ تقديره، لإعراضكم ﴿عَنْهُمْ﴾: الجار والمجرور، متعلق بيحلفون ﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنهم سيحلفون لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم: أعرضوا عنهم ﴿أعرضوا﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾: المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب والهاء: اسمها. ﴿رِجْسٌ﴾: خبرها، وجملة إن: في محل النصب، مستأنفة، مسوقة، لتعليل الأمر بالإعراض عنهم، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، إما من تمام التعليل، وإما تعليل مستقل، كما ذكره: أبو السعود ﴿جَزَآءًۢ﴾: منصوب على المصدرية، بعامل مقدر من لفظه، تقديره: يجزون جهنم جزاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ويجوز كونه حالاً من جهنم وفي «الفتوحات» قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن ينتصب على المصدر، بفعل من لفظه مقدر؛ أي: يجزون جزاءً وأن ينتصب بمضمون الجملة السابقة؛ لأن كونهم ثاوين في جهنم، في معنى المجازاة، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، اهـ «سمين» ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، أو بمعنى: على ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة، أو مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه. وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط، محذوف، تقديره: بما كانوا يكسبونهُ أو صلة ما المصدرية تقديره: بكسبهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جزاءً﴾، أو صفةٌ له.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لِتَرْضَوْا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، وتعليل ﴿ترضوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿اللام﴾ تقديره: لرضائكم عنهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ﴿فَإِن تَرْضَوْا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حلفهم، لرضائكم عنهم، وأردتم بيان حكم رضائكم عنهم.. فأقول لكم ﴿إن ترضوا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ترضوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، وجواب إن الشرطية محذوف، تقديره: فلا ينفعهم رضاؤكم عنهم، وجملة إن الشرطية، في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء: تعليلية ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: صفة للقوم، وجملة ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾: في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾: مبتدأ ﴿أَشَدُّ﴾: خبر ﴿كُفْرًا﴾: تمييز، محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة مستأنفة ﴿وَنِفَاقًا﴾: معطوف على كفراً ﴿وَأَجْدَرُ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف مصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿يَعْلَمُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ ﴿حُدُودَ مَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما أنزله الله، وجملة ﴿لا يعلموا﴾ في تأويل مصدر، مجرور، بحرف جر محذوف، تقديره، وأجدر بعدم

علمهم حدود ما أنزله الله على رسوله ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿يَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول. ﴿يُنفِقُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿يُنفِقُ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾: أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما ينفقه. ﴿مَغۡرَمٗا﴾: مفعول ثانٍ، لاتخذ، وجملة ﴿يَتَّخِذُ﴾: صلة من الموصولة ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَّخِذُ﴾ ﴿بِكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿يتربص﴾: ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾: مفعول به ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: خبر مقدم ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول ﴿عَلِيمٞ﴾: خبر ثانٍ والجملة مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. ﴿يُؤۡمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: معطوف على الجلالة ﴿وَيَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول أول، لـ ﴿يتخذ﴾. ﴿يُنفِقُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة

صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ﴿ما ينفقه﴾ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يتخذ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: سبب قربات، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أو متعلق بـ ﴿يتخذ﴾ ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾: معطوف على ﴿قُرُبَٰتٍ﴾؛ أي: سبب صلوات الرسول ودعواته ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾: ﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه واستفتاح ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾؛ ناصب، واسمه وخبره ﴿لَّهُمْۚ﴾: صفة لقربة، والجملة مستأنفة ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: ناصب واسمه وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾: صفة له ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: جار ومجرور، حال من المبتدأ ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: معطوف على المهاجرين ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿السابقون﴾ ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾: جار ومجرور حال، من واو اتبعوهم، أو متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَرَضُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿رَّضِىَ﴾. ﴿عنه﴾ متعلق به ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير، يعود على الله ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رضي﴾ ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع ﴿تَحْتَهَا﴾: متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جنات﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ضمير لهم ﴿فِيهَآ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿أبداً﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة له والجملة مستأنفة.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

﴿وَمِمَّنْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿حَوْلَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن

في الصلة ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لمبتدأ محذوف، قامت صفته مقامه، وحَذفُ الموصوف وإقامة صفته مقامه مطرد تقديره: ومن أهل المدينة قوم. وجملة ﴿مَرَدُواْ﴾: صفة لهذا المبتدأ المحذوف، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: متعلق بـ ﴿مَرَدُواْ﴾.

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾: فعل ومفعول به، إن قلنا: أن علم هنا عرفانية، ومفعول أول إن قلنا إن علم على بابه، والمفعول الثاني محذوف تقديره: لا تعلمهم منافقين، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، أو صفة لـ ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: منافقين، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: منصوب على المصدرية ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿يُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ﴾: متعلق به ﴿عَظِيمٖ﴾: صفة لعذاب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نعذبهم﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على منافقون، على كونه صفة لمبتدأ محذوف، خبره محذوف أيضاً، تقديره: وممن حولكم، أو من أهل المدينة قوم آخرون، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وممن حولكم﴾ ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾ متعلق به، والجملة صفة ثانية لذلك المحذوف ﴿خَلَطُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿عَمَلٗا﴾: مفعول به ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفة له، والجملة صفة ثالثة له ﴿وَءَاخَرَ﴾: معطوف على ﴿عَمَلٗا﴾ ﴿سَيِّئًا﴾: صفة ﴿آخر﴾ ﴿عَسَى﴾: فعل ناقص، من أفعال الرجاء ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها ﴿أَن يَتُوبَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَتُوبَ﴾ في تأويل مصدر، منصوب على كونه خبر

عسى، ولكنه في تأويل اسم الفاعل، ليصح الإخبار به عن الجلالة، تقديره: عسى الله توبته عليهم؛ أي: عسى الله تائباً عليهم، وجملة عسى مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿خُذْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلق به ﴿صَدَقَةً﴾: مفعول به ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية صفة لصدقة، ولكنها سببية، والرابط محذوف تقديره: بها ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهَا﴾: متعلق به لقربه، أو بتطهر لسبقه، كما هو شأن التنازع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة تطهر. ﴿وَصَلِّ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذْ﴾ ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَكَنٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿سَكَنٌ﴾: وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَقْبَلُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي علم، تقديره: ألم يعلموا قبول الله تعالى توبة عباده. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقْبَلُ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: خبر أن. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: صفة للتواب،

أو خبر ثانٍ لها، وجملة أن معطوفة على جملة أن الأولى.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱعْمَلُواْ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت ﴿ٱعْمَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف. تقديره: ما شئتم، والجملة في محل النصب مقول قل. ﴿فَسَيَرَى﴾: الفاء: تعليلية، السين: حرف استقبال زيدت هنا لإفادة تأكيد معنىٰ الكلام. ﴿يرى الله عملكم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً. ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: متعلق به. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على الغيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿ستردون﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾: صفة لمبتدأ محذوف، خبره محذوف أيضاً، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون. ﴿مُرْجَوْنَ﴾: صفة ثانية لذلك المحذوف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ كما قاله أبو البقاء ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿مُرْجَوْنَ﴾. ﴿إِمَّا﴾: حرف تفصيل. ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة في محل الرفع صفة ثالثة لذلك المحذوف، ولكنها سببية، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون مرجون لأمر الله، إما معذبون أو حال من الضمير المستكن في مرجون، تقديره: ومن أهل المدينة قوم آخرون مرجون هم لأمر الله، حالة كونهم إما معذبين، وإما متوباً

عليهم. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ﴾: الواو: عاطفة ﴿إما﴾ على ﴿إِمَّا﴾. ﴿إِمَّا﴾: حرف تفصيل، مفيدة للشك بالنسبة إلى المخاطب، ومفيدة للإبهام بالنسبة إلى الله. قال أبو البقاء: وإما إذا كانت للشك.. جاز أن يليها الاسم، وأن يليها الفعل، فإن كانت للتخيير، ووقع الفعل بعدها.. كانت معه أن كقوله: إما أن تلقى انتهى. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾. على كلا الاحتمالين، وقيل: غير ذلك، من أوجه الإعراب. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة الاسمية مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: من اعتذر من باب افتعل إذا مَهَّد العذر. والاعتذار: إظهار العذر بالأعذار الكاذبة.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: ﴿الْغَيْبِ﴾: ما غاب عنك علمه ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: ما تشهده وتعرفه.

﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾: انقلب إلىٰ الشيء من باب انفعل: رجع إليه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: قذر يجب الإعراض عنهم. ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾: والمأوى، كل مكان يأوى إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً، وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أوياً وإيواء. ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ اسم لبدو العرب، واحده أعرابي، والأنثى أعرابية، والعرب اسم لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة، بَدْوِه وحَضَره، واحدَهُ عربي، كالمجوس والمجوسي واليهود واليهودي.

وفي «الفتوحات» والأعراب اسم جمع، جاء على صورة الجمع، وليس جمعاً لعرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من مفرده؛ لأن الأعراب سكان البادية خاصة، والعرب المتكلمون باللغة العربية، سواء سكنوا البادية أو الحاضرة، اهـ شيخنا. وفي «المصباح» وأما ﴿الْأَعْرَابُ﴾ بالفتح فأهل البَدْوِ من العرب، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً، وهو الذي يكون صاحب نجعة، وارتياد غيث وكلأ، وزاد

الأزهري فقال: سواء كان من العرب، أو من مواليهم قال: فمن نزل البادية وجاور البادين، وظعن بظعنهم.. فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب.. فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء. قال النيسابوري: قيل إنما سمي العرب عرباً، لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب، وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم، وقيل: لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى.

﴿وَأَجْدَرُ﴾؛ أي: أحق وأولى وأحرى يقال، هو جدير وأجدر، وحقيق وأحق، وقمن وخليق، وأولى بكذا كله بمعنى واحد. قال الليث: جدر يجدر جدارة، فهو جدير وأجدر به، يؤنث ويثنى ويجمع. قال الشاعر:

نَـخِـيْـلٌ عَـلَـيْـهَـا جَـنَّـةٌ عَـبْـقَـرِيَّـةٌ ... جَـدِيْـرُوْنَ يَـوْمَـاً أَنْ يَـنَـالُـوْا فَـيَـسْـتَـعْـلُـوْا

وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة، وأنها من الجدار؛ أي: الحائط، فقال: والجدير المنتهي لانتهاء الأمر إليه، انتهاء الشيء إلى الجدار، والذي يظهر، أن اشتقاقه من الجدر، وهو أصل الشجرة، فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك: جدير بكذا، ا هـ «سمين». ﴿مَغْرَمًا﴾ والمغرم: الغرامة والخسران، من الغرام بمعنى: الهلاك؛ لأنه سببه، ومنه ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ وقيل: أصله الملازمة، ومنه الغريم، للزومه من يطالبه وإلحاحه عليه. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾: والتربص: الانتظار، والدوائر، هي: المصائب التي لا مخلص منها، تحيط به كما تحيط الدائرة. وقيل: تربص الدوائر هنا: موت الرسول، ﷺ، وظهور الشرك. قال الشاعر:

تَـرَبَّـصْ بِـهَـا رَيْـبَ ٱلْـمَـنُـوْنِ لَـعَـلَّـهَـا ... تُـطَـلَّـقُ يَـوْمَـاً أَوْ يَـمُـوْتَ حَـلِـيْـلُـهَـا

والدوائر: جمع دائرة، وهي: ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة، أخذاً من الدائرة المحيطة بالشيء، وأصلها داورة، لأنها من دار يدور؛ أي: أحاط، فقلبت الواو همزة ومعنى تربص الدوائر: انتظار المصائب؛ أي: انتظار انقلاب الدوائر. ففي الكلام حذف مضاف، وفي الدائرة مذهبان أظهرهما، أنها صفة

على فاعلة كقائمة، وقال الفارسي: يجوز أن تكون مصدراً كالعاقبة، ا هـ «سمين». ودوائر الزمان، حوادثه. والمراد بها ما لا محيص منه، من تصاريف الأيام ونوائبها التي تحيط شرورها بالناس، والدائرة أيضاً، النائبة والمصيبة، والسوء اسم لما يسوء ويضر. وقال الفراء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: العذاب والبلاء. قال: والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة وسوائية ومسائية، وبالضم اسم لا مصدر. وقال أبو البقاء: السوء بالضم الضرر، وهو مصدر في الحقيقة، قلت: يعني، أنه في الأصل كالمفتوح في أنه مصدر، ثم أطلق على كل ضرر وشر. وقال مكي: من فتح السين، فمعناه الفساد والرداءة، ومن ضمها، فمعناه البلاء والضرر، وظاهر هذا، أنهما اسمان لما ذكر، ويحتمل أن يكونا في الأصل مصدرين، ثم أطلقا على ما ذكر. وقال غيره: المضموم العذاب والضرر، والمفتوح الذم، ا هـ «سمين».

﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ والـ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، تقول منه: قربت لله قرباناً، وهي في المنزلة والمكانة، كالقرب في المكان والقرابة في الرحم. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾: والـ ﴿صلوات﴾: واحدها صلاة، ويراد بها الدعاء، والمعنى: أنه يتخذ ما ينفق سبباً لحصول القربات عند الله تعالى، وسبباً لحصول دعوات الرسول.

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: وأصل مرد وتمرد: اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد لا ورق عليه، وفرس أمرد لا شعر فيه، وغلام أمرد لا شعر بوجهه، وأرض مرداء لا نبات فيها، وصرح ممرد؛ أي: مجرد فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق، وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه.

﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: الاعتراف: الإقرار بالشيء، ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال. ﴿خَلَطُواْ﴾: ومعنى الخلط، أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء، ويجوز أن تكون الواو في قوله: ﴿وَءَاخَرَ﴾: بمعنى الباء، كقولك بعت الشاة شاة ودرهماً؛ أي: بدرهم. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾:

والصدقة: مأخوذة من الصدق إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه. والصدقة ما ينفقه المؤمن قربة لله. ﴿تزكيهم﴾: والتزكية من قولهم رجل زكى؛ أي: زائد الخير والفضل، قاله: في «الأساس». ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: والصلاة الدعاء. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: والسكن: كل ما تسكن وتطمئن إليه النفس، وترتاح عنده من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء، فهو فعل بمعنى، مفعول كالقبض بمعنى، المقبوض والقنص بمعنى، المقنوص. والمعنى، يسكنون إليها. مرجون ومرجؤون وبهما قرىء؛ أي: مؤخرون يقال؛ أرجأت الأمر وأرجيته؛ أي: أخرته.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً، وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

ومنها: التكرار في: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ وفي لفظ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ونكتة العدول لهذا الظاهر التسجيل عليهم، حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك، ا هـ «أبو السعود».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾؛ لأن الدوائر حقيقة في الدائرة المحيطة بالشيء، كدائرة القمر ودائرة الخط، فاستعملها في المصائب والنكبات النازلة بالإنسان، بجامع الاشتمال والإحاطة في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ حيث أطلق المسبب الذي هو القربات، وأراد السبب، أي: سبب قربات، وسبب صلوات وفي قوله: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾؛ أي: يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة، وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ وقوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ حيث جعل الصلاة نفس السكن، والاطمئنان مبالغة، وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه فصار بليغاً.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ حيث استعار الإلصاق، الذي هو معنى الباء للواو التي هي للجمع؛ لأن الواو هنا، بمعنى الباء؛ أي: بآخر. قال التفتازاني: وتحقيقه أن الواو للجمع، والباء للإلصاق والجمع، والإلصاق من قبيل واحد، فسلك به طريق الاستعارة، ا هـ «كرخي».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أتى بأن، وبالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبصيغة المبالغة في التواب وفي الرحيم؛ تبشيراً لعباده؛ وترغيباً لهم كما ذكره الشوكاني.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ حيث شبه القبول بالأخذ، فاستعار له اسمه، فاشتق من الأخذ، بمعنى القبول، يأخذ بمعنى يقبل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ
أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)
لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ۞
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ
الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾.

المناسبة

لما(١) ذكر الله سبحانه وتعالى طرائق ذميمة لأصناف المنافقين أقوالاً

---

(١) البحر المحيط.

وأفعالاً.. ذكر هنا، أن منهم: من بالغ في الشر حتى ابتنى مجمعاً للمنافقين، يدبرون فيه ما شاؤوا من الشر وسموه مسجداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر[1] فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأصناف المقصرين من المؤمنين.. أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، البالغين فيه حد الكمال، وبذا تم معرفة جميع أحوال المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما[2] كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين في جميع الأحوال بين الله سبحانه هنا أنه يجب البراءة من أمواتهم، وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم، ثم ذكر السبب الذي لأجله استغفر إبراهيم لأبيه، وهو وعده بالاستغفار بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فلما أصر على كفره، تبرأ منه وبعدئذٍ بين رحمته بعباده، وأنه لا يعاقبهم على شيء إلا بعد بيان شافٍ لما يعاقبون عليه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ الآية، مناسبة[3] هذه الآية لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لما قدم الكلام في أحوال المنافقين، من تخلفهم عن غزوة تبوك، واستطرد إلى تقسيم المنافقين إلى أعراب وغيرهم، وذكر ما فعلوا من مسجد الضرار، وذكر مبايعة المؤمنين الله في الجهاد وأثنى عليهم، وأنه ينبغي أن يباينوا المشركين، حتى الذين ماتوا منهم بترك الاستغفار لهم.. عاد إلى ذكر ما بقي من أحوال غزوة تبوك، وهذه شنشنة كلام العرب، يشرعون في شيء، ثم يذكرون بعده أشياء مناسبة، ويطيلون فيها، ثم يعودون إلى ذلك الشيء الذي كانوا شرعوا فيه.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: لما استقصى الله سبحانه وتعالى أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذي سلف، عاد مرة أخرى إلى الكلام في توبتهم، جرياً على سنّة القرآن الكريم في تفريق الآيات في الموضوع الواحد؛ لأنه أفعل في النفس، وأشد تأثيراً في القلب، وأجدى في تجديد الذكرى، وأدنى أن لا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها، إلا أنه مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين، إذ كل مما يتاب منه وكل عثرة يطلب منها الصفح والعفو.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ الآية، سبب[1] نزولها ما أخرجه ابن مردويه: من طريق ابن إسحاق، قال: ذكر ابنُ شهاب الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن ابن أخي أبي رهم الغفاري، أنه سمع أبا رهم، وكان ممن بايع تحت الشجرة يقول: أتى منْ بنى مسجدَ الضرار رسولَ الله ﷺ، وهو متجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، قال: إني على جناح السفر، وإذا قدمنا إن شاء الله.. أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما رجع نزل بذي أوان على ساعة من المدينة، فأنزل الله في المسجد: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، إلى آخر القصة، فدعا مالك بن الدخشن، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه، ففعلا.

وأخرج[2] ابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما بنى رسول الله، ﷺ، مسجد قباء خرج رجال من الأنصار، منهم: بخدج، فبنوا مسجد النّفاق فقال رسول الله ﷺ لبخدج «ويلك، ما أردتَ إلى ما أرى» فقال: يا رسول الله، ما أردت إلا الحسنى، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن مردويه: من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إن أناساً من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابتنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر، ملك الروم، فآتي بجند، فأخرِجَ محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي، ﷺ، فقالوا له: لقد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، فأنزل الله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وأخرج الواحدي، عن سعد بن أبي وقاص قال: إن المنافقين عرضوا بمسجد، يبنونه يضاهون به مسجد قباء، لأبي عامر الراهب إذا قدم ليكون إمامهم فيه، فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله، ﷺ، فقالوا: إنا بنينا مسجداً، فصل فيه فنزلت: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال عبد الله بن رواحة، لرسول الله، ﷺ، اشْتَرِطْ لربك ولنفسك ما شئتَ، قال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا، قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري (ج ٣ ص ٤٦٥) عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله، ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله: ﷺ، لأبي طالب: «يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب، آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله تعالى فيه

هذه الآية، والحديث قد أخرجه مسلم والنسائي وأحمد وابن جرير والبيهقي وابن أبي حاتم.

وأنزل[1] في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية، وظاهر هذا أن الآية نزلت بمكة.

وأخرج الترمذي وحسنه، والحاكم عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فذكرت ذلك لرسول الله، ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وأخرج الحاكم والبيهقي: في «الدلائل» وغيرهما عن ابن مسعود، قال: خرج رسول الله، ﷺ، يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكيت لبكائه، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الحافظ[2] ابن حجر: يحتمل أن يكون لنزول الآية أسباب، متقدم هو أمر أبي طالب، ومتأخر وهو أمر آمنة، وقصة علي، وجمع غيره بتعدد النزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء والأموات، بين أن هذا الحكم، غير مختص بدين محمد، ﷺ، بل هو مشروع أيضاً، في دين إبراهيم عليه السلام، فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع، أكمل وأقوى، ا هـ كرخي.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ سبب نزولها: ما أخرجه البخاري وغيره، عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن النبي، ﷺ في غزوة غزاها، إلا بدراً، حتى كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها، وآذن الناس بالرحيل، فذكر الحديث بطوله، وفيه فأنزل الله توبتنا. ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: وفينا أنزل أيضاً، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾؛ أي: ومن المنافقين الفريق الذين اتخذوا، وبنوا مسجداً، وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عمرو، ﴿ضِرَارًا﴾؛ أي: لأجل إضرار أهل مسجد قباء؛ أي: ومن المنافقين جماعة، بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجتمعاً يدبرون فيه الشر للمؤمنين، وسموه مسجداً مضارة للمؤمنين، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: ولأجل تقوية الكفر والنفاق، الذي أضمروه بالطعن على النبي، ﷺ، ودين الإسلام، ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولأجل التفريق والتشتيت بين المؤمنين الذين كانوا يصلون في مسجد قباء؛ أي: لكي يصلي طائفة من المؤمنين في ذلك المسجد الذي بنوه، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة، ﴿وَإِرْصَادًا﴾؛ أي: وانتظاراً ﴿لـ﴾: مجيء ﴿من حارب الله ورسوله﴾: أبي عامر الراهب الفاسق. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بحارب؛ أي: حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد وكان أبو عامر: قد تنصر في الجاهلية، وترهب؛ أي: لبس المسوح وطلب العلم، فلما قدم النبي، ﷺ المدينة، عاداه؛ لأنه زالت رياسته وقال: للنبي، ﷺ يوم أحد لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، ولم يزل يقاتله ﷺ إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر وآت من عنده بجند، فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء، وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، ليحلفن لك أيها الرسول، أولئك الذين بنوا ذلك المسجد، كاذبين والله، ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾؛ أي: ما أردنا ببناء هذا المسجد،

﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: إلا الفعلة الحسنى، والخصلة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الصلاة والذكر فيه، والرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء، أو مسجد الرسول، ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ﴾، سبحانه وتعالىٰ ﴿يَشْهَدُ﴾؛ أي: يعلم ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قيلهم وفي حلفهم؛ لأنهم ما بنوه إلا للسوء وضرار مسجد قباء.

روي أن الذين اتخذوا هذا المسجد، كانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، وقد بين الله سبحانه وتعالىٰ الأغراض التي لأجلها بنى، وهي أربعة:

١ـ مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء، الذي بناه رسول الله، ﷺ، مقدمه من مكة مهاجراً قبل وصوله إلى المدينة.

٢ـ تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك، مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور فيما بينهم في الكيد لرسول الله، ﷺ، والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين.

٣ـ التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لأغراض الدين ومراميه، ومن الواجب أن يصلي المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فإن تفرقوا عمداً كانوا آثمين.

ومن[1] هذا، يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولم يكن سبباً لتفريق جماعتهم، فكثير من المساجد المتقاربة في القاهرة وغيرها من الأمصار والمدن الأخرى، لم تبن لوجه الله، بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء، وعدم نصح

(١) المراغي.

العلماء لهم.

٤ـ الانتظار والترقب، لمن حارب الله ورسوله، أن يجيء محارباً فيجد مكاناً مرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً له.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الخصلة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي: الرفق بالمسلمين، وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف، ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول الله، ﷺ، وليصلي معهم فيه، والله يعلم إنهم لكاذبون في أيمانهم؛ لأنهم ما بنوه إلا للسوء وضرار مسجد قباء.

وقرأ جمهور القراء[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالواو عطفاً على ﴿وَءَاخَرُونَ﴾؛ أي: ومنهم: الذين اتخذوا، الخ كما مر. وقرأ أهل المدينة، نافع، وأبو جعفر، وشيبة، وغيرهم، وابن عامر: ﴿الذين﴾ بغير واو، كذا في مصاحف المدينة، والشام، فاحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ وأن يكون خبر مبتدأ تقديره هم الذين.

وقرأ الأعمش: ﴿وإرصادا للذين حاربوا الله ورسوله﴾.

روي أن النبي، ﷺ، لما انصرف من تبوك راجعاً، نزل بذي أوان، وهو موضع قريب من المدينة، فأتاه المنافقون، وسألوه أن يأتي مسجدهم، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فأنزل الله هذه الآية، وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله، ﷺ، مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشياً، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار. فدخل أهله، فأخذ من سعف النخل، فأشعله، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فأحرقوه

---

(١) البحر المحيط.

وهدموه وتفرق عنه أهله، وأمر رسول الله، ﷺ، أن يتخذ ذلك الموضع كناسة، تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً.

وروي أن بني ابن عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم، فقال لا ونعمة عين، أليس هو إمام مسجد الضرار. قال مجمع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليَّ، فوالله لقد صليت فيه، وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون، فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء. قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر. وقوله سبحانه ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا محمد ﴿فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي بني للضرار، ﴿أَبَدًا﴾ للصلاة فيه قال ابن عباس، معناه: لا تصل فيه أبداً، منع الله عزّ وجلّ نبيه، ﷺ، أن يصلي في مسجد الضرار. واللام في قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾ لام الابتداء، وقيل لام القسم، تقديره: والله مسجد أسس على التقوى وهو مسجد قباء؛ أي: لمسجد ﴿أُسِّسَ﴾؛ أي: وضع أساسه وبني أصله، ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: على تقوى الله عزّ وجلّ وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني ووضع أساسه، كان ذلك البناء على التقوى، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله، ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء، وهو يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج منه صبيحة يوم الجمعة، وهو أوفق للقصة، أو هو مسجد رسول الله، ﷺ، لقول أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ سألت رسول الله، ﷺ، عنه، فقال: هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة أخرجه مسلم.

﴿أَحَقُّ﴾ وأولى، ﴿أَن تَقُومَ﴾ وتصلي يا محمد، ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسجد الذي أسس على التقوى، من الصلاة في مسجد الضرار الذي يدعوك المنافقون إلى الصلاة فيه.

والمعنى: أن مسجداً قصد ببنائه، منذ وضع أساسه في أول يوم، تقوىٰ الله، بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى، هو أحق من غيره أن تقوم فيه، أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين. والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى، هو مسجد قباء، ولكن روى البخاري ومسلم والنسائي: أن النبي، ﷺ سئل عنه، فأجاب: بأنه مسجده الذي في المدينة، والآية لا تمنع إرادة كلّ من المسجدين؛ لأن النبي، ﷺ، قد بنى كلاً من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه، ومما يدل على فضل مسجد قباء، ما روي عن ابن عمر قال: كان النبي، ﷺ، يزور قباء، أو يأتي قباءً راكباً وماشياً، زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين، وفي رواية، أن رسول الله، ﷺ، كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً، وكان ابن عمر يفعله. أخرج الرواية الأولى والزيادة البخاري ومسلم. وأخرج الرواية الثانية البخاري. وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله: ﷺ، من خرج حتى يأتي هذا المسجد، مسجد قباء فيصلي فيه، كان له كعدل عمرة، أخرجه النسائي. وعن أسد بن ظهير، أن النبي، ﷺ، قال: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذي. ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ﴾ من بني عامر بن عوف يعمرونه بإقامة الصلاة، وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال، و ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات، ويتبع الطهارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها، الطهارة الحسية للثوب والبدن، وطهارة الوضوء والاغتسال. قال عطاء: كانوا يستنجون بالماء بعد الحجر ولا ينامون بالليل على الجنابة.

روى ابن خزيمة في «صحيحه» عن عويمر بن ساعدة، أنه، ﷺ، أتاهم؛ أي: أهل مسجد قباء فقال: إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ قالوا والله يا رسول الله، ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وفي حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالماء. فقال هو

ذاك فعليكموه.

ومعنى[١] محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه، وقيل، معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار، والأول أولى كما يفيده الحديث المذكور.

والخلاصة[٢]: أن التطهر يشمل الطهارتين، النفسية والبدنية والروايات وردت بكل منهما، والأولى إرادتهما معاً. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾؛ أي: الذين يبالغون في طهارة الروح والجسد، لحبهم إياهما؛ لأنهم يرون فيهما الكمال الإنساني، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب، وأشد منهما بغضاً لهم، نجاسة النفس وخبثها، بالإصرار على فعل المعاصي، والتخلق بذميم الأخلاق. كالرياء في الأعمال إذ هو فعل المنافقين، والشح بالأموال، أو بالأنفس في سبيل الله ابتغاءً لمرضاته، وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ويظهر أثر حبه لعباده في أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم، كما أشار إليه الحديث القدسي الذي رواه البخاري «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث.

ومعنى[٣] محبة الله لهم: الرضا عنهم والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه، والحق أن المحبة صفة ثابتة له سبحانه وتعالى، نثبتها ونعتقدها ولا نكيفها ولا نمثلها.

وقرأ[٤] ابن مصرف والأعمش: ﴿يطهروا﴾ بالإدغام. وقرأ ابن أبي طالب: «المتطهرين».

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ للاستفهام التقريري[٥]، داخلة

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

(٤) البحر المحيط.

(٥) أبو السعود.

على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أبعد ما علم حالهم فمن أسس ووضع بناءه الذي بناه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ ومخافة ﴿مِنَ﴾ عقاب ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، ﴿وَ﴾ رجاء، ﴿رضوان﴾ وثواب منه، وهم النبي وأنصاره، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾. الذي بناه، ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ وطرف ﴿جُرُفٍ﴾ وهوَّةٍ وحفرة ﴿هَارٍ﴾ ومشرف ذلك الطرف على السقوط، ﴿فَٱنْهَارَ﴾ وسقط ذلك الطرف ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالباني وببنائه، ﴿فِى﴾ قعر نار، ﴿جَهَنَّمَ﴾ خير وهم أهل مسجد الضرار ورد أنهم رأوا الدخان حين حفروا أساسه، اهـ كرخي وجواب الاستفهام محذوف تقديره: الأول: خير وهو مثال، مسجد قباء، والثاني: مثال، مسجد الضرار.

والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان خيرية الرجال المذكورين على أهل مسجد الضرار.

وعبارة المراغي هنا قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ...﴾ إلخ، هذا[1] بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى، وهم الرسول، ﷺ وأنصاره، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى رجسهم.

والأساس على شفا الجرف الهاري، مثلٌ يُضرب لما يكون في منتهى الوهى والانحلال، والإشراف على الزوال؛ أي: أفمن أسس بنيانه الذي يتخذه موطناً لراحته وهناء معيشته، ويتقي به العوامل الجوية، وعدوان الكائنات الحية على أمتن الأسس وأقواها، على مصابرة العواصف والسيول وصد العوام، والوحوش خيرٌ بنياناً أم من أسس بنيانه على أوهىٰ القواعد وأقلها بقاءً واستمساكاً، فكانت عرضة للانهيار في كل حين من ليل أو نهار؟ وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان والنفاق والارتياب؛ أي: أفمن كان مؤمناً صادقاً، يتقي الله في جميع أحواله، ويبتغي مرضاته في جميع أعماله، قاصداً تزكية نفسه وإصلاح سريرته. خير، أم من هو

---

(١) المراغي.

منافق مرتاب، يبتغي بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين، والإرصاد، لمساعدة من حارب الله ورسوله، مع ما يكون لعمله في الدنيا من العار والفضيحة والخزي والبوار، وفي الآخرة من الانهيار في النار.

وخلاصة المثل[١]: بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به، وثمرته في أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه، وقرب زواله وخيبة صاحبه، وسرعة انقطاع آماله، وبيان أن شر أعمال المنافقين ما اتخذوه من مسجد الضرار لمفاسده الأربع المتقدمة.

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق، بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح في الوجود، وقد صدق الله وعده وثبت المؤمنين بالقول الثابت. وهداهم إلى العمل الصالح، ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل، وأهلك المنافقين، وقد جرت سنّته في كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ولم يقلعوا عنه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالنفاق وغيرهم بالأضرار؛ أي: لا يوفقهم ما فيه صلاحهم ونجاتهم، ولا يغفر لهم ولا ينجيهم؛ أي: مضت سنّته تعالى أن لا يكون الظالم مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل، ولا إلى الرحمة والفضل.

وقرأ[٢] نافع وابن عامر: ﴿أسس بنيانه﴾، مبنياً للمفعول في الموضعين، وقرأ باقي السبعة وجماعة: ذلك مبنياً للفاعل، وبنصب بنيانه. وقرأ عمارة بن عائذ: الأولى على بناء الفعل للمفعول، والثانية على بنائه للفاعل. وقرأ نصر بن علي، ورويت عن نصر بن عاصم: ﴿أسس بنيانه﴾، وعن نصر بن علي، وأبي حيوة، ونصر بن عاصم أيضاً، ﴿أساس بنيانه﴾، بالألف جمع أس، وعن نصر بن عاصم: ﴿آسس﴾، بهمزة مفتوحة وسين مضمومة. وقرىء: ﴿إساس﴾ بالكسر،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وهي جموع أضيفت إلى البنيان. وقرىء: ﴿أساس﴾ بفتح الهمزة، و﴿أس﴾ بضم الهمزة وتشديد السين، وهما مفردان أضيفا إلى البنيان. فهذه تسع قراءات. وفي كتاب «اللوامح» قرأ، نصر بن عاصم: ﴿أفمن أسس﴾، بالتخفيف والرفع، ﴿بنيانه﴾ بالجر على الإضافة فأسس مصدر أس الحائط، يؤسه أسا، من باب شد وأسسا. وعن نصر أيضاً: ﴿أساس بنيانه﴾، كذلك إلا أنه بالألف وأس وأسس وأساس كل منها مصادر انتهى.

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿على تقوى﴾، بالتنوين. وحكى سيبويه: هذه القراءة وردها الناس. قال ابن جني: قياسها أن تكون ألفها للإلحاق، كأرطى. وقرأ جماعة، منهم حمزة وابن عامر، وأبو بكر: ﴿جرف﴾، بإسكان الراء وباقي السبعة وجماعة: بضمها، وهما لغتان. وقيل: الأصل الضم، وفي مصحف أبي: ﴿فانهارت به قواعده في نار جهنم﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾؛ أي: لا يزال بنيان أهل مسجد الضرار، ولا يبرح مسجدهم، ﴿ٱلَّذِى بَنَوۡا﴾ بعد ما هدم، ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: سبب ريبة وشك في الدين، متمكن في قلوبهم في جميع الأوقات، ﴿إِلَّآ﴾ وقت، ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۚ﴾؛ أي: إلا وقت أن تجعل قلوبهم قطعاً وفلذاً، إما بالسيف أو بالموت. والمعنى: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا، فالاستثناء من أعم الأزمنة كما ذكره «البيضاوي»؛ أي: لا يزال[1] مسجدهم سبب شك في الدين؛ لأن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر رسول الله، ﷺ، بتخريبه ثقل ذلك عليهم، وازداد بغضهم له وارتيابهم في نبوته، وعظم خوفهم منه في جميع الأوقات، وصاروا مرتابين في أن رسول الله، ﷺ، هل يخلي سبيلهم، أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبة، أي: حرارة وغيظاً في قلوبهم في جميع الأوقات، إلا أن يموتوا؛ أي؛ إلا في وقت موتهم وتقطع أجزائهم وتمزق أجسادهم.

---

(١) المراح.

والمعنى[1]: أي لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك في الدين؛ لأنهم يظهرون فيه حال قيامه وثباته ما في قلوبهم من آثار الكفر والنفاق، ويدبرون أمورهم ويتشاورون في ذلك، ويلقي بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين، مما يزيدهم ريبةً وشكاً في الدين، وحين أمر رسول الله، ﷺ، بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم، وعظم خوفهم وارتابوا في أمرهم، أيتركون على حالهم؟ أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم؟ إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في البناء، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين في أمره، ولأي سبب كان ذلك؟ ولا يزال هذا شأنهم في جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذاً، وصيرورتها جذاذاً، فتكون غير قابلة للإدراك وفي هذا إيماء إلى أن تمكن الريبة في قلوبهم، وإضمار الشك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياءً.

والخلاصة: أنه لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا، سبباً للقلق واضطراب النفس، وأن ذلك لا يزول ما دامت القلوب سالمة، أما إذا تفرقت قطعاً وتقطعت أجزاءً بقتلهم، فحينئذٍ يسلون عنه. وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبةً تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقرأ[2] ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿إلا أن تقطع﴾ بفتح التاء والطاء المشددة؛ أي: يتقطع. وقرأ باقي السبعة: بضم التاء مبنياً للمجهول. وعن ابن كثير: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾، بفتح الطاء، وسكون القاف وفتح قلوبهم على الخطاب؛ أي: إلا أن تجعل قلوبهم قطعاً بالسيف. وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب ﴿إلى أن تقطع قلوبهم﴾. وقرأ أبو حيوة: كذلك، إلا أنه قرأ: بضم التاء وفتح القاف، وكسر الطاء مشددة على الخطاب للرسول، وقلوبهم بالنصب، أي: تقتلهم، أو فيه ضمير الريبة، وفي مصحف عبد الله: ﴿ولو قطعت قلوبهم﴾ بالبناء للمجهول. وكذلك قرأها أصحابه. وحكى أبو عمرو: هذه القراءة ﴿إن قطعت﴾

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والمراح.

بتخفيف الطاء. وقرأ طلحة: ﴿ولو قطعت قلوبهم﴾ خطاباً للرسول، ﷺ، أو كل مخاطب. وفي مصحف أبي: ﴿حتى الممات﴾ وفيه: ﴿حتى تقطع﴾.

والمعنى[1]: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم أبداً ويموتون على هذا النفاق وإلا بمعنى إلى بدليل القراءة الشاذة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال جميع عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به عليهم، ومن حكمته أن بين حال المنافقين، وأظهر ما خفي من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة في ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين، ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد على أبلغ وجه، وأحسن صورة فقد مثل الله سبحانه وتعالى إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله، بتمليكهم الجنة التي هي دار النعيم والرضوان الدائم السرمدي، تفضلاً منه تعالى، وكرماً بصورة من باع شيئاً هو له لآخر، وعاقد عقد البيع هو رب العزة، والمبيع هو بذل الأنفس والأموال، والثمن هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعل هذا العقد مسجلاً في الكتب السماوية، وناهيك به من صك لا يقبل التحلل والفسخ، وفي هذا منتهى الربح والفوز العظيم، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، ولأموالهم إذ هو الذي رزقها. وقال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة. وقال بعضهم، ناهيك، عن بيع البائع فيه المؤمن والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد، ﷺ. وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلام مستأنف، لبيان البيع الذي يستلزمه الشراء، فكأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله؛ أي: أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل التي توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيها؛ أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم في طاعة الله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾؛ أي: فيكونون

---

(١) المراح.

إما قاتلين لأعدائه الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل، ولا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل والمثوبة عند الله، فكل منهما كان في سبيله، ولم يكن رغبة في سفك الدماء، ولا حباً للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد، كما يفعل الذين يقاتلون الآن لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء.

وقرأ عمر بن الخطاب والأعمش[1]: ﴿وأموالهم بالجنة﴾. وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو رجاء، والعربيان، أبو عمرو، وابن عامر، والحرميان، نافع، وابن كثير، وعاصم، أولاً: ﴿فيقتلون﴾ بالبناء للفاعل، وثانياً: ﴿ويقتلون﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ النخعي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، والأخوان - حمزة والكسائي - بعكس ذلك، والمعنى واحد، إذ الغرض أن المؤمنين يقاتلون ويؤخذ منهم من يقتل، وفيهم من يقتل، وفيهم من يجتمع له الأمران، وفيهم من لا يقع له واحد منهما، بل تحصل منهم المقاتلة.

وقال أبو علي[2]: القراءة الأولى بمعنى، أنهم يقتلون أولاً. ويقتلون، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى، كالأولى، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم، فإن لم يقدر فيه التقديم، فالمعنى، يقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل.

وفي «المراح»[3]: فمعنى تقديم الفاعل على المفعول، أنهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنهم إلى أن يصيروا مقتولين. وأما تقديم المفعول على الفاعل، فالمعنى: أن طائفة كبيرة من المسلمين، وإن صاروا مقتولين لم يصر ذلك رادعاً للباقي عن المقاتلة، بل يبقون بعد ذلك مقاتلين مع الأعداء، قاتلين لهم بقدر الإمكان. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: وعدهم الله ذلك عليه وعداً ﴿حَقًّا﴾؛ أي: ثابتاً عليه وأوجبه على نفسه وجعله حقاً وأثبته ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ فإن الله سبحانه بين في الكتابين أنه اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

(٣) المراح.

كما بين في القرآن، وضياعه منهما في النسخ التي بين يدي أهل الكتاب لا يقدح في ذلك، لأنه قد ضاع منهما كثير، وحرف بعضهما لفظاً ومعنى، ويكفي إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما. والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إنكاري؛ أي: لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء، ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه. والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فاء الفصيحة؛ أي: فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور، وافرحوا غاية الفرح ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ مع ربكم، وهو بيع الأنفس والأموال بالجنة؛ أي: فافرحوا غاية الفرح بجهادكم الذي فزتم به الجنة، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع الذي هو بيع الأنفس والأموال بالجنة، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾؛ أي: سبب الفوز، لأنه رابح في الآخرة، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك، لا يعد فوزاً إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل.

وفي هذا الأسلوب من تأكيد استحقاق المجاهدين للثواب ما لا يخفى، إذ جعلهم مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين الثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده، وعن جعفر الصادق أنه قال: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها. يريد أن الذي يقتل أو يموت في سبيل الله، بذل بدنه الفاني لا روحه الباقي.

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء الكملة من المؤمنين، الذين باعوا أنفسهم وأموالهم، بجنته بصفات تسعة، الستة الأولى منها، تتعلق بمعاملة الخالق، والسابع والثامن، يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يعم القبيلين:

١ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الراجعون إلى ربهم، بتركهم كل ما يبعد عن مرضاته، وقرأ أبي، وعبد الله، والأعمش: ﴿التائبين﴾ بالياء، إلى والحافظين نصباً على المدح. واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل باجتماع أمور أربعة: الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على الترك في المستقبل. ورابعها: أن يكون الحامل له على هذه الأمور

الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس، وتحصيل مدحهم، أو لغرض آخر من الأغراض الدنيوية، فليس بتائب، ولا بد من رد المظالم إلى أهلها إن كانت، فالتوبة تختلف باختلاف المعاصي، فتوبة الكفار هي: رجوعهم عن الكفر الذي كانوا عليه، كما قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه، وتوبة العاصي من معصيته، تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله، كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين، وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره.

٢ـ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ لله المخلصون في جميع عباداتهم، فلا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استغاثة، ولا يتقربون إلى غيره بعمل قربان ولا طلب مثوبة في الآخرة.

٣ـ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي، ﷺ؛ إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال».

وروى البغوي بغير سند، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء» وقيل: «هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى».

٤ـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في الأرض والمتنقلون فيها من بلد إلى بلد آخر لغرض صحيح، كعلم نافع للسائح في دينه أو دنياه، أو نافع لقومه وأمته أو النظر في خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار، وقد قيل: إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها؛ لأن السائح، لا بد أن يلقى أنواعاً من الضر والبؤس، ولا بد له من الصبر عليها، ويلقى العلماء والصالحين في سياحته، فيستفيد منهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك، فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته.

وقد حث الله سبحانه وتعالى كثيراً على السير في الأرض والضرب فيها، كما قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها. وفسر بعضهم السياحة بالصوم لما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «سياحة هذه الأمة الصيام»؛ لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالباً. وقال الأزهري، قيل للصائم، سائح؛ لأن الذي يسيح في الأرض كان متعبداً لا زاد معه، فكان ممسكاً عن الأكل، وكذلك الصائم ممسك عن الأكل. وقيل: أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض، كالماء الذي يسيح، والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي.

٥ـ ٦ـ ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في صلواتهم المفروضة، وخُصَّا بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه وتعالى. والمراد بهم، المصلون وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي، بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما يكونان للمصلى ولغيره.

٧ـ ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، يعني: يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده، وما يتبعه من أعمال البر والخير.

٨ـ ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ شرعاً، الذين ينهون الناس عن الإشراك بالله، وعن غيره من سائر الأعمال السيئة.

ولم يذكر في الآية لهذه الأوصاف متعلقاً، فلم يقل: التائبون من كذا لله، والعابدون لله لفهم ذلك، إلا صفتي الأمر والنهي مبالغةً في ذلك، ولم يأت بعاطف بين هذه الصفات لمناسبة بعضها لبعض، إلا في صفتي الأمر والنهي لتباين ما بينهما، فإن الأمر طلب فعل، والنهي طلب ترك أو كف، وكذا الحافظون عطفه وذكر متعلقة لعدم مناسبته للصفات السابقة، ولخفاء متعلقة، اهـ «سمين».

وقال الخازن: أما دخول الواو في قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فإن

العرب تعطف بالواو على السبعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقيل: غير ذلك.

٩ـ ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى أي لتكاليف الله المتعلقة بالعبادات وبالمعاملات؛ أي: الحافظون لشرائعه وأحكامه التي بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه، وما يحظر عليهم فعله منها، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين، وأولي الأمور منهم إقامته وتنفيذه بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم، إذا أخلوا بما يجب عليهم حفظه منها. ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات السابقة بخيري الدنيا والآخرة.

وخصت تلك الخلال بالذكر؛ لأن بها تكون المحافظة على حدود الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾؛ أي: ما جاز لمحمد، ﷺ، ﴿و﴾ لا لـ ﴿لذين آمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا﴾؛ أي: ولو كان أولئك المشركون ﴿أُولِي قُرْبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب قرابة للنبي والمؤمنين؛ أي: ما كان من شأن النبي، ولا مما ينبغي أن يصدر منه من حيث هو نبي، ولا من شأن المؤمنين، ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين، ولو كان لهم حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضي الحدب والإشفاق عليهم. وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بالدليل ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي أهل النار بأن ماتوا على الكفر، أو بأن نزل وحي يسجل عليهم ذلك، كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.. متعلق بالنفي أو بالاستغفار المنفي. وأما قبل الموت فيفصل، فإن أريد بطلب المغفرة للكافر، هدايته للإسلام.. جاز الاستغفار له وإن أريد به أن تغفر ذنوبه مع بقائه على الكفر.. لم يجز. فمفهوم قوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ إلخ، فيه تفصيل، ا هـ «فتوحات» ومعنى الآية: ما كان ينبغي للنبي، والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين، ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله. ففيه النهي عن الاستغفار

للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام، فيستوي فيه القريب والبعيد.

وخلاصة ذلك: أن النبوة والإيمان الصادق، لا يبيحان الاستغفار للمشركين في كلِّ حال، حتى ولو كانوا أولي قربى، إذا ظهر لهم بالدليل، أنهم من أصحاب الجحيم.

وقد تقدم لك في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وقد استبعد بعض العلماء نزولها فيه، لأن موت أبي طالب كان في مكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، وأجاب عنه آخرون بأحد أمرين:

١ـ إما بأنها نزلت عقب موته، ثم ألحقت بهذه السورة المدنية، لمناسبتها لأحكامها الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين.

٢ـ وإما بأنها نزلت مع غيرها من براءة، مبينة لحكم استغفار النبي، ﷺ له، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية، يستغفر لأبي طالب، فإن التشديد على الكفار والبراءة منهم إنما جاء في هذه السورة.

وفي الآية إيماء إلى تحريم الدعاء، لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة، أو بوصفه بذلك، كقولهم: المغفور له، والمرحوم فلان، كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة.

ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخاطر مما تقدم فيقال: كيف يمنع النبي والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه؟ فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: وما استغفر إبراهيم، ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: وَفِّقْه للإيمان وَاهدِه إلى سبيله، ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ﴾ مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ إلخ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل؛ أي: لم يكن استغفاره لأبيه ناشئاً عن شيء، ولا لأجل شيء، إلا لأجل موعدة ﴿وَعَدَهَآ﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾؛ أي: أباه بقوله سأستغفر لك ربي؛ أي: لا أملك لك هدايةً ولا نجاةً وإنما أملك أن أدعو الله لك وقد وفى إبراهيم بما وعده ولم يكن إلا وَفِياً كما شهد الله له بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي

﴿وَفَّىٰٓ﴾. وقرأ[1] الحسن. وحماد الراوية وابن السميقع، وأبو نهيك، ومعاذ القارىء: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ بالباء الموحدة.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾؛ أي: فلما ظهر لإبراهيم، ﴿أنه﴾؛ أي: أن أباه، ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾؛ أي: مستمر على الكفر ومات عليه، ﴿تَبَرَّأَ﴾ إبراهيم، ﴿منه﴾؛ أي: من أبيه وترك الاستغفار له؛ أي؛ إن إبراهيم استغفر لأبيه ما كان حياً، فلما مات أمسك عن الاستغفار له.

والمعنى: أي[2] لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه. قال ابن عباس: وقيل، تبين له ذلك بوحي من الله، فتبرأ منه ومن قرابته، وترك الاستغفار له، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآية.

ثم بيّن السبب الذي حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه، مع شكاسته له وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام، ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾؛ أي: كثير التأوه والدعاء والتضرع إلى الله، ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: صبور على المحنة؛ أي: إن إبراهيم لكثير المبالغة في خشية الله والخضوع له، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وما كان من سنن الله في خلقه ولا من رحمته وحكمته ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾؛ أي: أن يصف قوماً بالضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ إلى الإيمان، وشرح صدورهم للإسلام بقول يصدر منهم خطأً أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطىء، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ بالوحي، ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ما ينزجرون منه، وينتهون عنه من الأقوال والأفعال، بياناً واضحاً فيمتنعوا من امتثال نهيه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

والحاصل[1]: أنه لما نزل المنع من الاستغفار للمشركين، خاف المؤمنون من المؤاخذة بما صدر عنهم منه قبل المنع، وقد مات قوم منهم قبل النهي عن الاستغفار، فوقع الخوف في قلوب المسلمين على من مات منهم أنه كيف يكون حالهم، فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنهم بهذه الآية، وبين أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل، إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يحترزوا عنه. والمعنى؛ أي: وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين، بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يبين لكم بالوحي ما يجب الاحتراز عنه من محظورات الدين، فلا تنزجروا عما نهيتم عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من المعلرمات ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فبين لهم ذلك؛ أي: أنه تعالى عليم بجميع الأشياء، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان، فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء أنفسهم، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم في استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله، وكذلك لا يؤاخذ النبي، والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم، وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى.

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، وذلك يستدعي التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد.. بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسلطنتهما والتصرف فيهما كيف يشاء؛ أي: أنه تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره في السموات والأرض وهو الذي ﴿يحيي﴾؛ أي: يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين، ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يشاء حين انقضاء أجله، ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غيره، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أموركم، ﴿وَلَا﴾ من، ﴿نَصِيرٍ﴾ ينصركم على أعدائكم؛ أي: وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم، ولا من ينصركم على عدوِّكم غير الله تعالى، فلا

(١) المراح.

تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى، الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوي الأرحام، ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه.

والحاصل: أنه تعالى لما أمر بالبراءة من الكفار، بين أن له ملك السموات والأرض، فإذا كان هو ناصراً لكم.. فهم لا يقدرون على إضراركم؛ أي: أنكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم.. فالإله الذي هو المالك للسموات والأرض، والمحيي والمميت ناصركم، فلا يضركم أن ينقطعوا عنكم، والواجب عليكم أن تنقادوا لحكم الله تعالى وتكليفه، لكونه إلهكم، ولكونكم عبيداً له. ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، ﷺ؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد عفا الله سبحانه وتعالى عن النبي، محمد، ﷺ، فيما وقع منه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك، وهو شيء صدر منه من باب ترك الأولى والأفضل، لا أنه ذنب يوجب عقاباً؛ لأنه معصوم، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، ويحتمل أن يكون ذكر النبي، بالتوبة عليه تشريفاً للمهاجرين والأنصار؛ حيث ضم توبتهم إلى توبة النبي، ﷺ، كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فهو تشريف له، ﷺ، ﴿و﴾ كذلك تاب الله سبحانه وتعالى على ﴿المهاجرين والأنصار﴾؛ أي: عفا[1] عنهم عما وقع منهم، من الوساوس، والخطرات النفسانية التي وقعت في قلوبهم، من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك؛ لأنها كانت في وقت حر شديد، وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم، وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم، وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخطرات. وقيل: إن الإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل، ثم إن النبي، ﷺ، والمؤمنين لما تحملوا مشاق هذا السفر، ومتاعبه، وصبروا على تلك الشدائد التي حصلت لهم في هذا السفر، غفر الله لهم، وتاب عليهم، لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي، ﷺ، وإنما ضم ذكر النبي، ﷺ، إلى ذكرهم؛ تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين، وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي

---

(١) الفتوحات.

لأجلها ضم ذكر النبي، ﷺ، إلى ذكرهم.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ ﷺ ولم يتخلفوا عنه، ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ والمشقة؛ أي:[1] في الزمان الذي صعب عليهم الأمر جداً في السفر إلى تبوك وكانت لهم عسرة من الزاد، وعسرة من الظهر، وعسرة من الحر، وعسرة من الماء، فربما مص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها، حتى لا يبقى من التمرة إلا النواة، وكان معهم شيء من شعير مسوس، فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة، وكانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم، وكانوا قد خرجوا في قيظ شديد، وأصابهم فيه عطش شديد، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه ويشربه، وكانت تلك الغزوة تسمى غزوة العسرة، وجيشها يسمى جيش العسرة.

وقد ذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ سار إلى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من سائر القبائل، ا هـ «خازن». و المراد بالساعة هنا، مطلق الوقت والزمن، لا الساعة الفلكية كما أشرنا إليه في الحل.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾ إلخ بيان[2] لتناهي الشدة وبلوغها النهاية؛ أي: الذين اتبعوه في وقت المشقة والشدة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم إلى أن يفارق النبي، ﷺ، في ذلك الغزو لحر شديد، ولم ترد الميل عن الدين، وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم، وكيف لنا بالخلاص منها؛ ولكنهم صبروا واحتسبوا، وندموا على ما خطر في قلوبهم، فلأجل ذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي: عفا الله عنهم ما وقع في قلوبهم من تلك الخواطر والوساوس، لما صبروا وندموا على ذلك الهم، يعني، أنه سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم،

---

(١) المراح.
(٢) الفتوحات.

وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة. وفي تكرير[1] التوبة تأكيد ظاهر، واعتناء بشأنها إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق.. فلا تكرار، أو يراد بالأول: إنشاء التوبة، وبالثاني: استدامتها. فإن[2] قلت: قد ذكر التوبة أولاً، ثم ذكرها ثانياً، فما فائدة التكرار؟

قلتُ: إنه تعالى ذكر التوبة أولاً، قبل ذكر الذنب، تفضلاً منه، وتطييباً لقلوبهم، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى؛ تعظيماً لشأنهم، وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم.

ثم علل قبول توبتهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيداً لذلك؛ أي: إنه سبحانه وتعالى رؤوف بهم؛ أي: منعم عليهم بجلائل النعم التي منها مجرد الإيمان، وأنه رحيم بهم؛ أي: منعم عليهم بدقائقها التي منها قوة الإيمان وزيادته بقبول التوبة. وقيل: معنى رؤوف؛ أي: مكرم لهم بدفع المضار عنهم، رحيم بهم بجلب المنافع لهم. وفي «الفتوحات» الرأفة، عبارة عن السعي في إزالة الضرر، والرحمة، عبارة عن السعي في إيصال النفع، اهـ. وقيل: رؤوف بهم، فلا يحملهم ما لا يطيقون من العبادة رحيم بهم، فلا[3] يهملهم بأن ينزع الإيمان منهم، بعد ما أبلوا في الله، وأبلوا مع رسوله، وصبروا في البأساء والضراء.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿كَادَ يَزِيغُ﴾ بالياء التحتية. وقرأ باقي السبعة: ﴿تزيغ﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ الأعمش، والجحدري: ﴿تزيغ﴾ بضم التاء. وقرأ أبي: ﴿من بعد ما كادت تزيغ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿من بعد ما زاغت﴾.

ومعنى تزيغ: تتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل، معناه: تميل عن الحق، وتترك المناصرة والممانعة، وقيل معناه: تهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وفائدة هذا العطف، بيان قبول توبتهم؛ أي: ولقد تاب الله سبحانه

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

وتعالى على النبي والمهاجرين وعلى الثلاثة، ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾؛ أي: أخروا في قبول توبتهم عن الطائفة الأولى التي خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً كأبي لبابة وأصحابه وهؤلاء الثلاثة، هم كعب بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية، الذي نزلت فيه آية اللعان، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وهم المرادون بقوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وكلمة إذا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ زائدة، وفي «الفتوحات» ولا بد من ادعاء أحد أمرين، إما ادعاء زيادة إذا وإما ادعاء زيادة ثم، وقد نص «زكريا على البيضاوي» على زيادة ثم وغيره على زيادة إذا؛ أي: أخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: مع رحبها وسعتها بسبب مجانبة الأحباء، ونظر الناس لهم بعين الإهانة والتحقير؛ لأن النبي، ﷺ، كان معرضاً عنهم ومنع المؤمنين من مكالمتهم وأمرهم باعتزال أزواجهم، وبقوا على هذه الحالة خمسين ليلة.

والمعنى: خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعاً، خوفاً من العاقبة وجزعاً من إعراض النبي، ﷺ، والمؤمنين عنهم، وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة، وهذا مثل للحيرة في الأمر، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه قال قائلهم:

كَأَنَّ فِجَاجَ ٱلْأَرْضِ وَهِيَ فَسِيْحَةٌ عَلَىٰ ٱلْخَائِفِ ٱلْمَطْلُوْبِ كَفَّةُ حَابِلِ

ثم ترقى وانتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم فقال: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وأخروا إلى أن ضاقت قلوبهم إذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمئنون بشيء، بسبب تأخير أمرهم من قبول التوبة.

والمعنى: وضاقت أنفسهم على أنفسهم لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم، بامتلائها بالهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكاناً ترتاح إليه وتطمئن به.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: وأخروا إلى أن ظنوا وأيقنوا

وعلموا أنه لا ملجأ ولا منجا لأحد من سخطه تعالى وغضبه إلا إليه تعالى، بالتوبة والاستغفار ورجاءِ رحمته، وقد أعرض عنهم رسوله البرّ الرحيم بأصحابه، فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه، واستغفاره، إلا أنه ﷺ، لا يشفع في الدنيا، ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الثلاثة؛ أي: ثم وفقهم التوبة الصحيحة المقبولة ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾؛ أي: ليحصلوا التوبة، وينشئوها، فبهذا المعنى تحصل المغايرة، ويصح التعليل. وفي «البيضاوي» ثم تاب عليهم بالتوفيق للتوبة ليتوبوا، أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التوابين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم، ا هـ.

وفي «الخازن» ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فيما مضى، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾؛ أي: ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة في المستقبل، فيرجعوا ويداوموا عليها. وقيل: إن أصل التوبة الرجوع، ومعناه حينئذٍ: ثم تاب عليم ليتوبوا؛ أي: ليرجعوا إلى حالتهم الأولى، يعني: إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك، ا هـ ببعض تصرف. وفي «المراغي» ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم. ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته، واتباع رسوله، ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الكثير الرحمة للمحسنين، المتفضل عليهم بضروب النعم، مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب، ولما نزلت هذه الآية، خرج رسول الله، ﷺ، من حجرته وهو عند أم سلمة فقال: الله أكبر، قد أنزل الله عذر أصحابنا، فلما صلى الفجر، أخبر ذلك لأصحابه وبشرهم بأن الله تاب عليهم، فانطلقوا إلى رسول الله، ﷺ، وتلا عليهم ما نزل فيهم. وقال كعب بن مالك: توبتي إلى الله، أن أخرج عن مالي صدقة، فقال: لا، قلت: فنصفه، قال: لا، قلت: فثلثه، قال: نعم. وقصتهم مشهورة مذكورة في حديث رواه البخاري وغيره، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وراقبوه بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، ﴿وَكُونُواْ﴾ في الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا في

الآخرة، ﴿مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في الجنة، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب، ويؤيدونه بالحلف.

وقيل: ﴿مع﴾ هنا بمعنى من، بدليل القراءة الشاذة التي حكاها أبو السعود، والمعنى: كونوا من الصادقين في الأقوال والأفعال والاعتقاد. وفي قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بعد قصة الثلاثة، الإشارة إلى أنّ هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق، ما حصل لهم من توبة الله تعالى، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم. أخرج الحاكم، عن ابن مسعود، عن النبي، ﷺ، أنه قال: «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له اقرءوا إن شئتم» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾. وأخرج البيهقي مرفوعاً: إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، إنه يقال: للصادق صدق وبر، ويقال: للكاذب كذب وفجر، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صادقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً. ولا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب، أو إصلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها؛ أي: في التحبب إليها بوصف محاسنها، ورضاه عنها لا في مصالح الدار والعيال وغيرها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، عن أسماء بنت يزيد، عن النبي، ﷺ، قال: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب، أو صلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها» ولا شك أن في المعاريض ما يغني العاقل عن الكذب، كما جاء في الحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب».

وروي[١]: أن رجلاً جاء إلى النبي، ﷺ، وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب، والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء، ولا طاقة لي على تركها بأسرها، فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت

(١) المراح.

بك، فقال ﷺ: «اترك الكذب» فقبل ذلك ثم أسلم. فلما خرج من عند النبي، ﷺ، عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول عن شربها وكذبت.. فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها. ثم عرضوا عليه الزنا، فجاء ذلك الخاطر فتركه، وكذا في السرقة، فتاب عن الكل فعاد إلى رسول الله، ﷺ، وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب، انسدت أبواب المعاصي عليَّ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿خلفوا﴾ بتشديد اللام مبنياً للمفعول. وقرأ أبو مالك: كذلك. وخفف اللام. وقرأ عكرمة بن هارون، المخزومي، وزر بن حبيش، وعمرو بن عبيد، ومعاذ القارىء، وحميد، بتخفيف اللام مبنياً للفاعل. ورويت عن أبي عمرو؛ أي؛ خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة. وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، كذلك مشدد اللام. وقرأ أبو زيد، وأبو مجلز، والشعبي، وابن يعمر، وعلي بن الحسين، وابناه زيد ومحمد الباقر وابنه جعفر الصادق: ﴿خالفوا﴾ بألف؛ أي: لم يوافقوا على الغزو. وقرأ الأعمش: ﴿وعلى الثلاثة المخلفين﴾ ولعله قرأ: كذلك على سبيل التفسير؛ لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: ﴿من الصادقين﴾ ورويت عن النبي، ﷺ، وقرأ زيد بن علي، وابن السميقع وأبو المتوكل ومعاذ القارىء: ﴿مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بفتح القاف وكسر النون على التثنية، ويظهر أنهما الله ورسوله لقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

الإعراب

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

(١) البحر المحيط.

﴿وَالَّذِينَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿الذين﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: ومنهم الذين اتخذوا، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾. ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿ضِرَارًا﴾: مفعول لأجله، أو مفعول ثانٍ ﴿لاتخذوا﴾. ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾: معطوفان عليه. ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تفريقاً﴾. ﴿وَإِرْصَادًا﴾: معطوف عليه أيضاً ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿إرصاداً﴾. ﴿حَارَبَ اللَّهَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بحارب.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ الواو: استئنافية. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يحلفن﴾: فعل مضارع مرفوع، لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَرَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة، جواب لجواب القسم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ جواب لقوله: ﴿ليحلفن﴾ فوقع جواب القسم المقدر فعل قسم مجاب بقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ انتهى. أو الجملة مقول لقول محذوف تقديره: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ قائلين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: صفة لموصوف محذوف، واقع مفعولاً به ﴿لأردنا﴾ تقديره: إن أردنا إلا الخصلة الحسنى. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾ خبره والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب. والهاء: اسمها. ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿كاذبون﴾: خبر إن مرفوع بالواو، وجملة إن في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يَشْهَدُ﴾؛ لأنه بمعنى، يعلم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة ﴿تَقُمْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله

ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ ﴿تَقُمْ﴾ ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾ اللام: حرف ابتداء أو لام قسم ﴿مسجد﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿أُسِّسَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على مسجد، والجملة الفعلية صفة ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾. ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أُسِّسَ﴾. ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أُسِّسَ﴾. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو جواب لقسم محذوف. ﴿أَن تَقُومَ﴾: فعل وناصب، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أحق بالقيام فيه ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُحِبُّونَ﴾ صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾: والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ فعل وفاعل، وناصب، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليحبون، تقديره يحبون الطهارة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾.

﴿أَفَمَنْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أبعد ما علم حالهم فمن أسس بنيانه على تقوى من الله إلخ. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أَسَّسَ﴾: أو حال من فاعل ﴿أَسَّسَ﴾؛ أي: حالة كونه قاصداً تقوى الله ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لتقوى. ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾: معطوف على ﴿تقوى﴾. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة المذكورة آنفاً.

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿أَمْ﴾: متصلة عاطفة. ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَسَّسَ﴾ ﴿جُرُفٍ﴾ مضاف إليه ﴿هَارٍ﴾: صفة لـ ﴿جُرُفٍ﴾ مجرور بكسرة ظاهرة، أو مقدرة، كما سيأتي البحث عنه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى ﴿فَٱنْهَارَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿انهار﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على البنيان. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿انهار﴾ والضمير يعود على الباني، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسَّسَ﴾، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾: فاعله إما ضمير البنيان، والهاء في ﴿بِهِۦ﴾ على هذا. . ضمير المؤسس الباني؛ أي: فسقط بنيان الباني على شفا جرف هار، وإما ضمير الشفا، وإما ضمير الجرف؛ أي: فسقط الشفا أو سقط الجرف، والهاء في به للبنيان، ويجوز أن تكون للباني المؤسس، والأولى أن يكون الفاعل ضمير الجرف؛ لأنه يلزم من انهياره انهيار الشفا والبنيان جميعاً، ولا يلزم من انهيارهما أو انهيار أحدهما انهياره، والباء في ﴿بِهِۦ﴾: يجوز أن تكون للتعدية، وأن تكون للمصاحبة، وقد تقدم لك خلاف أول هذا الموضوع أن التعدية عند بعضهم، تستلزم المصاحبة، وإذا قيل: إنها للمصاحبة هنا فتتعلق بمحذوف؛ لأنها: حال؛ أي: فانهار مصاحباً له، ا هـ «سمين». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿انهار﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿لَا يَزَالُ﴾: فعل مضارع ناقص من أخوات كان ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ﴾: اسمها. ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل الرفع، صفة لـ ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ﴾. ﴿بَنَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: الذي بنوه. ﴿رِيبَةً﴾: خبر زال، منصوب به ولكنه على حذف مضاف، تقديره: سبب ريبة وشك في الدين. ﴿فِى

﴿قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿رِيبَةً﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأوقات، أو ﴿إِلَّآ﴾ حرف بمعنى: إلى الجارة، كما قيل، ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بإضافة المستثنى المحذوف إليه، تقديره: لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم في جميع الأوقات، إلا وقت تقطع قلوبهم وتمزقها بالموت، أو في تأويل مصدر، مجرور بإلا بمعنى، إلى تقديره: لا يزال بنيانهم ريبة في قلوبهم إلى تقطع قلوبهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَزَالُ﴾ وجملة يزال مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿اشْتَرَىٰ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿اشْتَرَىٰ﴾ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَأَمْوَالَهُم﴾: معطوف عليه. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جرٍ و (أن): حرف نصب ومصدر ﴿لَهُمُ﴾: خبر أن مقدم على اسمها. ﴿الْجَنَّةَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة أن في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: بكون الجنة لهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿اشْتَرَىٰ﴾ ودخلت الباء هنا على المتروك على بابها، وسماها أبو البقاء: باء المقابلة، كقولهم: باء العوض، ذكره: في «الفتوحات». ﴿يُقَاتِلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان الاشتراء، ذكره: أبو السعود. ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿يقتلون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان البيع الذي يستلزمه الشراء، أو لبيان تسليم المبيع. ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يَقْتُلُون﴾. ﴿وَعْدًا﴾: منصوب على المصدرية بفعل محذوف، تقديره: وعدهم ذلك وعداً، والجملة المحذوفة مستأنفة. مسوقة

لتأكيد ما قبلها. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾ ﴿حَقًّا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، تقديره وحق ذلك الوعد حقاً، أي: تحقق، وثبت والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها، ويصح كون ﴿حَقًّا﴾ صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾. ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اشْتَرَى﴾ أو صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعلق باشترى، وعلى هذا فتكون كل أمة قد أمرت بالجهاد، ووعدت عليه الجنة.

والثاني: أنه متعلق بمحذوف؛ لأنه صفة الوعد؛ أي: وعداً مذكوراً وكائناً في التوراة، وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكوراً في كتب الله المنزلة، ا هـ «سمين». ﴿وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾: معطوفان على التوراة. ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾: الواو اعتراضية. ﴿من﴾: اسم استفهام، للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ ﴿أَوْفَى﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة، والجملة اعتراضية، مقررة لمضمون ما قبلها، من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه أوفى بالعهد من كل وافٍ، فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم، فكيف بجانب الخالق، ا هـ أبو السعود. ﴿بِعَهْدِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَوْفَى﴾ وكذلك يتعلق به قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾. ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾: الفاء: عاطفة. ﴿استبشروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾. ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾: متعلق به. ﴿الَّذِي﴾ صفة للبيع. ﴿بَايَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به والجملة صلة الموصول. ﴿وَذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿الْفَوْزُ﴾: خبر. ﴿الْعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

﴿التَّائِبُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أولئك المؤمنون هم التائبون، والجملة في محل الجر، صفة للمؤمنين في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ﴾: أخبار بعد خبر لذلك المبتدأ المحذوف. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ﴾ ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾: معطوف على الآمرون أيضاً. ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان والجملة مستأنفة.

فائدة: وإنما عُطف قولهُ: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ على ما قبله للمضادة بينهما، إذ الأول طلب فعل، والثاني طلب ترك كما مر. وقيل: إنما عطفه بالواو إشارة إلى أن مدخولها هو الوصف الثامن، وذلك؛ لأنها عندهم تسمى: واو الثمانية وتدخل على ما يكون ثامناً، ا هـ شيخنا. وفي «أبي السعود»: والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة، كأنه قال: الجامعون بين الوصفين ا هـ ذكره في «الفتوحات».

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: جار ومجرور. خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على النبي. وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن المصدرية ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، تقديره: ما كان جائزاً للنبي، والذين آمنوا استغفارهم للمشركين، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟﴾ الواو: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله تقديره: ولو كانوا أولى ما يجوز استغفارهم لهم، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة محذوفة، واقعة حالاً من المشركين، تقديرها: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إن كانوا غير أولي قربى، ولو كانوا أولي قربى؛ أي: حالة كونهم مغايرين لأولي قربى، وموصوفين بالقرابة. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَانَ﴾: أو متعلق بـ ﴿يَسْتَغْفِرُوا۟﴾. ﴿مَا﴾

مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿تَبَيَّنَ﴾ تقديره: من بعد ما تبين كونهم من أصحاب الجحيم، وجملة ﴿تَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد تبين كونهم من أصحاب الجحيم.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتِغْفَارُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿مَّوْعِدَةٍ﴾، والتقدير: وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا كائنا عن موعدة وعدها إياه.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾، الفاء: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق به ﴿أَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر أن. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿عَدُوٌّ﴾ وجملة، أن في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية، لـ ﴿تَبَيَّنَ﴾ تقديره: فلما تبين له كونه عدواً لله، والجملة الفعلية فعل شرط للما، لا محل لها من الإعراب. ﴿تَبَرَّأَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، وجملة ﴿تَبَرَّأَ﴾ جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿أواه﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿حَلِيمٌ﴾: صفة ﴿أواه﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص،

واسمه. ﴿لِيُضِلَّ﴾، اللام: حرف جر وجحود. ﴿يضل﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير مستتر فيه، يعود على الله. ﴿قَوۡمَۢا﴾: مفعول به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: وما كان الله لإضلاله قوما، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف، لوقوعه خبراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الله مريداً لإضلاله قوماً، هذا على مذهب البصريين. وعند الكوفيين. فاللام زائدة، والتقدير: وما كان الله مضلاً قوماً وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿بَعۡدَ﴾ منصوب على الظرفية ﴿إِذۡ﴾: حرف بمعنى أن المصدرية. ﴿هَدَىٰهُمۡ﴾: فعل ومفعول في محل النصب بإذ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: بعد هدايته إياهم، والظرف متعلق بـ ﴿يضل﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ ﴿إِذۡ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن إذ بمعنى أن.

الثاني: أنها ظرف بمعنى وقت، أي: بعد أن هداهم أو بعد وقت هداهم فيه، ا هـ. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُبَيِّنَ﴾: منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يَتَّقُونَۚ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما يتقونه، وجملة ﴿يُبَيِّنَ﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، بمعنى، إلى تقديره: حتى تبيينه لهم ما يتقون الجار والمجرور متعلق بيضل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ

ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على الجملة الاسمية على كونها خبراً ﴿لإن﴾. وجملة قوله: ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوفة على ﴿يُحْيِۦ﴾. ﴿وَمَا لَكُم﴾، الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور، خبر مقدم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿مِن﴾: زائدة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَّقَد﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿تَّابَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: متعلق بـ ﴿تَّابَ﴾. ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾: معطوفان على النبي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة لكل من ﴿المهاجرين والأنصار﴾. ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَادَ﴾: زائدة لفظاً، لا عمل لها وإن كان معناها مراداً بدليل قراءة ابن مسعود ﴿من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم﴾ ﴿يَزِيغُ﴾: فعل مضارع. ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾: فاعل، ومضاف إليه. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لفريق، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾: المصدرية ﴿مَا﴾: مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد مقاربة زيغ قلوب فريق منهم. ﴿ثُمَّ تَابَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾. متعلق به. والجملة معطوفة على جملة تاب الأول ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِهِمْ﴾ تنازع فيه ما بعده؛ لأن التنازع يكون في المتأخر كما يكون في المتقدم. ﴿رَءُوفٌ﴾: خبر أول

لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ له، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؛ أي لقد تاب الله على النبي والمهاجرين وعلى الثلاثة، أو معطوف على عليهم؛ أي: ثم تاب عليهم وعلى الثلاثة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للثلاثة. ﴿خُلِّفُواْ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: زائدة. ﴿ضَاقَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بحتى بمعنى: إلى؛ لأن أن المصدرية مقدرة بعدها إذا جعلنا إذا زائدة، تقديره: خلفوا وأخروا عن التوبة إلى ضيق الأرض ﴿عَلَيْهِمُ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خُلِّفُواْ﴾. ﴿بِمَا﴾ الباء: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿رَحُبَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الأرض، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: برحبها، الجار والمجرور متعلق بضاقت. ﴿وَضَاقَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة قوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس. ﴿مَلْجَأَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر ﴿لَّا﴾: تقديره: إنه لا ملجأ موجود من الله، ويحتمل تعلق الجار والمجرور بملجأ، وخبر ﴿لَّا﴾: محذوف، تقديره: لا ملجأ من الله موجود وجملة ﴿لَّا﴾: من اسمها وخبرها، في محل الرفع خبر أن المخففة وجملة أن المخففة سادة مسد مفعولي ظن. ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾: ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على كونه خبر ﴿لَّا﴾ مثل قولنا «لا إله إلا الله» كما ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إلا إليه﴾

مستثنى من مقدر؛ أي: لا ملجأ لأحد ولا اعتماد على أحد إلا إليه تعالى، ا هـ من «السمين». ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: معطوف على ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ على كونه مجروراً بـ ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿لِيَتُوبُوا﴾ اللام: لام كي. ﴿يتوبوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: ثم تاب عليهم لتوبتهم، الجار والمجرور متعلق بتاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿التَّوَّابُ﴾ خبر أول لإن. ﴿الرَّحِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة إن مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿الَّذِينَ﴾: في محل الرفع، صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكُونُوا﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿كونوا﴾ تقديره: وكونوا مصاحبين بالصادقين؛ أي: من الصادقين، وجملة كونوا معطوفة على جملة ﴿اتَّقُوا﴾ على كونها جواب النداء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: الضرار والمضارة محاولة إيقاع الضرر، ﴿والإرصاد﴾: الانتظار والترقب مع العداوة، يقال: رصدته؛ أي: قعدت له على طريقه أترقبه، وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾: الحسنى مؤنث الأحسن، وهو صفة لموصوف محذوف، تقديره: إلا الخصلة الحسنى، أو إلا الحالة الحسنى، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لا تصل فيه.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: أسس[1] على وزن فعل مضعف العين، وآسس على وزن فاعل، إذا وضع الأساس وهو معروف، ويقال فيه: أس والتأسيس وضع

(١) البحر المحيط.

الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع، والتقوى اسم لما يرضي الله ويقي من سخطه.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: أحق اسم التفضيل على غير بابه، أو المفاضلة باعتبار زعمهم، أو بالنظر له في ذاته فإن المحظور قصدهم ونيتهم، ا هـ «جمل». ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾: والبنيان مصدر، كالغفران، أطلق على المبنى كالخلق بمعنى، المخلوق، وقيل: هو جمع، واحده بنيانة، ذكره أبو حيان. ﴿شَفَا﴾، أي: حرف وفي «المصباح» وشفا كل شيء طرفه وحرفه مثل النوى، ا هـ. ﴿جُرُفٍ﴾، والجرف بضمتين جانب الوادي ونحوه، والجرف أيضاً البئر التي لم تطو. وقال أبو عبيدة: الجرف الهوة وما يجرفه السيل من الأودية. ﴿هَارٍ﴾: والهار والهائر كالشاك والشائك، الضعيف المتداعي للسقوط، يتداعى بعضه إثر بعض. وأصله[1] هاير أو هاور فقلبت الياء أو الواو همزة ثم حذفت الهمزة اعتباطاً فوزنه فال، فهو محذوف العين. وقيل: إنه منقوص، كقاض وأصله هاور، ثم نقلت الواو بعد الراء، ثم قلبت ياءً فصار كقاض، ثم حذفت الياء فإعرابه بحركات مقدرة عليها، ا هـ شيخنا. وفي «المختار» هار الجرف، من باب قال، وهوراً أيضاً، فهو هائر ويقال: أيضاً جرف هار، ا هـ. وفي «السمين» هار الجرف، فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو المشهور أنه مقلوب بتقديم لامه على عينه، وذلك أن أصله هاور أو هاير بالواو أو بالياء لأنه سمع فيه الحرفان قالوا: هار يهور ويهار وهار يهير، وتهور البناء وتهير فقدمت اللام وهي الراء على العين وهي الواو أو الياء، فصار كغاز ورام فأعل بالنقص كإعلالهما، فوزنه بعد القلب فالع ثم نزنه بعد الحذف على فال.

القول الثاني: أنه حذف عينه اعتباطاً؛ أي: لغير موجب، وعلى هذا فتجري وجوه الإعراب على لامه فيقال هذا هار ورأيت هاراً ومررت بهار ووزنه أيضاً فال.

---

(١) الفتوحات.

القول الثالث: أنه لا قلب فيه ولا حذف وأن أصله هور أو هير بوزن كتف فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقلب ألفاً، وعلى هذا فتجري عليه وجوه الإعراب أيضاً كالذي قبله، كما تقول هذا باب، ورأيت باباً، ومررت بباب، وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل لولا أنه غير مشهور عند أهل التصريف، ومعنى هار؛ أي: ساقط متداع منهال ا هـ ﴿فَٱنۡهَارَ﴾؛ أي: سقط. ﴿رِيبَةً﴾؛ أي: سبب ريبة وشك في الدين، والريبة من الريب. وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والحيرة. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۚ﴾: يقال تقطع الشيء إذا تفرقت أجزاؤه، وتمزقت، وهو من باب تفعل الخماسي ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ﴾: والاستبشار: إظهار السرور، والسين: ليست للطلب بل للمطاوعة، كاستوقد وأوقد. وفي «الكرخي»، ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ﴾؛ أي: إفرحوا به غاية الفرح، واستفعل هنا، ليس للطلب، بل بمعنى، أفعل كاستوقد وأوقد، ا هـ. ﴿لأواه﴾؛ أي: يكثر التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه، ا هـ «بيضاوي». والتأوه، أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع: آه، ا هـ «زاده». وفي «المختار» وقد أوه الرجل تأويهاً وتأوه تأوهاً، إذا قال أَوَّهُ ا هـ. وفي «المراغي» الأواه الكثير التأوه والتحسر، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه، وقيل: إنها كلمة حبشية الأصل، ومعناها: المؤمن أو الموقن، ا هـ.

وفي «السمين» والأواه الكثير التأوه، وهو من يقول أواه. وقيل: من يقول، أوه، وهو أنسب؛ لأن: أوه بمعنى، أتوجع فالأواه، فعال، مثال مبالغة من ذلك، وقياس فعله أن يكون ثلاثياً؛ لأن: أمثلة المبالغة إنما تطرد في الثلاثي، وقد حكى: قطرب فيه فعله ثلاثياً، فقال: يقال، آه يؤوه أوهاً، كقال يقول قولاً، وأنكر النحويون: هذا القول على قطرب، وقالوا: لا يقال من أوه بمعنى، أتوجع فعل ثلاثي، وإنما يقال: أوه تأويهاً، وتأوه تأوهاً ا هـ.

وعبارة الخازن: جاء في الحديث أن الأواه الخاشع المتضرع. وقال ابن مسعود: الأواه الكثير الدعاء. وقال ابن عباس: هو المؤمن التواب. وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله. وقال مجاهد: الأواه الموقن وقال كعب

الأحبار: هو الذي يكثر التأوه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: أوه من النار، قبل أن لا ينفع أوه. وقال عقبة بن عامر: الأواه الكثير الذكر لله. وقال سعيد بن جبير: هو المسبح، وعنه: أنه المعلم للخير. وقال عطاء: هو الراجع عما يكره الله، الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوه شفقاً وفرقاً، المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة. وقال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة، جميع ما قيل، في الأواه، وأصله من التأوه، وهو أن يسمع للصدر صوت بتنفس الصعداء، والفعل منه أوه، وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه، والسبب فيه أنه عند الحزن تحمى الروح داخل القلب، ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخفف بعض ما به من الحزن والشدة.

وأما ﴿الحليم﴾: فمعناه ظاهر، وهو الصفوح عمن سبه، أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم مع أبيه حين قال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فأجابه إبراهيم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وقال ابن عباس: الحليم السيد ا هـ.

وعبارة المراغي: ﴿والحليم﴾ هو الذي لا يستفزه الغضب، ولا يعبث به الطيش، ولا يستخفه هوى النفس، ومن لوازم ذلك: الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور، واتقاء العجلة في الرغبة والرهبة، ا هـ.

﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾: الشدة والضيق ﴿تزيغ قلوب﴾ من زاغ القلب، مال عن الحق من زاغ يزيغ زيغاً، كباع يبيع بيعاً، ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، يقال: رحب من باب ظرف رحباً، والرحب بضم الراء السعة، وبفتحها المكان المتسع، فمضمومها مصدر ومفتوحها مكان، ومنه يقال: فلان رحب الصدر، بضم الراء، واسعه وقولهم مرحباً وأهلاً؛ أي: أتيت سعة وأتيت أهلاً، فاستأنس ولا تستوحش ورحب به ترحيباً إذا قال له مرحباً. ﴿مَلْجَأَ﴾، الملجأ؛ اسم مكان من لجأ إلى الحصن، أو غيره، من باب قطع، إذا لاذ إليه واعتصم به.

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرأفة، العناية بالضعيف والرفق به، والرحمة: السعي في إيصال المنفعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿أُسِّسَ﴾.

ومنها: جناس المحرف في قوله: ﴿أسس وأسس﴾ لاختلافهما في الشكل.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للتنبيه على علة الحكم، أي: سبب استحقاقهم الجنة هو إيمانهم، وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان، وهو الجنة ذكره أبو السعود، وفي قوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، لأن مقتضى السياق أن يقول أم من أسسه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾، وفي قوله: ﴿أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ﴾، وفي قوله: ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾، وفي قوله: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿تَّابَ﴾.

ومنها: الجناس المحرف في قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ لاختلافهما في الشكل سمي محرفاً لانحراف إحدى الهيئتين عن هيئة الآخر.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء؛ تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل، فهو مستعمل في معناه الحقيقي، أو مجاز، فتأسيس لبنيان بمعنى، إحكام أمور دينه أو تمثيل لحال من أخلص لله، وعمل الأعمال الصالحة، بحال من بنى شيئاً محكماً، مؤسساً يستوطنه، ويتحصن فيه، أو البنيان: استعارة أصلية والتأسيس: ترشيح، اهـ «شهاب».

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ هو كناية عن إحكام أمور دينه وترتيبها على ضلال وكفر ونفاق، وقوله: ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ المراد به هنا، الضلال وعدم التقوى.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ شبه بذلهم الأموال والأنفس، وإثابتهم عليها بالجنة، بالبيع والشراء بجامع المعاوضة في كل.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرورهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما.

ومنها: الطباق بين ﴿لِيُضِلَّ﴾ و ﴿إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ وكذلك بين ﴿يحيي ويميت﴾ وبين ﴿ضاقت ورحبت﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ إعتناءً بشأنه وإظهاراً لفضله.

ومنها: الاستفهام والحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟
بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا
رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[١] سبحانه وتعالى لما ذكر توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.. أكد هنا وجوب متابعة الرسول، والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه.

وقال أبو حيان[٢]: مناسبتها لما قبلها: أنه لما أمر المؤمنين بتقوى الله،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وأمر بكينونتهم مع الصادقين، وأفضل الصادقين رسول الله، ﷺ، ثم المهاجرون والأنصار. اقتضى ذلك موافقة الرسول وصحبته، أنى توجه من الغزوات والمشاهد، فعوتب العتاب الشديد من تخلف عن الرسول، ﷺ، في غزوة تبوك، واقتضى ذلك الأمر بصحبته، وبذل النفوس دونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد، مع بيان حكم العلم والتفقه في الدين، من قبل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان، وهو الركن الركين في الدعوة إلى الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حمايةً وسياجاً لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدي المعاندين والمعتدين من الكافرين والمنافقين.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن كلا النفيرين هو في سبيل الله، وإحياء دينه، هذا بالعلم، وهذا بالقتال، انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حض المؤمنين على التفقه في الدين، وحرض على رحلة طائفة من المؤمنين فيه.. أمر تعالى المؤمنين كافة بقتال من يليهم من الكفار، فجمع من الجهاد جهاد الحجة وجهاد السيف. وقال بعض الشعراء في ذلك:

مَـنْ لاَ يَـعُـدَّ لَـهُ ٱلْـقُـرْآنَ كَـانَ لَـهُ ... مِـنَ ٱلـصَّـغَـارِ وَبِـيْـضِ ٱلْـهِـنْـدِ تَـعْـدِيْـلُ

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر فيما سبق بقتال المشركين كافة.. أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد في هذا الباب، وهو أن يبدؤوا بقتال من يليهم، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد، وهكذا، وقد فعل النبي، ﷺ، وصحابته كذلك، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق، وكذلك

---

(١) البحر المحيط.

في أمر الدعوة، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف في طريقها من المشركين فقال: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما ذكر ضروباً من مخازي المنافقين، كتخلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة.. ذكر هنا ضروباً أخرى من تلك المثالب، كتهكمهم بالقرآن، وتسللهم لواذاً حين سماعه، وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم، وفي المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...﴾ الآية، مناسبتها: أنه تعالىٰ لما ذكر أنهم[2] بموتهم على الكفر رائحون إلى عذاب الآخرة.. ذكر أنهم أيضاً في الدنيا لا يخلصون من عذابها.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقص فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم، والمن عليهم بكونهم جاءهم رسول من جنسهم، أو من نسبهم، عربياً قرشياً يبلغهم عن الله، متصف بالأوصاف الجميلة، من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم.

وعبارة المراغي: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أمر رسوله في هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة.. ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم، إلا أنه يشق عليه ضررهم وتعظم رغبته في إيصال خيري الدنيا والآخرة إليهم، فهو كالطبيب المشفق، والأب الرحيم عليهم، والطبيب الحاذق، ربما أقدم على علاج يصعب تحمله، والأب الرحيم

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ...﴾ الآية، أخرج[1] ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: لما نزلت آية ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد كان تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أصحاب البوادي فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾. وأخرج عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله، ﷺ، سرية خرجوا فيها، وتركوا النبي، ﷺ، بالمدينة في رقة من الناس فنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

وفي قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله، ﷺ؛ أي: ما صح ولا جاز لأهل المدينة عاصمة الإسلام ومقر رسول الله، ﷺ، ولا ينبغي لساكنيها من المهاجرين والأنصار، ﴿و﴾ لا لـ ﴿من حولهم من الأعراب﴾؛ أي: من سكان البوادي، كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم، ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، ﷺ، ويتأخروا عنه في الخروج للغزو في سبيل الله، كما فعل بعضهم في غزوة تبوك، ولا في غيره من شؤون الأمة ومصالح الملة، فإن السمع والطاعة لرسول الله ﷺ، واجب وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا ندبوا وعينوا. وإنما[2] خصهم الله سبحانه وتعالى بالذكر؛ لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ، ﴿وَلَا﴾ أن، ﴿يَرْغَبُوا۟﴾ ويتخلفوا، ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن﴾ صيانة وحفظ، ﴿نفسه﴾ ﷺ، الشريفة فيشحون بأنفسهم ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ﷺ، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه

---

(١) لباب النقول.

(٢) الشوكاني.

أهل الشقاق، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ أي[1]؛ لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة.

والمعنى[2]: ولا ينبغي لهم أن يفضلوا أنفسهم على نفسه، فيرغبوا في الراحة والسلامة، ولا يبذلوها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة، بل عليهم أن يصحبوه في البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها فضلاً عن أن يربؤوا بأنفسهم عن متابعتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه.

والخلاصة: أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله، ﷺ، التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه.

وفي ذلك نهي شديد عن عملهم، وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته، ﷺ، بأنفة وحمية، والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب متابعته، ﷺ، والنهي عن التخلف عنه؛ أي: ذلك الوجوب والنهى عن التخلف عنه،ﷺ، ﴿بـ﴾ سبب، ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ ولا ينالهم في سفرهم ولا غزواتهم، ﴿ظَمَأٌ﴾ ولا عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب. وقرأ عبيد بن عمير: ﴿ظمأ﴾ بالمد مثل سفه وسفاها. وقرأ غيره: بالقصر وهما لغتان، مثل خطأ وخطاء. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ولا مجاعة ولو يسيراً، وكذا يقال، فيما قبله، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطاعته والجهاد لإعلاء كلمته، ﴿ولا يطئون﴾؛ أي: ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف بعيرهم ﴿مَوْطِئًا﴾؛ أي: دوساً ووطئاً، ﴿يَغِيظُ﴾ ويغضب، ﴿الْكُفَّارَ﴾ ويضيق صدورهم أو لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار يغيظهم الدوس فيها، يعني: ولا يضعون قدماً على الأرض يكون ذلك القدم سبباً لغيظ الكفار، وغمهم وحزنهم. وقرأ زيد بن علي: ﴿يغيظ﴾ بضم الياء ﴿وَلَا

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.

يَنَالُونَ﴾؛ أي: ولا يصيبون ﴿من عدو﴾ وكفار، ﴿نيلا﴾؛ أي: إصابة أسراً أو قتلاً أو هزيمةً أو غنيمةً، أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: إلا حالة كونهم يكتب لهم بكل واحد من الأمور الخمسة، ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ وثواب حسن جزيل؛ لأن من قصد طاعة الله تعالى، كان جميع حركاته وسكناته حسنات مكتوبةً له عند الله تعالى. وجملة[1] كتب، حالية فهذا التركيب نظير قولك: ما جاء زيد إلا راكباً، ا هـ شيخنا. وفي «أبي السعود» ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بكل واحد من الأمور المعدودة عمل صالح، وحسنة مقبولة، مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى، ا هـ.

والمعنى: أي لم[2] يكن لهم حق التخلف، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذًى وإن كان قليلاً كظمأ لقلة الماء أو نصب لبعد الشُّقَّة أو لقلة الظهر، أو مجاعة لقلة الزاد، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذي يعده استهانة بقوته، فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين، أو حوافر خيولهم، أو النيل منه بجرح، أو قتل أو أسر أو هزيمة، أو غنيمة إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه بالثواب العظيم، وما أكثر هذه الأعمال الصالحة التي تشمل كل حركة من بطشة يد، أو وطأة قدم، أو عروض جوع، أو عطش أو نحو ذلك، ولما كان الظمأ أشق الأشياء المؤذية للمسافر بكثرة الحركة وإزعاج النفس وخصوصاً في شدة الحر كغزوة تبوك، بدىء به أولاً، وثنى بالنصب وهو التعب؛ لأنه الكلال الذي يلحق المسافر والإعياء الناشىء من العطش والسير، وأتى ثالثاً بالجوع لأنه حالة يمكن الصبر عليها الأوقات العديدة، بخلاف العطش والنصب المفضيين إلى الخلود والانقطاع عن السفر، فكان الإخبار بما يعرض للمسافر أولاً فثانياً فثالثاً، ذكره أبو حيان.

وفي الآية إيماء إلى أن من قصد خيراً كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشي أو كلام، أو نحو ذلك مشكوراً مثاباً عليه وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

الحرب يشارك الجيش في الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم، ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لا يضيع أجر المحسنين﴾؛ أي: لا يبطل ولا يترك ثوابهم؛ أي: لا يترك إثابتهم على إحسانهم وهو تعليل[1] لكتب، وتنبيه على أن الجهاد إحسان، أما في حق الكفار؛ فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المداوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم؛ أي: إن الله تعالى لا يضيع محسناً أحسن في عمله، فأطاعه فيما أمره به، وانتهى عما نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا، فلم يضع لهم أجراً على عمل عملوه.

والخلاصة: أن هؤلاء محسنون ولا يبطل ثوابهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله، ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط، ﴿وَلَا﴾ نفقة ﴿كبيرة﴾ كما أنفق عثمان في جيش العسرة، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية؛ أي: ولا يجاوزون في مسيرهم في سبيل الله وادياً مقبلين، أو مدبرين فيه، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾؛ أي: إلا كتب الله لهم آثارهم وخطاهم، ونفقاتهم في صحائف أعمالهم، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لكي يجزيهم الله تعالى الجزاء الحسن؛ والثواب الوافر على جميع ما يعملونه في سبيل الله تعالى، قليلاً أو كثيراً.

والمعنى: أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أو كبر، قل أو كثر، وفي كل وادٍ يقطعونه في سيرهم غادين، أو رائحين إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاءً لهم على عملهم، ولا يترك شيء منه أو ينسى ليجزيهم بكتابته في صحف أعمالهم، كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر، جزاءً أحسن من

---

(١) البيضاوي.

جزائهم على أعمالهم الجليلة، في غير الجهاد بالمال والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من أنواع المبرات، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحة.

فصل في ذكر الأحاديث المناسبة للآية

عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله، ﷺ، قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»، وفي رواية «وما فيها» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ، «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيل الله، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل». متفق عليه، هذا لفظ مسلم وللبخاري بمعناه.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: أتى رجل رسول الله، ﷺ، فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله». متفق عليه. وفي رواية، «يتقي الله ويدع الناس من شره».

وعن أبي هريرة، أن رسول الله، ﷺ، قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات» أخرجه البخاري.

وعن ابن عباس، أن رسول الله، ﷺ، قال: «ما اغبرت قدما عبد في سبيل

الله فتمسه النار». أخرجه البخاري.

وعن أبي مسعود الأنصاري البدري، قال: جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله، ﷺ، فقال: «هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة كلها مخطومة» أخرجه مسلم.

وعن خريم بن فاتك، قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله، كتب الله له سبع مئة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى[(١)]: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾. فذهب جماعة: إلى أنه من بنية أحكام الجهاد؛ لأنه سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد، والانتداب إلى الغزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله، ﷺ، سريَّة إلى الكفار، ينفرون جميعاً، ويتركون المدينة خاليةً، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك؛ أي: أن ينفروا جميعاً. وذهب آخرون: إلى أن هذه الآية، ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والنفقة في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على وجوب الخروج للجهاد، فيكون السفر نوعين:

الأول: سفر الجهاد.

والثاني: السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر، والفقه هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العلم بها، من لغة ونحو وصرف وبيان، وأصول؛ أي: وما كان ينبغي أن يفعل المؤمنون النفر والخروج للجهاد جميعاً، ويتركوا المدينة خالية، ورسول الله، ﷺ، منفرد وحده؛ لأن ذلك يخل بأمر المعاش ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾؛ أي: فهلا خرج للجهاد، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من كل قبيلة منهم، ﴿طَآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ليقوموا بواجب الجهاد، وبقيت طائفة أخرى منهم، في المدينة مع رسول الله، ﷺ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لتتعلم

---

(١) الشوكاني.

تلك الباقية أحكام دينهم من النبي، ﷺ، ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ ويبشروا، ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين خرجوا للجهاد بما تعلموا من النبي، ﷺ، ﴿إِذَا رَجَعُوٓا﴾؛ أي: إذا رجع الخارجون من الغزو، ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى الباقين في المدينة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؛ أي: لكي يحذر الخارجون بسبب تعليمهم إياهم، ويخافوا عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

فالمعنى[1]: ما ينبغي ولا يجوز للمؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا النبي، ﷺ، وحده، بل يجب أن ينقسموا قسمين: طائفة تكون مع رسول الله، ﷺ، وطائفة تنفر إلى الجهاد؛ لأن ذلك هو المناسب للوقت إذ كانت الحاجة داعية إلى هذا الانقسام، قسم للجهاد، وقسم لتعلم العلم والفقه في الدين؛ لأن أحكام الشريعة كانت تتجدد شيئاً بعد شيء، والماكثون يحفظون ما تجدد، فإذا قدم الغزاة علموهم ما تجدد في غيبتهم.

وفي قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد، والتبسط في البلاد، كما هو دأب أبناء الزمان، ا هـ «أبو السعود».

والخلاصة: وما كان من شأن المؤمنين، ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط عن الباقين، لا فرض على كل شخص، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد. فهلا خرج، ونفر من كل فرقة كبيرة منهم، كأهل بلد، أو قبيلة طائفة وجماعة منهم، وتبقى طائفة أخرى للتفقه في الدين، بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين، بما يتجدد نزوله على الرسول، ﷺ من الآيات، وما يكون منه ﷺ، من بيانها بالقول والعمل، فيعرف الحكم مع حكمته ويوضح المجمل بالعمل به، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم؛ أي: ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم، وإنذارهم عاقبة

---

(١) الفتوحات.

الجهل، وترك العمل بما علموا رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته، والحجاج عنه وبيان أسراره للناس، لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية، والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً.

وفي الآية، إشارة إلى وجوب التفقه في الدين، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد، لهم عند الله تعالى من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال، والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله، والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون الدفاع فيها واجباً عينياً على كل شخص.

فصل في ذكر الأحاديث الدالة على فضل التفقه في الدين

وعن معاوية بن أبي سفيان، قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي أمر الله» متفق عليه.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» متفق عليه. وعن ابن عباس، أن رسول الله، ﷺ، قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» أخرجه الترمذي.

وعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» أخرجه الترمذي. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» أخرجه الترمذي.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي، ﷺ، قال: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة». أخرجه أبو داود.

والآية المحكمة: هي التي لا اشتباه فيها، ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ، والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها.

قال الفضيل بن عياض: عالم عامل معلم يدعى عظيماً في ملكوت السموات، وأخرجه الترمذي موقوفاً. وقال الإمام الشافعي: طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة.

ولما أمرهم الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة، أرشدهم إلى الطريق الأصلح، وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، ﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ الأقوام، ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويقربونكم، ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾؛ أي: قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام في الدار والبلاد والنسب. وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة؛ لأن قتالهم دفعة واحدة لا يتصور؛ ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين، والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وهذا الترتيب أولى، لوجوه كثيرة:

منها: قلة النفقات والحاجة فيه إلى الدواب والآلات، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذراري والضعفاء، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع في الدعوة والنفقات والصدقات، وما يدار في المجالس من شراب ونحوه، فكان النبي، ﷺ، يعطي من على يمينه، وإن لم يكن أفضل الجالسين، ثم الذي يليه ثم الذي يليه، وقال للأعرابي الذي كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة: «كل مما يليك».

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ﴾؛ أي: وليدرك الكفار فيكم أيها المؤمنون ﴿غِلْظَةً﴾؛ أي: شدةً عظيمةً وخشونة، وجرأة وصبراً على القتال وعنفاً في القتال والأسر ونحو ذلك، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. والغلظة في زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح.

وفي الآية إيماءٌ إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين وآخر إلى العنف والشدة، لا أن يقتصر على الغلظة فحسب، فإن ذلك مما ينفر، ويوجب تفرق الناس عنهم. وإنما أمروا بذلك في القتال، وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام للإرشاد، إلا أنه يجب أن تكون حالهم في الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة في المعاملة، ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين. وقرأ الجمهور: ﴿غِلْظَةً﴾ بكسر الغين، وهي لغة أسد. وقرأ الأعمش، وأبان بن تغلب، و المفضل، كلاهما عن عاصم، بفتحها، وهي لغة الحجاز. وأبو حيوة، والسلمي، وابن أبي عبلة، والمفضل، وأبان أيضاً، بضمها وهي لغة تميم. وعن أبي عمرو ثلاث اللغات ذكره أبو حيان.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الله بالمعونة، والنصرة على أعدائهم، والمراد أن يكون الإقدام على الجهاد بسبب تقوى الله، لا بسبب طلب المال والجاه؛ أي: واعلموا أن الله سبحانه وتعالى معكم أيها المؤمنون بالمعونة والنصر، إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه وابتعدتم عن التقصير في أسباب النصر والغلب، من إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان التي عناها الله تعالى بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام وترك التنازع والاختلاف وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن، والحال أن المنافقين ليسوا حاضرين مجلس نزولها، وليس في السورة فضيحة لهم، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾؛ أي: فمن المنافقين فريق، يقول لأصحابه استهزاءً أو للمؤمنين: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة، ﴿إِيمَٰنًا﴾؛ أي: تصديقاً ويقيناً. وقرأ الجمهور: ﴿أَيُّكُمْ﴾ بالرفع. وقرأ

زيد بن علي، وعبيد بن عمير، ﴿أَيُّكُمْ﴾ بالنصب على الاشتغال، والنصب فيه عند الأخفش أفصح، كما هو بعد أداة الاستفهام نحو: أزيداً ضربته؛ أي: وإذا أنزل الله تعالى على رسوله، ﷺ، سورة من سور كتابه الكريم، فمن المنافقين من يقول لإخوانه، على سبيل الاستهزاء والسخرية هذه المقالة، ليثبتوا على النفاق، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككاً لهم، ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: من الذي زادته هذه السورة يقيناً بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول محمد، ﷺ؛ أي: أيكم زادته تصديقاً جازماً مقترناً بإذعان النفس، وخضوعاً وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذي أنزلت عليه.

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول، ﷺ ولا سيما من يحضر نزوله ويسمعه منه، وكذا يزيد بسماعه من غيره في قلب المؤمن قوة إذعان، ورغبة في العمل والقرب من الله تعالى قال تعالى مجيباً عن هذا السؤال مبيناً حالهم وحال المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله تعالى، وبما جاء من عنده، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ بانضمام إيمانهم، بما فيها بإيمانهم السابق؛ لأنهم يقرون عند نزولها بأنها حق من عند الله تعالى، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية.

أي: فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين، واطمئنان القلب، ويزيدهم قوة في العمل به، والتقرب إلى ربهم وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، وكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله، وإن النّفاق يبدو لمعة سوداء في القلب، وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله، وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود، اهـ «خازن».

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاق وسوء عقيدة، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة، ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: عقيدة باطلة إلى عقيدتهم الباطلة، فإنهم

كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة، فقد انضم كفر إلى كفر، وإنهم كانوا في العداوة واستنباط وجوه المكر، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وهذه الحالة أقبح من الحالة الأولى، فإن الأولى ازدياد الرجاسة، وهذه مداومة الكفر وموتهم عليه؛ أي وأما[1] الذين في قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر، وإظهار الإسلام فزادتهم كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق، على مقتضى سننه تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس، وتغيير هواجس الفكر، ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والهمزة[2]: فيه للاستفهام التوبيخي على قراءة الياء في يرون وللاستفهام التعجبي على قراءة التاء فيه. والخطاب فيه للمؤمنين، وهي داخلة على محذوف والواو عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أيجهلون ولا يرون؛ أي؛ يجهل المنافقون ولا يرون أنهم يختبرون في كل عام بأنواع البليات، من المرض والجوع، ومن إظهار الفضيحة على نفاقهم، وعلى تخلفهم من الغزو مرة أو مرتين فأكثر، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون بتلك الفتن الموجبة للتوبة، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ وما بعده معطوف على لا يرون على قراءة الياء التحتية داخل تحت الإنكار والتوبيخ، وعطف على ﴿يُفْتَنُونَ﴾ على قراءة التاء الفوقية.

أي: أيجهلون[3] هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام، من ضروب الابتلاء والاختبار التي تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر، والتفرقة بين الحق والباطل، ولا ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول، ﷺ، في كل ما أخبر به، من نصر الله لمن اتبعه، وخذلان أعدائه،

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ووقوع ما أنذرهم به، ومن إنباء الله بما في قلوبهم، وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم.

ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام بعد الأعوام، ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان، وانطفاء نور الفطرة؛ ولله در القائل:

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ منْ رمدٍ   وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمِ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء والضمير فيه يعود على الذين في قلوبهم مرض. وقرأ حمزة ﴿ترون﴾ بالتاء، خطاباً للمؤمنين. والرؤية يحتمل أن تكون من رؤية القلب ومن رؤية البصر. وقرأ أبي وابن مسعود والأعمش: ﴿أو لا ترى﴾؛ أي: أنت يا محمد. وعن الأعمش أيضاً: ﴿أولم تروا﴾. وقال أبو حاتم عنه: ﴿أولم يروا﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿ولا هم يتذكرون﴾.

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة في المنافقين، وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ بين حالهم وهم في مجلسه، ﷺ، حين نزولها واستماع تلاوته لها، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها بيان حالهم، وكانوا حاضرين مجلس نزولها ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بالعيون، يدبرون الهرب ليتخلصوا عن تأذي سماعها، يقولون بطريق الإشارة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين إن قمتم من المجلس، ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ جميعاً عن مجلس نزول الوحي؛ خوفاً من الافتضاح أو غير ذلك. والمعنى؛ أي: وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس، تسارقوا النظر وتغامزوا بالعيون على حين تخشع أبصار المؤمنين، وتنحني رؤوسهم، وتشاوروا في الانسلال من المجلس، خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار قائلاً بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: هل يراكم الرسول، ﷺ، أو المؤمنون إذ قمتم من المجلس، ثم انصرفوا جميعاً عن مجلس نزول الوحي، متسللين لواذاً، كراهة منهم لسماعه، وانتظاراً لسنوح

---

(١) البحر المحيط.

فرصة الغفلة عنهم، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وعن استماع القرآن ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم قوم لا يفقهون﴾ ولا يفهمون ما يسمعون من الآيات لسوء فهمهم وعدم تدبرهم؛ أي: صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق، والاسترشاد بآيات كتابه، إلى ما في ملكوت السموات والأرض، من دلائل قدرته، وهذه الجملة إما إخبار بذلك، أو دعاء عليهم به، والمآل في هذه واحد في كلامه تعالى.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق، وما يترتب عليها من الأعمال، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل في معانيها، مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل؛ لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به، من غير بحث ولا تأمل، أحق هو أم باطل، أخير هو أم شر، وأنى لمثل هؤلاء، وتلك حالهم أن يهتدوا بنزول الآيات والسور؛ وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ وبعث إليكم يا معشر العرب، ﴿رسولٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم بشر عربي قرشي مثلكم. وقرىء[1]: بفتح الفاء؛ أي: من أشرفكم وأفضلكم. قيل: هذه قرءاة فاطمة وعائشة رضي الله عنهما.

وإلى[2] كون هذه الآية خطاباً للعرب، ذهب جمهور المفسرين؛ وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم، والمعنى، لقد جاءكم ﴿رَسُولٌ مِّنْ﴾ جنسكم في البشرية، إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه، والأخذ عنه.

وحاصل المعنى على القول الأول: أي[3] لقد جاءكم يا معشر العرب رسول من جنسكم ونسبكم، والآية بمعنى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

ذاك أن منته على قومه أعظم وحجته بكتابه أنهض، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربين، بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فآمن العرب بدعوته مباشرة، وآمن العجم بدعوة العرب، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه، ﷺ له، بالتبليغ والعمل، وبما شاهدوا من آيات الله في شخصه، وقد امتن عليه[1] وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: وإنه لشرف لك ولهم، تُذْكَرُون به في العالم، ويدون لكم في بطون الكتب والدفاتر وإنما قاومه أكابر قومه أنفةً واستكباراً عن اتباعه، إذ هم يرونه دونهم، إلَّا أنَّ في اتباعه إقراراً بكفرهم وكفر أبائهم الذين يفاخرون بهم، إلَّا أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتِّباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة. ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: شاق شديد، ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا الرسول الكريم، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: ما أثمتم وأذنبتم فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب، لكونه من جنسكم ومبعوثاً لهدايتكم، والعنت التعب لهم، والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة في النار أو بمجموعهما. والظاهر[2]، أن ما مصدرية، في موضع الفاعل بعزيز، أي: يعز عليه عنتكم ومشقتكم، كما قال الشاعر:

يَسُرُّ ٱلْمَرْءَ مَا ذَهَبَ ٱللَّيَالِيْ وَكَانَ ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذَهَابَا

أي: يسر المرء ذهابُ الليالي؛ أي: شديدٌ عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه؛ لأنه منكم، فليس من الهين عليه أن تكونوا في الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها، والتحكم فيها، ولا أن تكونوا في الآخرة من أصحاب النار التي وقودها الناس والحجارة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: شديد الحرص والرغبة في اهتدائكم، وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، أو حريصٌ

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وشحيح عليكم بأن تدخلوا النار. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبرسوله؛ أي: بجميعهم، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والشفقة بالمطيعين وكثير الرحمة والإصلاح بالمذنبين. وقيل: رؤوف بمن رآه، رحيم بمن لم يره. وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بغيرهم، ذكره في «البحر». فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له، وكل شاق منها، كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه.

وقال الحسن بن المفضل: لم يجمع الله سبحانه وتعالى لنبي من أنبيائه اسمين من أسمائه، إلا لنبينا محمد، ﷺ، فإنه قال فيه؛ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال تعالى في حق نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقرأ ابن عباس[1]، وأبو العالية والضحاك وابن محيصن، ومحبوب عن أبي عمرو، وعبد الله بن قسيط، المكي، ويعقوب من بعض طرقه: ﴿من أنفسَكم﴾ بفتح الفاء. ورويت هذه القراءة عن رسول الله، ﷺ، وعن فاطمة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ كما مر، والمعنى، من أشرفكم وأعزكم، وذلك من النفاسة، وهو راجع لمعنى النفس، فإنها أعز الأشياء. وقرىء «رؤوف» بالمد؛ أي: بزيادة واو بعد الهمزة وبالقصر؛ أي: بحذف الواو قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة حيثما وقعت في القرآن.

ثم قال الله سبحانه وتعالى[2] مخاطباً لرسوله محمد ﷺ، ومسلياً له ومرشداً له، إلى ما يقوله عندما يعصى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: فإن[3] تولى هؤلاء المنافقون والكفار عن الإيمان والتوبة، وناصبوك الحرب؛ أي: فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك، والاهتداء بما جئتهم به، ولم يعملوا به، ولا قبلوه بعد هذه الحالة التي منّ الله سبحانه وتعالى عليهم بها، من إرسالك إليهم، واتصافك بهذه الأوصاف الجميلة، ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد: ﴿حَسْبِىَ﴾ وكافيَّ، ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

المنفرد بالألوهية؛ أي: فالله سبحانه وتعالى هو كافيَّ من شرهم، فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم، وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله فقد بلغت وما قصرت، ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا حافظ ولا ناصر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة، وهو الكافي والمعين، ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره، ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت، وإليه أموري فوضت لا إلى غيره، فلا أكل أمري فيما عجزت عنه إلى غيره، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: مالك وخالق العرش، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وصفه بالعظم؛ لأنه أعظم المخلوقات، ولأجل عظمه خصه بالذكر، مع أن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء، فذكره أمدح للباري. وقد قرأ[1] الجمهور: ﴿العظيم﴾ بالجر على أنه صفة للعرش، ومعنى عظمه، كبر جرمه واتساع جوانبه. وقرأ ابن محيصن: ﴿العظيم﴾ برفع الميم على أنه صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير. ومعنى عظمه تعالى، تنزهه عن جميع النقائص واتصافه بجميع الكمالات. وقال أبو[2] بكر الأصم: وهذه القراءة أعجب إليّ؛ لأن جعل العظيم صفةً لله تعالى أولى من جعله صفة للعرش، اهـ والعرش[3]، مركز تدبير أمور الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وعظمته بعظمة الرب الذي استوى عليه، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره، وعظمة العرش والملك في الملأ الأعلى، وفيما دونه، هي مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى. ودليل على أنه وحده الإله الحق، الذي لا ينبغي أن يعبد غيره، ولا يتوكل على سواه وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم.

روى[4] أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم، عن زيد بن ثابت، في جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر، أنه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخرها، يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) المراغي.

في الرقاع والأكتاف والعُسُب إلا عنده، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صُرح ذلك في الروايات الأخرى.

فقد أخرج ابن أبي داود في «المصاحف»، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إلى عمر، فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا أدري، والله إني أشهد لسمعتهما من رسول الله، ﷺ، ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله، ﷺ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة، فانظروا سورةً من القرآن فألحقوها بها، فألحقت في آخر براءة وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر، فقال عمر: لا أسألك عليها بينة أبداً، كذلك كان رسول الله، ﷺ، يقرؤها.

ومن هذه الروايات يعلم، أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا في موضعهما، ففي بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي، ﷺ. وفي بعضها أنهما وضعتا بالرأي والاجتهاد، ولكن المعتمد هو الأول؛ لأن من حفظ بالتوقيف حجة على من لم يحفظ. قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»: إن زيداً لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه، ولا يقتصر على حفظه، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره، وحسبك دليلاً على ذلك قوله: إنهم كانوا يسمعون رسول الله، ﷺ، يقرؤها فهو صريح في أن البحث عمن كتبها فقط، ا هـ فجملة القول أن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة، وإنما اختلفوا حين الجمع، في موضع كتابتهما، حتى شهد من شهد أن النبي، ﷺ، هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقاً لقول أبيّ بن كعب، وهو أحد الذين تلقوا القرآنَ كُلَّه مرتباً عن النبي، ﷺ، وكذا زيد بن ثابت، وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلاً، فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا، ولم يروا أيَّ اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم، كابن مسعود رضي الله عنه.

فائدة: وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء، قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله تعالى ما أهمه، ذكره في «البحر».

الإعراب

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿وَمَنْ﴾ اسم موصول، معطوف على أهل المدينة. ﴿حَوْلَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستقر في الظرف. ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، تقديره: ما كان التخلف عن رسول الله جائزاً لأهل المدينة ومن حولهم، ولا لائقاً بهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟﴾: الواو: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْغَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾ ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وكذلك، يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ والتقدير: ولا الرغبة بأنفسهم عن نفسه كائناً. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾، الباء: حرف جر وسبب. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ معطوفان على ظمأ. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بيصيب، أو حال من ضمير المفعول في ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ وجملة يصيب، في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، ولكنه خبر سببي، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره؛ ذلك بسبب عدم إصابة ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ﴿في سبيل الله﴾، الجار والمجرور، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك النهي عن التخلف،

كائن بسبب عدم إصابتهم ظمأ ولا نصب، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿مَوْطِئًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَوْطِئًا﴾ والجملة في محل النصب، صفة لـ ﴿مَوْطِئًا﴾. ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف أيضاً على ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ متعلق به. ﴿نَّيْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ ﴿عَمَلٌ﴾: نائب فاعل ﴿صَـٰلِحٌ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من مفعول ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ ومن فاعل ﴿يطئون وينالون﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾: جملة ﴿كُتِبَ﴾ حالية، فهذا التركيب نظير قولك: ما جاء زيد إلا راكباً، ا هـ شيخنا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر إن، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، في محل الرفع معطوف على قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿نَفَقَةً﴾: مفعول به ﴿صَغِيرَةً﴾: صفة لها ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾: معطوف على ﴿صَغِيرَةً﴾ ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ ﴿وَادِيًا﴾ مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المذكور من كل واحد من الأمرين، النفقة وقطع الوادي. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من النفقة، وقطع الوادي؛ أي: إلا حالة كونهما مكتوبين لهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿أَحْسَنَ مَا﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، تقديره: لجزاء الله إياهم أحسن ما كانوا يعملون، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كُتِبَ﴾ ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيَنفِرُوا﴾؛ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿ينفروا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، لوقوعه بعد ﴿كَانَ﴾ المنفية بما. ﴿كَافَّةً﴾: حال من واو ينفروا؛ أي: حالة كونهم مجتمعين، وجملة ينفروا، صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور باللام المتعلقة بمحذوف خبر كان، تقديره: وما كان المؤمنون مريدين النفر كافة، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة؛ أي: ما صح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعاً، ويتركوا المدينة خالية، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة. وقال النحاس: هذه الجملة لفظها خبر ومعناها أمر؛ أي: نهي؛ أي: لا تنفروا كافةً. ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض، بمعنى، هلا ﴿نَفَرَ﴾: فعل ماض ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿نفر﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿فِرْقَةٍ﴾ ﴿طَائِفَةٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿فِي الدِّينِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتفقههم في الدين والجار والمجرور متعلق بمحذوف معطوف على نفر، تقديره: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة؛ وبقيت طائفة في المدينة لتفقههم في الدين ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة، معطوف على قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ عطف علة على علة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط متعلق بينذروا، ﴿رَجَعُوا﴾ فعل وفاعل

﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ حرف نصب واسمه. وجملة ﴿يَحْذَرُونَ﴾: في محل الرفع خبر، لعل، وجملة، لعل مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول، صفة لأي، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء ﴿يَلُونَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿يَلُونَكُم﴾.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلْيَجِدُواْ﴾ الواو: عاطفة ﴿اللام﴾: لام الأمر ﴿يَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق به ﴿غِلْظَةً﴾: مفعول به؛ لأن وجد هنا بمعنى أصاب وأدرك، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿قَٰتِلُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قَٰتِلُواْ﴾ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه، خبر أن وجملة أن في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، تقديره: واعلموا كون الله مع المتقين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَا﴾: زائدة ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿فَمِنْهُم﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَّن﴾: اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة الفعلية صلة من الموصولة، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾: مقول محكي،

ليقول، وإن شئت قلت: ﴿أَيُّكُمْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، مبتدأ مرفوع، والكاف: مضاف إليه ﴿زَادَتْهُ﴾: فعل ومفعول أول ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ فاعل ﴿إِيمَٰنًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت قولهم هذا، وأردت بيان ما يترتب على نزول السورة، فأقول لك: ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على سورة ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: خبره، والجملة الإسمية في محل النصب، حال من هاء ﴿زادتهم﴾ وجملة ﴿زادتهم﴾ في محل الرفع خبر الموصول، ولكنه خبر سببي، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ الواو: عاطفة ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾: فعل ومفعولان، والفاء: رابطة لجواب ﴿أما﴾ والفاعل ضمير مستتر، يعود على السورة ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿رِجْسًا﴾ تقديره: رجسا منضماً إلى رجسهم، و جملة ﴿زادتهم﴾ جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى ﴿وَمَاتُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿زادتهم﴾ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ماتوا﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿أَوَلَا﴾: الهمزة فيه: للاستفهام التوبيخي، على قراءة الياء التحتية في يرون، وللتعجبي على قراءة التاء الفوقية، داخلة على محذوف تقديره: أيجهلون، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، كما مر في مبحث التفسير. ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والرؤية يحتمل كونها قلبية، وكونها بصرية ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿يُفْتَنُونَ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾: متعلق به ﴿مَّرَّةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾: معطوف عليه، وجملة يفتنون في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿يرى﴾ إن كانت بصرية، أو ساد مسد مفعولي ﴿يرى﴾ إن كانت قلبية، تقديره: أوَلا يرون افتتانهم مرة أو مرتين في كل عام، وجملة ﴿يَرَوْنَ﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُفْتَنُونَ﴾ ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ خبره والجملة الاسمية معطوفة على جملة لا يتوبون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَا﴾: زائدة ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الاستخباري ﴿يَرَىٰكُم﴾: فعل ومفعول به ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، حال من فاعل نظر، تقديره: نظر بعضهم إلى بعض حالة كونهم قائلين: هل يراكم من أحد ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على نظر ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، مسوقة للدعاء عليهم أو للإخبار عن حالهم، قولان، كما ذكره أبو السعود ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: حرف جر وسبب ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿قَوْمٌ﴾: خبره. وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ صفة لقوم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر

مجرور بالباء المتعلقة بـ﴿صَرَفَ﴾ تقديره: صرف الله قلوبهم بسبب كونهم قوماً لا يفقهون.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: فعل، ومفعول، وفاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ صفة أولى للرسول ﴿عَزِيزٌ﴾: صفة ثانية له، ولكنها سببية ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾؛ مصدرية ﴿عَنِتُّمْ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه فاعلاً لعزيز، تقديره: عزيز عليه عنتكم ومشقتكم. ﴿حَرِيصٌ﴾ صفة ثالثة له ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: تنازع فيه كل من ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿رَءُوفٌ﴾ صفة رابعة له ﴿رَّحِيمٌ﴾ صفة خامسة له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلته لك، وأردت ما إذا تولوا عنك فأقول لك. ﴿إن تولوا﴾ ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بإن الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿فَقُل﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت: ﴿حَسْبِيَ﴾ خبر مقدم، ومضاف إليه. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبرها محذوف، تقديره: لا إله موجود ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة

والأنوثة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول القول ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بما بعده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿الْعَظِيمِ﴾: بالجر صفة للعرش، وبالرفع صفة للرب، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يقال[1]: رغب في الشيء إذا أحبه، وآثره ورغب عنه إذا كرهه، وقد جمع بينهما في الآية ﴿ظَمَأٌ﴾ الظمأ: العطش الشديد، وهو مصدر ظمىء يظمأ، من باب فرح فهو ظمآن، وهي ظمأى ويمد ويقال: ظمآء ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنصب: الإعياء والتعب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ المخمصة الجوع الشديد. ﴿ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار﴾ والموطىء[2]: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً، يغيظ: بفتح الياء باتفاق السبعة وإن كان يجوز لغة ضمها، إذ يقال: غاظه وأغاظه بمعنى واحد. ذكره «الجمل» والغيظ الغضب ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ في «المختار»[3]، و«المصباح»، نال خيراً، ينال نيلاً إذا أصابه، وأصله، نيل، ينيل من باب فهم، والأمر منه، نل وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون، فتقول: نلت ا هـ. هذا لفظ الأول، ولفظ الثاني، نال من عدوه، ينال: من باب تعب نيلاً، بلغ منه مقصوده، ومنه قيل: نال من امرأته ماأراد ا هـ.

﴿وَادِيًا﴾ الوادي في الأصل: المنفرج بين الجبال، أو الآكام؛ أي؛ المنفتح بينها الذي تجتمع وتمر فيه السيول، فهو اسم فاعل من ودي إذا سال، ا هـ أبو السعود. والمراد به هنا، مطلق الأرض. وفي «المصباح» وودي الشيء: إذا سال، ومنه اشتقاق الوادي، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذاً للسيل، والجمع أودية، ووادي القرى، موضع قريب من المدينة على طريق الحاج، من جهة الشام

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الفتوحات.

اهـ. وقال أبو حيان: الوادي[1]: ما انخفض من الأصل مستطيلاً، كمجاري السيول ونحوها، وجمعته العرب على أودية، وليس بقياسه، قال تعالى:

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ وقياسه أوادي على زنة فواعل، لكنهم استثقلوه لجمع الواوين. وقال النحاس: ولا أعرف فاعلاً وأفعلة سواه، وذكر غيره: ناد، وأندية. قال الشاعر:

وَفِيْهِـمْ مَـقَـامَـاتٌ حِسَـانٌ وُجُـوْهُـهُـمْ   وَأَنْـدِيَـةٌ يَـتَـشَـابَـهَـا ٱلْـقَـوْلُ وَٱلْـفِـعْـلُ

والنادي: المجلس، وحكى الفراء في جمعه: أوداء، كصاحب وأصحاب. قال جرير:

عَـرَفْـتُ بِـبُـرْقَـةِ ٱلأَوْدَاءِ رَسْـمَـا   مُـجِـيْـلاً طَـالَ عَـهْـدُكَ مِـنْ رُسُـوْمِ

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ نفر: بمعنى خرج للقتال. ﴿ولولا﴾[2]: كلمة تفيد التحضيض، والحث على ما يدخل عليها إذا كان مستقبلاً، واللوم على تركه إذا كان ماضياً فإن كان مما يمكن تلاقيه.. فربما أفاد الأمر به كما هنا؛ لأن المعنى على الطلب، كأنه قيل: لتخرج طائفة وتبقى أخرى.

﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ والفرقة: الجماعة الكثيرة، والطائفة: الجماعة القليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ يقال: تفقه إذا تكلف الفقاهه والفهم، وتجشم مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ يقال: أنذره إذا خوفه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقال: حذره، من باب فهم إذا تحرز منه.

وقد[3] جعل الله سبحانه وتعالى الغرض من هذا، هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين، والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو.. طالب لغرض دنيوي، لا لغرض ديني فهو كما قلت:

وَطَـالِـبُ ٱلـدُّنْـيَـا بِـعِـلْـ   ـمِ ٱلـدِّيْـنِ أَيُّ بَـائِـسِ!
كَـمَـنْ غَـدَا لِـنَـعْـلِـهِ   يَـمْـسَـحُ بِـٱلْـقَـلاَنِسِ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.   (٣) الشوكاني.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ في «المصباح» الولى: مثل فلس القرب، وفي الفعل لغتان: أكثرهما، وليه يليه، بالكسر فيهما، والثانية من باب وعد، وهي قليلة الاستعمال، وجلست مما يليه؛ أي: يقاربه، انتهى. وكأنَّ[1] الآي جاءت على اللغة الثانية، وأصله يليون بوزن يعدون، فنقلت ضمة الياء إلى اللام بعد سلب حركتها، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو.

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة: تجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة.

﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والرجس: القذر والعذاب وزيادته عبارة عن تعمقهم في الكفر وخبطهم في الضلال، وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم واستحكم، وتزايد عقابهم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بضم الفاء؛ أي: من جنسكم. وقرىء بفتح الفاء؛ أي: من أفضلكم ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: شاق. ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعنت: المشقة ولقاء المكروه الشديد. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ والحرص: شدة الرغبة في الحصول على مفقود، وشدة عناية بموجود، والرأفة: الشفقة والرحمة والإِحسان فالرؤوف أخص من الرحيم، وإنما قدم عليه رعاية للفواصل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾؛ لأن القطع حقيقة في فصل الأجزاء المتصلة، كالحبل.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿غِلْظَةً﴾؛ لأن الغلظة حقيقة في الأجرام، فاستعيرت هنا للشدة والصبر والتجلد كما في «السمين»، وفيه

---

(١) الفتوحات.

المجاز المرسل، لما فيه من استعمال المسبب في السبب، فإن وجدان الكفار لغلظة المسلمين، سببه إغلاظ المسلمين عليهم ذكره: في «الفتوحات».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي عمى وضلالة لأن الرجس حقيقة في الشيء المستقذر، فاستعاره لعمى قلوبهم وضلالتها. قال في «تلخيص البيان» السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ولا القلوب مرضاً، بل هي شفاءٌ للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة، ا هـ.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم ما يسره الله سبحانه لنا من تفسير سورة التوبة في تاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤١٠هـ. في اليوم العشرين، من شهر ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وعشر، من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

اللهم كما وفقتنا بابتداء تفسير كتابك الكريم، فأكرمنا بانتهائه واجعل لنا البركة في أعمارنا إلى إكماله، ووفقنا لما هو المعنى عندك يا إلهنا، واجعله في ميزان حسناتنا وذخيرةً عندك يا ربنا، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد، خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين آمين. والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة يونس

مكية كلها إلا ثلاث آيات: ٤٠، ٩٤، ٩٦ نزلت بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود. وعدد آياتها تسع ومئة آية. وكلماتها ألف وثمان مئة واثنتان وثلاثون كلمة. وحروفها سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً. وسميت بذلك لذكر اسمه فيها وقصته. وقد جرت العادة بتسمية السورة ببعض أجزائها.

ووجه مناسبتها لما قبلها(١): أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبي، ﷺ، واختتمت بها هذه، وأن جل تلك في أحوال المنافقين، وما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن، وهذه في أحوال الكفار وما كانوا يقولونه في القرآن.

وليس التناسب بين السور سبباً في هذا الترتيب الذي بينهما، فكثيراً ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب في موضوع الآيات، وقد فصل بينهما كما فعل بسورتي الهمزة واللهب، وموضوعهما واحد، وقد يجمع بينهما تارة أخرى، كما فعل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وسورتي المرسلات والنبأ. ومن الحكمة في الفصل بين القوية التناسب في المعاني، أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن وأبعد به عن الملل وأدعى له إلى التدبر، ولهذه الحكمة عينها تفرق مقاصد القرآن في السورة الواحدة، كالعقائد والأحكام العملية، والحكم الأدبية والترغيب والترهيب والأمثال، والقصص والعمدة في كل ذلك التوقيف والسماع.

وقال أبو حيان(٢): مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما أنزل ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ. . أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أرسل، وأن ديدن الضالين واحد، متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية، وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدماً على ذكر الرسول في آخر السورة جاء في أول هذه السورة كذلك فقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول، انتهى.

وموضوع[1] هذه السورة يدور على إثبات أصول التوحيد، وهدم الشرك وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين وأصوله، وهي موضوعات السور المكية.

الناسخ والمنسوخ من هذه السورة: قال محمد بن حزم: جملة المنسوخ في هذه السورة أربع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (١٥)، نسخت بقوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية (٢) من سورة الفتح.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ الآية (١٠٢) نسخت بآية السيف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ الآية (٤١) نسخت بآية السيف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ الآية (١٠٨) نسخت بآية السيف انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ
﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا
مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ
ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ
قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما افتتح السورة بذكر آيات الكتاب، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وينذرهم على الكفر والمعاصي بالعقاب.. أردف ذلك بذكر أمرين:

١ـ إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي، يفعل ما يشاء، وهو العليم الخبير.

٢ـ إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال، من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء.

وقال أبو حيان مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن من كان قادراً على إيجاد هذا الخلق العلوي والسفلي العظيمين، وهو ربكم الناظر في مصالحكم، فلا يتعجب أن يبعث إلى خلقه من يحذر من مخالفته، ويبشر على طاعته، إذ ليس خلقهم عبثاً، بل على ما اقتضته حكمته وسبقت به إرادته، إذ القادر العظيم قادر على ما دونه بطريق الأولى، ا هـ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الآيات الدالة على وجوده، وهو خلق السموات والأرض على ذلك النظام المحكم... ذكر هنا أنواعاً من آياته الكونية، الدالة على ذلك، وعلى أنه خلقها على غاية من الإحكام والإتقان، وهو تفصيل لما تقدم، وبيان له على وجه بديع وأسلوب عجيب. وقال أبو حيان مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الدلائل على ربوبيته من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي، ذكر ما أودع في العالم العلوي، من هذين الجوهرين النيرين المشرقين، فجعل الشمس ضياءً، انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأدلة على وجوده تعالى، من خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب.. أردف ذلك بذكر حال من كفر به، وأعرض عن البينات الدالة عليه، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات موقنين بلقاء ربهم، ثم ذكر جزاء كل من الفريقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تعجب القوم، من

تخصيص محمد بالنبوة، وأزال هذا التعجب بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ ثم ذكر دلائل التوحيد والبعث والجزاء.. ذكر هنا جواباً عن شبهة كانوا يقولونها أبدا، وهي: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في أداء الرسالة، فأمطر علينا حجارة من السماء.

وخلاصة الجواب: أنه لا مصلحة لهم في إيصال الشر إليهم، إذ لو أوصله إليهم لماتوا وهلكوا، ولا صلاح في إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك، أو خرج من صلبهم من يكون مؤمناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنهم لما استدعوا حلول الشر بهم، وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم، بل يترك من لا يرجو لقائه يعمه في طغيانه.. بين شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه، مسيئهم ومحسنهم، وأن من لا يرجو لقاءه مضطر إليه حالة مس الضر له، فكل يلجأ إليه حينئذٍ، ويفرده بأنه القادر على كشف الضر، ذكره في «البحر».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[١] ابن جرير، من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً، ﷺ، رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓرۚ﴾ هذه[٢] الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا: ألف لام را والأخير منها غير مهموز.

---

(١) لباب النقول والخازن. (٢) المراغي.

والحكمة في مجيئها أول السورة: تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها، لأجل العناية بفهمه، حتى لا يفوته شيء مما يسمع، فهي من وادي حروف التنبيه نحو ﴿لا﴾ و ﴿ها﴾ الداخلة على اسم الإشارة.

قال ابن الجوزي[1]: فأما قوله: ﴿الٓر﴾ قرأ ابن كثير: ﴿آلر﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿الر﴾ على الهجاء مكسورة، وقد ذكرنا في أول سورة البقرة ما يشتمل على بيان هذا الجنس، وقد خصت هذه الكلمة بستة أقوال:

أحدها: أن معناها، أنا الله أرى، رواه الضحاك، عن ابن عباس.

والثاني: أنا الله الرحمن، رواه عطاء، عن ابن عباس.

والثالث: أنه بعض اسم من أسماء الله، روى عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿الٓر﴾ و ﴿حمٓ ۝١﴾ و ﴿نون﴾ حروف الرحمن، فالراء والحاء والميم والنون بعض حروف الرحمن.

والرابع: أنه قسم أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس.

والخامس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد وقتادة.

والسادس: أنه اسم لسورة قاله ابن زيد.

وقد[2] اتفق القراء على أن ﴿الٓر﴾ ليس بآية وعلى أن طه آية. وفي «مقنع» أبي عمرو الداني، أن العادّين لطه آية هم الكوفيون فقط. قيل: ولعل الفرق بينهما أن ﴿الٓر﴾ لا يشاكل مقاطع الآية التي بعده.

والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تضمنته هذه السورة من الآيات، وأتى باسم إشارة البعيد مع كونها قريبة تنزيلاً لبعدها الرتبي منزلة البعد الحسي، وهو مبتدأ خبره ما بعده؛ أي: هذه الآيات المذكورة في هذه السورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: آيات من القرآن المحكم بمعنى، المبين في مبانيه الموضح في

---

(١) زاد المسير. (٢) الشوكاني.

معانيه، والعرب تضع فعيلاً بمعنى، مفعل، أو بمعنى: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة وغيره، وقيل: الحكيم معناه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فهو فعيل، بمعنى: فاعل. وقيل الحكيم، يعني: المحكوم فيه، فهو فعيل، بمعنى: مفعول؛ أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله: الحسن وغيره. وقيل: الحكيم، ذو الحكمة لاشتماله عليها وتعلقه بها.

والاستفهام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ؛ أي: لا ينبغي ولا يليق لهم أن يتعجبوا من إرسال هذا الرسول لهم، فهذا رد عليهم في قولهم: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهم من فرط حماقتهم، وقصر نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال مع أن خفة المال أليق بحاله، ﷺ، وما هو بصدده، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم السلام قبله كذلك، اهـ «بيضاوي». والعجب: حالةٌ تعتري الإنسان من رؤية شيءٍ على خلاف العادة، وقيل: العجب حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب الشيء، اهـ «خازن». وقيل: هو استعظام أمر خفي اهـ.

واسم كان ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾؛ أي إيحاؤنا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ محمد، ﷺ، وخبره ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: هل كان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا، وإرسالنا إلى رجل من جنسهم ونسبهم بـ ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: بأن خوف الكافرين من عذاب الله؛ أي: لا ينبغي لهم العجب من ذلك؛ لأنه ليس في إيحائنا إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده، ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن، ويتعذر المقصود من الإرسال حينئذٍ؛ لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره، فإما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بد من إنكارهم

لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وأما إن كان لكونه يتيماً، أو فقيراً، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف، ما لم يجمعه غيره، وبالغاً في كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنياً أو كان غير يتيم.

وقد كان لرسول الله، ﷺ، قبل أن يصطفيه الله تعالى بإرساله، من خصال الكمال عند قريش، ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿عجب﴾ بالرفع على أن كان تامة وعجب فاعلها، والمعنى: أحدث للناس عجب لأن أوحينا إلى رجل منهم، ومعنى: كونه للناس عجباً، أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم. وقرأ رؤبة: ﴿إلى رَجْلٍ﴾ بسكون الجيم، وهي لغة تميمية، يسكنون فعلاً، نحو: سبع وعضد، في سبع وعضد. ولما كان الإنذار عاماً، كان متعلقه ـ وهو الناس ـ عاماً، ولما كانت البشارة خاصة كان متعلقها خاصاً، وهو الذين آمنوا.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ معطوف على ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ والمعنى: أكان للناس عجباً إيحاؤنا إلى رجل منهم، بأن أنذر[2] الناس كافة، وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين، مع التخويف بعاقبة ما هم عليه، من كفر وضلال، وبشر الذين آمنوا منهم بما أوحيناه إليك، بأن لهم قدم صدق؛ أي: أعمالاً صالحةً استوجبوا بها الثواب منه تعالى، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية.

وفي «الخازن»: واختلفت[3] عبارة المفسرين وأهل اللغة في معنى ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ فقال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. وقال الضحاك:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

ثواب صدق. وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس، أنه قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، يعني: في اللوح المحفوظ.

وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة محمد، ﷺ، وهو قول قتادة. وقيل: لهم منزلة رفيعة عند ربهم، وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وحب الحصيد. والفائدة في هذه الإضافة: التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم؛ لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح، ومثله في مقعد صدق ومدخل صدق.

وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر، فهو عند العرب قدم، يقال: لفلان قدم في الإسلام وقدم في الخير، ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء. وقال الليث وأبو الهيثم: القدم: السابقة، والمعنى: أنه قد سبق لهم عند الله خير، والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمى المسبب باسم السبب، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد اهـ.

وجملة قوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مستأنفة[1] استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب. وقال القفال: قبله إضمار، تقديره: فلما أتاهم[2] بوحي الله وتلاه عليهم، قال الكافرون المتعجبون من إيحاء الله تعالى إليه، المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القرآن الذي جاء به محمد، ﷺ، ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر واضح، يبين لكم أنه مبطل فيما يدعيه. وجعلوه سحراً؛ لأنه خارق للعادة في تأثيره في القلوب، وجذبه النفوس إلى الإيمان به، واحتقار الحياة، ولذاتها في سبيل الله.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، لكنه واضح البطلان في الحقيقة. وقد كذبوا في تسميته سحراً؛ لأن السحر ما يكون بأسباب خفية يتعلمها بعض الناس من بعض، إما بالحيل والشعوذة، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة وجميعها من الأمور التي يشترك فيها الكثير من العارفين بها، والقرآن ليس بسحر يؤثر بالعلم والصناعة، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية، وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس، ولم يكن ليقدر على شيء من مثله، وبهذا ثبت أنه نبي من عند الله تعالى، وأن ما جاء به وحي من لدنه تعالى.

قال ابن عطية[1]: وقولهم في الإنذار والبشارة سحر، إنما هو بسبب أنه: فرق كلمتهم وحال بين القريب وقريبه. فأشبه ذلك ما يفعله الساحر، وظنوه من ذلك الباب. وقال الزمخشري: وهذا دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً وقرأ[2] الجمهور، وأبو عمرو وابن عامر ونافع: ﴿لسحر﴾ إشارة إلى الوحي أو القرآن. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف والأعمش وابن محيصن وابن مسعود وأبو رزين ومسروق وابن جبير ومجاهد وابن وثاب وطلحة وابن كثير وعيسى بن عمرو، بخلاف عنهما ﴿لساحر﴾ إشارة إلى الرسول، ﷺ، وفي مصحف أبيّ ﴿ما هذا إلا سحر﴾. وقرأ الأعمش أيضاً ﴿ما هذا إلا ساحر﴾.

وحاصل المعنى على القراءة الثانية أعني القراءة على صيغة اسم الفاعل؛ أي[3]: إن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم، قالوا متعجبين: إن هذا الذي يدعي أنه رسول وهو محمد، ﷺ، ساحر ظاهر. وعلى القراءة الأولى، أعني؛ قراءة المصدر؛ أي: إن هذا القرآن لكذب ظاهر ووصف الكفار القرآن بكونه سحراً، يدل على عظم القرآن عندهم من حيث تعذر المعارضة عليهم

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

فيه، فأرادوا بهذا الكلام أن القرآن كلام مزخرف، حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، وهذا ذم له، أو أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله جار مجرى السحر وهذا مدح له وإنما لم يؤمنوا به عناداً.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار، من الإيحاء إلى رجل منهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ومالككم ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: هو المعبود بحق الذي لا يعبد معه سواه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿السموات والأرض﴾ واخترعهما على غير مثال سابق ﴿فِي﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ معلومة التي أولها الأحد، وآخرها الجمعة ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم المخلوق قبلهما استواء يليق بعظمته وجلاله، لا يكيف ولا يمثل ولا يعطل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ حالة كونه ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يدبر أمر ملكوت السموات والأرض ويصرفها على الوجه الأكمل، ويقدرها ويقضيها بحسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به إرادته.

أي: من[1] كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم، محلاً للتعجب؟ مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول؟.

وحاصل المعنى: أي إن[2] ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم، وهذه الأرض التي تعيشون على ظهرها في ستة أزمنة، قد تم في كل زمن منها، طور من أطوارها، وقدرها بمقادير أرادها، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله، حالة كونه يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الأحكام، ولا يستنكر من هو رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده، أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به، لما فيه كمالهم من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

عبادته، وشكره، وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستنير أفئدتهم، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عزّ وجلّ، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه. وترك العاطف في قوله؛ ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ لأن جملته كالتفسير والتفصيل لما قبلها. وقيل: هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى، كما أشرنا إليه في الحل. وقيل: مستأنفة استئنافاً بيانياً، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتقع على الوجه المقبول، واشتقاقه من الدبر كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. وقال مجاهد معناه: يقضيه ويقدره وحده. وقيل: يبعث الأمر. وقيل: ينزل الأمر. وقيل: يأمر به ويمضيه، والمعنى متقارب، والأمر: الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق. وقال أبو السعود: والمراد بالأمر: ملكوت السموات والأرض والعرش، وغير ذلك من الجزئيات الحادثة، شيئاً فشيئاً على أطوار شتى لا تكاد تحصى، ا هـ.

قال الزجاج[1]: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية، كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله.

فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه بشيء إلا بعد إذنه؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب فقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾؛ أي، لا يوجد[2] شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه، والآية بمعنى، قوله سبحانه؛ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾. وقد جاء في كتابه تعالى، أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضي له الرحمن، لإيمانه وصالح عمله كما قال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾. وفي هذا إيماء لدحض العقيدة التي كان يعتقدها مشركو العرب، ومقلدوهم من أهل الكتاب من أن الأصنام والأوثان وعباده المقربين من الملائكة والبشر، يشفعون

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر، ويجلب لهم النفع، كما حكى الله تعالى عن عبدة الأصنام قولهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾. وفي هذه العقيدة حجة عليهم؛ إذ يقال لهم: إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أولياء. وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى، وهو قول عليه تعالى بغير علم، فما بالكم تنكرون وتعجبون، أن يوحي إلى من يشاء، ويصطفي من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة، والهادي إلى طريق الرشاد.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الرب، الموصوف بالصفات السابقة، من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في أمر الشفاعة، يأذن بها لمن يشاء هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود ﴿رَبُّكُمۡ﴾ المتولي شؤونكم ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً، ولا تشركوا معه أحداً، لا في شفاعة، ولا في غيرها، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً، بل هو الذي يملك ذلك وحده، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر الكسبية بالعقول والمشاعر التي سخرها لكم، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضراً إلا بالأسباب التي سخرها لكم، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون، أو يدفع عنكم ما تكرهون وهذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾ للاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ والتقريع، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتجهلون هذا الحق الواضح، فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض، وانفرد بتدبير هذا العالم، هو الذي يجب أن يعبد، ولا يعبد سواه، وذلك هو مقتضى الفطرة، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها. ﴿إِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أي: رجوعكم أيها الخلائق بالبعث بعد الموت، للمجازاة على أعمالكم؛ أي: إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلف منكم أحد، فلا حكم إلا حكمه، ولا نافذ إلا أمره ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه

وتعالى ذلك الرجوع وعداً ﴿حَقًّا﴾؛ أي: ثابتاً لا خلف فيه، فهو تأكيد لتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك. وقرأ[1] ابن أبي عبلة ﴿حق﴾ بالرفع على الاستئناف، فهو مبتدأ، خبره أنه يبدأ الخلق قاله أبو الفتح، وكون حق خبراً مقدماً، ﴿إنه﴾ مبتدأ مؤخراً، هو الوجه في الإعراب، كما تقول صحيح أنك تخرج، لأن اسم إن معرفة، والذي تقدمها في نحو هذا المثال نكرة.

﴿إنه﴾ تعالى ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾؛ أي: المخلوق فالمصدر بمعنى المفعول، وينشئه من العدم المحض حين التكوين، ليأمرهم بالعبادة ثم يميتهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ أي: ينشؤه نشأة أخرى، من العدم بالبعث بعد انحلاله وفنائه ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا جور فيه لا ينقص من أجورهم شيئاً. وقال البيضاوي: قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بعدله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم؛ لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلخ. والجزاء[2] بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئاً من فضله، ويضاعف لهم كما وعد على ذلك في آيات أخرى، منها قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وفي هذه الجملة[3] إيماء إلى أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة، هو الإثابة وإيصال الرحمة، وأما عقاب الكفرة، فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم؛ أي: إنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل، فيعطي كل عامل حقه من الثواب الذي جعله لعمله، وهذا المعنى، قد جاء في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ وقوله: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والعدل في الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾.

وقد اتفق[١] العلماء جميعاً، ماديهم وروحيهم على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية، قد وجدت بعد أن لم تكن، وإن كانوا لا يزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة والقوة المتصرفة في أصل مادتها، وهم جميعاً متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها في هذا النظام الشمسي الجامع لها، بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بساً، فتكون هباءً منبثاً. وهَا هُوَذَا، قد حمل البدء بالفعل، والإعادة أهون من البدء، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة، كما قال في سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقرأ[٢] عبد الله، وأبو جعفر والأعمش وسهل بن شعيب ويزيد بن القعقاع: ﴿أنه يبدأ الخلق﴾ بفتح الهمزة. قال الزمخشري: هو منصوب بالفعل الذي نصب ﴿وعد الله﴾، والتقدير: وعد الله تعالى بدأ الخلق، ثم إعادته والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه، ﴿وعد الله﴾ على لفظ الفعل، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً؛ أي: حق حقاً بدء الخلق ثم إعادته كقوله:

أَحَقّاً عِبَادَ ٱللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيَا وَلاَ ذَاهِباً إِلاَّ عَلَيَّ رَقِيْبُ

انتهى. وقال ابن عطية: وموضعها النصب على تقدير، أحق أنه. وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير، لحق إنه قال ابن عطية ويجوز عندي أن يكون أنه بدلاً من قوله: وعد الله وقرأ طلحة: ﴿يبدىء﴾ بضم الياء من أبدأ الرباعي، وبدأ، وأبدأ بمعنى واحد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله محمد، ﷺ، وبالقرآن ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار قد انتهى حره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾؛ أي: وجيع يبلغ وجعه إلى قلوبهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم بالله ورسوله؛ أي: إن

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم، وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر، المستمرة إلى الموت، كدعاء غير الله تعالى من الأوثان، والأصنام، وسائر المعاصي التي يزينها لهم الشيطان، ويصدهم بها عن الإيمان.

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين، بيان منه، بأنه المقصود بالذات، إذ هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري، للذين زكوا أنفسهم، وطهروا قلوبهم وأخبتوا إلى ربهم، فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادي، ما هو خال من الشوائب التي تخالطه في نعيم الدنيا، ومن النعيم الروحي، وهو رضوان الله الأكبر مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحدٌ، كما قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وجاء في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري.

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم، وللناس على تدسيتهم لأنفسهم، بالكفر والخطايا، فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها مقتضى العدل، ومقتضى مشيئته تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾؛ أي: ذات ضياء أو مضيئة ﴿و﴾ جعل ﴿القمر نورا﴾ أي: ذا نور أو منيراً؛ إن ربكم الذي خلق السموات والأرض هوالذي جعل الشمس مضيئة نهاراً، والقمر منيراً ليلاً، ودبر أمور معاشكم هذا التدبير البديع، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادكم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب. والضوء والنور، بمعنى واحد، لغة، والضوء أقوى من النور، استعمالاً بدليل هذه الآية. وقيل: الضوء: لما كان من ذاته، كالشمس والنار، والنور: لما كان مكتسباً من غيره ويدل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾. والسراج: نوره من ذاته، والضياء والضوء: ما أضاء لك.

﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: وقدر سير القمر في فلكه وجعله ﴿مَنَازِلَ﴾؛ أي: في منازل وأماكن ينزل فيها كل ليلة في واحد منها، لا يجاوزها ولا يقصر دونها، يرى القمر فيها بالأبصار، وليلة أو ليلتان يحتجب فيهما فلا يرى. ومنازل القمر هي: المسافة التي يقطعها في يوم وليلة، بحركته الخاصة به. وأسماء تلك المنازل هي، السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة والسعد الذابح وسعد البلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر، وبطن الحوت ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوماً. وهذه المنازل منقسمة على اثني عشر برجاً وهي، الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، لكل برج منها منزلتان وثلث. فيكون إقامة القمر في كل برج ستة وخمسين ساعة وانتقالات الشمس في هذه الأبراج مرتبة على الشهور القبطية، لكن الشهر نصفه الأول من آخر برج، ونصفه الآخر من أول برج آخر، فيكون نصفه الأول من نصف السنبلة الأخير، ونصفه الأخير من نصف الميزان الأول وهكذا، وخص[1] القمر بالذكر، وإن كانت الشمس لها منازل أيضاً؛ لأن سير القمر في المنازل أسرع، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين؛ لأن المعتبر في مثل الصيام والحج السنة القمرية، لا الشمسية. وفي «الخازن» قوله ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ قيل: الضمير[2] في قدره يرجع إلى الشمس والقمر، والمعنى: وقدر لهما منازل، أو وقدر لسيرهما منازل لا يجاوزانها في السير، ولا يقصران عنها وإنما وحد الضمير في وقدره للإيجاز، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، فهو كقوله تعالى؛ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾. وقيل: الضمير في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ يرجع للقمر فقط؛ لأن سير القمر في المنازل أسرع، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين، وذلك؛ لأن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية ا هـ.

---

(١) الصاوي. (٢) الخازن.

ثم ذكر سبحانه بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾؛ أي: قدر هذه المنازل لتعلموا بها، أيها العباد، عدد السنين والأعوام وقت دخولها وانقضائها ﴿و﴾ لتعلموا ﴿الحساب﴾؛ أي: حساب الشهور والأيام والساعات، ونقصانها وزيادتها، فيمكنكم ترتيب مهمات المعاش، من الزراعة والحراثة، ومهمات الشتاء والصيف.

فإن[1] في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية؛ والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه.. لم يعلم الناس بذلك، ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً، إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة للَّيل والنهار، وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة والنقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف.

والمعنى: قدره منازل لتعلموا بتلك المنازل حساب الأوقات، من الأشهر والأيام، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد.. لتعذر العلم بذلك على الأميين، من أهل البدو والحضر، إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمري، الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، ولعبادتي الصوم والحج حكمة أخرى وهي: دورانهما في جميع فصول السنة، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الأوقات من حارة وباردة وطويلة وقصير ومعتدلة.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وتقديره: منازل ﴿إِلَّا﴾ خلقاً ملابساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصواب والحكمة البالغة ومطابقة المصلحة في أمور المعاملات، والعبادات، ولم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً؛ أي: ما خلق

---

(١) الشوكاني.

الله الشمس[1] ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها، فتنبعث الحرارة في جميع الأحياء، وبها يبصر الناس جميع المبصرات، ويقومون بأمور معايشهم وسائر شؤونهم، وما خلق الله القمر ذا نور مستمد من الشمس، تنتفع به السيارة في سيرهم، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور، ما خلق ذلك إلا خلقاً مقترناً بالحق، الذي تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم، فلا عبث فيه ولا خلل. فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان، ويعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره، ثم يتركه بعد ذلك سدًى يموت ويفنى ولا يعاد ويبعث لتجزى كل نفس بما كسبت، فيُجزى المتقون بصالح أعمالهم، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾. ﴿يُفَصِّلُ﴾ الله سبحانه وتعالى ويبين ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾؛ أي: دلائل قدرته ووحدانيته على لسان رسوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها، من الوحدانية وكمال القدرة والعلم؛ أي: يبين الدلائل من حكم الخلق على رسوله، ﷺ، مفصلة منوعة، من كونية وعقلية، لقوم يعلمون دلالة الأدلة، ويميزون بين الحق والباطل، باستعمال عقولهم في فهم تلك الآيات، فيجزمون بأن من خلق النيرين على هذا النظام البديع لايمكن أن يخلق الإنسان سدًى.

وخص من يعلم بتفصيل الآيات لهم؛ لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، ويتدبرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح. وقرأ قنبل[2] ﴿ضئاء﴾ هنا وفي الأنبياء والقصص، بهمزة قبل الألف، بدل الياء. وقرأ ابن مصرف: ﴿وَٱلْحِسَابَۚ﴾ بفتح الحاء، ورواه أبو توبة: عن العرب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص: ﴿يفصل﴾ بالياء جرياً على لفظة الله، وباقي السبعة بالنون على سبيل الالتفات، والإخبار بنون العظمة.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: في تعاقبهما، أو في تفاوتهما بازدياد

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وانتقاص، أو في تفاوتهما بحسب الأمكنة في الطول والقصر ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع الموجودات ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لعلامات دالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وخص العلامات بالمتقين؛ لأن الداعي إلى التدبر والنظر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة؛ أي: إن في اختلاف الليل والنهار وحدوثهما وتعاقبهما بمجيء كل منهما خلفة للآخر، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ومالهما من نظام دقيق، بحسب حركة الشمس اليومية والسنوية، وفي طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون، وعمل دنيوي وديني ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أحوال الجماد والنبات والحيوان، ويدخل في ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار وأحوال البحار، من مد وجزر، وأحوال المعادن العجيبة في تركيبها، وأوضاعها المختلفة إلى نحو ذلك.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لدلائل[1] عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته، وحكمته في الإبداع والإتقان، وفي تشريع العقائد والأحكام ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة سننه تعالى في التكوين، وسننه في التشريع، فلله سنن في حفظ الصحة، من خالفها مرض، وله سنن في تزكية الأنفس، من خالفها، وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، جوزي على ذلك في الآخرة أشد الجزاء. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يخافون لقاءنا يوم القيامة لتكذيبهم بالبعث والمجازاة، فهم مكذبون بالثواب والعقاب، أو لا يطمعون ثوابنا؛ لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واختاروها بدل الآخرة، وعملوا في طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾؛ أي: سكنوا ومالوا إليها مطمئنين فيها. وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار، من الميل إلى الدنيا ولذاتها، أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف، فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم. والمعنى؛ أي: إن الذين لا يتوقعون

---

(١) المراغي.

لقاءنا في الآخرة للحساب، والجزاء على الأعمال لإنكارهم للبعث، ورضوا بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، فقصروا كل همهم من الحياة على الحصول على أغراضهم منها، وسكنت نفوسهم إلى شهواتها ولذاتها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ودلائل قدرتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: ساهون ومعرضون عنها، فلا يتدبرون منها ما نزل على رسولنا، وما حوته من عبر ومواعظ ومعاد وحكم، ولا يتفكرون في أحوال الكون وما فيها من حكمته وسننه في الخلق، وبهذا شاركوا الفريق الأول في الشغل بالدنيا عن الآخرة، ومن ثم لم يستعدوا لحسابنا وما يعقبه من نعيم مقيم، وعذاب أليم.

والعطف[1] إما لتغاير الوصفين، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلا، وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين، من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والاستعداد له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ ومسكنهم في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ جزاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: جزاءً على ما كانوا يقترفون من السيئات طول حياتهم، فهم قد دنسوا أنفسهم بشرور الوثنية، وظلمات الشهوات الحيوانية، فلم يبق لنور الحق والخير مكان فيها، ومن ثم لا يجدون ملجأً بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب.

وبعد[2] أن أبان جزاء الفريق الأول.. كان من الواضح أن تستشرف نفس القارىء والسامع إلى جزاء الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: شغلوا جوارحهم بالخدمة، فعينهم مشغولة بالاعتبار، وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى، ولسانهم مشغول بذكر الله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وإنما لم يذكر الجنة تعويلاً على ظهورها،

---

(1) البيضاوي. (2) المراغي.

وانسياق النفس إليها كما ذكره «أبو السعود»؛ أي: إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، ولم يغفلوا عن الآيات التي غفل عنها الغافلون، ورجوا لقاء ربهم، وخافوا حسابه وعقابه يهديهم ربهم بسبب إيمانهم إلى صراطه المستقيم في كل ما يعملون، وينتهي بهم ذلك إلى دخول الجنة التي أعدها لعباده المخبتين، وفي هذا إيماء إلى أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات.

وقوله: ﴿تجري﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾؛ أي: من تحت قصورهم وأشجارهم ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة الماء واللبن والخمر والعسل، جملة مستأنفة أو خبر ثانٍ؛ لأن، أو: حال من مفعول يهديهم. وقوله: ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر آخر، أو حال أخرى من الأنهار أو متعلق بتجرى؛ أي: إنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار التي تجرى من بين أيديهم.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: دعاؤهم ونداؤهم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: نسبحك يا الله تسبيحاً، ونقدسك تقديساً من كل النقائص ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾؛ أي: تحية بعضهم لبعض ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة؛ أي: أو تحية الله، أو الملائكة لهم فيها ﴿سَلَـٰمٌ﴾؛ أي: قول سلام عليكم، الدال على السلامة من كل مكروه، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: وخاتمة دعائهم وثنائهم الذي هو التسبيح ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: أن يقولوا الحمد لله رب العالمين؛ أي: خاتمة تسبيحهم في كل مجلس، أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين لا أن معناه: انقطاعه؛ أي: الحمد، فإن أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها، ا هـ «كرخي».

أي[1]: أن أهل الجنة لما عاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات، والمخافات، علموا أن كل هذه الأحوال السنية إنما كانت بإحسان الله تعالى عليهم، فاشتغلوا بالثناء على الله تعالى، فقالوا الحمد لله رب العالمين وإنما وقع

---

(١) المراح.

الختم على الحمد؛ لأن الاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة. والمعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله، ووجدوا فيها النعم العظيمة، وعرفوا أنه تعالى كان صادقاً في وعده إياهم بتلك النعم، مجدوه تعالى، ونعتوه بنعوت الجلال، فقالوا سبحانك اللهم؛ أي: نسبحك عن الخلف في الوعد، والكذب في القول، وعما لا يليق بحضرتك العلية، ولما حياهم الله والملائكة بالسلامة عن الآفات، وبالفوز بأنواع الكرامات.. أثنوا عليه تعالى بصفات الإكرام. وهذه[1] التحية تكون منه عزّ وجلّ حين لقائه، كما قال في سورة الأحزاب: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وتكون منهم بعضهم لبعض كما قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾.

وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ كما أنه أول ثناء عليه، حين دخولها كما قال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ كما أنه آخر كلام الملائكة كما قال: وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾.

فعلى كل مؤمن أن يستعد لها بتزكية نفسه، وترقية روحه، ويعلم أنه لن يكون أهلاً لها إلا بالعمل، ومجاهدة النفس والهوى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤﴾.

وقال أهل[2] التفسير: كلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علامة بين أهل الجنة والخدم

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم، فيأتونهم في الوقت، بما يشتهون على الموائد، كل مائدة: ميل في ميل على كل مائدة: سبعون ألف صحيفة، في كل صحيفة: لون من الطعام، لا يشبه بعضها بعضاً، فإذا فرغوا من الطعام، حمدوا الله عزّ وجلّ على ما أعطاهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد، والتقديس لله عزّ وجلّ، والثناء عليه بما هو أهله، وفي هذا الذكر والتحميد سرورهم، وابتهاجهم، وكمال لذتهم، ويدل عليه ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يشغلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس» وفي رواية «التسبيح والحمد» أخرجه مسلم. قوله: جشاء؛ أي: يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً.

وقال الزجاج: أعلم الله أن أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه، انتهى. وقرأ[1] عكرمة، ومجاهد وقتادة وابن يعمر وبلال بن أبي بردة وأبو مجلز وأبو حيوة وابن محيصن، ويعقوب: ﴿إن الحمد لله﴾ بالتشديد ونصب الحمد. قال ابن جني: ودلت قراءة الجمهور بالتخفيف ورفع الحمد على أن ﴿أن﴾ هي المخففة كقول الأعشى:

فِيْ فِتْيَةٍ كَسُيُوْفِ ٱلْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوْا   إِنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ

يريد إنه هالك، فإذا خففت لم تعمل في غير ضمير شأن محذوف.

ونزل لما استعجل المشركون رسول الله، ﷺ، بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم، كما حكى الله عنهم في نحو قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ

---

(١) البحر المحيط.

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ أي: ولو يعجل الله سبحانه وتعالى للناس إجابة الدعاء في طلب الشر، وفيما عليهم فيه مضرة في نفس، أو مال، أو ولد عند الغضب، أو الضجر من البلاء ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: تعجيلاً مثل استعجالهم إجابة الدعاء في طلب الخير، الذي يدعونه من الله، أو حصول الخير الذي يرجونه بعلاج الأسباب، التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: لحكم عليهم حلول أجلهم قبل أوانه، ووقته الطبيعي وفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً كما هلك الذين كذّبوا الرسل من قبلهم، واستعجلوهم بالعذاب، ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم. وقد بعث محمداً، ﷺ، بالهداية الدائمة، وقضى بأن يؤمن به قومه العرب، ويحملوا دينهم إلى العجم، وأنه يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا، بما فيه تأديب لهم، كما بين ذلك بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ويؤخر عذاب سائر الكافرين إلى يوم القيامة، ولم يقض بإهلاكهم واستئصالهم بل يذرهم إلى نهاية آجالهم كما قال: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الخ.

وقال ابن قتيبة[١]: إن الناس عند الغضب والضجر، قد يدعون على أنفهسم وأهلهم وأولادهم، بالموت وتعجيل البلاء، كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال، يقول: لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير.. لقضى إليهم أجلهم، يعنى: لفرغ من هلاكهم، ولكن الله عزّ وجلّ بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير، ولا يستجيب له في الشر.

وقرأ ابن عامر[٢]: ﴿لقضى﴾ مبنياً للفاعل ﴿أجلهم﴾ بالنصب. وقرأ الأعمش ﴿لقضينا﴾ وباقي السبعة مبنياً للمفعول ﴿وأجلهم﴾ بالرفع. وقوله:

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

﴿فنذر الذين لا يرجون لقائنا﴾ معطوف[1] على فعل محذوف، دلت عليه الشرطية تقديره: ولكن لا نعجل ولا نقضي، فنذرهم ونتركهم إمهالاً لهم واستدراجاً بهم؛ أي: فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وتمردهم وعتوهم وضلالتهم حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويترددون ويتحيرون فيها. روى الشيخان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم إني اتخذت عندك عهداً، لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة، واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة».

وحاصل المعنى[2]: أي فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكره، فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج منه، ولا نعجل لهم العذاب في الدنيا بالاستئصال، حتى يأتي أمر الله في جماعتهم بنصر رسوله، ﷺ، عليهم وفي أفرادهم بقتل بعضهم، وموت بعض، ومأواهم النار وبئس القرار، إلا من تاب وآمن منهم.

وقد يكون المراد ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه، بما يقترفونه من ظلم وفساد في الأرض، لأهلكهم كما جاء في قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. ومن هذا دعاؤهم على أنفسهم حين اليأس، ودعاء بعضهم على بعض حين الغضب، كما قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: وما دعاء الكافرين بربهم أو بنعمه فيما يخالف شرعه بسننه في خلقه، إلا في ضياع، لا يستجيبه الله لهم، لحلمه عليهم ورحمته بهم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أنهم كاذبون في استعجال الشر، ولو أصابهم ما طلبوه.. لأظهروا العجز والجزع فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: وإذا أصاب جنس الإنسان، مسلماً كان أو كافراً. وقيل: المراد به، الكافر ﴿ٱلضُّرُّ﴾؛ أي:

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراغي.

الشدة والجهد والمشقة والفقر والمرض، وهو كل ما يشعر فيه شدة ألم، أو فيه خطر على نفسه كغرق ومسغبة وداء عضال ﴿دَعَانَا﴾ في كشفه وإزالته، ملحاً في الدعاء حالة كونه مضطجعاً ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾؛ أي: على جنبه وشقه ﴿أَوۡ﴾ حالة كونه ﴿قَاعِدًا﴾ على إسته ﴿أَوۡ﴾ حالة كونه ﴿قَآئِمٗا﴾ على قدميه حائراً في أمره، ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه. والمعنى: إن المضرور لا يزال داعياً في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً، أو قائماً، وإنما خص هذه الحالات الثلاث؛ لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات غالباً، وما عداها نادر، كالركوع والسجود، وقدم منها، ما يكون الإنسان فيه أشد عجزاً، وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى، ثم التي تليها ثم التي تليها.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ وأزلنا ﴿عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ وجهده الذي دعانا إليه، حال شعوره بعجزه، عن كشفه بنفسه، أو بغيره من الأسباب ﴿مَرَّ﴾ ومضى واستمر في طريقته التي كان عليها قبل مس الضر، من الغفلة عن ربه، والكفر به ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾؛ أي: وكان كأنه لم يدعنا إلى كشف ضر، وجهد مسّه، وأصابه ولم نكشف عنه ضراً. والمعنى: أنه استمر على حالته الأولى، قبل أن يمسه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر، وهذه[1] الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء، وقلوبهم بالخشوع والتذلل، عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء، والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم، ورفع ما نزل بهم من الضر، ودفع ما أصابهم من المكروه، وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمتك، وأذْكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر

(١) الشوكاني.

الذي لا نطيق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وهذه الآية[1]، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء، مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً مجتهداً في ذلك الدعاء، طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة وتبديلها بالمنحة، فإذا كشف الله تعالى عنه بالعافية، أعرض عن الشكر ولم يتذكر ذلك الضر، ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، فالواجب على العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء، شاكراً عند الفوز بالنعماء، وأن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة. وعن رسول الله، ﷺ، أنه قال: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء».

والإشارة[2] بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة؛ أي: مثل ذلك التزيين العجيب الذي حصل لمن مسه الضر ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: زين لهم عملهم الخبيث، والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، وشرعاً من باع دينه بدنياه واستبدلها عن آخرته. والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريق التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات.

وعبارة الجلال ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما زين له الدعاء عند الضر، والإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمشركين ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء، زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام والإشراك، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الشكر والإيمان

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

والانهماك في الشرك والمعاصي. وعبارة المراغي؛ أي: مثل هذا الطريق من معرفة الله، والإخلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه والكفر به، بعد كشفها زين للمشركين، من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول، ﷺ، واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب، أن استعجلوه به، فقالوا: اللهم ربنا أمطر علينا حجارة من السماء انتهت.

الإعراب

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿الٓر﴾: ليس بمعرب ولا مبني، فلا محل له من الإعراب، إن قلنا: إنه مما استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، وإن قلنا: إنه علم للسورة.. فتجري فيه الأوجه الخمسة، أو السبعة التي تجري، في أسماء التراجم، ولكن إعرابه لا يظهر لتعذره بسكون الوقف. ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة للكتاب والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَكَانَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿عَجَبًا﴾ أو حال منه؛ لأن التقدير: أكان عجباً للناس، أو متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ كما ذكره: أبو البقاء. ﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ﴾: متعلق به ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لرجل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، تقديره: أكان إيحاؤنا إلى رجل منهم عجباً للناس، وجملة ﴿كَانَ﴾ جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿أَنْ﴾ مصدرية، أو مفسرة بمعنى: أي ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: فعل أمر، ومفعول في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٍ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب بـ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ تقديره: أن أوحينا إلى رجل منهم إنذار الناس، أو الجملة مفسرة ﴿لأوحينا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، معطوف على ﴿أَنْ أَنذِرِ﴾

على كلا التقديرين، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٍ﴾ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أَنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ اسمها مؤخر. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة؛ لأن حذف الجار، مطرد مع، أن، وأن، تقديره: وبشر الذين آمنوا، بكون قدم صدق كائناً لهم حالة كونه كائناً عند ربهم، والباء المحذوفة متعلقة بـ ﴿بَشِّرِ﴾ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ واللام حرف ابتداء ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾: ناصب واسمه ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة للجلالة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بخلق.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة خلق ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ أو في محل الرفع خبر ثانٍ؛ لـ﴿إِنَّ﴾، أو، مستأنفة لا محل لها من الإعراب، كما ذكره في «الفتوحات» ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَفِيعٍ﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة دخول ﴿مِن﴾ الاستغراقية عليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره ﴿رَبُّكُمْ﴾: بدل من الجلالة، أو خبر

ثانٍ لاسم الإشارة، والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره؛ إذا عرفتم أيها العباد ذلكم الله ربكم وأردتم بيان ما هو الواجب عليكم: فأقول لكم ﴿اعبدوه﴾ ﴿اعبدوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول، لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، تقديره: أتجهلون هذا الحق الواضح فلا تذكرون، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير، المخاطبين، والجملة مستأنفة. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره: وعدكم بالرجوع إليه وعداً، والجملة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿حَقًّا﴾: منصوب أيضاً على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره، حق ذلك الوعد حقاً، والجملة مؤكدة لـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المقدر؛ أي: وعدكم بالرجوع إليه وعدا، وحق ذلك الوعد حقاً، لكن الأول مؤكد لنفسه؛ لأن قوله: إليه مرجعكم جميعاً، صريح في الوعد لا يحتمل غيره، والثاني مؤكد لغيره، فإن الوعد يحتمل الحق وغيره، ا هـ «بيضاوي»، وفي «زاده» المصدر إذا أكد مضمون جملة تدل على معناه، فإن كان نصاً فيه لا تحتمل غيره.. فهو مؤكد لنفسه، كما هنا فإن إليه مرجعكم لا يحتمل غير الوعد، وإن احتملته وغيره كان مؤكداً لغيره، مثل ﴿حَقًّا﴾ فإن الوعد يحتمل الحقية والتخلف، والعامل فيهما محذوف ا هـ ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾

مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، هذا على قراءة كسر همزة إن وأما على فتحها فعلى تقدير لام التعليل. وجملة قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ على كونها خبراً لـ﴿أن﴾. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لجزائه الذين آمنوا الجار والمجرور متعلق بـ﴿يعيده﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يجزي﴾. وفي «السمين» ويجوز أن يكون قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ حالاً إما من الفاعل، وإما من المفعول؛ أي: يجزيهم ملتبساً بالحق، أو ملتبسين به، والقسط: العدل ا هـ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول ويجوز أن يكون الموصول في محل النصب، معطوفاً على الموصول قبله، وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿شَرَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر. ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾: صفة لشراب. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: معطوف على شراب، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مستأنفة ﴿بِمَا﴾، الباء: حرف جر ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ في تأويل مصدر، مجرور بالباء تقديره: لهم شراب من حميم، بسبب كفرهم، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار، الذي تعلق به الخبر. وقال أبو البقاء: الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ في موضع رفع صفة أخرى لعذاب، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ا هـ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾: فعل ومفعولان. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾: معطوف على المفعولين، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير

يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ ﴿مَنَازِلَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿قدر﴾ ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة، بعد لام كي ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾: معطوف على ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ والجملة في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، الجار والمجرور متعلق ﴿بقدر﴾ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾: ذلك فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُفَصِّلُ﴾ وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة لقوم.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ﴾: جار ومجرور، و مضاف إليه خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَمَا﴾ في محل الجر معطوف على اختلاف الليل ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها والعائد أو الرابط، محذوف تقديره: وما خلقه الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر واللام حرف ابتداء ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ﴿يَتَّقُونَ﴾: صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿وَرَضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق بـ ﴿رضوا﴾ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الحياة﴾ ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿رضوا﴾ ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿اطمأنوا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾. ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، مبتدأ أول ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مبتدأ ثانٍ. ﴿ٱلنَّارُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من الأول وخبره خبر، لـ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿بِمَا كَانُواْ﴾: الباء حرف جر وسبب ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة أو مصدرية ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما كانوا يكسبونه، أو صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية تقديره: بكسبهم، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، دل عليه الكلام، تقديره: جوزوا ذلك بما كانوا يكسبون، ذكره أبو البقاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾: متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فاعل والجملة في محل الرفع خبر ثانٍ لـ﴿إن﴾ أو مستأنفة أو حال من مفعول ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ كما في «أبي السعود» ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جار ومجرور خبر ثالث لـ﴿إن﴾ أو حال ثانية من مفعول ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، أو حال من ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أو متعلق بـ ﴿تَجْرِي﴾: كما في «الخازن».

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾. ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: خبر محكي؛ أي: دعواهم هذا اللفظ، والجملة مستأنفة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ حال من ضمير ﴿تحيتُهم﴾ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾: خبر والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿أَنِ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

مبتدأ وخبر ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ صفة للجلالة، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿أَنِ﴾ المخففة وجملة ﴿أَنِ﴾ المخففة في محل الرفع خبر المبتدأ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به ﴿ٱلشَّرَّ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ منصوب على المصدر التشبيهي، تقديره: تعجيلاً مثل استعجالهم، ثم حذف الموصوف وهو تعجيل، وأقيمت صفته مقامه وهي مثل فبقي ولو يعجل الله للناس مثل استعجالهم، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه فصار استعجالهم. ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾: متعلق به ﴿لَقُضِىَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متلعق به ﴿أَجَلُهُمْ﴾ نائب فاعل ﴿لقضي﴾ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿فَنَذَرُ﴾: الفاء عاطفة على محذوف تقديره: ولكن نمهل، ولا نقضي إليهم أجلهم ﴿نذر الذين﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب، حال من ضمير طغيانهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾ ظرفية شرطية ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَعَانَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿دَعَانَا﴾ تقديره: دعانا حالة كونه مضطجعاً على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: معطوفان على تلك الحال

المحذوفة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به ﴿ضُرَّهُۥ﴾ مفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿مَرَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: كأنه ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾: متعلق به. وجملة ﴿مَّسَّهُۥ﴾ صفة لضر، وجملة ﴿يَدْعُنَآ﴾ في محل الرفع خبر، ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب، حال من فاعل مر، تقديره: استمر هو على كفره حالة كونه مشبهاً بمن ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أصلاً؛ أي: رجع إلى حالته الأولى، وترك الالتجاء إلى ربه ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف منصوب بـ ﴿ما﴾ بعده تقديره: تزييناً مثل ذلك التزيين الذي حصل لمن مسه الضر ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: متعلق به ﴿مَا كَانُوا۟﴾: ما موصولة أو موصوفة، في محل الرفع نائب فاعل، لـ ﴿زُيِّنَ﴾ أو مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه، أو صلة ما المصدرية تقديره، كذلك زين للمسرفين عملهم الخبيث وجملة زين مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: هو القرآن العظيم و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة، لاشتمال الكتاب عليها ﴿عَجَبًا﴾: وفي «المختار»، والعجب: مصدر عجب من باب طرب، وتعجب واستعجب بمعنى، وعجب غيره تعجيباً، والعجب والعجاب: الشيء الذي يتعجب منه، وكذا العجاب بتشديد الجيم، وهو الأكثر وكذا الأعجوبة ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾: والوحي الإعلام الخفي لامرىء بما يخفى على

غيره. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ والإنذار: الإخبار بما فيه تخويف ﴿وَبَشِّرِ﴾ التبشير: الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ والصدق[1]: يكون في الأقوال، ويستعمل في الأفعال، فيقال: صدق في القتال، إذا وفاه حقه، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل، وجاء في التنزيل ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ و﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ ويراد بالقدم هنا: السابقة والتقدم، والمنزلة الرفيعة. قال[2] الليث وأبو الهيثم: القدم: السابقة. قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ آمْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ   لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ

وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق في خير أو شر، فهو قدم. وقال الأخفش: سابقة إخلاص، كما في قول حسان:

لَنَا ٱلْقَدَمُ ٱلْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفَنَا   لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ ٱللَّهِ تَابِعُ

وقال أحمد بن يحيى: كل ما قدمت من خير. وقال ابن الأنباري: العمل الذي يتقدم فيه، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء. ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: يؤثر في القلوب، ويجذب النفوس فهو جار مجرى السحر. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر واضح ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش: مركز التدبير، ولا نعلم كنهه ولا صفته ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والتدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود، وتدبير الأمر أو القول هو التفكر فيما وراءه، وما يراد منه وينتهي إليه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط: العدل ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: الماء الشديد الحرارة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والشمس: كوكب نهاري يزيل ظهوره ظلمة الليل، ولها السلطنة على سائر الكواكب. والقمر: كوكب ليلي له السلطنة على سائر النجوم. والضوء: ما كان من ذاته. والنور: ما كان مكتسباً من غيره كما مر. والضياء: يحتمل كونه مصدراً، وكونه جمع ضوء، كسوط وسياط ﴿مَنَازِلَ﴾: جمع منزل، وهو اسم لمكان النزول ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

وقال[1] في «المصباح»: رجوته أملته أو أردته، قال تعالى ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لا يريدونه. ويستعمل بمعنى، الخوف؛ لأن الراجي يخاف أن لا يدرك ما يرجوه. وقيل: الرجاء مجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء. واللقاء: الاستقبال والمواجهة ﴿واطمأنوا﴾ والاطمئنان سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ والمأوى: الملجأ الذي يأوي إليه المتعب، أو الخائف، أو المحتاج من مكان آمن، أو إنسان نافع. وقد أطلق على الجنة في ثلاث آيات، وعلى النار في بضع عشرة آية. ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ والدعوى، مصدر بمعنى الدعاء، وهو للناس النداء، والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم، ولله هو دعاؤه وسؤاله، والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه، والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه، من دفع ضر أو جلب نفع ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً، وهو اسم مصدر، لسبح تسبيحاً.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ والتحية: التكرمة بقولهم: حياك الله؛ أي: أطال عمرك وحياتك. وفي «الفتوحات» التحية: التكرمة بالحالة الجليلة، أصلها: أحياك الله حياة طيبة؛ أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، فعلى هذا فهو مصدر مضاف لفاعله، أو تحية الملائكة إياهم كما في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أو تحية الله لهم، كما في قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ وعلى هذين الأخيرين، فهو مصدر مضاف لمفعوله كما في «الشهاب» ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي سلامة من كل مكروه ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ عجل يعجل تعجيلاً، من باب فعل الرباعي، والاستعجال: مصدر استعجل السداسي، وتعجيل الشيء تقديمه على أوانه المقدر له، أو الموعود به. والاستعجال به طلب التعجيل له. والعجلة من غرائز الإنسان، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه، بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، أو للنجاة مما هو شر منه وقال الزمخشري[2]: أصله: ولو يعجل الله

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

للناس الشر تعجيله لهم بالخير، فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله بالخير، إشعاراً بسرعة إجابته لهم، وإسعافه بطلبتهم، فإن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. قال الشيخ[1]: عجل مدلوله: غير مدلول استعجل؛ لأن عجل يدل على الوقوع، واستعجل يدل على طلب التعجيل، وذاك واقع من الله تعالى، وهذا مضاف إليهم، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وقضاء الأجل: انتهاؤه، والأجل: المدة التي أجلها الله لعباده في دار الفناء. ﴿ونذر﴾: نترك، والطغيان: مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان، والعمه: التردد والتحير في الأمر أو الشر ﴿مَرَّ﴾؛ أي: مضى في طريقته التي كان عليها من الكفر بربه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿أَنذِرِ﴾ و ﴿بشِّر﴾.

ومنها: المبالغة في المدح في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لأن الإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع، ففائدة هذه الإضافة عندهم التنبيه على زيادة الفضل، ومدح القدم؛ لأن كل شيء أضيف إلى الصدق، فهو ممدوح، وفيه أيضاً المجاز المرسل؛ حيث أطلق القدم الذي هو سبب في السبق، وأراد به السابقة في الخير، والعلاقة السببية.

ومنها: إطلاق المضارع، بمعنى: الماضي في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ استحضاراً للصورة الغريبة، وفيه أيضاً إطلاق المصدر بمعنى: اسم المفعول؛ لأن الخلق هنا، بمعنى: المخلوق.

---

(١) الشيخ إذا أطلق في الفتوحات الشهاب الرملي الشافعي ا هـ مؤلفه.

ومنها: الطباق بين كلمتي البدء والإعادة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ حيث وحد الضمير، إن قلنا إن الضمير يرجع إلى الشمس والقمر كما في «الفتوحات».

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ على قراءة النون وفي قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ لأن مقتضى السياق لا يرجون لقاءه، أضافه إلى ضمير الجلالة، لتعظيم الأمر وتهويله.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: كاستعجالهم أو مثل استعجالهم، ففيه تشبيه مؤكد مجمل.

ومنها: الطباق بين كلمتي الشر والخير.

ومنها: تغيير الأسلوب في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة، هو الإثابة، والعذاب إنما وقع بالعرض.

ومنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي.

ومنها: الطباق بين الليل والنهار، وبين السموات والأرض في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ
هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم
بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً
فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ
مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى
ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ
أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: أنْ الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السالفة أنهم كانوا يتعجلون العذاب، وذكر أنه لا صلاح لهم في إجابة دعائهم ثم ذكر أنهم كاذبون

(١) المراغي.

في هذا الطلب إذ لو نزل بهم الضرّ جاؤوا وتضرعوا إلى الله في كشفه وإزالته.. بين هنا ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه تعالى، قد ينزّل بهم عذاب الاستئصال، كما حدث للأمم قبلهم، حتى يكون ذلك رادعاً لهم وزاجراً عن هذا الطلب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لما بدأ السورة بذكر الكتاب الحكيم، وإنكار المشركين الوحي على رجل منهم، ثم أقام الحجة على الوحي والتوحيد والبعث، بخلق العالم علويه وسفليه وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه.. أعاد هنا الكلام في شأن الكتاب نفسه، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول، ﷺ، بشأنه وحجته البالغة عليهم، في كونه وحياً من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى، لما بين في الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين، إما الإتيان بقرآن غير هذا، أو تبديله؛ لأن فيه نبذاً لآلهتهم، وطعناً فيها وتسفيهاً لآرائهم في عبادتها.. نعى عليهم هنا عبادة الأصنام، وبين لهم حقارة شأنها، إذ لا تستطيع نفعاً ولا ضراً، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله تعالى؟ ويجعل لها الشفاعة عنده تعالى، وليس لديهم برهان على ما يدّعون، سبحانه وتعالى عما يشركون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام، وبين سبب هذه العبادة.. ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة في الدين، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية، مناسبة[1]

(١) البحر المحيط.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية، ثم ذكر قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وذلك على سبيل التعنت.. أخبر أن هؤلاء إنما يصيرون لهذه المقالات عند ما يكونون في رخاء من العيش وخلو بال، وأن إحسان الله تعالى قابلوه بما لا يجوز من ابتغاء المكر لآياته، وكان خليقاً بهم أن يكونوا أول من صدق بآياته، وإعراضهم عن الآيات نظير قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن الناس إذا أصابهم الضر.. لجؤوا إلى الله، فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم، من إهمال جانب الله تعالى، والمكر في آياته، وكان قبل ذلك قد ذكر نحواً من هذا في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ...﴾ الآية، وكان المذكور في الآيتين أمراً كلياً أوضح تعالى ذلك الأمر الكلي بمثال جلي كاشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي، ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كل متعلق به، إلا الله تعالى، فيخلص له الدعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو تعالى، ويتبين بطلان عبادته ما لا يضر ولا ينفع ودعواه أنه شفيعه عند الله، ثم بعد كشف هذه النازلة عاد إلى عادته من بغيه في الأرض، فإنجاؤه تعالى إياهم، هو مثال من أذاقه الرحمة، وما كانوا فيه قبل من إشرافهم على الهلاك، هو مثال من الضر الذي مسهم.

وعبارة المراغي: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أن القوم طلبوا من الرسول ﷺ آية أخرى سوى القرآن، وذكر جواباً عن هذا، بأنه لا يملك ذلك؛ لأن هذا من الغيب الذي استأثر بعلمه.. أردف ذلك بجواب آخر، وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم، بل يكابرون حسهم، ولا يؤمنون؛ إذ من عاداتهم اللجاج والعناد، فكثيراً ما جاءتهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الآيات الكونية، الدالة على وحدانية الله تعالى في أفعاله، ثم هم يمكرون فيها، ولا تزيدهم إلا ضلالاً انتهت.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآية، قال ابن عباس[1] والكلبي: نزلت في المستهزئين بالقرآن، من أهل مكة، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

وقال مجاهد وقتادة: نزلت في جماعة من مشركي مكة، وقال مقاتل: نزلت في خمسة نفر، عبد بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن وائل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: أنه لما دعا رسول الله، ﷺ، على أهل مكة بالجدب.. قحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ادع لنا بالخصب فإن أخصبنا صدقنا، فسأل الله لهم، فسقوا ولم يؤمنوا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾، أي: وعزتي وجلالي لقد أهلكنا واستأصلنا بالعذاب الشديد ﴿ٱلْقُرُونَ﴾؛ أي: الأمم الماضية ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من قبل زمانكم يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: حين ظلموا أنفسهم بالإشراك والتكذيب لرسلهم وباستعمال القوى والجوارح فيما لا ينبغي ﴿و﴾ الحال أنه قد ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾؛ أي: وما كان تلك الأمم الماضية ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ برسلهم ويصدقوهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى، لو أبقيناهم وأمهلناهم ولم نهلكهم؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

لأن الله سبحانه وتعالى، علم منهم أنهم يصرون على كفرهم والواو[1] في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية لاعتراضها بين أهلكنا وبين قوله الآتي: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ واللام لتأكيد النفي يعني: أن السبب في إهلاكهم، تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم، بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل؛ أي: ولقد أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية من قبل زمانكم، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، حين ظلموا بالتكذيب لرسلهم، والحال أنه قد جاءتهم رسلهم بالبينات، الدالة على صدقهم، وما كانوا ليؤمنوا؛ أي: وما كان من شأنهم، ولا من مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا؛ لأنهم قد مرنوا على الكفر، وصار ديدنهم حب الشهوات واللذات، من الجاه والرياسة والظلم والفسق والفجور.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: نجزي القوم المجرمين، بالإشراك والتكذيب لك يا محمد، جزاءً مثل الجزاء الذي جزيناه الأمم الماضية، وهو العذاب الشديد بالاستئصال إن لم يؤمنوا بك. وقرأت فرقة: ﴿يجزي﴾ بالياء؛ أي؛ يجزى الله، وهو التفات ذكره أبو حيان. وفي هذا وعيد شديد لأهل مكة، على تكذيبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وإهلاك الله تعالى للأمم، بالظلم ضربان:

١ ـ ضرب بعذاب الاستئصال، للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلاً لهدايتهم، بالإيمان والعمل الصالح، كقوم نوح فعاندوا الرسل، فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم.

٢ ـ ضرب بعذاب، هو مقتضى سنته تعالى، في نظم الاجتماع البشري، فالظلم مثلاً سبب لفساد العمران، وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم، بالفسوق والإسراف، في الشهوات المضعفة

---

(١) النسفي.

للأبدان، المفسدة للأخلاق، وإما ظلم الحكام، الذي يفسد بأس الأمة ويهن من قوتها.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاك تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيتها الأمة المحمدية ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون عن تلك الأمم ﴿فِى﴾ سكنى الأرض، وإحيائها ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد تلك القرون الماضية ﴿لِنَنظُرَ﴾ أي: لكي ننظر ونعلم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عمل تعملونه من خير أو شر، فنجازيكم بحسبه. والمعنى[1]: استخلفناكم في الأرض بعد القرون المهلكة، لننظر أتعملون خيراً أم شراً، فنعاملكم على حسب عملكم. ومعنى: لننظر، أي: لنظهر في الوجود ما علمناه أزلاً، أو ليظهر متعلق علمنا، فالنظر مجاز عن هذا، وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: لينظر رسلنا وأولياؤنا، وأسند النظر إلى الله مجازاً، وهو لغيره. وقرأ يحيى بن الحارث الزماري: ﴿لنظر﴾ بنون واحدة وتشديد الظاء، وقال: هكذا رأيته في مصحف عثمان. ووجهها أن[2] النون الثانية قلبت ظاء وأدغمت في الظاء. والاستفهام في كيف لطلب تعيين أحد الأمرين؛ لأن المعنى، لنعلم جواب كيف تعملون؛ أي: أي عمل تعملونه أخير أم شر، وهي معمولة لتعملون، والجملة في موضع نصب لننظر؛ لأنها معلقة، وجاز التعليق في نظر إن لم يكن من أفعال القلوب؛ لأنها وصلة فعل القلب الذي هو العلم. ومعنى الآية: ثم[3] جعلناكم خلائف في الأرض، من بعد أولئك الأقوام، بما آتيناكم في هذا الدين، من أسباب الملك والحكم، إذ في شريعتكم، ما به سعادة الأمة في دينها ودنياها.

وفي الآية: بشارة لهذه الأمة، بأنها ستخلفهم في الأرض، إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقد صدق الله وعده، فملكهم ملك الأكاسرة، والقياصرة، والفراعنة، وكثير من الأمم غيرها ﴿لِنَنظُرَ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) العكبري.
(٣) المراغي.

كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لنرى ماذا تعملون في خلافتكم، فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله، ﷺ، قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء». أخرجه مسلم، وقوله: فاتقوا الدنيا، معناه: احذروا فتنة الدنيا، واحذروا فتنة النساء.

وقال قتادة: صدق الله ربنا، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل، أو النهار. وفي هذا إيماء، إلى أن هذه الخلافة، منوطة بالأعمال، حتى لا يغتروا بما سينالونه، ويظنوا أنه باقٍ لهم، وأنهم يتفلتون من سننه تعالى في الظالمين.

ثم حكى[1] الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم؛ أي: وإذا تلا التالي عليهم آياتنا، الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حالة كونها بينات؛ أي: واضحات الدلالة على المطلوب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يخافون ﴿لقاءنا﴾ يوم القيامة بالبعث، وهم المنكرون للمعاد؛ أي: قالوا: لمن يتلوه عليهم - وهو محمد، ﷺ، حين سمعوا ما يغيظهم فيما تلاه عليهم، من القرآن، من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ أي: بدل ما فيه مما نكره كسبِّ آلهتنا، وذكر البعث، وليس طلبهم تبديل جميعه؛ أي: طلبوا منه أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن، مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن، بنسخ بعض آياته، أو كلها، ووضع أخرى مكانها، مما يطابق هواهم ويلائم غرضهم. والمعنى: ائت بقرآن غير هذا، مع بقاء هذا القرآن، أو بدله؛ أي: أزله بالكلية، وائت ببدله، فيكون المطلوب أحد أمرين، إما إزالته بالكلية وهو التبديل في الذات، أو الإتيان بغيره مع بقائه، فيحصل

---

(١) الشوكاني.

التغاير بين المطلوبين، ذكره أبو حيان.

وحاصل المعنى[1]: وإذا تتلى علىٰ هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذي أنزل إليك، حال كونها بارزات في أعلى أسلوب من البيان، دالاَّت على الحق، ساطعات الحجة والبرهان، قالوا: لمن يتلوها عليهم ـ وهو الرسول ﷺ ـ ائت بقرآن غير هذا، أو بدله؛ أي: ائت بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما لا نؤمن به، من البعث والجزاء على الأعمال، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا، والوعيد على عبادتها، أو بدله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد، آية أخرى، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله، بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره، في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها، ونظمها، أو بالتصرف فيه، بالتغيير والتبديل لما يكرهونه، منه من تحقير آلهتهم وتكفير آبائهم حتى إذا فعل هذا أو ذاك، كانت دعواه أنه كلام الله، أوحاه إليه دعوى باطلة، لا يعول عليها، وكان قصارى أمره، أنه امتاز عنهم بنوع من البيان خفيت علهيم أسباب معرفته، ولم يكن بوحي من الله كما يزعمه. فأمره الله تعالى أن يقول لهم في جوابهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يحل لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾؛ أي: من قبل نفسي. وقرىء ﴿تلقاء﴾ بفتح التاء؛ أي: قل لهم، أيها الرسول: إنه ليس من شأني، ولا مما تجيزه لي رسالتي، أن أبدله من تلقاء نفسي، ومحض رأيي، وخالص اجتهادي.

فنفى عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل؛ لأنه الذي يمكنه، لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر، وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه، ولا يقدر عليه. وقيل: إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين، ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى.

وهذا منه[2] ﷺ، من باب مجاراة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء، بعد أن أمره الله سبحانه بذلك، وهو أعلم بمصالح عباده، وبما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة، والسؤالات الباردة. قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه، من ذكر البعث والنشور. وقيل: سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم. وقيل: سألوه أن يحول الوعيد وعداً والحرام حلالاً، والحلال حراماً. ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم، من أنه ما صح ولا استقام أن يبدله، من تلقاء نفسه بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾؛ أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ في القرآن، أو في غيره من عند الله سبحانه وتعالى، من غير تبديل ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه؛ أي: ما علي إلا البلاغ، فإن بدل الله سبحانه منه شيئاً بنسخه، بلغت عنه ما أراد وإلا فلا. ثم أمره الله تعالى أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم، وتعليلاً للسابق منه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾؛ أي: لأني أخاف ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ وخالفت ما أوحي إليّ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: شديد عذابه، وهو يوم القيامة؛ أي إني أخاف إن فعلت أي عصيان، عذاب يوم عظيم الشأن، ألا وهو يوم القيامة، فكيف بي إذا عصيته، بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم. ثم أكد الله سبحانه وتعالى كون هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه، لا يقدر على غير ذلك فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين طلبوا منك تبديل القرآن وتغييره، إن هذا القرآن المتلو عليكم، هو بمشيئة الله تعالى وإرادته و ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عدم تلاوتي لهذا القرآن عليكم، بأن لم ينزله عليّ، ولم يأمرني بتلاوته عليكم ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ وقرأته عليكم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا القرآن؛ أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم، وما أعلمكم الله به بواسطتي، فالأمر كله منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء. وقوله: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ معطوف على ما تلوته؛ أي: ولو شاء الله ما أدراكم بالقرآن؛ أي: ما أعلمكم به على لساني، يقال: دريت الشيء، وأدراني الله به؛ أي: علمته، وأعلمني الله به؛ أي: قل لهم[1] يا محمد: لو شاء الله أن لا أتلو عليكم هذا القرآن، ما تلوته عليكم، فإنما أتلوه عليكم بأمره، وتنفيذ

---

(١) المراغي.

مشيئته، ولو شاء الله أن لا يعلمكم به، بإرسالي إليكم، لما أرسلني، ولما أدراكم به، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم النافع، لتهتدوا به، وتكونوا بهدايته خلائف في الأرض، وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فهو قد أنزله عالماً بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر، من الهداية وأسباب السعادة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ فـ ﴿لا﴾ مؤكدة وموضحة، بأن الفعل منفي، لكونه معطوفاً على منفي من أدراه، يدريه، بمعنى: أعلمه يعلمه. وقرأ ابن كثير وقنبل والبزيّ ﴿ولأدراكم﴾ بلام دخلت على فعل مثبت، معطوف على منفي، والمعنى: ولأعلمكم به من غير طريقي، وعلى لسان غيري، ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة، ورآني لها أهلاً دون الناس. وقرأ ابن عباس وابن سيرين والحسن وأبو رجاء وابن أبي عبلة وشيبة بن نصاح: ﴿ولا أدرأتكم﴾ بهمزة ساكنة، وتاء بعدها، ثم كاف؛ أي: ولا أجعلكم بتلاوته عليكم خصماء، تدرؤونني بالجدال، وتكذبونني، من الدرء، بمعنى: الدفع يقال: درأته دفعته، كما قال تعالى؛ ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ودرأته، جعلته دارئاً؛ أي: خصماً. وقرأ شهر بن حوشب والأعمش ﴿ولا أنذرتكم به﴾ بالنون، والذال من الإنذار، وكذا هي في مصحف ابن مسعود. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿ولا أدريكم﴾ بالإمالة.

وقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله تعالى، ولم يكن من النبي، ﷺ إلا التبليغ، أي: فقد مكثت بين ظهرانيكم عمراً طويلاً، وهو أربعون سنة، من قبل تلاوة هذا القرآن عليكم، لم أتل عليكم سورةً من مثله. ولا آية تشبه آياته، لا في العلم والهداية، ولا في البيان والبراعة، تعرفونني بالصدق والأمانة، ولست ممن يقرأ ولا ممن يكتب. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتقريع[2] والتوبيخ داخلة على محذوف، تقديره: أعميتم عن الحق

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير وغيرهما.

(٢) الشوكاني.

فلا تعقلون؛ أي: فلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي، لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة، بالصدق والأمانة مني، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل، وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئت بهذا الكتاب، الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته، وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة، المعترف لهم، بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؛ أي[1]: أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة، لم يقرأ كتاباً، ولم يلقن من أحد علماً، ولم يتقلد ديناً ولم يمارس أساليب البيان، وأفانين الكلام، من شعر ونثر وخطابة وفخر وعلم وحكمة، لا يمكنه أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان، فكيف تقترحون علي، أن آتي بقرآن غيره؟ وقد كان أكثر أنبياء بني إسرائيل، قبل نبوتهم على شيء من العلم، كما قال تعالى في موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقال في يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

والخلاصة[2]: أن كفار مكة، شاهدوا رسول الله ﷺ قبل مبعثه، وعلموا أحواله، وأنه كان أمياً لم يقرأ كتابا، ولا تعلم من أحد، وذلك مدة أربعين سنة، ثم بعدها جاءكم بكتاب عظيم الشأن، مشتمل على نفائس العلوم والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق، فكل من له عقل عليم، وفهم ثابت، يعلم أن هذا القرآن من عند الله تعالى، لا من عند نفسه.

وقرأ الحسن والأعمش[3]: ﴿عمرا﴾ بضم العين وسكون الميم. قال أبو عبيدة وفي العمر ثلاث لغات، عمر، بضم فسكون، وعمر بضمتين، وعمر بفتح فسكون.

---

(١) المراغي.
(٢) الصاوي.
(٣) زاد المسير.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في عمر النبي ﷺ

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزل على رسول الله ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي، ﷺ. متفق عليه. وفي رواية، أن رسول الله، ﷺ، أقام بمكة ثلاث عشرة سنة، يوحى إليه، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. وفي رواية أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة، يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة. أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله، ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. متفق عليه. وعن أنس رضي الله عنه قال: قبض رسول الله ﷺ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة، وعمر وهو ابن ثلاث وستين سنة. أخرجه مسلم. وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال: سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله ﷺ يقول: كان ربعة من القوم، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ليس بجعد قطط، ولا سبط رجل، أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي، وبالمدينة عشراً، وتوفاه الله على رأس ستين سنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. متفق عليه.

وقال النووي رحمه الله: ورد في عمره ﷺ ثلاث روايات:

أحدها: أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة.

والثانية: خمس وستون سنة.

والثالثة: ثلاث وستون سنة، وهي أصحها وأشهرها، رواها مسلم، من حديث أنس وعائشة وابن عباس، واتفق العلماء، على أن أصحها رواية، ثلاث وستين، وحملوا الباقي عليها، فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود، وترك الكسر، ورواية الخمس متأولة أيضاً، بأنها حصل فيها اشتباه.

قوله: يسمع الصوت، أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء؛

أي: نور الملائكة، أو نور آيات الله، حتى رأى الملك بعينه، وشافهه بالوحي من الله عزّ وجلّ. وقوله: ليس بالأمهق، المراد به: الشديد البياض، كلون الجص، وهو كريه المنظر، وربما توهم الناظر أنه برص، والمراد أنه كان أزهر اللون، بين البياض والحمرة.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للإنكار[1]؛ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ فزعم أن لله شريكاً وولداً.

والمعنى[2]: أني لم أفتر على الله كذباً، ولم أكذب عليه في قولي: إن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنتم قد افتريتم على الله الكذب، فزعمتم أن له شريكاً وولداً، والله تعالى منزه عن الشريك والولد. وقيل معناه: إن هذا القرآن، لو لم يكن من عند الله، لما كان أحداً في الدنيا أظلم على نفسه مني، من حيث إني افتريته على الله، ولما كان هذا القرآن من عند الله، أوحاه إليّ، وجب أن يقال: ليس أحد في الدنيا أجهل، ولا أظلم على نفسه منكم، من حيث إنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله، فقد كذبتم بآياته وهو قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ تعالى القرآنية أو الكونية؛ أي: جحد بكون القرآن من عند الله تعالى، وأنكر دلائل توحيده. ففيه[3] بيان أن الكاذب على الله، والمكذب بآياته في الكفر سواء.

وإنما زاد كذباً في قوله[4]: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد فقط، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته؛ أي: إن الشأن والحال لا ينجو المشركون من عذاب الله، ولا يظفرون الخير في الدنيا والآخرة، لافترائهم الكذب على الله بنسبة الشريك، ولتكذيبهم بآيات الله تعالى، ثم نعى الله سبحانه

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) الشوكاني.

عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي متجاوزين الله سبحانه وتعالى إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية؛ أي: ويعبدون معه تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ أي: ما ليس من شأنه الضرر، ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه، معاقباً لمن عصاه. والواو لعطف هذه الجملة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من الأصنام وغيرها. حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ ونفي الضر والنفع هنا، باعتبار ذواتهم، وإثباتهما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ باعتبار السبب، فلا يرد كيف نفى عن الأصنام هنا الضر والنفع، وأثبتهما لها في الحج، ا هـ «كرخي».

وفي الآية: إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون، هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع، فرد عليهم خطأهم بأنه هو القادر على نفع من يعبده، وضر من يشرك بعبادته غيره، في الدنيا والآخرة. وقد دل تاريخ البشر في كل طور من أطواره، على أن كل ما عبده البشر من دون الله تعالى، من صنم أو وثن، فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر، بسلطان له فوق الأسباب المعروفة، كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة، أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة، أو غير المصنوعة، كاللات، وهي صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق، عظمت حتى عبدت، أو الأشجار، كالعزى، معبودة قريش.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقها وشأنها، معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء المشركون في سبب عبادتهم لها، مع اعتقادهم أنها لا تملك الضر، ولا النفع بأنفسها إيمانهم: بأن الرب الخالق، هو الله تعالى و ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى فإنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الدنيا، في إصلاح معايشهم، وكشف ما يهمهم، كالقحط؛ لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد

الموت، أو تشفع لهم في الآخرة على تقدير أن يبعثوا؛ لأنهم كانوا شاكين في البعث؛ أي: ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ونطيبها بالعطر، ونقدم لها النذور ونهل لهم عند ذبح القرابين، بذكر أسمائهم، وبدعائهم والاستغاثة بهم؛ لأنهم يشفعون لنا عند الله تعالى، ويقربونا إليه زلفى، ويدفعون بجاههم عنا البلاء ويعطوننا ما نطلب من النعماء، والإخبار بهذا عن الكفار هو على سبيل التجهيل والتحقير لهم ولمعبوداتهم، والتنبيه على أنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة. وقال أهل المعاني: توهموا أن عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم إياه، وقالوا لسنا بأهلٍ أن نعبد الله، ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، فإنها تكون شافعة لنا عند الله، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

فأساس عقيدة الشرك، أن جميع ما يطلب من الله تعالى، لا بد أن يكون بوساطة المقربين عندهم، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم؛ لأنها مدنسة بالمعاصي. أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده، تائباً إليه طالباً مغفرته ورحمته. والاستفهام في قوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ للتوبيخ والتقريع والإنكار والتهكم. وقرأ أبو السمال العدوي ﴿أتنبئون﴾ بالتخفيف من أنبأ، ينبىء. وقرأ من عداه: بالتشديد من نبأ، ينبىء؛ أي: قل لهم يا محمد تبكيتاً لهم، ومبيناً لهم كذبهم ومنكراً عليهم افتراءهم على ربهم، أتخبرون الله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: بالأمر الذي لم يعلم الله سبحانه وتعالى وجوده في السموات، وهو شفاعة الملائكة لهم، ولا وجوده في الأرض وهو شفاعة الأصنام، وإذا لم يعلم الله شيئاً من الأشياء، استحال وجود ذلك الشيء؛ لأنه تعالى لا يعزب عن علمه شيء. وقال الضحاك: أتخبرون الله أن له شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض، انتهى. ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده، لكان أعلم بهم منكم، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذاً هؤلاء لا وجود لهم عنده، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياساً على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم، والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم، بدون وساطة

الوزراء وذوي المكانة فيهم. وبهذا ثبت بطلان الشرك في الألوهية، وهو عبادة غير الله تعالى مهما يكن المعبود.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عن كل ما لا يليق به ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾؛ أي: ترفع وعلا ﴿عَـمَّا يُشْـرِكُونَ﴾؛ أي: عن شركائهم، الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى. والمعنى: تنزه ربنا، وعلا علواً كبيراً، عما يشركون به من الشفعاء. والوسطاء، وما يفترونه عليه، من أن لأحد من خلقه وساطة عنده، وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففي هذا تحقير لمقام الربوبية و الألوهية، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين. وفي هذا إيماء إلى أن شؤون الرب، وسائر ما في عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحي، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده فيكون كفراً صراحاً.

وقرأ العربيان[١]: أبو عمرو وابن عامر، والحرميان: نافع وابن كثير وعاصم: ﴿يشركون﴾ بالياء على الغيبة هنا، وفي حرفي النحل وحرف في الروم. وذكر أبو حاتم، أنه قرأها كذلك الحسن والأعرج، وابن القعقاع وشيبة وحميد وطلحة والأعمش، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: في النمل فقط، بالتاء على الخطاب. وعاصم وأبو عمرو بالياء على الغيبة. وقرأ حمزة والكسائي: الخمسة بالتاء على الخطاب. وأتى بالمضارع، ولم يقل عما أشركوا للدلالة على استمرار حالهم كما جاؤوا يعبدون، وأنهم على الشرك في المستقبل، كما كانوا عليه في الماضي ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ جميعاً ﴿إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِـدَةً﴾ موحدة لله سبحانه وتعالى، مؤمنة به متفقة على فطرة الإسلام والتوحيد، من غير أن يختلفوا بينهم؛ لأن التوحيد والإسلام ملة قديمة اجتمعت عليها الناس قاطبةً فطرةً وتشريعاً وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة؛ أي: إنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ﴿فَٱخْتَـلَفُواْ﴾؛ أي؛ ثم اختلفوا في الأديان، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه،

---

(١) البحر المحيط.

ثم اختلفوا في الكتاب أيضاً بغياً بينهم، واتباعاً لأهوائهم، وقيل المعنى: وما كان الناس إلا على دين واحد، هو دين الإسلام في عهد آدم عليه السلام، إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف وعبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ حق ﴿سَبَقَتْ﴾ من الله تعالى وقضاء وقع ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أزلاً بتأخير الجزاء العام إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لعجل لهم الجزاء في الدنيا، بالقضاء بينهم ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: في الدين الذي يختلفون بسببه، ففي سببية بإهلاك المبطلين، وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم. وعبر بالمضارع عن الماضي حكايةً للحال الماضية. وفي الآية[1] وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدي إلى العدوان، والشقاق، ولا سيما الاختلاف في الكتاب الذي أنزل لإزالة الشقاق. وقرأ[2] عيسى بن عمر: ﴿لقضى﴾ بالبناء للفاعل. وقرأ من عداه: بالبناء للمفعول.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: وقال أهل مكة: مرة بعد مرة وكرة بعد كرة. وعبر بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه؛ أي: وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾ أخرى كونية، سوى القرآن ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ دالة على صدق ما يقول، كما كان لصالح، من الناقة، ولموسى، من العصا. والقائلون[3] ذلك هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسول الله، ﷺ، من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، التي لو لم يكن منها إلا القرآن، لكفى به دليلاً بيناً، ومصدقاً قاطعاً؛ أي: هلا أنزلت عليه آية من الآيات، التي نقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهباً وغير ذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الشوكاني.

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: إن نزول الآية غيب والله هو المختص بعلمه المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته، فإن كان قدر إنزال آية عليّ.. فهو يعلم وقتها وينزلها فيه، ولا أعلم إلا ما أوحاه إليّ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. وقيل المعنى: انتظروا قضاء الله بيني وبينكم، بإظهار الحق على الباطل، أو انتظروا لما يفعل الله بكم، لاجترائكم على جحود الآيات القرآنية واقتراح غيرها. والآية بمعنى قوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. وقد جاء تفسير ما ينتظر وينتظرونه في قوله في آخر هذه السورة: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. وفي الآية الإنذار بما سيحل بهم من العذاب، بخذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا، وما وراءها من عذاب الآخرة. ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: وإذا أعطينا ورزقنا كفار مكة ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة وخصباً ورخاءً وسعة العيش ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾؛ أي: من بعد فقر وقحط وشدة وبلاء، وضيق أصابهم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين، حتى هلكوا من الجوع والقحط، ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم، فأنزل عليهم المطر الكثير، حتى أخصبت البلاد، وعاش الناس بعد ذلك الضر، فلم يتعظوا بذلك، بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ وتدبير ﴿فِىٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَاتِنَا﴾ القرآنية والكونية واستهزاء وتكذيب لها، وإذا الأولى شرطية، وجوابها ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ وهي فجائية، يستفاد منها السرعة؛ لأن المعنى: أنهم فاجؤوا المكر وسارعوا فيه؛ أي: أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة.

والمعنى[(١)]: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجاً بعد كرب، ورخاء بعد شدة أصابتهم، بادروا إلى المكر وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر، فإذا كانت

---

(١) المراغي.

الرحمة مطراً أحيا الأرض، وأنبت الزرع، ودر به اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها، عللوها بالمصادفات، وإذا كان سببها دعاء نبي أنكروا إكرام الله له وتأييده بها، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ، ثم رفع عنهم بدعائه، عليه الصلاة والسلام، فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً.

روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن قريشاً، لما استعصوا على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام والميت، من الجهد، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فجاء أبو سفيان، إلى رسول الله، ﷺ، فقال: يا محمد، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، فدعا لهم، فكشف الله عنهم العذاب، ومطروا، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول، يطعنون في آيات الله تعالى، ويعادون رسوله ﷺ، ويكذبونه.

﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَسْرَعُ﴾ وأعجل منكم ﴿مَكْرًا﴾؛ أي:[1] عقوبة على مكركم، وأشد أخذاً، وأقدر على الجزاء، وأن عذابه في هلاككم أسرع إليكم مما يقع منكم في دفع الحق؛ أي: إن هؤلاء[2] الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر، فالله تعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو إهلاكهم يوم بدر، وحصول الفضيحة والخزي في الدنيا، وعذاب شديد يوم القيامة. ومعنى الوصف بالأسرعية: أنه تعالى، قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم، والمكر من الله، إما الاستدراج، أو الجزاء على المكر، أي: إخفاء

(١) الخازن.

(٢) المراح.

الكيد. وتسمية[1] عقوبة الله مكراً، من باب المشاكلة، كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز.

والخلاصة: أي قل لهم: إنَّ الله أسرع منكم مكراً، فهو قد دبر عقابكم، وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون، في إطفاء نور الإسلام، وقد سبق في تدبيره لأمور العالم، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عليم بما تفعلون، لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظة الذين يحفظون أعمالكم، ووكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس، وكتبها للحساب والمجازاة عليها في الآخرة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ به أو يكتبون مكركم، ويعرض عليكم يوم القيامة ما في بواطنكم الخبيثة. وفي ذلك تنبيه، إلى أن ما دبروا، ليس بخاف عليه تعالى، وإلى أن انتقامه حاصل واقع بهم لا محالة، وفيه وعيد لهم شديد، وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة. والمعنى: إن رسل الله، وهم الملائكة، يكتبون مكر الكفار، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير؟.

وقرأ الحسن[2]، وابن أبي إسحاق وأبو عمرو ﴿رسلنا﴾ بالتخفيف. وقرأ الحسن وقتادة ومجاهد والأعرج، ورويت عن نافع ويعقوب في رواية، وأبو عمرو في رواية ﴿يمكرون﴾ بالتحتية على الغيبة، جرياً على ما سبق. وقرأ أبو رجاء وشيبة وأبو جعفر وابن أبي إسحاق وعيسى وطلحة والأعمش والجحدري وأيوب بن المتوكل وابن محيصن وشبل وأهل مكة والسبعة: ﴿تمكرون﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب مبالغة لهم في الإعلام بحال مكرهم، والتفاتاً لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل لهم، فناسب الخطاب. وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات أيضاً إذ لم يأت إن رسله. وقال أيوب بن المتوكل في مصحف أبي ﴿ياأيها الناس إن الله

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

أسرع مكرا وإن رسله يكتبون ما تمكرون﴾. وينبغي أن يحمل هذا على التفسير؛ لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون، من سواد المصحف، والمحفوظ عن أبي القراءة والإقراء بسواد المصحف.

وعلينا[1] أن نعتقد بأن الملائكة، تكتب الأعمال كتابة غيبية، لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها، وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيماً في إحصاء أعمالنا؛ لأجل أن نراقبه فيها، فنلتزم الحق والعدل والخير، ونجتنب أضدادها.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان جناية أخرى لهم، مبنية على ما مر آنفاً، من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم، من السراء والضراء، ا هـ «أبو السعود»؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي يسيركم، وينقلكم في نواحي البر وأرجائه مشاةً وركباناً، وفي أمواج البحر بالسفن والبواخر، وفي الجو بالطائرات. وقيل: يحملكم في البر على ظهور الدواب، وفي البحر على الفلك، أي: إنه تعالى هو الذي وهبكم القدرة على السير في البر، وسخر لكم الإبل والدواب، وفي البحر بما سخر لكم من السفن التي تجري في البحر، والقطر التجارية، والسيارات، وفي الهواء بالطائرات التي تسير في الجو.

وقرأ[2] زيد بن ثابت والحسن وأبو العالية وزيد بن علي وأبو جعفر وعبد الله بن جبير وأبو عبد الرحمن وشيبة بن عامر: ﴿ينشركم﴾ من النشر والبث. وقرأ الحسن أيضاً: ﴿ينشركم﴾ من الإنشار وهو الإحياء، وهي قراءة عبد الله. وقرأ بعض الشاميين: ﴿ينشركم﴾ بالتشديد، للتكثير من النشر، الذي هو مطاوعة الانتشار. وقرأ باقي السبعة والجمهور: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير. قال أبو علي، هو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية؛ لأن العرب تقول سرت الرجل وسيرته. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في السفن.

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ أبو الدرداء وأم الدرداء[1]: ﴿في الفُلْكِيِّ﴾ بزيادة ياء النسب، وخرج ذلك على زيادتها، كما زادوها في الصفة، في نحو أحمري وزواري. وقيل: إنه صفة لموصوف محذوف، تقديره: في اللج الفلكي؛ أي: في اللج، الذي لا تجرى السفن إلا فيه، واللج الماء الغمر العميق. وحتى غاية للتسيير في البحر.

قال صاحب[2] «الكشاف»: فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غايةً للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بعد الكون في الفلك؟

قلت: لم يجعل الكون في الفلك غايةً للتسيير، ولكن الغاية مضمون الجملة الشرطية، الواقعة بعد حتى بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة، وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، وظن الهلاك والدعاء بالإنجاء. ا هـ. وجواب إذا هو جاءتها.

فعلم أن الغاية: هي مضمون[3] الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة:

أولها: الكون في الفلك.

والثاني: جريها بهم بالريح الطيبة، التي ليست بعاصفة.

وثالثها: فرحهم.

والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة أيضاً:

الأول: جاءتها.

والثاني: وجاءهم الموج.

والثالث: ظنوا.

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾، بدل من ظنوا بدل اشتمال، أو مستأنف مبني على سؤال، ينساق إليه الذهن، كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعوا الله إلخ.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

(٣) الشوكاني.

وفي قوله: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾[1] دلالة على جواز ركوب البحر، ولما كان الخوف في البحر أغلب على الإنسان منه في البر، وقع به المثال لذلك المعنى الكلي به، من التجاء العبد لربه تعالى حالة الشدة، والإهمال لجانبه حالة الرخاء.

وفي قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ التفات[2] عن الخطاب في قوله، كنتم إلى الغيبة، وحكمة الالتفات هنا، هي أن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ خطاب فيه امتنان، وإظهار نعمة المخاطبين، والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة. ولما كان في آخر الآية ما يقتضي أنهم إذا نجوا بغوا في الأرض، عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة، لئلا يخاطب المؤمنون بما لا يليق صدوره منهم، وهو البغي بغير الحق. ا هـ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾ أيها المسيرون ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والسفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾؛ أي: السفن ملتبسة ﴿بِهِم﴾؛ أي: بالذين فيها، ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة كما مر ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: لينة الهبوب إلى جهة المقصد ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الريح اللينة فرحاً تاماً وقوله: ﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب إذا، كما مر؛ أي: جاءت تلك الريح اللينة الطيبة وتلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾؛ أي: شديدة الهبوب أزعجت سفينتهم، أو المعنى: جاءت الفلك ريح عاصف، والعصوف: شدة هبوب الريح ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ العظيم الذي أرجف قلوبهم، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: من كل ناحية؛ أي: جاء الراكبين فيها الموج من جميع الجوانب للفلك. والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: أحاط بهم الهلاك؛ أي: ظنوا القرب من الهلاك؛ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم، أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك، وإن كان بغير العدو كما هنا. وقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، بدل من ظنوا، كما مر لكون هذا الدعاء الواقع، إنما كان عند ظن الهلاك، وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

اشتمال، لاشتماله عليه، ويمكن أن تكون جملة دعوا مستأنفة، كأنه قيل: ماذا صنعوا، فقيل: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ كما مر ذلك كله آنفاً، حالة كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء من غير أن يشركوا معه تعالى شيئاً، من آلهتهم؛ أي[1]: وهم مقرون بوحدانية الله تعالى وربوبيته، لأجل علمهم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، فيكون إيمانهم جارياً مجرى الإيمان الاضطراري، قائلين والله ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ وخلصتنا يا إلهنا ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الشدائد التي نحن فيها، وهي الريح العاصفة، والأمواج المتلاطمة والله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ للنعم التي أنعمت بها علينا، التي من أجلها كشف هذه الشدائد عنا.

وحاصل المعنى: أي[2] حتى إذا كنتم في الفلك التي سخرناها لكم، وجرت بمن فيها بسبب ريح مؤاتية لهم في جهة سيرهم، وفرحوا بما هم فيه، من راحة وانتعاش، وتمتع بمنظره الجميل، وهوائه العليل، جاءت ريح شديدة قوية، فاضطرب البحر وتموج سطحه كله، فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحي، بتأثير الريح، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة، بإحاطة الموج بهم، فبينما يهبط الريح العاصف بهم في لجج البحر حتى كأنهم سقطوا في هاوية، إذا به يثب بهم إلى أعلى، كأنهم في قمة الجبل الشاهق. فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.. دعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم، ولا يتوجهون معه إلى وليّ، ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء، وقد صمموا العزيمة على طاعته، وقالوا: ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة، لنكون من جماعة الشاكرين، ولا نتوجه في تفريج كروبنا، وقضاء حوائجنا إلى وثن، ولا صنم.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾؛ أي: فلما أنجى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم، وواعدوا له بالشكر على الإنجاء، إذا أنجاهم من تلك الشدائد التي أحاطت بهم، وأخرجهم إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: فاجؤوا وأسرعوا البغي والفساد في الأرض، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

هذا شامل لأقطار الأرض؛ أي: فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة، فاجؤوا الناس في الأرض التي يعيشون فيها، بالبغي والاستطالة عليهم، والظلم لهم مع الإمعان في ذلك. والإصرار عليه، أو المعنى: أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها.

وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيداً للواقع، وتذكير بقبحه وسوء حال أهله، أو لبيان أنه بغير حق عندهم أيضاً، بأن يكون ظلماً ظاهراً، لا يخفى على أحد قبحه، كما جاء في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟

قلتُ: بلى قد يكون بحق، كاستيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم، وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم، كما فعل رسول الله، ﷺ، ببني قريظة. وبعد أن حكى المثل، خاطب البغاة في أي مكان كانوا، وفي أي زمان وجدوا، منبهاً واعظاً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الغافلون عن أنفسكم، أما كفاكم بغياً على المستضعفين منكم اغتراراً بقوتكم وكبريائكم ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وظلمكم في الحقيقة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ لأن عاقبة وباله عائدة إليكم، وإنما تتمتعون ببغيكم ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائلة وهي تنقضي سريعاً، والعقاب باقٍ.

والبغي من[1] منكرات الذنوب العظام قال بعضهم: لو بغى جبل على جبل.. لاندك الباغي. وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً، وكان المأمون يتمثل به فقال:

يَا صَاحِبَ ٱلْبَغْيِ إِنَّ ٱلْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ فَٱرْجِعْ فَخَيْرُ مَقَالِ ٱلْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَىٰ جَبَلٌ يَوْماً عَلَىٰ جَبَلٍ لَٱنْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فنخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها، معطوف[2] على ما

---

(١) الخازن.   (٢) أبو السعود.

مر من الجملة المستأنفة، المقدرة، فكأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل، فننبئكم بما كنتم تعملون من البغي والظلم، والتمتع بالباطل، ونجازيكم به، وإنما غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية، مع تقديم الجار والمجرور، للدلالة على الثبات والقصر، ا هـ «أبو السعود».

وفي[1] الآية إيماء، إلى أن البغي مجزيٌّ عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ولما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والبخاري: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم»، والذي رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، ﷺ، «ثلاث، هن رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي»، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وأما في الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد.

والخلاصة: أن البغي، وهو أشنع أنواع الظلم، يرجع على صاحبه لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد ولما يوقد من نيران الفتن والثورات في الشعوب. انظر إلى من يبغي على مثله، تجده قد خلق له عدواً، أو أعداءً، ممن يبغي عليهم.

ولا شك أن وجود الأعداء، ضرب من العقوبة، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التي يقدرون عليها، وإن هم لم يفعلوا ذلك.. فإنه يرى في أعينهم من أنواع الحنق والغضب ما لا يخفى عليه، فيتأجج قلبه حسرةً وندامةً على ما فعل، ويود أن لو لم يكن خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة في النفوس.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط وزاد المسير والشوكاني.

محذوف، تقديره ذلك البغي متاع الحياة الدنيا. وقال النحاس: على قراءة الرفع، يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي. ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم، ويضمر مبتدأ؛ أي: ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا، انتهى. والمعنى على الأول: إن بغي هذا الجنس الإنساني، بعضه على بعض هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة، ولا عظيم جدوى. وعلى الثاني، أن ما يقع من البغي على الغير، هو بغي على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه، مجازاة على بغيه. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن. وحفص وأبان عن عاصم وزيد بن علي وابن أبي إسحاق وهارون عن ابن كثير: بنصب الـ﴿متاع﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف، تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا كما مر. وقرأ أبو المتوكل واليزيدي في اختياره وهارون العتكي عن عاصم: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ بكسر العين على أنه صفة ﴿لأنفسكم﴾ ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: ذوات متاع الحياة الدنيا، ذكره أبو البقاء. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً ﴿متاعا الحياة الدنيا﴾. بنصب متاع، وتنوينه، ونصب الحياة. وقرأت فرقة ﴿فينبئكم﴾ بالياء على الغيبة والمراد الله تعالى.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق[1] بـ﴿أهلكنا﴾ وليس بحال من القرون؛ لأنه زمان، ذكره أبو البقاء ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين في محل

(١) العكبري.

النصب على الظرفية الزمانية، مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، حال من واو ﴿ظَلَمُوا﴾ على تقدير: قد، أو في محل الجر، معطوف على ﴿ظَلَمُوا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ ﴿اللام﴾، حرف جر وجحود ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، على مذهب البصريين، والجار والمجرور متعلق بخبر ﴿كَانَ﴾ المحذوف، والتقدير: وما كانوا مريدين لإيمانهم، والجملة معطوفة[1] على ﴿ظَلَمُوا﴾ كما ذكره السيوطي، فكأنه قيل: لما ظلموا وأصروا على الكفر، بحيث لم يبق فائدة في إمهالهم، أهلكناهم، فيكون السبب في إهلاكهم مجموع هذين الأمرين. ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ صفة للقوم، وفاعله ضمير، يعود على الله، والتقدير: نجزي القوم المجرمين، جزاء مثل الجزاء المذكور في الأمم الماضية، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ فعل وفاعل، ومفعولان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: صفة لخلائف، أو متعلق بـ ﴿جعلنا﴾ والجملة معطوفة على ﴿أهلكنا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله ﴿لِنَنْظُرَ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿ننظر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، المتعلقة بـ ﴿جعلنا﴾ والتقدير: جعلناكم خلائف لنظرنا ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا لننظر،

---

(١) جلالين مع الفتوحات.

لأن: لها صدر الكلام ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب، مفعول ﴿لِنَنظُرَ﴾ معلق عنها باسم الاستفهام، والمعنى: لنعلم جواب كيف تعملون، كما مر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَاتُنَا﴾: نائب فاعل ومضاف إليه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من آياتنا، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾: مقول محكي، لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِقُرْءَانٍ﴾: متعلق به. ﴿غير﴾ صفة لـ ﴿قرآن﴾ ﴿هَٰذَا﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول: ﴿قَالَ﴾.

فائدة: ولفظ ﴿ائت﴾ إن قرىء بالوصل بما قبله.. فالأمر ظاهر، وإن وقف على لقائنا.. قرىء ﴿ايت﴾ بهمزة، ثم ياء ساكنة، بعدها على حد قول ابن مالك:

وَمَــدًّا ٱبْـدِلْ ثَـانِـيَ ٱلْـهَـمْـزَيْـنِ مِـنْ كَـلِـمَـةٍ................ إلخ

﴿أَوْ﴾: حرف عطف ﴿بَدِّلْهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ائت﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿لِيٓ﴾ جار ومجرور خبرها مقدم ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق

به، والجملة في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم يكون، تقديره: قل ما يكون تبديلي إياه من تلقاء نفسي كائناً لي ولائقاً بي وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ في محل النصب، مفعول به ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ﴿إِلَيَّ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿أَخَافُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إِنْ﴾ على كونه، فعل شرط لها ﴿رَبِّي﴾ مفعول ﴿عَصَيْتُ﴾ وجواب إن معلوم مما قبله، تقديره: إن عصيت ربي... أخاف عذاب يوم عظيم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معترضة على كونها مقول القول، لاعتراضها بين المفعول وفعله. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾: مفعول لـ﴿أَخَافُ﴾ ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة يوم.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿لَّوْ﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: عدم تلاوتي إياه. ﴿مَا﴾ نافية ﴿تَلَوْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ في محل النصب مقول القول ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَآ﴾: نافية مؤكدة لنفي ما قبلها ﴿أَدْرَىٰكُم﴾: فعل ومفعول ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة تلوته ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: تعليلية ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿لَبِثْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق به ﴿عُمُرًا﴾: منصوب على التشبيه بظرف الزمان؛ أي: مدة متطاولة، متعلق بـ ﴿لَبِثْتُ﴾ والجملة الفعلية معللة لما قبلها، على كونها مقول القول ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق

بـ ﴿لَبِثْتُ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أعميتم. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان حكم من افترى على الله.. فأقول لكم. ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾؛ خبره والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مِمَّنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَظْلَمُ﴾ ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَنِ﴾ والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾: معطوف على ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: متعلق به ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ عطف قصة على قصة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿لَا يَضُرُّهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ والجملة صلة لما، أو صفة لها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: معطوف على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: مبتدأ وخبر ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ . . .﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي الإنكاري ﴿تنبئون الله﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿بِمَا﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني ﴿لَا يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير على الله، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لا يعلمه، وجملة ﴿تنبئون﴾ في محل النصب مقول، ﴿قل﴾ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَعْلَمُ﴾ ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿في السموات﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بعامل محذوف وجوباً، تقديره، أسبحه سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول، لقل، أو مستأنفة. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ معطوف على جملة سبحانه ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تعالى﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ما المصدرية؛ أي: عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾: الواو: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أُمَّةً﴾ خبر كان ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة لـ﴿أمة﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ الفاء: عاطفة ﴿اختلفوا﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾ ﴿وَلَوْلَا﴾ الواو: استئنافية ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٌ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿سَبَقَتْ﴾ صفة لـ﴿كَلِمَةٌ﴾ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿سَبَقَتْ﴾ وخبر المبتدأ محذوف، وجوباً، تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك، موجودة، والجملة الاسمية شرط لـ ﴿لَوْلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لَقُضِىَ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾ ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قضي﴾ ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قضي﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة ﴿فِيهِ﴾ في حرف جر وسبب. والهاء في محل

الجر بفي، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير فيه.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿ءَايَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾ والجملة الفعلية مقول ﴿يقولون﴾. ﴿فَقُلْ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة مفرعة على ﴿يقولون﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْغَيْبُ﴾: مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾ خبر، والجملة في محل النصب مقول قل ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿انتظروا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بما بعده ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قل.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾: الواو: استئنافية، (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَذَقْنَا﴾ وجملة ﴿أَذَقْنَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ضَرَّآءَ﴾ والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿ضَرَّآءَ﴾ ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إِذَآ﴾ وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، حرف لا محل لها من الإعراب ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّكْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة ﴿فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾: جار ومجرور متعلق

بـ ﴿مَكْرًا﴾ ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿مَكْرًا﴾؛ تمييز محول، عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قل ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ ناصب واسمه ﴿يَكْتُبُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَكْتُبُونَ﴾ وجملة ﴿تَمْكُرُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تمكرونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، مقول القول على كونها تعليلاً لما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾: متعلق بـ ﴿يسير﴾ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَرِّ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجَرَيْنَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾ ﴿بِهِم﴾: متعلق به. وكذا يتعلق به قوله: ﴿بِرِيحٍ﴾، ﴿طَيِّبَةٍ﴾ صفة ﴿ريح﴾ فإن قلت: كيف يتعدى فعل واحد إلى معمولين، بحرفي جر متحدين لفظاً ومعنى؟

قلت: إن الباء الأولى للتعدية، كهي في مررت بزيد، والثانية للسببية، فاختلف المعنيان، فلذلك تعلقاً بعامل واحد، ويجوز أن تكون الثانية للحال، فتتعلق بمحذوف، تقديره: وجرين بهم ملتبسة بريح طيبة، فتكون الحال من ضمير الفلك ا هـ «سمين» ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتُمْ﴾ ﴿بِهَا﴾ متعلق به ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿عَاصِفٌ﴾: صفة ﴿ريح﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر، بحتى

الغائية، التي بمعنى: (إلى) تقديره: هو الذي يسيركم في البر والبحر إلى مجيء ريح عاصف، ومجيء الموج إياهم، وقت كونكم في الفلك وجريها بكم، وفرحكم بها، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يسير﴾.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْهَا﴾، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور مضاف إليه متعلق به ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْهَا﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿أُحِيطَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بِهِمْ﴾؛ نائب فاعل له، وجملة ﴿أُحِيطَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي، ظن، تقديره: وظنوا إحاطة الهلاك بهم ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، بدل من ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدل اشتمال. ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من واو ﴿دَعَوُاْ﴾ ﴿له﴾ متعلق بـ﴿مخلصين﴾ ﴿ٱلدِّينَ﴾ مفعول مخلصين؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستكن فيه؛ أي: هم ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾: اللام: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿أَنجَيْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم، بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجوابها محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره. لئن أنجيتنا، نكن من الشاكرين. ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ متعلق بأنجيتنا ﴿لَنَكُونَنَّ﴾: اللام موطئة للقسم، مؤكدة للأولى ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على المتكلمين ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: خبرها، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب للقسم الأول، لا محل لها من الإعراب وجملة القسم في محل النصب، مقول لقول محذوف، حال من واو ﴿دَعَوُاْ﴾ تقديره: دعوا الله حالة كونهم قائلين في دعائهم: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره؛ إذا عرفت وعدهم المذكور في دعائهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك لما أنجاهم إلخ. ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط، غير جازم ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله، ضمير يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لَمَّا﴾ وجوباً، حرف لا محل لها من الإعراب ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يَبْغُونَ﴾ خبره ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يَبْغُونَ﴾ والجملة الاسمية جواب ﴿لَمَّا﴾ وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء. أي: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿بَغْيُكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ خبره والجملة الاسمية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب ﴿مَّتَٰعَ﴾: منصوب على المصدرية، بفعل محذوف، تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا، والجملة المحذوفة مستأنفة. أو مرفوع على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك البغي متاع الحياة الدنيا، والجملة مستأنفة. أو مجرور على كونه صفة ﴿لأنفسكم﴾ ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: ذوات متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، تقديره: ممتعات الحياة الدنيا، ذكره أبو البقاء ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿إِلَيْنَا﴾: خبر مقدم ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الفعلية المحذوفة، أو على الاسمية المحذوفة ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ الفاء عاطفة ﴿ننبئكم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة، قوله: ثم إلينا مرجعكم ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ننبئكم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف، تقديره: بما كنتم تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: القرون: الأمم واحدها، قرن، وهم القوم المقترنون في زمن واحد، قيل: مئة سنة أو ثمانون سنة أو ما دونها، فيه أقوال أخر. وجاء في الحديث الشريف: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمع بينة: الحجة الواضحة والمعجزة الباهرة، كعصا موسى، وناقة صالح ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جمع خليفة، وهو من يخلف غيره في شيء. ﴿لِنَنظُرَ﴾؛ أي: لننظر متعلق علمنا، ونشاهد ونرى ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾: يقال؛ دريته ودريت به؛ أي: علمته ﴿عُمُرًا﴾؛ أي: مدة طويلة، أربعين سنة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾: أصل الذوق: إدراك الطعم بالفم، ويستعمل في إدارك الأشياء المعنوية، كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، والمكر: التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يتوقعه، ومكره تعالى: تدبيره الذي يخفى على الناس، بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم، وكله عدل وحق، فإن ساء الناس سموه شراً، وإن كان جزاءً عدلاً. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ والرسل هنا: الكرام الكاتبون من الملائكة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ سير من باب فعل، المضعف، وهو من الثلاثي المزيد، بحرف؛ لأنه من سار يسير سيراً، من باب باع، والتسيير جعل الشيء، أو الشخص يسير بتسخيره تعالى، أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة. ﴿في الفلك﴾: والفلك يستعمل جمعاً ومفرداً، فحركته إذا كان جمعاً، كحركة بدن، جمع بدنة وإذا كان مفرداً كحركة قفل، ويفرق بينهما بنحو الصفة، وهنا مستعمل في الجمع بدليل، وجرين وفي آية ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مستعمل مفرداً ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: لينة الهبوب، وفي «المصباح» الريح الهواء بين السماء والأرض، وأصلها الواو، لكن قلبت ياءً؛ لانكسار ما قبلها، والجمع، أرواح، ورياح، وبعضهم يقول: أرياح بالياء، على لفظ الواحد، وغَلّطه أبو حاتم، والريح مؤنثة على الأكثر، فيقال: هي الريح، وقد تذكر على معنى الهواء، فيقال: هو الريح،

وهب الريح، نقله أبو زيد. وقال ابن الأنباري: الريح: مؤنثة لا علامة فيها، وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار، فإنه مذكر، وراح اليوم يروح روحاً من باب قال، وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريحه، فهو رائح. والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة، يقال: رزق طيب، ونفس طيبة، وشجرة طيبة ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ والعاصف: الذي يعصف الأشياء ويكسرها، يقال: ريح عاصف وعاصفة، وقال أبو حيان: العاصف الشديدة، يقال: عصفت الريح، إذا اشتد هبوبها. قال الشاعر:

حَتَّىٰ إِذَا عَصَفَتْ رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ   فِيهَا قِطَارٌ وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجَلُ

وقال أبو تمام:

إِنَّ ٱلرِّيَاحَ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ   عِيدَانَ نَجْدٍ وَلاَ يَعْبَأْنَ بِٱلرَّتَمِ

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ والموج: ما ارتفع من الماء عند هبوب الهواء، سمي موجاً لاضطرابه ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ يقال: أحيط، إذا هلك، كما يحيط العدو بعدوه، فيسد عليه سبيل النجاة ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والبغي: ما زاد على القصد والاعتدال، من بغى الجرح إذا زاد، حتى ترامى إلى الفساد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها[1]: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ حيث شبه حال العباد مع ربهم، بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم، لينظر ماذا تعمل، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه، على سبيل التمثيل والتقريب، ولله المثل الأعلى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

(١) الصاوي.

ومنها: الالتفات عن الخطاب في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الضمير واقع على أهل مكة، وعن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ والأصل وجرين بكم لما فيه من زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار، لعدم شكرهم النعمة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وفي قوله: ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ حكايةً للحال الماضية، وإشعاراً باستمرار حالهم على ما كانوا عليه أولاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾؛ لأن الذوق حقيقة في إدراك الطعم بالفم، شبه الإذاقة بمعنى إعطاء الرحمة بالذوق، بمعنى إدراك الطعم بجامع إيصال النفع في كل، فاشتق منه أذقنا بمعنى، أعطينا الرحمة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية وكذلك في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ فيه الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأن المس حقيقة في لمس الأجسام، فاستعاره لإصابة الضراء، ونزولها بهم.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول، إن رسله؛ لأنه قال قبله ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ شبه إتيان الموج من كل مكان الذي أشرف بهم إلى الهلاك، وسدّ عليهم مسالك الخلاص والنجاة، بإحاطة العدو، وأخذه بأطراف خصمه كما في «الشهاب».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ لأنه أطلق

البغي الذي هو سبب الوبال، وأراد به الوبال، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب، أو فيه[1] استعارة بتشبيه بغيه على غيره بإيقاعه على نفسه، بجامع ترتب الضرر فيهما كقوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أو المراد بالأنفس أمثالهم استعارة أو أبناء جنسهم، كنفس واحدة، وهو استعارة أيضاً، ا هـ «شهاب».

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ للدلالة على الثبات والقصر، ا هـ «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ
وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ
وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ
فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.. ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا، تذكر من

---

(١) البحر المحيط.

يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها، وأنها بحال ما تعز وتسر تضمحل، ويؤول أمرها إلى الفناء.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذ الآية لما قبلها: أنه لما[1] كان سبب بغي الناس في هذه الحياة الدنيا هو إفراطهم في حبها والتمتع بزينتها.. ضرب بذلك مثلاً يصرف العاقل عن الغرور بها ويرشده إلى الاعتدال في طلبها، والكف عن التوسل في الحصول على ذاتها بالبغي، والظلم والفساد في الأرض، فشبه حال الدنيا، وقد أقبلت بنعيمها وزينتها، وافتتن الناس بها بعد أن تمكنوا من الاستمتاع بها، ثم أسرع ذلك النعيم في التقضي وانصرم غب إقباله واغترار الناس به بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله إليها المطر، فيلتف بعضها على بعض، وتصبح بهجة للناظرين، ثم لا تلبث أن تنزل بها فجأة جائحة، تستأصلها وتجعلها حطاماً، كأن لم تغن بالأمس.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا، وضرب لهم الأمثال على ذلك.. أردف ذلك بالترغيب في الآخرة، ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[2] مثل الحياة الدنيا وما يؤول إليه من الفناء والاضمحلال، وما تضمنه من الآفات والعاهات.. ذكر تعالى أنه داع إلى دار السلامة والصحة والأمن، وهي الجنة إذ أهلها سالمون من كل مكروه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أعد للذين أحسنوا، وحالهم يوم القيامة، ومآلهم إلى الجنة.. ذكر ما أعد لأضدادهم وحالهم ومآلهم.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيّن جزاء الذين كسبوا السيئات، وما يكون لهم من الذلة والهوان.. قفى على ذلك بذكر اليوم الذي يحصل فيه هذا الجزاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] فضائح عبدة الأوثان.. أتبعها بذكر الدلائل على فساد مذهبهم، بما يوبخهم، ويحجهم بما لا يمكن إلا الاعتراف به من حال رزقهم وحواسهم، وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة، فبدأ بما فيه قوام حياتهم، وهو الرزق الذي لا بد منه فمن السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى جنايات المشركين على أنفسهم، وبين فساد معتقداتهم، وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا.. أردف ذلك بإقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد والبعث، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما استفهمهم[3] عن أشياء من صفات الله تعالى، واعترفوا بها، ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق، وعبادة الله تعالى.. استفهم عن شيء هو سبب العبادة، وهو إبداء الخلق، وهم يسلمون ذلك كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ثم إعادة الخلق وهم منكرون ذلك، لكنه عطفه على ما يسلمونه، ليعلم أنهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] عجز أصنامهم عن الإبداء، والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة، وأعظم دلائل الألوهية.. بين عجزهم عن هذا النوع من صفات الإله، وهو الهداية إلى الحق، وإلى مناهج الصواب.

وعبارة المراغي هنا: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الحجة على المشركين بما تقدم.. ذكر هنا ضرباً آخر من الحجة، أقامه عليهم سبحانه وتعالى دليلاً على توحيده وبطلان الإشراك به، جاء فيه بطريق السؤال للتوبيخ، وإلزام الخصم، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وفوض الجواب إلى المسؤول.. يكون أوقع في النفس، وأبلغ في الدلالة على الغرض، انتهت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما صفة الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وفنائها وزوالها، و ﴿إِنَّمَا﴾: ليست هنا للحصر، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا ﴿كَمَآءٍ﴾؛ أي: كمثل نبات ماء ومطر ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا ذلك الماء والمطر ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والسحاب وإنما شبه الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض؛ لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه، بزيادة أو نقص، بخلاف ماء الأرض، فكان تشبيه الحياة به أنسب ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ واشتبك وتراكم لكثرته ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حالة كون ذلك النبات ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الثمار والحبوب والبقول والأبازير ﴿و﴾ مما يأكل ﴿الأنعام﴾ والبهائم، من الحشيش والكلأ والعشب؛ أي؛ ﴿إِنَّمَا﴾: صفة الحياة الدنيا في صورتها ومآلها، كصفة نبات ماء نزل من السماء، فأنبتت به الأرض أزواجاً شتى، من النبات تشابكت وتراكمت والتفت واختلط بعضها، ببعض لكثرتها مع

(١) البحر المحيط.

اختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى تكفي الناس في أقواتهم ومراعي أنعامهم. وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ غاية لمحذوف تقديره: وما زال ذلك النبات ينمو ويزهو ويكبر، حتى إذا أخذت الأرض، واستوفت واستكملت إنباتها وأظهرت زخرفها وجمالها وبهجتها من النبات ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾؛ أي: تزينت بذلك الزخرف والنبات، كعروس أخذت حليها من الذهب والجواهر والحلل المختلفة الألوان، ذات البهاء والبهجة، وازينت بها في ليلة زفافها ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾؛ أي: أهل تلك الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾؛ أي: قادرون على التمتع بثمراتها، متمكنون من جذاذها وحصدها، وتحصيل ثمارها وزروعها وبقولها. وجواب ﴿إِذَآ﴾ قوله: ﴿أَتَىٰهَآ﴾؛ أي: أتى ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿أَمْرُنَا﴾؛ أي: قضاؤنا بهلاكها، وجاءها عذابنا ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: فجعلنا ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿حَصِيدًا﴾؛ أي: كالمحصود بالمناجل المقطوع من أصله المعدوم، وصارت تلك الثمار والزروع ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾؛ أي: كأنها لم توجد، ولم تنبت على تلك الأرض ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: في الزمن الماضي أصلاً. والمراد بالأمس الزمن الماضي، لا خصوص اليوم الذي قبل يومك؛ أي: نزل بها في تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها، فجاءتها جائحة، وضرب زرعها بعاهة، كجراد أو صقيع، الذي يسقط بالليل من السماء شبيه بالثلج شديد أو ريح سموم ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم غافلون، فجعلناها كالأرض المحصودة التي قطعت ثمارها، واستؤصل زرعها، ولم يبق منه شيء، أو كأنها لم تنبت، ولم تكن زروعها نضرة بالأمس. وجاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

والمعنى: إن هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء، مثل النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به.. وقع اليأس منه بالهلاك والمتمسك بالدنيا، إذا نال منها بغيته.. أتاه الموت بغتة، فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها. وقيل: يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد، والبعث بعد الموت، وذلك؛ لأن الزرع إذا انتهى وتكامل في الحسن إلى الغاية القصوى.. أتته آفة، فتلف

بالكلية، ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرّةٍ فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادراً على إعادة الأموات أحياء في الآخرة، ليجازيهم على أعمالهم، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما فصلنا وبينا مثل الحياة الدنيا، وعرفناكم حكمها ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: نبين حججنا ودلائل قدرتنا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتأملون فيها، ويعتبرون بها، ليكون ذلك سبباً موجباً لزوال الشك، والشبهة عن القلوب.

والخلاصة: أي كهذا المثل الواضح الذي يمثل حال الدنيا وغرور الناس بها، مع سرعة زوالها وتعلق الآمال بها، نفصل الآيات الدالة على حقيقة التوحيد وأصول الشرائع والآداب والمواعظ وتهذيب الأخلاق، وكل ما فيه صلاح للناس، في معاشهم ومعادهم، لمن يستعمل عقله ويزن أعماله بموازين الحكمة، فليس هذا المثل قاصراً على شخص دون شخص، بل هو عبرة لمن كان له بصيرة وتدبر، فينبغي للإنسان أن ينزل القرآن في خطاباته على نفسه، ويتأمل فيها ويتدبر، ليأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وأصله: وتزينت فأدغمت التاء في الزاي، فاجتلبت همزة الوصل لضرورة تسكين الزاي عند الإدغام. وقرأ أبي، وعبد الله، وزيد بن علي، والأعمش: ﴿وتزينت﴾ على وزن تفعلت. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عبد الرحمن، وابن يعمر والحسن والشعبي وأبو العالية وقتادة ونصر بن عاصم وابن هرمز وعيسى الثقفي: ﴿وأزينت﴾ على وزن أفعلت، كأحصد الزرع؛ أي: حضرت زينتها، وحانت وصحت الياء فيه على جهة الندور، كأعليت المرأة، والقياس: وأزانت، كقولك: وأبانت. وقرأ أبو عثمان النهدي: بهمزه مفتوحة. بوزن، أفعألت قاله: عنه صاحب «اللوامح»، قال: كأنه كانت في الوزن بوزن احمارت، لكنهم كرهوا الجمع بين ساكنين، فحركت الألف فانقلبت همزة مفتوحة، ونسب ابن عطية هذه القراءة لفرقة، فقال: وقرأت فرقة، وأزيأنت

(١) البحر المحيط.

وهي لغة منها، قال الشاعر:

إِذَا مَـا ٱلْـهَـوَادِيْ بِـٱلْـعَـبِـيْـطِ ٱحْـمَـأَرَّتِ

وقرأ أشياخ عوف بن أبي جميلة ﴿وازيانت﴾ بنون مشددة، وألف ساكنة قبلها. قال ابن عطية وهي قراءة أبي عثمان النهدي. وقرأت فرق ﴿وازاينت﴾ والأصل وتزاينت فأدغم. وقرأ الحسن وقتادة ﴿كأن لم يغن﴾ بالياء على التذكير، فقيل: عائد على المضاف المحذوف، الذي هو الزرع، حذف وقامت هاء التأنيث مقامه في قوله؛ ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ وفي قوله: ﴿أتاها فجعلناها﴾. وقيل: عائد على الزخرف، والأولى عوده على الحصيد؛ أي: كأن لم يغن الحصيد. وكان مروان بن الحكم يقرأ على المنبر ﴿كأن لم تتغن﴾ بتائين مثل تتفعل. وفي مصحف أبي ﴿كأن لم تغن بالأمس وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها﴾ وفي «التحرير» نفصل الآيات، رواها عنه ابن عباس. وقيل: في مصحفه ﴿وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها﴾ وفي «التحرير». وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن يقرأ في قراءة أبي ﴿كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها﴾ ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة؛ لأنها مخالفة لخط المصحف، الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون، انتهى. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصلناه في الماضي نفصل في المستقبل. وقرأ أبو الدرداء ﴿لقوم يتذكرون﴾ بالذال بدل الفاء.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الدنيا، ورغب في الزهد فيها والتجنب لزخارفها.. رغب في الآخرة ونعيمها حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ عباده ﴿إِلَىٰ﴾ الجنة ﴿دَارِ السَّلامِ﴾ بدعائه إلى التوحيد والإيمان؛ أي: دار السلامة يسلم من دخلها من جميع الآفات الدنيوية كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد، أو دار يسلم الله سبحانه وتعالى فيها على أهلها، أو دار تسلم الملائكة فيها على أهلها أو دار الله السلام؛ أي: دار الله الذي سلم من كل النقائص والعيوب، والإضافة فيه للتشريف أو إلى الجنة التي تسمى دار السلام، لأن دار السلام، اسم لإحدى الجنان السبع **أحدها**: دار

السلام **والثانية**: دار الجلال **والثالثة**: جنة عدن **والرابعة**: جنة المأوى **والخامسة**: جنة الخلد **والسادسة**: جنة الفردوس **والسابعة**: جنة النعيم. وقيل: المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة. وهذه الجملة كأنها معطوفة على مقدر، تقديره: ذلك[1] الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها: هو ما يدعو إليه الشيطان فيوقع متبعيه في جهنم، دار النكال والوبال، والله يدعوا عباده إلى دار السلام؛ إذ يأمرهم إلى ما يوصل إليها ﴿وَيَهْدِى﴾ الله سبحانه وتعالى ويوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه ويختاره للهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى الطريق الموصل إليه، القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو طريق دين الإسلام، عقائده وفضائله وأحكامه.

عم[2] بالدعوة أولاً، إظهاراً للحجة، وخص بالهداية ثانياً، استغناءً عن الخلق، وإظهاراً للقدرة، فحصلت المغايرة بين الدعوتين، فالدعوة[3] عامة على لسان رسول الله، ﷺ، بالدلالة والهداية، خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية، والمعنى: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

وعن جابر رضي الله عنه قال: جاءت الملائكة إلى النبي، ﷺ، وهو نائم، فقال؛ بعضهم إنه نائم وقال بعضهم: العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله، كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي.. دخل لدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها بفقهها، فإن العين نائمة، والقلب يقظان، فقال بعضهم: الدار الجنة، والداعي محمد، ﷺ، فمن أطاع محمداً.. فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً.. فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس. وفي رواية، خرج علينا رسول الله، ﷺ، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً» رواه البخاري.

---

(١) المراغي. (٣) النسفي.

(٢) الخازن.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أعمالهم في الدنيا بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات المثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: البالغة أعلى درجات الحسن، وهي الجنة ﴿و﴾ لهم أيضاً ﴿زيادة﴾ عظيمة ما وراءها فوق، وهي النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى. وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة، هي النظر إلى وجه الله الكريم، وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحي، الذي لا يصل إليه إلا المحسنون العارفون في الآخرة.

وهذا قول جماعة من الصحابة: منهم: أبو بكر الصديق، وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي، ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول. أما المنقول[1]: فما روي عن صهيب، أن رسول الله، ﷺ، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أخرجه مسلم.

وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة، عن النبي، ﷺ، في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» وعن أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله، ﷺ، عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم»، إلى غير ذلك مما لا يحصى. وأما المعقول: فنقول: إن الحسنى، لفظة مفردة، دخل عليها حرف التعريف، فانصرفت إلى المعهود السابق، وهو الجنة في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ فثبت بهذا، أن المراد من لفظة: الحسنى، هو الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم، وإلا لزم التكرار، وإذ كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على

---

(١) الخازن.

رؤية الله تبارك وتعالى.

القول الثاني: في معنى هذه الزيادة، ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب.

والقول الثالث: إن الحسنى واحدة الحسنات، والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة، وإلى سبع مئة. قال ابن عباس: هو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول: يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. قال قتادة: كان الحسن. يقول: الزيادة: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف.

القول الرابع: إن الحسنى، حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة من الله ورضوان، قاله مجاهد.

القول الخامس: قول ابن زيد: إن الحسنى هي الجنة، والزيادة ما أعطاهم في الدنيا، لا يحاسبهم به يوم القيامة، ا هـ من «الخازن».

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾: ولا يغشى ولا يغطي ﴿وُجُوهَهُمْ﴾؛ أي: وجوه أهل الجنة ﴿قَتَرٌ﴾؛ أي: سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: كآبة وحزن. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى؛ أي: ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى الكفرة، من الغبرة التي فيها سواد، ولا أثر هوان ولا انكسار بال. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين هذه صفتهم هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وسكانها وملازموها و ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً، لا نهاية له، فهي لا تبيد فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين منها، فتنغص عليهم لذاتهم. والمعنى: أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم، وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً.

وقرأ[1] الحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر والأعمش: ﴿قتر﴾ بسكون التاء، وهي لغة كالقدر والقدر. ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟﴾ وعملوا في الدنيا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: الشرك والمعاصي، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله، ﷺ، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾؛ أي[1]: جزاء سيئاتهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة؛ أي: جزاء سيئة واحدة من عملهم السيء الذي عملوه في الدنيا، بمثلها من عقاب الله في الآخرة، جزاءً وفاقاً، ولا يزادون على ما يستحقونه من العذاب شيئاً ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: تغشى وتعلو أنفسهم ذلة عظيمة؛ أي: يصيبهم ذل وخزي وهوان، بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذاب الله وسخطه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾؛ أي: مانع يمنعه، ويحفظه إذا هو عاقبهم، أو يحول بينه وبينهم كالذين اتخذوهم في الدنيا شركاء وزعموهم شفعاء، فذلك هو اليوم الذي تتقطع فيه الأسباب التي كانت تفيد في الدنيا ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

فائدة: وجاءت[2] صلة المؤمنين أحسنوا وصلة الكافرين كسبوا السيئات، تنبيهاً على أن المؤمن، لما خلق على الفطرة، وأصلها بالإحسان، وعلى أن الكافر لما خلق على الفطرة، انتقل عنها وكسب السيئات، فعل ذلك محسناً، وهذا كاسباً للسيئات، ليدل على أن المؤمن سلك ما ينبغي وهذا سلك ما لا ينبغي. ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ وغطيت وألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ وجزءاً جمع قطعة ﴿مِّنَ﴾ أديم ﴿ٱلَّيْلِ﴾ حال كونه حالكاً ﴿مُظْلِمًا﴾ لا بصيص ـ لمعة ـ فيه من نور القمر الطالع، ولا النجم الثاقب، فتشقها قطعةً بعد قطعة، فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض؛ أي: كأن وجوه أهل النار، لفرط سوادها، ألبست طائفة من سواد الليل المظلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة الذميمة ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ساكنوها وملازموها و ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون مكثاً مؤبداً، لا انقضاء لها، لا يبرحونها؛ لأنه ليس لهم مأوى سواها. وقد جاء في معنى هذه الآيات، في وصف الفريقين، قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط.

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقرىء ﴿ويرهقهم﴾ بالياء؛ لأن تأنيث الذلة مجاز. وقرأ الجمهور: ﴿قِطَعًا﴾ بكسر القاف وفتح الطاء، جمع قطعة، كقربة، وقرب. وقرأ ابن كثير، والكسائي: ﴿قطعا﴾ بسكون الطاء، وهو مفرد اسم للشيء المقطوع. وقرأ ابن أبي عبلة كذلك، إلا أنه فتح الطاء. وقرأ أبي ﴿كأنما تغشى وجوههم قط من الليل مظلم﴾. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: واذكر، يا محمد، لكلا الفريقين الذين أحسنوا، والذين كسبوا السيئات، قصة يوم نحشر الخلائق ونجمعهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة. والحشر: الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد. حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: متجمعين لا يتخلف منهم أحد، أو نحشر العابدين والمعبودين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: للمشركين منهم بعد طول مكث، لا يكلمون بشيء قبل ذلك ﴿مَكَانَكُمْ﴾؛ أي: الزموا مكانكم وموقفكم واثبتوا فيه ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وشركاؤكم﴾؛ أي: معبوداتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله تعالى، حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم. وقرأ الحسن وشيبة والقراء السبعة ﴿نحشرهم﴾ بالنون. وقرأت فرقة بالياء. وقرىء ﴿وشركاءكم﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى: مع، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يحشر العابد والمعبود، لسؤالهم، ثم يقول للذين أشركوا في حالة الحشر ووقت الجمع، تقريعاً لهم على رؤوس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة، وحضور معبوداتهم: مكانكم؛ أي: الزموا مكانكم واثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم أنتم ومعبوداتكم، حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم، فيما كان من سبب عبادتكم إياهم، والحجة التي يحتج بها كل فريق منكم. وفي هذا وعيد شديد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، وتقريع بكون هذا معظم سيئاتكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ففرقنا بين المشركين وشركائهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وباعدنا بينهم بعد الجمع في الموقف. والمعنى: ففرقنا بين العابدين والمعبودين، وميزنا بعضهم من بعض، كما يميز بين الخصوم

عند الحساب، ويراد بهذا التفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من صلات وروابط، وبيان خيبة ما كان للمشركين في الشركاء من آمال وتبرُّؤ المعبودين من العابدين وعبادتهم، كما قال: ﴿وقال شركاؤهم﴾ الذين عبدوهم، وجعلوهم شركاء لله سبحانه وتعالى، أي: قال المعبودون للعابدين ﴿مَا كُنتُمْ﴾ أيها المدعون لعبادتنا ﴿إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما كنتم تخصوننا بالعبادة، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم التي أغوتكم، فإنها الآمرة لكم بالإشراك، وتتخذون تماثيلنا هياكل لمنافعكم وأغراضكم، والمعبود الحق: هو الذي يعبد وحده؛ لأنه صاحب السلطان الأعلى على الخلق، وبيده الضر والنفع. وقدم المفعول هنا للفاصلة لا للحصر، إذ ليس الغرض أن المنفي عبادة الأصنام المقصورة عليها فقط، بل مطلق عبادتها، سواء كانت مقصورة عليها أم لا، ا هـ «فتوحات».

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: فكفى الله سبحانه وتعالى شهيداً وحكماً بيننا، وبينكم، فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾؛ أي: إنا كنا عن عبادتكم إيانا ﴿لَغَافِلِينَ﴾؛ أي: لجاهلين لا نعلمها ولا نرضى بها؛ لأن العبادة لا تليق بنا، بل لله سبحانه وتعالى وحده.

والمعنى: وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه: ما كنتم إيانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم، الذين أغووكم وإنما أضاف الشركاء إليهم، مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية. وقيل: لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء، وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة.

﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على[1] معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان؛ أي: في ذلك المقام، والموقف الذي

---

(١) الخازن.

يقتضى الحيرة والدهش ﴿تبلو﴾ بالتاء[1]، فالباء على القراءة المشهورة؛ أي: تذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ سعيدة أو شقية ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾؛ أي: جزاء ما قدمت من عمل، فتعلم نفعه، أو ضره.

وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي: ﴿تتلو﴾ بتاءين؛ أي: تقرأ كل نفس في صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر، أو تتبع ما أسلفت؛ لأن عملها هو الذي يهديها إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار. وقرأ عاصم: ﴿نبلو كل نفس﴾ بالنون فالباء ونصب كل؛ أي: نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل السيء؛ أي: نفعل بها فعل المختبر، أو المعنى: نصيب بالبلاء الذي هو العذاب كل نفس عاصية، بسبب ما أسلفت من الشر. وقوله؛ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف على فزيلنا بينهم، والضمير فيه عائد إلى الذين أشركوا؛ أي: أعرض الذين أشركوا عن المولى الباطل، ورجعوا إلى المولى الحق؛ أي: الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وأقروا بألوهيته ووحدانيته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيره، وردوا إلى حكمه؛ أي: ردوا إلى جزائه وما أعدَّ لهم من عقابه، ومولاهم ربهم والحق صفة له؛ أي: الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة.

وقرأ يحيى بن وثاب[2]: ﴿وردوا﴾ بكسر الراء، لما سكن للإدغام.. نقل حركة الدال إلى الراء بعد سلب حركتها. وقرىء ﴿الحق﴾ بالنصب على المدح. نحو: الحمد لله أهل الحمد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: ضاع وغاب عنهم في الموقف، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يدعون من أن معبوداتهم آلهة، وأنها تشفع لهم.

وحاصل معنى الآية[3]: أي في موقف الحساب تختبر كل نفس من عابدة

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ومعبودة ومؤمنة وجاحدة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل وما كان لكسبها في صفاتها من أثر، خير أو شر، بما ترى من الجزاء عليه، فهو ثمرة طبيعة له، لا شأن فيه لولي ولا شفيع ولا معبود ولا شريك. ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وأرجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء والأنداد والشركاء. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: وضاع عنهم وغاب؛ أي: في الموقف ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عليه من الشفعاء والأولياء، فلم يجدوا أحداً ينصرهم لا ينقذهم من هول ذلك الموقف، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾. وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة منها: ما جاء مجملاً، ومنها: ما جاء مفصلاً:

فمنها: ما يسأل الله فيه العابدين.

ومنها: ما يسأل فيه المعبودين.

ومنها: ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين.

والحاصل: أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المعاندين من أهل مكة ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما ينزله عليكم من الأمطار ﴿و﴾ يرزقكم من ﴿الأرض﴾ بما ينبته من نباتات شتَّى، من نجم وشجر تأكلون منه؛ أو تأكل أنعامكم، والاستفهام فيه للتقرير، وكذا فيما بعده؛ أي: من الذي يرزقكم منهما جميعاً، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحدة منهما، والمقصود من هذا القول، الاستدلال على حقية التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك، ا هـ «أبو السعود». وهذه أسئلة ثمانية، جواب الخمسة الأولى منها: منهم، وجواب

الاثنين بعدها منه ﷺ بتعليم الله إياه، لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخيرة، لم يذكر لشهرته والعلم به.

وأم في قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هي[1] المنقطعة؛ لأنها لم يتقدمها همزة استفهام ولا تسوية، ولكن إنما تقدر هنا ببل وحدها دون الهمزة، وقد تقرر عند الجمهور أن المنقطعة تقدر بهما، وإنما لم تقدر هنا ببل، والهمزة؛ لأنها وقع بعدها هنا اسم استفهام صريح، وهو: من والإضراب هنا على القاعدة المقررة في القرآن أنه إضراب انتقال، لا إضراب إبطال ا هـ «سمين»؛ أي: وقل لهم[2] يا محمد، بل من يملك ما تتمتعون به من حاستي السمع والبصر، وأنتم بدونهما لا تدرون شيئاً من أمور العالم، وتكون الأنعام والهوام، بل والشجر خيراً منكم؛ باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها؛ أي: أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما، من أدنى شيء، وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية، وكمال الحياة الإنسانية، إذ بهما تحصيل العلوم الأولية.

وخلاصة ذلك: بل من خلق هذه الحواس، ووهبها للناس، وحفظها مما يعتريها من الآفات، ولا شك أن الجواب عن ذلك السؤال لا حاجة فيه إلى الفكر، فإن هم تأملوا في ذلك.. ازدادوا علماً وإعجاباً بإنعام الله بهما، وإيماناً بأنه لا يقدر غيره على إيجادهما. وعن علي رضي الله عنه كان يقول: سبحان من بصَّر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: ومن يقدر أن يخرج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة، والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ أي: وأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر والكافر من المؤمن؛ أي: وقل لهم: بل من ذا الذي بيده أمر الموت والحياة، فيخرج الحي من الميت، والميت من الحي، فيما تعرفون من المخلوقات وما لا تعرفون، فالله هو الذي يخرج النبات

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

من الأرض الميتة، بعد إحيائه إياها، بماء المطر النازل عليها من السماء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: ومن يتولى تدبير أمر الخليقة جميعاً، بما أودعه في كل منها من السنن، وقدره من النظام، وهذا السؤال الخامس أعم من كل من الأربعة قبله، فهو من ذكر العام بعد الخاص. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ في جواب هذه الأسئلة الخمسة بلا تباطؤ ولا تجاحد هو ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة، بأن فاعل ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى رب العالم كله ومليكه، إذ لا جواب غيره، وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه. والهمزة في قوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره؛ فقل: لهم يا محمد، عند ذلك تبكيتاً لهم ووعظاً وتذكيراً لهم، أتعلمون ذلك فلا تتقون سخطه وعقابه لكم، بشرككم وعبادتكم لغيره، ممن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق ﴿رَبُّكُمُ﴾؛ أي: المربي لكم بنعمه والمدبر لأموركم ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت بذاته الحي المحيي لغيره المستحق للعبادة دون سواه. والاستفهام في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ للإنكار التوبيخي، بدليل ذكر إلا الإيجابية بعده؛ أي: فماذا بعد الرب الحق، الثابتة ربوبيته إلا الضلال؛ أي: الباطل الضائع المضمحل، فالذي يفعل تلك الأمور هو الرب الحق، وعبادته وحده هي الهدى، وما سواها من عبادة الشركاء والوسائط ضلال، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال؛ أي: فإذا ثبت أن عبادة الله حق، ثبت أن عبادة غيره من الأصنام ضلالٌ محض، إذ لا واسطة بينهما. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، مع علمكم بما كان الله به هو الرب الحق، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية، فتتخذون مع الله آلهة أخرى؛ أي: فكيف تمالون من التوحيد إلى الإشراك، وعبادة الأصنام مع علمكم ذلك؟ فالاستفهام فيه، للتعجيب والابتعاد والإنكار.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما حق وثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون من الحق ﴿حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: وجب حكمه ونفذ قضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾؛ أي: خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرةً، وتلك الكلمة هي قوله جل ثنائه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ . . .﴾ الآية. أو هي جملة قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فتكون هذه الجملة بدلاً من كلمة ربك، بدل كل من كل؛ أي: حقت كلمة ربك التي هي عدم إيمانهم. وعلى المعنى الأول: تكون الجملة تعليلية لما قبلها، بتقدير اللام؛ أي: حقت عليهم كلمة ربك، التي هي دخول جهنم؛ لأنهم لا يؤمنون. والمعنى: كما حقت كلمة ربك بوحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده إلا الضلال، حقت كلمة ربك؛ أي: وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق، وهو توحيد الألوهية والربوبية، وهداية الدين الحق.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: هي أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا، من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بينة، والحجة ظاهرة قوية؛ أي: وجب وثبت قضاء ربك، بأنهم لا يؤمنون لرسوخهم وتمردهم في الإشراك.

وليس المراد[1]: أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر، بل هم يمتنعون منه باختيارهم، لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل، فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال، لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾. وقرأ[2] أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر: ﴿كلمات ربك﴾ بالجمع هنا، وفي آخر السورة. وقرأ باقي السبعة بالإفراد.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ للتقرير، كالاستفهامات السابقة والآتية، أي: قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله تعالى، أو من دون الله، من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها، كما تزعمون،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أو الكواكب السيارة، أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ أي: من ينشىء المخلوقات من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في القيامة للجزاء؛ أي: من له التصرف في هذا الكون ببدء الخلق في طور، ثم إعادته في طور آخر. وفي هذا سؤالان: سؤال عن البدء، وسؤال عن الإعادة.

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال، كما أجابوا عن الأسئلة الأولى، لإنكارهم للبعث والمعاد، لقن الله سبحانه وتعالى رسوله الجواب، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم، يا محمد، في الجواب ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو الذي ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ أي: ينشىء المخلوقات من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يوم القيامة للمجازاة، لا جواب غيره، إذ القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية، دون الأحياء النباتية، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض حين ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافه في فصل الصيف والخريف، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله تعالى هو الذي يفعل البدء والإعادة؛ لأنهم يشاهدون كلاً منهما، وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم، أو يلمسونه بأيديهم. وقد أمر الله رسوله، ﷺ، أن يرشدهم إلى جهلهم وينبههم للتفكير في أمرهم فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ والاستفهام فيه تعجبي؛ أي: فكيف تصرفون من الحق، الذي لا محيد عنه، وهو التوحيد إلى الضلال البين، وهو الإشرك وعبادة الأصنام، وذلك من دواعي الفطرة، وخاصة العقل حين تفكيره في المصير، ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره، إلزاماً لهم عقب الإلزام الأول، فسألهم عن شأن من شؤون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال: ﴿قُلۡ﴾ لهم، يا محمد، ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: هل من هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله من يهدي ويرشد غيره إلى الحق والصواب، مما فيه صلاحكم في الدين والدنيا، بوجه من وجوه الهداية، التي بها تتم حكمة الخلق، كما يدل على ذلك قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إذ أدنى مراتب المعبودية، هداية المعبود لعابديه إلى الحق.

والهداية لها أنواع:

١ ـ هداية الغريزة والفطرة التي أودعها الله في الإنسان والحيوان.

٢ ـ هداية الحواس، من سمع وبصر ونحو ذلك.

٣ ـ هداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل.

٤ ـ هداية الدين، وهو للنوع البشري في جملته بمثابة العقل للأفراد.

٥ ـ هداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق، وتسهيل سبله، ومنع الصوارف عنه.

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدعوا أن أحداً من أولئك الشركاء يهدي إلى الحق، لا من ناحية الخلق، ولا من ناحية التشريع.. لقن الله رسوله الجواب، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم، أيها الرسول، في الجواب، لا جواب غيره: ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو الذي ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد من يشاء ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: إلى الحق دون غيره من شركائكم، بما نصب من الأدلة والحجج، وأرسل من الرسل، وأنزل من الكتب، وهدى إلى النظر والتدبر وأعطى من الحواس.

وفي «السمين»: ﴿هدى﴾ يتعدى إلى اثنين، ثانيهما، إما باللام، أو بإلى، وقد يحذف الحرف تخفيفاً، وقد جمع بين التعديتين هنا بحرف الجر، فعدى الأول والثالث بإلى، والثاني باللام، وحذف المفعول الأول من الأفعال الثلاثة، والتقدير: هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق، قال: الله يهدي من يشاء للحق، أفمن يهدي غيره إلى الحق، وقد تقدم أن التعدية بإلى وباللام من باب التفنن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري: يقال: هداه للحق وإلى الحق، فجمع بين اللغتين ا هـ. والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل. وعبارة الخطيب قل هل من شركائكم من يهدي غيره إلى الحق بنصب الحجج وخلق الاهتداء وإرسال الرسل، ولما كانوا جاهلين بالحق في ذلك أو معاندين.. أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه، ﷺ، أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة، يهدي للحق من يشاء، لا أحد ممن زعمتموه شركاء. فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها، جهل محض. ا هـ. يعني أن الله هو الذي يهدي للحق، فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدى، ا هـ «خازن». والمعنى: قل لهم يا محمد: هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس

إلى الحق، فإذا قالوا: لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره. وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ...﴾ الخ، سؤال ثامن، لم يذكر جوابه لوضوحه، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، كما أشرنا إليه أولاً، والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق، من تحقيق هدايته تعالى صريحاً، وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر، والهمزة متأخرة في الاعتبار وإنما تقديمها في الذكر لإظهار عراقتها في الاستفهام، واقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور، ا هـ «أبو السعود».

فالهمزة في قوله: ﴿أفمن يهدي﴾ داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أعميتم عن إبصار الحق، أم عاندتم، فمن يهدي ويرشد من يشاء إلى الحق والصلاح.. ﴿أحق﴾ وأولى من غيره بـ ﴿أَن﴾ يطاع و ﴿يُتَّبَعُ﴾ فيما شرعه ويعبد دون غيره ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ غيره ولا يهتدي بنفسه، فضلاً عن هداية غيره إلا أن يهدى؛ أي لا يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال هدايته تعالى له، إذ لا هادي غيره، وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح، وعزير عليهم السلام، أو من لا ينتقل من مكان إلى مكان، إلا أن ينقل إليه؛ لأن الأصنام خالية عن الحياة والقدرة؛ أي: أهذا الأخير أحق، أن يتبع، أم الأول فالجواب الأول أحق أن يتبع، وترك ذكر الجواب لوضوحه كما مر.

والاستفهامان في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ للتعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم، وللتقريع والتوبيخ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: فأي شيء ثبت لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله تعالى، فإنهم عاجزون عن هداية أنفسهم، فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم، أو أي شيء أصابكم، وماذا حل بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم، الذي لا خالق ولا رازق ولا هادي لكم سواه ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل وتجعلون لله شركاء، أو كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده تعالى بدون إذنه.

وهاتان[1] جملتان، أنكر في الأولى، وتعجب من اتباعهم من لا يهدي ولا

(١) البحر المحيط.

يهتدى، وأنكر في الثانية حكمهم بالباطل، وتسوية الأصنام برب العالمين.

وقد اختلف[1] القراء في ﴿لا يهدى﴾ فقرأ أهل المدينة إلا ورشاً، أم لا يهدي، بفتح الياء، وسكون الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين. قال النحاس: لا يقدر أحد أن ينطق به. وقال المبرد: من رام هذا لا بد أن يحرك حركة خفيفة. وسيبويه: يسميه اختلاس الحركة. وقرأ أبو عمرو وقالون: في رواية كذلك، إلا أنه اختلس الحركة؛ أي: بين الفتح والإسكان. وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محيصن: كذلك إلا أنهم فتحوا الهاء؛ أي: قرءوا بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بينة في العربية، والأصل فيها يهتدي فنقلت حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت التاء في الدال. وقرأ حفص ويعقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا؛ لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. قال أبو حاتم: هي لغة سفلى مضر. وقرأ أبو بكر عن عاصم في رواية يحيـى بن آدم ﴿يِهِدى﴾ بكسر الياء والهاء وتشديد الدال للاتباع، ونقل عن سيبويه أنه لا يجيز ﴿يِهدى﴾ ويجيز تِهدى ونِهدى وإِهدى قال: لأن الكسرة في الياء تثقل. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيـى بن وثاب: ﴿يهدى﴾ بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال، من هدى يهدي. قال النحاس، وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدةً:

الأول: أن الكسائي والفراء، قالا: إن يهدي بمعنى يهتدي.

الثاني: أن أبا العباس قال: إن التقدير: أم لا يهدي غيره ثم تم الكلام. وقال بعد ذلك: ﴿إلا أن يهدى﴾؛ أي: لكنه يحتاج أن يهدي فهو استثناء منقطع، كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أي: لكنه يحتاج أن يسمع.

والمعنى على القراءات المتقدمة[2]: أفمن يهدي الناس إلى الحق، وهو الله سبحانه، أحق أن يتبع ويقتدى به، أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره، فضلاً عن أن يهدي غيره، والاستثناء على هذا استثناء

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) الشوكاني.

مفرغ من أعم الأحوال.

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية، بين حال المشركين الاعتقادية، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: وما يتبع أكثر المشركين في معتقداتهم إلا ظناً واهياً، أما بعضهم فقد يتبعون العلم، فيقفون على بطلان الشرك، لكن لا يقبلون العلم عناداً، وفي ذلك دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز.

والمعنى[1]: أي إن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير الله، ولا في إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول، ﷺ، إلا ضرباً من ضروب الظن، قد يكون ضعيفاً، كأن يقيسوا غائباً على شاهد، ومجهولاً على معروف، ويقلدون الآباء، اعتقاداً منهم أنهم لا يكونون على باطل في اعتقادهم ولا ضلال في أعمالهم، وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق والهدى، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يجحدون بآيات الله تعالى، ويكذبون رسوله، ﷺ، عناداً واستكباراً، وخوفاً على زعامتهم أن تضيع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين.

ثم بين حكم الله في الظن، فقال: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾؛ أي: عن العلم ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء في العقائد، والحق هو الثابت الذي لا ريب في ثبوته وتحققه؛ أي: إن الشك لا يقوم مقام اليقين في شيء، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين.

وخلاصة ذلك: أن الظن لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك، كالعقائد الدينية، وبهذ تعلم أن إيمان المقلد غير صحيح، أي: إن مجرد الظن لا يغني في معرفة الحق شيئاً؛ لأن أمر الدين، إنما يبنى على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني من العلم والاعتقاد الحق شيئاً.

---

(١) المراغي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الاتباع للظنون الفاسدة، والإعراض عن البراهين القاطعة؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها، كتكذيبهم للرسول، ﷺ، مع قيام الأدلة القطعية على صدقه، واتباعهم للظن، كالتقليد باتباع الآباء والأجداد.

وفي الآية إيماءٌ، إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن، فالعلم المفيد للحق ما كان قطعياً من كتاب أو سنة، وهو الدين الذي لا يجوز للمسلمين التفرق، والاختلاف فيه، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن، فلا يؤخذ به في الاعتقاد، وهو متروك للاجتهاد في الأعمال، اجتهاد الأفراد في الأعمال الشخصية، واجتهاد أولي الأمر في القضاء، مع سلوك طريق الشورى، حتى يتحقق العدل والمساواة في المصالح العامة. وفي هذه الجملة تهديد لهم، على ما وقع منهم، من الأفعال الشنيعة والأحوال القبيحة. وقرأ عبد الله ﴿تفعلون﴾ بالتاء على الخطاب التفاتاً.

الإعراب

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ولكنها مجردة هنا عن معنى الحصر؛ لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، كما مر في مبحث التفسير ﴿مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للحياة ﴿كَمَآءٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة لـ ﴿ماء﴾ ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾: الفاء: عاطفة ﴿اختلط﴾ فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ولكنها صفة سببية ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من نبات الأرض ﴿يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل وفاعل ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف، تقديره: مما يأكله الناس والأنعام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أَخَذَتِ﴾. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾: فعل رفاعل معطوف على ﴿أَخَذَتِ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿قَٰدِرُونَ﴾: خبره. ﴿عَلَيْهَآ﴾ متعلق بـ ﴿قَٰدِرُونَ﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظنّ، تقديره: وظن أهلها قدرتهم عليها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾: منصوبان على الظرفية الزمانية، متعلقان بـ ﴿أَتَىٰهَآ﴾ وجملة ﴿أتى﴾ جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ من فعل شرطها وجوابها مجرور بحتى، بمعنى إلى و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بـ﴿اختلط﴾ تقديره: فاختلط به نبات الأرض، إلى إتيان أمرنا إياها، وقت أخذها زخرفها، وتزينها به.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على جملة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: كأنها؛ أي: كأن ثمار تلك الأرض وزروعها ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَغْنَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف؛ لأنه من غني يغنى، كرضي يرضى، وفاعله ضمير يعود على الأرض، أي: على ثمارها وزروعها. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: متعلق به والجملة الفعلية في محل الرفع خبر كأن، تقديره: كأنها عادمة الغنى والوجود بالأمس، وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب، حال من هاء ﴿جعلناها﴾ تقديره: فجعلناها حصيداً، حالة كونها مشبهة بعدم الغناء بالأمس؛ أي: مشبهاً حالها بحال الشيء الذي لم يوجد بالأمس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: تفصيلاً مثل التفصيل السابق ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بنفصل. وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَدْعُوٓاْ﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ جار ومجرور ومضاف متعلق بـ ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ ﴿وَيَهْدِى مَن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور، وصفة متعلق بـ ﴿يهدِي﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: من يشاءه.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿أَحْسَنُواْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: معطوف عليه والجملة مستأنفة ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿قَتَرٌ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾ مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه ﴿بِمِثْلِهَا﴾ خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والرابط محذوف تقديره؛ جزاء سيئة منهم بمثلها، والجملة من الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، أعرضنا عنها صفحاً خوف الإطالة

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿مَّا﴾: نافية ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿عَاصِمٍ﴾ ﴿مِنۡ عَاصِمٍ﴾: مبتدأ مؤخر و ﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مستأنفة.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿كَأَنَّمَآ﴾: كأنّ: حرف تشبيه ونصب، ما: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها ﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة ﴿قِطَعٗا﴾: مفعول ثان لـ﴿أغشيت﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ صفة لـ ﴿قِطَعٗا﴾ ﴿مُظۡلِمًا﴾: حال من الليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾: فعل ومفعول ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من ضمير المفعول، وفاعله ضمير، يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على الله، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿نَقُولُ﴾ ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾: مقول محكي لـ ﴿نَقُولُ﴾ وإن شئت قلت: ﴿مَكَانَكُمۡ﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: الزموا مكانكم ﴿أَنتُمۡ﴾ تأكيد لضمير الفاعل، في الفعل المحذوف ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾ بالرفع، معطوف على ضمير الفاعل، في الفعل المحذوف، وبالنصب، منصوب على كونه مفعولاً معه، والجملة الفعلية المحذوفة في محل النصب، مقول لـ ﴿نَقُولُ﴾ ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿زيلنا﴾ فعل وفاعل ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: متعلق به،

والجملة معطوفة على جملة ﴿نَقُولُ﴾؛ لأنه في تأويل، فنزايل بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة نقول؛ لأنه في تأويل فنزايل بينهم، ويقول شركاؤهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَّا﴾ نافية ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿إِيَّانَا﴾: مفعول مقدم ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَكَفَىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿كفى بالله﴾: فعل وفاعل. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كفى﴾ والجملة في محل النصب، معطوف على جملة قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿بَيْنَنَا﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾ ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾ ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿غافلين﴾ ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾ المخففة وجملة ﴿إِنْ﴾ المخففة في محل النصب مقول على كونها معللة لما قبلها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: هنا: اسم إشارة للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية، أو هو مستعار للزمان، اللام: لبعد المشار إليه. والكاف: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ ﴿تَبْلُوا﴾ ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب على المفعولية ﴿أَسْلَفَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والجملة صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما أسلفته. ﴿وَرُدُّوا﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿زيلنا﴾، كما في «الشوكاني» ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ردوا﴾ ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: بدل أول من الجلالة ﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة لـ ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾، أو بدل ثان من الجلالة ﴿وَضَلَّ﴾ فعل ماض ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به

﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ردوا﴾ ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يفترونه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت، قلت ﴿مَن﴾: اسم استفهام، في محل الرفع ﴿يَرْزُقُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يَرْزُقُكُم﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ أم: عاطفة منقطعة؛ لأنها لم يتقدمها همزة استفهام ولا تسوية، ولكن إنما تقدر هنا، ببل وحدها، دون الهمزة؛ لأنها وقع بعدها اسم استفهام صريح ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: معطوف على السمع، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿وَمَن﴾ الواو عاطفة ﴿من﴾: اسم استفهام مبتدأ. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ ﴿يُخْرِجُ﴾ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: متعلق بـ ﴿يُخْرِجُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ الأول ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: الفاء: حرف عطف

وتفريع ﴿سيقولون﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿قُلْ﴾ مفرعة عليها ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك الرازق المالك المخرج، المدبر.. الله، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿فَقُلْ﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿سيقولون﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أتعلمون ذلك. الفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: أفلا تتقون عقابه وسخطه، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، على كونها مقول القول.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان ما هو الحق الواجب فأقول لكم ذلكم الله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر أول ﴿رَبُّكُمُ﴾ خبر ثان. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة للرب، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَاذَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم، فذلكم الله ربكم، وأردتم بيان حقيقة الأمر، فأقول لكم: ماذا بعد الحق ﴿ماذا﴾: اسم استفهام، مركب في محل الرفع مبتدأ ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: بدل من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وإن شئت قلت: ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول، بمعنى: الذي، في محل الرفع خبر ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، تقديره: فما الذي استقر بعد الحق ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: بدل من الضمير المستكن في الصلة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وأردتم بيان ما يقال: لكم في التعجب من حالكم.. فأقول لكم: ﴿أنى تصرفون﴾. ﴿أنى﴾: اسم استفهام.

بمعنى: كيف، في محل النصب على التشبيه بالمفعول به لما بعده ﴿تُصْرَفُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: حقاً مثل حق صرفهم عن الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: إلخ؛ أي: ثبوتاً مثل ثبوت صرفهم عن الحق، ثبتت كلمة ربك على الذين فسقوا، والإشارة راجعة إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كما ذكره الزمخشري ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَقَّتْ﴾ ﴿فَسَقُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: خبره وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدلاً من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدل كل من كل، تقديره: حقت عليهم كلمة ربك، عدم إيمانهم، أو مجرور بلام التعليل المقدرة، أي: حقّت عليهم كلمة ربك، لأملأن جهنم لعدم إيمانهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَبْدَؤُاْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ ﴿قُلْ﴾ و جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على ﴿يَبْدَؤُاْ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أنى﴾: اسم استفهام، بمعنى: كيف في محل

النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعده. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ إلى قوله ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَهْدِي﴾: فعل مضارع ﴿إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ﴾؛ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِي﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لِلْحَقِّۗ﴾: متعلق بـ ﴿يَهْدِي﴾. ﴿أَفَمَن﴾ الهمزة: للاستفهام، التقريري، مقدمة على الفاء العاطفة، لعراقتها في التصدير. ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِي﴾ صلته ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: متعلق به ﴿أَحَقُّ﴾: خبر لـ﴿مَن﴾ الموصولة والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اللَّهُ يَهْدِي﴾ على كونها مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَن﴾: مصدرية ﴿يُتَّبَعَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، تقديره: أحق بالاتباع ﴿أَمَّن﴾ ﴿أَمْ﴾: متصلة لسبقها بهمزة، يطلب بها وبأم التعيين ﴿مَن﴾ اسم موصول مبتدأ. وجملة ﴿لَّا يَهِدِّيٓ﴾؛ صلته والخبر محذوف، تقديره: أمن لا يهدي أحق بالاتباع، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَفَمَن﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُهْدَىٰ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، ونائب فاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الفعلية

في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، تقديره: أم لا يهدى إلا إهداءه، أي: إلا إهداء الغير إياه؛ أي: لا يهتدي في حال من الأحوال، إلا في حال إهدائه؛ أي: إهداء الغير إياه، والجواب الأول أحق بالاتباع. ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن الأول أحق بالاتباع، وأردتم بيان ما يقال: لكم في التعجب من حالكم.. فأقول: ما لكم ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبره، أي فأي شيء ثابت لكم في اتباعكم الباطل، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم لـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾ ﴿تَحْكُمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومعموله محذوف، تقديره: كيف تحكمون بالباطل، وتجعلون لله أنداداً وشركاء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية ﴿يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ظَنًّا﴾: مفعول به ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾: ناصب واسمه ﴿لَا يُغْنِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الظَّنَّ﴾ ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: متعلق به ﴿شَيْئًا﴾: مفعول ﴿يغني﴾ وجملة ﴿لا يغني﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره وجملة إن مستأنفة ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما يفعلونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ قال في «الصحاح» الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموه مزور، انتهى. والمعنى: أن الأرض أخذت لونها الحسن، المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وأصل ازينت تزينت، أدغمت التاء في الزاي، وجيء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم فيه قائم مقام حرفين، أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به، ثم حذفت همزة الوصل لما دخل العاطف عليه. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: كأن لم يكن زرعها موجوداً فيه بالأمس، مخضراً طريّاً من غني بالمكان بالكسر يغنى بالفتح، من باب رضي إذا أقام به، والمراد بالأمس الوقت القريب. والمغاني في اللغة: المنازل.

﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلام: هي الجنة. والسلام: السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار. وقال الزجاج: والمعنى: والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد، كالرضاع والرضاعة، ومنه قول الشاعر:

تُحَيَّىٰ بِٱلسَّلَامَةِ أُمُّ بَكْرٍ وَهَلْ لَكَ بَعْدَ قَوْمِكَ مِنْ سَلَامِ

وقد مر في تفسيره أقوال.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى: مؤنث الأحسن. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها. والمراد بها هنا، الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم كما مر ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ معنى يرهق، يلحق، ومنه قيل: غلام مراهق إذا لحق بالرجال. والرهق: الغشيان، يقال: رهقه يرهقه رهقاً، من باب طرب إذا غشيه بسرعة ومنه ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾؛ أي: لا تكلفني ما يشق عليّ ويعسر. ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يقال: رهقته وأرهقته، مثل ردفته وأردفته، ففعل وأفعل بمعنى. ومنه أرهقت الصلاة إذا أخرتها حتى غشي وقت الأخرى؛ أي: دخل. وقال بعضهم: أصل الرهق: المقاربة، ومنه غلام مراهق، أي: قارب الحلم. ﴿والقتر﴾ والقترة؛ الغبار معه سواد، يقال: قتر، كفرح ونصر وضرب. وقيل: القتر: الدخان الساطع من الشواء والحطب، ومنه غبار القدر. وقيل: القتر: التقليل، ومنه ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ ويقال: قترت الشيء وأقترته وقترته؛ أي: قللته: ومنه ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ اهـ «سمين». والذلة: ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان، والعاصم: المانع.

﴿قِطَعًا﴾ جمع قطعة، كسدرة وسدر وكسرة وكسر، والقطعة الجزء من الشيء ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد، كما مر. ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ومكانكم: كلمة يراد بها التهديد والوعيد؛ أي: الزموا مكانكم. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، يقال: زيلته فتزيل؛ أي: فرقته فتفرق، والمزايلة المفارقة، يقال: زايله زيالاً، إذا فارقه، والتزايل التباين. واختلف في زيل، هل وزنه فعل، أو فيعل، والظاهر الأول، والتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية؛ لأن ثلاثيه متعد بنفسه. حكى الفراء: زلت الضأن من المعز، ويقال: زلت الشيء عن مكانه، أزيله، وهو على هذا من ذوات الياء، والثاني أنه فيعل، كبيطر وهو من زال يزول، والأصل زيولنا فاجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فأعلت الإعلال المشهور، وهو قلب الواو ياء وإدغام الياء فيها، كميت وسيد، في ميوت وسيود، وعلى هذا، فهو من مادة الواو، وإلى هذا ذهب ابن قتيبة وتبعه أبو البقاء، ا هـ «سمين».

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾ وفي «المختار» البلية والبلاء والبلوى واحد، والجمع البلايا، ا هـ. ومعنى الكل: الاختبار وفي «السمين»: وفي هنالك وجهان: الظاهر منهما بقاؤه على أصله، من دلالته على ظرف المكان، أي: في ذلك الموقف الدحض والمكان الدهش. وقيل: هو هنا ظرف زمان على سبيل الاستعارة، ومثله ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في ذلك الوقت.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه[1] المركب في قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حيث شبهت حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً، بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه، قاله الزمخشري.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حيث جعلت الأرض في زينتها، بما عليها من أصناف النبات، كالعروس التي أخذت من أنواع الثياب والزينة، فتزينت بها، ذكره أبو السعود.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿حَصِيدًا﴾؛ أي: كالمحصود وهو ما حذف فيه الأداة، ووجه الشبه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ لأن الأمر هنا كناية عن العذاب والدمار.

ومنها: إطلاق الخاص بمعنى العام في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ لأن المراد بالأمس الزمن الماضي، لا خصوص اليوم الذي قبل يومك.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

ومنها: الطباق بين كلمتي الحي والميت في قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، وبين كلمتي يبدأ ويعيد في قوله: ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وبين كلمتي الحق والضلال في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وفي قوله: ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إن قلنا: إن السلام من أسماء الله تعالى.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾؛ لأن المراد من هذا الأمر وعيدهم وتهديدهم وإهانتهم، وإلا فالمؤمنون يلزمون بالوقوف أيضاً حتى يسألوا ويحاسبوا.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾؛ لأنه تأكيد للضمير المستتر في الفعل المحذوف.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في قوله: ﴿وقال شركاؤهم﴾؛ لأنه جعل الأصنام شركاءهم، من حيث إنهم اتخذوها شركاء لله في استحقاق العبادة.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿مَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ﴾ حيث عدى أولاً بإلى وثانياً باللام.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ
بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ
قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ
أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] قدم قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

---

(١) البحر المحيط.

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ وكان من قولهم: إنه افتراء.. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ﴾؛ أي: ما صح ولا استقام، أن يكون هذا القرآن المعجز مفترى.

وعبارة «المراغي»: مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى الأدلة على أن القرآن من عنده، وأن محمداً ﷺ، عاجز كغيره عن الإتيان بمثله، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم، واتباع أكثرهم لأدنى الظن، وأضعفه في عقائدهم.. عاد إلى الكلام في تفنيد رأيهم في الطعن على القرآن، بمقتضى هذا الظن الضعيف، لدى الأكثرين منهم، والجحود والعناد من الأقلين كالزعماء والمستكبرين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بيّن في الآية السالفة، أنهم كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله، وقبل أن يحيطوا بعلمه.. أردف ذلك بذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع، وبين أنهم حينئذٍ يكونون فريقين، فريق يؤمن به، وفريق يستمر على كفره وعناده.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنبأ رسوله ﷺ، بأن من قومه من لا يؤمن به لا حالاً ولا استقبالاً، بل يصرون على التكذيب بعدما جاءتهم البينات، وكان من شأنه ﷺ أن يطيل الحزن والأسف إن لم يؤمنوا بهذا الحديث.. ذكر سبب هذا، وهو أنهم قوم طبع الله على قلوبهم، وفقدوا الاستعداد للإيمان، فلا وسيلة له ﷺ في إصلاح حالهم، ولا قدرة له على هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف هؤلاء المشركين بترك التدبر والإصغاء، وتكذيبهم للرسول، ﷺ، والقرآن، قبل أن يأتيهم تأويله.. قفّى على ذلك بالوعيد، بما سيكون لهم من الجزاء على هذا يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ...﴾ الآية،

---

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما بين[1] الله سبحانه وتعالى في الآية السالفة، أن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بلقاء الله تعالى، قد خسروا، وما كانوا مهتدين، وهذا يتضمن تهديداً ووعيداً بالعذاب الذي سيلقونه في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك ببيان أن بعض هذا العذاب ستراه أيها الرسول الكريم، وتقر عينك برؤيته، وبعض آخر سيكون لهم يوم الجزاء، وهو عليم بما فعلوه، فيجازيهم به قدر ما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما بين[2] الله سبحانه وتعالى حال الرسول ﷺ في قومه.. بين حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، تسليةً له، وتطميناً لقلبه، ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة، بل بعث إليها رسولاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة[3] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر العذاب، وأقسم على حقيقته، وأنهم لا يفلتون منه.. ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما سألوا عما وعدوا به من العذاب، أحق هو، وأجيبوا بأنه، حق لا محالة، وكان ذلك جواباً كافياً لمن وفقه الله تعالى للإيمان كما كان جواباً للأعرابي، حين سأل الرسول ﷺ: الله أرسلك؟ وقوله عليه السلام له: «اللهم نعم» فقنع بإخباره ﷺ، إذ علم أنه لا يقول إلا الحق والصدق، كما قال هرقل: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.. انتقل من هذا الجواب إلى ذكر البرهان القاطع على حجته، وتقريره بأن القول بالنبوة والمعاد، يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وأن ما سواه فهو مِلْكُهُ ومُلْكُهُ، فعبر عن هذا بهذه الآية، وكان قد استقصى الدلائل على ذلك في هذه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

السورة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ فاكتفى هنا عن ذكرها. وإذا كان جميع ما في العالم مِلْكُهُ ومُلْكُهُ كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات غنياً عن جميع الحاجات منزهاً عن النقائص والآفات، وبكونه قادراً على الممكنات، كان قادراً على إنزال العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة، وقادراً على تأييد رسوله بالدلائل، وإعلاء دينه، فبطل الاستهزاء والتعجيز، وبتنزيهه عن النقائص كان منزهاً عن الخلف والكذب، فثبت أن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ذكره «أبو حيان».

أسباب النزول

وأما أسباب النزول فليست في هذه الآيات ولم نر من ذكر شيئاً منها في هذه الآيات المذكورة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ أي: وما صح أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الحجج الناطقة، ببطلان الشرك وحقية التوحيد ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مفترى من الخلق ﴿وَلَٰكِن﴾ كان القرآن ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مصدق الذي قبله وأمامه، من الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل؛ أي: مصدقاً لها وموافقاً لها، في العقائد وبعض الفروع.

ووقعت[1] لكن هنا، أحسن موقع إذ هي بين نقيضين، وهما الكذب، والصدق المضمن للتصديق ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، في اللوح المحفوظ من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ومبيناً لما كتبه الله تعالى على عباده حالة كونه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في كونه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: منزلاً من مالك العالمين، جل جلاله.

---

(١) الفتوحات.

أي: وما كان ينبغي لهذا القرآن، أن يختلق ويفتعل؛ لأن معنى الافتراء: الاختلاق، والمعنى ليس وصف القرآن: وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله؛ لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، وذلك أن كفار مكة، زعموا أن محمداً، ﷺ، أتى بهذا القرآن من عند نفسه، على سبيل الافتعال والاختلاق، فأخبر الله تعالى أن هذا القرآن وحي، أنزله الله عليه، وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله، ثم ذكر ما يؤكد ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب المنزلة، ونفس هذا التصديق، معجزة مستقلة؛ لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي، ﷺ، لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك. وقيل[1] المعنى: ولكن القرآن ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب؛ أي: إنها قد بشرت به قبل نزوله، فجاء مصدقاً لها. وقيل المعنى: ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن، وهو محمد، ﷺ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن.

والخلاصة[2]: أي لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه، وينسبه إليه، إذ لا يقدر على ذلك غيره عزّ وجلّ؛ فإن ما فيه من علوم عالية، وحكم سامية، وتشريع عادل، وآداب اجتماعية، وإنباء بالغيوب الماضية، والمستقبلة، ليس في طوق البشر، ولا هو داخل تحت قدرته، وفي حيّز مكنته، ولئن سلم أن بشراً في مكنته ذلك، فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئاً.

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبي ﷺ، وهو أبو جهل، قال: إن محمداً لم يكذب على بشر قط، أفيكذب على الله؟! ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: ولكن كان تصديق الذي تقدمه من الوحي، لرسل الله تعالى بالإجمال، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم وسلامه، بدعوته إلى أصول الدين الحق، من الإيمان بالله واليوم الآخر، وصالح الأعمال، بعد أن نسي بعض بقية

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أتباعهم، وضلوا عن بعض، ولم يكن محمد النبي الأمي، يعلم شيئاً من ذلك، لولا الوحي عن ربه.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾؛ أي: وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشؤون الاجتماع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه، لوضوح برهانه؛ لأنه الحق والهدى ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: من وحيه، لا افتراء من عند غيره، ولا اختلاقاً كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وبعد أن أبان سبحانه وتعالى، أنه أجل وأعظم من أن يفترى، لعجز الخلق عن الإتيان بمثله.. انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين، الذين قالوا: إن محمداً، ﷺ، قد افتراه، وفنّد مزاعمهم، وتعجب من حالهم، وشنيع مقالهم، وتحداهم أن يأتوا بمثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[1] وأم فيه إما منقطعة، تقدر، ببل، والهمزة التي للإنكار عند سيبويه وأتباعه، وعليه فهو انتقال عن الكلام الأول، وأخذ في إنكار قول آخر، والمعنى عليه: بل أيقولون افترى هذا القرآن واختلقه محمد، ﷺ، من عند نفسه، وإما متصلة، ولا بد حينئذٍ من حذف جملة، ليصح التعادل، والتقدير: أيقرون بحقية القرآن، أم يقولون: افتراه؛ أي: بل يقول كفار مكة: اختلق محمد، ﷺ، القرآن من تلقاء نفسه؛ أي: ما كان ينبغي أن تقولوا: إن محمداً، ﷺ، افتراه من عند نفسه، واختلقه. ﴿قُلْ﴾: لهم، يا محمد، إظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة: إن كان الأمر كما تقولون من أني اختلقته وافتريته.. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾؛ أي: بسورة واحدة مماثلة لهذا القرآن، في الفصاحة والبلاغة، وحسن تركيبه وأسلوبه، ورزانة معانيه وعلمه، مفتراة من عند أنفسكم، فإن لساني لسانكم، وكلامي كلامكم، وأنتم أشد مني تمرناً وتمرساً للنثر والنظم منه ﴿وَادْعُوا﴾ للمعاونة والمساعدة ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ وقدرتم دعاءه وطلبه ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: من أصنامكم وآلهتكم

---

(١) الفتوحات بتصرف.

التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات والملمات، أو من سائر خلق الله تعالى وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ادعوا﴾ ﴿ودون﴾ جار مجرى أداة الاستثناء؛ أي: ادعوا سواه تعالى، ممن استطعتم من خلقه، ذكره: أبو السعود ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أني افتريته؛ أي: واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله، ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً من ذلك، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. وإذ قد[1] عجزتم عن ذلك، مع شدة تمرسكم، ولم يوجد في كلام أولئك، الذين نصبت لهم المنابر في سوق عكاظ، وبهم دارت رحى النظم والنثر، وتقضت أعمارهم في الإنشاء والإنشاد، مثله فهو ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق القوى والقدر.

ومن البيّن أنه ما كان لعاقل مثله، ﷺ، أن يتحداهم هذا التحدي، لو لم يكن موقناً، أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن في جملته، ولا بسورة مثله، إذ لو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه، يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق، من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به. إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر، قد يمكن غيره، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه.

والخلاصة: أن محمداً ﷺ كان على يقين بأنه من عند ربه، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله.

وقرأ[2] الجمهور ﴿تصديق﴾ ﴿وتفصيل﴾ بالنصب على أنه خبر لكان المحذوفة كما قدرناه في الحل. وقيل: انتصب على أنه مفعول لأجله، والعامل محذوف تقديره: ولكن أنزل للتصديق. وقرأ عيسى بن عمر ﴿تفصيل﴾ و﴿تصديق﴾ بالرفع هنا، وفي يوسف على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ولكن هو تصديق. وزعم الفراء ومن تابعه: أن العرب إذا قالت: ولكن بالواو، آثرت

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

تشديد النون، وإذا لم تكن الواو، آثرت التخفيف. وقد جاء في السبعة مع الواو التشديد والتخفيف. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿بِسُورَةِ مِّثْلِهِۦ﴾ على الإضافة؛ أي: بسورة كتاب أو كلام مثله؛ أي: مثل القرآن.

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه في القرآن، بتحديه لهم، إلى إظهار بطلانه ببيان أن كلامهم ناشىء من عدم علمهم بحقيقة أمره، واختبار حاله، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ وبل، فيه للإضراب الانتقالي أضرب بها عن الكلام الأول، وانتقل إلى بيان أنهم، سارعوا إلى تكذيب القرآن؛ أي: بل هم سارعوا إلى تكذيب القرآن، من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على حقيقته.

وقيل[1] معناه: بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها، مما لم يحيطوا بعلمه؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله. وقيل: إنهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص، وأخبار الأمم الخالية، ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك.. أنكروها لجهلهم، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة، لا يقدر على استيعابها وتحصيلها ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي: كذبوا به، حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، ولا بلغته عقولهم.

والمعنى: أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقيل: أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه، من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين، والأمم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث، من الأمور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم.

وخلاصة ذلك: أنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار

---

(١) الخازن.

بالغيب، قد أسرعوا في تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به، وفي تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع حصوله، شناعة وقصر نظر، لا تخفى على عاقل، وفيه دليل على أنهم مقلدون.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التكذيب من غير تدبر ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ما كذبوا من المعجزات، التي ظهرت على أيدي أنبيائهم، عندما جاءتهم رسلهم بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله، الذي أوعدهم به.

﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتكذيب رسلهم، من الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسخ، ونحو ذلك من العقوبات، التي حلت بهم، لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم، وهذه العاقبة هي التي بينها الله تعالى في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾. وقد أنذر الله سبحانه وتعالى قوم محمد، ﷺ، بمثل ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا، بهذه الآية وغيرها، من هذه السورة، كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذبه المعاندون المقلدون في كل ذلك، ظناً منهم أنه لا يقع.

﴿وَمِنۡهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذب به مكابرةً وعناداً. وقيل المراد: ومنهم من يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال؛ أي: ومن هؤلاء المكذبين من يؤمن به حين إتيان تأويله، وظهور حقيقته، بعد أن سعوا في معارضته، ورازوا قواهم فيها، فتضاءلت دونها ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ ولا يصدقه في نفسه، بل كذب به جهلاً، أو ومنهم من لا يؤمن به في المستقبل، بل يبقى على جحوده وإصراره على الكفر. وقيل: الضمير في الموضعين للنبي، ﷺ، وقد قيل: إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ أي: بمن يفسدون في الأرض، بالشرك والظلم والبغي،

لفقدهم الاستعداد للإيمان، وهؤلاء سيعذبهم في الدنيا، ويخزيهم وينصركم عليهم، ويجزيهم في الآخرة بأعمالهم، لفسادهم وسوء معتقداتهم.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يقول لهم بالبراءة بينه وبينهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه فقال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾؛ أي: وإن أصروا على تكذيبك يا محمد ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لِّي عَمَلِي﴾؛ أي: جزاء عملي، وهو البلاغ والإنذار والتبشير، وما أنا بمسيطر ولا جبار ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ أي: جزاء عملكم من الشرك والظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس عليَّ غير ذلك، والمعنى: وإن تمادوا على تكذيبك، فتبرأ منهم، فقد أعذرت وبلغت. ثم أكد هذا بقوله؛ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾؛ أي: لا تؤاخذوا بعملي ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا أؤاخذ بعملكم، وهذا مثل قوله: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾. وقد قيل: إن هذا منسوخ بآية السيف، كما ذهب إليه جماعة من المفسرين. وقال المحققون منهم: ليست بمنسوخة ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المشركين المكذبين ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ناس يصيخون إليك بأسماعهم الظاهرة إذا قرأت القرآن، أو بينت ما فيه من أصول الشرائع والأحكام، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة، إذ يستمعون لعدم حصول أثر السماع، وهو حصول القبول، والعمل بما يسمعونه، فهم لا يتدبرون القول، ولا يتفقهون ما يراد منه، بل جل همهم أن يتسمعوا غرابة نظمه وجرس صوته، بترتيله كمن يستمع إلى الطائر، يغرد على غصن الشجرة ليتلذذ بصوته، لا ليفهم ما يغرد به. وقد وصف الله سبحانه وتعالى حالهم في آي أخرى فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والآن نرى من المسلمين، من يستمع إلى قراءة القرآن، من قارىء حسن الصوت، أو من آلات اللهو العصرية، للتلذذ بترتيله، وتوقيع صوته، لا لينتفع بعظاته وعبره، ولا ليفهم عقائده وأحكامه، وجمع الضمير في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ حملاً

على معنى من وأفرده في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ﴾ حملاً على لفظه. والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أأنت تطمع إسماع الصم، فأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. وقيل التقدير: أيستمعون إليك فأنت تسمعهم كما في «الشوكاني». والمعنى: أنت لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع. ومعنى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ولو كان مع الصمم عدم العقل، وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله، وجملة الشرط معطوفة على محذوف تقديره: أأنت تسمع الصم إن عقلوا، بل ولو كانوا لا يعقلون فأنت لا تسمعهم، فيكون المعنى أنت لا تسمع الصم، عقلوا أو لم يعقلوا، فهم كالأنعام، بل هم أضل؛ أي: إن السماع النافع للمستمع، هو الذي يعقل به ما يسمعه، ويفقهه، ويعمل به، ومن فقد هذا كان كالأصم، الذي لا يسمع، وإنك أيها الرسول الكريم، لم تؤت القدرة على إسماع الصم، الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة، فكذلك لا تستطيع أن تسمع إسماعاً نافعاً من في حكمهم، وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون، ولا يفقهون معناه، فيهتدوا به وينتفعوا بعظاته.

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المشركين ﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من يتجه نظره إليك، ويبصرك بعينه الظاهرة، حين تقرأ القرآن، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والخلق العظيم، وأمارات الهدى، والتزام الصدق، والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ للاستفهام الإنكاري أيضاً، داخله على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أأنت تطمع أنك تقدر على إبصار العمي، فأنت تهدي العمي. وقيل: التقدير: أينظرون إليك، فأنت تهديهم، كما في «الشوكاني». ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أتحسب أنك تقدر على هداية العمى، ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة، قد يحدس؛ وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء وقوله؛ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا يتأملون ولا يفكرون بقلوبهم فيما جئت به من الدلائل العظيمة والشمائل الفخيمة، معطوف على محذوف، تقديره: أأنت تهدي العمي إن أبصروا، بل ولو كانوا لا يبصرون، والمعنى: أنت لا تهدي عمي القلوب،

أبصروا أو لم يبصروا.

وخلاصة ما تقدم: أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد، وهؤلاء قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالاً نافعاً في الدلائل البصرية والسمعية، لإدراك، أي مطلب من المطالب الشريفة التي وراء شهواتهم وتقاليدهم. والمقصود من هذا الكلام، تسلية رسول الله، ﷺ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً، أعرض عنه واستراح من الاشتغال به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفساد الحواس والعقول، وتفويت منافعها عليها، فإن الفعل منسوب إليهم، بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم، وتقدير الشقاوة عليهم لا يكون منه تعالى ظلماً؛ لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء، والخلق كلهم عبيده، وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً.

والمعنى: أنه تعالى لم يكن في سننه في خلقه أن ينقصهم شيئاً من الأسباب، التي يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم، من إدراكات وإرشادات إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة التي توصلهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولكن الناس يظلمون أنفهسم وحدها دون غيرها؛ لأن عقاب ظلمهم واقع عليها فهم يجنون عليها بكفرهم، بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله، من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الأعمال، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين.

وقال الشوكاني: ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم، من السمع والعقل والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر، ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر

مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية.

وقرأ[1] حمزة والكسائي: ﴿وَلَٰكِنِ ٱلنَّاسُ﴾ بتخفيف النون وكسرها، لالتقاء الساكنين ورفع الناس. وقرأ الباقون: بتشديدها ونصب الناس.

﴿و﴾ اذكر، يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث قصة ﴿يوم نحشرهم﴾؛ أي: يوم نحشر المشركين وسائر الخلائق، ونجمعهم لموقف الحساب. وأصل الحشر، إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم. وقرأ الأعمش وحفص: ﴿يحشرهم﴾ بالياء مسنداًإلى ضمير الغيبة العائد على الله. إذ تقدم أن الله لا يظلم الناس شيئاً حالة كونهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ ولم يمكثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، إلا قدر ساعة من النهار، لهول ما يرون من الشدائد، حالة كونهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يعرف[2] بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم، كما كانوا يتعارفون في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، يعني: يعرف بعضهم بعضاً في بعض المواطن، ويوبخ بعضهم بعضاً، فيقول، كل فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا، وكذا، وأغويتني وزينت لي الفعل الفلاني، لا تعارف شفقة ورأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا يعرف بعضهم بعضاً في بعض المواطن. ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وغبن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ تعالى بالبعث ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة؛ أي: قد هلكوا بتكذيبهم بالبعث بعد الموت، وضلوا عن طريق النجاة، وما كانوا عارفين لطريقه. وهذه شهادة من الله تعالى على خسرانهم وتعجيب منه.

وخلاصة ذلك: أن هذه الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل، قصيرة الأمد، ستزول بموتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار، لا تسع لأكثر من التعارف. وإن هؤلاء آثروا الحياة القصيرة المُنَغَّصَة بالأقدار، السريعة الزوال على الحياة الأبدية، بما فيها من النعيم المقيم، فلم يستعدوا لها ويعملوا

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

الأعمال الصالحة، التي تزكي نفوسهم وتهذب أرواحهم فخسروا السعادة فيها، وما كانوا مهتدين فيما اختاروه لأنفسهم، من إيثار الخسيس الزائل على النفيس الخالد.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾؛ أي: وإن أريناك، يا محمد ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿الذين نعدهم﴾ به في الدنيا، فذاك الذي يستحقونه، وهم له أهل، وقد أراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة، بدعائه، ﷺ، ونصره عليهم نصراً مؤزراً، في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم، وصناديدهم، وهي غزوة بدر، فقتلهم وشردهم شر تقتيل وتشريد. وكذلك فعل بهم، ﷺ، في غيرها من الغزوات، حتى فتح عاصمتهم، أم القرى، ودخل الناس في الدين أفواجا.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ذلك فيهم ﴿فَإِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: مشهد أعضاءهم وجوارحهم ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي، فمجازيهم عليه، ففعيل هنا، بمعنى: مفعل، أو المعنى: ثم بعد رجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى شهيد؛ أي معاقب لهم على ما يفعلون في الدنيا. وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم هنا[١]، ليست للترتيب الزماني، بل هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب القصص في نفسها. قال أبو البقاء: كقولك: زيد عالم، ثم هو كريم. وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟

قلتُ: ذكرت الشهادة، والمراد مقتضاها، ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قيل: ثم الله معاقب لهم على ما يفعلون، اهـ «سمين» وإلا فهو تعالى شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة. وفي «البحر»: ويجوز[٣] أن يكون المعنى: أن الله تعالى مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حتى تنطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم

---

(١) الفتوحات.

(٢) الكشاف.

(٣) البحر المحيط.

وأرجلهم شاهدة عليهم، اهـ. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ثَمَّ اللَّهُ﴾ بفتح الثاء؛ أي: هنالك. وقد جاء، بمعنى هذه الآية، قوله ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَّسُولٌ﴾ بعث إليهم بشريعة خاصة، مناسبة لأحوالهم، ليدعوهم إلى الحق والتوحيد ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ فبلغهم ما أرسل به إليهم، فكذبه بعضهم وصدقه بعضهم، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين الرسول وأمته ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل؛ أي: فصل بينهم وحكم بهلاك المكذبين له، وبنجاة الرسول ومن صدقه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يظلمون في ذلك القضاء بتعذيبهم؛ لأنه بجرمهم. وقيل[1]، معناه: لكل أمة يوم القيام رسول، تنسب إليه، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، قُضي بينهم بإنجاء المؤمنين، وعقاب الكافرين لقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾.

وحاصل المعنى: أنه تعالى رحمةً بعباده، وإزالةً للحجة، جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً، بعثه فيها وقت الحاجة إليه، ليبين لهم ما يجب عليهم من الإيمان به، وباليوم الآخر، وما ينجيهم من العقاب في ذلك اليوم، وهو العمل الصالح، الذي يكون سبباً في سعادتهم في الدارين.

وفي الآية[2]: دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى كل جماعة من الأمم السالفة رسولاً، وما أهمل أمةً قط، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما يجب عليهم معرفته من أمور دينه، لم يبق لهم حينئذٍ عذر في مخالفته، فهنالك في يوم الحساب يقضي الله تعالى بينهم بالعدل، ولا يظلمون في قضائه شيئاً مما سيحل بهم من عذاب، لا يكون ظلماً لهم؛ لأنه

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

من قبل أنفسهم، وهم الذين دنسوها بسيء الأعمال، فاستحقوا على ذلك شديد العقاب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول كفار قريش للرسول، ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين، مكذبين له فيما أخبرهم به، من نزول العذاب بالأعداء، والنصرة للأولياء ﴿مَتَىٰ﴾ يقع ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: هذا العذاب الموعود الذي تعدوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن الله تعالى سينتقم لكم منا، وينصركم علينا؛ أي: في نحو ما جاء في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد لقن الله رسوله ﷺ الجواب عن هذا السؤال بقوله: ﴿قُل﴾: أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد، ويقول لك متى هذا الوعد، إني بشر رسول ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ فضلاً عن غيري ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي؛ شيئاً من التصرف في الضر، فأدفعه عنها، ولا شيئاً من النفع، فأجلبه لها، من غير طريق الأسباب، التي يقدر عليها غيري، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا بذل النصر والمعونة للمؤمنين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لكن ما شاء الله تعالى من ذلك العذاب الموعود، يكون متى شاء، ولا شأن لي فيه؛ لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة، التي من وظيفتها التبليغ لا التكوين وقد جاء في معنى الآية، قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أو المعنى(١): قل لهم يا محمد: لا أملك ضراً؛ أي: دفع ضر عنها، من مرض وفقر، ولا نفعاً؛ أي: ولا جلب نفع لها، من صحة أو غنى، ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم ﴿أَجَلٌ﴾ مؤقت

---

(١) النسفي.

لعذابهم، يحل بهم عند حلوله، لا يتعداهم إلى أمة أخرى ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: وقت هلاكهم؛ أي: إذ جاء ذلك الأجل ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه؛ أي: فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى، أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له، وإن قلَّت. وقرأ ابن سيرين: ﴿آجالهم﴾ على الجمع.

﴿قُلْ﴾يا محمد، لهؤلاء الذين يستعجلون منك العذاب: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني عن حالكم، وما يمكنكم أن تفعلوه ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ وجاءكم ﴿عَذَابُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، الذي تستعجلون منه ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: وقت اشتغالكم بالنوم ليلا ﴿أَوْ﴾ أتاكم ﴿نَهَارًا﴾؛ أي: وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم، أو بأمور معاشكم نهاراً. وجواب الشرط جملة قوله: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولكن بتقدير: الفاء؛ لأن الجملة اسمية؛ أي إن أتاكم عذابه.. فأيَّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذّابون، أعذاب الدنيا، أم عذاب الآخرة؟ وأيّاً ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة والاستفهام[1] فيه للإنكار المضمن معنى النهي، ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم أن العذاب مكروه، تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع، فما المقتضي لاستعجالهم له. وقيل: إن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن أتاكم عذابه.. تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه. وقيل: إن الجواب جملة قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾؛ أي: بعد ما وقع العذاب بكم حقيقةً، آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان، وتكون جملة ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ معترضة. والمعنى، على هذا القيل: إن أتاكم عذابه.. آمنتم به بعد وقوعه، حين لا ينفعكم الإيمان. ولكن الأول، أولى. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿أَثَمَّ﴾ بفتح الثاء، وهذا يناسبه تفسير الطبري، أهنالك. ودخول همزة الاستفهام الإنكاري على ثم في قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ كدخولها على الواو والفاء، وهي: لإنكار إيمانهم، حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتفظيع ما فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل

---

(١) الشوكاني.

به النفع والدفع. والتقدير[1]: أأخرتم الإيمان، ثم إذا ما وقع العذاب، آمنتم به؛ أي: أأخرتم الإيمان بالله، أو بالعذاب إلى حين وقوع العذاب؛ أي: لا ينبغي هذا التأخير ولا يصح ولا يليق؛ لأن الإيمان في هذه الحالة، غير نافع وغير مقبول. وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، الذي أمر الله رسوله، ﷺ، أن يقوله لهم، وجيء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ التي للتراخي، دلالةً على الاستبعاد. وجيء: بـ (إذا) مع زيادة ﴿مَا﴾ للتأكيد، دلالةً على تحقق وقوع الإيمان منهم، في غير وقته، ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم، والمعنى: أبعد ما وقع عذاب الله عليكم، وحل بكم سخطه وانتقامه، آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنكم ضراً.

والخلاصة: أي أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذي هو أحق بالخوف منه، بدل الإيمان الذي يدفعه عنهم، ثم إذا وقع بالفعل، آمنتم به حين لا ينفع الإيمان إذ هو قد صار ضرورياً بالمشاهدة والعيان، لا تصديقاً للرسول، عليه السلام.

وقوله: ﴿الآن﴾؛ أي: هل بعد وقوع العذاب تؤمنون ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿قد كنتم به﴾؛ أي: بوقوع العذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً به واستكباراً، كلام مستأنف بتقدير: القول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله، ﷺ، أن يقوله لهم. والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، أي: وقيل لهم: الآن حين وقوع العذاب، تؤمنون به، وقد كنتم به تستعجلون تكذيباً واستهزاءً. وقرأ طلحة والأعرج بهمزة الاستفهام، بغير مد. وقرأ الجمهور؛ ﴿الآن﴾ على الاستفهام بالمد وكذا ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ من جهة الله ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: إن هذا الذي تطلبونه، ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب الدائم الذي لا ينقطع، والقائل لهم هذه المقالة، والتي

---

(١) الفتوحات.

قبلها، قيل: هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم؛ أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم، بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد، تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، بحيث لا فناءَ له ولا زوال. والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي للإنكار، بمعنى: النفي؛ أي: لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون، باختياركم من الظلم والكفر والفساد، في الأرض والعزم، على الثبات عليه، وعدم التحول عنه، وليس في هذا الجزاء شيء من الظلم؛ لأنه أثر لازم لما عملوا، فلم يعودوا أهلاً للكرامة وجوار المولى في جنة الخلد. وكأنه يقال لهم ذلك القول عند استغاثتهم من العذاب، وحلول النقمة.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة، أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال؛ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِي وَرَبِّي﴾؛ نعم، وأقسم لكم بربي ﴿إنه لحق﴾؛ أي: إن العذاب الذي أعدكم به حق، لا شك فيه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي؛ بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن شيء فقد فاته، ويقال: أعجزه الأمر: إذا فاته.

والمعنى[1]: أي ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة، أحق أنه سيقع جزاء على ما كنا نكسبه من المعاصي في الدنيا، أم هو إرهاب وتخويف فحسب، قل لهم يا محمد: نعم أقسم لكم بربي، إنه لحق واقع ماله من دافع، وما أنتم بواجدي من يوقع العذاب بكم، عاجزاً عن إدراككم وإيقاعه بكم. وإي بكسر الهمزة وسكون الياء، كلمة يجاب بها عن كلام سبق بمعنى نعم، وإي تستعمل في القسم خاصة، كما تستعمل، هل بمعنى، قد فيه خاصة.

---

(١) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه إن ينزل بكم عذابه، لستم بفائتيه سبحانه بهرب أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه إذا أراد فعل ذلك بكم، فاتقوه في أنفسكم أن يحل بكم غضبه. وقرأ[1] الأعمش: ﴿إنه الحق﴾. قال الزمخشري: وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض، بأنه باطل، وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو أهو الذي سميتموه الحق، انتهى.

ثم ذكر ما في هذا اليوم من الأهوال فقال: ﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وكفرت بالله ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما في الأرض من أنواع الملك، وصنوف النعم، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب الأليم الذي تعانيه ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾؛ أي لعادت وأنقذت بما في الأرض نفسها، من عذاب الله تعالى، ولم تدخر منه شيئاً ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ أي: وأسر أولئك الذين ظلموا غمهم وأسفهم على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ بأبصارهم؛ أي: حين معاينة العذاب بأبصارهم إذا برزت لهم نار جهنم، وأيقنوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها، فما مثلهم إلا مثل من يقدم للصلب، يثقله ما نزل به من الخطب الجلل، ويغلب عليه الحزن الفادح، فيخرسه، ولا يستطيع أن ينطق ببنت شفة، ويبقى جامداً مبهوتاً لا حراك به.

ثم بين أنه لا ظلم اليوم فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين الظالمين وغيرهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الظالمين ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فعل بهم من العذاب؛ أي: وقضى الله سبحانه وتعالى، وحكم بين الظالمين وبين خصومهم بالحق والعدل، وخصومهم هم، الرسل والمؤمنون بهم، وكذلك من أضلوهم وظلموهم، من المرؤوسين، والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر، ويصدونهم عن الإيمان.

وجاء في معنى هذه الآية قوله في سورة سبأ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾،

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أتبع ما تقدم بالدليل على قدرته، على إنفاذ حكمه وإنجاز وعده. وكون الظالمين لا يعجزونه ولا يستطيعون منه مهرباً، فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿ما في السموات والأرض﴾؛ أي: جميع ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً؛ أي: إنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم فليس للكافرين به شيء يملكونه، فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب، بل الأشياء كلها لله، الذي إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم. وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه، تنبيه للغافلين وإيقاظ للذاهلين.

والخلاصة: فليتذكر من نسي، وليتنبه من غفل، وليعلم من جهل، أن الله وحده جميع ما في العوالم العلوية والعوالم الأرضية، يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء في يوم البعث والجزاء.

ثم أكد ما سلف بقوله ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن جميع ما وعد الله به ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: ثابت لا بد أن يقع ووعده تعالى مطابق للواقع لا شك فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فهم غافلون عن حقيقة ذلك؛ أي: لا يعلمون ما فيه صلاحهم فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه؛ أي: إن كل ما وعد به على ألسنة رسله حق لا ريب فيه؛ لأنه وعد المالك القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء، لا يعلمون أمر الآخرة، لغفلتهم عنها، وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها.

ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للجزاء، فترون ما وعد به؛ أي: إنه تعالى هو المحيي المميت، لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء، والإماتة ثم إليه سبحانه وتعالى لا إلى غيره ترجعون؛ حين يحييكم بعد موتكم؛ ويحشركم إليه

للحساب والجزاء بأعمالكم، فيجازي كلا بما يستحقه، ويتفضل على من يشاء من عباده.

وقرأ[1] الحسن بخلاف عنه وعيسى بن عمر: ﴿يرجعون﴾ بالياء على الغيبة. وقرأ الجمهور: بالتاء على الخطاب.

الإعراب

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية، (ما) نافية ﴿كَانَ هَٰذَا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: بدل من هذا ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾: أن حرف نصب. ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَنَ﴾ ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان هذا القرآن افتراءً من دون الله؛ أي: مفترى من دونه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾. (الواو) عاطفة. (لكن): حرف استدراك. ﴿تَصْدِيقَ﴾ معطوف على خبر ﴿كَانَ﴾ أو خبرلـ ﴿كَانَ﴾ المحذوفة، تقديره: ولكن كان تصديق الذي، وجملة كان المحذوفة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوف على ﴿تَصْدِيقَ﴾ ﴿لَا رَيْبَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من الكتاب، تقديره: حالة كون الكتاب منتفياً عنه الريب، وصح مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأنه مفعول في المعنى، أو جملة ﴿لَا﴾ مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور، حال ثانية من الكتاب، تقديره: حالة كون الكتاب، كائناً من رب العالمين.

---

(١) البحر المحيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿افْتَرَاهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت، قلت: الفاء: رابطة الجواب بالشرط المحذوف، تقديره؛ إن كان الأمر كما تقولون.. ﴿فَأْتُوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه جواباً للشرط المحذوف ﴿بِسُورَةٍ﴾: متعلق به ﴿مِثْلِهِ﴾: صفة لـ ﴿سورة﴾ ولكنه في تأويل مشتق، تقديره: بسورة مماثلة إياه، ومثل من الأسماء المتوغلة فصح كونه صفة لنكرة ﴿وَادْعُوا مَنِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿فَأْتُوا﴾ ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، تقديره: من استطعتم دعاءه ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنْتُمْ﴾، فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية ﴿صَادِقِينَ﴾ خبره، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين في أني افتريته فأتوا بسورة مثله؛ لأنكم عربيون فصحاء مثلي، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي ﴿كَذَّبُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق به والجملة مستأنفة ﴿لَمْ يُحِيطُوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلم ﴿بِعِلْمِهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لما يأتهم﴾: فعل ومفعول ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة الصلة.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: تكذيباً مثل تكذيب قومك إياك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور

صلة الموصول. ﴿فَٱنظُرْ﴾ الفاء، عاطفة ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذب﴾؛ لأنها في قوة ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فأهلكناهم﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها. ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول لـ﴿انظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾: (الواو): استئنافية (إن): حرف شرط ﴿كَذَّبُوكَ﴾؛ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَقُل﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿قل﴾ فعل أمر في محل الجزم على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿لِّي عَمَلِي﴾، إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿لِّي﴾ خبر مقدم ﴿عَمَلِي﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول محكي ﴿وَلَكُمْ﴾، خبر مقدم. ﴿عَمَلُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لِّي عَمَلِي﴾ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول لـ ﴿قل﴾. ﴿مِمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بريئون﴾ ﴿أَعْمَلُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما أعمله. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على ﴿أنتم بريئون﴾ ﴿مِّمَّا﴾ متعلق بـ ﴿بَرِىٓءٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾، صلة لـ ﴿ما﴾ أو

صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تعملونه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والعائد ضمير الفاعل وجمعه نظراً لمعنى من ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أيستمعون إليك ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو كانوا لا يعقلون، فأنت لا تسمعهم، وجملة لو معطوفة على محذوف، تقديره: أأنت تسمع الصم إن عقلوا، بل ولو كانوا لا يعقلون، فأنت لا تسمعهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَن﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: صلته، وأفرد العائد هنا، نظراً إلى لفظ ﴿مَن﴾ والجملة معطوفة على جملة، قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾. ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة: داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أينظرون إليك فأنت ﴿أنت﴾: مبتدأ. وجملة ﴿تَهْدِي الْعُمْيَ﴾: خبره والجملة الاسمية معطوفة على المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبله، تقديره: ولو كانوا لا يبصرون، فأنت تهدي العمى، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على محذوف، تقديره: أأنت تهدي العمي إن أبصروا، بل، ولو كانوا لا يبصرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾: فعل ومفعولان؛ أي: لا ينقص الناس شيئاً من أعمالهم، أو شيئاً منصوب على المصدرية؛ أي: شيئاً من الظلم قليلاً أو كثيراً، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة ﴿لَا يَظۡلِمُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة. وجملة ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾ وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿يوم﴾، منصوب باذكر محذوفاً. والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾. ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً، تقديره: كأنهم ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمۡ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿سَاعَةٗ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: صفة لساعة وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ تقديره: واذكر يوم يحشرهم، حال كونهم مشبهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، حال ثانية من ضمير ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ أو مستأنفة ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُهۡتَدِينَ﴾: خبره والجملة معطوفة على جملة خسر.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾.

﴿وَإِمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إن﴾؛ حرف شرط ﴿ما﴾؛ زائدة ﴿نرين﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، مبني

على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾. والكاف مفعول أول لأرى ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول ثانٍ، ومضاف إليه؛ لأن رأى هنا بصرية، تعدت بالهمزة إلى مفعولين ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة صلة الموصول.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: فعل مضارع متصل بنون التوكيد في محل الجزم معطوف على ﴿نرين﴾. والكاف: مفعول به ﴿فَإِلَيْنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إلينا﴾: خبر مقدم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم ﴿بإن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾؛ مبتدأ وخبر. ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر قدم ﴿رَّسُولٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بالجواب الآتي ﴿جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿قُضِىَ﴾، فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيْنَهُمْ﴾: نائب فاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: متعلق بـ ﴿قضي﴾ ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير بينهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام، في محل النصب على الظرفية الزمانية خبر مقدم. ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل

ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم صادقين متى هذا الوعد، والجملة الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي . . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية ﴿أَمۡلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لِنَفۡسِي﴾: متعلق به. ﴿ضَرّٗا﴾: مفعول به ﴿وَلَا نَفۡعًا﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء المنقطع ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: إلا ما شاءه الله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: خبر مقدم ﴿أَجَلٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي ﴿جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾: فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿فَلَا﴾ الفاء: رابطة ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿سَاعَةٗ﴾ ظرف متعلق به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿الآن﴾ مقول محكي لـ ﴿قُل﴾، وإن شئت قلت ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، بمعنى: أخبروني، تتعدى إلى مفعولين، الأول منهما: محذوف تقديره: عن عذاب الله، والمفعول الثاني: الجملة الاستفهامية الآتية، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾ ﴿إِنۡ﴾ حرف شرط ﴿أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ﴾: فعل

ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿بَيَٰتًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بأتى ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ معطوف عليه ﴿مَّاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِنْهُ﴾، جار ومجرور حال من مفعول ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ المحذوف، تقديره أيَّ شيء يستعجله المجرمون حالة كونه كائناً من عذاب الله ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فاعل وجملة ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ والرابط الضمير المحذوف في ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، ولكنها على تقدير: الفاء الرابطة؛ لأن الجملة اسمية، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب، سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿أرأيتم﴾ وقيل: إن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن أتاكم عذابه، تندموا، وجملة ﴿إِنْ﴾ معترضة كما مر في مبحث التفسير.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿أَثُمَّ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، تقديره: أأخرتم الإيمان، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ثم﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل. ﴿مَا﴾ زائدة ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على العذاب، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾. ﴿به﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿الآن﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: الآن تؤمنون، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف، تقديره: وقيل لهم: الآن تؤمنون، والقول المحذوف مستأنف ﴿وَقَدْ كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ المحذوف.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق به. وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾ صلة الموصول ﴿ذُوقُوا...﴾ إلى آخر الآية، نائب فاعل محكي لـ ﴿قِيلَ﴾ وجملة القول معطوفة على جملة القول المقدر عند قوله: الآن، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾: مفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تكسبونه.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن استنبأ هنا، بمعنى: سأل، يتعدى إلى مفعولين ﴿أحقٌّ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري. ﴿حق﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: فاعل سد مسد الخبر، أو ﴿هُوَ﴾ مبتدأ مؤخر، و ﴿حق﴾: خبر مقدم، والجملة في محل النصب مفعول ثانٍ لاستنبأ معلق عنه بالاستفهام، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِي﴾ حرف جواب بمعنى: نعم، خاصة بالقسم ﴿وَرَبِّي﴾ الواو: حرف جر وقسم ﴿ربي﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور، متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربي ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿لَحَقٌّ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة. ﴿ما﴾ حجازية ﴿أَنتُمْ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها وجملة ﴿ما﴾ الحجازية في محل النصب معطوفة على جملة القسم على كونها مقولا لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم ﴿لأن﴾. وجملة ﴿ظَلَمَتْ﴾: صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة في محل النصب اسم ﴿أنّ﴾ مؤخر. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور صلة الموصول، وجملة ﴿أنّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع على كونه، فاعل فعل محذوف، تقديره: ولو ثبت كون ما في الأرض لكل نفس ظلمت ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿افتدت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على النفس. ﴿به﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون، الظرف متعلق بـ ﴿أسروا﴾ ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿وَقُضِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيْنَهُم﴾ ظرف متعلق به ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿وَقُضِىَ﴾ والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿رَأَوُا۟﴾. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿بَيْنَهُم﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾ خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السموات﴾ والتقدير: ألا إن ما في السموات والأرض مملوك لله سبحانه وتعالى، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿حَقٌّ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ اسمها. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبر ﴿لكنَّ﴾ وجملة ﴿لكنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُحْيِۦ﴾: خبره والجملة مستأنفة ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف على ﴿يُحْيِۦ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية معطوف على الجملة الاسمية أعني: جملة ﴿هُوَ يُحْيِۦ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُفترى: فعل مبني للمجهول من افترى الخماسي، من باب افتعل، والقائم مقام الفاعل ضمير عائد إلى القرآن، والافتراء، مصدره، وهو اختلاق الكذب من عند نفسه.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾: جمع أصم، كالحمر جمع الأحمر، وهو من به صمم، وكذلك العمي جمع الأعمى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾: حقيقة[1] الحشر، جمع الناس في الموقف، وحقيقة البعث إحياؤهم من القبور، والتعارف يقع في الحشر الذي هو الاجتماع؛ أي: في ابتدائه، وينقطع في أثنائه، لشدة الأهوال، ويشغل كل بنفسه، وأما البعث فلا تعارف فيه، لعدم الاجتماع الذي هو لازمه.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: متى هذا العذاب الموعود الذي تعدنا به يا محمد يقولون ذلك استعجالاً للعذاب. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ والأجل[2]: يطلق على مدة العمر، وعلى آخر جزء منه، والمراد هنا: الثاني، كما في التفاسير، اهـ شيخنا. وفي «أبي السعود»: إن جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان.. فمعنى مجيئه ظاهر، وإن أريد به ما امتد إليه من الزمان.. فمجيئه عبارة عن انقضائه، إذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه، اهـ.

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

﴿الآن﴾ بهمزتين الأولى: همزة الاستفهام، والثانية: همزة أل المعرفة، وإذا اجتمع هاتان الهمزتان.. وجب في الثانية أحد أمرين: تسهيلها من غير ألف بينها وبين الأولى، وإبدالها مدًّا بقدر ثلاث ألفات على حد قول ابن مالك:

وَأَيْـمُـنُ هَـمْـزِ أَلْ كَـذَا ويُـبْـدَلُ مَـدًّا فِـيْ ٱلاسْـتِـفْـهَـامِ أَوْ يُـسَـهَّـلُ

وقد وقع في القرآن من هذا القبيل ستة مواضع، اثنان في الأنعام وهما ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مرتين، وثلاثة في هذه السورة، لفظ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ هنا، وفيما سيأتي، ولفظ ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وواحد في النمل ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾، فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين، بل يجب أحد الأمرين اللذين قد عرفتهما، ا هـ شيخنا.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ وأصل يستنبئونك[1]: أن يتعدى إلى واحد بنفسه، وإلى الآخر بحرف الجر، تقول: استنبأت زيداً عن عمرو، أي: طلبت منه أن يخبرني عن عمرو، فاستفعل هنا للطلب، والمفعول الأول كاف الخطاب، والمفعول الثاني، الجملة من قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ على سبيل التعليق، كما مر في مبحث الإعراب. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ و ﴿إِى﴾ من حروف الجواب بمعنى: نعم، لكن لا يجاب بها إلا مع القسم خاصة، ذكره: أبو السعود.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ وإسرار الحديث؛ خفض الصوت به، وإسرار الشيء: إخفاؤه وكتمانه. وفي «السمين»: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ قيل: أسر من الأضداد، يستعمل بمعنى أظهر، ويستعمل بمعنى: أخفى، وهو المشهور في اللغة كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو في الآية يحتمل الوجهين، وقيل: إنه ماض على بابه قد وقع، وقيل: بل هو بمعنى: المستقبل ا هـ.

والندم والندامة[2]: ما يجده الإنسان في نفسه من الألم والحسرة، عقب كل فعل يظهر له ضرره، وقد يجهر به بالكلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أو يخفيه ويكتمه حين لا يجد فائدةً من إعلانه، أو اتقاءً للشماتة أو

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الإهانة. وقيل: معنى أسروا الندامة: وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها، ومنه قول كثيّر:

فَأَسْرَرْتُ ٱلنَّدَامَةَ يَوْمَ نَادَىٰ   بِرَدِّ جِمَالِ غَاضِرَةَ ٱلْمُنَادِيْ

ذكره «الشوكاني». ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ والبيات بمعنى: التبييت اسم مصدر، كالسلام بمعنى التسليم، وهو منتصب على الظرفية، وكذلك نهاراً؛ أي: وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، ا هـ منه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ القسط العدل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لأنه كناية عما سبقه من التوراة والإنجيل، فإنهما بشرتا به.

ومنها: إطلاق المصدر بمعنى اسم الفاعل في قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنه شبه الكافرين بمن ليس له حاسة السمع، ولا حاسة البصر، بجامع عدم الاهتداء في كل إلى المقصود.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ و﴿مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه أيضاً جناس الاشتقاق بين: ﴿عَمَلِى﴾ و ﴿أَعْمَلُ﴾، وكذا فيما بعده.

ومنها: الطباق بين ﴿ضرا﴾ ﴿ونفعا﴾ في قوله: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وبين ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ والمقصود من[1] هذا التشبيه، كما قاله أبو السعود: بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة إليه تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم له بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ونحو ذلك، أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور، فإن اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير فيكون قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بياناً وتقريراً له؛ لأن التعارف يبعد مع طول العهد، والمراد بالساعة: الزمن القليل، فإنها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار؛ لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ لأن الاستعجال كناية عن التكذيب. قال الزمخشري: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار.

قلتُ: فجعله من باب الكناية؛ لأنها دلالة الشيء بلازمه، نحو هو طويل النجاد، كنى به عن طول قامته؛ لأن طول نجاده لازم لطول قامته، وهو باب بليغ، اهـ «سمين».

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ
﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ
قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية[1] لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الأدلة على الألوهية والوحدانية والقدرة.. ذكر الدلائل الدالة على صحة النبوة والطريق المؤدي إليها، وهو القرآن المتصف بهذه الأوصاف الشريفة.

(١) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: لما ذكر الله سبحانه وتعالى الأدلة على أسس الدين الثلاثة، وهي الوحدانية والرسالة والبعث.. أردف ذلك بذكر التشريع العملي، وهو القرآن الكريم، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع في أمور أربعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه[1] الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم.. بين فساد شرائعهم وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستند في ذلك إلى وحي.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الأدلة العقلية على إثبات الوحي والرسالة.. أردف ذلك بذكر فعل من أفعالهم، لا ينكرونه ولا يجادلون في وجوده، وهو يثبت صحة وجودهما، ذاك أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى وحده، وأن الأصل في الأرزاق، وسائر الأشياء التي ينتفع بها الإباحة فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعضها، إما بأمره تعالى بوساطة رسله، وأنتم تنكرونه وتزعمون أنه محال، وإما بالافتراء على الله تعالى، وهو يلزمكم بإنكار الأول، إذ لا واسطة بينهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم و الرد عليهم ومحاورة الرسول ﷺ لهم وذكر فضله تعالى على الناس، وأن أكثرهم لا يشكره على فضله.. ذكر تعالى اطلاعه على أحوالهم، وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم، وتلاوة القرآن عليهم، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم، واستطرد من ذلك إلى ذكر أولياء الله تعالى، ليظهر التفاوت بين الفريقين، فريق الشيطان، وفريق الرحمن.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

بين في سابق الآيات، أن فضله على عباده كثير، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته وترك معصيته، وأن القليل منهم هم الشاكرون.. أردف ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم، ما دق منهم وما عظم، في جميع ملكوت السموات والأرض، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين لعباده سعة علمه ومراقبته لعباده وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها وذكرهم بما يجب عليهم، من شكره على تفضله عليهم.. ذكر هنا حال الشاكرين المتقين، الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين لرسوله ﷺ صفة أوليائه، وما بشرهم به، ووعدهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به، من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، وكان أعداؤهم يغترون بقوتهم في مكة بكثرتهم، وكانوا لغرورهم بها يكذبون بوعد الله، وكان ذلك مما يحزنه كما قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.. أردف ذلك بتسليته له ﷺ على ما يلقاه من أذى أعدائه، وتبشيره بالنصر والعزة والوعيد لأوليائه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده تعالى.. أردف ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم، وهو زعمهم أنه تعالى جده اتخذ ولداً، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

ما رأيت أحداً ذكر سبباً لنزول هذه الآيات، ولكن قال أبو حيان في «البحر»: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ...﴾ الآية، نزل في قريش الذين سألوا الرسول ﷺ: أحق هو؟ فالناس هم كفار قريش.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قيل: أراد بالناس قريشاً، وقيل: هو على العموم، وهو الأصح، وهو اختيار الطبري؛ أي: قل يا محمد، لكفار قريش، أو لجميع الكفار: يا أيها الناس ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من المواعظ الحسنة التي تصلح أخلاقكم وأعمالكم، كالطبيب الذي ينهى المريض عما يضره. ومن في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلقة بالفعل، أي: قد جاءتكم من ربكم موعظة فتكون ابتدائية أو متعلقة بمحذوف صفة لـ ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾ والوعظ[1]: الزجر المقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب. وقيل: الموعظة: ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة، والقرآن؛ داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿و﴾ جاءكم ﴿شفاء﴾ ودواء ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: وجاءكم كتاب شاف لما في القلوب، من أمراض الجهل؛ وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هي الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة، فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها؛ لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير، فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية وإنما خص الصدر بالذكر؛ لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه، ذكره في «الخازن».

﴿و﴾ جاءكم كتاب ﴿هدى﴾؛ أي: هاد من الضلالة إلى الصراط المستقيم

---

(١) الخازن.

﴿و﴾ كتاب هو ﴿رحمة للمؤمنين﴾ به؛ أي: نعمة من الله على المؤمنين خصوا بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به دون غيرهم.

والمعنى: قد[1] جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، والمرغبة في المحاسن، والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك، وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث أنزل عليهم، فنجوا به من ظلمة الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم.

والخلاصة[2]: أن الآية الكريمة، أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر في أربعة أمور:

الأول: الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر ما يرق له القلب فيبعثه على الفعل أو الترك وقد جاء في معنى الآية قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

الثاني: الشفاء لما في القلوب، من أدواء الشرك والنفاق، وسائر الأمراض التي يشعر من أحبها بضيق الصدر، كالشك في الإيمان، والبغي والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير.

الثالث: الهدى إلى طريق الحق واليقين، والبعد من الضلال في الاعتقاد والعمل.

الرابع: الرحمة للمؤمنين، وهي ما تثمر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم، ومن آثارها بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وكف الظلم ومنع التعدي والبغي.

وحاصل ذلك: أن موعظة القرآن وشفاءه لما في الصدور، من أمراض

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

الكفر والنفاق، وجميع الرذائل، وهداه إلى الحق والفضائل.. موجهات إلى أمة الدعوة، وهم جميع الناس، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث، من الرحمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بها، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين، بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان، وبالرحمة الخاصة بهم، الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ والباء[1] في ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ متعلقة بمحذوف، استغنى عن ذكره، لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والفضل هنا بمعنى: الإفضال، ويكون معنى الآية على هذا: يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهو القرآن، بإفضال الله عليكم وإحسانه لكم، ورحمته بكم وإرادته الخير لكم ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل والرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بما جمعوا من حطام الدنيا، وقيل: الباء في ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والتقدير: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل، والرحمة بالفرح دونما عداهما من فوائد الدنيا.

قال الواحدي: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ زائدة، كقول الشاعر:

فَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِيْ

فالفاء في قوله: فاجزعي زائدة. وقيل: الفاء داخلة لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء.. فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. والفرح: لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهي، يقال: فرحت بكذا، إذا أدركت المأمول، ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية، واستعمل هنا، فيما يرغب فيه من الخيرات.

ومعنى الآية: ليفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته؛ أي: بما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه، ذكره الخازن.

أي: قل[2] لهم ليفرحوا بفضل الله وبرحمته؛ أي: إن كان شيء في الدنيا

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

يستحق أن يفرح به.. فهو فضل الله ورحمته. روى ابن مردويه وأبو الشيخ، عن أنس مرفوعاً: «فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله». وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد: فضل الله الإيمان ورحمته القرآن.

﴿هُوَ﴾؛ أي: المذكور من فضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا؛ لأن الآخرة أبقى؛ أي: أن الفرح بهما أفضل وأنفع من الفرح بما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة وسائر خيرات الدنيا؛ لأنه هو سبب السعادة في الدارين، وتلك سبب السعادة في الدنيا الزائلة فحسب، فقد نال المسلمون في العصور الأولى بسببه الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح مما لم يتسن لغيرهم من قبل، ولا من بعد. وبعد أن جعلوا ديدنهم جمع المال ومتاع الدنيا، ووجهوا همتهم إليه وتركوا هداية القرآن في إنفاقه والشكر عليه، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم.

فإن قلت: الأمر بالفرح في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ ينافي النهي عنه في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

قلت: لا منافاة بينهما، لاختلاف المتعلق، فالمأمور به هنا الفرح بفضل الله وبرحمته، والمنهي هناك، الفرح بجمع الأموال لرئاسة الدنيا وإرادة العلو بها والفساد والأشر، ولذلك جاء بعده ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ وقبله ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ﴾.

وقرأ[1] السبعة والجمهور: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالياء التحتية أمراً للغائب. وقرأ يعقوب من العشرة، وأبي ويزيد بن القعقاع والأعمش وعمرو بن فائد وكثير من السلف: ﴿فلتفرحوا﴾ بالتاء الفوقية خطاباً لأصحاب محمد، والمعنى على هذا فلتفرحوا بذلك يا أصحاب محمد، هو خير مما يجمع الكفار. وفي مصحف أبي ﴿فبذلك فافرحوا﴾ وهذه هي اللغة الكثيرة الشهيرة في أمر المخاطب، وأما فليفرحوا بالياء، فهي لغة قليلة. وقرأ أبو التياح والحسن ﴿فليفرحوا﴾ بكسر

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

اللام، وقد تقرر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها. وقرأ الجمهور بالمثناة التحتية في ﴿يَجْمَعُونَ﴾ كما قرؤوا في ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالياء. وروي عن ابن عامر أنه قرأ: بالفوقية في ﴿يجمعون﴾ وبالتحتية في ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني أيها الجاحدون للوحي والرسالة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾؛ أي: أهذا الذي أفاضه الله عليكم من فضله وإحسانه ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ تعيشون به من نبات وحيوان ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الرزق ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾؛ أي: فجعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ إلخ، وبقوله في سورة المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. ويحتمل كون ما في ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف؛ أي: ما أنزله الله، وهي في محل نصب مفعول أول، لـ﴿أرأيتم﴾؛ لأنه بمعنى أخبروني، والثاني: هو الجملة من قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ والرابط لهذه الجملة بالمفعول الأول محذوف، تقديره: آلله أذن لكم فيه، واعترض على هذا، بأن قوله: قل، يمنع من وقوع الجملة بعده مفعولاً ثانياً وأجيب بأنه كرر توكيداً للأمر بالاستخبار. وقيل: إن ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾. وقل في قوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تكرير للتوكيد، والرابط محذوف ومجموع المبتدأ والخبر في محل النصب بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ والمعنى: أخبروني، أهذا الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً كالبحيرة، وحلالاً كالميتة، آلله أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وتكذبون في نسبة ذلك إليه؛ أي: أخبروني آلله أمركم بذلك الحكم، فأنتم ممتثلون بأمره تعالى، أم لم يأذن لكم في ذلك، بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم أن الله أمرنا بذلك الحكم.

ومعنى(١) إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو، وكذلك يقضي

---

(١) الشوكاني.

الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ، من ذكره سبحانه وتعالى لكل شيء فيه.

والظاهر[١]: أن أم هنا متصلة، كما قال السفاقسيّ، أي: آلله أذن لكم، أم تكذبون عليه في نسبة الإذن إليه، ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى، بل وهمزة التقرير لافترائهم بمعنى، بل أتفترون على الله ذلك، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء.

وفي هذه الآية الشريفة[٢]: ما يصك مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته، بالتحليل والتحريم، والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله تعالى، ولا يفهمونها، ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلاً ما عمل به من الكتاب والسنة، فهو المعمول به عندهم، وما لم يبلغه ولم يفهمه حق فهمه أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه، فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه، وأدى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجراً واحداً مع الخطأ. إنما الشأن في جعلهم لرأيه، الذي أخطأ فيه شريعةً مستقلة ودليلاً معمولاً به، وقد أخطؤوا في هذا خطأً بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم إنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداءً به، وما جاء به المقلدة في تقوم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل، اللهم ارزقنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل، وارزقنا من الإنصاف ما نظفر به بما هو الحق عندك، يا واهب الخير والعطايا، ومانح التوفيق والهدايا.

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

وحاصل المعنى: أي[1] قل لهم: إن حق التحريم والتحليل لا يكون إلا لله؛ فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك، بوحي من عنده؟ أم أنتم على الله تفترون بزعمكم أنه حرم ما حرمتم وحلل ما حللتم.

والخلاصة: أنه لا مندوحة لكم من الاعتراف بأحد الأمرين:

إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحريم والتحليل، وذلك اعتراف بالوحي، وأنتم تنكرونه وتزعمون أنه محال.

وإما الافتراء على الله، وهو الذي يلزمكم إذا أنكرتم الأول.

وبعد أن سجل سبحانه وتعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله.. قفى عليه بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ عند لقائهم ربهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت؛ أي[2]: أي شيء ظنهم في ذلك اليوم، أيظنون أنهم يتركون بلا عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله، وتعمده فيما هو خاص بربوبيته، وعلى نزاع له فيها وشرك به، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

أي: أيُّ[3] شيءٍ ظنُّهم يومَ عرضِ الأفعال والأقوال، أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم، أو لا يجازون عليه، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون، كلا إنهم لفي أشد العذاب؛ لأن معصيتهم أشد المعاصي، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع المضمن بمعنى الإنكار؛ أي: لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وما ظن﴾ جعله فعلاً ماضياً؛ أي: أي ظن ظن الذين يفترون، فـ ﴿مَا﴾: في موضع نصب على المصدر و ﴿ما﴾ الاستفهامية، قد تنوب عن المصدر، تقول: ما تضرب زيداً، تريد: أيَّ ضربٍ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

تضرب زيداً، ذكره في «البحر». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ ومنّ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإمهالهم على سوء أفعالهم.

أو المعنى(١): أن الله سبحانه وتعالى لذو فضل على الناس، في كل ما خلقه لهم من الرزق، وفي كل ما شرع لهم من الدين، ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده، كيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كمن اتخذوه من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، تعالى، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضاراً بهم، وحصر محرمات الطعام في أمور معينة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم كما يجب، فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى، ولا يقبلون دعوة أنبياء الله تعالى، ولا ينتفعون باستماع كتب الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ومن ثم تراهم يحرمون ما لم يحرمه الله تعالى، ويكفرون نعمه فيغالون في الزهد، وترك الزينة والطيبات من الرزق، أو يسرفون في الأكل والشرب والزينة، ابتغاء الشهرة والتكبر على الناس، مع أن الإسلام يأمر بالاعتدال، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

أخرج أحمد، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: أتيت رسول الله، ﷺ، وأنا رثّ الهيئة، فقال: «هل لك مال»؟ قلت: نعم، قال: «من أي المال»؟ قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إذا آتاك الله مالاً.. فلير أثر نعمته عليك وكرامته».

وأخرج البخاري والطبراني عن زهير بن أبي علقمة مرفوعا: «إذا آتاك الله مالاً فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس».

---

(١) المراغي.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي في أمر من أمورك الهامة، خاصة كانت أو عامة مما تعالج بها شؤون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، إنذاراً لها وتبشيراً وتعليماً وعملاً ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾؛ أي: من أجل ذلك الشأن ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾؛ أي: قرآنا أنزل عليك تعبداً به، أو تبليغاً له. فالضمير[1] في ﴿مِنْهُ﴾ إما عائد إلى الشأن، وعلى هذا فمن تعليلية؛ أي: وما تتلو قرآناً من أجل الشأن الذي نزل بك وحدث لكون الذي تقرؤه نزل في شأنه، أو عائد إلى الله وعلى هذا فمن ابتدائية؛ أي: وما تتلو قرآناً مبتدأً من الله، تعالى، ونازلاً من عنده و ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ زائدة على كلا الوجهين، فالحاصل أن الثانية زائدة ولا بد، والأولى إما تعليلية، أو ابتدائية على حسب الوجهين اللذين ذكرنا. وفي التعبير[2] بالشأن وهو الأمر ذو البال، دلالة على أن جميع أموره، ﷺ، كانت عظيمة، حتى ما كان منها من مجرى العادات لأنه، ﷺ، كان فيها قدوةً صالحةً.

وبعد أن خاطب رسوله ﷺ، انتقل إلى خطاب الأمة كلها في شؤونها وأعمالها، فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الرسول وأيتها الأمة ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾؛ أي: أي عمل خيراً كان أو شرّاً، شكراً كان أو كفراً، وإن كان كمثقال ذرة. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أعني: تكون تتلو تعملون؛ أي: ما تتلبسون بشيء من الأفعال الثلاثة في حال من الأحوال إلا في حال كوننا شهوداً عليكم، أي: رقباء مطلعين عليه حافظين له ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تشرعون في ذلك المذكور من الأفعال الثلاثة السابقة وتخوضون فيه فنحفظه عليكم ونجازيكم به فإذ ظرف لشهودا. وفي التعبير بالأمكنة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتماً به مندفعاً فيه جدير بأن لا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يا محمد أي وما يبعد عن علم ربك ولا يخفى عليه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فـ ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: ولا يغيب عن علم ربك ما يساوي في الثقل نملة صغيرة، أو هباء في دائرة الوجود والإمكان السفلي والعلوي.

وقرأ الكسائي وابن وثاب والأعمش وابن مصرف[1]: ﴿يعزب﴾ بكسر الزاي وكذا في سبأ. وقرأ باقي السبعة: بالضم، وهما لغتان فصيحتان.

وفي التعبير[2] بيعزب الدال على الخفاء والبعد، دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا، لا يغيب عن علمه تعالى، وقدم ذكر الأرض؛ لأن الكلام مع أهلها.

ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه بكل شيء فقال: ﴿وَلَآ﴾ يعزب عن علمه من ﴿أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ من ذلك وإن عظم مقداره كعرشه تعالى. فأصغر وأكبر معطوفان على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما ممنوعين من الصرف، وسيأتي في مبحث الإعراب إيضاح ما في المقام من أوجه الإعراب وبيان الراجح منها، فانظره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في لوح محفوظ؛ أي: إلا وهو معلوم له تعالى، ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن، فكيف يغيب عن علمه وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها، إكمالاً للنظام، وبياناً لضبط جميع الأعمال وفي معنى الآية قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي ذلك[3]: إشارة إلى أن في الوجود أشياء لا تدركها الأبصار، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التي تكبر الأشياء أضعافاً مضاعفة أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها، إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم - المكروبات - ولم تكن تخطر على البال في عصر التنزيل وقد ظهرت للناس الآن، فهي من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

وقرأ[1] الجمهور: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراء فيهما، ووجه على أنه عطف على ذرة أو على مثقال على اللفظ. وقرأ حمزة ويعقوب من العشرة برفع الراء فيهما ووجه على أنه عطف على موضع مثقال لأن من زائدة فهو مرفوع بيعزب.

ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكرّ لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ، وكلمة ألا في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ حرف تنبيه؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون إن أولياء الله الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه، ولا يتخذون له أنداداً يحبونهم كحبه، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه زلفى ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الدارين من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب. والمراد[2] بـ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معاصيه؛ أي: لا خوف عليهم في الآخرة: مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون، من أهوال الموقف، وعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ ولا هم يحزنون من لحوق مكروه أو ذهاب محبوب، ولا يعتريهم ذلك فيها؛ لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة والزلفى، ولا ريب في حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهي. وكذلك في الدنيا لا يخافون مما يخاف منه غيرهم من الكفار، وضعفاء الإيمان، وعبيد الدنيا، من مكروه يتوقع، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله، سبحانه وتعالى، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

التقوى[1]: هي اتقاء كل ما لا يرضي الله، من ترك واجب وفعل محرم، واتقاء مخالفة سنن الله، تعالى، في خلقه، من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة.

أي: أولياء الله تعالى هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه وملكة التقوى له، عزّ وجلّ، وما تقتضيه من عمل. والمراد[2]، بنفي الخوف عنهم: أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله تعالى وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة. وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تفسير لمعنى، كونهم أولياء الله تعالى؛ أي: لهم البشارة والمسرة من الله تعالى، ما داموا في الحياة الدنيا بالنصر، وحسن العاقبة في كل أمر، وباستخلافهم في الأرض، ما أقاموا شرع الله وسننه، ونصروا دينه وأعلوا كلمته، وبما يوحيه إلى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده، هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤى الصالحة، وما يتفضل الله به عليهم، من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم، بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: ﴿لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾.

ولهم البشرى في الآخرة، بتلقي الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعم، والسلامة من العذاب، كما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

﴿تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وعبارة المراح هنا: فالبشرى[1] في الدنيا محبة الناس لهم، وذكرهم إياهم بالثناء الحسي والرؤى الصالحة، وبشرى الملائكة لهم عند الموت، وفي الآخرة تلقي الملائكة إياهم مبشرين بالفوز، والكرامة، وبياض الوجوه وإعطاء الصحف بأيمانهم، وما يقرؤون منها وغير ذلك من البشارات، انتهت.

فصل في الأحاديث المناسبة للآية

عن عبادة بن الصامت، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». أخرجه الترمذي.

وله: عن رجل من أهل مصر، قال: سألت أبا الدرداء عن هذه الآية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: ما سألني عنها أحدٌ منذ سألت رسول الله ﷺ عنها، وقال: «ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له». قال الترمذي: حديث حسن.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». متفق عليه.

وهذا لفظ البخاري، ولمسلم: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة».

---

(١) المراح.

والرؤيا[1] ثلاثة: الرؤيا الصالحة: بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. قال بعض العلماء: ووجه هذا القول أنا إذا حملنا قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم، وذلك؛ لأن ولي الله تعالى هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عزّ وجلّ، ومن كان كذلك.. فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته، ومن المعلوم، أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق، فإذا رأى الولي رؤيا أو رُؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عزّ وجلّ لهذا الولي. قال الخطابي: وفي هذه الأحاديث، توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا تغيير لأقواله على العموم، ولا إخلاف لمواعيده التي وعد بها أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من البشرى بسعادة الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، ولا يقادر قدره ولا يماثله غيره؛ لأنه ثمرة الإيمان الحق، والتقوى في حقوق الله وحقوق الخلق، والجملتان[2]، أعني ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ و ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو الأولى اعتراضية، والثانية تذييلية.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: قول هؤلاء المشركين، أي: إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم إياك، ولا يغمك تخويفهم لك؛ أي: لا تحزن لقولهم ولا تبال بما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه، ولا بتكذيبهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك. وقرأ[3] نافع بضم الياء وكسر الزاي، من: أحزنه يحزنه، وكلاهما بمعنى. وهذا نهي للنبي ﷺ، عن الحزن من قول

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح والبيضاوي.

الكفار، المتضمن للطعن عليه، وتكذيبه والقدح في دينه، والمقصود: التسلية له والتبشير.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع الرسول، ﷺ، معللاً لما ذكره من النهي لرسول الله، ﷺ وكأن قائلاً، قال: لم لا يحزنه قولهم وهو مما يحزن؟ فقال: ﴿إن العزة لله جميعا﴾ ليس لهم منها شيء؛ أي وإنما نهيتك عن الحزن لقولهم؛ لأن العزة والغلبة والقدرة والقهر جميعاً لله، سبحانه وتعالى، هو المنفرد بها دون غيره، لا يملك أحد من دونه شيئاً منها، فهو يهبها لمن يشاء، ويحرمها من يشاء، وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم، ولا منافاة[1] بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن عزة الرسول، ﷺ، وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم، فثبت بذلك أن العزة لله جميعاً وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله تعالى وفي ملكه، فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك، ويذلهم بعد العزة. وقرأ[2] أبو حيوة: ﴿أن العزة﴾ بفتح الهمزة، وليس معمولاً لقولهم؛ لأن ذلك لا يحزن الرسول، ﷺ، إذ هو قول حق، وخرجت هذه القراءة على التعليل؛ أي: لا يقع منك حزن لما يقولون؛ لأجل أن العزة لله جميعاً. وقال القاضي فتحها شاذ يقارب الكفر، وإذا كسرت كان استئنافاً، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك وفي تكذيبهم بالحق، وادعائهم للشرك فيكافؤهم على ذلك وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلون من إيذاء وكيد لا تخفى عليه خافية، فهو مذلهم ومحبط أعمالهم. ثم أقام الدليل على كون العزة لله جميعاً وكون الجزاء بيده فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون، واعلموا أن لله سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿من في السموات ومن في الأرض﴾؛ أي: جميع من فيهما له سبحانه وتعالى لا لغيره، ومن جملتهم هؤلاء

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

المشركون المعاصرون للنبي، ﷺ، وإذا كانوا ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله، ﷺ، بما لم يأذن به الله تعالى؟ والمعنى[1]: ألا إن لله كل من في السموات ومن في الأرض عبيداً مملوكين له، لا مالك لشيء من ذلك سواه، فكيف يكون إلهاً معبوداً ما يعبده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، والعبادة للمالك دون المملوك، وللرب دون المربوب.

فإن قلت[2]: قد قال تعالى في الآية التي قبل هذه ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بلفظة ﴿مَا﴾ وقال في هذه الآية بلفظة ﴿مَن﴾ فما فائدة ذلك؟

قلتُ: إن لفظة ﴿ما﴾ تدل على ما لا يعقل ولفظة ﴿من﴾ تدل على من يعقل، فمجموع الآيتين يدل على أن الله عزّ وجل يملك جميع من في السموات ومن الأرض من العقلاء وغيرهم، وهم عبيده وفي ملكه. وقيل: إن لفظة ﴿مَن﴾ لمن يعقل، فيكون المراد بـ﴿مَن﴾ في السموات الملائكة العقلاء وبـ﴿مَن﴾ في الأرض الإنس والجن، وهم العقلاء أيضاً، وإنما خصهم بالذكر لشرفهم، وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون في ملكه وتحت قدرته.. فغير العقلاء من الحيوانات والجمادات بطريق الأولى، أن يكونوا في ملكه، إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضاً في ملكه وتحت قبضته وقدرته، ويكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه.

وفي الآية: نعي على عباد البشر والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجبه العقل، ولهذا أردفه بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى آلهة ﴿شُرَكَآءَ﴾ له تعالى حقيقة؛ لأن ذلك محال، إنما هي أسماء لا مسميات لها، و﴿مَا﴾ نافية؛ أي: إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم في الشدائد واستغاثتهم في النوازل والتقريب إليهم بالقرابين والنذور، لا يتبعون شركاء له في الحقيقة يدبرون أمور العباد، ويكشفون الضر عنهم، إذ لا شريك له

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

تعالى. وقرأ السلمي: ﴿تدعون﴾ بالتاء على الخطاب. قال ابن عطية: وهي قراءة غير متجهة. وقال الزمخشري: وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ﴿تدعون﴾ بالتاء. ووجهه أن يحمل ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ على الاستفهام؛ أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعني إنهم يتبعون الله تعالى ويطيعونه، فمالكم لا تفعلون مثل فعلهم، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ انتهى. ومن قرأ: ﴿تدعون﴾ بالتاء كان قوله: ﴿إن يتبعون﴾ التفاتاً إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة، ذكره أبو حيان.

ثم أكد ما سلف وزاده بياناً، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما يتبعون في الحقيقة فيما يقولون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والحدس في دعواهم أنهم أولياء لله وشفعاء عنده، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين، المتكبرين، الذين لا يصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووزرائه ووسائطه.

ثم زاد ذلك توكيداً بقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ﴾؛ أي: وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويكذبون؛ أي: إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون؛ أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنّاً والظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴿إن هم إلا يخرصون﴾؛ أي: يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً وكذباً بحتاً.

والخلاصة[1]: أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة، وأوهامهم الباطلة، فقاسوا الرب في تدبير أمور عباده على الملوك، وجهلوا أن أفعاله تعالى إنما تجري بمقتضى مشيئته تعالى الأزلية، وفق علمه الذاتي وحكمته البالغة، العادلة، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليهم بهم، كالمسيح والملائكة ومن دونهم يتوسلون إليه راجين خائفين، لا كأعوان الملوك

---

(١) المراغي.

الذين لا ينتظم أمر ملكهم إلا بهم، ثم أقام البرهان على مضمون ما قبله، من نفي الشركاء له في الخلق والتقدير والشفعاء عنده حين التصرف والتدبير، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع فجعل ﴿ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه، وتستريحوا بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش ﴿و﴾ جعل ﴿النهار مبصرا﴾؛ أي: مضيئاً ذا إبصار، لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب، وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الجعل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: لعبرات ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مواعظ القرآن، فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المنفرد بالوحدانية في الوجود؛ أي: إن في اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما، لدلائل وآيات على أن المعبود بحق هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من التذكير بحكمته تعالى، ووجه النعمة في ذلك سماع تدبر وعظة لما يسمع وقد جاء بمعنى الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وذكر[1] علة خلق الليل، وهي قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وحذفها من النهار، وذكر وصف النهار وحذفه من الليل، وكل من المحذوف يدل عليه مقابله، والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة، ففيه شبه احتباك.

---

(١) البحر المحيط.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المشركون كفار مكة وغيرهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عما لا يليق به، قال تعالى ذلك تنزيهاً لنفسه عما نسبوه إليه وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء. ويصح أن يكون المعنى على العموم؛ أي: وقال المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته، ويمكن أن يكون المعنى: عجيب أن تصدر منهم تلك المقالة الحمقاء. ثم أكد هذا التنزيه بقوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الغني﴾ غنىً مطلقاً عن جميع خلقه، فإن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك له تعالى، ولا حاجة له إلى شيء منه، وجميعه في حاجة إليه، ولا يجانسه شيء منه، فالإنسان يحتاج إلى الولد، إما للنصرة والمعونة، وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة، وإما لأنه زينة يلهو به في صغره، ويفخر به في كبره، وإما للحاجة إليه في قضاء مصالحه، أو لانتظار رفده وبره حين عجزه، وإما لبقاء ذكره بعد موته، والله غني عن كل ذلك، ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مستغن أزلاً، وأبداً، ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان، فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً من ناطق وصامت، يعني: أنه مالك ما في السموات وما في الأرض، وكلهم عبيده، وفي قبضته وتصرفه، وهو محدثهم وخالقهم، وإذا كان الكل له وفي ملكه، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له؛ للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة. ثم زيف دعواهم الباطلة، وبين أنها بلا دليل، فقال: ﴿إِنْ عِندَكُم﴾؛ أي: ما عندكم ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾؛ أي: من حجة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ القول الذي تقولونه بلا علم ولا وحي إلهي، و ﴿مِن﴾ زائدة والباء في ﴿بِهَذَا﴾ إما متعلقة بـ ﴿سُلْطَانٍ﴾؛ لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الظرف.

ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته، وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز نسبته إليه تعالى جهلاً منكم، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية، والوحي الإلهي، والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري

التوبيخي؛ أي: لا تقولوا على الله ذلك. وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وإن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع، وأن التقليد فيه غير سائغ.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، أن يقول لهم قولاً يدل على أنَّ ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح، فقال؛ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ليتبين لهم سوء عاقبتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة الشركاء إليه أو باتخاذه ولداً لنفسه، أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه، ويتصرفون في ملكه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد، أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ولا ينجون من عذاب الآخرة. والمعنى: إن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم، لا يفوزون بمطلب من المطالب، ولا يسعدون، وإن اغتروا بطول السلامة، والبقاء من النعمة، والمعنى: إن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه، ولا يفوز بمطلوبه، بل خاب وخسر.

ثم بين سبحانه: أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة، فهو متاع قليل في الدنيا، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتري عذاباً مؤبَّداً، فقال: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: حياتهم متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ أي: رجوعهم إلينا بالبعث لا إلى غيرنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد الرجوع إلينا ﴿نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كونهم كافرين فأين هم من الفلاح.

والمعنى: أي هؤلاء لهم متاع في الدنيا حقير يتلهون به في حياة قصيرة هي: الحياة الدنيا إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال أو عظم جاه فهو قليل بالنسبة إلى ما أعد الله تعالى في الآخرة للصادقين المتقين، ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب، فيذيقهم العذاب الشديد، بسبب كفرهم بآياته، وبالافتراء عليه وتكذيب رسله، بعد أن قامت عليهم الحجة. وفي الآية إيماء إلى أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على

منافع الدنيا المادية والمعنوية، فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم، ونعيم مقيم.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ ﴿أي﴾ تابع للفظه وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿جَآءَ﴾ أو صفة لـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شفاء﴾ أو صفة ﴿فِى ٱلصُّدُورِ﴾ جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور صفة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف دل عليه المذكور بعده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ معطوف عليه، تقديره: بفضل الله وبرحمته ليفرحوا، والجملة المحذوفة مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة لفعل محذوف على المحذوف السابق، تقديره: فليعجبوا ﴿بذلك﴾ جار ومجرور متعلق بهذا الفعل المقدر، أعني: يعجبوا ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ الفاء: عاطفة ما بعدها على يعجبوا المحذوف. واللام: لام الأمر ﴿يفرحوا﴾: مجزوم بها، والجملة معطوفة على يعجبوا ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّمَّا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ وجملة ﴿يَجْمَعُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره يجمعونه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتُم...﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل بمعنى أخبروني. ﴿مَّآ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿أرأيتم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُم﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: ما أنزله الله لكم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾ أو من الضمير المحذوف. ﴿فَجَعَلْتُم﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَنْزَلَ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ ﴿جعل﴾ ﴿حَرَامًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلَ﴾ ﴿وَحَلَٰلًا﴾ معطوف عليه؛ لأن المعنى: فجعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مؤكدة لجملة ﴿قُلْ﴾ الأولى معترضة بين الفعل ومفعوله، أعني: أرأيتم ومفعوله الثاني ﴿ءَآللَّهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، بمعنى: النفي ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿أَذِنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أرأيتم﴾ ﴿أَمْ﴾: متصلة معادلة للهمزة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وجملة ﴿تَفْتَرُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ والمعنى: أخبروني أحصل إذن من الله لكم أم ذلك افتراء منكم وكذب، وهو استفهام لطلب التعيين، وهو الأول.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿ظَنُّ﴾ خبره ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ظَنُّ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه

﴿لَذُو فَضْلٍ﴾: خبره واللام حرف ابتداء. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿فَضْلٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾: جار ومجرور خبر تكون والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿تَتْلُواْ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَتْلُواْ﴾ فـ ﴿مِن﴾ تعليلية والضمير يعود على الشأن ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة ﴿قُرْءَانٍ﴾: مفعول ﴿تَتْلُواْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿تَكُونُ﴾ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿عَمَلٍ﴾: مفعول ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شُهُودًا﴾ ﴿شُهُودًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الاستثناء من أعم الأحوال والتقدير وما تتلبسون بشيء من الأفعال المذكورة في حال من الأحوال إلا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿شُهُودًا﴾ ﴿تُفِيضُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ الواو: استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿يَعْزُبُ﴾: فعل مضارع ﴿عَن رَّبِّكَ﴾، متعلق به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور حال من ذرة، أو صفة لها أو حال من ﴿مِّثْقَالِ﴾ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوف على الأرض وزيدت ﴿لا﴾ لتأكيد نفي ما قبلها. وقوله: ﴿وَلَآ

﴿أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: كلام مستقل برأسه مقرر لما قبله، الواو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿أَصْغَرَ﴾: بالنصب اسمها منصوب؛ لأنه شبيه بالمضاف لعمله في الجار والمجرور بعده ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ متعلق به. وبالرفع إما على الابتداء، أو على أن ﴿لا﴾ عاملة عمل ليس ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾: معطوف على ﴿أَصْغَرَ﴾ والخبر على كلا القراءتين النصب والرفع بوجهيه. قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فـ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ أو خبر المبتدأ ﴿مبينٍ﴾: صفة له، وجملة ﴿لا﴾ النافية أو جملة المبتدأ مستأنفة، منقطعة عما قبلها. وإنما[1] جاز إعراب ﴿أَصْغَرَ﴾ و ﴿أَكْبَرَ﴾ بالنصب على أن ﴿لا﴾ عاملة عمل إن؛ لأن ﴿أَصْغَرَ﴾ و ﴿أَكْبَرَ﴾ شبيهان بالمضاف تعلق بهما شيء من تمام معناهما، وهو العمل في الجار والمجرور، وهاتان القراءتان هنا فقط، وأما في سبأ فبالرفع، باتفاق السبعة. وقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: الاستثناء منقطع، والمعنى[2] لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فهو استدراك على ما يتوهم نفيه؛ لأن قوله: ﴿لا يعزب عن ربك. . .﴾ إلخ، ربما يتوهم أنه لم يحط بها غير علم الله، فدفع ذلك بقوله: إلا في كتاب مبين؛ أي: لكن جميع الأشياء مثبتة في كتاب مبين أيضاً. ولا يصح أن يكون متصلاً؛ لأنه يصير المعنى: لا يغيب عن علمه شيء في حال من الأحوال، إلا في حال كونه مثبتاً في كتاب مبين فيغيب، فيفيد أن ما في الكتاب غائب عن علم الله، وذلك باطل، وهذا الإشكال لا يرد إلا على جعل قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ معطوفاً على ﴿مِثْقَالِ﴾ وأما إن جعل مستأنفاً ـ كما تقرر ـ فلا يرد الإشكال فتأمل.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه واستفتاح ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿لَا خَوْفٌ﴾ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ليس ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة ﴿وَلَا هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، وجملة الابتداء في محل الرفع معطوفة على

(١) الصاوي. (٢) الصاوي.

جملة ﴿لَا﴾ على كونها خبرا لـ ﴿إن﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: من أولئك الأولياء؟ فأجاب: هم الذين، إلخ ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة الصلة ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق به؛ أي: البشرى تقع في الدنيا، وفسرت بالرؤيا الصالحة؛ أو حال من ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ متعلق بمحذوف، والعامل في الحال الاستقرار في ﴿لَهُمُ﴾ لوقوعه خبراً، ا هـ «سمين». ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا أعد لهم في الدارين.

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾: معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿تَبْدِيلَ﴾ اسمها. ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ والجملة معترضة في آخر الكلام، لا محل لها من الإعراب، كما سيأتي في مبحث البلاغة بيان وجه اعتراضها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة معترضة أيضاً، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية ﴿لا يحزنك قولهم﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾: ناصب واسمه ﴿لِلَّهِ﴾ خبره ﴿جَمِيعًاۚ﴾ حال من ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ أو توكيد لها، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثانٍ؛ أو صفة لـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم لها ﴿مَن﴾: اسم موصول اسمها مؤخر وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول ﴿وَمَن﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: صلتها. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿يَدْعُونَ﴾؛ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ومفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوف تقديره: آلهة ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ أي: وما يتبعون شركاء حقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأن شركة الله في الربوبية محالة. ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلظَّنَّ﴾؛ مفعول به والجملة مستأنفة ﴿وَإِنْ هُمْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إن﴾: نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ. وجملة ﴿يَخْرُصُونَ﴾ خبره والجملة معطوفة على جملة النفي قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: مظلماً، والجملة صلة الموصول. ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿فِيهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور باللام: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلَ﴾ ﴿مُبْصِرًا﴾: مفعول ثانٍ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر ﴿لِّقَوْمٍ﴾؛ جار ومجرور صفة ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن ﴿ٱتَّخَذَ﴾ هنا بمعنى تبنى، والجملة في محل النصب مقول، ﴿قَالُوا﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، والجملة مستأنفة من كلامه تعالى. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل جملة التنزيه ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صلة الموصول ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ما في السموات﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل جملة ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

﴿إِنْ﴾ نافية ﴿عِندَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾: مبتدأ مؤخر، و ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة مستأنفة ﴿بِهَٰذَآ﴾: متعلق بـ ﴿سُلْطَٰنٍۭ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿تقولون﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، متعلق به ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿تقولون﴾ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة ﴿تقولون﴾ مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، مؤكد لعامله. وجملة ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾.

﴿مَتَٰعٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: حياتهم متاع ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب، والحظوظ الدنيوية بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح، كأنه قيل: كيف لا يفلحون وهم في نعيم، فقيل: هو متاع قليل في الدنيا، وليس بنافع في الآخرة، ا هـ «أبو السعود». ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿إِلَيۡنَا﴾: خبر مقدم ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَتَٰعٌ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: فعل ومفعولان ﴿ٱلشَّدِيدَ﴾ صفة للعذاب، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: بسبب كونهم كافرين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نذيق﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ الموعظة: هي التذكير بالعواقب، سواء كان بالزجر والترهيب، أو بالاستمالة والترغيب، وفي «زاده» الموعظة: مصدر بمعنى: الوعظ، وهو إرشاد المكلف ببيان ما ينفعه من محاسن الأعمال، وما يضره من القبائح والترغيب في المحاسن، والزجر عن القبائح ا هـ.

﴿وَشِفَآءٞ﴾ والشفاء: الدواء، وهو في الأصل مصدر، جعل وصفاً، مبالغة، أو اسم لما يشفى به أو يتداوى به، فهو كالدواء، اسم لما يتداوى به ﴿والهدى﴾: بيان الحق المنقذ من الضلال، ويكون في الاعتقاد بالحجة والبرهان، وفي العمل ببيان المصالح والحكم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ والرحمة: الإحسان ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وفضل لله: هو توفيقهم لتزكية أنفسهم، بالموعظة والهدى ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ والرحمة هي: الثمرة التي نتجت من ذلك، وبها فضلوا جميع الناس ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ والفرح: لذة في القلب، بإدراك المحبوب والمشتهى، يقال: فرحت بكذا إذا أدركت المأمول، ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح، في اللذات البدنية الدنيوية،

واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ﴿فِي شَأْنٍ﴾ والشأن: الخطب، والحال، والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور يجمع على شؤون، تقول العرب: ما شأن فلان؛ أي: ما حاله والشأن: اسم إذا كان بمعنى الخطب، ويكون مصدراً إذا كان بمعنى القصد، يقال: شأنت شأنه؛ أي: قصدت قصده، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، ا هـ «أبو السعود». وشأن من باب نفع، كما في «القاموس». والشأن أصله الهمز، وقد تبدل ألفاً: اهـ «شهاب». والذي في هذه الآية، يجوز أن يكون المراد به الاسم، ويجوز أن يكون المراد منه المصدر، يعني: قصد الشيء ﴿شُهُودًا﴾ وفي «المصباح»: وشهدت على الشيء: اطلعت عليه، فأنا شاهد وشهيد، والجمع أشهاد وشهود، مثل شريف وأشراف، وقاعد وقعود.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقال: أفاض في الشيء، أو من المكان إذا اندفع فيه بقوة أو بكثرة ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ بضم الزاي وكسرها، قراءتان سبعيتان، وفي «المصباح» عزب الشيء، من باب قتل وضرب، إذا غاب وخفي، فهو عازب، ومنه قولهم: عزبت النية؛ أي: غاب عنه ذكرها، ا هـ. وفي «المختار» أنه من باب دخل، وعزب الرجل بإبله يعزب؛ أي: بعد وغاب في طلب الكلأ ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: موازن نملة صغيرة أو هباء، والمثقال: الوزن، والذرة: النملة الصغيرة الحمراء، وهي خفيفة الوزن جداً، وبها يضرب المثل في الصغر والخفة، وتطلق على الدقيقة من الغبار، الذي يرى في ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ والكتاب: هو اللوح المحفوظ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الأولياء: جمع ولي، من الولي، وهو القرب، يقال: تباعد بعد ولي، أي: بعد قرب. وفي «البيضاوي»: أولياء الله: هم الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، ا هـ. والولي: ضد العدو، فهو المحب، ومحبة العباد لله: طاعتهم له، ومحبته لهم إكرامه إياهم، كما في «شرح الكشاف»، وعلى الأول: يكون فعيل: بمعنى فاعل: وعلى الثاني: بمعنى مفعول، فهو مشترك بينهما، ا هـ «شهاب». واعلم أن تركيب الواو واللام والياء، يدل على معنى القرب، فولي كل شيء، هو الذي يكون قريباً منه، والقرب من الله بالمكان والجهة محال،

فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله. وفي «الخازن»: وأصل الولي، من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولي الله، هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه، ويكون مشتغلاً بالله، مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ البشرى: مصدر كالرجعى، الخبر السار الذي تنبسط به بشرة الوجه، فتتهلل وتبرق أساريره، وأريد به هنا المبشر به، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العزة: الغلبة والقوة والقدرة، فعزة الله هي العزة الكاملة التي تندرج فيها عزة الإلهية والإحياء والإماتة، وعزة البقاء الدائم، ونحو ذلك.

﴿جَمِيعًا﴾ توكيد للعزة، ولم يؤنث بالتاء: لأن فعيلاً يستوى فيه المذكر والمؤنث، لشبهه بالمصادر. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ والخرص: الحزر بتقديم الزاي على الراء، والتقدير والتخمين للشيء: الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل، أو ذرع، كخرص الثمر على الشجر، والحب في الزرع، ويستعمل بمعنى الكذب أيضاً؛ لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين. وفي «المصباح»: خرصت النخل خرصاً ـ من باب قتل ـ حزرت ثمره، والاسم الخرص بالكسر، وخرص الكافر خرصاً فهو خارص إذا كذب ا هـ. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الولد، يستعمل مفرداً وجمعاً، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة، بالكسر فيهما. ﴿وسبحان﴾ كلمة تنزيه وتقديس، وتستعمل للتعجب. ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ والسلطان: الحجة والبرهان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ المراد بها القلوب، من باب تسمية الحال ﴿القلوب﴾ باسم المحل ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ أي: شفاء لما في القلوب من الحقد والحسد والبغض والعقائد الفاسدة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ عطفت الجملة الثانية على

الأولى، للتقرير والتأكيد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ وفي قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ وفي قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وبين الليل والنهار في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ إلخ.

ومنها: عطف ما للشيء الواحد من الصفات بعضها على بعض في قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات.

ومنها: القصر في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ لأن تقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الحصر.

ومنها: إظهار الاسم الجليل وتقديمه على الفعل في قوله: ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ حيث أتى بحرف التنبيه، وبـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، وبالجملة الاسمية لزيادة تقرير مضمونها.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق البشارة وتعظيم شأنها، وليس من شأن الاعتراض أن يقع في أثناء الكلام، ا هـ «أبو السعود». وعبارة «التلخيص»: ومنه الاعتراض، وهو أن يؤتى في أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب، لنكتة، سوى دفع الإيهام، انتهت.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فحذف من الأول وصف الليل وهو مظلماً، وذكر حكمته وحذف من الثاني لحكمه وذكر وصفه مبصراً، والأصل هو الذي جعل لكم الليل مظلماً، لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتبتغوا وتتحركوا فيه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن إسناد الإبصار إلى

النهار مجاز عقلي؛ لأنه يبصر فيه، فهو من الإسناد إلى الظرف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر الدلائل على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول وبين الكفار.. ذكر قصصاً من قصص الأنبياء، وما جرى لهم مع قومهم

---

(١) البحر المحيط.

من الخلاف، وذلك تسلية للرسول، ﷺ، وليتأسى بمن قبله من الأنبياء، فيخف عليه ما يلقى منهم من التكذيب، وقلة الأتباع، وليعلم المتلو عليهم هذا القصص عاقبة من كذب الأنبياء، وما منح الله تعالى، نبيه من العلم بهذا القصص، وهو لم يطالع كتاباً ولا صحب عالماً، وإنها طبق ما أخبر به، فدل ذلك على أن الله أوحاه إليه وأعلمه به، وأنه نبي لا شك فيه.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر عناد المشركين لرسوله ﷺ، وتكذيبهم له، بعد أن قامت البراهين على صدقه.. أردف ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له، ﷺ، وبياناً بأن قومه لم يكونوا بدعاً في عنادهم وتكذيبهم له، بل سبقهم في مثل فعلهم كثير من سالفي الأمم، وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم، وأتم الله لهم النصر، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم، فينزجروا بما فيه مزدجر لهم، ويعترفوا بصدقه، ﷺ، ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة، فيندمون، ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] ذكر قصص نوح مع قومه، وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم.. بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل، وسنةً من سننه فيهم، عسى أن يعتبر بها أهل مكة، فيعلموا أن لله سنناً لا تبديل فيها، ولا تحويل، فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم، من المكذبين من قوم نوح وغيرهم، واتقاؤه في مكنتهم، وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ويبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ...﴾ الآية، أفردت قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه، وفصلت تفصيلاً وافياً، لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر إذ فيها من العبرة أن قوة الحق تثل العروش وتهد أركان الباطل، وإن علا أصحابه فقد كان الفَلْج والظفر لموسى على ذلك الطاغية، الذي قال:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أنا ربكم الأعلى، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلاً للآخرين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: لما كانت الآيات الماضية في ذكر الحوار بين موسى وفرعون.. ذكر هنا ما فعل فرعون في مقاومة دعوة موسى، لصد الناس عن اتباعه، باعتبار أنه ساحر، فأحضر السحرة ليقاوموا عمله، ويتغلَّبوا عليه فيبطلوا حجته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما فعله فرعون لمقاومة دعوة موسى.. أردف ذلك بذكر ما كان من بني إسرائيل مع موسى، توطئةً لإخراجهم من أرض مصر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم، فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم، على مقتضى سننه في المكذبين لرسله من قبلك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: بعض خبر نوح وقصته مع قومه، الذين هم أشباه قومك في العناد، ليصير داعياً إلى مفارقة الإنكار للتوحيد والنبوة ﴿إِذْ قَالَ﴾ نوح؛ أي: حين قال ﴿لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: شق عليكم وثقل ﴿مَّقَامِى﴾ فيكم؛ أي: قيامي فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم، أو مكثي فيكم مدة طويلة ﴿وَتَذْكِيرِى﴾؛ أي: مع وعظي إياكم ﴿بآيات الله﴾ التكوينية والتنزيلية الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته، فالواو بمعنى: مع، والمعنى: إن كان عظم عليكم مكثي بينكم مع تذكيري بآيات الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت به وفوضت أمري إليه، وهذه الجملة جواب الشرط، والمعنى: إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً. ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ وجملة ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتراض كقولك: إن كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي.

والمعنى عليه: يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي فيكم.. فإنني قد وكلت أمري إلى الله الذي أرسلني، واعتمدت عليه وحده، بعد أن أديت رسالته بقدر

طاقتي ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾؛ أي: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تقدمون عليه في أمري وإهلاكي ﴿و﴾ ادعوا ﴿شركاءكم﴾ وأصنامكم الذين تعبدونهم من دون الله لنصرتكم، كما أنا أدعو ربي، وأتوكل عليه. وإنما[1] حثهم على الاستعانة بالأصنام بناءً على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع، فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم. أو ادعوا من يشاركونكم في الدين والقول، ليساعدوكم فيما تريدون بي، من السعي في إهلاكي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ الذي تعتزمونه في إهلاكي ﴿عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾؛ أي: غماً وهماً ومبهماً، وخفياً عليكم فيه حيرة ولبس، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه، والغم والغمة، كالكرب والكربة، والمعنى: ولا يكن قصدكم إلى هلاكي مستوراً عليكم، ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾؛ أي: ثم أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه، وبعد استبانته التي لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: ولا تمهلوني بتأخير هذا القضاء عني بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه.

والخلاصة[2]: أن نوحاً طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به، مطالبةَ المدل الواثق ببأسه وقوته، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة، وقوة الإرادة، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم، وأن لا يكون في أمرهم الذي أجمعوا عليه شيء من الغمة والخفاء، الذي قد يوجب الوهن والتردد في التنفيذ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿مَّقَامِي﴾ بفتح الميم؛ أي: قيامي بالتذكير والدعوة إلى التوحيد. وقرأ أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء ﴿مقامي﴾ بضمها؛ أي: إقامتي ومكثي بين أظهركم. وقرأ الجمهور: ﴿فأجمعوا﴾ بقطع الهمزة من أجمع الرجل

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط بتصرف وتلخيص.

الشيء إذا عزم عليه ونواه. قال الشاعر:

أَجْمَعُوْا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوْا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

وقال أبو فيد السدوسي أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه. وقال أبو الهيثم: أجمع أمره جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً. وعلى هذه القراءة يكون ﴿وشركاءكم﴾ معطوفاً على أمركم على حذف مضاف؛ أي: وأمر شركائكم أو منصوباً بإضمار فعل؛ أي: وادعوا ﴿وشركاءكم﴾. وقال أبو علي: وقد ينصب الشركاء بواو المعية. وقرأ الزهري والأعمش والجحدري وأبو رجاء والأعرج والأصمعي، عن نافع ويعقوب بخلاف عنه: ﴿فاجمعوا﴾ بوصل الألف وفتح الميم من جمع الثلاثي يجمع جمعاً، ﴿وشركاءكم﴾ عطف على أمركم؛ لأنه يقال: جمعت شركائي أو على أنه مفعول معه، أو على حذف مضاف أي: ذوي الأمر منكم فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت، قاله أبو علي. وفي كتاب «اللوامح»: أجمعت؛ أي: جعلته جميعاً وجعلت الأموال جميعاً، فكان الإجماع في الأحداث والجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر، وفي التنزيل فجمع كيده. انتهى.

وقرأ[1] أبو عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب فيما روي عنه: ﴿وشركاؤكم﴾ بالرفع ووجه بأنه عطفه على الضمير في ﴿فأجمعوا﴾ وقد حصل الفصل بالمفعول فحسن، أو على أنه مبتدأ محذوف الخبر، لدلالة ما قبله عليه؛ أي: وشركاؤكم فليجمعوا أمرهم. وقرأت فرقة: ﴿وشركائكم﴾ بالخفض عطفاً على الضمير في أمركم؛ أي: وأمر شركائكم فحذف كقول الآخر:

أَكُلَّ آمْرِىءٍ تَحْسَبِيْنَ آمْرَأً وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِٱللَّيْلِ نَارَا

أي: وكل نار فحذف كل لدلالة ما قبله عليه. وقرأ السري بن ينعم؛ ثم أفضوا بالفاء وقطع الهمزة؛ أي: انتهوا إليَّ بشركم من أفضى بكذا: انتهى إليه.

(١) البحر المحيط.

وقيل معناه: أسرعوا، وقيل: من أفضى إذا خرج إلى الفضاء؛ أي: فأصحروا به إلي وأبرزوه.

وهذا الكلام[1] من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم، أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام: أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله، وأنه كان واثقاً بنصره إياه، غير خائف من كيدهم، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر، وأن مكرهم لا يصل إليه.

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم، من الإعذار، والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله، ليس هو لطمع دنيوي، ولا لغرض خسيس، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: فإن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، أي: إن دمتم على إعراضكم بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: فلن يضرني ذلك؛ لأني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجراً ولا جزاءً تؤدونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به، فجواب الشرط محذوف، كما في «الشهاب» والفاء في ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والفاء في ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ جزائية ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، أي: ما جزاء عملي وثواب دعوتي، إلا على ربي الذي أرسلني إليكم، فهو يوفيني إياه، آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من جهة ربي ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ بالفعل ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لما أدعوكم إليه، الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه وتعالى، لا يأخذون عليها أجراً، ولا يطمعون في عاجل، أو من[2] المسلمين لكل ما يصعب من البلاء؛ أي: من المستسلمين لأمر الله، ولكل مكروه يصل إليّ منكم، لأجل هذه الدعوة. قرأ[3] أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص، بتحريك الياء من أجري. وقرأ الباقون، بالسكون.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذب نوحاً قومه؛ أي: استمروا على تكذيبه وأصروا

---

(١) الخازن.

(٢) أبو السعود.

(٣) الشوكاني.

عليه، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن؛ أي: فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة، بقوله وعمله على حقيقة دعوته ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: فنجينا نوحاً ومن آمن معه، وأجاب دعوته وصار على دينه في السفينة التي كان صنعها بأمرنا؛ أي: أعقبنا تكذيبه النجاة له ولمن معه، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ أي وجعلنا الذين نجيناهم مع نوح في السفينة خلائف في الأرض، التي كانت للمهلكين بالغرق من قومه، الذين كذبوه بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم، وحقت عليهم كلمة ربك يسكنونها. ويخلفونهم فيها. والخلائف، جمع خليفة، كصحائف جمع صحيفة. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بدلائل قدرتنا التكوينية والتنزيلية، من الكفار المعاندين لنوح عليه السلام، الذين لم يؤمنوا به، أغرقهم الله تعالى، بالطوفان، وإنما أخر ذكره وقدم الإنجاء، إشارةً إلى أن الرحمة سابقة على الغضب، لتعجيل المسرة لمن يمتثل الأمر ذكره «الصاوي». وفي هذا[1] الإخبار توعد للكفار بمحمد ﷺ وضرب مثال لهم، في أنهم بحال هؤلاء من التكذيب، فسيكون حالهم كحالهم في التعذيب ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها الرسول، بعين بصيرتك وعقلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: على أي حالةٍ كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله بهم، وأصروا على تكذيبه، وكيف صار آخر أمرهم، وهكذا عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك؛ وعاقبة المؤمنين المتقين لك.

وقيل: الخطاب في ﴿فَٱنظُرْ﴾ للسامع لهذه القصة، وفي ذلك تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم الرسول، وتسلية له، ﷺ، وتهديد للمشركين وتهويل عليهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: ثم أرسلنا من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ مثله كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ أي: إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه، في تكذيب رسلهم، فقد أرسل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام، الذين كانوا في زمانه، إلا شعيباً، فإنه أرسل إلى قومه، أهل مدين وإلى جيرانهم، أصحاب

---

(١) البحر المحيط.

المؤتفكة، فقد كانوا متحدين معه لغةً ووطناً ﴿فَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه في رسالته، بحسب ما يتسنى لهم فهمه، من الأدلة العقلية والحسية؛ أي: فجاء كل رسول منهم قومه المخصوصين به، بالمعجزات الدالة على صدق ما قاله، وبما أرسله الله به، من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: فما[1] كانوا ليصدقوا بما كذبوا به، من أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبةً، ودعوا أممهم إليها من قبل مجيء رسلهم؛ أي: كانت حالهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك، كأن لم يبعث إليهم أحد، أو المعنى؛ أي: فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل، ممن كان مثله في سبب كفره، وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء.

وعبارة «الشوكاني» هنا: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي[2]: فما أحدثوا الإيمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه، والمعنى: أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام، الذين أرسل الله إليهم رسله؛ أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم.

والمعنى: أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا زمن أن أرسل الله إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم؛ لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولاً وهذا مبني على أن الضمير في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وفي قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى قوم نوح؛ أي: فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام، الذين جاؤوا من بعدهم وجاءتهم رسلهم بالبينات. وقيل: إن الباء في ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ للسببية؛ أي: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب من قبل مجيئهم وفيه نظر. وقيل المعنى: بما كذبوا به من قبل؛ أي: في عالم الذر، فإن فيهم من كذب

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

بقلبه وإن آمنوا ظاهراً. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم، انتهت. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع العظيم الذي طبعناه على قوم نوح، ومن بعدهم من الأمم ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: على قلوب المتجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد، المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغي والضلال، أمثالهم في كل قوم كقومك إذ كانوا مثلهم في اللجاج والعتو والاستكبار في الأرض ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون، والعباس بن الفضل، بالياء والكاف للتشبيه؛ أي: مثل ذلك الطبع المحكم الذي يمتنع زواله، نطبع على قلوب المعتدين المجاوزين طورهم والمبالغين في الكفر والتكذيب والعناد والعتو.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ هذا عطف قصة على قصة، وخاص على عام، لمزيد الغرابة في وقائع موسى مع فرعون، كل هذا تسلية للنبي، ﷺ؛ أي: ثم أرسلنا من بعد أولئك الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿مُّوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿و﴾ أخاه ﴿هارون﴾ معه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: إلى فرعون مصر وأشراف قومه، وخصهم بالذكر؛ لأن قومهم القبط كانوا تبعاً لهم، يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا، ويرجعون إليهم في إقامة المصالح والمهمات حالة كونهما مؤيدين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع المبينة في سورة الأعراف، وخص موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل، لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها؛ أي: أعرضوا عن الإيمان بها كبراً وعلواً، مع علمهم بأن ما جاءا به هو الحق لما كانوا عليه من العلم بصناعة السحر ﴿و﴾ لما ﴿كانوا قوما مجرمين﴾؛ أي: راسخين في الإجرام والظلم والفساد في الأرض، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردها؛ لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب. قيل: وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، والاستكبار[2]: ادعاء الكبر من غير استحقاق، والفاء فيه فاء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.

الفصيحة؛ أي: فأتياهم فبلغاهم الرسالة، فاستكبروا عن اتباعها، ا هـ «أبو السعود». وأعظم الكبر أن يتعاظم العبيد عن قبول رسالة ربهم بعد تبيينها واستيضاحها. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فلما جاء فرعون وقومه الحق، الذي جاء به موسى من عند الله تعالى، من الحجج والمعجزات الدالة على الربوبية والألوهية ﴿قَالُوٓاْ﴾ من فرط عتوهم وعنادهم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به موسى ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح لمن رآه وعاينه يعرفه كل أحد قالوا[1]: ـ لحبهم الشهوات ـ إن هذا لسحر مبين، وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر، الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً، ولم يقولوا: إن هذا لسحر مبين إلا عند معاينة العصا وانقلابها، واليد وخروجها بيضاء، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا، وهي معجزة موسى التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ[2] مجاهد وابن جبير والأعمش: ﴿لساحر مبين﴾ جعل خبر إن اسم فاعل، لا مصدراً. لقراءة الجماعة.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الواضح الظاهر وهو أبعد الأشياء عن السحر، الذي هو باطل ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾؛ أي: حين جاءكم إنه سحر، من غير أن تترووا، وتتدبروا فيه، وما ترونه بأعينكم من آيات الله، وترجف له قلوبكم من عظمته، لا يمكن أن يكون سحراً من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم، ومقولهم محذوف، كما قدرناه في الحل آنفاً، بقولنا: إنه سحر. والاستفهام هنا وفيما بعده للإنكار، كما أشرنا إليه. ثم استأنف إنكار ما قالوه فقال؛ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ؛ أي: أسحر هذا الحق الذي جئت به الذي أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف، لا يعني إنه ليس بسحر. وجملة قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من واو أتقولون، والرابط هو الواو بلا ضمير، كما في قول من قال: جاء الشتاء ولست أملك عدة؛ أي: أتقولون للحق إنه سحر، والحال أنه؛ أي: أن الشأن والحال لا يفلح الساحرون، أي: لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند رب العالمين؟ وقد أيده بالمعجزات

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

والبراهين الواضحة، وقد مضت سنة الله، بأن السحرة لا يفوزون في الأمور الهامة، كالدعوة لدين، والتأسيس لملك، وذلك ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم، فإن السحر خيال وشعوذة، لا تلبث أن تفتضح وتزول.

وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر تقديره: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؛ أي: قالوا لموسى منكرين ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾؛ أي: الملك والعز ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في أرض مصر ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين والهمزة في ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي؛ أي[1]: قالوا له منكرين: ما جئتنا إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا، لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها، من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها في أرض مصر كلها، وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان، فيما يخرجنا من دين آبائنا، الذي تدين به عامتنا وتتمتع بكبريائه خاصتنا، وهم الملك وأشراف قومه.

والخلاصة: أنه لا غرض لك من تلك الدعوة إلا هذا، وإن لم تعترف به، وقد وجهوا الخطاب أولاً لموسى؛ لأنه هو الداعي لهم، وأشركوا معه أخاه في فائدة الدعوى، والغرض منها، وهي الكبرياء في الأرض؛ لأنهما سيشتركان فيها. وقرأ[2] ابن مسعود وإسماعيل والحسن فيما زعم خارجة وأبو عمرو وعاصم، بخلاف عنهما ويكون بالياء التحتانية لمجاز تأنيث الكبرياء. وقرأ الجمهور: بالتاء الفوقانية لمراعاة تأنيث اللفظ. ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لملئه بعد أن يئس من إلزامه بالقول: اعملوا على دفع حجته بالفعل و ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ بفنون السحر حاذق ماهر فيه، قال: هكذا، لما رأى اليد البيضاء والعصا؛ لأنه اعتقد أنهما من السحر فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم. والمخاطب بقوله: ﴿ٱئۡتُونِي﴾ خدمة فرعون، والمتصرفون بين يديه. وقرأ[3] ابن مصرف وابن وثاب وعيسى وحمزة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

والكسائي: ﴿بكل سحار﴾ بصيغة المبالغة. وقرأ الباقون: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغة اسم الفاعل. وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فأتوا بالسحرة، فلما جاء السحرة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من الحبال والعصى؛ أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً، أو يلقوا ما عندهم، كما جاء ذلك في سورتي الأعراف وطه، ليظهر الحق ويبطل الباطل ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيهم السحرية واسترهبوا الناس ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غير مبالٍ بهم، ولا بما صنعوا ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: إن هذا الذي فعلتم وألقيتموه أمام النظارة هو السحر؛ أي: التمويه الذي يظهر بطلانه، لا ما جئت به من الآيات البينات من عند الله، تعالى. وقد سماه فرعون وملؤه سحراً. وقرأ أبو عمرو ومجاهد وأصحابه وابن القعقاع وأبو جعفر بهمزة الاستفهام في قوله: ﴿السحر﴾ بإبدال[1] الهمزة الثانية ألفاً، ومدها مدّاً لازماً، أو بتسهيلها من غير قلب، وعلى كليهما تجب الإمالة في موسى والمعنى: والذي جئتم به، أهو السحر أم لا؟ وهو استفهام على وجه التحقير والتوبيخ. وقرأ باقي السبعة والجمهور، بهمزة الوصل، والتقدير على الاستفهام، أهو السحر أم لا؟ وتكون ما استفهامية منصوبة بـ ﴿جِئْتُم﴾ و ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: أي شيء جئتم به، أهو السحر أم لا؟ وعلى قراءة همزة الوصل، تكون ﴿مَا﴾ موصولة مبتدأة والخبر ﴿ٱلسِّحْرُ﴾. وقرأ عبد الله والأعمش ﴿ما جئتم به سحر﴾. وقرأ أبي ﴿ما أتيتم به سحر﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ أي: سيظهر بطلان ما جئتم به ويمحقه به بما يظهره على يدي، من الآيات المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة، وحجة واضحة على بطلان حجتي.

ثم علل ما قال، ببيان سنن الله في تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد

---

(١) المراح.

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: إن الله تعالى لا يجعل عمل المفسدين صالحاً للبقاء فيقويه بالتأييد الإلهي ويديمه بل يزيله ويمحقه ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ويثبت الله الحق الذي فيه صلاح الخلق، وينصره على ما يعارضه من الباطل ويبينه ويوضحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التنزيلية التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين، وبكلماته التكوينية وقضاياه السابقة في وعده. وقال ابن سلام، بكلماته بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهي مقتضى إرادته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومن ثم سينصر موسى على فرعون، وينقذ قومه من عبوديته، والواو في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ للعطف على سيبطله. وقرىء ﴿بكلمته﴾ على التوحيد؛ أي: بأمره ومشيئته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أولياً. والإجرام: الآثام؛ أي: ويظهر الله الحق وينصره، ولو كره من اتصف بالإجرام والآثام، إظهاره كفرعون وملئه. وقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما أتى به موسى، عليه السلام، من المعجزات العظيمة الباهرة، أخبر الله سبحانه وتعالى، أنه مع مشاهدة هذه المعجزات، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر الله عزّ وجلّ هذا تسلية لنبيه محمد، ﷺ؛ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر، والتكذيب، فبين الله سبحانه وتعالى، أن له أسوة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الذي جاء به موسى، عليه السلام، كان أمراً عظيماً، ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية من قومه.

والفاء في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ عاطفة على مقدر فصل في مواضع أخر؛ أي: فألقى عصاه. فإذا هي تلقف ما يأفكون، فمع ظهور تلك المعجزات الباهرة ما آمن لموسى؛ أي: فما انقاد واستسلم لموسى إلا ذرية قلائل من قومه؛ أي: فما آمن من قوم موسى إلا قليل منهم، وهم بنو إسرائيل، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب، وذلك أن موسى دعا الآباء إلى دينه، فلم يجيبوا خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من شبانهم مع الخوف ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ أي: آمنوا

مع خوف من فرعون؛ لأنه كان شديد البطش، ومع خوف من ملأ فرعون، وأشراف قومه، وهم رؤساء الذرية، فإن أشراف بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من إجابة موسى، خوفاً من فرعون عليهم، وعلى أنفسهم، وإنما جمع الضمير في ﴿ملإيهم﴾ مع أنه عائد إلى فرعون وهو واحد، تفخيماً له على حسب اعتقادهم، أو الضمير عائد على الذرية؛ أي: ملأ الذرية، وقد عرفت أن آباء الذرية كانوا من جملة ملأ فرعون ورؤسائه وعرفائه عليهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛ أي: من أن يصرفهم ويصدهم عن الإيمان بتسليط أنواع العذاب عليهم، وإنما قال: أن يفتنهم، ولم يقل: أن يفتنوهم؛ لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره، وهو بدل اشتمال من فرعون؛ أي: على خوف من فتنة فرعون. والمعنى: إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى، بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم، ثم عزمه على قتله، كما جاء في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. وقرأ الحسن وجراح ونبيح ﴿يفتنهم﴾ بضم الياء من أفتن الرباعي. كل هذا أوقع الرعب والخوف في قلوب بني إسرائيل، قوم موسى، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الأحداث والشبان، وكانوا خائفين من فرعون وأشراف قومهم الجبناء المرائين، الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب منهم أن يضطهدوهم ويعذبوهم، ليرتدوا عن دينهم. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي؛ لشديد العتو قويّ القهر في أرض مصر، فهو جدير بأن يخاف منه، كما حكى الله عنه بقوله؛ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: لمن المجاوزين الحد في الظلم والفساد، بكثرة القتل والتعذيب، لمن يخالفه في أمر من الأمور، وبالكبر وغمص الحق واحتقار الخلق، ومن ثم ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ حق الإيمان ﴿فَعَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلُوٓا۟﴾؛ أي: اعتمدوا وبوعده فثقوا ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾؛ أي: مذعنين مستسلمين منقادين لأمره تعالى، إذ لا

يكون الإيمان يقيناً إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، وخطاب موسى لمن آمن بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الذرية كانوا من قومه. وليس[1] في الآية دلالة على إيمان جميع قومه، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى، المتضمن معنى الإسلام، والاتباع، الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الغرق، أن يجعل لهم آلهة من الأصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه. وقيل: إنما أعيد قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري، ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان، وإن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره.

﴿فَقَالُواْ﴾؛ أي: فقال: قوم موسى مجيبين له ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾؛ أي: اعتمدنا في أمورنا كلها ثم دعوا ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تجعلنا موضع فتنة لهم؛ أي: مفتونين لهم؛ أي[2]: لا تمكنهم من أن يحملونا بالقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق، الذي قبلناه أو المعنى[3]: لا تظهرهم علينا، ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً وكفراً. وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق لما عذبوا، ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك. وقيل معناه: لا تسلطهم علينا فيعذبونا، حتى يفتنونا عن ديننا. ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد.. أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا﴾؛ أي: خلصنا ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ وحفظك وغوثك وإحسانك وإنعامك ﴿مِنَ﴾ أيدي ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: من أيدي فرعون وقومه، ومن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم؛ لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة. وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

وخلاصة[1] ما قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولاتفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا، أو نضعف فيه، فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل، وقد دلت التجارب على أن سوء حال المؤمنين، من ضعف أو فقر تجعلهم موضعاً لافتتان الكفار بهم، باعتقاد أنهم خير منهم، كما جاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ . . .﴾ الآية، لما أرسل[2] موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها، ومنعوا من الصلاة فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلون فيها خوفاً من فرعون، فذلك قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾؛ أي: وقلنا لموسى وأخيه هارون اتخذا واجعلا لقومكما ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾؛ أي: بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجىء، تعتصمون بها ومرجعاً ترجعون إليها للعبادة.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى وأخيه أن يتخذا لقومهما مساكن، بأرض مصر، يتوطنون بها، ويعبدون الله فيها رغماً عن أنف عدوهم فرعون، وهذا طمأنينة للقوم، فإنهم كانوا خائفين من فرعون. وقيل: مصر[3] في هذه الآية هي الإسكندرية، وقيل: هي مصر المعروفة لا الإسكندرية، ومصر من البحر إلى أسوان والإسكندرية من أرض مصر. وقرأ حفص في رواية هبيرة ﴿تبويا﴾ بالياء وهذا تسهيل غير قياسي، ولو جرى على القياس، لكان بين الهمزة والألف، ذكره أبو حيان.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؛ أي: اجعلوها مستقبلة للقبلة لتصلوا فيها سراً، لئلا يصيبكم من الكفار معرة بسبب الصلاة، كما كان المؤمنون في أول الإسلام بمكة على هذه الحالة، والمراد بالقبلة جهة بيت المقدس؛ لأنها قبلة اليهود إلى اليوم. وقيل: جهة الكعبة، وأنها قبلة موسى ومن معه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي

---

(١) المراغي.

(٢) تفسير الواحدي.

(٣) الشوكاني.

أمركم الله بإقامتها في تلك البيوت، متجهين إلى جهة واحدة؛ لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب؛ أي: أتموها بشروطها وأركانها المعلومة عندهم. ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بشر قومك الذين آمنوا بك بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم، وتنجيتهم من ظلمهم أو بشرهم، بالنصر في الدنيا، وبالجنة في العقبى.

وإنما[1] جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها. وقيل: إن الخطاب في ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض والأول أولى.

وعبارة المراغي هنا: وإنما خص موسى بالتبشير، لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة وأشرك معه هارون في أمر قومهما بالتبوؤ؛ لأنه مما يتولاه الرؤساء بتشاور بينهم، فهو تدبير عملي يقوم به هو ووزيره المساعد على تنفيذه، انتهت.

الإعراب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾ (الواو): استئنافية ﴿اتل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمْ﴾، متعلق به ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿إِذْ﴾؛ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿نَبَأَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحٍ﴾ والجملة في محل الجر مضاف إليه

---

(١) الشوكاني.

لـ ﴿إِذْ﴾ ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالَ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت يا: حرف نداء ﴿قوم﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونها شأنية واسمها ضمير مستتر فيها، تقديره: هو، يعود إلى الشأن، أو زائدة لزيادتها بين أداة الشرط وفعله. ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق به ﴿مَّقَامِى﴾ فاعل ﴿كَبُرَ﴾. ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ معطوف عليه ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تذكيري﴾ ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ويجوز أن تكون جملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ معترضة، فيكون الجواب جملة ﴿أجمعوا﴾ وهذا أولى؛ لأنه لا يصح أن يكون توكلت جواباً؛ لأنه لا يحسن ترتبه على الشرط، إذ هو متوكل على الله دائماً، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول: قال، على كونها جواب النداء ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟﴾ الفاء: رابطة أو عاطفة ﴿أجمعوا أمركم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجزم معطوفة على الجواب، أو هي جواب الشرط ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾: منصوب على كونه مفعولاً معه ولا يصح كونه معطوفاً على ﴿أَمْرَكُمْ﴾؛ لأن الشركاء ذوات لا يتسلط عليه ﴿أجمعوا﴾ إلا بقلة ويصح نصبه بإضمار فعل لائق، نحو: واستعينوا شركاءكم أو ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ واجمعوا شركاءكم، بهمزة الوصل على حد علفتها تبناً، وماءً بارداً، أو يقدر مضاف في المعطوف، والتقدير: فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَا﴾: ناهية ﴿يَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿أجمعوا﴾: على كونه جواب الشرط ﴿أَمْرُكُمْ﴾: اسم ﴿يَكُنْ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿غُمَّةً﴾ ﴿غُمَّةً﴾ خبر يكن منصوب ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾

الشرطية معطوف على قوله ﴿لَا يَكُنْ﴾؛ لأن العطف كان هنا بحرف مرتب ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿اقْضُوا﴾ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: ناهية ﴿تُنظِرُونِ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾: الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي الكسرة عن الفعل، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ اقْضُوا﴾ على كونها جواب الشرط.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلته لكم، وأردتم بيان شأني فيما إذا توليتم.. فأقول لكم ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿ما﴾ النافية ﴿ما﴾ نافية ﴿سَأَلْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿سأل﴾ و ﴿مِن﴾: زائدة، أو يقال: جواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فإن توليتم، فلا ضير عليّ؛ لأني ما سألتكم عليه من أجر، والفاء في ﴿سَأَلْتُكُم﴾ تعليل للجواب المحذوف وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إِذَا﴾ المقدرة وجملة ﴿إِذَا﴾ المقدرة مستأنفة على كونها مقول، قال. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ﴿إنْ﴾ نافية ﴿أجري﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿وَأُمِرْتُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ﴿أَكُونَ﴾: منصوب بها واسمها ضمير يعود على ﴿نُوحٍ﴾. ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأمرت بكوني من المسلمين، والجار

المحذوف متعلق بـ ﴿أَكُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: الفاء: عاطفة ﴿كذبوه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾ على كونها مضافاً لـ ﴿إِذْ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ الفاء، عاطفة ﴿نجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ الواو: عاطفة ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على مفعول ﴿نجيناه﴾ ﴿مَّعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة من الموصولة ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجيناه﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿نجيناه﴾ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة أيضاً على جملة ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به ﴿فَٱنظُرْ﴾ الفاء عاطفة ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿أغرقنا﴾ ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، معلق للنظر عن العمل فيما بعده ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول انظر علقت عنها باسم الاستفهام.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿بَعَثْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿رُسُلًا﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿فَجَآءُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿بعثنا﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿جَآءَ﴾ ﴿فَمَا كَانُوا۟﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام: حرف جر وجحود ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود.

﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ ﴿كَذَّبُواْ﴾ فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾ وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿مِن قَبْلُۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾ أيضاً وجملة ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، على مذهب البصريين، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره: فما كانوا مريدين للإيمان بما كذبوا به من قبل، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿جاؤوا﴾ وأما على مذهب الكوفيين فلام الجحود زائدة، والتقدير: فما كانوا مؤمنين بما كذبوا به من قبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَطْبَعُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ متعلق به، والتقدير: نطبع على قلب كل معتد طبعاً مثل طبعنا على هؤلاء، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ مفعول به ومعطوف عليه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ﴿بآياتنا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهما مؤيدين بآياتنا، وجملة ﴿بَعَثْنَا﴾: معطوفة على ﴿بَعَثْنَا﴾ الأول عطف قصة على قصة، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لما في الخاص من الغرابة، كما ذكره «أبو السعود» ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على محذوف مرتب عليه، تقديره: فأتياهم فبلغاهم الرسالة، فاستكبروا عن اتباعها، فالجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿استكبروا﴾ ﴿قَوْمًا﴾: خبرها ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ صفة له.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم استكبروا عن آياتنا، وأردت بيان كيفية استكبارهم..

فأقول لك ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاء﴾ أو حال من ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئت، قلت ﴿إنّ هذا﴾ ناصب واسمه ﴿لَسِحۡرٌ﴾؛ خبره. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة سحر وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قالوا.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت. قلت ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿تقولون﴾: فعل وفاعل ﴿لِلۡحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق به؛ أي: في شأن الحق ولأجله ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين متعلق بـ ﴿تقولون﴾ ﴿جَآءَكُمۡۖ﴾: فعل ومفعول وفاعله، ضمير يعود على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾ ومقول ﴿تقولون﴾ محذوف، تقديره أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر. وقوله: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؛ من كلام موسى، والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري. ﴿سحر﴾ خبر مقدم ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة من جهة موسى، عليه السلام، تكذيباً لقولهم وتوبيخاً إثر توبيخ، وتجهيلاً بعد تجهيل، كما ذكره «أبو السعود» ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَجِئۡتَنَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾: اللام حرف جر وتعليل ﴿تلفت﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُّوسَىٰ﴾. ﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: للفتك وصرفك إيانا عن الحق

الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جئتنا﴾.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تلفتنا﴾ ﴿وَجَدْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به وهو في محل المفعول الثاني. ﴿ءَابَآءَنَا﴾ مفعول أول، أو وجد هنا بمعنى أصاب يتعدى لمفعول واحد ﴿وَتَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿تلفت﴾ ﴿لَكُمَا﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُ﴾ مقدم على اسمها. ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ اسم تكون مؤخر. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أو بـ ﴿تكون﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ حجازية ﴿نَحْنُ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿لَكُمَا﴾ متعلق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مؤمنين﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية والباء: زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿ٱئْتُونِى . . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فأتوا بالسحرة ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ ﴿لما﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿مُّوسَىٰ﴾ فاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لمّا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على تلك الجملة المحذوفة ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: ما أنتم ملقونه.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف؛ تقديره: فألقى السحرة ما عندهم ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَلْقَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لما﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ إلى آخر الآيتين مقول محكي، وإن شئت، قلت: ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿جِئْتُم﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿ٱلسِّحْرُ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ وفي المقام أوجه أخر من الإعراب، تركناها خوف الإطالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾. ناصب واسمه ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معطوفة على قوله ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يحق﴾ ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: ويحق الله الحق لو لم يكره المجرمون ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو كره المجرمون يحق الله الحق بكلماته، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على تلك الجملة المحذوفة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، كما ذكره في «الفتوحات» ﴿ما﴾: نافية ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾: متعلق به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ فاعل ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾: جار

ومجرور صفة لـ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ والجملة مستأنفة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾: على حرف جر، بمعنى اللام التعليلية ﴿خوفٍ﴾ مجرور بها الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿مِّن فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بخوف. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدل اشتمال من فرعون؛ أي: من فتنتهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَعَالٍ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿عال﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأن أصله لعالي، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها فصار لعال. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿عال﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ عطف علة على معلول ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: الواو: استئنافية ﴿قال موسى﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم على كونه فعل شرط لها. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَوَكَّلُوٓا۟﴾ ﴿تَوَكَّلُوٓا۟﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿مُّسْلِمِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مسلمين، فعليه توكلوا، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَآ...﴾ إلى آخر الآيتين: مقول محكي، وإن شئت، قلت: على الله متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول ﴿قالوا﴾ ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ متعلق بـ ﴿فِتْنَةً﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ وجملة ﴿تَجْعَلْنَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَنَجِّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نجنا﴾ وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾: متعلق به ﴿وَأَخِيهِ﴾ معطوف على موسى ﴿أَن﴾: إما مفسرة لوجود ضابطها، وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه، وإما مصدرية ﴿تَبَوَّءَا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون أمر من تفعل مثل قوله تعالى: ﴿أن اصنع الفلك﴾ أو فعل أمر في محل النصب بأن المصدرية مبني على حذف النون ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ متعلق بـ ﴿تبوءا﴾ وهو في محل المفعول الأول والأقرب كون اللام زائدة في المفعول ﴿بِمِصْرَ﴾: متعلق بـ ﴿تَبَوَّءَا﴾ أو حال من ضمير ﴿تبوءا﴾ أو حال من ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿بُيُوتًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿تبوءا﴾ وجملة ﴿تبوءا﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ﴿لأوحينا﴾ تقديره: وأوحينا إلى موسى وأخيه التبوؤ لقومهما بمصر بيوتا ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان

والجملة معطوفة على جملة ﴿تبوءا﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تبوءا﴾. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿تبوءا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: بعض نبأه مع قومه، إذ المذكور ليس جميع خبره، بل بعضه وتقدم أن اسمه عبد الغفار، وأن نوحاً لقبه. والنبأ: هو الخبر الذي له خطر وشأن. ﴿مَّقَامِى﴾ والمقام: بفتح الميم، مكان القيام، وبضمها مكان الإقامة، أو الإقامة نفسها، والأول: من قام الثلاثي، والثاني: من أقام الرباعي، وفي «زاده» والمقام إما اسم لمكان القيام، أو مصدر له، فعلى الأول يكون كناية عن النفس؛ لأن المكان من لوازمه، وعلى كونه مصدراً، إما أن يراد به طول قيامه بينهم، أو قيامه على الدعوة والتذكير؛ لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، اهـ ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ أمر من الإجماع والإجماع: العزيمة على الأمر عزماً لا تردد فيه، كما قال شاعرهم:

أَجْـمَـعُـوْا أَمْـرَهُـمْ بِـلَـيْـلٍ فَـلَـمَّـا   أَصْـبَـحُـوْا أَصْـبَـحَـتْ لَـهُـمْ ضَـوْضَـاءُ

فأجمع الرباعي يتعدى بنفسه وبعلى، فيقال: أجمع أمره وأجمع عليه، والمعنى على كلا الوجهين: العزم والتصميم؛ أي: عزم أمره وصمم عليه. وفي «السمين» قرأ العامة: فأجمعوا أمراً، من أجمع، بقطع الهمزة، يقال: أجمع في المعاني، وجمع في الأعيان، فيقال: أجمعت أمري، وجمعت الجيش هذا هو الأكثر ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾؛ أي: أدوا إليّ ذلك الأمر الذي تريدون بي، فالقضاء هنا، من قولهم: قضى دينه، إذا أداه. وقيل معناه: أسرعوا به إليّ، وأبرزوه، ولام القضاء واو؛ لأنه من قضا يقضو، اهـ «سمين».

﴿غُمَّةً﴾ والغمة: الستر واللبس، يقال: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له، والإنظار: التأخير والإمهال. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ تقدم أن الفلك يستعمل مفرداً وجمعاً، والمراد هنا المفرد ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الذين هلكوا بالغرق، جمع خليفة، كصحائف وصحيفة ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الطبع على القلوب هو عدم

قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها، واستحوذ عليها. والمعتدين جمع معتد، والمعتدي: المتجاوز حدود الحق والعدل، اتباعاً لهوى النفس وشهواتها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ تقدم أن الملأ أشراف الناس الذين يملؤون العيون بالمهابة، والمجالس بأجرامهم والاقتصار عليهم؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم من بقية قوم فرعون تبع لهم، هكذا قرره بعض المفسرين، وقرر بعضهم أن المراد بالملأ هنا، مطلق القوم، من استعمال الخاص في العام. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ من باب استفعل والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ اللفت والفتل أخوان، ا هـ «أبو السعود»، وكلاهما من باب ضرب، ففي «المصباح» لفته لفتاً، من باب ضرب، صرفه إلى ذات اليمين أو الشمال، ومنه يقال: لفته عن رأيه إذا صرفته ا هـ وفي «السمين» اللفت: اللي والصرف، لفته عن كذا؛ أي: صرفه ولواه عنه. وقال الأزهري: لفت الشيء وفتله: لواه، وهذا من المقلوب، قلت: ولا يدعى فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والكبرياء، مصدر على وزن فعلياء، ومعناها: العظمة، وسمى الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا، قاله الزجاج، وقيل: سمي بذلك؛ لأن الملك يتكبر.

﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وقرىء سحار، والسحار، صيغة مبالغة؛ أي: كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ الذرية في اللغة، صغار الأولاد وتستعمل في الصغار والكبار عرفاً، والذرية اسم يقع على القليل من القوم. قال ابن عباس: الذرية القليل، وقيل، المراد به: التصغير وقلة العدد ﴿فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفتنة والفتون: الابتلاء والاختبار الشديد، للحمل على الفعل أو الترك والمراد به هنا: الاضطهاد والتعذيب ﴿أن تبوءا﴾؛ أي: أن اتخذا لقومكما بيوتاً بمصر، يقال: تبوأ الدار، اتخذها مباءة ومسكناً، يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة، ويقال: بوأت زيداً مكاناً، وبوأت لزيد مكاناً، والمبوأ: المنزل الملزوم ومنه بوأه الله منزلاً؛ أي ألزمه إياه وأسكنه فيه، ومنها الحديث «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومنه قول الراجز:

نَـحْـنُ بَـنُـوْ عَـدْنَـانَ لَـيْـسَ شَـكُّ   تَـبَـوَّأ الْـمَـجْـدُ بِـنَـا وَالْـمُـلْـكُ

﴿قِبۡلَةً﴾ والقبلة ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه، ومنه قبلة الصلاة؛ لأن المصلي يقابلها، وهي تقابله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾؛ لأن حق الإسناد أن يكون للذات نظير ثقل عليّ ظله، كما في «الصاوي».

ومنها: تقديم المعمول على عامله لإفادة الحصر في قوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

ومنها: الاعتراض بين الشرط وجوابه بقوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ إن قلنا الجواب جملة ﴿فأجمعوا﴾ كما قاله الأكثرون.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ إذا كان من قضى دينه إذا أداه، فالهلاك مشبه بالدين على طريقة الاستعارة المكنية والقضاء تخييل، أو فيه تضمين واستعارة مكنية إذا كان من قضى، بمعنى حكم، والتقدير: احكموا بما تؤدونه إليّ.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ لأن الإنظار حقيقة في إمهال دين المعسر، مجاز في تأخير الإهلاك.

ومنها: تأخير الإغراق عن ذكر الإنجاء والاستخلاف في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمة، التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب، الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين، ذكره «أبو السعود».

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لما في الخاص من الغرابة.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ إفادةً لتحقيره وعدم المبالاة به.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم وحق العبارة أن الله لا يصلح عملكم كما في «الكرخي».

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ فكأنه قال إن الله يبطل الباطل ويحق الحق.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن المراد بها أرض مصر.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(١) أبان جبروت فرعون

---

(١) المراغي.

وملئه وخوف بني إسرائيل من بطشهم، وأنهم امتنعوا لأجل ذلك عن الإيمان إلا قليلاً من شبانهم.. استجابوا لدعوة موسى بعد حث لهم وتحريض على الإيمان، وطلب موسى من بني إسرائيل أن يتخذوا بيوتاً لهم بمصر، يقيمون فيها مراسم دينهم، ثم بشرهم بالفوز والغلبة والنصر.. قفى على ذلك بدعوة موسى على فرعون وقومه مع ذكر السبب الذي دعاه إلى ذلك، وهو: الجحودوالعناد لدعوته لما أوتوه، من بسطة النعمة التي أبطرتهم، فتركوا الدين وراءهم ظهرياً.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما بالغ[1] موسى عليه السلام في إظهار المعجزات، وهم مصرون على العناد، واشتد أذاهم عليه، وعلى من آمن معه، وهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعلم بالتجربة وطول الصحبة، أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى.. دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس وأخزى الكفرة، كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله تعالى، من النعمة في الدنيا، وكان ذلك سبباً للإيمان به، ولشكر نعمه، فجعلوا ذلك سبباً لجحوده ولكفر نعمه انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] ما دار من الحوار بين موسى وفرعون، وذكر ما أتى به موسى من الحجج والبينات الدالة على صدقه، وغلبه لسحرة فرعون، ولم يزده ذلك إلا كبراً وعتواً فدعا عليه بالطمس على الأموال، والشد على القلوب، وذكر استجابة الله دعوته.. قفى على ذلك بذكر خاتمة القصة: وهو ما كان من تأييد الله لموسى وأخيه، على ضعفهما وقوة فرعون وقومه، إذ كانت دولته أقوى دول العالم في عصره.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ...﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما جرى لفرعون وأتباعه من الهلاك، ذكر ما أحسن به لبني إسرائيل، وما امتن به عليهم، إذ كان بنو إسرائيل قد أخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون، فذكر تعالى أنه اختار لهم من الأماكن أحسنها، والظاهر أن بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى، ونجوا من الغرق، وسياق الآيات يشهد لهم.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر خاتمة فرعون[2] وجنوده.. قفى على ذلك بذكر عاقبة بني إسرائيل، وفي هذا عبرة لمكذبي محمد، ﷺ، والجاحدين من قومه المغترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأوفر ثروة، وقد جعل الله سننه في المكذبين واحدةً، ففكروا أيها المكذبون في عاقبة أمركم، وتدبروا ملياً خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين، وأعطاهم أعظم ملك في العالمين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص[3] قصص الأنبياء السالفين، وما لا قوه من أقوامهم، من العناد والجحود والاستكبار والعتو، وفي كل حال كان النصر حليف المؤمنين، والخذلان نصيب الظالمين.. أردف ذلك بذكر صدقه فيما قال: ووعد وأوعد، وكون ذلك سنّة الله في المكذبين قبل، وسيكون ذلك فيهم من بعد، وليس في هذا سبيل للافتراء والشك، وقد ساق ذلك بطريق التلطف في الأسلوب، فوجه الكلام إلى الرسول، ﷺ، والمراد قومه، فجاء على نحو قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، وقد جاء مثل هذا في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ...﴾ الآيات الثلاث، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.. أتبعه بذكر هذه الآيات للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم، وانتفعوا بذلك الإيمان. وهذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها، وبيان لسنن الله تعالى في الأمم مع رسلهم، وفي خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله، وأفعال عباده ووقوعها وفقهما.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن سننه في نوع الإنسان، أن خلقه مستعداً للإيمان والكفر، الخير والشر، ولم يشأ أن يجعله على طريقة واحدة، إما الكفر وحده وإما الإيمان وحده، وأنك أيها الرسول لا تقدر على جعله على غير ذلك.. بين هنا أن مدار سعادته على استعمال عقله، في التمييز بين الخير والشر، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار، وبيان الطريق المستقيم الذي يوصل إلى السعادة، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار، إذا أحسن النظر والتفكر اللذين أمر الله تعالى بهما. فليحذر أولئك القوم أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المكذبين فإن سنتنا لا تغيير فيها ولا تبديل فننجي رسلنا والذين آمنوا معهم، ونهلك من كذبهم وندخله سواء الجحيم.

وقال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما تقدم قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ وكان ذلك مشعراً بما حل بالأمم الماضية المكذبة ومصرحاً بهلاكهم في غير ما آية.. أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية، فقال: ثم ننجي رسلنا، والمعنى: أن الذين خلوا أهلكناهم لما كذبوا الرسل، ثم نجينا الرسل والمؤمنين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد أن أعد قومه بني إسرائيل للخروج من مصر على قدر ما يستطيع من الإعداد الديني والدنيوي، وغرس في قلوبهم الإيمان وحب العزة

والكرامة ونحو ذلك، وتوجه إلى الله أن يتم أمره ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾؛ أي: أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم ﴿زِينَةً﴾؛ أي: ما يتزين به من حلي وحلل، وآنية وماعون، وأثاث ورياش ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ كثيرة من صامت وناطق، أي: من ذهب وفضة وزروع وأنعام، يتمتعون بها، وينفقون منها في حظوظهم وشهواتهم. فالمراد[1] بالزينة: ما يتزين به من ملبوس ومركوب وغلمان وحلية وفراش وسلاح، وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة، والمال ما زاد على هذه الأشياء، من الصامت ونحوه ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم كرر النداء تأكيداً للدعاء والاستغاثة فقال: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا، آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾؛ أي: لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك، عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك، باتباع الحق والعدل وصالح العمل. والمعنى[2]: إنك آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها، ويتبعوا سبيلك، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروها، وضلوا عن سبيلك، وأضلوا غيرهم. وقد جرت[3] سنّة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان، وتخضع رقاب الناس لأربابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾. وقد أثبت البحث والتنقيب في نواويس قبور المصريين التي كشفت حديثاً، وفيما حفظ في دور الآثار المصرية، وغيرها من العواصم الأوروبية، ما يشهد بكثرة تلك الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحلي، لم تكن لتخطر على البال، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التي لاتضارعها مدنية العصر الحاضر، مع ما بلغه العلم والرقي العقلي في الإنسان.

قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ وقد اختلف[4] في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال: الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة، والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه، أعطاهم ما أعطاهم من النعم، ليضلوا، فتكون اللام على هذا، متعلقة بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾. وقيل إنها لام كي؛ أي:

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

(٤) الشوكاني.

أعطيتهم لكي يضلوا. وقال قوم: إن المعنى: أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا، فحذفت لا، كما قال سبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن، إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فموه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ وقيل: اللام للدعاء عليهم، والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: ﴿اطمس﴾ و﴿اشدد﴾. وقد أطال صاحب «الكشاف» في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الأول هو الأولى، كما اقتصرنا عليه في حلّ الآية.

وقرأ[1] أبو الفضل الرقاشي ﴿أإنك آتيت﴾ على الاستفهام. وقرأ الكوفيون وقتادة والأعمش وعيسى والحسن والأعرج بخلاف عنهما: ﴿ليضلوا﴾ بضم الياء من أضلّ الرباعي. وقرأ الحرميان، نافع وابن كثير والعربيان، أبو عمرو وابن عامر ومجاهد وأبو رجاء والأعرج وشيبة وأبو جعفر، وأهل مكة، بفتحها من ضل الثلاثي. وقرأ الشعبي: بكسرها والى بين الكسرات الثلاث.

ولما قدم ذكر الأموال، وهي أعز ما ادخر، دعا بالطموس عليها، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: ربنا امحق أموالهم، وأهلكها بالآفات التي تستأصل زروعهم، والجوائح التي تهلك أنعامهم، وتنقص مكاسبهم، فيذوقوا ذل الحاجة. وقرأ الشعبي وفرقة ﴿اطمس﴾ بضم الميم، وهي لغة مشهورة. قال ابن[2] عباس ومحمد بن كعب، صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن، إلا طمس عليه، فلم ينتفع بها أحد بعد. وقال قتادة بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة. وقال مجاهد أهلكها حتى لا ترى ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اجعلها قاسية ومربوطة حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ جواب[3] للدعاء أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وإنما دعا موسى عليهم بهذا الدعاء، لما علم

---

(١) البحر المحيط. (٣) المراح.

(٢) البحر المحيط.

أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون، فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم؛ أي: واطبع[1] على قلوبهم وزدها قسوة على قسوتها، وإصراراً وعناداً فيستحقوا شديد عقابك، ولا يؤمنوا إلا إذا رأوا عذابك، ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك.

وسبب غضبة موسى: أنه عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضاً مكرراً، وردد عليهم المواعظ والنصائح، ردحاً من الزمن، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه من الكفر والضلال المبين، ثم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعتواً واستكباراً في الأرض، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالاختبار أنه لا يكون منهم إلا الضلال، وأن إيمانهم كالمحال، فاشتد عليهم ومقتهم ودعا عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، إذ لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا، ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه، ويسيرون قُدُماً في طريق الغي والهلاك.

وخلاصة ذلك: كأنه قيل: فليثبتوا على ضلالهم، وليطبع الله على قلوبهم، فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أهل لذلك وأحق به، وما مثله إلا مثل قول الأب المشفق على ولده، الذي انحرف عن جادة الاستقامة، ولم يقبل منه نصيحة: فلتمض في غوايتك، ولتعث في الأرض فساداً وهو لا يريد غوايته بل حرداً وغضباً.

وقد روي أن موسى دعا بهذا الدعاء، وهارون، عليه السلام، كان يؤمّن على دعاء أخيه ومن ثم قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾؛ أي: قال[2] الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون: قد قبلت دعوتكما. في فرعون وملئه وأموالهم، فموسى كان يدعو وهارون كان يؤمن، والتأمين دعاء، وحصل المدعو به، بعد أربعين سنة؛ لأن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة. وقرأ ابن السميقع: ﴿قد أجبت دعوتكما﴾ خبراً عن الله تعالى، ونصب دعوة. وقرأ الربيع: ﴿قد

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

أجبت دعوتيكما﴾ وهذا يؤكد قول من قال: إن هارون دعا مع موسى.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾؛ أي: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة، وإلزام الحجة ولا تستعجلا؛ أي: فامضيا لأمري، واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنّتي في خلقي، فيستعجلا الأمر قبل ميقاته، ويستبطئا وقوعه في حينه؛ أي: ولا تسلكا طريق الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلاً في الحال، والاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله يصدران من الجهال.

وفي سفر الخروج[1] من التوراة ما يدل على استجابة دعاء موسى، فقد كانت تنزل النوازل على مصر وأهلها، فيلجأ فرعون إلى موسى حين كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم، فيؤمنوا به حتى إذا كشفها قسى الرب تعالى قلب فرعون، فأصر على كفره. وقرأ الجمهور[2]: ﴿تتبعان﴾ بتشديد التاء والنون، وابن عباس وابن ذكوان، بتخفيف التاء والنون على النفي، لا على النهي. وابن ذكوان أيضاً بتشديد التاء وتخفيف النون. وفرقة: بتخفيف التاء وسكون النون. وروى ذلك الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر، فأما شد النون فعلى أنها نون التوكيد الشديدة، لحقت فعل النهي المتصل به ضمير الاثنين، وأما تخفيفها مكسورةً فقيل: هي نون التوكيد الخفيفة وكسرت كما كسرت الشديدة، لكون الكسر الأصل ولكونهما أشبهتا نون التثنية.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: جعلناهم مجاوزين بحر السويس، وسمي بحر القلزم، بأن جعلناه يبسا، وحفظناهم حتى بلغوا الشط، أي: جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونة الله، تعالى، وقدرته وحفظه، وكان آيةً من آياته لنبيه موسى، عليه السلام، بفرقه تعالى بهم البحر. وقرأ الحسن: ﴿وجوزنا﴾ وهما لغتان.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

قال أهل التفسير[1]: اجتمع يعقوب وبنوه على يوسف، وهم اثنان وتسعون، وخرج بنوه مع موسى من مصر، وهم ست مئة ألف، وذلك لما أجاب الله تعالى، دعاء موسى وهارون.. أمرهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر، فخرجوا وقد كان فرعون غافلاً عن ذلك، فلما سمع بخروجهم، خرج بجنوده في طلبهم، فلما أدركهم، قالوا لموسى: أين المخلص، والبحر أمامنا والعدو وراءنا، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق، فقطعه موسى وبنو إسرائيل، فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم، وكان معه ثمانية آلاف حصان على لون حصانه، سوى سائر الألوان، وكان يقدمهم جبريل على فرس أنثى وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فدنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يتمالك فرعون من أمره شيئاً، فنزل البحر وتبعه جنوده، حتى إذا اكتملوا جميعاً في البحر، وهم أولهم بالخروج، انطبق البحر عليهم، ولا يخفى عليك ما في هذه القصة من الخيالات الإسرائيلية.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾؛ أي: فلحقهم وأدركهم في مجاوزة البحر ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾؛ أي: ظلماً وعدواناً، أو ظالمين عادين عليهم؛ أي: مفرطين في محبة قتلهم ومجاوزين الحد، ليفتكوا بهم، أو يعيدوهم إلى مصر، ليسوموهم سوء العذاب ويجعلوهم عبيداً لهم. وقيل: إن البغي طلب الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو في الفعل، وخاض البحر مع جنوده وراءهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾؛ أي: حتى إذا أشرف على الغرق وناله، ووصله وألجمه ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ وصدقت ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: بأن الشأن والحال ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ﴿إِلَّا﴾ الرب ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: صدقت بوحدانيته وانقادت لأمره ﴿بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى، عليه السلام، ﴿وَأَنَا۠﴾ الآن ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لأوامره، كما انقادوا، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعد ما كان مني من جحود بآياته، وعنادٍ لرسوله موسى، عليه السلام، وقرأ الحسن[2] وقتادة: ﴿فاتبعهم﴾ بتشديد التاء. وقرأ الجمهور ﴿وجاوزنا فأتبعهم﴾

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

رباعياً. وقرأ الحسن: ﴿وعدوا﴾ بضم العين وتشديد الواو، بوزن علا يعلو علواً، وتقدم في الأنعام، وعدواً وعدواً. من العدوان. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿أنه﴾ بفتح الألف، والمعنى آمنت بأنه على حذف الباء، فلما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى أن ففتح. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿إنه﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف ابتداء كلام، أو بدلاً من آمنت، أو على إضمار القول؛ أي: قائلاً إنه.

ولما لحقه من الدهش ما لحقه كرر[1] المعنى الواحد بثلاث عبارات، حرصاً منه على القبول المفضي إلى النجاة، ولكن هيهات، فقد فات الوقت، وجاء الإيمان حين اليأس، وهو لا يجدي فتيلاً ولا قطميراً، وهذا ما بينه سبحانه بقوله: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؛ أي؛ وقيل له: أتسلم الآن حين يئست من الحياة، وأيقنت بالممات، وقد عصيت وخالفت أمر ربك قبل ذلك، وضيعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض الظالمين للعباد، الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل، فقد صار إسلامك اضطراراً، لا اختياراً، ولم[2] يقبل ذلك من فرعون؛ لأنه إنما آمن عند نزول العذاب، وإنما أقر بعزة الربوبية ووحدانية الله تعالى، ولم يقر بنبوة موسى؛ ولأن ذلك الإقرار كان مبنياً على محض التقليد، وهو كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، وإنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة.

وخلاصة المعنى[3]: آلآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض الصادين عن سبيله، فهلا أقررت بما أقررت به الآن، وباب التوبة لك منفتح، والمقصود من الاستفهام في قوله: ﴿الآن﴾ التقريع والتوبيخ له.

---

(١) المراغي. (٢) المراح. (٣) المراغي.

وقد اختلف[1] في من القائل لفرعون بهذه المقالة، فقيل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. والظاهر[2] أن قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ إلى آخره من كلام الله تعالى، على لسان ملك، ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾؛ أي: فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك؛ أي: على مكان مرتفع من الأرض، ينظر إليك من كذب بهلاكك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾؛ أي: لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله، والكفر به، والسعي في الأرض بالفساد، وهذا آخر مقول جبريل. ووجه[3] العبرة في ذلك أنه يكون شاهداً على صدق وعد الله لرسله، ووعيده لأعدائهم، كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم، والمعنى: ليعرفوا عبوديتك ويبطل دعوى ألوهيتك؛ لأن الإله لا يموت.

قال أهل التفسير[4]: لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه، وأخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً، كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل فعرفوه، فمن ذلك الوقت، لا يقبل الماء الميت أبداً، ولكن تحديد هذه البداية لا أصل له. ومعنى قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ يعني: نلقيك وأنت جسد لا روح فيه، وقيل: هذ الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء، كأنه قيل له: ننجيك، ولكن هذه النجاة، إنما تحصل لبدنك لا لروحك، وقيل: أراد بالبدن الدرع، وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به، فلّما رأوه في درعه ذلك عرفوه.

قرأ الجمهور[5]: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالتشديد من التنجية. وقرأ يعقوب: ﴿ننجيك﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) الخازن.
(٥) البحر المحيط.

مخففاً مضارع أنجى. وقرأ أبي وابن السميقع ويزيد البربري: ﴿ننحيك﴾ بالحاء المهملة من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود.

ومعنى ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالجيم، نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، وقالوا هو أعظم شأناً من ذاك، فألقاه الله على نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه. وقيل، المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق. ومعنى: ﴿ننحيك﴾ بالحاء المهملة نطرحك على ناحية من الأرض مما يلي البحر. قال كعب: رماه البحر إلى الساحل كأنه ثور. وقرأ أبو حنيفة ﴿بأبدانك﴾. ورويت عن ابن مسعود أيضاً؛ أي: بدروعك، أو جعل كل جزء من البدن بدناً كقولهم ثابت مفارقه. واختلف[1] المفسرون في معنى ﴿بِبَدَنِكَ﴾ فقيل معناه: بجسدك بعد سلب الروح، منه قاله مجاهد. وقيل معناه: بدرعك، قاله: صخر، والدرع يسمى بدناً ومنه قول كعب:

تَرَىٰ الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبَغَاتٌ ... عَلَىٰ ٱلأَبْطَالِ وَٱلْيَلَبَ ٱلْحَصِينَا

أراد بالأبدان الدروع. وقد ذكرنا أنه كان له درع من ذهب فعرف بدرعه. وقيل: نلقيك عرياناً قاله: الزجاج. وقيل: ننجيك وحدك، قاله ابن قتيبة، ورجح القول بأن المراد بالبدن هنا، الجسد.

وقرأ ابن مسعود[2] وابن السميقع ﴿بندائك﴾ مكان ببدنك؛ أي: بدعائك بقولك: آمنت إلى آخره، لنجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع أو بما ناديت به في قومك كما حكاه عنه سبحانه ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾. والمراد[3] بالآية في قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ العلامة؛ أي: لتكون لمن خلفك، وبعدك من الناس، علامة يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدعي، ويندفع عنهم الشك

---

(١) زاد المسير والشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

في كونك قد صرت ميتاً بالغرق. وقيل: المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آيةً من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سأل من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر، والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهراً طويلاً، كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرىء[1]: ﴿لمن خلفك﴾ على صيغة الفعل الماضي بفتح اللام؛ أي: من الجبابرة والفراعنة، ليتعظوا بذلك ويحذروا أن يصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فعلك. وقرأ ابن السميقع وأبو المتوكل وأبو الجوزاء ﴿لمن خلقك﴾ بالقاف من الخلق وهو الله، سبحانه وتعالى، أي: ليجعلك الله آية له في عباده.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ودلائل قدرتنا التي توجب الاعتبار والتفكر في مصنوعاته، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: لساهون عمّا توجبه الآيات من التيقظ وهذه الجملة تذييلية؛ أي: وإن كثيراً من الناس لفي غفلة عن حججنا وأدلتنا، على أن العبادة له وحده خالصةً، فهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها، وفي ذلك إيماءٌ إلى ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها، واستبانة سنن الله فيها، للعظة والاعتبار ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ هذا من جملة ما عدد الله سبحانه وتعالى من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد ما أنجيناهم، وأهلكنا أعداءهم منزلاً صالحاً مرضياً، وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية، وهي بلاد فلسطين والأردن. وقيل: أرض الشام ومصر، فالشام بلاد البركة والخصب، وأورثهم الله تعالى جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه. وهذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾. والمبوأ اسم مكان أو مصدر، كما سيأتي في مبحث التصريف، وإضافته إلى الصدق على ما

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

جرت عليه عادة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، كما مر في أول هذه السورة، والمراد به هنا المنزل المحمود المختار.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: وأعطيناهم المستلذات من الرزق فيها وقد جاء وصفها في كتبهم، بأنها تفيض لبناً وعسلاً، وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام وصيد البر والبحر. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً، بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعدما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة و علمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الإخبار بنبوة محمد ﷺ.

وقيل المعنى: إنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو القرآن النازل على محمد، ﷺ، فاختلفوا في نعته وصفته، وآمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، فيكون المراد بالمختلفين على القول **الأول**: هم اليهود، بعد أن أنزلت عليهم التوراة، وعلموا بها، وعلى القول **الثاني**: هم اليهود المعاصرون لمحمد، ﷺ، وقيل[1] العلم، بمعنى: المعلوم، وهو محمد، ﷺ، لأن رسالته كانت معلومة عندهم، مكتوبة في التوراة، وكانوا يستفتحون به؛ أي: يستنصرون به في الحروب، يقولون: اللهم بحرمة النبي المبعوث في آخر الزمان، انصرنا فينصرون. فلما جاء قالوا: النبي الموعود به من ولد يعقوب، وهذا من ولد إسماعيل، فليس هو ذاك، فآمن به بعضهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقيل: العلم القرآن، كما مر، واختلافهم فيه قول بعضهم: هو من كلام محمد، وقول بعضهم: من كلام الله، وليس لنا إنما هو للعرب، وصدق به قوم فآمنوا؛ أي: فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد أن علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد، ﷺ، مجمعين على نبوته والإقرار به وبمبعثه غير مختلفين فيه، بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوباً عنده، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن به آخرون.

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد سبحانه وتعالى ﴿يَقْضِى﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: بين بني إسرائيل المختلفين، أو بين سائر الناس على العموم ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحق بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل؛ أي: إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته في دار الدنيا، بل سيقضي الله بينهم في الآخرة، فيميز المحقين من المبطلين، ويدخل الأولين الجنة والآخرين النار، وبئس القرار ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِى شَكٍّ﴾ وارتياب ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: في حقيقة ما أنزلنا إليك، والشك في موضوع اللغة خلاف اليقين، والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين، أو لعدم الأمارة، والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، فكل شك جهل، وليس كل جهل شكا. فإذا قيل: فلان شك في هذا الأمر، فمعناه: توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه. وظاهر هذا الخطاب في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أنه للنبي، ﷺ، والمعنى: فإن كنت يا محمد، في شك مما أنزلنا إليك يعني من حقيقة ما أخبرناك به، وأنزلناه يعني القرآن، أو المعنى: فإن كنت أيها الرسول في شك مما قلناه في تلك الشواهد، من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضاً وتقديراً ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: الذين يقرؤون كتب الأنبياء من قبلك، كاليهود والنصارى، يخبروك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم، أو يعلمون أن ما أنزلناه إليك من القصص حق، لا يستطيعون إنكاره. وقرأ يحيى وإبراهيم: ﴿يقرؤون الكتب﴾ على الجمع. وقد توجه[1] ههنا سؤال واعتراض، وهو أن يقال: هل شك النبي، ﷺ، فيما أنزل عليه، أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك؟ وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه. قلت: الجواب عن هذا السؤال، والاعتراض، ما قاله القاضي عياض: في كتابه «الشفاء» فإنه أورد هذا السؤال، ثم قال: احذر ثبت الله قلبك، أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين، عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي، ﷺ،

(١) الخازن.

فيما أوحى إليه فإنه من بشر. فمثل هذا لا يجوز عليه، ﷺ جملة، بل قد قال ابن عباس: لم يشك النبي، ﷺ، ولم يسأل، ونحوه عن سعيد بن جبير، والحسن البصري، وحكي عن قتادة أنه قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما أشك ولا أسأل» وعامة المفسرين على هذا، تم كلام القاضي عياض رحمه الله. ثم اختلفوا في معنى الآية، ومن المخاطب بهذا الخطاب، على قولين:

أحدهما: أن الخطاب للنبي، ﷺ، في الظاهر، والمراد به غيره، فهو كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ومعلوم أن النبي، ﷺ، لم يشرك، فثبت أن المراد به غيره، ومن أمثلة العرب إياك أعني واسمعي يا جارة. فعلى هذا يكون معنى الآية: قل يا محمد: يا أيها الإنسان الشاك، إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد، ﷺ، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب، يخبروك بصحته، ويدل على صحة هذا التأويل، قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الآية. فبين أنَّ المذكور في هذه الآية، على سبيل الرمز، هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح، وأيضاً لو كان النبي ﷺ شاكاً في نبوته.. لكان غيره أولى بالشك في نبوته، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية، معاذ الله من ذلك.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي، ﷺ، لم يشك قط، فيكون المراد بهذا التهييج، فإنه، ﷺ، إذا سمع هذا الكلام يقول: لا أشك يا رب، ولا أسأل أهل الكتاب، بل أكتفي بما أنزلته عليّ من الدلائل الظاهرة.

وقال الزجاج: إن الله سبحانه وتعالى، خاطب الرسول، ﷺ، في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ وهو شامل للخلق فهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وهذا وجه حسن، لكن فيه بعد، وهو أن يقال: متى كان الرسول، ﷺ، دخلاً في هذا الخطاب، كان الاعتراض موجودا، والسؤال وارداً. وقيل: إن لفظة ﴿إن﴾ في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ للنفي، وما أنت في شك، مما أنزلنا إليك حتى تسأل، فلا تسأل، ولئن سألت لازددت يقيناً.

والقول الثاني: أن هذا الخطاب ليس هو للنبي ﷺ، ألبتة، ووجه هذا

القول، أن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق: فرقة له مصدقون وبه مؤمنون، وفرقة على الضد من ذلك، والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره، الشاكون فيه، فخاطبهم الله عزّ وجلّ، بهذا الخطاب، فقال: تبارك وتعالى، فإن كنت أيها الإنسان، في شك مما أنزلنا إليك، من الهدى، على لسان محمد، ﷺ، فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله الضمير في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ﴾ وهو يريد الجمع؛ لأنه خطاب لجنس الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ لم يرد في الآية إنساناً بعينه، بل أراد الجمع.

واختلفوا في المسؤول عنه في قوله: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ من هم. فقال المحققون من أهل التفسير: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه؛ لأنهم هم الموثوق بأخبارهم. وقيل، المراد: كل أهل الكتاب، سواء مؤمنهم وكافرهم؛ لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار بصحة نبوة محمد، ﷺ، وإنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك، فقد حصل المقصود، والأول أصح. وقال الضحاك يعني أهل التقوى، وأهل الإيمان، من أهل الكتاب، ممن أدرك النبي، ﷺ، ذكره في «الخازن».

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿الحَقُّ﴾ واليقين من الخبر ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بأنك رسول الله حقاً، وإن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾؛ أي: من الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك بالتزلزل، عما أنت عليه، من الجزم واليقين، والامتراء: الشك والتردد؛ أي: لقد جاءك الحق الواضح، بأنك رسول الله، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون نعتك في كتبهم، فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك. وهذا النهي وما بعده، يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه، ممن لم تستنر بصيرتهم بنبوته ﷺ، فأظهروا الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم، فهم في شك منه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها الرسول ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ممن كذب بآيات الله وحججه في الأكوان، مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال

الرسل، لهداية البشر ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: فتكون ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان، وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. فالشك والامتراء فيما أنزل إليك، كالتكذيب بآيات الله جحوداً بها، وعناداً، كلاهما سواء في الخسران لحرمان الجميع من الهداية بها والوصول إلى السعادة في الدارين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ووجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: قضاؤه وحكمه الذي كتبه في اللوح المحفوظ، بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار، بفقدهم الاستعداد للاهتداء لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم بهم وإعراضهم عن آيات الله، التي خلقها في الأكوان بما يرشد إلى وحدانيته، وكمال قدرته ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه، ولا ينتقض قضاؤه ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الكونية، كآيات موسى عليه السلام، التي اقترحوا مثلها عليك، والآيات المنزلة عليك، كآيات القرآن العقلية، الدالة بإعجازها على أنها من عند الله، وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بأعينهم، ويذوقوه حين ينزل بهم، فيكون إيمانهم، اضطراراً لا اختياراً منهم، كدأب آل فرعون وأشباههم، فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم، وحينئذٍ لا ينفعهم إيمانهم كما لا ينفع فرعون، ويقال لهم إذ ذاك ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾؛ أي: فهلا كانت ووجدت قرية ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾؛ أي: فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل، آمنوا بعد دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، فنفعهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به.

وخلاصة ذلك: أنه لم يؤمن قوم منهم، بحيث لم يشذ منهم أحد.

قال أبو مالك[1] ـ صاحب ابن عباس ـ: كل ما في كتاب الله تعالى، من ذكر لولا، فمعناه: هلا إلا حرفين ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فمعناه: فما كانت قرية آمنت، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فمعناه: فما كان من القرون،

(١) المراح.

وتقدير الآية: فما كان ووجد أهل قرية آمنوا، فنفعهم إيمانهم في الدنيا ﴿إلا قوم يونس﴾ عليه السلام ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾؛ أي: صرفنا عنهم عذاب الذل ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعد صرف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت انقضاء آجالهم. وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ ﴿لَوْلَآ﴾[1] تحضيضية فيها معنى النفي والتوبيخ، والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحض عليه.

والحاصل: أن الآية تضمنت تحضيضاً وتوبيخاً ونفياً، فالنفي راجع لمن مضى، والتوبيخ والتحضيض راجعان لمن يسمع، فوبخ الله أهل القرى المهلكة، قبل يونس، قبل نزول العذاب بهم، إلا قوم يونس فإنهم آمنوا قبل نزوله بهم، وذلك حين رؤية أماراته فالفارق بين قوم يونس ومن قبلهم، أن قوم يونس آمنوا قبل نزوله، وذلك عند حضور أماراته وغيرهم لم يؤمن قبل نزوله، أعم من أن يكون آمن وقت نزوله، أو لم يؤمن أصلاً، فبهذا الاعتبار صار بين قوم يونس وغيرهم التباين باعتبار الوصف المذكور، فلم يندرج قوم يونس في غيرهم.

روي[2] أن يونس عليه السلام، بعث إلى نينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه، خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجّوا أربعين ليلة، وكان يونس قال لهم: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك.. آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة، ظهر في السماء غيم أسود هائل، فظهر منه دخان شديد، وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة، وسوّد سطوحهم فخرجوا إلى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات وكثرت التضرعات وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

وعن الفضل بن عباس، أنهم قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت،

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

وأنت أعظم وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، وخرج يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئاً، هكذا ذكروا، والله أعلم بحقيقة الحال.

والخلاصة(١): أن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم.. صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا، بعد ما أظلهم، وكاد ينزل بهم، ومتعناهم بمتاعها إلى زمن معلوم، وهو الوقت الذي يعيش فيه كل منهم بحسب سنن الله في استعداد بنيته ومعيشته. وفي ذلك تعريض بأهل مكة وإنذار لهم، وحضّ على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا العذاب بعنادهم، حتى إذا أنذرهم نبيهم بقرب وقوعه وخرج من بينهم، اعتبروا وآمنوا قبل اليأس، وقبل أن ينزل بهم البأس.

وقرأ أبي وعبد الله(٢): ﴿فهلا﴾، وكذا في مصحفهما، وقال الزمخشري: وقرىء ﴿إلا قوم يونس﴾ بالرفع على البدل من قرية عن الحرمي والكسائي وتقدم الخلاف في قراءة يونس بضم النون وكسرها، وذكر جواز فتحها.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد إيمان أهل الأرض جميعاً ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يخرج منهم أحد، حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين على الإيمان لا يتفرقون فيه، ولا يختلفون بأن يلجئهم إلى الإيمان قسراً، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة لا استعداد في فطرتهم، لغير الإيمان، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وجاء في معنى الآية قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وخلاصة ذلك(٣): أنه لو شاء ربك أن لا يخلق الإنسان مستعداً بفطرته للخير والشر، والإيمان والكفر، ومرجحاً باختياره لأحد الأمور الممكنة، على ما يقابله بإرادته ومشيئته.. لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا، يوازن باختياره بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعض ويكفر آخرون.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله سبحانه وتعالى، بأن ذلك لا يكون؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ والهمزة[1] فيه للاستفهام التأديبي للنبي، ﷺ، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتحزن يا محمد، على عدم إيمانهم وتتأسف عليه، فأنت تكره الناس؛ أي: تريد أن تجبرهم على الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ﴾ كلهم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ طائعين لله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يا محمد ليس في وسعك ولا داخل تحت قدرتك. والمعنى: ليس عليك إلا البلاغ، لا خلق الإيمان في قلوبهم وإكراههم عليه، فإن الأمر كله لله لا خالق سواه؛ أي: إن هذا ليس بمستطاع لك، ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت، وسائر الرسل الكرام. كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. وفي هذا[2] تسلية للنبي، ﷺ، ودفع لما يضيق به صدره، من طلب صلاح الكل، الذي لو كان، لم يكن صلاحاً محققاً، بل يكون إلى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة.

ثم بين وعلل سبحانه ما تقدم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما ثبت وما استقام وما صح لنفس من الأنفس أن تؤمن في حال من الأحوال، إلا في حال إرادة الله تعالى الإيمان لها، وتيسيره وتوفيقه ومشيئته لذلك، فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان؛ أي: وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله، من الاختيار والاستقلال في الأفعال، أن تؤمن إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ومقتضى سننه في الترجيح بين المتقابلين، فالنفس مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها استقلالاً تاماً بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ معطوف[3] على محذوف، تقديره: فيريد الله الإيمان للبعض، ويجعل الرجس؛ أي: العذاب أو الكفر أو الخذلان الذي هو سبب العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: على

---

(١) الصاوي.

(٢) الشوكاني.

(٣) الصاوي.

الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله تعالى، ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة؛ أي: وإذا[1] كان كل شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره، فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور، فيختارون خير الأعمال، ويتقون شرها ويرجحون أنفعها على أضرها بإذنه وتيسيره، ويجعل الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون، إذ هم لخطل رأيهم وسلوك سبيل الهوى، يرجحون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى. وقرأ[2] الحسن وأبو بكر والمفضل وزيد بن علي: ﴿ونجعل﴾ بالنون. وقرأ الأعمش: ﴿ويجعل الله الرجز﴾ بالزاي وفي الرجس لغتان، ضم الراء، وكسرها، والرجز بمعناه.

ولما بين سبحانه وتعالى أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى.. أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية فقال: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: قل[3] أيها الرسول لمن تحرص على هدايتهم، من كفار قومك، انظروا بأبصاركم وفكروا وتأملوا ببصائركم، ماذا في السموات والأرض؛ أي: في المخلوق الذي في السموات والأرض، من كواكب نيرات ثوابت وسيارات، وشمس وقمر، وليل ونهار، وسحاب ومطر، وهواء وماء، وليل ونهار. وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر ذاك، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع، والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران، وما في البحر من عجائب، وهو مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير العليم، الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ إنه يريكم كل هذه الآيات، ثم أنتم تشركون، وما أحسن قول الشاعر:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

(٣) المراغي.

وَفِــــي كُــــلِّ شَــــيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ   تَـــدُلُّ عَـــلَـــىٰ أَنَّـــهُ ٱلْـــوَاحِـــدُ

والخلاصة[1]: قل يا محمد للكفار: تفكروا واعتبروا واتعظوا بما في السموات والأرض، من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته، وكمال قدرته و ﴿مَاذَا﴾: مبتدأ وخبره ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو المبتدأ ﴿ما﴾ فقط و ﴿ذا﴾ بمعنى الذي ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صلته، والموصول وصلته خبر المبتدأ؛ أيْ: أيُّ شيءٍ الذي في السموات والأرض؟ وعلى كلا التقديرين، فالجملة في محل نصب بالفعل الذي قبلها وقرأ[2] الحرميان، نافع وابن كثير، والعربيان أبو عمرو وابن عامر والكسائي؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بضم اللام على نقل ضمة الهمزة إلى اللام. وقرأ باقي السبعة: بكسر اللام على أصل حركة التخلص من التقاء الساكنين. ثم ذكر سبحانه أن التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾؛ أي: وما تنفع الدلائل السماوية والأرضية المذكورة في قوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: والرسل المنذرون ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله تعالى وحكمه وقضائه.

والمعنى: أن من كان هكذا.. لا يجدي فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع، و ﴿ما﴾: نافية؛ أي: ما تنفع، ويجوز أن تكون استفهامية؛ أي: أي شيء ينفع؟ وقرىء: ﴿وما تغنى﴾ بالتاء وهي قراءة الجمهور، وبالياء.

﴿تغني﴾ تنفع[3] وتفيد ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ واحدها نذير؛ أي: إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها، والرسل على بلاغة حجتها، لا تجدي نفعاً لقوم لا يتوقع إيمانهم؛ لأنهم لم يوجهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها، على ما تدل عليه من وحدانية الله تعالى، وقدرته، والاعتبار بسننه في خلقه والاستفادة منها فيما يزكي النفس ويرفعها عن الأرجاس والأدناس.

قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مرتب[4] على قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾ إلخ

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط والصاوي.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

والاستفهام فيه إنكاري بمعنى: النفي؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾؛ أي: إلا يوماً يعاينون فيه العذاب، مثل أيام كفار الأمم الذين مضوا من قبلهم، التي عاينوا فيها العذاب حين كذبوا رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم؛ أي: ما ينتظرون بتكذيبك إلا عذاباً مثل عذاب الأمم الماضية المكذبة لرسلها أهلكناهم جميعاً، والعرب تسمّي العذاب أياماً، والنعمَ أياماً كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾.
والمعنى: يقول[1] الله سبحانه وتعالى لنبيه، ﷺ، محذراً مشركي قومه، من حلول عاجل نقمة ربهم بهم، وقد حل بمن قبلهم من سائر الأمم الخالية التي سلكت في تكذيب رسله، وجحودهم مسلكهم هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون، بما جئتهم به من عند الله تعالى، إلا يوماً يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم، الذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشرك والتكذيب.

والخلاصة: أنهم ما ينتظرون إلا مثل وقائعهم مع رسلهم، ممَّا بلغهم مبدؤه وغايته، فإن كانوا ينتظرون ذلك العذاب فـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد؛ أي: لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ أي: تربصوا لوعد ربكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾؛ أي: من المتربصين لوعد ربي. وفي هذا تهديد شديد، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء، ما نزل بأولئك، من الإهلاك، إن لم يؤمنوا؛ أي: قل لهم منذراً مهدداً انتظروا عقاب الله، ونزول سخطه بكم، إني من المنتظرين هلاككم بالعقوبة التي تحل بكم وإني على بينة بما وعد الله به وصدق وعده للمرسلين، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون من الهالكين.

و ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: أهلكنا الأمم، ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على رسلنا؛ أي: نجيناهم ونجينا الذين آمنوا. والتعبير بلفظ المضارع لاستحضار صورة الحال الماضية، تهويلاً لأمرها؛ أي: إن سنتنا في رسلنا

---

(١) المراغي.

السابقين على محمد مع أقوامهم، الذين يبلغونهم الدعوة ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة التكذيب، فيؤمن بعض، ويصرّ آخرون على الكفر، أن نهلك المكذبين وننجي رسلنا والذين آمنوا بهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة[1] لمصدر محذوف؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء، فهو مفعول مطلق، والعامل فيه قوله: ﴿ننج المؤمنين﴾. وقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض؛ أي: وحق ذلك علينا حقاً، أي: وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول، ونهلك المصرين على تكذيبك وعدنا ذلك وعداً حقاً علينا لا نخلفه، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. وقرأ[2] يعقوب: ﴿ثم ننجي﴾ مخففاً وقرأ الباقون ﴿ثم ننجي﴾ بالتشديد وبثبوت الياء خطاً ولفظاً. وقرأ حفص والكسائي ويعقوب: ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والباقون بالتشديد، وتحذف منه الياء خطاً إتباعاً لرسم المصحف. قاله «السمين» وفي اللفظ، إن وصل بما بعده، فحذفها ظاهر لأجل التقاء الساكنين، وإن وقف عليه وجب حذفها في النطق أيضاً، تبعاً لرسم المصحف اهـ «شيخنا». والتشديد والتخفيف في ﴿ننجي﴾ كلاهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي إنجاءً، ونجى ينجي تنجيةً، بمعنى واحد. ومعنى الآية: أهلكنا[3] المكذبين ثم نجينا رسلنا المرسلة إليهم والذين آمنوا بهم؛ لأن العذاب لا ينزل إلا على الكفار كذلك؛ أي: مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل، ومن آمن بهم، ننج المؤمنين بك يا محمد، من كل شدة وعذاب، وجب ذلك علينا وجوباً بحسب الوعد والحكم، لا بحسب الاستحقاق، لأن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً.

الإعراب

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني والفتوحات.

(٣) المراح.

﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: الواو: استئنافية. ﴿قال موسى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول؛ لأن أتى هنا بمعنى: أعطى. ﴿وَمَلَأَهُۥ﴾ معطوف على فرعون ﴿زِينَةً﴾ مفعول ثان ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾: معطوف عليه ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾ وجملة ﴿ءَاتَيْتَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾: اللام: حرف جر وعاقبة، ﴿يضلوا﴾: فعل مضارع منصوب ﴿بأن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام العاقبة ﴿والواو﴾ فاعله. ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾: متعلق به والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإضلالهم عن سبيلك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف كرره للتأكيد، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ٱطْمِسْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَٱشْدُدْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿ٱطْمِسْ﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق به ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ الفاء: عاطفة سببية ﴿لا﴾: نافية ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب الدعاء، سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: وليكن شدك قلوبهم يا الله فعدم إيمانهم ويصح أن يكون قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾: معطوفاً على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ وما بينهما دعاء معترض، ذكره «أبو السعود». ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَرَوُا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾: صفة له والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المضمرة ﴿أَن﴾ مع صلتها في

تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى رؤيتهم العذاب الأليم الجار والمجرور متعلق بيؤمنوا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ أُجِيبَت﴾ إلى آخر الآية مقول محكي: وإن شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿استقيما﴾: فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُجِيبَت﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَتَّبِعَآنِّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأمثلة الخمسة، والألف ضمير للمثنى المذكر المخاطب في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد، حرف لا محل لها من الإعراب مبني على الكسر، وإنما كسرت مع أن الأصل في نون التوكيد البناء على الفتح تشبيهاً لها بنون المثنى، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاوزنا﴾ ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: منصوب على الظرفية ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والفاء: عاطفة ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿جاوزنا﴾. ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: مفعولان لأجله؛ أي: لأجل البغي والعدو وشروط النصب متوفرة، ويجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال؛ أي: باغين وعادين. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض

بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: تقديره ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ إلى قوله: آمنت وقت إدراك الغرق إياه الجار والمجرور متعلق ﴿بأتبع﴾. ﴿ءَامَنتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف تقديره موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ المفتوحة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: آمنت بعدم وجود إله، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنتُ﴾ وقراءة كسر همزة ﴿إِنَّ﴾ على تقدير القول؛ أي: قائلاً. ﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ءَامَنتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف تقديره: أتؤمن الآن، والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، والجملة المحذوفة في محل الرفع نائب فاعل لقول محذوف، تقديره: قيل له: الآن تؤمن، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿عَصَيْتَ﴾: فعل وفاعل ﴿قَبْلُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الضم، لقطعه عن الإضافة، والظرف متعلق بـ ﴿عَصَيْتَ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال

من فاعل تؤمن المحذوف، الذي تعلق به ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾. ﴿وَكُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ خبره والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿عصيت﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية ﴿اليوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بما بعده ﴿نُنَجِّيكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِبَدَنِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من الكاف؛ أي: ننجيك ملتبساً ببدنك فقط، لا مع روحك، كما هو مطلوبك، فهو تخييب له وحسم لطمعه، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة أتؤمن الآن على كونها نائب فاعل للقول المحذوف، تقديره: قيل له أتؤمن الآن، فاليوم ننجيك ببدنك. ﴿لِتَكُونَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام كي واسمها ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾. ﴿لِمَنۡ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَكُونُ﴾ أو حال من آية لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿خَلۡفَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة من الموصولة ﴿ءَايَةٗۚ﴾: خبر ﴿تَكُونُ﴾ وجملة ﴿أَنۡ﴾ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لكونك آية لمن خلفك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُنَجِّيكَ﴾ ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا﴾ ناصب واسمه ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿كَثِيرٗا﴾ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ ﴿غافلون﴾ ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة مستأنفة اعتراضية تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: استئنافية. اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿بَوَّأۡنَا﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: مبوأ

صادقاً، ومنزلاً حسناً، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة ﴿وَرَزَقْنَاهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿رزقناهم﴾ وهو في محل المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَوَّأْنَا﴾ ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿رزقناهم﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى مجيء العلم إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَقْضِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَقْضِى﴾. وكذا يتعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وجملة ﴿يَقْضِى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَقْضِى﴾ أيضاً. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: استئنافية ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فِى شَكٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِّمَّآ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مِن﴾ بمعنى في. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: مما أنزلناه إليك. ﴿فَسْـَٔلِ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿اسأل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول أول لسأل والثاني محذوف، تقديره: عنه. ﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿يقرؤون﴾، وجملة ﴿يقرؤون﴾: صلة الموصول، وجملة سأل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَقَدْ﴾

اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أو متعلق بـ ﴿جاء﴾ والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾ فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾: معطوفة مفرعة على جملة ﴿جاء﴾ على كونها جواب القسم المحذوف، فلا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكون﴾ وجملة ﴿تكون﴾ معطوفة على جملة ﴿تَكُونَنَّ﴾ الأولى ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بآيات الله﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿فَتَكُونَ﴾ الفاء: عاطفة سببية. ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: خبرها وجملة ﴿تكون﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن تكذيبك بآيات الله فكونك من الخاسرين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿حَقَّتْ﴾: فعل ماض ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: اعتراضية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول،

والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: لا يؤمنون بها، وجملة ﴿لو﴾ معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين الجار ومتعلقه. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ صفة للعذاب والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره: إلى رؤيتهم العذاب الأليم الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾: تحضيضية مضمنة معنى النفي. ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ فعل وفاعل لأن ﴿كان﴾ هنا تامة. ﴿ءَامَنَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَرْيَةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿قَرْيَةٌ﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة. ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ على كونها صفة لـ ﴿قَرْيَةٌ﴾ ولكنها صفة سببية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿يُونُسَ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ مستأنفة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَشَفْنَا﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة. ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَشَفْنَا﴾ على كونها جواب لما.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَءَامَنَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿آمن من﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فِى

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة. ﴿كُلُّهُمۡ﴾ توكيد لـ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿جَمِيعًا﴾ حال منها. ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام التأديبي داخلة على محذوف تقديره: أتحزن وتتأسف على عدم إيمانهم. الفاء: عاطفة ﴿أنت﴾ مبتدأ. ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ خبره والجملة في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى تقديره: إلى كونهم مؤمنين الجار والمجرور متعلق بتكره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِنَفۡسٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم. ﴿أَن تُؤۡمِنَ﴾: ناصب وفعل وفاعله ضمير يعود على النفس. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُؤۡمِنَ﴾ وجملة: ﴿تُؤۡمِنَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإيمان إلا بإذن الله، كائناً لنفس، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على محذوف، تقديره: فيأذن الله لبعضهم في الإيمان ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَجۡعَلُ﴾. وجملة ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ صلة الموصول.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي. ﴿مَاذَا﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرُواْ﴾ لتعليق العامل، وهو ﴿ٱنظُرُواْ﴾ عنها

بالاستفهام. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة الموصول. ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: الواو حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: معطوف على الآيات. ﴿عَن قَوۡمٖ﴾: متعلق بـ ﴿تغني﴾. وجملة ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْم﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿ٱنظُرُواْ﴾ والتقدير: انظروا، والحال أن النظر لا ينفعكم.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

﴿فَهَلۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الآيات لا تغني فيهم شيئاً، وأردت بيان عاقبتهم. فأقول لك. ﴿هل ينتظرون﴾: ﴿هَلۡ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿يَنتَظِرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿خَلَوۡاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾: متعلق بـ ﴿خَلَوۡاْ﴾ وجملة ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا وأردت بيان ما تقول لهم فأقول لك. ﴿انتظروا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلۡ﴾ ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَكُم﴾: متعلق بـ ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ فعل ومفعول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه

وفاعله ضمير يعود على الله. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول وجملة ﴿نُنَجِّى﴾ معطوفة على محذوف تقديره: نهلك الأمم المكذبة لرسلنا ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كذلك صفة لمصدر محذوف، والعامل فيه ننج؛ أي: إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننج المؤمنين. ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد لفعله المحذوف، تقديره: حق ذلك الإنجاء علينا حقاً، ووجب وجوباً بمقتضى وعدنا ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بالعامل المحذوف، وجملة الفعل المحذوف معترضة، لاعتراضها بين العامل والمعمول جيء بها للتأكيد. ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة مستأنفة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ الزينة: الحلل والحلي والأثاث والرياش والماعون. والأموال ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك. قال ابن عباس: كان من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة، جبال فيها ذهب وفضة، وزبرجد وياقوت، اهـ كرخي. وفي «المصباح» الفسطاط بضم الفاء وكسرها: مدينة مصر قديماً. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وفي «المختار» طمس الطريق، من باب دخل، وجلس، وطمسه إذا غيره، من باب ضرب، فهو متعد ولازم. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: غيرها كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ اهـ. والطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو. ومعنى اطمس على أموالهم: أزل صورها وهيئاتها، وقال مجاهد: أهلكها. وقال أكثر المفسرين: امسخها وغيرها عن هيئاتها، ويقال: طمس الأثر وطمسته الريح، إذا زال. ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسّها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان. ومعنى الشد على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان. وفي «المختار» شده يشده، من باب نصر ويشده ـ من باب ضرب ـ شدا فيهما إذا أوثقه اهـ. والشد على القلب: الطبع عليه، وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان. ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بتشديد التاء من اتبع الخماسي وتخفيفها من تبع الثلاثي، يقال: تبعه إذا مشى خلفه، واتبعه إذا أدركه ولحقه. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ من جاوز

المكان إذا تخطاه وخلفه وراءه، والباء للتعدية؛ أي: جعلناهم مجاوزين البحر، بأن جعلناه يبساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط، ا هـ «أبو السعود». ويقال: جاز المكان، وجاوزه وتجاوزه، إذا قطعه حتى خلفه وراءه. وقوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: بحر القلزم، وهو بحر السويس. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ يقال: تبعته حتى أتبعته، إذا كان قد سبقك فلحقته. وفي «المختار» تبعه من باب طرب وسلم إذا مشى خلفه أو مر به، فمضى معه، وكذا اتبعه بوزن افتعل الخماسي، وأتبعه على وزن أفعل الرباعي، إذا كان قد سبقه فلحقه. وقال الأخفش: تبعه، وأتبعه بمعنًى مثل ردفه وأردفه ا هـ. ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المنقادين لأمره.

﴿وننجيك﴾؛ أي: نجعلك على نجوةٍ من الأرض، والنجوة: المكان المرتفع من الأرض، وقرىء بالتشديد من نجى المضعف ينجي تنجية، وبالتخفيف من أنجى الرباعي من باب أفعل ينجي إنجاءً. ﴿آية﴾ والآية: العبرة والعظة ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ أي: منزلاً صالحاً مرضيّاً، وأصل الصدق: ضد الكذب، ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: مكان صدق إذا كان كاملاً في صفته، صالحاً للغرض المقصود منه، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق. ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ والشك في أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد، والشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه، فيتردد ويتحير ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ لولا كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلّا، والمراد بالقرية أهلها، وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى. ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ والخزي الذل والهوان. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ والحين: مدة من الزمن، والمراد بها العمر الطبيعي الذي يعيشه كل شخص. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والإذن بالشيء: الإعلام بإجازته، والرخصة فيه، ورفع الحجر عنه. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ والرجس لغة: الشيء القبيح المستقذر، والمراد به هنا العذاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ تأكيداً للأول، وتلذذاً بخطاب الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ لأن الشد حقيقة في ربط الأجرام بعضها إلى بعض كشد الحبال، شبه قسوة القلوب وتغليظها وعدم لينها للإيمان بشد الأجرام وربطها على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: تكرار المعنى الواحد ثلاث مرات ليقبل إيمانه في قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ﴾ إلخ، فإنه كرر إقراره بالإيمان ثلاث مرات في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ وفي قوله: ﴿أنه﴾ وفي قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

ومنها: الاعتراض التذييلي في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلخ، لأنه كلام معترض جيء به عقب الحكاية تقريراً للكلام المحكي.

ومنها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿بوأنا﴾ و﴿مبوأ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لأنه كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة عليهم.

ومنها: التحضيض المضمن للتوبيخ والنفي في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَرْيَةٌ﴾ من باب تسمية الحال باسم المحل لا مجاز بالحذف كما قيل.

ومنها: إيلاء الاسم حرف الاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن في المكره من هو، وما هو إلا هو وحده، لا يشاركه فيه؛ لأنه هو القادر على أن يلقي في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر، ا هـ «كرخي».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾؛

أي: المذكورة في قوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

ومنها: حكاية الأحوال الماضية في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، حيث عبر بالمضارع حكايةً عن الماضي لتهويل أمرها، باستحضار صورتها، وكذلك في قوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ حيث ذكر المضارع بمعنى الماضي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأدلة على صدقه في رسالته وصحة الدين الذي جاء به وبسطها غاية البسط حتى لم يبق فيها مجال للشك.. أردف[1] ذلك بالأمر بإظهار دينه وبإظهار الفارق بينه وبين ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وبيان أن الذي بيده النفع والضر هو الله الذي خلقهم وبيده تصريف أمورهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما قرر دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد.. ختم السورة بهذا البلاغ للناس كافة بمقتضى البعثة العامة، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أرسلناك إليهم، فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا

---

(١) المراغي.

بك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أنا عليه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته وأنه الدين الحق، الذي لا دين غيره، فاعلموا أني بريء من أديانكم التي أنتم عليها. والتعبير عمّا هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في صحته، وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه، أو المعنى: إن كنتم في شك من ثباتي على ديني فاعلموا أني لا أتركه أبداً، ا هـ «أبو السعود». وإنما حصل[1] الشك لبعضهم في أمره، ﷺ، لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي، ﷺ، فحصل له الاضطراب والشك، فقال: إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته، وتعرفونه، ولا تشكون فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا أصل لها البتة، فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فلا أعبد معكم الأوثان التي تعبدونها من دون الله تعالى في حال من الأحوال، وجواب إن كنتم.. فلا أعبد، والتقدير: فأنا لا أعبد، لأن المنفي بلا، إذا وقع جواباً، انجزم، فإذا دخلت عليه الفاء، علم أنه على إضمار المبتدأ، وكذلك لو ارتفع دون لا، كقوله: ومن عاد، فينتقم الله منه؛ أي: فهو ينتقم الله منه ذكره أبو حيان. وإنما وجب تقديم هذا النفي؛ لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود، فلا تليق لأخس الأشياء، وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها، ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ويقبض أرواحكم حين انتهاء آجالكم؛ أي: أخصه بالعبادة ولا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها.

وخص[2] صفة المتوفي من بين الصفات، لما في ذلك من التهديد لهم؛ أي: أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابةً في القلوب،

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم. ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله، بين أنه مأمور بالإيمان، فقال: ﴿وَأُمِرْتُ﴾؛ أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدقين بما جاء من عنده؛ أي: أمرني بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين.

ومعنى الآية: قل لهم أيها الرسول: إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه، ولم يتبين لكم أنه الحق، فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه لتعلموا أنه لا مدخل فيه للشك، إني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون إلهكم وخالقكم، بل أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرهم إذا أراد، ومثل هذا هو الحقيق بأن يعبد، وأن يخاف، وأن يتقى، دون من لا يقدر على شيء من ذلك، وفي ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه، وإنما ينبغي أن تشكوا فيما أنتم عليه، من عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذو الفطرة السليمة، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذي لب وعقل سليم، وقد أمرت أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وبنصرهم على أعدائهم واستخلافهم في الأرض.

وجملة قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ معطوفة[1] على جملة قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر، لأن المقصود من أن الدلالة على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية؛ أي: وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أقيم وجهي للدين القيم، الذي لا عوج فيه حالة كوني ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً من الأديان الباطلة إلى الدين الحق. فحنيفاً، حال من الوجه، أو من الدين، كما سيأتي، وذلك بالتوجه إلى الله وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى شيء سواه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فمن توجه قلبه إلى غيره

---

(١) الشوكاني.

في عبادة من العبادات، ولا سيما مخ العبادة وروحها، وهو الدعاء، فهو عابد له مشرك بالله.

والمعنى: إن الله سبحانه وتعالى أمره بالاستقامة في الدين، والثبات فيه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال، وخص الوجه، لأنه أشرف الأعضاء أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها.

ثم أكد[1] الأمر المتقدم بالنهي عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، كأرباب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والأولياء والشفعاء، يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم، والحاجة تستعصي عليهم، ليقضوا لهم حاجتهم، إما بأنفسهم أو بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم، فإن فعلت ذلك كنت من الهالكين، وهذا من باب التعريض لغيره، ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ معطوف[2] على ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ غير داخل تحت الأمر. وقيل: معطوف على ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾؛ أي: ولا تدع يا محمد من دون الله في حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشيء من النفع والضر إن دعوته، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ضائع لا يفعله عاقل، على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره، فكيف إذا كان موجوداً، فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأفحش، أي[3]: ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاشتراك، بوساطة الشفعاء ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: فإن دعوت غيره تعالى ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذا دعوت غير الله تعالى ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بحرمانها من سعادة الدارين، وهذا جواب الشرط؛ أي: فإن دعوت من دون الله

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره، ﷺ، والمعنى؛ أي: فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت في هذا الحال من الذين ظلموا أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى، فدعاؤه وحده أعظم العبادات، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس، لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه، فهو وضع للشيء في غير موضعه.

ثم أكد سبحانه وتعالى المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله؛ لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وإن يصبك الله سبحانه وتعالى أيها الإنسان ﴿بِضُرٍّ﴾ كمرض يصيبك، بمخالفة سننه في حفظ الصحة أو نقص في الأموال والثمرات، بأسباب لك فيها عبرة، أو ظلم يقع عليك من غيرك.. ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ولا رافع ﴿له﴾؛ أي: لذلك الضر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله، وقد جعل الله سبحانه للأشياء أسباباً يعرفها خلقه بتجاربهم، ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها. ومعرفة خواص العقاقير التي يتداوى بها، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتي البيوت من الأبواب، ونتوجه إلى الله وحده وندعوه مخلصين له متوكلين عليه.

﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ ربك أيها الإنسان ﴿بِخَيْرٍ﴾؛ أي: برخاء ونعمة وعافية ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ أي: فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذي تعلقت به إرادته تعالى، فما شاء كان حتماً، فلا يُرجى خير ولا نفع إلا من فضله، ولا يخاف رد ما يريده فهو ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: بفضله ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بكسب أو بغير كسب، وبسبب ما قدره في السنن العامة، وبغير سبب ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو العامة في نظام الخلق، كالأمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية، جهلاً أو تقصيراً، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل، وكثرة الظلم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب، وأناب من عباده، من كفره وشركه إلى الإيمان به، وطاعته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به منهم، فلا يعذبه بعد التوبة، ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة، لأهلك الناس جميعاً

بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقـال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾. فإن قلت[1]: لِمَ ذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني.

قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادَّ لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام، بأن ذكر المسّ، وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد كرر الإصابة في الخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلية، ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول مخاطباً جميع الناس من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ومن ستبلغه عنك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام، المبين لحقيقة هذا الدين، وقد أوحى به إلى رجل منكم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لا لغيره؛ أي: فمنفعة اهتدائه مختصة بها؛ أي: فمن[2] سلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإنما فائدة ذلك عائدة إليه؛ لأنه يفوز بالسعادة في دنياه ودينه، وذلك إنما يكون بعمله لا بعمل غيره، ولا بتأثيره بشفاعته أو وساطته.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: فوبال ضلاله مقصور على نفسه لا يتعداها، وليس لله حاجة في شيء من ذلك، ولا غرض يعود إليه؛ أي: ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله وأعرض عن كتابه وعن آياته في الأنفس والآفاق، فإنما وبال ضلاله على نفسه، بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بحفيظ يحفظ أموركم، وتوكل إليه، وإنما أنا بشير ونذير، أي: وما أنا بموكل من عند الله بأموركم، ولا بمسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقوتي من الكفر والعصيان، ولا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، وما أنا إلا رسول مبلغ إليكم أمر ربكم بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أعذر من أنذر، فلا يجب علي السعي في إيصالكم إلى الثواب.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله تعالى له ولأمته، فقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ أي[1]: واتبع أيها الرسول وحي الله الذي أنزله إليك في كتابه، واعمل به وعلمه أمتك. ثم أمره بالصبر على أذى الكفار، وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعاينه من تلون أخلاق المشركين وتعجرفهم، وجعل ذلك الصبر ممتداً إلى حكمه بينه وبينهم، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما يصيبك من الأذى والمكاره، وعلى ما ينالك من قومك ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حتى يقضي الله بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك؛ أي: حتى يحكم الله سبحانه وتعالى بينك وبينهم، في الدنيا بالنصر لك عليهم، وفي الآخرة بعذابهم بالنار، وهم يشاهدونه، ﷺ، هو وأمته المتبعون له المؤمنون به، العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه، ولا يوقف على أدنى مزاياه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: خير القاضين وأعدل الفاصلين، فهو لا يحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل، إما لجهله بالحق، أو مخالفته له باتباع الهوى، وقد امتثل رسوله أمر ربه وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه، وأنجز وعده له، ﷺ، ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين ما أقاموا الدين. ولا يخفى ما في هذه الآيات من التسلية لنبيه ووعده للمؤمنين ووعيده للكافرين. وأنشد[2] بعضهم في الصبر شعراً فقال:

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

سَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَعْجَزَ ٱلصَّبْرُ عَنْ صَبْرِيْ وَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ فِيْ أَمْرِيْ
سَأَصْبِرُ حَتَّىٰ يَعْلَمَ ٱلصَّبْرُ أَنَّنِيْ صَبَرْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ ٱلصَّبْرِ

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لأي وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾؛ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فِى شَكٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِّن دِينِى﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿شَكٍّ﴾ ﴿فَلَآ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿لا﴾ نافية ﴿أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿وَلَٰكِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. لكن حرف استدراك. ﴿أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب صفة الجلالة. ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَأُمِرْتُ﴾ فعل ونائب فاعل والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ ناصب وفعل ناقص واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر أكون صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأمرت بكوني من المؤمنين.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَأَنْ﴾: الواو: عاطفة ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَقِمْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه نائب فاعل لفعل محذوف، تقديره، وأوحي إليّ قيام وجهي للدين، والجملة المحذوفة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أمرت﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿لِلدِّينِ﴾؛ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَقِمْ﴾ ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الفاعل المستتر في ﴿أَقِمْ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من المفعول، أو من ﴿الدين﴾ ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الجزم بـ ﴿لا﴾ مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خبر ﴿تكون﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقِمْ﴾ على كونه فاعلاً لفعل محذوف، والتقدير: وأوحي إليّ قيام وجهي للدين وعدم كوني من المشركين.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة (لا): ناهية جازمة. ﴿تَدْعُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في «أبي السعود»، ويجوز أن تكون مستأنفة كما في «السمين» ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿تدع﴾ ﴿لَا يَنفَعُكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ معطوف عليه والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت نهينا لك عن دعاء ما لا ينفع ولا يضر، وأردت بيان حكم ما إذا فعلت ذلك.. فأقول لك ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿فَعَلْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿فَإِنَّكَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية. ﴿إنك﴾ ناصب واسمه ﴿إِذًا﴾ حرف جواب توسطت بين اسم ﴿إِنَّ﴾

وخبرها ورتبتها التأخر عن الخبر، وإنما توسطت رعايةً للفواصل، ا هـ «كرخي» ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر إن وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿بِضُرٍّ﴾: متعلق به ﴿فَلَا﴾ الفاء رابطة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿كَاشِفَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥٓ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر لا المحذوف، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يُرِدْكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِخَيْرٍ﴾ متعلق به ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ الفاء رابطة. ﴿لا﴾: نافية ﴿راد﴾: في محل النصب اسمها ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾. جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وخبر ﴿لا﴾ محذوف جوازاً تقديره: فلا راد لفضله موجود، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿يُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره يشاءه، وهو عائد على ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ حال من الضمير المحذوف من ﴿مَن﴾ الموصولة وجملة ﴿يشاء﴾ صلة من الموصولة وجملة ﴿يصيب﴾ في محل النصب حال من ضمير ﴿فضلِهِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾. مبتدأ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبر أول ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثانٍ. والجملة الاسمية

معترضة تذييله.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لأي، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾: متعلق بـ ﴿جاء﴾ أو حال من ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾.

﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف عطف وتفصيل. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿إنما﴾: أداة حصر ونفي. ﴿يَهۡتَدِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَهۡتَدِي﴾ في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَضِلُّ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَيۡهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿أَنَا۠﴾: في محل الرفع اسمها أو مبتدأ. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿بوكيل﴾.

﴿بِوَكِيلٍ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية منصوب بفتحة مقدرة، أو خبر المبتدأ مرفوع بضمة مقدرة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية أو المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية على كونها مقول القول.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَاتَّبِعْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿قُلْ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُوحَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾؛ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿وَاصْبِرْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿وَاتَّبِعْ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى الجار والمجرور متعلق باصبر والتقدير واصبر إلى حكم الله تعالى بينك وبينهم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب حال من الجلالة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي شَكٍّ﴾ والشك: إدراك الطرفين على السواء، والظن: إدراك الطرف الراجح، والتوهم: إدراك الطرف المرجوح، وهو مصدر شك يشك، من باب شد، والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب، هو الشك في صحته، وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه، كما مر ذكره عن «أبي السعود». ﴿مِّن دِينِي﴾ والدين لغةً: ما يتدين به الشخص، باطلاً كان، أو حقاً، وشرعاً ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان رسوله، ﷺ، من العقائد والأحكام. ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ أي: اصرف وَوَجِّهْ وجهك؛ أي: ذاتك بكليتها للدين؛ أي: إلى الدين. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول. ﴿وَاصْبِرْ﴾ والصبر: حبس النفس على الشدائد والمشقات وتجرعها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: إطلاق الجزء وإرادة الكل، في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي: اصرف وَوَجِّهْ ذاتك.

ومنها: الطباق بين ﴿ينفعك﴾ و﴿يضرك﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿اهتدى﴾ و﴿يهتدي﴾، وبين ﴿ضل﴾ و﴿يضل﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: دعوت ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الفعل هنا كناية عن القول والدعاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة هود عليه السلام

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مكية إلا آيةً، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية. وقال مقاتل[1]: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وهي: مئة وثلاث وعشرون آيةً، وألف وسبع مئة وخمس وعشرون كلمةً، وتسعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفاً. وسميت السورة باسم هود لذكره فيها، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن عم أبي عاد، ا هـ «بيضاوي».

ومن فضائلها: ما أخرجه[2] الدارمي وأبو داود في «مراسيله»، وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر والبيهقي في «الشعب» عن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ «اقرؤوا هود يوم الجمعة».

وأخرج ابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر، من طريق مسروق عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتسألون، وإذا الشمس كورت». وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعاً بلفظ، قلت: يا رسول الله، عجل إليك الشيب قال: «شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعم يتسألون، وهل أتاك حديث الغاشية».

قال بعض العلماء[3]: سبب شيبه ﷺ من هذه السور المذكورة في

---

(1) الخازن.
(2) الشوكاني.
(3) الخازن.

الحديث، لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار، وما فعل بالأمم السابقة، والله أعلم بمراده ﷺ.

الناسخ والمنسوخ: وقال[١] أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة هود فيها من المنسوخ ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية (١٥) نسخت بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية (١٨).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ الآية (١٢١) نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الآية (١٢٢) منسوخة بآية السيف أيضاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها[٢]: أنها تضمنت ما تضمنته سورة يونس، من أصول الإسلام، وهي التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء.

وفصل فيها ما أجمل في سابقتها، من قصص الرسل عليهم السلام، وهي مناسبة لها في فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة في أثنائها، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد ﴿الٓر﴾ وذكر رسالة النبي، المبلغ عن ربه، وبيان أنَّ وظيفة الرسول إنما هي التبشير والإنذار، وفي أثنائهما ذكر التحدِّي بالقرآن والرد على الذين زعموا، أن الرسول، ﷺ، قد افتراه ومحاجة المشركين في أصول الدين، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول، ﷺ، ثم أمر الرسول، ﷺ، في الأولى بالصبر، حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى، مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه. وعلى الجملة فقد أجمل في كل منهما، ما فصل في الأخرى، مع فوائد انفردت بها كل منهما، فقد

---

(١) كتاب الناسخ والمنسوخ.

(٢) المراغي.

اتفقتا موضوعاً في الأكثر واختلفتا نظماً وأسلوباً، مما لا مجال للشك في أنهما من كلام الرحمن، الذي علم الإنسان البيان.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

المناسبة

قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنهم إن أعرضوا، حاق بهم عذاب يوم كبير.. بين في هذه الآية حالهم وصفتهم العجيبة الدالة على إعراض الحيرة والعجز ومنتهى الجهل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ...﴾ سبب نزولها ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: كان أناس يستحيون أن ينخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ألر﴾ قيل: إنها حروف مقطعة من أوائل الأسماء، فمعناها: أنا الله الرحمن، وقيل: إنها اسم للسورة، وقيل[١]: إنها حرف تنبيه، كألا، وتقرأ[٢] كأسمائها ساكنةً فيقال: ﴿ألف لام راء﴾ وقيل معناه: أنا الله أرى. والراجح الأسلم من الأقوال الجارية في أمثال هذه، تفويض علمها إلى الله تعالى. هذا

(١) المراغي.	(٢) المراغي.

القرآن ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن جليل القدر ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي[1]: صارت آياته محكمة متقنةً لا نقص فيها ولا نقض لها، كالبناء المحكم من الإحكام، أي: الإتقان ففعله متعد، والمعنى أتقنت آياته لفظاً ومعنى، فلا يحيط بمعنى آيات القرآن غيره تعالى ولم يوجد تركيب بديع الصنع، عديم النظير، نظير القرآن. وقيل معناه: إنها لم تنسخ، بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ. وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام. وقيل: أحكمت جملته ثم فصلت آياته. وقيل: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ وجمعت في اللوح المحفوظ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوحي. وقيل: أحكمها الله تعالى، فليس فيها تناقض، ثم فصلها وبينها. وقيل: أحكمت آياته لفظاً ونظمت نظماً رائقاً بليغاً، ثم فصلت معنى، وبينت وفسرت.

فإن قلت[2]: كيف عم الآيات هنا بالإحكام، وخص بعضها بالإحكام في قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؟

قلتُ: إن الإحكام الذي عم به هنا، غير الذي خص به هناك، فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد، كإحكام البناء، فإن هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه. والمراد بالإحكام الخاص المذكور في قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أن بعض آياته منسوخة؛ نسخها بآيات منه أيضاً لم ينسخها غيره. وقيل: أحكمت آياته؛ أي: معظم آياته محكمة، وإن كان قد دخل النسخ على البعض، فأجري الكل على البعض؛ لأن الحكم للغالب وإجراء الكل على البعض مستعمل في كلامه، تقول: أكلت طعام زيد، وإنما أكلت بعضه. والتراخي المستفاد من ﴿ثُمَّ﴾ إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم بحسب النزول؛ لأنها أحكمت أولاً حين نزلت جملة واحدة، ثم فصلت ثانياً على حسب المصالح والوقائع، وإما رتبي إن فسر بغيره مما تقدم.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى ثُمَّ؟

قلتُ: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن معناها التراخي في الأخبار، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، انتهى. يعني: إن ثم جاءت لترتيب الأخبار، لا لترتيب الوقوع في الزمان، والمعنى: أخبرنا الله بأن القرآن محكم أحسن الأحكام، مفصل أحسن التفصيل. وقرأ[1] عكرمة والضحاك والجحدري وزيد بن علي وابن كثير في رواية: ﴿ثم فصلت﴾ بفتحتين خفيفة على لزوم الفعل للآيات. قال صاحب «اللوامح»: يعني انفصلت وصدرت. وقال ابن عطية فصلت بين المحق والمبطل من الناس. قال الزمخشري وقرىء ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾، على بناء الفعل للمتكلم المعلوم؛ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ لف ونشر مرتب؛ أي: كتاب أحكمت آياته من عند حكيم في جميع أفعاله، ثم فصلت من عند خبير بأحوال عباده وما يصلحهم، عالم بمواقع الأمور، والمعنى: أحكمها حكيم وفصلها خبير؛ أي: شرحها وبينها.

ومعنى الآية[2]: أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف، واضحة المعاني، لا تقبل شكاً ولا تأويلاً ولا تبديلاً، كأنها الحصن المنيع الذي لا يتطرق إليه خلل، وجعلت فصولا متفرقة في سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ، وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد، فكأنها العقد المفصل بالفرائد، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده، ويعطيهم ما فيه الخير لهم، خبير بعواقب ذلك ومصادره وموارده.

والأحسن[3] في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أن تكون أن تفسيرية لوجود ضابطها، وهو تقدم جملة فيها معنى القول دون حروفه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ويصح أن تكون مصدرية بتقدير الجار؛ أي: هذا كتاب أحكمت آياته وفصلت بأن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

لا تعبدوا إلا الله؛ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له. والمراد بالعبادة، التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته، والدخول في دين الإسلام وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. وقل يا محمد للناس ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من جهة الحكيم الخبير ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: بعذابه إن عبدتم غير الله تعالى ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بثوابه إن تمحضتم في عبادته؛ أي: قل لهم إنني لكم نذير من جهة الله تعالى، أنذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ منه أبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده، وهذا بيان لوظيفة الرسالة، ومبين لدعوة الرسول، ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ معطوف على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ والكلام في ﴿أَنِ﴾ هذه كالكلام في التي قبلها. وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه وسيلة إليها؛ أي: اطلبوا من ربكم ستر ما سلف منكم من الشرك، ثم أقبلوا إليه بالطاعة والإخلاص: لأن الاستغفار هو طلب الغفر، وهو الستر، والتوبة: الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك، فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة. وقيل معناه: استغفروا لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل. وقيل: استغفروا في الصغائر ثم توبوا إليه في الكبائر. وقال الفراء: ثم هنا بمعنى الواو؛ لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد.

والمعنى(١): واسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون غيره، مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان.

فإن فعلتم ذلك، واستغفرتم من كل ذنب، وتبتم من الإعراض عن هدايته، وتنكب سننه.. ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في دنياكم ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يطول نفعكم في الدنيا

---

(١) المراغي.

بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق وسعة العيش، فيرزقكم من زينة الدنيا، وينسأ لكم في آجالكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى الوقت الذي قضى عليكم فيه الموت، وهو العمر المقدر لكم في علمه المكتوب في نظام الخليقة، وسنن الاجتماع البشري في عباده، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال، ولا بفساد العمران ولا ينقصه ما ينقص من أدمن على الشرك والمعاصي.

وهذه[1] سنة مطردة في ذنوب الأمم، وهي فيها أظهر من ذنوب الأفراد، فالمشاهد أن الأمم التي تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى في الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران، حتى تزول منعتها وتتمزق وحدتها.

ومعنى ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعشكم[2] عيشاً مرضياً إلى وقت مقدر عند الله تعالى، وهو آخر أعماركم، فمن أخلص لله في القول والعمل.. عاش في أمنٍ من العذاب وراحةٍ مما يخشاه، ومن اشتغل بمحبة الله.. كان انقطاعه عن الخلق أكمل، وسروره أتم؛ لأنه أمن من زوال محبوبه، ومن كان مشتغلاً بحب غير الله.. كان أبداً في ألم الخوف من فوات المحبوب. وقرأ الحسن وابن هرمز وزيد بن علي وابن محيصن ﴿يمتعكم﴾ بالتخفيف من أمتع.

﴿وَيُؤْتِ﴾؛ أي: يعط في الدنيا والآخرة ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الإسلام والطاعة ﴿فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: ثواب فضله وجزاءه؛ أي: وإن[3] تجتنبوا الشرك، وتؤمنوا بالله وتستغفروه.. يمتعكم متاعاً حسناً، تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة، ويعط كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله، أما في الآخرة فهو مطرد دائماً، وأما في الدنيا فقد يكون ناقصاً مشوباً بأكدارٍ، ولا يكون مطرداً لقصر أعمار الأفراد.

فإن قلت[4]: قد ورد في الحديث، أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ

---

(1) المراغي.
(2) المراح.
(3) المراغي.
(4) الخازن.

مُّسَمًّى﴾.

قلتُ: أما قوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن» فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم، فإنه في سجن في الدنيا، حتى يفضي إلى ذلك المعد له، وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم، الذي لا ينقطع، فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة. وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات، فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات، فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشةٍ حسنة، لأنه راضٍ عن الله في جميع أحواله. ثم توعدهم سبحانه على مخالفة الأمر فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: وإن تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بموجب الشفقة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: شديد عذابه، وهو يوم القيامة، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير يوم بدر.

والمعنى: وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه، من عبادة الله وحده، وعدم عبادة غيره فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم، وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم، أو قريب منه بعد الرسول والمؤمنين. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو مجلز وأبو رجاء ﴿وإن تولوا﴾ بضم التاء واللام وفتح الواو مضارع ولّى. والقراءة الأولى مضارع تولّى. وفي كتاب «اللوامح»: وقرأ اليماني وعيسى البصري: ﴿وإن تولوا﴾ بثلاث ضمات مبنياً للمفعول. وقرأ الأعرج: ﴿تولوا﴾ بضم التاء واللام وسكون الواو مضارع أولى. ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالموت ثم البعث ثم الجزاء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾، ومن جملة ذلك تعذيبكم على عدم الامتثال؛ أي[1]: إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم

(١) المراغي.

جميعاً أمماً وأفراداً، لا يتخلف منكم أحد، وحينئذٍ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس، وهو سبحانه قدير على كل شيء، من إيصال الرزق إليكم في الدنيا، وثوابكم وعقابكم في الآخرة، وهذه الجملة مقررة لما قبلها.

ثم أخبر[1] الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجح فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وأنه ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبه يا محمد ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الكفار الكارهين لدعوة التوحيد ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر، كما هو دأب المنافقين ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أي: ليختفوا من الله سبحانه وتعالى فلا يطلع عليه رسوله ولا المؤمنين، أو ليستخفوا من رسول الله، ﷺ، ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: انتبه يا محمد إنهم يستخفون منه في وقت استغشاء الثياب والتغطية بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد.. فمن يعلم بنا. وقيل معنى: حين يستغشون: حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون ثيابهم. وقيل: إنه حقيقة، وذلك إن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله، ﷺ، ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول الله، ﷺ. والعامل في قوله: ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ﴾ مقدر وهو يستخفون، ويجوز أن يكون ظرفاً ليعلم؛ أي: ألا يعلم سرهم وعلنهم حين يفعلون كذا، وهذا معنى واضح ذكره في «الفتوحات»؛ أي: تنبه[2] يا محمد إن الكفار يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى حين يغطون رؤوسهم بثيابهم للاستخفاء. عن ابن عباس إن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق وأصحابه، من منافقي مكة، وكان رجلاً حلو المنطق، حسن المنظر، يظهر لرسول الله، ﷺ، المحبة، ويضمر في قلبه العداوة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

ومعنى الآية[1]: أي إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رؤوسهم، كأنهم يحاولون طي صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن، ليستخفوا منه، ﷺ، حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رؤوسهم. روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد، قال: كان أحدهم إذا مر بالنبي، ﷺ، ثنى صدره كيلا يراه أحد.

وجملة ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء؛ لأن الله تعالى يعلم ما يسرونه في قلوبهم، أو في ذات بينهم وما يظهرونه بأفواههم، فالظاهر والباطن عنده سواء، والسر والجهر سيان. وجملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبلها وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور. وقيل: هي القلوب، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإظهار والإسرار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك. والأوضح كما مر، أن يكون الظرف متعلقاً بـ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي[2]: إن ثني صدورهم وتنكيس رؤوسهم، ليستخفوا من الداعي لهم إلى توحيد ربهم، لا يغني عنهم شيئاً، فإن ربهم يعلم ما يسرون ليلاً، حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم، ثم ما يلعنون نهاراً، إنه سبحانه وتعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون في صدوركم الشك في شيء من توحيده أو أمره أو نهيه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَثْنُونَ﴾ بفتح الياء وضم النون، من ثنى يثني من باب رمى. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿يثنون﴾ بضم الياء، مضارع أثنى الرباعي ﴿صُدُورَهُمْ﴾ بالنصب ولا يعرف في اللغة إلا أن يقال معناه: عرضوها للإثناء، كما تقول: أبعت الفرس إذا عرضته للبيع. وقرأ ابن عباس وعلي بن الحسين وابناه، زيد ومحمد، وابنه جعفر ومجاهد وابن يعمر ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن أبزى والجحدري وابن أبي إسحاق وأبو الأسود الدؤلي وأبو رزين والضحاك؛

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط والعكبري.

﴿تثنوني﴾ بالتاء، مضارع اثنوني، على وزن افعوعل نحو: اعشوشب المكان صدورهم، بالرفع بمعنى: تنطوي صدورهم. وقرأ أيضاً ابن عباس ومجاهد وابن يعمر وابن أبي إسحاق: ﴿يثنوني﴾ بالياء، ﴿صدورهم﴾ بالرفع ذكر على معنى الجمع دون الجماعة. وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿ليثنون﴾ بلام التأكيد في خبر إن وحذف الياء تخفيفاً لطول الكلمة، ﴿وصدورهم﴾ بالرفع. وقرأ ابن عباس أيضاً وعروة وابن أبي أبزى والأعشى ﴿يثنون﴾ بياء مفتوحة وسكون الثاء ونون مفتوحة، بوزن يفعوعل من أثن بني منه افعوعل، وهو ماهش وضعف من الكلأ، وأصله يثنونن، يريد: مطاوعة نفوسهم للشيء كما يثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، ﴿صدورهم﴾ بالرفع. وقرأ عروة ومجاهد أيضاً كذلك إلا أنه همز فقرأ: ﴿يثنئن﴾ بوزن يطمئن، ﴿وصدورهم﴾ بالرفع. وقرأ الأعشى؛ ﴿يثنؤن﴾ بوزن يفعلون مهموز اللام، ﴿صدورهم﴾ بالنصب. قال صاحب «اللوامح»: ولا أعرف له وجهاً؛ لأنه يقال: ثنيت، ولم أسمع ثنأت، ويجوز أنه قلب الياء ألفاً، على لغة من يقول أعطأت في أعطيت، ثم همز على لغة من يقول ولا الضألين. وقرأ ابن عباس: ﴿يثنوي﴾ بتقديم الثاء على النون وبغير نون بعد الواو على وزن ترعوى. قال أبو حاتم: وهذه القراءة غلط لا تتجه، انتهى. وقرأ نصر بن عاصم وابن يعمر وابن أبي إسحاق: ﴿ينثون﴾ بتقديم النون على الثاء، فهذه عشر قراءات في هذه الكلمة. وقرأ ابن عباس: ﴿على حين يستغشون﴾. قال ابن عطية: ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

عَلَىٰ حِيْنَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيْبَ عَلَىٰ ٱلصِّبَا   وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَٱلشَّيْبُ وَازِعُ؟!

الاعراب

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

﴿الٓر﴾: إن كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور.. فلا محل له، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع على أنه مبتدأ، خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا الآتي سورة الٓر، وعلة بنائه شبهه بالحرف شبهاً وضعياً و ﴿كِتَٰبٌ﴾ يكون على هذا الوجه خبراً لمبتدأ محذوف،

أي: هذا كتاب وكذا على تقدير أن ﴿الٓر﴾ لا محل له. ويجوز أن يكون ﴿الٓر﴾ في محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام، نحو: اذكر أو اقرأ فيكون ﴿كِتَٰبٌ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدإٍ محذوف، تقديره: هذا كتاب والإشارة في المبتدأ المقدر، إما إلى بعض القرآن، أو إلى مجموع القرآن، والجملة من المبتدأ المقدر وخبره مستأنفة. ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿ثم﴾ حرف عطف. ﴿فُصِّلَتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ على كونها صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أو هو من باب التنازع، أو صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف. ﴿خَبِيرٍ﴾ صفة ﴿حَكِيمٍ﴾.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

﴿أَن﴾: مصدرية. ﴿لَّا﴾ ناهية ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَّا﴾ الناهية. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱللَّهَۚ﴾: مفعول به منصوب، والجملة الفعلية في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فصلت آياته لترك عبادة غير الله تعالى، أو فصلت بترك عبادة غير الله، ويجوز أن تكون ﴿أَن﴾ تفسيرية؛ لأن في تفصيل الكتاب معنى القول، فكأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا، إلخ وهذا أظهر الأوجه الجارية فيها؛ لأنه لا يحتاج إلى إضمار ذكره في «الفتوحات» ﴿إِنَّنِي﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي حركة بناء الحرف والياء ضمير المتكلم اسمها. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق بكل من ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ ﴿مِّنۡهُ﴾: جار ومجرور حال منهما؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿نَذِيرٞ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿وَبَشِيرٞ﴾ معطوف عليه وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ عطف علة على أخرى. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ فهو علة ثالثة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿ثُمَّ﴾ هنا على بابها من التراخي؛ لأنه يستغفر أولاً، ثم يتوب ويرجع إلى طاعته، ويتجرد من ذلك الذنب المستغفر منه ﴿يُمَتِّعْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَّتَٰعًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿حَسَنًا﴾: صفة له وهذا مرتب على قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ والجملة الفعلية جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿يمتع﴾ ﴿وَيُؤْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يمتع﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وهذا مرتب على قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ كما في «الجمل». ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿فَضْلَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ، لأن آتى هنا بمعنى: أعطى. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية؛ لأن أصله تتولوا بتاءين، والواو فاعله. ﴿فَإِنِّىٓ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إني﴾ ناصب واسمه ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿كَبِيرٍ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وقيل: صفة لـ ﴿عَذَابَ﴾ فهو منصوب، وإنما خفض على الجوار، كقولهم: هذا جحر ضب خرب، بجر خرب، وهو صفة لجحر، اهـ «سمين». وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل النصب حال من الجلالة، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الخبر.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾».

﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة ﴿يَثْنُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿يستخفوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لاستخفائهم منه الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَثْنُونَ﴾. ﴿ألا﴾: حرف تنبيه كررت للتأكيد. ﴿حِينَ﴾ منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿يستخفوا﴾ أو متعلق بـ﴿يَعْلَمُ﴾ الآتي، وهو أوضح كما مر ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة. ﴿يُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يعلم ما يسرونه. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بعليم وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُ﴾ ماض مبني للمجهول، من أحكم الرباعي يحكم إحكاماً، إذا أتقنه، وإحكام البناء كالقصر والحصن: إتقانه حتى لا يقع فيه خلل. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ مبني للمجهول أيضاً، من فصّل المضعف، يفصل تفصيلاً، وتفصيل العقد بالفرائد: جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر. وفي «السمين» قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ الهمزة فيه يجوز أن تكون للنقل من حكم بضم الكاف؛ أي: صار حكيماً بمعنى: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ويجوز أن يكون من قولهم: أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لمنعها من الجماح، فالمعنى: إنها منعت من الفساد، ويجوز أن تكون لغير النقل من الإحكام، وهو الإتقان، كالبناء المحكم المرصف والمعنى: إنها نظمت نظماً رصيفاً متقناً، اهـ.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ﴿أَلَّا﴾ هذه[1] تكتب موصولة: أي: لا يفصل بين الألف ولا النافية بالنون، كما ذكره ابن الجزري، فصنيع الشارح السيوطي معترض حيث أنه أثبت نوناً حمراء، حيث قال: أن فأثبت الألف والنون بالحمرة، فيقتضي أن النون من رسم القرآن، فكان عليه أن يقول: ﴿ألا﴾ بقلم الحمرة ثم يقول؛ أي: بأن لا بإثبات النون في التفسير. وعبارة ابن الجزري مع شرحها لشيخ الإسلام: فاقطع بعشر كلمات يعني فاقطع كلمة ﴿أَن﴾ الناصبة للاسم أو للفعل، بأن ترسمها مقطوعة عن لا النافية في عشرة مواضع وهي: ﴿أَن لَّآ﴾ مع ملجأ في سورة التوبة و ﴿أن لا إله إلا هو﴾ في سورة هود و ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في الموضع الثاني من سورة هود، بخلافه في أولها وهو ما هنا فإنه موصول، ا هـ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ والظاهر أن ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ مضارع حذف منه التاء أي: وإن تتولوا؛ لأنه من باب، تفعل الخماسي. ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ مضارع، متع المضعف يمتع تمتيعاً إذا أنعم، والمتاع اسم مصدر لمتع، والمتاع كل ما ينتفع به في المعيشة، وحاجة البيوت ومواعينه، والإمتاع أصله: الإطالة ومنه: أمتع الله بك؛ أي: يعيشكم معيشة طيبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ والأجل المسمى: هو العمر المقدر ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ من آتى الرباعي يؤتي إيتاءً، إذا أعطى، فهو يتعدى إلى مفعولين. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ والمرجع مصدر ميمي؛ من رجع فهو بمعنى الرجوع ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ثنى الشيء: عطف بعضه على بعض، فطواه وإثناء الثوب إطواؤه، وثناه عنه: لواه وحوله؛ وثناه عليه: أطبقه وطواه، ليخفيه فيه، وثنى عنانه عنّي: تحول وأعرض، وأصل ﴿يَثْنُونَ﴾ يثنيون[2]؛ لأنه من ثنى يثني ثنياً من باب رمى يرمي رمياً، فالمصدر الثني نقلت ضمة الياء إلى النون قبلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فوزنه يفعون كيرمون؛ لأن الياء المحذوفة هي لام الكلمة. ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ والاستخفاء محاولة الخفاء، والمعنى: أنهم يفعلون ثني الصدر لهذه العلة، ا هـ «سمين». ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

﴿ثِيَابَهُمْ﴾ واستغشى الثوب: إذا تغطى به، كما قال حكايةً عن نوح، عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ والمعنى: يتغطون بها للاستخفاء. وفي «القاموس»: واستغشى ثوبه: تغطى به كي لا يسمع ولا يرى.

البلاغة

تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة:

منها: جناس الاشتقاق بين قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لأن المعنى أحكمها وفصلها خبير، كما في «الشوكاني».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ لأن ثني الصدور كناية عن الإعراض.

ومنها: إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفظيع.

ومنها: الطباق بين ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) انتهى المجلد الثاني عشر ويليه المجلد الثالث عشر بإذن الله تعالى.

شعر

الـعَـبْـدُ ذُو ضَـجَـرٍ والـربُّ ذُو قـدَرٍ والـدَّهْـرُ ذُو دُوَلٍ والـعِـلْـمُ مَـقْـسُـوم
والـخَيْرُ أجْمعُ فيما اخْتار خالِقُنَا وفـي اخـتـيـار سـواه الـلُّـومُ والـشُّـوم

آخر

فَـلَـيْـتَـكَ تَـحْـلُـو والـحـيـاةُ مَـرِيْـرَةٌ وَلَـيْـتَـكَ تَـرْضَـى والأنـامُ غِـضَـابُ
ولَـيْـتَ الـذي بَـيْنِـي وبَـيْـنَـكَ عَـامِـرٌ وبَـيْـنـي وبَـيْـنَ الـعَـالَـمِـيـن خَـرَابُ

آخر

فَـزادِي قَـلِـيـلٌ مـا أُراه مُـبـلِّـغـي علـى الزادِ أبكي أم لِبُعْـدِ مَـسافَـتي
أتَـيْـتُ بـأعـمـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيـئَـةٍ وَمَا في الـوَرى خَلْقٌ جَنَى كَجِنَايتي

الفهرس

تفسير حدائق الرّوح والرّيحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلّامة

محمّد الأمين بن عبد الله الأُرميّ العلويّ الهرريّ الشّافعيّ

المدرّس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرّمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمّد علي بن حسين مهدي

خبير الدّراسات برابطة العالم الإسلاميّ

مكّة المكرّمة

المجلد الثالث عشر

دار طوق النّجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْرَاً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارٍ   مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ
وَإِنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ   وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ

آخرُ

وَٱلنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدِ   وَوَاحِدٌ كَٱلأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَرَا
يَا مَنْ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهْ   طُوْبَىٰ لِمَنِ ٱرْتَضَاكَ ذُخْرَاً لِغَدِهْ
أُطْلُبُوْا ٱلأَرْزَاقَ مِنْ أَسْبَابِهَا   أُدْخُلُوْا ٱلأَبْيَاتَ مِنْ أَبْوَابِهَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، ما سطرت الأقلام وتعاقبت الأيام والليالي.

أمّا بعد: فلما فرغنا من تفسير الجزء الحادي عشر.. أخذنا في تفسير الجزء الثاني عشر مستمداً منه الهداية وكل التوفيق في تفسير كتابه لأقوم الطريق، وها أنا أقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ
مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)
وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ
نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ
نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ
مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ
فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ
لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن
كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] لما بيَّنَ في الآيات السالفة شمولَ قدرته تعالى لكلِّ شيء، وإحاطةَ علمه بما يسرُّون وما يعلنون، وبما في الصدور.. أردفَ ذلك بذكر ما يهم الناسَ من آثار قدرته، ومتعلَّقاتِ علمه، وهوَ ما يتعلَّق بحياتهم، وشؤونهم المختلفة، ثمَّ بذِكْر خَلْقِهِ للعالَمِ كلِّه، ومكانِ عرشه قبلَ هذا من ملكه وبلاءِ البشر بذلك، لِيظهِرَ أيّهم أحسنُ عَمَلاً، ثم بعثه إيَّاهُم بعد الموت لينالوا جزاءَ أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك، وطلب استعجال العذاب الذي أوعدهم به، مع بيانِ أنه واقع بهم لا محالةَ، إنْ أصرُّوا على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] ما يدل على كونه تعالى عالماً.. ذَكَرَ ما يدل على كونه تَعالى قَادِراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قَبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذكر[3] أنَّ عذابَ الكفار، وإن تأخَّرَ لا بدَّ أن يحيقَ بهم.. ذكَرَ ما يدلُّ على كفرهم، وكونهم مستحقينَ العذابَ، لِمَا جبلوا عليه من كفر نعماءِ الله وما يترتبُ على إحسانه تعالى إليهم مما لا يلِيقُ بهم من فخرِهم على عباد الله تعالى.

وعبارةُ المراغي: مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى: لَمَّا ذَكَرَ[4] أنه خَلَق السمواتِ والأرضَ ليبلو الإنسانَ أيشكرُ أم يكفرُ.. قَفى على

---

(١) المراغي.

(٢) (٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

ذلك بذكر طبيعة الإنسان في ذلك، وهي: أنه إذا أصابته نعماء، ثم نزعت منه، قَنَطَ من روح الله، وكفر بها، وإذا أذاقه نِعْمَةً بعد بؤس، بَطرَ وفَخرَ، هكذا شأن الإنسان، إلا من صبرَ، وشكر، وعمِلَ صالحاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَرَ في بَدْءِ السورة قولهم في القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وأنهم ﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ كي لا يسمعوه.. أردفَ ذلك بذكر تكذيبهم للرسول ﷺ والقرآن، وبيان أنَّ همه وحزنَه ﷺ مِنْ كلامهم، قد بلغ كل مبلَغ، ثمَّ أعقبَه بتحديه لهم بالقرآن، كي يأتوا بعشر سور مثله، حتَّى إذا ما عجزوا، عُلِمَ أنَّه وحيٌ من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها(1): أنها لا تتعلق أطماعُهم بأن يَتْرُك بعضَ ما يوحي إليه، إلا لدَعْوَاهم أنه ليس من عند الله، وأنه هو الذي افتراه، وإنَّما تَحدَّاهم أولاً بعشر سور مفتريَاتٍ قبل تحديهم بسورة؛ إذْ كانَت هذه السورة مكيةً، والبقرة مدنيةً، وسورةُ يونسَ أيضاً مكيةً، ومقتضى التحدي بعشر: أن يكونَ قبل طلب المعارضَةِ بسورة، فلَمَّا نسبوه إلى الافتراء طلبَ منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفترياتٍ إرخاء لعنانهم، وكأنه يقول: هبوا أنِّي اختلقته، ولم يوحَ إلَـيَّ فأتوا أنتم بكلام مثلِهِ مختلَق من عند أنفسكم، فأنتم عَرَبٌ فصحاء مثلي، لا تَعجزُون عن مثلِ ما أقدِر عليه من الكلام.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال المنافقينَ في القرآن.. ذَكَرَ شيئاً من أحوالهم الدنيوية، وما يؤولون إليه في الآخرة.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

---

(1) البحر المحيط.

أقام الحجة على حَقِّيَةِ دعوة الإسلام، وعلى أنَّ القرآنَ من عند الله، وليس بالمفترَى من عند محمد ﷺ كما يدعيه المشركون.. أَرْدف ذَلِك ببيَانِ أنَّ البَاعِثَ لهم على المعارضة، والتكذيب، ليس إلا شهواتُهم، وحظوظُهم الدنيوية، والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لِمَا قبلَها: أنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى لما ذكر[1] مآلَ مَنْ كانَ يريد الدنيا وزينتها، ولا يهتم بالآخرَةِ وأعمالِها.. أردَفَ ذلِكَ بذكر مَنْ كَانَ يريد الآخرةَ، ويعمل لها، وكان على بينة من ربه في كلِّ ما يعملُ، ومعه شاهِدٌ يدل على صدقه، وهو القرآن، ومآل من أنكر صِحَّتَه، وكفرَ بِه.

وعبارة أبي حيان: مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها: أنه تعالى لما ذكر حال مَن يريد الحياةَ الدنيا.. ذَكَرَ حَالَ من يريد وجهَ الله تعالى بأعماله الصالحة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وما دابة، من أي نوع من أنواع الدوابِّ في الأرض ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وغذاؤها الذي تحتاج إليه اللائق بها على اختلاف أنواعها، تفضلاً منه، وإحساناً، وإنما جيء به على طريق الوجوب، كما تشعر به كلمة: ﴿عَلَى﴾ اعتباراً بِسَبْقِ الوعد به منه، وتحقيقاً لوصوله، وحملاً على التوكل فيه، وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى: من؛ أيَّ: من الله رزقُها، لا فرق[2] في ذلك بَيْنَ الجِنَة - المكروبات - التي لا ترى بالأبصار، وبين ضِخَامِ الأجسام، والوسطى بَيْنَ هذه وتلكَ، وقد أعطى كلاً خلقَهُ المناسبَ لمعيشته إلى تحصيل غِذَائِهِ بالغريزة، والفطرة، ولله تعَالى حِكَمٌ في خلق كل نوع منها، فإنْ خفيَ علينَا أمرُ خلق الحيات والسنانير ونحوها فلَنَا أن نَقولَ مثلاً: إنه لولاها لَضَاقَت الأَرض بكثرةِ أحيائها أو لأنتنت من كثرة أمواتها.

---

(١) (٢) المراغي.

ومعنى كفالته تعالى لرزقِها أنه سخَّره لها، وهدَاها إلى طلبه، وتحصيله كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقد عُلِمَ بنصوص القرآن، وسُنَنِ الله في الخلقَ وأسبابِ الرزق، أنَّ مشيئته تعالى لا تكون إلا بمقتضَى سُنَنِهِ في ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمةِ في ذلك، إلاَّ أنه يأتيها بمحض قدرتهِ، سواء طلبته أمْ لا.

و ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد، والدابَّةُ كُلَّ حيوان يَدِبُّ في الأرض.

رُوي[1] أن موسى عليه السلام تَعَلَّق قلبُه بأحوال أهله، فأمرَه الله تعالى أن يضرب بعصاه علَى صخرة، فانشقَّتْ وخرَجَت صخرةٌ ثمَّ ضَرَبَ بعصاه عليها، فانشقت وخرجَت صخرةٌ ثانية، ثُمَّ ضَرَبَ بعصاه عليهَا فانْشَقَّتْ وخرجت صخرةٌ ثالثةٌ ثُمَّ ضَرَبها بعصاه فانشقت فخَرَجَتْ منها دُودةٌ كالذَّرَّةِ، وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها، ورفع الله الحجابَ عن سمع موسى عليه السلام فَسَمِعَ الدودةَ تقولُ: سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويَذْكرُني ولا ينساني.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾؛ أي: محلَّ استقرارها في الأرض، أو محل قرَارِها في الأصلاب ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَآ﴾ أي: موضِعَها في الأرحام، وما يَجْرِي مَجرَاها كالبيضة ونحوها، وقال الفراء: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، ﴿ومستودعها﴾ موضِعَها الذي تموت فيه.

ووجه تقدُّمِ المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهرٌ[2]؛ وأما على القول الأول، فلعلَّ وجهَ ذلك أنَّ المستقرَّ أنْسَبُ باعتبار ما هي عليه حالَ كونها دابةً.

والمعنى[3]: وما من دابة في الأرض إلا يَرْزقُها اللَّهُ حيث كَانت من أماكنها بعد كونها دابةً، وقبل كونها دابةً، وذلك حيثُ تكون في الرحم، ونحوه، ثم خَتَمَ الآية بقوله: ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كُلٌّ من الدواب وأرزاقها، ومستقَرّها، ومستودعِها ثابتٌ

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) الشوكاني.

مَرْقُومٌ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في لوح محفوظ، كَتَبَ الله تعالى فيه مقاديرَ الخَلْقِ كلِّها؛ أي: كلَّ ذلك مذكور في اللوح المحفوظ قبلَ خلقِها، وثابتٌ في عِلْم الله تعالى.

وكأنه أريد بهذه الآية ببيان كونه عالماً بالمعلومات كلها[1]، وبما بعدَها بيانُ كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد، ولما سبَقَ من الوعد والوعيد، ثُمَّ أكَّدَ دلائلَ قدرته بالتعرض لذِكْر خلق السموات والأرض، وكيف كان الحالُ قبلها، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإلَهُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأنشأهما على غير مثال سبق، أي: خلقهما وما فيهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله في الخلق والتكوين، وما شاء من الأطوار، لا مِنْ أيَّامِنا في هذه الدار التي وجدت بهذا الخلق، لا قَبْلَه، فلا يصح أنْ تُقدَّر أيامُ الله بأيامِنا المعروفَةِ، وهي المقابلة للَّيالي، لأنه لم يكُنْ حينئذ لا أرْضٌ ولا سماء، ويؤيِّد هذا قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

وكانَ خَلْقُ السموات في يومين والأرضين في يومين، وما عليهما من أنواع الحيوان، والنبات، والجماد في يومين، كما سيأتي في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ السجدة.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ سبحانَه وتعالى؛ أي: كَانَ عَرْشُه قبل خَلْقِهما ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي تحت الأرضين السبع، لم يكن حائل بَيْنَهُما، لا أنه كان موضوعاً على مَتْن الماءِ، بَل هُو في مكانه الذي كان فيه الآن، وهو ما فوقَ السمواتِ السبع، والماءُ في المكان الذي هو فيه الآن، وهو ما تَحْتَ الأرضينَ السبع، وفيه بيانُ تقدم خَلْقِ العرش والماء على السموات والأرضين، وقال ﷺ: «كان الله، وما كان معه شيءٌ ثُمَّ كان عَرْشُه على الماء»؛ أي: والعرش الذي هو أعظمُ المخلوقات قد أمْسَكَهُ الله تعالى فَوْقَ سبع سموات من غير دِعامةٍ تحته، ولا عِلاقة فوقه، وذلك يَدُلُّ على كمال قدرته تعالى.

---

(١) البيضاوي.

وقال سعيد بن جبير(١): سُئِلَ ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أيِّ شيءٍ كان الماء، قال: على مَتْن الريح، وقال وَهْبُ بن منبه: إنَّ العرْشَ كَانَ قبل أن يَخْلُق الله السموات والأرض، ثُم قَبَضَ اللَّهُ قَبْضةً من صفاءِ الماء، ثم فتح القبضة، فارتفع دخان، ثُمَّ قضاهن سبع سموات في يومين، ثم أَخَذَ سبحانه وتعالى طينة من الماء، فوضعها مكانَ البيت، ثُمَّ دَحَا الأرْضَ منها، ثُمَّ خَلَقَ الأقواتَ في يومين، والسموات في يومين، والأرض في يومين، ثم فرغ آخر الخلق في اليوم السابع.

قال بعض العلماء: وفي خلق جميع الأشياء، وجعلها على الماء ما يدلُّ على كمالِ القدرة؛ لأنَّ البناءَ الضعيفَ إذا لم يكن له أساسٌ على أرض صُلبة.. لم يَثْبُتْ، فكيف بهذا الخلق العظيم، وهو العرش والسموات، والأرض على الماء! فهذا يدل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى.

وعن عمرانَ بن حصين رضي الله عنه، قال: دخلتُ على النبي ﷺ وعقلْتُ ناقتي بالباب، فأتى ناسٌ من بني تميم، فقال: «ٱقْبَلُوا البشرى يا بني تميم» فقالوا: بَشَّرْتَنا فأعطنا، مرتين، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، ثُمَّ دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «ٱقْبَلُوا البُشْرىٰ يا أهلَ اليمن، إذْ لم يَقْبَلْهَا بنو تميم» قالوا: قَبِلْنَا يا رسول الله! ثم قالوا: جِئْنَا لِنَتَفَقَّه في الدين، ولنسألك عن أَوَّلِ هذا الأمر، ما كان؟ قال: «كان الله سبحانه وتعالى، ولم يكن معه شيءٌ قَبْله، وكان عَرْشُه على الماء، ثُمَّ خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كُلَّ شيء»، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أَدْرِكْ نَاقَتَكَ؛ فقد ذهبَت، فانطلَقَتُ أطْلبُها، فإذا السَّرَاب يقطع دُونها، وايْمُ الله لَوَدِدْتُ أنَّها ذهبَتْ، ولم أَقُمْ. أخرجه البخاري.

وعن أبي رُزَين العقيليِّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين كان ربنا قبلَ أن يَخْلُق خَلْقَه؟ قال: «كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وخَلَق عرشه على الماء» أخرجه الترمذي، وقال: قال أحمد: يريدُ بالعماء أنه

---

(١) الخازن.

ليسَ معه شيءٌ.

قال أبو بكر البيهقيُّ في كتاب «الأسماء والصفات»[1] له: قولُه ﷺ: «كانَ الله ولم يكن شيء قبله» يعني لا الماءَ ولا العرشَ، ولا غَيْرهُما، قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يعني: وخَلَقَ الماء، وخلق العرشَ على الماء، ثم كتَبَ في الذكر كلَّ شيء، وقوله: «في عماء» العَماء بالمدِّ: السحابُ الرقيقُ، ويريدُ بقوله: «في عماء»؛ أي: فوقَ سحاب مدبِّراً له، وعالياً عليه، وقوله: «وما فوقه هواء»؛ أي: ما فوق السحاب هواءٌ، وكذلك قوله: «وما تحته هواء»؛ أي: ما تَحتَ السحابِ هواء، وقال الأزهري: قال أبو عبيد: إنما تأَوَّلْنا هذا الحديثَ على كلام العرب المعقولِ عَنْهُم وإلا فلا نَدْري كيف كان ذلك العماءُ؟ قال الأزهري: فنحنُ نُؤْمِنُ به ولا نكيِّفُ صِفَتَهُ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتب الله مقاديرَ الخلق قَبْلَ أن يَخْلُق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ، وكان عرشه على الماء»، وفي روايةٍ: «فَرَغَ الله من المقادير، وأمورِ الدنيا قبل أن يَخْلُقَ السموات والأرضَ، وكان عرشُه على الماء بخمسينَ أَلْفَ سنة». أخرجه مسلم.

قوله: فَرغ: يريد إتْمامَ خَلْقِ المقادير، لا أنه كان مشغولاً، ففَرَغَ منه، لأنَّ الله تعالى لا يشغَلُه شأنٌ عن شأن، فإنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له: كن فيكون.

وعرش الرحمن من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسِّنا، ولا نستطيع تصويرَهُ بأفكارنا، فلا نَعلمُ كُنْهَ استوائِه عليه، ولا صُدُورَ تدبيره، لأمر هذا الملك العظيم، ومِن ثَمَّ رُوي عن أمِّ سلمة، رضي الله عنها، وعن مالك، وربيعةَ قولهم: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ.

ومن الآية نَعْلَم أنَّ الذي كانَ دونَ العرش من مادَّةِ الخَلْقِ قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذي جَعَلَهُ الله أصْلاً لخلق جميع الأحياءِ، كما

---

(١) الخازن.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم عَلَّلَ خَلْقَهُ بما ذكر ببعض حِكَمِهِ الخاصَّة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ و(اللام) فيه متعلقة بـ ﴿خَلَقَ﴾ أي: خلق[1] السموات والأرض، وما فيهما، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادىء وجودكم، وأسباب معايشكم، وأودعَ فيهما ما تستدلون به على مطالِبكم الدينية، ليعامِلَكم معاملةَ من يختبركم، فيُظْهِر أيُّكم أحسنُ عملاً؛ أي: عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسْرَع في طاعة الله، فإنَّ لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به.

أيْ[2]: خَلَقَ هذه المخلوقات ليبتليَ عِبَادَهُ بالاعتبار، والتفكر، والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث، والجزاء أيهم أحسنُ عملاً، فيما أُمِر به، ونهي عنه، فيجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ويُوفِّر الجزاءَ لِمَنْ كان أَحْسن عملاً من غيره، ويَدْخُل في العمل الاعتقاد؛ لأنه من أعمال القلب، وقيل: المراد بالأحسن عملاً الأتمُّ عقلاً، وقيل: الأزْهَدُ في الدنيا، وقيل: الأكثر شكراً، وقيل: الأتقى لله.

أي: ليجعلَ ذلك ابتلاءً واختباراً لكم فيظهرَ أيكم أحسنُ إتقاناً لما يعمله لنفسه، وللناس، ذاك أنه تعالى سَخَّر لنا ما في الأرض، وجعلنا مستعدينَ لإبرازِ ما أَوْدَعَه فيها من منافعَ وفوائدَ ماديةٍ ومعنويةٍ، ومستعدِّين للإفساد، والضرر ليجزيَ كل عامل بما يعمل، ثمَّ لما كان الابتلاء يتضمَّن حديثَ البعث، أَتْبَعَ ذلك بذكره، فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾؛ أي: وعزتي وجَلالي، لئن قُلْتَ: يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك على ما توجبه قضيَّة الابتلاء ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ للحساب، والجزاء، فيُجَازَى المحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته، وقرأ[3] عيسى

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

الثقفي: ﴿ولئن قُلتُ﴾ بضم التاء إخباراً عنه تعالى، والمعنى عليه: ولئن قلتُ مستدلاً على البعث من بعد الموت إذ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ دلالةٌ على القدرة العظيمةِ فمَنْ أخْبَر بوقوع ممكنٍ وَقَعَ لا محالةَ، وقد أخْبَرَ بالبعث، فوجب قبولُهُ وتيقُّنُ وقوعه.

وكسرت[1] إن مِنْ قوله: ﴿إِنَّكُم﴾ لأنها وقعت بعد القول، وحكى سيبويه الفتحَ على تضمينِ قُلْتَ بمعنى: ذكرتَ أو على أنَّ (إن) بمعنى لعلَّ؛ أي: ولئن قلت: لعلكم مبعوثون على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين؛ أي: توقَّعوا ذلك، ولا تَبتُّوا القولَ بإنكاره.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ منهم ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآنُ الذي تضمَّن البعث، والحسابَ، والجزاءَ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إلاَّ سحر بَيِّنٌ ظاهر تُسْحَرُ به العقول وتُسَخَّرُ به الضمائر، والقلوب، أو المعنى: ما هذا القولُ الذي تقولونه لنا من البعث، والجزاء إلاَّ خديعةٌ منكم، وضَعْتُمُوها لمنع الناس عن لذات الدنيا، وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم، والدخول تحت طاعَتِكم.

وقرأ الحسن والأعرج، وأبو جعفر، وشيبةُ، وفرقةٌ من السبعة[2]: ﴿سِحْرٌ﴾، وقَرَأ حمزة، والكسائي: ﴿إن هذا إلا ساحر﴾ فاسم الإشارة حينئذ، عائد على النبي ﷺ؛ أي: ما هذا الرجل الذي يَدَّعي البعثَ، والجزاءَ إلا كاذبٌ مُبْطِلٌ، والمعنى؛ أي: ولئن أخبرت يا محمدُ هؤلاء المشركين أنَّ اللَّهَ سيبعثهم بعد مماتهم كما بَدَأهم ليجزِيَهم فيما بَلاَهم به كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ ليُجِيبَنَّك الذين كذَّبوا بلقاء الله قائلينَ: ما هذا الذي جئتَنا به مِن هذا القرآن لتسخِّرَنا لطاعتك، وتَمْنَعَنا عن لَذَّاتِ الدنيا إلاَّ سحرٌ بَيِّنٌ ظاهرٌ تَسْحَرُ به العقولَ وتُسخِّرُ به الضمائر والقلوب.

وبعد أنْ ذَكَرَ سبحانَه ما يقوله المنكرونَ للبعث.. ذَكَرَ ما يقوله المنكرونَ لإنذار الرسول ﷺ إيَّاهم عذابَ الدنيا، والآخرةِ بتكذيبهم له فقال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين مِنْ قومك ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ الذي تَقَدَّم ذِكْرُه في قوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾، وقيل: عذاب يومِ القيامة، وما بعده، وقيل: يوم بدر ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾؛ أي: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العدُّ قليلٌ.

﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾؛ أي: أيُّ شيء يَمْنَعُ العذابَ من المجيء إلينا، والنزولِ علينَا، والمعنى: وعزتي، وجلالي، لئن أخَّرْنَا عنهم عذابَنا الذي توعدهم به الرسول ﷺ إلى حين من الزمن مقدَّر في علمنا، وهو مقتضى سنتنا في خَلْقِنا وبَيَّناه في كتابنا بقولنا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ ليقولُن استهزاءً، أيُّ شيء من الأشياء يمنع هذا العذاب، ويحبسهُ من الوقوع، إن كان حقّاً، والاستفهامُ فيه للإنكار، المضمَّنِ للاستهزاء، والسخرية، ثُمَّ توعَّدَهم بنزوله، وأجابَهم بقوله: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا أيُّها المخاطبون ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾؛ أي: العذابُ ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا﴾، ولا مدفوعاً، ولا محبوساً ﴿عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم﴾ عبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقُّق وقوعه، فكأنَّه قد حاق بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ أي: ويَحِيقُ ويُحيط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلُونه استهزاءً منهم، ووَضَع يستهزئون مكانَ يستعجلون؛ لأنَّ استعجالَهم كانَ استهزاءً منهم.

والمعنى: انتبهوا أنَّ له يوماً يأتيهم فيه حين تنتهي المدَّة المضروبةُ دُونَهُ، ويومئذ لا يصرِفه صارفٌ، ولا يحبسه حابسٌ، وسيحيط بهم يومَئذ مِن كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه، فلا هو يصرف عَنْهُم، ولا ينجَونَ مِنه.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ و (اللام) فيه موطئة للقسم، والمراد: الجنسُ فشَمَلَ المؤمنَ والكافرَ بدليل الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي: لَئِن أذقنا الإنسان وأعطيناه ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: رحمةً كائنةً منا، ورحمةً صادرةً من جهَتِنا كغِنًى، وصِحَّةٍ ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾؛ أي: سلبناه إياها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ أي: لَقاطع رجاءه من عود أمثالها لقِلَّةِ صبره وعدم ثقته بالله ﴿كَفُورٞ﴾؛ أي: عظيم الكفران لما سَلَفَ من النعم، وقيل: المرادُ بالإنسان جنس الكفار، ويؤيده أنَّ اليأسَ والكفرانَ، والفرحَ، والفخرَ، هي: أوصافُ أهل الكفر، لا أهل

الإسلام غالباً، وقيل: المرادُ بالإنسان الوليدُ بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أبي أُميةَ المخزوميّ، والمرادُ بالرحمة هنا: النعمةُ من توفير الرِزق والصحة والسلامة من المِحَنِ.

والمعنى[1]: والله لئن أعطينا الإنسانَ نوعاً من أنواع النِّعَم كرخَاءِ العيش وبَسْطةِ الرزق، وصحةٍ وأمن وولدٍ بارٍّ رحمةً مبتدأةً منا، أذقناهُ لَذَّتها، فكانَ شديدَ الاغتباط بِهَا ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التي قَدَّرها الله تعالى في الخليقة، كالمرض، والموت، والعسْر، إنّه لَيَظُلُّ في هذه الحال شديدَ اليأس من الرحمة، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة، كثيرَ الكفران لغيرها من النِّعَمِ التي لا يزالُ يتمتَّع بها فضلاً عمَّا سَلَفَ مِنها.

والخلاصةُ: أَنَّهُ يجمع بَيْنَ اليأس بعودة ما نُزع منه، والكفر بما بقي له، لحرمانه من فضيلتي الصَّبْرِ والشكر ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ﴾؛ أي: وعزتي، وجلالي: لئن أَعْطينَا الإنسَانَ ﴿نَعۡمَآءَ﴾؛ أي: سعةَ رزق، وعافية، وفي التعبير[2] بالذوق ما يدلُّ على أنه يكون منه ذلكَ عند سلب أدنى نعمةٍ ينعم الله بها عليه؛ لأن الإذاقَةَ والذوق أقل ما يُوجَد به الطعم ﴿بَعۡدِ﴾ كشف ﴿ضَرَّآءَ﴾ وشدة ﴿مَسَّتۡهُ﴾؛ أي: أصابته كصحَّةٍ بعد سقم، وفرَجٍ بعد شِدَّةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك الإنسان ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾؛ أي: المصائب التي أساءتني ﴿عَنِّيٓ﴾ من الضرِّ والفقر.

والمعنى: أنه إن أذاق الله سبحانه العبدَ نعماءَه من الصحة، والسلامة، والغنى بعد أن كانَ في ضر من فقر، أو مرض، أو خوف، لم يقابِلْ ذلك بما يليقُ به من الشكر لله سبحانه، بل يقول: ذهبت السيئات؛ أي: المصائِبُ التي ساءَتْهُ من الضر والفقر، والخوف، والمرض عنه، وزال أَثَرُهَا غَيْرَ شاكرِ لله، ولا مثن عليه بنعمة ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ ذلك الإنسانَ ﴿لَفَرِحٞ﴾؛ أي: كثير الفرحِ، بَطَراً وأشراً ﴿فَخُورٌ﴾؛ أي: كثيرُ الفخر على الناس، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبةٌ للتعبير في جَانِبِ

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

النعماء بالإذاقة، فإنَّ كِلَيْهِمَا لأدنى ما يُطْلَقُ عليه اسمُ الملاقاة، وقرأ الجمهور: ﴿لَفَرِحٌ﴾ بكسرِ الراء، وهو قياسُ اسم الفاعل من فعل اللازم، وقرأتْ فرقةٌ: ﴿لَفَرُحٌ﴾ بضم الراء وهي كما تقول: دنس وطمس ذكره أبو حيان.

وحاصل المعنى: ولئن[1] كشفنا عنه الضراء التي أصابَتْهُ، وحَلَّ محلَّها نعماءُ كشِفاءٍ من مرض، وزيادة قوة، وخروج من عسر إلى يُسْرٍ ونَجَاةٍ من خوف، وذلٍّ إنه ليقولن ذَهَبَ ما كان يَسُوءُني من المصائب والضراء، ولن يعودَ، وما هي إلا سحابة صيف قد تقشَّعَتْ، وعليَّ أنْ أنسَاها وأتمتَّعَ بتلك اللذَّاتِ، وإنه حينئذ لشديدُ الفرح بما يهيِّجُهُ البَطَرُ بتلك النعمة، وإنَّه ليُغالِي في الفَخْرِ والتَّعَالِي على الناس، والاحتقارِ لِمَنْ دُونَهُ فِيهَا.

والخلاصة: أنَّا إذا مَنَحْنَا هذا الإنسانَ اليؤوسَ الكَفورَ، نَعْماءَ أذقْنَاه لَذَّتَها، بَعدَ ضرَّاء مسَّتْه باقترافه أسبابَها، لم يُقابِلْهَا بشكر الله عليها، بل يَبْطَرُ ويفخَرُ على الناس، ولا يقومُ بما يَجِبُ عليه من مُواساة البائِسينَ، الفقراءِ، وعملِ الخير لبني آدَمَ كفاء ما هو متمتع به من تلك النِّعَمِ، ثمَّ استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذَكر من حالَتَيْه السَّالِفَتَيْنِ قَبْلُ الصابرينَ الذينَ يعملون الصالحاتِ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله، واحتساباً للأجْرِ عنده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حينما يكشِفُها ويبدِّلُ النعماءَ بِهَا، ويشكرهُ باستعمالها فيما يرضيه من عمل البر، والخير لعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِر ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من ربهم تَمْحُو ما عَلِقَ بأنفسهم من ذَنْبٍ أو تقصير ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثوابٌ جسيمٌ في الآخرة على ما وفِّقوا لعمله من برٍّ، وخير كثير.

والخلاصةُ[2]: أنَّ الإنسانَ وإن كانَ مؤمناً حقَّ الإيمان، لا يسلم من ضيق صَدْر حينَ حُلُول الضراءِ والمصائب، وذلك مِمَّا ينافي كمالَ الرضا كما لا يسلم حين النعماء من شيءٍ من الزُّهْوِ والتقصيرِ في الشكر، فيُغْفَرُ له كلٌّ منهما بصبره وشكره، وإنابته إلى ربه، وقد جاءَ بمعنى الآية قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ ووصفُ الأجر بالكبير لِمَا حَواهُ من نعيم سَرْمديٍّ وأمْن من العذاب، ورضىً من الله عز وجل، ونظَرٍ إلى وجهه الكريم ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾، واختيارُهُ على العظيم لرعاية الفواصل كما ذكره الكرخي، ثم سلَّى اللَّهُ سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: فلعلك يا محمدٌ تاركٌ تبليغَ بعض ما يوحي إليك ربُّك، أنْ تبلغه إلى مَنْ أمَرَكَ أن تبلِّغ ذلك إليه، ﴿و﴾ لعلَّك ﴿ضائق به صدرك﴾؛ أي: ولعلك[1] يضِيق صَدْرُك بما يوحى إليك، فلا تبلغه إيَّاهم، وذلك أنَّ كفَّارَ مكةَ قالوا: إئت بقرآنٍ غير هذا، ليس فيه سَبُّ آلهتنا، فهَمَّ النبيُّ ﷺ أن يَتْرُكَ ذِكْر آلهتهم ظاهراً، فأنزل الله عز وجل، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يعني مِنْ ذكر آلهتهم، هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآية، قيل[2]: وهذا الكلام خارجٌ مَخْرَجَ الاستفهام، فلعلَّ هنا للاستفهام الإنكاري، كقوله ﷺ: «لَعَلَّنا أعْجلنَاك»؛ أي: هل أنت تاركٌ، وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد؛ أي: لا يكونُ منك ذلك بل تبلغهم جميعَ ما أنزلَ اللَّهُ عليك أحبُّوا ذَلِك أم كرهوه، شاؤوا أم أَبَوا.

والمعنى على الاستفهام: أي أفتاركٌ[3] أنت أيها الرسول بعضَ ما يوحى إليكَ مما يشُقُّ سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، والإنذارِ والوعيد لهم، والنَّعْيِ على معبوداتِهم وتَسْفِيهِ أحلامهم، وضائقٌ به صَدْرُك أن تبلغَهم إياه، كما أُنزل ذاك أنهم كانوا يَتَهَاوَنُون به، فيَضِيقُ صَدْرُه أنْ يلقي إليهم ما لا يَقْبَلُون، وما يضحكون منه، فاستحثه سبحانه على أداء الرسالة، وعدم المبالاة باستهزائهم، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءَه ظهريّاً.

والخلاصة: تحمل أخف الضررَيْنِ، وهو تحمل سَفَاهَتِهم على ترك بعض الوحي، والوقوع في الخيانة فيه.

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

وعبر بـ ﴿ضَائِقٌ﴾ دونَ ضيق، لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث، والعروض، والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم؛ أي: لا تَتْرُكْ تبليغَ بَعْضَ ما يُوحى إليك من البينات الدالَّة على حقيقة نبوتك، ولا يَضِيْقِ صدرك بتلاوته عليهم في أثناء الدعوة، والمحاجةِ، مخافةَ ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ لك ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: هلاَّ أُنْزِل على محمد ﴿كَنزٌ﴾؛ أي: مالٌ كثير مكنوز مخزون ينتفع به، ويَسْتَغْنِي به، ويُنْفِقُه ﴿أَوۡ﴾ هلاَّ ﴿جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يشهدُ بصدقه، وقائل[1] هذه المقالةِ هو: عبدُ الله بن أبي أمية المخزومي.

والمعنى: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنتَ صادقاً في قولِك بأنَّكَ رسولُ الله، الذي تصفه بالقدرة على كل شيء، وأنت عزيزٌ عنده، مع أنك فقيرٌ، فهلاَّ أنزلَ عليك ما تستغني به، أنت وأصحابُك، وهلاَّ أَنْزلَ عليك مَلَكاً يشهد لك بالرسالة، فتزولَ الشبهة في أمرك، فأَخْبَرَ الله تعالى عَزّ وجلّ أنه ﷺ نذيرٌ بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿نَذِيرٌ﴾ تُنذِر الناسَ بالعقاب على أعمالهم التي عَمِلُوها لِطلبِ الدنيا، وذلك أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى، يوسِّع عليهم الرزق، ويدفع عنهم المكارهَ في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ وَكِيلٌ﴾ وليسَ عليكَ من أعمالهم شيءٌ.

وحاصل المعنى: أنَّ عِنادَهم وجحودَهم، وإعراضَهم عن الإيمان، وشدَّةَ اهتمامِك بأمرِهم، ممَّا شأنه أن يَقْتضِي ضَيْقَ الصدر بحسب الطباع البشرية، أو أن يخطرَ على البال، ترك بعضِ الوحي، ولولاَ عِصْمَتُنا إيَّاك، وتثبيتُنا لك، لاجْترَحت ذلك، واستَسْلَمْتَ لما لمثله جرَت العادة، ولكنَّ الله تعالى حَفِظَكَ حتى تؤدِّي رسالتَه، وترحَمَ العالمين بنور نبوتك، كما قال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾.

وقد جَاءَ بمعنى الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾، وقولُه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا

---

(١) الخازن.

يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وقولـه: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾؛ أي: ليس عليك إلا إنذارُهم بما أوحيَ إليك، غيرَ مبال بما يَصْدُر منهم، ويطلق ألسنتَهم، والله هو الرقيب على عباده، وليسَ عليكَ من أعمالهم شيء.

فصل

وأجمع المسلمون على أنه ﷺ فيما[1] كَانَ طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه، بخلافِ ما هو به، لا خطأً، ولا عمداً، ولا سهواً، ولا غلطاً، وأنه ﷺ بلغَ جميعَ ما أنزلَ الله عليه إلى أمَّته، ولم يكتم منه شيئاً، وأجمعوا على أنَّه لا يجوز على رسول الله ﷺ خيانةٌ في الوَحْي، والإنذار، ولا يترك بَعض ما أوحي إليه لقولِ أحدٍ؛ لأنَّ تجويزَ ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع، والتكاليف؛ لأنَّ المقصودَ من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه، فإذا لم يحصل ذلك، فقد فاتَتْ فَائدة الرسالة، والنبيُّ ﷺ معصوم من ذلك كله، وإذا ثَبَتَ هذا وجب أن يكون المرادُ بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ شيئاً آخرَ سوى ما ذكره المفسرون، وللعلماء في ذلك أجوبةٌ:

أحدُها: قال ابن الأنباري: قد علمَ الله سبحانه وتعالى أنَّ النبي ﷺ لا يترك شيئاً مِما يوحى إليه إشفاقاً من مَوْجِدَةِ أحد، وغَضَبِه، ولكنَّ اللَّهَ تعالَى أكَّدَ على رسوله ﷺ متابَعَة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ. . .﴾ الآية.

الثاني: أنَّ هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وتحريضه على أداءِ ما أنزله إليه، والله سبحانه وتعالى مِن وراء ذلك في عِصْمتِهِ مما يخافه ويَخْشاه.

الثالث: أنَّ الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن، ويَضْحَكُون منه، ويتهاوَنُون به، وكانَ رسولُ الله ﷺ يضيق صَدْرُهُ لذلك، وأن يُلْقِي إليهم ما لا يقبلونه، ويستهزئونَ به، فأمَرَهُ الله سبحانَه بتبليغ ما أوحِي إليه، وأن لا يَلْتَفِتَ إلى

(١) الخازن.

استهزائهم، وأنَّ تحمُّلَ هذا الضَّرَرَ أهون من كتم شيء من الوحي، والمقصود من هذا الكلام: التنبيهُ على هذه الدقيقة، لأن الإنسان إذا عَلم أنَّ كلَّ واحد من طَرَفَي الفعلِ والترك مشتملٌ على ضَرَرٍ عظيم، ثمَّ عَلِمَ أنَّ الضَّرَرَ في بابِ الترك أعْظَمُ، سَهُلَ عليه الإقدامُ على الفعل، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسولَ الله ﷺ لا يتركُ شيئاً من الوحي، هَيَّجَه لأداء الرسالة، وطرح المبالاةِ باستهزائهم، ورَدِّهم إلى قبول قوله بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: لعَلَّكَ تتركُ أن تلقِيَه إليهم مخافةَ رَدِّهِم، واستهزائهم به، وضائقٌ به صَدْرُكَ؛ أي: بأنْ تَتْلُوَهُ عليهم، والله أعلم.

و ﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ..﴾[1] هي: المنقطعة التي تقدَّرُ بمعنى بَلْ الإضرابية، وهمزة الاستفهام التوبيخي، والتقريعي، والضميرُ المستتر في ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ للنبي ﷺ، والبارزُ إلى ما يُوحى إليه.

أي: بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكَّة: إنَّ محمداً ﷺ قد افترَى هذا القرآن واختلقَه من عند نفسه، ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد في جواب مقَالَتِهم هذه، ورَدِّها إن كانَ الأمْرُ كما تزعمون ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾؛ أي: مثل القرآن في البلاغة، وحُسْنِ النَّظْمِ، وجزالة اللفظ، وفَخامةِ المعاني، ووصَفَ السُّورَ بما يوصف به المفرد، فقال: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ ولم يقل: أمثالِه؛ لأنَّ المرادَ: مماثَلَة كلِّ واحد من السور، أو لقصد الإيماء إلى وَجْه الشبه، ومدارةِ المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز، وهذا: إنما هو على القول بأنَّ المطابقةَ في الجمع، والتثنية، والإفراد، شرطٌ، ذَكَرَه الشوكاني، أي: بعشر سور مماثلة للقرآن في ذلك ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾؛ أي: مختلفات من عند أنفسكمْ، لا تدَّعُون أنها من عند الله تعالى، فإنكم أهلُ اللَّسَنِ والبيان، والمران على المفاخرة بالفصاحة، والبلاغة، وفنون الشعر، والخَطابة، ولَم يسبِقْ لي مع العمر الطويل الذي عشته بينكم أنْ أُزاوِل شيئاً من ذلك، فإن كَانَ من كلام البشر، فأنتم على مثله أقْدَرُ، وإنكم لتعلمون أني لم أكذب على بشر قط، فكيف أَفْتَرِي على الله؟

---

(١) الشوكاني.

﴿و﴾ إنْ زعمتم أنَّ لي من يعينني على تأليفِهِ ووصْفِه، فـ ﴿ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ممن تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، ومِنْ سَائِرِ خلقه لِيُسَاعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، ولتكن مِثْلَه مفتريات ٍ تشملُ على مثل ما فيه من تشريع دينيٍّ، ومَدَنيٍّ، وحكم ومواعظ، وآداب، وأنْباء غيبية إخباراً عن ماض، وأنباء غيبية. إخباراً عن مستقبل بمثل هذا النظام البديع، والأسلوب البالغ حَدَّ الإعجاز، والبلاغَةِ الساحِرَة للألباب، والسلطان الحَاكِم على الأنفس والأرواح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعاءِ كونِ القرآن مفترًى على الله تعالى.

والخلاصة[1]: أنّ مشركي مكَّةَ المعانِدِينَ، لم يجدوا شبهةً في القرآن بعد شبهة السحر التي لم تَجِد أُذناً صاغيةً عند العرب؛ لأنهم أربابُ الفصاحة، واللسن، فعرفوا فضله على سائر الكلام، إلا زَعْمَهُمْ أنَّ محمداً قد افتراه جملةً، وليس بوحي من عند الله، فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، في النظم والأسلوب محتويةٍ على التشريع القيم من دينيٍّ ومدَنيٍّ، وسياسيّ، وحكم، ومواعظ، وآداب، وكلَّفهم دعوةَ مَنْ استطاعوا من دون الله، لِيُظاهِرُوهم، ويُعَاوِنُوهم على ذلك، فعَجَزُوا، ولم يجدوا من فصحائهم من يستجيب لهم، فقامت الحُجَّةُ عليهم، وعلى غيرهم إلى يوم الدين، وهذا معنى قوله:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يستجب لكم مَنْ تَدْعونهم من دونِ الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور المُمَاثلةِ للقرآن من فحول الكتَّاب، ومَصَاقِع الخطباء، وعلماء أهلِ الكتاب العارفين أخْبارَ الأنبياء ﴿فَٱعْلَمُوٓا﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ هذا القرآنُ على محمد ﷺ ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمقتضى علم الله وإرادتِه أن يبلِّغَه لعباده على لسان رسوله، ولا يقدرُ عليه محمد ولا غيره ممن تدعونه زوراً أنهم أعانُوه، لأنه من علم الغيب الذي لا يَعْلَمُه إلا مَنْ أعلمه الله به.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: واعلموا أيها المشركونَ، أنه لا معبودَ بحق في

---

(١) المراغي.

الوجود إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى، إذ من خصائص الإلَه أن يَعْلَمَ ما لا يعلمه غيره، وأن يُعْجِزَ مَن عداه عن مثلِ ما يقدر عليه، والاستفهام، في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ للتوبيخ المضَمَّنِ للأمر؛ أي: فهل أنتم أيها المشركون بعد أن قامت عليكم الحجة، داخلون في الإسلام الذي أدعوكم إليه، بهذا القرآن، مؤمنون بما فيه من عقائدَ، ووعد، ووعيد، وأحكام، وحِكم وآداب؛ أي: أَسْلِمُوا، وأَخْلِصُوا لله العبادةَ.

والخلاصة: أنه لم يَبْقَ لكم بَعْدَ أنْ دُحِضَتْ شبهتَكم، وانقطعَتْ مَعَاذِيرکُم إلاَّ جُحودَ العناد، وإعراض الاستكبار، والعاقل المنصِفُ لا يرضَى لنفسه بمِثْل هذا.

والمعنى[1]: فإن لم يستجِب لكم آلهتكم، وسائرُ مَنْ إليه تجأرُونَ في مُلِمَّاتِكم إلى المعاونة، فاعلموا أنَّ القرآنَ خارج عن دائرة قدرة البشر، وأنه منزل من خالق القِوَى والقُدَرِ، واعلموا أيضاً أنَّ آلِهَتَكُم بمعزل عن رتبة الشركة في الألوهية، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام هذه الحجة القاطعة؟.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿أنَّما نَزَّل﴾ بفتح النون والزاي وتشديدها، ويحتملُ أن تكونَ ﴿ما﴾ مصدرية، أي: ﴿أنَّ﴾ التنزيلَ، ويحتمل أن تكونَ بمعنى الذي؛ أي: أن الذي نزَّله، وحذف الضمير المنصوب لوجود شرط جواز الحذف. فإن قلت:[3] قد تحدَّاهم بأن يأتوا بسورة مثله، فلم يقدروا على ذلك، وعجزوا عنه، فكيف قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، ومَنْ عجزَ عن سورة واحدة، فهُو عن العشرة أعْجَز؟

قلتُ: قد قال بعضهم: إن سورة هود نزلَتْ قبل سورة يونس، وأنه تحدَّاهم أوَّلاً بعشر سور، فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس، وأنكر المُبرِّد هذا القول، وقال: إن سورةَ يُونُسَ نَزَلَتْ أوَّلاً. قالَ: ومعنى قولِه في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا۟

(١) المراح. (٣) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعني مثله في الإخبار عن الغيب، والأحكام، والوعد، والوعيد، وقولُه في سورة هود: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعني مجرَّدَ الفصاحة، والبلاغة من غير إخبارٍ عن غيبٍ، ولا ذِكرِ حكم، ولا وعد، ولا وعيد، ثم إنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى توعَّدَ مَنْ كَانَ مقصورَ الهمة على الدنيا، لا يطلُب غَيْرَها، ولا يريد سِوَاها فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله الذي يَعْمَلَهُ من أعمال البر والخير من العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوانات ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: التمتعَ بلذاتها من طعام وشراب ﴿وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: ما يَتَزَيَّن به فيها من اللباس والأثاث، والرياش، والأموال، والأولاد دُونَ استعدادٍ للحياة الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نُؤدِّ إليهم جزاءَ أعمالهم، وثمراتها فيها، وافيةً تامَّةً بحسب إرادتنا، وسُنَّتِنَا في الأسباب؛ أي: نوصل إليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا، كاملةً ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم في الحياة الدنيا: لا يُنْقَصون من جزاءِ أعمالهم نقصاً كلياً، ولا يحرمون من ذلك حرماناً كلياً، لأجل كفرهم إذ مدار الأرزاق فيها على الأعمال، لا على النيات، والمقاصد، وإن كانَ لهداية الدينِ أثر في ذلكَ كالاستقامة، والصدقِ واجتنابِ الخيانةِ والزور، والغش، وغير ذلك، وذلكَ الجزاء هو: ما يرزقون فيها من الصّحَّةِ، والرياسة، وسعة الرّزق، وكثرة الأولاد ونحو ذلك.

والخلاصة: أَنَّ جزاءَ الأعمال في الدنيا مَنُوطٌ بأمرين: كسب الإنسان، وقضاءِ الله، وقدره به، وأمَّا جزاءُ الآخرة فهو بفعلِ الله تعالى بلا وساطةِ أحد، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: لا ينقصون منْ جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد، بل إن قَضَتْ به مشيئتُهُ سبحانه ورجَّحَتْهُ حكمتُه البالغةُ، وقال[1] القاضي: معنى الآية مَنْ كانَ يريد بعمل الخيرِ الحياةَ الدنيا، وزينتَهَا نوف إليهم أعمالهم، وافيةً كاملةً من غير بخس في الدنيا، وهو ما ينالون فيها من

(١) الشوكاني.

الصحة، والكفاف، وسائر اللذات، والمنافع، فخص الجزاءَ بمثل ما ذكره، وهو حاصلٌ لكل عامل للدنيا، ولو كانَ قليلاً يسيراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لا هَمَّ لهم إلا الدنيا، وزينتَها الموفون فيها جزاءَ أعمالهم هم ﴿ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ بسبب هذه الأعمال الفاسدة المقرونةِ بالرياء، لأنَّ الجزاءَ فيها على الأعمالِ كالجزاءِ في الدنيا، وهم لم يعملوا للآخرة شيئاً، فإنَّ العمل لَهَا يكون بتزكية النفس بالإيمان، وعمل الفضائل، وبالتقوى باجتناب المعاصي، والرذائل، وما صَنَعُوه فيها مِمَّا ظاهِرُه البرُّ والإحسان كالصدقة، وصلة الرحم، ونحو ذلك، لم يكن تزكيةً لأنفسهم تُقربُهم إلى ربهم بَلْ كانَ لأغراض نفسية من شهواتهم كالرياء، والسمعة، والاعتزاز بذوي القرابة على الأعداء، ولو بالباطل فلا أجْرَ له فيها، وقد انقطع أثرهُ الدنيويُّ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: ظهر حُبوطٌ ما صنعوه من الأعمال التي كانت صُورَتُها صورةَ الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي، لولا أنهم أفسَدُوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلوص فيها، وعدم إرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قَصَرُوا ذلك على الدنيا وزينتها؛ أي: ظَهَر حبوطُه وبُطْلانهُ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الآخرة، إن قلنا: إن الجار والمجرور متعلق بـ ﴿حبط﴾ فالضميرُ عائد إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإن تعلق بـ ﴿صَنَعُواْ﴾ فهو عائد إلى ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: إنه كان عملهم في نفسه باطلاً غيرَ معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاءَ ويترتَّبَ عليه ما يترتَّبُ على العمل الصحيح.

فصل

ويندرج في عموم الآية[1] المُراؤون من أهل القبلة، كما ترى أحدَهم إذا صلّى إماماً يتنغم بألفاظ القرآن، ويُرتِّلِهُ أحسنَ ترتيل، ويُطيل ركوعَه وسجُودَه، ويتباكَى في قراءته، وإذا صَلّى وَحْدَهُ اختلسها اختلاساً، وإذا تصدَّقَ أظهَرَ صدقته أمَامَ مَنْ يثني عليه، ودَفَعها لمن لا يستحقها، حتى يُثْنِي عليه الناسُ، وأهلُ

(١) البحر المحيط.

الرباط المتصدق عليهم، وأين هذا من رجل يتصدَّقُ خفيةً، وعلى مَنْ لا يعرفه، كما جاء في السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه «ورجلٌ تصدَّق بصدقة، فأخفاها حتى لا تَعلم شماله ما تنفق يمينه»، وهذه مبالغة في إخفاء الصدقة جداً، وإذا تعلَّم علماً راءى به، وتبجَّح، وطلَبَ بمعظمه يسيرَ حطام من عرض الدنيا، وقد فَشَا الرياء في هذه الأمة فشواً كثيراً، حتى لا تكادُ تَرَى مخلصاً لله لا في قول، ولا في فعل، فهؤلاء من أولِ من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، والعياذُ بالله تعالى، والرياءُ هو أن يُظْهِرَ الإنسانُ الأعمالَ الصالحةَ ليحمده الناس عليها، أو ليَعْتَقِدُوا فيه الصلاحَ، أو ليقصدوه بالعطاءِ، فهذا العملُ هو الذي لغير الله تعالى، نعوذ بالله تعالى من الخذلان، اهـ من «الخازن».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُوَفِّ﴾ بنون العظمة، وقرأ طلحة بن ميمون: ﴿يُوفِّ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ زيد بن علي: ﴿يُوفِ﴾ مخففاً مضارعُ أوفى، وقرىء: ﴿تُوف﴾ بالتاء مبنياً للمفعول، و﴿أعمالهم﴾ بالرفع، وهو على هذه القراءات مجزوم جوابَ الشرط كما انجزم في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

وقرأ الحسن: ﴿نُوفي﴾ بالتخفيف وإثبات الياء، فاحتمل أن يكون مجزوماً بحذف الحركة المقدرة على لغة مَنْ قال:

أَلَـمْ يَـأْتِـيْـكَ وَٱلأَنْـبَـاءُ تَـنْـمِـيْ

وهي لغةٌ لبعض العرب، واحتملَ أن يكونَ مرفوعاً.

وقرأ زيد بن علي: ﴿وَبَطَلَ﴾ جعلَه فعلاً ماضياً، وقرأ أُبـيٌّ وابن مسعود، و﴿باطلاً﴾ بالنصب، وخرَّجه صاحب «اللوامح» على أنه مفعول لـ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فهو معمولُ خبر ﴿كَانَ﴾ متقدماً، و(ما) زائدة؛ أي: وكانوا يعملون باطلاً، وفي جواز هذا التركيب خلافٌ بَيْنَ النحويين، وهو أن يتقدَّم معمول الخبر على الجملة بأسرها مِنْ كَانَ واسمها وخبرها، ويشهد للجواز قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَعۡبُدُونَ﴾ ومَنْ مَنَعَ تأَوَّل، ذكره أبو حيان. ثُمَّ ذكر الله سبحانه وتعالى أنَّ بين مَنْ كان طالباً للدنيا فقط، ومن كانَ طالباً لِلآخرة تفاوتاً عظيماً، وتبايناً بعيداً فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجَهِلتُم وتَعَامَيْتُم عن الحق فَمَنْ كان على بينة ومعجزة، وبيان وبرهان من ربه، والمراد بالبينة: القرآن، وهو النبي ﷺ والمؤمنون فـ﴿مَن﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره؛ أي: أفمن كان على برهان من ربه، كمن هو في كفر وضلالة، وجواب الاستفهام محذوف أيضاً، تقديره: لا يستويان، وقد صرَّحَ بهذين المحذوفين في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ وقوله: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ معطوف على جملة الصلة، والضميرُ في ﴿يتلوه﴾ عائد على ﴿مَن﴾ وكذلك الضمير في قوله الآتي﴿من قبله﴾ كما في «الصاوي»، أي أفمن كانَ على بيان وبرهان من ربه ويتلوه؛ أي: ويتبعه ويصدِّقه، ويقَوِّيه شاهد منه؛ أي: من الله تعالى، وهو جبريل كمن ليس كذلك وقوله: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو معطوف على ﴿شَاهِدٞ﴾ وقوله: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ حالانِ أيضاً من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ والتقدير: أفمَن كانَ على بيان وبرهان وحجة من ربه، ويتلوه ويتبَعُه ويصدِّقُه، ويقويه شاهد منه تعالى، يشهدُ بصدقه، وهو جبريل، ويتلوه ويتبعه، ويُوافقه كتاب موسى، فيما يدَّعِيه من التوحيد حالَ كون كتاب موسَى كائناً من قبله، وحالةَ كَوْن كتابه إماماً يقتدَى به في الدين، وحالةَ كونه رحمةً لمن آمن به من بني إسرائيل؛ لأنه يهدي إلى الحق في الدين والدنيا، كمَنْ ليسَ كذلك لا يستويان فبينهما بون بائن وفرق فارق.

وقرأ محمد بن السائب الكلبيُّ وغيره[1]: ﴿كتابَ موسى﴾ بالنصب عطفاً على مفعول ﴿يتلوه﴾ أو بإضمار فعل، فالضمير في ﴿يتلوه﴾ حينئذ عائدٌ على بينة، بمعنى القرآن؛ أي: ويتلو القرآن، وكتاب موسى شاهدٌ منه تعالى، وإنما خَصَّ كتاب موسى بالذكر دونَ كتاب عيسى؛ لأنَّ أهلَ الملتين اليهودَ،

---

(١) البحر المحيط.

والنصارى، متوافقان على أنَّ التوراةَ مِن عند الله تعالى بخلاف الإنجيل؛ لأنَّ اليهودَ تُخالِفُ فيه، فكان الاستشهادُ بما تَقُومُ به الحجة على الفريقين أولى.

وأعرب البيضاوي ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتدأ والجار والمجرور خبراً.

والمعنى[1]: أفمن كان على نور، وبصيرة في دينِهِ، ويؤيده نُورٌ غيبيٌّ يشهدُ بصحته، وهو القرآن المشرِق النور والهدي ويؤيده شاهدٌ آخرَ جاء مِنْ قبله، وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، حالَ كونه إماماً متَّبعاً في الهدى والتشريع، ورحمةً لِمَنْ آمن، وعَمِلَ به مِن بني إسرائيل وشهادةُ موسى لهذا النبي الكريم شهادةُ مقال بالبشارة بنبوته، وشهادة حال، وهي التشابه بين رسالتَيْهما؛ أي: أفمن كان على هذه الأوصاف كمَنْ يريد الحياة الدنيا الفانيةَ وزينتَها الموقوتة ويظل محروماً من الحياة العقلية، والروحية التي تُوصِل إلى سعادة الآخرة الباقية ونحو الآية قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾.

وإجمالُ المعنى[2]: أفمن كانَ كاملَ الفطرة، والعقل، وعَرَفَ حقيقةَ الوحي، وهو القرآن، وما فيه من نور وهداية وعرَف تأييدَه بالوحي السابق الذي اهتدى به بنو إسرائيل، فتظاهرت لدَيْه الحججُ الثلاثُ في الهداية كمال الفطرة، ونور القرآن، والوحي الذي أنزل على موسى كمَنْ حُرِم من ذلك، وكان هَمُّه مقصوراً على الحياة الفانية ولذاتِها.

والإشارةُ بقوله[3]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفينَ بتلكَ الصِّفَةِ الفاضلةِ، وهو الكون على البينة من الله، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾؛ أي: يصدقون بالقرآن، أو بالنبي ﷺ؛ أي[4]: أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهبية، والبينة الكسبية النقلية، يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين، وإذعان على علم بما فيه من الهدى، والفرقان، فيجزمون بأنه ليس بالمفترى من دون الله، ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾؛ أي: ومن يكفر بهذا القرآن فيَجْحَدُ أنه من عند الله ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: ممن تحزّبوا، وتجمَّعوا من أهل مكة، وزُعماء قريش للصدِّ عنه، قال مقاتل: هم بَنُو أمية، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآلُ طلحة بن عُبيد الله، وقيل: من[1] جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة، فتدخلُ فيه اليهودُ والنصارَى، والمجوس وعبدة الأوثان، وغيرهم، والأحزاب هم الفرق الذين تحزَّبوا، وتجمَّعوا، واتفقُوا على مخالفة الأنبياء ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾؛ أي: مكان وعده في الآخرة، ومصيرُهُ وموردُه يَردُها لا محالةَ، وهي التي فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب، فإنه يصير إلى جهنم من جَرَّاء تكذيبه لوعيده الذي جاء في نحو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

روى البغوي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهودي، ولا نصراني، ومات، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلاَّ وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بَلَغني هذا الحديث: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» الحديثَ، قال سعيد: فقلت: أينَ هذا في كتاب الله؟ حتَّى أتيت على هذه الآية: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال: فالأحزاب أهلُ الملل كلها ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ نزل به جبريل إن قلنا: إنه متعلق بما قبله من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أو المعنى: فلا تكن في شك من أنَّ مصيرَ من كفر بالقرآن النار، إنَّ هذا الوعدَ هو الحق الثابتُ مِمَّن يربيك في دينك ودنياك، إن قلنا: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ للنبي ﷺ، والمراد به غيره؛ لأنَّ النبيّ ﷺ لم يشُك قط، وقيل: الخطابُ لكل مكلف؛ أي: فلا تكن[2] أيها المكلف في شك من أمر هذا القرآن، إنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

يديه، ولا من خلفه، آتياً من ربك، وخالقِك الذي يربيك بما تكملُ به فطرتُك، ويُوصِلُك إلى سعادَتِك في دنياك، وآخرَتِك، وقرأ الجمهور[1]: ﴿في مِرية﴾ بكسر الميم، وهي لغة الحجاز، وقرأ السلمي، وأبو رجاء، وأبو الخطاب السدوسي، والحسن بضمها، وهي: لغة أسد، وتميم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً، أو قد طبع على قلوبهم، فلا يفهمون أنه الحقّ أصلاً.

أي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا الإيمانَ الكامِل، أمَّا المشركون منهم، فلاستكبار زُعمائهم، ورؤسائهم وتقليد مرؤوسيهم، وعامتهم لهم وأما أهل الكتاب.. فلتحريفِهم دينَ أنبيائهم، وابتداعهم فيه.

الإعراب

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَا﴾ نافية ﴿مِن﴾ زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾ مبتدأ أول ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿رِزْقُهَا﴾ مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره مستأنفة ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ فعل ومفعول ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ معطوف عليه وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة المبتدأ الثاني على كونها خبراً للأول، ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء بالنكرة نيَّةُ الإضافة فيه، والمضاف إليه محذوف، تقديره: كل ما ذكر من الدابة، ورزقها، ومستقرها، ومستودعها ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ خبر المبتدأ ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبٍ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لما قبلها.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فعل ومفعول ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف عليه وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾ على كونها صلةَ الموصول ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يبلوكم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لبلائكم، واختباركم الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ، وخبر ﴿عَمَلًا ۗ﴾ تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة[1] الاسمية في محل النصب معمولة لـ﴿يبلوكم﴾ علق عنها باسم الاستفهام. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لما في الاختبار من معنى العلم، لأنه طريق إليه، فهو ملابس له، اهـ «سمين» ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿قُلْتَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ناصب واسمه وخبره والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قل﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم مؤكدة للام القسم الأولى ﴿يقولن الذين﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب القسم تقديره، وإن قلت: إنكم مبعوثون يقول الذين كفروا، وجملة الشرط مع جوابه، وكذلك جملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلةُ الموصول ﴿إِنْ﴾ نافية لا عمل لها لانتقاض نفيها بـ ﴿إلا﴾. ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿سِحْرٌ﴾ خبر المبتدأ

(١) الفتوحات.

﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿أَخَّرْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونِه فعلَ شرط لها ﴿عَنْهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَخَّرْنَا﴾ ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ صفة لـ ﴿أُمَّةٍ﴾ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال؛ لأن أصلَه ليقولونن، وواو الجماعة المحذوفة، لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجوابُ الشرط محذوف لِدلالةِ جواب القسم عليه، تقديره: وإن أخرنا عنهم العذاب.. يقولون ما يحبسه، وجملة الشرط مع جوابه، وكذلك جملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم﴾ و﴿يقولن﴾ بضم اللام هنا معرب بالنون المحذوفة لالتقاء الساكنين، وإنما أعرب مع نون التوكيد لانفصالها بالواو في التقدير، وإن بَاشَرَتْ في اللفظ، وشرط بناء الفعل معها مباشرتها فيهما، وهذا بخلاف ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ المتقدم فإنه مبني لمباشرة النون في اللفظ والتقدير كما سيأتي بيان إعلاله في مباحث الصرف، ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع مبتدأ ﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ما الاستفهامية، والضمير المنصوب يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ والمعنى: أي شيء من الأشياء يحبس العذاب، ويمنعه من الوقوع؟ وهذا الاستفهام على سبيل الاستهزاء، والسخرية، وجملة ﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَا﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح داخلة على ﴿لَيْسَ﴾ في المعنى ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿مَصْرُوفًا﴾ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾. ﴿مَصْرُوفًا﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ والتقدير:

ألا ليس هو؛ أي: العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم العذاب، وجملة ﴿لَيْسَ﴾. مستأنفة ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلقان بـ﴿مصروفا﴾ ﴿وَحَاقَ﴾ فعل ماض ﴿بِهِم﴾ متعلق به ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ (إن) على كونه فعلَ شرط لها ﴿مِنَّا﴾ حال من ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَذَقْنَا﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿يئوس﴾ خبره ﴿كَفُورٌ﴾ صفة ﴿يئوس﴾ أو خبر ثان لـ (إن) وجملة (إن) جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه جواب القسم، تقديره: فهو يؤوس كفور، وجملة الشرط مع جوابه، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط ﴿أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان في محل الجزم بـ (إن) الشرطية ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾. ﴿مَسَّتْهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ضَرَّآءَ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿ضَرَّآءَ﴾ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة جوابُ

القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف تقديره: وإن أذقناه نعماء.. يقول: وجملة الشرط مع جوابه، وكذا القسم مع جوابه معطوفة على جملة، قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَنِّىٓ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَفَرِحٌ﴾ خبره ﴿فَخُورٌ﴾ صفة ﴿فرح﴾ أو خبر ثان، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل القول.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداةُ استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مستثنًى[1] متصل في محل النصب، والمستثنى منه الإنسان، وقيل: الاستثناء منقطع، و ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) الاستدراكية ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿صَبَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ ثالث ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة ﴿أَجْرٌ﴾ والجملة من المبتدأ الثالث، وخبره خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من الأول، وخبره جملة استدراكية لا محلَّ لها من الإعراب، وفي «السمين» قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه منصوب على الاستثناء المتصل، إذ المراد بالإنسان الجنس، لا واحد بعينه.

والثاني: أنه منقطع، إذ المراد بالإنسان شخص معين، وهو على هذين الوجهين، منصوب المحل.

والثالث: أنه مبتدأ، والخبر الجملة من قوله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو منقطع أيضاً اهـ.

---

(١) العكبري.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لعل﴾ حرف ترج ونصب ﴿والكاف﴾ في محل النصب اسمها ﴿تَارِكُۢ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، و ﴿تَارِكُۢ﴾ اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على محمد، ﴿بَعۡضَ مَا﴾ مفعول، ومضاف إليه ﴿يُوحَىٰٓ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيۡكَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ معطوف على ﴿تَارِكُۢ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿صَدۡرُكَ﴾ فاعل ﴿ضائق﴾، ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، تقديره: مخافةَ قولهم، أو كراهيةَ قولهم، والمصدر المقدر معلل لـ ﴿تَارِكُۢ﴾، و﴿ضائق﴾، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوۡلَآ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿كَنزٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلق به ﴿مَلَكٌۚ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر ﴿أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿وَكِيلٌ﴾، ﴿وَكِيلٌ﴾ خبر عن الجلالة، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿أَمۡ﴾ منقطعة مقدرة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الإنكار ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على

محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَأْتُوا﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: (الفاء) رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن كان الأمر كذلك ﴿ائتوا﴾ فعل وفاعل ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ صفة أولى لـ ﴿عشر﴾ لأنه في تأويل مماثلة إياها ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة ثانية ﴿وَٱدْعُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَأْتُوا﴾، ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿وَٱدْعُوا﴾، ﴿ٱسْتَطَعْتُم﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من استطعتموه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من ﴿من﴾ الموصولة ﴿إِن كُنتُمْ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ (إن) الشرطية، وجوابها محذوف معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم فادعوهم، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم، ما قلت لكم من دعوة من يساعدكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح، إن لم يجيبوا لكم.. فأقول لكم: إن لم يستجيبوا لكم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿لَمْ﴾ حرف جزم ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿فَٱعْلَمُوٓا﴾ (الفاء) رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول لجواب (إذا) المقدرة ﴿أَنَّمَآ﴾ (أنَّ) حرف نصب ومصدر، ولكن بطل عملها لدخول (ما) الكافة عليها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية (ما) كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها، ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على القرآن ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من

الضمير المستتر في ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: حالةَ كونه ملتبساً بعلم الله وقضائه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم؛ أي: فاعلموا إنزالَ الله إياه بعلمه، ﴿وَأَن لَّآ﴾ (الواو) عاطفة (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن أي وأنه (لا) نافية تعمل عمل (إنَّ)، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر (لا) محذوف تقديره: وأنه لا إله موجود ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر (لا) وجملة (لا) في محل الرفع خبر لـ (أن) المخففة، وجملة (أن) المخففة في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: واعلموا عدمَ وجودِ إله إلا هو ﴿فَهَلْ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع (هل) حرف للاستفهام الطلبي المضمن للأمر ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿فَاعْلَمُوا﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف في محله ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونها فِعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ﴾ فعل ومفعول ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿الْحَيَاةَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: من كان مريداً الحياةَ الدنيا ﴿وَزِينَتَهَا﴾ معطوف على ﴿الْحَيَاةَ﴾، ﴿نُوَفِّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ مفعول به ﴿فِيهَا﴾ متعلق به أيضاً، وجملة (من) الشرطية مستأنفة، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم

لـ ﴿لَيْسَ﴾، ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ متعلق بالاستقرار، الذي تعلق به الخبر ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلنَّارُ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، والتقدير ﴿لَيْسَ﴾ كائناً لهم في الآخرة إلا النار، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة الموصول، ﴿وَحَبِطَ﴾ فعل ماض ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل لـ ﴿حبط﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾، ﴿صَنَعُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: ما صنعوه فيها، ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره ما يعملونه.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهلتم أيها المشركون حَقِيَّةَ ما عليه محمد وأصحابه، فمن كان على بينة من ربه، كمن ليس على ذلك (من) اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على (من) ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: كمن ليس على ذلك، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، وجواب الاستفهام محذوف أيضاً، تقديره: لا يستويان كما مر في مبحث التفسير، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿شَاهِدٌ﴾، والتقدير: ويتلوه كتاب موسى حالةَ كونِه كائناً قبلَه ﴿إِمَامًا﴾ حال ثانية من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿إِمَامًا﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَن﴾ اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب ﴿يَكْفُرْ﴾ فعل مضارع مجزوم على كونه فِعْلَ شرط لـ ﴿مَن﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يكفُرْ﴾. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، و ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب، والجملة الاسمية في محل النجزم جواب مَن الشرطية، وجملة مَن الشرطية مستأنفة.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَلَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلته وأردت بيان ما هو الأصلح اللازمُ لك.. فأقول لك ﴿لا تك في مرية منه﴾ ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكُ﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (لا) الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ جار ومجرور خبرها ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿مِرْيَةٍ﴾، وجملة تكون في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ناصب، واسمه، وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ (الواو) عاطفة ﴿لكنَّ﴾ حرف نصب واستدراك ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ اسم ﴿لكنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر ﴿لكنَّ﴾، وجملة ﴿لكنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والدابة[1] اسم لكلِّ نسمة حية تدب على الأرض، زحفاً أو على قوائم اثنين فأكثر، وغلبَ عُرْفاً على ما يركب من الخيل، والبغال، والحمير، والدبُّ، والدبيب الانتقال الخفيف البطيء، كدبيب الطفل، والشيخ المسن، والعقرب. وفي «المصباح»: دَبَّ الصغيرُ يدبُّ من باب: ضَرَب إذا مشى ودَبَّ الجيشُ دبيباً أيضاً إذا سارُوا سيراً ليناً، وكل حيوان في الأرض دابَّةٌ. اهـ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والمرادُ به ما يقوم به رَمقُها وتَعِيش به. «الكرخي».

(١) المراغي.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ والمستقر مكانُ الاستقرار من الأرض، والمستودع حيث كانَ مودَعاً قبل الاستقرار في صلب أو رَحم أو بيضة، ويجوز[1] أن يكونَا مصدرين؛ أي: استقرارَها واستيداعَها، ويجوز أن يكونَ مستودَعها اسم مفعول ليتَعدَّى فعله، ولا يجوز ذلك في مستقر لأنَّ فعله لازمٌ، اهـ «سمين». وفي «البيضاوي»: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: أماكنها في الحياة، وفي الممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض، حيث وجدَت بالفعل، ومُودَعَها من الموادِّ، والمقار حيث كانَت بعد بالقوة، اهـ. وقوله: من المواد كالمني والعَلقَةِ، والمَقارُّ كالصلب، والرحم، وقولُه: بعد؛ أي: بعد أنْ لم تكن شيئاً، اهـ «زكريا».

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ والعرش مركز نظام الملك، ومصدرُ التدبير، والبلاء: الاختبار، والامتحان من بلاه يَبْلوه بلوى كدَعَا يدعو دَعْوَى وهو ناقص وَاوِيٌّ.

﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الأمَّةُ في الأصل الجماعة، والطائفة من الناس من نوع واحد، أو دين واحد، أو ملة واحد، والمراد بها هنا: الطائفة، أو المدة من الزمن، قال القرطبي: الأمة: اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه: الجماعة، والملة، والرجل الجامع للخير، والحين، والزمن، وأتباع الأنبياء... الخ. ﴿مَعْدُودَةٍ﴾؛ أي: قليلة، إذ الحصر بالعد يشعر بالقلة ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾؛ أي: مدفوعاً ومحبوساً ﴿وَحَاقَ﴾ نزَلَ وأحاطَ.

﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وفي «السمين» قولُه﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ هذا الفعلُ معرب على المشهور لأنَّ النون مفصولة تقديراً إذ الأصلُ ليقولونن (النون) الأولى للرفع وبعدها نون مشددة، فاستثقل توالي الأمثال، فحذفت نون الرفع، لأنها لا تدل من المعنى على ما تدل عليه نُونُ التوكيد، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو التي هي ضمير الفعل، لالتقائها ساكنة مع النون، اهـ.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ الإذاقة هنا: الإعطاء القليل، والنزع، والسلب، والحرمان، واليؤوس: شديدُ اليأس من عود تلك النعمة، والكفور، كثيرُ الكفران، والجحود لما سلف عليه من النعم، والنعماء، والنعمةُ والنعمى الخير، والمنفعة، ويقابلها الضراء، والضر ﴿فرح﴾ بطر مغتر بهذه النعمة، ﴿فَخُورٌ﴾ أي: متعاظم على الناس بما أوتي من النعم، مشغولُ بذلك عن القيام بشكرها.

وفي «الشوكاني»: والنعماء: إنعام يظهر أثَرُهُ على صاحبه، والضراءُ ظهورُ أثر الإضرار على من أصيب به، اهـ.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ لعل هنا: للاستفهام الإنكاري الذي يفيد النهي مع الاستبعاد، ؛ أي: لا تترك تبليغَ بعض ما أوحي إليك، ولا يَضِقْ به صدرُك، والتركُ، والضيقُ مستبعدان منك، وضيقُ الصدر يراد به الغم والحزن وعبر[1] بـ ﴿ضائق﴾ دون ضيِّق للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُۢ﴾ وإن كان ضيقٌ أكثرَ استعمالاً، لأنه وصف لازم، ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ وصف عارض، وقال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ عدَل عن ضيق إلى ﴿ضائق﴾؟

قلتُ: ليدل على أنه ضيقٌ عارض غيرُ ثابت، لأنه ﷺ كان أفسَحَ الناس صدراً ومثله قولك: سيدٌ، وجوادُ تريد السيادةَ والجُود الثابتَين المستقرين، فإذا أردتَ الحدوثَ، قلت: سائدُ وجائدُ. انتهى ذكره أبو حيان. ﴿كَنزٌ﴾ والكنزُ ما يدخر من المال في الأرض، وفي «زاده» ﴿كَنزٌ﴾ أي: مال كثير من شأنه أن يكنز؛ أي: يدفن، اهـ. ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ نعت لـ ﴿سُوَرٍ﴾ و ﴿مثل﴾ وإن كانت بلفظ الإفراد فإنها يوصف بها المثنَّى، والجمع، والمؤنث كقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ وتجوز المطابقة قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، و (الهاء) في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ تعود لـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ و ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة لـ ﴿سُوَرٍ﴾ أيضاً، وهي جمع مفتراة كمصطفيات في

---

(١) البحر المحيط.

جمع مصطفَاة، فانقلبت الألفُ ياءً كالتثنية، اهـ «سمين».

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ والوكيل: الرقيب الحفيظ للأمور، الموكل بحراستها ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ والاستجابة للداعي إجابته إلى ما يريد، فالسين والتاء، فيه زائدتان ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الإسلام، الإذعان، والخضوع، والانقياد ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا..﴾؛ أي: نُوصل إليهم من وفَّى يوفي توفية ووفاء كزكى يزكي تزكيةً وزكاةً وهو من المضعف الناقص الذي قياس مصدره التفعلة، وهو مجزوم بحذف الياء ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون، وإنما[1] عبر عن عدم نقص أعمالهم، بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية، التي هي إعطاءَ الحقوق مع أن أعمالَهم بمعزل عن كَوْنِها مستوجبةً لذلك، بناءً للأمر على ظاهر الحال، مبالغة في نفي النقص؛ أي: إن كان ذلك ناقصاً لِحُقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع، والصدور عن الكريم أصلاً، اهـ «أبو السعود».

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: فسد وبطل، ولم ينتفعوا به ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و البينة[2] ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية، والنصوص في الأمور النقلية، والتجارب في الأمور الحسية، والشهادة في القضاء ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتبعه ويصدقه ويقويه والشاهد جبريل أو القرآن ﴿إِمَامًا﴾ والإمامُ[3] هو الذي يُؤتم به في الدين، ويُقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ و الرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على مَنْ أنزله عليهم، وعلى مَنْ بعدهم باعتبار ما اشتملَ عليه من الأحكام الشرعيةِ المُوافِقَة لحكم القرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والأحزابِ قبائلُ الكفار الذين تحزبوا، واجتمعوا على معاداة النبي ﷺ ومعاندته ﴿مَوْعِدُهُۥ﴾ اسم مكان من وَعَد يعد وعداً وموعداً؛ أي: مكان وعده الذي يَصِير إليه، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ المِرية بكسر الميم، وضمها: الشكُّ، ففيها لغتان: أشهرُهما: الكسرُ، وهي: لغة الحجاز، وبها قرأ جماهيرُ الناس، الثانية: الضم لغةُ أسد وتميم، وبها قرأ

---

(١) أبو السعود.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

السلميُّ وأبو رجاء وأبو الخطّاب والسدوسيّ، اهـ «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآياتُ ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

ومنها: إفادة العموم بحذف المضاف في قوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كل من الدابة ومستقرها، ومستودعها، ورزقها.

ومنها: الإضافةُ للتشريف في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

ومنها: تكريرُ القسم في قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾.

ومنها: الطباق بين: ﴿نَعْمَآءَ﴾ و ﴿ضَرَّآءَ﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كالسحر، فالكلام من باب التشبيه البليغ، حيث شَبَّهوا نَفْسَ البعث أو القرآن المتضمن لذكره بالسحر في الخديعة، حيث زعموا أنه إنما ذكر ذلكَ لمنع الناس عن لذات الدنيا، وصَرفِهم إلى الانقياد له، ودخولهم تحت طاعته، أو في البطلان، فإنَّ السحرَ لا شكَّ أنه تمويه، وتخييلٌ بَاطِل، فشبهوا الأمورَ المذكورة من البعث، والحساب، والجزاء في البطلان بالسحر، اهـ «زاده».

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ التبعيةُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ لأنّ الذوقَ حقيقة في معرفة طَعْمِ المطعوم باللسان، فهو هنا كناية عن الإعطاء.

ومنها: وصف الأجر بالكبر في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ للتفخيم، والتعظيم لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ودفع التكاليف، والأمن من عذاب الله، والنظر إلى وجهه الكريم، وفيه أيضاً رعاية الفواصل حيث أتى به، ولم يَقُلْ أجر عظيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾.

ومنها: الكنايةُ في قوله: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؛ لأن الضِّيقَ هنا كناية عن الهمِّ والحزن.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿صَدۡرُكَ﴾؛ أي: قلبك حيث أطلق المحل، وأراد الحال.

تنبيه: التحدي بعشر سور، جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم كله، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحدَّاهم بعشر سور، ثُمَّ لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة، والفصاحة، والاشتمال على المغيبات، والأحكام التشريعية، وأمثالها، وهي الأنواعُ التسعةُ، وقد نظَمَها بعضُهم بقوله:

أَلاَ إِنَّــمَــا ٱلْــقُــرْآنُ تِــسْــعَــةُ أَحْــرُفٍ   سَأُنْبِيْكَهَا فِيْ بَيْتِ شِعْرٍ بَلا مَلَلْ

حَــلاَلٌ حَــرَامٌ مُــحْــكَــمٌ مُــتَــشَــابِــهٌ   بَــشِــيْــرٌ نَــذِيْــرٌ قِــصَّــةٌ عِــظَــةٌ مَــثَــلْ

ومنها: الحذفُ والزيادة في عدّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا
كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
(٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ
الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ
وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ
جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ
اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ
يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّه لمَّا سبق[1] قوله تعالى﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.. ذكر هنا أنه لا

(١) البحر المحيط.

أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً، وهم المفترون الذين نسبوا إلى الله سبحانَه وتعالى الولدَ، واتخذوا معه آلهةً وحرَّموا وحلَّلوا من غير شرع الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبتُها لِما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما يَؤُول إليه الكفار من النار.. ذَكَرَ ما يَؤُول إليه المؤمنون من الجنة، والفريقان هنا: المؤمنُ والكافرُ، ولمَّا كان قدَّم ذِكرَ الكفار، وأَعْقبَ بذكر المؤمنينَ جاء التمثيلُ هنا مبتدأً بالكافر، فقال: ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾.

وعبارةُ المراغي هنا: مناسبتُها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لمَّا بيَّن فيما سبق أنَّ الناس فريقانِ: فريقٌ يريدُ الدنيا وزينتَها، وفريق على بَيِّنَةٍ من ربه.. أَرْدفَ ذلك ببيانِ حالِ كلٍّ من الفريقين في الدنيا، وما يكون عليه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبتُها لِمَا قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لَمَّا ذَكَرَ[1] بَعثة النبيّ الكريم، وأَثْبتَ بالبرهان أنه رسول من رب العالمين، وأنَّ القرآنَ وَحيٌ من الرحمٰن الرحيم.. أَرْدفَ ذلك بقصص الأنبياء قبله ليبينَ لقومه: أنَّ محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإنه إنما بُعِثَ بمثلِ ما بعث به مَن قبله من الدعوةِ إلى عبادة الله تعالى وحده، والإيمان بالبعث والجزاء، فحالُه معهم كحال مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام، مع أقوامهم جملةً وتفصيلاً، كما قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قَبْلَها: أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذَكَر مقالتَهم وطَعْنَهم في نوح عليه السلام بتلك الشُّبه السالفة.. قَفَّى على ذلك بدَحْضِ نوح عليه السلام لها، وردِّ شبهات أخرى، قد تكون صَدَرَتْ منهم، ولم يَحْكِها لعِلْمِها من الرد عليها، ورُبَّما لم

---

(١) المراغي.

يقولوها، وإن كان كلامهم يستلزمُهَا، وهذا من خواص أسلوب الكتاب الكريم، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا...﴾ الآيات، مناسبتها لِمَا قَبْلَها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَرَ شُبهَاتِهم في رَفْضِ نبوة نوح عليه السلام، ورَد نوحٍ عليهم بما فيه مقنع لهم لو كانوا يعقلون.. ذَكَرَ هنا مقالتَهم التي تَدُلُّ على العجز والإفحام، وأنَّ الحِيَلَ قد ضَاقَتْ عليهم، فلم يَجِدُوا للردِّ سبيلاً في ذلك إيماءً إلى أنَّ الجدال في تقرير أدلة التوحيد، والنبوة والمعاد، وفي إزالة الشبهات عنها هيَ وظيفة الأنبياء، والتقليد، والجهلُ والإصرار على الباطل والإنكار والجحودُ هو دَيْدَنُ الكفار المعاندين.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ للإنكار؛ أي: لا أحَدَ أشدُّ ظلماً لنفسه ولغيره ممن افترى واخْتَلَق على الله كذباً في أقواله، أو أفعاله، أو أحكامه، أو صفاته، أو في اتخاذ الشفعاء والأولياء له بدون إذنه، أو في زعم أنه اتخذ له ولداً من الملائكة كالعرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، أو في تكذيب ما جاء به رُسُلُه من دينه، لصد الناس عن سلوك سبيله.

واللفظ[(١)] وإن كان لا يقتضي إلا نفيَ وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكاري، فالمقامُ يفيدُ نَفْيَ المساوي لهم في الظلم، فالمعنى على هذا لا أحد مِثْلَهم في الظلم فَضْلاً عن أن يُوجَد من هو أظلم منهم، والإشارةُ بقوله﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ؛ أي: أولئك المُفْتَرُونَ على الله الكذبَ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة للمحاسبة عرضاً تظهرُ به فضيحَتُهم؛ أي: يساقون إلى الأماكن المعدَّة للحساب، والسؤال، أو المعنى تعْرَضُ أعمالُ هؤلاء، وأقوالُهم على ربهم لمحاسبتهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الذين يقومون للشهادة

(١) الشوكاني.

عليهم الذين هم الملائكة الحَفَظَةُ، وقيل: المرسلون، وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمَرَهم الله تعالى بإبلاغه، وقيل: جميع الخلائق.

أي: يقولُ الأشهادُ عند العَرْض ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُعرِضُون أو المعروضة أعمالُهم هم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ بما نسبوه إليه، ولم يصرِّحوا بما كَذَبوا به كأنهُ كان أمراً معلوماً عند أهلِ ذلك الموقف، وقولُهُ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد، أي: يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ويقولون: ألا لعنة الله، وطرده على الظالمين الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالافتراء على الله، وغيرهم بالصدِّ عن سبيل الله، يفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة، باللعنة الدالَّة على خروجهم من مُحيط الرحمة؛ ويجوز أن يكونَ من كلام الله سبحانَه قَالَه بعد ما قال الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾.

وقد جاء في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

وفي حديث ابن عُمر في «الصحيحين» وغيرهما، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله يدنِي المؤمنَ حتى يضَعَ كَنَفَه عليه ويَسْترُهُ من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرف ذَنْبَ كذا؟ فيقول: رَبِّ أعْرِفُ، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هَلَكَ؟ قال: فإني سَتَرْتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثُمَّ يُعْطيَ كتابَ حسناته، وأما الكافرُ، والمنافق فيقول: ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

ثمَّ وصفَ هؤلاء الظالمينَ الذينَ لعنوا بأنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾؛ أي: يمنعون مَن قَدَرُوا على مَنْعِه ويصرفونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه القيم وصراطه المستقيم، والدخول فيه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾؛ أي: يصِفُونَها بالاعوجاج، والالتواءِ والميل عن الحق لينفروا منها أو يَبْغُون أَهلها أن يكونوا معَوَّجِينَ بالخروج عنها إلى الكفر ﴿وَ﴾ الحال أنَّ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لا يؤمنون ببعث، ولا جزاء؛ أي: يصفونها بالعِوَج، والحال أنهم بالآخرة غير مصدقين،

فكيف يَصُدُّون الناس عن طريق الحق، وهم على الباطل البَحْتِ؟ وتكريرُ الضمير لتأكيد كفرهم، واختصاصهم به، حتى كان كفر غيرهم غيرَ مُعتدٍّ به، بالنسبة إلى عَظيم كفرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات السابقة يعني المفترينَ على الله الصادينَ عن سبيل الله ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما كانوا يعجزون اللّهَ في الدنيا، إن أرادَ عقوبتهم؛ أي: إن هؤلاء الذين يصُدون عن سبيل اللّهِ لم يكونوا بالذين يعجزون رَبهم، بهربهم منه في الأرض، إذا أراد عِقَابَهم بل هم في قبضته وملكه لا يمتنعون منه إذا أرادهم، ولا يفوتونه هرباً إذا طلبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم، وإنزالِ بأسِه بهم؛ أي: ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم من دونه، ويَحُولُون بَيْنَهم وبَيْنَه إذا هو عذَّبهم، وجملة قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ من أجل ضلالهم وإضلالهم، مستأنفة لبيان أنّ تأخير العذاب والتراخيَ عن تعجيله لهم، ليكون عذاباً مضاعفاً يعني الرؤساءَ الصَّادِّين عن سبيل الله، وذلك لإضلالهم أتباعَهم، واقتداء غيرهم بهم؛ أي: إنَّ عدمَ[1] نزول العذاب ليسَ لأجْلِ أنهم قَدَرُوا على منع الله من إنزال العذاب بالفرار وغيره، ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع العذابَ عنهم، كما زعموا أنَّ الأصْنَامَ شفعاؤُهُم عند الله، بل لأنه تعالى أمهلَهم كي يتوبوا عن كفرهم، فإذا أبوا إلاّ الثباتَ عليه، فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يُزَاد عذابهم بسبب صدِّهم عن سبيل الله، وإنكارهم البعثَ بعد الموت، فيعذبون في الآخرة على ضلالهم في أنفسهم، وعلى إضلالهم غيرَهم، وهذا غيرُ خارج عن قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويزيد، ويعقوب[2]: ﴿يُضعَّف﴾ بلا ألف مع تشديد العين. ثمَّ بين علّةَ هذه المضاعفة بقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاءً لدعوة الحق، لاسْتحواذ الباطل على أنفسِهم، ورَيْنِ الكفر، والظلم على قلوبهم، كما حَكى الله عنهم

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ ما يدُلُّ على صِدقه في الأنفس والآفاق.

وإجمال المعنى[1]: أنهم لشدة انهماكهم في الكفر، واتباع الهوى والشهوات، صاروا يكرهون الحقَّ والهدى فيثقل عليهم سماع ما يبيِّنه من الآيات السَّمعية، وما يثبته من الآيات البصرية، فهم قد خَتَم الله على سمعهم، وعلى أبصارهم، فلا يسمعون الحقَّ سماعَ منتفع، ولا يبصرون حُجَجَ الله إبصارَ مهتد.

والخلاصة: أنهم أفرطوا في إعراضهم عن الحق، وبغضهم له حَتّى كأنَّهم لا يقدرون على الاستماع، ولا يقدرون على الإبصار، لِفرط تَعَامِيهم عن الصواب والحق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بعبادة غير الله تعالى؛ أي: اشتَروا عبادةَ الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم، أعظم خسران ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ذَهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدعون أنها تشفع لهم، ولم يبقَ بأيديهم إلا الخسران. والمعنى: أي: أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غَبَنُوا أنفسَهم حظوظَها من رحمة الله بافترائهم عليه، واشتراء الضلالة بالهدى، وبطل كذبهُم بادعاء أنَّ له شركَاءَ وشفعاء، يُقربونهم إليه زلفى ثم سلك بما كانوا يدعونه من دون الله غيرَ مسلكهم، إذ سلك بهم إلى جهنم، وصارت آلهتهم عَدَماً؛ لأنها كانت في الدنيا أحجاراً أو خشباً أو نحاساً، وذلك هو ضلالهم وبعدُهم عنهم.

والخلاصة: وبَطَل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله، وادعاؤهم أنَّ الملائكةَ والأصنامَ تشفع لهم، وكلمة لا في قوله﴿لَا جَرَمَ﴾ زائدة كما في «الإتقان»، وجَرَم فعل ماض بمعنى: حق، وثَبَتَ، وجملةُ قوله﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لجرم؛ أي: حقَّ وثبَتَ كونهم في الآخرة أشدَّ الناس خسراناً إذ هم قد اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب

---

(١) المراغي.

الرحيق المختوم بسموم وحميم، وظلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن قربِ الرحمن بعقوبة الملك الديان.

وفي «الفتوحات»: كلمةُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ ورَدَتْ[1] في القرآن في خمسة مواضع متلوةً بأنَّ واسمها، ولم يجيء بعدها فعل، واختلف فيها، فقيل: ﴿لا﴾ نافية لما تقدمَ، وقيل: زائدةٌ، قاله في «الإتقان»، اهـ «كرخي».

وعبارة «أبي السعود» ﴿لَا جَرَمَ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

الأول: أن (لا) نافية لما سبق، و(جرم) فعل ماض بمعنى حقَّ وثَبَتَ، و(أنَّ) وما في حيزها فاعله؛ أي: حقَّ وثبَتَ كونُهم في الآخرة هم الأخسرين، وهذا مذهب سيبويه.

والثاني: أنَّ ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كَسَبَ وما بعده مفعولُه، وفاعله ما دلَّ عليه الكلام؛ أي: كَسَب ذلكَ خسرانهم، والمعنى ما حَصَل من ذلك إلا ظهورُ خسرانهم.

والثالث: أنَّ (لا جرم) بمعنى لا بدَّ؛ أي: لا بدَّ أنهم في الآخرة هم الأخسرون، اهـ.

وفي «الخطيب» ما نصه: قال الفراء: إن ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمنزلة قولنا: لا بُدَّ ولا محالةَ ثم كَثُرَ استعمالُها حتى صارت بمنزلة حقّاً، تقول العرب: لا جَرمَ أنك مُحْسِنُ، على معنى حقاً أنك محسن، اهـ وسيأتي بقية مباحثها في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

وبعد أن بيَّنَ حالَ الكافرينَ وأعمالَهم ومآلهم.. بيَّنَ حالَ المؤمنين، وعاقبةَ أمرهم، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا الله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ في الدنيا ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمال الصالحة فأتوا بالطاعات وتركوا المنكرات ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خشعت نفوسُهم واطمأنت إلى ربهم؛ أي[2]: إنَّ الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمانُ به، وأتَوا بالأعمال الصالحات، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، واطمأنَّتْ قلوبُهُم عند أداء الأعمال إلى ذكر الله، فارغةً عن الالتفات

---

(١) الفتوحات.　　(٢) المراح.

إلى ما سوى الله تعالى، واطمأنت إلى صِدْقِ وعْدِ الله بالثواب على تلك الأعمال، وخافَتْ قُلوبُهم أنْ يكونوا أتَوا بتلك الأعمال مع وجود الإخلال، ومن أنْ لا تكون مقبولةً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجميلة هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: قُطّان الجنة الذين لا يخرجون منها، ولا يموتون بل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبّداً دائمون فيها أبداً.

والإخْبَاتُ[1] في اللغة هو: الخشوع، والخضوع، وطمأنينة القلب، ولفظ الإخبات يتعدى بإلَى، وباللام فإذا قُلتَ: أَخْبَتَ فلان إلى كذا، فمعناه: اطمأنَّ إليه، وإذا قلتَ: أخبت له، فمعناه: خَشَعَ وخَضَعَ له، فقوله﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى جميع أعمال الجوارح، وقوله﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ إشارة إلى أعمال القلوب، وهي الخضوع، والخشوع لله عز وجل، يعني: أنَّ هذه الأعمال الصالحة لا تنفعُ في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب، وهي الخشوع، والخضوع، وإذا فسَّرْنَا الإخبات بالطمأنينة، كان معنى الكلام أنهم يأتون بالأعمال الصالحة، مطمئِنّين إلى صدق وعد الله بالثواب، والجزاء على تلك الأعمال، أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى، وإذا فسَّرنا الإخباتَ بالخشوع، والخضوع.. كان معناه: أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفينَ وَجِلينَ، أنْ لا تكونَ مقبولة، وهو الخشوع والخضوع، وقولُه: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ ضَرَب[2] به مثلاً للفريقين، وهو تشبيهُ فريق الكافرينَ بالأعمى، والأصم، وتشبيهُ فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أنَّ كلَّ فريق شُبِّه بشيئَين أو شبِّه بمَنْ جَمَع بين الشيئين، فالكافر شُبِّه بمنْ جمَعَ بين العَمَى والصمم، والمؤمن شبِّه بمَنْ جَمَعَ بين السمع والبصر، وعلى هذا تكونُ (الواو) في ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ وفي ﴿وَٱلسَّمِيعِ﴾ لعطف الصفة على الصفة، كما في قول الشاعر:

إِلَىٰ ٱلْمَلِكِ ٱلْقِرْمِ وَٱبْنِ ٱلْهُمَامْ   وَلَيْثِ ٱلْكَرِيْهَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

أي[١]: صفة الكافر كصفةِ شخصٍ متصفٍ بالعمى، والصمم، فلا يهتَدي لمقصوده، وصفَةُ المؤمن كصفة شخص متصف بالبصر والسمع فاهتدى لمطلوبه.

والمعنى: مَثَلُ[٢] فريقَيْ الكافرين والمؤمنين، وصفتُهما الحِسيَّةُ التي تطابق حالَهما كمثل الأعمى الفاقدِ لحاسَّةِ البصر في خِلْقَتِهِ والأصم الفاقد لحاسةِ السمع الذي حُرِمَ وَسَائِلَ العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية، ومَنْ هو كاملُ حَاستَي السمع والبصر، فهو يستمد العِلْمَ من آيات الله في خَلقِهِ بما يسمعُ من القرآن، وبما يَرَى في الأكوان، وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان.

والاستفهام في قوله﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ للإنكار، وهذه الجملة مقررةٌ لِمَا تقدم من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: هل يستوي الفريقان صفةً وحالاً ومآلاً؟ كلاَّ، إنهما لا يَستويان، و (الهمزةُ) في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للتوبيخ داخلةٌ على محذوف، و (الفاءُ) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتَغْفُلُون عن ذلك المَثَلِ الجَليِّ الواضح وتَشكُّون في عدم الاستواء، فلا تَتَذكَّرون ما بينهما من التَّبايُن والاختلاف، فتعتبرُوا به؛ أي أفلا تذكرون في عدم استوائهما، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يَخْفى على مَنْ له تذكُّرٌ وعنده تأمُّلٌ، والهمزةُ لإنكارِ عدم التذكر، وابتعاد صدورِه من المخاطبين.

وإجمالُ المعنى: أنه شَبَّهَ الكافرين بالعُمْي الذين لا يستعملون أبْصَارهم فيما يفضلون به الحيوانَ الأعجم من فَهْمِ آيات الله التي تزيدُهم عِلْماً وهُدًى وبالصم الذين لا يَسْمَعون داعِيَ الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه، ويهتدون به، وشبه المؤمنين الذين انْتَفَعُوا بأسماعهم وأبصارهم، واهتدوا إلى الجنة، وتركوا مَا كَانوا خابطينَ فيه من كفر وضلال، بحال مَنْ هو سميع بصير، فيهتدي بِسَمْعِهِ إلى ما يبعدُه من مواضع الهلاك، ويهتدي ببصرِه بواسطة النور حين السير في الظلام، وقرأ الجمهور: ﴿أفلا تذَّكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء الثانية في الأصل في الذال، وفي قراءة سبعية: ﴿تَذَكَّرُون﴾ بحذف إحدى التائَين تخفيفاً. ولمّا أورد سبحانه على

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

الكفار المعاصِرينَ لمحمد ﷺ أنواعَ الدلائل التي هي أوْضَحُ من الشمس. . أكَّد ذلك بذكر القصص على طريقةِ التَّفَنُّنِ في الكلام، ونَقْلِه من أسلُوب إلى أسلوب لِتكونَ الموعظةُ أظْهَر، والحجةُ أبْينَ، والقبولُ أتمَّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

فصل فيما حوته قصص القرآن

إنَّ في قصص[1] القرآن لأشِعَّةً من ضياء العلم والهدى، جاءَتْ على لسان رَجُلٍ أمّـيّ لم يكن منشئاً، ولا راويةً، ولا حافظاً، ويمكن أن نَجْعَلَ أغراضَها فيما يلي:

١ ـ بيان أُصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله، وتوحيده، وعلمه، وحكمته، وعدله، ورحمته، والإيمان بالبعث والجزاء.

٢ ـ بيانُ أنَّ وظيفة الرسل تَبْليغُ وَحْيِ الله تعالى لعباده فَحَسْبُ، ولا يملكون وَراءَ ذلِكَ نَفْعاً، ولا ضَرّاً.

٣ ـ بيانُ سُنن الله في استعدادِ الإنسان النفسيّ والعقليّ لكلّ من الإيمان، والكفر، والخير، والشر.

٤ ـ بيان سُنَنِ الله في الاجتماع، وطباع البشر، وما في خلقه للعالم من الحكمة.

٥ ـ آياتُ الله وحججه على خلقه في تأييد رسله.

٦ ـ نصائح الأنبياء ومواعظُهم الخاصَّة بكل قوم بحسَبِ حَالِهم كَقَوْمِ نوح في غِوَايتهم، وغرورهم، وقوم فرعون، ومَلَئِهِ في ثَرْوَتِهم، وعُتوِّهم، وقوم عاد في قُوَّتِهم وبطشهم، وقوم لوط في فحشهم.

٧ ـ تسليه للنبي ﷺ حيث يَعْلَمُ ما وقع لغيره من الأنبياء.

---

(١) المراغي.

وجملة ما ذكره في هذه السورة من القصص سبعةٌ[1]:

القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ إلخ.

القصة الثانية: قصة هود عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾.

القصة الثالثة: قصة صالح عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ إلخ.

القصة الرابعة: قصة إبراهيم عليه السلام، مع الملائكة، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

القصة الخامسة: قصة لوط عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ إلخ.

القصة السادسة: قصة شعيب المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ إلخ.

القصة السابعة: قصة موسى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلخ، وهي آخر القصص.

وتقدَّم أنَّ نوحاً اسمه عَبْدُ الغفار، ونوحُ لقبه، قال ابن عباس[2]: بُعث نوح بعد أربعينَ سنةً، ولبِثَ يدعو قومَه تسع مئة سنة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، فكان عُمْرُه ألف سنة وخمسين سنة، وقال مقاتل: بُعِثَ، وهو ابن مئة سَنَةٍ، وقيل: وهو ابن خمسين سنة، وقيل: وهو ابنُ مئتين وخمسين سنة، ومكَثَ يَدْعُو قَوْمَه تسع مئة سنةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مئتين وخمسين سنةً، فكان عمره ألفَ سنة وأربع مئة سنة وخمسين سنة، اهـ «خازن».

---

(١) الفتوحات.

(٢) الخازن.

أي: وعزتي وجلالي.. لقد أرسلنا وبعثنا نوحاً عليه السلام إلى قومه قائلاً لهم: يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف لكم من عذاب الله تعالى، وبأسه إن خالفتم أمر الله سبحانه وعبدتُم غَيرَه ﴿مبِينٌ﴾؛ أي: بَيّن الإنذار، أبيِّن لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم: إني لكم نذير من الله أُنْذركم بأْسَه على كفركم به فآمنوا به، وأطيعوا أمْرَه.

وقرأ النحويان[1] أبو عَمرو، والكسائي، وابن كثير: (أَنَّي) بفتح (الهمزة)؛ أي: بأني وباقي السبعة بكسرها على إضمار القول ثم فسَّر هذا الإنذار بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل[2] من ﴿إني لكم..﴾ إلخ. على قراءة الفتح ومجرور بالباء المقدرة التي للتعدية المتعلِّقة بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بأن لا تعبدوا إلا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا أولَ مَنْ أشْركَ بالله، واتخذوا الأندادَ، وكان هو أوَّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: إن لم تخصوه بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد، والأوثان.. أخَف عليكم من الله عذابَ يوم مؤلم عِقَابُه وعذابه، لمن عذب فيه، وهو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصَفَه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغةً، وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضةٍ ظنّاً منهم أنها تكفي في رد دعوته، وهذا الجواب يتضمَّن الطعنَ منهم في نبوته من ثلاثِ جهات:

الجهة الأولى: ما ذكره بقوله﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف، والرؤساء الذين كفروا من قومه؛ أي: من قوم نوح، ووصفهم بالكفر ذمّاً لهم، وفيه دليلٌ على أنَّ بعضَ أشرافِ قومه لم يكونوا كفرةً ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي: ما نعلمك إلا آدمِيّاً مثلنا، ليس فيك مزية تخصك بوجوب الطاعة علينا؛ أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزيةٌ تستحق بها النبوةَ دُوننا؟

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

وهذه هي الجهة الأولى من جهات طعنهم.

والجهة الثانية: ما ذكره بقوله﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، وأطاعك في دعوتك ﴿إِلَّا﴾ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وأخساؤنا كالحجّامين والنساجين والأساكفة، ولم يَتْبَعْكَ أحد من الأشراف، فليس لك علينا مزية باتباع هؤلاء الأراذل لك، وانتصاب ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ على الظرفية، والعامل فيه اتبعك؛ أي: اتبعوك في ظاهر رأيهم، وابتداء فكرهم من غير تعمق، ولا تأمل فيه، ولو احتاطُوا في الكفر ما اتبعوك؛ أي: وإنَّا لم نَرَ متبعيك إلاّ الأخساء والفقراء كالزراع والصناع، ومن في حكمهم في المكَانَة الاجتماعية باديَ الرأي قبل التأمل في عواقبه، والنظر في مستنده، وترجيح العقل له، وهذا مما يرجِّح ردَّ الدَّعوة، والتولي عنها.

والجهة الثالثة من جهات طعنهم في نبوته: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: لا نرى لك، ولمن اتَّبعك من الأراذل فضْلاً علينا لا في العقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة، ولا في قوة الجَدَل تتميزون به عنا، وتستحقون به ما تدعونه، خاطبوه في الوجهَين الأولَين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه.

والمعنى: وما نَرى لك، ولمن اتبعك أدْنَى امتياز عنا من قوة أو كثرة علم، أو أصالة رَأي يَحْمِلُنا على اتباعكم، ويَجْعَلُنا ننزِل عن جاهِنا ومالِنا، ونكون نحنُ وأنتم سواءً، ثم أضربوا عن الثلاثةِ المَطَاعن، وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان، الذي لا مستندَ له إلا مجردَ العصبية، والحسد، واستبقاءَ ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، وهذا هو الجوابُ الرابعُ فقالوا﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدَّعُون؛ أي: بل إنَّا نُرَجِّحُ الحكم عليك، وعليهم بالكذب، فأنت كاذب في دعوى النبوة، وهم كاذبون في تَصْدِيقك؛ أي: بل نَظُنُّك يا نوح كاذباً في دعوى النبوة، ونظن أصحابكَ كَاذِبينَ في تصديق نبوتك.

وقرأ أبو عمرو، وعيسى الثقفي[1]: ﴿بادىء الرأي﴾ من بَدأ يبدأ، ومعناه:

---

(١) البحر المحيط.

أولَ الرأي، وقرأ باقي السبعة ﴿بادِيَ﴾ بالياء من بَدا يَبْدُو، ومعناه ظاهرَ الرأي، وقيل: ﴿بادي﴾ (بالياء) معناه بادِئَ بالهمز فسهِّلت الهمزة، بإبدالها ياءً لكسر ما قبلها، والعامل فيه نراك، أو اتبعك، أو أراذلنا؛ أي: وما نراك فيما يَظهرُ لنا من الرأي، أو في أول رأينا، أو وما نراك اتبعك أوَّل رأيهم، أو ظاهرَ رأيهم، واحتملَ هذا الوَجْهُ معنيين:

أحدُهما: أنْ يريد: اتبعوك في ظاهرِ أمرهم، وعسى أن تكونَ بواطنهم ليسَتْ معك.

والمعنى الثاني: أن يُريد: اتبعوكَ بأوَّلِ نظر، وبالرأي البادئ دون تثبت، ولو تثبتوا.. لم يتبعوك، وإذا كان العاملُ أراذلنا فمعناه الذين هم أراذِلنا بأدل نظر فيهم، وبيادئ الرأي يُعْلَمُ ذلك منهم. ذكره أبو حيان.

ثمَّ ذَكَر سبحانه ما أجاب به نوحٌ عليهم فقال﴿قَالَ﴾ نوحٌ ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أَخْبِرُوني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على برهان من ربي في النبوة، يدل على صحتها، ويُوجب عليكم قبولَها مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإنَّ المساواةَ في صفة البشرية لا تمنعُ المفارقةَ في صفة النبوة، واتباعُ الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة، فإنهم مثلكم في البشرية، والعقل، والفهم، فاتباعهم لي حجةٌ عليكم لا لكم، ويجوز أنْ يُريدَ بالبينة المعجزة ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ أي: أعطاني ﴿رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: نبوَّةً ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ﴾؛ أي: من فضله سبحانه وتعالى وقيَّدَ الرحمة بكونها من عنده تأكيداً، وفائدتُهُ رَفْعُ الاشتراك، ولو بالاستعارةِ. ذكره أبو حيان. وقيل: الرحمةُ المعجزةُ، والبينةُ النبوةُ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾؛ أي: خَفِيَتْ كُلُّ واحدة من البينة، والرحمة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وصار ذلك البرهانُ مشكوكاً في عقولكم، والإفرادُ في ﴿عميت﴾ على إرادة كلّ واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنَّها هي التي تَظْهَر لِمَنْ تَفَكَّر، وتَخْفى على مَنْ لم يَتَفَكَّرْ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم[1]: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضم العين،

---

(١) البحر المحيط.

وتشديد الميم، مبنياً للمفعول؛ أي: أبهمت عليكم، وأُخْفِيَت، وقرأ باقي السبعة ﴿فعميت﴾ بفتح العين، وتخفيف الميم مبنياً للفاعل، وقرأ أبيٌّ وعليٌّ السلميُّ، والحسَن، والأعمش، فعَمَّاهَا عليكم، وروى الأعمش عن أُبيٍّ ووثَّاب ﴿وعميت﴾ بالواو خفيفةً.

والمعنى[1]: أي قال نوحُ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أخْبِرُوني ماذا تَرون، وماذا تقولون، إن كنتُ على حجة فيما جئتكم به من ربي يَتَبيَّن لي بها أنه الحق من عنده لا من عندي، ومن كسبي البشري الذي تُشاركُونني فيه، وآتاني رحمةً من عنده، وهي النبوةُ وتعاليمُ الوحي التي هي سبَبُ رحمةٍ خاصَّةٍ لِمن يَهتدِي بِهَا، فحَجَبَها عنكم جهلكم، وغروركم بالمال والجاه، فلم تتبينوا منها ما تَدُلُّ عليه من التفرقة بيني وبينكم، فمنعتم فَضْلَ الله عني بحرماني من النبوة، والاستفهامُ في قوله﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ للإنكار؛ أي: أنُكْرِهُكُم على قبولها، والاهتداء بها، والمرادُ إلزام الجبر بالقَتْلِ ونحوه لا إلزام الإيجاب، إذ هو حاصلٌ كما في «البيضاوي» ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: وأنتم عنها معرضون غير متدبرين لها، كلاّ إنَّا لا نفعل ذلك بل نَكِلُ أمركم إلى الله، حتى يقْضي في أمركم ما يَرى ويشاء، وما عليَّ إلا البلاغُ وهذا أوّلُ نصٍّ في دين الله على أنه لا ينبغي أن يكون الإيمانُ بالإكراه.

والخلاصة: أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، إلاّ أنها خَافِيَةٌ عليكم أيُمْكِنُنَا أن نَضْطَرَّكم إلى العلم بها، والحال أنكم كارهون لها غير متدبرين فيها، فإنَّ ذلك لا يَقْدِرُ عليه إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ؛ أي: أخْبِروني بجواب هذا الاستفهام، وهو أني لا أقْدِر على إجْبارِكم.

وحَكى الكِسَائي[2]، والفراء إسكان الميم الأولى في ﴿أَنُلْزِمْكُمُوهَا﴾ تخفيفاً كما في قول امرىء القيس:

فَٱلْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمَاً مِنَ ٱللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ

فإنَّ إسكانَ الباء في أشْرَبْ للتخفيف، وقد قرأ أبو عمرو كذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

قال ابن عطية[١]: وفي قراءة أبيّ بن كعب ﴿أنلزمكموها من شطر أنفسنا﴾ ومعناه: مِن تلقاء أنفسنا، ورُوي عن ابن عباس: أنه قرأ ذلك ﴿من شطر قلوبنا﴾ انتهى، ومعنى شطر نحو، وهذا على جهة التفسير لا على أنه قرآن، لمخالفته سوادَ المصحف.

وفي هذه الآية[٢] إثباتٌ لنبوته عليه السلام، وردٌّ لإنكارهم لها، وتكذيبِه ومن معه فيها، وإبطالُ لشبهتهم في أنه بشرٌ مثلهم، وقد فاتهم أنَّ المساواة في البشرية لا تقتضي استواءَ أفرادِ الجنس في الكمالات، والفضائل، فالمشاهدَةُ والتجاربُ، تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر في العقل والفكر والرَّأي، والأخلاق والأعمال حتى إنّ الواحِدَ منهم ليأتي بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل، يَعْجزُ عن مثلها الأُلُوفُ من الناس في أَجْيالٍ كثيرة:

وَٱلــنَّــاسُ أَلْــفٌ مِــنْــهُــمُ كَــوَاحِــدِ   وَوَاحِــدٌ كَــٱلأَلْــفِ إِنْ أَمْــرٌ عَــرَا

فما بَالُكَ بِمَنْ يَخْتَصُّهم الله تعالى من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه، كالأنبياء والرسل الكرام، وقال نُوحٌ أيضاً ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾؛ أي: لا أطْلُب مِنكم مالاً، وجُعْلاً على تبليغي دَعْوةَ الرِّسالةِ، وعلى نصيحتي لكم، ودعوتي إياكم إلى توحيد الله، وإلى إخلاص العبادة له، فأكُونُ مُتَّهَماً فيه عندكم، لمكانة حبِّ المال من أنفسكم، واعتزازكم به علـيَّ، وعلى الفقراء من أتباعي، وما أريد بذلك إلا خَيْرَكم، ومصلحتِكم، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: فما أَجْرِي على ذلك إلاّ على الله، الذي أرْسَلَنِي، فهو الذي يجازيني، ويثيبُني عليه، وإن ظننتم أنّي إنما اشتغلت بهذا التبليغ لأجل أخذ أموالكم، فهذا الظنُّ منكم خَطأٌ، وإنما أسْعَى في طلب الدين، لا في طلب الدنيا، وهذا يوجب فضلي عليكم، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

ومثْل هذه المقالة قد صدَرَتْ من جميع الأنبياء بعده، فجَاءت على لسان هُود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، كما ترى ذلك في

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

سورة الشعراء مَحْكِيّاً عنهم.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وحده، وصدَّقوا برسالتي عن مجلسي بسبب قولكم اطْرُدهم عنك نتبعك؛ أي: ليس من شأني، ولا بالذي يكون مني أن أبعد من يؤمن بي، وأنحيه عني احتقاراً له على أيِّ حال كانَتْ صفتُه، وفي هذا إيماءٌ إلى الجواب عن قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وقد روي أنهم قالوا له: يا نوح! إن أحبَبْتَ أن نتبعك، فاطردْ هؤلاء، فإنَّا لن نَرْضَى أن نكون نحن وهم في الأمر سواءً، وقرىء ﴿بطاردٍ﴾ بالتنوين، قال الزمخشري: على الأصل، يعني أن اسمَ الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال أصله: أن يَعْمَلَ، ولا يُضَافُ وهذا ظاهر كلام سيبويه، ذكره أبو حيان ثُمَّ علَّل الامتِناع من طردهم بقوله:

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: إنَّ هؤلاء الذين تسألونَني طردَهم صائرون إلى ربهم، وهو سائلهم عمَّا كانوا يعملون في الدنيا، ولا يسألهم عن حَسَبهم وشَرَفهم؛ أي: إنهم فائِزون في الآخرة بلقاء الله تعالى، فإنْ طردتهم.. استَخْصَمُوني في الآخرة عنده، فأُعاقبُ على طَرْدِهِم.

والمعنى: لا أطردهم فإنَّهم ملاقونَ يومَ القيامة ربَّهم، فهو يجازيهم على إيمانهم، لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عندَه سبحانه، وكأنَّه قال هذا على وَجْه الإعظام لَهم، ويحتمل أنَّه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم، بسببِ طرده لهم، ثمَّ بيَّنَ لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طَلَبُوها منه، والعلل التي اعتلُّوا بها عن إجابته، فقال﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ كل ما ينبغي أن يُعْلَمَ، ومن ذلك استرذالُهم للذين اتبعوه، وسؤالُهم له أن يطردَهم، أي: تجهلون ما يَمْتَازُ به البشر بعضُهم عن بعض من اتباع الحقِّ، والتَحلِّي بالفضائل، وعملِ البر، والخير، وتظنون أنَّ الميزةَ إنما تكون بالمال والجاه.

وقد جاءَ هذا المعنى في قصته من سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾. ثم أكد عدمَ جوازِ طردِهم

بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي﴾، ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وانتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾؛ أي: إن طرَدت الذينَ آمنوا عن حَضْرَتِي، وأبْعَدْتُهم عن مجلسي بسبب قَوْلِكُم، فإنَّ طردَهم بسبب سبقهم إلى الإيمان، والإجابة إلى الدعوة التي أرسَلَ الله رسولَه لأجلها.. ظلم عظيم، لا يَقَعُ من أنبياء الله المؤيدينَ بالعصمة، ولو وقَعَ ذلك منهم فرضاً وتقديراً.. لكان فيه من الظلم ما لا يكون، لو فَعَلَه غَيْرُهم من سائر الناس، والاستفهام في قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ للإنكار و (الهمزة) في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ للتوبيخ داخلةٌ على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتستمرون عَلى ما أنتم عليه مِنَ الجهل بما ذكر، فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره، وتتفكرون فيه حتَّى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، فَتَنْتَهُوا عنه، وما هم عليه من الصواب، فإنَّ لهم ربّاً ينصرهم، وينتقم لهم.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ بادّعائي للنبوة والرسالة ﴿عِندِي خَزَآئِنُ﴾ رزق ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى أي أنواع[1] رزقه التي يَحْتَاجُ إليها عبادُهُ للإنفاق منها، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخَّرة لسائر الناس، فأنفق على نفسي، وعلى من تَبِعَني بالتصرف فيها بخوارق العادات، بل أنا وغيري في الكسب سواء، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة، ولا من خصائص النبيّ، ولو كَانَ كذلك لاتبع الناس الرُّسلَ لأجلها، بل الغاية من بعْثِ الرسل تزكية الأنْفُس بمعرفة الله وعبادته، وتأهيلها لِمَثُوبتِهِ في دَارِ كرامته، ورضاه عنها يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون.

وقال ابن الأنباري[2]: أراد بالخزائن: عِلْمَ الغيب المَطْوِيِّ عن الخَلْق لأنهم قالوا له: إنما اتَّبَعَكَ هؤلاء في الظَّاهِر، وليسوا مَعَك فقال لهم: ليس عندي خزائن غيوب الله، فأعلمَ ما تَنْطوِي عليه الضمائر، وإنما قيل للغيوب خزائنُ لِغُموضها عن الناس، واستتارها عنهم. قال سفيان بن عيينة: إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دَخَلْتَ خزانة.. فاجْتَهد أن لا تَخْرُجَ منها حتى تعرف ما فيها.

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: ولا أدَّعي أنِّي أعلَمُ بغيب الله، فلا أمْتَازُ عن سائر البشر، بعلم ما لا يصل إليه علمهم الكسبيُّ من مصالحهم، ومنافعهم، ومضارِّهم في معايشهم، وكسبهم، فأُخْبَرُ بها أتباعي، لِيَفْضُلوا عليكم، ومن ثَمَّ أمَرَ الله تعالى نبيَّه أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾.

قيل: إنما قالَ لهم هذا، لأنَّ أرضَهم أجْدَبَتْ فسألوه متى يَجِيءُ المطر، وقيل: بل سألوه متى يجيء العذابُ، وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ جوابُ لقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾؛ أي: ولا أقول لكم إني مَلَكٌ من الملائكة، أُرْسِلْتَ إليكم، فَأكون كاذباً فيما أدَّعِي، بل أنا بشر مثلكم، أمرتُ بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم.

وفي هذا[١]: دحض لشبهَتهم إذ زعموا أنَّ الرَّسولَ من الله إلى البشر، يجب أن يفضُلَهم، ويمتازَ عنهم، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بأن يكون مَلَكاً يَعلمُ ما لا يعلمه البشر، ويقدر على ما لا يقدر عليه البشر.

والحاصلُ: أنكم[٢] اتخذتم فقدانَ هذه الأمور الثلاثة ذريعةً إلى تكذِيبي، والحالُ أنِّي لا أدَّعي شيئاً من ذلك، والذي أدَّعِيه لا يتعلق بشيء منها، وإنما يتعلَّقُ بالفضائل النفسانية التي بها تَتفاوَتُ مقاديرُ البشرِ.

فصل في الاستدلال على تفضيل الملائكة على الأنبياء

استدلَّ بعضُهم بهذه الآية[٣] على تفضيل الملائكة على الأنبياء، قال: لأن نوحاً عليه السلام قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ لأنَّ الإنسان إذا قَالَ: أنا لا أدَّعِي كذا وكذا، لا يحسن إلا إذا كَانَ ذلك الشيء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل، فلَمَّا قال نوح عليه السلام هذه المقالة، وجب أن يكون ذلك المَلَكُ

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الخازن.

أفضَلَ منه، والجواب أن نوحاً عليه السلام إنما قال هذه المقالةَ في مقابلة قولهم: ما نراك إلا بشراً مثلَنا لِما كان في ظنِّهم أنَّ الرُّسُلَ لا يكونون من البشر، إنما يكونون من الملائكة، فأعلمهم أن هذا ظن باطل، وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر، فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولم يُرِدْ أنَّ دَرَجَةَ الملائكة أفضلُ من درجة الأنبياء، والله أعلم.

وقال الشوكاني: وقد استدلَّ بهذا مَنْ قال: إنَّ الملائكةَ أفضل من الأنبياء، والأدلَّة في هذه المسألة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجةً، فليست مما كلَّفنا الله سبحانه وتعالى بعلمه.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ﴾ ـهم وتحتقِرُهم ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ وتنظرهم نَظْرَةَ احتقار ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ولن يعطِيَهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: هدايةً وأجْراً، بل آتاهم الخير العظيم، بالإيمان به، واتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافِعُهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرهم احتقارُكم لهم شيئاً.

أي: ولا أقولُ للذين اتبعوني، وآمنوا بالله وحده، وأنتم تنظرون إليهم نَظْرةَ استصغارٍ، واحتقارٍ، فتزدريهم أعينُكم لفقرهم، ورَثَاثَةِ حالهم: لن يؤتيهم الله خيراً، وهو ما وعدوه على الإيمان والهُدى من سعادة الدنيا والآخرة، ولا يُبْطِلُ احتقَارُكم إيَّاهُمْ أجْرَهم، وليس لي أن أطَّلِعَ على ما في نفوسهم فأقْطَعَ عليهم بشيء.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ من الإيمان به، والإخلاص له فَيُجازِيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء؛ أي: بل الله سبحانه وتعالى أعْلَمُ بما في قلوبهم، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة، ومن اتباع رسوله بإخلاصٍ وصدق سريرة، لا كَمَا زَعمتم من اتباعهم إيايَ باديَ الرأي، بلا بصيرة ولا علم.

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم: إن فعلْتُ بهم ما تُريدونه أو من الظالمينَ لأنفسهم إن فعلتُ ذلك بهم؛ أي: إنّي إذا قَضَيْتُ على سرائرهم، بخلاف ما أبْدَتْه لي ألسنتهم على غير علم مني بما في نفوسهم، أكُونَ ظالماً لهم بهضم

حقوقهم.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال قومُ نوح له؛ أي: جاوبوه بغير ما تقدم مِنْ كلامهم وكلامِه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانْقِطاعاً عن المباراة بقولهم: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا﴾؛ أي: خاصَمْتَنا بأنواع الخصام، وحاجَجْتَنَا بضروب الحجج، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾؛ أي: خصومَتَنا، ودفاعنا بكل حجة لها مدخل في المقام، واستقصيت فيه، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا، ولم يَبْقَ لنا في هذا الباب شيءٌ من الجواب، فقد ضاقَتْ علينا المسالك، وانسدَّتْ أبوابُ الحِيَلِ، ولم يَبْقَ لدَيْنا شيء نَقُولُه كما قال في سورة نوح حكايةً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ قال أبو السعود: فَأكْثَرْتَ جِدَالنا؛ أي: شَرَعْتَ في الجدال، فأكثرت، أو جادلْتَنا؛ أي: أَرَدتَ جِدالَنا فأكثرتَ جِدَالَنا، فلا بُدَّ من أحد هذين التأويلين لِيَصِحَّ العطف، انتهى. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي: بالذي تعدناه، وتُخْبِرَنا به من عذاب الله الدنيوي الذي تَخَافُه علينا، وهو الذي أراده بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما تقولُه لنا؛ أي: إن كنتَ صادقاً في دَعْواكَ أنَّ اللَّهَ يعاقبنا على عصيانه في الدنيا قبلَ عقابِ الآخرة.

وإنَّما كثرت مُجَادَلَتُهُ لهم؛ لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به أَلْفَ سنة إلا خمسينَ عاماً، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله، وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم، وقرأ[1] ابن عباس: ﴿فأكثرت جدلنا﴾ كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾. قال أبو البقاء: قوله تعالى: ﴿قَدْ جَـٰدَلْتَنَا﴾ الجمهور على إثبات الألف، وكذلك: ﴿جدلتنا﴾ فأكثرتَ جدلنا بغير ألف فيهما، وهو بمعنى غلبتنا بالجَدَل، انتهى. ﴿قال﴾ نوح لقومه حين استعجلُوه بإنزال العذاب يا قوم ﴿إِنَّمَآ﴾ ذٰلكم العذاب بيد الله لا أملكه، وهو الذي ﴿يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾؛ أي: إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تَقتضيه حكمتُه، فإن قضَتْ مشيئته، وحكمته بتعجيله.. عَجَّلَهُ لكم،

---

(١) البحر المحيط.

وإن قَضَتْ مشيئته، وحكمته بتأخِيره.. أخَّره ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين عمَّا أراده الله بِكُم بهربٍ، أو مدافعة؛ أي: لستم بفائتيه هرباً منه إن أخَّره لحكمة يعلمها، وهو واقع لا محالةَ متى شاء، لأنكم في ملكه وسلطانه، وقدرتُه نافذة عليكم لا يمكن أن تفلِتوا منه، ولا أنْ تَمْتَنِعُوا.

ولمّا قالوا[١] قَدْ جَادَلْتَنَا، وطلبوا تعجيلَ العذابِ، وكانَ مجادلَتُهُ لهم، إنما هو على سبيل النصح، والإنقاذ من عذاب الله قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ وقرأ عيسى بن عُمَر الثقفي: (نَصْحِي) بفتح النون، وهو مصدر، وقرأه الجمهور بضمها، فاحتملَ أن يكونَ مصدراً كالشكر، واحتمل أن يكونَ اسماً.

أي: ولا ينفعكم، ولا يفيدكم إنذاري، وتحذيري إياكم عقوبتَه، ونزولَ العذاب بكم ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ وجوابُ هذا الشرط محذوف، دَلَّ عليه ما قبله، تقديره: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي الذي أبذُلُه لكم، وأستكثر منه قياماً مني بحقِّ النصيحة لله، بإبلاغ رسالته، ولكم بإيضاح الحق، وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ويضلكم عن طريق الهدى والتوحيد، فلا ينفعكم نصحي بمجرد إرادتي له فيما أدْعُوكم إليه، بل يتوقف نَفْعُه على إرادة الله تعالى له، وقد مضت سنته كما دلَّت عليه التجارب، أنَّ النُّصْحَ إنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه مَنْ غَلَبَ عليه الغيُّ والفسادُ باجتراحه أسْبَابَه من غُرور بِغنًى أو جاهٍ، أو باتباع هَوًى وحبِّ شهوات تمنع من طاعة الله تعالى.

فمعنى الآية[٢]: لا ينفعكم نصحي، إن كان الله يريد أنْ يُضِلَّكُم عن سبيل الرشاد، ويَخْذلكم عن طريق الحق.

والخلاصة[٣]: أنَّ معنى إرادة الله إغواءَهم: اقتضاءُ سننه فيهم أن يكونوا من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

الغاوينَ لا خَلْقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم، ولا كسب لأسبابها، فإن الحَوادثَ مرتبطة بأسبابها، والنتائجَ متوقفة على مقدماتها ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالك أمُوركم، ومُدبِّرُها بحسب سُنَنِه المطردة في الدنيا، فإليه الإغواء، وإليه الهدايةُ، ولكل شيء عنده قدر، ولكل قدر أَجَل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون، إن خيراً.. فخيراً، وإن شرّاً.. فشر، ولا تظلمون نقيراً.

الإعراب

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿مِمَّنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَظْلَمُ﴾، ﴿افْتَرَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿افْتَرَىٰ﴾، ﴿كَذِبًا﴾ مفعول به ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبرُ المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي وإن شئت: قلتَ: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، ﴿كَذَبُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ﴿يَصُدُّونَ﴾ فعل وفاعل صلةُ الموصول ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق به، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصُدُّونَ﴾، ﴿عِوَجًا﴾ حال من (الهاء) في ﴿يبغونها﴾، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ متعلق

بـ ﴿كَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَهُم﴾ توكيد لفظي ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من (واو) يصدون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة (ما) نافية (﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، حال ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر؛ أي: وما كان أولياء كائنينَ لهم من دون الله، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾، ﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْعَذَابُۚ﴾ نائب فاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾، ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقةٌ لتعليل مضاعفة العذاب، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) نافية ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يُبْصِرُونَ﴾ خبره، وجملة (كان) معطوفة على جملة ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿ضل﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل رفع فاعل ﴿ضل﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص، والواو: اسمها في محل رفع ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل مضارع والجملة في محل نصب خبر كان، والجملة الاسمية صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يفترونه. ﴿لَا﴾: زائدة ﴿جَرَمَ﴾

فعل ماض بمعنى حق، وثبت مبني على الفتح، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿الأخسرون﴾، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾ خبر (أنّ)، وجملة (أنّ) المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿جَرَمَ﴾، والجملة مستأنفة، والمعنى حَقَّ، وثبت كَوْنُهم الأَخْسرين.

فصل في لا جرم

وقد مر لك بعض المباحث في جرم في مبحث التفسير، وفي «السمين»: وفي هذه اللفظة خلاف بين النحويين، وتلخَّص من ذلك وجوه.

أحدُها: وهو مذهب الخليل، وسيبويه، أنهما مركَّبتان من ﴿لا﴾ النافية و ﴿جَرَمَ﴾ وبُنِيَتا على تركيبهما تركيبَ خمسة عشر، وصار معناهما معنى فعل، وهو حقَّ، فعلى هذا يرتفع ما بعدهما بالفاعلية، فقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾؛ أي: حقَّ وثَبَت كون النار لهم، أو استقرارُها لهم.

الوجه الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى لا رَجُل في كون ﴿لا﴾ نافية للجنس، وجرمَ اسمها مبني معها على الفتح، وهي واسمها في محلّ رفع بالابتداءِ، وما بعدهما خبر ﴿لا﴾ النافية للجنس، وصار معناها، لا محالةَ في أنهم في الآخرة هم الأخسرون؛ أي: في خسرانهم.

الوجه الثالث: أنَّ ﴿لا﴾ نافية لكلام قد تقدم تكلم به الكفرةُ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿لا﴾ كما ترد لا هذه قبلَ القسم في قوله لا أقسِمُ وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد تقدَّم تَحْقِيقُه، ثم أتى بعدها بجملة فعلية، وهي جرم أنَّ لهم كذا وجَرَم فعل ماض معناه كسب وفاعله مستتر يعود على فعلهم المدلول عليه بسياق الكلام، وأنَّ وما في حيزها في موضع المفعول به؛ لأنَّ ﴿جَرَمَ﴾ يتعدى إذا كان بمعنى كسَبَ، وعلى هذا فالوَقْف على قوله: ﴿لا﴾ ثم يبتدىءُ بـ ﴿جَرَمَ﴾ بخلاف ما تقدَّم.

الوجه الرابع: أنَّ معناه لا حَدَّ، ولا منعَ، ويكون ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى القَطْعِ

تقول: جرمت؛ أي: قطعت فيكون ﴿جَرَمَ﴾ اسمَ لا مبنيٌّ معها على الفتح كما تقدَّم، وخبرها ﴿أَنَّ﴾ وما في حيزها على حذف حرف الجر، أي: لا منع من خسرانهم فيعود فيه الخلاف المشهور، وفي هذا اللفظ لغاتٌ: يقال: لا جِرْمَ بكسر الجيم، ولا جُرْم بضمها، ولا جَر بحذف الميم، ولا ذا جَرم، ولا أنَّ ذا جَرم، ولا ذُو جرم، وغير ذلك انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ إلى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مؤكِّدة لما قَبْلَها.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ معطوفات على ﴿الأعمى﴾، ﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ فعل وفاعل ﴿مَثَلًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والأصل هل يستوي مثَلُهما، والجملة مستأنفة ﴿أَفَلَا﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، (لا) نافية ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أتشكون في عدم الاستواء، فلا تذكَّرون ما بَيْنَهما من التباين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية واللام موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿أَرْسَلْنَا

﴿نُوحًا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة جواب للقسم المحذوف وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿إِنِّي﴾ بالكسر ناصب واسمه ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر إن ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة نذير، وجملة إن المكسورة في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره قائلاً: إني لكم نذير مبين، وأما قراءة فتحِ همزة أنَّ فعلى تقدير حرف الجر.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لَّا﴾ ناهية جازمة ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل في محل نصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مجزوم بـ﴿لَّا﴾ الناهية ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر ومجرور بحرف جر محذوف تقديره: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بعدم عبادة غير الله تعالى، ويصح كونُ أنْ مخففة، وكونُها تفسيرية ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه ﴿أَخَافُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿يَوْمٍ﴾ على سبيل التجوز، أو صفة ﴿عَذَابَ﴾ مجرور بالجوار نظير هذا جحر ضب خربٍ، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ ولقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ إلخ كما في «الجمل».

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ مقول محكي لـ ﴿قال﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿ما﴾ نافية ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بَشَرًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ إن كانت علمية أو حال من الكاف إن كانت بصرية ﴿مِّثْلَنَا﴾ صفة لـ ﴿بَشَرًا﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة.

ما نافية ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ فعل ومفعول به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ﴿اتبع﴾، وجملة ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ إن كانت علمية، أو حال من الكاف إن كانت بصرية، والجملةُ الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَرَىٰكَ﴾ الأول ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، (ما): نافية ﴿نَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، إن كانت علمية ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ ﴿فَضْلٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿فَضْلٍ﴾ مفعول أول لـ ﴿نَرَىٰ﴾، والجملةُ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب ﴿نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ والجملة في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلَها على كونِهَا مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعله ضمير يعود على نوحٍ، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل، وهو: يتعدى إلى مفعولين، والأول محذوف، لدلالة ما بعده عليه، تقديره: أرأيتم البيِّنة من ربي إن كنتُ عليها أنلزمكموها، والمفعولُ الثاني: جملة الاستفهام الآتية ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ على كونه فعلَ شرط لها ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، ﴿مِّن رَّبِّى﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿آتاني﴾ لأنه بمعنى أعْطى ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾، وجملة ﴿آتاني﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿كان﴾، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿عميت﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم معطوف على ﴿آتاني﴾ ونائب

فاعله ضمير يعود على كل من البينة والرحمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنت على بينة من ربي، أأقدر على إلزامكم إياها، وجملة الشرط معترضة بينَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وبين مفعولها الثاني في محل النصب، مقول لـ ﴿قَالَ﴾، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الأنكاري ﴿نلزم﴾ فعل مضارع مرفوع، وقرىء بإسكان الميم الأول فراراً من توالي الحركات، وهو متعد إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود على نوح ومَنْ معه، (الكاف) ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول أول، و(الميمُ) حرفُ دال على الجمع، مبني بسكونٍ مقدر، مَنَعَ من ظهوره حركة إتباع الكاف، و﴿الواو﴾ حرف متولد من إشباع ضمة الميم، و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿ألزم﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ كما مرَّ آنفاً، ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿لَهَا﴾ متعلق بما بعده ﴿كَرِهُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من كاف المخاطبين في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ الأول ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به ﴿مَالًا﴾ مفعول ثان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونه جوابَ النداء ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿أَجْرِىَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ ﴿بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ﴾ خبر، ومضاف إليه و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِنَّهُم﴾ ناصب واسمه ﴿مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة إن في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ﴾ على كونها معلّلةً لما قبلها ﴿وَلَٰكِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿قَوْمًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾ وجملة ﴿أَرَىٰكُمْ﴾

في محل الرفع خبر ﴿لكنَّ﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على ما قبلَها على كَوْنِها مقولَ القول.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ الأول. ﴿مَن﴾ اسم للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ ﴿يَنصُرُنِي﴾ فعل ومفعول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿من﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية جواب النداء على كَوْنِهَا مقول القول، ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿طَرَدتُّهُمْۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قَبْلَهَا، والتقدير: إن طردتهم فمن ينصرني، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾ ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي داخلةٌ على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: ما ينبغي تذكره من أحوالهم، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، تقديره: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تذكرون؟ والجملة المحذوفة مع ما عُطِفَ عليهَا مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿أَقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على كونهَا جوابَ النداءِ ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَقُولُ﴾ ﴿عِندِي﴾ خبر مقدم ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿أقول﴾.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فعل ومفعولٌ به، لأنَّ عَلِم هنا بمعنى عَرَفَ، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملةُ الفعلية معطوفة على جملة ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ على كَوْنِهَا مقولَ أقول؛ أي: ولا أقول لكم إني أعلم

الغيبَ، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ معطوف على ولا أقول الأول ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل النصب مقول أقول، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ معطوف على ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ الأول ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق به ﴿تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: تزدريهم وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلةُ الموصول ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ ناصب وفعل ومفعول أول وفاعل ومفعول ثان، والجملةُ في محل النصب مقول ﴿أَقُولُ﴾، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ والجملةُ الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه ﴿إِذًا﴾ حرف جواب لا عمل لها لعدم دخولها على الفعل ﴿لَّمِنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداءِ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محلِّ النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونهَا جوابَ النداء، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾، ﴿فَأْتِنَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أتنا﴾، ﴿تَعِدُنَآ﴾ فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: تعدناه، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كَوْنِهِ فعلَ شرط لها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبره، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتَ من الصادقين.. فأتنا بما تعدنا، وجملةُ ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئتَ قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، ﴿يَأْتِيكُم﴾ فعل ومفعول ﴿بِهِ﴾ متعلق به ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم، بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فِعلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ وجواب إن معلوم مما قبلها تقديره: إن شاء يأتيكم به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب، مقولُ ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ حجازية، أو تميمية لعدم ظهور الإعراب في الخبر، ﴿أَنتُم﴾ اسمها أو مبتدأ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ خبرها أو خبر المبتدأ، و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿أَرَدتُّ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعلَ شرطٍ لها ﴿أَنْ أَنصَحَ﴾ ناصب وفعل منصوب ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن أردت النصح لكم، وجوابُ ﴿إِن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن أردت النصحَ لكم لا ينفعكم نصحي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ (إنْ) على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل النصب خبرُ ﴿كَانَ﴾، ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ ﴿يُرِيدُ﴾ تقديره: يريد إغواءه إياكم، وجواب هذا الشرط الثاني: هو الشرط الأول، وجوابه تقديره: إن كان الله يريد أن يُغْويكم.. فإن أردتُ أن أنْصَحَ لكم.. فلا ينفعكم نصحي، وذلك لأنه إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب، يُجعل الشرط الثاني

شرطاً في الأول؛ لأنَّ الشرطَ مقدَّم على المشروط في الخارج، ذكَرَه في «الفتوحات» ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تَعْلِيلاً لِما قبلها، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بما بعده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ على كونهَا تَعْلِيلاً لما قبلها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل من ظلم يظلم، من باب: ضرب: ظلماً، والظلم وضع الشيء في غير محله، وهو ضد العدل، والافتراء: اختلاق الشيء من عند نفسه، من غير أن يكون له أساس ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: للمحاكمة عرضاً تظهر به فضيحتهم على ربهم؛ أي: على من يحسن إليهم، ويَمْلِكُ نواصِيَهم وكانوا جَديرينَ أن لا يكذبوا عليه ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، أو جمع شهيد كشريف وأشراف، والأشهادُ الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالَهم في الدنيا أو الأنبياءُ أو هما والمؤمنون، أو ما يشهد عليهم من أعضائهم، أقوالٌ، واللعنة الطرد من الرحمة، والصدُّ عن سبيل الله الصرف عن دينه، والمنع من الدخول فيه ﴿يبغونها عوجاً﴾؛ أي: يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها، والعِوج: الالتِواءُ، وعدمُ الاستِواء يقال: بَغَيْتُك شرّاً؛ أي: طلبته لك.

وفي «المختار»: عوج ـ من باب طرب ـ فهو أعوج، والاسمُ العِوَجُ بكسر العين، فما كان في حائط أو عُود أو نحوهما، مما ينتصب فهو عَوَج بفتح العين، وما كان في أرض أو دين أو معاش فهو عِوَجٌ بكسر العين، واعوجَّ الشيء اعوجاجاً، فهو معوَّج بوزن محمد، وعصا معوجة أيضاً؛ أي: غيرَ مستقيمة. اهـ.

﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يمكنهم أنْ يهربوا مِنْ عذابه ﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: غابَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال الفراء: هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بُدَّ، ولا محالةَ

فَجَرَتْ على ذلك، وكثُرَتْ حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة حقّاً، فلذلك يجاب عنها باللام، كما يجاب بها عن القسم، ألا تراهم يقولون: لا جرم لآتينك. اهـ «مختار». وقد مر البحث عن ﴿لَا جَرَمَ﴾ في مبحثِ التفسير، وفي مبحثِ الإعراب، فلا حاجةَ إلى إطالة المبحث عنه هنا.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والإخبات في اللُّغة هو: الخشوعُ، والخضوع، وطمأنينة القلب، ولفظُ الإخبات يتعدَّى بإلى وباللام، فإذا قُلْتَ: أخْبَت فلان إلى كذا، فمعناه اطمأنَّ إليه، وإذا قلتَ: أخْبَتَ له فمعناه: خَشَعَ، وخضع له، ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ بمعنى: خشعوا، وخضعوا، وأصْلُه من الخبت، وهو الأرضُ المطمئنة ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾، و﴿الأعمى﴾ هو من قام به العَمَى، والعَمى بفتحتين ذهابُ البصر، خِلْقةً أَوْلاً يقال: عَمِيَ من باب صَدِي فهو أعمى، وقوم عُمْيٌ ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ هو من قام به الصمم، والصمم ذَهابُ السمع خِلقة أَوْلا، يقال: أصمّه الله فصم يصم بالفتح صمماً، وأصمَّ أيضاً بمعنى صَمَّ؛ أي: حَصَلَ له الصممُ، ورَجب شهر الله الأصمُّ، قال الخليل: إنما سمى بذلك؛ لأنه كان لا يسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقعةُ سِلاح، لأنه من الأشهر الحُرُم. اهـ «مختار».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إدغامُ التاء الثانية في الأصل، في الذال على قراءة التشديد، وقرىء في السبعة: تذكرون بتخفيف الذال وتشديد الكاف بحذف إحدى التائين على حدِّ قول ابن مالك ـ وما بتاءين ابتدى قَدْ يُقْتَصَرُ ـ إلخ.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الملأُ: الأشرافُ، والرؤساءُ، والزعماء ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، وفي «السمين»: الأراذل فيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع الجمع، فهو جمع أرذل بضم الذال، جمع رذل، بسكونها مثل أكالب، وأكلب، وكلب.

ثانيهما: أنه جمع مفرد، فالأراذل جمع الأرذل، كأكابر وأكبر، وأساود وأسود، وأباطح وأبطح، وأبارق وأبرق، وجمع على هذه الزنة، وإن كان وصفاً؛ لأنه غلبت عليه الاسمية، فصارَ كالأسماء، ومعنى غَلَبَتِهِ أنّه لا يكاد يذكر الموصوف معه، وهو مثل الأبطَح، والأبرق. ذَكَره أبو البقاء، والأرذل: الخسيس

الدنيء المرغوب عنه لدناءته والسفلة، قال النحاس: الأراذِلُ الفقراء الذينَ لا حسَبَ لهم، والحسَبُ الصِّناعاتُ. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحياكة، ولم يعلموا أنَّ الصناعات لا أثرَ لها في الديانة، وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة هو الذي يُصْلِحُ الدنيا بدينه، قيل له: فمن سَفَلَةُ السَّفلةِ قال: الذي يُصْلِحُ دنيا غيرِهِ بفساد دينه، والظاهر من كلام أهل اللغة أنَّ السفلة هو الذي يدخل في الحِرَفِ الدنية. ذكره الشوكاني.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يقرأ[1] بهمزة بعد الدال، وهو من بَدَأَ يبدأُ إذا فَعَلَ الشيءَ أولاً، ويقرأ بياءٍ مفتوحة، وفيه وجهان:

أحدهما: أنَّ الهمزةَ أبدِلَتْ ياءً لانكسار ما قبلها.

والثاني: أنه من بدا يبدو إذا ظَهَرَ وبادِيَ هُنَا ظَرفُ، وجاء على فاعل كما جاءَ على فعيل نَحْو: قريب، وبعيد، وهو مصدرُ مِثْلُ العافية، والعاقبة، وفي العامل فيه أربعةُ أوجه:

أحدها: نراك أي فيما يظهر لنا من الرأي، أو في أول رأينا فإن قيل ما قبل إلاّ إذا تمَّ لا يعمل فيما بعدها كقولك، ما أعطيتُ أحداً إلا زيداً ديناراً، لأنَّ إلاّ تُعدِّي الفعلَ ولا تعديه إلا إلى واحد كالواو في باب المفعول معه قيل جاز ذلك هنا، لأنَّ بادِيَ ظرف أو كالظرف، مثل جَهْد رأيـي إنك ذاهب؛ أي: في جهدِ رأيـي، والظروف يتوسع فيها.

والوجه الثاني: إن العاملَ فيه: اتبعكَ؛ أي: اتّبعوك في أول الرّأي، أو فيما ظَهَر منه من غير أن يبحثوا.

والوجه الثالث: أنه من تمام أراذلنا؛ أي: الأراذل في رَأينا.

والرابعُ: أنَّ العاملَ فيه محذوف؛ أي: يقول ذاك في بادي الرأي به، والرأي مهموز، وغير مهموز، ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ والازدراء مأخوذٌ من أزرى عليه إذا عَابه،

---

(١) (٢) العكبري.

وزَرَى عليه إذا احتقره، وأنشَدَ الفراء:

يُبَاعِدُهُ ٱلصَّدِيْقُ وَتَزْدَرِيْهِ حَلِيْلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ ٱلصَّغِيْرُ

وقال الآخر:

تَرَىٰ ٱلرَّجُلَ النَّحِيْفَ فتَزْدَرِيهِ وَفِيْ أثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُوْرُ

وقال أبو البقاء: ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾(1) الدال فيه بدل من تاء الإفعالِ، وأصْلُ تزدري تزتري بوزن تفتعِلُ من زَرَيت، وأبدِلت دالاً لتجانس الزاي في الجهر والتَّاء مهموسةٌ، فلم تجتمع مع الزاي. انتهى.

﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ يقال: عُمِّي عن كذا، وعمِّي عليه كذا بمعنى التبسَ عليه، ولم يَفْهَمْهُ، وخفيَ عليه أمرُهُ.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ أصل الجدال، هو: الصراعُ، وإسقاطُ المرء صَاحِبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة، ثم استُعمل في المخاصمة، والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ والنصحُ بضم النون، وفتحها مع سكون الصاد فيهما، مصدر نَصَح من بابَ فَتَحَ، والنصحُ معناه: تحري الخير، والصلاح للمنصوح له، والإخلاص فيه قولاً وعملاً. ﴿أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ من أغوى الرباعي يُغْوِي إغواءً بمعنى أضله، والإغواء الإيقاع في الغي، وهو الفسادُ الحِسيُّ والمعنويُّ ثلاثيُّهُ غوى الرجل يَغْوِي إذا ضَلَّ وأخطأ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهامُ الإنكاريُّ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾.

ومنها: التحقيرُ في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى تحقيرهم، وإصْغَارِهم بسوء مرتكبهم، وفي قوله﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: على مَنْ

يُحْسِنُ إليهم، ويَمْلِكُ نَوَاصِيَهم ذكره في «البحر».

ومنها: تكريرُ الضمير في قوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم.

ومنها: التشبيه المرسلُ المجمل في قوله: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ لوجود أداة التشبيه، وحذف وَجْهِ الشبه؛ أي: مَثَلُ الفريق الكافر ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ في عدم البصر والسمع. ومثلُ الفريق المؤمن كالسميع والبصير، وهذا التشبيه تشبيه معقول بمحسوس فأعمى البصيرة أصمها، شبِّهَ بأعْمى البصرِ أصم السَّمْعَ ذلك في ظلمات الضلالات متردد تَائِهٌ، وهذا في الطرقاتِ متحيِّرٌ لا يهتدي إليها.

ومنها: التنبيه بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على أنه يُمْكِنُ زوالُ هذا العَمَى وهذا الصممُ المعقولُ فيجب على العاقل أن يتذكَّر ما هو فيه، ويَسْعَى في هداية نفسه، ويمكن أن يكونَ من باب تشبيه اثنين باثنين، فقُوبِلَ الأعمى بالبصير وهو طباق، وقوبل الأصمُّ بالسميع وهو طباق أيضاً، والعمى والصمم، آفتان تمنعان من البصر والسمع، ولَيْسَتَا بِضِدَّين لأنه لا تَعاقُبَ بينهما، ويحتمل أن يكون من تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه، فيكون من عطف الصفات، كما قال الشاعر:

إِلَىٰ ٱلْـمَـلِـكِ ٱلْقِـرْمِ وَابْـنِ الْـهُـمَـامْ وَلَـيْـثِ ٱلْـكَـرِيْـهَـةِ فِـيْ ٱلْـمُـزْدَحَـمْ

ولم يجيء التركيب كالأعمى والبصير والأصم والسميع فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضِدِّه، وفي لَفْظِهِ الأصَمِّ وضدهِ، لأنه تعالى لَمَّا ذكر انسدادَ العين أَتْبَعَه بانسداد السمع، ولَمَّا ذَكَرَ انفتاحَ البصر أتبعه بانفتاح السمع، وذلك هو الأُسلوب في المقابلةِ والأتَم في الإعجازِ، ذَكَرَه في «البحر».

ومنها: المجازُ العقليُّ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ لأنَّ نسبة الإيلام إلى اليوم مجاز عقلي نظير قولهم: نَهارُه صائم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ شبه خَفَاءَ الدليل بالعَمى في أنَّ كُلاً يمنع الوصولَ إلى المقاصد، فاشتقَّ من العمى بمعنى الخفاء، ﴿عميت﴾ بمعنى خفيت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، ويمكن أن يكون

استعارةً تمثيليةً بأن شَبَّهَ الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمَنْ سَلَكَ مفازة لا يعرف طُرُقَها، ومسلكها، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

ومنها: الاستفهامُ التوبيخيُّ المضمن للإنكار في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: التهكمُ والاستهزاء في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

ومنها: الحذفُ والزيادة في عِدَّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ
ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن
سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ
مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ
يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ
وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ
أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ
غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ
يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ...﴾ الآية، قال مقاتل وغيره: هذه الآية معترضة في قصة نوح عليه السلام حكايةً لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص، وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد:

منها: تنبيهُ الأذهان، ومنعُ السآمة، وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر، والتشويقُ إلى سماع بقية الكلام، ومن المتوقع هنا أن يَخْطُرَ في بال

المشركين حينَ سماع ما تقدم من هذه القصة، أنها مفتراةٌ لاستغرابهم هذا السبك في الجدال والقُوَّةَ في الاحتجاج؛ فكان إيراد هذه الآية تجديداً للردَّ عليهم، وتجديداً لِنشاطِهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا أخبر أنَّ نوحاً قد أكثرَ في حجاجهم وجدالهم، وأنه كلما ازدادَ في ذلكَ زَادُوا عتوّاً وطغياناً حين تعجَّلوا منه العذابَ، وقالوا له: ائتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين.. أَرْدَفَ ذلك بذكر ما أَيْأَسَه من إيمانهم، وأعلمه بأنَّ ذلك كالمحال الذي لا يكون، فالجدالُ والحجاجُ معهم عبث ضائع؛ فلن يؤمن إلا من قد حَصَلَ منه إيمان من قبل، فإيَّاك أن تَغْتَمَّ على ما كان منهم من تكذيب في تلك الحقبة الطويلة، فقد حَانَ حِينُهُم، وأزِفَ وقت الانتقام منهم.

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ...﴾ الآيات، هذه الآيات غايةٌ لما ذكر قبلها من الاستعدادِ لهلاكهم، ومقابلةِ السخرية بغير ابتئاسٍ ولا ضجرٍ.

قوله تعالى﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ...﴾ الآيات الثلاث الأُولى تبيِّنُ أنَّ حُكْمَ الله في خلقه العدل بلا محاباة لولي ولا نبيٍّ وأنَّ الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأُ في الاجتهاد، ويعد ذلك ذنباً بالنظر إلى مقامهم الرفيع، ومعرفتهم بربهم، وذلك مَا عرض له نوحُ عليه السلام من الاجتهاد في أمر ابنه الذي تخلَّف عن السفينة فَكَانَ من المغرقين، كما أنَّ في الآية الأخيرةِ استدلالاً على نبوة محمدِ ﷺ وطلب صبره على أذى قومه.

التفسير وأوجه القراءة

و ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ منقطعة تقدر ببَلْ الإضرابية، وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أيقول مشركو مكة: إنَّ محمداً ﷺ افتراه؛ أي: اختلق خبر قوم نوح عليه السلام، وجاءَ به من عند نفسه، أو اختلقَ القرآنَ، وافتراه من عندِ نفسه، فأمره الله سبحانه وتعالى أنْ يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم

يا محمد في الجواب: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ أي: أنِ افتريت خبرَ قوم نوحٍ، أو افتريتُ هذا القرآنَ على الله من عند نفسي كما تزعمون ﴿فـ﴾ـما عليكم بأس، ولا ضَرَرَ في ذلك إنما ﴿علي إجرامي﴾؛ أي: إنما عليَّ لا على غيري، ولا عليكم عقوبة إجرامي وذنبي ﴿و﴾ أنتم بريئون من إجرامي كما ﴿أنا بريء مما تجرمون﴾؛ أي: من عقوبة إجرامكم، وذنبكم، فحكم الله العدل: أن يجزى كل امرىء بعمله، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والإجرامُ والجرم اكتساب الذنب كما سيأتي في مبحث الصرف، وفي الآية حذف، والتقدير إن كنت افتريته فعليَّ عقاب جرمي، وإن كنتُ صَادِقاً وكذبتموني فعليكم عقابُ ذلك التكذيب، إلاَّ أنه حذِفَت هذه البقية لدلالة الكَلام عليهَا.

فعلى هذا التفسير تكون هذه الآيةُ[1]: دَخيلة في أثناء قصة نوح ومعترضة بين أجزائها؛ لأجل تنشيط السامع لسماع بقية القصة، وأكثر المفسرين على أن هذه الآية من جملة قصة نوح، كما هو ظاهرُ السِّياق والمعنى عليه ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي[2]: بل أيقول قوم نوح ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: إن نوحاً افترى بما أتانا به من عند نفسه مسنداً إلى الله تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم يانوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ أي: إن اختلقت الوحيَ الذي بلغته إليكم من تلقاء نفسي.. ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾؛ أي: فعليَّ عقاب اكتسابي للذنب، وإن كنتُ صادقاً، وكذبتموني.. فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: من عقاب كسبكم الذنبَ بإسناد الافتراء إليَّ، وقرأ الجمهور ﴿إجرامي﴾ بكسر الهمزة، وهو مصدر أجرم، وهو الفاشي في الاستعمال، ويجوز (جرم) ثلاثياً، وقرىء شاذاً: (أجرامي) بفتح (الهمزة) جمع جرم كأقفال جمع قفل، اهـ «سمين».

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾؛ أي: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح بعد أن استعجلَ قومه بالعذاب، ودعا عليهم دعوتَه التي حَكَاهَا الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ أي: أَوْحَى الله تعالى إليه

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنَّ الشأنَ، والحال ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾ أحدٌ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾ المصرينَ على الكفر فيتبعُك على ما تدعوه إليه من التوحيد ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ من قبل، فيَظلُّ على إيمانه، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد انتهى أفعالهم، وحانَ وقت الانتقامِ منهم والبؤس والحزن، والابتئاس الحزن مع الاستكانة والتذلل.

والمعنى[1]: فلا يشتدَّ عليكَ البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون في السنين الطوال، من العناد والإيذاء، والتكذيب لك، ولِمَنْ آمن مَعَكَ فَأَرِحْ نَفْسَكَ بعد الآن من جِدَالِهِم، ومن إِعراضِهِم، واحْتِقارِهم فَقَد آنَ زَمَن الانتقام، وحَانَ حين العذاب.

قال ابن عباس[2]: إنَّ قومَ نوح كانوا يضربونَ نوحاً حتى يَسْقُطَ فيلفُّونَه في لبد، ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مَاتَ، فيخرج في اليوم الثاني، ويدعوهم إلى الله، ويروى أنَّ شيخاً منهم جَاءَ متكئاً على عصاه، ومعه ابنه فقال: يا بنيَّ لا يَغُرنك هذا الشيخُ المجنون، فقال: يا أبت أمكنّي مِن العَصا فأَخَذَها من أبيه، وضرب بها نوحاً عليه السلام، حتى شجَّه شجَّةً منكرةً فأوحى الله إليه إنه لن يُؤْمِنَ مِن قومك إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ.

وحكى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عُمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يَبْسطون نُوحاً فيخنِقُونه حتى يغْشَى عليه، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى تمادَوا في المعصية، واشتدَّ عليه منهم البلاء، وهو ينتظر الجيلَ بعد الجيل، فلا يأتي قرن إلا كان أنحس مِنَ الذي قبله، ولقد يأتي القرنُ الآخِر منهم فيقول: قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجْدادِنا هكذا مجنوناً، فلا يقبلون منه شيئاً فشكا نوحٌ إلى الله عز وجل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ الآيات حتى بلغ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى لما أخبره أنهم لا يؤمنونَ ألبتة عرفه وجهَ

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

إهلاكهم، وألهَمَهُ الأمرَ الذي يكون به خلاصُه وخلاص من آمن معه فقال: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ أي: واعْمَلْ السفينة التي سننجيك ومن آمن معك فيها حالة كونك محفوظاً محروساً ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بحفظنا لك، وحراسَتِنَا لك ﴿و﴾ معلماً كيفيةَ صنعتها بـ ﴿وحينا﴾ وتعليمنَا لك؛ أي: إنَّنا حافظوك في كل آن، فلا يمنعك مِنْ حفظنا مانعٌ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضَنَّ لك خَطَأٌ في صنعتها، ولا في وصفها، والظاهر: أنه أمر إيجاب لأنه لا سبيلَ إلى صون نفسه وأرواح غيره من الهلاك إلا بهذَا الطريقِ، وصَوْنُ النفس من الهلاك واجبٌ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ، اهـ «كرخي».

والمراد بقوله[1]: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بحِراسَتِنَا لك، وحفظِنَا لك، وعَبَّر عن ذلك بالأَعْيُن لأنها آلةُ الرؤية، والرؤية هي التي تكونُ بها الحراسةُ والحفظ في الغالب، وجَمَع الأعْيُنَ للتعظيم لا للتكثير، لئلا يناقض قولَه تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وقيل: المعنى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بأعين ملائكتنا الذين جعَلْناهم عُيوناً على حفظك، وقيل: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بِعِلمنا، وقيل: بأمرنا، ومعنى بِوَحْيِنا؛ أي: بما أوْحَيْنا إليك من كيفية صنعتها.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾؛ أي: ولا تُراجعني ﴿فِي﴾ شيءٍ من أَمْر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسَهم بالإشراك بدفع العذاب عنهم، وطلبِ الرحمة لهم، فقد حقَّتْ كلمة العذاب عليهم؛ أي: لا تطلب إمهالَهم فقد حان وَقْتُ الانتقام منهم، وجملةُ قوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ بالطوفان للتعليل؛ أي: لا تطلب منَّا إمهالَهم، فإنه محكوم منا عليهم بالإغراق، وقد مضى به القضاء، فلا سبيلَ إلى دَفْعِهِ، ولا إلى تأخيره، وقيل: المعنى: ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنَّهم مغرقون في الوقتِ المضروب، لذلك لا يتأخر إغراقُهم عنه، وقيل: المراد بالذين ظلموا: امرأتُهُ وابنُه.

والخلاصة: لا تأخذنَّك بهم رأفةٌ ولا شفقةٌ، وقرأ[2] طلحة بن مصرف: (بأعيُنَّا) مدغمةً ﴿و﴾ شَرَعَ نوح عليه السلام ﴿يصنع﴾، ويعمل ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ والسفينةَ

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

﴿و﴾ الحال أنه ﴿كلما مر﴾ وجاوز ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على نوح ﴿مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: جماعةٌ من كبراء قومه، ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أي: سخر الملأ من نوح وعمله، واستهزؤوا به، وضَحِكُوا منه، وتنادَوْا عليه ظَنّاً منهم أنه أُصِيبَ بالهَوَسِ والجنون.

رُوي أنهم قالوا له: أتحولت نَجَّاراً بعد أنْ كُنْتَ نَبيّاً، وليس ذلك بالغريب منهم، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا منه قبل أن يكْتبَ له النجاح.

وفي وجه سخريتهم منه قولان:

أحدُهما: أنهم كانوا يرونه يَعْمل السفينةَ، فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً.

والثاني: أنهم لَمَّا شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشِي بها على الماء، فعجبوا من قوله، وسَخِرُوا به.

وقال ابن عباس(١): اتَّخذَ نُوحٌ السفينةَ في سنتين، فَكَانَ طولها ثلاث مئة ذراع، وعَرْضُها خمسينَ ذراعاً، وطُولُها في السماء ثلاثينَ ذراعاً، وكانت مِن خشب السَّاجِ وجَعَلَ لها ثلاثة بطون فَجَعَل في البطن الأسفل الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب، والأنعام، ورَكبَ هو ومن معه في البطن الأعلى، وجعل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره، قال قتادة: وكان بابها في عَرْضِها. انتهى.

وقال كعب الأحبار(٢): عمل نوح عليه السلام السفينةَ في ثلاثين سنة، ورويَ أنها ثلاثة أطباق: الطبقة السفلى: للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى: للإنس، والطبقة العليا: للطير، فلما كثرت أرواث الدواب: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنبَ الفيل، فغَمَزَه فوَقَع منه خنزيرٌ وخنزيرة، ومَسَح على الخنزير فوقع منه الفأر والفأرة، فأقبلوا على الروث، فأكلوه فلما أفسد الفأر في

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

السفينة، فجعل يقرضها، ويقرض حِبَالَها، أَوْحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عَيْنَي الأسدِ فضربَ فخَرَج من منخره سنَّور وسِنَّوَرة، وهي القطة والقط، فَأَقْبَلا على الفأر، فأكلاه. ثُمَّ أجاب عليهم نوح بما ذكره بقوله: ﴿قَالَ﴾ نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ﴿إِن تَسْخَرُواْ﴾ وتستهزؤوا ﴿مِنَّا﴾ اليومَ وتستجهلونا لرؤيتكم ما لا تتصوَّرون له فائدةً ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ اليومَ لجهلكم بالله، وشرككم به وغداً حين ينزلُ بكم العذاب لكفركم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنَّا جزاءً وفاقاً؛ أي: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنعُ، فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر، والتعرض لسخط الله، وعذابه، ثم هدَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وتَرَون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: أينا يأتيه عذاب في الدنيا يهينه ويذله، وهو عذابُ الغرق، ومَنْ هو أحق بالسخرية، ومَنْ هو أَحْمَدُ عاقبةً ﴿و﴾ تعلمون من ﴿يحل﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم؛ أي: وسوفَ تعلمون أينا ينزل عليه النار الدائم في الآخرة.

والمعنى[(١)]: فإن كنتم لا تعلمون اليومَ فائدةَ ما نعمل، وما له من عاقبة محمودة، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه، ويَجْلِب له العارَ، والخِزيَ في الدنيا، وهو عذاب الغرق، ويحل عليه عذاب دائم في الآخرة بعد ذلك، وكل ما في الدنيا فهو هيِّن ليِّنٌ بالنسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله، وبقاء ذَاكَ ودَوامِهِ.

فإن قُلتَ[(٢)]: السخريةُ لا تَلِيقُ بمنصب النبوة، فكيف قال نوح عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

قلتُ: إنما سَمَّى هذا الفعلَ سخريةً على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام، كما في قوله﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ والمعنى: إنا نَرى غِبَّ سخريتكم بِنا إذا نزل بكم العذاب.

والتشبيه في قوله[(٣)]: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ لمجرد التحقق، والوقوع، أو التجدد

---

(١) المراغي. (٣) الشوكاني.

(٢) الخازن.

والتكرر، والمعنى: إنَّا نَسْخَرُ منكم سخريةً متحققة واقعةً كما تسخرون منَّا كذلك، أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك.

وحكى الزهراويُّ أنه يقرأ[1]: (ويَحُلُّ) بضم الحاء، ويَحِل بكسرها بمعنى ويَجِبُ، وحتى في قوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ابتدائية، دخلَتْ على الجملة الشرطية، وجُعلت غايةً لقوله﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وكان يَصْنَعُ الفلكَ حتى إذا جاء وَقْتُ أمْرِنا وقضائنا بهلاكهم، ووَقْتُ عذابنا الموعود به ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: نَبَعَ الماءُ من التنور؛ أي: من وَجْه الأرض أو من تنور الخُبْز، وارتفعَ بشدة، كما تَفُور القدر بغليانها، وكانَ ذلِكَ علامةً لنوح عليه السلام، رُوي[2] أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيتَ الماء يفور من التنور، فَارْكَب ومن مَعَك في السفينة، فلما نَبَعَ الماء أخبرته امْرَأته.. فركِبَ، وقيل: كانَ التنور لآدم، وكانت حواء تقمر فيه الخبز، فصار إلى نوح، وكانَ من حجارةٍ وهو بالكوفة على يمين الداخل، مِمَّا يلي باب كندة في المسجد، والأقرب أن يكونَ المراد من التنور وجه الأرض، ويكون المعنى حتى إذا نَبَع الماء من وجه الأرض ﴿قلنا﴾ لنوح آنئذ: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين، ذكراً وأنثى، لِيبقى ذلك النوع بعد غرق سائر الأحياء، فيتناسل ويَبْقَى على الأرض.

وقرأ حفص[3]: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ بتنوين (كلٍ)، (زوجين) مفعول به و (اثنين) نعت توكيد؛ أي: احمل من كل حيوان، زوجين اثنين كل منهما زوج للآخر، وقرأ باقي السبعة بالإضافة؛ أي: احمل من كل فردين متزاوجين اثنين، بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى، ومن الغنم ذكراً وأنثى، وهكذا، وتترك الباقي، والمرادُ من الحيوانات التي تنفعُ، والتي تلد وتبيض، فتخرج المضرات، والتي تَنْشأ من العفونات والتراب كالدود، والقمل، والبق، والبعوض. قال البغوي: وروي عن بعضهم: أنَّ الحيَّة والعقربَ أتَيا نوحاً عليه السلام، فَقَالتا: إحمِلنا معَك،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

فقال: إنكما سبب البلاء، فلا أحمِلُكما، فقالتا: إحملنا معك، فنحن نَضْمَنُ لك أن لا نَضُرَّ أحداً ذَكَرَك، فَمَنْ قرأ حين يخاف مضرَّتُهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لم تضرَّاهُ، ذكره في «الخازن».

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ معطوف على زوجين على قراءة حفص، وعلى اثنين على قراءة غيره؛ أي: واحمل فيها أهلَ بيتك ذكراناً وإناثاً ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، والقضاءُ بأنهم من المغْرَقِين بسبب ظلمهم، كما قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ والمرادُ[1] به: ابنه كَنعَان، وأمه واعلة أم كنعان، فإنهما كَانَا كافرين، فحَمَلَ في السفينة زوجتَه المؤمِنةَ وأولادَها الثلاثةَ مع نسائهم: ساماً، وحاماً، ويافثاً، فسامُ أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك، وإفرادُ الأهلِ منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم، وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ معطوف على زوجين، أو على اثنين على اختلاف القراءة؛ أي: واحمِل معك مَنْ آمن، وصَدَّقَكَ واتبعك من غير أهلك.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من قومه، قيل: إنهم كانوا ثمانية: نوحاً عليه السلام، وأبناءه الثلاثة، وأزواجهم. وعن ابن عباس[2] قال: كان في سفينة نوح ثمانون إنساناً، نصفهم رجال، ونصفُهم نساءٌ. وقال مقاتل: في ناحية الموصل قريةٌ يقال لها: قرية الثمانين، سميت بذلك؛ لأنَّ هؤلاء لَما خرجوا من السفينةِ بَنَوْها فسُمِّيَتْ بهذا الاسم.

ولكن لم يبين[3] الله سبحانه وتعالى لَنَا ورَسولُه ﷺ عَدَدَهم فحصره في عدد معين من قبيل الحدس والتخمين، كما لَمْ يبيِّن لنا أنواعَ الحيوان التي حملها، ولا كيف حَمَلها، وأدْخلها السفينة، وقد فصل ذلك في سفر التكوين من التوراة.

وقوله: ﴿وَقَالَ﴾ معطوف على محذوف تقديره، فحَمَلهم نوحٌ، وقال: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في جوف السفينة، والخطابُ فيه للإنس، وأما غيرهم من

---

(١) المراح.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الحيوانات أخَذه بيده، وألقاه فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ أي: باسم الله سبحانه وتعالى جريانُ السفينة على الماء وإرساؤها؛ أي: وقوفها، فهو الذي يتولَّى ذلك بحوله وقوته، وحفظه وعنايته، وروي[1] أنه كان إذا أراد أنْ تجري قال: بسم الله، فَجَرَتْ، وإذا أراد أن تَرْسُو قَالَ: بسم الله، فرَسَتْ؛ أي: وقفت، ويجوز أن يكون الاسمُ مُقْحماً كقوله:

إِلَىٰ ٱلْحَوَلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وهذا تعليم من الله لعباده أنه ينبغي لهم أن يستعينوا بالله تعالى، وقد يكون المعنى أنَّ نوحاً أمرهم بأن يقولُوها كما يقولُها على تقدير اركبوا فيها قائلينَ باسم الله؛ أي: بتسخيره، وقدرته، مجْراها حين تَجْرِي ومرساها حين يرسيها، لا بحولنا ولا بقوتنا، ويحتمل أن يكونَ مجْريها ومُرْسَاهَا اسمي مكان أو زمان، أي: اركبوا فيها ذاكرينَ اسمَ الله، وقتَ جريانها أو إرسائِهَا، أو مكانهما.

وقرأ مجاهدٌ والحسنُ وأبو رجاء، والأعرج، وشيبة، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر[2]: ﴿مُجراها﴾ بضم الميم، وقَرأ حمزةُ والكسائِيّ وحَفْصٌ بفتحها، وكلهم ضمَّ ميم ﴿مُرساها﴾، وقرأ ابن مسعود، وعيسى الثقفيّ وزيد بن علي والأعمش: ﴿مجراها ومرساها﴾ بفتح الميمين ظرفيْ زمان، أو مكان، أو مصدرين على التقارير السابقة، وقرأ الضَّحاك، والنخعيُّ، وابن وثاب، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن جندب، والكلبيُّ، والجحدري: ﴿مجريها، ومرسيها﴾ سمي فاعل من أجرى وأَرْسى على البدل من اسم الله، ولا يكونان صفتين لكونهما نكرتَين.

﴿إِنَّ رَبِّى﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَغَفُورٌ﴾؛ أي: سَتُورٌ عليكم ذنوبَكم، بتوبتكم وإيمانكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ لكم إذ نَجَّاكم من الغرق، ولولا مغفرتُه تعالى ورحمته إياكم، لما نجَّاكم لأنكم لا تنفكون عن أنواع الزَّلَّات؛ أي: إنَّ ربِّي لواسع المغفرة لعباده حيثُ لم يهلكهم بذنوبهم، بل يهلك الكافرينَ الظالمينَ منهم، رحيم بهم إذ

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

سخَّر لهم هذه السفينةَ لنجاة بقيَّةِ الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذي اقتضته مشيئته، ورُوي في الحديث: «أنَّ نوحاً رَكِبَ في السفينة، أوَّل يوم من رجب، وصام الشهر أجْمَعَ ـ وعن عكرمة لعشر خلون من رجب ـ ونَزَلَ عنها عَاشِرَ المحرم، فصَامَ ذلك اليوم، وأَمَرَ مَنْ معه بصيامه شكراً لله تعالى» وكانَتْ مدة مُكْثِهِ على السفينة سِتَّةَ أشهر تقريباً.

وأخرج الطبرانيُّ[1] وغيره عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنَّه قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: باسم الله الملك الرحمٰن الرحيم بسم الله مجريها» الآية.

قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذه الجملة[2] متصلة بجملة محذوفة دلَّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير فركبوا مُسَمِّينَ وهي تَجْري بهم، والموج جمع مَوْجَةٍ وهي ما ارتفعَ مِن جملةِ الماء الكثير عند اشتدادِ الريح، وشبَّهَها بالجبال المرتفعة على الأرض.

أي: فركبوها، والحال أنها تَجْرِي بهم في موج يشبه الجبالَ، في عُلُوهِ وارتفاعه وامتداده، ومَنْ كابد ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهيجها الرياحُ الشديدة.. عَرَفَ أنَّ المبالغةَ في هذا التشبيه غير بعيدة، فإنَّ السفينة لترى كأنها تهبط في غور عميق كَوادٍ سحيق يُرَى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليهَا، وبعد هنيهة يرى أنَّها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنَّها في شاهق جبلٍ تُرِيدُ أن تنقضَّ منه، والملاَّحُون يَرْبِطُون أنْفُسَهم بالحبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرفهم ما يفيضُ من الموج عليها.

وهذه الجملةُ تدُلُّ على وجود الرياح الشديدة في ذلك الوقت، قال علماءُ[3] السير: أرسلَ الله تعالى المطَرَ أربعين يوماً وليلةً، وخرج الماء من الأرض، وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً، وقيل: خَمْسَةَ عَشَر ذِراعاً حتى أغرَق كل شيء.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

ورُوي[١] أنه لما كَثُر المَاءُ في السكك خَافَتَ أم صبيٍّ على ولدها من الغرق، وكانت تحبه حبّاً شديداً، فخرجت به إلى الجبل حتى بَلغت ثلثه، فلَحِقَهَا الماء، فارتفعَتْ حتى بلغت ثلثَيه فلَمّا لَحِقَها الماء ذهبَتْ حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبيَّ. بِيَدَيْها حتى ذَهَبَ بهِمَا الماءُ فأغرقهما، فلَوْ رحم الله منهم أحداً.. لرَحِمَ أمُّ الصبِيّ ثم بَيَّنَ أنَّ نوحاً دَعَته الشفقة على ابنه، فناداه كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ هو كنعانُ[٢]، وقيل: يَام، قيل: وكان كَافِراً، واستبعِدَ كون نوح ينادي مَنْ كان كافراً مع قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وأُجيب بأنه كان منافقاً، فظنَّ نوح أنه مؤمن، وقيل: حملته شَفَقةُ الأُبُوَّة على ذلك، وقيل: إنه كان ابنَ امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيِّده ما روى أنّ علّياً قرأ: ﴿ونادى نوح ابنها﴾، وقيل: إنَّه كان لغير رشدة، وولدَ على فراش نوح، ورُدَّ بأن قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ يَدْفَعُ ذلك على ما فيه من عدم صيانةِ مَنْصِبِ النبوة.

أي: ونادى نوح ابنه كنعانَ قَبْلَ سَيْرِ السَّفينَةِ ﴿و﴾ الحال أنه ﴿كان في معزل﴾؛ أي: في مكان بعيد عزل وبعد وفصل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقرابته وقومه، بحيث لم يَبْلُغه الخطاب بارْكَبُوا؛ أي: قول نوح لمَنْ آمَن ﴿اركبوا﴾ وقيل: ﴿في معزل﴾ عن دين أبيه، وقيل: من السفينة، قيل: وكان هذا النداء قبل أنْ يَسْتَيْقِنَ الناسُ الغرَقَ بل كان في أوّلِ فور التنور.

وقرأ الجمهورُ[٣]: بكسر تنوين ﴿نوحٍ﴾، وقرأ وكيع بن الجراح بضمه أتبع حركتَه حركةَ الإعراب في الحاء، قال أبو حاتم: هي لغة سوء لا تُعْرَف، وقرأ الجمهور بوصل (هَاءِ) الكناية، بواو، وقرأ ابن عباس: ﴿ابنَهْ﴾ بسكون الهاء، قال ابن عطية وأبو الفضل، وأبو الفضل الرازي، وهذا على لغة الأزد الشراة يسكنون هاء الكناية من المذكر، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

وَنَــضْــوَايَ مُــشْــتَــاقَــانِ لَــهُ أَرِقَــانِ

وذكر غيره أنها لغة لبني كلاب، وعُقيل، وقرأ السدي: ﴿ابناهْ﴾ بألف وهاء السكت، قال أبو الفتح: ذلك على النداء، وذهبَتْ فرقة إلى أنه على الندبة والرثاءِ.

وقرأ علي وعروة وعلي بن الحسين وابنه أبو جعفر وابنُه جعفر[1]: ﴿ابنه﴾ بفتح الهاء من غير ألف، أي: ابنها مضافاً لضمير امرأته، فاكتفي بالفتحة عن الألف، قال ابن عطية: وهي لغةٌ ومنه قول الشاعر:

إِمَّـا تَـقُـوْدُ بِـهَـا شَـاةً فَـتَـأْكُـلُـهَـا أَوْ أَنْ تَـبِـيْـعَـهَ فِـيْ بَـعْـضِ الأَرَاكِـيْـبِ

يريد تَبِيعَها، وقرأ أيضاً علي وعروة: ﴿ابنها﴾ بفتح الهاء وألف.

وقرأ عاصم: ﴿يا بنيَّ اركب معنا﴾ بفتح الياء، ووجه على أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف، وأصله يا بُنيا، كيا غلاماً ثُمَّ حذفت، وبقيت الفتحة لِتَدُلَّ عليه، أو على أنَّ الألِفَ انحذفت لالتقائها مع راءِ اركب، وقرأ باقي السبعة بكسر الياء اجتزاءً بالكسرة عن ياء الإضافة، أو حذِفَت لالتقاء الساكنين.

وقرأ أبو عمرو والكسائي وحفص[2]: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بإدغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج، وقَرأَ الباقون بعدم الإدغام.

والمعنى: ونادَى نوحٌ ابنه حينَ الركوب في السفينة، وقبل أنْ تجرِيَ بهم، وكان في مكان منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومَنْ آمن من قومه يا بنيَّ اركب معنا الفلك، ولا تكن مع الكافرين الذين قضي عليهم بالهلاك، نَهَاه عن الكون مع الكافرين؛ أي: خَارجَ السفينةِ، ويُمْكِنُ أنْ يُرادَ بالكون معهم الكونَ على دينهم.

ثمَّ حكى الله سبحانه وتعالى ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: ﴿قَالَ﴾ ابن نوح جواباً لأبيه، ظانّاً أنَّ ذلك المطرَ والتَّفْجيرَ على العادة ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ وألتجىء من وصول الماء إلـيَّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أتحصن به من الماء ﴿يَعْصِمُنِى﴾ أي

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

فيحفظني ذلك الجبل ﴿مِن﴾ الغرق بـ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ وهذا يدل على عادته في الكفر، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به، قيل: والجبل الذي عَناه طُورُ زيتا، فلم يمنعه فَأجَابه نوح مبيناً له خطأه بما ذكره الله سبحانه وتعالى ﴿قال﴾ نوح لابنه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا شيء يعصِم أحداً في هذا اليوم العصيب، زاد اليومَ تنبيهاً على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع التي ربما يخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب، اهـ «روح البيان».

﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: مِن عذاب الله الذي قضاه على الكافرين، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية، وإنما هو انتقامٌ من أشرار العباد الذين أشركوا بالله، وظلموا أنْفُسَهم، وظلموا الناسَ بطغيانهم في البلاد. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ منقطع بمعنى لكن؛ أي: لا عاصم اليومَ من أمر الله لكن من رحمه الله تعالى فهو المعصوم، لأنَّ المستثنى هو المعصوم، والمستثنى منه هو العاصم؛ أي: لكن مَنْ عصمه الله سبحانه وتعالى ورحمه، فهو المعصومُ المرحوم، وقد اختص بهذه الرحمة والعصمةِ مَنْ حَمَلَهُم في السفينة.

والمعنى: لا مانِعَ[1] من أمر الله وعذابه اليومَ فإنه يوم قد حق فيه العذاب، وجف القلم بما هو كائن فيه، نفى جنسَ العاصم، فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أوليّاً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، والاستثناء هنا قال الزجاج: هو منقطعٌ؛ أي: لكن مَنْ رَحِمَهُ الله فهو يعصمه فيكون ﴿مَن رَّحِمَۚ﴾ في مَوْضع نصب، ويجوز أن يكونَ الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم؛ أي: لا مَعْصُومَ اليومَ من أمر الله إلاّ مَنْ رحمه الله مثل: ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ بمعنى مدفوق و﴿عيشة راضية﴾ بمعنى مَرْضِيَّةٍ، وقول الشاعر:

بَـطِـيْءُ ٱلْـقِـيَـامِ رَخِـيْـمُ ٱلْـكَـلَامْ أَمْـسَـىٰ فُـؤَادِيْ بِـهِ فَـاتِـنَـا

أي مفتوناً، واختارَ هذا الوجه ابن جرير، وقيل: العاصم بمعنى ذي

---

(١) الشوكاني.

العصمة كَلاَبِنٍ وتامر، والتقديرُ: لا عَاصمَ قط؛ أي: لا مكانَ ذا عصمةٍ إلا مكانَ مَنْ رحم الله، وهو السفينةَ.

وذكر صاحب «الانتصاف»[1]: أنَّ الاحتمالات الممكنة هنا أربعةٌ: لا عَاصمَ إلاّ راحم، لا معصومَ إلا مرحوم، لا عاصمَ إلا مرحوم، لا معصومَ إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس، فيكون منقطعاً؛ أي: لكنِ المرحومُ يُعْصَمُ على الأول ولكن الراجح يَعْصِمُ مَنْ أراد على الثاني، اهـ «زاده» و «شهاب».

وقُرِىءَ[2]: ﴿إلا مَنْ رُحِم﴾ بضم الراء، بالبناء للمفعول، وهذا يدل على أنَّ المراد بِمَنْ في قِرَاءة الجمهور الذين فتحوا الراءَ هو المرحومُ لا الراحمُ.

﴿و﴾ كان الماء يتزايدَ ويرتفع أثناء المحادثةِ والمراجعة بينهما حتى ﴿حال بينهما﴾؛ أي: بين الولد ووالده ﴿ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الولدُ ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ بالفعل الهالكين بالطوفان، فتعذَّر خَلاصُه مِن الغرق، قيل: كَانَا يتَراجَعَانِ الكلامَ فما استتمَّت المراجعةُ حتى جاءت موجة عظيمةٌ، وكان راكباً على فرس قد بَطِرَ وأعجب بنفسه، فالتقمته وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق وقال الفراء[3]: بَيْنَهُما؛ أي: بين نوح والجبل الذي ظنَّ أنه يعصمه، والأول أولى لأن تَفَرُّعَ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ عليه يدل على الأول لا على الثاني، لأنَّ الجبلَ ليس بعاصم.

ثُمَّ ذَكَر ما حدث بعد هلاكهم مبيِّناً قُدْرَتَه تعالى فقال: ﴿وَقِيلَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾؛ أي: أنشفي ما على وَجْهك من ماء الطوفان، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾؛ أي: أمسكي عن إرسال المطر، وقدَّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداءِ الطوفان منها ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: ونقَصَ ما بين السماء والأرض من الماء، وفي «القرطبي»، وقيل: ميز الله بين الماءين فَمَا كَانَ من ماء

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

الأرض أمرَهَا فبلعته، وصَارَ مَاء السماء بِحاراً، اهـ. ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أتم الله الأمر من هلاك قوم نوح؛ أي: أحكم وأمضى ,فرغ منه ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ الفلك؛ أي: واستقرت السفينة رَاسِيةً واقفة ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾؛ أي: على جبل بالجزيرة، مدينة بالعراق قريب من الموصل، يقال له: الجوديُّ، وكان ذلك الجبل منخَفِضاً، ويقال: إنَّه مِن جبال الجنة، فلذا اسْتَوَتْ عليه.

وفي «القرطبي»: رُوِيَ أن الله تعالى أُوحى إلى الجبال أنَّ السفينةَ تُرْسَى إلى واحد منها، فتطاولت وبقي الجودي لم يتطاول تواضعاً لله تعالى، فَاسْتَوَتْ السفينة عليه، وبقيت على أعوادها، وفي الحديث: أنَّ النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة». اهـ.

رُوي[١] أنه عليه السلام رَكِبَ في الفلك في عاشر رجب، ومرَّتْ بالبيت الحرام، فطافَتْ به سبعاً، ونَزَل عن الفلك عَاشِرَ المحرم، فصام ذَلِك اليومَ وأمر من معه بصيامه شكراً لله تعالى، وبَنَوا قريةً بقُربِ ذلك الجبلِ فسمَّوها قريةَ الثَّمانِين، فهي أوَّل قرية عمِّرت على الأرض بعد الطوفان، وقَرأ الأعمش، وابن أبي عَبْلَةَ على ﴿الجوديْ﴾ بسكون الياء مخففةً، قال ابن عطية: وهما لغتان، وقال صاحب «اللَّوامح»: هو تخفيفُ ياء النسب، وهذا التخفيفُ بابُهُ الشعرُ لشذوذه ذَكَرَه أبو حيان. ومعنى الآيةِ وجاء نداء[٢] من الملأ الأعلى خُوطِبَتْ به الأرضُ والسماء: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ الذي عليك، والذي تفجرَ من باطنِك، ويا سماء كُفِّي عن المطر، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالاً للأمر، وقضي الأمر بإهلاك الظالمين، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودي، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: بعداً من رحمتي، وهَلاكاً بعذابِي قضيت وأثبت للقوم الظالمين بما كَانَ من ظلمهم، وفقدهم الاستعدادَ للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل، والقائل هو سبحانه وتعالى كما فسَّرنا ليناسب صَدْرَ الآية، وقيل: هو نوحٌ وأصحابه.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

والمعنى: أي قال نوح وأصحابه: بَعِدُوا بُعْداً من رحمة الله للقوم المشركين، بحيث لا يرجَى عودهم، وهذا الكلام جار مجرى الدعاء عليهم، لأنَّ الغالبَ ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة إذا هلكوا ونجا منهم قالَ مثْلَ هذا الكلام، وهذا من الكلمات التي تختص بدعاء السوء، ووَصَفهم بالظلم، للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

فإنْ قلتَ[1]: كيف اقتضَتْ الحكمة الإلهية، والكرمُ العظيم إغراقَ مَنْ لم يبلغوا الحلم من الأطفال، ولم يَدْخلوا تحت التكليف بذنوبِ غيرهم؟

قلت: الجواب الشافي عن هذا أنْ يقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى متصرِّف في خَلْقِهِ، وهو المالك المطلقُ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسْأَلُ عما يفعل، وهم يسألون، لا ما قيل: من أن الله عز وجل أعْقَمَ أرْحَامَ نسائهم أربعين سنة، فلَمْ يُولد لهم ولد في تلك المدَّة، لأنَّ هذا الجواب ليس بقويٍّ لأنه يَرِدُ عليه إغراقَ جميع الدواب والهوام والطير.

قال العلماء بالسير[2]: لمَّا استقرت السفينةُ بَعَثَ نوحٌ الغرابَ ليأتِيَه بخبر الأرض، فوقع على جيفة، فلم يرجع إليه، فبَعَثَ الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها، ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوحٌ أن الماءَ قد ذهَبَ، فدعا على الغراب بالخوفِ فلذلك لا يألف البيوتَ، وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها، ودعا لها بالأمان فمن ثم تَألَفُ البيوت.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ إثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة، ودَعاهُ إليها فلم يستجب، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي﴾ هذا ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾ الذي وعدْتني بنجاتهم، إذ أمرتني بحَمْلهم في السفينة ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ﴾ يا إلَهي ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: خير الحاكمينَ بالحق، وأفضلُهم كما قلتَ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة، فلا يعرض له الخطأ، ولا الحَيف، ولا الظلم.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

والمعنى: وأنت أعلم الحكَّام وأَعْدَلُهم إذ لا فَضْلَ لحاكم على غيرِه إلاَّ بالعلم، والعدل، ورُبَّ جاهلٍ ظالم من متقلدي الحكومة في زمانك لقد لقِّبَ بأقضى القُضاة، وقال جَارُ الله:

قُضَاةُ زَمَانِنَا صَارُوْا لُصُوْصَا عُمُوْمَاً فِيْ ٱلْقَضَايَا لاَ خُصُوْصَا

خَشِيْنَا مِنْهُمُ لَوْ صَافَحُوْنَا لَلَصُّوْا مِنْ خَواتِمِنَا فُصُوْصَا

اهـ «روح البيان».

وهذا الدعاء من نوح عليه السلام في غاية التلطُّف، وهو مِثْلُ دعاءِ أيوب عليه السلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

والخلاصة: أن نوحاً كانَ يريد أن ينجوَ ابنه الذي تخلَّفَ عن السفينة من الغرق، بعد أن دعاهُ إليهَا، ومن البَيِّنِ أنَّ هذا الدّعاءَ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ بعد المحاورة مَعَ ابنِه قبل أن يَحُولَ بينهما الموج، ومعنى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾؛ أي: أراد أن يناديه، ولذلك أَدْخَلَ الفاء؛ إذ لو كان أراد حقيقةَ النداءِ والإخبار عن وقوعه منه لم تَدْخُل (الفاء) في ﴿فقال﴾ ولسقَطَتْ كما لم تَدْخُل في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ﴾ و (الواو) في هذه الجملة لا ترتب أيْضاً، وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ كانت أوَّلَ ما ركب نوحُ السفينةَ، ويظهر من كلام الطبري أنَّ ذلك مِنْ بعدِ غَرْق$ الابن ﴿قال﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ ابْنَكَ هَذَا ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين أمرتك أنْ تحملهم في الفلك لإنجائهم، وقد بَيَّن سبحانه سببَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إنَّ ابْنك هذا ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ أي: ذو عمل غير صالح؛ لأنه عَمِلَ عملاً غير مرضيٍّ، وهو الشركُ والفسادُ والتكذيب.

قال الزَّمخشري(١): فإنْ قُلْتَ: فَهَلاَّ قيل: إنه عمل فاسد؟

قلتُ: لمَّا نفاه من أهله نَفَى عنه صِفَتَهم بكلمة النفي التي يُستنفى بها معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله بصلاحهم لا لأنهم

---

(١) البحر المحيط.

أهلك وأقاربك، وإنَّ هذا لمَّا انتفى عنه الصَّلاحُ لم تنفعه أُبُوَّتُك.

والظاهر[١]: أن الضمير في أنه عائد على ابن نوح، لا على النداءِ المفهوم من قوله: ﴿وَنَادَىٰ﴾ المتضمّن سؤالَ ربِّهِ، وجعَلَه نفس العمل مبالغة في ذمِّهِ هذا على قراءة جمهور السبعة عمل بلفظ المصدر، وقرأ الكسائي: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صالحٍ﴾ على جعله فعلاً ناصباً ﴿غير صالح﴾ وهي قراءة عليّ وأنس، وابن عباس، وعكرمة، ويعقوب، وعائشة، وروتها عائشة وأم سلمة عن النبي ﷺ وهذا يُرَجِّحُ أن الضميرَ يعود على ابن نوح، قيل: ويرجِّح كونَ الضمير في أنه عائداً على نداءِ نوح المتضمن السؤالَ أنَّ في مصحف ابن مسعود: ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح أن تسألني ما ليس لك به علم﴾ وقيل: يعودُ الضمير في هذه القراءةِ على ركوب ولد نوح معهم الذي تضمَّنه سؤالُ نوح.

المعنى: أن كونَه مع الكافرين، وتركَه الركوبَ مع المؤمنين، عمل غيرُ صالح، وكون الضمير في أنه عائداً على غير ابن نوح عليه السلام تكلفٌ وتعسفٌ لا يليق بالقرآن، ذكره أبو حيان.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: إذا وقَفْتَ على جَلِيَّةِ الحال، فلا تَطْلُب مني مطلباً لا تَعْلَمُ يقيناً أن حصولَه صوابٌ وموافقٌ للحكمة، ولمَّا بيَّنَ له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فرَّع على ذلك النهي عَنِ السؤال، وهو وإنْ كان نَهْياً عامّاً بحيث يشمل كُلَّ سؤال لا يعلمُ صاحبه أنَّ حصولَ مطلوبه منه صواب، فهو يَدْخُلُ تحته سؤاله هذا دُخولاً أوليّاً.

أي: فلا تسألني يا نوح في شيء ليس لك به علم صحيح، وقد سمَّى دعاءَه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال؛ لأنه تضمَّن ذكر الوعد بنجاة أهله، وما رتَّبه عليه من طلب نجاة ولده.

وفي الآية[٢]: إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعي، ولا بطلب ما هو محرَّمٌ شرعاً،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب، والتوفيق فيها، والهداية إلى العلم بالمجهول، من السنن والنظام لنكثر من عمل الخير، ونزيدَ من عمل البر والإحسان ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾؛ أي: أُخَوِّفكَ وأحذرك وأنهاك عن ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بالسؤال، سَمَّى سؤالَه عليه السلام جهلاً؛ لأنَّ حُبَّ الولد شَغَلَه عن تذكرِ استثناءِ مَنْ سبق عليه القول منهم بالإهلاك.

أي: إني أنهَاكَ أن تكون من زُمرةِ مَنْ يجهلون فيسألونَه تعالى أن يبطِلَ حكمتَه، وتقديرَه في خلقه إجابة لشهواتهم، وأهْوائِهم في أنفسهم، أو أهليهم، أو مُحِبِّيهم، وفي ذلك[1] دليلٌ على أنَّ منْ أكبر الجهالات أنْ تسأل بعضَ الصَّالحِينَ والأولياء ما نهى الله عنه نَبِيّاً من أولي العزم مِنْ رسله أن يَسْأَلَهُ إيَّاه، فإنَّ ذَلِك يقتضي بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله.

قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله، وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويُعْلِيه بها إلى مقام العلماء العاملين.

وقرأ الصاحبان[2] ـ نافع وابن عامر ـ: ﴿تَسْأَلَنِّ﴾ بتشديد النون مكسورةً، وقَرَأَ أبو جعفر، وشيبة، وزيد بن عليّ كذلكَ إلا أنهم أثبتوا (الياء) بعد (النون)، وابنُ كثير بتشديدها مفتوحةً، وهي قراءة ابن عباس، وقرأ الحسن، وابن أبي مليكةَ ﴿تسالنِي﴾ من غير همز من سال يسال، وهما يتساولان، وهي لغة سائرة، وقَرأ باقي السبعة بالهمز وإسكان اللام، وكسر النون، وتخفيفِها وأثْبتَ الياء في الوصل وَرْشٌ، وأبو عمرو، وحَذَفَها الباقون.

قال الزمخشري: المعنى فلا تلتمس ملتمَساً أو التماساً لا تعلمُ أصَواب هو أم غير صواب؟ حتى تَقِفَ على كنهه، ثمَّ لمَا عَلِمَ نوح بأنَّ سؤاله لم يطابق الواقع، وأنَّ دعاءَه ناشىء عن وهم كانَ يتوهمه، بادَرَ إلى الاعتراف بالخَطأ، وطلب المغفرة والرحمة فـ ﴿قال﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ والتجِىءُ إليكَ وأحتمي بك من ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ بعد الآن ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: شَيئاً لا

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحي.

أعْلَمُ أنَّ حُصُولَهُ على مقتضى الحكمة ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾؛ أي: وإن لم تغفر لي ذَنْبَ هذا السؤال الذي سولته لي الرحمة الأبوية، وطمعي في الرحمة الربانية ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ بقبول توبتي، برحمتك التي وَسِعَت كُلَّ شيء ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها؛ أي: أكنْ من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادي كلِّهم، وسعادتِهم بطاعتك، وأنت أعلم بها مني، وقد استدلّ بهذه الآيات من لا يرى عِصْمَةَ الأنبياءِ، والخاسرون هم المغبونون حُظُوظَهم من الخير، ونَسَب النَّقْصَ والذَّنْبَ إلى نفسه، تأدباً مع ربه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾، أي: ما فرط من سؤالي، وترحمني بفضلك، وهذا كما قال آدم عليه السلام.

والعبرة في الآية من وُجوهٍ[1]:

١ـ أنَّ ما سأله نوح لابنه لم يكن معصيةً لله تعالى، خَالَفَ فيها أمْرَه أو نَهْيَهُ، وإنما كَانَ خَطأً في اجتهاد بنية صالحةٍ، وعَدَّ هذا ذَنْباً لأنه ما كان ينبغي لِمِثْلِهِ من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه، ومِثْلُ هذا الاجتهاد لم يُعْصَم منه الأنبياء، فهم يقعون فيه أحياناً ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم، وتكميله إياهم حيناً بعد حين.

٢ـ أنه لا علاقةَ للصلاح بالوراثةِ والأنساب، بل يختلفُ ذلك باختلاف استعداد الأفراد، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات، ولو كَانَ للوراثة تأثير كبيرٌ. . لكان جميع أولاد آدم سواء، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين.

٣ـ أنه تعالى يجزي الناسَ في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم، ولا يحابِي أحداً منهم لأجل الآباء والأجداد، وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين.

٤ـ أنه من يغتر بنسبه، ولا يعمل ما يرضي ربَّه، ويزعم أنه أفضلُ من العلماء العاملين، والأولياءِ الصالحين فهو جاهل بكتاب ربِّه الذي لا يأتيه الباطل

---

(١) المراغي.

من بين يديه ولا من خلفه ﴿قِيلَ﴾؛ أي: قال الذي[1] بيده ملكوت كل شيء ومدبر أمر العالم كلّه لنوح بعد أن انتهى الطوفان، وأقلعت السماء عن المطر، وابْتَلَعت الأرْضُ ماءَها، وصَارَت السكنى على الأرض، والعملُ عليها سَهْلاً مُمْكِناً، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ وانزل من الجودي الذي استوَتْ عليه السفينة، وقرىء ﴿اهبط﴾ بضم الباء ممتعاً ﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامةٍ وتحية وأمن ﴿مِّنَّا﴾ كما قال تعالى ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، وذلك أنَّ الغَرَق لما كان عَاماً في جميع الأرض، فعندما خَرَجَ نوح عليه السلام من السفينة عَلِمَ أنه ليس في الأرض شيءٌ مما ينتفع به من النبات والحيوانات، وقيل: فكان كالخائف في أنه كيف يَعِيش، وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلَمَّا قَالَ الله له: اهبط بسلام مِنَّا زَالَ عَنْهُ الخَوْفُ؛ لأن ذلك يَدُلُّ على حصول السلامة، وأن لا يكون إلا مع الأمن وسعة الرزق ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ في المعايش والأرزاق، وقيل: أي: ونعم ثابتة، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته، ومغفرة زلته، وحَكَى عبد العزيز بن يحيى ﴿وبركة﴾ على التوحيد عن الكسائي؛ أي: وبركات فائضة ﴿عَلَيْكَ﴾ وعلى مَن مَعَكَ في السفينة، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ مؤمنة ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ في السفينة؛ أي: وعلى ذريات يتناسلون منهم، ويتفرقون في الأرض، فيكونون أُمَماً مستقلاً بعضها من بعض، يعني بهؤلاء المؤمنين من ذرياتهم، ولم يُعْقِبْ أحدٌ منهم إلاَّ أولادَ نوح الثلاثةَ، فانحصر النوع الإنسانيُّ بعد نوح في ذريته، ﴿وَأُمَمٌ﴾ كافرة متناسلة ممن معك ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالأرزاق، والبركات، ولا يصيبهم لطفٌ من ربهم ورحمة كما يصيب المؤمنين، فإنَّ الشَّيْطانَ سيغويهم، ويزين لهم الشرك، والظلمَ، والبغْيَ ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلى ربهم ﴿يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وَجيع، فيكون جزاؤُهم فيها دارَ البوار، وبئس القرار.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أنَّ هذا قَصَصٌ من عالم الغيب لا يعرفه هو، ولا قوْمُه من قبل، فقال: ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذا القصص الذي قصصته عليك من خبر نوح وقومه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: من أخبار الغيب التي لم تشهدها حتى

---

(١) المراغي.

تَعْلَمَها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: نُخْبِرُها لك فنعرفكها تفصيلاً، و ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي الذي نَزَل مبيناً لها تفصيلاً، وربما كَانَ يعلمها هو، وقومه على سبيل الإجمال ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أَذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح على أذى أولئك الكفار؛ أي: فاصبرْ على القيام بأمر الله، وتبليغ رسالته، وما تَلْقى مِنْ قومك من أذًى، كما صَبَرَ نوح على قومه، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة؛ أي: آخِرَ الأمر بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لله المؤمنين بما جاءَتْ به رسله؛ أي: فإنَّ سُنَّة الله سبحانه وتعالى في رسله، وأقوامهم أن تكونَ العاقبة بالفوز، والنجاة للمتقينَ الذين يتجنبون المعاصيَ، ويعملونَ الطاعاتِ، فأنتم الفائزون المفلحون، والمصرُّون على عُداونكم هم الخاسرون الهالكون، وفي هذا تسلِيةٌ لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ولا اعتبار بمباديه. وفي مصحف ابن مسعود[1]: ﴿مِنْ قبلِ هذا القرآن﴾.

الإعراب

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة مقدرة ببل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿افْتَرَاهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على نوح على الخلاف في معنى الآية، كما سبق، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَعَلَيَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة ﴿علـيَّ﴾ خبر مقدم ﴿إِجْرَامِي﴾ مبتدأ مؤخر والجملة الإسمية في محل الجزم بـ(إن) على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب، مقول القول ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ مبتدأ وخبرٌ، والجملة

(١) البحر المحيط.

الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَرِيٓءٞ﴾، ﴿تُجۡرِمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تجرمونه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

﴿وَأُوحِيَ﴾ الواو: استئنافية ﴿أوحي﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾ متعلق به، ﴿أَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾ ناصب وفعل منصوب ﴿مِن قَوۡمِكَ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿يُؤۡمِنَ﴾، ﴿قَدۡ ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة قوله: ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾ في محل الرفع خبر أنَّ وجملة أنَّ في تأويل مصدر مرفوع على كونه نائبَ فاعل لأُوحي تقديره وأُوحي إلى نوح عدمُ إيمان قومه، وجملة أوحي مستأنفة ﴿فَلَا﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، لا: ناهية جازمة ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لما أو صفة لها.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ﴾ والتقدير: أوحي إلى نوح أن اصنع الفلك، ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿اصنع﴾ ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ معطوف عليه، والتقدير: واصنع الفلكَ حالةَ كونك محروساً بأعيننا، ومعلماً بوحينا ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾ فعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ (لا) الناهية، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿فِي ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿اصنع﴾ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ناصب واسمه، وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿وَكُلَّمَا﴾ (الواو) حالية ﴿كلما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، ﴿مَرَّ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به ﴿مَلَأٌ﴾ فاعل ﴿مَرَّ﴾، ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ صفة لـ﴿ملأ﴾ والجملة الفعلية فعلُ شرط لـ﴿كلما﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿سَخِرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿كلما﴾، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به وجملة ﴿كلما﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يصنع﴾.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن تَسْخَرُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿مِنَّا﴾ متعلق به ﴿فَإِنَّا﴾ (الفاء) رابطة ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿نَسْخَرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ومن معه ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنَّ) في محل الجزم بـ (إن) الشرطيةِ على كونها جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول (قال) ﴿كَمَا﴾ و﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه (ما) مصدرية ﴿تَسْخَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كسخريتكم ﴿مِنَّا﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: نسخر منكم سخريةً كسخريتكم منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيانَ عاقبتِنا، وعاقبتكم.. فأقول لكم ﴿سوف تعلمون﴾ ﴿سوف﴾ حرفُ تنفيس للاستقبال البعيد، ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعل

وفاعل ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به؛ لأنَّ (عَلِم) هنا بمعنى عرف يتعدَّى لمفعول واحد، أو (مَن) استفهامية في محل الرفع، وجملة ﴿يَأۡتِيهِ﴾ خبر (مَن) الاستفهامية، وجملة (من) الاستفهامية سادة مسدَّ مفعول (علم)، وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿يَأۡتِيهِ﴾ فعل ومفعول ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل، والجملة صلة (مَن) الموصولة ﴿يُخۡزِيهِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَيَحِلُّ﴾ فعل مضارع ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ وجملة ﴿يحل﴾ معطوفة على جملة ﴿يَأۡتِيهِ﴾ على كونها صلة (من) الموصولة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية، وابتداء ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾، ﴿قُلۡنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا مَحَلَّ لها مِنَ الإعراب ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ﴾ مقول محكي، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الغائية، والتقدير: ويصنع الفلك إلى قولنا: احمل فيها وَقْتَ مجيء أمرنا وفوران التنور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يصنع﴾ وسميت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غائية لكونها غاية لما قبلها، أعني قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ وما بينهما اعتراض، وابتدائية، لدخولها على الجملة، وإن شئت قلت: ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلۡنَا﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين جار ومجرور حال من ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ لأنه صفة نكرة قُدمت عليها، ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ مفعول به لـ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ صفة مؤكدة لـ ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾؛ أي: احمل فيها زوجين اثنين حالةَ كونهما مِنْ كل حيوان، وعلى قراءة الإضافة الجار

والمجرور حالٌ من ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ و ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ مفعول به لـ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ معطوف على المفعول على كلا القراءتين ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿سَبَقَ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به، ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ فاعل، والجملة صلة من الموصولة، ﴿وَمَنۡ﴾ الواو: عاطفة ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على المفعول ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمَآ﴾ (الواو) استئنافية (ما) نافية ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض ﴿مَعَهُۥٓ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلٌ﴾ فاعل ﴿ءَامَنَ﴾، والجملةُ مستأنفةٌ.

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فحمل غير الإنس، وقال للإنس: اركبوا. ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئتَ قلت: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال مقدرة من (الواو) في ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ تقديره: اركبوا فيها حالةَ كونكم مُسمين اللّهَ أو قائلينَ بسم الله، وَقْتَ جَرَيَانِها وإرْسَائِها، أو حال مقدرة مِن (الهاء) في ﴿فِيهَا﴾ كما ذكره أبو البقاء، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿لَغَفُورٞ﴾ خبره ﴿رَّحِيمٞ﴾ صفة ﴿غَفُورٞ﴾ أو خبر ثان، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تعليلةً.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَهِيَ﴾ الواو: حالية ﴿هِيَ﴾ مبتدأ ﴿تَجۡرِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على السفينة ﴿بِهِمۡ﴾ متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِي مَوۡجٖ﴾ يتعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من شيء محذوف، تضمنته جملة محذوفة، دلَّ عليها سياق الكلام، تقديره: فركبوا فيها

حالَ كونها تجري بهم أو مستأنفة ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿مَوْجٍ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿وَكَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱبْنَهُۥ﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياءِ المتكلم المنقلبة ألِفاً محذوفة اجتزاءً بالفتحة، وياء المتكلم المنقلبة ألِفاً محذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قائلاً: ﴿يا بنيّ اركب معنا﴾ ﴿ٱرْكَب﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الابن ﴿مَّعَنَا﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة جواب النداءِ ﴿وَلَا تَكُن﴾ جازم وفعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الابن ﴿مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱرْكَب﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الابن والجملة مستأنفة ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الابن، والجملة في محل النصب مقول (قال) ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ متعلق به ﴿يَعْصِمُنِى﴾ فعل مفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَبَلٍ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو يعصمني، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿جَبَلٍ﴾.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿لَا﴾ نافية تعمل عمل إنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، والتقدير: لا عاصم كائن من أمر الله اليوم، كما ذكره أبو البقاء. وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء متصل إن كان ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، ومنقطع إن كان على معناه،

﴿رَحِمَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾ والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره إلا من رحمه الله ﴿وَحَالَ﴾ فعل ماض ﴿بَيْنَهُمَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة ﴿فَكَانَ﴾ (الفاء) عاطفة (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن، ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿حال﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ الواو: استئنافية ﴿قيل﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ إلى ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء في محل الرفع نائبُ فاعل ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ فعل أمر، وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع نائب فاعل على كونها جوابَ النداء، ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ منادى نكرة مقصودة معطوف على قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾. ﴿أَقْلِعِى﴾ فعل وفاعل جواب لنداء ﴿يا سماء﴾، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَقِيلَ﴾، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَغِيضَ﴾، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ بمعنى السفينة، والجملة معطوفة على جملة ﴿قضي﴾. ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ متعلق بـ﴿استوت﴾. ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة معطوفة على وقيل الأول، وإن شئت قلت: ﴿بُعْدًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أبعد بعداً، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ متعلق بالفعل المحذوف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْقَوْمِ﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿فَقَالَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾، ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت:

ناصب واسمه ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جوابَ النداء ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على (إن) الأولى ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿وَعْدَكَ﴾.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جَوَابَ النداء ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَمَلٌ﴾ خبره، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: ذو عمل ﴿غَيْرُ﴾ صفة لـ﴿عَمَلٌ﴾ ﴿صَٰلِحٍ﴾ مضاف إليه، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونَها مُعلّلةً لما قبلها، ﴿فَلَا﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع (لا) ناهية جازمة ﴿تَسْـَٔلْنِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت و (النون) نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول أول ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ(سأل)، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة (إن) على كونها مفرعةً عليها ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿لك﴾ خبر مقدم لـ ﴿لَيْسَ﴾ ﴿به﴾ متعلق بـ ﴿عِلْمٌ﴾، ﴿عِلْمٌ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ(ما) أو صفة لها ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه ﴿أَعِظُكَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كَوْنِها مُعَلِّلَةً لما قبلها ﴿أَن تَكُونَ﴾ ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على نوح

﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إني أعظك من كونك من الجاهلين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول (قال)، ﴿إِنِّي﴾ ناصب، واسمه ﴿أَعُوذُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿بِكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جَوَاب النداء ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ ناصب وفعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ (سأل) ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِي﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿عِلْمٌۖ﴾، ﴿عِلْمٌۖ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجملة ﴿سأل﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إني أعوذ بك من سؤالي إياك ما ليس لي به علم، ﴿وإلا﴾ (الواو) عاطفة (إلا) (إن) حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في (لام) (لا)، (لا) نافية ﴿تَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (إن) الشرطية، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لِي﴾ متعلق به، ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ فعل ومفعول ونون وقاية معطوف على ﴿تَغْفِرْ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿أَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (إن) الشرطية على كونه جواباً لها، واسمها ضمير يعود على نوح ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خبرها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة (إن) على كونها مقول (قال).

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ﴾ فعل ماض ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل محكي، والجملة

مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿يَنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل الرفع، نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ ﴿ٱهْبِطْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل ﴿ٱهْبِطْ﴾؛ أي: متلبساً بسلام، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ (سلام)، وجملة ﴿ٱهْبِطْ﴾ في محل الرفع، نائب فاعل، لـ (قيل) على كونها جَوَابَ النداء، ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ معطوف على (سلام)، ﴿عَلَيْكَ﴾ صفة لـ﴿بركات﴾، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مِّمَّن﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾ تقديره: وعلى أمم متناسلين ممن معك، أو كائنينَ ممن معك ﴿مَّعَكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة (من) الموصولة ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ سوغ الابتداء بالنكرة، وقوعه في معرض التقسيم، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ (قيل) ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ فعل ومفعول معطوف على سنمتعهم ﴿مِّنَّا﴾ حال من ﴿عَذَابٌ﴾ لأنه صفة نكرةٍ قُدِّمَت عليها ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿نُوحِيهَآ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ والعامل فيه ما في الإشارة من معنى الفعل، ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿تَعْلَمُهَآ﴾ فعل ومفعول به، لأن علم هنا: بمعنى عرف، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير المستتر في الفعل ليعطف عليه ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ معطوف على ضمير الفاعل ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ(تعلم) وجملة ﴿تعلم﴾ في محل النصب خبر (كان) وجملة (كان) مستأنفة ﴿فَٱصْبِرْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما أوحينا إليك من قصة قوم نوح، وإذايتهم له، وأردت بيانَ ما هو الأصلحُ لك.. فأقول لك: اصبر إن العاقبة للمتقين ﴿اصبر﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد،

والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ ناصب واسمه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مُعَلِّلَةً لما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ الإجرام والجرم بمعنى، وهو اكتساب الذنب، وفي «المصباح» جرم جرماً من باب: ضرب إذا أذنب، واكتسب الإثم، وبالمصدر سُمِّيَ الرجلُ، والاسم منه الجُرم بالضم، والجريمة مثله، وأجرمَ إجراماً كذلك، اهـ.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يقال: ابتأس فلانُ إذا بَلَغَه ما يَكْرَه، اهـ «سمين»، وفي «المختار»: فلا تبتئس؛ أي: لا تَحْزَن ولا تشتك، والمبتئسُ: الكَارِهُ الحزينُ، اهـ. ويقال: ابْتَأس إذا اشتد بُؤْسُه وحُزْنُه ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفينةُ، ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ وعلى المفرد كما هنا، ويذكر بمعنى المركب، ويؤنَّث بمعنى السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، والمرادُ بالأعين هنا شدة الحِفاظ والحراسة، وفي «الكرخي»: قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى منَّا، وحفِظَنا، فلا يمكن إجراؤُه على ظاهره، لوجوه:

منها: أنَّه يقتضي أن يكونَ لله أعين كثيرة، وهذا يناقض قولَهُ تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

ومنها: أنه يقتضي أن يُصْنَعَ الفلك بتلك الأعين كقولك: قطعتُ بالسكين، وكتبت بالقلم، ومعلوم أنَّ ذلك باطلٌ إلى غير ذلك ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ يقال: سَخِرَ منه إذا استهزأ به، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: يذله ويفضحه، ويَحِلُّ التلاوةُ بكسر الحاء، ويجوزُ لغةً ضَمُّها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابُنا أو وقته، اهـ «زاده». فهو واحد الأمور، لا الأوامر، ويصح أن يُرادَ الثاني على معنى: جاء أمْرُنا بركوب السفينة، اهـ «شهاب».

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الفور والفَوران: الارتفاع القويُّ يقال في الماء إذا نَبَعَ وجرى، وإذا غلا وارتفع، والمرادُ منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم، والتنور ما يُخْبَزُ

فيه الخبز، اتَّفقَتْ فيه لغة العرب والعجم، كان من حجارة، وكانت حواء تَخْبِزُ فيه، وصار إلى نوح، وكان ذلك التنُّور في الكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة، اهـ «خازن». وفي «السمين»: والتنور قيل: وزنه تفعول فقلبت الواو الأولَى همزةً لانضمامها، ثمَّ حُذِفَت ثمَّ شُدِّدَت النون للعوض عن المحذوف، ويُعْزَى هذا لِثَعْلب، وقيل: وَزْنُه فعول، ويعزَى لأبي علي الفارسي، وقيل: هو أعجميٌّ، وعلى هذا فلا اشتقاقَ له، والمشهور أنه مما اتفق فيه لغةُ العرب والعجم كالصابون ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ والزوجان: هما الاثنان اللذان لا يستغني أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوجٌ، كما يقال للرجل: زوج، وللمرأة: زوجة، ويطلق الزوج على الاثنين، إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويُطلق الزوج على الضرب والصنف، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ والمعنى: من كل صنف زوجين اثنين.

﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: واحمل أهلك، وأهلُ بيتِ الرجل: نساؤه وأولاده وأزواجهم، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾، والركوبُ: العلو على شيء متحرك، ويتعدَّى بنفسه، واستعماله هنا بكلمة (في) ليس لأجل أنَّ المأمورَ به كونهم في جوفها، لا فوقَها؛ كما ظنَّ فإنَّ أَظْهَرَ الروايات أنه عليه السلام جَعَلَ الوُحُوشَ ونظائِرَها في البطن الأسفل، والأنعام في الأوسط، ورَكِبَ هو ومن معه في الأعلى، بل لرعاية جانب المحلية، والمكانية في الفلك، والسر فيه أنَّ معنى الركوب العلو على شيءٍ له حركة إمَّا إراديَّةٌ كالحيوان، أو قسريَّةٌ كالسفينةِ، والعَجَلَة ونحوهما، فإذا استعمل في الأول توفر له حظ الأصل، فيقال: ركبت الفرس، وعليه قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وإن استعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة (في) فيقال: ركبتُ في السفينة، وعليه الآية الكريمة وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾، وقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ اهـ، «أبو السعود».

﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بفتح الميم فيهما إما مصدران، الأول من جَرَتْ تَجْري جَرْياً، والثاني: من رَسَتْ تَرْسُو رسُوّاً من باب سما أو رَسْواً من باب عدا ومرسىً إذا ثبتَتْ؛ أي: جَرَيانُهَا ورسُوّها، أو اسمَا زمان؛ أي: زمان جَرْيها ورُسوها، أو مكان؛ أي: مكان جريها ورسوها.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ أصله بثلاث ياءات الأولى: ياء التصغير، والثانية: لاَمُ الكلمة، وأصلُها واو عند قوم، وياءٌ عند آخرين، والياءُ الثالثةِ ياء المتكلم، ولكنَّها حذفت لدلالة الكسرة عليها فراراً من توالي الياءين، ولأنَّ النداءَ موضع تخفيف، وقيل: حذفت من اللفظ لالتقائها مع الراء في ﴿ٱرۡكَب﴾ ويقرأ بالفتح، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أبْدلَ الكسرةَ فتحةً فانقلبت ياءُ الإضافة ألِفاً، ثُمَّ حذفت الألِفُ كما حُذفت الياءُ مع الكسرة؛ لأنها أصلُها.

والثاني: أنَّ الألِفَ حذفت من اللفظ لالتقاء الساكنين ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ والموج جمع موجة، وهي ما ارتفعَ عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾ يقال: بَلَعَ الماءَ يبلعه مثل مَنَعَ يمنَع وبلع يَبلَع مثل حَمِدَ يَحْمَدَ لغتان؛ حكاهما الكسائِي، والفراء، والبَلَعُ الشرب، ومنه البَالُوعَةُ: وهي الموضع الذي يُشْرَب منه الماء، وبئر ضيِّقُ الرأس، يجري إليها مَاءُ الغُسَالة ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ الإقلاع الإمساك، يقال: أقلع المطر إذا انقطع، ومنه أقْلَعَت الحُمَّى، وقيل: أقلع عن الشيء إذا تركه، وهو قريب من الأوّل ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ أي: نقص يقال: غاض الماء وغضته، وهو هنا مبنيٌّ للمجهول إذ يستعمل لازماً ومتعدياً، وعبارة «السمين»: الغَيْضُ: النقصانُ، وفعله لازمٌ ومتعد، فمن اللازم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾؛ أي: تَنْقُص، وقيل: بل هو هنا متعدٍ أيضاً؛ لأنه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف جر إلا المتعدي بنفسه، اهـ «سمين». وفي «المختار»: غاض الماء إذا قَلَّ ونَضَبَ؛ أي: ذَهَب في الأرض، وبابه بَاعَ وانغَاضَ مثله وغيضَ الماء: فعِل به ذلك، وغَاضَ الله يتعدَّى ويَلْزَمُ، وأغَاضَه الله أيضاً، وغيض الماء تَغْيِيضاً نَقَصه، وحبَسَه ويقال: غَاضَ الكرام؛ أي: قلوا، وفَاضَ اللئَامُ؛ أي: كَثُرُوا، اهـ. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: أحكم، وفرغ منه يعني أهلك قومُ نوح علَى تَمَام، وإحكام اهـ «قرطبي» ﴿بُعۡدًا﴾ يقال: بَعِدَ بكسر العين بُعْداً بضم فسكون، وبَعَداً بفتحتين: إذا بَعُدَ بُعْداً بعيداً بحيث لا يُرجى عوده، اهـ «بيضاوي».

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ يقرأ بتشديد النون مع فتح اللام قبلَها، فالنون المشددة للتوكيد،

والفعل مبني على الفتح لاتصاله بها، وحينئذ فيقرأ بثبوت الياء، وحذفها وهذا عند كسر نون التوكيد، ويُقرَأ أيضاً بفتحها، وبلا ياءٍ أصلاً، فالقراءات السبعية في التشديد ثلاثة، ويقرأ بتخفيفها؛ أي: تخفيف النون مع سكون اللام قَبْلَها، وعليه فالنون للوقاية، ويقرأ بثبوت الياء، وحذفها في الوصل، فالقراءات السبعية في هذا المقام خمسة، وثبوت الياء في بعض هذه القراءات سواء مع التخفيف والتشديد؛ إنما هو عند الوصل، وأمَّا عند الوقف فلا تثبت في شيء من هذه القراءات كُلِّها، بل ولا تثبُتُ في الرسم؛ لأنها من ياءات الزوائد، وهي تثبتُ في الوصل دون الوقف، ودون الرسم اهـ «جمل» ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ هذه إن الشرطية، و (لا) النافية كما مَرَّ في بحث الإعراب أُدْغِمَتْ نونَ إن في لاَم (لا) ولا تُرْسَمُ النونُ كما ترى.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ وهي عبارة عن بقاء النعمة ودَوامِها، وثَباتِها مشتق من بروك الجَمَل، وهو ثبوته، ومنه البُرْكَةُ لثبوت الماءِ فيها ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ والأنباءُ جمع نبأ وهو الخبر الذي له شَأن.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: مجاز بالحذف في قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾؛ أي: عقوبةُ إجرامي.

ومنها: جناس الاشتقاق بين إجرامي، وتجرمون.

ومنها: الإتيان، بـ (إن) الدالة على الشك في قوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ لبيان أنه على سبيل الفرض بخلاف إجرامهم، فإنه محقق.

ومنها: الجناسُ المماثل بين قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾، وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾، لأنَّ حقَّ العبارة أنْ يقال: ويصنعها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ لأنَّ المراد به بحراستنا، وحفظنا ففيه إطلاق السبب الذي هو الأعين، وإرادةُ المسبب الذي هو الحراسةُ والحفظ لأنَّ الأعين آلة للحراسة مبالغةً في الحفظ.

ومنها: حكاية الحال الماضية لاستحضار الصورة في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فالمضارع بمعنى الماضي، أي وصَنَعَها.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذ السخرية لا تليق بمقام الأنبياء، وقيل: لجزائهم من جنس صنيعهم، فلا يَقْبُحُ كما في «الشهاب».

ومنها: الطباق بين الأرض والسماء، والجناس الناقص بين ﴿ٱبْلَعِى﴾ و﴿أَقْلِعِى﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ وكلاهما من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱبْلَعِى﴾ شبَّهَ تغويرَ الماء وشُرْبَه في بطنها ببلع الحيوان؛ أي: إزدراده لطعامه وشرابه في جوفه بجامع الوصول إلى الجوف في كلٍّ، فاشتق منه ابلعي بمعنى غوري على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، واستُعير البلع الذي هو من فعلِ الحيوانَ للنَّشَفِ دلالةً على أنَّ ذلك ليس كالنَّشَفِ المعتاد الكائن على سبيل التدريج.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّر عن الغرق بأمر الله تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره.

ومنها: الإبهام ثُمَّ التفسيرُ في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ أي: إلا الراحمَ، وهو الله تعالى تفخيماً لشأنه الجليل بالإبهام ثمّ التفسير، وبالإجمال ثُمَّ التفصيل، وإشعاراً بعلية رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه.

ومنها: حكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها، في قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾، وحقُّ العبارة أن يقال، وهي جَرَت بهم.

ومنها: التشبيهُ في قوله: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ شبَّه كلَّ موجة من ذلك بالجبل في عِظَمِها وارْتِفَاعِها على الماء وتراكمها.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنَّ البُعْدَ هنا مستعارٌ للهلاك.

ومنها: التعرُّض لوَصف الظلم في قوله: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للإشعار بعِلِّيَّتِهِ للهلاك، ولتذكير ما سَبَق مِنْ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عِدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا
بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا
تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ
وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟
رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ
مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا
لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ
هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ
﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ الآيات، هذا القصصُ ذكِرَ في سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ما هنا، وفي كل منهما من العظة والعبرة ما

ليسَ في الآخر، وسيأتي في السور التالية بسياق آخر، وقد جاء في بعض الروايات، أنَّ هوداً أوَّلَ مَنْ تكلم بالعربية، فهو أول رسول عربيٍ من ذرية نوح، وآخِرُ رسول هو محمدٌ ﷺ، وهو عربي أيضاً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ...﴾ الآية، مناسبتُها لما قبلها: لَمَّا ذَكَرَ تبليغَ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربه.. ذَكَر هنا رَدَّ قومه لتلك الدعوة في جحودهم للبينة، ثم إنذاره لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر سبحانه وتعالى إصرارَ قوم هود على العنادِ، والعتو وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات... ذكَرَ هنا عاقبةَ أمْرِه وأمْرِهم، وأنه تعالى أصابَه برحمة مِن لدنه، وأنْزلَ بهم العذابَ الغليظَ كِفاءَ كفرِهم بآياتِه وعصيان رسله.

قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا...﴾ الآيات، جاء هذا القصص في بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردِّهم لها بعد احتجاجه عليهم، وصالحُ هو الرسول الثاني من العرب، ومساكن قبيلته ـ الحجر ـ وهي بين الحجاز والشام، وسيأتي ذِكْرُ قصصهم في سورة الشعراء، والنمل، والقمر، والحجر، وغيرها، وفي كل منها من الموعظة والعبرة ما لا يُغني عنه غيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبتُها لِمَا قبلها: أنه تعالى لَمَّا ذَكَر أن قومه قالوا له: إننا لفي شك مما تدعونَا إليه، وسألُوه الآية على ما دعاهم إليه.. ذَكر هنا أنه قال لهم: إنَّ آيتَه على رسالته هي الناقة، وأنَّ مَنْ يَمَسُّها بسوء يُصيبه عذابٌ أليم.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ معطوف على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾؛ أي: وأرسلنا إلى عاد الأُولى أخاهم في النسب، والوَطن لا في الدين. هوداً أي واحداً منهم يسمى هوداً، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان، وقيل: هم عاد الأُولى وعاد الأخرى، فهؤلاء عاد الأولى، وعادُ الأخرى هم: شدادُ ولقمانُ وقومُهما

المذكورون في قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وأصل عادٍ اسم رجل ثُمَّ صار اسماً للقبيلة، كتَمِيمٍ وبكر ونحوهما، والمرادُ بعاد هنا: اسم قبيلة تُنسب إلى أبيها عاد من ذرية سام بن نوح، فعاد أبو القبيلة، وسمِّيت باسمه، وهودٌ من تلك القبيلة، فينتسب إلى عاد أيضاً، وبَيْنَ هود ونوح ثمان مئة سنة، وعاش أربع مئة سنة، وأربعاً وستينَ سنةً فـ ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أفردُوا الله سبحانَه وتعالى بالعبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ أي: ليس لكم إلَهٌ غيره تعالى، فلا تعبدوا من دونه وَثَناً ولا صنماً، وقرأ غيره بالجر على اللفظ، وبالرفع على محلِّ ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ وقرِىء بالنصب على الاستثناء ذكره الشوكاني ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما أنتم باتخاذ إلَه غير الله، إلا كاذبون على الله عز وجل؛ أي: فما أنتم في عبادتكم غَيْرَه تعالى من الأنداد والشركاء، إلا مختلقون الكذبَ عليه تعالى، بتسميتكم إياهم شُفَعَاءَ تتقرَّبون بهم أو بقبُورهم، أو بصورهم وتماثيلهم، وتَرْجُون النَّفْعَ وكَشْفَ الضر عنكم بجاههم عنده تعالى و ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ ما أدْعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وحده، والبراءة من الأوثان ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: مالاً مَجْعولاً لي في مقابلة التبليغ، فتَتَّهموني بأني أريد المنفعةَ لنفسي، خاطب بهذا كل نبي قَوْمَه إزاحة للتهْمةِ، وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامَتْ مَشُوبةً بالمطامع، وقرأ ابن محيصن: (يا قوم) بضم الميم كقراءة حفص ﴿وقل رب احكُم﴾ بالضم، وهي لغةٌ في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره، ذكره أبو حيان ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما ثوابي الذي أرْجُوهُ على تبليغي إياكم ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾؛ أي: إلا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة مبرأً من هذه البدَعِ الوثنيَّةِ التي ابتدعها قوم نوح حين صنعوا التماثيلَ لحفظِ ذِكرى الصالحين، فزَيَّن لهم الشيطانُ تعظيمَ هذه التماثيل، فَعَبَدُوها، وإنما جعل[1] الصلةَ فِعلَ الفطرة لكونه أقدمَ النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر.

وإنما قال[2] فيما تقدم في قصة نوح: ﴿مَالًا﴾ وهنا قال: ﴿أَجْرًا﴾ لذكر

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الخزائن بَعْدَه في قصة نوح، ولفظُ المال بها ألْيَق، وفي «الجمل» قوله: ﴿أَجْرًا﴾ قال في نوح مالاً، وهنا أجراً تَفَنُّناً، اهـ.

و (الهمزة) في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أي أتغفلون عن هذه القصة فلا تعقلونَها أو أفلا تعقلونَ أنّ أجْرَ الناصحين، إنما هو من رب العالمين، أو أفلا تعقلون ما يقال لكم: فتميزوا بين ما يضرُّ وما ينفع، وإني لكم ناصح أمين، فلا أغشكم فيما أدعوكم إليه.

ثمَّ أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: سَلُوهُ أن يغفرَ لكم ما تقدَّم من شرككم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من بعد التوحيد بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا لمثله، وفي «الخازن»: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: آمنوا[1] به، فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان؛ لأنه هو المطلوب أولاً ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يعني من شرككم، وعبادتكم غيره، ومن سالف ذنوبكم، انتهى. وفي «روح البيان» واللاَّئِحُ[2] للبال أن المعنى: أُطْلُبُوا مغفرةَ الله تعالى لذنوبكم السالفةِ من الشرك، والمعاصي بأنْ تُؤمنوا به، فإنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ أي يقطع، ثم ارْجِعُوا إليه بالطاعة؛ فإنَّ التحليةَ ـ بالمهملة ـ بعد التخلية ـ بالمعجمة ـ، فتكون ثُمَّ على بابها في التراخي، انتهى.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: يُنْزِل المطرَ عليكم حالةَ كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثيرَ الدرور والنزول مُتَتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه، وذلك[3] أنَّ بِلاَدَهم كانت مخصبةً كثيرة الخير والنعم، فأمسك الله عنهم المطر مُدَّةَ ثلاث سنين، فأجْدَبَتْ بلادهم وقحطت بسبب كفرهم، فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إنْ آمنوا بالله وصدقوا رسوله أَرْسَلَ اللَّهُ إليهم المطرَ فأحيا به بلادهم كما كانت أولَ مرَّةٍ.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: شِدَّة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾؛ أي: مع شدتكم، ويضاعفها لكم، وقيل معناه: إنكم إن آمنتم.. يُقوِّكم بالأموال والأولاد، وقَصَدَ[1] هودُ بذلك استمالَتَهم إلى الإيمان بكثرة المطر، وزيادة القوة، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أعْقَمَ أرحامَ نسائهم، فلم تَلِدْ فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرْسَل الله المطرَ فتزدادون مالاً ويعيد أرحام النساء إلى ما كانت عليه، فيَلِدْنَ فتزدادون قُوَّةَ بالأموال، والأولاد، وقد كانوا يَهْتَمُّون بذلك، ويَفْخَرُون على الناس، وقيل معناه: تزدادُون قوةً في الدين إلى قوة الأبدان ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي، حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مصرِّينَ على الإجرام والإشراك والآثام، والإجرامُ كَسْبُ الجُرْمِ كالإذناب بكسر (الهمزة) كَسْبُ الذنب.

وعن الحسن[2] بن علي رضي الله عنهما أنه وَفَد على معاويةَ فلَمَّا خَرَجَ قال لَهُ بَعضُ حُجّابه: إنّي رَجلٌ ذُو مال ولا يُولد لي، علِّمني شيئاً لَعَلَّ الله يرزقني ولداً، فقال الحسنُ: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى رَبَّما استغفر في يوم واحد سبع مئة مرة، فوُلد له عشر بنين فبلغ ذلك معاويةَ فقال: هلاَّ سأَلْتَه مِمَّن قال ذلك، فوَفَدَ وَفْدةً أخرى فسأله الرجلُ فقال: ألَم تَسْمَعْ قولَ هود: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وقول نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.

ثم أجابه قومه بما يَدُل على فَرْطِ جهالتهم، وعظيم غباوتهم، فـ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ وأصْنَامنا التي نَعْبُدُها، وأصله تاركينَ سقطت النونُ للإضافة، وقولُه: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ حال مِنَ الضمير في ﴿تاركي﴾[3] كأنه قِيلَ: وما نَتْرُكُ آلهتنا صَادِرينَ عن قولك؛ أي: صادراً تركنا عن قولك بإسناد حال الوصف إلى الموصوف، ومعناه: التعليل، على أبْلِغ وَجْهِ لدلالته على كونه عِلَّةً فاعليَّةً،

---

(1) النسفي.
(2) النسفي.
(3) روح البيان.

ولا يفيده الباء واللام. قال السعديُّ: قد يقال: (عَنْ) للسببية فيتعلَّقُ بـ﴿تاركي﴾؛ أي: بسبب قولك: المجرَّدِ عن حُجَّةٍ.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدِّقين فيما تَدعُونا إليه من التوحيد، وتركِ عبادةِ الآلهة وهو إقناطٌ له من الإجابة والتصديق.

﴿إِن نَّقُولُ﴾؛ أي: ما نقول في شأنك شيئاً ﴿إِلَّا﴾ قولَنا ﴿اعْتَرَاكَ﴾ وأصَابَك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بجُنون فقوله: ﴿اعْتَرَاكَ﴾ جملة[1] مفسِّرة لمصدر محذوف، تقديره: ما نقولُ في شأنك إلاّ قَوْلَنا اعتراك؛ أي: أصَابَكَ، من عراه يعروه إذا أصابه ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بجنون لسبك إياها، وصدِّك عنها، وعداوتك مكافأةً لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المرسمين.

والخلاصة[2]: أنَّ ما تقولُه لا يصدر إلا عَمَّنْ أصيب بشيءٍ اقتضى خروجه عن قانون العقل، فلا يُعْتَدُّ به؛ لأنه مِنْ قبيل الخرافات، والهذيانات التي لا تصدر إلا عَن المجانين، فكيف نؤمن بك، فأجابهم بما يَدُلُّ على عدم مبالاته بهم، وعلى وثوقه بربه، وتوكله عليه، وأنَّهم لا يقدرون على شيءٍ مما يريده الكفار، بل الله سبحانه وتعالى هو الضار النافع، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم هودٌ ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ سبحانَه وتعالَى على براءتي من إشراككم ﴿وَاشْهَدُوٓا﴾ أنتم؛ أي: وأقولُ اشْهَدُوا؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ﴾ تنازع فيه أُشْهِدُ اللَّهَ واشهدوا؛ أي: واشهدوا أنتم على أنّي بريء ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: من إشراككم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانَه وتعالَى أو ﴿مِّمَّا﴾ تشركونه به من آلهة غير الله، فـ (ما) إما مصدرية أو موصولة وإشهادُ الله تعالى حقيقةٌ وإشهادهم استهزاءٌ بهم، واستهانةٌ؛ إذ لا يقولُ أحد لِمَنْ يعاديه أُشْهِدُكَ على أنّي بريء منك إلاّ وهو يريد عَدَم المبالاة ببراءته، والاستهانةَ بعداوته. واعلم: أنهم لمَّا سموا أصنامَهم آلِهةً وأثبتوا لها الضررَ.. نفى هود بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ الآيةَ كونَهم آلهةً رأساً ثُمَّ نَفى

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الضررَ بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، واحتالوا في إضراري إن كانت كما تَزْعمون، أنها تقدر على الإضرار بي، وأنها اعترتني بسوء، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني ولا تؤخِّروني حتى آتِيَ بشيءٍ يحفظني من قراة وسلام، بل عاجلوني واصنعوا ما بَدا لكم، وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسَامِعَهم، ويوضحُ عَجْزَهم وعدمَ قدرتهم على شيءٍ قوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾ بثبوت الياء وصلاً، ووقفاً لكلهم، والتي في المرسلات بحَذْفها، كذلك لكلهم، وأمَّا التي في الأعراف فمِنْ ياءات الزوائد فتحذف وقفاً لا غيرُ وتثبت وتحذَفُ في الوصل. ذكره «الجمل».

والكيد[1] إرادةُ مضرة الغير خفيةً، وهو من الخَلْقِ: الحِيلةُ السيئةُ، ومن الله التدبيرُ بالحقِّ، لمجازاة أعمال الخلق؛ أي: إن صحَّ ما تفوهتم به من كون آلهتكم مما تَقْدِر على إضرار من يَسُبُّها، ويَصُدُّ عن عبادتها، فإنِّي بَريءٌ منها، فكونوا أنتم وآلهتكم ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير ﴿كيدوني﴾ على قصد إهلاكي، بكل طريق ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، (فالفاء) لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: هلاَّ قيل: إني أُشهدُ الله وأشهدكم؟

قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهادٌ صحيح، ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تَهاونٌ بدِينهم، ودَلالة على قلة المبالاة بهم فحَسْبُ، فَعَدَلَ به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيءَ به على لفظ الأمر بالشهادة، انتهى. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ هذا من[3] معجزاته الباهرة، لأنَّ الرَّجُلَ الواحدَ إذا أَقْبَل على القوم العظام، وقال لهم: بَالِغُوا في عداوتي، وفي إيذائي، ولا تؤجِّلوني، فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقاً من الله بأنه يحفظه، ويصونه عن كيد الأعداء، وهذا هو المُرادُ بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾، واعتمدتُ ﴿عَلَى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الفتوحات.

ﱡﭐ ﱡﭐاللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْﱠ؛ أي: مالكي، ومالككم، يعني: أنكم وآلهتكم لا تقدرون على ضرري، فإني متوكل على الله القادر القوي، وهو مالكي ومالككم ومالك كل شيء إذ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ ونسمة تَدبُّ وتتحرك على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ أي: إلا وهو مالك لها، قَادر عليها، يصرفها على ما يريد بها، والناصية عند العرب[1]: مَنْبَتُ الشعر في مقدم الرأس، ويُسمّى الشَّعْرُ النابت هناك أيضاً ناصية، تسميةً له باسم منبته، والأخذ بناصية الإنسان عبارةٌ عن قهره، والغلبة عليه، وكونه في قبضة الآخذ بحيثُ يَقْدِرُ على التصرف فيه كيف يشاء، والعربُ إذا وَصفوا إنساناً بالذلة والخُضوع لرجل.. قالوا: ما ناصيته إلا بيدِ فلان؛ أي: إنه مُطيع له؛ لأنَّ كل من أخذْتَ بناصيته فقد قهَرْتَه، وأَخْذُ الله سبحانه وتعالى بناصية الخلائق استعارة تمثيليةٌ لنفاذ قدرته فيهم.

والغرض من هذا الكلام: الدلالة على عظمته تعالى وجَلالة شأنه وكبرياء سلطانه، وباهر قدرته، وأنَّ كُلَّ مقدور، وإن عَظُم وجَلَّ في قوته وجثته، فهو مستصغرٌ إلى جنب قدرته، مقهور تحت قهره وسلطانه، منقاد لتكوينه فيه ما يشاء غَيْرُ ممتنع عليه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى، وإن كان قادراً على عباده، لكنَّه لا يظلمهم، ولا يفعلُ بهم إلا ما هو الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

وقولُ هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يتضمَّن جملةَ أُمورٍ[2]:

١ ـ البراءة من إشراكهم الذي اقْتَرَفُوه، ولا حقيقةَ له.

٢ ـ إشهاد الله على ذلك ثِقَةً منه بأنه على بينةٍ من ربه.

٣ ـ إشهادهم أيضاً على ذلك إعلاماً منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره.

٤ ـ طَلَبهُ منهم أن يجمعوا كُلُّهم على الكيد له، والإيقاع به بلا إمهال، ولا

(١) روح البيان.　(٢) المراغي.

تأخير إن استطاعوا.

وفي هذا دليل واضح على أنه لا يخافُهم، ولا يخافُ آلهتهم.

٥ ـ عدم الخوف منهم ومن آلهتهم إذ وكل أمْر حفظه وخِذْلانِهم إلى ربه وربهم، ومالك أمره وأمرهم المتصرف في كل ما دبَّ على وجه الأرض، والمسخِّر له، وهو سبحانه وتعالى مطلع على أمور العبادة، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لمَن اعتصَمَ به، وهو لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق مِنْ رسله، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن تتولَّوا، بحذف إحدى التائين؛ أي: وإن تستمروا على التولي، والإعراض عن الإيمان، والتوبة، فلا تفريطَ مِنّي في الإبلاغ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: لأنِّي قد أدَّيْتُ ما علـيَّ من الإبلاغ، وإلزام الحجة، وكنتم محجوجينَ، بأن بلغكم الحقُّ فأَبَيْتُم إلا التكذيب، والحجود، فالمذكور دليل الجواب المحذوف.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلتَ: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وَقَعَ جزاءً للشرط؟

قلت: معناه: فإن تَولَّوا لم أُعاقَبْ على تفريط في الإبلاغ، فإنَّ ما أرسلت به قد بَلَغَكُم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول.

وقرأ الجمهور فإن ﴿تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تتولوا مضارع تولَّى، وقرأ الأعرج، وعيسى الثقفي، ﴿تُولُّوا﴾ بضم التاء واللام مضارع ولَّى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أي: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين، يَخْلُفونكم في دياركم وأموالكم.

وقرأ الجمهورُ: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم الفاء على معنى الخبر المستأنف، وقرأ حفص في رواية هبيرة بجزمها عطفاً على موضع الجزاء، وقرأ عبد الله كذلك، ويجزمُ ﴿ولا تضرُّوه﴾ وقرأ الجمهورُ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى بتوليكم

(١) البحر المحيط.

وإعراضكم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر، لأنه غني عنكم، وعن إيمانكم لا يجوز عليه المضارُّ والمنافِع، وإنما تضرون أنفسَكم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب مهيمن عليه، يحفظه من كل شيء، فلا يَخْفى عليه أعمالكم، ولا يَغْفَلُ عن مجازاتكم، قيل: (وعلى) بمعنى اللام فيكون المعنى: إنَّ ربي لكل شيء حفيظ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء قرأ عبد الله: (ولا تنقصونه شيئاً).

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابنا، فيكون مصدرَ أمر ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ من قومه، وكانوا أربعةَ آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنةٍ ﴿مِنَّا﴾ لهم؛ أي: نجَّيْنَاهم بمجرد رحمة وفضل لا بأعمالهم؛ لأنه لا يَنْجُو أحَدٌ، وإن اجتهد في الأعمال، والعمل الصالح، إلا برحمة الله تعالى كما هو مذهبُ أهل السنة، وذلك أنَّ العذابَ إذا نزل قدْ يَعُمُّ المؤمنَ والكافرَ، فلما أَنْجَى الله المؤمنينَ مِنْ ذلك العذابِ كان برحمته وفضله وكرمه، وقيل: الرحمة هي الإيمان.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾؛ أي: ونجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد، وهو تكرير لبيان ما نجيناهم منه؛ أي: كانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وهي السموم التي كانت تدخل أنوفَ الكفرة، وتخرج من أدبارهم، فتقطعهم إرَباً إرباً، وفيه[(١)] إشارة إلى أنَّ العذاب نوعان: خفيف، وغليظ؛ فالخفيفُ هو: عذاب الشَّقَاوةِ المقدَّرة قبل خلق الخلق، والغليظ هو عذابُ الشقيّ بشقاوة معاملات الأشقياء، التي تَجْرِي عليه مع شقاوته المقدرة له قبل الوجود، وقيل[(٢)]: المراد بالعذاب الغليظ هو عذابُ الآخرة، وهذا هو الصحيح ليحصل الفرقُ بين العذابين.

رُوي[(٣)]: أنَّ الله تعالى لما أهلك عاداً، ونجَّى هوداً، والمؤمنين معه، أتَوا مكة، وعبدوا الله تعالى فيها حتى ماتوا، قال في «إنْسان العيون»، كُلُّ نبيّ من

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

الأنبياء كان إذا كَذَّبه قومه خَرجَ من بين أظهرهم، وأتى مكة يَعْبُدُ اللَّهَ تعالى حتى يموتَ وقد وَرَد «ما بين الركن اليماني، والركن الأسود رَوْضَةٌ مِنْ رياض الجنة، وإنَّ قَبْرَ هود وشعيبٌ وصالح وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة».

﴿وَتِلْكَ﴾ القَبِيلَة التي كذبت هوداً فأهلكْناهم، والخطابُ لقوم محمد ﷺ ﴿عادٌ﴾؛ أي: قبيلة تسمَّى عاداً بالصرف، قال الكسائي: إنَّ من العرب من لا يصرف عاداً، ويجعلُه اسماً للقبيلة ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كفروا بها، وكذَّبوها، وأنكروا المعجزات ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ تعالى، هوداً وَحْدَه؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جَمَع هنا؛ لأنَّ مَنْ كَذَّب رسولاً فقد كَذَّب جميعَ الرسل، لاتفاق كلمتهم على التوحيد، وأُصول الشرائع، وقيل: إنهم عصوا هوداً ومَنْ كان قَبْلَه من الرسل أو كانوا بحيثُ لو بَعَث الله إليهم رُسُلاً متعددين.. لكذَّبُوهم.

وهذا الجحودُ والعصيانُ شامل لكل فرد منهم؛ أي: لرؤسائهم وأسافلتهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾؛ أي: الأسافِلُ ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾؛ أي: أمر كل شخص متعظم في نفسه، متكبر على العباد ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: كثير العناد، والمعارضة للحق، أي: واتبع السفلة أمْرَ رؤسائهم الدُّعاةِ إلى الضلال، وإلى تكذيب الرسل، والمعنى: عَصَوْا مَنْ دعاهم إلى الإيمان، وما يُنْجِيهم، وأطاعُوا مَنْ دعاهم إلى الكفر، وما يُرْدِيهم، وقال في «التبيان»: الجبار المتعظم في نفسه، المتكبر على العباد، والعنيد الذي لا يقول الحقَّ، ولا يقبَله ﴿وَأُتْبِعُواْ﴾؛ أي: أتبع الرؤساءُ والمرؤوسون منهم، وأرْدِفوا ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدار ﴿ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ تَتْبَعُهم، وتلحقهم وتنصرف معهم؛ أي: أتبعوا كلهم في الدنيا إبعاداً، وطرداً عن الرحمة، وعن كل خير على لسان الأنبياء، فما جاء نَبِيٌّ بَعْدَهم إلاَّ لعنهم؛ أي: جُعلت[1] اللعنة من الناس تابعةً لهم، ولازمة تكبهم في العذاب كَمَنْ يأتي خَلْفَ شخص فيدفعه من خلف، فيكبُّه، وإنما عبَّر عن لزوم اللعنة لهم بالتبعية للمَبَالَغَةِ، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذَهَبوا كلَّ

---

(١) روح البيان.

مذهب، بل تَدُورُ معهم حيث دَارُوا، ولوقوع صحبة أتباعهم رؤسائهم، يعني: أنَّهم لما اتبعوا.. أتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم، جزاءً وفاقاً، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: وأتبعوا في يَوْم القيامة أيضاً لعنةً، وهي عذابُ النار المخلَّد، حذفت لدلالة الأولى عليها، يعني وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثمَّ ذَكَر سبحانه وتعالى السببَ الذي استحقُّوا به هذه اللعنة، فقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا﴾؛ أي: انْتَبَهوا! إنَّ عاداً ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: كفروا بربهم، وجحدوه كأنَّهم كانوا من الدهرية، وهم الذين يَرَوْنَ مَحْسُوساً، ولا يرون معقولاً، وينسبون كل حادث إلى الدهر؛ أي: إنَّ عاداً كفروا نعمه عليهم، بجحودهم بآياته، وتكذيبهم لِرسُلِه كِبْراً وعناداً ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾؛ أي: انتبهوا! إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى أَبْعَدَ عاداً منْ رحمته فبَعُدوا عنها بعداً، والمرادُ منه تحقيرهم، وقولُه: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد قُيِّدَ به، لأن عاداً عَادانَ: عادُ هود القديمةُ، وعادُ إرم الحديثةُ التي هي قوم صالح المسماة بثمود، فقومُ هود عادُ الأولى، وقومُ صالح عاد الثانية.

وإنما كرَّر ألا ودعاءَه عليهم، وأعادَ ذِكرهم تهويلاً لأمرهم، وتفظيعاً له، وحثّاً على الاعتبار بهم، والحَذَرِ من مثل حالهم، وفي «الخازن» فإنَّ[1] قلت: اللعنة معناها الإبعادُ والهلاكُ، فما الفائدة في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾؛ لأنَّ الثانيَ هو الأولُ بعينه؟ قلتُ: الفائدةُ فيه: أنَّ التكرارَ بعبارتين مختلفتين، يدُلُّ على نهاية التأكيد، وأنَّهم كانوا مستحقّين له.

وقولُه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ متعلق بمحذوف كما مَرَّ نظيره أي: وأرسلنا إلى ثمود، وهي قبيلةٌ من العرب، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر، ثمودَ بن عاد بن إرم بن سام، وقيل: إنما سُمُّوا بذلك لقلةِ مائهم من الثَّمد، وهو الماءُ القليلُ، وقرأ ابن وثاب، والأعمش[2]: ﴿وإلى ثمودٍ﴾ بالصرف على إرادة الحيّ، والجمهورُ على منع الصرف ذهاباً إلى القبيلة، وفي «تفسير أبي الليث»: إنما لم ينصرفْ لأنه اسمُ قبيلة، وفي الموضع الذي ينصرف جعله اسماً للقوم ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ أي: واحداً منهم

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

في النسب ﴿صَٰلِحًاۚ﴾ عطف بيان، لأخاهم، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسخ بن عبيد بن خاور بن ثمود، وعاش صالحٌ مئتي سنة وثمانين سنةً، وبينه وبين هود مئةُ سنة، وثمود هم سكَّانُ الحِجْر، مكانُ بين الشام والمدينة ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كأنَّ قائِلاً قال: فما قال لهم صالحٌ حين أرسل إليهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده، أي: وَحِّدُوا الله وخُصّوه بالعبادةِ، ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ يعني هو إلَٰهكم المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام، ثُمَّ ذَكَرَ سبحانه وتعالى الدَّلائِلُ الدالَّةَ على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال: ﴿هو﴾ سبحانه وتعالى الإلَٰه الذي ﴿أَنشَأَكُم﴾، وابتدأ خَلْقَكُم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلك أنهم من بني آدم، وآدم خُلق من الأرض، فمن لابتداء الغاية[1]؛ أي: ابتدأ إنشاءكم منها؛ فإنَّه خَلَق آدمَ من التراب، وهو أنموذج منطو على جميع ذرياته التي ستوجد إلى يوم القيامة، انطواءً إجماليّاً؛ لأنَّ كل واحد منهم مخلوق من المني، ومن دم الطَّمث ِ، والمنيُّ إنما يتولد من الدم، والدمُ إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية أو نباتية، والنباتية، إنما تتولد من الأرض، والأغذية الحيوانية لا بُدَّ أن تَنتَهي إلى الأغذية النباتية المتولدة من الأرض، فثبَتَ أنه تعالى أنشأ الكل من الأرض، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: جَعَلَكم سُكَّانَ الأرض، وصيركم عامرين لها، أو جَعَلَكم معمِّرين ديارَكم تسكنونَها مدة أعماركم، ثمَّ تتركونها لغيركم، وقال الضحاك[2]: أطال أعمارَكم فيها، حتى كان الواحدُ منهم يعيشُ ثلاثَ مئة سنة إلى ألف سنة، وكذلك كان قوم عاد، وقال مجاهد: أعْمَرَكم من العمرى؛ أي: جَعَلَها لكم ما عشتم ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾؛ أي: فاطلبوا مغفرةَ الله بالإيمان، أي آمِنُوا بالله وحده ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾؛ أي: ارْجِعُوا إلى عبادته تعالى من عبادة غيره، لأنَّ التوبةَ لا تصح إلا بعد الإيمان ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ إلى عباده بالعلم، والسمع، والرحمة، ﴿مُّجِيبٞ﴾ دعاءَ المحتاجين بفضله ورحمته، والذي[3] يَلُوحُ للخاطر أنَّ قوله تعالى: ﴿قَرِيبٞ﴾ راجع لـ ﴿تُوبُوٓاْ﴾ و ﴿مُّجِيبٞ﴾ لـ ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾؛ أي: ارجعوا إلى الله، فإنه قريب ما هو

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

بعيد، واسألوا منه المغفرةَ، فإنه مجيبٌ لسائله ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال قومُ صالح بعد دعوتهم إلى الله تعالى، وعبادته ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ أي: مأمولاً؛ أي: كُنَّا نرجوا أن تكونَ فِينَا سَيِّداً مطاعاً ننتفع برأيك، ونَسْعَدُ بسيادتك ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ الذي أظهرته لنا من ادعائك النُّبوَّةَ ودعوتك إلى التوحيد، أو قَبْلَ[1] هذا الوقت، وهو وقت الدعوة، كانَتْ تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد والسداد، فإنَّكَ كنت تعطفُ على فقرائنا، وتعِينَ ضُعَفَاءنا، وتعود مَرْضَانَا فقَوِيَ رجاؤُنا فيك، فكنَّا نَرْجوك أنْ تكون لنا سَيِّداً ننتفع بك ومستشاراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما سَمِعْنَا منك هذا القَول انقطع رجاؤُنا عنك، وعَلِمْنا أن لا خَيْرَ فيك.

والخلاصة[2]: أي قَدْ كنت عِندنا موضعَ الرجاءِ لِمَهامِّ أمورِنا؛ لمَا لَكَ من رجاحة عقل، وأصالَة رأي، ولحسبك ونَسبِك قبل هذه الدعوة، التي تَطلُب بها إلينا أن نبدل ديننا، زَعْماً منك أنه باطل، فالآن قد انقطع رجاؤنا منك، ثُمَّ ذَكَروا أسباب انْقِطَاع رَجائِهم بقولهم متعجِّبين تعجّباً شديداً ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾، و (الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري التعجبي؛ أي: أتمنعنا من ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: ما عَبَدُوه من الأوثان، والعدول فيه إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية.

أي: عجيب منك أن تَنْهانا عن عبادة ما كان يعبدُ آباؤنا من قبلنا، وقد سِرْنا نحن على نهجهم، ولم ينكره أحدٌ علينا، ولم يستقبحه فكيف تُنْكِرُه؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، وترك عبادة الأوثان ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة، أي: في اضطراب القلوب، وانتفاء الطمأنينة من أرابَه إذا أوقعه في الريبة، وإسنادُ الإرابة إلى الشك، وهو أن يبقى الإنسانُ متوقِّفاً بين النفي والإثبات مجازي لأنَّ الريبَ هو انتفاء ما يرجح أحد طرفي النسبة، أو تعارض الأدلة لا نفس الشك.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والمعنى: أي وإنا لفي شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده، دونَ أن نتوسَّل إليه بأحد من الشفعاء، المقربين عنده تعالى، ولا أن نُعَظِّم ما وضَعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل، تذكِّرُنا بهم، فكل هذا يوجب الريبَ والتهمةَ، وسوء الظن، وعدمَ الطمأنينة إلى دعوتك.

والخلاصة: إننا لفي شك مِمَّا تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب، و (إنا) و (إننا)[1] لغتان لقريش قال الفراء: مَنْ قال إنَّنا أَخْرج الحرفَ على أصله؛ لأنَّ كناية المتكلمين (نا) فاجتمعت ثلاث نونات، ومن قال: (إنا) استثقل اجتماعَها فأسقط الثالثةَ، وأبْقَى الأولتين، انتهى. والذي أختاره أنَّ (نا) ضمير المتكلمين، لا تكون المحذوفة، لأنَّ في حذفها حَذْف بَعْضِ اسم، وبقي منه حرف ساكن، وإنما المحذوفة النون الثانية من (إنَّ) فحذفت لاجتماع الأمْثال، وبقي من الحرف (الهمزة) والنون الساكنة، وهذا أولى من حذف ما بقي منه حرف، وأيضاً فقد عهد حذف هذه النون مع غير ضمير المتكلمينَ، ولم يُعْهَدْ حذف نون (نا) فكان حَذْفُها من إنَّ أوْلَى، فأجابهم صالح فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أخْبِرُوني عن حالي معكم، ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾؛ أي: على بصيرة، وبرهان صادر ﴿مِّن رَّبِّي﴾ ومالك أمري ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ أي: أعطاني ﴿مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ تعالى؛ أي: من قِبَله رحمةً خاصةً من عنده، جَعَلني بها نبياً مرسلاً إليكم، وهذه الأمورُ[2]، وإن كانت متحققةَ الوقوع، لكنَّها صدرت بكلمة الشك، اعتباراً بحال المخاطبين؛ لأنهم في شك من ذلك، كما وَصَفوه عن أنفسهم، والاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكار بمعنى النفي؛ أي: فمن يمنعني، ويُنْجِيني ويحفظني من عذاب الله ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ تعالى، وخالَفْتُه بالمساهلة في تبليغ الرسالة، وفي المَجاراة معكم؛ أي: فَمَنْ يَنصُرَني منجياً من عذابه تعالى، أي لا ناصرَ لي يمنعني من عذاب الله ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾، وخالفته في تبليغ الرسالة، وراقبتكم، وفترت عما يجِبُ علـيّ من البلاغ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بتثبيطكم إياي ﴿غَيۡرَ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

تَخۡسِيرٖ﴾؛ أي: غير إيقاعكم لي في الخسارة بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرض لعقوبة الله تعالى، والمعنى: أخبروني إن كنتُ على بينة ونبوة من ربي، فلا أحد يمنعني من عذاب الله إن اتبعتكم، وعصيتُه، وحينئذ أكون خاسراً مضيِّعاً لما أعطاني الله من الحق، وهَلْ رأيتم نبياً صار كافراً؟ وكلٌّ هذا منه لهم، اهـ «صاوي». قال الفراء: غَيْر تضليل، وإبعاد من الخير، أو فما تزيدونني بما تقولون غير بَصيرة في خسارتكم؛ أي: وما زادني قولُكم إلاَّ قولي لكم: إنكم لخاسرون، أو المعنى: فما تفيدونني غير تَخسير إذْ لم يكن فيه أصلُ الخسران حتى يزيدوه، وحاصل المعنى: أي: فمن يمنعني من عذابه، إذا أنا كَتَمْتُ الرسالةَ أو كتمت ما يسوؤكم من بُطلان عبادةِ الأصنام، والأوثان تقليداً لآباءكم؛ أي: لا أحَدَ يدفع ذلك عني في هذه الحال، فلا أُبالي إذا انقطع رجاؤكم فيَّ، ولا بما أنتم فيه من شك وريب في أمري، ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾؛ أي: فما تزيدونني باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعي في الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله تعالى، واشتراءِ رضاكم بسخطه تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ أي: ويا قومي ﴿هَٰذِهِۦ﴾ البهيمةُ التي خَرَجَتْ من الصخرة ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة فيه للتشريف، كبيت الله؛ لأنه أخرجها لهم من صخرة في جوف الجبل حاملاً من ذكر على تلك الصورة دفعة واحدة وقد حصل منها لبنٌ كثيرٌ يكفي الخلقَ العظيمَ؛ أي: هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل بما تَرَوْن من أكْلِها وشربها، وجميع شؤونها، قد جعلها الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ بينة منه، ومعجزةً باهرةً تدل على صدقي، وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها ﴿فَذَرُوهَا﴾؛ أي: فاتركوها، وخلوها ﴿تَأۡكُلۡ﴾ وتَشْرَبُ فهو من باب الاكتفاء نظيرَ قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؛ أي: والبردَ مِمّا ﴿فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من المراعِي والمياه، تَرْعَ نباتَها وتشرب ماءها، فليس عليكم كلفة في مؤونتها، وكانت هي تنفعهم، ولا تَضُرُّهم، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها، وقرأَتْ[1] فرقة (تأكُلُ) بالرفع على الاستئناف أو على الحال ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: ولا يمسَّها، ولا يصبها أحدٌ منكم بأذى من ضرب وعقر وقتل ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾؛ أي: فيهلككم ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ النزول والوقوع لا يَتَراخى عن مسكم لها بالسوء إلا بيسير، وهو ثلاثةُ أيام، وكانت تصيفُ بظَهْرِ الوادِي فتهربُ منها أنعامُهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتَهْرُب مواشِيهم إلى ظهره، فشَقَّ عليهم ذلك ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: عَقَرها، وقَتلَها قُدارُ بن سالف بأمرهم، ورضاهم فَضرَبها في رجليها، فأوقَعها، فذَبَحُوها، وقسَمُوا لَحْمَها على جميع القرية على ألفٍ وخمس مئةِ دارٍ ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح بعد قتلهم لها ﴿تَمَتَّعُوا﴾؛ أي: استمتعوا بحياتكم، وعِيشُوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾؛ أي: في بلادِكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ من العَقْر: الأربعاءَ، والخميسَ، والجمعةَ، ثم يأتيكم العذابُ في اليوم الرابع، يوم السبت، وإنما أقاموا ثلاثةَ أيام؛ لأنَّ الفَصِيلَ بَقِيَ يَنُوح على أمه ثلاثةَ أيام، وانفجَرتْ له الصخرة بعد تلك المدَّة فدَخَلها، ولما عقروا الناقةَ.. أنذرهم صالح بنزول العذابِ، ورَغَّبَهم في الإيمان، فقالوا: يا صالحُ، وما علامةُ العذاب؟ فقال: تصبح وجوهكم في اليوم الأول مصفرة، وفي الثاني محمرةً، وفي الثالث مسودةً، وفي الرابع يأتيكم العذاب صَبِيحَتُه ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: نزولُ العذاب عقبَ ثلاثَةِ أيام ﴿وَعْدٌ﴾ من الله سبحانه وتعالى وَعَدكم حين انقضائِها بالهلاك ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فهو لم يكذبكم فيه مَنْ أعلمكم ذلك، أو وعد غَيْرُ كذبٍ كالمجلود بمعنى الجلد الذي هو الصلابة، والمفتون بمعنى الفتنة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال(1): «إنَّ صَالِحاً لمَّا دعا قومَه إلى الله تعالى كذَّبوه، فضاق صدره، فسأل ربَّه أنْ يأذن له في الخروج من عندهم، فأذن له فَخَرَج، وانتهى إلى ساحل البحر، فإذا رجل يمشِي على الماء، فقال له صالح: ويْحَكَ من أنت؟ فقال: أنا من عباد الله، كنت في سفينة كانَ قومها كفَرة غيري، فأهلكهم الله تعالى، ونجاني منهم، فخَرَجْتُ إلى جزيرة أتعَبَّدُ هناكَ فأَخْرُجُ أحياناً، وأطلب شيئاً من رزق الله، ثم أرجع إلى مكاني فمضى صالح، فانتهى إلى تل عظيمٍ، فرَأى رجلاً فانتهى إليه، وسَلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال له صالِحٌ: مَنْ أنتَ؟ قال: كانت ههنا قريةٌ، كان أهلها كفاراً غيري، فأهلكهم الله

(1) روح البيان.

تعالى، ونجَّاني منها، فجعَلْتُ على نفسي أنْ أعبد الله تعالى ههنا إلى الموت، وقد أنْبَتَ اللَّهُ لي شجَرةَ رُمَّانٍ، وأَظْهَرَ عَيْنَ ماء، آكُل من الرمان وأشرب من ماء العَينِ، وأتوضَّأ منه، فذهب صالح، وانتهى إلى قريةٍ كان أهلها كفاراً كُلُّهم غَيْر أخَوين مُسْلِمَين، يعملان عملَ الخَوص ـ فضَرَبَ النبيّ ﷺ مثَلاً فقال: لو أن مؤمناً دَخَلَ قريةً فيها ألف رجل، كلهم كفارٌ، وفيهم مؤمنٌ واحد، فلا يسكن قلبه مع أحدٍ حتى يجد المؤمنَ، ولو أنَّ منافقاً دَخَل قرية فيها ألفُ رجل كلهم مؤمنون، وفيهم منافق واحد.. فلا يسكُن قَلْبُ المنافق مع أحد ما لم يجد المنافقَ ـ فدَخَل صالح، وانتهى إلى الأَخوين، فَمَكَثَ عِندهما أياماً، وسألَ عن حالهما فأخبرا أنهما يصبران على أذى المشركين، وأنهما يعملان عملَ الخوص، ويمسكان قُوتَهُما، ويتصدَّقان بالفَضْلِ، فقال صالح: الحمد لله الذي أراني في الأرض منْ عبادِهِ الصالحين، الذين صَبَرُوا على أذَى الكفار، فأنا أرْجِعُ إلى قومي، وأصبرُ على أذاهم، فرجع إليهم، وقد كانوا خرجوا إلى عيد لهم، فدَعَاهم إلى الإيمان، فسألوه آيةً، فقال: أيَّة آية تريدون؟ فأشارَ سيِّدهم جندع بن عَمرو إلى صخرة منفردة، يقال لها: الكَاثِبةُ، وقال له: أخْرِجْ من هذه الصخرة ناقةً واسعةَ الجوف كثيرةَ الوبر عشراء؛ أي: أتت عليها من يوم أرْسَل الفحل عليهَا عشرة أشهر، فإن فَعَلْتَ صَدَّقْنَاكَ، فأخذ عليهم مواثقَهم لئنْ فعلت ذلك لتؤمِنُنَّ فقالوا: نَعَمْ فصَلَّى، ودَعا ربه، فتمخضت الصخرةُ تمخض النتوج بولدها، فانشقَّتْ عن ناقة عشراء جَوْفَاء، وبراء كما وصفوا فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ فكانت تَرْعَى الشجرةَ، وتشرب الماءَ ثم تفرِّج بين رجليها، فيحلبون ما شاؤوا، حتى تَمْتَلِيءَ أوانيهم، فيشربون ويَدَّخِرُون، وهم تسع مئة أهل بيت، وقيل: ألفٌ وخَمسُ مئة، ثُمَّ إنه عليه السلام لمَّا خَافَ عليها منهم قال: ولا تمسُّوها بسوء، فيأخُذَكم عذاب قريب، فعقروها، أي: عقرها قُدَارُ ـ بوزن غراب ـ بن سالف فقال: تمتَّعُوا في داركم ثَلاثَةَ أيام ذلك وَعْدُ غيرُ مكذوب.

ثُمَّ ذَكَرَ وقوعَ ما أوعِدوا به، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ أي: جَاءَ ثمودَ

عذابنا، ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ والظرف[1] متعلق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾ أو بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، وهو الأظهر؛ إذ المراد ﴿ءَامَنُوا۟﴾ كما ﴿آمن﴾ صالحٌ، واتبعوه في ذلك، لا أنَّ أزمانَ إيمانهم مقارن لزمان إيمانه، فإن إيمان الرسول مقدَّم على إيمان من اتبعه من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ أي: متلبسينَ بمجرد رحمة عظيمة ﴿مِّنَّا﴾، وفضل لا بأعمالهم، كما هو مذهبُ أهل السنة، وهِيَ بالنسبة إلى صالح: النبوة، وبالنسبة إلى المؤمنين الإيمان ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ عطف على ﴿نجينا﴾؛ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ؛ أي: من ذلته ومَهَانته وفَضِيحَته، ولا خِزْيَ أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وكرر نَجَّيْنَا لبيان مَا نَجَّاهُم منه، وهو هلاكُهم يومئذ؛ أي: يَوْم، إذ جاء أمرنا فإنَّ إذ مضافة إلى جملة محذوفة، عوِّض عنها التنوين؛ أي: ونجيناهم من عذاب يوم إذ جاء أمرنا وعذابُنا. قيل[2]: الواوُ زائدة في ﴿وَمِنْ خِزْىِ﴾؛ أي: من خزي يومئذ فيتعلَّق من بِنَجَّيْنا، وهذا لا يجوز عند البصريين، لأن الواو لا تزاد عندهم، بل تتعلق (من) بمحذوف؛ أي: ونجيناهم من خِزْيٍ؛ أي: وكانت التنجية من خزي يومئذ، ولكون الإخبار بتنجية الأولياء، لا سيما عند الإنباء بحُلول العذاب أهم ذَكَرَها أولاً، ثم أخْبَر بهلاك الأعداء، وقَرَأ طلحةُ وَأبانُ بن تغلب، ﴿ومن خزيٍ﴾ بالتنوين، ونصب (يومَئذ) على الظرف معمولاً لخزي، وقرأ الجمهور بالإضافة، وفَتَح المِيمَ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون هنا وفي المعارج، وهيَ فتحة بناءٍ لإضافته إلى إذ، وهو غيرُ متمكن، وقرأ باقي السبعة بكسر الميم فيهما، وهي حركة إعراب، والتنوين في إذ تنوين عوض من الجملة المحذوفة المتقدمة الذكر؛ أي: ومن فضيحة يوم إذ جاء الأمر، وحَلَّ بهم، فلما قطِعَ المضاف إليه عن إذْ نُوِّنَ؛ ليدلَّ التنوين على ذلك، ثم كسرت الذال لسكونها، وسكون التنوين، ولم يلزم من إضافة يوم إلى المبني، أن يكون مبنياً؛ لأنَّ هذه الإضافة غيرُ لازمة.

ثم بين عظيم قدرته على التنكيل بأمثالهم من المشركين، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي فَعَلَ هذا بقوم صالح، ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾؛ أي: القادر على أنْ

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والمراح.

يفعلَ مِثْلَ ذلك بقومك إن أصَرُّوا على الجحود وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يعجزه شيء، فإنه أوْصَلَ ذلك العذاب إلى الكفار، وصان أهلَ الإيمان عنه، وهذا التمييز لا يصح إلاّ من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء، فيجعل الشيءَ الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاءً وعذاباً وبالنسبة إلى إنسان آخرَ راحةً ورَيْحاناً.

ثمَّ ذَكَر مآلَ أمرهم وشديدَ عقابه بهم فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفُسَهم بالكفر والتكذيب؛ أي: أهلكتهم ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ أي: صيحةُ جبريل مع الزلزلة في اليوم الرابع من عَقر الناقة، وذكَّر الفعلَ لأنَّ الصيحة، والصياح، واحد مع كون التأنيث غير حقيقي، وللفصل بينهما بالمفعول، والصيحة فعلةٌ تدل على المرة من الصياح، وهو الصوت الشديد، يقال: صاح يَصِيح صياحاً؛ أي صوت بقوة قيل: هي صيحة جبريل، فقد صاح عليهم، وقيل: صيحة من السماء، فيها صوتُ كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطَّعَتْ قلوبهم في صدورهم، فماتوا جميعاً، وتقدَّم في الأعراف، فأخذَتْهم الرجفةُ قيل: ولعلَّها وقعت عَقِبَ الصيحة، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾؛ أي: صاروا ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ وبلادهم، وفي مساكنهم: ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ على وجوههم ميتين، لا يتحركون، ولا يضطربون عند نزول العذاب، قد لَصِقُوا بالتراب كالطير، إذا جثمت حَالةَ كَوْنِهم ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾؛ أي: كأنهم لم يقيموا في بلادهم، فإنهم صاروا رماداً، أي: أصْبَحُوا جاثمين، حالَ كونهم مماثلينَ لمن لم يوجد، ولم يقم في مكان قط، ولا يَخْفَى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ، وسرعته. اللهم إنَّا نعوذ بك من حلول غضبك.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر، لزيادة البيان، وصرَّح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعۡدًا لِّثَمُودَ﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ أي: جَحَدُوا بوحدانية الله تعالى، فهذا تَنْبيه وتخويفٌ لِمَنْ بَعْدَهم، وقوله: ﴿أَلَا بُعۡدًا﴾ مَصْدَرٌ[1] وُضعَ موضع فِعْلِه،

(١) روح البيان.

فإنَّ معناه بَعُدُوا؛ أي: هلكوا، واللام لبيان مَنْ دعي عليهم، وفائدة الدعاء عليهم: بعد هلاكهم: الدلالةُ على استحقاقهم عذابَ الاستئصال بسبب كفرهم، وتكذيبهم، وعقرهم، ناقةَ الله تعالى، والمعنى، أي كأنَّهم[1] لسرعة زوالهم، وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا في ديارهم ألبتةَ، وما سبب هذا إلا أنْ كفروا بآيات ربهم، فجحدوها ألا بُعْداً، وهلاكاً لهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ مَنَع حمزة وحفصُ صَرْفَهُ وصَرفَه الباقون ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ صرفه الكسائي، ومَنْعه باقي السبعة، والصرفُ على إرادة معنى الحي، ومَنْعُه على إرادة معنى القبيلة، وعن جابر[2] رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ الحجرَ في غزوة تبوك قَامَ فخَطَبَ النَّاسَ فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات، هؤلاء قومُ صالح، سَألُوا نَبِيَّهم أن يَبْعَثَ لهم الناقةَ فكانت تَرِدَ من هذا الفجِّ فَتَشْرَبُ ماءَهم يوم وردها، ويَحْلُبون مِنْ لبنها، مِثْلَ الذي كانوا يشربون من مائها يَوْمَ غبّها، فعتوا عن أمر ربهم، فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ وكان وعداً من الله غير مكذوب، ثم جاءَتْهم الصيحة فأهلك الله مَنْ كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم، إلاَّ رجلاً كان في حرم الله، فَمَنَعه حَرم الله من عذابِ الله، يقال له: أبو رِغَال»، قيل له: يا رسول الله، مَنْ أبو رِغَال قال: «أبُو ثَقِيفٍ».

الإعراب

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: وأرسلناإلى عاد، والجملة المحذوفة معطوفةً على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطفَ قصة على قصة، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول به لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف ﴿هُودًاۚ﴾ عطف بيان له، أو بدل منه، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ سائلاً قال: ماذا قال لهم؟ فأجابه بقوله، قال: يا قوم اعبدوا اللَّه. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخرِ الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء على كَوْنِها مقول ﴿قال﴾ ﴿مَا﴾ نافية أو حجازية ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مِّنۡ﴾ زائدة ﴿إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ والتقدير: ما إلّه غيره تعالى كائنٌ أو كائناً لكم، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل ما قبلها، على كونها مقول ﴿قال﴾ ﴿إِن﴾ نافية ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مُفۡتَرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال).

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلى قوله ﴿قَالُواْ﴾ مقول محكي، وإنْ شئتَ قلتَ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول (قال) ﴿لا﴾ نافية ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ فعل ومفعول أول ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿أَجۡرًاۖ﴾ مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة الفعلية في محل النصب مقول (قال) على كَوْنِهَا جوابَ النداء ﴿إِنۡ﴾ نافية ﴿أَجۡرِيَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱلَّذِي﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾ فعل ومفعول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملةُ صلة الموصول ﴿أَفَلَا﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف تقديره: أتغفلون عن هذه القصة و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملةُ معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف معطوف على المنادى الأول ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كَوْنِها جَوابَ النداء، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على

الله ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جوابَ الطلب السابق ﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ ولم يؤنثه مع كون صاحب الحال مؤنثاً لثلاثة أوجه(١):

أحدها: أن المراد بـ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ السحاب أو المطر، فذكَّر الحال على المعنى.

والثاني: أنَّ مِفعالاً للمبالغة، فيستوي فيه المذكر والمؤنث، مثل فَعُولٍ كصبور، وشكور، وفعيل كجريح.

والثالث: أنَّ الهاءَ حُذِفَتْ عن مفعال على طريق النسب قاله مكي، اهـ «سمين». ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قُوَّةً﴾ تقديره: قوة مضافة إلى قوتكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية ﴿مُجْرِمِينَ﴾ حال من ﴿الواو﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ على كونها مقول القول.

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰهُودُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿مَا﴾ نافية ﴿جِئْتَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿جِئْتَنَا﴾ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قال﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) نافية أو حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ أو في محل الرفع اسم (ما) ﴿بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ خبر المبتدأ، أو خبر (ما) ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ متعلق ﴿بِتَارِكِىٓ﴾ فـ ﴿عَن﴾ للتعليل، وهذا هو الأولى، أو حال من الضمير في

---

(١) الفتوحات.

﴿تاركي﴾؛ أي: وما نترك آلهتنا تركاً صادراً عن ﴿قَوْلِكَ﴾، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) حجازية، أو تميمية ﴿نَحْنُ﴾ اسمها أو مبتدأ ﴿لَكَ﴾ متعلق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولَ ﴿قَالُواْ﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِن﴾ نافية ﴿نَّقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على قوم هود، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ فعل ماض، ومفعول ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿بِسُوٓءٍ﴾ متعلق بـ ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ وجملة ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ما نقول في شأنك إلا قولَنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة مستأنفة ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة (إن) على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بريء﴾ وجملة (أن) في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تنازع فيه الفعلان قبله، ولكن أعمل فيه الثاني؛ أي: واشهدوا براءتي مما تشركون ﴿تُشْرِكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةُ لـ(ما) أو صفة لها، والعائدُ أو الرابط محذوف تقديره: مما تشركونه، ويحتمل كونُ (ما) مصدرية ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المحذوف من ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ﴿فَكِيدُونِي﴾. الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن كانت آلهتكم كما قلتم من أنها تنفع، وتضر.. فكيدوني ﴿كيدوني﴾ فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية ﴿جَمِيعًا﴾ حال من (واو) الفاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم على كونها جواباً للشرط المحذوف، والشرط المحذوف في محل النصب مقول القول، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لا﴾ ناهية

جازمة ﴿تُنظِرُونِ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والنونُ المذكورة نونُ الوقاية لأنَّ أصْلَه، ولا تنظرونني وياء المتكلم المحذوفة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم، معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿رَبِّي﴾ بدل من الجلالة، ﴿وَرَبِّكُم﴾ معطوف على ﴿رَبِّي﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في محل الرفع خبر، (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقولُ القول على كَوْنِها مَسُوقة لتعليل مَا قَبلها ﴿مَا﴾ نافية ﴿مِن﴾ زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾ مبتدأ أول، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان ﴿ءَاخِذٌۢ﴾ خبرٌ للمبتدأ الثاني ﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾ متعلق بـ﴿آخذ﴾ وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل النصب مقول القول على كونها مسوقةً لتعليل ما قبلها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ خبره ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾ وجملة (إن) مستأنفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيانَ حُكم ما إذا توليتم.. فأقول لكم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ (إن) حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، أصله (تتولوا) حذفت إحدى التاءين لتوالي الأمثال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فلا أبالي بكم، ولا مؤاخذةَ عليّ، وجملة الشرط في محل النصب مقولٌ لجوَابِ إذا المقدَّرة ﴿فَقَدْ﴾ (الفاء) تعليلية (قد) حرف تحقيق ﴿أَبْلَغْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مَّآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها

(بالفاء) التعليلية؛ لأنها تعليل للجواب المحذوف، تقديره: فلا أبالي بكم لإبلاغي إياكم ﴿ما أرسلت به﴾، ﴿أُرْسِلْتُ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وكذلك ﴿إِلَيْكُمْۚ﴾ يتعلق به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي﴾ فعل وفاعل ﴿قَوْمًا﴾ مفعول به ﴿غَيْرَكُمْ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة على كونها مقولَ القول، أو معطوفةٌ على جملة الجواب، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿حَفِيظٌ﴾، ﴿حَفِيظٌ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة على كونها مقولَ القول.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية (لما) حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لمّا)، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾ والجملة الفعلية جواب (لما)، وجملة (لمّا) مستأنفة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿غَلِيظٍ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة لا معطوفة على ﴿نَجَّيْنَا﴾ الأول لأنَّ الأول مقيد بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ إلخ، والثاني لا يتقيد به، اهـ «فتوحات».

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿جَحَدُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة سيقت للإخبار عن حالهم، وليسَتْ حالاً ممَّا قبلها كما في «الجمل» ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَحَدُوا۟﴾، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَحَدُوا۟﴾ ﴿أَمْرَ كُلِّ

جَبَّارٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿عَنِيدٍ﴾ صفة ﴿جَبَّارٍ﴾، ﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿فِي هَٰذِهِ﴾في هذه متعلق به ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ بدلُ من اسم الإشارة أو عطف بيان ﴿لَعْنَةً﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَحَدُواْ﴾، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف معلوم مما قبله تقديره: وأتبعوا يوم القيامة لعنة على رؤوس الخلائق، ﴿ألا﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ عَادًا﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة ﴿ألا﴾ حرف تنبيه ﴿بُعْدًا﴾ مصدر نائب عن التلفظ بفعله تقديره بعدوا أي هلكوا ﴿لِّعَادٍ﴾ اللام لبيان مَنْ دُعِي عليهم متعلقة بالمصدر كـ(لام) سقياً لك ورعْياً لك ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ بدل من ﴿عَادٍ﴾ أو عطف بيان له.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ متعلق بمحذوف معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف ﴿صَٰلِحًاۚ﴾ عطف بيان له ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول القول على كَوْنِهَا جَوابَ النداء ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿من﴾ زائدة ﴿غَيْرُهُۥ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿أَنشَأَكُم﴾ فعل ومفعول ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿أَنشَأَكُم﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ (الفاء) عاطفة تفريعية، ﴿استغفروه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية معطوفةٌ مفرعة على الجملة الاسمية في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾

متعلق به ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ناصب واسمه ﴿قَرِيبٌ﴾ خبره ﴿مُّجِيبٌ﴾ خبر ثان، أو صفة له، وجملة (إن) مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملةُ النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿قَدْ كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِينَا﴾ متعلق بـ ﴿مَرْجُوًّا﴾، ﴿مَرْجُوًّا﴾ خبر كان ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ (كان)، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري ﴿تنهانا﴾، فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ ناصب وفعل منصوب، وفاعله ضمير يعود على قوم صالح، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره أتنهانا عن عبادة ما يعبد آباؤنا ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نَّعْبُدَ﴾، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يعبده آباؤنا ﴿وَإِنَّنَا﴾ ناصب واسمه ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ جار ومجرور خبر (إن) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة (إن) معطوفة على جملة ﴿كان﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ (شك)، ﴿تَدْعُونَآ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على صالح ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، ﴿مُرِيبٍ﴾ صفة ﴿شَكٍّ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قال﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل

وفاعل ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ(إن) ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبر (كان)، ﴿مِّن رَّبِّى﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجزم، معطوفة على جملة (كان) ﴿مِنْهُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿آتى﴾ ﴿فَمَن﴾ (الفاء) رابطة لجواب (إن) الشرطية ﴿من﴾ اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ ﴿يَنصُرُنِى﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ (إن) على كونها جَواب (إن) الشرطية، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب سادةٌ مسد مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَنصُرُنِى﴾. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿عَصَيْتُهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجواب (إن) معلوم مما قبلها، تقديره: إن عصيته.. فمَنْ ينصرني، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب، مقولُ ﴿قال﴾. ﴿فَمَا﴾ (الفاء) عاطفة (ما) نافية ﴿تَزِيدُونَنِى﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ مفعول ثان، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الأول ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال) على كونها جوابَ النداء، ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ءَايَةً﴾ لأنه نعت نكرة قدمت عليها ﴿ءَايَةً﴾ حال من ﴿نَاقَةُ﴾، ﴿فَذَرُوهَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم هذه ناقةَ الله، وأردتم بيانَ ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم ﴿ذروها﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قال﴾، ﴿تَأْكُلْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الناقة ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَأْكُلْ﴾، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾

فعل وفاعل، ومفعول مجزوم بـ (لا) الناهية ﴿بِسُوٓءٍ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَذَرُوهَا﴾، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ (الفاء) عاطفة سببية ﴿يأخذكم﴾ فعل، ومفعول منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿قَرِيبٌ﴾ صفة له، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر مقيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن مسكم إياها بسوء فأخذُ عذاب قريب إياكم.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

الفاء: عاطفة ﴿عقروها﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾ ﴿فَقَالَ﴾ الفاء عاطفة، (قال) فعل ماض وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة معطوفة على جملة (عقروها). ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول (قال) ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ متعلق به. ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ صفة ﴿وَعْدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال لهم صالح، وأردتَ بيانَ حال المؤمنينَ بهِ، وحال المكذبين له بعدما جاء العذابُ فأقول لك: ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب (لما) وجملة (لما) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿صَـٰلِحًا﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أو بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ (رحمة). ﴿وَمِنْ خِزْىِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ونجيناهم وذلك المحذوف معطوف على ﴿نَجَّيْنَا﴾ وقال بعضهم: إنه متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾ الأول، و (الواو)

زائدة، وهذا لا يجوز عند البصريين غير الأخفش، لأن زيادة (الواو) غير ثابتة ﴿خِزْيِ﴾ مضاف ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ (يوم) مضاف إليه (يوم) مضاف (إذ) مضاف إليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿الْقَوِيُّ﴾ خبر (إن) ﴿الْعَزِيزُ﴾ صفة القوي، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ﴾ فعل ومفعول. ﴿ظَلَمُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿الصَّيْحَةُ﴾ فاعل لـ (أخذ)، والجملة معطوفة على ﴿نَجَّيْنَا﴾ على كونها جواب (لما). ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ (الفاء) عاطفة، ﴿أصبحوا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿جَاثِمِينَ﴾ ﴿جَاثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾ وجملة ﴿أصبح﴾ معطوفة على جملة ﴿أخذ﴾ ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف تقديره: كأنهم ﴿لَّمْ يَغْنَوْا﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من واو ﴿أصبحوا﴾ تقديره: فأصبحوا جاثمينَ، حالَ كونهم مماثلينَ لمن لم يوجد، ولم يقم في مكان قط ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ ثَمُودَا﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿بُعْدًا﴾ مصدر نائب مناب فعله منصوبٌ بفعله المحذوف تقديره: ألا بعدوا بعداً ﴿لِّثَمُودَ﴾ متعلق بـ ﴿بُعْدًا﴾ وزيدت اللام لبيان المدعو عليهم كـ(لام) سُقياً لك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: جعلاً، ورشوة، ومعناه: لست بطامع في أموالكم. ﴿مِّدْرَارًا﴾ من[1] أبنية مبالغة الفاعل، يستوي فيه المذكر والمؤنث،

(١) روح البيان.

وأصله من دَرَّ اللبن دُروراً، وهو كثرةُ وروده على الحالب، يقال: سحاب مِدْرَارٌ ومطر مدرارٌ إذا تتابع منه المطر في وقت الاحتياج إليه، والمعنى: حالَ كونه مُتَتَابِعاً دائماً، كلما تحتاجون إليه ويقال: درَّ يدرُّ كردَّ يرُدُّ. وفي «المصباح»: درَّ اللبن وغيره دراً من بابي ضرب وقتل إذا كثر دَرهُ، اهـ. وفي «القاموس»: ودرَّت السماء بالمطر درّاً ودروراً فهي مدرار، اهـ. ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ يقال: عراه الأمر يعروه واعتَرَاهُ إذا ألمّ به وأصابه. ﴿فَكِيدُونِي﴾ والكيد: إرادة مضرَّة الغير خُفيةً، وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاةِ أعمالِ الخلق. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وفي «السمين»: الناصية: منبت الشعر من مقدم الرأس، ويسمَّى الشعر النابت أيضاً ناصيةً، تسميةً له باسم محلِّه، ويقال: نصوت الرجل إذا أخَذت بناصيته، فلامها واوٌ، يقال له: ناصاه، فقلبت ياؤُها ألفاً، فالأخذ بالناصية عبارة عن الغلبة والقهر، وإن لم يكن أخذ بناصية، ولذا كانوا إذا منوا على أسير، جزُّوا نَاصِيَتَه، اهـ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أصله: تَتولُّوا فحذفت إحدى التاءين لتوالي الأمثال، لأنه مضارع تولى من باب تفعل.

﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وجَحَد يتعدى[1] بنفسه، ولكنه ضمِّن معنى كَفَرَ، فتعدى بحرف الجر، كما ضمِّن كفر معنى جحد، فتعدى بنفسه في قوله: ﴿بعد ذلك﴾ ﴿كفروا ربَّهم﴾. وقيل: إن كَفَرَ كشكر في تعديته بنفسه تارةً، وبحرف الجر أخرى، اهـ «سمين». ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ أصله عصيوا؛ لأنه من عَصَى يَعْصِي كرمى يرمي، تحركت الياء وانفتحَ ما قبلها، قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألِفُ لبقاءِ دَالها فصار عَصَوا بوزن رَمَوا.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً. والعنيد: الطاغي المتجاوز في الظلم، من قولهم: عَنَدَ يعند، من باب: جَلَسَ إذا حادَ عن الحق من جانب إلى جانب، ومنه عند الذي هو ظرف لأنه في معنى جانب في قولك: عندي كذا؛ أي: في جانبي، وعند أبي عبيد: العنيد، والعنود،

---

(١) الفتوحات.

والعاند، والمعاند كله بمعنى المعارض والمُخَالِف، اهـ «سمين». والعنيد: الطاغي الذي لا يقبل الحقَّ، ولا يذعن له، ومنه قيل للعِرق الذي ينفجر بالدم عَانِد. قال الراجز:

إِنِّـي كَـبِـيْـرٌ لاَ أُطِـيْـقُ ٱلْـعَـنَـدْ

وفي «المختار» عند من باب جلس؛ أي: خَالفَ ورد الحقّ، وهو يعرفه فهو عنيد، وعاند، اهـ. ﴿لَعْنَةً﴾؛ أي: طرداً وبعداً عن كل خير.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾؛ أي: لا زالوا[1] مبعدينَ من رحمة الله تعالى. والبعد: الهلاك، والبعدُ التباعد من الخير، يقال: بَعُدَ يبعد من باب: كرم بعداً، إذا تأخر، وتَبَاعد، وبَعِدَ يبعد، من باب: طَرِب، بعداً إذا هلكَ. ومنه قول الشاعر:

لاَ يَـبْـعُـدَنْ قَـوْمِـيْ ٱلَّـذِيْـنَ هُـمُ سُـمُّ ٱلْـعُـدَاةِ وَآفَـةُ ٱلْـجُـزُرِ

وقال النابغة:

فَـلاَ تَـبْـعُـدَنْ إِنَّ ٱلْـمَـنِـيَّـةَ مَـنْـهَـلٌ وَكُـلُّ ٱمْـرِىءٍ يَـوْمَـاً بِـهِ ٱلْـحَـالُ زَائِـلُ

ومنه قول الشاعر:

مَـا كَـانَ يَـنْـفَـعُـنِـيْ مَـقَـالُ نِـسَـائِـهِـمْ وَقُـتِـلْـتُ دُوْنَ رِجَـالِـهِـمْ لاَ تَـبْـعَـدِ

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، وهي قبيلة من العرب، سموا باسم أبيهم الأكبر، ثمودَ بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. سمُّوا بذلك لقِلَّة مائهم من الثمد، وهو الماءُ القليلُ. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: كونكم وخلَقَكم. ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾؛ أي: عمركم وأسكنكم[2] فالسين والتاء زائدتان، أو صيَّركم عامرينَ لها، فهما للصيرورة. وفي «البيضاوي»: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: عمَّركم فيهَا واستبقاكم من العمر، يقال: عمر الرجل يَعْمُرُ عَمْراً بفتح العين وسكون الميم؛ أي: عاش زماناً طويلاً، واستعمره الله؛ أي: أطال بقاءه، ونظيره بَقِي الرجلُ، واستبقاه الله من البقاء،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات وروح البيان.

أي: إبقاء الله، فبناءِ استفعل للتعدية. والمعنى: عَمَّرَكُم واستبقاكم في الأرض، أو أقدركم على عمارتها، وأمرَكم بها، وقيل: هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم، ويَرِثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرينَ ديارَكم، تسكنونها مدةَ عمركم، ثم تتركونها لغيركم، اهـ. ويقال: أعمرتُه الأرضَ، واستعمرته إياها، إذَا فوضت إليه عِمَارَتَها. ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: مُوقِعٌ في الريب، اسم فاعل من أَرَابَ المتعدي بمعنى أوقعه في الريب، أو مِن أَرَابَ اللازم بمعنى صارَ ذَا ريب وشك، وذو الريب وصاحبه من قام به، لا نفس الشك، فالإسناد مجازي للمبالغة كجد جده. والرَّيْبُ: الظن والشك، يقال: رابني الشيءُ يَريبني، إذا جَعَلَك شاكاً. ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ الآية المعجزة الدالة على صدق نبوته. ﴿ذروها﴾ اتركوها وخلوها وشأنَها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يقال: عَقرَ الناقة بالسيف، إذا قطع قَوائِمَها به أو نَحَرَها. ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ﴾ التمتع: التلذذ بالمنافع والدار البلد كما يقال: ديار بكر؛ أي: بلادهم. ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ أي: غير مكذوب فيه؛ لأن المكذوبَ وصف الإنسان لا الوعد؛ لأنه يقال: كَذَبَ زيد عمراً في مقالته، فزيد كاذب، وعمرو مكذوب، والمقالةُ مكذوب فيها. فالكلامُ على الحَذْفِ والإيصال، فلمَّا حذف الجار صار المجرورُ مفعولاً على التوسع، فأقيم مقام الفاعل، اهـ «شهاب». وفي «السمين»: قولُه: ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ يجوز أن يكونَ مَصدراً على وزن مفعول، وقد جاء منه ألفاظ: نَحْوُ: المجلود، والمعقول، والمنشور، والمغبون، والمفتون، ويجوز أن يكونَ اسمَ مفعول على بابه، وفيه تأويلان:

أحدهما: غير مكذوب فيه، ثُمَّ حذف حرف الجر، فاتصل الضمير مرفوعاً مستتراً في الصفة، ومثله يوم مشهود.

والثاني: أنه جَعَلَ هو نفسَه غير مكذوب؛ لأنه قد وَفَى به، وإذا وَفى به.. فقد صَدَقَ، اهـ. والوعد خبر موقوت كأنَّ الواعدَ قال للموعود: إنّني أفِي به في وقته، فإنْ وفى.. فقد صَدَقَ، ولم يكذبه. ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وأصلُ الأخذ: التناولُ باليد، ثم استعمل في الأشياء المعنوية، كأخذ الميثاق، والعهد، وفي الإهلاك، وحُذفت تاء التأنيث من الفعل إما لكون المؤنث مجازياً، أو للفصل بالمفعول، أو لأن الصيحةَ بمعنى الصياح، والصيحةُ فعلة تَدُلُّ على المرة

من الصياح، وهو الصوت الشديد. يقال: صاح يصيح صياحاً؛ أي: صوَّت بقوة، اهـ «سمين». ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ على وجوههم مصعوقينَ لم يَنْجُ منهم أحدٌ، وجثومهم سُقُوطُهم على وجوههم، أو الجُثُوم: السكونُ: يقال للطير: إذا باتت في أوكارها.. جَثَمَتْ، ثم إن العربَ أطلقوا هذا اللفظَ على مَا لا يتحرك من الموت. قال في «بحر العلوم» يقال: الناسُ جثم أي قعود لا حرَاكَ بهم. وفي «المصباح»: جثم الطائر، والأرنب يجثمُ من بابي دَخل، وجلس جُثُوماً، وهو كالبروك من البعير، والفاعل جَاثِم وجثام مبالغة، اهـ. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ يقال: غنيت بالمكان إذا أتيتَه وأقمتَ فيه. وفي «المختار»: وغَنِي بالمكان إذا أَقَام به، وبابه صَدِيَ، اهـ. والمَعنى: المنزلُ، والمقام الذي يقيم فيه الحي، يقال: غني الرجلُ بمكان كذا؛ أي: أقام به، وغَنيَ أي عاش.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجازُ المرسل في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؛ لأنَّ المرادَ بالسماءِ المطر، فهو من إطلاق المحل، وإرادة الحال؛ لأنَّ المطر ينزل من السماء.

ومنها: المبالغة في ﴿مِّدْرَارًا﴾ لأن مفعالَ من صيغ المبالغة؛ ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ﴾.

ومنها: التعجيز في قوله: ﴿فَكِيدُونِى﴾ لأنَّ المرادَ من هذا الأمر التعجيز.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ لأنَّ الأخذَ بالناصية عبارة عن الغلبة والقهر، أو فيه استعارة تمثيليَّة، شبَّهَ الخلقَ، وهم في قبضة الله، وملكه وتحت قهره وسلطانه، بالمالك الذي يقودَ المقدورَ عليه بناصيته، كما يقاد الأسيرُ والفرس بناصيته.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لأنه عبارة عن كمال العدل في ملكه تعالى، فهو مطلع على أمور العباد، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ لأن الأمرَ كناية عن العذاب.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لبيان أنَّ الأمرَ شديد عظيم، لا سهلٌ يسيرٌ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾؛ أي: عصَوا رَسولَهم هوداً من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، وفيه: تفظيع لحالهم، وبيان أنَّ عصيانَهم له، عصيانٌ لجميع الرسل، السابقين، واللاحقين.

ومنها: المبالغة في التهويل والتفظيع في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا﴾، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ لأنَّ في تكرير حرف التنبيه، وتكرير لفظ عاد من المبالغة في التهويل من حالهم ما لا يخفى.

ومنها: القصر في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: هو سبحانه لا غيره أنشأكم وخلَقَكم؛ لأنه فاعل معنوي، وتقديمه يدل على القصر ذكره في «روح البيان».

ومنها: الإسناد المجازي في قوله﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فإسناد الريب إلى الشك مجاز، لأن الموقع في الريب بمعنى القلق والاضطراب، هو الله سبحانه وتعالى لا الشك، ولكن أسنده إليه للمبالغة كجد جده.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من يمنعني، ويحفظني من عذاب الله؛ لأن النصرةَ هنا مستعملة في لازم معناها، وهو المنع والحفظ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ كبيت الله بمعنى أنها لا اختصاصَ لأحد بها.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ترع نباتَها وتشرب

ماءَها فهو من قَبيل الاكتفاء، نحو: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾.

ومنها: المجاز المرسل، في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لأنَّ العاقرَ واحد منهم، وهو قدار بن سالف، فأطْلَقَ ما للبعض على الكل، لرضاهم بفعله، وأمرهم له.

ومنها: حكاية الحال الماضيةِ استحضاراً لها في قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: ما عَبَد آباؤنا.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ لزيادة البيان.

ومنها: تكرار حرف التنبيه، ولفظ ثمود مبالغةً في التهويل مِنْ حالهم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

ومنها: الطباقُ بين ﴿نَجَّيْنَا﴾ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأن معنى أَخَذَ أهلك.

ومنها: الزيادة، والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ
حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ
﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ
أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ
يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ
حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ
أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا
تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ...﴾ الآيات، واعلم أنَّ ترتيب[1] قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف، وإنما أدرج شيئاً من أخبار

(١) البحر المحيط.

إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط؛ لأن له مَدْخَلاً في قصة لوط، وكان إبراهيمُ ابنَ خالةِ لوط.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذَكَرَ بَعضَ ما جرى بين إبراهيم والملائكة، وَصَل به بعضاً آخر كالتتمة له.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن ما يدل على أن لوطاً كان قلقاً على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم، وذلك قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ذَكَرَ هنا أنَّ الرُّسلَ بشروه بأن قومَه لن يصلوا إلى ما هموا به، وأنَّ اللَّهَ تعالى مهلِكُهُم ومنجيه مع أهله من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآية، تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الأعراف، وذكرت هنا مرة أخرى، وقد جاء في كل منهما من العظات والأحكام والحكم ما ليس في الآخر، مع الإحكام في السبك، وحسن الرصف، والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد جاءت رسلُنَا من الملائكة جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، على ما قاله ابن عباس وعطاء في صورة الغلمان، الذين يكونون في غاية الحُسنِ والبهاءِ والجمالِ، إلى إبراهيم عليه السلام حالةَ كونهِم متلبسينَ بالبشارة له بالولد من سارةَ بدليل ذكره في سورة أخرى، ولأنه أطلق البشرَى هنا، وقيَّد في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ والمطلق محمول على المقيد، وهذا شروع[2] في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، لكنها مذكورة هنا توطئةً لقصة لوط لا استقلالاً، ولذا لم يذكرهما على أسلوب ما قبلها وما بعدها، فلم يقل وأَرْسَلنا إبراهيمَ إلى كذا كما قال ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، ﴿وَإِلَىٰ

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

ثَمُودَ﴾، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ مثلاً وعاش إبراهيم من العمر مئة وخمساً وسبعينَ سنةً، وبينه وبين نوح ألفاً وست مئة وأربعون سنة. وابنه إسحاق عاش مئةً وثمانين سنةً. ويعقوب بن إسحاق عاش مئةَ وخمساً وأربعين سنةً.

و﴿رُسُلُنَآ﴾ يقرأ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافاً للضمير بخلاف ما إذا أضيف إلى مظهر، فليس فيه إلا ضمها، والرسل: هم الملائكة كما مر، واختلفوا في عددهم. فقال ابن عباس، وعطاء، كانوا: ثلاثةً جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ. وقال الضحاك: كانوا تسعةً. وقال مقاتل: كانُوا اثني عشر مَلَكاً. وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريلُ، ومعه سبعة أملاك. وقال السدي: كانوا أحَدَ عَشَرَ مَلَكاً على صور الغلمان الحسان الوجوه.

وقول ابن عباس هو الأولى؛ لأن أقلَّ الجمع ثلاثةٌ. وقوله: ﴿رُسُلُنَآ﴾ جمع فيحمل على الأقل، وما بعده غير مقطوع به، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي، ولم يثبت شيء منه في عددهم. والبشرى هي: البشارة بإسحاقَ ويعقوبَ. وقيل: بإهلاك قوم لوط وإنجائه. والأول أظهر. وقوله: ﴿قَالُوا۟﴾ استئناف بياني؛ أي: قالت الرسلُ لإبراهيم. ﴿سَلَٰمًا﴾؛ أي: سلمنا عليك سلاماً أو نسلم عليك سلاماً، هذه تحيتهم التي وَقَعَتْ منهم، وهي لفظ سلاماً، وهو مصدر معمول لفعل محذوف وجوباً؛ أي: سلمنا سلاماً ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليكم ﴿سَلَٰمٌ﴾ هذه تحيته الواقعةُ منه جواباً، وهي لفظ سلام، وهو مبتدأ خبره محذوف كما قَدَّرنا، فقد حيَّاهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية، ومن المعلوم أنَّ الاسمية أبلغُ من الفعلية؛ لأن الجملةَ الاسمية دالة على الثبات والاستمرار، والفعليةَ دالة على التجدد والحدوث، فكانَتْ تحيتُه أحسنَ من تحيتهم كما قال: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾.

وفي «السمين»: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ في نصبه وجهان:

أحدهما: أنه مفعول به، ثمَّ هو محتمل لأمرين:

١ ـ أن يُرادَ: قالوا هذا اللفظَ بعينه، وجاز ذلك؛ لأنه يتضمن معنى الكلام.

٢ ـ أنه أرادَ قالوا معنى هذا، وقد تقدم ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾.

وثاني الوجهين: أن يكونَ منصوباً على المصدر بفعل محذوف، وذلك الفعل في محل نصبٍ بالقول، تقديره: قالوا: سلمنا سلاماً، وهو من باب: ما نابَ فيه المصدر عن العامل فيه، وهو واجبُ الإضمار، وقوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في رفعه وجهان:

١ ـ أنه مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: سلام عليكم.

٢ ـ أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: أمري، أو قولي سلام، وقد تَقَدَّم أول هذا الموضوع، أن الرفعَ أدل على الثبوت من النصب، والجملةُ بأسرها، وإن كان أحدُ جزأيها محذوفاً في محل نصب بالقول. وقرأ الأخوان حَمزةُ والكسائيَّ: ﴿قال سلم﴾ هنا، وفي سورة الذاريات: بكسر السين، وسكون اللام، ويلزم بالضرورة سقوطُ الألف. فقيل: هما لغتان كحِرْم، وحرام، وحِلٍ وحَلاَل. وقيل: السِّلْمُ، بالكسر، ضدُّ الحرب، وناسبَ ذلك، لأنه نكرهم فكأنه قال: أنَّا مُسَالِمكم غيرُ محارب لكم، اهـ.

ولفظةُ (ما) في قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ نافية، و﴿لبث﴾ فعل ماض بمعنى أَبْطأَ، وجملة: ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فاعله؛ أي: فما أبطأ[1] وتأخَّر عنهم مجيء إبراهيم بعجل حنيذ؛ أي: بولد بقر مشويّ بحجارة محماة في حفرة من الأرض من غير أن تمسه النار، فوضَعَه بين أيديهم، وكان مِنْ فعلِ أهل البادية، وكان سَميناً يسيل منه الوَدَكُ. قال قتادة: وإنما جاءهم بعجل؛ لأنه كان عامَّة مال إبراهيم البقر، وقيل: مُكَثَ إبراهيم عليه السلام خَمَسَ عشرة ليلةً لم يأته ضيف، فاغتم لذلك، وكان يحب الضيف، ولا يأكل إلا معه، فلما جاءت الملائكة رأى أضيافاً لم يرَ مِثْلُهُم قطُّ فَعَجَّلَ قراهم، فجاءهم بعجل سمينٍ مشويٍّ.

وقال أكثر النحويينَ[2]: (أنْ) هنا بمعنى حتى. والمعنى: فما لَبِث إبراهيم

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

حَتّى جاءَ بعجل حنيذ، وقيل: إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث إبراهيم عن أن جاء؛ أي: فما أَبْطَأَ إبراهيم عن مجيئه بعجل حنيذ. و (ما) نافية قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي: ما أبطأ وتأخر مجيئه بعجل حنيذ. وقيل: إن (ما) موصولة، وهي مبتدأ، والخبر أَنْ جاءَ بعجل حنيذ، والتقدير: فالذي لَبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ؛ أي: قدر زمان مجيئه به. والحنيذ: المشويُّ مُطْلقاً. وقيل: المشوي بحَرِّ الحجارة من غير أن تمَسَّه النار، يقال: حَنِذَ الشاةَ يحنذها جعلها فَوْقَ حجارة محماةٍ لتنضجها فهي حنيذ. وقيل: معنى (حنيذ): سمين. وقيل: الحَنِيذُ: السَّمِيطُ. وقيل: النَّضيجُ، وهو فعيل بمعنى مفعول كما سيأتي في مباحث الصرف.

وقد[1] اهتدى البشر إلى شَيِّ اللحم مِنْ صيدٍ وغيره على الحجارة المُحَمَّاة بِحَرِّ الشمس قديماً قبل الاهتداء إلى إنضَاجِه بالنار. وجاء في سورة الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. وفي هذا دليل على أنه كان مَشْوِيّاً مُعَدّاً لِمَنْ يجيء من الضُّيوف، وربما كان قد شَوِيَ عند وصولهم بلا إبْطاءٍ.

فلما قرب إليهم، ووضع بين أيديهم كفوا عنه ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: أيدي الرسل ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لا تمتد إلى الطعام الذي قَدَّم إليهم ﴿نَكِرَهُمْ﴾؛ أي: أنكر إبراهيم ذلك منهم، ووجده على غير ما يعهد من الضيوف، ولم يعرف سبب عدم تناولهم منه، وامتناعهم عنه، فالعادة قد جرت أنَّ الضيفَ إذا لم يطعم مما قدم إليه.. ظنَّ أنه لم يَجِيء بخير، وأنه يُحْدِّث نَفْسُه بشرٍّ، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ إبراهيم؛ أي: أحس وأدرك إبراهيم ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من جهتهم ﴿خِيفَةً﴾؛ أي: خوفاً في نفسه؛ أي: أحسَّ وعلم في نفسه فزعاً وخوفاً منهم حين شعر أنهم ليسوا بشراً، ووقع في نفسه أنهم ملائكة، وأنَّ نزولَهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه.

والوجس رعب القلب[2]، وإنما خاف إبراهيمُ عليه السلام منهم؛ لأنه كان

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ينزل ناحيةً من الناس، فخاف أن ينزلوا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه، ولم يعرف أنهم ملائكة. وقيل: إن إبراهيمَ عرف أنهم ملائكة، وإنما خَافَ أَنْ يكونوا نزلوا بعذابِ قومه، فخاف من ذلك. والأقرب: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكةً في أول الأمر، ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدمَ إليهم الطعام، ولو عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم، لعلمه أن الملائكةَ لا يأكلونَ ولا يشربون، ولأنه خافهم، ولو عرف أنهم ملائكة. . لما خافهم، فلما عرف الملائكة خَوفَ إبراهيم منهم بأمارات تدل عليه كظهور أثره على وجهه، أو بكلام من إبراهيم يدل على خوفه كما قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾. فلا يقال: الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، فمن أينَ علمت الملائكة إخفاءه للخيفة. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالتَ الملائكة لإبراهيم ﴿لَا تَخَفْ﴾ منًا يا إبراهيم فنحن لا نريد بك سوءاً ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب؛ أي: وإنما نحنُ ملائكة الله أرسلنا إلى قوم لوط خاصة لإهلاكهم، وكانت دِيارهم قريبةً من دياره، وما أرسلنا إلى قومك، فكُنْ طيبَ النفس، وكان لوط أخا سارة، أو ابنَ أخي إبراهيم عليهما السلام، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن ناخور، وهي ابنة عمه ﴿قَآئِمَةٌ﴾ وراءَ الستر بحيث تسمع محاوراتهم، أو على رؤوسهم للخدمة، وكانت نساؤهم لا تحتجب كعادة الأعراب، ونازلة البوادي والصحراء، ولم يكن التبرج مكروهاً، وكانت عجوزاً، وخدمة الضيفان مما يعدُّ من مكارم الأخلاق.

وجاء في شريعتنا مثل هذا في حديث أبي أسيد الساعدي، وكانت امرأته عروساً فكانت خَادِمَة الرسول ﷺ، ومن حضر معه من أصحابه. والجملة الاسمية حال من ضمير قالوا: أي: قالوا لإبراهيم لا تخف في حال قيام امرأته. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ امرأة إبراهيم سروراً بالأمن من الخوف، أو لقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة. قال الجمهور: هو الضحك المعروف، فقيل: هو مجاز معبر به عن طلاقة الوجه، وسرورها بنجاة أخيها وهلاك قومه. وقال مجاهد، وعكرمة، فضحكت حَاضَتْ عند فرحها بالسلامة من الخوف، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد. قال الزمخشري[1]: وفي مصحف عبد الله:

(١) البحر المحيط.

﴿وامرأته قائمة وهو قاعد﴾. وقال ابن عطية: وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وهي قائمة وهو جالس﴾ ولم يتقدم ذِكرُ امرأة إبراهيم، فيُضْمَرُ لكنه يفسره سياق الكلام. وقرأ محمد بن زياد الأعرابي، رجل من قراء مكة ﴿فضحكت﴾ بفتح الحاء. قال المهدوي، وفتح الحاء غير معروف. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾؛ أي: فعقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا، وإسحاق بالعبرانية الضحاك، وولد إسحاق بعد البشارة بسنة، وكانت ولادته بعد إسماعيل بأربع عشرةَ سنةً. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾؛ أي: ووهبنا لها من بعد إسحاق ﴿يَعْقُوبَ﴾ ولدَ إسحاق، فهو من عطف جملة على جملة، ولا يكون يعقوب على هذا مبشَّراً به، وبشِّرَت من بين أولاد إسحاق بيعقوب؛ لأنها رأَتْهُ، ولم تَرَ غَيْرَه، وهذه البشارة لسارة كانت وهي بنت تسعٍ وتسعينَ سنةً، وإبراهيم ابن مئة سنة.

واعلم: أنه لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر، تَمَنَّتْ سَارةُ أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنها، فبُشِّرَت بولد يكون نبياً، ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولدَ ولدها، وإنما بشروها دونَه؛ لأن المرأَة أعجل فرحاً بالولد، ولأن إبراهيمَ بشروه، وأمنوه من خوفه، فأتبعوا بشارَتَه ببشارتها. وقال في «التبيان»[1]: أي بشروها بأنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى وَلَد الولد، وهو يعقوب ابن إسحاق. والاسمان[2] يحتمل وقوعهما في البشارة، كيحيى حيث سمي به في البشارة قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾. ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا بإسحاق ويعقوب، وتوجيه البشارة إليها لا إليه، مع أنه الأصلُ في ذلك للدلالة على أنَّ الولدَ المبشرَ به يكون منها، ولأنها كانت عَقِيمَةً حريصةً على الولد، وكان لإبراهيم ولدُه إسماعيل من هاجر، ولأنَّ المرأَةَ أشدُّ فرحاً بالولد.

وقال ابن عباس ووهب: فضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها، وسن زوجها، وعلى هذا تكون الآية من التقديم والتأخير، تقديره: وامرأته قائمةٌ فبشرناها بإسحاق، ومِن وراءِ إسحاقَ يعقوب، فضحكت كما في «بحر

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

العلوم» وتفسير أبي الليث. قال ابن عطية: أضاف فعلَ الملائِكَةِ إلى ضمير اسم الله تعالى في قوله﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ إذ كَانَ ذلك بأمره ووحيه، وقد وَقَعَ التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة لكونه منهما. وقرأ[1] الحرميان نافع، وابن كثير، والنحويان أبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر ﴿يعقوبُ﴾ بالرفع على الابتداء ﴿وَمِن وَرَآءِ﴾ الخبر كأنه قيل، ومن وراء إسحاق يعقوب كائن. وقدره الزمخشري مولودٌ أو موجودٌ. قال النحاس: والجملة داخلة في البشارة، أي: فبشرناها بإسحاق متصلاً به يعقوب. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص، وزيد بن علي ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب. قال الزمخشري، كأنه قيل: ووهبنا لها إسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب، يعني أنه عطف على التوهم، والعطف على التوهم لا ينقاس، والأظهر أن يَنْتَصِبَ ﴿يَعْقُوبَ﴾ بإضمار فعل، تقديره: ومن وراء إسحاقَ وهبنَا لَهَا يعقوب، ودلَّ عليه قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ لأن البشارة بمعنى الهبة، ورجح هذا الوجه أبو علي، ومن ذهب إلى أنه مجرور معطوف على لفظ بـ ﴿إِسْحَٰقَ﴾ أو على موضعه فقوله: ضعيف؛ لأنه لا يجوز الفصل بالظرف، أو المجرور بين حرف العطف، ومعطوفه المجرور، فلا يجوز مررت بزيد اليومَ وأمس عمرو.

وقوله: ﴿قَالَتْ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قالت إذ بشِّرت بذلك، فقيل: قالت سارة لما بشرت بإسحاق ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وقرأ الحسن: ﴿ياويلتي﴾ بالياء، وهي كلمة تقال عند التعجب؛ أي: يا عجباً. وأصله[2]: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء فأبدل من الياء الألف، ومن كسرة التاء الفتحة، لأنَّ الألفَ مع الفتحة أخفُّ من الياءَ مع الكسرة، وأصل هذه الكلمة في الشر؛ لأنَّ الشَّخْصَ ينادي ويلته، وهي هلكته يقول لها تعالي واحضري فهذا أوان حضورك، ثمَّ أطلق في كل أمر عجب، كقولك: يا سبحانَ الله، وهو المراد هنا. قال سعدي المفتِي أصل الدعاء بالويل ونحوه في التفجع لشدة مكروه يدهم النفسَ، ثم استعمل في عَجَب يدهم النَّفسَ، والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهام تعجب، أي: قالت سارة لما بشرت بإسحاق، يا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح المعاني.

ويلتا، ويا عجباً احضري إلـيَّ لأتعجب منك، فهذا أوان التعجب منك كيف أَلِدُ وَلداً ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؛ أي: والحال أني عجوز قد بلغت السن التي لا يلد مَنْ كان قد بَلغها من الرجال والنساءِ، بلغت تسعينَ سنةً أو تسعاً وتسعينَ سنةً لم ألد قط، ومثلي لا يلد، بل الغالب أن ينقطع حيضُ المرأة في سن الخمسين، فيبطل استعدادها للحمل، والولادة، على أنها كانت عقيماً ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾؛ أي: والحال أن هذا الرجلَ الذي تشاهدونه بعلي أو زوجي حالة كونه ﴿شَيْخًا﴾ كبيراً لا يولد لمثله ابن مئة سنة، أو مئة وعشرين سنةً. وأصل معنى البعل: هو المستعلي على غيره، ولما كان زوج المرأة مستعلياً عليها قائماً بأمرها سَمِيَّ بعلاً، اهـ «خازنٍ». ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ الذي بشرتمونا به ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ مخالف لسنن الله تعالى التي سلكها في عباده، وقرأ ابن مسعود وهو في مصحفه والأعمش[1]: ﴿شيخ﴾ بالرفع، وجوَّزوا فيه، وفي ﴿بعلي﴾ أن يكونا خبرين كقولهم هذا حلو حامض، وأن يكونَ بعلي الخبر، وشيخ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من بعلي، وأن يكون بعلي بدلاً، أو عطف بيان وشيخ الخبر.

والإشارة بهذا إلى الولادة، أو البشارة بها تعجبتْ من حدوث ولد بين شيخين هرمين، واستغربت ذلك من حيث العادة، لا إنكاراً لقدرة الله تعالى. ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾؛ أي[2]: حصولَ الولد من هرمين مثلنا، ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة إلى سنة الله المسلوكة فيما بين عباده، ومقصدها استعظام نعمة الله عليها في ضمن الاستعجاب العاديّ، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرة الله تعالى؛ لأن التعجبَ من قدرة الله يوجب الكفرَ، لكونه مستلزماً للجهل بقدرة الله تعالى.

وقدَّمَتْ بيانَ حالها على بيان حال بعلها؛ لأن مُباينة حَالها لِمَا ذُكر من الولادة أكثر، إذ رُبَّما يُولد للشيوخ من الشَّواب، ولا يولد للعجائز من الشبان.

والاستفهام في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ للإنكار لعَجَبِهَا؛ أي: قالت الملائكة لسارة منكرينَ عليها لعجبها، أتعجبين يا سارة من أمر الله وشأنه،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وقدرته على إيجاد الولد من كَبيرَيْن. قال سعدي المفتي: أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً، فدلكه بين أصبعيه، فإذا هي شجرة تهتزُّ، فعرفت أنه من الله تعالى؛ أي: قالوا لها: لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء يَصْدُر عن أمر الله الذي لا يُعجزه شيءٌ كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ والله الخالق للسنن، والواضع لنظام الأسبابِ، هو الذي أرادَ أنْ يستثنيَ منها واقعةً بعينها، يجعلُها من آياته لحكمة من حِكَمِه أرادها لبعض عباده.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ التي وسعت كلَّ شيء، واستبقت كلَّ خير ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾؛ أي: خيراته النامية المتكاثرة في كل باب، التي من جملتها هبة الأولاد حالتان ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لازمتان لكم لا تفارقكم. وحكى سيبويه ﴿عليكِم﴾ بكسر الكاف، لمجاورة الياء كما في «القرطبي». يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: يا أهلَ بيت النبوة، ويراد بالبيت، بيت السكنى كما ذكره أبو حيان. أرادوا أنَّ هذه، وأمثالَها مما يكرمكم به ربّ العزة، ويخصكم بالإنعام يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عَجَبٍ.

والمعنى: رحمة[1] الله الواسعةُ لكل شيء، وخيراته الفائضة منه بواسِطَة تلكَ الرحمة، لازمة لكم لا تفارقكم يا أهلَ بيت إبراهيم، فإذا رأيتم أنَّ الله خَرَق العاداتِ في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية، فكيفَ يليق به التعجبُ، وما تلك بأُولَى آية لإبراهيم، فقد نجَّاه الله من نار قومه الظالمين، وآواه إلى الأرض التي بَارَكَ فيها للعالمين، وهذه الجملة مستأنفة. فقيل: خبر، وهو الأظهر. وقيل: دعاء. وقيل: الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنَّ الأنبياء منهم، وكُلُّهم من ولد إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَمِيدٌ﴾ الفعال؛ أي: فاعل ما يستوجب به الحمدَ من عباده، لا سيما في حقها، ﴿مَّجِيدٌ﴾ الذات أو كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده، خصوصاً، في أنْ جَعَلَ بيتَها مهبطَ البركات. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ وزال ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿ٱلرَّوْعُ﴾؛ أي: الخوف والفزَعُ الذي أصابه لمَّا لم يأكلوا من العجل، واطمأنَّ قلبه بعرفانه

---

(١) المراح.

بحقيقتِهم المَلَكِيّةِ، وعرفانِ سببِ مجيئهم ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بنجاة قومه كما قال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أو بالولدِ إسحاقَ كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وإبراهيم أصل في التبشير، كما قال في سورة أخرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: أخذ يجادل، ويخاصم رسلَنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط، وجُعِلَتْ مجادلتهم مجادلةَ الله؛ لأنها مجادلة في تنفيذ أمره. وقد صرَّح في سورة العنكبوت بكون هذه المجادَلَةِ مع الرسل حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وجيءَ بجواب[1] لَمَّا مضارعاً مع أنه ينبغي أن يكون ماضياً لكونها موضوعة للدلالة على وقوع أمر في الماضي لوقوع غيره فيه على سبيل حكاية الحال الماضية، أي جَادَلَ، وخَاصَمَ رسلَنَا في شأن قوم لوط وحقِّهم لرفع العذاب عنهم جدالَ الضعيف مع القويِّ لا جِدَالَ القوي مع الضعيف بل جدالَ المحتاج الفقير مع الكريم الغني، وجدالَ الرحمة والمعاطفة وطلب النجاة للضعفاء، والمساكين الهالكين. وكان لوط ابنَ أخيه، وهو لوط بن هاران بن آزر، وإبراهيم بن آزر، ويقال: ابن عمه، وسارة كانت أختَ لوط. فلما سمعا بهلاك قوم لوط اغتما لأجل لوط، فطفق إبراهيم يجادل الرسلَ حينَ قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، فقال: أرأيتم لو كانَ فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعونَ؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجلٌ واحد مسلمٌ، أَتُهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: غير[2] عجول على كل من أساءَ إليه، فلذلك طَلَبَ تأخيرَ العذاب عنهم، رَجَاءَ إقدامهم على الإيمان،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

والتوبة عن المعاصي ﴿أَوَّٰهٞ﴾؛ أي: كثيرُ التضرع إلى الله عند وصول الشدائد إلى الغير ﴿مُّنِيبٞ﴾؛ أي: رجاع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم.

والمعنى: أنه جَادَلَ الملائكةَ في عذاب قوم لوط؛ لأنه كان حليماً لا يعجل بالانتقام من المسيء، كثير التأوه مما يَسُوء الناسَ، ويؤلمهم يَرْجِع إلى الله في كل أموره؛ أي: كَانَ جداله بحلم وتأوه عليهم، فإنَّ الذي لا يتعجل في مكافأة من يؤذيه يتأوه أي: يقول أوه وآه، إذَا شاهدَ وصولَ الشدائد إلى الغير، وأنه مع ذلك راجعٌ إلى الله في جميع أحواله؛ أي: ما كان بعض أحواله مشوباً بعلة راجعةٍ إلى حَظِّ نفسه، بل كان كُله لله، فتبيَّنَ أنَّ رقَّةَ القلب حَمَلَتْهُ على المجادلة فيهم، رَجَاءَ أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلَّهم يحدثون التوبةَ والإنابَةَ، كما حملته على الاستغفار لأَبِيهِ.

وقوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ على تقدير القول؛ أي: قالت الملائكة يا إبراهيم ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدال، والمحاورَة في شيء مفروغ منه، والأمر ما قضاه، وحكم به من عذابه الواقع بهم لا مَحالَةَ، ولا مردَّ له بجدال، ولادعاءٍ، ولا غير ذلك ﴿إنه﴾؛ أي: إنَّ الشَّأنَ ﴿قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ وقدره بمقتضَى قضائِه الأزليِّ بعذابهم، وهو أَعْلَمُ بحالهم، والقضاء[1] هو الإرادة الأزلية، والعناية الإلَهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص، والقدرُ تعلق الإرادة بالأشياء في أوقاتها ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾؛ أي: وإنَّ قوم لوط ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾؛ أي: غير مصروف عنهم، ولا مدفوع بجدال، ولا دعاءٍ، ولا غيرهما، وإنك مأجور مثاب فيما جادلتَنا لنجاتهم، وهذا كما كان النبي ﷺ، يقول: «اشفعوا تؤجَروا، وليقضينَّ اللَّهُ على لسان رسوله ما شاء».

والمعنى[2]: يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط، والاسترحام لهم، إنه قد نَفَذَ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

لا يردُّ عن القوم المجرمينَ وإنهم آتيهم عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بِجَدَلٍ ولا شفاعة، ولا بغيرهما. وقرأ عمرو بن هرم[1]: (وإنهم أتاهم) بلفظ الماضي، وعذاب فاعل به عبر بالماضي عن المضارع لتحقق وقوعه كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

والظاهر: أنَّ إتيان العذاب الغير المردود لإصرارهم على الكفر، والتكذيب بعد استبانة الحق، واللواطةُ من جملة أسباب الإتيان كالعَقْرِ لناقةِ الله بالنسبةِ إلى قوم صالح.

رُوي: أنَّ الرسلَ الذين بَشَّروا إبراهيمَ ذهبوا بعد هذه المجادلة من عنده، وانطلقوا إلى قرية لوط سدوم، وما بين القريتَين أربع فراسخ، فانتهوا إليها نصفَ النهار، فإذا هم بِجَوَارٍ يَسْتَقِيْنَ من الماء، فأبصَرَتْهُم ابنةُ لوط، وهي تستقي الماء، فقالت لهم: ما شأنكم؟ وأين تريدون؟ قالوا: أَقْبَلْنَا مِنْ مكان كذا، ونريد كذا، فأخبرتهم عن حال أهل المدينة، وخبثِهم، فأظهروا الغَمَّ مِنْ أنفسهم، فقالوا: هل أحد يضيفنا في هذه القرية؟ قالت: ليس فيها أحد يضيفكم إلا ذاك الشيخ، فأشارتِ إلى أبيها لوط، وهو قائم على بابه فأتَوا إليه. فلمَّا رآهم، وهيئتهم ساءه ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾؛ أي: ولما جاءت ملائكتُنا لوطاً ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ أي: حَزِنَ بسببهم؛ أي: سَاءَهُ مجيؤهم، وهو فعل مبني للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير لوط من قولك: ساءني كذا؛ أي: حصل لي منه سوء وحزن، وغم وبهم متعلق به؛ أي: بسببهم. والمعنى: ساءَهُ وأَحْزَنَه مجيئهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ أي: ضاق صدره بمجيئهم وكونهم عنده، وضيق الصدر كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه.

والمعنى: ساءه مجيؤهم، وضَاقَ بهم صَدْرُه، لا لأنهم جاؤوا مسافرين، وهو لا يُحِبُّ الضيفَ، فحاشا بيت النبوة عن ذلك، بل لأنهم جاؤوا في صورة غلمان حِسان الوجوه، فحَسِبَ أنهم أناس، فَخَافَ عليهم أن يَقْصِدَهُم قومُه، فيعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم.

---

(١) البحر المحيط.

وفيه إشارة إلى عروض الهم والحزن له، لهلاك قومه بالعذاب، فَانْظُر إلى التفاوت بين إبراهيم، ولوط، وبين قومهما حيث كان مجيؤهم لإبراهيم للمسرة، وللوط للمساءة، مع تقديم المسرة، لأنَّ رحمةَ الله سابقة على غضبه. وروي أنَّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهدَ عليهم لوط أربعَ شهادات، فلما أَتَوْا إليه، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية، قالوا: وما أمرها؟ قال: أشهدُ بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا منزلَه، ولم يعلم بذلك أحَدٌ. ﴿وَقَالَ﴾ لوط ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾؛ أي: شديد علـيّ، وهو لغة جرهم كما في «ربيع الأبرار»؛ أي: هذا يوم شديد شَرُّه عظيم بلاؤه. ثُم قال لوط لامرأته: ويحك قومِي فاخبِزِي للضيف، ولا تعلِمي أحداً. وكانت امرأته كَافِرَةً منافِقَةً، فانطلقَتْ لطلب بعض حَاجَتِها، فجَعَلَت لا تدخل على أحد إلا أخبرَتْه، وقالت: إنَّ في بيت لوط رجالاً ما رأيت أحسنَ وُجوهاً منهم، ولا أنظَفَ ثياباً، ولا أطيبَ رائحةً. فلمَّا علموا بذلك جاؤوا إلى باب لوط، مُسْرِعين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾؛ أي: وجاءَ لوطاً، وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُۥ﴾، والحال أنهم ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يُساقون إليه، ويسرعون إليه، ويَسُوقُ بعضهم بعضاً، كأنما يُدْفَعون دفعاً طلباً للفاحشة من أضيافه، غافلينَ عن حالهم جاهلينَ بمآلهم. والإهراع: الإسراع يقال: أَهْرَعَ القَوْمُ، وهَرَعُوا. وقرأ الجمهور: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ مبنياً للمفعول مِن أُهْرِعَ، أي: يُهْرِعُهم الطَّمعُ وقرأت فرقة: (يهرعون) بفتح الياء من هرع الثلاثي. وجملة قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ حال أيضاً من ﴿قومه﴾؛ أي: جاؤوا مسرعين، والحال أنهم كانوا من قبل هذا الوقت، وهو وقت مجيئهم إلى لوط منهمكين في عمل الفواحش واللواطِ، فتمرَّنوا بها؛ أي: تَعَوَّدوا، واستمروا عليها حتى لم تُعَبْ عندهم قباحتها، ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرِعينَ مجاهرينَ. وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملونَ السيئات.

وفي «التأويلات النجمية» كانوا يعملون السيئات الموجبةَ للهلاك والعذابِ فجاؤوا مسرعينَ مستقبلي العذابِ، وطلبوا من بيت النبوة من أهل الطهارة معاملةً ساءتهم بخيانة نفوسهم، ليستحقوا بذلك كمالَ الشقاوة، وسرعةَ العذاب، انتهى.

ودلَّ ما ذكر على أنَّ جِهارَ الفسق فوقَ إخفائِه، ولذا رد شهادة الفاسق المعلن. وفي الحديث: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون»، أي: لكن المجاهرون بالمعاصي لا يعافَون، بل يؤخذون في الدنيا إن كانت مما يتعلَّق بالحدود، وأما في الآخرة فمطلقاً.

فلما جاؤوا إلى لوط، وقصدوا أضيافَهُ لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعاً و ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ خبره ﴿بَنَاتِي﴾ الصلبية، فتزوجوهن[1]، وكانوا يطلبونهن من قبلُ، ولا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، لا لعدم مشروعيته، فإنَّ تزويجَ المسلمات من الكفار كان جائزاً في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه ﷺ زوج ابنتيه من أبي العاص بن وائل، وعتبة بن أبي لهب، قبل الوحي، وهما كافران، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾. وقيل: كان لهم سيدان مُطَاعَان، فأراد أن يُزَوّجَهما ابنتيه، وأيّا ما كَانَ فقد أراد به وقاية ضيفه، وذلك غايةٌ في الكرم. ﴿هُنَّ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: أحسن لكم فتزوجوهن، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي. وقد كان له ثلاث بَنَاتٍ. وقيل: اثنتان. وقيل: أراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ النساءُ جملةً، لأنَّ نَبِيَّ القوم أبٌ لهم، كما قال ابن عباس: «ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج» ومراده أن الاستماع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط فإنه يَكْبَحُ جماح الشهوة مع الأمن من الفساد. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: أراد نساءَ قومه، وأضافهن إلى نفسه، لأن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة، والتربيةُ، وهذا القول أولى، لأن إقدامَ الإنسان على عَرْضِ بناته على الأوباش، والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروءة، فكيف بالأنبياء وأيضاً فبناته لا تكفي الجمع العظيم، أمَّا بنات أمته، ففيهن كفاية للكل، اهـ «كرخي». والتطهر التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة ﴿أَطۡهَرُ﴾ دلالةَ على التفضيل بل هي مثل: «الله أكبر» فلا يدل على أن إتيان الذكور كان طاهراً كما لا يدل قولك النكاح أطهر من الزنى على كون الزنا طاهراً؛ لأنه خبث ليس فيه شيء

(١) روح المعاني.

من الطهارة. لكن هؤلاء القوم اعتقدوا ذلك طهارة، فبنى ذلك على زعمهم الفاسد واعتقادهم الباطل. وهو مثل ما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «الله أجلّ وأعلى» جواباً لأبي سفيان حيث قال: «أعلُ هُبَل» اعْتَقَد علوَّ صنمه، وذلك اعتقاد فاسد لا شبهةَ فيه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، أو بإيثارهن عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: ولا تذلوني، وتجلبوا عليَّ العارَ ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾، والضيف يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومعنى: ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾؛ أي: في حقهم وشأنهم، فإن إخزاءَ ضيف الرجل إخزاؤه، كما أن إكرامَ من يتصل به إكرامُهُ. والمعنى[1]: أي: فاخشوا الله، واحذروا عقابَهُ في إتيانكم الفاحشةَ التي تطلبونها، ولا تذِلوني وتمتهنوني بفضيحتي في ضيفي، فإن إهانة الضيوف إهانة للمضيف، وفضيحة له، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع أي أليس منكم ﴿رَجُلٌ﴾ واحد ﴿رَّشِيدٌ﴾؛ أي: ذو رشد، وحكمة يَهْتَدِي إلى الحق، ويَرْعَوِي عن القبيح، وينهى من أراد ركوب الفاحشة مِن ضيوفي، ويرد هؤلاء الأوباشَ عنهم ما يريدون، وفي ذلك توبيخٌ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد ألبتةَ يرشدهم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعهم منه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَطْهَرُ﴾ بالرفع والأحسن في الإعراب أن يكون جملتين كل منهما مبتدأ وخبر، وجوِّز في بناتي أن يكونَ بدلاً، أو عطفَ بيان، وهُنَّ فصل وأطهر الخبر. وقرأ الحسنُ وزيد بن علي، وعيسى بن عمر، وسعيد بن جبير، ومحمد بن مروان السدي: (أطهرَ) بالنصب. وقال سيبويه: هو لَحْنٌ. وقال أبو عمرو بن العلاء: احْتَبَى فيه ابن مروان في لَحْنه، يعني تَرَبَّعَ. ورويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم، وخُرِّجت هذه القراءة على أن نصبَ (أطهر) على الحال. فقيل: (هؤلاء) مبتدأ، و (بناتي هن) مبتدأ وخبر في موضع خبر (هؤلاء) وروي هذا عن المبرد.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال قوم لوط مجيبينَ عليه معرضينَ عمَّا نَصَحَهم به، وأرشدهم إليه، والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا لوط من قبل ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: علمت[1] من قبل أنه ليس لنا في بناتك من حق؛ أي: من رغبة في تزوجهن، فَتَصْرَفْنا بعرضهن علينا عما نريده، وقد يكون المعنى: لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتكَ من حق الاستمتاع، وما نحن عليه معهن، فلا ينبغي عَرْضُك إياهن علينا لتصرفنا عَمَّا نريده؛ أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأنَّ من احتاج إلى شيء، فكأنه حصل له فيه نوعٌ حق، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم، أنه قد عَلِمَ منهم المكالَبَة على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حَاجةَ لهم إلى النساء، ويُمكِن أن يريدوا أنه لا حَقَّ لنا في نكاحهن؛ لأنه لا ينكحهن، ولا يتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً. ومقصودُهم أنَّ نكاح الإناث ليس من عادتنا ومذهبِنا، ولذا قالوا: (علمْتَ) فإنَّ لوطاً كان يعلم ذلك، ولا يعلم عدمَ رغبتهم في بناته بخصوصهن، ويؤيده قوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا لوط ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؛ أي: لتعرف حقَّ المعرفة ما نريد من الاستمتاع بالذُّكران، وإننا لا نؤثر عليه شيئاً.

والخلاصة: أنهم أجمعوا أمرهم على فعل ما يريدون، وهو في الحقيقة طلب ما أعد الله لهم في الأزل من قهره، يعني الهلاكَ بالعذاب. ولما يئس من ارعوائهم عَمَّا هم عليه من الغيِّ ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: حينَ أَبَوا إلا المُضِيَّ لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم. ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: لو ثَبَتَ كون قوة لي بكم، وقدرة عليكم، ومنعة منكم بأنصار ينصروني، وأعوان يعينوني عليكم ﴿أَوْ﴾ أنني ﴿ءَاوِيٓ﴾، وأنضمُّ ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: عشيرة قويَّة؛ أي: أوَ ثبَتَ لي كون عشيرة قوية تجيرني منكم لحلت بينكم وبين ما جئتم له، تريدونه مني في أضيافي، ولدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم. وجواب لو محذوف كما قدرنا، والأنسب بمثل هذا المقام أن تكون (لو) للتمني. فكأنه قال: لو قَوِيتُ على دَفْعكم، ومقاومتكم بنفسي، أو

(١) المراغي.

التجأت إلى ناصرٍ عزيز قويٍّ أَسْتَنِد إليه، وأَتَمَنَّعُ به، فيحميني منكم. شبَّه بِرُكْن الجبل في الشدة والمَنعة. والرُّكْنُ بسكون الكاف، وضمِّها في الأصل: الناحية من الجبل، وغيره، ومرادُه بالركن الشديد العشيرةُ، والأقاربُ، وما يمتنعُ به عنهم هو ومَنْ معه. وقيل: أراد بالقوة الولد، وبالركن الشديد من ينصره من غير ولده. وقيل: أراد بالقوة قوته في نفسه. وكان لوط رجلاً غريباً فيهم ليس له عشيرة وقبيلة يلتجيء إليهم في الأمور الملمة والغريب لا يعينه أحد غالباً في أكثر البلدان، خُصُوصاً في هذا الزمان، لأنه كَانَ أَوّلاً بالعراق مع إبراهيم، فلمَّا هاجر إلى الشام، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي قرية عند حِمْصَ. وفي «الخطيب» في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾؛ أي: في البلد لا في الدين، ولا في النسب، لأنه ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وهما من بلاد المشرق من أرض بابل، وقومُ لوط - أهلَ سدوم - من أرض الشام، وكأنه عبر بالأخوّة لاختياره لمجاورتهم، ومناسبتهم بمصاهرتهم، وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدةً، وسنينَ عديدةً، وإتيانه بالأولاد من نسائهم. قال أبو هريرة: ما بعث الله نبيّاً بعده إلا في مَنَعةٍ من عشيرته. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُه». متفق عليه. قال النواوي رحمه الله: المرادُ بالركن الشديد، هو الله عز وجل، فإنه أشد الأركان، وأقواها وأمنعها. ومعنى الحديث: أنَّ لوطاً عليه السلام لما خَاف على أضيافه، ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمينَ ضاق ذَرْعُه، واشتدَّ حزنه عليهم، فغَلَب ذلك عليه، فقال في تلك الحال: لو أنَّ لي بكم قوة في الدفع بنفسي، أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقَصَدَ لوط إظهارَ العذرِ عند أضيافه، وأنه لو استطاع.. لَدَفع المكروهَ عنهم. وقرأ شيبة، وأبو جعفر[1]: (أو آوِيَ) بنصب الياءِ بإضمار أنْ بعد أو، فتقدر بالمصدر عطفاً على قوله: ﴿قوة﴾ والتقدير: لو أنَّ لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد.

---

(١) البحر المحيط.

قال ابن عباس وأهل التفسير[1]: أغلَق لوط بابَه، والملائكة معه في الدار، وجَعَلَ يناظر قَوْمَه ويناشدهم من وراء الباب، وقومه يعالجون سُوَر الدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم من الكرب ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت الملائكة للوط بعد أَنْ رأوا شديدَ الكرب الذي لحقه بسببهم، وتمنِّيهِ أن يَجِدَ قُوَّةً تدفعهم عن أضيافه ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا لإهلاكهم، وتنجيتك من شَرِّهم ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ وإلى من معك بضرر، ولا مكروه، ولن يخزوك فينا، وإنَّ ركنَك شديد، فهَوِّن عليك الأمر، وافتح الباب، ودَعْنا وإياهم. ففتح البابَ فدخلوا، فاستأذن جبريل ربَّه تعالى في عقوبتهم، فأَذِنَ له فتحول إلى صورته التي يكون فيها، ونشر جَنَاحَيْه وعليه وشاح من در منظوم، وهو براق الثَّنَايا أجلى الجبين، ورَأْسُه حبك مثل المرجان، كأنه الثلج بياضاً، وقدَماه إلى الحضرة، فضَرَبَ بجناحيه وجوههم، فطَمَسَ أعينَهم، وأعماهم فَصاروا لا يعرفون الطريقَ، ولا يهتدون إلى بيوتهم، وانصرفوا، وهم يقولون: النجاءَ، النَّجاءَ في بيتِ لوط أَسْحَرُ قوم في الأرض، قد سَحَرونا، وجَعَلُوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبحَ، وسترى ما تلقى مِنَّا غداً، يوعدونه بذلك، ولكنه من الإسرائيليات لا أصلَ لها.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ أي: فاخْرُج من هذه القرى أنت مع أهلك، يعني: بنتيه ريْثا وزَعُورا ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في طائفةٍ وبقيةٍ من الليلِ تكفي لتجاوز حدودها؛ أي: أُخرُجوا ليلاً لتستبقوا نُزولَ العذاب الذي موعده الصبح. وجاء في سورة الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾. وفي «القرطبي»: فخرج لوط، وطَوَى الله له الأرض في وَقْتِهِ حتى نجا ووَصَلَ إلى إبراهيمَ، اهـ. وقرأ[2] الحرميان نافع، وابن كثير: ﴿فاسر بأهلك﴾ هنا، وفي الحجر، وفي الدخان: ﴿فاسر بعبادي﴾. وقوله: ﴿أن اسر﴾ في طه والشعراء قرأا جميع ذلك بهمزة الوصل تَسْقُط درجاً، وتثبت مكسورة ابتداءً. وقرأ الباقون: ﴿فأَسْر﴾ بهمزة القطع، تثبت مفتوحةً دَرَجاً وابتداءً.

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

والقراءتان مأخوذتان من معنى هذا الفعل، فإنه يقال: سَرَى. ومنه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ وأسرى. ومنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾. وهل هما بمعنى واحد؛ أو بينهما فرق؟ خلاف مشهور. فقيل: هما بمعنى واحد، وهو قول أبي عبيد. وقيل: بل (أسرى) لأول الليل، وسَرَى لآخره، وهو قول الليث. وأمَّا سار فمختص بالنهار، وليس مقلوباً مِنْ سرى، اهـ «سمين».

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا تلتفت أنت، ولا تترك إحدى بِنْتَيْكَ، تلتفت؛ لئلا يَرَى عظيمَ ما يَنْزِلُ بهم فيحصل له كرب ربما لا يطيقه. وفي «المراح»: وإنما نُهوا عن الالتفات[1] ليسرعوا في السير، فإنَّ مَنْ يَلْتَفِتُ إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وَقْفَةٍ. وقوله: ﴿إلاَّ امرأتُك﴾ قرأه ابن كثير، وأبو عمرو بالرفع؛ أي: لا يتأخر منكم أحدُ إلا امرأتك واعلة المنافقةُ. وعلى هذه القراءة يقتضي كونَ لوطٍ مأموراً بالإسراء بها، وقرأ الباقون بالنصب، والمعنى: ولا ينظر أحد إلى وراءه منك، ومن أهلك إلا امرأتك. وهذه القراءة تقتضي كونَ لوط غير مأمور بالإسراء بها.

أي[2]: ولا ينظر أحدٌ إلى ما وراءه ليجدوا في السَّيْرِ، أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، فيرقوا لهم. وجاء في سورة الحجر: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ فقد كان ضَلَعُها مع القوم، وكانت كافرةً خائنةً. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الشأن ﴿مُصِيبُهَا﴾؛ أي: امرأتك ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ من العذاب؛ أي: إنه مصيبها ذلك العذاب الذي أصابهم، ومقضي عليها بذلك فهو واقع لا بُدَّ منه.

يعني[3]: وَقَعَتْ أهل بيتِ نُبُوَّتِه في الضلالة فهَلَكَتْ، فإنها مع تشرفها بالإضافة إلى بيت النبوة لِمَّا اتَّصَلَتْ بأهل الضلالة صارت ضالَّةً، وأدَّى ضلالها،

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وكفرها إلى الهلاك معهم. ففيه تنبيه إلى أنَّ لصحبة الأغيار ضرراً عظيماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إلا امرأتُك﴾ بالرفع، وباقي السبعة بالنصب. فوجه النصب على أنه استثناء من قوله: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إذ قبله أمر، والأمر عندهم كالواجب، ويتعيَّن النصبُ على الاستثناء من أهلكَ في قراءة عبد الله إذ سقط في قراءته وفي مصحفه: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ ووجه الرفع على أنه بدل من أحد، وهو استثناء متصل.

ثم علَّل الإسراءَ ببقية من الليل، فقال﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ﴾؛ أي: موعدَ عذابهم ﴿ٱلصُّبْحُ﴾ ابتداءً من طلوع الفجر إلى الشروق، كما جاء في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿الصبُحُ﴾ بضم الباء. قيل: وهي لغةٌ فلا يكون ذلك اتباعاً، وإنما جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوسَ فيه أودع، والراحةُ فيه أَجْمَعُ فيكون حُلولُ العذاب حينئذ أَفْظَعَ؛ ولأنه أنسبُ بكونِ ذلك عبرةً للناظرين. رُوي أنَّ لوطاً قال للملائكة متى موعدهم؟ قالوا: الصبحُ، فقال: أُريد أسرعَ من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ أي: أليس موعد الصبح بموعد قريبٍ؟ لم يَبْقَ له إلا ليلة واحدةٌ فَانْجُ فيها بأهلك. والاستفهامُ فيه تقريري. وفيه إشارة إلى أنَّ صبحَ يومِ الوفاة، قريبٌ لكل أحد، فإذا أدركَه فكأنَّه لم يَلْبَثْ في الدنيا إلا ساعةً من نهار. وفي «المراغي»: وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونونَ مجتمعينَ في مساكِنهم، فلا يفلت منهم أحدٌ، اهـ.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: وقت أمرنا بالعذاب، وقضائنا فيهم بالهلاك، وهو الصبح ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿عَٰلِيَهَا﴾؛ أي: عاليَ قرى قوم لوط، وهي التي عبر عنها بالمؤتفكات، وهي أربعُ مدائنَ فيها أربع مئة ألف، وأربعة آلاف، وهي سدوم، وعامورا، وكَادُوما، ومذاويم. كانت على مسيرة ثلاثةِ أيام من بيت المقدس. ﴿سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها على تلك الهيئات؛ أي: قَلَبْنَا قُراهم كُلَّها، وخَسَفْنا بها الأرض. روي أنَّ جبريلَ جعل جَنَاحَه في أسْفَلِها فاقتلعها من الماء الأسود، ثمَّ رَفَعَها إلى السماء حتى سمِعَ أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الدِّيكة لم يكفأ إناء، ولم يَنْتَبِه نائم، ثم قلبها عليهم، فأقبلت تَهْوي من السماء

إلى الأرض، ولكنَّه من الإسرائيليات التي لا مستندَ لها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ أي: على أهل المدائن من فوقهم، قبل القلب، أو في أثنائه ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طين متحجِّرٍ كما جاء في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾. ومثل هذا المطر يَحْدث بإرسال الله تعالى ريحاً شديدةً تحمل بعضَ الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقيها حيث يشاء الله تعالى، وكان حقَّ العبارة، وجعلوا عاليا، وأمطروا؛ أي: الملائكة المأمورونَ بذلك، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبِّبُ تعظيماً للأمر، وتهويلاً للخطب؛ أي: وأمطرنا على أهل تلك القرى الخارجين عنها في الأسفار وغيرها، حجارةً من سجيل. ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي: متتابع بعضه بعضاً في الإرسال، والنزول كقطار الأمطار، والنَّضَد: وضع الشيء بعضِه على بعضٍ، وهو نعتٌ لسجيل. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت حجارة؛ أي: معلمة تلك الحجارة لا تُشْبِهُ حجارة الدنيا، أو باسم صاحبها الذي تصيبه وَيُرْمىٰ بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: كائنة في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا الله. والمعنى: جاءت من عند ربك. وفي ذلك دليل على أنها ليسَتْ من حجارة الأرض، قاله الحسن، اهـ «قرطبي». وفي إمطار الحجارة قولانَ.

أحدهما: أنها أمطرَتْ على المدن حينَ رفعها جبريل، أو بعد القلب.

والثاني: أنها أمطرت على مَنْ لَمْ يكن في المُدُن من أهلها، وكان خارجاً عنها. رَوي أنَّ الحجر اتبع شذاذهم أينما كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرمَ، وكان الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خَرَج فأصابه فأهلكه. ولعل الإمطارَ على تلك القرى بعد القلب إنما هو لتكميل العقوبة، كالرجفة الواقعة بعد الصيحة لقوم صالح، ولتحصيل الهلاك لمسافريهم الخارجين من بلادهم لمصالحهم، وهو الظاهر، والله أعلم. والسجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره. وقيل: هو الشديدُ الصلب من الحجارة. وقيل: السجيل: الكثير. وقيل غير ذلك. وهذا السجيل قد نضدَ، وتراكب بعضه في إثر بعضٍ بحيث يقع طائفة بعد طائفة، وقد وضع على تلك الأحجار سومة، أي: علامة خاصة في علم ربك، بحيث لا تصيب غير أهلها. وقد يكون المعنى: أنه سخَّرها عليهم،

وحكمها في إهلاكهم بحيث لا يمنعها شيء، من قولهم سَوَّمْتُ فلاناً في الأمر، إذا حكمته فيه، وخَلَّيْته وما يُريد لا تثني له يد في تصرفه.

ويَرى بَعْضُ المفسرينَ أنَّ التسْوِيم كانَ حِسياً بخطوط في ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها، أو بأسماء أهلها، وكل ذلك من أمور الغيب التي لا تثبت إلا بسلطان، ونص من خاتم الرسل، وأنَّى هو. ﴿وَمَا هِىَ﴾؛ أي: وما هذه القرى التي حَلَّ بها العذابُ ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: منكم أيها المشركون من أهل مكة، الظالمون لأنفسهم بتكذيبك، والمماراة فيما تُنذرهم به ﴿بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: بمكان بعيد عنكم، بل هي قريبة منكم على طريقكم في رحلة الصيف إلى الشام، كما قال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾؛ أي: وإنكم لتمرون على آثارهم، ومنازلهم في أسفاركم وَقْتَ النهار، وبالليل أفلا تعتبرون بما حَلَّ بهم.

وفي هذه عبرة للظالمين في كل زمان، وإن اختلفَ العذابُ باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرةً وقلةً، ومقدار أثره في الأمة من إفسادٍ عامٍّ أو خاصٍّ.

وقيل المعنى: ﴿وَمَا هِىَ﴾؛ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة من كل ظالم ببعيد، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقونَ لها؛ أي: فإن الظالمينَ حقيق بأن تمطر عليهم، ومنهم كفار قريش، ومن عاضَدَهم على الكفر بمحمد ﷺ أو من الظالمينَ من قوم لوط، وتذكيرُ البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف مذكر؛ أي: شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدراً كالزفير، والصهيل، والمصادرُ يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ معطوف كسابقه على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وهو اسم ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثمَّ صَارَ اسماً للقبيلة، أو اسْمُ مدينة بناها مَدْيَنَ، فسُمِّيت باسمه؛ أي: وأرسلنا إلى قبيلة مَدْيَنَ أو ساكني بلدةِ مدين ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ أي: واحداً منهم في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ عطف بيان له، وهو ابن مكيلِ بن يشجر بن مدين ﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فلمَّا أتاهم قال: يا قوم اعبدوا الله،

وحده، ولا تشركوا به شيئاً من الأصنام فـ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ أي: لأنه ليس لكم إلّه سوى اللّه تعالى، وقد جرَتْ سنة الأنبياءِ أن يَبْدؤوا بالدعوةِ إلى التوحيد؛ لأنه جِذْرُ شجرة الإيمان. ثمَّ يَتْبِعُونَه بالأهمِّ فالأهمِّ فيما يرون لدى أقوامهم، ومن ثم ثنى بالنهي عن نقص الكيل والميزان؛ لأنَّ أَهْلَ مَدْينَ اعتادوا ذلك فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ أي: آلة[1] الوزن والكيل، وكان لهم مكيالان، وميزانان: أحدُهما أكبَرُ من الآخر، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرونَ بالأصغر، والمراد لا تنقصوا حَجْمَ المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات كي تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس. ويجوز أن يكونَ من ذكر المحل، وإرادة الحال، فإذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائدٍ، وكذلك إذا وصل إليهم الموزونُ، أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا.. باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص، وكل من البَخْسَين شائع في هذا الزمان أيضاً كأنه ميراث من الكفرة الخائنين. وجملة قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليل للنهي؛ أي[2]: لا تنقصوا المكيالَ، والميزان لأني أراكم بخير؛ أي: متلبسين بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن التطفيف، فلا تغيروا نعمةَ الله عليكم بمعصيته، والإضرار بعباده. ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها مما تنقصون لهم من المبيع في مكيل أو موزون، وكانوا تُجَّاراً مطففينَ إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصونَ المكيالَ والميزان. أَلاَ إنَّ في هذا كفراناً لنعمة الله عليكم، إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على سبيل الصدقة والإحسان.

ثمَّ ذكَرَ بعد هذه العلة، علَّةً أُخرى، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وأخشى ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾؛ أي: يوماً يُحيط بكم عذابه، لا يشُذ منه أحدٌ منكم، إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره، وكفرتم بنعمه بنقص المكيال والميزان. وهذا العذاب إما في الدنيا بعذاب الاستئصال، وإمَّا في يوم

---

(١) روح المعاني.
(٢) الشوكاني.

القيامة، ففي هذه العلة تذكير لهم بعذاب الآخرة، كما أنَّ العلة الأُولى فيها تذكير لهم بنعيم الدنيا، ووصف اليوم بالإحاطة، والمراد العذاب: لأنَّ العذابَ واقعٌ في اليوم ففيه إسناد مجازيٌّ. ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يُشُذُّ منهم أحد عنه، ولا يجدون منه مَلجأً ولا مهرباً. واليومُ هو يوم القيامة. وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة. وأصل[1] العذاب في كلام العرب من العذب، وهو: المَنْعُ، وسمِّي الماء عذباً؛ لأنه يمنع العطشَ. والعذابُ عذاباً؛ لأنه يمنع المعاقب عن معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره عن مثل فعله.

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ﴾ وأتموا ﴿ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ أي: بالعدل بلا زيادة، ولا نقصان. ومعنى[2]: إيفاء الحق إعطاؤُه تاماً كاملاً؛ أي اسْعوا في إعطاء الحق على وَجه التمام والكمال، بحيث يحصل لكم اليقينُ بالخروج عن العهدة وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من فاعل ﴿أَوۡفُواْ﴾ أي متلبسين بالعدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإنَّ الزيادةَ في الكيل والوزن وإن كانت تفضلاً مندوباً إليه، لكنها في الآلة محظورة كالنقص، فلعل الزائدَ للاستعمال عند الاكتيال، والناقص للاستعمال وقتَ الكيل، كذا في «الإرشاد». وصرَّح بالإيفاء بعد النهي عن ضده؛ لأن النهيَ عن نقص حَجْم المكيال، وصنجات الميزان، والأمر بإيفاء المكيال والميزان حقهما بأن لا ينقص في الكيل والوزن، وهذا الأمر بعد مساواة المكيال، والميزان للمعهود، فلا تكرار في الآية كما في «حواشي سعدي المفتي».

ثمَّ زاد ذلك تأكيداً، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: ولا تنقصوا النَّاسَ ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ أي: حُقُوقَهم مطلقاً، ولا تأخذوها منهم ظلماً؛ أي: سواء كانت من الموزونات أو المكيلات، أو المذروعات، أو المحدودات بحدود حسية، وسواء كانت من حقوق ماديَّةٍ أو معنوية، وسواءٌ كانت للأفراد، أو الجماعات، وسواءٌ كانت جليلةً أو حقيرةً.

وفي هذا النهي عن البخس على العموم والأشياء أعمُّ مما يكال أو يوزن،

---

(١) روح المعاني. (٢) روح المعاني.

فيَدْخُل فيه البَخْسُ بتطفيف الكيل والوزن دخولاً أوَّلياً، وكانوا يأخذونَ من كلِّ شيء يباعُ شيئاً كما يفعل السماسرة، ويمكنون الناس وينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياءِ، وقيل: البخس المكس خاصة. ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثي: أشدُّ الفساد؛ أي: ولا تفسدوا في الأرض؛ أي: ولا تفعلوا في الأرض ما ظاهِرُهُ الإِفْسَادُ حالةَ كونكم مفسدين؛ أي: قاصدينَ به الإفسادَ لا الإصلاحَ.

الإفساد: تعطيل يشمل مصالحَ الدنيا، وأمور الدين، وأخلاقَ النفس وصفاتها، وكلُّ ذلك فاش في عَصْرِنا، ومن الفساد: نقص الحُقُوق في المكيال والميزان. ومن الإفساد: قَصُّ الدراهم والدنانير، وترويج الزيوف ببعض الأسباب، وغير ذلك؛ أي: لا تفسِدوا في الأرض، وأنتم تتعمدون الإفسادَ، وإنما اشترط في النهي تعمد الإفسادِ؛ ليخرج بعضُ ما هو إفسادٌ في الظاهر، ويرادُ به الإصلاحُ، أو فعلُ أخفِّ الضررَين لدفع أثقلهما كما وقع من الخضر في السفينة، التي كانت لمساكين يعملون في البحر، لأجل منع الملك الظالم الذي وراءَهم من أخذها إذا أعجبته، وكما يقع في الحرب من قطع الأشجار، أو فَتحِ سُدَدِ الأنهار، أو إحراق بعض الغابات، أو قتل دواب أهل الحرب.

وهذا نَهْيٌ عام يشمل غير ما سَبَقَ كقطع الطرق، وتهديد الأمن، وقطع الشجر، وقَتل الحيوان، ونحو ذلك ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أبقاه الله تعالى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان، وترك الحرام من الربح الحلال فهي فعيلة بمعنى المفعول، وإضافتها للتشريف كما في بيت الله، وناقة الله، فإنَّ ما بقي بعد إيفاء الكيل، والوزن من الرزق الحلال يستحق التشريفَ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: أكْثَرُ لكم بركةً، وأحمدُ عاقبةً مما تأخذونه بالتطفيف، وتجمعونه بالبخس من الحرام، فإن ذَلِكَ هبَاءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خَيْراً كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾. قال في «شرح الشرعة»: ولا يَخون أحد في مبايعته بالحِيَل والتلبيس، فإنَّ الرزق لا يزيد بذلك، بل تزول بركته فمَنْ جمع المال بالحِيَل حَبَّةً حَبَّةً يهلكه الله جملة قبة قبة، ويبقَى عليه وزره ذرة ذرة، كرجل

كان يخلط اللبنَ بالماء ليُرَى كثيراً، فجاء السيل، وقَتَلَ بقَرَهُ، فقالَت صِبيته: يا أبت قد اجتمعت المياه الَّتي خلطتها في اللبن، وقتلتْ البقرَ. وقرأ[1] إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة: ﴿بقِيَة﴾ بتخفيفِ الياء. قال ابن عطية: هي لغةٌ، انتهى. وذلك أنَّ قِياسَ فَعِلَ اللازم أن يكون على وزن فعِلٍ نحو: سَجِيَتِ المرأة فهي سَجِيَة، فإذا شدَّدت الياءَ.. كان على وزن فعيل للمبالغة. وقرأ الحسن: ﴿تَقِيَّة﴾ بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته الصارفة عن المعاصي فقوله: ﴿بقيت الله﴾ يُرْسَم بالتاء المجرورة، وإذا وقفت عليه اضطراراً يصح الوقف بالمجرورة، والمربوطة، وليس في القرآن غيرها، اهـ «فتوحات»؛ أي: المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق التطفيف ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾؛ أي: مصدقين لي في مقالتي لكم، أو إن كنتم مؤمنين به تعالى حقَّ الإيمان، فالإيمان يطهِّر النفسَ من رَذيلةِ الطمع، ويحلِّيها بفضيلة السَّخاءِ والكرم، وإنما شرط[2] الإيمان في خيريَّة ما بقي بعد الإيفاءِ، لأنَّ فَائِدَتَهُ وهي حصول الثوابِ، والنجاةُ من العقاب إنما تَظْهَرُ مع الإيمان، فإنَّ الكَافِرَ مخلد في عذاب النيران، ومحروم مِن رضوانِ الله تعالى، وثواب الرحمنِ، سواء أوفى الكيلَ والميزانَ أو سلَكَ سبيل الخوان.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾؛ أي: برقيب[3] أرقبُكم عند كيلكم، ووَزْنِكم؛ أي: لا يُمْكِنُني شهودُ كُلَّ معاملة تصدرُ منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق، وقيل: أي: لا يتهيَّأ لي أن أَحْفَظَكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم، اهـ «قرطبي». وقيل[4]: أي: وما أنا بالذي أستطيع أن أحْفَظَكم من القبائِح، وإنَّما أنا ناصحٌ مبلِّغ، وقد أعْذَرَتُ إذ أنْذَرْتُ، ولم آل جهداً في ذلك.

فائدة: واعلم[5] أنَّ العدلَ ميزان الله في الأرض، سواء كان في الأحكام، أو في المعاملات، والعدول عنه يؤدِّي إلى مؤاخذة العباد، فينبغي أن يتجنَّب الظلم، والمرادُ بالظلم أن يتضرَّرَ به الغير، والعدل أن لا يتضرَّرَ منه أحدٌ بشيء ما. قال

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح المعاني.
(٣) قرطبي.
(٤) المراغي.
(٥) روح البيان.

عكرمة: أشهدُ أنَّ كُلَّ كيَّالَ، ووزان في النار. قيل له: فَمَنْ أوفى الكيلَ والميزانَ؟ قال: ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال، ويَزِن كما يَتَّزِنُ، والله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾. وقال سعيد بن المسيب: إذا أتيت أرضاً يوفون المكيالَ والميزانَ.. فأطل المقامَ فيها، وإذا أتيتَ أرضاً ينقصون المكيالَ والميزانَ.. فأَقِلَّ المقامَ فيها. وفي الحديث: «ما ظهر الغُلولُ في قوم، إلا أَلْقَى اللَّهُ في قلوبِهِم الرعب، ولا فشا الزنى في قوم، إلا كثر فيهم الموت، ولا نَقَصَ في قوم المكيالُ والميزان إلا قَطَعَ الله عنهم الرزقَ، ولا حَكَم قومٌ بغير حق إلا فشا فيهم الدَّمُ، ولا خَتَرَ قومٌ بالعهد إلاَّ سَلَّطَ الله عليهم العدو». قوله: ولا ختر؛ أي: غَدَر، ونقض العهد، كما في «الترغيب».

الإعراب

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. (قد) حرف تحقيق. ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: حالةَ كونهم متلبسينَ بالبشرى. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سَلَٰمًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: نسلم عليك سلاماً، أو: سلمنا عليك سلاماً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره عليكم، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: أمري؛ أو قولي: ﴿سلام﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَا﴾ (الفاء) حرف عطف وتعقيب. (ما) نافية. ﴿لَبِثَ﴾ فعل ماض. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض في محل النصب بـ (أن) وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿بِعِجْلٍ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَآءَ﴾. ﴿حَنِيذٍ﴾ صفة لعجل، وجملة ﴿جَآءَ﴾ صلة (أن) المصدرية، (أن) مع صلتها في تأويل

مصدر مرفوع على الفاعلية، تقديره: فما تأخَّر مجيؤه بعجل حنيذ، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب ضَرَبْنا عنها صَفْحاً خَوفَ الإطالة.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. (لما) حرف شرط. ﴿رَءَآ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ مفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تَصِلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الأيدي. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الأيدي. ﴿نَكِرَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة الفعلية جواب (لمَّا)، وجملة (لمَّا) معطوفة على محذوف تقديره: فقرَّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون، فلمَّا رأى أيديهم إلخ، كما سيأتي التصريح بهذا المقدر في الذاريات. ﴿وَأَوْجَسَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خِيفَةً﴾. ﴿خِيفَةً﴾ مفعول ﴿أوجس﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿تَخَفْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبراهيم﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن) وجملة (إن) مسوقة لتعليل النهي قبلها على كونها مقولَ القول.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾؛ أي: ﴿قَالُوا۟﴾ ذلك في حال قيام امرأته. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿ضحكت﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأته، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَوْجَسَ﴾. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿ضحكت﴾. ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ متعلق به. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ جار ومجرور،

ومضاف إليه متعلق بمحذوف تقديره: ووهبناها من وراء إسحاق. ﴿يَعْقُوبَ﴾ مفعول ثان لذلك المحذوف، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿بشرناها﴾ ويجوز أن يكون ﴿من وراء إسحاق﴾ خبراً مقدماً، و﴿يعقوب﴾ بالرفع مبتدأ مؤخراً، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿إسحاق﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿امرأته﴾ والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (يا) حرف نداء. ﴿ويلتا﴾ منادى منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحةً لمناسبة الألف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأن ما قبل الياءِ لا يكون إلا مكسوراً، ﴿ويلة﴾ مضاف. وياء المتكلم المنقلبة ألفاً في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. وقد بيَّنَّا إعراب هذه الكلمة في ضمن نظائرها كـ (يا) (حسرتا) مع مسائلَ نفيسةٍ فيها في رسالتنا «هَدِية أولى الإنصاف في إعراب المنادى المضاف» فراجعها، وهي مطبوعة منتشرة. ﴿ءَأَلِدُ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري. ﴿ألد﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على سارة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جَوَاب النداء. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ألد﴾. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها حالاً من فاعل ﴿ألد﴾. ﴿شَيْخًا﴾ بالنصب حال من بعلي، والعامل فيه اسم الإشارة، لما فيه من معنى الفعل، وبالرفع بدل من بعلي أو عطفُ بيان له. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَشَىْءٌ﴾ خبره، واللام للابتداء. ﴿عَجِيبٌ﴾ صفة له، وجملة: إنَّ في محل النصب مقول (قال) على كونها مستأنفة.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إلى آخر الآية مقول

محكي، وإن شئت قلت: (الهمزة) للاستفهام الإنكاري. ﴿تعجبين﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، و(الياء) فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ. ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ معطوف عليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ منادى مضاف، حذف منه حرف النداءِ، أو منصوب على الاختصاص، وجملة النداء، أو الاختصاص في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿حَمِيدٌ﴾ خبر أول له. ﴿مَّجِيدٌ﴾ خبر ثان، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول قال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) استئنافية. (لما) حرف شرط. ﴿ذَهَبَ﴾ فعل ماض. ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ متعلق به. ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ فاعل، والجملة فعل شرط لـ(لمَّا). ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿ذَهَبَ﴾. ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فعل ومفعول. ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب (لما) لأنه بمعنى جَادَلَنا عَبَّرَ عنه بالمضارع حكايةً للحال الماضية. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَحَلِيمٌ﴾ خبر أول له. ﴿أَوَّٰهٌ﴾ خبر ثان. ﴿مُّنِيبٌ﴾ خبر ثالث، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقول محذوف، تقديره: قالوا: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال إلخ. وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿أَعْرِضْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿عَنْ هَٰذَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لذلك القول، على كونها جوابَ النداء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما

قبلها على كونها مقولَ القول. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ خبر (إنّ) ومضاف إليه. ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿آتي﴾. ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ صفة عذاب، وجملة إن معطوفة على جملة (إن) الأولى على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو) استئنافية. ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿سِيٓءَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على (لوط). ﴿بِهِم﴾ متعلق به، والجملة جواب لمَّا، وجملة (لما) مستأنفة. ﴿وَضَاقَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿سِيٓءَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿بِهِم﴾ متعلق به. ﴿ذَرْعًا﴾ تمييز محول عن الفاعل. ﴿وَقَالَ﴾ معطوف على ﴿سِيٓءَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿عَصِيبٌ﴾ صفة ﴿يَوْمٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ فعل ومفعول. ﴿قَوْمُهُۥ﴾ فاعل والجملة مستأنفة. ﴿يُهْرَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿قَوْمُهُۥ﴾. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر (كان) وجملة (كان) في محل النصب على الحال معطوفة على جملة ﴿يُهْرَعُونَ﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَطْهَرُ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدرٍ، تقديره: إذا عرفتموهن أطهر وأردتُم بيانَ ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم. ﴿اتقوا اللَّه﴾

فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة. (لا) ناهية جازمة. ﴿تُخْزُونِ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذفُ النون، و (النونُ) للوقاية و (ياء) المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي. ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص. ﴿مِنكُمْ﴾ خبر ﴿ليس﴾ مقدم. ﴿رَجُلٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿رَّشِيدٌ﴾ صفة لـ﴿رجل﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿علمت﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جوابُ القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ، أو لـ (ما) الحجازية. ﴿فِي بَنَاتِكَ﴾ متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم (ما) الحجازية و (من) زائدة، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾. ﴿وَإِنَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَتَعْلَمُ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿تعلم﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، أو مصدرية، أو استفهامية معلقة ما قبلها في محل النصب مفعول (تعلم)، لأنه بمعنى عرف. ﴿نُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على قوم لوط، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما نريده، أو لتعرف إرادتنا، وجملة ﴿تعلم﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب معطوفة على جملة القسم، على كونها مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ أَنَّ لِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾ حرف تمن أو شرط.

﴿أَنَّ﴾ حرف نصب. ﴿لِي﴾ خبر مقدم، لأن ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿قُوَّةً﴾ لأنه صفة نكرة قُدِّمت عليها. ﴿قُوَّةً﴾ اسم (أن) مؤخر، وجملة (أن) في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون قوة بكم لي.. لبطشت بكم أو أتمنى ثبوتَ قوة بكم لي، وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿ءَاوِيٓ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على لوط. ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ متعلق به. ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة ﴿رُكْنٍ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر، لأن المحذوفة، تقديره: أو أني مؤوٍ إلى ركن شديد، وجملة أن المقدرة في محل الرفع معطوفة على جملة (أن) الأولى على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقديرُ: لو ثبَتَ كون قوة بكم لي، أو إيوائي إلى ركن شديد.. لبطشتُ بكم.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰلُوطُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰلُوطُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب، مقول القول. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿رُسُلُ رَبِّكَ﴾ خبره، ومضاف إليه، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقولَ القول على كونها جوابَ النداء. ﴿لَن يَصِلُوٓاْ﴾ ناصب وفعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مفسرة للجملة التي قبلها على كونها مقول القول. وقال أبو حيان: والجملة من قوله: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ موضحة للذي قبلها، لأنهم إذا كانوا رسل الله، لن يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره، ثم أمروه بأنْ يَسْرِيَ بأهله، انتهى. ﴿فَأَسْرِ﴾ (الفاء) عاطفة. (أسر) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير يعود على لوط. ﴿بِأَهْلِكَ﴾ جار ومجرور حال من فاعل (أسْر)؛ أي: متلبساً بأهلك، والجملة في محل النصب بالقول معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿بِقِطْعٍ﴾ (الباء) حرف جر بمعنى (في). (قطع) مجرور به، الجار والمجرور متعلق (بأسر). ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صفة لـ (قطع).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ جازم ومجزوم. ﴿مِنكُمْ﴾ حال من ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَسْرِ﴾. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب على الاستثناء من الأهل، أو من ﴿أَحَدٌ﴾ أو بالرفع على البدلية من ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه. ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبره، وجملة (إن) مسوقة لتعليل الاستثناء على كونَها مقولَ القول. ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ (ما) موصولة، أو موصوفة في حل الرفع فاعل لـ (مصيب). ﴿أَصَابَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على (ما)، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. وعبارة أبي حيان هنا: والضمير في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن، و ﴿مُصِيبُهَا﴾ مبتدأ و ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ الخبر. ويجوز على مذهب الكوفيينَ أن يكونَ ﴿مُصِيبُها﴾ خبر (إن) و ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فاعل به، لأنهم يجيزون إنه قائم أخواك. ومذهب البصريين أن ضميرَ الشأن لا يكون خبره إلا جملة مصرحاً بجزئيها، فلا يجوز هذا الإعراب عندهم، انتهت. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ ناصب واسمه، وخبره، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿أَلَيْسَ﴾ (الهمزة) للاستفهام التقريري. ﴿ليس الصبح﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِقَرِيبٍ﴾ خبره و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصَحَتْ عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عَرفْتَ ما قالوا له، وأردتَ بيانَ عَاقِبَةِ أمرهم.. فأقول لك. ﴿لما جاء أمرنا﴾ ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعولان، والجملة جواب (لما) وجملة (لما) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به. ﴿حِجَارَةً﴾ مفعول ﴿أمطرنا﴾. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾. ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿سِجِّيلٍ﴾. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ حال من ﴿حِجَارَةً﴾. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾. ﴿وَمَا﴾

(الواو) عاطفة، أو حالية، أو استئنافية. (ما) حجازية، أو تميمية. ﴿هِيَ﴾ اسمها، أو مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ متعلق ﴿بِبَعِيدٍ﴾. ﴿بِبَعِيدٍ﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أمطرنا﴾ أو حال من ﴿حِجَارَةً﴾ أو مستأنفة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره، ولقد أرسلنا إلى مدين، وعلامة جره الفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والعجمة، والجملة المحذوفة، معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف. ﴿شُعَيْبًا ۚ﴾ عطف بيان منه. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾ مقول محكي، وإن شئت.. قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥ﴾ صفة ﴿إِلَٰهٍ﴾، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل ما قَبلَها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على كونها مَقُولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰكُم﴾ فعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية. ﴿بِخَيْرٍ﴾ حال من ضمير المخاطبين؛ أي: متلبسين ﴿بِخَيْرٍ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾، وجملة ﴿أرى﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة إنَّ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونِهَا مقولَ القول. ﴿وَإِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَخَافُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على شعيب. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مُّحِيطٍ﴾ صفة مجازية لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل

الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها عِلَّةً ثانيةً لما قبلها.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف معطوف على المنادى الأول. ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ معطوف عليه. ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من (واو) ﴿أَوۡفُواْ﴾؛ أي: متلبسين ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وجملة ﴿أَوۡفُواْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بـ (لا) الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَوۡفُواْ﴾. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به. ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لفاعل ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَوۡفُواْ﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) على كونه فِعلَ شرط لها. ﴿مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ خبره، وجواب (إن) معلوم مما قبلها تقديره: فهي خير لكم، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. (ما) نافية أو حجازية. ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ أو اسمها. ﴿عَلَيۡكُم﴾ متعلق ﴿بِحَفِيظٖ﴾. ﴿حفيظ﴾ خبر المبتدأ أو خبر (ما) و (الباء) زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ أي: فما تأخر، وأَبْطأَ مجيؤه. ﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ والعجل، ولدُ البقر، والحنيذُ المشوي على الحجارة المحماة في حفرة في الأرض من غير تنور. وفي «المختار»: حَنَذَ الشاة شَوَاها، وجعل فَوْقَها حجارة محماة لينضجها، فهو حنيذ، وبابه ضرب، اهـ. وقيل: هو المشويُّ بحر الحجارة من غير أن تمسَّه

النار، وهو فعيل بمعنى مفعول كما مر. ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا تمتد للتناول. ﴿نَكِرَهُمْ﴾، وفي «المختار» نكره بالكسر نكراً بضم النون، وأنكره واستنكره كله بمعنى، اهـ. ويقال: نكرته، وأنكرته، واستنكرته إذا وجدتَه على غير ما تعهَد، ومنه قول الشاعر:

فَأَنْكَرَتْنِي ومَا كَانَ ٱلَّذِيْ نَكِرَتْ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ إلاَّ ٱلشَّيْبَ وَٱلصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إِذَا أَنْكَرَتْنِيْ بَلْدَةٌ أَوْ نَكَرْتُهَا خَرَجْتُ مَعَ ٱلْبَازِيْ عَلَيَّ سَوَادُ

وقيل: يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونَكِرْتَ لما تراه بقلبك. قيل: وإنما استنكر منهم ذلك؛ لأنَّ عادتهم أن الضيفَ إذا نزل بهم، ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بِشَر. ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وأوجس القلبُ فَزَعاً إذا أحسَّ به. وفي «البيضاوي»: الإيجاسُ: الإدراك. وقيل: الإضمار، اهـ. وفي «السمين»: الإيجاس: حديث النفس، وأصله: من الدخول، كأنه دَاخله، والوجيس ما يَعْتري النفسَ أوانَ الفزع، ووَجَسَ في نفسه كذا، أي: خَطَرَ بها يَجِسُ وَجْساً، ووجُوساً ووَجِيساً، اهـ.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ أصل الضحك: انبساط الوجه مِن سرُورَ يحصل للنفس، ولِظُهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك، ويستعمل في السُّرور المجرد، وفي التعجب المجرد أيضاً. ثُم للعلماء في تفسير هذا الضحك قولان: **أحدهما**: أنه الضحك المعروف، وعليه أكثر المفسرين. **والقول الثاني**: أنه بمعنى حاضت في الوقت، كما قاله مجاهد، وعكرمة، وأنكر بعض أهل اللغة ذلك. قال الراغب: وقول مَنْ قال: حاضت، فليس ذلك تفسيراً لقوله: فضحكت، كما تصوره بعض المفسرين، اهـ «خازن» بتصرف. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ الوَراءُ فعالٌ، ولامه همزة عند سيبويه، وأبي علي الفارسي، وياء عند العامة، وهو من ظروف المكان بمعنى خلف، وقدام، فهو من الأضداد، وقد يستعار للزمان كما في هذا المكان، اهـ «روح المعاني». ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ أصلها: يا ويلي وهي كلمة تُقَال حين يَفْجَأُ الإنسان أمر مهم من بلية، أو فَجِيعَة، أو فضيحة على جهة التعجب منه، أَو

الاستنكار له، أو الشكوى، وإيضاحُه أنه أضاف الويلَ إلى ياء النفس، فاستثقلت الياءِ على هذه الصورة، وقبلَها كسرة ففُتِحَ ما قَبلَها، فانقلبت الياءُ ألفاً؛ لأنها أخف من الياء، والكسرة، ورسمت بالياء، اهـ «كرخي».

وفي «السمين» الظاهر كون الألفِ بدلاً من ياء المتكلم، ولذلك أمالَها أبو عمرو، وعاصم في رواية، وبها قرأ الحسن: (يا ويلتي) بصريح الياء. وقيل: هي ألف الندبة، ويوقف عليها بهاء السكت، اهـ. ﴿بَعْلِي﴾ البعل: الزوج، وجمعه بعولة، ومعناه في الأصل، المستعلي على غيره كما مر في مبحث التفسير. ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من قدرته وحكمته. ﴿حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ الحميدُ: هو الذي يُحْمَد على كل أفعاله، وهو المستحق؛ لأن يحمد في السراء والضراء، والشدة والرخاء. والمجيد: الواسع الكريم، وأصل المجد في كلامهم: السعة، اهـ «خازن». وفي «القاموس»: ومجد كنصر، وكرم، مجداً، ومجادةً فهو ماجد، ومجيد، وأمجده، ومجده، وعظَّمه، وأثنى عليه، اهـ. وقال الغزالي، رحمه الله: المجيد الشريف ذَاتُهُ، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله، فكانَ شريفَ الذات إذا قارنه حُسْن الفعالِ يسمَّى مَجِيداً.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الروع بالفتح الخوف، والفزع، يقال: ارتاع من كذا إذا خاف منه، وبضم الراء القلبَ لكن القراءة بالفتح. ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ الحليمُ الذي لا يُحِبُّ المعاجلة بعقاب، والـ﴿أَوَّاهٌ﴾ الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم. والمنيب الذي يرجع إلى الله في كل أمر. ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾؛ أي: وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم. ﴿ذَرْعًا﴾ الذرعُ، والذراع: منتهى الطاقَة، يقال: ما لي به ذرع، ولا ذراع؛ أي: ما لي به طاقة، ويقال: ضقت بالأمر ذرعاً، إذا صَعُبَ عليك احتماله. قال الأزهري: الذرعُ يوضع موضعَ الطاقة، والأصل فيه: أنَّ البعير يَذْرَعُ بيديه في سيره ذرعاً على قَدْرِ سعةِ خطوه، فإذا حُمِلَ عليه أكثر من طَوْقِه، ضاق ذرعه عن ذلك، وضَعُف، ومدَّ عُنُقَه، فجُعِلَ ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع، والطاقة، فمعنى: وضاق بهم ذرعاً؛ أي: لم يجد من ذلك المكروه مَخْلَصاً. وقال غيره: معناه: وضَاقَ بهم قَلْباً، وصدراً، ولا يعرف أصله إلاَّ أن يقال: إنّ الذرع كنايةٌ عن الوُسْعِ، والعرب تقول: ليس هذا في يدي يعنون ليس

هذا في وسعي، لأن الذِّرَاعَ من اليد، ويقال: ضَاق فلان ذرعاً بكذا، إذا وقع في مكروه، ولا يطيق الخروجَ منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام، لمَّا نَظَرَ إلى حُسْنِ وجوههم، وطيب رائحتهم، أشفَقَ عليهم من قومه، وخَافَ أن يَقْصدُوهم بمكروه، أو فاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم، اهـ «خازن». والـ﴿عَصِيبٌ﴾ الشديد، الأذى، كأنه قد عُصِبَ به الشرُّ، والبلاء؛ أي: شُدَّ به مأخوذ من العصابة التي يشد بها الرأس، اهـ «خازن».

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يقال: هرع وأُهرع بالبناء للمفعول إذا حمل على الإسراع، وأعجل، فمعنى: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ المبني للمفعول يساقون، ويُدْفَعون. وقال الكسائي: لا يكون الإهراعُ إلا إسراعاً مع رِعْدةٍ مِنْ بَرْدٍ، أو غَضَبٍ، أو حمًّى أو شهوةٍ. وفي «القاموس» والهَرَعُ محَرَّكٌ، وكغراب، والإهراع مشي في اضطراب وسرعة، وأَقْبَلَ يُهْرَعُ بالضم، وأُهرع بالبناء للمجهول، فهو مُهْرَعٌ مَن غَضَبٍ، أو خوف، وقد هَرِعَ كفرح، ورجل هَرِعٌ سريع البكاء، اهـ. ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ في الآية سؤال كما مرَّ، وهو أن يقال: إن قولَه: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أفعَل تفضيلٍ فيقتضي أن يكونَ الذي يطلبونه من الرجال طاهراً، ومعلوم أنه محرَّمٌ فاسدٌ نَجِسٌ لا طهارةَ فيه ألبتةَ، فكيف قال هن أطهر لكم؟. والجواب عن هذا السؤال أنَّ هذا جارٍ مجرى قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾، ومعلوم أن شجرةَ الزقوم لا خَيْرَ فيها، اهـ «خازن».

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾؛ أي: لا تخجلوني في شأن ضيفي، فإنه إذا خُزي ضَيفَ الرجل، أو جَارُه، فقد خزِيَ الرجُلُ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة، اهـ «كرخي». والضيفُ في الأصل: مصدر، ثم أطلق على الطارق لَيْلاً إلى المضيف، ولذلك يَقَعُ على المفرد، والمذكر، وضِدَّيْهِما بلفظ واحد، وقد يثنَّى فيقال: ضيفان، ويجمع فيقال: أضياف، وضيوف، كأبيات، وبيوت، وضيفان كحوض وحيضان، اهـ «سمين». والـ﴿رَشِيدٌ﴾ ذو الرُّشد والعقل. ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: على الدفع بنفسي. ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ من أرباب العصبيات القوية الذين يَحْمُونَ اللاجئين، ويُجيرون المستجيرينَ. والـ﴿رُكْنٍ﴾ بسكون الكاف وضمها: الناحيةُ مِن جبل وغيره، ويُجْمَعُ على أركان وأَرْكُن.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ السري، بالضم، والإسراء في الليل كالسير في النهار. ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وهم بنتاه فلم يخرج من القرية إلا هو وبنتاه فقط. والقطع من الليل الطائفة منه، والقطع هنا: نصف الليل؛ لأنه قطعة منه مساوية لباقيه. والسِّجِّيلُ الطين المتحجّر كما جاء في الآية الأخرى.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ قال الراغبُ: هو حجر وطين مختلط، أصله فارسي فعرب. ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ﴿سِجِّيلٍ﴾ أي وضع بعضه على بعض، وأُعِدَّ لعذابهم. والنضد جعل الشيء بعضه فوق بعض، ومنه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي متراكب، والمرادُ: وصف الحجارة بالكثرة. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: لها سومة بالضم، أي علامة خاصَّة من التسويم، وهو العلامة. وفي «البيضاوي»: مُسَوَّمة؛ أي: عليها اسم من يُرْمَى بها. وقيل: مُعَلَّمَة للعذاب. وقيل: مُعَلَّمة ببياض، أو حمرة، أو بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: في علم ربك. ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ و (نقص) يتعدى لاثنين إلى أولهما بنفسه، وإلى ثانيهما بحرف الجر، وقد يحذف تقول: نقصت زيداً حقه، ومن حقه، وهو هنا كذلك إذ المراد، ولا تنقصوا الناسَ من المكيال والميزان. ويجوز أن يكونَ متعدياً لواحد على معنًى لا تَقَالُّوا، وتطففوا، ويجوز أن يكونَ مفعولاً أول، والثاني: محذوف، وفي ذلك مبالغة، والتقديرُ: ولا تنقصوا المكيالَ والميزانَ حَقَّهما الذي وجب لهما، وهو أبلغ في الأمر بوفائهما، اهـ «سمين». والمكيال، والميزان: الآلة التي يوزن، أو يكال بهما، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ مِنْ عَثِيَ كفرح، فمصدره عِثي كعصي، وهو القياسي أو عثو كسمو، وهو سماعيٌّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وفي قوله: ﴿لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ﴾.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ تنزيلاً لها منزلةَ العاقل.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾.

ومنها: الطباق بين الروع والبشرى في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ إلخ، لبيان الحامل له على المجادلة، وهو رِقَّةُ قَلْبِه وفَرْطُ رحمته.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لأنه كنايةٌ عن العذاب الذي قضاه الله عليهم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ لأنه كناية عن ضيق الوسع، والطاقة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شبه اليوم الذي اشتمل على الشر، والأذى بالرأس الذي عُصِب بالعصابة، بجامع الاشتمال في كل.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التعجبي في قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قال الشريف الرضي: وهذه استعارة، والمراد به قومه، وعشيرته، جعلهم ركناً له؛ لأنَّ الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويَستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرَّصين، وجاء جواب لو محذوفاً تقديره: لَحُلْتُ بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذفُ ههنا أبلغ؛ لأنه يوهم بعظيم الجزاء، وغليظ النكال.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وحقُّ العبارة أن يقال: جَادَلنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أُسند الإحاطةَ لليوم مع أنَّ اليَوْمَ ليس بِجِسْمٍ باعتبار أنَّ العذَابَ يكون فيه فهو من إسناد ما للحال إلى المحل: كنهاره صائم.

ومنها: الإضافة[1] للتشريف في قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ كما في بيتِ الله، و ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ ما بقي بعد إيفاء الكيل، والوزن من الرزق الحلال، يستحق التشريفَ، كما ذكره في «روح البيان».

ومنها: ذِكْرُ الخاصِّ ثم العام، ثم الأعَمَّ مبالغةً في النصح، ولطفاً في استدراجهم إلى طاعة الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ، إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ إلى آخر الآية الثانية: حَيْثُ نُهوا[2] أولاً عن القبيح الذي كانوا يتعاطونه، وهو نقص المكيال، والميزان، وفي التصريح بالنهي نعي على المنهي، وتعيير له، وأمروا ثانياً بإيفائهما مصرَّحاً بلفظهما، ترغيباً في الإيفاء، وبَعْثاً عليه، وجيء بالقسط، ليكون الإيفاء على جهة العدل والتسوية، وهو الواجب؛ لأنَّ ما جاوزَ العَدْلَ فضل، وأمر مندوب إليه، ونهوا ثَالِثاً عن نقص الناس أشياءهم، وهو عام في الناس، وفيما بأيديهم من الأشياء كانَتْ مما تكال وتوزن، أو غير ذلك، ونهوا رابعاً عن الفساد في الأرض، وهو أعم من أن يكون نقصاً، أو غيره فبَدَأَهم أولاً بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله تعالى، ثُمَّ ارتقى إلى عام، ثم إلى أعم منه، وذلك مبالغة في النصح لهم، ولُطْفٌ في استدراجهم إلى طاعة الله تعالى.

ومنها: الزيادة والحَذْفُ في عِدّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ
أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا
نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ
ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ
خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا
لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها؛ أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أمر شعيب لقومه بعبادة الله

---

(١) المراغي.

وحدَه، وعدم النقص في الكيل والوزن.. ذكر هنا رَدَّهم على كلا الأمرين، فردوا على الأول، بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم، وأسلافهم، في التدين، والإيمان، ورَدُّوا على الثاني بأنهم أحرارٌ في أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحةَ فيها.

ثم أعاد النصحَ لهم بأنه لا يريد لهم إلا الإصلاح، وأنه يخشى أن يصيبَهم مثل ما أصابَ الأمم قبلَهم، كقوم نوح أو قوم هود، وما الأحداث التي اجتاحَتْ قوم لوط ببعيدَة عنكم، فعليكم أن تتوبوا إلى ربكم، عَلَّه أن يَرْحَمَكم فهو واسع الرحمة، محب لمن تَابَ وأناب إليه.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبتُها لما قَبْلَها: أنه لما أمرهم[1] شعيب بعبادة الله، وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان، رَدُّوا عليه على سبيل الاستهزاءِ والهُزْءِ بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، وكانَ كثيرَ الصلاة، وكان إذَا صلى تغامزوا، وتضاحكوا، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مقابلُ لقوله: ﴿اَعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أوِ أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاء مقابلٌ لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنهم[2] لما جادلوه أولاً بالتي هي أحسن، وعميَت عليهم العلل، وضاقَت بهم الحِيل، ولم يجدوا للمحاورة ثمرةً، تحولوا إلى الإهانة، والتهديد، وجعلوا كَلامَهُ من الهذيان، والتخليط الذي لا يفهم معناه، ولا تُدْرَكُ فحواه، فقابلهم بالإنذار بقرب الوعيد، ونزول العذاب الشديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى، لمّا فرغ من ذكر قصة شعيب، صهر موسى، مع قومه.. أرْدفَ بذكر قصص موسى مع فرعون، وملأه، للإعلام بأنَّ عاقبةَ فرعون وأشراف قومه اللعنةُ والهلاك، ككفار أولئك الأمم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الظالمين، وإن كان عذابُ الخزي وهو الغرق في البحر.. لم يعم جَمِيعَ قومه، بل لَحِقَ من اتبع موسى، وسار أثره للأسباب التي سلف ذكرها في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] قصص الأمم الماضية، والقرون السالفة مع الرسل الذين أُرسِلوا إليهم.. نَبَّه إلى ما في ذكرها من عظة واعتبار بقوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ فالسامعُ لها، والقارىء يلين قلبه، وتخضع نفسه، فيحمله ذلك على النظر فيها، والاعتبار بها، إلى ما في إخباره ﷺ بها من غير مطالعة كتب، ولا مُدَارَسَة مع معلم من عظيم الدلالة على نبوته ﷺ؛ إذ أنَّ هذا لا يكونُ إلا بوحي من العليّ الأعلى، أتاه به روح القدس الأمين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ إلخ، مستأنفة[2] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا لشعيب حين قال لهم ما قال؟ والاستفهام فيه للإنكار عليه، والاستهزاء؛ أي: قالوا: يا شعيب أصلاتك التي هي من نتاج الوسوسة، وفعل المجانين تأمرك بـ ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ أي: بأن نترك ما سارَ عليه آباؤنا جيلاً إثرَ جيل من عبادة الأوثان والأصنام، وإنما جعلوه مأموراً مع أن الصَّادِرَ عنه إنما هو الأمر بعبادة الله، وغيرها من الشرائع؛ لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه، بل بوحي من ربه، ويبلِّغهم أنه مأمور بذلك، وإسنادُ الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات؛ لأنه كانَ كثيرَ الصلاة معروفاً بذلك، حتى إنهم كانوا إذا رأوه يُصلِّي تغامزوا، وتضاحكوا، فكانت هي من بين الشعائر ضُحْكة لهم. فقوله: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ فيه أنَّ الترك فعلهم، لا فعل شعيب، وهو المأمور، والإنسان يؤمر بفعل نفسه، أجيب عنه: بأنَّ الكلامَ على حذف مضاف، تقديره: هل هي تأمرك بتكليفك إيانا تَرْك عبادة ما يعبد آباؤنا، إلخ، والتكليف إذاً من فعله، ذكره في «الجمل». أجابوا بذلك أمره عليه

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

السلام إيَّاهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأوثان، وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ جواب عن أمره بإيفاء الحقوق، ونهيه عن البخس والنقص والعثي، معطوف على (ما) في قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ و (أو) بمعنى (الواو) لأنَّ ما كَلَّفهم به شعيب، هو مجموع الأمرين: لا أحَدَهما. والمعنى: أي[1]: أو أن نترك فِعلَنا ما نشاء في أموالِنا من التصرفات من التطفيف، وغيره من التنمية، والاستغلال، والتصرف في الكسب بما نستطيع من الحذق، والاحتيال، والخديعة، فما ذاك إلا حَجْرٌ على حريتنا، وتَحَكُّمٌ في إرادتنا، وذكائنا.

والخلاصة: أنهم رَدُّوا عليه الناحِيَتَيْنِ الدينية، والدنيوية بما رأوا مِنْ شُبَهٍ مزيفة، وحجج عفنةٍ، والمعنى: أصلاتك تَأْمُرَكَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا، وتأمركَ أن نترُكَ فِعْلَنَا فِي أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والنقص والزيادة. وقال بعضهم: كان[2] يَنْهَاهم عن تقطيع أطراف الدراهم والدنانير، وقصها فأرادوا به ذلك، والمعنى ما نشاءُ من تقطيعها.

فائدة: واعلم أنَّ أوَّلَ من استخرج الحديد، والفضة، والذهب من الأرض (هَوشنَكُ) في عصر إدريس عليه السلام، وكان ملكاً صالحاً داعياً إلى الإسلام وأول مَنْ وضع السكَّةَ على النقدين. (الضحاك). وإفسادُ السكة بأيِّ وجهٍ كان إفساداً في الأرض، وسئل الحجاج عما يرجو به النجاةَ فذكر أشياء، منها: ما أفسدت النقود على الناس.

وقرأ الجمهور: أصلواتك بالجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص، وابن وثاب[3]: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ على التوحيد. وقرأ[4] الجمهور: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ بالنون فيهما كما فسرناه سابقاً. وقرأ الضحاك بن قيس

---

(١) المراغي.

(٢) روح المعاني.

(٣) البحر المحيط وزاد المسير.

(٤) البحر المحيط.

الفهري، وابن أبي عبلة، وزيد بن علي بالتاء فيهما على الخطاب. ورُويت عن أبي عبد الرحمن والمعنى: أصلاتك تأمرك أن تَفْعَلَ أنت في أموالنا ما تشاء. وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة: ﴿نفعل﴾ بالنون، ﴿ما تشاء﴾ بالتاء على الخطاب. ورُويت عن ابن عباسٍ، والمعنى: أصلاتك تأمرك أن نَفْعَلَ نحن في أموالنا ما تشاؤه أنت، وندع ما نشاؤه نحن، وما يجري به التراضي بيننا. والحاصل: أنَّ مَنْ قرأ بالنون فيهما فقَوْله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ﴾؛ أي: أن نتركَ ما يعبد آباؤنا وفعْلنا في أموالنا ما نشاء. ومن قرأ بالتاء فيهما أو بالنون فيهما، فمعطوفٌ على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ أي: تأمرك بترك ما يعبد آباؤنا، وفعلِك في أموالنا ما تشاء أو فعلِنا في أموالنا ما نشاء، و(أو) للتنويع، أي: تأمرك مرَّةً بهذا، ومرَّةً بهذا. وقيل: بمعنى الواو كما مر، والظاهر أن الذي كانوا يفعلونه في أموالهم هو بخس الكيل والوزن المقدم ذكره، ذكره أبو حيان في «البحر». ثم أتبعوا ذَلِك بما يدلُّ على السخرية، والهَزْءِ به فقالوا: ﴿إِنَّكَ﴾ يا شعيب ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ﴾؛ أي: الأحمق ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾؛ أي: السفيه بلغة مدين كما في «ربيع الأبرار»؛ أي: أنت ذُو الجهالة والسفاهة في الرأي والغواية في الفعل، بهوس الصلاة، لكنهم عكسوا القضية، تهكماً واستهزاءً، كما يقال للبخيل: لو رآك حاتم، لاقتدى بك حاتم في سخائك، وللمستجهل، والمستخف فيقال: يا عالم، يا حليم، فهو إذاً[1] من قبيل الاستعارة التبعية، نزلوا التضادَ منزلةَ التناسب على سبيل الهزء، فاستعاروا الحِلم والرشد للسفه والغواية، ثُمَّ سَرَتِ الاستعارة منهما إلى الحليم الرشيد. وقيل: إنهم قالوا ذلك، لا على طريقة الاستهزاء، بل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم؛ أي: كنتُ عندنا مشهوراً بأنك حليم رشيد، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا.

﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ إيرادُ حرف الشك باعتبار حال المخاطبينَ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: حجة واضحة، وبرهان نير من

---

(١) روح المعاني.

مالك أمري، عَبَّر بها عما أتاه الله تعالى من النبوة والحكمة، ردّاً على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمرَهُ ونهيَه غير مستند إلى سند؛ أي: قال[1]: يا قوم أخبروني عن شأني، وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي، ومالك أمري فيما دعوتكم إليه، وما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، فكان وحياً منه لا رأياً مني. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾؛ أي: من لدنه، ومن عنده تعالى، وبإعانته بلا كدّ مني، ولا تعب في تحصيله، اهـ «بيضاوي». ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: كثيراً، واسعاً، حلالاً، طيباً، وقد كان ذلك بالحلال بلا تطفيف مكيال، ولا ميزان، ولا بخس لِحقٍّ أحد من الناس فما أَقُولُه لكم صادِرٌ عن تَجْرِبةٍ في الكسب الطيب، وما فيه من خير وبركة لا عَنْ آراء نظرية ممن ليسَتْ له خبرة، فماذا أقول لكم غير الذي قلت عن وحي من ربي، وعن تجربة في مالي؟ هل يسعني بعد هذا التقصير في التبليغ والكتمان لأوامر الله تعالى، وقيل: أراد[2] بالرزق النبوةَ والحكمةَ عَبَّر عنهما بذلك تنبيهاً على أنهما مع كونهما بينة، رزق حسن، كيف لا، وذلك مناط الحياة الأبدية له، ولأمته، وجوابُ الشرط محذوف لأنَّ إثباته في قصة نوح ولوط دَلَّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه.

والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة.. فهل يصح لي أن أتبعَكم، وأشوبَ الحلال بالحرام، ولا آمركم بتوحيد الله، وتركِ عِبَادَةِ الأصنام، والكفِّ عن المعاصي، والقيام بالقسط، والأنبياء لا يبعثونَ إلاَّ لذلك؟.

﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بنهيي إياكم عن التطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾؛ أي: مخالفتكم حال كوني مائلاً ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقال[3]: خالَفْتُ زيداً إلى كذا، إذا قصدته، وهو مول عنك، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس؛ أي: لا أنهى عن شيء وأرتكبه من نقصان الكيل، والوزن؛ أي: أختارُ لكم ما أختارَ لنفسي، فإنه ليس

---

(1) المراغي.

(2) روح المعاني.

(3) روح المعاني.

بواعظ يعظ الناسَ بلسانه دون عمله. قال في «الإحياء»: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم عِظْ نَفْسَك، فإن اتعظَتْ.. فعظ الناس، وإلا فاستحيي مني.

والمعنى: أي وما أريد بنهيي إياكم عما أنهاكم عنه من البَخْس والتطفيف أنْ أقصده بعد ما ولَّيْتم عنه فأستبدَّ به دونكم، مؤثراً لنفسي عليكم، بل أنا مُسْتَمْسِكٌ به قبلكم.

﴿إِنْ أُرِيدُ﴾؛ أي: ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: إلاّ أنْ أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: مِقْدَارَ ما استطعته من الإصلاح. قال في «بحر العلوم»: (ما) مصدرية، واقعة موقع الظرف؛ أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا الإصلاح لكم، ودَفْعُ الفساد في دينكم، ومعاملاتكم مدةَ استطاعتي الإصلاحَ، وما دمت متمكناً منه لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم. وفي ذلك[1] إيماءٌ إلى إثبات عقله، ورشده، وحكمته، وإبطال لتهكمهم، واستهزائهم بتلقيبهم إياه بـ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾؛ أي: وما كوني موفَّقاً هادياً نبياً مُرْشِداً ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إلاّ بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه، ومنَحي إياه، وهو مصدر من المبني للمفعول؛ أي: وما كوني موفَّقاً لتحقيق ما أقصده من إصلاحكم. ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إلا بتأييده ومعونته، بل الإصلاحُ من حيث الخلق مستندٌ إليه، وإنما أنا من مباديه الظاهرة، والتوفيق[2] يتعدَّى بنفسه، وباللام وبالباء، وهو تسهيل سبل الخير، وأصله موافقةُ فعل الإنسان القدرَ في الخير، والاتفاق هو: موافقةُ فعل الإنسان خيراً كان أو شراً القَدَر. وقال في «التأويلات النجمية»: التوفيقُ: اختصاص العبد بعناية أزلية، ورعاية أبدية، انتهى.

والخلاصة[3]: وما توفيقي لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي، وما أَذَرُ

---

(١) المراغي.

(٢) روح المعاني.

(٣) المراغي.

إلاّ بهداية الله تعالى ومعونته.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في كل ما نابني من الأمور، وأفوض جميعَ أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره. والمعنى عليه توكلت في أداء ما كلفني به من تبليغكم ما أرسلت به إليكم، لا على حولي ولا قوتي؟ وإليه أرجع في كل ما أهمَّني في الدنيا، وهو الذي يُجازيني على أعمالي في الآخرة.

والخلاصة: أنه لا يرجو منهم أجراً، ولا يَخْشَى منهم ضيراً. وقيل: المعنى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ واعتمدت في ذلك معرضاً عما عداه، فإنه القادر على كل مقدور، وما عداه عاجزٌ محض في حد ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، بمعزل عن رتبة الاستمداد به في الاستظهار ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ وأرجع فيما أنا بصدده، في جميع أموري. فقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى معرفة المعاد.

فعلى[1] العاقل أن يجتهدَ في طريق الحق بالأذكار النافعة، والأعمال الصالحة، إلى أن يصلَ إلى مقام التوحيد الحقيقي، ثم إذا وصل إليه اقتفى بأثر الأنبياء، وكمل الأولياء في طريق النصح، والدعوة، ولم يرد إلا الإصلاح، تكثيراً للأتباع المحمدية، وتقويماً لأركان العالَم بالعدل، ونَظْماً للناس في سلك الرشاد، والله ولي الإرشاد، وهو المبدء، وإليه الرجوع والمعاد.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾؛ أي: لا يكسبنكم، ولا يحملنكم. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿يُجرمنكم﴾ بضم الياء من أجرم الرباعي، اهـ «قرطبي». ﴿شِقَاقِيٓ﴾؛ أي: شقاقكم وعداوتكم وبُغضكم إياي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾؛ أي: على أن ينالكم عذاب ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ يعني: أنهم أُهلكوا بسبب الكفر، والمعاصي في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم، فإن لم تعتبروا

---

(١) روح المعاني.

بمَنْ قبلهم من الأمم المعدودة، فاعتبروا بهم، ولا تكونوا مِثلَهم كَيْلا يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب.

والمعنى: أي[1] لا تحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبَخْس الناس في المكيال والميزان، فيصِيبَكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، أو قوم هود من الصرصر، أو قوم صالح من الرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ زماناً، ولا مكاناً؛ أي: إن لم تعتبروا بمن ذكرنَا قبلُ لقدم عهد، أو بُعْدِ مكان، فاعتبروا بهؤلاء فإنهم بمرأىً منكم، ومسمع، وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم، وأنهم كانوا جيرانَ قوم لوط، وبلادهم قريبة من بلادهم، فإنَّ بلادَهم قريبة من مَدْيَن، وإهلاكهم أقربُ الإهلاكات التي عَرَفها الناس في زمان شعيب، وقد يكون المعنى: ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فاحذروا أن يَحلَّ بكم مثل ما حَلَّ بهم من العذاب؛ أي: وما معاملة قوم لوط من معاملتكم، وذنوبهم من ذنوبكم ببعيد؛ لأن الكفرَ كله من جنس واحد، وصفات الكفر قريب بعضها من بعض، قال الجوهري: القومُ يذكَّر ويؤنث، والبعيد من المصادر التي يستوي فيها المذكر، والمؤنث، والجمع، والمفرد، كالزفير، والصهيل، ولذلك أخبرَ عنه ببعيد، ثمَّ بعدَ ترهيبهم بالعذاب، أمَرَهُم بالاستغفار، والتوبة فَقَال:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من عبادة الأوثان، والأصنام ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من البخس، والنقصان في الكيل، والوزن، أو استغفروا بالإيمان، ثمَّ ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَحِيمٌ﴾؛ أي: كثير الرحمة للتائبين، والمستغفرين ﴿وَدُودٌ﴾؛ أي: محب لهم؛ أي: فاعل بهم من اللطف، والإحسان كما يفعل البليغُ المودة بمن يوده. قال في «المفاتيح»: الودود مبالغة الوَادّ، ومعناه: الذي يُحِبُّ الخيرَ لجميع الخلائِق، ويحسن إليهم في الأحوال كلها، وقيل: المحبُّ لأوليائه.

---

(١) المراغي.

والمعنى[1]: واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من عبادة الأوثان، وبَخْسِ الناسِ حُقُوقَهم في المكيال والميزان، ثم ارجعوا إلى طاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار، والتوبة؛ أي: إن ربّي رحيم بمَنْ تَابَ، وأناب إليه لا يعذِّبه بعد التوبة، كثيرَ الود والمحبة، فيحب من يتوب ويرجع إليه. وفي الآية إرشاد إلى أنَّ النَّدَمَ على فعل الفساد والظلم بالتوبة، واستغفار الرب سبحانه وتعالى من أسباب خير الدنيا وخَير الآخرة. وقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قوم شعيب استئناف بياني ﴿يَشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ الفقه: معرفةُ غرضِ المتكلم من كلامه؛ أي: لا نعرفُ ولا نَفْهَمُ ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: كُلّ ما تقول من التوحيد، ومن إيفاء الكيل والوزن، وغير ذلك؛ قالوا ذلك استهانةً بكلامه، واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يَعْبَأ بحديثه: ما ندري ما تقول، وإلا فشعيب كان يخاطبهم بلسانهم، وهم يَفْهَمُون كلامَهُ، لكن لمَّا كان دعاؤه إلى شيءٍ خلاف ما كانوا عليه وآباءهم قالوا ما قالوا.

والمعنى: أي ما نعلم[2] حقيقة كثير مما تقول لنا وتخبرنا به من بطلان عبادة آلهتنا، وقبح حرية التصرف في أموالنا، ومجيء عذابٍ يحيط بنا، وإصابتنا بمثل الأحداث التي أصابَتْ مَنْ قَبْلَنَا كأن أمرها بيدك يصيب بها ربك من يشاء لأجلك.

وقيل المعنى[3]: أنك تأتينا بما لا عَهْدَ لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية، كالبعث والنشور، ولا نَفقه ذلك؛ أي: لا نَفْهَمُه، كما نفهم الأمور الحَاضِرَةَ المشاهدةَ فيكون نفي الفقه على هذا حقيقةً لا مجازاً، وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقةً بل مجازاً كما مر.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا شعيب ﴿فِينَا﴾؛ أي: فيما بيننا ﴿ضَعِيفًا﴾؛ أي: لا قوةَ لكَ ولا قدرةَ على شيء من الضر والنفع، تقدر بها على أن تمنع نَفْسَكَ منا، وتتمكن بها من مخالفتنا، ولا تستطيع أن تمتنع منا، إن أردنا أن نَبْطِشَ بك،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح المعاني.

ومعنى ذلك أنه ليست لك قوَّةُ جسمانية، أو المعنى: كنتَ مَهِيناً ذليلاً فينا لا عِز لك، ولا شرفَ عندَنا، وهذا لا يتعلق بالقوة الجسمانية، فإن ضعيفَ الجسم قد يكون وافرَ الحرمة بين الناس، وهو الظاهر؛ لأنَّ الكفَرةَ كانوا يزدرون بالأنبياء، ويأتباعهم المؤمنين. وقيل: إنه كان مصاباً ببصره. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى: ضعيف؛ أي: قد ضَعف بذهاب بصره، كما يقال له: ضرير، أي: قد ضر بذهاب بصره.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: ولولا حرمة قومك، ومراعاةُ جانبهم، وقالوا: ذلك كرامةً لقومه، لأنهم كانوا على دِينهم لا خوفاً، لأن الرهط من الثلاثة إلى السبعة، أو التسعة، أو العشرة، وهم ألوفٌ فكيف يخافون منْ رهطه؛ أي: ولولا عشيرتك الأقربون ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾؛ أي: لقَتَلْناك برمي الحجارة، حتى تُدْفن فيها، وقد يُوضَع الرجم موضع القتل، وإن لم يكن بالحجارة من حيثُ إنه سببه، ولأنَّ أوّلَ القتل لبني آدم، وهو قتلُ قابيلَ لهابيل، لمَّا كان بالحجارة سَمَّى كُلَّ قتلٍ رَجْماً، وإن لم يكن بها.

وقال عمر رضي الله عنه[1]: تَعلَّموا أنْسَابَكُم، تعرفوا بها أصولَكم، وتصلوا بها أرحامكم؛ قالوا: ولو لم يكن في معرفة الأنساب إلا الاحترازُ بها من صولة الأعداء ومنازعة الأكفاء.. لكان تَعَلُّمها من أحزم الرأي، وأفضل الصواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب: ولولا رهطك.. لرجمناك فأبْقَوا عليه لرهطه، يقال: أبقيتُ لفلان إذا أرعيت عليه ورحمته.

ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ أي: وما[2] أنت بذي عزة، ومنعة تحول بيننا وبين رجمك، وإنما نعزُّ رَهطَك على قلتهم؛ لأنهم منَّا، وعلى ديننا الذي نبذتَه وَراء ظهرك، وأهَنْته ودعوتنا إلى تركه لبطلانه في زعمك. والمعنى: أي: وما أنت بمكرم محترم حتى تمنعنا عزتك من رجمك، بل رهطُك هم الأعزة علينا، لكونهم من أهل ديننا، فإنما نكف عنك

---

(١) روح المعاني. (٢) المراغي.

للمحافظة على حُرمتهم، وهذا دَيْدَنُ السفيه المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسبِّ والتهديد، وتقديم الفاعل المعنوي لإفادة الحصر والاختصاص، وإن كان الخبر صفةً لا فعلاً، و﴿علينا﴾ متعلق بـ﴿عزيز﴾ وجاز لكون المعمول ظرفاً، والباء مزيدة.

وفي الآية إشارة[1] إلى أنَّ مَنْ كَانَ على الله ﴿بِعَزِيزٍ﴾ فإنه ليس على الجاهل بعزيز، وذلك؛ لأنَّ العزةَ والشرفَ عند الجهلاء خُصوصاً في هذا الزمان الفاسدِ بالجاه والمال، لا بالدين والكمال، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، وأموالكم، بل ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، يعني: إذا كانت لكم قلوب وأعمال صالحةٌ تكونون مقبولينَ مُطْلَقاً سواء كانت لكم صور حسنة، وأموال فاخرةً أم لا؟ وإلا فلا.

فوبَّخهم شعيب على سفاهتهم، كما حكى سبحانه عنه ﴿قَالَ﴾ شعيب في جوابهم، والهمزة في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾ وأهيب وأكرم عندكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى حتى كَانَ امتناعكم عن رجمي بسبب انتسابي إليهم، وأنهم رهطي لا بسبب انتسابي إلى الله تعالى الذي أدعوكم إليه بأمره، وكان[2] الظاهرُ أن يقالَ مني إلا أنه قيل: من الله للإيذان بأنَّ تَهَاوُنَهُم به وهو نبي الله تهاوُنٌ بالله تعالى، وإنما أَنْكَر[3] عليهم أَعَزِّيَّةَ رهطه منه تعالى مع أنَّ ما أثبتوه، إنما هو مطلق عزة رهطه، لا أعزيتهم منه تعالى مع الاشتراك في أصل العزة، لتكرير التوبيخ، حيث أنْكَرَ عليهم أوَّلاً بترجيح جانب الله تعالى، وثانياً بنفي العزة بالمرة، والمعنى: أرهطي أعز عليكم من اللَّهِ سبحانه وتعالى، فإنه مما لا يكاد يصح، والحال أنكم لم تجعلوا له حظّاً من العزة أصلاً.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَرَآءَكُمْ﴾؛ أي: وراءَ ظهركم ﴿ظِهْرِيًّا﴾؛ أي:

---

(1) روح المعاني.

(2) روح المعاني.

(3) روح البيان.

منبوذاً، أي: واستخفَفْتُم بربكم، فجعلتموه تعالى شيئاً منبوذاً وراءَ الظهر، منسيّاً لا يبالىٰ به؛ أي: جعلتموه مِثْلَ الشيء المطروح وراء الظهر بإشراككم به، والإهانة برسوله، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عِقَابَهُ، ولا تعظِّمُونه حقَّ التعظيم، فلا تُبْقُون على الله، وتبقون على رهطي؛ أي: فلا تحفظونني، ولا ترحمونني لله تعالى، وتُراعُون نسبة قرابتي إلى الرهط، وتضيّعون نسبتي إلى الله بالنبوة، فكأنكم زَعَمْتُم أنَّ القومَ أعزُّ من الله، حيث تزعمون أنكم تركتم قتلي إكراماً لرهطي، والله أَولى بأن يُتَّبَعَ أمره، كأنه يقول: حِفْظُكُم إيَّاي في الله أولى منه في رهطي، وقيل: المعنى: واتخذتم أمْرَ الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم. والعربُ تقول لكل ما لا يُعْبَأُ بأمره: قد جَعَل فلانُ هَذَا الأمرَ بظهره، فالظهري منسوبٌ إلى الظهر، والكسر لتغيير النَّسب كقولهم في النسبة إلى أمس: إمسيٌّ بكسر الهمزة، وإلى الدهر دُهْرِيٌّ بضم الدال. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه. ﴿مُحِيطٌ﴾ لا يخفىٰ عليه منها خافية، وإن جعلتموه منسياً، فيجازيَكم عليها، والإحاطة: إدراك الشيء بكماله، وإحاطةُ الله تعالى بالأعمال مَجَازٌ عن علمه.

والمعنى[1]: أي إن ربي سبحانه وتعالى محيط علمه بعملكم، فلا يَخْفَى عليه شيء منه، وهو مجازيكم عليه، وأما رهطي فلا يستطيعون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا يَخْفى ما في ذلك من التهديد والوعيد. ثم هدَّدهم مرة أخرى فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ كل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلي حالة كونكم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: موصوفين بغاية المكنة، والقدرة، والقوة؛ أي: على نهاية التمكن، وغايته في إيصال الضرر إلـيَّ، مِنْ مكن مكانةً فهو مكين، إذا تمكَّن من الشيء أبلغ التمكن، أو بمعنى المكان، كمقام، ومقامة، والمعنى: إعملوا ما شئتم على ناحيتكم، وجهتكم التي أنتم عليها من الشرك والعداوة لي؛ أي: ويا قوم[2] اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعَصَبِيتكم.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وخلاصة ذلك: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة، وسائر ما لا خَيرَ فيه. وهذا كلامٌ مِن واثقٍ بقوته بربه، وضَعْفِ قومه على كثرتهم، وإدلالهم عليه، وتهديدهم له بقوتهم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي حذف للاختصار، والاكتفاء أي عامل بقدر ما آتاني الله من القدرة، وعلى حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد. فكأنهم قالوا: ماذا يكون إذا عملنا على قوتنا. فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن﴾ إما استفهامية؛ أي: أيُّنا، أو موصولة أيَّ تَعْرِفون الذي ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: يذله ويُهينه أنا أم أنتم ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في قوله، ومن هو صادق مني ومنكم. وفي «الفتوحات» فـ (من) موصولة في محل نصب؛ أي: سوفَ تعلمون الشقيَ الذي يأتيه عذاب يخزيه، والذي هو كاذب، وهذا أحسن من قول الفراء (من) استفهامية في موضع رفع بالابتداءِ على معنى: أيّنا لا يأتيه العذاب، وأيُّنا هو كاذب، وإنما كان أحسن لأنَّ (من) الثانية موصولة أيضاً، ولا توصل بالاستفهام، وعلم عرفانية، انتهى. وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم. ولما أوعدوه[1]، وكذبوه.. أراد أن يَدفَع ذلك عن نفسه، ويَلْحَقه بهم، فسَلَك سبيل إرخاء العنان لهم وقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من المعذب والكاذب مني ومنكم، وأينا الجاني على نفسه، والمخطىءُ في فعله، يريد أنَّ المعذَّب والكاذبَ أنتم لا أنا. قال الفراء: إنما جاء بهو في ﴿من هو كاذب﴾ لأنهم لا يقولون من قائم إنما يقولون: من قام، ومن يقوم، ومن القائم فزَادوا (هو) ليكونَ جملة تقوم مقام فَعَل ويفعلُ، ذكره الشوكاني.

فائدة: قال الزمخشري[2]: فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء في سورة الأنعام في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وحذفها هنا، حيث قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قلت: إدخال الفاء وَصلٌ ظاهر بحرف موضوع للوصل، وحذفها وصل خفي تقديريٌ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

عَمِلنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت على مَكَانَتِكَ. فقال: سوف تعلمون، يوصَل تارةً بالفاء، وتارةً بالاستئناف كما هو عادةُ البلغاء من العرب، وأقوى الوصلَين وأبلغهما الاستئنافُ؛ لأنه أبلغ في باب الفصاحة، والتهويل، وهو بابٌ من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه.

﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾؛ أي: انتظروا مآلَ ما أقولُ لكم من حلول ما أَعِدُكم به، سيظهر صِدْقُه ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾؛ أي: منتظر لما يقضِي الله به بيننا، وهو فعيل بمعنى الراقب. وعبارة القرطبي: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾؛ أي[1]: انتظروا العذابَ والسخطةَ ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾؛ أي: فإني منتظر النصر والرحمةَ. وكان شعيب عليه السلام يسمَّى خطيب الأنبياء، لحسن محاورته مع قومه، وكمال اقتداره في مراجعته جوابَهم، وكان كثيرَ البكاء حتى عَمِيَ ثم رَدَّ الله عليه بصرَهُ، فأوحى إليه يا شعيب: ما هذا البكاءُ أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: إلَهي وسيدي إنك تعلم أني ما أبكي شوقاً إلى الجنة، ولا خوفاً من النار، ولكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك، فما أبالي ما الذي تصنع بي. فأوحى الله تعالى إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقاً.. فهنيئاً لك لقائي، يا شعيب، لذلك أَخْدَمْتُك موسَى ابنَ عِمرانَ كليمي.

وهذه حال المقربين، فإنهم جعلوا الله تعالى بين أعينهم، وجعلوا الخَلْقَ وراءَ ظهورهم، خِلافَ ما عليه أهل الغفلة، فلم يلتفتوا إلى شيء من الكَونين حُبّاً لله تعالى، وقصراً للنظر عليه، وهم العبيد الأحرار، والناس في حَقِّهم على طبقات. فأما أهل الشقاءِ فلم يعرفوهم مَنْ هم، ولم يَرَوْهم أصلاً لانطماس بصيرتهم، وعدم استعدادهم لهذا الانكشاف، ألا ترى إلى قوم شعيب، كيف حَجَبهم كونه أعمى في الصورة عن رؤية جمال نبوته، وظنُّوا أن لهم أبصاراً ولا بصرَ له، ولذا عدوه ضعيفاً، ولم يعرفوا أنهم عميٌ في الحقيقة، وأن أبصارهم الظاهرةَ لا تستجلب لهم شرفاً، وأنَّ الحقَّ مع أهل الحق، سواء ساعدته الأسباب

(١) القرطبي.

الصورية، والآلات الظاهرة أوْلا، فإن النَّاسَ مشتركون فيما يجري على ظواهرهم من أنواع الابتلاء، مفترقون فيما يَرِدُ على بواطنهم من أصناف النعماء، والله تعالى أرسلَ الأنبياء عليهم السلام إلى الناس الغافلين، ليفتحوا عيونَ بَوَاطِنَهم من نوم الغفلة، ويَدْعُوهم إلى الله تعالى ووصاله، ولقاءِ جماله، فمَنْ كان له منهم استعداد لهذا الانفتاح.. رضي بالتربيةِ والإرشاد، وقام في طريق الحق بالسعي والاجتهاد، ومَنْ لم يكن له منهم ذلك.. أبى واستكبر عن أخذ التلقين، وامتنع عن الوصول إلى حد اليقين، فبقي في الظلمات كالأعمى لا يَدْري أيْنَ يذهب، فيا أيها الأخوانُ ارجِعوا إلى رَبّكم مع القوافل الروحانية، فمِن قريب ينقطع الطريقُ، ولا يُوجد الرفيق.

ثُمَّ ذَكَرَ أنَّهُ كانَ صادقاً في وعيده لهم فَحَلَّ بهم سوء العذاب فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الذي قَدّرناه في الأزل من العذاب، والهلاك لقوم شعيب، فالأمرُ: واحد الأمور ﴿نَجَّيْنَا﴾ رسولنا ﴿شُعَيْبًا﴾ قدم تنجيتَه إيذاناً بسبق الرحمة التي هي مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر أثره بموجب الجرائم، ﴿و﴾ نجينا ﴿الذين آمنوا معه﴾، واتبعوا شعيباً في الإيمان، وآمنوا كما آمَنَ هو، فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ أزلية صَدَرَتْ ﴿مِنَّا﴾ في حقهم، ومجرد فضل خاصٍّ بهم لا بسبب أعمالهم كما هو مَذْهَبُ أهل السنة. وقال بعضهم: هي الإيمان الذي وفقناهم له، يقول الفقيرُ[1]: وجه هذا القول أنَّ العذابَ والهلاكَ الذي هو من باب العدل قد أضيف إلى الكفر والظلم، فاقتضى أن يضافَ الخلاصُ والنجاة الذي هو من باب الفضل إلى الإيمان، ولمَّا كانَ الإيمانُ والعمل الصالح أمراً موقوفاً على التوفيق.. كان مجردَ فضل ورحمة فافهم.

فائدة: قال الزمخشري[2]: فإن قلت: ما الحكمة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالواو في قصتي عاد ومدين، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالفاء في قصتي لوط وثمود؟

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

قلتُ: قد وقعت جملةُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ في قصة قوم لوط، وقصة قوم ثمود بعد ذكر الوعد، وذلك قوله في الأولى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾، وقوله في الثانية ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٍ﴾، فجِيءَ بالفاء التي للتسبب كما تقول: وعدته، فلما جاء الميعادُ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ. وأما قصتا عاد ومدين، فلم تَقَعا بتلك المنزلة؛ وإنما وقَعَتا مبتدأتين، فكان حقهما أن يعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما، كما تعطف قصة على قصة، انتهى.

﴿وَأَخَذَتِ﴾؛ أي: أهلكت ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسَهم بالإباء والاستكبار، عن قبول دعوة شعيب وغيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه حلال ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فاعل، أخذَت، وأنَّث[1] الفعل هنا على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فذكّر على معنى الصياح؛ أي: أهلكَتْهم صيحةُ جبريل عليه السلام بقوله: (موتوا جميعاً)، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضي إليها، وهذا في أهل قرية شعيب، وأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بعذاب الظلة، وهو نارٌ نزلت من السماء أحرقَتْهُم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما أهلك الله أُمَّتَيْن بعذاب واحد، إلا قومَ صالح، وقومَ شعيب أهلكهم الله بالصيحة، غَيْرَ أنَّ قومَ صالح أخَذَتْهُم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحةُ من فوقهم.

وذلك أنهم أصابهم حر شديد، فخَرَجُوا إلى غيضة لهم فدخلوا فيها، فظَهَرَتْ لهم سحابة كهيئة الظلة فأحدقَتْ بالأشجار، وأخذَتْ فيها النار، وصاح بهم جبريل، ورجفَتْ بهم الأرض، فماتوا كلهم، واحترقُوا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾؛ أي: صاروا ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ أي في بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ ميتينَ، لازمينَ لأماكنهم لا براحَ لهم منها؛ أي: لا زوالَ حالةَ كونهم ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾؛ أي: كأنهم لم يقيموا في ديارهم أحياء

(١) القرطبي.

متصرفين، في أطرافها مترددينَ متقلبينَ في أكنافها. ثم دعا عليهم فقال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾؛ أي: هلاكاً لأهل مدين، وبعداً من رحمة الله تعالى ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ أي: كما هلكت من قبلهم ثمود، وبعدت من رحمة الله تعالى بإنزال سَخَطِه بِهِم، شَبَّه هلاكهم بهلاكهم، لأنهما أُهلِكَتَا بنوع من العذاب وهو الصيحة كما مرَّ آنفاً.

والخلاصة[1]: أنَّ اللّٰهَ سبحانه وتعالى أرسلَ على كل من ثمود ومدين صاعقةً ذاتَ صوت شديد، فرجَفَتْ أرضها، وزلزلت من شدتها، وخروا ميتين، وكانت صاعقتهما أشد من الصاعقة التي أخذَتْ بني إسرائيل حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾. وقد أحياهم الله تعالى عَقِبَها؛ لأنَّ هذه تربية لقوم بني إسرائيل في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذابَ خزي لمشركينَ ظالمينَ معانِدِينَ أنجى الله نبِيَّ كل منهما، ومؤمنيهما قبلها. وقرأ أبو[2] عبدالرحمن السلمي، وأبو حيوة: ﴿كما بَعُدت﴾ بضم العين من البعد الذي هو ضد القرب. والجمهور بكسرها. أرادت العرب: التفرقةَ بين البعد من جهة الهلاك، وبين غَيره فغيَّروا البناءَ. وقرأه السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البُعْدِ من غير تخصيص، كما يقال: ذَهَبَ فلان ومَضَى، في معنى القرب.

وفي الآية[3] إشارة إلى أن الكفرةَ وأهلَ الهوى، أفسدوا الاستعدادَ الروحانيَّ الفطريَّ، في طلب الدنيا، واستيفاء شهواتها، والاستكبار عن قبول الحق والهدى، وأدَّى تمردهم عن الحق، وتماديهم في الباطل إلى الهلاك صورةً ومعنًى. وأما صورة فظاهرٌ. وأما معنى: فلأنهم أبعدوا عن جوار الله وطيب العيش معه إلى أسفلِ سافلي القطيعة فبَقَوا في نار الفرقة، لا يحيون، ولا يموتونَ، وما انتفعوا بحياتهم فَصاروا كالأموات، وكما أنَّ الصيحةَ من جِبْرِيلَ أهلكتهم فكذا النفخة من شعيب أحيَتْ المؤمنينِ لأنَّ أَنْفَاس الأنبياء، والأولياء كنفخ إسرافيل في الأحياء إذا كان المحلُّ صالحاً لطرح الروح فيه كجسد

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الإكسير. وقد سبق أنَّ قومَ شعيب عدوه ضعيفاً فيما بينهم، وما عرفوا أنَّ اللَّهَ القويَّ معه، فعلى الصالحين أن يَعْتَبِرُوا بأحوال الصالحين، فإنهم قد أَخَذُوا الدنيا، وآثَرُوها على الآخرة ثمَّ سلبهم الله أموالَهم، وديارَهم، كأن لم ينتفعوا بشيء، ولم يقيموا في دار. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمرانَ حالةَ كونه متلبساً ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع التي هي العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الأموال والأنفس الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا. وقيل: المراد بالآيات التوراةُ، وبالسلطان، العصا، واليد؛ أي: ولقد أرسلنا موسى بالتوراة مع ما فيها من الأحكام، وأيدْناه بمعجزات قاهرة دالةٍ على صدق نبوته، ورسالته، وهذا القول ليس بسديد؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، والتوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملأه، ذكره أبو حيان في «البحر». ﴿و﴾ متلبساً بـ﴿سلطان﴾؛ أي: برهان ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضح هو نفس تلك الآيات فهو من قبيل عطف الصفة مع اتحاد الموصوف؛ أي: ولقد أرسلنا موسى بالأمر الجامع بين كونه آياتنا، وبين كونه سلطاناً له على صِدْقِ نبوته واضحاً في نفسه، أو مُوضِّحاً إياها، فإنَّ أبان جاء لازماً ومتعدياً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: التوراة الجامعةَ بين كونِهَا كِتَاباً وحجةً تفرق بين الحق والباطل، ويجوز أن يرادَ بسلطان مبين الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾. قال بعض المحققين: سميت الحجة سلطاناً؛ لأنَّ صاحب الحجة يَقْهَرُ مَنْ لا حجة معه كالسلطان يَقْهر غيره، اهـ «خازن».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه، ورؤسائهم، وتخصيص ملأه بالذكر مع عموم رسالته لقومه كافَّة لأصالتهم في الرأي، وتدابير الأمور، واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور. ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ في كل ما قَرَّره من الكفر بموسى، ورَدِّ ما جاءهم به من عند الله، وتشديد الظلم على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم إلى نحو ذلك مما جاء في السور الأخرى مفصَّلاً؛ أي: فاتبع الملأ أَمْرَ فرعونَ وأطاعوا قولَه، حين قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وخالفوا أَمْر موسى بالتوحيد، وقبول الحق، وإنما لم يصرِّح بكفر

فرعون بآيات الله تعالى للإيذان بوضوح حاله، فكأنَّ كُفْرَه وأمرُ ملأه بذلك محقق الوجود، غير محتاج إلى الذكر صريحاً، وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملأه المترددين بين هاد إلى الحق، وداعٍ إلى الضلال فقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ معطوف على مقدر؛ أي: فكفَر بها فرعونُ، وأمرهم بالكفر، فاتبعوا أمر فرعون؛ أي: أطاعوه. وإيراد (الفاء) للإشعار بمسارعتهم إلى الاتباع، فكأنه لم يَتَراخَ من الإرسال، والتبليغ بل وَقَعَا في وقت واحد. ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: وما شأنه وتصرفه ﴿بِرَشِيدٖ﴾؛ أي: بصالح حميد العاقبة، بل هو محض غـيٍّ وضلالٍ، وظلم، وفساد، لغروره بنفسه، وكفرانه بربه، وطغيانه في حكمه، فإنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد، وكان يقول: لا إلّه للعالم، وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم، وعبوديته رعايةً لمصلحة العالَم.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾؛ أي: يتقدم فرعون قومه وأتباعه من الأشراف وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ويكونون تَبَعاً له كما كانوا تَابِعينَ له في الدنيا إلا مَنْ آمنَ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾؛ أي: فيوردهم النارَ معه، ويُدْخِلُهم جهنَّم. وقد وَرَدَ أن آله يعرضون على النار منذ ماتوا صباحاً ومساءً من كل يوم كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: إن فرعونَ كان قُدوةً لقومه في الضلال، وفي دخول البحر، والغرق في الدنيا، فكذلك يتقدَّمهُم في الآخرة في دخول النار والحرق. وعَبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع، لا محالةَ؛ لأنَّ الماضِيَ متيقن الوجود ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾؛ أي: وبئس المَدْخَلُ المدخول فيه، والمَشْربُ الذي يشرب منه، والمخصوص بالذمِّ النارُ؛ لأنَّ واردَ الماء إنما يَرِدُه لِتبريد كبدِهِ، وإطفاء غُلَّتِهِ مِنْ حَرِّ الظمأ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً.

واعلم[1]: أن الورودَ عبارة عن المجيء إلى الماء، والإيراد إحضار الغير، والمورود الماء فشبه فرعونَ بالفارط الذي يتقدم الواردَ إلى الماء، وأتباعَه بالواردة،

(١) روح البيان.

والنارَ بالماء الذي يَرِدُونَه. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ أي: وأتبع الملأ الذين اتبعوا فرعونَ في هذه الدنيا طرداً وبُعْداً عن الرحمة؛ أي: وألحقت بهم في هذه الدنيا لعنة عظيمة مِمَّنْ بَعْدَهم من الأمم ﴿و﴾ أتبعوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنةً أخرى، أيضاً مع اللعنة التي حَصَلَتْ لهم في الدنيا يَلْعَنُهم أهل الموقف جميعاً، فهي تابعة لهم حيثما سارُوا، ودائرة أينما دَاروا. والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معطوف على موضع في هذه، والمعنى: أنهم ألحقوا لعنةَ في الدنيا، وفي الآخرة، ويكون الوَقْفُ عليها تامّاً، ويبتدأُ بـ (بئس) اهـ.

أي[1]: فكَما اتبعوا أَمْرَ فِرْعَونَ،أتبعتهم اللعنة في الدارين جزاءً وفاقاً، أو يُلْعَنُون، ويُطردون من رحمة الله تعالى في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بما فيها من عذاب، فإن كُلَّ معذَّبٍ مَلْعونٌ مطرودٌ من الرحمة، كما أنَّ كلَّ مخذولٍ محرومٌ من التوفيق، والعناية كذلك، واكتفى ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون. إذْ حِينَ كان حالُهم هكذا، فَمَا ظنك بحال من أغواهم، وألقاهم في هذا الضلال البعيد، وحيثُ كانَ شأنُ الأتباعِ أن تكون أعواناً للمتبوع، جُعلت اللعنة رِفداً لهم على طريقة التهكم. فقيل: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ﴾؛ أي[2]: العَونُ، والمرادُ به اللعنةُ الأولى ﴿الْمَرْفُودُ﴾؛ أي: المعانُ باللعنة الثانية؛ أي: بئس اللعنةُ الأولى المُعانُ باللعنة الثانية عونهم، وهي اللعنة في الدارين. فاللعنة الأولى: عَوْنٌ لهم معاونةٌ باللعنة الثانية، وهذا على سبيل التهكم بهم، وإلا فاللعنة إذْلالٌ لهم، وإنزالٌ بهم إلى الحضيض الأسفل. وسمِّيت اللعنة عَوْناً لأنها إذا تَبِعَتْهم في الدنيا أَبْعَدَتْهم عن رحمة الله تعالى، وأعانَتْهم على ما هم فيه من الضلال. وسمِّيت رفداً؛ أي: عوناً لهذا المعنى على سبيل التهكم. وسميت مُعَاناً لأنها أُردفَت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هَادِيَيْنِ إلى طريق الجحيم، اهـ «زاده». وقال الزجاج: كلُّ شيء جعلته عَوْناً لشيء، وأسندْتَ به شيئاً، فقد رفدتَه، والمعنى: بئس العونَ المعان

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

رِفْدُهم، وهي اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفدٌ للعذاب، ومددٌ له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وفي الآية بيان شقاء فرعون، وأنه لم ينفعه إيمانه حين الغرق، ولو نفَعه لما كان قائدَ قومه إلى النار. وفي الآيات[1] من العبرة أنَّ في البشر فراعنة كثيرينَ يغوون الناس، ويستعبدونهم، فيطيعونهم، ويذلون لهم ذل العبيد، ولا تفيدهم هِدَايةُ القرآن شيئاً، ومنهم من يدعون الإسلام، ولا يفهمون قولَ الله تعالى لرسوله في آية مبايعة النساءِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، وقوله ﷺ: «لا طاعةَ لأحد في معصية اللّهِ إنما الطاعة في المعروف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الخبر الذي قصصناه عليك يا محمد ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾، والمدن؛ أي: بعضُ أخبار أهل القرى المهلكة من الأمم الماضية بما جَنَتْ أيدي أهلها من قوم نوح، ومَنْ بعدهم ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ في هذا القرآن، ونخبره لك لتتلوه على الناس فيكون فيه دلائل نبوتك، ويتلوه المؤمنون آناءَ الليل وأطراف النهار، إنذاراً وتبليغاً عَنَّا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك القرى ﴿قَآئِمٌ﴾؛ أي: باق أثره وجدرانه كالزرع القائم على ساقه كديار عاد وثمود. ﴿وَ﴾ منها ﴿حصيد﴾؛ أي: عافي الأثر، وذاهبه كالزرع المحصود، كقُرى قوم لوط، وديار قوم نوح، فشَبَّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وما محي منها بالزرع المحصود. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وما ظلمنا أَهْلَ تلك القرى بإهلاكنا إياهم بغير جُرْمٍ استحقوا به الهلاك، فالضمير عائد إلى الأهل المحذوف المضاف إلى القرى ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما يُوجب الهلاكَ منْ شركِهِم، وإفسادهم وإصرارهم على ذلك حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق، ولو بَقَوا زَماناً ما ازدادوا إلا ظلماً وفجوراً وفساداً في الأرض، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾. فإنهم أكلوا رِزْقَ الله، وعبدوا غَيْرَه وكذبوا رسله. وفيه إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم استعداداً روحانياً، وآلَةً لتحصيل كمالات لا يدركها الملائكة المقربون، فاستعملوا تلك الآلَةَ على وَفْقِ الطبيعة لا على حكم الشريعة، فعبَدُوا طاغوت الهوى، ووثَنَ الدنيا،

---

(١) المراغي.

وأصنامَ شهواتها، فجاءهم الهلاك من أيدي الأسماء الجلالية. وقد بالغ رسلُهم في وعظهم وإرشادهم، فما زادهم ذلك إلا عتوّاً واستكباراً، وأنذروهم بالنذر، فما زادهم ذلك إلاّ إصراراً وعناداً، ثِقَةً منهم بأن آلهتهم تَدْفَعُ عنهم كُلَّ مُخوِّف وَتُبْعِدُ عنهم كل محذور جهلاً منهم بما كانوا يعملون. ومن ثَمَّ قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فما دَفَعَتْ بأس الله عنهم، ولا نَفَعَتْهُم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾؛ أي: يعبدونها ففيه حكايةُ حال ماضية ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: حالَةَ كونهم متجاوزينَ عبادةَ الله، ويطلبون منها أن تَدْفَعَ عنهم الضرَّ بنفسها، أو بشفاعتها ﴿مِن شَيْءٍ﴾ في موضع المصدر؛ أي: ما أغنت عنهم، ولا نفعَتْهُم شيئاً قليلاً من الإغناء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ منصوب بـ﴿أغنت﴾؛ أي: ما أغنتهم شيئاً من الإغناء والنفع حين مجيء عذاب ربك، ونقمته، وهي المكافأة بالعقوبة. والمعنى: فما دفعَتْ عنهم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب، حين جاء عذابُ ربك. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ الضمير المرفوع للأصنام، والمنصوب لعبدتها، وعبَّر عن الأصنام بواو العقلاء؛ لأنَّهم نَزَّلُوها مَنْزِلَةَ العقلاء في عبادتهم إياها، واعتقادهم أنها تنفع وتضر؛ أي: وما زادت الأصنام لعابديها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾؛ أي: غَيْرَ إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، وكانوا يعتقدون في الأصنام جَلْبَ المنافع، ودَفْعَ المضارِّ فَزَالَ عنهم بسبب ذلك الاعتقاد منافع الدنيا والآخرة، وجَلَب ذلك إليهم مضارَّ الدنيا والآخرة، وذلك من أعظم الهلاك، وأشد الخسران. والمعنى: وما زادَتْهم الأصنامُ التي يعبدونها إلا هَلاكاً، وخسراناً، وقد كانوا يَعْتَقِدُون أنها تُعِينُهم على تحصيل المنافع.

ويقال: تببه تتبيباً إذا أهلكه، وتبَّ فلانُ وتَبَّتْ يده خَسِرَ، أو هلك كما سيأتي في مباحث الصرف إن شاء الله تعالى. وقرىء[1]: ﴿آلهتهم اللاتي﴾ بالجمع ﴿ويدعون﴾ بالبناء للمجهول. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ قرأ[2] أبو رجاء، والجحدري: ﴿وكذلك أخذَ ربُك إذ أخذ﴾ على أَنَّ أَخَذَ ربك فعل وفاعل، و(إذ) ظرف لما مضى، وهو إخبار عما جرت به عادة الله في إهلاك من تقدم من الأمم.

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ﴾. قال ابن علية: وهي قراءة متمكنة المعنى، ولكن قراءة الجماعة تعطي الوعيد، واستمراره في الزمان، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي. وقرأ غيرهما: ﴿أَخْذ﴾ على المصدر، والكاف في محل رفع على أنها خبر مقدم للمصدر المذكور بعدها؛ أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي مر بيانه في الأمم الماضية أخذ ربك، وإهلاكه القرية أي قرية كانت. ﴿إِذَآ أَخَذَ﴾ وأهلك ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أهلها، وإنما أسندَ الإهلاك إلى القرى لِلأشعار بسريان أثره إليها. ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ جملة حالية من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أُقيمت مقامهم في الأخذ أجريت عليها.

وفائدتها: الإشعارُ بأنهم أخذوا بظلمهم وكفرهم ليكونَ ذلك عبرةً لكل ظالم.

والمعنى: أي ومثل ذلك الأخذ المذكور بالعذاب، وعلى نَهجه وطريقِهِ أخذ ربك أهلَ القرى إذا أخَذَهم، وهم ظالمون أنفسَهم بالكفر، والإفساد؛ أي: إنَّ كُلَّ[1] من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي، فلا بد وأن يشاركَهم في ذلك الأخذ، فذلك عقابٌ لا مفرَّ منه، ولا مَهْرَب.

وفي هذا إنذارٌ وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة في كل زمان ومكان. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى وإهلاكه للأمم ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجيع قاسي لا يُرجَى منه الخلاص؛ أي: إنَّ عقوبته سبحانه وتعالى لمن ظلم عقوبة مؤلمة شديدة صعبة على المأخوذ والمعاقَب، لا يُرْجى مِنها الخلاص.

روى البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذَا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، فليعتبر[2] الظالمون بهذا، ولا يغتروا بالدين الذي ينتسبون إليه دون أن يعملوا ما يرفع عنهم غَضَب ربهم، ونقمتَه، فربما كان ذلك إملاءً منه

---

(١) المراح.　(٢) المراغي.

تعالى، واستدراجاً لهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إنَّ فيما[1] نَزَل بالأمم الهالكة بذنوبهم، أو إنَّ فيما قصه الله سبحانه وتعالى من إهلاك تلك الأمم السبعة، وبيان سنته في عاقبة الظالمين. ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة بينة وموعظةً بالغةً، وحجةً ظاهرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾؛ أي: لمن[2] أقر عذابَ الآخرة، وآمن به، وصدَّقه، وخافَ منه؛ لأنه يعتبر بتلك الأمم حيثُ يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة، وذلك لأنَّ القَصَص المذكورة فيها عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، وقد حصَلَ الأول فيعلم العاقل أنَّ القادر على إنزال الأول قَادِرٌ على إنزال الثاني. وأمَّا مَنْ أنكر الآخرةَ، وأحال فَناءَ العالم، ولم يقل بالفاعل المختار، وجَعَلَ تِلك الوقائعَ لأسباب فَلَكِية اتفقت في تلك الأيام، لا لذنوب المهلكين فهو بمعزل من هذا الاعتبار، تبّاً لهم، ولما لهم من الأفكار. وعبارة أبي حيان هنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فيما[3] قصَّ اللَّهُ سبحانه وتعالى من أخبار الأمم الماضية، وإهلاكهم ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعلامة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾؛ أي: أنهم إذا عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياءَ، وإشراكهم بالله، وهي دار العمل، فلأن يعذبوا على ذلك في الآخرة التي هي دار الجزاء أولى، وذلك أنَّ الأنبياء أخبروا باستئصال من كذبهم، وأشركوا بالله، ووقع ما أخبروا به وفق إخبارهم فدلَّ على أنَّ ما أخبروا به من البعث والجزاء صدق لا شكَّ فيه، انتهت.

والماديون في هذا العصر[4]، وفي عصور سابقة كما حكاه البيضاوي عن بعض أهل عصره يقولون: إن الطوفانَ والصاعقةَ وخسفَ الأرض كل أولئك قد حَدَثَ بأسباب طبيعية لا بإرادة الله تعالى واختياره لتربية الأمم. ويكفي في الرد عليهم أن يقال: إنَّ حدوثَ هذه الأشياءِ وغيرها بالأسباب الموافقة لسنن الله في نظام العالم هو المراد بالقضاء والقدر في القرآن الكريم، والله تعالى أحدث هذه الأسبابَ في أوقات معينة بحكمته لعقاب تلك الأمم بها، ولم تكن من قبيل المصادفات.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

والدليل على ذلك أن أولئك الرسلَ أنذروا أقوامَهم بحدوثها قبل أن لم تكن، ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعيين، والتحديد. وهكذا يفعل الله بالظالمين في كل زمان، وإن لم يكن فيهم من ينذرهم بوقوع ما يحل بهم اكتفاء بإنذار القرآن الكريم كما قال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة؛ أي: ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يوم يجمع فيه الناس كلهم الأولون والآخرون ليحاسبوا على ما عملوا، ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس ﴿وَذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي يجمع فيه الناس الذي هو يوم القيامة؛ لأن اسم الإشارة عائد إلى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ فيه؛ أي: يشهده الخلائق جميعاً من الإنس والجن، والملائكة، وغيرهم حيث[1] يشهد فيه أهل السموات والأرضين للموقف، لا يغيب عنه أحدٌ، فالمشهود هو الموقف، والشاهدون؛ أي: الحاضرون الخلائق، والمشهود فيه اليوم فاتسع فيه إجراءً للظرف مجْرَى المفعول به، بجعله مشهوداً، وإنما هو مشهود فيه، فاتسع فيه بأن وصل الفعل إلى ضميره، من غير واسطة، كما يصل إلى المفعول به، اهـ «سمين».

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: أيُّ فائدة في أن أوثر اسمُ المفعول على فعله؟

قلت: أوثر اسم المفعول لما فيه من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه لا بدّ أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمةً، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل. ومعنى: ﴿مَّشْهُودٌ﴾ مشهود فيه، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعول به على السعة كقوله:

وَيَـوْمَـاً شَـهِـدْنَـاهُ سُـلَـيْـمَـاً وَعَـامِـرَاً

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

والمعنى: يشهد فيه الخلائق الموقفَ لا يغيب عنه أحد، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، وإنما لم يجعل اليومَ مشهوداً في نفسه كما قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ لأن الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعِظم وغيره من بين الأيام، وكونه مشهوداً في نفسه لا يميزه إذ هو موافق لسائر الأيام في كونها مشهودةً، انتهى.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾؛ أي: وما نؤخِّر ذلك اليومَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾؛ أي: إلا لأجل انقضاء أجل معلوم عدده. وانتهاء مدة معلومة في علمنا مضروبة بحسب ما تقتضيه الحكمة لا تزيد، ولا تنقص، وهي انتهاء مدة الدنيا، وكل شيء معدود محدود قريب، ولم يطلع الله سبحانه وتعالى أحداً من خلقه على معرفة ذلك اليوم. وفي[1] الآيات تهديد وتخويفٌ من الله تعالى، وحث على تصحيح الحال، وتصفيةِ البال وتزكية الأعمال، ومحاسبة النفوس قبل بلوغ الآجال، فإن العبد لا يحصد إلا ما يزرع، ولا يشرب إلا بالكأس التي يَسْقي، فعلى العاقل أن يتداركَ ما فاتَ ولا يضيع الأوقاتَ.

والظرف في قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ وفاعل (يأت) ضمير يعود على (اليوم) أي: حين يأتي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله، وهو يوم القيامة، فلا يلزم أن يكونَ للزمان زمانٌ، وذلك لأن الحينَ مشتمل على ذلك اليوم، وغيره من الأوقات، ولا محذور في كون الزمان جزءاً من زمان آخر، ألا ترى أنَّ الساعةَ جزء من اليوم، واليوم من الأسبوع، والأسبوع من الشهر، والشهر من العام.

و﴿يَأۡتِ﴾ بحذف الياء اجتزاءً عنها بالكسرة، كما قالوا: لا أدر ولا أُبال، وهو كثير في لغة هذيل. روي عن عثمانَ رضي الله عنه أنه عرض عليه المصحف، فوجد فيه حروفاً من اللحن، فقال: لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل.. ما وجد فيه هذه الحروف. فكأنه مَدَح هذيْلاً بالفصاحة.

﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بحذف إحدى التاءين؛ أي: لا تتكلم ﴿نَفۡسٌ﴾ من الأنفس

---

(١) روح البيان.

الناطقة بما ينفع، ويُنجي من جواب، أو شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى إذ لا يملك أحد فيه قولاً، ولا فعلاً إلا بإذنه تعالى في التكلم. فالمأذون[1] من الكلام هو الجوابات الصحيحة، والممنوعُ منه هو ذكر الأعذار الباطلة كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، ويوم القيامة يوم مقداره ألف سنة من سني الدنيا. ففيه مواقف، وأزمنة، وأحوال، مختلفة يتكلمون في بعضها، ويتساءلون كما قال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾. ولا يتكلمون في بعضها لشدة الهول، والفزع، وظهور آثار سطوة القهر، أو لعدم الإذن لهم في الكلام، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ويُختم في بعضها على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، وبهذا التفصيل يجمع بينَ الآيات المتعارضة ظَواهِرُها.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿وما يؤخره﴾ بالياء. وقرأ النحويان أبو عمرو، والكسائي، ونافع: ﴿يأتي﴾ بإثبات الياء وصلاً، وحذفَها وقفاً. وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً، وهي ثابتة في مصحف أُبـيٍّ. وقرأ باقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً. وسقطت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه. وقرأ الأعمش: ﴿يأتون﴾ وكذا في مصحف عبد الله، وإثباتها وقفاً ووصلاً هو الوجه. ووجه[3] حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعلَ السالمَ يوقف عليه كالمجزوم، فحذفت الياء، كما تحذف الضمة، ووجه قراءة مَنْ قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رَسْمَ المصحف كذلك. وَحَكى الخليل، وسيبويه: أن العرب تقول: لا أدر فتحذف الياء، وتجتزىء بالكسر. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَاكَ كَفٌّ مَا تَلِيقُ دِرْهَمَاً   جُوْدَاً وَأُخْرَىٰ تُعْطِ بِٱلسَّيْفِ ٱلدِّمَا

قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، انتهى.

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: فممن يجمع في ذلك اليوم ﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد، فهو مستحق للعذاب الأليم، الذي أوعدَ به الكافرون ﴿وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: ومنهم سعيد، وجَبَت له الجنة بمقتضى الوعد، فهو مستحق لما وعد به المتقون من الثواب، والنعيم الدائم، وتقديم الشقي على السعيد؛ لأن المقامَ مقام التحذير والإنذار، والأطفال والمجانين لا يدخلون في هذا التقسيم لعدم التكليف، ويدخل فيه من استوت حَسَناتهم وسيئاتهم من المؤمنين، ومن تغلب سيئاتهم، ويعاقبون عليها إلى حين ثم يدخلون الجنةَ؛ لأنهم فريق السعداءِ باعتبار العاقبة، فالسعداء درجات، والأشقياء دركات، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث، كالأطفال والمجانين.

روى الترمذي وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، قلت: يا رسول الله، فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه، قال: «بل على شيء قد فرغ منه، وجَرَتْ به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له». وروي عن علي كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة فأخَذَ عوداً فجعل يَنْكتُ في الأرض، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

والمراد أن الله يعلم الغيب، وأنه يعلم المستقبل كلَّه بجميع أجزائه، وأطرافه، ومنه عمل العاملين، وما يترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده في كتابه المنزل، وكتابته للمقادير، والنبي ﷺ، علَّمنا أنَّ الجزاء بالعمل، وأنَّ كُلاً ميسر له، ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة، أو شقاوة النار، وأنَّ ما وَهَبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير في تربية النفس، وتوجيهها إلى ما تعتقد أنَّ فيه سعادتَها وخَيْرُها.

قال في «التبيان»[1]: علامة الشقاوة خمسة أشياء: قساوة القلب، وجمود العين، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل، وقلة الحياء. وعلامة السعادة خمسة

(١) روح المعاني.

أشياءٍ أيضاً: لين القلب، وكثرة البكاء، والزهد في الدنيا، وقصر الأمل، وكثرة الحياء. وفي «التأويلات النجمية» ﴿شَقِيٌّ﴾ محكوم عليه بالشقاوة في الأزل، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ محكوم عليه بالسعادة في الأزل، وعلامة الشقاء الإعراض عن الحق، وطلبه، والإصرار على المعاصي من غير ندم عليها، والحرص على الدنيا، حلالها وحرامها، واتباع الهوى، والتقليد، والبدعة. وعلامة السعادة: الإقبال على الله وطلبه، والاستغفار من المعاصي، والتوبة إلى الله، والقناعة باليسير من الدنيا، وطلب الحلال منها، واتباع السنة، واجتناب البدعة، ومخالفة الهوى، انتهى.

الإعراب

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَـٰشُعَيْبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰشُعَيْبُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري الاستهزائي. (صلاتك) مبتدأ. ﴿تَأْمُرُكَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على (صلاتك) والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول الترك، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر، محذوف تقديره: بترك عبادة ما يعبد آباؤنا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تأمر﴾. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما يعبد آباؤنا. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى الواو، التي للجمع. ﴿أَن نَّفْعَلَ﴾ ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ متعلق به. ﴿مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ﴾ (ما) موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿نفعل﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ تقديره: أصلاتك تأمرك بتركِ عبَادة ما يعبد آباؤنا، أو بترك فعلنا في أموالنا ما نشاء. ﴿نَشَـٰٓؤُا۟ۖ﴾ فعل مضارع،

وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما نشاؤه. ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَأَنتَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿أنت﴾ تأكيد للكاف أو ضمير فصل. ﴿ٱلْحَلِيمُ﴾ خبر إن. ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ صفة للحليم، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها معلَّلةً لما قبلها.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملةُ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل، وهي هنا بمعنى: أخبروني فتنصب مفعولين، وقد حذفا معاً من النظم الكريم، وتقدير الأول أخبروني فياء المتكلم هي المفعول الأول، والثاني محذوف أيضاً تقديره: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، ورزقني منه رزقاً حسناً أفأشوبه بالحرام، فالجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثان، وجملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿إِن كُنتُ﴾ جازم، وفعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ (إن) على كونه فعلَ شرط لها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفة لـ﴿بينة﴾. ﴿وَرَزَقَنِي﴾ فعل ومفعول أول و (نون) وقاية، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة (كان). ﴿مِنْهُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رزقاً﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول ثان. ﴿حَسَنًا﴾ صفة له، وجواب (إن) الشرطية محذوف، تقديره: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ورزقني منه الرزقَ الحلالَ، والهداية، والنبوة، والمعرفة فهل يسعني مع هذه النعم العظيمة أن أخون في وجه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءَهم، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم، وذلك أنهم قالوا له: إنك لأنت الحليم الرشيد، والمعنى: فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه، وله عليه نعم

كثيرة، ذكره في «الخازن» وجملة (إن) الشرطية مَعَ جوابها المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ (الواو) عاطفة. (ما) نافية. ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على كونها مقولَ قال. ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على شعيب. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وما أريد مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه. ﴿أَنْهَىٰكُمْ﴾ فعل ومفعول. ﴿عَنْهُۚ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ (إن) نافية. ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ مفعول به. ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ ﴿ما﴾ مصدرية ظرفية. ﴿ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، تقديره: إن أريد إلاَّ الإصلاحَ مدة استطاعتي. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ (الواو) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿تَوْفِيقِىٓ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، تقديره: وما توفيقي إلا كائن بالله، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلَها على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿أُنِيبُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء معطوف على المنادى الأولى على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ فعل ومفعول و (نون) توكيد في محل الجزم بـ﴿لا﴾. ﴿شِقَاقِىٓ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداءِ. ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ ناصب وفعل ومفعول أول. ﴿مِّثْلُ﴾ فاعل وهو مضاف. ﴿مَآ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لجرم تقديره: ويا قوم لا يكسبنكم عداوتي إصابتكم عَذَاب مثل ما أصاب. ﴿أَصَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة لـ(ما) أو صفة لها. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ معطوفان على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾. ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية أو حجازية. ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ مبتدأ أو اسم ﴿ما﴾. ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (الباء) زائدة. ﴿بعيد﴾ خبر المبتدأ، أو خبر لـ(ما) منصوب بفتحة مقدرة، والجملة الاسمية في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. وأتى ﴿بِبَعِيدٍ﴾ مفرداً، وإن كان خبراً عن جمع لأحد أوجه: إما لحذف مضاف تقديره: وما إهلاك قوم لوط، وإما باعتبار زمان؛ أي بزمان بعيد، وإما باعتبار مكان؛ أي: بمكان بعيد، وإما باعتبار موصوف غيرهما؛ أي: بشيء بعيد، كذا قدره الزمخشري، وتبعه الشيخ، وفيه إشكال من حيث إنَّ تقدير زمان يلزم فيه الإخبار بالزمان عن الجثة، وقال الزمخشري أيضاً: ويجوز أن يستوي في بعيد، وقريب، وقليل، وكثير، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل، والنهيق، ونحوهما، اهـ «سمين». ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ على كونه مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿رَحِيمٌ﴾ خبره. ﴿وَدُودٌ﴾ خبر ثان، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتُ: ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿نَفْقَهُ كَثِيرًا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها

جوابَ النداء. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، وجملة ﴿تَقُولُ﴾ صلة لـ(ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تقوله. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فعل ومفعولان. ﴿فِينَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ضَعِيفًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ (الواو) عاطفة. ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿رَهْطُكَ﴾ مبتدأ والخبر محذوف وجوباً تقديره: ولولا رهطك موجود ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لولا﴾ وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على ما قبلَها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ (ما) حجازية أو تميمية. ﴿أَنتَ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق ﴿بِعَزِيزٍ﴾. ﴿عزيز﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت.. قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ ﴿رهطي أعزُّ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَعَزُّ﴾. وكذا يتعلق به ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول. ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من ﴿ظِهْرِيًّا﴾. ﴿ظِهْرِيًّا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على الجملة الاسمية على كونَها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُحِيطٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿مُحِيطٌ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى معطوف على المنادى الأول.

﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ جار ومجرور حال من (واو) ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ أي حالةَ كونكم موصوفينَ بغاية إمكاناتكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ ناصب واسمه وخبره والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿سَوۡفَ﴾ حرف تنفيس. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿مَن﴾ اسم موصوف في محل النصب مفعول به، لأن علم هنا بمعنى عرف، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً على كَوْنِها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة (من) الموصولة. وجملة ﴿يُخۡزِيهِ﴾ صفة ﴿عَذَابٞ﴾. ﴿وَمَنۡ﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى. وجملة ﴿هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿مَعَكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿رَقِيبٞ﴾. ﴿رَقِيبٞ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (لما) حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرطاً لـ(لما). ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب (لمَّا) وجملة (لمَّا) مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿شعيب﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من (واو) ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَجَّيۡنَا﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحۡمَةٖ﴾. ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَجَّيۡنَا﴾. ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿أصبحوا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ متعلق بما بعده. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾، وجملة ﴿أصبحوا﴾ معطوفة على جملة ﴿أخذت﴾.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف تقديره: كأنهم. ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لم). ﴿فِيهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: أصبحوا جاثمين حالَ كونهم مماثلينَ لِمَنْ لَمْ يوجد، ولم يقم في مكان قط. ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه. ﴿بُعْدًا﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف وجوباً تقديره: بعدت مدين بعداً، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَدْيَنَ﴾ متعلق بـ ﴿بُعْدًا﴾. ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فعل وفاعل صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور (بالكاف) الجار، والمجرور صفة لـ ﴿بُعْدًا﴾ تقديره: ألا بعداً لمدينَ مثلَ بُعد ثَمودَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾؛ أي: حالَة كونه متلبِساً ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾. ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿سلطان﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على مقدر تقديره: فكَفَر بها فرعون، وأمرهم بالكفر فاتَّبعوا أمر فرعون. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. (ما) حجازية. ﴿أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ اسمها، ومضاف إليه. ﴿بِرَشِيدٍ﴾ (الباء) زائدة. ﴿رشيد﴾ خبرها، ويصح أن يكونَ مبتدأً، وخبراً على إهمال (ما)، والجملة في محل النصب حال من فرعون، والتقدير: حال كون فرعون غيرَ رشيد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة مستأنفة على كونها معلِّلَةٌ لِما قبلها. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بـ﴿يقدم﴾. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود إلى فرعون، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقْدُمُ﴾. ﴿وَبِئْسَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿بئس الورد﴾ فعل وفاعل.

﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ صفة لـ(الورد)، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: وردهم هذا، وهو مبتدأ خبره جملة ﴿بِئۡسَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة؛ لأنها إنشائية. ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ فعل، ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أتبعوا﴾. ﴿لَعۡنَةٗ﴾ مفعول (ثان). ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ ظرف معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿أتبعوا﴾ مقدراً؛ أي: وأتبعوا يوم القيامة لعنةً ثانيةً. ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ صفة لـ﴿الرفد﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف وجوباً هو المخصوص بالذم تقديره: رفدهم هذا.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ خبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ فعل ومفعول. ﴿عَلَيۡكَ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ. ﴿مِنۡهَا﴾ خبر مقدم. ﴿قَآئِمٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لوقوعها في جواب سؤال مقدر تقديره: ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا؟ فأجاب بقوله: منها: قائم ومنها حصيد. ﴿وَحَصِيدٞ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنها حصيد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾.

﴿وَمَا﴾ (ما) نافية. ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوفة على جملة ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾. ﴿فَمَآ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَغۡنَتۡ﴾ فعل ماض. ﴿عَنۡهُمۡ﴾ متعلق به. ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لـ ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾. ﴿يَدۡعُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونها. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من (واو) ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أي: حالةَ كونهم متجاوزينَ الله إلى غيره. ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ (من) زائدة. ﴿شَيۡءٖ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿أَغۡنَتۡ﴾. ﴿لَّمَّا﴾ حينية في محل النصب

على الظرفية متعلق بـ ﴿أَغْنَتْ﴾. ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه للمَا الحينية. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾. ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كذلك﴾ خبر مقدم. ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: ومثل ذلك الإهلاك المذكور في الأمم الماضية أخذ ربك، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرطية في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بالأخذ الذي هو المصدر. ﴿أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذَآ﴾، وكل من المصدر والفعل تنازعا في ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ فأُعمل الفعل، وحذف الضمير من المصدر؛ لأنَّ الضمير هنا فضلة على حد قول ابن مالك:

وَلاَ تَجِيءْ مَعْ أَوَّلٍ قَدْ أُهْمِلاَ ... بِمُضْمَرٍ لِغَيْرِ رَفْعٍ أُوْهِلاَ

والتقدير: وكذلك أخذ ربك إياها، إذا أخذ القرى، اهـ «جمل». ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿شَدِيدٌ﴾ خبر بعد خبر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم لها. ﴿لَءَايَةً﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿آية﴾ اسمها مؤخر، وجملة (إنَّ) مستأنفة. ﴿لِّمَنْ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر (إنَّ). ﴿خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿يَوْمٌ﴾ خبره والجملة مستأنفة. ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ صفة لـ (يوم)، ولكنَّها سببية. ﴿لَّهُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ نائب فاعل لـ ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ لأنه اسم مفعول يعمل عملَ الفعل المغير الصيغة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿مَّشۡهُودٞ﴾ صفة ﴿يوم﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ مستأنفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿لِأَجَلٖ﴾ متعلق بـ﴿نؤخر﴾. ﴿مَّعۡدُودٖ﴾ صفة ﴿أَجَلٖ﴾. ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تكلم﴾ الآتي. ﴿يَأۡتِ﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفةِ للتخفيف في اللفظ، واتباعاً لرسم المصحف العثماني في الخط منع من ظهورها الثقل، لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود على اليوم، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ متعلق بـ ﴿تَكَلَّمُ﴾. ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه لا تكلم نفس في ذلك اليوم، وأردتم بيانَ طبقات الناس، وأحوالهم في ذلك اليوم، فأقول لكم. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ خبر مقدم. ﴿شَقِيّٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَسَعِيدٞ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، ﴿ٱلۡحَلِيمُ﴾ ذو الأناة، والتروي الذي لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته، و ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ الذي لا يأمر إلا بما استبانَ له من الخير والرشد. ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ قال الزمخشري: يقال: خَالَفني فلان إلى كذا إذا قصده، وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولَّى عنه، وأنت قاصده، ويلقاكَ الرجلُ صادراً عن الماء، فتسأله عن صاحبه فيقول لك: خالفني إلى الماء، يريد أنه ذَاهِب إليه وارداً، وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم، اهـ «سمين». والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في قوله، أو فعله، أو حاله.

﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ وهو الإبلاغ والإنذار فقط، وأما إجباركم على الطاعة فلا

أستطيعُه، اهـ «خازن». ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ المصدر هنا من المبني للمفعول؛ أي: وما كوني موفقاً، اهـ شهاب. وأناب إلى الله رَجَعَ إليه. ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بَابه ضرب كما في «المختار»، وينصب مفعولين كما مرَّ في مبحث الإعراب. وجَرمَ الذنبَ، أو المالَ كسبه. وفي «السمين» قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ العامة على فتح ياء المضارعة من جَرَم ثلاثياً، وقرأ الأعمش بضمها من أجرم، وقد تقدَّم أنَّ جَرم يتعدى لواحد ولاثنين مثل كَسَب، فيقال: جَرَم زيد مالاً مثل كسبه، وجرمته ديناً؛ أي: كسبته إياه فهو مثل كَسَب، فتكون الكاف والميم المفعول الأول، والثاني: هو أن يصيبكم؛ أي: لا يكسبنكم عن عداوتي إصابة العذاب، وقد تقدم أنَّ جرم، وأجرم بمعنًى، أو بينهما فرق. ونسَبَ الزمخشري ضَمَّ الياء من يجرم لابن كثير كما مر في مبحث القراءة، اهـ. ﴿شِقَاقِيٓ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: شقاقكم إيَّايَ. ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: عظيم الرحمة للمستغفرين. ﴿وَدُودٌ﴾؛ أي: كثير اللطف والإحسان إليهم، وهو صيغة مبالغة من ود الشيء يود وداً ووداداً ووِدادة إذا أحبه وآثره، والمشهور: وددت بكسر العين، وسمع وددت بفتحها، والودود: بمعنى فاعل؛ أي: يود عبادَه ويَرْحَمُهُم. وقيل: بمعنى مفعول بِمعنى أنَّ عباده يحبونه، ويوادُّون أولياءه فهم بمنزلة الموادِّ مجازاً، اهـ «سمين».

﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا﴾ الفقهُ: الفهمَ الدقيق المؤثر في النفس الباعث على العمل. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ الرهط: قال ابن عطية: جماعة الرجل. وقيل: الرهط، والراهط: اسم لما دون العشرة من الرجال، ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرِّجال. وقال الزمخشري: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى التسعة، ويجمع على أرهط، ويجمع أرهط على أَراهِط فهو جمع جمع. قال الرماني: وأصل الرهط الشَّد، ومنه الرهيط شدَّة الأكل، والراهط: اسم لجحر اليربوع؛ لأنه يتوثق به، ويخبأ فيه ولده. اهـ «أبو حيان». ورهط الرجل عَشِيرَته الذين يستند إليهم، ويتقوى بهم. ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾؛ أي لقتلناك بالرمي بالحجارة، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة، والرَّجم بالحجارة أسوأُ القَتلات، وأشرها. وقيل: معنى لرجمناك: لشَتَمْنَاكَ، وأَغْلَظْنَا لك القول. ومنه قول الجعدي:

تَـرَاجَـمْـنَـا بِـمُـرِّ ٱلْـقَـوْلِ حَـتَّـىٰ ... نَـصِـيْـرَ كَـأَنَّـنَـا فَـرَسَـا رِهَـانِ

ويطلق الرجم على اللعن، ومنه: الشيطان الرجيم. ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: ذي عزة، ومنعَة، واتخذه ﴿ظِهْرِيًّا﴾ بالكسر والتشديد؛ أي: جعله نسْياً مَنْسِياً لا يذكر كأنه غير موجود. والظهري بكسر الظاء: هو المنسوب إلى الظهر بفتحها، وهو من تغييرات النسب، كما قالوا: في أمس إمسي بكسر الهمزة كما مرَّ. وقيل: الضمير يعود على العصيان؛ أي: واتخذتم العصيانَ عوناً على عداوتي، فالظهريُّ على هذا بمعنى المعين المقوي. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على غاية تمكنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم، وإمكانكم يقال: مكن مكانة إذا تَمَكن أبلغَ تمكن.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾؛ أي: وانتظروا. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ بوزن فعلة المرة؛ أي: صيحة العذاب. ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: باركين على ركبهم منكبين على وجوههم. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يقال غنِيَ بالمكان إذا أقام به. ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ واعلم أن بُعَداً وسحقاً، ونحوهما مصادر قد وضعت مواضعَ أَفْعَالِها التي لا يستعمل إظهارها، ومعنى (بُعْداً) بعدوا؛ أي: هلكوا. وقوله: ﴿لِّمَدْيَنَ﴾ بيان لمن نبه عليه بالبعد نحو: هيت لك، اهـ «روح البيان». ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ والجمهور على كسر الغين من بعدت على أنها من بعد يبعد، من باب: طرب، بكسر العين، في الماضي وفتحها في المضارع، بمعنى هلك يهلك، أرادَتْ العرب أن تفرق بين البعد بمعنى الهلاك، وبين البعد الذي هو ضدالقرب، ففرقوا بينهما بتغيير البناءِ، فقالوا: بَعُد بالضم من باب كرم، في ضد القرب، وبَعِدَ بالكسر من باب طرب، في ضد السلامة، والبعد بالضم، فالسكون مصدر لهما، والبَعَد بفتحتين، إنما يستعمل في مصدر مكسور العين. قال ابن الأنباري: ومن العرب من يسوي بين الهلاك، والبعد الذي هو ضد القرب فيقول فيهما: بَعِدَ يبعد، وبعد يبعد الأول من باب طرب، والثاني من باب شَرف، اهـ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الآيات هي الآيات التسع المعدودة في سورة الإسراء، والمفصلة في سورة الأعراف وغيرها، والسلطان المبين هو ما أتاه الله من الحجة البالغة في محاوراته مع فرعون وملئه. والملأ: أشراف القوم وزعماؤهم. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ما شأنه وتصرفه. ﴿بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: بذي رُشد وهدى. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ في «المختار» قدم يقدم كنصر ينصر قُدْماً بوزن قفل،

وقدوماً أيضاً أي: تقدَّم. قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، اهـ. وفي «المصباح»: وقدم الشيء بالضم قَدَماً وزان عنب خلاف حدث فهو قديم، وقدم الرجل البلد يقدمه من باب تعب قدوماً، ومقدماً بفتح الميم والدال، وقدمت القوم قدماً من باب قتل مثل تقدمتهم، اهـ.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: أدخلهم إياها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، والوردُ: بلُوغُ الماء في مورده من نهر وغيره، والمورود الماءِ، والمرادُ به هنا النار. قال ابن السكيت: الوردُ هو ورودُ القوم الماءَ، والورد: الإبلُ الواردة، انتهى فيكون مصدراً بمعنى الورود، واسم مفعول في المعنى كالطِحن بمعنى المطحون.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ وفي «المختار»: الرفد بالكسر العطاء، والصلة، والعونُ، وبفتحها المصدر فيقال: رَفَده إذا أعطاه، ورفده إذا أعانه، وبابهما ضَرَب، والإرفاد أيضاً الإعطاء والإعانة، اهـ. و (المرفود) المعطَى، ويقال: رفد الرجل يرفده رفداً، ورفداً إذا أعطاه، وأَعَانه من رَفَد الحائط إذا دَعَمَه. وذكر الماوردي: حكاية عن الأصمعي الرَّفد بالفتح القدح والرِّفْدُ بالكسر ما في القدح من الشراب، فكأنه ذم ما يستقونه في النار، وهذا أنسب بالمقام. وقال الليث: أصل الرِّفد العطاء، والمعونة، ومنه، رفادة قريش. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ والحصيدُ: بمعنى المحصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مريض ومرضى ومراض، اهـ «سمين». ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ وفي «السمين»: التتبيب التخسير، يقال: تببه غيره، وتب هو بنفسه، فيستعمل لاَزِماً ومتعدِّياً، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، اهـ. وفي «المصباح»: التباب: الخسرانُ، وهو اسم من تببه بالتشديد، وتبَّتْ يده تَتِب بالكسر خَسِرَتْ كناية عن الهلاك، وتبّاً له؛ أي: هَلاَكاً واستتبَّ الأمرُ، إذا تَهَيَّأَ، اهـ. قال لبيد:

وَلَقَدْ بُلِيْتُ وَكُلُّ صَاحِبِ جِدَّةٍ ... يُبْلَىٰ بِعَوْدِ وَذَاكُمُ ٱلتَّتْبِيْبُ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: اللف والنشر المرتَّب في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾، فقولهم: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ رد لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ إلخ، رد لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾ إلخ.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إذا أريد به الأَحْمَقُ السفيه نَزَّلُوا التضاد منزلة التناسب على سبيل الهزء، فاستعاروا الحلم والرشد للسفه، والغواية، ثم سرت الاستعارة منهما إلى الحليم الرشيد، ذكره في «روح البيان».

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَرَجَمْنَـٰكَ﴾؛ أي: لقتلناك من إطلاق السبب الذي هو الرجم بالحجارة، وإرادةِ المسبب الذي هو القتل، وإن لم يكن بالحجارة.

ومنها: تقديم الفاعل المعنوي لإفادة الحصر، والاختصاص في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وإن كان الخبر صفةً لا فعلاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ شبَّه الله سبحانه وتعالى بالشيء المرميِّ وراء الظهر، ولا يكترث به بجامع الإعراض في كل، والعرب تقول: لكل ما لا يعبؤُ بأمره، قد جعل فلانٌ هذا الأمر بظهره.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مُحِيطٌ﴾، لأنَّ الإحاطةَ حقيقة في الأجسام كإحاطة الجدران، فإحاطَةُ الله بالأعمال مجاز عن علمها، وإدراكها بكمالها.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ لأنَّ الأصل عامل على مكانتي فَحَذَفَه للاختصار.

ومنها: ما يسمى بالاستئناف البياني عند البلغاء في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

لأنه واقع في جواب سؤال مقدر كما قررناه في مبحث الإعراب.

ومنها: إيراد المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ مبالغة في تحققه. وفيه أيضاً: الاستعارة المكنية؛ لأن الورودَ في الأصل يقال: للمرور على الماء للاستقاء منه، فشبه النارَ بماء يورد، وترك ذكر المشبه به، ورمَزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو الورود، وإثبات الورود لها تخييلٌ، وشبه فرعون في تقدمه على قومه إلى النار بـ (من) يتقدم على الواردين إلى الماء لِيَكْسِرَ العطش، فقَالَ في حق فرعونَ وأتباعه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ على سبيل التهكم. وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ تأكيد له لأن الوِرْدَ إنما يُورَدُ لتسكين العطش، وتبريد الأكباد، وفي النار إلهاب للعطش، وتقطيعٌ للأكباد.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: كالزرع القائم على ساقه، وكالزرع المحصود بالمناجل، فشبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما عفى منها بالحصيد، اهـ «زاده» و«شهاب».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

ومنها: حكاية حال ماضية في قوله: ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾؛ أي: عبدوها، لأن المرادَ بالدعاء العبادة.

ومنها: المجاز المرسلُ ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أخذَ أهلَ القرى.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الجمع في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، والتفريق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ والتقسيم في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ إلخ، وهذه الثلاثة أيضاً من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي
ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا
تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ
نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ
بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا
مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا
يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ
فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَٰمِلُونَ (١٢١) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[١] ذكر العبرة في إهلاك الأمم الظالمة في الدنيا.. ذكر هنا العبرةَ بجزاءِ الآخرة للأشقياءِ والسعداء، فالأولون يصلون النار التي لهم فيها

(١) المراغي.

شهيق وزفير، والآخرون يمتعون بالجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر قصص عبدة الأوثان من الأمم السالفة، وأتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء والسعداء، شرح للرسول ﷺ أحوالَ الكفار من قومه، وأنَّهُمْ مُتَّبِعُوا آبائهم كحال من تقدَّم من الأمم في اتباع آبائهم في الضلال والفساد، تسليةً له ﷺ في ضمن النهي له عن الامتراء في أنَّ ما يعبدونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثيرَ له في شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآيتين، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] ذكر مشركي مكة بأقوام غلب عليهم الكفرُ والجحود، ولم يؤمن إلا القليل منهم، فوفَّاهم جَزَاءَ أعمالهم في الدنيا، وسيوفيهم جزاءهم في الآخرة، ذكرهم في هاتين الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتابَ فاختلفوا فيه، وأن مثل الذين يختلفون من أمته في الكتاب مثل هؤلاء.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لما بين إصرارَ كفارِ مكةَ على إنكار التوحيد ونبوة الرسول ﷺ والقرآن الذي أتى به، بيَّن أنَّ الكفار من الأمم السابقة كانوا على هذه السيرة الفاجرة مع أنبيائهم؛ فليس ذلك ببدع ممن عاصرَ الرسولَ ﷺ، وضَرَب لذلك مثلاً، وهو إنزال التوراة على موسى فاختلفوا فيها، والكتاب هنا هو: التوراة، فقبله بعض، وأنكره بعض كما اختلف هؤلاء في القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بيَّنَ أمرَ المختلفينَ في التوحيد، والنبوة وأطنبَ في وعدهم، ووعيدهم.. أمرَ رسولَه ﷺ، ومَنْ تاب معه بالاستقامة، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعِلْم والعمل والأخلاق الفاضلة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أَمَر رسوله بالاستقامة، وعدم تجاوز ما رسمه الدين، وعدم الركون إلى أولي الظلم، أمره هنا بأفضلِ العبادات، وأجلِّ الفضائل التي يستعان بها على ما سلف.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالَى لما[1] ذكر عاقبةَ الأمم المكذبةِ لرسلها في الدنيا والآخرة، وإنذارَ قومه ﷺ بهم، وبين ما يجب عليه، وعلى مَن آمن به، وتاب معه من الاستقامة والصلاح، واجتنابِ أهل الظلم والفساد.. ذكر هنا بيانَ السنن العامة في إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم، وأمثالهم ممن عصوا رسلَ ربهم، أن أنذَروهم عقابَه، ووَعَدهم إذا أطاعوهم ثوابَه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[2] قص قصص أشهر الأنبياء مع أممهم الماضين.. بيَّن هنا ما لذلك من فائدة لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهي تثْبِيت الفؤادِ، والعظةُ، والاعتبار ثم أمَرَ رسولَه بالعبادة، والتوكل عليه، وعدم المبالاة بعداوة المشركينَ، والكيدِ له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال ﷺ: «لجميع أمتي كلهم».

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

وأخرج الترمذي وغيره عن أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: إن في البيت أطيبَ منه، فدَخَلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت رسولَ الله ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال: أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟! وأطرق طويلاً حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾. ووَرَد نحوه من حديث أبي أمامة، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، وبريدة، وغيرهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾؛ أي: سَبقتَ لهم الشقاوة، وقُضِيَ لهم بالنار. وقرىء: ﴿شَقُوا﴾ بفتح الشين باتِّفاق السبعة بالبناء للفاعل. وقرأ الحسنُ بضم الشين بالبناء للمفعول. ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: فمستقرون في نار جهنم، وكأن سائلاً قال: ما شأنهم فيها؛ فقيل: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في نار جهنم ﴿زَفِيرٌ﴾؛ أي: صوت شديد ﴿وَشَهِيقٌ﴾؛ أي: صوت ضعيف، فالجملة إما مستأنفة استئنافاً بيانياً كما قررنا، أو في محل النصب على الحال. قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين، وهو المرتفع جداً قال: وزَعَم أهل اللغة من البصريين والكوفيينَ: أن الزفيرَ بمنزلة ابتداءِ صوت الحمير، والشهيقَ بمنزلة آخِره. وفيه[1]: استعارة تصريحية كما سيأتي في مبحث البلاغة، فإن المرادَ تشبيه صراخهم بأصوات الحمير، فكما أنَّ الحميرَ لها أصوات منكرة، كذلك لهم أصوات منكرة في جهنم، كما يشاهد ذلك في الابتلاء في الدنيا، لا سِيّما عند الصلب أو الخنق أو ضرب العنق، أو قطع اليد، أو نحوها، فإن لبعض المجْرِمينَ حينئذ خوار كخوار البقر يتغير صوته، كما يتغير لونه، وحال الآخرة أشد من حال الدنيا ألْفَ مرَّةٍ. وقيل: الزفير إخراج النفس، والشهيق رَدُّ النفس. وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق. وقيل غير ذلك مما لا طائلَ تحته.

والمعنى[2]: أي فأما الذينَ شقوا في الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الأشقياء، لفساد عقيدتهم الموروثة، وسوء القدوة في العمل حتّى أحاطت بهم خطيئاتُهم، وانطَفأ نور الفطرة مِن أنفسهم، فلهم في النار التي هي مستقرهم، ومثواهم زفير، وشهيق من حَرَج صدورهم، وضيق أنفاسهم، وشدة كروبهم. ويكون الذين شَقُوا شاملاً للكفار، وعصاة المسلمين. وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النار حال من الضمير المستكن في الظرف أعني قوله: ﴿في النار﴾؛ أي: فأما الذين شقوا فمستقرون في النار، حالةَ كونهم ماكثينَ فيها مكث خلود، ودوام، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: مُدةَ دوام السموات التي تظلهم، ودوام الأرض التي تقلهم. فالمراد[1] سمواتُ الآخرة، وأرضها، وهي دائمة مخلدة، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾. وأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظل ومقلٍّ، إما سماء يخلقها الله فتظلهم، أو يظلهم العرش، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض، ولا فسادَ في التشبيه بما لا يعرِف أكثر الخلق وجودَه، ولا مانع، ونظيره تشبيه الشيء بالكيمياء، أو بمدينة إرَم وغير ذلك.

أو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب: لا أفعلُه ما بدا كوكب، وما أضاءَ الفجر، وما تغنت حمامةٌ، والنصوص متظاهرة على تأبيدِ قرارهم فيها. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو[2] استثناء من الخلود في عذاب النار، وذلك لأن أهل النار لا يخلدونَ في عذاب النار وحده، بل يعذَّبون بالزمهرير، وأنواع من العذاب سوى عذاب النار. والمعنى: خَالِدينَ فيها مدة دوام السموات والأرض، إلا الزمان الذي شاء ربك خروجهم فيه من النار إلى الزمهرير ونحوه، أو ما شاءَ بمعنى إلا من شاء ربك خروجهم من النار بعدما دخلوا، وهم قوم يخرجون من النار، ويدخلون الجنَّةَ فيقال لهم الجهنميون، وهو المستثنون من أهل الجنة أيضاً، لمفارقتهم إيَّاهَا بكونهم في النار أيّاماً فهؤلاء لم يشقوا شقاوةَ مَنْ يدخل النار على التأبيد، ولا سَعِدُوا سعادةَ مَنْ لا تمسه النار، وهو مروي عن ابن

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

عباس، والضحاك، وقتادةَ وغيرهم رضي الله عنهم. فعلى[1] هذا القول يكون معنى الآية: فأمّا الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدينَ فيها ما دامتِ السموات والأرض إلا من شاء ربك أن يخرجهم منها، فيدخلهم الجنةَ فـ (ما) بمعنى مَنْ.

وقيل: إلا[2] ههنا بمعنى سوى كقولك: عليَّ ألف إلا الألفان القديمان، والمعنى حينئذ خالدينَ فيها؛ أي: دائمين في النار، كدوام السموات والأرض، منذ خلقت إلى أن تفنَى سوى ما شاء ربك من الزيادةِ التي لا آخرَ لها على مدة بقاء السموات والأرض.

وحاصلُ هذا القول: أن إلاَّ في المعنى، بمعنى حرف العطف، والاستثناء فكأنه قيل: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها، اهـ «جمل». وقيل[3]: هو استثناء من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. وقيل: (إلا) بمعنى الواو؛ أي: وقد شاء ربك خلودَ هؤلاء في النار، وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: ولا للذين ظلموا. وقيل معناه: ولو شاء ربك لأخرجهم منها، ولكنه لم يشأْ لأنه حَكَم لهم بالخلود فيها، قاله الفراء. فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجعُ إلى الفريقين، والصحيح هو القول الثاني الذي عليه ابن عباس رضي الله عنه، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ويشاء من إخراج من أراد من النار، وإدخالِهم الجنة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه، واقتضته حكمتُه، وما كان كذلك لم يكن إخلافاً لشيء مِنْ وعده، ولا من وعيده لخلود أهل النار فيها.

فهذا على الإجمال في الفريقين[4]، فأما على التفصيل فقوله: إلا ما شاء

---

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.
(٣) الخازن.
(٤) الخازن.

ربك في جانب الأشقياء، يرجع إلى الزفير والشهيق، وتقريره: أن يفيدَ حصول الزفير والشهيق مع خلود؛ لأنه إذا دَخَل الاستثناء عليه، وجب أن يحصلَ فيه هذا المجموع، والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود. وقيل: إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء، معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حر النار إلى البرد والزمهرير، وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفَعَ بعضَهم إلى منازلِ أعلَى منازلِ الجنان، ودرجاتها. والقول الثاني هو المختار.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ قرأ ابن[1] مسعود، وطلحة بن مصرف، وابن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص: ﴿سُعدوا﴾ بضم السين وباقي السبعة، والجمهور بفتحها. فالضم من قولهم: سعده الله أي: أسعده فهو حينئذ متعدّ، والفتح من قولهم: سعد الرجل بمعنى قامت به السعادة، فهو حينئذ لازم.

والمعنى[2]: إنَّ الذينَ سبقت لهم السعادة من الله بموتهم على الإيمانِ، وإن سبقَ منهم الكفر في الدنيا، والمراد بالسعادة رضا الله تعالى عن العبدِ.

وعلامة ذلك أن يكون العبد محبّاً لربه ساعياً في مرضاته دائمَ الإقبال على طاعته راضياً بأحكامه. ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: فمستقرون في الجنة حالةَ كونهم ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثينَ في الجنة مكث خلود ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: مدة دوام السموات التي تظلهم والأرض التي تقلهم يعني سموات الجنة وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من مقدار موقفهم للحساب، أو مفارقتهم للجنة أيَّامَ عذابهم، فإن التأبِيدَ من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداءِ، كما ينتقض باعتبار الانتهاء، أو المعنى خالدِينَ فيها مدةَ دوام السموات والأرض في الدنيا.

والمعنى: قدر مكث السموات والأرض من أول الدنيا إلى آخرها. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: غير ما شاء ربك من الزيادة التي لا منتهى لَها، فالمعنى خالدينَ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الصاوي.

فيها أبداً. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾. فالزيادة التي شاءها الله تعالى فسرت في آيات أخر بالخلود المؤبد. وقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: يعطيهم الله ذلك الجزاء عطاء غير مقطوع ولا ممنوع، والمعنى أنه ممتد إلى غير نهاية. مأخوذ من جذَّ إذَا قطعه أو كسره، وهو كقوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾؛ أي: إن[1] هذا الجزاءَ هبة منه، وإحسانٌ دائم غَير مقطوع. وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنينَ المحسنينَ بأنه يزيدهم من فضله، وبأنه يُضاعِفُ لهم الحسنة بعشرة أمثالها، وبأكثر إلى سبع مئة ضعف، وبأنه يجزيهم بالحسنى، وبأحسنَ مما عملوا، ولم يُوعد بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على ما يستحقون، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا، وبأنَّ السيئة بمثلها، وهم لا يُظلمون، وبأنه لا يَظْلِم أحداً، وهذا الجزاء، وهو الخلود في النار أثر طبيعي لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد.

وبعد أن شرحَ سبحانه أقاصيصَ عَبدةِ الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء أَنْذرَ أعداء النبي ﷺ والمشركين من قومه، بما حَلَّ بالأمم المهلكة من العذاب فقال: ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد أصله: لا تكنْ، حذفت النون لكثرة الاستعمال؛ أي: إذا تبين عندك يا محمد ما قصصت عليك من قَصَصِ المتقدمينَ وسوءِ عاقبتهم فلا تكن ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ المشركون من أهل مكةَ من الأصنام؛ أي: لا تكن في شك في أن ما يعبدونه من الأصنام غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء أو لا تكن في شك في بطلان عبادتهم لها، أو لا تكن في شك من سوء عاقبتهم، وكن على يقين في أنها ضلال سيء العاقبة. وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً. وكأنه قيل: لم لا أكون في شك؛ فأُجيب لأنهم ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾؛ أي: إن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم من قبل، في أنها لا تنفع ولا تضر، أو إن عبادتَهم لها كعبادةِ آبائهم من قبل في أنها ضلال باطلٌ؛ أي: فحالهم كحال آبائهم من غير تفاوت،

---

(١) المراغي.

فهم على الباطل، والتقليد لا على الحق والتحقيق.

وفيه[1]: إشارةٌ على أنَّ أهلَ الفترة الذينَ عَبَدوا الأصنامَ من أهل النار، فإن الذَّم ينادي على ذلك. والمعنى[2]: أنهم سواء في الشرك بالله، وعبادة غيره، فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في ﴿كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ لحكاية الحال الماضية.

والخلاصة[3]: أي إذا كَانَ أمر الأمم المشركة الظالمة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصناه عليك، فلا تكن في أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنن التي لا تبديلَ لها. وفي ذلك تسلية له ﷺ، ووعيد لقومه كما لا يخفى. ثم بيَّن حالَهم في عبادتهم وجزاءهم عليها فقال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: لأنهم أشبهوا آباءَهم في الجهل والتقليد، فهم مقلدون لهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، وتوفية الشيءِ تأديته، وإعطاؤه على وجه التمام والضمير لهؤلاء الكفرة؛ أي: لمعطوهم حظهم المتعين لهم من العذاب الدنيوي والأخروي كما وفينا آباءهم أنصباءَهم المقدرةَ لهم حسب جرائمهم، فسيلحقهم مثل ما لَحَقَ بآبائهم، فإن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات، فإن قيل: لا سبب عندنا إلا الله. قلنا: يكفينا السببية العادية، وهو ما يفضي إلى الشيء بحسب جريان العادة. وقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكدة من النصيب؛ لأنَّ التوفية تَقتضِي التكميلَ كقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾. وفائدته مع دفع توهم التجوز: تقرير ذي الحال؛ أي: جعله مقرراً ثَابِتاً لا يظن أنه غيره؛ لأن التوفيةَ لا تستلزم عدمَ النقص، فقد يجوز أن يُوفَّى، وهو ناقص، كما يجوز أن يوفَّى وهو كامل. وفي الآية ذَمٌّ للتقليد، وهو قبولُ قول الغير بلا دليل. وقيل: المعنى[4]: وإنا لمعطوهم نصيبَهم من جزاءِ أعمالهم في الدنيا وافياً تامّاً لا ينقص منه شيء، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل، فأعمال الخير التي

---

(1) روح البيان.

(2) الشوكاني.

(3) المراغي.

(4) المراغي.

يعملونها في الدنيا كبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف يوفون جزاءَهم عليها بسعة الرزق، وكشف الضر جزاءً تاماً وافياً، ولا يجزون عليها في الآخرة، ومثل هذا الجزاء متاعٌ عاجل لا يلبث أن يزولَ. وقرأ[1] الجمهور: ﴿لموفُّوهم﴾ مشدداً من وفى، وقرأ ابن محيصن مخففاً من (أوفى).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد آتينا وأعطينا موسى بن عمرانَ التوراة، وهو أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، وأما ما قبله من الكتب، فإنما كانت مشتملةً على الإيمان بالله وتوحيده، ومن ثم قيل لها: صحف، وإطلاق الكتاب عليها مجاز. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أي: في شأن ذلك الكتاب، وكونه من عند الله، فآمن به قوم من بني إسرائيل، وكفَرَ آخرون، كما اختلف قومكَ في القرآن، فلا تبال يا محمد باختلافهم فيما آتيناك من القرآن، ولا تحزَنَ عليه، واصبر على تكذيبهم كما صَبَر موسى على تكذيب قومه، فإنَّ ما وقع لك فقد وقع لمن قبلك، ففيه تسلية له ﷺ. ولمَّا قَسَم النبي ﷺ غَنَائم حنين، وأطال بعض المنافقين الكلامَ في أنه لم يعدل في القسمة، قال النبي ﷺ: «من يَعْدِل إذًا لم يَعْدِل الله ورسولُه، رحمة الله على أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»، يعني أنَّ موسَى أصابه الأذى الكثير من جهة قومه، فصَبَر على أذاهم، فلم يجزَع فأنا أحق بالصبر منه؛ لأنَّ الجمعية الكمالية في ذاته ﷺ أتم فحَظُّه من النفحات الإلّهية والأخلاق الحميدة الربانية أكثرُ وأوفرُ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ولولا الحكم الأزليُّ بتأخير العذاب عن أمتك، أو عن قوم موسى إلى يوم القيامةِ. قال بعضهم: الأظهر أن لا[2] تقيد بيوم القيامة، فإن أكْثَرَ طغاتهم نَزَلَ بهم العذاب يوم بدر، وفي غيره. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بإنزال العذابِ الذي يستحقه المبطلونَ ليتميزوا به عن المحقينَ.

والكلمة هي كلمة القضاءِ بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى، بحسب

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الحكمة الداعية إلى ذلك؛ أي: ولولا ما تقدم من قضاءِ الله سبحانه وتعالى بتأخير إهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم، وإبقاءِ المعتصمينَ بالوحدةَ والاتفاق على هِدَايَتِه لأهلكهم كَما أَهْلَكَ الذينَ ردوا دعوة الرسل جحوداً وعناداً، وهذا من جملة التسلية له ﷺ. ثمَّ وَصَفَهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإنَّ المكذبينَ بالكتاب من كفار قومك، أو من قوم موسى ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريب، والاضطراب، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؛ لأنهم[1] إذا نظروا لآبائهم، وما كانوا عليه قالوا: لو كانَ ما هم عليه ضلالاً ما اجتَمَعوا عليه، وإذا نظروا إلى النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة؛ قالوا: إنه لحق، وما جاء به صدق، فهم في شك، ولا شك أنه كفر، وكل هذا ناشئٌ من الطبع على قلوبهم، وإلا فالحق ظاهرٌ لمن تدبَّره، اهـ «صاوي». وجاء في معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. والذين أورثوا الكتاب بعد مَنْ تَقدَّم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى، وقد عَرَض لهم من الشك والرَّيب في كتبهم ما لم يكُن في عهد سَلَفِهم؛ إذ أنَّ التوراةَ التي كتبها موسى عليه السلام، قد فقدت في إحراق البابليين لهيكل سليمان، والنصارى كانوا أشدَّ اختلافاً في كتبهم ومذاهبهم.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ من المختلفينَ في الكتاب المؤمنينَ منهم، والكافرين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ﴾ (اللام)[2] الأولى موطئة للقسم، والثانية للتأكيد أو بالعكس، و(ما) مزيدة للفصل بين اللامين؛ أي: وإن[3] كلاًّ من المختلفين فيه، والله ليعطينَهم ويؤدِّيَنَّهم ربك يا محمد أَجْزِيَة أعمالهم تاماً وافياً كاملاً إن خَيراً فخَيْرٌ، وإن شرّاً فشر إذ لا يَخْفَى عليه شيء منها. أو المعنى: وإنَّ جميعَهم، والله ليوفينهم ربك جزاءَ أعمالهم، قالوا: وأحسن ما قيل: إن أصلَ لمَّا لماً بالتنوين

---

(١) صاوي.

(٢) البيضاوي.

(٣) المراح.

بمعنى جميعاً، نظير قوله تعالى: ﴿أَكُلًا لَّمَّا﴾ فيكون توكيداً لـ (كُلاً)؛ أي: وإن كلاً جميعاً من الخلائق، والله ليعطينَّهم ربك جزاء أعمالهم، ﴿إنه﴾؛ أي: إن ربك سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما يعمل كل فرد من المختلفين من الخير أو الشر ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بحيث لا يخفى عليه شيء من جلائله ودقائقه، فيجازي كلاً بحسب عمله، وتوفية جزاءِ الطاعاتِ وعدٌ عظيمٌ، وتوفيةُ جزاء المعاصي وعَيدٌ عظيمٌ، والجملة تعليل لما قبلها، فعلى العاقلِ أن ينتبهَ من الغفلة، ويجانبَ ما يخالفَ أمر الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى لا يفوته منه شيء. وقرأ[1] الحرمِيَّان نافع وابن كثير، وأبو بكر: ﴿وإنْ كُلاًّ﴾ بتخفيف النون ساكنة. وقرأ الباقون بتشديد: (إنَّ). وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد هنا وفي يسَ والطارق. وأجمعت السبعة على نصب (كُلاًّ). فَتُصوَّر في قراءتهم أربع قراءات:

إحداها: تخفيفُ (إنْ) وتخفيف (لمَا) وهي قراءة الحرميان.

والثانية: تشديدهما، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص.

والثالثة: تخفيف (إن) وتشديد لمَّا، وهي قراءة أبي بكر.

والرابعة: تشديد (إنَّ) وتخفيف لما، وهي قراءة الكسائي وأبي عمرو.

وقرأ أبيٌّ والحسن بخلاف عنه، وأبان بن تغلب، و﴿إنْ﴾ بالتخفيف ﴿كل﴾ بالرفع ﴿لمَّا﴾ مشدداً. وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: ﴿وإن كلاً لمًّا﴾ بتشديد الميم وتنوينها ولم يتعرضوا لتخفيف (إنْ) ولا تشديدها. وقال أبو حاتم الذي في مصحف أبي: ﴿وإن مِنْ كُلٍّ إلاَّ لَيُوفيَنَّهم﴾. وقرأ الأعمش: ﴿وإنْ كلٌّ إلا﴾ وهو حرف ابن مسعود. فهذه أربعة وجوه في الشاذ.

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ أي: مثل الاستقامة التي أمرت بها في العقائد والأعمال

---

(١) البحر المحيط.

والأخلاق، فإنَّ الاستقامةَ في العقائد اجتناب التشبيه، والتعطيل، وفي الأعمال الاحتراز عن الزيادة، والنقصان، وفي الأخلاق التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط، وهذا في غاية العسر؛ أي: إذا تبين عندك يا محمد أحوال القرون الأولى، وأن إخوانَك الأنبياء، ومؤمنيهم تحملوا من قومهم الأذى، وصبروا، واستقاموا على طريقتهم المثلى إلى أن يأتِيَ أمر الله تعالى، فأقولُ لك دُم أنت أيضاً على الاستقامة على التوحيد، والدعوة إليه كما أمركَ اللَّهُ تعالى فيَدْخُلْ في ذلك جميع ما أمره به، وجميع ما نهاه عنه؛ لأنه قد أَمَره بِتَجَنُّبِ ما نهاه عنه كما أَمَره بفعل ما تعبّده بفعله، وأمته أسوة في ذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: رَجَعَ من الكفر إلى الإسلام، وشاركَكَ في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ لأنَّ الفَصْل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقامَ التأكيد؛ أي: وليستَقِمْ مَنْ تاب معك. ومَا أعظمَ مَوْقِعَ هذه الآية، وأشدَّ أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهَّرةُ والذواتُ المقَدَّسة. ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبتنِي هود»؛ أي[1]: ومَنْ تاب من الشرك، والكفر، وشارَكَك في الإيمان، هو المعني بالمعية، وإلا فليس لهم مصاحبة له في التوبة عما ذكر؛ إذ الأنبياء مَعْصُومون عن الكفر، وكذا عن تعمد الكبائر قبل الوحي، وبعده بالإجماع. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾؛ أي: ولا تَنْحَرِفوا عما حدَّ لكم بإفراط، وتفريط، فإنَّ كِلاَ طرفي قصد الأمور ذميم، وإنما سمِّي ذلك طغياناً، وهو تجاوز الحد، تغليظاً أو تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ. والطغيان[2] مجاوزة الحد. ولَمَّا أَمَرَ الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بَيَّن أن الغلوَّ في العبادة، والإفراطَ في الطاعة، على وجه تخْرج به عن الحد الذي حدَّه، والمقدار الذي قدَّره ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلالَ الذي أَذِنَ الله به، ورغَّب فيه. ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: «أمَّا أَنَا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساءَ فمَن رَغِبَ عن سنتي فليس مني». والخطاب للنبيّ ﷺ، ولأمته تغليباً لحالهم على

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: عالم بأعمالكم لا يخفَى عليه شيء منها، فيجازِيكم على ذلك، فاتقوه في المحافظة على حدوده، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي السابقين في الآية. وقرأ الحسن والأعمش: ﴿بما يعملون﴾ بالياء على الغيبة، ورُويت عن عيسى الثقفي.

وحاصل معنى الآية[1]: أي فالزم الصراطَ المستقيمَ الذي لا عوج فيه، واثبت عليه، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك، ولا تنحرفوا عما رُسِمَ لكم بتجاوز حدوده غلواً في الدين، فإن الإفراط فيه كالتفريط، كلاهما زيغ عن الصراط المستقيم.

وفي هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص في الأمور الدينية من عقائد، وعبادات، واجتناب الرأي، وبطلان التقليد فيها، وإيضاح هذا أنَّ تحكيمَ العقل البشري في الخوض في ذات الله وصفاته، وفيما دون ذَلك من عَالَم الغيب كالملائكة، والعرش، والجنة، والنار تجاوز لحدوده، فإن أكبرَ العلماء والفلاسفة عقولاً عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم، وأنفس ما دونَهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها، حتى الحشرات منها كالنحل والنمل، فأنَّى لهم أن يعرفوا كنهَ ذات الله تعالى وصفاته، أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله تعالى.

ولما خرج متأخروا الأمة عن هدي سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زَاغُوا فكانوا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾. فسَقَطَ بعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في خيال التعطيل، ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين، لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق في الدين الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم، وبرأ رسولَه منهم.

والواجب التزام كتاب الله تعالى، وما فسرته به سنة رسوله ﷺ من

---

(١) المراغي.

العباداتِ العمليةِ والمعاملات على النحو الذي بينه الكتاب، والسنة على السنن القويم، دونَ تأويل، ولا تخريجٍ لهما على غير ما يفْهَم مِن ظاهرهما. أَما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة، وأمور المعاش من زراعات وتجارات، فهو أمر طبيعي لا يمكن الغنَى عنه، فلولاه لما تقدمت شؤون الحياة، ولَمَا حصل التنافس لدى أرباب المهن، والصناعاتِ، ولما جد كل يوم بدع جديد، ولكان الناس دائماً على الفطرة الأولى، وأنَّى لعقل الإنسان أن يستمرَّ على حال واحدة، وقد أُوتيَ الخلافَةَ في الأرض، وحسْنَ استعمارها، وبهذا وحدَه فَضَلَ الملائكة، ولله في خلقه شؤون.

وقد بيَّن سبحانه لنا المخرجَ إذا حَدث بيننا الخلاف في الدين فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآيةَ. وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله لمعاذ بن جبل حين ولاه القضاء في اليمن: «بمَ تقضي؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: فبسنة رسوله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: أجتهد رأيي، فأقره على ذلك. وهذا هو الاستقامة في الدين التي بها يرقى المرء إلى أعلى عليين.
وقد حث الله رسوله عليها في هذه الآية وحَث موسَى وهارونَ عليها، فقال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾. ومَدَح من اتَّصفوا بها، ووعدهم بالخير والفلاح في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾. وروى مسلم عن سفيان الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ أي: بصير بعملكم، ومحيط به، فيجزيكم به، فاتقوه أن يَطَّلع عليكم، وأنتم عاملون بخلاف أمره. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾؛ أي: ولا تميلوا أدنى ميل؛ لأن الركونَ هو الميل اليسير،

والخطاب لرسول الله ﷺ ومَنْ مَعَه ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: إلى الذين وُجد منهم الظلم بالجملة ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلنَّارُ﴾ الأخروية، وإذا كان الركونُ إلى من صدر منهم ظلم مرة في الإفضاء إلى مساس النار هكذا فما ظنك بالركون إلى من صدر منهم الظلم مراراً، ورسخوا فيه، ثمَّ بالميل إليهم كلَّ الميل ﴿وَمَا لَكُم﴾، والحال: أن ما لكم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: من أنصار ينقذونكم من النار، على أن يكونَ مقابلة الجمع بالجمع بطريق انقسام الآحاد على الآحاد، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: وأنتم على هذه الحالة، وهي انتفاء ناصركم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ جملة فعلية معطوفة على الاسمية قبلها، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد نصرة الله تعالى إياهم مع استحقاقهم العذابَ بسبب ركونهم؛ أي: ثم لا ينصركم الله، ولا ينقذكم منها إذ سَبَقَ في حكمه أن يُعَذِّبكم، ولا يُبقي عليكم. وقرأ الجمهور: ﴿تركنوا﴾ بفتح الكاف، والماضي رَكِنَ بكسرها، وهي لغة قريش.

وقال الأزهري: هي اللغة الفصحى. وعن أبي عَمرو بكسر التاء على لغة تميم في مضارع علم غير الياء. وقرأ قتادة، وطلحة، والأشهب، ورويت عن أبي عمرو: ﴿تَرْكُنوا﴾ بضم الكاف مضارع رَكَن بفتحها، وهي لغة قيس، وتميم. وقال الكسائي: وأهلُ نجد، وشذَّ «يَرْكنُ» بفتح الكاف مضارع، رَكَن بفتحها. وقرأ ابن أبي عَبْلَة: ﴿ولا تُرْكَنوا﴾ مبنياً للمفعول من أركنه إذا أمالَه. وقرأ ابن وثاب، وعلقمة والأعمش، وابن مصرف، وحمزة، فيما روي عنه: ﴿فتمسَّكم﴾ بكسر التاء على لغة تميم، ذكره أبو حيان. وقرأت العامة: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بإثبات نون الرفع. وقرأ زيد بن علي، وعائشة بحذف نون الرفع عطفاً على (تمسكم) ذكره في «الجمل»؛ ومعنى الآية: أي: لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين، ولا من غَيرهم فَتَجْعَلُوهم رُكناً لكم تعتمدون عليه، فتقروهم على ظلمهم، وتوالوهم في شؤونكم الحربية، وأعمالكم الدينية، فإن الظالمينَ بعضهم أولياء بعض.

وخلاصة ذلك: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم عن أعمالهم، فإن فَعَلتم ذلك أصابتكم النار، التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم، والاعتزاز بهم، والاعتماد عليهم، والركون إلى الظلم وأهله ظلم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وليس لكم في هذه الحال التي تركنون فيها إليهم غير الله ولياً ينقذكم، ويخلصكم من عذابه، ثم لا تنصرون؛ أي: لا ينصركم الله؛ لأن الذينَ يركنون إلى الظالمينَ يكونون منهم، وهو لا ينصر الظالمين، كما قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بل تكون عاقبتكم الحرمانَ مما وعد الله رسله، ومن ينصره من المؤمنين.

والخلاصة: أن الركونَ إلى الظالمينَ المنهي عنه، هو: الاعتماد على أعداء المؤمنين الذين يفتنونهم، ويصدونهم عن دينهم، ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه فسر الظلمَ هنا بالشرك، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالمشركين. وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، ولو فرضنا أن سَبَبَ النزول هم المشركون، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن ابتلي بمخالطة الظلمة فليزن أَقْوالَهم وأفعالهم بميزان الشرع، فإنْ زاغوا عن ذلك فعلى أنفسهم قد جنوا، وطاعتهم واجبة على كل مَنْ دَخَل تحت أمرهم، ونهيهم في كل ما يأمرون به ما لم يكن في معصية الله. فمن أمروه أن يدخُل في شيء من الأعمال التي وَلَّوْهُ كالمناصب الدينية ونحوها فَلْيَدْخُل فيه إذا وثق من نفسه القدرةَ على القيام به، إلى أنه يجب الأخذ على أيدي الظالمين عامةً، وعلى أئمة الجَور والأمراء خاصةً، ويجب تغيير المنكر أولاً باليد، فإن لم يستطع ذلك فباللسان، وإلا فبالقلب وذلك أضعف الإيمان.

روى الإمام أحمد، وأصحاب السنن، عن أبي بكر رضي الله عنه، أنه قَامَ فحمد الله، وأثنى عليه ثمَّ قال: أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ حتى أتى على آخر الآية، ألا وإن الناسَ إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه، ألاَ وإني سمعت رَسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكَر بينهم، فلم ينكروه يوشِكَ أن

يعمَّهم اللَّهُ بعقابه».

وفي الآية[1] أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ثم لا يرتَدِعُونَ عن الظلم والميل إلى أهله، ولا يتدبرون أنهم مؤاخَذون غير منصورين.

وفي الحديث: «إياكم والظلمَ فإنه يخرِّب قلوبَكم». وفي تخريب القلب تخريب سائر الجسد، فالظالم يظلم على نفسه، حيث يخرب أعضاءه الظاهرة، والباطنة، وعلى الله حيث يخرب بنيانَ الله، ويغيِّره ويفسده، ولأنه إذا ظَلَمَ غيره، وآذاه، فقد ظَلَمَ على الله ورسوله وآذاه. والدليل عليه قوله ﷺ: «أنا من الله، والمؤمنون مِنّي، فَمَنْ آذى مؤمناً، فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد أَذَى الله تعالى».

ودَخَل في الركون إلى الظالمينَ المداهنة والرضى بأقوالهم، وأعمالهم، ومحبة مصاحبتهم، ومعاشرتهم، ومد العَين إلى زهرتهم الفانية، وغبطتهم فيما أوتوا من القطوف الدانية، والدعاءِ لهم بالبقاء، وتعظيمُ ذِكرهم، وإصلاح دواتهم، وقلمهم، ودفعُ القلم أو الكاغد إلى أيديهم، والمشي خلفَهم، والتزيي بزيهم، والتَّشبهُ بهم وخياطة ثيابهم وحَلق رؤوسهم.

وقد امتنع بعض السلف عن رَدِّ جواب الظلمة في السلام، وقد سئل سفيان الثوري عن ظالم أَشْرَفَ على الهلاك في بريه، هل يُسقَى شربةَ ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموتُ، فقال: دعه فإنه إعانة للظالم. وقال غيره: يسقى إلى أنْ يثوبَ إلى نفسه، ثم يعرِض عنه.

وفي الحديث: «العلماء أُمناء الرسل على عباد الله، مَا لَمْ يُخَالِطُوا السلطانَ، فإذا فعلوا ذَلك فقد خانوا الرسل، فاحذروهم، واعتزلوهم». فإذا علمتَ هذا، فاعلم أنَّ الواجب عليك: أن تَعْتَزِلَ عنهم بحيث لا تراهم، ولا يرونك إذ لا سلامة إلا فيه، وأن لا تفتشَ عن أمورهم، ولا تتقرب إلى من هو

(١) روح البيان.

من حاشيتهم، ومتصل بهم من إمامهم، ومؤذنهم فضلاً عن غيرهم، من عمالهم وخدمهم، ولا تتأسفَ على ما يفوتُ بسبب مفارقتهم، وترك مصاحبتهم، واذكر كثيراً قولَ رسول الله ﷺ: «إذَا قرأ الرجل القرآنَ، وتفقه في الدين، ثم أتى بابَ السلطان تملقاً إليه، وطمعاً لما في يديه خَاضَ بقدرِ خطاه في نار جهنم». والحديث كأنه مأخوذ من الآية، فهما متطابقان معنًى كما لا يخفَى.

ورُوي: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى يوشع بن نون أني مهلِك من قومك أربعينَ ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم، فقال: ما بال الأخيار؟ فقال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، فكانوا يؤاكلونهم، ويشاربونهم. وبهذا تبيَّن أن بُغْضَ الظَّلمةِ والغضبَ عليهم لله واجب، وإنما ظَهَرَ الفساد في الرعايا، وجميع أقطار الأرض، برّاً وبحراً بفساد الملوك، وذلك بفساد العلماء أوَّلاً إذ لولا قُضاةُ السوء وعُلماءُ السوءِ لقل فساد الملوك، بل لو اتفقَ العلماء في كل عصر على الحق، ومنع الظلم، مجتهدينَ في ذلك، مستفرغين مجهودَهم، لما اجترأ الملوك على الفسادِ، ولاضمحل الظلم من بينهم رأساً وبالكلية.

ومن ثَمَّ قال النبي ﷺ: «لا تزالُ هذه الأمة تحت يد الله وكنفه، ما لم يمالِيء قراؤها أمراءها».

وإنما ذَكَر القراء، لأنهم كانُوا هم العلماء، ومَا كَانَ علمهم إلا بالقرآن، ومعانيهم إلا بالسنة، وما وراء ذلك من العلوم، إنما أحدثت بعدهم كذا في «بحر العلوم» للشيخ عليٍّ السمرقندي رحمه الله تعالى.

وذكَرَ في «الإحياء»: أنَّ من دخلَ على السلطان بلا دعوة، كان جاهلاً، ومن دعِيَ فلم يجِبْ كَانَ أَهْلَ بدعة.

وتحقيق المقام: أنَّ الركونَ في الآية أسند إلى المخاطبين، والمخالطة، وإتيان الباب، والممالأة إلى العلماء والقراء، فكل منها إنما يكون مذموماً إذا كان من قبل العلماء، وأمَّا إذا كان من جانب السلاطين والأمراء بِأنْ يكونوا مجبورينَ في ذلك مطالَبينَ بالاختلاط لأجل الانتفاع الديني. . فلا بأسَ حينئذٍ بالمخالطة، لأنَّ المجبورَ المطالبَ مؤيد من عند الله تعالى، خَال عن الأغراض

النفسانية بِخِلافِ ما إذا كان مقارناً بالأغراض النفسانية، فيكون موكولاً إلى نفسه فتختطفه الشياطين، نعوذ بالله سبحانه وتعالى من سخطه وغضبه.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الاستقامةَ خَصَّ من أنواعها: إقامَةَ الصلاة لكونها رَأسَ الإيمان وعمادَه، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يا محمد أنت وأمتك؛ أي: أدِّها على الوجه القويم، وأدِمْهَا ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: في طرفي النهار من كل يوم؛ أي: غدوة وعشية، فالصبح في الغدوة، والظهر والعصر في العشية، وانتصابه على الظرفية، لكونه مضافاً إلى الوقت، فيعْطَى حكم المضاف إليه، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وفي ساعات من الليل قريبة من النهار، وهي المغرب والعشاء، وانتصابه أيضاً على الظرفية، لعطفه على طرفي النهار، وهيَ الساعات القريبة من النهار، من أزلفه إذا قربه، جمع زلفة كغرف جمع غرفة.

والمراد بصلاة الغدوة، صلاة الصبح، وبصلاة العشية الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي، وبصلاة الزلف المغرب والعشاء.

وفيه دلالة بينة على إطلاق لفظ الجمع، وهو الزلف على الاثنين. فالآية مشتملة على الصلوات الخمس، ونظيرها قوله تعالى في سورة قَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي بصلاة الصبح. ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾؛ أي: بصلاة العصر، والظهر، فالعصر أصل في ذلك الوقت، والظهر تَبَعٌ لها. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في بعض أوقاته ﴿فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: بصلاتي المغرب والعشاء.

وفسَّر بعضُهم طرفي النهار بالصبح والمغرب، ورجَّحه ابن جرير، وزُلَفَ الليل بالعشاء والتهجد. فإنه كان واجباً عليه ﷺ فيوافق قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾.

ثم بيَّن فائدةَ الأمر السابق وحكمتَه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾؛ أي: إنَّ الأعمالَ الحسنة على الإطلاق، لا سيما الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: يكفِّرن الصغائر، ويذهبن المؤاخذة بها، لِمَا فيها من تزكية النفس وإصلاحها، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة في النفس، وإفْسَادَها لها، لا أنها تذهب السيئات نفسها؛ إذ هي قد وجدت بل مَا كانَ يترتب عليها من المؤاخذة

والمعاتبة.

والمراد بالحسنات[1]: ما يعم الأعمالَ الصالحة جميعاً، حتى ما كان منها تركاً لسيئة كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾. وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وقوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكَفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». والمراد بالسيئات الصغائر، لأنَّ الكبائرَ لا يكفرها إلا التوبة، بدليل ما رواه مسلم: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر». وقرأ[2] الجمهور: ﴿وزلَفاً﴾ بفتح اللام جمع زلفة كغرفة وغرف. وقرأ طلحة، وعيسى البصرة، وابن أبي إسحاق، وأبو جعفر، وابن القعقاع: ﴿زُلُفاً﴾ بضمها جمع زليف، أو كأنه اسم مفرد. وقرأ ابن محيصن، ومجاهد بإسكان اللام، وروي عنهما: (زَلْفَى) على وزن فعلى على صفة الواحد من المؤنث.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور[3] من الوصايَا السابقة من الاستقامة والنهي عن الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا، وإقامة الصلاة في تلك الأوقات ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: عِظة واعتبار ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: للمتعظين بأوامر الله ونواهيه، فمن امتثلَ إلى أوامر الله تعالى، فاستقامَ وأقامَ.. فقد تحقَّقَ بحقيقة الحال والمقام؛ أي: ذلكَ المذكور موعظة للمتعظين الذين يراقبون الله، ولا ينسونَه، وخصهم بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعونَ بِها.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد أنت وأمتك على تحمل مشاق التكاليف أمراً أو نهياً من الاستقامة وعدم الطغيان وغيرهما، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: أجر المخلصينَ في أعمالهم الصالحة، فعلاً أو تركاً؛ أي: يوفيهم أجورَهم، ولا يضيع منها شيئاً، فلا يهمله، ولا يبخَسُه بنقص، وإنما عبَّر

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

عن ذلك بنفي الإضاعة، مع أنَّ عَدَمَ إعطاء الأجر ليس بإضاعة، حقيقة كيف لا والأعمال غيرُ موجبة للثواب، حتى يلزمَ من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره منه سبحانه من القبائح، وإبرازاً للإثابة في معرض الأمور الواجبة، وهو تعليل للأمر بالصبر.

وعن أبي بكر الوراق قال: طلبنا أربعةَ أشياءَ سنينَ، فوجدناها في أربعة؛ طلبنا رضَى الله تعالى فوجدْنَاه في طاعته، وطلبنا السعة في المعيشة فوجدناها في صلاة الضحى، وطلبنا سلامة الدين فوجدناها في حفظ اللسان، وطلبنا نور القبر فوجدناه في صلاة الليل، فعلى العاقل السعي في طريق الطاعات، وتنوير القلب بنور العبادات، ذكره صاحبُ «الروح». والمعنى؛ أي[1]: ووطن نفسَك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه في هذه الوصايا وفي غيرها، فإن الله لا يضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملاً، بل يوفيه ثوابَ عمله من غير بَخْسٍ له. وفي الآية إيماء إلى أنَّ الصبرَ من باب الإحسان.

فائدة: وقد كانت[2] عادة القرآن على إجراء أكثر خطابات الأوامر على النبي ﷺ، فلذلك قالَ: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ ﴿وَاصْبِرْ﴾ وأكثر خطابات النهي على الأمة، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ اعتباراً للأصالة في الاتصاف، والتنزه والاجتناب فافهم.

ولما بيَّن[3] سبحانه وتعالى ما حلَّ بالأمم الماضية من عذاب الاستئصالَ بيَّن هنا أن السَّبَب في ذلك أمران: **الأول**: عدم وجود مَنْ ينهى عن الفساد، **الثاني**: عدم رجوعهم عَمَّا هم فيه فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ لولا تحضيضية مضمنة معنى النفي، وكان بمعنى وجد؛ أي: فهلا وجد ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾؛ أي: من الأمم المهلكة الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال في «القاموس»: القرون جمع قرن، والقرنُ مئة

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الصاوي.

سنة، وهو أصح الأقوال الجارية في معنى القرن، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم، وكلُّ أمة هَلَكَتْ، فلَم يبق منها أحد تُسمَّى قرناء.

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾؛ أي: أصحاب عقل ورأي ودين وفضل. وسُمِّي الفضل والجودةُ بقيةً على أن يكون الهاء للنقل كالذبيحة؛ لأنَّ الرجلَ إنَّما يستبقي مما يكسبه عادة أجودَه، وأفضلَه، فصار مثلاً في الجوْدَةَ والفضل، يقال: فلان من بقية القوم؛ أي: من خيارهم، ومنه ما قيل في المَثل: في الزوايا خبايَا، وفي الرجال بقايَا؛ وإنما قيل: بقية، لأنَّ الشرائعَ والدولَ، ونحوَها، قوتها في أولهَا، ثم لا تزالُ تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف.. فهو بقية الصدر الأول. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ نعت لأُولي؛ أي: ينهون قومهم المفسدين ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ الواقع منهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ويمنعونهم من ذلكَ لكونهم ممن جمع الله فيهم بينَ جودة العقل وقوة الدين. وفي قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ حكاية الحال الماضية، والمراد بالتحضيض في لولا: النفيُ، والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ منقطع، والمعنى: ما كانَ من القرون المهلكة من قبلكم أُولو فضل ودين ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم؛ أي: من القرون المهلكة نَهَوا عن الفساد، فنجَوا، وهم أتباع الرسل، وسائرهم تركوا النهيَ، فهلكوا، و (من) في ﴿ممن أنجينا﴾ للبيان لا للتبعيض؛ لأنَّ جميعَ الناجينَ ناهُونَ.

قيل: هؤلاء القليلُ: هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾. والراجح أنهم أتباع الرسل، وأهل الحق من الأمم على العموم.

والمعنى: فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض جماعة أولو عقل ورأي وصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض، باتباع الهوى، والشهوات التي تفسد عليهم أنفسَهم، ومصالِحَهم، فيحولون بينهم، وبين الفساد، ومن سنة اللَّهِ أن لا يهلك قوماً إلا إذا عَمَّ الفساد والظلم أكثرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: ولكنْ كَانَ هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم، منبوذينَ لا يقبل نهيهم وأمرهم مهددينَ مع رسلهم بالإبعاد والأذى. وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه

الكلام تقديره: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد فَنَجَوا، واتبعَ الذين ظلموا أنفسَهم وغيرهم بسبب مباشرتهم الفسادَ، وتركهم النهي عنه، فيكونُ العدول إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم، والتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بعلية ذلك، لِمَا حَاقَ بهم من العذاب؛ أي: واتّبَعَ الذين تركوا النهيَ عن المنكرات، ما أنعموا فيه، واستدرجوا به من الشهوات، واشْتَغَلوا بتحصيل الرياسات، وأعرضوا عما وَرَاء ذلك من أمور الآخرة. ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كافرينَ، فإن سبب استئصال الأمم المهلكة، فشو الظلم، وشُيوعُ ترك النهي عن المنكرات مع الكفر.

والمعنى: أي صاروا تابعينَ للنعم التي صاروا بها مترفينَ منعمين من خصب العيش، ورفاهية الحال، وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة، واستغرقوا أعمارَهم في الشهوات النفسانية.

وجملة: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ معطوفة على: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: اتبعوا شهواتِهم، وكانوا بذلك الاتباعِ مجرمين، وهذا بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة، وهو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتباع الشهوات.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ العقولَ السليمةَ كافية لفهم ما في دعوة الرسل من الخير والصلاح، لو لم يمنع استعمال هِدَايَتِها الافتتانُ بالترف، والنعيم، بَدَلاً من القصد والاعتدال فيه، وشكر المنعم عليه، وقد هَدَتْ التجارب إلى أنَّ التَّرَفَ هو الباعث على الفسوق والعصيانِ، والظلم والإجرام، ويظهر ذلك بديئاً في الرؤساء والسادة، ومنهم ينتقل إلى الدهماء، والعامَّةِ، فيكون ذلك سبباً في الهلاك بالاستئصال، أو في فقد العزة والاستقلال، وتلك هي سنة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. وفي الحديث[2]: «إن الله لا يعذب العامةَ بعمل الخاصة، حتى يروا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا، فلا ينكرون، فإذا فعلوا ذلكَ

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

عذَّب الله العامَّةَ والخاصة»، فكل قوم لم يكن فيهم آمر بالمعروف، وناه عن المنكر، من أرباب الصدق، وهم مجتمعون على الفساد، أو لا يأتمرون بالأمر بالمعروف، ولا ينتهون بالنهي عن المنكر، فإنهم هالكون.

وقرأت فرقة[1]: ﴿بَقِية﴾ بتخفيف الياء اسم فاعل من بقي نحو: شجيت فهي شجية. وقرأ أبو جعفر وشيبة: ﴿بُقْية﴾ بضم الباء وسكون القاف، بوزن فعلة. وقرىء: (بَقْيَة) بوزن فَعْلَة للمرة من بقاه يبقيه، إذا رقبه وانتظره. وقرأ زيد بن علي: ﴿إلا قليل﴾ بالرفع لحظ أن التحضيض تضمن النفْيَ فأبدل كما يبدل في صريح النفي. وقرأ جعفر بن محمد، والعلاء بن سيابة كذا في كتاب «اللوامح»، وأبو عمرو في رواية الجعفي، ﴿وأتبعوا﴾ ساكنة التاء مبنيةً للمفعول على حذف مضاف؛ لأنه مما يتعدَّى إلى مفعولين؛ أي: جزاء ما أترفوا فيه. ثم بَيَّن سبحانه وتعالى ما يحول بين الأمم وإهلاكها فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ (اللام) لام الجحود عند البصريين، وينتصب الفعل بَعْدَهَا بإضمار أن، وهي متعلقة بخبر كانَ المحذوف؛ أي: مريداً لإهلاك أهل القرى. وقال الكوفيون: ﴿يهلك﴾ خبرُ كَانَ زيدت اللام دلالةً على التأكيد. ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل؛ أي: ظالماً لها بغير ذنب، واستحقاق للهلاك، بل استحَالَ ذلك في الحكمة. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: غير ظالمينَ، حال من المفعول، والمراد تنزيه الله تعالى عن الظلم بالكلية، بتصويره بصورة مَا يستحيل صدوره عنه تعالى، وإلا فلا ظُلْمَ فيما فَعَلَ الله بعباده، كائناً مَا كَانَ.

والمعنى: وما كان الله سبحانَه وتعالى مريداً لإهلاك أهل القرى حالةَ كونه ظَالِماً لها بغير ذنب، ولا استحقاق إهلاك، حَالَةَ كون أهلها غيرَ ظالمين. وقيل قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلق بالفعل المتقدم، والمراد به الشرك.

والمعنى: أي ما صح[2]، ولا استقام أن يهلك الله سبحانه وتعالى أَهلَ القرى بظلم وشرك يتلبسون به، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

الحقوق، لا يظلمون الناسَ شيئاً، والمعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده، حتى ينضم إليه الفساد في الأرض كما أهلكَ قوم شعيب بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قَوْم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء، وإنما لم يهلكهم بشركهم؛ لأن مكافَأَةَ الشرك النار لا ما دونَها.

قال بعضهم: الملك يبقى مع الشرك، ولا يبقَى مع الظلم. وقيل: المعنى: وما كان ليهلكهم بِذُنُوبِهم، وهم مصلحون؛ أي: مخلصون في الإيمان.

وحاصل معنى الآية: أي[1] أنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ما داموا مصلحينَ في أعمالهم الاجتماعية، والعمرانية، والمدنية، فلا يبخسون النَّاسَ حقوقهم، كما فعل قوم شعيب، ولا يَبْطِشُون بالناس بطشَ الجبارين، كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار، كقوم فرعون، ولا يرتكبون الفواحشَ، ويقطعونَ السبيلَ، ويأتون في ناديهم المنكرَ، كقوم لوط بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الإفسادَ في الأعمال، والأحكام، ويفعلوا الظلْمَ المدمر للعمران، ومن ثَمَّ قالوا: الأمم تبقَى مع الكفر، ولا تبقَى مع الظلم والجَور. ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني، والديلميُّ، وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عن تفسير هذه الآية فقال: «وأهلها ينصف بعضهم بَعْضاً».

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، جعلَ الناس أمةً واحدةً ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: أهل[2] دين واحد، إما أهلَ ضلالة، أو أهل هُدًى. وقيل معناه: جَعَلَهم مجتمعينَ على الحق، غير مختلفينَ فيه، أو مجتمعينَ على دينِ الإسلام دونَ سائِرِ الأديان، بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد كما كانوا قبل الاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ ولكنه لم يَشَأْ ذَلِكَ.

أي: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول[3] الكريم الشديد الحرص على إيمان

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دَعوتك، واتباع هديك ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: على دين واحد، بمقتضَى الغريزة والفطرة، لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية، أشبَه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبَه بالملائكة، مفطورينَ على طاعة الله، واعتقاد الحق، وعدم الميل إلى الزيغ والجور، لكنه تعالى خلَقهم كاسِبين، لا ملهمين، وعاملين بالاختيار لا مَجْبورين، ولا مضطرينَ وجعلهم متفاوتين في الاستعداد، وكسب العلم، وكانوا في أطْوَارِهم الأولى لا اختلافَ بينهم. ثم لما كثرت وتنوعت حَاجَاتهم، وكثرت مطالبهم، ظَهرَ فيهم الاستعدادُ للاختلاف، ولكنه لم يشأْ ذلك، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على أديان شتَّى أو لا يزالونَ مختلفينَ في الحق، أو دين الإسلام.

فقد اختلف أهله فيه اختلافاً كثيراً. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنين وسبعينَ فرقةً، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة». المراد بهذه الفرق، أهل البدع، والأهواء كالخوارج، والقدرية، والرافضةِ والمعتزلة، والمرادُ بالفرقة الواحدة: أهل السنة والجماعة، اهـ «خازن». أو لا يزالونَ مُخْتَلِفينَ في الرزق، فهذا غني، وهذا فقير، أو لا يزالون مختلفينَ في شؤونهم الدنيوية، والدينية بحسب استعدادهم الفطري، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا مَنْ رحم ربك من المختلفين في الحق، أو دين الإسلام بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله تعالى، وهو الحق الذي لا حقَّ غيره، أو إلا مَنْ رحم ربك بالقناعة. والأولى تفسير: ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالمجتمعةِ على الحق، وحكم كتابه فيهم، وهو الذي عليه مدار جمع كلمة الأمة، ووحدتها، حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ واضحاً غير محتاج إلى تَكَلُّفٍ.

﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ أي: ولمشيئته تعالى فيهم الاختلافَ والتفرقَ في علومهم، ومعارفهم، وآرائهم، وما يتبع ذلك من الإرادة والاختيار في الأعمال ﴿خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: خَلَقَ الناسَ كافَّةً، وبهذا كانوا خلفاء في الأرض، ومن ذلك اختلافهم في

الدين والإيمان، والطاعة والعصيان، وبذا كانوا مَظْهراً لأسرار خلقه الروحية، والجسدية، أو المادية، والمعنوية، فإنه جعل مصيرَ أهل الباطل إلى النار، ومصيرَ أهل الحق إلى الجنَّة. وقال ابن عباس: خَلَقهم في فَرِيقَيْنِ فريق يرحم فلا يختلف، وفريق لا يرحم فيختلفُ، فذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

والخلاصة[1]: أن الناس فريقان: فريق اتفقوا في الدين، فجعلوا كتابَ الله حَكَماً بينهم فيما اختلفوا فيه، فاجتمعت كلمتهم، وكانت أمة وَاحِدَةً فرحمهم الله تعالى، ووقاهم شرَّ الاختلاف في الدنيا، وعذابَ الآخرة. وفريق اختلفوا في الدين كما اختلفوا في منافع الدنيا، فكان بأسهم بَيْنَهم شديداً، فذاقوا عقابَ الاختلاف في الدنيا، وأعقبه جزاؤهم في الآخرة، فحُرموا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم لا بظلم منه تعالى لهم.

فإن قلت: يعارض ما هنا أعني قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قولَه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

قلت: لا معارضة بَينَهما، لأنَّ ما هنا خَلَقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ معناه: ما خلقتهم إلا للأمر بالعبادة، وبهذا يزول الإشكال، تأمل.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ثبت[2] قول ربك يا محمد للملائكة: وعزتي وجلالي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: لأجعلنها ملأى حتى تقول قط قط بمعنى يكفي يكفي كما في الحديث. وذلك بعد أن تمد أعناقَهَا، وتطلب الزيادة ليتجلى عليها بصفة الجلال، فتخضع وتذل وتقول: قَطْ قَطْ. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من عصاتهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لتأكيد العموم للنوعين، وإذا تمت وثَبَتَتْ امتنعَت من التغيير والتبديل؛ أي: قد سبق في قضائه وقَدَرِه وحكمته النافذة أن من خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النارَ، وأنَّ النارَ لا بد أن تملأً من عالمي الجن

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

والإنس، الذين لا يهتدون بما أرسلَ به رسلَه، وبما أنزلَ عَلِيهم من كتبه لهداية المكلفين، والحكم بين المُخْتَلِفِينَ. ولما ذكر[1] الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قَصَصَ الأمم الماضية، والقرُونَ الخالية، وما جرَى لهم مع أنبيائهم.. خاطب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: وكل نبأٍ وخبر من أنباءِ الرسل المتقدمين من قبلك، وأخبارهِم مع قومهم، مما يحتاج إليه، وما جرى لهم من المحاجات، والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب، والأذى، وكيف نَصَر الله حِزبَهُ المؤمنين، وخذل أعداءَه الكافرين، نقصه عليك، ونخبره لك لفوائدَ، منها: ما ذكره بقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ حتى يكون كالجبل لتقومَ بأعباء الرسالة، ونشر الدعوة لما لك من الأسوة بإخوانك المرسلين. وهو بدل من ﴿كلاًّ﴾؛ أي: نقص عليك من تلك الأنباء ما نقوي ونشد به قلبكَ، حتى يَزيدَ يقينك، وتطيبَ به نفسك، وتعلم أن الذي فعل بك قد فعل بالأنبياء قبلك، والإنسان إذا ابتليَ بمحنة وبلية، فرأى جماعةً يشاركونه فيها خف على قلبه بَلِيَّته كما يقال: البلية إذا عمت خفت وطابَتْ. وتثبيت[2] الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولأتباعهم المؤمنين، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى. ففي هذا كله أسوة بهم؛ إذ المشاركة في الأمور الصَّعْبة تهوِّن ما يلقَى الإنسانُ من الأذى، ثم الإعلام بما جرَى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب، من غرق، وريح، ورجفة، وخسف، وغَيرِ ذلك فيه طمأنينة للنفس، وتأنيس بأن يُصِيبَ الله من كذَّب الرسولَ ﷺ بالعذاب كَمَا جَرَى لمكذبي الرسل، وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له، ولأتباعه، كما اتفقَ للرسل وأتباعِهم. ومنها: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ الأَنْبَاء المقصوصة عليك، أو في هذه السورة، ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: البراهين الدالةَ على التوحيد، والنبوة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: تنفير للمؤمنين من الاغترار بالدنيا.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إرشاد لهم إلى الاستعداد للآخرة؛ أي: وجاءك

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

في هذه السورة النبأ الحق، والخبرُ الصدق الذي هو مطابق لِمَا جرَى للأمم السابقة، ليسَ فيه تغيير، ولا تحريفٌ، كما يَنْقل شيئاً من ذلك المؤرخُون. فإن قلت[1]: قد جاءه الحق في سور القرآن كُلِّها، فلِم خص هذه السورة بالذكر؟

قلت: لا يلزَمُ من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يَكُون قد جاءه الحق في غيرها من السور، بل القرآن كلُّه، حق يَحِقُّ تَدَبُّرُه، وصدقٌ يجب تصديقه، ولكن إنما خصَّها بالذكر، تشريفاً لها، ورفعاً لمنزلتها لكونها جمعت من قصص الأمم الماضية، ما لم يَكُن في غَيْرِها، وإنما عرفه، ونكر تَالِيَيهِ تفخيماً له، لكونه يُطْلَقُ على الله تعالى بخلاف تالييه، اهـ «كرخي».

قال في «الإرشاد»[2]: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الأمر الجامع بين كونه حقّاً في نفسه، وكونهِ موعظةً، وذِكرًى للمؤمنينَ، ولكون الوصف الأول حالاً له في نفسه، حلّي باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره، وتقديم الظرف أعني (في هذه) على الفاعل، أعني الحقَّ، لأنَّ المقصود بيان منافع السورة، لا بيان ذلك فيها، لا في غيرها؛ أي: لأن المقصودَ بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: ونصيحة عظيمة للمؤمنين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وتذكرة لهم خَصَّهم بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالموعظة، والتذكير بأيام الله، وعقوبته، والفرق بين الموعظة والتذكير: أنَّ المَوْعِظَةَ هي ما ينزجر به السامِعُ، ويمتنع من الاغترار بزخارف الدنيا، ولذاتها لأنه إذا رَأَى إهلاك الأمم السابقة مع قوتهم، وجلادتهم وسعةِ رزقهم أعرضَ عن الدنيا، والتذكير: ما يقبل السامع بالتدبر فيه إلى أمور الآخرة، والتزود لها؛ لأنه إذَا رأى نَصرَ المؤمنين، وكَوْنَ الدولة لهم، ونَجَاتهم مع الرسل، أقْبَل إلى أمور الآخرة، والتزود لها. وقيل: هما مرادفان.

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون به، ولا

---

(1) الخازن.
(2) روح البيان.

يتذكرون من أهل مكة، وغيرهم. ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حَالَتِكم وجهتكم التي هي عدم الإيمان ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكير به ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا الدوائرَ والنوائبَ على ما يعدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم ما نَزَلَ بأمثالكم من الكفرة على ما وعد الرحمن. فهذا تهديد لهم؛ لأن الآيةَ منسوخة بآية السيف.

والمعنى[1]: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا ما تتمنونه من انتهاء أمرنا إما بموت أو غيره، مما تحدِّثون به أنفسَكم، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزلَ بكم مثل ما نزلَ بأمثالكم من عقابه تعالى، بعذاب من عنده، أو بأيدي المؤمنين، وأن يكفل لنا النصرَ والغلبة، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم. وقد أنجزَ وَعْدَه، ونصَرَ رسوله، وأيَّدَهُ، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

و(اللام) في قوله[2]: ﴿ولِلَّه﴾ للاختصاص ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الغيب في الأصل مصدر، وإضافة المصدر يفيد العموم، والإضافة فيه بمعنى في؛ أي: وعلم جميع ما غاب عنك يا محمد، وعن سائر الخلائق في السموات والأرض مختص بالله سبحانه وتعالى، فكيف يخفَى عليه أعمالكم؛ وهو المالك لجميع ما في السموات والأرض، المتصرف فيه كيف شاء، العالم بكل ما سيقع فيهما، والعالم بوقته الذي يقع فيه.

وخص[3] ذكرَ الغيب مع كونه يعلم بما هو شاهد فيهما، لكونه من العلم الذي لا يُشَارِكهُ فيه غيره، وخص ذكرَ السموات والأرض مع كونه يعلم ما غاب في غيرهما من العرش والكرسي وغيرهما، لكونهما محسوسين للمخاطبين.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وقيل: إنَّ غيبَ السموات والأرض نزول العذاب من السماء، وطلوعه من الأرض، والأول أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره.

﴿وَإِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا إلى غيره ﴿يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ بضم الياء، وفتح الجيم، أي يرد، وبفتح الياء، وكسر الجيم بمعنى يَعُود، ويصير أمور الخلائق كلها يوم القيامة، فيجازى كُلاً بعمله خيراً، أو شراً، فيرجع أمرك يا محمد، وأمُر الكفار إليه، فينتقِم لَكَ منهم؛ أي: فأمركَ وأمرهم لا مَحَالةَ راجع إليه تعالى، ومَا شَاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكن. وقرأ[1] نافع وحفص: ﴿يُرْجَع﴾ على البناء للمفعول. وقرأ الباقون على البناء للفاعل. ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾؛ أي: وإذا[2] كان أمر كل شيء يرجع إليه، فاعبده سبحانه وتعالى بإخلاص الدين له وحدَه، وادعُ إلى طاعته، واتباع أمره بالحكمة، والموعظة الحسنة ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ تعالى فيما لا يدخلُ في مكنتك، واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه، لكونه لا يدخلُ تحتَ كسبك، ولا تنالُه يدك، والتوكل لا يجدي نفعاً بغير العبادة، والأخذ بالأسباب المستطاعة، وبدون ذلك يكون من التمني الكاذب، والعبادة لا تكمل إلاّ بالتوكل، إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى.

روى أحمد، والترمذي، وابن ماجه، أن النبي ﷺ قال: «الكيس مَنْ دان نفسه، وعمل لما بعدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأماني».

وخلاصة ذلك: امتَثِلْ ما أمرت به، وداوم على التبليغ والدعوة، وتوكل عليه في سائر أمورك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون، ولا يضيق صدرك بهم.

وقيل: معنى قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾؛ أي[3]: أطعه، واستقم على التوحيد أنت وأمتك ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: فوض إليه جميعَ أمورك، فإنه كافيك وعاصمك من

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

شرهم، فعليك تبليغ ما أوحينا إليك، بقلب فسيح غير مبال بعداوتهم، وعتوهم وسفههم، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنه لا ينفَعُ بدونها.

﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بساه[1] عما تعمل أنت أيها النبي ﷺ ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته، والتوكل عليه، والصبر على أذى المشركين، فيوفيكم جزاءكم في الدنيا والآخرة، ولا بغافل عما يعمل المشركون من الكيد لَكُمْ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وسيجزيهم على أعمالِهم يوم تجْزَى كل نفس بما كسبَتْ، وقد صدق وعدَه، ونَصَرَ عبده، وأظهر دِينَه على الدين كلِّه، أي: فالله تعالى عالم به غير غافل عنه؛ لأنَّ الغفلةَ والسهوَ لا يجوزان على مَنْ لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فيجازي كلاًّ منك ومنهم بِمُوجَب الاستحقاق.

والجملة الأولى من هذه الآية[2]: دلت على أن عِلْمَه تعالى محيط بجميع الكائنات، كلِّيها وجُزْئِيِّها حاضرها وغائبها؛ لأنه إذا أحاط علمه بما غاب، فهو بما حضر محيط؛ إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية: دلَّت على القدرة النافذة، والمشيئة.

والجملة الثالثة: دلَّت على الأمر بإفراد مَنْ هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلَّى بها العبدُ.

والجملة الرابعة: دلَّتْ على أنَّ الأمر بالتوكل، وهِيَ آخرة الرُّتَبِ، لأنه بنور العبادة أبصرَ أنَّ جميعَ الكائنات معذوقة بالله تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جَمِيعِها، لا يشركه في شيء منها.

والجملة الخامسة: تضمنت التنبيه على المُجَازَاةِ، فلا يضيع طاعةَ مطيع، ولا يهمل حالَ متمرد؛ أي: فإنه تعالى[3] لا يُضَيِّعُ طاعات المطيعينَ، ولا يهمل

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

أحوالَ المتمردين الجاحدين، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة، ويحاسبوا على النقير والقطمير، ويعاتبوا في الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير.

وعن كعب الأحبار[١]: إنَّ فَاتِحَةَ التوراةِ، فاتحةُ سورة الأنعام، وخاتمتها خاتمةُ سورة هود، هذه الآية يعني: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

واعلم: أنَّ علم الغيوب بالذات مختص بالله تعالى، وأما إخبار الأنبياءِ والأولياء صلوات الله عليهم أجمعين،عن بعض المغيبات، فبواسطة الوحي، والإلهام، وتعليم الله تعالى، ومن هذا القبيل: إخباره ﷺ عن حال العشرة المبشرة، وكذا عن حال بعض الناس.

ثم إن[٢] التوكّل عبارة عن الاعتصام به تعالى في جميع الأمور، ومحله القلبُ، وحركة الظاهِرِ لا تنافي تَوَكُّلَ القلب بعدما تحقق عند العبد أنَّ التقدير من قبل الله تعالى، فإن تَعَسَّرَ شيءٌ، فبتقديره، فالواجب على كافَّةِ العباد أن يعبدوا اللَّهَ تعالى، ويعتمدوا عليه كل الاعتماد، لا عَلى الجاه والعقل، والأموال، والأولاد فإنَّ اللَّهَ تعالى خالق كل مخلوق، ورازق كلُّ مرزوق.

وفي الحديث: «ما من زرع على الأرض، ولا ثمر على الأشجار، إلا وعليه مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم هذا رزقُ فلان بن فلان». وفي الحديث: «خَلَقَ الله الأرزاقَ قبل الأجسادِ بألف عام، فبسطها بين السماء والأرض، فضربتها الرياحُ، فوقعت في مشارق الأرض ومغاربها، فمنهم من وَقَعَ رزقه في ألف موضع، ومنهم من وقع في مئة، ومنهم من وقع على باب داره، يَغْدُو ويَرُوحُ حتَّى يَأتِيه».

وقرأ الصاحبان[٣] ـ نافع وابن عامر ـ وحفص، وقتادة، والأعرجُ، وشيبة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وأبو جعفر، والجحدري: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، لأنَّ قَبْلَه ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾. وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة. واختلف عن الحسن، وعيسى بن عمر.

وعن رسول الله ﷺ[1]: «من قرأ سورةَ هود أعطي من الأجر عَشْرَ حسنات بعدد من صَدَّق بنوح، ومَنْ كذَّب به، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وكان يومَ القيامة من السعداء» إن شاء الله تعالى.

خاتمة في بيان المقاصد الدينية التي اشتملت عليها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على ما اشتملت عليه سابقتها من أصول الدين، ومبادئِهِ العامة التي لا يكون المؤمن مؤمناً حقّاً إلا إذا سلك سبيلها، ونهج نهجَها، ومن ذلك:

١ ـ التوحيد وهو ضربان:

أ ـ توحيد الأُلوهية، وهو أولُ ما دعا إليه محمدٌ ﷺ، ودعا إليه كل رسول قَبْلَه، وهو عبادته تعالى وحده، وعدم عبادة أحد معه، كما قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولي أو نبيَّ أو شيطان أو ملك، إذا توجه العبد إليها توجهاً تعبديّاً ابتغاء النفع أو كشف الضر في غير الأسباب التي سخرها الله لجميع الناس، كل ذلك كفر لا فرق بينه وبين عبادة الأصنام، أو الأوثان، إذ جميع ما عَدَا الله تعالى فهو عَبْدٌ، وملك له لا يتوجه بالعبادة إليه.

ب ـ توحيد الربوبية؛ أي: اعتقاد أنَّ اللّهَ وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصرف فيه على مُقْتَضَى حكمته، ونظام سنَّته، وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء، وكان أكثر المشركينَ من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأنَّ الربَّ الخالقَ المدبّر واحِدٌ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التي يتقرب بها إليه توسلاً، وطلباً للشفاعة عنده.

---

(١) البيضاوي.

٢ ـ إثبات رسالته ﷺ بالقرآن بتحدّيهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات، ودعوة مَن استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم، وإعانتهم على الإتيان بها، إن كانوا صادقين، وقوله بعد ذلك: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وما جاء في قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

٣ ـ جاءت آيات البعث والجزاء في القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان، والاستدلال بها على قدرة الخالق، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب، والموعظة والجزاء، كما جاء في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤ ـ إهلاكُ الأمم بالظلم كما جاء في قوله لخاتم رسله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

٥ ـ سنته تعالى في ضلال الناس وغوايتهم بأن يكونوا بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية، والإصرار عليها إلى أن تتمكنَ من صاحبها، وتحيطَ به خطيئته حتى يفقد الاستعدادَ للهُدَى والرشاد.

٦ ـ من طباع البشر العجل والاستعجالُ لِمَا يَطْلَبُ من النفع والخير، وما ينذر به من الشرِّ كما قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

٧ ـ سنته تعالى في تكوين الخلق، وأنه كَانَ أطواراً في أزمنة مختلفة، بنظام مُحْكَمٍ، ولم يكن شيء منه فجائياً بلا تقدير، ولا ترتيب كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فكلمة الخلق معناها: التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقاديرَ متناسبة، ثم أريد بها الإيجاد التقديريُّ؛ فالسموات السبع المرئية للناظرين، والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام، وما فيها من البسائط، والمركبات الغازية، والسائلة، والجامدة، كذلك والكون في جملته قائم بسنة عامة في ربط بعضه ببعض، وحفظِ نظامِهِ بأنْ يبنَى بعضه على

بعض، وهو ما يسمِّيه العلماء: الجاذبِيَّةَ العامةَ، والجاذبية الخاصَّةَ.

٨ ـ أنَّ الطغيانَ والركونَ إلى الظالمين من أمهات الرذائل، كما قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٩ ـ الاختلاف في طبائع البشر: فيه فوائد، ومنافع علمية وعملية لا تظهر مَزَايَاهُ بدونها، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق، والتعادي به، وقد شرع الله لهم الدينَ لتكميل فطرتهم، والحكمِ بينهم فيما اختلفوا فيه بكتابه الذي لا مَجَالَ فيه للاختلاف، فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون فيه رحمتَه وثوابَه، والذِينَ يختلفون فيه سخْطَهُ وعِقَابَه.

١٠ ـ إتباع الإتراف، وما فيه من الفساد، والإجرام، ذلك أن مثار الظلم والإجرام الموجِبَ لهلاك الأمم، هو اتباع أكثرها، لِما أترِفُوا فيه من أسباب النعيم، والشهوات، واللذَّات، والمترفون هم مفسدوا الأمم، ومُهلكوها، وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن، من الخلفاء الراشدين، والسلف الصالحين، فكانوا مَثَلاً صالحاً في الاعتدال في المعيشة، أو تغليب جانب الخشونة والشدة على الأتراف والنعمة، ففَتحوا الأمْصَارَ، وأقاموا دَوْلَةً عزَّ على التاريخ أن يقيمَ مِثْلَها باتباع هدي القرآن، وبيان السنة له، وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، والعرفان، ثم أضَاعَها من خلف من بعدهم من متبعي الإتراف، وكيف ضلوا بعد أن استفادوا الفنونَ والعلومَ، والملكَ والسلطان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١١ ـ إقامة الصلاة في أوقاتها من الليل والنهار؛ لأنَّ الحسناتِ يذهبن السيئات، وأعظم الحسناتِ الروحيةِ الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح.

١٢ ـ النهي عن الفساد في الأرض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب.

١٣ ـ سننه تعالى في اختبار البشر؛ لإحسان أعمالهم كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

١٤ ـ أول اتباع الرسل والمصلحين الفقراءُ كما حكى عن قوم نوح ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾.

١٥ ـ التنازع بين رجال المال، ورجال الإصلاح في حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة.

١٦ ـ منْ سُنَنِهِ تعالى جعل العاقبة للمتقين، وذلك هو الأساس الأعظم في فوز الجماعات الدينية، والسياسية، والأمم والشعوب في مقاصدها، وغلبها لخصومها ومناوئيها.

١٧ ـ بيان أنَّ الاختلافَ في الدين ضروري كما قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٨ ـ بيان أنَّ نَهْيَ أولي الأحلام عن الفساد، يَحْفَظُ الأمة مِنَ الهلاك كما قال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الإعراب

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ أنَّ مراتب الناس اثنان إما شقي أو سعيد، وأردتَ بيانَ مآلهما.. فأقول لك. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿شَقُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فَفِى﴾ (الفاء) رابطة لجواب أمَّا واقعة في غير موضعها؛ لأنَّ موضعها موضع (أما). ﴿في النارِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب (أما) لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة أما من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الاستقرار الذي تعلق به الخبرُ. ﴿زَفِيرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿وَشَهِيقٌ﴾ معطوف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير

المستكن في الجار والمجرور قبله أعني قولَه: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ أو حال من ﴿النار﴾ أو مستأنفة استئنافاً بيانياً، كَأن سائلاً سأَلَ حينَ أخبر أنهم في النار ماذا يكون لهم؟ فقيل: لهم كذا وكذا، كذا في «الفتوحات».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، أعني قَولَه: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية. ﴿دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فعل وفاعل؛ لأنَّ دام هنا تامة بمعنى بقِيَتْ. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ معطوف عليه، والجملة صلة (ما) المصدرية. ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، تقديره: مدة دوام السموات والأرض، والظرف المقدر متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى غير. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: إلا ما شاءه ربك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿فَعَّالٌ﴾ خبره، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بفعال، وقيل: (اللام) زائدة في مفعول الصفة تقويةً للعامل. ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره لما يريده.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (أما) حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿سُعِدُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل أو فعل وفاعل على اختلاف القراءتين، والجملة صلة الموصول. ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب (أما)، وجملة (أما) معطوفة على جملة (أمّا) الأولى. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿ما﴾ مصدرية ظرفية. ﴿دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فعل وفاعل صلة (ما) المصدرية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى غير. ﴿ما﴾

في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿عَطَآءً﴾ مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف وجوباً تقديره، يعطيهم الله عطاءً؛ أي: إعطاءً؛ لأنه اسم مصدر لأعطى، ويصح كونه مفعولاً به إذا كان بمعنى معطًى، ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ صفة لـ ﴿عَطَآءً﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ يا محمد ما قصصنا لك من قصص المتقدمين، وسوء عاقبتهم، وأردتَ بيانَ ما هو اللازم لك.. فأقول لك: لا تك في مرية ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمِه سكون النون المحذوفة للتخفيفِ لكثرة استعمالِها؛ لأن أصلَه تكون، حذفت حركة النون للجازم، فالتقى ساكنان، ثمَّ حذفت الواو؛ لالتقاء الساكنين، ثم حذفت النون للتخفيف، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ خبرها، وجملة تكون في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿مِرْيَةٍ﴾؛ أي: فلا تك في مرية ناشئة مما يعبد هؤلاء، أو في ما يعبد هؤلاء فمن بمعنى في. ﴿يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره مما يعبده هؤلاء من الأصنام. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبلها. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ جار مجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية، (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور، بالكاف تقديره: كعبادة آبائهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره، ما يعبدون إلا عبادة كائنة كعبادة آبائهم، من قبل في كونها ضلالاً، وتقليداً لا أصلَ لها. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ خبره مرفوع (بالواو) لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنَّ مفردَه ليس بعلم ولا صفة، وإنما جمع للتعظيم والنون حذفت للإضافة، و (اللام) حرف ابتداء، وهو مضاف

إلى المفعول الأول. ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ مفعول ثان له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مبينةٌ للنصيب الموفى، أو مؤكّدةٌ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل، ومفعولان، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَٱخْتُلِفَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿اختلف﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿كَلِمَةٌ﴾ مبتدأٌ سوغَ الابتداء بالنكرة وقوعُهُ بعد ﴿لولا﴾ أو وصفه بما بعده. ﴿سَبَقَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كلمة. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صفة ﴿كَلِمَةٌ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك موجودة. ﴿لَقُضِىَ﴾ (اللام) رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه، والظرف في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قضي﴾، وجملةُ ﴿قُضِي﴾ جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مع جوابها معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾ على كَوْنِهَا جَوابَ القسم. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿في شك﴾ جار ومجرور خبر (إن). ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿شك﴾. ﴿مُرِيبٍ﴾ صفة ﴿شَكٍّ﴾ وجملة (إن) معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

وحاصلُ ما في كلمتي (إن) و (لما) من القراءات السبعة أربع: تخفيفها، وتشديدهما، وتخفيف (إن) مع تشديد (لمَّا)، وتخفيف (لمَا) مع تشديد (إنَّ).

فعلى القراءة الأولى: تقول في إعراب الآية (إن) مخففة من الثقيلة. ﴿كُلًّا﴾ اسمها منصوب بها. ﴿لما﴾ (اللام) حرف ابتداء، (ما) اسم موصول بمعنى الذين

في محل الرفع خبر (إن) المخففة. ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. (يوفين) فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محلٌّ لها من الإعراب. و (الهاء) ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل النصب مفعولٌ أول. ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعول ثان، والجملة جوابُ للقسم المحذوف لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه صلة (ما) الموصولة، والعائد ضمير المفعول الأول، والموصول مع صلته خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة، والتقدير: وإن كلاً من الخلائق للذين والله ليوفينهم ربك أعمالهم. ويجوز أن تكونَ (ما) نكرة موصوفة، والجملة القسمية مع جوابها صفة لـ (ما) الموصوفة، والتقدير: وإن كلا لخلق أو لفريق موصوفون بكون الله تعالى، وافياً لهم أعمالهم والموصوف، وصفته خبر إن.

وعلى القراءة الثانية: أعني تشديدهما (إن) حرف نصب. ﴿كُلًّا﴾ اسمها. ﴿لما﴾ أصله: لمن ما بدخول لام الابتداءِ على من الجارة، دخَلت على ما الموصولة، أو الموصوفة؛ أي: لمن الذين، والله ليوفينهم، أو لمن خلق، والله ليوفينهم، فَلَمَّا اجتمعت النون ساكنة قبل ميم ما، وجب إدغامها فيه، فقلبت ميماً، وأدْغمت الميمُ في الميم، فصارَ في اللفظ ثلاثَ ميمات، فخفف اللفظ بحذف إحداها، فقلبت كسرة ميم من الجارة فتحةً لوقوعها بين فتحتين، فصار اللفظ لما: فيقال في إعرابه (اللام) حرف ابتداء. (من) حرف جر. (ما) موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ (من). ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿يوفينهم ربك أعمالهم﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مع جوابه صلة لـ (ما) إنْ قلنا: موصولةٌ، أو صفة لها؛ إن قلنا: موصوفةٌ، والعائد، أو الرابط ضمير المفعول الأول، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إن، تقديره: وإن كُلاً من الخلائق لكائنون من الذين، والله ليوفينهم ربك أعمالهم، أو لكائنون من مخلوق، أو فريق وَافٍ لهم ربك أعمالَهم، وجملة إن مستأنفة.

وعلى القراءة الثالثة: أعني تخفيفَ (إنْ) مع تشديد (لَمَّا)، فإن المخففة

عاملة، وأصل: لما لمن. (ما) فعل به ما تقدم.

وعلى القراءة الرابعة: أعني تخفيف (لَمَا) مع تشديد (إنَّ). (إنَّ) المشددة عاملة. و (اللام) للابتداء. و (ما) اسم موصول في محل الرفع خبرها. ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ جملةٌ قسميةٌ صلة الموصول فتحصَّل مما ذكر أنَّ (إن) عاملة. (وما) موصولة، أو موصوفة في جميع الأوجه كلها. و (اللام) الثانية موطئة للقسم، والأولى لام الابتداء. فتأمل، وما قررناه زبدة كلام طويل في هذا المقام فليحفظ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بخبير. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ صلة لما أو صفة لها. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عَرَفْتَ يا محمد أحوالَ القرونَ الأولى مع أنبيائهم، وأن إِخْوانَك المرسلين تحملوا الأذى من قومهم، فصبروا، واستقاموا على الطريقة المثلى، وأردت بيانَ ما هو اللازم لك؛ فأقول لكَ: ﴿استقم﴾. ﴿استقم﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَمَآ﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) موصولة في محل الجر بالكاف. ﴿أُمِرْتَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره: كالاستقامة التي أمرت بها، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: فاستقم استقامة مثلَ الاستقامة التي أمرت بها. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (من) اسم موصول في محل الرفع معطوف عل الضمير المستتر في ﴿استقم﴾ لوجود الفاصل. ﴿تَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على (من)، والجملة صلة الموصول. ﴿مَعَكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من الضمير المستتر في ﴿تَابَ﴾. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ جازم وفعل، وفاعل معطوف على ﴿استقم﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾

وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر إن مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر، والنهي السابقين.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ جازم وفعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ (الفاء) عاطفة سببية. ﴿تمسكم النار﴾ فعل، ومفعول، وفاعل منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والجملة الفعلية صلة أن، المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك، لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن منكم ركون إلى الذين ظلموا، فمس النار إياكم. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية أو استئنافية. (ما) نافية. ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مبتدأ مؤخر، و (من) زائدة، والتقدير: وما أولياء كائنون لكم حالَةَ كونهم من دون الله تعالى، والجملة الاسمية في محل النصب حال من (كاف) المخاطبين في ﴿تمسكم﴾؛ أي: فتمسكم النار حالَ انتفاء ناصركم، أو الجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، أتى بثم تنبيهاً على تباعد الرتبة، اهـ «سمين». ﴿لا﴾ نافية. ﴿تُنصَرُونَ﴾ فعل، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، عطفَ جملة فعليةٍ على جملة اسمية.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَأَقِمِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أقم الصلاة﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾. ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف، ومضاف إليه منصوب بالياء متعلق بـ﴿أقم﴾. ﴿وَزُلَفًا﴾ منصوب على الظرفية معطوف على ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾. ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صفة له. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ ناصب

واسمه. ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ فعل أمر معطوف على ﴿أقم﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فَإِنَّ﴾ (الفاء) تعليلية. ﴿إن اللَّه﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ لأنها مسوقة لتعليل المذكور قبلها.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَلَوۡلَا﴾ (الفاء) استئنافية. ﴿لولا﴾ حرف تحضيض مضمن معنى النفي، لأنه لا يمكن تحضيضهم وتخويفهم بعد انقراضهم. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض تام بمعنى وجد. ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ متعلق بـ ﴿كَانَ﴾. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ جار ومجرور صفة للقرون، لأنه اسم جنس محلى بأل، فهو بمنزلة النكرة. ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ فاعل، ومضاف إليه. ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنِ ٱلۡفَسَادِ﴾ متعلق به. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق بالفساد؛ لأنَّ المصدرَ المقترن بأل يعمل في المفاعيل الصريحة، فيكون في الظرف أولى، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوف على أنه حال من الفساد ذكره في «الفتوحات». والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لفاعل ﴿كَانَ﴾. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مستثنىً من الفاعل بملاحظة صفته. والمعنى[1]: فما كان من القرون الماضية المهلَكة بالعذاب، جماعة أصحاب دين ينهون عن الفساد إلا قليلاً، وهم من أنجيناهم من العذاب، نَهَوْا عن الفساد، فالمستثنى منه القرونُ المهلكة بالعذاب، كما هو مقتضَى السياق، والمستثنى مَنْ أنجاه الله من العذاب، فاختلفَ الجِنسَ باعتبار الوصف المذكور. ﴿مِّمَّنۡ﴾ جارومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلٗا﴾. ﴿أَنجَيۡنَا﴾ فعل وفاعل،

(١) الفتوحات.

والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ممن أنجيناه. ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المحذوف. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على مقدر تقديره: فلم يَنْهَوْا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا. ﴿ظَلَمُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿اتبع﴾. ﴿أُتْرِفُوا﴾ فعل ونائب فاعل صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير. ﴿فِيهِ﴾ وهو متعلق بـ ﴿أُتْرِفُوا﴾. ﴿وَكَانُوا﴾ فعل ناقص، واسمه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (ما) نافية. ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِيُهْلِكَ﴾ (اللام) حرف جر وجحود لسبقها بـ (كان) المنفية بـ (ما). ﴿يهلك القرى﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِظُلْمٍ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يهلك﴾ أي حالَةَ كونه متلبساً بظلم، أو متعلق بـ﴿يهلك﴾؛ أي: ما كان يهلك أهلَ القرى بظلم منهم؛ أي: بشرك، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإهلاك القرى الجار والمجرور، متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لـ﴿كان﴾ تقديره: وما كان ربك مريداً لإهلاك القرى. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال ﴿من القرى﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (لو) حرف شرط. ﴿شَاءَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لو). ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً﴾ فعل ومفعولان، و (اللام) رابطة لجواب (لو). ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة لـ (أمة) وفاعل (جعل) ضمير يعود على الله، وجملة جعل جواب (لو)، وجملة (لو) مستأنفة. ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ فعل مضارع ناقص واسمه. ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة (لو). ﴿إِلَّا﴾ أداة

استثناء. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من (واو) ﴿يزالون﴾. ﴿رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: منْ رحمه ربك.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور، متعلق بما بعده. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة (خلق). ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿أملأن﴾ فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب، والجازم مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿جَهَنَّمَ﴾ مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ متعلق بـ (أملأن). ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ معطوف على الجنة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيدٌ لِمَا قبله، والجملة الفعلية جوابٌ لقسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وجملة القسم المحذوف في محل الرفع بدل من ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم لـ﴿نَّقُصُّ﴾. ﴿نَّقُصُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿نقص﴾. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كلا﴾. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب بدل من ﴿كُلًّا﴾. ﴿نُثَبِّتُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نُثَبِّتُ﴾. ﴿فُؤَادَكَ﴾ مفعول به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿وَجَآءَكَ﴾ فعل ومفعول. ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعل. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ﴾ معطوفان على ﴿ٱلْحَقُّ﴾. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنازع فيه كل من ﴿موعظة﴾ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، وجملة ﴿جاءك﴾ معطوفة على جملة ﴿نَّقُصُّ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قل﴾. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف حال من (واو) ﴿ٱعْمَلُواْ﴾؛ أي: حالةَ كونكم قارينَ وثابتين على حالتكم، وكفركم، والجملة في في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إنا﴾ ناصب واسمه. ﴿عَٰمِلُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ فعل، وفاعل معطوف على ﴿ٱعْمَلُواْ﴾. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ناصب، واسمه وخبره معطوف على ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُرْجَعُ﴾ الآتي. ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ فعل، ونائب فاعل. ﴿كُلُّهُۥ﴾ توكيد للأمر، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿اعبده﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرْجَعُ﴾. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ فعل أمر معطوف على قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ حجازية أو تميمية. ﴿رَبُّكَ﴾ اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خبر المبتدأ، أو خبر (ما) و (الباء) زائدة. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِغَٰفِلٍ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وفي «السمين»: الزفير: أول صوت الحمار والشهيق أخره. وقال ابن فارس: الزفير: ضد الشهيق؛ لأن الشهيقَ رد النَّفس، والزفير إخراج النفس من شدة الحزن، مأخوذ من الزَّفر، وهو الحمل على الظهر

لشدته. وقيل: الشهيق: النَّفَسُ الممتد مأخوذ من قولهم: جبل شاهِق؛ أي: عَالٍ. وقال الليث: الزفيرُ أن يملأَ الرجل صَدْرَهُ حَالَ كونِهِ في الغم الشديد من النفس ويُخْرِجُه، والشهيق: أن يَخْرِجَ ذلِكَ النَّفَسَ، وهو قريب من قولهم: تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءِ. وقال أبو العالية، والربيعَ بن أنس: في الحلق، والشهيق في الصدر. وقيل: الزفير للحمار، والشهيق للبغل، اهـ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ عبارة «السمين»: قَرأَ الأخَوانِ وحفص: ﴿سُعِدوا﴾ بضم السين والباقونَ بفتحها، فالأُولَى من قولهم: سَعِدَهُ الله؛ أي: أَسْعَدَه. حكى الفراء عن هذيل، أنها تقول: سعده الله بمعنى أسعده. قال الأزهري: سَعِدَ فهو سعيد، كسَلِم فهو سليم، وسَعِد فهو مسعود. قال أبو عمرو بن العلاء: يقال: سَعُدَ الرجل كما يقال: حَسُنَ. وقيل: سعده لغة مهجورة، وقد ضَعَّف جماعةٌ قراءةَ الأخوين، اهـ.

وفي «المصباح»: سَعِدَ فلانٌ يسعدمن باب تعب، في دين أو دنيا سَعْداً، وبالمصدرِ سُمِّيَ، والفاعل سعيد، والجمع سعداء، ويُعَدَّى بالحركة في لغة، فيقال: سَعِدَه الله يَسْعَده بفتحتين فهو مسعود، وقرِىء في السبعة بهذه اللغة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بالبناء للمفعول، والأكثر أن يتعدَّى بالهمزة، فيقال: أسعده الله، وسَعُدَ بالضم خلافُ شَقِيَ، اهـ.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ﴿عَطَآءً﴾ اسم مصدر بمعنى إعطاء، والفعل أعطوا؛ أي: أَعطاهم الله سبحانه وتعالى إعطاء. وفي «السمين»: عَطاءً نصب على المصدر المؤكد من معنى الجملة قَبْلَهُ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ﴾ يقتضي إعطاءً وإنعاماً، فَكَأَنَّه قيل: يُعْطِيهم عَطَاءً، وعطاء اسم مصدر، والمصدر في الحقيقة: الإعطاء على وزن الإفعال، أو يكون مصدراً على حذف الزوائد، كقوله: أنبَتَكُم من الأرض نباتاً، أو منصوب بمقدار موافق له؛ أي: فنبتم نباتاً، وكذلك هنا يقال: عَطَوْتَ بمعنى نَاوَلْتَ، اهـ. ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ في «المختار»: جذه كَسَرَهُ وقطَعَهُ، وبابه رَدَّ، والجذاذ بضم الجيم وكسرها ما تكسَّر منه، والضم أفْصَحُ، و﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، والجذاذات القراضات. ﴿فَلَا

تَكُ﴾ وحذفت النون من ﴿تَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، ولأنَّ النونَ إذا وقعت طرفَ الكلام، لم يَبْقَ عند التلفظِ بها إلا مجردَ الغنَّةِ، فلا جَرَمَ أسْقَطُوها، اهـ «كرخي». ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، ﴿مُرِيبٍ﴾ اسم فاعل من أراب إذا حَصَل الريب لغيره، أو صار هو في نفسه ذا ريب، وقد تقدَّم نظيره.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ من ركن يركن من باب علم يعلم. وفي «المصباح»: ركنت إلى زيدٍ اعتمدتُ عليه، وفيه لغات:

إحداها: من باب تَعِبَ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

والثانية: ورَكَنَ رَكُوناً من باب قَعَدَ. قال الأزهري: وليست بالفصيحة.

الثالثة: رَكَنَ يَرْكَنُ بفتحتين، وليست بالأصل بل من تداخل اللغتين، لأنَّ باب فعل يفعل بفتحتين شَرْطُه أن يكونَ حلقيّ العين أو اللام، اهـ. وفي «السمين»: وقَالَ الراغب: والصحيح أنه يقال: ركن يركن بالفتح فيهما، ورَكِنَ يَرْكن بالكسر في الماضي، والفتح في المضارع، وبالفتح في الماضي، والضم في المضارع، اهـ. والركون إلى الشيءِ الاعتماد عليه ورُكْنُ الشيء جانِبُه الأَقْوى، وما تَتَقوَّى به من مُلْك وجُنْدٍ وغيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾.

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ طرف الشيء الطائفة منه والنهايةُ، فَطَرَفَا النهار الغدوُّ والعشي. والزلَف واحدها زُلْفَة، وهي الطائفة من أول الليل لقربها من النهار. وقرأ العامة: زُلَفاً بضم الزاي، وفتح اللام، وهي جَمْعُ زلفة بسكون اللام نحو غرف في جمع غرفة، وظلم في جمع ظُلْمَةٍ. وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق بضم اللام للإتباع كما قالوا: بُسُر في بسْر بضم السين إتباعاً لضَمَّة الباء. وفي «القاموس»: الزلفة الطائفة من الليل، والجمع زُلُف وزلفات كغرف وغرفات. والزلَفُ: ساعاتُ الليل الآخذةُ من النهار، وساعات النهار الآخذة من الليل، اهـ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، ﴿لَوْلَآ﴾ كلمةٌ تفيد التحضيضَ والحثَّ على الفعل. و ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ واحدهم قرن، وهو الجيل من الناس، قيل: هو ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وشاع تقديره بمئة سنة كما مر. ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ وقرأ العامة (بقِيَّة) بفتح

الباء، وتشديد الياء، وفيها وجهان:

أحدهما: أنها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة، ولذلك دخلت التاء فيها، والمراد بها حينئذ: جيد الشيء وخياره، وإنما قيل لجيده وخياره بَقِيةٌ من قولهم: فلان بقيةُ الناس، وبقية الكرام، لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجودَه وأفضله.

والثاني: أنها مصدر بمعنى القويّ. قال الزمخشري: ويجوز أن تكون البَقِيَّة بمعنى البَقْوَى كالتقية بمعنى التقوى؛ أي: فَهَلاَّ كَانَ منهم ذوو بقاء على أنفسهم، وصيانة لها من سَخَطِ الله وعقابه. وقرأت فرقة (بقية) بتخفيف الياء، وهي اسم فاعل من بَقِيَ كشجية من شجِيَ، والتقدير: أولو طائفة بقية، أي باقية. وقيل: البقية ما يبقَى من الشيء بعد ذهاب أكثره، واستعمل كثيراً في الأنفع والأصلح؛ لأنَّ العادَةَ قد جَرَتْ بأنَّ الناسَ ينفقون أرْدَأ ما عندهم، ويستبقون الأجودَ.

﴿مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ﴾ يقال: أترفَتْهُ النِّعْمَة؛ أي: أبْطَرْتُهُ وأفسدَتْه. وفي «القاموس»: الترفة بالضم: النعمة، والطعامُ الطَّيِّب، والشيء الظريفُ تَخُصُّ به صاحبَكَ، وَتَرِفَ كَفَرِحَ تنعَّم وأترفته النعمة أطغَتْه، أو نعمته كترفته تَتْرِيفاً وأترف فلانٌ أصَرَّ على المكر، والمُتْرَفُ كمُكْرَمِ المتروك يَصْنَعُ ما يشاء، ولا يمنَع، والمتنعمُ لا يَمْنَعُ من تنعمه، اهـ.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد. وقال ابن عطية: والهاء فيه للمبالغة؛ وإن كَانَ الجِنُّ يقع على الواحد، فالجِنَّة جَمْعُه، انتهى. فيكون مما يكونُ فيه الواحد بغير هاءٍ، وجَمْعُهُ بالهاء لقول بعض العرب كمء للواحد وكمأة للجمع. ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ القص تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾﴾. والأنباء جمع نبأ كأسباب جمع سبب. والنَّبَأُ: الخَبَرُ الهَامُّ. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾؛ أي: نُقَوِّي به، ونجعل. ﴿فُؤَادَكَۚ﴾ رَاسِخاً كالجبل. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على تَمكنِكم، واستطاعتكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: اللف والنشرُ المرتَّب في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ شبَّه صراخَ أهل النار، وأنينَهم بأصوات الحمير بجامع الارتفاع، والشناعة، وعدم الفائدة في كلٍّ، فاستعار له اسمَ المشبه به على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية، كما في «روح البيان».

ومنها: المبالغةُ في صيغةِ فعَّال في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

ومنها: الإظهارُ في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً﴾ فحقُّ العبارة أن يقال: ما دامتا إلا ما شاء.

ومنها: حكايةُ الحال الماضية في قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

ومنها: التأكيد لدفع توهم المجاز في قوله: ﴿نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أتى بغير منقوص لدفع توهم إرادة بعض النصيب.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأنها كناية عن القضاء والقدر.

ومنها: الإسناد المجازيُّ في قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ كما مرَّ.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ومنها: التهديدُ والوعيدُ في قوله: و﴿ٱعْمَلُواْ﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾.

ومنها: القَصْرُ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تَمَّ ما يَسَّره الله سبحانه وتعالى لنا من تفسير سورة هود في أوائل ليلة الإثنين المباركة السابعة من شهر صفر المبارك من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة، سنة ٧/ ٢/ ١٤١١ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله سبحانه وتعالى. وأشكره سبحانه وتعالى شكراً بلا انصرام على ما وَفَّقني بابتداءِ هذا التفسير، وأسأله تعالى الإعانةَ لي على كماله وتمامه، والحمدُ لله أولاً وآخراً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

فاتحة في سورة يوسف عليه السلام
وتَقْدِمَةٌ لتفسيرها

رَأينا أَنْ نقدِّم لك أيها القارىءُ صورةً موجزةً تبيِّنُ لكَ حَالَ هذا النبي الكريم، والعِبرة من ذكْرِ قصته في القرآن العظيم لتكون ذِكرى للذاكرين، وسلْوةً للقارئين والسامعين.

يوسف الصدِّيق مثلٌ كاملٌ في عِفَّتِهِ

يوسف عليه السلام آيةٌ خالدةٌ على وَجْه الدهر تُتْلى في صحائفِ الكون بكرةً، وعشياً، تفسر طيبَ نِجَاره، وطَهَارَة إزاره، وعفَّتِه في شبابه، وقوته في دِينه، وإيثارَه لآخرته على دنياه، وأَفْضَلُ هداية تمثِّلُ للنساء والرجال المثل العليا، والعفةَ والصيانةَ التي لا تتِم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله، ومراقبته له في السر والعَلَنِ، وسورته منقبة عظمى له، وآيةٌ بينة في إثبات عصمته، وأفضل مَثَلٍ عَمَليٍّ يقتدي به النساء، والرجال، فبتلاوتها يشعر القارىء بما للشهوة الخسِيسَة على النفس من سلطان، ويسمع بأذنه تغلبَ الفضيلة في المؤمن على كلِّ رذيلة، بقوة الإرادة، ووازع الشرف، والعصمة، ففيها أحسنُ الأُسوة للمؤمنين من الرجال والنساء، فيها قصة شابٍّ كان من أجمل الناس صورةً وأكملهم بنيةً يخلُو بامرأةٍ ذات منصب وسلطان، وهي سَيِّدةٌ له، وهو عَبْدُها يحملها الافتتان بجماله على أن تذل نَفْسَهَا له، وتَخُونَ بَعْلَها، فتراوده عن نفسه، وقد جرت العادة أن تَكُونَ النِّسَاء مطلوبات لا طالبات، فيسمعها من حكمته، ويُريها من كماله وعفَّتِه ما هو أفضل درس في الإيمان بالله، والاعتصام بحبله المتين، وفي حفظه أَمَانَةَ سيِّده الذي أحسنَ مثواه فيقول: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فتشعر حينئذ بالذلِّ والمهانة، والتفريط في الشرف، والصيانة وتحقير مقام السيادة والكرامة.

إلا أنَّ فيها أعظمَ دليل على صبره وحِلمِهِ وأمانته، وعَدْلِهِ وحكمته، وعلمه، وعفوه، وإحسانه فَكَفَى شَاهِداً على صبره أنَّ أخْوَتَهُ حَسَدُوه فَأَلْقَوه في غيابة الجبِّ، وأخرجَتْه السيارة، وباعوه بَيْع العبيد، وكادَتْ له امرأة العزيز، فزج في السجن، فصَبَرَ على أذى الأخوة، وكيد امرأة العزيز، ومكر النسوة إذْ عَلِمَ ما في الفاحشة من مفاسدَ، وما في العدل والإحسان من منافع، ومصالحَ، فآثر الأعلى على الأدْنَى، فاختار الدنيا في السجن على ارتكاب الإثم، وكانت العاقبة أنْ نَجَّاه اللَّهُ ورفع قَدَرَهُ وأذل العزيزَ، وامرأتَه، وأقرَّتِ المرأة والنسوة ببراءته، ومكن له في الأرض، وكانت عاقبتُه النصر، والملك والحكم، والعاقبةُ للمتقين قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته: فقد ظهرت جليّاً حين تولّى الحكم في مصر أيامَ السبع السنين العِجافِ التي أكلت الحَرْثَ والنسلَ، وكادَتْ توقع البلادَ في المجاعات، ثمَّ الهلاك المحقق لولا حكمته، وعدله بين الناس، والسَّيْرُ بينهم بالسويَّةِ، وعلى الصراط المستقيم بلا جَنَفٍ، ولا مَيْلٍ مع الهَوى.

ما في قصص يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرةً أيما عبرة لعلية القوم، وساداتهم رجالهم، ونسائهم، مجانهم وأعفائهم، من نساء ورجال، فإنَّ امرأةَ العزيز لَمْ تكن من قبل غويَّةً، ولا كانَتْ في سِيرَتها غَيْرَ عادية، لكنها ابتُلِيَتْ بحب هذا الشاب الفاتن، الذي وضعه عزيز مصر في قصره، وخلى بَيْنَه وبَيْنَ أهلِه، فأذلَّت نَفْسَها له بمراودته عن نفسه، فاستعصم، وأبَى، وآثر مرضاةَ ربِّه، فَشَاعَ في مصر ودورها، وقصورها، ذلها له وإباؤه عليها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وقد ذكرنها بالوصف «امرأة العزيز» دُونَ الاسم الصريحِ استعظاماً لهذا الأمر منها، ولا سيما، وزوجها عزيزُ مصر، أو رئيس حُكُومَتِها، وقد طَلَبت الفَاحِشَة من مَمْلُوكِها، وفتاها الذي هو في بَيْتها، وتحت كنفها، وذلك أقبح

لوقوعها منها، وهيَ السَّيِّدة، وهو المملوك، وهو التابع، وهي المَتْبُوعَةُ، وقد جَرَتِ العادة بأنَّ نفوس النِّسْوَةِ تعزف عن مثل هذه الدناءة ولا ترضى لنفسها هذه الذلة التي تشعر بالمُساواة لا بالسيادة، وبالضَّعةِ لا بالعظمة، ولله في خلقه شؤُونٌ.

أما الأول: فقولهنَّ فيها: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: قد وَصَلَ حبه إلى شِغَافِ قلبها «الغشاء المحيط به» وغَاصَ في سويدائه كما قال شاعرهم:

اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكِ مِنِّيْ ... فِيْ سَوَادِ الْفُؤَادِ وَسْطَ الشِّغَافْ

وأما الثاني: فقولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلمَّا سمعت بهذا المكر القوليّ قابلَتْهُنَّ عليه بمكر فعلي، فقد جمعتهن، وأخرجته عليهن فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة، فَراعَهن ذلك الحسن الفتان، وفي أيديهن مدى يقطعنَ بها مما يأكلنَه، فقطعن أَيْدِيَهُن، وهُنَّ لا يشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هُتِكَ سِتْرُهَا، وكاشفت النسوة في أمرها، وتواطأن معها على كيدها، آثر عليه السلام الاعتقالَ في السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخَنا ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

وإنه ليستبين من هذا القَصص أنَّ امرأةَ العزيز كَانَتْ مالكة لقيادة زوجها الوزير الكبير، تصرفه كيفَ شَاءَت وشاء لها الهوى، إذ كان فاقداً للغَيْرة كأمثاله من كبراء الدنيا، صغار الأنفُس عبيد الشهوات. قال في «الكشاف» عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفَتْلها منه في الذروة والغارب وكان مِطْواعةً لها، وَجَملاً ذَلُولاً زمامه في يدها،

حتى أنساه ذلك ما عايَنَ من الآياتِ، وعَمِلَ برأيها في سجنه، لإلحاق الصغار به، كما أوعدته، وذلك لما أيِسَتْ من طاعته، وطَمِعَتْ في أن يذللَهُ السِّجْنُ ويسخره لها، اهـ.

وإنا لنستخلصُ من هذه القصة الأمورَ التَّاليةَ[1]:

١ ـ أن النِّقَم قد تكون ذَرِيعةً لكثير من النعم، ففي بدء القصة أحداث كلها أتراح أعقبتها نتائج كلها أفراحٌ.

٢ ـ أنَّ الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن، وأحقادٌ ربما تصل إلى تمنِّي الموت، أو الهلاك، أو الجوائح التي تكون مصدر النَّكَبات، والمصَائِبِ.

٣ ـ أنَّ العفةَ والأمانةَ والاستقامةَ تكون مَصْدرَ الخير والبركة لمن تحلى بها، والشواهد فيها واضحة، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبرَ وتدبَّرَ، ونظَرَ بعين الناقد البصير.

٤ ـ أن أُسها، ودعامَتَها هو خلوة الرجل بالمرأة فهي التي أثَارت طبيعتها، وأفضتْ بِها إلى إشباع أنوثتها، والرجوع إلى هواها، وغريزتها، ومن أجل هذا حرم الدِّينُ خلْوةَ الرجلِ بالمرأة وسفَرَها بغير محرم. وفي الحديث: «ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما».

وإنا لنَرَى في العصر الحاضِرِ أنَّ الدَاءِ الدَّوِيَّ والفسادَ الخُلقِيَّ الذي وصل إلى الغاية، وكلنا نلمس آثارَهُ ونشاهد بَلْواه، ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء في المَراقصِ، والملاهِي، والاشتراك معهم في المفاسد، والمعاصي كمعاقرة الخمور، ولعبِ القمارِ في أنديةِ الخزيِ والعارِ، وسباحة النساء مع الرجال في الحمامات المشتركة.

وبَعْدُ، فهل لهذه البلوى مَنْ يُفَرِّج كُرْبَتَها، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامَه، وهل لهذه الجراح مِن آس، وهل لهذه الفوضى من علاج، وهل لهذه الطامة من يقوم بِحَمْلِ عَبْئِهَا عن الأمة، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت

(١) المراغي.

عالياً بالنزوع عن تلك الغواية، ويَرُدُّ أَمْرَ المجتمع، والحرص على آدابه إلى ما قرَّرهُ الدينُ، وسار عليه سَلَفُ المسلمين المتقين، فيصلح أَمْرَهُ، وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتة جديدة، تقوم على حِرَاسَةِ الدين في بلاد المسلمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

سورة يوسف عليه السلام مَكّية كلها، قيل[1]: إلاّ ثَلاثَ آيات من أولها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة، وقْتَ الهجرة.

وهي مئة وإحدى عشرة آيةً وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمةً، وسبعة آلاف، ومئة وستة وسبعون حرفاً.

المناسبة: والمناسبة بينها وبين سورة هود[2]: أنها متممة لِما فيها مِنْ قصص الرسل عليهم السلام، والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله تعالى، دالاً على رسالة محمد ﷺ، خاتم النبيين، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلَها: أنَّ السَّابِقَ كَانَ قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدعوةَ والمحاجة فيها، وعاقبة مَن آمن مِنهُم، ومن كَذَّبوهم لإنذار مشركي مكة، ومَنْ تبعهم من العرب.

وأمَّا هذه السورة فهي قصة نبيٍّ رُبِّـيَ في غير قومه قبل النبوة، وهو صغيرُ السنِّ حتى بلغ أشده، واكْتَهَل فنبىء، وأُرسل ودعا إلى دينه، ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسنَ الإدارَةَ والسِّياسَةَ فيه، وكان خير قدوةٍ للناس في رسالته، وفي جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة، وتصريف أمورها على أحسن ما يَصِلُ إليه العقل البشري، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة، وكانَ مِنْ حكمة الله أن يَجْمَعها في سورة واحدة، ومن ثَمَّ كَانَتْ أطْوَلَ قِصَّةٍ في القرآن الكريم.

والله أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ
نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ
﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ
﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ
أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ
﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ
غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ
وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ
ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ
فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ
بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لسورة هود من حيث البدايةُ أنه جاءت فاتحةُ هذه السورة كفاتحة سورة هود، أعني كلمة: ﴿الٓر﴾ إلخ خلا أنَّ القرآن وُصف هنا بالمبين، وفي هود بإحكام آياته، وتفصيلها: ذاك أنّ موضوعَ هذه السورة قصص

نبي، تقلَّبَتْ عليه صروف الزمان، بَيْنَ نحوس وسُعود، كان في جميعها خير أسوة، وموضوعُ سورة هود أصول الدين، وإثباتُ الوحي والرسالة والبعث والجزاء، وقَصَص الأنبياء المختلفة، فناسبها الوصف بالحِكْمةِ. ومن حيث النهاية أنَّ سُورةَ هود خُتِمَت بقوله﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ وهذه بُدِئَتْ بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وعبارة الشهاب هنا: لَما خُتِمت[1] سورة هود بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ إلخ. . ذُكِرت هذه السورة بعدها؛ لأنها من أنباءِ الرسل، وقد ذَكَر أوَّلاً ما لقي الأنبياء من قومهم، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته، لِيَعْلَمَ ما قاسوه من أذى الأجانب، والأقارب، فبينهما أتم المناسبة، والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى الأقارب والأباعد، اهـ.

وعبارة أبي حيان: ووجه مناسبتها لما قبلها وارتباطها به أنَّ في آخر السورة التي قبلَها[2]: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وكان في تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقَى الأنبياء من قومهم، فأتبعَ ذلك بقصة يوسف، وما لاقاه من إخوته، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة، ليحصلَ للرسول ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب، وجاءَتْ هذه مطولة مستوفاةً فلذلك لم يتكرَّرْ في القرآن إلا ما أخبر بِهِ مُؤْمِنُ آل فرعون في سورة غافر.

وحكمة قَصِّ القصص عليه ﷺ ليتأسَّى[3] بهم، ويتخلَّق بأخلاقهم، فيكون جامعاً لكمالات الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ . . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى لما بين أنَّ أخوة يُوسُفَ أجمعوا أمرَهم على إلقائه في غيابة الجُبِّ، ونَفَّذُوا ذلك. . ذَكَر هنا طريقَ خَلاصِه من تلك المِحْنَةِ بمجيء قافلةٍ من التجار ذاهبة إلى مصر، فأخرجوه من البئر، وباعوه في مصر بثمنٍ بَخْسٍ.

---

(١) الشهاب.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الصاوي.

أسباب النزول

وسبب نزول هذه السورة[1]: أنَّ كفار مَكَّةَ أمرَتْهم اليهودُ أن يسألوا رسولَ الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر، فنَزَلَت هذه السورة. وقيل: سببه تسليةُ الرسول ﷺ عما كَانَ يفعلُ به قومُهُ بما فعل أخوة يوسف به، وقيل: سألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ أنْ يحدِّثَهم أمْرَ يعقوب، وولده وشَأْنَ يوسف.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في سبب نزول هذه السورة قولان:

أحدهما: ما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمَّا أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

القول الثاني: ما رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهودُ النبيَّ ﷺ فقالوا: حَدِّثْنَا عن أمر يعقوب وولده، وشأنِ يوسف، فأنزل الله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ الآيات الكريمة.

الناسخ والمنسوخ: قال ابن حزم رحمه الله: أمَّا سورةُ يوسف، فليس فيها ناسخ ولا منسوخ. ومن فضائلها: ما رُوي[2] عن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلِّمُوا أرِقَّائِكم سورة يوسف، فإنه أيُّما مسلم أَمْلاها، وعَلَّمها أَهْله، وما مَلَكَتْ يمينه هون اللَّهُ عليه سكرات الموت، وأعطاه القُوَّة، وأن لا يَحْسُدَ مُسْلِماً». كذا في «تفسير البيان»، وذلك أنَّ يوسُفَ عليه السلام ابتُلِي بحسد الإخوة، وشدائد البئر، والسجن، فأرسل اللَّهُ تعالى جبريل فسلاه، وهون عليه تلك الشدائِدَ بإيصاله إلى مقام الأنس، والحضورِ، ثم أعطاه القوةَ، والعزةَ،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والسلطنةَ، فآل أمره إلى الصفاء بعد أنواع الجفاءِ، فمنْ حَافَظَ على تلاوة سورة يوسف، وتدبَّر في معانيها.. وَصَلَ إلى ما وصل يوسف إليه من أنواع السرور، كما قال عطاء رحمه الله تعالى: لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلاَّ استراحَ، كما في «تفسير الكواشي»: نسأل الله الراحةَ من جميع الحواشي. وقال خالد بن مَعْدان: سورةُ يوسفَ، وسورةُ مريم تَتَفكَّهُ بهما أَهْلُ الجنةِ في الجنة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓرۚ﴾؛ أي: أنا الله أرَى، وأسمع سؤالَهُم إيَّاك يا محمدُ عن هذه القصة، ويقال: أَنَا الله أرى صنيعَ إخوة يوسف، ومعاملتهم معه، ويقال: أنا الله أرى ما يَرَى الخَلْقُ، وما لا يَرى الخَلْقُ، ويقال: ﴿الٓرۚ﴾ تعديد للحروف على سبيل التحدي، فلا محل له من الإعراب، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه السورة ﴿الٓرۚ﴾؛ أي: مسماة بهذا الاسم. والقول بأنَّ هذه الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابهات القرآنية التي لا يعلم معانِيهَا إلا الله تعالى، هو الطريق الأَسْلَمُ. والقول الأعلم لما فيه من تفويض الأمر إلى أهله. ﴿تِلۡكَ﴾؛ أي: هذه الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسمَّاة ﴿الٓرۚ﴾ أشار إليها بإشارة البعيد تنزيلاً للبعد الرتبيِّ، منزلةَ البعد الحِسِّيِّ، وهو مبتدأ خبره ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: آياتٌ من القرآن الكريم ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: المظهر للحق من الباطل، فهو منْ أَبَانَ المتعدي. وَفِي «الخازن» المبين: أي: البين حلاله وحرامُه، وحدودُه وأحكامُه. وقال الزجَّاجُ: المبين للحق من الباطل، والحلال من الحرام، فهو من أبان بمعنى أظهر. وفي «بحر العلوم»: الكتاب المبين هو اللوحُ المحفوظ، وإبانَتُهُ أنه قد كتب وبيِّنَ فيه كل ما هو كائن. والمعنى: أيْ آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه، والمظهر لما شاء الله تعالى من حقائق الدين، وأحكام التشريع، وخَفَايَا المُلْك، والملكوت، وأسرار النشأتين، والمرشد إلى مصالح الدنيا، وسبيل الوُصُولِ إلى سعادة الآخرة.

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ بعظمتنا وجلالتنا؛ أي: إنَّا أنزلنا هذا الكتاب المتضمِّنَ قِصَّةَ يُوسُفَ وغَيْرهَا على هذا النبي العربي الأمي حالةَ كونه ﴿قُرۡءَٰنًا﴾؛

أي: مجموعاً، أو مقروءاً ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أي: منسوباً إلى العرب لكونه نزل بلغتهم. والمعنى: أنَّ القرآن نَزَل بلغة العرب، فليس فيه شيء غير عربيّ. فإن قلت: قد ورد في القرآن شيء غير عربي كسجيل، ومشكاة، وإستبرق، وغير ذلك.

أجيب[1]: بأنَّ هذا مما توافقت فيه اللغات، والمراد: أنَّ تراكيبه، وأساليبَه عربية، وإن وَرَدَ فيه غير عربي، فهو على أسلوب العرب، والمرادُ أنَّ هذه الألفاظ لما تكلمت بها العربُ، ودارَتْ على ألسنتهم.. صارت عربية، فصيحة، وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها.. نسبت إليهم، فصارت لهم لغة؛ وإنما كان القرآن عربياً؛ لأنَّ تِلكَ اللُّغَةَ أفصح اللغات، ولأنها لُغَةُ أهل الجنة في الجنة.

فَعَرَبِيّاً[2] نعت لِقرآناً نعت نسبة لا نعت لزوم، لأنه كان قرآناً قبل لزومه، فلَمَّا نزل بلغة العرب نسب إليها كما في «الكواشي». و ﴿قُرْءَانًا﴾ حال موطئة؛ أي: توطئةً للحالِ التي هي عربيّاً؛ لأنه في نفسه لا يبين الهيئة، وإنما بينها ما بعده من الصفة، فإنَّ الحالَ الموطئة اسم جامد موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، فكأنَّ الاسمَ الجامد، وطأ الطريقَ لما هو حال في الحقيقة بمجيئه قبلها موصوفاً بها كما في «شرح الكافية». وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علة لكونه عربيّاً؛ أي: لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بما فيه، وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر، مُنَزَّلٌ من عند خالق القُوَى والقدر. وقال في «بحر العلوم»: (لعلَّ) مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ العرب معناه أو معنى الترجي؛ أي أنزلنا قرآناً عربياً إرادة أن تعقله العرب، ويفهموا منه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولوا لنبيهم ما خُوطبنا به كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ انتهى.

والمعنى[3]: أي إنا أنزلنا هذا الكتابَ على النبي العربي، ليبيِّنَ لكم بلغتكم العربية، مَا لَمْ تكونوا تعلمونه من أحكام الدين، وأنباءِ الرسل، والحكمة،

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وشؤون الاجتماع، وأصول العُمْرَانِ وأدَب السِّيَاسَةِ لتعقلوا معانِيه، وتَفْهَموا ما ترشد إليه من مطالب الروح، ومداركِ العقل وتزكيةِ النفس، وإصلاح حَالِ الجماعات والأفراد بما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد؛ أي: نخبرك ونحدثك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ أي: أحسن ما يقص به، ويتحدث عنه من الأنباء والأحاديث موضوعاً، وفائدةً لما يتضمنه من العبر والحكم.

والمعنى: نحن نبين لك أخبارَ الأُممِ السالفة أحسنَ البيان. وقيل: المراد خصوص قصة يوسف. ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾؛ أي: بسبب إيحائنا وإنزالنا إليك هذه السورةَ من القرآن الكريم؛ إذ هي الغاية في بلاغتها، وتأثيرها في النفس، وحسْنِ موضوعها، ﴿وَإِنْ﴾ أي والحال أن الشأن قد ﴿كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾؛ أي: من قبل إيحائنا هذا القرآن إليك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾؛ أي: لمن زمرة الغافلين عن هذا القصص؛ أي: من قومك الأميينَ الذينَ لا يَخْطُرُ في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وشرع، كيعقوب وأولاده، وهم في بَداوتِهِم، ولا ما كان فيه المصريون الذين جاءَ إليهم يوسف مِنْ حضارة وترف، ولا ما حدث له في بعض بيوتات الطبقة الراقية، ولا حاله في سياسة الملك، وإدارة شؤون الدَّوْلَةِ وحُسْنِ تنظيمها. وقيل[1]: كانت هذه السورة أحسن القصص لانفرادها عن سائرها بما فيها منْ ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطَّيْر، وسير الملوك، والممالك والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء وكيدهن، ومكرهن، مع ما فيها من ذِكْر التوحيد، والفقه، والسِّير، والسياسة، وحسن المَلَكَة، والعفو عند المقدرة، وحسن المعاشرة، والحِيل، وتدبير المعاشِ والمعاد، وحسن العاقبة في العفة، والجهاد، والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب، والمحبوب، ومَرأى السنينَ وتعبيرِ الرؤيا والعجائبِ التي تصلح للدين والدنيا.

---

(١) البحر المحيط.

وقيل: كانت أحسنَ القصص؛ لأنَّ كُلَّ من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة، انظر إلى يوسف، وأبيه، وإخوته، وامرأة العزيز، والمَلِك أسلم بِيُوسُفَ وحسن إسلامه، ومعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال. وقال بعضهم[١]: لأنَّ يوسفَ عليه السلام، كان أحسنَ أبناءِ بني إسرائيل، ونسبه أحسن الأنساب، كما قال ﷺ: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام». والكرم اسم جامع لكل ما يحمد به، واجتمع في يوسف مع كونه ابنَ ثلاثة أنبياء متراسلينَ شرف النبوة، وحسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسةَ الدنيا، وحِياطةَ الرَّعايا في القحط، والبلايا، فأي رجل أكرمَ مِنْ هذا. وقال بعضهم: لأنَّ دُعاءه كان أحْسنَ الأدعية ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو أول من تمنى لقاء الله تعالى بالموت.

وقيل[٢]: ﴿أحسَنَ﴾ هنا ليست أفعلَ التفضيل بل هي بمعنى حَسَنَ كأنه قيل: حَسَنَ القصص من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: القصص الحسن ومعنى: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لم يكن لك شعور بهذه القصة، ولا سبق لك علم فيها، ولا طَرَق سَمْعَكَ طرف منها. وقيل: إن بمعنى قَدْ، والمعنى، قد كنْتَ مِنْ قبلِ وحينا إليك من الغافلين عن هذه القصة. والغفلة عن الشيء هي: أن لا يخطر ذلك ببالِهِ؛ أي: لمن الغافلين عن هذه القصة، لم تُخْطُر ببالك، ولم تَقْرَعْ سمعك قطُّ، وهو تعليل لِكَوْنِهِ موحًى، والتَّعْبِيرُ عن عدم العِلْم بالغفلةِ لإجلالِ شأنه ﷺ كما في «الإرشاد» فليسَتْ هي الغفلة المتعارفَةُ بين الناس، ولله تعالى أَنْ يُخاطِب حَبِيبَه بما شاء ألاَ تَرى إلى قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ ونحوهما، فإنَّ مثلَ هذا التعبير إنما هو بالنسبة إلى الله تعالى، وقد تعارَفَهُ العربُ من غير أن يخطر ببالهم نقص، ويجب علينا حسن الأداء في مثل هذا المقام، رعاية للأدب في التعبير، وتقرير الكلام مع أنَّ الزمانَ وأَهْلَه قد مضى، وانقضَتِ الأيام والأنامُ، اللهم اجعلني فيمن هديتهم إلى لطائف البيان،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ووفقتهم لما هو الأدب في كل أمر وشأن إنك أنت المنان.

واذكر يا محمد لقومك قِصَّةَ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ويوسُف اسم عِبْرِيٌّ، ولذلك لا يجري فيه الصرف للعجمة والعلمية. وقيل: هو عَرَبِيٌّ، والأول أصحُّ، بدليل عدم صرفه. وسئل[1] أبو الحسن الأقطع عن يوسف، فقال: الأَسَفُ أشدُّ الحزن، والأَسِيفُ: العَبْدُ، واجتمع في يوسف فسُمِّي به. والعبرِيُّ والعَبْرَانِيُّ: لغة إبراهيم عليه السلام، كما أنَّ السِّرْيَانِيَّ هي اللغة التي تَكَلَّمَ بها آدم عليه السلام. قال السيوطي: السِّريانيُّ منسوب إلى سُريانة، وهي أرض الجزيرة التي كان نُوحٌ وقَوْمُه قبل الغرق فيها، وكان لسانُهم سريانياً إلا رجلاً واحداً يقال له: جُرْهم وكان لسانُه عَرَبِيّاً. وقرأ الجمهور[2]: ﴿يوسُفُ﴾ بضم السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف بكسرها مع الهمز مَكَانَ الواو، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي بكسر التاءِ في قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن كثير، وهي عند البصريين، علامة التأنيث، ولَحِقَتْ في لفظ أب في النداء خَاصَّةً بدلاً من الياءِ، وأصْلُه: يا أبي، وكَسْرُها للدلالة على أنها عوض عن حرف يُناسِبُ الكسرَ. وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والأعرجُ بفتحها؛ لأنَّ الأصْلَ عندهم: يا أَبَتَا، ولا يجمع بين العوض والمعوَّض فيقال: يا أبتي. وأجاز الفراء: يا أبت بضم التاء. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في منامي في[3] النهار؛ لأنها منْ رَأى الحُلمية لا مِن رأى البصرية كما يدل عليه قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾، ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ أي: نَجماً. وقرأ الحسنُ، وأبو جعفر، وطلحةُ بن سليمان: (أَحَدَ عْشَرَ) بسكون العين لتوالي الحركات ولِيَظْهَرَ جعل الاسمين اسماً واحداً. وقرأ الجمهور بفتحها على الأصل. ﴿وَ﴾ رأيتُ ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ إنما أَخَّرَهما عن الكواكب لإظهار مِزيتِهما وشرفهما كما في عطف جبريل، وميكائيل على الملائكة. وقيل: إنَّ الواوَ بمعنى مع، والكواكبُ تُفسَّر بإخوته، والشَّمْسُ بأمه والقَمَرُ بأبيه. وجملةُ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: رأيت هؤلاء المذكورين سجَّداً لي في المنام، جملةٌ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها. كأنَّ سَائِلاً قال: كيف رأيتَ؟ وأجريت مُجْرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصفِ العقلاء، وهو كونُها ساجدةً كذا قال الخليلُ، وسيبويه، والعربُ تَجْمَع ما لا يعقل جَمْعَ مَنْ يعقل، إذا نزلوه مَنْزِلَتَهُ. قال في «الكواشي»: الرؤيا في المنام، والرؤية في العين، والرأي في القلب. قال وَهْبٌ: رأى يُوسُفُ عليه السلام، وهو ابن سبع سنينَ أنَّ إحدَى عَشَرَةَ عصاً طِوالاً، كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عَصاً صغيرة وثَبَتْ عليها حتى ابْتَلَعَتْها، فذكر ذلك لأبيه، فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثُمَّ رَأَى وهو ابن ثنتي عشرة، أو سبع عشرة سنةً ليلة الجمعةِ، الشمسَ والقمرَ، والكواكبَ، تسجد له، فقصها على أبيه فقال: لا تَذْكُرْها لهم فيبغوا لك الغَوَائِلَ.

رُوِيَ عن جابر رضي الله عنه: أنَّ يهودِيّاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسفُ عليه السلام، فسَكَتَ النبيُّ ﷺ، فَنَزَلَ جِبْرِيل عليه السلام، فأَخْبَرَهُ بذلك، فقال ﷺ لليهوديّ إذَا أخبرتك بذلك هل تُسْلِمُ؟ فقال: نعم. قال: جريانُ[1] والطارقُ، والذَّيَّالُ وقابسُ، وعَمُودان، والفَلِيقُ، والمُصبِّحُ، والضَّرُوخُ، والفَرْغُ، ووثَّابُ، وذو الكَتِفَيْنِ رآها يوسفُ عليه السلام، والشمسَ والقمرَ، نزَلْنَ من السماء، وسَجَدْنَ له، فقال اليهوديُّ: إي والله إنها لأسمَاؤها، اهـ «بيضاوي».

(جَريان) بفتح الجيم وكسر الراء المهملة، وتشديد الياء التحتية منقول من اسم (طوق القميص). (وقابس) بقاف، وموحدة وسين مقتبسُ النار (وعمودان) تثنية عمود (والفليق) نجم منفرد (والمصبح) ما يَطْلَعُ قبل الفجر، (والفرغ) بفاء وراء مهملة ساكنة، وغين معجمة، نجمٌ عند الدلو، و (وثاب) بتشديد المثلثة، سريعُ الحركة، و (ذُو الكتفين) تثنية كتف: نجم كبير، وهذه نجومٌ غير مرصودة،

---

(١) البيضاوي.

خصَّتْ بالرؤيا لغيبتهم عنه، اهـ «شهاب».

والمراد بالسجود هنا: سَجْدَة تحية، لا سجدة عبادة. وقال بعضهم: لفظ السجود: يُطْلَقُ على وضع الجبهة على الأرض، سواء كان على وجه التعظيم، والإكرام، أو على وَجْهِ العبادة، ويُطلق أيضاً على التواضع، والخضوع، وإنما أُجْرِيَتْ مُجْرَى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء، وهو السجود، كما مرَّ.

وأبو يوسف هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. قال بَعْضُ مَنْ مال إلى الاشتقاق في هذه الأسماء: إنما سمِّيَ يعقوبُ لأنَّ يعقوبَ وعيصاً كانا تَوْأَمَيْنِ فاقتتلا في بطن أمهما حيث أراد يعقوب أن يَخْرُجَ فَمَنَعَه عَيْصٌ وقال: لئن خَرجت قبلي لأعترض في بطن أمي، فلأقتلنَّها فتأخَّر يعقوب، فخرج عيص فأَخَذَ يعقوب بعقب عيص، فخَرَجَ بَعْدَهُ فلهذا سمي به، وسمي الآخر عَيْصاً لمَّا عَصَى وخَرَجَ قبل يعقوب، وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوبُ أجْرَد، وكان عيص أحبَّهما إلى أبيه، وكان يعقوبُ أحبَّهما إلى أمه، وكان عَيْصٌ صاحبَ صيد، وكان يعقوبُ صَاحِبَ غنم، فلما كَبرَ إسحاق، وعَمِي قال لعيص يوماً: يا بنيَّ أَطْعِمْني لَحْمَ صيد، واقْتَرِبْ مني أدع لك بدعاءٍ دعا لي به أبي هو دعاء النبوة، وكان لكل نبي دعوة مستجابة، وأخَّر رسولنا ﷺ دُعاءَه للشفاعة العظمى يوم القيامة، فخرج عَيْصٌ لطلب صيد، فقَالَتْ أمُّهُ ليعقوب: يا بنيَّ اذهب إلى الغنم فاذبح منها شَاةً ثم اشوها، والْبِسْ جِلْدَهَا، وقدِّمها إلى أبيك، قبل أخيك، وقُلْ له: أنا ابنك عيص لعله يدعو لك ما وَعَدَه لأخيك، فلما جَاءَ يعقوب بالشواء قال: يا أبت كُلْ، قال: مَنْ أنت؟ قال: أنا ابنك عيص؛ فمسَّه فقال: المس مَسُّ عَيْص والريحُ ريح يعقوب. قال بعضهم: والأسلم أن يقال: إنَّ أمه أحْضَرَتْ الشواء بين يدي إسحاق، وقالت: إنَّ ابْنَكَ جاءك بشواء، فادع له، فظَنَّ إسحاق أنه عيص، فأكل منه، ثم دَعَا لِمَنْ جاء به، أن يجعل الله في ذريته الأنبياءَ، والملوكَ فذهب يعقوب، وَلَما جاء عيصٌ قال: يا أبت قد جئتك بالصيد الذي أردتَ، فعلم إسحاق الحالَ، وقال: يا بنيَّ قد سبقك أخوك، ولكن بَقِيَتْ لك دعوة فهلم أدعو لك بها، فدعا أن يكون ذرِّيَتُه عَدَدَ التراب، فأعطى الله تعالى له نَسْلاً كثيراً،

وجملة الروم منْ ولده، رُوم، وكان إسحاق متوطّناً في كَنْعَان، وإسماعيل مقيماً في مكة، فلما بَلَغَ إسحاق إلى مئة وثمانين من العمر، وحضرته الوفاة وصّى سِرّاً بأن يخرج يعقوب إلى خاله في جانب الشام حذراً من أن يقتله أخوه عَيْصٌ حسداً، لأنه أقْسَمَ بالله في قصة الشواء أن يقتل يَعْقُوب فانطلق إلى خاله ليا بن ناهزَ، وأقام عنده وكان لخاله بنتان إحداهما لَيَّا، وهي كبراهما، والأُخرى راحيل، وهي صغراهما فخَطَبَ يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما فقال له: هل لك مالٌ؟ قال: لا، ولكن أعْمَلُ لك، فقال: نعم، صداقها أن تخدمني سبع سنين، فقال يعقوب: أَخْدُمُكَ سبع سنين على أن تزوجني راحيل، قال: ذلك بيني وبينك، فرعَى له يعقوب سبع سنين، فزوجه الكبرى، وهي لَيَّا، قال له يعقوب: إنك خَدَعْتَني، إنما أردتُ راحيل، فقال له خاله: إنَّا لا ننكح الصغيرةَ قبل الكبيرة، فهلم فاعمل سبع سنين، فأزوجك أختها ـ وكان الناس يجمعون بين الأختَين إلى أنْ بعَثَ الله موسى عليه السلام ـ فرَعَى له سبع سنين، أُخْرى فزوجه راحيل، فجمَعَ بينهما، وكان خاله حين جهَّزَهما دفع إلى كل واحدة منهما أَمَةً تخدمُها، اسمُ إحداهما، زلفة، والأخرى بَلْهَة، فوهبتا الأمتَين ليعقوب، فولدت ليا ستة بنين وبنتاً واحدة، رُوبِيلَ، شمعون، يهوذا، لاوي، يَسْجُر، زيالون، دنية. وولدت زلفة ابنَينِ دان، يغثالى، وولدت بُلْهَةُ أيضاً ابنين جاد، آشر. وبقيت راحيل عاقراً سنينَ ثمَّ حملَتْ، وولدت يوسف. وليعقوب من العمر إحدى وتسعون سنةً، وأراد يعقوب أن يُهاجِر إلى موطن أبيه إسحاق بكل الحواشي. وفي سنة الهجرة حَمَلَتْ راحيل ببنيامين، وماتت في نفاسها، ويوسف ابن سنتين، وكان أحبَّ الأولاد إلى يعقوب، وحين صار ابنَ سبع سنين، رَأى المنام المذكور سابقاً فيما حكى الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

واعلم: أنَّ يوسف رأى إخْوَته في صورة الكواكب، لأنه يُسْتَضاءُ بالأخوة، ويهدى بهم كما يهتدىٰ بالكواكب، ورأى أباه وخَالَتَه ليا في صورة الشمس والقمر، وإنما قُلْنا خالته لأنه ماتت أمه في نفاس بنيامين كما مَرَّ. وسجودُهم له دخولهم تحت سلطنته، وانقيادهم له كما سيأتي في آخر القصة.

قال في «الإرشاد»: ولا يَبْعُدْ أن يكونَ تأخيرُ الشمس والقمر إشارة إلى تأخُرِ ملاقاتِه لهما عن ملاقاته لإخوته، ذَكَرَ هذه القصةَ صاحبُ «روح البيان».

فائدة: والرؤيا ثلاثة أقسام:

أَحدُها: حديث النفس كَمَنْ يكون في أمْرٍ أو حِرْفة يرى نَفْسَهُ في ذلك الأمر، وكالعاشق يرى مَعْشُوقَه ونحو ذلك.

وثانيها: تخويف الشيطان بأن يَلْعَبَ بالإنسان فيريه ما يحزِنه، ومَنْ لعبه به الاحتلامُ الموجبُ للغسل، وهذان لا تأويلَ لهما.

وثالثهما: بشرى من الله تعالى بأن يَأتِيَك ملك الرؤيا من نسخة أم الكتاب يعني من اللوح المحفوظ، وهو الصحيحُ، وما سوى ذلك أضغاثُ أحلام.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ليوسف في السرِّ، وهذا كلام مستأنف مبنيٌّ على سؤال مَنْ قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة؟ فقيل: قال يعقوب: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ تصغيرُ ابن صغره للشفقة والمحبَّة وصِغر السن، فإنه كان ابن ثنتي عشرة سنة كما مَرَّ. وأصله يا بُنَيًّا الذي أصله: «يا بُنَيّـي» فأُبدلت ياء الإضافةِ أَلِفاً، كما قيل في يا غلامي، يا غلاما بناء على أنَّ الألِفَ، والفتحةَ أخفُّ من الياء والكسرة. وقرأ حفصٌ هنا، وفي لقمان، وفي الصافات: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء. وابن كثير في لقمان: (يا بني لا تشرك). وقيل: (يا بني أقم) بإسكانها. وباقي السبعة بالكسر. وقرأ زيد بن علي: (لا تَقُصُّ) مدغماً وهي لغة تميم، والجمهور بالفك، وهي لغةُ الحجاز. وقرأ الجمهور: ﴿رُءۡيَاكَ﴾ والرؤيا حيثُ وقعت بالهمز من غير إمالة. وقرأ الكسائي بالإمالة، وبغير الهمز، وهي لغة أهل الحجاز ذكره أبو حيان في «البحر».

قال في «الإرشاد»: ولمَّا عرف يعقوبُ من هذه الرؤيا، أنَّ يوسف يبلِّغه تعالى مَبْلَغاً جَلِيلاً من الحكمة، ويَصْطَفِيهِ للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فَعَلَ بآبائه الكرام.. خَافَ عليه حسدَ الإخوة وبغيَهم فقال صيانة لهم من ذلك وله

من معاناة المشاقِّ، ومقاساة الأحزان، وإن كانَ واثقاً من الله تعالى بأن سيحقق ذلك لا مَحَالَةَ وطَمَعاً في حصوله بلا مشقَّة: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾؛ أي: لا تُخْبِرَ مَنَامَكَ كُلاً، أو بعضاً، ولا تطلعها ﴿عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، وهم بَنُو علاته العشرة، كما هو المشهور، وأما شقيقه بنيامين فهو حادي الأحد عشر في الرؤيا، وإن لم يكن ممن تخشى مَضرَّتهُ، وكيدُه ليوسف ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾؛ أي: فيفعلوا لأجلك، ولإهلاكك ﴿كَيۡدًاۖ﴾ خَفِيّاً عن فهمك لا تقدر على مدافعته، وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن كانَ يعقوبُ يعلم أنهم ليسوا بقادرينَ على تحويلِ ما دلت الرؤيا على وقوعه. والكيد: الاحتيال للاغتيال، أو طَلَبُ إيصال الشر بالغير وهو غَيْرُ عالم به.

وحاصل المعنى: أي قال يوسف لأبيه يعقوب: إنّي رأيت في منامي أحَدَ عَشَرَ كَوْكباً، والشَّمْسَ والقَمَرَ لي سجَّداً، وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا أضغاث أحلام تثِيرُها في النوم الهواجسُ والأفكار، وأنَّ يوسُفَ سَيَكُون له شأن عظيم، وسلطان يسود به أهلَه حتى أباه وأمه، وإخوته، وخَافَ أن يَسْمَعَ إخْوَتُهُ ما سمعه، ويفهموا ما فَهِمَه فيحسدوه، ويكيدوا لإهلاكه، ومن ثمَّ نَهاه أن يقصَّ عليهم رؤياه، كما دل على ذلك قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾؛ أي: لا تخبر إخوتَك بما رأيتَ في منامك، خِيفَة أن يحسدوك فيحتالوا للإيقاع بك بتدبير، يحكمونه بالتفكير، والرؤية، ثم بَيَّن السببَ النفسيَّ لهذا الكيد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: إنَّ الشيطانَ عدو لآدم وبنيه، قد أظهرَ لهم عداوتَه، فاحذَر، أن يُغريَ إخوتك بك بحسدهم لَكَ، إن أنْتَ قصصت عليهم رؤياك، إذ من دأبه أن ينزغَ بَيْنَ الناس حين تعرض له داعية من هوى النفس، ولا سِيّما الحسد الغريزي في فطرة البشر، وقد أرْشَدَ إلى هذا يوسف بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

وهذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ يوسفَ قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة. فقيل: إنَّ الشَّيْطَانَ ظاهر العداوة للإنسان أو مظهرها قد بانت عداوته لك، ولأبناءِ جنسك إذ أخرج أبويكم آدم وحواء من

الجنة، ونزع عنهما لباسَ النور، وحلف أنه ليعملن في نوع الإنسان كل حيلة، وليأتينهم من كل جهة وجانب، فلا يزال مجتهَداً في إغواء إخوتك وإضلالهم، وحملهم على الإضرار بك، فَبِهِ عُلِمَ أنهم يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهَا فقال ما قال. قال بعض العارفين: بَرَّأ أبناءه من ذلك الكيد، فألحقه بالشيطان لِعِلْمه أن الأفعال كلَّها من الله تعالى، ولمَّا كان الشيطان مظهراً لاسم المُضِلِّ أضَافَ الفعل السَّببيَّ إليه، وهذه الإضافة أيضاً كيد ومكر، فإن الله تعالى هو الفاعل في الحقيقة لا المظهر الشيطاني.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما اجتباك لهذه الرؤية الدالة على عُلُوّ شأنك ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ ويصطفيك ﴿رَبُّكَ﴾ بالنبوة والرسالة والملك؛ أي[1]: مثل اجتبائك واختيارك من بين إخوتك، لمثل هذه الرؤيا العظيمة، الدالةِ على شرفٍ وعز وكبرياء شأنك، فالكاف في محل النصب على أنه صفة لمصدر محذوف، كما سيأتي في مبحث الإعراب.

﴿يَجۡتَبِيكَ﴾: أي: يَخْتَارُكَ، ويصطفيك لما هو أعظم منها، كالنبوة ويبرزُ مِصْداقُ تلكَ الرُّؤيَا في عالم الشهادة إذ لا بُدَّ لكل صورة مرئية في عالم المثال حقيقة واقعة في عالم الشهادة، وإن كانت الدنيا كلها خَيَالاً. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مستأنف غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو تعالى يعلمك، لأنَّ الظاهر أن يشبَّهَ الاجتباءُ بالاجتباءِ والتعليم غَيْرُ الاجتباء؛ أي: ويُعَلِّمُكَ ﴿مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تعبير الرؤيا وتفسيرها، والأحاديث[2] جمع تكسير لحديث على غير قياس، وإنما سميت الرؤيا أحاديث؛ لأنها إما أحاديث الملك إن كانت صادقةً أو أحاديث النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، وتسميتها تَأويلاً، لأنه يَؤُول أمرها إليه؛ أي: يرجع إلى ما يذكره المعبِّر من حقيقتها.

وحاصل المعنى: أي وكما أراك[3] ربك الكواكبَ والشمس والقمرَ سجَّداً

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

لك، يَجْتبيك ربك لنفسه، ويصطفيك على آلك وغيرهم بفيض إلّهي يكملك به بأنواع من المكرمات بلا سعيٍ منك، فتكون من المخلصين من عباده، ويعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤيا وتعبيرها؛ أي: تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه في الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

وتعليم الله تعالى يوسفَ التأويلَ إعطاؤه إلهاماً، وكشفاً لما يُرادُ أو فِراسَةً خاصة فيها، أو علماً أعمَّ من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يا يوسف يجوز[1] أن يتعلَّق بقوله: ﴿يتم﴾ وأن يتعلَّق بـ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾؛ أي: بأن يضمَّ إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك، ويَجْعَلُه تَتِمَّةً لها، وتوسيط التعليم لرعاية الوجود الخارجِيّ ﴿وَعَلَىٰٓ﴾ كرر على ليمكن العطفُ على الضمير المجرور ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ الآل[2] وإن كان أصله: الأهل إلاَّ أنه لا يستعمل إلا في الأشراف بخلاف الأهل، وهم أهله من بيته، وغيرهم، فإن رؤيةَ يوسف إخوته كواكب يُهتدى بأنوارها من نعم الله عليهم لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوة، فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل، إتماماً لتِلْكَ النعمة؛ أي: ويتم[3] نعمته عليك باجتبائه إياكَ، واصطفائك بالنبوة والرسالة والملك، وعلى أبيك، وإخوتك وذريتهم بإخراجهم من البَدْوِ وتبوئهم مقاماً كريماً في مصر، ثم تَسَلْسَل النبوة في أسباطهم حيناً من الدهر. وقوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره أي: ويتم نعمته عليك إتماماً كائناً كإتمام نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الوقت أو من قبلك. وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك، والتعبير[4] عنهما بالأب مع كونهما أبا جَدِّهِ، وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء الكرام. قال في «الكواشي»: الجدُّ أب في الأصالة، يقال: فلان ابن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

فلان، وبينهما عِدَّةُ آباء، انتهى. أما إتمامها على إبراهيم فباتخاذه خليلاً، وبإنجائه من النار، ومنْ ذبح الولد. وأما على إسحاق فبإخراج يعقوب، والأسباط من صلبه، وكُلٌّ ذلك نعم جليلة، وقعت تتمةً لنعمة النبوة، ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبَّهِ مِثل ما وقع في جانب المشبه به من كل وجه؛ أي: كما أتمَّ النِّعْمَةَ من قبل هذا العهد على جدك وجد أبيك. وقَدَّم إبراهيم لأنه الأشرفُ منهما. وقد قال يعقوب ذلك لما كان يَعْلَمه من وَعدِ اللَّهِ لإبراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة، والكتاب في ذريته، وما عَلِمه من رُؤْيَا يوسف، وأنَّهُ الحَلَقَةُ الأولى في السلسلة النبوية التي ستكون من بعده من أبنائه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا يوسف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَنْ يستحق الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضعُ الأشياءَ مواضعَها، والجملة مستأنفة[1] مقررة لمضمون ما قبلَها تَعْلِيلاً له؛ أي: فَعَلَ ذلك؛ لأنه عليم حكيم. وهذا كلام من يعقوب مع ولده يُوسُفَ تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة، وما تقضيه المخايِلُ اليوسفيةُ.

والمعنى: أي إن رَبَّك[2] يا يوسف عليم بمن يصطفيه، ومَن هو أهل للفضل، والنعمة فيُسَخِّر له الأسبابَ التي تبلغ به الغاية إلى ما يريده له، حكيم في تدبيره، فيفعل ما يشاء جرياً على سنن علمه وحكمته.

وخلاصة ما تقدم: أنَّ يعقوبَ عليه السلام فَهِمَ من هذه الرؤيا فَهْماً جُمَلِيّاً كُلَّ ما بُشِّر به ابنه يوسف الرائي، وأمَّا كيدُ إخوته به إذا قصَّها عليهم فقد استنبطه منْ طبع وعداوة الشيطان له، ثُمَّ قَفَّى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه، ومن تأويل الأحاديث، وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس في رفعة قدره، وعلو مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبل.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

وعزتي وجلالي ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿و﴾ حكاية ﴿إخوته﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٌ﴾؛ أي: علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله سبحانه وتعالى القاهرة، وحكمته الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي[1]: لكل مَنْ سأل عن قصتهم، وعَرَفها، فإنَّ كِبَار أولاده يعقوب بعدما اتفقوا على إذْلال أصغر أولاده يوسف، وفعلوا به ما فَعَلُوا قد اصطفاه الله للنبوة والملك وجعلهم خَاضِعين له منقادينَ لحكمه، وأنَّ وبَالَ حسدهم قد انقلب عليهم، وهذا مِنْ أَجَلِّ الدلائل على قدرة الله القاهرة، وحِكمتِهِ الباهرة.

والمعنى: والله[2] لقد كان في قصة يوسفَ وإخوته لأبيه عِبَرٌ أيُّما عِبر دالةٌ على قدرة الله، وعظيم حكمته، وتوفيق أقداره، ولطفه بِمَنِ اصطفى من عباده، وتربيته لهم وللسائلين عنها الراغبينَ في معرفة الحقائق، والاعتبار بها فإنهم هم الذين يعقلون الآيات، ويستفيدُون منها.

تأمَّل يا أخي: تَرَ أنَّ إخوةَ يُوسُفَ لو لم يحسدوه لما ألقوه في غَيَابَةِ الجُبِّ، ولوْ لَم يلقوه فيها: لما وَصَلَ إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيزُ بصادق فراسته أَمَانَتَهُ وصِدْقَه لما أمنه على بيته، ورزقه، وأهله، ولو لم تُراوده امرأة العزيز عن نفسه، ويستعصم منها لما ظهرَتْ نزاهته، ولو لم تَفْشَلْ في كيدها وكيد صُويْحِبَاتِهَا لَمَا ألقي في السجن، ولو لم يُسْجَن ما عرَفه ساقي مَلِك مصر، وعَرَف صدقَه، في تعبير الرؤيا، وإرشادِ مَلكِ مصر إليه، فآمَنَ به، وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يَتَبوَّأْ هذا المَنْصِبَ ما أمكنه أن ينقذ أبَوَيْهِ وإخوتَه وأهله أجمعين من الجوع والمخمصة، ويأتي بهم إلى مصر، فيشاركوه فيما ناله من عِزٍّ وبَذخٍ ورَخَاءِ عيشٍ، ونعيم عظيم، وما من مبدأ من هذه المبادىء إلاَّ كان ظاهره شرّاً مستطيراً، ثم انْتَهَى إلى عاقبة كانت خيراً وفوزاً مبيناً.

فتلك ضروب من آيات الله في القصة لمن يريد أن يَسْأَلَ عن أحداثها

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الحسية الظاهرة، وعلومها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رُؤْيَا يُوسُفَ وعِلْمِهِ بكذبهم في دعوى أكل الذئب له، ومن شَمِّهِ لرِيحِ يُوسُفَ منذ فصلت العير من أرض مصر ذاهبةً إلى أرض كَنْعَانَ، ومن رؤيةِ برهان رَبِّهِ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ومن عِلْمِهِ بأنَّ إلْقَاءَ قميصه على أبيه يُعيده بصيراً بعد عَمى بَقِيَ كثيراً من السنين.

وقرأ مجاهد، وشِبْلٌ وأهلُ مكة، وابن كثير[1]: ﴿آيةٌ﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور: ﴿آياتٌ﴾. وفي مصحف أُبي: ﴿عبرةٌ للسائلين﴾ مكانَ آية.

﴿إِذْ قَالُواْ﴾؛ أي: إن في شأن يوسف وإخوته لعبرة حين قالوا؛ أي: حِينَ قال بعض العشرة لبعضهم والله ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ الشقيقُ بِنْيَامِينُ بكسر الباء وفتحها فاللام في ﴿لَيُوسُفُ﴾ موطئة[2] للقسم كما قدرنا، أو لام الابتداء[3]، وفيها تأكيد، وتحقيقٌ لمضمون الجملة، أرادوا أنَّ زيادة مَحَبَّتِهِ لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وإنما قالوا هو وأخوه، وهم إخوته أيضاً؛ لأنَّ أمَّهُمَا كانت واحدةً اسمها راحيلُ كما مرَّ فهو شَقِيقُه. والشقيق: الأخُ من الأب والأم. وقد يقال: للأخ من الأب، لأنَّه شَقَّ مَعَكَ ظهْرَ أبيك، وللأخ من الأم لأنه شق معك بطن أمك. وفي «القاموس»: الشقيق كأمير الأخِ كأنه شقَّ نسَبُه من نسبه، انتهى. وإنما لم يذكر[4] باسمه تلويحاً بأنَّ مدار المحبة إخوته ليوسف من الطرفين، الأب، والأم، فالمآل إلى زيادة الحُبِّ ليُوسُفَ ولذلك تعرضوا لقتله، وطرحه، ولم يتعرضوا لبنيامين. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾؛ أي: أكْثرَ وأزيدُ مَحَبَّةً مِنَّا عند أبينا، وإنما قالوا هذه المقالَةَ: لأنه بلَغَتْهُم خَبر الرؤية، فأجمع رأيهُم على كيده. ﴿و﴾ الحال ﴿نحن عصبة﴾؛ أي: والحال أنَّا جماعةٌ قادرون على الحل والعقد قائمون بدفع المفاسد، والآفات مشتغلون بتحصيل المنافع، والخيرات، وقائمون بمصالح

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) النسفي وغيره.

(٤) روح البيان.

الأب، فنحن أحِقَّاءِ بزيادةِ المحبة منهما، لفضلنا بذلك، وبكوننا أكْبَرَ سِنّاً، وما معنى اختيار صغيرين ضعيفين على العشرة الأقوياءِ. والعصبة والعصابة: العشرة من الرجال فصاعداً كما سيأتي في مَبْحَثِ مفردات اللغة. وإنما قيل[1]: أحبُّ بالإفراد في الاثنين؛ لأن أفعلَ منْ لا يُفرَّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بَيْنَ المذكر والمؤنث، ولا بُدَّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أُضِيفَ جَازَ الأمران كما يُعرف من محله.

والمعنى[2]: أي إنَّ في شأنهم لعبرةً حين قالوا: ليوسُف وأخوه الشقيقُ بنيامينُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا منا فهو يفضلهما علينا بمزيد محبة على صغرهما، وقليل نفعهما، ونحن رجال أشداء أقوياء، نَقُوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والكفاية.

﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما، وكونهما بمعزل من الكفاية، بالصغر، والقِلَّة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي خطأٍ بين ظاهر الحال بالنسبة إلى مصالح الدنيا، لا في الدين، وإلا لكفروا بذلك، نظروا إلى صورة يُوسُفَ، ولم يحيطوا علماً بمعناه، فقالوا ما قالوا، ولم يعرفوا أنَّ يوسف أكبرُ منهم بحسب الحقيقة والمعنى؛ أي: إنَّ أبانا لقد أخطأ في إيثاره يوسفَ، وأخاه من أمه علينا بالمحبة، وهو قد ضَلَّ طريق العدل والمساواة ضلالاً بيناً لا يَخْفَى على أحد، فكيف يفضل غُلامَيْنِ ضعيفين لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولى القوة، والكسب، والحماية عن الذمار.

وفي الآية[3]: من العبرة وجوبُ عِناية الوَالِدَين بمداراة الأولاد، وتربيتهم على المحبة، واتقاءِ وقوع التحاسد والتباغض بينهم، واجتناب تفضيل بعضهم على بعض، بما يعده المفضول إهانةً له، ومحاباة لأخيه بِالهَوى. قال بعض[4]

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

العارفين: مَالَ يعقوبُ إلى يوسفَ لظهور كمال استعداده الكليِّ في رؤياه حين رَأى أحد عشرَ كَوْكباً والشَّمْسَ والقمرَ له ساجدين، فَعَلِمَ أبوه من رؤياه أنه يَرِثُ أباه وجده، ويجمعُ استعدادات إخْوتِهِ، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره، ولا يَصْبِرُ عنه فتبالَغَ حَسَدُهم حتى حَمَلَهم على التعرُّض له.

وقيل: لأنَّ اللَّهَ تعالى أَرادَ ابتِلاَءَهُ بمحبته إليه في قلبه، ثمَّ غيَّبَهُ عنه ليكون البلاء أشدَّ عليه، لغيرة المحبة الإلَهية، إذ سلطان المحبة لا يقبل الشركة في ملكه، والجمالُ والكمال في الحقيقة لله تعالى، فلا يَحْتَجِبُ أحدٌ بما سواه، ولا كيد أشدَّ من كيد الولد. ألا ترى أنَّ نوحاً عليه السلام دَعَا على الكفار فأغْرَقهم الله تعالى، فلَم يَحْتَرق قَلْبُه، فلما بلغَ وَلدُه الغرقَ صاح ولم يصبر وقال: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. قيل: وإنما خَصَّ[1] يعقوبُ يُوسُفَ بمزيد المحبة والشفقة؛ لأنَّ أُمهُ ماتَتْ وهو صغير، أو لأنه رَأى فيه من آيات الرشد، والنجابة ما لم يره في سائر إخوته، أو لأنه وإن كانَ صغيراً كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة، أعلى مما كان يَصْدُر عن سائر الأولاد.

وكان[2] بنيامين أصْغَرَ من يُوسُفَ فكان يعقوب يحبهما بسبب صغرهما، وموتِ أمهما، وحُبُّ الصغير، والشفقةُ عليه مركوز في فطرة البشر. وقيل لابنةِ الحسن: أي ابنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغيرُ حتى يَكْبَرُ، والغائبُ حتى يَقدم، والمريضُ حتى يُفِيقَ. وقد نظم الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومِنْ ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري في قصيدته التي بَعَثَ بها إلى أولاده وهو في السجن:

وَصَغِيْرُكُمْ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ فَإِنَّنِيْ ... أَطْوِيْ لِفُرْقَتِهِ جَوَى لَمْ يَصْغُرِ
ذَاكَ ٱلْمُقَدَّمُ فِيْ ٱلْفُؤَادِ وَإِنْ غَدَا ... كُفُؤاً لَكُمْ فِيْ ٱلْمُنْتَمَىٰ وَٱلْعُنْصُرِ
إِنَّ ٱلْبَنَانَ ٱلْخَمْسَ أَكْفَاءٌ مَعاً ... وَٱلْحِلْيُ دُوْنَ جَمِيْعِهَا لِلْخِنْصَرِ
وَإِذَا ٱلْفَتَىٰ بَعْدَ ٱلشَّبَابِ سَمَا لَهُ ... حُبُّ ٱلْبَنِيْنِ وَلاَ كَحُبِّ ٱلأَصْغَرِ

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

فإن قلت[1]: والذي فَعَلَه إخوة يوسُفَ بيُوسُفَ هو محض الحسد، والحسدُ من أمهات الكبائر، وكذلك نسبةُ أبيهم إلى الضلال، هو مَحْضُ العقوق، وهو من الكبائر أيضاً، وكُلُّ ذلك قادحٌ في عصمة الأنبياء، فما الجواب عنه؟

قلت: هذه الأفعالُ إنَّمَا صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم، والمعتبر في عصمة الأنبياء هو وَقْتُ حصول النبوة لا قبلها. وقيل: كانوا وَقْتَ هذه الأفعال مُراهِقينَ غَيْرَ بالغين، ولا تكليفَ عليهم قبل البلوغ، فعلى هذا لم تكن هذه الأفعالُ قادحةً في عصمة الأنبياء، ولكنَّ هذا القول ليسَ بصحيح بدليل قولهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾. قال في «الكواشي»[2]: لا وَقْفَ من السائلين إلى صالحينَ، لأن الكلامَ جملة محكية عنهم، انتهى؛ أي: للتعلق المعنويِّ بَيْنَ مقدم الكلام، ومؤخره إلاَّ أن يكونَ مضطراً بأن يَنْقَطِعَ نَفَسُهُ، فحينئذ يجب عليه أن يَرجع إلى ما قبله، ويوصل الكلامَ بعضَه ببعض، فإن لم يفعل أثِمَ كما في بعض شروح الجزري، وقرىء: (مبين) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ بكسر وضم، والمشهورُ: الكسر وَجْهُ الضم التبعية لعين الكلمة، وهي مضمومة؛ أي: قال إخوة يوسف بعضهم لبعض اقتلوا يوسف حتى لا يَكُونَ لأبيه أمَلٌ في لقائه ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أي: أو انبُذُوه في أرض منكورة[3] مجهولة بعيدة عن العمران، لِيَهْلِكَ فيها أو يأكلَه السباع، وهو معنى تنكيرها وإبهامها لا أنَّ معناه أيُّ أرض كانت، ولذلك نُصِبَتْ نَصْبَ الظروف المبهمة، وهي ما لَيْسَ له حدود تحصره، ولا أقطارٌ تُحْوِيه. وفيه إشارة إلَى أنَّ التَّغْرِيبَ يُسَاوِي القَتْلَ كمَا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: اطرحوه في أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه، إنْ هو سَلِمَ من الهلاك. ﴿يَخْلُ﴾ على الجزم في جواب الأمر؛ أي: يَخْلُص ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ من شغله بيوسف، فيقبل عليكم بكليته، ولا يَلْتَفِتْ عنكم إلى غيركم، وتتوفر محَبَّتُه فيكم، فَذِكْرُ الوجه لتصوير معنى إقبالِه عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه؛ ويجوز أن يُرادَ

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

بالوجه الذات؛ أي: يَخْلُ[١] لكم وجه أبيكم من شغله بيُوسُفَ، فيكن كل توجهه إليكم، وكُل إقباله عليكم بعد أن تخلو الديار ممن يَشْغَلُهُ عنكم ويشارككم في عطفه وحبه، ﴿وَتَكُونُواْ﴾ بالجزم عطفاً على يخل ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد الفراغ من أمره؛ أي: وتكونوا من بعد قتله أو تغريبه في أرض بعيدة ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ صَلُحَتْ حالكم عند أبيكم، أو تائبين إلى الله مما جئتم به، مُصْلِحِين لأعمالكم، بما يكفر إثمها مع عدم التصدِّي لمثلها، وبذا يَرْضَى عنكم أبوكم، ويرضى عنكم ربكم.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من إخوة يوسف، وهو يهوذا. وقال قتادة: هو روبيل، وهو ابن خالته، وكَانَ أكْبَرُهُم سِنّاً، وأحسنهم رَأْياً فيه. ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ نهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة، والأصح أنَّ قائلَ هذه المقالة هو: يهوذا؛ لأنه كان أقربهم إليه سِنّاً. ﴿وَأَلۡقُوهُ﴾؛ أي: اطرحوا يُوسُفَ ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾؛ أي: في أسفل الجب، والبئر، وقعرها، وظلمتها، والغَيَابَةُ: كل موضع سَتَرَ شَيْئاً، وغَيَّبَهُ عن النظر، والجُبُّ: البئرُ الكبيرة غير مطوية بالحجارة. سُمِّيَ بذلك، لأنه جُبَّ: أي: قطع، ولم يطه، وغيابته: ما يغيب عن رؤية البصر من قعره. وأفاد ذكر الغيابةَ مع ذكر الجب أنَّ المشيرَ أشار بطرحه في موضع من الجبِّ مظلم لا يراه أحد. وقرأ[٢] الجمهور: ﴿غيابة﴾ على الإفراد، ونافع: ﴿غيابات﴾ على الجمع، وابن هرمز: ﴿غَيَّابَاتِ﴾ بالتشديد والجمع؛ وقرأ الحسن: ﴿في غَيبَةِ) على صيغة المصدر. واختلفوا[٣] في مكان ذلك الجب. فقال قتادة هو: بئرُ بيت المقدس، وقال وهب: هو في أرض الأُردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وقيل: بين مدين، ومصر، وإنما عَيَّنوا ذلك الجُبِّ للعلةِ التي ذكروها، وهي قولهم: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو رجاء: ﴿تلتقطه﴾ بتاء التأنيث أنث على المعنى؛ أي: تأخذه على وجه الصيانة من الضياع والتلف. فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع. ﴿بَعۡضُ

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: بعض طائفة تسير في الأرض. والسيارة جماعة المسافرين الذين يسيرون في الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها، وذلك أنَّ هذا الجبَّ كَانَ مَعروفاً يرد عليه كثير من المسافرين؛ أي: يأخذه بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحون منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي، ولم يقطع القول عليهم، بل إنما عَرَضَ عليهم ذلِكَ تَأْلِيفاً لقلبهم، وحذراً من نسبتهم له إلى الافتيات؛ أي: الاستبداد، والتفرد به. وفيه[١]: إشارة إلى ترك الفعل، فكَأنَّه قال: لا تَفْعَلُوا شيئاً من ذلك، وإن عزمتم على إزالتِهِ من عند أبيه ولا بُدَّ فَافْعَلُوا هذا القدرَ؛ أي: إلقاءَه في البئر، والأولى أن لا تفعلوا شيئاً من القتل والتغريب.

وحاصل المعنى[٢]: أي: قال قائل منهم: وهو رُوبيل، أو يهوذا، لا تقتلوا يوسفَ، وألقوه في قعر البئر، حيث يَغِيبُ خبره، فيلتقطه بعض المسافرين، ويأخذوه إلى حيث ساروا في الأقطار البعيدة، وبذا يَتِمُّ لكم ما تريدون، وهو إبعاده عن أبيه، إن كنتم فاعلينَ ما هو المقصدُ لكم بالذات إذ لا شكَّ أن قَتْلَهُ لا يَغْنيكم لذاته، فَعَلام تُسْخِطُون خَالِقَكُم باقتراف جريمة القتل، والغرض يَتِمُّ بدونها.

قال محمد بن إسحاق[٣]: اشتمل فِعْلُهُم هذا على جرائمَ كثيرةً من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم، وعفا الله عن ذلك كُلِّه، حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله تعالى. وقال بعض أهل العلم: عَزَمُوا على قتله، وعَصَمَهُم الله تعالى رحمةً بهم، ولو فعلوا ذلك لَهَلَكُوا جميعاً، وكل ذلك كَانَ قَبْلَ أنْ نَبَّأهم اللَّهُ تعالى كما مر. فانظر إلى هؤلاء الإخوان الذين أَرْحَمُهُم له لا يَرْضى إلا بإلقاء يوسف في أسفل الجب، وهكذا إخوانُ الزمان، وأبناؤُه، فإنَّ ألسنتهم دائرة بكل شر، ساكتةٌ عن كل خير.

فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف، وبين والده بضرب من الحِيَل،

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال إخْوَةُ يُوسُفَ لأبيهم يعقوب ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليتَسَبَّبُوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه في حفظه منهم، لما أحسَّ منهم بأمارات الحسد والبَغْيِ، فكأنهم قالوا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾؛ أي: أي عُذْر لك في ترك الأمن؛ أي: في الخوف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا. وجملة قوله: ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾ حال من معنى الفعل في ﴿مَا لَكَ﴾ كما تقول: ما لك قائماً بمعنى: ما تصنع قائماً. والاستفهام فيه للاستخبار والتقرير.

وهذا الكلام مبني على مقدمات محذوفةٍ، وذلك أنهم قالوا أوَّلاً لِيُوسُفَ اخْرُج معنا إلى الصحراءِ إلى مواشينا، فنستبق ونَصيدُ، وقالوا له: سَلْ أباك أن يُرْسِلَكَ معنا، فسأله فتوقف يعقوبُ فقالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: أي شيء ثَبَتَ لكَ لا تَجْعَلُنا أُمَنَاءَ عليه مع أنه أخونا، وأنك أبونا، ونحن بَنُوكَ ﴿و﴾ الحال ﴿إنا له لناصحون﴾؛ أي: لعاطفون عليه، قائمون بمصلحته، وبحفظه؛ أي: هم أظهروا عند أبيهم، أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، والجملة حال من مفعول ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾؛ أي: والحال إنَّا لمريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُّ بالنصيحة والمِقَةِ. وقرأ[1] زيد بن علي، وأبو جعفر، والزهري وعمرو بن عبيد، بإدغام نون (تأمن) في نون الضمير من غير إشمام. وقَرأ الجمهور بالإدغام والإشمام للضم، وعنهم إخفاء الحركة فلا يَكُونُ إدغاماً مَحْضاً. وقرأ ابن هرمز بضم الميم فتكون الضمة منقولَةٌ إلى الميم من النون الأولى بعد سلب الميم حركتَها، وإدغام النون في النون. وقرأ أُبي والحسنُ وطلحةُ بن مصرف، والأعمش: (لا تأمننا) بالإظهار، وضم النون على الأصل، وخط المصحف بنون واحدة. وقرأ ابن وثاب، وأبو رَزِين شذوذاً: (لا تِيْمُنَّا) على لغة تميم، وسَهَّل الهمزةَ بعد الكسرة ابن وثاب.

وفي قوله: ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾ دليل على أنه كان يمسكه ويصحبه دائماً؛ أي: أرسله ﴿مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ﴾؛ أي: نتسع في أكل الفواكه، ونحوها؛ فإنَّ

---

(١) البحر المحيط.

الرَّتْع هو الاتساع في الملاذ ﴿وَنَلْعَبْ﴾ بالاستباق، والانتضال تمريناً لقتال الأعداءِ وبالإقدام على المباحات، لأجل انشراح الصدر لا للهو، وإنما سموه لعباً لكونه على صُورته. قال[1] أبو الليث: لم يريدوا به اللعبَ الذي هو منهي عنه، وإنما أرادوا به المطايبة في المزاج في غير مأثم. وفيه دليل على أنه لا بأس بالمطايبة والتفرج. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أَنْ يَنَالَهُ مكروه؛ أي: نجتهد في حفظه غَايَةَ الاجتهاد حَتَّى نرده إليك سالماً.

والمعنى[2]: أي أرسله مَعَنَا غَدَاةَ غدٍ حين نخرج كعادتنا إلى المَرْعَى في الصحراء، يشاركنا في الرياضة والأنس والسرور، وأكل الفواكه، والبقول، وغيرهما مما يَطِيبُ، وقد كان أكثر لعب أهل البادية السباقَ، والصراعَ والرَّمْيَ بالعصا، والسهام إن وجدت، وإنا لحافظوه من كل أذًى يُصيبه. وقرأ[3] الجمهور: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء والجزم. وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو بالنون، والجزم وكسر العين الحرميان، نافع وابن كثير. واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحَذْفِها. وروي عن ابن كثير: ﴿ويلعب﴾ بالياء وهي قراءةُ جعفر بن محمد. وقرأ العلاء بن سيابة: ﴿يرتع﴾ بالياء، وكسر العين مجزوماً محذوفَ اللام ﴿ويَلْعَبُ﴾ بالياء، وضمُّ الباء خَبرَ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو يلعبُ. وقرأ مجاهد، وقتادة، وابنُ مُحَيْصِن بنون مضمومة مأخوذ من أرتعنا، ﴿ونَلْعَب﴾ بالنون وكذلك أبو رجاء إلا أنه بالياء فيهما ﴿يرتع ويلعب﴾ والقراءتان على حذف المفعول أي يرتع المواشي شيء أو غيرها، وقرأ النخعي ﴿نرتع﴾ بنون ﴿ويلعب﴾. بياء بإسنادِ اللعب إلى يوسف وحدَه لصباه، وكذلك جاء عن أبي إسحاق ويعقوب. وكل هذه القراءات الفعلان فِيهَا مبنيان للفاعل. وقرأ زيد بن علي: ﴿يُرْتَع ويُلْعَب﴾ بضم الياءين مبنياً للمفعول، ويخرِّجها على أنه أضمر المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وهو ضمير غَدٍ، وكان أصله يرتع فيه، ويلْعَبُ فيه، ثم حذفَ واتسعَ فعُدِّيَ الفِعْلُ للضمير، فكان التقدير: يرتَعُهُ ويلعَبُهُ، ثمَّ بَنَاهُ للمفعول فاستكن الضمير الذي كَانَ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

منصوباً لكونه ناب عن الفاعل.

﴿قَالَ﴾؛ أي: قالَ يَعْقُوبُ مُجِيباً لهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ﴾؛ أي: لَيُؤْلِمُ قَلْبِي ذَهابُكُم به؛ لأني لا أصْبِرُ عنه ساعة ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لكثرة الذئب في تلك الأرض ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالاتساع في الملاذ وبنحو التناضل.

واللام[1] في قوله: ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ لام الابتداء، فإن قيل: لام الابتداء تُخَلِّصُ المضارعَ للحال عند جمهور النحاة، والذهابُ ههنا مستقبل، فيلزم تقدم الفعل على فاعله، مع أنه أثَرُه.. قلنا: إنَّ التَّقْدِيرَ قصد أن تذهبوا به، والقصد حال، أو تصورُ ذَهابكم، وتوقعه، والتصور موجود في الحال، كما في العِلَّةِ الغائية، والحزن ألم القلب بفوت المحبوب، والخوف انزعاجُ النفس لنزول المكروه، ولذلك أسند الأولَ إلى الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته، ومُوَاصلته ليوسف. والثاني: إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب.

ورُوِي أنَّه رأى في المنام كأنه على رأس جبل، ويوسف في صحراء فَهَجَمَ عليه أحد عَشَرَ ذِئْباً، فغاب يُوسُفُ بينهن، ولذا حَذَّرَهم من أكل الذئب، ومَع ذلك فَقد دَفَعَهُ إلى إخوته؛ لأنه إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البَصَرُ.

والحاصل[2]: أن يعقوبَ اعتذرَ لهم بشيئين:

أحدهما: عاجل في الحال، وهو ما يَلْحَقه من الحزن لمفارقته، وكان لا يصبر عَنْهُ.

والثاني: خوفه عليه من الذئب إنْ غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو بقلَّةِ اهتمامهم بحفظه، وعنايتهم، فيأكله ويَحْزُن عليه الحُزْنَ المؤبَّد. وخصَّ الذِّئبَ لأنه كان السَّبُع الغالب على قطره، أو لصِغَر يُوسُفَ، فخافَ عليه هذا السَّبعَ الحقير، وكان تنبيهاً على خوفه عليه، ما هو أعظم افتراساً ولحقارة الذئب، خصَّهُ الربيع بن ضبع الفزاري في كونه يَخْشَاهُ لَمَّا بَلَغَ مِنَ السِّنِّ:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وَٱلـــذِّئْــبُ أَخْــشَـــاهُ إِنْ مَــرَرْتُ بِــهِ   وَحْـدِيْ وَأَخْـشَـىُ ٱلـرِّيَـاحَ وَٱلْـمَـطَـرَا

وكأنَّ يعقوبَ بقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لقنهم ما يقولونَ من العذر إذا جاؤُوا، وليس معهم يوسف فلقنوا ذلك، وجعلوه عُدَّةً للجواب. وقرأ زيد بن علي: ﴿تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ من أذهبَ الرباعي وخرِّج على زيادة باء به كما خرِّج بعضهم ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ في قراءة مَنْ ضَمَّ التاء وكَسر الباءِ؛ أي: تنبت الدهنَ وتذهبوه. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ بالهمز، وهي لغة الحجاز. وقرأ الكسائي وورش، وحمزة إذا وَقف بغير همز. وقَالَ نصرُ: سمعت أبا عَمرو لا يُهْمِزُ.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال إخوة يوسف لأبيهم، والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ أي: لئن أكَلَ يوسفَ الذئب، واختَطَفَهُ من بيننا في الصحراء ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: والحال إنَّا جماعة شديدةُ البأس، عشرة رجال تُكْفى بنا الخطوب، وتُدْفَع بنا مهمات الأمور ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إذ عَجَزْنَا عن حفظ أخينا ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لهالكون(١) ضَعْفاً، وخوراً، وعجزاً، ولا غناءَ عندنا، ولا نَفْعَ ولا ينبغي أن يعتدَّ بِنَا، ويُرْكَنَ إلينا. وفي «الكواشي»: مغبونون بترك حرمة الوالد، والأخ، وإنما اقتصروا على جواب خوفه على يوسف من أكل الذئب، ولم يجيبوا عن الاعتذار الأول الذي هو الحُزنُ لأنه السبب القوي في المنع دونَ الحُزْنِ لِقِصَرِ مدَّته، بناء على أنهم يأتون به عن قَرِيبٍ.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: لا ينبغي للرجل أن يلقن الخصم الحجةَ؛ لأنَّ إخوةَ يُوسُفَ كَانُوا لا يعلمونَ أنَّ الذِّئْبَ يأكل الناسَ، إلى أن قالَ ذلك يعقوب، ولقنهم العلة في كيد يوسف. وفي الحديث: «البلاء مُوكَّلٌ بالمنطق، ما قال عبد لشيءٍ والله لا أفعله، إلاَّ تَرَك للشيطان كل شيء فَولِعَ حتى يُوشِمَه». يُحْكَى أنَّ ابنَ السِّكِّيت من أئمة اللغة جَلَس مع المتوكل يوماً فجاء المعتزُّ والمؤيد ابنا المتوكل، فقال: أيهما أحبُّ إليك ابناي أم الحَسَنُ والحُسَيْنُ؟ قال: والله إنَّ قنبر خَادِمَ عليٍّ رضي الله عنه خَيرٌ منك، ومن ابنَيْك، فقال: سلوا

(١) روح البيان.

لِسَانه منْ قفاه، ففَعَلوا، فمات في تلك الليلة. ومِنَ العَجَبِ أنه أنشد قَبْلَ ذلك إلى المعتزّ والمؤيد، وكان يعلّمُهما فقال:

يُصَابُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ   وَلَيْسَ يُصَابُ ٱلْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ ٱلرِّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلْقَوْلِ تَذْهَبُ عَثْرَتُهْ   وَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلرِّجْلِ تَبْرَأ عَلَىٰ مَهْلِ

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ مرتب على محذوف تقديره: ولما رَأى يعقوب إلحاحَ إخوة يوسف في خروجه معهم إلى الصحراء، ومبالغتهم في العهد، واليمين، ورَأى أيضاً ميل يوسف إلى التفرج، والتنزه معهم رضِيَ بالقضاء، فأرسله معهم. وهذا[1] المقدر معطوف على قوله سابقاً: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ إلخ. قال الحسن: كان بين خروج يُوسُفَ من حجر أبيه إلى يوم التلاقي ثَمانُون سنة، لم تجفَّ فيها عَيْنا يعقوب، وما على الأرض أكْرَمُ على الله منه، اهـ خازن؛ أي: فلمّا ذهبوا به من عند يعقوب ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ﴾؛ أي: عَزَمُوا، واتفقوا على أن يلقوه ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ أي: في قَعْرِ البئر، وأسفلِه، وظلمته. وكان[2] على ثلاثة فراسخَ من منزل يعقوب بكنعان، التي هي من نواحي الأردن، حَفَره شداد حين عَمَر بلاد الأردن، وكَانَ أعلاه ضَيِّقاً، وأسفله وَاسِعاً. وجواب (لمَّا) محذوف تقديره: فعلوا به ما فعلوا من الإذاية. وقيل: جوابه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. وقيل: يكون تقدير الجواب جَعَلُوه فيها. وقيل: الجوابُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ و ﴿الواو﴾ مقحمة ومثلُه قَوْلُه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: ناديناه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: وأوحينا إلى يوسف في الجب إزالةً لوحشته عن قلبه، وتبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وكَانَ ابنَ سبع سنين أو دونها. فاجتمع[3] مع كونه صغيراً على إنزال الضرر به، عشرة رجال من إخوته بقلوب غليظة، قد نُزِعَتْ عنها الرحمة، وسلِبَتْ منها الرأفة، فإنَّ الطبعَ البشريَّ - دَعْ عنْكَ الدِّينَ - يتجاوز عن ذنب الصغير، ويغتفره لضعفه عن الدفع، وعَجْزِه عن أيسر شيء يُرادُ

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

منه، فكَيْفَ بِصغيرٍ لا ذنبَ له، بل كيف بصغير هو أخٌ وله ولهم أب مثل يعقوب. فلقد أبعد مَن قال: إنهم كانوا أنبياءَ في ذلك الوقت فما هكذا عَملُ الأنبياءِ ولا فعل الصالحين.

وفي هذا[1] دليل على أنه يجوز أن يوحِي الله إلى مَنْ كانَ صغِيراً ويعطيه النبوةَ حينئذ كما وَقَع في عيسى، ويحيى بن زَكَرِيا.

وقد قيل: إنه كان في ذلك الوقت قد بَلَغَ مبالغ الرجال، وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بَلَغَ مبالِغَ الرجال لا يُخَاف عليه أن يَأْكُلَه الذِّئْبُ.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتخبرن يا يوسف إخْوَتَك بصنيعهم هذا الذي فعلوه بك، بعد خُلُوصِكَ مما أرادوه بك من الكيد، وأنزلوه عليك من الضَّرَر. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل النصب على الحال من ضمير الغائبين في ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾؛ أي: والحال أنهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف، لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب، ولبعد عهدهم بِك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه أولاً، وخلاف ما عهدوه منك. وسيأتي ما قاله لهم عند دُخولِهم عليه بَعْدَ أنْ صَارَ إليه ملك مِصْرَ. والمقصود مِن هذا الإيحاء تقويةُ قَلْبِهِ بأنه سَيَحْصُل له الخَلاص عن هذه المحنة، ويَصِيرُونَ تَحْتَ قهره وقدرَتِهِ.

والمعنى[2]: أي فلما ذَهَبَ به إخوته من عند أبيه بعد مُرَاجعتهم له، وقد عَزَموا عَزْماً إجماعِياً، لا تردُّدَ فيه على إلقائه في غيابة الجب، نفَّذُوا ذلِكَ، وحينئذ أوحينا إليه، وحياً إلهامياً تطييباً لقلبه، وتثبيتاً لنفسه، لا تَحْزَنْ مِمَّا أنتَ فيه، فإنَّ لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويرفع درجَتك، وستخبرهم بما صنعوا وهم لا يشعرونَ بأنك يوسف. وقرأ[3] الجمهور: ﴿لتنبئنهم﴾ بتاء الخطاب. وابن عمر بياء الغيبة. وكذا في بعض مصاحفِ

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

البصرة. وقرأ سَلاَّم بالنون.

فصل في ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه السلام[1]

قال وهبٌ وغيرَهُ من أهل السيَرِ والأخبار: إنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ قالوا له: أما تشتاقُ أن تخرج معنا إلى مواشينا، فنَصِيد، ونستبقَ؟ قال: بلى، قالوا له: أنسأل أبَاكَ أن يرسلكَ معنا؟ قال يوسف: افعلوا، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إنَّ يُوسُفَ قد أحبَّ أن يخرج معنا إلى مَوَاشِينا، فقال يعقوب: ما تقول يا بنيَّ؟ قال: نعم يا أبت إني أرى من إخْوَتي اللِّين، واللُّطْفَ، فأحب أن تأذن لي، وكان يَعْقُوبُ يكره مُفَارَقَتَهُ، ويحب مرضاتَهُ فأَذِنَ له، وأرْسَلَهُ معهم.

فلمّا خَرَجُوا من عند يَعْقُوب، جعلوا يَحْمِلُونَه على رقابهم، ويَعْقُوبُ ينظر إليهم، فلما بعدوا عنه، وصَارُوا إلى الصحراء أَلْقَوْهُ على الأرض، وأظهروا له ما في أنْفُسِهم من العداوة، وأَغْلَظوا له القَوْل، وجعلوا يضربونه. فجَعَل كلَّما جاء إلى واحد منهم، واستغاث به ضَرَبه. فلمَّا فَطِنَ لما عزموا عليه من قتله جعل يُنادِي يا أبتَاه يا يعقوبُ، لو رأيتَ يُوسُفَ، وما نزل من إخوته، لأحْزَنَكَ ذلك، وأبكاك يا أبتاه ما أسْرَعَ ما نسُوا عَهْدَك، وضيَّعوا وصيَّتَك، وجعل يبكي بُكاءً شديداً. فأَخَذَهُ روبيل وجَلَد به الأرضَ، ثم جَثَمَ على صدره، وأراد قَتْلَه فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تَقْتُلني. فقال له: يا ابنَ راحيل أنت صاحبُ الأحلام، قل لرؤياك تخلِّصُك من أيدينا، ولَوَى عنقه، فاستغاث يوسف بيهوذا، وقال له: اتق الله فِيَّ وحل بيني وبينَ مَنْ يريد قتلي. فأدركته رحمة الأخوة ورَقَّ له، فقال يهوذا: يا إخوتي ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أهونُ لكم وأرفقُ به؟ فقالوا: وما هو؟ قال: تلقونه في هذا الجبِّ إمَّا أنْ يَموتَ أو يلتقِطه بَعْضُ السيارة، فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق، واسع الأسفل ضيق الرأس، فجعلوا يدلونه في البئر فتعَلَّقَ بشفيرها، فرَبطُوا يديه، ونَزعوا قَمِيصَهُ. فقال: يا إخوتاه ردوا عليَّ قميصي لأستتر به في الجبِّ، فقالوا: أُدْعُ الشمسَ والقمرَ

---

(١) الخازن.

والكواكبَ تخلصكَ، وتؤنِسُك. فقال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها، ثُمَّ قال: يا إخوتاه أتدعوني فيها فريداً وحيداً. وقيل: جعلوه في دلو ثمَّ أرسلوه فيها. فلمَّا بَلَغَ نصفَها ألقوه إرادةَ أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فسَقَطَ فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت في البئر، فقام عليها. وقيل: نزل عليه مَلَكٌ فحَلَّ يديه، وأَخْرَج له صخرةً من البئر فأجلسه عليها. وقيل: إنهم لما ألقوه في الجبِّ جَعَل يبكي فَنَادَوْهُ، فظن أنَّها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمَنَعهم يهوذا من ذلك، وقيل: إنَّ يعقوبَ لما بعثه مع إخوته أَخْرَجَ له قميص إبراهيم، الذي كساه الله إياه من الجنة، حين أُلقِيَ في النار، فجعله يعقوب في قصبة فضةٍ، وجعَلَها في عنق يوسف، فألبسه الملك إياه حينَ ألقِي في الجُبِّ فأضاءَ له الجُبَّ. وقال الحَسنُ: لمَّا ألقِيَ يُوسَفُ في الجب عذبَ ماؤُه، فكان يكفيه عن الطعام والشراب، ودَخَلَ عليه جبريل فأَنِسَ بِهِ. فلمَّا أمسى نهض جبريلُ ليذهب، فقال له: إذا خَرَجْتَ استَوْحَشْتُ. فقال له: إذا رهبتَ شيئاً فقل: يا صريخ المستصرخِين، ويا غَوثَ المستغيثين، ويا مفرِّج كرب المكروبين، قد ترى مكاني، وتعلم حالي، ولا يخفى عليك شيءٌ من أمري. فلما قالها يوسف حفَّته الملائكة، واستأنس في الجُبِّ.

وقال محمد بن مسلم الطائِفيِّ: لما ألقي يوسف في الجُب قال: يا شاهداً غَيْرَ غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالِباً غير مغلوب، اجعل لي فرجاً مما أنا فيه، فما بات فيه. وقيل: مكث في الجبِّ ثلاثَةَ أيَّامٍ، وكان إخْوَتُه يَرْعَوْنَ حَوْلَهُ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. وقيل[1]: عَلَّم جبريلُ يوسفَ هذا الدعاء، أي في البئر: «اللهم يا كاشفَ كل كربة، ويا مجيبَ كل دعوة، ويا جابرَ كل كسير، ويا ميسرَ كل عسير، ويا صاحِبَ كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، يا من لا إلَه إلا أنت سبحانَكَ، أسألك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً، وأن تَقْذِفَ حُبَّكَ في قلبي حتى لا يكون لي هم ولا ذكر غيرك، وأن تَحْفَظني وترحمني يا أرحم الراحمين».

---

(١) روح البيان.

وقال بعضهم: سَبَبُ ابتلاء يعقوبَ بفراق يوسف ما روي في الخبر أنه ذَبَح جَدْياً بَيْنَ يدي أُمِّهِ فلم يَرْضَ اللَّهُ تعالى ذلك منه، وأَرَى دماً بدم، وفرقةً بفرقة، لعظمةِ احترام شأن النبوة، ومن ذلك المقام: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

وقال بعضهم[1]: لما وُلِدَ يوسُفُ اشترى يعقوب له ظئراً، وكان لها ابن رضيع، فباع ابْنَها تكثيراً لِلَّبَنِ على يوسف، فبكَتْ وتضرَّعَت، وقالت: يا رب إنَّ يعقوبَ فَرَّق بيني وبين ولدي، ففرق بينه وبين ولده يوسف، فاستجاب الله دعاءها فلم يَصِلْ يعقوب إلى يُوسُفَ إلا بعد أن لَقِيَتْ تلك الجارية ابنَها. هذا بالنسبة إلى حال يعقوب وابتلائه، وأمَّا بالنسبة إلى يوسف، فقد حكي أنه أخَذ يوماً مرآةً فنظر إلى صورته، فأَعْجَبَه حسنه، وبهاؤه، فقال: لو كنتُ عَبْداً فباعوني لما وجد لي ثمن، فابتليَ بالعبودية، وبِيعَ بثمن بَخْسٍ، وكان ذلك سببَ فِرَاقِهِ من أبيه. وفيه إشارة إلى أنَّ الجَمَال والكمالَ كلَّه لله تعالى.

﴿و﴾ لَمّا طرحوا يوسف في الجب ﴿جاءوا أباهم عشاء﴾؛ أي: رَجَعُوا إلى أبيهم، وَقْتَ العشاء في ظُلمة الليل، لِيَكُونُوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب. فَلَمَّا بَلَغُوا مَنْزِلَ يَعْقُوب جَعَلُوا ﴿يَبْكُونَ﴾؛ أي: يَتَبَاكَوْن ويصرخون لأنهم لم يبكوا حقيقةً بل فعلوا فِعْلَ من يبكي ترويجاً لكذبهم، وتَنْفِيقاً لمكرهم، وغَدْرِهِم، فسمع أصواتَهم، ففَزِعَ من ذلك، وقال: ما لكم يا بنيَّ هل أصابكم في غَنمِكم شيء؟ قالوا: الأمرُ أعظمُ، قال: فما هو؟ وأينَ يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ حالةَ كونِنَا ﴿نَسْتَبِقُ﴾؛ أي يسابِقُ بَعْضُنَا بعضاً في الرمي، أو العَدْوِ. وقيل: ننتضل[2] ويؤيده قراءةُ ابن مسعود: ﴿ننتضل﴾. قال الزجاج: وهو نوعٌ من المسابقة. وقال الأزهري: النضالُ في السهام، والرِّهانُ في الخيل، والمسابقةُ تجمعهما. قال القشيري: ﴿نستبق﴾؛ أي: في الرمي أو على الفرس، أو على الأقدام. والغرض من المسابقة التدرب بذلك للحرب. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾؛ أي: عند ثيابنا، وأزوادنا لِيَحْرُسَها ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ عَقِبَ ذلك من غير

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

مضي زمان يعتاد فيه التفقدُ والتعهدُ؛ لأنَّ الفاءَ للتعقيب، وقد اعتذروا إليه بما خَافَه سابقاً عليه، ورُبَّ كلمة تقول لصاحبها دَعْنِي ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾؛ أي: بِمُصَدِّقٍ لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والمقالة التي قُلْنَاها ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ أي موصوفين بالصدق، والثقة لِمَا قَدْ عَلِقَ بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له. قال الزجاج: والمعنى: ولو كنَّا عندك من أهل الصدق، والثقة ما صدَّقتنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف، وكذا ذكره ابن جرير.

فائدة: والفرق[1] بين الصدق والتصديق: والكذب والتكذيب: أنَّ الصدق: هو الإخبارُ عن الشيء على ما هو به. والكذب: الإخبارُ عنه على خلاف ما هو به. والتصديق باللسان: الإخبارُ بكون القائل صادقاً، وبالقلب: الإذعان والقبولُ لذلك. والتكذيب بخلاف ذلك.

والمعنى[2]: أي جَاؤُوه وقت العشاء حين خَالَطَ سوادُ الليل بياضَ النهار، حالَ كونهم يبكون لِيُقْنِعُوه بما يريدون، قائلين له: إنا ذَهَبْنا من موضع اجتماعنا نَتَسَابَقُ، ونَتَرامَى بالنِّبَال، وتركنا يُوسُفَ عند ثِيَابِنَا، وأزوادنا لِيَحْفَظَها، إذ لا يستطيع مجاراتِنَا في استباقنا الذي يرهقُ القوِيَّ، فأكَلَه الذِّئبُ إذ بَعُدْنَا عنه، ولم نسمع استغاثته، ولا صُراخَهُ ونحن نعلم أنك لا تُصدِّقُنَا، ولو كُنَّا عندك صادقين، فكيفَ وأنت تتهمنا في ذلك، ولك العذر في هذا لغرابة ما وقَعَ، وعجيب ما اتَّفَقَ لنا في ذلك الأمر. وقوله: ﴿عِشَآءٗ﴾ نصب على الظرف، أو من[3] العشوة، والعَشْوَةُ: الظلام، فجُمِعَ على فعال مثل رَاع ورُعاء، ويَكون انتصابه على الحال كقراءة الحسن: ﴿عُشى﴾ على وزن دجى جمع عاش حَذف منه الهاء، كما حذفت في مالك وأصلُه مالكة. وعن الحسن: (عشياً) بالتصغير لعشي أي آخر النهار.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿وَجَآءُو﴾؛ أي: جاء إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾؛ أي: فَوقَ قميص يوسف، فهو منصوب على الظرفية، من قوله: ﴿بِدَمٍ﴾؛ أي: جَاؤوا بدم فوقَ قميصه، أو على الحالية منه، والخلافُ في تقدُّم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحال ظرفاً ﴿كَذِبٍۚ﴾ مصدر وصف به الدم مبالغةً كأنَّ مجيئَهم من الكذب نفسه، كما يقال للكذَّاب: هو الكذب بعينه، أو مصدرٌ بمعنى مفعول، أي مكذوب فيه؛ لأنه لم يَكُنْ دَمُ يوسف. وقرأ[1] الجمهور: ﴿كذِبٍ﴾ وَصْفاً للدم على سبيل المبالغة، كما قلنا آنِفا أو على حذف مضاف؛ أي: ذي كذب لمَّا كان دالاً على الكذب وصف به، وإن كان الكَذِبُ صَادِراً من غيره. وقرأ زَيْدُ بن علي: ﴿كَذِباً﴾ بالنصب على الحال، فاحتمل أن يَكُونَ مصدراً في موضع الحال، وأن يَكُونَ مَفْعُولاً لأَجْلِهِ. وقرأت عَائِشَةُ والحسن: ﴿كَدِبٍ﴾ بالدال المهملة، وفسرِّ بالكدر. وقيل: الطَّرِيِّ. وقيل: اليابس.

روي[2] أنهم ذَبَحُوا سخلةً ولَطَخُوه بدمها، وزَالَ عنهم أن يمزِّقُوه فلَمَّا سمع يعقوبُ بخبر يوسف، صاح بأعلى صوته، فقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه، وبكى حتى خَضِبَ وَجْهَه بدم القميص، قال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أَكَل ابني، ولم يمزِّقْ عليه قَمِيصَهُ. وقوله: ﴿قَالَ﴾ مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما قال يعقوب؟ هل صدَّقهم فيما قالوا: أو لا؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ يعقوب جواباً لهم لم يكن ذلك الذي أخْبَرْتُمُوه لي صدقاً ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وزينتْ وسَهَّلَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والتسويل[3]: تقدير شيء في الأنفس مع الطمع في إتمامه. قال الأزهري: كأن التسويلَ تفعيل من سؤال الأشياء، وهي الأمنية التي يطلبها فيزيَّن لطالبها الباطلُ وغَيْرُه. ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور مُنْكراً لا يُوصَفُ ولا يُعْرَفُ فصنعتموه بيوسف، استدلَّ يَعْقُوبَ على أنهم فَعلُوا بيوسف ما أرادوا، وأنهم كاذبون، بشيئين: بما عرف منْ حسدهم الشديد، وبسلامة القميص، حيث لم يَكُن فيه خرق ولا أثر نَاب؛ فقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ ردٌّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

لقولهم: ﴿أكله الذئبُ﴾، وبل للإعراض عمَّا قبله، وإثبات ما بعده على سبيل التدارك، نحو: جاء زيد بل عَمْرُو كما في «بحر العلوم»؛ أي: قال[1] يعقوب ليس الأمر كما تقولون: بل زيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً غَيْرَ ما تَصِفُون. قيل: لَمَّا جاءوا على قميصه بدمٍ جَدْيٍ ذهلوا عن خَرْقِ القميص. فلَمَّا رأى يعقوبُ القميصَ صحيحاً قال: كذبتم لو أَكَله الذئبُ لَخَرق قَمِيصَه. وقالَ بعضُهم: بل قَتَلَهُ اللُّصُّ. فقال: كيفَ قَتَلُوه وتَرَكُوا قَمِيصَه؟ وهم إلى قميصه أحْوَجُ منه إلى قَتْلِه. وقيل: إنهم[2] أتوه بذئب، وقالوا: هذا أَكَلَه، فقال يعقوب: أيها الذِّئْبُ أنْتَ أكلت ولدي، وثمرة فؤادي، فأنطقه الله عز وجل وقال: والله ما أكلْتُ ولدَكَ ولا رأيته قطُّ، ولا يَحِلُّ لنا أن نأكل لُحومَ الأنبياء. فقال يعقوب: فكيف وَقَعْتَ في أرض كنعان، قال: جئت لصلةِ الرحم قرابة لي فأخذوني، وأتوا بي إليك فأطْلَقَه يعقوب.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فصبري صبر جميل، أو فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أولى من الجزع، والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه إلى أحد إلا إلى الخالق سبحانه وتعالى، وإلا فقد فقال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

واعلم[3]: أنَّ الصَّبْرَ إذا لم يكن فيه شكوى إلى الخلق، يَكُونُ جميلاً، وإذا كَان فيه مع ذلك شكوى إلى الخالق يكون أجمل لِمَا فيه من رعاية حق العبودية ظاهراً، حيث أمسك عن الشكوى إلى الخلق، وباطناً حيث قصَّرَ الشكوى على الخالق، والتفويض جميل، والشكوى إليه أجملُ. وأما[4] الهجرُ الجميلُ فهو الذي لا إيذاء معه. وأما الصَّفْحُ الجميل فهو الذي لا عِتَابَ بعده، وقد تحقق بجميعها كل من يوسف ويعقوب.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾؛ أي: المطلوب منه العونُ، وهو

(١) المراح.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) الصاوي.

إنشاء الاستعانة المستمرة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على تحمل المكاره التي تذكرونها في أمر يوسف، أو على إظهار حال ما تصفون من شأن يوسف، وبيان كونه كذباً، وإظهار سلامته كأنه عَلِمَ منه الكذب، وكأن[1] الله تعالى قد قَضَى على يعقوبَ أن يُوصِلَ إليه تلك الغموم الشديدةَ، والهمومَ العظيمة، لِيَكْثُرَ رُجُوعُه إلى الله تعالى، وينقطِعَ تعلق فكره عن الدنيا فيصلَ إلى درجةٍ عاليةٍ في العبودية، لا يمكن الوصول إليها إلاَّ بتحمل المِحَنِ الشديدة، والله أعلم. وقرأ[2] أبي والأشهب، وعيسى بن عمر: ﴿فصبراً جميلاً﴾ بنصبهما، وكذا هي في مصحف أُبي، ومصحف أنس بن مالك. وروي كذلك عن الكسائي، ونَصبه على المصدر الخبريِّ، أي فاصبر صبراً جميلاً. قيل: وهي قراءة ضعيفة عند سيبويه، ولا يصلح النصبُ في مثل هذا إلا مع الأمر، وكذلك يَحْسُن النَّصْبُ في قوله:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِيْ طُوْلَ ٱلسُّرَىٰ   صَبْرَاً جَمِيْلاً فَكِلاَنَا مُبْتَلَىٰ

ويروى صبر جميل في البيت، وإنما تصح قراءة النصب على أن يقدَّر أن يعقوبَ رَجع إلى مخاطبةِ نَفْسِهِ، فكأنه قال: فاصبري يا نفسي صبراً جميلاً.

ومعنى الآية: أي إنهم جَاؤوا بقميصه مُلَطَّخاً ظاهره بدم غير دم يوسف، وهم يدعون أنه دمه ليشهد بصدقهم، فكانَ دليلاً على كذبهم، ومن ثم قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليستبين للقارىء والسامع أنه موضوع وضعاً متكلفاً إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميصُ، وتغلغل الدم في كل قطعة منه، ومن أجل هذا كلِّه لم يصدِّقْهم، وقال: هيهاتَ ليس الأمرُ كما تدَّعون بل سَهَّلَتْ لكم أنفسكم الأَمَّارةُ بالسوءِ أمراً نكراً، وزينته في قلوبكم فطَوَّعته لكم حتى اقترفتموه، وسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، وإنّي أستعين به على أن يَكْفِيَنِي شَرَّ ما تصفون من الكذب.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾؛ أي: رفقة مسافرون تسير من جهة الشام، يريدون مِصْرَ فأخطؤوا الطريقَ، فانطلقوا يَهِيمُون في الأرض حتى وقعوا في الأراضي التي فيها

---

(١) المراح.   (٢) البحر المحيط.

الجب، وهي أرض دوثن بَيْنَ مدين ومصر، فنزَلُوا عليه ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾؛ أي: بعثوا سَاقِيَهم ليطلب لهم الماء، وهو مَنْ يُهيِّىء الأرشية، والدِّلاءَ، فيتقدم الرفقة إلى الماء، يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ابن أخي شعيب عليه السلام، وهو رجلٌ من العرب العاربة من أهل مدين، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾؛ أي: فأرْخَى، وأنزل دلوه في جب يوسف ليأخذ الماء فتعلق يوسف به، فلم يقدر الساقي على نزعه وإخراجه من البئر فنَظَرَ فيه فرأى غُلاماً قد تعلق بالدلو، فنادى أصْحَابَهُ فـ ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾؛ أي: يا أصحابي. وقال الأعشى: إنه دعا امرأةً اسمها بشرى. وقال السديُّ: إنه نادى صاحبَهُ، واسمه بشرى كما قرأه. وعاصم والكسائي بغير ياء المتكلم بعد الألف المقصورة. وقال أبو علي الفارسي: والوجه أن يجعل البشرى اسماً للبشارة، فنادى ذلك بشارةً لنفسه، كأنه يقول: يا أيتها البشرى هذا الوقت، وقتك، ولو كنت مِمَّنْ يخاطب لخوطبت الآنَ، ولأُمِرْتِ بالحضور، ويدلُّ على هذا قراءة الباقين، ﴿يا بشرايَ﴾ بفتح ياء المتكلم بعد الألف على الإضافة. قالوا: ما ذلك يا مالك؟ قال: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أحسن ما يكون من الغلمان، فكَانَ يوسُفُ حَسَنَ الوجه، جَعْدَ الشَّعْرِ، ضخم العَيْنَين، مُسْتَوِي الخلق، أبيض اللون، غَليظ الساعدين، والعضدين، والساقين، خَميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسَّم ظهر النور من ضواحكه، وإذا تكلم ظهر من ثناياه شعاع النور، ولا يستطيع أحد وَصْفَه. وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشْبِهُ آدم عليه السلام يَوْم خَلَقه الله تعالى قبل أن يصيب الخطيئةَ، اهـ خازن.

فاجتمعوا عليه فأخرجوه من الجب بعد مكثه فيها ثَلاثَةَ أيام ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: أسَرُوا يُوسُفَ وأخفوه حَالةَ كونه ﴿بِضَٰعَةً﴾؛ أي: مَتَاعاً للتجارة؛ أي: كَتَم الواردُ وأصحابه شأنَ يوسف من بقية القوم الذين معهم، وقالوا: إنه بضاعة استبضعناه، وحملناه لبعض أهل المال إلى مصر، وإنما قالوا ذلك خِيفَة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، وذلك لأن الواردَ وأصحابَه قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه من الجُبِّ شاركونا فيه قَهْراً. وإن قلنا: اشتريناه سألونا الشركة فالأصوبُ أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بِضَاعَةً عندنا على أن نبيعه لهم بمصر. وقيل: إن إخْوَةَ يُوسُفَ أَسَرّوا شأن يوسُفَ، يعني أنهم أخفوا أمر يوسف، وكونه أخاً لهم بل

قالوا: هو عبدٌ لنا أبَقَ. وصدقهم يوسف على ذلك؛ لأنهم توعدوه بالقتل سرّاً من مالك بن ذعر، وأصحابِه. والقول الأول أصحُّ لأن مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعةً وأصحابه. والبضاعةُ: ما بُضِعَ من المال للتجارة، أي: قُطِعَ.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بما يعمل إخْوَة يُوسُفَ بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع، ولَمْ يَخْفَ عليه أسرارهم يعني من إرادة إهلاك يوسف، فجعل ذلك سبباً لنجاته، وتحقيقاً لرؤياه حتى يصيرَ ملك مصر بعد أنْ كان عبداً.

قال أصحاب الأخبار[١]: إنَّ يهوذا كان يأتي يوسُفَ بالطعام، فأتاه فلم يَجِدْه في الجبِّ فأخبر إخْوته بذلك، فطلبوه، فإذا هم بمالك بن ذعْرٍ وأصحابه نزولاً قريباً من البئر، فأتوهم، فإذا يوسف عندهم. فقالوا لهم: هذا عبدنا أبق منا، ويقال: إنهم هددوا يوسفَ حتى يكتم حالَه، ولا يعرفها أحد، وقال لهم مثل قولهم. ثم إنهم باعوه منهم كما قال: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾.

وفي هذه الجملة[٢] وعيد شديدٌ لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن، وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسُفَ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام.

والمعنى[٣]: أي وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مَدْيَنَ إلى مِصْرَ فأرسلوا وَارِدَهُمْ الذي يجلب لهم الماء للاستسقاء، فأرسل دَلْوه ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف. ولما خَرَجَ وراه قال مُبشِّراً جماعته السيارة: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ أي: آن وقت البشرى فاحضري، كما يقال: يَا أسفاً، ويا حسرتا، إذا وقع ما هو سبب لذلك، فاستبشرتْ به السيارة، وأخفوه من الناس لئلا يَدَّعِيهِ أحدٌ من أهل ذلك المكان لأن يَكُونَ بضاعة لهم من جملة تجارتهم، والله عليم بما

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

يعمله هؤلاء السيارة، وما يعمله إخوةُ يوسُفَ فلكل منهم مقصد خاص في يوسف، فالسيارة يدَّعون بالباطل، أنه عبد لهم فيتجرون فيه، وإخوةُ يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه، ويدَّعُونَ أنَّ الذِّئبَ قد أكله، وذلك كيد بالباطل لِيُمْضِي فيه وفيهم حُكْمَهُ السابقَ في علمه، وليرى إخوةُ يوسُفَ ويُوسُفُ وأبوه قُدْرَتَه تعالى على تنفيذ ما أراد.

وفي هذا تذكير من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وتسلية له على ما كان يلقى من قومه، وأقْرِبَائِه وأنسبائه المشركين من الأذى، فكأنه يقول له: اصبر على ما نالك في الله تعالى، فإني قادر على تغيير ذلك كما قدرت على تغيير ما لَقِيَ يوسف من إخوته، وسيصير أمْرَكَ إلى العلو عليهم، كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم. ﴿وَشَرَوْهُ﴾؛ أي: باعوه في مصر؛ أي: باع يوسف مالك بن ذعر وأصحابه في مصر بعد أن وَصلُوا إليها وهو من الأضداد. والضمير للوارد وأصحابه، أو الضمير لإخوة يوسف؛ أي: باع إخوة يُوسُفَ يُوسُفَ للوارد وأصحابه، ويحتمل أن يكونَ الشِّراء على معناه؛ أي: واشترى الوارد وأصحابه يُوسُفَ من إخوته إذ جعلوه عُرْضَةً للابتذال بالبيع والشراء؛ لأنهم لم يَعْرِفُوا حَالَهُ إما لأنَّ الله تعالى أغفلهم عن السؤال، ليقضي أَمْراً كان مفعولاً، أو لأنهم سألوا عن حاله، ولم يفهموا لُغَته لكونها عِبْريةً، أي باعوه في مصر. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾؛ أي[1]: مبخوس ناقص في نفسه لكونه زَيْفاً، وفي قدره لكونه قَلِيلاً فبخس هنا بمعنى مبخوس، لأنَّ الثَمَن لا يوسف بالمعنى المصدري، الذي هو النقص، ووصف بكونه مبخوساً، إما لردائته وغشه، أو لنقصان وزنه، من بخسه حقه؛ أي: نقصه. وقال بعضهم: بثمن بخس؛ أي: حرام منقوص، لأن ثمن الحر حرام، انتهى. حمل البخس على المعنى لكون الحرام ممحوقَ البركات، والقولُ الأول هو الأصح. وقوله: ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾؛ أي: قليلة غير موزونة، فهو بيان لقلته، ونقصانه مقداراً بعد بيان نقصانه في نفسه، بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾؛ أي: زيف، لأنهم كانوا يَزِنُونَ الأوقية، وهي أربعون درهماً

---

(١) روح البيان.

ويعدون ما دونها. فعن ابن عباس: أنها كانت عشرين درهماً. وعن السدي: اثنين وعشرين درهماً. وقال عكرمة: كانت أربعين درهماً.

﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: البائعون ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في يُوسُفَ ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ أي: مِمَّنْ يرغب ويعرض عما في يده، فيبيعه بما طفَّ ونَقُصَ من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يَظْهَرَ له مستحق فينزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثَمن وأرخصه. وأصل[1] الزهد: قِلَّةُ الرغبةِ، يقال: زَهِدَ فلان في كذا، إذا لم يكن له فيه رغبةٌ. والضمير في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إن قلنا: إنه يرجع إلى إخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه، وأرادوا إبعاده عنهم، ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن، وإن قلنا: إن قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يرجع إلى معنى واحد، وهو: أن الذين شَرَوْه كانوا فيه من الزاهدين، كان وجه زهدهم فيه: إظهار قلة الرغبة فيه، ليشتروه بثمن بخس قليل. ويحتمل أن يقالَ: إنَّ إخْوَتَهُ لما قالوا: إنه عبدنا، وقد أبق، أظْهَرَ المشترِي قِلَّةَ الرغبة فيه لهذا السبب.

قال أصحاب الأخبار[2]: ثمَّ إن مالك بن ذعر وأصحابَه لما اشتروا يُوسُفَ انطلقوا به إلى مصر، وتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه، لا يأبق منكم، فذهبوا به حتى قدموا مصر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما دخلوا مصرَ لقِيَ قِطْفِيرٌ - صاحب أمر الملك -، وكان على خزائن مِصرَ مالِكَ بن ذعر فاشترى يوسُفَ منه بعشرين ديناراً، وزوج نعل، وثوبين أبيضين.

وقال وهب بن منبه: قَدِمَتِ السيارة بيوسف مِصْرَ، ودخلوا به السوقَ يُعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً، ووزنه فضة، ووزنه مِسْكاً وحَريراً. وكان وزنه أربع مئة رطل. وكان عمره يومئذ ثلاث عَشَرةَ سنةً، أو سبع عشرة سنة. فابتاعه قطفير - وكان يسمَّى العزيز - بهذا الثمن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

والمعنى[1]: أي وباعه السيارة في مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التي تعد عداً، ولا توزن وزناً، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية أربعين درهماً، فَما فوقَها، ويعدون ما دونها، ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود. وفي سِفرِ التكوين من التوراة: إنَّ إخْوَتَه قرروا بيعه للإسماعيليِّين؛ أي: للعرب، وقد أخرجه من الجب جماعة من أهل مدين، وباعوه لهم. وكانَ الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغونَ الخلاصَ منه، لئلا يَظْهَرَ مَنْ يطالبهم به، لأنه حُرٌّ، والثَّمَنُ لم يكن مَقْصُوداً حِينَ بيعه، ومِنْ ثَمَّ قَنِعوا بالبخس منه.

الإعراب

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓرۚ﴾ تقدم البحث في إعرابه ومعناه. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال موطئة من ضمير المفعول في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق، أي حَالَةَ كونه مقروءاً؛ أي: مجموعاً. ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة ﴿قُرْءَٰنًا﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن) والجملة مستأنفة. ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ. ﴿نَقُصُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ مفعول مطلق، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِمَآ﴾ (الباء) حرف جر وسبب. (ما) مصدرية. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به. ﴿هَٰذَا﴾ في محل النصب مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما)

---

(١) المراغي.

مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بإيحائنا إليك هذا القرآن، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَقُصُّ﴾. ﴿وَإِن كُنتَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. (إن) مخففة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: وإنه. (كنتَ) فعل ناقص واسمه. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ متعلق بـ (كنت). ﴿لَمِنَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿مِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ جار ومجرور خبر (كان) وجملة (كان) في محل الرفع خبر (إن) المخففة، وجملة (إن) المخففة في محل النصب حال من (كاف) ﴿عَلَيْكَ﴾..

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿نَقُصُّ﴾ أو باذكر محذوفاً. ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لِأَبِيهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ (إذ). ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ (يا) حرف نداء. ﴿أبت﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المعوضة عنها تاء التأنيث للتفخيم، مَنَعَ من ظهورها اشتغال المحل بالفتحة المجلوبة لمناسبة التاء؛ لأن التاء لا يكون ما قبلها إلاَّ مفتوحاً ﴿أب﴾ مضاف وياء المتكلم المعوضة عنها تاء التأنيث في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون لشبهها بالحرفْ شبهاً وضعياً وتاء التأنيث حرف لا محل لها من الإعراب مبنية على الفتح، وإنما حركت لِكَونها على حرف واحد، وكانت الحركة فتحةً تحريكاً لها بحركة أصلها الذي هو الياء في بعض لغاتها، وجملة النداء في محل النصب مقول قال، اهـ «هدية أولي الإنصاف في إعراب المنادى المضاف».

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿رَأَيْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول قال على كونها جوابَ النداء. ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ عدد مركب في محل النصب على المفعولية الأولى، مبني على فتح الجزأين بنيَ الجزء الأول لشبهه بالحرف، شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى الجزء الثاني، في دلالته على المعنى المراد، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف، شبهاً

معنوياً لتضمنه معنى حرف العطف، وإنما حركا ليعلم أن لهما أصْلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحةً للخفة مع ثقل التركيب، ﴿كَوْكَبًا﴾ تمييز لـ ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ منصوب به. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ معطوفان على ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾. ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مؤكدة للجملة الأولى توكيداً لفظياً. ﴿لِى﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿رَأَيْتُ﴾.

وفي «الفتوحات»، قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنَّها جملة كررت للتوكيد، لما طال الفصل بالمفاعيل، كررت كما كررت أنكم في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كذا قاله الشيخ.

والثاني: أنه ليس بتأكيد، وإليه نحا الزمخشري فإنه قال: فإن قلت: ما معنى تكرار ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾.

قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال، وقَعَ جواباً له، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كيف رأيتَها سائلاً عن حال رؤيتها فقال: رأيتهم لي ساجدين؟.

قلت: وهذا أظهر لأنه متى دار الكلام بين الحَمْل على التأكيد، أو التأسيس، فَحَمْلُه على الثاني أولى، اهـ «سمين».

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ إلى قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بالفتح منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحةٌ مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحةً لمناسبة الألف المحذوفة، تلك الألف للتخفيف، ﴿بني﴾ مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف في محل الجر مضاف إليه. وبالكسر منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وجملة النداء في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾. ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿لا تقصص﴾ ﴿فَيَكِيدُوا۟﴾ (الفاء) عاطفة سببية. ﴿يكيدوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿لَكَ﴾ متعلق به، أو حال من ﴿كَيْدًا﴾. ﴿كَيْدًا﴾ منصوب على المصدرية، أو مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلَها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن قصك رؤياك إياهم فكيدهم إياك. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿عَدُوٌّ﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة عدو، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فعل ومفعول وفاعل والتقدير: ويجتبيك ربك للنبوة والرسالة اجتباءً مثل اجتبائه إياك بهذه الرؤية، والجملة معطوفة على جملة النداء السابق على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه في محل المفعول الثاني، والجملة الفعلية مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يعلمك﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ ﴿يتم﴾ أو بـ ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ جار ومجرور معطوف على عليك، وكرَّر (على) ليمكن العطف على الضمير المجرور كما هو مذهب البصريين. ﴿كَمَآ﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿أَتَمَّهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ يجوز أن يكونا بدلاً من أبويك، أو عطفَ بيان، أو على إضمار أعني، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور (بالكاف) تقديره:

كإتمامها على أبويك من قبل الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ويتم نعمته عليك إتماماً مثلَ إتمامه إيَّاها على أبويك من قبلُ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان له، وجملة إن مستأنفةٌ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾ (اللام) موطئة لقسم محذوف. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿فِي يُوسُفَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ (كان) على اسمها. ﴿وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ معطوف على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ اسم (كان) مؤخر. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره اذكر ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَيُوسُفُ﴾ (اللام) موطئة للقسم، أو حرف ابتداءٍ على الخلاف المار فيه. ﴿يوسف﴾ مبتدأ. ﴿وَأَخُوهُ﴾ معطوف عليه. ﴿أَحَبُّ﴾ خبر المبتدأ. ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ يتعلقان به، ولم تحصل المطابقة بين المبتدأ، والخبر؛ لأن الخبر هنا اسم تفضيل مجرد، وهو يلزم التذكير والتوحيد. قال ابن مالك:

وَإِنْ لِمَنْكُوْرٍ يُضَفْ أَوْ جُرِّدَا ... أُلْزِمَ تَذْكِيْراً وَأَنْ يُوَحَّدَا

و ﴿أَحَبُّ﴾ مصوغ من حب المبني للمفعول، وهو سماعي، ولو جاء على القياس ليوصل إليه بأشدَّ ونحوه. قال ابن مالك:

وَأَشْدِدَ أَوْ أَشَدَّ أَوْ شِبْهُهُمَا ... يَخْلُفُ مَا بَعْضَ الشُّرُوْطِ عَدِمَا

والجملة الاسمية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَنَحْنُ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿نحن عصبة﴾ مبتدأ وخبر، والجملة

في محل النصب حال من ضمير المتكلمين في ﴿مِنَّا﴾. ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿لَفِى﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَـٰلٍ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، وتمييز. ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱقْتُلُواْ﴾. ﴿أَرْضًا﴾ منصوب على الظرفية أو بنزع الخافض. ﴿يَخْلُ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذفُ حرف العلة. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فاعل، ومضاف إليه. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿يَخْلُ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿قَوْمًا﴾ خبر ﴿تكونوا﴾. ﴿صَـٰلِحِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة قائل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ إلى قوله ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به مجزوم بـ (لا) الناهية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَأَلْقُوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على جملة ﴿لَا تَقْتُلُواْ﴾. ﴿فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بالطلب السابق. ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم فاعلين فافعلوا هذا القدر؛ أي: إلقاءه في البئر، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ منادى مضاف منصوب بالألف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تَأْمَ۫نَّا﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة ظاهرة على النون المدغمة في نون (نا). (نا) ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿يعقوب﴾. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من كاف المخاطب، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿ناصحون﴾. ﴿لَنَـٰصِحُونَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. (ناصحون) خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب على الحال من مفعول ﴿تَأْمَ۫نَّا﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

﴿أَرْسِلْهُ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿مَعَنَا﴾ حال من مفعول ﴿أَرْسِلْهُ﴾. ﴿غَدًا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿أرسل﴾. ﴿يَرْتَعْ﴾ مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿وَيَلْعَبْ﴾ معطوف عليه. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بما بعده. ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾ خبر (إن) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة إنّ في محل النصب حال من(هاء) ﴿أَرْسِلْهُ﴾.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ﴾ إلى قوله ﴿قَالُوا۟﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿لَيَحْزُنُنِىٓ﴾ فعل مضارع ومفعول، و (نون) وقاية و (اللام) حرف ابتداء. ﴿أَن تَذْهَبُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ (أن) المصدرية. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وجملة ﴿تذهبوا﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، ليحزن تقديره: ليحزنني ذهابكم

به، وجملة ﴿يحزن﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَخَافُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ياء المتكلم في ﴿يحزنني﴾. ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول وفاعل منصوب بأن المصدرية، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ﴿أخاف﴾؛ أي: والحال أني أخاف أكل الذئب إياه. ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من (هاء) ﴿يأكله﴾ ولكنها حال سببية.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَئِنْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. (إن) حرف شرط. ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول، وفاعل في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من (هاء) ﴿أَكَلَهُ﴾. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿إِذاً﴾ حرف جواب وجزاء، ولكن لا عمل لها لدخولها على الجملة الاسمية. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ خبر (إنَّ) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة إن جوابَ القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب إن الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن أكله الذئب، فإنا إذاً لخاسرون، وجملة الشرط معترضةٌ بين القسم، وجوابه، وجملةُ القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة على محذوف تقديره: فأرسَلَه معهم، فلما ذهبوا به، وذلك المقدر معطوف على قوله سابقاً. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ كما في «الجمل». ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿ذَهَبُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ذَهَبُواْ﴾. ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ناصب وفعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ جار ومجرور في محل

المفعول الثاني، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ ﴿أَجْمَعُوٓا۟﴾ تقديره: وأجمعوا جعلهم إياه في غيابة الجب، وجواب (لما) محذوف تقديره: فعلوا به، ما فعلوا من الأذى، وجملة (لما) معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل معطوف على جواب (لمَّا) المحذوف. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به. ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿تنبئنهم﴾ فعل ومفعول. ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق به، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿هَٰذَا﴾ بدل من ﴿أمرهم﴾ أو صفة له، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محل لها من الإعراب، وجملةُ القسم في محل النصب مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿عِشَآءً﴾ منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿يَبْكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جاءوا﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿ذَهَبْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال على كونها جوابَ النداءِ. ﴿نَسْتَبِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿ذَهَبْنَا﴾. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ذَهَبْنَا﴾. ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ظرف، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تركنا﴾. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿تركنا﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (ما) حجازية أو تميمية. ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع اسمها أو مبتدأ. ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ خبر (ما) الحجازية، أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة. ﴿لَّنَا﴾ متعلق بـ﴿مؤمن﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَأَكَلَهُ﴾ على كونها مقول القول. ﴿وَلَوْ كُنَّا

صَٰدِقِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف تقديره: إن كنا غير صادقينَ فما أنت بمؤمن لنا. (لو) حرف شرط. ﴿كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة فعل شرط لـ(لو) لا محل لها من الإعراب، وجواب (لو) محذوف تقديره: ولو كنا صادقين، لاتهمتنا في هذه القصة، وجملة لو الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل النصب حال من ضمير (لنا) تقديره: وما أنت بمؤمن لنا حَالَةَ كَوْنِنا صَادِقِينَ وغَيْرَ صادقين.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَآءُو﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ظرف بمعنى فوق في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿دم﴾. ﴿بِدَمٍ﴾ متعلق بـ﴿جاؤوا﴾. ﴿كَذِبٍۚ﴾ صفة ﴿دم﴾ ولكنه في تأويل مشتق تقديره: مكذوب، والتقدير: ﴿وجاؤوا﴾ بدم حَالَةَ كونه فوق قميصه، وجملة ﴿جاؤوا﴾ مستأنفة. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿بَلۡ﴾ حرف ابتداء وإضراب إبطالي. ﴿سَوَّلَتۡ﴾ فعل ماض، وتاء تأنيث. ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق به. ﴿أَنفُسُكُمۡ﴾ فاعل. ﴿أَمۡرٗاۖ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَصَبۡرٞ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿صبر﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فصبري صبر جميل. ﴿جَمِيلٞۖ﴾ صفة ﴿صبر﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَوَّلَتۡ﴾. ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾. ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾. ﴿تَصِفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره على ما تصفونه.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، و(الفاء) عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاءت﴾.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الوارد، والجملة معطوفة على جملة ﴿أرسلوا﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الوارد، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: يا بشرى بالقصر منادى نكرة مقصودة. وفي قراءة: ﴿يا بشراي﴾ بالياء منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿بِضَٰعَةً﴾ معمولٌ لمحذوف، هو حال من (واو) (أسروه) تقديره: (وأسروه) حالَةَ كونهم جَاعِلِيه بضاعةً، أي شيئاً مُتموَّلاً. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره بما يعملونه.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على (أسروه). ﴿بِثَمَنٍۭ﴾ متعلق به. ﴿بَخْسٍ﴾ صفة لـ (ثمن) على تأويله بمشتق تقديره: مبخوس، أي: منقوص. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من (ثمن). ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ صفة لـ ﴿دَرَٰهِمَ﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ جار ومجرور خبر (كان)، وجملة (كان) معطوفة على جملة ﴿شروه﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل من أبان المتعدي، وسيأتي في قوله: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أنه من اللازم، فهو من أبَانَ بمعنى أظهَرَ أي: المُظْهِرُ للحق من الباطل، والحلال من الحرام. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ والعربي منسوب للعرب، لأنه نزل بلغتهم، وواحدُ العرب عربي كما أن واحد الروم رومي، اهـ «سمين».

واختلف العلماء هل يمكن أن يقالَ في القرآن شيء غير عربي. قال أبو عبيدة: ومن قال فيه شيء غير عربي، فقد أعظم على الله القول، واحتجَّ بهذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: أنَّ فيه من غير العربي مثل: ﴿سِجِّيلٍ﴾ و﴿المشكاة﴾ و﴿اليم﴾ و﴿استبرق﴾ ونحو ذلك، وهذا هو الصحيح المختار؛ لأن هؤلاء أعلمُ من أبي عبيدة بلسان العرب، وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى. ووجه الجمع بينهما أنَّ هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب، ودارَتْ على ألسنتهم صارت عربيةً فصيحةً، وإن كانت غير عربيةٍ في الأصل، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم، وصارت لهم لغةً فظَهَر بهذا البيان صحة القولين، وأمكن الجمع بينهما، اهـ «خازن».

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قص من باب: ردَّ والمصدر قَصَصاً بالفك، وقصاً بالإدغام. وفي «المصباح»: قَصَصْتُ الخَبَرَ قَصّاً من باب قتل، حدثته على وجهه، والاسم القصص بفتحتين، وقصصت الأثر: تتبعته، اهـ. وفي «البيضاوي»: القصص هنا بمعنى المفعول كالنقض والسلب بمعنى المنقوض والمسلوب، اهـ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وأحسن يجوز أن يكون أفعلَ تفضيل على بابه، وأن يكونَ لمجرد الوصف بالحسن، ويكونَ من باب إضافة الصفة لموصوفها؛ أي: القصص الحسن. وفي «الخازن»: أصل القصص في اللغة من قصَّ الخبر، إذا تتبعه، وإنما سميت الحكاية قِصَّةً لأن الذي يَقُصُّ الحديثَ يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً. والمعنى: نحن نبين لك أخبار الأمم السالفة أحسنَ البيان. وقيل: المرادُ خُصوص قصة يوسف، وإنما كانت أحسنَ القصص لما فيها من الحكم، والنكت، وسير الملوك، والمماليك، والعلماء، ومَكْرِ النساء، والصبر على الأذى، والتجاوز عنه أحسنَ التجاوز وغير ذلك من الفوائد الشريفة.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر تاء التأنيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة. وأصله: يا أبي فحذفت الياءُ، وأتي بالتاء عوضاً عنها، ونقلت كسرة ما قبل الياء، وهو الباء للتاء، ثم فتحت الباءُ على القاعدة في فتح ما قبل تاء التأنيث، وبفتح التاء، والأصل عليه: يا أبيَ، بكسر الباء، وفتح الياء، ففتحت

الباءُ ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلَها، ثم حذفت الألف، وعوَّض عنها تاءُ التأنيث، وفُتحت للدلالة على أنَّ أصلَها الألف المنقلبة عن الياء. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز لُحوقُ تاء التأنيث بالمذكر؟

قلت: كما جاز نحو قولك: حَمامَةٌ ذكرٌ وشاة ذكرٌ ورجل رَبْعَةٌ وغلام يفعة. قلت: يعني أنها جيء بها لمجرد تأنيث اللفظ كما في الألفاظ المستشهد بها، ثم قال الزمخشري. فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟

قلت: لأن التأنيثَ والإضافةَ يتناسبان في أن كلَّ واحد منهما زيادةٌ مضمومةٌ إلى الاسم في آخره.

قلت: وهذا قياس بعيد لا يعمل به عند الحذاق، فإنه يسمى الشبهَ الطَّرْدِيَّ يعني أنه شَبهٌ في الصورة، اهـ «سمين». ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ والسجودُ هنا: منْ سَجْدَ البعير إذا خَفَضَ رَأْسَهُ لراكبه حين ركوبه، وكان من عادة الناس في تحية التعظيم بفِلَسْطين، ومصر، وغيرهما، الانحناء مُبَالغَةً في الخضوع والتعظيم، وقدِ استعمله القرآن في انقياد كل المخلوقات لإرادة الله، وتسخيره، ولا يكون السجود عِبَادةً إلا بالقصد، والنية للتقرب إلى من يعتقد أنَّ له عليه سُلْطاناً غَيْبِياً فوق سلطان الأسباب المعهودة. ﴿رُءْيَاكَ﴾ الرؤيا مصدر رَئِيَ في المنام رؤيا على وزن فعلى، كالسقيَا والبشرى، وألفه للتأنيث، ولذلك لم يصرف. ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾ يقال: كاد له الأمر إذا دبَّر الكَيْدَ لأجله لمضرته، أو لمنفعته كما قال ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ كاد يَتَعدَّى بنفسه كما في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ وعدي هنا باللام لتضمُّنِه معنَى فعل يتعدى باللام، ولذا قال الشارح: يحتالوا في هلاك. قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قال: فيكيدوك كما قال: فكيدوني جميعاً؟

قلت: ضُمِّنَ معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيدَ معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون أفيد، وأبلغ، في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك، ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر، و﴿كَيْدًا﴾ مفعول به أي يصنعوا لك كيداً أي أمراً يكيدونك به، اهـ «سمين».

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بَين العداوةَ وظاهرها فهو من أبان اللازم. ﴿وَكَذَٰلِكَ

﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، والاجتباء من جبيت الشيء إذ حصلته لنفسك، اهـ بيضاوي. وفي «الخازن» واجتباءُ العبدَ تخصيصه إياه بفيض إلَهي تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعي من العبد، وذلك مختص بالأنبياء، وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين، اهـ. ومنه: جبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، ومعنى اجتباء الاصطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف، وتعديد نِعَمِ الله عليه. ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ والتأويل: الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود. والأحاديث جمع تكسير لحديثٍ فقيل لواحد: ملفوظ به، هو حديث، ولكنه شَذَّ جَمْعُه على أحاديثَ، وله نظائر في الشدود، كأباطيلَ، وأفاظيعَ، وأعاريضَ في باطل، وفظيعٍ وعريضٍ. وزَعَمَ أبو زيد أن له واحداً مقدراً، وهو أحدوثة، ونحوه، وليس باسم جمع، لأن هذه الصيغة مختصة بالتكسير، وإذا كانوا قد التزموا ذَٰلِكَ فيما لم يصرح له بمفرد من لفظه نحو: عباديد، وشَمَاطِيطَ، وأبابيلَ، ففي أحاديث أولى، اهـ سمين. ومعنى تأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا، فالمراد بالرؤيا ما يرى في النوم، وسمي أحاديث؛ لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقةً وأحاديث الشيطان، والنفس إن كانت كاذبةً، اهـ بيضاوي. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ أحب أفعل تفضيل، وهو مبني من حبَّ المبنيّ للمفعول، وهو شاذ، وإذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب، والبغض تَعدَّى إلى الفاعل المعنوي بإلى، وإلى المفعول المعنوي باللام، أو بفي فإذا قلتَ: زيد أحبُّ إليَّ من بَكْرٍ كانَ معناه أنك تحب زيداً أكثرَ من بكر، فالمتكلم هو الفاعلُ، وكذلك إذا قلت هو أبغض إليّ منه، كانَ معناه أنت المبغض، وإذا قلتَ: زيدٌ أحب لي من عمرو، أو أحب في منه كان معناه: إنَّ زيداً يحبني أكثر من عمرو، وعلى هذا جاءت الآية الكريمة فإنَّ الأبَ هو فاعل المحبة، اهـ سمين. وقوله: وهو شاذ يُشْكِلُ عيه وقوعَه في القرآن إلا أن يجابَ بأنه شاذ قياساً، فصيح استعمالاً لوروده في أفصح الفصيح، تأمل. ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ والعصبة: ما زاد على عشرة. وعن ابن عباس ما بين عشرة وأربعين. وقيل: الثلاثة نَفَرٍ فإذا زادوا إلى تسعة فهم رهط، فإذا بلغوا العشرة فَصَاعِداً فعُصْبَةٌ. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: من عشرة إلى خمسة عشرَ. وقيل: ستة. وقيل: تسعة، والمادة تدل على الإحاطة من العصابة

لإحاطتها بالرأس، اهـ سمين. ولا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر، والرهط، وقد كانت الإخوة عشرةً.

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قال الهروي: والغيابة: سدٌّ أو طاقٌ في البئر، قريبُ الماء يغيب ما فيه عن العيون. وقال الكلبي: الغيابة تكون في قعر الجب؛ لأن أسفله واسع، ورأسه ضيق، فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه. وقال الزمخشري: هي غوره، وما غاب منه عن عين الناظر، وأظلم من أسفله. والجب: البئر التي لم تُطْوَ، ويقال لها: قبل الطيي رَكِيَّةٌ فإذا طويت قيل لها: بئر سمِّيت جُبّاً إما لكونها محفورة في جيوب الأرض؛ أي: ما غلظ منها، وإما لأنها قطعت في الأرض قطعاً، ومنه الجب في الذكر. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ والالتقاط: أخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق، أو من حيث لا يحتسب، ومنه اللقطة. واللقيط: يعني: يأخذه بعض المسافرينَ فيَذْهَبُ به إلى ناحية أخرى، فيستريحوا منه، اهـ «خازن». والسيارة: الجمع الذين يسيرون في الطريق، جمع سيار؛ أي: المبالغ في السير، اهـ خطيب. وفي «المختار»: السيارة القافلة، اهـ. ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ وفي «السمين»: وقرأ العامة: تأمنا بالإخفاء؛ أي: إخفاءِ النون عند النون المتحركة. والإخفاء: هو عبارة عن تضعيف الصوت بالحركة، والفصل بين النونين، لأنَّ النونَ تسكن رأساً، فيكون ذلك إخفاءً لا إدغاماً. وقرأ بعضهم ذلك بإشمام، وهو عبارة عن ضم الشفتين إشارة إلى حركة الفعلِ مع الإدغام الصريح، كما يشير إليه الواقف. وفيه: عُسْرٌ كَبِيرٌ، قالوا: وتكون الإشارة إلى الضمة بعد الإدغام وقبل كَمَالِه. وقرأ أبو جعفر بالإدغام الصريح من غير إشمام، وقرأ الحسن ذلك بالإظهار مبالغةً في بيان إعراب الفعل، وللمحافظة على حركة الإعراب. واتفق الجمهور على الإخفاء أو الإشمام كما تقدم تحقيقه، اهـ. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ جمع ناصح، والناصح: المشفق المحب للخير. وعبارة «الخازن» هنا: المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، والمعنى: وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته، وبحفظه. ﴿غَدًا﴾ وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذي يلي يومك. وأصله غَدْوٌ فحُذفت لامه، وقد جاءَ تامّاً ذكره أبو حيان. ﴿نرتع﴾ الجمهور على أنَّ العين آخِر الفعل يقال:

رَتَعَ فلان في ماله، إذا أَنْفَقَهُ في شهواته. والأصل في الرتع أكل البهائم في الخصب، زمن الربيع، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير. والرَّتع: الاتساع في الملاذ، والتمتع في أكل الفواكه، ونحوها فمنهم من يسكن آخره على الجواب، ومنهم من يَضُمَّه على أن تكون حالاً مقدرة. ويقرأ: ﴿نَرْتَعِ﴾ بكسر العين، وهو نفتعل من رَعَى، أي نَرْعَى ماشيَتَنا، أو نأكلُ نحن ذكره أبو البقاء. ﴿ونلعب﴾ والمراد: باللعب لعب المسابقة، والانتضال بالسهام، ونحوهما مما يتدرب له لمقاتلة الأعداء، وتعليم فنون الحرب. قال الراغب: يقال: لَعب فلان، إذا كان فعلُهُ غيرَ قاصد به مقصداً صحيحاً. ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ والحزن: ألم القلب بفراق المحبوب، أو وقوع مكروه. ﴿وَأَخَافُ﴾ والخوف: ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه. ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ والذئب: سبع معروف، ويجمع على أذؤب، وذئاب، وذؤبان، وأرض مَذابة كثيرة الذئاب، وتذائبت الرياح جاءت من هنا ومن هنا فعل الذئاب.

﴿عِشَآءً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه ظرف أي وَقْتَ العشاء.

والثاني: أن يكون جمع عائش كقائم، وقيامٍ ويقرأُ بضم العين. والأصل: عُشَاة مثل غازٍ وغُزَاة، فحذفت الياء، وزيدت الألف عِوَضاً منها، ثم قلبت الألف همزةً. ويجوز أن يكونَ جمع فاعل على فِعَالٍ كما جمع فعيل على فعال كمرِيضٍ ومِرَاضٍ. ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ المتاع في اللغة كل ما انتفع به، وأصله النفع الحاضر، وهو اسم مصدر من متع تمتعاً كالسلام من سلم. ﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ فيه وصف الدم بالمصدر على سبيل المبالغة، فكأنَّه نَفْسَه صار كَذِباً، والفاعل والمفعول يسمَّيان بالمصدر كما يقال: ماء سكب؛ أي: مسكوبٌ والفاعل كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ وكما سموا المصدرَ بهما قالوا: للعقل المعقول، وللجلد المجلود، ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ اهـ كرخي. وقرىء: ﴿بدم كدب﴾ بالدال المهملة، والكدب: الكدر، وقيل: الطَّرِيُّ. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾؛ أي: زينت وسهّلت. وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه. قال صاحب «الكشاف»: سَوَّلَتْ: سَهَّلَتْ من السول بالتحريك، وهو الاسترخاء في العصب، ونحوه؛ أي: سَهَّلت لكم أنْفُسكُم أمراً عَظِيماً، فعلتموه

بيوسف، وهوَّنْتُمُوه في أنفسكم وأعينكم. ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾، والوارد: الذي يَرِدُ الماءَ، ليستَقِي للقوم. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ في «المختار» الدَّلْو: الذي يُسْتَقِى بها، ودَلَى الدلو إذا نَزَعها، وبابه عَدَا وأدلاها أرسلها في البئر. وفي «القاموس»: ودَلَوْتُ الدَّلْوَ ودليتها أرسلتها في البئر، ودلاَّها جَذَبَها لِيُخْرِجَها، والدلو مؤنث، وقد يذكر، اهـ. ويصَغَّر على دلية ويجمع على أدل ودلاءَ ودُلِّى. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: أَخْفَوْه من الناس ﴿بِضَٰعَةً﴾ والبضاعة: القِطْعَةُ من المال يفْرز للاتجار به من بَضَعْتُه إذا قَطَعْتُه، ومنه المَبْضَعُ. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ وشُري الشيء: إذا باعَهُ واشتراه إذا ابْتَاعَهُ. والبَخْسُ: النَّاقِصُ والمَعيب كما قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ والمراد هنا: الحرامُ أو الظلمُ لأنه بيع حر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تنزيلاً لبعد مرتبته في الكمال، وعُلو شأنه مَنْزِلَةَ البُعْدِ الحسّيِّ. ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال في[1] «بحر العلوم»: لعلَّ مُستعار لمعنى الإرادة لملاحظة العرب معنى الإرادة، أو الترجي في لَعَلَّ؛ أي: أنزلناه قرآناً عربياً، إرادَةَ أن تَعْقِلَه العربُ، ويفهموا منه ما يَدْعُوهم إليه، فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله، ولا يقولوا لنبيهم ما خُوطبنا به.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

ومنها: التعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لإجلال شأنه عليه السلام كما في «الإرشاد» فليست هي الغفلة المتعارفة بين الناس.

ومنها: عَطْفُ الخاصِ على العام في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لإظهار

(١) روح البيان.

شَرَفِهِمَا على سائر الطوالع كعطف الروح على الملائكة في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾.

ومنها: إجراءُ غير العقلاء مُجْرَى العقلاء في ضمير ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: التنكير للإبهام في قوله: ﴿أَرْضًا﴾؛ أي: أرضاً مجهولةً.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: ولغيرهم، فالسائلون هم اليهود ففيه اكتفاء، وهو ذِكْرُ أحد متقابلين، وحذفُ الآخر لعلمه من المذكور.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ وفي قوله: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَرْتَعْ﴾ لأنَّ الرتع حقيقةٌ في أكل البهائم في الخصب من الربيع، ويُستعَار للإنسان إذا أريد به الأكلُ الكثير كما مر.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ للدلالة على عظم ذلك الأمر؛ أي: أمراً عظيماً.

ومنها: الحذفُ والزيادةُ في عدَّةَ مواضِعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ
وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ
لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ
وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا
جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
(٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى
لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩) ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ
فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى
لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
(٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ...﴾ الآيتين، هاتان الآيتان مبدأُ قَصَصِ يوسف في بيت العزيز الذي اشتراه، وفيها بيان تمكين الله له، وتعليمه تأويلَ الأحاديث، وإيتائه حُكْماً وعِلْماً وشهادة من الله له بأنه من زمرة المتقين.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانَه وتَعالى لما ذكر[1] وَصِيَّة العزيز لامرأته بإكرام مثواه، وعَلَّلَ ذلك بحُسن الرجاء فيه، ثم بَيَّن عنايتَه سبحانَه به وتمهيدَ سبل كماله بتمكينه في الأرض، ذَكَرَ هنا مراودةَ امرأته له، ونظرها إليه بغير العينِ، التي نَظَرَ بها زَوْجُها إليه، وأرَادَتْ مِنه غير ما أراده هو، وما أرَادَ الله من فَوْقِهِمَا، وأعدت العُدَّةَ لِذلكَ فغَلَّقَتْ الأبوابَ، فهرب منها إلى باب المخْدَع، فقدَّتْ قَمِيصَه من خَلْف، ووَجَدَا زَوْجَها بالبابِ الخارجي، فبادرَتْ إلى اتهامه بإرادة السوء إلى أن استبانت براءته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى...﴾ الآيات، مناسبتُها لما قبلها، بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة مخَادَعَتَها ليوسُفَ عن نفسه، وتغليقَها الأبواب، وهرَبه منها إلى الباب، وجَذْبِهَا لقميصه، ورؤيةِ سَيِّدها لذلك الحادث، واتهامها لِيُوسُفَ بإرادة السوء منها. ذكر هنا تبرئةَ يوسف لنفسه، وحكم قريبِها في القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها، ثمَّ علم الزوج ببراءةِ يُوسُفَ وثبوتِ خطيئتها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: بعد أن ذكر سبحانه تحقيقَ زوجها في الحادث، وحكم أحد أقاربها بما رَأى وقد استبانَ منه براءةَ يُوسُفَ، ذكر هنا أنَّ الأمْرَ قد استفاض في بيوت نساء الوزراء، والكُبراء، فأحْبَبْنَ أن يَمْكُرْنَ بها لِتُرِيَهن هذا الشابَّ الذي فتنها جماله، وأذلَّها عَفَافُهُ وكماله حتَّى راودَتْه عن نفسه وهو فَتَاها، ودَعَتْهُ إلى نفسها فردَّها وأَبَاهَا خشيةً لله، وحفظاً لأمانة السيد المحسن إليه، أن يَخُونَه في أعز شيء لديه، علَّه بعد هذا يَصْبُو إليهن، ويَجْذِبُه جمالهن، ويكون له فيهن رَأْيٌ غير ما رآه فيها، فإنه قد أِلفَ جَمَالها قبل أن يَبْلُغ الأشُدَّ، وكان يَنْظُرَ إليها نظرةَ العبدِ إلى سيدته، أو الولد إلى والدته.

---

(١) المراغي.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اشترى يوسف ﴿مِن مِّصْرَ﴾؛ أي: في مصر لم يبين الكتاب الكريمُ اسم الذي اشتراه في مصر، ولا منصبه، ولا اسمَ امرأته؛ لأن ذلك لا يهم في العبرة من القصة، ولا يزيد في العظة، ولكن لَقَّبه النسوة فيما يأتي ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ وهو اللقب الذي لقب به يوسف بعد أن تولَّى إدارة الملك في مصر. والظاهر أنه لقب أكبر وُزراء الملك. قال في «القاموس»: العزيز: المَلِكُ لغلبته على أهل مملكته، ولَقَبُ مَنْ مَلَكَ مصر مع الإسكندرية، انتهى. وبيانُ كَوْنِه من مصر للإشعار بكونه غيرَ من اشتراه من الملتقطين، بما ذكر من الثمن البخس كما في «الإرشاد».

فالذي[1] اشتراه في مصر هو قطفير خَازِنُ الملكِ الريَّان بن الوليد، وكان صَاحِبَ جنوده، ورئيسَ الشرطة، وحامِيةِ الملك، وناظر السجون، وقد آمن الملك بيوسف، ومات في حياة يُوسُفَ عليه السلام، فملك بَعْدَه قابوس بن مصعب، فدعاه يُوسُفُ إلى الإسلام فأبى. وكانَ من نَسْلِهِ فرعونُ موسى. واشترى ذلك الوزيرُ يُوسُفَ، وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عَشَرَة سنة، واستوزره ريَّان بن الوليد، وهو ابنُ ثلاثين سنَةً. وآتاه الله المُلْكَ والحكمةَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً. وتوفي وهو ابن مئة وعِشْرين سنةً. وهو أول من عملَ القراطيسَ. وقوله: ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ متعلق بـ (قال) لا بـ (اشترى)؛ أي: قال لامرأته رَاعِيلَ بنتَ رعائيل، ولقبها[2] زُليخا بضم الزاي المعجمة، وفتح اللام والمد مصغراً كما في «عين المعاني» والمشهور في الألسنة فتح الزاي، وكسر اللام.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: اجعلي محلَّ إقامته كريماً حَسَناً مَرْضِياً. والمعنى: أحسني تعهده في المطعم، والمشرب وغيرهما. فهو كناية عن إكرام نفسه، وإحسان تعهده كما يقال: المقام العالي ويكنى به عن السلطان. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: يُكْنَى عن الشريف بالجَنابِ، والحضرة، والمجلس،

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

فيقال: السلامُ على حضرته المباركة، ومجلسه الشريف، والمرادُ به السلامُ عليه، لكن يُكْنَى عنه بما يتعلَّق به نوع التعلق إجلالاً، انتهى.

وخُلاصة ما قال[1]: أحسِنِي تعَهُّدَهُ وانظرِي فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتَمِّهِ.

ورُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾، وابنة شعيب حين قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ الآية، وأبو بكر رضي الله عنه حين استَخْلَفَ عُمَر بنَ الخطاب رضي الله عنه.

ثمَّ بَيَّنَ عِلَّةِ إكرامه برجائه فيه، وعظيم أمله في جليل مساعدته، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ أي: عَلَّه أن يَنْفَعَنا في أمورنا الخاصة إذا تدرَّبَ فيها، وعَرَفَ مَوارِدَها ومصَادِرَها، أو شؤون الدولة العامة، لِمَا يلوح عليه من مخايل الذكاء والنَّجابة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؛ أي: نتبناه، ونقيمه مقَامَ الولد فَيَكُون قُرة عَيْنٍ لنا، ووارثاً لمالنا، ومَجْدنا إذا تمَّ رشده، ونَضَج عقله. وفي الآية إيماء إلى شيئين:

١ ـ أنَّ العزيز كان عقيماً.

٢ ـ أنه كان صادق الفراسة، ثاقب الفكر.

فقد استدل من كمال خُلُقه وخَلْقِهِ على أنَّ حُسْنَ عشرته، وكرمَ وَفادته، وشرفَ تربيته مما يُكمل استعدادَه الفطرِيّ. فالتجارب دلَّتْ على أنه لا يفسد الأخلاقَ شيء أكثر مما تُفْسِدُها البيئة الفاسدة، وسوء القدوة.

والمعنى: أكرمي إقامتَه عندنا بحسن العشرة، نرجو من الله أن ينفَعَنا فيما نحتاج إليه، ويكفينا بَعْضَ المهمات، أو نتبناه، ونُقيمه مقام الولد، ولم يكن لنا ولدٌ. وكان العزيز هذا لا يأتي النساء أو عَقِيماً. فالمراد من نفعه أحدُ أمرين: إمَّا الرِّبحُ فيه إذا باعوه، أو معاونتُه لهم إن أبقَوه، وهذان غَيْرَ اتخاذه ولداً. ويَجُوز

---

(١) المراغي.

أن تكونَ ﴿أو﴾ مَانِعَة خُلُوٍّ فتجوِّزَ الجمع، اهـ «فتوحات».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما نجينا يوسف من القتل، والجبِّ وجَعَلْنَا في قلب الوزير حُنوّاً عليه ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أعطينا له مَكَانَةً؛ أي: رتبة عالية في أرض مصر. وهي أربعونَ فَرْسَخاً في أربعين فرسخاً. وقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ معطوف على محذوف متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾؛ أي: وكذلك مكنا ليوسف في أرض مصر، وجعلناه وجيهاً بين أهلها، ومحبَّباً في قلوبهم، لينشأ منه ما جرى بينه وبين امرأة العزيز، وليتصرَّف فيها بالعدل، ولنعلِّمه ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تعبير بعض المنامات، التي أعظمها رؤيا الملك، وصاحبي السجن ﴿واللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾، و (الهاء) عائدة على الله؛ أي: غالب على أمر يريده لا يرده شيء، ولا ينازِعُه أحدٌ فيما شاء، ويحكم في أمر يوسف وغيره، بل إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنَّ الأمر كله لله، وأن قَضَاءَ الله غالب، فمن تأمل في أحوال الدنيا عَرَف ذلك؛ أي: فما حدث من إخوة يوسف له، وما فعله مسترقوه، وبائِعُوه، وما وَصَّى به الذي اشتراه امرأتَه من إكرام مثواه، وما وقع له مع هذه المرأة من الأحداث، ومنْ دخولِهِ السجنَ، قد كان من الأسباب التي أراد الله تعالى له بها التمكينَ في الأرض، ولكنَّ أكثرَ الناس يأخذون الأمورَ بظواهرها، كما زَعَم إخوة يوسف أنه لو أُبْعِدَ يوسفُ عنهم خَلا لهم وجه أبيهم، وكانوا من بعده قوماً صالحين. وقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ إيماء إلى أنَّ الأقل يعلمون ذلك، كيعقوب عليه السلام، فإنه يعلم أنَّ الله غالب على أمره. فهذه أقواله السَّابقةُ واللاحقةُ صريحة في ذلك، ولكن عِلْمُه إجمالي لا تفصيليٌّ، إذ لا يحيطُ بما تخبئه الأقدارُ.

وبعد أن بيَّن سبحَانَه أنَّ إخوةَ يوسف أساؤوا إليه، وصَبَرَ على تلك الشدائد حتى مكَّنَ الله له في أرض مصر، بيَّن هنا أنه أتاه الحُكْمَ والعلم حين استكمال سن الشباب، وبلوغ الأشد، وأنَّ ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه في سيرته فقال عزَّ اسمه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: سن رشده وكمال قوته،

باستكمال نموه البدني والعقليّ. وقال أهل التفسير: أي منتهى اشتداد جسمه، وقوته واستحكام عقله، وتمييزه، وهو سنُّ الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وَهَبْنَاه ﴿حُكْمًا﴾ صَحِيحاً فيما يعرض له من مَهامّ الأمور، ومشكلات الحوادث مقروناً بالحق والصواب ﴿وَعِلْمًا﴾ لَدُنِيّاً، وفكرِيّاً بما ينبغي أن تسير عليه الأمور.

وقدَّرَ[1] الأطباء هذه السنَّ بخمس وعشرين سَنةً. وقد أثبت علماء الاجتماع أنَّ الاستعدادَ الإنسانيَّ يظهر رُوَيْداً رُوَيْداً حتى إذا ما بلغ المرء خَمْساً وثلاثين سنة وَقَف عند هذا الحد، ولم يظهر فيه شيء جديد غير ما ظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن. ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة.

وفي «روح البيان»[2]: والعقلاء ضبطوا مراتبُ أعمار الناس في أربع:

الأولى: سن النشوء والنَّماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة.

والثانية: سن الوقوف وهو سن الشباب ونهايته إلى أن تتم أربعون سنةً من عمره.

والثالثة: سن الكهولة، وهو سن الانحطاط اليسير الخفيّ، وتمامه إلى ستين سنة.

والرابعة: سنّ الشيخوخة، وهو سنُّ الانحطاط العظيم الظاهر، وتمامه عند الأطباء إلى مِئةً وعشرين سنة. والأَشُدُّ: غاية الوصول إلى الفطرة الأولى. وعبارةُ «الخازن» ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي[3] منتهى شبابه، وشدته، وقوته قال مجاهد: ثلاثةٌ وثلاثون سنة. وقال الضحاك: عِشْرُون سنةً. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال الكَلْبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنةً. وسُئِلَ مالك عن الأَشُدِّ فقال: هو الحُلُم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: آتينا يُوسُفَ بعد بلوغ الأشد، ﴿حُكْمًا﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

نبوة ﴿وَعِلْمًاۚ﴾؛ أي: فقهاً في الدين. وقيل: حُكْماً يعني إصابة في القول، وعَلماً، بتأويل الرؤيا انتهت. وقال القشيري: مِنْ جملة الحكم الذي آتاه الله نُفوذُ حكمه على نفسه حتى غَلَبَ شَهْوَتَه، فامْتَنَع عمَّا راودته زُليخَا عن نفسه، ومَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لم يَنفُذْ حُكْمُه على غيره.

قال الإمام نقلاً عن الحسن: كان يوسفُ نبياً من الوقت الذي أُلْقِيَ فيه في غيابة الجب لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ ولذا لم يقُلْ هُنا: ولمَّا بلغ أشدَّه واستوى، كما قال في قصة موسى، لأنَّ موسى أوحي إليه عند منتهى الأشدّ والاستواء وهو أربعون سنةً، وأوحي إلى يوسف عند أوله، وهو ثمان عشرة سنةً. وعن الحسن: مَنْ أَحسَنَ عبادةَ ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهالِه، وفيه إشارة إلى أنَّ المطيع تُفْتَحُ له ينابيع الحكمة، وتنبيه على أنَّ العطِيَّة الإلَهية تَصِلُ إلى العبد. وإن طَالَ العَهْدُ إذا جاءَ أوانُها فلطالبِ الحق أن ينتظر إحسانَ الله تعالى، ولا ييأس منه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب الذي جَزَيْنا يوسف ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: كلَّ مَنْ يُحْسِنُ في عمله، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعارٌ بعَلِيّة الإحسان له، وتنبيهٌ على أنه سبحانه إنما أتاه الحكمَ والعلم لكونه مُحْسِناً في أعماله، متقياً في عنفوان أمره، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. قال بعضهم: نجزي المحسنين الذين يحسنون لأنفسهم في الطلب، والإرادة والاجتهاد، والرِّيادة فمَنْ أدْخل نَفْسَه في زمرة أهلِ الإحسان جزاه الله تعالى بأحْسَنِ الجزاء، وأحبه كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فمن أحبَّه الله تعالى نَالَ سَعَادةَ الدَّارَيْنِ.

والمعنى: أي ومثل ذلك الجزاءِ العظيمِ نُجازِي به المتحلِّينَ بصفة الإحسان الذين لم يدنِّسُوا أنفُسَهم بسيئات الأعمال، فنُؤتيهم نصيباً من الحكم بالحق، والعدل، وعلماً يظهره القولُ الفصلُ إذ يكون لذلك الإحسانِ تأثيرٌ في صفاء عقولهم وجَودةِ أفْهَامِهم وفقههم لحقائق الأشياء غيرَ ما يستفيدون بالكسب من غيرهم، ولا يتهيأ مثل ذلك للمسيئين في أعمالهم المتبعين لأهوائهم، وطاعة

شهواتهم. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾؛ أي: راودَتْ يوسفَ وطلبته المرأة ﴿ٱلَّتِي هُوَ﴾؛ أي: يوسف ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾؛ أي: في سَكَنِها ومَنْزِلها أن يحابيَ لها ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ويمكنَ لها من نفسه بالمواقعة عليها، والمجامعة بها. يقال: راودَ فلان جاريتَهُ عن نفسِهَا، وراودته هي عن نَفْسِهِ إذا حاول كل واحد منهما الوطءَ والجماعَ، وهي مفاعلة. وأصلها: أن تكونَ من الجانبين فجُعِلَ السببُ هنا في أحد الجانبين قائماً مقامَ المسبب، فكأن يوسُفَ عليه السلام ـ لمَّا كان ما أعطيه من كمال الخلق، والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له ـ مُراود لها، وإنما قال ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ولم يقُل امرأة العزيز أو زليخا قَصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة، والمحافظة على الستر عليها. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ عليها، وعلى يُوسُفَ؛ أي: أطبقَتْها، وكانت سبعةً، لأنَّ مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية، أو إنها أغْلَقَتْها لشِدّةِ خوفِها. ﴿وَقَالَتۡ﴾ ليوسف ﴿هَيۡتَ﴾؛ أي: هلمَّ إليَّ، وأَقْبِلْ وبَادِرْ، أو تهيأت ﴿لَكَ﴾ لتستمتع بي وتجامعني. والمعنى: وخادعَتْ امرأة العزيز يُوسُفَ عن نفسه، وراوغته ليريدَ منها ما تريد هي منه، مُخالفاً لإرادته، وإرادة ربه، والله غالبٌ على أمره. قال في «الكشاف»: كأنَّ المعنى خادعَتْه عن نفسه؛ أي: فعلت ما يفعلُ المُخادِعُ لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجَه من يده، وهو يحتال أن يأخذه منه، وهي عبارة عن التمحل في مواقعته إياها، اهـ.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾؛ أي: وأحْكَمَتْ إغلاق بابِ المخدعَ الذي كَانَا فيه، وباب البهو الذي يكون أمامَ الغُرَفِ في بيوت العظماء، وباب الدار الخارجيِّ وربَّما كان هناك غيرُها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: وقالَتْ: هلم أقْبِلْ وزيدت كلمةُ ﴿لَكَ﴾ لبيان المخاطب كما يقولونَ سقياً لك، ورَعْياً لك. وهذا الأسلوب هو الغاية في الاحتشام في التعبير، وقد يكون هناك ما زادته من إغراءٍ، وتهييج مما تقتضيه الحالُ، وما نُقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب فمثل هذا لا يُعْلَمُ إلا من الله، أو من الرواية الصحيحة عنها، أو عنه، ولا يستطيع أن يدَّعِي ذلك أحدٌ. وقرأ[1] نافع وابن ذكوان والأعرج وشيبة وأبو جعفر: ﴿هِيتَ﴾

---

(١) البحر المحيط.

بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء. والحلوانيُّ عن هشام كذلك إلاَّ أنه هَمَّزَ وقال: ﴿هِئْتَ﴾. وكذلك قرأ علي، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وطلحة، والمقرىء، وابنُ عباس، وأبو عامر في رواية عنهما، وأبو عمرو في رواية، وهشام في رواية، كذلك إلا أنهم ضَمُّوا التَّاء، وزيد بن علي، وابنُ أبي إسحاق كذلك إلا أنهما سهَّلاَ الهمزة. وذكر النَّحاس أنه قرىء بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة، وكسر التاء. وقرأ ابن كثير، وأهل مكة بفتح الهاء، وسكون الياء، وضم التاء. وباقي السبعة أبو عَمرو والكوفيون، وابنُ مسعود، والحسن، والبصريون، كذلك إلا أنهم فتحوا التاءَ. وابن عباس، وأبو الأسود، وابن أبي إسحاق وابنُ مُحيصن، وعيسى البصرة كذلك. وعن ابن عباس: ﴿هييتَ﴾ مثل حييت. فهذه تسع قراءات هي فيها اسمُ فعل إلاّ قراءة ابن عباس الأخيرة، فإنها فعل مبني للمفعول، مسهَّلُ الهمزة من هيأت الشيءَ، وإلا مَنْ ضَمَّ التاءَ، وكَسر الهاء سَوَاءٌ هَمَّز أم لم يُهَمِّزْ فإنه يحتمل أن يكون اسم فعل كحالها عند فتح التاء، أو كسرها، ويحتمل أن يكونَ فِعْلاً واقِعاً عن ضمير المتكلم من هاء الرجل يهيىء إذا أحسن هيئَتَهُ على مثال: جاء يجيء، أو بمعنى تهيأت يقال: هَيْتَ وتَهَيأتَ بمعنى واحد. فإذا كانَ فِعْلاً تعلقت اللام بِهِ. وفي هذه الكَلِمةِ لغات أُخر، أعرضنا عنها صَفْحاً خوف الإطالة.

وانتصب ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ على المصدر بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أعوذ بالله سبحانه وتعالى؛ عياذاً مما تدعينني إليه، وألْتَجِىء إليه، وأعْتَصِمُ به مما تريدين مني من فعل السوء فهو يعيذني أن أكُون من الجاهلين، كما سيأتي من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقربُ إلى فهم امرأة العزيز، والضميرَ للشأن؛ أي: إنَّ الشَّأْنَ والحالَ رَبِّي وسيِّدِيَ، ومالك رقبتي يعني العزيزَ قد أحسن معاملتي في إقامتي عندك، وأحسن مثوايَ، وإقامتي حيث أمرك، وأوصاك بقولِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فكيف أخونه في أهله، وأجيبُك إلى ما تريدين من ذلك، فلا أجزيه على إحسانه

بالإساءة. والأصحَّ أنَّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ أن يعود على الله سبحانه وتعالى، والمعنى: أي: إنَّ الله رَبِّي أحسن مثوايَ إذ نجَّاني من الجبِّ، وأقامني في أحسن مقام، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربي، ولا بمعنى السيد، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها. والفلاحُ: الظفرُ أي: إنَّ الشأنَ والحال لا يَسْعَدَ ولا يظفر الظالمون لأنفسهم وللناس بجناية وتعد على الأعراض، لا في الدنيا ببلوغ الإمامَةِ والرياسةِ، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى، ودخول جنات النعيم. وقيل: المعنى: لا يُفْلِحُ المجازون الإحسانَ بالإساءةِ. وقيل: المعنى: لا يُفْلِحُ الزناة.

وفي هذا إيماء[1] إلى الاعتزاز بربه، والأمانة لسيده، والتعريض بخيانة امرأته، واحتقارها بما أضمر نار الغيظ في صدرها. وقرأ[2] أبو الطفيل والجحدري: ﴿مثوي﴾ كما قرأ: ﴿يا بشرى﴾ وما أحسنَ هذا التنصل من الوقوع في السوء، استعاذَ أولاً بالله الذي بيده العصمةُ وملكوتُ كل شيءٍ. ثم نبَّه على أنَّ إحسانَ الله، أو إحسان العزيز الذي سَبَقَ منه لا يُناسِبُ أن يجازيَ بالإساءة. ثمَّ نفَى الفلاح عن الظالمين، وهو الظفر، والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالِماً أضع الشيء في غير موضعه، وأَتَعَدَّى ما حَدَّه الله تعالى لي.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد همَّتْ زُلِيخَا بيوسف عليه السلام، وقصدَتْ مخالطةَ يوسف، ومجامَعَتَهُ إياها؛ أي: قَصدَتْها[3] وعَزَمَتْ عليها عَزْماً جازماً، بَعدما باشَرَتْ مَباديها من المراودة، وتغليق الأبوابِ، ودَعْوته إلى نفسها بقولها: هَيْتَ لك، ولعلَّها تصدَّتْ هنالك لأفعال أُخَر من بَسْطِ يدِهَا إليه، وقَصْد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب، نحو الباب، والتأكيدُ لِدَفْعِ ما عسى يتوهم من اختصاص إقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الزواجر ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾؛ أي: وقَصَدَ يُوسُفُ بمخالطتها؛ أي: مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب ميلاً جبليّاً، لا يكادُ يَدْخُل تحت التكليف لا قصداً اختيارياً؛ لأنه كما أنه بريء من ارتكاب نفس الفاحشة، والعمل الباطل كذلك بريء من الهَمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همِّها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشُبهةٍ به. ولقد أشير إلى تَبَايُنِهِمَا بأنه لم يقُلْ: ولقدْ هَمَّا بالمخالطة، أو همَّ كلٌّ منهما بالآخر. قال بعضهم[1]: الهمّ قسمان: هم ثابت، وهو هم اقترن بعزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز، فالعبدُ مأخوذ به، وهم عارض، وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار، ولا عَزْم مثلُ هَمِّ يوسف عليه السلام، والعبد غَيرُ مَأخُوذ به ما لم يتكلم أو يعمل.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ يوسفُ وعلِمَ وأيقن ﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: حُجَّةَ ربه، وأدلّته الدالة على كمال قُبْحِ الزنى. والمراد برؤيته لها: كمال إيقانه ومشاهدته لها مشاهدة واصلةً إلى مرتبة عين اليقين، التي تتجلَّى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية. وجوابُ لولا محذوف تقديره: لولا مشاهدتُه وعِلْمُه بُرْهانَ ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجِبْلّي فوقَع في الزنا، لكنه حيثُ كانَ البرهانُ الذِي هو الحكم والعلم حاضراً لديه حُضورَ من يراه بالعين، فلم يَهُمَّ به أصلاً. ومن المعلوم أنَّ (لولا) حرف امتناع لوجود، فالمعنى امتنع وانتفى جِماعُه لها، لوجود رؤيته البرهان. وفي «السمين» المعنى: لولا رؤيته برهانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بها، لكنه امتنع همه بها لوجود رؤية ربه، فلم يَحْصُلْ منه هم ألبتة كقولك: لولا زيدٌ لأكرمتك فالمعنى: إنَّ الإكرامَ امتنع لوجود زيد. وبهذا يتخلَّص من الإشكال الذي يُورد هنا، وهو كيف يليق بنبيٍّ أن يهُمَّ بامرأة، اهـ.

والحاصل[2]: أن هذا البرهانَ عندَ المحققينَ المثبتينَ لعصمة الأنبياء هو حُجَّةُ الله تعالى في تحريم الزنا، والعِلْمُ بما على الزاني من العقاب. أو المرادُ

---

(١) المراح.

(٢) المراح.

برؤية البرهان حُصُولُ الأخلاق الحميدةِ وتذكير الأحوال الرَّادِعَةِ لهم عن الإقدامِ على المنكرات.

وقيل: إن البرهانَ النبوةُ المانعة من إتيان الفواحش. وقيل: إنه عليه السلام رأى مكتوباً في سقف البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وأمَّا الذين نسبوا المعصية إلى يوسف، فقالوا: إنه رَأى يعقوب عاضّاً على إبهامِه، أو هَتَفَ هاتفٌ، وقال له: لا تَعْمَلْ عمل السفهاء، واسمك في ديوان الأنبياء، أو تمثل له يعقوب فضَرَبَ في صدره، فخَرَجَتْ مَنِيُّه من أنامله. وقيل: غير ذلك مما يطولُ ذِكْرُه.

والحاصل: أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همَّ به.

وعبارة المراغي هنا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾؛ أي[1]: ولقد همَّت بأن تبطِشَ به إذا عصَى أمرَهَا، وخالف مُرادَها، وهي سيدتُه وهو عبدها، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه، وكُلّما أَلَحَّتْ عليه ازدَاد عتُوّاً واستكباراً معتزّاً عليها بالديانة، والأمانة، والترفُّع عن الخيانة، وحفظ شرف سيده، وهو سيدها ولا عِلاجَ لهذا إلا تذليله بالانتقام. وهذا ما شرَعَتْ في تنفيذه أو كادَتْ بأَن همَّتْ بالتنكيل به.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: ولكنه رَأى من ربه في سريرة نفسه ما جَعَلَهُ يمتنع من مُصاولَتِها، واللُّجوء إلى الفرار منها.

والخلاصة: أنَّ الفارق بين همِّها وهَمِّه أنها أرادت الانتقامَ منه شفاء لِغَيْظِها إذ فَشِلَتْ فيما تريدُ، وأهينَتْ بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادَتْ، وأراد هو الاستعداد للدِّفاع عن نفسه، وهَمَّ بها حين رأى أَمارَةَ وُثُوبِهَا عليه، فكان مَوقفهما موقف المواثَبَةِ والاستعداد للمضاربة، ولكِنَّهُ رأى منْ برهان ربه وعِصْمَتِه ما لم تَرَ مِثله؛ إذ ألهمه أنَّ الفرارَ من هذا الموقف هو الخير الذي به تتمُّ حكمته فيما أعده له، فاستبقا بابَ الدارَ، وكانَ من أمرِهِمَا ما يأتي بيانه فيما بَعْدُ.

---

(١) المراغي.

هذا خُلاصةُ رأي نَقَله ابن جرير، وأيّده الفَخْرَ الرازيُّ وأبو بكر الباقلاني.

ويَرَى غَيْرُهم من المفسرين أنَّ المعنى أنها همَّتْ بفعل الفاحشة، ولم يكن لها معارض، ولا ممانع، وهم هو بمثل ذلك، ولولا أنْ رأى برهان رَبّه لاقْتَرَفها. وقد فنده بعض العلماء لوجوه[1]:

١ ـ أنَّ الهَمَّ لا يكون إلاَّ بفعل للهام، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تَهُمَّ به، وإنما نَصِيبُها منه قبوله مِمَّنْ يطلبه منها بتمكينه منه.

٢ ـ أنَّ يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمَّى قبولها لطلبه، ورضاها بتمكينه هماً لها، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل مِن وسائله ومقدماته.

٣ ـ أنه لو وَقَعَ ذلك لوجب أن يقال: ولقد همَّ بها وهمَّتْ به؛ لأنَّ الهمَّ الأُولَى هو المقدم بالطبع، وهو الهم الحقيقيُّ، والهم الثاني متوقِّفٌ عليه.

٤ ـ أنه قد عَلِم من هذه القصة أنَّ هذه المرأةَ كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً، ومصرةً عليه، فلا يصح أن يُقَالَ: إنها همَّتْ به، إذ الهمُّ مقاربةُ الفعل المتردد فيه، بل الأنسبُ في معنى الهمِّ هو ما فسَّرْناه به أوّلاً وذلك لإرادة تأديبه بالضَّرْبِ، انتهت.

والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى الإراءة المدلول عليها بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك، وهذه الكاف مع مجرورها في محلِّ نصب بفعل محذوف، واللامُ في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ متعلقة بذلك المحذوف، والتقدير: أريناه مثلَ ذلك الإراءَةِ أو ثَبَّتْنَاه مثلَ ذلك التثبيت. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن يُوسُفَ وندفَع عنه ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي[2]: مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أي: الزنا. وقيل[3]: السوء كل ما يَسُوؤُه، والفحشاء كل

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

أمرٍ مُفرطِ القُبح. وقيل: السوءُ الخيانة للعزيز في أهله، والفحشاء الزنا. وقيل: السوء الشهوة، والفحشاءُ المباشرة. وقيل: السوءُ الثناءُ القبيح، والأَوْلَى الحمل على العموم فيدخُلُ فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أوَّليّاً.

وفي هذه الجملة[1] آيةٌ بَيِّنَةٌ وحجة قاطعة على أنه لم يقع منه هَمٌّ بالمعصية، ولا توجُّهُ إليها قط، وإلا لقِيلَ: لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة، والعصمة كما في «الإرشاد». وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: صَرَفنا عنه السوءَ والفحشاءَ، لأنَّ يُوسُفَ عليه السلام من جملة عِبَادِنا الذين أَخْلَصناهم لطاعتنا، بأن عَصَمْنَاهُم مما هو قادح فيها.

وفي هذا دليل على أنَّ الشَّيطانَ لم يجد إلى إغوائه سبيلاً، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ قال في «بحر العلوم». واعلم أنه تعالى شهد ببراءته من الذنب، ومَدَحه بأنه من المحسنين، وأنه من عباده المخلصين، فوَجَبَ على كل أحد أن لا يتوقَّفَ في نزاهته، وطهارة ذيله، وعِفَّته وتثبته في مواقع العثار.

قال الحسن: لم يَقُصَّ الله تعالى عليكم ما حكى من أخبار الأنبياء تعْييراً لهم، لكن لئلا تَقْنَطُوا من رحمته؛ لأنَّ الحُجَّةَ للأنبياء ألزم، فإذا قبلت توبتهم، كان قبولها من غيرهم أسْرَعَ.

وعدَمُ ذكر توبة يوسف دليلٌ على عدم معصيته، لأنه تعالى ما ذكر معصيةً عن الأنبياء، وإن صَغُرت إلا وذكر تَوبتَهم واستغفارَهم منها كآدم ونوح، وداود، وإبراهيم، وسليمان، عليهم السلام.

وقرأ الأعمش: ﴿لِيُصْرِفَ﴾ بياء الغيبة عائداً على ربه. وقرأ العربيان: أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير: ﴿المخلِصين﴾ إذا كان فيه أل حيث وَقَع في القرآن بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا دِينَهم، وعَمَلَهم لله تعالى. وقرأ باقي

---

(١) روح البيان.

السبعة بفتح اللام من جماعتنا ﴿المخلَصين﴾ وهم آباؤه الذين أخلَصهم رَبُّهم وصفَّاهم واختارهم لطاعته، وصفاهم من الشوائب، وقال فيهم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)﴾.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾؛ أي: تسابق يوسُفُ وزليخا إلى الباب البراني الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وَحَّدَ بعد الجمع فيما سلف. وفي الكلام حذف حرف الجر، وإيصال الفعل إلى المفعول، والأصل تَسابَقا إلى الباب، أو ضُمِّن الفعلُ معنى فعل آخر يتعدَّى بنفسه كابتدار الباب. وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وما بينهُما اعتراض، أمَّا يُوسُفُ فلِلفرار منها، وأمَّا هي فلتَصُدَّه عن الفتح والخروج؛ أي: تسابقا إلى الباب، ففَرَّ يوسف من أمامها هارباً إليه، طالباً النجاة منها مرجحاً الفرارَ على الدفاع الذي لا تُعْرَفُ عاقبته وتبعته هيَ تبغي إرجاعه حتى لا يَفْلتَ من يدها، وهي لا تَدْرِي إذا هو خرَج إلى أين يذهب، ولا ماذا يقولُ، ولا ما يفعل لكنها أدركته.

﴿و﴾ جذبته بردائه و ﴿قدت﴾؛ أي: شقَّت ﴿قَمِيصَهُ﴾؛ أي: قميص يوسف ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ وخَلْفِه فانشق طُولاً نصفين، وهو القَدُّ كما أنَّ الشَّقَّ عرضاً هو: القط؛ أي: جذبَتْ قَمِيصَه من ورائِهِ فانْشَقَّ إلى أسفله، وأكثر ما يُستعمل القد فيما كان طُولاً. والقط بالطاء فيما كان عرْضاً وقَعَ ذلك منها عندما فَرَّ يُوسُفُ لمَّا رَأى بُرْهَانَ رَبه، فأرادت أن تَمْنَعَهُ من الخروج بجذبها لقميصه. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: وَجَدا زوْجَها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾؛ أي: عند الباب البراني مقبلاً ليدخُلَ أو كان جالساً مع ابن عمٍّ لزليخا يقال له: يَمْليخا.

وقد كان النساء في مصر يلقِّبْنَ الزوجَ بالسيد، وإنما لم يَقُلْ سَيِّدَهُما، لأنَّ مِلْكَهُ لِيُوسُفَ لم يكن صحيحاً، فلم يكن سيداً له، لأن استرقاق يُوسُفَ غير شرعي. وهذا كلامُ ربه العليم بأمره، لا كلام من اسْتَرَقَّه.

وقوله: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مُقدَّرٍ، فكأنه قيل: فماذا وَقَع منهما عندما ألفيا سيدها لدى الباب؟ فقيل:

قَالَتْ مُنزِّهةً نفسَها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً من الزنا ونحوه، و(ما) نافية؛ أي: ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لَيسَ جزاؤُه إلا السجنُ أو العذابُ الأليم مثل الضرب بالسوط، ونحوه. أو استفهامية؛ أي: أي شيء جزاؤه إلا السجن، أو العذاب الأليم كما تقول مَنْ في الدار إلاَّ زيد؛ أي: قَالَتْ هذه المقالة طَلَباً منها للحيلة، وللستر على نفسها، فنَسَبَتْ ما كان منها إلى يُوسُفَ، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل؛ أي: وحينَئِذٍ خرجَتْ مما هي فيه بمكرها، وكيدها، وقالت لزوجها متنصِّلةً من جرمها، وقاذفةً لِيُوسُفَ: ما جزاءُ من أراد بأهلك شيئاً يسوؤُك صغيراً كَانَ أو كبيراً إلا سجن يعاقب به، أو عذابٌ مؤلم موجع يؤدبه، ويلزمه الطاعة. قال الرازي: وفي هذا القول ضروب من الحِيَلَ:

١ ـ إيهام زوجها أنَّ يوسفَ قدِ اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه.

٢ ـ أنَّها لم تصرح بجرمِهِ حتى لا يشتد غضبه، ويَقْسو في عقابه، كأن يبيعه أو يُقْصِيه عن الدار، وذلك غير ما تريد.

٣ ـ أنها هدَّدَتْ يُوسُفَ وأنذرته بما يعلم منه أن أَمْرَهُ بِيَدِها ليخضع لها ويُطِيعَها.

٤ ـ أنها قالت: إلا أن يُسْجَن والمراد منه: أن يُسْجَنَ يوماً أو أقلَّ على سبيل التخويف فحسبُ، أمَّا الحبس الدائِمُ، فكان يقال فيه: يجب أن يُجْعَلَ من المسجونين ألا ترى أنَّ فِرْعَوْنَ حينَ هَدَّدَ موسى قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

وجملة القول في هذا: أنَّ يوسف عليه السلام كَانَ قوي الإرادة لا يمكن غَيْرُه أن يحتال عليه، ويَصْرِفَه عن رأيه، ويجعلَه خاضعاً له، ومن ثم لم تستطع امرأةُ العزيز أن تُحوِّل إرادتَه إلى ما تريد بمراودتها، ولا عَجَب في ذلك فهو في وِراثتِه الفطرية، والمكتسبة، ومقام النبوة عن آبائه الأكرمينَ، وما اختصَّه به ربه من تربيته، والعناية به، وما شهد له به من العرفان، والإحسان، والاصطفاء، وما صَرَفَ عنه من دواعي السوء، والفحشاء في مكان مكين، وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات، وارتكاب المنكرات، فكل ما صوروه به من

الصور البَشِعَةِ الدالة على الميل إلى الفجور، إنما هو من فعل زنادقة اليهود، لِيُلَبِّسوا على المسلمين دينهم، ويشوهوا به تفسيرَ كلام ربهم، ولا يَغُرَّنَّك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة، والتابعين، فهي موضوعة عليهم، ولا ينبغي أنْ يُعْتَدَّ بها؛ لأن نُصوصَ الدِّين تنبذها إلى أنه من علم الغيب في قصة لم يعلم الله رسولَه غير ما قصه عليه في هذه السورة، وكَفَى بهذا دلالة على وضعها.

ثم قال العزيزُ لزليخا: من أراد بأهلي سوءاً، قالت زُليخا: كنت نائمةً في الفراش، فجَاءَ هذا الغلام العبراني، وكشف عن ثيابي، وراودني عن نفسي، فالتفت العزيز إلى يُوسُفَ وقال: يا غلام هذا جزائي منك حيث أحسنت إليك، وأنت تحزنني ﴿قَالَ﴾ يوسف دَفعاً عن نفسه، وتنزيهاً لعرضه ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾؛ أي: طالبتني للمواقعة لا أني أردت بها سوءاً كما قالت؛ أي: هي طلبتني فامتنعتُ، وفرَرَتُ كما ترى.

ولم يَقُل هذه ولا تلك لفرط استحيائه، وهو أدبٌ حسن، حيث أتى بلفظ الغيبة، ولم يكن يوسف يريد أن يهتكَ سَتْرَها، ولكن لما لَطَّخَتْ عرضه احتاجَ إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه، فصرَّحَ بالأمر فقال: هي طَالَبَتْنِي لِلمُواتَاة. وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجوه:

١ ـ أن يوسف كَانَ مولى لها، وفي مَجْرى العادة: أنَّ المولى لا يجرؤ أن يتسلَّط على سيدته، ويَتَشدَّد إلى مثل هذا.

٢ـ أنهم رَأوا يُوسُفَ يعدو عَدْواً شديداً ليخرجَ، ومن يطلب امرأةً لا يَخْرُجُ على هذا النحو.

٣ـ أنهم رأوا الزينة قد بدَتْ على وجه المرأة، ولم يكن لها من أثر على وجهِ يوسف.

٤ـ أنهم لم يشاهدوا من أخلاق يُوسُفَ في تلك الحقبة الطويلة ما يؤيد مثل هذه التهمة، أو يقوِّي الظنَّ عليه بأنه هو الطالبُ لا الهاربُ.

وقد أظهر الله تعالى لبراءته ما يقوّي تلك الدلائل الكثيرةَ التي تظاهَرَتْ على أن بدء الفتنة كانت منها لا منه، وأنها هي المذنبة لا هو.

فقال العزيز ليوسف: مَا أقبل قولك إلا ببرهان. وفي رواية نظر العزيز إلى ظاهر قول زليخا وتظلمها، فأمر بأن يُسْجَن يوسُفَ، وعند ذلك دعا يوسفَ بإنزال البراءة، وكان لزليخا خال له ابن في المهد ابن ثلاثة أشهر، أو أربعة، أو ستة على اختلاف الروايات، فَهبَط جبريل إلى ذلك الطفل، وأجلسه في مهده، وقال له: اشهد ببراءة يوسف، فقام الطفل من المهد وجعل يَسْعى حتى قام بين يدي العزيز، وكان في حجراته كما قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ أي: ابن خالها الذي كان صبياً في المهد، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ليكونَ أَوْجَبَ للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه.

واستدلَّ على أنَّ هذا الشاهدَ كانَ صبيّاً في المهد بما نقل عن ابن عباس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار، ابنُ ماشطة بنت فرعون، لَمَّا أَسْلَمَتْ، أخبرتَ البنت أباها بإسلامها، فأمر بإلقائها، وإلقاء أولادها في النقرة المتخذة من النحاس المحماة، فلما بلغت النوبة إلى آخر ولدها، وكان مُرْضَعاً قال: اصبري يا أماه فإنك على الحق، وشاهد يوسف، وصاحبُ جُريج، وعيسى بن مريم».

وبما روي عن أبي هريرة قال: عيسى بن مريم، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، تكَلَّموا في المهد. وهذا موقوف لا يصلح الاحتجاج به، والأول قد ضعفه رجال الحديث، إلا أنه لو نَطَقَ الطفل بهذا لكان قولُه كافياً في تفنيد زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص، لأنه من الدلائل الظنية، وكلامه في المهد من الدلائل اليقينية، وأيضاً لو كانَ كذلك لما كان هناك داعٍ إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ الذي ينفي التحاملَ عليها، ويمتنع إرادة الضر بها. وأيضاً، فإن لفَظَ الشاهد لا يقع عُرْفاً إلا على من تقدَّمَتْ معرفته لما يَشْهَدُ وإحاطته به.

أي: وشهد شاهد من أهلها، فقال: أيها العزيز: إن عندي في أمرك هذا ما لَكَ فيه فرَجٌ ومخرجٌ، انظر إلى قميص الغلام العبرانيّ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾؛ أي: شقَّ من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾؛ أي: فقد صدقت المرأة ﴿وَهُوَ مِنَ

﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ لأنه إذا طلبها دفعته عن نفسها، فشقَّتْ قميصَه من قدام، أو يُسْرِعُ خَلْفَها لِيُدْرِكَها فيتعثر بذيله فينشق جيبه، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾؛ أي: فقد كذبت المرأة في دعْواها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ لأنه يدل على أنَّها تَبِعَتْهُ فاجتذَبَتْ ثَوْبَهُ فقدَّتْه، وقوله[1]: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جملتان مؤكدتان لأنَّ من قوله: ﴿فَصَدَقَتْ﴾ يعلم كذبه، ومن قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾ يعلم صدقه، وفي بناءِ «قُدَّ» للمفعول ستر على مَنْ قَدَّه. وقال المفضل بن حرب: رأيت في مصحف ﴿قُطَّ من دبر﴾ أي شُقَّ. وقال ابن عطية: وقرأت فرقة ﴿قُطَّ﴾. وقرأ زيد بن علي: ﴿أو عذاباً أليماً﴾ وقدره الكسائي أو يعذِّب عَذاباً أليماً. وقرأ الجمهور: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ و﴿مِن دُبُرٍ﴾ بضم الباء فيهما والتنوين. وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية بتسكينها، وبالتنوين وهي لغة الحجاز وأسد. وقرأ ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والعطاردي، وأبو الزناد، ونوح القارىء، والجارود بن أبي سَبْرة بخلاف عنه: ﴿من قبل ومن دبر﴾ بثلاث ضمات. وقرأ ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والجارود أيضاً في رواية عنهم بإسكان الباء مع بنائهما على الضم، جعلوهما غايةً نحو من قبل، ومعنى الغَايَةِ: أن يصيرَ المضاف غايةَ نَفْسِهِ بعدما كان المضاف إليه غَايَتَه. والأصل: إعرابهما لأنهما اسمان متمكنان، ولَيْسا بظرفين. وقال أبو حاتم: هذا رديء في العربية، وإنما يقع هذا البناء في الظروف. وقال الزمخشري: والمعنى: مِنْ قُبُل القميص ومن دُبره. وأما التنكير فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر. وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: ﴿من قبل ومن دبر﴾ بالفتح كأن جعَلَهُما عَلَمين للجهتين، فَمَنَعهما الصرفَ للعلمية والتأنيث.

والمعنى[2]: أي وحَكم ابن عم أو خال لها مستدلاً بما ذكر، وكان عَاقِلاً حَصيفَ الرأي، فقال: قد سَمِعْنَا جلبةً وضوضاء، ورأينا شق القميص، إلا أنا لا ندري أيكما كان قُدَّامَ صاحبه، فإن كان شق القميص من قُدَّام فصدقت في دعواها، أنه أراد بها سوءاً؛ إذ الذي يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بتلابيبه، فجَاذَبَها فانقد قميصه، وهما يتنازعان، ويتصارعان، وهو من الكاذبين، في دَعواه أنها راودته فامتنعَ وفرَّ هارباً، فتبعته وجذبته تريد إرجاعه، وإن كَانَ قميصه قُدَّ من الخَلْف فكذبت في دعواها، أنه هجم عليها يريد ضَرْبَها، وهو من الصادقين في قوله: أنه فرَّ هارباً منها.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ﴾؛ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ﴾ وشق ﴿مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: من وراءَ وخلف، وعلم براءة يوسف وصدقه ﴿قَالَ﴾؛ أي: العزيز ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الأمر الذي وقع فيه التشاجر ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾؛ أي: من جنس حيلتكنَّ ومكركن أيها النساء، لا من غيركن، فخَجَلَتْ زليخا، وتعميم الخطاب للتنبيه على أنَّ ذَلِكَ خُلُقٌ لهن عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ ومَكْرَكُنّ يا معشرَ النساء ﴿عَظِيمٌ﴾ فإنه ألصق، وأعْلَقُ بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس؛ أي: من كيد الرجال؛ لأنَّ لهن في هذا الباب من الحِيَلِ ما لا يكون للرجال، ولأنَّ كَيْدَهُنَّ في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال، ولأنَّ الشيطان يوسوس مسارقة، وهن يواجههن به الرجال، فالعظم بالنسبة إلى كيد الشيطان.

وقال بعض العلماء: إنّي أخاف من النساءِ ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. وإنما وَصَف كَيْدَ النِّساءِ بالعِظم، وَكَيد الشيطان بالضَّعْفِ، لأنَّ كَيْدَ النساء أقوى بسبب أنهن حبائل الشيطان، فكيدهن مقرونٌ بكيد الشيطان فهما كيدان، بخلاف كيد الشيطان دونهن فكيد واحد.

والمعنى(١): أي فلمَّا نظر العزيز إلى القميص، ورأى الشقَّ من الخلف أيقَنَ بصدق قوله، واعتقد كَذِبَها، وقال: إن هذا محاولة للتنصل من جُرْمِهَا باتِّهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء، فهو سنة عامة فيهن، فهن يجتهدن في التبري من خطاياهن، ما وجدن إلى ذلك سبيلاً، وكيد النساء عظيم، لا قبَلَ للرجال به، ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفَعُوها قدر المستطاع، ولا شكَّ أنَّ هذه شهادة من

---

(١) المراغي.

قريب لها، لا يُتَّهَمُ بالتحامل عليها، ولا بظلمها، وتجريحها برَمْيِها بما هي منه براء.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر الذي جَرَى، واكتمه، ولا تتحدث به حتى لا يشيع فيعيروني. ثم أقبلَ عليها بالخطاب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ أنتِ يا زليخا ﴿لِذَنبِكِ﴾ الذي صدر منك وثَبَتَ عليك؛ أي: توبي إلى الله تعالى ممَّا رَمَيْتِ يُوسُفَ به وهُو بريء منه. فإنْ قلت: إنَّهم قوم مشركون، فلا يعرفون ذَنْبَهُم مع خالقِهِم، فما الذنب الذي يطلب منه الاستغفار؟ أُجِيبَ: بأن المرادَ بالذنب خِيَانتها لزوجها.

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾؛ أي: من جملة القوم الذين تَعَمَّدُوا للخطيئة والذنب، يقال: خطىء إذا أذنب عَمْداً.

والجملة[١]: تعليل لما قَبْلَها من الأمر بالاستغفار، ولم يقل من الخَاطِئَات تغليباً للمذكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. وقيل: إن القائلَ لِيُوسُفَ ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حَكَمَ بينهما.

والمعنى[٢]: أي يا يوسف أعرض عن ذكر هذا الكيد، الذي حصل، ولا تتحدَّثْ به كي لا ينتشر أمرُه بين الناس، ولا تَخَفْ من تهديدها، وكيدها لك، وأنتِ أيتها المرأة توبي إلى ربك واستغفري لذنبك، إنك كنت من زمرة المجرمين، الذين يتعمدون ارتكابَ الخَطايا، ويجترحُون السيئات، وهم مُصِرُّون عليها. قيل[٣]: وَكَان العزيز رَجُلاً حَلِيماً فاكتفى بهذا القدر في مؤاخذتها. وقيل: إنه كانَ قليلَ الغيرة بل قال في «البحر»: إنَّ تُرْبَةَ مصر تقتضي ذلك، ولهذا لا يَنْشأُ فيها الأسد، ولو دَخَل فيها لا يَبْقى. ورُوي أنَّه حَلَفَ أن لا يدخل عليها إلى أربعين يوماً، وأخرج يوسف من عندها، وشغله في خِدْمَتِه وبقِيَتْ زُليخا لا تَرَى يُوسُفَ.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾؛ أي: جماعة من النساء ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لـ ﴿قَالَ﴾؛ أي: أشعَنَ الأمر في مصر، أو صفةٌ للنسوة، وكنَّ خَمْساً امرأة الخبَّاز، وامرأةَ السَّاقِي، وامرأة صاحب الدواب، وامرأةُ صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنِّسوة اسم جمع لامرأة، وتأنيثه غير حقيقي، ولذا لم يُلْحِق فعلَه تاءَ التأنيث. يقال فيه: نسوة بضم النون، وهي قراءةُ الأعمش، والفضل، وسليمان. ويقال: نسوة بكسر النون، وهي قراءة الباقين، ذكره الشوكاني. ولم[1] يشر الكتاب الكريم إلى عَدَدهنّ، ولا إلى صفاتهن؛ لأنَّ العِبْرَةَ ليست في حاجة إلى ذلك، والذي يقتضيه العُرْفُ، ومجرى العادة أنه عَمَلُ جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة، يُعْهَدُ منهن في العُرف أن يأْتَمِرْنَ، ويتفقن على الاشتراك في مثل هذا المكر؛ إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى، لا تتجه أنظارُهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة، ولا إلى مشاركتها في سلب عشيقها، ولا إلى التمتع بجماله الساحر، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقلَ من بيت إلى بيت بوساطة الخَدم، ويكون الشغلَ الشاغلَ للنساء في مجالسهن الخاصَّة، وسمَرِهِنّ في البيوت، وخلاصَتُهُ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾؛ أي: تطالب غُلامَها بمواقعته لها، وتحتال في ذلك، وتُخادعه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، وهو يمتنعُ منها. وتُرْسَم امرأةُ هذه بالتاء المجرورة، وأمَّا بالنطق فوقف عليها ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بالهاء، والباقون بالتاء. وأما في الوصل فبالياء للجميع، اهـ خطيب. والعزيزُ بلسان العرب، الملك، والمراد به[2]: قِطْفير، وزير الرَّيان، وبامرأته زليخا، ولم يصرِّحْنَ باسمها على ما عليه عادة الناس عند ذكر السلطان، والوزير، ونحوهما، وذكر من يَتْبَعهم من خواص حُرَمهم. وقال بعضهم: صرَّحْنَ بإضافتها إلى العزيز، مبالغةً للتشنيع؛ لأنَّ النُّفوسَ أقبل إلى سماع أخبار ذوي الأخْطار وما يجري لهم.

وهذا كلام يقال[3] للإنكار والتعجب منْ حصوله لوجوه عدَّة:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

١ ـ أنها امرأة العزيز الأكبر في الدولة، ولها المنزلة السَّامِيةُ بين نساء العظماء.

٢ ـ أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

٣ ـ أنها قد بَلَغَ بها الأمر أنْ جادَتْ بعفتها، فكانت هي المراوِدة، والطالبةُ لا المراوَدةَ المطلوبة.

٤ ـ أنها وقد شاع ذكرها في المدينة، لم ينثن عزمها عمَّا تريد بل لا تزال مجدَّةً في نيل مرغوبها، والحصول على مطلوبها كما يفيد ذلك قولهن: ﴿تُرَاوِدُ﴾ وهو فعل يدل على الاستمرار في الطلب.

ثم أكدن هذا الإنكارَ بقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: قد شَقَّ[1] فتاها شِغَاف قلبها من جهة الحب، والشغاف: جلدة محيطة بالقلب، يقال لها غلاف القلب.

والمعنى[2]: أنَّ حبه دَخَلَ الجلدةَ حتى أصاب القلبَ، وقيل: إن حُبَّه قد أحاط بقلبها، كإحاطة الشغاف بالقلب.

وقال الكلبي: حَجَبَ حبه قَلْبَها حتى لا تَعْقِلَ شيئاً سواه.

والمعنى: أي قد شَقَّ حبه شغاف قلبها؛ أي: غِلافَهُ المحيط به، وغاصَ في سويدَائِه فَمَلَكَ عليها أمرها، فلا تبالي بما يكون من عاقبة تهتكها، ولا بما يصيرُ إليه حالها. وقرأ[3] ثابت البناني: ﴿شغِفها﴾ بكسر الغين المعجمة، والجمهور بفتحها. وقرأ الحسن: ﴿قد شغُفها﴾ بضم الغين المعجمة كما ذكره الشوكاني. وقرأ علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، والشعبي، وعوف الأعرابي بفتح العين المهملة، وكذلك قتادةُ، وابن هرمز، ومجاهد، وحميد، والزهري بخلاف عنهم.

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

ورُوِيَ عن ثابت البناني، وابن رجاء كسر العين المهملة. قال ابن زيد: الشَّغَفُ في الحُبِّ، والشَّعَفُ في البُغْضِ.

وقال الشعبي: الشغف والمشغوف بالغين المعجمة في الحبِّ، والشعف الجنُونُ، والمشعوف المجنون. وأدْغَمَ النحويان أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وهشام، وابن محيصن دَالَ (قَدْ) في شين (شَغَفَها). ثم زدنَ ذلكَ تأكيداً بقولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَنهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأ بيِّنٍ ظاهرٍ، حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفافِ، والستر وأحبَّت فتاها؛ أي: إنا لنعلم أنها غَائِصَة في مَهَاوِي الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد. ولم يكن قولهن هذا إنكاراً للمنكر، ولا كرهاً للرذيلة، ولا نصراً للفضيلة، بل قلنه مَكْراً وحيلةً ليصل الحديث إليها، فيَحْمِلها ذلك على دعوتهن، والرؤية بأبصارهن، ما يكون فيه معذرة لها، فيما فعلتْ، وذلك منهن مَكْر ولا رأيٌ، وقد وصلنَ إلى ما أردْنَ. وهذه الجملة[1] مُقرِّرَة لمضمونِ ما قبلها.

والمعنى: ﴿إِنَّا لَنَرَنهَا﴾ أي: نَعْلَمُها في فعلها هذا، وهي المراودة لفتاها ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن طريق الرشد والصواب، ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح لا يلتبس على مَنْ نظر فيه، وإنما لم يقلْنَ[2]: إنها لفي ضلال مبينٍ إشعاراً بأنَّ ذلكَ الحكمَ غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم، ورأي، مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه، ولذا ابْتَلاهن الله تعالى بما رَمَيْنَ به الغيرَ، لأنه ما عَيَّر واحد أخاه بذنب إلاَّ ارتكبه قبْلَ أن يَمُوتَ.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: باغتيابهن إياها، وسوءِ قولهن، وقولهن: امرأة العزيز عَشقَتْ عبدها الكِنعانِيَّ، وهو مَقَتَها. وسميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الإخْفاءِ. ﴿أَرْسَلَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: إلى نسوة المدينة تدعوهن للضيافة إكراماً لهن، ومكراً بهن، ولتُعْذَر في يوسف، لعلمِها أنهن إذا رأينَهُ دهشن وافتتنَّ به. قيل: دَعَتْ أربعين امرأةً، منهن الخَمْسُ المذكوراتُ.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾؛ أي: أحْضرَتْ وهيَّأتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾؛ أي: ما يتكئنَ عليه من النمارق والوسائد وغيرها عند الطعام، والشراب، كعادة المترفهين، ولذلك نهي عن الأكل بالشمال أو متكأ.

وهذا إنْ[1] قُرِىءَ: مُتَّكَأً بالتشديد، فإن قرىء بالتخفيف مُتْكَأً، كان معناه: الأترج أو الزماورد بالضم، وهو طعام من البيض واللحم، معرب كما سيأتي في مبحث القراءة، لأنهم كانوا يتكئون على المسانيد عند الطعام، والشراب، والحديث. ﴿وَءَاتَتْ﴾؛ أي: أعطَتْ ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ﴾؛ أي: من تلك النسوة الحاضرات ﴿سِكِّينًا﴾ لأجل أكل الفاكهة واللحم؛ لأنهم كانوا لا يأكلون من اللحم إلا ما يقطعون بسكاكينهم، وكانت تِلْكَ السَّكَاكِين تسمَّى خناجرَ. ﴿وَقَالَتِ﴾؛ أي: زليخا ليوسف وهنَّ مشغولات بإعمال الخناجر في الطعام ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أبرز لهن، ومرَّ عليهن، فإنَّ يوسُفَ عليه السلام ما قَدر على مخالفتها خوفاً منها.

وحاصل المعنى: أي فلمَّا[2] سمعت مقالتَهن التي يردنَ بها إغضابَها حتى تريَهُنَّ يُوسُفَ إبداء لمعذرتها فيسألن ما يَبْغِينَ من رؤيته، وقد كان من المتوقع أن تَسْمَعَ ذلك لما اعتيدَ بَيْنَ الخَدم من التواصل والتزاور وهن ما قلنَه إلا لتَسمَعه، فإنْ لم يَتمَّ لهن ما أردن احتلن في إيصاله، وقد كان ما أرَدْنَ كما قال: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾؛ أي: مَكَرت بهن كما مكرن بها، ودعتْهُنَّ إلى الطعام في دارها، وهيأت لهن ما يتكئنَ عليه من كراسي، وأرائكَ كما هو المعروفُ في بيوت العظماء. وكان ذلك في حجرة المائدة، وأعطت كلَّ واحدة منهن سكيناً، وخَنْجراً، لِتَقْطَعَ بها ما تأكل من لحم وفاكهة. ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: وأمرته بالخروج عليهن.

وفي هذا إيماء إلى أنه كان في حجرة في داخل حجرة المائدة التي كنَّ فيها محجوباً عنهن، وقد تَعَمَّدَتْ إتْماماً للحيلَةِ والمكر بهن أن يفجأهُنَّ، وهن

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

مشغولات بما يقطعنه، ويأكلنه عِلْماً منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدَّهْشَةِ.

وقد تم لها ما أرادَتْ كما يُشير إلى ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ هذا مرتَّب على محذوف تقديره: فَخَرج عليهن فلما رأينه أكبرنه؛ أي: فلمَّا رأت النسوة يوسفَ أكبَرْنَه؛ أي: أعظمنَ[1] يُوسُفَ ودهشن عند رؤيته من شدَّةِ جماله، وكان يوسُف قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحسن.

وقال عكرمة: كان فَضْلُ يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسْرِيَ بي إلى السماء، يوسفَ كالقمر ليلةَ البدر» ذكره البغوي بغير سند.

وقيل[2]: معنى: أكبرن؛ أي: حِضْنَ، والهاء إما للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف على حذف اللام؛ أي: حِضْنَ له من شدة الشَّبَقِ، وأيضاً إنَّ المرأة إذا فَزِعَتْ فربما أسقطَتْ ولدَها، فحاضَتْ ويقال: أكبرت المرأة؛ أي: دخلَتْ في الكبر، وذلك إذا حاضَتْ لأنها بالحيض تَخْرُج من حَدِّ الصغر إلى الكبر.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: وعندي أنه يحتمل وجهاً آخرَ، وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأيْنَ عليه نُورَ النبوة، وسِيمَا الرسالة، وآثارَ الخضوع والإخبات، وشاهدن فيه مهابةً وهيبةً ملكيةً، وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان ذلك الجمالُ العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة، فتعجبن من تلك الحالة، فلا جَرَمَ أكبرنَه، وأعظمنه، ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن. قال: وحمل الآية عى هذا الوجه أولى، انتهى.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: جرحن أيديهن حتى سال الدَّمُ، ولم يَجِدْنَ الألَمَ لفرط دهشتهن، وشغل قلوبِهنَّ بيوسف؛ أي: فلمَّا رأينه أعظمنه فقطَّعْنَ أيديَهُنَّ بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عمَّا يعملن؛ أي: فجرحنها بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن، وخُرُوج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار، حتى لا

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

يشعرن بما عَمِلْنَ، ولا أَلِمْنَ لما نالهن من أذى، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير في كلامهم، فيقولون: كنت أَقْطَعُ اللحمَ فقطعْتُ يدي، يريدون فأخطأتها، فَجَرحْتُ يدي حتى كدتُ أقطعها.

ولم تقطع[1] زليخَا يديها؛ لأنّ حَالَها انتهت إلى التمكين في المحبة، كأهل النِّهايات، وحال النسوة كانت في مقام التَّلْوين كأهل البِدايات، فلكل مقام تَلَوُّنٌ وتمكنٌ وبداية ونهاية.

﴿وَقُلْنَ﴾؛ أي: النِّسْوَةُ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً، وبراءةً لله سبحانه وتعالى من كل النقائص. وحَاشَ كلمة وُضِعَتْ موضِعَ المصدر، فمعناه التنزيه، والبراءةُ بدليل قراءة أبي السماك: حاشاً لله بالتنوين واللام لبيان المبرأ، والمنزه كما في (سقياً لك). ﴿مَا هَٰذَا﴾ الغلام ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: ليس هذا آدمياً مثلنا؛ لأن هذا الجمالَ غيرُ معهود للبشر ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: ما ﴿هَٰذَا﴾ الغلام ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على الله فإن[2] الجمعَ بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمةِ البالغةِ من خواصِّ الملائكة، أو لأنَّ جَمَالَهُ فوقَ جَمَال البشر، ولا يَفُوقه فيه إلا المَلَكُ، وقَصَرْنَهُ[3] على الملكِيَّة مع علمهن أنه بشر؛ لأنَّه ثَبَتَ في النفوس أنه لا أكمل ولا أحسن خلقاً من المَلَك، يعني رَكَزَ في العقول أن لا حيَّ أحسنَ من الملك، كما ركزَ فيها أن لا أقبح مِنَ الشيطان. ولذلك لا يزال يشبَّه بهما كل متناه في الحسن والقبح، وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

وروي أنه كان يُوسُفُ إذا مشى في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه، كما يُرى نور الشمس من السماء عليها، وكان يُشْبِهُ آدمَ يوم خلقه ربه، وكانت أمه رَاحِيلُ وجدَّته سَارَة جميلتين جداً.

أي: وقلن على سبيل[4] التعجب والتنزيه لله تعالى، ما صَحَّ أن يكونَ هذا الشخص الذي لم يُعْهَد مثاله في جماله، وعفَّتِه من النوع الإنساني، إن هو إلاَّ

---

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

ملك تمثَّلَ في تلك الصورة البديعة، التي تخبل العقولَ، وتدهِشُ الأبصارَ.

رُوِيَ عن زيد بن أسلم من مفسِّري السلف: أعطَتْهُنَّ أُتْرُنْجاً «ثمر من نوع الليمون الحامض كبيرٌ مستطيلٌ يؤكَلَ بعد إزالة قشرته» وعسلاً فكن يحززنَ بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلَمَّا قيل له: اخرج عَلَيْهِنَّ خَرَجَ، فلما رأينَه أعظمنه، وتَهَيَّمْنَ به حتى جعلن يحززن أيْدِيَهُن بالسكين، وفيها الترنجُ، ولا يعقلنَ ولا يحسبنَ، إلا أنهن يحززن الأترنج، قد ذهبَتْ عقولهن مما رأينَ، وقلْنَ حاش لله ما هذا بشراً؛ أي: ما هكذا يكون البشرُ ما هذا إلا ملك كريم. وقرأ[1] الزهري، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿متَّكى﴾ مشددَ التَّاءِ من غير همز على وزن متقى، فاحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أن يكون من الاتكاء، وفيه تخفيفُ الهمز كما قالوا في توضأت: توضيتُ.

والثاني: أن يَكُونَ مفتعلاً من أوكيت السقاءَ إذا شددتَه؛ أي: ما يشتددنَ عليه إما بالاتكاء، وإما بالقطع بالسكين. وقرأ الأعرج: ﴿مُتْكَئاً﴾ بوزن مفعلاً من تكأ يَتْكَأُ إذا اتَّكَأَ. وقرأ الحسن، وابن هرمز: ﴿متكاءً﴾ بالمد والهمز وهو مفتعل من الاتكاء إلا أنه أشبع الفتحة فتولَّدَتْ منها الألفُ كما قال الشاعر:

أَعُـوْذُ بِـٱلـلَّـهِ مِـنَ ٱلْـعَـقْـرَابِ ... ٱلـشَّـائِـلَاتِ عُـقَـدَ ٱلْأَذْنَـابِ

وقرأ ابن عباسَ، وابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والجحدري، والكلبي، وأبان بن تغلب ﴿مُتْكئاً﴾ بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف. وجاء كذلك عن ابن هرمز. وقرأ عبد الله، ومعاذ، كذلك إلا أنهما فَتَحَا الميم. وقرأ الجمهور: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بغير ألف بعد الشين، والله بلام الجر. وقرأ أبو عمرو: ﴿حاشا للّه﴾ بألف ولام جر. وقرأت فرقة منهم الأعمش: ﴿حَشَى﴾ على وزن رمى، ﴿للَّه﴾ بلام الجر. وقرأ الحسن: ﴿حاش﴾ بسكون الشين وصلاً، ووقفاً، وبلام الجر. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿حاش الله﴾ بالإضافة، وعنهما كقراءة أبي

---

(١) البحر المحيط.

عمرو، قاله صاحب «اللوامح». وقرأ الحسن: ﴿حاش الإلَه﴾ قال ابن عطية: محذوفاً من حاشى. وقرأ أبو السمال: ﴿حاشا للَّه﴾ بالتنوين كرعياً لِلّهِ.

فأما القراءات ﴿للَّه﴾ بلام الجر في غير قراءة أبي السمال، فلا يجوز أن يكون ما قبلها مِن حَاشَى، أو حاشَ، أو حَشَى، أو حَاشَ حرف جر، لأنَّ حرف الجر لا يدخل على حرف الجر، ولأنه تصرُّف فيها بالحذف. وأصل التصريف بالحذف أن لا يكون في الحروف. وزعم المبرِّد وغيره، كابن عطية، أنه يتعيَّن فعليتها، ويكون الفاعل ضمير يُوسُفَ؛ أي: حاشى يوسف أن يفارِقَ ما رَمَتْهُ به زليخا، وعلى هذا تكون اللامُ في ﴿للَّه﴾ للتعليل؛ أي: جانَبَ يوسف المعصيةَ لأجل طاعةِ الله. وذهب غير المبرد إلى أنها اسم، وانتصابها على المصدرية انتصابَ المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل، كأنه قَالَ تنزيهاً لله، ويدل على اسميتها قراءة أبي السمال: ﴿حاشا﴾ منوناً. وعلى هذا القول يتعلَّق لله بمحذوف على البيان كَلام لَكَ بعد سقياً، ولم ينوَّن في القراءات المشهورة مراعاةً لأصله الذي نقِل منه، وهو الحرف.

وأما قراءةُ الحسن، وأبي بالإضافة فهو مصدر مضاف إلى فاعله، كما قالوا: سبحانَ الله، وهذا اختيار الزمخشري. وقال ابن عطية: وأما قراءة أبي بن كعب، وابن مسعود، فقال أبو علي: إنَّ حاشى حرفُ استثناء، كما قال الشاعر:

حَاشَىٰ أَبِيْ ثَوْبَانَ

انتهى. وأما قراءة حاش بالتسكين ففيها جَمْعٌ بين ساكنين، وقد ضعَّفوا ذلك. وقرأ الحسن، وأبو الحويرث الحنفي: ﴿ما هذا بشراء﴾ على أنَّ الباء حرف جر، والشين مكسورة، فالشراء حينئذ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: ما هذا بعبد يُشْتَرى. وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وتابَعهُما عبد الوارث عن أبي عَمْرو على ذلك، وزَادَ عليهما: ﴿إلا ملك﴾ بكسر اللام، واحد الملوك فهم نفَوا بذلك عنه ذل المماليك، وجعلوه في حيِّزِ الملوك، والله أعلم، انتهى. ونسب ابن عطية كسْرَهَا للحسن، وابن الحويرث اللذَين قرآ: ﴿بشرى﴾.

﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسفَ ودهشْنَ عند رؤيته ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾، والخطاب في (كن) للنسوة، والإشارة في ذا ليوسف، ولم تَقُلْ فهذا مع أنه حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن، واسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبرَه، وهو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ أي: فذلكن الخارج الذي ظَهَرَ لكم هو الغلام الذي لمتنَّني، وعيبتُنَّني في شأنه ومحبته. وإنما قالت ذلك لإقامة عُذْرِهَا عندهن، حِينَ قلْنَ إنَّ امرأة العزيز قد شَغَفَها فَتَاها الكنعانيُّ حبّاً، وإنما قالت فذلكن الخ، بعدما قام من المجلس، وذهَبَ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾؛ أي: والله لقد راودتُه، وطلَبْت منه أن يمكنني ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: فامتنعَ من ذلك الفعل الذي طلبته منه، وإنَّما صرحت بذلك لأنَّها علمت أنه لا مَلامَةَ عليها منهن، وإنهن قد أصابَهُنَّ ما أصابها عند رؤيته؛ أي: طلَب العصمةَ من الله مبالِغاً في الامتناع؛ لأنه يدلُّ على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنَّه في عصمة، وهو مجتهد في الاستزادة منها. وفيه برهان نيِّرٌ على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باستعصامه، بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من الهم وغيره. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾؛ أي: والله لئن لم يَفْعَلْ يُوسُفُ ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به مستقبلاً من قضاء شهوتي كما لم يفعله ماضياً والله ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون الثقيلة آثَرتْ بِناء الفعل للمفعول[1] جَرْياً على رَسْمِ الملوك؛ أي: واللَّهِ ليعاقبنَّ على إباءه بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالنون الخَفِيفَة، وإنما كتبت الألف إتباعاً لخط المصحف مثل ﴿لَنَسْفَعًا﴾ على حكم الوقف يعني أنَّ النون الخفيفة يبدل منها في الوقف الألف لشبهها بالتنوين، كقول الأعشى:

وَلاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللَّهَ فَٱعْبُدَا

﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ أي: من الأذلاء المقهورين في السجن، وهو من[2] صغر بالكسر، والصغيرُ من صَغُرَ بالضم؛ أي: والله لَيَكُونَنْ يُوسُفُ من الصاغرين المهانين في السجن، فإن زوجي لا يخالف لي رغبةً ولا يَعْصِيني في أمر، وسيعاقبه بما أريد، ويُلْقِيهِ في غَيَابَاتِ السجون، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه، وجعلِه كولده. وقرأت فرقة: ﴿وليكوننَّ﴾ بالنون المشددة.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وفي ذلك[1] إيماء إلى أنها ستشدِّد العقوبةَ عليه أكثرَ مما توعَّدتْ به أولاً، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخفِّ صورة، وأقلِّها وعذاب بأهون أنواعه، وألطفها كحَبْسٍ في حجرة الدار، أو لَطْمة على خَدَّيْهِ تُزيلُ منها الاحمرار. وهنا أَنْذَرَتْهُ بسجن مؤكَّد، وذل وصغار تأباه الأنفسُ الكريمةُ كنفس يوسف عليه السلام، فأشق الأعمال أهْوَنُ على كِرامِ الناس من الهوانِ والصَّغَارِ.

وفي هذا التهديد ليُوسُفَ من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما كان مِنْ حقه أن يجعلَ يُوسُفَ يَخَافُ من تنفيذ إرادتها، ويثبتَ لديه عَدَم غيرته عليها، كما هو الحالُ لدى كثير من العظماء المُتْرفينَ العاجزين عن إحصان أزواجهم، والمحرومين من نِعْمَةِ الأولاد منهن، ورُبَّما تكون مُبَالَغَتُها في تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما في قَلْبها منه من غل، وجَوى بظهور كذبها، وصدقه، وتصميمِه على عِصْيَان أمرها، ولتُظْهِرَ لِيُوسُفَ أنها ليسَتْ في أمرها على خِيفةٍ من أحد، فتضيِّقَ عليه، ولينصَحْنَه في موافقتها، ويرشِدنَه إلى الخلاص من عذابها.

فلمَّا سمع يوسف مقالَتَها هذه، وعَرَف أنها عُزْمَةٌ منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز، قال مناجياً لربه سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾؛ أي: قال: يا ربي أنت العليم بالسر، والنجوى، والقدير، على كشف تلك البلوى؛ إنَّ دُخُولَ السجن الذي هدَّدَتْ به، والمكث في بيئة المجرمين على شَظْفِ العيش، ورقة الحال ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ أي: أحبُّ عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾؛ أي: مما تدعو إليه أولئك النسوة في مُؤَاتَاتِها التي تؤدِّي إلى الشقاءِ، والعذاب الأليم؛ أي: من الاستمتاع بها في ترف القصور والاشتغال بحبها عن حبِّك، وبقُرْبها عن قربك. وفي قوله: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾ إيماءٌ إلى أنهن خوفنه مُخَالفَتَها، وزيَّنَ له مطاوعتَها، فقلنَ لهُ: أطع مولاتَك، وأنِلها ما تهوَى لتكفى شرَّها، وتأمَنَ عقوبتَها. إن قلتَ هو مجاب الدعوة فلِمَ طَلَب النجاة بالسِّجْنِ ولم

(١) المراغي.

يطلُبِ النجاةَ العامَّة؟ أجيب: بأنه اطَّلَعَ على أنَّ السِّجْنَ محتمٌ عليه، فدعا به، لأن النبيَّ لا ينطِقُ عن الهوى ذكره «الصاوي». وقرأ عثمان[(١)]، ومولاه طارقٌ، وزيد بن علي، والزهري، وابن أبي إسحاق، وابن هرمز، ويعقوب: ﴿السَّجْنِ﴾ بفتح السين، وهو مصدر سجن؛ أي: حبسُهم إيَّايَ في السجن أحب إليّ، وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه من التفضيل؛ لأنه لم يحب[(٢)] ما يَدْعُونَهُ إليه قط، وإنما هذان شران فآثر أحدَ الشرين على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقَّةٌ، وفي الآخر لَذَّة لكن لما يترتَّبُ على تلك اللذة من معصية الله، وسوء العاقبة لَمْ يُخْطَرْ له ببال. وإسناد[(٣)] الدعوة إليهن جميعاً، لأنهن خَوَّفْنَه من مخالَفَتِها، وزيَّنَّ له مُطاوَعَتها أو دَعَوْنَهُ إلى أنفسهن، وقيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله: ﴿هذا﴾ وإنما كان الأولى له أن يسأل الله العافِيَة من شرها، ولذلك رَدَّ رسُولُ الله ﷺ على مَنْ كان يسأل الصبرَ.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾؛ أي: وإنْ لم تصرف وتدفع ﴿عَنِّى﴾ يا إلـهي ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ ومكرهن؛ أي: وإن لم تبعد عني شِراكَ كيدهن، وتثبتني على ما أنا عليه من العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ مجزوم على أنه جواب الشرط؛ أي: أمِلْ إلى موافقتهن على أهوائهن، وأقَعُ في شباكِ صيدهن، وأرتَعُ في حمأة غوايتهن، وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه، وسلكَ سبيل المرسلينَ من قبله في فزعهم إلى مولاهم، لينيلهم الخيرات، ويُبعُدَ عنهم الشرور، والموبقات، وإظهارَهم أن لا طاقةَ لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغةً في استدعاء لطفه، وعظيم كرمه ومنِّه. ﴿وَأَكُن﴾؛ أي: وأصر ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: من الذين لا يعملون بعِلْمهم؛ لأنَّ من لا جدوى لعلمه فهو ومَنْ لا يعلم سواء؛ أي: من السفهاءِ الذين تستخِفُّهم الأهواء والشهوات، فيَجْنَحُون إلى ارتكاب الموبقات، واجتراح السيئات، فمَنْ يعِشْ بين هؤلاءِ النسوة الماكرات المترفات، لا مهربَ له من الجهل إلاّ أن تَعْصِمَهُ بما هو فوقَ الأسباب، والسنن العادية. وقرىء[(٤)]: ﴿أصب إليهن﴾ من صبب صبابةً فأنا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البيضاوي.

(٤) البحر المحيط.

صَبَبٌ، والصَّبَابَةُ: إفراطَ الشوق، كأنه ينْصَب فيما يَهْوَى. وقرأه الجمهور: ﴿أَصْبُ﴾ من صبا إلى اللهو ويصبو صباً، صبواً، ويقال: صَبَا يَصْبا صِباً والصِّبا بالكسر اللهو واللعبُ.

وفي هذه الجملة الشرطية إيماء إلى أنه ما صَبَا إليهن، ولا أحبَّ أن يَعِيشَ معهن، بل سأَلَ ربه أن يُدِيمَ له ما عوَّده من كشف السوء عنه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: فأجاب له ربُّه دعاءه، الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ الخ، فإنَّ فيه التجاءً إلى الله تعالى، جَرْياً على سننِ الأنبياء والصالحينَ في قَصر نيل الخيرات، وطلبِ النجاة من الشرور، على جناب الله تعالى، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكتُ، فكأنه قال: اللَّهم اصرف عني كَيْدَهن. ﴿فَصَرَفَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن يوسف ﴿كَيْدَهُنَّ﴾؛ أي: كيدَ تلك النسوةَ، ومكْرَهُن، وعَصَمُه من الجهل والسفه، باتباع أهوائهن حَسْبَ دعائِه، وثبَّتَهُ على العصمة والعفة حتى وطَّنَ نَفْسَه على مشقة السجن ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء مَنْ تَضرَّعَ إليه، وأخلص الدعاءَ له ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصدق إيمانهم، وبما يُصْلِح أحوالهم. وفي هذا إرشاد إلى أنَّ ربه حَرَسه بعنايته في جميع أطواره، وشُؤُونه وربَّاه أكْمَلَ تربية، ما خَلاهُ ونَفْسَه في أهون أموره. وهذه الجملةُ تعليلٌ[1] لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه؛ أي: إنَّه هو السميع لدعوات الداعينَ له، العليم بأحوال الملتجئينَ إليه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾؛ أي: ثم ظهر العزيز وامرأته ومَنْ يُهِمُّه أمْرهُمَا من أصحابه المتصدِّين للحل والعقد رأي، أي: ظَهَرَ لهم من الرأي ما لم يظهر لهم من قبلُ. وثُمَّ تدلُّ على تغيُّرِ رأيهم في حقه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: منْ بعد أنْ رأوا الآيات، والشواهدَ الدالة على بَراءة يوسفَ وصدقه كشهادة الصبي، وقَدِّ القميص من دُبر، وقطع النساء أيديَهن، وذهاب عقولهن عند رؤيته؛ أي: ظَهَرَ

(١) الشوكاني.

لهم سجنُه بعد هذه الآيات، قائلين: والله ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾؛ أي: لَيَسْجُنُنَّ يوسُفَ في السجن ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين انقطاع مقالة الناس في المدينة، وهذا باديَ الرأي عند العزيز، وخواصِّه، وأمَّا عندها فحتى يُذَلِّلَهُ السجنُ، ويُسَخِّره لها، ويَحْسَب الناس أنه المجرمَ فلبث في السجن خَمْسَ سنين، أو سبع سنين، ولا دَلالَةَ في الآية على تعيين مدة حبسه؛ لأنَّ الحينَ عند أهل اللغة وقْتٌ من الزمان غير محدود، ويقع على القصير منه والطويل؛ أي[1]: إن زليخا لما أيِسَتْ من يُوسُفَ بجميع حِيَلها كي تحملَه على موافقة مرادها، قالت لزوجها: إنَّ هذا العَبْدَ العِبْرانِيَّ فَضَحني في الناس، يقول لهم: إني راودتُه عن نفسه، فإمَّا أنْ تأذَن لي فأخرج وأعتذرَ إليهم، وإما أن تَسْجُنه فسَجَنَه، لأنه كان مِطْواعاً لها. وقرأ الحسن: ﴿لتسجننه﴾ بالتاء على خطاب بعضهم، العزيزَ، ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم. وقرأ[2] ابن مسعود: ﴿عَتى﴾ بإبدالِ حاءِ حتى عيناً، وهي لغة هذيلٍ، وأقرأ بذلك فكَتَبَ إليه عُمَرُ يَأْمُرُه أن يُقْرِىءَ بلغة قريش ﴿حَتَّى﴾ لا بِلُغَةِ هُذَيْلٍ.

والمعنى[3]: أي ثُمَّ ظهر للعزيز وامرأتِه، ومَنْ يهمه أمْرُهُمَا كالشاهد الذي شهِدَ عليها من أهلها من الرأي ما لم يكن ظاهراً لهم من قبلُ. بعد أنْ رأوا من الآيات ما اختبَرُوه بأنفسهم، وشهدوه بأعينهم، ممَّا يدلُّ على أنَّ يوسف لم يكن إنساناً كالذين عرفوا في أخلاقه، وعفَّتِه، واحتقاره للشهوات، واللذات التي يَتَمتع بها سكانُ القصور.

وفي إيمانه بأنَّ ربه لن يَتْرُكَهُ بل يكلؤه بعين عنايته، ويَحْرُسَه بوافر رعايته، وقد اسْتَبَانَ لهم ذلك من وجوه:

١ ـ إنَّ افتتانَ سيدته في مراودته وجَذْبها خَلَسات نَظَرِه لم تؤثِّر في ميل قلبه إليها، بل ظلَّ معرِضاً عنها، مُتَجَاهِلاً لها حتى إذا ما صَارَحَتْهُ بما تريد، استعاذَ

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

بربه، ورَبِّ آبائه، وعَيَّرَها بالخيانة لزوجها.

٢ ـ أنها لَمَّا غَضِبَتْ وهمَّتْ بالبطش به، هَمَّ بمقاومتها، والبطشِ بها، ولم يمنعه إلاّ ما رأى في دَخِيلةِ نفسه من برهان ربه، الذي يَدُلُّ على أنَّ ربَّه صارف السوء والفحشاء.

٣ ـ أنها حين اتهمته بالتعدِّي عليها شَهِدَ شاهدٌ من أهلها، أنَّها كاذبةٌ في اتهامها إياه، وهو صادقٌ فيما ادَّعاه من مراودتها إياه عن نفسه، بدلالة القميص على ذلك. كلُّ هذا أثبتَ لهم أنَّ بَقَاءَه في هذه الدار بَيْنَ رَبَّتِهَا وصَدِيقَاتِهَا مَثارُ فتنة تدرك غَايتها، وأنَّ الحِكْمَة هو تنفيذُ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره، وكَفِّ ألسنة الناس عنها في أمره، وأقسموا ليسجننه حتى حين، دُونَ تقييد بزمن معين، لِيَرَوا ماذا يكون فيه من تأثير السجن، وحديث الناس عنه.

وفي تنفيذ هذا العزم، دَلالةٌ على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها، تَقُودُه كيف شاءَتْ، حتى فَقَدَ الغَيْرةَ عليها، فهو يَجري وراءَ هواها، ويستجلب رِضَاها، حتى أنساه ذلك، ما رَأى من الآيات وعَمِلَ برأيها في سجنه، لإلحاق الهَوَان، والصَّغار به، حتى أيست من طاعته، وطَمِعَتْ في أن يذلِّلَهُ السجنُ لأمرها، ويَقِفَ به عند مشيئتِها، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ فعل ومفعول. ﴿مِن مِّصْرَ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿أَكْرِمِى﴾ فعل وفاعل. ﴿مَثْوَىٰهُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يوسف. ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يوسف، وجملة ﴿يَنفَعَنَآ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه خَبَر ﴿عَسَىٰٓ﴾ ولكنه في تأويل اسم الفاعل تقديرُهُ: عسى نَفْعُه إيانا؛ أي: نَافِعاً لنا، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقولَ القول. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ فعل ومفعولان معطوف على ﴿يَنفَعَنَآ﴾ وفاعله ضمير يعود على المشترَى، والتقديرُ: عسى نَفْعُهُ إيانا، أو اتخاذُنا إياه ولداً؛ أي: عسى هو نافعاً لنا، أو مُتخذاً لنا ولداً. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفةٌ لمصدر محذوف، تقديره: تمكيناً مثل ذلك التمكين السابق من اجتبائه، وإنجائه من القَتْل والجُبِّ. ﴿مَكَّنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِيُوسُفَ﴾ متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾. وكذلك قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفةٌ على محذوف متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾ تقديره: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، لينشأ منه ما جَرَى بينه وبين امرأة العزيز، وليتصرَّفَ فيها بالعَدْل. ﴿لنعلمه﴾ (اللام) حرف جر وتعليل. ﴿نعلمه﴾ فعل، ومفعول أول منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: وكذلك مكنَّا له في الأرض لتصرُّفه فيها بالعدل، ولتعليمنا إياه تأويلَ الأحاديث. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿غَالِبٌ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنَّ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفةٌ على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لمَّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿بَلَغَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿بَلَغَ﴾، والجملة فعل شرط لـ ﴿لما﴾. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ فعل وفاعل ومفعولان. ﴿وَعِلْمًاۚ﴾ معطوف على ﴿حُكْمًا﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لمَّا﴾، وجملةُ ﴿لما﴾

مستأنفة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفةٌ لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونجزي المحسنين جزاء مثل جزائنا ليوسف، والجملة معطوفة على جملة ﴿لما﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿راودته﴾ فعل ومفعول. ﴿ٱلَّتِي﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾ مبتدأ. ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿راودت﴾. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة معطوفة على جملة ﴿راودت﴾. ﴿وَقَالَتْ﴾ فعل ماض والفاعل ضمير يعود على زليخا ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء، والتاء اسم فعل أمر بمعنى أقبِلْ وتعَالَ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله ضمير يعود على يوسف، وجملة اسم الفعل في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الخطاب كائن لك، أو معكَ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وفي «السمين»: ﴿لَكَ﴾ متعلق بمحذوف على سبيل البيان، كأنها قالت: أقول لك أو الخِطابُ لك كهي، في سَقْياً لك، ورَعْياً لك، اهـ.

فائدة في لغات ﴿هيت﴾: وفي «الفتوحات»: ﴿هَيتَ﴾ بفتح الهاء، والتاء ككيف ولَيْت و﴿هِيْتَ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء كقِيلَ وغِيضَ، و﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء، كحيثُ و﴿هِئْتُ﴾ بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وفتح التاء أو ضمها. وهذه خمسُ قراءات، وكلها سبعية، وكلُّها لغات في هذه الكلمة، وهي في كلها اسم فعل أمر بمعنى هَلُمَّ؛ أي: أقبل وتعال، اهـ شيخنا. فمن فَتَحَ التاء بناها على الفتح للتخفيف نحو: أيْنَ وكيف، ومن ضمَّها كابن كثير، فقد شَبَّهَها بحيثُ. ومَنْ كَسَرَها فعلى أصل التقاء الساكنين، اهـ «سمين». وذكر فيها قراءات أربعٌ أُخَرُ شاذة كما مرَّتْ في مبحث القراءة.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على يوسفَ، والجملة مستأنفة. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف وجوباً تقديره: أعوذ بالله معاذاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ ناصب واسمه وخبره، والضمير يعود على الباري جَلَّ وعلا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونِها تعليلاً لما قبلَها. ﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبِّيٓ﴾. ﴿مَثْوَايَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال لازمة من ربي. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، والضمير للشأن. وجملة: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿هَمَّتْ﴾ فعل ماض، وفاعلُه يعود على زليخا. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القَسمِ مستأنفة. ﴿وَهَمَّ﴾ فعل ماض. ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَمَّتْ﴾. ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿رَّءَا﴾ فعل ماض وفاعله ضمير على يوسف، ﴿رَّءَا﴾ بصرية. ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿رَّءَا﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، تقديره: لولا رؤيته برهانَ ربه، والخَبرُ محذوف وجوباً، تقديره: موجودة، وجوابُ ﴿لولا﴾ محذوف تقديره: لولا رؤيته برهانَ ربه موجودةٌ لقَدْ همَّ بها، وجملةُ ﴿لولا﴾ مستأنفةٌ، والمعنى: انتفَى وامتنع جماعه لها لوجود رؤية برهان ربه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: أريناه برهانَ ربه، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾. ﴿لِنَصْرِفَ﴾ ﴿اللام﴾ حرفُ جر وتعليل. (نصرف) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ مفعول به. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ معطوف عليه، والجملة

في تأويل مصدر مجرور باللام، و(اللام) متعلقة بذلك المحذوف، والتقدير: أريناه كذلك لصرفنا عنه السوءَ والفحشاءَ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ جار ومجرور خبر (إن). ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادِنَا﴾، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ ﴿استبقا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿الباب﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى الباب أو ضمن استبقَ معنى ابتدر. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة معطوفة على جملة ﴿استبقا﴾. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قدت﴾. ﴿وَأَلْفَيَا﴾ فعل وفاعل، وهو من أخوات ظن. ﴿سَيِّدَهَا﴾ مفعول أول. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ظرف، ومضاف إليه، والظرف في محل المفعول الثاني لألْفَى تقديره: وألفيَا سيدها كائناً لدى الباب، والجملةُ الفعلية معطوفة على جملة ﴿استبقا﴾.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة مستأنفة. ﴿مَا جَزَآءُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿جَزَآءُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية. ﴿جَزَآءُ﴾ مبتدأ ﴿جَزَآءُ﴾ مضاف. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الجر، مضاف إليه. ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِأَهْلِكَ﴾ متعلق به. ﴿سُوٓءًا﴾ مفعول به، والجملة صلةُ ﴿من﴾ الموصولة. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ ناصب وفعل مغير، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء إن قلنا: (ما) استفهامية، أو مرفوع على الخبر إن قلنا: (ما) نافية، تقديره: ما جزاء مَنْ أراد بأهلك سوءاً إلاّ السِّجْن. ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معطوف على المصدر المؤول من الفعل على كونه خَبَرَ المبتدأ فـ (أو) للتنويع.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن

﴿قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هِيَ﴾ مبتدأ ﴿رَٰوَدَتْنِي﴾ فعل ومفعول، و(نون) وقاية. ﴿عَن نَّفْسِي﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على زليخَا، والجملة الفعلية في محل الرفع خَبرِ المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قال﴾. ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) على كونه فِعل شرط لها. ﴿قُدَّ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على قميص. ﴿مِن قُبُلٍ﴾ متعلق بـ ﴿قد﴾، وجملة ﴿قد﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿فَصَدَقَتْ﴾ الفاء رابطة الجواب جوازاً، وقيل: إنه على تقدير: قد؛ أي: فقد صدقت لِيَكُونَ من المواضع التي تَجِبَ فيها الفاء. ﴿صدقت﴾ فعل ماض في محل الجزم على كونه جوابَ الشرط، وفاعله ضمير يعود على زليخَا، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول لقول محذوف حال من ﴿شَاهِدٌ﴾، تقديره: وشهد شاهد من أهلها حَالةَ كونه قائِلاً: إن كانَ قميصه قد من قبل.. فصدقت. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿صدقت﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه. وجملة ﴿قُدَّ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ متعلق بـ﴿قُدَّ﴾. وجملة ﴿فَكَذَبَتْ﴾ جواب الشرط، والجملة الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة الشرط الأولى. ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مبتدأ وخبر معطوف على جملة ﴿كذبت﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفصَحَت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ ما شَهِدَ الشاهدُ وأردتَ بيانَ ما قال العزيز. فأقولُ لك.

﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على العزيز. ﴿قُدَّ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على قميصه، والجملة في محل النصب حال من قميصه؛ لأنَّ ﴿رَءَا﴾ بصرية، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ متعلقا بـ﴿قُدَّ﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على العزيز، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب لمَّا، وجملةُ (لمّا) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: إنه ناصب واسمه. ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ خبره، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٌ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ منادى مفرد العلم حُذِف منه حرف النداء للتخفيف، وجملةُ النداء في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿أَعْرِضْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَنْ هَٰذَاۚ﴾ متعلق به، وجملة ﴿أَعْرِضْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ فعل وفاعل. ﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعْرِضْ﴾. ﴿إِنَّكِ﴾ ناصب واسمه. ﴿كُنتِ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ خبره، وجملة (كان) في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلَها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نِسْوَةٌ﴾. ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المرأة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تُرَٰوِدُ﴾. ﴿قَدْ﴾ حرف

تحقيق. ﴿شَغَفَهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الفتى. ﴿حُبًّا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال عن الفتى. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَنَرَىٰهَا﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿نرى﴾ فعل مضارع. (ها) مفعوله، وفاعله ضمير يعود على النسوة. ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ متعلق بـ﴿نرى﴾ وهو في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿لَنَرَىٰهَا﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) مستأنفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿سَمِعَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ جار ومجرور متعلّق به، والجملة فعل شرط لـ (لَمّا). ﴿أَرْسَلَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز. ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ متعلق بـ﴿أرسل﴾، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾، وجملةُ لَمَّا معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ فعل ماض. ﴿لَهُنَّ﴾ متعلق به. ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَتْ﴾. ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَتْ﴾. ﴿مِّنْهُنَّ﴾ صفة لـ﴿واحدة﴾. ﴿سِكِّينًا﴾ مفعول ثان. ﴿وَقَالَتِ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿أَرْسَلَتْ﴾، وفاعله ضمير يعود على المرأة. ﴿ٱخْرُجْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جوابُ ﴿لَمَّا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَمَّا﴾ الأولى. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَقُلْنَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾. ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقولُ محكي، وإن شئت قلت: ﴿حَٰشَ﴾ فعل ماض بمعنى بعد وتنزَّه، ويتصرَّفُ منه المضارع أحاشِي، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿حَٰشَ﴾ و(اللام) فيه للتعليل، والمعنى: بَعُدَ يوسفُ عن المعصية لأجل طاعة الله تعالى، وخَوْفِه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْنَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية تعمل عمل ﴿ليس﴾. ﴿هَٰذَا﴾ اسمها. ﴿بَشَرًا﴾ خبرُها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلن﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مَلَكٌ﴾ خبر المبتدأ. ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿مَلَكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قلن﴾.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة مستأنفةٌ. ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أَفْصَحَتْ عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا رأيتن ما رأيتن، وأردتُن بَيَانَ ما شغلني فأقولُ لَكُنَّ ﴿ذَٰلِكُنَّ﴾. ﴿ذلكن﴾ مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره. ﴿لُمْتُنَّنِى﴾ فعل وفاعل، ومفعول ونون وقاية. ﴿فِيهِ﴾ متعلق به، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول، والجملة الاسمية في محل النصب، مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذَا المقدرة في محل النصب مقولُ ﴿قَالَتْ﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾. ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿استعصم﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾. ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (اللام) موطئة للقسم. (إن) حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ يَفْعَلْ﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على يوسف والجملة الفعلية في محل الجزم بـ(إن)

على كونِها فِعْلَ شرطٍ لها. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿آمرُهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه جواب القسم تقديره: ولئن لم يفعل ما آمره يسجن، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم مؤكدةً للأولى. ﴿يسجنن﴾ فعل مضارع مغير الصيغة في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونائب فاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة القسم الأول، على كونه مقولاً لـ﴿قالت﴾. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿يكونا﴾ فعل مضارع ناقص في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة المنقلبة ألِفاً للتخفيف، واسمها ضمير يعود على يوسف. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ جار ومجرور خبرها، والجملة جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم في قوله ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب مقول القولِ على كونها جَوابَ النِّداءِ. ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحَبُّ﴾. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحَبُّ﴾ أيضاً. ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ فعل وفاعل و (نون) وقاية ومفعول به، لأنه فعل مضارع مبني على سكون الواو، والنون الأولى للنسوة فاعل، والثانية: نون وقاية، وهو مثل النسوة يَعْفُون، فالواو ليست ضميراً بل لام كلمة. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، وهو العائد على (ما) الموصولة، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿وَإِلَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إلا﴾ ﴿أَنْ﴾ حرف شرط جازم مبني

بسكون على النون المدغمة في لام ﴿لا﴾ لا نافية. ﴿تَصۡرِفۡ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(إن) الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ﴿تصرف﴾. ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾ مفعول به. ﴿أَصۡبُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(إن) الشرطية على كونها جواباً لها، وعلامةُ جزمه حذفُ حرف العلة. ﴿إِلَيۡهِنَّ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود يوسف، وجملة الشرط في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَكُن﴾ فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿أَصۡبُ﴾ واسمها ضمير يعود على يوسف. ﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ خبرها.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿استجاب﴾ فعل ماض. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَصَرَفَ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿صرف﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنۡهُ﴾ متعلق به. ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استجاب﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبره الأول. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ خبر ثان، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقةٌ لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب. ﴿بَدَا﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على السجن المعلوم من قوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ كما في «البحر». ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً، وجملة ﴿بَدَا﴾ معطوفة على جملة محذوفة، تقديرها: تَشَاوَرُوا في شأن يوسف، ثمَّ بدا لهم السجن من بعد ما رأوا الآيات. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملةُ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد رؤيتهم الآيات الدالة على صدق يوسف. ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿يسجننه﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و ﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة. ﴿حَتَّىٰ

﴿حِينٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يسجنن﴾، والجملة الفعلية جوابُ القسم المحذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ثم بدا لهم السجن حالَةَ كونهم قائلين: ليسجننه حتى حين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَثْوَىٰهُ﴾ المثوى: اسم لمكان الثواء والإقامة، يقال: ثويَ بالمكان من باب: رِضي إذا أقام به؛ أي: أحْسَن تعهدَه. ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: جعلنا له مَكَانةً رفيعةً، ودرجة عاليةً في أرض مصر؛ أي: جَعَلْنَاهُ على خزائنها، ومَكَّنَ يَتَعَدَّى بنفسه على حد قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و (باللام) كما هنا، والمراد نعطيه مكانةً ورتبةً عاليةً في الأرض. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: بعض تعبير الرؤيا التي عَمَدَتْها رؤيا الملك، وصاحبي السجن. ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: لا يمنع عما يشاء، ولا يُنازَع فيما يريد. ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ والأشُدُّ: هو وقت رشده، وكمال قوته، باستكمال نموه الجسمانيِّ، والعَقْلِيِّ، ثم يكون بعده النقصانُ، قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: ثماني عشرة، وقيل غير ذلك. وفي «الفتوحات»: في الأشد ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: وهو قول سيبويه أنه جمعٌ مفرده شدَّةُ نحو: نعمة وأَنْعُم.

والثاني: قول الكسائي أنَّ مفرده شُدّ بزنة قُفل.

الثالث: أنه جمعٌ لا واحِدَ له من لفظه قاله أبو عبيدة، وخَالَفه الناس في ذلك، وهو من الشدِّ، وهو الرَّبْطُ على الشيء والعَقْدُ عليه. قال الراغب: وفيه تنبيه على أنَّ الإنسان إذا بلغ هذا القَدْرَ يتقوَّى خلقه الذي هو عليه، فلا يكادُ يُزايله، اهـ «سمين».

ولم يَقُلْ هنا: واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص؛ لأنَّ موسى كان قد بلغ أربعين سنة، وهي مدة النبوة، فقدِ استوى وتهيأ لحمل أسرار النبوة. وأما يُوسُفُ فلم يكن يوسف إذ ذاك قد بلَغَ هذا السن، اهـ شيخنا، اهـ «فتوحات». ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان

مصر. والعلم: هو العلم بالحكم الذي يحكمه. وقيل: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحكم هو النبوة، والعلم هو العلم بالدين. وقيل: علم الرؤيا.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ المراودة: الإرادةُ والطلبُ برفق ولين. وقيل: هي مأخوذةٌ من الرَّود؛ أي: الرفق، والتأني، ويقال: أَرْوِدْنِي بمعنى أمهلني. وقيل: المراودة مأخوذة من راد يَرُود إذا جَاءَ، وذهب، كأن المعنى أنها فعلَتْ في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الرائد لِمَنْ يطلُب الماءَ والكلأ. وقد يُخَصُّ بمحاولة الوقاع، فيقال: راودفلان جَارِيَتَهُ عن نفسها، وراودته هي عن نفسه، إذا حاول كُلٌّ واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أن تَكُونَ من الجانِبَيْنِ فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قَائِماً مقام المسبَّب، فكأنَّ يُوسُفَ عليه السلام ـ لما كان ما أعطيه من كمال الخَلْقِ والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له ـ مراود. ويجوز أن يُرادَ بصيغة المفاعلة مجردُ المبالغَةِ. وقيل[1]: الصِّيغَةُ على بابها بمعنى أنَّها طلبت منه الفعلَ، وهو طَلَب منها التَرْك. وقال الراغب: المراودة أن تنازعَ غيرك في الإرادة، فتريد منه غيرَ ما يريد، كما قالَ إخوة يوسف ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: نحتالُ عليه، ونخدعه عن إرادته، ليرسل بنيامين معنا، اهـ.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، وفي هذه[2] الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال: غلق الأبوابَ، ولا يقال: غلَّق البابَ، بل يقال: أغلق البابَ، وقد يقال: أغلق الأبوابَ، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

مَا زِلْتُ أُغْلِقُ أَبْوَاباً وَأَفْتَحُهَا حَتَّىٰ أَتَيْتُ أَبَا عَمْرِو بْنَ عَمَّارِ

قيل: وكانت الأبواب سبعةً. ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها وكسرها، اسمُ فعل بمعنى هَلُمَّ وأقبل وبَادِرْ. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث، فالفتحُ للخفة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيثُ، وإذا بين باللام نحو: هَيْتَ لك، فهو صوتٌ قائمٌ مَقامَ المصدر، كأف

---

(١) الفتوحات. (٢) الشوكاني.

له؛ أي: لَكَ أقول هذا، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مَقَامَ مصدر الفعل، فيكون اسمَ فعل، إما خبر؛ أي: تهيأت، وإما أمرٌ؛ أي: أَقْبِلْ. وقال في «الصحاح»: يُقال: هوت به، وهيت به إذا صَاحَ به، ودَعاهُ، ومنه قول الشاعر:

يَـحْـدُوْ بِـهَـا كُـلُّ فَـتَـىً هَـيَّـاتُ

وقد روي عن ابن عباس، والحسن، أنَّها كلمةٌ سريانية معناها، أنها تَدْعُوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حورانَ، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تَعَالَ. قال أبو عبيدة: فسألت شَيْخاً عَالِماً مِنْ حورانَ فذكر أنها لُغَتُهم. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدر منصوب بفعل محذوفٍ، وجوباً على أنه نائب عن فعله مضاف إلى اسم الله سبحانه؛ أي: أعوذ بالله مَعاذاً ممَّا تدعونني إليه، كسبحانَ الله بمعنى أسبِّح اللَّهَ، ويقال: عَاذ يعوذ عِيَاذاً، وعياذةً ومعاذاً، وعوذاً، اهـ «سمين».

والمعنى: أعُوذ وأتحصَّن بالله من أن أكونَ من الجاهلينَ الفاسِقِينَ. وقال في «روح البيان»: هو من جملة المصادر التي ينصبُها العربُ بأفعال مضمرة، ولا يستعمل إظهارُها كقولهم: سبحانَ اللَّهِ، وغفرانَكَ وعونك، اهـ. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾؛ أي: هَمَّتْ[1] وقصدت لتبطش به لعصيانه أمرها، وهم بها ليقهرها في الدفع عما أرادته، ويَرُدَّ عنفها بمثله. وفي «الشهاب» قال الإمام: المراد بالهمِّ؛ أي: بهم يوسفَ في الآية: خطور الشيء بالبال، أو ميل الطبع كالصائم، يَرَى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكنه يَمْنَعُه دينُه عنه، اهـ. ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام؛ أي: مُخْلصين أعمالهم لله تعالى، وبفتحها هم الذين أخلصهم الله تعالى، واجتباهم واخْتَارَهم لطاعته. ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾؛ أي: تَسَابَقَا إلى الباب، وقصد كل منهما سَبْقَ الآخر إليه، فهو ليخرج، وهي لِتَمْنَعَه من الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: قطعته، وشقته طولاً من خلف، فهو من المضاعف المعدى من باب شدَّ. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: وَجداه، والسيد[2]:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

فيعل من سَادَ يسودُ يطلق على المالك، وعلى رئيس القوم، وفَيْعَل: بناء مختص بالمعتل، وشذ بيئس وصيقل اسم امرأة. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ والنسوة[1]: اسمُ جمع لا واحد له من لفظه، بل من معناه، وهو امرأةٌ وتأنيثها غير حقيقي، بل باعتبار الجماعةِ، ولذلك لم يَلْحَقْ فعلَها تاء التأنيث، والمشهور كسر نونها. ويجوز ضمها في لغة ونقلها أبو البقاء قراءة ولم أحفظه وإذا ضُمَّت نونه كان اسمَ جمعَ بِلا خِلاف. والنساء: جمع كثرة أيضاً، ولا واحدَ له من لفظه، اهـ «سمين». ﴿تُرَاوِدُ فَتَنْهَا﴾ وألف الفتى منقلبة عن ياءٍ، لقولهم: فَتَيانِ، والفتوة شاذ؛ أي: رَقِيقَها وعَبْدَها. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ والشِّغَافُ: الغلاف المحيط بالقلب، ويقال: شَغَفْتُ فلاناً إذا أَصَبْتَ شِغَافَ قلبه كما يقال: كبدته إذا أصبتَ كبده. وفي «المصباح»: شَغَفَ الهوى قَلْبَه شغفا من باب نَفَع، والاسم الشَّغَفُ بفتحتين بلَغَ شغافه بالفتح، وهو غشاؤه، وشغفه المال زين له فأَحَبَّهُ فهو مشغوف به، اهـ.

﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والضلال: الحيدة عن طريق الرشد، وسنَنِ العَقل. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: بِقَوْلِهِنَّ وسمِّي ذلك مكراً لأنهن كن يردن إغْضَابَها كي تعرض عَليهِنَّ يُوسُفَ لتبديَ عُذْرَهَا فَيَفُزْنَ بمشاهدته. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾؛ أي: أعدَّتْ وهيَّأَتْ. ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ والمتكأ: ما يجلس عليه من كراسي، وأرائك. وأصل[2] الكلمة: موتكأ لأنه من توكأت، فأبدلت الواو تاءً وأدغمت. ويجوز أن يكون من أوكيت السِّقَاءَ: فتكونُ الألفُ بدلاً من الياءِ، ووزنُه مفتعل من ذلك ذكره أبو البقاء. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أعظمنَه ودَهِشْن من جماله الرائع. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: جَرَحْنَها.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً لله أن يكون هذا المخلوقُ العجيبُ من جنس البشر، قال أبو البقاء: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ يقرأ بألفين، وهو الأصل، والجمهور على أنه هنا فعل ماض، وقد صُرِّفَ منه أحاشي، وأيَّدَ ذلك دخول اللام على اسم الله تعالى، ولو كان حرفَ جر لَمَا دَخَل على حرف جر، وفاعلُه مضمر تقديره: حَاشَى يوسفُ؛ أي: بَعُدَ من المعصية لخوفِ الله تعالى. وأصل الكلمة: حاشَيْتُ

---

(1) الفتوحات.

(2) العكبري.

الشيءَ، فَحَاشَا صَارَ في حاشيةٍ أي ناحيةٍ. وقال بعضهم: هي حرف جر، و (اللام) زائدة، وهو ضعيف، لأنَّ موضعَ مثلِ هذا ضرورةُ الشعر، اهـ. ﴿استعصم﴾؛ أي: اعتصَمَ وامتنعَ، فالسين فيه زائدة، أو المعنى: استمسك بعروة عصمتِه التي ورثها عمَّن (نَشؤُا) عليها. ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ بكسر السين اسمٌ للمكان، والمحبوبُ له، دخوله لا ذاته؛ أي: دخول السجن. ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ﴾؛ أي: عندي. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ الصبوة الميلُ إلى الهوى، ومنه ريح الصَّبَا لأن النَّفْسَ تستطِيبُها، وتميل إليها، اهـ «بيضاوي». وفي «المصباح»: صَبَا يَصْبُو صَبْواً من باب قعد، وصَبْوةً أيضاً مثل شَهْوَةٍ إذا مَالَ. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ﴾؛ أي: أجاب دُعاءَه فالسين والتاء زَائِدتان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآياتُ أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ لأنه كناية عن إحسان تعهده.

ومنها: التشبيه المجمل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

ومنها: إطلاق العامّ وإرادةُ الخاصِّ في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ المرادَ أرض مصر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ لأنّه كناية عن استكمالِ زمان قوته ورُجولته.

ومنها: التشبيهُ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: العدول[1] عن ذكر اسمها في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ للمحافظة على الستر، أو للاستهجان بذكره.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: إيراد الموصول لتقرير المراودَةِ، فإنَّ كونَه في بيتها مما يَدْعُو إلى ذلك. قيل لواحدة: ما حَمَلَكِ على ما أنت عليه ممّا لا خَيْرَ فيه؟ قالت: قُرْبُ الوِسَادِ وطُولُ السَّوَادِ، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنَّ عَدَمَ ميله إليها مع دوام مشاهدته لِمَحَاسِنِها، واستعصائِه عليها مع كونه تحت مِلكها، ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة، اهـ أبو السعود.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بشأنه في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

ومنها: الحَصْرُ في قوله: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿قُبُلٍ﴾ و﴿دبر﴾، وبين ﴿صدقت﴾ و﴿كذبت﴾، وبين ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ و﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿صدقت﴾ و﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وبين ﴿كذبت﴾ و﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

ومنها: تغليبُ الذكور على الإناث في قوله: ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ومقتضى السياق أن يقال من الخاطئات.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ حيث استعار المكر للغِيْبَة بجامع الاختِفاءِ في كل منهما.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ شبَّهَ الجُرْحَ بالقطع بجامع الإيلام في كلٍّ، فاستعارَ لفظ القطع للجرحِ، ثمَّ اشتقَّ من القطع بمعنى الجرح، قَطَّعْنَ بمعنى جَرَحْنَ على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحصْرُ في قوله: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿يسجنن﴾ و ﴿ٱلسِّجْنُ﴾.

ومنها: التشنيع، والتقبيحُ في قوله: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ لأن في إضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع؛ لأنَّ النفوسَ أميل لسماع أخبار ذوي الجاه.

ومنها: الاتيانُ بالمضارع في قوله: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ للدلالة على أنَّ ذلك سَجيَّةٌ لها؛ لأنَّ المضارعَ يفيد التجدد، والاستمرارَ.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ شبه يوسفَ بالملك، بجامع الحُسن، والجمال في كل ثمَّ استعار له اسم الملك على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الإشارة إلى القريب باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تنزيلاً لبُعْدِ مرتبته عن غيره منزلة البعد الحسِّي.

ومنها: الدلالة على فَخَامَةِ شأن المشار إليه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ ذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل المؤخر، على أن يكونَ عبارة عن التمكين، في قلب العزيز، أو في منزله، وكون ذلك تَمْكيناً في الأرض بملابسة أنه عزيز فيها، لا عن تمكين آخر يشبه به، فالكاف مقحم للدلالة على فَخَامة شأنِ المشار إليه، إقحاماً، لا يترك في لغة العرب، ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مِثْلُكَ لا يَبْخَلُ؛ أي: مثل ذلك التمكين البديع، مكنا ليوسف في الأرض، وجعلناه محبّاً في قلب العزيز، ومكْرماً في منزله، ليترتَّب عليه ما ترتب بما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ذكره في «روح البيان».

ومنها: الحَذْفُ والزيادةُ في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦)
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ
ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا
ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي
ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا
وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ
بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى
ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ
(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ
فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا
عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه[١] وتعالى لمَّا ذكر مكْر النسوة بامرأة العزيز لتريهن يوسف، ثم مكر امرأةِ العزيز بهن حتى قَطَعْنَ أيدِيَهُنَّ، وقلنَ في يوسف ما قلنَ من وصف جماله، ثم إظهارُ امرأة العزيز المعذرةَ لنفسها، فيما فعلتْ وعزمَها على سجنه إن لم يكن مطواعاً لها، ثمَّ حمايةُ الله له من كيدها بعد دعائه إياه، ثم تدبيرُ مُؤَامرة بين العزيز وامرأته وأهلها على إدخاله السجن، مع كل ما رَأوا من الآياتِ حتى ينسَى الناس هذا الحديث، وتَسكُن تلك الثائرة في المدينة.. ذَكَرَ هنا تَنْفِيذَهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن، وما كان من لطف الله به، إذ آتاه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يُعَبِّرَ لكل حالمٍ عمّا يراه، ويُخْبِرَ كلَّ أحد عما يسأله عنه، مما لم يكن حاضراً لديه، وما سيأتي له من طعام، وشراب، ونحوِ ذلك. ثمَّ ذَكَر قولَ يُوسُفَ إنَّ هذا كلَّه نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن[٢] يوسف لمّا ذَكَرَ ما هو عليه من الدين الحنيفي.. تلطَّفَ في حُسْنِ الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفَتَيين من عبادة الأصنام فَناداهما باسم الصحبة في المكانِ الشَّاقِّ الذي تَخْلُص فيه المودةُ، وتتمحض فيه النصيحةُ.

وعبارة المراغي هنا[٣]: بعد أن أبطلَ يوسف عليه السلام ما هما عليه من الشرك فيما سَلَفَ، وذكر أنه قد اتبعَ ملةَ آبائه إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وبيَّن أنَّ هذا فضلٌ من الله تعالى، ومنة منه عليهم، وعلى سائر الناس، وكثير من الناس لا يشكرون الخالقَ، لهذه النعم، فيعبدوه وحده دون أن يشركوا به شيئاً.. دَعَاهُما إلى التوحيد الخالص، وأيدَهُ بالبرهان الذي لا يَجِدُ العقل محيصاً من التسليم به، والإقرار بصحته قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ الآيتين.

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا...﴾ الآيتين، مناسبتُهما لما قبلهما: أنَّ يُوسُفَ[1] لمَّا أَلْقَى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رجاء في إيمانهما.. ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ...﴾ الآيات، مناسبتُها لما قبلها: أنه لما دنا فَرَج يُوسُفَ عليه السلام.. رأى ملك مصر الريان بن الوليد رُؤيا عجيبةً هالته فرأى سبع بقراتٍ سمانٍ الخ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: مع يوسف ﴿ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، وفي الكلام[2] حذفٌ تقديره: فسجنوه فدخلَ معه السجنَ غلامان. و(مع) تدلُّ على الصحبة واستحداثِها، فدلَّ على أنهم سَجَنُوا الثَّلاثَةَ في ساعةٍ واحدةٍ. ولمَّا دخل يُوسُفُ السِّجنَ، استمالَ النَّاس بحسن حديثه وفضله ونُبْلِهِ.

وكان يسلِّي حَزِينَهم، ويعود مريضَهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأَحبَّه الفتيان، ولزماه، وأحبَّه صاحب السجن، والقيِّمُ عليه، وقال له: كُنْ في أيِّ البيوت شئت، فقال له يوسف: لا تحبَّني يرحمك الله، فلقد أدخلت عليَّ المحبة مضرات أحبتني عمتي فامتحنت بمحبتها، وأحبَّني أبي، فامتحِنت بمحبته، وأحبَّتني امرأة العزيز، فامتحنت بمحبتها بما ترَى.

وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن: إنِّي أُعبِّر الرؤيا، وأُجيدُ - أي: ودخل[3] معه السجنَ غلامان مملوكان مِنْ غلمان ملك مصر الأعظم، وهو الريَّانُ بن الوليد بن نَزْوَانَ العِمليقِ، أحدهما خَبَّازه، وصاحب طعامه، والآخرُ سَاقِيه، وصاحب شرابه، وكان قد غَضِبَ عليهما المَلِكُ فحبسهما. وكان السَّببُ في ذلك أنَّ جماعةً من أشراف مصر أرادوا المَكْرَ بالمَلِكِ واغتياله، وقتله،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يَسُمَّا المَلِكَ في طعامِه وشرابِه، فأجابا إلى ذلك، ثمَّ إنَّ الساقيَ ندم، فرجَعَ عن ذلك، وقَبِلَ الخبَّازُ الرَّشْوَةَ، وسَمَّ الطعامَ. فلما حضر الطعامُ بين يدي الملك قال السَّاقي: لا تأكل أيها الملك، فإنَّ الطَّعامَ مسموم. وقال الخبَّاز: لا تَشْرَبْ فإنَّ الشَّراب مسموم. فقال للساقي: إشْرَبْ، فَشَرِبَه به فلم يضره. وقال للخباز: كل من طعامك، فأَبَى. فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت. فأمر الملك بحبسهما فحبسَا مع يُوسُفَ. وكان يُوسُفُ لما دخَلَ السِّجْنَ جَعَل ينشر علمه، ويقول: إني أعبِّر الأحلامَ فقال أحد الغُلامين لصاحبه: هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني، فتَرَائيَا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رَأيَا رؤيا حقيقةً.

قال ابن مسعود: ما رأيا شيئاً إنما تحالما لِيُجَرِّبا يُوسُفَ، وقال قوم: بل كانَا قد رأيا رؤية حقيقةً فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألَهما عن شأنهما، فذَكَرا أنهما غُلامانِ للملك، وقد حبَسهما، وقد رَأيا رؤيا قد غمتهما، فقال يوسف قصَّا عليَّ ما رأيتما فقصا عليه ما رأياهُ. فذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾؛ أي: أحد الفتيين، وهو صاحب شراب الملك، اسمه سَرْهَم، أو مَرْطَش؛ أي: قال أحَدُهما ليوسف: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾؛ أي: رأيت نفسي ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾؛ أي: أعصِرُ عِنباً، فيصيرُ خَمراً، وأسقِي المَلِكَ. وسمَّى العِنَبَ خَمراً باعتبار ما يؤول إليه. إذ الخَمْرُ لا يُعْصَرُ. وقيل: إنَّ عَربَ غسان وعُمَان يسمون العِنَبَ خَمْراً. رُوي أنه قال: رأيت حَبْلَةً من كرم حسنةً، لها ثلاثة أغصان، فيها عناقيدُ، فكنت أعصرها، وأسقي. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أعصر عنباً﴾ وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لمخالفته سَوادَ المصحف، والثابتُ عنهما بالتواتر قراءتهما: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾. وفي مصحف عبد الله: ﴿فوق رأسي ثَرِيداً تأكل الطير منه﴾ وهو أيضاً تفسير لا قراءة ذكره في «البحر».

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز، واسمه بُرْهَم، أو رَأُسَانُ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾؛ أي: رأيت نفسي كأني ﴿أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾؛ أي: من ذلك الخبز. وفوق بمعنى على؛ أي: على رأسي. ومثله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ كما في

«التبيان». وقد روي أنه قال: رأيتُ أني أَخرجُ من مطبخ الملك، وعلى رأسي ثلاثُ سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾؛ أي: أخبرنا بتفسير ما رأينا، وما يؤول إليه أمرُ هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: من العالمين بتعبير الرؤيا. والإحسان هنا بمعنى العلم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فيسليهم، ويقول: اصبروا وأبشروا تؤجَروا، فقالوا: بارك الله فيك، يا فتى، ما أحسن وجهك، وما أحسن خلقك، لقد بورك لنا في جوارك، فمَنْ أنت يا فتى؟ فقال: أنا يوسف بن صفيِّ الله يعقوبُ بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. فقال له عامل السجنِ: لو استطعت خلَّيْتُ سبيلك، ولكني أُحْسِن جِوارَكَ فكن في أيِّ بيوت السجن شئت.

فلمَّا[1] قصَّا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبِّرها لهما حينَ سألاه، لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما: وأعرض[2] عن سؤالهما، وأخذ في غيره من إظهار المعجزة، والنبوة والدعاء إلى التوحيد. وقيل: إنه عليه السلام أراد أن يبين لهما أنَّ دَرَجَتهُ في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدَا فيه، وذلك أنهما طَلَبَا منه علم التعبير، ولا شكَّ أنَّ هذا العلم مبني على الظن، والتخمين، فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين، وذلك مما يعجز الخلق عنه، وإذا قدَرَ على الإخبار عن المغيبات، كان أقْدَرَ على تعبير الرؤيا بطريق الأولى. وقيل: إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة؛ لأنه علم أنَّ أحدهما سيصلب، فأراد أن يُدخِلَهُ في الإسلام، ويخلِّصه من الكفر، ودخول النار، فأظْهَرَ له المعجزة لهذا السبب.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ في اليقظة في منزلكما على حسب عادتكما، المطَّرِدَةِ ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ أي: بقدَرِهِ ولونه، والوقت الذي يصل إليكما فيه، والاستثناء[3] مفرَّغ من أعمِّ الأحوال؛ أي: لا

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلاّ حالَ ما نبأتكما؛ أي: بينت لكما ماهيَتَهُ وكيفيته ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾؛ أي: قبل أن يَصِلَ إليكما، وأيُّ طعام أكلتم، وكم أكلتم؟ ومتى أكلتم؟

وهذا مِثْلُ معجزة عيسى عليه السلام، حيث قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. فقالا ليوسف عليه السلام: هذامن علم العرَّافِينَ والكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن، ولا عرَّاف، وإنما ذلك مما علَّمنِيه رَبي، كما سيأتي بيانه. وقيل: أراد به في النوم، يقول: لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة.

والمعنى[١]: أي قال لهما لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما به، وهو عند أهله، وبما يريدون من إرساله، وما ينتهي إليه بعد وصولِهِ إليكما. روي أنَّ رِجَالَ الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين طعاماً مسموماً، يقتلونهم به، وأنَّ يوسف أراد هذا من كلامه.

وفي ذلك إيماء إلى أنه أُوتي عِلم الغيب، وهذا يجري مجرىٰ قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

ومن هذا يعلم أن وحيَ اللّهِ جاءَهُ وهو في السجن، وبذلك تَحَقَّقَ قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. كما أنَّ وَحْي الإلهام جَاءه حين إلقائه في غيابة الجب، كما تقدم ذكره. وكأنه سبحانه جَعَلَ في كلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةً، وفي كلِّ ما ظاهره بلاء نِعْمةً.

﴿ذَلِكُمَا﴾؛ أي: ذلك الذي أنبأتكما به أيها الفَتَيان. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾؛ أي: بعض ما علمني ربي سبحانه بوحي، وإلهام منه، لا بكهانة ولا عرافة، ولا يشبه ذلك من تعليم بشرى يلتبس به الحق بالباطل، ويَشْتَبِهُ فيه الصواب بالخطأ. وذلك[٢] أنه لما نَبَّأهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قَبْلَ أن يَأْتِيَهُما ويَصِفُه لهما، ويقول: اليومَ يأتيكما طعام من صفته كيت وكيتَ، قالا هذا من

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فعل العرافين، والكهَّان، فمن أيْنَ لك هذا العلم، فقال: ما أنا بكاهن؛ وإنما ذلك العلم مما علمني ربي.

وفيه دلالة على أنه له علوماً جَمَّةً ما سَمِعاه قِطْعةً من جملتها، وشعبة من دَوْحَتها.

وكأنَّه قيل: لماذا علمك ربَّك تلك العلوم البديعة؟ فقيل: ﴿إِنِّي﴾؛ أي: لأني ﴿تَرَكْتُ﴾؛ أي: رفضتُ من أول أمري ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾؛ أي: دينَ قوم؛ أيَّ قوم كانوا من قوم مصر وغيرهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يُصَدِّقُون بوحدانية الله تعالى. والمراد بالقوم[1] هنا: الكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد، والمصريون الذين هم بينهم، فقد كانوا يعبدون آلهةً منها الشمس، وعجلهم، وفراعنتهم، وكان التوحيد خاصاً بحكمائهم وعلمائهم. ومعنى تركها أنه تَرَكَ دخولها، واتباعَ أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها. وفي ذلك لفت لأنظارهما لأن يَتْرُكَا تلك الملةَ التي هم عليها.

والمعنى: إني بَرِئْتُ من ملة مَنْ لا يصدق بالله، ولا يقرُّ بوحدانيته، وأنه خَالِقُ السموات والأرض وما بينهما. وعبارة «روح البيان» هنا: والمراد[2] بتركها، الامتناع عنها رَأْساً، لا تركها بعد ملابستها، وإنما عَبَّرَ بذلك لكونه أدخلَ بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هم مختصون بذلك دون غيرهم، لإفراطهم في الكفر بالله تعالى. والمعنى: أي: وهم يكفرون[3] بالآخرة، والحساب، والجزاء على الوجه الذي دعا إليه الأنبياء، إذ أنهم كانوا يصورون حياةَ الآخرة على صور مبتدعةٍ، منها: أنَّ فراعنتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة، ويَرجع إليهم الحكم والسلطان، كما كانوا في الدنيا، ومن ثَمَّ كانوا يَضَعُونَ معهم في مقابرهم جواهرهم، وحليهم، ويبنون

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الأهرام لحفظ جثَّتِهم، وما معهم، ولهم معتقدات أُخرى في تلك الحياة، لا تشاكل ما جاء منها على ألسنة الرسل عليهم السلامُ.

قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ معطوف على (تركت). وقرأ[1] الأشهب العقيلي والكوفيون: ﴿آبائي﴾ بإسكان الياء، وهي مروية عن أبي عمرو، وسماهم جميعاً آباء، لأنَّ الأجدادَ آباء، وقدَّمَ الجد الأعلى ثم الجدَّ الأقرب، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده، ثم تلقاها عنه إسحاق، ثم يعقوبُ. وفي ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه في الإيمان بالله، والتوحيد، وتنفير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال؛ أي: واتبعت ملةَ آبائي الذين دعوا إلى التوحيد، الخالص، وهم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. وعَرَّف[2] شرَفَ نَسَبِهِ، وأنه من أهل بيت النبوة، لتتقوى رغبتهما في الاستماع منه، والوثوق عليه، وكان فضل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب أمراً مشهوراً في الدنيا، فإذا ظَهَرَ أنه ولدهم عظموه، ونظروا إليه بعين الإجلال وأخذوا منه. ولذلك جوّز للعالم إذا جهلت منزلته في العلم، أن يَصِفَ نَفْسَه، ويعلم الناسَ بفضله حتى يعرف، فيقتبس منه، وينتفع به في الدين، وفي الحديث: «إنّ الله يسألُ الرجلَ عن فضل علمه كما يسأل عن فضل ماله». وقدم ذكر ترك ملة الكفرة على ذكر أتباعه لملة آبائه، لأن التخليَة بالمعجمة متقدمة على التحلية بالمهملة. وفيه إشارة إلى أنَّ الاتباعَ سبب للفوز بالكمالات، والظفر بجميع المرادات.

ثم بيَّن أساسَ الملة التي وَرِثَها عن أولئك الآباءِ الكرام، فكانت يقيناً له بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾؛ أي ما صحَّ، وما استقام، فضلاً عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا، ووفور علومنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ﴾؛ أي: شيء كان من ملك أو جنيٍّ أو إنسي فضلاً عن الجماد الذي لا يضر ولا ينفع؛ أي[3]: لا ينبغي لنا مَعْشرَ الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً فنتخذه رباً مدبراً معه، ولا إلَهاً معبوداً

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

من الملائكة، أو البشر كالفراعنة فضلاً عمَّا دونهما من البقر، كالعجل أو من الشمس والقمر أو ما يُتَّخَذُ من التماثيل والصور لهذه الآلهة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ إلخ ناشىء ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافَّةً بواسطتنا، وإرسالنا لإرشادهم؛ إذ وجود القائد للأعمى رحمة من الله أيُّ رحمة.

والمعنى: أي عدم الإشراك من فضل الله علينا؛ إذ هدانا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته، وألوهيته بوحيه وآياته في الأنفس والآفاق. وعلى الناس بإرسالنا إليهم، ننشر فيهم الدعوةَ، ونقيم عليهم الحجة، فنهديهم سبيل الرشاد، ونبين لهم محجة الصواب، ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَم الله عليهم فيشركون به أرْباباً وآلهة من خلقه يذلون أنفسَهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم، أو أدنى منهم.

والإضافة في قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ من باب[1] الإضافة إلى الظرف؛ إذ الأصل: يا صاحبين لي في السجن، ويجوز أن يكونَ من باب الإضافة إلى التشبيه بالمفعول به، والمعنى: يا ساكني السجن كقوله: أصحاب النار، اهـ «سمين». والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ تقريري؛ أي: لطلب الإقرار بجواب الاستفهام؛ أي: أقروا واعلموا أنَّ الله هو الخير، اهـ «جمل».

ومعنى التفرق هنا[2]: هو التفرق في الذوات، والصفات، والعدد، كذهب، وفضة، وحديد، وخشب، وحجارة، وغير ذلك، وجماد، وحيوان، وحي وميت.

والمعنى: هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم، المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن، أم الله المعبود بحق المتفرد في ذاته، وصفاته الذي لا ضدَّ له ولا نِدَّ ولا شريك القهار الذي لا يغالبه مغالب، ولا يعانده معاند، أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

الحجةَ القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يَعبُد الأصنام، وقد قيل: إنه كان بَيْنَ أيديهما أصنامٌ يعبدونها، عند أن خاطبهما بهذا الخِطَاب.

وعبارة المراغي: وهذا الاستفهام لتقرير ما يذكر بعده، وتوكيده، والمرادُ بالتفرق التفرقُ في الذوات، والصفات المعنوية التي يَنْعتونهم بها، والصفات الحسية التي يصوِّرها لهم بها الكَهَنة والرؤساء من رسوم منقوشة وتماثيل منصوبة في المعابد والهياكل.

والمعنى[1]: أأرباب كثيرون متفرِّقون شأنهم التنازعُ والاختلاف في الأعمال، والتدبير الذي يُفْسِدُ النظام خير لكما، ولغيركما فيما تطلبون من كشف الضر، وجلب النفع، وكلِّ ما تحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب، أم اللَّهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمد الذي لا ينازع ولا يعارض في تصرفه، وتدبيره، وله القدرة التامَّةُ، والإرادةُ العامَّةُ، وهو المسخر لجميع القوى، والنواميس الظاهرة التي تَقُوم بها نظم العوالم السماوية، والأرضية، من نور وهواء وماء، والغائبة عنا كالملائكة، والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها، هو سبب عبادتها، والقولُ بربوبيتها، ولا شكَّ أنَّ الجوابَ عن هذا مما لا يختلف فيه عاقلٌ، فلا خيرَ في تفرق المعبودات التي لا تستطيع ضرّاً ولا نفعاً في السموات والأرض.

ثم بين لهما أنَّ ما يعبدونه، ويسمونه آلهة إنما هي جَعْلٌ منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تَلَقَّاها خلف عن سلف، ليس لها مستندٌ من العقل، ولا الوحي السماويّ فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: ما تعبدون من دون الواحد القهار ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ لمسميات ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾؛ أي: وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ من قِبَلِكُم وتحملتموها صفات الربوبية، وأعمالها، وما هي بأرباب تَخْلُق، وترزق وتضر وتنفعُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾؛ أي: ما أنزل الله حجةً وبرهاناً على أحد من رسله بتسميتها أرباباً، حتى يقالَ: إنكم تتبعونها تعبداً له وحده، وطاعةً لرسله.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنها تسمية لا دليلَ عليها من نقل سماوي، فتكونُ أصلاً من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من عقل، فتكون من نتاج الحجة والبرهان.

وقيل المعنى[1]: ما تعبدون من دون الله تعالى إلا مسميات أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهةً من عند أنفسكم، وليس لها من الإلّهية شيء إلا مجردَ الأسماء لكونها جمادات لا تَسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: بتلك التسمية ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾؛ أي: من حُجَّةٍ تدل على صحتها، وإنما قال: ما تعبدون على خطاب الجَمع، وكذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قَصَدَ خطاب صاحبي السجن، ومَنْ كان على دينهم. ومفعول سَمَّيتموها، الثاني محذوف كما قدرناه آنِفاً؛ أي: آلهةً من عند أنفسكم. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾؛ أي: ما الحكم[2] الحق في الربوبية، والعبادة إلا لله سبحانه وتعالى وحده، يوحيه لِمَن اصطفاه من رسله، ولا يمكن بشراً أن يَحْكُم فيه بهواه، ورأيه، ولا بعَقْله، واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه. وهذه قاعدة اتفقت عليها كلُّ الأديان دونَ اختلاف الأمكنة والأزمان.

ثمَّ بيَّنَ ما حَكَمَ به الله تعالى فقال: ﴿أَمَرَ﴾ سبحانه وتعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي[3]: أمَرَ ألاَّ تعبدوا غَيْرَه، ولا تَدْعُوا سِوَاه، فله وحده اركعوا، واسجدوا، وإليه وحده تَوَجَّهوا حنفاءَ غير مشركين به شيئاً من مَلَك من الملائكة ولا ملك من الملوك الحاكمين، ولا شمس، ولا قمر، ولا نجم، ولا شجر، ولا حيوان كالعِجْل (أبِيسُ) لدى المصريين؛ لأنَّ[4] العبادَة نهاية التعظيم، فلا تليق إلا بمَنْ حَصَلَ منه نهاية الإنعام، وهو الله تعالى؛ لأنَّ منه الخلق والإحياء، والرزق والهداية، ونعم الله كثيرة، وجهاتُ إحسانه إلى الخلق غير متناهية، فالمؤمن الصادق الإيمان، لا يذِلُّ ولا يَخْضَعُ لأحد غير الله تعالى مما خلق بدعاء ولا استغاثة، ولا طلب فرج من

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

(٤) المراح.

ضيق، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء، وأن كلَّ ما سواه فهو خاضع لسلطانه، ولا يملك لنفسه، ولا لغيره غير ما أعطَاه من القوى، فإليه وحده المَلْجَأُ في كل ما يعجز عنه الإنسانُ، أو يجهله من الأسباب، وإليه المصير في الجزاء على الأعمال يومَ يقوم الحساب والمعنى أنه[1] أمركم بتخصيصه بالعبادة دُونَ غيره مما تزعمون أنه معبودٌ.

ثم بين لهم أنَّ عبَادَته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستقيم الثابت؛ أي: إنَّ تَخْصِيصَه بالعبادة هو الدينُ الحق، الذي لا عِوَج فيه، والذي دعا إليه جميع الرسل، ودلَّتْ عليه براهينُ العقل والنقل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ذلك هو الدين الحق المستقيم، الذي لا اعْوِجَاجَ فيه، لا ما سَارُوا عليه تبعاً لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد، بأرباب متفرقين لجهلهم بتلك البراهين.

ولما فرغ يوسف عليه السلام من بيان الحق لهما في مسألة التوحيد، وعبادة الله تعالى وحدَه، شرع في تعبير رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ الإضافة فيه بمعنى في؛ أي: يا صاحبين لي في السجن ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي الذي رأى أنه يعصِرُ خَمْراً، ولم يعينه ثقةً بدلالة الحال، ورعايةً لِحُسْن الصحبة، أو لكراهةِ التصريح للخبَّاز بأنه الذي سَيُصلب ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾؛ أي: فيسقي سيده، ومالكَ رقبته خَمْراً. وقد رُويَ أنَّ يُوسُفَ قال له في تعبير رؤياه: ما أحْسنَ ما رأيتَ؟ أمَّا الكرمة فهي الملك، وحسنها حسن حالك عنده برجوعك إلى منزلتك الأولى، بل إلى أحسنَ منها، وأما الأغصان الثلاثة: فثلاثة أيام، تَمْضي في السجن، ثم تخرج، وتعود إلى عملك. وقرأ الجمهور: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ من سقَى، وفرقة: ﴿فيسقي﴾ من أسقى، وهما لغتان بمعنى واحد. وقال ابن عطية: وقرأ عكرمة والجحدري: ﴿فيُسْقَى ربه خمراً﴾ بضم الياء، وفتح القاف؛ أي: ما يرويه، ذكره أبو حيان. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الخبَّاز الذي رَأى أنه يحمل خبزاً تأكل الطير

---

(١) الشوكاني.

منه ﴿فَيُصْلَبُ﴾؛ أي: فيقتل صَلْباً ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ﴾ الكواسر، كالحدأة، والرخمة، ونحوهما ﴿مِن رَّأْسِهِۦ﴾ رُوي أنه عليه السلام قال له: بئس ما رأيتَ؟ أمَّا خروجك من المطبخ، فخُروجُك من عملك، وأما السلال الثلاث فَثلاثَةَ أيامٍ تمُرُّ ثم يُوجه الملك إليكَ عند انقضائهن، فيصلبك فتأكل الطير من رأسك. وفي «الكواشي»: أكْلُ الطير من أعلاها إخراجه في اليوم الثالث، انتهى.

﴿قُضِيَ﴾؛ أي: نُفذَ وفرغ، وأتِمَّ، وأحكِم ﴿ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: تطلبان فتواهُ، وتأويلَه، وهو ما رأياه من الرؤيين.

وإسناد[١] القضاء إليه مع أنه من أحوال مآله، وهو نَجَاةُ أحدهما، وهلاك الآخر؛ لأنه في الحقيقة عَيْنُ ذلك المآل، وقد ظَهر في عالم المثال بتلك الصورةِ؛ أي: تَمَّ الأمر الذي تسألان عنه، رأيتما أو لم تَرَيَا، فكما قلتما، وقُلْتُ لكما كذلك يكونُ. رُوِيَ أنَّه لمَّا عَبَّر رؤياهما جَحَدا، وقَالا: ما رأينا شَيئاً فأخْبَرَ أنَّ ذلك كائن صدقتما، أو كذبتما، ولعَلَّ الجحودَ من الخباز؛ إذ لا داعي إلى جحود الساقي إلاَّ أن يكون ذلك لمراعاة جانبه، فكان الأمر كما عبَّر يُوسُف. قال ابن مسعود[٢] رضي الله عنه: فلما سمعا تعبيرَ يوسف عليه السلام، وقَولَه ذلك قالا: ما رأينا شيئاً، إنما كنا نَلْعَبُ قال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: فُرِغَ من الأمر الذي سألتما عنه، ووجب حُكْمُ الله عليكما بالذي أخبرتكما به، رأيتما شيئاً أم لم تَرَيا. ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾؛ أي: يوسف؛ أي: عِلمَ وتَحقَّق، فالظَّنُّ بمعنى العلم، والظان[٣] هو يوسف عليه السلام؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الساقي، وهلاك الخَبَّاز، وهكذا قال جمهور المفسرين. وقيل: الظن على ظاهره، ومعناه: لأنَّ عابرَ الرؤيا إنما يَظُنُّ ظَنّاً، والأُولى أَولى، وأنسبُ بحال الأنبياء، ولا سيما وقد أخبَر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلَعه الله على شيء مِنْ علم الغيب كما في قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية. ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾؛ أي قال يوسف للرجل الذي ظَنَّهُ نَاجِياً من القتل منهما؛ أي: من صاحبيه، وهو الساقي. وجملة قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ أيُّها الساقي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيدك الملك الأكبر، هي مقول القول؛ أي: اذكر حالي عند سيدك، فقل له: إنَّ في السجن غلاماً مَحبوساً، مظلوماً، طال حبسه نحوَ خمسِ سنينَ. يعني أمره بأن يذكره عند سيده، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير، والاطلاع على شيء من علم الغيب. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: فأنسى الشيطان الساقي ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: أن يذكر يوسُفَ عند الملك؛ أي: أنسَى الشيطان بوسوسته الساقيَ ذكره ليوسف عند الملك، فالإنساء في الحقيقة لله تعالى، وهذا قول عامَّة المفسرين، قالوا: لأنَّ صَرْفَ وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي، حتى أنساه ذكرَ يوسف أولى من صرفها إلى يوسف. وقيل: الضمير في أنساه عائد على يوسف.

والمعنى: أن الشيطان أنْسَى يوسفَ ذكرَ ربه عز وجل حتى طَلَب الفَرَجَ من مخلوق مثله، وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام، فإنَّ الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة في الشريعة، إلا أنه لما كان يوسف في أشرف المراتب، والمقامات، وهي منصب النبوة، والرسالة، لا جَرَمَ صارَ يوسف مؤاخذاً بهذا القدر من الاستعانة، فإنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فإن قلتَ[1]: كيف تمَكَّن الشيطان من يوسف حين أنساه ذكر ربّه؟.

قلت: بشغل الخاطر، وإلقَاءِ الوسوسة، فإنه قد صحَّ في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مَجْرى الدم»، فأما النِّسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر، وإزالته عن القلب بالكلية، فلا يقدر عليه. وبالجملة: فالأولى بالصدِّيقين أن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب، ولذلك جوزي يُوسُفُ بسنتين في الحبس كما قال: ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ﴾ بسبب ذلك القول ﴿بِضۡعَ سِنِينَ﴾؛ أي: سبعَ سنينَ خَمْساً منها قبل ذلك القول، وثنتين بعده، هذا هو الصحيح. وقيل: لَبِثَ

---

(١) الخازن.

بعد هذا القول سبعَ سِنين، وقَبْلَه خمساً، فالجملة اثنتا عشرةَ سنةً. وهذه الجملة تؤيِّدَ[١] عَوْدَ الضمير في أنساه إلى يوسف، ويؤيِّد عوده إلى الذي نجا منهما قوله فيما سيأتي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي سنة.

والمعنى: وقال يوسف[٢] للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند سيدك الملك، بما رأيتَ مني، وما سمعتَ، وعلمت من أمري عَلَّه ينصفني ممَّنْ ظلمني، ويخرجني من ضائقة السجن، ومما هو جدير أن يذكره به من دَعْوَتِهِ إياهم إلى التوحيد، وتأويله للرؤيا، وإنبائهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب، وغيرهما، قبل إتيانه، وفُتْيَاه التي أفتى بها ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: فأنسى الشيطانُ ذلك الساقيَ النَّاجيَ تذكر إخبار ربه؛ أي: أن يَذْكُرَ يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ منسياً مظلوماً. والبضع من ثلاث إلى تسع، وأكثرُ ما يطلق على السبع، وعليه الأكثرون في مدة سجن يوسف. وقيل: ثنتا عشرة سَنَةً. وقيل: أربع عشرةَ سنةً. وقيل: خَمس سنينَ.

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ولما دنا فرج يوسف عليه السلام، وأراد الله عز وجل إخراجَه من السجن رأى مَلِكَ مِصْرَ الأكبر رُؤيا عجيبةً هالته، وذلك أنه رَأَى في منامه سَبعَ بقرات سمان، قد خَرَجْنَ من البحر، ثُمَّ خَرَجَ عَقِيبَهن سبع بقرات عجاف، في غاية الهزال، فابتلع العِجافُ السمانَ، ودَخَلْن في بطونهن، ولم ير منهن شيء، ولم يتبين على العجاف منها شيء، ورأى سنبلات خضراً قد انعَقَد حبها، وسبعَ سنبلات أخر اليابسات، قد استحصدت، فالتوت يابسات على الخُضْر، حتى علون عليهن، ولم يبقَ من خضرتها شيء، فجَمَع السحرة والكهنة والمعبِّرين، وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: ملك مصر الأكبرُ، وهو الريَّانُ بن الوليد الذي كَانَ العزيز، وزيراً له، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ في المنام عَبَّر بالمضارع حكايةً للحال الماضية، وكذلك قوله الآتي: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾؛ أي:

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

قال: إني رأي فيما يَرى النائم رُؤيا جَلِيَّةً كأني أراها الآن ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ جمع سمين، وسمينة خرجن من نهر يابس في إثرهن سبع عجاف؛ أي: مهازيلُ ﴿يَأۡكُلُهُنَّ﴾؛ أي: يأكل تلك السمان ﴿سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾؛ أي: فابتلعت العجاف السمان. والعجاف: جمع عجفاءَ على غير قياس. وقياس جمعه: عُجْفٌ؛ لأنَّ فَعْلاَءَ وأفْعل لا يجمع على فعال كما سيأتي في مبحث الصرف إن شاء الله تعالى، ولكنه عَدَلَ عن القياس حَمْلاً على سمان. ﴿وَ﴾ إني رأيت ﴿سبع سنبلات﴾ جمع سنبلة، وهي ما يكون فيه الحب كسنبلة الحنطة ﴿خُضۡرٖ﴾ قد انعَقَدَ حبها جمع خضراء، وهي التي لم تبلغ أوانَ الحصاد ﴿وَ﴾ رأيت سبعاً ﴿أُخَرَ يابسات﴾ قَدْ أدركت، وبلغت أوانَ الحصاد جمع يابسة، واليابس من السنبل ما آن حصاده، فالْتَوَتْ اليابساتُ على الخضر، حتى غلبن عليها، واستغنى عن بيان حالها، بما قصَّ مِنْ حال البقرات.

فلما[1] استيقظ من منامه، اضطرب بسبب أنَّهُ شاهَدَ أنَّ الناقص الضعيفَ، استولى على الكامل القوي، فشهدت فطرته بأنَّ هذه الرؤيا صورة شر عظيم، يقع في المملكة إلا أنه ما عَرَفَ كَيفية الحال فيه، فاشتاقَ ورغِبَ في تحصيل المعرفة بتعبير رؤياه، فجمع أعْيَانَ مملكته من العلماء والحكماء، وكذا الكهنة والمنجمين، وأخْبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله تعالى عن تأويل هذه الرؤيا؛ ليكون ذلك سبباً لخلاص يُوسُفَ من السجن، وذلك قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ والأشراف من قومي المعبرون للرؤيا فهو خطاب للأشراف من العلماء، والحكماء، أو للسحرة، والكهنة، والمنجمين، وغيرهم ﴿أَفۡتُونِي﴾ وأجيبوا لي ﴿فِي﴾ تأويل ﴿رُءۡيَـٰيَ﴾ هذه؛ أي: عبِّروها لي وبيِّنوا حكمَها، وما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعلمون تعبيرَ جنس الرؤيا، وتفسيرَ المنام؛ أي: عبروها[2] لي إنْ كنتم تعبرون الرؤيا، وتبينونَ المعنى الحقيقيَّ المرادَ من المعنى المثاليِّ، فيكون حالكم حالَ

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

من يعبرُ النَّهْرَ من ضفةٍ إلى أخرى. وأصلُ العبارة[١]: مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شَاطِئَه، فعابرُ الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها. قال الزجاج: (اللام) في (للرؤيا) للتبيين؛ أي: إن كنتم تعبرون، ثمّ بَيَّن فقال: (للرؤيا). وقيل: هي للتقوية وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفَواصل. وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا قال الملأ للملك؟ فقيل: قالوا، إلخ. والأضْغَاثُ[٢]: جمع ضغث، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما. والأحلامُ: جمع حلم، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها، كما يكون من حديث النفس، ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى من أو من قبيل إضافة لجين الماء، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رُؤْيَا واحدة مبالغةً منهم، في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يَكُونَ رأى مع هذه الرؤية غيرها مما لم يَقُصَّه الله تعالى علينا، أو لتضمنها أشياءَ مختلفةً من السبع السمان، والسبع العجاف: والسنابل السبع: الخضر والأخر اليابسات؛ أي: قالوا هذه الرؤيا أضْغَاثُ أحلام؛ أي: أخالِيطُ الأحلام وأباطيلها وأكاذيبها من حديث نفس أو وسوسة شيطانٍ؛ أي: هذه أحلام مختلطَةٌ ورؤيا كاذبة، لا حقيقةً، ولا معنى لها ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ﴾؛ أي: بتعبير المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾؛ لأنه لا تأويلَ لها، وإنما التأويل للمنامات الصادقةِ لا لأنَّ لها تأويلاً، ولكن لا نعلمه. قال الزجاج: المعنى: بتأويل الأحلام المختلَطَة، نفُوا عن أنفسهم عِلْمَ ما لا تأويلَ له، لا مطلقَ العلم بالتأويل. وقيل: إنَّهُم نَفَوْا عن أنفسهم عِلْمَ التعبير مطلقاً، ولم يَدَّعُوا أنه لا تعبيرَ لهذه الرؤيا. وقيل: إنهم قَصدوا مَحْوَها من صدرِ المَلِكِ حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكروه مِنْ نَفْيِ العلم حقيقةً.

ويجوز[٣] أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمهم، وأنَّهم لَيسوا بِنَحَارِير في تأويل الأحلام، مع أنَّ لها تأويلاً فكأنهم قالوا: هذه الرؤيا مختلطة من أشياء

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

كثيرة، والانتقال فيها من الأمور المخَيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية، ليس بسهلٍ، وما نحن بمتبحِّرين في علم التعبير، حتى نهتدي إلى تعبير مثلها، ويَدُلُّ على قصورهم قول الملك ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، فإنه لو كان هنا متبحِّر: لبت القولَ بالإفتاء، ولم يعلِّقْه بالشرطِ، وهو اللائحُ بالبال، وعلى تقديرِ تبحرهم عَمى اللَّهُ عليهم، وأَعْجَزَهم عن الجواب؛ ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من الحبس، وظهور كماله وفَضْلِهِ. وقرأ[1] أبو جعفر بالإدغام في (الرؤيا) وبَابُه (بعد) قلب الهمزة واواً، ثمَّ قلبها ياءً لاجتماع الواو والياء، وقد سَبَقَتْ إحداهما بالسكون، ونصُّوا على شُذُوذِه؛ لأنَّ الواوَ هي بدلٌ غيرُ لازم و(اللام) في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ مقوية لوصول الفعل إلى مفعوله، إذا تقدَّمَ عليه، فلو تأخَّرَ لم يَحْسُن ذلك بخلاف اسم الفاعل، فإنه لِضَعْفِهِ قد تَقوَّى بها، فتقول: زيد ضاربٌ لعمرٍو فصيحاً.

وقد كان حديث الملك في رؤياه، مع كهنته، وعلمائه، ورجال دولته، مذكراً للذي نجا من الفَتَيَيْنِ بِيُوسُفَ، وحُسْنِ تعبيره للرؤيا بعد أن مضَى على ذلك مدَّةً من الزمان، كما يشير إلى هذا ما بعده. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ وخرج من السجن ﴿مِنْهُمَا﴾؛ أي: من صاحبي يوسف، وهو السَّاقي ﴿و﴾ الحال أنه قد ﴿ادَّكَرَ﴾؛ أي: قد تذكَّر يوسفَ وما قاله ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد مدة طويلة من الزمان. وادّكر: أصله: إذْتكر، فقلبت التاء دَالاً، والذال دالاً، وأدغمت كما سيأتي في مباحث الصرف. أي: تذكَّر[2] الناجي منهما يوسفَ، وتأويلَه رؤياه، ورؤيا صاحبه، وطَلَبَه أن يَذْكُره عند الملك، فجَثى بين يَدَي الملك؛ أي: جَلَس النَّاجِي على ركبتيه، قُدَّامَ الملك فقال للملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أنا أُخبركم ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: بتأويل هذا المنام الذي أَشْكَلَ عليكم وتعبيره. خَاطبه بلفظِ الجمع تعظيماً له ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: فابعثون إلى السجن، فإن فيه رجلاً حكيماً من آل يعقوب، يقال له: يُوسُفُ يعرِفُ تعبير الرؤيا، قد عَبَّر لنا قبلَ ذلِكَ فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فاعتذَرَ إليه، فاسْتَفْتَاه فيما عَجَزُوا عنه، وقال: يا ﴿يُوسُفُ﴾، ويا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾؛ أي: أيها البالغ غاية الكمال في الصدق، وإنما وَصَفَهُ بذلك، لأنه جَرَّب أحوالَه، وعرف صِدْقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه. وجملةُ مجيء الرسول ليوسف في السجن أربعَ مرات، الأولى في قوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ﴾، والثانية في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، والثالثة في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ إلخ، والرابعة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ إلخ؛ أي: يا يُوسُفُ البالغُ غَايَةَ الكمال بصدقك في أقوالك وأفعالك، وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ﴿أَفْتِنَا﴾؛ أي: أخْبِرنَا، وبيّنَ لنا ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾؛ أي: أخْبِرْنا في رؤيا مَنْ رَأَى في منامه سبع بقرات سمان، يَبْتَلِعهُنَّ سبعُ بقرات مهازِيلُ، وفي رؤيا مَن رأى سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خضر، وسبعاً أخرى يابسات، فإنّ الملِكَ قَدْ رَأَى هذه الرؤيا، وعَجَز المعبّرون عن تعبيرها. ففي قوله[1]: ﴿أَفْتِنَا﴾ مع أن المستفتي واحد إشعارٌ بأن الرؤيا لَيْسَتْ له، بل لغيره ممن له ملابسةٌ بأمور العامة، وأنه في ذلك سَفِيرٌ، ولم يُغَيِّر لفظ الملك، وأصاب فيه، إذ قد يكون بعض عبارات الرؤيا متعلقة باللفظ ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الملك ومَنْ عنده من الملأ، وأعود إليهم بفَتْوَاك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما تأتي به في تأويل هذه الرؤيا، أو يعلمون فَضْلَكَ ومعرفِتَكَ فنَّ التعبير، فيطلبوك ويُخَلِّصوك من محنتك.

والمعنى: أفتِنا[2] في هذا المنام الذي رآه الملك، وإنّي لأرجو أن يحقِّقَ اللَّهُ أمَلَكَ بالخروج من السجن، وانتفاعَ المَلِكِ وملئه بفضلك، وعِلْمِك، وإنَّما لم يبتَّ الكلامُ فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع، فرُبَّما اخْتَرَمَتْهُ المنية دونه، ولا يُعْلِمهم. ذكره «البيضاوي». وقرأ[3] الجمهورُ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال المهملة المشدَّدة. وقرأ الحسن: ﴿واذكر﴾ بإبدال التاء ذالاً، وإدغام الذال فيها. وقرأ الأشهَبُ العقيليُّ: ﴿بعد إمَّة﴾ بكسر الهمزة؛ أي: بعدَ نعمة أنْعَم الله عليه بالنجاة من القَتْلِ$. وقال ابن عطية: بعد نعمةٍ أنعم الله بها على يوسف في تقريب إطلاقه

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي

من السجن، والإمَّةُ النِّعْمَةُ قال الشاعر:

أَلاَ لاَ أَرَىٰ ذَا إِمَّـةٍ أَصْبَحَتْ بِهِ   فَتَتْرُكُهُ ٱلأَيَّامُ وَهِيَ كَمَا هِيَا

قال الأعلم: الإمَّةُ النِّعمة، والحالُ الحَسَنَةُ. وقرأ ابنُ عباس، وزيد بن علي، والضحاك، وقتادةُ، وأبو رجاء، وشبيل بن عزرة الضبعي، وربيعة بن عَمرو: ﴿بعد أَمَهٍ﴾ بفتح الهمزة، والميم مخففةً، وهاءٍ، والأَمَهُ: النِّسيانُ. وكذلك قرأ ابنُ عُمَرَ، ومجاهد، وعكرمة، واختلف عنهم. وقرأ عِكْرَمة، وأيضاً مجاهد، وشبيل بن عزرة: ﴿بعد أَمْهٍ﴾ بسكون الميم مصدر أَمَهَ على غير قياس. وقال الزمخشري: ومَنْ قرأ بسكون الميم فَقَدْ أخطأ، انتهى. وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القرَّاء. وقرأ الحسن: ﴿أنا آتيكم﴾ مضارعُ آتى مِن الإتْيان، وكذا في مصحف أُبيٍّ. وقرأ يعقوب: ﴿فأرسلوني﴾ بالياء.

وجملة قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعةٌ في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال يوسف في التأويل؟ فقيل: قال يوسفُ لهم: تزرعون إن شاء الله تعالى في المستقبل. ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾؛ أي: متواليةً متتابعةً، فدأباً مصدرٌ واقع موقعَ الصفة؛ أي: دائبةً متواليةً فهو مصدرٌ دَأَب في العمل، إذا جَدَّ فيه، وتعبَ، أو واقع موقِعَ الحال من فاعل ﴿تَزْرَعُونَ﴾ بمعنى دائبين؛ أي: مُستَمرِّينَ على الزراعة على عادتكم بجِدٍّ واجتهاد. وقرأ حفص: (دَأَباً) بفتح الهمزة والجمهور بإسكانها وهما مصدران لدأب. والفرق بين الحرثِ والزرع أنَّ الحرثَ إلقاء البذْر، وتهيئة الأرضِ، والزرعُ مراعاتُه، وإنباتُه. فعَبَّر يوسف عليه السلام السبعَ البقراتِ السمانَ بسبع سنين فيها، خصبٌ والعجافَ بسبع سنين فيها جَدْبٌ. وهكذا عبَّر السبع السنبلات الخضرَ، والسبع السنبلات اليابسات، واستَدَلَّ بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ وقطعتم من الزروع في كل سنة من السنين المُخْصِبة ﴿فَذَرُوهُ﴾؛ أي: فاتركوا ذلك المحصودَ ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦ﴾؛ أي: كَوافرِهِ، وبقَصَبِهِ ليكون القصب عَلَفاً للدوابِّ، ولا

---

(١) البحر المحيط.

تَدُوسوه، وتفصلوه عن سنبله، لئلا يأكله السُّوسُ كما هو شأن غلال مصر، ونواحيها، فإن ذلك أبقى له على طول الزمان. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في هذه السنين المخصبة؛ فإنه لا بدَّ لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها، وقتَ حاجتكم إليه، واقتصر على استثناء المَأْكُول دونَ ما يحتاجون إليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم؛ لأنه قد علم من قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾. وفيه إرشاد منه عليه السلام إلى التقليل في الأكل. وقرأ السلمي: ﴿مما يأكلون﴾ بالياء على الغيبة؛ أي: يأكل الناس، وهذا تأويل السبع السمان، والسبع الخضر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعدِ السبع السنين المخصِبَة ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس، وهذا تأويل السبع العجاف، والسبع اليابسات، ﴿يَأْكُلْنَ﴾؛ أي: يأكل أهلُهُنَّ؛ أي: يأكل أهل السبع الشداد فيهن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: ما ادَّخرتم لأجلهن مِن الحبوب المتروكة في سَنَابِلِها. وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، فهو من باب نهارُه صائمٌ؛ أي: تأكلون الحَبَّ المزروعَ وَقْتَ السنين المخصبة المتروك في سنبله في السنين المجدبة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾؛ أي: مما تَحْبِسُون من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأَقْوات. وقال أبو عبيدة: معنى تُحْصِنُون تُحْرِزُون. وقيل: تَدَّخِرُون للبَذْرِ. والمعنى واحدٌ: فَأَكْلُ ما جُمِع أيامَ السنين المخصبة في السنين المجدبة، تأويل ابتلاع العجاف السمان.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما ذُكِرَ من السنين المجدبات ﴿عَامٌ﴾؛ أي: سنة ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك العام ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يمطر الناسُ، وينقذون فيه من كرب الجدب بالغيث ﴿وَفِيهِ﴾؛ أي: وفي ذلك العام ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ما منْ عادته أن يُعْصَر كالعنب، والقصب، والزيتون، والسمسم، ونحوها من الفواكه لِكَثْرَتِها.

وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُون﴾: يَحْلِبون الضُّروعَ. وقيل معناه: يمطرون. وقيل معناه: ينجون من الشدة. وعلى هذين المعنيَيْنِ يقرأ بالبناء للمفعول. قال

أبو حيان[1]: والجمهور على أنه من عَصَر النباتَ كالعنب، والقصب، والفجل، وجميع ما يعصر، ومصر بلد عصير لأشياء كثيرة، والحلب منه، لأنه عَصْرٌ للضروع. وروي أنهم لم يَعْصِرُوا شيئاً مدة الجدب، انتهى. وهذا مِن[2] مدلولات المَنام، لأنه لما كانت العجاف سبعاً دَلَّ ذلك على أنَّ السِّنينَ المجدبة لا تزيدُ على هذا العدد.

فالحاصلُ بعده: هو الخِصبُ على العادة الإلَهية حيث يُوسِّع الله سبحانه وتعالى على عباده بعد تضييقه عليهم. وقيل: إنَّ الإنباءَ بهذا العام زَائِدٌ على تأويل الرؤيا، ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلاّ بِوَحيٍ من الله عز وجل. وقرأ[3] الأخوان حمزة، والكسائي: ﴿تعصرون﴾ بالتاء على الخطاب، وباقي السبعة بالياء على الغيبة. وقَرأ جعفر بن محمد، والأعرج، وعيسى البصرة: ﴿يُعصَرون﴾ بضم الياء، وفتح الصاد مبنياً للمفعول. وعن عيسى أيضاً: ﴿تعصرون﴾ بالتاء على الخطاب مبنياً للمفعول، ومعناه: يُنجَونَ من عصره إذا أنجاه، وهو مناسب لقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾. وحكى النقاش أنه قُرِىء: ﴿يعصرون﴾ بضم الياء وكسر الصاد، وشدِّها من عَصَّر مشدداً للتكثير. وقرأ زيد بن علي: ﴿وفيه تعصرون﴾ بكسر التاء، والعين، والصاد، وشدها وأصلُه تعتصرون فإدغم التاء في الصاد، ونقَلَ حركتها إلى العين، وأتبع حركة التاءِ لحركة العين، واحتمل أن يكونَ من اعتصر العنبَ، ونحوَه، ومن اعتصر بمعنى نجا. فلما رجع الساقي إلى المَلِك وأخبَره بما ذكره يوسف استَحْسَنَه المَلِك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: ملك مصر، وهو رَيَّان بن الوليد ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾؛ أي: جيئوني بيُوسُفَ عليه السلام كي أستمع كَلاَمَه مِنْ فمه، وأعْرِفُ دَرَجَة عَقْلِهِ، وأعلم تفضيلَ رَأْيِهِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾؛ أي: يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: رسول الملك، وهو الساقي، وبلغه أمر الملك، وطلب إليه إنفاذه ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: سيدك قبل شخوصي إليه، ومثولي بَيْنَ يديه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والبَالُ هو[4] الأمر الذي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

يَبْحَثُ عنه، ويُهْتَمُّ به؛ أي: واسأله عن حال النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ ليعرِفَ حَقِيقَةَ أمره؛ إذ لا أحبُّ أن آتيه، وأنا متَّهَمٌ بقضيَّةٍ عوقبت من أجلِهَا بالسجن، وقد طال مكثِي فيه دُونَ تعرف الحقيقة، ولا البحث في صميم التهمة.

ولم يذكر[1] سيدته تأدُّباً ومراعاةً لحقها، واحترازاً من مكرها، حيث اعتقدَها مقيمةً في عَدْوَةِ العَداوة، وأما النسوة فقد كان يَطْمَعُ في صَدْعهن بالحقِّ وشهادتهن بإقرارها، بأنها رَاوَدَتْهُ عن نفسِهِ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

قال العلماء[2]: إنما أبَى يُوسُفَ عليه السلام أن يخرجَ من السجن، إلا بعد أن يتفحَّص المَلِكُ عن حاله مع النسوة. لتنكشفَ حقيقة الحال، عنده لا سيما عند العزيز، ويَعلم أنه سجِنَ ظُلماً، فلا يقدِر الحاسد إلى تقبيح أمره، وليظْهَرَ كمال عقله، وصَبْرِه ووقَارِه، فإن مَنْ بَقِيَ في السجن ثنتي عشرة سنةً إذا طلبه الملك، وأمر بإخراجه، ولم يبادر إلى الخروج، وصَبَرَ إلى أن تتبين براءتَهُ من الخيانة في حق العزيز، وأهله دَلَّ ذلك على براءته من جميع أنواع التُّهَمِ. وفي الحديث: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فلا يقِفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَم». ومنه قال عليه السلام للمارين به في معتكفه وعنده بعض نساءه: «هِيَ فُلانَةُ» نفياً للتهمة.

وروي عن النبي ﷺ أنه اسْتَحْسَنَ حَزْمَ يُوسُفَ وصَبْره حين دعاه الملك، فلم يُبَادِر إلى الخروج حيث قال عليه السلام: «لقد عَجِبْتُ من يوسُفَ وكرمه، وصَبْرِه، والله يَغْفِرُ له حينَ سُئل عن البقرات العِجاف والسمانِ، ولو كنتُ مَكَانَه ما أخبرتهم حتى اشْتَرطت أن يُخْرِجوني، ولقد عَجِبْتُ حين أتاه الرسول فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، الآية. ولو كنت مكانَه ولبثتُ في السجن ما لَبث.. لأسْرَعْتُ الإجابة، وبادَرْتُهم الباب، وما ابتغيت العذرَ، إنه كان حليماً ذَا أناة». الحِلْمُ، بكسر الحاء: تأخير مكافأة الظُّلم، والأناة على وزن القَنَاة: التأني وترك العجلة. قال ابن الملك: هذا ليس إخباراً عن نبينا عليه الصلاة والسلام بتَضَجُّره، وقلة صبره، بل فيه دلالة على مدح صبر يوسف، وترك الاستعجال بالخروج، لِيَزُولَ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

عن قلب الملك ما كان مُتَّهماً به من الفاحشة، ولا يُنْظَر إليه بعين مشكوكة، انتهى.

وقال الطَّيبِي: هذا من رسول الله ﷺ على سبيل التواضع لا أنه كان مستعجلاً في الأمور غير متأن، والتَّواضُعُ لا يصغِّر كبيراً، ولا يَضعُ رفيعاً، بل يُرحِّب لصاحبه فَضلاً، ويُورِثُه جَلالاً وقدراً.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى، أو إن سيدي[1] ومربي، وهو ذلك الملك، قاله ابن عطية، ورُدَّ عليه. ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾؛ أي: بمكرهن ﴿عَلِيمٌ﴾ حين، قلنَ لي: أطع مَوْلاَتَكَ. وفيه استشهاد بعلم الله على أنهن كِدْنَه، وأنه بريء من التهمة كأنه قيل: احمله على التعرف، يتبيَّنُ له براءة ساحتي، فإنَّ الله يعلم أنَّ ذلك كان كيداً منهن. والمعنى: أنه[2] تعالى هو العالم بخفيات الأمور، وهو الذي صرَف عنّي كيدهُن، فلم يَمْسَسْنِي منه سوء.

وقد دلَّ هذا التمهل، والتأني من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له حتى تحقق براءته على جملة أمور:

١ ـ جميلُ صبره، وحُسْنُ أناته، ولا عَجَب، فمِثْلُه ممَّن لقيَ الشدائد جدير به أن يكون صبوراً حليماً، ولا سيما ممن ورَثَ النبوة كابراً عن كابر، وقد وَرد في «الصحيحين» مرفوعاً: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الدَّاعي»، وفي رواية أحمد: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغَيْتُ العُذْرَ».

٢ ـ عِزَّة نفسه وصون كرامته، إذ لم يَرْضَ أن تكون التهمة بالباطل عالقةً به، فطلب إظهار براءته، وعفَّتِه عن أن يَزِنَ بريبة، أو تَحُومَ حول اسمه شائبة السوء.

٣ ـ أنه عَفَّ عن اتهام النسوة بالسوء، والتصريح بالطعن عليهن، حتى يتحقق الملك بنفسه، حِينَ ما يسألهن عن السبب في تقطيع الأيدي، ويعلمُ ذلك

(١) المراح. (٢) المراغي.

منهن حينَ الإجابة.

٤ ـ أنه لم يذكر سيدَتَهُ معهن، وهي السبب في تلك الفتنة الشَّعواء وَفاءً لزوجها ورحمةً بها، وإنما اتَّهمها أولاً دِفاعاً عن نفسه، حين وَقَفَ موقفَ التهمة لدى سيدها، وبعد أن طَعنَتْ فيه. وقرأ[١] أبو حيوة، وأبو بكر، عن عاصم في رواية ﴿النُّسوة﴾ بضم النون وقرأت فرقة ﴿اللائي﴾ بالياء وكلاهما جمع التي.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى عَالِمُ بصنيعهنّ، وما احتَلْنَ في هذه الواقعة من الحِيل العظيمة؛ فلمَّا أبى يُوسُفُ أن يَخْرُجَ من السجن، قبل تبين الأمر رَجَعَ الرسول إلى المَلِكِ، فأخبره بما قال يوسف عليه السلام، فأمر الملك بإحضارهنَّ، وكانت زليخا معهن، فلما حَضَرْنَ ﴿قَالَ﴾ الملك لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: ما شأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ وطالبتن ﴿يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ والخطب: الشَّأْنُ[٢] العظيم الذي يقع فيه التخاطب، إما لغرابته، وإما لإنكاره، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾، وعن موسى عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾. وإنما[٣] خاطَبَ الملكُ جميعَ النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأةُ العزيز، وَحْدَها لِيَكُون أسْتَر لها. وقيل: إنَّ امرأة العزيز راودته عن نفسه، وَحْدَها وسَائِر النسوة أمَرْنَه بطاعتها، فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب؛ أي: فلمَّا اجْتَمَعْنَ بأمره سألهن بقوله: ما خطبكن الذي حَمَلَكُنَّ على مراودته عن نفسه، هل كان عن ميل منه إليكن؟ وهل رأيتُنَّ منه مواتاة واستجابةً بعدها؟ وماذا كان السببُ في إلقائِهِ في السجن مع المجرمين؟ ﴿قُلْنَ﴾؛ أي: جماعةُ النسوة مجيبات للملك ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مَعاذاً وتنزيهاً لله تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به. وأصله: حَاشَا بالألف فحُذِفَت للتخفيف، وهو في الأصل حَرفٌ وضِعَ هنا موضعَ المصدر؛ أي: التنزيه، و (اللام) لبيان من يبرأ، وينزَّهُ وقد سبقَ في هذه السورة، فهو تنزيه له

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

تعالى، وتعجب من قدرته على خَلْقٍ عَفيفٍ مِثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾؛ أي: خيانَةٍ في شيء من الأشياء؛ أي: تَنْزِيهاً لله سبحانه وتعالى، ما عَلِمْنَا على يوسف سوءاً، ولا ذَنْباً يَشِينَهُ ويسوؤه لا قليلاً، ولا كثيراً في شيء من الأشياء. ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ زُليخَا ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾؛ أي: في هذا الوقت الحاضر ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: ظَهَرَ، وتَبَيَّنَ أنه مع يوسف بعد أن كانَ خَفِيّاً؛ أي: إنَّ الحقَّ في هذه القضية كان في رَأْيِ مَنْ بَلَغهم موزَّع التبعة بيننا معشر النسوة، وبين يُوسُفَ لكل منَّا حِصَّة بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظَهَرَ الحق في جانب واحد، لا خَفَاءَ فيه، وهُنَّ قد شَهِدْنَ بما علِمْنَ شهادة نَفْي، وها أنا ذَا أشهد على نَفْسِي شهادةَ إيجاب بقولي: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ وطلبته ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنَّه راودني بل اسْتَعْصَمَ، وأعرض عني ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإنَّ يوسف ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قوله: حين افتريت عليه ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾.

وإنَّماأقرَّت زُليخَا واعترفت بذنبها، وشَهِدَتْ ببراءة يوسف من الذنب، مُكَافأةً ليوسف على فعله، حيثُ تَرَكَ ذِكْرَهَا، وقال: ما بال النسوة اللاَّتي قَطَّعْنَ أيديهن، مع أنَّ الفِتَنَ كُلَّها إنما نشأت من جهَتِها، وقد عَرَفَتْ أنَّ ذلك لرعاية حقها، ولتعظيمها، ولإخفاء الأمر عليها. وفي هذا الاعتراف شهادةٌ مُريحة من امرأة العزيز، ببراءة يوسف من كلِّ الذنوب، وطهارته من كلِّ العيوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الاعترافُ منِّي بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علِمْتُهُ منه ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عنه منذ سجن إلى الآن، فلم أَنَلْ من أمانته، أو أطْعَنَ في شَرَفِه، وعفَّتِه بالغيبة، بل صرَّحَت لأولئك النسوة بأني راودته عن نفسه، فاستعصم، وها أنا ذا أُقِر بهذا أمام الملك، ورجال دولته، وهو غائب عنَّا، وإن كنتُ قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثمَّ بالغت في تأكيد هذا القول فقالت ﴿وَ﴾ ليعلم يوسف ﴿أَنَّ اللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾؛ أي: لا ينفذه، ولا يسدِّدُهُ بل يبطله، ويُزْهِقُهُ، وتكون عاقبته الفَضِيحَةُ، والنَّكال، ولقد كِدنا له، فصرف رَبَّهُ عنه كيدنا، وسجَّنَّاه فبَرَّأه الله تعالى، وفَضَحَ مكرنا حتى شَهِدْنَا على أنفسنا في مثل هذا الحفل الرهيب، والمقام المنيف، ببراءته من كل

العيوب، وسلامته من كل سوء. وعلى الجملة فالتحقيقُ أسْفَرَ عن أنَّ يُوسُفَ كان مثلَ الكَمال الإنساني في عفته ونزاهته، لم يمسسه سوء من فتنة أولئك النسوة، وأنَّ امرأة العزيز أقرَّتْ في خَاتِمَةِ المطاف بذنبها في مجلس الملك، إيثاراً للحق، وإثباتاً لبراءة يُوسُفَ عليه السلام.

تنبيه: واختلفَ المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ على قولين(١):

أحدهما: أنه من قول المرأة، وهو الظاهر كما جَرَيْنا عليه في حَلِّنا سابقاً. ووجه هذا القول: أنَّ هذا كلام متَّصِلٌ بما قبله، وهو قول المرأة: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلخ. والمعنى عليه(٢): كما تقدَّم ذلك الإقرار، والاعتراف بالحق، ليعلم يوسُفُ أنّي لم أخنه في غيبته، وهو في السجن، ولم أكذب عليه بذنب، وهو بريء منه، بل قلت: أنا راودته عن نفسه، ثم اعتذرت عمَّا وقعت فيه، ممَّا يقع فيه البشرُ من الشهوات بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾. والنفوسُ مائِلةٌ إلى الشهوات، أمَّارةٌ بالسوء. وقال الزمخشري: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ مع ذلك من الخيانة، فإني قَدْ خنته حين قذفته وقلتُ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ تريد الاعتذارَ لما كان منها؛ بأنَّ كل نفس لأمارة بالسوء إلاّ نفساً رَحِمَها الله تعالى بالعصمة، إنَّ ربي غفورٌ رحيمٌ، استغفرت ربَّها واسْتَرْحَمْتُهُ ممَّا ارتكَبْت.

والقول الثاني: أنه من كلام يُوسُفَ عليه السلام اتصلَ بقول امرأة العزيز: أنا راودتُه عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين، لذلك مع غموض فيه؛ لأنه ذَكَرَ كلامَ إنسان، ثمَّ أتْبَعَه بكلام إنسان آخر، من غير فصل بين الكلامين.

وقال الفراء: ولا يبعد وصْلُ كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلَّتِ القرينة

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

الفارقة لكل منهما إلى ما يليق به. ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ هذا من قول الملأ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هذا من قول فرعون. ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا من كلام بلقيس ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من قوله عز وجل تصديقاً لقولها.

ومعنى الآية على هذا القول ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: طَلَب[1] البراءة أو ذلك التثبتُ، والتَّشَمُّرُ لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حرمه؛ لأنَّ المعصية خيانة ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل؛ أي: لم أخنْهُ، وأنا غائِبٌ عنه خفي على عينه، أو من المفعول؛ أي: وهو غائب عني خفي عن عيني، أو ظرف؛ أي: بمكان الغيب؛ أي: وراءَ الأستار والأبواب المغلَقة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وليعلم العزيز أنَّ الله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى﴾ ولا ينفذ، ولا يسدِّد، ولا يتمّم ﴿كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ بل يبطله، ويزهقه كما لم يسدد كَيْدَ امرأته، حتى أقرت بخيانة أمانة زوجها، وسُمِّي فعل الخائن كيداً؛ لأنَّ شأنَه أنْ يُفْعَلَ بطريق الاحتيال، والتلبيس، فمعنى هداية الكيد، إتمامُه وجعله مؤدِّياً إلى ما قُصِدَ به. وفيه تعريض، بامرأة العزيز في خِيَانَتِها أمانَتَهُ، وبنفس العزيز في خيانة أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسِ يوسف بعدما رأوا آيات نَزَاهَتِه. ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته، وأنه لو كان خائناً.. لمَا هَدَى الله أمره وأحسن عاقِبَتَهُ. وفيه إشارة إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى يُوصِلُ عبادَه الصَّادِقين بعد الغمِّ إلى السرور، ويُخرِجُهم من الظلمات إلى النور. وفي[2] الآية دلالة على أنَّ الخيانة من الصفات الذميمة، كما أنَّ الأمانَةَ من الخصال المحمودة. ثمَّ أراد[3] يُوسُفُ أن يَتَوَاضَعَ لله، ويهضم نفسه لئلا يكون مُزَكِّياً لها، ولحالها في الأمانة مُعْجِباً، وليبيِّنَ أنَّ ما فيه من الأَمانةِ ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله، ولُطْفِهِ، وعصمته فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزلل، وما أشهدُ لها بالبراءة بالكلية، ولا أزكِّيها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ بالعصمةِ ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وعلى هذا القول الأخير: اختلفوا[1] أيْنَ كان يُوسُفُ حين قال هذه المقالة على قولين؛ **أحدهما**: أنَّه كان في السجن، وذلك أنَّه لمّا رَجَعَ إليه رسولُ الملك، وهو في السجن، وأَخْبره بجواب امرأة العزيز، للْمَلِك حينئذ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج. **والقولُ الثاني**: أنه قال هذه المقالَةَ عند حضوره عند الملك، وهذه روايةُ عطاء عن ابن عباس، رضي الله عنهما، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾.

﴿وَدَخَلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (دخل) فعل ماض. ﴿مَعَهُ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلسِّجْنَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿فَتَيَانِ﴾ فاعل مرفوع بالألف، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فسجنوه، ودَخَل معه السجن. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ فعل وفاعل، والجملةُ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗا﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئتَ قلت: ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ فعل ومفعول أول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على أحدهما. ﴿أَعْصِرُ خَمْرٗا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على أحدهما، وجملة ﴿أَعْصِرُ﴾ في محل النصب مفعول ثاني لـ ﴿أَرَىٰ﴾ الحلمية، وجملة ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على قال الأول. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ فعل ومفعول أول و (نون) وقاية وفاعله ضمير يعود على الآخر. ﴿أَحْمِلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الآخر. ﴿فَوْقَ رَأْسِي﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَحْمِلُ﴾. ﴿خُبْزٗا﴾ مفعول لـ ﴿أَحْمِلُ﴾. ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، وجملة

---

(١) الخازن.

﴿تَأْكُلُ﴾ صفة لـ ﴿خُبْزًا﴾، ولكنّها صفةٌ سببية، وجملة ﴿أَحْمِلُ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾، وجملة ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنِّيٓ﴾، وجملة ﴿إِنِّيٓ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿نَبِّئْنَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ متعلّق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الفتيين. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان، أو حال من (الكاف)، وجملة ﴿نَرَىٰكَ﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿طَعَامٌ﴾. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ متعلّق به، والجملة في محل الجر بإضافة المستثنى المحذوف، والتقدير: لا يأتيكما طعام ترزقانه في حال من الأحوال إلا في حال تنبئني إياكما بتأويله. ﴿قَبْلَ﴾ منصوب على الظرفية. ﴿أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الطعام، والجملةُ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: قبل إتيانه إياكما، والظرفُ متعلق بـ ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾. ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ مبتدأ. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور خبرُ المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما علّمنيه ربي، والجملة صلةٌ لـ(ما) أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابطُ الضمير المحذوف. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿تَرَكْتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ مفعول، ومضاف إليه، وجملةُ ﴿تَرَكْتُ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إنَّ) مستأنفة على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به والجملة في محل الجر

صفة لـ ﴿قَوۡمٍ﴾. ﴿وَهُم﴾ مبتدأ. ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿هُم﴾ الثاني تأكيد للأول. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ على كونها صفةً لـ﴿قَوۡمٍ﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تَرَكۡتُ﴾ على كونها خبراً لـ(إن). ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآءِيٓ﴾ بدل تفصيل من مجمل مجرور بالفتحة. ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ معطوفان على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لَنَا﴾ خبرها مقدم على اسمها. ﴿أَن نُّشۡرِكَ﴾ ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿نُّشۡرِكَ﴾. ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ مفعول ﴿نُّشۡرِكَ﴾ و (من) زائدة، وجملة ﴿نُّشۡرِكَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ والتقدير: ما كان إشراكُنا بالله شيئاً كائناً لنا، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيۡنَا﴾ متعلق بـ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ﴿عَلَيۡنَا﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ خبر ﴿لكن﴾ والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وهو من إضافة الوصف إلى الظرف؛ أي: يا صاحبين لي في السجن، أو من باب الإضافة إلى الشبيه بالمفعول، والمعنى: يا ساكني السجن. ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾ (الهمزة) للاستفهام التقريري. ﴿أرباب﴾ مبتدأ. ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ صفة له، والجملة

في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿خَيْرٌ أَمِ﴾ عاطفة متصلة. ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿أرباب﴾. ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ صفة ثانية له.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية. ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ متعلق به، والمستثنى منه محذوف تقديره: ما تعبدون من دونه شيئاً. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿أَسْمَآءً﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لتاء المخاطبين، ليُعْطَفَ عليه ما بعده. ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ معطوف على (تاء) الفاعل والمفعول الثاني لـ﴿سميتم﴾ محذوف تقديره: سميتموها آلهةً، وجملة ﴿سَمَّى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿أسماء﴾. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (ما) نافية. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ مفعول ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿من﴾ زائدة. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ﴿إن﴾ نافية. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمَرَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة على كَوْنِها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعْبُدُوٓا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ (أن). ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿إِيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول ﴿تَعْبُدُوٓا۟﴾، وجملة ﴿تَعْبُدُوٓا۟﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أمَرَ بعدم عِبَادَتِكم إلاَّ إياه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلدِّينُ﴾ خبره. ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب، واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمَّآ﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿أَحَدُكُمَا﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ فعل ومفعولان، و (الفاء) رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، وفاعله ضمير يعود على الأحد. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أما﴾ حرف شرط. ﴿ٱلۡأٓخَرُ﴾ مبتدأ. ﴿فَيُصۡلَبُ﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿أما﴾. ﴿يصلب﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿الآخر﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى. ﴿فَتَأۡكُلُ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿تأكل الطير﴾ فعل وفاعل. ﴿مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة (يصلب). ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلَّذِي﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿الأمر﴾. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بما بعده. ﴿تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير فيه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿قال﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾. ﴿لِلَّذِي﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿ظَنَّ﴾ فعل ماض ناسخ، وفاعله ضمير يعود على الموصول والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿مِّنۡهُمَا﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستتر في ﴿نَاجٖ﴾؛ أي: حَالَة الناجي من جملة الاثنين، وجملة (أن) في تأويل مصدر سَادٍّ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ تقديره:

وقال للذي ظن نجاته حَالَةَ كونه منهما. ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ فعل ومفعول و (نون) وقاية وفاعله ضمير يعود على ﴿الناجي﴾. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿أنساه الشيطان﴾ فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَبِثَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لبث﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ﴾ متعلق بـ﴿لبث﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أنساه﴾. ﴿بِضۡعَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿لبث﴾ بضع مضاف. ﴿سِنِينَ﴾ مضاف إليه.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الملك. ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿سِمَانٖ﴾ صفة لـ ﴿بَقَرَٰتٖ﴾. ﴿يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿عِجَافٞ﴾ صفة لـ ﴿سَبۡعٌ﴾ وجملة ﴿يَأۡكُلُهُنَّ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَىٰ﴾ وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ معطوف على ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾. ﴿خُضۡرٖ﴾ صفة لـ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾. ﴿وَأُخَرَ﴾ معطوف على ﴿سَبۡعَ﴾ لا على ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ ويكون، قد حُذِفَ اسمُ العدد من قوله: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ والتقدير: وسبعاً آخر، وإنما حذف لأن التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات، اهـ «سمين». ﴿يَابِسَٰتٖۖ﴾ صفة لـ ﴿أخر﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَفۡتُونِي﴾

فعل وفاعل ومفعول، و (نون) وقاية. ﴿فِى رُءْيَىَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعلَ شرط لها. ﴿لِلرُّءْيَا﴾ (اللام) زائدة في المفعول. ﴿الرؤيا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿تَعْبُرُونَ﴾. ﴿تَعْبُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوفٌ معلوم ممَّا قبله تقديره: إن كنتم تعبرون الرؤيا، فأفتوني في رؤياي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محلِّ النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ مقول محكي، لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه أضغاث أحلام، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية حجازية، أو تميمية. ﴿نَحْنُ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما بعده. ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية أو خبر المبتدأ و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿نَجَا﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَجَا﴾. ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿ادكر﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ادكر﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نَجَا﴾. ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ إلى قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت:

﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ. ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مفعول ثان، و (الباء) زائدة، والجملة الفعلية في محل الرفع خَبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ (الفاء) عاطفة. (أرسلوا) فعل أمر مبني على حذف النون، و ﴿الواو﴾ فاعل، والنون للوقاية و(ياء) المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة (نون) الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ منادى مفرد العلم حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة حذفت منه حرف النداء للتخفيف. ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَفْتِنَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جَوابَ النداء. ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَفْتِنَا﴾. ﴿سِمَانٍ﴾ صفة لـ ﴿بَقَرَٰتٍ﴾. ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ فعل ومفعول. ﴿سَبْعٌ﴾ فاعل. ﴿عِجَافٌ﴾ صفة لـ ﴿سَبْعٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿سَبْعٌ﴾، ولكنها سببية، أو في محل النصب حال من ﴿سَبْعٌ﴾. ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ معطوف على ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾. ﴿خُضْرٍ﴾ صفة لـ ﴿سَبْعِ﴾. ﴿وَأُخَرَ﴾ معطوف على ﴿سَبْعِ﴾ على كونه صفة لمحذوف تقديره: وسبعاً أخر مجرور بالفتحة للوصفية، والعدل؛ لأنه معدول عن الآخر. ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ صفة لـ ﴿أخر﴾. ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرْجِعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل قوله ﴿أَفْتِنَا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل الترجي قبلها.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿دَأَبًا﴾ مصدر واقع موقع الصفة، فهو صفة لـ ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾؛ أي: سبع سنين متواليةً متتابعة، أو واقع موقع الحال، فهو حال من (واو) ﴿تَزْرَعُونَ﴾؛ أي: حَالَة كونكم متدائبين؛ أي: مستمرين في الزراعة في تلك السبع. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنّكم تزرعون سَبْعَ سنين، وأرَدْتُم بَيَانَ ما تفعلون بالمحصود من الزرع، فأقول لكم: ﴿ما حصدتم﴾. ﴿مَا﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿حَصَدتُّمْ﴾ فعل، وفاعل في محل الجزم بما، والرابط محذوف تقديره: فما حصدتموه. ﴿فَذَرُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿ذروه﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم على كونه جواب الشرط. ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ متعلق به، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إلا﴾ أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: مما تأكلونه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿يَأْتِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ ﴿يَأْتِي﴾. ﴿سَبْعٌ﴾ فاعل. ﴿شِدَادٌ﴾ صفة أولى له. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة ثانية لـ ﴿سَبْعٌ﴾ ولكنها صفة سببية، وجملة ﴿يَأْتِي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَزْرَعُونَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَأْكُلْنَ﴾. ﴿قَدَّمْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُنَّ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾

أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما قدمتموه لهن. ﴿إلا﴾ أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿تُحْصِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تحصنونه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿يَأْتِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق به. ﴿عَامٌ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ الأول. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُغَاثُ﴾. ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿عَامٌ﴾. ﴿وَفِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَعْصِرُونَ﴾. وجملة ﴿يَعْصِرُونَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُغَاثُ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ فعل، وفاعل معطوف على محذوف تقديره: فلما رجع الساقي إلى الملك، وأخبره بما ذكره يوسف استحسنه الملك، وقال: ائتوني به، كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ائتوني﴾ فعل وفاعل، ومفعول. ﴿بِهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ فعل ومفعول، وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على محذوف تقديره: فرجع الرسول إلى يوسف من عند الملك ليخرجه من السجن، فلما جاءه الرسول، قال يوسف: ارجع إلى ربك. ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ارْجِعْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ متعلق به. ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿اسأله﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة

﴿ٱرۡجِعۡ﴾. ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿سأل﴾. ﴿ٱلَّٰتِي﴾ صفة لـ﴿النسوة﴾. ﴿قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿بِكَيۡدِهِنَّ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الملك، والجملة مستأنفة. ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ مقول محكي، لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام الاستخباري في محل الرفع مبتدأ. ﴿خَطۡبُكُنَّ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلق بـ ﴿خَطۡبُكُنَّ﴾ لأنه في معنى الفعل إذ المعنى ما فعلتن، وما أردتن به في ذلك الوقت، اهـ «سمين». ﴿رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰوَدتُّنَّ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿قُلۡنَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلۡنَ﴾ وإن شئت قلت ﴿حَٰشَ﴾ فعل ماض بمعنى بَعُدَ مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة، للتخفيف لكثرة الاستعمال، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق به، ولكنه على حذف مضاف، والتقدير: حاش يوسف عن المعصية لطاعة الله تعالى وخوفه كما ذكره أبو البقاء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿عَلِمۡنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿سُوٓءٖ﴾ مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى عرف، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾

إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ ﴿حَصْحَصَ﴾. ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ. ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿لِيَعْلَمَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على يوسف على القول، بأنه من كلام زليخا، وهو الظاهر من السياق، أو يعود على العزيز إن قلنا: إنه من كلام يوسف، وفيه تكلف ظاهر كما مرت الإشارة إليه، في مبحث التفسير. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، ذلك الاعتراف كائن مني لكي يعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب. ﴿أَنِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة في محل الرفع خبر (أن) وجملة (أن) في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: ذلك ليعلم يوسف عدم خيانتي إياه في الغيب. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ جار ومجرور إما حال من فاعل ﴿أَخُنْهُ﴾ تقديره: حَالَةَ كوني غَائِباً عن عينيه أو من المفعول تقديره: حَالَةَ كونه غَائِباً عن عيني، ويجوز أن تكون (الباء) ظرفية متعلقة بـ ﴿أَخُنْهُ﴾؛ أي: لم أخنه في مكان الغيب، ذكره «السمين». ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ المذكورة قبلها على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: ذلك الاعتراف ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف عدمَ خيانتي إياه، في الغيب، وعدم هداية الله تعالى كَيدَ الخائنين؛ أي: عَدَمَ إتمامه لهم مرادَهم من الكيد والمكر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: في صحبته؛ أي: صَاحَبَاهُ في الدخول فَدَخَلَ الثلاثةُ في وقت واحد. ﴿فَتَيَانِ﴾ تثنية فتى قلبت ألفه ياء في التثنية، لكونها أصله؛ لأنه من فتِيَ بوزن رَضِيَ بمعنى شَبَّ، وذلك يدل على أنهما عبدان للملك الأكبر. ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم، وإن لم يكن مملوكاً. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾؛ أي: عِنباً فسمَّاه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود. ﴿خُبۡزٗا﴾ الخُبْزُ معروف، وجمعه خبز ومعانيه خبَّازٌ. ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ اسم جنس مفرده الطائر. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: أخبرنا بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا. ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: من العالمين بتعبير الرؤيا، والإحسان هنا: بمعنى العلم. وكذا قال الفراء: إن مَعْنَى ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من العالمين الذين أحسنوا العِلْمَ. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا، إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن. ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ﴾ التَّرْكُ هنا عبارةٌ عن عدم التلبُّس بالشيء من أول الأمر، وعدم الالتفات إليه بالكلية، اهـ «خازن». ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ أي: مُصَاحبين للسجن لطول مقامهما فيه. وقيل: المرادُ يا صاحبي في السجن؛ لأن السِّجْنَ ليس بمصحوب، بل مصحوب فيه، وأنَّ ذلك من باب يا سارق الليلة، وعلى الأول من باب قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾. ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾؛ أي: من أجناس مختلفة من حيوان، أو جماد، كذهب، وفضة، وحديد، وخشب، وحجارة.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ السجن: المَحْبَسُ. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، قاله قتادة. وقال مجاهد: من الثلاثة إلى السبعة. وقال أبو عبيدة: البضع لا يبلغ العقد، وإنما هو من الواحد إلى العشرة. وقال الفراء: ولا يُذْكَر البِضع إلا مع العشرات، ولا يُذْكَر مع مئة ولا ألف. ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ جمع سمينة، ويُجمع سَمِينٌ أيضاً عليه يقال: رِجالٌ سِمَانٌ كما يقال: نساء كرام، ورجال كرام. والسِّمَنَ مصدر سَمِن، يَسْمَنُ من باب فَرِح فهو سمين، فالمصدر واسم الفاعل جاءا على غير قياس، إذ قياسُهما سَمْناً بالفتح، فهو سَمِنٌ نحو: فَرِحَ فَرَحاً فهو فَرِح. وفي «المصباح»: سَمِنَ يسمن من باب تَعِبَ، وفي لغة: من

باب قتل إذا كَثُر لَحْمُهُ وشَحْمُه، ويتعدى بالهمزة والتضعيف. ﴿عِجَافٌ﴾ جمع عجفاء جمعاً سماعِياً، والقياسُ عُجْف كحمراء وحُمْر على حد قول ابن مالك:

فُـعْـلٌ لِـنَـحْـوِ أحْـمَـرٍ وَحَـمْـرَا

لكنه حُمِل على سمان، لأنه نَقِيضُه كما ذكره «البيضاوي». والعجفاء: المهزولة جِدّاً. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ عبَر الرؤيا إذا فَسَّرها من باب نصر، ينصر، ويستعمل أيضاً بالتشديد، كعلَّم يعلِّم تَعْلِيماً، اهـ شيخنا؛ أي: إن كنتم عَالِمين بعبارة الرؤيا، وهي الانتقالُ من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالُها من العبور، وهو المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها بالتشديد تعبيراً، واللام للبيان أو لتقوية العامل، اهـ «بيضاوي». وفي «السمين»: وحقيقةُ عَبَرْتُ الرؤيا ذَكَرْتُ عَاقِبَتَها وآخِرَ أمرها كما تقول: عَبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ أخر عرضه، اهـ. وفي «المصباح»: عبرت النهر عَبْراً من باب قتل، وعُبُوراً أيضاً إذا قطعته إلى الجانب الآخر، وعَبَرْت الرؤيا عَبْراً أيضاً، وعبارةً إذا فسرتها، وبالتثقيل مبالغةً، وفي التنزيل: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اهـ. ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ أي: هي تخاليط المنامات الباطلة التي لا معنَى لها جمع ضغث، وأصله: ما جمِعَ وحُزِم من أخلاط النبات، كالحزمة من الحشيش، فاستعير للرؤيا الكاذبة، والأحلام: جمع حلم، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها، والإضافةُ على معنى منْ؛ أي: هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤولُ إليها، والأضغاث: جمع ضِغْثٍ بكسر الضاد، وهو ما جمع من النبات، سواءٌ كان جنساً واحداً أو أجناساً مختلطة، وهو أصغر من الحزمة وأكبر من القبضة.

﴿وَادَّكَرَ﴾ أصله: إذْتَكَرَ بوزن افْتَعَلَ من الذِّكر فوقعت تاء الافتعال بعد الذال، فأبدلت دالاً، فاجتمع متقاربان، فأبدل الأولُ من جنس الثاني، وأدغم، وكذا الحكمُ في (مدّكر) كما سيأتي في صورته إن شاء الله تعالى. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بضم الهمزة، وتشديد الميم، وتاء منونة، وهيَ المدة الطويلة. وقرأ ابنُ عبَّاس وغيره: (بعد أَمَهٍ) بفتح الهمزة وتخفيف الميم، وهاء منونةٌ والأمهُ: هو النسيان يقال: أمَهَ يأْمَهُ أَمَهاً، وأَمْهاً، والسكونُ غيرُ مقيس، والمعنى: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد حين، وهو سنتان، أو سبع، أو تسع، وسمِّي الحين من الزمان، أمة لأنه

جماعة أيّامٍ؛ والأمَّةُ: الجماعة، اهـ «خازن».

﴿دَأَبًا﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة والباقون بسكونها، وهما لغتان في مصدر دَأَبَ يَدْأَبُ؛ أي: دَاومَ على الشيء ولازمه، وهذا كما قالوا: ضَأَنَ وضَأْن ومعَز ومعْز، بفتح العين وسكونها، وأصل معنى الدأب التعب، ويُكنى به عن العادة المستمرة، لأنها تنشأ عن مداومة العمل اللازم له التعبُ، اهـ «شهاب». ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ وفي «المصباح»: وسُنبُل بضم الفاء والعين، الواحدة سُنْبلةٌ، والسبل مثله، الواحدة سَبَلَة، مثل قَصَب وقَصَبَة، وسَنْبَل الزرع أخرج سُنْبُلَهُ وأسبل أخرج سبله، اهـ.

﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغيث على أنَّ الألف منقلبة عن ياءٍ، أو من الغوث على أنها منقلبة عن واو. والغيث مصدر غاث الله البلادَ يغيثها غيثاً، إذا أنزل بها الغيثَ، وهو المطر، والغوث الفرجُ، وزوالُ الهم، والكرب، وعلى هذا يكون فعله رُباعِياً يقال: استغاثَ اللّهَ، فأغاثه؛ أي: أنْقَذَه من الكرب الذي هو فيه، كالحقظ، اهـ «زاده». وفي «السمين»: قوله: يغاث الناس، يجوز أن تَكُونَ الألف عن واو، وأن تكونَ عن ياء إمَّا من الغَوْثِ، وهو: الفَرَجُ، وفعلُه رباعي، يقال: أغاثنا الله من الغيث، اهـ. وفي «المصباح»: أغاثه إغاثةً إذا أعانَهُ، ونَصَره، فهو مُغِيث والغوث اسم منه، واستغاث به فأَغَاثَه، وأَغاثهم الله برحمته، كَشَفَ شدتَهم، وأغاثَنا المطر من ذلك فهو مغيث، وأغاثنا الله بالمَطر، والاسم الغِيَاث بالكسر، اهـ. وفيه أيضاً: الغَيْثُ المطرُ وغاث الله البلاد غَيثاً من باب ضَرب، أنزلَ بها الغيثَ، ويبنى للمفعول: فيقال: غِيثتِ الأرضُ تُغاثُ، وغاث الغيث الأرض غيثاً، من باب ضرَبَ نزل بها. وسمى النَّبَات غَيْثاً تسمية باسم السبب، ويقال: رعينا الغيثَ، اهـ. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ بكسر الصاد من باب ضرب كما في «المصباح» و «القاموس».

﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ والخطب الأمر والشأن الذي فيه خطر، وهو في الأصل مصدر خطب يخْطُب، وإنما يُخْطَبُ في الأمور العظام، اهـ «سمين». وفي «المختار»: الخَطْبُ: الأمر، تقول: ما خَطْبُك. قال الأزهري: أي: ما أمْرُكَ، وتقول: هذا خطب جليل، وخَطْبُ يسير، وجمعه خُطُوب، اهـ. ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظَهَرَ ووضح، وتبيَّنَ بعد خفاء، قاله الخليل. قال بعضهم: هو

مأخوذ من الحصة، والمعنى: بانَتْ حصة الحق من حصة الباطل، كما تتميز حصحص الأراضي وغيرها. وقيل بمعنى: ثَبَتَ واستَقَرَّ. وقال الراغب: حَصْحَصَ الحق، وذلك بانكشاف ما يغمِزُه وحص، وحصحص، نحو: كف، وكَفْكَفَ وحصه قَطَعَه إما بالمباشرة، وإما بالحكم، والحصة القطعة من الجملة، وتُسْتَعمل استعمالَ النصيب، اهـ «سمين». ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: لا ينفذه، ولا يُمضيه، ولا يسدِّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعلَ على الكَيْدِ مبالغةً، اهـ «بيضاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ لأنه أطْلَقَ الخمر على العنب، باعتبار ما يؤول إليه، كما يطلق الشيء على الشيء، باعتبار ما كان كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ في الموضعين حكايةَ للحال الماضية، وحق العبارة أن يقال: إني رأيتني، وكذا قول الملك: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ فيه حكايةٌ للحال الماضية، وحق العبارة أن يقال: إني رأيتُ.

ومنها: الطّباق بين قوله: ﴿سِمَانٍ﴾، وقوله: ﴿عِجَافٌ﴾، وبين قوله: ﴿خُضْرٍ﴾، وقوله: ﴿يَابِسَٰتٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ فإنَّها من أبلغِ الاستعارة وألْطفها، فإن الأضغاثَ حقيقةٌ في المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض، فشبَّه اختِلاطَ الأحلام، وما فيها من المحبوب، والمكروه، والخير، والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرةٍ.

ومنها: براعة الاستهلال في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ حيث قدَّم الثناء قبل السؤال، طَمَعاً في إجابة مطلبه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ لأن السِّنينَ لا تأكل،

وإنما يأكل الناسُ ما ادخروه فيها، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء نهار الزاهد صائم، وليلُه قائم.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وفي غير ذلك.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، لأن هدايةَ الكيد مجاز عن تنفيذه، وإمضائه، أو المراد لا يَهْدِي الخَائِنين بسبب كيدِهم، فأوقع الهدايةَ المنفيةَ على الكيد، وهي واقعة عليهم تجوزاً للمبالغة؛ لأنه إذا لم يهد السببُ علمَ منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى، اهـ «شهاب».

ومنها: الزيادة والحذفُ في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراد كلامه

* * *

---

(١) إلى هنا تَمَّ ما أردنا إيرادَهُ من تفسير الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم، وكان الفراغُ من تأليفه ليلةَ الخميس المباركة، الخامس عشر من ربيع الأول، الشهر الثالث من شهور سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسألُ اللّهَ الإعانةَ على الكمال والتمام، وأن يُضَاعِفَ لنا البركةَ في أعمارنا إلى تمامه، ونشره بين المسلمين، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين.

تمَّ المجلد الثالث عشر من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن في تاريخ ١٥/ ٣/ ١٤١١ هـ ويليه المجلد الرابع عشر وأوّلُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآية.

شعرٌ

وَقُـلْ بِـذُلٍّ رَبِّ لاَ تَـقْـطَـعْـنِـيْ ... عَـنْـكَ بِـقَـاطِـعٍ وَلاَ تَـحْـرِمْـنِـيْ
مِنْ سِرِّكَ ٱلأَبْـهَـىٰ ٱلْـمُـزِيْـلِ لِلْـعَـمَـىٰ ... وَٱخْـتِـمْ بِـخَـيْـرٍ يَـا رَحِـيْـمَ ٱلـرُّحَـمَـا

آخــرُ

وَٱلْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ عَـلَـىٰ مَـا أَوْلَـىٰ ... فَـنِـعْـمَ مَـا أَوْلَـىٰ وَنِـعْـمَ ٱلْـمَـوْلَـىٰ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الرابع عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرى من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق على مراد الله الملك الخلاق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعد: فيقول العبد المعترف بذنبه وخطاه المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف الندى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاءه، وأعاذه وإياهم من الشيطان الرجيم، وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه، سميُّ محمد الأمين الهرري:

إني لما فرغت من تفسير الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم.. عزمت - إن شاء الله سبحانه وتعالى - على الشروع في تفسير الجزء الثالث عشر، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كل أمير وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل كالنيرين لغير كليل. ومع خطر هذا الأمر، فالأمد قصير وفي العبد تقصير، وكم ترى من نحرير كامل في التحرير والتقرير قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشارب وإن كانت ماء

الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب العاهات؟ وأي نعيم لا يكدره الدهر؟ هيهات.

اللَّهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه كما تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات صحائف أعمالي بحق كتابك الكريم، واجعل قراري في جنات النعيم، ولم أكن بدعائك رب شقياً بكرةً وعشياً ما دمت حياً، فلك الحمد في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣) وَقَالَ
ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤) قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ
خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ
نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمۡ
تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ
لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٦٢)
فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ
وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ (٦٥)
قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ
مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ (٦٦) وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ
مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا
حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
(٦٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنها من تتمة إقرار امرأة العزيز، كما اختاره أبو حيان في «البحر»، ويؤيده عطفه على ما قبله، وقد جُعِلَت أول الجزء الثالث عشر؛ لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء الثلاثين قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددي دون المعاني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه بعد[1] انتهاء التحقيق في أمر النسوة، وظهور براءة يوسف عليه السلام من كل سوء.. طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفى له بما اشترط لمجيئه، فلما جاءه وسمع كلامه.. فهم من فحوى حديثه، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه، ومن سيرته الحسنة في السجن، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب، ويولى أسمى المناصب، وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريباً أو فقيراً أو مملوكاً كما تشير إلى ذلك الآيتان.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنه سبحانه وتعالى لما[2] ذكر إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكيناً أميناً، وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض يصرفها بحسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام.. ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه، وجعله وزيراً في دولته يتصرف في شؤونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه، وذلك جارٍ على سنن الله في خلقه، فلن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتيه الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال، وإقامة النظام، وحسن السياسة والكياسة في تصريف الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ...﴾ الآيات، جاء[3] في سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين وَلِي الوزارة.. طفق يعد العدة، ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي يقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك، وكان من ذلك أن بنىٰ الأهراء العظيمة، وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى، فلما جاءت السبع الشداد، وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها، ولا سيما

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

أقربها إليها، وهي فلسطين من بلاد الشام، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال، وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها.. أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر، ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة، ويشتروا به قمحاً؛ لأن المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم، فنفذوا ما أراد، وكان بينهم وبين يوسف عليه السلام ما قصه الله سبحانه وتعالى علينا في كتابه الكريم.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ..﴾ الآية. إن كان من كلام زليخا كما هو الراجح والظاهر من السياق.. فمعناه أي: وما أبرىء نفسي ولا أنزهها عن السوء، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية بدعوى عدم خيانتي إياه بالغيب بعد أن وجهت إليه اقتراف الذنب، وقلت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وأودعته السجن، وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك، وكأنها بذلك تريد التنصل مما كان. ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: إن[1] جنس النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء؛ لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية، والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات، ومن ذلك أن حرضت زوجي على سجن يوسف، وقد كان ذلك مما يسوؤه، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يزن بالريبة كما يسوء زوجي؛ إذ لا يرضى أن يكون عرضة مضغة للأفواه، وحديث الناس في أنديتهم وأسمارهم ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ أي: إلا نفساً رحمها ربي وعصمها، فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام.

ثم عللت ما سلف بقولها: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٞ﴾؛ أي: عظيم المغفرة وكثيرها، فيغفر ما يعتري النفوس البشرية بمقتضى طباعها؛ إذ ركب فيها الشهوات الجسمية، والأهواء النفسية ﴿رَّحِيمٞ﴾؛ أي: مبالغ في الرحمة لها

---

(١) المراغي.

بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك.

وعلى القول بأنه من كلام يوسف عليه السلام، **فمعنى** ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾؛ أي:[1] لا أنزهها عن السوء، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية. قاله تواضعاً لله تعالى، وهضماً لنفسه الكريمة، لا تزكية لها وعجباً بحاله في الأمانة، ومن هذا القبيل قوله عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أو تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه في توفيقه وعصمته؛ أي: لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله تعالى. واللام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ للجنس؛ أي: إن جنس النفوس التي من جملتها نفسي في حدّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ تأمر بالقبائح والمعاصي؛ أي: لأنها أشد استلذاذاً بالباطل والشهوات، وأميل إلى أنواع المنكرات، ولولا ذلك.. لما صارت نفوس أكثر الخلق مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل؛ لقضاء الشهوات وما صدرت منها الشرور أكثر.

ومن ههنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلاً، وأجل قدراً عند الله.. كان أبصر بعيوب نفسه، ومن كان أبصر بعيوبها.. كان أعظم اتهاماً لنفسه، وأقل إعجاباً. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾؛ أي: إلا نفساً رحمها ربي من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك، ومن جملتها نفسي ونفوس سائر الأنبياء ونفوس الملائكة. أما الملائكة فإنه لم تركَّب فيهم الشهوة. وأما الأنبياء فهم وإن ركبت هي فيهم، لكنهم محفوظون بتأييد الله تعالى معصومون. فـ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى من، وفيه إشارة إلى أن النفس من حيث هي كالبهائم. والاستثناء من ﴿ٱلنَّفْسَ﴾، أو من الضمير المستتر في ﴿أمارة﴾ كأنه قيل: إن النفس لأمارة هي بالسوء إلا نفساً رحمها ربي، فإنها لا تأمر بالسوء، أو بمعنى الوقت؛ أي: هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، ودل على عموم الأوقات صيغة المبالغة في أمارة. يقال في اللغة: أمرت النفس بشيء فهي آمرة، وإذا أكثرت

(١) روح البيان.

الأمر فهي أمارة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهمّ الذي هممت به ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه.

وقد قيل[1]: إن هذا من قول العزيز، وهو بعيد جداً، ومعناه: وما أبريء نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ الريان بن الوليد بعد ما وفى ليوسف ما طلب من سؤال النسوة: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾؛ أي: بيوسف؛ أي: أحضروه إليّ من السجن ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ﴾؛ أي: أجعله خالصاً لنفسي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز. والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة؛ أي: اجعله خالصاً لي وموضع ثقتي، فلا يشاركه أحد في إدارة ملكي، ولا تكون وساطة بينه وبيني، وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم.

فجاءه الرسول، فقال: ألق عنك ثياب السجن، والبس ثياباً جدداً، وقم إلى الملك، فقام وودع أهل السجن، فدعا له أهل السجن، ودعا لهم، وقال في دعائه: اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عنهم الأخبار، ثم اغتسل ولبس ثياباً حساناً، ولما خرج من السجن كتب على بابه: هذا بيت البلوى، وقبر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. فأتى الملك ودخل عليه فسلم عليه بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له يوسف بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان أيضاً؟ قال يوسف: هذا لسان آبائي. وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، ولم يعرف هذين اللسانين، وكان كلما تكلم بلسان أجابه يوسف به، وزاد عليه بالعربية والعبرانية، فأعجب الملك أمره مع صغر سنه؛ إذ كان عمره يومئذ ثلاثين سنة. فقال: أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه، وقال: لا تخف، وألبسه طوقاً من ذهب، وثياباً من حرير، وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ مرتب على محذوف تقديره: فأتوه به، فلما كلمه؛

(١) الشوكاني.

أي: فلما كلم يوسف الملك، وشاهد منه الملك ما شاهد من الرشد والدهاء، وهو جودة الرأي ﴿قَالَ﴾ له الملك: ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الصديق ﴿ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا وبحضرتنا ﴿مَكِينٌ﴾؛ أي: ذو مكانة سامية، ومنزلة رفيعة عالية ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: ذو أمانة تامة، فأنت غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك، وأنت مؤتمن عندنا على كل شيء، واليوم[1] ليس بمعيار لمدة المكانة، بل هو آن التكلم. والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونهما بعد حين. وفي هذا إيماء[2] إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله، فيقدره من يعرف أقدار الرجال، ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم. والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان؛ لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما، ومن حاشية الوزير من حين قدم مصر، ومن محادثته صاحبيه في السجن.

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته، وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية، فالمصرية والعبرانية والسريانية. وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب، وهم الذين يسمون بالرعاة، ويقول المؤرخون: إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان.

فلما سمع يوسف من الملك قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿قَالَ﴾: يوسف للملك ﴿ٱجْعَلْنِى﴾ أيها الملك والياً ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وأموالها التي تخزن وتدخر فيها؛ أي: ولني أمر الأرض التي أمرها إليك، وهي أرض مصر، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض. والخزائن: جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي تخزن فيه غلات الأرض ونحوها. طلب[3] يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان. وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية، والمنع من تولية من طلبها، أو حرص عليه.

وحاصل المعنى: فلما كلم الملك يوسف قال الملك في كلامه ليوسف: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾، فماذا[1] ترى أيها الصديق؟ ﴿قَالَ﴾ يوسف: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً، وتبني الخزائن، وتجمع فيها الطعام، فإذا جاءت السنون المجدبة.. بعنا الغلات، فيحصل بهذا الطريق مال عظيم، فقال الملك، ومن لي بهذا الشغل؟ فقال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ﴾؛ أي: ولني أمر خزائن أرض مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وليتني، ولجميع مصالح الناس ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف في الأموال، وبجميع ألسن الغرباء الذين يأتونني. وقيل معنى ﴿حَفِيظٌ﴾: كاتب ﴿عَلِيمٌ﴾: حاسب.

والخلاصة:[2] وَلِّني خزائن أرضك كلها، واجعلني مشرفاً عليها لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل.

ثم ذكر سبب طلبه، فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾؛ أي: شديد الحفظ لما يخزن فيها، فلا يضيع شيء منه، أو يوضع في غير موضعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به. فإن قلت: كيف مدح يوسف عليه السلام نفسه بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قلت: إنما يكره تزكيه النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به إلى غير ما يحل، فهذا هو القدر المذموم في تزكية النفس. أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير.. فلا يكره ذلك ولا يحرم، بل

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

يجب عليه ذلك. مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به، فإنه يجب عليه أن يقول: «أنا عالم» لينتفع الناس بعلمه، ذكره في «الفتوحات». وقد طلب إدارة الأمور المالية؛ لأن سياسة الملك وتنمية العمران، وإقامة العدل فيه تتوقف عليها، وقد كان مضطراً إلى تزكية نفسه في ذلك حتى يثق الملك به، ويركن إليه في تولية هذه المهام. وما أضاع كثيراً من المماليك في هذه القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في النظام المالي، وتدبير الثروة وحفظها في الدولة والأمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ معمول للتمكين الآتي؛ أي: ومثل ذلك التمكين الذي أنعمنا عليه من تقريبنا إياه إلى الملك، وإنجائنا إياه من غم الحبس الذي ذكرنا أسبابه ومقدماته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: جعلنا له مكانة ومرتبة، أو مكاناً ومنزلاً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر حالة كونه ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ وينزل ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من أرض مصر ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ويريد؛ أي: ينزل منها حيث أراد، ويتخذه مباءةً ومنزلاً. وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقد استدل[1] بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. وقرأ الحسن وابن كثير وشيبة[2]: ﴿حيث نشاء﴾ ـ بالنون ـ مسنداً إلى الله تعالى. وقرأ الجمهور بالياء.

والظاهر: أن قراءة الياء يكون فيها فاعل ﴿يَشَآءُ﴾: إما ضميراً يعود على يوسف، ومشيئته معلقة بمشيئة الله تعالى؛ إذ هو نبيه ورسوله، وإما ضميراً يعود على الله سبحانه وتعالى؛ أي: حيث يشاء الله تعالى، فيكون فيه حينئذٍ التفات من التكلم إلى الغيبة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

واعلم: أن التمكين الحاصل ليوسف له أسباب ومقدمات مهدت له؛ لأن إخوة يوسف لو لم يحسدوه.. ما ألقوه في غيابة الجبّ، ولو لم يلقوه.. لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وصدقه وأمانته.. لما أمنه على بيته وأهله وماله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم.. لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحباتها.. ما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن.. لما عرفه ساقي الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعرف ذلك منه الساقي.. ما عرفه الملك ولم يجعله على خزائن الأرض، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها، فكلها في بدايتها كانت شراً وخسراً، وفي عاقبتها فوزاً ونصراً مبيناً، ومهدت للتمكين لدى ملك مصر. فكما مكن[١] له في ذلك مكن له في أرض مصر، وقد جيء به مملوكاً، فأصبح مالكاً ذا نفوذ وأمر ونهي لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وصار الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحليته بالصبر واحتمال الشدائد، والأمانة والعفة، وحسن التصرف والتدبير.

روي[٢]: أنه لما تمت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة.. دعاه الملك، فتوجه وأخرج خاتم الملك، وجعله في أصبعه، وقلده بسيفه، وجعل له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدرّ والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشاً، وضرب له عليه حلة من استبرق، فقال يوسف عليه السلام: أما السرير فأشد به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فقال الملك: قد وضعته إجلالاً لك وإقراراً بفضلك، وأمره أن يخرج فخرج متوجاً لونه كالثلج، ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه، فانطلق حتى جلس على ذلك السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك الأكبر إليه ملكه، وأمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه،

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

ومات قطفير بعد ذلك، فزوجه عليه السلام الملك امرأته زليخا، فلما دخل يوسف عليها قال لها: أليس هذا خيراً مما كانت تريدين؟ قالت له: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي وعصمك الله، فأصابها يوسف عليه السلام فوجدها عذراء، فولدت له ذكرين أفراثم وميشا، فاستولى يوسف عليه السلام على ملك مصر، وأقام فيها العدل، وأحبه الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحلى والجواهر، وفي الثالثة بالدواب، وفي الرابعة بالجواري والعبيد، وفي الخامسة بالضياع والعقار، وفي السادسة بأولادهم، وفي السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبداً له عليه السلام، فقال أهل مصر: ما رأينا كاليوم ملكاً أجل وأعظم من يوسف، فقال يوسف للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني، فما ترى في هؤلاء؟ فقال الملك: الرأي رأيك ونحن لك تبع. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان يوسف لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، ومات الملك في حياة يوسف عليه السلام.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾؛ أي: بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن في الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية، ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن[1] إضاعة الأجر؛ إما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل، والكل ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة؛ أي: ولا نضيع في الدنيا أجر من أحسن.

أي:[2] ولا نضيع أجر من أحسنوا في أعمالهم بشكران هذه النعم، بل

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

نأجرهم عليها سعادة وهناءة، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها، وسار على مقتضى السنن التي وضعناها.

أما من يسيؤون التصرف فيها.. فتصيبهم المنغصات، وتتوالى عليهم المكدرات، فالمسرفون لا يلبثون أن ينالهم الفقر والعدم، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين، وذووا الخيلاء والبطر يكونون محتقرين، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شيء، وإن نالهم منه شيء يكون هيناً عليهم، وهم عليه صبر.

وفي الآية[1] إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف عليه السلام على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، بل كان جزاؤه ما مكن له في الأرض لدى ملك مصر.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لأجرهم في الآخرة، فاللام فيه موطئة للقسم، وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة، وأجرهم فيها هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها؛ وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها، ولا تنقضي مدتها؛ أي: ولأجر الآخرة وثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسله ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، ويخافونه بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات. وفي الآية[2] إيماء إلى أن الذي أعد الله سبحانه وتعالى ليوسف عليه السلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله تعالى في الدنيا من الملك.

وقد ثبت[3]: أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين، والمعنى[4]: أي: إن أجر الآخرة؛ وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك، فإن ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فيها من مال وجاه وزينة، ولا

---

(1) المراغي.

(2) الخازن.

(3) المراح.

(4) المراغي.

شبهة في أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم؛ إذ هم أعطوا حقها من الشكر، وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته.

روى الشيخان عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال فقراء المهاجرين للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور ـ واحدها دثر بالفتح المال الكثير ـ بالدرجات العلى، والنعيم المقيم قال: «ما ذاك»؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون كما نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثلكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة»، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ إلى مصر من أرض كنعان؛ ليمتاروا حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر من القحط والجوع، وكان قد حلّ بآل يعقوب ما حلّ بأهلها، فدعا أبناءه ما عدا بنيامين؛ وهم عشرة، فقال لهم: يا بني قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه، واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه، فخرجوا حتى قدموا مصر ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على يوسف، وهو في مجلس ولايته؛ لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف حين دخلوا عليه بلا تردد، ولا شك، لأنه فارقهم وهم رجال، ولم يزل عددهم وشكلهم وزيهم عالقاً بخياله؛ لنشوئه بينهم، ولا سيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم وربما كان عمال يوسف عليه السلام وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه، وأخبروه بأوصافهم، والبيئة التي رحلوا منها ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، لنسيانهم له بطول العهد، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة، ولأنهم فارقوه صبياً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الجبّ، ودخلوا عليه الآن، وهو رجل عليه أبهة الملك؛ أي: عظمته ورونق

الرئاسة؛ أي: زينتها، وعنده الخدم والحشم. وقيل: إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه. وقيل: كانوا بعيداً عنه، فلم يعرفوه. وقيل: غير ذلك. فكل[1] ذلك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك، أو طوحت به طوائح الأيام، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها.. لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض في العادات، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدهم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامي.

فالمعنى[2]: فدخلوا على يوسف عليه السلام، وهو في مجلس ولايته، فعرفهم يوسف بأول نظرة نظر إليهم لقوة فهمه ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يعرفونه لطول المدة، فبين أن ألقوه في الجبّ ودخولهم عليه أربعون سنة على ما قيل، فكلموه بالعبرانية، فقال لهم: من أنتم وأي شيء أقدمكم بلادي؟ فقالوا: قدمنا لأخذ الميرة، ونحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد، فقال: لعلكم عيون تطلعون على عوراتنا، وتخبرون بها أعداءنا، فقالوا: معاذ الله، قال: من أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ كبير صديق، نبي من أنبياء الله تعالى اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد، فقال: كم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: أين الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك؛ لأنه أخوه الشقيق، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم عيوناً، وأن ما تقولون حق؟ قالوا: نحن ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد، فيشهد لنا، قال: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين؟ فأنا أكتفي بذلك منكم، قالوا: إن أبانا يحزن لفراقه، قال: فاتركوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به، فاقترعوا فيما بينهم، فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف في أمر الجبّ، فتركوه عنده، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ يوسفُ عليه السلام وشيَّعهم وأعطاهم ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: بما يحتاجون إليه في سفرهم؛ أي: فلما أوقر يوسف إبلهم بالميرة وأصلحهم

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

بالزاد وما يحتاج إليه المسافر. قال ابن عباس[1]: حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام، وأكرمهم في النزول، وأحسن ضيافتهم، وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم. قال الأزهري[2]: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة. وقال أبو حيان: وقرىء بكسر الجيم قلت: وقراءة الكسر شاذة وليست بمتواترة.

ومعنى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: ولما هيأ لهم جهازهم وأهبة سفرهم ومؤنته - يقال: جهزت المسافر بالتشديد: هيأت له جهازه، وجهاز السفر: أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة؛ أي: ولما أوقر ركائبهم بما جاؤوا لأجله من الميرة والطعام، وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد، وبما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾؛ أي: جيئوني بأخيكم ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ هو شقيقه بنيامين إذا رجعتم، لتمتاروا مرة أخرى، لأعلم صدقكم فيما قلتم: إن لنا أخاً من أبينا عند أبينا، وسبب[3] ذلك أن يوسف ما كان يعطي لأحد إلا حمل بعير، وقد كان إخوته عشرة، فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه، وإن أباهم لتقادم سنه وشدة حزنه لا يستطيع الحضور، وإن أخاهم بقي في خدمة أبيه، ولا بدّ لهما من شيء من الطعام، فجهز لهما بعيرين آخرين، وقال: جيئوني بأخيكم لأراه وأصدقكم فيما قلتم. وإنما[4] قال: ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾ ولم يقل بأخيكم بالإضافة مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، فإنه فرق بين مررت بغلامك، ومررت بغلام لك. فإنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام دون التنكير لأنك جاهل به. فالتعريف[5] يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب، والتنكير لا عهد فيه البتة، وجائز أن تخبر عمن تعرفه إخبار النكرة، فتقول: قال رجل لنا وأنت تعرفه؛ لصدق إطلاق النكرة على المعرفة.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: أني أتمه ولا أبخس منه شيئاً، وأزيدكم

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.
(٥) الخازن.

حمل بعير آخر لأجل أخيكم، وحملاً آخر لأبيكم؛ لأنهم قالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً، وأخاً آخر بقي معه؛ لأن يوسف لا يزيد لأحد على حمل بعير. والهمزة فيه للاستفهام التقريري، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، وجاء بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿أُوفِي﴾ مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لمن نزل بي؛ أي: والحال أني خير المضيفين وأفضلهم لمن استضافه كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ولم يقل ذلك يوسف على طريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به. والمعنى: وأنا مع إيفاء الكيل خير المكرمين لضيوفه، وقد أحسنت ضيافتكم وجهزتكم بالزاد الكافي لكم مدة سفركم، فلا تنسوا ما أمرتكم به من الإتيان بأخيكم. ثم توعدهم إن لم يأتوه به، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾؛ أي: بأخيكم من أبيكم إذا رجعتم مرة أخرى ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾؛ أي: فلا طعام يكال لكم عندي؛ أي: فلا أبيعكم شيئاً من الطعام فيما بعد، وأما في الحال.. فقد أوفاهم كيلهم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ أي: ولا تقربوا بلادي ولا تدخلوها فضلاً من الإحسان إليكم في الإنزال والضيافة. يعني[1]: ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي، وهذا هو نهاية التخويف والترهيب؛ لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام، ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من العود.. كان قد ضيق عليهم.

وقيل معناه[2]: لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده. و﴿تَقْرَبُونِ﴾: مجزوم: إما على أن ﴿لا﴾ ناهية، أو على أنها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال: فإن لم تأتوني تحرموا، ولا تقربوا، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿عَنۡهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنطلبه من أبيه، ونحتال على أن ننتزعه من يده، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه. وقيل معنى المراودة هنا: المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه؛ أي: سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به غير مفرطين ولا متوانين فيه من أن نجيئك بأخينا، فإنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام، ولا يمكن إلا من عنده. وعبروا[١] بما يدل على الحال تنبيهاً على تحقق وقوعه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾. وقيل معناه: وإنا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾؛ أي: لغلمانه الكيالين؛ أي: الموكلين على خدمة الكيل، جمع فتى؛ وهو المملوك شاباً كان أو شيخاً ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ التي اشتروا بها الطعام وكانت نعالاً وجلوداً ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾؛ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون؛ أي: دسوها في جواليقهم وذلك بعد أخذها وقبولها، وإعطاء بدلها من الطعام، ووكّل بكل رَحْلٍ واحداً من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتري بها الطعام الذي في هذا الرحل. والمراد[٢] بالبضاعة هنا: هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأدماً، فعل يوسف ذلك تفضلاً عليهم. وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن. قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام. وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام.

وقرأ الأخوان[٣] - حمزة والكسائي - وحفص عن عاصم وخلف العاشر: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ - بالنون - واختار هذه القراءة أبو عبيد، ومثل هذه القراءة في مصحف عبد الله بن مسعود، وقرأ باقي العشرة وشعبة عن عاصم: ﴿لفتيته﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما. قال النحاس ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ مخالف للسواد الأعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع، وأيضاً فإن فتية أشبه

---

(١) الشوكاني.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. قال الزجاج: الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك. وقال الثعلبي: هما لغتان جيدتان مثل الصبيان والصبية.

قلت: وكلتا القراءتين متواترتان ولا انقطاع في إسناد إحداهما. والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيانه. قال أبو حيان: فالكثرة على مراعاة المأمورين، والقلة على مراعاة المتأولين، فهم الخدمة الكائلون أمرهم بجعل المال الذي اشتروا به الطعام في رحالهم مبالغة في استمالتهم إليه. ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾؛ أي: البضاعة ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾؛ أي: دسوا بضاعتهم ودراهمهم التي اشتروا بها الطعام في أوعيتهم التي يحملون فيها الطعام؛ لكي يعرفوا بضاعتهم إذا رجعوا إلى أبيهم؛ أي: لكي يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم، وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجاناً بلا ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم، وفتحوا متاعهم فوجودها فيه.

فجعل[1] علة جعل البضاعة في الرحال هي معرفتهم لها إذا انقلَبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم. ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلينا طمعاً في برنا، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعي إلى الرجوع، فإنهم إذا عرفوا ذلك، وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم.. نشطوا إلى العود إليه ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد، والحاجة إلى الطعام، وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه، فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك، والله أعلم.

---

(١) المراغي.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا﴾؛ أي: فلما رجع إخوة يوسف غير شمعون من مصر ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ في كنعان ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمةً، لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب عليه السلام: إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام، وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك، ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال لهم: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر عنده، وأخبروه بالقصة، ثم قالوا: يا أبانا ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾؛ أي: ميرة الطعام وكيله من مصر؛ أي: حكم ملك مصر بأنه سيمنع منا الكيل والميرة في المستقبل بعد هذه المرة إن لم نذهب إليه معنا بأخينا بنيامين، وهو إشارة إلى قول يوسف: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾. والمراد بالكيل هنا: الطعام لأنه يكال، وفي هذه الجملة دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه عليه السلام. ثم ذكروا له ما أمرهم به، فقالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر. وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم إن أرسلته معنا ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه، ونأخذ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا، ونكون قد وفينا له ما شرط علينا، والعرب تقول: كِلْتَ له الطعام، إذا أعطيته، واكتلت منه وعليه، إذا أخذت منه، أو توليت الكيل بنفسك ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾؛ أي: لأخينا بنيامين ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ في ذهابه وإيابه من أن يصيبه سوء أو مكروه، ضامنون برده إليك، وكأنهم[1] كانوا يعتقدون أن أباهم لا بد أن يرفض إجابتهم خوفاً عليه من أن يحدث مثل ما حدث ليوسف عليه السلام بدافع الحسد من قبل، فكان جوابه لهم ما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر[2]: ﴿نَكْتَلْ﴾ - بالنون -؛ أي: إن أرسلته معنا اكتلنا نحن، وإلا فقد منع منا الكيل. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿يكتل﴾ - بالياء -؛ أي: إن أرسلته معنا يكتل أخونا

---

(١) زاد المسير.
(٢) الشوكاني.

بنيامين، وإلا فقد منع منه الكيل. واختار[1] أبو عبيد القراءة الأولى، قال: ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده؛ أي: يكتال أخونا بنيامين لنفسه مع اكتيالنا. وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ مستأنفة في جواب سؤال مقدر، والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي، والكاف في قوله: ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾: نعت مصدر محذوف، وآمن: فعل مضارع، والأمن والائتمان بمعنى واحد، والاستفهام فيه إنكاري؛ أي:[2] قال لهم يعقوب عليه السلام: كيف آمنكم على بنيامين، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وأنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف، وضمنتم لي حفظه، فما فعلتم، فإذا لم يحصل الأمن والحفظ هناك، فكيف يحصل ههنا؟ فأنتم لا يوثق لكم بوعد، ولا يطمأن منكم إلى عهد، فما أشبه الليلة بالبارحة.

والمعنى[3]: ما أمنكم على بنيامين إلا أمناً كأمني إياكم على أخيه يوسف من قبل بنيامين، وقد قلتم في حقه ما قلتم، ثم فعلتم به ما فعلتم، فلا أثق بكم ولابحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرٌ﴾ مني ومنكم من جهة كونه ﴿حَٰفِظًا﴾ لبنيامين مرتب على محذوف تقديره: فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم، فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ من أهل السموات والأرضين، فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين، وهذا كما ترى ميل منه إلى الإذن والإرسال؛ لما رأى فيه من المصلحة وشدة الحاجة إلى ذلك؛ ولأنه لم ير فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف. وفيه من التوكل على الله ما لا خفاء فيه. قال كعب: لما قال يعقوب: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ قال الله تعالى: وعزتي لأردن عليك كليهما بعدما توكلت علي، فينبغي أن يتوكل على الله، ويعتمد على حفظه دون حفظ ما سواه، فإن ما سواه محتاج في حفظه إلى الأسباب والآلات، والله تعالى غني بالذات مستغن من الوسائط في كل الأمور،

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) زاد المسير.

وفي جميع الحالات، ولذا حفظ يوسف في الجبّ.

ومعنى الآية: أن حفظ الله تعالى إياه خير من حفظهم له لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.. وقع له من الامتحان ما وقع. وقرأ[1] ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿حِفْظاً﴾ **والمعنى**: خير حفظاً من حفظكم. وقرأ حمزة الكسائي، وحفص عن عاصم وخلف العاشر: ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ـ بألف ـ. وقرأ الأعمش شذوذاً: ﴿خير حافظ﴾ على الإضافة؛ أي: فالله تعالى متصف بالحفظ وزيادته على كل حافظ. وقرأ أبو هريرة: ﴿خير الحافظين﴾، كذا نقل الزمخشري، وهي رواية شاذة. وقال ابن عطية وقرأ ابن مسعود: ﴿فالله خير حافظا وهو خير الحافظين﴾، وهي رواية شاذة أيضاً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾؛ أي: أوعيتهم التي وضعوا فيها الميرة بحضرة أبيهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾؛ أي: ثمن الميرة الذي دفعوه ليوسف ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وإحساناً من يوسف عليه السلام؛ والمعنى: ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقدٍ ثمناً لما اشتروه من الطعام؛ إذ أن يوسف أمر فتيانه أن يضعوها في رحالهم، وهم لا يعلمون ذلك.

وجملة قوله: ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم مستأنفة[2] في سؤال مقدر كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم ـ ولعله كان حاضراً عند الفتح كما في «الإرشاد»، ويؤيده ما في القصص من أن يعقوب عليه السلام قال لهم: يا بني قدموا أحمالكم لأدعو لكم فيها بالبركة، فقدموا أحمالهم، وفتحوها بين يديه، فرأوا بضاعتهم في رؤوس أحمالهم، فقالوا عند ذلك ـ ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾؛ أي: أي شيء نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الذي يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته في الحوائج، وقد كانوا حدثوا أباهم بذلك على ما روي أنهم قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، وقد أنزلنا خير منزل وأكرم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وفادتنا، ولو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الموجودة في الأوعية ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾؛ أي: ثمن ميرتنا حالة كونها ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ أي: حالة كونها مردودة إلينا تفضلاً من حيث لا ندري بعدما منَّ علينا بالمنن العظام، هل من مزيد على هذا فنطلبه؟ أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لأمره، والالتجاء إليه في استجلاب المزيد، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل منه علينا. وقرأ[1] علقمة ويحيى بن وثاب والأعمش: ﴿ردت﴾ - بكسر الراء - نقل حركة الدال المدغمة إلى الراء بعد توهم خلوها من الضمة، وهي لغة لبني ضبة كما نقلت العرب في قيل وبيع. وقرأ عبد الله وأبو حيوة: ﴿ما تبغي﴾ - بالتاء - على خطاب يعقوب، وروتها عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، وهي رواية شاذة وليست بمتواترة، ويحتمل ما في هذه القراءة الاستفهام والنفي كقراءة النون.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾؛ أي: ونأتي بالطعام إلى أهلنا ونجلبه لهم برجوعنا إلى ذلك الملك بتلك البضاعة، وهذا معطوف على محذوف، والتقدير: فنستعين بهذه البضاعة ونمير أهلنا برجوعنا إليه. يقال: مار أهله يميرهم ميراً إذا أتاهم بالميرة؛ وهي الطعام المجلوب من بلد إلى بلد، ومثله امتار. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي في رواية شاذة عنه: ﴿ونمير﴾ - بضم النون - مِن أمار الرباعي. ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين في الذهاب والإياب من الجوع والعطش وسائر المكاره ﴿وَنَزۡدَادُ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾؛ أي: حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة يكال لنا لأجل أخينا؛ لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير اقتصاداً وعدلاً بين الناس، وكأنه قيل: أي حاجة إلى الازدياد، فقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما يحمله بعيرنا ﴿كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: مكيل قليل لا يقوم بأودنا؛ أي: أي قوتنا، أو المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن حمل البعير ﴿كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: كيل سهل لا عسر فيه على ذلك المحسن الجواد؛ أي: زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له؛ أي: لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه،

---

(١) روح البيان.

واختار الزجاج هذا المعنى.

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾؛ أي: أخاكم بنيامين، ولن أطلقه معكم إلى مصر بعد ما عاينت منكم ما عاينت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾؛ أي: حتى تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾؛ أي: عهداً مؤكداً باليمين مأذوناً فيه ﴿مِّنَ﴾ جهة ﴿اللَّهِ﴾ تعالى؛ لأن توكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى، فهو إذن منه تعالى. وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦ﴾ جواب القسم، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا، فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تهلكوا جميعاً من أعم الأوقات، والمعنى: لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله تعالى لترجعن به ولتردنه إليَّ في كل الأوقات إلا وقت الإحاطة بكم، وكونهم[1] محاطاً بهم؛ إما كناية عن كونهم مغلوبين مقهورين بحيث لا يقدرون على الإتيان به البتة، أو كناية عن هلاكهم وموتهم جميعاً، وأصله من العدو، فإن من أحاط به العدو يصير مغلوباً عاجزاً عن تنفيذ مراده، أو هالكاً بالكلية، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فابتلي من ناحية هذا القول حيث قالوا: ﴿أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وقال هنا: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه كما سيأتي. وقوله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ﴾؛ أي: أعطوه ﴿مَوْثِقَهُمْ﴾؛ أي: عهدهم ويمينهم الذي طلبه منهم قبله حذف تقديره: فأجابوه إلى ما طلبه، فلما آتوه موثقهم.. ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾؛ أي: على ما قلناه من طلبي الموثق منكم، وإعطائكم لي ما طلبته منكم ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خان في عهده وفجر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

ولما تجهزَ[2] أولاد يعقوب للمسير إلى مصر.. خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

واحد ﴿وَقَالَ﴾ ناصحاً لهم: ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾ مدينة مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ من أبوابها الأربعة ﴿وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾؛ أي: مختلفة؛ أي: من طرق شتى وسكك مختلفة مخافة العين، فإن العين والسحر حق؛ أي: كائن أثرهما في المعين والمسحور، وصاهم بذلك في هذه الكرة؛ لأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة مشتهرين في مصر بالقربة عند الملك، فخاف عليهم، إن دخلوا جماعة واحدة أن يصابوا بالعين، ولم يوصهم في الكرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذٍ مغمورين بين الناس غير متجملين تجملهم في الثانية، وكان الداعي إليها خوفه على بنيامين ﴿وَمَآ أُغْنِى﴾؛ أي: وما أدفع ﴿عَنكُم﴾ بتدبيري ﴿مِّنَ﴾ قضاء ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى وتدبيره ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: شيئاً فـ﴿مِّنَ﴾ زائدة لتأكيد النفي، فإن الحذر لا يمنع القدر.

ولم يرد به إلغاء الحذر بالمرة(١)، كيف لا وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة، بل هو تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه.

وإنما قال: ﴿مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾(٢) لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً.. كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين.. أمرهم بأن يدخلوا من أبواب متفرقة.

والمعنى: ولا أدفع عنكم ولا أجلب إليكم نفعاً بتدبيري هذا، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلككم مع الاجتماع.. لكان تفرقهم كاجتماعهم. وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته. وقيل: ينفى، وأبعد من قال إنه يقتل إلا إذا كان يتعمد ذلك، وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل.

ثم صرّح يعقوب عليه السلام بأنه لا حكم إلا لله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره، ولا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء، فلا يحكم أحد سواه بشيء من السوء وغيره ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت في كل ما آتي وأذر. وفي هذا[1] إيماء إلى أن الأخذ في الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافي التوكل. وقد جاء في الخبر: «اعقلها وتوكل».

﴿وَعَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى دون أحد سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، لا على أمثالهم من المخلوقين، ولا على أنفسهم، ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً؛ أي: فليثق الواثقون. والفاء[2] فيه لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. وقال البيضاوي: جمع[3] بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لأفادة التسبب فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم، انتهى. فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة، ويهيىء من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله تعالى، ويطلب منه التوفيق والمعونة في إنجازه، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه، أو ما لا تصل إليه يده.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾؛ أي: ولما دخل أخوة يوسف المدينة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: من المكان الذي أمرهم أبوهم الدخول منه، وهي الأبواب المتفرقة، والجار[4] والمجرور في موضع الحال؛ أي: دخلوا متفرقين ﴿مَا كَانَ﴾

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان.

رأي يعقوب ودخولهم متفرقين ﴿يُغْنِي عَنْهُم﴾؛ أي: يدفع عنهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من جهته تعالى ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: شيئاً مما قضاه الله تعالى عليهم، والجملة جواب لـ﴿مَا﴾ فقد[1] وقع عليهم قضاء الله تعالى حيث نسبوا إلى السرقة، وأخذ منهم بنيامين، وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السلام. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾؛ أي: لكن[2] الدخول على صفة التفرق أظهر حاجةً في قلب يعقوب عليه السلام، وهي خوفه عليهم من إصابة العين، وهذا تصديق الله تعالى لقول يعقوب: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

ولفظة ﴿حَاجَةً﴾ منصوبة[3] بإلا؛ لكونها بمعنى لكن، و﴿قَضَىٰهَا﴾ بمعنى: أظهرها، ووصى بها خبر لكن، والمعنى: إن رأي يعقوب عليه السلام في حق بنيه، وهو أن يدخلوا من الأبواب المتفرقة، واتباع بنيه له في ذلك الرأي ما كان يدفع عنهم شيئاً مما قضاه الله تعالى عليهم، ولكن يعقوب عليه السلام أظهر بذلك الرأي ما في نفسه من الشفقة والاحتراز من أن يعانوا؛ أي: يصابوا بالعين، ووصى به؛ أي: لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطر من غير اعتقاد أن للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير، وأما إصابة العين، فإنما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم، لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم. وعبارة «الجمل» هنا: وتقرير انقطاع الاستثناء أن المستثنى منه شيء قضاه الله وأراده، والمستثنى شيء لم يرده الله؛ وهو إصابة العين لهم، فهذا لم يرده الله، ولم يقضه؛ إذ لو أراده لوقع مع أنه لم يقع ولم يحصل، هذا تقرير الانقطاع. انتهت.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الأدلة، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ لأن العين لو قدر أن تصيبهم أصابتهم وهم متفرقون، كما تصيبهم وهم مجتمعون؛ أي: وإنه[4] لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء لما أعطيناه من علم الوحي،

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

وتأويل الرؤيا الصادقة، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه، ويبلغ به إلى غايته، ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر، ويزعمون أن الحذر يغني عن القدر، أو المعنى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد، وبين الاتكال على الله؛ وهو ما فعله يعقوب عليه السلام، ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه، أو المعنى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن يعقوب عليه السلام بهذه الصفة والعلم، أو لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباسرضي الله عنهما: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه. وقرأ الأعمش شاذاً: ﴿مما علمناه﴾ ذكره أبو حيان.

الإعراب

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَآ﴾ (و): حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا كما هو الراجح، أو على يوسف، والجملة في محل النصب حال من فاعل القول المحذوف تقديره: قلت ذلك الاعتراف ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب حالة كوني غير مبرئة نفسي من السوء. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: اسمها. ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أمارة﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النفي المذكور قبلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى نفساً في محل النصب على الاستثناء. ﴿رَحِمَ رَبِّىٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: إلا نفساً رحمها ربي بالعصمة كيوسف عليه السلام. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿ٱئۡتُونِي﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به. ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق به والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق. ﴿لِنَفۡسِيۖ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فأتوه به فلما كلّمه. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَلَّمَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية تنازع فيه كل من ﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾. ﴿لَدَيۡنَا﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية مضاف إلى الضمير تنازع فيه أيضاً كل من الاسمين. ﴿مَكِينٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمِينٞ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾: فعل ومفعول أول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بالمفعول الثاني المحذوف لـ﴿جعل﴾ تقديره: اجعلني والياً على خزائن الأرض، أو متعلق بـ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ على تضمينه معنى ولّني. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾: خبران له.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف معمول

لـ﴿مَكَّنَّا﴾ تقديره: ومكنا ليوسف في الأرض تمكيناً مثل التمكين الذي ذكرناه من إخراجه من السجن وتقريبه إلى الملك. ﴿لِيُوسُفَ﴾: متعلق بـ﴿مَكَّنَّا﴾. وكذلك يتعلق به ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لِيُوسُفَ﴾ يجوز في هذه اللام أن تكون متعلقة بـ﴿مَكَّنَّا﴾ على أن يكون مفعول ﴿مَكَّنَّا﴾ محذوفاً تقديره: مكنا ليوسف الأمور، أو على أن يكون المفعول به ﴿حَيْثُ﴾ كما سيأتي، ويجوز أن تكون زائدة عند من يرى ذلك. اهـ. «سمين». ﴿يَتَبَوَّأُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يوسف﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿يوسف﴾، وفي «الخازن»: إن هذه الجملة في المعنى تفسير للتمكين. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يوسف﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ هذه جملة حالية من ﴿يوسف﴾، ومنها يجوز أن يتعلق بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، وأجاز أبو البقاء أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿حَيْثُ﴾، و﴿حَيْثُ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً بـ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، ويجوز أن يكون مفعولاً به. اهـ. ﴿نُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من نشاءه. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُضِيعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُصِيبُ﴾. ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَأَجْرُ﴾ (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿أجر الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل

وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فَدَخَلُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جاء﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿دخل﴾. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿دخلوا﴾؛ لأن العاطف هنا حرف مرتب. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُنكِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿عرف﴾ والتقدير: فعرفهم يوسف حالة كونهم جاهلين له.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿ٱئْتُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية. ﴿بِأَخٍ﴾: متعلق به والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿لَّكُم﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أخٍ﴾. ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، أو صفة ثانية لـ﴿أخٍ﴾. ﴿أَلَا﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿رأى﴾ إن كانت علمية، أو منصوب على المفعولية لـ﴿رأى﴾ إن كانت بصرية، تقديره: ألا ترون إيفائي الكيل. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أن﴾ على كونها سادة مسد مفعول رأى.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان شأنكم إذا لم تأتوني به.. فأقول لكم ﴿إن لم تأتوني به﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَأْتُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وجزمه بحذف النون. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿لا﴾: نافية. ﴿كَيْلَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ النافية، والجملة الإسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: جازم ومجزوم بحذف النون، وهذه النون نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً، وجملة قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿لا﴾ النافية على كونها جواباً لـ﴿إن﴾: الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿أَبَاهُ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الفعلية على كونها مقولاً لـ﴿قَالُواْ﴾.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، وجعل هنا بمعنى دس فلا يتعدى إلا إلى مفعول واحد. ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾:

متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾، والتقدير: لعلهم يعرفونها وقت انقلابهم إلى أهلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي: ولعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع كما في «البيضاوي».

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره، إذا عرفت ما قال يوسف لهم، وما عاهد عليهم من الإتيان بالأخ، وما قالوا له من مراودته من أبيه، وأردت بيان ما قالوا لأبيهم بعد ما رجعوا إلى بلادهم.. فأقول لك، ﴿لما رجعوا﴾، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿رَجَعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿ما﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ في محل النصب مقول الجواب إذا المقدرة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مُنِعَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿مِنَّا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكَيْلُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ (الفاء): عاطفة تفريعية، ﴿أرسل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مَعَنَآ﴾: متعلق به، أو حال من ﴿أَخَانَا﴾. ﴿أَخَانَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿نَكْتَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده. ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: خبره،

واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أرسل﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف الاستفهام الإنكاري. ﴿ءَامَنُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كَمَآ﴾: (الكاف): حرف جر وتشبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَمِنتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾: متعلق به. وكذا قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق به أيضاً. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كأمني إياكم على أخيه من قبل، الجر والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: هل آمنكم عليه إلا أمناً كائناً كأمني إياكم على أخيه من قبل. ﴿فَٱللَّهُ﴾ (الفاء): عاطفة لقول محذوف على فعل محذوف تقديره: فتوكل يعقوب على الله، ودفعه إليهم، فقال الله خير حافظا، ﴿الله خير﴾: مبتدأ وخبر. ﴿حَٰفِظًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿خَيْرٌ﴾، أو تمييز منصوب باسم التفضيل، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ على كونها مقولاً لذلك القول المحذوف.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول لـ﴿وجد﴾. ﴿رُدَّتْ﴾: فعل ماضي مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على البضاعة. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب

مفعول ثان لـ﴿وجد﴾ أو حال من البضاعة، وجملة ﴿وَجَدُواْ﴾ جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَا﴾: استفهامية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿نَبۡغِيۖ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة موضحة لجملة قوله: ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾. ﴿رُدَّتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على البضاعة. ﴿إِلَيۡنَاۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾. ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: نستعين بها ونمير أهلنا ذكره في «الفتوحات». ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يَسِيرٞ﴾: صفة ﴿كَيۡلٞ﴾.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿لَنۡ﴾: حرف نفي ونصب. ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَعَكُمۡ﴾: حال من مفعول ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تُؤۡتُونِ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، وعلامة نصبه حذف النون: لأن أصله حتى تؤتونني، والنون المذكورة نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول أول. ﴿مَوۡثِقٗا﴾: مفعول ثان. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿مَوۡثِقٗا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى تقديره: إلى إيتائكم إياي موثقاً من الله، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسل﴾.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿تأتنني﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون الأخيرة: نون الوقاية، و(الياء): ضمير المتكلم: في محل النصب مفعول به مبني على السكون. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لقول محذوف تقديره: حتى تؤتون موثقاً من الله قائلاً: والله لتأتنني به. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو من أعم العلل. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُحَاطَ﴾: فعل مضارع مغير، الصيغة منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿بِكُمْۖ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المحذوف تقديره: لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، أو لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا العلة الإحاطة بكم. ﴿فَلَمَّآ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه أبى من الإرسال معهم حتى يؤتوه موثقاً من الله، وأردت بيان قوله وحاله بعد أخذ الميثاق منهم.. فأقول لك: لما أتوه. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعولان؛ لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين، والجملة شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾: مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَكِيلٌ﴾. ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب ومن معه، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: على ما نقوله. ﴿وَكِيلٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم

﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾ الأولى. ﴿يَٰبَنِيَّ﴾: إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنۡ أَبۡوَٰبٖ﴾: متعلق به. ﴿مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾: صفة لـ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُغۡنِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَنكُم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَيۡءٍۖ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيۡءٍۖ﴾: مفعول ﴿أُغۡنِي﴾؛ أي: أغني عنكم شيئاً من قضاء الله تعالى. ﴿إِنِ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ﴿إِلَّا﴾. ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِلَّهِۖ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَعَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾: (الفاء): سببية كما مر في مبحث التفسير نقلاً عن «روح البيان»، و(اللام): حرف جزم وطلب. ﴿يتوكل المتوكلون﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿دَخَلُواْ﴾. ﴿أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر

مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر فيها يعود على دخولهم من أبواب متفرقة. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الدخول. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَيْءٍ﴾. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿يُغْنِي﴾ وجملة ﴿يُغْنِي﴾: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب ﴿لِمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء بمعنى لكن؛ لأن الاستثناء منقطع. ﴿حَاجَةً﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة أولى لـ﴿حَاجَةً﴾. ﴿قَضَىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله تعالى، وجملة ﴿قَضَىٰهَا﴾: في محل النصب صفة ثانية لـ﴿حَاجَةً﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ذو علم﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لتعليمنا إياه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: وإنما كان ذا علم لتعليمنا إياه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: كثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: شأنها الأمر بالسوء لميلها إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك. والسوء: الفعل القبيح. والأمارة: صيغة مبالغة تدل على الكثرة.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ ﴿مَا﴾: واقعة على نفس من النفوس، فلذلك كانت بمعنى.

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾؛ أي: أجعله خالصاً لنفسي، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك، فهو من باب استفعل السداسي، ولكنه بمعنى أفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان، وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه؛ لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة، ولا يشاركهم فيها أحد من الناس.

﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾؛ أي: ذو مكانة ومنزلة أمين؛ أي: مؤتمن على كل شيء، فهما صفتان مشبهتان من مكن على وزن كرم، وأمن على وزن فرح، يقال: مكن فلان عند فلان إذا اتخذ عنده مكانة؛ أي: منزلة؛ وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد. وقيل: المكانة: المنزلة والجاه، والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك، وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه، ومكين: كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا. ا هـ. «خازن». وفي «المصباح»: مكن فلان عند السلطان مكانة ـ وزان ضخم ضخامة ـ إذا عظم عنده وارتفع، فهو مكين، ومكنته من الشيء: جعلت له عليه سلطاناً وقدرةً، فتمكن منه، واستمكن: قدر عليه، وله مكنة؛ أي: قوة وشدة، وأمكنته منه بالألف مثل مكنته، وأمكنني الأمر سهل وتيسر. ا هـ.

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: ولّني على خزائن الطعام والأموال، وأراد بالأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن ﴿عَلِيمٞ﴾ بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ لما استودعني عليم لما وليتني. وقيل: حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: جعلنا له سلطاناً.

﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ المعرفة والعرفان: معرفة الشيء بتفكر في أثره، وضده الإنكار.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾؛ أي: وفر ركائبهم بما جاءوا لأجله.

﴿بِجَهَازِهِمۡ﴾ وجهاز السفر: أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة، ومثله جهاز الميت والعروس بالكسر والفتح، وبهما قرىء، والمتواتر هو الفتح. وفي «المصباح»: وجهزت المسافر بالتثقيل: هيأت له بجهازه، وجهاز السفر أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة ـ بالفتح والكسر ـ لغة قليلة. ا هـ.

﴿أَلَا تَرَوۡنَ﴾ أصله تريون، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها؛ وهو فتحة الراء، فصار ترون بوزن تفعون.

﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ يقال: أوفى الشيء إذا جعله وافياً تاماً. ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ أي: خير المستضيفين للضيوف وأكثرهم قرى.

﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ وفي «القاموس» ـ قرب ـ ككرم، وقرب كسمع قرباً وقرباناً ـ بالضم ـ وقِرباناً ـ بالكسر ـ دنا فهو قريب للواحد والجمع. ا هـ. والمعنى هنا: لا تدنوا مني؛ أي: من بلادي؛ أي: لا تدخلوها فضلاً عن وصولكم إلي. ا هـ. شيخنا.

﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: نخادع ونستميل برفق. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾؛ أي: لقادرون على تلك المراودة.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾؛ أي: لغلمانه الكيالين ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾؛ أي: التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل، وكانت نعالاً وأدماً. وقيل: دراهم، والبضاعة: المال الذي يستعمل للتجارة. ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾: جمع رحل، وهو ما يوضع على ظهر الدابة، وفوقه متاع الراكب وغيره، والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾؛ أي: رجعوا.

﴿نَكۡتَلۡ﴾: أصله نكتيل بوزن نغتنم، فتحركت الياء التي هي عين الكلمة، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فوزنه الآن نفتل، وبحسب الأصل، نفتعل. ا هـ. «شيخنا».

﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ﴾ أصله: أأمنكم بهمزتين، فقلبت الثانية ألفاً على القاعدة. ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الزمان.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾؛ أي: رحالهم؛ أي: الأوعية التي وضعوا فيها الميرة. ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾؛ أي: التي دفعوها له؛ وهي ثمن الميرة.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾؛ أي: نجلب لهم المِيرة ـ بالكسر ـ وهي الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾؛ أي: حمل جمل، فكيل بمعنى: مكيل.

﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: قليل لا يكثر على سخائه كما جاء في قوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾، أو سهل لا عسر فيه كما في قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

﴿مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل: العهد بإشهاد الله

عليه. ا هـ. «خازن».

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا على أمركم، وإلا أن تهلكوا، فإن من يحيط به العدو يهلك غالباً، وتقول العرب: أحيط بفلان إذا هلك، أو قارب هلاكه.

﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: مطلع رقيب، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لم يقل: آمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في المهاوي والقود إلى المغاوي؛ لأن فَعَّالاً من أبنية المبالغة.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهم المحسنون للتوصل إلى وصفهم بالإيمان والتقوى بعد وصفهم بالإحسان مبالغة في مدحهم.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ ضمن جهز معنى أكرم، فلذلك عداه بالباء؛ أي: ولما أكرمهم بجهازهم؛ أي: بتحصيله لهم.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلۡكَيۡلُ﴾ وبين ﴿نَكۡتَلۡ﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾، والمماثل في قوله: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ﴾؛ أي: إلا ائتماناً كائتماني لكم على أخيه، شبه ائتمانه لهم على هذا بائتمانه لهم على ذاك. ا هـ. «سمين».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾؛ لأن الإحاطة حقيقة في إحاطة العدو، وهو هنا كناية عن الهلاك؛ أي: إلا أن تهلكوا.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب؛ لأنه الآمر.

ومنها: الطباق بين عرف وأنكر في قوله: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وهو زيادة اللفظ على المعنى المراد؛ وفائدته: تمكين المعنى من النفس ورسوخه فيها، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى طباق السلب.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الاستقبال في قوله: ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ مع أنه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم؛ للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة.

ومنها: التعبير عما في المستقبل بالماضي في قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾؛ لأنه يراد به المنع في المستقبل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى
رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ
دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ
مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا
كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ
﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾؛ أي: ولما دخل إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ يوسف وضمّ ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى نفسه في الطعام والمنزل والمبيت ﴿أَخَاهُ﴾ الشقيق بنيامين، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب، أو فوق ما كان يتوقع من الحنوّ عليه

والعناية التي خصه بها.

قال المفسرون[1]: لما دخل إخوة يوسف على يوسف عليه السلام.. قالوا: أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرم نُزلهم، ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً.. لأجلسني معه، فقال لهم يوسف عليه السلام، لقد بقي هذا وحده، فقالوا: كان له أخ، فهلك. قال لهم: فأنا أجلسه معي، فأخذه فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله، فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك، وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام عندي على فراشي، فنام بنيامين مع يوسف على فراشه، فجعل يوسف يضمه إليه، ويشمّ ريحه، ويشمّ ريح أبيه منه حتى أصبح، فلما أصبح قال لهم: إني أرى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان، وسأضمه إلي فيكون معي في منزلي، ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام، فقال روبيل: ما رأينا مثل هذا قط، فلما خلا به.. قال له يوسف: ما اسمك؟ قال: بنيامين. قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المشكّل، وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت. قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى. قال: فهل لك من ولد؟ قال: لي عشرة بنين. قال: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي أخ، فهلك. قال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام، وقام إليه وعانقه و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف الذي فقدتموه صغيراً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾؛ أي: فلا تحزن، وقال أهل اللغة: تبتئس تفتعل من البؤس؛ وهو الضرر والشدة، والابتئاس: اجتلاب الحزن والبؤس؛ أي: فلا تحزن ولا تتأسف ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى من الضرر والأذى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمع بيننا بخير؛ أي: فلا تلتفت إلى ما صنعوه بنا فيما تقدم من أعمالهم المنكرة، ولا يلحقن بك بعد الآن بؤس؛ أي: مكروه ولا شدة

(١) الخازن.

بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك، وأمره أن لا يخبرهم، بل يخفي الحال عنهم. وقال بنيامين: أنا لا أفارقك أبداً. قال يوسف عليه السلام: قد علمت اغتمام والدك بي، فإذا حبستك عندي ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحمد. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، فإني لا أفارقك. قال يوسف عليه السلام: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة لأحتال في ردك بعد إطلاقك معهم. قال: فافعل ما شئت، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ يوسف وهيأهم ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: بأهبة سفرهم؛ أي: فلما هيأ يوسف لهم ما يحتاجون إليه للسفر، وحمل لهم أحمالهم من الطعام على إبلهم، وعبّر[1] هنا بالفاء إشارة إلى طلب سرعة سيرهم وذهابهم إلى بلادهم؛ أي: لأن الغرض منه قد حصل، وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الأولى، كان المطلوب فيها طول مدة إقامتهم؛ ليتعرف الملك حالهم. ﴿جَعَلَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾؛ أي: المشربة ـ بكسر الميم ـ وهي صاع من ذهب مرصع بالجواهر؛ أي: محلى بالرصائع، وهي حلق يحلى بها، الواحدة رصيعة وكان يشرب فيه الملك، فيسمى سقاية باعتبار أول حاله، وصاعاً باعتبار آخر أمره؛ لأن الصاع آلة الكيل يسع أربعة أمداد. فالسقاية إناء يشرب منه، جعلها يوسف مكيالاً؛ لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب فيها، أو كال بها لإخوته إكراماً لهم، وكانت من ذهب، وقيل: من فضة، وكان الشرب في إناء الذهب والفضة مباحاً في الشريعة الأولى، فالسقاية والصُّواع اسم لإناء كما مر آنفاً؛ أي: دس يوسف مشربته التي كان يشرب فيها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ الشقيق بنيامين؛ أي: في وعاء طعامه. والمعنى: فلما قضى لهم حاجتهم، ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذي يكيل به الطعام في رحل أخيه. وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ إيماء إلى أنه وضعها بيده، ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني؛ لئلا يطلعوا على مكيدته.

ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم، فأمهلهم يوسف حتى خرجوا من العمران،

---

(١) الفتوحات.

ولما انفصلوا عن مصر نحو الشام.. أرسل يوسف وراءهم من استوقفهم، فاستوقفهم فوقفوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ﴾ ونادى ﴿مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: مناد من فتيان يوسف، قيل: اسمه أفراييم كما في «روح البيان»؛ أي: نادى منادٍ برفع صوته مراراً كثيرة قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ أي: أيتها القافلة التي فيها الأحمال ويا أصحاب الإبل التي عليها الأحمال. والعير[1] في الأصل: كل ما يحمل عليه من الإبل والحمير والبغال، سمي بذلك؛ لأنه يعير؛ أي: يذهب ويجيء، والمراد هنا: أصحاب الإبل ونحوها. ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ صواعنا فقفوا لنفتشكم. وقرأ عبد الله فيما نقل الزمخشري شذوذاً: ﴿وجعل السقاية في رحل أخيه ثم أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن﴾. وفي نقل ابن عطية ﴿وجعل السقاية﴾ ـ بزيادة واو ـ دون الزيادة التي زادها الزمخشري بعد قوله: ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وثم تنتفي المهلة بين جعل السقاية والتأذين، ذكره أبو حيان.

والخلاصة: افتقد فتيان يوسف عليه السلام السقاية[2]؛ لأنها الصواع الذي يكيلون به للمتارين، فلم يجدوها، فأذن مؤذنهم بذلك؛ أي: كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان قائلاً: أيتها العير إنكم لسارقون؛ أي: يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون، فلا ترحلوا حتى نفتشها في رحالكم.

فإن قلت:[3] هل كان هذا النداء بأمر يوسف عليه السلام أم لا؟، فإن كان بأمره، فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه، وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً، وينسبهم إلى السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا إليها؟

قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة:

أحدها: أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال: لست أفارقك، قال: لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما لا يليق، قال: رضيت بذلك،

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام، بل قد رضي به، فلا يكون ذنباً.

الثاني: أن يكون المعنى: إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام، فهو من المعاريض، وإنَّ في المعاريض مندوحةً عن الكذب.

الثالث: يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير لا يكون كذباً.

والرابع: ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف، وهو الأقرب إلى ظاهر الحال؛ لأنهم لمَّا طلبوا السقاية، فلم يجدوها، ولم يكن هناك أحد غيرهم.. غلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها، فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم. ا هـ. «خازن».

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أخوة يوسف للمؤذن ومن معه ﴿و﴾ قد وقفوا و﴿أقبلوا عليهم﴾؛ أي: والحال أنهم قد التفتوا إلى جماعة الملك المؤذن وأصحابه ﴿مَاذَا﴾ تعدمون، وأي شيء ﴿تَفْقِدُونَ﴾؛ أي: تطلبون، وما الذي ضاع منكم. والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، تقول: فقدت الشيء إذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك. وقرأ السلمي شذوذاً[1]: ﴿تفقدون﴾ - بضم التاء - من أفقدته إذا وجدته فقيداً، نحو أحمدته إذا وجدته محموداً، وضَعَّف هذه القراءة أبو حاتم. قال أهل الأخبار[2]: لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم، ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾؛ أي: عطفوا على المؤذن وأصحابه، وقالوا: ما الذي تفقدون، والفقدان: ضد الوجود.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المؤذن وأصحابه في جوابهم ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

أي: نطلب إناء الملك الذي كان يشرب فيه ويكيل به، وإنما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت؛ أي: نفقد الصواع الذي عليه شارة الملك. وقرأ الجمهور[1]: ﴿صُوَاعَ﴾ بزنة غراب بضم الصاد بعدها واو مفتوحة بعدها ألف بعدها عين مهملة. وقرأ أبو حيوة والحسن وابن جبير فيما نقل ابن عطية كذلك إلا أنه كسر الصاد.

وقرأ أبو هريرة ومجاهد: ﴿صاع﴾ ـ بغير واو ـ وعلى وزن ناب، فالألف فيها بدل من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء: ﴿صوع﴾ على وزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون بن أبي أرطبان: ﴿صوع﴾ ـ بضم الصاد ـ. وقرأ أبيّ: ﴿صياع﴾. وكلها لغات في الصاع. وقرأ الحسن وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب «اللوامح» ﴿صواغ﴾ ـ بالغين المعجمة ـ على وزن غراب. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يحذف الألف، ويسكن الواو. وقرأ زيد بن علي: ﴿صوغ﴾ مصدر صاغ، وصواغ وصوغ مشتقان من الصوغ مصدر صاغ يصوغ أقيما مقام المفعول بمعنى مصوغ الملك. فهذه ثمان قراءات في هذا الحرف كلها لغات، والمتواتر منها واحدة وهي قراءة الجمهور، وهذا اللفظ يذكر ويؤنث، ويجمع الصواع على صيعان كغراب وغربان، والصاع على أصوع.

قال المؤذن: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالإناء من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾؛ أي: حمولة جمل من الطعام أجرة له وجعلاً. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الحمل ﴿زَعِيمٞ﴾؛ أي: كفيل ضامن أؤديه إليه؛ لأن الإناء كان من الذهب، وقد اتهمني الملك. وفي «البحر»: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾؛ أي: ولمن دل على سارقه وفضحه ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾؛ أي: وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله. وفي قوله: ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير[2]. وهذه الآية[3]: تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكى رسول الله ﷺ بها في قوله: «.. الحميل غارم» والحميل: الكفيل.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

فإن قلت: كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيئاً؟

قلت: لَمْ يكونوا سراقاً في الحقيقة، فيحمل ذلك على مثل رد الضائع، فيكون جعالة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان، فيحمل عليه.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: إخوة يوسف متعجبين من مقالة الرسل ﴿تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم من السرقة، والتاء بدل من الواو مختصة باسم الله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ فيه معنى القسم، فهو تأكيد للقسم قبله؛ أي: والله لقد علمتم وعرفتم يا أصحاب يوسف ﴿مَّا جِئْنَا﴾ نحن في هذه البلدة ﴿لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لنفعل الفساد في أرض مصر بمضرة الناس ولنسرق فيها، فإنه من أعظم الفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ أي: ما كنا نوصف بالسرقة قط. والمعنى:[١] ما أعجب حالكم؛ أنتم تعلمون علماً جلياً من ديانتنا وفرط أمانتنا، أننا بريئون مما تنسبون إلينا فكيف تقولون لنا إنكم لسارقون؟ لأنه[٢] قد ظهر من أحوالهم وامتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، ولأنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر، ولم يستحلوا أخذها. وإنما حكموا بعلمهم ذلك[٣]؛ لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العمل بأحوالهم الغائبة. قال المفسرون[٤]: إن إخوة يوسف حلفوا على أمرين:

أحدهما: أنهم ما جاؤوا لأجل الفساد في الأرض.

والثاني: أنهم ما جاؤوا سارقين، وإنما قالوا هذه المقالة؛ لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم، وهم أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم؛ لئلا تؤذي زرع الناس، ومن كانت هذه صفته.. فالفساد في حقه ممتنع. وأما الثاني وهو أنهم ما كانوا سارقين، فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، ولم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

يستحلوا أخذها، ومن كانت هذه صفته.. فليس بسارق، فلأجل ذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أصحاب يوسف؛ وهو المنادي وأصحابه: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: أي فما جزاء السارق. قال النسفي: الضمير للصواع، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: فما جزاء سرقة الصواع عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم كاذبين في جحودكم ونفي كون الصواع فيكم.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: مبتدأ ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾: خبره، ولكنه على تقدير مضاف في الطرفين؛ أي: جزاء سرقة الصواع هو استرقاق من وجد الصواع في رحله سنة، ثم يخلى سبيله، فهذه شريعتهم. يعني[1] جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه، فيسترقه سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق، وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا، فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه في السارق، فلذلك ردّ الحكم إليهم. والمعنى: إن جزاء السارق أن يستعبد سنة للمسروق منه جزاء له على جرمه وسرقته، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: فاسترقاق ذلك السارق سنة هو جزاء سرقة الصواع لا غير، تقرير للحكم المذكور، وتأكيد له بإعادته كما تقول: حق الضيف أن يكرم فهو حقه، والقصد من الأول: إفادة الحكم، ومن الثاني: إفادة أن ذلك هو الحق الواجب في مثل هذا؛ أي: فهذه[2] الجملة بمعنى التي قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء المذكور بقوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ والمراد به: استرقاق السارق ﴿نَجْزِى﴾ في شريعتنا وحكمنا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للناس بالسرقة لأمتعتهم وأموالهم في شريعتنا، فنحن أشد الناس عقاباً للسراق؛ أي: نحكم ونفتي باسترقاق كل سارق؛ لأنه شرعنا المقرر

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

فيما بيننا؛ أي: مثل[1] هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين بالسرقة، قالوا ذلك ثقة بكمال برائتهم منها، وهم عما فعل بهم غافلون، وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم. وهذه الجملة[2] من بقية كلام إخوة يوسف، وقيل: من كلام أصحاب يوسف جواباً لقول إخوته ذلك، فردوا لتفتيش أوعيتهم إلى يوسف عليه السلام من المكان[3] الذي لحقهم فيه جماعة الملك، وتقدم أنهم وصلوا إلى خارج مصر، وقيل: إلى بلبيس. ا هـ. «شيخنا».

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بعد ما رجعوا إليه ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ أي: بتفتيش أوعية الأخوة العشرة التي تشتمل عليها رحالهم ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ الشقيق بنيامين؛ لنفي التهمة وابتعاداً عن الشبهة بطريق الحيلة. روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه.. قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقال إخوة يوسف: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا. وقرأ الحسن: ﴿من وعاء﴾ - بضم الواو - وجاء كذلك عن نافع. وقرأ ابن جبير: ﴿من إعاء﴾ - بإبدال الواو المكسورة همزة - كما قالوا إشاح وإسادة في وشاح ووسادة، وذلك مطرد في لغة هذيل يبدلون من الواو المكسورة الواقعة أولاً همزةً وهاتان القراءتان شاذتان.

وأنث الضمير الراجع إلى الصواع في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ نظراً لمعنى السقاية، أو لكون الصواع يذكر ويؤنث؛ أي: ثم بعد أن فرغ يوسف من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه، فاستخرجها ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: أخرج الصواع والسقاية من رحل أخيه بنيامين، فقال له فرَّجك الله كما فرجتني.

فلما وجد الصاع مدسوساً في رحل بنيامين[4]، واستخرج منه نكسوا رؤوسهم وانقطعت ألسنتهم، فأخَذوا بنيامين مع ما معه من الصواع، وردوه إلى يوسف، وأخذوا يشتمونه بالعبرانية، وقالوا له: يا لص ما حملك على سرقة صاع الملك، ولا يزال ينالنا منك بلاء كما لقينا من ابن راحيل، فقال بنيامين: بل ما

---

(١) المراح.

(٢) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

لقي إبنا راحيل البلاء إلا منكم، فأما يوسف فقد علمتم ما فعلتم به، وأما أنا فسرقتموني؛ أي: نسبتموني إلى السرقة قالوا: فمن جعل الإناء في متاعك؟ أليس قد خرج من رحلك؟ قال: إن كنتم سرقتم بضاعتكم الأولى وجعلتموها في رحالكم، فكذلك أنا سرقت الصاع وجعلته في رحلي، فقال روبيل: لقد صدق، وأراد بنيامين أن يخبرهم بخبر يوسف، فذكر وصيته له فسكت.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الكيد العجيب والتدبير الخفي، وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم، وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي:[1] صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه. والكيد في الأصل عبارة عن المكر والخديعة، وهو أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه.

أي: مثل[2] ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف من استرقاق السارق حكمنا به ليوسف، والمعنى: كما ألهمنا إخوة يوسف أن أحكموا أن جزاء السارق أن يسترق.. كذلك ألهمنا يوسف ما فعله من دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته. والكيد[3] مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حقه سبحانه على النهاية لا على البداية. وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعاً ثابتاً.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بنيامين ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾؛ أي: في دين ملك مصر وحكمه قضائه وشريعته التي كان عليها استئناف تعليل لما صنعه الله تعالى من الكيد ليوسف، أو تفسير له كأنه قيل: لماذا فعل يوسف ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعل في دين ملك مصر في أمر

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

السارق؛ أي: في حكمه وقضائه إلا بما فعل.

بل كل دين الملك وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته.

وحاصله: أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأرادوه حتى وجد السبيل إليه؛ وهو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله تعالى وتدبيره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: لم يكن يوسف يأخذ أخاه في حكم الملك بسبب من الأسباب إلا بسبب مشيئة الله تعالى وهو حكم أبيه، فالاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: لم يكن يتمكن من أخذه وضمه إليه في دين الملك بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال إلا حال مشيئته تعالى التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيد، وإلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه. قال الكواشي: لولا شريعة أبيه لما تمكن من أخذ أخيه. انتهى. ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر، لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى.. بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة؛ لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾؛ أي: نرفع إلى درجات كثيرة ورتب عالية من العلم ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾ رفعه في العلم من عبادنا حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف على إخوته في العلم، والمعنى: نرفع درجات من نشاء بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك. وانتصاب[1] ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: إما على المصدرية؛ أي: نرفع رفع درجات، وإما على الظرفية؛

---

(١) المراغي.

أي: في درجات، أو بنزع الخافض؛ أي: إلى درجات.

والمعنى[1]: أي؛ نرفع من نشاء درجات كثيرة في العلم والإيمان، نريه وجوه الصواب في بلوغ المراد كما رفعنا درجات يوسف على إخوته في كل شيء. وفي هذا[2] إيماء إلى أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات؛ لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم، وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها. وقرأ الكوفيون حمزة والكسائي وعاصم وابن محيصن[3]: ﴿نَرْفَعُ﴾ - بنون - ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ - منوناً - ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ - بالنون -. وباقي السبعة كذلك إلا أنهم أضافوا ﴿دَرَجَٰتٍ﴾. وقرأ يعقوب بالياء في: ﴿يرفع﴾ و﴿يشاء﴾؛ أي: يرفع الله تعالى درجات من يشاء رفع درجاته. وقرأ عيسى البصرة شاذاً: ﴿نَرْفَعُ﴾ - بالنون - ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ - منوناً - ﴿من يشاء﴾ - بالياء -. قال صاحب «اللوامح»: وهذه قراءة مرغوب عنها تلاوة وجملة، وإن لم يمكن إنكارها. وقال ابن عطية، وقرأ الجمهور: ﴿نَرْفَعُ﴾ على ضمير المعظم، وكذلك ﴿نَّشَآءُ﴾. وقرأ الحسن وعيسى ويعقوب بالياء؛ أي: الله تعالى. انتهى.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾؛ أي: وفوق كل صاحب علم من الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: من هو أوسع وأكثر منه إحاطة بالعلم، وأرفع درجة منه فيه إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علماً، وهو فوق كل ذي علم. يعني: ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، وعليم صيغة مبالغة، أو المعنى: وفوق كل ذي علم من العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وجل، ذكره النسفي.

وخلاصة ذلك: أن إخوة يوسف كانوا علماء فضلاء إلا أن يوسف كان أعلم منهم. وقرأ عبد الله شاذاً[4]: ﴿وفوق كل ذي عالم﴾ فخرَّجت على زيادة ذي، أو على أن قوله: ﴿عالم﴾ مصدر بمعنى علم كالباطل، أو على أن التقدير:

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الخازن.

وفوق كل ذي شخص عالم. قال ابن الأنباري[1]: يجب أن يتهم العالم نفسه، ويستشعر التواضع لمواهب ربه سبحانه وتعالى، ولا يطمع نفسه في الغلبة، لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه. انتهى.

ولما خرج الصواع من رحل بنيامين.. افتضح الإخوة ونكسوا رؤوسهم و﴿قَالُوٓاْ﴾ تبرئة لساحتهم ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين.. فلا عجب لسرقته ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾؛ أي: أخٌ لبنيامين يريدون به يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل سرقته الآن، فالسرقة جاءت لهما وراثة من أمهما؛ إذ هما لا ينفردان منا إلا بها. وفي قولهم هذا إيماءٌ إلى أن الحسد لا يزال كامناً في قلوبهم لاختلاف الأمهات، ولمزيد محبة الأب لهما، وأتوا[2] بـ﴿إِن﴾ المفيدة للشك؛ لأن ليس عندهم تحقق سرقته بمجرد إخراج الصاع من رحله، وبالمضارع لحكاية الحال الماضية.

وأصح ما قيل في سرقة يوسف[3]: ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً قال: «سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه في الطريق، فعيره بذلك إخوته». وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته ـ وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام ـ كانت إليها منطقة إسحاق؛ إذ كانوا يتوارثونها بالكبر، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته، فكان معها، فلم يحب أحد شيئاً من الأشياء كحبها إياه بحيث لا تصبر عنه، فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها، فأتاها فقال: يا أخية سلِّمي إلي يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: فوالله ما أنا بتاركته، فدعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام، فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن

---

(1) الصاوي.

(2) المراغي.

(3) المراغي.

أصابها، فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام مشدودةً عليه تحت ثيابه، فقالت: إنه سرقها مني، فقالت: والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت، وكان حكمهم أن من سرق يُسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عندها.

وهذا هو الذي عناه إخوته بقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فأضمر يوسف مقالتهم هذه، أعني قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ في نفسه، ولم يجبهم عنها، لا أنه أسرها في بعض أصحابه كما في قوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا في نفسه وقلبه. والحزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه كما في «القاموس».

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ أي: لم يظهرها لهم ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحاً عنهم وحلماً، كأنه قيل: فماذا قال في نفسه عند تضاعيف ذلك الإسرار؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ يوسف في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: أقبح منزلة في السرقة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء، وهذه الجملة تفسير لما أسرَّه يوسف؛ أي:[1] قال في نفسه: أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم ممن تعرضون به أو تفترون عليه بالسرقة؛ إذ أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقلتم لأبيكم: قد أكله الذئب.. إلخ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما[2]: عوقب يوسف بثلاث: حين همَّ بزليخا فسجن، وحين قال: اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إنكم لسارقون فردوا عليه، فقالوا: فقد سرق أخ له من قبل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بما تصفون﴾ ـه به من السرقة؛ أي: أعلم بحقيقة ما تذكرون من أمر يوسف هل يوجب عود مذمة إليه أم لا؟ لأنه سبحانه وتعالى هو العليم بحقائق الأمور، فيعلم كيف كانت سرقة الذي أحلتم سرقته عليه؛ أي: والله أعلم أسرق أخ له أم لا، فـ﴿أعلم﴾ على ما قررناه على معناه التفضيلي، فإن قيل: لم يكن فيهم علم، والتفضيل يقتضي الشركة.. قلنا: يكفي الشركة بحسب زعمهم، فإنهم كانوا يدعون العلم لأنفسهم، ألا ترى إلى قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ على سبيل الجزم كما في «الحواشي السعدية».

وقيل: إن المفاضلة ليست على بابها، والمعنى عليه: والله تعالى أعلم؛ أي: عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا، بل إنما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك من علم.

روي: أنهم كلموا العزيز في إطلاق بنيامين، فقال روبيل: أيها الملك لتردن إلينا أخانا، أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل في مصر، وقامت شعور جسده، فخرجت من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون، خلا أنه إذا مس من غضب واحد منهم.. سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فمسه. ويروى: خذ بيده فمسه، فسكن غضبه، فقال روبيل: إن هنا لبذراً من بذر يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ ولما رأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وأرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين، فيرجعوا به إلى أبيهم؛ لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه و﴿قَالُوا۟﴾ له مستعطفين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: يا أيها الملك ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾؛ أي: إن لبنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: طاعناً في سن الكبر لا يكاد يستطيع فراقه، وهو علالته التي يتعلل بها عن شقيقه الهالك، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾؛ أي: بدله على وجه الاسترهان أو الاسترقاق،

فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة عنده. ثم عللوا رجاءهم في إجابته بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ أيها الملك ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، فأتم إحسانك إلينا بهذه النعمة، فما الإنعام إلا بالإتمام، أو المعنى: إن من عادتك الإحسان مطلقاً، فاجر على عادتك ولا تغيرها، فنحن أحق الناس بذلك. فأجابهم يوسف عن مقالتهم هذه بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول به؛ أي: نعوذ بالله معاذاً من ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: إلا من وجدنا صواعنا عنده مدسوساً في رحله، وهو بنيامين لأنا قد أخذناه بفتواكم: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فلا يسوغ لنا أن نخل بموجبها.

ولم يقل[1]: إلا من سرق متاعنا اتقاءً للكذب؛ لأنه يعلم أنه ليس بسارق ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إذا أخذنا غير من وجد متاعنا عنده، وأخذنا بريئاً بمذنب ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ من وجهين: مخالفة شرعكم ونص فتواكم، ومخالفة شريعة الملك. قال في «بحر العلوم»: ﴿إِذًا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا، هذا ظاهره، وأما باطنه فهو أن الله أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله في ذلك، فلو أخذت غيره لكنت ظالماً وعاملاً بخلاف الوحي، فصرت ظالماً لنفسي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾؛ أي: فلما يئس إخوة يوسف غاية اليأس بدلالة صيغة الاستفعال، واستحكم اليأس في أنفسهم ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم، وأنه إن فعل غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر ﴿خَلَصُوا۟﴾؛ أي: اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم غيرهم حالة كونهم ﴿نَجِيًّا﴾؛ أي: متناجين متحدثين في تدبير أمرهم، ومتشاورين على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم إذا رجعوا. وقرأ البزّي عن ابن كثير[2]: ﴿استايسوا﴾ بوزن استفعلوا من أيس مقلوباً من يئس، ومعناهما واحد. ودليل القلب كون ياء أيس

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

لم تنقلب ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

وخلاصة ذلك[1]: أن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل.. غادر كل منهم رحله، وانضم بعضهم إلى بعض، وأدنى رأسه من رأسه، وأرهفوا آذانهم للنجوى.

والمعنى: فلما أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه، وقيل: أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم.. خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في العقل وهو يهوذا، أو رئيسهم وهو شمعون، وكانت له الرياسة على إخوته كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب والرجوع إلي أبيهم جملة، ولم يرض ذلك، فقال منكراً عليهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قال كبيرهم قد علمتم أيها القوم يقيناً ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ يعقوب ﴿قَدْ أَخَذَ﴾ وجعل ﴿عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: عهداً مؤكداً باليمين من الله لتردنه إليه إلا أن يحاط بكم، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم، وكونه من الله لإذنه فيه.

والجار والمجرور في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾؛ أي: ومن قبل هذا متعلق بـ﴿فَرَّطتُمْ﴾ الآتي، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ زائدة؛ أي: ومن[2] قبل أخذكم العهد في شأن بنيامين قصرتم في شأن يوسف، ولم تفوا بوعدكم على النصح والحفظ له، أو مصدرية عطفاً على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله وتفريطكم السابق في شأن يوسف، أو ترككم ميثاقه في حق يوسف، أو موصولة عطفاً على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾ أيضاً؛ أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقاً من الله في شأن بنيامين، والذي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة من قبل تقصيركم في بنيامين، وكيف أن أباكم قد قاسى من أجله من الحزن ما قاسى.

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: فلن أفارق أرض مصر ذاهباً منها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بتركها وبترك بنيامين فيها والرجوع إليه، ضمن[1] ﴿أَبْرَحَ﴾ معنى المفارقة، فعدي إلى المعفول، و﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة لا ناقصة؛ لأن الأرض لا تحمل على المتكلم، وكأن أيمانهم معقودة على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالخروج منها على وجهٍ لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي من يد العزيز بسبب من الأسباب كأن يتركه العزيز لي بإلهام منه تعالى، أو بسبب آخر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وأفضلهم؛ لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه السلام، ثم أمرهم أن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ يا إخوتي ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يعقوب دوني ﴿فَقُولُواْ﴾ له متلطفين بخطابكم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ صواع الملك من ذهب فيما يظهر لنا، فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملاً بشريعتنا؛ إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها. وقرأ الجمهور: ﴿سَرَقَ﴾ ـ ثلاثياً مبنياً للفاعل ـ إخباراً بظاهر الحال. وقرأ ابن عباس وأبو رزين والكسائي في رواية: ﴿سرق﴾ ـ مبنياً للمفعول ـ لم يقطعوا عليه بالسرقة، بل ذكروا أنه نسب إلى السرقة. وقرأ الضحاك: ﴿سارق﴾ اسم فاعل، وما عدا قراءة الجمهور شاذ وليس بمتواتر.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة، بل ما شهدنا عليه بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وشاهدنا؛ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك وأعطيناك العهد الموثق علينا، أو المعنى: وما كنا للغيب عالمين، فما ندري أحقيقة الأمر كما شاهدنا، أم هي بخلافه؛ لأن حقيقة الأمر غير معلومة لنا؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله، فلعل الصواع دس في رحله، ونحن لا نعلم ذلك.

---

(١) روح البيان.

﴿و﴾ قولوا لأبيكم: أرسل إلى أهل مصر و﴿اسأل﴾ أهل ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا﴾ نمتار ﴿فِيهَا﴾ عن كنه هذه القصة؛ ليتبين لك صدقنا، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا، واسأل ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: واسأل أصحاب العير والإبل الذين كانوا يمتارون معنا وجئنا معهم، وهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام، ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به سواء أسألت غيرنا، أم لم تسأل؛ إذ أن من عادتنا الصدق، فلا نخبرك إلا به، ولا نظنك في مرية من هذا، فرجع الأخوة التسعة إلى أبيهم، فقالوا له ما قال كبيرهم، فلم يصدقهم فيما قالوا، بل ﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم يعقوب عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وزينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: كيداً آخراً، وهو إخراج بنيامين عني إلى مصر طلباً للمنفعة، فعاد من ذلك ضرر فنبذتموه، ومما يقوي ذلك عندي أنكم لقنتم ذلك الملك حكم شريعتنا، وأفتيتموه بأن جزاء السارق أن يؤخذ ويسترق، وإلا فما يعرف الملك أن السارق يؤخذ بسرقته؛ لأن ذلك إنما هو من دين يعقوب لا من دين الملك، ولولا فتواكم وتعليمكم لما حكم الملك ذلك ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فحالي على ما نالني من فقده صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية فيه لأحد، بل أشكوا إلى الله وحده وأعلق رجائي به.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى أن يرجع إليَّ يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقي بمصر، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره، وإنما قال يعقوب هذه المقالة؛ لأنه لما طال حزنه واشتد بلائه، ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب، فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل؛ لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بفقدي لهم وحزني ووجدي عليهم، وله فينا حكمة بالغة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله فيبتلي ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته في تدبير خلقه، وقد جرت سنته أنَّ الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجاً، والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به؛ أي: وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين، فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه، وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف، فعند ذلك أعرض عنهم.

وقال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: يا حزني ويا حسرتي على يوسف أقبلي إلي فهذا وقتك، والحال مقتضية لك، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر ببشرى لقاء يوسف، فخاب أملي وحلّ محله ذهاب ابني المسلي عنه، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه؛ لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه، ومحل غيره دون ذلك.

قال الزجاج: الأصل ياأسفي فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة، والأسف: شدة الجزع، وقيل: شدة الحزن.

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير.

وقد روي عن سعيد بن جبير(١): أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان عنده ذلك لما قال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره، كأنه قال: تعالَ يا أسفي وأقبل إلي.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾؛ أي: أصابت عينيه غشاوة بيضاء غطت على البصر مع بقاء العصب الذي يدرك المبصرات سليماً معافى، أو المعنى: انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسَّة البصر بالمرة. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً من كثرة البكاء، فإن الدمع يكثر عند غلبة البكاء، فتصير العين كأنها بيضاء من بياض الماء الخارج منها.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مكظوم مملوء غيظاً وغضباً على أولاده يردد حزنه في جوفه، ولا يتكلم بسوء، أو مملوء حزناً ممسك له كاتم له لا يبثه، ومنه كظم الغيظ؛ أي: وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء إذا سده على ما فيه.

والحزن: عرض طبيعي للنفس ولا يذم شرعاً إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو أن يفعل ما لا يرضي الله تعالى، ومن ثم قال النبي ﷺ عند موت ولده إبراهيم، وقد جعلت عيناه تذرفان، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون». رواه الشيخان وغيرهما.

فائدة: وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فقال هذه شكاية وإظهار جزع، فلا يليق بعلو منصبه ذلك، وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض؛ لأن يعقوب عليه السلام شكا إلى الله لا منه، فقوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ معناه: يا رب ارحم أسفي على يوسف. وقد ذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب بالأسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ، وتخليصه: يا إلٰهي ارحم أسفي، أو أنت رائي أسفي، أو هذا أسفي، فنادى الأسف في اللفظ، والمنادى سواه في المعنى، ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم؛ لأنه لم يشك إلا إلى ربه عز وجل. فلما كان قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ شكوى إلى ربه كان غير ملوم في شكواه، وقيل: إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته.. قال: يا أسفا على يوسف؛ أي: أشكو إلى الله شدة أسفي على يوسف، ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وقال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب، وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه.

الإعراب

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط ﴿لما﴾. ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿أَخَاهُۖ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. والجملة مستأنفة، أو بدل من جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنَا۠﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لياء المتكلم. ﴿أَخُوكَ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية جازمة: ﴿تَبْتَئِسْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله ضمير يعود على أخي يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبْتَئِسْ﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره، بما كانوا يعملونه ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): حرف عطف وتعقيب، ومر في مبحث التفسير علة الإتيان بالفاء هنا. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى وضع، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه

متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلَ﴾. ﴿أَيَّتُهَا﴾: منادى نكرة مقصودة حذف منه حرف النداء، والهاء حرف تنبيه زيد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف حال من ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ تقديره: حالة كونه قائلاً أيتها العير إنكم لسارقون. ﴿ٱلْعِيرُ﴾ بدل ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف على كونها جواب النداء.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَقْبَلُواْ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿أقبلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَّاذَا﴾: استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، أو ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿تَفْقِدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تفقدونه.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾: فعل ومفعول به ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على أصحاب يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَلِمَن﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده ﴿زَعِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: (التاء): حرف جر وقسم مختص بلفظ الجلالة. ﴿الله﴾: مقسم به مجرور بتاء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم تالله، وجملة القسم مع جوابه الآتي في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿جِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سادة مسد مفعول علم؛ لأنه بمعنى عرف تقديره: لقد علمتم عدم مجيئنا لنفسد في الأرض. ﴿لِنُفْسِدَ﴾: (اللام): لام كي. ﴿نفسد﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على أخوة يوسف. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها تقديره: وعدم كوننا سارقين.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَمَا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: قد سمعنا قولكم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين، ﴿ما جزاؤه﴾: ﴿ما﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾: خبر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوا۟﴾، ويحتمل كون الفاء زائدة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم كاذبين فما جزاؤه.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ إلى آخر الآية

مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: مبتدأ أول. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ ثان، وخبره جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف. ﴿وُجِدَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على الصواع. ﴿فِى رَحْلِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿هو جزاؤه﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾.

وفي «السمين» قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، والضمير للسارق، و﴿مَن﴾ شرطية أو موصولة مبتدأ ثان، والفاء: رابطة الجواب للشرط، أو مزيدة في خبر الموصول لشبهه بالشرط، و﴿مَن﴾ وما في حيزها على وجهيها خبر المبتدأ الأول.

والثاني: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، والهاء تعود للمسروق، و﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ خبره، و﴿مَن﴾ بمعنى الذي، والتقدير: وجزاء الصواع الذي وجد في رحله.

والثالث: أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: والمسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾. اهـ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، والعامل فيه ما بعده. ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والتقدير: نجزي الظالمين جزاء مثل ذلك الجزاء المذكور، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال إخوة يوسف، وما قال أصحاب يوسف، وأردت بيان ما فعل يوسف بهم.. فأقول لك: ﴿بدأ بأوعيتهم﴾: ﴿بدأ﴾: فعل ماض، وفاعله

ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بدأ﴾. ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿بدأ﴾ أيضاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باستخراج، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿بدأ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف معمول لما بعده. ﴿كِدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِيُوسُفَ﴾: متعلق به، والتقدير: كدنا ليوسف كيداً مثل ذلك الكيد المذكور، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿يوسف﴾. ﴿لِيَأْخُذَ﴾: (اللام): حرف جر وجحود. ﴿يأخذ أخاه﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود. ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ على مذهب البصريين تقديره: ما كان يوسف مريداً لأخذ أخيه في دين الملك، ومتمكناً منه في حكمه، وهذه الجملة تعليق لما صنعه الله ليوسف من الكيد، أو تفسير له. ذكره الشوكاني وغيره. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال. ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة مستثنى المحذوف إليه، والتقدير: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله سبحانه وتعالى. ﴿نَرْفَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿دَرَجَٰتٍ مَّن﴾: مفعول به ومضاف إليه إذا قرأناه بلا تنوين، وإذا قرأناه بالتنوين ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ منصوب بنزع الخافض. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿نَّشَآءُ﴾: صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والتقدير: نرفع من نشاء رفعه من عبادنا في درجات. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ مضافان ﴿عَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يَسْرِقْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على بنيامين. ﴿فَقَدْ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿سَرَقَ أَخٌ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَخٌ﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَرَقَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا﴾. ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ (الفاء): عاطفة. ﴿أسرها يوسف﴾: فعل ومفعول به. ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ جازم وفعل مجزوم ومفعول به، والجملة معطوفة على ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أسرها﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنتُمْ شَرٌّ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مَّكَانًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿تَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تصفونه.

﴿قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿الْعَزِيزُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَبًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿شَيْخًا﴾: صفة لـ﴿أَخٌ﴾. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة

لـ﴿شَيْخًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَخُذْ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿خذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿أَحَدَنَا﴾: مفعول به. ﴿مَكَانَهُۥٓ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خذ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَرَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن رأى بصرية. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: متعلق به، ويصح كونها علمية، والجار والمجرور في محل المفعول الثاني، وفاعل نرى ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب. على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: نعوذ بالله معاذ؛ أي: نتعوذ بالله تعوذاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾: ناصب وفعل منصوب به، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: نعوذ بالله من أخذنا. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عِندَهُۥٓ﴾: متعلق به، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء ملغاة لا عمل لها؛ لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به. ﴿خَلَصُوا۟﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾. ﴿نَجِيًّا﴾: حال من فاعل ﴿خَلَصُوا۟﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة،

وإنما أفردت الحال مع كون صاحبها جمعاً؛ لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث. والجميع وغيره. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تعلموا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَدْ أَخَذَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الأب. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق به. ﴿مَّوْثِقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة له، وجملة ﴿أَخَذَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله في شأن بنيامين.

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَّطتُمْ﴾. ﴿مَا﴾: زائدة، أو مصدرية. ﴿فَرَّطتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى يُوسُفَ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر مؤول من جملة ﴿أَنَّ﴾ تقديره: إلم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً من الله في شأن بنيامين، وتفريطكم في شأن يوسف من قبل بنيامين. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم وأردتم بيان شأني وحالي.. فأقول لكم، ﴿لن أبرح﴾: ناصب وفعل منصوب، و﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة، وفاعله ضمير يعود على الكبير. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به؛ لأنه في معنى لن أفارق الأرض، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَأْذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى. ﴿لِىٓ﴾: متعلق به. ﴿أَبِىٓ﴾: فاعل. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لِىٓ﴾. ﴿لِىٓ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَأْذَنَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَبْرَحَ﴾، والتقدير: فلن أبرح الأرض إلى إذن أبي لي، أو حكم الله لي. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَقُولُواْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿قولوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾. ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ إلى آخر الآية: مقول ﴿قولوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾. ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَرَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الابن، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿شَهِدْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِدْنَآ﴾. ﴿عَلِمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلا بما علمناه، وعلم بمعنى عرف. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِلْغَيْبِ﴾: متعلق بما بعده. ﴿حَٰفِظِينَ﴾: خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الأب، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهَا﴾: خبره، وجملة كان صلة الموصول. ﴿وَٱلْعِيرَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: صفة للعير. ﴿أَقْبَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَسْـَٔلِ﴾ على كونها مقول ﴿قولوا﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿سَوَّلَتْ﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنفُسُكُمْ﴾: فاعل. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم وأردتم بيان حالي لكم.. فأقول لكم: ﴿صبر جميل﴾: ﴿صبر﴾: خبر مبتدأ محذوف. ﴿جَمِيلٌ﴾: صفة له تقديره: فصبري صبر جميل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، وهو من أفعال الرجاء. ﴿أَن يَأْتِيَنِي﴾: ناصب وفعل ونون وقاية ومفعول به. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿بِهِمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَى﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل؛ ليصح الإخبار تقديره: عسى الله آتياً بهم جميعاً. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر أول له. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضٍ معطوف على ﴿تولى﴾، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أسفى﴾: منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحة، منع مع ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿أسفى﴾: مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً في محل الجر مضاف إليه. ﴿عَلَىٰ

﴿يُوسُفَ﴾: متعلق بـ﴿أسفى﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، أو حال من فاعل ﴿قال﴾. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): عاطفة تعليلية، ﴿هو كظيم﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَٱبْيَضَّتْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضم إليه في الطعام والمنزل والمبيت كما مر في مبحث التفسير. وأصل آوى: أأوى بهمزتين ثانيتهما ساكنة على وزن أفعل الرباعي، فقلبت الثانية ألفاً ثلاثية أوى يأوي بوزن رمى يرمي إذا رق له ورحمه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾؛ أي: فلا تحزن، والابتئاس: اجتلاب البؤس والشقاء، وهو من باب افتعل الخماسي.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: هيأهم بأهبة السفر. ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ والسقاية ـ بكسر أوله ـ وعاء يسقى به، وبه يكال للناس، ويقدر بكيلة مصرية (١/ ١٢ من الأردب المصري) ـ وهو الذي عبر عنه بصواع الملك، فيسمى سقاية باعتبار أول حاله، وصاعاً باعتبار آخر أمره؛ لأن الصاع آلة الكيل، وهو أربعة أمداد، والأردب المصري يسع اثني عشر صاعاً. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ والرحل هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: نادى مراراً كثيرة بدليل صيغة التفعيل؛ لأنه من التأذين، وهو تكرار الأذان، والإعلام بالشيء، وكان ذلك النداء مع رفع الصوت قائلاً ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ أي: يا أصحاب العير، والعير في الأصل: كل ما يحمل عليه من الأبل والحمير والبغال، سمي بذلك؛ لأنه يعير؛ أي: يذهب ويجيء، والمراد منه هنا أصحاب الإبل ونحوها. وفي «المصباح»: العير ـ بالكسر ـ اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل، ثم غلب على كل قافلة. ا هـ.

﴿وَأَقْبَلُوا۟﴾؛ أي: والحال أنهم؛ أي: إخوة يوسف أقبلوا عليهم؛ أي: على جماعة الملك المؤذن وأصحابه؛ أي: التفتوا إليهم وخاطبوهم بما ذكر كما مر.

﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾؛ أي: أي شيء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه كما في «البيضاوي» من فقد من باب ضرب.

﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ فالصاع والصواع لغتان معناهما واحد؛ وهو آلة الكيل، وتقدم أنه هو السقاية. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ بِٱلصُّوَاعِ جِهَارَا

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ والحمل ـ بكسر الحاء ـ هنا هو ما يحمله البعير من الطعام.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾؛ أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية. ﴿زَعِيمٞ﴾؛ أي: كفيل أجعله جزاءً لمن يجيء به.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ والكيد: التدبير الذي يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدي إلى باطنه المراد منه، واعلم أن الكيد يشعر بالحيلة والخديعة، وهذا في حق الله تعالى محال إلا أنه قد تقدم أصل معتبر في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ في حق الله تعالى تحمل على نهاية الأغراض لا على بداياتها، فالكيد: السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إيقاع الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه، ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. اهـ. «كرخي». ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ شرعه الذي يدين الله تعالى به.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، يقرأ شاذاً: ﴿ذي عالم﴾ وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو مصدر كالباطل.

والثاني: أن ذي زائدة، وقد جاء مثل ذلك في الشعر كقول الكميت:

إِلَـيْـكُـمْ ذَوِيْ آلِ ٱلـنَّـبِـيِّ

والثالث: أنه أضاف الاسم إلى المسمى، وهو محذوف تقديره: ذي مسمى عالم كقول الشاعر: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

أي: مسمى السلام. ذكره أبو البقاء.

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ سرق - من باب ضرب - أخذ الشيء من حرز مثله خفية. وقد سبق بيان سبب نسبة السرقة إلى يوسف في مبحث التفسير. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: كبير القدر، ولم يريدوا كبر السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ ذكره «القرطبي».

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر ميمي من عاذ يعوذ عوذاً ومعاذاً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾؛ أي: يئسوا مثل عجب واستعجب وسخر واستسخر، فالسين والتاء زائدتان للمبالغة كما في «البيضاوي» و«القرطبي»، وفي «السمين»: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ استفعل هنا بمعنى فعل المجرد، يقال: يئس واستيأس بمعنى نحو عجب واستعجب، وسخر واستسخر. وقال الزمخشري: زيادة السين والتاء للمبالغة نحو ما مر في استعصم.

﴿خَلَصُوا﴾؛ أي: اعتزلوا عن مجلس يوسف، وانفردوا عنه، وانحازوا على حدة. وفي «المصباح»: خلص يخلص خلوصاً من باب قعد؛ أي: انفصل. ﴿نَجِيًّا﴾: حال من فاعل ﴿خَلَصُوا﴾ كما مر؛ أي: اعتزلوا حالة كونهم متناجين؛ أي: متحدثين في التشاور في شأن هذه القضية، وهو لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً كان أو جماعة مؤنثاً أو مذكراً، فهو كعدل، ويجمع على أنجية، قال لبيد:

وَشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الإِفَاقَةِ عَالِيًا ... كَعْبِي وَأَرْدَافُ المُلُوكِ شُهُوْدُ

وقال آخر:

إِنِّيْ إِذَا مَا القَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ ... وَاضْطَرَبَ القَوْمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَهْ

هُنَاكَ أَوْصِيْنِيْ وَلاَ تُوْصِيْ بِيَهْ

وفي «الكرخي» قوله: ﴿نَجِيًّا﴾ حال من فاعل ﴿خَلَصُوا﴾؛ أي: اعتزلوا في هذه الحالة متناجين، وإنما أفردت الحال وصاحبها جمع؛ إما لأن النجي فعيل

بمعنى فاعل كالعشير والخليط بمعنى المعاشر والمخالط كقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾؛ أي: مناجياً، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً، يقال: هم خليطك وعشيرك؛ أي: مخالطوك ومعاشروك، وإما لأنه صفة على فعيل بمنزلة صديق وبابه، فوحد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والوحيد والذميل، وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي كما قيل: النجوى بمعناه قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ وحينئذٍ يكون فيه التأويلات المذكورة في رجل عدل وبابه. ا هـ.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾؛ أي: رأياً وتدبيراً وعلماً؛ وهو شمعون. قاله مجاهد، أو كبيرهم في السن، وهو روبيل. قاله قتادة، وقيل: في العقل والرأي؛ وهو يهوذا ذكرهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: ﴿أَبْرَحَ﴾ هنا تامة ضمِّنت معنى أفارق، فالأرض مفعول به، ولا يجوز أن تكون تامة من غير تضمين؛ لأنها إذا كانت كذلك كان معناها ظهر وذهب، ومعنى الظهور والذهاب لا يصل إلى الظرف المخصوص إلا بواسطة في تقول: ذهبت في الأرض، ولا يجوز ذهبت الأرض. وقد جاء شيء لا يقاس عليه. واعلم أنه لا يجوز في أبرح أن تكون ناقصة؛ لأنه لا ينتظم من الضمير الذي فيها ومن الأرض مبتدأ وخبر، ألا ترى أنك لو قلت: أنا الأرض، لم يجز من غير في بخلاف: أنا في الأرض. ا هـ. «كرخي».

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً، ويستعمل في كل واحد منهما. قاله الراغب.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾؛ أي: زينت وخيلت لكم ﴿أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: كيداً آخر ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فشأني صبر جميل؛ أي: حسن، أو صبر جميل أولى بي وأليق.

واعلم: أن الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم لمجريه عليه؛ وهو العليم الحكيم، ويقتدي بيعقوب وسائر النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقال سعيد بن عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد

أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: يا حزني عليه، والأسف أشد الحزن على ما فات،ومنه قول كثير:

فَيَا أَسَفَاً لِلْقَلْبِ كَيْفَ ٱنْصِرَافُهُ وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مملوء غيظاً على أولاده ممسك له في قلبه لا يبثه لأحد، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم؛ أي: المشتمل على حزنه الممسك له، ومنه قوله:

فَإِنْ أَكُ كَاظِمَاً لِمُصَابِ نَاسٍ فَإِنِّيْ ٱلْيَوْمَ مُنْطَلِقٌ لِسَانِيْ

وقال الزجاج: معنى كظيم محزون. وعن ابن عباس أنه قال: معناه مغموم مكروب. وفي «المصباح»: كظمت الغيظ كظماً ـ من باب ضرب ـ وكظوماً أمكست على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾؛ لأن المراد منه أصحاب الإبل ونحوها، والعلاقة فيه المجاورة كما في «السمين».

ومنها: التعريض في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ لما فيه من التعريض إلى

سرقتهم يوسف من أبيه.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾؛ لأن هذه الجملة من كلام المؤذن؛ لأنه هو الذي كفل وضمن.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام إشعاراً بأنه المقصود من العام في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ لأن هذه الجملة بمعنى قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾، فهي مؤكدة لها.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ لأن حق العبارة: ثم استخرجها منه.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ وفي قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾؛ لأن صيغة المضارع في كلا الموضعين لاستحضار الصورة الماضية كما في «روح البيان».

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَخٌ لَّهُۥ﴾ لغرض الإبهام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لغرض الاستعطاف؛ لأن كبر السن معلوم من لفظ الشيخ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهلها، والعلاقة فيه المحلية، وفي قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: أصحابها، والعلاقة فيه

المجاورة كما مر قريباً.

ومنها: نداء غير العاقل تنزيلاً له منزلة العاقل في قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظي الأسف ويوسف في قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقال الزمخشري: والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير مستعمل، فيملح ويبدع، ونحوه ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾، ﴿أَرَضِيتُم﴾، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ انتهى. ويسمى هذا تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف، ذكره أبو حيان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾؛ لأنه كناية عن فقدان البصر وذهابه عنه.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإنه غيا الأمر بغايتين؛ إحداهما خاصة؛ وهي إذن أبيه، والثانية عامة؛ لأن إذن أبيه له في الانصراف من حكم الله تعالى. ا هـ. «كرخي».

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يَحْكُمَ﴾ و﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ﴾ ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا :

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ
لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ
آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ
وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ
أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ
أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ
إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أولاد يعقوب الذين جاؤوا من مصر ومن معهم من أولاد الأولاد الحاضرين عند يعقوب حين قال يعقوب: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ أي: والله لا تزال تذكر يوسف وتلهج به، ولا تفتر عن حبه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ﴾؛ أي: تصير بذلك ﴿حَرَضًا﴾؛ أي: مريضاً مشرفاً على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾؛ أي: من الميتين.

وخلاصة ذلك[1]: أنك الآن في بلاء شديد، ويخاف أن يحصل لك ما هو أكثر وأشد، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف، وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه، وإنما[2] قالوا له ذلك؛ لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك.

وأصل ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا﴾؛ أي: والله لا تفتأ ولا تزال، فلا[3] محذوفة في جواب القسم للتخفيف لعدم الالتباس؛ لأنه لو كان الجواب مثبتاً.. للزمه اللام ونون التوكيد عند البصريين، أو إحداهما عند الكوفيين، وذلك نظير قول العرب: والله أقصدك أبداً، يعنون: لا أقصدك. وقال الفراء إن (لا) مضمرة؛ أي: لا تفتأ. قال النحاس: والذي قال صحيح، وقد روي عن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، وأنشد الفراء محتجاً على ما قاله قول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِيْنَ ٱللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدَاً ... وَلَوْ قَطَعُوْا رَأْسِيْ لَدَيْكِ وَأَوْصَالِيْ

يريد: لا أبرح.

وقالت الخنساء:

فَأَقْسَمْتُ آسَىٰ عَلَىٰ هَالِكٍ ... أَوَ أَسْأَلُ نَائِحَةً مَالَهَا

أرادت: لا آسى.

وقال الآخر:

لَمْ يَشْعُرِ ٱلنَّعْشُ مَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْـ ... ـعُرْفِ وَلاَ ٱلْحَامِلُوْنَ مَا حَمَلُوْا

تَٱللَّهِ أَنْسَىٰ مُصِيْبَتِيْ أَبَدَا ... مَا أَسْمَعَتْنِيْ حَنِيْنَهَا ٱلإِبِلُ

وقرأ أبو عمران وابن محيصن وأبو حيوة شذوذاً[4]: ﴿قالوا بالله﴾ ـ بالباء ـ وكذلك كل قسم في القرآن، ويقال: فتىء وفتأ لغتان فيه[5]، ولا يستعملان إلا

---

(١) المراغي.
(٢) القرطبي.
(٣) روح البيان.
(٤) زاد المسير.
(٥) القرطبي.

مع الجحد.

قال الشاعر:

فَمَا فَتِئَتْ حَتَّىٰ كَأَنَّ غُبَارَهَا سُرَادِقُ يَوْمٍ ذِيْ رِيَاحٍ تَرَفَّعُ

أي: ما برحت.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ وأصل الحرض: الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم حكي ذلك عن أبي عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سَرَىٰ هَمِّيْ فَأَمْرَضَنِيْ وَقِدْمًا زَادَنِيْ مَرَضَا
كَذَاكَ ٱلْحُبُّ قَبْلَ ٱلْيَوْ مِ مِمَّا يُوْرِثُ ٱلْحَرَضَا

وقال عبد الله بن عمر العرجي(١):

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ لَجَّ بِيْ حُبٌّ فَأَحْرَضَنِيْ حَتَّىٰ بَلِيْتُ وَحَتَّىٰ شَفَّنِيْ ٱلسَّقَمُ

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي:(٢) تالفاً، وقال ابن عباس ومجاهد: دنفاً؛ أي: ملازماً للمرض، وقال قتادة: هرماً، والضحاك: بالياً داثراً، ومحمد بن إسحاق: فاسداً لا عقل لك. وقال الفراء: الحارض: الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض. وقال ابن زيد: الحرض الذي قد ردَّ إلى أرذل العمر. وقال الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم. وقال المؤرِّخ: ذائباً من الهم. وقال الأخفش، ذاهباً، وابن الأنباري: هالكاً، وكلها متقاربة.

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام، وهذه الجملة مستأنفة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قال يعقوب لهم حين قالوا له ما قالوا؟ فقيل: قال يعقوب جواباً لأولاده اللائمين له: لا تلوموني يا أولادي على حزني وبكائي، وأنا لم أشك إليكم حزني ولا إلى أحد من خلق الله، بل ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ﴾ وأظهر ﴿بَثِّي﴾؛ أي:

(١) زاد المسير.

(٢) القرطبي.

شديد حزني وهمي ﴿وَحُزْنِيٓ﴾؛ أي: وقليل حزني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ملتجئاً إلى جنابه متضرعاً لدى بابه في دفعه. وقد[1] ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب.. كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثاً، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه. والحزن[2]: أعم من البث، فإذا عطف على الخاص يراد به الأفراد الباقية، فيكون المعنى: لا أذكر الحزن العظيم والحزن القليل إلا مع الله، لا مع غيره من الناس. وقيل: البث الهم، وقيل: هو الحاجة. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى. وقرأ الجمهور: ﴿حُزْني﴾ - بضم الحاء وسكون الزاي -. وقرأ[3] الحسن وعيسى: ﴿وحَزَني﴾ - بفتحتين -. وقرأ قتادة بضمتين، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

فإن قيل[4]: لِمَ قال يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثم قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ فكيف يكون الصبر مع الشكوى؟

قيل: ليس هذا إلا شكاية من النفس إلى خالقها، وهو جائز، ألا ترى أن أيوب عليه السلام قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وقال تعالى مع شكواه إلى ربه في حقه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه شكا منه إليه، وبكى منه عليه، فهو المعذور لديه؛ لأن حقيقة الصبر ومعناه الحقيقي حبس النفس ومنعها عن الشكوى إلى الغير، وترك الركون إلى الغير، وتحمل الأذى والابتلاء لصدوره من قضائه وقدره، كما قيل بلسان الحقيقة:

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَلِيْحِ مَلِيْحُ ... لَكِنِ ٱلصَّبْرُ عَنْهُ غَيْرُ مَلِيْحِ

وقيل أيضاً:

وَٱلصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُوْمٌ عَوَاقِبُهُ ... وَٱلصَّبْرُ فِيْ سَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ مَحْمُوْدُ

وذلك لأن المحب لا يصبر عن حضرة المحبوب، فلا يزال يعرض حاله

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

وافتقاره إلى حضرته، ولسان العشق لسان التضرع والحكاية، لا لسان الجزع والشكاية، فشكاية العارف الواقف في صورة الشكوى حكاية حاله وتضرعه وافتقاره إلى حبيبه.

وروى الحاكم[1] ـ أبو عبد الله ـ في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان ليعقوب أخ مؤاخ» فقال له ذات يوم: يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك، وما الذي قوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري، فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوّس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أما تستحيي أن تشكو إلى غيري؛ فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال جبريل: الله أعلم بما تشكو، ثم قال يعقوب: أي رب؛ أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري، وقوست ظهري، فاردد عليَّ ريحانتاي أشمهما شمة قبل الموت، ثم اصنع بي يا رب ما شئت، فأتاه جبريل فقال: يا يقعوب إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول: أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، إصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادي إلي المساكين، وهل تدري لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا؛ لأنكم ذبحتم شاة، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم، فلم تطعموه منها، فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى ألا من أراد الغداء من المساكين. . فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى من كان صائماً. . فليفطر مع يعقوب.

وقال وهب بن منبّه[2]: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لما عاقبتك، وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، قال: لأنك شويت عناقاً، وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه، وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها وهي تخور، فلم يرحمها.

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

فإن قيل: كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً؟

فقد أجاب المفسرون عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى وهو الأظهر.

والثاني: لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله شدة فاقتهم.

والثالث: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور. والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء، وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعلم[1] من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـه أنتم، وقيل: أراد علمه بأن يوسف حي، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة، وقيل: أعلم من إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ولا يخيب رجائي.

والخلاصة[2]: أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لا تعلمون، فأعلم أنه حي يرزق، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك، وأن بنيامين قد سرق فاسترقَّ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله تعالى في شيء أمضاه ولا مرد له، وأنا أعلم أن لهذا أجلاً هو بالغه، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعده.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق، وأنني سأسجد له. وقال السدي[3]: لما أخبره أولاده بسيرة الملك.. أحست نفسه، فطمع وقال: لعله يوسف، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ إلى مصر

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وارجعوا إليها ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾؛ أي: فتعرفوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين، وابحثوا فيها من خبرهما بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما. فقوله: ﴿ٱذْهَبُواْ﴾ أمر بالذهاب إلى الأرض التي جاؤوا منها وتركوا بها أخويهم بنيامين والمقيم بها. وقوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ أمر بالتحسس وهو الاستقصاء والطلب بالحواس، ويستعمل في الخير والشر. والتحسس ـ بمهملات ـ طلب الشيء بالحواس مأخوذ من الحس أو من الإحساس. وقرىء[1] بالجيم كالذي في الحجرات ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وهو أيضاً التطلب. وفي «الإحياء» بالجيم: في تطلع الأخبار، وبالحاء: في المراقبة بالعين، وقال في «إنسان العيون» أما بالحاء: أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه، وأما بالجيم: أن يفحص عنها بغيره، وجاء تحسسوا ولا تجسسوا انتهى.

والمعنى: اذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه، وإنما[2] خصهما ولم يذكر الثالث، وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض واحتبس بمصر، لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها؛ لأنه إنما أقام مختاراً.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا تقنطوا من فرجه سبحانه وتعالى وتنفيسه عن النفس هذا الكرب بما ترتاح إليه الروح، ويطمئن به القلب. وقرأ[3] الجمهور: ﴿تَاْيْـَٔسُواْ﴾، وفرقة: ﴿تأيسوا﴾. وقرأ الأعرج: ﴿تئسوا﴾ ـ بكسر التاء ـ والقراءتان اللتان عدا قراءة الجمهور شاذتان. واليأس والقنوط: انقطاع الرجاء. و﴿رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ـ بفتح الراء ـ: رحمته وفرجه وتنفيسه؛ أي: إزالته الكرب عن النفس. قال ابن عطية: وكان معنى هذه القراءة: لا تيأسوا من حي معه روح الله الذي وهبه، فإن من بقي روحه يرجى حضوره، ومن هذا قول الشاعر:

وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع

ومن هذا قول عبيد بن الأبرص:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وَكُـلُّ ذِيْ غَـيْـبَـةٍ يَـؤُوْبُ وَغَـائِـبُ ٱلْـمَـوْتِ لَايَـؤُوْبُ

وقال الزمخشري: ﴿من روح الله﴾ - بالضم - أي: من رحمته التي تحيا بها العباد انتهى.

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ﴾ ولا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ورحمته ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله سبحانه وتعالى وبقدرته وسعة رحمته[1]، ويجهلون ما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر، أو جلب خير بخعوا أنفسهم - انتحروا - هماً وحزناً، أما المؤمن حقاً فلا تقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه، يعني: أن المؤمن يصبر عند البلاء، وينتظر الفرج والرحمة، فيسأل به خيراً، ويحمد الله عند الرخاء، والكافر بضد ذلك. ومن ثم قال ابن عباس: إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء، ويحمده في الرخاء. وقرأ أبي شذوذاً: ﴿من رحمة الله﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ فيه حذف واختصار[2]، والتقدير: فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر، فذهبوا كما أمرهم أبوهم ليتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على يوسف عليه السلام ﴿قَالُواْ﴾ ليوسف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: أيا أيها الملك الممتنع القادر الغالب ﴿مَسَّنَا﴾؛ أي: أصاب إيانا ﴿وَأَهْلَنَا﴾؛ أي: وعيالنا وأولادنا وهم من خلفوهم ﴿ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: الفقر والحاجة، والهزال والضعف؛ لما نحن فيه من المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام، وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وغير ذلك مما يرقق القلب، مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه، ليروا تأثير الشكوى فيه، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا، وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه، وقالوا: ﴿وَجِئْنَا﴾ إليك

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾؛ أي: ببضاعة رديئة وأمتعة خسيسة يحتقرها التجار، ويدفعونها احتقاراً لها ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: فأتمه لنا كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك، ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن رداءتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فيخلف ما ينفقون، ويضاعف لهم الأجر. قال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن، بل لتيقنهم كفره على عادة ملوك مصر في ذلك الوقت، فعبروا بهذه العبارة المحتملة. وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يرون من تأثير ذلك في ملامح وجهه، وجرس صوته، ومغالبة دمعه، وقد قيل: كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء، والصدقة محرمة على الأنبياء، وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد ﷺ. وفي هذا الكلام[١] دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة. وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز.

روي[٢]: أن يعقوب أمر بعض أولاده، فكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم، من يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد: فإنّا أهل بيت موكل بنا البلاء؛ أما جدي إبراهيم فإنه ابتلي بنار النمروذ، فصبر وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحاق فابتلي بالذبح، فصبر ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فابتلاني الله بفقد ولدي يوسف فبكيت عليه حتى ذهب بصري، ونحل جسمي، وقد كنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره، وأظهر نفسه لأخوته.

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ يوسف

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

عليه السلام لأخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ أي: هل تذكرون ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ من إلقائه في الجبّ، وبيعه بثمن بخس، وتفريقه عن أبيه ﴿وَ﴾ ما فعلتم بـ﴿أخيه﴾ بنيامين من إدخال الغم عليه بفراق أخيه الشقيق، وما كان يناله من جهتهم من الاحتقار والإهانة حتى كان لا يقدر أن يكلمهم. قال الواحدي: ولم يذكر أباه يعقوب من عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له، ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل؛ ليزيد في درجته عنده؛ أي: ما أعظم ما فعلتم بيوسف وأخيه، فهل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه؟ فهو سؤال عن الملزوم، والمراد لازمه، وهذا استفهام[1] يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف، وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه، وهذا كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت، وهل تعرف من خالفت؟ ولم يرد بهذا نفس الاستفهام، ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه. ويجوز أن يكون المعنى: هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله إياهما من المكروه. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ ظرف لفعلتم؛ أي: فعلتم وقت جهلكم عقبى فعلكم ليوسف من خلاصه من الجب، وولايته السلطنة، وإنما[2] كان كلامه هذا شفقة عليهم، وتنصحاً لهم في الدين، وتحريضاً على التوبة، لا معاتبته وتثريباً إيثاراً لحق الله تعالى على حق نفسه.

روي: أنه لمَّا قرأ كتاب يعقوب بكى وكتب إليه: بسم الله الرحمٰن الرحيم إلى يقعوب إسرائيل الله من ملك مصر أما بعد: أيها الشيخ فقد بلغني كتابك وقرأته، وأحطت به علماً، وذكرت فيه آباءك الصالحين، وذكرت أنهم كانوا أصحاب البلايا، فإنهم إن ابتلوا وصبروا ظفروا، فاصبر كما صبروا والسلام. فلما قرأ يعقوب الكتاب قال: والله ما هذا كتاب الملوك، ولكنه كتاب الأنبياء، ولعل صاحب الكتاب هو يوسف.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

واعلم[١]: أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال صاحب «الكشاف» في تفسير الآية: أتاهم من جهة الدين، وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً على معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فـ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم﴾ أقبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه، فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً إيثاراً لحق الله تعالى على حق نفسه في ذلك المقال الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويستنفي المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسمحها، ولله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها. ا هـ.

وكان سؤاله[٢] إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه هو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية مصدقاً لما أوحاه الله إليه حين ألقوه في غيابة الجبّ من قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. إذ يبعد أن يعرف هذا سواه.

ولما أرادوا أن يثبتوا من ذلك ويستيقنوا به وجهوا إليه سؤالاً هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع وقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ أي: قالوا هل من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه، وهو يعرفهم، ويكتم نفسه، والاستفهام فيه للتقرير.

قرأ ابن كثير وقتادة وابن محيصن[٣]: ﴿إنك﴾ على لفظ الخبر بغير همزة استفهام، والظاهر أنها مرادة، ويبعد حمله على الخبر المحض. وقرأ[٤] نافع: ﴿أينك﴾ - بفتح الألف غير ممدودة وبالياء -. وقرأ أبو عمرو: ﴿آينك﴾ - بمد الألف وبالياء - وهو رواية قالون عن نافع. والباقون: ﴿أإنك﴾ بهمزتين وكل ذلك

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراح.

على الاستفهام؛ لأنهم فهموا من فحوى كلامه عليه السلام، أو من إبصار ثناياه وقت تبسمه عند تكلمه بذلك.

وقال: من قرأ على الخبر إن الأخوة لم يعرفوا يوسف حتى رفع التاج عن رأسه، فرأوا في قرنه علامة تشبه الشامة البيضاء كما كان ليعقوب وإسحاق مثل ذلك، فلما عرفوه بتلك العلامة قالوا ذلك.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام جواباً لهم ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ الذي ظلمتموني غاية الظلم، وقد نصرني الله تعالى فأكرمني وأوصلني إلى أسمى المراتب، أنا ذلك العاجز الذي أردتم قتله بإلقائه في غيابة الجبّ، ثم صرت إلى ما ترون ﴿وَهَـٰذَآ﴾؛ أي: بنيامين ﴿أَخِي﴾؛ أي: شقيقي الذي فرقتم بيني وبينه وظلمتموه، ثم أنعم الله عليه بما تبصرون ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: أنعم الله تعالى علينا، فجمع بيننا بعد الفرقة، وأعزنا بعد الذلة وآنسنا بعد الوحشة، وخلصنا مما ابتلينا به. وقيل: منَّ علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة. وقيل: منَّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا. وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين؛ لأنه أخي لا أخوكم.

قال بعض العلماء[1]: إنما أظهر الاسم في قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ ولم يقل أنا هو تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته له، وما عوضه الله من النصر والظفر والملك، فكأنه قال: أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني، وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجبّ، ثم بعتموني بأبخس الأثمان، ثم صرت إلى ما ترون، فكان تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها. ولهذا قال: ﴿وَهَـٰذَآ أَخِي﴾ وهم يعرفونه؛ لأنه قصد به أيضاً وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني، ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون، وهو قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بكل عز وخير في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿مَن يَتَّقِ﴾ الله سبحانه وتعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على المحن والبلايا والإذاية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُضِيعُ﴾ ولا يبطل ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالتقوى والصبر؛

---

(١) الخازن.

أي: لا يضيع أجرهم، فوضع المحسنين موضع المضمر لاشتماله على المتقين والصابرين. وقيل المعنى: من يتق مولاه ويصبر على بلواه. وقيل: من يتق الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس. وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن.

والمعنى[1]: أن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا، ثم يؤتيه أجره في الآخرة.

وفي الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين لله، وبأن من كان مطيعاً لنفسه الأمارة بالسوء ومتبعاً لنزغات الشيطان.. فإن عاقبته الخزي في الدنيا والنكال في الآخرة إلا من تاب وعمل صالحاً، ثم اهتدى. وقرأ[2] قنبل ابن كثير: ﴿من يتقي﴾ ـ بالياء ـ وصلاً ووقفاً. فقيل: هو مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة، وهذه الياء إشباع وقيل: جزمه بحذف الحركة على لغة من يقول: لم يرمي زيد، وقد حكوا ذلك لغةً، وقيل غير ذلك. وقرأ الباقون بحذفها وصلاً ووقفاً، والإعراب على قراءتهم ظاهر واضح.

تنبيه: فإن قيل: لِمَ لَمْ يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليبشروا أباهم به، وبما هو عليه من حسن حال وبسطة وجاه، فيكون في ذلك السرور كل السرور له؟

فالجواب عن ذلك: ما أجاب به ابن القيم في كتابه «الإغاثة الكبرى» قال رحمه الله تعالى: لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم، ولم يحل ذلك المحل، وهذه سنَّة الله تعالى في الغايات العظيمة الحميدة إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسباباً من المحن والبلايا والمشاق،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ، والبعث والنشور، والموقف والحساب والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول الله ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه، وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، فهو سبحانه وتعالى يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾. وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره، والنار وحفها بالشهوات. اهـ.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال إخوة يوسف له ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى واختارك وفضلك ﴿عَلَيْنَا﴾ بالعلم والحلم والفضل والعقل والملك ﴿وَإِن كُنَّا﴾؛ أي: وإن الشأن والحال كنا في صنيعنا بك وتفريقنا بينك وبين أخيك ﴿لَخَاطِئِينَ﴾؛ أي: لآثمين متعمدين للخطيئة غير متقين الله؛ ولا عذر لنا فيها عند الله، ولا عند الناس، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار. وبعد أن قدموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا ولذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾؛ أي: لا لوم ولا تعنيف ولا تقريع ولا تعيير ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي هو مظنته، ولكن لكم عندي الصفح والعفو، وهو إذا لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره، فبعده أولى. والتثريب[1]: تفعيل من الثرب، وهو الشحم الذي يغشي الكرش، ومعناه: إزالة الثرب، فكأن التعيير والاستقصاء في اللوم يذيب جسم الكريم وثربه لشدته عليه كما في «الكواشي». وقال ابن الشيخ: سمي التقريع تثريباً تشبيهاً له بالتثريب في اشتمال كل منهما على معنى التمزيق، فإن

---

(١) روح البيان.

التقريع يمزق العرض، ويذهب ماء الوجه، و﴿اليوم﴾ منصوب بالتثريب؛ أي: لا تثريب عليكم اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بسائر الأيام؟ والمراد باليوم الزمان مطلقاً كقوله:

الْيَوْمَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَغْبِطُنَا ... وَالْيَوْمَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوْا لَنَا تَبَعَا

كأنه أريد بعد اليوم.

ثم ابتدأ، فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ويعفو ﴿لَكُمْ﴾ عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم، فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم.

وفي «الخازن»(١): وفي محل قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى ما قبله، فيكون التقدير: لا تثريب عليكم اليوم، **والمعنى**: إن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ، وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ويبتدأ بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

والقول الثاني: أن اليوم متعلق بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فعلى هذا يحسن الوقف على قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، ويبتدأ بـ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ بشرهم بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم، فيجازي، محسنهم، ويغفر لمسيئهم؛ لأن(٢) رحمة الراحمين أيضاً برحمته، أو لأن رحمتهم جزء من رحمته تعالى، والمخلوق إذا رحم فكيف الخالق. قال في «بحر العلوم» الذنب للمؤمن سبب للوصلة، والقرب من الله تعالى، فإنه سبب لتوبته، وإقباله على الله تعالى.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾.

وقد تمثل النبي ﷺ بهذه الآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فخرجوا كأنما نشروا من القبور». أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة.

روي[١]: أن يوسف عليه السلام لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره، فعند ذلك أعطاهم قميصه، وقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ الذي على بدني أو بيدي ﴿فَأَلْقُوهُ﴾؛ أي: فألقوا هذا القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ حين وصولكم إليه دون تأخير ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ أي: يصير بصيراً على أن (يأت) هي التي من أخوات (كان)، قال الفراء: يرجع بصيراً. وقال السدي: يعد بصيراً، وقيل: معناه يأت إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى. وقد علم هذا؛ إما بوحي من الله تعالى، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما إصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس، فإذا ألقي عليه قميصه شرح صدره، وسر أعظم السرور، وقوي بصره، وزالت عنه هذه الغشاوة التي رانت عليه، والقوانين الطبية تؤيد هذا كما سيأتي بعد. ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الرجال والنساء والذراري وغيرهم. وقد روي أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامرأة وولداً. فإن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد، وبالعبيد والإماء، وبالأقارب وبالأصحاب وبالمجموع.

روي[٢] أن يهوذا حمل القميص، وقال: أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، فحمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان، ومعه سبعة

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. قيل[1]: هذا القميص هو القميص الذي ألبسه الله إبراهيم لما ألقي في النار، وكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيبه وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره؛ لأن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي، ولا مبتلى إلا عوفي.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾؛ أي: ولما انفصلت عير بني يعقوب عن حدود مصر، وخرجت منها قافلة إلى أرض الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ يعقوب عليه السلام لمن حضره من حفدته ومن غيرهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾؛ أي: لأشم رائحة يوسف كما عرفتها في صغره. وفي «التبيان» هاجت الريح، فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخاً، واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص انتهى. وهذا موافق لما سبق من أنه كان في القميص ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفي، فالخاصية في ريح الجنة لا في ريح يوسف كما ذهب إليه «البيضاوي». وأما الإضافة في قوله: ﴿رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ فللملابسة كما لا يخفى ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: لولا أن تنسبوني إلى الفند، وهو الخرف ونقصان العقل وفساد الرأي من هرم. وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف تقديره: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني فيما أقول لكم، فوجد ريحه من ثمانية أيام. وفي رواية من ثمانين فرسخاً، والمراد: من مسافات بعيدة جداً. والفند[2]: وهو نقصان العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة؛ إذ لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها؛ أي: نقصان عقلها ذاتي لا حادث من عارض الهرم.

واعلم: أن الخرف لا يطرأ على الأنبياء والورثة؛ لأنه نوع من الجنون الذي هو من النقائص، وهم مبرأون مما يشين بهم من الآفات.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال حاضروا مجلسه ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾؛ أي: لفي خطئك ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: الذي طال أمده باعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه، وقد قرب ولا غرو فللخلي أن يقول في الشجي ما شاء، فأذنه عن العذَّل صماء:

سَلْوَتِيْ عَنْكُمُ ٱحْتِمَالٌ بَعِيْدٌ   وَٱفْتِضَاحِيْ بِكُمْ ضَلَالٌ قَدِيْمُ
كُلُّ مَنْ يَدَّعِيْ ٱلْمَحَبَّةَ فِيْكُمْ   ثُمَّ يَخْشَىٰ ٱلْمَلَامَ فَهُوَ مُلِيْمُ

قال قتادة في تفسيرها[1]: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: من حب يوسف لا تنساه ولا تسلوه. ا هـ.

قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها له.

و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ صلة؛ أي: زائدة لتأكيد[2] الفعلين واتصالهما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان من غير فاصل وقت؛ أي: فلما جاء البشير وهو ابنه يهوذا الذي يحمل القميص من يوسف، وهو الذي حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب ليمحو السيئة بالحسنة ﴿أَلْقَىٰهُ﴾؛ أي: ألقى البشير القميص وطرحه ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ يعقوب؛ أي: عاد ورجع يعقوب من فوره ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: ذا بصر كما كان قبل فراق يوسف. والارتداد: انقلاب الشيء إلى حال كان عليها، وهو من الأفعال الناقصة؛ أي: عاد ورجع بصيراً بعدما كان قد عمي، ورجعت قوته وسروره بعد الضعف والحزن، بل قد قيل: إنه عادت إليه سائر قواه، وليس ذلك بعجيب ولا منكر، فكثيراً ما شفى السرور من الأمراض، وجدد قوى الأبدان والأرواح، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك، وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما يقول، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا بني حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتجسس، ونهيتكم عن اليأس من روح الله: ـ والاستفهام فيه تقريري ـ ﴿إِنِّىٓ

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿أَعۡلَمُ﴾ بالوحي ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا بالخطرات من الأوهام ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وإنزال الفرج، وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيراً بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم. وروي[١] أنه سأل البشير كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك؟ قال: على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

نبذة في تعليل شم يعقوب رائحة يوسف[٢]

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى، فتحمله من إفريقية مثلاً إلى أوروبا، وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام، وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منهما شماً. فالكلب ذو حاسة قوية في الشم حتى ليدربه الآن رجال الشرطة، ويستخدمونه في حوادث الإجرام من قتل وسرقة، لإثبات التهمة على المجرمين، فيأتون بالكلب المعلم، فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه، بل دليلاً قاطعاً في بعض الدول.

والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب، لا من السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر. وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، فعلينا أن نؤمن به؛ لأنه معصوم من الكذب، وقد تبين صدقه بعد. وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه، أو نصل إلى معرفة سببه، ولكن إذا نحن قلنا: إنه لشدة تفكره في أمر ولده، وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه شعر

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى. . لم يكن ذلك مجانباً للصواب ولا معارضاً للعقل، ولا ناقضاً لما يثبته العلم، أو قلنا: بأن نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك. . لا نبعد عن العقل، ولا عن العلم؛ إذ لا خلاف بين العلماء في أن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه. وعلى الجملة فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته ما دام ذلك داخلاً في حيز الإمكان.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا﴾ مرتب على محذوف تقديره: ولما رجع أولاد يعقوب من مصر، ووصلوا إلى أبيهم إثر مجيء البشير قالوا يا أبانا: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾؛ أي: اسأل الله سبحانه وتعالى، واطلب منه أن يغفر لنا ذنوبنا التي اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله، ظانين أن نكون بعدها قوماً صالحين، الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه.

وإنما سألوه المغفرة[1]؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لا يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله. قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله، أو غير ذلك ظالماً له، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها، والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري» وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء. . فليحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه».

---

(١) القرطبي.

﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾؛ أي: في مستقبل الزمان أطلب لكم من ربي مغفرة ذنوبكم، وعدهم بالاستغفار لهم في مستأنف الزمان، وعلل هذا بـ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: بأن ربه واسع المغفرة والرحمة لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء. قال الزجاج[1]: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار. وقيل: أخره إلى ليلة الجمعة، وقيل: أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله كما مر آنفاً.

وعن الشعبي[2]: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قال: أسأل يوسف، إن عفا عنكم أستغفر لكم ربي، فإن عفو المظلوم شرط المغفرة، فأخر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف، فلما قدموا عليه في مصر قام إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة، وكانت ليلة عشوراء، فلما فرغ رفع يديه، وقال: اللهم اغفر جزعي على يوسف، وقلة صبري منه، واغفر لأولادي ما أتوا به أخاهم، وقام يوسف خلفه يؤمِّن، وقام إخوته خلفهما أذلة خاشعين، فأوحى الله تعالى إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين، ثم لم يزل يدعو لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة إلى أن حضرت الوفاة.

وقال في «روح البيان»: سوف وعسى ولعل في وعد الأكابر والعظماء يدل على صدق الأمر وجده، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وترك استعجالهم، فعلى ذلك جرى وعد يعقوب كأنه قال: إني أستغفر لكم ربي لا محالة، وإن تأخر كما في «بحر العلوم».

فائدة: والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

١ ـ أن حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب، لا حال المنتقم

---

(١) الشوكاني.　　　(٢) روح البيان.

الذي يخشى أذاه، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم.

٢ ـ أن ذنبهم لم يكن موجهاً إليه مباشرة، بل موجه إلى يوسف وأخيه، ثم إليه بالتبع واللزوم إلا أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره.

٣ ـ أن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية، وأعمال كان لها خطرها، فلا يمحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التي علقت بالأنفس والأرجاس التي باضت وفرخت فيها. فلا يحسن بعدئذ من المربي الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه، حتى كأنها من هينات الأمورالتي تغفر ببادرة من الندم، ومن ثم تلبث في الاستغفار لهم إلى أجل، ليعلمهم عظيم جرمهم، ويعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه، ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته.

٤ ـ أن حال يوسف معهم كان حال القادر، بل المالك القادر مع مسيء ضعيف لديه عظم جرمه عليه، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلاً للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة. وفي هذا من ضروب التربية أكبر العظة، ولو أخر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم، ولخافوا شر الانتقام، فكانوا في قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس، فكان توجسهم له عذاباً فوق العذاب الذي هم فيه، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاماً، والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك، وهو العليم الحكيم.

تأويل رؤيا يوسف من قبل

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في محل ضرب فيه يوسف خيامه حين خرج من مصر لتلقي أبيه ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ يوسف وضم ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾؛ أي: أباه وخالته

وأعتنقهما، فإن أمه ماتت في نفاس أخيه بنيامين، فمعنى بنيامين بالعبراية ابن الوجع؛ لأن يامين معناه الوجع، ولما ماتت أمه راحيل.. تزوج أبوه بخالته ليا والرابة، وهي موطوؤة الأب، تدعى أماً؛ لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب. وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لا تزال حية، ورجحه ابن جرير، وخالفه أكثر المفسرين كما بينا. وفيه حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام، وتقدير المعنى: فبعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف في مصر، وأنه الحاكم المفوض المستقل في أمرها.. أبلغوه أن يدعوهم كلهم للإقامة معه في مصر والتمتع بحضارتها، فرحلوا حتى بلغوها، ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم في الطريق في جمع حافل احتفاء بهم.. ضم إليه أبويه واعتنقهما.

روي[1]: أن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً كثيراً ومئتي راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فتوجه مع أولاده وأهاليهم إلى مصر على رواحلهم، فلما قربوا من مصر أخبر بذلك يوسف، فاستقبله يوسف والملك الريان ـ في أربعة آلاف من الجند، أو ثلاث مئة ألف فارس ـ والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، ومع كل واحد من الفرسان جنة من فضة وراية من ذهب، فتزينت الصحراء بهم واصطفُّوا صفوفاً، وكان الكل غلمان يوسف ومراكبه، ولما صعد يعقوب تلاً ومعه أولاده وحفدته؛ أي: أولاد أولاده ونظر إلى الصحراء مملوءة من الفرسان مزينة بالألوان نظر إليهم متعجباً، فقال له جبريل: انظر إلى الهواء، فإن الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم كما كانوا محزونين مدة لأجلك، ثم نظر يعقوب إلى الفرسان، فقال: أيهم ولدي يوسف؟ فقال جبريل: هو ذاك الذي فوق رأسه ظلة، فلم يتمالك أن أوقع نفسه من البعير، فجعل يمشي متوكئاً على يهوذا، فقال جبريل: يا يوسف إن أباك يعقوب قد نزل لك، فانزل له، فنزل من فرسه وجعل كل واحد منهما يعدو إلى الآخر، فلما تقاربا قصد يوسف أن يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب به؛ لأنه أفضل وأحق، فابتدأ به

(١) روح البيان.

وقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان، فتعانقا وبكيا سروراً وبكت ملائكة السموات وماج الفرسان بعضهم في بعض، وصهلت الخيول وسبَّحت الملائكة، وضرب بالطبول والبوقات، فصار كأنه يوم القيامة قال يوسف: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن يسلب دينك، فيحال بيني وبينك، نسأل الله الثبات على الإيمان إنه الكريم المنان - آمين -.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف لجميع أهله قبل أن يدخلوا مصر: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ للإقامة بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى دخولكم حالة كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الجوع والخوف وسائر المكاره قاطبة على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً؛ لأنهم كانوا قبل ولاية يوسف يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بإجازتهم لكونهم جبابرة. قيل[1]: المراد بالدخول الأول في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أرض مصر، وذلك حين استقبلهم، ثم قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ يعني البلد. وقيل: إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر، وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها؛ أي: ادخلوا مصر مستوطنين فيها.

والمشيئة في قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ متعلقة بالدخول والأمن معاً كقولك للغازي: إرجع سالماً غانماً إن شاء الله، فالمشيئة متعلقة بالسلامة والغنم معاً. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله تعالى.

والمعنى: أي[2] وقال لهم يوسف: ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله تعالى آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك، فإن سني القحط كانت لا تزال باقية، وذكر المشيئة في كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخر ذلك لهم، وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم. وهذا من شأن المؤمنين، ولا سيما الأنبياء والصديقون.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ عند نزولهم بمصر، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا منها مع موسى عليه السلام ست مئة ألف وخمس مئة وبضعاً وتسعين، أو سبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف. ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: على السرير الرفيع الذي كان يجلس عليه يوسف؛ أي: أجلسهما معه على سرير الملك تكرمة لهما فوق ما فعله لإخوته، واشتركوا في دخول دار يوسف، لكنهم تباينوا في الإيواء، فانفرد الأبوان بالجلوس معه على سرير الملك، لبعدهما من الجفاء، كذا غداً إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه في دخول الجنة، ولكنهم يتباينون في بساط القربة، فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء. ﴿وَخَرُّواْ﴾؛ أي: سقط أبوا يوسف وإخوته على الأرض ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لأجل ملاقاة يوسف واجتماعهم معه ﴿سُجَّدٗا﴾؛ أي: حالة كونهم مقدرين السجود بوضع الجبهة شكراً لله تعالى على نعمة الاجتماع معه، وكان يوسف كالقبلة لهم كما سجدت الملائكة لآدم، فإن الله تعالى أمر يعقوب بالسجود لحكمة خفية، وذلك لإزالة الاستعلاء والتكبر عن قلوب إخوته، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك السجود؛ لظهرت الأحقاد القديمة بعد كمونها، فالسجود لإزالتها، وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان.

فلما جاءت هذه الشريعة نسخت تلك الفعلة، فقوله: ﴿سُجَّدٗا﴾ حال مقدرة كما أشرنا إليه في الحال؛ لأن السجود إنما يكون بعد الخرور.

وقيل: المراد بالسجود هنا: الانحناء لا وضع الجبهة على الأرض، والمعنى: أهوى أبوا يوسف وإخوته عن القيام والانتصاب تحية وتكرمة له حالة كونهم سجداً؛ أي: منحنين بظهورهم، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء في عهدهم كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الناشئة في التعظيم والتوقير.

والرفع في قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ مؤخر عن الخرور في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾؛ إذ السجود له كان قبل الصعود على السرير في أول الملاقاة؛ لأن ذلك هو وقت التحية إلا أنه قدم لفظاً؛ للاهتمام بتعظيمه لهما، والترتيب الذكري لا يجب كونه

على وفق الترتيب الوقوعي، وليصل به ذكر كونه تعبير رؤياه ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبيه يعقوب: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي ﴿هَٰذَا﴾ السجود منكم ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾؛ أي: تصديق منامي التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الوقت في زمن الصبا يريد قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾. ﴿قَدْ جَعَلَهَا﴾؛ أي: قد جعل تلك الرؤية ﴿رَبِّي حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً في اليقظة واقعاً بعينها؛ أي: قد جعلها ربي حقيقة واقعة، واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الأحد عشر، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر، ولا بدع في ذلك. فهذه الأسرة هي التي حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنشر دين التوحيد بين العالمين، فكانت خير أسر البشر جميعاً. قال سلمان: كان بين رؤياه وتأويلها أربعون عاماً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ ربي وأكرمني وأنعم علي ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ والحبس، وسما بي إلى عرش الملك، إنما ذكر إخراجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجبّ؛ لئلا تخجل إخوته، ولأن خروجه من السجن كان سبباً لصيرورته ملكاً، ولوصوله إلى أبيه وإخوته، ولزوال التهمة عنه، وكان ذلك من أعظم نعمه تعالى عليه، ولأن عهده بالسجن أقرب من الجبّ.

فائدة: قال لقمان الحكيم رضي الله عنه: خدمت أربعة آلاف نبي، وأخترت من كلامهم ثماني كلمات: إن كنت في الصلاة.. فاحفظ قلبك، وإن كنت في بيت الغير.. فاحفظ عينيك، وإن كنت بين الناس.. فاحفظ لسانك، واذكر اثنين وانس اثنين، أما اللذان تذكرهما فالله والموت، وأما اللذان تنساهما إحسانك في حق الغير وإساءة الغير في حقك. ذكره في «روح البيان».

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾؛ أي: من البادية، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية، فسكنوا البادية، وهي أرض كنعان بالشام. وقال علي بن طلحة؛ أي: من فلسطين. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وأفسد ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ بالحسد، وحمل بعضنا على بعض، وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدباً؛ أي: وقد أحسن بي ربي من بعد أن أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي من عاطفة

الأخوة، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم، وهيج الحسد والشر ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَطِيفٌ﴾؛ أي: عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده مدبر ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ في خلقه من خفايا الأمور بحكمته البالغة، وقدرته القاهرة، وقيل: معناه: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور رفيق، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى حصول شيء.. سهل أسبابه فحصل، وإن كان في غاية البعد عن الحصول عند العقول.. فمن ذا الذي كان يدور بخلده أن الإلقاء في الجبّ يعقبه الرق، ويتلو الرق فتنة العشق، ومن أجله يزج في غيابات السجن، ومن ذا إلى السيادة والملك. وقال الأزهري: اللطيف من أسماء الله تعالى معناه: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف إذا رفق به. وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك أربك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور. ذكره الشوكاني. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، فلا تخفى عليه مبادىء الأمور وغايتها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة، فيجازي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجعل العاقبة للمتقين.

الإعراب

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم والله، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿تَفْتَؤُا۟﴾: فعل مضارع ناقص من أخوات زال منفي بلا المحذوفة؛ لأن جواب القسم الخالي من اللام ونون التوكيد.. يجب كونه منفياً، فلا بدّ من تقدير لا معه، واسمه ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت يعود على يعقوب. ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَفْتَؤُا۟﴾، وجملة ﴿تَفْتَؤُا۟﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب

بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، واسمه ضمير يعود على يعقوب. ﴿حَرَضًا﴾: خبره. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾: فعل ناقص وخبره معطوف على ﴿تَكُونَ﴾ الأولى، واسمه ضمير يعود على يعقوب أيضاً، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ الأولى، صلة أن المضرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى كونك حرضاً، أو كونك من الهالكين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَذْكُرُ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾: فعل ومفعول. ﴿وَحُزْنِيٓ﴾: معطوف على ﴿بَثِّي﴾، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشْكُواْ﴾. ﴿وَأَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿أعلم﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة ﴿أعلم﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَشْكُواْ﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿بني﴾: منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء المدغمة في ياء المتكلم؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، لأن أصله: يا بنين لي، حذفت النون للإضافة، واللام للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱذْهَبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿تحسسوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱذْهَبُواْ﴾. ﴿مِن يُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿وَأَخِيهِ﴾: معطوف

على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية معطوف على قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾. ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ﴾: فعل مضارع مرفوع. ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوق لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فخرجوا من عند أبيهم، فذهبوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف. ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿مَسَّنَا﴾: فعل ومفعول. ﴿وَأَهْلَنَا﴾: معطوف على ضمير المفعول. ﴿ٱلضُّرُّ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَجِئْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَسَّنَا﴾. ﴿بِبِضَٰعَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جئنا﴾. ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾: صفة لـ﴿بضاعة﴾. ﴿فَأَوْفِ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أوف﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لَنَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَجِئْنَا﴾. ﴿وَتَصَدَّقْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿أوف﴾، وفاعليه ضمير يعود على يوسف. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التوبيخي. ﴿عَلِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿فَعَلْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِيُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿وَأَخِيهِ﴾: معطوف على ﴿يوسف﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما فعلتموه. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والظرف متعلق بـ﴿فَعَلْتُم﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أَءِنَّكَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَنتَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أنت يوسف﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، ويجوز أن يكون ﴿أنت﴾: ضمير فصل، ولا يجوز أن يكون توكيداً لاسم ﴿إن﴾؛ لأن هذه اللام لا تدخل على التوكيد. ا هـ. «سمين»، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة قوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾. ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿يَتَّقِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على

كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾: معطوف عليه. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط بين جملة الشرط وبين جوابها؛ إما العموم في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وإما الضمير المحذوف؛ أي: المحسنين منهم، وإما لقيام أل مقامه، والأصل محسنهم، فقامت أل مقام ذلك الضمير، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وهذا الإعراب على قراءة الجمهور في ﴿يَتَّقِ﴾. وأما قراءة قنبل فاختلف الناس فيها على قولين:

أجودهما: أن إثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب.

والثاني: أنه مرفوع غير مجزوم، و﴿مَن﴾ موصولة، والفعل صلتها، فلذلك لم تحذف لامه. ا هـ. «سمين»، وحذفت الضمة في ﴿يصبر﴾ على هذه القراءة فراراً من ثقل توالي الحركات، أو نوى الوقف عليه وأجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم والله، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿لَقَدۡ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب القسم. ﴿وَإِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جواب القسم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَثْرِيبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: خبر ﴿لَا﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: خبر ثان لها، أو متعلق باسم ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِقَمِيصِى﴾: متعلق به على أنه مفعول به، أو حال من واو ﴿اذهبوا﴾. ﴿هَٰذَا﴾: بدل من ﴿قميصي﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَلْقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱذْهَبُوا۟﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ألقوه﴾. ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿بَصِيرًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأْتُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية معطوف على ﴿ألقوه﴾. ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾: متعلق به أو حال من واو الفاعل. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ﴿أهلكم﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿لَأَجِدُ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿أجد ريح يوسف﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على أبيهم، وجملة وجد في

محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُفَنِّدُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأن أصله: تفندونني، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: لولا تفنيدكم موجود، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف تقديره: لولا تفنيدكم لي موجود لصدقتموني؛ أي: امتنع تصديقكم لي لوجود تفنيدكم لي، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿في ضلالك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾. ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلِكَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب القسم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: (الفاء): استئنافية. ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿أَن﴾: زائدة. ﴿جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿أَلْقَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة. ﴿فَٱرْتَدَّ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿ارتد﴾: فعل ماضٍ ناقص من أخوات صار، واسمه ضمير يعودعلى يعقوب. ﴿بَصِيرًا﴾: خبره، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَلْقَىٰهُ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿أَقُل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود

على يعقوب. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي. لـ﴿أَقُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿أَقُل﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما لا تعلمونه.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾: منادى منصوب بالألف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿لَنَا﴾: متعلق به ﴿ذُنُوبَنَآ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه وخبره، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلها.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبِّيٓ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره: فرحل يعقوب وأولاده إلى

مصر. ﴿فلما دخلوا﴾: ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: متعلق به. ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿أَبَوَيۡهِ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِصۡرَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن شاء الله ادخلوا مصر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

﴿وَرَفَعَ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿رفع أبويه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿وَخَرُّواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به. ﴿سُجَّدٗاۖ﴾: حال مقدرة من فاعل ﴿وَخَرُّواْ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاوَىٰٓ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿يُوسُفَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خروا﴾. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿مِن قَبۡلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رُءۡيَٰيَ﴾. ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل ومفعول ثان؛ لأن جعل هنا بمعنى صير، والجملة في محل النصب حال مقدرة من ﴿رُءۡيَٰيَ﴾.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَقَدۡ﴾ (الواو): حالية، أو عاطفة. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَحۡسَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الرب. ﴿بِيٓ﴾: جار ومجرور بمعنى إليّ متعلق بـ﴿أَحۡسَنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رَبِّي﴾، أو معطوفة على جواب النداء. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿أَحۡسَنَ﴾. ﴿أَخۡرَجَنِي﴾: فعل ومفعول ونون وقاية. ﴿مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾. ﴿وَجَآءَ﴾: فعل ماضٍ معطوف على ﴿أَخۡرَجَنِي﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله. ﴿أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. ﴿بَيۡنِي﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَّزَغَ﴾. ﴿وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على الظرف قبله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لَطِيفٞ﴾؛ لأنه بمعنى مدبر. ﴿يَشَآءُۚ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: لما يشاءه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾[1] مضارع فتىء من أخوات كان الناقص، قال أوس بن حجر:

فَمَا فَتِئَتْ حَتَّىٰ كَأَنَّ غُبَارَهَا ... سُرَادِقُ يَوْمٍ ذِيْ رِيَاحٍ تُرْفَعُ

وقال أيضاً:

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوْبُ وَتَدَّعِي ... وَيَلْحَقُ مِنْهَا لاَحِقٌ وَتَقَطَّعُ

(١) البحر المحيط.

ويقال فيها: فتأ على وزن ضرب، وأفتأ على وزن أكرم، وزعم ابن مالك أنها تكون بمعنى سكن وأطفأ، فتكون تامة، ورددنا عليه ذلك في «شرح التسهيل». ذكره أبو حيان، فتفتأ هنا بمعنى لا تزال.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ والحرض[1]: المشفي على الهلاك: يقال: حرض فهو حرض ـ بكسر الراء ـ حرضاً ـ بفتحها ـ وهو المصدر، ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع، وأحرضه المرض فهو محرض.

قال الشاعر:

أَرَىٰ ٱلْمَرْءَ كَٱلْأَزْوَادِ يُصْبِحُ مُحْرَضَاً ... كَإِحْرَاضِ بَكْرٍ فِيْ ٱلدِّيَارِ مَرِيْضُ

ويقال: رجل حُرُض ـ بضمتين ـ كجنب وشلل. وفي «المصباح»: حرض حرضاً ـ من باب تعب ـ أشرف على الهلاك، فهو حرض. اهـ. وقولهم: يستوي فيه المفرد وغيره؛ أي: المثنى والمجموع والمذكر والمؤنث، تقول: هو حرض وهما حرض وهم حرض وهي حرض. اهـ. «كرخي». وفي «الشوكاني»: الحَرَض ـ بفتحتين ـ مصدر يستوي فيه المفرد وغيره، والصفة المشبهة حَرِض ـ بكسر الراء ـ كدنف ودنف. قال النحاس: وحكى أهل اللغة: أحرضه الهم إذا أسقمه، ورجل حارض؛ أي: أحمق. وقال الأخفش: الحارض الذاهب. وقال ابن الأنباري: هو الهالك. والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون لقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ معنى غير معنى الحرض، فالتأسيس أولى من التأكيد، ومعنى ﴿مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين. اهـ.

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ﴾ البث في[2] الأصل: إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب، ثم استعمل في إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم والشر. والبث[3]: ما يرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثثته؛ أي: فرقته، فسميت

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

المصيبة بثاً مجازاً.

قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ عَلَىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ يَا فَتَىٰ ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيْهِ حَتَّىٰ كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِيْ أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾؛ أي: تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر. والتحسس[1]: طلب الخبر بالحاسة، وهو قريب من التجسس ـ بالجيم ـ، وقيل: إن التحسس ـ بالحاء ـ يكون في الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. قال الأصمعي: الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء، فيسكن إليه، والتركيب يدل على الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتف به، فهو روح. وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال: الروح الاستراحة من غم القلب. وقال أبو عمرو: الروح الفرج، وقيل: الرحمة، ويقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب.

﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ البضاعة: هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته إذا جعلته بضاعة. وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال[2]:

أحدها: كانت دراهم.

والثاني: كانت متاعاً رثاً كالحبل والغرارة.

والثالث: كانت أقطا.

والرابع: كانت نعالاً وأدماً.

---

(١) الفتوحات. (٢) زاد المسير.

والخامس: كانت سويق المقل.

والسادس: كانت حبة الخضراء وصنوبراً.

والسابع: كانت صوفاً وشيئاً من سمن.

﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾؛ أي: مردودة يردها كل بائع على المشتري لردائتها. وفي «القاموس»: زجاه إذا ساقه ودفعه كزجاة وأزجاه، وبضاعة مزجاة: قليلة، أو لا يتم صلاحها. ا هـ. وفي «المصباح»: زجيته بالتثقيل دفعته برفق، والريح تزجي السحاب: تسوقه رفيقاً، يقال: أزجاه بوزن أرضاه، وزجاه بالتثقيل كزكّاه. ا هـ.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ جمع خاطىء، والخاطىء: هو الذي يأتي بالخطيئة عمداً، والمخطىء من إذا أراد الصواب صار إلى غيره، والخطء: الذنب، وخطأته: قلت له: أخطأت. وفي «الخازن»: يقال: خطىء إذا كان عن عمد، وأخطأ إذا لم يكن عن عمد، ولهذا قيل هنا: خاطئين، ولم يقل: مخطئين. ا هـ.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا تعيير ولا توبيخ؛ أي: لا أوبخكم ولا أقرعكم اليوم. ا هـ. «خازن». وفي «المصباح»: ثرب عليه يثرب ـ من باب ضرب ـ؛ إذا عتب ولام عليه، وبمضارعه الذي بياء الغيبة سمي رجل من العمالقة وهو الذي بنى مدينة الرسول ﷺ، فسميت المدينة باسمه. قال السهيلي: وَثرَّب ـ بالتشديد ـ مبالغة وتكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾. والثَّرْبُ ـ وزان قلس ـ شحم رقيق على الكرش والأمعاء. ا هـ. وفي «المختار»: عتب عليه وجد، وبابه ضرب ونصر. ا هـ.وقال الرازي: التثريب التعيير والاستقصاء في اللوم، والمعنى: أي: لا تعداد للذنوب ولا توبيخ عليكم، يقال: ثرب فلان على فلان إذا بكته بفعله، وعدد عليه ذنوبه. ا هـ. «كرخي».

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ يقال: فصل عن البلد إذا انفصل وجاوز حيطانه ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: تنسبوني إلى الفند، وهو فساد الرأي وضعف العقل والخرف من الكبر. وفي «السمين»: التفنيد الإفساد يقال: فندت فلاناً؛ أي: أفسدت رأيه ورددته. وفي «المختار»: الفَنَد ـ بالتحريك الكذب وهو أيضاً ضعفُ الرأي من

الهرم، والفعل منه أفند، والتفنيد: اللوم وتضعيف الرأي. ا هـ. وفي «القاموس»: الفَنَد ـ بالتحريك ـ الخرف وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول والرأي، والكذب كالإفناد، ولا تقل: عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن ذات رأي أبداً، وفنده تفنيداً كذبه وعجزه، وخطأ رأيه كأفنده. ا هـ. وقال في «الكشاف»: التفنيد النسبة إلى الفند؛ وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي، فتفند في كبرها؛ لأن نقصان عقلها ذاتي لا حادث من عارض الهرم كما مر.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾؛ أي: ضمهما إليه واعتنقهما أصله: أأوى من باب أفعل الرباعي، فقلبت الهمزة الثانية ألفاً، فصار أوى. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: أصعدهما عليه، والعرش، كرسي تدبير الملك، لا كل سرير يجلس عليه الملك. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾؛ أي: أهوى أبواه وإخوته إلى الأرض، وسقطوا له ساجدين.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾؛ أي: من البادية، والبدو: هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني: يظهر، والبدو خلاف الحضر، والبادية خلاف الحاضرة، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية، فسكنوا البادية. ا هـ. «خازن». وفي «القرطبي»: وقيل: كان يعقوب تحول إلى البادية وسكنها، وإن الله تعالى لم يبعث نبياً من أهل البادية. ا هـ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾. ﴿أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في «المختار»: نزغ الشيطان بين القوم: أفسد، وبابه قطع. ا هـ. وفي «الخازن»: وأصل النزغ: الدخول في أمر لإفساده. ا هـ.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ وفي «البيضاوي»: لطيف لما يشاء؛ أي: من أحوال خلقه؛ أي: لطيف التدبير له؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته، ويتسهل دونها. ا هـ. يعني: إن اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور المدبر لها والمسهل لصعابها، ولنفوذ مشيئته إذا أراد شيئاً سهل أسبابه، فيطلق عليه اللطيف؛ لأن ما يلطف يسهل نفوذه. ا هـ. «شهاب».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة، وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ لأنه في تقدير: لا تفتأ وهو من قبيل التورية كما في «الصاوي».

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، وفيه أيضاً الإظهار في مقام الإضمار؛ لأن حق العبارة: إنه لا ييأس منه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ استعير الروح؛ وهو تنسيم الريح الذي يلذ شميمها، ويطيب نسيمها للفرج الذي يأتي بعد الكربة واليسر الذي يأتي بعد الشدة.

ومنها: وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ حق العبارة: إن الله يجزيك، عدلوا إلى الظاهر لشكهم في إيمانه، فعبروا بهذه العبارة المحتملة.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿تصدق﴾ و﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ والاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

ومنها: الإتيان بالاسم الظاهر بدل الضمير في قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ لم يقل: أنا هو، بل عدل إلى هذ الظاهر تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته، وما عوضه الله من النصر والظفر والملك، فكأنه قال: أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وحق العبارة: فإن الله لا يضيع أجرهم.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وبإن وباللام وبإسمية الجملة، وهذا الضرب من الخبر يسمى إنكارياً لتتابع أنواع المؤكدات.

ومنها: الاعتراض بالجملة الشرطية بين الحال وصاحبها في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾لغرض التبرك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والأصل: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأن المراد بهما الأب والأم، فهو من باب التغليب.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ
وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا أتمّ الله(١) سبحانه نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم.. تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته وبسط له من الدنيا ما بسط من الكرامة، ومكن له في الأرض: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾؛ أي:(٢) أعطيتني بعض الملك؛ أي: بعضاً منه عظيماً، وهو ملك مصر، إذ لم يكن له ملك كل الدنيا، وجعلتني متصرفاً فيها بالفعل، وإن كان لغيري بالاسم، ولم يكن لي فيها حاسد ولا باغٍ؛

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد والملك. ضابطها هي عبارة[1] عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير.

روي[2]: أن يعقوب أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج، فوافق يوم وفاة عيص، فدفنا في قبر واحد، وكانا ولدا في بطن واحد، وكان عمرهما مئة وسبعاً وأربعين كما في تفسير أبي الليث، فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان عمره مئة وعشرين سنة، فلما جمع الله شمله وانتظمت أسبابه، واطردت أحواله، ورأى أمره على الكمال.. علم أنه أشرف على الزوال، وأن نعيم الدنيا لا يدوم على كل حال، قال قائلهم:

إِذَا تَــمَّ أَمْــرٌ دَنَــا نَــقْــصُــهُ تَــوَقَّــعْ زَوَالاً إِذَا قِــيْــلَ تَــمّ

فسأل الله تعالى الموت على الإسلام وحسن العاقبة، والخاتمة الصالحة، فقال: يا رب قد أعطيتني ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: بعضاً من تعبير الرؤيا؛ لأنه لم يؤت جميع علم التأويل على التفصيل؛ سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا. وقيل: ﴿مِنَ﴾[3] للجنس كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾. وقيل: زائدة؛ أي: آتيتني الملك، وعلمتني تأويل الأحاديث؛ أي: ويا رب قد علمتني ما أعبر عن مآل الحوادث ومصداق الرؤيا الصحيحة، فتقع كما قلت وأخبرت.

قال ابن الكمال[4]: الأحاديث مبني على واحده المستعمل، وهو الحديث كأنهم جمعوا حديثاً على أحدثة، ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع. والمراد بالأحاديث: الرؤى جمع الرؤيا، وتأويلها بيان ما تؤول هي إليه في الخارج، وعلم التعبير من العلوم الجليلة، لكنه ليس من لوازم النبوة والولاية، فقد يعطيه الله تعالى بعض خواصه على التفصيل، وبعضهم على الإجمال. ﴿فَاطِرَ

---

(1) الخازن.
(2) روح البيان.
(3) الشوكاني.
(4) روح البيان.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يا خالق السموات والأرض وموجدهما ومبدعهما على غير مثال سبق، وأصل الفطر: الشق، يقال: فطر ناب البعير، إذا شق وظهر، وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه كما سيأتي في مبحث التصريف. ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾؛ أي: أنت متولي أموري ومصلح جميع مهماتي، أو ناصري على من عاداني وأرادني بسوء، أو أنت سيدي وأنا عبدك، وإن نعمك لتغمرني وتشملني ﴿في الدنيا و﴾ سأتمتع بها بفضلك ورحمتك في ﴿الآخرة﴾ ولا حول لي في شيءٍ منهما ولا قوة ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾؛ أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، واقبضني إليك مسلماً؛ لأنه من إتمام النعمة، وأتم لي وصية آبائي وأجدادي ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾. واختلف العلماء[1]: هل هو طلب الوفاة في الحال، أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه سأل الله الوفاة في الحال. قال قتادة: لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف. قال أصحاب هذا القول: إنه لم يأت عليه أسبوع بعد هذا الدعاء حتى توفاه الله.

والقول الثاني ـ وعليه الجماهير ـ: أنه سأل الوفاة على الإسلام، ولم يتمن الموت في الحال. قال الحسن: إنه عاش بعد هذه الدعوة سنين كثيرة. وعلى هذا القول يكون معنى الآية: توفني إذا توفيتني على الإسلام، فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام، وليس في اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال. قال بعض العلماء: وكلا القولين محتمل؛ لأن اللفظ صالح للأمرين، ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب، وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال. ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾ يا رب ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بآبائي المرسلين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك في النعمة والكرامة، فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ

---

(١) الخازن.

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فإن قلت:[1] كيف قال يوسف ذلك مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا مسلماً؟.

فالجواب: إما أنه حصل له حالة غلب عليه الخوف فيها، فذهل عن ذلك العلم، أو أنه دعا بذلك مع علمه إظهاراً للعبودية، والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة، وتعليماً لغيره، وهذه حالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر، والمطلوب ههنا هو الإسلام بهذا المعنى. ا هـ. «كرخي».

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نبأ يوسف يا محمد ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: من الأخبار التي غاب عنك علمها ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ على لسان جبريل، وهو خبر ثان لقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي: عند إخوة يوسف ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾؛ أي: حين عزموا على إلقاءهم يوسف في غيابة الجبّ، فإن الإجماع العزم على الأمر، يقال: أجمعت الأمر وعليه ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم يحتالون بيوسف ليقتلوه وبأبيه يعقوب ليرسله معهم؛ أي: ذلك[2] الخبر لا سبيل إلى معرفتك إياه إلا بالوحي. وأما ما ينقله أهل الكتاب فليس على ما هو عليه. ومثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور، فيكون معجزاً؛ لأن محمداً ﷺ لم يطالع الكتب، ولم يأخذ عن أحد من البشر، وما كانت بلده بلد العلماء، فإتيانه بهذه القصة على وجه لم يقع فيه غلط كيف لا يكون معجزاً.

وإنما نفي الحضور وانتفاؤه معلوم بغير شبهة تهكماً بالمنكرين للوحي من قريش وغيرهم[3]؛ لأنه كان معلوماً عند المكذبين علماً يقيناً أنه عليه السلام ليس من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا قرأ على أحد، ولا سمع منه، وليس من علم قومه، فإذا أخبر به لم يبق شبهة في أنه من جهة الوحي لا من عنده، فإذا أنكروه تهكم بهم، وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرين أنه لا سماع له من أحد ولا قراءة، ولا حضور ولا مشاهدة لمن مضى من القرون الخالية.

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

ومعنى الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: إن نبأ[1] يوسف وأبيه يعقوب وإخوته، وكيف مكن ليوسف في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، وآتاه الملك والحكمة، فساس ملكاً عظيماً، وأحسن إدارته وتنظيمه، وكان خير قدوة للناس في جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه في غيابة الجبّ، كل ذلك من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تره، ولكنا نوحيه إليك لنثبت به فؤادك، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم في سبيل الله، وأعرضوا عن الجاهلين.. فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم. ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾؛ أي: وما كنت[2] حاضراً عندهم ولا مشاهداً حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف في غيابة الجبّ يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه، وهذا كقوله تعالى بعد سياق قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ الآية، وقوله في هذه القصة: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا...﴾ الآية. وفي «الخازن»: وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوته ﷺ؛ لأنه كان أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يلق العلماء، ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة، فعلم أن إتيانه ﷺ بها بوحي من الله تعالى. اهـ.

وخلاصة هذا: أن الله تعالى أطلع رسوله على أنباء ما سبق؛ ليكون فيها عبرة للناس في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثرهم، ومن ثم قال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عام لأهل مكة وغيرهم ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات الدالة على صدقك لهم. والحرص: طلب الشيء باجتهاد في إصابته ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر؛ أي: وما أكثر الناس من مشركي مكة وغيرهم ولو حرصت على أن يؤمنوا بك، ويتبعوا ما جئتهم به من

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

عند ربك بمصدقيك ولا متبعيك. قال الرازي: إن كفار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف على سبيل التعنت، فلما أخبرهم على وفق ما في التوراة.. أصروا على كفرهم، ولم يسلموا، فتأسف النبي ﷺ، وحزن على عدم إيمانهم، فعزاه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وكأنها إشارة إلى ما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

فإن قلت[1]: فما فائدة التكليف والأمر بما يعلم عدم وقوعه؟

قلتُ: فائدته تمييز من له استعداد ذلك؛ لتظهر السعادة والشقاوة وأهلهما. فإن قلت: لم كان الكفرة أكثر مع أن الله تعالى خلق الخلق للعبادة؟.. قلت: المقصود ظهور الإنسان الكامل، وهو واحد كألف.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ الأنباء التي أوحينا إليك وعلى تبليغ القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: من مال يعطونك كما يفعله حملة الأخبار ونقّال الآثار. والمراد: إنا أرخينا العلة في التكذيب حيث بعثناك مبلغاً بلا أجر. وقرأ بشر بن عبيد: ﴿وما نسألهم﴾ ـ بالنون ـ؛ أي: وما[2] تسأل يا محمد هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته، وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم، بل ثوابك وأجر عملك على الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: أنك لا تسألهم على ذلك مالاً ولا منفعة، فيقولوا: إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك من أموالنا إذا سألتنا عن ذلك، فحالك حال من سبقك من الرسل، فهم لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى. والقرآن مليء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرهما.

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجراً، فقد كان حقاً عليهم أن يعلموا أنك

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إنما تدعوهم إليه اتباعاً لأمر ربك ونصيحة منك لهم ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربك ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: إلا تذكير وموعظة وإرشاد ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ كافة لا لهم خاصة، وبه يهتدون وينجون في الدنيا والآخرة. وفي الآية إيماء إلى عموم رسالته ﷺ.

﴿وَكَأَيِّن﴾ في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى: كم الخبرية مبتدأ، خبره جملة ﴿يَمُرُّونَ﴾ الآتي؛ أي: وكثير من آيات وعلامات دالة على توحيد الله تعالى، وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر، ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار كائنة في السموات والأرض. وجملة قوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ خبر ﴿وَكَأَيِّن﴾؛ أي: يمر أكثر الناس على تلك الآيات ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم عن الاعتبار بتلك الآيات معرضون ولا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها، وهم غافلون عما فيها من عبرة ودلالة على توحيد ربها، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فأحسن تدبيره. وبالجملة[1] فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار، وإتقان وإبداع؛ ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط، والحكمة البالغة، والقدرة التامة.

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره، يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل؛ إذ الفكر وحده، وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فطوبى لمن جمع بين الأمرين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة.

والمشهور في ﴿كأين﴾ عندهم أنه[2] مركب من كاف التشبيه ومن أي،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وتلاعبت العرب به، وجاءت فيه لغات كثيرة كما مر. وذكر صاحب «اللوامح» أن الحسن قرأ في الشاذ: ﴿وكَيٍ﴾ ـ بياء مكسورة من غير همز ولا ألف ولا تشديد ـ وجاء كذلك عن ابن محيصن في الشاذ فهي لغة انتهى. وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد: ﴿والأرضُ﴾ ـ بالرفع على الابتداء ـ وما بعده خبر. وقرأ السدي: ﴿والأرضَ﴾ ـ بالنصب وهو من باب الاشتغال ـ؛ أي: ويطوون الأرض يمرون عليها؛ أي على آياتها وما أودع فيها من الدلالات ومع ذلك لا يعتبرون. وقرأ عبد الله: ﴿والأرضُ﴾ ـ برفع الضاد ـ ومكان ﴿يَمُرُّونَ﴾ ﴿يمشون﴾، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وما يصدق ويقرُّ أكثر الناس بوحدانية الله تعالى وبألوهيته، وبكونه الخالق الرازق المحيي المميت في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بالله تعالى؛ أي: إلا في حال إشراكهم بالله تعالى في عبادتهم سواه من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر، فالكافرون مقرون بوجود الله تعالى، لكنهم يثبتون له شريكاً في المعبودية.

قال ابن عباس[١]: فأهل مكة قالوا: ربنا الله وحده لا شريك له والملائكة بناته. وقال عبدة الأوثان والأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده. وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله. وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله. وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا. وكل من هؤلاء لم يوحدوا بل أشركوا. وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك معه.

وقال ابن عباس أيضاً[٢]: وأهل مكة كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك؛ وهذا هو الشرك الأعظم إذ يعبد مع الله غيره. وفي «صحيح مسلم» أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

شريك لك.. قال رسول الله ﷺ: «قد قد»؛ أي: حسب حسب لا تزيدوا على هذا. وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود. قلت يا رسول الله: أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة.. عرف كيف طرأ الشرك على الأمم وسرى في عبادتهم سريان السم في الدسم.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أغفل هؤلاء المشركون عن مكر الله تعالى فأمنوه ولم يخافوا ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿غَٰشِيَةٞ﴾؛ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة ﴿بَغۡتَةٗ﴾؛ أي: فجأة من غير سبق علامة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها؛ أي: أفأمن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ربهم، ويشركون به في عبادتهم غيره تعالى أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم، أو تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يتوقعون، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربهم، فيخلّدهم في نار جهنم. والآية كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾. وقوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وجاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقِحَتِهِ ـ الناقة ذات الدر ـ فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته ـ لقمته ـ إلى فيه فلا يطعمها». والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم، فلا يشعرون إلا وقد أتتهم. والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم، فيلتزموا الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الطريقة والملة التي أنا عليها من توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام، مبتدأ خبره: ﴿سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: ملتي وسنتي ومنهاجي وطريقتي، وجملة قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أدعو الناس بهذه الملة إلى توحيد الله والإيمان به حالة كوني ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحجة واضحة، وبرهان قاطع. وضمير ﴿أَنَا۠﴾ تأكيد لفاعل ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾؛ أي: أدعو إلى توحيد الله بهذه الملة، ويدعو إليه من اتبعني وآمن بي وصدقني، وهذا[1] قول الكلبي وابن زيد قالا: حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكّر بالقرآن، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم استأنف ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يعني: أنا على بصيرة وحجة واضحة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة. قال ابن عباس: إن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية، وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمٰن. وقال ابن مسعود: ومن كان مستنا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم، فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم. والآية كقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾. وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿قل هذا سبيلي﴾ - على التذكير - والسبيل: يذكر ويؤنث.

﴿و﴾ قل يا محمد: ﴿سبحان الله﴾؛ أي: أسبح الله سبحانه وتعالى تسبيحاً، وأنزهه تنزيهاً عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والأضداد والأنداد، ومن أن يكون معبود سواه، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾. وقل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أشركوا بالله غيره تعالى، والمعنى: أنا بريء من أهل الشرك به لست منهم، ولا هم مني. وهذا معطوف على: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عطف جملة على جملة.

---

(١) الخازن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك لا ملائكة، فهذا رد لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ قالوا ذلك تعجباً وإنكاراً لنبوته ﷺ، فقال تعالى: كيف يتعجبون من إرسالنا إياك، والحال أن من قبلك من الرسل كانوا على مثل حالك ولم يتعجبوا منهم، فكيف تعجبوا من إرسالك؛ لأن الاستفادة منوطة بالجنسية، وبين البشر والملك مباينة من جهة اللطافة والكثافة، ولو أرسل ملك.. لكان في صورة البشر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾. وقس عليه الجن؛ فلا يكون من الجن رسول إلى البشر. وفي عبارة الرجال دلالة على أنَّ الله تعالى ما بعث رسولاً إلى الخلق من النسوان؛ لأن مبنى حالهن على التستر، ومنتهى كمالهن هي الصديقية لا النبوة، فمنها آسية ومريم وخديجة وفاطمة وعائشة رضي الله عنهن.

وجملة قوله: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ صفة أولى لـ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: نوحي إليهم على لسان الملك كما نوحي إليك. وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفة ثانية له، وكأن[1] تقديم هذه الصفة على ما قبلها أكثر استعمالاً؛ لأنها أقرب إلى المفرد؛ أي: من أهل الأمصار دون أهل البوادي؛ لغلبة الجهل والقسوة والجفاء عليهم. والمراد بالقرية: الحضر خلاف البادية، فتشمل المصر الجامع وغيره؛ لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلاً من أهل البوادي. قال الحسن: لم يبعث نبيٌّ من بدو ولا من الجن ولا من النساء. والمعنى: كيف تعجَّبوا من إرسالنا إياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك!.

فإن قلت:[2] إن قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعارضه قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾؛ لأنه يقتضي أن يعقوب وأولاده كانوا من أهل البادية.

قلت: لم يكن يعقوب وأولاده من أهل البادية، بل خرجوا إليها لمواشيهم. وقرأ أبو[3] عبد الرحمٰن وطلحة وحفص: ﴿نُّوحِىٓ﴾ - بالنون وكسر الحاء - مبنياً

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

للفاعل موافقاً لقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾. وقرأ الجمهور بالياء وفتح الحاء مبنياً للمفعول.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف وتقديره: أغفلوا عن مكرنا، فلم يسيروا في الأرض؛ أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون من أهل مكة ممن يكذبونك ويجحدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ فيما وطئوا من البلاد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾؛ أي: كيف صار آخر أمر المكذبين للرسل والآيات ممن كانوا قبلهم من الأمم الماضية كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم، فيعتبروا بما حل بهم من عذابنا حتى ينزجروا عما هم فيه من التكذيب، وإلا يحيق بهم مثل ما حاق بهم؛ لأن التماثل في الأسباب يوجب التماثل في المسببات، ثم رغب في العمل للآخرة، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى صفته كمسجد الجامع، وصلاة الأولى؛ أي: إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله، واتقوا الشرك به، وارتكاب الآثام والمعاصي خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين بالرسل، والذين لا حظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها. فإن نعيمها[1] البدني أكمل من نعيم الدنيا لدوامه وثباته، ولخلوه من المنغصات والآلام، فما بالك بنعيمها الروحي من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه، وأصله: ولدار المدة الآخرة أو النشأة الآخرة، والذي قدمنا تخريج كوفي، وهذا الأخير تخريج بصري. وقرىء شاذاً: ﴿وللدار الآخرة﴾. وإنما[2] أضاف الدار إلى الآخرة مع أن المراد بالدار هي الجنة؛ وهي نفس الآخرة؛ لأن العرب قد تضيف الشيء إلى نفسه كقولهم: حق اليقين، والحق: هو اليقين نفسه. اهـ. «خازن».

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أتعرضون يا أهل مكة عن إعمال فكركم في هذا، فلا تعقلون أنها خير لهم من الحياة الدنيا، فتتوسلوا إليها بالإيمان، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿أفلا يعقلون﴾ ـ بالياء ـ مراعاة لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾. وقرأ الحسن وعلقمة والأعرج وعاصم وابن عامر ونافع: ﴿تعقلون﴾ بالتاء على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أولئك، فيصيبهم ما أصابهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تثبيتاً لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله، وأن نصره تعالى ينزل عليهم حين ضيق وانتظار الفرج كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون في تكذيبهم، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: غاية لمحذوف دل عليه السياق تقديره: لا يغررهم[2] تماديهم فيما هم فيه من الراحة والرخاء، فإن من قبلهم أمهلوا حتى إذا استيأس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو من إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير رادع ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الدال المكسورة، والمعنى عليه: وظن القوم أن الرسل قد أخلفوا في وعدهم بالنصر؛ أي: أخلف الله وعده لرسلهم بالنصر، وهذا المعنى منقول عن عائشة رضي الله عنها. وقال الواحدي معناه: وظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم، وإهلاك أعدائهم، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. وقرأ الباقون: بالتشديد.

والمعنى عليه: وظن الرسل وأيقنوا أنهم قد كذبتهم الأمم الذين آمنوا بهم بما جاؤوا به من الله تعالى، وارتدوا عن الإيمان بهم، وهذا المعنى منقول عن عائشة رضي الله عنها، وهو أحسن الوجوه، وقالت: إن البلاء لم يزل من الأنبياء حتى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح وروح البيان.

خافوا من أن يكذبهم الذين قد آمنوا بهم. وحاصل المعنى على قراءة التخفيف؛ أي: وما[1] أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فكذبوا بما جاءوهم به، وردوا ما أتوا به من عند ربهم، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم؛ لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ لهم بهلاك أعدائهم فجأة، وهذه الجملة جواب ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾. والمعنى: إن[2] زمان الإمهال قد تطاول عليهم حتى توهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا بغتة بغير سبق علامة.

وهذه سنة الله تعالى في الأمم يرسل إليهم الرسل بالبينات[3]، ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل، واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر.. جاءهم نصر الله فجأة، وأخذ المكذبين العذابُ بغتة كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾. وفي هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم.. حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل، كما قال في سورة القمر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾. وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾ الآية: هم أتباعُ الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عليهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم.. جاءهم نصر الله عند ذلك. وعن عائشة أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ مخففة أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ونحوه عن ابن عباس قال: يئس الرسل أن يستجيبوا لهم، وظن قومهم أنَّ الرسل كذبوهم بما جاؤوهم به جاءهم نصرنا. ونحوه عن ابن مسعود قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في «سورة يوسف»: ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ مخففة. ا هـ.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ نجاتهم؛ وهم الرسل والمؤمنون التابعون لهم، وإنما لم يعينهم؛ للدلالة على أنهم هم الذين يستحقون النجاة لا يشاركهم فيها غيرهم. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب[1]: ﴿فَنُجِّيَ﴾ - بنون واحدة وجيم مشددة مكسورة وفتح الياء - فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، و﴿مَن﴾ الموصولة نائب فاعله. وقرأ مجاهد والحسن والجحدري وطلحة وابن هرمز كذلك، إلا أنهم سكنوا الياء شذوذاً، وخرج على أنه ماض مبني للمجهول، ولكن سكنت الياء على لغة من يستثقل الحركة على الياء كقراءة من قرأ: ﴿ما تطعمون أهاليكم﴾ - بسكون الياء - ورويت هذه القراءة عن الكسائي ونافع في الشاذ، والمعنى على هذه: فنجي الرسل ومن آمن معهم من أقوامهم؛ لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

وقرأ باقي العشرة: ﴿فَنُنْجِيْ﴾ - بنونين أولاهما مضمومة وثانيتهما ساكنة وبياء ساكنة - مضارع أنجى الرباعي، وفاعله ضمير يعود على الله، والموصول مفعول به؛ أي: فننجي نحن من نشاء نجاتهم؛ وهم الرسل والمؤمنون بهم. وقرأ

---

(١) البحر المحيط.

نصر بن عاصم والحسن وأبو حيوة وابن السميقع ومجاهد وعيسى وابن محيصن: ﴿فنجا﴾ جعلوه مخفف الجيم فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وفاعله ﴿مَن﴾ الموصولة. وقال أبو عمرو الداني: وقرأت لابن محيصن: ﴿فنَجَّى﴾ ـ بشد الجيم ـ فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل على معنى: فنَجَّى النصر من نشاء، وفاعله النصر المعلوم من السياق وهي قراءة شاذة. وذكر الداني أن المصاحف متفقة على كتابتها بنون واحدة. وفي «التحبير» أن الحسن قرأ شذوذاً: ﴿فنُنَجّيْ﴾ ـ بنونين الثانية مفتوحة والجيم مشددة والياء ساكنة ـ مضارع نجى المضعف. وقرأ أبو حيوة شاذاً: ﴿من يشاء﴾ ـ بالياء ـ؛ أي: فنجي من يشاء الله نجاته، ومن يشاء نجاتهم هم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عن القوم المشركين إذا نزل بهم. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿بأسه﴾ بضمير الغائب؛ أي: بأس الله. وهذه الجملة فيها وعيد وتهديد لمعاصري الرسول ﷺ؛ أي: ولا يُمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله وكذبوا رسله، وما أتوهم به من عند ربهم.

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم، ويقيموا عليهم الحجة، وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم، ويهلك المكذبين، ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي ﷺ. واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾: موطئة للقسم. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ ـ بفتح القاف ـ: مصدرُ قصَّ الخبر؛ إذا حدث به؛ أي: قصص يوسف وإخوته وأبيه عليهم السلام وخبرهم. وقرىء شاذاً بكسر القاف جمع قصة؛ أي: قصص الأنبياء وأممهم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان في قصص يوسف مع أبيه وإخوته وخبرهم ﴿عِبْرَةٌ﴾؛ أي: عظة عظيمة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة الراجحة والأفكار الثاقبة؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات، ومن ثم لا يفيدهم النصح.

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف عليه السلام بعد إلقائه في غيابة الجبّ، وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس، والتمكين له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى، والمجيء بهم من الشقة البعيدة النائية؛ أي: إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال والأتباع والأعوان، وإن مرت به الشدائد وأتت دونه الأيام والحوادث، وإن الإخبار بهذه القصة جارٍ مجرى الإخبار عن الغيوب، فكانت معجزة لمحمد ﷺ. وقيل: إن الله تعالى قال في أول هذه السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فدل على أن هذه القصة من أحسن القصص، وأن فيها عبرة لمن اعتبرها وتأملها، وكان في أول السورة وآخرها مناسبة.

﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن المشتمل على هذا المقصوص ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ويختلق من عند البشر؛ لأن الذي جاء به من عند الله تعالى؛ وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفتريه ويختلقه من عند نفسه؛ لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء، ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز، فدل ذلك على صدقه،وأنه ليس بمفتر، فهو دليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل، ومن ثم قال: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: ولكن كان هذا القرآن مصدق الذي كان قبله من الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى من السماء على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور؛ أي: تصديق ما عندهم من الحق فيها لا كل الذي عندهم، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة وأوهام باطلة؛ لأنه جاء لمحوها وإزالتها، لا لإثباتها وتصديقها ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين والدنيا؛ أي: إن في هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج إليه من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والقصص والمواعظ والأمثال، وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم ودنياهم ﴿و﴾ كان ﴿هدى﴾ إلى

كل خير لمن تدبره وأمعن في النظر فيه، وتلاه حق تلاوته، فهو مرشد إلى الحق، وهادٍ إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح في الدين والدنيا ﴿و﴾ كان ﴿رحمة﴾ خاصة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ به في دينهم ودنياهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به. وقيل المعنى: ﴿وَهُدٗى﴾؛ أي: سبب هداية في الدنيا ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾؛ أي: سبباً لحصول الرحمة في الآخرة، والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التي تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل. وانتصاب الأربعة بعد ﴿لكن﴾ للعطف على خبر ﴿كَانَ﴾. وقرأ حمران ابن أعين وعيسى الكوفي فيما ذكر صاحب «اللوامح» وعيسى الثقفي فيما ذكر ابن عطية: ﴿تصديق وتفصيلُ وهدى ورحمةٌ﴾ ـ برفع الأربعة ـ؛ أي: ولكن هو تصديق وهذه القراءة شاذة. والجمهور بالنصب على إضمار كان؛ أي: ولكن كان تصديق الخ.

الإعراب

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ونون وقاية. ﴿مِنَ﴾: حرف جر وتبعيض. ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾: مجرور بـ﴿مِنَ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له؛ لأنه بمعنى أعطى، وقيل: ﴿مِنَ﴾ زائدة، وقيل المفعول الثاني محذوف تقديره: عظيماً من الملك كما ذكره أبو البقاء. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَعَلَّمۡتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيۡتَنِي﴾. ﴿مِنۡ﴾: زائدة. ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: مفعول ثان

ومضاف إليه. وفي «السمين»: و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وفي ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾ للتبعيض، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: شيئاً عظيماً من الملك، فهي صفة لذلك المحذوف، وقيل: زائدة، وقيل: لبيان الجنس. ﴿فَاطِرَ﴾: نعت لـ﴿رَبِّ﴾، أو بدل، أو عطف بيان منه، أو منصوب بإضمار أعني، أو على كونه منادى ثانياً. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَلِيِّۦ﴾. ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿تَوَفَّنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مُسْلِمًا﴾: حال من المفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَلْحِقْنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية. ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَوَفَّنِى﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿نُوحِيهِ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من المبتدأ، أو من الضمير في الخبر، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً لذلك كما في «السمين». ﴿وَمَا﴾ (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر كان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ على كونها معللة للخبرين. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بكان. ﴿أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿أَجْمَعُوٓا۟﴾.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية. ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

اسمها أو مبتدأ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ والباء زائدة، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾: (الواو): اعتراضية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿حَرَصْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في دعوتهم لا يؤمنون، وجملة ﴿لو﴾: معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين ﴿ما﴾ وخبرها.
﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾ نافية ﴿تَسْئَلُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: مفعول ثان لسأل، و﴿مِنْ﴾: زائدة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾.
﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كأين﴾: اسم بمعنى كم الخبرية؛ أي: بمعنى عدد كثير في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿ءَايَةٍ﴾: تمييز ﴿كأين﴾ منصوب. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿يَمُرُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿مُعْرِضُونَ﴾. ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَمُرُّونَ﴾، والمعنى: وآيات كثيرة كائنة في السموات والأرض مارون عليها حالة كونهم معرضين عنها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُ﴾.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف. (والفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أغفل هؤلاء المشركون عن مكر الله تعالى فأمنوا. ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿غَٰشِيَةٞ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أفأمنوا إتيان غاشية من عذاب الله إياهم. ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾ على كونها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أو إتيان الساعة إياهم. ﴿بَغۡتَةٗ﴾: حال من ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: باغتة. ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿تَأۡتِيَهُمۡ﴾.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَمَنِ﴾: الموصولة معطوفة على المبتدأ، وجملة ﴿ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. وفي «السمين»: قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً؛ وهو الظاهر، وأن يكون حالاً من الياء، و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ أي: أدعو إلى الله حالة كوني كائناً على بصيرة، وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: عطف على فاعل ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾، ولذلك أكد بالضمير المنفصل، ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: ﴿ومن اتبعني﴾ يدعو أيضاً، ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحده حالاً، و﴿أَنَا۠﴾: فاعل به، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: عطف عليه، ومفعول ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ يجوز

أن لا يراد، ويجوز أن يقدر؛ أي: أدعو الناس. ا هـ. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿سبحان الله﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: وأسبح سبحان الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ على كونها مفسرة لها. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

﴿وَمَآ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به. ﴿نُّوحِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب صفة أولى لـ﴿رجال﴾. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: جار ومجرور صفة ثانية لـ﴿رِجَالًا﴾، والأكثر استعمالاً عندهم تقديم هذه الصفة الثانية على الأولى؛ لأنها أقرب إلى المفرد منها كما تقدم تحريره في المائدة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف. (الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أغفلوا عن مكرنا فلم يسيروا. ﴿لم يسيروا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسِيرُوا۟﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدّم عليه وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مفعول لـ﴿ينظروا﴾ معلق عنها باسم الاستفهام. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): حرف ابتداء، ﴿دار الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور

متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أتعرضون يا أهل مكة عن إعمال فكركم في خيرية الآخرة على الدنيا. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة، وغاية لكونها غاية لمحذوف وتقديره: لا يغررهم تماديهم فيما هم من الراحة والرخاء، فإن من قبلهم أمهلوا حتى إذا استيأس الرسل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسَ﴾. ﴿أَنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَدۡ كُذِبُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن تقديره: وظنوا تكذيبهم. ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: فإن من قبلهم أمهلوا إلى مجيء نصرنا وقت يأس الرسل عن نصرهم، وظن الأتباع كونهم مكذوبين. ﴿فَنُجِّيَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿نجي﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاء﴾. ﴿نَّشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من نشاء نجاته من عبادنا. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾: ﴿عِبْرَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عِبْرَةٌ﴾؛ لأنه اسم مصدر من اعتبر الخماسي. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أو على هذا القصص المذكور في يوسف وإخوته. ﴿حَدِيثًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: صفة لـ﴿حَدِيثًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى﴾: خبر لـ﴿كَانَ﴾ المحذوفة مع اسمها، ومضاف إليه؛ أي: ولكن كان هذا القرآن تصديق الذي بين يديه، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: معطوف على ﴿تَصْدِيقَ﴾ على كونه خبراً لـ﴿كَانَ﴾ المحذوفة. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان عليه أيضاً. ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿هدى﴾ و﴿رحمة﴾ على كونه صفة لهما، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، أو صفة لـ﴿رحمة﴾ فقط.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: بعض الملك، والمراد بذلك البعض: ملك مصر؛ إذ لم يملك جميع أقطار الأرض إلا أربعة: إثنان مسلمان: اسكندر، وسليمان بن داود واثنان كافران: بختنصر وشداد بن عاد، ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعد يوسف مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا من دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام. ا هـ. «أبو السعود». والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة التدبير كما مر.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، وأصل الفطر: الشق، يقال: فطر ناب البعير إذا شق وظهر، وفطر الله الخلق:

أوجده وأبدعه.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾؛ أي: معيني ومتولي أمري ﴿تَوَفَّنِى مُسۡلِمًا﴾؛ أي: اقبضني إليك مسلماً.

﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ وفي «المصباح»: حرص عليه حرصاً ـ من باب ضرب ـ إذا اجتهد، والاسم الحِرص ـ بكسر الحاء ـ وحرص على الدنيا من باب ضرب أيضاً، وحَرِص حرصاً ـ من باب تعب لغة ـ، إذا رغب رغبة مذمومة. ا هـ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ و﴿كأين﴾ هنا بمعنى كم الخبرية التي بمعنى عدد كثير وإن وردت للاستفهام، والآية هنا بمعنى الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته.

﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: يشاهدونها ولا يعبئون بها. ﴿مُعۡرِضُونَ﴾؛ أي: لا يعتبرون بها. ﴿غَٰشِيَةٞ﴾ والغاشية: العقوبة تغشاهم وتعمهم ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠﴾ البصيرة: الحجة الواضحة، وقيل: هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل. ا هـ. «خازن». ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ الظن هنا: إما بمعنى اليقين، وإما معنى الحسبان والتقدير. ﴿بَأۡسُنَا﴾ والبأس العقاب.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ والقَصَص ـ بفتح القاف ـ: مصدر قَصَّ إذا تتبع الأثر والخبر، والمراد هنا المقصوص المحكي بدليل القراءة الشاذة: ﴿قِصصهم﴾ ـ بكسر القاف ـ كما في «الجمل».

﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ المراد بالعبرة: التأمل والتفكر. وفي«الخازن»: معنى الاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكر.

﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ والألباب: العقول واحدها لبّ، وسمي بذلك؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قواه. وقال الشوكاني: والعبرة: الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهي العبور من الطريق المعلوم إلى الطريق المجهول، وأولوا الألباب: هم ذووا العقول السليمة

الذين يعتبرون بعقولهم، فيدرون ما فيه مصالح دينهم، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع من بعد المدة التي بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فإنه إنما أعطي ملك مصر فقط، لا ملك الأرض كلها كما مر.

ومنها: في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ما يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي؛ وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج، وتقدم نظير ذلك في آل عمران، وفي هود، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص الذي أعجز حملته ورواته.. لم تقع شبهة في أنه ليس منه، بل من وحي الله تعالى إليه، ذكره أبو حيان.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ لأنه بمعنى الماضي.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ لاعتراضها بين ﴿مَا﴾ الحجازية وخبرها، وجيء بهذا الاعتراض؛ لإفادة أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى وحده.

ومنها: حكاية الحال الماضية أيضاً في: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾؛ لأنه بمعنى الماضي.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: إضافة الشيء إلى نفسه في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لأنه أضاف الدار إلى الآخرة مع أن المراد بالدار هي الجنة، وهي نفس الآخرة؛ لأن العرب تفعل ذلك لإفادة التأكيد، كما في قولهم: حق اليقين، مع أن المراد بالحق هو اليقين نفسه كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة

جملة ما في هذه السورة من الموضوعات تسعة وثلاثون موضوعاً:

١ ـ قص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب.

٢ ـ نهي يعقوب لولده عن قصه قصصه على إخوته.

٣ ـ تدبيرهم المكيدة ليوسف وإلقائه في غيابة الجبّ.

٤ ـ ادعاؤهم أنَّ الذئب قد أكله.

٥ ـ عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له.

٦ ـ بيعها إياه في مصر بثمن بخس لعزيز مصر.

٧ ـ وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه.

٨ ـ مراودة المرأة له عن نفسه، وإعداد الوسائل لذلك.

٩ ـ تمنعه من ذلك إكراماً لسيده الذي أكرم مثواه.

١٠ ـ قدها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذي أراد الفاحشة.

١١ ـ شهادة شاهد من أهلها بما يجلي الحقيقة.

١٢ ـ افتضاح أمرها في المدينة لدى النسوة.

١٣ ـ تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها.

١٤ ـ إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها.

١٥ ـ تعبيره رؤيا فتيين دخلا معه السجن.

١٦ ـ رؤيا الملك وطلبه تعبيرها.

١٧ ـ إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف، وأنه نعم المعبر لها.

١٨ ـ طلب الملك إحضاره من السجن، واستخلاصه لنفسه.

١٩ ـ توليته رئيساً للحكومة ومهيمناً على ماليتها.

٢٠ ـ مجيء إخوة يوسف إليه، وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم.

٢١ ـ إرجاع البضاعة التي جاؤوا بها.

٢٢ ـ إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموقف لأبيهم.

٢٣ ـ طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة.

٢٤ ـ إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه.

٢٥ ـ أذان المؤذن أن العير قد سرقوا.

٢٦ ـ قول الإخوة: إن أخاه قد سرق من قبل.

٢٧ ـ طلبُ الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه.

٢٨ ـ وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن.

٢٩ ـ تعريف يوسف بنفسه لإخوته.

٣٠ ـ حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيراً.

٣١ ـ طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم.

٣٢ ـ رفع يوسف أبويه على العرش.

٣٣ ـ قول يوسف لأبيه: هذا تأويل رؤياي من قبل.

٣٤ ـ دعاؤه بحسن الخاتمة.

٣٥ ـ في هذا القصص إثبات لنبوة محمد ﷺ.

٣٦ ـ تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حَدَث لمن قبلهم.

٣٧ ـ لم يرسل الله تعالى إلا رجالاً وما أرسَل ملائكة.

٣٨ ـ نصر الرسل بعد الاستيئاس.

٣٩ ـ في قصص الرسل أو يوسف وإخوته عبرة لأولي الألباب.

والله أعلم

* * *

سورة الرعد

سورة الرعد مكية[1] إلا آيتين فهما مدنيتان، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وقيل: مدنية سوى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآيتين.

وآياتها ثلاث ـ أو خمس ـ وأربعون آية، وكلماتها ثمان مئة وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وستة أحرف. وسميت بالرعد؛ لذكره فيها.

فضلها: ومن فضائلها أن قراءتها عند المحتضر تسهل خروج الروح.

وقد أخرج[2] ابن أبي شيبة والمروزي في «الجنائز» عن جابر بن زيد قال: كان يُستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد؛ فإن ذلك يخفف عن الميت، وإنه أهون لقبضه، وأيسر لشأنه.

المناسبة: ومناسبةُ هذه السورة لما قبلها من وجوه[3]:

١ ـ أنه سبحانه وتعالى أجمل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها.

٢ ـ أنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفتها.

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

٣ ـ أنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكتب الخزي على الكافرين، والنصر لرسله والمؤمنين، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ وتثبيت لقلبه.

٤ ـ جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وفي أول هذه السورة قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى[(١)]: في سورة الرعد من المنسوخ أيتان فقط؛ آيةٌ مُجمع على نسخها، وآيةٌ مختلف في نسخها. فالمجمع على نسخها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا﴾ الآية (٤٠) منسوخة بآية السيف. الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية (٦) منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية (٤٨، ١١٦) النساء. والظلم ههنا: الشرك.

والله أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
(١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ
ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى
خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ
ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا
مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه قد مر لك في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ووصفه في هذه الآية بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ...﴾ الآية، كما مرّ آنفاً.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] في الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون. .أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد، فاستدل بأحوال السمٰوات وأحوال الشمس والقمر، وأحوال الأرض جبالها وأنهارها، وأزهارها ونخيلها وأعنابها، واختلاف ثمراتها، وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذي بيده الخلق والأمر، وبيده الضر والنفع، وبيده الإحياء والإماتة، وهو على كل شيء قدير.

وعبارة أبي حيان هنا: ولما ذكر انتفاء الإيمان عن أكثر الناس.. ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد، ومايجذبهم إلى الإيمان فيما يفكر فيه العاقل، ويشاهده من عظيم القدرة وبديع الصنع والحكمة انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] إنكارهم لوحدانيته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسي فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر في ذلك الملكوت العظيم.. ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياساً على ما يرون ويشاهدون، فإن من قدر على خلق السماوات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذي يحار الإنسان في الوصول إلى معرفة كنهه.. لا يعجز عن إعادته في خلق جديد، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض، وقد تتناثر في بقاع شتى ونواح عدة، وربما أكل بعض الجسم سبع، وبعضه الآخر حدأة، أو نسر، وحيناً يأكل السمك قطعة منه، وأخرى يجري بها الماء وتدفن في بلد آخر. . أزال هذا الاستبعاد بأن الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والذي يعلم الأجنة في بطون أمهاتها، ويعلم ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض، ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ. . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[1] الطبراني وغيره عن ابن عباس أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذلك لك ولا لقومك»، فخرجا، فقال عامر لأربد: إني أشغل منك وجه محمد بالحديث، فأضربه بالسيف، فرجعا فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه ووقف يكلمه، وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم سيفه ـ يبست، والتفت رسول الله ﷺ فرآه، فانصرف عنهما، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم. . أرسل الله على أربد صاعقة فقتله، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓر﴾ اسم للسورة خبر لمحذوف؛ أي: هذه السورة مسماة بهذا الاسم. وقيل[2]: إن هذه الحروف في أوائل السور حروف تنبيه كـ(ألا) ونحوها، وتقرأ بأسمائها، فيقال: ألف لام ميم را، فلا محل لها من الأعراب، كما قيل: إن كل سورة بدئت بهذه الحروف فيها انتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه. وقال ابن عباس[3]: معناه أنا الله أعلم وأرى ما لا يعلم الخلق وما لا

---

(١) لباب النقول.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يرى من فوق العرش إلى ما تحت الثرى، فتكون الألف واللام مختصرتين من أنا الله الدالين على الذات، والميم والراء من أعلم وأرى الدالين على الصفة. وفي «التبيان» الألف: الله، واللام: جبريل، والميم: محمد، والراء: الرسل؛ أي: أنا الله الذي أرسل جبريل إلى محمد بالقرآن، وإلى الرسل بغيره من الكتب الإلهية والصحف الربانية.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات المشتملة عليها هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب العزيز والقرآن الكريم البالغ حدّ الكمال المستغني عن الوصف من بين الكتب السماوية، الجدير بأن يختص باسم الكتاب، وأشار إليها بإشارة البعيد تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي. وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وكل القرآن الذي أنزله إليك ربك حق لا شك فيه، وهذا كالإجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال، فكأنه سبحانه وتعالى بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم، فأثبته للقرآن جميعه، فلا تختص به سورة دون أخرى.

وهذا الأسلوب جارٍ على سنن العرب في تخاطبهم[1]، فقد قالت فاطمة الأنمارية، وقد سئلت عن بنيها، أي بنيك أفضل؟ ربيعة بل عمارة بل قيس بل أنس، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين.. أجملت القول، وأثبتت لهم الفضل جميعاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن، ويجحدون[2] بحقيقته لإفراطهم في العناد، وخروجهم عن طريق السداد، وعدم تفكرهم في معانيه، وإحاطتهم بما فيه، وكفرهم به لا ينافي كونه حقاً منزَّلاً من عند الله تعالى، فإن الشمس شمس، وإن لم يرها الضرير، والشهدُ شهدٌ وإن لم يجد طعمه المرور، والتربية إنما تفيد

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

المستعد والقابل دون المنكر والباطل. والمعنى[1]: ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التي تناسب مختلف العصور والأزمان، والتي لو سار الناس على سننها لسعدوا في الدنيا والآخرة، وقد سلك المسلمون سبيلها في عصورهم الأولى، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وامتلكوا أكثر المعمور في ذلك الحين، وثلُّوا عروش كسرى والروم، ودانت لهم الرقاب، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم بأنها كانت سياسة عدل ورفق، وأخذٍ على يد الظالم لإنصاف المظلوم، فللّه دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين، ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالمه، وألقوها وراءهم ظهرياً، فحاق بهم ما كانوا يكسبون، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة، تابعين بعد أن كانوا متبوعين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ والآية بمعنى قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته؛ بعضها سماوي، وبعضها أرضي، وذكر من الأولى ثلاثة أمور:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: الإله الذي يستحق منكم العبادة أيها العباد هو الإله ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع؛ أي: خلقها[2] مرفوعة بينها وبين الأرض مسيرة خمس مئة عام، لا أن تكون موضوعة فرفعها؛ أي: خلقها ورفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ ودعائم وأساطين ﴿تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ترون أيها العباد تلك العمد، فالضمير راجع إلى العمد، والجملة صفة لها؛ أي: خلق السموات حالة كونها خالية من عند مرئية، وانتفاء العمد المرئية يحتمل أن يكون لانتفاء العمد والرؤية جميعاً؛ أي: لا عمد لها فلا ترى، ويحتمل أن يكون لانتفاء الرؤية فقط بأن يكون لها عماد غير مرئي؛ وهو القدرة، فإنه تعالى يمسكها مرفوعة بقدرته، فكأنها عماد لها، أو العدل؛ لأن بالعدل قامت السماوات والأرض؛ أي:

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

العلويات والسفليات.

ويدل[1] على كون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾ قراءة أبيّ شذوذاً: ﴿ترونه﴾ فعاد الضمير مذكراً على لفظ ﴿عَمَدٍ﴾؛ إذ هو اسم جمع لعمود، وقياس جمعه عمد ـ بضمتين ـ كرسول ورسل. ويجوز أن يكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة مستأنفة، فالضمير راجع إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كأنه قيل: ما الدليل على أن السماوات مرفوعة بغير عمد؟.. فأجيب أنكم ترونها غير معمودة. والمعنى[2]: أنه تعالى خلق السماوات مرفوعات عن الأرض بغير عمد، بل بأمره وتسخيره على أبعاد لا يدرك مداها، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها، ولا علاقة من فوقها تمسكها. وقرأ الجمهور[3]: ﴿عَمَدٍ﴾ ـ بفتحتين ـ، وقرأ أبو حيوة ويحيى بن وثاب شذوذاً ﴿عُمُدٍ﴾ بضمتين كقراءة أبيّ.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وكلمة[4] ﴿ثُمَّ﴾ لبيان تفاضل الخلقين وتفاوتهما، فإن العرش أفضل من السماوات، لا للتراخي في الوقت لتقدمه عليها. وفي «السمين»: ثم هنا لمجرد العطف لا للترتيب؛ لأن الاستواء على العرش غير مرتب على رفع السماوات اهـ؛ أي: ثم[5] استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان، والاستواء على العرش صفة ثابتة للّه تعالى بلا كيف نعتقدها ولا نعطلها، لا نكيفها ولا نمثلها كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد. وقال في «بحر العلوم» معنى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

تسخيرهما: كونهما نافعتين للناس حيث يعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، وينوران لهم في الليل والنهار، ويدرآن الظلمات، ويصلحان الأرض والأبدان والأشجار والنباتات. ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يسير إلى وقت معلوم، فاللام بمعنى إلى؛ وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر. وقيل: المراد بالأجل المسمى: درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها؛ وهي سنة للشمس وشهر للقمر، فللشمس والقمر منازل كل منهما يغرب في كل ليلة في منزل، ويطلع في منزل آخر حتى ينتهي إلى أقصى المنازل.

والمعنى: أي وذلل الشمس والقمر، وجعلهما طائعين لما يراد منهما لمنافع خلقه، فكل منهما يسير في منازله إلى وقت معين، فالشمس تقطع فلكها في سنة، والقمر في شهر لا يختلف جري كل منهما عن النظام الذي قدر له، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وبقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ كما سبق إيضاح هذا في سورتي «يونس» و«هود». قال بعضهم: وهذا المعنى هو الحق في تفسير الآية كما فسرها به ابن عباس رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؛ أي: أمر العالم وحده؛ أي: يقضي سبحانه وتعالى، ويدبر أمر ملكوته من الإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب، ورفع قوم ووضع آخرين، وغير ذلك؛ أي: إنه تعالى يتصرف في ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه، فهو يحيي ويميت، ويوجد ويعدم، ويغني ويفقر، وينزل الوحي على من يشاء من عباده، وفي ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة، فإن اختصاص كل شيء بوضع خاص وصفةٍ معنية لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك، فتدبيره لعالم الأجسام كتدبيره لعالم الأرواح، وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يمنعه تدبير شيء عن تدبير آخر، كما هو شأن المخلوقات في هذه الدنيا، وكذلك هو دليل أيضاً على أنه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته.

﴿يُفَصِّلُ﴾؛ أي: يبين سبحانه وتعالى ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾؛ أي: البراهين الدالة على وحدته في ألوهيته وربوبيته، وكمال قدرته، وعجيب حكمته التي منها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر وجريهما إلى أجل مسمى. وقرأ النخعي وأبو رزين وأبان بن تقلب عن قتادة شذوذاً: ﴿ندبر الأمر نفصل﴾ بالنون فيهما.

وكذا قال أبو عمرو الداني عن الحسن فيهما، ووافق في ﴿نفصل﴾ بالنون الخفاف وعبد الواحد عن أبي عمرو وهبيرة عن حفص شذوذاً. وقال صاحب «اللوامح»: جاء عن الحسن والأعمش شذوذاً: ﴿نفصل﴾ بالنون فقط ذكره في «البحر» أبو حيان. والمعنى[1]: أي: يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض، فالمجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة في حركاتها بنظام خاص بوساطة الجاذبية لا تحيد عن سننه، ولا تجد معدلاً عن السير فيه بحسب النهج الذي قدر لها، ولا تزال كذلك حتى ينتهي العالم، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها واختلال لحركاتها ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾.

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد، فالزارع يحرث أرضه ويلقي فيها الحب، ثم يسقيها ويضع فيها السماد، ويوالي سقيها حتى تؤتي أكلها، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة.. باء صاحب الزرع بالخسران، فلم يحصل على شيء، أو حصل على القليل التافه الذي لا يعدل التعب والنصب الذي فعله. وقيل[2]: إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان:

الأول: الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم، وهذا قد تقدم ذكره.

والقسم الثاني: الموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته.

ثم أبان سبحانه وتعالى أن هذا التدبير للأمور والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة، والحكمة الشاملة جاء لحكمة اقتضتهما: وهي الإيقان بالبعث لفصل القضاء، ومجازاة كل عامل بما عمل ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فإما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ أي: يبين[1] الله سبحانه وتعالى الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته؛ لكي توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت؛ لأن من قدر على إيجاد الإنسان من العدم قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته، واليقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدراية، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك، يقال منه: استيقن وأيقن بمعنى: علم؛ أي[2]: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه. قال في «بحر العلوم»: ﴿لعل﴾[3] مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي، والمعنى عليه؛ أي: يفصل الآيات إرادة أن تتأملوا وتنظروا فيها، فتستدلوا بها عليه وعلى وحدته وقدرته وحكمته، وتتيقنوا أن من قدر على خلق السموات والأرض والعرش، وتسخير الشمس والقمر مع عظمها، وتدبير الأمور كلها.. كان على خلق الإنسان مع مهانته، وعلى إعادته وجزائه أقدر.

وخلاصة هذه العبرة[4]: أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب في الجوّ بلا عمد، ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة، ولم يشغله شأن عن شأن.. ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

إلى الأجساد، ويعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء لا فناء بعدها، وإذا أيقنتم بذلك.. وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان، وأخلصتم العبادة للواحد الديان، وائتمرتم بوعده ووعيده، وصدقتم برسله، وبادرتم إلى اتباع أوامره، وتركتم ما نهى عنه، ففزتم بسعادة الدارين.

فائدة: قال بعضهم[١]: لا غنية للمؤمن عن ست خصال:

أولاها: علم يدله على الآخرة.

والثانية: رفيق يعينه على طاعة الله تعالى، ويمنعه عن معصيته.

والثالثة: معرفة عدوه والحذر منه.

والرابعة: عبرة يعتبر بها في آيات الله، وفي اختلاف الليل والنهار.

والخامسة: إنصاف الخلق؛ لئلا يكونوا له يوم القيامة خصماء.

والسادسة: الاستعداد للموت ولقاء الرب قبل نزوله كيلا يكون مفتضحاً يوم القيامة.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الدلائل السماوية على وحدانيته تعالى وكمال قدرته.. أردفها بالأدلة الأرضية، وذكر منها عدة أمور:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بسطها طولاً وعرضاً، ووسعها؛ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض؛ لتثبت عليها الأقدام، ويتقلب عليها الحيوان، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها، وبما في باطنها من معادن جامدة وسائلة، ويسيرون في أكنافها يبتغون رزق ربهم منها.

والمعنى: أنشأها ممدودة بسيطة، لا أنها كانت مجموعة في مكان فبسطها، وهذا يدل على كونها مسطحة كالأكف، وعند أصحاب الهيئة أن الأرض كرة لا شك في كرويتها عندهم لما عندهم من الأدلة على ذلك، ويجمع بينها بأن يقال:

---

(١) روح البيان.

إن كونها بسيطة لا ينافي كرويتها؛ لأن جميع الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها يشاهد كالسطح، ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض، وأنه دحاها وبسطها، وكل ذلك يدل على التسطيح، والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثابتة، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت، وأرساه غيره أثبته، جمع راسية، والتاء فيه للمبالغة كما في علامة؛ إذ لا يقال: جبال راسية **والمعنى**[1]: وجعل فيها جبالاً ثابتةً أوتاداً للأرض؛ لئلا تضطرب فتستقر ويستقر عليها، وكان اضطرابها من عظمة الله تعالى. قال ابن عباس - رضي الله عنه - كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض. وقال في «القاموس»: أبو قبيس جبل بمكة سمي برجل حداد من مذحج كمجلس؛ لأنه أول من بنى فيه، وكان يسمى الأمين؛ لأن الركن كان مستودعاً فيه. ا هـ. قال في «إنسان العيون»: وكان أول جبل وضع عليها أبا قبيس، وحينئذ كان ينبغي أن يسمى أبا الجبال، وأن يكون أفضلها، مع أن أفضلها كما قال السيوطي: أُحد؛ لقوله عليه السلام: «أُحُد يحبنا ونحبه» وهو بضمتين جبل بالمدينة.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْهَارًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهاراً ومياهاً جاريةً لمنافع الإنسان والحيوان، فَيسقي الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال، ويجعلها لنفسه طعاماً وفاكهةً، ويكون منها مادة حياته في طعامه وشرابه وغذائه. وإنما ضمها[2] إلى الجبال، وعلق بها فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وذلك أن الحجر جسم صلب، فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل.. احتبست هناك، فلا تزال تتزاحم وتتضاعف حتى تحصل بسبب الجبل مياه عظيمة، ثم إنها لكثرتها وقوتها تنقب الجبل، وتخرج وتسيل على وجه الأرض. ومن الأنهار العظيمة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الفرات؛ وهو نهر الكوفة، ودجلة؛ وهو نهر بغداد، وسيحان ـ بفتح السين المهملة ـ؛ وهو نهر المصيصة، وسيحون؛ وهو نهر بالهند، وجيحان ـ بفتح الجيم ـ؛ وهو نهر أذنة في بلاد الأرمن، وجيحون؛ وهو نهر بلخ، والنيل؛ وهو نهر مصر.

والرابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ اثنين تأكيد للزوجين، كما هو دأب العرب في كلامهم؛ أي: وجعل سبحانه وتعالى في الأرض من كل أنواع الثمرات زوجين زوجين؛ أي: صنفين صنفين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر والأحمر، والصغير والكبير. أو المعنى[1]: جعل من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين، ذكراً وأنثى حين تكونها، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين: ذكر وأنثى، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث في شجرة واحدة، كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو التذكير في شجرة، وعضو التأنيث في شجرة أخرى، كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة؛ إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة كالقطن، وإما أن يكون كل منهما في زهرة منفردة كالقرع مثلاً. وعبارة «الشوكاني» هنا: أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين؛ إما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما، أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغر والكبر، أو في الكيفية كالحر والبرد. قال الفراء: يعني بالزوجين: الذكر والأنثى، والأول أولى. ا هـ.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿يُغْشِى﴾ من أغشى الرباعي. وقرأ حمزة[2] والكسائي وأبو بكر: ﴿يغشّي﴾ ـ بالتشديد ـ من غشى المضعف؛ أي: يجعل سبحانه وتعالى الليل غاشياً وساتراً يغشى ويستر بظلمته ضوء النهار، فيذهب بظلمته ضوء النهار؛ أي: يجعل النهار مستوراً بالليل ويغطيه بظلمته، ولم يذكر العكس اكتفاء بأحد الضدين.

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

والمعنى: أي يلبس[1] النهار ظلمة الليل، فيصير الجو مظلماً بعد أن كان مضيئاً، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار، فيصير الجو مضيئاً بعد أن كان مظلماً، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار، أو بالبحث على المعايش والأرزاق كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وقال أيضاً: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قال البيضاوي: يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً يعني: أن الإغشاء: إلباس الشيء الشيء، ولما كان إلباس الليل النهار وتغطية النهار به غير معقول؛ لأنهما متضادان لا يجتمعان، واللباس لا بدّ أن يجتمع مع اللابس.. قدر المضاف وهو مكانه، ومكان النهار هو الجو، وهو يلبس ظلمة الليل، ففيه استعارة تبعية كما سيأتي في مبحث البلاغة.

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشاهد في رأي العين في كل صباح ومساء، وفي كل حين ووقت.. ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به، وعقل يهتدي به إلى وجه الصواب، وينتقل من النظر في الأسباب إلى مسبباتها، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من عجائب خلق الله تعالى، وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء العظيمة ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾؛ أي: لدلائل وحججاً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لقومٍ يتفكرون فيها ويتأملون، ويعتبرون بها، فيعلموا أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد، وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه، ولا إعادة من فني منهم، ولا ابتداع ما شاء ابتداعه، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له تعالى، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه، ولا ينبغي أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرّ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ

---

(١) المراغي.

شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾، وقد روي: تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله.

ومعنى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن[1] في كل من الأرض والجبال والأنهار والثمار والملوين[2] ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره. أما في الأرض فمن حيث هي ممدودة مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للماشين في مناكبها، وغير ذلك مما فيها من العيون والمعادن والدواب مثلاً. وأما الجبال فمن جهة رسوها وعلوها، وصلابتها وثقلها، وقد أرسيت الأرض بها كما يرسى البيت بالأوتاد. وأما الأنهار فحصولها في بعض جوانب الجبال دون بعض لا بد أن يستند إلى الفاعل المختار الحكيم. وأما الثمار فالحبة إذا وقعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض.. ربت وكبرت، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها، فتخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة، وتخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض. وهذا من العجائب؛ لأن طبيعة تلك الحبة واحدة، وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد، ثم إنه خرج من أحد جانبي تلك الحبة جرمٌ صاعد إلى الهواء ومن الجانب الآخر منها جرم غائص في الأرض، ومن المحال أن يتولد من طبيعة واحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم، ثم إن الشجرة النابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشباً، وبعضها يكون نورة، وبعضها يكون ثمرة، ثم إن تلك الثمرة أيضاً يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع. فالجوز له أربعة أنواع من القشور: قشرة الأعلى، وتحته القشرة الخشبية، وتحته القشرة المحيطة باللب، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز واللوز رطباً، وأيضاً قد يحصل في الثمرة الواحدة الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع، وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لأجل تدبير الحكيم القدير. وأما الملوان فلا يخفى ما في اختلافهما ووجودهما من الآية؛ أي: الدلالة الواضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون، والتفكر: تصرف القلب في طلب معاني الأشياء، وكما أن في العالم الكبير أرضاً وجبالاً ومعادن

---

(١) روح البيان.
(٢) **الملوان**: الليل والنهار.

وبحاراً وأنهاراً، وجداول وسواقي، فكذلك في الإنسان الذي هو العالم الصغير مثله، فجسده كالأرض، وعظامه كالجبال، ومخه كالمعادن، وجوفه كالبحر، وأمعاؤه كالأنهار، وعروقه كالجداول، وشحمه كالطين، وشعره كالنبات، ومنبت الشعر كالتربة الطيبة، ورأسه كالعمران، وظهره كالمفاوز، ووحشته كالخراب، وتنفسه كالرياح، وكلامه كالرعد، وأصواته كالصواعق، وبكاؤه كالمطر، وسروره كضوء النهار، وحزنه كظلمة الليل، ونومه كالموت، ويقظته كالحياة، وولادته كبدء سفره، وأيام صباه كالربيع، وشبابه كالصيف، وكهولته كالخريف، وشيخوخته كالشتاء، وموته كانقضاء مدة سفره، والسنون من عمره كالبلدان، والشهور كالمنازل، والأسابيع كالفراسخ، وأيامه كالأميال، وأنفاسه كالخطى، فكلما تنفس نفساً كان يخطو خطوةً إلى أجله، فلا بد من التفكر في هذه الأمور.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿قِطَعٌ﴾ جمع قطعة، وهي الجزء؛ أي: بقاع مختلفة في الأوصاف ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾؛ أي[1]: متقاربات متلاصقات بعضها طيبة تنبت شيئاً، وبعضها سبخة لا تنبت، وبعضها قليلة الريع، وبعضها صلبة، وبعضها كثيرة الريع، وبعضها رخوة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادرٍ حكيمٍ موقعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه.. لم يكن كذلك لاشتراك تلك القطع وانتظامها في جنس الأرضية. والمعنى؛ أي[2]: وفي الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بالتفاضل مع من تجاورها، فمن سبخة لا تنبت شيئاً إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات ومختلف النبات، ومن صالحه للزرع دون الشجر إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك. ومنها الرخوة التي لا تكاد تتماسك، وهي تجاور الصلبة التي لا تفتتها المعاول وأدوات التدمير، وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره في خلقه.

قيل: وفي الكلام حذف[3]؛ أي: قطع متجاورات وغير متجاورات كما في

---

(١) روح المعاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: وتقيكم البرد قيل: والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر. ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾. قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾. وقرأ الحسن شذوذاً بالنصب على إضمار فعل؛ أي: وجعل فيها جنات. وقيل: عطفاً على ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: وفي الأرض بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: من أشجار الكرم جمع عنب. وسمت[1] العرب العنب الكرم؛ لكرم ثمرته وجودتها وكثرة حمله وتذلله للقطف ليس بذي شوك ولا بشاق المصعد، ويؤكل غضاً ويابساً. وأصل الكرم: الكثرة، والجمع للخير، وبه سمي الرجل كرماً لكثرة خصال الخير فيه.

واعلم: أن[2] قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بهذا الاسم، ولذا قال عليه السلام: «لا يقولن أحدكم الكرم، فإن الكرم قلب المؤمن». قال ابن الملك: سبب النهي: أن العرب كانوا يسمون العنب وشجرته كرماً؛ لأن الخمر المتخذة منه تحمل شاربها على الكرم، فكره النبي ﷺ هذه التسمية؛ لئلا يتذاكروا به الخمر، ويدعوهم حسن الاسم إلى شربها، وجعل المؤمن وقلبه أحق أن يتصف به لطيبه وذكائه، والغرض منه تحريض المؤمن على التقوى، وكونه أهلاً لهذه التسمية. ﴿وَزَرْعٌ﴾ بالرفع عطف على ﴿جنات﴾ وتوحيده؛ لأنه مصدر في أصله. وذكر سبحانه[3] الزرع بين الأعناب والنخيل؛ لأنه في الخارج يكون كذلك كثيراً، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ أي: وفي الأرض زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التي تكون غذاء للإنسان والحيوان. ﴿و﴾ فيها ﴿نخيل صنوان﴾ جمع صنو؛ أي: نخيل مجتمعات يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها منه؛ أي: تنبت من أصلٍ واحد ثلاث نخلات فأكثر؛ أي: مجتمع أصول الأربعة في أصل واحد. قال أبو عبيدة: صنوان جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً، ثم يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل عليه، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير. ﴿و﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

نخيل ﴿غير صنوان﴾؛ أي: غير مجتمعات في أصل واحد؛ أي: متفرقات مختلفة الأصول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص[1]: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ برفع هذه الأربع عطفاً على ﴿جنات﴾. وقرأ الباقون بالجر عطفاً على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿صِنْوَانٌ﴾ ـ بكسر الصاد فيهما ـ. وقرأ مجاهد والسلمي وزيد بن علي شذوذاً بضمها.

وقرأ الحسن وقتادة وهو شاذ أيضاً بفتحها، وبالفتح هو اسم للجمع كالسعدان، ولا فرق في تثنيته وجمعه إلا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الإعراب في الجمع. ﴿يُسْقَىٰ﴾ كل واحد مما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ في الطبع، لا اختلاف في طبعه سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار. والماء[2] ضابطه: هو جسم رقيق مائع به حياة كل نام. وقيل في حده: هو جوهر سيال به قوام الأرواح، ومعنى ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾: ماء مطر، أو ماء بحر، أو ماء نهر، أو ماء عين، أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض. ﴿و﴾ مع وجود أسباب التشابه ﴿نفضل﴾ بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا﴾؛ أي: بعضاً منها ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾؛ أي: في الثمر المأكول منها، فيكون[3] طعم بعضها حلواً، والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق، مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه؛ لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين؛ إما اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تُسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحداً.. لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المفضل من أحوال القطع والجنات ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالات كثيرة ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في التدبر، وخص التفضيل في الأكل، وإن كانت متفاضلة في غيره؛ لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات، ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال والألوان والروائح والمنافع، وما يجري مجرى ذلك؛ أي: إن[1] فيما فضل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتلاصقة مع أنها تسقى بماء واحد، وتتشابه وسائل نموها.. يجزم حتماً بأن لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبراً لا يعجزه شيء، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك؛ فهو قادر على إعادة ما بدأه أول مرة، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار.

وقرأ عاصم وابن عامر وزيد بن علي ويعقوب[2]: ﴿يُسۡقَىٰ﴾ ـ بالياء ـ؛ أي: يسقى ما ذكر، وباقي العشرة بالتاء، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وأهل مكة، أنثوا لعود الضمير على لفظ ما تقدم، ولقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنون. وحمزة والكسائي بالياء وابن محيصن بالياء في ﴿يُسۡقَىٰ﴾ وفي ﴿نفضل﴾. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو حيوة والحلبي عن عبد الوارث شذوذاً: ﴿ويفضل﴾ ـ بالياء وفتح الضاد ـ ﴿بعضها﴾ ـ بالرفع ـ. قال أبو حاتم: وجدته كذلك في مصحف يحيى بن يعمر، وهو أول من نقط المصاحف، وتقدم في البقرة خلاف القراء في ضم الكاف من الأكل وسكونها، و﴿ٱلۡأُكُلِۚ﴾ ـ بضم الهمزة ـ المأكول، كالنقض بمعنى المنقوض، وبفتحها المصدر.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ بتحقيق الباء وإدغامها في الفاء قراءاتان سبعيتان كما في «الخطيب». والعجب: تغير النفس برؤية المستبعد في العادة. وقال القرطبي: العجب: تغير النفس بما تخفي أسبابه، وذلك في حق الله تعالى محال، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون. اهـ. «كرخي»؛ أي: وإن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين ﴿فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾؛ أي: فأعجب منه تكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾؛ أي: أنبعث إذا كنا ترابا؟ ﴿أَءِنَّا

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: أنعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله؟ والاستفهام في الموضعين للإنكار.

وقيل المعنى[1]: أي إن عجبت يا محمد إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة، فقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عجب؛ أي: عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء.

وقيل المعنى[2]: أي وإن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد، فعجب قولهم؛ أي: فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: أئذا فنينا وبلينا نعاد بعد العدم، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بدأة ذي بدء، وتصويرهم في الأرحام، وتدبير شوؤنهم حالاً بعد حال. وقد تكرر هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعاً في تسع سور من القرآن، في الرعد والإسراء في موضعين، والمؤمنون والنحل والعنكبوت والسجدة والصافات والواقعة والنازعات، وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستعباد.

وفي «الفتوحات»: يجوز[3] في هذه الجملة الاستفهامية وجهان:

أحدهما: وهو الظاهر: أنها منصوبة المحل لحكايتها بالقول.

والثاني: أنها في محل رفع بدلاً من قولهم، وبه بدأ الزمخشري، وعلى هذا فقولهم بمعنى مقولهم، ويكون بدل كل من كل؛ لأن هذا هو نفس قولهم: و﴿إذا﴾ هنا ظرف محض، وليس فيها معنى الشرط، والعامل فيها مقدر يفسره: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تقديره: أئذا كنا تراباً نبعث أو نحشر، ولا يعمل فيها ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأن ما بعد ﴿إن﴾ وكذا ما بعد أداة الاستفهام لا يعمل فيما قبلها، ولا يعمل فيها أيضاً ﴿كُنَّا﴾؛ لإضافتها إليها، والتقدير: أنبعث في خلق جديد وقت كوننا تراباً.

---

(١) القرطبي.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

واختلف القراء في هذا الاستفهام المكرر اختلافاً منتشراً. فقرأ[1] ابن كثير وأبو عمرو: ﴿آيذا كنا تراباً آينا﴾ جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يمد الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد. وقرأ نافع: ﴿آيذا﴾ مثل أبي عمرو واختلف عنه في المد، وقرأ: ﴿إنا لفي خلق جديد﴾ مكسورة على الخبر، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أإذا كنا﴾ ﴿أإنا﴾ - بهمزتين فيهما -، وقرأ ابن عامر: ﴿إذا كنا تراباً﴾ مكسورة الألف من غير استفهام ﴿آإنا﴾ يهمز ثم يمد ثم يهمز على وزن عاعنا. وروي عن ابن عامر شاذاً أيضاً: ﴿أأذا﴾ بهمزتين لا ألف بينهما. ثم الوجه[2] في قراءة من استفهم في الأول والثاني قصد المبالغة في الإنكار، فأتى به في الجملة الأولى، وأعاده في الثانية تأكيداً له، والوجه في قراءة من أتى به مرة واحدة حصول المقصود به؛ لأن كل جملة مرتبطة بالأخرى، فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى. ا هـ. «سمين».

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث بأوصاف ثلاثة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون لقدرته تعالى على البعث بعدما عاينوا الآيات الباهرة وكذبوا رسوله هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾؛ أي: تمادوا على عنادهم وكفرهم بربهم، فإن إنكار قدرته تعالى إنكار له؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً؛ أي: هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ كائنة ﴿فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ يوم القيامة عند العرض للحساب، توضع الأغلال في أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾. والأغلال: جمع غل؛ وهو طوق تشد به اليد إلى العنق يغلون بها يوم القيامة. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق، والمعنى عليه: وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدهم عن النظر في الحق، واتباع طريق الهدى، والبعد عن الهوى كما قال:

---

(١) زاد المسير. (٢) الفتوحات.

كَيْفَ ٱلرَّشَادُ وَقَدْ خُلِّفْتُ فِيْ نَفَرٍ   لَهُمْ عَنِ ٱلرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المقيدون بالأغلال في أعناقهم هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: سكان النار دار الذل والهوان ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً لا يتحولون عنها ولا يبرحون بها كفاء ما سولت لهم أنفسهم من سوء الأعمال، وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام. وتوسيط[1] ضمير الفصل وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد الحصر؛ أي: هم الموصوفون بالخلود في النار لا غيرهم، وإن خلودهم إنما هو في النار لا في غيرها، فثبت أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول ﷺ في إنكار عذاب يوم القيامة.. ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذي أوعدهم به، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له: جئنا به وائتنا وطلبوا منه إنزاله، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ الاستعجال[2]: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته؛ أي: يطلب مشركو مكة منك يا محمد العجلة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ والعقوبة التي هددتهم بها إن لم يؤمنوا، وسميت العقوبة سيئة؛ لأنها تسوؤهم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ متعلق بالاستعجال؛ أي: قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال؛ أي: يطلبون منك الإتيان بالعقوبة المهلكة لهم قبل انقضاء الزمان المقدر لعافيتهم وسلامتهم.

وذلك أنه ﷺ كان يهدد مشركي مكة تارة بعذاب يوم القيامة، وتارة بعذاب الدنيا، وكلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث، وكلما هددهم بعذاب الدنيا استعجلوه، وقالوا: متى تجيئنا به، فيطلبون العقوبة والعذاب والشر بدل العافية والرحمة والخير استهزاء منهم، وإظهاراً أن الذي يقوله لا أصل له، ولذا قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والله تعالى صرف عن هذه الأمة عقوبة الاستئصال، وأخر

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

تعذيب المكذبين إلى يوم القيامة، فذلك التأخير هو الحسنة في حقهم، فهؤلاء طلبوا منه عليه السلام نزول تلك العقوبة، ولم يرضوا بما هو حسنة في حقهم.

واعلم: أن[1] استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة هو استعجالهم بالكفر والمعاصي قبل الإيمان والطاعات، فإن منشأ كل سعادة ورحمة هو الإيمان الكامل والعمل الصالح، ومنشأ كل شقاوة وعذاب هو الكفر والشرك والعمل الفاسد.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ حال من واو ﴿يستعجلونك﴾؛ أي: يستعجلونك بالعقوبة حالة كونهم قد خلت ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء المشركين ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين لرسلهم كالخسف والمسخ والرجفة، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا، جمع مَثُلَه بفتح الثاء وضمها؛ وهي العقوبة لأنها مثل المعاقب عليه، وهو الجريمة. وفي «التبيان»: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: العقوبات المهلكات يماثل بعضها بعضاً.

والمعنى: أي ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين وقوع ما تنذرهم به، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين، فمن أمة مسخت قردة، وأخرى أهلكت بالرجفة، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك. وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ - بفتح الميم وضم الثاء - ومجاهد والأعمش بفتحهما. وقرأ عيسى بن عمير في رواية الأعمش وأبو بكر بضمهما، وابن وثاب بضم الميم وسكون الثاء، وابن مصرف بفتح الميم وسكون الثاء، وكل هذه القراءة عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: لذو إمهال لهم وتأخير للعذاب عنهم حالة كونهم ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: ظالمين أنفسهم بالمعاصي، أو المعنى: وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده، فتارك فضيحته بها في يوم القيامة، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقب من يشاء منهم حين يشاء، فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال.

أي: وإن ربك[1] يا محمد ليعاقب في الآخرة عقاباً شديداً لمن يجترح السيئات، وهو متمادٍ في غوايته سادر[2] في آثامه، وقد يعجل له قسطاً منه في الدنيا، ويكون جزاءً له على ما سولت له نفسه، كما يشاهد لدى المدمنين على الخمور من اعتلال وضعف، ومرض مزمن، وفقر مدقع، وذل وهوان بين الناس. وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذل بعد العز. وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيستوفي قطه هناك ناراً تكوى بها الجباه والجنوب، وتبدل الجلود غير الجلود، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم؛ ليعتدل الرجاء والخوف كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء. روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ...﴾ إلخ. قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد».

وبعد[3] أن ذكر طعنهم في نبوة محمد ﷺ لقوله بالحشر والمعاد، ثم طعنهم فيه؛ لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال.. ذكر أنهم طعنوا فيه؛ لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة تعنتاً وجحوداً ﴿لَوْلَآ﴾؛ أي: هلاً ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة دالة على صدقه ونبوته ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ إن كان صادقاً فيما

---

(١) المراغي.

(٢) قوله سادر: المتحير وهو أيضاً الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع ا هـ مختار.

(٣) المراغي.

يدعيه من النبوة كعصا موسى وناقة صالح وإحياء عيسى للموتى، وذلك أنهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ. و﴿لَوْلَآ﴾[1] تحضيضية بمعنى هلا، والتنوين في ﴿ءَايَةٌ﴾ للتعظيم؛ أي: آية جلية يستعظمها من يدركها في باديء نظره. والمعنى: ويقول الذين كفروا تعنتاً وعناداً: هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح، فيجعل لنا الصفا ذهباً، ويزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، وقد طلبوا ذلك ظناً منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالفون عليهم السلام. وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوا بها أهلكناهم بذنوبهم، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال.

ولما كان[2] النبي ﷺ راغباً في إجابة مقترحاتهم حُباً في إيمانهم.. بين وظيفته التي أرسل لأجلها، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُنذِرٌ﴾؛ أي: رسول مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون، ولا حاجة إلى إلزامهم بإتيان ما اقترحوا من الآيات، ولو أجيبوا إلى ما اقترحوا لأدى ذلك إلى إتيان ما لا نهاية له؛ لأنه كلما أتى بمعجزة طلبها واحد منهم.. جاء آخر منهم، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء.

والمعنى: أن[3] وظيفتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ـ عاقبة ـ ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾؛ أي: ولكل أمة من الأمم ﴿هَادٍ﴾ لهم إلى سبيل الخير؛ أي: نبي له هداية مخصوصة، وشريعة لائقة بهم مخصوص[١] بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم، يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب. ولما كان الغالب في زمان موسى هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقهم. ولما كان الغالب في أيام عيسى الطب جعل معجزته ما يناسب الطب؛ وهو إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه. ولما كان الغالب في زمان نبينا محمد ﷺ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته فصاحة القرآن، وبلوغه في باب البلاغة إلى حدّ خارج عن قدرة الإنسان، فإذا لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أقرب إلى طريقهم وأليق بطباعهم، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى. أو المراد بالهادي: هو الله تعالى؛ أي: إنما أنت منذر، وليس لك هدايتهم ولكل قوم من الفريقين هاد يهديهم: هادٍ لأهل العناية بالإيمان والطاعة إلى الجنة، وهاد لأهل الخذلان بالكفر والعصيان إلى النار. وهذا القول الأخير مروي[٢] عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والنخعي.

والمعنى: إنما عليك الإنذار يا محمد، والهادي هو الله تعالى يهدي من يشاء. والقول الأول مروي عن عكرمة في رواية أبي الضحى، والمعنى عليه: إنما أنت منذر وأنت هادٍ.

وحاصل المعنى: أي ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الخير فطره الله تعالى على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسيرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشمائل، ويؤيده ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

ووقف ابن كثير[٣] على ﴿هَادٍ﴾ و﴿واقٍ﴾ حيث وقعا، وعلى ﴿وَالٍ﴾ هنا،

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن بتصرف.

(٣) البحر المحيط.

و﴿باقٍ﴾ في النحل بإثبات الياء، وباقي السبعة بحذفها. وفي «الإقناع» لأبي جعفر بن الباذش عن ابن مجاهد الوقف على جميع الباب لابن كثير بالياء، وهذا لا يعرفه المكيون. وفيه عن أبي يعقوب الأزرق عن ورش أنه خيره في الوقف في جميع الباب بين أن يقف بالياء، وبين أن يقف بحذفها، والباب هو كل منقوص منون غير منصرف؛ أي: غير مجرور.

﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؛ أي: الشيء الذي تحمله كل أنثى في بطنها من حين العلوق إلى الولادة من علقة أو مضغة، ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، صبيح أو قبيح، شقي أو سعيد، طويل العمر أو قصيره، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

﴿و﴾ يعلم سبحانه وتعالى ﴿ما تغيض الأرحام﴾ من الغيض؛ وهو النقص؛ أي: يعلم سبحانه ما تنقصه الأرحام ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾؛ أي: وما تزيده في الجثة والمدة والعدد، واختلفوا في ذلك، فقيل: المراد نقص خلقة الحمل وزيادته، كنقص أصبع أو زيادتها. وقيل المراد: نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر أو زيادتها، وقيل المراد: نقص في عدد الولد وزيادته، فقد يكون الولد واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة. قال أهل التفسير[1]: غيض الأرض الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان ذلك نقصاناً في الولد؛ لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم، فإذا خرج الدم نقص الغذاء، فينقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم. وقيل: إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء، وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة، فإن رأت خمسة أيام دماً.. وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل. وقيل: النقصان السقط، والزيادة تمام الخلق.

---

(١) الخازن.

وأقل مدة الحمل ستة أشهر، وغالبه تسعة أشهر، وأكثره أربع سنين عند الشافعي وخمس سنين عند مالك. وفي «إنسان العيون»(١) وقع الاختلاف في مدة حمله ﷺ، فقيل: بقي في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، فيكون ذلك آية، كما أن عيسى عليه السلام ولد في الشهر الثامن كما قيل به مع نص الحكماء على أن من يولد في الشهر الثامن لا يعيش، بخلاف التاسع والسابع والسادس الذي هو أقل مدة الحمل.

وقد قال الحكماء في بيان سبب ذلك(٢): أن الولد عند استكماله سبعة أشهر تحرك للخروج حركة عنيفة أقوى من حركته في الشهر السادس، فإن خرج عاش، وإن لم يخرج استراح في البطن عقيب تلك الحركة المضعفة له، فلا يتحرك في الشهر الثامن، لذلك تقل حركته في البطن في ذلك الشهر، فإذا تحرك للخروج وخرج، فقد ضعف غاية الضعف، فلا يعيش لاستيلاء حركتين مضعفتين له مع ضعفه، وعلى فرض أن يعيش يكون مغلولاً لا ينتفع بنفسه، وذلك لأن الشهر الثامن يغلب فيه على الجنين البرد واليبس، وهو طبع الموت. والأرحام: جمع رحم، وهو مبيت للولد في البطن ووعاؤه. واعلم أن رحم المرأة عضلة وعصب وعروق، ورأس عصبها في الدماغ، وهي على هيئة الكيس، ولها فم بإزاء قبلها، ولها قرنان شبه الجناحين تجذب بهما النطفة، وفيها قوة الإمساك لئلا ينزل من المني شيء. وقد أودع الله تعالى في ماء الرجل قوة الفعل، وفي ماء المرأة قوة الانفعال، فعند الامتزاج يصير مني الرجل كالأنفحة الممتزجة باللبن.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة من الزيادة والنقصان، وخروج الولد والمكث ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في علمه ﴿بِمِقْدَارٍ﴾؛ أي: مقدر بقدر وحدٍّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. وفي «بحر العلوم»؛ أي: مقدر مكتوب في اللوح معلوم قبل كونه قد علم حاله وزمانه ومتعلقه. وفي «التبيان»؛ أي: بحد لا يجاوزه من رزق وأجل ﴿عَلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تعالى عالم كل ما يطلق عليه اسم الغيب؛ وهو ما غاب عن الحس، فيدخل فيه المعلومات والأسرار الخفية والآخرة. وقال بعضهم[1]: كل ما ورد في القرآن من إسناد الغيب إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلينا، إذ لا غيب بالنسبة إلى الله تعالى؛ أي[2]: هو تعالى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها، فقد أثبت العلم حديثاً أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة، بل ترى بالمنظار المعظم ـ التليسوب ـ ومنها الجراثيم ـ المكروبات ـ التي تولد كثيراً من الأمراض التي قد يعسر شفاؤها، أو يتعذر في كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهري، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجدري والحصبة ونحوها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿وَ﴾ عالم ﴿الشهادة﴾؛ أي: كل ما يطلق عليه اسم الشهادة؛ وهو ما حضر للحس، فيدخل فيه الموجودات المدركة والعلانية والدنيا؛ أي: عالم كل ما تشاهدونه وترونه بأعينكم ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: هو تعالى العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء الذي يجل عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين، أو الذي يصغر غيره بالنسبة إلى كبريائه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾؛ أي: المستعلي على كل شيء بقدرته وجبروته، وهو وحده له التصرف في ملكوته. وفي «الكواشي» المترفع عن صفات المخلوقين وقول المشركين. وفي هذا[3] إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذي أنكروه، والآيات التي اقترحوها، والعذاب الذي استعجلوه، وإنما يؤخر

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

ذلك لمصلحة لا يدركها البشر، فيخفى عليه سرها، وفي معنى الآية قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وقرأ زيد بن علي: ﴿عالم الغيب﴾ ـ بالنصب ـ، وأثبت ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو في رواية ياء ﴿الْمُتَعَالِ﴾ وقفاً ووصلاً، وهو الكثير في لسان العرب، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً؛ لأنها كذلك رسمت في الخط. واستشهد سيبويه بحذفها في الفواصل ومن القوافي، وأجاز غيره حذفها مطلقاً، ووجه حذفها مع أنها تحذف مع التنوين وإن تعاقب التنوين، فحذفت مع المعاقب إجراء له مجرى المعاقب. ذكره أبو حيان في «البحر».

ولما ذكر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة على العموم.. ذكر تعالى تعلق علمه بشيء خاص من أحوال المكلفين، فقال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ في نفسه، فلم يظهره على أحد ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾؛ أي: أظهره لغيره. وقال ابن[1] عباس: أي: سواء ما أضمرته القلوب وما أظهرته الألسنة، فهو تعالى يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير أو شر، فإسرار القول ما حدث به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره. فـ﴿من﴾[2] مبتدأ خبره ﴿سواء﴾، و﴿مِنْكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿سَوَاءٌ﴾؛ لأنه بمعنى مستو، ولم يثن الخبر مع أنه خبر عن شيئين، وهما الشخصان المرادان بـ﴿من﴾. والمعنى: مستو في علم الله تعالى من أضمر القول في نفسه، ومن أظهره بلسانه منكم أيها الناس؛ أي: من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به، أو جهر به وأظهره؛ فهو سواء عند الله تعالى يسمعه ولا يخفى عليه شيء منه، كما قال: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: وسواء في علم الله تعالى من هو مختف مستتر بظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾؛ أي: ومن هو ماشٍ في سربه وطريقه ظاهر بضوء النهار، فكلاهما في علم الله تعالى سواء. وروي عن ابن عباس في تفسير

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

ذلك: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أري الناس أنه بريء من الإثم. ومعنى الآية: سواء ما أضمرت به القلوب، أو نطقت به الألسن، وسواء من أقدم على القبائح مستتراً في ظلمات الليل، أو أتى بها ظاهراً في النهار.. فإن علمه تعالى محيط بالكل.

﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لكل ممن أسر أو جهر والمستخفي والسارب، أو لعالم الغيب والشهادة، أو لكل إنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: ملائكة حفظة يتعاقبون عليه ويتناوبون به، يعقب وينوب بعضهم بعضاً في المجيء إلى من ذكر، وحفظه من المضار وكتب أعماله ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ أي: من قدام ذلك الإنسان ومن ورائه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار، ويراقبون أحواله لا يفارقونه، كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلان حافظان وكاتبان كما جاء في الحديث الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون».

وإذ علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصي عليه أعماله كان حذراً من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون، ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات، كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحيي منه من البشر، وهو أيضاً إذا علم أن كل عمل له في كتابٍ مدخر يكون ذلك رادعاً له داعياً إلى تركه. وقال الصاوي: وهذه الآية من تدبرها وعمل بمقتضاها أورثته الإخلاص في أعماله، فيستوي عنده إسرار العبادة وإظهارها ليلاً أو نهاراً، والمراقبة؛ لأنه إذا علم أن هذه الأشياء مستوية عنده ولا يخفى عليه شيء منها.. فلا يستطيع أن يقدم على ما نهي عنه ظاهراً ولا باطناً انتهى. وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل

بعد أن أثبته الدين، وبعد أن كشف العلم أن كثيراً من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لا تدع منها شيئاً إلا تحصيه. فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تعد بالآلات ـ العدادات ـ، فالمياه التي يشربونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتعد كما يعد الدرهم والدينار. وكذلك هناك آلات تحصي المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها، وأخرى تحصي تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها، وكلما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائباً عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين، ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لا يقرون إلا بما يرونه رأي العين، ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم، وبهذا يصدق قول القائل: الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان، وصديقان لا يختلفان.

والمعنى: له[1] ملائكة يتعاقب بعضهم بعضاً كائنون من أمام الإنسان ووراء ظهره؛ أي: يحيطون به من جوانبه ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يحفظون من ذكر؛ أي: من بأسه ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب من ذنبه أو ينيب، أو يحفظونه من المضار التي أمر الله بالحفظ منها. قال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما يأتيه منهم شيء يريده إلا قال: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. أو المعنى: هم يحفظونه[2] بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته، فـ﴿من﴾ بمعنى الباء، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسباباً محسوسة ربط بها مسبباتها بحسب ما اقتضته حكمته، فجعل الجفن سبباً لحفظ العين مما يدخل فيها فيؤذيها، كذلك جعل لغير المحسوسات أسباباً، فجعل الملائكة أسباباً للحفظ، وأفعاله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح. وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراماً كاتبين، وإن كنا لا ندري ما قلمهم وما مدادهم،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وكيف كتابتهم، وأين محلهم، وما حكمة ذلك مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كافٍ في الثواب والعقاب عليها، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام.. كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب.

وقرأ عبيد بن زياد على المنبر[1]: ﴿له المعاقب﴾، وهي قراءة أبيّ وأبراهيم. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿له معاقيب﴾. قال أبو الفتح: هو تكسير ﴿معْقب﴾ - بسكون العين وكسر القاف - كمطعم ومطاعم ومقدم ومقاديم، وكأن معقباً جمع على معاقبة، ثم جعلت الياء عوضاً عن الهاء المحذوفة في معاقبة. وقرىء: ﴿له معتقبات﴾ من اعتقب. وقرأ أبي من بين يديه ورقيب من خلفه. وقرأ ابن عباس: ﴿ورقباء من خلفه﴾ وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ له: ﴿معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه﴾. وينبغي حمل هذه القراءات على التفسير لا أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون فهي كلها شاذة. وقرأ علي وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد: ﴿يحفظونه بأمر الله﴾. وتدل هذه القراءة الشاذة على كون ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء السببية في قراءة: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والأمن والنعمة والرزق، ولا يزيله عنهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾؛ أي: حتى يتركوا ما يلزمهم من الشكر، وينقلبوا من الأحوال الجميلة إلى القبيحة. وعبارة «البيضاوي»: أن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية، فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض، وارتكابهم للشرور والموبقات التي تقوض نظم المجتمع، وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم، فعند ذلك تحل نقمته بهم، وهو

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: فلا راد له عنهم؛ أي: لم تغن المعقبات شيئاً، فلا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه؛ أي: وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا في الأسباب التي تصل بهم إلى هذه الغاية، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، ولا يرد ما قدره لهم. وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة، وطلب العقاب قبل الثواب، فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له.

والخلاصة: أنه ليس من الحكمة في شيء أن يستعجلوا ذلك، ولما[1] كان سياق الكلام في الانتقام من العصاة اقتصر على قوله: ﴿سوءاً﴾ وإلا فالسوء والخير إذا أراد الله تعالى شيئاً منها.. فلا مرد له، فذكر السوء مبالغة في التخويف.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ أي: وما لهؤلاء القوم الذين أراد الله هلاكهم من دون الله سبحانه وتعالى ﴿مِن وَالٍ﴾؛ أي: وال يلي أمورهم، فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، فالآلهة التي اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك، ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها. والوالي من أسمائه تعالى، وهو من ولي الأمور وملك الجمهور، والولاية: تنفيذ القول على الغير شاء الغير أم لا، ولله در الأعرابي الذي رأى صنماً يبول عليه الثعلب، فثارت به حميته، فأمسكه وكسره إرباً إرباً، وقال:

أَرَبٌّ يَبُوْلُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

الإعراب

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الٓمٓرۚ﴾ قد تقدم الكلام في هذه الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة، وإن قلنا إنه اسم للسورة فهو مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه السورة اسمها آلمر، وعلة بنائه شبهه بالحرف شبهاً وضعياً، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير: آلمر هذا المذكور بقولنا: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾. ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة يشار به إلى آيات هذه السورة في محل الرفع مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿الذي﴾: مبتدأ. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق أيضاً بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: جار ومجرور ومضاف حال من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿تَرَوْنَهَاۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَفَعَ﴾. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلْقَمَرَۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة

معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بصفة محذوفة تقديره: كل منهما. ﴿يَجْرِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلٌّ﴾. ﴿لِأَجَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿لِأَجَلٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: حالة كون كل منهما جارياً إلى أجل مسمى. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ثم استوى على العرش حالة كونه يدبر الأمر، أو الجملة مستأنفة. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿يُدَبِّرُ﴾. ﴿لَعَلَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إله متعلق بـ﴿تُوقِنُونَ﴾، وجملة ﴿تُوقِنُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: تعليلية مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿مَدَّ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾؛ لأنه بمعنى خلق. ﴿رَوَٰسِىَ﴾: مفعول به بـ﴿جعل﴾. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: معطوف على ﴿رَوَٰسِىَ﴾. ﴿وَمِن﴾ (الواو): عاطفة. ﴿من كل الثمرات﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ المذكور بعده. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿زَوْجَيْنِ﴾: مفعول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: صفة مؤكدة لـ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجملة ﴿جَعَلَ﴾: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾: فعل ومفعول أول. ﴿ٱلنَّهَارَ﴾: مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من ضمير الفاعل في الأفعال التي قبله، أعني: رفع وسخر، ويدبر ويفصل، ومد وجعل كما ذكره أبو البقاء. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور

خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: (اللام): ابتداء. ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾. وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿قِطَعٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: صفة لـ﴿قِطَعٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾: معطوف على ﴿قِطَعٌ﴾. ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾: صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾: معطوفان على ﴿قِطَعٌ﴾. ﴿صِنْوَانٌ﴾: صفة لـ﴿نخيل﴾ مرفوع بالضمة الظاهرة؛ لأنه جمع تكسر لـ﴿صنو﴾. ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: معطوف على ﴿صِنْوَانٌ﴾ على كونه صفة لـ﴿نخيل﴾. ﴿يُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المذكور من ﴿جنات﴾ وما بعدها. ﴿بِمَآءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُسْقَىٰ﴾. ﴿وَٰحِدٍ﴾: صفة لـ﴿ما﴾، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جنات﴾ وما بعدها، أو حال منها. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي ٱلْأُكُلِ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، واللام حرف ابتداء. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَعْجَبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فَعَجَبٌ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿عجب﴾: خبر مقدم. ﴿قَوْلُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر، ولا بد من حذف صفة لتتم الفائدة؛ أي: فعجب؛ أي: عجب قولهم، ويجوز أن يكون عجب مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة حينئذٍ ما ذكرته من الوصف المقدر، ولا يضر

حينئذٍ كون خبره معرفة. ا هـ. «سمين»، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية متعلق بمحذوف معلوم مما بعده تقديره: أنبعث إذا كنا تراباً. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُرَٰبًا﴾: خبرها، وجملة كان في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ تقديره: أنبعث وقت كوننا تراباً لا نبعث حينئذٍ، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لقولهم. ﴿أَءِنَّا﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾: جار ومجرور خبره، واللام حرف ابتداء. ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول لقولهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِرَبِّهِمْۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: مبتدأ ثان. ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأولى مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأولى. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: متعلق بـ﴿يستعجلونك﴾، أو حال من ﴿السيئة﴾. ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل

ماضٍ. ﴿مِن قَبۡلِهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَتۡ﴾. ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يستعجلونك﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾: خبره ومضاف إليه، (واللام): حرف ابتداء. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الناس﴾. وقال أبو البقاء: والعامل فيها ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ بمعنى أنه العامل في صاحبها، والتقدير: حالة كونهم ظالمين أنفسهم بالمعاصي، فيجوز العفو قبل التوبة؛ لأن قوله: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾؛ أي: حال اشتغالهم بظلم. ا هـ. «كرخي». ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾: مقول محكي لـ﴿يقول﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَةٞ﴾: نائب فاعل لـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةٞ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه مجرور بالفتحة المقدرة؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث المقصورة، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تحمله كل أنثى. ﴿وَمَا﴾: معطوف على

﴿مَا﴾ الأولى. ﴿تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تغيضه الأرحام. ﴿وَمَا﴾: معطوفة أيضاً على ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿تَزْدَادُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْحَامُ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تزداده الأرحام. ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، أو صفة لـ﴿كل﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿بِمِقْدَارٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر المبتدأ محذوف تقديره: هو عالم الغيب. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: صفة لـ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو خبر لمحذوف. ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للوقف؛ لأنه رأس آية، ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها. ذكره أبو البقاء، وحذفت في الخط تبعاً للفظ. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ لأنه بمعنى مستو. ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَمَن جَهَرَ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿مَّنْ﴾ الأولى. ﴿جَهَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والتقدير: من أسر القول ومن جهر به مستويان في علمه تعالى حالة كونهما كائنين منكم. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿مَّنْ﴾ الأولى. ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَخْفٍۭ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَسَارِبٌۢ﴾: معطوف على ﴿مُسْتَخْفٍۭ﴾. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾: متعلق به، والتقدير: ومن هو مستتر بظلام الليل، ومن هو ظاهر بضوء النهار مستويان في علمه تعالى.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: معطوف عليه، ويجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾؛ أي: يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. فإن قلت: كيف يتعلق حرفان متحدان لفظاً ومعنىً بعامل واحد، وهما ﴿مِّنۢ﴾ الداخلة على ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ و﴿مِنۡ﴾الداخلة على ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؟.. فالجواب أن ﴿مِنۡ﴾ الثانية مغايرة للأولى في المعنى كما مر، وسيأتي في مبحث الصرف. اهـ. «سمين». ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغَيِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿بِقَوۡمٍ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿مَا﴾: مفعول به. ﴿بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى تغييرهم ما بأنفسهم، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾. ﴿وَإِذَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرطها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿بِقَوۡمٖ﴾: متعلق بـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿سُوٓءٗا﴾: مفعول به لـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب إذا وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿مَرَدَّ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة. ﴿وَمَا لَهُم﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية أو تميمية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر ﴿مَا﴾

مقدم على اسمها، أو خبر مقدم للمبتدأ. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَالٍ﴾: اسم ﴿مَا﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما والٍ كائناً، أو كائن لهم حالة كونه كائناً من دونه تعالى، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب ﴿إذا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ العمد: السواري والأساطين، واحدها عمود كأدم وأديم، وقرىء: ﴿عُمُد﴾ - بضمتين - فيكون جمع عماد كشهب وشهاب، وكتب وكتاب، أو جمع عمود كرسل ورسول هذا في الكثرة، ويجمعان في القلة على أعمدة كما في «البحر».

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ والتسخير: التذليل والطاعة. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والتدبير: التصريف للأمور على وجه الحكمة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والتفصيل: التبيين، والآيات هي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر. ﴿تُوقِنُونَ﴾ واليقين: العلم الثابت الذي لا شك فيه.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بسطها طولاً وعرضاً. قال الأصم: المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ والراسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل، واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو وتثبت بها، وتمسكها من الاضطراب.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: واحدها نهر؛ وهو المجرى الواسع من الماء؛ أي: مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد: جعل فيها مجاري الماء.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والثمرات: جمع ثمرة، والثمرة: غلة الشجر ومنافعه، والعرب تسمي الاثنين زوجين، والواحد من الذكور زوجاً لأنثاه، والأنثى زوجاً وزوجة لذكرها؛ أي: جعل من كل نوع من أنواع الثمرات

الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين؛ إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالكبير والصغير، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يستر النهار بالليل، ومعنى تغطية هذا بذلك: الإتيان به مكانه؛ أي: الإتيان به بدله، وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهوره في الأرض، فإن الليل إنما هو ظلها، وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً. ا هـ. «أبو السعود».

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والفكر: هو تصرف القلب في طلب الأشياء. وقال صاحب «المفردات» الفكر: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك الإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب، ولهذا روي: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله؛ إذ الله منزه أن يوصف بصورة. ا هـ. «خازن».

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾؛ أي: بقاع جمع قطعة. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾؛ أي: متقاربات. ﴿وَنَخِيلٌ﴾ والنخل والنخيل بمعنى، والواحد نخلة. ا هـ. «مختار». لكن النخل يذكر ويؤنث، والنخيل مؤنث لا غير كما في «المصباح».

﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع كثرة لصنو، وجمعه في القلة أصناء كحمل وأحمال، والعامة على كسر الصاد. والصنو الفرع يجمعه وآخر أصل واحد، وأصله المثل، ومنه قيل للعم: صنو ومنه الحديث: «عم الرجل صنو أبيه» وجمعه في لغة الحجاز صَنوان ـ بفتح الصاد ـ وهو اسم جمع لا جمع تكسير؛ لأنه ليس من أبنيته، فالصنوان: هي النخلات يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها ذكره في «البحر».

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ الأكل ـ بضمتين وإسكان الثاني للتخفيف ـ المأكول. ا هـ. «مصباح». والمراد به هنا الثمر والحب، فالثمر من النخيل والأعناب، والحب من الزرع.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ﴾ والعجب: تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة؛ أي: حقيق بالعجب قولهم الخ. ﴿جَدِيدٍۗ﴾ ضد الخلق والبالي، ويقال: ثوب جديد؛ أي: كما فرغ من عمله، وهو فعيل بمعنى مفعول، كأنه كما قطع من النسج، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ جمع غُل بالضم، وهو طوق من حديد يجعل في العنق. ا هـ. «خازن».

﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ - بفتح فضم - جمع مثلة - بفتح فضم - كسَمُرة؛ وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثراً قبيحاً كصلم أذن، أو جدع أنف، أو سمل عين.

﴿لَذُو مَغۡفِرَةٍ﴾ والغفر هنا: الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ والمراد بالآية هنا الآيات الحسية، كقلب عصا موسى حية وناقة صالح.

﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ والهادي: القائد الذي يقود الناس إلى الخير، كالأنبياء والحكماء والمجتهدين.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ الغيض: النقصان، يقال: غاض الماء وغضته كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ والمراد بالعندية: عندية علم يعني: أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه. ا هـ. «خازن».

﴿بِمِقۡدَارٍ﴾؛ أي: بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه، والغائب: ما غاب عن الحس، والشاهد: الحاضر المشاهد ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: العظيم الشأن. وفي «الخازن»: الكبير: الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه. والمتعالي: المستعلي على كل شيء بقهره وجبره ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾؛ أي: مستو منكم.

﴿مَّنۡ أَسَرَّ﴾ أسرَّ الشيء إذا أخفاه في نفسه، والمستخفي المبالغ في

الاختفاء، والسارب الظاهر من قولهم: سرب إذا ذهب في سربه؛ أي: طريقه. وفي «المصباح»: سرب في الأرض سروباً ـ من باب قعد ـ ذهب، وسرب الماء سروباً وسرب المال سرباً من باب قتل، رعى نهاراً بغير راع؛ فهو سارب، وسرب تسمية بالمصدر، والسرب أيضاً: الطريق، ومنه يقال: حل سربه؛ أي: طريقه. والسرب ـ بالكسر ـ النفس، وهو واسع السرب؛ أي: رخي البال، ويقال: واسع الصدر بطيء الغضب. والسَرَب ـ بفتحتين ـ بيت في الأرض لا منفذ له؛ وهو الوكر. ا هـ.

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: ملائكة تعتقب في حفظه، وكلاءته، واحدها معقبة من عقبة؛ أي: جاء عقبه. وفي «السمين»: وفي معقبات احتمالان:

أحدهما: أن يكون جمع معقبة بمعنى معقب، والتاء للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة؛ أي: ملك معقب، ثم جمع هذا كعلامات ونسابات.

والثاني: أن يكون معقبة صفة لجماعة، ثم جمع هذا الوصف كجمل وجمَّال وجمالات. ا هـ.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ أي: قدامه. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ أي: من ورائه.

﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بأمره وإعانته، و﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء السببية.

﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾؛ أي: فلا ردَّ، فهو مصدر ميمي بمعنى الراد.

﴿مِن وَالٍ﴾؛ أي: ناصر فـ﴿من﴾ زائدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي؛ للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها.

ومنها: الدلالة على التفخيم بإدخال آل على الكتاب؛ أي: تلك آيات

الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ لأنه كناية عن تذليلهما لما يراد منهما؛ وهو انتفاع الخلق بهما حيث يعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ينوران لهم في الليل والنهار، ويدرآن الظلمات، ويصلحان الأرض والأبدان والأشجار والنباتات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ شبه إحداث ظلمة الليل في الجو الذي هو مكان الضوء بإغشاء الأغطية الحسية على الأشياء الظاهرة بجامع الستر في كل، فأطلق اسم الإغشاء والإلباس على ذلك الإحداث، فاشتق منه يغشي بمعنى يحدث على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ لأنه تأكيد لزوجين.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ لأن في الكلام حذفاً على ما قيل؛ أي: قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾.

ومنها: تكرير الهمزة في قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾: لتأكيد الإنكار بالبعث.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي قوله: ﴿أَءِنَّا﴾.

ومنها: تقديم الظرف في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأن توسيط ضمير الفصل وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد الحصر؛ أي: هم الموصوفون بالخلود في النار لا غيرهم، وإن خلودهم إنما هو في النار لا في غيرها، فثبت أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، ذكره في «روح البيان».

ومنها: العدول عن الإضمار إلى الموصول ذمّاً لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ﴾... الخ. ا هـ. «أبو السعود».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تَغِيضُ﴾ و﴿تَزْدَادُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وفي قوله: ﴿أَسَرَّ﴾ و﴿جَهَرَ﴾، وفي قوله: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و﴿وَسَارِبٌ﴾؛ لأن السارب الظاهر، وكلها من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ
فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ
كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
(١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ
ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ (١٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(١) خوف عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم، فلا يدفعه أحد.. أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً، وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن كل من في السماوات والأرض خاضع لقدرته منقاد لإرادته بالغدو والآصال، وفي كل وقت وحين، طوعاً أو

---

(١) البحر المحيط والمراغي.

كرهاً بحسب ما يريد.. أعاد الكلام مع المشركين؛ ليلزمهم الحجة، ويقنعهم بالدليل، ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته تعالى وشمول قدرته وإرادته، وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ضرب مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر.. ضرب مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه، ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء، وما أعد لكل منهما يوم القيامة، وبين أن حاليهما لا يستويان عنده، وأن الذي يعي تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] النسائي والبزار عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تعالى فقال: إيش ربك الذي تدعوني إليه؟ أمن حديد، أم من نحاس، أو من فضة، أو من ذهب؟ فأتى النبي ﷺ، فأخبره فأعاد الثانية والثالثة، فأرسل الله عليه صاعقة، فأحرقته، ونزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ...﴾ إلى آخرها.

وروي في أسباب نزولها: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما ذلك، فقال له عامر لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك وابنا قيلة» ـ الأنصار من الأوس والخزرج ـ ثم أنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ، فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر

---

(١) لباب النقول.

يستلّ سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة وانطلقا في أحياء العرب يجمعان لحربه، فأرسل الله تعالى على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأرسل الطاعون على عامر، فخرجت فيه غدة كغدة البكر، فآوى إلى بيت سلولية، وجعل يقول: يا غدة كغدة البكر وموت في سلولية حتى مات، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أيها الكفار المكذبون لرسولنا، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب، وأسند[1] الإراءة إلى ذاته؛ لأنه الخالق في الأبصار نوراً يحصل به الرؤية للخلائق حالة كونكم ﴿خَوْفًا﴾؛ أي: خائفين[2] من وقوع الصواعق، وخراب البيوت بالمطر ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿طمعاً﴾؛ أي: طامعين في نزول الغيث وحصول بركته، أو حالة كون البرق ذا خوف لمن له في المطر ضرر كالمسافر، وكمن يجفف التمر والزبيب والقمح وذا طمع لمن له في نفع كالحراث. فإن[3] المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ولبعضها رحمة، فيخاف منه المسافر ومن في خزينته التمر والزبيب، ومن له بيت لا يكف المطر، ويطمع فيه المقيم وأهل الزرع والبساتين، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، فإن انتفاعهم إنما هو بالنيل، وبالمطر يحصل الوطر.

والمعنى: أنه[4] سبحانه وتعالى يسخر البرق، فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن في جرينه التمر والزبيب للتجفيف، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقي زرعه، وهكذا حال كل شيء في الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه في أوانه، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه ﴿و﴾ هو الإله الذي ﴿ينشيء﴾؛ أي: يخلق ويوجد ﴿ٱلسَّحَابَ﴾ ويرفع الغمام المنسحب في الجو؛ أي: يبتدىء إنشاء السحاب؛ أي: خلقه. وفيه دلالة على أن السحاب

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

يعدمه الله تعالى، ثم يخلقه جديداً، والسحاب اسم جنس، والواحدة سحابة، ولذلك وصف بقوله: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر، جمع ثقيلة، وقيل: جمع له كما في «الخازن». والسحاب: غربال[1] الماء. قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: السحاب: الغيم فيه ماء، أو لم يكن فيه ماء، ولهذا قيل: سحاب جهام؛ وهو الخالي من الماء، وأصل السحب الجرّ، وسمي السحاب سحاباً؛ إما لجر الريح له، أو لجره الماء، أو لانجراره في سيره. واختلف[2] في أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب، أو يخلقه الله في السحاب فيمطر. وفي «حواشي ابن الشيخ»: السحاب: جسم مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية، وهذه الأجزاء المائية المشوبة بالأجزاء الهوائية إنما حدثت وتكونت في جو الهواء بقدرة المحدث القادر على ما شاء، والقول بأن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض، فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت، فثقلت فرجعت إلى الأرض باطل؛ لأن الأمطار مختلفة، فتارة تكون قطرتها كبيرة، وتارة تكون صغيرة، وتارة متقاربة، وتارة متباعدة، وتارة تدوم زماناً طويلاً، وتارة لا تدوم، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وكذا طبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد أن يكون ذلك بتخصيص الفاعل المختار، وأيضاً فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل المختار لا الطبيعة والخاصية انتهى.

والمعنى: وهو الذي يوجد السحاب منشأة جديدة ممتلئة ماء، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض ﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإله الذي ﴿يسبح الرعد﴾؛ أي: يسبحه وينزهه، ويقدسه من النقائص، ملك الرعد حالة كونه ملتبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى. قيل: الرعد: اسم ملك موكل بالسحاب، والصوت المسموع لنا هو صوته بالتسبيح، يسوق بصوته السحاب كما يسوق الحادي الإبل بحدائه، فإذا

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

سبح أوقع الهيبة على الخلق كلهم حتى الملائكة. وقيل: هو صوت الإله الذي يتولد عند ضرب السحاب بها.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب، ومعه مخاريق؛ أي: آلات من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره السحاب» أخرجه الترمذي وغيره وصححه. وقيل: الرعد: صوت السحاب، وتسبيحه هو دلالته على وحدانية الله تعالى.

وعن ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابه صاعقة فعلى دينه، وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وكان يقول: إن الوعيد لأهل الأرض شديد.

وفي الحديث: «البرق والرعد وعيد لأهل الأرض، فإذا رأيتموه فكفّوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار».

والخلاصة: أي أن[2] في صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه عن الشريك والعجز، كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير. ونحو الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وأخرج ابن مردويه عن أبي

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

هريرة ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ﷺ إذا هبت الريح أو صوت الرعد.. تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه، ثم يقول للرعد: «سبحان من سبحت له»، وللريح: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً».

﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإله الذي تسبح جميع ﴿الملائكة﴾ الكرام ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾؛ أي: من خوفه سبحانه وتعالى وهيبته وجلاله، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد والأنداد. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ عطف عام على خاص، وإنما[1] أفرد ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ بالذكر مع دخوله في ﴿الملائكة﴾ تشريفاً له على غيره من الملائكة، فهو كقوله: ﴿وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾؛ أي: ويسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وهيبته وجلاله، وذلك لأنه إذا سبح الرعد ـ وتسبيحه ما يسمع من صوته ـ لم يبق ملك إلا رفع صوته بالتسبيح، فينزل المطر والملائكة خائفون من الله تعالى، وليس خوفهم كخوف بني آدم، فإنه لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء أصلاً.

﴿و﴾ هو سبحانه وتعالى الإله الذي ﴿يرسل الصواعق﴾ وينزلها من السماء ﴿فَيُصِيبُ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الصواعق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها من عباده فيهلكه. والصواعق[2] جمع صاعقة؛ وهي نار لا دخان لها تسقط من السماء وتتولد في السحاب، وهي أقوى نيران هذا العالم، فإنها إذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان تحت البحر، والصاعقة تصيب المسلم وغيره ولا تصيب الذاكر. يقول الفقير: لعل وجهه أن الصاعقة عذاب عاجل، ولا يصيب إلا الغافل، وأما الذاكر فهو مع الله ورحمته، وبين الرحمة والغضب تباعد. وقولهم: تصيب المسلم ـ يشير إلى أن المصاب بالصاعقة على حاله من الإيمان والإسلام، ولا أثر لها فيه كما في اعتقاد بعض العوام.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

وجملة قوله: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: يخاصمون في الله، وينازعون في شأنه وفيما وصفه به الرسول ﷺ من كمال العلم والقدرة والتفرُّد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب جملة مستأنفة، أو في محل الحال مِنْ مَنْ وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها كما في «السمين».

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾؛ أي: شديد[1] المماحلة والمكايدة والمعاقبة لأعدائه؛ أي: شديد الأخذ بالعقوبة يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذاباً من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه، ولا قوة على رده، لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقضيه الحكمة كما صح في الحديث: «إن ربك لا يهمل ولكن يمهل» ومثل الآية قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، وقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾.

قال ابن جرير في تفسير ذلك[2]: والله شديد في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره؛ أي[3]: شديد المكر والكيد لأعدائه يهلكهم من حيث لا يحتسبون، من محل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه تمحل لكذا إذا تكلف في استعمال الحيلة واجتهد فيه، فالجملة حال من الجلالة. وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام، وإنكارهم كون الذي جاء به عليه السلام آيةً.. سلاه بما ذكر كأنه قال له: إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة، بل تخطوه إلى الألوهية، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في الله باتخاذ الشركاء، وإثبات الأولاد له، ومع إحاطة علمه وشمول

---

(١) الفتوحات.

(٢) الطبري.

(٣) روح البيان.

قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكايدة والعناد.. فهون عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.
وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ - بكسر الميم -، وقرأ الضحاك والأعرج شذوذاً: ﴿المَحَال﴾ - بفتح الميم - وفسرت هذه القراءة بالحول.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: له سبحانه وتعالى لا لغيره، وتقديم[2] الخبر لإفادة التخصيص، دعوة الحق؛ أي: الدعاء الحق على أن يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، والدعوة بمعنى العبادة، والحق بمعنى الحقيق اللائق الغير الباطل، والمعنى: إن الدعوة التي هي التضرع والعبادة قسمان: ما يكون حقاً وصواباً، وما يكون باطلاً وخطأً. فالتي تكون حقاً منها مختصة به تعالى لا يشاركه فيها غيره، أو له الدعوة المجابة على أن يكون الحق بمعنى الثابت الغير الضائع الباطل، فإنه الذي يجيب لمن دعاه دون غيره. قال في «المدارك»: المعنى: إن الله يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي السائل الداعي سؤاله، فكانت دعوة ملابسة لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء بخلاف ما لا ينفع دعاؤه.

وعبارة الشوكاني هنا: إضافة[3] الدعوة إلى الحق للملابسة؛ أي: الدعوة الملابسة للحق والصدق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه، كما يقال كلمة الحق، والمعنى: إن له تعالى دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من دونه. وقيل: هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: إن لله سبحانه دعوة المدعو الحق، وهو الذي يسمع فيجيب. وقيل: المراد بدعوة ها هنا: كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى: لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له، وإنه شرعها وأمر بها. وقيل: دعوة الحق، دعاؤه سبحانه عند الخوف، فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. وقيل: الدعوة: العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصدق انتهت. وفي هذا[4]

---

(1) البحر المحيط.
(2) روح البيان.
(3) الشوكاني.
(4) المراغي.

وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله ﷺ بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾؛ أي: والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم من دونه تعالى متجاوزين إليهم، فحذف العائد، أو والكفار الذين يدعون الأصنام من دونه تعالى، فحذف المفعول لا يجيبونهم؛ أي: لا يجيب الأصنام. وعبر عن الأصنام بضمير العقلاء؛ لمعاملتهم إياها معاملة العقلاء؛ أي: لا تجيب الأصنام لداعيها بشيء مما يريدونه من نفع أو ضر. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ استثناء مفرغ من عام المصدر؛ أي: لا يستجيبونهم استجابةً إلا استجابةً مثل استجابة الماء لمن يبسط ويمد يديه إليه ﴿لِيَبۡلُغَ﴾ الماء ﴿فَاهُ﴾؛ أي: يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده ليصل إلى فمه ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾؛ أي: ببالغ فيه؛ لأنه جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فيه، وكذا ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم، ففي الكلام تشبيه مركب تمثيلي، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والمعنى: أنه تعالى شبه من يعبد الأصنام بالرجل العطشان الذي يرى الماء بعينه من بعيد، فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعو بلسانه، فلا يأتيه أبداً، هذا معنى قول مجاهد. وعن عطاء: كالعطشان الجالس على شفير البئر، فلا يبلغ إلى قعر البئر ليجر الماء ولا الماء يرتفع إليه، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء، ودعاؤه له، ولا هو يبلغه. اهـ. «خازن».

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأصنامهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: إلا[1] في ضياع وخسار وبطلان؛ لأن الآلهة لا تقدر على إجابتهم، وأما دعاؤهم له تعالى فالمذهب جواز استجابته، وقد أجاب الله دعاء إبليس وغيره، ألا ترى أن فرعون كان يدعو الله في مكانٍ خال عند نقصان النيل فيستجيب الله دعاؤه ويمده، فإذا كان الله لا

---

(١) روح البيان.

يضيع دعاء الكافرين، فما ظنك بالماء. أو المعنى[1]: وما عبادة الكافرين إلا في ضياع لا منفعة فيها؛ لأنهم إن عبدوا الأصنام لم يقدروا على نفعهم، وإن عبدوا الله لم يقبل منهم لإشراكهم. وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ ـ بالياء ـ، وقرىء بالتاء. وقرىء على هذه القراءة الشاذة: ﴿كباسطٍ كفيه﴾ ـ بتنوين باسط ـ ويكون في قوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾ التفات.

ثم بين عظيم قدرته تعالى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿يَسۡجُدُ﴾ حقيقة بوضع الجبهة على الأرض ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وأرواح الأنبياء والمؤمنين ﴿و﴾ من في ﴿الأرض﴾ من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ﴿طَوۡعٗا﴾؛ أي: حالة كونهم طائعين مختارين في حالة السعة والرخاء ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿كرها﴾؛ أي: كارهين حالة الشدة والضرورة. أو المعنى: والله يعبد من في السماوات ومن في الأرض من الملائكة وبعض المؤمنين من الثقلين حالة كونهم طائعين بسهولة ونشاط، وحالة كونهم كارهين للعبادة بمشقة لصعوبة ذلك على بعض المؤمنين. وقوله: ﴿كرهاً﴾ راجع لمن ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقط. ﴿و﴾ يسجد لله سبحانه وتعالى ﴿ظلالهم﴾؛ أي: ظلال من في السماوات والأرض بالعرض؛ أي: تبعاً لذي الظل؛ أي: ظلال من له ظل منهم، وهو الإنس لا الجن ولا الملك؛ إذ لا ظل لهما. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ أي: في البكر والعشايا، فالباء بمعنى في الظرفية متعلقة بـ﴿يَسۡجُدُ﴾، ويجوز أن يراد بالسجود معناه المجازي، وهو انقيادهم لأحداث ما أراده الله فيهم شاؤوا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص، ونقلها من جانب إلى جانب، فالكل مذلل ومسخر تحت الأحكام والتقدير:، والغدو: جمع غداة؛ وهي البكرة. والآصال: جمع أصيل؛ وهو العشي من حين زوال الشمس إلى غيبوبتها كما في «بحر العلوم». وقال في «الكواشي» وغيره الأصيل: ما بين صلاة العصر وغروب الشمس؛ أي: يسجد في هذين الوقتين، والمراد بهما الدوام؛ لأن السجود سواء أريد به حقيقته، أو الانقياد والاستسلام لا اختصاص له بالوقتين، وتخصيصهما ـ مع أن انقياد الظلال

---

(١) المراح.

وميلانها من جانب إلى جانب، وطولها بسبب انحطاط الشمس، وقصرها بسبب ارتفاعها ـ لا يختص بوقت دون وقت، بل هي مستسلمة منقادة لله تعالى في عموم الأوقات؛ لأن الظلال إنما تزداد وتعظم فيهما. وقيل: لأنهما طرفا النهار، فيدخل وسطه فيما بينهما. وجاء[1] بـ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنها من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك.

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة. وقد سبق[2] في آخر الأعراف ما يتعلق بسجدة التلاوة، فارجع إليه إن شئت. وأما سجدة الشكر؛ وهي أن يكبر ويخر ساجداً مستقبل القبلة، فيحمده تعالى ويشكره، ويسبح ثم يكبر، فيرفع رأسه. وقال الشافعي: يستحب سجود الشكر عند تجدد النعم كحدوث ولد، أو نصر على الأعداء ونحوه، وعند دفع نقمة كنجاة من عدو أو غرق ونحو ذلك. وعن أبي حنيفة ومالك: أن سجود الشكر مكروه، ولو خضع فتقرب لله تعالى بسجدة واحدة من غير سبب فالأرجح أنه حرام. قال النواوي: ومن هذا ما يفعله كثير من الجهلة الضالين من السجود بين يدي المشايخ، فإن ذلك حرام قطعاً بكل حال، سواء كان إلى القبلة، أو لغيرها، وسواء قصد السجود لله، أو غفل، وفي بعض صوره ما يقتضي الكفر كذا في الفتح القريب. وقرأ أبو مجلز: ﴿والإيصال﴾. قال ابن جنّي هو مصدر أصل؛ أي: دخل في الأصيل، كما تقول: أصبح؛ أي: دخل في الإصباح.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: من مالك السماوات والأرض، ومن مدبرهما وخالقهما؟ فسيقولون: الله؛ لأنهم مقرون بأن الله خالق السماوات وما فيها والأرض وما فيها، فإذا أجابوك بذلك فـ﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد: ﴿ٱللَّهُ﴾ رب السماوات والأرض ومالكهما وخالقهما ومتولي أمرهما؛ إذ لا جواب لهم سواه؛ لأنه البين الذي لا مراء فيه؛ أي: قل لهم[1]: الذي خلقها وأنشأها وسواها على أتم موضع وأحكم بناء هو الله، وقد أمر عليه السلام ليجيب بذلك؛ للإشارة إلى أنه هو وهم سواء في ذلك الجواب الذي لا محيص منه، وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

وقيل[2]: لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه، وقال: أجب أنت، فأمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل يا محمد الله خالقهما وربهما. وقيل: إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة؛ لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي ﷺ بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، فكأنهم قالوا ذلك أيضاً، ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وآلهة يعني الأصنام، فالهمزة فيه للاستفهام التوبيخي الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعلمتم أن ربهما هو الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة، فاتخذتم من دونه تعالى أصناماً ﴿أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ﴾ أولئك الأولياء ﴿لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: لا يستطيعون لأنفسهم جلب نفع إليها ولا دفع ضرر عنها، وإذا عجزوا عن جلب النفع إلى أنفسهم، ودفع الضرر عنها.. كانوا عن نفع الغير ودفع الضرر عنه أعجز، ومن هو كذلك، فكيف يعبد ويتخذ ولياً وهذا تجهيل لهم وشهادة على غباوتهم وضلالتهم التي ليس بعدها ضلال. وفي «روح البيان» الهمزة[3] للإنكار، والفاء للاستبعاد؛ أي: أبعد إقراركم هذا وعلمكم بأنه تعالى

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

صانع العالم ومالكه اتخذتم من دونه تعالى أصناماً، وعبدتم من غيره تعالى أولياء وأرباباً، لا يستجلبون لأنفسهم نفعاً ولا يدفعون عنها ضرراً، فبالأولى أن يكونوا عاجزين عن تحصيل المنفعة للغير ودفع المضرة عن الغير، فإذا عجزوا عن ذلك كانت عبادتهم محض العبث والسفه، وهو منكر بعيد من مقتضى العقل.

وخلاصة ذلك[1]: أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية في العجز، وجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً في الاعتراف بالوحدانية، وهو علمكم بذلك سبباً في إشراككم به سواه من أضعف خلقه، وهو بمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾.

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للمشركين الذين يعبدون الأصنام، والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه، وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في دينه وهو الكافر ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ فيه وهو الموحد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ. والكلام على التشبيه[2]؛ أي: فكما لا يستوي الأعمى والبصير في الحس، كذلك لا يستوي المشرك الجاهل بعظمة الله وثوابه وعقابه، وقدرته مع الموحد العالم بذلك.

والمعنى: أي قل لهم[3] مصوّراً سخيف آرائهم مفنّداً قبيح معتقداتهم: هل يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يهدى بدليل، والبصير الذي يهدي الأعمى لسلوك الطريق؟ لا شك أن الجواب أنهما غير متساويين، فكذلك المؤمن الذي يبصر الحق فيتبعه، ويعرف الهدى فيسلكه لا يستوي هو وإياكم، وأنتم لا تعرفون حقاً ولا تبصرون رشداً.

ثم ضرب مثلاً للكفر والإيمان بقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿أَمْ﴾ هنا

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

منقطعة تقدر ببل وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل[1] أهل تستوي الظلمات التي لا ترى فيها الطريق، فتسلك ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي يبصر به الأشياء ويجلو ضوؤه الظلام؟ لا شك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه في حيرة يضرب أبداً في غمرة لا يهتدي إلى حقيقة، ولا يصل إلى صواب، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه ويعاقبه على إساءته، ويرزقه من حيث لا يحتسب ويكلؤه بعنايته في كل وقت وحين، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب وتعقدت في نظره مدلهمات الحوادث. والكلام[2] على التشبيه أيضاً؛ أي: فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي الشرك والإنكار، والتوحيد والمعرفة، ووحد النور وجمع الظلمة؛ لأن طريق الحق واحد والباطل طرقه كثيرة، كشرك اليهود وشرك النصارى وشرك عبدة الأوثان وشرك المجوس وغيرها بخلاف التوحيد. وقرأ[3] الأخوان حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿أم هل يستوي﴾ ـ بالياء ـ والجمهور: ﴿تستوي﴾ بالتاء الفوقية. و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ هَلْ﴾ منقطعة تتقدر بـ﴿بل﴾ والهمزة على المختار، والتقدير: بل أهل تستوي، و﴿هَلْ﴾ وإن نابت عن همزة الاستفهام في كثير من المواضع، فقد جامعتها في قول الشاعر:

أَهْلْ رَأَوْنَا بِوَادِيْ ٱلْفَقْرِ ذِيْ ٱلأَكَمِ

وإذا جامعتها مع التصريح بها فلأن تجامعها مع أم المتضمنة لها أولى، وهل بعد أم المنقطعة يجوز أن يؤتى بها لشبهها بالأدوات الإسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه كقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾. ويجوز أن لا يؤتى بها بعد أم المنقطعة؛ لأن أم تتضمنها، فلم يكونوا ليجمعوا بين أم والهمزة، لذلك ذكره أبو حيان في «البحر».

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وجملة ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صفة لـ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ أي: بل أجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه وتعالى شركاء وآلهة يستحقون العبادة معه تعالى خلقوا؛ أي: خلق أولئك الشركاء سماوات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً كخلقه تعالى إياهن؛ أي: خلقوا مخلوقاً مماثلاً لما خلقه الله تعالى. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فاشتبه[1] عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء، ونعبدهم كما يعبد، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق. وهذا الاستفهام إنكاري[2]؛ أي: ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء، والشركاء مخلوقون له أيضاً لا يخلقون شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء، وإذا كان الأمر كذلك.. فقد لزمتهم الحجة؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾. والمعنى؛ أي: بل[3] أخلق أوثانكم التي اتخذتموها معبودات من دون الله خلقاً كخلقه، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك، أم أن بكم الجهل والبعد عن الصواب؛ إذ لا يخفى على من له مسكة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبات إليه، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره، وهو الذي يرزقه ويمونه آناء الليل وأطراف النهار، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الألوهية محض الجهل.

ثم ذكر فذلكة لما تقدم، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التي ضربت بها، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين مبيّناً لهم وجه الحق ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأجسام والأعراض، لا خالق غير الله فيشاركه في العبادة؛ أي: الله خالقكم وخالق أوثانكم، وخالق كل شيء مما يصح أن يكون

---

(١) النسفي.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

مخلوقاً. وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من العموم الذي يراد به الخصوص؛ لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق. قال الزجّاج: والمعنى أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾؛ أي: الفرد الذي لا ثاني له ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾؛ أي: الغالب على كل شيء سواه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع.

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه، فقال: ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءٗ﴾؛ أي: مطراً كثيراً، والتنوين[1] فيه للتكثير أو للنوعية ﴿فَسَالَتۡ﴾؛ أي: فجرت بذلك الماء ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾؛ أي: أنهار كثيرة ﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بحسب مقدار تلك الأودية في الصغر والكبر، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع الوادي كثر الماء. والأودية جمع وادٍ كنادٍ وأندية، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. وفي قوله: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ توسع؛ أي: سال ماؤها، ومعنى بقدرها؛ أي: بقدر مائها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها.

وفي «روح البيان»: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ أي: مطراً ينحدر منها إلى السحاب، ومنه إلى الأرض، وهو رد لمن زعم أنه يأخذه من البحر ومن زعم أن المطر إنما يتحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء، فينعقد هناك من شدة برد الهواء، ثم ينزل مرة أخرى، وعن ابن[2] عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن تحت العرش بحراً ينزل منه أرزاق الحيوانات يوحي الله إليه، فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السحاب أن غربله فيغربله، فليس من قطرة تقطر إلا ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

معلوم ووزن معلوم إلا ما كان يوم الطوفان من ماء، فإنه نزل بغير كيل ولا وزن انتهى.

شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر[١]؛ إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾؛ أي: حمل ورفع السيل الجاري في الوادي ﴿زَبَدًا﴾؛ أي: غشاء ﴿رَّابِيًاۚ﴾؛ أي: منتفخاً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه. والزبد: اسم لكل ما علا وجه الماء من رغوة وغيرها، سواء حصل بالغليان والاضطراب أو بغيره، وهذا هو المثل الأول ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر.

والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل.

والمعنى[٢]: أي أنزل من السحاب مطراً فسالت مياه الأودية بحسب مقدارها في الصغر والكبر، فحمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً عالياً مرتفعاً فوقه طافياً عليه، وقد تم المثل الأول. ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر مقدم لقوله: زبد مثله، و﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿يُوقِدُونَ﴾، والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليذوب، و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: ومما يوقد الناس عليه من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، حالة كونه ثابتاً في النار ليذوب ويخلص عن الخبث. وقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ مفعول لأجله؛ أي: لأجل طلب اتخاذ زينة من حليٍّ كالسوار والطوق، أو اتخاذ متاع كالأواني والقدور وغيرها من آلات الحرب والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ﴿زَبَدٞ﴾؛ أي: وسخ وخبث ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾؛ أي: مثل زبد الماء ووسخه في أن كلاً منهما شيء من الأكدار، والمعنى؛ أي: وزبد مثل زبد السيل كائن وناشىء من الجواهر التي

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

يوقدون عليها النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا التبيين للأمور الأربعة الماء والجوهر والزبدين ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ويبين ﴿ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: الإيمان والكفر؛ أي: يبين مثلهما وشبههما في الثبات والاضمحلال؛ أي: وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والجوهر وزبديهما، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، فالباطل لا ثبات له ولا دوام أمام الحق. ثم فصل هذا بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من الماء والجوهر ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾؛ أي: مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له؛ أي: فينعدم مرمياً؛ أي: يرميه الماء إلى الساحل ويرميه الكير ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء الصافي والجوهر الخالص ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يبقى ويثبت في الأرض، فالماء يثبت بعضه في منافعه، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار والجوهر، يصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويتخذ من بعضه أصناف الآلات، فينتفع بكل من ذلك مدة طويلة.

والمعنى[1]: أي فأما الزبد الذي يعلو السيل.. فيذهب مرمياً في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الحديد والنحاس والذهب والفضة يذهب ولا يرجع منه شيء، وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة.. فيمكث في الأرض، فالماء نشربه ونسقي به الأرض، فينبت جيد الزرع الذي ينتفع به الناس والحيوان. والذهب والفضة نستعملهما في الحلي وصك النقود، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها في متاعنا من الحرث والحصد، وفي المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك.

واعلم: أن وجه[2] المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل، والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرقة: أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإنَّ أصله من المعادن التي تنبت في الأرض، فيخالطها التراب، فإذا أذيب صار

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها.

وقال الزجاج: مثلُ المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الذهب والفضة وسائر الجواهر؛ لأنها كلها تبقى منتفعاً بها. ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به. اهـ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الضرب العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: يبين الله أمثال الحق والباطل، فيجعلها في غاية الوضوح؛ أي: ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التي توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم، وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والكفر والإيمان نضرب لهم الأمثال، ونبين لهم الأشباه في كل باب حتى تستبين لهم طريق الهدى، فيسلكوها، وطرق الباطل فينحرفوا عنها، وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد، ويكونوا المثل العليا بين الناس كما قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، ونفع به الناس فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به».

وروى أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار: هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ - بفتح الدال -، وقرأ الأشهب العقيلي وزيد بن علي وأبو عمرو في رواية شذوذاً بسكونها. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن محيصن ومجاهد وطلحة ويحيى وأهل الكوفة: ﴿يوقدون﴾ بالياء على الغيبة؛ أي: يوقد الناس. وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر والأعرج وشيبة ﴿توقدون﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ رؤبة شاذاً: ﴿جفالاً﴾ باللام بدل الهمزة من قولهم: جفلت الريح السحاب إذا حملته وفرقته، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنه كان يأكل الفأر بمعنى: أنه كان أعرابياً جافياً. وعن أبي حاتم أيضاً: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

ولما فرغ سبحانه وتعالى[2] من بيان شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل، وأتم البيان.. شرع يبين حال أهلهما مآلاً ترغيباً فيهما، وترهيباً وتكملة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير، وتنفيراً عن سلوك طرق الباطل والشر، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾؛ أي: للمؤمنين الذي أجابوا ربهم في الدنيا إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبة الحسنة في الآخرة والمنفعة الدائمة الخالصة عن شوائب المضرة المقرونة بالإجلال؛ وهي الجنة، وسميت بذلك؛ لأنها في نهاية الحسن؛ أي: للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عند ربه المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنصب؛ الدائمة المقترنة بالتعظيم والإجلال والآية بمعنى قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى دعوته إلى التوحيد؛ أي: والأشقياء الذين لم يجيبوا دعوته تعالى إلى التوحيد على لسان رسوله ﷺ، ولم يطيعوه ولم يمتثلوا أوامره، ولم ينتهوا عما نهى عنه، وعاندوا الحق واستمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

نقودها وأمتعتها وضياعها؛ أي: لو ثبت كون جميع ما في الأرض لهم من أصناف الأموال التي يتملكها العباد، ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿و﴾ أن ﴿مثله﴾؛ أي: مثل ما في الأرض جميعاً لهم حالة كونه كائناً ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: كائناً مع ما في الأرض ومنضماً إليه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بمجموع ما ذكر، وهو ما في الأرض ومثله؛ أي: لجعلوا ما في الأرض ومثله فداء أنفسهم من العذاب الأليم؛ لأن محبوب كل إنسان ذاته، فإذا كانت نفسه في ضرر وكان مالكاً لكل شيء فإنه يرضى أن يجعل جميع ملكه فداء لها؛ لأنه حب ما سواها ليكون وسيلة إلى مصالحها.

والحاصل: أن للذين لم يستجيبوا لربهم أنواعاً من العذاب:

الأول منها: أنهم من شدة ما يرون من هول العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما في الأرض جميعاً ومثله معه فديةً لأنفسهم.. لفعلوا، ولو فادوا به.. لم يقبل منهم، فإن المحبوب أولاً لكل إنسان هو ذاته، وما سواها فيحبه لكونه وسيلةً إلى مصالحها، فإذا كان مالكاً لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه، وفي هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم في ذلك اليوم ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعاندون الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: قبيح الحساب وشديد المناقشة، فيناقشون على الجليل والفقير والحقير، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الحساب السيء، وهو أن يحاسب الرجل على كل ما عمل من الذنوب، ولا يغفر له شيء منه، والمناقشة في الحساب أن يستقصي فيه بحيث لا يترك منه شيء، يقال: ناقشه الحساب إذا عاسره فيه واستقصى فلم يترك قليلاً ولا كثيراً. وفي الحديث: «من نوقش الحساب عذب». وقال النواوي: هذا لمن لم يحاسب نفسه في الدنيا، فيناقش بالصغيرة والكبيرة، فأما من تاب وحاسب نفسه.. فلا يناقش كما في «الفتح القريب» ذلك أن كفرهم أحبط أعمالهم، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرىء الغواية والضلالة، وحبهم للدنيا جعلهم يعرضون

عما يقربهم إلى الله زلفى، فباؤوا بالخسران والهوان والنكال.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مقرهم في الآخرة بعد المناقشة والحساب ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ أي: نار جهنم. فإن قلت: هلا قيل: ومأواهم النار؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن يكون جهنم هي أبعد النار قعراً، من قولهم: بئر جهنم بعيدة القعر. قال بعضهم: جهنم: لفظ معرب، وكأنه في الفرس: جَهْ نم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: وبئس المسكن مسكنهم في الآخرة، والمخصوص بالذم هي؛ أي: جهنم وقيل المهاد: الفراش، يعني: وبئس الفراش يفرش لهم في جنهم، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم، وينيلهم كرامته ورضوانه، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا في لذاتهم، فحقت عليهم كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ونزل في حمزة ـ رضي الله عنه ـ وأبي جهل كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي جهل بن هشام، فالأول هو حمزة أو عمار رضي الله عنهما، والثاني أبو جهل، وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصاً كما في «الخازن». والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري الاستبعادي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف كما هو مذهب الزمخشري، والتقدير: أيستوي المؤمن والكافر، فمن يعلم ويصدق أن القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق كحمزة بن عبد المطلب أو عمار رضي الله عنهما كمن هو أعمى قلبه، فينكر القرآن كأبي جهل؛ أي: لا يستوي من يعلم أن الذي أنزله الله عليك من عنده هو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ومن لا يعلم ذلك فهو أعمى لا يهتدي إلى خير يفهمه، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل وغياهب الضلالة. قال قتادة: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه، وهؤلاء قوم كمن هو أعمى عن الحق، فلا يبصره ولا يعقله. ا هـ.

والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه، وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى؛ لأن الأعمى لا يهتدي لرشد وربما وقع في

مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد، وهما واقعان في المهلكة.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة، وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والأذكار؛ أي: ما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى لبها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة. والمعنى: لا يقبل نصح القرآن ولا يعمل به إلا ذوو العقول الصافية من معارضة الوهم.

الإعراب

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾: فعل ومفعولان؛ لأنه من رأى البصرية تعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود إلى الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: حالان من الكاف في ﴿يُرِيكُمُ﴾؛ أي: حال كونكم خائفين وطامعين، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، ذكره أبو البقاء، ومنعه الزمخشري؛ لعدم اتحاد الفاعل يعني: أن فاعل الإراءة وهو الله تعالى غير فاعل الخوف والطمع، وهو ضمير المخاطبين، فاختلف فاعل الفعل المعلل وفاعل العلة، وهذا يمكن أن يجاب عنه بأن المفعول في قوة الفاعل، فإن معنى يريكم: يجعلكم رائين فتخافون وتطمعون. اهـ. «سمين». ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾: فعل ومفعول. ﴿الثِّقَالَ﴾: صفة لـ﴿السَّحَابَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرِيكُمُ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِحَمْدِهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الصلة، والعائد ضمير ﴿بِحَمْدِهِ﴾. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: معطوف على ﴿الرَّعْدُ﴾. ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾: متعلق بـ﴿يسبح﴾ أيضاً. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة الصلة.

﴿فَيُصِيبُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يصيب﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يرسل﴾، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يصيب﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يشاءه. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها. اهـ. «سمين». ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من لفظ الجلالة.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والأصنام الذين يدعونهم. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾ أو حال من الضمير المحذوف. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿بِشَىْءٍ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام المصدر. ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله. ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿باسط﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: لا يستجيبون لهم استجابةً إلا استجابةً مثل استجابة الماء لمن بسط كفيه إليه. ﴿لِيَبْلُغَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يبلغ فاه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿ٱلْمَآءِ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لبلوغ الماء فاه، والجار والمجرور متعلق بـ﴿باسط﴾. ﴿وَمَا﴾: (الواو): حالية. ﴿ما﴾: نافية، أو حجازية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، أو اسمها. ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾: خبر المبتدأ، أو خبرها، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل

النصب حال من فاعل ﴿يبلغ﴾.

وفي «السمين»: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ في ﴿هو﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ضمير ﴿ٱلۡمَآءِ﴾، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ للفم؛ أي: وما الماء ببالغ فيه.

والثاني: أنه ضمير الفم، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لـ﴿ٱلۡمَآءِ﴾؛ أي: وما الفم ببالغ الماء؛ إذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال، فنسبة الفعل إلى كل واحد وعدمها صحيحان.

والثالث: أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير ﴿الباسط﴾، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لـ﴿ٱلۡمَآءِ﴾؛ أي: وما باسط كفيه إلى الماء يبلغ الماء. ا هـ. ﴿وَمَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿للّه﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسۡجُدُ﴾. ﴿يَسۡجُدُ مَن﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: حالان من ﴿مَن﴾ الموصولة، ولكنه في تأويل مشتق؛ أي: حالة كونهم طائعين وراضين بالسجود، وحال كونهم كارهين؛ أي: غير راضين به. ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: معطوف على ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسۡجُدُ﴾، والباء بمعنى في الظرفية. ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: معطوف على ﴿الغدو﴾.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام التقريري في محل الرفع خبر مقدم وجوباً للزومها صدر الكلام. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾،

والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿ٱللَّهُۚ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: رب السماوات والأرض الله، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: الله رب السماوات والأرض، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة القول مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف كما مر، والتقدير: أعلمتم أن ربهما هو الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة. ﴿فاتخذتم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور حال من الفاعل؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله إلى غيره، أو متعلق باتخذ؛ أي: من غيره تعالى والمفعول الأول لاتخذ محذوف تقديره: فاتخذتم الأصنام من دونه أولياء. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، وجملة ﴿اتخذتم﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾: متعلق به. ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ﴾: مفعول به لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿هَلْ﴾: حرف تحقيق بمعنى قد. ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلنُّورُۗ﴾: معطوف على ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة.

فائدة: وقال في «الفتوحات»: قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ هذه ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، فتقدر ببل والهمزة عند الجمهور، وببل وحدها عند بعضهم، وقد تقدم ذلك محرراً وقد يتقوى بهذه الآية من يرى تقديرها ببل فقط بوقوع هل بعدها، فلو قدرناه ببل والهمزة.. لزم اجتماع حرفي معنى واحد، فنقدرها وحدها، ولقائل أن يقول: لا نسلم أن ﴿هَلْ﴾ هذه استفهامية، بل هي بمعنى قد، وإليه ذهب جماعة، فقد ثبت مجيؤها بمعنى قد إن لم تجامعها الهمزة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ

﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ أي: قد أتى، فهنا أولى والسماع. قد ورد بوقوع هل بعد أم وبعدمه، فمن الأول هذه الآية، ومن الثاني ما بعدها من قوله: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ﴾: انتهى. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار. ﴿جَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والمفعول الأول محذوف. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾ أو حال ثانٍ. ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ثان، والتقدير: أم جعلوا الأصنام شركاء لله، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقُواْ﴾: فعل وفاعل، الجملة صفة لـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿كَخَلۡقِهِۦ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: خلقاً كائناً كخلقه. ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿تشابه الخلق﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقُواْ﴾. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾، أو خبر ثان.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾.

﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مَآءٗ﴾: مفعول به. ﴿فَسَالَتۡ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿سالت أودية﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿بِقَدَرِهَا﴾: متعلق بـ﴿سالت﴾ أو صفة لـ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾. ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿احتمل السيل﴾ فعل وفاعل. ﴿زَبَدٗا﴾: مفعول به. ﴿رَّابِيٗاۖ﴾: صفة لـ﴿زَبَدٗا﴾، والجملة مفرعة معطوفة على جملة ﴿سالت﴾.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾.

﴿وَمِمَّا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿مما﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿يُوقِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿يُوقِدُونَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾. ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾: مفعول لأجله، ومضاف إليه. ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾: معطوف على ﴿حِلۡيَةٍ﴾. ﴿زَبَدٞ﴾: مبتدأ مؤخر.

﴿مِثْلُهُۥ﴾: صفة لـ﴿زَبَدٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْبَٰطِلَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾، والتقدير: يضرب الله الحق والباطل ويبينهما ضرباً مثل ضرب الأمور الأربعة: الماء والجوهر والزبدين، وتبييناً مثل تبيينها، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَأَمَّا﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت الأمثال والأمور المذكورة، وأردت بيان عاقبتها.. فأقول لك أما، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلزَّبَدُ﴾: مبتدأ. ﴿فَيَذْهَبُ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾، ﴿يذهب﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلزَّبَدُ﴾. ﴿جُفَآءً﴾: حال من ضمير الفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة أما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَمَّا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾. ﴿فَيَمْكُثُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يمكث﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقَ به، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: ضرباً مثل هذا الضرب العجيب يضرب الله سبحانه وتعالى أمثال الحق والباطل ويبينها، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتأكيد جملة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة

الموصول. ﴿لِرَبِّهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير الصلة، أو من ﴿مَّا﴾. ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: معطوف على اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿مثله﴾، والتقدير: لو أن ما في الأرض ومثله كائنان لهم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية بفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون ما في الأرض مثله معه كائناً لهم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿افتدوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾: الشرطية وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر أول للمبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾: مبتدأ ثان مؤخر عن خبره، وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول في محل الرفع خبر ثان لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثالث لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر مقدم للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: وبئس المهاد هي؛ أي: جهنم، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. (الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيستوي المؤمن والكافر، ﴿من يعلم﴾: ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله

ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّمَآ﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أن﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: يتعلق به أيضاً، أو حال من ضمير النائب، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: أفمن يعلم كون ما أنزل إليك من ربك الحق. ﴿كَمَنْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿من﴾ الموصولة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾، والجملة الإسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ونفي بمعنى ما النافية وإلا المثبتة. ﴿يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾: البرق[1]: ما يرى من النور لامعاً خلال السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع.

﴿ٱلرَّعْدُ﴾: هو الصوت المسموع خلال السحاب. وفي «المصباح»: رعدت السماء رعداً ـ من باب قتل ـ ورعوداً لاح منها الرعد. ا هـ. وسببهما على ما بين في العلوم الطبيعية أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوي شديد، فذلك النور هو البرق، والصوت هو الرعد الذي نشاء من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها.

﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: جمع صاعقة، وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية، والأرض بكهربائية أخرى، والهواء يفصل بينهما، فإذا قاربت السحب وجه

(١) المراغي.

الأرض تنقض الشرارة الكهربائية منها، فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل.

﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ والسحاب[1] اسم جنس واحده سحابة، فلذلك وصف بالجمع، وهو الثقال جمع ثقيلة ككريمة وكرام.

﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾: من المجادلة، وأصلها من الجدل، وهو شدة الخصومة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يقتل كل منهما الآخر عن رأيه. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ أي: شديد المماحلة والمكايدة لأعدائه، يقال: محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، وتمحل إذا تكلف في استعمال الحيلة، ولعل أصله المحل بمعنى القحط. وقيل[2]: فعال من المحال بمعنى القوة، فالميم أصلية. وقيل: أصله مفعل من الحول، أو الحيلة أُعل على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول إذا احتال. ا هـ. «بيضاوي». وقوله: وقيل مفعل؛ أي: والميم على هذا زائدة، وقوله: أعل على غير قياس؛ إذ القياس فيه صحة الواو كمحور ومرود ومقود؛ لأن شرط قلب الواو ألفاً فتح ما قبلها. ا هـ. «شهاب». وفي «القاموس»[3]: والمِحال ـ ككتاب ـ الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والعذاب والعقاب والعداوة، والمعادلة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك، ومحل به ـ مثلث الحاء محلاً ومحالاً ـ كاده بسعاية إلى السلطان، وماحله مماحلةً ومِحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد. ا هـ.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة[4] الموصوف لصفته؛ أي: الدعوة الحق المطابقة للواقع. ا هـ. شيخنا.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: لا يجيبون، فالسين والتاء زائدتان.

﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ والظلال: جمع ظل؛ وهو الخيال الذي يظهر للجرم، فسجود[5] الظلال ميلها من جانب إلى جانب بسبب ارتفاع الشمس ونزولها، يقال: سجدت

---

(١) الفتوحات.
(٢) البيضاوي.
(٣) القاموس.
(٤) الفتوحات.
(٥) القرطبي.

النخلة إذا مالت.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ والغدو: جمع غداة كقني جمع قناة، وهي البكرة أول النهار. والآصال: جمع أصيل، والأُصل: جمع أصيل: وهو ما بين العصر إلى الغروب.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ الأودية: جمع وادٍ؛ وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء، والفرجة بين الجبلين، وقد يراد به الماء الجاري فيه. قال أبو علي الفارسي: لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا، وكأنه حمل على فعيل، فجمع على أفعلة مثل: جريب وأجربة، كما أن فعيلاً حمل على فاعل فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر.

﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغراً وكبراً. قال الواحدي: والقدر: مبلغ الشيء، والمعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع كثر.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾؛ أي: حما فافتعل هنا بمعنى المجرد. ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ والزبد: ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبب، وما يعلو القدر عند غليانها، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء الطافي عليه.

﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ وفي «المصباح»: وقدت النار وقداً - من باب وعد - ووقوداً، والوَقود - بالفتح -: الحطب، وأوقدتها إيقاداً، ومنه على الاستعارة ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كلما دبروا مكيدة وخديعة أبطلها، وتوقدت النار: اتقدت. والوَقَد - بفتحتين -: النار نفسها، والموقد: موضع الوقود مثل المجلس لموضع الجلوس، واستوقدت النار استوقدتها يتعدى ولا يتعدى. وفي «الخازن»: الإيقاد: جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء المذوب. ا هـ.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ والحلية[1]: ما يعمل للنساء مما يُتزين به من الذهب

---

(١) البحر المحيط.

والفضة. والمتاع: ما يُتخذ من الحديد والنحاس وما أشبههما من الآلات التي هي قوام العيش كالأواني والمساحي وآلات الحرب وقطاعات الأشجار والسكك وغير ذلك. فالمراد بالحلية: ما يُتزين به، وبالمتاع ما يُتمتع به؛ أي: يُنتفع به.

﴿جُفَآءً﴾ قال ابن[1] الأنباري: والجفاء: المتفرق، يقال: جفأت الريح السحاب؛ أي: قطعته وفرَّقته، وقيل: الجفاء ما يرمي به السيل، ويقال: جفأت القدر بزبدها تجفأ من باب قطع، وجفأ السيل بزبده وأجفأ وأجفل باللام وفي همزة جفاء وجهان:

أظهرهما: أنها أصل لثبوتها في تصاريف هذه المادة كما رأيت.

والثاني: أنها بدل من واو، وكأنه مختار أبي البقاء، وفي نظر؛ لأن مادة جفا يجفو لا يليق معناها هنا، والأصل عدم الاشتراك. ا هـ. «سمين». فالمراد بالجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: أجابوا في الدنيا إلى التوحيد، فالسين والتاء فيه زائدتان. والحسنى مؤنث الأحسن، كالفضلى مؤنث الأفضل، وهو صفة الموصوف محذوف؛ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة، وسميت بذلك؛ لأنها في نهاية الحسن.

﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب.

﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: لهم الحساب السيء، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة، وأنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

---

(١) الفتوحات.

فمنها: الطباق بين ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل المراد بهؤلاء الملائكة أعوان ملك السحاب، جعل الله تعالى مع الملك الموكل بالسحاب المسمى بالرعد أعواناً من الملائكة، وقيل: المراد جميع الملائكة، وهو أولى. ا هـ. «خازن».

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ على قراءة ﴿والذين تدعون﴾ - بالتاء الفوقية - وحق العبارة لا يستجيبون لكم، وإن كانت هذه القراءة شاذة.

ومنها: التشبيه[1] المركب التمثيلي في قوله: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ شبه حال الأصنام مع من دعاهم من المشركين؛ وهو عدم استجابتهم دعاء المشركين، وعدم فوز المشركين من دعائهم الأصنام شيئاً من الاستجابة والنفع بحال الماء الواقع بمرأى من العطشان الذي يبسط إليه كفيه يطلب منه أن يبلغ فاه وينفعه من احتراق كبده، ووجه الشبه عدم استطاعة المطلوب منه إجابة الدعاء، وخيبة الطالب عن نيل ما هو أحوج إليه من المطلوب، وهذا الوجه كما ترى منتزع من عدة أمور.

ومنها: إسناد السجود إلى الظلال في قوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ تبعاً لصاحبها.

ومنها: الطباق بين الغدو والآصال في قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وفيه أيضاً إطلاق الطرفين وإرادة الكل.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾.

---

(١) روح البيان.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وفي قوله: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وفي قوله: ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ وفيه أيضاً الجناس المغاير.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لأن المعنى: هل يستوي من هو كالأعمى ومن هو كالبصير؛ أي: فكما[1] لا يستوي الأعمى والبصير في الحس، كذلك لا يستوي المشرك الجاهل بعظمة الله وثوابه وعقابه وقدرته مع الموحد العالم بذلك. وكذا قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ وارد[2] على التشبيه أيضاً؛ أي: فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي الشرك والإنكار والتوحيد والمعرفة. وقيل: فيه الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنه استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان، وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل، والبصير للمؤمن العاقل.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله خالق السماوات والأرض.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ الآية. شبه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى التشبيه التمثيلي؛ لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، فمثل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ من إسناد ما للحال إلى المحل، كما يقال: جرى النهر، والأصل: جرت المياه في الأودية.

---

(١) روح البيان. (٣) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

ومنها: تنكير[1] الأودية في قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ إشعاراً بالمناوبة؛ لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

ومنها: تعريف السيل في قوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾؛ لأنه قد فهم من الفعل قبله، وهو ﴿فَسَالَتْ﴾، وهو لو ذكر لكان نكرةً، فلما أعيد... أعيد بلفظ التعريف، نحو رأيت رجلاً، فأكرمت الرجل. ا هـ. «سمين».

ومنها: اللف والنشر المشوش في قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فإنه يرجع إلى الباطل الذي ذكر أخيراً في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ وفي قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ فإنه راجع إلى الحق المذكور أولاً.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ فإن فيه تفخيماً لشأن هذا التمثيل وتأكيداً لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، فاشتق من العمى بمعنى الجهل والكفر أعمى بمعنى الجاهل الكافر على سبيل الاستعارة التبعية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ
وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ
مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم
بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ
وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ
الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا
قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ضرب الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد، ولمن ركب رأسه وسار في سبل الضلالة لا يلوي على شيء، ولا يقف لدى غاية.. بين أن من جمع صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق، وملكوا نواحي الإيمان، وأقاموا دعائمه، وهؤلاء قد كتب لهم حسنى العقبى والسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم

عنده في دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق.. بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال، وأتبع الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة في مثل هذا ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقر بوحدانيته، وأنكر نبوة محمد ﷺ؛ فهو ملعون في الدنيا ومعذب في الآخرة.. بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر، على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر، فربما وسَّع على الكافر استدراجاً، وضيَّق على المؤمن زيادةً في أجره، ثم ذكر مقالة لهم كثر في القرآن تردادها، وهي طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آيةً دالة على ذلك، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر طلبهم من رسوله ﷺ الآيات، كما أنزل على الرسل السالفين كموسى وعيسى وغيرهما من النبيين والمرسلين، وبين أن الهدى هدى الله، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم، فلا يجديهم ذلك فتيلاً ولا قطميراً.. ذكر هنا أن محمداً ليس ببدع من الرسل، وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون، وطلبوا الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا، ولم تغنهم الآيات والنذر، فكانت عاقبتهم البوار والنكال، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعاً، وأصبحوا معه كأمس الدابر، ولو أن كتاباً تسير به الجبال على أماكنها، أو تشقق به الأرض، فتجعل أنهاراً وعيوناً.. لكان هذا القرآن الذي أنزلناه عليه، ثم أبان أن الله تعالى قادر على الإتيان بما

---

(١) المراغي.

اقترحوه، لكنه لم يرد ذلك؛ لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحل بهم، وبتسلية النبي ﷺ على استهزائهم به.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي: قال: قالوا للنبي ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشبيها ـ إسمي الجبلين ـ هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا: سير بالقرآن الجبال، قطع بالقرآن الأرض، أخرج به موتانا، فنزلت.

وقال الزبير بن العوام[٢]: قالت قريش لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم، أو يصير هذه الصخرة ذهباً، فتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فقد كان للأنبياء آيات، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموصولات موصلاتها مبتدآت خبرها قوله الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

﴿ٱلدَّارِ﴾: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: بما عاهدوا الله وعقدوه على أنفسهم من الشهادة والاعتراف بربوبيته حين قالوا في عالم الذر بلى شهدنا. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾؛ أي: العهد المؤكد باليمين؛ أي: لا يخلفون ذلك العهد الذي بينهم وبين ربهم الذي وثقوه وأكدوه بالأيمان، وكذا عهودهم بينهم وبين الناس، فهذا تعميم بعد تخصيص؛ لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها. ويحتمل[1] أن يكون الأمر بالعكس، فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله؛ وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ...﴾ الآية.

والمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين العباد، وشهدت فطرهم في هذه الحياة بصحته، وأنزل عليهم في الكتاب إيجابه. قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعاً من القرآن عناية بأمره واهتماماً بشأنه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾؛ أي: العهد الذي وثقوه وأكدوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات والعهود التي تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب».

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ﴾ مفعوله محذوف تقديره: ما أمرهم الله ﴿بِهِۦٓ﴾ من الإيمان والرحم وغيرهما، وقوله: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ بدل من الضمير المجرور؛ أي: أمرهم بوصله، ومعنى وصل الإيمان[2]: أن يؤمنوا بجميع الكتب والرسل ولا يفرقوا بين أحد منهم. وفي «المراح» وصل ما أمر الله به[3]: هو رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه صلة الرحم والقرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراح.

وعيادة المريض وشهود الجنائز، وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم، ومن تمام المواصلة المصافحة عند الملاقاة، ويستحب مع المصافحة البشاشة بالوجه والدعاء بالمغفرة وغيرها. ويدخل في العباد كل حيوان حتى الدجاجة والهرة. وعن الفضيل: أن العبد لو أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة، فأساء إليها.. لم يكن من المحسنين.

وهذه الآية يندرج فيها أمور(١):

الأول: صلة الرحم، واختلف في حدّ الرحم التي يجب صلتها، فقيل: كل ذي رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام والعمات وأولاد الأخوال والخالات، وقيل: هو عام في كل ذي رحم محرماً كان أو غير محرم، وارثاً كان أو غير وارث، وهذا القول هو الصواب. قال النواوي: وهذا أصحّ، والمحرم من لا يحل له نكاحها على التأبيد لحرمتها، فقولنا: على التأبيد احتراز عن أخت الزوجة، وقولنا: لحرمتها احتراز عن الملاعنة، فإن تحريمها ليس لحرمتها، بل للتغليظ.

والثاني: الإيمان بكل الأنبياء عليهم السلام، فقولهم: نؤمن ببعض ونكفر ببعض قطعٌ لما أمر الله به أن يوصل.

والثالث: موالاة المؤمنين، فإنه يستحب استحباباً شديداً زيارة الإخوان والصالحين والجيران والأصدقاء والأقارب وإكرامهم وبرهم وصلتهم، وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم وفراغهم، وينبغي للزائر أن تكون زيارته على وجه لا يكرهون، وفي وقت يرتضون، فإن رأى أخاه يحب زيارته ويأنس به أكثر زيارته والجلوس عنده، وإن رآه منشغلاً بعبادة أو غيرها، أو رآه يحب الخلوة يقل زيارته حتى لا يشغله عن عمله، وكذا عائد المريض لا يطيل الجلوس عنده إلا أن يأنس به المريض، ومن تمام المواصلة المصافحة عند الملاقاة كما مر آنفاً.

---

(١) روح البيان.

والرابع: مراعاة حقوق كافة الخلق حتى الهرة والدجاجة. والمعنى: أي: والذين[1] يصلون الرحم التي أمرهم الله تعالى بوصلها، فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى، ويحسنون إلى المحاويج وذوي الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة، ويصلون المؤمنين بسبب قرابة الإيمان بالإحسان إليهم ونصرتهم والشفقة عليهم، وإفشاء السلام وعيادة المرضى، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران، والرفقة في السفر إلى غير ذلك مما مر آنفاً. وأكثر المفسرين على أن المراد بالوصل هنا صلة الرحم.

واعلم[2]: أن قطع الرحم حرام، والصلة واجبة، ومعناها: التفقد بالزيارة والإهداء والإعانة بالقول والفعل، وعدم النسيان، وأقله التسليم وإرسال السلام والمكتوب، ولا توقيت فيها في الشرع، بل العبرة بالعرف والعادة كذا في «شرح الطريقة» وصلة الرحم سبب لزيادة الرزق. وزيادة العمر، وهي أسرع أثراً كعقوق الوالدين، فإن العاق لهما لا يمهل في الأغلب، ولا تنزل الملائكة على قوم فيهم قاطع رحم.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في صلة الرحم وقطيعتها

عن عبد الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «أنا الله وأنا الرحمٰن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»، أو قال: «بتته». أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه». أخرجه البخاري، صلة الرحم: ميرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم، وضدُّه: القطع.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قوله: «وأن يُنْسَأ له في أثره» الأثر هنا: الأجل، وسمي الأجل أثراً؛ لأنه تابع للحياة وسابقها، ومعنى ينسأ: يؤخر، والمراد به تأخير الأجل، وهو على وجهين:

أحدهما: أن يبارك الله له في عمره، فكأنما قد زاد فيه.

والثاني: أن يزيده في عمره زيادة حقيقية، والله يفعل ما يشاء.

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». متفق عليه. زاد في رواية: قال سفيان: يعني قاطع رحم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الواصل بالمكافىء، الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، ومثراة في المال، ومنسأة في الأثر». أخرجه الترمذي.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: وعيده عموماً، والخشية[1]: خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. **والمعنى**: إنهم يخشون ربهم خشيةً تحملهم على فعل المأمورات واجتناب المنهيات، ويخافونه خوف مهابة وإجلال. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: استقصاءه خصوصاً، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا؛ أي: ويخافون مناقشة ربهم إياهم في الحساب وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم، فهم لرهبتهم جادون في طاعته محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه، و﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: شديده: وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذب، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما تكرهه النفوس من أنواع المصائب ومخالفة الهوى من مشاق التكاليف؛ أي: والذين صبروا[2] على فعل العبادات وعلى ثقل

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

الأمراض والمضار والغموم وعلى ترك المشتهيات ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: طلباً لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة، ولا إلى جانب النفس زينة وعجباً، فكما أن العاشق يرضى بضرب معشوقه لالتذاذه بالنظر إلى وجهه، فكذلك العبد يرضى بالمحنة لاستغراقه في معرفة الله تعالى ومحبته.

وإنما[1] قيد الصبر بقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين:

الأول: الصبر المذموم؛ وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل، وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر، فليس ذلك داخلاً تحت قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لأنها لغير الله تعالى.

النوع الثاني: الصبر المحمود؛ وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله، فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ يعني: صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله تعالى، وطلباً لرضوانه سبحانه، وجاءت[2] الصلة هنا بلفظ الماضي، وفي الموصولين قبل بلفظ المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ وما عطف عليهما على سبيل التفنن في الفصاحة، وقيل: إن اختصاص هذه الصلة بالماضي وتينك بالمضارع أن تينك الصلتين قصد بهما الاستصحاب والالتباس دائماً، وهذه الصلة قصد بها تقدمها على تينك الصلتين وما عطف عليهما؛ لأن حصول تلك الصلاة إنما هي مترتبة على حصول الصبر وتقدمه عليها، ولذلك لم تأت صلة الصبر في القرآن إلا بصيغة الماضي؛ إذ هو شرط في حصول التكاليف وإيقاعها والله أعلم.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: داوموا على إقامتها؛ أي: أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله تعالى مع تمام أركانها

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

وهيئاتها احتساباً لوجهه، وأفردها[1] بالذكر تنبيهاً على كونها أشرف من سائر العبادات، ولا يمتنع إدخال النوافل فيها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَهُمْ﴾؛ أي: وأنفقوا بعض ما زرقناهم ﴿سِرًّا﴾ فيما بينهم وبين ربهم لمن لم يعرف بالمال، أو لمن لا يتهم بترك الزكاة، أو عند إعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهراً أو في التطوع ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بحيث يراهم الناس لغير ذلك سواء كان الإنفاق واجباً كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب والفقراء وفي الزكاة، أو مندوباً كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب.

وقال الحسن[2]: والمراد بهذا الإنفاق الزكاة المفروضة، فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة، فالأولى أن يؤديها سراً، وإن كان متهماً بترك أداء الزكاة، فالأولى أن يؤديها علانية، وقيل: إن المراد بالسر: ما يخرج من الزكاة بنفسه، والمراد بالعلانية: ما يؤديه إلى الإمام، وقيل: المراد بالسر: صدقة التطوع، وبالعلانية: الزكاة الواجبة، وحَمْلُهُ على العموم أولى كما فسرنا ذلك آنفاً، وانتصابهما[3] على الحال؛ أي: ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين، أو على الظرف؛ أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر؛ أي: إنفاق سر وعلانية كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

واعلم: أن الله تعالى أسند الإنفاق إليهم، وإعطاء الرزق إلى ذاته تعالى، تنبيهاً على أنهم أمناء الله فيما أعطاهم ووكلاؤه، والوكيل دخيل في التصرف لا أصيل، فينبغي له أن يلاحظ جانب الموكل لا جانب نفسه ولا جانب الخلق، وقد قالوا: من طمع في شكر أو ثناء فهو بياع لا جواد؛ لأنه اشترى المدح بماله، والمدح لذيذ مقصود في نفسه، والجود. هو بذل الشيء من غير غرض. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، أو يدفعون الشر بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور.

قال عبد الله بن المبارك[1]: هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية.

قلت: إنما هي تسع خلال، فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الخلال من أعمال البر.. ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التي بلغت الغاية في الشرف والكمال هم الذين ﴿لَهُمْ﴾ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: العقبى الحسنة والمرجع الحسن والمسكن الطيب في الدار الآخرة، وسميت الدار الآخرة عقبى؛ لأنها عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. والعقبى: مصدر[2] كالعاقبة، والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة، وقيل: المراد بالدار: الدار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين، والنار للعاصين.

ثم بين هذه العقبى، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لهم جنات عدن، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: تلك العقبى هي جنات عدن وإقامة مؤبدة، والعدن: أصله الإقامة، ثم صار علماً لجنة من الجنان، ولكن المراد به هنا المعنى العام. وجملة قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: تلك العقبى جنات عدن يدخلونها؛ أي: يدخل هؤلاء الموصوفون بالصفات السابقة تلك الجنات، ويخلدون فيها لا يخرجون منها بعد الدخول أبداً.

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين، فقال: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وإنما ساغ للفصل بالضمير؛ أي: يدخل تلك الجنات هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة، ويدخلها معهم من صلح وآمن معهم كما آمنوا ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾؛ أي: من أصولهم، وإن علوا ذكوراً كانوا أو إناثاً. قال في «بحر[3] العلوم» وآبائهم: جمع أبوي كل

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

واحد منهم، كأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم، والمعنى: أنه يلحق بهم الصلحاء من أبويهم ﴿و﴾ من ﴿أزواجهم﴾ اللاتي متن في عصمتهم ونكاحهم سواء متن قبلهم أم لا ﴿و﴾ من ﴿ذرياتهم﴾ وأولادهم وإن لم يبلغوا مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وتكميلاً لفرحهم؛ لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم.

والمعنى: أي ويجمع فيها بينهم وبين أحبابهم من الآباء والأزواج والأبناء ممن عمل صالحاً لتقرَّ بهم أعينهم، ويزدادوا سروراً برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم في الدنيا، فيشكرون الله على الخلاص منها. وفي الآية إيماء[1] إلى أنه في ذلك اليوم لا تجدي الأنساب إن لم يسعفها العمل الصالح، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل التي يسكنونها في قدر[2] كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا؛ أي: وتدخل عليهم الملائكة من ها هنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والمرسلين. وجملة قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ محكية لقول محذوف تقديره: أي: قائلين لهم سلام عليكم؛ أي: أمان عليكم من المكاره والمخاوف التي تحيق بغيركم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَلَيْكُم﴾، أو بمحذوف؛ أي: هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم على الطاعات وترك المحرمات وعلى المحن والمتاعب والآلام التي لاقيتموها في دار الحياة الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: نعم عاقبة الدار التي كنتم عملتم فيها هذه الكرامات التي ترونها، والمخصوص بالمدح الجنة؛ أي: فنعمت الجنة التي أعقبت وعوضت لكم عن الدار التي عملتم فيها هذه الأعمال الصالحة وهي دار الدنيا.

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جَنَّتُ﴾ بالجمع، وقرأ النخعي شذوذاً: ﴿جنة﴾ بالإفراد، وروي عن ابن كثير وأبي عمرو ﴿يدخلونها﴾ مبنياً للمفعول وهي رواية شاذة. وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً: ﴿ومن صلح﴾ ـ بضم اللام ـ، وقرأ الجمهور بفتحها وهو أفصح. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿وذريتهم﴾ بالتوحيد، والجمهور بالجمع. وقرأ ابن يعمر شاذاً: ﴿فنعم﴾ ـ بفتح النون وكسر العين ـ وهي الأصل. وقرأ ابن وثاب شاذاً: ﴿فنَعْمَ﴾ ـ بفتح النون وسكون العين ـ وتخفيف فعل لغة تميمية، والجمهور ﴿فَنِعْمَ﴾ ـ بكسر النون وسكون العين ـ وهي أكثر استعمالاً.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات.. ذكر بعده أحوال الأشقياء وما لهم من العقوبات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ خبره قوله الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: والكفار الذين يخلفون عهد الله سبحانه وتعالى ويتركون وفاء عهده المأخوذ عليهم بالطاعة والإيمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد توكيد ذلك العهد بالإقرار والقبول في عالم الذر، وهو العهد الذي جرى بينهم؛ إذا أخرجهم من ظهر آدم وعاهدهم على التوحيد والعبودية، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

ونقضه[2]: إما بأن لا ينظروا فيه، فلا يمكنهم العمل بموجبه، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته، ثم هم بعد يعاندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ أي: ويتركون وصل ما أمر الله سبحانه بوصله من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاؤوا بالحق، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وقطعوا الرحم وموالاة المؤمنين، وكانوا حرباً على المؤمنين وعوناً للكافرين، ومنعوا المساعدات العامة التي توجب التآلف والمودة بين المؤمنين، كما جاء في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وجاء أيضاً: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقي الأعضاء بالسهر والحمى».

ولم يتعرض هنا لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة[1]؛ لدخولها في النقض والقطع ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بظلمهم لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى، وبظلمهم لغيرهم بدعوتهم إلى الشرك وانتهاب أموالهم واغتصابها بلا حق، وتهييج الفتن بين المسلمين، وإثارة الحرب عليهم وإظهار العدوان لهم.

وفي الحديث[2]: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» وهي إيقاع الناس في الاضطراب والاختلال والاختلاف والمحنة والبلية بلا فائدة دينية، وذلك حرام؛ لأنه فساد في الأرض وإضرار للمسلمين وزيغ وإلحاد في الدين.

فمن الفتنة أن يغري الناس على البغي والخروج على السلطان، وذلك لا يجوز وإن كان ظالماً؛ لكونه فتنة وفساداً في الأرض، وكذا معاونة المظلومين إذا أرادوا الخروج عليه، وكذا المعاونة له لكونه إعانة على الظلم، وذلك لا يجوز.

ومنها: أن يقول للناس ما لا تصل عقولهم إليه، وفي الحديث: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم». ومنها أن يذكر للناس ما لا يعرفه بكنهه ولا يقدر على استخراجه، فيوقعهم في الاختلاف والاختلال، والفتنة والبلية، كما هو شأن بعض الوعاظ في زماننا.

ومنها: أن يحكم أو يفتي بقول مهجور أو ضعيف أو قوي يعلم أن الناس لا يعلمون به، بل ينكرونه أو يتركون بسببه طاعة أخرى كمن يقول لأهل القرى والبوادي والعجائز والعبيد والإماء: لا تجوز الصلاة بدون التجويد وهم لا يقدرون على التجويد، فيتركون الصلاة رأساً، وهي جائزة عند البعض، وإن كان ضعيفاً فالعمل به واجب.

وكمن يقول للناس: لا يجوز البيع والشراء والاستقراض بالدراهم والدنانير

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

إلا بالوزن؛ لأن رسول الله ﷺ نص عليها بالوزن، فهو وزني أبداً وإن ترك الناس فيه الوزن، فهذا القول قوي في نفسه، وهو قول الإمام أبي حنيفة ومحمد مطلقاً. وقول أبي يوسف في غير ظاهر الرواية وهي خروجها عن الوزنية بتعامل الناس إلى العددية، فهذه الرواية وإن كانت ضعيفة فالقول بها واجب ولازم فراراً من الفتنة، فيجب على القضاة والمفتين والوعاظ معرفة أحوال الناس وعاداتهم في القبول والرد والسعي والكسل ونحوها، فيكلمونهم بالأصلح والأوفق لهم حتى لا يكون كلامهم فتنة للناس، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه يجب على الآمر والناهي معرفة أحوال الناس وعاداتهم وطبائعهم ومذاهبهم؛ لئلا يكون فتنة للناس وتهييجاً للشر، وسبباً لزيادة المنكر وإشاعة المكروه.

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لَهُمُ﴾ بسبب تلك الصفات المذكورة ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ في الآخرة؛ أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى ورضوانه ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: الدار السيئة القبيحة، وهي جهنم دار البوار جزاء وفاقاً لما اجترحوه من السيئات وأتوا به من الشرور والآثام، فاللعنة وسوء العاقبة لاصقان بهم لا يعدوانهم إلى غيرهم، وفيه تنفير للمسلمين عن هذه الخصال الثلاث، وأن لا ترفع همتهم حول ذلك الحمى.

ولما كان[1] كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده هو الذي ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ ويوسعه في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بسطه وتوسيعه عليه ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ أي: يضيق الرزق على من يشاء من عباده، ويعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء. كأنه قيل[2]: لو كان من نقض عهد الله ملعونين في الدنيا ومعذبين في الآخرة.. لِمَ فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا. فقيل: إن فتح باب الرزق في الدنيا لا تعلق له بالكفر والإيمان، بل هو متعلق بمجرد مشيئة الله، فقد يضيق على المؤمن امتحاناً لصبره

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وتكفيراً لذنوبه ورفعاً لدرجاته، ومن هذا القبيل ما وقع لأكثر الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ من المضايقة، ويوسع على الكافر استدراجاً، ومنه ما وقع لأكثر كفار قريش من التوسعة، ثم إن الله تعالى جعل الغنى لبعضهم صلاحاً، وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً، وقد جعل في غنى بعضهم فساداً كالفقر، وفي الكل حكمة ومصلحة.

والمعنى: الله[1] سبحانه وتعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق في جمع المال وله من الحيلة في الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما يخفى على غيره، ولا علاقة لهذا بإيمان ولا كفر، ولا صلاح ومعصية، ويقدر على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة، وليس بالحُوَّل[2] القُلَّب في استنباط أسبابه ووسائله، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البر والفاجر، كما يمر عليهما الليل والنهار والصباح والمساء.

ثم ذكر أن مشركي مكة بطروا بغناهم، فقال: ﴿وَفَرِحُوا﴾؛ أي: وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق من مشركي مكة وغيرهم ﴿بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ببسط الرزق عليهم في الحياة الدنيا، وعدوه أكبر متاع لهم، وأعظم حظوة عند الناس. والفرح[3]: لذة في القلب لنيل المشتهى؛ أي: فرحوا بها فرح بطر وأشر، لا فرح شكر وسرور بفضل الله وأنعامه عليهم. وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام. قال في «شرح الحكم» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إنما لم يؤمر العبد برفض الفرح جملة؛ لأن ذلك من ضرورات البشر التي لا يمكن رفعها، بل ينبغي صرفها للوجه اللائق بها، وكذا جميع الأخلاق كالطمع والبخل والحرص والشهوة والغضب لا يمكن تبدلها، بل يصح أن تصرف إلى وجه لائق بها حتى لا تنصرف إلا فيه انتهى. وقيل: في هذه الآية تقديم

---

(١) المراغي.

(٢) قوله بالحول القلب: الحُوَّل بوزن سُكَّر، أي: بصير بتحويل الأمور وتدبيرها وتقليبها وهو حُوَّلٌ قُلَّب اهـ مختار.

(٣) روح البيان.

وتأخير، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون ﴿فرحوا﴾ معطوفاً على ﴿يفسدون﴾. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وما نعيم الحياة الدنيا الفاني ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: بالنسبة إلى نعيم الآخرة الباقي ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾؛ أي: إلا شيء قليل ونزر يسير سريع الزوال يتمتع به قليلاً، فهو كزاد الراعي يتزود بها إلى الآخرة، وعجالة الراكب؛ وهي ما يتعجل به من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك، فلا حق لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها، وانتفعوا به من خيراتها، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال. و﴿فِى﴾ في قوله: ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ ليست[1] ظرفاً لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ ولا لـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهما لا يقعان فيها، بل هي حال، والتقدير: وما الحياة القريبة إلى الزوال حالة كونها كائنة في جنب حياة الآخرة؛ أي: بالقياس والنسبة إليها إلا متاع، فـ﴿في﴾: للمقايسة، وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق.

وأخرج الترمذي عن المستورد قال[2]: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم يرجع»، وأشار بالسبابة.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود وصححه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك، فقال: «ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

قال في «الحكم العطائية»[3]: إن أردت أن لا تعزل، فلا تتول ولايةً لا تدوم لك، وكل ولايات الدنيا كذلك، وإن لم تعزل عنها بالحياة عزلت عنها بالممات، قال: وقد جعل الله الدنيا محلاً للأغيار ومعدناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها حتى لا يمكنك استناد إليها ولا تعريج عليها. وقد قيل: إن الله تعالى

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أوحى إلى الدنيا: تضيقي وتشدَّدي على أوليائي، وترفَّهي وتوسَّعي على أعدائي، تضيَّقي على أوليائي حتى لا يشتغلوا بك عني، وتوسَّعي على أعدائي حتى يشتغلوا بك عني، فلا يتفرَّغوا لذكري انتهى.

فغاية[١] متاع الدنيا أنها مثل القصعة والقدح والقدر ينتفع بها، ثم تذهب، والعاقل لا يفرح بما يفارقه عن قريب ويورثه حزناً طويلاً، وإن حدثته نفسه بالفرح به يكذبها. قال الشاعر:

وَمَـنْ سَـرَّهُ أَنْ لاَ يَـرَىٰ مَـا يَـسُـوْؤُهُ فَـلاَ يَـتَّـخِـذْ شَـيْـئَـاً يَـخَـافُ لَـهُ فَـقْـدَا

ولما أبان سبحانه وتعالى أنهم قد انخدعوا بالسراب واكتفوا بالحباب - نفاخات الماء التي تعلوه -. ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله ﷺ الآيات، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ثبتوا واستمروا على كفرهم وعنادهم من أهل مكة وغيرهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هلا أنزل على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة عظيمة ومعجزة باهرة كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ أي: من رب محمد ﷺ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام من العصا وإحياء الموتى ونحوهما؛ لتكون دليلاً وعلامة على صدقه.

والمعنى[٢]: أي ويقول الذي كفروا من أهل مكة هلاَّ أنزل على محمد آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين، كسقوط السماء عليهم كسفاً، أو تحويل الصفا ذهباً، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التي حكاها القرآن عنهم كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وكأنهم لفرط عنادهم وعظيم مكابرتهم قد ادعو أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التي توجب الإذعان والإيمان، أو التي لا تقبل شكاً ولا جدلاً، ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لا دخل له في هداية ولا ضلال، بل الأمر كله بيده، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

إضلاله باقتراح الآيات تعنتاً بعد تبين الحق وظهور المعجزات، فلا تغنى عنه كثرة المعجزات شيئاً إذا لم يهده الله تعالى ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ سبحانه تعالى ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: من أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، فضمير ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الحق أو إلى الإسلام، أو إلى جنابه تعالى ﴿مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: من أقبل إلى الحق ورجع عن العناد: فضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ راجع إلى الحق، أو من[1] رجع إلى الله التوبة والإقلاع عما كان عليه. وأصل الإنابة: الدخول في نوبة الخبر.

والمعنى[2]: أي إنه لا فائدة لكم في نزول الآيات إن لم يرد الله تعالى هدايتكم، فلا تشغلوا أنفسكم بها، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية، فإن الضلال والهداية بيده، وإليه مقاليدها، وادعوه أن يهيىء لكم من أمره رشداً، وأن يمهد لكم وسائل النجاة والسعادة، ويدفع عنكم نزعات الشيطان ووساوسه؛ لتظفروا بالحسنى في الدارين.

والخلاصة: أن في القرآن وحده غنى عن كل آية، فلو أراد الله هدايتكم لصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها، وكان لكم فيه مرشداً أيما مرشد، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لا تلوون على شيء، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح؛ لسوء استعدادكم وكثرة لجاجكم وعنادكم، ومن كانت هذه حاله فأنى له أن يهتدي ولو جاءته كل آية كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أما[3] من أقبلوا إلى الله وتأملوا في دلائله الواضحة، وسلكوا طرقه المعبدة، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم، وهم لا بد واصلون إلى الفوز

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

بالحسنى، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة، وهم من أشار إليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ محله النصب على البدلية من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله وبكل ما جاء به ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: تسكن قلوبهم وتستأنس ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله، واطمأنت واستأنست قلوبهم بذكر الله سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم؛ أي: إذا سمعوا ذكر الله أحبوه واستأنسوا به، فالمؤمنون يستأنسون بالقرآن وذكر الله الذي هو الاسم الأعظم ويحبون استماعها، والكفار يفرحون بالدنيا، ويستبشرون بذكر غير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقيل[١]: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده. ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا من غفلتكم واعلموا أنه ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَطْمَئِنُّ﴾. وتستأنس ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ أي: قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها؛ أي: ألا بذكر الله وحده لا بغيره تطمئن قلوب المؤمنين، ويزول القلق والاضطراب من خشيته بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذي يذهب الهلع والوحشة، وهي بمعنى قوله في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

فإن قلت[٢]: أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب، وهو ضد الطمأنينة، فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة، وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحدة؟

قلت: إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة إنما تكون عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه

(١) الشوكاني.   (٢) الخازن.

وعقابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه؛ أي: فالمؤمنون[1] إذا ذكروا عقاب الله، ولم يأمنوا من وقوعهم في المعاصي وجلت قلوبهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد، وزال منها القلق والوحشة كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. وفي الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء؛ إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها، ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، وهو مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: لهم عند ربهم في الآخرة حالة طيبة وعيشة طيبة ومثوبة حسنى وفرح وسرور، وقيل: طوبى: شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنة. ﴿و﴾ لهم ﴿حسن مآب﴾؛ أي: ولهم عند ربهم مآب حسن ومرجع حسن ومنقلب طيب ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهو الجنة.

وفي هذا من الترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا خفاء فيه.

وخلاصة ذلك: أن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء في الحديث: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقرأ بكرة الأعرابي شذوذاً[2]: ﴿طِيبى﴾ - بكسر الطاء - لتسلم الياء من القلب، وإن كان وزنها فعلى كما كسروا في بيض لتسلم الياء، وإن كان وزنه فعلاً كحمر. وقرىء شذوذاً: ﴿وحُسنَ مآبُ﴾ - بفتح النون ورفع مآب - فـ﴿حسن﴾: فعل ماضٍ أصله، وحسن نقلت ضمة سينه إلى الحاء، وهذا جائز في فعل إذا كان للمدح، أو الذم، كما قالوا: حسن ذا أدباً. وقرأ الجمهور: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالرفع على أنه معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾. وقرأ عيسى الثقفي بالنصب، وخرَّج ذلك ثعلب على أنه معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾ وأنها في موضع نصب على المصدرية كسَقْياً

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لك، وحسن مآب معطوف عليها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل إرسالنا الرسل إلى أممهم قبلك وإعطائنا إياهم كتباً تتلى عليهم ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وبعثناك يا محمد ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: إلى جماعة كثيرة. فـ﴿فِىٓ﴾[1] هنا بمعنى: إلى، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. وفي «بحر العلوم» وإنما عدى الإرسال بـ﴿فِىٓ﴾ وحقه أن يعدى بإلى؛ لأن الأمة موضع الإرسال؛ أي: أرسلناك إلى أمة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت وتقدمت ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾؛ أي: من قبل هذه الأمة التي أرسلناك إليها، فالضمير عائد على أمة باعتبار لفظها ﴿أُمَمٌ﴾؛ أي: قد مضت من قبل هذه الأمة أمم كثيرة وقرون عديدة قد أرسلنا إليهم رسلنا من قبلك، فليس ببدع إرسالك إلى أمتك، فكيف ينكرون رسالتك. ثم علل الإرسال، فقال: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على أمتك، فالضمير راجع إلى ﴿أُمَّةٍ﴾ باعتبار معناها، ولو عاد إلى لفظها، لقال: لتتلو عليها؛ أي: أرسلناك إليهم لكي تقرأ على تلك الأمة الكتاب العظيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن وما فيه من شرائع الإسلام وتزينهم بحلية الإيمان، فإن المقصود[2] من نزول القرآن هو العمل بما فيه، وتحصيل السيرة الحسنة لا التلاوة المحضة والاستماع المجرد، فالعامي المتعبد راجل سالك، والعالم المتهاون راكب نائم. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حال من ﴿أُمَّةٍ﴾؛ أي: أرسلناك إلى أمة قد خلت من قبلها أمم، والحال أنهم؛ أي: أن أمتك يكفرون وينكرون بالله الواسع الرحمة، ولا يعرفون قدر رحمته وإنعامه عليهم بإرسالك وإنزال الكتاب العظيم عليهم، والضمير في ﴿وَهُمْ﴾ عائد على ﴿أُمَّةٍ﴾ من حيث المعنى، ولو عاد على لفظها لكان التركيب: وهي تكفر بالرحمٰن. اهـ. «سمين».

والمعنى: أي كما[3] أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلاً فكذبوهم، كذلك أرسلناك في هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم.

وخلاصة ذلك: أننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك، وأعطيناهم كتباً تتلى عليهم أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم، فلماذا يقترحون غيره ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: والحال أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ووسعت كل شيء رحمته، ولم يشكروا نعمه وفضله عليهم، ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك، وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتاً، أو أثبتوا له الشركاء. وروي أنَّ أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو ويقول: «يا الله يا رحمن»، فرجع إلى المشركين، وقال: إن محمداً يدعو إلٰهين يدعو الله، ويدعو آخر يسمي الرحمٰن، ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة يعني به: مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وهي بلدة في البادية، فنزلت هذه الآية. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: الرحمٰن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿رَبِّى﴾؛ أي: خالقي ومتولي أموري. وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: هو جامع لهذين الوصفين من الربوبية والألوهية، فلا مستحق للعبادة سواه. ومعنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو الواحد المختص بالإلٰهية، فلا يستحق العبادة له والإيمان به سواه.

والمعنى: قل لهم يا محمد إن الرحمٰن الذي كفرتم به هو خالقي ومتولي أمري ومبلغي مراتب الكمال، لا رب غيره ولا معبود سواه، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقالت قريش: أما الرحمٰن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهليلة يكتبون: باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، قال: «لا اكتبوا كما يريدون». اهـ.

﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في جميع أموري، وإليه أسندت أمري في العصمة من شركم والنصرة عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى

لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾؛ أي: توبتي، وهو مصدر ميمي لتاب يتوب، وأصله[1] متابي بالإضافة إلى ياء المتكلم، ولكنها حذفت اجتزاء عنها بالكسرة؛ أي: مرجعي ومرجعكم فيرحمني وينتقم لي منكم، والانتقام من الرحمٰن أشد، ولذا قيل: نعوذ بالله من غضب الحليم.

وفي هذا[2]: بيان لفضل التوبة ومقدار عظمها عند الله، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجهٍ وألطف سبيل؛ إذا أمر بها عليه السلام وهو منزه عن اقتراف الذنوب، فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي أحق وأجدر.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾؛ أي: ولو ثبت أن كتاباً من الكتب السماوية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: نقلت بتلاوته عن أماكنها، وأذهبت عن وجه الأرض بقرائته عليها، كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: أو شقت الأرض بتلاوته عليها، وجعلت أنهاراً وعيوناً، كما فعل بالحجر حين ضربه موسى بعصاه ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: أو كلم أحد به الموتى في قبورهم بأن أحياهم بقرائته عليهم، فتكلم معهم كما وقع لعيسى عليه السلام، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو ثبت أمر من هذه الأمور الثلاثة لكتاب من الكتب السماوية لثبت لهذا الكتاب العظيم، ولهذا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله في الأنفس والآفاق، ولما اشتمل عليه من الحكم والأحكام التي فيها صلاح البشر وسعادتهم في الدار الفانية والدار الباقية، واشتمل عليه من قوانين العمران التي تكون خيراً لمتبعيها وفوزاً لسالكيها، ويجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

أو التقدير: لو ثبت أمر من هذه الأمور الثلاثة لكتاب من الكتب السماوية.. لكان هو هذا القرآن لكونه ينطوي على عجائب آثار قدرة الله تعالى،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ولكن لم يفعل، بل فعل ما عليه الشأن الآن وهذا بمعنى قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

خلاصة ذلك[1]: لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة؛ لكان مظهر ذلك هو القرآن الذي لم يعدوه آية، واقترحوا غيره. ولا يخفى ما في هذا من تعظيم شأنه الكريم، ووصفهم بسخف العقل وسوء التدبير والرأي، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها؛ لأنها صادرة عن التشهي والهوى والتمادي في الضلال، والمكابرة والعناد، لا عن تقدير للأمور على وجهها الصحيح، وتأمل في حقائقها، وما يجب أن يكون لها من الاعتبار.

ويجوز أن يكون المعنى: لو أن كتاباً فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة.. لما آمنوا به لفرط عنادهم وعلوهم في مكابرتهم، وهذا بمعنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿بَل لِّلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ الذي يدور[2] عليه فلك الأكوان ﴿جَمِيعًا﴾ وجوداً وعدماً إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، فله التصرف في كل شيء، وله القدرة على ما أراد، وهو قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك؛ لعلمه بأنه لا تنفعهم الآيات، وأن قلوبهم لا تلين بذلك، ولا يجدي هذا فائدة في إيمانهم.

والمعنى: بل مرجع الأمور كلها بيد الله تعالى ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يهد فما له من مضل. وهذه الجملة إضراب[3] عن ما تضمنته لو من معنى النفي؛ أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) البيضاوي.

شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ والهمزة فيه داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ هنا بمعنى يعلم و﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والتقدير: أغفل الذين آمنوا كون الأمر جميعاً لله تعالى، فلم يعلموا أن الشأن والحال لو شاء الله سبحانه وتعالى هداية الناس أجمعين لهداهم جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات التي اقترحوها، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع في العقول من هذا القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، ولكنه لم يشأ هداية جميع الناس. وقيل[1]: إن الإياس على معناه الحقيقي؛ أي: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم.

وحاصله: أن في معنى الآية قولين:

أحدهما: أن ييئس بمعنى علم.

والقول الثاني: أنه من اليأس المعروف، وتقدير القولين ما تقدم. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرحمٰن وهم كفار مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: بسبب ما صنعوا وفعلوا من كفرهم وأفعالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: داهية ومصيبة تقرعهم وتفجأهم، وتفزعهم من القتل والأسر والحرب والجدب. وأصل القرع: الضرب والصدع.

وتلخيصه[2]: ولا يزال كفار مكة معذبين بقارعة من البلايا والرزايا ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة؛ أي: تنزل ﴿قَرِيبًا﴾؛ أي: مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ مكة فيفزعون فيها، ويقلعون ويتطاير عليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها، ويجوز أن يكون ﴿تَحُلُّ﴾ خطاباً للنبي ﷺ، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم حيث حاصر أهل الطائف، وحيث حل بالحديبية في عامها. وقيل: هذا وعيد للكفار على العموم، لا خصوص أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: حتى ينجز الله سبحانه وتعالى وعده الذي وعدك فيهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لا يترك وفاء الوعد الذي وعده لعباده؛ لامتناع الخلف في حقه تعالى؛ لكونه نقصاً منافياً للألوهية، وكمال الشيء، فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة؛ أي: إن الله تعالى منجزك ما وعدك من النصر عليهم؛ لأنه لا يخلف وعده كما قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾. والميعاد[1]: بمعنى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة، والوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها.

وقرأ علي وابن عباس قال الزمخشري[2]، وجماعة من الصحابة والتابعين، وقال غيره: وعكرمة وابن أبي مليكة والجحدري وعلي بن الحسين وابنه زيد وأبو زيد المزني وعلي بن نديمة وعبد الله بن يزيد: ﴿أفلم يتبين﴾ من بينت كذا إذا عرفته وهه قراءة شاذة وليست متواترة، وتدل هذه القراءة الشاذة على أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ هنا معنى العلم، كما تظافرت النقول أنها لغة لبعض العرب، وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ. وقرأ مجاهد وابن جبير: ﴿أو يحل﴾ بالياء على الغيبة وهي قراءة شاذة أيضاً، واحتمل أن يكون عائداً على معنى القارعة، وهو أوضح، راعى فيه التذكير؛ لأنها بمعنى البلاء أو العذاب، أو تكون الهاء في ﴿قَارِعَةٌ﴾ للمبالغة فهو بمعنى قارع، واحتمل أن يكون عائداً على الرسول ﷺ؛ أي: أو يحل الرسول قريباً. وقرىء شذوذاً أيضاً: ﴿من ديارهم﴾ بالجمع وهي واضحة.

الإعراب

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع ما عطف عليه: مبتدأ أول، خبره جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أو بدل من ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أو نعت له، وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: مستأنفة. ﴿يُوفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الموصول. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُوفُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول معطوف على الموصول الأول. ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، ومفعوله محذوف تقديره: ما أمرهم الله به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُوصَلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ضمير به، والتقدير: والذين يصلون ما أمر الله بوصله. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢)﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على الموصول الأول. ﴿صَبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾: يجوز أن يكون مفعولاً له، وهو الظاهر، وأن يكون حالاً؛ أي: مبتغين، والمصدر مضاف لمفعوله. ا هـ. «سمين». ولكن الكلام على حذف مضاف؛ أي: ابتغاء ثوابه ورضاه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنفقوا﴾. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف الذي قدرناه آنفاً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: حالان من فاعل ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾، ولكنه على تأويله بالمشتق تقديره: وأنفقوا حالة كونهم مسرين ومعلنين، أو على المصدرية؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو على الظرفية؛ أي: وقتي سر وعلانية. ذكره في «روح البيان» كما تقدم. ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: فعل وفاعل

معطوف على ﴿صَبَرُوا﴾. ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾: متعلق به. ﴿السَّيِّئَةَ﴾: مفعول به. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لما بعده. ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: مبتدأ ثالث ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣)﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي جنات عدن، والجملة في محل الرفع بدل من ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، أو عطف بيان منه. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾: فعل وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّاتُ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾ للمعية ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على المرفوع في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وإنما ساغ العطف بلا توكيد، لوجود الفصل بالضمير المنصوب. ﴿صَلَحَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْ آبَائِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿صَلَحَ﴾. ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾: معطوفان على ﴿آبَائِهِمْ﴾. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: مبتدأ. ﴿يَدْخُلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾: يتعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو الجملة الاسمية مستأنفة.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

﴿سَلَامٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾، والتقدير: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب حالة كونهم قائلين: سلام عليكم. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية: ﴿صَبَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب صبركم في الدنيا على مشاق

التكاليف، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿نعم﴾: فعل ماضٍ لإنشاء المدح. ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿نعم﴾: في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف هو مخصوص بالمدح تقديره: جنات عدن، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر مبتدأ أول. ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿أَن يُوصَلَ﴾: ناصب وفعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من الضمير المجرور. ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم لما بعده. ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾: مبتدأ ثالث، والجملة من المبتدأ الثالث في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة قوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره:

لمن يشاء البسط له. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿وَفَرِحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الحياة﴾. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾. ﴿فِي﴾: حرف جر ومقايسة بمعنى الباء. ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾: مجرور بها، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من المضاف المحذوف الواقع مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَتَٰعٌ﴾: خبر المبتدأ، والتقدير: وما نعيم الحياة الدنيا حالة كونه مقاساً بنعيم الآخرة إلا متاع.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَةٌ﴾: نائب فاعل. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: آية كائنة من ربه، والجملة من الفعل المغير ونائب فاعله في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُضِلُّ مَن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إضلاله. ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يهدى﴾. ﴿أَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان منه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تطمئن﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما بعده. ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿طُوبَىٰ﴾: مبتدأ ثان، وجاز الابتداء به: إما لأنه علم لشيء بعينه، وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء، كسلام عليك، وويل له. اهـ. «سمين». ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر للمبتدأ الثاني. ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: معطوف على ﴿طُوبَىٰ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والتقدير: أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم إرسالاً مثل إرسالنا الرسل السالفة إلى أممهم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُمَمٌ﴾: فاعل ﴿خَلَتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿أُمَّةٍ﴾، ولكنها صفة سببية. ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تتلو﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة؛ لأنه فعل معتل الواو، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تتلو﴾، وجملة ﴿تتلو﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لتلاوتك عليهم الذي أوحينا إليك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسلنا﴾.

﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: الذي أوحينا إليك. ﴿وَهُمْ﴾: (الواو): حالية أو استئنافية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أُمَّةٍ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هُوَ رَبِّي﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسم ﴿لَآ﴾، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثالث للمبتدأ، أو مستأنفة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَتَابِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة مناسبة لياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

﴿وَلَوْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قُرْءَانًا﴾: اسمها. ﴿سُيِّرَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سُيِّرَتْ﴾. ﴿أَوْ كُلِّمَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: نائب فاعل والجملة معطوفة على

جملة ﴿سُيِّرَتْ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف بعد ﴿لَوْ﴾ الشرطية، والجملة المحذوفة مع فاعلها المنسبك من ﴿أَنَّ﴾: فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾، وجوابها محذوف تقديره: لو ثبت تسيير الجبال بكتاب من الكتب السماوية، أو تقطيع الأرض به، أو تكليم الموتى به.. لثبت كونه هذا القرآن، أو لما آمنوا به، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿بَل﴾: حرف إضراب. ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلْأَمْرُ﴾، أو من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَفَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والتقدير أغفلوا عن كون الأمر لله جميعاً، فلن يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: أنه ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط. ﴿يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿لَهَدَى﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾ ﴿هدى الناس﴾: فعل ومفعول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الناس وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾: المخففة: وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي يئس؛ لأنه بمعنى علم، والتقدير: أفلم يعلم الذين آمنوا هداية الله الناس جميعاً لو شاء هدايتهم، ولكنه لم يشأ هدايتهم جميعاً لحكمة اقتضت ذلك.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿تُصِيبُهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿صَنَعُواْ﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ(الباء) تقديره: تصيبهم بسبب صنعتهم القبيحة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تصيب﴾. ﴿قَارِعَةٌ﴾: فاعل ﴿تصيب﴾، وجملة

﴿تُصِيبُهُم﴾: في محل النصب خبر (زال)، وجملة زال مستأنفة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿تَحُلُّ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَارِعَةٌ﴾، أو على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تصيب﴾ على كونها خبر (زال). وفي «حاشية الصاوي على الجلالين» قوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا﴾: معطوف على ﴿قَارِعَةٌ﴾، والمعنى: تصيبهم بما صنعوا قارعة، أو حلولك قريباً من دارهم، والعطف يقتضي المغايرة، فالمراد بالقارعة غير حلوله، وإن كان من أعظم القوارع انتهى. ﴿قَرِيبًا﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿تَحُلُّ﴾؛ لأنه صفة لمكان محذوف. ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَرِيبًا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى: إلى تقديره إلى إتيان وعد الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُصِيبُهُم﴾، أو بـ﴿تَحُلُّ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ والفرق بين العهد والميثاق أن العهد[(١)]: جميع ما عهد الله عليهم من أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده على ألسنة الرسل وفي الكتب السماوية، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه. والميثاق: هو ما أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ...﴾ الآية.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾ قال أبو هلال العسكري[(٢)]: الفرق بين الخوف والخشية أن الخوف: يتعلق بالمكروه نفسه وبمنزل المكروه، يقال: خفت زيداً وخفت المرض، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، وقال: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾. والخشية: تتعلق بمنزل المكروه، فتقول: خشيت الله، ولا يسمى

---

(١) الشوكاني.　　　(٢) روح البيان بزيادة.

الخوف من نفس المكروه خشية، فلا تقول: خشيت المرض، بل تقول: خفت المرض، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، والإضافة في ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الحساب السيء، وهو؛ أي: الحساب السيء: المؤاخذة بكل ما عملوه.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، والصبر: حبس النفس على أنواع البلايا والمصائب وعلى مخالفة الهوى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات.

واعلم أن مواد الصبر كثيرة:

منها: الصبر على العمى، وفي الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - أي العينين، وسميتا بذلك، لأنهما أحب الأشياء إلى الشخص - فصبر على البلاء راضياً بقضاء الله تعالى عوضته منهما الجنة» والأعمى: أول من يرى الله تعالى يوم القيامة.

ومنها: الصبر على الحمَّى وصداع الرأس وموت الأولاد والأحباب، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

ومنها: الصبر على الصوم، فإن فيه صبراً على ما تكرهه النفس من حيث أنها مألوفة بالأكل والشرب والصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله عليه السلام: «الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان» ذكره في «روح البيان».

﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ والابتغاء: كناية عن الإخلاص، وهو إخلاص العمل للخالق عن ملاحظة المخلوق رياءً وسمعةً وعجباً وزينةً.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعونها بها، فيجازون الإساءة بالإحسان، أو يتبعون السيئة بالحسنة، فتمحوها. ا هـ. «بيضاوي». وقوله: يدفعونها بها كدفع[١] شتم غيرهم بالكلام الحسن، وإعطاء من حرمهم، وعفو من ظلمهم، ووصف من قطعهم. ا هـ. «زادة».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فيه ذكر الموصوف مع حذف صفته[٢]، والإضافة فيه

---

(١) زاده.
(٢) الفتوحات بتصرف.

على معنى في؛ أي: العقبى المحمودة في الدار الآخرة، فالعقبى المحمودة هي الجنة، والدار الآخرة أعم منها؛ لأنها تشمل الجنة والنار، والدليل على هذا النعت المحذوف قوله في المقابل: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. ا هـ. شيخنا. وقيل: المراد بالدار: دار الدنيا وعقباها؛ أي: عاقبتها هي الجنة ا هـ. وفي «الخطيب» والعقبى: الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر. ا هـ.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ في «المصباح»: عدن بالمكان عدناً وعدوناً ـ من بابي ضرب وقعد ـ إذا أقام فيه، ومنه جنات عدن؛ أي: جنات إقامة، واسم المكان معدن، وزان مجلس، لأن أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء، أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيه عدن ربه ا هـ.

﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾: جمع زوج، ويقال للمرأة الزوج والزوجة، والزوج أفصح.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يقال: قَدَر زيد إذا قتر وضيق على عياله، وفي «المصباح»: وقدر الله الرزق يقدره من باب ضرب، ويقدره من باب نصر. وقرأ السبعة بكسر الدال فهو أفصح.

﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾؛ أي: متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء. وقيل: المتاع[1] واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما. وقيل: المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع، فلا بد له من زوال. وقيل: زاد كزاد الركب يتزود به منها إلى الآخرة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع عن العناد، وأقبل على الحق. وفي «القاموس»: ناب إلى الله تعالى كأناب، والإضلال[2] خلق الضلالة في العبد، والهداية خلق الاهتداء، والدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب مطلقاً، وقد يسند كل منهما إلى الغير مجازاً بطريق السبب، والقرآن ناطق بكلا المعنيين، فيسند الإضلال إلى الشيطان في مرتبة الشريعة، وإلى النفس في مرتبة الطريقة، وإلى الله في مرتبة الحقيقة كذا ذكره في «روح البيان».

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: تسكن عن القلق والاضطراب وتخشع. ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الله؛ أي: عند ذكر وعده بالخير والثواب، فالكلام على حذف مضاف كما قدرناه. وعبارة «الشهاب»: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تضطرب للمكاره لأنسبها بالله واعتمادها عليه. ا هـ. وفي «أبي السعود» وقيل: تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو بذكره تعالى أنساً به وتبتلاً إليه. ا هـ. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بذكره وحده دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات. ا هـ. «أبو السعود».

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور، فهو مصدر من الطيب كبشرى ورجعى وزلفى، فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى. وقولنا: من الطيب فيه دلالة على أنه يائي، وأصله طيبى، قلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة، كما قلبت في موقن وموسر من اليقين واليسر. ا هـ. «شيخنا».

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، والمآب: المرجع والمنقلب.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت. ﴿مَتَابِ﴾؛ أي: توبتي ومرجعي. ﴿قُطِّعَتْ﴾؛ أي: شققت.

﴿يَاْيْـَٔسِ﴾؛ أي: يعلم، وهو لغة هوازن. وفي «المختار»: واليأس: القنوط، وقد يئس من الشيء من باب فهم، وفيه لغة أخرى يئس ييئس - بالكسر فيهما -، وهو شاذ، ويئس أيضاً بمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾. ا هـ. وفيه أيضاً أيس من الأمر لغة في يئس، وبابهما فهم. ا هـ.

﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: رزية تقرع القلوب وتفجؤها، أو تقرعهم؛ أي: تهلكهم وتستأصلهم. وفي «المختار»: قرع الباب من باب قطع، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر، وهي الداهية.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ والميعاد: مصدر ميمي بمعنى الوعد، كالميلاد بمعنى الولادة، والميثاق بمعنى التوثقة كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾؛ لأن عطفه على ما قبله من قبيل التوكيد، كما في «الجمل»؛ لأن عدم النقض يستلزمه الوفاء.

ومنها: الطباق بين ﴿سِرًّا﴾ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾، وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وبين ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿يقدر﴾، وبين ﴿يُضِلُّ﴾ و﴿يهدي﴾ للتضاد بين كل من اللفظين منها، وبين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ أيضاً.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ لحذف الأداة ووجه الشبه فيه؛ أي: إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات المؤقتة في سرعة الزوال.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ لأن حق العبارة ألا به تطمئن، وفيه أيضاً التكرار.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وفي قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إفادة للتجدد والاستمرار؛ لأن الطمأنينة تتجدد بعد الإيمان حيناً بعد حين. اهـ. «شهاب». وفي الكرخي المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، ومنه الآية. اهـ.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾؛ لأن تذكير كلم خاصة دون الفعلين قبله؛ لأن الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي، فكان حذف التاء لتغليبه أحسن، والجبال والأرض ليسا كذلك. ا هـ. «كرخي».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ
(٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)
۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ
ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦)
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ
(٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٤١)
وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى
ٱلدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ
عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ (٤٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما كان الكفار يسألون النبي ﷺ هذه الآية على سبيل الاستهزاء والسخرية، وكان ذلك يشق عليه، ويتأذى منه.. أنزل الله تسليةً له على سفاهة قومه قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] ما أعده للكافرين من العذاب

---

(١) المراغي.

والنكال في الدنيا والآخرة.. أتبعه بذكر ثواب المتقين في جنات تجري من تحتها الأنهار، ثم أردفه ذكر فرح المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه، وإنكار بعض منهم لذلك، ثم حثّ الرسول ﷺ على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره، ثم ختم هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته ﷺ، كقولهم: إنه كثير الزوجات ولو كان رسولاً من عند الله لما اشتغل بأمر النساء.

وخلاصة الجواب: أن محمداً ليس ببدع من الرسل، فكثير منهم كان له أزواج وذرية ولم يقدح ذلك في رسالاتهم، وكقولهم: إنه لو كان رسولاً من عند الله لم يتوقف فيما يطلب منه من المعجزات، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله، إن شاء أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، ولا اعتراض لأحد عليه. وقولهم: إن ما يخوفنا من العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعد، فليس بنبي ولا صادق فيما يقول، فأجيبوا عن ذلك بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: لكل حادث وقتاً معيناً لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به، وطلبوا استعجال السيئة التي توعَّدهم بها، وكان ﷺ يتمنى وقوع بعض ما توعدوا؛ ليكون زاجراً لغيرهم.. ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهمه ما سينالهم من الجزاء، فعلينا حسابهم، وهل هم في شك من حصول ما توعدناهم به، وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها، وقتل أهلها وأسرهم وتشريدهم، والله يحكم في خلقه كما يريد، وقد حكم للمسلمين بالعزّ والإقبال، وعلى أعدائهم بالقهر والإذلال.

ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم، ولم

---

(١) المراغي.

يكن مكرهاً ليضيرهم شيئاً، فكانت العاقبة للمتقين، وأهلك الله القوم الظالمين، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب لمن حسن العاقبة. ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته، وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها، فأيده بالأدلة والحجج، وفي شهادته غنى عن شهادة أي شاهد آخر، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه في كتبهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ...﴾ قال الكلبي[1]: عيرت اليهود رسول الله ﷺ، وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.. إلخ. تسلية[2] لرسول الله ﷺ، ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه بالآيات، والتنكير في ﴿رسل﴾ للتكثير، والإملاء[3]: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان؛ أي: مدة طويلة منه في دعة وراحة وأمن كالبهيمة في المرعى؛ أي: وعزتي وجلالي لقد استحقر واستهين وأوذي وكذب برسل كثيرة من قبلك؛ أي: استهزأ بهم قومهم كما أن قومك يا محمد استهزؤوا؛ أي: إن[4] يستهزىء بك هؤلاء المشركون من قومك، ويطلبوا منك الآيات تكذيباً لما جئتهم به.. فاصبر على آذاهم، وامض لأمر ربك، فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلهم. ثم بين سبحانه شأنه مع المكذبين، فقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: فأمهلت للمستهزئين الذين كفروا بالله وبرسله، وأطلت لهم مدة من الزمان في أمن وسعة وراحة؛ أي: فتركتهم ملاوة؛ أي: مدة من الزمان في أمن ودعة وراحة، كما يملي للبهيمة في المرعى ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإملاء

(١) أسباب النزول.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والإمهال والاستدراج ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالعقوبة والعذاب الذي أنزلته بهم. والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ للتقريع[١] والتهديد، أو التعجيب؛ أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتهم؛ أي: على أي حالة وقع عقابي لهم، هل كان ظلماً لهم أو كان عدلاً؛ أي: هو واقع موقعه؛ أي: هو عدل، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك يا محمد.

والمعنى: كيف[٢] رأيت يا محمد ما صنعت بمن استهزأ برسلي، ولم ير النبي ﷺ عقوبتهم إلا أنه علم بالتحقيق، فكأنه رأى عياناً. وفي «بحر العلوم»: فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم، فتشاهدون أثر ذلك، وهذا تعجيب من شدة أخذه لهم؛ سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به وأذاهم وتكذيبهم واقتراحهم الآيات بأن له في الأنبياء أسوة، وأن جزاء ما يفعلون به ينزل بهم كما نزل بالمستهزئين بالأنبياء جزاء ما فعلوا. وفيه إشارة إلى أن من أمارات الشقاء الاستهزاء بالأنبياء والأولياء.

والخلاصة[٣]: أي ثم أحللت بهم عذابي ونقمتي حين تمادوا في غيهم وضلالهم، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرة لأولي الألباب؟ وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه، فدخل في دين الله من دخل، ومن أبى قتل، ودانت العرب كلها له، وانضوت تحت لوائه، وحقت عليهم كلمة ربك.

وفي هذا: تعجيب مما حلّ بهم، ودلالة على شدته وفظاعة أمره كما لا يخفى. ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الحجاج عليهم، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، وكيف أنها وصلت إلى حدّ لا ينبغي لعاقل أن يقبله ولا يرضى به، فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ (الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري داخلة[٤] على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الصاوي.

و﴿من﴾ الموصولة مبتدأ خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع، دل على ذلك المحذوف قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ تقديره: كمن قسا قلبه يدل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وقد جاء مبيناً كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾. وتقدير الكلام هنا: أعميتم[1] وسويتم بين الله وبين خلقه، فمن هو قائم ورقيب على كل نفس وحافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر، ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت وهو الله سبحانه وتعالى وحده، كمن ليس بقائم عليها، بل هو عاجز عن نفسه، ومن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز، وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؛ أي: ليسا مستويين، بل القائم على كل نفس بما كسبت هو المستحق للألوهية والربوبية، لا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

ومعنى القيام[2]: التولي لأمور خلقه والتدبير للأرزاق والآجال، وإحصاء الأعمال للجزاء، يقال: قام فلان بفلان إذا كفاه وتولاه.

والمعنى: أي أفمن هو[3] قائم بحفظ أرزاق الخلق، ومتولي أمورهم، وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر، ولا يعزب عن شيء كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تدفع عن نفسها ولا عمن يعبدها ضراً ولا تجلب لهم نفعاً.

وخلاصة ذلك: أنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازي لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأي العين كمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن اتخاذه رباً يُرجى نفعه أو يُخشى ضره.

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: وجعل المشركون الأصنام شركاء لله سبحانه وتعالى، والظاهر أن هذه الجملة مستأنفة جيء بها للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم تقريره يعني[1]: إن الكفار سووا بين الله وبين الأصنام، واتخذوها شركاء له في العبادة، وإنما تكون سواء وشركاء فيها لو كانت سواء وشركاء في القيام على كل نفس، فما أعجب كفرهم وإشراكهم وتسويتهم مع علمهم التفاوت بينهما؛ أي: تعجبوا من ذلك. وقيل[2]: الواو للحال، والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس صالحة وطالحة، والحال أنهم جعلوا له شركاء كمن هو ليس كذلك، فأقيم الظاهر وهو لفظ الجلالة مقام المضمر تقريراً للإلٰهية وتصريحاً بها. وقيل: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ معطوف على ﴿اَسْتُهْزِئَ﴾ بمعنى: ولقد استهزؤوا وجعلوا لله شركاء. وقال أبو البقاء: هو معطوف على ﴿كَسَبَتْ﴾؛ أي: وجعلهم لله شركاء. اهـ. «سمين»؛ أي: وجعلوا لله شركاء عبدوها معه تعالى من أصنام وأوثان وأنداد.

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: بينوا[3] شركاءكم بأسمائهم وصفوهم بصفاتهم، فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة، يشير إلى أن الأسماء مأخذها من الصفات، فإن لم تروا منهم شيئاً من صفات الله، فكيف تسمونهم!؟.

وفي هذا: تبكيت لهم وتوبيخ؛ لأنه إنما يقال هذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى. وقيل: إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم. وقيل: سموهم من هم وما أسماؤهم، فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، فإنما يسمى من ينفع ويضر.

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ منقطعة تقدر ببل وهمزة الاستفهام الإنكاري؛

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

أي: بل أتنبئون الله سبحانه وتعالى وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ الله سبحانه وتعالى وجوده ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا في السموات من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها. وفي هذا نفي لوجودها؛ لأنها لو كانت موجودة لعلمها الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وإنما خص[1] الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض؛ لأنهم ادعوا له شريكاً في الأرض ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بل أتسمونهم شركاء بظاهر وهذل من القول من غير أن تكون له حقيقة ولا معنى. وقيل المعنى: قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه، فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه، فقل لهم: سموهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل معنى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بزائل من القول باطل، وقيل: بكذب من القول، وقيل: معنى ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بحجة من القول ظاهرة على زعمهم.

وخلاصة حجاجه على المشركين[2]: نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على أحقية عبادتها، فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ زاد ذلك إيضاحاً، فقال: وليتهم إذ أشركوا بربهم - الذي لا ينبغي أن يشرك به - أشركوا به من له حقيقة واعتبار، ومن ينفع ويضر، لا من لا اسم له فضلاً عن المسمى، بل من لا يعرف له وجود في الأرض ولا في السماء، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه، ثم زاد على ذلك، فقال: وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل، وما هي إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية عن المعاني، وما هي إلا كالألفاظ المهملة التي هي أجراس لا تدل على مكان، ولا يتكلم بها عاقل تنفراً منها واستقباحاً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إضراب عن محاجتهم بالكلية، فكأنه يقول: لا يفيد فيهم الاحتجاج؛ أي: دع هذا[1] الحجاج وألق به جانباً، فإنه لا فائدة فيه؛ لأنه زين له مكرهم وكيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم في الضلال. والمكر[2]: صرف الغير عما يقصده بحيلة، والمزين هو الله تعالى؛ لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق، لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه، فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط، ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله سبحانه وتعالى، ويدل على هذا سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾. اهـ. «خازن». ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ - بضم الصاد -؛ أي: وصرفوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه؛ أي: صدهم الله تعالى أو صدهم الشيطان وبفتحها؛ أي: صدوا غيرهم ومنعوهم عن سبيل الحق، أو عن المسجد الحرام. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: ومن يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله وخذلانه لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصي.. فلا هادي له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقرأ الحسن شاذاً[3]: ﴿تنبئونه﴾ من أنبأ. وقرأ مجاهد شذوذاً أيضاً: ﴿بل زَيَّن﴾ على البناء للفاعل ﴿مكرهم﴾ بالنصب. والجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ على البناء للمفعول ﴿مَكْرُهُمْ﴾ بالرفع. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وصدوا﴾ هنا وفي غافر بضم الصاد مبنياً للمفعول فالفعل متعدٍ. وقرأ باقي السبعة بفتحها فاحتمل التعدي واللزوم؛ أي: صدوا أنفسهم أو غيرهم، وقرأ ابن وثاب: ﴿وصِدوا﴾ - بكسر الصاد - وهي كقراءة ﴿رِدت إلينا﴾ - بكسر الراء -، كلاهما شاذ. وفي «اللوامح»: نسب الكسائي لابن يعمر ﴿وصِدوا﴾ بالكسر لغة وأما في المؤمن فالبكسر لابن وثاب انتهى. وقرأ ابن أبي إسحاق شاذاً أيضاً: ﴿وصدٌ﴾ بالتنوين

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

عطفاً على مكرهم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿هَادٍ﴾ بدون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة، وقرىء بإثباتها على اللغة القليلة.

ثم بين سبحانه ما يستحقونه، فقال: ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين ﴿عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر الآفات التي يصيبهم بها ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ولتعذيب الله سبحانه إياهم في الدار الآخرة ﴿أَشَقُّ﴾؛ أي: أشد من تعذيبه إياهم في الدنيا، وأصعب لشدته ودوامه. ثم أيأسهم من صرف العذاب عنهم، فقال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾؛ أي: حافظ ومانع حتى لا يعذبوا، فـ﴿مِن﴾ الثانية زائدة، والأولى متعلقة بـ﴿وَاقٍ﴾؛ أي: وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره.

ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى.. ذكر ما أعده للمؤمنين، فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ مبتدأ خبره محذوف؛ أي: صفة الجنة والبساتين التي وعد الله بها المتقين بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات وأعطاهم إياها كفاء إخباتهم له وإنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له كائنة هي فيما قصصنا وقرأنا عليك يا محمد حالة كونها ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل؛ أي: مقدراً جريان أنهارها تحتها؛ أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل كائنة فيما نقصه ونتلوه ونقرؤه عليكم. وقوله: ﴿تَجْرِي﴾.. إلخ تفسير[2] لذلك المحذوف، وقيل: إن قوله: ﴿تَجْرِي﴾ هو نفس الخبر. اهـ. من «البيضاوي». ووجه الأخير أن المثل هنا بمعنى الصفة، فهو كقولك: صفة زيد أنه طويل، ويجوز أن يكون ﴿تَجْرِي﴾ مستأنفاً. اهـ. من «السمين». وقرأ علي وابن مسعود: ﴿مثال الجنة﴾ على الجمع؛ أي: صفاتها وفي «اللوامح»: علي السلمي: ﴿أمثال الجنة﴾ جمع: مثل ذكره أبو حيان وكلتا القراءتين شاذتان.

---

(1) الشوكاني.
(2) الفتوحات.

﴿أُكُلُهَا﴾؛ أي: ما يؤكل فيها ويشرب من الفواكه والمطاعم والمشارب ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ولا يمنع بخلاف ثمر الدنيا؛ أي: دائم بحسب نوعه، فكل شيء أكل يتجدد غيره لا بحسب شخصه، إذا عين المأكول لا ترجع. وقوله: ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ مبتدأ حذف خبره؛ أي: وظل[1] تلك الجنة دائم لا ينسخ في الدنيا بالشمس، لأنه لا شمس في الجنة ولا حر ولا برد، فالمراد بدوام الظل دوام الاستراحة، وإنما عبر عنه به لندرة الظل عند العرب، وفيه معظم استراحاتهم في أرضهم. وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي بلغك وصفها، وسمعت بذكرها ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ الله تعالى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات؛ أي: مآلهم وعاقبة أمرهم. ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين، فقال: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وعاقبة الكافرين بالله تعالى هي ﴿ٱلنَّارُ﴾ الأخروية لا غيرها بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام، فالتقوى طريق إلى الجنة، والكفر طريق إلى النار أعاذنا الله منه ومنها. وفي الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين، وإقفاله بالرتاج على الكافرين.

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين: فئة فرحت بنزول القرآن، وفرقه أنكرته وكفرت ببعضه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ وأعطيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل يريد المسلمين من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، ومن النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يَفْرَحُونَ﴾ ويسرون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ﴾؛ أي: بجميع ما أنزل إليك وهو القرآن كله؛ لأنه من فضل الله ورحمته على العباد، ولا شك أن المؤمن الموقن يسره ما جاء إليه من باب الفضل والإحسان، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: ومن أحزابهم وجماعتهم الذين تحزبوا وتجمعوا واتفقوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف وأتباعه، والسيد

---

(١) روح البيان.

والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما وسائر المشركين، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ أي: بعض ما أنزل إليك من القرآن، وهو ما لا يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم.

فإن قلت: إن[1] الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله، فكيف قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾.؟

قلتُ: إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته؛ لأنه قد ورد فيه آيات دالة على توحيد الله وإثبات قدرته لا ينكرون ذلك أبداً. والقول الثاني: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون كما مر فرحوا بالقرآن، لكونهم آمنوا به وصدقوه ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني: بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾. وقيل: كان ذكر الرحمٰن قليلاً في القرآن في الابتداء، فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمٰن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمٰن في القرآن.. فرحوا بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ وذلك لما كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقالوا: ما نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ وإنما قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمٰن.

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب في شأنه ﷺ.. بين بإيجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين، فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد في جواب المنكرين ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾؛ أي: إنما أمرت[2] فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده ولا أشرك به شيئاً، وهو العمدة في الدين، لا سبيل لكم إلى إنكاره،

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم، فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلٰهية في جزئيات الأحكام؛ لأن الله الحكيم ينزل بحسب ما يقتضيه صلاح أهل العالم، كالطبيب يعامل المريض بما يناسب مزاجه من التدبير والعلاج.

وقد اتفق[1] القراء على نصب ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ عطفاً على ﴿أَعْبُدَ﴾. وقرأ أبو خليد عن نافع: ﴿ولا أشرك﴾ بالرفع على القطع؛ أي: وأنا لا أشرك به، وجوز أن يكون حالاً؛ أي: أن أعبد الله غير مشرك. **والمعنى**: أي[2]: قل لهم صادعاً بالحق، ولا تكترث بمن ينكره: إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وحده، ولا أشرك به شيئاً سواه، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره، وأطبقت عليه الشرائع والكتب، كما قال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. وذلك ما دلت الدلائل التي في الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له، والاعتراف به، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وطاعته وإخلاص العبادة له وحده، لا إلى غيره ﴿أَدْعُوا۟﴾ الناس أو أخصه بالدعاء والنداء إليه في جميع مهامي ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿مَـَٔابِ﴾؛ أي: مآبي ومرجعي ومصيري ومرجعكم للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، فأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكار المخالف فيه.

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة، فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ﴾ توحي إلى ما جاء به التكليف، وقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ تشير إلى مهام الرسالة، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة، ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلاً بلغات أقوامهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وكما أرسلنا من قبلك المرسلين

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وأنزلنا عليهم الكتب بلغة أممهم، أو مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا عليك القرآن حالة كونه ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: حاكماً يحكم في كل شيء يحتاج إليه العباد على مقتضى الحكمة والصواب، فالحكم مصدر بمعنى الحاكم، ولما[1] كان جميع التكاليف الشرعية مستنبطاً من القرآن كان سبباً للحكم، فأسند إليه الحكم إسناداً مجازياً، ثم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، وقيل معنى: ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: محكماً لا يقبل النسخ والتغيير ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أي: مترجماً بلسان العرب؛ أي: بلسانك ولسان قومك، ليسهل عليهم فهم معناه، وحفظه على ظهر القلب. وانتصاب[2] ﴿حُكْمًا﴾ على أنه حال موطئة، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفته، والحال الموطئة اسم جامد موصوف بصفة هي الحال، فكأن الاسم الجامد وطأ الطريق لما هو حال في الحقيقة؛ لمجيئه قبلها موصوفاً بها.

وروي أنه لما كان المشركون يدعونه ﷺ إلى اتباع ملة آبائهم المشركين، وكان اليهود يدعونه إلى الصلاة إلى قبلتهم؛ أي: بيت المقدس بعد ما حول عنها.. نزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن اتبعت يا محمد أهواء هؤلاء الأحزاب من اليهود والمشركين التي يدعونك إليها لتقرير دينهم ابتغاء مرضاتهم، كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم في شيء مما يعتقدونه جعل ما يدعونه إليه من الدين الباطل، والطريق الزائغ هوى، وهو ما يميل إليه الطبع وتهواه النفس بمجرد الاشتهاء من غير سند مقبول ودليل مقعول؛ لكونه هوى محضاً. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي علمه الله إياه والدين المعلوم صحته بالبراهين ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿وَلَا﴾ من ﴿وَاقٍ﴾ يقيك ويحفظك من عذابه، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمته.

والمعنى[3]: أي ليس لك من دون الله ولي ولا ناصر ينصرك، فينقذك منه إن هو أراد عقابك، ولا واق يقيك عذابه إن شاء عذابك، فاحذر أن تتبع أهوائهم

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وتنهج نهجهم، وقد تقدم أن مثل هذا من قبيل قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين، لا للنبي ﷺ، فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مهيج.

ونزل لما عابت[1] اليهود رسول الله ﷺ بكثرة النساء، فقالوا: لو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا رسلاً بشراً مثلك ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾؛ أي: نساء وأولاد كما هي لك، فإذا جاز ذلك في حقهم، فلم لا يجوز مثله أيضاً في حقك؟ وهو جواب لقول اليهود ما نرى لهذا الرجل همةً إلا في النساء والنكاح، ولو كان نبياً لاشتغل بالزهد والعبادة، وقد كان لمحمد ﷺ سبعة أولاد؛ أربع إناث، وثلاثة ذكور.

والمعنى: أي وكما أرسلناك رسولاً بشرياً كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات ويولد لهم.

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين، وناهيك بأم المؤمنين عائشة، وفيها يقول رسول الله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء». ومن ثمّ كانت أكثر من حدّث عن رسول الله ﷺ بعد أبي هريرة، وأكثر من حدّث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن، ومنها علم المسلمون كثيراً من أحكام دينهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا، وكانت تحاجهم وتجادلهم وتلزمهم الحجة، ولا يجدون معدلاً عن التسليم لرأيها.

وروي[2]: أنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة منكوحة وثلاث مئة سرية،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

ولابنه سليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأة مهرية وسبع مئة سرية، فكيف يضر كثرة الأزواج لنبينا عليه الصلاة والسلام. وروي أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ من الرسل الكرام وما صح لواحد منهم، ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تقترح عليه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره وإرادته، لا باختيار نفسه ورأيه، فإنهم عبيد مربوبون منقادون، وهو جواب لقول المشركين: لو كان رسولاً من عند الله لكان عليه أن يأتي بأي شيء طلبنا منه من المعجزات ولا يتوقف فيه، وفيه إشارة إلى أن حركات عامة الخلق وسكناتهم بمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن حركات الرسل وسكناتهم بإذن الله ورضاه.

أي: وما[1] كان في وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن في الإتيان بها حكماً ومصالح لعباده، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر، وغناء لمن تفكر وتدبر، ولكنهم أبوا إلا التمادي في الغواية والضلال. والآيات المقترحة لا تأتي إلا على مقتضى الحكمة في أزمان يعلمها الله، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس، ولا صلاح فيما اقترحوه، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره، وأن يجعل له مهد ينام فيه، كذلك لا حكمة في إنزال الآيات التي اقترحوها، وهذا إيضاح قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت ﴿كِتَابٌ﴾؛ أي: حكم[2] مكتوب مفروض فيه يليق بصلاح حال أهله، فإن الحكمة تقتضي اختلاف الأحكام على حسب اختلاف الأعصار والأمم، وهو جواب لقولهم: لو كان نبياً ما نسخ أكثر أحكام التوراة والإنجيل. وقال الشيخ في «تفسيره».. أي: لكل شيء قضاه الله تعالى وقت مكتوب معلوم لا يزاد عليه ولا ينقص منه، أو لا يتقدم ولا يتأخر عنه. ا هـ.

ففي الكلام تقديم وتأخير؛ أي: لكل[3] كتاب أجل؛ أي: لكل أمر كتبه الله

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أجل معين ووقت معلوم، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها، ولا عذاب مما خوفوا به بحاصل في غير وقته، ولا نبوة بحاصلة في غير الزمان المقدر لها، فموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام جاؤوا في أزمنة رأى الله الصلاح في وجودهم فيها، لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم كلها كتبت في آجال ومدد معينة، لا تقديم فيها ولا تأخير، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله في حجر معينة، ووزع بينهم العمل على نظم خاصة في أوقات معينة، ولهم مناهج يتبعونها، فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أماكنهم ثم يعودون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل، فالدنيا قد جعل الله لها نظاماً على مقتضى الحقائق الثابتة التي تعلق بها علمه، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب، وظهر النبات والحيوان، وتعاقب الموت والحياة، وظهرت نجوم وفنيت أخرى، ونبت زرع وحصد آخر، ومات نبي وقام آخر، وامتد دين وانتشر وتقلص دين ونسخ.

وكل كوكب من الكواكب التي تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى، وذلك تابع لما في المنهج الأصلي، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كمصر، فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم، وهكذا تنسخ آية من القرآن ويؤتى بغيرها، كما ينسخ زرع بزرع وليل بنهار، وقوم بقوم ودين نبي بآخر في ميقاته المعين في علمه تعالى، وهذا ما عناه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ محوه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء إثباته، فينسخ[1] ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما هو خير منه أو مثله، ويترك ما تقتضيه حكمته غير منسوخ، أو يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها.

---

(١) روح البيان.

وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لا تناقض فيها، بل هي داخلة فيما سلف[١]:

١ ـ قال الحسن: يمحو الله من جاء أجله، ويثبت من بقي أجله.

٢ ـ وقال عكرمة والسدي: يمحو الله القمر ويثبت الشمس، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

٣ ـ وقال الربيع: يقبض الله الأرواح حين النوم، فيميت من يشاء ويمحوه، ويرجع من يشاء فيثبته.

٤ ـ وقال آخرون: يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله.

٥ ـ وقال آخرون: يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء. وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء. وقيل: يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها. وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة.

وظاهر النظم القرآني[٢]: العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبو ائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم، وهذا القول أولى كما تفيده ما في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من العموم.

﴿وَعِندَهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله[٣] الذي لا يتغير منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل، وهو العلم الأزلي الأبدي السرمدي القائم بذاته، وقد أحاط بكل شيء علماً بلا زيادة ولا نقصان، وكل شيء عنده بمقدار. وقيل: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله[٤] وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

ما يشاء مما في اللوح المحفوظ، فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه، فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جف القلم» وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه، وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم[1]: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ مخففاً من أثبت، وباقي السبعة مثقلاً من ﴿ثَبت﴾. ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، والجواب محذوف تقديره: فذاك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ أي: نقبضنك قبل أن نريك ذلك. وهذه الجملة شرط ثان لعطفه على الشرط قبله، وجوابه أيضاً محذوف تقديره: فلا تقصير منك ولا لوم عليك. وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ تعليل لهذا المحذوف؛ أي: ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم، والبلاغ اسم مصدر أقيم مقام التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ لا عليك؛ أي: أن نحاسبهم يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، فننتقم منهم أشد الانتقام، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

والمعنى: أي إن أريناك[2] أيها الرسول في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم، أو توفيناك قبل أن نريك ذلك، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طلب صلاحهم ولا فسادهم، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾. وهذا تسلية من[3] الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره، وأن من لم يجب دعوته ويصدق نبوته.. فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك. والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنكر أولئك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

المشركون من أهل مكة وغيرهم نزول ما وعدناهم أو شكوا في ذلك، ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الكفرة من مكة وغيرها؛ أي: يأتي أمرنا أرض الكفرة حالة كوننا ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾؛ أي: ننقص أرض الكفرة من أطرافها ونواحيها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً، فما زاد[1] في بلاد الإسلام باستيلائهم عليها جبراً وقهراً نقص من ديار الكفرة، والله تعالى إذا قدر على جعله بعض ديار الكفرة للمسلمين.. فهو قادر على أن يجعل الكل لهم، أفلا يعتبرون؛ أي: أأنكر[2] أهل مكة نزول ما وعدناهم ولم يروا أنا نأخذ أرضهم نفتحها من نواحيها للمسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء، أليس هذا من ذلك.

والخلاصة: أي أشك[3] أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ولم يروا أنا نأتي الأرض، فنفتحها لك أرضاً بعد أرض، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء، أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ونذيراً بما سيحل بهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة لو تدبروا، فما لهم عن التذكرة معرضين، ونحو الآية قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وقرأ الضحاك: ﴿ننقِّصها﴾ مثقلاً من نقص عداه بالتضعيف من نقص اللازم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ في خلقه ما يشاء من الأزل إلى الأبد[4]، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيى هذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان. وجملة قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾؛ أي: لا راد لحكمه في محل النصب على الحال؛ أي: والله يحكم حالة كونه نافذاً حكمه خالياً عن المعارض والمناقض. ومعنى المعقب: الذي يعقب الشيء بالرد والإبطال.

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس، وذلك كائن لا يمكن تغييره. وقيل: جملة ﴿لَا﴾ معترضة. ﴿وَهُوَ﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته على السرعة، فعما قريب[1] سيحاسبهم في الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم، وران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، فلا تستبطىء عقابهم، فإنه آت لا محالة وكل آت قريب. ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل، فكادوهم وكفروا بهم، فنمرود مكر بإبراهيم، وفرعون مكر بموسى، واليهود مكروا بعيسى كما مكر أولئك بك في دار الندوة حيث أرادوا قتلك، ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله الظالمين. والمكر: إيصال المكروه للممكور به خفية من حيث لا يشعر.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتصبير بأن العاقبة له لا محالة حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لا اعتداد بمكر غيره، وهذا تعليل لمحذوف تقديره: فلا عبرة بمكرهم ولا تأثير له. ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازيها على ذلك، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها.. كان المكر كله له؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقال الواحدي: إن مكر الماكرين مخلوق، فلا يضر إلا بإرادته. اهـ. فإثباته لهم باعتبار الكسب، ونفيه عنهم باعتبار الخلق، فلا يَرد كيف أثبت لهم مكراً ثم نفاه عنهم بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؟ وفيه تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم. اهـ. «كرخي». ومكر الله سبحانه وتعالى صفة ثابتة له تعالى نثبته ولا نعطله، لا نمثله ولا نكيفه. وقيل: مكر[2] الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة.

والمعنى: يعلم[3] سبحانه وتعالى ما تكسب كل نفس، فيعصم أولياءه

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ويعاقب الماكرين بهم، ليوفي كل نفس جزاء ما كسبت. وفي هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين. ثم أكد هذا التهديد بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة، ويدخلون النار ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في الدار الآخرة، وإن جهلوا ذلك من قبل؛ أي: سيعلم[١] جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو الدار الآخرة، أو فيهما. وقيل: المراد بالكافر: أبو جهل.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر[٢]: ﴿الكافر﴾ بالإفراد والمراد به الجنس. وقرأ الباقون: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ بالجمع جمع تكسير، وابن مسعود شاذاً: ﴿الكافرون﴾ جمع سلامة. وأبيّ شاذا أيضاً: ﴿الذين كفروا﴾. وقرأ جناح بن حبيش: ﴿وسيعلم الكفار﴾ مبنياً للمفعول من أعلم؛ أي: وسيخبر وهي شاذة أيضاً.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن، فقال له عليه السلام: «هل تجدني في الإنجيل رسولاً»؟ قال: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: ويقول المشركون أو جميع الكفار ﴿لَسْتَ﴾ يا محمد ﴿مُرْسَلًا﴾ من عند الله إلى الناس. أي: ويقول الجاحدون لنبوتك الكافرون برسالتك: لست مرسلاً من عند الله، أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان، وتصلح حال المجتمع البشري، وتمنع عنه الظلم والفساد، فأمر الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من جهة كونه ﴿شَهِيدًۢا﴾؛ أي: شاهداً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم صحة رسالتي وصدق دعوتي، ويعلم كذبكم.

أي: قل حسبي الله شاهداً بتأييد رسالتي وصدق مقالتي؛ إذ أنزل علي هذا

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

الكتاب الذي أعجز البشر قاطبةً أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والمراد بشهادة الله تعالى: إظهار المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وكفى شهيداً بيني وبينكم من عنده علم الكتاب السماوي، وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وسلمان الفارسي وتميم الداري وآصف بن برخيا، فكل من كان عالماً بالتوراة والإنجيل علم أن محمداً مرسل من عند الله تعالى. وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك. وقيل: المراد[1] بالكتاب القرآن، ومن عنده علم منه هم المسلمون. وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه وتعالى، واختار هذا الزجاج. وقال: لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

و﴿من﴾ في قراءة[2] الجمهور في موضع خفض عطفاً على لفظ ﴿الله﴾، أو موضع رفع عطفاً على موضع ﴿الله﴾؛ إذ هو في مذهب من جعل الباء زائدة فاعل بكفى. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون في موضع رفع الابتداء، والخبر محذوف تقديره: أعدل وأمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظة ﴿شَهِيدًۢا﴾ ويراد بذلك الله تعالى. وقرىء شذوذاً[3]: ﴿بمن﴾ بدخول الباء على ﴿من﴾ عطفاً على ﴿بِٱللَّهِ﴾. وقرأ علي وأبيّ وابن عباس وعكرمة وابن جبير وعبد الرحمٰن بن أبي بكرة والضحاك وسالم بن عبد الله بن عمر وابن أبي إسحاق ومجاهد والحكم والأعمش: ﴿ومِنْ عندِه علمُ الكتاب﴾ بجعل ﴿من﴾ حرف جر وجر ما بعده به، وارتفاع ﴿علم﴾ بالابتداء، والجار والمجرور في موضع الخبر. وقرأ علي أيضاً وابن السميقع والحسن بخلاف عنه: ﴿ومِنْ عنده﴾ بجعل ﴿من﴾ حرف جر، ﴿عِلِم الكتاب﴾ بجعل ﴿عُلِمَ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، و﴿الكتابُ﴾ رفع به. وقرىء شذوذاً أيضاً: ﴿ومِنْ عندِه﴾ بحرف جر، ﴿عُلِّم الكتاب﴾ مشدداً مبنياً

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

للمفعول، و﴿الكتاب﴾ رفع به أيضاً، والضمير في ﴿عنده﴾ في هذه القراءات الثلاث عائد على ﴿الله﴾ تعالى، و﴿من﴾ لابتداء الغاية؛ أي: ومن عند الله سبحانه وتعالى حصل علم القرآن؛ لأن أحداً لا يعمله إلا من تعليمه.

ولما[1] أمر الله سبحانه نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله على رسالته، ولا يكون ذلك إلا بإظهار القرآن، ولا يعلم العبد كون القرآن معجزاً إلا بعد العلم بما فيه من أسراره.. بين الله تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله تعالى.

خلاصة ما في هذه السورة[2]

ترى مما تقدم في تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية:

١ - إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السماوات والأرض، والجبال والأنهار، والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله، وهذا تفصيل لما أجمله في السورة قبلها من قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٢ - إثبات البعث ويوم القيامة، والتعجب من إنكارهم له.

٣ - استعجالهم العذاب من الرسول ﷺ، وبيان أنه واقع بهم لا محالة، كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة.

٤ - بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه، وتكتب عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات بأمر الله.

٥ - ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسيل والزبد الرابي.

٦ - بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

ويخافون سوء الحساب، وأقاموا الصلاة وأنفقوا في السر والعلن، وبيان مآلهم يوم القيامة.

٧ ـ بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون في الأرض، وبيان مآلهم.

٨ ـ إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله.

٩ ـ وصف الجنة التي وعد بها المتقون، وبيان أنها مآل المتقين، ومآل الكافرين النار وبئس القرار.

١٠ ـ بيان أن كثيراً ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن؛ إذ يرون فيه تصديقاً لما بين أيديهم من الكتاب.

١١ ـ بيان مهمة الرسول، وأن خلاصة ما جاء به عبادة الله وحده وعدم الشرك به، ودعاؤه لجلب النفع ودفع الضر، وأن إليه تعالى المرجع والمآب.

١٢ ـ بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه؛ ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها.

١٣ ـ تحذير الرسول ﷺ وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم.

١٤ ـ أن جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كان لهم أزواج وذرية.

١٥ ـ أن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يأتون بها كلما أرادوا، وإنما هي بإذن الله وإرادته.

١٦ ـ بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محو وإثبات، وموت وحياة، فيزيل الله قوماً ويوجد آخرين، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل.

١٧ ـ أن مهمة الرسول إنما هي التبليغ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله تعالى، ولا يعني الرسول أن يحصل في زمنه أو بعد وفاته.

١٨ ـ أن انتقام الله من المكذبين قد بدأ في حياة الرسول بقتل أعدائه

وأسرهم وتشريدهم في البلاد.

١٩ ـ أن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس ببدع جديد، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم، وكان النصر حليف المتقين، ونكل الله بالقوم الظالمين.

٢٠ ـ إلحاف الكافرين في إنكار رسالته ﷺ، مع أن الله تعالى شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته ﷺ في كتبهم وتبشيرها بها.

الإعراب

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

﴿وَلَقَدِ﴾ (الواو): استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِرُسُلٍ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أمليت﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أمليت﴾. ﴿فَكَيْفَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت استهزاءهم بالرسل فإملائي لهم فأخذي إياهم.. فأقول لك يا محمد: كيف كان عقابي إياهم، هل هو واقع محله أم لا؟. ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي مع التقريع لهم في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليه وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عِقَابِ﴾: اسمها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف: ﴿عِقَابِ﴾: مضاف وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾.

﴿أَفَمَنْ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع، دل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿قَآئِمٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول، والتقدير: أعميتم وسويتم بين الله وبين خلقه، فمن هو قائم على كل نفس كائن كمن ليس كذلك، لا ليسوا مستويين، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَآئِمٌ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾؛ أي: حالة كونها ملتبسة بما كسبت. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿وَجَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، وهو يتعدى إلى مفعولين أولهما محذوف تقديره: وجعلوا الأصنام شركاء لله. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾. ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ كما مر في مبحث التفسير. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مسأنفة. ﴿سَمُّوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأنه بمعنى اذكروا أسماءهم أو صفوهم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿تُنَبِّئُونَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مرفوع بثبوت النون. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرورفي محل المفعول الثاني، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط المفعول المحذوف تقديره: بما لا يعلمه في الأرض ولا في السماوات. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الإبطالي كما في «الصاوي»، وهمزة الاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: بل أتسمونهم بظاهر من القول. ﴿بِظَاهِرٍ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني للفعل المحذوف. ﴿مِّنَ الْقَوْلِ﴾: جار ومجرور لـ﴿ظاهر﴾؛ أي: بل أتسمون تلك الأصنام بلفظ خالٍ عن المعنى، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب. ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿مَكْرُهُمْ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَصُدُّوا﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾: متعلق به. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرطٍ لها، والرابط محذوف تقديره: ومن يضلله الله. ﴿فَمَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿ما﴾: تميمية أو حجازية. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ، أو لـ﴿ما﴾ الحجازية. ﴿مِنْ﴾ زائدة. ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ﴿ما﴾ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿هَادٍ﴾ بثبوت الياء وحذفها وقفاً سبعيتان، وفي الرسم محذوفة لا غير كالوصل.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾.

﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾: جار ومجرور صفة لعذاب الدنيا، صفة لـ﴿الْحَيَاةِ﴾. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَشَقُّ﴾: خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَاقٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَاقٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما واقٍ من عذاب الله كائن لهم، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿الَّتِي﴾: صفة لـ﴿الْجَنَّةِ﴾. ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف

تقديره: وعدها المتقون، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: مثل الجنة التي وعدها المتقون كائن فيما يتلى عليك، والجملة مستأنفة. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مفسرة لذلك المحذوف، أو مستأنفة. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مفسرة أو مستأنفة. ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾: مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه تقديره: وظلها دائم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾. ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱتَّقَواْۖ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان صلة الموصول. ﴿يَفۡرَحُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفۡرَحُونَ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيۡكَۖ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أُمِرۡتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي. ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: إنما أمرت بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرۡتُ﴾. ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿أَعۡبُدَ﴾. ﴿بِهِۦٓۚ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والتقدير: أمرت بعبادة الله وعدم الإشراك به. ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَدۡعُواْ﴾. ﴿أَدۡعُواْ﴾: فعل

مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَئَابِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوف اجتزاء عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف. ﴿مَئَابِ﴾: مضاف وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُمِرْتُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: وأنزلنا هذا القرآن عليك إنزالاً مثل إنزالنا الكتب السالفة على الرسل المتقدمة عليك، والجملة مستأنفة. ﴿حُكْمًا﴾: حال موطئة من ضمير المفعول، ولكنه في تأويل حاكماً. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ﴿حُكْمًا﴾. ﴿وَلَئِنِ﴾: (الواو): استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿بَعْدَ مَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَلِيٍّ﴾. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾ والتقدير: ما ولي ولا واق من الله كائن لك، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره، وإن اتبعت أهوائهم بعد ما جاءك من العلم.. فما لك من الله من ولي ولا واق، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رُسُلًا﴾، أو متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾. ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به؛ لأن جعل هنا بمعنى خلق. ﴿وَذُرِّيَّةً﴾: معطوف على ﴿أَزْوَٰجًا﴾. ﴿وَمَا كَانَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِرَسُولٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رسول﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإتيان بآية من الآيات كائناً لرسول من الرسل إلا بإذن الله، والجملة مستأنفة. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاءه. ﴿وَيُثْبِتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَمْحُواْ﴾. ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿مَّا﴾: زائدة. ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة

الموصول، وجواب الشرط محذوف تقديره: فذاك شافيك من أعدائك، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم معطوف على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ على كونه شرطاً ثانياً، وفاعله ضمير يعود على الله، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: فلا تقصير منك ولا لوم عليك. ﴿فَإِنَّمَا﴾: (الفاء): تعليلية للجواب المحذوف. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إنما عليك البلاغ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. (الواو): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ والتقدير: أأنكروا نزول ما وعدناهم، أو شكوا في ذلك ولم يروا أنا نأتي الأرض، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى تقديره: أولم يروا إتياننا الأرض حالة كوننا ننقصها. ﴿نَنقُصُهَا﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿نَأْتِى﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لاَ﴾: نافية. ﴿مُعَقِّبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لِحُكْمِهِۦ﴾: متعلق به، وخبرها محذوف تقديره: موجود، وجملة﴿لَا﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَحْكُمُ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل

وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿فَلِلَّهِ﴾: (الفاء): تعليلية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿جَمِيعٗاۖ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر، والجملة الاسمية في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تكسبه كل نفس. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَنۡ﴾: (اللام): حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور خبر مقدم. ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي علم معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، و(الباء): زائدة. ﴿شَهِيدَۢا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بَيۡنِي﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَهِيدَۢا﴾. ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على فاعل ﴿كَفَىٰ﴾. ﴿عِندَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة ﴿من﴾ الموصولة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ﴾ ومعنى الاستهزاء[1]: الاستحقار والاستهانة، والأذى

---

(١) روح البيان.

والتكذيب.

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ والإملاء: الإمهال وأن يترك ملاءة من الزمان؛ أي: مدة طويلة منه في دعة وراحة وأمن، كالبهيمة في المرعى؛ أي: أطلت لهم المدة في أمن وسعة بتأخير العقوبة ليتمادوا في المعصية. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإملاء والاستدراج أخذتهم بالعقوبة.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾؛ أي: رقيب ومتول للأمور.

﴿تُنَبِّئُونَهُ﴾؛ أي: تخبرونه. ﴿بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بباطل منه لا حقيقة له في الواقع.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ بتخيلهم أباطيل، ثم ظنهم إياها حقاً والمكر[1]: صرف الغير عما يقصده بحيلة، والحيلة[2]: ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي.

﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والصد: المنع، والسبيل: هو سبيل الحق وطريقه؛ أي: منعوا عن طريق الهدى. وقرىء بفتح الصاد؛ أي: منعوا الناس عنه. وقد يستعمل صد لازماً بمعنى أعرض؛ أي: أعرضوا عنه.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأصل العذاب[3] في كلام العرب من العذب، وهو المنع، يقال: عذبته عذباً إذا منعته، وسمي الماء عذباً؛ لأنه يمنع العطش، وسمي العذاب عذاباً؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أي: أشد وأصعب لدوامه، وهو عذاب النار، وعذاب نار القطيعة وألم البعد وحسرة التفريط في طاعة الله وندامة الإفراط في الذنوب والمعاصي، والحصول على الخسارات والهبوط من الدرجات ونزول الدركات.

---

(١) روح البيان.

(٢) قسطلاني على البخاري.

(٣) روح البيان.

﴿مِن وَاقٍ﴾؛ أي: حافظ ومانع حتى لا يعذبوا. ﴿وَاقٍ﴾: اسم فاعل من وقى يقي فهو واق بوزن قاض، أصله: واقي استثقلت الحركة على الياء، ثم حذفت فالتقى ساكنان وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، فصار واقٍ، فإعراب واق إعراب منقوص، فهو بحركة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المثل: الصفة والنعت. قال ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا؛ أي: صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها. اهـ. «الشوكاني».

﴿أُكُلُهَا﴾ والأكل - بضمتين - ما يؤكل من طعامها. ﴿دَآئِمٌ﴾؛ أي: لا ينقطع ولايمنع منه بخلاف ثمر الدنيا، والمراد بدوام الأكل: الدوام بالنوع لا الدوام بالجزء والشخص، فإنه إذا فنى منه شيء جيء ببدله، وهذا لا ينافي الهلاك لحظة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ على أن دوامه مضاف إلى ما بعد دخول الجنة كما يقتضيه سوق الكلام عند هلاك كل شيء قبل الدخول لا ينافي وجوده وبقاءه بعده.

﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم، والظل: واحد الظلال، والظلول والأظلال.

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ والعقبى: مصدر كالبشرى والرجعى؛ أي: مآلهم ومنتهى أمرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والأحزاب واحدهم حزب: وهو الطائفة المتحزبة؛ أي: المجتمعة لشأن من الشؤون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك. والمآب: المرجع. الواقي: الحافظ.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ والأجل: الوقت والمدة. ﴿كِتَابٌ﴾ والكتاب: الحكم المعين الذي يكتب على العباد بحسب ما تقتضيه الحكمة، والمراد بالأجل: أزمنة الموجودات، فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود ولا يزاد عليه ولا ينقص، والمراد بالكتاب: صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ. والمحو:

ذهاب أثر الكتابة.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصله: وهو علم الله تعالى، أو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. والأم[1]: أصل الشيء، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيءأماً له، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، والعندية عندية علم، والكتاب هو المذكور أولاً بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ على القاعدة المشهورة عند البلغاء أن النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ مضارع أرى البصرية تعدى إلى مفعولين بالهمزة، وأكد بالنون الثقيلة.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ والبلاغ: اسم مصدر لبلغ تبليغاً أقيم مقام المصدر، كالأداء مقام التأدية؛ أي: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة لا غير.

﴿مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ والأطراف: الجوانب. ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ والمعقب: الذي يكر على الشيء فيبطله، ويقال لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمكر: إرادة المكروه في خفية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ لأن حق العبارة، وجعلوا له، فأقيم الظاهر مقام المضمر تقريراً للألوهية وتصريحاً بها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾.

قال الطيبي[2]: في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان:

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

أولها: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كمن ﴿ليس كذلك﴾ احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم على القياس الفاسد؛ لفقد الجهة الجامعة لهما.

ثانيهما: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه.

ثالثها: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: عينوا أسماءهم، فقولوا: فلان وفلان، فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمه؛ لأن المراد بالاسم العلم.

رابعها: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ احتجاج من باب نفي الشيء أعني: العلم بنفي لازمه، وهو المعلوم، وهو كناية.

خامسها: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ احتجاج من باب الاستدراج، والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكر. المعنى: أتقولون بأفواهكم من غير روية وأنتم الباء، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه.

سادسها: التدرج في كل من الإضرابات على ألطف وجه، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها.. كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالإعجاز، وأنه ليس من كلام البشر. اهـ.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا في السماوات، وإنما خص الأرض، بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض؛ لأنهم ادعوا له شريكاً في الأرض.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أي: وظلها دائم حذف منه الخبر بدليل السياق.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.

ومنها: تنكير ﴿رُسُلًا﴾ للدلالة على الكثرة.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وكلاهما قصر إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة؛ أي: ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ.

ومنها: التهييج[1] والإلهاب والبعث للسامعين على الثبات على الدين، والتصلب فيه، لئلا يزل زال عند الشبه بعد استمساكه بالحجة في قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وإلا فالرسول معصوم من اتباع أهوائهم؛ لأنه ﷺ كان من شدة الشكيمة بمكان.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يأتيها أمرنا وعذابنا.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ من التكلم إلى الغيبة لما في[2] بناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة.

فائدة: فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح، وهذا مروي عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه، وأنشد بعضهم[3]:

---

(١) الكشاف.

(٢) أبو السعود.

(٣) ابن كثير.

ٱلأَرْضُ تَـحْـيَـا إِذَا مَـا عَـاشَ عَـالِـمُـهَـا   مَـتَـىٰ يَـمُـتْ عَـالِـمٌ مِـنْـهَـا يَـمُـتْ طَـرَفُ
كَـٱلأَرْضِ تَـحْـيَـا إِذَا مَـا ٱلْغَـيْـثُ حَـلَّ بِـهَـا   وَإِنْ أَبَـىٰ عَـادَ فِـيْ أَكْـنَـافِـهَـا ٱلْـتَـلَـفُ

والله سبحانه وتعالى أعلم(١)

* * *

(١) وقد حصل الفراغ من تفسير سورة الرعد بتوفيق الله تعالى وتيسيره قبيل الغروب، في اليوم الخامس من شهر الله رجب الفرد من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة (٥/٧/١٤١١ هـ) من الهجرة المصطفوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وصلى الله سبحانه وتعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد ﷺ خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة إبراهيم عليه السلام

سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مكية كلها، كما[1] أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن الزبير، وحكاه القرطبي عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها مدنيتين. وقيل: إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال: وهي مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.. الآيتين. نزلتا في قتلى بدر من المشركين.

التسمية: سميت بسورة إبراهيم[2]؛ لذكر قصته فيها. فإن قلت: إن قصة إبراهيم قد ذكرت في غير هذه السورة كـ: الأنبياء والبقرة.

قلت: إن علة التسمية لا تقتضي اطراد التسمية، بل التسمية أمر توقيفي. وآياتها إحدى، أو اثنتان، أو أربع، أو خمس وخمسون آية، ففي آياتها أربعة أقوال. وكلماتها[3] ثمان مئة وإحدى وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

المناسبة: ومناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها من وجوه[4]:

١ ـ أنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكماً عربياً، ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا.

٢ ـ أنه ذكر في السورة السالفة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهنا ذكر أن الرسل قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الصاوي.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

٣ ـ ذكر هناك أمره ﷺ بالتوكل على الله وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جلّ شأنه.

٤ ـ اشتملت تلك السابقة على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضاً.

٥ ـ ذكر هناك رفع السماء بغير عمد، ومدّ الأرض، وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك.

٦ ـ ذكر هناك مكر الكفار، وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو[1] عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة إبراهيم عند جميع المفسرين محكمة ليس فيها منسوخ إلا عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، فإنه قال: فيها آية منسوخة، والجمهور على خلاف قوله، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ في سورة النحل آية (١٨) انتهى.

فضلها: ومن فضائلها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال[2]: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد» رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي، وهو موضوع كما ذكره العراقي.

والله أعلم

* * *

---

(١) الناسخ والمنسوخ.

(٢) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ
صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ
عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ
ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (٥) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ
ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٦) وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٞ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ
نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ
جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٩) ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (١٠) قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن
نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم
بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ
هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة للسورة قبلها واضح جداً[1]؛ لأنه ذكر في السورة

---

(١) البحر المحيط.

قبلها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، ثم ذكر قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ثم قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فناسب هذه قوله في هذه السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وأيضاً، فإنهم لما قالوا في السورة السابقة على سبيل الاقتراح: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.. أنزل في هذه السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ وهي الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: وهو الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[١]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أنه أرسل نبيه محمداً ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن في هذا الإرسال نعمة له ولقومه.. أتبع ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء، وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد؛ لما في ذلك من التسلية له وجميل التأسي بهم، وبيان أن المقصود من بعثة الرسل واحد: وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه[٢] لما تقدم أمره تعالى لموسى بالتذكير بأيام الله.. ذكرهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضمنها تعداد شيء مما جرى عليهم من نقم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما ذكر به موسى قومه بما أولاهم به من نعمة، ورفع عنهم من نقمة، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر، ثم حذرهم بأن الكفران لا يضير ربهم، وأنه غني عن حمدهم، وحمد من في الأرض جميعاً، يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلي ومقال

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

جلي.. فذكر القول أولاً على سبيل الإجمال، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم، ودحض ما تمسكوا به من الترهات والأباطيل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: أن قريشاً قالوا: ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربي؟ فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓر﴾[1] يشير بالألف إلى القسم بآلائه ونعمائه، وباللام إلى لطفه وكرمه وبالراء إلى القرآن، يعني: قسماً بآلائي ونعمائي إن صفة لطفي وكرمي اقتضت إنزال القرآن وهو كتاب... إلخ، وتقدم في سورتي يونس وهود طريقة قراءته، **والمعنى**: المراد منه بما أغنى عن إعادته هنا. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذا القرآن المشتمل على هذه السورة وغيرها كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبرائيل حالة كونه حجة على رسالتك بإعجازه. ثم بين المصلحة في إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ كافةً بدعائك وإرشادك إياهم إلى ما تضمَّنه الكتاب من العقائد الحقَّة والأحكام النافعة. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من أنواع الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والنفاق والشك والبدعة إلى نور الإيمان والإخلاص واليقين والسنة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بحوله وقوته؛ أي: لا سبيل له إلى ذلك إلا به، وإنما قال: ﴿رَبِّهِمْ﴾: لأنه تعالى مربيهم، ولم يقل: بإذن ربك، ليعلم أن هذه التربية من الله تعالى، لا من النبي عليه السلام..

واعلم[2]: أن الدعوة عامة، والهداية خاصة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ وإذن الله شامل لجميع الناس

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

في الظلمات، إذ المقصود من إيجاد العوالم وإنشاء النشآت كلها ظهور الإنسان الكامل، وقد حصل وهو الواحد الذي كالألف وهو السواد الأعظم، فلا تقتضي الحكمة إتفاق الكل على الحق؛ لأن لله تعالى جمالاً وجلالاً لابدّ لكليهما من أثر.

والمعنى: هذا القرآن الذي نتلوه عليك كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول؛ لتنقذ[1] الناس من ظلمات الضلالة والكفر إلى نور الإيمان وضيائه، وتبصَّر به أهل الجهل والعمى سبيل الرشاد والهدى بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر في حقائق الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه لا شريك له، وأن الواجب عبادته وحده، ثم دعاؤه لجلب النفع وكشف الضر، وفيها أيضاً سعادة البشر وصلاحهم في الدنيا والآخرة بإذن ربهم، وتوفيقه ولطفه بهم بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم، فيسلكون طرق الفلاح والصلاح.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكرير العامل وإضافة الصراط إلى العزيز، وهو الله على سبيل التعظيم له، والمراد به: دين الإسلام، فإنه طريق موصل إلى الجنة والقربة والوصلة، والعزيز: الغالب الذي ينتقم لأهل دينه من أعدائهم، والحميد: المحمود الذي يستوجب بذلك الحمد من عباده.

والمعنى: لتخرج الناس إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الذي ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم؛ وهو العزيز الذي لا يغالب المحمود في جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ الآية. وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر عطف بيان لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأنه علم للذات الواجب الوجود الخالق العالم، وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات من العقلاء وغيرهم صفة للجلالة؛

---

(١) المراغي.

أي: هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقاً وتصرفاً وتدبيراً.

وفيه[1] إشارة إلى أن سير السائرين إلى الله لا ينتهي بالسير في الصفات وهو العزيز الحميد، وإنما ينتهي بالسير في الذات وهو الله، فالمكونات أفعاله، فمن بقي في أفعاله لا يصل إلى صفاته، ومن بقي في صفاته لا يصل إلى ذاته، ومن وصل إلى ذاته وصولاً بلا اتصال ولا انفصال، بل وصولاً بالخروج من أنانيته إلى هويته تعالى ينتفع به في صفاته وأفعاله، قال الملاّ الجامي رحمه الله تعالى:

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَ وَأَلْهَمْتَ لَنَا إِلْهَامَا

وهذه[2] الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان المنفرد بالعظمة والسلطان قد كررت في كثير من سور الكتاب الكريم للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا الدين أن يكون في المسلمين حكماء ربانيون يتفهمون حقائق هذا الكون، ويدركون أسرار بدائعه، ويستخرجون للناس ما في باطن الأرض، وينتفعون بما في ظاهرها، ويتأملون فيما في السماوات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذي ينتفع منه الإنسان والحيوان في مأكلهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقهما.

وجاء في سورة يوسف توبيخاً للغافلين، وحثاً لهمم المستبصرين: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ومع كل هذا فوا أسفاً رأينا كثيراً من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح مساء يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها ولا المراد منها، ولا استبصار بما تنطوي عليه من المقاصد والمرامي، ولو كان ذلك كافياً؛ لكان ذكر الخبز حين الجوع كافياً في الشبع، والنظر إلى الماء كافياً في الري.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر[3]: ﴿الله﴾ ـ بالرفع ـ على أنه خبر مبتدأ

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط والشوكاني.

محذوف؛ أي: هو الله المتصف بملك ما في السماوات وما في الأرض. وقرأ باقي العشرة والأصمعي عن نافع: ﴿ٱللَّهِ﴾ ـ بالجرّ ـ على أنه بدل في قول ابن عطية والحوفي وأبي البقاء، وعلى أنه عطف بيان على قول الزمخشري؛ لكونه من الأعلام الغالبة كالنجم على الثريا؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي يحق له العبادة، فلا يصح وصف ما قبله به؛ لأن العلم لا يوصف به. وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. وقال أبو عمرو: إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، وإذا وصل خفض. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم توعد سبحانه الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدانيته، فقال: ﴿وَوَيْلٌ﴾ الويل[1]: الهلاك والدمار، وهو مبتدأ خبره ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بالكتاب، وأصله: النصب كسائر المصادر إلا أنه لم يشتق منه فعل، لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه، فيقال: ويل لهم كسلام عليكم ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: لبيان الجنس صفة لـ﴿ويل﴾، أو حال من ضميره في الخبر، أو ابتدائية متعلقة بالويل على معنى: إنهم يولون ويصيحون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا إليه، ويقولون: يا ويلاه كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

والمعنى: أي وهلاك[2] ودمار بشديد العذاب يوم القيامة لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السماوات والأرض، وترك عبادة من لا يملك لنفسه شيئاً، بل هو مملوك له تعالى؛ لأنه بعض ما في السماوات ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الموصول في محل الجر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

بدل من ﴿الكافرين﴾ أو صفة له، والاستحباب: استفعال من المحبة؛ أي: وويل وهلاك بعذاب شديد كائن للكافرين الذين يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الحياة الآخرة الأبدية، فإن المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من غيره.

قال ابن عباس(١) ـ رضي الله عنهما ـ: يأخذون ما تعجل فيها تهاوناً بأمر الآخرة، وهذا من أوصاف الكافر الحقيقي، فإنه يجد ويجتهد في طلب الدنيا وشهواتها، ويترك الآخرة بإهمال السعي في طلبها، واحتمال الكلفة والمشقة في مخالفة هوى النفس وموافقة الشرع، فينبغي للمؤمن الحقيقي أن لا يرضى باسم الإسلام، ولا يقنع بالإيمان التقليدي، فإنه لا يخلو عن الظلمات بخلاف الإيمان الحقيقي، فإنه نور محض وليس فيه تغيير أصلاً.

والمعنى: أي إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها، ويقترفون الآثام ويرتكبون الموبقات، ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التي تقربهم إلى الله زلفى، وينسون يوماً تجازى فيه كل نفس بما عملت، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤييه ومن في الأرض جميعاً.

٢ ـ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ويمنعونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن قبول دينه الذي شرعه لعباده، وجملة ﴿يصدون﴾ وكذلك ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ معطوفتان على ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾؛ أي: ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله، واتباع رسوله فيما جاء به من عند ربه أن يؤمنوا به ويتبعوه؛ لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الطغيان، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمٰن. وقرأ الحسن شذوذاً(٢): ﴿ويُصِدُّونَ﴾ مضارع أصد الداخل عليه همزة النقل، من صد اللازم صدوداً.

٣ ـ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الضمير ﴿عِوَجًا﴾؛ أي: ويطلبون لها زيغاً واعوجاجاً وميلاً عن الحق؛ لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم؛ أي: يقولون لمن يريدون صده وإضلاله: إنها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة.

والمعنى: أي[1] ويطلبون لها الزيغ والعوج، وهي أبعد ما تكون من ذلك، ويقولون لمن يريدون صدهم وإضلالهم عن سبيل الله ودينه، إن ذلك الدين ناء عن الصراط المستقيم وزائغ عن الحق واليقين، وإنك لتسمع كثيراً من الملحدين يقول: إن القوانين الإسلامية في الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة، وإنها تصلح للأمم العربية في البادية، لا للأمم التي أخذت قسطاً عظيماً من الحضارة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

فتلك شريعة دانت لها أمة غيرت وجه البسيطة[2]، وملكت ناصية العالم ردحاً من الزمان، وكانت مضرب الأمثال في العدل وترك الجور، وثلت عروش الأكاسرة والقياصرة، وامتلكت بلادهم، وأزالت عزهم وسلطانهم إلى أن غير أهلها معالمها، فأركسهم الله بما كسبوا، فبدل عزهم ذلاً وسعادتهم شقاء، وتلك سنة الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها. واجتماع هذه الخصال الثلاثة نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالقبائح المذكورة ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحق؛ أي: ضلوا ووقعوا عنه بمراحل، فلا يوجد ضلال أكمل من هذا الضلال.

والبعد في الحقيقة من أحوال الضال[3]؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله مجازاً للمبالغة، وفي جعل الضلال محيطاً بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة؛ أي: فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة، وصدهم عن الدين وابتغائهم له الزيغ والعوج في ضلال بعيد عن الحق، لا يرجى لهم فلاح، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم، وزين لهم الفساد والغي،

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

فيرون حسناً ما ليس بالحسن، وقبيحاً ما ليس بالقبيح. ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه إلى عباده، فذكر أنه يرسل رسله إلى أقوامهم بلغاتهم كي لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أرسلنا رسولاً من الرسل قبلك إلى أمة من الأمم من قبل قومك ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: إلا متلبساً بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسول ﴿لَهُمۡۖ﴾؛ أي: لقومه ويفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهيه بسهولة ويسر، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر، وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم، وهو يتلى عليهم، فأي عذر لهم في أن لا يفقهوه، وما الذي صدهم عن أن يدرسوه ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام وحلال وحرام وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا في حياتهم الدنيا والآخرة. ولفظ اللسان يستعمل فيما هو بمعنى العضو وبمعنى اللغة، والمراد هنا: هو الثاني؛ أي: بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم.

فإن قلت: لم يُبعثْ[1] رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن الإنس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى، وقوله: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ وليس قومه سوى العرب يقتضي بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة، فكيف يمكن الجمع؟

قلتُ: بُعثَ رسول الله ﷺ من العرب وبلسانهم، والناس تبع للعرب، فكان مبعوثاً إلى جميع الخلق؛ لأنهم تبع للعرب، ثم إنه ﷺ يبعث الرسل إلى الأطراف والنواحي، فيترجمون لهم بألسنتهم، ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم. والنبي[2] ﷺ وإن أرسل إلى الناس جميعاً ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيره، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهوماً لهم كما فهموه، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم.. لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع؛ لأن كل أمة قد تدعي

(١) الخازن. (٢) المراغي.

من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وقد يفضي ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب الدَّعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

وقيل[1]: يحتمل أنه أراد بـ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب، فيدخل معهم من كان من غير جنسهم في عموم الدعوى. وقيل: إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه، وكانت دعوته خاصة، وكان كتابه بلسان قومه.. وكان أقرب لفهمهم عنه، وقيام الحجة عليهم في ذلك، فإذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه، وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله، وإذا كان الكتاب واحداً بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات.. كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه، وجميع حدوده وأحكامه.

قلتُ: هذا الإشكال لا يأتي من أول الأمر، لأن معنى الآية: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول من الرسل الكرام قبلك إلى أمة من الأمم الذين قبل أمتك إلا بلغة قومه؛ ليبين لهم، لأن ذلك الرسول مرسل إلى قومه خاصة كما أشرنا إليه في الحل بخلاف رسالتك، فإنها عامة وأنت سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، وأمتك خير الأمم وأفضلهم، فأردنا أن نجمع أمتك على كتاب واحد منزل بلسان هو سيد الألسنة وأشرفها وأفضلها إعطاء للأشرف الأشرف، وذلك هو اللسان العربي الذي هو لسان قومه، ولسان أهل الجنة، فكان سائر الألسنة تابعاً له كما أن الناس تابع للعرب انتهى.

وفي «الفتوحات»: والأولى[2] أن يحمل القوم على من أرسل إليهم الرسول أياً كان، وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد ﷺ خصوص عشيرة رسولهم، وبالنسبة إليه كل من أرسل إليه من سائر القبائل وأصناف الخلق وهو ﷺ كان يخاطب كل قوم بلغتهم، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية؛ لأنه لم يتفق أنه خاطب أحداً من أهلها، ولو خاطبه لكلمه بها، تأمل. انتهى.

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

وقرأ أبو السمال وأبو الجوزاء وأبو عمران الجوني شذوذاً[١]: ﴿بلسن قومه﴾ بإسكان السين، قالوا: هو كالريش والرياش. وقال صاحب «اللوامح» واللسن: خاص باللغة، واللسان قد يقع على العضو وعلى الكلام. وقال ابن عطية مثل ذلك، قال اللسان في هذه الآية يراد به اللغة، ويقال: لسن ولسان في اللغة، فأما العضو فلا يقال فيه: لسن. وقال أبو رجاء وأبو المتوكل والجحدري شذوذاً أيضاً: ﴿لسن﴾ بضم اللام والسين، وهو جمع لسان كعماد وعمد. وقرىء شاذاً أيضاً بضم اللام وسكون السين مخففاً كرسل ورسل.

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر في عدم فهم شرائعه.. ذكر أن الهداية والإضلال بيده ومشيئته، فقال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله؛ أي: يخلق فيه الكفر والضلال لمباشرة الأسباب المؤدية إليه ﴿وَيَهْدِى﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته؛ أي: يخلق فيه الإيمان والاهتداء لاستحقاقه له لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق. وجملة قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ استئناف إخبار، ولا يجوز نصبه عطفاً على ما قبله؛ لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال. قال الزجاج: لو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز. ا هـ. «سمين».

والخلاصة[٢]: أي إن الناس فريقان: فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام، فاتبع سبيل الرشاد، وفريق رانت على قلبه الغواية والضلالة بما اجترح من الآثام، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته، لا راد لقضائه ولا دافع لحكمه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على كل شيء، فلا يغالب في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه الذي لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة في خلقه والنواميس التي وضعها لصلاح

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

حال عباده وضلالهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. وفيه[1] أن ما فوض إلى الرسل إنما هو تبليغ الرسالة، وتبيين طريق الحق، وأما الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم لما بين سبحانه وتعالى أن المقصود من بعثة نبينا محمد ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك. وخصّ موسى[2] بالذكر؛ لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: وكما أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعزتي وجلالي لقد أرسلنا موسى بن عمران إلى بني إسرائيل، وأيدناه بآياتنا التسع التي سلف ذكرها في سورة الأعراف في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ الآية. وأمرناه بـ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده؛ ليخرجوا من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان.

وقال أبو السعود[3]: الآيات معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل، والمراد: إخراجهم بعد مهلك فرعون من الكفر والجهالات التي أدتهم إلى أن يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به انتهى. ولما[4] كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة.. قال تعالى في حقه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ ولم يقل: لتخرج قومك كما قال في موسى عليه السلام أن أخرج قومك وخصص. وقال هنالك: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وطواه هنا؛ لأن الإخراج بالفعل قد تحقق في دعوته ﷺ، فكانت أمته أمة دعوة وإجابة، ولم يتحقق في دعوة موسى، إذ لم يجبه القبط إلى أن هلكوا، وإن أجابه بنو إسرائيل، والعمدة في رسالته كان القبط.

﴿و﴾ أمرناه بأن ﴿ذكرهم﴾؛ أي: ذكر قومك وعظهم مرغّباً لهم في ثواب

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) أبو السعود.
(٤) روح البيان.

الله بتذكيرهم ﴿بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ أي: بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في الأمم السابقة؛ ليكون في ذلك حافزاً لهم على العمل، ويكون لهم بمن سلف أسوة، وذكرهم وعظهم مخوفاً لهم بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل من الأمم الغابرة كعاد وثمود؛ ليكون لهم في ذلك مزدجر، وليحذروا أن يحل بهم مثل ما حلّ بهم.

والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وأيام الله[1] في جانب موسى عليه السلام، منها ما كان محنة وبلاء، وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده، ومنها ما كانت نعمة كإنجائهم من عدوهم وفلق البحر لهم، وإنزاله المنّ والسلوى عليهم.

وفي «تفسير ابن جرير»: ﴿بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ أي: بأنواع عقوباته الفائضة، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه ا هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التذكير بأيام الله، أو في نفس أيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة أو كثيرة؛ أي: لدلائل دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: كثير الصبر على المحن والبلايا ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الشكر على المنح والعطايا؛ لأنه[2] إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. ا هـ. «بيضاوي». كأنه[3] قال: لكل مؤمن كامل؛ إذ الإيمان نصفان: نصفه صبر، ونصفه شكر، وتخصيص الآيات بهم؛ لأنهم المنتفعون بها، لا لأنها خافية عن غيرهم، فإن التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل، وتقديم الصبر لكون الشكر عاقبته. وعبارة «الكرخي»: وتقديم الصبار على الشكور؛ لتقدم متعلق الصبر، أعني: البلاء على متعلق الشكر، أعني: النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر. ا هـ.

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.

قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له».

وفي هذا[١] إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبداً؛ لأنه: إما في مكروه يصبر عليه، وإما في محبوب يشكر عليه. والوقت في هذه الحياة ذهب، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدي فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا، فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة، ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة، فليحذر كل امرىء أن يضيع حياته بلا عمل، وليخف على وقت يضيع، ثم بعده عذاب سريع.

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله، وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل: يا قوم ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تذكروا إنعام الله سبحانه وتعالى عليكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وقت إنجائه إياكم من فرعون وآله؛ أي: قومه حين كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يذيقونكم أشد العذاب، ويكلفونكم من الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ تذبيحاً كثيراً ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويبقون نسائكم وبناتكم في الحياة ذليلات في الخدمة مستضعفات فيها، وهذا رزء من أشد الأرزاء، وأعظم أنواع البلاء. قال شاعرهم:

وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلرُّزْءِ فِيْمَا أَرَىٰ بَقَاءُ ٱلْبَنَاتِ وَمَوْتُ ٱلْبَنِيْنَا

وفي «الكرخي»: فإن قيل[٢]: استحياء النساء كيف يكون ابتلاء؟

قلنا: كانوا يستخدمونهن بالاستعباد والإرقاق، ويفردونهن عن الأزواج،

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

وذلك من أعظم المضار والابتلاء؛ إذ الهلاك أسهل من هذا. ا هـ.

وقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ من عطف[1] الخاص على العام، كأن التذبيح لشدته وفظاعته وخروجه عن مرتبة العذاب المعتاد جنس آخر، ولو جاء بحذف الواو كما في البقرة والأعراف.. لكان تفسيراً للعذاب، وبياناً له، وإنما فعلوا ذلك؛ لأن فرعون رأى في المنام أن ناراً أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت بيوت القبط دون بيوت بني إسرائيل، فخوفه الكهنة، وقالوا له: إنه سيولد منهم ولد يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فشمر عن ساق الاجتهاد، وحسر من ساق العناد، وأراد أن يدفع القضاء وظهوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

فإن قلت[2]: قال في سورة البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو، وقال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بزيادة واو، فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: إنما حذفت الواو في سورة البقرة؛ لأن قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ تفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو، كما تقول: جاءني القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم، وأما دخول الواو هنا في هذه السورة؛ فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح كالأعمال الشاقة وبالتذبيح أيضاً، فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب، لا أنه تفسير للعذاب.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ المذكور من أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: محنة عظيمة لا تطاق واقعة من ربكم. فإن قلت: كيف يكون فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلتُ: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا بهم ما فعلوا بلاء من الله تعالى واختبار منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء حينئذ: النعمة؛ لأن الابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة، كما قال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ والمعنى حينئذٍ: وفي ذلكم الإنجاء نعمة عظيمة واقعة لكم من ربكم. وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿ويذبحون﴾ بالتحفيف مضارع ذبح الثلاثي. وقرأ زيد بن علي كذلك إلا أنه حذف الواو.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من كلام موسى معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه: تذكروا إنعام الله عليكم، واذكروا يا بني إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده إعلاماً بليغاً، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح بطاعتي فيما آمركم به وأنهاكم عنه.. لأزيدنكم من نعمي عليكم نعمةً إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم. قيل: شكر الموجود صيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب. وأصل الشكر[2]: تصور النعمة وإظهارها، وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه، وتوطين النفس على هذه الطريقة.

وقد دلت التجارب أن العضو الذي يناط به عمل، كلما مرن عليه ازداد قوة[3]، وإذا عطل عن العمل ضمر وضعف، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت، وإن أهملت ذهبت.

أخرج البخاري في «تاريخه»: والضياء في «المختارة»: عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة» وفيها «من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة».

والخلاصة: أن من شكر الله على ما رزقه.. وسع عليه في رزقه، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته.. زاد في طاعته، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة.. زاده الله صحة إلى نحو أولئك من النعم. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمي وجحدتموها، فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

وقابلتموها بالنسيان والكفران، والجواب محذوف تقديره: لأعذبنكم على ذلك الكفران، ويكون قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ تعليلاً للجواب المحذوف، وإنما[1] حذف الجواب هنا وصرح به في جانب الوعد؛ لأن من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد، فما ظنك بأكرم الأكرمين حيث لم يقل: إن عذابي لكم؛ أي: إن عذابي لشديد بحرمانكم منها، وسلبكم ثمراتها في الدنيا والآخرة، فتعذبون في الدنيا بزوالها، وفي الآخرة بعذاب لا قبل لكم به. وفي الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ثم بين سبحانه وتعالى أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم، أما المعبود المشكور فهو متعالٍ عن أن ينتفع بالشكر، أو يضره الكفر، فلا جرم قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الثقلين ﴿جَمِيعًا﴾ حال من المعطوف والمعطوف عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى تعليل للجواب المحذوف؛ أي: إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، فإن الله تعالى ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود في ذاته وصفاته وأفعاله لا تفاوت له بإيمان أحد ولا كفره، وإن لم يحمده أحد، بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده.

والمعنى[2]: أي وإن تجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعاً، فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم إذ حرمتموها من مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، وإن الله غنيٌّ عن شكركم وشكر غيركم، وهو المحمود وإن كفر به من كفر، وهذا كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾.. الآية، وقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب، ولا التعريض

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراغي.

بالترهيب. وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم، وتعظيم لله تعالى، وكذلك في ذكر هاتين الصفتين. وقرأ ابن مسعود: ﴿وإذ قال ربكم﴾ كأنه فسر قوله: تأذن؛ لأنه بمعنى: أذن؛ أي: أعلم، وأعلم يكون بالقول.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ للتقرير المضمن للتوبيخ، والخطاب فيه يحتمل أن يكون من موسى لقومه تذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبأ: الخبر العظيم الشأن. وقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل من الموصول، أو عطف بيان منه ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوفات على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: ألم يأتكم يا بني إسرائيل، بل أتاكم أخبار الأمم الذين من قبلكم؛ أي: ألم يأتكم خبر قوم نوح أغرقوا بالطوفان حيث كفروا ولم يشكروا نعم الله، وخبر عاد قوم هود أهلكوا بالريح الصرصر، وخبر ثمود قوم صالح أهلكوا بالصيحة، وخبر الذين من بعدهم؛ أي: من بعد هؤلاء المذكورين من قوم إبراهيم وأصحاب مدين، والمؤتفكات وغير ذلك. وجملة قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معترضة بين المفسر بفتح السين: وهو ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وتفسيره: وهو ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، أو حال من ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ لوقوعه صلة؛ أي: حالة كون تلك الأمم لا يعلم عددهم لكثرتهم، ولا يحيط بذواتهم وصفاتهم وأسمائهم وسائر ما يتعلق بهم إلا الله سبحانه وتعالى، فإنه انقطعت أخبارهم وعفت آثارهم.

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم(١)، وكذا في حق النبي عليه السلام؛ لأن أولئك الآباء لا يعلمهم أحد إلا الله، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد. وجملة قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان النبأ المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كأنه(٢) قيل: وما

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

خبرهم؛ أي: ما قصتهم وما شأنهم، فقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾؛ أي: جاءت تلك الأمم المذكورة رسلهم بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ودعاهم إليه؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ أي: جعلت الأمم أيدي أنفسهم ﴿فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل؛ لنفرتهم عن استماع كلامهم؛ إذ سفَّهوا أحلامهم وشتموا أصنامهم، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾، أو المعنى[1]: وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الرسل؛ أي: كفوا عن هذا الكلام واسكتوا. وقال أبو عبيدة والأخفش[2]: وَنِعَمَّا قالا: «هو مثلٌ، والمراد: أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد رد يده في فيه».

﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الكفار للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ من البينات على زعمكم؛ أي: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله تعالى أرسلكم به من البينات التي أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلالتها على صدق رسالتهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾؛ أي: وإننا لكائنون في شك عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: في حقيَّة ما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه، وجملة ما جئتم به من الشرائع. ﴿مُرِيبٖ﴾؛ أي: موجب للريب والقلق والاضطراب وعدم طمأنينة النفس، فـ﴿مُرِيبٖ﴾ صفة توكيدية.

وخلاصة مقالهم: أنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها، لأن ما جاؤوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه، وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله.

فإن قلت[3]: إنهم قالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم، فكيف يقولون ثانياً: وإنا لفي شك، والشك دون الكفر، أو داخل فيه؟

قلتُ: إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل، فكأنهم حصل لهم شبهة توجب

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

لهم الشك، فقالوا: إن لم ندع الجزم في كفرنا، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك.

أو يقال في الجواب[1]: إنهم كانوا فرقتين: إحداهما جزمت بالكفر، والأخرى شكت، أو يقال: المراد بقولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به؛ أي: المعجزات والبينات، وقولهم: مما تدعوننا إليه: الإيمان والتوحيد.

وحاصله: أن كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد، فلا تخالف. ا هـ. شيخنا.

وقرأ طلحة[2]: ﴿مما تدعونا﴾ بإدغام نون الرفع في الضمير، كما تدغم في نون الوقاية في مثل ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾. فردت الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ أَفِي﴾ وجود ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ووحدانيته ﴿شَكٌّ﴾ وريب، وكيف يتصور ذلك لا شك في وجوده ووحدانيته؛ لأن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فالاعتراف به ضروري لدى كل ذي رأي حصيف كما جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام فيه للإنكار المضمن للتوبيخ والتقريع؛ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك، وهي في غاية الوضوح والجلاء، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الأدلة الموصلة إلى ذلك، ومن ثم ذكرت الرسل بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته، فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم؛ أي: هو سبحانه الذي خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق، ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما، فلا بدّ لهما من صانع وهو الله الذي لا إلٰه إلا هو خالق كل شيء وإلٰهه

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.

ومليكه، وقد جاء هذا الوصف في محاورات الأنبياء جميعاً، وهو نفس الوصف الذي جاء في أول السورة على لسان نبينا ﷺ، ومن هذا يعلم أن كل نبي جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السماوات والأرض. وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿فاطرَ﴾ نصباً على المدح. ولما أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ سبحانه وتعالى إلى الإيمان به وتوحيده بإرساله إيانا لنخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية وإخلاص العبادة له، وهو الواحد القهار ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم. فحرف ﴿من﴾ صلة، وقيل: إنها ليست صلة، بل هي تبعيضية؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان؛ لمغفرة بعض ذنوبكم، وهي الذنوب التي بينكم وبين ربكم من الكفر والمعاصي، لا المظالم وحقوق العباد.

والمتتبع لأسلوب الكتاب الكريم[2]، يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ ﴿من﴾، كقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده.

وفي المواضع التي يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجيء بدون ذكر ﴿مِنْ﴾، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصي ومتوجهة إليها. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾؛ أي: يؤخر موتكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين عند الله تعالى؛ أي: إلى وقت سماه الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به، وإلا عاجلكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد، وإخلاص العبادة للواحد القهار.

ثم حكى الله سبحانه رد الأمم على مقالة الرسل، وهو يتضمن ثلاثة أشياء:

١ - ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالت الأمم مجيبين للرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

في الصورة والهيئات ﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ آدميون ﴿مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب، فلا فضل لكم علينا، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب، وجعلكم مخالطين لزمرة الملائكة دوننا إلى أنه لو كان الأمر كما تدعون.. لوجب أن تخالفونا في الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك، ولو شاء الله أن يرسل إلى البشر رسلاً.. لأرسل من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم من حيث عدم التدنس بالشهوات وما يتبعها.

٢ - ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المدعون بالرسالة ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾؛ أي: أن تصرفونا بتخصيص العبادة بالله ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته؛ وهو الأصنام من غير شيء يوجبه ولا حجة لكم على ما تدعون، وليس من حصافة العقل أن نترك أمراً قبل أن يقوم الدليل على خطئه. وقرأ طلحة شاذاً[1]: ﴿أن تصدونَّا﴾ بتشديد النون جعل أن هي المخففة من الثقيلة، وقدر فصلا بينها وبين الفعل، وكان الأصل أنه تصدوننا، فأدغم نون الرفع في الضمير، والأولى أن تكون أن الثنائية التي تنصب المضارع، ولكنه هنا لم يعملها، بل ألغاها كما ألغاها من قرأ شذوذاً أيضاً: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ برفع ﴿يتم﴾ حملاً على ﴿ما﴾ المصدرية أختها.

﴿فَأْتُونَا﴾؛ أي: إن لم يكن[2] الأمر كما قلنا، بل كنتم رسلاً من جهة الله كما تدعونه فأتونا ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ببرهان ظاهر وحجة واضحة تدل على صدقكم وفضلكم، واستحقاقكم لتلك الرتبة حتى نترك ما لم نزل نعبده أباً عن جد، كأنهم لم يعتبروا ما جاءت به رسلهم من الحجج والبينات، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً.

فكأنهم قالوا: أما ذكر السماوات والأرض وعجائبهما[3]، فلسنا نحفل بهما، والعجائب الأرضية والسماوية لا نعقلها، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

لهم بما هو خارج عن طور معتادهم، وحينئذ يعظمونه ويبجلونه، وهذه المشاهدات لا نرى فيها شيئاً خارقاً للعادة، وإذاً فلا إيمان ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقلب العصا حية، ونقل الجبال وما أشبه ذلك.

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة.. حكى عن الأنبياء جوابهم عنها، فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم، لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأن هذا منصب يمنُّ الله به على من يشاء من عباده، كما لا يمنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وأن يحرم الجمع العظيم منه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ زاد[1] لفظ ﴿لَهُمْ﴾ هنا لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك في الله، فإن ذلك عام، وإن اختص بهم ما يعقبه؛ أي: قالوا لهم معترفين بالبشرية ومشيرين إلى منة الله عليهم ﴿إِن نَّحْنُ﴾؛ أي: ما نحن ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: إلا آدميون مثلكم كما تقولون لا ننكره ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَمُنُّ﴾؛ أي: يتفضل بالنبوة والوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويصطفي من يشاء منهم لهذا المنصب العظيم الشريف. وفيه[2] دلالة على أن النبوة عطائية كالسلطنة، لا كسبية كالولاية والوزارة.

وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا، وما اقترحتموه من الآيات، فأمره إلى الله إن شاء أظهره، وهو زائد على قدر الكفاية، وذلك ما أومؤوا إليه بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ﴾؛ أي: وما صح وما استقام ﴿لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: بحجة من الحجج فضلاً عن السلطان المبين، ولا بشيء من الأشياء، ولا سبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ومشيئته وإرادته، فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى إن شاء كان، وإلا فلا، تلخيصه إنما نحن عبيد مربوبون، وليس ذلك في قدرتنا.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والخلاصة[1]: أي وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله به لنا في ذلك. وبعد[2] أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذائهم قدر ما يستطيعون، فقال لهم الأنبياء: إنا لا نخاف تهديدكم ولا وعيدكم، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه، ولا نقيم لما تقولون وزناً، ولا نأبه به، وهذا ما إشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده دون ما عداه مطلقاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في دفع شرور أعدائهم عنهم، وفي الصبر على معاداتهم؛ أي: وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله تعالى، فلنتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم. وقرأ الحسن شذوذاً بكسر لام الأمر في قوله: ﴿فَلِيَتَوَكَّلِ﴾ وهو الأصل ذكره في «البحر». وهذا أمر[3] منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون ما عداه، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولياً، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ﴾؛ أي: وأي عذر ثبت لنا في ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ ونعتمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في دفع شروركم عنا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾؛ أي: والحال أنه تعالى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين، وهو موجب للتوكل عليه ومستدع له. وقرأ الجمهور: ﴿سبلنا﴾ بضم السين والباء وقرأ أبو عمرو بسكون الباء.

والمعنى: أي؛ وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة، وأوجب علينا سلوك طريقها، وأرشدنا إلى طريق النجاة، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها.

ولمَّا كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب القادح في التوكل.. قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾؛ أي: ونقسم لكم بالله تعالى لنصبرن ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ في أبداننا وأعراضنا، أو بالتكذيب، ورد الدعوة والإعراض عن الله والعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه،

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

وهو جواب قسم محذوف. والمعنى: أي: ولنصبرن على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه، وندعوكم لعبادة الله وحده؛ ليكون ذلك منا شكراً على نعمة الهداية. ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل، وبيان أن إيذائهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم، فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: والتوكل على الله والاعتماد عليه، لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: فليثبت المتوكلون وليدوموا على التوكل عليه، وليحتملوا كل أذى في جهادهم، ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى، ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات. قال ابن الجوزي: وإنما نص هذا وأمثاله على نبينا ﷺ، ليقتدي بمن قبله في الصبر، وليعلم ما جرى لهم. ا هـ. ومن عنده[1] مال أو علم فلينفع به الناس، وليكن كالنهر يسقي الزرع، والشمس تضيء العباد، وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا، فهم هداة بطباعهم، ولذاتهم في قلوبهم، ومنهم تنتقل إلى الناس.

فإن قلت[2]: كيف كرر الأمر بالتوكل، وهل من فرق بين التوكلين؟

قلت: نعم، التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل، والتوكل الثاني فيه إشارة إلى السعي في التثبت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته، فحصل الفرق بين التوكلين.

والمعنى[3]: فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل المسبب عن الإيمان، فالأول لإحداث التوكل، والثاني للثبات عليه، فلا تكرار. وقيل معنى الأول: إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإن شاء سبحانه أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم. ا هـ. «شوكاني».

والتوكل تفويض الأمر إلى من يملك الأمور كلها، وقالوا: المتوكل من إن

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية، فعلى هذا إذا وقع الإنسان من شدة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج عن حدّ التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله تعالى.

فائدة: ومن لطائف هذه الآية الكريمة[1]: ما روى المستغفري عن أبي ذر رفعه «إذا آذاك البرغوث فخذ قدحاً من ماء، واقرأ عليه سبع مرات: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ الآية، ثم قل: إن كنتم مؤمنين فكفوا شركم وأذاكم عنا سبع مرات على الماء، ثم رشه حول فراشك، فإنك تبيت آمناً من شرهم». وقال بعضهم: إن مما أخذ الله على الكلب إذا قرىء عليه: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ لم يؤذ، ومما أخذ الله على العقرب أنه إذا قرىء عليها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ لم تؤذ، وكذلك الحية.

الإعراب

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓر﴾: على القول بأنه اسم للسورة: إما مبتدأ خبره محذوف تقديره: الر هذا محله، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الر، أو مفعول لفعل محذوف تقديره: إقرأ الر، أو مفعول لاسم فعل محذوف تقديره: هاك الر؛ لأنه من قبيل أسماء التراجم، وإن قلنا: إنه من قبيل الأعداد المسرودة فلا محل له من الإعراب. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كتاب أنزلناه إليك، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿لِتُخْرِجَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تخرج الناس﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره:

---

(١) روح البيان.

لإخراجك الناس به، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تخرج﴾، وكذا قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: متعلق به ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تخرج﴾ أيضاً، أو متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تخرج﴾ تقديره: حالة كونك مأذوناً لك من ربهم. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: نعت لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهِ﴾: بالجر: بدل من ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ بدل كل من كل على القاعدة[1]: إن نعت المعرفة إذا تقدم على المنعوت يعرب بحسب العوامل، ويعرب المنعوت بدلاً، أو عطف بيان، والأصل: إلى صراط الله العزيز الحميد.. الخ، فالصفات ثلاثة تقدم منها ثنتان، وبقيت الثالثة مؤخرة. ا هـ. شيخنا. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَوَيْلٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء به قصد الدعاء. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: خبره. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: في موضع رفع صفة لـ﴿ويل﴾ بعد الخبر، وهو جائز، ولا يجوز[2] أن يتعلق بـ﴿ويل﴾ من أجل الفصل بينهما بالخبر. وقال أبو السعود: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بـ﴿ويل﴾ على معنى يولون ويضجون منه قائلين: يا ويلاه كقوله: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾. ا هـ. كما مر، والجملة الاسمية جملة دعائية لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) الفتوحات.

(٢) العكبري.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل[1] الجر صفة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو في موضع رفع بإضمارهم. وفي «الفتوحات» قوله: أو في محل جر صفة، هذا الإعراب معترض[2]، لما فيه من الفصل بين النعت والمنعوت بأجنبي، وهو قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الذي هو بيان للمبتدأ الأجنبي من الخبر، وعلى هذا الإعراب يكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: مستأنفاً، والأولى أن يعرب ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ الخ مبتدأ ويكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: خبره. اهـ. شيخنا. ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يصدون﴾. ﴿عِوَجًا﴾: حال من ضمير المفعول، كما في «أبي البقاء». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ضَلَٰلٍۭ﴾: خبره. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلٍۭ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول، و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿رَّسُولٍ﴾؛ أي: إلا حالة كونه متكلماً بلغة قومه. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَّسُولٍ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: لتبيينه لهم.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) أبو البقاء.

(٢) الفتوحات.

﴿فَيُضِلُّ﴾ (الفاء): استئنافية. ﴿يضل الله من﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فيضل الله من يشاء إضلاله. وفي «الجمل» قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ بالرفع هو استئناف[1] إخبار، ولا يجوز نصبه عطفاً على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال. قال الزجاج: لو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة.. جاز. ا هـ. «سمين». وجملة قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾: أي حالة كونه متلبساً بآياتنا، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة. ﴿أَنْ﴾ مصدرية. ﴿أَخْرِجْ﴾: فعل أمر في محل نصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿قَوْمَكَ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: جاران ومجروران متعلقان بـ﴿أَخْرِجْ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا بإخراج قومك من الظلمات، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وهذه المقدرة للتعدية، والباء في بآياتنا للحال، فلا اتحاد في المعنى، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة؛ لأن الضابط موجود، وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه، و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فيه معنى قلنا. ﴿وَذَكِّرْهُم﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿أَخْرِجْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذكر﴾. ﴿إنّ﴾:

---

(١) الفتوحات.

حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبرها مقدم على اسمها. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿آيات﴾. ﴿شَكُورٍ﴾: صفة ﴿صَبَّارٍ﴾: وجملة ﴿أَنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو) استئنافية. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى لقومه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِقَوْمِهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾؛ لأنه بمعنى إنعام الله عليكم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ بالمعنى المذكور، أو بدل اشتمال منها كذلك اهـ «بيضاوي». ﴿أَنجَاكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنجَاكُم﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أو حال من ضمير المخاطبين. ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب معطوف على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: وكذا ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف أيضاً على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾. ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿بَلَاءٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَلَاءٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ثانية، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، والتقدير: واذكر إذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا إذ تأذن ربكم، أو معطوف على ﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾، تقديره: اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم وحين تأذن ربكم. ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لَئِن﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿شَكَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: (اللام): موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿أزيدنكم﴾: فعل مضارع ومفعول في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وإذ تأذن ربكم، وقال: لئن شكرتم.. الخ، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إن شكرتم أزدكم، وجملة الشرط معترضة لاعتراضها بين القسم وجوابه لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَئِن﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كَفَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده تقديره: لأعذبنكم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول على كونها مقولاً لقول محذوف، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: إن كفرتم أعذبكم، وجملة الشرط معترضة أيضاً. ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ إلى الآخر: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿أَنتُمْ﴾: تأكيد لضمير الفاعل؛ ليعطف عليه ما بعده. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل

الرفع معطوف على فاعل ﴿تَكْفُرُوٓاْ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿جَمِيعًا﴾: حال مؤكدة لكل من المعطوف والمعطوف عليه. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿لَغَنِىٌّ﴾: (اللام): حرف ابتداء، ﴿غني﴾: خبره. ﴿حَمِيدٌ﴾: صفة ﴿غني﴾، أو خبر بعد خبر، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعل ومضاف إليه مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة الموصول. ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾: بدل من الموصول بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: معطوفان على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف أيضاً على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور صلته. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ لوقوعه صلة. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: حال من ﴿رُسُلُهُم﴾، والجملة الفعلية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: وما خبرهم؛ أي: ما قصتهم وما شأنهم؟ فقيل: جاءتهم رسلهم.. إلخ، وهذه الجملة في المعنى تفسير لـ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿جَآءَتْهُمْ﴾. ﴿فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ردوا﴾. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ردوا﴾. ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول قال. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَفَرْنَا﴾. ﴿أُرْسِلْتُم﴾: فعل ونائب فاعل.

﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَكٍّ﴾. ﴿تَدْعُونَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿مُرِيبٍ﴾: صفة لـ﴿شَكٍّ﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيب بأنهم: قالوا.. الخ. ﴿أَفِى ٱللَّهِ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري. ﴿في الله﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿شَكٌّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول قال. وفي «السمين»: يجوز في ﴿شَكٌّ﴾ وجهان:

أظهرهما: أنه فاعل بالجار قبله، وجاز ذلك لاعتماده على الاستفهام.

والثاني: أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور قبله، والأول أولى؛ لأنه يلزم على الثاني الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، وهو المبتدأ بخلاف الأول، فإن الفاصل ليس أجنبياً؛ إذ هو فاعل، والفاعل كالجزء من رافعه. ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صفة للجلالة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من الجلالة. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿ذُنُوبِكُمْ﴾: مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لغفرانه لكم ذنوبكم. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يغفر لكم﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يؤخركم﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أَجَلٍ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت:

﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾؛ لأنه بمعنى مماثل لنا، والإضافة فيه لا تفيد التعريف؛ لأنه من الأسماء المتوغلة، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾، أو مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَصُدُّونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون: والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: تريدون صدنا. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تصدون﴾. ﴿كَانَ﴾: زائدة. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما كان يعبده آباؤنا ﴿فَأْتُونَا﴾: الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم رسلاً من عند الله كما تدعون. ﴿أتونا﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: متعلق به. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿رُسُلُهُمْ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾: وإن شئت قلت: ﴿إن﴾: نافية. ﴿نَّحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُكُمْ﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَمُنُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يَمُنُّ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير على يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: على من يشاءه. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المحذوف.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿أَن نَّأْتِيَكُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرسل. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ تقديره: وما كان الإتيان إياكم بلسطان كائناً لنا، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿نَّأْتِيَكُم﴾ تقديره: وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا حالة كوننا ملتبسين بإذن الله. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ (الفاء): زائدة، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلنا لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فنقول لكم ﴿ليتوكل المؤمنون﴾، (اللام): لام الأمر. ﴿يتوكل المؤمنون﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نَتَوَكَّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على الرسل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: في عدم توكلنا على الله، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَقَدْ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل النصب حال من الجلالة؛ أي: حالة كونه هادياً إيانا سبلنا. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿نصبرن﴾: فعل مضارع مبني على

الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الرسل، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ تقديره: على إيذائكم إيانا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نصبرن﴾. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فعل وفاعل، و(الفاء): زائدة، و(اللام): لام الأمر، أو (الفاء): فاء الفصيحة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الضلالات، والنور: الهدى، فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات: وهي صيغة جمع، وعبر عن الإيمان والهدى بالنور: وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة، وأما طرق العلم والإيمان فليس إلا واحداً. ا هـ. «خازن».

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بتيسيره وتوفيقه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿وَوَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك ودمار، والويل: نقيض الوأل؛ وهو؛ أي: الوأل: النجاة. ا هـ. «أبو السعود». وقوله: وهو نقيض الوأل بالهمز، وفي «المختار: الموئل الملجأ، وقد وأل إليه إذا لجأ، وبابه وعد، ووؤلاً بوزن وجود. ا هـ. ثم قال: والويل واد في جهنم، لو أرسلت فيه الجبال.. لا نماعت من حره. ا هـ. وقيل: الويل هنا بمعنى التأوه.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾: من الاستحباب: وهو استفعال من المحبة، والمعنى: يختارون الحياة الدنيا.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينه الذي ارتضاه لعباده. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾؛ أي: يطلبون لها عوجاً؛ أي: زيغاً واعوجاجاً، والعوج.. بكسر العين في المعاني، وبفتحها في الأعيان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وفي «القاموس»: وأيام الله نعمه، ويوم أَيْوَم شديد وآخر يوم في الشهر. ا هـ. وفي «المختار»: وربما عبروا عن الشدة باليوم. ا هـ. ويقال: أيام الله وقائعه في الأمم السابقة، ويقال: فلان عالم بأيام العرب؛ أي: بحروبها وملاحمها.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يذيقونكم ويكلفونكم. وفي «بحر العلوم»: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من سام السلعة إذا طلبها، والمعنى: يذيقونكم أو يبغونكم شدة العذاب، ويريدونكم عليه، والسوء مصدر ساء يسوء: وهو اسم جامع للآفات كما في «التبيان»، والمراد: جنس العذاب السيء، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر.

﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: ابتلاء واختبار.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: آذن وأعلم، وتأذن بمعنى آذن، كوعد بمعنى أوعد، غير أنه أبلغ؛ لما في التفعل من التكلف والمبالغة. ا هـ. «بيضاوي».

﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ إن مخففة من الثقيلة، وأدغمت نونها في نون نا الذي هو اسمها، ويصح أن تكون المشددة، فلما اتصلت بنون الضمير اجتمع ثلاثة أمثال، فحذفت واحدة منهن لتوالي الأمثال، والمحذوف إما الثانية من نوني إن المشددة، وإما نون الضمير، وكذا يقال في قوله: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾.

﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، فهو مسند لواو الجماعة، ونا مفعول به، وهذا بخلاف ما في سورة هود من قوله: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ فإن ذلك مسند لمفرد: وهو ضمير صالح عليه السلام، فهو مرفوع بضمة مقدرة على الواو، منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على صالح تقديره: أنت، ونا: مفعول به. ا هـ. شيخنا.

﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة، وهي اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر، يقال: أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال بجامع عدم الاهتداء إلى المقصود، واستعار النور للهدى والإيمان بجامع الاهتداء إلى المقصود. وفي قوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث استعار السبيل الذي هو محل المرور لدين الله بجامع الاهتداء إلى المقصود.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ حيث وصف الضلال بالبعد للمبالغة؛ لأن البعد من صفات الضال، فهو نظير قولهم جد جده، وداهية دهياء، ويجوز أن يكون المعنى: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد، فإن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً، وقد يضل بعيداً، وفي جعل الضلال محيطاً بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾، وفي قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يضل﴾ و﴿يهدي﴾، وبين ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿كَفَرْتُمْ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾؛ لأن فيه التفاتاً عن التكلم إلى الغيبة، فكان حق العبارة: فنضل من نشاء.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المراد بأيام الله نعمه، ووجهه أن العرب تتجوز بنسبة الحدث إلى الزمان مجازاً، فتضيفه إليه كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، ومكر الليل.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأن إضافة الصراط إلى العزيز؛ وهو الله على سبيل التعظيم له، والمراد به دين الإسلام، فإنه طريق موصل إلى الجنة والقربة والوصلة.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

﴿وَمِنۡهَا﴾: التخصيص بعد التعميم في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾؛ لأنه داخل في سوء العذاب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنه شبه ترك قتلهن بالإحياء بجامع الإبقاء في كل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾؛ لأنها كناية عن تعذيبهم.

ومنها: استعمال اللفظ العام في المعنى الخاص في قوله: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾؛ لأن لفظ اللسان يستعمل بمعنى العضو، وبمعنى اللغة، والمراد هنا هو المعنى الثاني؛ أي: بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: قالوا لهم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ عن الغيبة إلى التكلم كما في «الفتوحات».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] ما دار من الحوار والجدل بين

(١) المراغي.

الرسل وأقوامهم، وذكر الحجج التي أدلى بها الرسل، وقد كان فيها المقنع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق، ومن كان له قلب يعي به الحكمة وفصل الخطاب.. ذكر هنا أنهم بعد أن أفحموا لم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب في الخصومة، فخيروا رسلهم بين أحد أمرين: إما الخروج من الديار، وإما العودة إلى الملة التي عليها الآباء والأجداد، فأوحى الله تعالى إلى أنبيائه أن العاقبة لكم، وستدور عليهم الدائرة، وستحلون في ديارهم، وسيعذبون في الآخرة بنار جهنم، ويرون ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما سيلاقيه الكافرون في هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التي سلف وصفها.. بين هنا أن ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح في يوم عاصفٍ، فذهبت به في كل ناحية، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئاً، ثم بين أن ذلك اليوم آتٍ لا ريب فيه، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتي بخلق سواهم، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما يلقاه الأشقياء في ذلك اليوم من العذاب، وذكر أن أعمالهم الطيبة التي كانت في الدنيا أحبطت فلم تغن عنهم شيئاً.. ذكر هنا محاورةً بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين، وما يحدث في ذلك الوقت من الخجل لهم، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء وبالغ في بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لما قبلها: أنه لما ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة.. ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبس بالإضلال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما[1] بين الله سبحانه وتعالى حال الأشقياء ومآل أمرهم، وما يلاقونه من الشدائد والأهوال في نار جهنم التي لا يجدون عنها محيصاً، وذكر أحوال السعداء وما ينالون من الفوز عند ربهم.. ضرب لذلك مثلاً يبين حال الفريقين، ويوضح الفرق بين الفئتين، وبه ألبس المعنويات لباس الحسيات؛ ليكون أوقع في النفس وأتم لدى العقل، والأمثال عند العرب هي المهيع المسلوك والطريق المتبع لإيضاح المعاني إذا أريد تثبيتها لدى السامعين، والقرآن الكريم مليء بها، والسنة النبوية جرت على منهاجه، فكثيراً ما تتبع المسائل الهامة بضرب الأمثال لها؛ لتستقر في النفوس وتنقش في الصدور.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: الغالون في الكفر ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾؛ أي: من مدينتنا وديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ عاد هنا بمعنى[2]: صار، والظرف خبره؛ أي: لتصيرن داخلين في ملتنا، فإن الرسل لم يكونوا في ملتهم قط إلا أنهم لما لم يظهروا المخالفة لهم قبل الاصطفاء.. اعتقدوا أنهم على ملتهم، فقالوا ما قالوا على سبيل التوهم، أو بمعنى رجع، والظرف صلة، والخطاب لكل رسول ومن آمن به، فغلَّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد؛ أي: لتدخُلن في ديننا وترجعن إلى ملتنا.

وفي «الخازن»: فإن قلت: هذا[3] يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها؟

قلت: معاذ الله، ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.

العرب، وفيه وجه آخر: وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم إلى الله، فقالوا لهم: لتعودن في ملتنا ظناً منهم أنهم كانوا على ملتهم، ثم خالفوهم، وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشَؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره.

وهذا كله تسلية للنبي ﷺ؛ ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام. والمعنى: أي[1]: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم حين دعوهم إلى توحيده تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان: لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا في ديننا الذي نحن عليه من الآية، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾.. الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.. الآية. وقال إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

وخلاصة هذا: ليكونن أحد الأمرين لا محالة: إما إخراجكم، وإما صيرورتكم في ملتنا ملة الآباء والأجداد، وهي عبادة الآلهة والأوثان، وقد مكن لهم في ذلك أنهم كانوا كثرة، وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة في كل زمان ومكان، فإن الظلمة يكونون متعاونين متعاضدين، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق، كما هو شأن المعتز بقوته الذي لا يخشى اعتراضاً ولا خلافاً.

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا في ملتهم، ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم، لكنهم لما نشؤوا بين ظهرانيهم، وكانوا من أهل تلك البلاد، ولم يظهروا في أول أمرهم مخالفة لهم.. ظنوا أنهم كانوا على دينهم، أو يكون[2] المعنى في عودهم إلى ملتهم: سكوتهم عنهم وكونهم أغفالاً عنهم لا يطالبونهم بالإيمان بالله وما جاءت به الرسل.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

ولما تمادت الأمم في الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم.. أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم، ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ أي: مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة بحيث انقطع الرجاء عن إيمانهم، وقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين، فإن الشرك لظلم عظيم فلا تخافوهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الظالمين وديارهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من[1] بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾، وفي الحديث: «من آذى جاره ورثه الله داره». وقرأ أبو حيوه[2]: ﴿ليهلكن الظالمين وليسكننكم﴾ بياء الغيبة اعتباراً بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إذ لفظ لفظ الغائب، وجاء في قوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ بضمير الخطاب تشريفاً لهم بالخطاب، ولم يأت بضمير الغيبة كما في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ ولما أقسموا بهم على إخراج الرسل، والعودة في ملتهم.. أقسم تعالى على إهلاكهم، وأيُّ إخراجٍ أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً، وأقسم أيضاً على إسكان الرسل ومن آمن بهم وذرياتهم أرض أولئك المقسمين على إخراج الرسل.

والمعنى[3]: أي فأوحى الله تعالى إلى رسله قائلاً لهم: لنهلكن من تناهى في الظلم من المشركين، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبةً لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾. وفي ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراءتهم على نبيه، وتثبيت وأمر له بالصبر على ما يلقى من المكروه، كما صبر من كان قبله من الرسل، وبيان بأن عاقبة من كفر به الهلاك، وعاقبته النصر عليهم، كما قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإسكان ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾؛ أي[4]: خاف مقامي بين يدي يوم

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) الخازن.

القيامة، فأضاف قيام العبد إلى نفسه؛ لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم: ندمت على ضربي إياك، وندمت على ضربك مثله. والخوف[١]: غم يلحق لتوقع المكروه؛ أي: ذلك المذكور من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ثابت لمن خاف مقامي وموقفي، وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة؛ أي: وخاف وعيدي بالعذاب، وعقابي وعذابي الموعود للكفار على أن يكون الوعيد بمعنى الموعود، **والمعنى**: أن ذلك ثابت وحق لمن جمع بين الخوفين؛ أي: حق للمتقين كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذه الآية تدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده؛ لأن العطف يقتضي التغاير. ا هـ. «كرخي».

والمعنى: أي[٢] هكذا أفعل بمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخاف وعيدي، فأتقاني بطاعتي وتجنب سخطي، أنصره على من أراد سوءاً وبقي به مكروهاً من أعدائي، وأورثه أرضه ودياره، وأثبت الياء[٣] هنا وفي «ق» في موضعين: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وصلاً، وحذفها وقفاً ورش عن نافع، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً. ا هـ. «سمين».

ثم بين أن كلاً من الفريقين ـ الأمم والرسل ـ طلبوا المعونة والتأييد من ربهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: واستفتحت الرسل على أممها؛ أي: استنصرت الله عليها واستفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهو معطوف[٤] على ﴿فَأَوْحَىٰ﴾. والضمير: إما للرسل؛ أي: استنصروا الله وسألوه الفتح والنصرة على أعدائهم، أو للكفار وذلك أنهم[٥] لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا عليهم بالعذاب. ا هـ. «خازن». والعامة على أن يكون ﴿استفتحوا﴾ فعلاً ماضياً، وفي ضميره أقوال:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.
(٤) روح البيان.
(٥) الفتوحات.

أحدها: أنه عائد على الرسل الكرام، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وقيل: طلب الحكم من الفتاحة؛ أي: الحكم بين الخصمين.

الثاني: أن يعود على الكفار؛ أي: استفتح أمم الرسل عليهم، كقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقيل: عائد على الفريقين؛ لأن كلاً طلب النصر على صاحبه. وقيل: يعود على قريش؛ لأنهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا، وهو على هذا مستأنف، وأما على غيره من الأقوال، فهو عطف على قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: ﴿واستفتحوا﴾ بكسر التاء الثانية على لفظ الأمر أمراً للرسل بطلب النصرة، وهي مقوية لعوده في المشهور على الرسل، والتقدير: قال لهم لنهلكن، وقال لهم استفتحوا. ا هـ. «سمين».

ثم ذكر مآل المشركين وبين أن النصر للمتقين، فقال: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه، فهو معطوف[1] على محذوف تقديره: واستفتحوا فنصروا عند استفتاحهم، وظفروا بما سألوا، وأفلحوا وخاب وخسر وهلك عند نزول العذاب قومهم الجبارون المعاندون، والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والعنيد: المعاند للحق والمجانب له.

وإنما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبر والعناد، لا أن بعضهم ليسوا كذلك، وأنه لم تصبهم الخيبة. وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ جملة في محل جر صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، ويجوز أن تكون الصفة وحدها الجار، و﴿جَهَنَّمُ﴾ فاعل به؛ أي: من وراء[2] ذلك الجبار العنيد؛ أي: قدامه وأمامه جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد تنتظره ليسكنها مخلداً فيها أبداً، ويعرض عليها في الدنيا غدواً وعشياً إلى يوم التناد، وهذا[3] وصف حال كل جبار عنيد،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وهو في الدنيا؛ أي: بين يديه وقدامه جهنم، فإنه معد لجهنم واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة، أو من وراء حياته وهو ما بعد الموت، فيكون وراء بمعنى خلف، كما قال الكاشفي. ثم بين شرابه فيها، فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: ليس له في النار شراب إلا ماءٌ يخرج من جوفه، وقد خالطه القيح والدم، وخص بالذكر؛ لأنه آلم أنواع العذاب، فهو معطوف على مقدّر جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يلقى فيها ويسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة. ﴿صَدِيدٍ﴾: هو القيح المختلط بالدم، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفروج الزناة، وهو عطف بيان لماء، أبهم أولاً ثم بين بالصديد تعظيماً وتهويلاً لأمره، وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، أو صفة عند من لا يجيز عطف البيان في النكرات وهم البصريون، فإطلاق الماء عليه لكونه بدله في جهنم. وقيل[1]: صديد بمعنى مصدود عنه؛ أي: لكراهته يصد عنه، فيكون مأخوذاً من الصد بمعنى الإعراض.

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب، فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرعه؛ أي: يتحساه ويشربه مرة بعد مرة لا بمرة واحدة، بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فضلاً عن الإساغة، بل يغص به ولا يقدر على ابتلاعه من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته، كما قال: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

وعن أبي أمامة[2] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

قال: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب. قوله: «وقعت فروة رأسه»؛ أي: جلدة رأسه، وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: وتأتيه[1] أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بدنه حتى من أصول شعره، وإبهام رجله. وقال الأخفش: المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار، سماها موتاً لشدتها. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ أي: والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح. وقيل: تعلق نفسه في حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

والمعنى: أي وتحيط[2] به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات، من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت لكنه لا يموت كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

ثم أكد شدائدها وعظيم أهوالها فقال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِ﴾؛ أي: ومن وراء ذلك الصديد؛ أي: من أمامه أو من بعده ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: عذاب شديد؛ أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ؛ أي: مؤلم أغلظ من الذي قبله، وأمر لا يعرف كنهه؛ أي: يستقبل كل وقت عذاباً أشد وأشق مما كان قبله، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤)﴾ ففي قوله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ رفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: الضمير يعود إلى ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾.

والمعنى[3]: أي ومن بعد ذلك العذاب عذاب شديد أشد مما هو عليه لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

ينقطع ولا يخف بسبب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ كقولك صفة زيد ماله منهوب، أو خبره محذوف؛ أي: فيما يتلى عليكم مثلهم. وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد؛ أي: صفة أعمالهم الصالحة كصدقة وصلة رحم وإعتاق رقاب وفداء أسير وقرى ضيف وبر والد وإغاثة ملهوف ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ﴾؛ أي: ذرت ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ريحه؛ أي: شديد الريح، فحذف الريح ووصف اليوم بالعصوف مجازاً، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكنة، وإنما السكون لريحها. وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿الرياح﴾ بالجمع، والجمهور بالإفراد. وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر عن الحسن شذوذاً: ﴿في يومِ عاصفٍ﴾ على إضافة يوم لعاصف، وهو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، تقديره: في يوم ريح عاصف ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: أي ما مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف، فنسفته ولم تبق له أثراً، فهم يوم القيامة لا يجدون شيئاً ينفعهم عند الله تعالى فينجيهم من عذابه؛ إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان.

ثم أكد نفي فائدتها لهم إذ ذاك، فقال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ وعملوا في الدنيا من أعمال الخير ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ما؛ أي[2]: لا يجدون يوم القيامة أثراً مما عملوا في الدنيا من ثواب، أو تخفيف عذاب، كما لا يوجد من الرماد شيء إذا ذرته الريح، وذلك لفقد شرط الأعمال وهو الإيمان. ونحو الآية: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، وقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى

(١) المراغي.
(٢) المراح.

﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي[1] دلّ عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم؛ أي: كفرهم وأعمالهم المبنية عليه، وعلى التفاخر والرياء مع حسبانهم محسنين، وهو جهل مركب وداء عضال، حيث زين لهم سوء أعمالهم، فلا يستغفرون منها ولا يتوبون بخلاف عصاة المؤمنين، ولذا قال: ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ صاحبه عن طريق الحق والصواب بمراحل، أو نيل الثواب، فأسند البعد الذي هو من أحوال الضال إلى الضلال الذي هو فعله مجازاً مبالغة؛ أي: ذلك[2] السعي والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب.

والمعنى: ذلك المذكور من عملهم هو الضياع البعيد عن نيل الثواب والخسران الكبير.

شبه الله سبحانه وتعالى صنائع الكفار[3] - من الصدقة وصلة الرحم وعتق الرقاب وفك الأسير، وإغاثة الملهوفين وإطعام الجائع وعقر الإبل للأضياف ونحو ذلك مما هو من باب المكارم - في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان وكونها لوجهه، برماد طيرته الريح العاصف، فكما لا ينتفع بذلك الرماد المطير، كذلك لا ينتفع بالأعمال المقرونة بالكفر والشرك، ففيه رد أعمال الكفار وأعمال أهل الأهواء والبدع؛ لاعتقادهم السوء، فدل على أنَّ الأعمال مبنية على الإيمان، وهو على الإخلاص، وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل ويطعم المسكين، هل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه؛ لأنه لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ثم ذكر دليل وحدانيته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وأنشأ وأبدع ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي[1]: متلبساً بالحكمة البالغة وعلى الوجه الصحيح الذي ينبغي أن يخلقا عليه، لا باطلاً ولا عبثاً، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ، والمراد: أمته بدليل قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ والأمة أمة الدعوة، والرؤية رؤية القلب. ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى إعدامكم أيها الناس ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: يعدمكم بالكلية ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: يخلق بدلكم خلقاً آخر من جنسكم آدميين، أو من غيره خيراً منكم وأطوع لله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بمتعذر أو متعسر، بل هو هين عليه يسير، فإنه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ومن هذا شأنه حقيق أن يؤمن به ويعبد ويرجى ثوابه ويخشى عقابه، والآية تدل على كمال قدرته تعالى وصبوريته، حيث لا يؤاخذ العصاة على العجلة.

وفي «الصحيحين»: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله! إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم». ثم إن[2] تأخير العقوبة يتضمن حكماً، منها رجوع التائب وانقطاع حجة المصر، فعلى العاقل أن يخشى الله تعالى على كل حال، فإنه ذو القهر والكبرياء والجلال.

والمعنى: ألم[3] تعلم أيها الرسول الكريم أن الله سبحانه وتعالى أنشأ السماوات والأرض بالحكمة البالغة وعلى الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقا عليه، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير.. فهو قادر على أن يفنيكم ويأتي بخلق جديد سواكم، وما ذلك بممتنع ولا متعذر عليه. ومثل الآية قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنهم بعدوا في الضلال وأمعنوا في الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه. وقرأ السلمي شاذاً[1]: ﴿ألم ترْ﴾ - بسكون الراء - ووجهه أنه أجري الوصل مجرى الوقف، وفيه توجيه آخر؛ وهو أنَّ (ترى) حذفت العرب ألفها في قولهم: قام القوم ولو تر ما زيد، كما حذفت ياء (لا أبالي) في (لا أبال)، فلما دخل الجازم تخيل أن الراء هي آخر الكلمة، فسكنت للجازم، كما قالوا في لا أبالي: «لم أبل» تخيلوا اللام آخر الكلمة. وقرأ الأخوان حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿خالق﴾ اسم فاعل ﴿والأرضِ﴾ بالخفض. وقرأ باقي العشرة: ﴿خَلَقَ﴾ فعلاً ماضياً و﴿الأرضَ﴾ بالفتح. ﴿وَبَرَزُوا﴾؛ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القهار حالة كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين في براز من الأرض وصعيد واحد، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً؛ أي: خرج الموتى من قبورهم يوم القيامة واجتمعوا في أرض المحشر للقاء الله ومحاسبته على أعمالهم عند النفخة الثانية حين تنتهي مدة لبثهم في بطن الأرض. وقرأ زيد بن علي في الشاذ[2]: ﴿وبُرِّزوا﴾ - مبنياً للمفعول وبتشديد الراء - من برز المضعف.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَؤُا﴾ في الرأي وهم السفلة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله وهم أكابرهم ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصيحتهم؛ أي: فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى وحده وعن اتباع الرسل، وصدوا عنهما: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا تأمروننا فنأتمر وتنهوننا فننتهي ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾؛ أي: دافعون عنا في هذا اليوم ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: بعض شيء من عذاب الله، فـ﴿مِنْ﴾[3] الأولى للبيان واقعة موقع الحال قدمت على صاحبها؛ لكونه نكرة، والثانية

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

للتبعيض واقعة موقع المفعول؛ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى. ويجوز أن تكونا للتبعيض؛ أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله تعالى، والإعراب ما سبق. ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدر؛ أي: فهل أنتم مغنون بعض العذاب بعض الإغناء، والفاء للدلالة على سببية الإتباع للإغناء. والاستفهام فيه[1] للتوبيخ لهم والعتاب على استغوائهم؛ لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم؛ أي: فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا في الدنيا. وقد حكى الله تعالى رد أولئك السادة عليهم بقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: المستكبرون جواباً عن معاتبة الأتباع، واعتذاراً عما فعلوا بهم: يا قوم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإيمان ووفقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ إلى طريق الرشاد، ولكن ضللنا فأضللناكم؛ أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا؛ أي[2]: لو أرشدنا الله تعالى وأضاء لنا أنوار بصائرنا وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم إلى سبل الهدى، ووجهنا أنظاركم إلى طريق الخير والفلاح، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل فأضللناكم.

والخلاصة: أي لو خلصنا الله من العقاب، وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم طريق النجاة، ودفعنا عنكم بعض العذاب، ولكن سد الله عنا طريق الخلاص. ولما كان هذا القول منهم أمارة الجزع قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ العذاب ﴿أَجَزِعْنَآ﴾؛ أي: أصحنا وتضرعنا مما لقينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك؛ أي: الصياح، فالتضرع والصبر مستويان علينا في عدم الإنجاء؛ أي: سواء[3] علينا أجزعنا في طلب النجاة من ورطة الهلاك والعذاب، والجزع عدم الصبر على البلاء، أم صبرنا على ما لقينا انتظاراً للرحمة؛ أي: مستو علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء، ففيه إقناط الضعفاء، والهمزة وأم لتأكيد التسوية ونحوه: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ولما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من منجاً، ومهرب؛ أي: ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا.

وخلاصة ذلك[1]: سيان الجزع والصبر، فلا نجاة لنا من عذاب الله، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه وتعالى المناظرة التي ستكون بين الأتباع والرؤساء.. أردفها بالمناظرة التي ستكون بين الشيطان وأتباعه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضل الضعفاء والمستكبرين؛ أي: يقول إبليس رئيس الشياطين خطيباً في محفل الأشقياء من الثقلين ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: حين أحكم وفرغ من أمر الخلائق بالحساب والمجازاة بأن استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد قالوا له: اشفع لنا، فإنك أضللتنا؛ أي: قال: إبليس مخاطباً أتباعه من الإنس بعد أن حكم الله بين عباده، فأدخل المؤمنين فراديس الجنات، وأسكن الكافرين سحيق الدركات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَكُمْ﴾ على ألسنة رسله ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ والصدق بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ووعده حق وخبره صدق، فصدق في وعده إياكم، فوفى لكم بما وعدكم به ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل بأن لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار، ولئن كانا فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، فحذف المفعول الثاني؛ أي: نقضته، والإخلاف[2] حقيقة هو عدم إنجاز من يقدر على إنجاز وعده، وليس الشيطان كذلك، فقوله: ﴿أخلفتكم﴾ يكون مجازاً جعل

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

تبين خلف وعده كالإخلاف منه، كأنه كان قادراً على إنجازه وأنى له ذلك؛ أي: كذبت عليكم وتبين خلف وعدي إذ لم أقل إلا بهرجاً من القول وباطلاً منه، فاتبعتموني وتركتم وعد ربكم، وهو وليكم ومالك أمركم، ونحو الآية قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: تسلط وقهر فألجئكم إلى الكفر والمعاصي، وأجبركم عليهما؛ أي: وما كان لي قوة وتسلط تجعلني ألجئكم إلى متابعتي على الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾؛ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾؛ أي: أجبتموني؛ أي[1]: ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني أسرعتم إلى إجابتي واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى، وخضتم في مسالك الردى. قال في[2] «بحر العلوم»: لقائل أن يقول: قول الشيطان هذا مخالف؛ أي: معارض لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فما حكم قول الشيطان أحق هو أم باطل على أنه لا طائل تحته في النطق بالباطل في ذلك المقام انتهى. يقول الفقير: جوابه بأنه يجمع بينهما بأن نفي السلطان بمعنى القهر والغلبة لا ينافي إثباته بمعنى الدعوة والتزيين، فالشيطان ليس له سلطان بالمعنى الأول على المؤمنين والكافرين جميعاً، وله سلطان بالمعنى الثاني على الكفار فقط كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وأما المؤمنون وهم أولياء الله، فيتولون الله بالطاعة، فهم خارجون عن دائرة الإتباع بوسوسته.

والخلاصة: أن السلطان المنفي هنا هو بمعنى القهر والغلبة، والمثبت هو السلطان بمعنى الوسوسة والتزيين. ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾؛ أي: ولا تعاتبوني فيما وعدتكم بالباطل حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والقهر؛ لأني خلقت لهذا، ولأني عدو مبين لكم، وقد حذركم الله عداوتي حيث قال: ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ومن تجرد للعداوة لا يُلام إذا دعا إلى أمر قبيح ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ حيث أجبتموني باختياركم حيث دعوتكم بلا دليل، فما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة، وقد سمعتم دلائل الله وحججه، وجاءتكم الرسل فصدقتموني فيما كذبتكم، وكذبتم الله فيما صدقكم، وكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي الباطل، فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، فأزيل صراخكم ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾؛ أي: بمغيثي مما أنا فيه من العذاب والنكال، يعني: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله. والإصراخ[1]: الإغاثة، وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إياهم وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف من إصراخ الغير. وقرأ الجمهور: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ بفتح الياء وتشديدها. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة[2]: ﴿بمصرخيِ﴾ بكسر الياء. وطعن كثير من النحاة في هذه القراءة. قال الفراء: لعلها من وهم القراء؛ فإنه قل من سلم منهم من الوهم. وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة، لكنه قل استعمالها، ونص قطرب على أنها لغة في بني يربوع.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾؛ أي: بإشراككم إياي مع الله في الطاعة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا اليوم؛ أي: في الدنيا بمعنى: تبرأت منه واستنكرته؛ أي: إني جحدت اليوم أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم؛ أي: في الدنيا، وهذا كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. قال في «الإرشاد»[3]: يعني إن إشراككم لي بالله هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم علي حق حيث جعلتموني معبوداً، وكنت أود ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم، بل تبرأت منه ومنكم، فلم يبق بيني وبينكم علاقة. وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تمام[4] كلام إبليس

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح والمراغي.

قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإغاثة والنجاة من النار، فالوقف على ﴿مِن قَبۡلُۗ﴾ حسن، أو ابتدأ كلام من حضرة الله تعالى إيقاظاً للسامعين وخصالهم على النظر في عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيتوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيّهم، ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته، فالوقف على ﴿مِن قَبۡلُۗ﴾ تام كما هو عند أبي عمرو. والظالمون هم الشيطان ومتبعوه من الإنس؛ لأن الشيطان وضع الدعوة إلى الباطل في غير موضعها، وإنهم وضعوا الإتباع في غير موضعه.

ولما جمع سبحانه فريقي السعداء والأشقياء في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وبالغ في وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة.. ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله، فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا بطاعته، فانتهوا إلى أمره ونهيه، والمدخلون هم الملائكة؛ أي: وأدخلت الملائكة الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ أي: بساتين تسيل من تحت أشجارها وقصورها الأنهار الأربعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾؛ أي: ماكثين فيها أبداً لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ متعلق بـ﴿أدخل﴾؛ أي: ادخلوها بإذن ربهم؛ أي: أدخلتهم الملائكة بأمر ربهم وإذنه وتوفيقه ولطفه وهدايته، هذا على قراءة الجمهور؛ لأنهم قرؤوا: ﴿وأدخل﴾ على البناء للمفعول. وقرأ الحسن شاذاً: ﴿وأُدخِلُ﴾ على صيغة المتكلم والبناء للفاعل؛ أي: وأنا أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ متعلق بـ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾؛ أي: تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم.

﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ التحية[1]: دعاء بالتعمير، وإضافتها إلى الضمير من إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: تحييهم الملائكة في الجنات بالسلام من

---

(١) روح البيان.

الآفات، أو يحيي المؤمنون بعضهم بعضاً بالسلام، والسلام تحية المؤمنين في الدنيا أيضاً، وأصله صدر من أبينا آدم عليه السلام لما روىٰ وهب بن منبه أن آدم لما رأى ضياء نور نبينا محمد ﷺ سأل الله عنه، فقال: هو نور النبي العربي محمد من أولادك، فالأنبياء كلهم تحت لوائه، فاشتاق آدم إلى رؤيته، فظهر نور النبي عليه السلام في أنملة مسبِّحة آدم، فسلم عليه، فرد الله سلامه من قبل النبي عليه السلام، فمن هنا بقي السلام سنة لصدوره عن آدم، وبقي رده فريضة، لكونه عن الله تعالى.

ولما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال الأشقياء وأحوال السعداء[١]. . ضرب مثلاً فيه حكم هذين القسمين، فقال جلّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ يا محمد وتنظر بعين قلبك، فتعلم[٢] علم يقين بإعلامي إياك، فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي ﷺ، ويدخل معه غيره، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس، فيكون المعنى: ألم تر أيها الإنسان ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: كيف جعل الله تعالى كلمة طيبة ـ وهي لا إلٰه إلا الله ـ مثلاً.

وقيل[٣]: هي كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة إلى الله قاله الزمخشري. وضرب هنا بمعنى جعل وصير، فهو متعد إلى اثنين ﴿كَلِمَةً﴾ المفعول الأول، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو ﴿مَثَلًا﴾ لئلا تبعد عن صفتها، و﴿مَثَلًا﴾ المفعول الثاني بمعنى جعلها مثلاً، وعلى هذا ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي كشجرة طيبة كما قاله ابن عطية، وأجازه الزمخشري، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب على الحال من المفعول الثاني الذي هو ﴿مَثَلًا﴾، والتقدير: ألم تر ضرب الله مثلاً حالة كونه كيف؛ أي: حال كونه مسؤولاً عن حاله من غرابته. والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتعجب، وفي ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ للتقرير. والمثل عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

لتبيين أحدهما من الآخر وتصويره، وقيل هو على قول سائر المفسرين تشبيه شيء بشيء آخر. ا هـ. «خازن». وهذا المعنى هو المراد هنا.

والمعنى: ألم تعلم يا محمد كيف جعل الله سبحانه وتعالى وصير كلمة طيبة مثلاً؛ أي: شبها لشيء آخر، وهي؛ أي: الكلمة الطيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ في الإثمار وهي النخلة. وقرىء شاذاً: ﴿كلمةٌ طيبةٌ﴾ بالرفع قال أبو البقاء على الابتداء و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ خبره. انتهى، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو؛ أي: المثل كلمة طيبة، وكشجرةٍ نعت لكلمة ذكره في «البحر». وجملة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ مع ما عطف عليها صفة لـ﴿شجرة﴾؛ أي: أسفلها ذاهب بعروقه في الأرض متمكن فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾؛ أي: أعلاها ورأسها طالع نابت ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في الهواء ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾؛ أي: تعطي هذه الشجرة ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾؛ أي: كل وقت[1] وقته الله تعالى لإثمارها، وهي السنة الكاملة؛ لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة، ومدة إطلاعها إلى وقت صرامها ستة أشهر.

وقيل المعنى[2]: تؤتي أكلها كل وقت وكل ساعة ليلاً أو نهاراً شتاء أو صيفاً، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب، فأكلها دائم كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾؛ أي: بإرادة خالقها وتيسيره وتكوينه، فكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن بالبرهان، وعمل المؤمن المخلص يرفع إلى السماء وفي كل وقت وحين يعمل خيراً بأمر ربه.

وحكمة تمثيل كلمة التوحيد بالشجرة أن الشجرة تكون ثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك التوحيد يكون ثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى شبه[3] الكلمة الطيبة: وهي الإيمان

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الثابت في قلب المؤمن الذي يرفع به عمله إلى السماء، وتنال بركته وثوابه في كل وقت وحين بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها، وفروعها متصاعدة في الهواء، فيكون ذلك دليلاً على ثبات الأصل ورسوخ العروق، على بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية، فتأتي الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب، وتثمر في كل حين بأمر ربها، وإذنه، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى شبه كلمة الإيمان بشجرة ثبتت عروقها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء، وهي ذات ثمر في كل حين ذاك أن الهداية إذا حلت قلباً فاضت منه على غيره وملأت قلوباً كثيرة، فكأنها شجرة أثمرت كل حين؛ لأن ثمراتها دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وكل قلب يتلقى عما يشاكله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار في الهشيم، أو سريان الكهرباء في المعادن، أو الضوء في الأثير. وقد روي عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول: لا إله إلا الله، وأن الشجرة الطيبة هي: النخلة. وعن ابن عمر قال: (كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحات ورقها لا صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم، قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً، قال: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا). رواه البخاري. ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ والأشباه ويبينها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يتفكرون في أحوال المبدأ والمعاد، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، ويتعظون؛ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني بصور المحسوسات وتقريب لها من الحسن؛ لأن أنس النفوس بها أكثر، فهي تخرج المعنى من خفي إلى جلي ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، وبها يطبق المعقول على المحسوس، فيحصل العلم التام

بالشيء الممثل له، فتكون عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ أي: صفة كلمة قبيحة وهي كلمة الكفر بأنواعه، ويدخل[١] فيها كل كلمة قبيحة من الدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق ونحوهما ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ أي: كمثل شجرة رديئة؛ أي: صفتها كصفتها، ويدخل فيها كل ما لا يطيب أكلها ولا ينتفع بها. قيل: هي شجرة الحنظلة، وقيل: الكمأة، وقيل: الطحلبة، وقيل: هي الكشوث - بالضم - وآخره مثلثة، وهي شجرة[٢] لا ورق لها ولا عروق في الأرض، أو هي نبت[٣] يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. وقرىء[٤]: ﴿ومثلاً كلمة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

﴿اجْتُثَّتْ﴾؛ أي: اقتلعت واستؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لكون عروقها في وجه الأرض؛ أي: ليس[٥] لها أصل ولا عرق يغوص في الأرض، فتسميتها شجرة للمشاكلة، فكذلك الشرك بالله ليس له حجة ولا قوة ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: لهذه الشجرة ﴿مِن قَرَارٍ﴾؛ أي: من[٦] ثبات على الأرض؛ لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر ليس فيه خير، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح، ولا لاعتقاده أصل ثابت، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة؛ أي: ومثل[٧] كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحو مما ليس له أصل ثابت في الأرض، بل عروقها لا تتجاوز سطحها، وقد اقتلعت من فوق الأرض؛ لأن عروقها قريبة منه ولا عروق لها في الأرض، فكما أن هذه لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت، بل هو زائل ذاهب وثمره مر كريه كالحنظل، وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز، لأن الشجرة ما له ساق، والنجم ما لا ساق له، وهي من النجم، فتسميتها شجرة

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراح.
(٦) الخازن.
(٧) المراغي.

للمشاكلة، وما أقوى الحق وأثبته وأكثر نفعه للناس، فهو ثابت الدعائم متين الأركان.

والخلاصة: أن أرباب النفوس العالية، وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة، وعلومهم تعطي أممهم نعماً ورزقاً في الدنيا، وهي مستقرة في نفوسهم، وفروعها ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم، فيهتدي بها المؤمنون، وما أشبههم بالنخلة التي لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم، ويأكل الناس منها صيفاً وشتاء، وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون في العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التي لا ثبات لها كالحنظل.

وبعد أن وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بما سلف.. أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وصدقوا بوحدانيته وبما جاءت به رسله على دينهم، وهذا راجع للمثل الأول، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾.. إلخ. راجع للمثل الثاني. ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت عندهم بالحجة، وتمكن في قلوبهم، وهو قول: لا إله إلا الله. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: قبل[1] موتهم، فإذا ابتلوا وافتتنوا في الحياة الدنيا.. ثبتوا عليه، ولم يرجعوا عنه، ولو عذبوا أنواع العذاب كمن تقدمنا من الأنبياء والصالحين مثل زكريا ويحيى، والذين قتلهم أصحاب الأخدود، والذين مشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿و﴾ يثبتهم على دينهم الحق ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: في القبر عند سؤال منكر ونكير، وفي سائر المواطن وقت المسألة يوم القيامة، والقبر من الآخرة، فإنه أول منزل من منازل الآخرة. وقيل: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني[2]: في القبر عند السؤال ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة عند البعث والحساب، وهذا القول واضح.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

والمعنى: أي يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف من مدة حياتهم إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زللهم، كما جرى لبلال وغيره من أصحاب النبي ﷺ، وبعد الموت في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة حين يقال له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، وفي مواقف القيامة فلا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم، ولا تدهشهم الأهوال.

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر، فقالا له: من ربك؟ قال: ربي الله، وقالا: وما دينك؟ قال: ديني الإسلام، وقالا: وما نبيّك؟ قال: نبيي محمد ﷺ.

وعن عثمان بن عفان قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل». أخرجه أبو داود. وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه لهم وفي عذاب القبر وفتنته، وليس هذا موضعها نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير.

وعلى هذا[1]: فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة قبل الموت، وبالآخرة ما بعد الموت من القبر ويوم القيامة والعرض للحساب. وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: يضلهم[2] عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا. والمراد بالظالمين هنا الكفرة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت. وقيل: كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة، فإنه لا يثبت في مواقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق. وقيل معنى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: يخلق[3] الله في الكفرة

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

والمشركين الضلال، فلا يهديهم إلى الجواب بالصواب، كما ضلوا في الدنيا، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان، لا راد لحكمه ولا يسأل عما يفعل، فقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى في عباده ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ويريد من تثبيت وإضلال؛ أي: خلق ثبات في بعضٍ، وخلق ضلالٍ في آخرين من غير اعتراض عليه. وأخرج[1] ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره، فإذا دخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ لم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله تعالى ذكر ذلك، وإذا قيل له: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: وبيده تعالى الهداية والإضلال بحسب ما تقتضيه سننه العامة التي سنها في عباده بحسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالاً وإضلال من كان منكم مهتدياً، فإن بيده تعالى تصريف خلقه وتدبيرهم وتقليب قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء من إرشاد وإضلال، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، فسبحانه من حكيم عليم.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بقالوا. ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿نخرجنكم﴾: فعل مضارع ومفعول به في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿مِّنْ أَرْضِنَآ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الكفار، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة

---

(١) المراغي.

القسم في محل النصب مقول قالوا: ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتخيير. ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿تعودن﴾: فعل مضارع ناقص؛ لأنه من أخوات صار مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين في محل الرفع اسمها، والنون المشددة حرف تأكيد. ﴿فِي مِلَّتِنَاۚ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر عاد تقديره: أو لتعودن داخلين في ملتنا، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة القسم الأول على كونها مقولاً لقالوا. ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿أوحى﴾: فعل ماضٍ. ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به. ﴿رَبُّهُمۡ﴾: فاعل، والجملة معطوفة مفرغة على جملة قالوا. ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿نهلكن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وقال لنهلكن الظالمين.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾ (الواو): عاطفة. (اللام): موطئة للقسم. ﴿نسكننكم﴾: فعل مضارع، ومفعول به مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنۡ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف. ﴿خَافَ مَقَامِي﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿وَخَافَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَافَ﴾ الأول. ﴿وَعِيدِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنِيدٍ﴾: صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديره: واستفتحوا فنصروا وسعدوا وربحوا، وخاب كل جبار عنيد. ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿جَبَّارٍ﴾، ويجوز أن تكون الصفة وحدها الجار، و﴿جَهَنَّمُ﴾: فاعل به. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿جَبَّارٍ﴾. ﴿مِن مَّآءٍ﴾: متعلق به. ﴿صَدِيدٍ﴾: عطف بيان، أو بدل من ﴿مَّآءٍ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها صفة لـ﴿جَبَّارٍ﴾، عطف جملة فعلية على جملة فعلية.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَبَّارٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مَّآءٍ﴾، أو مستأنفة. ﴿وَلَا يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿الجبار﴾. ﴿يُسِيغُهُۥ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الجبار﴾، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كاد، وجملة كاد في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أو من مفعوله، أو منهما جميعاً، وقيل: كاد هنا صلة لا عمل لها. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيأتي، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾. ﴿وَمَا﴾ (الواو): حالية. ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِمَيِّتٍ﴾: خبرها، أو خبره، والباء زائدة، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يأتيه﴾. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَلِيظٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾، أو مستأنفة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق به، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: مثل الذين كفروا بربهم كائن فيما يتلى، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿كَرَمَادٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر تقديره: وما ذلك المثل، فقال: مثل أعمالهم كرماد.

وفي «السمين» قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ...﴾ إلخ فيه أوجه:

أحدها: وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، وتكون الجملة في قوله: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: كيف مثلهم؟ فقيل: كيت وكيت.

والثاني: أن يكون ﴿مثل﴾: مبتدأ أول، و﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: مبتدأ ثان، و﴿كَرَمَادٍ﴾: خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول.

والثالث: أن يكون ﴿مثل﴾ مبتدأ، و﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: بدل منه بدل اشتمال، و﴿كَرَمَادٍ﴾ الخبر اهـ. ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿رماد﴾. ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ﴿ٱشْتَدَّتْ﴾. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة كما ذكره أبو البقاء. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من شيء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما كسبوه. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَقْدِرُونَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلضَّلَـٰلُ﴾: خبر. ﴿ٱلْبَعِيدُ﴾: صفة لـ﴿ٱلضَّلَـٰلُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، أو حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو من المفعول؛ أي: حال كونه متلبساً بالحق، وجملة ﴿خلق﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى. ﴿إِن يَشَأْ﴾: جازم وفعل مجزوم على كونه فعل شرط لـ﴿أنْ﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَيَأْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِخَلْقٍ﴾: متعلق بـ﴿يأت﴾. ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها، أو مبتدأ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عزيز﴾. ﴿بِعَزِيزٍ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿برزوا﴾. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾: فعل وفاعل، و(الفاء): حرف عطف وترتيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿برزوا﴾. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَبَعًا﴾: خبر كان، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَهَلْ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع.

وفي «روح البيان»، و(الفاء): للدلالة على سببية الإتباع للاعتناء. ا هـ. ﴿هل﴾: حرف للاستفهام التوبيخي. ﴿أَنتُم مُّغْنُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُّغْنُونَ﴾. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿شَيْءٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿مغنون﴾؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفصيح الصحيح. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾، وإن شئت قلت ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿هديناكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم لمبتدأ متصيد من الجملة التي بعدها. ﴿عَلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلق به؛ لأنه بمعنى مستو. ﴿أَجَزِعْنَآ﴾: (الهمزة): لتأكيد التسوية. ﴿جزعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَمْ﴾: متصلة عاطفة. ﴿صَبَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جزعنا﴾، وجملة ﴿جزعنا﴾ مع ما عطف عليه: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لـ﴿سَوَآءٌ﴾، والتقدير: جزعنا وصبرنا مستو علينا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَا﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿مَا﴾، أو للمبتدأ. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: اسم ﴿مَا﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والتقدير: ما محيص كائناً لنا، أو كائن لنا.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَمَّا﴾: حينية في محل النصب على الظرفية. ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه.

﴿وَعَدَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. و﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أخلفتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿وعدتكم﴾. ﴿وَمَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِيَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾؛ لأنه بمعنى تسلط. ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة، والتقدير: وما كان سلطان عليكم كائناً لي، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أخلفتكم﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، والتقدير: وما كان لي عليكم من سلطان إلا دعوتي إياكم، فالاستثناء منقطع؛ لأن دعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه؛ أي: لكن دعوتكم فاستجبتم لي. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿استجبتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿فَلَا﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَلُومُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾. ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، أو حجازية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، أو اسم ﴿مَا﴾. ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿مَا﴾، والباء: زائدة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية، أو تميمية. ﴿أَنتُمْ﴾: اسم ﴿ما﴾، أو مبتدأ. ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾: (الباء): زائدة. ﴿مصرخي﴾: خبر ﴿مَا﴾

الحجازية منصوب، وعلامة نصبه الياء الممنوعة لاشتغال المحل بالياء المجلوبة لحرف جر زائد، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، لأن أصله ما أنتم بمصرخين لي كما سيأتي في مباحث الصرف، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِمَآ﴾: (الباء): حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾: فعل ماض مبني على السكون؛ لاتصاله بضمير رفع متحرك، التاء ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع فاعل، الميم: حرف دال على الجمع، الواو: حرف زائد لإشباع حركة الميم، والنون: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كَفَرْتُ﴾، والتقدير: إني كفرت بإشراككم إياي بالله من قبل. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له وجملة الابتداء في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ إن قلنا: إنه من تمام كلام إبليس اللعين، أو مستأنفة إن قلنا: إنه من كلام الله.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿أدخل﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من اسم

الموصول الواقع نائب فاعل لـ﴿أدخل﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أدخل﴾. ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير الغائبين. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من مرفوع ﴿أدخل﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام تعجبي في محل النصب على الحال من المفعول الثاني الذي هو ﴿مَثَلٗا﴾. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل بمعنى: صير يتعدى إلى مفعولين. ﴿مَثَلٗا﴾: مفعول ثان. ﴿كَلِمَةٗ﴾: مفعول أول، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو ﴿مَثَلٗا﴾، لئلا تبعد عن صفتها. ﴿طَيِّبَةٗ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٗ﴾، والتقدير: ألم تر كيف صير كلمة طيبة مثلاً حالة كون ذلك المثل كيف؛ أي: حالة كونه مسؤولاً عن حاله من غرابته وإحكامه وتوضيحه، وجملة ﴿ضَرَبَ﴾: في محل النصب سادة مسد مفعولي رأى. ﴿كَشَجَرَةٖ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي؛ أي: الكلمة الطيبة كائنة كشجرة طيبة، والجملة الاسمية جملة مفسرة للمثل، لا محل لها من الإعراب. ﴿طَيِّبَةٍ﴾ مضاف إليه ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾. ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها صفة لـ﴿شجرة﴾.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿تُؤۡتِيٓ﴾: فعل مضارع بمعنى تعطي، وفاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾. ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول ثان لأتى، والأول محذوف تقديره تؤتي أصحابها أكلها. ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُؤۡتِيٓ﴾، وجملة ﴿تُؤۡتِيٓ﴾: في محل الجر صفة لـ﴿شجرة﴾. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُؤۡتِيٓ﴾. ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿خَبِيثَةٍ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٍ﴾. ﴿كَشَجَرَةٍ﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿خَبِيثَةٍ﴾: صفة أولى لـ﴿شجرة﴾. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾. ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِن قَرَارٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿شجرة﴾، أو في محل النصب حال من الضمير في ﴿اجْتُثَّتْ﴾، وهذه الجملة بمنزلة التعليل.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِالْقَوْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿الثَّابِتِ﴾: صفة لـ﴿القول﴾. ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾: متعلق بـ﴿يُثَبِّتُ﴾ أيضاً. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الْحَيَاةِ﴾. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُثَبِّتُ﴾. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاء، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ من عاد بمعنى صار؛ أي: لتصيرن داخلين في ملتنا، أصله لتعودونن، حذفت نون علامة الرفع لتوالي الأمثال وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، فصار لتعودن، والملة: الدين والشريعة.

﴿مَقَامِى﴾ والمقام: موقف الحساب. وفي «السمين»: وفي ﴿مَقَامِى﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مقحم، وهو بعيد، إذ الأسماء لا تقحم.

الثاني: أنه مصدر مضاف للفاعل، قال الفراء: مقامي مصدر مضاف لفاعله؛ أي: قيامي عليه بالحفظ.

الثالث: أنه اسم مكان، قال الزجاج: مكان وقوفه بين يدي للحساب، كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، والمقام ـ بفتح الميم ـ: مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار على أن يكون الوعيد بمعنى الموعود. والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والوعيد: الاسم من الوعد.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾؛ أي: استنصروا الله تعالى ودعوا عليهم بالعذاب، من الاستفتاح استفعال من الفتح. وفي «القاموس»: والفتح كالفِتاحة ـ بضم الفاء وكسرها ـ: الحكم بين الخصمين. اهـ. أي: طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء.

﴿وَخَابَ﴾؛ أي: هلك، وقيل: خسر. ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، والجبار: العاتي المتكبر عن طاعة الله، والعنيد: المعاند للحق المخالف له، وقيل: الجبار في صفة الإنسان، يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها، وهو صفة ذم في حق الإنسان. وقيل: الجبار الذي لا يرى فوقه أحداً. وقيل: الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه. وقيل: العنيد هو المعرض عن الحق. وقيل: هو المعجب بما عنده، وهو فعيل بمعنى مفاعل؛ أي: بمعنى معاند، كالخليط بمعنى المخالط. اهـ. «كرخي». وقال الزجاج: العنيد الذي يعدل عن القصد، وبمثله قال الهروي، وقال أبو عبيد: هو الذي عند وبغى.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي[1]: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه، على أن

---

(١) الشوكاني.

وراء هنا بمعنى بعد، ومنه قول النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

أي: ليس بعد الله، ومثله قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: ومن بعده كذا، قال الفراء: وقيل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾؛ أي: من أمامه. قال أبو عبيد هو من أسماء الأضداد، ومنه قول الشاعر:

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بَالِغُهُ ... لاَ حَاضِرٌ مُعْجِزٌ عَنْهُ وَلاَ بَادِيْ

وقال ثعلب: هو اسم لما توارى عنك، سواء كان خلفك أو قدامك. ا هـ.

﴿صَدِيدٍ﴾: هو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطاً بالقيح والدم. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ أي: يكلف[1] على جرعه وبلعه مرة بعد مرة، وتجرع من باب تفعل الخماسي، وفيه احتمالات:

أحدها: أنه مطاوع جرعته بالتشديد، نحو علمته فتعلم.

والثاني: أن يكون للتكلف نحو تحلم؛ أي: يتكلف جرعه، ولم يذكر الزمخشري غيره. ومعنى التكلف أن الفاعل يتعافى ذلك الفعل ليحصل بمعاناته، كتشجع، إذ معناه: استعمل الشجاعة وكلف نفسه إياها لتحصل. ذكره في «روح البيان».

والثالث: أنه دال على المهلة نحو تفهمته؛ أي: يتناوله شيئاً فشيئاً بالجرع، كما يتفهم شيئاً فشيئاً بالتفهيم.

والرابع: أنه بمعنى جرعه المجرد نحو: عدوت الشيء وتعديته. ا هـ. «سمين».

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: ولا يقارب أن يسيغه فضلاً عن الإساغة، بل يغض به، والسواغ انحدار الشراب في الخلق بسهولة وقبول نفس، يقال: ساغ

---

(١) الفتوحات.

الشراب إذا جاز الخلق بسهولة، وقال بعض المفسرين: إن كاد هنا صلة، والمعنى: يتجرعه ولا يسيغه. ا هـ.

﴿كَرَمَادٍ﴾ والرماد معروف، وهو ما سحقته النار من الأجرام، وجمعه في الكثرة رمد، وفي القلة على أرمد. ا هـ. «سمين». وقال ابن عيسى[1]: الرماد هو جسم يسحقه الإحراق سحق الغبار، ويجمع على رمد في الكثرة، وأرمدة في القلة، وشذ جمعه على أفعلاء، قالوا: أرمداء ورماد رمدد إذا صار هباء أرق ما يكون.

﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ومعنى اشتدت به الريح، حملته بشدة وسرعة، والعصف: شدة الريح، وصف به زمانها مبالغة، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، والحر والبرد فيهما لا منهما.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾: جمع[2]: ضعيف، والضعف خلاف القوة، وقد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال، وفي الرأي، والمناسب للمقام هو الأخير، فإنه لو كان في رأيهم قوة لما اتبعوهم في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: جمع تابع، كخدم جمع خادم، وحرس جمع حارس، ورصد جمع راصد، وهو المستن بآثار من يتبعه؛ أي: تابعين لكم في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم مطيعين لكم فيما أمرتمونا به. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾؛ أي: دافعون عنا، يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع.

﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ الجزع[3]: عدم احتمال الشدة، وعدم الصبر على البلاء، وهو نقيض الصبر. قال الشاعر:

جَزِعْتُ وَلَمْ أجْزَعْ مِنَ ٱلْبَيْنِ مَجْزَعَا   وَعَذَّبْتُ قَلْبَاً بِٱلْكَوَاكِبِ مُوْلَعَا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وفي «المصباح»: وجزع الرجل جزعاً ـ من باب تعب ـ فهو جزع وجزوع مبالغة إذا ضعف من حمل ما نزل به، ولم يجد صبراً وأجزعف غيره.

﴿مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من منجأ[1] ولا مهرب من عذاب الله، يقال: حاص فلان عن كذا؛ أي: فر وزاغ يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً، والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. وفي «المختار»: حاص عنه إذا عدل وحاد، وبابه باع وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاً بفتح الياء، يقال: ما عنه محيص؛ أي: محيد ومهرب، والانحياص مثله. ا هـ. وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت، ومصدراً كالمغيب.

﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وعداً من حقه أن ينجز، أو وعداً أنجزه. ا هـ. «بيضاوي». وفي «السمين»: يجوز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته؛ أي: الوعد الحق، وأن يراد بالحق صفة الباري تعالى؛ أي: وعدكم الله تعالى وعده، وأن يراد بالحق البعث والجزاء على الأعمال، فتكون إضافة صريحة. ا هـ.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾؛ أي: أجبتموني، فالسين والتاء زائدتان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ المصرخ[2]: المغيث. قال الشاعر:

فَلاَ تَجْزَعُوْا إِنِّيْ لَكُمْ غَيْرَ مُصْرِخٍ وَلَيْسَ لَكُمْ عَنِّيْ غَنَاءٌ وَلاَ نَصْرُ

والصارخ المسْتغيث، يقال: صرخ يصرخ صرخاً وصراخاً وصرخة. قال سلامة بن جندل:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كَانَ ٱلصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ ٱلظَّنَابِيْبِ

واصطرخ بمعنى صرخ وتصرخ إذا تكلف الصراخ، واستصرخ استغاث، فقال: استصرخني فأصرخته، والصريخ مصدر كالصهيل، ويوصف به المغيث والمستغيث من الأضداد. وفي «المصباح»: صرخ يصرخ ـ من باب قتل ـ صراخاً فهو صارخ، وصريخ إذا صاح وصرخ، فهو صارخ إذا استغاث، واستصرخته، استغثت به فأغاثني فهو صريخ؛ أي: مغيث ومصرخ على القياس.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أصله بمصرخين[1] لي جمع مصرخ، كمسلمين جمع مسلم، فياء الجمع ساكنة وياء الإضافة كذلك، فحذفت اللام للتخفيف والنون للإضافة، فالتقى ساكنان وهما الياءان، فأدغمت ياء الجمع في ياء الإضافة، ثم حركت ياء الإضافة بالفتح على القراءة المشهورة طلباً للخفة وتخلصاً من توالي ثلاث كسرات، وكسرت على غير المشهورة على أصل التخلص من التقاء الساكنين، أو اتباعاً لكسرة الخاء.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ المثل[2]: قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة، ويوضح الأول بالثاني ليتم انكشاف حاله به.

﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٌ﴾؛ أي: ضارب بعروقه في الأرض ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في جهة العلو، والفرع: الغصن من الشجرة، ويطلق على ما يولد من الشيء، والفرع أيضاً: الشعر، يقال: رجل أفرع وامرأة فرعاء لمن كثر شعره. وقال امرؤ القيس بن حجر:

وَفَـرْعٌ يُـغَـشِّـيْ ٱلْـمَـتْـنَ أَسْـوَدُ فَـاحِـمُ

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾؛ أي: تعطي ثمرها. ﴿كُلَّ حِينِۢ﴾؛ أي: كل وقت، والحين في اللغة[3]: الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هنا، فقال مجاهد وعكرمة: الحين هنا: سنة كاملة؛ لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر يعني: من وقت طلعها إلى حين صرامها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً. وقال علي بن أبي طالب: ثمانية أشهر يعني: أن مدة حملها باطناً وظاهراً ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب: شهران يعني: من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها. وقال الربيع بن أمس: ﴿كُلَّ حِينِۢ﴾ يعني: كل غدوة وعشية؛ لأن ثمرة النخلة تؤكل أبداً ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً، فيؤكل منها الجمار

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى الطري الرطب، فأكلها دائم في كل وقت. ا هـ. «خازن».

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإرادة خالقها.

﴿اجْتُثَّتْ﴾؛ أي: استؤصلت وأخذت جثتها من الجث؛ وهو القطع باستئصال، فهو صفة لشجرة، ومعنى اجتثت، قلعت جثتها؛ أي: شخصها وذاتها من فوق الأرض، والجثة: شخص الإنسان قاعداً وقائماً. وقال لقيط الإياري:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم   فمن رأى مثل ذا آتٍ ومن سمعا

ويقال[1]: اجتثثت الشيء إذا قلعته، فهو افتعال من لفظ الجثة، وجثثت الشيء قلعته، والمعنى: على التشبيه؛ أي: كأنها اجتثت، وكأنها غير ثابتة بالكلية، وكأنها ملقاة على وجه الأرض.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾؛ أي: استقرار عليها يقال: قر الشيء قراراً نحو ثبت ثباتاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم، فإن الشرك لظلم عظيم.

ومنها: الذم في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تسجيلاً[2] عليهم باسم التجبر والعناد، لا أنهم بعضهم ليسوا كذلك، وأنه لم تصبهم الخيبة.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

ومنها: الإبهام ثم البيان في قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أبهم الماء أولاً، ثم بيَّن بالصديد تعظيماً وتهويلاً لأمره، وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فضلاً عن الإساغة، بل يغص به.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنه مجاز عن أسبابه، ففيه إطلاق المسبب وإرادة السبب.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، شبه[1] الله سبحانه وتعالى صنائع الكفار ـ جمع صنيعه ـ من الصدقة وصلة الرحم وعتق الرقاب وفك الأسير وإغاثة الملهوف ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى وتوحيده، وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف، ووجه الشبه أن الريح العاصف تطير الرماد، وتفرق أجزائه بحيث لا يبقى له أثر، فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر، وقد بين مقصوده ومحصله بقوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾؛ لأن العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: فذلكة التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ لأن العصف اشتداد الريح وُصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

---

(١) البيضاوي وزاده.

ومنها: فذلكة التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ فأسند البعد الذي هو من أحوال الضال إلى الضلال الذي هو فعله مجازاً مبالغة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ومنها: إيثار[1] صيغة الماضي في قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وإن كان معناه الاستقبال؛ للدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن كل[2] ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق كائن لا محالة، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود، وكذا في قوله: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ دلالة على أن وقوعه محقق.

ومنها: الطباق بين ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ و﴿الذين استكبروا﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾.

ومنها: الطباق في ﴿جزعنا﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾.

ومنها: إيثار صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ وإن كان معناه مستقبلاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾.

ومنها: التجوز في قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾؛ لأن الإخلاف[3] حقيقة هو عدم إنجاز من يقدر على إنجاز وعده، وليس الشيطان كذلك، فقوله: ﴿أخلفتكم﴾، يكون مجازاً جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه، كأنه كان قادراً على إنجازه، وأنى له ذلك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ شبه طاعته باتباعه فيما زينه

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

لهم بإشراكه مع الله بجامع الاتباع في كل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية كما في «الشهاب».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وقوله: ﴿ومثل كلمة كشجرة خبيثة﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَصْلُهَا﴾، ﴿وَفَرْعُهَا﴾، وفي ﴿طَيِّبَةً﴾، ﴿خَبِيثَةٍ﴾.

ومنها تغيير[1] الأسلوب في قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.. الخ. حيث لم يقل: وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة.. الخ للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان. ا هـ. «أبو السعود».

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حيث شبه النجم؛ وهو ما لا ساق له بالشجر، وهو ما له ساق بجامع أن كلاً منهما نبات، فاستعار له اسم الشجر، وقيل: تسميتها شجرة للمشاكلة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾.

ومنها: الإظهار[2] في مقام الإضمار في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ لتربية المهابة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ
﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن
كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ
وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] حال المؤمنين وهداهم، وحال الكافرين وإضلالهم.. ذكر السبب في إضلالهم.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] الأمثال بياناً لحالي الفريقين، وذكر ما يليه من التوفيق في الدارين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

للسعداء، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة.. ذكر[١] هنا الأسباب التي أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجباً رسوله ﷺ مما صنعوا من الأباطيل التي لا تكاد تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر، ولم تكن هذه الطامة خاصة بهم، بل كانت فتنة شعواء عمتهم جميعاً ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفراً، والشكر جحداً، وإنكاراً، وليت البلية كانت واحدة، بل أضافوا إليها أخرى، فاتخذوا لله الأنداد والشركاء، ثم تلبثوا بإضلال غيرهم، فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة:

فَلَوْ كَانَ هَمٌّ وَاحِدٌ لَاحْتَمَلْتُهُ وَلَكِنَّهُ هَمٌّ وَثَانٍ وَثَالِثُ

ومن ثم كانت عاقبتهم التي لا مرد لها العذاب الأليم في جهنم وبئس المصير، ثم بين لرسوله ﷺ أن مثل هؤلاء لا تجدي فيه العظة، فذرهم يتمتعوا في هذه الحياة حتى حين، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[٢]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر حال الكفار وكفرهم نعمته، وجعلهم له أنداداً، وهددهم.. أمر المؤمنين بلزوم الطاعة والتيقظ لأنفسهم، وإلزام عمودي الإسلام: الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة.

وعبارة المراغي هنا[٣]: بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا.. أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة في التمتع بها، والجد في مجاهدة النفس والهوى ببذل النفس والمال في كل ما يرفع شأنهم ويقربهم من ربهم، وينيلهم الفوز لديه في يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال الكافرين لنعمه حين بدلوا الشكر بالكفر، واتخذوا لله أنداداً، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة شكراً لربهم على ما أوتوا من النعم، وحثاً لهم على الجهاد في سبيل كمالهم ورقيهم، ببذل النفس والنفيس، وهو المال لتكمل لهم السعادة في الدارين.. شرع بذكر الأدلة المنصوبة في الآفاق والأنفس التي توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له، ويذكر النعم الجسام التي يتقلبون في أعطافها آناء الليل وأطراف النهار؛ ليكون في ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر في تلك النعم، فكان هذا داعية كفرها وجحودها وغمطها وكنودها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما ذكر[1] سبحانه وتعالى الأدلة على أن لا معبود سواه، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفراً وعبدوا الأوثان والأصنام.. ذكر هنا أن الأنبياء جميعاً حثوا على ترك عبادة الأصنام، فإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه؛ وهو أبوهم نعى على قومه عبادتها، وطلب إلى الله أن يجنبه وبنيه ذلك، فإنها كانت سبباً في ضلال كثير من الناس، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ...﴾ الآيات، قال أبو حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وجعلوا لله أنداداً؛ وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

اتخذوا آلهة من دون الله، وكان من نعم الله عليهم، وإسكانه إياهم حرمه... أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة، وهي الصلاة لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عطاء بن يسار قال(١): نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وقد ذهب(٢) جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في كفار مكة، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقيل: نزلت في بطنين من بطون قريش بني مخزوم وبني أمية، وقيل: إنها عامة في جميع المشركين، وقيل غير ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تعجيب لرسول الله ﷺ، أو لكل مخاطب، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له؛ أي: هل رأيت يا محمد عجباً مثل عجب هؤلاء المذكورين؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى﴾ حال الكفار ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جعلوا بدل شكر نعمة الله التي هي إرسال محمد ﷺ إليهم ﴿كُفْرًا﴾؛ أي: جحداً وتكذيباً له، وشكرها الإيمان به ﷺ في جميع ما جاء به، وهم أهل مكة حيث أسكنهم الله حرمه الآمن، ووسع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم بمحمد ﷺ، فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين، فقتلوا وأسروا يوم بدر؛ لأن(٣) شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلاً ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.
(٣) النسفي.

وأنزلوهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: دار الهلاك جهنم: عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يقاسون حرها؛ أي: حالة كونهم يدخلونها يوم القيامة مقاسين لحرها؛ أي: أنزل[1] بعض قريش المطعمون يوم بدر ـ وهم بنو أمية وبنو المغيرة ـ أتباعهم، وهم بقية قريش بسبب إضلالهم إياهم وإرشادهم إلى طريقة الشرك دار الهلاك التي هي جهنم يوم القيامة حالة كون كلهم من الأتباع والمتبوعين يدخلون جهنم مقاسين لحرها كفاء ضلالهم وإضلالهم، وعدم[2] التعرض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرعه ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أي: وقبح المستقر والمنزل لهم يوم القيامة، والمخصوص بالذم جهنم داراً لهم.

والمعنى: أي ألم[3] تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها، وجحوداً بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء، وجعلهم قوام بيته، وشرفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم، فكفروا بتلك النعمة، فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأباً، وأسروا يوم بدر وصفدوا في السلاسل والأغلال، وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنون بهم ويحتفظون بمواضيعهم ليوم كريهة وسداد ثغر.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذي لا هلاك بعده. ثم بين هذه الدار، فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: هذه الدار هي جهنم دار العذاب التي يقاسون حر نارها وبئس المستقر هي لمن أراد الله به النكال والوبال، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ عطف على ﴿أحل﴾ داخل معه في حكم التعجب؛ أي: جعلوا في اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد ﴿لِلَّهِ﴾ الفرد الأحد الذي لا شريك له في الأرض ولا في السماء ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً في التسمية حيث سموا الأصنام آلهة، أو في العبادة، أو في الربوبية ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القويم الذي هو التوحيد، ويوقعوهم في ورطة الكفر والضلال، وليس الإضلال[4] غرضاً

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

حقيقياً لهم من اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان نتيجة له كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء شبه بالغرض، وأدخل اللام عليه بطريقة الاستعارة التبعية، ونسب الإضلال الذي هو فعل الله تعالى إليهم؛ لأنهم سبب الضلالة حيث يأمرون بها ويدعون إليها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو(١): ﴿ليضلوا﴾ هنا، و﴿ليضل﴾ في الحج ولقمان والروم بفتح الياء؛ أي: ليضلوا بأنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة؛ أي: ليتعقب جعلهم لله أنداداً ضلالهم؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه. وقرأ باقي السبعة بضمها؛ أي: ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً.

والمعنى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي(٢): واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس له كفواً أحد أنداداً وشركاء من الأصنام والأوثان أشركوهم به في العبادة، كما قالوا في الحجّ: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم الصد والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف، والوقوع في حمأة الكفر والضلال.

ولما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم هذه الهنات الثلاث تبديل النعمة واتخاذ الأنداد والأمثال وإضلال قومهم، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد: سيروا على ما أنتم عليه، فإنه لا فائدة في نصحكم وإرشادكم وعاقبتكم النار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تهديداً لهؤلاء الضالين المضلين ﴿تَمَتَّعُواْ﴾؛ أي(٣): انتفعوا والتذوا بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام، وعبادة الأوثان والأصنام، والسعي في إضلال الناس والصد عن سبيله. ثم بين جزاءهم المحتوم، فقال: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ يوم القيامة؛ أي: إن مرجعكم وموئلكم فيه ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ المؤبدة ليس إلا، فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك، أو يقتضيه من أحوالكم، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وسمى الله تعالى ذلك تمتعاً[1]؛ لأنهم تلذذوا به، وأحسوا بغبطة وسرور، كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم، وهذا الأسلوب التهكمي يستعمل في التخاطب كثيراً، فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه، ثم لا يرى منه إلا تمادياً في الإعراض عن أوامره واتباعاً لشهواته، فيقول له: كل ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول، وكما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان، إصنع ما شئت، فإن مصيرك إلى السيف.

ودلت الآيتان على أمور:

الأول: أنَّ الكفران سبب لزوال النعمة بالكلية، كما أن الشكر سبب لزيادتها.

والثاني: أنَّ القرين السوء يجر المرء إلى النار، ويحله دار البوار، فينبغي للمؤمن المخلص السني أن يجتنب عن صحبة أهل الكفر والنفاق والبدعة حتى لا يسرق طبعه اعتقادهم السوء وعملهم السيء. ولهم كثرة في هذا الزمان.

والثالث: أن جهنم دار القرار للأشرار، وشدة حرها مما لا يوصف.

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم في اللذات أمر نبيه ﷺ أن يأمر خُلَّصَ عباده بإقامة العبادات البدنية، وأداء الفرائض المالية، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أقيموا[2] الصلاة الواجبة على وجهها وأدوها كما طلب ربكم، وداوموا عليها، فهي عماد الدين وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي المصباح للمؤمن يستضيء به للقرب من ربه. و﴿عبادي﴾ يقرأ بثبوت الياء مفتوحة وبحذفها لفظاً لا خطأ، والقراءتان

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

سبعيتان، ويجريان في خمس مواضع من القرآن هذا، وقوله في سورة «الأنبياء»: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وقوله في «العنكبوت»: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله في «سبأ»: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وقوله في سورة «الزمر»: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾. ا هـ. «شيخنا».

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وتصدقوا بعض ما أعطيناكم من الرزق والعطاء، وأدوا الزكاة الواجبة شكراً له على نعمه الجزيلة، ورأفةً بعباده الفقراء، وسدّاً لخلتهم، وإيجاداً للتضامن والتعاون بين الأخوة في الدين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. ﴿سِرًّا﴾؛ أي: خفية ﴿وَعَلَانِيَةً﴾؛ أي: جهراً؛ أي: أنفقوها إنفاق سر وخفية في صدقة التطوع، وإنفاق جهر وعلانية في صدقة الواجب. قيل: أراد[1] بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة، وقيل: أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر، وحمله على العموم أولى؛ ليدخل فيه إخراج الزكاة والإنفاق في جميع وجوه البر، والمراد: حث المؤمنين على الشكر لنعم الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية، وعلى ترك التمتع بمتاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة، وإنما خصهم[2] بالإضافة تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. وهذان الفعلان[3]: إما مجزومان في جواب أمر محذوف؛ أي: قل لهم أقيموا الصلاة، فإن قلت لهم ذلك.. يقيموا الصلاة، أو مجزومان بلام أمرٍ مقدر؛ أي: ليقيموا الصلاة؛ أي: الواجبة.

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ قال في «الإرشاد»: الظاهر أن ﴿من﴾ متعلقة بـ﴿أنفقوا﴾ ﴿يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافىٰ تقصيره به، وتخصيص[4] البيع بالذكر؛ لاستلزام نفيه نفي الشراء ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ فيه؛ أي: ولا مخالة وصداقة فيه، فيشفع له خليل، والمراد بالمخالة المنفية: المخالة بسبب

---

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

ميل الطبع ورغبة النفس، فلا يعارض قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾؛ لأن الواقع فيما بينهم المخالة لله، أو من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة، وإنما ينتفع فيه بالطاعة التي من جملتها إقامة الصلاة والإنفاق لوجه الله تعالى وادخار المال، وترك إنفاقه إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت.

والمعنى[1]: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله، وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم ما داموا في الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك، بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعني[2]: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء.

والخلاصة[3]: وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه فدية، ولا تجدي فيه صداقة، فلا يشفع خليل لخليل، ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه، بل هناك العدل والقسط، كما قال جل جلاله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقال أيضاً: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

ولما[4] أطال سبحانه وتعالى الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، كان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته، والشقاوة بالجهل بذلك.. ختم وصفه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وذكر عشرة أنواع من الدلائل، فذكر أولاً إبداعه وإنشاءه السماوات والأرض، ثم أعقب بباقي الدلائل وأبرزها في جملة مستقلة، ليدل وينبه على أن كل جملة منها مستقلة في الدلالة، ولم يجعل متعلقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد. وفي «الفتوحات»[1]: ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة أدلة على وحدانية الله تعالى، ولفظ الجلالة مبتدأ، أو الموصول خبره.

والمعنى: الله الذي يستحق منكم العبادة هو الإله الذي أبدع واخترع وأوجد السماوات السبع على غير مثال سبق، وأوجد ما فيها من الأجرام العلوية، وخلق الأرض وما فيها من المخلوقات، وقدم السماوات على الأرض؛ لأنها بمنزلة الذكر من الأنثى، وبدأ بذكر خلق السماوات والأرض؛ لأنهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع المختار القادر الحكيم. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، فإن كل ما علاك سماء، أو من الفلك، فإن المطر منه يبتدىء إلى السحاب، ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص، وهذا القول أرجح عند بعضهم؛ لأن الله تعالى زاد بيان نعمه على عباده، فبين أولاً خلق السماوات والأرض، ثم أشار إلى ما فيها من كليات المنافع، لكنه قدم وأخر كتأخير تسخير الشمس والقمر؛ ليدل على أن كلا من هذه النعم نعمة على حدة، ولو أريد السحاب لم يوجد التقابل التام وأيّاً ما كان، فـ﴿من﴾ ابتدائية ﴿مَآءٗ﴾؛ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر، فتنكير الماء هنا للنوعية ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾؛ أي: فأنبت بذلك الماء الذي أودع فيه القوة الفاعلية، كما أنه أودع في الأرض القوة القابلية ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المتنوعة ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ يا بني آدم تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس، وهو مفعول به لـ﴿أخرج﴾ و﴿من﴾ للتبيين حال منه، كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً؛ أي: رزقاً هو الثمرات، و﴿لَكُمۡ﴾ صفة له. وقيل: للتبعيض؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به، كأنه قيل: أنزل من

---

(١) روح البيان.

السماء بعض الماء، فأخرج به بعض الثمرات؛ ليكون بعض رزقكم. **والمعنى**[1]: الله الذي خلق لكم السماوات والأرض هنا أكبر خلقاً منكم، وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لا تعلمون وتقدم تفصيل هذا في مواضع متعددة من كتابه الكريم، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه وتعيشون به.

ولما ذكر[2] الله سبحانه وتعالى إنعامه بإنزال المطر وإخراج الثمر، لأجل الرزق والانتفاع به من ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء؛ لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد إلى بلد آخر فهي من تمام نعمة الله على عباده، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وذلل لكم السفن ـ جمع فلك بمعنى سفينة ـ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿لِتَجْرِيَ﴾؛ أي: تلك الفلك والسفن ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته إلى حيث توجهتم وانطوى[3] في تسخير الفلك تسخير البحار وتسخير الرياح. وفي «أنوار المشارق»: يجوز ركوب البحر للرجال والنساء عند غلبة السلامة، كذا قال الجمهور، وكره ركوبه للنساء؛ لأن الستر فيه لا يمكنهن غالباً ولا غض البصر عن المتصرفين فيه، ولا يؤمن من انكشاف عوراتهن في تصرفهن لا سيما فيما صغر من السفن مع ضرورتهن إلى قضاء الحاجة بحضرة الرجال.

والمعنى: أي وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها وجعلها طافية على وجه الماء تجري عليه بأمره تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم؛ لجلب ما هناك إلى هنا ونقل ما هنا إلى هناك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾؛ أي: المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام تشق الأرض شقاً من قطر إلى قطر، وتسخيرها: جعلها معدة لانتفاعكم بها حيث تشربون منها، وتتخذون منها جداول تسقون بها زروعكم وحدائقكم وما أشبه ذلك. ولما[4] كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزرع والثمرات ولا في الشراب أيضاً.. ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار، وتفجير العيون؛ لأجل

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

هذه الحاجة، فهو من أعظم نعم الله على عباده. قال في «بحر العلوم»: اللام فيها للجنس أو للعهد أشير بها إلى خمسة أنهار: سيحون: نهر الهند، وجيحون: نهر بلخ، ودجلة والفرات: نهري العراق، والنيل: نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وسخرها للناس، وجعل فيها منافع لهم في أصناف معاشهم، وسائر الأنهار تبع لها، وكأنها أصولها. انتهى.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ حالة كونهما ﴿دَآئِبَيْنِ﴾؛ أي: دائمين في الحركة متصلين في سيرهما لا ينقطعان ولا يفتران؛ أي: لا يضعفان بسبب سيرهما في فلكهما ومقرهما: وهو السماء الرابعة للشمس، وسماء الدنيا للقمر إلى انقضاء عمر الدنيا وقيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والمعنى: وسخر لكم الشمس والقمر حالة كونهما دائبين؛ أي[1]: مجدين في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما يصلحان الأرض والأبدان والنبات، لا يفتران أصلاً، ويفضل الشمس على القمر؛ لأن الشمس معدن الأنوار الفلكية من البدور والنجوم، وأصلها في النورانية، وأن أنوارهم مقتبسة من نور الشمس على قدر تقابلهم وصفوة أجرامهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان بالزيادة والنقصان، والإضاءة والإظلام، والحركة والسكون فيهما، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه في أمور دنياكم، ولإنضاج الثمار، والليل لتسكنوا فيه ولعقد الثمار، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾. فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من

---

(١) روح البيان.

ذلك، فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا، فيقصر، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

واختلفوا في الليل والنهار أيهما أفضل[1]. قال بعضهم: قدم الليل على النهار؛ لأن الليل لخدمة المولى، والنهار لخدمة الخلق، ومعارج الأنبياء عليهم السلام كانت بالليل، ولذا قال الإمام النيسابوري: الليل أفضل من النهار.

ولما ذكر[2] الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم.. بين بعد ذلك أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر: حيث قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾؛ أي: وأعطاكم مصلحة لكم ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ أي: بعض جميع ما سألتموه، فإن الموجود من كل صنف بعض ما قدره الله تعالى، فـ﴿من﴾ للتبعيض.

وقال الأخفش[3]: أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً، فحذف شيئاً، وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه، فحذفت الجملة الأخرى. قاله ابن الأنباري، وقيل: ﴿من﴾ زائدة؛ أي: آتاكم كل ما سألتموه. وقيل: للتبعيض؛ أي: آتاكم بعض كل ما سألتموه.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية[4]: ﴿من كلٍ﴾ - بالتنوين - وهي شاذة؛ أي: من كل هذه المخلوقات المذكورات، و﴿ما﴾ موصولة مفعول ثان؛ أي: ما شأنه أن يسأل بمعنى يطلب الانتفاع به؛ أي: آتاكم من كل شيء الذي سألتموه. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية؛ أي: آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له.

والمعنى: أي هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم من كل

---

(1) روح البيان.
(2) الخازن.
(3) الشوكاني.
(4) البحر المحيط.

الذي هو حقيق أن تسألوه، سواء أسألتموه أم لم تسألوه؛ لأن هذه الدنيا قد وضع الله تعالى فيها منافع يجهلها الناس، وهي معدة لهم، فلم يسأل الله أحد في الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج، ولم يزل عجائب ستظهر لمن بعدها. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم بسؤال وبغيره ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: لا تطيقوا حصرها[1] وعدها ولو إجمالاً لكثرتها وعدم نهايتها. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. وأصل الإحصاء أن الحساب كان إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد وضعت له حصاة ليحفظ بها، ثم استؤنف العدد.

والمعنى: لا توجد له غاية فتوضع له حصاة. والنعم على قسمين: نعمة المنافع؛ لصحة البدن والأمن والعافية، والتلذذ بالمطاعم والمشارب والملابس والمناكح والأموال والأولاد، ونعمة دفع المضار من الأمراض والشدائد، والفقر والبلاء، وأجل النعم استواء الخلقة، وإلهام المعرفة.

والمعنى: أي[2] لا تطيقوا عد أنواعها فضلاً عن القيام بشكرها وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي، ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وأثر عن الشافعي أنه قال: الحمد لله الذي لا يؤدِّي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها. وقال شاعرهم:

لَوْ كَانَ جَارِحَةٌ مِنِّيْ لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِيْ عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِيْ إِذْ شَكَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِيْ ٱلإِحْسَانِ وَٱلْمِنَنِ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إن جنس الإنسان ﴿لَظَلُومٌ﴾؛ أي[3]: لبليغ في الظلم يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو بوضعها في غير موضعها، أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان. ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: شديد الكفران لها، أو ظلوم في الشدة

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع، واللام في الإنسان للجنس.

والمعنى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾؛ أي: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك واضع للشكر في غير موضعه ذاك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له، فعبد هو غيره، وجعل له أنداداً ليضل عن سبيله، وذلك هو ظلمه وهو جحود لنعمه التي أنعم بها عليه، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه، وتركه طاعة من أنعم عليه.

فإن قلت[1]: لم ختم الآية هنا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ وختمها في سورة النحل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فما الفرق بين الختمين؟

قلتُ: إن الله سبحانه وتعالى لما قدم هنا قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ وذكر بعده: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك بجعل الأنداد له تعالى.. ناسب أن يختم الآية هنا بذم من وقع ذلك منه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾. وأما في النحل، فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها، وقال بعد ذلك: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾؛ أي: أفمن أوجد هذه النعم السابق ذكرها كمن لا يقدر على الخلق، وعلى كل شيء منه.. ناسب أن يذكر هنا وهناك من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما، كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به، وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق في أنه يغفر زلله السابق، ويرحمه. ذكره أبو حيان.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد لقومك مذكراً لهم بأيام الله قصة ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ الخليل عليه السلام في مناجاته لربه حين فرغ من بناء البيت ﴿رَبِّ﴾ي المحسن إلي بإجابة دعائي ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ مكة المشرفة بلداً ﴿ءَامِنٗا﴾؛ أي: ذا أمن

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

يأمن فيه أهله بحيث لا يخاف فيه من المخاوف والمكاره، كالقتل والغارة والأمراض المنفرة من البرص والجذام ونحوهما، فإسناد الأمن إلى البلد مجاز؛ لوقوع الأمن فيه، وإنما الآمن في الحقيقة أهل البلد.

والغرض من سياق ما قاله إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع[1]: بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم وهي إسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة، وقيل: إن ذكر قصة إبراهيم هاهنا لمثال الكلمة الطيبة وقيل: لقصد الدعاء إلى التوحيد وإنكار عبادة الأصنام.

وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفزغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا. فإن قلت[2]: لم قال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ بالتنكير وقال هنا: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ بالتعريف، فأي فرق بين الموضعين؟

قلتُ: الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن فيها أهلها ولا يخافون، وذلك قبل بناء البيت حين وضع هاجر وإسماعيل في مكان البيت، وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: وهو بلد مخوف، فاجعله آمناً، وذلك بعد بناء البيت.

والحاصل: أن هذا الدعاء وقع مرتين[3] مرة قبل بنائها ومرة بعده، ولذلك كتب الكرخي في سورة البقرة ما نصه: ونكر البلد هنا وعرّفه في إبراهيم؛ لأن الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلداً، فطلب من الله أن يُجعل ويُصيَّرَ بلداً آمناً، وهناك كانت الدعوة بعد جعله بلداً.

والخلاصة: أن الفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هنالك البلدية والأمن. وقد أجاب الله تعالى دعاءه، فجعله حرماً لا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ يا رب؛ أي: باعدني ﴿و﴾ باعد ﴿بني﴾ وذريتي عن ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ والأوثان؛ أي: ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام، والبعد عن الأصنام، وقد استجيب دعاؤه في بعض بنيه دون بعض ولا ضير في ذلك.

قيل: أراد[1] بنيه من صلبه، وكانوا ثمانية، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد القول الأول ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم: هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه؛ أي: واجعلنا في جانب بعيد من عبادتها؛ أي: ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام، والبعد عن عبادة الأصنام، وإلا فهو معصوم عن عبادتها، وكذا بعض بنيه معصومون كإسماعيل وإسحاق.

قال بعضهم[2]: رأى إبراهيم قوماً يعبدون الأصنام، فخاف على بنيه فدعا. والجمهور على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي كبير خزاعة، فهو أول من غير دين إبراهيم، وشرع للعرب الضلالات، وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة وعبدها، وأمر الناس بعبادتها، وقد كان أكثر الناس في الأرض المقدسة عبدة الأوثان، وكان إبراهيم يعرفه، فخاف سرايته إلى كل بلد فيه واحد من أولاده، فعصم أولاده الصلبية من ذلك، وهي المرادة من قوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾ فإنه لم يعبد أحد منهم الصنم لا هو ولا أحفاده. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر الثقفي شذوذاً[3]: ﴿وأجنبني﴾ بقطع الهمزة على أنه من أجنب الرباعي.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وأما إعادة النداء بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ...﴾ إلخ فلتأكيد النداء الأول، وكثرة الابتهال والتضرع إليه، وأنث الأصنام؛ لأنه جمع ما لا يعقل يخبر عنه أخبار المؤنث؛أي: وإنما سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن؛ لأنهن؛ أي: لأن الأصنام أضللن كثيراً من الناس. أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنها سبب لضلالهم، فكأنها أضلتهم؛ أي: يا رب إن الأصنام أزلن كثيراً من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن، وكفروا بك ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ من الناس على ما أنا عليه من الإيمان بك، وإخلاص العبادة لك، والبعد عن عبادة الأوثان ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾؛ أي: من أهل ديني، ومستن بسنتي، وجارٍ على طريقتي. جعل أهل ملته كنفسه مبالغة. ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ وخالف أمري، فلم يتابعني، ولم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له؛ أي: فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه، وهدايته إلى الصراط المستقيم. قيل: قال هذا(١) قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به، كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري. وقيل: المراد هنا: عصيانه فيما دون الشرك. وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك.

فصل

واعلم: أنه قد توجه على هذه الآية إشكالات، وهي من وجوه(٢):

الأول: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنة، ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها، وأخافوا أهلها.

الوجه الثاني: أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الأصنام، وإذا كان كذلك، فما الفائدة في قوله: أجنبني عن عبادتها؟

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يُجنب بنيه عبادة الأصنام، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام.

وقد يجاب عنها بوجوه كثيرة، فالجواب عن الوجه الأول من وجهين:

أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب، وهذا موجود بحمد الله تعالى، ولم يقدر أحد على خراب مكة، وأورد على هذا ما ورد في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». أخرجاه في «الصحيحين». وأجيب عنه بأن قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، يعني: إلى قرب القيامة وخراب الدنيا. وقيل: هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين، فلا تعارض بين النصين.

الوجه الثاني: أن يكون المراد: اجعل أهل هذا البلد آمنين، وعلى هذا الوجه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم، وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله؛ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة.. أمن على نفسه وماله من ذلك، وحتى أن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت، فإذا دخلت الحرم.. أمنت واستأنست لعلمها أنه لا يهيجها أحد في الحرم، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها.

وأما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضاً:

الوجه الأول: أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة، والتثبيت، فهو كقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

والوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء هضماً للنفس، وإظهاراً للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته، وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه

بشيء لم ينفعه الله به، فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء.

وأما دعاؤه لبنيه، وهو الوجه الثالث من الإشكالات، فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد صنماً قط.

الوجه الثاني: أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء، ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم.

الوجه الثالث: قال الواحدي دعا لمن أذن الله أن يدعو له، فكأنه قال: وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم؛ لأن دعاء الأنبياء مستجاب، وقد كان من بنيه من عبد الصنم، فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص.

الوجه الرابع: أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده، والدليل عليه أنه قال في آخر هذه الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه، فليس منه، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ا هـ من «الخازن».

ثم قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ كرر النداء[1] رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى، وأتى بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه في قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ و﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء[2]: ﴿من﴾ للتبعيض؛ أي: بعض ذريتي وهو إسماعيل ومن سيولد له، فإن إسكانه متضمن إسكانهم. وقال ابن الأنباري: أنها زائدة؛ أي: أسكنت ذريتي. والأول أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل، وهو بعض ولده. ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾؛ أي: بواد ليس فيه زرع وهو وادي مكة؛ لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد، فإنها حجرية لا يوجد فيها زرع ولا ماء. وفي «بحر العلوم»: وأما في زماننا فقد رزق الله أهله ماء جارياً، وإنما لم يقل غير ذي ماء؛ لأنه كان علم أن الله لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقها الماء، وعلم بالوحي أنه سيكون فيها ماء كثير، والله أعلم. وقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ظرف لـ﴿أَسۡكَنتُ﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

والإضافة فيه للتشريف؛ أي: الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره؛ لأنه عظيم الحرمة حرم الله التعرض له بسوء يوم خلق السماوات والأرض، وحرم فيه القتال والاصطياد، وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام. وقيل غير ذلك. فإن قلت[1]: كيف قال عند بيتك المحرم، ولم يكن هناك بيت حينئذٍ، وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك؟.. قلت: يحتمل أن الله عز وجل أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر، فلذلك قال: عند بيتك المحرم. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى: عند بيتك الذي كان، ثم رفع عند الطوفان. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان.

والمعنى: أي يا رب إني أسكنت بعض ذريتي وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذي زرع، وهو وادي مكة عند بيتك الذي حرمت التعرض له والتهاون به، وجعلت ما حوله حرماً لمكانه. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كرر النداء[2] لإظهار كمال العناية بما بعده، واللام فيه لام كي متعلقة بـ﴿أَسْكَنتُ﴾؛ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم متوجهين إليه متبركين به بدلالة قوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ على أنه لا غرض له دنيوي في إسكانهم عند البيت المحرم، وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها، ولأن بيت الله لا يسعه إلا الصلاة وما في معناها وهي الأصل في إصلاح النفس، وكان قريش يمتنعون عن ذلك لزيادة كبرهم.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قلوب بعض الناس ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تسرع إلى ذريتي بنقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، وتحن إليهم لطلب حج البيت لا لأعيانهم، وتطير نحوهم محبة، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ للتبعيض. وقيل: زائدة، ولا[3] يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

إليهم، لا توجيهها إلى الحج، ولو كان هذا مراداً.. لقال: تهوي إليه، والأفئدة: جمع فؤاد؛ وهو القلب عبر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه. قال مجاهد: لو قال إبراهيم عليه السلام: أفئدة الناس لازدحمت على البيت فارس والروم. وقال ابن جبير: لَحجَّتْهُ اليهود والنصارى.

وقرأ هشام في المتواتر بخلف عنه[1]: ﴿أفئيدة﴾ بياء بعد الهمزة نص عليه الحلواني عنه، وخرج ذلك على الإشباع، ولما كان الإشباع لا يكون إلا في ضرورة الشعر.. حمل بعض العلماء هذه القراءة على أن هشاماً قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبر الراوي عنها بالياء، فظن من أخطأ فهمه أنها بياء بعد الهمزة، والمراد بياء عوضاً عن الهمزة، وقرىء: ﴿آفدة﴾ على وزن فاعلة، فاحتمل أن يكون اسم فاعل من أفد؛ أي: دنا وقرب، وأن يكون جمع فؤاد، ويكون من باب القلب، وصار بالقلب أأفدة، فأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً. وقرىء: ﴿أفِدَة﴾ على وزن فعلة، فاحتمل أن يكون جمع فؤاد. وقراءة أم الهشيم: ﴿أفودة﴾ بالواو المكسورة بدل الهمزة. وقرأ زيد بن علي: ﴿إفادة﴾ على وزن إشارة، وما عدا قراءة الجمهور وهشام شاذ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ـ بكسر الواو من باب ضرب ـ؛ أي: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً. وقرأ مسلمة بن عبد الله شاذ: ﴿تهوي﴾ بضم التاء مبنياً للمفعول من أهوى المنقولة بهمزة التعدية من هوى اللازم. وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن علي ومحمد بن علي وجعفر بن محمد ومجاهد شذوذاً أيضاً: ﴿تهوي﴾ ـ بفتح الواو مضارع هوى من باب فرح ـ بمعنى أحب وإلى زائدة، فيكون بمعنى، تحبهم.

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾؛ أي: ذريتي الذين أسكنتهم هناك، أو هم ومن يساكنهم من الناس، وإنما لم يخص الدعاء بالمؤمنين كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اكتفاء بذكر إقامة الصلاة ﴿من﴾ أنواع الثمرات كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع، فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار. وقيل: يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة، فهو كقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقد حصل[1] كلاهما حتى أنه يجتمع في مكة الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد. روى عن ابن عباس أن الطائف وهي على ثلاث مراحل، من مكة كانت من أرض فلسطين، فلما دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة.. رفعها الله ووضعها رزقاً للحرم.

والمعنى: أي وارزق ذريتي الذين أسكنتهم في مكة من أنواع الثمار بأن تجبي إليهم ذلك من شاسع الأقطار، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم؛ أي: رجاء أن يشكروا تلك النعم بإقامة الصلاة، وأداء واجبات العبودية. وفي هذا[2] إيماء إلى أن تحصيل منافع الدينا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات، وفي دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة، وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة، ومن ثم من الله عليه بالقبول وإعطاء المسؤول، وقد أجاب دعائه، فألهم الناس الحج في آلاف السنين، وإلى ما شاء الله تعالى، لا في مدى حياته فحسب، ولا بدع في ذلك، فهو خليل الرحمٰن وأبو الأنبياء جميعاً.

والنداء المكرر في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت تعلم ما تخفي وتسر قلوبنا حين سؤالك ما نسأل، وما نعلن ونظهر من دعائنا فنجهر به[3]، دليل التضرع واللجوء إلى الله تعالى، وقدم ما نخفي على ما نعلن؛ للدلالة على أنهما مستويان في علمه سبحانه. والمراد: ربنا إنك تعلم السر كما تعلم العلن، علماً لا تفاوت فيه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) النسفي.

والمعنى[1]: إنك تعلم أحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، وأنت أرحم بنا منا، فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلّلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك. وقيل: معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع، وما نعلن يعني: من البكاء. وقيل: ﴿مَا نُخْفِى﴾ يعني: من الحزن المتمكن في القلب: ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ يعني: ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: إذاً لا يضيعنا.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ دائماً[2]؛ إذ لا ماضي ولا مستقبل ولا حال بالنسبة إلى الله تعالى ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علام الغيوب سبحانه وتعالى ﴿من﴾ للاستغراق ﴿شَىْءٍ﴾ ما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنه العالم بعلم ذاتي تستوي نسبته إلى كل معلوم لا عارض ولا كسبي، ليختص بمعلوم دون معلوم كعلم البشر والملك، تلخيصه لا يخفي عليك شيء ما في أي مكان، فافعل بنا ما هو مصلحتنا، فالظرف متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾، أو شيء ما كائن فيهما على أنه صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، وهذا على القول بأنه من كلام إبراهيم عليه السلام، قاله تحقيقاً لقوله الأول وتعميماً بعد التخصيص، وقيل: هو من كلام الله تعالى قاله تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، وهو اعتراض بين كلامي إبراهيم، فالوقف على ﴿نُعْلِنُ﴾ حسن كالوقف على ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والمعنى عليه: وما يخفى على الله شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنما ذكر السماوات والأرض؛ لأنها المشاهدة للعباد، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

ثم حمد الله تعالى على بعض نعمه الواصلة إليه، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والشكر ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ أي: مع كبر سني. فـ﴿عَلَى﴾ هنا[3] بمعنى مع، وهو في موقع الحال؛ أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها؛ لأن زمان الكبر زمان العقم ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

سمي إسماعيل؛ لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول: إسمع يا إيل، وإيل هو الله، فلما رزق به سماه به كما في «معالم التنزيل». وقال في «إنسان العيون»: معناه بالعبرانية: مطيع الله روي أنه ولد له إسماعيل، وهو ابن تسع وتسعين سنة. ﴿وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ اسمه بالعبرانية: الضحاك كما في «إنسان العيون» روي أنه ولد له إسحاق، وهو ابن مئة وثنتي عشرة سنة، وإسماعيل يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالك أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: لمجيب الدعاء من قولهم سمع الملك كلامه إذا اعتد به وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول.

والمعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. وفيه بأنه دعاه ربه وسأل منه الولد، ما قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه، ليكون من أجل النعم وأجلاها، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ...﴾ إلخ. والظاهر[1]: أن هذه الجمل التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنما حكى الله عنه ما وقع منه في أزمان مختلفة، يدل على ذلك أن إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه؛ إذ ترك هاجر والطفل بمكة، فالظاهر أن حمده الله تعالى على هبة ولديه له كان بعد وجود إسحاق.

فإن قلت: كيف[2] جمع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في وقت واحد، وإنما بشر بإسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل؟

قلت: يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر بإسحاق، وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه؛ لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ إذا ثبت هذا، فيكون قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ في وقت آخر. والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: معدلاً[1] لها بأركانها وشروطها وآدابها، من أقمت العود إذا قومته، أو مواظباً عليها، من قامت السوق إذا نفقت؛ أي: راجت أو مؤدياً لها محافظاً عليها في أوقاتها، والاستمرار يستفاد من العدول من الفعل إلى الاسم حيث لم يقل: اجعلني أقيم الصلاة. ﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ من يقيم الصلاة، وإنما أدخل لفظة ﴿من﴾ التي هي للتبعيض في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِىٓ﴾؛ لأنه علم بإعلام الله تعالى إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة، فلهذا قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِىٓ﴾ وأراد بهم المؤمنين من ذريته.

والمعنى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي[2]: رب اجعلني مؤدياً ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها علي، واجعل أيضاً بعض ذريتي مقيمي الصلاة، وقد خصّ الصلاة من بين فرائض الدين؛ لأنها العنوان الذي يمتاز به المؤمن من غيره، ولما لها من المزية العظمى في تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاءه في هذا المقام دخولاً أولياً حيث قال: ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا، فاسمع ندائي ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾؛ أي[3]: واستجب دعائي هذا المتعلق باجعلني، واجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾. وقرأ[4] ورش وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر: ﴿وتقبل دعائي﴾ بياء في الوصل. والبزي ويعقوب وصلاً ووقفاً، ويقف عليها بالهمزة الباقون. ﴿دُعَآءِ﴾ بغير ياء في الحالين. قال أبو علي: الوقف والوصل بياء هو القياس، والإشمام جائز لدلالة الكسرة على الياء.

ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله، وإن لم يكن كبيراً؛ لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾؛ أي: ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك مما لا

---

(1) روح البيان.
(2) المراغي.
(3) روح البيان.
(4) زاد المسير.

يسلم منه البشر. ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه حيث قال: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾؛ أي: واغفر لوالدين لي ذنوبهما واهدهما إلى صراطك المستقيم. وقد قيل[١]: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾. وقيل: كانت أمه مسلمة. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء.

ثم استغفر للمؤمنين حيث قال: ﴿و﴾ اغفر ﴿للمؤمنين﴾ والمؤمنات كلهم، وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم. وقيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط، واكتفى بذكر[٢] مغفرة المؤمنين دون مغفرة المؤمنات؛ لأنهن تبع لهم في الأحكام، وللإيذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة، جيء بضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ وفي الحديث: «من عمم بدعائه المؤمنين والمؤمنات استجيب له». فمن السنة أن لا يخص نفسه بالدعاء قال في «الأسرار المحمدية»: اعلم أنه يكره للإمام تخصيص نفسه بالدعاء بأن يذكر على صيغة الإفراد، لا على صيغة الجمع. قال رسول الله ﷺ: «لا يؤم عبد قوماً، فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فإن فعل فقد خانهم»، رواه ثوبان. بل الأولى أيضاً إن كان منفرداً أن يأتي بصيغة الجمع، فينوي نفسه وآباءه وأمهاته وأولاده وإخوانه وأصدقاءه المؤمنين الصالحين، فيعممهم بالدعاء، وينالهم بركة دعائه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾؛ أي: يوم[٣] يبدو ويظهر فيه محاسبة أعمال المكلفين. وقيل: يوم يقوم الناس فيه للمحاسبة والمجازاة على أعمالهم، فاكتفى بذلك؛ أي: بذكر الحساب عن ذكر الناس، لكونه مفهوماً عند السامع، والأول أولى وهذا دعاء المؤمنين بالمغفرة، والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام، ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة.

والمعنى[٤]: أي ربنا اغفر لي ما فرط مني من الذنوب ولأبوي. وقد روي عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة، واستغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه، فلما

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. . الآية. وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك يوم تحاسب عبادك، فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ[1] ابن مسعود والنخعي والزهري وابن يعمر: ﴿ولولَدي﴾ - بغير ألف وبفتح اللام - يعني: إسماعيل وإسحاق يدل عليه ذكرهما قبل ذلك، وأنكر عاصم الجحدري هذه القراءة، وقال: إن في مصحف أبي بن كعب ﴿ولأبوي﴾. وقرأ عاصم الجحدري: ﴿ولوُلْدي﴾ - بضم الواو وسكون اللام - فاحتمل أن يكون جمع ولد، كأُسد في أسد، ويكون قد دعا لذريته، وأن يكون لغة في الولد، كما قالوا: العَدَم والعُدْم. وقرأ مجاهد وابن جبير: ﴿ولوالدي﴾ - بإسكان الياء - على إرادة الأب وحده، كقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾. وقرأ يحيى بن يعمر والجوني: ﴿ولولدَي﴾ بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد، وما عدا قراءة الجمهور شاذ وليس بمتواتر.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التعجبي. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وهو من رؤية البصر، عداه بـ﴿إِلَى﴾ تضميناً له بمعنى النظر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول؛ أي: هل رأيت عجباً مثل هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً. ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَّلُوا۟﴾. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أحلوا﴾. ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطف بيان من ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب

(١) زاد المسير والبحر المحيط.

حال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾، أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾، أو من الـ﴿دَارَ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: فعل وفاعل، وهو لإنشاء الذم، والمخصوص محذوف وجوباً تقديره: هي؛ أي: ﴿جَهَنَّمُ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

﴿وَجَعَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَّلُواْ﴾ فهو من جملة الصلة المتعجب منها. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَندَادًا﴾. ﴿أَندَادًا﴾: مفعول ثان لجعل، والأول محذوف تقديره: وجعلوا الأصنام أنداداً لله. ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يضلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾: متعلق بـ﴿يضلوا﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلوا﴾، والتقدير: وجعلوا لله أنداداً لإضلالهم الناس عن سبيله. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿تَمَتَّعُواْ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): تعليلية؛ لتعليلها القلة المفهومة من ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿مَصِيرَكُمْ﴾: اسمها. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّعِبَادِيَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قُل﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة ﴿لِّعِبَادِيَ﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم في جواب الطلب لفعل محذوف واقع مفعولاً لـ﴿قُل﴾ تقديره: قل لعبادي أقيموا الصلاة.. يقيموا؛ أي: إن قلت لهم: أقيموا الصلاة.. يقيموا. ﴿وَيُنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُقِيمُواْ﴾، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ...﴾ إلخ. مفعول ﴿قُل﴾

محذوف يدل عليه جوابه؛ أي: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا، وقوله: ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ مجزومان في جواب الأمر؛ أي: إن قلت لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.. الخ: يقيموا وينفقوا. اهـ. شيخنا. وفي «البيضاوي»: ويجوز أن يقدرا بلام الأمر؛ ليصح تعلق القول بهما. اهـ؛ أي: ليقيموا الصلاة ولينفقوا. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينفقوا﴾. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إياه. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: منصوبان على المفعولية المطلقة؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو على الحالية من فاعل ﴿ينفقوا﴾؛ أي: مسرين ومعلنين، أو على الظرفية؛ أي: وقتي سر وعلانية. ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينفقوا﴾. ﴿أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالإضافة، والتقدير: وينفقوا من قبل إتيان يوم. ﴿لَّا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿بَيْعٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر لا؛ أي: لا بيع موجوداً فيه. ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ معطوف على ﴿بَيْعٌ﴾، وجملة ﴿لَّا﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول ومعطوف، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ﴿أنزل﴾. ﴿فَأَخْرَجَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أخرج﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة معطوفة على ﴿أنزل﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أخرج﴾. ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رِزْقًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾: مفعولُ ﴿أخرج﴾. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رِزْقًا﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿سخر﴾. ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مفعول ﴿سخر﴾. ﴿لِتَجْرِيَ﴾: (اللام): لام كي، ﴿تجري﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾. ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿تجري﴾. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تجري﴾؛ أي: حالة كونها متلبسة بأمره، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لجريانها في البحر بأمره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سخر﴾. ﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾: مفعول به.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: مفعولان لـ﴿سخر﴾. ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: حال من ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. ﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: مفعولان لـ﴿سخر﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: فعل ومفعول أول معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِّن﴾: حرف جر وتبعيض، أو زائد في المفعول الثاني. ﴿كُلِّ﴾: مجرور بـ﴿مِّن﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿آتاكم﴾، والمفعول الثاني محذوف تقديره: وآتاكم شيئاً من كل ما سألتموه. ﴿كُلِّ﴾: مضاف. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والضمير فيه عائد إلى الله تعالى، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره ما

سألتموه تعالى إياه، والمصدر المؤول من الفعل على كون ﴿ما﴾ مصدرية هو المفعول الثاني لـ﴿آتاكم﴾ تقديره: وآتاكم مسؤولكم. ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾: جازم وفعل وفاعل. ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَظَلُومٌ﴾: (اللام): حرف ابتداء، ﴿ظلوم﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿كَفَّارٌ﴾: صفته، أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد إذ قال؛ أي: قصة إذ قال إبراهيم. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾: فعل دعاء، ومفعول أول. ﴿ٱلْبَلَدَ﴾: بدل من إسم الإشارة، أو عطف بيان منه، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ءَامِنًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب للنداء. ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿وَبَنِيَّ﴾: معطوف على ياء المتكلم، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجْعَلْ﴾. ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم وذريته، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: من عبادتنا الأصنام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿اجنبني﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُنَّ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَمَن﴾: (الفاء): تفصيلية.

﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿تَبِعَنِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنِّى﴾: جار ومجرور خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَنْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب. ﴿عَصَانِى﴾: فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لـ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّكَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿غَفُورٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط محذوف تقديره: رحيم له، وجملة ﴿من﴾: الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَسْكَنتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾: جار ومجرور متعلق به، و﴿من﴾ تبعيضية، والمفعول محذوف، والتقدير: ذرية بعض ذريتي، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِوَادٍ﴾: متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾: صفة ومضاف إليه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾: صفة للبيت. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف مؤكد للنداء الأول. ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإقامتهم الصلاة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾. ﴿فَٱجْعَلْ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿اجعل﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿أَفْـِٔدَةً﴾: مفعول أول لجعل. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: صفة

لـ﴿أَفْئِدَةً﴾. ﴿تَهْوِىٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَفْئِدَةً﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَهْوِىٓ﴾: وجملة ﴿تَهْوِىٓ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أجعل﴾، وجملة ﴿اجعل﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ مع كونها جواب النداء. ﴿وَٱرْزُقْهُم﴾: فعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اجعل﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَشْكُرُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَا﴾: في محل النصب مفعول ﴿تَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿نُخْفِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبراهيم﴾ وسائر العباد، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما نخفيه. ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾: معطوف على ﴿مَا نُخْفِى﴾، ﴿وَمَا﴾: (الواو): اعتراضية، أو عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿مِن شَىْءٍ﴾: فاعل ﴿يَخْفَىٰ﴾، و﴿من﴾: زائدة. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾، أو متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوف على ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب إن قلنا: إنها من كلام الله؛ لاعتراضها بين كلامي إبراهيم، أو في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ إن قلنا: إنها من كلام إبراهيم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة. ﴿وَهَبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَهَبَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾: جار ومجرور حال من ياء المتكلم، و﴿عَلَى﴾ بمعنى: مع، التقدير: وهب لي حالة كوني مصاحباً بالكبر. ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾: مفعول ﴿وَهَبَ﴾. ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: خبره ومضاف إليه، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: فعل ومفعولان ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: جار ومجرور صفة لمحذوف معطوف على المفعول الأول لجعل، والتقدير: رب اجعلني وبعضاً من ذريتي مقيم الصلاة. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَتَقَبَّلْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿دُعَآءِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والجملة الفعلية معطوفة على مقدر تقديره: ربنا فاسمع ندائي وتقبل دعائي، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾. ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ﴿لِي﴾. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾. ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: الهلاك، يقال: رجل بائر وقوم بور، كما قال: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ ومنه قول الشاعر:

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ غَدَاةَ ٱلْحَرْبِ إِذْ خِيفَ ٱلْبَوَارُ

وفي «المصباح»: بار الشيء يبور بوراً - بالضم - هلك، وبار الشيء بواراً إذا كسد.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يقاسون حرها، يقال: صلى النار صلياً قاسى حرها كتصلاها، والمرادَ بيصلونها: الدخول مع المقاساة لشدة حرها، وإلا فمطلق الدخول قد استفيد من قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾. وفي «المصباح»: صلى الله بالنار، وصليها، صلى - من باب تعب -: وجد حرها، والصِّلاء - وزان كتاب -: حر النار، وصليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته. اهـ.

﴿أَندَادًا﴾ والأنداد: الشركاء جمع ند، وهو المثل الشبيه.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾؛ أي: مرجعكم ومردكم، والمصير: مصدر[1] صار التامة بمعنى: رجع. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ اسما مصدر لأسر وأعلن الرباعيين.

﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ أي: فدية. ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ الخلال: المخالة والصداقة، وفي «القرطبي» الخلال[2]: جمع خلة كقلة وقلال. قال الشاعر:

فَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ ٱلْخِلَالِ وَلاَ قَالِيْ

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السماء: السحاب، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء، مشتق من السمو؛ وهو الارتفاع، وسمي السحاب سماء لارتفاعه.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جمع ثمر، والثمر: اسم يقع على ما يحصل من الشجر، وقد يقع على الزرع أيضاً بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) القرطبي.

﴿رِزْقًا﴾ والرزق: كل ما ينتفع به مأكولاً كان أو مشروباً أو غيرهما. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ التسخير: التيسير والإعداد، والفلك: السفن.

﴿دَآئِبَيْنِ﴾: الدأب: العادة المستمرة دائماً على حالة واحدة، ودأب في السير إذا داوم عليه، ودأب في العمل إذا سار فيه على عادة مطردة، كما قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾. وفي «المختار»: دأب في عمله جد وتعب، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لا غير، والدائبان: الليل والنهار، والدأب ـ بسكون الهمزة ـ العادة والشأن وقد يحرك. اهـ. وفي «القاموس»: دأب في عمله ـ كمنع ـ دأباً، ويحرك ودؤوباً بالضم جد وتعب. اهـ.

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: أعطاكم. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تطيقوا إحصاءها وحصرها من أحصى الرباعي، والإحصاء: العد بالحصى، وكان العرب يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع.

﴿ظلوم﴾؛ أي: كثير الظلم لنفسه بإغفال شكر النعمة. ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: شديد الكفران والجحود لها.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ يقال: جنبته كنصرته وأجنبته وجنبته؛ أي: أبعدته، والمعنى: بعدني وإياهم. وفي «الفتوحات» يقال[1]: جنبه شراً وأجنبه إياه ثلاثياً ورباعياً: وهي لغة نجد، وجنَّبه إياه مشدداً: وهي لغة الحجاز وهو المنع، وأصله من الجانب، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره، ثم استعمل في البعد مطلقاً. وقال الراغب: وقوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ من جنبته عن كذا؛ أي: أبعدته منه. وقيل: من جنبت الفرس كأنه سأله أن يبعده عن جانب الشرك بإلطاف منه وأسباب خفية، وأن نعبد على حذف حرف الجر؛ أي: عن أن نعبد. اهـ. «سمين». وفي «القاموس»: والجنب: محركة أن يجنب فرساً إلى فرسه في السباق، فإذا فاز المركوب تحول إلى المجنوب. اهـ.

وفي «المصباح»: وجنبت الرجل الشر جنوباً ـ من باب قعد ـ أبعدته عنه،

---

(١) الفتوحات.

وجنبته بالتثقيل مبالغة. ا هـ. وفي «المختار»: وجنبه الشيء ـ من باب نصر ـ وجنبه الشيء تجنيباً بمعنى؛ أي: نحاه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. ا هـ. ﴿وَبَنِىَّ﴾ أصله: وبنين لي، حذفت النون للإضافة واللام للتخفيف، فأدغمت يا علامة الإعراب في ياء المتكلم.

﴿بِوَادٍ﴾؛ أي: في وادٍ، والوادي: المنخفض بين الجبلين. ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ أي: لا يصلح للإنبات؛ لأنه أرض حجرية لا تنبت شيئاً.

﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأفئدة[1]: جمع فؤاد، وهو القلب عبر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه، وقيل: هو جمع وفد، والأصل: أوفدة فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء، فكأنه قال: واجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم.

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تسرع شوقاً وحباً إليهم. قال الأصمعي: يقال[2]: هوى يهوي ـ من باب رمى ـ هوياً إذا سقط من عُلوٍ إلى سُفلٍ. وقال الفراء: تهوي إليهم تريدهم، كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك، معناه يريدك. وقال أيضاً: تهوي: تسرع إليهم. وقال ابن الأنباري: معناه: تنحط إليهم وتنحدر وتنزل، هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف. وأما أقوال المفسرين فيه، فقد تقدمت في مبحث التفسير.

﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك، وإضافة[3] السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميعٌ الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا رحيم أباه. وفي «البيضاوي»: وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله، أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز، وهذا الأخير بعيدٌ جداً. قال أبو حيان: والظاهر[4] إضافة سميع إلى المفعول، وهو من إضافة المثال الذي على وزن فعيل إلى المفعول، فيكون إضافة من نصب، ويكون

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) البحر المحيط.

ذلك حجة على إعمال فعيل الذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب إليه سيبويه. وقد خالف في ذلك جمهور البصريين، وخالف الكوفيون فيه، وفي إعمال باقي الخمسة الأمثلة فعول وفعال ومفعال وفعل، وهذا مذكور في علم النحو، ويمكن أن يقال في هذا: ليس ذلك إضافة من نصب، فيلزم جواز إعماله، بل هي إضافة كإضافة اسم الفاعل في نحو: هذا ضارب زيد أمس.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟﴾ فإنه تعجيب[1] لرسول الله ﷺ ولكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له أدنى إدراك.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شكر نعمة الله.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، لأنه أسند[2] الإحلال وهو فعل الله إلى أكابرهم؛ لأن سببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم إياهم بالكفر.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ لأنه ليس الإضلال غرضاً حقيقياً لهم من اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان نتيجة له كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء، شبه بالغرض وأدخل اللام عليه بطريق الاستعارة التبعية، ونسب الإضلال الذي هو فعل الله تعالى إليهم؛ لأنهم سبب الضلالة حيث يأمرون بها ويدعون إليها.

ومنها: التهديد والوعيد لأولئك الضالين المضلين في قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) أبو السعود.

(٢) روح البيان.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى شرف عباده بهذه الياء، وهي خير لهم من الدنيا وما فيها؛ لأن فيها إضافة إلى نفسه، والإضافة تدل على العتق.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ في أربعة مواضع.

ومنها: الاستغراق المفاد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المفرد المضاف يفيد الاستغراق.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ لأن فعول وفعال من صيغ المبالغة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمناً أهله؛ لأن إسناد الأمن إلى البلد مجاز لوقوع الأمن فيه، وإنما الآمن في الحقيقة أهل البلد.

ومنها: جمع الأصنام في قوله: ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ليشتمل على كل صنم عبد من دون الله؛ لأن الجمع المعرف باللام يشمل كل واحد من الأفراد كالمفرد باتفاق جمهور أئمة التفسير والأصول والنحو.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾؛ لأن[1] نسبة الإضلال إليها مجاز من باب نسبة الشيء إلى سببه. ا هـ. «كرخي»؛ أي: فهذا مجاز؛ لأن الأصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيئاً حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الضلال بعبادتها أضيف إليها، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم، وإنما فتنوا وغروا بسببها. ا هـ. «خازن».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تَبِعَنِي﴾ و﴿عَصَانِي﴾. وفي ﴿نُخْفِي﴾ و﴿نُعْلِنُ﴾. وفي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ وفي قوله: ﴿رَبِّ﴾ لتأكيد الكلام.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾. قال[1] الشريف الرضي: وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوي: النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط، والمراد: تسرع إليهم شوقاً، وتطير إليهم حباً، ولو قال: تحنّ إليهم. لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾؛ أي: يوم[2] يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ ﴿يَقُومُ﴾ الذي هو حقيقة في قيام الرجل، للدلالة على أنه في غاية الاستقامة، كما يقال: قامت الحرب على ساق.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن قلنا: إنه من كلام الله معترض بين كلامي إبراهيم؛ لأن حق العبارة حينئذٍ أن يقال: وما يخفى علي من شيء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تلخيص البيان.

(٢) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين.. ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديداً للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس بإهمال للعقوبة، ولا لغفلة عن حالهم، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك، وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف ما بين بعد، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله، وأنهم في ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعي، وهيهات هيهات.

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ   رَدَّ فِيْ ٱلضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ ٱلْحِلَابِ

وقد كان لكم معتبر في تلك المساكن التي تسكنونها، فإنها كانت لقوم أمثالكم كفروا بأنعم الله، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ألا إن وعد الله لرسله لا

يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ ومحاسبهم في يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار، وترى حال المجرمين يجل عن الوصف، وهذا الذي قصصته عليكم تبليغ وإنذار؛ ليتذكر به ذوو العقول الراجحة، وليعلموا أن الله واحد لا شريك له.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ولا تظنن الله سبحانه وتعالى يا محمد أو أيها المخاطب ﴿غَٰفِلًا﴾؛ أي: ساهياً ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ من ظلمهم، فلا ينتقم منهم، والظالمون أهل مكة وغيرهم من كل أهل شرك وظلم، وهو خطاب لرسول الله ﷺ، **والمعنى**: دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلاً عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما يستحقونه من العذاب الأليم. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ قرىء بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان، وكذا يقال: في قوله الآتي: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾. ا هـ. شيخنا. والغفلة[1]: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور. وقيل: حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، وهذا في حق الله محال، فلا بدّ من تأويل الآية، فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم، ففيه وعيد وتهديد للظالم، وإعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه، بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً. قال سفيان بن عيينة: فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

فإن قلت: تعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ غافلاً وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلاً حتى قيل له: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾؟

قلتُ: إذا كان المخاطب به رسول الله ﷺ، ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، فهو

(١) الخازن.

كقوله: ﴿فلا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلها آخر﴾ وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾؛ أي: اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان.

الوجه الثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً: الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شيء، وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم.

والمعنى: ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم، ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم، والمحاسب لهم على الصغير والكبير، والنقير والقطمير. وفي الآية وعيد عظيم للظالمين وتسلية للمظلومين، وإن كان المخاطب غير النبي ﷺ فلا إشكال فيه ولا سؤال؛ لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله، فمن جوز أن يحسبه غافلاً فلجهله بصفاته.

والخلاصة على الوجه الأول: ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون؛ أي[1]: تاركاً عقوبة المشركين بما عملوا، والمراد تثبته ﷺ على ما كان عليه من أنه ﷺ لا يحسب الله غافلاً، والمقصود: تنبيهه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم.. للزم عليه تعالى أحد الأمور الثلاثة: إما أن يكون غافلاً عن ذلك الظالم، أو عاجزاً عن الانتقام، أو راضياً بذلك الظلم، وكل ذلك محال عليه تعالى، فامتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم.

ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم، وفيه من الهول ما يحير اللب واللبيب، ويدهش العقل والعقيل، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: إنما يمهلهم بلا عذاب الاستئصال، ويمتعهم بكثير من لذات الحياة، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ﴾؛ أي: إلى يوم شديد الهول ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، وتبقى مفتوحة لا تطرف ولا تتحرك أجفانهم من الفزع والاضطراب والدهشة؛ أي: أعينهم مفتوحة لا تتحرك[2] أجفانهم من هول ما يرونه، يعني أن تأخيره للتشديد والتغليظ، لا للغفلة عن أعمالهم ولا لإهمالهم،

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

ومعنى شخوص البصر حدّة النظر، وعدم استقراره في مكانه، واللام في قوله: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ تعليل للنهي؛ أي: لا يؤخر عذابهم إلا لأجل يوم هائل. وقيل: بمعنى إلى التي للغاية. وقرأ طلحة بن مصرف شذوذاً[1]: ﴿ولا تحسب﴾ بغير نون التوكيد، وكذا: ﴿فلا تحسب الله مخلف وعده رسله﴾. وقرأ عبد الرحمٰن السلمي والحسن والأعرج والمفضل عن عاصم وعباس بن الفضل وهارون العتكي ويونس بن حبيب عن أبي عمرو شذوذاً أيضاً: ﴿نؤخرهم﴾ بنون العظمة، والجمهور بالياء؛ أي: إنما يؤخرهم الله سبحانه وتعالى، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ حال مقدرة من مفعول ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾؛ أي: يؤخرهم إلى يوم تشخص فيه الأبصار حالة كونهم مهطعين في ذلك اليوم؛ أي: مسرعين إلى الداعي وإجابته ومقبلين عليه بالخوف والذل والخضوع، كإسراع الأسير والخائف والداعي للخلائق هو إسرافيل حيث يدعو إلى الحشر. وعبارة المحلي في سورة ق: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يا مخاطب ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ وهو إسرافيل ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ من السماء، وهو صخرة بيت المقدس أقرب موضع من الأرض إلى السماء يقول: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة: إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ا هـ. وحالة كونهم ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أي: رافعيها إلى السماء مع إدامة النظر إليها من غير التفات إلى شيء ولا ينظر أحد إلى أحد ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾؛ أي: لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا في كل لحظة، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف؛ أي: لا تضم من شدة الفزع والخوف. وقال في «الكواشي»: أصل الطرف تحريك الجفون في النظر، ثم سميت العين طرفاً مجازاً.

والمعنى: أنهم لا يلتفتون ولا ينظرون مواقع أقدامهم لما بهم من الدهشة انتهى. ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾؛ أي: قلوبهم ﴿هَوَآءٞ﴾؛ أي: صفر خالية من العقل والفهم؛ لفرط الحيرة والدهش، كأنها نفس الهواء الخالي عن كل شاغل، والهواء[2]: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جباناً

---

(١) البحر المحيط. (٢) النسفي.

لا قوة في قلبه ولا جراءة. وقيل: جوف لا عقول لهم.

ومعنى الآية[1]: إن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف. وفي «الكواشي»: تلخيصه: الأبصار شاخصة، والرؤوس مقنعة، والقلوب فارغة زائلة لهول ذلك اليوم، ثبتنا الله وإياكم فيه، والآية تسلية لرسول الله ﷺ، وتعزية للمظلوم، وتهديد للظالم، وحصول هذه الصفات الخمسة عند المحاسبة.

ثم ذكر مقالتهم حين يرون هذا الهول وما فيه من العذاب، فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: خوف الناس جميعاً يا محمد ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: خوفهم من عذاب يوم يأتيهم العذاب؛ أي: خوفهم هذا اليوم، وهو يوم القيامة؛ لأنه يوم إتيان العذاب، وإنما[2] اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب؛ لأن المقام مقام تهديد. وقيل: المراد به يوم موتهم، فإنه أول أوقات إتيان العذاب حيث يعذبون بالسكرات. وقيل: المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، والأول أولى، وهذا الإنذار للكفرة أصالة، وللمؤمنين تبعية، وإن لم يكونوا معذبين، وانتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على أنه مفعول ثان لـ﴿وَأَنذِرِ﴾. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ منهم بالشرك والتكذيب. قيل: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هنا هم الناس المذكورون؛ أي: فيقولون، والعدول من الإضمار إلى الإظهار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار، وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم؛ وهم الكفار. ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ردنا إلى الدنيا و﴿أَخِّرْنَآ﴾؛ أي: أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد. قال بعضهم: لعل في التركيب تضميناً كما أشرنا إليه، والتقدير: ردنا إلى ذي أجل قريب؛ أي: قليل وهو الدنيا مؤخّراً عذابنا، أو المعنى: أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك. وقوله: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ جواب الأمر؛ أي: إن أخرتنا نجب دعوتك لعبادك على ألسنة رسلك إلى توحيدك وطاعتك. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ المرسلين منك إلينا، فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل؛

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عندما قالوا هذه المقالة، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾، فالهمزة فيه للاستفهام التقريري التوبيخي التبكيتي داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، ويكون ذلك المحذوف على ما عطف عليه مقولاً لقول محذوف، والتقدير: فيقال[1] لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تؤخروا في الدنيا، ولم تكونوا أقسمتم من قبل؛ أي: من قبل هذا اليوم؛ أي: حلفتم إذ ذاك بألسنتكم تكبراً وغروراً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: ما لكم انتقال من دار الدنيا وارتحال منها إلى دار أخرى للمجازاة إنكاراً للبعث والنشور، أو بألسنة حالكم حيث استغرقتم في الشهوات وأخلدتم إلى الحياة الدنيا، وأملتم بعيداً ولم تحدثوا بأنفسكم بالانتقال عن هذه الحال، فكأنكم لا تموتون. وجواب القسم جملة قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وإنما[2] جاء بلفظ الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لمراعاة ﴿أَقْسَمْتُم﴾، ولولا ذلك لقال: ما لنا من زوال. وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

وجملة قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ...﴾ إلخ. معطوف على ﴿أَقْسَمْتُم﴾؛ أي: أولم تكونوا أقسمتم وسكنتم؛ أي: استقررتم ونزلتم ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ﴾؛ أي: منازل الذين ﴿ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والمعاصي، كعاد وثمود وغيرهما غير محدثين لأنفسكم بما لقوا من العذاب بسبب ما اكتسبوا من السيئات ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: وظهر لكم بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد. وفاعل ﴿تبيّن﴾ ما دلت عليه الجملة

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

المذكورة بعده؛ أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم، وليست[1] جملة ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ فاعلاً لـ﴿تبين﴾؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، ولأن ﴿كَيْفَ﴾ لا يكون إلا ظرفاً أو خبراً أو حالاً، بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة؛ أي: وظهر لكم فعلنا العجيب بهم من الإهلاك والعقوبة جزاء على شركهم وفسادهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾؛ أي: وبينا لكم في القرآن العظيم ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم، وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عما كنتم عليه من الكفر والمعاصي يعني: أنكم سمعتم هذا كله في الدنيا، فلم تعتبروا، فلو رجعتم بعد هذا اليوم.. لا ينفعكم الموعظة أيضاً.

والمعنى[2]: وأقمتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم واطمأننتم فيها، وسرتم سيرة من قبلكم في الظلم والفساد، لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم، ولم تعتبروا بأيام الله فيهم، وأنه أهلكهم بظلمهم، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم بعد أن تبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعاينة آثارهم وتواتر أخبارهم، ومثلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر، فلم ترعووا ولم تتوبوا من كفركم.

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل، فهيهات هيهات قد فات ما فات، ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل في سم الخياط. وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ فعلاً ماضياً، وفاعله ضمير يعود على ما يفهم من الجملة الاستفهامية المذكورة بعده؛ أي: وتبين لكم فعلنا العجيب. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿ونُبَيِّنُ﴾ بضم النون ورفع النون الأخيرة مضارع بين، ويكون على إضمار ونحن نبين، والجملة حالية. وقال المهدوي عن السلمي أنه قرأ كذلك إلا أنه جزم النون عطفاً على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾؛ أي: ولم نبين فهو مشارك له في التقرير.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

فائدة: واعلم أنه ينبغي للمؤمن أن يكثر ذكر الموت، فإنه لا غنية للمؤمن عن ست خصال[1]:

أولاها: علم يدله على الآخرة.

والثانية: رفيق يعينه على طاعة الله، ويمنعه عن معصية الله.

والثالثة: معرفة عدوه والحذر منه.

والرابعة: عبرة يعتبر بها.

والخامسة: إنصاف الخلق؛ لكيلا تكون له يوم القيامة خصماء.

والسادسة: الاستعداد للموت قبل نزوله؛ لكيلا يكون مفتضحاً يوم القيامة.

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القذة بالقذة، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الجملة في محل النصب على الحال؛ أي: فعلنا بالذين ظلموا ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حدّ محدود بحيث لا يقدر عليهم غيرهم، والمكر: الخديعة. ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: وعند[2] الله جزاء مكرهم الذي فعلوه، أو: وعند الله مكتوب مكرهم، فهو مجازيهم، أو عند الله مكرهم الذين يمكرهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول. قيل: المراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه. وقيل: والمراد ما وقع من النمروذ حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً، وربط قوائمه بأربعة نسور.

والخلاصة[3]: عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه فرأيهم آفن؛ إذ هم سلكوا طريقاً كان ينبغي البعد عنها بعد أن استبان فسادها.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران والبوار، فقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ ﴿إن﴾: نافية ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ واللام: فيه مكسورة، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة، وهي لام الجحود الواقعة بعد الكون المنفي على قراءة الجمهور. قال ابن جرير: الاختيار قراءة الجمهور؛ أي: وما[1] كان مكرهم لتزول به آيات الله وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات.

والخلاصة: تحقير شأن مكرهم، وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات الثابتة ثبوت الجبال، فليس بمزيل شيئاً منها مهما قوي، وكان غاية في المتانة والعظم. وقيل: ﴿إنّ﴾. ﴿إن﴾ زائدة، واللام: لام الابتداء مفتوحة، والفعل بعدها مرفوع.

والمعنى[2]: وكان مكرهم في العظم والشدة لتزول وتتحرك منه الجبال الظاهرة؛ أي: مسوى لإزالة الجبال عن مقارها معداً لذلك. قال في «الإرشاد»؛ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدة، وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعداً لذلك؛ لكونه مثلاً في ذلك. وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون. وقرأ عمر وعلي وعبد الله وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن علي شذوذاً: ﴿وإن كاد﴾ بالدال بدل النون ﴿لِتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية. وروي كذلك عن ابن عباس. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن وثاب والكسائي كذلك إلا أنهم قرؤوا ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون فعلى هاتين القراءتين تكون إن هي المخففة من الثقيلة، و(اللام): هي الفارقة، وذلك على مذهب البصريين. وأما على مذهب الكوفيين فـ﴿إن﴾ نافية، واللام بمعنى إلا، فمن قرأ: ﴿كاد﴾ ـ بالدال ـ فالمعنى أنه يقرب زوال الجبال بمكرهم ولا يقع الزوال. وعلى قراءة ﴿كَانَ﴾ ـ بالنون ـ يكون زوال الجبال قد وقع، ويكون في ذلك تعظيم مكرهم وشدته، وهو بحيث يزول منه الجبال وتتقطع عن أماكنها، ويحتمل أن يكون معنى ﴿لِتَزُولَ﴾: ليقرب زوالها، فيصير المعنى، كمعنى قراءة كاد، ويؤيد هذا التأويل

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

ما ذكره أبو حاتم من أن في قراءة أبيّ: ﴿ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال﴾. وينبغي أن تحمل هذه القراءة على التفسير لمخالفتها لسواد المصحف المجمع عليه. وقرأ الجمهور باقي السبعة: ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون، ﴿مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾ ـ بكسر اللام الأولى ونصب الأخيرة ـ. ورويت هذه القراءة عن علي أيضاً، وعلى هذه القراءة تكون ﴿إن﴾ نافية و(اللام): المكسورة؛ لتأكيد النفي، والمعنى: ومحال[1] أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر. فالجملة على هذا المعنى حال من الضمير في ﴿مَكَرُوا۟﴾ لا من قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: مكروا، والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال. وأما على[2] قراءة الكسائي ومن معه: ﴿لَتزول﴾ ـ بفتح اللام الفارقة ورفع الفعل ـ فالجملة حينئذ حال من قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: وعند الله المكر بهم، والحال أن مكرهم في غاية القوة بحيث تزول منه الجبال.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بتعذيب الظالمين ونصر المؤمنين؛ أي: ما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وأصله[3]: مخلف رسله وعده، وقدم المفعول الثاني إعلاماً بأن لا يخلف وعده أحداً، فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه، والوعد: عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها، والمعنى: دم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا. وهذه الجملة تفريع[4] على قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فكأنه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا، وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعدما وعدنا رسلهم بإهلاكهم، فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا: فـ﴿مُخْلِفَ﴾: إما متعد لاثنين

---

(1) الشوكاني.
(2) المراح.
(3) روح البيان.
(4) المراح.

مضاف لمفعوله الثاني؛ وإما متعد لواحد مضاف لمفعوله، و﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ مفعول لـ﴿وَعۡدِهِۦ﴾.

وقرىء شاذاً[1]: ﴿مخلف وعدَه رسلِه﴾ بجر رسله ونصب وعده. قال الزمخشري: وهذه القراءة في الضعف كقراءة من قرأ: ﴿قتل أولادهم شركائهم﴾ لما فيها من الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وتقدم الكلام عليها مشبعاً في سورة الأنعام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يماكر ولا يغالبه أحد ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم لأوليائه من أعدائه، وفي «القاموس»: انتقم منه إذا عاقبه، والجملة تعليل للنهي.

والمعنى[2]: أن الله سبحانه وتعالى عزيز؛ أي: غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته قادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه، وهو ذو انتقام ممن كفر برسله وكذبهم وجحد بنبوتهم وأشرك به، واتخذ معه إلٰهاً غيره، ثم ذكر زمان الانتقام، فقال: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾؛ أي: إنه تعالى ذو انتقام من أعدائه، يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر، ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك، وتبدل السماوات غير السماوات بانتشار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها وخسوف قمرها، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، وإنما قدم تبديل الأرض لقربها هنا، ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة إلينا اهـ «كرخي». وقرىء شاذاً: ﴿نبدل﴾ بالنون، ﴿الأرض﴾ بالنصب، ﴿والسماوات﴾ معطوف على الأرض. وعلى هذا التفسير فالظرف متعلق بـ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، ويحتمل أن يكون متعلقاً باذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد ﷺ لأمتك قصة يوم تبدل هذه الأرض المعروفة أرضاً أخرى غير معروفة، وتبدل السماوات غير السماوات، ويكون الحشر وقت التبديل عند الظلمة دون الجسر، أو يكون الناس على صراط.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط».

وروي عن ابن مسعود وأنس ـ رضي الله عنهما ـ من قولهما: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة، ولا بدع في أن تكون أرضاً جديدة لم يسكنها أحد، بل تخلق خلقاً جديداً.

وفي «الخازن»: ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين[1]:

أحدهما: أنه تبدل صفة الأرض والسماء، لا ذواتهما. فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها: وهو أن تدكدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب وتمد مد الأديم. وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها، ويكوران، وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل، وبهذا القول قال جماعة من العلماء، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لأحد». أخرجاه في «الصحيحين». العفراء ـ بالعين المهملة ـ البيضاء إلى حمرة. ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة، كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة. وقوله: ليس بها علم لأحد يعني: ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها، فلا يبقى فيها أثر يستدل به.

والقول الثاني: هو تبديل ذوات الأرض والسماء، وهذا قول جماعة من العلماء، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل. فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية، لم يسفك بها دم، ولم يعمل عليها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الأرض من فضة والسماء من ذهب.

---

(١) الخازن.

وقال أبي بن كعب في معنى التبديل بأن تصير الأرض نيراناً والسماء جنانا. وقال أبو هريرة وسعد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل من تحت قدميه. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار سبحانه بيده، كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة». أخرجاه في «الصحيحين» بزيادة فيه.

فإن قلت: إذا فسرت التبديل بما ذكرت، فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها؟

قلتُ: وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها، كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها، ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها، كما تقدم أيضاً، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط». أخرجه مسلم. وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر» ذكره البغوي بغير سند. ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه انتهى.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة يوم برز الخلائق وخرجوا جميعاً من قبورهم ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لحكم الله تعالى وقضائه، والوقوف بين يديه للحساب؛ أي: خرجوا من قبورهم للقاء الله. ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقرأ زيد بن علي شذوذاً: ﴿وبُرِّزوا﴾ - بضم الباء وكسر الراء مشددة - جعله مبنياً للمفعول على سبيل التكثير بالنسبة إلى العالم وكثرتهم لا بالنسبة إلى تكرير الفعل. ذكره في «البحر».

وعبر[١] عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه، كما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وفي[٢] هذا من تهويل الخطب ما لا يخفى؛ لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه في سلطانه كانوا على خطر، إذ لا منازع له ولا مغيث سواه، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار. وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهاراً بين عجز المجرمين وذلتهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: وتبصر يا محمد ﷺ، أو أيها المخاطب الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ برزوا لله الواحد القهار حالة كونهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾؛ أي: مشدودين في الأغلال والقيود؛ أي: حالة كون بعضهم يقرن مع بعض في الأصفاد بحسب مشاركتهم في العقائد الفاسدة، أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال والأصفاد ـ جمع صفد ـ القيود والأغلال، والجار والمجرور متعلق بـ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حال من ضميره.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال؛ أي: قمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل، وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. والقطران[٣]: هو عصارة الأبهل والأرز ونحوهما. وقال بعضهم: هو ما يتحلب من الأبهل، فيطبخ فتهناء به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدته، وقد تصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار، يعود طلاؤه لهم كالسرابيل، ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش، ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تعلو وجوههم وتضربها النار وتحيط بها، وخصّ الوجوه[٤] بالذكر مع أن ذلك يكون لسائر الجسم لأنها أشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

فهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات والجملة في محل نصب على الحال أيضاً.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يفعل ذلك بهم ليجزي سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقاً لعملها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان. قيل: يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك، فلا يشغله حساب عن حساب، فيوفى الجزاء بحسبه، ولا يظلمهم ولا يزيدهم على عقابهم الذي يستحقونه. وقرأ[1] علي وأبو هريرة وابن عباس وعكرمة وابن جبير وابن سيرين والحسن بخلاف عنه وسنان بن سلمة بن المخنق وزيد بن علي وقتادة وأبو صالح والكلبي وعيسى الهمذاني وعمرو بن فائد وعمرو بن عبيد ﴿من قَطِرٍ﴾ بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ﴿آنٍ﴾ بوزن عان، وهي قراءة شاذة وليست متواترة، وجعلوا كلمتين، والقطر: النحاس، والآني: اسن فاعل من أنى يأنى؛ أي: تناهى في الحرارة كقوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾. وقرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب: ﴿من قَطْران﴾ - بفتح القاف وإسكان الطاء - بزنة سكران وهي قراءة شاذة أيضاً. وقرأ الجمهور: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ بالنصب وقرىء بالرفع، فالأول على نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ فهو على حقيقة الغشيان، والثانية على التجوز جعل ورود الوجه على النار غشياناً. وقرىء: ﴿وتغشى وجوههم﴾ بمعنى تتغشى.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد ﷺ ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مبلغ[2] للناس إلى مراتب السعادة، وموصل لهم إليها، فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل. وقيل: المعنى ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد بما فيه من فنون العظات والقوارع ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: كفاية لهم في الموعظة والتذكير. قال في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

«القاموس»: البلاغ: كسحاب الكفاية. وقوله: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: معطوف على محذوف مع متعلقه تقديره: أنزل إليك ليبلغهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم، ولينذروا به؛ أي: وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره عما فيه هلاكهم وشقاؤهم ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بما فيه من الحجج والبراهين ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: معبود منفرد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له، فيعبدوه ولا يعبدوا إلٰهاً غيره من الدنيا والهوى والشيطان وما يعبدون من دون الله؛ أي: وليعلموا بما فيه ويستدلوا على وحدانية الله تعالى ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أصحاب العقول الكاملة، والأفهام الثاقبة، والعقائد الصحيحة، فهو عظة لمن اتعظ وعبرة لمن اعتبر. وقيل[1]: هذه اللامات متعلقة بـ﴿بَلَٰغٞ﴾؛ أي: هذا القرآن بلاغ للناس؛ أي: كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله تعالى فيه من الحجج والبراهين ووحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول التي تعقل وتدرك، وأسند التذكر والاتعاظ إلى من له لب؛ لأنهم هم الذين يجدي فيهم التذكر.

واعلم: أنه[2] سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي: الغاية والحكمة في إنزال الكتب، وتكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى. وقرأ[3] مجاهد وحميد شذوذاً: ﴿ولتنذروا به﴾ بتاء مضمومة وكسر الذال كأن البلاغ لعموم المخاطبين. وقرأ يحيى بن عمارة الذراع عن أبيه وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي: ﴿ولينذروا﴾ بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشيء إذا علم به، فاستعد له قالوا: ولم يعرف لهذا الفعل مصدر، فهو مثل عسى وغيره مما استعمل من الأفعال، ولم يعرف له أصل.

وناسب مختتم هذه السورة مفتتحها[4]، وكثيراً ما جاء في سور القرآن حتى إن بعضهم زعم أن قوله: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

وجملة ما هذه السورة من الموضوعات ثمانية:

١ ـ هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسماوات والأرض.

٢ ـ ذم الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا، ويصدون عن الدين القويم.

٣ ـ بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم؛ ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهي.

٤ ـ التذكير بأيام الله تعالى ببيان ما حدث للرسل مع أقوامهم؛ ليكون في ذلك تسلية لرسوله وما هدد به الأمم رسلهم من الإخراج والنفي من الديار.

٥ ـ وعيد الكافرين على كفرهم، وذكر ما يلقونه من العذاب، وضرب الأمثلة لذلك.

٦ ـ وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وضرب المثل لذلك.

٧ ـ دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام التي أضلت كثيراً من الناس، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب.

٨ ـ بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم إنما كان لحكمة اقتضت ذلك، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجل عنه الوصف.

الإعراب

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾: فعل ومفعولان في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿غَٰفِلًا﴾. ﴿يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما يعمله. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة

مستأنفة لتعليل ما قبلها. ﴿لِيَوْمٍ﴾ متعلق بـ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾. ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾: فعل وفاعل فيه متعلق بـ﴿تَشْخَصُ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾، ولكنها صفة سببية.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: حالان من المضاف المحذوف؛ إذ التقدير: أصحاب الأبصار، أو تكون[1] الأبصار دلت على أربابها، فجاءت الحال من المدلول عليه، ويجوز أن يكونا مفعولين لفعل محذوف تقديره: تراهم مهطعين مقنعي رؤوسهم، والإضافة في قوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ غير محضة؛ لأنه مستقبل أو حال. ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿طَرْفُهُمْ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿مُقْنِعِي﴾، أو بدل من ﴿مُقْنِعِي﴾، أو مستأنفة. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾، والعامل فيه[2] إما ﴿يَرْتَدُّ﴾، وإما ما قبله من العوامل، وأفرد ﴿هَوَاءٌ﴾ وإن كان خبراً عن جمع؛ لأنه في معنى فارغة، ولو لم يقصد ذلك.. لقيل: أهوية؛ ليطابق الخبر مبتدأه. اهـ. «سمين». ومعنى الآية: أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً، ولا تعقل من شدة الخوف.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ فـ﴿يَوْمَ﴾ مفعول ثان لـ﴿وَأَنْذِرِ﴾، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: أهوال يوم وشدائده، فهو مفعول به لا مفعول فيه؛ إذ لا إنذار في ذلك اليوم وإنما الإنذار يقع في الدنيا اهـ شيخنا. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿يَأْتِيهِمُ﴾. ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل صلة

---

(١) العكبري. (٢) الفتوحات.

الموصول. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول على كونه جواب النداء. ﴿أَخِّرْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخِّرْنَآ﴾. ﴿قَرِيبٍ﴾: صفة ﴿أَجَلٍ﴾. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الظالمين. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿نُّجِبْ﴾، وفاعله ضمير يعود على الظالمين.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف، ويكون ذلك المحذوف مع ما عطف عليه مقولاً لقول محذوف، فيقال لهم: ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم؟ ﴿لم تكونوا﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿أَقْسَمْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّن قَبْلُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تكون﴾، وجملة ﴿تكون﴾ في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً للقول المحذوف، وجملة القول المحذوف مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية حجازية، أو تميمية. ﴿لَكُم﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ مقدم. ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿زَوَالٍ﴾: اسمها مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقْسَمْتُم﴾. ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سكنتم﴾. ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿وَتَبَيَّنَ﴾: فعل ماض، وفاعله محذوف معلوم مما بعده تقديره: فعلنا بهم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقْسَمْتُم﴾، ولا يصح[1]

(١) الفتوحات.

أن يكون ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا﴾ فاعلاً لـ﴿تبين﴾؛ لأن الاستفهام له الصدارة، وقال بعض الكوفيين: إن جملة ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ هو الفاعل وهم يجيزون أن تكون الجملة فاعلاً. ﴿لَكُمُ﴾ متعلقان به ﴿كَيْفَ﴾: اسم ستفهام تعجيب في محل النصب على التشبيه بالمفعول به لـ﴿فَعَلْنَا﴾ مبني على الفتح. ﴿فَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَضَرَبْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَكْرَهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿مَكَرُوا۟﴾. ﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: نافية. ﴿كَانَ مَكْرُهُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِتَزُولَ﴾ (اللام): حرف جر وجحود. ﴿تزول﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: فاعل مرفوع، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وإن كان مكرهم لزوال الجبال منه، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره: وإن كان مكرهم صالحاً لزوال الجبال منه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَلَا﴾: (الفاء): تفريعية. ﴿لا تحسبن الله﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وما بينهما جمل معترضة. ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾: مفعول به لـ﴿وَعْدِهِۦ﴾؛ لأنه مصدر مضاف لفاعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: صفة لـ﴿عَزِيزٌ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد لأمتك قصة يوم تبدل الأرض، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾: مفعول ثان لـ﴿تُبَدَّلُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَبَرَزُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿تُبَدَّلُ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿برزوا﴾. ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾: صفة للجلالة. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾: صفة ثانية للجلالة، أو صفة لـ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: فعل ومفعول به؛ لأن ﴿ترى﴾ بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ترى﴾. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: متعلق به. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أو من ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿برزوا﴾، وما بينهما اعتراض، أو بمحذوف تقديره: فعلنا ذلك بهم للجزاء. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يجزي﴾. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نَفْسٍ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿بَلَٰغٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾: (الواو): عاطفة على محذوف تقديره: أنزل إليك هذا القرآن ليبلغهم إلى مراتب السعادة. و(اللام): حرف جر وتعليل. ﴿ينذروا﴾: فعل ونائب فاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: أنزل إليك لتبليغهم إلى مراتب السعادة ولإنذارهم به، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ (الواو): عاطفة. ﴿ليعلموا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يعلموا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولعلمهم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿هُوَ إِلَٰهٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة ﴿إِلَٰهٌ﴾، والجملة الاسمية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: وليعلموا كون المعبود إلٰهاً واحداً لا شريك له، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ (الواو): عاطفة. و(اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يذكر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ﴿يذكر﴾. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه منصوب بأن مضمرة، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولتذكر أولي الألباب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال الفراء: يقال: شخص الرجل بصره، وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى يشخص ـ من باب ذهب ـ شخوصاً إذا بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة.

﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى الداعي اسم فاعل[1] من أهطع الرباعي

(١) الشوكاني.

يهطع إهطاعاً إذا أسرع. وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع، ومنه قول الشاعر:

بِـدَجْـلَـةَ دَارُهُـمْ وَلَـقَـدْ أَرَاهُـمْ بِـدَجْـلَـةَ مُـهْـطِـعِـيْـنَ إِلَـىٰ ٱلـسَّـمَـاءِ

وقيل: المهطع الذي يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعاً يعني الإسراع مع إدامة النظر، وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسه. وقال ثعلب: المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع. وقيل: هو الساكت. قال النحاس: والمعروف في اللغة: أهطع إذا أسرع. وفي «المختار»: أهطع الرجل إذا مدّ عنقه وصوب رأسه، وأهطع في عدوه إذا أسرع.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء وإقناع الرأس رفعه وأقنع صوته إذا رفعه، والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نكسه. وقيل: يقال أقنع إذا رفع رأسه وأقنع إذا طأطأ ذلة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين. قال المبرد: والقول الأول أعرف في اللغة. قال الشاعر:

أَنْـغَـضَ نَـحْـوِيْ رَأْسَـهُ وَأَقْـنَـعَـا كَـأَنَّـمَـا أَبْـصَـرَ شَـيْـئَـاً أَطْـمَـعَـا

وفي «السمين»[1]: والإقناع: رفع الرأس وإدامة النظر من غير التفات إلى غيره. قاله القتبي. ا هـ. وفي «القاموس»: وأقنعه: أرضاه ورأسه نصبه ورفعه أولا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وجعل طرفه موازياً.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم، وأصل الطرف تحريك الأجفان، وسميت العين طرفاً؛ لأنه يكون بها، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة:

وَأَغُـضُّ طَـرْفِـيْ مَـا بَـدَتْ لِـيْ جَـارَتِـيْ حَـتَّـىٰ يُـوَارِيْ جَـارَتِـيْ مَـأْوَاهَـا

وفي «السمين»: والطرف في الأصل مصدر، والطرف أيضاً: الجفن، يقال:

---

(١) الفتوحات.

ما طبق طرفه؛ أي: جفنه على الآخر، والطرف أيضاً تحريك الجفن. ا هـ.

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾؛ أي: قلوبهم جمع فؤاد. ﴿هَوَآءٌ﴾؛ أي: خالية[1] من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ويقال للجبان والأحمق: قلبه هواء؛ أي: لا قوة ولا رأي له، كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّيْ   فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

وفي «المختار»: الهواء ممدوداً ما بين السماء والأرض، والجمع أهوية، وكل خال هواء. ا هـ. وإنما أفرد هواء مع كونه خبراً عن جمع؛ لأنه في معنى فارغة، ولو لم يقصد ذلك.. لقيل: أهوية، ليطابق الخبر مبتدأه. ا هـ. «سمين».

ومعنى الآية: أن القلوب يومئذٍ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة، والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته.

﴿مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء.

﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾؛ أي: بينا لكم[2] أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿وَبَرَزُواْ﴾؛ أي: خرجوا من قبورهم.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾؛ أي: مشدودين في القيود والأغلال جمع مقرن والمقرن من جمع في القرن، وهو الحبل الذي يربط به. وروي أن كل كافر يقرن مع شيطانه في سلسلة. والأصفاد جمع صَفَد ـ بفتحتين ـ: وهو القيد. والأغلال جمع غُل ـ بضم الغين ـ: وهو طوق من حديد، يقال: صفده يصفده صفداً ـ من باب ضرب ـ إذا قيده، والاسم الصفد، وصفّده مشدداً للتكثير. ا هـ. «سمين».

﴿سَرَابِيلُهُم﴾: السرابيل: القمص، واحدها: سربال، ومنه قول كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ ٱلنَّبِيِّ لَهُمْ   مِنْ نَسْجِ دَاوُوْدَ فِيْ ٱلْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

---

(١) المراغي.   (٢) المراغي.

يقال: سربلته إذا ألبسته السربال.

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ والقطران: دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت، كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت وهو الهنأ: يقال: هنأت البعير أهنؤه بالهنأ إذا طلبته بالهنأ؛ وهو أسود اللون منتن الريح. وفي «السمين»: القطران: ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب؛ ليذهب جربها لحدته، وفيه لغات ﴿قطران﴾ ـ بفتح القاف وكسر الطاء ـ وهي قراءة العامة المتواترة، ﴿قَطْران﴾ بزنة سكران، وبها قرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. و﴿قِطْران﴾ ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ بزنة سرحان، ولم يقرأ بها فيما علمت. وقرأ جماعة ﴿من قطر﴾ ـ بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء (آن) بوزن عان، وجعلوها كلمتين كما مر في مبحث القراءة وقد مر أيضاً أن هذه القراءات شاذة عدا قراءة الجمهور ﴿قَطِران﴾.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تعلوها وتحيط بها.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ والبلاغ: اسم مصدر لبلغ تبليغاً، فهو بمعنى اسم الفاعل؛ أي: مبلغ للناس إلى مراتب السعادة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التهديد في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، والأصل: وأفئدتهم كالهواء، لفراغها من جميع الأشياء، فصار التشبيه بليغاً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حذف منه والسماوات تبدل غير السماوات لدلالة ما سبق عليه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية، حيث شبه شرائع الإسلام ومعجزات

الرسول ﷺ بالجبال بجامع الثبات والقرار في كل.

ومنها: الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ لتقدم المرجع في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: العدول عن المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ بدل: ويبرزون؛ للدلالة على تحقق الوقوع مثل: ﴿أتى أمر الله﴾ فكأنه حدث ووقع، فأخبر عنه بصيغة الماضي.

ومنها: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ فقد افتتحت هذه السورة بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾... الخ، فهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين آمين(١).

* * *

(١) وإلى هنا قد تم تفسير الجزء الثالث عشر من تفسير حدائق الروح والريحان منتصف اليوم الخامس والعشرين من شهر الله رجب الفرد من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة سنة ٢٥/ ٧/ ١٤١١ هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات في مكة المكرمة في المسفلة حارة الرشد.

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وسراً وجهراً على إتمام تفسير هذا الجزء الثالث عشر، لقد بذلنا جهدنا وطاقتنا على حسب القوى البشرية في تلخيصه وتهذيبه وتنقيحه، فرحم الله امرأً نظر فيه بعين الإنصاف فسامح، ووقوف في التصحيح على خطأ فأصلح، وأعوذ بالله من حاسد إذا حسد وبغى، وأستغفره ـ جل اسمه ـ من قلم زلّ وسهى، أو حرف شيئاً عن موضعه وطغى، وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

تمّ المجلد الرابع عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان»، ويليه المجلد الخامس عشر، وأوله سورة الحجر.

وما أحسن قول القائل:

اَلْعَفْوُ يُرْجَىٰ مِنْ بَنِي آدَمٍ   فَكَيْفَ لاَ يُرْجَىٰ مِنَ ٱلرَّبِّ
فَإِنَّهُ أَرْأَفُ بِي مِنْهُمُ   حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ

آخرُ

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا   إِلاَّ مَا أَلْهَمْتَ لَنَا

آخرُ

يَا مَنْ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهْ   طُوْبَىٰ لِمَنِ ٱرْتَضَاكَ ذُخْراً لِغَدِهْ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الخامس عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

وما أصدَقَ قولَ القائل

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا ... إلاَّ مَا أَلْهَمْتَ لَنَا
لَكَ ٱلشُّكْرُ يَا مَوْلاَنَا ... عَلَىٰ مَا أَسْعَفتَ لَنَا

شعر آخر

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ لاَ تَطْلُبْ مُكَاثَرَةً ... فَٱلْقَصْدُ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْتَ طَالِبُهُ
فَٱلْمَرْءُ يَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا ... وَلاَ يُفَكِّرُ مَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ
حَتَّىٰ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ وَفَارَقَهَا ... تَبَيَّنَ ٱلْعُيْنَ فَٱشْتَدَّتْ مَصَائِبُهُ

ولقَدَ أجَادَ مَنْ قال

لَوْ عِشْتُ عَامِ ... فِي سَجْدَةٍ لَرَبِّىٰ
شُكْراً لِفَضْلِ يَوْمِ ... لَمْ أَقْضِ بِٱلتَّمَامِ
وَٱلْعَامُ أَلْفُ شَهْرِ ... وَٱلشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمِ
وَٱلْيَوْمُ أَلْفُ حِينِ ... وَٱلْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

آخر

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعاً ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِيْ عِزٍّ وَحِرْزٍ وَرِفْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظةً وشفاء لما في الصدور، وجعَلَه مَنْهلاً عذباً للورود والصدور، أظهره من مقام الجمع والتنزيه والنون، فألزمه حجة لأهل الظواهر والبطون، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد وآله وأصحابه المقتبسين من مكشاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم ممن تخلق بالقرآن في كل زمان، ما تعاقب الملوان وطلع المرزمان.

أما بعد: فلما فرغت من تفسير الجزء الثالث عشر من القرآن.. أخذت في تفسير الجزء الرابع عشر منه بتوفيق الله سبحانه وتعالى وتيسيره. اللهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، فلك الحمد في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الحجر

وهي كلها مكية بإجماع المفسرين، وهي تسع وتسعون آية، وكلماتها: ست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفاً.

فائدة: أطول كلمة في القرآن: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ لأنها أحد عشر حرفاً، وأما: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ فعشرةٌ. اهـ «روح البيان».

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من السورة من وجوهٍ[1]:

١ ـ أنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها، من وصف الكتاب المبين.

٢ ـ أنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة، وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين، كما كانت السالفة كذلك.

٣ ـ أن في كل منهما وصف السموات والأرض.

٤ ـ أن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام.

٥ ـ أن في كل منهما تسلية لرسول الله ﷺ بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم، وكانت العاقبة للمتقين.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما[2] روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الحِجر.. كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمدٍ ﷺ» والله أعلم.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الحجر جملة ما فيها من المنسوخ خمس آيات[3]:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ الآية (٣) نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الآية (٨٥) نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية (٨٨) نسخت بأية السيف.

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ الآية (٨٩) نسخ معناها أو لفظها بآية السيف.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية (٩٤) نصفها محكم ونصفها منسوخ بآية السيف. انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ
﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ
ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ
فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ
ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ
مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ
وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ
أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أوّل هذه السورة لآخر التي قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] في آخر السورة التي قبلها أشياء من أحوال القيامة، من تبديل السموات والأرض، وأحوال الكفار في ذلك اليوم، وأن ما أتى به هو على حسب التبليغ والإنذار.. ابتدأ في هذه السورة بذكر القرآن الذي هو بلاغ للناس، وأحوال الكفرة ووداتهم لو كانوا مسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] استهزاء الكفار به ﷺ، ونسبته إلى الجنون، واقتراح نزول الملائكة.. سلاّه تعالى بأن من أرسل من قبلك كان ديدن المرسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا هدَّد[2] الكافرين وبالغ في ذلك أيما مبالغة.. شرع يذكر بعض مقالاتهم في محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد، بلغا مدى تنكر معه المشاهدات، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات، ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسليةً له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً، فهذا دأب كل محجوج، فكثيرٌ من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها، فلك أسوة بهم في الصبر على سفاهتهم وجهلهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[3] شديد جحودهم، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات.. أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا في غنى عن كل هذا، فإن في السماء وبروجها العالية، وشموسها الساطعة وأقمارها النيِّرة، وسيَّاراتها الدائرة، وثوابتها الباسقة، عبرةً لمن اعتبر، وحجةً لمن ادكر، فهلاَّ نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها، وكيف حدثت بها الفصول والسنون، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة، وأوقات معلومة لا تغيير فيها ولا تبديل، فبأمثال هذا يكون اليقين، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين، ويشتد أزر سيد المرسلين، وهلاَّ رأوا الأرض كيف مدت، وثبتت جبالها، وأنبتت نباتها بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها، وجعل فيها معايش للإنسان والحيوان، أفلا يعتبرون بكل هذا؟ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما بيَّن سبحانه وتعالى فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش في هذه الحياة.. أتبعه هنا بذكر ما هو كالسبب في ذلك، وهو أنه تعالى مالك كل شيء وأن كل شيء سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما رواه الترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ، حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيفة الأنصاري عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أأنزلت في سبيل الله؟ قال: لا، ولكنَّها في صفوف الصلاة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓرۚ﴾ تقدم القول في بيان معاني هذه الحروف ومبانيها، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ويا، وينطق بأسمائها ساكنة، فيقال: ﴿ألف لام را﴾، وقيل(٢): اسم للسورة، وعليه الجمهور؛ أي: هذه السورة مسماة بـ ﴿الٓرۚ﴾، ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه السورة العظيمة الشأن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب المنزل عليك، الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق، على ما يدل عليه اللام؛ أي: بعض من جميع المنزل عليك، أو من جميع المنزل إذ

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.

ذاك، أو آيات من اللوح المحفوظ، ﴿وَ﴾ آيات من ﴿قرآن﴾ عظيم الشأن ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: مظهرٍ للحق من الباطل، والرشد من الغيّ، والحلال من الحرام، فهو من أبان المتعدِّي، ويمكن أن يجعل من اللازم؛ أي: الظاهر أمره في الإعجاز، أو الواضحة معانيه للمتدبرين، أو البين للذين أنزل عليهم، لأنه بلغتهم وأساليبهم. وعطف القرآن على الكتاب من عطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لأن المقصود منهما واحد؛ أي: هذه السورة آيات من الكلام الجامع بين صفتي الكتابية والقرآنية، ذكره في «روح البيان». وتنكير القرآن للتفخيم كتعريف الكتاب.

﴿رُّبَمَا﴾ رب ههنا للتكثير، كما في «مغني اللبيب»؛ أي: كثيراً، ﴿يَوَدُّ﴾ ويتمنى في الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقرآن وبكونه من عند الله تعالى ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: كونهم مسلمين في الدنيا، مستسلمين لأحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه.

وإنما دخلت[1] رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي؛ لأن المترقب في أخباره تعالى كالواقع المتحقق، فكأنه قيل: ربما ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين؛ أي: منقادين لحكمه، مذعنين له من جملة أهله، وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة، والمراد: أنه لما انكشف لهم الأمر، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر، وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام، لا دين غيره.. حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم، ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله تعالى. وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين. وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار. والظاهر: أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت، مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم.

وبالجملة: فهذا إخبار[2] من الله سبحانه عن الكفار بأنهم سيندمون في الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر، ويتمنون أن لو كانوا في الدنيا مسلمين.

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة.. قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار.. قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾. قال الزجاج: إن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب، ورأى حالاً من أحوال المسلم.. ود أن لو كان مسلماً.

وقصارى ذلك[١]: قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين، حينما يعاينون العذاب وقت الموت والملائكة باسطوا أيدهم، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون، وفي الموقف حينما يرون هول العذاب، وقد انصرف المسلمون إلى الجنة، وسيقوا هم إلى النار، والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها، وبقي الكافرون في جهنم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي[٢]: ﴿رُبَّما﴾ مشددة، وقرأ نافع وعاصم وعبد الوارث: ﴿رُبَما﴾ مخففة، وقرأ طلحة بن مصرف وزيد بن علي: ﴿رُبَتَما﴾ بزيادة تاء، قال الفراء: أسدٌ وتميمٌ يقولون: ﴿رُبَّما﴾ بالتشديد، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون: ﴿رُبَما﴾ بالتخفيف، وتيم الرباب يقولون: ﴿رَبَما﴾ بفتح الراء، وقيل إنما قرئت بالتخفيف لما فيها من التضعيف، والحروف المضاعفة قد تحذف نحو: (إن) و(لكن) فإنهم قد خففوها، قال الزجاج: يقولون: رُبَّ رجل جاءني، بالتشديد، ورُبَ رجل جاءني بالتخفيف، وإنما زيدت (ما) مع (ربَّ) ليليها الفعل، وقال الأخفش: أدخل (ما) مع (ربَّ) ليتكلم بالفعل بعدها، فرب[٣] للتكثر باعتبار مرات التمني، وللتقليل باعتبار أزمان الإفاقة، فأزمان إفاقتهم قليلة بالنسبة لأزمان الدهشة، وكونها للتقليل أبلغ في التهديد،

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

(٣) المراح.

ومعناه: أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا العمل، فكيف كثيره، وأيضاً أنه يشغلهم العذاب عن تمني ذلك إلا في القليل.

فائدة: وقال عبد الله بن المبارك: ما خرج أحد من الدنيا من مؤمن وكافر إلا على ندامة وملامة لنفسه، فالكافر لما يرى من سوء ما يجازى به، والمؤمن لرؤية تقصيره في القيام بموجب الخدمة وترك الحرمة وشكر النعمة اهـ.

﴿ذَرْهُمْ﴾؛ أي: دع الكفار يا محمد، واتركهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصحية، لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، والآية منسوخة بآية القتال كما في «بحر العلوم». ﴿يَأْكُلُواْ﴾ كالأنعام ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم وشهواتها؛ أي: إن تركتهم على حالهم، يأكلوا كما تأكل الأنعام، ويأخذوا حظوظهم من دنياهم. فتلك أخلاقهم، ولا خلاق لهم في الآخرة.

والمراد[1]: دوامهم على ذلك لا إحداثه، فإنهم كانوا كذلك، وهما أمران بتقدير اللام، لدلالة ﴿ذَرْهُمْ﴾ عليه، أو جواب أمر على التجوز؛ لأن الأمر بالترك يتضمن الأمر بهما؛ أي: دعهم وبالغ في تخليتهم وشأنهم، بل مرهم بتعاطي ما يتعاطون. ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾؛ أي: الكفار؛ أي: يشغلهم عن اتباعك أو عن الاستعداد للمعاد، ﴿الْأَمَلُ﴾؛ أي: التوقع لطول الأعمار، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة والمآل إلا خيراً، وفي: ﴿يلههم﴾ ثلاث قراءات: كسر الهاء والميم، وضمهما، وكسر الهاء وضم الميم، وأما الهاء الأولى فمكسورة لا غير اهـ. شيخنا ذكره في «الجمل». وهذا[2] تهديدٌ لهم؛ أي: دعهم عما أنت بصدده من الأمر والنهي لهم، فهم لا يرعوون أبداً، ولا يخرجون من باطل، ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل، والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

والمعنى: أي[1] دعهم أيها الرسول في غفلاتهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها، وتلهيهم الآمال عن الآجال، فيقول الرجل منهم: غداً سأنال ثروة عظيمة، وأحظى بما أشتهي، ويعلو ذكري، ويكثر ولدي، وأبني القصور، وأكثر الدور، وأغرس البساتين، وأقهر الأعداء، وأفاخر الأنداد، إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأماني والآمال وطلب المحال.

ثم علل الأمر بتركهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم، ووخامة عاقبتهم، وفي هذا وعيد بعد تهديد، وإلزام لهم بالحجة، ومبالغة في الإنذار، وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ليس من أخلاق المؤمنين.

والخلاصة[2]: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل، ونحوه من متاع الدنيا، ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، وسوء صنيعهم، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين، وانكشف الأمر، ورأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا، والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر كما مرَّ.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي: عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»، وروي عن الحسن أنه قال: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وروي عن علي أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق.

قال بعضهم: الأمل[3] إرادة الحياة للوقت للتراخي بالحكم والجزم، أعني: بلا استثناء ولا شرط صلاح، وهو مذموم في الشرع جداً، وغوائله أربع: الكسل في الطاعة وتأخيرها، وتسويف التوبة وتركها، وقسوة القلب بعدم ذكر الموت،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

والحرص على جمع الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة.

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ذكر سر تأخر عذابهم إلى يوم القيامة، وعدم التعجيل به، كما فعل بكثير من الأمم السالفة فقال: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى، بنوع من أنواع العذاب، بالخسف بها وبأهلها، كما فعل ببعضها، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم، كما فعل بأخرى ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن؛ أي: لتلك القرية ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: أجل مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ، واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله؛ لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا ينسى ولا يغفل، حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر.

وخلاصة ذلك[1]: أننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب، فصاروا كأمس الدابر، ولكن لكل أجلٍ كتاب، وشأننا الإمهال لا الإهمال، فـ ﴿كتاب﴾[2]: مبتدأ، خبره الظرف، والجملة حال من قرية، لأنها وإن كانت نكرة قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة، لا سيما بعد تأكده بكلمة ﴿مِنْ﴾.

والمعنى: وما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا حال أن يكون لها كتابٌ؛ أي: أجلٌ مؤقتٌ لهلاكها، قد كتبناه، لا نهلكها قبل بلوغه، معلوم لا نغفل عنه، حتى تمكن مخالفته بالتقدم والتأخر، و﴿الواو﴾ للفرق بين كون هذه الجملة حالاً أو صفةً، لأنها تعينها للحالية، أو صفة للقرية المقدرة، التي هي بدل من المذكورة على المختار، فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلا قرية لها كتاب معلوم، وتوسيط الواو حينئذٍ بين الصفة والموصوف - وإن كان القياس عدمها - للإيذان بكمال الالتصاق بينهما، من حيث إن الواو شأنها الجمع والربط.

وبعد أن بين[3] سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

لهلاكهم، بحسب ما هو مكتوب في اللوح.. بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجلٌ، لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه، فقال: ﴿مَّا تَسۡبِقُ﴾ ما نافية ﴿مِنۡ﴾ زائدة؛ أي: ما تسبق أمة من الأمم الهالكة وغيرهم ﴿أَجَلَهَا﴾ المضروب لها، المكتوب في اللوح المحفوظ؛ أي: لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها المكتوب لها، ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ أي: وما يتأخرون عنه، فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب، وإنما حذف[1] الجار والمجرور.. لأنه معلوم مما قبله، ولرعاية الفواصل، والإتيان بصيغة الاستفعال، للإشعار بعجزهم عن ذلك، مع طلبهم له، وأما تأنيث ضمير أمة في أجلها وتذكيره في يستأخرون.. فللحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، قال الفراء: إنما قال ﴿أَجَلَهَا﴾ لأن الأمة لفظها مؤنث، وإنما قال: ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ إخراجاً له على معنى الرجال. انتهى ذكره في «زاد المسير».

وهذه الجملة[2] مبينة لما قبلها، فكأنه قيل: إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العقلاء، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب، لا يتقدم ولا يتأخر، وفي هذا تنبيه[3] لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك، وزجر لهم بأن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتروا به، فالهلاك مدخر لهم لا يتقدم ولا يتأخر.

ولما فرغ من تهديد الكفار.. شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر، وتماديهم في الغي، مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب، بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: مشركوا مكة وكفار العرب لغاية تماديهم في العتو والغي مخاطبين لرسول الله ﷺ، قال[4] مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة. انتهى. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ والقرآن في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه، نادوا به النبي ﷺ على وجه التهكم، ولذا اتهموه بالجنون بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها، من كونك رسولاً لله،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون؛ أي: مسلوب العقل، فإنه لا يدَّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وإنما نسبوه[1] إلى الجنون لأنه ﷺ كان يظهر منه عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي، فظنوا أن ذلك جنون، فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون، وقيل: إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره.. فربما نسبه إلى الجنون، ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله، وأتى بهذا القرآن العظيم.. أنكروه، ونسبوه إلى الجنون، وإنما قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ على طريق الاستهزاء، وقيل: معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه واعتقاده، واعتقاد أصحابه وأتباعه، إنك لمجنون في ادعائك الرسالة، وقرأ[2] زيد بن علي: ﴿نَزَل عليه الذكرُ﴾ ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأ: ﴿يا أيها الذي أُلقي إليه الذكرُ﴾ وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيراً؛ لأنها مخالفة لسواد المصحف.

والمعنى: أي وقالوا استهزاء وتهكماً: يا أيها الرجل الذي زعم أنه نزل عليه القرآن إن ما تقوله أملاه عليك الجنون، وليس له معنى معقول، وهو مخالف لآرائنا، بعيد من معتقداتنا، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول، ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام، وعشائرنا العظام.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾: حرف[3] تحضيض بمعنى هلَّا، مركب من (لو) المفيدة للتمني، ومن (ما) المزيدة، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلةُ هي عليه.

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك، ويعضدوك على إنذارك، وقيل: المعنى لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك، كما أتت الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة، فإن قدرة الله على ذلك مما لا ريب فيه، وكذا احتياجك إليه في تمشية أمرك؛ أي: إن كان[4] ما تدعيه حقاً وقد أيدك الله، وأرسلك.. فما منعك أن تسأله أن ينزل

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

معك ملائكة من السماء، يشهدون بصدق نبوتك.

وخلاصة ذلك[١]: أنَّ من يخالف آراءنا إما مجنون، وإما له سلطان عظيم من ربه، وحينئذٍ فماذا يمنعه أن يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إلى نحو ذلك من الآيات، وقد أجاب الله سبحانه وتعالى عن اقتراحهم فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: ما[٢] ننزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة، وليس في نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم فائدة لكم، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر، لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية، إذ هم من عالم غير عالمكم، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم، لأنهم على صورتكم، فيحصل اللبس، ولا تنتفعون بهم، وإلى هذا أشار في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

والمعنى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا بما قلتم واقترحتم من إخبارها لكم بصدقه، وقال الزمخشري: ما ننزل الملائكة إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم، ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ، لأنكم حينئذٍ مصدقون عن اضطرار، وقرأ[٣] الحرميان: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو وابن عامر: ﴿ما تنزل﴾ مضارع تنزل؛ أي: ما تتنزل ﴿المَلاَئِكَةُ﴾ بالرفع. وقرأ أبو بكر ويحيى بن وثاب: ﴿ما تنزل﴾ بضم التاء وفتح النون والزاي، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي، وحفص وابن مصرف: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الزاي، وقرأ زيد بن علي: ﴿ما نزل﴾ ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل ﴿الملائكة﴾ بالرفع.

﴿وَمَا كَانُوا إِذًا﴾؛ أي: إذ نزلت عليهم الملائكة فلم يؤمنوا ﴿مُّنظَرِينَ﴾؛ أي: مؤخرين ساعة؛ أي: ولو نزلنا الملائكة ما أخر عذابهم، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

والمعنى: أي إن[1] في نزول الملائكة ضرراً لهم لا محالة، لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم، إذ قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم، ولم يؤمنوا بها، يكون العذاب في إثرها، فلو أنا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم... لحق عليهم عذاب الاستئصال، ولم ينظروا ساعة من نهار، وقال الشوكاني: في الكلام حذف، والتقدير: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة، وما كانوا إذاً منظرين، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة. انتهى.

و﴿إِذًا﴾ حرف جواب[2] وجزاء لشرط مقدر، وهي مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين، ثم ضم إليه إن فصار: إذ إن، ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها، فمجيء لفظة إنْ.. دليل على إضمار فعل بعدها، والتقدير: وما كانوا إذ إنْ كان ما طلبوه منظرين، والإنظار التأخير.

والمعنى: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا مؤخرين بعد نزولهم طرفة عين، كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، لتعلق العلم والإرادة بازديادهم عذاباً، وبإيمان بعض ذراريهم.

ثم أجاب سبحانه عن قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ ورد إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله ﷺ، وسلاّه على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ لعظم شأننا، وعلو جنابنا، و(نحن) ليست بفصل، لأنها ليست بين اسمين، ﴿نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾؛ أي: نحن[3] نزلنا ذلك الذكر والقرآن الذي أنكروه، وأنكروا نزوله عليك، ونسبوك بسببه إلى الجنون، وعموا منزله، حيث بنوا الفعل للمفعول، إيماء إلى أنه أمر لا مصدر له، وفعل لا فاعل له؛ أي: وليس إنزاله عليك بزعمك، كما اعتقدوا أنه مختلق من عنده. اهـ شيخنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في كل وقت وزمان من كل ما لا يليق به، كالطعن فيه، والمجادلة في حقيته، والتكذيب له، والاستهزاء به، والتحريف والتبديل والزيادة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والنقصان ونحوها، وأما الكتب المتقدمة فلما لم يتول حفظها، واستحفظها الناس، أعني: الربانيين والأحبار.. تطرق إليهم الخلل، وفي هذا وعيد[١] شديد للمكذبين به، المستهزئين برسول الله ﷺ، وقيل: الضمير في: ﴿لَهُۥ﴾ لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام.

والمعنى: أي إنما[٢] أنتم قوم ضالون مستهزئون بنبينا، وليس استهزاؤكم بضائره، لأنا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه، فقولوا أنتم إنه مجنون، ونحن نقول إنا نحفظ الكتاب الذي أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال، وسيأتي في مستقبل الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه، ويدعون الناس إليه، ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم، تناسب ما تستخرجه العقول من المخترعات، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء، فيستنير بها العارفون ويهتدي بهديها المفكرون، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون.

ثم سلَّى رسوله ﷺ عما أصابه من سفه قومه، وادعائهم جنونه، بأن هذا دأب الأمم المكذبة لرسلها من قبل، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك، فاستهزؤوا بهم كما استهزأ قومك بك، فنصرنا رسلنا وكبتنا أعداءهم، وسيكون أمرك وأمرهم كذلك، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا رسلاً كائنة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، وحذف المفعول لدلالة الإرسال عليه ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في شيع الأمم الأولين؛ أي: الأقدمين، وفرقهم وأحزابهم وطوائفهم، جمع شيعة: وهي الفرقة[٣] المتفقة على طريقة ومذهب، سموا بذلك لأن بعضهم يشايع بعضاً ويتابعه، من شايعه إذا تبعه، ومنه الشيعة: وهم الذين شايعوا عليًا، وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده، وإضافته إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند الفراء، والأصل: في الشيع الأولين، ومن ثم حذف الموصوف

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وذكر صفته عند البصريين؛ أي: في شيع الأمم الأولين، ومعنى إرسالهم فيهم: جعل كل منهم رسولاً فيما بين طائفة منهم، ليتابعوه في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين.

والمعنى: نبأنا رجالاً فيهم، وجعلنا رسلاً فيما بينهم. اهـ «بيضاوي».

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أي: وما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الرسول ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: إلا كانت تلك الشيعة يستهزئون بذلك الرسول الذي أتى إليهم، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام، والجملة[1] في محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول في يأتيهم؛ أي: وما يأتيهم رسول من الرسل إلا حالة كونهم مستهزئين به، أو في محل الرفع صفة لرسول، فإن محله الرفع على الفاعلية؛ أي: وما يأتيهم[2] إلا رسول كانوا يستهزئون به، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل.

والمعنى: أي إننا أرسلنا قبلك رسلاً لأمم قد مضت، وما أتى أمةً رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤوا، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات مستثقلٌ على النفوس، إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة، وترك عبادة الأوثان الباطلة، وذلك مما يشق على النفوس، إلى أن الرسول قد يكون فقيراً، لا أعوان له ولا أنصار ولا مال ولا جاه، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، إلى أن الله يخذلهم، ويلقي دواعي الكفر في قلوبهم بحسب السنن التي سنها لعباده، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كإدخالنا الاستهزاء في قلوب الأولين ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾؛ أي: نسلك الاستهزاء وندخله ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من مشركي مكة، ومن شايعهم في الاستهزاء والتكذيب، على معنى أنه يخلقه ويزينه في قلوبهم، والسلك إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المخيط؛ أي: الإبرة، حالة كون المجرمين من أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالذكر والقرآن.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والمعنى[1]: أي مثل ذلك المسلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا به من الكتب، نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين من أهل مكة وغيرهم، حالة كونهم مكذبين بالذكر، غير مؤمنين به، لأنهم كانوا يعتقدون أنه من عند محمد ﷺ لا من عند الله تعالى.

وقال ابن عطية[2]: الضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائد على الاستهزاء والشرك ونحوه، وهو قول الحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد، ويكون الضمير في: ﴿بِهِۦٓ﴾ يعود أيضاً على ذلك الاستهزاء نفسه، وتكون ﴿الباء﴾ سببية؛ أي: لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، ويحتمل أن يكون الضمير في: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائداً على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر، وهو القرآن؛ أي: نسلكه في قلوب المجرمين مكذباً به مستهزءاً، ويكون الضمير في: ﴿بِهِۦٓ﴾ عائداً عليه أيضاً، ويحتمل أن يكون الضمير في: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في: ﴿بِهِۦٓ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عود الضميرين. انتهى.

والمعنى: أي[3] كذلك نلقيه في قلوب المجرمين مستهزءاً به غير مقبول لديهم، لأنه ليس في نفوسهم استعداد لتلقي الحق، ولا تضيء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الكتب المنزلة من الملأ الأعلى.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قد مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم، حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء؛ أي: وقد جرت سنة الله في الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم، ويدخل الكفر والاستهزاء في قلوبهم، ثم يهلكهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر حليف رسله والمؤمنين، فلك أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة، ولست بأوحدي في ذلك.

والخلاصة[4]: هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين، ويستهزىء بك

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

المجرمون، ولا يؤمنون بكتابنا وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين، وننصرك عليهم بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى إصرارهم على الكفر، وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا﴾؛ أي: على هؤلاء المقترحين المعاندين لمحمد ﷺ، الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: باباً من أبوابها المعهودة، ومكناهم من الصعود إليه، أو باباً[1] مّا، لا باباً من أبوابها المعهودة كما قيل، ويسرنا لهم الرقي والصعود إليه ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الباب؛ أي: فصاروا ﴿يَعْرُجُونَ﴾؛ أي: يصعدون في ذلك الباب بآلةٍ أو بغير آلةٍ، حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد، ولا يعاند عند مشاهدتها معاند، وقيل: الضمير في: ﴿فَظَلُّواْ﴾ للملائكة؛ أي: فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم، وينظرون صعودهم من ذلك الباب.. ﴿لَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: لقال هؤلاء الكفار المعاندون لمحمد ﷺ، لفرط عنادهم، وزيادة عتوهم وتشكيكهم في الحق: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾؛ أي: سدت من باب الإحساس، أو حبست عن النظر وحيرت، أو غشيت وغطيت، ثم أضربوا عن قولهم ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ حيث قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ، كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، تلخيصه: لو أوتوا بما طلبوا.. لكذبوا، لتماديهم في الجحود والعناد، وتناهيهم في ذلك. كما في «الكواشي».

وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالةٌ على أنهم يبيتون القول بذلك، وأن ما يرونه لا حقيقة له، وإنما هو أمر خيل إليهم بنوع من السحر، قالوا كلمة إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير، فكأنهم قالوا: سكرت أبصارنا لا عقولنا، فنحن وإن تخايلت بأبصارنا هذه الأشياء، لكنا نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه، ثم قالوا: بل نحن، كأنهم أضربوا عن الحصر في الأبصار، وقالوا بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر سحره لنا؛ أي: ولو فتحنا على

---

(١) روح البيان.

هؤلاء المعاندين باباً من السماء فظلوا في ذلك الباب يصعدون، فيرون من فيها من الملائكة، وما فيها من العجائب.. لقالوا ـ لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة ـ: إنما سدت أبصارنا، فما نراه تخيل لا حقيقة له، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة[1]: ﴿يَعْرِجُون﴾ بكسر الراء، وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود، وقرأ الحسن ومجاهد وابنُ كثير: ﴿سُكِرَتْ﴾ بتخفيف الكاف مبنياً للمفعول، وقرأ باقي السبعة.. بشدها مبنياً للمفعول، وقرأ الزهري: بفتح السين وكسر الكاف مخففة مبنياً للفاعل، شبهوا رؤية أبصارهم برؤية السكران، لقلة تصوره ما يراه، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿سُحرت أبصارنا﴾، وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسير معنى لا تلاوةً، لمخالفتها لسواد المصحف.

ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم، وعجز أصنامهم.. ذكر قدرته الباهرة، وخلقه البديع، ليستدل بذلك على وحدانيته فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: قصوراً وبيوتاً وطرقاً ومنازل، ينزلها السيارات السبع في السموات السبع، والمراد بها هنا: منازل الشمس والقمر، والنجوم السيارة ومواضع سيرها، وهي البروج الاثنا عشر المشهورة، المختلفة الهيئات والخواص، وأسماؤها: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وقد جمع تلك الأبراج بعضهم في بيتين فقال:

حَمَلَ ٱلثَّوْرُ جَوْزَةَ ٱلسَّرَطَانِ ... وَرَعَىٰ ٱللَّيْثُ سُنْبُلَةَ ٱلْمِيْزَانِ
وَرَمَىٰ عَقْرَبٌ بَقَوْسٍ لِجَدْيٍ ... نَزَحَ ٱلدَّلْوُ بِرْكَةَ ٱلْحِيْتَانِ

والبروج: جمع برج، والمراد بها: منازل وطرق تسير فيها الكواكب السبعة السيارة، وقد جمعها[2] بعضهم في بيت واحد على ترتيب وجودها في السماء، مبتدئاً من السابعة، فقال:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الصاوي.

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلْأَقْمَارُ

فزحل في السماء السابعة، والمشتري في السادسة، والمريخ في الخامسة، والشمس في الرابعة، والزهرة في الثالثة، وعطارد في الثانية، والقمر في الأولى؛ أي: في سماء الدنيا، والعرب تعدُّ المعرفة بمواقع النجوم في منازلها من أجلِّ العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب، ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾؛ أي: وزينا السماء بتلك البروج؛ أي: وجعلنا الكواكب زينة السماء، تظهر للناظرين إليها؛ أي: المتأملين فيها بأبصارهم وبصائرهم، فيستدلون بها على قدرة صانعها ووحدته.

والمعنى: أي وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والكواكب، سيارات كانت أو ثوابت، وسميت[1] السيارة لسرعة حركاتها، وسميت الثابتة الثوابت إما لثبات أوضاعها أبداً، وإما لقلة حركاتها الثابتة وغاية بطئها، فإن السماويات ليست بساكنةٍ، وحركات الثوابت على رأي أكثر المتأخرين درجة واحدة في ست وستين سنة شمسية، وثمان وستين سنة قمرية، فيتم برجاً في ألف سنة، ودورة في أربعة وعشرين ألف سنة، وتسمى الثوابت بالكواكب البيابانية إذ يهتدى بها في الفلاة، وهي البيابانية بالعجميَّة، والكواكب الثابتة بأجمعها على الفلك الثامن، وهو الكرسي، وفوقه الفلك الأطلس؛ أي: فلك الأفلاك وهو العرش، سمي بالأطلس لخلوه عن الكواكب، تشبيهاً له بالثوب الأطلسي الخالي من النقش، ثم حركة الأفلاك بالإرادة، وحركة الكواكب بالعرض، إذ كل منها مركوز في الفلك كالكرة المنغمسة في الماء، والكواكب التي أدركها الحكماء بأرصادهم ألف وتسع وعشرون، فمنها سيارة ومنها ثوابت، والكل مما أدركوا، ومما لم يدركوا زينة السماء، كما أن في الأرض زينة لها. ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾؛ أي[2]: لكل من ينظر إليها، فمعنى التزيين ظاهر، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها، وحكمة مدبرها، فتزيينها: ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة، وتخصيصهم لأنهم هم المنتفعون بها، وأما غيرهم فنظرهم كلاَ نظر.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والخلاصة: أي[1] ولقد خلقنا في السماء نجوماً كباراً ثوابت وسيارات، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل، وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة وآياتها الباهرة، التي يحار الفكر في دقائق صنعتها، وقدرة مبدعها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾؛ أي: وحفظنا السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾؛ أي: مرمي بالنجوم، فلا يقدر أن يصعد إليها، ويوسوس في أهلها، ويتصرف في أهلها، ويقف على أحوالها، فيلاحظ في الكلام معنى الإضافة، أي: من دخول كل شيطان، إذ الحفظ لا يكون من ذات الشيطان. وفي كلمة ﴿مِنْ﴾ ههنا دلالة على أن اللام في الشيطان الرجيم في الاستعاذة لاستغراق الجنس. كما في «بحر العلوم».

والمعنى: أي ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ أي: وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب، كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: إلا من اختلس الكلام المسموع بسرعة، وأخذه سراً، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾؛ أي: تبعه ولحقه ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: لهب محرق، وهي شعلة نار ساطعة ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر أمره للمبصرين، فالاستثناء إما متصل؛ أي: إلا من استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: ولكن من استرق السمع... إلخ.

والمعنى[2]: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله، أو تخبله، ومعنى فأتبعه: تبعه ولحقه وأدركه، والشهاب الكوكب، أو النار المشتعلة الساطعة، وسمي الكوكب شهاباً؛ لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للبمصرين، يرونه لا يلتبس عليهم.

قال القرطبي. واختلف[3] في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس:

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) القرطبي.

الشهاب: يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفةٌ: يقتل، فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان:

أحدهما: أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استقروه من السمع إلى غيرهم من الجن، قال ذكره الماوردي، ثم قال: والقول الأول أصح، ومما يجب[1] التنبيه له: أن هذا حكاية فعل قبل النبي ﷺ، وأن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال قبل أن يبعثه الله تعالى، فلما بعث رسول الله ﷺ.. كثر الرجم، وزاد زيادة ظاهرة، حتى تنبه لها الإنس والجن، ومنع الاستراق رأساً وبالكلية.

ويعضده ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات كلها، فلما ولد عيسى عليه السلام.. منعوا من ثلاث سموات، ولما ولد محمد ﷺ.. منعوا من السموات كلها بالشهب.

وما يوجد اليوم من أخبار الجن على ألسنة المخلوقين، إنما هو خبر منهم عما يرونه في الأرض، مما لا نراه نحن، كسرقة سارقٍ، أو خبية من مكان خفيّ ونحو ذلك، وإن أخبروا بما سيكون كان كذباً. كما في «أكمام المرجان».

وخلاصة قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: لكن من أراد اختطاف شيء من علم الغيب، مما يتحدث به الملائكة في الملأ الأعلى.. تبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين فأحرقه، ولم يصل إلى معرفة شيءٍ مما يدبر في ملكوت السموات، وبهذا المعنى قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾.

وبعد فالكتاب الكريم أخبرنا بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً من أخبار الغيب، مما لدى الملائكة الكرام، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة، والنجوم المتقدة، فأحرقتهم، ولا نبحث عن معرفة كنه ذلك ولا نمعن في النظر

(١) روح البيان.

لندرك حقيقته، لأنا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة، تجعلنا نؤمن به إيماناً مبنياً على البرهان بوسائله المعروفة، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب، وأوحي إلى النبي الكريم، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علمٍ صحيحٍ، بل على حدس وتخمين لا حاجة للمسلم به للإطمئنان في دينه، فالأحرى به أن يعرض عنه، لئلا يحيد عن القصد، ويضل عن سواء السبيل.

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته.. أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾؛ أي: ومددنا الأرض وبسطناها على وجه الماء العذب، وجعلناها[1] ممتدة الطول والعرض والعمق، ليمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل، وهذا فيما يظهر في مرأى العين، فلا يدل على نفي الكروية عن الأرض، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي، وفي «الخازن»: وزعم[2] أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء، وبعضها خارج عن الماء، وهو الجزء المعمور منها، واعتذروا عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ بأن الكرة إذا كانت عظيمة.. كان كل جزء منها كالسطح العظيم، فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة، وأنها كروية، والله أعلم بمراده، وكيف مد الأرض. انتهى.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾؛ أي: خلقنا في الأرض وجعلنا فيها جبالاً ﴿رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: ثوابت لا تتحرك خوف أن تضطرب الأرض بسكانها، كما قال في آيات أخرى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

والمعنى[3]: وجعلنا في الأرض رواسي بقدرتنا الباهرة، وحكمتنا البالغة، وذلك بأن قال لها: كوني فكانت، فأصبحت الأرض، وقد أرسيت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً، فلم يدر أحدٌ مم خلقت.

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ وأنشأنا وأوجدنا في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع النباتات ﴿مَّوْزُونٍ﴾؛ أي: مقدر معلوم، فعبر[1] عن ذلك بالوزن، لأنه مقدار تعرف به الأشياء، وقيل: معنى موزون: مقسوم، وقيل: معدود، وقيل: الضمير راجع إلى الجبال؛ أي: وأنبتنا في الجبال؛ أي: وأنبتنا في الجبال من كل شيء موزون، من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك، وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون المحكوم بحسنه، كما يقال: كلام موزون؛ أي: حسن.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ أيها العباد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾؛ أي: أسباباً تعيشون بها، من المطاعم والمشارب والملابس، وغيرها مما يتعلق به البقاء، جمع: معيشةٍ، وقيل: هي الملابس، وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق في مدة الحياة، والقول الأول أظهر؛ أي: إن[2] أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء، قد سخَّرناها لكم في الأرض، فلا السمك في البحر غذيتموه، ولا الطير في الجو ربيتموه، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ معطوف[3] على معايش؛ أي: وجعلنا لكم في الأرض معايش، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله تعالى، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم، باعتبار استقلاله بالكسب، ولهذا الظن ذكرهم بهذا العنوان؛ لرد حسبانهم أنهم يكفون موؤناتهم، ولتحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم وإياكم، أو معطوف على محلِّ ﴿لَكُمْ﴾ وهو النصب؛ أي: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، فيكون من عطف الجار والمجرور على الجار والمجرور، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجار؛ أي: وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني وروح البيان.
(٣) المراغي.

والمماليك والخدم والدواب، وفي هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم، لا أنهم يرزقون منهم، وفي ذلك عظيم المنة، وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده.

وخلاصة هذا: أنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعايش، وسخر لكم الدواب التي تركبونها، والأنعام التي تأكلونها، والعبيد التي تستخدمونها، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم، فلكم منها المنفعة، ورزقها على الله تعالى، وهذا في غاية الامتنان.

وقرأ الجمهور: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بالياء، وقرأ الأعرج، وخارجة عن نافع: ﴿مَعائش﴾ بالهمز، وهي شاذَّةٌ كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ إن نافية، وما مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة (من)، ومع لفظ (شيء) المتناول لكل الموجودات، الصادق على كل فرد منها، والخزائن: جمع خزانة، وهو المكان الذي يحفظ نفائس الأموال، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره تعالى على كل مقدور؛ أي: وما كل الممكنات ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾؛ أي: إلا هي مقدورةٌ لنا ومملوكة، نخرجها من العدم إلى الوجود، بمقدار معلوم كيف نشاء، أو المراد بالخزائن: مفاتيحها؛ أي: وما شيء من أرزاق العباد إلا عندنا مفاتيحه، نعطيها كيف نشاء من البسط والقبض.

والخلاصة: أي ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده، والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء، فخزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس، غير محجوبة عن الباحث الساعي إلى كسبها من وجوهها، بحسب السنن التي وضعناها، والنظم التي قدرناها، ولا يمنعها مانع، ولا يستطيع دفعها دافع، فهي تحت قبضة الطالب إذا أحسن المسعى، وأحكم الطلب، كما قال: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: وما ننزل ذلك الشيء من السماء إلى الأرض، أو نوجده للعباد ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾؛ أي: إلا بمقدار معلوم وحساب معين، والقدر بمعنى المقدار.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين[١]، حسبما تقتضيه مشيئته، على مقدار حاجة العباد إليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، وقد فسر الإنزال بالإعطاء؛ أي[٢]: وما نعطي ذلك الشيء إلا بقسطٍ محدودٍ، نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة، وفيه الرحمة بالعباد، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقد جرت عادة القرآن بأن يسمي ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالاً، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وجملة قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ معطوفة على مقدر ـ أي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله، وما ننزله ـ أو في محل النصب على الحال.

وقرأ الأعمش[٣]: ﴿وما نرسله﴾ مكان ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾، والإرسال أعم، وهي قراءة تفسير ومعنى، لا أنها لفظ قرآن، لمخالفتها سواد المصحف، وفي «روح البيان»: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: ما نوجد وما نكوِّن شيئاً من تلك الأشياء متلبساً بشيء من الأشياء إلا بقدر معلوم؛ أي: إلا متلبساً بمقدار معين، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة التابعة لها، وفي «تفسير أبي الليث»: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾؛ أي: مفاتيح رزقه، ويقال: خزائن المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ أي: إلا بكيل ووزن معروف.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ معطوف على ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ وما بينهما اعتراض، والرياح: جمع ريح، وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور. اهـ «خطيب»، واللواقح: جمع لاقحة؛ أي: حاملة لأنها تحمل الماء إلى السحاب، فهي ملقحة، يقال: ناقة ملقحة إذا حملت الولد؛ أي: وأرسلنا الرياح وأنشأناها حالة كونها لواقح وحوامل للماء إلى السحاب، فهي حالة مقدرة، وقال

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

ابن مسعود: يرسل الله الريح وينشؤها، فتحمل الماء فتمجه في السحاب، ثم تمر به فتدره كما تدر الملقحة، ثم تمطر، وقال أبو عبيد: يبعث الله الريح المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة، فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض، فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقحه. اهـ «خطيب».

وقرأ حمزة[1]: ﴿الريح﴾ بالإفراد، وقرأ من عداه: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وعلى قراءة حمزة تكون اللام في الريح للجنس، وقالوا: الرياح للخير، والريح للشر؛ لقوله ﷺ: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

والمعنى: أي إن[2] من فضله سبحانه وتعالى على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح، ويكون ذلك على ضروب:

١ ـ أن يرسلها حاملات للسحاب، فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار، فتغيرها من حال إلى حال، فتعطيها حياة جديدة، إذ تزدهر أزهارها، وتثمر أغصانها، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت، وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة لا حياة فيها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

٢ ـ أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث، لتخرج الثمر والفواكه للناس.

٣ ـ أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار، لينفذ الغذاء إلى مسامها، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع، كرياضة الحيوان.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحاباً ماطراً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من جانب العلو، فإن كل ما علاك فهو سماء، وهو الظاهر هنا، لا الفلك يعني من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: بعض ماء المطر، كما يفيده التنكير، فإنه معلوم عند الناس علماً يقينياً أنه لم ينزل من السماء الماء كله، بل قدر ما يصلون به إلى

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

المنفعة، ويسلمون معه من المضرة ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾؛ أي: جعلنا ذلك المطر سقياً لكم ولدوابكم وأراضيكم، قال أبو علي: يقال: سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي، وأسقيته نهراً؛ أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أبلغ من سقيناكموه، لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًّا لهم، يرتفقون به متى شاؤوا، وهي أطول كلمة في القرآن، وحروفها أحد عشر، وحروف ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ عشرة.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المطر المنزل ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: بقادرين على إيجاده وخزنه في السحاب، وجمعه فيه، وإنزاله، بل نحن القادرون على إيجاده وجمعه في السحاب وإنزاله، وقيل: المعنى: وما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغدران والآبار والعيون، بل نحن نخزن ونجمع في هذه المخازن، ونحفظه فيها، لنجعله لكم سقياً، ويكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور.

والمعنى: أي فأنزلنا من[1] السماء مطراً، فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم، وفي ذلك استقامة أمور معايشكم، وتدبير شؤون حياتكم إلى حين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: ولستم بخازنين الماء الذي أنزلته فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء، لأن ذلك بيدي، وهو خاضع لسلطاني، إن شئت حفظته، وإن شئت غار في باطنها ويتخلل طبقاتها، فلا أبقي منه شيئاً ينفع الناس والحيوان، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم.

والخلاصة[2]: نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب، وإنزاله، وما أنتم على ذلك بقادرين.

وبعد أن ذكر نظم المعيشة في هذه الحياة.. ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة، وتقديم[3] الضمير للحصر، وهو إما تأكيد للأول، أو مبتدأ خبره الفعل، والجملة خبر

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

لـ﴿إِنَّا﴾، ولا يجوز كونه ضمير الفصل، لأنه لا يقع إلا بين الاسمين، ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإعدامها وإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنبات، والله تعالى يحيي الأرض بالمطر أيام الربيع، ويميتها أيام الخريف، ويحيي بالإيمان ويميت بالكفر؛ أي: إنا نحن نوجد الحياة في المخلوقات، ونسلبها عنها متى شئنا، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته تعالى، وأنه القادر على البعث والنشور، والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه، وتقضيه مشيئته، ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: للأرض ومن عليها، لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: نحن الباقون بعد فناء الخلق، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي.

والمعنى[1]: أي وإنا لنحيي من كان ميتاً إذا أردنا، ونميت من كان حياً إذا شئنا، ونحن نرث الأرض ومن عليها، فنميتهم جميعاً، ولا يبقى حي سوانا، ثم نبعثهم كلهم ليوم السحاب، فيلاقي كل امرىءٍ جزاء ما عمل، إن خيراً وإن شراً.

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك، وأثبت قدرته عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمنا منكم أيها العباد ولادة وموتاً، يعني: الأولين من زمان آدم إلى هذا الوقت[2]، واستقدم بمعنى تقدَّم، كما سيأتي في مبحث التصريف، وكذلك استأخر بمعنى تأخر فيما سيأتي، واللام فيه موطئة للقسم كما فسرنا، وكذا اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ منكم موطئة له؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمنا من تأخر منكم ولادة وموتاً، يعني الآخرين إلى يوم القيامة، وقيل: من تقدم طاعة ومن تأخر فيها، وقيل: من تقدم في صف القتال ومن تأخر، وقيل: المراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء، وقيل: المستقدمون هم الأمم المتقدمون على أمة محمد ﷺ، والمستأخرون: هم أمة محمد ﷺ، وقيل: المستقدمون مَنْ قُتل في الجهاد، والمستأخرون من لم يُقتل.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ولقد علمنا من مضى منكم، وأحصيناهم وما كانوا يعلمون، ومن هو حي، ومن سيأتي بعدكم، فلا تخفى علينا أحوالكم، ولا أعمالكم، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء، يوم ينفخ في الصور.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى لا غيره ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يحشر الخلائق في عرصات القيامة، فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة، من أطاعه منهم ومن عصاه، ويجازي كلاً بما عمل، بحسب ما وضع من السنن وقدَّر من ارتباط المسببات بأسبابها، وجعل لكل عمل جزاءً له، فهو المتولي لذلك القادر عليه لا غيره، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر، وقرأ[2] الأعمش: ﴿يَحْشِرهم﴾ بكسر الشين. ثم أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي:[3] بالغ الحكمة، متقن في أفعاله، فإنها عبارة عن العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، وهي صفة من صفاته تعالى، لا من صفات المخلوقين.

وما يسميه الفلاسفة الحكمة هي المعقولات، وهي من نتائج العقل، والعقل من صفات المخلوقين، فكما لا يجوز أن يقال لله العاقل، لا يجوز للمخلوق الحكيم، إلا بالمجاز لمن آتاه الحكمة، كما في «التأويلات النجمية». ﴿عَلِيمٌ﴾ واسع العلم، وسع علمه كل شيء، ولعل تقديم صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء،[4] فهو تعالى يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل، وما يؤيده من سعة العلم والفضل.

الإعراب

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾.

﴿الٓرۚ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة ﴿الٓرۚ﴾؛ أي: مسماة

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

بهذه اللفظة إن قلنا إنه عَلَمٌ على السورة، وإلا فلا محلَّ لها من الإعراب، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَقُرْءَانٍ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: وسوغ العطف التغاير في اللفظ مع زيادة الصفة، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿قرآن﴾.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿رُّبَمَا﴾: حرف جر وتكثير، ولكن بطل عملها لدخول ﴿ما﴾ الكافة عليها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية ما الكافة؛ لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وسوغ دخول رب على المضارع مع أنها مختصة بالماضي كونه بمنزلة الماضي في تحقق الوقوع، من حيث إنه من أخبار الله تعالى، وهي صدق لا تتخلف، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: كثيراً يود الذين كفروا كونهم مسلمين. ويحتمل كون ﴿لَوْ﴾ حرف شرط وامتناع، جوابها محذوف، وكذا مفعول الود محذوف، والتقدير: ربما يود الذين كفروا النجاة لو كانوا مسلمين لسروا بذلك أو تخلصوا مما هم فيه.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَرْهُمْ﴾ فعل أمر ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿يَأْكُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون، وكذا تقول في ﴿يَتَمَتَّعوا﴾، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَأْكُلُوا۟﴾. ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يَأْكُلُوا۟﴾ على كونه مجزوماً بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، لأنه من ألهى يلهي ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال، ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾: مفعول به، و﴿مِن﴾: زائدة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿وَلَهَا﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال، ﴿لها﴾: خبر مقدم، ﴿كِتَابٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّعۡلُومٞ﴾: صفة ﴿كِتَابٞ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال منها دخول من الزائدة عليها، والتقدير: وما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا حال كون أجل معلوم لهلاكها، ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿تَسۡبِقُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾: فاعل، و﴿مِنۡ﴾ زائدة لتأكيد النفي، ﴿أَجَلَهَا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَسۡبِقُ﴾، ومتعلق ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: عنه ولوقوعه فاصلة، وحمل[1] على لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ في قوله: ﴿أَجَلَهَا﴾، فأفرد وأنث، وعلى معناها في قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ فجمع وذكر.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال، ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾: نائب فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾: ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، والجملة في محل النصب مقول قال، على كونها جواب النداء، ﴿لَّوۡ مَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلَّا، ﴿تَأۡتِينَا﴾: فعل ومفعول، ﴿بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في

(١) الفتوحات.

محل النصب مقول قال، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتَ﴾: فعل واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، معلوم مما قبلها تقديره: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فأتنا بالملائكة، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول قال.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية ﴿نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿نُنَزِّلُ﴾؛ أي: حالة كوننا ملتبسين بالحق، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء، ولكن لا عمل لها، لعدم دخولها على الفعل، ﴿مُّنظَرِينَ﴾: خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿نُنَزِّلُ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَحْنُ﴾: تأكيدٌ لاسم ﴿إِنَّ﴾ أو مبتدأ، ولا يصح كونه ضمير فصل لعدم وقوعه بين اسمين، ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ أو خبر المبتدأ، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده، ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: رسلاً، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للمفعول المحذوف، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية

﴿يَأْتِيهِم﴾: فعل ومفعول، ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ ومن زائدة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ على كونها جواب القسم، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان في محل النصب حال مقدرة من مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ تقديره: وما يأتيهم رسول إلا حالة كونهم مستهزئين به، ويجوز[1] أن تكون صفة لرسول فيكون في محلها وجهان: الجر باعتبار المحل، وإذا كانت حالاً فهي حال مقدرة.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف، ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ فعل ومفعول، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين سلكاً مثل سلكه في قلوب أولئك الكفرة، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أو جملة مفسرة لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: شرطية، ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿بَابًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بَابًا﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾. ﴿فَظَلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ظلُّوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعدها، وجملة ﴿يَعْرُجُونَ﴾ في محل النصب خبر ظل، وجملة ﴿ظلُّوا﴾ معطوفة على جملة ﴿فَتَحْنَا﴾ على كونها فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾. ﴿لَقَالُوٓا۟﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية،

---

(١) الفتوحات.

﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب لـ ﴿لَوْ﴾، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿نَحْنُ قَوْمٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مَّسْحُورُونَ﴾: صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾ مرفوع بالواو، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ إن كان جعل بمعنى خلق، و﴿بُرُوجًا﴾: مفعول به، ويجوز[1] أن يكون بمعنى صيرنا، فيكون مفعوله الأول ﴿بُرُوجًا﴾، ومفعوله الثاني الجار والمجرور، فيتعلق بمحذوف اهـ «سمين»، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿زينا﴾. ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿حفظنا﴾. ﴿رَّجِيمٍ﴾: صفة لـ ﴿شَيْطَٰنٍ﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾، والجملة صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أتبعه﴾: فعل ومفعول، ﴿شِهَابٌ﴾: فاعل، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ ﴿شِهَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة الصلة، والعائد ضمير المفعول في ﴿أتبعه﴾. وفي «أبي السعود» قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾[2]

---

(١) الفتوحات.
(٢) أبو السعود.

محله النصب على الاستثناء المتصل، إن فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الإطلاق، والوقوف على: ما فيها في الجملة، أو المنقطع إن فسر ذلك بالمنع من دخولها، والتصرف فيها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ﴾: منصوب على الاشتغال، بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، وبسطنا الأرض مددناها، بسطنا الأرض: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿مَدَدْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة وبسطنا الأرض، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿ألقينا﴾، ﴿رَوَاسِيَ﴾ مفعول به لـ﴿أَلْقَيْنا﴾. ﴿وَأَنْبَتْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على بسطنا، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَنْبَتْنا﴾ والمفعول محذوف، تقديره: ضروباً، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للمفعول المحذوف، ﴿مَوْزُونٍ﴾ صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل بمعنى وضعنا، معطوف على بسطنا الأرض، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿جعلنا﴾، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال ﴿مَعَايِشَ﴾، ﴿مَعَايِشَ﴾: مفعول به، ﴿وَمَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿مَعَايِشَ﴾، ﴿لَسْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور، متعلق بما بعده، ﴿بِرَازِقِينَ﴾: خبر ليس، والباء زائدة.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إنْ﴾ نافية، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: مبتدأ و﴿مِنْ﴾ زائدة، وسوَّغ الابتداء بالنكرة وقوعه في سياق النفي، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿عِنْدَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، خبرٌ مقدم، ﴿خَزَائِنُهُ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية: ﴿نُنَزِّلُهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ، ﴿بِقَدَرٍ﴾: متعلق بـ ﴿نزل﴾، ﴿مَّعْلُومٍ﴾: صفة لـ ﴿قدر﴾، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلْنا﴾. ﴿لَوَٰقِحَ﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنزلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أرسلنا﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به بـ ﴿أنزلنا﴾، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والواو حرف متولد من إشباع حركة الميم، والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزلنا﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَا﴾: حجازية أو تميمية ﴿أَنتُمْ﴾: اسم ﴿مَا﴾، أو مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده، ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾: خبر ﴿ما﴾، أو خبر المبتدأ، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير المخاطبين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَنَحْنُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿نحن﴾: مبتدأ، ﴿نُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿وَنُمِيتُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿نُحْيِۦ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها خبراً لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: فعل ومفعول، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾، أو متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبله، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾

مبتدأ، وجملة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾ أو صفة لـ ﴿حَكِيمٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ ربما بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها: كلمة[1] تدل على أن ما بعدها قليل الحصول أو كثيره، فإذا قيل: ربما زارنا فلان.. دل على أن حصول الزيارة منه قليل، ولكنها هنا للتكثير كما في «مغني اللبيب»، قال أبو حاتم[2]: أهل الحجاز يخففونها، ومنه قول الشاعر:

رُبَّـمَـا ضَـرْبَـةٍ بِـسَـيْـفٍ صَـقِـيْـلٍ بَـيْـنَ بُـصْـرَىٰ وَطَـعْـنَـةٍ نَـجْـلَاءِ

وتميمٌ وربيعة يثقلونها، وقد تزاد التاء الفوقية، وأصلها: أن تستعمل في القليل، وقد تستعمل في الكثير، وقد جمع[3] معناها وشروطها بعضهم في بيتين فقال:

خَـلِـيْـلَـيَّ لِـلـتَّـكْـثِـيْـرِ رُبَّ كَـثِـيْـرَةٌ وَجَـاءَتْ لِـتَـقْـلِـيْـلٍ وَلَـكِـنَّـهُ يَـقِـلّ
وَتَـصْـدِيْـرُهَـا شَـرْطٌ وَتَـأْخِـيْـرُ عَـامِـلٍ وَتَـنْـكِـيْـرُ مَـجْـرُوْرٍ بِـهَـا هَـكَـذَا نُـقِـلْ

وقيل: هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع، لا في كلها لشغلهم بالعذاب، قيل: و﴿ما﴾ هنا لحقت رب لتهيئها للدخول على الفعل، ﴿يَوَدُّ﴾ مضارع ودد من باب فعل المسكور، يقال وددت لو تفعل كذا ـ بالكسر ودًّا بالضم والفتح ووداداً ووداداة بالفتح فيهما ـ؛ أي: تمنيت وددت لو أنك تفعل كذا مثله اهـ «مختار».

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات القيومية.

﴿ذَرْهُمْ﴾: هذا[1] الأمر لا يستعمل له ماض إلا قليلاً استغناء عنه بترك، بل يستعمل منه المضارع نحو: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ومن مجيء الماضي قوله ﷺ: «ذَرُوا الحبشة ما وذرتكم».

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ الهاء الأولى من بنية الفعل، والثانية مفعول به، يقال ألهاه كذا إذا شغله، ولهى هو عن الشيء يلهى إذا شغل، ومنه قولهم لهيت عن الشيء ألهى لهياً إذا أعرضت عنه، والأمل التوقع في طول الحياة، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وفي «المصباح» أملته أملاً ـ من باب طلب ـ ترقبته، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله.

﴿لَّوْ مَا﴾ مثل هلاَّ، كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها، وفي «السمين» لَوْما حرف تحضيض كهلا وتكون أيضاً حرف امتناع لوجود، وذلك كما أن لولا مترددة بين هذين المعنيين، وقد عرف الفرق بينهما، وهو أن التحضيضية لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، والامتناعية لا يليها إلا الأسماء لفظاً أو تقديراً عند البصريين، واختلف فيها هل هي بسيطةٌ أم مركبةٌ؟، فقال الزمخشري: لو ركبت تارةً مع لا وتارةً مع ما لمعنيين، وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض، واختلف أيضاً في لوما هل هي أصل بنفسها؟، أو فرع من لولا، وأن الميم مبدلة من اللام؟.

﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والشيع جمع شيعة، وهي الجماعة المتفقة على مبدأ واحد في الدين والمعتقدات، أو المذاهب والآراء، من شاعه إذا تبعه، وأصله الشياع، وهو الحطب الصغار توقد به الكبار، وفي «المصباح»: الشيعة الاتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعةٍ مخصوصة، والجمع شيع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع.

﴿نَسْلُكُهُۥ﴾؛ أي: ندخله، يقال: سلكت الخيط في الإبرة؛ أي: أدخلته فيها، وفي «المختار»: السلك بالكسر الخيط، وبالفتح مصدر سلك في الشيء

---

(١) الفتوحات الإلهية.

فانسلك؛ أي: أدخله فيه فدخل، وبابه نصر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ وأسلك لغة فيه، ولم يذكر في الأصل سلك الطريق إذا ذهب فيه، وبابه دخل، وأظنه سها عن ذكره، لأنه مما لا يترك قصداً.

﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾؛ أي: يصعدون، يقال: ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار، وهو من أخوات كان الناقصة.

﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾؛ أي: سدت ومنعت من الإبصار بالتخفيف والتشديد سبعيتان كما مر، فعلى التخفيف يقال سكرت النهر سكراً ـ من باب قتل ـ سددته، والسكر بالكسر ما يسدُّ به اهـ «مصباح» وقولنا بالتشديد؛ أي: لأجل التكثير والمبالغة اهـ «زاده».

﴿مَّسْحُورُونَ﴾. أي: سحرنا محمد ﷺ، بظهور ما أبداه من الآيات.

﴿بُرُوجًا﴾ البروج واحدها برج، وهي النجوم العظام، ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك؛ أي: منازل ومحال وطرقاً تسير فيها الكواكب السيارة.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾؛ أي: المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها، وحكمة مدبرها، وفي «السمين»: والنظر هنا عينيٌّ، وقيل قلبيٌّ، وحذف متعلقة ليعم.

﴿حفظناها﴾؛ أي: منعناها.

﴿رَّجِيمٍ﴾ والرجيم؛ أي: المرجوم المرمي بالرجام؛ أي: الحجارة، والمراد بالرجيم هنا المرميُّ بالنجوم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ والاستراق: افتعال من السرقة، وهي أخذ الشيء خفية، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، والمسترق المستمع خفية، كما في «القاموس»، والسمع المراد به هنا ما يسمع، واستراق السمع اختلاسه سرًّا.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ يقال: تبعت القوم تبعاً وتباعةً ـ بالفتح ـ؛ أي: مشيت خلفهم، أو مروا بك فمضيت معهم، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة، ومن السحاب في الجوِّ، واختلف المفسرون في المراد من الشهاب هنا على قولين:

أحدهما: أن الذي ينزل على الشيطان نفس الكوكب فيصيبه، ثم يرجع إلى مكانه.

والقول الثاني: أن الشهاب الذي يصيب الشيطان شعلة نار تنفصل من الكوكب، وتسميتها بالشهاب مجاز لانفصالها منه اهـ من «الخازن». وأما المبين فمعناه البين الواضح الظاهر، ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ومهدناها للسكنى، ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسية وهي الجبال الثوابت، يقال رسا يرسو رسواً ورسوًّا، إذا ثبت كأرسى.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ بالياء التصريحية، لأنه من العيش فالياء أصلية، فوجب تصريحها، وذلك لأنها في المفرد أصلية، لأن مفرده معيشة من العيش، والمد في المفرد. لا يُقْلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد، كما قال ابن مالك:

وَٱلْـمَـدُّ زِيْـدَ ثَـالِـثَـاً فِـيْ ٱلْـوَاحِـدِ هَـمْـزَاً يُـرَىٰ فِـيْ مِـثْـلِ كَـٱلْـقَـلَائِـدِ؟

وهذا في قراءة الجمهور، وقرىء بالهمز على التشبيه بشمائل، وقد ذكر في الأعراف وهي شاذة اهـ «كرخي». ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ الخزائن جمع خزانةٍ، وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال للحفظ، والمراد مفاتيحها، ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جمع ريح، وهو جسم لطيف منتشر في الهواء كما مر في مبحث التفسير، ﴿لَوَٰقِحَ﴾ وفي اللواقح أقوال:

أحدها: أنها جمع ملقح، لأنه من ألقح يلقح فهو ملقح، فجمعه ملاقح، فحذفت الميم تخفيفاً، يقال ألقحت الريح السحاب، كما يقال ألقح الفحل الأنثى، وهذا قول أبي عبيدة.

والثاني: أنها جمع لاقح، يقال: لقحت الريح إذا حملت الماء، وقال الأزهري: حوامل تحمل السحاب، كقولك ألقحت الناقة إذا حملت الجنين في بطنها، فشبهت الريح بها.

والثالث: أنها جمع لاقح على النسب، كلابن وتامر؛ أي: ذات لقاح، قاله الفراء. اهـ «سمين». وفي «المختار»: ألقح الفحل الناقة، والريح السحاب،

ورياح لواقح، ولا تقل ملاقح، وهو من النوادر، وفي «القاموس»: وألقحت الرياح، فهي لواقح وملاقح.

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾؛ أي: جعلناه لكم سقياً لمزارعكم ومواشيكم، تقول العرب إذا سَقَت الرجل ماء أو لبناً.. سقيته، وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته.. قالوا أسقيته، أو أسقيت أرضه أو ماشيته. ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ جمع وارث، وجمعه هنا للتعظيم، لأنه لا تاني له تعالى، والوارث في الأصل من يتخلف الميت في تملك تركته، وهذا المعنى مستحيل في حقه تعالى، لأنه مالك للموجودات بأسرها، أصالة لا خلافة، فوجب جعله مستعاراً لمعنى الباقي بعد فناء خلقه، تشبيها له بوارث الميت في بقائه بعد فنائه اهـ «زاده».

﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ اسم فاعل من استقدم بمعنى تقدم، فالسين زائدة، وكذا ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من استأخر بمعنى تأخر، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يجمعهم، من حشر من باب نصر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف الكتاب وتنكير القرآن في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للدلالة على التفخيم والتعظيم، كما ذكره «البيضاوي».

ومنها: عطف إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ إشعاراً بأنه الكلام الجامع بين الكتابية والقرآنية، كما في «روح البيان».

ومنها: الإتيان بلفظ الغيبة في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ نظراً إلى أنه مخبر عنهم، ولو نظر إلى الحكاية لقيل: لو كنا مسلمين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فالمراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال، فالمجاز حينئذٍ في الظرف، ويصح أن يكون من مجاز الحذف.

ومنها: إيراد الفعل على صيغة جمع المذكر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ للحمل على معنى أمة مع التغليب، ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور، وفيه الإتيان بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك، مع طلبهم له.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ لأن[1] كلمة إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير، فكأنهم قالوا: سكرت أبصارنا لا عقولنا، كما في «الجمل».

ومنها: الدلالة على التكثير والمبالغة في: ﴿سُكِّرَتْ﴾ على قراءة التشديد، وهي قراءة الجمهور.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ شبه اختطافهم الكلام المسموع بسرعة بأخذ المال خفية، فاستعار له الاستراق بمعنى الاختطاف، فاشتق منه استرق بمعنى اختطف، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ لأن الشهاب حقيقة في شعلة نار ساطعة، فاستعاره للكوكب.

ومنها: المجاز في قوله ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ لأنه بمعنى معلوم المقدار، فيكون[2] إطلاق الوزن عليه مجازاً؛ لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن كما في «الخازن».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾[3] شبَّه الجبال الرواسي ـ استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً ـ بحصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن، وما هو إلا تصوير لعظمته، وتمثيل لقدرته، وأن كل فعل عظيم يتحير فيه الأذهان، فهو هين عليه.

ومنها: الاستعارة التخييلية في قوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[4] شبهت

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

مقدوراته تعالى في كونها مستورة عن علوم العالمين، ومصونة من وصول أيديهم، مع كمال افتقارهم إليها، وكونها مهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلقت الإرادة بوجودها.. وجدت بلا تأخير، بنفائس الأموال المخزونة السلطانية، فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حيث شبهت الريح التي تجيء بالخير ـ من إنشاء سحاب ماطرٍ ـ بالحامل، كما شبه بالعقيم ما ليس كذلك.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأن السماء حقيقة في الفلك، فاستعارها للسحاب بجامع العلو في كل.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَآءً﴾ إشعار بأن النازل بعض الماء لا كله، بل قدر ما يصلون به إلى المنفعة، ويسلمون معه من المضرة.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ أكد بالجملة الاسمية، وبإن، وبالضمير.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿نحن الوارثون﴾ حيث استعار الوارث الباقي بعد فناء الميت، للباقي بعد فناء الخلق كلهم، بجامع حصول البقاء في كلٍّ، بعد فناء غيره.

ومنها: الطباق بين: ﴿نُحْيِۦ﴾ ﴿وَنُمِيتُ﴾، وبين: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ و﴿خازنين﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ
(٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ
اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ
يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ
مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا
مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا
بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ
(٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا
تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا
بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نبه[1] على منتهى الخلق، وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه.. نبههم على مبدأ أصلهم آدم، وما جرى

(١) البحر المحيط.

لعدوه إبليس من المحاورة مع الله تعالى، وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة، عقب ذكر الأمانة والإحياء، والرجوع إليه تعالى، وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة وذكر الموازين فيه، ويأتي ذكرها في الكهف بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة صَ بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه، فحيث ذكر منتهى هذا الخلق.. ذكر مبدأهم، وقصته مع عدوه إبليس، ليحذرهم من كيده، ولينظروا ما جرى له معه، حتى أخرجه من الجنة مقر السعادة والراحة، إلى الأرض مقر التكليف، فيتحرزوا من كيده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما أعد لأهل النار.. ذكر ما أعد لأهل الجنة، ليظهر تباين ما بين الفريقين، ولما كان حال المؤمنين معتنىً به.. أخبر أنهم في جنات وعيون، وجعل ما يستقرن فيه في الآخرة كأنهم مستقرون فيه في الدنيا، ولذلك جاء: ﴿أدخلوها﴾ على قراءة الأمر؛ لأن من استقر في الشيء.. لا يقال له أدخل فيه، وجاء حال الغاوين موعوداً به في قوله: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لأنهم لم يدخلوها.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[2] لما ذكر حال أهل الغواية، وبين أنهم في نار جهنم، يخلدون فيها أبداً، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض، بمقدار ما اجترحوا من السيئات، واقترفوا من المعاصي.. أردفه بذكر حال أهل الجنة، وما يتمتعون به من نعيم مقيم، ووفاق بعضهم مع بعض، لا ضغن بينهم ولا حقد، وهم يتحدثون على سرر متقابلين، ولا يجدون مس التعب والنصب، ولا يخرجون منها أبداً.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا[1] ذكر ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين، بحسب اختلاف أحوالهم، بمقدار ما دنسوا به أنفسهم، من اتخاذ الأنداد والشركاء، وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين، من الجنات والعيون، والنعيم المقيم، والراحة التي لا نصب بعدها ولا تعب، وجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون، ويتجاذبون أطراف الأحاديث، وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين.. أردف ذلك فذلكة وخلاصة لما سبق، فأمر نبيه ﷺ أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي، ولم يتوبوا منها، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ، فسأله، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فوالذي بعثك بالحق قطعت قلبي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ...﴾ الآية، سب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عليِّ بن الحسين: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر يعني قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قيل: وأي غل؟ قال: غلُّ الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل عليٌّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ الآيتان، سبب

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

نزولهما: ما أخرجه[1] الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مر رسول الله ﷺ بنفرٍ من أصحابه يضحكون، فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم؟» فنزلت هذه الآية ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾، وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر، ثم رجع القهقرى، فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر.. جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى يقول لك لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا وأوجدنا ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: آدم سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي اهـ «خازن» أو[2] خلقنا هذا النوع الإنساني بأن خلقنا أصله وأول فردٍ من أفراده خلقاً بديعاً منطوياً على خلق سائر أفراده إنطواءً إجماليًّا. ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: من طين يابس غير مطبوخ، يصلصل؛ أي: يصوت عند نقره، وإذا طبخ؛ أي: مسته النار.. فهو فخار؛ أي: خلقنا آدم من صلصال كائن ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾؛ أي: من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء ﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفة حمأ؛ أي: منتن، أو مصور بصورة آدمي، من سنة الوجه، وهي صورته، أو مصبوب من سنَّ الماء إذا صبه؛ أي: مفرغ على هيئة الإنسان، كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، كالرصاص والنحاس ونحوهما، كأنه سبحانه أفرغ الحمأ، فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس، إذا نقر صوَّت، ثم غيره إلى جوهر آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قال المفسرون[3]: خلق الله آدم عليه السلام من طين، فصوره وتركه في

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف، ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه، إلى أن نفخ فيه الروح.

والمعنى[١]: وعزتي وجلالي لقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس، يصلصل ويصوت إذا نقر، أسود متغير مفرغ في قالب ايجف، ويبس كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة، وكان أوّلاً تراباً، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ثم كان طيناً كما قال: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ثم كان صلصالاً من حمأ مسنون، كما جاء في هذه الآية، وإنما خلقه على ذلك ليكون خلقه أعجب وأتم في الدلالة على القدرة.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ منصوب على الإشتغال ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل خلق آدم عليه السلام، قال ابن عباس[٢]: الجان أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، وقال قتادة: هو إبليس، وقيل: الجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون، يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون، ولا يموتون إلا إذا مات إبليس، وقال وهب: إن من الجن من يولد له، ويأكلون ويشربون، وهم بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح، لا يتوالدون ولا يشربون ولا يأكلون، وهم الشياطين، والأصح[٣] أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سموا جنًّا لتواريهم واستتارهم عن الأعين، من قولهم: جن الليل إذا ستر، والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي: من نار هي السموم، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع؛ أي: النار السموم، كما ذكره في «البحر»؛ أي: «من» نار هي الريح الحارة، النافذة في مسام الإنسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله،

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) الخازن.

والمسام ثقب الشعر في البدن، وتعمُّ جميع ثقبه كالفم والمنخر والأذن، فإن السموم في اللغة الريح الحارة، والريح الحارة فيها نار، والفرق بين السموم والحرور: أن السموم الريح الحارة التي تكون في النهار، والحرور الريح الحارة التي تكون بالليل، وقد تكون بالنهار، وقال أبو صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء والحجاب، فإذا حدث أمر.. خرقت الحجاب، فهوت إلى ما أمرت به، فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب، وقيل: من نار السموم؛ أي: من نار جهنم، وقال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجانُّ، وتلا هذه الآية، وقال ابن عباس: كان إبليس من حيٍّ من الملائكة يسمون الجا، خلقوا من نار السموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وخلقت الملائكة من النور، وذكر[1] خلق الإنسان والجان في هذا الموضع للدلالة على القدرة الإلهية، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى.

وقدم[2] خلق الإنسان على الجان، مع أنه خلق قبله تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، وكان بين خلق آدم والجن ستون ألف سنة، واتفق أهل العلم من أهل التحقيق على أن عالم الملك مقدم خلقه على عالم الجان، وعالم الجان مقدم على عالم الإنسان، وانتقل ملك الدنيا إلى آدم، ليحصل له الاعتبار بالسابقين، ويظهر له الفضل على الكل بتأخيره عن جميع المخلوقات، لأنه كالخاتم على الباب، وهو خاتم المخلوقات، ونتيجة الكائنات، ونسخة الكليات من المحسوسات والمعقولات، وبه تم كمال الوجود، لتحققه بوصفي الجمال والجلال، واللطف والقهر، بخلاف الملك فإنه مخلوقٌ على جناح واحد هو اللطف، ولم يكن قبل آدم خلق من التراب، فخلق آدم منه ليكون عبداً خضوعاً وضوعاً ذلولاً مائلاً إلى السجود، لأنه مقام العبودية الكاملة، فكل جنس يميل إلى جنسه، ولهذا تواضع آدم لله، واستكبر إبليس عن التواضع، فأبى وعلا وتكبر،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

فمال إلى جنسه، لأنه خلق من نار.

والمعنى[1]: أي وخلقنا هذا الجنس من نار الريح الحارة، التي لها لفح وتقتل من أصابته، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكنا لا نعرف كُنْهَ ذلك ولا حقيقته، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: ﴿والجَأْن﴾ بالهمز، ذكره في «البحر».

وبعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان الأول في معرض الاستدال على قدرته.. ذكر ما قاله للملائكة في شأنه فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين كانوا[2] في الأرض، وهم كانوا عشرة آلاف، كذا قالوا، والظاهر العموم وعدم التخصيص، لأنه تخصيص بلا مختص ولا نص ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾؛ أي: إنِّي أخلق آدمياً ظاهر البشرة غير مستورها بالشعر، لأنه جسم كثيف ظاهر الجلد، والبشر مأخوذ من البشرة، وهي ظاهر الجلد، وعبر باسم الفاعل الدال على التحقيق إشعاراً بتحققه ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي من طينٍ يابسٍ مصوت عند نقره، متعلق بـ﴿خالقٌ﴾، أو صفة لـ﴿بشراً﴾؛ أي: بشراً كائناً من صلصال كائن ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين أسود منتن.

شاورهم الله سبحانه وتعالى بصورة الامتحان، ليميز الطيب؛ أي: الملك من الخبيث؛ أي: إبليس، فسلم الملك وهلك إبليس، ولذلك قيل: عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، وقيل: أخبرهم سبحانه بتكوين آدم قبل أن يخلقه، ليوطنوا أنفسهم على فناء الدنيا، وزوال ملكوتها، كما قال تعالى لآدم ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ والسكنى لا تكون إلا على وجه العارية، ليوطن نفسه على الخروج من الجنة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: سويت خلقه، وعدلت صورته الإنسانية، وكملت أجزاءه. ﴿وَنَفَخْتُ﴾؛ أي: وأجريت وأدخلت ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الإنسان المسوى ﴿مِن رُّوحِى﴾ ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: نفخت فيه روحي، أو

---

(١) المراغي. (٢) تنوير المقباس.

تبعيضية أي: نفخت فيه روحاً هي بعض الأرواح التي خلقتها؛ أي: أدخلتها وأجريتها فيه، والإضافة في روحي للتشريف، كبيت الله، وناقة الله، كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله تعالى، قال القرطبي: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، انتهى. والنفخ[1] إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، فإذا كملت استعداده، وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التي من أمري.. ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: فاسقطوا وخروا، حالة كونكم ساجدين تجاه ذلك الإنسان سجود تحية وإكرام، لا سجود عبادة وتعظيم، بأن تسجدوا لله متوجهين لآدم، كالقبلة تشريفاً له، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته بما يشاء وكيف يشاء، وفي قوله: ﴿فَقَعُواْ﴾[2] دليل على أنه ليس المأمور به مجرد الإنحناء كما قيل؛ أي: اسقطوا له ساجدين، امتثالاً لأمر الله تعالى، وتحية لآدم وتكريماً له، واسجدوا لله على أنه عليه السلام بمنزلة القبلة، حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته وحكمته ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح، وجعل فيه الحياة، فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد أرضياً كان أو سماوياً ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن السجود، بل سجدوا مجتمعين دفعة واحدة، ولا ريب في أن السجود معاً أكمل أصناف السجود فيحمل عليه، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كان[3] بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلا هذا، وجملة قوله ﴿أَبَىٰٓ﴾ إبليس وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: أن يكون مع الملائكة الذين أمروا بالسجود، ﴿فسجدوا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه؛ أي: عدم سجوده لم يكن من تردده، بل من إبائه واستكباره، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، فيتصل به ما بعده؛ أي: لكن إبليس أبى أن يكون معهم في السجود لآدم استكباراً واستعظاماً لنفسه، وحسداً لآدم

---

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.
(٣) الكشاف.

فحقت عليه كلمة الله تعالى.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾؛ أي: أيُّ عذر لك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾؛ أي: في أن لا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم، مستأنفة أيضاً، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه وتعالى لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا[1] الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ.

والمعنى: أيُّ غرض لك في الامتناع من السجود، وأيُّ سبب حملك على أن لا تكون مع الساجدين لآدم من الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها.

فإن قلت: كيف[2] يعقل هذا الخطاب، مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب، وأشرف المراتب، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة؟

قلتُ: إن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصباً عالياً إذا كانت على سبيل الإكرام والإعظام، فأما إذا كانت على سبيل الإهانة والإذلال فلا اهـ. «كرخي».

﴿قَالَ﴾ إبليس، وهو استئناف بياني أيضاً ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ واللام لتأكيد النفي؛ أي: ينافي حالي، ولا يستقيم مني، ولا يليق بي وأنا جوهر روحاني أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾؛ أي: لجسم كثيف ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾؛ أي: من طين يابس كائن ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾؛ أي: من طين أسود منتن، جعل[3] العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون، زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه، وقد صرح بذلك في موضع آخر فقال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ فأجاب الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس اللعين: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، أو من زمرة

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات.

(٣) الشوكاني.

الملائكة، أمر إهانة وإبعاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾، وخروجه[١] من الجنة لا ينافي دخولها بطريق الوسوسة، وكذا يستلزم خروجه من السموات أيضاً ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مطرود من رحمة الله، ومن كل خير وكرامة، من الرجم بالحجارة، لأن من يطرد يرجم بالحجارة، أو من الرجم بالشهب، وهو كناية عن كونه شيطاناً؛ أي: من الشياطين الذين يرجمون بالشهب، والفاء في قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ واقعة في[٢] جواب شرط مقدر؛ أي: فحيث عصيت وتكبرت فاخرج منها، وفي قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليلة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾؛ أي: الطرد والإبعاد عن الرحمة، أو إن عليك لعنتي كما في سورة ص، فأل عوض عن المضاف إليه، فاختلاف العبارة للتفنن فلا اعتراض.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي يوم الجزاء؛ أي: إنك مدعو عليه باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الحساب، من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم.. عذب عذاباً ينسى اللعن معه، فيصير اللعن حينئذٍ كالزائل، بسبب أن شدة العذاب تذهل، أو المعنى: عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمرًّا عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم القيامة غاية للعنةِ لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت، لأن المراد دوامها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في التأبيد، ويؤيده وقوع اللعن في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو لعن مقارن بالعذاب الأليم، نسأل الله الفوز والسلامة.

فإن قلت[٣]: إن حرف إلى لانتهاء الغاية، فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين، الذي هو يوم القيامة؟

قلتُ: لا بل يزداد عذاباً إلى اللعنة التي عليه، كأنه قال تعالى: وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين، ثم تزداد بعد ذلك عذاباً دائماً مستمراً لا انقطاع له.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ الآيات؛ أي[1]: واذكر أيها الرسول لقومك، حين نوه ربكم بذكر أبيكم آدم في ملائكته قبل خلقه، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وتخلف إبليس عن السجود له، من بين سائر الملائكة حسداً وعناداً واستكباراً بالباطل، فقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ إلخ. وحكي عنه في آية أخرى أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وتقدم هذا القصص في سورة الأعراف، وقلنا هناك: إن الأمر بالسجود أمرٌ تكليفي، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان، إذ جعل الملائكة ـ وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم ـ مسخرين لآدم وذريته، وجعل هذا النوع الإنساني مستعداً للانتفاع بالأرض كلها، لعلمه بسنن الله فيها، وعمله بهذا السنن، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها، واصطفى بعض أفراده بوحيه ورسالته، وجعلهم مبشرين ومنذرين، وجعل الشيطان عاصياً متمرداً على الإنسان وعدوا له، وجعل النفوس البشرية وسطاً بين النفوس الملكية، المفطورة على طاعة الله، وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم الشياطين التمرد والعصيان.

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس، وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه، فإنه خلق من النار، وآدم من الطين، والنار خير من الطين، وأشرف منه، والشريف لا يعظم من دونه، ولو أمره ربه بذلك.

وفي هذا ضروب من الجهالة[2]، وأنواع من الفسق والعصيان، فإنه:

١ ـ اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه.

٢ ـ احتج عليه بما يؤيد اعتراضه.

٣ ـ جعل امتثال الأمر موقوفاً على استحسانه وموافقته لهواه، وهذا رفض لطاعة الخالق، وترفع عن مرتبة العبودية.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

٤ ـ استدل على خيريته بالمادة التي منها التكوين، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباريٌّ، تختلف فيه الآراء، كما أن الملائكة خلقوا من النور، وهو قد خلق من النار، والنور خير من النار، وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

٥ ـ قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمي والعملي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم.

﴿قَالَ﴾ إبليس ـ عليه لعنة الله ـ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾؛ أي: أخرني، وأمهلني، ولا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: آدم وذريته، للجزاء بعد فنائهم، والبعث إحياء الميت، كالنشر، والفاء[1] واقعة في شرط مقدر دل عليه قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي إذا جعلتني رجيماً.. فأمهلني، وأخرني إلى يوم يبعثون، وهو يوم القيامة، أراد الملعون بذلك السؤال أن لا يذوق الموت لاستحالته بعد يوم البعث، وأن يجد فسحة لإغوائهم؛ ويأخذ منهم ثأره، فأجابه إلى الثاني دون الأول كما قال تعالى: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا لعين ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من المؤجلين الذين أخرت آجالهم أزلاً، ودل على أن ثمة منظرين غير إبليس، وهم الملائكة، فإنهم ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يموتون إلى آخر الزمان، وأما الشياطين فذكور وإناث يتوالدون، ولا يموتون بل ينظرون كما أنظر إبليس، وأما الجن فيتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون.

ثم بين سبحانه الغاية التي أمهله إليها فقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: المعين عند الله تعالى، لا يتقدم ولا يتأخر، وهو وقت موت الخلق عند النفخة الأولى، ثم لا يبقى بعد ذلك حي إلا الله تعالى أربعين سنة، إلى النفخة الثانية، وأراد اللعين بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً، لأنه إذا أمهل إلى يوم البعث الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك؛ لانقطاع الموت حين النفخة الأولى، فعلم أنه إذا أمهل إلى يوم البعث.. أمهل إلى الأبد، فأجابه الله تعالى

(١) روح البيان.

بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، فتموت فيها، ثم تبعث مع الناس، فمدة موته أربعون سنة، وهي ما بين النفختين، ولم تكن إجابة الله له في الإمهال إكراماً له، بل زيادة في شقاوته وعذابه اهـ «خازن».

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ ﴿الباء﴾ للقسم و﴿ما﴾ مصدرية، وجواب القسم قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ أي: أقسم بإغوائك إياي لأزينن ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لذرية آدم، المعاصي والشهوات واللذات، فالمفعول محذوف ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في الدنيا التي هي دار الغرور، كما في قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن الأرض محل متاعها ودارها، وفي «التِبْيان»: أُزين لهم المقام في الأرض، كي يطمئنوا إليها، وإقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه كما في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لا ينافي إقسامه بهذا الإغواء، فإنه فرع من فروعها، وأثر من آثارها، فلعله أقسم بهما جميعاً، فحكى تارة قسمه بصفة فعله وهو الإغواء، وأخرى بصفة ذاته وهي العزة، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به، فلا يلتفتون إلى غيرها ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولأحملنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ على الغواية والضلالة ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾؛ أي: من ذرية آدم؛ أي: إلا عبادك ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ منهم، الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من شوائب الشرك الجلي والخفي، فلا يعمل فيهم كيدي، فإنهم أهل التوحيد الحقيقي، على بصيرة من أمرهم ويقظة، وكفاك في شرف الصدق أن اللعين ما رضي لنفسه الكذب حتى استثنى المخلصين.

والمعنى(١): أي قال إبليس: رب بسبب إغوائك إياي وإضلالي لأزينن لذرية آدم، وأحببن إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، ولأغوينهم كما أغويتني وقدرت علي ذلك، إلا من أخلص منهم لطاعتك، ووفقته لهدايتك، فإن ذلك مما لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به.

وقرأ الكوفيون ونافع والحسن والأعرج(٢): ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام، ومعناه: أي اللذين أخلصهم الله تعالى للطاعة، بالتوفيق والعصمة، وعصمهم من

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) البحر المحيط.

كيد إبليس، فلا يؤثر فيه تزييني، وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسرها، في كل القرآن؛ أي: إلا من أخلص العمل لله، ولم يشرك فيه غيره ولا رأى به؛ أي: الذين أخلصوا دينهم عن كل شائب يناقض التوحيد، قال أحمد ابن حنبل - رحمه الله تعالى -: أعداؤك أربعة:

١ - الدنيا، وسلاحها لقاء الخلق وسجنها العزلة.

٢ - والشيطان، وسلاحه الشبع وسجنه الجوع.

٣ - والنفس، وسلاحها النوم وسجنها السهر.

٤ - والهوى، وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

قال الله تعالى لإبليس: ﴿هَٰذَا﴾ الإخلاص الذي يكون في عبادي ﴿صِرَٰطٌ﴾؛ أي: طريق ﴿عَلَيَّ﴾ مراعاته وحفظه، لا سبيل لك عليه، وقيل: علي بمعنى إلى؛ أي: هذا الإخلاص طريق إليَّ؛ أي: يؤدي إلى كرامتي وثوابي ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا عوج فيه. ولا انحراف، وقرأ الضحاك[1]، وإبراهيم، وابن سيرين، وأبو رجاء، ومجاهد، وقتادة، وقيس بن عباد، وحميد وعمرو بن ميمون، وعمارة ابن أبي حفصة، وأبو شرف مولى كندة، ويعقوب: ﴿عَلِيٌّ﴾ بكسر السلام وبالرفع والتنوين على أنه صفة لـ ﴿صراطٌ﴾؛ أي: هذا الإخلاص طريق رفيع عالٍ، لارتفاع شأنه، مستقيم لا عوج فيه، وهذه القراءة على أن الإشارة إلى الإخلاص، فإيثار[2] حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء لتأكيد الاستقامة، والشهادة باستعلاء من ثبت عليه، فهو أدل على التمكين من الوصول، وهو تمثيل؛ إذ لا استعلاء لشيء على الله تعالى، والإضافة في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ إضافة تشريف؛ أي: إن عبادي المخلصين الذين ذكرتهم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على إغوائهم ﴿سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: قدرة أصلاً؛ أي: لا تسلط لك عليهم، بإيقاعهم في ذنب يهلكون به، ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما، فإنه ذنب مغفور، لوقوع التوبة عنه، وقيل المراد بعبادي

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

العموم، ليصح الاستثناء منه في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾؛ أي: إن عبادي سواء كانوا مخلصين، أو لم يكونوا مخلصين ليس لك عليهم تسلط، وتصرف بالإغواء، إلا من اتبعك باختيارهم من الغاوين؛ أي: الضالين، فإن له عليهم سلطاناً، بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به، وفيه إشارة إلى أن إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان، بمعنى القهر والجبر، بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم، فيسلط عليهم بالوسوسة والتزيين.

والمعنى: إن عبادي لا سلطان لك على أحد منهم، سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين، لكن من اتبعك باختياره.. صار من أتباعك، وقال سفيان بن عيينة: ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي.

والخلاصة[1]: أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً، بقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأكذبه الله بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ إلخ.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ سجن الله في الآخرة، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي: لمكان وعد المتبعين الغاوين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير، والعامل[2] الإضافة يعني الاختصاص، لا اسم مكان فإنه لا يعمل، أو حال منه؛ أي: وإنَّ جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، وهي مقرهم وبئس المهاد، جزاء ما اجترحوا من السيئات، وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي.

و﴿جَهَنَّمَ﴾: معرب، فارسي الأصل، وفي «تفسير الفاتحة» للفناري: سميت جهنم لبعد قعرها، يقال: بئر جهنام؛ أي: بعيدة القعر، وقعرها خمس وسبعون مئة من السنين، وهي أعظم المخلوقات، سجن الله في الآخرة، ﴿لَهَا﴾؛ أي: لجهنم ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾؛ أي: سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والضلالة، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بأنها جهنم، والسعير، ولظى، والحطمة، وسقر، والجحيم، والهاوية، وهي أسفلها، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها؛ أي: لها سبعة أبواب، كل باب فوق باب، على قدر

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الطبقات، لكل طبقة باب.

﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من تلك الأبواب المنفتح على طبقة من الطبقات. وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الأتباع الغواة حالٌ من قوله: ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾؛ أي: قدر معلوم وضرب معين مفرز من غيره، حسبما يقتضيه استعداده، قال ابن جريج: النار سبع دركات، وهي جهنم ثم لظى ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية، فأعلاها للعصاة الموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطبقات، ثم ما بعدها تحتها وهكذا، ولا ريب أن من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فإنه لا يبقى مخلداً في جهنم، فتبقى جهنم خالية، وأما الطبقات السافلة فأهلها خالدون، واختلفت الروايات في ترتيب طبقات النار، وفي الأكثر جهنم أوَّلها، وفيما بعدها اختلاف أيضاً، وليس في هذا كله أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه، وقيل: خلق[1] الله تعالى للنار سبعة أبواب، دركات بعضها تحت بعض، وللجنة ثمانية أبواب، درجات بعضها فوق بعض، لأن الجنة فضل، والزيادة في الفضل والثواب كرم، وفي العذاب جور، وقيل: الأذان سبع كلمات، والإقامة ثمان، فمن أذن وأقام.. غلقت عنه أبواب النيران، وفتحت له أبواب الجنة الثمانية.

وفي «الخطيب»: تنبيه: تخصيص[2] هذا العدد، لأن أهلها سبع فرق، وقيل جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة، من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، لأنها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة، ولما كانت هي بعينيها مصادر الحسنات بشرط النية، والنية من أعمال القلب.. زادت الأعضاء واحداً، فجعلت أبواب الجنة ثمانية.

والمعنى: أن الله تعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار، والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة، فلذلك اختلفت

---

(١) روح البيان. (٢) الخطيب.

مراتبهم في النار.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه، فأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه يمتعون ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين، تجري من تحتها الأنهار ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: وأنهار من ماء غير أسنٍ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه أي: مستقرون فيها، لكل واحد منهم جنة وعين، على ما تقضِ قاعدة مقابلة الجمع بالجمع، ويقال لهم عند وصولهم إلى الباب: ادخلوها بسلام آمنين، والقائل هو الله تعالى، أو بعض ملائكته؛ أي: ادخلوا الجنة، حالة كونكم متلبسين بسلام من الآفات والمنغصات، آمنين من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم، وأكرمكم بها، لا تخافون إخراجاً ولا فناءً ولا زوالاً، أو مسلِّمين بعضكم على بعض، أو مسَلَّمَا عليكم من الملائكة، أو من الله عز وجل.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام[1]: ﴿وعيون﴾ بضم العين، وباقي السبعة بكسرها، وقرأ الحسن ﴿أَدْخلُوها﴾ ماضياً مبنياً للمفعول من الإدخال، وقرأ يعقوب في رواية رويسٍ كذلك، وبضم التنوين، وعنه فتحه، وما بعده أمر على تقدير: أدخلوها إياهم، من الإدخال، أمر الملائكة بإدخال المتقين الجنة، وتسقط الهمزة في القراءتين، وقرأ الجمهور: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أمرٌ من الدخول، فعلى قراءتي الأمر ثَم محذوف؛ أي: يقال لهم، أو يقال للملائكة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾؛ أي: أخرجنا ما في قلوبهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾؛ أي: من حقد وحسد وبغض وعداوة كامنة، كانت بينهم في الدنيا، وصفيناهم منها، وقوله: ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال[2] من الضمير في ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: إن المتقين مستقرون في جنات وعيون، حالة كونهم إخوة في المحبة والمودة والتعاطف، وزاد في هذه السورة ﴿إِخْوَٰنًا﴾ لأنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ، وما سواها عام في المؤمنين، وحالة كونهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ مكللة بالجواهر، جمع سرير، وقيل هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، وحالة كونهم ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: يقابل بعضهم

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

بعضاً، وينظر بعضهم وجه بعض، لدوران الأسرة بهم؛ أي إنهم[1] إذا اجتمعوا وتلاقوا، ثم أرادوا الانصراف.. يدور سرير كل واحد منهم بحيث يسير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده، وقفاه إلى الجهة التي يسير لها السرير، وهذا أبلغ في الأنس والإكرام. اهـ شيخنا.

والمعنى: وأخرجنا[2] ما في صدور هؤلاء المتقين ـ الذين ذكرت صفتهم ـ من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض، روى القاسم عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من غلٍّ، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

والخلاصة: أن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غلٍّ، وألقي فيها التواد والتحاب والتصافي، حالة كونهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾؛ أي: لا يمس المتقين ولا يصبهم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب[3] وإعياء، لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة، لأنها نعيم خالص، ولذة محضة، تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً وعفواً، روى الشيخان أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: عن الجنات والعيون ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ أبد الآباد، لأن تمام النعمة بالخلود؛ أي: وهم خالدون فيها أبداً لا يبرحونها، يشعرون بلذة النعيم ودوامه، فهم في خلود بلا زوال، وكمال بلا نقصان، وفوز بلا حرمان.

والخلاصة[4]: أن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت فيه أمور:

١ ـ أن يكون مقروناً بالتعظيم، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)﴾

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

٢ ـ أن يكون خالصاً من شوائب الضرر، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾، أو جسمانية كالإعياء والتعب، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

٣ ـ أن يكون دائماً غير قابل للزوال، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وفي هذا[١] الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإن علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعمته، وتكدر لذته.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد أن قص علينا ما عنده للمتقين من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿نَبِّئْ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِي﴾؛ أي: أعلمهم وأخبرهم بـ ﴿أَنِّي أَنَا﴾ وحدي، فهو لقصر المسند على المسند إليه ﴿الْغَفُورُ﴾؛ أي: الكثير المغفرة لذنوبهم ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي، إن رحمتي سبقت غضبي، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة، وانغمسوا في بحار الرضا والمحبة.

ثم إنه لما أمر رسول الله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة.. أمر بأن يذكر لهم شيئاً مما يضمن التخويف والتحذير، حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير، ليكونوا راجين خائفين فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾؛ أي: الكثير الإيلام.

والمعنى[٢]: أخبر أيها الرسول عبادي أنني أنا الذي أستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها، وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم، بأن لا أعذبهم بعد توبتهم منها، وفي قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ إيماء إلى أنه ينبىء كل من كان معترفاً بعبوديته، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والعاصي، ولا يخفى ما في ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة، وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن أصر على المعاصي، وأقام عليها، ولم يتب منها،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

هو العذاب المؤلم الموجع، الذي لا يشبهه عذاب آخر، وفي هذا تهديد شديد وتحذيرٌ لخلقه أن يقدموا على معاصيه.

وفي هذه الآية لطائف[1]:

منها: أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ وهذا تشريف وتعظيم لهم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة الإسراء.. لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا ذكر الرحمة والمغفرة.. بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة، أولها: قوله: ﴿أَنِّىٓ﴾ وثانيها: ﴿أَنَا﴾، وثالثها: إدخال الألف واللام في: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة، ولما ذكر العذاب.. لم يقل: إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ على سبيل الإخبار.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ بأن يبلغ عباده هذا المعنى، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة لعباده، ثم ذكر سبحانه قصصاً تقدم مثله بأسلوب آخر في سورة هود.

وبدأ قصص إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ الخليل عليه السلام، وهذا معطوف على ما قبله؛ أي: وأخبر يا محمد عبادي عن قصة ضيف إبراهيم، وقرأ أبو حيوة: ﴿ونبِّيْهم﴾ بإبدال الهمزة ياء، وأصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا ملت إليه، والضيف من مال إليك نزولاً بك، وصارت صفة الضيافة متعارفة في القرى، وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يجمع فيقال: أضياف وضيوف وضيفان، وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا إبراهيم بالولد، ويهلكوا قوم لوط، وفيهم جبريل وميكائيل عليهما السلام،

---

(١) الخازن.

وانتصاب ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾؛ أي: واذكر لهم دخولهم عليه، ﴿فَقَالُوا۟﴾ عند دخولهم عليه: ﴿سَلَٰمًا﴾؛ أي: نسلم عليك سلاماً، ﴿قَالَ﴾ سلام عليكم، فما لبثت أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه.. نكرهم، وأوجس منهم خيفة، وقال إبراهيم للضيف ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: إنا خائفون منكم، لأنهم[1] دخلوا عليه بلا إذن، وفي وقت لا يجيء في مثله طارق، أو لأنه حين قرب إليهم العجل الحنيذ لم يأكلوا منه، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام.. يظن أنه لم يأت لخير، ويؤيد هذا قوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، والوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال الضيوف الملائكة لإبراهيم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾؛ أي: لا تخف يا إبراهيم منَّا، وقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف[2] في معنى التعليل، للنهي عن الوجل، فإن المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن، كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً، والبشارة هي الإخبار بما يظهر سرور المخبر به؛ أي: لا تخف يا إبراهيم منا لأنا جئناك بالبشرى ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: بولد هو إسحاق، ذو علم وفطنة وفهم لدين الله، وسيكون له شأن، لأنه سيصير نبياً، ونحو الآية قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ وقيل: معناه عليم في صغره، حليم في كبره.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ مبيناً للفاعل، وقرأ الحسن بضم التاء مبنياً للمفعول من الإيجال، وقرىء ﴿لا تَاجَلْ﴾ بإبدال الواو ألفاً، كما قالوا تابة في توبة، وقرىء ﴿لا تواجل﴾ من واجله بمعنى أوجله، ثم قال إبراهيم متعجباً من مجيء ولد من شيخ وعجوز: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثر فيَّ. والاستفهام[4] فيه للتعجب والاستبعاد عادة، و﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى مع؛ أي: مع مس الكبر وإصابته إياي؛ أي: إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر، وأمر عجيب من بين الهرمين، وهو حال؛ أي: أبشرتموني حالة كوني كبير السن، أو بمعنى بعد؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

أي: بعد ما أصابني الكبر والهرم، وقرأ الأعرج: ﴿بشرتموني﴾ بغير همزة الاستفهام، وقرأ ابن محيصن ﴿الكُبْر﴾ بضم الكاف وسكون الباء؛ أي: بشرتموني بذلك مع مس الكبر وتأثيره فيَّ، وتلك حال تنافي هذه البشرى، وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجيب واستبعاد مؤكد للأول، وكأنه لم يعلم أنهم ملائكة رسل الله إليه، فلذلك استفهم، واستنكر أن يولد له، ولو علم أنهم رسل الله... ما تعجب ولا استنكر، ولا سيما قد رأى من آيات الله عياناً كيف أحييٰ الموتىٰ؛ أي فبأي[1] أعجوبة تبشرون إذ لا سبيل في العادة إلى مثل ذلك، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف أيعطى هذا الولد مع بقائه على حاله من الشيخوخة التامة، أو يرجع شاباً ثم يعطي الولد، لما جرت به العادة من أن الولد لا يكون إلا حين الشباب، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿فَبِمَ﴾ هي ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، حذفت ألفها في حالة الجر فرقاً بينها وبين ما الموصولة؛ وقرأ[2] الحسن: ﴿تُبشِّرُونِّي﴾ بنون مشددة وياء المتكلم، أدغم نون الرفع في نون الوقاية، وابن كثير بشدها مكسورة دون ياء، ونافع بكسرها مخففة، وغلطه أبو حاتم، وقال: هذا يكون في الشعر اضطراراً، وخرجت على أنه حذف نون الوقاية، وكسر نون الرفع للياء، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها، وقرأ باقي السبعة بفتح النون، وهي علامة الرفع، قال الحسن: فبم تبشرون على وجه الاحتقار وعدم المبالاة بالمبشرات، لمضي العمر واستيلاء الكبر، وقال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، فأجابوه مؤكدين ما بشروه به، تحقيقاً لما قالوا، وليكون بشارة بعد بشارة بما بينه سبحانه.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال ضيف إبراهيم له ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بشرناك بما يكون حقاً لا محالة فيه، وإنَّا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاماً، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾؛ أي: فلا تكن يا إبراهيم من الآيسين، الذين يقنطون وييئسون من فضل الله ورحمته، فييأسوا من خرق العادة، بل أبشر بما بشرناك به، واقبل البشرى.

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

والخلاصة[١]: أنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه، فاستفهم هذا الاستفهام التعجبي المبني على السنن التي أجراها الله بين عباده، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله، فهو أجل من ذلك قدراً، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين، فكيف من شيخ عجوز فانٍ وعجوز عاقر، وقرأ الجمهور[٢]: ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ بإثبات الألف، وقرأ يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش ورويت عن أبي عمرو: ﴿من القانطين﴾ من قنط يقنط من باب فرح، والاستفهام في قوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ إنكاري؛ أي: قال إبراهيم للضيف لا يقنط ولا ييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب، فلا يعرفون سعة رحمته، وكمال علمه وقدرته، وغفل عن رجاء الله الذي لا يخيب من رجاه فضلاً بذلك عن الرأي القيم، وهذا كقول يعقوب: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وخلاصة مقاله[٣]: أنه نفىٰ القنوط من نفسه على أتم وجه، فكأنه قال: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، لكن حالي تنافي فيض تلك النعم الجليلة التي غمرني بها، وتوالي المكرمات التي شملت آل هذا البيت، وقرأ النحويان[٤] أبو عمرو والكسائي والأعمش: ﴿ومن يَقْنِط﴾ هنا وفي الروم والزمر بكسر النون من باب ضرب، وباقي السبعة بفتحها من باب فرح، وقرأ زيد بن علي والأشهب: بضمها من باب نصر.

وبعد أن تحقَّق عليه السلام مصداق هذه البشرى، ورأى أنهم أتوا مختفين على غير ما عهد عليه ملك الوحي، سألهم عن أمرهم، ليزول عنه الوجل، كما بينه الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للضيف ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: فما أمركم وشأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به، والاستفهام استخبار، والخطب الأمر الخطير، والشأن العظيم؛ أي: قال[٥] لهم: ما الأمر العظيم الذي جئتم لأجله سوى البشرى، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) المراغي.

حديثهم في أثناء الحوار أن ليست هذه البشرى هي المقصودة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا، لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى مثل هذا العدد، ومن ثم اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم ـ عليهما السلام ـ، وأيضا لو كانت البشارة هي المقصودة لابتدؤوا بها، فأجابوه بما بينه سبحانه وتعالى ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الملائكة لإبراهيم ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ متناهين، وهم قوم لوط، واكتفوا بهذا القدر من الجواب، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم، ومما يرشد إلى هذا الفهم قولهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ أي: إلا أتباع لوط في الدين ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فلن نهلكهم، بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نُعَذِّبَ به قوم لوط، وهو قلب مدائنهم، فالاستثناء[1] متصل من الضمير في ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أي: أرسلنا إلى قوم أجرموا جميعاً إلا آل لوط، يريد أهله المؤمنين، فالقوم والإرسال شاملان للمجرمين وغيرهم.

والمعنى: إنَّا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط، لنهلك الأولين وننجي الآخرين، واكتفى بنجاة[2] الآل لأنهم إذا نجوا وهم تابعون فالمتبوع وهو لوط أولى بذلك. لوط: هو ابن هاران بن تارخ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، كان قد آمن به، وهاجر معه إلى الشام، بعد نجاته من النار، واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين، وإبراهيم ابن ثمانين أو مئة وعشرين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين، وهي البلاد التي بين الشام ومصر، منها الرملة وغزة وعسقلان وغيرها، ونزل لوط الأردن، وهي كورة بالشام، فأرسل الله لوطاً إلى أهل سدوم بالدال، وكانت تعمل الخبائث، فأرسل الله إليهم ملائكة للإهلاك، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي ﴿لَمُنْجُوهم﴾ بالتخفيف من أنجا، وقرأ الباقون بالشديد من نجى، واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإنجاء التخلص مما وقع فيه غيرهم، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من الضمير في ﴿منجوهم﴾، وليس استثناء من استثناء، كما في «البحر» واسمها واهلة، ﴿قَدَّرۡنَآ﴾؛ أي: قضينا

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وحكمنا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: الباقين مع الكفرة في العذاب، لتهلك معهم، وأسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، وهو قول الله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص، كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا، والآمر هو الملك، وقرأ أبو بكر والمفضَّل: ﴿قَدَرْنا﴾ بالتخفيف ههنا، وفي النمل، وباقي السبعة بالتشديد، وقال الهروي: هما بمعنى، وكُسِرَتْ ﴿إِنَّهَا﴾ إجراء لفعل التقدير مجرى العلم، إما لكونه بمعناه، وإما لترتبه عليه، والغابرين جمع غابر، والغابر الباقي والأغبار بقايا اللبن.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، ﴿مَّسْنُونٍ﴾: صفة ﴿حَمَإٍ﴾. ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾: منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وأنشأنا الجان خلقناه، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن قَبْلُ﴾: حال من ضمير ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الوسطى.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه

لـ﴿إذ﴾ ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ إلى ﴿سَٰجِدِينَ﴾: مقول محكيٌّ، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾: ناصب واسمه وخبره ﴿بَشَرًا﴾: مفعول ﴿خَٰلِقُۢ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ﴾: جار مجرور، متعلق بـ﴿خَٰلِقُۢ﴾ ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿وَنَفَخْتُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿نفخت﴾، ﴿مِن رُّوحِى﴾: مفعول ﴿نفخت﴾، و﴿مِن﴾ زائدة، ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطيّة، ﴿قَعُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿سَٰجِدِينَ﴾ ﴿سَٰجِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿قعوا﴾، وجملة ﴿قَعُوا﴾ جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَسَجَدَ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع، ﴿سجد ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل، ﴿كُلُّهُمْ﴾: توكيد أول، ﴿أَجْمَعُونَ﴾: توكيد ثان، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿إِبْلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء، متصل أو منقطع على الخلاف فيه، ﴿أَبَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية عدم السجود، ﴿أَن يَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر ﴿يَكُونَ﴾ وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَبَىٰٓ﴾ تقديره: أبى كونه مع الساجدين.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿ألا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أنْ﴾ واسمها ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: مالك في عدم كونك مع الساجدين، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾. والجملة مستأنفة ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَمۡ أَكُن﴾: جازم ومجزوم، وهي من الأفعال الناقصة، واسمها ضمير يعود على ﴿إبليس﴾ ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿أسجد﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، ﴿لِبَشَرٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: لم أكن لسجودي لبشر، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿أَكُن﴾ تقديره: لم أكن مريداً لسجودي لبشرٍ، هذا على مذهب البصريين، كما مر مراراً، وجملة ﴿أَكُن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ﴿لِبَشَرٍ﴾ ﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾: صفة لـ ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾، ﴿مَّسۡنُونٖ﴾: صفة لـ ﴿حَمَإٖ﴾.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلدِّينِ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: فحيث عصيت وتكبرت فاخرج، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿اخرج﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾ ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ ﴿اخرج﴾، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾: ناصب واسمه

وخبره، و﴿الفاء﴾: تعليليّة، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل نصب مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَإِنَّ﴾ حرف نصب ﴿عَلَيْكَ﴾ خبر ﴿إن﴾ مقدم، ﴿اللَّعْنَةَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾ التي قبلها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿إنَّ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ إلى آخر الآية مقول ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر دل عليه قوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، تقديره: إذا جعلتني رجيماً فأنظرني، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أنظرني﴾ فعل ومفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يُبْعَثُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلة مستأنفة، ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿الفاء﴾: تعليلية لجملة محذوفة معلومة من السياق، تقديرها لا تطمع إنظارك إلى يوم يبعثون، لأنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إنك﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾: جار ومجرور، خبره، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للجملة المحذوفة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿الْمُنظَرِينَ﴾، ﴿الْمَعْلُومِ﴾: صفة لـ﴿الْوَقْتِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿إبليس﴾، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ إلى ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جرّ

وقسم ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول، ونون وقاية، الجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بباء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسمت بإغوائك إياي، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿أزينن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول على كونها جواب القسم، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لأغوينهم﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أغوينهم﴾: فعل ومفعول ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ على كونها جواب القسم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المفعول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿عِبَادَكَ﴾: منصوب على الاستثناء، ﴿مِنْهُمُ﴾: متعلق بما بعده، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: صفة لـ ﴿عِبَادَكَ﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إلى قوله: ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿عَلَيَّ﴾: جار ومجرور، صفة أولى لـ ﴿صِرَٰطٌ﴾ وعليّ بمعنى إلى، والتقدير: هذا صراط موصل إليّ، ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: صفة ثانية له. ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَكَ﴾: خبره مقدم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بما بعده، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن جهنم لموعدهم﴾: ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير الغائبين، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو في محل الرفع خبر ثان خبر لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف خبر مقدم ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿جُزْءٌ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً مقدماً أعني قوله: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ ﴿جُزْءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّقْسُومٌ﴾: صفة ﴿جُزْءٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، والتقدير: سبعة أبواب كائنة هي لها حالة كون كل باب منها له جزء مقسوم منهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: خبره، ﴿وَعُيُونٍ﴾: معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿ادْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم ادخلوها، ﴿بِسَلَامٍ﴾: جار ومجرور حال أول من فاعل ﴿ادْخُلُوهَا﴾، تقديره: حالة كونكم ملتبسين بسلام، ﴿آمِنِينَ﴾: حال ثانية، ﴿وَنَزَعْنَا مَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿فِي صُدُورِهِم﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، ﴿إِخْوَانًا﴾: حال من ضمير الغائبين، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، فيجوز مجيء الحال من المضاف إليه، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: حال من الضمير في ﴿إِخْوَانًا﴾ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

فعل ومفعول، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، أو حال من ضمير المفعول، ﴿نَصَبٌ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، أو اسم ﴿ما﴾ ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بما بعده، ﴿بِمُخۡرَجِينَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿ما﴾، والباء زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ﴾.

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿أَنِّيٓ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنَا﴾: تأكيد لضمير النصب، أو ضميره فصل، أو مبتدأ، ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾: خبر أول لـ﴿أن﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدَّ مفعولي ﴿نبَّأ﴾ الثاني والثالث، لأنه يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، والتقدير: نبىء عبادي كوني الغفور الرحيم، أو مجرورة بحرف جر محذوف؛ أي: بأني أنا الغفور. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن عذابي﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ خبر ﴿أن﴾ ﴿ٱلۡأَلِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أنَّ﴾ الأولى. ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿نبأ﴾ الأولى.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ دخلوا، ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر

مضاف إليه، لـ ﴿إِذْ﴾، ﴿فَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَخَلُواْ﴾ ﴿سَلَٰمًا﴾: مفعول ﴿قالوا﴾ لأنه بمعنى ذكروا، أو منصوب بفعل مضارع مقدر؛ أي: نسلم عليك سلاماً، أو ماضي؛ أي: سلمنا عليك سلاماً، والجملة المحذوفة في محل النصب مفعول ﴿قالوا﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بما بعده، ﴿وَجِلُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الملائكة، ﴿بِغُلَٰمٍ﴾: متعلق بـ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿غلام﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾: إلى قوله ﴿قَالُواْ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التعجبي ﴿بشرتموني﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية، والواو حرف زائد من إشباع حركة الميم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر بمعنى مع، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية، في محل النصب مبنيٌّ على الفتح، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿على﴾، تقديره: على مس الكبر إياي؛ أي: مع مس الكبر إياي، الجار والمجرور حال من ياء ﴿بشرتموني﴾؛ أي: أبشرتموني حالة كوني كبير السن، ﴿فَبِمَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بما بعده، ﴿تُبَشِّرُونَ﴾: فعل وفاعل، مرفوع وعلامة

رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، على قراءة كسر النون، والنون المذكورة نون الوقاية، حذفت ياء المتكلم اجتزاءً عنها بكسر النون، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة الاستفهام الأول، على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ مقولٌ محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾، وإن شئت قلت ﴿بَشَّرْنَـٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، واسمها ضمير يعود على إبراهيم، ﴿مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾: خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿بَشَّرْنَـٰكَ﴾، على كونها مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَقْنَطُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَقْنَطُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: فاعل ﴿يَقْنَطُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، وعلى هذا الوجه فلا ضمير في ﴿يَقْنَطُ﴾ والرابط للخبر بالمبتدأ ﴿الهاء﴾ من ﴿رَبِّهِۦٓ﴾، وهذا الإعراب على ما قاله: ابن عنقاء، كما ذكره صاحب «الكواكب الدرية»، وأما على مذهب الجمهور ففي ﴿يَقْنَطُ﴾ ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: بدل من فاعل ﴿يَقْنَطُ﴾ المستتر فيه بدل كل من كل، ولم يؤت معه بضمير؛ لأن قوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه تغني عن الضمير، كما قاله الفاكهي، وابن عنقاء، والعصاميُّ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم زيادة محاورتي لكم.. فأقول لكم ﴿ما خطبكم﴾، ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام الإستخباري في محل الرفع مبتدأ، ﴿خَطْبُكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدر، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَيُّهَا﴾ منادي نكرة مقصودة، ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: صفة لـ ﴿أيُّ﴾ تابع للفظه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُرْسِلْنَآ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق به، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾: منصوب على الاستثناء، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، و﴿الهاء﴾ مضاف إليه، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير ﴿منجوهم﴾، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: استثناء من ضمير ﴿منجوهم﴾ منصوب، ﴿قَدَّرْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مفعول ﴿قَدَّرْنَآ﴾، ولكنها معلقة عنها باللام، وجملة ﴿قَدَّرْنَآ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: طين يابس، يصلصل ويصوت إذا

نقر، أي: صدم وضرب بجسم آخر، وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار، وقال أبو عبيدة[1]: الصلصال الطين إذا خلط بالرمل وجف، وقال أبو الهيثم: الصلصال صوت اللجام وما أشبهه، وهو مثل القعقعة في الثوب، وقيل: التراب المدقق، وصلصل الرمل إذا صوت، وصلصال بمعنى مصلصل، كالقضقاض، أي: المقضقض وهو فيه كثير، ويكون هذا النوع من المضعف مصدراً، فتقول: زلزل زلزالاً بالفتح وزلزالاً، ووزنه عند البصريين: فعلان، وهكذا جميع المضاعف حروفه كلها أصول، لا فعفع خلافاً للفراء، وكثير من النحويين، ولا فعفل خلافاً لبعض البصريين وبعض الكوفيين، ولا أن أصله فعّل بتشديد العين، أبدل من الثاني حرف من جنس الحرف الأول، خلافاً لبعض الكوفيين، وينبني على هذه الأقوال وزن صلصال.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾؛ أي: من طين تغير واسود من مجاورة الماء له، واحدته حمأة، وقال الليث[2]: الحمأ طين أسود منتن واحدته حمأة بتحريك الميم، ووهم في ذلك، وقالوا: لا نعرف في كلام العرب الحمأة إلا ساكنة الميم، قاله أبو عبيدة والأكثر، قال أبو الأسود:

يَجِيءُ بِمِلْئِهَا طَوْرَاً وَطَوْرَاً   يَجِيءُ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيْلِ مَاءِ

وعلى هذا لا يكون حمأ بينه وبين مفرده ثاء التأنيث لاختلاف الوزن، قال ابن[3] السكيت: تقول منه حمأت البئر حمأ بالتسكين.. إذا نزعت حمأتها، وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، وأحميتها إحماء ألقيت فيها الحمأة، قال أبو عبيدة: الحمأ بسكون الميم مثل الحمأة، يعني بالتحريك، والجمع حمءٌ، مثل تمرةٍ وتمرٍ، والحمأ المصدر، مثل الهلع والجزع، ثم سُمّي به.

﴿مَّسْنُونٍ﴾ والمسنون قال الفراء هو المتغير، وأصله من سننتُ الحجر على

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

الحجر إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ويكون منتناً، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثُـمَّ خَـاصَـرْتُـهَـا إِلَـىٰ ٱلْـقُـبَّـةِ ٱلْـحَـمْـ ـرَاءِ تَـمْـشِـيْ فِـيْ مَـرْمَـرٍ مَـسْـنُـوْنِ

أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير ومنه قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وقوله: ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، وكلا الاشتقاقين يدل على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتناً، وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه إذا صببته، والسن الصب، وقال سيبويه: المسنون المصور، مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تُـرِيْـكَ سُـنَّـةَ وَجْـهٍ غَـيْـرَ مُـقْـرِفَـةٍ مَـلْـسَـاءَ لَـيْـسَ بِـهَـا خَـالٌ ولا نَـدَبُ

وقال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم وجه مسنون إذا كان فيه طولٌ، والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل صار طيناً، فلما أنتن.. صار حمأ مسنوناً، فلما يبس.. صار صلصالاً، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾؛ أي: هذا[1] الجنس، كما أن الإنسان يراد به ذلك، فإذا أريد بالإنسان آدم.. أريد بالجان أبو الجن، وإبليس أبو الشيطان، وهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا، وسمي جانًّا لتواريه عن الأعين، يقال جن الشيء إذا ستره، فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ السموم الحرُّ المفرط[2] من نار أو شمس أو ريح، يدخل في المسام فيقتل، والمسام هي ثقب البدن، جمع سمٍّ بكسر السين على غير قياس، كمحاسن جمع حسنٍ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: من نار ذات سموم؛ أي: صاحبة حرارة شديدة قاتلة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿بَشَرًا﴾؛ أي: إنساناً، وسمي بذلك لظهور بشرته؛ أي: ظاهر جلده.

﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: أتممت خلقه، وهيأته لنفخ الروح فيه.

﴿وَنَفَخْتُ﴾ والنفخ إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة إلى المادة القابلة لها.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع من باب وضع إذا سقط وخر، وحذفت الواو من الأمر على حد قول ابن مالك:

فأمر أو مضارع من كوعد احذف... إلخ.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ من أبلس[1] إذا يئس وتحير، ومنه إبليس أو هو أعجمي.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مرجوم مطرود من كل خير وكرامة، وفي «المصباح»: الرجم بفتحتين الحجارة، والرجم القبر، سمي بذلك لما يجتمع عليه من الأحجار، ورجمته رجماً من باب قتل ضربته بالرجم اهـ. وفي «القاموس»: الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران اهـ.

﴿ٱللَّعْنَةَ﴾ الإبعاد على سبيل السخط ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وهو يوم النفخة الثانية، ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾؛ أي: أمهلني وأخرني ولا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾. هو يوم النفخة الأولى حين يموت الخلائق، ﴿والإغواء﴾ الإضلال يقال غوى غواية إذا ضل في نفسه، وأغوى إذا أضل غيره؛ أي: دعاه إلى غواية. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ﴾؛ أي: هذا صراط حق لا بد أن أراعيه وأحفظه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: لا انحراف فيه، فلا يعدل عنه إلى غيره، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ والسلطان التسلط والتصرف بالإغواء، ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾؛ أي: سبع طبقات، ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: فريق معين مفروز من غيره.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها. ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين، ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أنهار جارية ﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ الغل الحقد

---

(١) روح البيان.

الكامن في القلب، يطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد، فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل، لأنها كامنة في القلب.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السرر جمع سرير، وهو مجلس عال رفيع موطأ للسرور، وهو مأخوذ منه، لأنه مجلس سرور، قال ابن عباس؛ أي: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية اهـ «خازن».

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾؛ أي: لا يصيبهم، ﴿نَصَبٌ﴾: والنصب الإعياء والتعب، ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ تقول أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة إذا أخبرتهم، ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ والأفصح في كلمة الضيف أن لا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث، بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك.

﴿لَا تَوْجَلْ﴾ والوجل اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها. ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: ذي علم كثير.

﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر المحقق الذي لا شك في وقوعه، ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ يقال قنط من كذا إذا يئس من حصوله، وفي «المختار»: القنوط اليأس، وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قانط وقنوط.

﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم، ﴿قَدَّرْنَآ﴾؛ أي: قضينا وكتبنا، يقال قضى الله عليه كذا، وقدره عليه أي: جعله على مقدار الكفاية في الخير والشر، وقدر الله الأقوات جعلها على مقدار الحاجة.

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم، وأصله من الغبرة، وهي بقية اللبن في الضرع، وفي «المختار»: غبر الشيء بقي وغبر أيضاً مضى، وهو من الأضداد وبابه دخل.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾.

ومنها: جمع تأكيدين في قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ للمبالغة وزيادة تقرير الشيء في الذهن، وشدة الاعتناء به.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ومنها: التعبير[١] بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه واستمراره.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ لأنه إما[٢] كناية عن الطرد والإبعاد؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة على أثره، أو كناية عن كونه شيطاناً من الشياطين الذين يرجمون بالشهب.

منها: جناس الاشتقاق بين: ﴿أنظرني﴾ و﴿المنظرين﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أغويتني﴾ و﴿أغوينهم﴾.

منها: إيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ لتأكيد الاستقامة، والشهادة باستعلاء من ثبت عليه، فهو أدل على التمكين من الوصول وهو تمثيل، إذ لا استعلاء لشيء على الله تعالى،

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ للتشريف ولتفخيم شأنهم

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: يقال لهم ادخلوها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾؛ أي: في قلوبهم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، لأن الصدور محل القلوب.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿نَصَبٌ﴾ للتقليل لا غير؛ أي: أيُّ شيء منه.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ مع قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ فقد قابل بين العذاب والمغفرة، وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فهو[1] من قصر المسند على المسند إليه.

ومنها: الاستفهام التعجبيُّ في قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿الْقَانِطِينَ﴾ و﴿يَقْنَطُ﴾ وبين ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ فأسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً، وهو فعل الله تعالى لما لهم من القرب والاختصاص؛ لأنهم رسل الله، أرسلوا بأمره تعالى، كما يقول خاصة الملك: أمرنا بكذا، والآمر هو الملك.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) روح البيان.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا
كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ
أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ
هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ
(٦٨) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦)
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ
مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ
يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ
ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ
ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ
(٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١)﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر نبيه ﷺ أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي، ثم فصل ذلك

الوعد والوعيد، فذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بغلام عليم.. ذكر هنا[1] إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات وفظيع الجنايات، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، حتى صاروا كالأمس الدابر، وأصبحوا أثراً بعد عين، وذكر إهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله، ونقصهم للمكاييل والموازين، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً، وكانوا ذوي حول وطول، وغنى ومال وقوة وبطش، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدي رسوله، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح، ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها، وعذابها بشيء من أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم، من فظائع الشرك وأنواع المعاصي، التي تقوض دعائم الإخلاص لبارىء النسم، وتهد أركان نظم المجتمع بعبادة الأصنام والأوثان وتطفيف الكيل والميزان، وإتيان الفاحشة التي تشمئز منها النفوس، وتنفر منها الأذواق السليمة.. أرشد[2] هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قد قضت به الحكمة الإلهية في خلق السموات والأرض، من عبادة خالقهما وطاعته، واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم، وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه، وأن يصفح عنهم الصفح الجميل.. أردف ذلك بذكر ماأولاه من النعم، وما أغدق عليه من الإحسان، ليسهل عليه الصفح، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى، فذكر أنه آتاه السبع المثاني ـ الفاتحة ـ والقرآن العظيم الجامع لما فيه

(١) المراغي. (٢) المراغي.

هدى البشر، وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم، وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه.. نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها، يتمنى ما فيها من متاع، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن، وبما جاء به، وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين بإنذاره قومه المشركين، بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه، بالبيان الكافي والإعذار الشافي، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين ـ اليهود والنصارى ـ الذين جعلوا القرآن أقساماً، فآمنوا بما وافق التوراة، وكفروا بما عدا ذلك، ويبين لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم.

ثم أمره(١) أن يعلن ما أمر به من الشرائع، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتتريبهم له، ولا يبالي بما سيكون منهم، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به، وأزال كيدهم، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر.. فليسبح ربه وليحمده، وليكثر الطاعة، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه، وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن يغوث، والحرث بن قيس، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان سبب هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: أن سبع قوافل أقبلت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال تعالى: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خيرٌ لكم من هذه القوافل السبع، ويدل على

---

(١) النسفي.

صحة هذا قوله تعالى بعدها: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ كما في «أسباب النزول» للإمام الواحديّ، ذكره ابن الجوزي، ولكن هذا القول ضعيف لأن السورة مكية.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ جملة مستأنفة[١] لبيان إهلاك من يستحق الهلاك، وتنجية من يستحق النجاة، فلفظة آل زائدة بدليل قوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ﴿قَالَ﴾ لوط مخاطباً لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: لا أعرفكم بل أنكركم، وإنما[٢] قال لوط هذه المقالة لأنهم دخلوا عليه وهم في زيِّ شبان مردان حسان الوجوه، فخاف أن يهجم عليهم قومه، فلهذا السبب قال هذه المقالة، وقيل إن النكرة ضد المعرفة، فقوله إنكم منكرون يعني لا أعرفكم، ولا أعرف من أي الأقوام أنتم، ولأي غرض دخلتم عليَّ؛ أي: فلما خرج الملائكة المرسلون من عند إبراهيم، وسافروا من قريته إلى قرية لوط، وكان بينهما أربعة فراسخ، ودخلوا عليه.. أنكرهم لوط ولم يعرفهم، وقال لهم من أيِّ الأقوام أنتم، ولأي غرض جئتم، وإني أخاف أن تمسوني بسوء، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، وعبارة البيضاوي: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ تنكركم نفسي، وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني بشرٍ اهـ.

قيل: وإنما قال لهم هذه[٣] المقالة لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون إعانة ولا مساعدة فيما يأتي ويذر، حين تجشم الأهوال في تخليصهم، فأنكر خذلانهم له، وتركهم نصره حين المضايقة، التي حلت به بسببهم، حتى اضطر إلى أن يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كما جاء في سورة هود، لأن القصة سيقت هنا مختصرةً، وذكرت هناك مبسوطة ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت الرسل في

---

(١) الشوكاني.

(٢) النسفي.

(٣) المراغي.

جواب لوط: ما جئناك بما تنكرنا لأجله ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك، ويشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به، فيشكون فيه قبل مجيئه؛ أي: بل جئناك بالعذاب الذي يشكُّون فيه.

والمعنى: قالت الرسل مخاطبين لوطاً: ما جئناك يا لوط بما خطر ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه، وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه، فأنى لك بعد هذا أن تعتريك مساءة وضيق ذرعٍ.

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا[1]: ما خذلناك وما خلينا بينك وبينهم، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذي كنت تتوعدهم به، وهم يكذبونك، واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا: جئناك بعذابهم، لإفادة ذلك شيئين: تحقق عذابهم، وتحقق صدقه عليه السلام، بعد أن كابد منهم كثيراً من الإنكار والتكذيب.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد، وهو العذاب النازل بهم لا محالة، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك من إهلاكهم؛ أي: وجئناك بالأمر المحقق المتقن، الذي لا مجال فيه للامتراء والشك، وهو العذاب الذي كتب وقدر لقوم لوط، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به.

ثم شرعوا يرتبون له مبادىء النجاة قبل حلول العذاب بقومه، فقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ أي: فاذهب بهم، من السرى وهو السير في الليل ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في طائفة من الليل؛ أي: في بعض منه والمراد بأهله ٱبنتاه، فلم يخرج من قريته إلا هو وٱبنتاه، قيل: ومعهم امرأته الصالحة، وفي «القرطبي» في سورة هود: فخرج لوط وطوى الله الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم؛ أي: فسر[2] ببنتيك وامرأتك الصالحة في جزء من الليل عند السحر، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: امش خلفهم، لأجل أن تطمئن عليهم، وتعرف أنهم: ناجون، جمع دبر وهو من كل شيء عقبه ومؤخَّره؛ أي: وكن على إثرهم لتسوقهم وتسرع

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

بهم، وتطلع على أحولهم، فلا تفرط منهم التفاتة استحياء منك، ولا غيرها من الهفوات، قال في «برهان القرآن»: لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم.. علم نجاتهم، ولا يخفى عليه حالهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾؛ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ إلى ورائه إذا سمع الصيحة لئلا تراعوا من عظيم ما نزل بهم من البلاء، أو جعل[1] الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني والتوقف، لأن من يلتفت لا بد له من أدنى وقفة ولم يقل هنا ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، كما في سورة هود اكتفاءً بما قبله، وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: سيروا إلى المكان الذي أمركم بالذهاب إليه، وهو الشام أو مصر، أو زعر وهي قرية بالشام، وقيل الأردن، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل، وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة، ما عمل أهلها عمل قوم لوط اهـ «خازن».

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: وأوحينا[2] إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه، وفرغنا منه، ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: أن آخر هؤلاء المجرمين ﴿مَقْطُوعٌ﴾؛ أي: مهلك حالة كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في الصباح؛ أي: إن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح؛ أي: يتم استئصالهم حال ظهور الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً وفسره ثانياً تفخيماً له، وتعظيماً لشأنه، وقرأ الأعمش[3] وزيد بن علي: ﴿إِنَّ دابر﴾ بكسر الهمزة، لمَّا ضمن ﴿قضينا﴾ بمعنى أوحينا، فكان المعنى أعلمنا، علق الفعل فكسر إن، أو لما كان القضاء بمعنى الإيحاء فمعناه القول، كسر إن يؤيِّده قراءة عبد الله: ﴿وقلنا إن دابر﴾ وهي قراءة تفسير لا قرآنٍ، لمخالفتها سواد المصحف، والمعنى:

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) البحر المحيط.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: فسر بأهلك، ابنتيك، أو هما وامرأتك الصالحة، على الخلاف فيه في بقيةٍ من الليل، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: وكن وراء أهلك الذين تسري بهم وعلى أثرهم لتذود عنهم، وتسرع بهم، وتراقب أحوالهم، حتى لا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه عذاب.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم، وليوطن نفسه على الهجرة، ويطيب نفساً بالانتقال إلى المسكن الجديد، ثم أكدوا هذا النهي بقولهم: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: واذهبوا حيث يأمركم ربكم، غير ملتفتين إلى ما ورائكم، كالذي يتحسر على مفارقة وطنه، فلا يزال يلوي له أخاديده.

والخلاصة: أنهم أمروا بمواصلة السير، ونهوا عن التواني والتوقف، ليكون ذلك أقطع للعوائق وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقيّ، وهو بلاد الشام.

ثم بين العلة في الأمر بالإسراع السريع فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضي مبتوت فيه، ثم فصل ذلك فقال: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم، ولا يبقى منهم أحدٌ، ونحو الآية: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ثم شرع يذكر ما صدر من القوم حين علموا بقدوم الأضياف، وما ترتب عليه مما أشير إليه أولاً على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي؛ أهل مدينة لوط المسماة بسذوم ـ بسين مهملة فذال معجمة، وأخطأ[1] من قال بمهملة ـ وهي التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، ومدائن قوم لوط كانت أربعاً، وقيل سبعاً، وأعظمها سذوم، وفي «درياق الذنوب» لابن الجوزي: كانت خمسين قرية؛ أي: جاء أهل مدينة سذوم إلى منزل لوط حالة كونهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يبشِّر[2] بعضهم بعضاً بأضياف لوط، والاستبشار إظهار الفرح والسرور؛ أي: يظهرون الفرح والسرور بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم، وقالوا: نزل بلوط

(١) الفتوحات. (٢) الخازن.

ثلاثة أضياف من المُرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم، فذهبوا إلى دار لوط طلباً منه لأولئك المرد، فقال لهم لوط ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المرد ﴿ضَيْفِى﴾؛ أي: أضيافي، وحق على الرجل إكرام ضيفه، وأفرد الضيف لأنه مصدر كما مر، والمراد أضيافي، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه رأوهم مرد حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾؛ أي: فلا تظهروا عاري عندهم، فإن الضيف يجب إكرامه، فإذا قصدتموهم بالسوء.. كان ذلك إهانة فيَّ.

والمعنى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي[1]: وجاء أهل مدينة سذوم حين سمعوا أن ضيفاً قد ضافوا لوطاً، حالة كونهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعاً في ركوب الفاحشة منهم، وفي هذا إيماء إلى فظاعة فعلهم، إذ هم خالفوا ما جرى به العرف وركب في الأذواق السليمة، من إكرام الغريب وحسن معاملته، وقصدوا بهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وقد تقدم في سورة هود أن هذا المجيء قبل قول الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فما في سورة هود على الترتيب الواقعي، وما هنا على خلافه، إلا أن يقال إن الواو لا تقتضي ترتيباً اهـ شيخنا. وفي «الكرخي»: وذكر القصة في هود بترتيب الوقوع، وهنا أخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ مع تقدمه، ليستقل الأول ببيان كيفية نصرة الصابرين والثاني بتساوي الأمم، ذكره في «الفتوحات»: روي أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح منهم وجهاً ولا أحسن شكلاً، فذهبوا إلى دار لوط طلباً لهم، مظهرين اغتباطاً وسروراً بهم، ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون به السوء. ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين جئتموهم، تريدون منهم الفاحشة ﴿ضَيْفِى﴾؛ أي: أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم وأكرموني بترك التعرض لهم بمكروه، ثم زاد النهي توكيداً بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وخافوا الله فيَّ وفي أنفسكم، أن يحل بكم عقابه في مباشرتكم لما يسوءني، أو في ركوب الفاحشة، واحفظوا ما أمركم به ونهاكم

(١) المراغي.

عنه، ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: ولا تذلوني ولا تهينوني بالتعرض لمن أجرتهم، بمثل تلك الفعلة القبيحة من الخزي وهو الهوان، وهذه الجملة آكد في الغرض من سابقتها، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار، ومن ثم عبر عن لجاجهم، ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي، وأمرهم بتقوى الله تعالى في ذلك، وقد أثبت[1] يعقوب ياء تفضحوني ولا تخزوني في الوصل والوقف، ثم أبانوا له أنه السبب في الفضيحة وفي هذا الخزي، كما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال قوم لوط الذين جاؤوا إليه ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ يا لوط ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عن أن تضيف أحداً من العالمين، أو تؤويه في قريتنا، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته، ويحول بينهم وبين من يتعرضون له، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم في مثل ذلك، وخلاصة مقالهم: أن ما ذكرت من الخزي والفضيحة أنت مصدره، والجالب له، فلولا تعرضك لنا.. ما أصابك ما أصابك.

قال في «الإرشاد»: قوله: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ الهمزة[2] فيه للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نقدم إليك وألم ننهك عن التعرض لهم بمنعهم عنا، وكانوا يتعرضون لكل واحد من الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام يمنعهم عن ذلك بقدر وسعه، وهم ينهونه عن أن يجير أحداً، أو يوعدونه بقولهم: لئن لم تنته يا لوط.. لتكونن من المخرجين، وفي «الشوكاني» وغيره: إن الاستفهام للإنكار، وليس بصواب، لعدم صدق ضابط الإنكاري عليه، بل التقريري يصدق عليه لأنه حمل المخاطب على الإقرار بما بعد حرف النفي، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ ولما رآهم[3] لوط متمادين في غيِّهم، لا يرعوون عن غوايتهم، ولا يقلعون عما هم عليه.. ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ النساء الموجودات بيننا ﴿بَنَاتِيٓ﴾؛ أي: بنات قومي فأزوجهن إياكم، أو تزوجوهن؛ أي: قال لوط لقومه تزوجوا النساء، ولا تفعلوا ما قد

---

(١) زاد المسير.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

حرم الله عليكم من إتيان الرجال، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أمركم به، منتهين إلى أمري، وقد سمى نساء قومه بناته، لأن رسول الأمة كالأب من حيث الشفقة والتربية، رجالهم بنوه، ونسائهم بناته، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم، وما أظنكم تفعلون، ذكره في «البحر». أو[1] أراد بناته الصلبية؛ أي: فتزوجوهن ولا تتعرضوا للأضياف، وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم، لخبثهم وعدم كفاءتهم لهن، لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار، فإن نكاح المؤمنات من الكفار كان جائزاً، فأراد أن يقي أضيافه ببناته كرماً وحميةً؛ أي: فتزوجوا بناتي، وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه إيثا وزعورا، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم، فإن الله تعالى خلق النساء للرجال، لا الرجال للرجال.

وفي الآيات فوائد:

الأولى: أن إكرام الضيف ورعاية الغرباء من أخلاق الأنبياء، وهو من أسباب الذكر الجميل، وفي الحديث: «من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وقرى الضيف.. دخل الجنة» كما في «الترغيب».

والثانية: أنه لا بد لكل مؤمن متق أن يسد باب الشر بكل ما أمكن له من الوجوه، ألا ترى أن لوطاً عليه السلام لما لم يجد مجالاً لدفع الخبيثين.. عرض عليهم بناته بطريق النكاح، وإن كانوا غير أكفاء دفعاً للفساد.

والثالثة: أن محل التمتع هي النساء لا الرجال، كما قالوا: ضرر النظر في الأمرد أشد، لامتناع الوصول إليه في الشرع، لأنه لا يحل الاستمتاع بالأمرد أبداً.

﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ أي: لحياتك يا محمد قسمي؛ أي: أقسمت لك بحياتك ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن قوم لوط ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾؛ أي: لدائمون في سكرتهم وغوايتهم،

---

(١) روح البيان.

أو شدة غلمتهم، التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، والصواب الذي يشار به إليهم، من ترك البنين إلى البنات، حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيرون في غوايتهم ويتمارون، فكيف يسمعون النصح.

وقرأ الأشهب[1]: ﴿سُكرتهم﴾ بضم السين، وابن أبي عبلة: ﴿سَكَراتِهم﴾ بالجمع، والأعمش: ﴿سَكْرِهم﴾ بغير تاء، وأبو عمرو في راوية الجهضمي: ﴿أَنَّهم﴾ بفتح همزة ﴿أنَّهم﴾، والعمر[2] والعُمْر بالفتح والضم واحد، وهو البقاء، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف، لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر تقديره: لعمرك قسمي، كما حذفوا الفعل في قولهم: تالله.

وقال القاضي عياض: اتفق[3] أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلَّ جلاله، بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه وتعالى بحياةِ أحدٍ غير محمد ﷺ، لأنه أكرم البرية عنده تعالى، قال ابن العربي: ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط؟ قال القرطبي: ما قاله حسن، وذكر صاحب «الكشاف» وأتباعه: أن هذا القسم هو من الملائكة على تقدير القول والمعنى عليه؛ أي: قالت الملائكة للوط وحياتك أيها الرسول إن قومك لفي ضلالتهم التي جعلتهم حيارى، لا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر، لما أصابهم من عمى البصيرة، فهم لا يميزون الخطأ من الصواب، ولا الحسن من القبيح.

ثم ذكر سبحانه عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ أي: فأخذت قوم لوط وأهلكتهم ﴿الصَّيْحَةُ﴾ العظيمة، أو صيحة جبريل عليه السلام، حال كونهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: داخلين وقت شروق الشمس وطلوعها، وكان ابتداء[1] العذاب حين أصبحوا كما قال: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ وتمامه حين أشرقوا، لأن جبريل قلع الأرضين بهم، ورفعها إلى السماء ثم هوى بها نحو الأرض، ثم صاح بهم صيحة عظيمة، فالجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء فمقطوع على حقيقته، فإن دلالة اسمي الفاعل والمفعول على الحال، وحال القطع هو حال المباشرة لا حال انقضائه، لأنه مجاز حينئذٍ، وذلك بأن تقول مقطوع بمعنى يقطع عن قريب، وقيل[2]: أراد شروق الفجر، وقيل: كان أول العذاب عند شروق الفجر، وامتد إلى طلوع الشمس، والمعنى؛ أي: فنزل بهم العذاب المنتظر، وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق، وكان ابتداؤها من الصبح، وانتهاؤها حين الشروق، ومن ثم قال أولاً ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقال هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم، ومن ثم يقال للأسد أخيذ.

ثم بين سبحانه كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾؛ أي: عالي المدينة وأعلاها وظاهرها أولا أو عالي قرى قوم لوط ﴿سَافِلَهَا﴾؛ أي: أسفلها وباطنها وتحتها مقلوبة، وذلك بأن رفعناها إلى قريب من السماء على جناح جبريل، ثم قلبناها عليهم، فصارت منقلبة بهم، وكانت قراهم[3] أربعة، فيها أربع مئة ألف مقاتل، وقوله: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعول أول لجعلنا، لأنه بمعنى صيرنا، و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعول ثان له، وهو أدخل في الهول والفظاعة من العكس.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أهل المدينة؛ أي: وأنزلنا عليهم في تضاعيف ذلك قبل تمام الإنقلاب، أو على من كان منهم خارجا عن المدينة، بأن كان غائباً في سفر أو غيره ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طين مطبوخ بالنار متحجر مكتوب عليه اسم من يرمى به، فهلكوا بالخسف والحجارة، وفي «الكواش»: وأمطرنا على شذاذهم؛ أي: على من غاب عن تلك البلاد، والمعنى[4]: أي: فجعلنا عالي المدينة ـ وهو ما على وجه الأرض ـ سافلها، فانقلبت عليهم،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من طين متحجر، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة هود.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة أنوع من العذاب:

١ ـ الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المفزع المخيف.

٢ ـ أنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها.

٣ ـ أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل.

ثم ذكر أن في هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من القصة من تعرض قوم لوط لضيف لوط طمعاً فيهم، وقلب المدينة على من فيها، وإمطار الحجارة عليها وعلى من غاب منهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ أي: لعلامات يستدل بها على حقية الحق، وعبرات يعتبر بها، ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

أي: إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات للمفكرين، الذين يعتبرون بما يحدث في الكون من عظات وعبر، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصي من عقاب بئيس بما كانوا يكسبون.

أخرج البخاري في «التاريخ»، والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ والفراسة[1] ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء، فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن[2] ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق، وقد صنف الناس في القديم والحديث كتباً في ذلك، وبعض العلماء يجعلها دليلاً يحكم به، كما فعل إياس بن معاوية: كان قاضياً ذكياً في عهد التابعين، ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا، فقال: ﴿وَإِنَّهَا﴾، أي: قرى قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾؛

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أي[1]: لطريق ثابت يسلكه الناس، ويرون آثار تلك البلاد بين مكة والشام تندرس بعد، فاتعظوا بآثارهم يا قريش إذا ذهبتم إلى الشام، لأنها في طريقكم، والمعنى؛ أي: وإن هذه المدينة مدينة سدوم، التي أصابها ما أصابها من العذاب لطريق واضحة لا تخفى على السالكين، فآثارها باقية إلى اليوم، لم تندثر ولم تخف، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ثم أيأس من اعتبارهم بها، إذ هي لا يعتبر بها إلا المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي[2]: إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لدلالة جلية واضحة، وعبرة عظيمة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسله، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال، الذين عصوا أمر ربهم، وكفروا برسله، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم، بعد إنذارهم ونصحهم.

أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية، لأسباب فلكية وشؤون أرضية، جَعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ في بعض أجزائها، كما يشاهد اليوم في البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد في باطن الأرض، وابتلاع الأرض لها، كما حدث في مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩، وظهور جزائر في وسط المحيطات لم تكن من قبل.

وإفراد[3] الآية هنا بعد جمعها فيما سبق، لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة، كما فيما سلف، وقال في «برهان القرآن»: ما جاء في القرآن من الآيات فلجمع الدلائل، وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه، فلما ذكر عقيبه المؤمنين، وهم مقرون بوحدانية الله تعالى.. وحد الآية. انتهى.

وفي الآيات فائدتان:

الأولى: مدح الفراسة، وهي الإصابة في النظر.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

والثانية: أن في إهلاك الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين منهم إيقاظاً وانتباهاً ووعداً ووعيداً وتأديباً لهذه الأمة المعتبرين، فاعتبروا بأحوالهم، واجتنبوا عن أفعالهم، وابكوا فهذه ديار الظالمين ومصارعهم، وفقنا الله وإياكم للهدى وعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلمنا من شرور النفوس، فإنها شر العدى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ القرآن، والمعتبرين بآيات الفرقان، ما دام الروح في البدن وقام في المقام والوطن.

وبعد أن ذكر قصص قوم لوط.. أتبعه بقصص قوم شعيب ـ عليهما السلام ـ فقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ إن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، والأيكة الغيضة، وهي جماع الشجر، أي: وإنه كان أصحاب بقعة الأشجار المجتمعة، وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ وكانوا يسكنونها، وكان عامة أشجارهم الدوم، وقيل الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها، وقال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم وغيرهم بتكذيبهم رسل الله تعالى؛ أي: إن أصحاب الأيكة كانوا بجبلتهم ظالمين كفاراً، ليس لديهم استعدادٌ للإيمان بالله ورسله، أرسل الله تعالى إليهم وإلى أهل مدين شعيباً فكذبوه، وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام». ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصي؛ أي: فأهلكناهم وعاقبناهم لما كذبوا شعيباً، روي أن[1] الله سبحانه وتعالى سلَّط عليهم الحر سبعة أيام، حتى أخذ بأنفاسهم، وقربوا من الهلاك، فبعث الله لهم سحابة كالظلة، فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها، للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم جميعاً، فهو عذاب يوم الظلة، ونعم ما قيل، والشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح يأتمون به في سفرهم، ويهتدون به في مسيرهم؛ أي: يمر أهل مكة عليهما في سفرهم إلى الشام للتجارة، وقال الفراء والزجاج: سمي الطريق

(١) المراح.

إماماً لأنه يؤتم ويتبع، وقال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده، وقيل الضمير للأيكة ومدين؛ لأن شعيباً كان ينسب إليهما.

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ والحجر[1] بكسر الحاء وسكون الجيم اسم لأرض ثمود قوم صالح - عليه السلام - بين المدينة والشام، عند وادي القرى التي كانوا يسكنونها، وكانوا عرباً، وكان صالح - عليه السلام - من أفضلهم نسباً، فبعثه الله إليهم رسولاً - وهو شاب - فدعاهم حتى شمط، ولم يتبعه إلا قليل مستضعفون، وقال[2]: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يرسل إليهم إلا صالح لأن من كذب واحداً من الرسل.. فقد كذب الباقين، لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله، وقيل: كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء، وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين.

أي: وعزتي وجلالي لقد كذب ثمود نبيهم صالحاً - عليه السلام - ومن كذب رسولاً من رسل الله.. فكأنما كذب الجميع، لاتفاق كلمتهم على التوحيد، والأصول العامة التي لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وآتينا ثمود وأريناهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: حججنا الدالة على نبوة صالح - عليه السلام - الناقة وغيرها، وقيل الآية: الناقة فقط، وإنما جمعها لأن فيها آيات جمة، كخروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها وكثرة لبنها، وإنما[3] أضاف الآية إليهم وإن كانت لصالح، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا﴾؛ أي: عن تلك الآيات ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: تاركين لها، غير ملتفتين إليها، ولا معتبرين بها، ولهذا عقروا الناقة، وخالفوا ما أمرهم به نبيهم ﴿وَكَانُوا۟﴾؛ أي: وكان قوم صالح ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ أي: ينجرون وينقرون ﴿بُيُوتًا﴾ ومساكن من الجبال بالمعاويل ويثقبونها فيها حالة كونهم ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيها من الانهدام، ونقب اللصوص وتخريب الأعداء، لوثاقتها، ومن الموت لاغترارهم بطول الأعمار، فهي حال مقدرة، أو من العذاب والحوادث لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

الجبال تحميهم منه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنْحِتُون﴾ بكسر الحاء وقرأ الحسن وأبو حيوة بفتحها، وقرىء: ﴿بيوتاً﴾ بضم الباء وكسرها سبعيتان.

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: أهلكتهم صيحة من السماء فيها صوت صاعقةٍ، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم حالة كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في وقت الصبح؛ أي: فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا في صحوة اليوم الرابع من اليوم الذي أوعدوا فيه بالعذاب، كما جاء في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وفي[2] سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة، ولعلها من لوازم الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجاً شديداً، يفضي إليها، فهي مجاز عنها، وقوله ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من الضمير المنصوب؛ أي: داخلين في وقت الصبح في اليوم الرابع، وهو يوم الأحد، والصبح يطلق على زمان ممتد إلى الضحوة، وأول يوم من الثلاثة اصفرت وجوه القوم، وفي الثاني احمرت، وفي الثالث اسودت، فلما كملت الثلاثة.. صح استعدادهم للفساد والهلاك، فكان اصفرار وجوه الأشقياء في موازنة إسفار وجوه العداء.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾؛ أي: فما دفع عنهم ما نزل بهم من عذاب الله ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من نحت البيوت وجمع الأموال، وكثرة العدد وجمع العدد، بل خروا جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله تعالى، روي[3] أن صالحاً ـ عليه السلام ـ انتقل بعد هلاك قومه إلى الشام بمن أسلم معه، فنزلوا رملة فلسطين، ثم انتقل إلى مكة فتوفي بها، وهو ابن ثمان وخمسين سنةً، وكان أقام في قومه عشرين سنة، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين» ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى جاوز الوادي، متفق عليه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وأخرج[1] ابن مردويه عن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، وعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور، وعلف العجين للإبل، ثم ارتحل عن البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذي أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: وما بين جنس السموات والأرضين، ولو أراد بين أجزاء المذكور.. لقال بينهن، وفيه إشارة إلى أن أصل السموات واحدة عند بعضهم، ثم قسمت كذا في «الكواشي». ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إلا[2] خلقاً متلبساً بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثاً، أو للحق والحكمة، والباء توضع موضع اللام، يعني لينظر عبادي إليهما فيعتبروا، والمراد بالحق ما فيهما من الفوائد والمصالح، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ وقيل المراد بالحق الزوال، لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائلٌ، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي[3]: القيامة لتوقعها كل ساعة كما في «المدارك» وقال ابن مالك: هي اسم لوقت تقوم فيه القيامة، سمي بها لأنها ساعة خفية يحدث فيها أمرٌ عظيم، وقال ابن الشيخ سميت الساعة ساعةً لسعيها إلى جانب الوقوع، ومسافتها الأنفاس.

﴿لَأَتِيَةٌ﴾؛ أي: لكائنة لا محالة، فينتقم الله سبحانه لك يا محمد فيها من أعدائك، وهم المكذبون، ويجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا ليجازي كل محسن بإحسانه، وكل مسيء بإساءته، وفيه وعيد للعصاة وتهديد لهم.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يصفح عن قومه فقال: ﴿فَٱصْفَحِ﴾ يا محمد واعف وأعرض عن المكذبين من قومك، وتجاوز عن إساءتهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾؛ أي: الإعراض الجميل، والعفو الحسن، وتحمل أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وهذا منسوخ بآية السيف.

وخلاصة ذلك[1]: خالقهم بخلق حسن، وتأن عليهم واحلم وأنذرهم، وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يبلغك يا محمد إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تَكِل جميع الأمور إليه، ليحكم بينك وبينهم، وقد علم أن الصفح الجميل أولى بهم، إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم، وفي الآية[2] أمر بالمخالقة بالخلق الحسن، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وأرجح الناس حلماً، وأعظم الناس عفواً، وأسخى الناس كفًّا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطيناك يا محمد سبع آيات تسمى بالمثاني، وهي الفاتحة، سميت بذلك لأنها تثنى وتكرر في كل ركعة من الصلاة، وهذا قول عمر وعليّ وابن مسعود وأبي هريرة، والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، لما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «أم القرآن السبع المثاني التي أعطيتها»، أو لأنها قسمت قسمين: ثناء ودعاء، وقد روي أن النبي ﷺ قال يقول الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»، وأعطيناك أيضاً ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: وأكرمناك به، فهو معطوف على سبعاً من المثاني، ويكون من عطف العام على الخاص، لأن الفاتحة بعض من القرآن، وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها، على نحو ما جاء في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، وقيل[3]: السبع المثاني هي السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والمائدة والأنعام والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنهما كسورة واحدة، إذ ليس بينهما تسيمة، روي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المراد بالسبع المثاني السبعة الأحزاب، فإنها سبع صحائف، وعلى القول الأول وجه تسمية الفاتحة مثاني، لأنها تثنى؛ أي: تكرر في كل صلاة كما مرَّ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية: أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاووس وأبو مالك وهو راوية عن ابن عباس، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته، ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أنه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية.

ثم لما بين الله سبحانه لرسوله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدِّينية.. نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: نظر عينيك، ولا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾؛ أي: إلى ما أعطينا به ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: رجالاً ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي الكفرة من متاع الدنيا وزخارفها، فإن ما في الدنيا بالنسبة إلى ما أعطيت مستحقر؛ أي[1]: لا تتمنين أيها الرسول ما جعلنا من زينة الدنيا متاعاً للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين، فإن من وراء ذلك عقاباً غليظاً، والخطاب وإن كان موجَّهاً إلى النبي ﷺ، فهو تعليم لأمته كما تقدم مثله، يؤيد هذا ما سبق في أسباب نزول الآية، وإن كان ضعيفاً، من أنه أتت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير إلخ، وخلاصة ذلك لقد أوتيت النعمة العظمى، التي إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرةً، فقد أوتيت سبع آيات هي خير من السبع القوافل، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفرة؛ أي: لا تحزن ولا تتأسف لأجل عدم إيمانهم حيث[2] لم يؤمنوا، ولم ينتظموا في سلك أتباعك، ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين، لأن تَقْدِيري عليهم الكُفْرُ، وقد كان ﷺ يود أن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يؤمن به كل من بعث إليه، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم، وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾؛ أي: ألن جانبك وحالك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من المؤمنين وارفق بهم، ولا تجف بهم، ولا تغلظ عليهم[1]، مستعار من خفض الطائر جناحه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقوله في صفة أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم بين وظيفة الرسول ﷺ فقال: ﴿وَقُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: المنذر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله، إن لم يؤمنوا؛ أي[2]: أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم في غيهم، كما حل بمن تقدم من الأمم المكذبة لرسلها، فانتقم الله منهم بإنزال العذاب بهم.

وفي «الصحيحين»: عن أبي موسى الأشعري إن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»، وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ هو[3] من قول الله تعالى، لا من قول الرسول ﷺ، متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ لأنه بمعنى أنزلنا؛ أي: أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، إنزالاً مماثلاً لإنزال الكتابين التوراة والإنجيل، على اليهود والنصارى المقتسمين؛ أي: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ المنزل عليك يا محمد ﴿عِضِينَ﴾؛ أي: أجزاء؛ أي: الذين اقتسموا القرآن وجزؤوه وجعلوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه الذي وافق كتابيهما، وكفروا بعضه وهو ما خالفهما، أخرج هذا المعنى البخاري وسعيد بن منصور

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من عدة طرق، والموصول[1] مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم؛ أي: قسموا القرآن إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعدواناً: بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما، والغرض بيان المماثلة بين الإتيانين لا بين متعلقيهما، كما في الصلاة الإبراهيمية، فإن التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله الفائضة على إبراهيم وآله أتم وأكمل مما فاض على محمد ﷺ، وإنما ذلك للتقدم في الوجود، فليس في التشبيه إشعارٌ بأفضلية المشبه به من المشبه، فضلاً عن إيهام أفضلية ما تعلق به الأول مما تعلق به الثاني، فإنه ﷺ أوتي ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله.

وفي «القرطبي»: واختلف في المقتسمين على أقوال سبعة[2]:

الأول: قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها، يقولون لمن سلكها لا تغتر بهذا الخارج فينا يدعي النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا ساحرٌ، وربما قالوا شاعرٌ، وربما قالوا كاهنٌ، وسموا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، فأماتهم شرميتةٍ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكماً على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبي ﷺ.. قال صدق أولئك.

الثاني: قال قتادة: هم قوم كفار من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين.

الثالث: قال ابن عباس: هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

الرابع: قال عكرمة: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك.

الخامس: قال قتادة: اقتسموا كتابهم ففرقوه وبدَّدوه.

السادس: قال زيد بن أسلم: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله، فسموا مقتسمين، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾.

---

(1) روح البيان.

(2) القرطبي.

السابع: قال الأخفش: هم قوم أقسموا أيماناً تحالفوا عليها، وقيل إنهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وشيبة بن الحجاج، ذكره الماوردي بحروفه.

وبعد أن بين وظيفة الرسول، ذكر أن الحساب على الأعمال موكولٌ إلى الله سبحانه، لا إليه فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾؛ أي؛ فأقسمت لك يا محمد بربك الذي ربَّاك بالوحي ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾؛ أي[1]: لنسألن أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم، سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استعلام، بأن يقال لم فعلتم كذا وكذا، فلا يعارض قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: لا يسألون أي شيء فعلتم ليعلم ذلك من جهتهم، لأن المنفي في هذه الآية سؤال استعلام، لأن سؤال الاستعلام محال على الملك العلام، ويجوز أن يكون السؤال مجازاً من المجازاة، لأنه سببها؛ أي: فوربك لنسألن الكفرة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا من قول وفعل وتركٍ، والمعنى[2]؛ أي: فلنسألن الكفار جميعاً يوم القيامة، سؤال تأنيبٍ وتوبيخٍ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بي وبتوحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان.

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ، شدد عليه في الجهر به جهد المستطاع فقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: فاجهر بإبلاغ ما أمرت بتبليغه من الشرائع وأظهره، وافرق بين الحق والباطل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وأعرض عن الاهتمام باستهزائهم، ولا تبال بهم، ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة وتبليغ الرسالة، ولا تخفهم، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم، وهذا ليس بمنسوخ، لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم، ولمَّا[3] كان هذا الصدع شديداً عليه، لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين. ذكر أنه حارسه وكالئه منهم، فلا يخشى بأسهم فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: إنا كفيناك يا محمد شر المستهزئين وضررهم، الذين يسخرون منك ومن القرآن، وهم طائفة من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

المشركين لهم قوةٌ وشوكةٌ، كانوا كثيري السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ، حين يرونه أو يمر بهم، أفناهم الله تعالى، وأبادهم وأزال كيدهم، وقد اختلف في عدتهم، فقوم يقولون: هم خمسة الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعديٌّ بن قيس، والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب، وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب، فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده، فأصاب عرقاً في عقبه فمات، ومات العاص بشوكةٍ في أخمص قدمه، وأصاب عديَّ بن قيس مرضٌ في أنفه فمات، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداءٍ وهو قاعدٌ في أصل شجرةٍ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وعمي الأسود بن عبد المطلب. وقوم يقولون: هم سبعةٌ من أشراف قريش ومشركيها.

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾؛ أي: هم الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر، يعبدونه من دون الله تعالى، وفي وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ، وتهوينٌ للخطب عليه، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة، بل تعدوا إلى الإشراك بربهم المدبر لأمورهم، والمحسن إليهم، ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم، يوم تجزى كل نفس بما عملت، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

وبعد أن سلاّه بكفاية شرهم ودفع مكرهم، ذكر تسلية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ يا محمد ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: بما يقول المشركون من الأقوال الكفرية الاستهزائية، المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب، وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلية البشرية، والمزاج الإنساني، ثم أمره(١) سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ يا محمد ونزه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به حالة كونك متلبساً ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: متلبساً

---

(١) الشوكاني.

بحمده وثنائه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: المصلين، فإنك إذا فعلت ذلك.. كشف الله همك، وأذهب غمك، وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه؛ أي: بالدوام عليها بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾؛ أي: الموت المتيقن، قال الزجاج: المعنى[1] اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت.. لجاز إذا عبد الإنسان مرةً أن يكون مطيعاً، فإذا قال حتى يأتيك اليقين فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حيًّا، والمعنى[2]؛ أي: إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك، ونزهه عما يقولون، حامداً له على توفيقك للحق، وهدايتك إلى سبيل الرشاد، وصلِّ آناء الليل وأطراف النهار، فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس، ويسمو نفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ودم على ما أنت عليه، طالباً المزيد من فضله، حتى يأتيك الموت، فهناك الجزاء بلا عملٍ، وهنا العمل ولا جزاء، وقصارى ذلك: أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده في نفسه من الغم بفعل الطاعات، والإكثار من العبادات، وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر واشتدَّ عليه خطب.. فزع إلى الصلاة، روى أحمد عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» وفي هذه[3] دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل، روى البخاري عن ابن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع.. فقاعداً، فإن لم تستطع.. فعلى جنب»، اللهم وفقنا لطاعتك، واهدنا لعبادتك، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

الإعراب

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فخرجوا من عند إبراهيم، وسافروا من قريته إلى قرية لوط، فلما دخلوا قريته، وجاءوا إليه.. قال لوط، ﴿لمَّا﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿لُوطٍ﴾، والجملة جواب ﴿لمَّا﴾، وجملة ﴿لمَّا﴾ معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿مُّنكَرُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ إلى قوله: ﴿وقضَيْنا﴾ مقولٌ محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب عن محذوف، إضراباً إبطالياً تقديره: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، ﴿جِئْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَمْتَرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿فِيهِ﴾.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أتيناك﴾، تقديره: حالة كوننا متلبسين بالحق، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿أتيناك﴾. ﴿فَأَسْرِ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أسر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة في محل النصب معطوفة على قوله ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾. ﴿بِأَهْلِكَ﴾: جار ومجرور، حال

من فاعل ﴿أسر﴾؛ أي: فأسر حالة كونك متلبساً بأهلك، ﴿بِقِطْعٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أسر﴾ و﴿الباء﴾ بمعنى في؛ أي: في قطعٍ، ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿قطع﴾، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسْرِ﴾، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسْرِ﴾، ﴿وَٱمْضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَأَسْرِ﴾. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿امضوا﴾ ﴿تُؤْمَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿قَضَيْنا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول، ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان منه، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: اسمها ومضاف إليه، ﴿مَقْطُوعٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿مَقْطُوعٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على البدلية من اسم الإشارة، أو من الأمر، تقديره: وقضينا إليه ذلك الأمر قطع دابر هؤلاء مصبحين، أو مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وقضينا إليه ذلك الأمر بقطع دابر هؤلاء ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في محل النصب حال من ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ناصب واسمه، ﴿ضَيْفِى﴾: خبره، وجملة ﴿إِن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَفْضَحُونِ﴾: فعل مضارع

مجزم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل و﴿النون﴾: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة على قراءة الجمهور اجتزاءً عنها بكسرة النون مبني على السكون، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾: جازم وفعل وفاعل، ونون وقاية ومفعول محذوف على قراءة الجمهور، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نقدم لك ولم ننهك، ﴿لَمْ نَنْهَكَ﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم لوط ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه وخبره، والجملة فعل شرط لـ ﴿إن﴾، والجواب محذوف تقديره: إن كنتم فاعلين قضاء الشهوة فيما أحل الله.. فتزوجوا بناتي، والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿عمرك﴾: مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف وجوبا لسد جواب القسم مسده والتقدير: لعمرك قسمي، وجملة القسم مستأنفة، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَفِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿فِى سَكْرَتِهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت استمرارهم في غوايتهم، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول: أخذتهم الصيحة ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ﴿مُشْرِقِينَ﴾: حال من ضمير المفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿فَجَعَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَٰلِيَهَا﴾: مفعول أول، ﴿سَافِلَهَا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به ﴿حِجَارَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: صفة لآيات، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَإِنَّهَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء؛ ﴿بسبيل﴾: جار ومجرور خبره، ﴿مُّقِيمٍ﴾: صفة ﴿سبيل﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَةً﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة ﴿لَءَايَةً﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئافية، ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ﴿كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت كونهم ظالمين، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك انتقمنا، ﴿انتقمنا﴾ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِإِمَامٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿بإمام﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿إمام﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿انْتَقمنا﴾ على كونهم مقولاً لجواب إذا المقدرة، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، لأن آتى بمعنى أعطى، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿فَكَانُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿كانوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُعْرِضِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿آتيناهم﴾.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَنْحِتُونَ﴾ خبره، ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾: حال مقدرة من ﴿بُيُوتًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول، ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَنْحِتُونَ﴾ وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وظلمهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ﴿مُصْبِحِينَ﴾: حال من ضمير المفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة، ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: اسم موصول، أو موصوفة في محل الرفع فاعل،

والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يكسبونه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، والجملة مستأنفة، ﴿فَٱصْفَحِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الساعة آتية، وأن الله ينتقم من أعدائك.. فأقول لك اصفح، ﴿اصفح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿ٱلصَّفْحَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿ٱلْجَمِيلَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلصَّفْحَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾. خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ صفة له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب للقسم

المحذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: صفة لـ﴿سَبْعًا﴾، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ﴾: معطوف على ﴿سَبْعًا﴾، ﴿ٱلْعَظِيمَ﴾: صفة ﴿القرآن﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمُدَّنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ ﴿لَا﴾ مبني على الفتح، والنون نون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿عَيْنَيْكَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تمدن﴾، ﴿مَتَّعْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، وجملة ﴿مَتَّعْنَا﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: جازم وفعل مجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿وَٱخْفِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على محمد، ﴿جَنَاحَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿اخْفِضْ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة النهي.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿اخْفض﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾: مقولٌ محكيٌّ، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنَا﴾: ضمير فصل، أو تأكيد لياء المتكلم، ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفةٌ له، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قل﴾ ﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف معمول لآتيناك سبعاً من المثاني، لأنه بمعنى أنزلنا، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صفةٌ لمصدر محذوف، تقديره: ولقد أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم إنزالاً مثل إنزالنا على المقتسمين، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾. ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنائية، ﴿وربك﴾ جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربك يا محمد، وجملة القسم مستأنفة، ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نسألنهم﴾: فعل ومفعول أول، ونون

توكيد، وفاعله ضمير يعود على الربِّ، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المفعول، والجملة الفعلية جواب القسم. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَسْأَلَنَّ﴾ وهو في محل المفعول الثاني، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عمّا كانوا يعملونه.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾:

﴿فَاصْدَعْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك. اصدع بما تؤمر، ﴿اصدع﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿تُؤْمَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما تؤمر به، ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر معطوف على اصدع، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: صفة للمستهزئين، ﴿يَجْعَلُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿مَعَ اللَّهِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول أول، ﴿آخَرَ﴾: صفة له، والجملة صلة الموصول، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿سوف﴾: حرف استقبال وتنفيس، ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، والجملة مستأنفة، ويحتمل كون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والفاء رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من

معنى الشرط، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب القسم المحذوف، ﴿أَنَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَضِيقُ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما يقولونه.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾.

﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك... فأقول لك سبح بحمد ربك، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾ تقديره: حالة كونك متلبساً بحمد ربك، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، ﴿وَكُن﴾ فعل أمر ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على محمد، ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾: خبر ﴿كُنْ﴾، وجملة ﴿كُنْ﴾ في محل النصب معطوف على ﴿سبح﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿سبح﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، والتقدير: واعبد ربك إلى إتيان اليقين، الجار والمجرور معلق بـ ﴿اعْبُدْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: اذهب بهم ليلاً، والقطع من الليل الطائفة منه، كما قال:

افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومْ ... كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾؛ أي: كن على أثرهم لتسرع بهم، وتطلع على أحوالهم،

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أوحينا ﴿دَابِرَ﴾ آخر ﴿مَقْطُوعٌ﴾؛ أي: مهلك مستأصل، ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمدينة هي سذوم على وزن فعول ـ بالذال المعجمة ـ مدينة قوم لوط، والاستبشار إظهار السرور، والفضيحة إظهار ما يوجب العار، يقال: فضحه كمنعه يمنعه فضيحة وفضحاً إذا كشف مساويه، وأظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه، وفي «المختار»: فضحه فافضتح كشف مساويه، وبابه قطع، والاسم الفضيحة والفضوح أيضاً بضمتين اهـ. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: لا تذلون، من الخزي وهو الهوان، أو ولا تخجلون فيهم، من الخزاية وهي الحياء اهـ «بيضاوي».

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ والعمر والعمر بالفتح والضم الحياة، وإذا أريد به القسم تفتح عينه، وقيل والعمر بالفتح لغة في العمر بضمتين، فهما بمعنى واحد، وهو مدة عيش الإنسان؛ أي: مدة حياته في الدنيا، لكن لم يرد القسم في كلام العرب إلا بالضبط الأول؛ أي: فتح اللام وفتح العين المهملة اهـ شيخنا، وفي «السمين»: لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوباً، و﴿إِنَّهُمْ﴾ وما في حيزه جواب القسم، تقديره: لعمرك قسمي أو يميني إنهم... إلخ، والعمر بالفتح والضم هو البقاء، إلا إنهم التزموا الفتح في القسم، قال الزجاج: لأنه أخف عليهم، وهم يكثرون القسم بعمرك، وفي «الدر المنثور» وعمرك بفتح العين وسكون الميم لغة في العمر بضمهما، وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح.

﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: في غوايتهم وضلالهم يتحيرون، ويقال عمه يعمه من باب تعب، إذا تحير، كما في «المختار».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ والصيحة الصاعقة، وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة، أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير، ﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس وطلوعه، و﴿السجيل﴾ الطين المتحجر، وهو معرب لا عربيٌّ في المشهور، وفي «القاموس»: السجيل كسكيت حجارة كالمدر معرب. سَنْكِ وكل اهـ. ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: للمتفكرين، يقال توسمت في فلان كذا؛ أي:

عرفت وسمه فيه؛ أي: أثره وعلامته، وتوسم الشيء تحيره وتفرسه، وفي «السَّمين» قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ من التوسم تفعل من الوسم، والوسم أصله التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البقر أو غيره، وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، وفيه معنى التثبت، وقيل: أصله استقصار التعرف، تقول توسمت؛ أي: تعرفت مستقصياً وجوه التعرف، وقيل هو تفعل من الوسم وهو العلامة، ويقال توسمت في فلان خيرا إذا ظهرت لي منه علاماته، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبي ﷺ:

إِنِّيْ تَوَسَّمْتُ فِيْكَ ٱلْخَيْرَ أَعْرِفُهُ   وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّيْ ثَابِتُ ٱلْبَصَرِ

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح معلم ليس بخفيّ ولا زائل الآثار، يسلكه الناس ويرون آثار القرى فيه «بيضاوي»، ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ والأيكة الغيضة، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض، وقد كانت في مكان كثير الأشجار كثير الغبار، وكان عامة شجرهم المقل؛ أي: الدوم، وفي «المختار»: الأيك الشجر الكثير الملتف، الواحدة أيكة مثل تمر وتمرة، فمن قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة، ومن قرأ: ﴿أصحاب لَيْكَة﴾ فهي اسم القرية، وقيل هما مثل مكة وبكَّة، ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح، وأصل الإمام ما يؤتم سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع؛ أي: لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده اهـ «خازن»، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ هم ثمود، والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه، وآثاره باقية يمر عليها ركب الشام في ذهابه إلى الحجاز، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً، ومنه حجر الكعبة المشرفة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هي الناقة، وفيها آيات كثيرة: كعظم خلقها، وكثرة لبنها، وكثرة شربها كما مر، ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ أي: يخرقون فيها بيوتاً بالمعاويل، حتى تصير مساكن من غير بنيان يسكنونها زمن الشتاء، والنحت في كلام العرب البري والنجر، يقال نحته ينحته بالكسر نحتاً ـ من باب ضرب ـ إذا براه ونقبه، والجبال جمع جبل، قال في «القاموس»: الجبل محركة كل وتد للأرض عظم وطال، فإن انفرد فأكمة، أو قنة ﴿بُيُوتًا﴾ جمع بيت، وهو اسم مبنى

مسقف، مدخله من جانب واحد، بني للبيتوتة، سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثةً، والدار تطلق على العرصة المجردة، بلا ملاحظة البناء معها ذكره في «روح البيان».

و﴿ٱلصَّفۡحَ﴾ ترك التثريب واللوم، والصفح الجميل ما خلا من العتب ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ جمع مثنى من التثنة، وهو التكرير والإعادة، ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ يقال مد عينيه إلى مال فلان: اشتهاه وتمناه، ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ جمع زوج، وهو الصنف، وخفض الجناح يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه.. بسط جناحه، والجناحان من الإنسان جانباه، و﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ المخوف بعذاب الله من لا يؤمن به.

﴿عِضِينَ﴾؛ أي: أجزاء، واحدها عضةٌ من عضيت الشاة، جعلتها أعضاء وأقساماً، وفي «البيضاوي» عضين جمع عضة، وأصلها عضوة فعلة، من عضى الشاة إذا جعلها أعضاءً وأجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعرٌ وبعضه سحرٌ وبعضه كهانةٌ ونحو ذلك، وقيل هو مأخوذ من عضته إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وفي «المختار»: قال الكسائيُّ: العضة الكذب والبهتان، وجمعها عضون، مثل عزة وعزون، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ قيل ونقصان الواو، وهو من عضوته؛ أي: فرقته، لأن المشركين فرقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً، وقيل نقصانه الهاء، وأصله عضهةٌ، لأن العضة والعضين في لغة قريش السحر، يقولون للساحر عاضه، ومنه قول الشاعر:

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ ٱلنَّافِثَا ... تِ فِي عُقَدِ ٱلْعَاضِهِ ٱلْعَضِهِ

وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء، لما لحقها من الحذف، فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحذف، ومما يؤيد أن معنى عضين التفريق قول رؤبة:

وَلَيۡسَ دِينُ ٱللَّهِ بِٱلۡعِضِينِ

أي: بالمفرق، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: اجهر به، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أن ينقبض من الحسرة والحزن، ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المصلين، ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ الموت، وسمي به لأنه أمر متيقن لا شك فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لأنه كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأن من يلتفت لا بد له من أدنى وقفةٍ.

ومنها: ترك الاستثناء هنا، حيث لم يقل: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، اكتفاءً بما قبله وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾، وجناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ لأن الجائي بعضهم لا كلهم.

ومنها: إطلاق الضيف على الملائكة بحسب اعتقاده ـ عليه السلام ـ لكونهم في زيِّ الضيف في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ حيث استعار السكرة التي هي زوال العقل من الشراب لغوايتهم وضلالتهم، بجامع عدم التمييز بين الصواب والخطأ في كل منهما.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ حيث استعار الإمام بمعنى

المقتدى به للطريق الواضح، بجامع الاهتداء في كل منهما.

ومنها: إطلاق الجمع على المفرد في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لأن المراد بها الناقة، تنزيلاً لها منزلة الجمع، لأن فيها آيات كثيرة وخوارق عديدة، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حيث شبه إلانة الجانب بخفض الجناح، بجامع العطف والرقة في كلٍ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، وهذا من أبلغ الاستعارات، لأن الطائر إذ كف عن الطيران بجناحيه.. خفض جناحيه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: من المصلين لما فيه من إطلاق البعض وإرادة الكل.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾؛ لأن العبادة عامة شاملة للتسبيح والسجود وغيرهما.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعاني كتابه وأسرار تنزيله

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الحكم والأحكام

١ ـ وصف القرآن الكريم.

٢ ـ الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون.

٣ ـ استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، وتكذيبهم لما يرونه من الآيات.

٤ ـ إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات في خلق السموات والأرض وفي الإنسان.

٥ ـ عصيان إبليس أمر ربه في السجود لآدم، وذكر الحوار بينه وبين ربه، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين.

٦ ـ بيان حال أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة.

٧ ـ قصص بعض الأنبياء، وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها.

٨ ـ بيان أن الحكمة في خلق السموات والأرض هي عبادة الله تعالى وحده، وإقامة العدل والنظام في المجتمع.

٩ ـ ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثاني والقرآن العظيم.

١٠ ـ نهي نبيه والمؤمنين عن تمني زخرف الدنيا وزينتها.

١١ ـ أمره ﷺ بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين.

١٢ ـ التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين.

١٣ ـ الأمر بالدعوة للدين جهراً والصدع بها، وعدم المبالاة بالمشركين.

١٤ ـ أمره ﷺ بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفي كتابه الكريم[١].

---

(١) فرغنا من تفسير هذه السورة بعون الله وتوفيقه في ليلة الثلاثاء، أوائلها الليلة الثانية عشرة من شهر شعبان المعظم، من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة من الهجرة النبوية.

سورة النحل

سورة النحل مكية[1] إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة، فإنها نزلت بالمدينة في قتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ قاله ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه أنها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة، زاد مقاتل قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية، وقيل: كان يقول لسورة النحل سورة النِّعم، لكثرة تعداد النعم فيها، وهي مئة وثمان وعشرون آية، وألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة أحرف.

والمقصود من هذه السورة[2]: الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحلة لما ذكر من شأنها في دقة الفهم، من ترتيب بيوتها ورحبها وسائر أمرها، من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها، وجعله شفاءً، مع أكلها من الثمار النافعة والضارة، وغير ذلك من الأمور، ورسمها بالنعم واضح اهـ «خطيب».

المناسبة: ووجه المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها[3]: أنه لما قال في السورة السالفة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ كان ذلك تنبيهاً إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، فقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وأيضاً فإن قوله في آخرها: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ شدد الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال الإمام أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: وجملة المنسوخ في هذه السورة خمس آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية (٦٧)، نسخت بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ الآية (٣٣) من سورة الأعراف، يعني الخمر، وقيل بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الآية (٩١) أي: انتهوا.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية (٨٢)، نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ الآية (١٠٦)، نسخت بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية (١٠٦) من سورة النحل، وقيل بآية السيف.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ الآية (١٢٥).

والخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ (١٢٨) نسخت كلتاهما بآية السيف، مع الاختلاف فيهما.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ
أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ
﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ
وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا
تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

وقد سبق لك بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر السورة السالفة فراجعه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾...﴾

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] أنه منزه عن الشريك والولد، وأنه لا إله إلا هو، وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له.. ذكر هنا أدلة التوحيد، واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع، جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم، ونبّه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف في صرف المشركين عمّا هم عليه من الشرك.

وكلما بصَّرهم طائفة مما يرون ويشاهدون.. بكتهم على ما يقولون ويفعلون، وبيَّن لهم كفرانهم نعمتي الرعاية والهداية، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية، ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان، ثم ربع بذكر أحوال النبات، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه تعالى لما امتن بإيجادهم بعد العدم وإيجاد ما ينتفعون به من الأنعام وغيرها من الركوب. ذكر ما امتن به عليهم من إنزال الماء الذي هو قوام حياتهم وحياة الحيوان، وما يتولد عنه من أقواتهم وأقواتها من الزرع، وما عطف عليه فذكر منها الأغلب، ثم عمم بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثم أتبع ذلك بخلق الليل الذي هوسكن لهم، والنهار الذي هو معاشٌ، ثم بالنيرين الذين جعلهما الله تعالى مؤثرين بإرادته في إصلاح ما يحتاجون إليه، ثم بما ذرأ في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر الاستدلال بما ذرأ في الأرض.. ذكر ما امتن به من تسخير البحر، ومعنى تسخيره كونه يتمكن الناس من الانتفاع به، للركوب في المصالح، وللغوص في استخراج ما فيه، وللاصطياد لما فيه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل[3] على

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم، ووجوه الإحسان، وأردف ذلك بتبكيت الكفار، وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان، لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها، ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده، وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة.. فلسيوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه، ولكنه يستر عليهم مافرط من كفرانها، ويرحمهم بفيض النعم عليهم، مع عدم استحقاقهم لها، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية، وهي علم السر والنجوى والخلق، وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لا خالقة، ولا شعور لها بحشر ولا نشر، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراك، وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد، فهي لا ترغب في الثواب ولا ترهب العقاب، وتستكبر عن عبادة الواحد الديان، لا جرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ①﴾.. قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعلمون حتى ننظر، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء.. قالوا ما نرى شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ فأشفقوا، وارتقبوا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام.. قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، ونزل: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج[٢] ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. ذعر

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) لباب النقول.

أصحاب رسول الله ﷺ، حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكتوا، وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر ابن أبي حفص قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.. قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي[1]: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة؛ أي: أتى العذاب الموعود لكم أيها الكفرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: أمر الله ووقوعه، إذ لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنه حمل على الحقيقة، ونهوا عنه بضرب من التهكم.

الاستعجال طلب الشيء قبل حينه، وقيل أمر الله يوم القيامة، وعبَّر بالماضي عن المضارع لقرب وقوعه وتحققه، والحاصل[2] أن النبي ﷺ لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولم يروا شيئاً.. نسبوه إلى الكذب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قد حصل حكم الله بنزول العذاب من الأزل إلى الأبد، وإنما لم يحصل المحكوم به؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي: فلا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت، ولما قالت الكفرة: إنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله، من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا، إما في الدنيا، وإما في الآخرة إلا أنَّا نعبد هذه الأصنام، فإنها شفعاؤنا عند الله، فهي تشفع لنا عنده، فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به، بسبب شفاعة هذه الأصنام، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له وتقديساً عن الصاحبة والولد ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾؛ أي: تبرأ وترفع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكهم به غيره، أو عما يشركون به تعالى من الأصنام والأوثان، فنزه الله تعالى نفسه عن شركة الشركاء، وأن يكون لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿أتى﴾ بالإمالة ذكره في «زاد المسير».

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

وقرأ الجمهور: ﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: بالتاء على الخطاب، وهو خطاب للمؤمنين، أو خطاب للكفار على معنى قل لهم: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وقر ابن جبير: بالياء نهياً للكفار، والظاهر عود الضمير في: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ على الأمر، لأنه هو المحدث عنه، وقيل يعود على الله؛ أي: فلا تستعجلوا الله بالعذاب، أو بإتيان يوم القيامة، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تُشْرِكون﴾ بتاء الخطاب، وباقي السبعة والأعرج وأبو جعفر وابن وضاح وأبو رجاء والحسن: بالياء على الغيبة، وقرأ عيسى الأولى بالتاء من فوق، والثانية بالياء من تحت، وبالتاء من فوق معاً الأعمش وأبو العالية وطلحة وأبو عبد الرحمن وابن وثاب والجحدري.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي: قرب عذاب المشركين وهلاكهم، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ، وقضائه الغالب على كل شيء، فهو يأتي في الحين الذي قدره وقضاه، ونظم سبحانه المتوقع في صورة المحقق، إيذاناً بأنه واجب الوقوع، والشيء إذا كان بهذه المثابة يسوغ في عرف التخاطب أن يعد واقعاً، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر في علمه تعالى.

وفي هذا[1]: تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله، وإعلامٌ منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذي لا بد منه، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذي يدفع الضر عنكم، وفي هذا رد لمقالهم حين قالوا: لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب في الدنيا أو في الآخرة.. لتشفعن لنا هذه الأصنام التي نعبدها من دونه.

وخلاصة هذا: أن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هي أحقر الموجودات، وأضعف المخلوقات، فكيف تجعلونها شريكةً لله في التدبير والشفاعة في الأرض والسموات.

---

(١) المراغي.

ولمَّا[1] أخبرهم ـ أعني الكفار ـ رسول الله ﷺ عن أمر الله تعالى أنه قد قرب، ونهاهم عن الاستعجال.. ترددوا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم به بالوحي على ألسن رسل الله تعالى من ملائكته، فقال: ﴿يُنَزِّلُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي[2]: جبريل لأن الواحد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيساً تعظيماً لشأنه ورفعاً لقدره، أو هو ومن معه من حفظة الوحي، لأنه قد ينزل بالوحي مع غيره حالة كونهم متلبسين ﴿بِٱلرُّوحِ﴾؛ أي: بالوحي الذي من جملته القرآن، على طريق الاستعارة، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وقال بعضهم الباء بمعنى مع؛ أي: ينزل الملائكة مع جبريل، وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح الذي أريد به الوحي؛ أي: حالة كون الروح والوحي من أمره وحكمه وشرعه، أو هو متعلق بينزل، و﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء السببية؛ أي: بسبب أمره، وأجل إرادته؛ أي: ينزل الملائكة بالوحي من أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق، وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ بدل من الروح؛ أي: ينزل الله سبحانه وتعالى ملائكته بالوحي من أمره على من يريد من عباده المصطفين الأخيار حالة كونهم متلبسين بأنهم أنذروا؛ أي: بأن قولوا يا ملائكتي للأنبياء: أعلموا الناس أيها الأنبياء ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الواحد القهار الملك الجبار ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: فخافوا أيها الناس عقابي بالإتيان بعبادتي، والمخاطبون بالإنذار الأنبياء الذين نزلت عليهم الملائكة، والآمر هو الله تعالى، والملائكة نقلة للأمر، والإنذار التخويف من المحذور.

وتقدير هذا الكلام:[3] أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده، ويأمر الله ذلك العبد الذي نزلت عليه الملائكة بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد، كلفهم بمعرفة التوحيد وبالعبادة له، وبين أنهم إن فعلوا.. فازوا بخيري الدنيا والآخرة، وإن تمردوا.. وقعوا في شر الدنيا والآخرة، فبهذا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الطريق صار ذلك العبد مخصوصاً بهذه المعارف من دون سائر الخلق، فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ إشارة إلى الأحكام الأصولية، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ إشارة إلى الأحكام الفرعية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1]: ﴿يُنْزِل﴾ بإسكان النون وتخفيف الزاي، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرأ زيد بن علي والأعمش وأبو بكر: ﴿تُنَزَّلُ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول ﴿المَلائِكَةُ﴾، وقرأ الجحدري كذلك إلا أنه خفَّف، وقرأ الحسن وأبو العالية والأعرج والمفضَّل عن عاصم ويعقوب: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بفتح التاء مشدداً مبنياً للفاعل، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿نُنزِّلُ﴾ بنون العظمة والتشديد، وقتادة بالنون والتخفيف، قال ابن عطية: وفيهما شذوذ كثير. انتهى.

وشذوذهما أن ما قبله وبما بعده ضمير غيبة، ووجه بأنه التفات. وقرىء ﴿لِيُنْذِرُوا أنَّه﴾ وقرأ يعقوب ﴿فاتَّقُوني﴾ بالياء، ذكره «النسفيُّ»، وفي الآية إيماء[2] إلى أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بواسطة الملائكة، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ فقد بدأ بذكر الملائكة؛ لأنهم الذين يتلقون الوحي من الله بلا وساطة، وذلك الوحي هو الكتب، وهم يوصلون هذا الوحي إلى الأنبياء، لا جرم جاء الترتيب على هذا الوضع.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: خلق سبحانه وتعالى وأنشأ وأوجد العالم العلوي، وهو السموات، والعالم السفلي، وهو الأرض بما حوت على غير مثال سابق؛ أي: خلق الأجرام العلوية والآثار السفلية خلقاً متلبِّساً ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة على نهج تقتضيه الحكمة، ولم يخلقهما عبثاً منفرداً بخلقهما لم يشركه في إنشائهما وإحداثهما شريك، ولم يعنه على ذلك معين ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الله سبحانه عن ذلك، إذ ليس في قدرة أحد سواه أن ينشىء السموات والأرض، فلا تليق العبادة إلا له، تقدس سبحانه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكهم أو عن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

شركه الذي يجعلونه شريكاً له من الباطل الذي لا يبدىء ولا يعيد، فينبغي للسالك أن يوحد الله تعالى ذاتاً وصفةً وفعلاً، وقرأ الأعمش: ﴿فتعالى﴾ بزيادة فاء، ولما احتج[1] سبحانه بخلق السموات والأرض على حدوثهما.. قال بعده: ﴿تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالقائلون بقدم السموات والأرض، كأنهم أثبتوا لله شريكاً في القدم، فنزَّه تعالى نفسه عن ذلك، وبين أنه لا قديم إلا هو، فالمقصود من قوله أوّلاً ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إبطال قول من يقول إن الأصنام تشفع للكفار في دفع عقاب الله عنهم، والمقصود ههنا إبطال قول من يقول: أجسام السموات والأرض قديمة، فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن أن يشاركه غيره في القدم، ويقال: قبل أن يخلق الأرض كان موضع الأرض كله ماء، فاجتمع الزبد في موضع الكعبة، فصارت ربوة حمراء كهيئة التل، وكان ذلك يوم الأحد، ثم ارتفع بخار الماء كهيئة الدخان حتى انتهى إلى موضع السماء، وما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام، كما بين المشرق والمغرب، فجعل الله درّةً خضراء فخلق منها السماء، فلما كان يوم الاثنين.. خلق الشمس والقمر والنجوم، ثم بسط الأرض من تحت الربوة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، لا بالباطل والعبث، ونعم ما قيل:

إِنَّمَا ٱلْكَوْنُ خَيَالٌ وَهْوَ حَقٌّ فِيْ ٱلْحَقِيْقَهْ

ثم لما كان النوع الإنساني أشرف أنواع المخلوقات السفلية.. قدمه وخصه بالذكر، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: بني آدم لا غير؛ لأن أبويهم لم يخلقا من النطفة، بل خلق آدم من التراب، وحواء من الضلع الأيسر منه، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من جماد يخرج من حيوان، وهو المني، فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح، وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار، فعاش فيها ﴿فَإِذَا هُوَ﴾؛ أي: الإنسان بعد خلقه على هذه الصفة، وأتى بالفاء إشارة إلى سرعة نسيانهم ابتداء خلقهم ﴿خَصِيمٌ﴾؛ أي: بليغ الخصومة شديد الجدل، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر الخصومة واضحها،

---

(١) المراح.

وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به عن الباطل، الآية تدل:[1] على وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، قالوا: خلق الله تعالى جوهر الإنسان من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً، وهم ما ازدادوا إلا تكبراً، وما لهم والكبر بعد أن خلقوا من نطفة قذرة؟!

والمعنى: أي[2] خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من نطفة؛ أي: من ماء مهين خلقاً عجيباً في أطوار مختلفة، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تم خلقه، ونفخ فيه الروح، فغذاه ونماه ورزقه القوت، حتى إذا استقل ودرج نسي الذي خلقه خلقاً سويًّا من ماء مهين، بل خاصمه فقال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ وعبد ما لا يضر ولا ينفع ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾﴾ وكان حقه والواجب عليه أن يطيع وينقاد لأمر الله، وأكثر ما ذكر الإنسان في القرآن في معرض الذم، أو مردفاً بالذم، ذكره أبو حيان في «البحر».

ولمَّا ذكر[3] الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض، ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان.. ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته، ولمَّا كان أعظم ضرورات الإنسان الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الإنسان.. بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك، وهو الأنعام فقال: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾؛ أي: الإبل والبقر والغنم والمعز، جمع نعم، وهي الأجناس الأربعة، المسماة بالأزواج الثمانية، اعتباراً للذكر والأنثى، فالخيل والبغال والحمير خارجة من الأنعام، وانتصابها بفعل مضمر يفسره قوله: ﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾؛ أي: خلق الله سبحانه وتعالى الأنعام المذكورة لمنافعكم ومصالحكم يا بني آدم، وكذا سائر المخلوقات، فإنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم لا لها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأمَّا الإنسان فقد خلق له تعالى كما قال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ وقرىء: ﴿الأنعامُ﴾ بالرفع شاذًّا، كما ذكره

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

أبو البقاء، حالة كون تلك الأنعام ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾؛ أي: ما يتدفأ به من البرودة ويستحسن من اللباس المتخذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ﴿و﴾ حالة كونها فيها ﴿منافع﴾ أخرى غير الدفء، من نسلها ودرها وركوبها، والحراثة بها وثمنها وأجرتها ﴿و﴾ حالة كونها ﴿منها﴾؛ أي: من لحومها وشحومها وأكبادها وكروشها وغير ذلك أصالةً، وغالباً ﴿تَأْكُلُونَ﴾ يا بني آدم[1]، بخلاف القُبل والدبر والذَّكر والخصيتين والمرارة والمثانة ونخاع الصلب والعظم والدم فإنها حرام، وتقديم الظرف لرعاية الفاصلة، أو لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الطيور وصيد البر والبحر. فعلى وجه التداوي، أو التفكه والتلذذ، فيكون القصر إضافياً بالنسبة إلى سائر الحيوانات، حتى لا ينتقض بمثل خبز ونحوه من المأكولات المعتادة.

وقرأ الزهري وأبو جعفر[2]: ﴿دفٌّ﴾ بضم الفاء وشدِّها وتنوينها، ووجهه أنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء ثم حذفها ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف، إذ يجوز تشديدها في الوقف، وقرأ زيد بن عليّ ﴿دفٌ﴾ بنقل الحركة وحذف الهمزة دون تشديد الفاء، وقال صاحب «اللوامح» قرأ ﴿دفٌ﴾ بضم الفاء من غير همزٍ، والفاء محركة بحركة الهمزة المحذوفة، ومنهم من يعوض من هذه الهمزة فيشدد الفاء، وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفاً.

وخص منفعة[3] الأكل بالذِّكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها، وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها، بخلاف غيره من المنافع التي فيها، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وغيره نادر، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في هذه الأنعام مع ما فُصِّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾؛ أي: زينةٌ في أعين الناظرين إليها ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾؛ أي: حين تردونها بالعشي من مسارحها إلى منازلها، التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: وحين تخرجونها من مراحها إلى مسارحها بالغداة،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

وخصص هٰذين الوقتين بالذكر لأن الأفنية تتزين بها، ويتجاوب رغاؤها في الإبل، وثغاؤها في الشاة حين الذهاب والإياب.

فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها، وقدم المَرَاح على السَّرَاح مع تأخرها في الوجود لأن الجمال فيها أظهر، وجلب السرور فيها أكمل، ففيها حضور بعد غيبه، وإقبال بعد إدبار، على أحسن ما يكون، إذ تكون ملأى البطون حافلة الضروع.

وفي «الخازن»[1]: فإن قلت: لِمَ قدمت الإراحة على التسريح؟

قلتُ: لأن الجمال في الإراحة، وهو رجوعها إلى البيوت أكثر منها وقت التسريح، لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون، حافلة الضروع، فيفرح أهلها بها، بخلاف تسريحها إلى المرعى، فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن، ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية، فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة أكثر منه من التسريح، فوجب تقديمه، وقرأ عكرمة والضحاك والجحدري: ﴿حِيْناً﴾ فيهما بالتنوين وفك الإضافة، وجعلوا الجملتين صفتين حذف منهما العائد، كقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾.

﴿وَ﴾ هذه الأنعام ﴿تَحْمِلُ﴾ أيضاً ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾؛ أي: أمتعتكم وأحمالكم، والمراد بها هنا الإبل خاصة، جمع ثقل بفتحتين وهو متاع المسافر ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيدٍ غير بلدكم أيّاً ما كان، فيدخل فيه إخراج أهل مكة متاجرهم إلى اليمن ومصر والشام ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾؛ أي: بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه؛ أي: واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل؛ لو لم تخلق الإبل فرضاً، والاستثناء في قوله[2]: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾؛ أي: إلا بتعب الأنفس، فضلاً عن استصحابها معكم؛ أي: عن أن تحملوها على ظهوركم إليه مفرغ من أعم الأشياء؛ أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بكلفةٍ ومشقةٍ وجهدٍ شديدٍ وعناءٍ وتعبٍ، والشقُّ نصف الشيء، والمعنى على هذا: لم تكونوا بالغيه إلا

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

بنقصان بقوة النفس وذهاب نصفها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وقد امتن الله[1] سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَرَءُوفٌ﴾؛ أي: عظيم الرأفة والرفق بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: عظيم الإنعام عليكم، ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقال أبو حيان: وناسب[2] الامتنانَ بهذه النعمة من حملها الأثقال الختم بصفة الرأفة والرحمة، لأن من رأفته تيسير هذه المصالح وتسخير الأنعام لكم اهـ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِشِقِّ﴾ بكسر الشين، وقرأ مجاهد والأعرج وأبو جعفر وعمر بن ميمون وابن أرقم: بفتحها، ورويت عن نافع وأبي عمرو، وهما مصدران معناهما المشقة، وقيل الشق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ عطف على الأنعام؛ أي: وخلق الله سبحانه وتعالى لكم الخيل ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليلٌ بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً مما لا ريب في تحققه ﴿وَ﴾ جعلها لكم ﴿زِينَةً﴾ تتزينون بها إلى ما لكم فيها من منافع أخرى.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ وما عطف بالنصب، عطفاً على قوله:

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

﴿وَٱلۡأَنۡعَـٰمَ﴾، وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع، ولما كان الركوب أعظم منافعها اقتصر عليه، ولا يدل ذلك على أنه لا يجوز أكل الخيل، خلافاً لمن استدل بذلك، كأبي حنيفة كما يأتي بيانه، والخيل اسم جنس للفرس لا وحد له من لفظه كالإبل، وسمي الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها، والخيل نوعان: عتيق وهجين، والفرق بينهما: أن عظم البرذون أعظم من عظم الفرس، وعظم الفرس أصلب وأنقل، والبرذون أجمل من الفرس، والفرس أسرع منه، والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة، فالعتيق ما أبواه عربيان، سمي بذلك لعتقه من العيوب، وسلامته من الطعن فيه بالأمور المنقصة، كما سميت الكعبة بالبيت العتيق لسلامتها من عيب الرق، لأنه لم يملكها مالك قط، والهجين الذي أبوه عربي وأمه عجمية، وخلق الله الخيل من ريح الجنوب، وكان خلقها قبل آدم ـ عليه السلام ـ لأن الدواب خلقت يوم الخميس، وآدم خلق يوم الجمعة بعد العصر، والذكر من الخيل خلق قبل الأنثى لشرفه، كآدم وحواء، وأول من ركب الخيل إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكانت وحوشاً، ولذلك قيل لها العراب، وفي الحديث: «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم اسماعيل»، وكان له ﷺ سبعة أفراس، وروي أن موسى عليه السلام قال للخضر: أيُّ الدواب أحب إليك، قال: الفرس والحمار والعير، لأن الفرس مركب أولي العزم من الرسل، والعير مركب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام، والحمار مركب عيسى والعزير ـ عليهما السلام ـ فكيف لا أحب شيئاً أحياه الله بعد موته قبل الحشر.

والبغال جمع بغل وهو مركب من الفرس والحمار، ويقال أول من استنتجتها قارون، وله صبر الحمار وقوة الفرس، وهو مركب الملوك في أسفارهم، ومعبرة الصعاليك في قضاء أوطارهم، وعن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ البغال كانت تتناسل، وكانت أسرع الدواب في نقل الحطب لنار إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ فدعا عليها فقطع الله نسلها، وهذه الرواية تستدعي أن يكون استنتاجها قبل قارون، لأن إبراهيم مقدم على موسى بأزمنة كثيرة، وإذا بخر البيت بحافر البغل الذكر. . هرب منه الفأر وسائر الهوام، كما في «حياة الحيوان»، وكان له ﷺ بغال ست، والحمير جمع حمار، وكان

له ﷺ من الحمر اثنان: يعفور وعفير، والعفرة الغبرة، والحمار من أذل خلق الله تعالى كما قال الشاعر:

وَلاَ يُقِيمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ عِيرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ

هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِىٰ لَهُ أَحَدُ

ثم علل[1] سبحانه وتعالى خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها، لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم، كالتحميل عليها، وعطف ﴿زينة﴾ على محل ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لأنه في محل نصب على أنه علةٌ لخلقها، ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لأن الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن، وهو الخالق، والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية، لأنه يورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر، ولكنه غير مقصود بالذات.

فصلٌ في ذكر الاختلاف في لحوم الخيل

وقد استدل[2] بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل، قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقةٌ لهذه المصلحة دون غيرها، قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل، قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزاً.. لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما، والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حل لحوم الخيل، ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر، ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب، وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل.. لدلت على تحريم الحمر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر، وقد قدمنا أن هذه السورة مكية، والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم.. لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعةً لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، واحتجوا[1] على إباحة لحوم الخيل بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه، وفي رواية قالت: ذبحنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن في المدينة فأكلناه، أخرجه البخاري ومسلم، وبما روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل، وفي رواية قال: أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش، ونهى النبي ﷺ عن الحمار الأهلي، متفق عليه، وهذه رواية البخاري ومسلم، وفي رواية أبي داود قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، وكنا قد أصابتنا مخمصة، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل.

وقال البغوي[2]: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها: تعريف الله عباده نعمه، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أن السنَّة مبنية للكتاب، ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتاً عنه.. دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم، فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل، وتحريم لحوم البغال والحمير فأخذنا بها جمعاً بين النصين، والله أعلم.

﴿وَيَخْلُقُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أيها العباد؛ أي: ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات، غير ما عدده هنا من أنواع الحشرات والهوام في

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر، ولم يسمعوا به، مما يهدي إليه العلم، وتستنبطه العقول، كالقطر البرية والبحرية، والطائرات التي تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى بلد آخر، ومن قطر إلى قطر، والمطاود الهوائية التي تسير في الجو، والغواصات التي تجري تحت الماء، إلى نحو أولئك مما تعجبون منه، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير في الركوب والزينة.

والتعبير(١) هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة بالنسبة إلى ما ظهر؛ لأنه تعالى قد خلق ما لا يعلم به العباد، وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته، أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوي لمن أراده، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وعلى الله سبحانه وتعالى بموجب رحمته وبمقتضى وعده المحتوم، لا واجب عليه إذ لا يجب عليه شيءٌ، بيان قصد السبيل؛ أي: بيان الطريق المستقيم، الموصل من سلكه إلى الحق والتوحيد بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ونحو الآية قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

والقصد(٢): مصدر بمعنى اسم الفاعل، يقال: سبيل قصد وقاصد؛ أي: مستقيم، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: إلى سبيل القصد؛ أي: المستوي المستقيم، أو المعنى: وعلى الله قاصد السبيل؛ أي: هداية قاصد الطريق المستقيم، بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع.

﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: من السبل سبيل ﴿جَآئِرٌ﴾؛ أي: طريق مائلٌ عن الاستقامة، معوج زائغ عن الحق، فالسبيل القاصد هو الإسلام، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى، سماويةً كانت كاليهودية والنصرانية، أو أرضية كالوثنية والمجوسية.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وخلاصة هذا[١]: أن ثمة طرقاً تسلك للوصول إلى الله، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وأمر بها، وهي طريق الإسلام له، والإخبات إليه وحده، كما أرشد إلى ذلك بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وما عداها فهو جائرٌ، وعلى الله بيان ذلك، ليهتدي إليه الناس، ويبتعدوا عن سواه.

ثم أخبر سبحانه: بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ الله سبحانه وتعالى أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد هدايةً موصلة إليه.. ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لفعل ذلك، ولكن لم يشأ؛ لأن مشيئته تابعةٌ للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة؛ أي[٢]: ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل في حياتكم الاجتماعية، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة وتقوى الله، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية، ولا تسعى إلى الشر، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم، وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها، ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم، وما ترون فيه الفائدة لكم، كما قال عز من قائل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: طريق الخير والشر ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والمعنى[٣]: ولو شاء أن يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح والمنهج الحق.. لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته إراءة الطريق والدلالة، وأما الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافرٌ، ولا يستحقُّ النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً، والبعض كافراً، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

فإن قلت[٤]: لِمَ غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؟

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

قلت: ليعلم بما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان كما تزعم المجبرة.. لقيل: وعلىٰ الله قصد السبيل، وعليه جائرها، أو عليه الجائر، وقرأ عبد الله: ﴿ومنكم جائر﴾ عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه.

وبعد أن ذكر سبحانه نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام، شرع بذكر نعمته عليهم في إنزال المطر فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ بقدرته القاهرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿مَآءً﴾ عذباً؛ أي: نوعاً منه وهو المطر، وفي «بحر العلوم»: تنكيره للتبعيض؛ أي: بعض الماء، فإنه لم ينزل من السماء الماء كله ﴿لَكُمْ﴾ أيها الآدميون ولكلِّ حيٍّ ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الماء المنزل ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: ما تشربونه، والظرف[1] الأول وهو لكم خبرٌ مقدم لشرابٌ، والثاني حال منه، ومن تبعيضية، قال الخطيب: وإن قيل: ظاهر هذا أن شرابنا ليس إلا من المطر.. أجيب بأنه تعالى لم ينف أن نشرب من غيره، وبتقدير الحصر لا يمتنع أن يكون الماء العذب الذي تحت الأرض من جملة ماء المطر أسكن هناك، بدليل قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَمِنْهُ﴾؛ أي: ومن ذلك المنزل ﴿شَجَرٌ﴾ فـ ﴿من﴾ ابتدائية؛ أي: ومنه وبسببه يحصل شجر ترعاه المواشي، والمراد به: ما ينبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الشجر ﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون مواشيكم، قدم الشجر على الزرع وعلى ما بعده لحصوله بغير صنع من البشر.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿تَسيمون﴾ بفتح التاء، فإن سمع متعدياً.. كان هو وأسام بمعنى واحد، وإن كان لازماً.. فتأويله على حذف مضاف تسيمون؛ أي: تسيم مواشيكم لما ذكر.

والمعنى[3]: أي إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ومصالحكم هو الإله الذي أنزل المطر من السماء عذباً زلالاً تشربون منه، وتسقون أشجاركم ونباتكم التي تسيمون فيها أنعامكم وفيها ترعى.

ثم استأنف[1] إخباراً عن منافع الماء، فقال جواباً لمن قال: هل له منفعة غير ذلك؟ ﴿يُنۢبِتُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُم﴾ أيها العباد؛ أي: ينبت لمصالحكم ومنافعكم ﴿بِهِ﴾؛ أي: بما أنزل من السماء ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ الذي هو أصل الأغذية وعمود المعاشر، قال في «بحر العلوم»: الزرع كل ما استنبت بالبذر مسمى بالمصدر وجمعه زروع.

قال كعب الأحبار: لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام.. جاء ميكائيل بشيء من حب الحنطة وقال: هذا رزقك ورزق أولادك، قم فاضرب الأرض، وابذر البذر، قال: ولم يزل الحب من عهد آدم إلى زمن إدريس كبيضة النعام، فلما كفر الناس.. نقص إلى بيضة الدجاجة، ثم إلى بيضة الحمامة، ثم إلى قدر البندقة، ثم إلى قدر الحمصة، ثم إلى المقدار المحسوس الآن، يقال: إن البوم لا يأكل الحنطة ولا يشرب الماء، أما الأول: فلأن آدم عصى بالحنطة ربه، وأما الثاني: فلأن قوم نوح أهلكوا بالماء.

وقرأ أبو بكر[2]: ﴿نُنۢبِتُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الزهري ﴿نُنَبِّتُ﴾ بالتشدد، قيل للتكثير والتكرير، والذي يظهر أنه تضعيف التعدية، وقرأ أُبيٌّ: ﴿يَنۢبُتُ﴾ من نبت، ورفع الزرع وما عطف عليه، ﴿و﴾ ينبت لكم بذلك الماء ﴿الزيتون﴾ الذي هو إدام من وجه، وفاكهة من وجه، قال في «إنسان العيون»: شجرة الزيتون تعمِّر ثلاثة آلاف سنة، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، ﴿و﴾ وينبت لكم ﴿النخيل﴾ والنخيل والنخل بمعنى واحد، وهو اسم جمع، والواحدة نخلة كالثمرة والثمر، وفي الحديث: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضل طينة آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران، فأطعموا نسائكم الولَّد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمرٌ»، كما في

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

«المقاصد الحسنة»، ﴿و﴾ ينبت لكم ﴿الأعناب﴾ جمع عنب، وإنما جمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة، وفيه إشارة: إلى أن تسمية العنب كرماً لم يكن بوضع الواضع، ولكنه كان من الجاهلية، كأنهم قصدوا به الاشتقاق من الكرم؛ لكون الخمر المتخذة منه تحثُّ على الكرم والسخاء، فنهى النبي ﷺ عن أن يسموه بالاسم الذي وضعه الجاهلية، وأمرهم بالتسمية اللغوية بوضع الواضع حيث قال: «لا تقولوا: الكرم، ولكن قولوا: العنب والحبلة» ثم بين قبح تلك الاستعارة بقوله: «إنما الكرم قلب المؤمن» يعني أن ما ظنوه من السخاء والكرم فإنما هو من قلب المؤمن لا من الخمر؛ إذ أكثر تصرفات السكران عن غلبةٍ من عقله، فلا يعتبر ذلك العطاء كرماً ولا سخاء؛ إذ هو في تلك الحالة كصبي لا يعقل السخاء، ويؤثر بماله سرفاً وتبذيراً، فكما لا يُحمل ذلك على الكرم، فكذا إعطاء السكران، كذا في «أبكار الأفكار».

وخصص هذه الأنواع الأربعة بالذكر للإشعار بفضلها وشرفها، وفي «البحر»: وخص[1] الأربعة بالذكر؛ لأنها أشرف ما ينبت، وأجمعه للمنافع، وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله، والائتدام به، وبدهنه والإطلاء بدهنه، ثم بالنخل لأن ثمرته من أطيب الفواكه، وقوت في بعض البلاد، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة.

ثم عمَّم فقال[2]: ﴿و﴾ ينبت لكم ﴿من كل الثمرات﴾؛ أي: بعض كلها، وأتى بلفظ ﴿من﴾ التي للتبعيض؛ لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبت في الأرض بعضٌ من كلها للتذكرة.

ويحتمل كون المراد ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يحتملها هذه النشأة الدنيوية، وترى بها، وهي الثمرات المتعارفة عند الناس بأنواعها وأصنافها، فتكون كلمة ﴿مِنْ﴾ صلة كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ على رأي الكوفية وهو

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

اللائح الواضح.

والمعنى: أي ينبت لكم بالماء الذي أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم، ومن كل الثمرات غير ذلك أرزاقاً لكم، وأقواتاً نعمةً منه عليكم، وحجة على من كفر به، ولما ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل.. أعقبه بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك هنا ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات، ثم قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تنبيهاً على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر، كما أنَّ تفصيل ما خُلق من باقي الحيوان لا يكاد يحصر، وختم ذلك تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية، لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لقوم يعتبرون مواعظ الله، ويتفكرون فيها، حتى تطمئن قلوبهم بها، وينبلج نور الإيمان فيها يضيء أفئدتهم، ويزكي نفوسهم، فإن[1] من تفكر في أن الحبة والنواة تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها، فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها إن كانت منتكسة في الوقوع ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار، على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع، وعلى نواةٍ قابلةٍ لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية، مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية بالنسبة إلى الكل.. علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال، فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في صفاته التي هي الألوهية، واستحقاق العبادة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والتفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، قالوا: الذكر طريق والفكر وسيلة المعرفة التي هي أعظم الطاعات، ولله[2] در القائل:

تَـأَمَّـلْ فِـيْ رِيَـاضِ ٱلْـوَرْدِ وَٱنْـظُـرْ إِلَـىٰ آثَـارِ مَـا صَـنَـعَ ٱلْـمَـلِـيْـكُ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

عُيُوْنٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ   عَلَىٰ أَهْدَابِهَا ذَهَبٌ سَبِيْكُ
عَلَىٰ قَضْبِ ٱلزَبَرَّجَدِ شَاهِدَاتٌ   بِأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكُ

﴿وَسَخَّرَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنامنكم ومعاشكم، ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفةً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال[1] بعضهم: الليل ذكر كآدم، والنهار أنثى كحواء، والليل من الجنة، والنهار من النار، ومن ثمة كان الأنس بالليل أكثر، ﴿وَ﴾ سخر لكم ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ تسخراً في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة، وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه، كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم، وليس المراد بتسخير هذه لهم تمكنهم من تصريفها كيف شاؤوا، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ونظائره، بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم، لا أن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوها مسخرات؛ أي: مذللات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلقت له ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: بإرادته ومشيئته، وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين والقمرين، لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص، بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى، من غير دلالة على شيء آخر، ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث، إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار.

والمعنى[2]: أي ومن نعمه تعالى عليكم مضافةً إلى النعم التي سلف ذكرها أن سخر لكم الليل والنهار، يتعاقبان خلفةً، لمنامكم واستراحتكم وتصرفكم في معايشكم وسعيكم في مصالحكم، وسخر لكم الشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافة، وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلوينها، إلى نحو ذلك من الآثار والمنافع التي ربطها سبحانه

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

بوجودهما، وبهما يعرف عدد السنين والشهور، وفي ذلك صلاح معايشكم، وسخر لكم النجوم بأمره وإرادته، تجري في أفلاكها بحركة مقدرة لا تزيد ولا تنقص، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير المتعلق بما ذكر مجملاً ومفصلاً ﴿لَآيَٰتٍ﴾ باهرة ودلالات واضحة متكاثرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حجج الله، ويفتحون عقولهم للنظر والاستدلال، ويفهمون ما نبههم إليه بها، ويعتبرون، وعبر هنا[1] بالعقل، وفي خاتمة الآية السابقة بالتفكر، من قبل أن الآثار العلوية متعددة، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية ظاهرة لا تحتاج إلا إلى العقل من غير تفكر ولا تأمل، بل تدرك بالبديهة، بخلاف الآثار السفلية من الزرع والنخيل والأعناب فهي تحتاج في دلالتها على وجود الصانع إلى فكر وتدبر ونظر شديد، وجمع الآيات هنا ليطابق قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾، وفي «البحر»: وجمع[2] الآيات هنا، وذكر العقل وأفرد فيما قبل، وذكر التفكر؛ لأن فيما قبل استدلالاً بإنبات الماء، وهو واحد وإن كثرت أنواع النبات، والاستدلال هنا متعدد، ولأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وقد ذكر لفظ الآية في هذه السورة سبع مرات، خمس بالإفراد، واثنتان بالجمع، قال الكرماني: ما جاء بلفظ الإفراد فلوحدة المدلول، وهو الله تعالى، وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات اهـ.

والأوَلَى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها، كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار، وللأفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين، وحسن كل واحد منهما.

فائدة: قال أهل العلم[3]: العقل جوهر مضيء، خلقه الله في الدماغ،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

وجعل نوره في القلب، يدرك الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة، وهو للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له فهو ميت، وهو بمنزلة قلب البهائم، وسئل النبي ﷺ: من أحسن الناس عقلاً؟ قال: «المسارع إلى مرضاة الله تعالى، والمجتنب عن محارم الله تعالى»، قالوا أخف حلماً من العصفور، قال حسان بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ:

لاَ بَأسَ بِٱلْقَوْمِ مِنْ طُوْلٍ وَمِنْ عِظَمِ جِسْمُ ٱلْبِغَالِ وَأحْلاَمُ ٱلْعَصَافِيْرِ

وقرأ ابن عامر: ﴿والشمس﴾ وما بعده بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿مسخرات﴾، وقرأ حفص: و﴿النجوم﴾ ﴿مسخراتٌ﴾ برفعهما، وقرأ ابن مسعود والأعمش وابن مصرف. ﴿والرِّياحُ﴾ ﴿مسخراتٌ﴾ بدل و﴿النجومُ﴾ ﴿مسخرات﴾ وهي مخالفة لسواد المصحف، والظاهر في قراءة نَصْبِ الجميع أنَّ ﴿والنجومُ﴾ معطوف على ما قبله، و﴿مسخرات﴾ حالٌ مؤكدة من الجميع.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على الليل والنهار رفعاً ونصباً؛ أي: وسخر لكم سبحانه وتعالى ما خلق لكم في الأرض، من عجائب الأمور ومختلف من حيوان ونبات ومعادن حالة كونه: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ وهيئات من خضرة وبياض وحمرة وسواد، وغير ذلك على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصِّها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ونحوها، أو إن في اختلاف ما في الأرض ﴿لَءَايَةً﴾ دالة على أن من هذا شأنه واحد لا شريك له ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ آلاء الله ونعمه، فيشكرونه على ما أنعم، ويخبتون إليه على ما تفضل به وأحسن، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يفضل عنه من العلوم الضرورية.

وختم هذا بقوله[1]: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ ومعناه الاعتبار والاتعاظ، كأن علمهم بذلك سابق طرأ عليه النسيان، فقيل يذكرون؛ أي: يتذكرون ما نسوا من تسخير هذه المكونات في الأرض.

---

(١) البحر المحيط.

قيل: وإنما[1] خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة، وخص المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية.. فلا عقل له، وخص المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك.. فلا حس له، وفي هذا من التكلف ما لا يخفي، والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في إفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه أن كلاً من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر، لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن، لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة، والله أعلم بأسرار كتابه.

وبعد أن ذكر أنواع النعم في البر شرع يفصل نعمه في البحر، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ وذلل لكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ العذب والملح، والبحر: الماء الكثير، أو الملح فقط؛ أي: جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد.

قال بعضهم[2]: هذه البحور على وجه الأرض ماء السماء النازل وقت الطوفان، فإن الله تعالى أمر الأرض بعد هلاك القوم فابتلعت ماءها، وبقي ماء السماء لم تبتلعه الأرض، وأما البحر المحيط فغير ذلك، بل هو جزر عن الأرض حين خلق الله الأرض من زبده، ويجوز ركوب البحر بشرط علم السباحة وعدم دوران الرأس، وإلا فقد ألقى نفسه إلى التهلكة، وأقدم على ترك الفرائض، وذلك للرجال والنساء، كما قاله الجمهور، وكره ركوبه للنساء، لأن حالهن على الستر، وذا متعسر في السفينة، لا سيما في الزورق وهي السفينة الصغيرة.

امتن الله[3] سبحانه وتعالى بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه، واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده، مع

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ومواضع النظر والاعتبار.

ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾؛ أي: وهو تعالى الذي سخر لكم البحر لتصطادوا منه؛ أي: من حيوانه، فهو على حذف مضاف ﴿لَحْمًا﴾؛ أي: سمكاً طريًّا، أي: رطباً؛ أي: سخر لكم لتأكلوا سمكاً رطباً تصطادونه منه أي من حيوانه.

والتعبير[1] عن السمك باللحم مع كونه حيواناً، لانحصار الانتفاع به في الأكل، وفي وصفه[2] بالطراوة والرطوبة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، وبما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضاً إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب.

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء، وهو الذي يموت حتف أنفه في الماء فيطفو على وجهه، لحديث جابر عن النبي ﷺ: «ما نضب عنه الماء فكلوا، وما لفظه فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا». فالمراد منه ميتة البحر في الحديث: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته» هو ما لفظه، لا ما مات فيه من غير سبب، ﴿و﴾ سخر لكم البحر أيضاً ﴿لتستخرجوا منه﴾؛ أي: من جواهره ﴿حِلْيَةً﴾؛ أي: زينة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: تتزينون أنتم ونساؤكم بها، والمراد بالحلية المذكور في الآية اللؤلؤ المخلوق في صدفه العائش في البحار، ولا سيما المحيط الهندي، والمرجان الذي ينبت في قيعانها، لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ فهما حلالان للرجال والنساء، ولا حاجة لما تكلَّفه جماعة

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

من المفسرين في تأويل قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقوله: تلبسه نساؤهم، لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبهاً بهن، وقد ورد الشرع بمنعه، لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وتبصر أيها المخاطب السفن حالة كونها ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: جواري ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في البحر؛ أي: لو حضرت أيها المخاطب لرأيت السفن جواري في البحر، تجري جرياً وتشقه شقاً بحيزومها ومقدمها، مقبلة مدبرة، من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك، ومن ثم قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: لتطلبوا فضل الله ورزقه، بركوبه للتجارة، وهذا معطوف على ﴿تستخرجوا﴾ وما بينهما اعتراض، أو معطوف على علةٍ محذوفةٍ؛ أي: لتنتفعوا بذلك، ولتطلبوا من سعة رزقه بركوبه للتجارة، فإن تجارته أربح.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي[1]: تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر، لأنه أقوى في باب الإنعام، من حيث إنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

والمعنى[2]: أي ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم، إذ جعل ركوب البحر مع كونه مظنة للهلاك سبباً للانتفاع وحصول المعاش، مع عدم الحاجة إلى الحل والترحال والاستراحة والسكون، ولله در القائل:

وَإِنَّا لَفِيْ ٱلدُّنْيَا كَرَكْبِ سَفِيْنَةٍ   نُظَنُّ وُقُوْفاً وَٱلزَّمَانُ بِنَا يَسْرِيْ

وفي «الشوكاني» هنا: قيل[3]: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافةٍ طويلةٍ مع أحمال ثقيلة، من غير مزاولة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً، مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون ما فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوسٍ، وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له.

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد الموجبة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى، وآيةٍ أخرى فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى ونصب بقدرته القاهرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي[1] كروية الشكل، محلها وسط العالم، وسميت بالأرض لأنها تأرض؛ أي: تأكل أجساد بني آدم.

﴿رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت من غير سبب ولا ظهير ولا معين، كأنهن حصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن في الأرض، فهو تصوير لعظمته وتمثيلٌ لقدرته، وإن كل عسير، فهو عليه يسير.

أي[2]: وجعل فيها رواسي، بأن قال لها كوني فكانت، فأصبحت الأرض وقد أرسيت وأثبتت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً، فلم يدر أحد مم خلقت، من رسا الشيء إذا ثبت جمع راسية والتاء للتأنيث على أنها صفة جبال، كراهية ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتتحرك الأرض ﴿بِكُمْ﴾ أيها العباد الأرضيون، على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والميد: الاضطراب والميل يميناً وشمالاً، يقال: ماد الشيء يميد ميداً إذا تحرك، ومنه سميت المائدة.

والمعنى: كراهية أن تميد بكم وتضطرب، وقد خلق الله الأرض مضطربة لكونها على الماء، ثم أرساها بالجبال، وهي ستة آلاف وست مئة وثلاثة وسبعون جبلاً، سوى التلول على ما قاله الجغرافيون، على جريان عادته في جعل الأشياء منوطة بالأسباب، فالأرض بلا جبال كاللحم بلا عظام، فكما أن وجود الحيوان وجسده إنما يستمسك بالعظم، فكذا الأرض إنما تقوم بالرواسي، ألا ترى أن سطيحاً الكاهن لم يكن في بدنه عظم سوى القفا، لكونه من ماء المرأتين، وكان

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

لا يستمسك وإنما يخرج في السنة مرة ملفوفاً في خرقة، أو موضوعاً على صحيفة من فضة ﴿و﴾ جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿أنهاراً﴾ لأن[1] في ﴿ألقى﴾ معنى الجعل، إذ الإلقاء جعل مخصوص، وهي جمع نهر، ويحرك وهو مجرى الماء، وذلك مثل الفرات نهر الكوفة، ودجلة نهر بغداد، وجيحون نهر بلخ، وجيحان نهر أذنة في بلاد الأرمن، وسيحون نهر الهند، وسيحان نهر المصيصة، والنيل نهر مصر، وغيرها من الأنهار الجارية في أقطار الأرض.

وحاصل المعنى: أي[2] وألقى سبحانه وتعالى في الأرض جبالاً ثوابت، لتقر الأرض ولا تضطرب بما عليها من الحيوان، فلا يهنأ لهم عيشٌ بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ وما الأرض إلا كسفينةٍ على وجه البحر، فإذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة.. تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب، وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة.. استقرت على حال واحدة، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت.

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تجري من مكان إلى آخر رزقاً للعباد، وهي تنبع في مواضع وهي رزق لأهل مواضع أخرى، فهي تقطع البقاع والبراري، وتخترق الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التي سخر لأهلها أن تنتفع بها، كما يشاهد في نهر النيل إذ ينبع من أواسط أفريقية، ويمر بجبال ووهاد في السودان، ويستفيد منه الفائدة الكبرى أهل مصر دون سواها، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير، وذكر الأنهار عقب الجبال، لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال كما في «الخازن» ﴿و﴾ كذلك جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿سبلاً﴾ وطرقاً مختلفة، نسلك فيها من بلاد إلى بلاد أخرى، وقد تحدث ثلمة في الجبل لتكون ممراً طريقاً، كما قال تعالى في وصف الجبال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا...﴾ الآية، جمع سبيل، وهو الطريق وما وضح.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا بها في أسفاركم إلى مقاصدكم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ومنازلكم، أو إرادة أن تهتدوا بها في أسفاركم، فلعل مستعارة لمعنى الإرادة كما في «روح البيان».

قال بعضهم[1]: خذوا الطريق ولو دارت، واسكنوا المدن ولو جارت، وتزوجوا البكر ولو بارت؛ أي: ولو كانت البكر بوراً؛ أي: فاسدة هالكة لا خير فيها.

﴿و﴾ كذلك جعل سبحانه وتعالى في الأرض ﴿علامات﴾؛ أي: معالم ودلائل، يهتدي ويستدل بها السابلة في النهار، وهم القوم المختلفة على الطريق من جبال كبار وآكام صغار، وسهول ومياه وأشجار وريح، كما قال الإمام الرازي: رأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرقات، حتى إذا ضلوا الطريق، كانت تلك العلامات عوناً لهم، وهدتهم إلى السبيل السوي في البر والبحر.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري أو البحار، حيث لا علامة غيره، ولعل[2] الضمير لقريش، فإنهم كانوا كثيري التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم، وصرف النظم عن سنن الخطاب، وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء يهتدون، فالاعتبار بذلك ألزم لهم، والشكر عليه أوجب عليهم، والمراد بالنجم الجنس، أو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وذلك لأنها تعلم بها الجهات ليلاً لأنها دائرة حول القطب الشمالي، فهي لا تغيب، والقطب في وسط بنات نعش الصغرى، والجدي هو النجم السابع من بنات النعش الصغرى، والفرقدان هما النجمان الأولان من النعش الصغرى، وهما من النعش، والجدي من البنات، ويقرب من بنات نعش الصغرى بنات نعش الكبرى، وهي سبعة أيضاً أربعة نعش وثلاث بنات، وبإزاء الأوسط من البنات السهى: وهو كوكب خفي صغير كانت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تمتحن فيه أبصارهم، كذا في «التكملة» لابن عساكر، وفي

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

«الخطيب»: ولما كانت الدلالة من النجم أنفع الدلالات وأعمها، وأوضحها برًّا وبحراً ليلاً ونهاراً.. نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة، لإفهام العموم، لئلا يظن أن المخاطب مخصوص، وليس كذلك فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾؛ أي: الجنس هم؛ أي: أهل الأرض كلهم، وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها، لفرط معرفتهم بالنجوم، وقدم الجار تنبيهاً على أن دلالة غيره بالنسبة إليه سافلة، وقيل: المراد بالنجم الثريا والفرقدان وبنات لنعش، وقيل: الضمير لقريش لأنهم كثير الأسفار للتجارة، مشهورون بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في طرقكم وقبلتكم، ثم كفوا، وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم. قيل: أول من نظر في النجوم والحساب إدريس النبي ـ عليه السلام ـ قال بعض السلف: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وفي الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة، قال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينةً للسماء، ومعالم للطرق، ورجوماً للشياطين، فمن قال غير ذلك، فقد تكلم بما لا علم له به.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ بفتح النون وسكون الجيم على أنه اسم جنس، ويؤيد ذلك قراءة ابن وثاب ﴿وبالنجم﴾ بضم النون والجيم، ومراده النجوم فقصره بحذف الواو منه، أو هو جمع، كسقف وسقف، وفي «زاد المسير»: وقرأ[2] الحسن والضحاك وأبو المتوكل ويحيى بن وثاب: ﴿وبالنجم﴾ بضم النون وإسكان الجيم، وقرأ الجحدري ﴿وبالنجم﴾ بضم النون والجيم، وقرأ مجاهد: ﴿وبالنجوم﴾ بواو على الجمع.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

وقال الأخفش[1]: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ كلام منفصل عن الأول.

ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته.. أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ وعبارة «الخازن» هنا: ولما ذكر الله[2] عز وجل من عجائب قدرته، وغرائب صنعته، وبديع خلقه، ما ذكر على الوجه الأحسن، والترتيب الأكمل، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعاً.. قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته، واشتغل بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾؛ يعني: هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئاً ألبتةَ، لأنها جمادات لا تقدر على شيء، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها، ويترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الله الخالق هذه الأشياء كلها، ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد، فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر، بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر انتهت.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ للاستفهام[3] الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد ظهور دلائل التوحيد تتصور المشابهة والمشاركة ـ فمن يخلق هذه المصنوعات العظيمة ـ وهو الله تعالى ـ كمن لا يخلق شيئاً منها ـ وهو الأصنام؟! وعبر عنها بمن التي للعقلاء لأنهم سموها آلهةً فأجريت مجرى العقلاء، أو للمشاكلة لأنه قابله بالخالق وجعله معه كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾.

وفي «الكرخي»: وهذا من عكس التشبيه، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: أفمن

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

لا يخلق كمن يخلق، فخولف في خطابهم، لأنهم بالغوا في عبادتها، حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة، وصار الخالق فرعاً فجاء الإنكار على وفق ذلك مجاراة على معتقدهم.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون القدرة الباهرة للخالق سبحانه، والعجز الظاهر للأصنام، فلا تذكرون ذلك فتعرفون فساد ما أنتم عليه يا أهل مكة، فإنه بوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

ومعنى الآية: أي أفمن[1] يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم، وينعم هذه النعم العظيمة.. كمن لا يخلق شيئاً ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة؟ أفلا تذكرون هذه النعم، وهذا السطان العظيم، والقدرة على ما شاء من الحكمة، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع ضرًّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها، وإقراركم لها بالألوهية.

وخلاصة هذا :الإنكار عليهم، ورميهم بالجهل، وسوء التقدير، وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر، بل يكفي فيه تنبه العقل ليعلم أن العبادة لا تليق إلا للمنعم بكل هذه النعم، أما هذه الأصنام التي لا فهم لها ولا قدرة ولا اختيار، فلا تنبغي عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها.

قال قتادة في الآية: الله هو الخالق الرازق، لا هذه الأوثان التي تعبد من دون الله، التي لا تخلق شيئاً، ولا تملك لأهلها ضرًّا ولا نفعاً اهـ.

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته، ذكرهم بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى الفائضة عليكم مما لم يذكر ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي[2]: لا تطيقوا إحصاءها وحصرها، وضبط عددها ولو إجمالاً، فضلاً عن القيام بشكرها، يقال: أحصاه؛ أي: عده كما في «القاموس»، وأصله

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أن الحساب كان إذا بلغ عدداً وضعت له حصاة، ثم استؤنف العدد.

والمعنى: لا توجد له غاية فتوضع له حصاة، وهذه الجملة تذكير إجمالي بنعمه تعالى، بعد تعداد طائفة منها، وكان الظاهر إيرادها عقبها تكملة لها، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكره أبو السعود.

والمعنى: أي وإن تعدوا نعم الله تعالى لا تضبطوا عددها، فضلاً عن أن تستطيعوا القيام بشكرها، فإن العبد مهما أتعب نفسه في طاعته، وبالغ في شكران نعمه، فإنه يكون مقصراً، فنعم الله تعالى كثيرة، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَغَفُورٌ﴾؛ أي: لستور فيستر عليكم تقصيركم في القيام بشكرها، ويتجاوز عنه، ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير الرحمة بكم، عظيم النعمة عليكم، لا يقطعها عنكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان، بسبب ما أنتم عليه من أصناف الكفر والعصيان، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، ومن أفظع ذلك وأعظمه جرماً المساواة بين الخالق والمخلوق، وتقديم[1] وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية.

قال بعض الحكماء[2]: إن أي جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان النعم، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم، وهو سبحانه يدبر جسم الإنسان على الوجه الملائم له، مع أنه لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعمه عليه، أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها انتهى.

واعلم[3]: أنه لو صرف جميع عمر الإنسان إلى الأعمال الصالحة، وإقامة الشكر.. لما كافىء نعمة الوجود، فضلاً عن سائر النعم، ولله در القائل:

لَوْ عِشْتُ أَلْفَ عَامِ ... فِيْ سَجْدَةٍ لِرَبِّيْ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

شُكْراً لِفَضْلِ يَوْمٍ ... لَمْ أَقْضِ بِالتَّمَامِ
وَالْعَامُ أَلْفُ شَهْرٍ ... وَالشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمِ
وَالْيَوْمُ أَلْفُ حِيْنٍ ... وَالْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

اللهم ربنا يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك فتجاوز عنا، واغفر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إلا تفعل. . نهلك لتقصيرنا في شكر نعمك، فكيف بما فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك.

اَلْعَفْوُ يُرْجَىٰ مِنْ بَنِيْ آدَمَ ... فَكَيْفَ لاَ يُرْجَىٰ مِنَ الرَّبِّ
فَإِنَّهُ أَرْأَفُ بِيْ مِنْهُمُ ... حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ

وبعد[1] أن أبطل عبادة الأصنام، من قبل أنها لا قدرة لها على الخلق والإنعام، أبطل عبادتها بوجه آخر، وهو أن الإله يجب أن يكون عليماً بالسرِّ والعلانية، وهذه الأصنام جماد لا معرفة لها بشيء، فكيف تجمل عبادتها، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾؛ أي: ما تضمرون في قلوبكم من العقائد والأعمال، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وما تظهرونه منهما؛ أي: يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سركم وعلنكم، فحقه أن يتقى ويحذر، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، أو المعنى: والله يعلم ما تسرون يا كفار مكة من المكر بالنبي ﷺ، وما تعلنون؛ أي: تظهرونه من أذاه.

والمعنى: أي والله سبحانه وتعالى يعلم ما تسرونه في ضمائركم وتخفونه عن غيركم، وما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محص ذلك كله عليكم، فيجازيكم به يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء منكم بإساءته، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها، ما أحصيتم منها وما لم تحصوا.

---

(١) المراغي.

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة، تنبيهاً إلى كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: والأوثان التي تعبدونها، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله، فإن[1] معنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل من تجاوز حدًّا إلى حدٍّ، وتخطى حكماً إلى حكم، والموصول مبتدأ خبره ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ من الأشياء أصلاً؛ أي: ليس من شأنهم ذلك، لأنهم عجزة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، لأنها ذوات ممكنة مفتقرة في ماهيتها ووجدانها إلى الموجد، قال في «القاموس»: الخالق هو المتفرد في صفاته المبدع للشيء، المخترع على غير مثال سبق، فإن قلت: قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً، فقوله هنا لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية، فما فائدة التكرار؟

قلت: فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط، والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وأنهم مخلوقون كغيرهم، فكان هذا زيادةً في المعنى، وهو فائدة التكرار، ذكره في «الخازن».

والمعنى: والآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، فكيف يكون إلهاً ما كان مصنوعاً، وغيره هو الذي دبر وجوده؟ ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

﴿أَمْوَاتٌ﴾ جمع ميت خبر ثان للموصول؛ أي: هي جمادات لا حياة فيها، ولم يقل موات، لأنهم صوروا على شكل من تحله الروح، وفي «القاموس»: الموات كغراب وكسحاب ما لا روح فيه، وأرضٌ لا مالك لها ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ جمع حيّ ضدُّ الميت؛ أي: غير قابلين للحياة، كالنطفة والبيضة فهي أموات على الإطلاق، والمعنى؛ أي: هي أمواتٌ ولا تعتريها الحياة بوجه، فلا تسمع ولا

---

(١) روح البيان.

تبصر ولا تعقل، وفائدة[1] قوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعد، كالنطفة التي ينشئها الله تعالى حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، أمَّا هذه الأصنام من الحجارة والأشجار، فلا يعقب موتها حياة، وذلك أتم في نقصها.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: وما تدري هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله متى تبعث عبدتها، فالضمير في يشعرون للأصنام، وفي يبعثون لعبدتها، وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يبعثون للآلهة؛ أي: وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام، ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها، فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذه قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولا يخفى ما في ذلك من التهكم بها، لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهي الاستحالة لدى كل أحد، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير، كما أن فيه تهكماً بالمشركين من قبل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف، لأنه جزاء على العمل من خير أو شر، وأن معرفة وقته لا بد منه في الألوهية.

وقرأ الجمهور[2] بالتاء من فوق في: ﴿تُسرون﴾ و﴿تعلنون﴾ و﴿تدعون﴾، وهي قراءة مجاهد والأعرج وشيبة وأبي جعفر وهبيرة عن عاصم، على معنى قل لهم، وقرأ عاصم في مشهوره ﴿يَدْعون﴾ بالياء من تحت، وبالتاء في السابقتين، وقرأ الأعمش وأصحاب عبد الله ﴿يَعْلَمُ الذي تُبدون وما تكتمون﴾ و﴿تدعون﴾ بالتاء من فوق في الثلاثة، وقرأ طلحة ﴿ما يُخفون﴾ و﴿ما يُعلنون﴾ و﴿تدعون﴾ بالتاء من فوق، وهاتان القراءتان مخالفتان لسواد المصحف، والمشهور: ما روي عن الأعمش وغيره، فوجب حملها على التفسير لا على أنها قرآنٌ، وقرأ محمد اليمانيُّ ﴿يُدْعون﴾ بضم الياء وفتح العين مبيناً للمفعول، وقرأ أبو عبد الرحمن

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

﴿إِيَّان﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة قومه سليم.

ولَّما أبطل[1] طريق عبدة الأصنام، وبين فساد مذهبهم.. صرح بالمدعى، ولخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾؛ أي: معبودكم الذي يستحق العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبود واحد، لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه، ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أصر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وأحوالها من البعث والجزاء وغير ذلك؛ أي: فالذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ أي: جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته، وجزيل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلاَّ له، والألوهية ليست لشيء سواه، فلا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد، تقليداً لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به، كما حكى سبحانه عنهم قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والمعنى؛ أي: وهم قوم لا يزال الاستكبار عن اعتراف الوحدانية والتعظيم عن قبول الحق دأبهم، كما أن الإنكار سجيتهم.

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة مركبة من كلمتين حرفٍ وفعلٍ، فقد ركبت لا مع جرم وجعل كلمةً واحدة، وتلك الكلمة مصدر بمعنى حقًّا، أو فعل بمعنى حقَّ وثبت، وقوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ فاعل بفعل ذلك المصدر المأخوذ من لا جرم، وذلك المصدر منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: حقَّ حقًّا وثبت ثبوتاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ عنك من أقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من ذلك؛ أي: حق وثبت أن الله يعلم ما

(١) المراغي.

يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك، واستكبارهم على الله تعالى، ويعلم ما يعلنون ويظهرون من كفرهم به وافترائهم عليه، ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيده، وعن الاستجابة لأنبيائه ورسله، بل يبغضهم أشد البغض وينتقم منهم أعظم الانتقام.

وقرأ عيسى الثقفي: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف والقطع عما قبله، والمعنى[1]: أنه لا يحب جنس المستكبرين، سواء كانوا مشركين أو مؤمنين، والاستكبار رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق، والفرق بين المتكبر والمستكبر أن التكبر عام لإظهار الكبر الحق، كما في أوصاف الله تعالى، فإنه جاء في أسمائه الحسنى الجبّار المتكبر، وفي قوله عليه السلام: «التكبُّر على المتكبر صدقةٌ»، ولإظهار الكبر الباطل كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، والاستكبار إظهار الكبر باطلاً كما في قوله تعالى في حق إبليس ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ ومنه ما في هذا المقام.

أخرج مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمص الناس».

وفي «الصحيح»: «إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم» وقال العلماء: كل ذنب يمكن ستره وإخفاؤه إلا التكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله ذكره القرطبي، وحكى أنه[2] افتخر رجلان عند موسى ـ عليه السلام ـ بالنسب والحسب، فقال أحدهما: أنا فلان

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ابن فلان حتى عد تسعةً، فأوحى الله تعالى إليه قل له: هم في النار، وأنت عاشرهم، وأنشد بعضهم:

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ إلاَّ تَوَاضُعَاً ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإنْ كُنْتَ فِيْ عِزٍّ وَحِرْزٍ وَرِفْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

فعليك بالتواضع وعدم الفخر على أحدٍ، فإن التواضع باب من أبواب الجنة، والفخر باب من أبواب النار، واللازم فتح أبواب الجنان وسد أبواب النيران، وتحصيل الفقر المعنوي الذي ليس الفخر في الحقيقة إلا به، فإنه لا يليق المرء بدولة المعنى ورياسة الحال وسلطنة المقام إلا بتحلية ذاته بحلية التواضع وزينة الفناء، اللهم اجعلنا من أهل التواضع لا من أرباب التملق، واجعلنا من أصحاب التحقق بعد التخلق.

الإعراب

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه سبحاناً، أو سبحوه سبحاناً، والجملة مستأنفة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة على جملة التسبيح، ﴿عَمَّا﴾ ﴿عَنْ﴾: حرف جر، ﴿ما﴾ اسم موصول، أو موصوفة في محل الجر بـ ﴿عَنْ﴾، أو ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عمَّا يشركونه به من الأصنام، أو صلةٌ ﴿ما﴾ المصدرية، تقديره: عن إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أو بـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ على سبيل التنازع، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾،

والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلرُّوحِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: حالة كونهم مُتلَبسِينَ بالروح والوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حالٌ من ﴿الرُّوح﴾ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنَزِّلُ﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاؤه، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الموصول أو من العائد المحذوف. ﴿أَنْ﴾: مفسرة بمعنى: أي، ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة للروح، بمعنى الوحي الدال على القول، وإن شئت قلت: ﴿أَنْ﴾: مصدرية، ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبني على حذف النون، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ﴿الروح﴾ تقديره: ينزل الملائكة بالروح من أمره، ينزل الملائكة بإنذارهم للناس، ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: ضمير الشأن في محل النصب، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: لا إله موجود، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنَا۠﴾: ضمير رفع منفصل في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ تقديره: أن أنذروا عدم كون إله غيري. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿الفاء﴾[1]: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء، وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له في الألوهية، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿اتقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويحتمل كون الفاء تفريعية كما في «الشهاب».

(١) الفتوحات.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾: جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف، تقديره: خلقاً متلبساً بالحق والحكمة، لا بالعبث، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: حالة كونه محقاً، ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: خلق السموات حالة كونه متعالياً عن النقائص، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلةٌ لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية، كما مر آنفاً ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مِن نُّطْفَةٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿إذا﴾: حرف مفاجأة ﴿هُوَ خَصِيمٞ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مُّبِينٞ﴾: صفة ﴿خَصِيمٞ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾: مفعول بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وأوجد الأنعام، والجملة مستأنفة، ﴿خَلَقَهَاۗ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿خَلَق﴾ ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿دِفْءٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب حالٌ من ﴿الأنعام﴾، أو من الضمير المنصوب، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: معطوف على ﴿دِفْءٞ﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٞ﴾. ﴿وَلَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، أو حال من ﴿جَمَالٌ﴾، ﴿جَمَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر،

والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾، ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وجملة ﴿تُرِيحُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾، والظرف متعلق بـ ﴿جَمَالٌ﴾ لأنه بمعنى تجمل، أو صفة له، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ معطوف على ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الأنعام﴾، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تحمل﴾. ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه وخبره ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿بَلَدٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الضمير المستكن في ﴿بَالِغِيهِ﴾ مشقوقاً عليكم. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿رؤوف﴾، أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ معطوفات على ﴿الأنعام﴾. ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿تركبوها﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير لركوبكم إياها، ﴿وَزِينَةً﴾: مفعول[1] مطلق لفعل محذوف، معطوف على ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾؛ أي: وخلقها لتركبوها، ولتتزينوا بها زينة، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: وللزينة، وقيل التقدير: وجعلها زينةً، ويقرأ بغير واو، وفيه الوجوه المذكور، وفيها وجهان آخران:

---

(١) العكبري.

أحدهما أن يكون مصدراً في موضع الحال من الضمير في ﴿تركبوا﴾.

والثاني: أن تكون حالاً من الهاء؛ أي: لتركبوها تزيناً بها، ﴿وَيَخْلُقُ مَا﴾: فعل ومفعول، وفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط المفعول المحذوف؛ أي: ما لا تعلمونه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: وعلى الله بيان السبيل القصد وهو الإسلام، والقصد بمعنى المقصود كما في «الجَمَل»، ﴿وَمِنْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿جَائِرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وهو صفة لموصوف محذوف؛ أي: ومنها سبيل جائر، والسبيل: تذكر وتؤنث، ﴿وَلَوْ﴾: حرف شرط، ﴿شَاءَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾، ﴿هداكم﴾: فعل ومفعول، وفعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المفعول، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة، ﴿أَنْزَلَ﴾: فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنْزَلَ﴾، ﴿مَاءً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنْزَلَ﴾ أو صفة لـ ﴿مَاءً﴾، ﴿مِنْهُ﴾: خبر مقدم، ﴿شَرَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ ﴿مَاءً﴾ أو مستأنفة و﴿من﴾ في قوله: ﴿منه﴾ ابتدائية، ويصح أن يكون ﴿لَكُمْ﴾ خبراً مقدماً لـ ﴿شَرَابٌ﴾، ﴿وَمِنْهُ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر كما في «روح البيان» و﴿مِنْ﴾ فيه

تبعيضية على هذا الوجه، ﴿وَمِنْهُ﴾: خبر مقدم، وهي هنا سببية، ﴿شَجَرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، ﴿تُسِيمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿شَجَرٌ﴾.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يُنۢبِتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿يُنۢبِتُ﴾ وكذا تعلَّق به قوله ﴿بِهِ﴾، أي: بسببه، ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾: معطوفات على الزرع. ﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ على رأي الكوفيين، ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾، أو ﴿وَمِن﴾ اسم بمعنى بعض معطوف على ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ على رأي البصريين، ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ مضاف إليه كذا في «روح البيان». ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: جار ومجرور صفةٌ ﴿لَأٓيَةٗ﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة لـ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: معطوفات على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ عل قراءة النصب معطوف على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ أيضاً، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾: حال من الجميع، ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾: متعلق بـ ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، وعلى قراءة الرفع ﴿النجوم﴾: مبتدأ، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم لـ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: صفة لـ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ صفة لـ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب معطوفة على ﴿ٱلَّيْلَ﴾ على ما ذكره الزمخشري، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: وخلق لكم ما ذرأ لكم، على ما ذكره أبو البقاء، ﴿ذَرَأَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، وكذا يتعلّق به قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وما ذرأ لكم في الأرض ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال من ما الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾: فاعل ﴿مُخْتَلِفًا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَةً﴾: اسمها، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَءَايَةً﴾، ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: صفة لـ ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿تأكلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تأكلوا﴾ و﴿من﴾ لابتداء الغاية، ﴿لَحْمًا﴾: مفعول به، ﴿طَرِيًّا﴾: صفة ﴿لَحْمًا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لأكلكم منه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تأكلوا﴾، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، ﴿حِلْيَةً﴾: مفعول به، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة لـ ﴿حِلْيَةً﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، ﴿مَوَاخِرَ﴾: حال من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ لأن رأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾ والجملة الفعلية معترضة، لاعتراضها بين

المعطوف الذي هو ﴿لتبتغوا﴾ والمعطوف عليه الذي هو ﴿لِتَأْكُلُوا﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ لأنها تعليلية.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَأَلْقَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿سَخَّرَ﴾، أو مستأنفة، ﴿رَوَٰسِىَ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: جبالاً رواسي، ولم ينون لأنه اسم لا ينصرف، لكونه على زنة مفاعل، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَمِيدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر الواقع مفعولاً لأجله، والتقدير: وألقى في الأرض رواسي خشية ميدها وتحركها بكم، ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾: معطوفان على ﴿رَوَٰسِىَ﴾، ولكنه على تأويل ﴿ألقى﴾ بمعنى خلق، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: معطوف على ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أيضاً، ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَهْتَدُونَ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتصور المشابهة والمشاركة بين الخالق وغيره بعد ظهور الدلائل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول،

﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، ﴿لَّا يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلةٌ على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: ألا تلاحظون القدرة الباهرة للخالق سبحانه والعجز الظاهر للأصنام فلا تذكرون ذلك، فتعرفون فساد ما أنتم عليه، كما مرَّ في مبحث التفسير.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن تعدوا نعمة الله﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، مجزوم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَغَفُورٌ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿غفور﴾ أو خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به، لأنَّ علم هنا بمعنى عرف، ﴿تُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يعلم ما تسرون، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾، ويجري فيه من الإعراب ما جرى فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والأصنام الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله في دعائهم إلى

الأصنام، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُخْلَقُونَ﴾ خبر أول له، ﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة مؤكدة لما قبلها، ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾: صفة مؤكدة لـ ﴿أَمْوَاتٌ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة: ﴿ما﴾: نافية، وجملة ﴿يَشْعُرُونَ﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿يُخْلَقُونَ﴾ على كونها خبراً ثالثاً لهم، ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿يُبْعَثُونَ﴾، ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في موضع نصب بـ ﴿يَشْعُرُونَ﴾، لأنه معلق عنها باسم الاستفهام، إذ معناه العلم كما ذكره في «البحر».

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَاحِدٌ﴾: صفة لازمة له والجملة مستأنفة، ﴿فَالَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، و﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: متعلق به، ﴿قُلُوبُهُم﴾: مبتدأ ثان، ﴿مُّنكِرَةٌ﴾: خبر له، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قُلُوبُهُم﴾، لأن المضاف جزء من المضاف إليه.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾: اسم مركب تركيب خمسة عشر، وبعد التركيب صار معناها معنى فعلٍ، وهو حق، فإذاً نقول في إعرابها: ﴿لَا جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حق مبني على الفتح، ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿لَا جَرَمَ﴾، والتقدير: حق وثبت علم الله، ما يسرون وما يعلنون ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يُسِرُّونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يسرونه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة

مسوقة لتعليل ما قبلها.

وفي «الشهاب»: في هذه اللفظة أعني ﴿لَا جَرَمَ﴾ خلاف بين النحاة، فذهب الخليل وسيبويه والجمهور إلى أن ﴿جرم﴾ اسم مركب مع ﴿لا﴾ تركيب خمسة عشر، وبعد التركيب صار معناها معنى فعلٍ، وهو حق، وما بعدها مرتفع بالفاعلية بمجموع لا جرم لتأويله بالفعل، أو بمصدر قائم مقامه، وهو حقاً على ما ذكره أبو البقاء، وقيل: هو مركب أيضاً ـ كلا رجل ـ وما بعدها خبر، ومعناها لا محالة ولا بد، وقيل: إنه على تقدير جارٍّ؛ أي: من أن الله إلخ انتهى.

وقيل: إن لا نافية لكلام مقدر تكلم به الكفرة، وجرم بمعنى حق ووجب اهـ: «زاده»، وقد تقدم لها مزيد بسط في سورة هود فراجعه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قرب ودنا، ويقال في مجرى العادة لما يجب وقوعه: قد أتى وقد وقع، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيؤها: جاءك الغوث، و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: عذابه للكافرين أو يوم القيامة.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الاستعجال طلب الشيء قبل وقته، كما في «الخازن»، وهو من استفعل السداسي.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ والروح: الوحي، وهو قائم في الدين مقام الروح من الجسد، فهو محيي القلوب التي أماتها الجهل.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ والإنذار[1] الإعلام، خلا إنه مختص بإعلام المحذور، من نذر بالشيء من باب فرح إذا علمه فحذره، وأنذره بالأمر إنذاراً إذا أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه، كذا في «القاموس»؛ أي: أعلموا الناس أيها الأنبياء.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: خافوا عقابي، لمخالفة أمري وعبادة غيري.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: غير آدم، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة القطرة من الماء،

---

(١) روح البيان.

يقال: نطف رأسه ماء؛ أي: قطر وقيل هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل، اهـ «سمين».

وفي «المصباح» نطف[1] الماء ينطف ـ من باب قتل ـ سال، وقال أبو زيد: نطفت القربة تنطف وتنطف نطفاناً إذا قطرت، والنطفة ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف، مثل برمة وبرم وبرام، والنطفة أيضاً الماء الصافي قل أو أكثر، ولا فعل للنطفة؛ أي: لا يستعمل لها فعل من لفظها اهـ.

وفي «المختار»: أن نطف من باب قتل وضرب اهـ، والمراد[2] بالنطفة هنا مادة التلقيح.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والخصيم بمعنى المخاصم، كالخليط بمعنى المخالط، والعشير بمعنى المعاشر، والمراد به هنا المنطيق المجادل عن نفسه المنازع للخصوم، والمبين المظهر للحجة، أو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال الجوهري: والنعم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل اهـ. الدفءُ: السخانة، والمراد به هنا ما يستدفأ به من الأكسية المتخذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها.

﴿وَمَنَافِعُ﴾ والمراد بها درها وركوبها، والحرث بها، وحملها للماء ونحو ذلك.

﴿جَمَالٌ﴾ والجمال ما يتجمل به ويتزين، والجمال الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها، قال في «القاموس»: الجمال الحسن في الخلق والخلق، وتجمل: تزين، وجمله: زينه، وفي الحديث[3]: «جمال الرجل فصاحة لسانه»، وفي حديث آخر: «الجمال صواب المقال، والكمال حسن الفعال».

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ من الإراحة، وهي رد المواشي بالعشي إلى مراحها؛ أي: مأواها بالليل؛ أي: تردونها بالعشي؛ أي: آخر النهار من المرعى إلى مراحها

---

(١) المصباح.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ومباركها، يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح بضم الميم، وهو موضع إراحة الإبل والبقر والغنم.

﴿تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: تخرجونها غدوة؛ أي: أول النهار من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها، من سرح الراعي الإبل إذا رعاها وأرسلها في المرعى، من باب قطع وخضع، وفي «المصباح»: سرحت الإبل سرحاً من باب نفع وسروحاً أيضاً، رعت بنفسها وسرحتها يتعدى ولا يتعدى، وسرَّحتها بالتثقيل مبالغة وتكثير اهـ.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ والأثقال(١) جمع ثقل بفتح الثاء والقاف، كأسباب وسبب، أو جمع ثقل بكسر فسكون كحمل وأحمال، وهو متاع المسافر من طعام وغيره وما يحتاج إليه من آلاته، وسُمِّي ثقلاً لأنه يثقل الإنسان حمله، وقيل المراد أبدانهم.

﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ والشق بالكسر والفتح الكلفة والمشقة، وشق الأنفس مشقتها وتعبها، وقال الجوهري الشق المشقة ومنه قوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾، وحكى أبو عبيدة: بفتح الشين وهما بمعنًى، ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً من شققت عليه أشق شقاً، والمكسور بمعنى النصف، يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية؛ أي: لم تكون بالغيه إلاّ بذهاب نصف النفس من التعب.

﴿وَالْخَيْلَ﴾ اسم جنس لا واحد له من لفظه، بل من معناه وهو فرس، وقيل جمع خائل كضأن جمع ضائن، وسميت خيلاً لاختيالها في مشيها.

﴿وَالْبِغَالَ﴾ جمع بغل، وهو متولد بين الخيل والحمار.

﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والقصد الاستقامة، يقال سبيل قصدٌ وقاصدٌ إذا أداك إلى مطلوبك، وفي «السمين»: والقصد مصدر يوصف به، فهو بمعنى قاصد، يقال سبيل قصد وقاصد؛ أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه اهـ.

---

(١) روح البيان.

﴿جَآئِرٌ﴾؛ أي: مائل عن المحجة منحرف عن الحق.

﴿وَمِنۡهُ شَجَرٌ﴾ والمراد بالشجر هنا مطلق النبات، سواء كان له ساق أم لا اهـ «شيخنا»، فالشجر في الأصل ماله ساق قوي، والنجم ما لا ساق له قوي.

﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون دوابكم من أسام الماشية، ويقال سومها، إذا جعلها ترعى، وفي «الخازن»: تقول أسمت السائمة إذا خليتها ترعى، وسامت إذا رعت حيث شاءت اهـ ويقال: سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة، وأسمتها؛ أي: أخرجتها إلى الرعي، فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة، وأصل السوم الإبعاد في المرعى، قال أخذ من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها.

﴿ٱلنَّخِيلَ﴾ والنخل بمعنى واحد، وهو اسم جمع والواحدة نخلة كالثمرة والثمر.

﴿الأعناب﴾ جمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً خلقهم، فهو ذارىء، ومنه الذرية وهي نسل الثقيلين.

﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾؛ أي: أصنافه ﴿لَحۡمًا طَرِيًّا﴾ وفي «السمين»: الطراوة ضد اليبوسة؛ أي: غضًا طريًّا، ويقال طريت كذا؛ أي: جددته اهـ، وفي «المصباح»: طرو الشيء بالواو وزان قرب فهو طرىء؛ أي: غض بين الطراوة، وطرىء وزان تعب، فهو طرىء بين الطراوة، وطرأ فلان علينا يطرأ مهموزاً بفتحتين طروًّا أطلع، فهو طارىء، وطرأ الشيء يطرأ أيضاً طرآناً مهموزاً حصل بغتة فهو طارىء، وأطريت العسل بالياء طراء عقدته، وأطريت فلاناً مدحته بأحسن ما فيه، ويقال بالغت في مدحه، وجاوزت الحد، وقال السرقسطي: في باب الهمز والياء: أطرأته مدحته وأطريته أثنيت عليه اهـ.

﴿حِلۡيَةً تَلۡبَسُونَهَا﴾ وفي «المصباح»: حلي الشيء بعيني وبصدري يحلى - من باب تعب - حلاوةً، إذا حسن عندي وأعجبني، وحليت المرأة حلياً ساكن اللام

لبست الحلي، وجمعه حليٌّ، والأصل على فعول مثل فلس وفلوس، والحلية بالكسر الصفة، والجمع حلي مقصوراً، وتضم الحاء وتكسر، وحلية السيف زينته، قال ابن فارس: ولا تجمع، وتحلت المرأة لبست الحلي واتخذته، وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي واتخذته لها لتلبسه، وحليت السويق جعلت فيه شيئاً حلواً حتى حلا اهـ.

﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها، ومخر السفينة شقها الماء بصدرها، قال الجوهري: مخر السابح إذا شق الماء بصدره، ومخر الأرض شقها للزراعة، قال ابن جرير: المخر في اللغة صوت هبوب الريح ولم يقيد بكونه في ماء اهـ.

وفي «المختار»: مخرت السفينة من باب قطع ودخل إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ أي: جواري.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت، يقال رسا يرسو إذا ثبت وأقام.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: أن تميل بكم، وفي «المختار»: ماد الشيء يميد ميداً من باب باع، ومادت الأغصان والأشجار تمايلت، وماد الرجل تبختر اهـ.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ جمع علامة ففي «المصباح»: وأعلمت على كذا بالألف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة، وأعلمت الثوب جعلت له علماً من طراز وغيره، وهو العلامة، وجمع العلم أعلام مثل سبب وأسباب، وجمع العلامة علامات، وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له أمارة يعرفها اهـ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يقال شعر به كنصر وكرم شعراً وشعوراً علم به وفطن له وعقله، وأيان مركب من أي التي للاستفهام وأن بمعنى الزمان، فلذلك كان بمعنى متى؛ أي سؤالاً عن الزمان كما كان أين سؤالاً عن المكان، فلما ركّبا وجعلا اسما واحداً بنيا على الفتح كبعلبك، ذكره في «روح البيان».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم وحطاً لدرجتهم عن رتبة الخطاب.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ حيث شبه الوحي بمعنى الموحى به الذي من جملة التوحيد بالروح، بجامع أن الروح به إحياء الجسد، والوحي به إحياء القلوب من الجهالات، فاستعير له لفظ الروح على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ مخاطبةً لهم بما هو المقصود، وإيماء إلى أن التقوى هي المقصود من الإنذار.

ومنها: التعبير بآخر الأمر عن أوله في قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ويسمى مجاز الأول كقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ فيقضي أن المخاطب مطلق بني آدم، المندرجين تحت الإنسان تأمل.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيكون القصر فيه إضافياً إلى سائر الحيوانات، حتى لا ينتقض بمثل الخبز ونحوه من المأكولات المعتادة.

ومنها: الطباق بين: ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾.

ومنها: صفة المبالغة في قوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإسناد إلى العام في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾؛ أي: الأنعام مراداً به الخاص وهو الإبل.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ لأنه حقيقة في النصف والجانب، فاستعير للمشقة والتعب، كما تقول: لن تناله إلا بقطعة من كبدك على المجاز.

ومنها: الإجمال بعد التفصيل في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ لأن المراد بالشجر هنا مطلق النبات سواء كان له ساق أم لا، وهو حقيقة فيما كان له ساق.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ لما فيه من إسناد حال السالك وهو القصد إلى السبيل، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، كما ذكره في «روح البيان».

ومنها: تنكير ماء في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ للدلالة على التبعيض، أي: بعض الماء، فإنه لم ينزل من السماء الماء كله.

ومنها: الطباق بين: ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: التلويح في قوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به السمك، عبر عنه باللحم مع كونه حيواناً، للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل كما في «الإرشاد»، وللإيذان بعدم احتياجه للذبح كسائر الحيوانات غير الجراد.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: يلبسها نساؤكم لكم، فهي حلية لكم، بهذا الاعتبار كذا قالوا.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ لأن الإلقاء حقيقة في الرمي والطرح، فاستعاره للخلق والوضع والجعل، فكأن الجبال الرواسي حصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن في الأرض، فهو تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته، وإن كل عسير فهو عليه يسير.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لأن لعل فيهما مستعار لمعنى الإرادة كما في «روح البيان».

ومنها: الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لإفهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص وليس كذلك، والمعنى: بالنجم هم؛ أي: أهل الأرض كلهم لا خصوص قريش.

ومنها: التشبيه المقلوب في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأن حق العبارة أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري فيه.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات وصفة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام، ومثله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ
تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ
أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ٣٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ
نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ
فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ٣٧ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ ...﴾

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل[1] التوحيد، ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام.. أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها، وبين أنهم ليسوا ببدع في هذه المقالة، فقد سبقتهم أمم قبلهم، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، فأهلكهم في الدنيا، وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هي.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ...﴾ الأيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] بين أحوال المكذبين بالله ورسوله، الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وتراهاتهم، ونقلها للناس، وادعى أنها من رب الأرض والسموات، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال، إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي.. أردف ذلك بوصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً، وذكر ما أعده لهم من الخير والسعادة في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً وفاقاً لما أحسنوا من العمل، وأتوا به من جميل الصنع.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم أساطير الأولين، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم وَعَدَ من وصف القرآن بالخيرية.. بين أن أولئك الكفرة لا يرتدعون من حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد، أو أمر الله بعذاب الاستئصال.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

طعن المشركين في القرآن بنحو قولهم إنه أساطير الأولين، وإنه قول شاعر، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به.. قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضةً أرواحهم، أو يأتيهم عذاب الاستئصال، فلا يبقى منهم أحداً، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم، فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد، أو أتاهم عذاب الاستئصال، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله تعالى.. قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة، وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا... لكان الأمر كما أراد، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم، لا من عند الله تعالى.

وقد رد الله عليهم مقالهم، بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة، وما على الرسل إلا التبليغ، وليس عليهم الهداية، ولم يترك الله أمةً دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته، وينهاهم عن الضلال والشرك، فمنهم من استجاب دعوته، ومنهم من أضلَّه الله على علم، فحقت عليهم كلمة ربك، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين، الذين أخذوا بذنوبهم، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئاً، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه،

---

(١) المراغي.

كما لا يجد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حجتهم، وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأنا مجبورون فيما نفعل، وأنه لو شاء الله أن نهتدي لكان دون حاجة إلى إرسال الأنبياء، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هي في تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولا يلزمون أحداً بإيمانٍ ولا كفرٍ...أردف هذا بشبهة أخرى لهم، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب، ولكن العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة، ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب.. امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعداً حقاً، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب، والعاصي من المطيع، وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلةٍ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافعٌ ولا مانعٌ.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ الآية، قيل سبب نزولها[2]: أن النضر بن الحارث سافر من مكة إلى الحيرة، وكان قد اتخذ كتب التواريخ والأمثال، فجاء إلى مكة فكان يقول إنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما يتكلم به:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) لباب النقول.

والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ. . .﴾ الآية.

وأخرج[1] هؤلاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: سبَّني ابن آدم، ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ روي أنه اجتمعت[2] قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان، إذا كلم رجلاً. . ذهب بقلبه، فانظروا ناساً من أشرافكم، فابعثوهم في كل طريق مكة على رأس ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده. . ردوه عنه، فخرج ناس منهم من كل طريق، فكان إذا جاء وافد من القوم ينظر ما يقول محمد فنزل بهم. . قالوا له: هو رجل كذاب ما يتبعه إلا السفهاء والعبيد، ومن لا خير فيه، وأما أشياخ قومه وأخيارهم فهم مفارقوه، فيرجعه أحدهم، وإذا كان الوافد ممن هداه الله. . يقول: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم. . رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل فأنظر ما يقول، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ما يقول لهم فيقولون خيراً، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين المستكبرين المقتسمين طرق مكة من قبل الوفود، أو وفود الحاج في الموسم. ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: أي شيء أنزل ربكم على محمد ﷺ، أو ما الذي أنزل ربكم على محمد ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال أولئك المشركون المقتسمون طرق مكة للوافدين الذين سألوهم عن محمد وعما أنزل عليه: ﴿أَسَٰطِيرُ

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم على محمد هو أساطير الأولين؛ أي: أحاديث الأمم الماضية وأخبارهم العاطلة، وأكاذيبهم الباطلة، التي غرر بهم الناس واستمال قلوبهم بها، وليس من الإنزال في شيء، وليس فيه شيء من العلوم والحقائق.

وقرأ الجمهور(١): برفع ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ فاحتمل أن يكون التقدير: المذكور أساطير أو المنزل أساطير، وقرىء شاذاً: ﴿أساطير﴾ بالنصب على معنى ذكرتم أساطير، أو أنزل أساطير، على سبيل التهكم والسخرية، لأن التصديق بالإنزال ينافي أساطير، وهم يعتقدون أنه ما نزل شيءٌ، ولا أنَّ ثم منزلٌ.

والمعنى: أي(٢) وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين أي شيء أنزله ربكم؟ قالوا: لم ينزل شيئاً إنما الذي يتلىٰ علينا أساطير الأولين؛ أي: هو مأخوذ من كتب المتقدمين، ونحو الآية قوله حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالاً مختلفة، فتارة يقولون: إنه ساحرٌ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن، وثالثة إنه مجنون، ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب الكريم:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾؛ أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا معتقدين صحة قوله، وصدق رأيه، قبحهم الله تعالى.

وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة، ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج يقولون هذه المقالة، ثم بين عاقبة أمرهم فقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ أي: قالوا(٣) هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم وآثامهم الخاصة بهم، وهي أوزار ضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم يكفر منها شيءٌ بمصيبة أصابتهم في الدنيا،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، كما يكفر بها أوزار المؤمنين، فإن ذنوبهم تكفر عنه من الصلاة إلى الصلاة، من رمضان إلى رمضان، ومن الحج إلى الحج، وتكفر بالشدائد والمصائب؛ أي: المكروهات من الآلام والأسقام، والقحط حتى خدش العود وعثرة القدم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۙ﴾ ظرف ليحملوا، فاللام[1] في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ للتعليل كما فسرنا، وقيل إن اللام هي لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾، وقيل هي لام الأمر والأوزار جمع وزرٍ: الآثام.

قال الإمام الرازي: وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ يدل[2] على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل.. لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفاء بهذا التكميل فائدة، ﴿و﴾ ليحملوا ﴿من أوزار الذين يضلونهم﴾؛ أي[3]: بعض أوزار من ضل بإضلالهم، وهو وزر الإضلال والتسبب للضلال، لأنهما شريكان، هذا يضله وهذا يطاوعه، فيتحاملان الوزر، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى.. كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة.. كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» أخرجه مسلم، ومعنى الآية والحديث[4]: أن الرئيس أو الكبير إذا سنَّ سنة حسنة أو قبيحة فتبعه عليها جماعة، فعملوا بها.. فإن الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه، حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء، لأن ذلك ليس بعدلٍ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

قال الواحديُّ: ولفظة ﴿مِنْ﴾[5] في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) الفخر الرازي.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.
(٥) الواحدي.

ليست للتبعيض؛ لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، ولكنها للجنس؛ أي: وليحملوا من جنس أوزار الأتباع.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل؛ أي: يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، وبما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلة الإضلال، أو من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلالٌ.

وفائدة[1] التقييد بهذا الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذوي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾ من أفعال الذم بمعنى بئس، والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: بئس شيئاً يزرونه؛ أي: يحملونه، والمخصوص بالذم فعلهم ففيه وعيدٌ وتهديد لهم.

واعلم: أنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد، إذ كل نفس تحمل ما اكتسب هي، لا ما كسبت غيرها، إذ ليس ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية، وأما حمل وزر الإضلال فهو حمل وزر نفس، لأنه مضاف إليه لا إلى غيره، فعلى العاقل أن يجتنب من الضلال والإضلال في أمور الشريعة، فمن حمل القرآن على الأساطير، ودعا الناس إلى القول بها، فقد ضل وأضل، وكذا في جميع أمور الشريعة.

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدةٌ إليهم، ووبال ذلك لاحقٌ بهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسلهم، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار قريش، والمكر الخديعة؛ إي: قد مكر أهل مكة بمحمد ﷺ، كما مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم، وصار المكر سبباً لهلاكهم لا لهلاك غيرهم، لأن من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ، بأن مكرهم سيعود

---

(١) روح البيان.

عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم.

قال في «المدارك»: الجمهور عل أن المراد به ـ نمروذ بن كنعان ـ وكان من أكبر ملوك أهل الأرض في زمن إبراهيم عليه السلام، حين بنى الصرح ببابل، وكان قصراً عظيماً طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه فرسخان ليقاتل عليه من في السماء بزعمه، ويطلع على إله إبراهيم عليه السلام، فهبت ريح فقصفت وألقت رأسه في البحر، وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته، ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع، فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت بابل، وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية، وهذا قول مردود، لأن التبلبل يوجب الاختلاط والتكلم بشيء غير مستقيم، فأما أن يوجب إحداث لغات مضبوطة الحواشي فباطل، وإنما اللغات تعليم من الله تعالى.

قلت[1]: هكذا ذكره البغوي، وفي هذا نظر، لأن صالحاً عليه السلام كان قبلهم، وكان يتكلم بالعربية، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم، الذي نشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية، وكانت قبائل من العرب قديمة قبل إبراهيم عليه السلام، مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قديم الزمان بالعربية، ويدل على صحة هذا قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الله أعلم، وقيل حمل قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على العموم أولى، فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين، الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالغير.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾؛ أي: أتى أمر الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم، قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخر عليهم الباقي فهلكوا والبنيان[2] البناء والجمع أبنية، والقواعد جمع قاعدة، وقواعد البيت أساسه وأساطينه وسواريه، كما سيأتي في مباحث التصريف؛ أي: قصد الله سبحانه وتعالى وأراد تخريب بنائهم من جهة أصوله وأساسه، وأتاه أمره وحكمه وبأسه، أو من جهة الأساطين والسواري التي بنوا عليها بأن ضعفت وزلزلت،

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

﴿فَخَرَّ﴾؛ أي: سقط ﴿عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾؛ أي: سقف بنائهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ فأهلكهم، وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ للتأكيد، لأن السقف لا يخر إلا من فوقهم، وقيل[1] جاء بفوقهم وعليهم، للإيذان بأنهم كانوا تحته، فإن العرب لا تقول سقط علينا البيت وليسوا تحته، روي أنه هبت عليه ريحٌ هائلة فألقت رأسه في البحر، وخر الباقي عليهم، ولما سقط الصرح تبلبلت الألسن من الفزع يومئذٍ، فتكلموا ثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت ببابل، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية كما مر.

هذا[2] إذا حملنا تفسير الآية على القول الأول، وهو ظاهر اللفظ، وإن حملنا تفسير الآية على القول الثاني، وهو حملها على العموم.. كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى، وأهل الحق من عباده.. أهلكهم الله تعالى، وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنياناً شديداً ودعموه، فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم سقف بنيانهم، فأهلكهم، شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد، وإبطاله تعالى تلك الحيل، وجعله تعالى إياها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فضعضعت تلك الأساطين، فسقط عليهم السقف، فهلكوا، فهو مثل ضربه الله تعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره، ومنه المثل السائر على ألسنة الناس: من حفر لأخيه قليباً وقع فيه قريباً.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: وجاءهم الهلاك بالريح ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه منه، بل يتوقعون إتيان مقابله مما يريدون ويشتهون، أو أنهم اعتمدوا على منصوباتهم، ثم تولد البلاء منها بأعيانها.

والمعنى: أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم في الدنيا من العذاب مثل ما أتاهم، من جهة لا تخطر ببالهم.

وخلاصة ذلك: أن الله تعالى أحبط أعمالهم، وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم.

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بُنۡيَٰنَهُم﴾، وقرأت فرقة ﴿بنيَتُهم﴾ وقرأ جعفر: ﴿بَيْتهُم﴾ والضحاك: ﴿بيوتهم﴾، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلسَّقۡفُ﴾ مفرداً، والأعرج ﴿السقف﴾ بضمتين، وزيد بن علي ومجاهد بضم السين فقط، وتقدم توجيه مثل هاتين القراءتين في: ﴿وبالنجم﴾، وقرأت فرقة ﴿السَّقُف﴾ بفتح السين وضم القاف، وهي لغة في السقف ولعل السقف مخفف منه، ولكنه كثر استعماله، كما قالوا في رجل رجل وهي لغة تميمية.

وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر في الدنيا من العذاب والهلاك.. بين حالهم في الآخرة فقال: ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما عجل لهم العذاب في الدنيا إن ربك: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ ويذلهم ويهينهم بعذاب أليم؛ أي[2]: يذل أولئك المفترين والماكرين والذين من قبلهم جميعاً بعذاب الخزي على رؤوس الأشهاد. وفيه[3] إشهار بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة، لأن الخزي هو العذاب مع الهوان، وأصل الخزي ذل يستحيى منه، وثم لتفاوت ما بين الجزاءين ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم حين ورودهم عليه، على سبيل الاستهزاء والسخرية والتوبيخ، والفضيحة لهم، فهو إلى آخره بيان للإخزاء ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ﴾ تزعمون في الدنيا أنهم شركائي، وكنتم ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾؛ أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين ﴿فِيهِمۡۚ﴾؛ أي: في شأنهم، بأنهم شركاء أحقاء، حين بينوا لكم بطلانها، وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا وتتولونهم، والولي ينصر وليه، والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم في شأنهم، وزعمهم أنهم شركاء حقاً، حين بينوا لهم ذلك، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والتوبيخ والاحتقار لشأنهم، إذ كانوا يقولون: إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا، والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقةً، بل يكفي ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به، من عنوان الإلٰهية، فليس هناك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

شركاء ولا أماكنها، والخلاصة أنه لا شركاء ولا أماكن لهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شركائي﴾ ممدوداً مهموزاً مفتوح الياء، وقرأت فرقة كذلك تسكنها، فسقط في الدرج لالتقاء الساكنين، والبزي عن ابن كثير بخلاف عنه مقصوراً، وفتح الياء هنا خاصةً بوزن هداي، وروي عنه ترك الهمز في القصص، وقرأ الجمهور ﴿تشاقون﴾ بفتح النون، وقرأ نافع بكسرها، ورويت عن الحسن، ولا يلتفت إلى تضعيف أبي حاتم هذه القراءة، وقرأت فرقة بتشديدها، أدغم نون الرفع في نون الوقاية.

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين في شأنهم يوم القيامة بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الأنبياء - صلوات الله عليهم - والمؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونم ويتكبرون عليهم؛ أي: يقولون توبيخاً لهم وإظهاراً للشماتة بهم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾؛ أي: الفضيحة والذل والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في هذا اليوم، الذي يفصل فيه القضاء، متعلق بالخزي، وإيراده[2] للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق.

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله، وهو قصر للجنس الادّعائي، كأن ما يكون من الذل وهو العذاب لعصاة المؤمنين لعدم بقائه، ليس من ذلك الجنس، ومرادهم بهذه المقالة الشماتة، وزيادة الإهانة للكافرين وفي ذلك إعظام للعلم، إذ لا يقول ذلك إلا أهله.

ثم بين الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب، هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالموا أنفسهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين، وفائدة هذا النعت تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره إلى حين الموت، دون من آمن منهم، ولو في آخر عمره؛ أي: إن الخزي والسوء على الكافرين الذين استمروا على الكفر حتى تقبض ملائكة الموت أرواحهم؛ أي: عزرائيل وأعوانه حالة كونهم ﴿ظَالِمِىٓ

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿أَنفُسِهِمْ﴾ ومعرضيها للعذاب المخلد، باستمرارهم عل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الملك الجبار، وتبديلهم فطرة الله تبديلاً وأي ظلم للنفس أشد من الكفر[1]، وقرأ حمزة والأعمش: ﴿يتوفاهم﴾ بالياء من أسفل في الموضعين، وقرىء بإدغام تاء المضارعة في التاء بعدها، وفي مصحف عبد الله بتاء واحدة في الموضعين، ذكره في «البحر».

ثم ذكر حالهم حينئذٍ من الخضوع والمذلة فقال: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ والسلم بالتحريك الاستسلام؛ أي: فيلقون الاستسلام والانقياد في الاخرة، حين عاينوا العذاب، ويتركون المشاقة والمخاصمة، وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من التكبر، والعلو وشدة الشكيمة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: من شرك، قالوا ذلك منكرين لصدوره عنهم قصداً لتخليص نفوسهم من العذاب؛ أي: أسلموا[2] وأقروا لله بالعبودية، حين عاينوا العذاب عند الموت، قائلين ما كنا نشرك بربنا أحداً، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ رد عليهم من قبل الله تعالى، أو من قبل الملائكة، أو من قبل أولي العلم، وإثبات لما نفوه؛ أي: فتقول الملائكة بلى كنتم تعملون أعظم الشرك وأقبح الآثام و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك، فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه فلا يفيدكم إنكاركم وكذبكم على أنفسكم والفاء في قوله: ﴿فَادْخُلُوٓا﴾ للتعقيب ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: كل صنف بابه المعدُّ له؛ أي: فادخلوا طبقات جهنم، وذوقوا ألواناً من العذاب، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم، واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصي، حالة كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً إن[3] أريد بالدخول حدوثه.. فالحال مقدرة، وإن أريد مطلق الكون فيها.. فمقارنة، والفاء في قوله ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

التوحيد، وسائر ما أتت به الأنبياء، عاطفة على فاء التعقيب، واللام للتأكيد تجري مجرى القسم، والمثوى المنزل والمقام والمخصوص بالذم محذوف، وهو جهنم؛ أي: فوالله لبئس وقبح مثوى المتكبرين عن توحيد الله، وطاعة الرسل، والمخصوص بالذم جهنم؛ أي: فلبئس[1] المقيل والمقام دار الذل والهوان، لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل، والاهتداء بالآيات التي أنزلت عليهم، وما أفظعها من دار وصفها ربنا بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وذكرهم بعنوان[2] التكبر للإشعار بعلته لثوائهم وإقامتهم فيها، والمراد المتكبر عن التوحيد، أو كل متكبر من المشركين والمسلمين.

فائدة: قال الشيخ علي السمرقندي في تفسيره المسمى بـ «بحر العلوم»: التكبر ينقسم على ثلاثة أقسام: التكبر على الله تعالى، وهو أخبث أنواع الكبر وأقبحها، وما منشأه إلا الجهل المحض، ثم التكبر على الرسل من تعزز النفس، وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وهذا كالتكبر على الله تعالى في الوقاحة واستحقاق العذاب السرمديِّ، والثالث التكبر على العباد، وهو بأن يستعظم نفسه، ويستحقر غيره، فيأبى عن الانقياد لهم، ويدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويستنكف عن مساواتهم، وهو أيضاً قبيح، وصاحبه جاهل كبير يستأهل سخطاً عظيماً لو لم يتب، وإن كان دون الأولين للدخول تحت عموم قوله: ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وأيضاً من تكبر على أحد من عباد الله فقد نازع الله في ردائه وفي صفةٍ من صفاته، قال أبو صالح حمدان بن أحمد القصار - رحمه الله تعالى -: من ظن أن نفسه خيرٌ من نفس فرعون فقد أظهر الكبر.

ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء فقال: ﴿وَقِيلَ﴾ روي[3] أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون الذين اقتسموا طرق مكة، وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان..

لم تلقه كان خيراً لك، فإنه ساحر كاهن كذاب مجنون، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن استطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه، فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، أي: من طرق الوافدين ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الكفر والشرك، وهم المؤمنون المخلصون ﴿مَاذَا﴾؛ أي: أي شيء، فهو مفعول قوله: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: أي شيء أنزل ربكم على محمد ﷺ؟

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المتقون في جواب سؤال الوافد: أنزل ربنا ﴿خَيْرًا﴾.

وهو اسم جامع لكل خير ديني ودنيوي وأخروي ظاهري معنوي، وفي تطبيق الجواب بالسؤال إشارة إلى أن الإنزال واقع، وأنه نبي حق، وقرأ زيد بن علي ﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع: أي: المُنْزَلُ خيرٌ، كما في «البحر».

قال الثعلبي: فإن[1] قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وانتصب في قوله: ﴿خَيْرًا﴾؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين، والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً اهـ.

والمعنى: أي وقيل للذين خافوا عقاب ربهم: أي شيء أنزله ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه، وآمن برسوله، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قيل: هذا من كلام الله عز وجل، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً من ﴿خَيْرًا﴾ وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين.

والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم وأخلصوا، وقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنه أحسن الحسنات وأسُّ الديانات.

﴿فِي هَذِهِ﴾ الدار ﴿الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي: مثوبة حسنة مكافأة فيها بإحسانهم، وهي عصمة الدماء والأموال، واستحقاق المدح والثناء والظفر على الأعداء ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ولثوابهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة، أو

---

(١) الشوكاني.

المعنى[1]: دار الآخرة خيرٌ من الدنيا على الإطلاق، فإن الآخرة كالجوهر والدنيا كالخزف، وقيمة الجوهر أرفع من قيمة الخزف، بل لا مناسبة بينهما أصلاً.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: وعزة الله وجلاله لنعم وحسن دار المتقين دار الآخرة، فالمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقال الحسن: دار المتقين الدنيا لأنهم منها يتزودون للآخرة، والقول[2] الأول أولى، وهو قول جمهور المفسرين، لأن الله فسر هذه الدار بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ عدن علم على طبقة من طبقات الجنة الثمانية؛ أي: لهم بساتين عدن حال كونهم ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال كونها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت منازلها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة على أن يكون المنبع فيها بشهادة مِنْ، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات حال من المبتدأ المؤخر، وهو قوله ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ ويحبون من أنواع المشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قال البيضاوي: في تقديم الظرف تنبيهٌ[3] على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة اهـ.

قال بعضهم: إن قلت[4] هل يجوز للمرء أن يشتهي في الجنة اللواطة، وقد ذهب إليه من لا وقوف له على جلية الحال؟

فالجواب: أن الاشتهاء المذكور مخالف لحكمة الرب الغفور، ولو جاز هو.. لجاز نكاح الأمهات فيها، على تقدير الاشتهاء، وإنه مما لا يستريب عاقل في بطلانه، ألا ترى أن المذكور وكذا الزنى واللواطة والكذب ونحوها، كان حراماً مؤبداً في الدنيا في جميع الأديان، لكونه مما لا تقتضي الحكمة حله، بخلاف الخمر ونحوها، ولذا كانت هي أحد الأنهار الجارية فيها، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا يستطيب ما استخبثته الطباع السليمة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمراد بالمتقين كل من يتقي الشرك، وما يوجب النار من المعاصي، والموصول في

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) بيضاوي.
(٤) روح البيان.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله؛ أي: يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾؛ أي: طاهرين[1] من الكفر والشرك، مبرئين عن العلائق الجسمانية، متوجهين إلى حضرة القدس، فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت.

وقرأ زيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن[2]: ﴿جنات عدن﴾ بالنصب على الاشتغال؛ أي: يدخلون جنات عدن يدخلونها، وهذه القراءة تقوي إعراب جنات عدن بالرفع على أنه مبتدأ، ويدخلونها الخبر، وقرأ زيد بن عليّ: ﴿ولِنِعْمَةُ دارِ﴾ بتاءٍ مضمومةٍ، ودارِ مخفوضٍ بالإضافة، فيكون نعمة مبتدأ وجنات الخبر.

وقرأ السلمي: ﴿تدخلونها﴾ بتاء الخطاب، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع: ﴿يدخلونها﴾ بياء على الغيبة، والفعل مبني للمفعول، ورويت عن أبي جعفر وشيبة.

وقرأ الأعمش وحمزة[3]: ﴿تَتَوفَّاهم﴾ في هذا الموضع، وفي الموضع الأول بالياء التحتية، وقرأ الباقون: بالمثناة الفوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ من الملائكة؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين لهم على وجه التعظيم والتبشير ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيق بكم بعد مكروه، ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي أعدها لكم ربكم، ووعدكموها، والمراد دخولهم له في وقته، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب[4] ثباتكم على التقوى والطاعة والعمل وإن لم يكن موجباً للجنة، لأن الدخول فيها محض فضل الله إلا أن الباء دلت على أن الدرجات إنما تنال بالأعمال وصدق الأحوال، فإن المراد من دخول

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

الجنة إنما هو اقتسام المنازل بحسب الأعمال.

وفي «تفسير المراغي»: والمراد[1] من قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ البشارة بالدخول فيها بعد البعث، إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب، كان ذلك حين التوفي كما يشير إليه قوله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»، أخرج ابن جرير والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا أشرف العبد المؤمن على الموت.. جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة»، والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ إنكاري؛ أي: ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم بالتهديد والتعذيب، لمواظبتهم على الأسباب الموجبة له المؤدية إليه، فكأنهم يقصدون إتيانه ويترصدون لوروده، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقةً لأنهم لا يصدقونه ﴿أَوۡ﴾ إلا أن ﴿يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾؛ أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، كما فعل بأسلافهم من الكفار، فيرسل عليهم الصواعق، أو يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، وهذا تهديد لهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا.

وخلاصة هذا: حثهم على الإيمان بالله ورسوله، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسلهم.

وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي وخلف[2]: ﴿إلا أن يأتيهم الملائكة﴾ بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية.

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب بالرسل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم فأصابهم العذاب المعجل.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي المؤدية إلى ذلك، فكذبوا الرسل فاستحقوا ما نزل بهم.

والمعنى[1]: أي وما ظلمهم الله تعالى بإنزال العذاب بهم، لأنه أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاؤوا به.

ثم أعقبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض، وقيل[2] في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله... إلخ.

والمعنى: فأصابهم بحكم عدل جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة، على طريقة تسمية المسبب باسم سببه، إيذاناً بفظاعته، لا على حذف لمضاف، فإنه يوهم أن لهم أعمالاً غير سيئاتهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: أحاط بهم ونزل من الحيق الذي هو إحاطة الشر كما في «القاموس»؛ أي: نزل بهم على وجه الإحاطة.

﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب الموعود؛ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ بالله من أهل مكة، فعبدوا الأصنام والأوثان من دونه تعالى، معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى عدم عبادتنا لشيءٍ غيره ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ما عبدنا من دونه شيئاً من الأصنام ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين اقتدينا بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ولو شاء الله تعالى عدم تحريمنا شيئاً من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.. ما حرمنا من دونه شيئاً من ذلك.

والمعنى: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأنه قد رضي عبادتنا لها، ولا حرمنا ما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأنه قد رضي ذلك منا، ولو كان كارهاً لما فعلنا.. لهدانا إلى سواء السبيل، أو لعجل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها.

والخلاصة[١]: فإشراكنا بالله الأوثان وتحريمنا الأنعام والحرث بمشيئته تعالى، وهو راضٍ بذلك، وحينئذٍ فلا فائدة في مجيئك إلينا، بالأمر والنهي في إرسالك إلينا، وقد رد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم، فأشركوا بالله، وحرموا حله، وعصوا رسله، وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ، وهدوهم إلى الحق.

واستن هؤلاء سننهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب الرسول، واتباع أفعال آبائهم الضلال.

ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: فهل[٢] على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم، من أمره ونهيه، إلا إبلاغ الرسالة، وإيضاح طريق الحق، وإظهار أحكام الوحي، التي منها أن مشيئة الله تعالى تتعلق بهداية من وجه همته إلى تحصيل الحق، كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ وليس من وظيفتهم إلجاء الناس إلى الإيمان شاؤوا أو أبوا، فإن ذلك ليس من شأنهم، ولا من الحكمة التي عليها مدار التكليف، حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ إنكاري؛ أي: ليست[٣] وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً، وإطلاع الخلق على بطلان الشرك وقبحه، لا إلجاءهم إلى قبول الحق، وتنفيذ قولهم عليهم شاؤوا أو أبوا.

وقصارى ذلك[٤]: أن الثواب والعقاب لا بُدَّ فيهما من أمرين، تعلق مشيئته

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

تعالى بوقوع أحدهما، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه، وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطرارياً لا اختياريًا، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي، أما العمل بها إلجاء وقسراً، فليس من وظيفتهم لا في كثير ولا قليل.

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها، وجعلت سبباً لهدى من أراد الله هدايته، وزيادة ضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويفنيه، فقال:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا في كل أمة من الأمم التي سلفت قبلكم ﴿رَسُولًا﴾ خاصًا بهم، كما بعثناك في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إما مصدرية[1]؛ أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة لأن في البعث معنى القول؛ أي: قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله وحده لا شريك له، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى الضلال، أو واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا، والطاغوت هو الشيطان، وكل ما يدعو إلى الضلالة، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، مع علمه أن منهم من لا يأتمر بالأوامر ولا يؤمن، و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ فاء[2] الفصيحة؛ أي: فبلغوا ما بعثوا به من الأمر، بعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، فتفرقوا، فمنهم؛ أي: فمن هذه الأمم التي بعث الله إليها رسله، ﴿مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾؛ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته، واجتناب الطاغوت، أو خلق[3] فيه الاهتداء إلى الحق الذي هو عبادته واجتناب الطاغوت، بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئي إلى تحصيله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ أي: وجبت وثبتت عليه الضلالة إلى حين الموت، لعناده وإصراره على الكفر، وعدم صرف قدرته، فلم يخلق فيه الاهتداء، ولم يرد أن يطهر قلبه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

قال الزجاج[1]: أعلم الله تعالى أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الطاغوت، وأنهم بعد ذلك فريقان: فمهم من هدى، ومنهم من حقت عليهم الضلالة، فكان في ذلك دليلٌ على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته، فإنه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا.

وإجمال القول[2]: أن المشيئة الشرعية للكفر منتفية، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، والمشيئة الكونية وهي تمكين عباده من الكفر، وتقديره لهم بحسب اختيارهم وصرف همتهم إلى تحصيل أسبابه، لا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجةٌ ناصعةٌ وحكمة بالغة.

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ أي: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله، ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم، والعمل بما جاؤوا به، ففازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله، وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم شديد بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاء الفصيحة؛ أي: إذا عرفتم التفريق المذكور، وأردتم معرفة عاقبة من حقت عليهم الضلالة.. فأقول لكم سيروا وسافروا يا معشر قريش، إذ الكلام معهم في أكناف الأرض ونواحيها ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: كيف كان آخر أمر المكذبين لرسلهم، من عاد وثمود، ومن سار بسيرتهم ممن حقت عليهم الضلالة، لعلكم تعتبرون

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

حين تشاهدون من منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب، وفي الإتيان[١] بالفاء الدالة على التعقيب في قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ إشارة إلى وجوب المبادرة إلى النظر والاستدلال المؤديين إلى الإقلاع عن الضلال.

والمعنى[٢]: أي فسيروا في الأرض التي كان يسكنها القوم الظالمون، والبلاد التي كانوا يعمرونها، كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم، ممن حقت عليهم الضلالة، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم، لعلكم تعتبرون بما حل بهم.

ثم خاطب سبحانه رسوله ﷺ مسلياً له على ما يراه من جحود قومه، وشديد إعراضهم، ومبالغتهم في عنادهم، مع أسفه عليهم، وعظيم رغبته في إيمانهم، ومبيناً أن الأمر بيد الله، وليس له من الأمر شيءٌ فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾؛ أي: على هداية قومك؛ أي: إن تطلب هداية قريش بجهدك.. لا ينفعهم حرصك على إيمانهم وهدايتهم، إذا كان الله تعالى يريد إضلالهم بسوء اختيارهم، وتوجيه عزائمهم إلى عمل المعاصي والإشراك بربهم، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ معللة لجواب الشرط الذي قدرناه؛ أي: لأنه تعالى لا يخلق الهداية قسراً فيمن يخلق فيه الضلالة لسوء اختياره، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾؛ أي: وما لهم ناصرٌ ينصرهم من الله إن إراد عقوبتهم، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؛ أي: وليس لهم أحدٌ يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة من دفع العذاب عنهم.

ومجمل القول[٣]: أنَّ من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أسبابها، فالله سبحانه لا يخلق فيه الهداية قسراً وإلجاءً، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار.

وقرأ النخعي[٤]: ﴿وإن﴾ بزيادة واو وهو والحسن وأبو حيوة ﴿تَحْرَص﴾ بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة، وقرأ الجمهور بالكسر مضارع حرص

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بالفتح، وهي لغة الحجاز، وقرأ الحرميان نافع وابن كثير، والعربيان أبو عمرو وابن عامر، والحسن والأعرج ومجاهد وشيبة وشبل ومزاحم الخراساني والعطاردي وابن سيرين: ﴿لا يُهْدَى﴾ مبنياً للمفعول، ومن مفعول لم يسم فاعله، والفاعل في ﴿يُضِل﴾ ضمير الله، والعائد على مَنْ محذوف، تقديره: من يضله الله، وقرأ الكوفيون وابن مسعود وابن المسيب وجماعة: ﴿يَهْدي﴾ مبنياً للفاعل، والظاهر أن في يهدي ضميراً يعود على الله ومن مفعول، وعلى ما حكى الفراء: إن هدى يأتي بمعنى اهتدى، يكون لازماً، والفاعل من؛ أي: لا يهتدي من يضله، وقرأت فرقة منهم عبد الله: ﴿لا يهدي﴾ بفتح الياء وكسر الهاء والدال، قال ابن عطية: وهي ضعيفة، انتهى.

وإذا ثبت أن هدى لازم بمعنى اهتدى.. لم تكن ضعيفةً، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية، فالمعنى لا يجعل مهتدياً من أضله، وفي مصحف أبي: ﴿لا هادي لمن أضلَّ﴾، وقال الزمخشري: وفي قراءة أبيٍّ فإن الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضل، وقرىء يضل بفتح الياء.

ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: حلف الذين أشركوا ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: غاية أيمانهم، وإذا حلف الرجل بالله.. فقد حلف جهد يمينه، فإن الكفار كانوا يحلفون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيماً.. حلفوا بالله تعالى، وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إعلاماً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث، وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موضع الحال وقوله: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ من عباده مقسم عليه؛ أي: حلف[1] هؤلاء المشركون بالله حالة كونهم جاهدين ومبالغين في أيمانهم، حتى بلغوا غاية شدتها ووكادتها، قائلين: لا يبعث الله يوم القيامة من يموت من عباده، فإنهم يجدون في تقولهم أن الشيء إذا صار عدماً محضاً لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر، ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ ردٍّ بقوله: ﴿بَلَى﴾ إثباتٌ

(١) روح البيان.

لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم الله تعالى بعد الموت ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه، وهو ما دل عليه بلى، فإن البعث موعد من الله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مقتضى حكمته ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد، والتقدير: بلى يبعثهم الله وعد بذلك وعداً حقاً واجباً عليه إنجازه بمقتضى حكمته، وقيل هما مصدران مؤكدان للجملة المقدرة؛ أي: وعد[1] ذلك وعداً ثابتاً عليه، وحق ذلك حقاً، أي: ثبت ذلك ثبوتاً على الله، فينجزه لامتناع الخلف في وعده ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، وأن ذلك يسير عليه سبحانه، غير عسير، لقصور نظرهم بالمألوف، فيتوهمون امتناع البعث، ولجهلهم بشؤون الله تعالى، من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال، وعدم وقوفهم على سرِّ التكوين.

وقرأ الضحاك[2]: ﴿بلى وعد عليه حق﴾ والتقدير: بعثهم وعد عليه حق، وحق صفة لوعد، والمعنىٰ؛ أي: بلى[3] سيبعثه الله بعد مماته، وقد وعد ذلك وعداً حقاً لا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشؤون الله وصفات كماله، من علم وقدرة وحكمة ونحوها، لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه، وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء، ومن قبل هذا جرؤوا على مخالفة الرسل، ووقعوا في الكفر والمعاصي.

ثم ذكر سبحانه الحكمة في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ و﴿اللام﴾ متعلقة بـ ﴿يبعثهم﴾ المقدر بعد بلى، أي: بلى يبعث الله كل من يموت مؤمناً كان أو كافراً، ليبين لمنكري البعث، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول يبين؛ أي: ليبين للمشركين الذين ينكرون البعث الأمر الذي يختلفون فيه مع المؤمنين، من أمر الدين بتعذيبهم، وإثابة المؤمنين، مما جاءت به الرسل وخالفتهم فيه أممهم، فيمتاز الخبيث من

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

الطيب، والمطيع من العاصي، والظالم من المظلوم، إلى نحو أولئك ممن كان مدار دعوة الرسل عليه، وأنكرته الأمم الذي أرسلوا إليهم، ويجزي الذين أساؤوا بما علموا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسن، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوف على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ أي: بلى يبعثهم ليبين لهم الذي يختلفون فيه، وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: لا يبعث الله من يموت، وسيدعون إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ هذا[1] إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، والثواب والعقاب.

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال: ﴿إِنَّمَا﴾ و﴿ما﴾ فيه كافة ﴿قَوْلُنَا﴾ مبتدأ ﴿لِشَيْءٍ﴾؛ أي: أي شيء كان مما عز وهان، متعلق بـ ﴿قَوْلُنَا﴾ على أن اللام للتبليغ، كهي في قولنا: قلت له قم فقام، فإن قلت: فيه دليل على أن المعدوم شيءٌ، لأنه سماه شيئاً قبل كونه.

قُلْتُ: التعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى، لا أنه كان شيئاً قبل ذلك. وفي «التأويلات النجمية»: في الآية دلالة على أن المعدوم الذي في علم الله إيجاده شيء، بخلاف المعدوم الذي في علم الله عدمه أبداً، ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ ظرف لـ﴿قَوْلُنَا﴾؛ أي: وقت إرادتنا لوجوده ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ خبر المبتدأ ﴿كُن﴾؛ أي: احدث وابرز من العدم إلى الوجود، لأنه من كان التامة بمعنى الحدوث التام، ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الشيء ويحدث، عطف على مقدر؛ أي: فنقول ذلك فيكون، أو جواب لشرط محذوف؛ أي: فإذا قلنا ذلك.. فهو يكون ويحدث عقيب ذلك، وهذا الكلام مجازٌ عن سرعة الإيجاد وسهولته على الله، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا آمر ولا مأمور، حتى يقال إنه يلزم أحد

---

(١) روح البيان.

المحالين إما خطاب المعدوم، أو تحصيل الحاصل؛ أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف.

والمعنى: أي[1] إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت.. فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه، لأنا إذا أردنا ذلك.. فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه ولا كلفة علينا، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾، وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

وخلاصة هذا: أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته، وسرعة حدوثها حين إرادته سرعة حصول المأمور حين أمر الآمر، وقوله دون هوادة ولا تراخ، ولكن العباد[2] خوطبوا بذلك على قدر عقولهم، ولو أراد الله خلق الدنيا وما فيها في قدر لمح البصر.. لقدر على ذلك، فالمعنى: إنما إيجادنا لشيء عند تعلق إرادتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وحمزة ﴿فَيَكُونُ﴾ رفعاً، وكذلك في كل القرآن، وقرأ ابن عامر والكسائي: ﴿فيكون﴾ نصباً، قال مكيٌّ بن إبراهيم: من رفع قطعه عما قبله.

والمعنى: فهو يكون، ومن نصب عطفه على يقول. والله أعلم.

الإعراب

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعلٌ ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: نائب فاعل محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَّاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبرٌ، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجمل صلة لـ ﴿ذا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي أنزله ربكم، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبرٌ ومضاف إليه لمبتدأ محذوف تقديره: المنزل أساطير الأولين، وسموه منزلاً على سبيل التهكم، أو على سبيل التقدير ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وعاقبة ﴿يحملوا أوزارهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، منصب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي ﴿كَامِلَةً﴾: حال من الأوزار، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يحملوا﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: قالوا لصيرورة عاقبتهم حملهم أوزارهم يوم القيامة، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ﴾: معطوف على ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾، و﴿وَمِنْ﴾ إما زائدة أو تبعيضة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، ﴿يُضِلُّونَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، إما حال من فاعل ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، أو من مفعوله كما مر ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، لشبهه بالمثل، تقديره: هو يعود على الشيء المبهم الذي يفسره التمييز، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾، ﴿يَزِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ ﴿مَا﴾، والرابط محذوف تقديره: ألا ساءَ الشيء شيئاً يزورنه، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: حملهم هذا، وجملة ﴿سَآءَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار

ومجرور صلة الموصول، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَكَرَ﴾ و﴿الفاء﴾ للعطف والتعقيب ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أتى﴾، ﴿فَخَرَّ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿خر﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلسَّقْفُ﴾: فاعل ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَرَّ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أتى﴾. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أتى﴾، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حَيْثُ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف متعلق بما بعده، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُخْزِيهِمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾: إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع خبر مقدم وجوباً، ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الرفع صفة لـ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل ومفعول ثان، لأن أتى هنا بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، أولهما صار نائب فاعل، لـ ﴿أُوتُوا۟﴾ والأصل قال الذين آتاهم الله العلم، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾: ناصب واسمه،

﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ لأنه مصدر فيه الألف واللام، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً، لأن كما ذكره أبو البقاء، ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، صلة الموصول، ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾: حال من ضمير الغائبين، ومضاف إليه، ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على جملة قوله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أو على ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، و﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ويجوز أن يكون مستأنفاً، والفاء حينئذٍ استئنافية، ذكره أبو البقاء ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ فعل ومفعول، و﴿مِن﴾ زائدة، وفاعله ضمير يعود على المشركين، وجملة ﴿نَعۡمَلُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقولٌ لقول محذوف، حال من فاعل ﴿ألقوا﴾؛ أي: فألقوا السلم قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾. ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب لإثبات ما بعد حرف النفي قائمة مقام الجواب المحذوف، تقديره: بلى كنتم تعملون أقبح الشرك وأشد الآثام، والجملة الجوابية مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَلِيمُۢ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كنتم تعملونه.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿ادخلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ادخلوا﴾، أو منصوب على التشبيه بالمفعول به، والجملة معطوفة على الجواب تقديره: بلى كنتم تعملون أشد الشرك وأقبح الآثام فادخلوا أبواب جهنم، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة من فاعل ﴿ادخلوا﴾ ﴿فِيهَاۖ﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿فَلَبِئۡسَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿بئس مثوى المتكبرين﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله:

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾؛ أي: فادخلوا أبواب جهنم فيقال فيكم: والله لبئس مثوى المتكبرين، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: جهنم.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق به، ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ نائب فاعل محكي لـ ﴿قيل﴾، وجملة ﴿قيل﴾ مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾، وإن شئت قلت ﴿مَاذَآ﴾ مبتدأ وخبر، وجملة ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ صلة لـ ﴿ذا﴾ الموصولة، كما مر نظيره فراجعه، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خَيۡرٗاۗ﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: أنزل خيراً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿أَحۡسَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصولة ﴿فِي هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عنه ﴿حَسَنَةٞۚ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب بدل من ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، أو جملة مفسرة له ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿خَيۡرٞۚ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ ﴿وَلَنِعۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف، ﴿نعم دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، والتقدير: والله لنعم دار المتقين، وجملة القسم معطوفة على الجملة التي قبلها، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف تقديره: لهم جنات عدن، والجملة مستأنفة، وفيه أوجه أخر تركناها خوف الإطالة، ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾: فعل

وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، وجملة ﴿تَجْرِي﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، ﴿يَشَآءُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما يشاؤونه ويشتهونه والجملة الاسمية في محل النصب حال ثانية من مفعول ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والتقدير: يجزى الله المتقين جزاء مثل الجزاء الذي ذكرناه، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من المفعول في ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ إلى آخر الآية: مقولٌ محكي لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض الدعاء، ﴿عَلَيْكُمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل مفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، و﴿الباء﴾ سببية، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجعله ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه، ويصح أن تكون مصدريةً؛ أي: بعملكم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: هل ينتظرون إلا إتيان الملائكة إياهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾؛ أي: ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر ربك، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول، والجملة مستأنفة، والتقدير: فعل الذين من قبلهم فعلاً مثل فعل هؤلاء المشركين من قومك، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ناف وفعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية معترضة لاعتراضها بين المعطوف الذي هو ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ والمعطوف عليه الذي هو ﴿فَعَلَ﴾، و﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا﴾: فعل ومفعول وفاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض اهـ «سمين»، وجملة ﴿عَمِلُوا۟﴾ صلةٌ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض، ﴿بِهِم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصابهم﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل،

والجملة صلة الموصول، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَبَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من ﴿شَيْءٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿عَبَدْنَا﴾، و﴿مِن﴾ زائدة وجملة ﴿عَبَدْنَا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿نَّحْنُ﴾: تأكيد لضمير الفاعل في ﴿عَبَدْنَا﴾، ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾: معطوف على ذلك الضمير، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَبَدْنَا﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿دُونِهِۦ﴾: ظرف حال من ضمير ﴿حَرَّمْنَا﴾؛ أي: حالة كوننا دونه؛ أي: دون الله؛ أي: مستقلين بتحريمه، كما في «الجَمَلِ». ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مفعول ﴿حَرَّمْنَا﴾ و﴿مِن﴾ زائدة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: صلة الموصول، والجملة مستأنفة، والتقدير: فعل الذين من قبلهم فعلاً مثل فعل هؤلاء المشركين، ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت فعل هؤلاء، وفعل الذين من قبلهم، وأردت بيان ما على الرسل. . فأقول لك: هل على الرسل، ﴿هَلْ﴾؛ حرف استفهام، للاستفهام الإنكاري، ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ والجملة الاستفهامية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿بَعَثْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه،

متعلق بـ ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿رَّسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿أَنِ﴾ مصدريةٌ أو مفسرة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية مع ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، ﴿فَمِنۡهُم﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت بعثنا في كل أمة رسولاً، وأردت بيان حال أممهم.. فأقول لك: منهم مَنْ هدى الله، ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّنۡ﴾: نكرة موصوفة كما في «العكبري» أو موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿مَّنۡ﴾ المَوْصُوفةِ، أو صلة ﴿مَّنۡ﴾ الموصولة، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: من هداهم الله، ﴿وَمِنۡهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مَّنۡ﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿حَقَّتۡ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَّنۡ﴾ أو صفة لها.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَسِيرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم التفريق المذكور، وأردتم معرفة حال من حقت عليه الضلالة.. فأقول لكم ﴿سيْروا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ ﴿سيروا﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿انظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سيروا﴾، ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، وهي معلقة لـ ﴿انظروا﴾ عن العمل فيما بعده، ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَحْرِصْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾: متعلق به، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فلا ينفعهم حرصك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية للجواب المحذوف، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾ ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يُضِلُّهُ ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية ﴿لَهُم﴾: خبر ﴿ما﴾ مقدم، أو خبر المبتدأ، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: اسمها مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾ زائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿أقسموا﴾ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: منصوب على المصدرية، واقع موقع الحال، كما مر في مبحث التفسير، ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، واقع حالاً من فاعل ﴿أقسموا﴾؛ أي: وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ﴿يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات ما بعد النفي، نائب عن الجواب المحذوف، تقديره: بلى يبعثه الله تعالى، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر، تقديره: وعد ذلك وعداً، وحق ذلك حقاً، ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور صفةٌ

لـ ﴿وَعْدًا﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة الجوابية المحذوفة.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كَيْ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتبيينه لهم، الجار والمجرور متعلق بالجواب المقدر بعد بلى؛ أي: بلى يبعثهم الله لتبيينه لهم، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يبين﴾، ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولعلم الذين كفروا، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾، ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿ما﴾: كافة، ﴿قَوْلُنَا﴾: مبتدأ أو مضاف إليه، ﴿لِشَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَوْلُنَا﴾، ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في حل النصب على الظرفية، مبني على السكون، ﴿أَرَدْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَآ﴾ تقديره: وَقْتَ إرادتنا إياه، والظرف متعلق بـ ﴿قَوْلُنَا﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿نَّقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وفعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَّقُولَ﴾، ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿نَّقُولَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر تام بمعنى احدث، وفاعله ضمير يعود على

الشيء، والجملة في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾ وجملة ﴿نَّقُولَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: إنما قولنا لشيء وقت إرادتنا إياه قولنا له كن، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فَيَكُونُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على ﴿شيء﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة مقدرة تدل عليها الفاء، تقديره: فنقول ذلك فيكون، ويجوز أن يكون جواباً لشرط محذوف، تقديره: فإذا قلنا ذلك فهو يكون، كذا في «الفتوحات» وغيرها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير جمع أسطورة، كأحاديث جمع أُحدوثة، وأضاحيك جمع أضحوكة، وأعجايب جمع أعجوبة، وأراجيح جمع أرجوحة، وهي الأكاذيب والأباطل والترهات، وقال في «القاموس»: الأساطير الأحاديث التي لا نظام لها، جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور، وبالهاء في الكل اهـ. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ والأوزار الآثام، واحدها وزر كأحمال وحمل، والوزر الثقل والحمل الثقيل، ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: بئس شيئاً يحملونه، ﴿قَدْ مَكَرَ﴾ والمكر صرف غيرك مما يريده بحيلة، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: أهلكه وأفناه، كما يقال أتى عليه الدهر، والبنيان البناء يجمع على أبنية، والقواعد جمع قاعدة، وقواعد البيت أساسه، أو أساطينه ودعائمه وعمده، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ والسقف يجمع على سقوف، وهو القياس، وعلى سُقُفٍ وسُقْفٍ، وفُعَلٌ وفُعْلٌ، محفوظان في فَعْلٍ، وليسا مقيسين فيه، ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم في شأنهم، وأصله أن كلاً من المتخاصمين في شق وجانب غير شق الآخر، وعبارة «الخازن»: المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شقٍّ غير شق صاحبه، والمعنى: ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان اهـ. وأصل الخزي ذل يستحي منه، وأصل ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ تشاققون بوزن تفاعلون، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ والسلم بالتحريك الاستسلام؛ أي: فيلقون

الاستسلام والانقياد في الآخرة حين عاينوا العذاب، ويتركون المشاقة، ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف يجاب به لإثبات ما بعد النفي.

﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المثوى المنزل والمقام، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: وأحاط بهم جزاؤه ونزل، من الحيق الذي لا يستعمل إلا في الشر، كما في «القاموس»: الحَيْقُ ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، والمراد أن أصل معناه الإحاطة مطلقاً، لكنه خص في الاستعمال بإحاطة الشر، فلا يقال حاقت به النعمة، بل النقمة اهـ. «شهاب»، وفي «المختار»: حاق به الشي أحاط به، وبابه باع ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ اهـ.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والبلاغ اسم مصدر بمعنى الإبلاغ اهـ «شهاب»؛ أي: ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والطاغوت فعلوت من الطغيان، كالجبروت الملكوت من الجبر والملك، وأصله طغيوت فقدم اللام على العين، وتاؤه زائدة دون التأنيث، واختلف في الطاغوت، فقال بعضهم كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وقال الحسن: الطاغوت الشيطان، والمراد من اجتنابه اجتناب ما يدعوا إليه مما نهي عنه شرعاً، ولما كان ذلك الارتكاب بأمر الشيطان ووسوسته سمي ذلك عبادة للشيطان اهـ. «زاده»، وهو من الطغيان يذكر ويؤنث اهـ «مصباح»، ويقع على الواحد كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، وعلى الجمع كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ والجمع الطواغيت اهـ «مختار»، ومن إطلاقه على الجمع ما هنا، والحاصل: أنَّ الطاغوت كلُّ ما عبدُ من دون الله تعالى، من شيطان وكاهن وصنم، وكل من دعا إلى ضلال.

﴿مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حقت وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ في «المصباح»: حرص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد، والاسم الحرص بالكسر، وحرص على الدنيا من باب شرب أيضاً، وحرص حرصاً من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة اهـ. وفي «السمين»: قرأ العامة: ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ بكسر الراء مضارع حرص بفتحها،

وهي اللغة العالية لغة الحجاز، وقرأ الحسن: ﴿تَحْرص﴾ بفتح الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة لبعضهم اهـ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الإقسام والقسم محركة اليمين بالله، وسمي الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدِّق ومكذب، والجهد بفتح الجيم المشقة، وبضمها الطاعة، يقال جهد الرجل في كذا ـ كمنع ـ جدَّ فيه وبالغ واجتهد، وجهد أيمانهم؛ أي: غاية اجتهادهم فيها، وبلى كلمة جواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي، فتثبت ما بعده، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعد ذلك وعداً عليه حقاً؛ أي: ثابتاً متحققاً لا شك فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وبين ﴿يَزِرُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديد الدعائم فانهدم ذلك البنيان، وسقط عليهم فأهلكهم، بطريق الاستعارة التمثيلية، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم عاد سبباً لفنائهم، كقولهم: من حفر حفرة لأخيه سقط فيها.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهو قصر للجنس الادعائي، كأن ما يكون من الذل ـ وهو العذاب ـ لعصاة المؤمنين لعدم بقائه ليس من ذلك الجنس.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾؛ أي: قالوا: أنزل خيراً.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿أحسنوا﴾ و﴿حسنة﴾ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

ومنها: الطباق بين الدنيا والآخرة.

ومنها: الجناس أيضاً بين ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ و﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في هذه الآية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: جزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه، إيذاناً بفظاعته، لا على حذف مضاف، فإنه يوهم أنَّ لهم أعمالاً غير سيئاتهم، ذكره في «روح البيان».

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾ و﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ لأن الأوزار حقيقة في الأحمال الثقيلة، فاستعاره للآثام.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم﴾ لأنه كناية عن إرادة تخريبه.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ لأن السقف لا يخرُّ إلا من فوق.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ وبين قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ وبين قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لأنه مجاز عن سرعة الإيجاد وسهولته على الله، وتمثيل الغائب، وهو تأثير قدرته في المراد بالشاهد،

وهو أمر المطاع للمطيع في حصول المأمور به من غير امتناعٍ وتوقف، ولا افتقارٍ إلى مزاولة عمل، واستعمال آلة، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا آمرٌ ولا مأمور، حتى يقال إنه يلزم أحد المحالين: إما خطاب المعدوم، أو تحصيل الحاصل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ
(٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ
ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩
(٥٠) ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ
الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا
بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ
أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)
وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(٦٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما

قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى[١] أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتمادوا في الغيِّ والضلالة ومن هذه حالة فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء، حتى يضطروهم إلى الهجرة من الديار، ومفارقة الأهل والأوطان.. ذكر هنا حكم تلك الهجرة، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسناتٍ في الدنيا، وأجرٍ في الأخرة، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم، وصبروا وتوكلوا على الله سبحانه وتعالى، وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة، واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.

وقال ابن عطية[٢]: لمَّا ذكر الله كفار مكة الذين أقسموا بالله بأنَّ الله لا يبعث من يموت، ورد على قولهم.. ذكر مؤمني مكة المعاصرين لهم، وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب الآية، لأن هجرة المدينة ما كانت إلا بعد وقت نزول الآية انتهى، والظاهر أن الذين هاجروا عام في المهاجرين كائناً ما كانوا فيشمل أولهم وأخرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[٣] ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة لهم إلى الأنبياء، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياةٌ أخرى يحاسبون فيها، وهم لا يصدقون بها، وليس من المعقول أن تكون.. أردف ذلك بشبهة أخرى لهم، إذ قالوا: هب الله أرسل رسولاً، فليس من الجائز أن يكون بشراً، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر، فلو بعث إلينا رسولاً لبعثه ملكاً، ثم أجاب عن هذه الشبهة: بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر، وإن كنتم في شكٍّ من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك، ثم هدّدهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم، أو

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

يأخذهم طائفة بعد أخرى، ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي على أتمِّ نظام، وأحكم تقدير.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) قدرته على تعذيب الماكرين، وإهلاكهم بأنواع من الأخذ.. ذكر تعالى طواعية ما خلق من غيرهم، وخضوعه ضد حال الماكرين لينبههم على أنه ينبغي بل يجب عليهم أن يكونوا طائعين منقادين لأمره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين(٢) في الآيات السالفة أنَّ كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقادٌ له، وخاضعٌ لسلطانه.. أتبع ذلك بالنهي عن الشرك به، وبيَّن أنّ كل ما سواه فهو ملكه، وأنه مصدر النعم كلِّها، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر، فإذا كشفه عنه.. رجع إلى كفره، وأنَّ الحياة الدنيا قصيرة الأمد، ثم يعلم الكفار بعدئذٍ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاءً لهم على سيء أعمالهم، وقبيح أقوالهم، وعبارة أبي(٣) حيَّان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر انقياد ما في السموات وما في الأرض لما يريده تعالى منها، فكان هو المتفرد بذلك.. نهى أن يشرك به، ودلَّ النهي عن اتخاذ إلهين على النهي عن اتخاذ آلهة، ولمَّا كان الاسم الموضوع للإفراد والتثنية قد يتجوز فيه، فيراد به الجنس، نحو: نعم الرجل زيدٌ، ونعم الرجلان الزيدان، أكد الموضوع لهما بالوصف، فقيل: إلهين اثنين، وقيل إلهٌ واحدٌ، ولمَّا نهى عن اتخاذ الإلهين واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة.. أخبر تعالى أنه إله واحد، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ﴾ بأداة الحصر، وبالتأكيد بالوحدة، ثم أمرهم بأن يرهبوه، والتفت من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ في الرهبة.

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما بيَّن[1] سخف أقوال أهل الشرك.. أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التي تمجها الأذواق السليمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن الكفار عظيم ما ارتكبوه من الكفر، ونسبة التوالد له.. بيّن تعالى أنه يُمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته.

وعبارة «المراغي»: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما حكى[3] عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم.. بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة، أما الظالم فبظلمه، وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لكنه سبحانه يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى، ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، فقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك فكذبوهم، فلك بهم أسوة، فلا يحزننك تكذيبهم، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[4]: ما أخرجه ابن جرير عن داود بن أبي هند قال: نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أبي جندل بن سهيل.

وقال ابن الجوزي[5]: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت فيه على ثلاثة أقوال:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) لباب النقول.
(٥) زاد المسير.

أحدها: أنها نزلت في ستةٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، بلال وعمار وصهيب وخباب بن الأرت وعابس وجبير موليان لقريش، أخذهم أهل مكة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند.

والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا. . .﴾ الآية، قال[١] المفسرون في سبب نزول هذه الآية إنه لما أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث إلينا ملكاً.. نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ. . .﴾ الآية، سبب نزولها[٢]: أنَّ رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ أي: فارقوا أهاليهم وديارهم وأوطانهم، من مكة إلى الحبشة أو إلى المدينة ﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شأن الله ورضاه وفي حقه والتمكين من طاعته، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى اللام مع حذف مضاف؛ أي: لإظهار دين الله ونصرته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ وعذِّبوا وأُهينوا في مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾؛ أي: لننزلنهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ تبوئةً ﴿حَسَنَةٗ﴾؛ أي: تنزيلاً طيباً في أرض طيبة كريمة، فهو صفة لمصدر محذوف، أو مباءة حسنة ومنزلاً طيباً، وهي المدينة المنورة حيث آواهم أهلها ونصروهم، يقال[٣] بوَّاه منزلاً أنزله، والمباءة المنزل، فهي منصوبة على الظرفية، أو على أنها مفعول ثان إن كان لنبوئنهم بمعنى لنعطينهم، وهم[٤]

---

(١) زاد المسير.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح.

رسول الله ﷺ وأصحابه الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وعلى هذا يكون نزول الآية في أصحاب الهجرتين، فيكون نزولها في المدينة بين الهجرتين، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية في ستةٍ من الصحابة: صهيب وبلال وعمار وخبَّاب وعابس وجبير، أخذهم المشركون يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر، فأما بلال فيخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر، ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة، وهو يقول: أحد أحد، فاشتراه منهم أبو بكر وأعتقه، وأما صهيب فقال: أنا رجل كبير، إن كنت معكم.. لم أنفعكم، وإن كنت عليكم.. لم أضركم فافتدى منهم وهاجر، وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر، فتركوا عذابهم ثم هاجروا، فبسبب هجرتهم ظهرت قوة الإسلام، كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم، فلذلك غلبوا على أهل مكة وعلى العرب قاطبةً، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أكبر.

والمعنى: أي[1] والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته، من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم، لنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، إذ هم لمَّا تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله.. عوَّضهم الله خيراً منها في الدنيا، فمكَّن لهم في البلاد، وحكَّمهم في رقاب العباد، وصاروا أمراء وحكاماً، وكان كل منهم للمتقين إماماً.

ثم أخبر سبحانه أنَّ ثوابه لهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعد لهم في مقابلة الهجرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا؛ أي: ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله في الآخرة أكبر وأعظم من الأجر الكائن في الدنيا، لأنَّ ثوابه إياهم هنالك الجنة، التي لا يفنى

---

(١) المراغي.

نعيمها ولا يزول خيرها، وفي «المدارك» الوقف لازم عليه لأنّ جواب قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ محذوف، والضمير للكفار؛ أي: لو علم الكفار أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين.. لوافقوهم في الدين، ويجوز[1] أن يعود إلى المهاجرين.

والمعنى: لو كان المهاجرون يعلمون ما أعدَّ الله لهم في الآخرة.. لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين.

هؤلاء المهاجرون هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون في أمورهم، منقطعين إليه، معرضين عما سواه، مفوضين الأمر كله إليه تعالى، والتعبير[2] بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة، وجملة التوكل معطوفة على الصلة أو في محل النصب على الحال.

والمعنى: أي[3] هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا القهقرى، وعلى مفارقة الوطن المحبوب، لا سيما حرم الله المحبوب لكل قلب مؤمن، فكيف لمن كان مسقط رأسه، وعلى بذل الروح في ذات الله، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسبٍ ولا جوارٍ في دار، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل ما سواه.

وسبب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾، لأن مشركي قريش لما بلَّغهم النبي ﷺ الرسالة، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى.. أنكروا ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، ولو أراد أن يبعث إلينا رسولاً.. لبعث من الملائكة الذين عنده، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد إلى الأمم الماضية رسلاً للدعوة إلى توحيدنا، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي: إلا ذكوراً بالغين آدميين لا نساءً، إذ مبنى أحوالهن على الستر، والنبوة تقتضي الظهور، ولا صبياناً لعدم

---

(1) الخازن.
(2) روح البيان.
(3) المراغي.

كمالهم، ونبوة عيسى في المهد لا تنافيه إذ الرسالة أخص، قال ابن الجوزي اشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء، ولا ملائكة لاختلاف الجنس، وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ أي: إلى الملائكة أو إلى الأنبياء ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ على ألسنة الملائكة في الأغلب وأكثر الأمر، وفيه[1] إشارة إلى أن الرسالة النبوة والولاية لا تسكن إلا في قلوب الرجال الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله.

والمعنى[2]: أي وما أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاء إلى أمرنا إلا رجالاً من بني آدم نوحي إليهم لا ملائكة، ومجمل القول: إنا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم؛ أي: رسلاً من جنسهم وعلى منهاجهم، روى الضحاك عن ابن عباس: الله لمَّا بعث محمداً ﷺ.. أنكر العرب ذلك وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالياء وفتح الحاء، وقرأت فرقة: بالياء وكسرها، وقرأ عبد الله والسلمي وطلحة وحفص عن عاصم: بالنون وكسرها.

ولمَّا[4] كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل.. صرف الخطاب إليهم، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ يا معشر قريش إن شككتم في ذلك ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: أهل العلم بذلك؛ أي: علماء أهل الكتاب، ليخبروكم أن الله تعالى لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً، وكانوا يشاورونهم في بعض الأمور، ولذلك أحالهم إلى هؤلاء للإلزام؛ أي: فإذا أخبروكم بذلك.. زالت الشبهة من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

قلوبكم، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الرسل من البشر.

والمعنى: أي فاسألوا[1] أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكةً؟ فإن كانوا ملائكةً.. أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجالاً؛ أي: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً متلبسين بالمعجزات الباهرة، الدالَّة على صدق من يدعي الرسالة، كعصا موسى، وناقة صالح، ومتلبسين بالكتب المشتملة على التكاليف الشرعية، التي يبلغونها من الله تعالى إلى العباد، كالتوراة والإنجيل، والبينات جمع بينة، وهي المعجزة الواضحة، والزبر جمع زبور، وهو الكتاب بمعنى المزبور؛ أي: المكتوب.

أي: وما أرسلنا رسلاً من قبلك إلا رجالاً متلبسين بالأدلة والحجج، التي تشهد لهم بصدق نبوتهم، وبالكتب التي تشمل على التكاليف والشرائع التي يبلغونها من الله إلى العباد.

وقيل: في الكلام[2] تقديم وتأخير، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً، وقيل: يتعلق بمحذوف دلَّ عليه المذكور؛ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، وقيل: متعلق بتعلمون على أنه مفعوله والباء زائدة؛ أي: إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر، وقيل: متعلق بنوحي؛ أي: نوحي إليهم بالبينات والزبر، وقيل: منصوب بتقدير: أعني، والباء زائدة.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: وأنزلنا عليك يا محمد القرآن منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع، وإنما سمّاه ذكراً لأن فيه مواعظ وتنبيهاً للغافلين؛ يعني: أنه سبب[3] الذكر، فأطلق عليه اسم المسبب، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافةً العرب والعجم ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع، وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب، حسب أعمالهم الموجبة لذلك

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

على وجه التفصيل بياناً شافياً، كما ينبىء عنه صيغة التفعيل في الفعلين، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما نُزِّل إليهم، فينتبهوا لما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب.

والمعنى: أي[1] وأنزلنا إليك القرآن تذكيراً وعظةً للناس، لتُعرِّفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع، وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام، وتفصل لهم ما أجمل بحسب مراتبهم في الاستعداد والفهم لأسرار التشريع، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: وتوقعاً منك وانتظاراً لتفكرهم في هاتيك الأسرار والعبر، وإبعاداً لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين، حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم.

ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والهمزة[2] فيه للاستفهام التوبيخي التقريعي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف المنسحب عليه النظم الكريم؛ أي: أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه، الذي من جملته أنباء الأمم المهلكة بفنون العذاب، ولم يتفكروا في ذلك؛ أي: ألم يتفكروا ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اهـ «أبو السعود». والتقدير: أيُعْرِضُ الذين فعلوا المكرات السيئات برسول الله ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله، أو إخراجه من مكة كما ذكر في الأنفال، ومكروا بأصحابه حين راموا صدهم عن الإيمان عن التذكر في هذا الذكر المشتمل على أنباء الأمم المهلكة؛ أي: أأعرض هؤلاء الماكرون عن التفكر فيه فأمنوا ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أن يغور الله بهم الأرض، حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى، كما فعل بقارون وأصحابه، والإنكار[3] موجه إلى المعطوفين معاً.

وذكر بعضهم أن الكركي لا يطأ الأرض بقدميه بل بإحداهما، فإذا وطئها.. لم يعتمد عليها خوفاً أن تخسف الأرض، فإذا لم يأمن الطير من الخسف.. فما

---

(١) المراغي.

(٢) أبو السعود.

(٣) روح البيان.

بال الإنسان العاقل يمشي على الأرض وهو غافل انتهى.

﴿أَوَ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: عذاب الاستئصال ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به؛ أي: من جهة لا تخطر ببالهم، فيهلكهم بغتةً كما فعل بقوم لوط وغيرهم، ﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله سبحانه بالعقوبة ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في حالة تحركهم في أسفارهم إقبالاً وإدباراً، فهو حال من المفعول؛ أي: حالة كونهم متقلِّبين في أسفارهم، والتقلب الحركة إقبالاً وإدباراً اهـ «شهاب»، فإنَّه سبحانه[1] وتعالى قادر على أن يهلكهم في السفر، كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض، وبعدهم عن الأوطان، وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم، وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، وقيل غير ذلك.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: فإذا أخذهم بالعقوبة بأيِّ سبب وفي أيِّ حالةٍ.. فما هم بناجين من عذاب الله القهار، سابقين قضاءه بالهرب والفرار على ما يوهمه التقلب والسير في الديار.

﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى بالعذاب حالة كونهم ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وتوقع؛ أي: مخافة من وقوع العذاب، بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه، غير غافلين عنه، بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا، فيأتيهم الله به وهم متخوفون، وقيل: معنى ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: على تنقص، قال ابن الأعرابي: أي تنقص من الأموال والأنفس والثمرات.

والمعنى[2]: أو يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، ولا يهلكهم في حالة واحدة، فيكون المراد مما قبله عذاب الاستئصال، ومنه الأخذ شيئاً فشيئاً، والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم بأيِّ وجهٍ كان، لا الحصر فيها.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾، أيها العباد، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بكم حيث لا يعاجلكم بالعقوبة، ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث لا يأخذكم في الحال ويتوب عليكم في المآل، ويجازي توبتكم بالفضل والنوال، ولمَّا[1] كان تعالى قادراً على هذه الأمور، ولم يعاجلهم بها.. ناسب وصفه بالرأفة والرحمة.

وحاصل المعنى: أي[2] أفأمن الذين مكروا برسول الله ﷺ من أهل مكة وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله تعالى أن يصيبهم بعقوبة من عنده:

١ - إمَّا بأن يخسف بهم الأرض، ويبيدهم من صفحة الوجود، كما فعل بقارون من قبل.

٢ - وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون، كما صنع بقوم لوط.

٣ - وإمَّا بأن يأخذهم بعقوبة وهم في أسفارهم يكدحون في الأرض ابتغاء الرزق، وما هم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ وقال ﷺ: «إن الله تعالى لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ».

٤ - وإمَّا بأن يخيفهم أوّلاً، ثم يعذبهم بعد ذلك، بأن يهلك طائفة فتخاف التي تليها، حتى يأتي عليهم جميعاً، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشة، وختم الآية بما ختم به لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل، وفي ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافي التقصير، وهذا من آثار رحمته بعباده.

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة[3] فيه للإنكار المضمن للتوبيخ، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والرؤية هي البصرية المؤدِّية إلى التفكر، والضمير لكفار مكة؛ أي: ألم ينظروا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ويروا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان لـ ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: من كل شيء له ظل، ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾؛ أي: يتقلص ويتحول وينتقل ظلاله شيئاً فشيئاً من جانب إلى جانب، وتدور من موضع إلى موضع، حسبما تقتضيه إرادة الخالق، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾؛ أي: عن جهة أيمانها وشمائلها؛ أي: عن[1] جانبي كل واحد منها، أو عن يمين الفلك وهو جهة المشرق، وعن شمائل الفلك وهي جهات المغرب، وأفرد اليمين باعتبار لفظ ما، وجمع الشمائل باعتبار معناها، وقيل إنما[2] وحد اليمين وجمع الشمائل لأن مذهب العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن يلغى واحد ويكتفى بأحدهما، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كذا في الأسئلة المقحمة.

والحاصل: أن الهمزة في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للإنكار، كما مرَّ آنفاً، وهي داخلة في الحقيقة على النفي، وإنكار النفي نفيٌ له، ونفي النفي إثبات.

والمعنى: قد رأى هؤلاء الذين مكروا السيئات من أهل مكة أمثال هذه الصنائع، فما لهم لم يتفكروا فيه، ليظهر لهم كمال قدرته تعالى وقهره، فيخافوا منه حالة كون تلك الظلال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: ساجدين لله، دائرين على مراد الله تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيُّؤ، وقوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حال من الضمير المستتر في ﴿سُجَّدًا﴾، فهي حال متداخلة؛ أي: خاضعون صاغرون من الدخور وهو الصغار والذل؛ أي: والحال أن أصحابها من الأجرام داخرة؛ أي: صاغرة منقادة لحكمه تعالى، ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به؛ أي: ألم ينظر[3] أهل مكة ولم يروا بأبصارهم إلى جسم قائم له ظل من جبل وشجر وبناء يرجع ظلاله من المشرق ومن المغرب واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد، وهم داخرون؛ أي: منقادون لقدرة الله تعالى وتدبيره، ولما وصفت الظلال بالانقياد لأمره

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

تعالى.. أشبهت العقلاء، فعبّر عنها بلفظ من يعقل، لأن الدخور من خصائصهم، أو لأن من جملة ذلك من يعقل فغلب.

والخلاصة: أي[1] ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال، التي تتفيّأ ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل، فهي في أوّل النهار على حالٍ، ثم تتقلص، ثم تعود إلى حال أخرى في آخر النهار، مائلةً من جانب إلى جانب ومن ناحيةٍ إلى أخرى صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته.

وقرأ السُّلمي والأعرج والأخوان حمزة والكسائي[2]: ﴿أولم تروا﴾ بتاء الخطاب إما على العموم للخلق استؤنف به الإخبار، وإما على معنى قل لهم، إذا كان خطاباً خاصًا، وقرأ باقي السبعة: بالياء على الغيبة، واحتمل أيضاً أن يعود الضمير على الذين مكروا، واحتمل أن يكون إخباراً عن المكلفين، والأول أظهر لتقدم ذكرهم، وقرأ أبو عمرو وعيسى ويعقوب: ﴿تَتَفَيَّؤُ﴾ بالتاء على التأنيث، وباقي السبعة بالياء.

وقرأ الجمهور: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ جمع ظل، وقرأ عيسى: ﴿ظُلَلُه﴾ جمع ظُلَّة، كحُلَّةٍ وحُلَلٍ، والرؤية هنا رؤية القلب التي يقع بها الاعتبار، ولكنها بواسطة رؤية العين.

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا لغيره، فالقصر[3] فيه قصر قلب وإفراد كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿يَسْجُدُ﴾؛ أي: يخضع وينقاد، قال العلماء: السجود على نوعين سجود طاعة وعبادةٍ كسجود المسلم، وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال. ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من العلويات قاطبةً، ودخل فيه الشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كائناً ما كان ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لما في الأرض؛ أي: من كل دابة تدب عليها، فإن قوله تعالى:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ يدل[1] على اختصاص الدابة بما في الأرض، لأنَّ ما في السماء لا يخلق بطريق التوالد، وليس لهم دبيبٌ، بل لهم أجنحة يطيرون بها، والظاهر أن الطيران لا ينافي الدبيب، وقد قيل إن في السماء خلقاً يدبون ودبيبه لا يستلزم كونه مخلوقاً من الماء المعهود، إذ من الماء كل شيء حيٍّ، فيكون ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بياناً لما في السماء والأرض، و﴿ما﴾ عام للعقلاء وغيرهم، وفي «الأسئلة المقحمة»: أن ما لا يعقل أكثر عدداً ممن يعقل، فغلب جانب ما لا يعقل لأنه أكثر عدداً، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ما في السموات، عطف جبريل على الملائكة تعظيماً وإجلالاً، ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن الملائكة مع علو شأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يتعظمون عن عبادته والسجود له، بل يتذللون، فكل شيء بين يدي صانعه ساجدٌ بسجود يلائم حاله، كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحاً يلائم حاله، فتسبيح بعضهم بلسان القال، وتسبيح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم، كما يعلم لسان قالهم، وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

والمعنى: أي ولله[2] يخضع ما في السموات وما في الأرض مما يدب عليها، وكذلك ملائكته الذين في السماء، وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: مَالِكَ أمرهم، والجملة حال من الضمير في: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾، حال من ربهم؛ أي: يخافونه تعالى خوف هيبةٍ وإجلال، وهو فوقهم بالقهر لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، أو يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، فهو متعلق بـ﴿يَخَافُونَ﴾ ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾؛ أي: الملائكة ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: ما يأمرهم الخالق به من الطاعات والتدبيرات، من غير تثاقل عنه وتوانٍ فيه، فبواطنهم وظواهرهم مبرأة من الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة، وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وبين الخوف والرجاء.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وحمل[1] هذه الجمل على الملائكة أولى من حمله على جميع من تقدم ذكره، لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده.

والمعنى: أي[2] يخاف هؤلاء الملائكة والدواب التي في الأرض ربهم، الذي هو من فوقهم بالقوة والقهر، أن يعذبهم إن عصوه، ويفعلون ما أمرهم به، فيؤدون حقوقه ويجتنبون سخطه، ونحو الآية قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

ومجمل القول: أنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها، جمادها ونباتها وحيوانها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها.

ولما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له خاضعة لجلاله.. أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى لجميع المكلفين ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد لما فهم من إلهين من التثنية، يعني نفسه والأصنام ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: معبود واحد لا شريك له في ذاته وصفاته، ولا شبيه له في أفعاله.

وقد قيل[3]: إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إله قد دل على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله بواحد؟

فقيل في الجواب: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين، إنما هو واحد إلهٌ، وقيل: إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك، وقيل: إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الوحدانية، مع

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية.

وعبارة «النسفي» هنا: فإن قلت[1]: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا: عندي رجال ثلاثة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد؛ فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان.

قلتُ: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالٌ على شيئين، على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعني به منهما هو العدد.. شفع بما يؤكد، فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية.

﴿فَإِيَّٰيَ﴾ لا غيري ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ أي: فخافون؛ أي: إن كنتم راهبين شيئاً.. فارهبوني لا غيري، فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والأرض، فالفاء واقعة في جواب شرط محذوف.

والمعنى: أي[2] وقال الله سبحانه لعباده لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا سواي، فإنكم إذا عبدتم معي غيري.. جعلتموه لي شريكاً، ولا شريك لي إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذاك، فاتقوني وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي بإشراككم بي غيري، أو عبادتكم سواي.

وإنَّما ذكر[3] العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أنَّ المنهي عنه هي الاثنينية، وإنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أنَّ المقصود إثبات الواحدانية، وأنها من لوازم الألوهية، أما الألوهية فغير منكرة ولا منازع فيها، كما مر ذلك آنفاً عن الشوكاني والنسفي.

والخلاصة: أنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة إليه.. ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه، فقال: وله سبحانه وتعالىٰ خلقاً وملكاً ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿و﴾ ما في ﴿الأرض﴾ من الجن والإنس وغيرها ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلدِّينُ﴾؛ أي: الطاعة والانقياد من كل شيء في السموات والأرض وما بينهما، ﴿وَاصِبًاۚ﴾ حال من ﴿ٱلدِّينُ﴾؛ أي: حالة كون الدين واصباً؛ أي: واجباً لله على خلقه، ثابتاً دائماً لا زوال له، لأنه الإله وحده الواجب أن يرهب منه، والهمزة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع المضمن للإنكار[1] داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أي أبعد العلم بما ذكر من التوحيد واختصاص الكل به خلقاً وملكاً غير الله تطيعون فتتقون.

والمعنى: أي فبعد[2] أن علمتم هذا ترهبون غير الله، وتحذرون أن يسلبكم نعمةً، أو يجلب لكم أذى، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم، وأفردتم الطاعة له، وما لكم نافع سواه، وإجمال ذلك أنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد، وعرفتم أن كل ما سواه فهو في حاجة إليه في وجوده وبقائه، كيف يعقل أن يكون لامرىء رغبة أو رهبةً من غيره تعالى.

ولما بين أن الواجب أن لا يتقى غير الله.. ذكر أنه يجب أن لا يشكر إلا هو فقال: ﴿وَمَا بِكُم﴾؛ أي: أي شيء يلابسكم ويصاحبكم ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾؛ أي: نعمة كانت على اختلاف أنواعها كالغنى وصحة الجسم والخصب ونحوها ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهي من قبل الله تعالى، فـ ﴿ما﴾ شرطية[3] أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن ملابسة النعمة بهم سبب للإخبار بأنها منه تعالى، لا لحصولها منه، والنعمة[4] إما دينية، وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية، كالعادات

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه، فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه.

ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: الفقر والبلاء في جسدكم والقحط ونحوها مساساً يسيراً، ﴿فَإِلَيْهِ﴾؛ أي: فإلى الله لا إلى غيره ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: تتضرعون في كشفه، فلا كاشف له إلا هو، والجؤار[1]: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ﴾ الله تعالى ﴿ٱلضُّرَّ﴾ الذي نزل بكم وأزاله ﴿عَنكُمْ﴾؛ أي: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر، ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنكُم﴾ وهم كفاركم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كشف عنهم الضر ﴿يُشْرِكُونَ﴾ فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء، حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ بعبادة غيره ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بما أعطيناهم من نعمة كشف الضر عنهم ﴿لام﴾ كي؛ أي: لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر، حتى[2] كأنَّ هذا الكفران منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرضٌ لهم، ومقصد من مقاصدهم، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية، ففي ﴿اللام﴾ استعارة تبعية كما سيأتي، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ من الكفران، وقيل: ﴿اللام﴾ للعاقبة، يعني: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفران.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم فيه من ذلك بقية آجالكم؛ أي: فعيشوا وانتفعوا بمتاع الحياة الدنيا أياماً قليلةً، وهو أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم، وما يحل بكم في هذه الدار، وما تصيرون إليه في الدار الآخرة.

وحاصل معنى الآيات[3]: أي ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ في أبدانكم من عافيةٍ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

وصحةٍ وسلامة، وفي أموالكم من نماءٍ وزيادةٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فالله هو المنعم بها عليكم، والمتفضل بها لا سواه، فبيده الخير، وهو على كل شيء قدير، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم المتواصلة، وإحسانه الدائم الذي لا ينقطع، ولقد أجاد من قال:

أَحْسِنْ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا ٱسْتَعْبَدَ ٱلإِنْسَانَ إِحْسَانُ

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: ثم إذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض، أو حاجة عارضة أو شدة وجهد في العيش ووسائل الحياة. ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: فإليه تصرخون بالدعاء، وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم، علماً منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾؛ أي: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض في أبدانكم، أو شدةٍ في معاشكم بتفريج البلاء عنكم.. إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكاً في العبادة، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكراً لغير من أنعم بالفرج وأزال من الضر.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يجحدوا نعم الله عليهم، وأنه هو المسدي لها، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم، وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبث طويتهم، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان، فجحدوا فضل الملك الديان، وإحسان صاحب الطول والإحسان، ثم توعدهم على سوء صنيعهم، وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فتمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقت لحياتكم وتمتعكم فيها، وبعدئذٍ ستصيرون إلى ربكم فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم، وسوء مغبة أعمالكم، وتندمون حين لا ينفع الندم.

وقرأ أبو العالية[1]: ﴿فَيُمْتَعُوا﴾ بالياء من تحت مضمومة مبنياً للمفعول

---

(١) البحر المحيط.

ساكن الميم، وهو مضارع متع مخففاً، وهو معطوف على ليكفروا، وقرأ: ﴿فسوف يعلمون﴾ بالياء على الغيبة وقد رواهما مكحول الشامي عن أبي رافع مولى النبي ﷺ، والتمتع هنا بالحياة الدنيا ومآلها إلى الزوال.

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾؛ أي: كفار مكة بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم، وبعد ما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي للأصنام التي لا يعلم الكفار حقيقتها وقدرها الخسيس، ويعتقدون فيها أنها تنفع وتضر، وتشفع عند الله تعالى، وقيل: المعنى: أنهم؛ أي: الكفار يجعلون للأصنام وهم ـ أي الأصنام ـ لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام، وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها.

وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً ﴿نَصِيبًا﴾؛ أي: حظًّا وجزءاً ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: من الأموال التي رزقناهم إياها من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليها، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهي؛ أي: الأصنام لا تشعر أجعلوا لها نصيباً وحظاً في أنعامهم وزروعهم أم لا، ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أيها الكفار يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا، وتختلقونه من الكذب على الله تعالى بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب إليها؛ أي: أقسم لأسألنكم عما افتريتموه واختلقتموه من الباطل، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كفاء كفرانكم نعمي وافترائكم عليَّ، ونحو الآية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر من قبائحهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾؛ أي: وينسب بعض الكفار البنات إلى الله سبحانه، ويقولون: الملائكة بنات الله، وهم خزاعة وكنانة، وإنَّما[1] أطلقوا لفظ البنات على الملائكة

(١) الخازن.

لاستتارهم عن العيون كالنساء، أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيها له تعالى عن البنات والبنين، وعن كل ما لا يليق به من صفات الحدوث، نزه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة، ولا أفهام مستقيمة، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل، وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم، ﴿و﴾ يجعلون ﴿لهم﴾؛ أي: لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: ما يحبونه؛ أي: ويختارون لأنفسهم الأولاد الذكور، على أنَّ ﴿ما﴾ في محل النصب بالفعل المقدر، ويجوز أن تكون في محل رفع بالابتداء، والظرف المقدم خبره، والجملة حالية، وأنكر النصب الزجاج، وأجازه الفراء.

والمعنى: أي[1] ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أنهم يجعلون لمن خلقهم، ودبر شؤونهم، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه البنات، إذ قالت خزاعة: الملائكة بنات الله، كما قال عزَّ اسمه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ وعبدوها مع الله، وقد أخطؤوا في ذلك خطأ كبيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً، إذ نسبوا إليه الأولاد، ولا أولاد له، وأعطوه منها أخسها وهي البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، بل لا يرضون إلا البنين، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢)﴾، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾.

قال ابن عباس: يقول سبحانه: تجعلون لي البنات ترضونهن لي ولا ترضونهن لأنفسكم، ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ أي: أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات، ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي: بولادة أنثى؛ أي: أُخبر بولادة أنثى له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾؛ أي: صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾؛ أي: متغيِّر[2] اللون بما يحصل له من الغم وانكسار القلب، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والتغير الذي يحصل بسبب الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غماً وحزناً، قاله الزجاج، وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير، وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: ظل وجهه مسودًا، والحال أنه مملوء غضباً على المرأة، لأجل ولادتها الأنثى، ومن هنا[1] أخذ المعبرون من رأى أو روئي له أن وجهه اسودَّ، فإن امرأته تلد أنثى، أو ممتلىءُ من الغم غيظاً وخنقاً، قال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: يتغيب ويختفي ويستتر من قومه، ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: من أجل سوء المبشر به، ومن أجل تعييرهم له بها، والتعبير عنها بـ ﴿ما﴾ لإسقاطها عن درجة العقلاء؛ أي: يختفي[2] منهم من أجل كراهية الأنثى التي بشر وأخبر بها، من حيث كونها لا تكتسب، وكونها يخاف عليها الزنا، وكان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بأمرته.. اختفى عن القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً.. فرح به، وإن كان أنثى.. حزن ولم يظهر للناس أيَّاماً، يدبر فيها ماذا يصنع بها، وذلك قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ تذكير الضمير باعتبار لفظ ﴿ما﴾؛ أي: أيمسك ذلك المولود ويتركه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: مع ذُلٍّ وتعيير يلحقه بسببها؛ أي: يحفظ ما بشر به من الأنثى، ويتركه بلا دفْنٍ مع رضاه بذل نفسه، فقوله: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ إمَّا[3] حال من الفاعل؛ أي: يمسكها مع رضاه بهوان نفس، أو من المفعول، أي: يمسكها مهانة ذليلة للعمل والاستقاء والخدمة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ ويخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد؛ أي: دفنها حية؛ أي: إذا بشر أحدهم بالأنثى.. يكون متردداً بين أمرين، إما أن يمسكه على هون، وإما أن

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

يدسه في التراب، فيفعل ما ظهر له من الأمرين، فالعرب[1] كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها، وهم كانوا يفعلون ذلك تارةً للغيرة والحمية، وتارةً خوفاً من الفقر ولزوم النفقة، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن يهجر بعضهم البيت الذي فيه المرأة إذا ولدت أنثى، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿سَآءَ﴾ لإنشاء الذم؛ أي: انتهبوا واستمعوا ما أقول لكم: ساء وقبح ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ما يحكم هؤلاء المشركون في حق الله تعالى، وفي حق أنفسهم، حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه، وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم، والمخصوص بالذم حكمهم هذا.

والمعنى: أي وإذا[2] بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى.. ظل وجهه مسوداً كئيباً من الهم، ممتلئاً غيظاً وخنقاً من شدة ما هو فيه من الحزن، يتوارى من الناس خجلاً واستحياءً، ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشِّر بها، ويدور بخلده أحد أمرين: إما أن يمسكها ويبقيها بقاء ذلة وهوان، فلا يورثها ولا يعنى بها، بل يفضل الذكور عليها، وإما أن يدسها في التراب، ويدفنها وهي حية، وذلك هو الوأد المذكور، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس[3] ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، فإنهم بالغوا في استنكاف من البنت من وجوه:

١ ـ اسوداد الوجه.

٢ ـ الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها.

٣ ـ أنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار، أو خوف الجوع والفقر.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

وقرأ الجحدري[1]: ﴿أيمسكها على هوان أم يدسها﴾ بالتأنيث عوداً على قوله: بالأنثى، أو على معنى ما بُشِّر به، ووافقه عيسى على قراءة، هوان على وزن فعال، وقرأت فرقة: ﴿أيمسكه﴾ بضمير التذكير ﴿أم يَدُسُّها﴾ بضمير التأنيث، وقرأت فرقة: ﴿على هون﴾ بفتح الهاء، وقرأ الأعمش: ﴿على سوء﴾، وهي عندي تفسير لا قراءة، لمخالفتها السواد المجمع عليه.

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين الذين ذكرت قبائحهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الصفة القبيحة من حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر، وذلك يومىء إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الصفة العليا العجيبة الشأن، وهي صفة الألوهية المنزهة عن صفات المخلوقين، وهي أنه الواحد المنزه عن الولد، وأنه لا إله إلاّ هو، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المنيع الذي لا يغالب، فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة.

ثم لمَّا حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم.. بين سعة كرمه وحلمه، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يؤاخذهم بظلمهم فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ فاعل هنا بمعنى فعل؛ أي: ولو أخذ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: الكفار أو جميع العصاة ﴿بِظُلْمِهِم﴾؛ أي: بسبب كفرهم ومعاصيهم.. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرض المدلول عليها بالناس، وبقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، لأنها ما يدب على الأرض، وتقول العرب[2]: فلان أفضل من عليها، وفلان أكرم من تحتها، فيردون الكناية إلى الأرض والسماء من غير سبق ذكر، لظهور الأمر بين يدي كل

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

متكلم وسامع، ولم يقل على ظهرها احترازاً من الجمع بين الظاءين في كلام واحد، وهو ﴿لَوْ﴾ وجوابه، فإنه ثقيل في كلام العرب.

والمعنى: أي ولو يؤاخذ الله كفار بني آدم وعصاتهم بكفرهم ومعاصيهم.. ما ترك على ظهر الأرض دابةً تدب عليها، بل أهلكها بالكلية، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ فهلاك الدواب بآجالها، وهلاك الناس عقوبة.

وأخرج البيهقي وغيره عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: لا والله، بل إن الحبارى في وكرها لتموت من ظلم الظالم.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم.. لأصاب العذاب جميع الخلائق، حتى الجُعْلان في جحرها، ولأمسكت السماء عن الإمطار، ولكن أخرهم بالعفو والفضل، ثم تلا هذه الآية.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة الكفرة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى أجل معين معلوم، سماه الله وعينه لعذابهم أو لأعمارهم؛ كي يكثر عذابهم، أو يتوالدوا ويتناسلوا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل؛ أي: لا يستأخرون، وصيغة استفعل هنا للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: أقصر وقت، وهو مثل في القلة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه ساعة؛ أي: لا يتقدمون عليه، وإنما[1] تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجيء الأجل مبالغة في عدم الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع.

والمعنى: فإذا جاء الوقت الذي وقت لهلاكهم.. لا يتأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون، ولا يتقدمون قبله، حتى يستوفوا أعمارهم، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ سبحانه

---

(١) روح البيان.

وتعالى؛ أي: يجعل هؤلاء المشركون لله تعالى وينسبون إليه سبحانه ﴿مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿تصف﴾؛ أي: تقول ﴿أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ مفعول تصف، وهو أي ذلك الكذب: ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ عند الله تعالى ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ أي: العاقبة الحسنى، وهي الجنة على تقدير وجودها إن كان البعث حقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، فلا ينافي قولهم: لا يبعث الله من يموت، فإنه يكفي في صحته الفرض والتقدير، وجملة أنَّ مع معموليها بدل كل من ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾.

والمعنى: ويكذبون[1] فيما يدعون، إذ يزعمون أن لهم العاقبة الحسنى عند الله، وهي الجنة على تقدير وجودها، فقد روي أنهم قالوا إن كان محمدٌ صادقاً في البعث.. فلنا الجنة بما نحن عليه، فرد الله عليهم مقالهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حق وثبت ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: كون عذاب النار لهم بدل ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى، ﴿و﴾ لا جرم ﴿أنهم مفرطون﴾؛ أي: مقدمون إلى النار معجلون إليها، أو متروكون منسيون فيها. وقرأ[2] الحسن ومجاهد: ﴿باختلاف ألسنْتهم﴾ بإسكان التاء، وهي لغة تميم، جمع لساناً المذكر، نحو حمار وأحمرة، وفي التأنيث ألسن كذراع وأذرع، وقرأ معاذ بن جبل وبعض أهل الشام: ﴿الكذب﴾ بضم الكاف والذال والباء صفة للألسن، جمع كذوب كصبور وصبر، وهو مقيس، أو جمع كاذب كشارفٍ وشرفٍ، ولا ينقاس وعلى هذه القراءة ﴿أنَّ لهم﴾ مفعول تصف، وقر الحسن وعيسى بن عمر: ﴿إنَّ لهم﴾ بكسر الهمزة، وإنَّ جواب قسم أغنت عنه لا جرم، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو رجاء وشيبة ونافع وأكثر أهل المدينة: ﴿مُفْرِطُون﴾ بكسر الراء، من أفرط حقيقةً؛ أي: متجاوزين الحد في معاصي الله، وباقي السبعة والحسن والأعرج وأصحاب ابن عباس ونافع في رواية: بفتح الراء، من أفرطته إلى كذا قدمته، معدى بالهمزة، من فرط إلى كذا تقدم إليه، وقرأ أبو جعفر: ﴿مفرِّطون﴾ مشدد من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فرط؛ أي:. مقصرون مضيعون، وعنه أيضاً فتح الراء وشدها؛ أي: مقدمون من فرطته المعدى بالتضعيف من فرط بمعنى تقدم.

ثم بين[1] سبحانه أنَّ هذا الصنيع الذي صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم السالفة في حق أنبيائهم، فقال مسلّياً رسوله على ما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: والله لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، وخلع الأنداد والأوثان ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: فحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، من الكفر بالله والتكذيب بالرسل وعبادة الأوثان، فكذبوا رسلهم، وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم، وما كان ناصرهم فيما اختاروا إلا الشيطان، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: ناصرهم وقرينهم ومتولي أمورهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدنيا بإغوائهم وإضلالهم، وبئس الناصر والقرين، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هو عذاب النار حين ورودهم إلى ربهم، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان، كما لا تنفعهم في الدنيا، وعبارة «الشوكاني» هنا: ويحتمل[2] أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الولي بمعنى الناصر، والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصراً فيه.. لزم أن لا نصرة من غيره، ويحتمل يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين:

الأول: أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية.

والثاني: أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول الآية، والمراد تزيين

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

الشيطان لكفار قريش، فيكون الضمير في ﴿وليهم﴾ لكفار قريش؛ أي فهو ولي هؤلاء اليوم، أو على حذف.

الإعراب

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿هَاجَرُوا﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿هَاجَرُوا﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿فِي اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿هَاجَرُوا﴾ وحرف الجر ﴿فِي﴾ للتعليل؛ أي: لإقامة دين الله ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلقان بحال ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿ظُلِمُوا﴾: فعل وفاعل و﴿مَا﴾ المصدرية مؤولة مع مدخولها بمصدر مضاف إلى بعد؛ أي: من بعد ظلمهم بالأذى من أهل مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿نبوئنهم﴾: فعل ومفعول به، وجملة ﴿نبوئنهم﴾ خبر اسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلقان بحال ﴿حَسَنَةً﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ثبوته حسنة، فهي نائب مفعول مطلق، ولك أن تقربها مفعولاً ثانياً لـ﴿نبوئنهم﴾ لتضمن معناه نعطينهم، فتكون صفة لمحذوف، أي: داراً حسنة ﴿وَلَأَجْرُ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، و﴿اللام﴾ للابتداء ﴿أجر﴾: مبتدأ ﴿الْآخِرَةِ﴾: مضاف إليه ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر ﴿لَوْ﴾ شرطية ﴿كَانُوا﴾ ماض ناقص، والواو اسمها وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: لوافقوهم في الدين، وجملة ﴿لَوْ﴾ مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿صَبَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوف على ﴿صَبَرُوا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿رِجَالٗا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿نُّوحِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾: متعلق به، وجملة ﴿نُّوحِيٓ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٗا﴾. ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر، تقديره: إن شككتم فيما ذكر.. فاسألوا أهل الذكر، ﴿اسألوا أهل الذكر﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط، وجملة الشرط المقدر مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن كنتم لا تعلمون ذلك فإنهم يعلمونه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿رِجَالٗا﴾ ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾: معطوف على البينات؛ أي: رجالاً متلبسين بالبينات الزبر، وهذا أحسن الأعاريب فيه، السالم من الاعتراض كما ذكره الزمخشري، ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تبين﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتَبيينِكَ للناس، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾ ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿نُزِّلَ﴾، وجملة ﴿نُزِّلَ﴾ صلةٌ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ في محل جر بلام التعليل المقدرة، تقديره: ولإرادة تفكرهم فيه، لأن

لعلَّ مستعارة هنا لمعنى الإرادة، والجار المقدر معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ والتقدير: وأنزلنا إليك الذكر لتبيينك لهم ولإرادة تفكرهم فيه.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا في الذكر فأَمِنَ الذين مكروا السيئات إلخ، ﴿أمن الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿بِهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً به لأمن؛ أي: أفأمنوا خسف الله تعالى بهم الأرض، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾ والتقدير: أو إتيان العذاب إياهم. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ ﴿حَيْثُ﴾ مضاف وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لحيث.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير المفعول؛ أي: أو يأخذهم حال كونهم متقلبين في أسفارهم ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر، تقديره: فإذا أخذهم بالعقوبة بأي سبب ﴿ما﴾: حجازية، ﴿هُم﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها، والجملة الاسمية جواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير المفعول، تقديره: حالة كونهم خائفين، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية لمحذوف تقديره:

إنما لم يعاجلكم الله بهذه العقوبات لأن ربكم إلخ، ﴿إن ربكم لرؤوف﴾: ناصب واسمه وخبره و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿رَّحِيمٌ﴾: صفة ﴿رؤوف﴾، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ذلك المحذوف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لم يروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق به، ضمنه معنى نظر فعداه بـ ﴿إِلَىٰ﴾ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلى ما خلقه الله، ﴿مِن شَىْءٍ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَا﴾ أو من الضمير المحذوف، ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: متعلق بـ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ ﴿سُجَّدًا﴾: حال من الظلال، ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿سُجَّدًا﴾ ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿سُجَّدًا﴾، فهي حال متداخلة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لله﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَسْجُدُ﴾ ﴿يَسْجُدُ مَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: حال من ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطف خاص على عام، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿الملائكة﴾. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مِّن

﴿فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَخَافُونَ﴾، ﴿يُؤْمَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يؤمرون به.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾: إلى آخر الآيات مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، واتخذ هنا يتعدى إلى مفعول واحد، لأنه بمعنى لا تعبدوا، ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾: صفة مؤكدة لـ ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ إِلَٰهٞ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَٰحِدٞ﴾: صفة ﴿إِلَٰهٞ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون، ﴿إياي﴾: ضمير نصب منفصل في محل النصب بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: فإياي ارهبوا، والجملة المحذوفة جواب الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿النون﴾: نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿وَاصِبًاۚ﴾: حال من ﴿ٱلدِّينُ﴾ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف،

والتقدير: أبعد العلم بما ذكر من التوحيد غير الله تطيعون فتتقون، ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، وتلك المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿بِكُم﴾: جار ومجرور صلة ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: وما وصل بكم، ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ أو من الضمير المُسْتَكِنِ في الظرف، ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في الخبر لشبه المبتدأ بأسماء الشروط في العموم ﴿من الله﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلها، على كونها مقول ﴿قال﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَإِلَيْهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً، ﴿إليه﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ولكن ما بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية لا يعمل فيما قبلها، وفي «السمين»: وفي الآية دليل على أن إذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها، لأن ما بعد إذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها اهـ. ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة الجواب بالشرط وجوباً، ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنكُم﴾: صفته، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها مقول

﴿قال﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يكفروا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدرمجرور باللام، تقديره: لكفرانهم بما أعطيناهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: إياه، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إذا المقدرة، تقديره: إذا عرفت يا محمد حالهم هذا وأردت بيان ما تقول لهم.. فأقول لك قل لهم تمتعوا إلخ ﴿تمتعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف استقبال وتنفيس، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: عاقبة ما تصيرون إليه، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تمتعوا﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وفي «أبي السعود»: لعلها معطوفة على ما سبق بحسب المعنى: يفعلون ما يفعلون من اللجوء إلى الله تعالى عند مس الضر، ومن الإشراك به عندك كشفه ويجعلون إلخ اهـ، ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يجعلون﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: للأصنام التي لا تعلم عبادتهم إياها، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ﴿يجعلون﴾، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور، صفة لـ ﴿نَصِيبًا﴾، ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالله، وجملة القسم المحذوف مستأنفة، ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع

وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، أصله: لتسألونن، و﴿واو﴾ الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تسألن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لسأل، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عما كنتم تفترونه، ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يجعلون﴾ الأول، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾ مفعول ﴿يجعلون﴾، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبِّحُ الله سبحاناً، وجملة التسبيح جملة معترضة، ﴿وَلَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشتهونه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يجعلون﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿بُشِّرَ﴾، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿وَجْهُهُۥ﴾، وجملة ﴿ظَلَّ﴾ جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من ضمير ﴿وَجْهُهُۥ﴾، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿مِن سُوٓءِ﴾ فلا يعترض بامتناع تعلق حرفي جر متحدي اللفظ بعامل واحد لاختلاف معناهما، فإن الأولى

للابتداء، والثانية للعلة؛ أي: من أجل سوء ما بشر به اهـ «سمين»، ﴿سُوٓءِ﴾: مضاف، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه، ﴿بُشِّرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ ﴿الهمزة﴾: حرف استفهام يطلب بها وبأم تعيين أحد الأمرين، ﴿يمسكه﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: جار ومجرور، إما حال من فاعل ﴿يمسكه﴾؛ أي: حالة كون الأحد متلبساً بهون نفسه وذلها، أو حال من المفعول؛ أي: حالة كون الأنثى متلبسة بهون وذل، وجملة ﴿يمسكه﴾ في محل النصب معمول لمحذوف حال من فاعل ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾، والتقدير: يتوارى ذلك الأحد من الناس حالة كونه مفكراً، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة، ﴿يَدُسُّهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أحد﴾. ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف تنبيه، ﴿سَآءَ﴾. فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على شيء تقديره: ساء الشيء، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صفة لـ ﴿مَا﴾، والرابط محذوف تقديره: ساء الشيء شيئاً يحكمونه، وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: حكمهم هذا، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿ٱلْمَثَلُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: صفة أو خبر ثان.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِظُلْمِهِم﴾: متعلق به، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿مَّا﴾:

نافية، ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَلَيۡهَا﴾: متعلق به، ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾: مفعول به لـ ﴿تَرَكَ﴾ و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ حرف استدراك، ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾: متعلق به، ﴿مُّسَمّٗى﴾: صفة ﴿أَجَلٖ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه يؤخرهم إل أجل مسمى وأردت بيان حالهم وقت مجيء الأجل.. فأقول لك إذا جاء أجلهم، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿سَاعَةٗ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، وجملة ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿يَكۡرَهُونَۚ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يكرهونه، ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يجعلون﴾، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُمُ﴾: خبرها مقدم، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من المفعول أعني ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾؛ أي: وتصف ألسنتهم الكذب كون الحسنى لهم، أو مرفوع على كونه خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: وهو كون الحسنى لهم، ﴿لَا جَرَمَ﴾: مركب مزجي بمعنى حق كما في

«الفتوحات»، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُمُ﴾: خبرها مقدم، ﴿ٱلنَّارَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لـ ﴿جَرَمَ﴾، والتقدير: حق كون النار لهم، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة، ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة لقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾، ﴿فَزَيَّنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿زين﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة مفرَّعة على جملة ﴿زيّن﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿وَلِيُّهُمُ﴾، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾: خبر ومبتدأ، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم العلل، ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي، ﴿تبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِى﴾: مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: وما أنزلنا عليك الكتاب لعلة من العلل إلا لتبيينك لهم الذي اختلفوا فيه، ﴿ٱخْتَلَفُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على محل ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: تنازع فيه ﴿هدى ورحمة﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: لننزلنهم[1] في الدنيا مباءة حسنة، وهي المدينة المنورة، يقال بوأه منزلاً أنزله فيه، والمباءة المنزل، فهي منصوبة على الظرفية، أو على أنها مفعول ثان إن كان لنبوأنهم في معنى لنعطينهم، ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؛ أي: علماء أهل الكتاب ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ البينات جمع بينة، وهي المعجزات الدالة على صدق الرسول، والزبر جمع زبور بمعنى مزبور؛ أي: مكتوب، كرسل جمع رسول، وهي كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن سمي به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لتوضح لهم ما خفي عليهم من أسرار التشريع بياناً شافياً، وصيغة التفعيل في الفعلين يدل على تكرار البيان والنزول كما هو كذلك، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والتفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ والمكر السعي بالفساد خفية، والسيئات جمع سيئة، وهي الأعمال التي تسوؤهم عاقبتها، ﴿يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾؛ أي: يغورها ويزيلها من الوجود وهم على سطحها، يقال: خسف[2] المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً؛ أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، وخسف هو في الأرض وخسف به، ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في أسفارهم وسيرهم في البلاد البعيدة، للسعي في أرزاقهم، كما قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾ وفي «القاموس»: تقلب في الأمور تصرف كيف شاء انتهى، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار، ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ والتخوف التنقص، من قولهم: تخوفت الشيء إذا تنقصته، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلاً حتى يأتي عليها الفناء جميعاً، قال في «القاموس» تخوف الشيء تنقصه، ومنه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

﴿تَخَوُّفٍ﴾ انتهى، وقال لبيد:

تَــخَــوَّفَــهَــا نُــزُوْلِــيْ وَٱرْتِــحَــالِــيْ

أي: تَنَقَّص لحمَها وشحمَها.

ولقي رجل أعرابياً فقال: يا فلان ما فعل دَينك؟ فقال: تخوفته، يعني تنقصته.

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾؛ أي: ينتقل من جانب إلى آخر، وفي «السمين»: والتَّفيُّؤ[1] تفعل من فاء يفيء إذا رجع، وفاء قاصر فإذا أريد تعديته عدي بالهمزة، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ، وتفيأ مطاوع فيَّأ، فهو لازمٌ، واختلف في الفيء، فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده، وهو الموافق لمعنى الآية هنا، وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظلٌّ فقط، وما كان بعده فهو ظل وفيء، فالظل أعم، وقيل بل يختص الظل بما كان قبل الزوال، والفيء بما بعده، فالفيء لا يكون إلا بالعشي، وهو ما انصرفت عنه الشمس، والظل ما يكون بالغداة، وهو ما لم تنله اهـ.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ واليمين والشمائل جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها، والشمائل جمع شمال بالكسر ضد اليمين، وبالفتح الريح التي مهبها بين مطلع الشمس وبنات نعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، كما في «القاموس».

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع، وفي «المختار»: سجد إذا خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض، وبابه دخل اهـ، والمراد بالسجود هنا الانقياد والخضوع، من قولهم: سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل، ومنه قوله:

وَٱسْجُدْ لِقِرْدِ ٱلسُّوْءِ فِيْ زَمَانِهِ

---

(١) الفتوحات.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: صاغرون منقادون، واحدهم داخرٌ، وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء أو أبى، يقال دخر كمنع وفرح دخوراً ودخراً إذا صغر وذل وأدخره كما في «القاموس». ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: عقابه ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾؛ أي: بالقهر والغلبة، كما قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾؛ أي: ثابتاً واجباً دائماً لا يزول، والدين هو الطاعة والإخلاص وقال الفراء: ﴿وَاصِبًا﴾ معناه دائماً، ومنه قول الدُّؤلي:

لاَ أَبْتَغِيْ ٱلْحَمْدَ ٱلْقَلِيلَ بَقَاؤُهُ   بِذَمٍّ يَكُوْنُ ٱلدَّهْرَ أَجْمَعَ وَاصِبَا

يقال: وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب إذا دام، ووصب الرجل على الأمر إذا واظب عليه، وقيل الوصب التعب والإعياء، وفي «المصباح»: وصب الشيء بالفتح وصوباً دام، ووصب الدين وجب، وفي «القاموس»: ووصب بالفتح يصب بالكسر وصوباً دام وثبت كأوصب، وعلى الأمر.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط، وكل ما يتضرر به الإنسان، ﴿تَجْأَرُونَ﴾ من جار يجأر جؤاراً، وأصل الجؤار صياح الوحش، ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، وفي «الفتوحات»: الجؤار بوزن زكام رفع الصوت بالدعاء في كشف المضار، وفي «القاموس»: جأر - كمنع - جأراً وجؤاراً بوزن غراب، رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث، والبقرة والثور صاحا، والنبات جؤاراً طال، والأرض طال نبتها اهـ.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: صار من الظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها، أو هو بمعناه يقال ظل يفعل كذا إذافعله نهاراً؛ أي: دام النهار كله مسودًّا، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، ويتأخر إخبار المولود إلى النهار، وخصوصاً بالأنثى، فيظل نهاره مسودًّا، واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في «المصباح»: كظمت الغيظ كظماً - من باب ضرب - وكظوماً، إذا أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ، وفي التنزيل:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وربما قيل: كظمت على الغيظ، وكظمني الغيظ فأنا كظيم ومكظوم، وكظم البعير كظوماً لم يجتر، وقال الأخفش: الكظيم هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغم، مأخوذ من الكظامة، وهو سد فم البئر، قاله عليُّ بن عيسى.

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾؛ أي: يختفي ويتغيب، وقد كان من عادتهم في الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته، فإن أخبر بذكر.. ابتهج، وإن أخبر بأنثى.. حزن وبقي متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع، ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾؛ أي: يحفظه ويحبسه، كقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ﴿هُونٍ﴾ الهون الهوان والذل بلغة قريش، وحكي عن الكسائي: أنه البلاء والشدة، قالت الخنساء:

نُهِيْنُ ٱلنُّفُوْسَ وَهَوْنُ ٱلنُّفُوْسِ يَوْمَ ٱلْكَرِيهَةِ أَبْقَىٰ لَهَا

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يقال: دس الشيء في الشيء إذا أخفاه، ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الصفة السوىء، وهي احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للبنات، خوف الفقر والعار، والمثل بمعنى الصفة، والسوء بمعنى السؤى، بوزن موسى، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الصفة العليا، وهي أنه لا إله إلا هو، وأن له جميع صفات الجلال والكمال، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ فاعل هنا بمعنى فعل الثلاثي؛ أي: أخذ، ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: لا يتأخرون، وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: أقصر وقت، وهي مثل في قلة المدة كما مر، ﴿لَا جَرَمَ﴾: تركيب مزجي من ﴿لا﴾ و﴿جَرَم﴾، ومعناه الفعل؛ أي: حق وثبت، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: مقدمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطته إذا قدمته في طلب الماء، أو متروكون في النار، من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته خلفك، والفارط هو الذي يتقدم إلى الماء، والفُرَّاط المتقدمون في طلب الماء، والوُرَّاد المتأخرون، ومنه ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»؛ أي: متقدِّمكم، قال القطاميُّ:

فَٱسْتَعْجَلُوْنَا وَكَانُوْا مِنْ صَحَابَتِنَا كَمَا تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ

وفي «المختار»: وفرط القوم سبقهم إلى الماء، فهو فارط، والجمع فراط بوزن كُتَّان، وبابه نصر، وأفرطه إذا تركه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: متروكون في النار منسيون، وأفرط في الأمر؛ أي: جاوز فيه الحدَّ. اهـ، وفي «القاموس»: وأفرط فلاناً تركه وتقدمه، وجاوز الحد، وأعجل بالأمر، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: منسيون متروكون في النار، أو مقدّمون معجلون إليها، وقرىء بكسر الراء؛ أي: مجاوزون لما حد لهم اهـ. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: ناصرهم ومساعدهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ وفي «الفتوحات»: لفظ اليوم المعرف بأل إنما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم، كالآن وحينئذٍ، فلفظ اليوم في الآية يحتمل أنه إشارةٌ إلى وقت تزيين الشيطان الأعمال للأمم الماضية، فيحتاج لتأويل، بأن يقال: إنه على حكاية الحال الماضية، حيث عبر عن الزمان الماضي بلفظ اليوم الموضوع للزمن الحاضر، ويحتمل أنه إشارةٌ إلى يوم القيامة، فيحتاج إلى التأويل أيضاً، بأن يقال: إنه على حكاية الحال الآتية حيث عبر عن الزمان الذي سيحصل بما هو موضوع للحاضر المقارن، ويحتمل أن يشار إلى مدة الدنيا من حيث هي، وعلى هذا لا حاجة إلى تأويل أصلاً، لأنّ مدة الدنيا كالوقت الحاضر، بالنسبة للآخرة، فتلخص أن الاحتمالات ثلاثة، وأنه يحتاج إلى التأويل على الأول والثاني دون الثالث، وفي «أبي السعود»: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾؛ أي: قرينهم اليوم؛ أي: يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه، على طريقة حكاية الحال الماضية، أو في الدنيا، أو يوم القيامة على طريقة حكاية الحال الآتية، وهي حال كونهم معذّبين في النار اهـ. ومثله في «البيضاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير عن الماضي بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لاستحضار صورة توكلهم البديعة، وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن فعولاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾.

ومنها: قصر القلب أو الإفراد في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾؛ أي: له تعالى وحده لا لغيره استقلالاً واشتراكاً.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ زيادة في التعظيم والتبجيل للملائكة الأطهار.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر؛ أي: لا تخافوا غيري، لأنه أبلغ في الرغبة من قوله: فإيّاه فارهبوه، فإن الترهيب في التكلم المنتقل إليه أزيد، ثم التفت من التكلم إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ كما في «الكرخي».

ومنها: إيراد الصيغة الخاصة بالعقلاء في غيرهم في قوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لأن الدخور من خصائصهم تنزيلاً له منزلتهم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فلفظة سبحانه معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح.

ومنها: التهديد والوعيد في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ لأنه كناية عن كونها كاذبة، قال الشهاب: وهذا من بليغ الكلام وبديعه؛ أي: ألسنتهم كاذبة كقولهم: عينها تصف السحر؛ أي: ساحرة، وقدها يصف الهيف؛ أي: هيفاء.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ فإن لفظ اثنين تأكيد لما فهم من

إلهين من التثنية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن لعل هنا مستعارٌ لمعنى الإرادة.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وفي قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾.

ومنها: الطباق بين النعمة والضر في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾.

ومنها: التأكيد بالقسم في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ لأن اسوداد الوجه كناية عن شدة الاغتمام.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، لأن معناه الصفة السؤى.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إن أريد باليوم زمن تزيين الأعمال للأمم الماضية، حيث عبر عن الزمن الماضي بلفظ اليوم الموضوع للزمن الحاضر، ويمكن كونه من حكاية الحال الآتية كما مَرَّ في مبحث التصريف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ
لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن
ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا
هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي
هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ
السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم
مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وعد[1] المؤمنين بجنات تجري من تحتها

---

(١) المراغي.

الأنهار، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراك بربهم، ونسبة البنات إليه، وافترائهم عليه ما لم ينزّل به سلطاناً.. عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحى في الدين الإسلامي، وفي كل دين سماوي؛ ويليه إثبات النبوّات والبعث والجزاء، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام، وثلث باتخاذ الخمر لخلٍّ، والدبس من الأعناب والنخيل، وربع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس، وقد بين ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فجٍّ.

وقال ابن عطية: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أمره بتبيين[1] ما اختلف فيه.. قص العبر المؤدية إلى بيان أمر الربوبية، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وهي في غاية الظهور، ولا يختلف فيها عاقل انتهى.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[2] إنزال الكتاب للتبيين كان القرآن حياة الأرواح وشفاء لما في الصدور من علل العقائد، ولذلك ختم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون، والتصديق محله القلب، فكذا إنزال المطر الذي هو حياة الأجسام وسببٌ لبقائها، ثم أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل، وكذلك ختم بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هذا التشبيه المشار إليه والمعنى سماع إنصاف وتدبر، ولملاحظة هذا المعنى والله أعلم لم يختم بقوم يبصرون وإن كان إنزال المطر مما يبصر ويشاهد.

ولمَّا ذكر إحياء الأرض بعد موتها.. ذكر ما ينشأ عن المطر، وهو حياة الأنعام التي هي مألوف العرب بما يتناوله من النبات الناشىء عن المطر، ونبَّه على العبرة العظيمة، وهو خروج البن من بين فرث ودم.

---

(١) ابن عطية.

(٢) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمةٍ للإنسان، كالأنعام التي يتخذ من ضرعها اللبن، والنحل التي يشتار منها العسل، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة.. أردف ذلك بيان أحوال الناس، فذكر مراتب أعمارهم، وأن منهم من يموت وهو صغير، ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر، ويصير نسَّاء لا يحفظ شيئاً، وفي ذلك دليل على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم، وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق، فقد يرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفني عمره في طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له، بينا يرى أقل الناس علماً وفهماً تتفتح له أبواب السماء، ويأتيه الرزق من كل صوب، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

ومِن الدَّليلِ على القَضاءِ وكَوْنِه   بُؤسُ اللَّبِيب وطِيبُ عَيْشِ الأحْمِق

ثم ثلث بذكر نعمةٍ ثالثةٍ عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم، وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة، ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات، كالثمار والحبوب والأشربة، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها، وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر تعالى تلك الآيات التي في الأنعام والثمرات والنحل.. ذكر ما نبَّهنا به على قدرته التّامة وعلمه الواسع ولذلك ختم بقوله: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا[2] بين دلائل التوحيد البيان الشافي فيما سلف.. أردف ذلك الرد على عابدي

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الأوثان والأصنام، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها:

أوَّلهما: العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والحر الكريم الغني الكثير الإنفاق سراً وجهراً، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان في نظر العقل سواء مع تساويهما في الخلق والصورة البشرية، وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغي أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على النفع والضر.

والثاني: مثل رجلين أحدهما: أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبءٌ ثقيلٌ على سيده، وثانيهما: حول قلب ناطق كامل القدرة، أيستويان لدى أرباب الفكر أو استوائهما في البشرية، وإذاً فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين في الألوهية والعبادة.

وقال أبو حيان: مناسبة ضرب هذا المثل[١]: أنه لما بين تعالى ضلالهم في إشراكهم بالله تعالى غيره، وهو لا يجلب نفعاً ولا ضراً لنفسه ولا لعابده.. ضرب لهم مثلاً قصة عبدٍ في ملك غيره عاجز عن التصرف، وحر غني متصرف فيما آتاه الله، فإذا كان هذان لا يستويان عندكم، مع كونهما من جنس واحد ومشتركين في الإنسانية، فكيف تشركون بالله وتسوون به من هو مخلوق له مقهور بقدرته من آدمي وغيره، مع تباين الأوصاف، وأن موجد الوجود لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه، ولا يمكن لعاقل أن يشبِّه به غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[٢] سبحانه وتعالى لمَّا مثل نفسه عز وجل بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، ومستحيل أن يكون كذلك إلاّ إذا كان كامل العلم والقدرة.. أردف ذلك بما يدل على كمال علمه، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له، وبما يدل على كمال قدرته، فذكر أن قيام الساعة في السرعة كلمح البصر أو أقرب، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده، وأنه الفاعل المختار، فذكر منها خلق الإنسان في أطواره المختلفة، ثم الطير المسخّر بين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

السماء والأرض، وكيف جعله يطير بجناحين في جو السماء، ما يمسكه إلاّ هو بكامل قدرته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . . .﴾ الآية، أخرج[١] ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ قال: نزلت في عثمان ومولى له، كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[٢]: أنَّ كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ متى الساعة، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل، وقال ابن السائب: المراد بالغيب ها هنا قيام الساعة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿مَآءً﴾ أي نوعاً خاصاً من الماء، وهو المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾؛ أي: بسبب المطر ﴿الأرْضَ﴾ بأنوع النباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ويبسها؛ أي: بعد أن كانت يابسة لا حياة بها، وما تفيده[٣] الفاء من التعقيب العادي لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهملة، لأن التعقيب في كل شيء بحسبه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿لَءَايَةً﴾؛ أي: لعلامة دالة على وحدانيته تعالى، وعلمه وقدرته وحكمته، إذ الأصنام وغيرها لا تقدر على شيء ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر وإنصاف، فكأن من ليس كذلك أصم لا يسمع، فالمراد سمع القلوب

---

(١) لباب النقول.

(٢) زاد المسير.

(٣) روح البيان.

لا سمع الآذان.

وقال بعضهم: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: قرآناً وهو سبب حياة المؤمنين فأحيا به القلوب الميتة بالجهل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ القرآن بسمع يسمع به كلام الله من الله، فإن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبداً، ولا يسمع كلامه إلا من أكرمه الله بسمع يسمع كلامه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

وعلامة[1] السامعين لكلام الله تعالى المتحقِّقين في سماعهم انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله تعالى من جهة سماعه؛ أعني من التكليف المتوجه على الأذن من أمر أو نهي كسماعه للعلم، والذكر والثناء على الحق تعالى، والموعظة الحسنة والقول الحسن، ومن علامتهم أيضاً التصامم عن سماع الغيبة والبهتان، والسوء من القول، والخوض في آيات الله، والرفث والجدال، وسماع القينات والملاهي، وكل محرم حجر الشارع عليك سماعه، نسأل الله تعالى أن يحفظنا في أسماعنا وأبصارنا وجوارحنا من كل ما يبعدنا عن الله تعالى.

والحاصل[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى نبَّه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه، فبين أن ذلك المعبود هو الذي أنزل من السماء مطراً، فأنبت به أنواعاً مختلفة من النبات في أرض ميتة يابسة، لا زرع فيها ولا عشب، إن في ذلك الإحياء بعد الموت لدليلاً واضحاً وحجةً قاطعة على وحدانيته تعالى، وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع، إذ لا عبرة بسماع الآذان، فهو بسماع الحيوان أشبه.

وبعد ذكر نزول الماء من السماء.. ذكر خروج اللبن من الضرع، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾، أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم بالتحريك، وهي الأنواع الأربعة التي هي الإبل والبقر والضأن والمعز، ﴿لَعِبْرَةً﴾؛

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: لعظةً عظيمة دالة على باهر قدرتنا، إذا تفكرتم فيها، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، وجملة قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تلك العبرة؛ أي: وتلك العبرة أنَّنا نسقيكم ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾؛ أي: من بعض ما في بطون المذكور من الأنعام، فمن للتبعيض، لأن اللبن بعض ما في بطونه، والضمير يعود إلى المذكور؛ أي: في بطون ما ذكرنا من الأنعام، وفي سورة المؤمنين رجع إلى لفظ الأنعام، وهنا إلى المذكور، وقال المبرد[1]: هذا فاشٍ في القرآن كثيرٌ مثل قوله للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ يعني هذا الشيء الطالع، وكقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾، وقال ابن العربي: يجوز التذكير في الأنعام باعتبار معنى الجمع، والتأنيث باعتبار معنى الجماعة، فذكر الضمير هنا نظراً إلى معنى الجمع، وأنثه في سورة المؤمنون نظراً إلى معنى الجماعة، وقيل غير ذلك.

وقرأ ابن مسعود[2] بخلاف عنه، والحسن وزيد بن علي وابن عامر وأبو بكر ونافع وأهل المدينة: ﴿نَسْقِيكم﴾ هنا وفي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ بفتح النون، مضارع سقى يسقي، وهي لغة قريش، وباقي السبعة بضمها، من أسقى يسقي وهي لغة حمير، وجميع القراء على هاتين القراءتين، وقرأ أبو جعفر: ﴿يُسْقِيكم﴾ بلياء مضمومة، والضمير عائد على الله، وقرأت فرقة بالتاء مفتوحة، منهم أبو جعفر، على أن الضمير راجع إلى الأنعام، وهاتان القراءتان ضعيفتان، وقال الزجاج[3]: سقيته وأسقيته بمعنى واحد، وفي «الأسئلة المقحمة»: يقال أسقيته إذا جعلت له سقياً دائماً، وسقيته إذا أعطيته شربةً، وقيل: إذا كان الشراب من يد الساقي إلى فم المسقي.. يقال سقيته، وإذا كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له.. قيل: أسقاه، وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ ﴿مِنۢ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿نُسقيكم﴾ لأن بين الفرث والدم مبدأ الإسقاء، والفرث وكذا الثفل بضم الثاء المثلثة وسكون الفاء فضالة العلف وروثه في الكرش، والكرش ـ وزان كبد ـ للحيوان بمنزلة

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

المعدة للإنسان، وقوله: ﴿لَبَنًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿نُسْقِيكم﴾؛ أي: نسقيكم من بين فرثها ودمها لبناً، ﴿خَالِصًا﴾؛ أي: صافياً ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث ﴿سَآئِغًا لِلشَّـٰرِبِينَ﴾؛أي: سهل المرور في حلوق الشاربين له، حالة كونه بعض ما في بطون الأنعام، وقرأت فرقة ﴿سَيِّغاً﴾ بوزن هين، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سَيْغاً﴾ مخففاً من سيغ كهين المخفف من هين، ذكره في «البحر»، قيل: لم يُغَص أحدٌ باللبن قط وليس في الطعام والشراب أنفع منه، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «إذا أكل أحدكم طعاماً. . . فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا شرب لبناً. . فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإني لا أعلم شيئاً أنفع في الطعام والشراب منه».

قال في «الكواشي»[1]: المعنى خلق الله اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم، وذلك أن الكرش إذا طبخت العلف. . صار أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً خالصاً لا يشوبه شيء، وأعلاه دماً، وبينه وبينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى، لا يختلط أحدهما بالآخر بلون ولا طعم ولا رائحة، مع شدة الإتصال، ثم تسلط الكبد على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها: فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث في الكرش، ثم ينحدر.

فإن قلت[2]: إن الدم واللبن لا يتولدان في الكرش، إذ البهائم إذا ذبحت لم يوجد في كرشها لبنٌ ولا دم.

قلتُ: المراد كان أسفله مادة الفرث، وأوسطه مادة اللبن، وأعلاه مادة الدم، فالمنحدر إلى الضروع مادة اللبن لا مادة الدم، وقول بعضهم: إن الدم ينحدر إلى الضروع فيصير لبناً ببرودة الضرع، بدليل أن الضرع إذا كانت فيه آفة. . يخرج منه الدم مكان اللبن، مدفوعٌ بأنه يجوز أن يتلون اللبن بلون الدم بسبب الآفة، وهو اللائح بالبال، ومن بلاغات الزمخشري:

كما يحدث بين الخبيثين ابنٌ لا يؤبن   الفرث والدم يخرج منهما اللبن

---

(١) روح البيان.   (٢) روح البيان.

أي: كما أن اللبن الطيب الطاهر يخرج من بين الخبيثين اللذين هما الفرث والدم، بحيث لا يشوبه شيء من أوصافهما مع كمال الاتصال والاكتناف، كذلك يخرج الابن الطيب الطاهر الذي لا يعاب بشيء أصلاً من بين الأبوين الخبيثين، بحيث لا يوجد فيه شيء من أوصافهما الخبيثة، وسئل شقيق عن الإخلاص؟ فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم.

ومعنى الآية[1]: أي وإن لكم أيها الناس لعظةً في الأنعام دالة على باهر قدرتنا، وبديع صنعنا، وواسع فضلنا ورحمتنا بعبادنا، فإننا نسقيكم مما في بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة، السهل التناول اللذيذ الطعم، وهو متولد من بين فرث ودم.

فإنَّ الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات ولحوم ونحوهما، حتى إذا هضم المأكول.. تحول بإذنه تعالى عصارةً نافعةً للجسم، وفضلات تطرد إلى الخارج، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذي يسري في عروق الجسم لحفظ الحياة، وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التي في الضرع، فتحولها إلى لبن، وهكذا في الجسم غدداً أخرى كالغدد الأنفية للمخاط، والغدد المنوية التي تحول الدم إلى مادة التلقيح، والغدد العينية للدمع، والغدد الفموية للبصاق.

وبعد أن ذكر سبحانه اللبن، وبين أنه جعله شراباً سائغاً للناس، ثلث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ما قبله، ونسقيكم أيها الناس من ثمرات النخيل والأعناب؛ أي: من عصيرهما، ونطعمكم من ثمارهما، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان ذلك الإسقاء والإطعام، والتقدير: أي وذلك الإسقاء والإطعام أنكم تتخذون منه؛ أي: مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب، أو من عصيرهما سكراً؛ أي: خمراً وتكرير ﴿منه﴾ تأكيد للظرف الأول، وتذكير الضمير نظراً إلى كونه بمعنى المذكور، أو لكونه راجعاً إلى المضاف المحذوف، كما قدرناه، وقال في «القاموس»: السكر محركة الخمر،

---

(١) المراغي.

ونبيذ يتخذ من الخمر اهـ. فإن قلت[1]: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الإنعام والامتنان؟

قلت: قال العلماء في الجواب عن هذا: إنَّ هذه السورة مكية وتحريم الخمر إنما نزل في سورة المائدة وهي مدنية، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة، وهذا الجواب أولى ما قيل في هذا المقام.

أي: وذلك الإسقاء والإطعام أنكم تتخذون وتجعلون مما ذكر سكراً وخمراً، ﴿و﴾ تتخذون من ثمارها ﴿رزقاً حسناً﴾؛ أي: طيباً كالتمر والزبيب والدبس والخل.

قال بعضهم[2]: انظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السكر والرزق الحسن، لما كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة الناس.. أخبر عن نفسه بقوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، ولما كان السكر والرزق الحسن.. يحتاج إلى معالجة من الناس قال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، فأخبر عنهم باتخاذهم منه السكر والرزق، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإسقاء والإطعام ﴿لَأٓيَةٗ﴾ باهرة على قدرته تعالى ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل، فيعلمون أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى، ولما كان مفتتح الكلام: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾.. ناسب الختم بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ذكره في «البحر».

ولمَّا ذكر[3] الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته، من إخراج اللبن من بين فرث ودم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب.. ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله الله تعالى شفاء للناس من دابة ضعيفة وهي النحلة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾؛ أي: إلى ذباب العسل وزنبوره؛ أي: ألهمها وقذف في قلبها

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.

وعلمها بوجه لا يعلمه إلا هو تعالى، نظير قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر، يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته، وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته.

وأصل الوحي الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، ويقال الكلمة الإلهية التي يلقيها الله تعالى إلى أنبيائه وحيٌ، وإلى أوليائه إلهامٌ، وتسخير الطير لما خلق له وحي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ أي: أنه تعالى سخَّرها لما خلقها له، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال.. لكان فيما بينها خلل، ولما حصل المقصود، فألهمها الله سبحانه وتعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس، الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة.

وألهمها الله تعالى أيضاً أن تجعل عليها أميراً كبيراً نافذ الحكم فيها، وهي تطيعه وتمتثل أمره، ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة، ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها، كذا حكاها الجوهري، وألهمها[1] الله سبحانه وتعالى أيضاً أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكن غير أهلها من الدخول إليها، وألهمها الله تعالى أيضاً أنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها ولا تضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة.. دل ذلك على الإلهام الإلهي، فكان ذلك شبيهاً بالوحي، فلذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وقرأ ابن وثاب: ﴿النَّحل﴾

(١) الخازن.

بفتح الحاء ذكره في «البحر».

أي: وألهم[1] ربك النحل، وألقى في روعها وعلَّمها أعمالاً يتخيل منها أنها ذوات عقول، وقد تتبع علماء المواليد أحوالها، وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور:

١ ـ أنها تعيش جماعات كبيرة، قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية.

٢ ـ أن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو اليعسوب، وهي أكبرهم جثة، وأمرها نافذٌ فيهم، وعدد يتراوح بين أربع مئة نحلة وخمس مئة يسمى الذكور، وعدد آخر من خمسة عشر ألفاً إلى خمسين ألف نحلة، ويسمى الشغالات أو العاملات.

٣ ـ تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشةً تعاونية على أدق ما يكون نظاماً، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذي يخرج منه نحل الخلية كلها، فهي أم النحل، وعلى الذكور تلقيح الملكات، وليس لها عمل آخر، وعلى الشغالة خدمة الخلية، وخدمة الملكات، وخدمة الذكور، فتنطلق في المزارع طول النهار لجمع رحيق الأزهار، ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغاراً وكباراً، وتفرز الشمع الذي تبني به بيوتاً سداسية الشكل، تخزن في بعضها العسل، وفي بعض آخر منها تربي صغار النحل، ولا يمكن المهندس الحاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار، قال الجوهري: ألهمها الله تعالى أن تبني بيوتها على شكل سداس حتى لا يحصل فيه خللٌ ولا فرجةٌ ضائعة، كما عليها أن تنظف الخلية، وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها، وعليها أيضاً الدفاع عن الملكة وحراستها من الأعداء، كالنمل والزنابير وبعض الطيور.

---

(١) المراغي.

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾؛ أي: بأن اتخذي لنفسك، فأن مصدرية، وأتى[1] بصيغة التأنيث لأن النحل يذكر ويؤنث ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾؛ أي: أوكاراً ومساكن تأوي إليها، وتسمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان، لما في بيوته المسدسة المتساوية بلا بركارٍ ولا مسطر من الحذاقة وحسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة.

و﴿مِنَ﴾[2] للتبعيض، لأنها لا تبني في كل جبل، وكذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ لأنها لا تبني في كل شجر، وكذا في قوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ لأنها لا تبني في كل ما يعرشه الناس؛ أي: يرفعه من الأماكن لتعسل فيها، وهذا إذا كان لملاكٍ، وقال بعضهم: ومما يعرشون من كرم أو سقفٍ أو جدران أو غير ذلك، والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ بمعنى في، إذ لا معنى لكونها تبني من بناء الناس، بل الظاهر أنها تبني في بنائهم، ويكون المراد من بنائهم الكوار، ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل، فإن المشاهد أنها تبني لها بيتاً داخل الخلية من الشمع، ثم تمج فيه العسل شيئاً فشيئاً.

والمعنى: أي اجعلي لك بيوتاً في الجبال تأوين إليها، أو في الشجر، أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها، وقرأ السلمي وعبيد بن نضلة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: بضم الراء في ﴿يعرشون﴾، وباقي السبعة: بكسرها، وهما لغتان، يقال يعرش بالكسر، ويعرش بالضم، مثل يعكف ويعكف ذكره في «البحر».

ولما كان أهم شيء للحيوان بعد الراحة من هم المقيل الأكل ثنى به، ولما كان عاماً في كل ثمر.. ذكره بحرف التراخي، إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسره لها، فقال: ﴿ثُمَّ كُلِى﴾، وأشار إلى كثرة الرزق بقوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فيها للتكثير؛ أي: ثم كلي أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها حلوة أو حامضة أو مرة، أو غير ذلك، فهو عام مخصوص بالعادة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿فَاسْلُكِي﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: فإذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك.. فاسلكي؛ أي: فادخلي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في الجبال وفي خلال الشجر؛ أي: طرق ربك التي ألهمك وعرفك الرجوع فيها إلى مكانك من الخلية بعد بعدك عنها، حال كون السبل ﴿ذُلُلًا﴾؛ أي: مسهلة لك، وإن كانت وعرة في نفسها، جمع ذلول؛ أي: موطأة للسلوك مسهلة لك، وذلك أنها إذا أجدب عليها ما حولها.. سافرت إلى المواضع البعيدة في طلب النجعة، ثم ترجع إلى بيوتها من غير التباس وانحراف، وأشار باسم الرب إلى أنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها.. لما هدت إلى ذلك.

والمعنى[1]: أي فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلي فيها لطلب الثمار، ولا تعسر عليك، وإن توعرت، ولا تضلي عن العودة منها وإن بعدت.

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها، لأن النعمة لأجلهم، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾؛ أي: من بطون النحل بالقيء ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: عسلٌ لأنه مشروب، وذلك أن النحل تأكل الأجزاء اللطيفة الطلية الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة، ثم تقيء في بيوتها ادخاراً للشتاء، فينعقد عسلاً بإذن الله تعالى.

أي: يخرج من بطونها عسلٌ ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ من أبيض[2] وأخضر وأصفر وأسود، بسبب اختلاف سنِّ النحل، فالأبيض يلقيه شباب النحل، والأصفر كهولها، والأحمر شيبها، وقد يكون الاختلاف بسب اختلاف لون النور، قال حكيم يونان لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا وهي بيوتها، قالوا: وكيف النحل في خلاياها؟ قال: إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأقصته عن الخلية، لأنه يضيق المكان ويفني العسل، وإنما يعمل النشيط لا الكسل، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: مثل المؤمن النحلة تأكل طيِّبا وتصنع طيّباً، ووجه المشابهة

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بينهما حذق النحل وفطنته وقلة أذاه، ومنفعته وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، وطاعته لأميره، وأن للنحل آفات تقطه عن عمله، منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار، وكذلك المؤمن له آفاتٌ تغيره عن عمله، ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء السفه، ونار الجوى.

وجمهور المفسرين[1] على أنَّ العسل يخرج من أفواه النحل، وقيل: من أسفلها، وقيل: لا يدرى من أين يخرج منها، ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل ﴿شِفَآءٌ لِلنَّاسِۚ﴾؛ أي: شفاءٌ وعافيةٌ لهم من الأوجاع التي يعرف شفاؤها منه، يعني أنَّ العسل من جملة الأشفية المشهورة النافعة لأمراض الناس، وليس المراد أنه شفاء كل مرض، كما قال في «حياة الحيوان»: قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِۚ﴾ لا يقتضي العموم لكل علة، وفي كل إنسان، لأنه نكرةٌ في سياق الإثبات، بل المراد أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في حال دون حال.

وللعسل أسماء كثيرة[2]، منها الحافظ الأمين، لأنه يحفظ ما يودع فيه، فيحفظ الميت أبداً، واللحم ثلاثة أشهر، والفاكهة ستة أشهر، وكل ما أسرع إليه الفساد إذا وضع في العسل.. طالت مدة مقامه، وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إخراج الله سبحانه وتعالى من بطون النحل الشراب المختلف الألوان، الذي فيه شفاء للناس ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لحجةً ظاهرة دالة على القدرة الربانية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا؛ أي: لدلالةً واضحة على أن من سخّر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها، واتخاذها البيوت في الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس، هو الواحد القهار، الذي ليس

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

كمثله شيء، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك، ولا تصح الألوهية إلاّ له.

فصل

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري: أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «اسْقِه عسلاً» فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرىء كأنما نُشِط من عقال.

وعلل[١] هذا بعض الأطباء الماضين، قال: كان لدى هذا الرجل فَضُلاتٌ في المعدة، فلما سقاه عسلاً.. تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أنّ هذا يضره، وهو فائدة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع، وكلما سقاه حدث مثل هذا، حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، فاستمسك بطنه، وصلح مزاجه، رزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسلٍ، أوكيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكَيّ».

وروي عن[٢] عوف بن مالك أنه مرض فقال ائتوني بماء فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ ثم قال ائتوني بعسل، وقرأ الآية، ثم قال ائتوني بزيت من شجرة مباركة، فخلط الجميع ثم شربه فشفي، وكان بعضهم يكتحل بالعسل، ويتداوىٰ به من كل سقم، وإذا خلط العسل الذي لم يصبه ماء ولا نار ولا دخان بشيء من المسك واكتحل به.. نفع من نزول الماء في العين،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والتلطخ به يقتل القمل، والمطبوخ منه نافع للسموم، ولعقه علاجٌ لعضة الكلب، وفي العسل ثلاثة أشياء: الشفاء والحلاوة واللين.

كيف يتكون العسل؟ تمتص[1] الشغالة رحيق الأزهار فينزل ويجتمع في كيسٍ في بطنها، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل، ولله در أبي العلا إذ يقول:

وَٱلنَّحْلُ يَجْنِي ٱلْمُرَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا فَيَعُودُ شَهْداً فِيْ طَرِيْقِ رُضَابِهِ

ثم تعود النحلة إلى الخلية، فتفرز العسل من فمها في البيوت الشمعية، التي خصصت بتخزين العسل، وكلما امتلأ بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمع، وانتقل إلى بيت آخر.

شمع النحل: تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع، تخرجها من بين حلقات بطنها، ثم تمضغها بفيها حتى تلين ويسهل تشكيلها بحسب ما تريد، فتستعملها في بناء بيوتها السداسية الشكل.

فوائد النحل:

١ ـ نأخذ منها العسل الذي هو غذاءٌ لذيذ الطعم، يحوي مقداراً كبيراً من المواد المفيدة للجسم.

٢ ـ نأخذ منها الشمع الذي تصنع منه شموع الإضاءة.

٣ ـ تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً في زيادة الثمار وجودة نوعها.

وقال الزجاج: سميت نحلاً لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج منها، إذ النحلة العطية، وكفاها شرفاً قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وكلُّ ذباب في النار إلا ذباب العسل.

---

(١) المراغي.

قال في «عجائب المخلوقات»: يقال ليوم عيد الفطر يوم الرحمة، وفيه أوحى ربك إلى النحل صنعة العسل، قال في «حياة الحيوان»: يحرم أكل النحل، وإن كان العسل حلالاً، كالآدمية لبنها حلال ولحمها حرام، ويكره قتلها، وأما بيعها في الكوارة فصحيح إن يشاهد جميعها، وإلا فهو بيع غائب، فإن باعها وهي ظاهرة ففي «التتمة»: يصح؛ وفي «التهذيب» عكسه، وقال أبو حنيفة: لا يصح بيع النحل كالزنبور وسائر الحشرات، ويجوز بيع دود القزِّ من الذي يصنع به، وفي الحديث: «أول نعمة ترفع من الأرض العسل».

قال القشيري[١] ـ رحمه الله ـ: إنَّ الله تعالى أجرى سنته بأن يخفي كل عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وأودع الذهب والفضة والفيروزج في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يخطىء، وفيهم من يعصي، ومنهم من يعرف، ومنهم من يجهل أمره اهـ.

وإنما[٢] خص سبحانه وتعالى النحل بالوحي، وهو الإلهام والرشد من بين سائر الحيوانات، لأنها أشبه شيء بالإنسان، لا سيما بأهل الخلوة والاعتزال، فإن من دأبهم وهجيراهم أن يتخذوا من الجبال بيوتاً اعتزالاً عن الخلق وتبتلاً إلى الله تعالى، كما كان حال النبي ﷺ، كذلك حيث كان يتحنث إلى حراء أسبوعاً وأسبوعين وشهراً، وإن من شأنهم النظافة في الموضع والملبوس والمأكول، كذلك النحل من نظافتها تضع ما في بطنها على الحجر الصافي، أو على خشب نظيف، لئلا يخالطه طين أو تراب، ولا تقعد على جيفة ولا على نجاسة، احترازاً عن التلوث، كما يحترز الإنسان عنه، وثمرات البدن الأعمال الصالحة، وثمرات النفوس الرياضات والمجاهدات ومخالفة الهوى، وثمرات

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

القلوب ترك الدنيا وطلب العقبى، والتوجه إلى حضرة المولى إلى غير ذلك، فهذه كلها أغذية الأرواح، والله تعالى قال للنحل: ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقال مثله للسالكين: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

ولمَّا ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان، وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة.. أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿خَلَقَكُمۡ﴾؛ أي: أوجدكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، على اختلاف الأعمار صبياناً وشباناً وكهولاً، فلا يقدر الصغير على أن يؤخر، ولا الكبير على أن يقدم، وقوله: ﴿وَمِنكُم﴾ معطوف على مقدر، تقديره: فمنكم من يموت حال قوته، ومنكم ﴿مَّن يُرَدُّ﴾ ويعاد قبل وفاته ﴿إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾؛ أي: إلى أخسه وأردئه وأحقره، وهو الهرم والخرف، الذي يعود فيه كهيئته الأولى في أوان طفوليته، ضعيف البنية ناقص القوة والعقل وقليل الفهم، وليس له حد معلوم في الحقيقة، لأنه رب ابن ستين انتهى إلى أرذل العمر، ورب ابن مئة لم يرد إليه، وقال قتادة: إذا بلغ تسعين سنة.. يتعطل عن العمل والتصرف والاكتساب والحج والغزو ونحوها، ولذا دعا محمد بن علي الواسطي لنفسه فقال:

يَا رَبِّ لاَ تُحْيِنِيْ إِلَىٰ زَمَنٍ ... أَكُوْنُ فِيْهِ كَلاًّ عَلَىٰ أَحَدِ
خُذْ بِيَدِيْ قَبْلَ اَن اَقُوْلَ لِمَنْ ... أَلْقَاهُ عِنْدَ ٱلْقِيَامِ خُذْ بِيَدِي

وسأل(١) الحجاج رجلاً شيخاً كيف طعمك؟ قال: إذا أكلت ثقلت، وإذا تركت ضعفت، فقال: كيف نومك؟ قال: أنام في المجمع، وأسهر في المهجع، فقال: كيف قيامك وقعودك؟ قال: إذا قعدت تباعدت عني الأرض، وإذا قمت لزمتني، فقال: كيف مشيك؟ فقال: تعقلني الشعرة، وتعثرني البعرة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ

---

(١) روح البيان.

﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، واعلم[1] أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولاها سن النشوِّ، وثانيها سن الوقوف وهو سن الشباب، وثالثها سن الإنحطاط اليسير، وهو سن الكهولة، ورابعها سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة.

والمعنى[2]: أي والله سبحانه وتعالى أوجدكم أيها الناس، ولم تكونوا شيئاً أنتم ولا آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى، ثم وقت أعماركم بآجال مختلفة، فمنكم من تعجل وفاته، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه، فتنقص قواه، وتفسد حواسه، ويكون في عقله وقوته كالطفل كما قال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾.

أخرج البخاري وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

وثبت أنه ﷺ كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر.

ثم علل سبحانه رد من يرده إلى أرذل العمر بقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ﴾ ذلك المردود ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْـًٔا﴾ من العلم، لا كثيراً ولا قليلاً، أو شيئاً من المعلومات، إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا العقل، وقيل: المراد لئلا يعلم زيادةً على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك، فاللام في لكيلا جارة للمصدر، دخلت على كي الناصبة، وهي متعلقة بيرد.

والمعنى[3]: أي ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان العقل وسوء الفهم، وفي النسيان؛ أي: وإنما[4] رده إلى أرذل العمر ليعود جاهلاً كما كان حين طفولته وصباه، لا يعلم شيئاً مما كان يعلمه في شبابه، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه، فلا يعلم شيئاً مما كان يعلم، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

وخلاصة ذلك: أنه يكون نسَّاء، فإذا كسب علماً في شيء.. لم يلبث أن ينساه، ويزول من ساعته، فيقول لك: من هذا فلانٌ، فلا يمكث إلا هنيهةً ثم يسألك عنه مرةً أخرى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾، بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، يميت الشاب النشيط، ويبقي الهرم الفاني.

والمعنى: أي إن الله[1] سبحانه عليم بكل شيء، فيعلم وجه الحكمة في الخلق والتوفي، والرد إلى أرذل العمر، ولا ينسى شيئا من ذلك، وهو قدير على كل شيء، فلا يعجزه شيء أراده.

ومجمل القول: أن ما يعرض في الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى سبحانه جلَّ شأنه، فهو كامل العلم، تامُّ القدرة، لا يتغير شيءٌ منهما بمرور الأزمنة، كما يتغير علم البشر وقدرتهم.

ولمَّا ذكر سبحانه تفاوت الناس في الأعمار.. ذكر تفاوتهم في الأرزاق فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وحده ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾؛ أي: فاوت بينكم في الرزق، كما فاوت بينكم في الذكاء والبلادة، والحسن والقبح، والصحة والسقم، وقوة البدن وضفعه، فجعلكم متفاوتين فيه، فوسع على بعض عباده، حتى جعل له من الرزق ما يكفي أُلوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده، حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها، والرزق[2] ما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان من المطعومات والمشروبات، وفيه تنبيه على أن غنى المكثر ليس من كياسته ووفور عقله وكثرة سعيه، ولا فقر المقل من بلادته نقصان عقله وقلة سعيه، بل من الله تعالى ليس إلا:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقاً

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وحاصل المعنى: أي[1] والله تعالى جعلكم متفاوتين في أرزاقكم، فمنكم الغنيُّ، ومنكم الفقير، ومنكم المملوك، ومنكم المالك، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى مماليككم، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل فحسب، فكثيراً ما نرى الحول القلب، لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهيد، بينما نرى الأحمق يتقلب في نعيم العيش وزخرف الدنيا، ولله در سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِيْ تَقَلُّبِهِ ... مُهَذَّبُ ٱلرَّأْيِ عَنْهُ ٱلرِّزْقُ مُنْحَرِفُ

وَمِنْ ضَعِيْفٍ ضَعِيفُ العَقْلِ مُخْتَلِطٌ ... كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ ٱلْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾؛ أي: فليس[2] الموالي الذين فضلوا في الرزق على المماليك ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾؛ أي: بمعطي رزقهم الذي رزقهم إياه، أصله رادِّين، سقطت النون للإضافة، ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وأيديهم؛ أي: على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية، «فهم»؛ أي: الملاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: مستوون، لا مزية لبعضهم على بعض، وفي الفاء دلالة على ترتب التساوي على الرد؛ أي: يردون عليهم ردًّا مستتبعاً للتساوي في التصرف، والتشارك في التدبير، وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيراً.

والحاصل: أنهم لا يجعلون ما رزقناهم من الأموال وغيرها شركةً بينهم وبين مماليكهم، بحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم، وهم أمثالهم في البشرية والمخلوقية، فما بالهم كيف جعلوا مماليكه تعالى ومخلوقاته شركاء له، مع كمال علوه، فأين التراب ورب الأرباب.

أي: فما الذين[3] فضلوا بالرزق وهم الموالي بجاعلي رزقهم من الأموال وغيرها شركةً بينهم وبين مماليكهم، بحيث يساوونهم في التصرف فيها، ويشاركونهم في تدبيرها.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والخلاصة: أنَّ الله جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أكثر من ما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، وتتساووا وإياهم في الملبس والمطعم والمسكن، لكنكم لم ترضوا بهذه المساوة، مع أنهم أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله عز وجل، فما بالكم تشركون بالله فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبودية بعض عباده، بل أخس مخلوقاته، وهذا مثل ضربه سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام والأوثان تقريعاً لهم، وكانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك.

ونحو الآية قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي التقريعي المضمن للإنكار[1]، وداخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد علمهم بأن الرازق هو الله تعالى يشركون به، فيجحدون نعمته، حيث يتخذون له شركاء، فإن الإشراك يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، فالله تعالى يدعو عباده بهذه الآية إلى التوحيد، ونفي الشرك، حتى يتخلصوا من الشرك والظلمات، ويتشرفوا بالتوحيد والأنوار العاليات.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ أبو[2] بكر عن عاصم وأبو عبد الرحمن والأعرج بخلاف عنه: ﴿تجحدون﴾ بالتاء على الخطاب، وقراءة الغيبة أولى لأنها ظاهر السّياق.

والمعنى على قراءة الخطاب: أنكم أيها المالكون لستم برادي رزقكم على مماليككم، بل أنا الذي أرزقكم وإياهم، فلا تظنوا أنكم تعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديكم، أنتم وهم جميعاً سواء لا مزية لكم على مماليككم.

---

(١) أبو السعود.
(٢) البحر المحيط.

ثم ذكر ضروباً أخرى من ضروب نعمه على عباده، تنبيهاً إلى جليل إنعامه بها، إذ هي زينة الحياة فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الرجال ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: نساء وزوجات، لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم، ويكون أولادكم أمثالكم، ومن هنا أخذ بعض العلماء أنه يمتنع أن يتزوج المرؤ امرأة من الجن، إذ لا مجانسة بينهما، فلا مناكحة، وأكثرهم على إمكانه، ويدل عليه أن أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا، قال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، فتزوج امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكت، فولدت له بلقيس، وفيه حكايات أخر في «آكام المرجان»، فإن قيل[1]: غلبة عنصر النار في الجن تمنع من أن تتكون النطفة الإنسانية في رحم الجنية لما فيها من الرطوبات، فتضمحل ثمة لشدة الحرارة النيرانية، وقس عليه نكاح الجني الإنسية.

قلت: إنهم وإن خلقوا من نار.. فليسوا بباقين على عنصرهم الناري، بل قد استحالوا عنه بالأكل والشرب والتوالد والتناسل، كما استحال بنو آدم عن عنصرهم الترابي بذلك، على أن الذي خلق من نار هو أبو الجن، كما خلق آدم أبو الإنس من تراب، وأما كل واحد من الجن غير أبيهم فليس مخلوقاً من النار، كما أن كل واحد من بني آدم ليس مخلوقاً من تراب، وذكروا أيضاً جواز المناكحة بين الإنسان وإنسان البحر، كما قال في «حياة الحيوان» إن في بحر الشام في بعض الأوقات من شكله شكل إنسان، وله لحيةٌ بيضاء، يسمونه شيخ البحر، فإذا رآه الناس.. استبشروا بالخصب.

قال الأطباء[2]: والتفاوت بين الذكر والأنثى، أنَّ الذكر أسخن مزاجاً، والأنثى أكثر رطوبة، فالمني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم.. كان الولد ذكراً تامًّا في الذكورة، وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

الرحم.. كان الولد أنثى تامًا في الأنوثة، وإن انصب إلى الخصية اليمنى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم.. كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث، وإن انصبَّ إلى الخصية اليسرى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم.. كان الولد أنثى في طبيعة الذكور والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؛ أي: من نسائكم وزوجاتكم؛ أي: جعل لكم منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ﴾ وبنات، ولم يذكر[1] البنات لكراهتهم لهن، فلم يمتن عليهم إلا بما يحبونه، ﴿وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد وحفيد، والحفيد ولد الابن ذكراً كان أو أنثى، وولد البنت كذلك، وتخصيصه بولد الذكر، وتخصيص ولد الأنثى بالسبط، عرف طارىءٌ على أصل اللغة، والمعنى؛ أي: جعل لكم من زوجاتكم بنين وحفدة؛ أي: أولاد البنين ذكوراً كانوا أو إناثاً، وأولاد البنات كذلك، فيعم كل من المضاف والمضاف إليه لما هو معلوم أنَّ لفظ الولد يعم الذكر والأنثى، بخلاف لفظ الابن اهـ. شيخنا، وسيأتي البسط في معنى الحفيد في مباحث التصريف.

والمعنى: أي والله سبحانه جعل لكم أزواجاً من جنسكم تأنسون بهن، وتقوم بهن جميع مصالحكم، وعليهن تدبير معايشكم، وجعل لكم منهن بنين وحفدةً؛ أي: أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضراء، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من لذيذ المطاعم والمشارب، وجميل الملابس والمساكن ما تنتفعون به إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات، كالعسل ونحوه، و﴿مِن﴾ للتبعيض، لأن كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكفرون بالله الذي شأنه ذلك المذكور، فيؤمنون بالباطل حيث حرموا على أنفسهم طيبات

---

(١) المراغي.

أحلها الله لهم، مثل البحيرة والسائبة والوصيلة، وأباحوا لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم، وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب؛ أي: لِمَ يحكمون بتلك الأحكام الباطلة؛ أي: أيكفرون بتوحيد الله تعالى، فيؤمنون بنفع الباطل الذي هو الأصنام، فإنهم يزعمون ذلك على ما حكي عنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فالباطل[١] هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع، وقيل: الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وبإنعام الله عليهم بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: يجحدون، أو المراد[٢] بالباطل الأصنام وما يفضي إلى الشرك، وبنعمة الله الإسلام والقرآن وما فيه من التوحيد والأحكام، وذكر الجملة الأخيرة هنا بزيادة[٣] هم فيها، وفي العنكبوت بدونها، لأنَّ ما هنا اتصل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلخ، وهو بالخطاب، ثم انتقل إلى الغيبة فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فلو ترك هم لالتبست الغيبة بالخطاب، بأن تبدل الياء تاءً اهـ «كرخي».

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء، وهو توقيف للرسول ﷺ على إيمانهم بالباطل، ويندرج في التوقيف المعطوف بعدها، وقرأ السلمي: بالتاء ورويت عن عاصم، وهو خطاب إنكار وتقريع لهم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه تعالى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: أصناماً لا تقدر رزقاً لهم وإعطاءً شيئاً من خزائن السموات والأرض، فلا تقدر على إنزال القطر من السموات لإحياء الميت من الأرضين، ولا تملك لهم رزقاً منها، فلا تقدر على إخراج شيء من نباتها ولا ثمارها، ولا على شيء مما ذكر في سالف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الفتوحات.
(٤) البحر المحيط.

الآيات، مما أنعم الله به على عباده، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ معطوف على صلة ﴿مَا﴾؛ أي: ويعبدون من دون الله ما لا يستطيعون، أي: أصناماً لا تستطيع ولا تقدر أن تتملك شيئاً من أرزاق السموات والأرض لنفسها، فضلاً عن الإعطاء لهم، لأنها جماد، وفائدة[١] قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن من لا يملك شيئاً قد يكون في استطاعته أن يتملكه بوجه من الوجوه، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك، وليس في استطاعتها تحصيل الملك.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ عبارة[٢] عن الأصنام، فهي مفردة لفظاً جمع معنىً، فقوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ فيه مراعاة لفظها، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه مراعاة معناها، وهو معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ فهو من الصلة، وجمع جمع العقلاء في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بناء على زعمهم الباطل، وقيل يجوز أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ للكفار؛ أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياءً متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾، وهو اسم مصدر بمعنى الإعطاء، و﴿شَيْئًا﴾ مفعوله؛ أي: ما لا يملك ولا يقدر رزقاً وإعطاءً لهم شيئاً من أرزاق السموات والأرض، وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو النتيجة له فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: فلا[٣] تجعلوا أيها المشركون لله سبحانه وتعالى الأمثال والأشباه، ولا تشبهوه بخلقه، فإنه لا مثيل له ولا شبيه، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في معنى الآية: أي لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري، ثم هددهم على عظيم جرمهم، وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ كنه ما تفعلون من الإجرام وعظيم الآثام، وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حقيقته ولا مقدار عقابه، ومن ثم صدر ذلك منكم، وتجاسرتم عليه، ونسبتم إلى الأصنام ما لا يصدر منها، ولا هي منه في قليل ولا كثير، وقال الزجاج[٤]: لا تجعلوا لله

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

مثلاً لأنه واحدٌ لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك، فنهوا عن ذلك.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن الإشراك أعقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وضرب المثل[1] تشبيه حال بحال، وقصةٍ بقصةٍ؛ أي: ذكر سبحانه وأورد شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام، وليس المراد حكاية ضرب الماضي، بل المراد إنشاؤه بما ذكر عقيبه؛ أي: ذكر لكم شيئاً تميزون به بين الخالق والمخلوق الذي أشركتموه به من الأصنام، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ بدل من مثلاً، وتفسيرٌ له، والمثل في الحقيقة حالة العبد العارضة له من المملوكية والعجز التام، وبحسبها جعل نفسه مثلاً، ووصفه بالمملوكية ليخرج عنه الحُرُّ لاشتراكهما في كونهما عبداً لله تعالى ﴿لَّا يَقْدِرُ﴾ ذلك العبد ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من التصرفات، وصفه بعدم القدرة ليميزه عن المكاتب والمأذون له، اللذين لهما التصرف في الجملة ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ نكرةٌ موصوفةٌ أو موصولة معطوفة على ﴿عَبْدًا﴾، كأنه قيل وحرًّا رزقناه بطريق الملك ليطابق عبداً ﴿مِنَّا﴾؛ أي: من جانبنا الكبير المتعال وجهتنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: حلالاً طيباً، أو مستحسناً عند الناس مرضياً، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة، تروق الناظرين إليها، والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ لترتيب[2] الإنفاق على الرزق؛ أي: فذلك الحر ينفق منه؛ أي: من ذلك الرزق الحسن ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾؛ أي: في حال السر وفي حال الجهر، والمراد بيان عموم الإنفاق للأوقات، وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأن الثواب فيه أكثر، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ للإنكار، وجمع[3] الضمير للإيذان بأن المراد مما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين، لا فردان متعينان منهما؛

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات، مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله تعالى من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه.

وحاصل المعنى[1]: أنه كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر من أمره على شيء، ورجل حر قد رزقه الله تعالى رزقاً حسناً، فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر هو المؤمن، والغرض أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني عابد الصنم، والمراد: أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف، لأن الأول جماد، والثاني إنسان.

والخلاصة: أي إنَّ مثلكم[2] في إشراككم بالله الأوثان، مثل من سوى بين عبدٍ مملوك عاجز عن التصرف وحرٍ مالك مالاً ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كما يريد، والفطرة السليمة تشهد بأنهما ليسا مستوين في التبجيل والاحترام، مع استوائهما في الخلق والصورة، فكذلك لا ينبغي لعاقل أن يسوي بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء ألبتة.

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتراض[3]؛ أي: كل الحمد لله سبحانه وتعالى وحده، لأنه معطي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، فضلاً عن استحقاق العبادة، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً، ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط، وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد، وقيل: أراد قُلْ الحمد لله، والخطاب لمحمد ﷺ، أو

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لمن رزقه رزقاً حسناً، وقيل: أراد الحمد لله عل إقامة هذه الحجة، ذكره «الشوكاني» ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن كل الحمد لله وحده، فيسندون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونه لأجلها، وبعض الكفار يعلمون ذلك، وأما لا يعلمون سبب الحمد عناداً كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ونفي العلم[1] عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليها، أو يتركون الحق عناداً مع علمهم به، فكانوا كمن لا علم له، وخص الأكثر بنفي العلم إما لكونه يريد الخلق جميعاً وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل، أو المراد: أكثر المشركين لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم.

والمعنى: أي الحمد الكامل لله خالصاً دون ما تدعون من دونه من الأصنام، فإيَّاه فاحمدوا دونها، ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن الحمد لله وحده، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد.

ثم ضرب مثلاً أخر يدل على ما يدل عليه المثل الأول على وجه أظهر وأوضح، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على أوضح وجه وأظهره، و﴿رَّجُلَيْنِ﴾ بدل من مثلاً، ولكن على حذف مضاف؛ أي: مثل رجلين؛ أي: بين الله صفة رجلين ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وهو من ولد أخرس، ولا بد أن يكون أصمَّ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الكلام؛ أي: لا يقدر[2] على شيء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، بحدس أو فراسة لقلة فهمه، وسوء إدركه، وعدم قدرته على النطق ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾؛ أي: ثقيل على وليه وقرابته، وعيال على من يلي أمره ويعوله، ووبالٌ على إخوانه، وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

على من يكفله، وهو بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه، بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلق ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾؛ أي: حيثما يرسله مولاه في أمره وكفاية مهم، وهو بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح مولاه، ولو كانت مصلحة يسيرة... ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: لا يأتي بنجح وفلاح ومطلوب، لأنه أخرس عاجز لا يحسن شيئاً، ولا يفهم ولا يفهم، والآخر ناطق[1] قادر خفيف على مولاه، أينما يوجهه يأت بخير، فحذف هذا الآخر المقابل المتصف بالصفات الأربع السابقة، للدلالة عليه بقوله: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلخ، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ للإنكار؛ أي: هل يستوي ويماثل هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع ﴿وَمَن يَأْمُرُ﴾ الناس ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ والخير؛ أي: هل يستوي هذا الموصوف بالصفات الأربع، ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة، يأمر الناس بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: على دين قويم وسيرة صالحة، فيجب[2] أن يكون الآمر بالعدل عالماً قادراً مستقيماً في نفسه، حتى يتمكن من الأمر بالعدل، وهذا مثلٌ ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده من إنعامه، ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه، وللأصنام التي هي أموات جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كل على عابديها، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة، وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، والمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، والكافر هو الأبكم الثقيل الذي لا يأمر بخير، فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر، وقيل: هي على الخصوص، فالذي يأمر بالعدل هو النبي ﷺ وهو على صراط مستقيم، والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل.

والمعنى: أي[3] ضرب الله سبحانه مثلاً لنفسه والآلهة التي يعبدونها من دونه، مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم، فلا يقدر على شيء

---

(١) الفتوحات.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

مما يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو عيال على من يعوله ويلي أمره، حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأت بنجح ولا كفاية مهم، وثانيهما رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره، ويأمر الناس بالعدل، وهو على سيرة صالحة ودين قويم، هل يستويان، كذلك الصنم لا يسمع شيئاً ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع، لا يقدر على نفع من خدمه، ولا دفع ضُرٍّ عنه، وهو كلٌّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه، وهو لا يعقل ما يقال له، فيأتمر بالأمر، ولا ينطق فيأمر وينهى، هل يستوي هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه.

وقرأ عبد الله وعلقمة وابن وثاب ومجاهد وطلحة[1]: ﴿يُوَجَّهْ﴾ بهاء واحدة ساكنة مبنياً للمفعول، ونائب فاعله ضمير يعود على الأبكم، وعن عبد الله أيضاً: ﴿تُوَجِّهْهُ﴾ بهائين بتاء الخطاب، والجمهور: بالياء والهائين، وعن علقمة وطلحة: ﴿يُوجِّهُ﴾ بكسر الجيم وهاءٍ واحدة مضمومة، قال صاحب «اللوامح»: فإن صح ذلك فإن الهاء التي هي لام الفعل محذوفة فراراً من التضعيف، لأن اللفظ به صعب مع التضعيف.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر المثلين.. مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خاصة لا لأحد غيره استقلالاً ولا إشراكاً، وكان كفار قريش يستعجلون وقوع القيامة استهزاءً، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ أي: ولله سبحانه لا لغيره ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما، قال في «الإرشاد»: فيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، فإن تحقق الغيوب في أنفسها علم بالنسبة إليه تعالى، ولذلك لم يقل: علم غيب السموات والأرض.

وقد أخبر[2] سبحانه وتعالى في هذه الآية عن كمال علمه، وأنه عالم بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية، ولا يخفى عليه شيء منها، وقيل: الغيب

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

هنا علم قيام الساعة، ووجه[1] ارتباط هذه الآية بما قبلها: أنه تعالى مثل بالذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، ومعلوم أن أحداً لا يكون كذلك إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة، فبين بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ كونه كاملاً في العلم، وبين كمال قدرته بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وما أمر قيام الساعة وشأنه في سرعته وسهولته، والساعة؛ أي: القيامة هي[2] إماتة الأحياء، فيكون بالنفخة الأولى، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، وتبديل صور الأكوان أجمعين يكون بالنفخة الثانية، وقيل: الساعة[3] هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب، سمي بها لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم؛ أي: وما شأن قيام القيامة التي هي من الغيوب في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾؛ أي: إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ﴾؛ أي: بل أمر قيام الساعة أقرب من طرف العين في السرعة، بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدأ فيه الحركة، يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، في أسرع من لمح البصر، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق، لأنه بعض المقدورات.

وحاصل معنى الآية: أي ولله سبحانه علم ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض، مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين، التي لا سبيل إلى إدركها حسًّا ولا إلى فهمها عقلاً ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وما شأنها في سرعة المجيء إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، أو هو أقرب من هذا وأسرع، لأنه إنما يكون بقول كن، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾؛ أي: فيكون ما يريد كطرف العين.

---

(١) زاده.

(٢) أبو السعود.

(٣) الخازن.

والخلاصة: أن قيام الساعة ومجيء القيامة، التي ينتشر فيها الخلق للوقوف في موقف الحساب كنظرة من البصر وطرفة من العين في السرعة، وخصَّ قيام الساعة من بين الغيوب لأنه قد كثرت فيه المماراة في جميع الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر، وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات، ثم ذكر ما هو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: إن الله قادر على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر، ثم ذكر سبحانه منته على عباده بإخراجه إيَّاهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ حالة كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: حالة[1] كونكم غير عالمين شيئاً أصلاً من أمور الدنيا والآخرة، ولا مما كانت أرواحكم تعلم في عالم الأرواح، ولا مما كانت ذراتكم تعلم من فهم خطاب ربكم إذ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولا مما علمت إذ قالت بالجواب بلى، ولا مما تعلم الحيوانات حين ولادتها من طلب غذائها، ومعرفة أمها، والرجوع إليها، والاهتداء إلى ضروعها، وطريق تحصيل اللبن منها، ومشيها خلفها، وغير ذلك مما تعلم الحيوانات، وتهتدي إليه، ولا يعلم الطفل منه شيئاً ولا يهتدي إليه، وهنا تم الكلام[2]، لأن الإنسان خلق في أول الفطرة ومبدئها خالياً عن العلم والمعرفة، لا يهتدي سبيلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿السَّمْعَ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة، وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم، وقدم السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي، ولذا ابتلي بعض الأنبياء بالعمى دون الصمم، كشعيب عليه السلام، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر، ألا ترى أن الوليد يتأخر انفتاح عينيه عن السمع، وإفراده باعتبار كونه مصدراً في الأصل، ﴿وَ﴾ جعل لكم

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

﴿الأبصار﴾ لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على وحدانيته، جمع بصر، وهي محركة حسِّ العين، ﴿و﴾ جعل لكم ﴿الأفئدة﴾ لتعملوا بها، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته تعالى، جمع فؤاد، وهو[1] وسط القلب، وهو من القلب كالقلب من الصدر، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة.

قال في «بحر العلوم»: استعملت في هذه الآيات وفي سائر آيات وردت فيها في الكثرة، لأن الخطاب في جعل لكم، وأنشأ لكم عام، والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء، وتدركوها بأفئدتكم، فتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساس، فيحصل لكم علومٌ بديهية، تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل الكسبية.

واعلم: أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ عطف على ﴿أَخْرَجَكُم﴾، وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الإخراج، لما أن مدلول الواو وهو الجمع مطلقاً لا الترتيب، على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج كما في «الإرشاد»، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا الله تعالى على نعمة هذه الآلات، وشكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، من استماع كلام الله تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، وحكم أوليائه، وما ليس فيه ارتكاب منهي، ومن النظر إلى آيات الله سبحانه، والاستدلال بها على وجوده ووحدته وعلمه وقدرته، فمن استعملها في غير ما خلقت لأجله.. فقد كفر جلائل نعم الله تعالى، وخان في أماناته.

وقرأ حمزة[2]: ﴿إِمِهاتِكم﴾ بكسر الهمزة والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم، والكسائي: بكسر الهمزة فيهن، والأعمش: بحذف الهمزة وكسر الميم، وابن أبي ليلى: بحذفها وفتح الميم، قال أبو حاتم: حذف الهمزة رديء، ولكن قراءة ابن أبي ليلىٰ أصوب. انتهى، وإنما كانت أصوب لأن كسر الميم إنما هو لاتباعها حركة الهمزة، فإذا كانت الهمزة محذوفة.. زال الاتباع بخلاف قراءة

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ابن أبي ليلى، فإنه أقرَّ الميم على حركتها.

ومعنى الآية: أي والله[1] جعلكم تعلمون ما لا تعلمون، بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون الخير من الشر، والهدى من الضلال، والخطأ من الصواب، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به فيما بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص، فتتعارفون وتميزون بعضها من بعض، والأشياء التي تحتاجون إليها في هذه الحياة، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعي على الأرزاق والسِّلع، لتختاروا الجيد، وتتركوا الردي، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: إرادة أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ والاستفهام فيه تقرير[2] لمن ينظر إليهن، وتعجيب من شأنهن، والطير جمع طائر؛ أي: ألم ينظر هؤلاء المشركون من قومك بأبصارهم إلى الطير ليستدلوا بها على قدرة الله تعالى حالة كونها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾؛ أي: مذللات للطيران بما خلق الله لهن من الأجنحة والأسباب المساعدة لهن، كرقة[3] قوام الهواء، وإلهامها بسط الجناح وقبضه، كما يفعل السابح في الماء ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾؛ أي: مذلَّلات للطيران في الهواء، بين السماء والأرض، وإضافته إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر، والجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض، وهو الهواء، قال كعب الأحبار: إن[4] الطير ترتفع في الجو مسافة اثني عشر ميلاً، ولا ترفع فوق ذلك ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن السقوط ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ عز وجل بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسادها مع رقة الهواء يقتضي سقوطها، إذ لا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها تمسكها، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران.. لم تقدر على النهوض

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) الخازن.

ارتفاعاً، وقد كان العلماء قديماً يعلمون تخلخل الهواء في الطبقات العالية في الجوّ، وهي نظرية لم تدرس في العلوم الطبيعية إلا حديثاً.

وقرأ ابن عامر وحمزة وطلحة والأعمش وابن هرمز(١): ﴿ألم تروا﴾ بتاء الخطاب، وباقي السبعة: بالياء، قال ابن عطية: واختلف عن الحسن وعيسى الثقفي وعاصم وأبي عمرو.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير على تلك الصفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه، وبما جاءت به رسله من الشرائع، التي شرعها الله تعالى على ألسنتهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أو لقوم يصدقون أنَّ إمساكهن من الله تعالى، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره مرةً أخرىٰ وأذناباً خفيفة، وخلق الهواء خلقة رقيقة، يسهل الطيران بسبب خرقه، ولولا ذلك لما أمكن الطيران.

والمعنى: أن في(٢) ذلك التسخير في الجو والإمساك فيه لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه لا حظَّ للأوثان والأصنام في الألوهية لمن يؤمن بالله، ويقر بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسه حواسهم، وخصص هذه الآيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها، وإن كانت هي آيات لجميع العقلاء.

الإعراب

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿فَأَحْيَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿أحيا﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿أحيا﴾ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به لـ ﴿أحيا﴾ ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أحيا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداءٍ، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ صفة لـ ﴿لَأٓيَةٗ﴾، وجملة ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنّ﴾: حرف نصب، ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور، خبرها مقدم على اسمها، ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾: اسمها مؤخر و﴿اللام﴾ فيه حرف ابتداء وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿نُّسۡقِيكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، لأنها تفسيرٌ لـ ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾، كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم.. إلخ، ويجوز[1] أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة جواب لذلك السؤال؛ أي: هي؛ أي: العبرة نسقيكم، ويكون كقوله: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿لَّبَنًا﴾ الآتي، ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، ﴿وَدَمٖ﴾: معطوف على ﴿فَرۡثٖ﴾، ﴿لَّبَنًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، ﴿خَالِصٗا﴾: صفة أولى لـ ﴿لَّبَنًا﴾، ﴿سَآئِغٗا﴾: صفة ثانية له، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: متعلق بـ ﴿سَآئِغٗا﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف دل عليه السياق، تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل ونطعمكم منها، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّخِيلِ﴾، ﴿تَتَّخِذُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة لبيان كيفية الاسقاء والإطعام ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿سَكَرٗا﴾: مفعول ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، ﴿ورزقًا﴾: معطوف على ﴿سَكَرٗا﴾، ﴿حَسَنًاۚ﴾: صفة ﴿رزقا﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ صفة ﴿آية﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ صفة ﴿قوم﴾.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾: متعلق به، ﴿أَنِ﴾: حرف مصدر أو تفسير، ﴿ٱتَّخِذِي﴾: فعل وفاعل، في محل النصب بـ ﴿أَنِ﴾ المصدرية، مبني على حذف النون، ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿بُيُوتٗا﴾: مفعول لـ﴿ٱتَّخِذِي﴾، وجملة ﴿ٱتَّخِذِي﴾ مع ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأوحى ربك إلى النحل باتخاذها من الجبال بيوتاً، أو جملة مفسرة للإيحاء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾: معطوف على قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِمَّا﴾: معطوف عليه، ﴿يَعۡرِشُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ومما يعرشونه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿كُلِي﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّخِذِي﴾ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: متعلق به، ﴿فَٱسۡلُكِي﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كُلِي﴾. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿اسلكي﴾، ﴿ذُلُلٗاۚ﴾: حال من السبل، أو من الضمير في ﴿اسلكي﴾؛ أي: حالة كون النحل منقادة لأربابها.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَخۡرُجُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾: متعلق به، ﴿شَرَابٞ﴾ فاعل، ﴿مُّخۡتَلِفٌ﴾ صفة أولى لـ ﴿شَرَابٞ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو حال

من فاعل ﴿اسلكي﴾ ولكن فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل ﴿مُّخْتَلِفٌ﴾. ﴿فِيهِ﴾: خبر مقدم، ﴿شِفَآءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلق به، أو صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿شَرَابٌ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّقَوْمٍ﴾، صفة ﴿آية﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة ﴿قوم﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَلَقَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ﴿وَمِنكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة محذوف، تقديرها: فمنكم من يبقى على قوة جسده وعقله حتى يموت ومنكم من يُرد ﴿يُرَدُّ﴾ مضارع مغير الصيغة ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿لِكَىْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَعْلَمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَعْلَمَ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به لـ ﴿يَعْلَمَ﴾ أو للمصدر على سبيل التنازع، والجملة الفعلية مع ﴿كي﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعدم علمه شيئاً، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿فَضَّلَ﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿فِى ٱلرِّزْقِ﴾،

والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع اسمها، وجملة ﴿فُضِّلُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾: خبرها ومضاف إليه، و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾، ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بِرَآدِّي﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: على ما ملكته أيمانهم، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿الفاء﴾ عاطفة، و﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿سَوَآءٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المنفية في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بنعمة الله﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والتقدير: أيشركون به فيجحدون نعمته، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ في محل الرفع خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَكُم﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: حال من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُم﴾: في محل المفعول الثاني له، ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾: حال من ﴿بَنِينَ﴾، ﴿بَنِينَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾ ﴿وَحَفَدَةً﴾: معطوف عليه، ﴿وَرَزَقَكُم﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾: متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بالباطل﴾: جار ومجرور متعلق بما بعده، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل

فاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكفرون بالله الذي أنه هذا فيؤمنون بالباطل، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَكْفُرُونَ﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبره، والتقدير: وهم يكفرون بنعمة الله تعالى، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يعبدون﴾؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يعبدون﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَمْلِكُ﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾، وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿رِزْقًا﴾ لأنه اسم مصدر بمعنى إعطاءً، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول ﴿رِزْقًا﴾ لأنه مصدر يعمل عمل الفعل، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم إنعام الله عليكم بهذه النعم المذكورة، وعجز الأصنام عنها، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم لا تضربوا لله الأمثال، ﴿لَا تَضْرِبُوا۟﴾: فعل وفاعل وجازم، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿عَبْدًا﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾ بدل كل من كل، ﴿مَّمْلُوكًا﴾: صفة أولى لـ ﴿عَبْدًا﴾، وجملة ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿عَبْدًا﴾، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول أو نكرة موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿عَبْدًا﴾، ﴿رَّزَقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة، أو صفة لها إن كانت موصوفة، ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿رِزْقًا﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول ثان، ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿رِزْقًا﴾، ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿يُنفِقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿يُنفِقُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾: إما منصوبان على المصدرية؛ أي: إنفاق سر وجهر، أو حالان من فاعل ﴿يُنفِقُ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب للإضراب الانتقالي ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ والجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضرب﴾ الأول، ﴿رَّجُلَيْنِ﴾: بدل من ﴿مَثَلًا﴾، ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب صفة ﴿رَّجُلَيْنِ﴾، ﴿لَا يَقْدِرُ﴾: فعل مضارع ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبْكَمُ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾: متعلق بـ ﴿كَلٌّ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقْدِرُ﴾ ﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط جازم يجزم فعلين في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح، والظرف متعلق بفعل الشرط، ﴿يُوَجِّههُّ﴾: فعل مضارع ومفعول به، مجزوم بـ ﴿أَيْنَمَا﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الأبكم.

﴿لا يأتِ﴾ مضارع مجزوم وهو جواب الشرط و﴿لَا﴾ نافية ﴿بِخَيْرٍ﴾: متعلق بـ ﴿يأتِ﴾، وجملة الشرط مع جوابه في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبْكَمُ﴾، ﴿هُوَ﴾: تأكيد للضمير المستتر في ﴿يَسْتَوِى﴾، وجملة ﴿يَسْتَوِى﴾ جملة إنشائية مستأنفة، ﴿وَمَن﴾ عطف على الفاعل المستتر في ﴿يَسْتَوِى﴾ والشرط موجود وهو العطف بالضمير المنفصل وهو لفظ ﴿هو﴾ ﴿يَأْمُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: خبره، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿يَأْمُرُ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بإلا، ﴿أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى بل الإضرابية، ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بما بعده ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَخْرَجَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أخرج﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة عل جملة ﴿أخرج﴾. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾

فعل مضارع ومفعول به، والجملة في محل نصب حال من الكاف أي: غير عالمين شيئاً ﴿وَجَعَلَ﴾ عطف على ﴿أَخْرَجَكُم﴾ والفاعل تقديره هو. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني له، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: معطوفان عليه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: متعلق به، عداه بإلى لتضمينه معنى النظر، والجملة جملة إنشائية مستأنفة، ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: حال من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾. ﴿مَا﴾: نافية ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾: فعل ومفعول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ والمراد بحياة الأرض إنباتها الزرع والشجر، وإخراجها الثمر ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ قال الفراء والزجاج: النعم والأنعام واحد، يذكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب: هذه نعم وارد، ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، وقد جاء بالوجهين هنا، وفي سورة النور.

ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان[1]:

---

(١) البحر المحيط.

أحدهما أن يكون تكسير نعم، كالأجبال في جبل.

والثاني: وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع، كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر نعم في قوله:

فِـيْ كُـلِّ عَـامٍ نَـعَـمٌ تَـحْـوُوْنَـهُ   يُـلْـقِـحُـهُ قَـوْمٌ وَيُـنْـتِـجُـوْنَـهُ

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وإنه في معنى الجمع، وفي «البيضاوي»: الأنعام اسم جمع وقيل جمع نعم اهـ.

﴿لَعِبْرَةً﴾ والعبرة الاعتبار والعظة، وهو مصدر بمعنى العبور، أطلق على ما يعبر به إلى العلم مبالغة في كونه سبباً للعبور اهـ «زاده»، وفي «الشهاب»: وأصل[1] معنى العبر والعبور التجاوز من محل إلى آخر، فإطلاق العبرة على ما يعتبر به لما ذكر، لكنه صار حقيقة في عرف اللغة اهـ.

﴿نُّسْقِيكُم﴾ قال الزجاج: سقيته وأسقيته بمعنى واحد اهـ. كما مر ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ والفرث كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش اهـ. وإذا خرج من الكرش لا يسمى فرثاً اهـ. «خازن» بل يسمى روثاً، ﴿خَالِصًا﴾؛ أي: مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى، ﴿سَآئِغًا﴾؛ أي: سهل المرور في الحلق، يقال: ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

﴿سَكَرًا﴾ والسَّكر بفتحتين فيه أقوال[2]:

أحدها: أنه من أسماء الخمر.

الثاني: أنه في الأصل مصدر، ثم سمي به الخمر، يقال سكر - من باب طرب وفرح - يسكر سكراً بفتحتين، وسكراً بضم فسكون.

الثالث: أنه اسمٌ للخلِّ بلغة الحبشة، قاله ابن عباس.

الرابع: أنه اسم للعصير ما دام حلواً، كأنه سمي بذلك لمآله لذلك لو ترك، وفي «القاموس»: السكر محركة: الخمر، ونبيذ يتخذ من التمر، وقال بعضهم: السكر الخمر، والرزق الحسن الخل، الرُّب الطلاء الخاشر، والتمر والزبيب ونحو ذلك.

---

(١) الشهاب.   (٢) الفتوحات.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ أي: ألهمها وعلمها وأرشدها، ﴿بُيُوتًا﴾؛ أي: أوكاراً، وأصل البيت مأوى الإنسان، واستعمل هنا في الوكر الذي تبنيه النحل لتعسل فيه، لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بكسر الراء وضمها من بابي ضرب ونصر، كما في «المختار»، وفي «القاموس»: وعرش يعرش بنى عريشاً، كأعرش وعرش بالتشديد اهـ. ويعرشون؛ أي: يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل الطرق واحدها سبيل، والذلل جمع ذلول؛ أي: منقادة طائعة، والشراب العسل مختلف ألوانه؛ أي: من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى، ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أردؤه وأخسه، يقال رذل الشيء يرذل رذالةً، وأرذله غيره، قال تعالى حكاية عما قاله قوم شعيب له: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، والحفدة: أولاد الأولاد، على ما روي عن الحسن والأزهري جمع حافد، ككتبةٍ وكاتب، من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل، يقال منه حفد يحفد من باب ضرب حفداً وحفوداً وحفداناً إذا أسرع، كما جاء في القُنوت: «وإليك نسعى ونحفد».

﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ رزق السماء المطر، ورزق الأرض النبات والثمار التي تخرج منها، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: لا تجعلوا له الأنداد والنظراء، فهو كقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وضرب[1] المثل للشيء ذكر الشبيه له، ليوضح حاله المبهمة، ويزيل ما عرض من الشك في أمره، ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ والبكم محركاً الخرس، وهو إمَّا ناشيءٌ من صمم خلقي، وإما لسبب عارض، ولا علة في أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتقل لا يطيق الكلام، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم، لأن الكلام بعد السماع، ولا سماع له، وليس كل أبكم يكون أصم صمماً طبيعياً، فإن بعض البكم لا يكونون صماً، وفي «القاموس»[2]: البكم محركاً الخرس كالبكامة، أو مع عيٍّ وبله، أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكم كفرح فهو أبكم وبكيمٌ، والجمع بكم، وبكم ككرم امتنع عن الكلام تعمدا اهـ. والكل الغليظ الثقيل، من قولهم: من كَلَّتِ

---

(١) المراغي. (٢) القاموس.

السكين، إذا غلظت شفرتها فلم تقطع، وكل عن الأمر ثقل عليه فلم يستطع عمله.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾؛ أي: يرسله في وجهٍ معين من الطريق، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق عادل غير جائرٍ، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة مَّا، فيموت الخلق بصيحة واحدة، ولمح البصر: رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، وفي «الخازن»: لمح البصر انطباق جفن العين وفتحه، والجفن طرف العين اهـ. وفي «البيضاوي»: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾؛ أي: إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها اهـ. وهذا يقتضي أنَّ اللمح معناه إغماض العين، والذي في كتب اللغة أنَّ معناه فتح العين والإبصار بها، ففي «المصباح»: لمحت الشيء لمحاً من باب نفع نظرت إليه باختلاس البصر، وألمحته بالألف لغةٌ، ولمحته بالبصر صوبته إليه، ولمح البصر امتد إلى الشيء اهـ.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ واحدها فؤاد، وهي القلوب التي هيأها الله تعالى للفهم وإصلاح البدن، والجو: الفضاء بين السماء والأرض.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حيث[1] شبه تهييج القوى النامية في الأرض وإحداث نضارتها بالنباتات بالإحياء، وهو إعطاء الحياة، وهي صفةٌ تقتضي الحس والحركة، وشبه يبوستها بعد نضارتها بالموت بعد الحياة، فاشتق منه أحيا بمعنى أحدث نضارتها على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق في هذه الآية بين: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وبين ﴿مَوْتِهَآ﴾.

---

(١) روح البيان.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ لأن العبرة حقيقةٌ في العبور الذي هو التجاوز من محل إلى آخر، فإطلاقه على ما يعتبر به مجازٌ، لكونه سبباً في العبور من الجهل إلى العلم، لكنه صار حقيقةً في عرف اللغة كما في «الجمل».

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ حيث[1] شبه ما تبنيه لتعسل فيه ببناء الإنسان بجامع الحفظ في كل، فاستعار لفظ بيت على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿كُلِى﴾ و﴿كُلِّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ إشارةٌ إلى كمال عنايته وعظيم إحسانه في تربيتها وإرشادها.

ومنها: الالتفات[2] من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ ولو جاء على الكلام الأول لقيل من بطونك.

ومنها: مجاز الأول في قوله: ﴿شَرَابٌ﴾؛ أي: عسل يؤول إلى كونه مشروباً للناس.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ إشعاراً بالتبعيض، لأنه إنما يكون شفاءً لبعض الأمراض كالأمراض البلغمية، ويجوز أن يكون للتعظيم كما في «البيضاوي».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ في مواضع عديدة اعتناءً بمقتضى السياق.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التقريعي في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) الجمل.

ومنها: تقديم الصلة على الفعل في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ إمّا[1] للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة أو للمحافظة على الفواصل.

ومنها: الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾ في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ فالآية تمثيل للصنم بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً مع القادر السميع البصير، فشتان ما بين الرب والصنم.

ومنها: الطباق بين ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾.

ومنها: الإتيان بضمير الجمع في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ نظراً إلى تعدد أفراد كل فريق، لأن مقتضى السياق أن يقال: هل يستويان بضمير التثنية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ قال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في لمح البصر، أو في زمن أقرب منه، بل المراد بيان سرعة تأثير القدرة متى تعلقت الإرادة بشيء اهـ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن
تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)
وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ
(٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا
السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا أقام[1] الأدلة على توحيده.. أردف ذلك بذكر ما أنعم به على عباده، فجعل لهم بيوتاً يأْوُون إليها، وتكون سكناً لهم، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها في أسفارهم ويجعلونها خياماً في السفر والحضر، وجعل لهم في الجبال الحصون والمعاقل، وجعل لهم الثياب التي تقيهم الحر، والدروع والجواشن من الحديد لتقي بعضهم أذى بعض في الحرب.

وقصارى هذا: أنه امتن على عباده فبدأ بما يخص المقيمين بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم إلا الظلال بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ...﴾ إلخ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب بقوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما مَنَّ به عليهم من خلقهم، وما خلق لهم من مدارك العلم.. ذكر هنا ما امتن به عليهم مما ينتفعون به في حياتهم من الأمور الخارجة عن دوابهم، من البيوت التي يسكنونها، من الحجر والمدر والأخشاب وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[3] حال هؤلاء المشركين، وأنهم عرفوا نعمة الله، ثم أنكروها.. قفىٰ على ذلك بوعيدهم، فذكر حالهم يوم القيامة، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم في الكلام لتبرئة أنفسهم، ولا يمهلون، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير، وإذا رأوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين.. قالوا: هؤلاء معبوداتنا، فكذبتهم تلك المعبودات، واستسلموا لربهم، وانقادوا له، وبطل ما كانوا يفترونه، ثم ذكر ذلك اليوم،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

وهوله وما منح نبيه من الشرف العظيم، وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل عليهم من مصالح دينهم ودنياهم، ويهديهم سواء السبيل، وفيه البشرى للمؤمنين بجنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما بالغ في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين، وعاد وكرر في الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية.. أردف ذلك ذكر هذه الأوامر التي جمعت فضائل الأخلاق والآداب، وضروب التكاليف التي رسمها الدين، وحث عليها، لما فيها من إصلاح حال النفوس، وصلاح حال الأمم والشعوب، ثم ضرب الأمثال لمن يحيد عنها وينفر من فعلها، ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيده، وأنه قد قدَّر بحسب استعداد النفوس للصلاح والغواية، وأنه سيجازي يوم القيامة كل نفس بما كسبت: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر من نقض العهود والأيمان على الإطلاق.. حذر في هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، وهي نقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به واتباع شرائعه جرياً وراء خيرات الدنيا وزخارفها، وأبان لهم أنَّ كل ذلك زائلٌ، وما عند الله باقٍ لا ينفد، ثم هو بعد يجزيهم الجزاء الأوفى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[١] ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ قال:

---

(١) لباب النقول.

نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولَّى الأعرابيُّ فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن بريدة قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدر، وهو تبيين لذلك المجعول المبهم في الجملة ﴿سَكَنًا﴾ فعل[1] بمعنى مفعول، كالقبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض؛ أي: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم؛ أي: والله سبحانه وتعالى هو الإله الذي جعل لكم أيها الناس من بيوتكم التي هي من الحجر والمدر مسكناً تقيمون فيه، وأنتم في الحضر، ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم بالفتح، وهو مخصوص بالأنواع الأربعة التي هي الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿بُيُوتًا﴾ أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة، وهي الخيام والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم.

واعلم[2]: أنَّ المساكن على قسمين:

أحدهما: ما لا يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما.

والقسم الثاني: ما يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي الخيام

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام، وإليها الإشارة بقوله: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: تجدونها خفيفة، يخف عليكم نقضها وحملها ونقلها، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾؛ أي: وقت ترحلكم وسفركم، وقرأ الحرميان - نافع وابن كثير - وأبو عَمرو[1]: ﴿ظعنكم﴾ بفتح العين، وباقي السبعة: بسكونها، وهما لغتان، وليس السكون بتخفيف كما جاء في نحو الشَّعْر والشَّعَر لمكان حرف الحلق.

﴿و﴾ تستخفونها ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾؛ أي: وقت نزولكم في الضرب والبناء؛ أي: وجعل لكم قباباً وفساطيط من جلود الأنعام وأشعارها وأصوافها وأوبارها، تستخفون حملها يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم، وحين إقامتكم بها، وذلك[2] أن بعض الناس كالسودان يتخذون خيامهم من الجلود، اهـ شيخنا. وفي «البيضاوي»: ويجوز أن يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر، فإنها من حيث إنها نابتةٌ على جلودها، يصدق عليها أنها من جلودها اهـ.

﴿و﴾ جعل لكم ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ جمع صوف ووبر وشعر، والكنايات راجعة إلى الأنعام، وإنما[3] ذكر الأصواف والأوبار والأشعار، ولم يذكر القطن والكتان، لأنهما لم يكونا ببلاد العرب اهـ «كرخي»؛ أي: وجعل سبحانه لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَثَاثًا﴾؛ أي: ما يتمتع به في البيت خاصةً من الفرش والبسط والغطاء والوطاء، ﴿وَمَتَاعًا﴾؛ أي: جميع ما تتمتعون به في البيت وخارجه من الفرش والأكسية واللباس والحبال والدلاء والإناء، فعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص، وقيل[4]: إن الأثاث ما يكتسي به الإنسان، ويستعمله من الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويتزين به، وفي «السمين»: وقال الخليل: الأثاث والمتاع واحد، وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما اهـ. ومعنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت أو إلى القيامة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.
(٣) الفتوحات.
(٤) الشوكاني.

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيامٌ أو أبنية يستظل بها، لفقر أو لعارض آخر، فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جبال مثلاً.. نبَّه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾؛ أي: من غير صنع من جهتكم ﴿ظِلَٰلًا﴾، أي: تستظلون به من شدة الحر، كالغمام والجبال والأشجار وغيرها، امتنَّ سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة، ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد.. نبَّه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾؛ أي: أماكن تستكنون وتستترون فيها من الحر والبرد والمطر، من الكهوف والغيران والسروب، جمع كِنٍّ، وهو ما يستكن به من المطر ونحوه، فقد جعلها الله سبحانه عُدَّةً للخلق يأوون إليها، ويتحصنون بها، ويعتزلون عن الخلق فيها، قال عطاء[1]: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وما جعل من السهول أعظم منه، ولكنهم كانوا أصحاب جبال، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، جمع سربال، وهو كل ما يلبس؛ أي: وجعل لك ثياباً من القطن والكتان والصوف وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ في الصيف، والبرد في الشتاء؛ أي: تدفع عنكم ضرر الحر والبرد، وخص الحر بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر، لعلمه منه لأن ما يقي من الحر.. يقي من البرد، أو لأن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد، لغلبة الحر في بلادهم، أو لتقدمه في قوله تعالى: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿سرابيل﴾؛ أي: دروعاً وجواشن من حديد ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾؛ أي: تدفع عنكم ضرر السلاح في الحروب الواقعة بينكم؛ أي: تقيكم وتحفظكم من بأس السلاح وأذاه حين الحرب، وحين يتقدم القرن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب، والرمي بالنِّبال؛ أي: تدفع البأس الذي يصل من بعضكم إلى بعض في الحرب، والبأس[2] الشدة في الحرب والقتل والجراحة كما في «التبيان»، وأوَّل من عمل الدرع داود ـ عليه السلام ـ فإن الله تعالى ألان له الحديد كالشمع كما

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وصحب لقمان داود شهوراً، وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، وقال: نعم لبس الحرب أنت.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: إتماماً مثل إتمامنا عليكم هذه النعم التي تقدمت ﴿يُتِمُّ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾ الظاهرة والباطنة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تتفكرون فيها وتنظرون إليها، و﴿تُسْلِمُونَ﴾؛ أي: تستسلمون لأوامرنا، وتنقادون لرسولنا فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ أي: أتمها عليكم، وأعطاها لكم تامة، إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، والأنفسية والآفاقية، فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون، وتنقادوا لأمره.

والمعنى: أي كما[1] خلق هذه الأشياء لكم، وأنعم بها عليكم، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم، ويجعلكم ملوكاً وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع، ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله، وإصلاح الأمم والشعوب كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾؛ أي: توقعاً للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم، فتعرفون حق المنعم بها، فتؤمنون به وحده، وتذرون ما أنتم به مشركون، فتسلمون من عذابه، فإن العاقل إذا أسدي إليه المعروف.. شكر من أنعم به عليه.

وقرأ ابن عباس[2]: ﴿تتم﴾ بتاء مفتوحة ﴿نعمته﴾ بالرفع، أسند التمام إليها اتّساعاً، وعنه ﴿نِعَمُه﴾ جمعاً، وقرأ ﴿لعلكم تسلمون﴾ بفتح التاء واللام، من السلامة والخلاص، فكأنه تعليل لوقاية السرابيل من أذى الحرب، أو تسلمون من الشرك وأما ﴿تسلمون﴾ في قراءة الجمهور فمعناه: تؤمنون، أو تنقادون إلى النظر في نعم الله تعالى المفضي إلى الإيمان والانقياد.

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم.. ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصرُّوا على عنادهم واستكبارهم، ولم تنفعهم الذكرى فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، فعل

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

ماض أو مضارع حذفت منه إحدى التائين، وفي صيغة[١] التفعل إشارة إلى أن الفطرة الأولى داعية إلى الإقبال على الله، والإعراض لا يكون إلا بنوع تكلف ومعالجة؛ أي: فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما جئتهم به من التوحيد، واستمروا على تكذيبك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هي البلاغ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الموضح أو الواضح، وقد فعلته بما لا مزيد عليه، وليس عليك غير ذلك.

والمعنى: أي فإن[٢] استمروا على إعراضهم ولم يقبلوا ما أُلقِي إليهم من البينات.. فلا يضيرك ذلك، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة، وما هي إلا البلاغ الموضِّح لمقاصد الدين، وبيان أسراره وحكمه، وقد فعلته بما لا مزيد عليه، وجملة القول: إنهم إن أعرضوا وتولوا.. فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، فإنما عليك البلاغ فحسب، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلية له، ثم بين أن سبب هذا التولي والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم، بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ﴾؛ أي: يعرف بعض المشركين ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ المعدودة في هذه السورة، ويعترفون ويقرون بأن هذه النعم كلها من الله تعالى ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم، حيث يعبدون غير منعمها، أو بقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسب كذا، والمعنى[٣]: ثم استبعاد الإنكار بعد حصول المعرفة.

أي: إنهم يعرفون أنَّ هذه النعم كلها من الله تعالى، ثم هم ينكرونها بأفعالهم، إذ لم يخصوا المنعم بها بالعبادة والشكر، بل شكروا غيره معه، إذ قالوا: إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي؛ المنكرون بقلوبهم، غير المعترفين بما ذكر من النعم، أو الكافرون بالله، وأقلهم الجاهلون، وعبر[٤] هنا بالأكثر عن الكل، أو أراد بالأكثر العقلاء دون

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود، ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ، مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

والمعنى: أي إن[1] أكثرهم جاحدٌ معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به، عتواً واستكباراً، وقليل منهم كان يجهل صدقه، ولم يظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله، لأنه لم ينظر في الأدلة النظر الصحيح، الذي يؤدي إلى الغاية، أو لم يعرف الحق لنقص في العقل، فهو لا يسلك سبيله، أو لم يصل إلى حد التكليف، فلا تقوم عليه حجة.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها، وذكر أن أكثرهم كافرون.. أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾؛ أي: نحيي ونخرج من القبور، ويرجع إلى معنى نجيء ونأتي كما سيأتي، وهو يوم القيامة؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة يوم نحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: قصة يوم نأتي من كل أمة من الأمم بشهيد ورسول، يشهد لهم بالإيمان لمن آمن منهم، ويشهد عليهم بالكفر والمعاصي على من كفر، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم من الاعتذار، وفي كثرة الكلام، ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمته تعالى، إذ لا عذر لهم، و﴿ثم﴾ هنا[2] للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع من الاعتذار المنبىء عن الإقناط الكلي، وهو عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء - عليهم السلام - فهي للتراخي الرتبي، والعذر في الأصل تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، بأن يقول: لم أفعل، أو فعلت لأجل كذا، أو فعلت ولا أعود، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا الكفار يسترضون فيه؛ أي: لا يطلب منهم إرضاء ربهم بالتوبة والطاعة؛ أي: لا يطلب منهم العتبى؛ أي: الرجوع إلى طاعة الله تعالى؛ أي: لا يقال لهم أرضوا

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ربكم، ولا يطلب منهم ما يوجب العتبى، وهي الرضا، وذلك[1] لأن الرضا إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح، والآخرة دار الجزاء لا دار العمل والتكليف، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل بذر فسد في الأرض، وبطل استعداده لقبول التربية، ولم يتم أمر نباته إذا حصد وحصل في البيدر، لا يفيده أسباب التربية، لتغيير أحواله، فالأرواح بذور في أرض الأشباح، ومربيها ومنبتها وثمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان، ومفسدها ومبطلها ومغيرها عن أحوالها الكفر وأعمال الطبيعة، والموت حصادها، والقيامة بيدرها.

وحاصل المعنى: أي وخوِّف أيها الرسول هؤلاء المشركين، يوم نبعث من كل أمةٍ شاهداً عليها بما أجابت داعي الله، وهو رسولها الذي أرسل إليها، إما بالإيمان وطاعة الله، وإما بالكفر والعصيان.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم، ولا يلتفت إليه، إذ في تلك الشهادة ما يكفي للفصل في أمرهم والقضاء عليهم، والله عليم بما كانوا يفعلون، ولكن في تلك الشهادة تأنيبٌ لهم، وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذي أنعم عليهم، ونحو الآية قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم؛ أي: غضبه بالتوبة وصالح العمل، فالآخرة دار جزاءٍ لا دار عملٍ، والرجوع إلى الدنيا ما لا يكون بحال.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر ﴿الْعَذَابَ﴾؛ أي: العذاب الذي يستوجبونه بظلمهم، وهو عذاب جهنم بعد شهادة الشهداء عليهم.. صاحوا وطلبوا من مالك الخازن تخفيف العذاب، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون قبله ليستريحوا، فعذابهم يكون دائماً لأن التوبة هناك غير موجودة.

---

(١) روح البيان.

أي: وإذا عاين هؤلاء الذين كذّبوا وجحدوا نبوة الأنبياء ـ وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين ـ عذاب الله.. فلا ينجيهم منه شيء، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون، فيخفف عنهم بهذا العذر الذي يدعون، ولا يرجؤون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، وإنما ذلك وقت الجزاء على الأعمال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

ونحو الآية قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ الثبور: الهلاك.

ثم أخبر سبحانه عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ أي: إذا أبصروا يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام التي يسمونها شركاء الله تعالى، وأوثانهم التي عبدوها.. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المشركون يا ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾؛ أي: آلهتنا التي جعلناها شركاء لك في الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟﴾ هم ونعبدهم ﴿مِن دُونِكَ﴾؛ أي: متجاوزين عبادتك؛ أي: هؤلاء الذين كنا نقول: إنهم شركاء الله في المعبودية، وهذا[1] اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، والتماس بتوزيع العذاب بينهم.

أي: وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دونه من الأوثان والآلهة التي عبدوها.. قالوا: هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والذين كنا ندعوهم آلهةً من دونك، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعاً في توزيع العذاب بينهم، أو إحالة الذنب عليهم، تعللاً بذلك واسترواحاً، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر تبرء آلهتهم منهم، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم، لو كانوا ينصرون ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي: شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ﴾؛ أي: إلى المشركين ﴿الْقَوْلَ﴾ والجواب، يقال: ألقيت إلى فلان كذا؛ أي: قلت؛ أي: أنطقهم الله تعالى فأجابوهم بالتكذيب، وقالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ في إدّعائكم أننا شركاء لله، إذ ما أمرناكم بعبادتنا، وكنا مشغولين بتسبيح الله وطاعته، فارغين عنكم وعن أحوالكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

أي: فبادر[1] شركاؤهم بالجواب إلى المشركين بقولهم: إنكم لكاذبون في قولكم إنا نستحق العبادة، وإنكم عبدتمونا حقيقةً، بل إنما عبدتم أهواءكم.

والمعنى: أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول، والمقصود[2] من إعادتها وبعثها أن تكذب الكفار، ويراها الكفار، وهي في غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غمًّا وحسرةً.

ونحو الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾.

﴿وَأَلْقَوْا﴾ أي: المشركون ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾؛ أي: الاستسلام والانقياد لحكمه بعد الاستكبار عنه في الدنيا؛ أي: أسرع[3] المشركون إلى الله يومئذٍ؛ أي يوم إذ تخاصموا مع آلهتهم، وهو يوم القيمة؛ أي: أسرعوا إلى الله بالانقياد والاستسلام لحكمه، فأقروا بالبراءة عن الشركاء، وبربوبية الله، بعد أن كانوا في الدنيا متكبرين عنه، لما عجزوا عن الجواب، لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم، لانقطاع التكليف.

وروى يعقوب عن أبي عمرو: ﴿السلم﴾ بسكون اللام، وقرأ مجاهد: بضم

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) المراح.

السين واللام. فإن قلت: كيف[1] أثبت للأصنام نطقا هنا، ونفاه عنها في قوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾؟

فالجواب: أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها، والمنفي عنهم في الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم، ودفع العذاب عنهم، فلا تنافي اهـ «كرخي».

﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: ضاع وبطل وذهب وزال ﴿عَنْهُم﴾؛ أي: عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: افتراؤهم من أنَّ لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم، وذلك حين كذَّبوهم وتبرؤوا منهم، أو ذهب[2] وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا شفيع، ولا ولي مما كانوا يزعمونه في الدنيا، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.

وبعد أن ذكر عذاب المضادِّين.. بيّن عذاب الضالين المضلين فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن طريق الحق، وهي طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها، وحملوهم على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ بحيَّاتٍ[3] وعقارب وجوع وعطش وزمهرير وغير ذلك ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ بالنار، فيخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة البرد إلى النار.

أي[4]: زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم، فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم، وقيل: زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم؛ أي: أشد منه، وقيل: إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير، وقيل غير ذلك، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾؛ أي: بسبب إفسادهم بذلك الصد.

والمعنى: أي[5] الذين جحدوا نبوتك، وكذبوك فيما جئتهم به من عند

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.

ربك، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله من أراده.. زدناهم عذاباً فوق عذابهم الذي يستحقونه بكفرهم، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله.

وخلاصة ذلك: أنهم يعذبون عذابين، عذاباً على الكفر، وعذاباً على الإضلال وصد الناس عن اتباع الحق، وفي الآية دليلٌ على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم فيها.

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمداً ﷺ فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم نبعث ونحشر ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: نبياً يشهد ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من[1] جنسهم، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة، لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم، ولوط - عليه السلام - لمَّا تأهل فيهم وسكن فيما بينهم.. كان منهم، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إشعارٌ بأن شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمحضرٍ منهم، وهذا تكرير لما سبق لزيادة التهديد اهـ «أبو السعود»، وعبارة «الخطيب»: ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجهٍ يزيد على ما أفهمته الآية السابقة، وهو أن الشهادة تقع على الأمم لا لهم، وتكون بحضرتهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ إلخ اهـ، وقيل معنى: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: أعضاؤهم[2] فالله تعالى ينطق عشرةً من أعضاء الإنسان حتى إنها تشهد عليه، وهي العينان والأذنان والرجلان واليدان والجلد واللسان.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ معطوفٌ على ﴿نبعث﴾: أي: واذكر يوم جئنا بك يا محمد، وهو يوم القيامة؛ أي: يوم نأتي بك حالة كونك ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: على قومك وأمتك، بما أجابوك وبما عملوا فيما أرسلناك به إليهم. وعبر بالماضي إشارةً إلى تحقق وقوعه، وتم الكلام هنا، ثم استأنف بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ الكامل في الكتابية، الحقيق بأن يخص به اسم الجنس، وهو القرآن الكريم؛ أي: نزلناه عليك في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع، كما يفيده صيغة التفعيل، حالة كونه: ﴿تِبْيَانًا﴾؛ أي: بياناً بليغاً،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

فالتّبيان[1] أخص من مطلق البيان، على القاعدة: أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق[2] بأمور الدين، ومن ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، أو لكل[3] شيء يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة، إما بتبيينه في نفس الكتاب، أو بإحالته على السنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أو بإحالته على الإجماع كما قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، أو على القياس كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن بقوله: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فاندفع ما قيل كيف قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ونحن نجد كثيراً من أحكام الشريعة لم يعلم بالقرآن نصًّا، كعدد ركعات الصلاة، ومدة المسح، والحيض، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة وغير ذلك، ومن ثم اختلفت الأئمة في كثير من الأحكام. اهـ «كرخي».

﴿و﴾ حالة كونه ﴿هدى﴾ للعباد؛ أي: هادياً لهم من طريق الضلال إلى طريق الرشاد، ﴿و﴾ حالة كونه ﴿رحمة﴾ للعالمين إنسهم وجنهم، فإنَّ حرمان الكفرة من مغانم آثار الكتاب من تفريطهم، لا من جهة الكتاب، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾؛ أي: بشارةً بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة، لأنهم المنتفعون بذلك، فهو متعلق بالبشرى، وهو متعلق من حيث المعنى بهدىً ورحمةً أيضاً.

والمعنى[4]: أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبياناً لكل ما بالناس إليه حاجةٌ، من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، والهدىٰ من الضلالة، ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه، فأحل حلاله وحرم حرامه، وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه بجزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة.

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الفتوحات.
(٤) المراغي.

ووجه[1] ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك يوم القيامة عن ذلك، كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادُّك إليه وسائلك عن أداء ما فرض، وتبيان[2] القرآن لأمور الدين إما مباشرة، وإما ببيان الرسول، وقد أمرنا سبحانه باتباع هذا البيان في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية، وقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ولقوله ﷺ: «إني أوتيت القرآن ومثله معه»، وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقد كان كما قال الرسول ﷺ، فاجتهد الأئمة، ووطَّئوا طرق البحث في أمور الدين لمن بعدهم، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء في العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض، ودونوا تشريعاً ينهل منه المسلمون في كل جيلٍ، ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل، وكان أجلَّ تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى، وكذلك من لم يتدين منهم بدين.

ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء.. ذكر عقبه آيةً جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَأْمُرُ﴾كُمْ في هذا الكتاب الكريم الذي أنزله إليك أيها الرسول ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: بالإنصاف، وهو قبول الحق والعمل به، ولا إنصاف أعظم وأجمل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه، والشكر له على إفضاله، وحمده وهو أهل للحمد، ومنع ذلك عمن ليس له بأهل، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئاً منه، فمن الجهل عبادتها وحمدها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، ومن ثم وجب أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صف لي العدل، فقلت: بخٍ سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين.

﴿و﴾ يأمركم بـ ﴿الإحسان﴾ إلى من أساء إليكم، وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء، وقد أمر به النبي ﷺ، وروي عن الشعبي أنه قال: قال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، وقد صح من حديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الإحسان أن تبعد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وفي «الشوكاني»: وقد اختلف[1] أهل العلم في تفسير العدل والإحسان، فقيل العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف والإحسان التفضل، والأول تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط، وهو الغلو المذموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط، وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين، وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب، كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه اللّه تعالى في العبادات وغيرها وقد صح عن النبي ﷺ أنه فسَّر الإحسان بأن يعبد اللّهَ العبدُ حتى كأنه يراه، كما مر آنفاً من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهذا هو معنى الإحسان شرعاً انتهى.

---

(١) الشوكاني.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والقربى مصدر بمعنى القرابة؛ أي: صاحب القرابة لكم؛ أي: ويأمركم الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب المنزل عليك بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه من المال والدعاء بالخير، وهو داخل في الإحسان، وإنما أفرده بالذكر اهتماماً بشأنه، وإظهاراً لجلالة صلة الرحم، وتنبيهاً على فضيلتها، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام، وترغيب في التصدق عليهم، والرحم[1] عام في كل رحم محرماً كان أو غير محرم، وارثاً كان أو غير وارث، من أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات وغير ذلك، وقطع الرحم حرام موجب لسخط الله، وانقطاع ملائكة الرحمة عن بيت القاطع، والصلة واجبةٌ باعثةٌ على كثرة الرزق وزيادة العمر، سريعة التأثير، ومعناها التفقد بالزيادة والإهداء والإعانة بالقول والفعل، وعدم النسيان، وأقله التسليم وإرسال السلام أو المكتوب، ولا توقيت فيها في الشرع، بل العبرة بالعرف والعادة.

﴿وَيَنْهَىٰ﴾ كم سبحانه وتعالى ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: عن الذنوب المفرطة في القبح، قولاً أو فعلاً، كالكذب والبهتان، والاستهانة بالشريعة، والزنى واللواطة ونحوها، وقيل: الفحشاء هي الغلو في الميل إلى القوة الشهوانية، كالزنا وشرب الخمر والسرقة والطمع في مال الناس، ﴿و﴾ عن ﴿المنكر﴾؛ أي: وعما تنكره النفوس الزاكية والعقول الكاملة السليمة، ولا ترتضيه من المساوىء الناشئة من الغضب، كالضرب والقتل والتطاول على الناس، وفي «التأويلات»: المنكر كل ما ينكر به عليك، من إضلال أهل الحق وإغوائهم، وإحداث البدع وإثارة الفتن، كما في أهالي هذا الزمان خصوصاً أصحاب الملاهي، ﴿و﴾ عن ﴿البغي﴾ والظلم والاستيلاء على الناس، والتعدي على حقوقهم، والتطاول عليهم بلا سبب، وتجسس عيوبهم، وغيبتهم، والطعن عليهم، والتجاوز من الحق إلى الباطل ونحو ذلك.

---

(١) روح البيان.

وخلاصة ما سلف[1]: أن الله سبحانه يأمر بالعدل، وهو أداء القدر الواجب من الخير، والإحسان وهو الزيادة في الطاعة، والتعظيم لأمر الله، والشفقة على خلقه، ومن أشرف ذلك صلة الرحم، وينهى عن التغالي في تحصيل اللذات الشهوانية التي يأباها الشرع والعقل، وعن الإفراط في اتباع دواعي الغضب، بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم، وتوجيه البلاء إليهم، وعن التكبر على الناس، والترفع عليهم، وتصعير الخد لهم.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، يذكركم بما ذكره في هذه الآية من الأوامر الثلاثة والنواهي الثلاثة، فإنها كافيةٌ في باب الوعظ والتذكير، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لإرادة أن تتعظوا، فتأتمروا بالأوامر، وتنتهوا عن المناهي، فتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى، وما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم.

وقد أمر[2] الله سبحانه في هذه بثلاثة أشياء، ونهى عن ثلاثة أشياء، وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين، وجميع الخصال المحمودة والمذمومة، ولذلك قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولذا يقرؤها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة، لتكون عظةً جامعة لكل مأمور ومنهي، كما في «المدارك»، وقال السيوطي في «كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل»: أول من قرأ في آخر الخطبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلخ عمر بن عبد العزيز، ولزمها الخطباء إلى عصرنا هذا، وكان النبي ﷺ يقرأ: يقرأ في آخر الخطبة، وكان عمر بن الخطاب يقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾، وكان عثمان بن عفان يقرأ آخر سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الآية، وكان علي بن أبي طالب يقرأ: الكافرون والإخلاص، ذكر ذلك ابن الصلاح، وأول من قرأ في الخطبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية المهديُّ العباسيُّ، وعليه العمل في هذا الزمان؛ أي: في الخطب المطولة.

وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال في الآية الأولى.. ذكر

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بعضها على سبيل التخصيص فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استمروا[١] على الإيفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، وعهد الله هو البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، فإنها مبايعة لله تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ والمبايعة من جهة الرسول هو الوعد بالثواب، ومن جهة الآخر التزام طاعته، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية، ثم هو عام لكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، لأن خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم، ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: إذا عاقدتم بيعة الله وعهده مع الرسول ﷺ، وواثقتموه باليمين، والعهد: العقد والميثاق، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾؛ أي: ولا تحنثوا الأيمان التي تحلفون بها عند المعاهدة؛ أي: لا تحنثوا في الحلف ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: بعد توثيقها وتشديدها وتغليظها بذكر اسمه تعالى، كما في «بحر العلوم»، وهذا القيد لموافقة الواقع، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم في المعاهدة بما ذكر حينئذٍ، فلا مفهوم له، فلا يختص النهي عن النقض بحالة التوكيد، بل نقض اليمين منهي عنه مطلقاً اهـ «أبو السعود»، أو يراد بالتوكيد القصد، ويكون احترازاً عن لغو اليمين، وهي الصادرة من غير قصد للحلف، وقال القرطبي: وإنما قال بعد توكيدها فرقاً بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين اهـ.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: والحال أنكم قد جعلتم الله سبحانه وتعالى شاهداً ورقيباً عليكم، لأن[٢] الكفيل مراعٍ لحال المكفول به مهيمن عليه، فإن[٣] حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف؛ أي: لا تنقضوا الأيمان وقد قلتم الله شاهدٌ علينا بالوفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من النقض والوفاء، فيجازيكم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذا ترغيب وترهيب، والمعنى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: وأوفوا[٤] بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقاً لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه، ويدخل في ذلك كل

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

عهد يلتزمه الإنسان باختياره، والوعد من العهد، ومن ثم قال ميمون بن مهران: من عاهدته وفِّ بعهده مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله تعالى.

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: ولا تخالفوا ما عاقدتم فيه الأيمان، وشددتم فيه على أنفسكم، فتحنثوا فيه وتكذبوا، وتنقضوه بعد إبرامه، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعياً يرعى الموفي منكم بالعهد، والناقض له بالجزاء عليه، ثم وعد وأوعد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في العهود التي تعاهدون الله الوفاء بها، والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبَرُّون فيها، أم تنقضونها، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، وسائلكم عنه، وعما عملتم فيه، فاحذروا أن تلقوه وقد خالفتم أمره ونهيه، فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه.

أخرج ابن جرير عن مزيدة بن جابر[1]: أنَّ الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم يبايع على الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه، وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة.

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في نقض العهد ﴿كَالَّتِي﴾؛ أي: كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾؛ أي: حلت وفكت، والنقض في البناء والحبل وغيره ضد الإبرام، كما في «القاموس» ﴿غَزْلَهَا﴾؛ أي: مغزولها؛ أي: ما غزلته وفتلته من صوف وقطن وغيرهما، ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقض؛ أي: حلته وفكته من بعد إبرام ذلك الغزل وإحكامه، فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾ حال من غزلها، جمع نكث بمعنى منكوث، كحمل وأحمال؛ أي: منكوثاً، وهو كل ما ينكث فتله؛ أي: يحل غزلاً كان أو حبلاً، والمعنى جعلته طاقات نكثت فتلها؛ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون في نقضكم أيمانكم

---

(١) المراغي.

بعد توكيدها وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه، وتنفشه بعد أن جعلته طاقات، حماقةً منها وجهلاً.

قال السُّدِّي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت غزلاً.. نقضته بعد إبرامه، وقال الكلبي ومقاتل: هي ريطة[1] ـ بفتح الراء والطاء المهملتين بينهما تحتية ساكنة ـ بنت عمرو بن سعد القرشية المكية، وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسةٌ، وكانت قد اتخذت مغزلاً قدر ذراع، وسنارةً مثل الأصبع، وهي بكسر السين الحديدة في رأس المغزل، وفلكةً عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر، وتأمر جواريها بالغزل، فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار.. أمرتهن بنقض جميع ما غزلت، فكان هذا دأبها، والمعنى: إن هذه المرأة لم تكف عن العمل، ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك من نقض العهد، لا تركه ولا حين عاهد وفى.

والخلاصة[2]: أنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه، تحذيراً للمخاطبين وتنبيهاً إلى أنَّ هذا ليس من فعل العقلاء، وصاحبه في زمرة الحمق من النساء، وجملة قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ حال من[3] الضمير في: ﴿لا تكونوا﴾؛ أي: لا تكونوا مشابهين بامرأةٍ شأنها هذا، حال كونكم متخذين أيمانكم دخلا ومفسدةً وخديعة بينكم، بسبب ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة قريش ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾؛ أي: أزيد عَدداً وعُدداً وأوفر مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: من جماعة المؤمنين.

أي: ولا تكونوا[4] كالتي نقضت غزلها، حالة كونكم تجعلون أيمانكم ـ التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم ـ خديعةً وغروراً، ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر، وترك الوفاء بالعهد، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عَدداً وعُدداً وأعز نفراً، بل عليكم بالوفاء بالعهود والمحافظة

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

عليها في كل حال.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز نفراً، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفراً، فنهوا عن ذلك، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم، فينقضوا بيعة النبي ﷺ، والظبي وإن كان واحداً فهو خير من قطيع الخنزير.

ومحل ﴿هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ نصب على كونه خبر كان، وفي «المدارك»: ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ مبتدأو خبر في موضع الرفع صفة لأمة، و﴿أُمَّةٌ﴾: فاعل ﴿تكون﴾ وهي تامة، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾؛ أي: بأن تكون أمة هي أربى من أمة؛ أي: يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ إما عائد على المصدر المنسبك من ﴿أَن تَكُونَ﴾ أو على الوفاء بالعهد.

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليبينن لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه، لمجازاة كل فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من إقرار المؤمن بوحدانية ربه، ونبوة نبيه، والوحي إلى أنبيائه، وتكذيب الكافر بذلك كله، وهذا إنذار وتخويف من مخالفة ملة الإسلام ودين الحق، فإنها مؤدية إلى العذاب الأبدي.

وبعد أن أبان أنه كلَّفهم بوفاء العهد، وتحريم نقضه.. أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء، وعلى سائر أبواب الإيمان فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى مشيئة قسر وإلجاء، ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك لكونه مزاحماً للحكمة الإلهية، بل شاء اختلافكم لحكمة لا يعلمها إلا هو، ولذلك ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله بخذلانه إياه عدلاً منه، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته بتوفيقه إياه فضلاً منه، وذلك مما

اقتضته الحكمة الإلهية، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

والمعنى: أي[1] ولو شاء الله سبحانه وتعالى لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة، ولم يجعل لهم اختياراً فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة، مفطورين على طاعة الله، واعتقاد الحق، وعدم الميل إلى الزِّيغ والجور، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين، وعاملين بالاختيار لا مفطورين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم، فللإنسان اختيار أوتيه بحسب استعداده الأزلي، وهو مجبور فيه، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار، الذي يشاهد، وتكون عاقبته الجنة أو النار.

﴿و﴾ عزتي وجلالي ﴿لتسألن﴾ جميعا أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة، لا سؤال استفهام واستفسار ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الوفاء والنقض ونحوهما، فتجزون به، فيجازى المحسن بإحسانه، ويعقاب المسيء بإساءته، أو يغفر له، ثم لما نهاهم[2] سبحانه عن نقض مطلق الأيمان.. نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾؛ أي: ولا تجعلوا أيمانكم أيها المؤمنون ﴿دَخَلًۢا﴾؛ أي: مكراً وخديعة وغدراً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فتغروا بها الناس، فيسكنوا إلى أيمانكم ويأمنوا إليكم، ثم تنقضونها، وإنما كرر[3] هذا المعنى تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظم أمر نقض العهد.

قال المفسرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، نهاهم عن نقض عهده، لأن الوعيد الذي بعده، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض عهد غيره، إنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وبشريعته ﴿فَتَزِلَّ﴾ نصب في جواب النهي؛ أي: فتسقط ﴿قَدَمٌۢ﴾؛ أي: أقدامكم أيها المؤمنون عن محجة الحق ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها، ورسوخها فيها بالإيمان، وإفراد[4] القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

عزت أو هانت محذورٌ عظيمٌ، فكيف بأقدامٍ كثيرةٍ؛ أي: فتزلوا عن طاعة الله، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن الدرجات العالية، ووقع في الضلالة.

﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: العذاب السيء في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾؛ أي: بصدودكم وخروجكم أو بصدكم ومنعكم غيركم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم بالوفاء بالعهود والإيمان، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنةً لغيره، ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد بنقضكم العهد.

ومعنى الآية: أي[1] ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تغرون بها الناس، والمراد نهي المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، ذلك أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام.

وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان، ثم نقضوا ما فعلوا لقلة أهله وكثرة أهل الشرك، فنهوا عن ذلك.

قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ الآية؛ أي: إنكم بعملكم هذا النقض تكونون قد وقعتم في محظورات ثلاثة:

١ - أنكم تضلون وتبعدون عن محجة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها.

٢ - أنكم تكونوا قدوة لسواكم، وتستنون سنةً لغيركم فيها صد عن سبيل الحق، ويكون لكم بها سوء العذاب في الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار.

٣ - أنكم ستعاقبون في الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مجانفة الحق والإعراض عن أهله، والدخول في زمرة أهل الشقاء والضلال.

ثم أكد هذا التحذير بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا؛ أي: لا تستبدلوا بها عوضاً يسيراً؛ أي: لا تأخذوا في مقابلة نقضه عوضاً حقيراً، وهو ما كانت قريش يعدون

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

ضعفة المسلمين، ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تفاوت ما بين العوضين أوفوا بعهدكم واحذروا عن نقضه.

والمعنى: أي ولا تأخذوا في مقابلة نقض العهد عوضاً يسيراً من الدنيا، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله ﷺ، جزعاً مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم للمؤمنين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم، فنبههم الله تعالى بهذه الآية، ونهاهم عن أن يتبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم في الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها.

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا وعظيم ما تركوا بقوله: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: إن ما خبأه الله لكم وادخره من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل في الدنيا، إن كنتم من ذوي العقول الراجحة والأفكار الثاقبة، التي تزن الأمور بميزان الفائدة، وتقدر الفرق بين العوضين.

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ أيها الناس من أعراض الدنيا وإن كثرت ﴿يَنفَدُ﴾؛ أي: يفنى وينقضي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من خزائن رحمته الدنيوية والآخروية ﴿بَاقٍ﴾ لا نفاد له ولا انتهاء ولا انقضاء، وهو حجة على الجهمية القائلين بأن نعيم الجنة يتناهى: ينقطع، ويصح الوقف عليه بثبوت الياء وبحذفها مع سكون القاف، وهما سبعيتان؛ أي: إن ما تتمتعون به من نعيم الدنيا بل الدنيا وما فيها تنفد وتنقضي، وإن طال الأمد وجل العدد، وما في خزائن الله باق لا نفاد له، فلما عنده تعالى فاعملوا، وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا.

ثم رغب سبحانه المؤمنين في الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنعطينَّ ولنثيبن ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على إذاية المشركين، وعلى مشاق التزام تكاليف الإسلام التي من جملتها الوفاء

بالعهود والمواثيق ﴿أَجْرَهُم﴾ الخاص بهم بمقابلة صبرهم على الأمور المذكورة، وهو مفعول ثان لنجزين ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي[1]: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين، والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء، بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات، قيل: وإنما خصّ أحسن أعمالهم لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى ولنجزينهم بجزاءٍ أشرف وأوفر من عملهم، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها، من الجزاء الجزيل لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن، بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن كذا قيل، قال أبو حيان: والذي[2] يظهر أن المراد بالأحسن هنا الصبر؛ أي: ولنجزين الذين صبروا بصبرهم؛ أي: بجزاء صبرهم، وجعل الصبر أحسن الأعمال، لاحتياج جميع التكاليف إليه، وهو أس الأعمال الصالحة ورأسها، فكان الأحسن لذلك، وقرأ عاصم وابن كثير: ﴿ولنجزين﴾ بالنون وباقي السبعة بالياء.

وفي الآية[3]: عدةٌ جميلةٌ باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية.

ثم رغبهم في المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ أيَّ عمل كان قولياً أو فعلياً، وهو ما كان لوجه الله تعالى ورضاه، ليس فيه هوى ولا رياء، والفرق بينهما أن الهوى بالنسبة إلى النفس والرياء بالنسبة إلى الخلق، حال كون ذلك العامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ أي: من رجل أو امرأة، بينه[4] بالنوعين ليعمُّهما الوعد الآتي، ولا يتوهم التخصيص بالذكور بناء على كثرة استعمال لفظ ﴿مَنْ﴾ فيهم، وأن الإناث لا

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

يدخلن في أكثر الأحكام والمحاورات إلا بطريق التغليب أو التبعية ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك العامل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ مخلص، قيده به إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فيعيش عيشاً طيباً لأنه إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فلا يدعه الحرص وخوف القوت أن يتهنأ بعيشه، واللام في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ لام قسم، وكذا في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ونعطين أولئك العاملين في الآخرة ﴿أَجْرَهُم﴾ الخاص بهم وثوابهم الجزيل ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يعملون من الصالحات، وإنما أضيف[1] إليه الأحسن للإشعار بكمال حسنه، وقد قدَّمْنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن في حق الصابرين فراجعه، ووحَّد[2] الضمير في ﴿لنحيينه﴾ وجمعه في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ وعلى معناه، وروي[3] عن نافع: ﴿وليجزينهم﴾ بالياء بدل النون التفت من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة.

والمعنى: أي[4] من عمل صالح الأعمال، وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه، وهو مصدق بثوابه الذي وعد به أهل طاعته، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم.. فلنحيينه حياة طيبة تصحبها القناعة بما قسم الله له، والرضا بما قدره وقضاه، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره، والله محسن كريم لا يفعل إلاّ ما فيه المصلحة، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال فلا يقيم لها في نفسه وزناً، فلا يعظم فرحه بوجدانها، ولا غمه بفقدانها، ثم هو بعد ذلك يجزى في الآخرة أحسن الجزاء، ويثاب أجمل الثواب، جزاء ما قدم من عمل صالح، وتحلى به من إيمان صادق، أما من أعرض عن ذكر الله تعالى، فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً.. فهو في عناء ونكد، إذ يكون شديد الحرص والطمع في الحصول على

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

لذات الدنيا، فإن أصابته محنة أو بلاءٌ.. استعظم أمره، وعظمت أحزانه، وكثر غمه وكدره، وإذا فاته شيء من خيراتها.. عبس وبسر، وامتلأ قلبه أسى وحسرةً، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة في الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها، فإذا هو لم ينل منه ما يريد.. فقد حرم كل ما يحلم به ويقدِّره من وافر السعادة وعظيم الخير، والإنسان بطبعه جزوعٌ هلوع منوعٌ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير».

وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به».

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به أيضاً، وهو في محل المفعول الثاني، أو حال من ﴿سَكَنًا﴾، لأنه صفة نكرةٍ قدمت عليه ﴿سَكَنًا﴾: مفعول أول وفي «الفتوحات»: قوله ﴿سَكَنًا﴾ يجوز[1] أن يكون مفعولاً أول على أن الجعل بمعنى التصيير، والمفعول الثاني أحد الجارين قبله، ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق فيتعدى لواحد انتهى، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض

---

(١) الفتوحات.

معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: متعلق به أيضاً، ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول أول، أو مفعول به إن كان ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خلق، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تستخفون﴾، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ المقدر ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ معطوف على ﴿أَصْوَافِهَا﴾، ﴿أَثَٰثًا﴾ معطوف على ﴿سَكَنًا﴾، وقد فصل[1] بينه وبين حرف العطف بالجار والمجرور وهو قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾، وليس بفصل مستقبح كما زعم في «الإيضاح» لأنَّ الجار والمجرور مفعول، وتقديم مفعول على مفعول قياسي، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوف على ﴿أَثَٰثًا﴾ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾؛ أي؛ منتفعين بهما إلى حين انقضاء الحاجة إليهما.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿جعل﴾، ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما خلقه، ﴿ظِلَٰلًا﴾: مفعول ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ قبله، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ﴾: متعلق به أيضاً، وهو في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿أَكْنَٰنًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ أيضاً، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَرَٰبِيلَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، والجملة صفة لـ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ معطوف على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ الأولى، ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿سَرَٰبِيلَ﴾، والجملة صفة لـ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، والتقدير: يتم نعمته عليكم إتماماً مثل إتمامه عليكم النعمة المذكورة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُسْلِمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ مستأنفةٌ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا بلَّغتهم ما أرسلت به إليهم، وأردت بيان حكم ما إذا أعرضوا عنه.. فأقول لك ﴿إن تولوا﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا تَبْخَع نَفْسَك حسراتٍ عليهم، والجملة الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ ﴿البلاغ﴾، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية، والتقدير: فإن تولوا فلا قصور عليك في حقهم لعدم كون غير البلاغ عليك؛ أي: ليست هدايتهم عليك. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يَعْرِفُونَ﴾، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف، تقديره: واذْكُر يوم نبعث،

﴿نَبۡعَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: مفعول به، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُؤۡذَنُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤۡذَنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤۡذَنُ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَءَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿ظَلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا هُمۡ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لا يُنظَرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لا يخفف﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُوا۟ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡا۟ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿رَءَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿إذا﴾ ﴿أَشۡرَكُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿شُرَكَآءَهُمۡ﴾: مفعول به لـ ﴿رأى﴾ لأنها بصرية، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿رَبَّنَا﴾: إلى قوله: ﴿فَأَلۡقَوۡا۟﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾،

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَدۡعُواْ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِكَۖ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَدۡعُواْ﴾؛ أي: حالة كوننا متجاوزين بعبادتنا إلى غيرك، ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألقوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِلَيۡهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿ألقوا﴾ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾: مفعول به، ﴿إِنَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقالوا إنكم لكاذبون.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وكذا يتعلق به الظرف في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به، ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماض، ﴿عَنۡهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل واسمه، وجملة ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: وضل عنهم افتراؤهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته، ﴿وَصَدُّواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿صَدُّوا﴾، ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابٗا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إفسادهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿زِدۡنَا﴾.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم، ﴿نَبۡعَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾، ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: مفعول به، ﴿عَلَيۡهِم﴾: متعلق به، ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾: صفة ﴿شَهِيدًا﴾، ﴿وَجِئۡنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿نَبۡعَثُ﴾، ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿جِئۡنَا﴾، ﴿شَهِيدًا﴾: حال من ضمير ﴿بِكَ﴾، ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿وَنَزَّلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾: حال من ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أو مفعول لأجله، ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ﴾: معطوفات على ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾ ﴿لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بشرى﴾، وهو متعلق من حيث المعنى بهدى ورحمة أيضاً اهـ «سمين».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَأۡمُرُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾: متعلق بـ﴿يَأۡمُرُ﴾. ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: معطوفان عليه، ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَأۡمُرُ﴾، ﴿عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾: معطوفان على ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، ﴿يَعِظُكُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَأۡمُرُ﴾ ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾.

﴿وَأَوْفُواْ﴾: فعل وفاعل، مستأنف، ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل مجرد من معنى الشرط متعلق بـ ﴿أوفوا﴾، ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أوفوا﴾، ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، ﴿كَفِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تفعلونه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، ﴿كَٱلَّتِى﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَنقُضُواْ﴾، ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَقَضَتْ﴾ ﴿أَنكَٰثًا﴾: حال من ﴿غَزْلَهَا﴾، أو مفعول ثان لـ﴿نَقَضَتْ﴾ إذا كان بمعنى صَيَّرَتْ، أو منصوب على المفعولية المطلقة لأنه موافق لعامله في المعنى، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿دَخَلًۢا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿تَكُونُواْ﴾؛ أي: حالة كونكم متخذين أيمانكم دخلاً بينكم، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾: ناصب وفعل ناقص واسمه، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ، ﴿أَرْبَىٰ﴾: خبره، ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْبَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام المقدرة؛ أي: لأجل كون أمة أربى

وأكثر من أمة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تتخذون﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿يبينن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، وكذا يتعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ ﴿يبين﴾. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿جعلكم أمة﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة لـ ﴿أُمَّةً﴾، والجملة الفعلية جواب لـ ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدارك، ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إضلاله، وجملة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، مرفوع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، وهو المفعول الأول لِسَأل، لأنَّ أصله لَتُسْأَلُونَنَّ، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تسألن﴾ وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿سأل﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص

واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عمّا كنتم تعملونه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿دَخَلَۢا﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَتَزِلَّ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية ﴿تَزِلّ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿قَدَمُۢ﴾: فاعل، ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَزِلّ﴾ ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تزل﴾، وجملة ﴿تزل﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر مُتصيِّد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، والتقدير: لا يكن اتخاذكم أيمانكم دخلاً بينكم فزلة قدم بعد ثبوتها وذوقكم السوء، ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿ما﴾: مصدرية ﴿صَدَدتُّمۡ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿ما﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: بسبب صدكم عن سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تذوقوا﴾، ﴿وَلَكُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٞ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تذوقوا﴾.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾، ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تشتروا﴾، ﴿ثَمَنٗا﴾: مفعول به، ﴿قَلِيلًاۚ﴾: صفة ﴿ثَمَنٗا﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسمها، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿خَيۡرٞ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ ﴿لَّكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿خَيۡرٞ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما

قبلها، وفي رسم ﴿إنَّ﴾ هذه اختلاف بين المصاحف العثمانية، ففي بعضها وصلها بـ ﴿ما﴾، وفي بعضها فصلها عنها، كما ذكره ابن الجزري بقوله:

وخُلْفُ الأنفَالِ ونَحْلٍ وَقَعا

﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون تفاوت ما بين العوضين فأوفوا بعهد الله واحذروا نقضه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿مَا﴾: مبتدأ، ﴿عِندَكُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿يَنفَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، وجملة ﴿يَنفَدُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وصلته، ﴿بَاقٍ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نجزين﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿صَبَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَجْرَهُم﴾: مفعول ﴿نجزين﴾، ﴿بِأَحْسَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجزين﴾ و﴿الباء﴾ بمعنى على، ﴿أحسن﴾ مضاف، ﴿مَا﴾: موصولة في محل الجر مضاف إليه، ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿عَمِلَ﴾: فعل ماض، وفاعله

ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾ أيضاً، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿نحيين﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و﴿الهاء﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿حَيَوٰةً﴾: مفعول مطلق، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿حَيَوٰةً﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نجزينهم أجرهم﴾ فعل ومفعولان ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول، على كونها جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿بِأَحْسَنِ﴾: متعلق بـ﴿نجزين﴾، و﴿الباء﴾ بمعنى على، ﴿أحسن﴾ مضاف، ﴿مَا﴾: في محل الجر مضاف إليه، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها نظير ما تقدم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَكَنًا﴾؛ أي: مسكناً، وقال أهل اللغة: السكن فَعَلٌ بمعنى مفعول، كالقبض والنفض بمعنى المقبوض والمنفوض اهـ «سمين»؛ أي: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ والظَّعْنُ بسكون العين وفتحها: السَّيْرُ في البادية لِنُجْعَةٍ أو طلب ماءٍ أو مَرْتَعٍ، والأصواف للضأن، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز، والأثاث متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها، ولا واحد له من لفظه، والمتاع ما يستمتع وينتفع به في المتجر والمعاش، وقال في «القاموس»: الأثاث متاع البيت بلا واحد، أو المال أجمع، والواحدة أثاثة، والمتاع ما تمتعت به من الحوائج، والجمع أمتعة اهـ.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى مدة من الزمان، فإنها لصلابتها تبقى مدةً مديدةً، أو إلى انقضاء آجالكم، ﴿ظِلَٰلًا﴾ جمع ظل، وهو ما يستظل به؛ أي: أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام والشجر والجبل وغيرها، ﴿أَكْنَٰنًا﴾، جمع كن، وهو ما يستكن به؛ أي: مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغِيران والسُّروب في الجبل، وفي «المختار»: الكن: السترة، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ والأكنة الأغطية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الواحد كنان، وقال الكسائي: كن الشيء ستره وبابه ردَّ اهـ، وفي «القاموس»: الكِن بالكسر وقاء كل شيء وستره، كالكنة والكنان بكسرهما، والكن البيت جمعه كنان وأكنة، وكنه كنا وكنوناً، وأكنه وكننه واكتنه ستره، واستكن: استتر كاكتن، والكنة جناح يخرج من حائط، أو سقيفة فوق باب الدار، أو ظلة هنالك أو مخدع اهـ.

﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ جمع سربال، وهو القميص من القطن والكتّان والصوف وغيرها، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وسرابيل الحرب الجواشن والدروع، والبأس الشدة في الحرب والقتل والجراحة كما في «التبيان» ويراد به هنا الحرب.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فعل ماض من باب تفعل، أو مضارع حذفت منه إحدى التاءين، وفي صيغة التفعل إشارةٌ إلى أن الفطرة الأولى داعية إلى الإقبال على الله، والإعراض لا يكون إلا بنوع تكلفٍ ومعالجةٍ، ذكره في «روح البيان».

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ البلاغ اسم مصدر لبلغ بمعنى التبليغ، الذي هو مصدر بلغ المضعف، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ الأمة الجيل من الناس، وشهيد كل أمة نبيها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال استعتبه وأعتبه إذا رضي عنه، واستعتبت فلاناً يعني أعتبته؛ أي: أزلت عتباه، واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر، قالوا: استدنيت فلاناً وأدنيته بمعنى واحد، وقيل: السين على بابها من الطلب بمعنى لا يطلبون عتباهم؛ أي: رجوعهم إلى الدنيا، وفي «المختار»: عتب عليه وجد ـ وبابه ضرب ونصر ـ

ومعتباً أيضاً بفتح التاء، والتعتب كالعتب، والاسم المعتبة بفتح التاء وكسرها، قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة، وعاتبه معاتبة وعتاباً، وأعتبه سره بعد ما ساءه، والاسم منه العتبى، ويقال استعتبه فأعتبه؛ أي: استرضاه فأرضاه انتهى.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ والشركاء الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة، ﴿نَدْعُوا۟﴾ نعبد، ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أصله فألقيوا، لأنه من ألقى تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف والواو ثم حذفت الألف فصار فألقوا، و﴿ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد، ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع وبطل، والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل، ومن بعدهم إلى يوم القيامة.

﴿تِبْيَـٰنًا﴾؛ أي: بياناً لأمور الدين إمَّا نصًّا فيها، أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين في كل عصر، وهو مصدر بين بياناً وتبييناً وتبياناً، زيدت التاء للمبالغة، ولم يجيء من المصدر على هذه الزنة إلاَّ لفظان هذا والتلقاء، وفي الأسماء كثير نحو التمساح والتمثال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ و﴿العدل﴾ لغة المساواة في كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه، والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر، ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالعفو عنه، ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر، ﴿والفحشاء﴾ ما قبح من القول والفعل، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول من دواعي القوة الغضبية، كالضرب الشديد والقتل، والتطاول على الناس، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء على الناس، والتجبر عليهم بالظلم والعدوان، والوعظ: التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد، والعهد: كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد، ونقض اليمين: الحنث فيها، وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض، و﴿تَوْكِيدِهَا﴾ توثيقها، والتشديد فيها بزيادة الأسماء والصفات فيها، والتوكيد مصدر وكد يوكد

بالواو، وفيه لغة أخرى: أكد يؤكد بالهمزة، ومعناه التقوية، وهذا كقولهم: ورخت الكتاب وأرخته، وليست الهمزة بدلاً من واو كما زعم أبو إسحاق، لأن الاستعمالين في المادتين متساويان، فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر، وتبع مكيٌّ الزجاج في ذلك ثم قال: ولا يحسن أن يقال الواو بدل من الهمزة، كما لا يحسن أن يقال في أحد إنَّ أصله وحدٌ، فالهمزة بدل من الواو، يعني أنه لا قائل بذلك، وتبعه الزمخشري أيضاً، وتوكيدها مصدر مضاف لمفعوله اهـ «سمين»؛ أي: بعد توكيدكم لها.

﴿كَفِيلًا﴾؛ أي: شاهداً ورقيباً، و﴿الغزل﴾ ما غزل من صوف وقطن ونحوهما، ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ القوة هنا الإبرام والإحكام، ﴿أَنكَٰثًا﴾ والأنكاث جمع نكث بكسر النون، كأحمال وحمل، وهو ما ينكث فتله وينقض بعد غزله، وفي «المصباح»: نكث الرجل العهد نكثاً ـ من باب قتل نقضه ونبذه ـ فانتكث مثل نقضه فانتقض، ونكث الكساء وغيره نقضه أيضاً، والنكث بالكسر ما نقض ليغزل ثانياً، والجمع أنكاث مثل حمل وأحمال اهـ.

﴿دَخَلًۢا﴾ والدَّخل بفتحتين المكر والخديعة والفساد، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، والدخل ما يدخل في الشيء وليس منه، وأصل الدخل العيب. والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه اهـ شيخنا، ويراد به هنا أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ﴾؛ أي: أكثر وأوفر عدادا وعدداً، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ زلّة القدم بعد ثبوتها: مثلٌ يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة، وبلاءٍ بعد عافية، ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ إما من صدَّ اللازم؛ أي: بامتناعكم منها، أو من صَدَّ المتعدي؛ أي: بمنعكم غيركم، وفي «المصباح»: صددته عن كذا صدًّا، من باب قتل، منعته وصرفته، وصددت عنه أعرضت، وصد من كذا يصد من باب ضرب وضحك اهـ.

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ والنفاد الفناء والذهاب، يقال: نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفاداً ونفوداً، وأما نفذاً بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح، ينفذ بالضم، ويقال:

أنفذ القوم، إذا فني زادهم اهـ «سمين»، والحياة الطيبة: هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما في ذلك من الكد والعناء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إن قلنا: إن المراد بالبيوت المتخذة من جلودها الخيام المتخذة من الصوف والوبر والشعر.. فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، من حيث إنها نابتة على جلودها، فيصدق عليها أنها من جلودها، كما أشار إليه في «الجَمَل».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَعْرِفُونَ﴾، وقوله: ﴿يُنكِرُونَهَا﴾، وفي قوله: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ و﴿إِقَامَتِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، والاكتفاء عندهم ذكر أحد متقابلين وحذف الآخر لعلمه من المذكور.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ لزيادة التهديد.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ إن قلنا: إنه ماض مسند إلى ضمير الغائب، ويصح أن يكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين، وأصله تتولوا، فهو حينئذٍ على الظاهر، فلا التفات فيه.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه في قوله: ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام فيه وفي غيره.

ومنها: إيثار صيغة الاستقبال في قوله: ﴿يَأْمُرُ﴾ ﴿وَيَنْهَىٰ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار كما ذكره «أبو السعود».

ومنها: حذف متعلقات العدل والإحسان والبغي؛ ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به إليه ويُبغى فيه.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأن الترجّي والتمني ليس مراداً من لعل، لأن ذلك محالٌ على الله سبحانه وتعالى، فوجب أن يكون معناه: أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تذكروا طاعته اهـ «كرخي».

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ الآية، شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه، في القبح وعدم النفع بعمله.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين، والتمكن فيه، لأن أصل الثبات يكون بالقدم، ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عن محلها.. عبر عنه بالإنزلاق الحسي على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: إفراد القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أيَّ قدم كانت عزت أو هانت محذورٌ عظيم، فكيف بأقدام كثيرة اهـ «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
(١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي
يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا
يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)
ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ
مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ۞ يَوْمَ تَأْتِي
كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ
فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ
وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا
لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ
بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم.. أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان.

وعبارة أبي حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وذكر أشياء مما بيّن في الكتاب، ثم ذكر قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ذكر ما يصون به القارىء قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه، فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة، فإن كان الخطاب للرسول الله ﷺ لفظاً فالمراد أُمته، إذ كانت قراءة القرآن من أجل الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث: «إنَّ ثواب قراءة كل حرف عشر حسنات».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[3] بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن.. أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته، بإلقاء الشبهات والشكوك لدى منكري نبوة محمد ﷺ، وقد ذكر منها شبهتين:

١ ـ أنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعةً ماضية، فيعيرون محمداً بذلك.

٢ ـ أنهم قالوا: إنَّ ما جاء به إنما هو تعليم من البشر، من بعض أهل الكتاب، لا من الله، فأبطل هذه الشبهات بأنه كلام عربي مبين، وما نسبتم إليه تعليمه أعجمي، فكيف يعلمه الكلام العربي الفصيح، الذي أعجز العرب قاطبةً أن يأتوا بمثله.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[4] في الآيات

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

السالفة أن قريشاً كفروا برسول الله ﷺ، وتقولوا عليه الأقاويل، فوصفوه بأنه مفتر، وأن الكتاب الذي جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله، ثم هدّدهم على ذلك أعظم تهديد.. أردف ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه مليء بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه مليءٌ بالإيمان.. أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم، فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين أبائهم وأجدادهم، ثم فروا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه، وانتظموا في سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين فحكم ربهم بقبول توبتهم، ودخولهم في زمرة الصالحين، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما هدد الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة.. أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد، بعد أمن واطمئنان وعيش رغد.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[2] حال من كفروا بأنعم الله، وكذبوا رسوله، وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف، بسبب ظلمهم لأنفسهم، وصدهم عن سبيل الله.. قفى على ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب، وشكرهم لنعمة الله عليهم، وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى، كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم، ثم بين ما حرمه من المآكل، وأنَّ التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنص من الدين، لا بالهوى

---

(١) المراغي.	(٢) المراغي.

والتشهي، لأن ذلك افتراء على الله، ومن يفتر عليه لا يفلح، وأنَّ ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل في سورة الأنعام، وأنَّ من يعمل السوء لعدم تدبره في العواقب كغلبة الشهوة عليه، ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله فإن الله غفور لزلاته رحيم له، فيثيبه على طاعته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما(١) أخرجه ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قَيناً بمكة اسمه بَلْعَام، وكان نصرانياً أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، أحدهما يقال له يسارٌ والآخر جبرٌ، وكانا صيقليين، فكانا يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا: إنما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة.. أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ.. حدثه، فقال: «كيف كان قلبك حين قلت، أكان منشرحاً بالذي قلت»، قال: لا، فأنزل الله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ...﴾.

وأخرج(٢) عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة: أن هاجروا، فخرجوا يريدون المدينة،

---

(١) لباب النقول. (٢) لباب النقول.

فأدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾ إلى آخر الآية، قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية، لا عذرلهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١٠﴾ فكتبوا إليهم بذلك، إن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فأدركهم المشركون، فقاتلوهم، ثم نجا من نجا، وقتل من قتل الحديث. قال الهيمثي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة.

وأخرج[1] ابن سعد في «الطبقات» عن عمر بن الحكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: فإذا أردت قراءة القرآن. عبّر[2] عن الإرادة بالقراءة على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، إيذاناً بأنَّ المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاسأل الله سبحانه وتعالى أن

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

يُعيذك ويحفظك ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ أي: البعيد عن الخير ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أي: المرجوم بالطرد واللعين؛ أي: من وساوسه وخطراته، كيلا يوسوسك عند القراءة، فإن ناصية كل مخلوق بيده سبحانه، أو قل: أعوذ بالله من الشيطان، وهو المختار من الروايات الأربع عشرة الواردة في ألفاظ الاستعاذة.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والمراد به الأمة، لأنه ﷺ معصوم من الشيطان، وإنما خُصَّ النبي ﷺ به لتعتبر الأمة، وتنتبه إلى أن النبي ﷺ إذا أمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم فغيره أولى بها وأحق، ولمَّا[1] كان الشيطان ساعياً في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، وكانت الاستعاذة بالله مانعةً من ذلك.. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة، حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان.

وعن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة: «قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً والحمد لله ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثته وهمزته، قال: نفخته الكبر، ونفثته السحر، وهمزته الموتة» أخرجه أبو داود، الموتة الجنون.

والفاء في قوله[2]: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ للتعقيب، فظاهر لفظ الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وهو قول أبي هريرة، وإليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري، قالوا: لأن قارىء القرآن يستحق ثواباً عظيماً، وربما حصلت الوساوس في قلب القارىء هل حصل له ذلك الثواب أم لا، فإذا استعاذ بعد القراءة.. اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصاً، فأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، قالوا: ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن.. فاستعذ بالله، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ إلخ، لأن الوسوسة إنما تحصل

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

في أثناء القراءة، فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب عنه الوسوسة أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها.

ومذهب عطاء أن الاستعاذة تجب عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها، لأن الأمر للوجوب واتفق سائر الفقهاء على أنَّ الاستعاذة سنةٌ في الصلاة وغيرها، وقد تقدمت هذه المسألة والخلاف فيها في أوائل سورة الفاتحة.

والاستعاذة[1]: الاعتصام بالله والالتجاء إليه من شر الشيطان ووسوسته، والمراد من الشيطان إبليس، وقيل: هو اسم جنس يطلق على جميع المَرَدةِ من الشياطين، لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإقدار الله إيَّاهم على ذلك.

والمعنى[2]: إذا قصدت الشروع في قراءة القرآن.. فاسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيذك فيها من وساوس الشيطان الرجيم، لئلا يلبس عليك قراءتك، ويمنعك من التدبر التفكر فيها، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ وإذا أمر النبي ﷺ بالاستعاذة مع عصمته منه، فما بالك بسائر أمته.

ثم بين أن الناس فريقان:

فريق لا تسلط له عليهم، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن الشيطان أو الشأن ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربهم، وصدقوا بوحدانيته وقدرته ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون، وإليه يفوضون أمورهم ديناً ودنيا؛ أي: إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله تعالى، ويفوضون أمورهم إليه، وبه يعوذون، وإليه يلتجئون، فلا يقبلون ما يوسوس به، ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته، وعن سفيان الثوري أنه قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم، يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله تعالى من

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

وساوسه، التي ربما جرتهم إلى الوقوع في صغائر الآثام إذا وقعت على سبيل الندرة أو الغفلة.

ولما أمر[1] القارىء بأن يسأل الله تعالى أن يعيذه من وساوسه، وتوهم منه أن له تسلطاً وولايةً على إغواء بني آدم كلهم. . بيَّن الله تعالى أن لا تسلط له على المؤمنين المتوكلين، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلخ في معرض التعليل للأمر بالاستعاذة، وإشارةٌ إلى أن مجرد القول لا ينفع، بل لا بد لمن أراد أن لا يكون للشيطان سبيل عليه أن يجمع بين الإيمان والتوكل.

والفريق الثاني الذين عناهم بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾؛ أي: تسلطه بالغواية والضلالة، وغلبته بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر والإلجاء، فإنه مُنْتَفٍ عن الفريقين، لقوله تعالى حكايةً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وقد أفصح عنه قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: إنما تسلطه وغلبته على الذين يتخذونه وليًّا، ويجعلونه ناصراً لهم، فيحبونه ويطيعونه، ويستجيبون دعوته، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب إغوائه وإضلاله ﴿مُشْرِكُونَ﴾؛ أي: يشركون بربهم غيره في العبادة والطاعة، وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى الله؛ أي: والذين هم مشركون به تعالى غيره من الأصنام وسائر معبوداتهم.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾؛ أي: وإذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من[2] التغليظ والتخفيف في مصالح العباد، وما الشرائع إلا مصالح للعباد في المعاش والمعاد، فالمصالح تدور وهذه الجملة معترضة، لاعتراضها بين الشرط، وهو ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ وجوابه وهو ﴿قَالُوٓاْ﴾ لتوبيخ الكفرة على كونهم ينسبون رسول الله ﷺ إلى الافتراء في التبديل، وللتنبيه على فساد رأيهم؛ أي: والله أعلم بما ينزل أولاً وآخراً من الأحكام والشرائع، التي هي مصالح، ورب شيء يكون مصلحةً في وقت يكون مفسدةً في وقت آخر، فينسخه ويثبت مكانه ما يكون مصلحة لخلقه؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

أي: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الكفار من أهل مكة للنبي ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: مختلقٌ من عند نفسك، كاذب على الله، متقول عليه بما لم يقل، حيث تزعم أنه أمرك بشيء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحةٌ مؤقتة بوقتٍ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب، ومنهج العدل والرفق واللطف، وأقلهم يعلم الحكمة في النسخ، ولكن ينكر عناداً، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها.. تقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر، وغداً ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومعنى الآية: أي[1] وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى - والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل من أحكامه - قال المشركون المكذبون لرسوله ﷺ: إنما أنت يا محمد متقوّل على الله، تأمر بشيء، ثم تنهى عنه، وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حكم بالغة، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عناداً واستكباراً.

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ توبيخ لهم، وإيماءٌ إلى أن التبديل لم يكن عن الهوى، بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ثم إذا أعاده مرةً أخرى.. نهاه عن ذلك الدواء، وأمره بضده، أو بما لا يقرب منه بحسب ما يرى من حال المريض.

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان، والأحوال الملابسة،

---

(١) المراغي.

وقد يطرأ ما يغيِّرها ويستدعي وضع تشريع آخر، يكون أصلح للأحوال المفاجئة، والمشاهدة تدل على صدق هذا فإنا نرى القوانين الوضعية تغير آناً بعد آن، إذا جد ما يستدعي ذلك.

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ قد افتراه فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿نَزَّلَهُ﴾؛ أي: نزل هذا القرآن المدلول عليه بذكر آية، وفي ﴿ينزل﴾[1] و﴿نزَّل﴾ تنبيه على أن إنزاله كان مدرجاً بحسب الوقائع ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: الروح المطهر من الأدناس البشرية، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كحاتم الجود، وطلحة الخير، وقرأ ابن كثير: ﴿نزله روح القدس﴾ بالتخفيف كما في «البيضاوي»، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في موضع الحال؛ أي: نزله حالة كونه متلبساً بكونه حقاً ثابتاً موافقاً للحكمة البالغة المقتضية له، بحيث لا يفارقها إنشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق.

﴿لِيُثَبِّتَ﴾ الله سبحانه وتعالى، أو[2] جبريل مجازاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإيمان، بأن القرآن كلام الله، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال.. رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم، على أن الله تعالى حكيم، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه تعالى، وهما معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ فهما منصوبان باعتبار لفظه المقدّر عليه الإعراب، ومجروران باعتبار المصدر المؤول، والتقدير: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، أو لتثبيت الذين آمنوا وهدايتهم وبشارتهم، وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار، وقرىء[3]: ﴿لِيُثْبِتَ﴾ مخففاً من أثبت الرباعي.

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

وحاصل معنى الآية: أي قل لهم[1] يا محمد قد جاء جبريل من عند ربي بما أتلوه عليكم، واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين، وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلةٍ قاطعةٍ، وبراهين ساطعةٍ على وحدانية خالق الكون، وباهر قدرته، وواسع علمه، وحث على النظر في ملكوت السموات والأرض، وتشريع يرقى بالأمم في أخلاقها وآدابها ومعارفها إلى مستوى لا تدانيها فيه أمةٌ أخرى.

والخلاصة: أنه نافع كل النفع لهم في دينهم ودنياهم، فإذا هم رأوا ذلك.. رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم، كما أن فيه هداية لهم من الزيغ والضلالات، ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماع الطغيان، ويرد الظالم عن ظلمه، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصبهم إرضاء لربهم، وفي هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا كما مر، فهم متزلزلون ضالون، لهم خزيٌ ونكالٌ في الدنيا والآخرة.

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد نعلم علماً مستمراً نحن أن كفار مكة يقولون جهلاً منهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ أي: إنما يعلم محمداً ﷺ هذا الذي يتلوه علينا بشرٌ من بني آدم، وليس بالوحي من عند الله تعالى كما يدَّعي، وكلمة إنما أداة حصر؛ أي: لا يعلم محمداً القرآن إلا بشرٌ، لا جبريل كما يدَّعي، وأدخل[2] قد على الجملة القسمية توكيداً لعلمه بما يقولون، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعد والوعيد لهم، وذكر ابن الحاجب أنهم نقلوا قد إذا دخلت على المضارع من التقليل إلى التحقيق، كما أن ربما في المضارع نقلت من التقليل إلى التحقيق.

قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: عنوا عبدين لنا، أحدهما يقال له يسارٌ، والآخر جبرٌ، وكانا يصنعان السيف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان رسول الله ﷺ يمر عليهما، ويسمع ما يقرآنه، فالمراد بالبشر هنا ذانك الغلامان،

(١) روح البيان.

فرد الله تعالى عليهم وكذبهم في قيلهم، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ مبتدأ وخبر، وكذا ما بعده، والإلحاد الإمالة عن الصواب، من ألحد فلان إذا مال في قوله عن الصواب، والأعجمي هو الذي لا يفصح، وإن كان عربياً، والعجمي هو المنسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً كما سيأتي، والمعنى لغة البشر والرجل الذي يميلون إليه القول عن الاستقامة، ويشيرون إليه أنه يعلم محمداً أعجمية غير بينة، ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: لغةٌ عربيةٌ ذات بيان وفصاحة، فكيف يصدر تعليم محمد عن أعجم، يعني أن القرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، لاشتماله على الإخبار عن الغيب، فإن زعمتم أن بشراً يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا، لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل.

وخلاصة هذا(١): أن ما يسمعه محمد من ذالك البشر كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون هو ما تلقفه منه، هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه، فهو لم يلقف منه اللفظ، لأنَّ ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى، هو معجز من حيث اللفظ، إلا أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس، والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مدداً متطاولة، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئناناً إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سوقي، سمع منه أخباراً بلغة أعجمية، لعله لم يكن يعرف معناها، وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم أنتم أفصح الناس بياناً، وأقواهم حجة وبرهاناً، وأقدرهم على الكلام نظماً ونثراً، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن؟ وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ونهاية السخف:

فدعهم يزعمون الصبح ليلاً ... أيعمى الناظرون عن الضياء

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ الحسن[1]: ﴿اللسان الذي﴾ بتعريف اللسان بأل، والذي صفتُه، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَلْحَدُون﴾ بفتح الياء والحاء من لحد ثلاثياً، وهي قراءة عبد الله بن طلحة والسلمي والأعمش ومجاهد، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وابن القعقاع: ﴿يُلْحِدون﴾ بضم الياء وكسر الحاء من ألحد رباعياً، وهما بمعنى واحد.

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا يصدقون بأن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى، بل يقولون فيها ما يقولون، فيقولون تارة إنها مفتريات، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، سبحانه وتعالى ولا يرشدهم إلى معرفة الحق الذي ينجيهم من عذاب النار، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترحوا من السيئات، ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة إذا وردوا إلى ربهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع، كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العداء لرسوله ﷺ، والتكذيب لآيات الكتاب، ولما نسبوا إلى رسول الله ﷺ الإفتراء بقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ﴾ ويختلقه، والتصريح[2] بالكذب للمبالغة في بيان قبحه، والفرق بين الافتراء والكذب أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، وفاعل يفتري هو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء ألبتة؛ أي: إنما يتخرص الكذب، ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآيته، التي نصبها في الكون، وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته، لأنهم لا يرجون على الصدق ثواباً، ولا يخشون على الكذب عقاباً، وهذه صفاتكم أيها المشركون، لا صفات النبي ﷺ والمؤمنين.

---

(١) روح البيان.

ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكماً صريحاً فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصفون بما ذكر من عدم الإيمان بآيات الله، وهم رجال قريش القائلون لك أيها الرسول إنما أنت مفتر ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، لا أنت، أو الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيته، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل، فاللام للجنس والحقيقة، ويدّعي قصر الجنس في المشار إليهم مبالغة في كمالهم في الكذب، وعدم الاعتداد بكذب غيرهم، وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض، ليكون ميسم خزي وعارٍ لهم.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: من تلفظ بكلمة الكفر ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ به تعالى، كابن حنظلٍ وطعمة بن أبيرق وأمثالهما، فعليه غضب من الله، فمن موصولة مبتدأ وخبره محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه، ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ وأجبر على التلفظ بكلمة الكفر بأمر لا طاقة له به[1]، كالتخويف بالقتل والضرب الشديد، والإيلامات القوية، كالتحريق بالنار، مما يخاف منه على نفسه، أو على عضو من أعضائه فتلفظ بها ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ أي: والحال أن قلبه مطمئن مليءٌ بالإيمان، لم تتغير عقيدته، فليس على هذا المكره غضب من الله، لأنه لم يكفر وفي هذا دليل على أن الإيمان المنجي المعتبر عند الله تعالى هو التصديق بالقلب.

فإن قلت:[2] المكره على الكفر ليس بكافر، فلا يصح استثنائه من الكافر، فما معنى هذا الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾؟

قلت: المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعاً.. صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة. والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن مَّن﴾ لم يك كذلك بل ﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ أي: انشرح به قلباً، وطاب به نفساً، واعتقده ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى وعقوبة شديدة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ أي: عذاب شديد، والعذاب والعقاب الإيجاع الشديد،

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

وتقديم الظرف فيهما للاختصاص، كما سيأتي في مبحث البلاغة، وللدلالة على أنهم أحقاء بغضب الله وعذابه العظيم، لاختصاصهم بعظيم الجرم وهو الارتداد.

ومعنى الآية: أي إنَّ من[1] كفر بالله بعد الإيمان والتبصر.. فعليه غضب من الله، إلا إذا أكره على ذلك وقلبه مليءٌ بالإيمان بالله، والتصديق برسوله، فلا تثريب عليه، كما فعل عمار بن ياسر.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر، واعتقدوه طائعين مختارين، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم.

ثم بين سبب هذا الغضب فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضب من الله والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: سبب أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة، ﴿و﴾ بسبب ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علمه المحيط، فلا يعصمهم[2] من الزيغ وما يؤدِّي إليه من الغضب والعذاب العظيم، ولولا أحد الأمرين: إما إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وإمَّا عدم هداية الله تعالى للكافرين هداية قسر، بأن آثروا الآخرة على الدنيا، أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر.. لما كان لذلك الغضب العظيم، والعذاب الشديد، لكن الثاني مخالف للحكمة، والأول مما لا يدخل تحت الوقوع.

أي: وبسبب أنَّ الله لا يوفق من يجحد آياته، ويصر على إنكارها، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير، بما زينت له نفسه، وسولت له من عظيم الجرم وكبير الإثم، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعي الإيمان بما يمليه عليه الشيطان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وختمها بخاتم الرين والضلال، فلا يؤمنون ولا يهتدون ﴿و﴾ طبع على ﴿سمعهم﴾ وأصمه، فلا يسمعون داعي الله إلى الهدى، ﴿و﴾ على ﴿أبصارهم﴾

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وأعماها، فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر متعظ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر، ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حق حقاً وثبت ثبوتاً ﴿أَنَّهُمۡ﴾؛ أي: أنَّ هؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها، وضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد، ولله در من قال:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس   عليه من الإنفاق في غير واجب

فما المرء في هذه الحياة إلا كالتاجر يشتري بطاعة ربه سعادة الآخرة، فإذا لم يفعل من ذلك شيئاً.. خسرت تجارته، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال في جهنم وبئس القرار، وقد حكم[1] الله تعالى على هؤلاء الكافرين بستة أشياء:

١ - استوجبوا غضب الله.

٢ - استحقوا عقابه العظيم.

٣ - أنهم استحبوا الحياة الدنيا.

٤ - أن الله حرمهم من الهداية للطريق القويم.

٥ - أنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

٦ - أنه جعلهم سبحانه من الغافلين.

قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار وسمية، أما الرسول فحماه أبو طالب، وأما أبو بكر فحماه قومه، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ثم أجلسوا في الشمس، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم، ويشتم سمية، ثم طعنها بحربة في ملمس العفة، وقال الآخرون: ما أرادوا به منهم إلا بلالاً، فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد، حتى ملوا فكتفوه، فجعلوا في عنقه حبلاً من ليف، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه

(١) المراغي.

فتركوه، وقال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال، فإن نفسه هانت عليه فتركوه وقال خباب: لقد أوقدوا لي ناراً ما أطفأها إلاّ ودك دهن ظهري.

وكلمة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ للدلالة[1] على تباعد حال هؤلاء - يعني الذين نزلت الآية فيهم - عن حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ متعلق بخبر إنَّ الآتي، والتقدير: ثم إن ربك يا محمد لغفور رحيم للذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وهم عمار وصهيب وخباب وسالم وبلال وغيرهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾؛ أي: عذبوا على الارتداد، وأكرهوا على تلفظ كلمة الكفر، فتلفظوا بما يرضيهم؛ أي: الكفرة مع اطمئنان قلوبهم، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على مشاق الجهاد، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد المهاجرة والجهاد والصبر تأكيد لـ ﴿إِنَّ﴾ الأولى واسمها ومتعلقها، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ بما فعلوا من قبل، خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ الأولى؛ أي: لستور عليهم، محاءٌ لما صدر منهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ منعم عليهم من بعد بالجنة، جزاء على تلك الأفعال الحميدة والخصال المرضية، واعلم[2] أن المهاجرة مفاعلة من الهجرة، وهي الانتقال من أرض إلى أرض، والمجاهدة مفاعلة من الجهد، وهو استفراغ الوسع، وبذل المجهود في طلب المقصود، قال في «التعريفات»: المجاهدة في اللغة المحاربة، وفي الشرع: محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها مما هو مطلوب في الشرع انتهى.

وحاصل معنى الآية: أي إن ربك[3] أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم، وتركوا مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك، وانتقلوا عنهم إلى ديار الإسلام من بعد ما فتنهم المشركون، الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم، إنَّ ربك من بعد أفعالهم هذه لذو

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ستر على ما كان منهم، من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أي: يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه وجميل صنعهم من بعد.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿فتنوا﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: بالعذاب والإكراه على كلمة الكفر، وقرأ ابن عامر: ﴿فَتَنوا﴾ مبنياً للفاعل، والظاهر أن الضمير عائد على الذين هاجروا، فالمعنى: فتنوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول، كما فعل عمار.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب على الظرفية برحيم، والمعنى: إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتي كل نفس تخاصم عن نفسها، وتحاج عنها إلخ، أو على المفعول به، وناصبه اذكر محذوفاً؛ أي: اذكر يا محمد قصة يوم تأتي كل نفس، وهو يوم القيامة، حالة كونها ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتخاصم وتدافع ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: عن ذاتها، فالنفس[(٢)] الأولى بمعنى الجملة، والثانية بمعنى العين والذات، والمعنى: اذكر يا محمد أو يا كل من يصلح للخطاب يوم[(٣)] يأتي كل إنسان حالة كونه يجادل ويخاصم عن ذاته، يسعى في خلاصها بالاعتذار عما أسلفت في الدنيا من عمل، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، لا يهمه شأن غيرها من ولد ووالد وقريب، فيقول: نفسي نفسي، وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، حتى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وقال: رب نفسي؛ أي: أريد نجاة نفسي.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برةٍ أو فاجرةٍ؛ أي: تعطى كل نفس وافياً كاملاً ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: جزاء ما عملت، بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب إشعاراً بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال، وإيثار الإظهار على الإضمار للإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية، وإن كانتا في يوم واحد ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أن كل الخلائق ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ في جزاء أعمالهم؛ أي: لا ينقصون أجورهم، ولا يعاقبون بغير موجب، ولا يزاد في عقابهم على ذنوبهم.

أي وتعطى[1] كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا من طاعة أو معصية، فيجزى المحسن بما قدَّم من إحسان، والمسيء بما أسلف من إساءة، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء.

والخلاصة: أن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره، كما قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، وعن ابن عباس[2] ـ رضي الله عنهما ـ: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد، يقول الروح: يا رب لم يكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، ويقول الجسد خلقتني كالخشب، ليست لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني وأبصرت عيني ومشت رجلي، قال: فيضرب لهما مثلاً، مثل أعمى ومقعد دخلا حائطاً وفيه ثمارٌ، فالأعمى لا يبصر الثمار، والمقعد لا ينالها، فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر، فعليهما العذاب، كذا في «تفسير السمرقندي».

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ ضرب إما مضمن[3] معنى جعل، فتكون ﴿قَرْيَةً﴾ مفعوله الأول و﴿مَثَلًا﴾ مفعوله الثاني، وإنما تأخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها، ويجوز أن يكون ﴿ضَرَبَ﴾ على بابه غير مضمن، ويكون ﴿مَثَلًا﴾ مفعوله، و﴿قَرْيَةً﴾ بدلاً منه، وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، كما قيل إنها أيلة: بلدة بين ينبع ومصر كما في «الكواشي»، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

كسني يوسف»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها عن مثل عاقبتها.

أي: وجعل الله سبحانه وتعالى قرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾؛ أي: ذات[1] أمن من كل مخوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ أي: متوطنة، لا ينتقلون عنها إلى غيرها لحسنها وبهائها، وجملة ﴿كَانَتْ﴾ صفة أولى لقرية؛ أي: جعل سبحانه أهل هذه القرية مثلاً لأهل مكة خاصةً، أو لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، ففعلوا ما فعلوا، فبدل بنعمتهم نقمةً، ودخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً، وجملة قوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ صفة ثانية لقرية، وتغير سبكها عن الصفة الأولى لما أن إتيان رزقها متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمرٌ؛ أي: يأتيها زرق أهلها وأقواتهم حالة كونه: ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها من البر والبحر متعلق بيأتي، ﴿فَكَفَرَتْ﴾؛ أي: كفر أهل تلك القرية ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: بنعمه جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر، وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة، روي أن أهل أيلة كانوا يستنجون بالخبز كما في «الكواشي»، قال بعضهم: الخبز هو الأصل بين النعم الإلهية، ولذا أمر آدم عليه السلام الذي هو أصل البشر بالحراثة، فمن كفر به.. فقد كفر بجميع النعم وتعرض لزوالها.

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: أذاق أهلها، وأصل الذوق بالفم ثم استعير فوضع موضع الابتلاء والاختبار كما في «تفسير أبي الليث» ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾؛ أي: أذاقها الجوع والخوف، المشبهين باللباس بجامع الاشتمال في كل، حتى أكلوا ما تغوطوه، لأن الجزاء من جنس العمل، قال في «الأسئلة

---

(١) روح البيان.

المقحمة»: كيف سمى الجوع لباساً؟ قيل: لأنه يظهر من الهزال وشحوب اللون وضيق الحال ما هو كاللباس، وقال في «الإرشاد»: شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشي للابس، فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ فيما قبل من الكفران، والضمير فيه عائد على المحذوف في قوله ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾؛ أي: قصة أهل قرية، أعاد الضمير أولاً على لفظ قرية، ثم على المضاف المحذوف كقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[1] ﴿والخوف﴾ بالجر عطفاً على الجوع، وروى العباس عن أبي عمرو ﴿والخوف﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لباس﴾، قال صاحب «اللوامح»: ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله: ولباس الخوف، وقرأ عبد الله: ﴿فأذاقها الله الخوف والجوع﴾ ولا يذكر لباس، والذي أقوله: أن هذا تفسير المعنى، لأن المنقول منه مستفيضاً مثل ما في سواد المصحف، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لباس لخوف والجوع﴾ بدأ بمقابل ما بدأ به في قوله: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، وهذا عندي إنما كان في مصحفه قبل أن يجمعوا ما في سواد المصحف الموجود الآن شرقاً وغرباً، ولذلك المستفيض من أبي في القراءة إنما هو كقراءة الجماعة.

والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ عائد على ما عاد عليه في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: ولقد جاء أهل تلك القرية وهي مكة أو غيرها على الخلاف المذكور أولاً ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جنسهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة الكفران، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصل غبَّ ما ذاقوا نبذة من ذلك

(١) البحر المحيط.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ظالمون بالكفران والتكذيب، حيث جعلوا الأول موضع الشكر والثاني موضع التصديق، وفي هذا إيماء[1] إلى تماديهم في الكفر والعناد، وإلى أن ترتب العذاب على التكذيب جري على سنة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وهكذا حال أهل مكة فإنهم كانوا في حرم آمن يتخطف الناس من حولهم، ولا يمر بهم طيف من الخوف، ولا يزعج قلوبهم مزعج، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء، من جميع الأقطار من بر وبحر، فلا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب ضيق الرزق، قال بعضهم من بحر الرجز:

ثَلاثَةٌ لَيْسَ لَهَا نِهَايَه الأَمْنُ والصِحَّةُ والكِفَايَة

وقد جاءهم رسول من أنفسهم، فأنذرهم وحذَّرهم، فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله ﷺ إذ قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فاضطروا إلى أكل الجيف، والكلاب الميتة، والعظام المحرقة، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، من سرايا رسول الله ﷺ، حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط ضررهما أجسامهم لباساً لهم لأن أثرهما وضررهما قد أحاط بهم من كل جانب، فأشبها اللباس الذي يغطي الجسم ويحيط به، وجعل إصابتهم بهما إذاقة دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذي حدث فيهم، كما يكون ذلك حين ذوق شيء مر بشع كريه، إذ يجد الذائق تقززاً واشمئزازاً.

ثم لمَّا[2] وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة.. أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم وغيرها، وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبِّب عن ترك الكفر، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة، والخطاب للمؤمنين على الراجح؛ أي: إذا عرفتم أيها المؤمنين ما حلَّ

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

بأهل تلك القرية من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح واللازم لكم.. فأقول لكم: كلوا واشربوا يا معشر المؤمنين ما رزقكم الله تعالى وأعطاكموه حالة كونه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ أي: لذيذاً تستطيبه النفوس السليمة من بهائم الأنعام التي أحلها لكم، وذروا الخبائث من الميتة والدم، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واشكروه على ما أنعم به عليكم، بتحليله ما أحل لكم، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ لا غيره ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: تخصونه بالعبادة، فتطيعونه فيما يأمركم به، وتنتهون عما ينهاكم عنه، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها.

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات.. بين لهم ما حرَّم عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ ربكم ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾؛ أي: أكلها، وهي كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية إلا السمك والجراد، ﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح؛ أي: المصبوب من العروق، فيجمدونه ويأكلونه، وأما المختلط باللحم فمعفو عنه، والأولى غسله، ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ أي: أكل لحمها، وجميع أجزائها، ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾ ورفع الصوت ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: باسم غير الله كالصنم والولي ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: عند ذبحه، كقول أهل الجاهلية باللات والعزى، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته.

والخلاصة[1]: أنَّ ما سمي عليه غير الله تعالى عند الذبح سواء كان صنماً أو وثناً أو روحاً خبيثاً من جنٍّ، أو روحاً طيباً من إنس كالنبي والولي حياً أو ميتاً، فأكله حرام لما جاء في الحديث: «ملعونٌ مَنْ ذبح لغير الله» سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى، فمن ذبح للسيد البدوي، أو لإبراهيم الدسوقي، أو للسيدة زينب، أو للحسين العروسيّ، أو للأبادر الهرري مثلاً لا يجوز أكل هذا الذبيح، فهذه[2] الآية دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع، فالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع داخلة في الميتة، وما ذبح على النصب داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

ثم ذكر الحال التي يسوغ فيها تناول شيء من هذه المحرمات فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾؛ أي: فمن احتاج حاجةً شديدةً إلى تناول شيء من هذه المحرمات، لمجاعة حلت به، وضرورة دعته إلى أخذ شيء منها حالة كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: ولا متعد قدر الضرورة وسد الرمق، وقيل[1]: معناه غير باغ على الوالي، ولا متعد على الناس، بالخروج لقطع الطريق، فعلىٰ هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية، وجواب من الشرطية محذوف، تقديره: فالله لا يؤاخذه على ذلك، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لذلك المحذوف؛ أي: لأن الله سبحانه وتعالى غفور له، يستر له ما صدر منه من الهفوات، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك.

أمَّا ما حرَّموه من غير ذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوه، مما تقدم في سورة الأنعام، فهو محض افتراءٍ على الله، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة والمائدة والأنعام، وفيها حصر المحرمات في هذه الأربع فحسب.

ثم أكد حصر المحرمات في هذه الأربع، ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ يا أهل مكة ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾؛ أي: في شأن[2] ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة، في قولكم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ من غير ترتيب ذلك الوصف على ملاحظةٍ وفكرٍ، فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه، فاللام بمعنى في متعلقة بتقولوا وما موصولة، وقوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ مفعول به لتقولوا، لأنه بمعنى تذكروا، وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل منه، فالمعنى: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام في شأن ما تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة من غير استناد إلى دليل، فقدم عليه كونه كذباً، وأبدل منه هذا حلال وهذا حرام مبالغةً في كذبهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ذلك مجرَّد وصف باللسان؛ لا حكم عليه، وفي الآية تنبيهٌ للقضاة

---

(1) زاده.
(2) روح البيان.

والمفتين كيلا يقولوا قولاً بغير حجة وبرهان.

وقال الكسائي والزجاج[١]: ﴿ما﴾ هنا مصدريةٌ، وانتصاب الكذب بلا تقولوا؛ أي: لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم، ومعناه لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجةٍ ولا بينةٍ، وقرأ الحسن[٢] وابن عمر وطلحة والأعرج وابن أبي إسحاق وابن عبيد ونعيم بن ميسرة: ﴿الكذبِ﴾ بكسر الباء، وخرج على أن يكون بدلاً مِنْ ﴿ما﴾ والمعنى الذي تصفه ألسنتكم الكذب، وأجاز الزمخشري وغير أن يكون ﴿الكذب﴾ بالجر صفةً لما المصدرية، قال الزمخشري: كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب، وقرأ معاذ وابن أبي عبلة وبعض أهل الشام: ﴿الكُذُبُ﴾ بضم الثلاثة صفة للألسنة، جمع كذوب، قال صاحب «اللوامح»: أو جمع كاذب أو كذاب انتهى، وقال ابن عطية: وقرأ مسلمة بن محارب ﴿الكُذَبَ﴾ بفتح الباء على أنه جمع كذاب، ككتب في جمع كتاب، وقال صاحب «اللوامح»: وجاء عن يعقوب الكُذُب بضمتين والنصب، فأما الضمتان فلأنه جمع كذاب وهو مصدر ومثله كتابٌ وكتبٌ.

والمعنى: أي[٣] ولا تقولوا هذا حلالٌ، وهذا حرام بالرأي والهوى، فلا تقولوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرمٌ على أزواجنا، ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير إلخ.

وخلاصة ذلك: لا تحللوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب، وتصويرها له دون استناد إلى دليل، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخصٌ عالمٌ بحقيقته ومحيط بكنهه، يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح، واللام في قوله: ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ لام العاقبة، لا لام الغرض والعلة، لأن الافتراء لم يكن غرضاً، متعلقة بتقولوا؛ أي: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذباً، من غير أن يكون

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

ذلك منه، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون، ولا أحل كثيراً مما تحللون، وإجمال ذلك: لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله حلالاً وحراماً فتكونوا كاذبين عليه، لأن مدار الحل والحرمة عليه ليس إلا حكمه تعالى.

عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا، وقد صدق، فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله ـ لجهله بما فيهما ـ فقد ضل وأضل من يفتيهم، ولله در القائل:

كبهيمةٍ عمياءَ قادَ زِمامَها أعْمَى على عِوَجِ الطَّريقِ الحائرِ

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: عسى رجلٌ يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عز وجل: كذبت، أو يقول إن الله حرَّم كذا أو أحل، فيقول الله له: كذبت.

ثم أوعد المفترين وهدَّدهم أشد التهديد فقال[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: يتخرصون ويتقولون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ في أمورهم صغيرها وكبيرها ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بخير في المطالب التي لأجلها كذبوا على ربهم، إذ هم متى عرفوا بالكذب.. مَجَّهُمُ الناس، وانصرفوا عنهم، وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين، ويكونون مضرب الأمثال في الهوان والصغار، إلى ما يصيبهم من الخزي والوبال يوم القيامة.

ثم بين أن ما يحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئاً مذكوراً إذا قيس بالمضارِّ التي تستجم منه فقال: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة، تنقطع عن قريب ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يردون إليه في الآخرة.

والمعنى: أي إنَّ المنافع التي قد تحصل لهم على ذلك في الدنيا لا يُعْتَدُّ بها في نظر العقلاء، إذا وزن بينها وبين المضار التي في الآخرة، فما متاع الدنيا

---

(١) المراغي.

إلا ظلٌّ زائلٌ، ثم يفنى، ويبقى لهم العذاب الأليم، حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات، ودنسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم، الذي خلقهم وصورهم فأحسن صورهم، ونحو الآية قوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام، أتبعه ببيان ما خصَّ به اليهود من المحرمات فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ أي: وعلى[1] اليهود خاصة، دون غيرهم من الأولين والآخرين ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد بقولنا: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية، و﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بقصصنا؛ أي: من قبل نزول هذه الآية، أو بحرمنا؛ أي: من قبل التحريم على هذه الأمة؛ أي: وحرمنا من قبلك أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام، بقولنا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

ثم بين السبب في ذلك التحريم عليهم فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم، بل جزيناهم ببغيهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم، وتجاوزهم حدوده التي حدها لهم، وانتهاك حرماته، فعوقبوا بهذا التحريم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، وفي هذا إيماءٌ[2] إلى أنَّ ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغي عقوبة وتشديداً، وبه يعلم الفرق في التحريم بينهم وبين غيرهم، فإنه لهم عقوبةٌ، ولنا للمضرَّة فحسب.

ثم بين سبحانه أن الافتراء على الله وانتهاك حرماته لا يمنع من التوبة التي يتقبلها الله منهم، ويغفر زلأتهم رحمةً منه وفضلاً فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ وارتكبوا السيئات من الكفر والمعاصي، متعلق بخبر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إن المذكور في آخر الآية، وهو ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإن الثانية تكرير[1] على سبيل التأكيد لطول الكلام ووقوع الفصل، كما مر نظيره في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ حال من فاعل عملوا؛ أي: حالة كونهم متلبسين بجهالة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ من يرتكب الذنوب قلَّما يفكِّر في العاقبة، لغلبة الشهوة عليه، أو لجهالة الشباب والطيش التي تحمله على انتهاك حرمات الله تعالى، كالقتل للغيرة أو للعصبية، كما جاء في الخبر: «اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل، أو يجهل عليَّ»، وقال عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما عملوا السوء، والتصريح به مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه للتأكيد والمبالغة، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم، أو دخلوا في الصلاح بأن آمنوا وأطاعوا الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد التوبة كقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ في أنَّ الضمير عائد إلى مصدر الفعل، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ذلك السوء؛ أي: ستورٌ له محاءٌ ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته تركاً وفعلاً، وتكرير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ لتأكيد الوعد، وإظهار كمال العناية بإنجازه كما مرَّ، وتقدير الكلام: ثم إن ربك لغفور رحيم للذين عملوا السوءَ بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا؛ أي: لما[2] بالغ الله سبحانه وتعالى في تهديد المشركين على أنواع قبائحهم من إنكار البعث والنبوة، وكون القرآن من عند الله تعالى، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرَّمه.. بيَّن سبحانه أنَّ أمثال تلك القبائح لا تمنعهم من قبول التوبة، وحصول المغفرة والرحمة إذا ندموا على ما فعلوا، وآمنوا بالله، فالله يخلصهم من العذاب.

فعلى العاقل[3] أن يرجع عن الإعراض عن الله، ويقبل عليه بصدق الطلب، وإخلاص العمل، والتوبة بمنزلة الصابون، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

الظاهرة، فكذلك التوبة تزيل الأوساخ الباطنة؛ أعني: الذنوب.

والمقصود من هذه الآية: بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته، لأن السوء لفظٌ جامع لكل فعل قبيح، فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي، وكل ما لا ينبغي، وكل من عمل السوء فإنما يفعله بالجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية فإنما يصدر عنه بسبب جهله، إما لجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب، أو لجهله بقدر من يعصيه، فثبت بهذا أنَّ فعل السوء إنما يصدر بجهالة.

الإعراب

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية، ﴿استعذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جاران ومجروران، متعلقان به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: صفة للشيطان، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، والضمير للشأن، أو للشيطان كما مرَّ، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدمٌ، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: اسمه مؤخر، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ لأنه مصدر بمعنى التَّسلُّط، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة محذوفة هي جواب الأمر، تقديره: فإن استعذت كفيت شره اهـ شيخنا، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار

---

(١) الخازن.

ومجرور، متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوفة على جملة الصلة، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿سُلْطَٰنُهُۥ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على الموصول الأول، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُشْرِكُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿بَدَّلْنَآ﴾ والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معترضة، لاعتراضها بين الشرط وجوابه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يُنَزِّلُ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما ينزله، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جملة إضرابية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: فاعل مرفوع، ومضاف إليه، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

متعلق به، وكذا يتعلق به قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أو حال من مفعول ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لِتَثْبِيتِه الذين آمنوا، الجار والمجرور متعلّق بـ ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾: معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾؛ أي: تثبيتاً وهدايةً وبشارةً، أو معطوفان على لفظه باعتبار المؤول؛ أي: لتثبيتهم وهدايتهم وبشارتهم، ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بشرى﴾ أو تنازع فيه هو و﴿هُدًى﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادٍّ مسدَّ مفعولي علم، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾: فعل ومفعول أول، ﴿بَشَرٌ﴾: فاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إنما يعلمه هذا القرآن بشر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿يُلْحِدُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿عَرَبِىٌّ﴾: صفة ﴿لِسَانٌ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿عَرَبِىٌّ﴾ أو صفة ثانية لِـ ﴿لِسَانٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمۡ﴾، ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ فعل ومفعول، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل والجملة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، أو الخبر جملة الجواب أو الشرط أو هما، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فعليه غضب من الله، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من الجواب المحذوف، ﴿أُكۡرِهَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾، والجملة صلة ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: متعلق بـ ﴿مُطۡمَئِنُّۢ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل، ﴿أُكۡرِهَ﴾.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿مَن﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب أو الشرط، ﴿شَرَحَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾: متعلق به، ﴿صَدۡرٗا﴾: مفعول به، ﴿فَعَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية، ﴿عليهم﴾ جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿غَضَبٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ ﴿غَضَبٞ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، ويجوز أن

تكون ﴿مَن﴾ موصولة، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية جملة استدراكية مستأنفة ﴿وَلَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: جارٌ وناصب واسمه، الجار والمجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾: فعل ومفعول، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أنَّ﴾ الأولى.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق به، ﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾: معطوفان على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حقَّ، مركَّبٌ من حرف وفعل تركيباً مزجياً مبنيٌّ على الفتح، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل؛ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لجرم، والتقدير: حق خسرانهم في الآخرة، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب الذكري، وبمعنى واو الاستئناف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بخبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي في آخر الآية، وهو قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿هَاجَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿هَاجَرُوا۟﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿فُتِنُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد فتنتهم، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿هَاجَرُوا۟﴾، ﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَٰهَدُوا۟﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصبٌ واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية، تقديره: إنَّ ربك لغفور رحيم ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ أعني هذه الثانية مؤكدة لجملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿غفور﴾ خبر أول لـ﴿إنَّ﴾ الأولى، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، أو صفة لـ﴿غفور﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ الأولى معطوفة على جملة قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أو مستأنفة.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر يوم تأتي، أو ظرف متعلق بـ﴿رَّحِيمٌ﴾ في قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿تُجَٰدِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿تَأْتِى﴾؛ أي: ويوم توفَّى كل نفس، ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿توفَّى﴾، ﴿عَمِلَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، والجملة صلةٌ لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما عملته، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حالٌ من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضرب﴾، لأنه بمعنى جَعَل، ﴿قَرْيَةً﴾ مفعول أول لِـ ﴿ضَرَب﴾، وأُخِّرت لتتصل بصفاتها، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾: فعل ناقص وخبره، واسمه ضميرٌ يعود على ﴿قَرْيَةً﴾ ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾: خبر ثان لـ ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب صفة لـ﴿قَرْيَةً﴾، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾: فعلٌ ومفولٌ به وفاعلٌ ﴿رَغَدًا﴾: حال من الرزق، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ثانية لـ ﴿قَرْيَةً﴾. ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يأتي﴾، ﴿فَكَفَرَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿كفرت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَرْيَةً﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يأتي﴾، ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كفرت﴾ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أذاق﴾، ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجُوعِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كفرت﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أذاق﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يصنعونه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كذّبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاء﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذبوه﴾، ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أخذهم﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أيها المؤمنون حال أهل هذه القرية، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: كُلُوا مما رزقكم الله، ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلّق بـ ﴿كُلُوا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما رزقكموه الله، وهو المفعول الثاني لـ ﴿رزق﴾ ﴿حَلَٰلًا﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿طَيِّبًا﴾: صفة ﴿حَلَٰلًا﴾. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿كلوا﴾ ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿إِيَّاهُ﴾: مفعول مقدم لما بعده، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم إياه تعبدون فاشكروا له سبحانه، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَيْكُمُ﴾، متعلق بـ﴿حَرَّمَ﴾، ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: مفعول به لـ ﴿حَرَّمَ﴾، ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾، ﴿وَمَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوفة على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ أيضاً، ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿أُهِلَّ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به، و﴿الباء﴾ بمعنى عند؛ أي: عند ذبحه، ﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم تحريم ما ذكر عليكم وأردتم بيان حكم ما إذا اضطررتم إليه.. فأقول

لكم: من اضطر ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: فعل ماض مغير الصغية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿ٱضۡطُرَّ﴾، ﴿وَلَا عَادٖ﴾: معطوف على ﴿بَاغٖ﴾، وجواب ﴿مَن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فالله لا يؤاخذه بذلك، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية للجواب المحذوف ﴿إن الله غفور﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِمَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر بمعنى في، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر باللام، ﴿تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: لما تصفه وتذكره ألسنتكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقُولُواْ﴾. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعولٌ به لـ﴿تَقُولُواْ﴾ لأنه بمعنى تذكروا، ﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب بدل من ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ ﴿وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ﴾، والتقدير: ولا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم الكذب هذا حلال وهذا حرام، ﴿لِّتَفۡتَرُواْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعول ﴿تفتروا﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لافترائكم الكذب على الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَقُولُواْ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، وجملة ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿مَتَٰعٞ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: منفعتهم

في الدنيا متاعٌ، ﴿قَلِيلٌ﴾: صفة ﴿مَتَٰعٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، ، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ الآتي، وجملة ﴿هَادُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿حَرَّمْنَا مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿قَصَصْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿حَرَّمْنَا﴾ أو بقصصنا، وجملة ﴿قَصَصْنَا﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما قصصناه عليك، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾: نافٍ وفعل وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به لما بعده، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوٓاْ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب الذكري، أو بمعنى واو الاستئناف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بخبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي في آخر الآية، وهو قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والتقدير: ثم إن ربك لغفور رحيم للذين عملوا، ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة الصلة، ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَابُواْ﴾، ﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾: معطوف على ﴿تَابُواْ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية، تقديره: إن ربك لغفور رحيم لهم من بعدها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الثانية مؤكدة لجملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام المزحلقة وخبران لـ﴿إن﴾. والله أعلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: أردت قراءته، كما تقول إذا أكلت فقل: باسم الله، وإذا سافرت فتأهب ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ أي: المرجوم المبعد من رحمة الله، ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ مصدر بمعنى التسلط، وهو الاستيلاء والتمكن بالقهر اهـ. «شهاب» ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ والتولي الطاعة، يقال: توليته؛ أي: أطعته، وتوليت عنه؛ أي: أعرضت عنه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ التبديل رفع شيء ووضع غيره مكانه، وتبديل الآية نسخها بآية أخرى، ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ والقدس ـ بضم الدال وسكونها ـ الطهارة، والمراد به اسم المفعول، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: الروح المقدس؛ أي: المطهر، وهو جبريل عليه السلام، سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس؛ أي: بما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة المقتضية له، ﴿يُلْحِدُونَ﴾ والإلحاد الميل، يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد، ومنه سمي العادل عن الحق مُلْحِداً، ومنه لحد القبر، لأنه حفرةٌ مائلةٌ عن وسطه، ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ الأعجمي الذي لم يتكلم بالعربية، وقال الراغب: الأعجم من في لسانه عجمة، عربياً كان أو غير عربي، اعتباراً بقلة فهمه، والأعجمي منسوب إليه اهـ. «سمين»، ويقال: رجل أعجم، وامرأة عجماء، إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما، ومن ذلك زياد الأعجم، كان عربياً في لسانه لكنةٌ، والحاصل أن الأعجمي هو الذي لا يفصح وإن كان عربياً، والعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً كما في «روح البيان».

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: تلفظ وتكلم بالكفر، أو فعل فعلاً مكفراً، سواء كان مختاراً في ذلك أو مكرهاً عليه، فالاستثناء متصل اهـ شيخنا، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؛ أي: على التلفظ بكلمة الكفر، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ﴾ من الاطمئنان، وهو سكون النفس بعد انزعاجها، والمراد الثبات على ما كان عليه بعد ازعاج الإكراه، ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾؛ أي: فتحه به واعتقده، وطاب به نفساً، ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: آثروها وقدموها على الآخرة، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿فُتِنُواْ﴾ أصل الفتن إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل في المحنة والابتلاء يصيب الإنسان، ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾؛ أي: تدفع وتسعى في خلاصها، والنفس الأولى الجثة والبدن، النفس الثانية عينها وذاتها، وتوفى تعطى، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ والمثل عبارةٌ عن قول يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهةٌ، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ من الغارات لا تهاج ولا تقلق؛ أي: ذات أمن، يأمن فيها أهلها أن يغار عليهم، ﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾؛ أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق.

﴿رَغَدٗا﴾ يقال: رغد العيش رغادة اتسع ولان، فهو رغدٌ ورغيدٌ، ورغد رغداً من باب تعب لغةٌ، فهو راغدٌ، وهو في رغد من العيش؛ أي: رزق واسع، وأرغد القوم بالألف أخصبوا، والرغيدة الزبد اهـ «مصباح» ﴿بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤسٍ وأبؤس اهـ «بيضاوي»، والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر، ويحتمل أنه جمع نعماء بفتح النون والمد، وهي بمعنى النعمة، وهي «المصباح»: والنعماء وزان الحمراء مثل النعمة، وجمع النعمة نعمٌ، مثل سدرة وسدر، وأنعم أيضاً مثل أفلس، وجمع النعماء أنعم، مثل البأساء يجمع على أبؤس اهـ.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾ يقولون: له وجه يصف الجمال، وعينٌ تصف السحر، يريدون أنه جميل، وأن عينه تفتن من رآها، لأنه لما كان وجهه منشأ الجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر.. كان كلٌّ منهما كأنه إنسانٌ عالمٌ بكنههما، محيطٌ بحقيقتهما، يصفهما للناس أجمل وصف، ويعرفهما أتم تعريف، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ إذ جعل الكذب كأنه حقيقةٌ مجهولةٌ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته، ومنبعه الذي يعرف منه، ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ والجهالة هنا الطيش وعدم التدبر في العواقب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان

والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حيث عبر عن الإرادة بالقراءة على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، إيذاناً بأنَّ المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أو بين قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فهذه الجملة اعتراضية بين الشرط وجوابه، لبيان الحكمة الإلهية في النسخ، وفيه أيضاً الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس.

ومنها: الطباق بين ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ و﴿عَرَبِىٌّ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ حيث استعار اللسان الذي هو حقيقةٌ في الجارحة للغة والكلام، كقول الشاعر:

لِسَانُ السُّوءِ تَهْدِيْهَا إِلَيْنَا وَخُنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ لأنَّ فيه تعريضاً بحصول أضداد ذلك لغيرهم من الكفار كما في «البيضاوي».

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وهي اسمية الجملة، وضمير الفصل، وتعريف الطريقين، وفيه أيضاً التأكيد بالتكرار بين ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وبين الموصول وهو: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ واسم الإشارة وهو ﴿أولئك﴾ إذ ما صدقهما واحد كما في «الفتوحات»، وفيه أيضاً

الجناس الماثل بين ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

ومنها: تقديم الظرف في قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إفادةً للاختصاص، وللدلالة على أنهم أحقاء بغضب الله وعذابه العظيم لاختصاصهم بعظم الجرم، وهو الارتداد.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ حيث شبه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المر البشع، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاقة على طريقة الاستعارة المكنية.

ومنها: إضافة المشبه به إلى المشبه في قوله: ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ كالإضافة في لجين الماء.

ومنها: الطباق بين ﴿حَلَٰلٌ﴾ و﴿حَرَامٌ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ
ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾
ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ
إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى
ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا زيَّف[1] مذاهب المشركين في إثبات الشركاء والأنداد لله، وفي طعنهم نبوّة الأنبياء والرسل، بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلاً لأرسل ملائكة، وفي تحليلهم أشياء حرمها الله تعالى، وتحريم أشياء أحلها الله تعالى، وبالغ في رد هذه المعتقدات.. ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين، الذي كان المشركون يفتخرون به، ويقرون بوجوب الاقتداء به، ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك، ثم بأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه، ثم بجعل الأسس التي يبني عليها دعوته هي الحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالحسنى، ثم بأمره باللين في العقاب إن أراده، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين، ثم بأمره بجعل الصبر رائده في جميع أعماله، ونهيه من الحزن على كفر قومه، وأنهم لم يجيبوا دعوته، وأنهم يمكرون به، فالله ينصره عليهم، ويكفيه أذاهم، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين، والخذلان للعاصين الخائنين.

---

(١) المراغي.

وعبارة «أبي حيَّان» هنا: لمَّا أبطل[1] الله سبحانه وتعالى مذاهب المشركين في هذه السورة من إثبات الشركاء لله، والطعن في نبوة رسول الله ﷺ، وتحليل ما حرَّم، وتحريم ما أحل، وكانوا مفتخرين بجدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقرين بحسن طريقته، ووجوب الاقتداء به.. ذكره في آخر السورة، وأوضح منهاجه، وما كان عليه من توحيد الله تعالى ورفض الأصنام، ليكون ذلك حاملاً لهم على الاقتداء به، وأيضاً فقد أجرى ذكر اليهود بين طريقة إبراهيم ليظهر الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش. انتهى.

أسباب النزول

قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] الحاكم والبيهقي ـ في «الدلائل» ـ والبزَّار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: «لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل والنبيُّ ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ...﴾ إلى آخر السورة، فكفَّ رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد، وكفَّر عن يمينه، وأخرج الترمذي وحسّنه، والحاكم عن أبيٍّ بن كعب قال: لمَّا[3] كان يوم أحد أُصيب من الأنصار أربعةٌ وستون، ومن المهاجرين ستةٌ منهم حمزة فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر.. لنزيدن على عدتهم مرتين، فلما كان يوم فتح مكة.. أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...﴾ الآية، فقال رجلٌ: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عن القوم إلا أربعة» هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب، وظاهر هذا تأخر نزولها إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة، ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) لباب النقول.
(٣) زاد المسير ولباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام ﴿كَانَ﴾ على انفراده ﴿أُمَّةً﴾ لكماله في صفات الخير، وجمعه الفضائل، وهو رئيس أهل التوحيد، ولأنه كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كانوا كفاراً، والأمة في الأصل الجماعة الكثيرة، وسمي إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرق لكفى لأمةٍ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً:

وَلَيْسَ عَلَىٰ الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

فالله سبحانه وتعالى مدح عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء بجملةٍ من صفات الكمال:

١ ـ أنه وحده كان أمة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة، فهو رئيس الموحدين كسر الأصنام، وجادل الكفار، ونظر في النجوم، ودرس الطبيعة الكونية، ليطمئن قلبه بالإسلام.

٢ ـ أنه كان ﴿قَانِتًا﴾؛ أي مطيعاً ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى قائماً بأمره.

٣ ـ أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، متبعاً له لا يفارقه ولا يحيد عنه.

٤ ـ أنه عليه السلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور دينهم، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر، فهو الذي قال للملك في عصره: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ وكسر الأصنام، حتى ألقوه لأجلها في النار فكانت عليه برداً وسلاماً.

وبالجملة: فقد كان غارقاً في بحار التوحيد، مستغرقاً في حب الإله المعبود، وفي ذلك رد على كفار قريش، إذ قالوا: نحن على ملة إبراهيم، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا: عزير ابن الله، مع زعمهم أنَّ إبراهيم كان على مثل ما هم عليه، ونحو الآية قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا

مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

٥ ـ أنه كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: لأنعم الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به، وفي هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله، فأصابهم الجوع والخوف، كما تقدم ذكره في المثل السابق، روي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان لا يتغذى إلا مع ضيفٍ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخَّر غذاءه، فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فأظهروا أنَّ بهم علَّة الجذام، فقال: الآن يجب عليَّ مؤاكلتكم، فلو لا عزَّتكم على الله تعالى.. لما ابتلاكم بهذا البلاء.

٦ ـ أنه تعالى ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ واصطفاه واختاره للنبوة والرسالة، كما قال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

٧ ـ ﴿و﴾ أنه تعالى ﴿هداه﴾ في الدعوة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى طريق موصل إلى الله تعالى، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه.

٨ ـ ﴿و﴾ نحن ﴿آتيناه﴾؛ أي: أعطيناه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: ولداً صالحاً، وسيرة حسنة عند كل أهل الأديان، فجميع أهل الملل يترضون عن إبراهيم، ولا يكفر به أحدٌ؛ أي: إنه سبحانه حببه إلى جميع الخلق، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به، وكفرة قريش لا فخر لهم إلاّ به، وقد أجاب الله دعاءه في قوله ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٩ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عليه السلام ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: لمن أصحاب الدرجات العالية في الجنة؛ أي: إنه في الآخرة في زمرة الصالحين، وهو معهم في الدرجات العلى من الجنة إجابةً لدعوته حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علو المرتبة، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أيها

الرسول مع علو طبقتك، وسمو مرتبتك، وما في ﴿ثُمَّ﴾ من التراخي[1] في الرتبة للتنبيه على أنَّ أجلَّ ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول ملته؛ أي: أوحينا إليك يا محمد وقلنا لك: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل، فأنت متبع له، وسائرٌ على طريقته، وقومك ليسوا كذلك، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، وانتصاب[2] ﴿حَنِيفًا﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيءُ الحال منه لأنَّ الملة كالجزء منه، وقد تقرر في علم النحو أنَّ الحال من المضاف إليه جائزٌ إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه، أو كان جزءاً أو كالجزء.

أي: أوحينا إليك باتباع ملَّة إبراهيم[3] في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإتيان الدلائل مرةً بعد أخرى، بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً من الباطل إلى الحق ﴿و﴾ الحال أنه ﴿ما كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين، وهو تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيدٍ، وتقريرٌ لنزاهته - عليه السلام - عمَّا هم عليه من عقيدةٍ وعملٍ.

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه، وهو يوم السبت فقال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾؛ أي[4]: إنما جعل وبال يوم السبت، وهو المسخ قردةً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾؛ أي: في السبت فأحلوا الصيد فيه تارةً، وحرَّموه أخرى، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمةٍ واحدةٍ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه، كما أنَّ وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقعٌ عليهم لا محالة، وقرأ الحسن وأبو حيوة: ﴿إنما جَعَلَ السبت﴾ بفتح الجيم والعين، و﴿ٱلسَّبۡتُ﴾ بنصب التاء والفاعل ضمير الله، أو المعنى إنما جعل السبت؛ أي: إنما[5] فرض تعظيم يوم السبت والتخلِّي فيه للعبادة، وترك الصيد، فتعدية جعل

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.
(٥) روح البيان.

بعلى لتضمينه معنى فرض، والسبت يومٌ من أيام الأسبوع بمعنى القطع والراحة، فسمي به لانقطاع الأيام عنده، إذ هو آخر أيام الأسبوع، وفيه فرغ الله من خلق السموات والأرض، أو لأن اليهود يستريحون فيه من الأشغال الدنيوية، ويقال: أسبتت اليهود إذا عظمت سبتها، وكان اليهود يدعون أن السبت من شعائر إبراهيم، وشعائر ملته التي أمرت يا محمد باتباعها حتى يكون بينه ـ عليه السلام ـ وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة، وقد اختلف[1] العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعيَّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه، وقالوا: إنَّ السبت أفضل، فقال الله له: دَعْهم وما اختاروا لأنفسهم، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيِّهم، وقيل إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم من الأسبوع، فاختلف اجتهادهم فيه، فعينت اليهود السبت، لأنَّ الله سبحانه فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد، لأنَّ الله بدأ فيه الخلق، فألزم الله كلاً منهم ما أدى إليه اجتهاده، وعين لهذه الأمة الجمعة، من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمةً.

وبعد ما اختارت اليهود يوم السبت ابتلاهم الله تعالى بتحريم الصيد فيه، فافترقوا فرقتين: فرقةٌ مطيعة لأمر الله فتركوا الصيد فيه فنجوا من المسخ، وفرقةٌ مخالفةٌ لأمر الله فاصطادوا فمسخهم قردةً. انتهى.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنَّ اليهود كانوا يزعمون أنَّ السبت من شرائع إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه، ولم يجعله على إبراهيم، ولا على غيره، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليفصل بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من شأن السبت وغيره؛ أي: يفصل ما بينهما من الاختلاف، فيجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب، فيجازي المطيع بالثواب،

---

(١) الشوكاني.

والمخالف بالعقاب، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما وقع في الدنيا من مسخ إحدى الفريقين، وإنجاء الأخرى بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يعتد به، وإيراد[1] هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذارٌ للمشركين، وتهديدٌ لهم بما في مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال، كما ذكر مثل القرية فيما سلف، إلا أنَّ فيه حثًّا على إجابة الدعوة التي تضمنها سابق الكلام، وأمروا بها في لاحقه، ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال: ﴿ٱدۡعُ﴾ يا محمد الناس كافةً، حذف المفعول إيذاناً بالعموم من سبيل الشيطان ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ودينه، وهو الإسلام الموصل إلى الجنة والزلفى ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ أي: بالحجة[2] القطعية المفيدة للعقائد الحقة، المزيحة لشبهة من دعي إليها فهي لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ﴿و﴾ بـ ﴿الموعظة الحسنة﴾؛ أي: الدلائل الإقناعية، والحكايات النافعة فهي لدعوة عوامهم، يقال: وعظه يعظه عظة وموعظة إذا ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب، فاتَّعظ كما في «القاموس»، ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾؛ أي: ناظر معانديهم وخاصمهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ أي: بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة، من الرفق اللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة، تسكيناً لشغبهم، وإطفاءً للهبهم، كما فعله الخليل ـ عليه السلام ـ والآية دليل على أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً.

فالناس على ثلاثة أقسام[3]:

الأول: أصحاب العقول الصحيحة، الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها.

والثاني: أصحاب النظر السليم، الذين لم يبلغوا حدّ الكمال، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

والثالث: الذين تغلب على طباعهم المخاصمة، لا طلب العلوم اليقينية، فقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ...﴾ إلخ، معناه ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالدلائل القطعية اليقينة، حتى يعلموا الأشياء بحقائقها، وهم خواص الصحابة وغيرهم، وادع عوام الخلق بالدلائل الإقناعية الظنية، وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة، وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل، وهي التي تفيد إفحامهم وإلزامهم، والجدل ليس من باب الدعوة، بل المقصود منه قطع الجدل عن باب الدعوة لأنها لا تحصل به.

أي: ولما أمر الله محمداً ﷺ باتباع إبراهيم.. بيَّن الشيء الذي أمره بمتابعته فيه، وهو أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة، وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن.

ومجمل المعنى[1]: أي ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التي شرعها لخلقه بوحي الله الذي يوحيه إليك، وبالعبر والمواعظ التي جعلها في كتابه حجةً عليهم، وذكرهم بها في تنزيله، كالذي عدده في هذه السورة، وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى، وترفق بهم بحسن الخطاب، كما قال في آية أخرى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الآيـة، وقـال آمراً موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، ثم توعد سبحانه ووعد فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ منك ومن المخلوقين، أو هو العالم لا غيره ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وأعرض ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سبحانه التي أمرك بدعوة الخلق إليها وعن قبولها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إليها، والقابلين لها؛ أي[2]: إنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة، وحصول الهداية لا يتعلق بك، فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس المظلمة الكدرة، وباهتداء النفوس المشرقة الصافية، فيجازي كلاً منهم

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

بما يستحقه، فكأنه[1] قيل: إن ربك أعلم بهم، فمن كان فيه خيرٌ. . كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه. . عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد باردٍ.

أي: إنَّ ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق، وهو مجازيهم جميعاً حين وردوهم إليه بحسب ما يستحقون.

وخلاصة ذلك: اسلك في الدعوة والمناظرة الطريق المثلى، وهي الدعوة بالتي هي أحسن، وليس عليك غيرها، أمَّا الهداية والضلال والمجازاة عليها فإلى الله سبحانه لا إلى غيره، وإذ هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال لسوء اختياره، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء، لما ينطوي بين جنبيه من الخير فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، وهو كافٍ في هداية المهتدين، وإزالة عذر الضالين.

ولما أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالدعوة، وبين طريقها، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، والحكم عليهم بالكفر والضلالة، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعي، إما بقتله، أو بضربه، أو بشتمه، كما أن الداعي يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارةً بالقتل، وأخرى بالضرب. . لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف في العقاب، وترك الزيادة فيه فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾؛ أي: وإن أردتم أيها المؤمنون معاقبة من ظلمكم ﴿فَعَاقِبُوا﴾؛ أي: فجازوه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بمثل ما فعل بكم من القتل والضرب والشتم، ولا تزيدوا عليه، لأنَّ الزيادة ظلم، سمي الفعل الأول عقوبةً، والعقوبة هي الثانية لازدواج الكلام ومشاكلته، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فالثانية ليست بسيئة، والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه. . فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿عاقبتم﴾ بالألف والتخفيف فيهما، وقرىء بالتشديد فيهما من غير ألف.

روي: أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبي ﷺ حمزة مبقور البطن، فقال: «أمَّا والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك»، فنزلت، فكفر عن يمينه، وكف عما أراد، ولا خلاف في تحريم المثلة، لورود الأخبار بالنهي عنها، حتى بالكلب العقور.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ وعفوتم، وتركتم المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان، والضمير يرجع إلى مصدر صبرتم، والمراد بالصابرين المخاطبون؛ أي: ولئن صبرتم لصبركم ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: خير لكم، فوضع[1] الصابرين موضع الضمير ثناءً من الله عليهم، لأنهم صابرون على الشدائد، يعني: ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم.. كان ذلك العفو والصبر خيراً من استيفاء القصاص، وفيه أجرٌ للصابرين العافين؛ أي: وإن[2] عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم.. فلكم في العقاب إحدى طريقين:

١ ـ أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة.

٢ ـ أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم، وتكلوا أمركم إليه، والله يتولى عقوبته، والصبر خير للصابرين من الانتقام، لأنَّ الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه.

والخلاصة: أنكم إن رغبتم في القصاص ـ فاقنعوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإنَّ الزيادة ظلمٌ، والظلم لا يحبه الله، ولا يرضىٰ به، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم.. ذلك خيرٌ وأبقى، والله هو الذي يتولىٰ عقاب الظالم، ويأخذ بثأر المظلوم.

ثم أمر رسوله بالصبر صراحةً بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً، لأنه أولى

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

الناس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه تعالى فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما أصابك منهم من أذى في الله، ومن إعراض عن الدعوة ﴿وَمَا صَبۡرُكَ﴾ يا محمد إن صبرت ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلا بمعونة الله تعالى، وحسن توفيقه، ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التي تنتهي إلى عواقب محمودةٍ، والاستثناء[1] مفرغ من أعم الأشياء؛ أي: وما صبرك حاصلاً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، وتهوين لمشاق الصبر عليه، وتشريفٌ له بما لا مزيد عليه، ثم نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ يا محمد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله؛ أي: ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به ﴿وَلَا تَكُ﴾ يا محمد ﴿فِي ضَيۡقٖ﴾ وهمٍّ وغمٍّ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾؛ أي: من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان؛ أي: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر، احتيالاً وخديعةً لمن أراد الإيمان بك، وصدًّا عن سبيل الله، والمعنى: لا تهتم بمكرهم.

وقصارى ذلك: أنَّه[2] نهى نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم وحي الله وتنزيله، كما قال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ...﴾ الآية.

فالله كافيك أذاهم، وناصرك عليهم، ومؤيدك ومظهرك عليهم، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك.. فإن الله مبعده عنك، ومحبط ما صنعوا، وهم لا يشعرون.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ضَيۡقٖ﴾ بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها، قال ابن السكيت: هما سواء، يعني المفتوح والمكسور، وقال الفراء: الضيق بالفتح: ما

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

ضاق عنه صدرك، والضيق بالكسر: ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش، وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه، ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه.

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: اجتنبوا الكفر والمعاصي على اختلاف أنواعها؛ أي: معهم بالولاية والتوفيق والفضل والحفظ ﴿و﴾ مع ﴿الذين هم محسنون﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها، وقيل المعنى: إنَّ الله مع الذين اتقوا الزيادة في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام.

وفي الحديث: «إن للمحسن ثلاث علامات: يبادر في طاعة الله، ويجتنب محارم الله، ويحسن إلى من أساء إليه».

والمعنى: أي[١] إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفاً من عقابه، والذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به وفي ترك ما نهاهم عنه.

ونحو الآية قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقول النبي ﷺ للصّديق وهما في الغار فيما حكى الله عنه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

وقصارى ذلك: أنَّ الله تعالى ولي الذين تبتلوا إليه، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم، فلم يحزنوا لفوت مطلوب، ولم يفرحوا لنيل محبوب، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه، وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله، وقد فسر النبي ﷺ الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك».

والمعنى[٢]: إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والرحمة.. فكن من المتقين المحسنين، وفي هذا إشارةٌ إلى التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، قال بعض العلماء: كمال الطريق صدقٌ مع الحق، وصلحٌ مع الخلق، وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل أن يعمل به، وقيل لهرم بن حيان عند الموت: أوص$ِ، فقال: إنما الوصية في المال ولا مال لي، ولكن أوصيك بخواتيم سورة النحل، والله أعلم اهـ «خازن».

والله سبحانه نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل، وأن يوفقنا للفقه في دينه، ويفتح لنا خزائن أسراره بحرمة كتابه وكنوز شريعته التي أنزلها على رسوله النبي الأمي، والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإعراب

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿أُمَّةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿قَانِتًا﴾: صفة أولى لـ﴿أُمَّةً﴾، ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿حَنِيفًا﴾: صفة ثانية لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَمْ يَكُ﴾: جازم وفعل ناقص مجزوم، واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال مؤكدة من الضمير المستكن في ﴿حَنِيفًا﴾. ﴿شَاكِرًا﴾: صفة ثالثة لـ﴿أُمَّةً﴾، ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿شَاكِرًا﴾ ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَهَدَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: متعلق بـ ﴿هدى﴾ أو بـ ﴿اجتبى﴾ على سبيل التنازع، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: متعلق به، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الخبر الآتي، ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ و﴿اللام﴾ حرف ابتداءٍ، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿آتيناه﴾.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ ﴿أَنِ﴾ مصدرية أو مفسرة، ﴿ٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَنِ﴾ المصدرية، مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول به لـ ﴿ٱتَّبِعْ﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: حال من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، وجملة ﴿ٱتَّبِعْ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، والتقدير: ثم أوحينا إليك باتباع ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جملة مستأنفة أو في محل النصب معطوفة على ﴿حَنِيفًا﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾: فعل ونائب فاعل. وهو متعد إلى واحد، لأنه بمعنى فرض، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿جُعِلَ﴾، ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيَحْكُمُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يحكم﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب سبحانه، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يحكم﴾، وكذا يتعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وجملة ﴿يحكم﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يحكم﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة

لها.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿ٱدۡعُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: ادع الناس، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱدۡعُ﴾ ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿ٱدۡعُ﴾؛ أي: حالة كونك متلبساً بالحكمة، ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾: معطوف على ﴿الحكمة﴾، ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾: صفة لـ ﴿الموعظة﴾، ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱدۡعُ﴾ ﴿بِٱلَّتِي﴾: متعلق بـ ﴿جادل﴾ ﴿هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿أَعۡلَمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾: متعلق بـ ﴿ضَلَّ﴾ ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِنۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَعَاقِبُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿عاقبوا﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، مبني على حذف النون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿بِمِثۡلِ مَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿عاقبوا﴾، ﴿عُوقِبۡتُم﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿صَبَرۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه

فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: فهو خير لكم، ﴿لَهُوَ﴾ ﴿اللام﴾: زائدة، زيدت لتأكيد لام القسم، ﴿هو خير﴾: مبتدأ وخبر، ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، أو معطوفة على جملة الشرط قبلها.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿صَبْرُكَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ؛ أي: وما صبرك إلا حاصلٌ بمعونة الله وفضله، والجملة معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: جازم ومجزوم، معطوف على ﴿وَٱصْبِرْ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَحْزَنْ﴾، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، ﴿فِى ضَيْقٍ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾، ﴿مِّمَّا﴾ ﴿من﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، وجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ صلتها؛ أي: من مكرهم بك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ضَيْقٍ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَّٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿هُم مُّحْسِنُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ حكى[1] ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال: إنَّ هذا مثل قول العرب فلانٌ رحمة، وفلان علامة ونسابة، يقصدون بهذا التأنيث

(١) الفتوحات.

التناهي في المعنى الذي يصفونه به، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد، كقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وإنما ناداه جبريل وحده.

وإنما سمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمةً لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة، ومنه قول الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَىٰ اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِيْ وَاحِدِ

ثم للمفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال[1]:

أحدها: قول ابن مسعود الأمة معلم الناس الخير، يعني أنه كان معلماً الخير، يأتم به أهل الدنيا.

الثاني: قال مجاهد: إنه كان مؤمناً وحده، والناس كلهم كفار، فلهذا المعنى كان أمةً وحده، ومنه قوله ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»، وإنما قال فيه هذه المقالة لأنه كان فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام.

الثالث: قال قتادة: ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه ويرضونه، وقيل الأمة فعلة بمعنى مفعولة، وهو الذي يؤتم به، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ إماماً يقتدى به، دليله قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقيل: إنه ـ عليه السلام ـ هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق، وهو من باب إطلاق المسبب على السبب، وقيل: إنما سمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمة لأنه قام مقام أمة في عبادة الله تعالى اهـ «خازن».

وحاصل ما ذكر له من الصفات تسعة بل عشرة، إذ قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ. . .﴾ إلخ، يرجع لوصف إبراهيم وتعظيمه بأن محمداً ﷺ أمر باتباعه اهـ شيخنا.

---

(١) الفتوحات.

﴿قَانِتًا﴾ والقانت: المطيع لله القائم بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ اصطفاه واختاره للنبوة والخلة، ﴿حَسَنَةً﴾ والحسنة هي محبة أهل الأديان جميعاً له إجابة لدعوته لربه ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الملة[1] اسمٌ لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من أمللت الكتاب إذا أمليته، وهو الدين بعينه، لكن باعتبار الطاعة له.

وتحقيق ذلك: أن الوضع مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى.. يسمى ملة، ومهما نسب إلى من يقيمه ويعمل به.. يسمى ديناً، وقال الراغب: الفرق بينهما أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي ـ عليه السلام ـ ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله سبحانه وتعالى، ولا إلى آحاد الأمة، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، والمراد بملته عليه السلام الإسلام الذي عبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم اهـ «أبو السعود».

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾؛ أي: إنما فرض تعظيم السبت، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه على اليهود الذين اختلفوا فيه، والسبت في الأصل مصدر سبت يسبت ـ من باب ضرب ـ سبتاً، بمعنى قطع، ثم سمي به يومٌ من أيام الأسبوع لانقطاع الأيام عنده، إذ هو آخر أيام الأسبوع، يجمع على أسبت وسبوت، وقال الزمخشري: سبتت اليهود إذا عظمت سبتها.

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ والحكمة المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الدلائل الظنية المقنعة للعامة، والجدل: الحوار والمناظرة لإقناع المعاند، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ والعقاب في أصل اللغة: المجازاة على أذى سابق، ثم استعمل في مطلق العقاب.

---

(١) أبو السعود.

﴿وَلَا تَكُ﴾ أصله ولا تكن، حذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله، بخلاف لم يصن، ولم يخن ونحوهما، ومعنى كثرة الاستعمال أنهم يعبرون بكان ويكون عن كل الأفعال، فيقولون: كان زيدٌ يقول، وكان زيد يجلس، فإن وصلت بساكنٍ ردت النون وتحركت نحو: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ و﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية.

﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ والضيق بفتح الضاد وكسرها: الغم وانقباض الصدر، وفي «المصباح»: ضاق الشيء ضيقاً، من باب سار، والاسم الضيق بالكسر، وهو خلاف اتسع، فهو ضيقٌ، وضاق صدره حرج، فهو ضيق أيضاً اهـ. أي: ولا تك في ضيق صدر من مكرهم، فهو من الكلام المقلوب الذي يسجع عليه عند أمن الالتباس، لأن الضيق وصف، فهو يكون في الإنسان، ولا يكون الإنسان فيه، وفيه لطيفةٌ أخرى وهو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط به من جميع الجوانب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ إذ مقتضى السياق أن يقال: وآتاه؛ أي: الله المذكور في قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، ونكتة الالتفات زيادة الاعتناء بشأنه اهـ شيخنا.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عما هم عليه من عقد وعمل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

ومنها: الطباق بين قوله ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وقوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: كان بنفسه كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق، كما في قول أبي نواس.

ومنها: المزاوجة والمشاكلة في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ لأنه سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء، على طريقة المشاكلة والمزاوجة، لأن تسمية الأذى الابتدائي معاقبةً من باب المشاكلة، لأنها في وضعها الأصلي تستدعي أن تكون عقيب فعل، نعم العرف جار على إطلاقها على ما يعذب به أحدٌ، وإن لم يك جزاء فعل.

ومنها: التصريح بالصبر في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ بعد التعريض له في قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حثًّا عليه على الوجه الآكد.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿صَبَرْتُمْ﴾ و﴿الصَّابِرِينَ﴾، وبين ﴿اصْبِرْ﴾ ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾.

ومنها: الكلام المقلوب في قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ لأن الضيق وصف يكون في الإنسان، ولا يكون الإنسان فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة

ومجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الآداب والأحكام خمس وعشرون موضوعاً:

١ ـ استعجال المشركين للساعة.

٢ ـ ذكر الأدلة على أنه جل وعلا المتفرد بخلق العالم العُلوي والسفلي وخلق الإنسان.

٣ ـ الامتنان على عباده بخلق الأنعام، وما فيها من المنافع من أكلٍ وحمل أثقالٍ إلى البلاد البعيدة.

٤ ـ النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان.

٥ ـ إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات وبما أتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون.

٦ ـ احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل، بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم، فلا فائدة في إرسالهم، وقد رد عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار، لا خلق الهداية والإيمان.

٧ ـ إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت، ومن الناس من استجاب لدعوتهم، ومنهم من حقت عليه الضلالة.

٨ ـ إنكار المشركين للبعث والنشور، وحلفهم على ذلك، وتكذيب الله تعالى لهم فيما يقولون.

٩ ـ إنكار بعث محمد ﷺ بأنه رجلٌ لا ملكٌ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعاً كانوا رجالاً لا ملائكة.

١٠ ـ إنذار المشركين بعذاب الخسف.

١١ ـ جعلهم الملائكة بنات الله مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى.

١٢ ـ رحمة الله بعباده، وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم، وأنه لو أخذهم ما ترك

على ظهر الأرض دابة.

١٣ ـ ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب، والعسل من النحل. وأيضاً تفاضل الناس في الأعمار والأرزاق. وأيضاً ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله.

١٤ ـ الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر، وتسخير الطير في جو السماء، وجعل البيوت سكناً، وجعله لنا سرابيل تقي الحر، وسرابيل تقي بأس العدو.

١٥ ـ جعل الأنبياء شهداء على أممهم، وعدم الإذن للكافرين في الكلام، وعدم قبول معذرتهم.

١٦ ـ الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، والأمر بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك.

١٧ ـ الأمر بالاستعاذة من الشيطان، وبيان أن سلطانه على المشركين.

١٨ ـ تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن في شريعة من قبله من الأنبياء، وادعائهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومي، وردَّ الله عليهم ذلك. وأنه لا ضير على من كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، دون من شرح بالكفر صدراً.

١٩ ـ دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة، وجزاء كل نفس بما عملت.

٢٠ ـ ذكر ما حرمه الله تعالى من المطاعم، والنهي عن تقولهم على الله بغير علم. وذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم.

٢١ ـ مدح إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصفه بصفات لم يوصف بها نبيٌّ غيره، ثم أمر النبي ﷺ باتباعه، وسلوك طريقته في العقاب والصبر على الأذى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

ولقد أجاد من قال:

سـبـحـانـك لا عـلـم لـنـا إلَّا مـا أَلْـهَـمْـتَ لَـنَـا
لَـكَ الـشُّـكْـرُ يَـا مَـوْلاَنَـا عَـلـى مَـا أَسْـعَـفْـتَ لَـنَـا

شعر

يَـا رَبِّ لا تُـحْـيِـنِـي إلـى زَمَـنٍ أَكُـونُ فـيـه كَـلاً عـلـى أَحَـدِ
خُـذْ بِـيـدي قَـبـلَ أنْ أقُـوْلَ لِـمَـنْ أَلْـقَـاهُ عِـنْـدَ الـقِـيَـامِ خُـذْ بِـيَـدِي

---

(١) الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على محمد وآله، ما تطارد الجديدان، وتطاول المدى والزمان.
وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد بالمسفلة حارة الرشد من مكة المكرمة في شهر رمضان المبارك في اليوم الثامن والعشرين منه، يوم السبت وقت الشروق، منتصف الساعة الأولى منه، من شهور سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، بتاريخ سنة ١٤١١/٩/٢٨ هـ
تم المجلد الخامس عشر من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجد السادس عشر، وأوله سورة الإسراء

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السادس عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزلَ القرآن موعظةً وشفاءً لما في الصدور، وجَعَله مَنْهَلاً عَذْباً لِلْوُرُودِ والصدور، جمعَ فيه عُلُوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجُوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي فسر الآيات في الأنفس والآفاق، على مراد الله الملك الخلاق، وعلى آله وصحبه المقتبسينَ من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أَسْرَارِهِ، ومن تَبِعَهُم ممن تخلَّق بالقرآن في كل زمان، ما تطاولَ المدى وطَلَعَ المَرزمان.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء الرابع عشر من القرآن بعون الله وتوفيقِهِ.. أردت الشُّرُوعَ في تفسير الجزءِ الخامسَ عشر منه، مُستمداً منه التيسيرَ والتوفيق؛ لأقوم الطريق فقلت.

سورة الإسراء

سورة الإسراء ـ وتسمى سورةَ بني إسرائيل، وسورة سبحان ـ: مكية، إلاَّ ثماني آيات، من قوله سبحانه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ فتلك الآيات الثمانية مدنية. وهذا[1] قول قتادة. وقال مقاتل: فيها من المدني قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾، وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ والتي تليها.

(١) الخازن.

وعدد آياتها: مئة وعشر آيات، وقيل: وإحدى عشْرَةَ آيةً وكلماتها ألف وخمس مئة وثلاثٌ وثلاثون كلمةً، وعدد حروفها ستة آلاف، وأربع مئة وستون حرفاً:

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما روي[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ سورةَ بَني إسرائيل فَرقَّ قلبه عند ذكر الوَالِدَين، كان له قنطار في الجنة» والقنطار: ألف أوقية، ومئتا أوقية.

وأخرج أحمد[2]، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عائشة، أنَّ النبي ﷺ(كان يقرأ كل ليلة سورة بني إسرائيلَ والزمر).

وأخرج البخاري، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأولِ، وهن من تلادي.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ وجملة المنسوخ في سورة بني إسرائيلَ ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ الآية نسخ بعض حكمها، وبقي البعض على ظاهره، فهو في أهْلِ التوحيد محكمْ، وبعض حكمها في أهل الشرك منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ نسختا بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾، الآية نسخت بالآية التي في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ...﴾ الآية.

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

المناسبة: ووجه[1] مناسبة هذه السورة لسورة النحل، وذكرها بَعْدَها في أمور:

١ ـ أنه سبحانه وتعالى ذكر في سورةِ النحل اختلافَ اليهود في السبت، وهنا ذكر شريعةَ أهل السبت التي شرعها لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: (إن التوراةَ كلها في خمس عشرة آيةً من سورة بني إسرائيل).

٢ ـ أنه لما أمر نبيه ﷺ بالصبر، ونهاه عن الحزن، وضيق الصدر من مكرهم في السُّورة السالفة.. ذكر هنا شرفه، وعلوّ منزلته عند ربه.

٣ ـ أنه لما ذكر في السورة السالفة نِعَماً كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم.. ذكر هنا أيضاً نِعَماً خاصةً وعامَّةً.

٤ ـ ذكر هناك أن النحلَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وهنا ذكر ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥ ـ أنه في تلك أمر بإيتاء ذي القربى، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المساكين، وابن السبيل.

والله أعلم

* * *

(١) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا
حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا
(٣) وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا
(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ
أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟
ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)
وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ
وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ
فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا
(١٣) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ .

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها[١]: أنَّه تعالى لما أمر نبيَّه بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وأن يَضِيقَ صدره من مكرهم، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب، والسحر، والشعر، وغير ذلك مما رموه به.. أعقب تعالى ذلك بذكر شرفه، وفضله، وعلو منزلته عنده تعالى.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية الأولى: أنه أكرم عبدَه، ورسولَه محمداً ﷺ بالإِسراءِ من مكة إلى بيت المقدس.. أَرْدَفَ ذلك بذكر ما أكرم به موسى عليه السلام قَبْلَه من إِعطائه التوراةَ، وجعله هدى لبني إسرائيلَ ليخرجَهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى، ثُمَّ قَفَّى على ذلك ببيان أَنَّهُم ما عَملوا بهديها بل أَفْسَدُوا في الأرض، فَسَلَّطَ الله عليهم البابليين، أَثْخَنُوا فيهم، وقصدوهم بالقتل، والنهب، والسلب، ثم أَزَالَ عنهم هذه المحنة، وأعادَ لهم الدولة، وأمدهم بالأموال، والبنين، وجَعَلَهم أكثر عدداً مما كانوا، ثم عادوا إلى عصيانهم، وقتلوا ذكريا، ويحيى ـ عليهما السلام ـ فَسَلَّطَ الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرَى، فأعمل فيهم السيفَ، وسَلَبَ، ونهَبَ، وجاسَ خِلال ديارهم، فدخل بيت المقدس مرَّةً أخرى بالقهر و الغلبة والإذلال، وأهلك ما أَهْلَكَ، مما قد جمعوه وكنزوه، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب في الآخرة بنار جهنمَ، وبئس السجن هي لمن عصى اللّهَ وخالفَ أوامرَ دينه تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لَمَا ذكر ما أَكْرَمَ به من اصطفاه من النبيين والمرسلين، فَأَكْرَمَ محمداً ﷺ بالإسراء، وأكرم موسى بالتوراة، وجعلها هدًى لبني إسرائيل، ثم بيَّن أنهم لم يعملوا بها، فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة.. قفَّى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم، وبيان أنه يَهْدِي إلى الصراط المستقيم، ويُبشرُ المؤمنين بالأجر والثواب العظيم، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم، ثم أَرْدَفَ ذلك بذكر طبيعة الإنسان، وأنه خُلق عجولاً قد يدعو على نفسه بالشر، أي: بالموت، والهلاك، والدمار، واللعنة كما يَدْعُو لنفسه بالخير.

وعبارة أبي حيان هنا: لما ذَكَرَ[2] تعالى من اختصه بالإسراءِ، وهو محمد ﷺ ومَنْ آتاه التوراةَ، وهو مُوسَى عليه السلام، وأنها هدًى لبني إسرائيل،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وذكر ما قَضَى عليهم فيها من التسليط عليهم بذنوبهم، كَانَ ـ ذلك رادعاً لمن عقَلَ عن معاصي الله، فذكر ما شرف الله به رسولَه محمداً ﷺ من القرآن الناسخ لحكم التوراةِ، وكل كتابٍ إلهي، وأنه يهدي للطريقة أو الحالة التي هي أقومُ ـ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر الهداية، والإرشاد بالقرآن الكريم.. قفَّى على ذلك بالاستدلال بالآيات، والدلائل التي في الآفاق، وهي برهان نيِّر لا ريب فيه، وطريق بيِّن لا يضل مَنْ يَنْتَحيه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لمَّا بين فيما سلف حال كتابه الذي يحوي النافعَ والضارَّ من الأعمال، مما يكون به سعادة الإنسان، وشقاؤه في دينه ودنياه.. قفى على ذلك بذكر حال كتاب المَرْءِ، وأنه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من أعماله إلاَّ أحصاها، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما في الكتاب الأول، أو تركه لذاك، فمن أخذ به اهتدى، ومنفعة ذلك عائدة إليه، ومن أعرض عنه ضل وغوى، ووبال ذلك راجع عليه، ثم أكد عنايتَه بعباده، وأنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلِّغون رسالات ربهم رحمةً بهم، وَرَأْفَةً عليهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا...﴾ الآية، قال أبو القاسم سليمان الأنصاري[2]: لما وَصلَ محمد ﷺ إلى الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة، في المعارج أوحى الله إليه يا محمد، بم شرفك الله سبحانه وتعالى؟ قال: «يا رب بنسبتي إليكَ بالعبودية» فأنزل الله فيه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ...﴾ الآية انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

أخرجه[1] ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قَالَت: سأَلَتْ خَدِيجَةُ رَسُولَ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم من آبائهم»، ثم سألته بعد ذلك فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثُمَّ سألته بعدما استحكم الإسلامُ فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقال: هم على الفطرة، أو قال: في الجنة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾؛ أي: تبرأ عن الشريك والولد والصاحبة، الإله الذي سير بعبده محمد ﷺ ﴿لَيْلًا﴾؛ أي: في جزء قليل من الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: من حَرَمِ مَكَّةَ منْ بيت أم هانىء بنت أبي طالب ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾؛ أي[2] إلى المسجد الأبعد من الأرض أي من أرض الحجاز وأقرب إلى السماء، وهو مسجد بيت المقدس، وَرَجَع من ليلته في نحو ثلاث ساعات، وسمي أَقْصَى؛ لأنه أبعد المساجد التي تزار ويطلب بها الأجر من المسجد الحرام؛ أي أبعد بالنظر إلى مَنْ بالحجاز.

قال النحويون[3]: ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم علم للتسبيح، وانتصابه على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، فالمقصود منه التنزيه والتبعيد له تعالى عن السوء في الذات والصفات، والأفعال والأسماء، والأحكام، فالتعجيب مقصود منه أيضاً؛ أي: تعجبوا أو اعْجَبُوا من قدرة الله تعالى على هذا الأمر الغريب، والمعنى: ما أبعد الإِلَهَ الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص، ولذا لا يُستعمل إلاَّ فِيهِ تعالى، والإسراء سير الليل.

وفائدة ذكر الليل، مع أنه معلوم من ذكر الإسراء: الإشارة بتنكيره إلى تقليل مدَّتِهِ، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلةً، ومعنى أسرى به: صيره سارياً في الليل، وقوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ أي بروحه وجسده على المعتمد، وقال[4]: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ دون نبيه، أو حبيبه؛ لئلا تضل به أمته، كما

---

(١) لباب لنقول.
(٢) المراح.
(٣) الفتوحات.
(٤) الفتوحات.

ضَلَّتْ أمة المسيح حيث ادَّعَتْهُ إلٰهاً، أو لأن وصفه بالعبودية المُضَافِ إلى الله تعالى أَشْرَفُ المقامات والأوصاف.

لاَ تَـدْعُـنِـيْ إلاَّ بِـيَـا عَـبْـدَهَـا ... فَـإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَـائِـيَ

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (من) ابتدائية قال الحسن وقتادة: يعني المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن، وقال عامة المفسرين أُسري برسول الله ﷺ من دار أم هانىء، فحملوا المسجد الحرامَ على مكة، أو الحرَمَ لإحاطَةِ كل منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحَرَمَ كُلَّهُ مسجد، وكان[1] الإسراء به ببدنه في اليقظة بعد البعثة، وكان قَبْلَها في المنام كما أنه رَأَى فَتْحَ مكة سنةَ ستٍ وتحقق سَنَةَ ثمان اهـ كَرْخي، والحكمةُ في إسرائه إلى بيت المقدس دُونَ العروج به من مكة، لأنه مَحْشَرُ الخلائق، فَيَطَؤه بقدمه، ليسهل على أمته يومَ وقوفهم ببركة أثَرِ قدمه، أو لأنه مَجْمَعُ أرواح الأنبياء، فَأَرَادَ الله تعالى أن يشَرِفهم بزيارته ﷺ، وليخبر الناسَ بصفاته، فيصدّقوه في الباقي اهـ كرخي، وقيل[2]: الحكمة في إِسْرَائِهِ ﷺ إلى بيت المقدس، ليحصل له العروج إلى السماء مستوياً من غير تعريج، لما رُوِيَ عن كعب أنَّ بَابَ السماءِ الذي يقال له: مصعد الملائكة يُقابِلُ بيتَ المقدس، قال: وهو أقربُ الأرض إلى السماء بثمانيةَ عَشَرَ مِيلاً وقيل: الحكمة في ذلك، أنَّ الشامَ خيرة الله تعالى من أرضه كما في الحديث الصحيح، فهي أفضل الأرض بعد الحرمين، وأول إقليم ظهر فيه ملكه ﷺ، وقيل غَيْرُ ذلك.

ثُمَّ ذكر سبحانه الغاية التي أسري برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، أي القاصي، وهو بيت المقدس، وأول من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما في «المواهب» فهو أول ما بني على الأرض بعدَ الكعبة، وسُمِّي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، ولم يكن حينئذ وَرَاءَهُ مسجد، ثم وصَفَ المسجدَ الأقصى بقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ونواحيه بالثمار، والأنهار، والأنبياءِ، والصالحين، فقد بارك الله سبحانه وتعالى حولَ المسجد الأقصى

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

ببركات الدنيا، فهي ليست إلا حول الأقصى، وأما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين، بل هي في الحرم أتم، وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما اهـ شيخنا، أي الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم، وأقواتهم، وحروثهم، وغروسهم، وفي قوله: ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ بعد قوله: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، ثم ذَكرَ العِلَّةَ التي أسرى به لأجلها فقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾، أي لكي نري عَبْدَنَا محمداً ﷺ ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾، أي من عبرنا[1] وأدلتنا ما فيه البرهان الساطع، والدليل القاطع على وحدانيَّتنا، وعظيم قُدْرَتِنا، والمراد بها، ما أراه الله تعالى في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة، في جزء قليل من الليل، وَقَرأَ الجمهورُ ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بالنون، وهو التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، وقرأ الحسن: ﴿ليريه﴾ بالياء، فيكون الالتفات في ﴿ءَايَٰتِنَآۚ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي إنَّ الذي أسرى بعبده ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة في إسراء محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، أو بكل مسموع، ومن جملة ذلك قول محمد ﷺ وقول أولئك المشركين ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بما يفعلون، لا تخفى عليه خافية من أمرهم، ولا يَعْزُبُ عنه شيءٌ في الأرض، ولا في السماءِ، فهو محيط به عِلْماً، ومحصيه عَدَداً، وهو لهم بالمرصاد، وسيجزيهم بما هم له أهل أو بكل مبصَر، ومن جملة ذَلِكَ ذَاتُ رسوله وأفعاله، وذاتهم وأفعالهم، ويقال[2]: معنى هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ هذا العبدَ الذي اختصصناه بالإسراء هو خاصةُ السميع لكلامنا، البصير لذاتنا، فهو السميع أذناً وقَلْباً بالإجابة لنا، والقبول لأوامرنا، البصير بصراً، وبصيرةً، وتوسيط ضمير الفصل للإشعار باختصاصه ﷺ وحدَه بهذه الكرامة، ولهذا عقب الله تعالى بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

تحقيق ما قيل في الإسراء والمعراج

اعلم[3]: أن هاهنا أمرين:

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

١ ـ إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، وهذا هو الذي ذكر في هذه السورة.

٢ ـ العروج به، والصعودُ إلى السماء الدنيا، ثم إلى مستوى سَمِعَ فيه صريفَ الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس، ولم يذكر ذلك هنا، وسيأتي بيانه في سورة النجم، ونفصل القولَ فيه تفصيلاً إن شاء الله سبحانه وتعالى هناك.

آراء العلماء في الإسراء

وها هنا أمور: مكان الإسراء، زمانه، هل كان الإسراء بالروح والجسد، أو بالروح فحسب.

١ ـ يرى جمع من العلماء أن الإسراء كَانَ من المسجد الحرام، وقيل: أسْرِيَ به من دار أم هانىء بنت أبي طالب.

٢ ـ أما زمانه: فقد كان ليلة سبع عشرةَ من شهر ربيع الأول، قَبْلَ الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن البصري أنه كَانَ قبل مبعثه ﷺ.

٣ ـ أكثر العلماء على أن الإسراء كَانَ بالروح والجسد، يقظة لاَ مَنَاماً، ولهم على ذلك أدلة:

أ ـ أن التسبيح والتعجب في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إنما يكون في الأمور العظام، ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن، ولم يكن مستعظماً.

ب ـ أنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه، ولَمَا ارتد جماعة ممن كانوا قد أسلموا، ولما قالت أم هانىء لا تحدث الناس فيكذبوك، ولما فُضّل أبو بكر بالتصديق، وجاء في الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْر، وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ـ لم أعرفها حق المعرفة ـ فكربت كَرْباً مَّا كربت مِثْله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلاَّ أنبأتهم به» الحديث.

ج ـ أن قوله ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ يدل على مجموع الروح والجسد.

د ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ هي: رؤيا أريها رسول الله ﷺ ليلةَ أسري به، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا في المشاهدة الحسية.

ألا ترى إلى قول الراعي يصف صائداً:

وَكَـبَّـرَ لِـلـرُّؤْيَـا وَهَـشَّ فُـؤَادُهُ ... وَبَـشَّـرَ قَـلْـبَـاً كَـانَ جَـمَّـاً بَـلاَبِـلُـهُ

هـ ـ أن الحركة بِهَذِه السرعة ممكنة في نفسها، فَقَدْ جاء في القرآن الكريم أَنَّ الرِّياحَ كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة، في الأوقات القليلةِ، فقد قال تعالى في صفة سير سليمان عليه السلام: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عَرْشَ بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام، في مقدار لمح البصر، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس، جازَ لدى جميعهم.

ويرى آخرون من الناس أن الإسراءَ كان بالروح فحسب، ولهم على ذلك حجج:

أ ـ أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كان رؤياً من الله صادقة، وقد ضُعّف هذا بأن معاوية يومئذٍ، كان من المشركين، فلا يقبل خبره في مثل هذا.

ب ـ أن بعض آل أبي بكر رضي الله عنه قال: كانت عائشة تَقُولُ: ما فقِد جَسد رسولِ الله ﷺ، ولكن أسري بروحه، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذٍ كانت صغيرةً، ولم تكن زوجاً لرسول الله ﷺ.

ج ـ أن الحَسَن قال في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا...﴾ الآية. إنها رُؤْيا منام رآها والرؤيا تختص بالنوم.

قال أبو جعفر الطبري: الصواب من القول في ذلك عندنا، أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرامِ إِلَى المسجد الأَقْصَىٰ كما أخبر

الله عبادَه، وَكَمَا تَظَاهَرَتْ به الأخبار عن رسول الله ﷺ أَنَّ الله حمله على البراق، حتى أتاه به، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه من الآيات ما أراه، ولا معنى لقول مَن قال: أسري بروحه دون جسده؛ لأن ذَٰلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حُجَّة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، كانوا يدفعون به عن صدقه فيه؛ إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عِندَ أحد من ذوي الفطرة الصحيحة، من بني آدم، أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سَنَةٍ، فكيف ما هو مسيرة شهر، أو أقلَّ.

وبعد: فإن الله إنَّما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره، إلا أن الأدلةَ الواضحةَ، والأخبارَ المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن اللّهَ أسرَى به على دابة، يقال لها: البراق، ولو كَان الإسراء بروحه.. لم تكن الروح محمولة على البراقِ، إذ كانت الدواب لا تَحْمِل إلا الأجساد اهـ.

والخلاصة: أن الذي عليه المعول عند جمهرة المسلمين، أنه أسري به ﷺ يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب، ودخله يصلي في قبلته، تحية المسجد ركعتين، ثم رَكِبَ البُرَاقَ وَعَادَ إلى مكة بغلسٍ.

إلمامةٌ في المعراج

يرى بعض العلماء أن عُرُوجَ النبي ﷺ السموات السبع، كَانَ بجسده وَرُوحه يَقَظة لا مَناماً لدليلين:

أ ـ آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده، والعبد مجموع الروح والجسد، فوجب أن يكونَ الإسراء حَاصلاً بهما.

ب ـ الحديث المروي في الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم، وغيرهما، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم منه إلى السمٰوات العلا، ثُمَّ إلى مستوى سمع فيه صريفَ الأقلام.

وأنكره آخرون، وأثبتوا أنَّ المعراج كان بالروح فحسب لوجوهٍ:

١ ـ أنَّ الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة.

٢ ـ أنه لو صح ذلك لَكان أَعْظَمَ المعجزات، وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناسِ حتى يستدل به على صدقه في ادّعاءِ النبوة، فأما أن يحصل ذَلِكَ في وقت لا يراه فيه أحد، ولا يشاهده فيه مشاهد، فَإِنَّ ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم.

٣ ـ أن الصعود بالجسم إلى العالم العلوي فوق طبقات معينة، مستحيلٌ، لأن الهواءَ معدوم، فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحي، أو يتنفس فيه.

٤ ـ أن حديثَ المعراج اشتمل على أشياءَ في غاية البعد:

أ ـ شق بطنه، وتطهيره بماء زمزم، والذي يغسل بالماءِ هو النجاسات العينية، ولا تأثير لذلك في تطهير القلب من العقائد الزائغة، والأخلاق المذمومة.

ب ـ ركوب البراق ولا حاجة لَهُ بذلك؛ لأن العالم العلوي في غنى عن ذلك.

ج ـ أنه تعالى أوجب خمسين صلاةً، ولم يزل محمد ﷺ يتردد بين الله وموسى عليه السلام إلى أن عادَ الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليهِ السلام، وهذا غير جائز، كما قال القاضي أبو بكر الباقلاني؛ لأنه يقتضي نَسْخَ الحكم قبل العمل به، وهذا بداء محال على الله سبحانه وتعالى.

د ـ لم يقل أحد من المسلمين بأَنَّ الأنبياء أحياء بأجسادهم في العالم العلوي، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية، والتخاطب، والكلام معهم، والصلاة بهم من الأمور الروحية، لا الجسمية، إذ لا يعقل غير هذا، وبهذا يثبت المعراج الروحي لا الجسماني.

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العَقْلية بأن هذه معجزة، والله

تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى، ككل معجزات الأنبياء، من انقلاب العصا حية، ثم عودتها في مدة قصيرة عَصاً صغيرةً كما كانت.

عظة وذكرى

إنا لنقف قليلاً لدى هٰذين الحادثَين الجليلين لنستخلص منهما أموراً هي الغاية في العظة والاعتبَارِ:

١ ـ أنَّ هاتَيْن الرحلتَيْن: الرِحلةَ الأرضيةَ «الإسراء» وَالرّحلة السماويةَ «المعراجَ» حدثتا في ليلة واحدة، قبل الهجرة بسنة، ليمحصَ الله المؤمنين، ويبينَ منهم صادق الإيمان، ومن في قَلْبِهِ منهم مرضٌ فيكون الأولُ خليقاً بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة، والإنضِواءِ تَحْتَ لوائه، وجديراً بما يحتمله من أعباءِ عظام، وتكاليف شاقَّة من حروب دينية، وقيام بدعوة عظيمةٍ، تستتبع همة قعساء، وإنشاء دولة تبتلع المعمورَ في ذلك الحين شَرْقاً، وغَرْباً.

٢ ـ أنَّ اللَّهَ تَعَالَى أطلع رسولَهُ على ما في هذا الكون أرضيةً وسماويةً من العظمة والجلال ليكون درساً عملياً لتعليم رسوله بالمشاهدة، والنظر، فإن التعليمَ بالمشاهدة أجدى أَنْوَاعِ التَّعْليم، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة، أو يجلسْ إلى معلم، أو يَسِيح في أرجاء المعمورة، أَوْ يصعد بالآلات العلمية إلى السماء، فَقَدْ كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى، وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم الَّتي لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها، إلا بضَرْبٍ من التخيُّل والتوهم، فأنى لَنَا أن نَصِلَ إلى ذلك، وقد حبس عَنَّا الكثير من العلم، ولم نؤت إلا قليله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣ ـ أن ما يجدُّ كل يوم من ضروب المخترعات والتوصل بها إلى طي المسافات بوسائل الطيارات، وقطع المحيطات في قليل الساعات من قارَّة إلى قارَّة، ومن قطر إلى قطر، لَيَجْعَلُنَا نعتقد أنَّ مَا جَاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي لَيْسَتْ بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلةِ.

٤ ـ أن روحانيةَ الأنبياء تتغلب على كَثافَة أجسامهم، فَمَا يخيل إلينا من

العَوَائِقِ العلمية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى، لتخلخل الهواءِ، واستحالةِ الوصول إِلَى الطبقات العليا من السماءِ، فَهُوَ إِنَّمَا يكون بالنظر إلى الأجرام والأَجْسام المشاهدة في عالم الحس، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاماً لم يَصِلْ العقل البشريُّ إلى تحديدها، وإبداءِ الرأي فيها، وإنها لَفَوْقَ مستوى إدْرَاكِهِ فأجدر بنا أنْ لا نطيل البَحْثَ فِيهَا، ولا التعمقَ في استقصاءِ آثارها.

٥ ـ أن ما جاء في الحديث من أن الرَّسولَ ﷺ صَلَّى إمَاماً بالأنبياء في عالم السمٰوات ليرشد إلى أن محمداً ﷺ جاء بشريعة، ختمت الشرائع السالفة كلها، وأتمتها، ومن أُوتُوهَا ألقوا الزعامة إليه، وصاروا مؤتمِّين به.

٦ ـ أن في هذا مغزى جديراً بطول التأمل والتفكير، وهو أن جميعَ الأنبياءِ كانوا في وفاقٍ وَوئام في الملكوت الأعلى بالقربِ من ربهم، الذي أرسلَهم أفَلا يَجْدُر بمتّبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم، وأن يَجْعلوا أمرهم بينهم سلماً لا حرباً، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرةَ، والقانُون الذي جاءَتْ به، هو الشريعةَ التي يُقضَى بها بين الناس، كما هو المتبع في القوانين الوَضْعِيَّة، فإِنَّ الَذِي يَجِبُ العمل به هو القانون الأخير، وهو يلغي جميع ما سبقه.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى تشريف مُحَمَّدٍ ﷺ بالإسراءِ، ذكر عَقِبَهُ تشريف موسى عليه السلام، بإنزال التوراة عليه مع ما فيه من دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجَاةِ جَمْعاً بين الأمرين المتحدين في المعنى، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وأعطينا موسى التوراةَ جملةً واحدة بعدما أسريناه إلى الطورِ. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وَجَعَلْنَا ذلك الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: هَادِياً[(١)] لأولاد يعقوب، يهتدون إلى الحق، والصواب بما فيه من الأحكام، وأنْ في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ زائدة على قراءة التاء الفوقانية، و(لا) ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والجملة: مقول لقول محذوف، والتقدير: وقلنا لهم: لا تتخذوا ﴿مِن دُونِى﴾؛ أي: غيري، وهو أحد مفعولي ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾ و(من) زائدة؛

---

(١) روح البيان.

أي: وقلنَا لهم لا تَتَّخِذوا غيري ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: ولياً، ونصيراً تكلون إليه أُمُورَكم، وعلى قراءة التحتانية (أنْ) مصدرية، ولا نافية، ولام التعليل مقدرة، والمعنى: وجعلناه هدًى لبني إسرائيل لئلا يتّخِذوا من دوني وَكِيلاً يَكِلون إليه أمورهم.

والمعنى: أي[1] وأعطينا موسى التوراةَ، وجعلنا فيها هداية لِبَنِي إسرائيل، وَقُلْنَا لهم: لا تتخدوا من دوني وكيلاً، ووليّاً ونصيراً تكلون إليه أموركم، وهذه مقالة أَوْحَى اللَّهَ بها إلى كل نَبِيٍّ أرسلَه، أمرهم جَمِيعاً أن يعبدوه وَحْدَه لا شريك له، وأن لا يعوِّلوا في أمرٍ إلا عليه.

وقرأ ابن عباس[2]، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبو رجاء، وأبو عَمرو من السبعة: ﴿يتخذوا﴾ بالياء على الغيبة وباقي السبعة بتاء الخطاب وقد جاءت هذه الآية عَقِبَ ذِكْر آية الإسراءِ بالنبي ﷺ من قِبَلِ أَنَّ موسى أوتي التوراةَ بمسيرهِ إلى الطورِ، كما أسريَ بمحمد إلى بيت المقدس.

ثم نبّه إلى عظيم شرف بني إسرائيل، وإتمام نعمته عليهم، ليكونَ في ذلك تهييجٌ لهم، وبَيان لعظيم المِنّةِ عليهم، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾؛ أي: يا ذرية مَنْ حَمَلْنَا مع نوح في السفينة، لا تتخدوا من دوني وكيلاً، والمرادُ: تأكيد الحمل على التوحيد، بتذكير إنعامه عليهم في ضمن إنجائِهِ آباءَهم من الغرق في سفينة نوحٍ، قال في «الكواشي»: هذا منة على جميع الناس، لأَنَّهُم كلَّهم من ذرية مَنْ أَنْجَي في السفينة من الغَرَق، والمعنى: كانوا مُؤمنِينَ فكونوا مثلَهم، واقْتَفوا بآثار آبائكم ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن[3] نوحاً عَلَيْهِ السلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ أي: كثير الشكر في مجامع حالاته، وَكَانَ إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاءَ.. أجاعني، وإذَا شَرِبَ قالَ: الحمدُ لله الذي سقاني، ولو

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

شاءَ.. أظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاءَ.. جرَّدني، وإذَا تغوَّط.. قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء.. حبسه.

والمعنى: أي يا سلالة ذلك النبي الكريم الذي شمله الله بجميل رعايته، وأنجاه مِنْ غَرَقِ الطوفان بما أَلْهَمَهُ من عمل السفينة التي حَمَلَ فيها من كل زوجين اثنين، أنتم من حفدة أبنائه، فَتَشَبَّهُوا بأبيكم، واقتدوا به، فإنه كَانَ عَبْدَاً شَكُوراً؛ أي: مبالغاً في الشكر بصرفه كلَّ ما أَنْعَمَ الله به عليهِ فيما خلق لأجله، فاللّسَان لذكر الله، والعقل للفكر فيما خلَقَ الله والبصر للتأمل فيما صنع الله، وهكذا بقية الحواس، وَأعْضَاءَ الجسم.

أخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهنيّ أن النبي ﷺ قال: «إنَّ نوحاً كَانَ إذا أمسى، وأصبح قال: سبحان الله حين تمسون، وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض، وعشياً وحين تظهرون».

وأخرج ابن جرير، والبيهقي، والحاكِمُ عن سلمانَ الفارسِي قال: «كان نوح إذا لَبِسَ ثوباً، أَوْ أطعم طَعَاماً حَمِدَ اللَّهَ تَعَالى، فسمي عبداً شَكُوراً»، وفي هذا إيماء إلى أن إنجاءَ من كان مَعه كَانَ بِبَرَكَةِ شُكْرِهِ، وفيه حثٌّ للذرية على الاقتداءِ بِهِ، وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أفظع مراتب الكفر.

وقرأ زيد بن ثابت[1]، وأبان بن عثمان، وزيد بن علي، ومجاهد في رواية، بكسر ذال ﴿ذِرية﴾ وقرأ مجاهد أيضاً بفتحها، وعن زيد بن ثابت ﴿ذَرِيَّة﴾ بفتح الذال، وتخفيف الراء وتشديد الياء على وزن فعلية، كمطية، وقرىء ﴿ذُرِيَّةُ﴾ بالرفع شاذاً على تقديرهم ذرية، أو عَلَى البدل من الضمير في ﴿يتخذوا﴾ على القراءة بالياء لأنه غيب، ثمَّ بيَّن سبحانه أنه أَنْعَمَ على بني إسرائيل بالتوراة، وجعلها هُدىً لهم، لكنهم لَمْ يهتدوا بهَا فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أوحينا إليهم، وأعلمناهم، وأخبرناهم ﴿فِى﴾ ما آتيناهم من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

التوراة، وكان إنزالها على نبيهم موسى، كإنزالها عليهم، لكونهم قَوْمَه وقيل: المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، والمعنى، وَقَضَيْنَا: أي: حكمنا على بني إسرائيل في اللوح المحفوظ، قضاء مبتوتاً، وحكماً مَقْطَوعاً، و(اللام) في قوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: موطئة لقسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لتفسدن في أرض الشام، وبيت المقدس، أو أرض مصر بالمعاصي والظلم ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾؛ أي: إفسادتين: أولاهما: مخالفة أحكام التوراة، وقَتْلُ شِعْيَاءَ، وحبس أرْمِياءَ، وثانيتهما: قتل زكريا، ويحيى، وقصد قَتْل عيسَى عليهم السلام؛ أي: لتفسدن فيهَا إفساداً بعد إِفساد ﴿وَلَتَعۡلُنَّ﴾؛ أي: ولتستكبرنَّ فيها عن طاعة الله تعالى أو لتظلِمُن الناس ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ أي اسْتِكْبَاراً مجاوِزاً الحد، أو ظُلماً فَاحشاً، وهذه (اللام) كاللام التي قبلها، والمعنى أي وأوحينا[١] إلى بني إسرائيل فيما أنزلناه في التوراة على موسى، فأعلمهم به، لتعصن اللّهَ، ولتخالفنَّ أمرَه مرتين، أولاَهما: تغيير التوراة، وقتل شعيا عليه السلام، وحبس أَرميا حين أنذَرهم سخط اللّهِ، والثانية: قتل زكريَا، ويحيىٰ وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام.

وقيل: سبب قتل زكريَا أنَّهُم اتهموه بِمَرْيَمَ، قيل: قالوا: حين حَمَلَتْ مَرْيَمُ ضيَّعَ بِنْتَ سَيِّدِنَا حتى زنت، فقطعوه بالمنشار في الشجرة. ولتستكبرن في الأرض عن طاعة الله تعالى، ولتبغن على الناس، ولتظلمنَّهم ظلماً شديداً تفرطون فيه، وتبلغون أقصَى الْغَايَةِ.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالإفرادِ، والظاهر أن يرادَ به التوراة، وقَرأَ أبو العالية، وسعيد بن جبير ﴿في الكتب﴾ على الجمع، فاحتملَ أن يرادَ به الجنس، وقرَأ الجمهور: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ بضم التاء، وكسر السين من أفسد الرباعي، وقرأ ابن عباس، ونصر بن علي، وجابر بن زيد: ﴿لَتُفْسدَن﴾ بضم التاء، وفتح السين مبنياً للمفعول؛ أي يفسدكم غيركم، فقيل: من الإضلال، وقيل: من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

الغلبة، وقرأ عِيسَى: ﴿لَتَفْسُدُنَّ﴾ بفتح التاء، وضم السين، أي فسدتم بأنفسكم بارتكاب المعاصي، وقرأ الجمهور: ﴿عُلُوًّا﴾ بوزن عتواً، وقرأ زيد بن علي: ﴿علياً كبيراً﴾، ولكن التصحيح في فعول المصدر أكثر من الإعلال كقوله: وعَتَوا عُتُوًّا كبيراً، بخلاف الجمع، فإن الإعلال فيه هو المقيس.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾؛ أي: وعد عقاب أولى المرتين؛ أي: فإذا حان وقرب وَقْتُ العقاب الموعود به في أولى الإفسادَتَين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سَلَّطْنَا عليكم لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ قيل[1]: هم بختنصر، وجنوده، وقيل: جالوت وجنوده، وقيل: جند من بابل، وأكثر ما يقال: عباد الله، وعَبِيدُ الناس، والإضافة[2] فيه لبيان كونهم مَظَاهِرَ الاسم المذلّ المنتقم القهَّار، كما يفيده مقام العظمةِ، لا للتشريف، فإن الكَافِرَ ليس من أهله، ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: أصحابَ قوة في الحروب، وبطش عند اللقَاءِ، وهذا كقولهم: ظل ظليل؛ لأن البَأْسَ يتضمن الشدةَ؛ أي ذَوِي قوة وبطش في الحروب ﴿فَجَاسُوا۟﴾؛ أي: جَاسَ أولئك العباد، وترددوا ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾؛ أي: خلالَ دياركم وأوساطها، من الجوس، وهو التردد خلال الدور والبيوت في الغارة؛ أي: مَشَوا في وسط المنازل، أو في أوساطها للقتل والأسر، والغارة، وطافوا بَيْنَها لِيَنْظُروا هل بقي منهم أحدٌ لم يَقْتُلُوه، فَقَتَلوا علماءَهم، وكِبَارَهُم، وحرَّقوا التوراةَ، وخرَّبوا المسجدَ، وسَبُوا منهم سبعينَ ألفاً، وذلك من قبيل تولية بعض الظالمِينَ بعضاً مما جرت السنة الإلهية، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك؛ أي: وعد عقابهم في المرة الأولى، فالضمير في، ﴿وَكَانَ﴾ عائد على وعد أولاهما، وفي «الجمل»: ﴿وكان﴾؛ أي: البعث المذكور، وجوس الأعداء ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾؛ أي: وعداً لا بد منه أن يُفَعَلَ.

والمعنى: أي[3] فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود، أرسلنا عَليكم لمؤاخَذَتِكُم بجنايتكم عِبَاداً لنا أُولي بطش شديد في الحروب، قيل: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده، فأوغلوا في البلادِ، وترددوا بين الدور، والمساكن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

لِلْقَتْلِ والسلب والنهب، وقَتَلُوا علَمَاءَكم، وكبراءَكم، وأحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وسبوا منكم عدداً كثيراً، وكَانَ ذَلِكَ وَعْداً نَافذاً لا مَرَدَّ له؛ أي: وعداً منجزاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَجَاسُواْ﴾ بالجيم، وقرأ أبو السمال وطلحة: (فَحَاسُوا) بالحاء المهملة، وقرىء (فتجوَّسوا) على وزن تكسَّروا بالجيم، وقرأ[2] الحسن، وابن جبير، وأبو المتوكل، وأبو رزين (خلل الديار) بفتح الخاء، واللام، من غير أَلِف بالإفراد فيجمع على خِلاَلِ كجبل وجبال، ويجوز أن يكونَ خِلاَلَ مفرداً كالخلل وَهُوَ: وسط الديارِ وما بينها ﴿ثُمَّ﴾ بعد عقوبة أولاهما ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ﴾ يَا بَني إسرائيل؛ أي: أعدنا لكم ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾؛ أي الدولة والغلبةَ والرَّجعةَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الذين فَعلُوا بكم ما فعلوا بعد مئة سنة، حين تبتم ورجعتم من الإفساد، والعلو، وذلك حين قَتَلَ داود جالوتَ، وقيلَ: حين قُتِلَ بُخْتُنَصَّر.

تلخيصه: بعد ظفرهم بكم أظفرنَاكُم بِهم، والكَرَّة في الأصل المرة، و(عليهم) متعلق بها؛ لأنه يقال كر عليه إذا عطف عليه ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم﴾؛ أي: قويناكم، وأعطيناكم ﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرَةٍ بعدما نهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ عديدة بعدما سبيت أولادُكم؛ أي بسطنا عليكم رِزْقَ الأموالِ، والأولادِ حَتَّى عَادَ أمركم كما كان ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾؛ أي: رِجَالاً وعَدَداً مما كنتم عليه أولاً، أو أكثرَ عدداً ورِجَالاً من عدوكم، أو أكثر خروجاً إلى الغزو؛ لأنَّ النفيرَ يكونُ مصدراً بمعنى الخروج إلى الغزو، والنَّفِيرُ من يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته.

والمعنى: أي ثم[3] رَجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا حِينَ تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد، والعلو، فَغَزَوْتُم البَابِلِيِّيْنَ واستَنْقَذْتُم الأسْرَى، والأموال، ورجع المُلْكُ إليكم، وكثرت أَمْوَالُكُم بعد أن نهبت، وأولادُكم بعد أن سُبيت، وصِرتُم أكثرَ عَدَداً، وأعظم قوة مما كنتم قبل،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) المراغي.

وذلك بِفَضْلِ طاعته تعالى، والإخبات إليه، ومِن ثَمَّ قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾؛ أي: أفعالَكم، وأقوالَكم على الوجه المطلوب منكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: لغرض أنفسكم؛ لأن ثَوابَ ذلك عائد إليكم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أَفْعالَكم، وأقوالَكم فأوقعتموها، لا على الوجه المطلوب منكم، ﴿فَلَهَا﴾؛ أي: فَعَليها؛ أي[1]: إحسان الأعمالِ وإساءتها، كلاهما مختص بكم، لا يتعدى ثوابها ووبالها إلى غيركم، فـ(اللام) على أصلها، وهو الاختصاص قال[2] في تفسير «النيسابوري» قال أهل الإشارة: إنه أعاد الإحسان مرتين ولم يذكر الإساءة إلا مرَّة، إشارة إلى أنَّ جَانِبَ الرحمة أَغْلَبُ، ويجوز أنْ يَترك تَكْرِيرها استهجاناً لها.

والمعنى: أي[3] ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ فأطعتم اللّهَ، ولزمتم أمره، وتركتم نهيه ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنكم تنفعوها بذلك في دنياها وآخرتها، أما في الدنيا: فإنَّ اللّه يدفَع عنكم أذى من أرادكم بسوء، ويرد كيده في نحره، وينمي لَكُم أموالَكم، ويزِيدكم قوةً إلى قوتكم، وأما في الآخرة: فإن الله يثيبكم جَنَّات تَجْرِي من تحتها الأنهار، ويرضَى عنكم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وإن أسأتم، فعصيتم ربكم، وفعلتم ما نهاكم عنه، فإلى أنفسكم تسيؤون، لأنكم تسخطونه، فيسلّط عليكم في الدنيا أَعْدَاءَكم، ويمكّنَ منكم من يبغي بكم السوء، ويلحق بكم في الآخرة العذابَ المهين ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: وعد عقوبة المرة الآخرة - أي: الثانية - أي: حَانَ وقت ما وعد به من عقوبة المرة الآخرة من الإفسادين، والمرة الآخرة هي قصدهم قَتْلَ عِيسَى فخلصه الله منهم، ورفَعه إليه، وقتلوا زَكَرِيَّا ويحيى فسلط الله عليهم الفرس والرُّوم فَسبَوهم وقتلوهم.

وجَوَاب ﴿إِذَا﴾ محذوف دل عليه جواب إذَا الأولى؛ أي: فَإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: ليفْعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثارُ المساءة، وتتبيَّن في وجوهكم الكآبة، والحزن.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وقيل: المراد بالوجوه: السادة منهم؛ أي: لِيَحْزنُوكُم بالقتل والسبي حزناً يظهر في وجوهكم.

وقرأ الجمهور(١): ﴿لِيَسُـُٔوا﴾؛ أي: قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: لِيَسُوؤوا بلام كي، وياء الغيبة، وضمير الجمع الغائب العائد على المبعوثين؛ وبالهمز بين الواوين، وقرأ ابنُ عامر، وحمزة، وأبو بكر، عن عاصم ﴿لِيَسُوءَ وجوهكم﴾ بالياء، وهمزة مفتوحة على الإفراد، والفاعل المضمر عائِدٌ على الله تعالى، أو على الوَعْدِ أَوْ عَلَى البعث الدال عليه جملة الجزاء المحذوفة، وقرأ علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، والكسائي: ﴿لِنَسُوء﴾ بالنون التي للعظمة، وفيها ضمير يعود على الله، وقرأ أبي ﴿لنسوءن﴾ بلام الأمر، والنون التي للعظمة، ونون التوكيد الخفيفة آخراً، وعن علي أيضاً ﴿لنسوءن﴾ و﴿ليسوءن﴾ بالنون والياء، ونون التوكيد الشديدة، وهي لام القسم، ودخلت لام الأمر في قراءة أُبيٍّ على المتكلم، كقوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وجواب إذا هو الجملة الأمرية، على تقدير الفاء وَفي مصحف أبيّ ﴿ليسىء﴾ بياء مضمومة بغير واو، وفي مصحف أنس ﴿ليسوء وجهكم﴾ على الإفراد، ومعنى ﴿لِيَسُـُٔوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: ليدخلوا عليكم الحزنَ بما يَفْعَلُونَ من قتلكم وسبيكم، وخصت المساءاة بالوجوه، والمراد: أصحاب الوجوه لِمَا يَبْدُو عليها من أثر الحزن والكآبة. وقوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ معطوف على ﴿لِيَسُـُٔوا﴾؛ أي: وليدخلوا مسجد بيت المقدس، فيخرِّبوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ في المرة الأولى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾؛ أي: وليدمّروا ويهلكوا، ويهدِّموا، ويخرّبوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾؛ أي: ما غلبوا عليه من بلادكم، أو مدة عُلُوِّهِم ﴿تَتْبِيرًا﴾؛ أي: تَدْمِيراً، ذكر المصدر إزالة للشك، وتحقيقاً للخبر.

ومعنى الآية: أيْ فَإذا جاء وَقْت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرتي إفسادكم في الأرض، بعثنا أَعْداءَكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً في وجوهكم «فإن الأعراضَ النفسيةَ تظهر في الوجوه، فالفرح يظهر فيها النضارة، والإشراق، والحزنُ والخوفُ يظهر فيها الغبرةَ والقترَةَ» ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ قَاهِرِينَ

(١) البحر المحيط.

فاتحِينَ مذلين لَكُم كما دخلوه أول مَرَّة، وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه، تَتْبِيراً شَدِيداً فلا يبقون منه شيئاً.

والذي أثبته اليهود في تواريخهم[1]: أن الذي أغارَ عليهم أولاً وخرب بيت المَقْدِس هو بختنصر، وكان ذلك زمن إرميا عليه السلام، وقد أنذرهم مَجيئَهُ صريحاً بعد أن نَهَاهُمُ عن الفساد وعبادة الأوثان والأصنام، فحبسوه في بئر، وجرحوه، وأن الذي أغَارَ عليهم ثَانِياً هُوَ أسبيانوس قيصر الروم، وكان بين الإغارتين على ما قيل نحو من خمس مئة سَنَةٍ، وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يَتَعَلّق به غرض كبير؛ لأن المرادَ أنه كلما كثرت مَعَاصِيهم.. سلط اللّهُ عليهم مَنْ ينتقم منهم، مرة بعد أخرى، وظاهر الآية يدل على اتحادِ المبعوثين أولاً وَثَانِياً.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: حققَ ربكم يا بَني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم في المرة الثانية، بإمداده إياكم في الأموال، والأولاد، إن تُبْتُم تَوْبَةً أخرى، وانْزَجَرْتُم عن المعاصي، فَتَابُوا فرحمهم، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرة ثالثةً إلى المعاصي ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم.

قال أهل السير[2]: ثُمَّ إنهم عادوا إلى ما لا ينبغي، وهو تكذيب محمد ﷺ وكتمانُ ما ورد من بعثه في التوراةِ، والإنجيل فَعَادَ الله إلى عقوبتهم، على أيدي العرب، فجرى على بني قريظة، والنضير، وبني قينقاع، وخيبر، ما جرى من القتل، والسبي، والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب الذلة والمسكنة.

والمعنى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد البعث الثاني إن تبتم وازدجرتم عن المعاصي، وقد حقق الله لهم وعده، فكثر عددهم، وأعزهم بعد الذلة، وجعل منهم الملوكَ والأنبياء، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾؛ أي: وإن عدتم لمعصيتي، ومخالفة أمري، وقتل رسلي، عدنا عليكم بالقتل، والسبي، وإحلال الذل والصغار بكم،

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وقد عادوا فعاد الله عليهم، بعقابه، فقد كذبوا النبي ﷺ وهموا بقتله، فسلطه اللَّهُ عليهم، فقتلَ قُرَيْظة، وأجلى بني النضير، وضرب الجِزْيَة على الباقين، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون، ولا مُلْكَ لهم ولا سلطان.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ أي[1]: محبساً ومقراً يحصرون فيه لا يستطيعون الخروج، منهَا أبدَ الآباد، فهو فعيل بمعنى فاعل؛ أي[2]: حاصرة لهم، ومحيطة بهم، فصرف من حاصرةٍ إلى حصير، كما صرِف مُؤلِم إلى أَلِيم، وتذكيرُهُ إما لكونه بمعنى النِّسْبَةِ، كلابن وتَامِرِ، أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول، أو بالنظر إلى لفظ (جهنم) إذ ليس فيه علامة التأنيثَ، وعن الحسن: حَصِيراً؛ أي: بِسَاطاً، وفِرَاشاً، كما يبسط ويفرش الحصيرُ المَرْمُولُ، والحصيرُ: المنسوج، وإنَّما سُمِّيَ الحصيرُ؛ لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض.

واعلم: أن جهنم عَصَمني الله وإياكم عنها من أعظم المخلوقات، وهي سجن الله في الآخرة يسجن فيه المعطلة؛ أي: نفاة الصانع والمشركون، والكافرون، والمنافقون، وأهل الكبائرِ من المؤمنينَ، ثُمَّ يخرج بالشفاعة وبالامتنان الإلهي من جاء النص الإلهي فيه؛ أي[3]: إنه تعالى جَعَل جَهَنَّمَ للكافرين به بِسَاطاً، ومهاداً كما قال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقال ابن عباس وغيره: جعلناها سجناً محيطاً بهم حابساً لهم لا رجاء لهم في الخلاص منه.

وخلاصةُ ذلك: أن لهم في الدنيا ما تَقَدَّمَ وصفه من العذاب، وفي الآخرة ما يكون محيطاً بهم من عذاب جهنم، فلا يتخلصون منه أبداً، وفي الكرخي: والمعنى: أن عذاب الدنيا، وإن كان شديداً، إلا أنه قد يَتَفَلَّتُ بعض الناس عنه، والذي يقع فيه يَتَخَلَّصُ إما بالموت، أو بطريق آخر، وأما عذاب الآخرة، فإنه يكون محيطاً بهم، لا رجاءَ في الخلاص منه اهـ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِى﴾ الناس كافةً لا فرقةً

---

(١) روح البيان.
(٢) زاد المسير.
(٣) المراغي.

مخصوصةً منهم، كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿لِلَّتِي﴾، أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرائق وأسدها، وأصوبها، أي يهدي إلى الطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق، والملل، وهي ملة الإسلام، أو يَهْدِي للحالة التي هي أقوم من غيرها من الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله، والمراد[1] بهدايته لها: كونه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به، لا تحصيل الاهتداءِ بالفعل، فإنَّه مَخْصُوصٌ بالمؤمنين ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شرحت فيه، ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾؛ أي: بأنَّ لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾؛ أي: ثواباً عظيماً بِحَسَبِ الذات، وبِحَسَبِ التضعيف عشر مرات فصاعداً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على جملة يبشّرُ بإضمار يخبر؛ أي: وإن هذا القرآن الذي أنزل عليك يخبر ويبين بأن الذينَ لا يؤمنون ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾، وأحكامها المشروحة في القرآن من البعث، والحساب، والجزاءِ، وأنكروا وجودَها ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: هيأنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب جهنم، ويجوز أن يكونَ معطوفاً على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فالمعنى أنه يبشّرُ المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم، فإنَّ المرء يستبشر ببلية عَدُوّهِ، وقرأ الجمهور ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ مُشَدَّداً مضارع بَشَّر المشدد، وقرأ عبد الله، وطلحة، وابن وثاب، والأخوان: ﴿ويَبْشرُ﴾ مضارع بَشَرَ المخفف.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى مَدَحَ[2] في هذه الآية كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ووصفه بصفات ثلاث:

١ ـ أنه يرشِدُ مَن اهتدى به للسبيل التي هي أقوم السبل، وهي ذلك الدين القيم، والملة الحنيفية السمحاءُ التي أهم دعائمها: الإخباتُ لله، والإنابة إليه، واعتقاد أَنَّهُ واحدٌ لا شريكَ له، وأنه صاحب الملك والملكوت، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الفردُ الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

٢ ـ أنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال، فيأتمرون بما أمر به، وينتهون عما نهاهم عنه، بالأجر العظيم يَوْمَ القيامة كفاءَ ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح.

٣ ـ أنه ينذر الذين لا يصدقون بالميعاد، ولا يقِرون بالثوابِ والعقاب في الدنيا، فلا يتحاشون رُكُوبَ المعاصي، بالعذاب الأليم الموجع جزاءَ ما دنسوا به أنفسهم من الكفر، واجتراحِ الآثام، ويدخل في هؤلاءِ أهل الكتاب، لأن بعضهم ينكر الثوابَ والعقابَ الجسمانيين، وبعضهم يقول: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهكم كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وبعد أن بين حَالَ الهادي، وهو الكتاب الكريم بَيَّن حالَ المهدي، وهو الإنسان فقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾.

قال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أن بَعْض من لا يؤمن بالآخرة، كان يدعو على نفسه بتعجيل ما وعد به من الشر في الآخرة، كقول النضر بن الحارث ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...﴾ الآية، والمراد بالإنسانُ: الجنس لوقوع هذا الدعاءِ من بعض أفرادِهِ؛ أَيْ ويدعو الله سبحانه الإنسان عند غَضَبِه بالشر والضرر على نفسه، وأهلهِ وَمَالِهِ وولده ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ في الإلحاح، أي دعاء مثل دعائه لهم بالخير، والرزق، والعافية، والرحمة ويستجاب له، فلو استجيب له إذا دعاه باللَّعْن كما يجاب له بالخير لَهَلَكَ أو المعنى[٢]: إن الإنسانَ قد يبالغ في الدعاء طلباً لشيء يعتقد أن خَيْرَهُ فيه مع أن ذلك الشيءَ يكون منبع ضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه مغتراً بظاهر الأمور، غير متفحِّص عن حقائقها وأسرارها.

روي: أن النضر بن الحارث قال: (اللهم انصر خير الحزبين، اللَّهُمَّ إِنْ كان هذا هو الحَقَّ من عندك...) إلى آخره، فأجاب الله دعاءَه، وضربت رقبته

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

يَوْمَ بدر.

وحذفت الواو من ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في رسم المصحف اتباعاً لخط اللفظ لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها، كقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونحو ذلك. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جبلته ﴿عَجُولًا﴾؛ أي: كثير العجل يسارِعُ إلى طلب ما يخطر بباله، ولا ينظر عاقبته، ولا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يَعْتَريه، فالإنسان[1] عَجُولٌ قولاً وفعلاً يتمادى في الأعمال الموجبة للشر والعذاب، وفي الأثر: «المؤمن وقاف والمنافق وثابٌ».

وروي أن آدم قال لأولاده: كل عَمَلٍ تريدون أن تَعْمَلُوا فقفوا له ساعة، فإني لو وقفت ساعة.. لم يكن أصابني ما أصابني. وَقَال أعرابي: إياكم والعجلة، فإن العَربَ تكنِّيها أمَّ الندامات.

قيل: العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب.

ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد، أكَّدها بدليل آخر من عجائب صنعه، وبدائِع خلقه، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قدم الليل؛ لأن فيه تظهرُ غُرَرُ الشهور، ولأنه الأصل؛ أي: جعلناهما بسبب تعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ دالتين على وجود الصانع القدير، ووحدته، إذ لا بد لكل متغير من مغير، وإنما قال[2]: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ بالتثنية، ولم يقل آية كما قال في موضع آخر ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بالإفراد لأن الليلَ والنهار ضدان بخلاف عيسى ومريم، وقيل: لأن عيسَى ومريمَ كانَا في وقت واحد، والشمسُ والقمرُ آيتان، لأنهما في وقتين، ولا سبيل إلى رؤيتهما معاً بصفتهما الرئيسية؛ أي[3]: جعلنا الليلَ والنهارَ علامَتين دالتين على تمام علمنا، وكمال قدرتنا، فلما

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

بين سبحانه وتعالى أن هذا القرآن يدل على الطريق الأقوم ذكر الدلائل الدالة على وحدته تعالى وهو عجائب العالم العلوي والسفلي، فالقرآن نعم الدين، ووجود الليل والنهار نعم الدنيا، فلولاهما.. لمَا حصل للخلق الراحة، والكسب، والقرآن ممتزج من المحكم والمَتَشَابِه، فكذلك الدهر مركب من الليل والنهار، فالمحكم كالنهار، والمتشابه كالليل، فكما أنَّ المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه، فكذلك الزمان لا يحصل الانتفاع به إلا بالليل والنهار، و(الفاء) في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ تفسيرية[1]، والإضافة بَيَانِية كما في إضافة العدد إلى المعدود؛ أي: فمحونا الآية التي هي الليل، والمحو في الأصل إزالة الشيء الثابت، والمراد هنا إبداعها، وخلقها ممحوة الضوء مطموسة كما في قولهم: سبحانه من صغَّر البعوض، وكبَّرَ الفيل؛ أي: أنشأهُمَا وخَلَقَهُما كذلك، بقرينة أن محوَ الليل في مقابلة جعل النهار مضيئاً، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: الآية التي هي النهار ﴿مُبْصِرَةً﴾، أي: مضيئةً تبصر فيها الأشياء وصفها بحال أهلها.

ويجوز أن تكون الإضافة في الموضعين حقيقيةً، فالمراد بآية الليل والنهار القمر والشمس، والمعنى حينئذٍ ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾، وهي القمر، أي[2] طمسنا نورها؛ لأنه يبدو في أول الأمر على صورة الهلال، ثُمَّ لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدراً كاملاً ثم يشرع في الانتقاص قَلِيلاً قَلِيلاً إلى أن يعود إلى المحاق ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي مضيئةً ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة، فالإضاءَة سبب لحصول الإبصار.

روي[3]: أن الله تعالى خَلَق كلاً من نور الْقَمَرِ والشمس سبعينَ جُزْءاً، ثُمَّ أمر جبريلَ فمسح بجناحه ثلاثَ مَرَّاتٍ فمحا من القمر تسعة وَسِتِّينَ جزأ، فحولها إلى الشمس لِيَتَمَيَّزَ الليل من النهار، إذ كان في الزمن الأول لا يُعرف الليل والنهار، فالسواد الذي في القمر أثر المحو، وهذا السواد في القمر بمنزلة الخال

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

على الوجه الجميل ولما كان زمان الدولة العربية الأحمدية قمرياً ظهر عَلَيْهِ أثر السيادة على النجوم، وهو السواد، لأنه سيد الألوان، كما ظهر على الحجر المكرم الذي خرج من الجنة أبيض أثر السيادة بمبايعة الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وجعل الله شُهورَنَا قمرية لاَ شَمْسِية تنبيهاً من الله للعارفين أن آياتهم ممحوة من ظواهرهم، مصروفة إلى بواطنهم، فاختصوا من بَيْن جمِيعِ الأمم الماضِيَةِ بالتجليات الخَاصة.

وحاصل المعنى: أي وجعلنا الليل والنهار دَلِيلَيْنِ للخلق على مصالح الدين والدنيا، أما في الدّين: فلأن كلاً منهما مضاد للآخر، ومخالف له مع تعاقبهما على الدوامِ، وَهَذا من أَقْوَى الأدلة على أنه لا بد لهما من فاعل مدبر، يقدرهما بمقادير مخصوصة، وأما في الدنيا فلأن مصالحها لا تتم إلا بهما، فلولا الليل.. لما حصل السكون، والراحة، ولولا النهار.. لما حصل الكسب، والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: فمحونا آية هي الليل؛ أي: جعلنا الليلَ ممحو الضوءِ، مطموسه مظلمة لا يستبين فيه شيء، كَما لا يستبين ما في اللوح الممحو، رُوي ذلك عن مجاهد، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: وجعلنا الآية التي هي النهار مضيئة، و﴿مُبْصِرَةً﴾ يبصر فيها أهلها، وقرأ قتادة، وعلي بن الحسين ﴿مَبصَرة﴾ بفتح الميم، والصاد، وهو مصدر: أقيم مقامَ الاسم، وكثر ذلك في صفات الأمكنة، كقولهم: أرض مَسْبَعَة، ومَكَانَ مَضَبَّة.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ متعلق بقوله[1] ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي رِزْقاً من ربكم، وسماه فضلاً؛ لأن إعطاء الرزقِ لا يجب على الله، وإنما يفيضه بحكم الربوبية، إذ غالب تحصيل الأرزاق، وقضاء الحوائج، يَكُونُ بالنهار، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاءً بما قاله في موضع آخر ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

---

(١) روح البيان.

أو المعنى: فعلنا[1] ذلك لتطلبوا في الليل والنهار فضل ربكم من الرزق الحلال بالكسب، ومن الثواب الجزيل بأداء الطاعات والاحتراز عن المنهيات. وفي التعبير[2] عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئاً فشيئاً، دلالة على أنه ليس للمرء في تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية، وفي الخبر «يطلبك رزقك كما يطلبك أجلك»، وقيل في هذا المعنى:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا ٱلإِشْرَاقُ مِنْ خُلُقِيْ ... أَنَّ ٱلَّذِيْ هُوَ رِزْقِيْ سَوْفَ يَأْتِيْنِيْ

أَسْعَىٰ إِلَيْهِ فَيُعْيِيْنِيْ تَطَلُّبُهُ ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِيْ لاَ يُعَنِّيْنِيْ

وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ متعلق بكلا الفعلين أعني ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ لا بأحدهما فقط، كالأول؛ إذ لا يكون علم عدد السنين، والحساب إلا باختلاف الجديدين، ومعرفة الأيام، والشهور، والسنين والفرق[3] بين العدد، والحساب أَنَّ الْعَدَدَ إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصلَ منه شيء، والحساب إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله، من حيث يتحصل بطائفة معينة، منها حد معيَّن منه له اسم خاص، فالسنة مثلاً إن وقع النَّظر إليها من حيث عدد أيامها، فذلك هو العدد، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها، وتحصلها من عدة أشهر، قد يحصل كل شهر من عِدَّةِ أيام، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق، فذلك هو الحساب.

والمعنى: أي فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتعلموا بمحو آيةِ الليل، وجعل آية النهار مبصرةً عدد السنين، التي تتوقف عليها مَصَالِحكم الدينية والدنْيَوِيَةِ ولتعلموا الحساب، أي حساب الأشهر، والليالي والأيام، وغير ذلك مما نيط به شيء من تلك المصالح في معرفة أوقات المعاش، كآجال الدُّيُون،

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

وأوقات الزّراعة، وأوقاتِ الدّين كأوقاتِ الصلاة والحج والصوم اهـ شيخنا؛ إذ لو كان الزمان كله نسقاً واحداً.. لَمَا عرف شيء من هذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ لكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم قد ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ لكم في القرآن ﴿تَفْصِيلًا﴾ بيِّناً، وبيناه لكم تبييناً واضحاً لا يلتبس، وعند ذلك تنزاح العلل، وتزول الأعذارُ، ليَهْلِكَ من هلك عن بينة، ولهذا قال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾.

والخلاصة: وكل[1] شيء تفتقرون إليه في المعاش والمعاد، بيناهُ في القرآن بياناً بليغاً لا التباسَ معه، فأزحنا عِلَلَكم، وما تركنا لَكُم حجةً علينا، فليتَّبع العاقل ما أدركه؛ أي: لحقه علمه، وليفوض ما جهله منه إلى ذي العلم، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلف مؤمناً كان أو كافراً، ذكراً أو أنثى، عالماً أو أمياً، سلطاناً أو رعيةً، حراً أو عبداً، ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾؛ أي: ألزقناه ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: عمله الصادرَ عنه باختياره، حسبما قدِّرَ له من خير أو شر، كَأنَّما طار إليه من عش الغيب ووكر القدر وقلَّدناه ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾، وذكر العنق كناية عن شدة اللزوم، أي: ألزمناه عَمَلَه كلزوم القلادة في عنقه، بحيث لا يفارِقُه عَمله أبداً؛ فإن كان خيراً.. كَانَ زينة له، كالطوق، وإن كان شراً.. كَانَ شيناً له، كالغل على رقبته، وقرىء ﴿عنقه﴾ بسكون النون؛ ذكره في «البحر».

وإنما كنَّى عن العمل بالطير[2]؛ لأن الْعَرَبَ إذا أرادوا الإقدامَ على عَمَلٍ، اعتبروا أَحوالَ الطير، فهل يطير مُتَيَامِناً، أو متياسراً، أو صاعداً إلى الجو، إلى غير ذلك، فيستدلون بكل واحد منها على الخير والشر، والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلِكَ منهم، سمي نفس الخير والشر بالطائر، تسمية للشيء باسم لازمه،

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

وقيل: المراد بالطائر صحيفة الأعمال التي كتبتها الملائكة الحفظة، فإذا مَاتَ العبد طوِيَت تلك الصحيفة، وجُعِلَت معه في قبره حتى تخرج له يوم القيامة، وقيل: المراد بالطائر: كتاب إجابته في القبر لمنكر ونكير.

قال الفخر الرازي: والتحقيق في هذا الباب[1]: أنه تعالى خلق الخَلْقَ، وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والفهم، والعلم والعمر، والرزق والسعادة، والشقاوة، والإنسان لا يمكنه أن يتجاوزَ ذلك المقدار، وينحرفَ عنه، بل لا بد وأن يصل إليه ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية، فتلك الأشياء المقدَّرة كَأَنَّها تطير إليه، وتصيرُ إليه، فلهذا المعنى لا يبعد أن يعبَّر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر، فقوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ كناية عن أن كل ما قدره الله وَمَضَى في علمه حصوله له، فيما عَلِمَه فهو لازم له، واصل إليه، غير منحرف عنه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «جف القلم بِمَا هو كائن إلى يوم القيامة» اهـ، ملخصاً.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾؛ أي: لكل إنسان ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والبعث للحساب، ﴿كِتَٰبًا﴾ مسطوراً فيه عمله نقيراً، وقطميراً، وهو مفعول ﴿وَنُخْرِجُ﴾. ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ الإنسان أي: يجده، ويَرَاهُ ﴿مَنشُورًا﴾؛ أي مفتوحاً بعدما كان مطْوِيّاً، ليمكنه قِرَاءته، صفتان لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو الأول صفة، والثاني حال. قال الحسن[2]: بُسِطَتْ لك صَحِيفَة، ووكلَ بك ملكان، فهما عن يَمِينِكَ، وعن شمالِك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأمَّا الذي عن شمالك، فيحفظ سيئاتك، حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلتْ معك في قبرك حتى تُخْرَجَ لك يوم القيامة.

ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾؛ أي: كتابَ عَملك، فهو على تقدير القول، وعن قتادةَ: يقرأ ذلك اليوم من لم يَكنْ في الدنيا قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾؛ أي: كفى اليومَ نَفْسُك من جهة كونها حسيباً عليك، و(الباءُ) زائدة، واليوم ظرف لـ ﴿كَفَىٰ﴾ و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾ و(على) صلته، لأنه بمعنى الحاسب،

(١) الفخر الرازي. (٢) روح البيان.

وتذكيره مبنيٌّ على تأويل النفس بالشخص، وفَوَّضَ تعالى حسابَ العبد إليه، لئلا يُنْسَبَ إلى الظلم، ولتجب الحجةُ عليه باعترافه.

وقال الحسن: أنصف مَنْ أنصفَك، أَنْصفْ من جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ اهـ.

وقرأ الجمهور[1] ـ ومنهم أبو جعفر ـ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بالنون مضارع أخرَجَ الرباعي كتاباً بالنصب، وعن أبي جعفر أيضاً، ﴿ويُخْرَج﴾ بالياء مبنياً للمفعول ﴿كِتَٰبًا﴾ بالنصب؛ أي: ويخرج الطائر كتاباً، وعنه أيضاً ﴿كتاب﴾ بالرفع على مفعول ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الحسن وابن محيصن ومجاهد ﴿ويَخْرُج﴾ بفتح الياء وضم الراءِ أَيْ طائره كتاباً إلاَّ الحسنَ، فقَرأ ﴿كتاب﴾ على أنه فاعل ﴿يخرج﴾ وقرأت فرقة ﴿ويُخرج﴾ بضم الياء، وكسر الراء؛ أي: ويخرج الله، وقرأ الجمهور ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ بفتح الياء وسكون اللام، وقرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر، والجحدري، والحسن بخلاف عنه: ﴿يُلَقَّاه﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف.

وحاصل معنى الآية: أي وألزمنا كل امرىء عمله، الذي يصدر منه باختياره، بحسب ما قدر له من خير أو شر، لا ينفك عنه بحال، والعَربُ تضرب المَثَلَ للشيء الذي يلزم بالشيء الذي يوضع في العنق، فيقولون: جعلت هذا في عنقك؛ أي: قلَّدتُك هذا العمل، وألزمتك الاحتفاظ به، وخَصّوا العنق؛ لأنه يَظْهَرُ عليه ما يزينُ المرءَ، كالقلاَئِدِ والأطواق، أَوْ ما يشينه كالأغلال والأوهاق «الحبال تجر بها الدواب».

وخلاصة هذا: أن كل إنسان منكم مَعْشَر بني آدم ألزمْنَاهُ نحسه وسعده، وشقاءَه وسَعادته بما سبق في علمنا أنه صائر إليه، ونحن نخرج له حينَ الحساب كتاباً يراهُ منشوراً، فيه أعماله التي كسبها في الدنيا، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف في تلك الحياة، فيقالُ له: اقرأْ كتاب عملك الذي عملتَه في الدنيا، وَكَانَ الملكانِ يكتبانه، ويحصيانه عليك، وحسبك اليومَ نفسُك عليكَ حاسباً، تحسب عليك أعمالَكَ فتحصيها، لا نَبْتغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب محصياً سِوَاهَا.

---

(١) البحر المحيط.

وبعد أن ذَكَر أن القرآنَ هاد للّتي هي أقوم، وأن الأعمالَ لازمة لأصحابها . .
بَيَّنَ أن منفعة العمل، ومضرته راجعة إلى عامله، فقال: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهداية القرآن، وعَمِلَ بما في تضاعيفه من الأحكام، وانتهى عما نَهَاهُ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فَإِنَّمَا تَعُود منفعة اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره، ممن لم يهتَدِ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي فإنما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل من صاحبه.

وقال البيضاوي[1]: لا يُنجي اهتداؤه غيره، ولا يردي ضلاله سواه؛ أي: في الآخرة، وإلا ففي حكم الدنيا يتعدى نفع الاهتداء، وضرر الضلال إلى الغير، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

والمعنى: أي من[2] استقام على طريق الحق، واتبعَه، واتبع الدين الذي بعث به محمد ﷺ فنفسه قد نفع، ومن حَادَ عن قصد السبيل، وسار على غير هدى، وكَفَر بالله، ورسوله، وبما جاء به من عند ربه من الحق، فَلاَ يضر إلا نفسَه، لأنه جعلها مستحقَّةً لِغضَب الله، رأليم عذابه، ثم زَادَ الجملةَ الثانيةَ توكيداً، بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾؛ أي: ولا تحمل نفس آثِمةٌ، ولا غير آثمةٍ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: إثمَ نفس أخرى، بطيبَة النفس، حتى يمكن تَخَلُّصُ النفس الثانية من إثمها، بل على كل نفس إثمها دُونَ إثم غيرها من الأنفس، ولكن يحمل عليها إثم غيرها بالقصاص .فإن قلت: ورد في الحديث: «مَنْ سنَّ سنَّةً سيئةً. . فعليه وزرها، ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة»، فمقتضاه: أنه يحمل وُزْرَهُ فيكون معارضاً لهذه الآية؟

أُجِيب: بأنَّ المرادَ بالوزر الذي يحملُه في الحديث: وزر التَّسبُّبِ، ولا شك أنَّ التسببَ من فعل الشخص، ومَعَ ذلك فلا ينقص من وزر الفاعل شيءٌ، فالمتسبب الفاعل يُعَاقَبُ على فعله وتسببه، والفاعل بلا تسبب يعاقب على فعله فقط، ذكره الصاوي.

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

وفي هذا قطع لأطماعهم الفارغة؛ إذ كانوا يزعمونَ أنَّهمْ إن لم يكونوا على الحَقّ فالتَّبِعة على أسلافهم الذين قلدوهم، روي عن ابن عباس: أنَّ هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرةِ حين قال: اكْفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزارُكم، ولا مُعَارَضَة بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ فإن الدعاة إلى الضلال، عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا منْ غير أن ينقصَ أَوْزَارَ أولئك، ولا يرفع عنهم منها شيئاً، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده.

ثم ذَكر عِنايته ورحمته بهم، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾؛ أي: وما صحَّ[1] وما اسْتَقَام منا، بل استحال في عاداتنا المبنية على الحكم البالغة، أنْ نعذبَ أحداً من أهل الضلال وَالأوزار اكتفاء بقضية العقل، ﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولٗا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحُجَجَ ويمهد الشرائع، قَطْعاً لِلْمَعْذِرَةَ، وإلزاماً للحجَّة، وفيه دلالة على أن البِعثة واجبة لا بمعنى الوجوب على الله، بَلْ بمعنى أن قَضِيَّةَ الحكمَةِ تَقْتَضِي ذلك لِمَا فيه من المَصَالح والحكم، والمراد بالعذاب المنفيِّ هو العذاب الدنيوي، وهو من مقدماتِ العذاب الأخرويّ، فجوزوا على الكفر والمعاندة بالعذاب في الدارين وما بينهما أيضاً وهو البرزخ، وفي هذا دليلٌ على أن مَا وَجَبَ إنما وجب بالسمع لا بالعقل اهـ. خازن؛ أي[2]: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع أعذارهم.

وخلاصة ذلك: أن سنتنَا المبْنِية على الحكم البالغة، أن لاَ نعذبَ أحداً أي نوع من العذاب الدنيوي أو الأخروي على فعل شيء أو تركه، إلا إذَا أرسلنا رسولاً يهدي إلى الحق، ويَرْدَعُ عن الضلال، ويقِيمُ الحجَجَ، ويمهد الشرائِعَ، وتبلغه دعوته.

وعبارة الشوكاني هنا: ولمَّا ذكر الله سبحانه اختصاصَ المهتدي بهدايته،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

والضال بضلاله، وعدمَ مؤاخذة الإنسان بجناية غيره، ذَكَرَ أنه لا يعذبُ عِبَادَهُ إلا بَعْدَ الإعذار إليهم بإرسال رسلِهِ، وإنزال كتبه، فَبَيَّنَ سبحانه أنه لم يتركهم سُدًى، ولا يؤاخذهم قَبْلَ إِقَامَة الحجة عليهم، والظاهر: أَنَّهُ لا يعذبهم لا في الدنيا، ولا في الآخرة، إلاَّ بعد الإعذارِ إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم، وذَهَبَ الجمهور إلى أن المنفِي هنا: هو عذاب الدنيا لاَ عذاب الآخرة، انتهت.

قلت: ومعنى الآية: وما كنا معذبين أَحَداً في الدنيا، فلا يعارضه حديث «أبي وأبوك في النار» أو يقال: إنه أحاديثُ أحاد، فلا يُعَارِض النص القطعيَّ.

وقال ابن الجوزي: ومعنى[1] ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؛ أي: حتى نبيِّنَ لهم ما به نعذب، وما من أجله ندخل الجنةَ، قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دليل على أن مَعْرِفَةَ الله لا تجب عَقْلاً، وإنما تَجِبُ بالشرع، وهو بِعْثَةُ الرسل، وأنه لو مات الإنسان قَبْلَ ذلك.. لم يقطع عَليه بالنار، قال: وقيلَ معناه: أنه لا يعذب في ما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعضُ أَهْلِ الحرب في دار الحرب، ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها لم يلزمه قضاءِ شيء منها؛ لأنها لا تلزَمُه إلاَّ بعد قيام حجة السمع، والأصل فيه: قصة أهل قباءِ حين استداروا إلى الكعبة، ولم يستأنفوا. ولو أسلم في دار الإسلام، وَلَم يعلم بفرض الصلاة.. فالواجب عليه القضاءُ، لأنه قد رأى النَّاسَ يصلون في المساجد، بأذانٍ وإقامة، وذلك دعاء إليها.

الإعراب

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾.

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبح اللهَ سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة، وهو مضاف، ﴿الَّذِي﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، ﴿أَسْرَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود

(١) زاد المسير.

على الموصول ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق به ﴿لَيۡلٗا﴾ منصوب على الظرفية، ومتعلق به أيضاً ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾. ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ صفة أولى لـ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ اسم موصول صفة ثانية لـ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿حَوۡلَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿نريه﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، ورأى بصرية ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ جار ومجرور متعلق بـ (نري) والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإراءتنا إياه من آياتنا، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبره ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ خبر ثان له، وجملة (إنَّ) مستأنفةٌ مسوقَةٌ لتعليل ما قبلَها.

﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل، ومفعولان لأن (آتى) بمعنى أعطى، والجملة مستأنفة، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى﴾ فعل وفاعل، ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿هُدٗى﴾ وهو بمعنى هاد. ﴿أَلَّا﴾ (أن) زائدة (لا) ناهية جازمة ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ(لا) الناهية ﴿مِن﴾ زائدة ﴿دُونِي﴾ بمعنى غيري، مفعول أول لـ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ﴿وَكِيلٗا﴾ مفعول ثان لها، والجملة الفعلية مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم: لا تتخذوا... إلخ، وجملة القول المحذوف معطوف على ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء؛ أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، وجملة النداء مقول لذلك القول المحذوف ﴿من﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل جر بالإضافة. ﴿حَمَلۡنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من حملنا هم ﴿مَعَ نُوحٍۚ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف، أوْ متعلق بـ ﴿حَمَلۡنَا﴾ أو جواب النداء محذوف تقديره: يا ذريةَ من حملنا مع نوح، كونوا كما كان نوح في العبودية، والانقياد، وفي كثرة الشكر لله

بفعل الطاعات، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص واسمه ضمير يعود على نوح ﴿عَبْدًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿شَكُورًا﴾ صفته، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل الجملة المحذوفة.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به، و﴿قضى﴾ يتعدى بنفسه، أو بعلى، وإنما عدَّاه هنا بـ﴿إلى﴾ لتضمنه معنى أوحينا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق به أيضاً، ومتعلق القضاء محذوف دل عليه قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والتقدير: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب بإفسادهم في الأرض مرتين ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾: (اللام) موطئة للقسم ﴿تفسدن﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والأصل: لتفسدونن، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تفسدن﴾، ومفعول الإفساد محذوف تقديره: لتفسدن الأديان في الأرض ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: منصوب على المصدرية، والعامل فيه من غيره، لأنه بمعنى: لتفسدن إفسادتين ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ موطئة للقسم، (تعلن) فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل ﴿عُلُوًّا﴾: منصوب على المصدرية ﴿كَبِيرًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم المذكور قَبْلَهَا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنكم لتفسدون في الأرض مرتين، وأردتم بيان ما يترتب على كلتا المرتين من العقوبة، فأقول لكم: إذا جاء وعد أولاهما الخ ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل

من الزمان، ﴿جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض بـ ﴿إذا﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿بعثنا﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به ﴿عِبَادًا﴾: مفعول به ﴿لَّنَآ﴾: صفة ﴿عِبَادًا﴾. ﴿أُوْلِى بَأْسٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿عِبادًا﴾. ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة بأس وجملة ﴿بَعَثْنَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ مقول لجواب ﴿إِذَا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إِذَا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿فَجَاسُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاسوا﴾. ﴿وَكَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على البعث ﴿وَعْدًا﴾ خبرها. ﴿مَّفْعُولًا﴾ صفته، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿رَدَدْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿رَدَدْنَا﴾ ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾ مفعول ﴿رَدَدْنَا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿رَدَدْنَا﴾ أو بـ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿رَدَدْنَا﴾ ﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ متعلق بـ﴿رَدَدْنَا﴾ ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على أموال ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿أَكْثَرَ﴾ مفعول ثان ﴿نَفِيرًا﴾ تمييز، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿أمددناكم﴾.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه جواباً لها ﴿لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ متعلق بـ﴿أَحْسَنتُمْ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ جازم وفعل، وفاعل. ﴿فَلَهَاۚ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب الشرط، وجوباً ﴿لها﴾ جار ومجرور خبر مقدم لمبتدأ محذوف تقديره: فلها الإساءة لا لغيرها، والتعبير باللام لمشاكلة ما قبلها، وإلا فحق المقام أن يكونَ على، والجملة الاسمية في محل الجزم جوابُ الشرط، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية قبلَها، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كونَ إساءتكم عليكم، وأردتم بيانَ ما

يترتب عليها من العقوبة، فأقول لكم: إذا جاء ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض بـ ﴿إذا﴾ على كونها فعلَ شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: بعثناهم عليكم، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقولٌ لِجَوابِ ﴿إذا﴾ المقدرة، ﴿لِيَسُـٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمۡ﴾ فعل وفاعل، ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، و﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير، بعثناهم عليكم لإساءتهم وجوهكم، والجار والمجرور متعلق بالجواب المحذوف، ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿لِيَسُـٓـُٔوا۟﴾ ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية ﴿دَخَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الكاف﴾ والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، والتقدير: ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ دخولاً مثل دخولهم، إياه أول مرة، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿دخلوا﴾ ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، معطوف على ﴿لِيَسُـٓـُٔوا۟﴾ ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب على المفعولية، أو ما مصدرية ظرفية ﴿عَلَوۡا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ إن قلنا: موصولة، والعائد محذوف تقديره، ما علوه أو صلة ﴿ما﴾ لمصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر، إليه تقديره؛ وليتبروا مدة علوهم ﴿تَتۡبِيرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ﴿ليبتروا﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض بمعنى حقق ﴿رَبُّكُمۡ﴾ فاعل ﴿أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: حقق ربكم رحمته إياكم، إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿عُدۡنَاۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب (إن) الشرطية، وجملة (إن) الشرطية مستأنفة ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿جَهَنَّمَ﴾ مفعول أول ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بما بعده ﴿حَصِيرًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾ والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿هَٰذَا﴾ في محل النصب اسمها ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، ﴿يَهْدِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ومفعوله محذوف تقديره: الناسُ كافَّةً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿لِلَّتِى﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾ ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَهْدِى﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لَهُمْ﴾ خبرها مقدم ﴿أَجْرًا﴾ اسمها مؤخر ﴿كَبِيرًا﴾ صفة ﴿أَجْرًا﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف متعلق بـ ﴿يبشر﴾ والتقدير: ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بكون أجر كبير لهم.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ صلة الموصول ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به ﴿أَلِيمًا﴾ صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، والرابط ضمير ﴿لَهُمْ﴾، وجملة ﴿أن﴾ مع اسمها وخبرها في محل الجر بحرف جر محذوف، معطوف على جملة ﴿أن﴾ الأولى، والتقدير: ويبشر المؤمنين بشيئين: بكون أجر كبير لهم، وبكون عذاب أليم للذين لا يؤمنون بالآخرة، وَلاَ شَكَّ أَنَّ ما يصيب أعداءهم سرورٌ لهم، أو في محل الجر بحرف جر محذوف، متعلق بعامل محذوف تقديره: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً. ﴿وَيَدْعُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وتقول في تطبيق إعرابه: ﴿يدع﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رَفْعِهِ ضَمَّةٌ مقدَّرَةٌ على الواو المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين، وخطًّا تَبَعاً للفظ منع من ظهورها

الثقل؛ لأنه فعل معتل بالواو، ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يدع﴾ ﴿دُعَآءَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة لـ﴿يدع﴾ ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾ متعلق به، ولكنه على التشبيه، والتقدير: ويدع الإنسان بالشر دعاءً كدعائه بالخير في الإلحاح، والإكثار، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة مستأنفة ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ (الفاء) تفسيرية ﴿محونا﴾ فعل، وفاعل ﴿ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. وفي «أبي السعود»: و(الفاء) في ﴿محونا﴾ تفسيريةٌ؛ لأن المحو المذكورَ، وما عطف عليه ليسا مما يحصل عَقِبَ جعلُ الليل والنهار آيَتَيْن، بل هما من جملة ذلك الجعل، ومتمماته .اهـ. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿مُبْصِرَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿جعل﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿محونا﴾ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرةً بعد لام كي، ﴿فَضْلًا﴾ مفعول به ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور صفة ﴿فَضْلًا﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، والجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾؛ أي: وجعلنا آية النهار مُبْصِرةً لابتغائكم فضلاً من ربكم، ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً بعد لام كَي، ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ مفعول به، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ معطوف على عدد السنين، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بكلا الفعلين، أعني ﴿محونا﴾ ﴿وَجَعَلْنَآ﴾؛ والتقدير: فمحونا آيةَ الليل، وجعلنا آيةَ النهار مبصرةً لِمعرفتكم عددَ السنينَ والحساب، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: منصوب بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وبينا كل شيء فصلناه، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿تَفْصِيلًا﴾ منصوب على المصدرية، والجملة الفعلية جملة مُفَسِّرَةٌ لا مَحَلَّ لها من الإعراب.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَكُلَّ﴾ (الواو) استئنافية ﴿كل﴾ منصوب بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وألزمنا كل إنسان ألزمناه، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿إِنسَٰنٍ﴾ مضاف إليه ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة الفعلية جملة مفسرة لاَ مَحَلَّ لهَا من الإعراب، ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق، بـ ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ ﴿وَنُخْرِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به أيضاً ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿نخرج﴾ معطوفة على جملة ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ ﴿يَلْقَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ ﴿مَنشُورًا﴾ صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حال من ضمير ﴿يَلْقَىٰهُ﴾. ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ويقال له: اقرأ كتابك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ فعل وفاعل، و(الباء) زائدة، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف أيضاً، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿كَفَىٰ﴾ ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بما بعده ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

﴿مَّنِ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنِ﴾ والجملة في محل الجزم بـ ﴿من﴾ على كونه فِعْل شرط لها، ﴿فَإِنَّمَا﴾ (الفاء) رابطةٌ لجواب ﴿مَّنِ﴾ الشرطية جوازاً ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿يَهْتَدِى﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنِ﴾ ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جَوَابَ شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفةٌ ﴿وَمَن﴾ اسم شرط مبتدأ، والخبر جملة الجواب ﴿ضَلَّ﴾ فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ جواب شرط لها ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَّنِ﴾ الأولى. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿نَبْعَثَ﴾

فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره؛ وما كنا معذبين إلى بعثنا رسولاً. الجار والمجرور متعلق بـ﴿مُعَذِّبِينَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر سماعي لسبح المشدد؛ أو اسمُ مَصْدَر له، أو مصدر قياسي لسبح المخفف، فإنَّه يقال: سبح في الماء، وفيه: معنى البعد، والتنزيه، فيه بُعد عن النقائص، وعلى كل، فهو عَلَمُ جنس للتنزيه، والتقديس، ويقال: أسرى وسرى بمعنى سار في الليل، وهما لازمان، لكن مصدر الأول: الإسراء، ومصدر الثاني: السُّرى بضم السين كهدى، فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء، ومعنى أسرى به صيَّره سارياً في الليل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التوراة ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: كفيلاً تكلون إليه أموركم ﴿شَكُورًا﴾؛ أي: كثيرَ الشكر ﴿وَقَضَيْنَآ﴾؛ أي: أعلمنا بالوحي ﴿لتعلن﴾، أي لتستكبرن عن طاعة الله.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ والمرتان: تثنية مرة، وهي الواحدة من المر؛ أي المرور على حد قوله: وفعلة لمرة كجلسة، وفي «القاموس»: مرَّ مراً، ومروراً جَازَ وذَهَبَ كاستمر ومره جاز عليه، والمرة: الفعلة الواحدةُ، والجمع مُرٌّ بالضم، ومرارٌ بالكسر، ومِرَرٌ كعنب، ولقيه ذاتَ مرة لا يستعمل إلا ظرفاً، وذاتَ المِرار؛ أي: مِرَاراً كثيرة، وجئته مراً، أو مرين؛ أي: مرة أو مرتين اهـ.

﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، والوعد الموعود به، وهو العقاب، فهو مصدر واقع موقعٌ مفعول، وتركه الزمخشريُّ على حاله، لكن بحذف مضاف؛ أي: وعد عقاب أولاهما اهـ سمين ﴿فَجَاسُوا۟﴾، وفي «القاموس» الجوس بالجيم طلب الشيء بالاستقصاء، والتردد خلال الديار، والبيوت، والطوف فيها كالجَوْسانِ، والاجتياس وبابه قال: اهـ ثم قال: والحوس بالحاء المهملة: الجوس اهـ وفي «السمين» ﴿فَجَاسُوا۟﴾ عطف على ﴿بَعَثْنَا﴾، أي: ترتب على بعثنا إياهم هذا و(الجوس) بفتح

الجيم وضمها: مصدر جَاسَ، يجوس، والمعنى هنا: تَردَّدُوا لطلبكم بالفساد ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾. قال في «القاموس» الخلل منفرج ما بين الشيئين، ومن السحاب: مخارجُ الماء كخلاله، وخلال الديار أيضاً ما حوالي جدرها، وما بين بيوتها انتهى. قالوا: يجوز أن يكونَ مفرداً بمعنى الوسط، أو جمع خَلَلَ بمعنى الأوساط، مثل جبلٍ، وجبالٍ، وجَملٍ، وجمالٍ والديار: جمع دار، وهو المحل يجمع البناء، والعرصة، والمعنى مَشَوا في وَسَطِ المنازل، أو أوساطها للقتل والأسر، والغارةِ فقتلوا علماءَهم وكبارهم، وحرَّقوا التوراةَ، وخرَّبوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً، وذلك من قَبِيل تولية بعض الظالمين بعضاً مما جرت به السنة الإلٰهيةُ.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾ والبؤس، والبأس، والبأساء: الشدَّة والمكروه، كما قال الراغب. إلاَّ أنَّ البؤسَ كثر استعماله في الفقر، والحرب، والبأس، والبأساء، في النِّكَايَةِ بالعدو ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾ وهي في الأصل مصدر: كَرَّ يَكرُّ إذا: رجع، والكَرَّة: الدولَةُ والغلبة، وأصل الكَرّ: العَطْفُ والرجوع ﴿نَفِيرًا﴾ والنفيرُ والنافر، مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته، وأهل بيته ﴿تَتْبِيرًا﴾ والتتبير: الإهلاك، وهي كَلِمَةٌ نَبْطِيَّةٌ كما روي عن سعيد بن جبير، وكل شيءٍ كَسْرَتَهُ وفتته.. فَقَدْ تَبَّرْتَه. ﴿مَا عَلَوْاْ﴾؛ أي: ما غَلَبُوا وَاسْتَولُوا عليه من بلادكم، أصله: عَلَيُوا تحركت الياء، وانْفَتَحَ ما قبلَها، قُلبت ألفاً، فالتقى ساكنان فَحُذِفَتِ الألفُ. فَصَارَ عُلُوّاً بوزن فعوا ﴿حَصِيرًا﴾ الحصيرُ المحبس، والسِّجْنُ، والمقر. يُحْصَرُونَ فيه، لا يستطيعون الخروجَ منها أبدَ الآباد، فهو فعيل بمعنى فاعل؛ أي: حاصرة لهم، ومحيطة بهم، كما مر في مبحث التفسير، وفي «الشهاب» قوله: مَحْبَساً، أي: مكان الحبس المعروف، فإن كانَ حصيراً، اسمُ مكان. فهو جَامِدٌ لا يلزم تذكيره، ولا تأنيثه، وإن كَانَ بمعنى حاصراً؛ أي: محيطاً بهم، وفعيل بمعنى فاعل، يلزم مطابقته، فَكَأَنَ يقال: حصيرةً، فإما لأنه على النسب كلابن، وتامر، أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول، أو لأنَّ تأنيث جَهَنَّم غير حقيقي، أو لتأويلها بمذكر كالسجن والحبس اهـ.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والقياس: أن تثبتَ واو يدع لأنه مرفوع؛ إلا أنه لما وجب

سقوطها لَفْظاً لاجتماع الساكنين، سقطت في الخط أيضاً على خلاف القياس، ونظيره: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ اهـ زاده والمراد بالإنسان: الجنس: لأن أحداً من الناس لا يعرى عن عجلة، ولو تركها . . لكان تركها أَصْلَحَ في الدين والدنيا اهـ كرخي.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ وإنما ذكر المَصْدَرَ لأجل تأكيد الكلام، وتقريره، فكأنه قَالَ: فصلناه حقاً على الوجه الذي لا مزيدَ عليه اهـ. كرخي ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: عَمَلَهُ سمي به، إمَّا لأنه طار إليه من عُشِّ الغَيْبِ، وإمَّا لأنه سبب الخيرِ والشرِ كما قالوا: طائر الله لا طائِرُك؛ أي: قَدَرُ الله الغالب الذي يأتي بالخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءَمُ به، وتتيمَّنُ؛ إذ جَرَتْ عادتهم بأن يَتَفَاءَلُوا بالطَّير، ويسمُّونه زَجْراً، فإن مَرَّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به، وسَمُّوه سانِحاً، وإن مر من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه، وسَمُّوه بَارِحاً.

﴿كِتَٰبًا﴾ هُوَ صحيفة عَمَلِهِ ﴿مَنشُورًا﴾؛ أي: غير مطوي ﴿حَسِيبًا﴾، أي: حاسباً، أي: عاداً له يعد عليه أعماله، وهو تمييز، و﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به، وهو إما بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي اهـ من البيضاوي وفي «السمين» قوله: ﴿حَسِيبًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه تمييز، قال الزمخشري: وهو بمعنى حَاسِب، كضريب بمعنى ضارب، وصريم بمعنى صارم، ذَكَرهما سيبويه، و﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به من قولك: حسب عليه كذا، ويجوز أن يكونَ بمعنى الكافي، وَوُضع مَوْضِعَ الشهيد، فَعُدّي بعلى؛ لأنَّ الشَّاهِدَ يَكْفِي المدَّعي ما أهمه، فإن قلت: لِم ذكر حسيباً؟ قلت: لأنه بمنزلة الشاهد، والقاضي، والأمين وهذه الأمور يتولاها الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رَجلاً حسيباً، ويجوز أن تؤول النفسُ بمعنى الشخص كما يقال: ثلاثة أنفس:

والثاني: أنه منصوب على الحالِ، وذكر لما تَقَدَّمَ، وقيل: حسيب بمعنى محاسب كخليطٍ، وجليس بمعنى مخالط، ومجالس اهـ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، والوزر: الإثم، والذنب يقال منه: وزر يَزِرُ فهو وَازِر، وهي وازرة، أي: نفس وازرة، وقال في «القاموس» الوزر بالكسر الإثم، والثِّقَلُ، والحَمْلُ الثقيل انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعجيبُ المستفاد من قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لأن فيه معنى التعجب، فكأنه قال: تعجبوا أوِ اعجبوا من قدرةِ الله تعالى على هذا الأمر العجيب.

ومنها: الإضافة للتشريف، والتكريم في قوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾. ووصفه بالعبودية؛ لأنَّ هذا المقام أشرف المقامات، والعبودية أشرفُ أوصاف الإنسان كما قال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

وَمِـمَّـا زَادَنِـي شَـرَفَـاً وَتِـيْـهَـا ... وَكِـدْتُ بِـأَخْـمَـصِـيْ أَطَـأُ ٱلـثُّـرَيَّـا
دُخُـوْلِـيْ تَـحْـتَ قَـوْلِـكَ يَـا عِـبَـادِيْ ... وَأَنْ صَـيَّـرْتَ أَحْـمَـدَ لِـيْ نَـبِـيَّـا

ومنها: التأكيد بـ﴿لَيْلًا﴾، إذ الإسراء في لسان العرب لا يكون إلاَّ ليلاً حتى لا يتخيل أنه كان نهاراً.

ومنها: التنكير في ﴿لَيْلًا﴾ لإفادة تقليل مدة الإسراء، في جزء من الليل، قيل: قدرُ أربع ساعات، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: أقل من ذلك، وذلك لأن التَّنْكِيرَ قد يكون للتقليل، والتقليل والتبعيض: متقاربان، فاستعمل في التبعيض، مَا هُوَ للقليل .اهـ كرخي.

وهذا بخلاف مَا لَوْ قيل: أسرى بعبده الليلَ. . فإن التركيبَ مع التعريف يفيد استغراق السَّير لجميع أجزاء الليل .اهـ شيخنا.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿بَٰرَكْنَا﴾ و﴿لِنُرِيَهُۥ﴾، ثم التفت منه إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ إنْ أعدنا الضمير إلى الله تعالى، وهو الصحيحُ ففي الكلام الْتِفَاتَانِ، وقرأ الحسنُ ﴿لِيُرِيَه﴾ بالياءِ من تحتِ، أي: الله تعالى، وعلى هذه القراءة يكون في هذه الآية أربعةُ التفاتات، وذلك أنه التفت أولاً من الغيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿بَٰرَكْنَا﴾، ثمَّ التفتَ ثانياً من التكلم في ﴿بَٰرَكْنَا﴾ إلى الغيبة في

(لِيَريه) على هذه القراءة، ثم التفت ثالثاً من هذه الغيبة إلى التكلم في ﴿ءَايَٰتِنَآۚ﴾، ثُمَّ التفت رابعاً من هذا التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ على الصحيح في الضمير أنه لله تعالى وأما على قول نقله أبو البقاء أن الضمير في ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ للنبيِّ ﷺ فلا يجيء ذلك، ويكون في قراءة العامة التفات واحد، وفي قراءة الحسن ثلاثة، وهذا موضع غريب، وأكثَرُ ما ورد الالتفات ثلاثَ مَرَّات على ما قاله الزمخشري في قول امرىء القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكِ بِالْإِثْمِدِ

ومنها: جِنَاس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ومنها: التعبير عن المستقبل بالماضي في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ لأن الرَّدَّ لم يقع وَقْت الإخبار، لكن لتحقُّقه عَبَّر بالماضي.

ومنها: الطباق بين ﴿أحسنتم﴾ و﴿أسأتم﴾.

ومنها: المجاز العقليُّ في قوله: ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ لأن النهارَ لا يبصر، بل يُبصَر فيه، فهو من إسناد الشيء إلى زمانه، ومنها: التأكيد في قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ ذُكر المصدر، وهو قوله: ﴿تَفْصِيلًا﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره، فكأنه قال: فصلناه حَقّاً على الوجه الذي لا مزيد عليه.

ومنها: الاستعارةُ التصريحية في قوله: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ استعيرَ الطّائر لعمل العبد، بجامع الانتقال في كل، فكما أن الطائِرَ ينتقل من عشه، ووكره، ينتقل عمل العبد من عش الغيب، والقدر، إلى العبد.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَلَّ﴾ و﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾؛ أي: يقال له، يوم القيامة: اقرأ كتابك.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ
ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ
أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ
هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا
﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ
أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ
ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ
صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا
تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ
عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا
تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا
كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ
إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا
﴿٣٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلَها: أَنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى لما ذكر أنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أَرْسَلَ إِلَيْهِم رسولاً يبلغ رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة.. أعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب العبد واختياره، وأنَّ هذا واقع بتقدير الله تعالى وعلمه، وإذا وقعتِ المعصيةُ حَلَّتِ العقوبة بعذاب الاستئصال كما فُعِلَ بكثير من الأمم التي

من بعد نوح كعاد، وثمود، والله عليم بأفعالهم وبما يستحقونَ، ثُمَّ قَسَمَ العباد قسمين: قسم يُحِبُّ الحياة الدنيا ويعمل لها، وعاقبته دار البوار، وبئس القرار، وقسم يعمل للآخرة، ويسعى لها سعيها وهو مؤمن، وأولئك سعيهم مشكور، مقبول عند ربهم، ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه؛ إذ ليس عطاؤه بممنوع من أحد، ولكن قد فضَّل بعضَهم على بعضٍ في أرزاقٍ، ومراتب التفاوت في الآخرة أكثرُ من درجات التفاوت في الدنيا، وأبعد مَدى.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّ الناسَ فريقان[1]: فريق يريد بعملهِ الدنيا فقط، وعاقبتهم العذاب والوبال، وفريق يريد بعَمَلِه طاعةَ الله تعالى، وهم أهل مرضاته، والمستحقونَ لثوابه، وقد اشترطَ لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة، وأن يكونوا مؤمنين، لاَ جَرَمَ فَصَّل الله في هذه الآية حقيقةَ الإيمان والأعمال التي إذا عملها المؤمن كان ساعياً للآخرة، وَصار من الذين سعد طائرهم، وحسن حظهم. ثم أعقبَ ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه، وهو عبادة اللّهُ وحده لا شريكَ له، وبعدئذٍ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنَّهما السبب الظاهر في وجوده، وبالأمر بإيتاءِ ذوي القربى حقوقَهم، ثُمَّ بالأمر بإصلاح أحوال المساكين، وأبناء السبيل؛ لأن في إصلاحهما إصلاح المجتمع، والمسلمون كلُّهم إخوة، وهم يدٌ على مَن سواهم، ثم قفّى على ذلك بالنهي عن التبذير، لما فيه من إصلاح حال المرء، وعدَمِ ارتباكه في معيشته، وصلاحه إصلاح للأمة جَمْعَاءَ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد، ففي صلاحهم صلاحها، ثمَّ علَّمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذي يرضاه الدين، ويَرْشُد إلى حسنه العقل، وبعدئذٍ نهانا عن قتل الأولاد خَشْيَةَ الفقر، وبيّن أنَّ الكفيلَ بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم، فَلاَ وَجْهَ للخوف من ذلك، ثُمَّ تلا هذا بالنهي عن الزنا، لما فيه من اختلاط الأنساب وفقدان النسل أو قِلَّته ووقوع الشُّغَبِ والقتال بين الناس دفاعاً عن

(١) المراغي.

العرض، ثم بالنهي عن القتل لهذا السبب عينه.

وقال أبو حيان: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا...﴾ مناسبة[1] اقتران برّ الوالدين بإفراد الله بالعبادة من حيث إنه تعالى هو الموجِد حقيقة، والوالدان وساطة في إنشائه، وهو تعالى المُنعِم بإيجاده وإيجاد رزقه، وهما ساعيان في مصالحه.

قوله سبحانه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ الآية، لما أَمَر الله تعالى ببر الوالدين.. أَمَر بصلة القرابةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ...﴾ الآية، لَمّا بَيّنَ الله تعالى أنه هو المتكفِّل بأرزاق العباد حيث قال: إن رَبَّك يَبْسُطُ الرّزْقَ لمن يشاء ويقدر.. أتبعه بالنهي عن قتل الأولاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ...﴾ الآية، لما نهى الله تعالى عن قتل الأولاد.. نَهَى عن التسبب في إيجاده من الطريق غير المشروعة، فَنَهَى عن قربان الزنا، واستلزم ذلك النَّهْيَ عن الزنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، لمَّا نَهى الله عن قتل الأولاد، وعن إيجادهم من الطريق غير المشروعة.. نَهَى عن قتل النفس، فَانتقل من الخاص إِلَى العامّ، والظاهر أنَّ هذه كلها منهيات مستقلة لَيْسَت مندرجة تحت قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ كاندراج ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ انتهى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري، قال: لَمَّا أُنزِلَت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ...﴾ الآية. دَعَا رَسُولُ الله ﷺ فاطمة فَأَعْطَاها فدك. قال ابن كثير: هذا مشكل، فإنه يشعر بِأَنَّ الآية مدنية، والمشهور خلافه، وروى ابن مردويه عن ابن عباس مثلَه.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه سعيد بن

---

(١) البحر المحيط. (٢) لباب النقول.

منصور عن عطاء الخراساني قال: جاء ناس من مزيْنَةَ يستحملون رسول الله ﷺ فقالَ: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا، وأعينُهم تفيض من الدمع حَزَناً، ظنوا ذلك مِنْ غَضَبِ رسول الله ﷺ فَأَنْزَل الله ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾، وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نزلت فيمن كان يسأل النبي ﷺ مِنَ المساكينِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسول الله ﷺ بزٌّ، وكان مُعْطِياً كريماً، فقسمه بين الناس، فأتاه قومٌ فوجدوه قد فرغ منه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا...﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه، وغيره عن ابن مسعود، قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا، قال: «ما عندنا شيء اليوم» قال: فتقول لك: أكْسِنِي قَمِيصَك، فَدَفَعَهُ إليه، فجلس في البيت حَاسِراً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

وأخرج أيضاً عن أبي أمامة: أن النبي ﷺ قال لعائشة: «أنفق ما على ظهر كفي» فقالت: إذَن لا يبقى شيء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾ الآية. وظاهر ذلك أَنَّها مدنية.

التفسير وأوجه القراءة

ثم بين كيف يَقَعُ العذاب بعد بعثة الرسل، فقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾؛ أي: وإذا[1] دَنَا وَقْتُ تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ أي مُنْعَمِيها ورؤسائها وكبارِها وملوكِها بالأعمال الصالحة، وهي الإيمان والطاعة، والمترف كمكرم من أبطرَتْهُ النعمة، وسعة العيش والترفة[2] بالضم النعمة والطَّعامُ الطيّبُ، وخصهم بالذكر مع توجُّهِ الأمر إلى الكل؛ لأنهم الأصول في الخطاب، والباقي أتباع لهم، وقرأ[3]

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

الجمهور ﴿أَمَرْنَا﴾ من الأمر الذي هو ضد النهي، وقرأ[1] علي بن أبي طالب، وابن أبي إسحاق، وأبو رجاء وعيسى بن عمر، وسلاّم، وعبد الله بن أبي يزيد، والكلبي ﴿آمرنا﴾ بالمد، وجاء كذلك عن ابن عباس، والحسن، وقتادة وأبي العالية، وابن هرمز، وعاصم، وابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وهو اختيار يعقوب، ومعناه: كثّرنا يقال: أمر الله القومَ، وآمرهم، ومعنى ﴿آمرنا﴾ مترفيها: أي كثّرنا أَغْنِيَاءها، وفساقها، وقرأ ابن عباس، وأبو عثمان النهدي السدي، وزيد بن علي، وأبو العالية ﴿أَمَّرْنَا﴾ بتشديد الميم، وروي ذلك عن علي، والحسن، والباقر، وعاصم، وأبي عمرو ومعناه[2] جعلنا جبابرتها وفسَّاقها أمراء.

﴿فَفَسَقُوا﴾؛ أي: فخرجوا عما أمرهم الله تعالى به من الإيمان والطاعة، وعملوا المعاصي ﴿فِيهَا﴾، أي: في تلك القرية ﴿فَحَقَّ﴾؛ أي فوجب، وثبت ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على أهل تلك القرية. ﴿الْقَوْلُ﴾ بالعذاب، أي: ثبت عليهم قضاؤنا بالعذاب، وتحقق موجبه بحلول العذاب بهم، إثر ما ظهر فسقهم وطغيانهم، والقول الذي حق عليهم هو وعيد الله الذي قاله رسولهم، وقيل: القول هو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وهؤلاء في النار، ولا أبالي. ذكره في «البحر».

والمعنى: أي فثبت عليها ما توعدناهم به على لسان رسولنا من الإهلاك ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ بتدمير أهلها، وتخريب ديارها ﴿تَدْمِيرًا﴾، والتدمير: الإهلاك مع طمس الأثر، وهدم البناء، والمعنى: فأهلكناها إهلاكَ الاستئصال كفاءَ فسقهم، وطغيانهم، وبطرهم إهلاكاً عظيماً، لا يوقف على كنهه لشدته وعظمَ موقعه.

وقيل[3]: في تفسير ﴿أَمَرْنَا﴾ بأنه مجاز عن السبب الحامل لهم على الفسق، وهو إدرار النعم عليهم، بأن صبَّ عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق.

وعن أم المؤمنين زَيْنَبَ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

ردم يأجوج ومأجوج، مثل هذه وحلَّق بأصبعيه، الإبهام والتي تليها، قالت زينب: قلت: يا رسول الله، أَنُهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخبث»، متفق عليه. قوله: «ويل للعرب» كلمة تقال لمن وقع في هلكة، أو أشرفَ أن يقع فيها، وقوله: إذا كثر الخبث؛ أي: الشر.

وحاصل معنى الآية: أي[1] إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بِهَلاَكِ أيّ قرية بعذاب الاستئصال، لِمَا ظَهَرَ منها من المعاصي، ودنَّست به أنفسها من الآثام، لم نُعَاجِلْهَا بالعقوبة، بل نَأْمُرُ مُتْرَفِيهَا بالطاعة؛ فإذا فَسَقُوا عن أمرنا، وَتَمَرَّدُوا حَقَّ عليهم العذابُ جَزاءً وفاقاً لاجتراحهم السيئات، وارتكابهم كبائرَ الإثم والفواحش، فدمرنا تِلْكَ القرية تدميراً، لم يبقِ منها دَيَّاراً ولا نافخ نار، وخص المترفين بالذكر كما مرَّ لما جرت به العادة أن مَنْ سِواهم يكون تَبَعاً لهم، وأن العامة والدهماء يقلِّدونهم فيما يفعلون، ولأنهم أسرع إلى الفجور، وأقدَرُ على الوصول إلى سبله.

ثم ذكر سبحانه: أنَّ هذه عَادَتُه الجارية مع القرون الخالية. فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾، ﴿وَكَمْ﴾ هنا خبرية بمعنى عدد كثير مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تبيين لإبهام ﴿كم﴾. وتمييزٌ له كما يميز العدد بالجنس، والقرون[2] جمع قَرْن، والقرن مدة من الزمن يخترم فيها المَرْءُ، والأصح أنه مئة سنة، والمراد به هنا، كل أمَّة هلكت، فلم يبق منها أحد، وكل أهل عصرٍ قَرْن لمن بعدهم؛ لأنهم يَتَقدمونهم؛ أي: وكثيراً مِن الأمم الماضية ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ عليه السلام؛ أي: من بعد زمنه كعاد، وثمود، ومن بعدهم، ولم يَقُلْ من بعد آدم لأن نوحاً أول نبي بالغ قومه في تكذيبه وقومه أول من حلت بهم العقوبة العظمى وهو الاستئصال بالطوفان.

والمعنى[3]: أي وقد أهلكنا أمماً كثيرة قَبْلَكُم من بعد نوح حتى زَمانِكم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

حين جَحَدوا آيات الله تعالى، وكذَّبُوا رُسُلَه، وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور، والآثام، ولستم بأكرمَ على الله منهم، فاحْذَرُوا أَنْ يَحِلَّ بكم من العقاب مثل ما حل بهم، وَيَنْزِلَ بكم من سخطه مثل ما نَزَلَ بهم.

وفي هذا من الوعيد لمكذبي رسول الله ﷺ من مشركي قريش، وتهديدهم بشديد العذاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله ما لا يخفى.

روِيَ عن الشعبي أنه قال[1]: خَرَجَ أَسَدٌ وذئب وثعلب، يتصيَّدون، فاصطادوا حمار وحش، وغزالاً، وأرنباً، فقال الأسدُ للذئب: اقسم لنا، فقال: حمار الوحش للملك، والغزال لي، والأرنب للثعلب، قال: فرفع الأسد يده، وضرب رأس الذئب ضربة، فإذا هو منجدل بين يدي الأسد، ثم قال للثعلب: اقسم هذه بيننا، فقال: الحمار يتغدى به الملك، والغزال يتعشى به، والأرنب ما بين ذلك، فقال الأسد: ويحك ما أقضاك مَنْ علَّمك هذا القضاء؟ فقال: القضاء الذي نزل برأس الذئب، ولذلك قيلَ: العاقل من وعظ بغيره.

ثم خَاطَبَ رسولَه ﷺ بما هو ردع للناس كافة فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾، أي كفى كون ربك يا محمد ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، أي: من جهة كونه خبيراً، أي: عالماً ببواطن الأمور، وحقائقها، بصيراً: أي: عالماً بظواهرها، وشواهدها، فيعاقب عليها، وتقديم[2] الخبير مع أنه مضاف إلى الغيوب والأمور الباطنة، والبصير مضاف إلى الأمور الظاهرة، كالشهيد لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادىء الأعمال الظاهرة وفيه[3] إشارة إلى أَنَّ البعث والأمر، وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيلِ العلم بما صدر عنهم من الذنوب، فإن ذَٰلِكَ حاصل قبل ذلك، وإنما هو لقطع الأعذار، وإلزام الحجة من كل وجهٍ.

وفي الآية[4]: بِشَارَةٌ عظيمة لأهل الطاعة، وتخويف شديد لأهل المعصية؛ لأن العلم التَّامَّ، والخبرة الكاملة، والبصيرة النافذةَ تقتضي إيصال الجزاءِ إلى

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

مستحقه، بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك، والمرادُ بكونه سبحانه خبيراً بصيراً: أنه محيط بحقائق الأشياءِ ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية.

والمعنى: أي[1] وحسبك ـ أيها الرسول ـ بالله خبيراً بذنوب خلقه، فلا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك، ولا أفعال غيرهم، بل هو عليم بجميع أعمالهم، لا يَعْزُب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون.

ثم قَسَّم سبحانه عباده إلى قسمين: محب للعاجلة، ومحب لأعمال الآخرة، فذكر الأول منهما بقوله: ﴿مَّن كَانَ﴾ منكم أيها العباد ﴿يُرِيدُ﴾ بأعمال البر التي عملها ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: المَنْفَعَةَ العاجلة، أو الدار العاجلة فقط: أي ما فيها من فنون مطالبها، فيدخل فيه الكفرة، والفسقة، والمراؤون، والمنافقون، والمهاجر للدنيا، والمجاهد لمحض الغنيمة والذكر، وطالب العلم لغرض الوظيفة، والمحمدة، والشهرة والاسم، كما ابتُلِي به كثير من طلبة عصرنا، وَقَدْ بيَّنا ما يتعلق بعلم مَنْ ذُكِّرَ وضده في كتابنا «سلَّم المعراج على خطبة المنهاج»، فراجعه إن شئتَ. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المريد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك العاجلةِ، ثُمَّ قيَّد المعجَّلَ بقيدين:

الأول: قوله: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ تعجيله له من نعيمها، لا كل ما يريد؛ فإن الحكمةَ لا تَقْتَضِي وُصُولَ كُلِّ طالب إلى مرامه ومطلوبه، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة، يريدونَ من الدنيا ما لا ينالونَ، ويتمنَّوْنَ ما لا يصلون إليه، ومن حكمته سبحانه: أنه[2] يَبْتَلي بَعْضَ العباد بالطلب من غير حصول المطلوب، وبعضهم يبتلي به مع حصول المطلوب المشروط به، إما مُقَارِناً لطلبه، وإما بعده، لأن وقتَ الطلب قَدْ يُفَارِقُ وقت حصول المطلوب، فَيَحْصُلُ الطلب في وقت، والمطلوب في وقت، وبعضُهم لا يبتلي بالطلب، بل يصل إليه الفيض

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بلا طلب، فالأول طلب ولا شيء، والثاني طلب وشيء، والثالث: شيء ولا طلب.

والقيد الثاني: قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ أي: لمن نريد التعجيلَ له منهم ما اقْتَضَتْهُ مَشِيْئَتُنا.

وجملة ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من الضمير في (له) بإعادة الجار بَدَل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى (مَنْ) الموصولة المفيدة للعموم.

وهذه الآية مقيِّدة للآيات المطلقة كقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ بالنون، وروي عن نافع ﴿ما يشاء﴾ بالياء، فقيل: الضمير في يشاء يعود على الله، وهو من باب الالتفات، فقراءة النون والياء سواء، وقيل: يجوز أَنْ يعود على (مَن) العائد عليها الضمير في (له) وليس ذلك عاماً بَلْ لا يكون له ما يشاء إلا آحاد أراد الله لهم ذلك، ثم بعد هذه الطلبة الفارغة، والإرادة الخالية، التي لا تأثير لَها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ﴾ بعد انتقاله إلى الآخرة ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المريد في الآخرة مكانَ ما عَجَّلْنا له في الدنيا بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة، وإخلاصه عن الشوائب ﴿جَهَنَّمَ﴾ وما فيها من أَصْنَافِ العذاب حَالَةَ كونه ﴿يَصْلَىٰهَا﴾؛ أي: يدخلها حال من الضمير المجرور ﴿مَذْمُومًا﴾ من عند الخلق؛ أي: ملوماً مُهَاناً بالذمِّ؛ لأن الذمَّ اللوم، وهو خلاف المدح والحمدِ، يقال: ذممته، وهو ذميم غَيْرُ حميد كما في «بحر العلوم» ﴿مَّدْحُورًا﴾ عند الخالق؛ أي: مطروداً من رحمة الله تعالى مبعداً عنها، فإنَّ الدَّحْرَ الطرد، والإبعاد.

فهذه عقوبته في الآخرة، مع أنه لا ينالُ من الدنيا إلاَّ ما قدره الله سبحانه

---

(١) البحر المحيط.

له، فَأَيْن حال هذا الشقي من حال المؤمن التقيّ، فإنه ينال من الدنيا ما قدره اللَّه له وأراده بلا هلع منه، ولا جزع، مع سكون نفسه، واطمئنان قلبه، وثقته بِرَبّهِ، وهو مع ذلك عامل للآخرة مُنتظر للجزاء من الله سبحانه، وهو الجنة.

والمعنى: أي من[1] كان غرضه، وطلبه الدنيا العاجلةَ، ولها يعمل ويسعى، وإيَّاها يبتغيَ، لا يوقن بمعاد ولا يَرْجُو ثواباً، ولا يخشى عقاباً من ربه على ما يعملُ، يُعَجّلُ اللَّهُ له في الدنيا ما يشاء من بسط الرزق، وسعة العَيْش، ثُمَّ يصليه حين مقدمه عليه في الآخرة جَهَنَّمَ مذموماً على قِلَّةِ شُكْرِهِ، وسوء صنيعه فيما سَلَفَ، مُبْعداً من رحمته مطروداً من إنعامه.

وقد اشتمَلَ هذا العقاب على ثلاثة أمور:

١ ـ الدوام والخلود، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَنهَا﴾؛ أي: يَدْخُلُهَا حتى تغمره من جميع جوانبه.

٢ ـ الإهانَة والاحتقار، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿مَذْمُومًا﴾.

٣ ـ البعد والطَّرْد من رحمة الله دائماً، فلا يَتَخَلَّلُ ذَلِكَ راحة، ولا يعقبه خلاص، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ وفي قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ إشارة إلى أن الفوز بالدنيا، لاَ يَحْصل لكل من يريدها، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثُمَّ هم يبقون محرومينَ من الدين والدنيا.

وفي هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا، وربما فاتتهم أيضاً، وذكر الثاني من القسمين بقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بأعماله الصالحة الدارَ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾، أي: ثوابَها، وما فيها من النعيم المقيم بأن يؤثرها على الدنيا، ويعقد إرادته بها ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾، أي للآخرة ﴿سَعْيَهَا﴾؛ أي: السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أُمر به، والإنتهاء عما نُهي عنه خالصاً لله غير مشوب، وكان الإتيان به على القانون الشرعي من غير ابتداع ولا هوى لا التقرب

---

(١) المراغي.

بما يخترعون بآرائهم وخرافاتهم، وفائدة[1] اللام: اعتبار النية، والإخلاص، فإنها للاختصاص.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: والحال أنه مؤمن إيماناً صحيحاً لا شرك معه، ولا تكذيب، فإنه العمدةُ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبُهُ الجزاء عليه، إلا إذَا كان من المؤمنين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون الشرائط الثلاثةَ المذكورةَ من إرادة الآخرةِ، والسعي الجميل لها، والإيمان؛ أي: أولئك المريدون للآخرة السَّاعُون لها سعيها، المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، واسم الإشارة مبتدأ خبره قوله: ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾؛ أي: عملهم ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول مُثَاباً عليه، فإن شكر الله الإثابة على الطاعة، وقيل: مضاعَفاً إلى أضعاف كثيرةٍ، فقد اعتبر[2] سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة:

١ ـ أن يريدَ بعمله ثواب الآخرة، ونعيمها؛ فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل، كما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، وجاء في الحديث «إنما الأعمال بالنيات» إلى أَنَّ استنارةَ القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نَوى العامل بعمله طاعةَ ربه، والإخباتَ والخشوعَ له.

٢ ـ أن يعملَ العملَ الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة، ولا يكونُ ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات، لاَ من الأعمال الباطنة كعبادة الأوثان، والكواكب، والملائكة.

٣ ـ أَن يَكُونَ ذلك وهو مؤمن، فإنَّ أَعْمَال البرّ لا توجب الثَّوَابَ إلا إذا وجد الإيمان.

والخلاصة: أن من أرادَ الآخرةَ، ولها عمل، وإياها طلب، فأطاع اللَّهَ، وطلبَ مَا يرضيه، وهو مصدّق بثوابه، وعظيم جزائِه على سعيه لها، شكر الله له جزيلَ سعيه، وآتاه حسنَ المثوبة، كفَاءَ ما قدَّم من صالح العمل، وتجاوَزَ عن سيئاته، وأدخله فراديس جنانه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فائدة: واعلم[1] أن اللَّهَ سبحانه وتعالى خَلَقَ الإنسان مركَّباً من الدنيا والآخرة، ولكلّ جزْءٍ منهما ميل وإرادة إلى كله؛ ليتغذّى منه، ويتقوَّى، ويتكمَّل به، ففي جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروحُ طريقٌ إلى درجات الجنان، وخُلِقَ القلب من هذين الجزئين، وله طريق إلى ما بَيْن إصبعي الرحمٰن، إصبعِ اللطف، وإصبع القهر فمن يرد الله به أن يَكُونَ مظهر قهره أزاغ قلبهُ، وحوّل وجهه إلى الدنيا، فيريد العاجلة، ويربِّي بها نفسه إلى أن تبلِّغه إلى دركات جهنم البعيدة، ويصلىٰ نَارَ القطيعة، ومن يُرد الله به أن يكونَ مظهر لطفه أقام قلبَهُ وحوَّل وجهه إلى عالم العلو، فيريد الآخرةَ، ويسعى لها سعيها، وهو الطلب بالصدق، وهو مؤمن بأن من طلبه وجده، فأولئك كان سعيهم في الوجود مشكوراً من الموجد في الأزل.

ثم بيَّن سبحانه أن عطاءَهُ ورزقه الدنيوي لا يحظر على كل من الفريقَين فقال: ﴿كُلًّا﴾؛ أي: كل واحد من الفريقين مريد الدنيا، ومريد الآخرة، فهو منصوب بقوله: ﴿نُمِدُّ﴾؛ أي: نمد ونزيد كلاً من الفريقين بالعطاء مرَّةً بعد أخرى، بحيث يكونُ الآنف مدداً للسالف لا نقطعُهُ منه، وقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾ و﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ عطف عليه؛ أي: نمد هؤلاء الذين يريدونَ الدُّنْيَا وهؤلاء الذين يريدونَ الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾؛ أي: من معطاه الواسع الذي لا تناهي له، لأنَّ العطاء اسم لما يُعطى فهو متعلق بـ﴿نُمِدُّ﴾، فالله تعالى يُوسِّع عليهما في الرزق من الأموال والأولاد، وغيرهما من أسباب العز، والزينَة في الدنيا، وهذا[2] الإمداد المذكور ليس على طريق الاستيجاب والاستحقاق بالسعي والعمل الصالح، بل بمحض التفضُّل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: معطاه في الدنيا ﴿مَحْظُورًا﴾؛ أي: ممنوعاً من كل أحد، مؤمناً كان أو كافراً، لأن الكلَّ مخلوقون في دار العمل، فأزاحَ تعالى العذرَ عن الكل، وأوْصَلَ تعالى متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح، فيرزق المؤمِنِينَ، والكافرينَ، وأهلَ الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه، بل هو فائض على البرِّ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

في الدنيا والآخرة، وعلى الفاجر في الدنيا فَقَطْ، وإن وجد منه ما يَقْتَضِي الحظر، وهو الفجورُ والكفرُ.

والمعنى: أي[1] إنَّ كلاً من الفريقين مريدي العاجلة، ومريدي الآجلة الساعي لها سعيها، وهو مؤمن يمده ربُّه بعطائه، ويُوسّع عليه الرزقَ، ويكثرُ له الأولادَ والأموالَ وغيرهما من زِينَةِ الدنيا، فإن عطاءَهُ ليس بالممنوع من أحد من خلقه، مؤمناً كان أو كافراً فَكُلُّهم مخلوق في دار العمل، فوجب إزالةُ العذر، ورفع العلة، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القَدْر الذي يقتضيه صلاحُهم، ثُمَّ تختلف أحوال الفريقين، ففريقُ العاجلة إلى جهنم، وبئس المهاد، وفريق الآجلة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار، ونعم عقبى الدار.

والخطاب في قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكونَ لكل مَنْ له أهلية النظر والاعتبار و﴿كَيْفَ﴾ في محل النصب على الحالية، بفَضَّلْنَا لا بانْظُر، لأنَّ أسماء الاستفهام مما يلزَمُ الصدارةَ فلاَ يتقدَّم عَلَيها عَامِلُها، وهذه الجملةُ مقررة لما مر من الإمداد، ومُوضِحةٌ له، والمعنى انظر يا محمدُ بنظر الاعتبار، كيف فضَّلْنَا بَعْضَ العباد على بعض، فيما أَمْدَدْنَاهم من العطايا الدنيوية، فَمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض، وعاقل وأحمق، وذلك لحكمة بالغة تَقْتَصِر العقول عن إدراكها؛ أي: انظر إلى عطائنا للفريقين في الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض، فَأَوْصَلْنَا رزقَنا إلى مؤمن، وقبضناه عن مؤمن آخر، وأوصلْنَاه إلى كافر، ومَنَعْنَاهُ من كافر آخر، ولِهذا حِكَمٌ وأسباب بيَّنها سبحانه بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: ولدرجات الآخرة أكبر، وأعظم من درجات الدنيا؛ فإن درجات الآخرة باقية غير متناهية، ونعم الدنيا فانية متناهية ﴿و﴾

---

(١) المراغي.

للآخرة ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾؛ أي: ولِتَفَاضلهم في الآخرة، وتفاوتهم فيها أكبر من تفاوتهم في الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات السفلىٰ في جهنم مصفَّداً بالسلاسل والأغلال، ومنهم من يكون في الدرجات العليا في نعيم وحبور، وكل فريق يَتَفَاوَتُون فيما بينهم، وقرىءَ ﴿أكثر﴾ بالثاء المثلثة ففي «الصحيحين»: «إن أهل الدرجات العُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلّيّين كما ترون الكوكب الغابر في السماء» وفيهما: «إنَّ الله تعالى أمدَّ لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال: حَضَرَ جماعة من الناس باب عمر رضي الله عنه، وفيهم سهيل بن عمرو القرشيُ ـ وكان أحد الأشراف في الجاهلية ـ، وأبو سفيان بن حرب، ومشايخ من قريش، فأَذِنَ لصهيب، وبلال، وأهل بدر ـ وكان يحبُّهم ـ فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه لَيُؤْذَنُ لهؤلاء العَبيد ونحن جلوس لا يُلْتَفَتُ إلينا فقال سُهيْلَ: ـ وكان أعقلهم ـ أيُّها القوم: إنّي والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غِضاباً فاغضبوا على أنفسكم، إنهم دُعُوا ودُعِينا ـ يعني إلى الإسلام ـ فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فَكَيْف التفاوت في الآخرة، ولئن حَسَدتموهم على باب عمر لَمَا أعد الله لهم في الجنة أكبر.

وعن بعضهم أنه قال: أيُّها المباهِي بالرفع منك في مجالس الدنيا، أَمَا تَرْغَبُ في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أَكْبَرُ وأفضل.

ثم لَمَّا أجمل سبحانه أعمالَ البر في قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَخَذَ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد. فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسانُ ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ﴾، أي: فَتَصِيرَ ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: مُسْتَحِقّاً للذم عند الملائكة والمؤمنين ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي مستحقاً للخذلان والذل والهوان عند الله سبحانه وتعالى، والخطاب[1] فيه للنبي ﷺ والمراد به أُمَّتُه، فإنَّ

(١) روح البيان.

بَعْضَهم قالوا: الأصل في الأوامر هو ﷺ، وفي النواهي أُمَّتُه، وقيل: هو على إضمار القول، والتقديرُ: قُلْ لكل مكلف: لا تجعل إلخ، وانتصاب[1] ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ إمَّا على خبريَّتهما لـ ﴿تقعد﴾ إن قلنا: إنها من أفعال التصيير، وإما على الحال، إن قلنا: إنها على بابها بمعنى المكث؛ أي: فتصير جَامِعاً بين الأمرين الذم لك من الله، ومن ملائكته، ومن صالحي عباده، والخذلان لك منه سبحانه، أو تمكث حَالَ كونك جَامِعَاً بين الأمرين.

والمعنى[2]: أي لا تجعل ـ أيها الإنسان ـ مع الله سبحانه شريكاً في ألوهيته وعبادته، ولكن أخلص له العبادةَ، وأفردْ له الألوهة فإنه لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه. إنَّكَ إن تجعل معه إلٰهاً غيرُه، وتعبد معه سواه تصر ملوماً على ما ضيَّعتَ من شكر الذي أنْعَمَ عليك بنعمه، وشكر من لم يولك نعمة مخذولاً لا ينصرك ربُّك بل يكلُك إلى مَن عبدتَه معه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وحاصل ما ذكره في هذه الآيات من أنواع التكاليف خمسة وعشرون نَوْعاً بعضها أصلي، وبعضها فرعيٌّ، وقد بُدئت بالأصل في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ...﴾ الخ وخُتمت به أيضاً في قوله: و﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ وسيأتي تعدادها في آخرها، إن شاء الله تعالى.

وبعد أن ذَكَر الركن الأعظمَ في الإيمان، وهو التوحيد أتبعَه بذكر شعائره، وشرائعه، وهي الأمور الآتية، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ أي: وأمَرَ ربك يا محمد كُلَّ مكلف أمراً جزماً، وحكماً قَطْعاً، وحَتماً مُبرَماً ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: بأن لا تعبدوا غَيْرَه إذ العبادةُ نهاية التعظيم، فلا تُسْتَحَقُّ إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام، والإفضال على عباده، ولا منعمَ إلا هو سبحانه، وإنَّما قال[3]: ﴿رَبُّكَ﴾ خطاباً للنبي ﷺ ولم يقل ربكم مع كَوْنِهِ مُقْتَضَى السِّياق؛ لأنه مخصوص بالتربية أَصَالة والأمةَ تبعٌ له في هذا الشأن.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَضَىٰ﴾ فعلاً ماضياً من القضاء، وقرأ أبو عمران، وعاصم الجحدري، ومعاذ القارىء ﴿وقضاء ربك﴾ بقاف، وضاد بالمد، والهمز والرفع، وخفض اسم الرب، مصدر قضى مرفوعاً على الابتداءِ، وأن لا تعبدوا خبره، وقرأ أُبيّ بن كعب، وابن عباس، وابن جُبير، والنخعيُّ وأبو المتوكل، وميمون بن مهران: ﴿ووصى ربك﴾ من التوصية وهذا خلاف ما انْعَقَدَ عليه الإجماعُ، فلا يلتفت إليه، وقَرأ بعضهم ﴿وأوصَى﴾ من الإِيصاءِ، وينبغي أَن يُحمل ذَلِكَ على التفسير، لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف، والمتواتِرُ هو: ﴿قَضَى﴾ وَهُوَ المستفيض عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهم في أسانيد القُرَّاءِ السبعة. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾؛ أي: وقَضَى رَبُّكَ بأن تحسنوا إلى الوالدين، إحساناً كاملاً وتبروهما براً واسعاً؛ ليكون الله مَعَكُم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ فإن إحسانهما إليكَ قد بلغ الغايةَ العظيمةَ، فوجب أن يكونَ إحسانك إلَيْهِمَا كذلك، ومع ذلك لا تحصل المكافأة؛ لأن إنْعَامَهُما عليك كَان على سبيلِ الابتداءِ، وفي الأمثال المشهورة «إن البادىءَ بالبرّ لا يُكَافأ».

وقد أمر الله سبحانه بالإحسان إليهما للأسباب الآتية[2]:

١ ـ شفقتهما على الولد، وبذل الجهد في إيصال الخير إليه، وإبعادِ الضر عنه جهدَ المستطاع، فوجب مقابلةَ ذلك بالإحسان إليهما، والشكرِ لهما.

٢ ـ أنَّ الولد قِطْعَةٌ من الوالدين كما جاء في الخبر أنه ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني».

٣ ـ أنهما أنعما عليه، وهو في غاية الضعف، ونهاية العجز، فوجب أن يُقَابَل ذلك بالشكر حين كِبَرِهما، كما قال الشاعر العربي يعدد نعمَه على وَلَدِهِ وقد عَقَّه في كبره:

غَـذَوْتُـكَ مَـوْلُـوْدَاً وَمِـنْـتُـكَ يَـافِـعَـاً تُـعَـلُّ بِـمَـا أَجْـنِـيْ عَـلَـيْـكَ وَتَـنْـهَـلُ
إِذَا لَـيْـلَـةٌ ضَـافَـتْـكَ بِـالسُّـقْـمِ لَـمْ أَبِـتْ لِـسُـقْـمِـكَ إِلاَّ سَـاهِـرَاً أَتَـمَـلْـمَـلُ

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير. (٢) المراغي.

كَـأَنِّـيْ أَنَـا ٱلْـمَـطْـرُوْقُ دُوْنَـكَ بِـٱلَّـذِيْ طُـرِقْـتَ بِـهِ دُوْنِـيْ فَـعَـيْـنَـيَّ تَـهْـمِـلُ
تَـخَـافُ ٱلـرَّدَىٰ نَـفْـسِـيْ عَـلَـيْـكَ وَإِنَّـهَـا لَـتَـعْـلَـمُ أَنَّ ٱلْـمَـوْتَ وَقْـتٌ مُـؤَجَّـلُ
فَـلَـمَّـا بَـلَـغْـتَ ٱلـسِّـنَّ وَٱلْـغَـايَـةَ ٱلَّـتِـيْ إِلَـيْـهَـا مَـدَىٰ مَـا كُـنْـتُ فِـيْـكَ أُؤَمِّـلُ
جَـعَـلْـتَ جَـزَائِـيْ غِـلْـظَـةً وَفَـظَـاظَـةً كَـأَنَّـكَ أَنْـتَ ٱلْـمُـنْـعِـمُ ٱلْـمُـتَـفَـضِّـلُ
فَـلَـيْـتَـكَ إِذْ لَـمْ تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتِـيْ فَـعَـلْـتَ كَـمَـا ٱلْـجَـارُ ٱلْـمَـجَـاوِرُ يَـفْـعَـلُ

قيل[1]: ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهِرُ في وجود المتولِّد بينهما، وفي جعل الإحسان إلى الوالدين قريناً لتوحيد الله وعبادته، من الإعلان بتأكد حقهما، والعِنَاية بشأنهما ما لا يَخْفَىٰ وكذلك جعل سبحانه في آية أُخْرَى شكرهما مقترناً بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

والخُلاصةُ: أنه لا نعمةَ تَصِلُ إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه، ثُمَّ نعمة الوالدين، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أوّلاً بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثُمَّ أَرْدَفَها بشكر نعمة الوالدين بقوله: وبالوالدين إحساناً، ثم فَصَّلَ ما يجب من الإحسان إليهما بقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، وكلمة[2] (إِمَّا) مركبة من (إِنْ) الشرطية، و(ما) المزيدة لتأكيدها، ولذلك حَلَّ الفعل نون التوكيد، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ في كنفكَ وكفالتك، وأحدُهما فاعل للفعل، وتوحيدُ ضمير الخطاب في ﴿عِندَكَ﴾، وفيما بعده معَ أَنَّ ما سَبَقَ على الجمع، للاحتراز عن التباس المراد، فإنَّ الْمَقْصُودَ نهي كل أحد عن تأفيف والديه، ونهرهما، ولَو قوبل الجمع بالجمع أوْ بالتثنية.. لَمْ يحصل هذا المراد فإن قلتَ: كيف خص الله سبحانه حالَ الكِبَرِ بالإحسان إلى الوالدين، وهو واجب في حقهما على العموم؟.

قلتُ: إنَّ هذا وقت الحاجة في الغالب، وعند عدم الحاجة إجابتهما ندب، وفي حالة الحاجة واجب، ذكره في «روح البيان».

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والمعنى: إنْ يَبْلُغْ أحدُ الوالدين أو كلاهما سن الكِبَرِ والشيخوخة، والعَجْزِ، والضعف، والحال أَنَّهُما عندك في منزلك، وكفالتك؛ أي: والحال أنهما في حال يلزمك فيه القيامُ بأمرهما في المعيشة، ككبر سنهما، وعَجْزِهما عن الكسب، وغَير ذلك ﴿فَلَا تَقُل﴾ أيها الولد لأحدهما، أو ﴿لَّهُمَآ﴾؛ أي للوالدين كلاماً رديئاً، وقولاً خَشِناً كقولك لهما ﴿أُفٍّ﴾؛ أي: أنا أتضجر من شيء يصدر منكما، كظهور رائحة تؤذِيكَ منهما، بل أكرمهُمَا واخدِمهما كما خدماك في مثل هذه الحالة؛ أي: لا تقل لهما كَلاَماً رَدِيئاً إذا وُجِدَتْ منهما رائحة تؤذيك كما أنهما لا يستقذِرَانِ منكَ حين كنْتَ تَخْرَأُ أو تبول، والتقييد بحالةِ الكبر، خَرَجَ مَخْرَج الغالِب؛ لأن الولَدَ غَالِباً إنما يَتَهَاوَنُ بوالديه عند حصول الكبر لهما كما مر، والأصح أنَّ (أُفٍّ) اسم فعل مضارع مدلوله لفظ الفعل؛ أي: لا تقل: أَنَا أَتَضَجَّرُ من شيء يصدر منكما، وقال مجاهد: إنَّ معناه إذا رأَيْتَ منهما في حال الكبر، الغائطَ، أو البول اللذين رأيا منك في حال الصغر، فلا تَقْذُرْهُمَا، وتقول: أف، انتهى. والآية أعمُّ من ذلك، وقرأ الجمهور[1] ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ بنون التوكيد الشديدة، والفعل مُسْنَدٌ إلى ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ ورُوي عن ابن ذكوان بالنون الخفيفة، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي ﴿إما يبلغان﴾ بألف التثنية، ونون التوكيد الثقيلة، وهي قراءة السلمي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، والجحدري، فقيل: الألف علامة تثنية، لا ضمير على لغة أكلوني البراغيث، وقيل: الألف ضمير الوالدين، و﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدل من الضمير، و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أَحَدُهُمَآ﴾، والمعطوف على البدل بدل.

وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى، ونافع، وحفص، ﴿أُفٍّ﴾ بالكسر والتشديد، مع التنوين، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر كذلك بغير تنوين، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، بفتح الفاء مشددةً من غير تنوين، وحكى هارون قراءة بالرفع والتنوين، وقرأ أبو السمال ﴿أُفُ﴾ بضم الفاء من غير تنوين، وقرأ زيدُ بن علي ﴿أُفّاً﴾ بالنصب والتشديد والتنوين، وقرأ ابن

---

(١) البحر المحيط.

عباس ﴿أف﴾ خفيفة فهذه سبع قراءات من اللغات التي حكيت في ﴿أُفٍّ﴾.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: لا تزجرهما بإغلاظ إذا كرهتَ منهما شيئاً؛ أي: لا تغلظْ لهما في الكلام، والمراد[1] من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ المنع من إظهار الضَّجَرِ بالقليلِ أو الكثير، ومن قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيفِ والنهرِ ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: قَوْلاً ليناً حسناً، بأن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم، كأن[2] يقول: يا أبَتَاه، ويا أمَّاهُ كدأب إبراهيم عليه السلام، إذْ قَالَ لأبيه: يا أبت مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الأدب، ولا يرفعُ صوتَه فوق صوتهما، ولا يَجْهَرُ لهما بالكلام، بل يكلمهما بالهمس والخضوع إلا لضرورة الصَّمَمِ والإفهام، ولا يَسُبُّ والدي رَجُلٍ فيسب ذلك الرجل والدَيه، ولا ينظر إِلَيهِمَا بالغضب ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا﴾ أي أَلِنْ لهما ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: حالكَ الليِّنَ المَذْلُولَ المتواضعَ، واخضعْ لهما حَتَّى لا تَمْتَنِعَ عن شيء أحباه ويسرهما ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: من أجل فرط رحمتك لهما، وشدة شفقتك عليهما، ورقة قلبك لهما، بسبب ضعفهما لا لأجل خوفك من العار، لافتقارهما اليومَ إلى مَنْ كَانَ أَفْقَرَ خَلْقٍ الله إليهما بالأمس، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - كُنْ مع الوالِدَين كالعبد المُذْنِبِ الذليل الضعيف، للسيد الفظ الغليظ؛ أي: في التَّواضُعِ والتملق.

ويُقَبّلُ رجلَ أُمِّهِ[3]، ويباشِرُ خِدْمَتَهمَا بِيَدِهِ، ولا يفوّضها إلى غيره؛ لأنه ليس بعار للرجل أَنْ يخْدُمَ معلمه، وأبويهِ وسُلطانَه، وضَيْفَه، ولا يؤمه للصلاة، وإنْ كَانَ أفقه منه؛ أي: أعْلَمَ بالفقه من الأب، ولا يَمْشِي أَمَامَهُمَا إلا أَنْ يكون لإِماطة الأذى عن الطريق، ولا يَتَصدَّرُ عليهما في المجلس، ولا يَسْبِقُ عليهما في شيء؛ أي: في الأكل والشرب والجلوس، والكلام وغير ذلك.

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

وفي الحديث «ما مِنْ ولدٍ يَنظر إلى الوالد وإلى والدَتِهِ نَظَر مَرْحمةٍ إلاّ كَانَ له بها حجَّةٌ وعمرة» قيل: وإن نَظَر في اليوم ألف مرةٍ قال: «وإنْ نظر في اليوم مئة ألف» كما في «خالصة الحقائق» وقلت: فيه مقال.

قال الفقهاء: لا يَذْهَبُ بأبيه إلى البِيْعة، وإذا بعث إليه منها ليحمله.. فَعَل، ولا يناوِله الخمر، ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف إذا أَمَره أن يُوقِدَ تَحْتَ قدره، وفيها لحم الخنزير، أَوْقَد كما في «بحر العلوم» ولا يَنْتَسِب إلى غير والديه استنكافاً منهما، فإنَّه يستوجب اللعنةَ، وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ بضم الذال، وقرأ ابنُ عباس، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير، والجحدريُّ وابن وثَّاب بكسر الذال.

ثُمَّ كأنه قال له سبحانه: ولا تكتف برحمتك التي لا دَوَامَ لَهَا ﴿و﴾ لكن ﴿قل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾؛ أي: وادْعُ اللَّهَ أن يَرْحَمَهما برحمته الباقية، ولو خَمْس مرات في اليوم والليلة، ولا تكتف برحمتك الفانية، وإنْ كَانَا كافرين.. لأن من الرحمة أن يَهْدِيَهما إلى الإسلام، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مَا زَالَ إبراهيمُ عليه السلام يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرَّأ منه، يعني ترك الدعاء، ولم يستغفر له بعدما مات على الكفر، كذا في «تفسير أبي الليث» وفي الحديث «إذا ترك العبد الدعاء للوالدين ينقطع عنه الرزق في الدنيا» سئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شيءَ أَنْفَعَ له من الاستغفار، ولو كان شيءٌ أفضل منه، لأمرْتُ به الأبوين. ويُعضّدهُ قوله عليه السلام: «إنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ دَرَجة العبد في الجنة، فيقول: يا رب أَنَّى لي هذا، فيقول: باستغفار وَلَدِكَ» وفي الحديث «مَنْ زار قَبْر أبويه أو أحدِهما في كل جمعة كان باراً».

والكاف في قوله ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ في محل النصب على أنه نعت مصدر محذوف؛ أي: قل في الدعاء لهما: رب ارحمهما برحمتك الدنيوية والأخروية

---

(١) البحر المحيط.

رحمةً مثلَ رحمتهما عَلَيَّ، وتربيتهما وإرشادهما إيايَّ في حال صغري، وفاء بوعدك للراحمين، ويجوزُ أن تَكُونَ الكَافُ تعليلية؛ أي لأجل تربيتهما لي. رُوِيَ أَنَّ رجُلاً قال لرسول الله ﷺ: «إنَّ أبوي بلغا من الكبَرِ أنّي أَلِيَ منهما ما وليا مِنّي في الصغر، فهل قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا؟ قال: «لا فإنَّهما كَانَا يفعلان ذلك وهما يحبان بَقَاءَك، وأنت تَفْعَلُ ذلك وأنت تريد مَوْتَهُما».

وحاصل معنى الآيتين: أي إذَا[1] وصل الوالدان عندك أو أحدُهما إلى حال الضعف والعجز، وَصارَا عندك في آخر العمر كما كُنْتَ عندهما في أوله: وجب عليك أن تُشْفِقَ عليهما وتحنوَ لهما، تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه، ويَتَجَلَّى بأن تَتْبَعَ معهما الأمور الخمسة الآتية:

١ ـ أن لا تتأفَّفَ من شيءٍ تَرَاهُ من أحدهما أو مِنْهُمَا مِمَّا يتأذَّى به النَّاسُ، ولكن أَصْبِرْ على ذلك منهما، واحتسب الأَجْرَ عليه كما صَبَرا عليك في صغرك.

٢ ـ أن لا تنغّصَ عليهما بكلام تزجرهما به، وفي هذا منع من إظهار الضَّجرِ القليل، أو الكثير.

٣ ـ أن تقولَ لهما قَوْلاً حسناً، وكلاماً طيباً، مقروناً بالاحترام والتعظيم، ممَّا يَقْتَضِيه حسن الأدب، وترشد إليه المروءة، كأن تقول يا أبتاه، ويا أماه، ولا تَدْعُوهما بأسمائهما، ولا ترفع صَوْتَكَ أمامهما، ولا تحدق فيهما بنظَرِكَ.

٤ ـ أن تتواضَعَ لهما، وتتذلل وتُطيعَهما فيما أمراك مما لم يكن معصيةً لله، رحمةً منكَ بهما وشفقة عليهما إذ هما قَدِ احتاجا إلى من كان أَفْقَرَ الخلق إليهما، وذلك مُنْتَهى ما يكون من الضَّرَاعةِ، والمسكنة ولله در الخفاجي إذ يقول:

يَـا مَـنْ أَتَـىٰ يَـسْـأَلُ عَـنْ فَـاقَـتِـيْ ... مَـا حَـالُ مَـنْ يَـسْـأَلُ مِـنْ سَـائِـلِـهْ

مَـا ذِلَّـةُ ٱلـسُّـلْـطَـانِ إِلاَّ إِذَا ... أَصْـبَـحَ مُـحْـتَـاجـاً إِلَـىٰ عَـامِـلِـهْ

وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: أن يكونَ ذلك التذلل رحمةً بهما، لا من أجل

---

(١) المراغي.

امتثال الأمر وخوف العار فقط، فتذكر نفسك بما تقدَّم لهما من الإحسان إليك، وبما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما، وقد مثَّل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فَرْخِهِ إليه لتربيته؛ فإنه يخفض له جَنَاحَه، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلاَ ذلك في حال صغرك.

٥ ـ أن تدعو اللّهَ أن يرحمهما برحمته البَاقية، ولو خمس مرات في اليوم والليلة، كفاءَ رحمتهما لك في صغرك، وجميلِ شفقتهما عليك، وبالجملة فَقَدْ بالغ سبحانه في التوصية بهما، من وجوه كثيرة، وكفاهما أن شفع الإحسانَ إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً.

وبر الأم مقدَّم على بر الأب[١]؛ لِمَا رَوى الشيخان أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئل من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثُمَّ من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك».

ولا يختص بِرهما بحال الحياة، بل يكون بعد الموت أيضاً، فقد روى ابن ماجة أنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئل هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نَعَمْ خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلةُ الرحم التي لا رَحِمَ لك إلا من قبلهما» فهذا الذي بقيَ عليك من برهما بَعْدَ موتهما.

والخلاصة: أنه سبحانه بَالَغ في التوصية بالوالدين مبالغةً تَقْشَعِرُّ منها جلودُ أهل العقوق، وتقِفُ عندها شُعورُهم، مِنْ حيث افْتَتَحَها بالأمر بتوحيده وعبادته، ثمَّ شَفَّعَهُمَا بالإحسان إليهما، ثم ضيق الأمرَ في مراعاتهما حتى لم يرخِّص في أَدْنى كلمة تنفلِت من المتضجر مع موجبات الضَّجر، ومع أحوال لاَ يكاد الإنسان يصبرُ معها، وأن يذِلَّ ويَخْضَعَ لهما، ثمَّ خَتَمَها بالدعاء لهما، والترحم عليهما، وهذه الخمسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بها مقرونة بوحدانيَّته، وعدم الشرك به.

---

(١) المراغي.

فصل في ذكر الأحاديث التي وردت في بر الوالدين(١)

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أُمُّكَ، ثم أمك، ثم أباك، ثم أدناك، فأدناك» متفق عليه.

وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَغم أَنْفُهُ، رَغِمَ أنفه، رَغِم أَنفُه» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والدَيه عند الكِبَرِ أو أحدَهُما، ثم لم يدخل الجنة». أخرجه مسلم. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يجزيَ ولد وَالِدَه إلاّ أَنْ يَجِدَه مملوكاً فَيْشَتَرِيَهُ فيعتِقَه» أخرجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أَحَيّ والداك؟» قال: نعم، «قال: ففيهما فجاهد» متفق عليه. وعنه أن رَسولَ الله ﷺ قال: «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين» أخرجه الترمذي مرفوعاً، وموقوفاً، وهو أصح.

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أَبْوابَ الجنة، فإن شئتَ: فضيِّع ذلك الباب، أو احفظه» أخرجه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

وعن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحبُّ إلى الله تعالَى؟ قال: «الصلاة لوقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثمَّ؛ أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله تعالى» أخرجه مسلم.

ولما كان بر الوالدين عسيراً حَذَّر من التهاون فيه. فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾؛ أي: بما في ضمائركم من قصد البر والتقوى، وكأنه تهديد على أن يضمرَ لهما كراهةً واستثقالاً ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾؛ أي: قَاصِدينَ الصلاحَ، والبِرَّ دُونَ العقوق، والفساد، فلا يَضُرُّكُم ما وقع منكم من الهفوة والزلة في حالة الغضب ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾؛ أي: الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر، ﴿غَفُورًا﴾ لِما وقع منهم من نوع تقصير، أو

---

(١) الخازن.

إذايةٍ فعليةٍ أو قوليةٍ في حق الوالدين.

والمعنى: أي[1] ربكم أيها الناس: أعلم منكم بما وقع في نفوسكم من تعظيمكم أمرَ آبائكم، وأمهاتكم، والبِرّ بهم، ومن الاستخفاف بحقوقِهم، والعقوق بهم، وهو مجازِيكم على حَسَن ذلك وسيئه، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءاً، وتعتَقِدُوا لهم في نفوسكم عقوقاً، فإن أنتم أصلحتم نِيَّاتِكُم فِيهِمْ وأطعتم رَبّكم فيما أمركم من البر بهم، والقيام بحقوقهم عليكم، بعد هفوة كانت مِنكم، أو زَلَّةٍ في واجب لهم عليكم، فإنه تعالى يَغْفِرُ لكم ما فَرَطَ منكم، فهو غَفَّارٌ لمن يتوبُ من ذنبه، ويرجع من مَعْصِيَتِهِ إلى طاعته، ويعمل بما يحبه ويرضاه..

وفي هذا: وعد لمن أضمر البرَّ بهم، ووعيدٌ لمن تهاوَنَ بحقوقهم، وعَمِلَ على عقوقهم. وقيل: المعنى[2] رَبُّكُم أعلم منكم بما في ضمائركم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومن التوبة من الذنب الذي فَرَطَ منكم، أو الإصرار عليه، ويندرج تَحْتَ هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق، اندراجاً أولياً، وهذا المعنى أولي اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيّدُه، إن تكونوا قاصدين الصلاحَ والتوبةَ من الذنبِ والإخلاص في الطاعة.. فلا يضركم ما وقع منكم من الذنب الذي تبتم عنه، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾؛ أي: الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص، ﴿غَفُورًا﴾ لِما فَرَطَ منهم من قول، أو فعل، أو اعتقادٍ فمن تَابَ.. تابَ الله عليه، ومن رجع إلى الله، رجع الله إليه.

وبَعْدَ أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى، فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: وأعط ـ أيها المكلف ـ القريبَ منك مِنْ جِهَةِ الأب أو الأم، وإن بَعُدَ ﴿حَقَّهُۥ﴾ مِنْ صلةِ الرَّحِم بالمال أو بالمودة، والزيارة وحسن العشرة، وإن كان محتاجاً إلى النفقة.. فأنفق عليه ما يسد حاجَتَهُ.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

واعلم: أنه[1] لا يجب على الفقير إلاَّ نفقة أولاده الصغار الفقراءِ، ونفقة زوجتِه غنيةً أو فقيرةً مسلمة أو كافرةً، وأما الغني ـ وهو صاحبُ النصاب الفاضل عن الحوائج الأصلية ذكراً كَانَ أو أنثى ـ: فيجب عليه نَفَقَةُ الأبوين، ومن في حكمهما من الأجداد والجدات إذَا كانوا فُقَرَاءَ، سواءَ كانوا مسلمين أو كافرينَ، وهذا إذا كانوا أَهْلَ ذمة، فإن كانوا حرْباً.. فلا تجب نفقتهم وَإِنْ كانوا مستأمنين، وتَجِبَ نَفَقَةُ كل ذي رحم محرم مما سوى الوالدين، إن كَانَ فقيراً صغيراً، أو أنثى، أو زمناً، أو أعمى أو لا يُحْسِنَ الكسب لخرقه، فإن كَانَ قادراً عليه لا تجب نفقته اتفاقاً، أو لكونه من الشرفاءِ والعظماءِ، وتجب نفقة الأبوين مع القدرة على الكسب ترجيحاً لهما على سائر المحارم، وطَالِبُ العلم إذا لم يقدر على الكسب لا تسقط نفقته عن الأب كالزمن، وكذا نفقة البنت البالغة غير المزوَّجة، ونفقة الإبن الزمن البالغ على الأب، وإذا كان للفقير أب غنيٌّ وابن غني، فالنفقة على الأبوين، ولا نفقة مع اختلاف الدين إلا بالزوجية ـ كما سبق ـ والولاء، فنفقة الأصول الفقراء مسلمين أو لا على الفروع الأغنياء، ونفقة الفروع مسلمين أو لا على الأصول الأغنياء، فلا تجب على النصراني نفقة أخيه المسلم، ولا على المسلم نفقة أخيه النصراني، لعدم الولاء بينهما، ويعتبر في نفقة قرابة الولاء أصولاً أو فروعاً الأقرب فالأقربُ، وفي نفقة ذي الرحم يعتبر كونه أهلاً للإرث، ولا تجب النفقة لرحم ليس بمحرم اتفاقاً كأبناء الأعمام، بل حقهم صلتهم بالمودة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والتفصيل في باب النفقة في كتب الفروع، فأرجع إليها، ووجوبُ نفقة كل ذي رحم محرم إذا كانوا فقراءَ على مذهب أبي حنيفة، وقال[2] الشافعي: لا تَلْزَمْ النفقةُ إلا لوالد على ولده، أو ولد على والديه فحسب.

وقوله: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معطوف على ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: وأعط ـ أيها المكلَّف ـ من اتصف بالمسكنة أو بكونه من أبناءِ السبيل حقه، والمراد[3]

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

به في هذه الآية التصدق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض، فإنهما من الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة، والمسكين هو من له شيء من المال أو الكسب يَقَعُ موقعاً من كفايته، ولا يكفيه تمام حاجته، والفقير من له شيء من المال أو الكسب لا يقع موقعاً من كفايته، أو لاَ شيء له أصلاً.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر لغرض في غير معصية المنقطع عن ماله، فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده، وقد بسطنا الكلام على الأصناف الثلاثة في سورة التوبة فراجعها.

ولما أمر الله سبحانه بما أمرَ به من الإنفاق نهى عن التبذير، وهو صَرْفُ المال في غير مصارفه، وتفريقه كيفما كَانَ من غير تعمد لمواقعه، كما يفرَّق البذر في الأرض، وقال الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه، وهو حرام فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾؛ أي: ولا[1] تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال في معصيته، تفريقاً بإعطائه مَن لاَّ يستحقه أو بإنفاقه في المحرمات كالمناهي والملاهي، أو بإنفاقه رئاءً وسمعةً، ثم نبه سبحانه على قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾؛ أي: إنَّ المسرفينَ بإنفاق أموالهم في غير مَصَارِفِهَا ﴿كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أي: أتباعهم وأصدقاءهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، تقول العرب: لكل من لازم سُنَّةَ قوم واتبع أثرهم هو أخوهم؛ أي: إنَّ المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته إخوان الشياطين، وقرناؤهم في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أي: قرناءهم من الشياطين ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ﴾؛ أي: لنعمة ربه التي أنْعَمَ بها عليه ﴿كَفُورًا﴾ أي جُحُوداً لا يشكره عليها، بل يكفرها بترك طاعته، وارتكابه معصيته، وكذا إخوانه المبذرون أموالَهم في معاصي الله، لا يشكرون اللَّهَ على نعمه عليهم، بل يخالفون

(١) المراغي.

أمْرَه، ولا يستنون سُنَّتَه، ويتركون الشكرانَ عليها، ويتلقونها بالكفران، وقَرَأَ الحسن والضحاك[1]: ﴿إخوان الشيطان﴾ على الإفراد، وكذا ثبت في مصحف أنس.

قال الكرخي: وكذلك من رزقه الله جَاهاً أو مالاً فصرفه إلى غير مرضاة الله، كَان كَفُوراً لنعمة الله؛ لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل اهـ، وفي ذكر وصف الشيطان بالكُفْرَان دُونَ ذكر سائر أوصافه بيان لحال المبذر؛ لأنه لما صرف نعم الله عليه في غير موضعها كفر بها ولم يشكرها، كما أنَّ الشيطانَ كفر بهذه النعم.

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالَهم من السلب، والنهب، والغارة، ثم ينفقُونَها في التفاخر، وحب الشهرة، وكان المشركونَ من قريش ينفقون أموالَهم لِيَصُدُّوا الناسَ عن الإسلام، وتوهين أهلِهِ، وإعانة أعدائِه، فجاءت الآية تبين قُبْحَ أَعْمَالهم.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ تقدم قريباً أن أصل ﴿إما﴾ هذه مركب من (إن) الشرطية، و(ما) الإبهامية، وأَنَّ دخُولَ نون التوكيد على الشرط لمشابهته للنهي؛ أي: وإنْ أَعْرَضْتَ ـ يا محمد أو أيها المكلف ـ عن هؤلاء الذين أُمِرْتَ أَنْ تُؤْتِيَهم؛ أي عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل حَيَاءً من التصريح بالرد لكونك كنت فَقِيراً في وقت طلبهم منك ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: لانتظار مجيىء رزق من ربك ترجوه، أن يأتيك فتُعْطِيَهم، وقيل[2]: معناه لفقد رزق من ربك ترجوه أنْ يَفْتَحَ لَكَ، فوضع الابتغاءَ موضع الفقد، لأن الفقد سبب للابتغاء، فأقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقامَ السبب الذي هو فقد الرزق؛ لأن فاقد الرزق مُبتغٍ له؛ أي: وإن أعرضت عنهم لِفَقْدِ رزق من ربكَ ترجو أن يفتحَ الله به عليك. ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، أي قَوْلاً سَهْلاً ليناً كالوعدِ الجميل، أو الاعتذار المقبول؛ أي: عِدهم وعداً طيباً تطيب به قلوبهم، وقيل: هو أن يقولَ:

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي.

رزقنا الله وإياكم من فضله.

والمعنى: أي[1] وإن أعرضت عن ذوي القربى والمسكين، وابن السبيل، وأنْتَ تستحي أن ترد عليهم انتظارَ فرج من الله ترجو أن يأتيك، ورزق يفيض عليك فقل لهم قولاً ليناً جميلاً، وعدهم وعداً تَطِيبُ به قلوبهم. قال الحسن: أُمِرَ أن يقول لهم: «نَعَمْ وكرامةً، وليس عِنْدَنَا اليوم شيءٍ، فإن يأتنا نعرف حقكم».

وفي هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون، وكيف يردونَ، ولقد أحسن من قال:

إلاَّ يَكُنْ وَرِقٌ يَوْمَاً أَجُوْدُ بِهِ ... لِلسَّائِلِيْنَ فَإِنِّيْ لَيِّنُ ٱلْعُوْدِ
لاَ يَعْدَمُ ٱلسَّائِلُوْنَ ٱلْخَيْرَ فِيْ خُلُقِيْ ... إِمَّا نَوَالٌ وَإِمَّا حُسْنُ مَرْدُوْدِ

ثم بيَّن سبحانه الطريق المثلى في إنفاق المال فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسان ﴿يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾؛ أي: مضمومة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ مجموعة معه في الغل، وهو: بضم الغين طوق من حديد يجعل في العنق؛ أي: لا تُمسك يدك عن الإنفاق في الحق، والخير كالمغلولة يدُهُ إلى عنقه، لا يقدر على مدها؛ أي: لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك. ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾؛ أي: لا تمدها في الإنفاق ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتعطي جميعَ ما عندك في وجوه صلة الرحم، وسبيل الخيرات؛ أي: لا تَتَوَسَّع[2] في الإنفاق تَوَسُّعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء، ورُوي عن قالون ﴿كل البصط﴾ بالصاد ذكره في «البحر» ﴿فَتَقْعُدَ﴾؛ أي: فتصير ﴿مَلُومًا﴾ عند الله تعالى؛ لأنَّ المسرف غير مرضي عنده تعالى، وعند أصحابك فهم يلومونك على تضييع المال بالكلية، وإبقاءِ الأهل والولد في الضر، وتبقى ملوماً عند نفسك بسبب سوء تدبيرك، وترك الحَزْمِ في مُهِمَّات معاشك، أو ملوماً على البخل من الواجبات. ﴿مَّحْسُورًا﴾؛ أي: نَادِماً على ما فرط منك من الإنفاق أو مُنْقَطِعاً لا شيء عندك تنفقه، أو منقطعاً عنك الأحباب بسبب ذهاب

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الأسباب من[١]: حسَرُه السفرُ إذا أثَّر فيه أثراً بليغاً، أو عَارِياً من حَسَرَ رأسه، وَلاَ تشكل هذه الآية على ما ورَدَ من فعل السلف الذين خَرَجُوا عن أموالهم في محبة الله ورسوله وصاروا فقراءَ؛ لأن النهي محمول على من كان يعقبه النَّدَمُ والتحسُّرُ، بخلاف السَّلَف، فلم يُوجَدْ منهم التحسر.

والمعنى: أي لا تكن[٢] بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أَكْثَرَ من دخلك، فإنك إن بخلتَ كنتَ ملوماً مذموماً عند الناس، كما قال زهير:

وَمَنْ يَكُ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ

ومَذْمُوماً عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالِكَ، وقد أوجب الله عَلَيْكَ سَدَّ حاجتهما بإعطاء زكاة أَمْوَالِك.

وإن أسرفتَ في أموالك فَسُرْعَانَ ما تفقدها فتصبح معسراً بعد الغنى، ذَلِيلاً بعد العزة، محتاجاً إلى معونة غيرك بعد أن كنتَ مُعِيناً له، وحينئذٍ تَقَعُ في الحسرة التي تقطع نياطَ قلبك، ويبلغ منك الأسى كلَّ مَبْلَغ، ولكن أنَّى يُفِيدُ ذلك، وقد فات ما فاتَ، فلا يَنْفَعُ النَّدَمُ، ولا تُجدي العظة والنصيحة.

وخلاصة ذلك: اقْتَصِدْ في عيشك، وتَوسّطْ في الإنفاق، ولا تَكُن بَخِيلاً، ولا مُسْرِفاً.

روى أحمد وغَيْرُهُ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عَالَ من اقْتَصَدَ» وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة» وروي عن أنس مرفوعاً «التدبيرُ نِصْفُ المعيشَةِ، والتودد نصف العقل، والهَمُّ نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارَين»، وقيل: «حسنُ التدبير مع العفاف خيرٌ من الغنى مع الإسراف».

وإجمال المعنى: لا تجعل يدك في انقباضِهَا كالمغلولة الممنوعة عن

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

الانبساط، ولا تَتَوَسَّع في الإنفاق، فتصيرَ نَادِمَاً مغموماً، وعاجزاً عن الإنفاق لا شيء عندك، فتكون كالدابة التي قد عَجزَت عَن السير، فوقفت ضَعْفاً وعجزاً وإعياء.

ثم سلّى رَسُولَهُ والمؤمنين بأن الذي يرهقهم من الإضافة ليس لِهَوانِهم على الله تعالى، ولكن لمشيئة الخالق الرزاق فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ البَسْطَ عليه من عباده، ويوسّعه عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيّق على من يشاءَ التضييقَ عليه بحسب السنن التي وضعها لعباده في كسب المال، وحسن تصرفهم في جمعه بالوسائل والنظم التي وضعها في الكون؛ أي: يوسعه على بعض، ويضيّقه على بعض، لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ لا لكون من وُسّع له رزقه مكرَماً عنده، ومن ضيَّقه عليه مهاناً لديه.

فعلى العاقل[1]: التسليم لأمر الله تعالى، والرضى بقضائه، والصَّبْرُ في موارد القبض، والشكر في مواقع البسط، والإنفاق مَهْمَا أمكن، ثُمَّ علَّلَ ما ذكره من البسط للبعض، والتضييق على البعض بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: ببواطن عباده، ﴿خَبِيرًا﴾ وبظواهرهم ﴿بَصِيرًا﴾ فيعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافيةٌ، فهو الخبير بأحوالهم، البصير بكيفية تدبيرهم، في أرزاقهم.

والمعنى: أنَّ[2] رَبَّك ذو خبرة بعباده فَيَعْلَمُ من الذي تصلحه السّعةُ في الرزق، ومن الذي تفسده، ومن الذي يصلحه الإقتار والضّيقُ، ومن الذي يفسده، وهو البصير بتدبيرهم وسِيَاسَتِهِمْ فعليك أن تَعْمل بما أمرك به، أو نَهاكَ عنه من بسط يدك فيما تُبْسَطُ فيه، وفيمن تبسطها له، وفي كفها عمَنْ تكفها عنه، فهو أعلم بمصالح العباد منك، ومن جميع الخَلْقِ، وأَبْصَرِهم بتدبير شؤونهم.

وقصارى ذلك: أنكم إذا علمتم أنَّ شأنه تعالى الْبَسْطُ والْقَبْض، وأمعنتم النظرَ في ذلك وجدتم أنَّ من سُنَنَهُ تعالى الاقتصاد، فاقتصدوا واستنوا بسننه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وبعد أنْ بَيَّن أنه تعالى الكَفِيلُ بالأرزاق، وهو الذي يبسط ويقدر، نَهاهُم عن قتل الأولاد خشيةَ الفقر، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ﴾ يا معاشِرَ العرب ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾، ولا تئدوا بناتكم بدفنها حيَّةً ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾؛ أي: لأجل خوف فقر وفاقة في المستقبل إن تركتموهم حية؛ أي: لا تقتلوهم مَخَافَةَ فقر، ولا لغير مخافة فـ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾ لا أنتم، أي: نرزقُهم[1] من غير أن يَنْقُص من رزقكم شيءٌ فيَطْرَأَ عليكم ما تخشونه من الفقر، فَلاَ تَخَافُوا الفَقْرَ لعلمكم بعَجْزِهم عن تحصيل رزقهم، وقد كان العربُ في جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهم عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات، والسَّلْب والنَّهب، ولأنَّ فَقْرَهم ينفر الأكفاءَ عن الرغبة فيهنَّ فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء، وفي ذلك عار أيُّما عارٍ عليهم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ خطاب للموسرين بدليل قوله: خَشْيَة إملاق، ولذلك قَدَّم الأولاد، وما تقدَّم في الأنعام خطابٌ للمعسرين، ولذلك قدم ذكر الآباء وأخَّر ذكر الأولاد ذكره الصاوي.

والحاصل: أن الحِكْمَةَ في تقديم رِزْق الأبناء على رزق الآباء في قوله هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾، وفي سورة الأنعام قدم رِزقَ الآباءِ على رزق الأبناء حيث قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾. أنَّ قتل الأولاد هنا كانَ خشية وقوع الفقر بسببهم، فقدَّم تعالى رزقَ الأولاد، وفي الأنعام كَانَ قتلُهم بسبب فقر الآباء فِعْلاً، فقدَّم رزق الآباء، فللّه در التنزيل ما أدق أسْرارَه، فقتل[2] الأولاد إن كَان لخوف الفقر فهو سوء ظنّ بالله تعالى، وإن كان لأجل الغَيْرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم، فالأول: ضد التعظيم لأمر الله تعالى، والثاني: ضد الشفقة على خلق الله، وكلاهما مذمومٌ غايةَ الذم، قال بعضهم: والذي حملهم على قتل الأولاد البُخلُ وطولُ الأمل.

والخلاصة: أن الأرزاقَ بيد الله، فكما يفتح خزائنَه للبنينَ، يفتحها للبنات، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن، ومن ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾؛ أي: إنَّ قَتْلَ

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الأولاد لخوف فقر، ولا لغيره ﴿كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾؛ أي: ذَنْباً عظيماً، وإثْماً فظيعاً لما فيه من انقطاع التناسل، وزوال هذا النوع من الوجود.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتلَ ولدكَ خشيةَ أن يطعمَ معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزانِيَ بِحَلِيلةِ جارك».

وقرأ الأعمش وابن وثَّاب[1]: ﴿ولا تُقَتِّلوا﴾ بالتضعيف، وقُرىء ﴿خِشْيَةَ﴾ بكسر الخاءِ، وقَرأَ الجمهورُ ﴿خِطْئًا﴾ بكسر الخاء، وسكون الطاء، وقرأ ابن كثير بكسرها، وفتح الطاء، والمدّ، وهي قراءة طلحة، وشبل، والأعمش، ويحيى، وخالد بن إلياس، وقتادة، والحسن، والأعرج، بخلافٍ عنهما. وقال النحاس: لا أعرف لهذه القراءة وجهاً، ولذلك جعلها أبو حاتم غَلطاً، وقرأ ابن ذَكْوان ﴿خَطَأً﴾ على وزن نَبأ، وقرأ الحسن ﴿خَطَاءً﴾ بفتحهما، والمد جعله اسمَ مصدر من أخطأ كالعطاء من أعطى قاله ابن جني، وقال أبو حاتم: هي غَلَطٌ غَيْرُ جائز، ولا يُعْرَفُ هذا في اللغة، وقرأ أبو رجاء، والزهري، كذلك إلا أنَّهُمَا كسرا الخاء فصار مثل ربا، وكلاهما من خطىء في الدين، وأخطأ في الرَّأي، وجاء عن ابن عامر خَطْأً بالفتح، والقصر مع إسكان الطاء، وهو مصدرٌ ثالث من خطىء بالكسر.

ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل، وفي الزنا داعٍ من دواعي الإسرافِ أتبعَه بِه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ أيها المكلفون بمباشرةِ مقدماته من اللمسِ، والقبلة والنظرة، والمعانقة والغَمْزَةِ.

وفي النهي[2] عن قربانه بمباشرة مقدماته نَهْيٌ عنه بالأولى؛ فإن الوَسِيلةَ إلى الشيء إذا كانت حراماً.. كان المُتَوسَّلُ إليه حراماً، بفحوى الخطاب، والزنا: الأكثر فيه القصرُ، ويمد لغة لاَ ضرورةً هكذا نقل اللغويون.

وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، والحسن بالمَدّ قال أبو عبيدة: وقَدْ يُمَدُّ الزنا

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

في كلام أهل نجد.

قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أَخَضَبْتَ فِعْلَكَ لِلزِّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ   يَوْمَ ٱللِّقَاءِ لِتَخْضِبَ ٱلأَبْطَالاَ

ثم علل النهيَ عن الزنا بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن الزنا ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: فعلة قبيحةً ظاهرةَ القبح، لاشتماله على فَسَاد الأنساب، وعلى التقاتل، فإن الإنسانَ لاَ يَعْرِف أن الولدَ الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره؟ فلا يقوم بتربيته، وذلك يوجب ضياعَ الأولاد، وانقطاع النسل، وخراب العالم، ﴿وَسَآءَ﴾ الزنا، وقَبُحَ من جهة كونه ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي طريقاً إلى النار، والمخصوص بالذم طريقه. ولا خلاف في كونه من الكبائر، وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم.

والحاصل: أن الزنا اشتملَ على مفاسدَ كثيرةٍ[1]، أهمها:

١ - اختلاط الأنساب، واشْتِباهها وإذا شك المرء في الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أم من غيره؟ لا يقوم بتربيته، ولا يستمر في تعهده، وذلك مما يوجب إضاعَة النسل، وخراب العالم كما مر آنفاً.

٢ - فَتْحُ باب الهرج والمرج، والاضطراب بين الناس دفاعاً عن العِرض، فكم سمعنا بحوادث قَتْلٍ كان مبعثها الإقدام على الزّنَا حتى إنه ليقالُ عند السماع بحادثِ قتل: فَتِّشْ عن المرأة.

٣ - أن المرأةَ إذا عُرِفَتْ بالزنا، وشُهرت به اسْتَقْذَرَها كل ذي طبع سليم، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها، ولا يتم السَّكَنُ والازدواج الذي جعله الله مَوَدَّةً، ورحمة بين الناس بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

٤ - أنه ليس المقصد من المرأة مجرد قَضَاءُ الشهوة، بل أن تصير شريكةً

---

(١) المراغي.

للرجل في ترتيب المنزل، وإعداد مَهامه من مطعوم، ومشروب، وملبوس، وأن تكونَ حافظة له قائمة بشؤون الأولاد، والخَدَمِ، وهذه المهامُّ لا تتم على وجه الكمالِ إلاّ إذَا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دونَ غيره من الناس.

وإجمال ذلك: أن الزّنا فاحشة، وأيُّ فاحشة لما فيه من اختلاط الأنساب، والتقاتل، والتناحر، دفاعاً عن العِرض، وأنه سبيل سيّىء من قبل أنه يسوّي بين الإنسان والحيوان في عدم اختصاص الذُّكران بالإناث.

وبعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم، نهى عن القتل مطلقاً، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟﴾ أيها العباد ﴿ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى قتلها بالإسلام والعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا قَتْلاً متلبساً بالحق، وهو أحد أمور ثلاثة: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمداً، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان، وغيرهما، عن ابن مسعود «لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رَسُولُ الله، إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثَّيِّبُ الزاني، والتارك لدينه، المفارق لِلْجَمَاعَةِ».

فالمراد بالتي حرَّم الله التي جعلها معصومة بعصمة الدين، أو عصمة العهد، والمراد بالحق الذي استثناه، هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل من إحدى الأمور الثلاثة المذكورة في الحديث السابق؛ أي: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق، أو إلا متلبسين بالحق.

ولتحريم[1] القتل حكم[2]:

١ ـ أنه إفساد، فَوَجب تحريمه لقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ أنه ضرر، والأصل في المضارة الحرمة لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقوله ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ».

٣ ـ أنه إذا أبيح القتل زَالَ هذا النوع من الوجود، ففتك القوي بالضعيف،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وحَدَثَ الاضطراب في المجتمع، فلا يستقيم لِلنّاس حَال، ولا يَنْتَظِمُ لهم معاش.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾؛ أي بغير سبب من الأسباب المسوِّغة لقتله شرعاً ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾؛ أي: لمن يلي أمره من ورثته إن كانُوا موجودين، أو ممن له سلطان إن لَمْ يكونوا موجودين ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: تسلُّطاً واستيلاءً على القاتل، إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وإن شاءَ أخذ الدّية.

ثم لما بيَّن إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول، أو ما هو عِوَضٌ عن القصاص، نهاه عن مجاوزة الحد فقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾؛ أي: لا يتجاوز ما أباحه الله له، فيَقتل بالواحد اثنين، أو جماعة كما كانوا يفعلون في الجاهلية؛ إذ كانوا يقتلون القاتل، ويقتلون معه غيره، إذا كان رَجلاً شَرِيفاً، وأحياناً لا يرضون بقتل القاتل، بل يقتلون بَدَلَهُ رَجُلاً شريفاً، أو يُمَثِّلُ بالقاتل أو يعذبه.

وفي الآية: إيماء إلى أن الأولى للولي أن لا يقدم على استيفاء القَتْل، وأن يكتفي بالدية أو يعفو.

ثم علل النهي عن السرف فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن ولي المقتول ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ من جهة الله سبحانه وتعالى؛ أي: إنَّ الله سبحانه نصر الولي بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحُكَّامَ أن يُعِينُوه على استيفاء حقه، فلا يبغِي ما وراءه، ولا يَطْمَع في الزيادة على ذلك.

وقد يكون المعنى: إنَّ المقتولَ ظُلْماً منصورٌ في الدنيا بإيجاب القود له على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه، وإيجاب النار لقاتله، وهذه الآية أول ما نزل من القرآن في شأن القَتْلِ لأنها مكية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بياء الغيبة، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي، وزيد بن علي، وحذيفة، وابن وثاب، والأعمش، ومجاهد، بخلاف

---

(١) البحر المحيط.

عنه، وجماعة بتاء الخطاب، والظاهر: أنه على خطاب الولي، فالضمير له، وقال الطبري الخطاب للرسول ﷺ: والأئمة من بعده، أي فلا تقتلوا غَيْرَ القاتل انتهى. وقال ابن عَطِيَّةَ، وقرأ أبو مسلم السراج، صاحب الدعوة العباسيَّة ﴿فلا يسرفُ﴾ بضم الفاء على الخبر، ومعناه النهيَ، وقد يأتي الأمر، والنهي بلفظ الخبر، ثم قال: وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر، وفي قراءة أبيٍّ ﴿فلا تسرفوا في القتل، إنَّ وليَّ المقتول كان منصوراً﴾ والأولى حملها على التفسير لا على القراءة لمخالفتها سوَادَ المصحف، ولأن المستفيضَ عنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ كقراءة الجماعة.

الإعراب

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ (الواو) استئنافية ﴿إِذَآ﴾ ظرفٌ لما يستقبل من الزمان، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَرَدْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها على كونها فِعْلَ شرط لها ﴿أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ﴿أَرَدْنَآ﴾ تقديره: وإذا أردنا إهلاكَ قرية من القرى ﴿أَمَرْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ مفعول به منصوب بالياء، والجملة الفعلية جَوَابُ (إذا) لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة (إذا) مستأنفة مسوقة لبيان الأسباب التي تهلك بها القرى ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ (الفاء) عاطفة ﴿فسقوا﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَمَرْنَا﴾. ﴿فَحَقَّ﴾ (الفاء) عاطفة حق فعل ماض ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فسقوا﴾ لا على جملة ﴿أَمَرْنَا﴾ لأن العاطفَ هنا مرتبُ ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿دمرناها﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿تَدْمِيرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، مؤكد لعامله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَكَمْ﴾ (الواو) استئنافية ﴿كم﴾ خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب على المفعولية بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنَ﴾ حرف جر وبيان لكنها زائدة في تمييز ﴿كم﴾ الخبرية ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ مجرور بـ﴿مِنَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ جار ومجرور حال ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أو متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ وجاز تعلُّق حرفَيْ جَرّ متَّحدي اللفظِ بعامل واحد، لاختلاف معناهما؛ لأن الأولى، للبيان، والثانية: لابتداء الغاية، كما ذكره الكرخي، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، و(الباء) زائدة في فاعل ﴿كفى﴾، والجملة مستأنفة ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ جار ومجرور، مضاف إليه متعلق بما بعده على سبيل التنازع ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تمييزان لنسبة ﴿كفى﴾ كما في «الفتوحات».

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط أو هما ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ(مَّن) على كونه فعلَ شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ ﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾؛ والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿عَجَّلْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿مَّن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَّن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿عَجَّلْنَا﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق به أيضاً، أو حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿عَجَّلْنَا﴾. ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: ما نشاء تعجيله، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط، الضمير المحذوف ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿له﴾ بدل بعض من كل ﴿نُّرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعوله محذوف تقديره: لمن نريد التعجيل له، والجملة الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف لتراخي المدة ﴿جَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿عَجَّلْنَا﴾ ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني

لـ ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿جَهَنَّمَ﴾ مفعوله الأول ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على مريد العاجلة، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير له ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ حالان من فاعل يصلى.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ (الواو) عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط ﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونهِ فِعْلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿وَسَعَىٰ﴾ فعل ماض في محل الجزم معطوف على ﴿أَرَادَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿لَهَا﴾ متعلق به ﴿سَعْيَهَا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿سعى﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ (الفاء) رابطة لجواب من الشرطية ﴿أولئك﴾ اسم إشارة للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ فعل ناقص، واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونِهَا جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كُلًّا﴾ مفعول مقدم لـ﴿نُّمِدُّ﴾ والتنوين عوض عن المضاف إليه، أي كل واحد من الفريقين ﴿نُّمِدُّ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾ بدل تفصيل من مجمل ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ معطوف على ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأول ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نُّمِدُّ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة مستأنفة ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال؛ أي: انظر

فضلنا بعضهم على بعض كائناً عَلَى أيّ حالةٍ، أو كَيْفِيّةٍ، أو على التشبيه بالظرف منصوب، بـ ﴿فَضَّلْنَا﴾وهي معلقة لـ﴿ٱنظُرْ﴾ بمعنى تفكر، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿فَضَّلْنَا﴾، وجملة ﴿فَضَّلْنَا﴾ في محل النصب مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها بـ﴿كَيْفَ﴾ ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ (الواو) استئنافية، و(اللام) حرف ابتداء، أو قسم ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية مستأنفة، أو جواب لقسم محذوف، ﴿وَأَكْبَرُ﴾ معطوف على ﴿أَكْبَرُ﴾. ﴿تَفْضِيلًا﴾ منصوب على التمييز.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على محمد أو على كل مخاطب، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف مفعول ثان، لـ﴿تَجْعَلْ﴾ ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول أول لـ﴿تَجْعَلْ﴾ ﴿ءَاخَرَ﴾ صفة له، والتقدير: لا تجعل إلهاً آخر كائناً مع الله ﴿فَتَقْعُدَ﴾ (الفاء) عاطفة سببية ﴿تقعد﴾ فعل مضارع من أخوات صار، منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على المخاطب، ﴿مَذْمُومًا﴾ خبر أول لها ﴿مَّخْذُولًا﴾ خبر ثان لها، والجملة الفعلية صلة، أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن جَعْلُكَ مع الله إلٰهاً آخر، فقعودك مَذْمُوماً مخذولاً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ (الواو) استئنافية ﴿قضى ربك﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان مَنْزِلَةِ الوالدين، ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ إما مصدرية، وعليها فـ﴿لا﴾ نافية ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وعلامة نصبه حذف النون ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿إِيَّاهُ﴾ في محل النصب مفعول ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، ﴿وَقَضَىٰ﴾ بمعنى أمر كما مر؛ والتقدير: وقضى ربك بعدم عبادة غيره سبحانه، وإما مفسرة؛ لأن ﴿وَقَضَىٰ﴾ فيه معنى

القول، دون حروفه، أو مخفَّفةً من الثقيلة، فـ﴿لا﴾ على هذين الوجهين ناهيةٌ جازمة، ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾ مجزوم بها، وعلامة جَزْمِه حذْفَ النون، والجملة الفعلية إما مفسرة لا مَحلَّ لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل محذوف جوازاً تقديره: وأحسنوا بالوالدين ﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بذلك الفعل المحذوف، وإنما علَّقنا الجار والمجرور بالفعل المحذوف دُونَ المصدر لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾.

﴿إِمَّا﴾ ﴿إن﴾ حرف شَرْط زيدَتْ عليها ﴿ما﴾ تأكيداً لها ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْل شرط لها مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ﴿عِندَكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الفاعل ﴿ٱلۡكِبَرَ﴾ مفعول به ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعل ﴿أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ معطوف على أحدهما مرفوع بالألف، لأنه ملحق بالمثنى، والتقدير: إن يبلغ أحدهما، أو كلاهما الكبرَ حَالةَ كونه أو كَوْنَهما كَائِنِينَ عندك؛ أي: في منزلك، أو كفالتك، ﴿فَلَا تَقُل﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿لا تقل﴾ جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على الولد ﴿لَّهُمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُل﴾ ﴿أُفّٖ﴾ مقول محكي لـ﴿تَقُل﴾ وإن شئت قلت: ﴿أُفّٖ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى أتضجَّر، وفاعله ضمير يعود على المتكلم، وجملة اسم الفعل في محل النصب مقول ﴿تَقُل﴾، وجملة ﴿لا تقل﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ جازم، وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الولد، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿لا تقل﴾ على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿وَقُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على الولد ﴿لَّهُمَا﴾ متعلق به ﴿قَوۡلٗا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ﴿كَرِيمٗا﴾ صفة لـ﴿قَوۡلٗا﴾ والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿لا تقل﴾.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

﴿وَٱخۡفِضۡ﴾ فعل أمر في محل الجزم معطوف على قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ وفاعله ضمير يعود على الولد ﴿لَّهُمَا﴾ متعلق به، ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿احفض﴾ فمن للتعليل؛ أي: من أجل الرحمة أو للابتداء؛ أي: إن هذا الخَفْضَ ناشىء من الرحمة المركوزة في الطبع، ويصح كونه حَالاً من ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾. ﴿وَقُل﴾ معطوف على ﴿وَقُل﴾ الأولى ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف ﴿ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جَواب النداءِ ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه، أو للتعليل ﴿ما﴾ مصدرية صفة. ﴿رَبَّيَانِي﴾ فعل وفاعل ومفعول، و(نون) وقاية، لأن الألفَ ضمير تثنية ﴿صَغِيرٗا﴾ حال من (ياء) المتكلم، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ (الكاف) والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: رب ارحمهما رحمةً مثلَ تربيتهما إيَّايَ حالةَ كوني صغيراً، أو رحمة مثل رحمتهما إيايَ حالةَ كوني صغيراً أو ارحمهما لأجل تربيتهما إياي حَالَة كوني صغيراً.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ والجملة مستأنفة ﴿فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿تَكُونُواْ﴾ فعل ناقص واسمه مجزوم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية ﴿صَٰلِحِينَ﴾ خبر ﴿تَكُونُواْ﴾ وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف تقديره: فلا يضركم ما وقع منكم من الهفوة في حالة الغضب، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ (الفاء) تعليلية ﴿إنه﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾ متعلق بما بعده ﴿غَفُورٗا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة إن في محل الجر بلام التعليل المقدرة، مسوقةٌ لتعليل الجواب المحذوف.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على المكلف ﴿حَقَّهُۥ﴾ مفعول ثان، والجملة مستأنفة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معطوفان على ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على المكلف. ﴿تَبْذِيرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَاتِ﴾. ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانُوٓا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ خبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي السابق ﴿وَكَانَ﴾ (الواو) عاطفة أو حالية ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده ﴿كَفُورًا﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ إما معطوفة على جملة ﴿إن﴾ أو في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا﴾ (الواو) استئنافية ﴿إما﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿ما﴾ زائدة، ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونهِ فِعْلَ شرط لها مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على المكلف ﴿عَنْهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ مفعول لأجله منصوب بفعل الشرط أو جوابه، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ جار ومجرور صفة أولى لـ﴿رَحْمَةٍ﴾. ﴿تَرْجُوهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة في محل الجر صفةٌ ثانيةٌ لـ﴿رَحْمَةٍ﴾ أو حال من ﴿رَحْمَةٍ﴾ لتخصصه بالصفة، ﴿فَقُل﴾ (الفاء) رابطة لجواب الشرط، وجوباً ﴿قل﴾ فعل أمر في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿لَّهُمْ﴾ متعلق به ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ﴿مَّيْسُورًا﴾ صفة لـ﴿قَوْلًا﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ فعل، ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مَغْلُولَةً﴾ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ (الفاء) عاطفة سببية ﴿تقعد﴾ فعل مضارع من أخوات صار الناقصة منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية، واسمها ضمير يعود على المخاطب ﴿مَلُومًا﴾ خبر أول لها ﴿مَّحْسُورًا﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿تقعد﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيّد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن بسط يدك فقعودك ملوماً محسوراً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء البسط له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب، واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده، على سبيل التنازع ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ خبران لـ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبْلَهَا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ مفعول لأجله، ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿نَّحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿نَرْزُقُهُمْ﴾ خبره ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ معطوف على ﴿الهاء﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على القتل ﴿خِطْـًٔا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿كَبِيرًا﴾ صفة

﴿خِطْـًٔا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي السابق.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الزنا ﴿فَٰحِشَةً﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَسَآءَ﴾ فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر وجوباً يعود على الزنا ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز لفاعل ﴿وَسَآءَ﴾، وجملة ﴿وَسَآءَ﴾ في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، هو مخصوص بالذم تقديره هو يعود على الزنا، والجملة الاسمية جملة إنشائية لاَ محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفةٌ على الجملة التي قبلها، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها فعل وفاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تقتلوا﴾ أو بمحذوف حال من فاعل ﴿تَقْتُلُوا۟﴾؛ أي: إلاَّ حَالَةَ كونكم ملتبسينَ بالحق، ﴿وَمَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿قُتِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مَظْلُومًا﴾ حال من نائب الفاعل في ﴿قُتِلَ﴾ ﴿فَقَدْ﴾ (الفاء) رابطة لجواب من الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾ ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ مفعول أول له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿فَلَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿لا﴾ ناهية ﴿يُسْرِف﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿وليه﴾. ﴿فِّى﴾

﴿ٱلْقَتْلِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الولي ﴿مَنصُورًا﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ والمترفون: هم المنعَّمُونَ من المُلُوك والعظماء، وفي «القاموس» التُّرْفُه بالضم: النعمةُ، والطعام الطيِّب: والشيء الظريف، تخص به صاحبك، وتَرِفَ كفَرِحَ تَنَعَّم وأترفته النّعمةُ أطغته، أو نعَّمته كترفَّته تتريفاً، والمترف كمُكْرَم المتروك، يَصْنَعُ ما يشاء، ولا يُمنع، والمتنعِّمُ لا يُمْنَع من تَنَعُّمِهِ، وتترَّف تنعَّم، وفي «أساس البلاغة» أتْرفَتْه النّعمةُ أبطرتهُ، وأتْرَف فلان، وهو مترف وأعُوذ بالله من الإتراف، والإسراف، واسترفوا تَغْفَرَتوا، وطغوا، ولم أزل معهم في ترفة، أي: في نِعْمَة ﴿فَفَسَقُوا﴾؛ أي: خرجوا عن الطاعة، وتمرَّدوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب لها العذابُ ﴿تَدْمِيرًا﴾، والتدمير: الإهلاك مع طَمْسِ الأثر.

﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جَمْعُ قرن، والقرن: القوم يَجْمَعُهم زمانٌ واحدٌ، وقد حُدِّد بأربعين سنة وثمانين سنة، وبمئة، وبغير ذلك ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الدار الدنيا. ﴿يَصْلَىٰهَا﴾؛ أي: يقاسي حرَّها ﴿مَّدْحُورًا﴾؛ أي: مطروداً مُبعداً من رحمة الله، وفي «القاموس» الدحر: الطَّرْدُ والإبعاد، والدفع كالدحور، وهو داحِرٌ ودَحُور، وفي «المختار» دَحَرَهُ يَدْحُرُه من باب: خَضَعَ طَرَدَه اهـ. ﴿مَحْظُورًا﴾؛ أي: ممنوعاً عَمَّنْ يُرِيدُه ﴿فَتَقْعُدَ﴾ قَعَد يجوز أن تَكُونَ على بابها، فينتصب ما بَعْدَهَا على الحال، ويجوز أن تَكُونَ بمعنى صَارَ فَيَنْتَصِبُ ما بعدها على الخبرية، وإليه ذَهَبَ الفراء، والزمخشري اهـ «سمين» ﴿مَذْمُومًا﴾؛ أي: ممن يستحق الذَّمَّ مِنَ الملائكة والمؤمنين ﴿مَّخْذُولًا﴾؛ أي: من الله، لأنك أشركت معه ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

﴿وَقَضَىٰ﴾ قيل: بمعنى أوصى، وقيل بمعنى حَكَم، وقيل: بمعنى أَوْجَبَ، وقيل: بمعنى أَلْزَمَ .اهـ «سمين» ﴿أُفٍّ﴾ يُقْرَأُ بالتنوين للدلالة على التنكير؛ أي: لا تقل لهما أتضجَّر وأقلَقُ من كل فعل لَكُما، وبعدمه للدلالة على التعريف؛ أي:

لاَ تقل لهما أتضجر من فعل خاص من أفعالكما اهـ. شيخنا.

فصل في أُفّ

والأصح: أن أُفّ اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، وفيه: أربعون لغة، وحاصلها: أن الهمزة إمَّا أن تَكُونَ مضمومةً، أو مكسورةً، أو مفتوحةً، فإن كانت مضمومة.. فاثنتان وعشرون لغةً.

وحاصل ضبطها: أنها إمَّا مُجَرَّدَة عن اللواحق، أو ملحقة بزائد، والمجردة إما أن يكونَ آخرها ساكناً، أو متحركاً، والمتحركة إمَّا أَن تكون مشددةً، أو مخففةً، وكلٌّ منهما مثلَّث الآخر مع التنوين، وعدمه، فهذه اثنتا عشرة لغة، والساكنة إما مشدَّدَةً أو مُخَفَّفَةً فهذه سبع عشرة، وإن كَانَ حَرْفُ مَدّ فهو إمَّا واو، أو ياء، أو ألف، والفاء فيهن: مشددةً، والألف إما مفخَّمة أَو بالإمالة المحضة، أو بين بين، فهذه خمس أخرى مع السبع عشرة، وإن كانت مكسورةً فإحدى عشرةَ مثلثة الفاء، مخففة مع التنوين، وعدمه، فهذه ست لغات، وفتح الفاء وكسرها بالتشديد فيها مع التنوين وعدمه، فهذه أربع لغات: والحادية عَشَرَةَ: أفّي بالإمالة، وإن كانت مفتوحة، فالفاء مشددة مع الفتح، والكسر، والتنوينْ وعَدَمه، والخامسة أُفْ بالسكون، والسادسة أفّي بالإمالة، والسابعة: أفاهْ بهاءِ السكت، فهذه السبع مكملة للأربعين، وقد قُرِىءَ من هذه اللغات بسبع، ثلاث في المتواتر، وأربع في الشواذ، وقراءَة حفص، وهي قراءتنا ﴿أُفٍّ﴾ بالكسر، والتنوين مع التشديد ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، وفي «السمين» والنهر: الزجر بجرحٍ، وغلظة، وأصله الظهور، ومنه النهر لظهوره، وقال الزمخشري: النهي، والنَّهْرُ، والنَّهْمُ أخوات اهـ.

﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: جَميلاً لا شَرَاسةَ فيه، قال الراغبُ: كل شيءٍ يشرف في جنسه، يقال: إنَّه كريمٌ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا﴾ وخفض الجَنَاحِ يراد به: التواضعُ، والتذلل ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: من فرط رحمتك عَلَيْهِمَا ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾ جمع أَوَّاب، والأواب الذي ديدنه الرجوع إلى الله، والالتجاء إليه حين الشِدَّةِ ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والتبذير: إنفاق المال في غير موضعه ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: أمثالهم في الشَّرَارَة، فإن التَّضْييعَ، والإِتلافَ شر، أو أصدقاؤهم، وأتباعُهم لأنهم

يُطِيعُونَهم في الإسراف، والصرف في المعاصي، والعرب تقول لكل مَنْ هو ملازم سُنَّة قوم: هو أخوهم ﴿لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾؛ أي: جحوداً لنعمة ربه، فما ينبغي أَنْ يُطَاعَ؛ لأنه يدعو إلى مِثْلِ عَمَلِهِ اهـ من «الخازن» والبيضاوي وعبارةُ الكرخي والمرادُ من هذه الأخوة: التَّشبُّهُ بهم في هذا الفعل القبيح؛ لأنَّ العربَ يسمُّون اللازمَ للشيء أخاً لَهُ فيقولُون: فلان أخو الكرم، والْجُودُ وأَخُو الشعر إذا كان مواظباً على هذه الأفعال اهـ. و﴿الابتغاء﴾ الطلبُ و﴿الرحمةُ﴾ الرزق و﴿الميسورُ﴾ السَّهْل اللَّيِّنُ ﴿والمغلولة﴾ المقيدة بالغل، وهو بضم الغين طوق مِن حديد، يوضع في اليدين، والعُنُقُ فمعنى مَغْلُولَةً إلى عنقك، أي: مضمومةً إليه مجموعة معه في الغل، والمرادُ به هنا: الإمساك عن الإنفاق في الخيرات ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾؛ أي: لا تتوسع في الإنفاق ﴿مَلُومًا﴾؛ أي: مذموماً مِنَ الخلق والخالق ﴿مَحْسُورًا﴾؛ أي نَادِماً، أو مُنْقَطِعاً بك لا شيءَ عندك من حسرة السفر، إذا أثر فيه فهو محسور؛ أي: منقطع عن السير إعياءً، وكلالاً، والإملاق الفقر.

قال الشاعر:

وَإِنِّيْ عَلَىٰ ٱلإِمْلَاقِ يَا قَوْمِ مَاجِدٌ ... أُعِدُّ لأَضْيَافِيْ ٱلشُّوَاءَ ٱلْمُضَهَّبَا

﴿خِطْئًا﴾ والخطأ كالإثم، وزناً، ومعنًى فقال فيه: خِطْئاً بكسر الخاء، وسكون الطاءِ على وزن مثل، وخطأ بفتحتين على وزن شَبَه، وخطاء بكسر الخاء، وفتح الطاء، وبالمد على وزن قتال ففيه ثلاث قرآت كلها سبعية اهـ شيخنا فعلى الأولى: فَهُوَ مصدر لخطىءَ من باب علم، وعلى الثانية: اسم مصدر لأخطأ رُبَاعِياً، وعلى الثالثة: هو مصدر لخاطأ، وهو وإن لم يسمع، لكنه سمعَ تخاطأ اهـ من «البيضاوي». ومجيء تخاطأ يدل على وجود (خاطأ)؛ لأن تفاعل مُطَاوِعُ فَاعَلَ كَبَاعَدْتُهُ فَتَبَاعَدَ، ونَاوَلْتُهُ فَتَنَاوَلَ اهـ زاده ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ في «المصباح». قَرِبْتُ الأمر أقربَهُ من باب تَعَبَ، وفي لغة من باب قتل قربانا بالكسر دانيته، ومن الأول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ويقال منه أيضاً: قربت المرأة قربانا كناية عن الجماع، ومن الثاني: لا تقرب الحمى؛ أي: لا تدن منه اهـ.

والعامة على قصر الزنا، وهي اللغة الفاشية، وقرىء بالمد، وفيه وجهان:

أحدهما: أنَّه لغة في المقصور.

والثاني: أنه مصدر زَانَأ يزانىء كقاتل قتالاً؛ لأنه يكون من اثنين اهـ. «سمين» (والفاحشة) الفعلة القبيحة الظاهرة القُبْحِ ﴿سُلْطَنًا﴾ السلطانُ التسلط والاستيلاء ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾؛ أي: فلا يتجاوز الحد المشروع فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا باطل فبقي أن يكونَ مجازاً عن التوسعة في العيش، واسترسالهم في المعاصي، وفيه أيضاً المجاز بالحذف، لأنه لم يَذْكُرْ المأمورَ به إيجازاً في القول واعتماداً على بداهته للسامع؛ أي: أمَرْنَاهم بالطاعة.

ومنها: التزام ما لا يلزم في قوله: ﴿مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾، وهو التزام حرف أو حرفَيْنِ فصاعداً قبل الروي على قدر طاقة الشاعر، أو الكاتِب من غير كُلْفَةٍ فقد التزَم في قوله: ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ و﴿فِيهَا﴾ (الفاء) قبل ياء الردْفِ، ولَزِمَتْ الياء، وسيأتي الكثير منه في القرآن، وهو من أرشق الاستعمالات.

ومنها: الجِناسُ المغاير في قوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وفي قوله: ﴿ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾.

ومنها: الطباق بَيْنَ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ و﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾.

ومنها: اللفُّ والنَّشْرُ المُرتَّب في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ فهؤلاء الأولَى للفريق الأول، أي: مريد الدنيا، وهؤلاء الثانية للفريق الثاني، أي: مريد الآخرة.

ومنها: الإجمال ثُمَّ التفصيل في قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾

لأنها جَرَتْ في الفعل بعد جَرَيَانها في المصدر، حيث شبهت إلأنَة الجانبِ بخفض الجناح، بجامع العطف. والرقة في كلٍّ، واستُعير الخفض للإلانة، واشتق منه اخْفِضْ بمعنى ألِن أو الاستعارة الأصلية في الجناح، حيث شبه الجانب بالجناح، واستعير للجانب.

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ لأن المصدَر، وهو ﴿ٱلذُّلِّ﴾ بمعنى الذليل، وفي السمين، قوله: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه استعارة بليغة، وذلك أنَّ الطائر إذا أراد الطيران نَشَرَ جناحيه، فَجَعل خفض الجناح كِنَاية عن التواضع، واللين اهـ ويَصِحُّ كونها استعارةً مكنية، بأن شُبّهَ الذلَّ بطائر، له جناحٌ، وحذف الطَّائِرُ ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الجناح على سبيل الاستعارة، المكنية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ حيث شبه حالَ البَخِيلِ في امتناعه عن الإنفاق بحال من يده مغلولة إلى عنقه، فهو لا يقدرُ على التصرف في شيءٍ، وشبه حال المسرفِ المبذّرِ المِتْلاَفِ بحال مَنْ يبسط يده كل البسط، فلا يبقي شيئاً في كفه، ولا يَدَّخِرُ شَيْئا ينفعه في الحاجة، ليخلص إلى نتيجة مجدية، وهي التوسط بين الأمرين، والاقتصاد الذي هو وَسَطٌ بَيْنَ الإسراف، والتقتير، وقد طابق في الاستعارة بَيْنَ بَسْط اليد، وقبضها من حيث المعنى، لأنَّ جعل اليد مَغْلُولَة هو قبضها، وغلها أبلغ في القبض.

ومنها: اللَّفُّ والنَّشْرُ المرتب في قوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ لأن قوله: ﴿مَلُومًا﴾ راجع إلى البخل، وقوله: ﴿مَّحْسُورًا﴾ راجع إلى الإسراف، أي: يلومك الناسُ إنْ بخلت وتصبح مقطوعاً إن أسرفت.

ومنها: الطباق بين ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿يَقْدِرُ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا

يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فإن معنى هذه الآية جَاءَ موجزاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ لكن الأول إطناب، والثاني إيجاز، وكلاهما موصوف بالمُساواةِ فالإطنابُ في اصطلاح البيانيين: هو زيادة اللفظ على المعنى، لفائدة، فإذا لم تكن في الزيادة فائدة، تسمى تَطْوِيلاً إن كانت الزيادة.. غَيْرَ متعينة، وحشواً إن كانت متعينةً.

ومنها: الزيادة والحذف في عِدَّةِ مَوَاضِعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى
ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا
لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا
﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾
نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى
صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن اللَّه سبحانه وتعالى، لما نهى[1] عَنْ إتلاف النفوس نَهى عن أخذ الأموال كما قال ﷺ: «فإنَّ دِمَاءَكم وأموالَكم، وأعْراضَكم حَرَامٌ

(١) البحر المحيط.

عليكم»، ولَمَّا كَانَ اليتيم ضَعِيفاً عن أن يدفع عن ماله لصغره.. نص على النهي عن قربان مَالِه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ...﴾ الآيتَين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أنه سبحانه وتعالى لما نَهَى عن إتلاف مال اليتيم.. أردفه[1] بالأمر بوفاءِ العهد، وهو العَقْدُ الذي يُعْمَلَ لتوكيد الأمر وتثبيته، ثم بإيفاء الكيل والميزان لما في حسن التعامل بَيْنَ الناس من توافر المودةِ، والمَحَبَّةِ بينهم، وهذا ما يرمي إليه الدّينُ لإصلاح شؤونِ الفرد والمجتمع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللّهَ سبحانه وتعالَى لما أمر[2] بثلاثة أشياء.. أتبع ذلك بثلاثةِ مناهٍ: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ أي: أردفَ ذلك بالنَّهْيِ[3] عن تتبع ما لا علم لك به من قول، أو فعل، فلا تَتَّبِعْ ما يعمله الآباءُ اقتداء بهم من عِبَادَةِ الأصنام تقليداً لَهُم، ولا تَشْهَدْ على شيءٍ لم تَرهُ، ولا تكذب فتقول في شيء لم تَسْمَعْه إنك قد سمعته، ولا في شيء لم تَرَهُ إنَّكَ قد رَأَيْته، ثُمَّ بالنهي عن مشية الخُيَلاَءِ، والمَرَحِ لِما فيهما من الصلف الذي لا يرضاه الله تعالى، ولا الناس، ثَمَّ خَتَمَ ذلك ببيان أنَّ تلك الأوامِرَ، والنواهي من وَحْيِ الله وتبليغه، لاَ مِنْ عِنْدِ نَفْسه، أمر بِهَا، ونَهَى عنها لأنها أسس سعَادة الدارين، وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة، لا تكون عُرضة للاضطراب، وفقدان الثقة في معاملاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما نبه[4] على جهل من أثبَتُوا له شريكاً، واتخذوا له نداً ونظيراً.. أردف ذلك بالتنديد، والتقريع لمن أثبتوا له ولداً، وأنه قد بَلَغَ من تحتهم أن جَعَلُوا البنِينَ لأنفسهم مع علمهم بعجزهم، ونقصهم، وأعطوا لله البنات، مع علمهم بِأَنَّهُ الموصوف بالكمال،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

الذي لا نهايةَ له، والجلال الذي لاَ غَايةَ له، ثمَّ أتبعه ببيان أنه قد ضرب في القرآن الأمثالَ، ليتدبروا ويتأمَّلُوا فيها، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفوراً عن الحق، وقِلَّة طمأنينة إليه، ثُمَّ أَرْدَفَهُ بِبَيَانٍ أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زُلْفَى.. لطلبت لأنفسها قربةً إلى الله، وسبيلاً إليه، ولكنَّها لم تفعل ذلك، وكَيْفَ تُقَرِّبُكُم إليه، وكل ما في السموات والأرض يسبح بحمده، بدلالة أحوالِه على توحيده، وتقديسه، وكمال قدرتِهِ، ولكنكم لجهلكم وغفلتِكم لا تدركون دلالةَ تلك الدلائل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه سبحانه وتعالى لَما أنهى الكلام في مقام الألوهية، وجدالهم بالَّتي هي أحسن، بضرب الأمثال لهم، وإقامة الحجة عليهم، وإيضاح السبيل لهم.. أَرْدَفَ هنا بالكلام في مقام النبوة، والنعي عليهم في عدم فهمهم للقرآن، والنفور منه، والهزء به، وضربهم الأمثال للنبي ﷺ، وقَوْلِهم فيه تَارَةً إِنه ساحِرٌ، وأخرى إنه مَجْنُون وحِيناً إنه شاعر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ الآية، أخرج[2] ابن المنذر عن ابن شهاب، قال: كَانَ رسول الله ﷺ إذَا تَلاَ القرآن على مشركي قريشٍ، ودعاهم إلى الكتاب قالوا يهزؤون به: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ الآيات.

وروى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ أَبَا سُفْيَانَ، والنَّضْرَ بْنَ الحارث، وأبا جهل وغيرَهم، كانوا يجالسون النبيَّ ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحركان بشيء، وقال أبو سفيانُ: إني لأرى بعضَ ما يقول حقاً، وقال أبو جهل: هو مجنون، وقال أبو لهب: هو كاهن، وقال حويطب بن عبد العزىٰ: هو شاعر فَنَزلَتْ هذه الآية.

---

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً عن أن تتصرَّفوا فيه، والخطاب فيه لأولياءِ اليتيم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: إلا بالخَصلة، والطريقة التي هي أحسن الخصال، والطرائق، وهي حفظه واستثماره، وإِرْبَاحُه ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لجواز التصرف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء ﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: قُوَّتَه؛ أي: خمسَ عشرة سنةً، أو ثمانيَ عشرة سنةً، وهو مفرد جاءَ على وزن الجمع كآنك، ولا نَظِير لهُمَا كما في «القاموس» والمراد[1] ببلوغ الأشد كمال عقله، ورشده، بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله، وإلا لم ينفك عنه الحجر، والمعنى؛ أي: لا تقربوا مَالَ اليتيم، ولا تتصرفوا فيه إلا بالطريق التي هي أحسن الطرق، وهي طريقة حِفْظِه وتثميره، بما يزيد به حتى يَبْلَغَ اليتيم أشده، وتستحكم قوة عقله وشبابه، فإذا بلغ أشده، واستحكم عقله، كان لكم أن تَدْفَعُوه إليه، أو تتصرفوا فيه بإذنه؛ لأنه إذ ذاك يمكنه القيام على مالِه بما فيه المصلحة، ولمَّا نزلت هذه الآية اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا لا يخالطون اليتامَى في طعام، ولا في غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ فيها رُخْصَةٌ، ونظيرُ الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾.

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل، وأكل مال اليتيم.. أتبعها بثلاثة أوامر: فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾، أي[2]: أتموا بالعهد سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم من الناس، أي وأَوْفُوا بما عاهدتم اللَّهَ عليه من التِزام ما كلفكم به، ومَا عَاهَدتم الناسَ عليه من العُقُودِ التي تتعاملون بها في البيوع، والإجارة، ونحوها، قال الزجاج: كل ما أمَرَ الله به ونهى عنه فهو من العهد، ويدخل في ذلك ما بين العبد وربِّهِ، وَمَا بَيْنَ العباد بعضهم مع بعض، والوفاءُ به: القيام بحفظه على الوجه الشرعيِّ، والقانونِ المرضيِّ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

عنه، فيسئل النَّاكِث، ويعاقَبُ عليه يومَ القيامة؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى سائل نَاقِضَ العَهْدِ عن نقضه إيَّاه، فيقال للناكث على سبيل التبكيت والتوبيخ: لِمَ نكثتَ عَهْدَكَ، وهلا وفيت به؟ كما يقالُ لوَائِدِ الموءودة بأيِّ ذنب قتلت؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره، أو مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويَفِيَ به ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾. أي: أتمُّوه، ولا تخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم؛ أي[1]: وقتَ كيلكم للمشترين، وتقييد الأمرِ بذلك، لأن التطفيفَ هناك، وأمَّا وَقْتُ الاكتيال على النَّاس، فلا حاجة إلى الأمر بالتَّعْدِيلِ قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فالخطاب فيه للبائعين، وأخذ من هذا بعضهم أنَّ أجرةَ الكيال على البائع؛ لأنها من تمام التسليم، وكذلك عليه أُجْرَةُ النقَّاد للثمن، وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع اهـ شيخنا.

والمعنى: أي وأتموا الكَيْلَ للناس، ولا تخسروهم، إذا كلتُم لهم حقوقَهم مِن قِبَلِكُم، فإن كِلْتُم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نَقصتم عن حقكم، ولم تفوا الكيلَ ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: وزنوا بالميزان المعتدلِ بحيث لا يَمِيل إلى أحد الجانبين، فيقع الجور، أَوْ الحيفُ لأن جميعَ الناس محتاجون إلى المعاوضات، والبَيع والشراءِ، ومن ثم بالغ الشارع في المنع من التطفيف، والنقصان سَعْياً في إِبْقَاءِ الأموال لأربابها، والقسطاس هو كل[2] ما يوزن به صغيراً كان أو كبيراً، من ميزان الدّرهم إلى ما هو أكبر منه، وقيل هو القبان. وقرأ ابن كثير[3]، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿القسطاس﴾ بضم القاف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بكسر القاف، وقرأت فرقة بالإبدال من السين الأُولى صاداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إيفاؤكم بالعهدِ، وإيفاؤكم من تكيلون له، ووزنكم بالعَدل، لمن توفُون له ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في الدنيا من نكثكم وبخسكم في الكيل والوزن، لأن

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

ذَلِكَ مما يرغّب الناسَ في معاملتكم، وحب الثناء عليكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: وأجمل عاقبة لما يَتَرَتَّب على ذلك من الثواب في الآخرة، والخلاص من العقاب الأليم، وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة، والبعد عن الخيانة، أقبلت عليهم الدنيا، وحَصَلَ لهم الثروة والغنَى وَكَان ذلك سبب سعادتهم في الدنيا، فقوله: ﴿تَأْوِيلًا﴾ تفعيل من آل إذا رجعَ، وهو ما يؤول إليه أمره.

وبعد أن ذكر سبحانه أوامرَ ثلاثةً نهى عن مثلها فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: ولا تتبع أيها المَرْءُ ما لا علم لك به ولا ظَنَّ من قول أو فعل، من قولك: قَفَوْت فُلاَناً إذا اتبعت أثره، ومنه قافيةُ الشّعر؛ لأنها تقفو كل بيت، ومنه القبيلة المشهورةُ بالقَافة؛ لأنهم يَتَّبِعُون آثارَ أقدام الناس؛ أي: لا تكن[1] في اتباع ما لا علم لك به من قول، أو فعل، كمن يتبع مَسْلَكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، وذلك[2] دسْتُورٌ شامل لكثير من شؤون الحياة، ومِن ثَمَّ قال المفسرون فيه أقوالاً كثيرةً:

١ ـ قال ابن عباس: لا تشهد إلاَّ بما رأت عَيْنَاكَ وسَمِعته أذناك، ووعاه قَلْبُكَ.

٢ ـ قال قتادة: لا تَقُلْ سمعتُ ولم تسمع، ولا رأيت ولم تَر، ولا علمت ولم تعلم.

٣ ـ وقيل: المراد النهي عن القول بلا علم، بل بالظن والتوهم كما قال: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وفي الحديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

٤ ـ وقيل: المرادُ نَهْيُ المشركين عن اعتقاداتهم تقليداً لأسلافهم، واتّباعاً للهوى كما قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قال الشوكاني: وأقول[١]: إنَّ هذه الآيةَ قد دلَّتْ على عدم جواز العَمَلِ بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن، كالعمل بالعام، وبخبر الواحد، والعمل بالشهادة، والاجتهاد في القبلة، وفي جزاءِ الصيد، ونَحْوِ ذلك، فلا تَخْرُجْ من عمومها، ومن عموم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ إلا ما قد قام دليلٌ على جواز العمل به فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود دليل في الكتاب والسنة، فَقَد رَخَّصَ فيه النبي ﷺ كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذَ حِينَ بعثه قاضياً إلى اليمن: «بم تقضي؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد»، قال: فبسنة رسول الله قال: «فإن لم تجد»، قال: أجتهد رأيي. وهو حديث صالح للاحتجاج به.

وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة، ولكنه قصَّر صاحبُ الرأي عن البحث، فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أولياً؛ لأنه محض رأي في شرع الله، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه، وبسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة على أنَّ الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنَّما هو رخصة للمجتهد، يجوز له أن يعملَ به، ولم يَدُلَّ دليل على أنه يجوز لغيره العمل به، وينزله منزلة مسائل الشرع.

وقَدْ قيل: إن هذه الآية خَاصَّة بالعقائد، ولا دليل على ذلك أصلاً، ثم علّل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: كل واحد من هذه الأعضاء الثلاثة، فهو إشارة إلى الأعضاء المذكورة، فأجراها مَجْرَى العقلاء لما كانَت مسؤولةً عن أحوالِها شاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن نفسه، وعما فعلَ به صاحبه ﴿مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: إنَّ الله سبحانه سَائِلٌ هذه الأعضاء عما فَعَل بها صاحبها يوم القيامة.

ومعنى سؤال هذه الجوارحِ[٢]: أنَه يسأل صاحبَها عما استعملَها فيه؛ لأنها

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

آلات، والمستعملُ لها هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير.. استحق الثَّوَابَ، وإن استعملها في الشر.. استحقَّ العقاب، وقيل: إنَّ اللّهَ سبحانَه يُنْطِق هذه الأعضاءَ عند سؤالها، فَتُخْبر عَمَّا فعله صاحبها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وفي الخبر: عن شكل بن حميد قال: «أتيت النبي ﷺ فَقُلْتُ: يا نبي الله علِّمني تعويذاً أتعوَّذ به، فأخذ بيدي ثُمَّ قال: قل: «أعوذ بك من شرِ سمعي، وشر بصري وشر قلبي، وشرِّ منّي» يريد الزنا.

قال علي السمرقندي: واعلم[١] أَنَّ المراد بالنهي: النهي عن اتباعِ كُلّ ما فيه جَهْلٌ مما يتعلق بالسمع، والبصر، والقلب، كأنه تعالَى قال: لا تسمع كل ما لا يجوز سَمَاعُهُ، ولا تَبْصُرُ كل ما لا يجوز إبصاره، ولا تعزم على كل ما لا يجوز لك العزم عليه؛ لأن كُلَّ واحد منها يسأله الله تعالى ويُجَازِيه، ولم يذكر اللسان مع أنه من أعظمها؛ لأن السَّمْعَ يدل عليه، لأنه ما يكب الناس على مناخِرهم في نارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حصائد ألسنتهم، وتِلك الحَصَائِدُ مِنْ قِبَلِ المسموعات اللازمة للسمع. انتهى

وقرأ الجمهور[٢] ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ بحذف الواو، للجازم مضارع قَفَا كعدا، وقرأ زيد بن علي: ﴿ولا تقفو﴾ بإثبات الواو، كما قال الشاعر:

هــجــوت زبــان ثُــمَّ جــئْــتَ مــعــتــذراً من هجو زبَّانَ كأَنْ لم تَهْجُو وَلم تَدَعُ

وإثبات الواو، والياء، والألف مع الجازم لغة لبعض العرب، وضرورة لغيرهم، وقرأ معاذ القارىء ﴿وَلاَ تَقُفْ﴾ مثل تقل من قاف، يَقُوف، تقول العرب: قُفْتُ أَثَرَهُ، وقفوت أثره، وهما لغتان لوجود التصاريف فيهما، كجبَذَ وجَذَبَ، وقرأ الجراح العقيلي، ﴿والفواد﴾ بفتح الفاء والواو، وقلبت الهمزةُ واواً بعد الضمة في الفؤاد، ثم استصحب القلب مع الفتح، وهي لغة في الفؤاد،

---

(١) بحر العلوم.
(٢) البحر المحيط.

وأنكرها أبو حاتم وغيره.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد لزيادة التقرير ﴿مَرَحًا﴾؛ أي: ولا تمش ـ أيها الإنسانُ ـ متبختراً متمايلاً كمشي الجبارين فتحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها، بدوسك، وشدة وطئك لها، وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر، ولقد أحسن من قال:

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعَاً ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
وَإِنْ كُنْتَ فِيْ عِزٍّ وَحِرْزٍ وَمَنْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

والمرح[1]: قيل: هو شدة الفرَحِ، وقيل: التكبر في المشي، وقيل: تجاوزُ الإنسان قَدْرَه، وقيل: الخيلاء في المشي، وقيل: البطر، والأشر وقيل: النشاط، والظاهر: أنَّ المراد به هنا الخيلاء والفخر، والمرح: مصدر وقع حالاً، أي ذَا مَرَح، وَفي وضع المصدر مَوْضِع الصفة نوع تأكيد وذكر الأرض مع أن المشي لا يكونَ إلا عليها، أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً، وتقريراً كما ذكرنا آنفاً.

وخلاصة ذلك[2]: تواضَعْ ولا تتكبَّرْ فإنك مخلوقٌ ضعيفٌ محصور بين حِجَارة وتراب، فلا تفعل فعلَ القوي المقتدر، ولا يخفى مَا في الآية من التقريع، والتهكم، والزجر لمن اعتاد ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿مَرَحًا﴾ بفتح الراء على المصدر، وحكى يعقوب عن جماعة كَسْرَها على أنه اسم فاعل، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ أيها المرء ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: إنك لن تشق الأرض، ولن تثقبها بمشيك عليها، وشدة وطئك فيها تكبراً حتى تَبلغَ آخرها، وفيه تهكم بالمختال المتكبر.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاءِ الأرض ﴿طُولًا﴾؛ أي: في

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

الطول حتى يمكنك أن تَتَكَبَّرَ عليها؛ أي: لن يَبْلَغُ طُولُكَ الجِبَالَ حَتَّىٰ يَكُونَ عِظَم جثَّتُك حَامِلاً لك على التكبر، فالتكبر إنما يكون بالقوة، وعظم الجُثَّةِ وكلاهما غيرُ موجود لديك، فما الحامل لك على ما أنت فيه، وأَنت أَحْقَر من كل من الجمادين، وكيف يليقُ بِكَ الكِبَرُ. فَطُولاً منصوب على التمييز؛ أي: لن يَبْلُغَ طُولَكَ الجبال؛ أي: تَطَاوُلُكَ، واستعلاؤك، وقال الزجاج: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: لن تَجْعَلَ فيها خَرْقاً بدوسك لها، وشدة وطئك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾؛ أي: بتَطاولك، وهو تهكم بالمُخْتَال وقرأ الجراح الأعرابي[١] ﴿لَن تَخْرُقَ﴾ بضم الراء قال أبو حاتم: لاَ تعْرف هذه اللغة ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخصال الخمس والعشرين من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى هنا فهو نهي عن اعتقاد أن مع الله إلٰهاً آخر، وهو أولاَها، والثانية والثالثة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فهو أمر بعبادة الله ونهي عن عبادة غيره، والبواقي ظاهرة بعد الأوامر، والنواهي ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾؛ أي: السيىء القبيح منه، وهو المنهيات منها، وهو أربع عشرةَ خصلة، فإنَّ المأمورَ به حَسَنٌ وهو إحدى عَشْرَةَ، ثَلاَثٌ مستترةٌ، وثمان ظاهرةٌ كما في «بحر العلوم» ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿مَكْرُوهًا﴾ أي: مبغوضاً، والمراد به المبغوض المقابل للمرضى لا ما يقابل المراد، ووصف ذلك بمتعلق الكراهة، مع أن البَعْضَ من الكبائر، للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك وتأكده.

والمعنى[٢]: كل ما ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي، وهي الخمس والعشرون السالفة، كان السيىء منه، وهو ما نهيَ عنه منها من الجعل مع الله إلٰهاً آخر، وعبادة غيره، والتأفف، والتبذير، وغل اليد، وقتل الأولاد خشيةَ الإملاق مكروهاً عند ربك؛ أي: مَبْغُوضاً عنده تعالى، وإن كَانَ مراداً له تعالى بالإرادة التكونية، كما قال ﷺ: «ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن» وهذه الإرادة لا تستدعي الرضا منه سبحانه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تتمة: واعلم أنا نعد لك الخِصَال الخمس والعشرين التي وَرَدت الإشارة إليها بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ...﴾ على ترتيبها المذكور في الآيات، وهذا إحصاؤها بذلك الترتيب:

١ - ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. ٢ و٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ...﴾ إلى آخر الآية لاشتماله على تكليفين، وهما عبادة الله، والنهي عن عبادة غيره.

٤ - ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾. ٥ - ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾. ٦ - ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾. ٧ - ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾. ٨ - ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾. ٩ - ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾. ١٠ - ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾. ١١ - ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾. ١٢ - ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. ١٣ - ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾. ١٤ - ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾. ١٥ - ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾. ١٦ - ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾. ١٧ - ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾. ١٨ - ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾. ١٩ - ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾. ٢٠ - ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾. ٢١ - ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾. ٢٢ - ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾. ٢٣ - ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾. ٢٤ - ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾. ٢٥ - ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾.

وقرأ الحرميان[1] - نافع وابن كثير - وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج ﴿سيئة﴾ بالنصب والتأنيث، وقرأ باقي السبع، والحسن، ومسروق ﴿سيئه﴾ بضم الهمزة مضافاً فـ﴿الهاء﴾ ضمير المذكر الغائب، وقرأ عبد الله ﴿سيئاته﴾ بالجمع مضافاً للهاء، وعنه أيضاً ﴿سيئات﴾ بغير هاء، وعنه أيضاً ﴿كان خبيثه﴾.

ثم بيَّن وجوبَ امتثال تلك الأوامر، وترك تلك النواهي، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور في الآيات السابقة، أي: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الحميدة، ونهيناك عنه من الرذائل الذميمة التي جملتها خمس وعشرون خصلةً ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: بعض ما أوحى إليك ربك من فقه الدين، ومعرفة أسراره، حالَةَ كونِه: ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به اهـ. «بيضاوي» فالتوحيد من القسم الأول، وباقي التكاليف من القسم الثاني اهـ «زاده»

(١) البحر المحيط.

أو حالة[1] كونه من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ، والفساد ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ أيها المكلف ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ﴾؛ أي: تُرمى ﴿فِي﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ﴾ حالةَ كَوْنِك ﴿مَلُومًا﴾ عند نَفْسِك وعند الناس وعند الملائكة ﴿مَّدۡحُورًا﴾؛ أي: مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى، ومن كل خير، كرر هذه[2] الآية مع ما سلف للتنبيه على أن التوحيدَ رأسُ الدين، ورأسُ الحكمة، وهو مبتدأُ الأمر، ومنتهاه، وقد رتبَ عليه أولاً آثار الشرك في الدنيا، فقال: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ ورتَّب عليه هنا نَتيجَتَه في العقبى فقال: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ وقد علمت فيما تقدم لَكَ أَنَّ مِثْلَ هذا الخطاب إما موجهٌ إلى الإنسان عامة، وإما إلى الرسول خاصةً، والمراد أمته، والكلام من وادي قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

فائدة: والفرق[3] بين المذموم والملوم، وبين المخذول والمدحور، أن المذمومَ معناه: مَنْ يُذْكَرُ له أَنَّ الفِعْلَ الذي أَقْدَمَ عليه قبيحٌ ومنكرٌ، وأنَّ المَلُومَ معناه مَنْ يقال له لِمَ فَعَلْتَ هذا الفعل القبيح، وما الذي حملك عليه، وهذا هو اللوم، وأنَّ المخذول هو: الضعيف الذي لاَ نَاصِرَ له، والمَدْحُور هو: المبعد المطرودُ عن كل خير، ولَمَّا أمر بالتوحيد، ونهى عن إثبات الشريك لله، أَتْبَعَهُ بذكر فساد طريقة من أثبَتَ الولَدَ له تعالى، فقال: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾، والخطاب[4] فيه للقائلين بأن الملائكةَ بناتُ الله. وَكَانَ المشركون يستنكفون من البنات، فيختارون لأنفسهم الذكور، ومع ذلك ينسبون إليه تعالى الإناث، فأنكر الله ذلك منهم.

و﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلةٌ على محذوف، و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفضَّلكم ربكم على جَنَابِهِ وَنَفْسِهِ أيها المشركون، فأَصْفَاكُم واختَارَكم، وخَصَّكم بالبنين، أفضلِ الأولاد ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾؛ أي: واختَارَ لنفسه من الملائِكَة إناثاً التي هي أخس الأولاد

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن بتصرف.

(٤) روح البيان.

وأدناها ـ بحسب زعمكم ـ، وهذا خلاف الحكمة، وما عليه عقولُكُمْ، وعادتكم، فإنَّ العبيدَ لا يؤثِرُون بأجود الأشياءِ وأصفاها من الشَّوْبِ والنَّقْصِ ويَكُونُ أردأها وأدناها للسادات.

وعبر عن البنات بالإناث إظهاراً لجهة خساستهن؛ لأنَّ الأنوثة أخسُّ أوصاف الحيوان.

والمعنى[1]: أفَضَّلكم على جنابه، فَخَصَّكم ربُّكم بالذكور من الأولاد، واتخذ من الملائكة إنَاثاً، وأنتم لا ترضَونهن لأنفسكم، بل تَئِدُونَهُنَّ، وتقتلونهن، فتجعلون له ما لا ترضون لأنفسكم.

وخلاصة ذلك: أنَّهم جعلوا الملائكةَ إناثاً، ثم ادعوا أنَّهُن بَنَاتُ الله، ثُمَّ عبدوهن، فأَخْطَؤوا في الأمور الثلاثة، خطأً عظيماً، ومن ثُمَّ قال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَتَقُولُونَ﴾ بإضافة الولد إليه تعالى ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: قَوْلاً فظيعاً لا يجترىء عليه أَحَدٌ؛ حيثُ تجعلونه سبحانه من قبيل الأجسام المتجانسة السَّريعةِ الزوال، ثُمَّ تضيفون إليه ما تَكْرَهُونَ من أخس الأولاد، وتفضّلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكةَ الذينَ هم من أَشْرَفِ الخلق بالأنوثة التي هي أخس أوصاف الحيوان.

ونحو الآية قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾. ولما كان هذا الكلام غايةً في الوضوح والبيان، ولا يَخفىٰ فهمه على إنسان، ثُمَّ هم بعد ذلك، أعرضوا عنه نبَّهَ إلى ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد صَرَّفْنَا وبيَّنَا وكررنا في هذا القرآن الكريم الآيات والحجج، وضربْنَا لهم الأمثالَ وحذرنَاهم، وأنذرنَاهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ويتعظوا، فَيَقِفُوا على بطلان

---

(١) المراغي.

ما يقولون، فإنَّ التِكْرَارَ يقتضي الإذعانَ واطمئنان النفس، وهم مع ذلك لا يعتبرونَ، ولا يتذكرونَ بما يرد عليهم من الآياتِ والنذر، بل ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التذكيرُ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وفراراً، وهرباً من الحق، وبُعداً منه وإعراضاً عنه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿صرّفنا﴾ بتشديد الراء، أي: لم نجعله نوعاً واحداً، بل وعداً، ووعيداً، ومحكماً، ومتشابهاً، وأمراً، ونهياً، وناسخاً، ومنسوخاً، وأخباراً، وأمثالاً مثلُ تصريف الرياح وتقليبها من صبا، ودبور وجنوبَ، وشمال، ومفعولَ ﴿صَرفْنَا﴾ على هذا المعنى محذوف، وهي هذه الأشياء أي: صرَّفنا الأمثالَ، والعِبَرَ والحِكَمَ والأحكامَ والأعلامَ، وقرأ الحَسنُ بتخفيف الراء. وقال صاحب «اللوامح»: هو بمعنى قراءةِ الجمهور. قال لأن فَعَلَ، وفعَّل ربَّما تعاقَبَا على معنى واحد، وقال ابن عطية على معنى صَرَفْنَا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله، وقرأ الجمهور ﴿ليذَّكَّرُوا﴾ بتشديد الذال والكاف المفتوحَتَيْن، أَوْ ﴿لِيَتَذَكَّروا﴾ من التذكر، فأدغمت التاء في الذال، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، ﴿ليذْكُروا﴾ بسكون الذال وضم الكاف من الذكْر، أو الذكر، أي لِيَتَّعِظُوا، ويعتبروا.

ثم رَدَّ على هؤلاء الذين يشركون بربهم، ويتخذون الشفعاءَ والأندادَ، ونَدَّد عليهم، وسَفَّهَ أحلامَهم فَقَالَ ﴿قُل﴾ أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلٰهاً آخرَ لإظهار بُطلان ما هم عليه من الشرك من جهة أخرى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ءَالِهَةٌ﴾ أخرى ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: كما يقول المشركونَ قاطِبَة، والكاف في محل النصب على أَنَّها صِفَةٌ لمصدر محذوف، أي: كوناً مشابهاً بما يقولون، والمراد بالمشابهة الموافَقَةُ والمطابقةُ، وقرأ ابن كثير، وحفص ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياء التحتية على الغيبة، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأَنَّ مَعَ الله آلهة أخرى ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاءٍ قال الزمخشري: ﴿إِذًا﴾ دالَّةٌ على أنَّ ما بعدها، وهو ﴿لَّابْتَغَوْاْ﴾ جواب لمقالة المشركين، وجزاء لـ﴿لَّوْ﴾ اهـ «سمين».

(١) البحر المحيط.

﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾، أي: لابتغت تلك الآلهة، وطلبت ﴿إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: إلى صاحب الملك والسرير، أي: إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلٗا﴾؛ أي: طريقاً بالمغالبة والممانعة؛ أي: ليغالبوه، ويَقْهَرُوه، ويدفعوا عن أنفسهم العَيْبَ والعجزَ كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض.

يشير إلى أن الآلهة لا يَخْلُو أَمْرَهم: مِن أَنَّهُم كَانُوا أكبرَ منه، أو كانُوا أمثالَهُ، أو كانُوا أدنىٰ منه، فإن كَانوا أكبرَ منه طلبوا طريقاً إلى إزعاج صاحب العرش، ونزع الملك قَهْراً وغلبة، ليكونَ لهم الملك لا له كما هو المعتاد من الملوك ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزه[1] الله بِذَاتِهِ تَنَزُّهاً حَقِيقياً عما يقولون من أَنَّ معه آلهة أخرى ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عطف على ما تضمنه المصدر، قَبْلَهُ، أي: تنزه وتعالى، أي: تَرَفَّعَ بصفاته ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من أَنَّ له بناتاً ﴿عُلُوّٗا﴾ واقع موقع تعالياً كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾؛ أي: إنباتاً ﴿كَبِيرٗا﴾؛ أي: تعالى عما يقولون من الأقوال الشَّنِيعَةِ، والفِرْيَة العظيمة، عُلُوّاً كبيراً؛ أي: تَعَالياً لا غايةَ وراءه، كيف لاَ وَإنه سبحانَه في أقصى غاياتِ الوجود، وهو الوجوبُ الذاتي، وما يقولون: من أن له تعالى شركَاءَ وأولاداً في أبعد مراتب العدم، أعني الامتناعَ، ووصف[2] العلوّ بالكِبَرِ مبالغةً في النزاهة، وتنبيهاً على أن بَيْنَ الواجب لذاته، والممكن لذاته، وبين الغنيُّ المطلق، والفقير المطلق، مَبَايَنَةٌ لا تعقل الزيادة عليها، والمعنى: تنزيهاً لله، وعلواً له عما يقولون أَيُّها القوم من الفرية والكذب، فهو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

قوله: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، وقوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يقرأ[3] بالياء التحتية فيهما، وبالتاء الفوقية فيهما، وبالياء التحتية في الأول، والتاء الفوقية في الثاني، فالقراءات الثلاثة كلها سبعية، وعلى الأخيرة يكون في الكلام التفات اهـ شيخنا.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

ثم بيّن سبحانه عظمة مُلْكهُ وكبير سلطانه فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: تُنزه اللّهَ تَعَالَى السمواتُ السبعُ، والأرض عن كل نَقْص بدلالة أحْوَالِها على توحيد الله تعالى، وقدرته، ولطيف حكمته، فَكَأَنها تنطق بذلك، ويَصير لها بمنزلة التسبيح النطقي، ﴿و﴾ يسبحه تعالى أيضاً ﴿من فيهن﴾؛ أي: من في السموات والأرض من المخلوقات؛ أي: تنزهه عَمَّا يقول هؤلاء المشركون، وتعظمه، وتَشْهَدُ له بالوحدانية، في ربوبيته، وألوهيته كما قال أبو نواس:

وَفِــيْ كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ تَــدُلُّ عَــلَــىٰ أَنَّــهُ وَاحِــدُ

والمكلف العاقلُ[1] يسبح ربه إما بالقول كقوله: «سبحان الله» وإما بدلالة أحوالِهِ على توحيده وتقديسه، وغير العاقلِ لا يُسَبّح إلا بالطريق الثاني، فهي تدل بحدوثها دلالَةً واضحةً على وجوب وجوده تعالى، ووحدانيته، وقدرته وتنزهه عن الحدوث، فإنَّ الأثرَ يدل على مؤثره.

ومعنى التسبيح[2]: تنزيه الحق، وتبعيدُه عن نقائص الإمكان، والحدوث، إمَّا بلسان الحال، الدال على وجود الخالق، وقدرتِه وحكمَتِه، كتسبيح السموات والأرض، وإما بلسان القال الناطق بما يسمع كتسبيح من فيهن من الملائكة، والجن والإنس، فالتسبيح مشترك بين اللفظ الدَّالِ عليه، وبين مثل الحدوث والإمكان، الدّالّ على تنزيهه تَعَالَى عن لوازم الإمكان وتوابع الحدوث.

وقرأ النحويان[3]: أبو عمرو والكسائي، وحمزةُ وحفصُ ﴿تُسَبِّحُ﴾ بالتاء من فوق، وباقي السبعة بالياء، وفي بعض المصاحف ﴿سبحت له السموات﴾ بلفظ الماضي، وتاء التأنيث، وهي قراءة عبد الله، والأعمش، وطلحة بن مصرّف.

ثم أكّد ما سلف بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾؛ أي: وما من شيء من المخلوقات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ تعالى، أي: يدل بإمكانه وحدوثه دلالةً واحدةً على وجوب وجوده تعالى، ووحدته وقدرته، وتنزهه عن لوازم الحدوث.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

والمعنى[1]: وما من شيء من الأشياءِ حيواناً كان أو نباتاً، أو جماداً إلا ينزهه تعالى متلبساً بحمده بلسان الحال عما لا يليق بذاته تعالى من لوازم الإمكان.

والخلاصة: أن كل الأكوان بأسرها شاهدةٌ بتنزهه تعالى عن مشاركته للمخلوقات في صفاتها المحدثة ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ﴾، أيها المشركون، ولا تفهمون ﴿تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ ما عدا مَنْ يسبح بلغتكم، ولسانكم، والفقه[2]: عبَارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه؛ أي: ولكن لا تفهمونَ أَيُّهَا المشركون تِلْكَ الدَّلاَلَةَ، لأَنَّكُم لما جَعَلْتُم مَعَ الله آلهةً، فكأنكم لم تنظروا، ولم تفكروا؛ إذ النَّظَرُ الصحيح، والتفكير الحق، يؤدي إلى غير ما أنتم عليه، فأنتم إذاً لم تفقهوا التسبيحَ، ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإنَّ الكفارَ[3]، وإن كانوا مُقرّينَ بألسنتهم بإثبات إله العالم، لم يتفكروا في أنواع الدلائل، ولم يَعْلَمُوا كمالَ قدرته تعالى، فأستبعدوا كونَه تعالى قادراً على النشر، والحشر، فهم غافلون عن أكثر دَلائِلِ التوحيد، والنبوة، والمَعَادِ؛ لأنهم أثبتوا لله شركاءَ، وزوجاً وولداً.

وقرىء ﴿لا يُفَقَّهونَ﴾ على صيغة المبني للمفعول مع فتح الفاء، وتشديد القاف ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ حَلِيمًا﴾ على جهلكم، وإشراككم، فمن حلمه أن أمْهَلَكم، ولم يعاجِلْكُم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم به سواه، وعبادتكم معه غَيْرَه، والحلم[4]: تأخير مكافأة الظالم بالنسبة إلى الخالق، والطمأنينة عند سورة الغضب بالنسبة إلى المخلوق ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكمْ ورجع إلى التوحيد، ومن مَغْفِرَتِه لكم أَنَّهُ لا يؤاخذ من تاب منكم.

أخرج أحمد وابن مردويه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إنَّ نُوحاً عليه

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) روح البيان.

السلام، لما حضرته الوفاة، قَال لابنيه: ـ آمركما بِسُبحان الله وبحمده؛ فإِنَّها صلاة كل شيء وَبِها يُرْزَقُ كل شيء ـ».

تنبيه: وهذا المعنى الذي ذكرناه من أنَّ المرادَ من تسبيح كل شيء: الدَّلاَلَةُ على الخالق ما عليه الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، ومن يليهم من أهل الظاهر، وهم الذينَ لهم عين واحدة، وسمع واحد، وقال الشيخ علي السمرقندي ـ رحمه الله ـ في «بحر العلوم»: ذهب السلف الصالح، إلى أنَّ التسبيحَ في الآية في المحلَّين محمول على حقيقته، وهو الأصح، فإنه إن كان كلام الجماد مسلماً، فينبغي أن يَكُونَ تسبيحه أيضاً مسلّماً، قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرف حجراً بمكة، كَانَ يسلم عليَّ قبل أن أُبْعَثَ، إني لأعرفه الآن» وعن ابن مسعود، ولقد كنا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يُؤْكل، علَى أنَّ شَهَادَةَ الجوارح والجلود مما نطق به القرآن الكريم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾. كَان دَاودُ إذا سبح جَاوَبَتْهُ الجبالُ بالتسبيح، وقال مجاهد[1]: كُلُّ الأشياء تسبح الله حَيّاً كان أو جماداً، وتَسْبِيحُها: سبحان الله وبحمده.

وعن المقداد بن معديكرب: إنَّ التُّرابَ يسبح ما لم يَبْتَلَّ، والخريزة تسبحُ ما لم تُرْفَعُ من موضعها، والوَرَقَ ما دام على الشجر، والماءَ ما دام جارياً، والثوبَ ما دام جديداً، فإذا اتسخ ترَكَ التسبيح، والوحش، والطيرَ إذا صاحتْ، فإذا سكتت تركت التسبيحَ، وفي الحديث عن السدي: «ما اصطيد حوت في البحر، ولا طائر يطير إلا بما يضيِّع من تسبيح الله» كما في تفسير «المدارك للنسفي».

ولما فرغ سبحانه من الإلٰهيات شَرَعَ في ذكر بعض من آيات القرآن، وما يقع من سامعيه فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: وإذا قرأتَ أيُّها الرسول القرآنَ على هؤلاء المشركين، الذين لا يصدقون بالبعث، ولا يقرُّون بالثواب، والعقاب، ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ﴾ يا محمد ﴿وَبَيْنَ﴾ هؤلاء المشركين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا﴾

---

(١) روح البيان.

يحجبهم من أن يدركوك على ما أنْتَ عليه من النبوة، ويفْهَمُوا قَدْرَكَ الجليلَ، ولذلك اجترؤوا على أن يَقُولُوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ويمنعوا قلوبَهم عن أن تَفهمَ ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبةً منَّا لهم على كفرهم، وتَدْسِيَتِهِمْ لأنفسهم، واجتراحهم الجرائمَ، والمعاصيَ التي تظلم القلوبَ، وتَضَعُ عليها الأغشيةَ، وتستر عنها فَهْمَ حَقَائِقِ القرآن، ومَرَامِيه، وأسْرَارَهُ وأحكامَه، وحِكَمه، ومَوَاعِظَهُ، وعبرهُ؛ أي: أنهم[1] لإعراضهم عن قراءتك، وتغافلهم عنك كمَنْ بينك وبينه حجابٌ يمرون بك ولا يَرَوْنَك، ذكر هذا المعنى الزجَّاج وغَيْرَهُ. ومعنى ﴿مَّسْتُورًا﴾؛ أي: ساتراً يَسْتُركَ عنهم، قال الأخفش: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول، كما تقول إنك لَمَشْؤُومٌ ومَيْمُونٌ، وإنما هو شائم، ويامِنٌ وقيل: معنى مستوراً ذا ستر كقولهم: سَيْلٌ مُفعَمٌ؛ أي: ذو إفعام من أفعمت الإناءَ؛ أي: مَلأتهُ، وقيل: حجاباً لا تراه الأعين، فهو مستورٌ عنها، وقيل: حجاب من دونه حجابٌ، فهو مستور بغيره، والمعنى حجاباً محجوباً وقيل: المراد بالحجاب المستور الطَّبْعُ والخَتْمُ.

ثُمّ بين السَّبَبَ في عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: على قلوب هؤلاء المشركين ﴿أَكِنَّةً﴾؛ أي: أَغْطِيَةً، وموانعَ كثيرةً جمع كنان، وهو الغطاءُ ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: كَرَاهِيَةَ[2] أن يفهموا القرآنَ على كنهه، ويعرفوا أنه من عند الله تعالى، فهو مفعول لأجله، ولكنه على حذف مضاف، هذا على رأي الكوفيين، أو لِئلاً يفقهوا القرآنَ ويفهموا ما فيه من الأوامر، والنواهي، والحكم والمعاني، هذا على مذهب البصريينَ لقلة حَذْفِ (لاَ) بالنسبة إلى حذف المضاف، وهذا تمثيل[3] لتجافي قُلُوبِهِم عن الحق، ونبوِّها عن قبوله، واعتقاده كأنها في غلف وأغطية، تحول بينها وبينه، وتمنع من نفوذه فيها.

﴿و﴾ جعلنا ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً، وثقلاً مانِعاً عن سماعه اللائق به، وهذا تمثيل لمجِّ أسماعهم لِلحَقّ ونبوها عن الإصغاءِ إليه، كأنَّ بها صمماً

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) بحر العلوم.

يمنع عن سماعه، ولَمَّا[1] كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أَثْبتَ لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى حقَّ فَهمِه، وإدراك اللفظ حقَّ إدراكه.

ومن قبائح المشركين: أنهم كانوا يحبُّون أن يذكر مُحَمَّدٌ ﷺ آلِهَتَهُم كما يذكر اللّهَ سبحانه، فإذا سمعوا ذكر اللَّهِ دُونَ ذكر آلهتهم نَفِرُوا عن المجلس، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ وَأَنْتَ تتلوه حَالةَ كونه ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي واحداً غير مشفوع به آلهتهم؛ أي: منفرداً غير مقرون به آلهتُهم؛ أي: إذا قلت: لا إله إلا اللّه، ولم تَقُلْ: واللات والعزَّى، فهو[2] مصدر وَقَعَ مَوْقِعَ الحال، أصله تحده وحده فحذف الفعل الذي هو الحال، وأقيم المصدر مقامه ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾؛ أي: رَجَعُوا على أعقابهم، وانفَضُّوا من حولك، وهربوا ونَفرُوا ﴿نُفُورًا﴾ وهو مصدر كالقعود، أو جمع نافر؛ أي: أعرضُوا ورجعُوا على أعقابهم حالةَ كونهم نافرينَ استكباراً واستعظاماً لأن يُذكر الله وحدَه.

والحاصل: أنَّ الكُفَّارَ[3] عند استماع القرآن كانوا على حالَتَيْنِ، فإذا سَمِعُوا من القرآن ما ليس فيه ذكْرُ الله، بَقَوا متحيرين لا يفهمونَ منه شيئاً، وإذا سمعوا آيةً فيها ذِكْرُ الله تعالى وذَمُّ الشِرْكِ بالله تَرَكُوا ذلك المجلسَ، ولا يستطيعون سماعَ القرآنَ، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ﴾؛ أي: بالسبب والغرض الذي يستمعونَكَ ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: لأجله من الاستخفاف والهزء بك وبالقرآن، فالباء بمعنى اللام؛ أو للملابسة مُتَعَلّقَةٌ بمحذوف حال من الواو، وفي يستمعون؛ أي: يستمعونك حَالَةَ كونهم ملابسين بذلك السبب، وهو الهَزْءُ المذكور ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لأعلم، وفائدتُهُ: تأكيد الوعيد بالإخبار بأنه كما يقع الاستماع المذكور منهم يتعلق به العلم، وكذا قوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾؛ أي: ذَوُو نَجْوى؛ أي: أصحابُ مُنَاجَاةٍ، ومحادثة بَيْنَهُمْ ظرفٌ لأعلم لكن[4] لا من حيث تعلُّقُهُ بما به الاستماعُ، بل بما به التناجِي المدلول عليه بسياق النظم، ونَجْوى مصدر أو جمع نجيّ؛ أي: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

مضمرون له، وهو الهُزءُ والسخرية بك، وبالقرآن، وبقولهم حين هم مُتَنَاجُون، مُتَحَدِّثُونَ فيما بينهم من قول بعضهم: إنه مجنون، وبعضُهم إنه كاهن، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَدل مِنْ إذْ هُمْ نجوى، ووضع ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موضَع المضمر؛ للدلالة على أَنَّ هذا القولَ منهم ظلم، وتجاوز عن الحد، وفيه: دليل على أن من يَتَنَاجون به غيرَ مَا يستمعون به؛ أي: نحن أعلم إذ يقول الظالمون بعضهم لبعض عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما تتبعون إن وُجد منكم الاتباع فرضاً ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: إلا رجلاً سُحِرَ فجن، فَمِنْ ظُلْمِهِمْ وَضَعُوا اسْمَ المسحور موضع المَبْعُوثِ.

والمعنى: أي نحن[1] أعلم بالغَرض الذي يستمعون إليك لأجله، وهو الهزءُ، والسخريةُ، والتكذيبُ حينَ استماعهم، وأعلم بما يَتَنَاجُون به، ويتسارون به، فبعضهم يقول: مَجْنُونٌ، وبعضهم يقول: كاهن، وبعضهم يقول: ما اتبعتم إلاَّ رجلاً قد سُحِرَ فَاخْتَلَط عليه عقلَه، وزال عن حد الاستواء، وهَلْ من خير لكم في اتباع أمثالِه المجانين ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد؛ أي: تأمّل، وفكّر أيها الرسول ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: كيف جعلوا لك الأشباهَ ومثَّلوا لك الأمثالَ حيث شبهوك بالمسحور مثلاً، فقالوا: هو مسحور، وهو شاعر مجنون، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ في كل ذلك عن سواءِ السبيل. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طريق الحق لضلالهم عنه، وبعدِهم منه، والاستفهام فيه للتعجيب، فكأنَّه قال: تعجب من ضربهم الأمثالَ لك، وفي هذا من الوعيد وتسلية الرسول ﷺ ما لا يخفى.

والمعنى: فَضَلُّوا عن طريق الصواب في جميع ذلك القول، فلا يستطيعون سبيلاً وطريقاً موصلاً إلى الطعن الذي تَقْبَلُهُ العقولُ، ويَقَعُ التصديق له، لا أصلَ الطعن، فقد فَعَلُوا منه ما قَدَرُوا عليه، أو فَضَلُّوا[2] عن الحق، والرشاد، فلا يستطيعون سبيلاً إليه؛ لأنهم بَالَغُوا في الضلالة والإنكار، وكَانُوا مستمعين بالهوى، فَيَسْتَمِعون الأساطيرَ، والسحر، والشعر، ولَوِ اسْتَمَعُوا كَلاَمَ الله،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وصِفَاتِه، ولانحراف مِزَاجِهِم، وحصولِ المرض في قلوبهم، كانُوا يَتَنَفَّرُونَ عند استماع ذكر الواحد الأحد، بالوحدانية، والحِدَةِ، ولا يجدون حلاوة التوحد، بل يجدون منه المرارة لسوء المزاج.

ومن هذا القبيل إكباب أهل الهوى في كل عصر على استماع الملاهي، والأخبار والأساطير، وقيل وقال، معرضينَ عن كلام الله المِلكِ العليِّ الكبيرِ، بل وأكثرهم لا يريدُ إلا المُحَادَثَةَ الدنيويَّةَ، والمذاكَرَةَ العُرْفِيَّةَ والتعدي إلى أعراضِ الناس، والاتباع إلى ما يوسوِسُ به الوسواسَ الخناسُ، والقدحُ في شأن أهل الحق الآمرينَ بالمعروف، والناهينَ عن المنكر، فيا مصيبةً ابتُلي بها المسلمون عامَّةً وخاصَّةً من تتبع اليهودِ والنصارَىٰ، والمسابقة فيه، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

ولما فرغ سبحانه من حكاية شُبهِ القوم في النُّبُوَّات حكى شبهتهم في أمر المعاد، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: وقال الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي مكة، وغيرهم على سبيل الإنكار، والاستبعاد، وقد نَسُوا بدايةَ خلقهم من تراب، بل إنهم خُلقوا من لا شيء كقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾؛ أي: أنُبعَثُ ونُعادُ إذا كُنَّا ﴿عِظَٰمًا﴾ في قبورنا، لم نتحطم ولم نَتَكسَّر بعد مماتِنا ﴿و﴾ كُنَّا ﴿رفاتاً﴾؛ أي: عظاماً متكسِّرةً مَدْقُوقَةً مُفتتةً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بعد مصيرنا فيها، وقد بَلينا فَتَكَسَّرت عِظَامَنَا، وتقطعت أوصالنا؛ أي: أئنا لمخلوقون ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ كما كنا قبل الممات، نُصِبَ على المصدر من غير لفظه، أو على الحالية على أنَّ الخَلْقَ بمعنى المخلوق.

وإذا في قوله[1]: ﴿أَءِذَا﴾ متمحضة للظرفية، وهو الأظهر، والعامل فيها: ما دل عليه مبعوثون لا نفسه، لأنَّ ما بعد إن، والهمزة، واللام لا يَعْمَلُ فيما قبلها، وهو نُبْعَثُ، أو نُعَادَ كما قَدّرْنا في الحَلّ، وهو محل الاستفهام الإنكاري؛ أي: حياتنا بعد الموت محال منكرٌ لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم من التنافي،

---

(١) المراغي.

وتقييده بالوقت المذكور، ليس لتخصيصه به، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حالِهِ، بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له.

ومثل الآية قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يجيبَهم ويعرفهم قدرتَه على بعثه إيَّاهم بعد مماتهم، وإنشائِهِ لَهُمْ كما كانوا قبل بلاَهم خلقاً جديداً على أي حال كانوا، عِظَاماً أو رفاتاً أو حجارةً أَوْ حديداً أَوْ خَلْقاً مما يكبر في صدورهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿كُونُوا۟﴾ أيها المشركون المنكرون للإعادة ﴿حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ ويَعْظُم ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: في قلوبكم من قبول الحياة لِكَوْنِهِ أبعد شيءٍ منها، فإنكم مبعوثون، ومعادون لا محالةَ.

والمعنى[١]: لو تكونون حجارةً مع أنها لا تقبل الحياة بحالٍ أو حديداً مع أنه أَصْلَبُ من الحجارة، أو خلقاً آخر غَيْرَهُما كائناً من الأشياء التي تعظم في اعتقادكم عن قبول الحياة، كالسمٰوات والأرض، فَلاَ بُدَّ من إيجاد الحياة فيكم، فإنَّ قُدْرَتَهُ تعالى لا تعجز عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً ممزَّقَةً، وقد كانت طريَّةً موصوفةً بالحياة من قبلُ، والشَّيْء أقبل لما اعتيد فيه مما لم يعْتَدْ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ تمادياً في الاستهزاءِ ﴿مَن﴾ الذي ﴿يُعِيدُنَا﴾ ويبعثنا بعد الموت؛ أي: من الذي يقدر على إعادة الحياة إلينا، إذا صرنا كذلك؟ وقد نَسُوا مبدأهم فَلَزِمَهُم نسيانُ معيدهم. ﴿قُلِ﴾ إرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال يعيدكم الإله القادر العظيم ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ وأنشأكم واخترعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على غير مثال سبق، وكنتم تراباً ما شمَّ رَائِحَةَ الحياة، فهو المبدىء

---

(١) المراح.

والمعيد؛ أي: فالذي ابتدأ خَلْقكم أوَّلَ مرة من غير مثال، يعيدكم إلى الحياة بالقدرة التي ابتدأكم بها، فكما لم تَعْجز تلك القدرة عن البداءة لاَ تَعْجَزْ عن الإعادة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يحركون جِهَتَكَ ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ تعجباً وإنكاراً، وتكذيباً لقولك، يقال: أنغض إذا حرك كالمتعجب، أي: يحركون رؤُوسَهم إلى فوق، وإلى أَسْفَلَ هَزْءاً وسُخرِيةً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾، أي: متى الإحياء والإعادة التي وعدتَنا؟ فهو سؤال عن وقت البعث بعد تعيين الباعث ﴿قُلْ﴾ جواباً لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك البَعْثُ والإعادة؛ أي: حَقَّ ووجب كونه ﴿قَرِيبًا﴾ إذ كل ما هو آت قريب، أو لأنه مضَى أكثر الزمانِ، وبقي أقله، وعسى في الأصل: للطمع، والإشفاق، وفي كلامِهِ تعالى: للوجوب، يعني: أنه قَرُبَ وقته فقد قرب ما يكون فيه من الحساب والعقاب.

اذكروا ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ سبحانه وتعالى من الأجداث كما دعاكم من العدم إلى المحشر على لسان إسرافيل بالنداء الذي يسمعه جميع الخلائق، وهو النفخة الأخيرة، فإن[1] إسْرَافِيلَ ينادي: أيتها الأجسام البالية، والعظام النخرة، والأجزاء المتفرقة، عودي كما كُنْت بقدرة الله تعالى وبإذنه.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ منها استجابة الأحياء، وتوافقون الداعي فيما دَعَاكم إليه حَالَةَ كونكم متلبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: حَامِدينَ لله تعالى على قُدْرَتِهِ على البعثِ، كما قال سعيد بن جبير: إنهم ينفضون التراب عن رؤُوسهم، ويقولون: سبحانَكَ اللهم وبحمدك، فيقدّسونه، ويحمدونه حين لا ينفعهم ذلك، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث. ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عندما ترون الأهوال الهائلة ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾؛ أي: ما مَكَثْتُم في القبور، أو في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كالذي مرّ على قرية؛ أي: تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا زمناً قليلاً بالنسبة إلى لبثكم بعد الإحياء وذلك[2] لأن الإنسان لو مكث في الدنيا وفي القبر ألوفاً من السنين عدّ ذلك قليلاً بنسبة مدة القيامة، والخلود في الآخرة، وقيل: إنهم يستحقرون مُدَّةَ الدينا في جَنْبِ

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

القيامة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ قال الحسن: المرادُ تقريبُ وقت البعث، فكأنك بالدنيا، ولم تَكُنْ، وبالآخرة، ولم تزل.

الإعراب

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ ﴿إلا﴾ أداة استثناء، مفرغ من أعم الأحوال؛ أي لا تقربوه بحال من الأحوال إلا بالخصلة، أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفْظُه وصيانَتُهُ، واستغلاله لمصلحة اليتيم ﴿بِٱلَّتِى﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَقْرَبُوا۟﴾ ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر، وغاية ﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْيَتِيمِ﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى بلوغه أشده الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَقْرَبُوا۟﴾، أو متعلق بما فهم من الاستثناء، من جواز قربانه، تقديره: فأقربوه[1] بالخصلة التي هي أحسن، إلَى أَنْ يبلغ أشده، فلا تقربوه بعد ذلك، لأن التَّصرُّفَ له حينئذٍ، ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾. ﴿بِٱلْعَهْدِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أوفوا﴾ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ فعل ناقص، وخبره واسمه ضمير مستتر فيه يعود على العهد، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد من معنى الشرط متعلق بـ﴿أوفوا﴾. ﴿كِلۡتُمۡ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَوۡفُواْ﴾. ﴿وَزِنُواْ﴾ فعل وفاعل معطوفة على جملة ﴿أوفو﴾ ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ متعلق به ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ صفة لـ﴿القسطاس﴾. ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿وَأَحۡسَنُ﴾ معطوف على ﴿خَيۡرٞ﴾ ﴿تَأۡوِيلٗا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها.

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَقۡفُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حَذْفُ حرف العِلّة، وهو الواو لأنه من قفا يقفو من باب عَدَا وسمَا، وفاعله ضمير يعود على المخاطب. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾ ﴿لَيۡسَ﴾ فعل ناقص ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عِلۡمٌۚ﴾ ﴿عِلۡمٌۚ﴾ اسم ليس مؤخر، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ﴾ ناصب واسمه ﴿وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ معطوفان عليه ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿كُلُّ﴾. ﴿عَنۡهُ﴾ متعلق بما بعده ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمۡشِ﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلَها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق بـ﴿تَمۡشِ﴾ ﴿مَرَحًاۖ﴾ حال من فاعل تمش، ولكنه على تقدير مضاف أيْ ذا مرح؛ أي: مارحاً ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب

واسمه ﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ﴾ ناصب، وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿طُولٗا﴾ تمييز محول عن الفاعل؛ أي: ولن يبلغ طولك الجبال، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بما بعده ﴿مَكۡرُوهٗا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿مِمَّآ﴾ خبر ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾ فعل ماض ﴿إِلَيۡكَ﴾ متعلق به ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: مما أوحاه إليك ربك، ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ جار ومجرور حال من العائد المحذوف، أو من نفس الموصول؛ أي: ذلك مما أوحاه إليك ربُّكَ حَالَةَ كَوْنِهِ كائناً من الحكمة التي هي معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾ ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول أول ﴿ءَاخَرَ﴾ صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾. ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية. ﴿تلقى﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بأن مضمرةً، وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، ونائب فاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ متعلق به، ﴿مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ حالان من نائب فاعل ﴿تلقى﴾، وجملة ﴿تلقى﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن جعلك مع الله إلٰهاً آخر، فإلقاؤك في جهنم ملوماً مدحوراً.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ (الهمزة) للإستفهام التوبيخي، المضمَّن للإنكار، داخلةٌ على محذوف و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أصفاكم﴾ ﴿رَبُّكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أخصكم ربكم بالبنين فأصفاكم بهم، واتخذ من الملائكة إناثاً، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ (الواو) عاطفة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض متعدّ لمفعولين ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني ﴿إِنَٰثًاۚ﴾ مفعول أول له، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصفاكم﴾ ويجوز أن تكون حالاً ﴿مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ على تقدير قد و(الواو) حينئذٍ واو الحال ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَتَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، و(اللام) حرف ابتداءِ ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق ﴿عَظِيمًا﴾ صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن وجملة (إن) مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية و(اللام) موطئة للقسم (قد) حرف تحقيق ﴿صَرَّفْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿فِي هَٰذَا﴾ متعلق به، ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية جواب القسم، لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ (اللام) حرف جر، وتعليل ﴿يذكروا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام التعليل، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: لتذكرهم الجار والمجرور متعلق بـ﴿صَرَّفْنَا﴾ ﴿وَمَا﴾ (الواو) حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على القرآن ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿نُفُورًا﴾ مفعول ثان لـ﴿يزيد﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من القرآن.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّوْ كَانَ

مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿مَعَهُۥٓ﴾ ظرف، ومضاف إليه، خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿ءَالِهَةٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾ لاَ محل لها من الإعراب، ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر وتشبيه، (ما) موصولة في محل الجر بـ(الكاف) ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل صلة (ما) الموصولة، الجار والمجرور، صفة لمصدر محذوف تقديره: قل لو كان معه آلهة كوناً مشابهاً لما يقولون ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، دالَّة على أَنَّ ما بعدَها جواب لمقالة المشركين، وجزاءٌ لفعل شرط ﴿لَّوْ﴾ مهملة لا عمل لها ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ (اللام) رابطة لجواب (لو) ﴿ابتغوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ متعلق بـ﴿أبتغوا﴾ أو حال من ﴿سَبِيلًا﴾. ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول ﴿ابتغوا﴾ وجملة ﴿ابتغوا﴾ جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه سُبْحَاناً، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تعالى﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ(ما)، والعائد محذوف تقديره: عما يقولونه ﴿عُلُوًّا﴾ مفعول مطلق لـ﴿تعالى﴾ لأنه مصدر واقعٌ موقع التعالي ﴿كَبِيرًا﴾ صفة له.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿تُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع ﴿لَهُ﴾ متعلق به ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ فاعل ﴿ٱلسَّبْعُ﴾ صفة لـ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ ﴿وَمَن﴾ اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ ﴿فِيهِنَّ﴾ جار ومجرور صلة من الموصولة، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَإِن﴾ (الواو) عاطفة أو مستأنفة ﴿إن﴾ نافية ﴿مِّن﴾ زائدة ﴿شَىْءٍ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة، تقدم النفي عليه، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿شَىْءٍ﴾ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾، أي: حالَةَ كونه مُلْتَبساً بحمده، والجملة الفعلية

في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ عطف اسمية على فعلية، أو مستأنفة ﴿وَلَٰكِن﴾ (الواو) حالية ﴿لَّٰكِن﴾ حرف استدراك مهمل ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ ناصب واسمه وخبره الأول ﴿غَفُورٗا﴾ خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾.

﴿وَإِذَا﴾ (الواو) استئنافيةٌ (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كَوْنِها فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالشرط، أو بالجواب أو هما ﴿جَعَلۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿بَيۡنَكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلۡنَا﴾ ﴿وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ﴾ ظرف، ومضاف إليه معطوف على الظرف الأول ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلق به ﴿حِجَابٗا﴾ مفعول أول لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾ ﴿مَّسۡتُورٗا﴾ صفة ﴿حِجَابٗا﴾، وجملة ﴿جَعَلۡنَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلۡنَا﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾ مفعول أول له، ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، تقديره: كراهيةَ فقههم إياهُ أو مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من فقههم إياه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَكِنَّةً﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ جار ومجرور معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على كونهِ مَفْعُولاً ثَانِياً لـ﴿جَعَلۡنَا﴾ ﴿وَقۡرٗاۚ﴾ معطوف على ﴿أَكِنَّةً﴾ على كونه مفعولاً أولاً لـ﴿جَعَلۡنَا﴾.

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾.

﴿وَإِذَا﴾ (الواو) استئنافية ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ متعلق بـ﴿ذَكَرْتَ﴾ ﴿وَحْدَهُ﴾ حال من ربك لأنه في تأويل النكرة، أي منفرداً، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة (إذا) إليها على كَوْنِهَا فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿وَلَّوْا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ متعلق به، أو حال من فاعل، ﴿وَلَّوْا﴾ ﴿نُفُورًا﴾ مفعول مطلق معنوي، لـ ﴿وَلَّوْا﴾، أو حال من فاعل ﴿وَلَّوْا﴾ أي: نافرينَ على أنه جمع نافر، وجملة ﴿وَلَّوْا﴾ جواب إذا لا محلّ لها من الإعراب، وجملة (إذا) مستأنفة.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿بِهِ﴾ متعلق به، و(الباء) سببية، والمعنى: ما يستمعون بسببه، أو لأجله، وهو الهزء بك، وبالقرآن، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان معطوف على ﴿إِذْ﴾ الأولى على كونه متعلقاً بـ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿هُمْ نَجْوَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ بَدَل كل من كل، ﴿يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذ﴾ ﴿إِن﴾ نافية ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر ﴿رَجُلًا﴾ مفعول به ﴿مَّسْحُورًا﴾ صفة لـ﴿رَجُلًا﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿انظُرْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب على الحال، والعامل فيه ﴿ضَرَبُوا﴾، وهي معلقة لـ﴿انظُرْ﴾ للعمل في لفظ ما بعدها، ﴿ضَرَبُوا﴾ فعل وفاعل ﴿لَكَ﴾ متعلق به ﴿الْأَمْثَالَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿ضَرَبُوا﴾ في محل النصب

سادّةٌ مسد مفعول ﴿أَنظُرْ﴾. ﴿فَضَلُّواْ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿ضلوا﴾ فعل، وفاعل معطوف على ﴿ضَرَبُواْ﴾ ﴿فَلَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضلوا﴾ لأن العاطفَ مرتب، ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ﴿ضَرَبُواْ﴾ ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَءِذَا﴾ ﴿الهمزة﴾ للإستفهام الإنكاري الابتعادي، لاستبعاد ما يتساءلون عنه، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، متعلق بمحذوف دَلَّ عليه ﴿مبعوثون﴾ ﴿كُنَّا عِظَٰمًا﴾ فعل ناقص، واسمه وخبره، ﴿وَرُفَٰتًا﴾ معطوف على ﴿عِظَٰمًا﴾ والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ والتقدير: أنبعثَ وَقْتَ كوننا عظاماً ورفاتاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقولَ ﴿قَالُوٓاْ﴾، ولا يجوز أن يتعلَّق ﴿إذا﴾ بـ ﴿مبعوثون﴾ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلَها، وكذا ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله، وقد اجتمعا هنا، ويجوز أن تكونَ ﴿إذا﴾ شرطية، والجواب حينئذٍ الفعل الذي تعلقت به (إذا) ﴿أَءِنَّا﴾ الهمزة للاستفهام، الإنكاري الاستبعادي، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء ﴿خَلْقًا﴾ حال من الضمير المستكن في ﴿مبعوثون﴾ ﴿جَدِيدًا﴾ صفته ولكنه على تأويله بالمشتق؛ أي: مخلوقين، أو مفعول مطلق من معنى الفعل، لا من لفظه أي: نبعث بَعْثاً جَدِيداً.

﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾ فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا﴾ معطوفان على ﴿حِجَارَةً﴾، وجملة ﴿كُونُواْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿مِّمَّآ﴾ جار ومجرور صفة ﴿خَلْقًا﴾. ﴿يَكْبُرُ﴾ فعل مضارع ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ (الفاء) عاطفة، و(السين)

حرفُ استقبال، ﴿يقولون﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قل﴾ ﴿من يُعِيدُنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يُعِيدُنَا﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، خبره محذوف تقديره: الذي فطركم أول مرة يعيدكم، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي فطركم أوَّلَ مرة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿فَطَرَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ظرف متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ (الفاء) عاطفة، و(السين) حرف استقبال ﴿ينغضون﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾. ﴿مَتَىٰ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ مؤخر، تقديره: كائن ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي البعث، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿قُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض من أفعال الرجاء، ترفع الاسم، وتنصب الخبر، واسمها ضمير مستتر فيه، تقديره: هو يعود على البعث ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن، واسمها ضمير يعود على البعث ﴿قَرِيبًا﴾ خبر ﴿يَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ تقديره: عسى كونه ﴿قَرِيبًا﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل ليصح الإخبار؛ أي: عسى كائناً قريباً، ويصح كون عسى تامة، والتقدير: عسى كونه قريباً، و﴿عَسَىٰ﴾ هنا للتحقق كما مرَّ.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا: يوم يدعوكم كما ذكره أبو البقاءِ وأبو السعود، أو متعلق بـ ﴿يَكُونَ﴾ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿يَوْمَ﴾ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿تستجيبون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَدْعُوكُمْ﴾. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من (الواو) في ﴿تستجيبون﴾، أي: فتجيبون حالَ كونكم حَامِدِينَ لله على كمال قدرته، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿تظنون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تستجيبون﴾؛ أي: حَالَةَ كونكم ظَانّين ﴿إن﴾ ﴿إن﴾ نافية معلقة للظن عن العمل فيما بعدها، وقلَّ من ذكر ﴿إن﴾ النافية في أدوات تعليق هذا الباب، ذكره في «الفتوحات» ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ لأنه صفة لزمان محذوف أي إلاَّ زَمَاناً قليلاً أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف أي لُبْثاً قليلاً، وجملة ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في محل النصب سادة مسد مفعولي الظن.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وفي الكرخي: والمراد بالأشد هٰهنا بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده؛ القيامُ بمصالح ماله، فحينئذٍ تزولُ وِلاَيةُ غيره عنه، فإن بلغ غَيْر كامل العقل لم تزل الولاية عنه اهـ والأَشَدُّ: مفرد بمعنى القوة، وقيل: جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع شدة بكسر الشين، وقيل: جمع شد كذلك، وقيل: جمع شد بفتحها، وعلى كلّ، فالمراد به القوة؛ أي: حتى يبلغ قوته، والمراد بها هنا بلوغُهُ عاقلاً رشيداً، وإن كان الأشد في الأصل عبارة عن بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، اهـ شيخنا.

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ هو روميٌّ عُرِّبَ، ولا يقدح ذلك في عربية القرآن؛ لأن العجميَّ إذا استعملته العربُ، وأجْرَتْهُ مُجْرَى كلامهم في الإعراب، والتعريف،

والتنكير، ونحوها.. صَارَ عَرَبِيّاً، والقسطاس بضم القاف وكسرها، القَرْسَطُونُ؛ أي: القبان، وقيل: كل ميزان صَغُر، أو كَبُر، و﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ العَدْلُ ﴿تَأْوِيلًا﴾ والتأويل: ما يؤول إليه الشيء، وهو عاقِبَتُه. ومآله ﴿مَرَحًا﴾ والمَرَحُ: الفخرُ، والكِبَرُ، وفي «المصباح» مرح مرحاً، فهو مَرِحٌ مثل فرِحَ فَرَحاً وزْناً ومعنًى، وقيل: المرح أشد الفرح اهـ.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾؛ أي: ولا تتبع، يقال: قفا أثره من بابي عدا، وسَما هو مأخوذ من القَفَا، كأنه يقفو الأمورَ يتَّبعها ويتعرَّفها، ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم﴾ أي أخصَّكم وخلَّصكم، والإصفاء جعل الشيءِ خالصاً له، والتصفية في الأصل: معناها التَّخْلِيص، ولكنه هنا ضمَّن معنى خصَّكم لأجل تعلق البنين به، وفي «الأساس» ـ يعني أساس البلاغة ـ ومن المجاز: أصفيته المودة، وأصفيته بالبر آثرته، واختصَصْتُه. ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، وأصفَى عِيَالَه بشيء يسير، أرضاهم به، وألفه منقلبه عن واو؛ لأنه من صفا يصفو ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾؛ أي: بيَّنا وأوضحنا، ولها معانٍ كثيرةٌ بالتشديد، يقال صرفه بمعنى صَرَفَه مع مبالغة، وصَرَفَ الشيء باعه، وصرف الدَّرَاهِمَ بَدَّلَهَا، وصرف الخمر شَرِبها صِرْفاً؛ أي: غَيْرَ ممزوجة، وصَرَفَ الْكَلَامَ اشتق بَعْضَهُ من بعض، وصَرفَه في الأمر فوض الأمرَ إليه، وصرف الماءَ أجرَاه، وصرَّف اللّهُ الرّياح: أجراها منْ وجه إلى وجه.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾: ﴿وَحْدَهُۥ﴾: اعلم: أنَّ ﴿وَحْدَهُۥ﴾ لم يُستعمل إلا منصوباً، إلا ما ورد شاذاً، قالوا: هو نَسِيجٌ وَحْدُه، وعيَيْر وحده، وجُحَيْشٌ وحده.

فأما نسيج وحده، فهو مدح، وأصله أنَّ الثَّوب إذا كان رفيعاً، فلا يُنسج على منواله غيرهُ، فكأنَّه قال: نَسِيج أفرادُه، يقال هذا للرجل: إذا أُفْرِدَ بالفضل، وأما عيَيْر وحده، وجُحيش وَحْدَهُ فهو تصغير عير، وهو الحمار: يقال للوحش والأهلي، وجُحيش وحدُه، وهو ولد الحمار، فهو ذمٌّ يقال للرجل المعجب برأيه لا يُخالِطُ أحداً في رَأيٍ ولا يدخلُ في معونة أحد، ومعناه ينفردُ بخدمة نفسه،

وأما قولك جاء وحده: فوحده حال من فاعل جاء المستتر فيه، وهو معرفة بالإضافة إلى الضمير، فيؤوَّل بنكرة من لفظه، أو من معناه؛ أي: مُتَوَحِداً، أو منفرداً، وتقول: مررتُ به وحدَه، ومررتُ بهم وحدَهم، فوحده مصدر في موضع الحال، كأنه في معنى إيحاد جاءَ على حذف الزوائد، كأنك قلت أوحْدتُه بمروري إيحاداً، أو إيحاد في معنى موحد؛ أي: منفردٌ فإذا قلت مَرَرْتُ به، وحده فَكَأَنَّكَ قلت: مررت به منفرداً، ويحتمل عند سيبويه أن يكونَ للفاعل والمفعول.

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ الحجابُ والحجب: المنْعُ من الوُصول إلى الشيء، والمرادُ الحَاجِبُ والمستورُ، أي: الساترُ كما جاء عكسه من نحو ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، أي: مدفوق فاسم المفعول بمعنى اسم الفاعل ﴿أَكِنَّةً﴾ والأكنة الأغطية واحدها كنان ﴿وَقْرًا﴾ والوَقْرُ الصَّمَمُ، والثِّقل في الآذان المانع من السماع، ﴿نُفُورًا﴾ مفعول مطلق لِـ ﴿ولَّوا﴾ لتفاوت معناهما، لأن النُفور الإدبار مع الانزعاج، ويجوز أن يكون جَمْعَ نافر كقاعد، وقعود وشاهد وشهود، اهـ من «الشهاب» و«البيضاوي» ﴿مَّسْحُورًا﴾؛ أي: مخْبُولَ العَقْل فهو كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ ﴿فَضَلُّواْ﴾؛ أي: جاروا عن قصد السبيل ﴿رفاتا﴾ والرُّفاتُ ما تَكَسَّر وبلي من كلِ شيء، وما بُولِغَ في دقّه، وتَفْتِيتِه، وهو اسم مفرد لأجزاءِ ذلك الشيء المفتت، وقال الفرَّاء: هو التراب، يؤيده أنه تكرر في القرآن تراباً وعظاماً، والرُّفاتُ والحطام بمعنَى، ويقال: رفت الشيء يرفِتُه بالكسر من باب: ضَرَبَ؛ أي: كسره، والفعال يغلب في التفريق، كالحطام والرقاق والفتات، وفي «القاموس» «وتاج العروس»: رفته يرفته بالضم، ويرفته بالكسر إذا كسره ودقه وانكسرَ واندق وانقطع لازم ومتعد.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾؛ أي: يحركون رؤوسهم، في «المختار»: نَغَضَ رأسه من باب نصر، وجلس؛ أي: تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ونغض فلان رأسه؛ أي: حركه يتعدى ويلزم اهـ وفي «اللسان يقال: أنغض رأسه ينغضها؛ أي: حركها إلى فوقَ، وإلى أسفل إنغاضاً فَهو منغض، وأمَّا نغض ثلاثياً ينغض بالفتح، وينغض بالضم، فبمعنى

تحرك لا يتعدَّى يقال: نغضت سنه إذا تحرَّكَتْ تنغض نغضاً اهـ. ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: تجيبون الداعي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ إذا جعلنا ضميرَ مسؤولاً راجعاً إلى العهد، وينسب إليه السؤال على طريق الاستعارة بالكناية، بأن يشبه العهد بمن نكث عهده، ونسبة السؤال إليه تخييل.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، ولو جَرَى على ما تقدم لقيل: كنت عنه مَسْؤولاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، وقوله: ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ للتنبيه على أنَّ التوحيدَ مَبْدأُ الأمْر ومنتهاه، وعلى أنَّهُ رأسُ الحكمة وملاكها.

ومنها: الفرض والتقدير في قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾.

ومنها: التنكيت في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ والتنكيتُ، هو قَصْدُ المتكلم إلى شيء بالذكر دُون غيره مِمَّا يسد مسدَّه لنُكْتَة في المذكور، ترجحُ مَجِيئَه على سِوَاهُ، فقد خص سبحانه ﴿تَفْقَهُونَ﴾ دُونَ تعلمون لما في الفقه من الزيادة على العلم؛ لأنه التصرفُ في المعلوم بعد علمه، واستنباط الأحكام منه، والمرادُ الذي يقتضيه معنى الكلام التفقه في معرفة التسبيح من الحيوان البَهِيم، والنبات، والجماد، وكلَّ ما يَدْخل تحت لفظة شيء مما لا

يعقل، ولا ينطق، إذ تسبيح ذلك بمجرد وجوده الدالّ على قدرة موجده وحكمته.

ومنها: الاستفهام الإنكاريّ في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ وتكرير (الهمزة) في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لتأكيد الإنكار، وكذلك تأكيدُهُ بـ ﴿إن﴾ و(اللام) للإشارة إلى قوّة الإنكار.

ومنها: التعجيز والإهانة في الأمر في قوله: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

ومنها: التخيير في هاتين الآيتين، وهو أن يؤتى بقطعةٍ من الكلام، وقد عطف بَعْضُها على بعض بأداة التخيير.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ تسجيلاً عليهم بصفة الظلم؛ إذ مقتضى السياق أن يقال: إذ يقولون... الخ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ
زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا
شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ
فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ
أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا
(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه(١) لما قدَّم ما نسَب الكفار لله تعالى من الولد، ونُفُورَهم

(١) البحر المحيط.

عن كتاب الله، إذا سمعوه، وإيذاء الرسول ﷺ ونسبته إلى أنه مسحورٌ، وإنكارُ البعث، كانَ ذلكَ مدعَاةً لإيذاء المؤمنين، ومجلبةً لبغض المؤمنين إياهم، ومعاملتهم بما عاملوهم... فأمر الله تعالى نبيَّه أن يُوصِيَ المؤمنين بالرفق بالكفار، واللطف بهم في القول، وأن لا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم، فعلى هذا يكون المعنَى: قل لعبادي المؤمنينَ يقولوا للمشركين الكلمَ التي هي أحسن، وقيل: المعنى: يقولوا؛ أي: يقول بعض المؤمنينَ لبعض الكلمَ التي هي أحسن؛ أي: يعظّم بعضهم بعضاً.

وعبارة المراغي[1] هنا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أقام الحججَ على إبطال الشرك فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ الآيةَ، وذكر الأدلة على صِحَّةِ البعث، والجزاءِ.. فقال: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾.

أمر رسوله ﷺ أن يأمُرَ عبادَهُ المؤمنين بأن يحاجوا مُخَالِفِيهم، ويجادلوهم باللين، ولا يغلّظوا لهم في القول، ولا يشتموهم، فإنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تجذب النفوس، وتميل بها إلى الاقتناع، كما يعلم ذلك الذين تولوا النصْحَ والإرشادَ من الوعاظ، والساسة، والزعماءِ في كل أمة، ثمَّ ذكر من الكلمة الطيبة أن يَقُولَ لهم: ربكم العليم بكم إن شاءَ عذبكم، وإن شاء رحمكم، ولا يصرح بأنهم من أهل النار؛ فَإِنَّ ذلك مما يهيِّج الشرَّ، مَعَ أَن الخَاتِمَةَ مَجْهُولةٌ لا يعلمها إلا الله سبحانه، ثم بيَّن لرسوله أنه لا يقسر الناس على الإسلام، فما عليه إلا البلاغ، والإنذارُ، والله هو العليم بمن في السمٰوات والأرض، فيختارُ لنبوته من يشاءُ، ممن يراه أهلاً لذلك، وأولئك الأنبياءُ ليسوا سواءً في مراتب الفضل والكمالِ، وأفضلهم محمد ﷺ وأمته.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنها[2] عود على بدء في تسفيه آراءِ المشركينَ الذين كانوا يعبدون الملائكة، والجنَّ والمسيحَ، وعزيراً؛ إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ، ويخافون عذابَه، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فَادعُوني وحدي لأني أنا المالك لنفعكم وَضَرّكم دُونَهم.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

ثم بيَّن أنَّ قُرَى الكافرين صائرةٌ إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال، وإمَّا بعذاب دون ذلك من قَتْل كبرائها، وتسليط المسلمينَ عليهم بالسَّبي، واغتنام الأموالِ، وأخذ الجزية، ثمَّ أرْدَفَ ذلك ببيان أنه ما مَنَعَهُ من إرسال الآيات التي طلب مثلها الأولون كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ إلخ. إلا أنَّه لو جاء بها، ولم يؤمنوا.. لأصابهم عذابُ الاستئصال كما أصاب من قبلهم، أو لم ينظروا إلى ما أصابَ ثَمُودَ حين كذبوا بآيات ربهم، وعَقَرُوا الناقةَ، ثم قفَّى على ذلك بأن الله حافظه من قومه، وأنه سَيَنْصُرهُ، ويؤيِّدُه، ثُمَّ أتبع ذلك بأنَّ أمْرَ الإسراءِ كان فِتْنَةً للناس وامتحاناً لإيمانهم، كما كان ذِكْرُ شجرة الزقوم في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ كذلك ثم تلا هذا بذكر تماديهم في العناد، وأنه كلما خَوَّفهم وأنذرهم، ازدادوا تمادياً، وطغياناً، فلو أنزل عليهم الآيات التِي اقترحوها.. لم يَنْتَفِعوا بها، ومنْ ثم أجَّل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها من وجهين[1]:

أحدهما: أنه لمَّا نازعوا الرسول ﷺ في النبوة، واقترحوا عليه الآيات، كَانَ ذلك لكبرهم وحسدهم لِلرسول ﷺ على ما آتاه الله من النبوة، والدرجة الرفيعة.. فَنَاسَبَ ذِكر قصة آدم عليه السلام وإبليس حيث حمَلَه الكبرُ والحسد على الامتناع من السجود.

والثاني: أنه لما قال: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ بيَّن سبب هذا الطغيان، وهو قول إبليس ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لَمَّا ذكر[2] أن الرسول ﷺ كان في محنة في قومه، إذ كذبوه وتوعَّدوه حين حدَّثهم بالإسراء، وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه، وعاندوه، واقترحوا عليه الآيات حسداً

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

على ما آتاه الله من النبوة، وكبراً عن أن ينقادُوا إلى الحق.. بيَّن أنَّ هذا ليس ببدع من قومك، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت، ألا ترى أن آدم عليه السلام كان في محنة شديدة من إبليس، وأَنَّ الكِبْرَ والحَسَدَ هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان، والدخول في الكفر، والحسد بلية قديمة، ومحنة عظيمة للخلق. انتهت.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى[1] لما ذكر وصْفَ المشركين في اعتقادهم آلِهَتَهُم، وأنها تضر وتنفع، وأتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسة ذريته، وتسويله، ذَكَرَ ما يَدُلُّ من أفعاله على وحدانيته، وأنه هو النافع الضار المتصرفُ في خلقه بما يشاء، فذكر إحسانه إليهم بحراً، وبراً، وأنه تعالى متمكن بقدرته مِمَّا يريده، وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر في الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالىء للعبد المؤمن من غواية إبليس، وأنه لا يستطيع أن يَمَسَّه بسوء، قفَّى على ذلك بذكر بعض نعمته تعالى على الإنسان التي كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران، لا بالكُفْرانِ، وهو الذي يرى دلائلَ قدرته في البر والبحر، فهو الذي يُزجي له الفلكَ في البحر لتنقل له أرزاقه، وأقواته من بعيد المسافات، لكنه مَعَ هَذَا هو كفور للنعمة، إذا مسه الضر دَعَا ربه، وإذا أمن أعرض عنه، وعبد الأصنامَ والأوثانَ، فهل يأمن أن يَخْسِفَ به الأرضَ، أو يرسل عليه حاصباً من الريح في البر، أو قاصفاً من الريح في البحر، فيغرقه بكفره، أفلا يفردُه بالعبادة، ويخبت له كفاءَ تلك النعم المتظاهرة عليه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنيون، واستمسكَ الآخرون بعبادتهم، فَأَنْزَلَ الله عز وجل ﴿قُلِ

(١) لباب النقول.

﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم والطبراني وغيرهما، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعلَ لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبالَ، فيزرعوا، فقيل له: إن شئْتَ أن تستأني بهم، وإن شئت تؤتهم الذي سألوا، فإن كَفَرُوا أُهلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: بل أستأني بهم، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ...﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن الزبير نحوه بأبسطَ منه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه أبو يعلى عن أم هانىء أنه ﷺ لما أسري به... أصبح يحدث نَفَراً من قريش، يستهزئون بِهِ، فطلبوا منه آيَةً فوصف لهم بَيْتَ المقدس، وذكر لهم قِصَّةَ العير، فقال الوليدُ بن المغيرةَ: هذا ساحر، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وأخرج ابن المنذر عن الحسن نَحْوَه، وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي أَنَّ رسول الله ﷺ أَصْبَحَ يَوْماً مَهْمُوماً فقيل له: ما لك يا رسول الله؟ لا تهتمَّ، فإنَّ رُؤْيَاكَ فتنة لهم، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

وأخرج ابن جرير، من حديث سهل بن سعد نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمروِ بن العاص، ومن حديثِ يعلى بن مُرَّةَ، ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوها، وأسانيدها ضعيفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ...﴾ الآية، أخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس، قال: لما ذكر الله الزقُّومَ خوَّف به هذا الحيَّ من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقُّومُ الذي يخوفكم به محمدٌ؟ قالوا: لا، قال: الثريد بالزبد، أما لئن أمكننا منها لنزقمنَّها زقماً، فأنزل الله

---

(١) لباب النقول.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، وأنـــزل ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِي﴾ المؤمنين إذا أردتم إتيانَ الحُجَّة على المخالفين، فأذكروها غيرَ مَخْلُوطة بالشتْم والسب، فيقابلُونَهم بمثله، ولا يخاشنوهم بل ﴿يَقُولُوا﴾ لهم الكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كأن يقولوا لهم: يهديكم الله، ولا يتخاشنوا معهم في الكلام، كأن يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، فإنه يهيِّجُهم إلى الشر؛ أي: وقل لعبادي يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم الكَلاَم الأحسنَ للإقناع، مع البُعْدِ عن الشَّتْمُ والسّبّ والأذى، ونظير الآية قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ رُوي أنَّ الآية نزلَتْ في عمر بن الخطاب، ذلك أنَّ رجلاً شَتَمَه، فَسَبَّه عُمَر وهَمَّ بقَتْلِهِ، فكادَتْ تثير فتنَةً، فأَنْزَلَ الله الآيَةَ، ثمَّ عَلَّلَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يفسد ويلقي العداوة بينهم؛ أي: إنَّ الشيطانَ يفسد بين المؤمنين والمشركين، ويهيّج الشَرَّ بينهم، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال، ويقع الشر والمخاصمة، ومن ثُمَّ نهى رسول الله ﷺ أن يشيرَ الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإنَّ الشَّيْطَانَ ينزغ في يده، فربما أصابه بها، وفي الحقيقة: المعلل محذوف يعلم بطريق المفهوم، تقديرُهُ: ولا يقولُوا غَيْرَ الأحسن، وهو القول الخشن على النفوس، لأنَّ الشيطانَ يَنْزَغ بَيْنَهم.

روىٰ أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا يُشيرنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يَدْرِي لَعَلَّ الشيطان يَنْزِغ في يده، فيقع في حفرة مِنَ النار» وروي أيضاً عن رجل من بني سليط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في رَفْلَةٍ - جماعة - من النَّاس فسمعته يقول: «والمسلم أخو المسلم، لا يَظْلِمْه، ولا يَخْذُلُه، التقوى ها هنا، ووضع يده على صدره» ثم بيَّن سبب نزغ الشيطان

للإنسان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ في قديم الزمان ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾؛ أي: ظاهر العداوة؛ أي: إن بينَ الشيطان والإنسان عداوة قديمةً، مستحكمة لا يريد صلاحَهم أصلاً، بل يريد هلاكهم، وقد أبانَ عَداوَته، إذ أخرج أباهم من الجنة، ونزع عنه لباس النور، كما قال تعالى حكايةً عن الشيطان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقرأ طلحة[1]: ﴿ينزغ﴾ بكسر الزاي. قال أبو حاتم: لعلها لغة، والقراءة بالفتح، وقال صاحب «اللوامع» هي لغة، وقال الزمخشري هما لغتان، نحو: ﴿يَعرشون﴾، و﴿يَعرِشون﴾ ثم فسر سبحانه التي هي أحسن بما علمهم النصفة ـ من الإنصاف ـ بقوله: ﴿رَّبُّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، أي: بعاقبتكم منَّا ﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفّقكم للإيمان، والمعرفة إلى أن تموتوا فينجيكم من العذاب ﴿أَوْ إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن يميتكم على الكفر فيُعَذّبكم، إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم، فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق، ولا تصروا على الباطل، لئلا تصيروا مَحْرُومينَ من السعادات الأبدية.

والمعنى: أي[2] ربكم أيها القوم هو العليم بكم، إن يشأ رحمْتكم بتوفيقكم للإيمان، والعمل الصالح.. يرحمكم، وإن يشأ يعذّبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم، وفي هذا إيماء إلى أنَّه لا ينبغي للمؤمنينَ أن يَحْتَقِرُوا المشركين، ولا أن يَقْطَعُوا بأنهم من أهل النار، ويعيّرُوهم بذلك، فإن العَاقِبَةَ مجهولةٌ، ولا يعلم الغيبَ إلا الله، إلى أنَّ ذلك مما يجر إلى توليد الضغينة في النفوس، بلا فائدة، ولا داعٍ يدعو إليها، وهذا تفسير[3] للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض؛ أي: قولوا لهم: هذه الكلمةَ، وَمَا يشاكِلُها، ولا تُصرّحُوا بأنهم من أهل النار، فإنه مما يهيّجُهم على الشر، هَذا مَا ذَهَبَ إليه صاحبُ «الكشاف»

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وتبعه البيضاوي، وأبو السعود، وقال الجمهور: المراد بالتي هي أحسن: المحاورةُ الحسنة بحسب المعنى، والرحمة الإنجاءُ من كفار مكة، وأذاهم، والتعذيب تسليطهم عليهم، فيكونُ الخطابُ في ربكم للمؤمنين.

ثم وجَّه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون مَنْ دونه أسوة له فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد رقيبا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ حفيظاً لأعمالهم ﴿وَكِيلٗا﴾ عليهم؛ أي موكولاً إليك أمورهم، ومفوّضاً إليكَ شُؤونُهم تجبرهم على الإيمان؛ أي: وما أرسلناك أيها الرسول حفيظاً ورقيباً تقسر الناس على ما يرضي الله، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم ولا تغلظ عليهم، ومُرْ أصحابك بذلك، فإن ذلك هو الذي يؤثِّر في القلوب، ويستهوي الأفئدة، ثم انتقلَ من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه، فقال: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: بأحوالهم الظاهرة والباطنة، فيختارُ منهم لنبوته والفقه في دينه، مَن يراهُ أهْلاً لذلك، ويفضل بَعْضَهم على بعض لإحاطة علمه، وواسع قدرته، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ وهذا أعم من قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ لأنَّ هَذَا يشمل كل ما في السمٰوات والأرض من مخلوقاته، وذلك خاص ببني آدم أو ببعضهم.

وفي هذا: ردٌّ عليهم حين قالوا: يبعُد كل البعد أن يكونَ يَتِيمُ أبي طالب نبياً، وأن يَكُونَ أولئك الجوع العراة كصهيب، وبلال، وخباب، وغيرهم أصحابُه دون الأكابر، والصناديد من قريش، ولا يجوز[1] إطلاق لفظ يَتِيمٍ على النبي ﷺ، لإشعارِه بالتحقير حتى أفتى بعض المالكية بقتل قائله كما في «الشِّفاء» وفي ذِكْرِ[2] مَنْ في السمٰوات ردٌّ لقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وفي ذِكْرِ مَنْ في الأرض ردٌّ لقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾؛ أي: مِنْ إحدى القريتين مكة والطائف كالوليد بن المغيرة المخزومي، وعروة بن مسعود الثقفي، وقيل غيرهما.

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

وهذا كالتوطئة لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: وعزتي، وجلالي لقد فضلنا ورفعنا بَعْضَ النبيينَ والمرسلين على بعض آخرَ منهم، بِمَا لَهُم من الفضائل النفسية، والمزايا القدْسِيّةِ، وإنزالِ الكتب السماوِيَّةِ، فخصصنا كلاً منهم بفضيلة ومزية، ففضلنا إبراهيمَ باتخاذه خليلاً، وموسى بالتكليم، ومحمداً ﷺ بالقرآن الذي أعجز البشرَ، والإسراءِ والمعراج؛ أي: إن[1] هَذَا التّفْضِيلَ عن علمٍ منه بمنْ هو أعلى رتبة، وبمن دونه، وبمن يستحق مزيدَ الخصوصية، بتكثير فضائله، وفواضِله، ونحو الآية قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، ولا خِلاَفَ في أنَّ أُولِي العَزْمِ منهم، وهم الخمسة المذكورون في سورة الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أفضل من بقيتهم، ولا خِلاَفَ في أن محمداً ﷺ أفضلهُم، ثُمَّ إبراهيم، فموسى، فعيسى عليهم السلام، ثُمَّ ذَكَر ما فُضِّل به داود، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾؛ أي: كتاباً مزبوراً؛ أي: إن تفضيلَ دَاوُدَ لم يكن بالملك، بل كان بما آتاه الله من الكتاب، وأفرده بالذكر، لأنه ذكر في الزبور فضل محمد، وأنه خاتم النبيين، وأمتُه خير الأمم، وكون الأرض يَرِثُها عباد الله الصالحون، وهم محمد ﷺ وأمته كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾. قال الزجاج؛ أي: فلا تنكروا تفضيل محمد ﷺ وإعطاءَه القرآنَ، فقد أعطَى الله داودَ زبوراً .اهـ.

وفي هذا[2]: رد لقول اليهود: لا نبيَّ بعد موسى، ولا كتابَ بعد التوراة، فإذا أعطى الله موسى التوراة، فلا يَبْعُدُ أنْ يعطي داود زبوراً، وعيسى الإنجيل، ومحمداً القرآنَ، ولا يبعد أن يفضل محمداً ﷺ على جميع الخلق، فكيف تنكر اليهود ذلك وكُفَّارُ قريش فضل محمد، وإعطاءَه القرآن.

والزبور[3] كتاب أنزل على داود يشتمل على مئة وخمسين سورةً، أطولها

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) الفتوحات.

قَدْرُ ربع من القرآن، وأقصرها قدر سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وكلها دعاء لله، وتحميد وتمجيد وتسبيح، ليس فيها حلالٌ ولا حرامٌ، ولا فرائضُ ولا حدودٌ، ولا أحكامٌ، وقرأ حمزة ﴿زبوراً﴾ بضم الزاي. ذكره البيضاوي.

ونكَّر زبوراً هنا[1]، وعرفه في الأنبياء حيث قال: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ لأنهما واحدٌ كعباس والعباس، وفي قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ إشارة إلى أن فَضْلَ النبي ﷺ على داود، بقَدْرِ فضل القرآن على الزبور. ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين والكفار قاطبةً ﴿ٱدۡعُواْ﴾ عند حلول الشدائدِ بكم الأشخاصَ ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وعبدتموهم مُتَجَاوِزِينَ الله تعالى كعيسى، ومريم، وعزير وطائفةٌ من الملائكة، وطائفةٌ من الجن، وذلك أن[2] الكفارَ أَصَابَهُم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجِيَف، فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم فأنزل الله عز وجل ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ فإنَّ هذا لا يَلِيقُ بالجمادات ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾؛ أي: فلا يملك أولئك المعبودونَ، ولا يستطيعونَ ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾ النازل بكم، وإزالتَهُ ﴿عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ له، ونقله إلى غيركم، أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر، والمعبود الحقُّ هو الذي يقدر على كَشْفِ الضر، وعلى تحويله من حالٍ إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأنَّ هذه التي تزعمونها آلهةً ليست بآلهة.

والمعنى[3]: أي قل - يا محمد - لمشركي قومك الذينَ يعبدون من دون الله من خلقه، ادعوا أيها القوم الذينَ زعمتم أنهم أربابٌ وآلهةٌ من دونه، حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوهما، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم؟ أو تحويله عنكم إلى غيركم، إنهم لا يقدرون على دَفْعِ شيءٍ من ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

ثم إنه سبحانه أكد عَدَمَ اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ودفع المضار، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفته، وضمير الصلة محذوف؛ أي: يدعونهم وخبَرُ المبتدأ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، والوسيلة القربة بالطاعة والعبادة؛ أي[1]: أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين، أعني: عِيسَى، ومريمَ وعزيراً، يبتغون؛ أي: يطلبونَ لأنفسهم الوسيلةَ إلى ربهم؛ أي: القربَ إلى ربهم بالطاعة والعبادة، و﴿أي﴾: في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ موصولة بدل من (واو) ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ أي: يبتغي الذي هو أقرب منهم إلى الله القرب إليه بالعبادة، والطاعة، فكيف بمن دونه من غير الأقرب، قال في «الكواشي»: أو ﴿أَيُّهُمْ﴾ استفهامُ مبتدأ خبره أقربُ، والجملة معمول لمحذوف، والتقدير: يبتغون ويطلبون القربَ إليه تعالى، لينظروا أيَّ المعبودِينَ أقرب إليه تعالى، فيتوسلوا به، والمعنى؛ أي[2]: هؤلاء الذين يدعوهم المشركونَ أرباباً، وينادُونَهم لكشف الضر عنهم، يطلبون مجتهدينَ إلى ربهم، ومالِكِ أمرهم القربَ إليه بالطاعة والعبادة، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: إن أقربَ أولئك المعبودين إلى الله يدعوه ويبتغي إليه الوسيلةَ، والقرب منه، وإذا كان العَجْزُ عن كشف الضر عنكم، والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم، وأدناهم.. فكيف تعبدونهم.

والخلاصة: آلهتُهُم أيضاً يطلبون القربَ إليه تعالى ﴿وَيَرْجُونَ﴾ بفعلهم الطاعة، ﴿رَحْمَتَهُ﴾ تعالى ﴿وَيَخَافُونَ﴾ بمخالفة أمره ﴿عَذَابَهُ﴾ تعالى كدأب سائِرِ العباد، فأَيْنَ هم من كشف الضر؟ فَضْلاً عن الإلٰهية، ثَمَّ ذَكَرَ العِلَّةَ في خوفهم من العذاب، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ أي: حقيقاً بأن يحذره كلُّ أحد حتى الرسل والملائكة، فضلاً عن غيرهما، وإن لم يحذره العصاة لكمال غفلتهم بَلْ يتعرضون له، وتخصيصُه بالتعليل لما أنَّ المَقَامَ مَقَامُ التحذير من العذاب، فعلى العَاقِلِ أن يترك الاعتذارَ، ويحذر من بَطْش القهار.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يدعون﴾ بياء الغيبة، وابن مسعود، وقتادة بتاء

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

الخطاب، وزيدُ بن علي بياء الغيبة مبنياً للمفعول، وقرأ الجمهور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بضمير الجمع الغائب، وقرأ ابن مسعود ﴿إلى ربك﴾ بالكاف خطاباً للرسول ﷺ.

ثم ذكر مَآلَ الدنيا وأهلِها، فقال: ﴿وَإِن﴾ نافية ﴿مِّن﴾ استغراقية ﴿قَرْيَةٍ﴾ قال أبو السعود: المرادُ بها القريةُ الكافرة؛ أي: ما مِنْ قريةٍ من قرى الكُفَّار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾؛ أي: مخربوها البتة بالخسف بها، أو بإهلاك أهْلِها بالكلية حين ارتكبوا من عظائم المعاصي الموجبة لذلك ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ لأن[1] الهلاَكَ يومئذٍ غير مختص بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنما هو لانقضاء عمر الدنيا. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾؛ أي: معذبوا أهلها على الإسناد المجازي ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل والقحط، والزلازل، ونحوها من البلايا الدنيوية، والعقوبات الأخروية؛ لأن التعذيبَ مطلق عمَّا قُيِّد به الإهلاك من قَبْلِية يوم القيامة، وكثير من القرى العاصية قد أخرت عقوباتها إلى يوم القيامة، هذا ما ذهب إليه أبو السعود، ولا يخفى أن هذَا التعميم لا يناسب سَوْقَ الآية، وقيْدُ القبليةِ معتبرٌ في الشق الثاني أيضاً، وهو لا ينافي العذابَ الشديدَ الواقعَ بعد يوم القيامة، فالوجه: حمل الإهلاك على الاستئصالِ، والتعذيبُ: على أنواع البلية التي هي أشد من الموت.

والمعنى[2]: أي وما من قرية من القرى التي ظلم أهلها بالكفر والمعاصي إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء، ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب بسبب ذنوبهم، وخطاياهم، كما قال سبحانه عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاكِ والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، أو في علم الله ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مثبَتاً، أو مَكْتُوباً لم يغادَرْ منه شيء إلا بُيِّن فيه كيفياتُه وأسبابُه الموجبةُ له، ووقته المضروب له.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب؛ فقال: ما أكْتُب؟ قال: اكتب المقدَّر، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

وكان كفار قريش يقولون: يا محمد إنَّك تزعم أنه كان قَبْلَكَ أنبياء منهم من سُخِّرتْ له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فإن سرَّكَ أن نُؤْمِنَ بِكَ، ونُصدِّقَك.. فادع رَبَّك أن يَجْعَلَ لنا الصّفا ذَهباً، فأجاب الله عن هذه الشُّبْهَة بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ (الباء) زائدة، وأن المصدرية في محل النصب بـ ﴿مَنَعَنَا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له؛ أي: وما[1] صرفنا عن إرسال الآيات التي اقْتَرَحتها قريش من إحياء الموتى، وقَلْب الصَّفَا ذهباً، ورفع جبال مكة لِتَنْبَسِط الأرض، وتَصْلُح للزراعة، وإجراءِ الأنهار لِتَحْصُل الحَدائق ونحو ذلك، و(أنْ) في قوله: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ في محل رفع على المفعولية والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء؛ أي: وما منعنا عن إرسالها شيء من الأشياء إلا تكذيبَ الأولين، الذين هم أمثالهم في الطبع، كعاد، وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا تَكْذِيبَ أولئك واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سُنَّتُنا، وقد قضينا أن لا نستأْصِلَهُم؛ لأن فيهم مَن يُؤْمِن أو يلد مَنْ يؤمن، ثم ذكرَ بعض الأمم المُهْلَكة بتكذيب الآيات المقترحة، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ معطوف على معلوم من السياق كأنه[2] قيل: وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولونَ، حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة، فكذبوها، وآتينا ثَمود الناقة حَالَةَ كونها ﴿مُبۡصِرَةً﴾ بكسر الصاد؛ أي: مبيِّنةً مظهرةً لنبوة صالح ﴿فَظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بتكذيبهم. ﴿بِهَا﴾ وأقبَلُوا أنفُسهم للهلاك بعقرها؛ أي: لم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعَلُوا بها ما فَعَلُوا مِنَ العقر، وظلموا أنفسهم، وعرضوها للهلاك بسبب عقرها، ولعلَّ تَخْصِيصَها بالذكر، لأنَّ آثارَ ديارهم الهالكة باقية في ديار العرب، قريبة من حدودهم يَبْصُرها صادرهم وواردُهم، ومعنى الآية؛ أي[3]: إنَّه تعالى لو

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

أظهر تلك المعجزات القاهرةَ، ثمَّ لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم.. لاستحقوا عذابَ الاستئصال كما هي سنتنا في الأمم السَّالفة، لَكِنْ هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون لأن اللَّهَ علم أن فيهم من سيؤمنون، أو يؤمن أوْلاَدُهم، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، ولم يُظْهِرْ لهم تلك المعجزات.

والخلاصة: أنه ما منعنا من إرسال الآية التي سألوها إلا تكذيبَ الأولين بمثلها، فإن أرْسَلْنَاهَا، وكذَّبَ بها هؤلاء عُوجِلُوا ولم يُمْهَلُوا كما هو سنة الله في عباده.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول الله ﷺ: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن شئتم دعوْتُ الله فَأَنْزَلَها عليكم، فإن عَصَيْتُم هَلَكْتُم» فَقَالُوا: لاَ نريدها.

ثمَّ بيَّن: أنَّ الآيات التي التمسوها هِيَ مثل آية ثمودَ، وقد أوتوها واضحةً بينة فكفَرُوا بها، فاستحقُّوا العذابَ، فكيف يتمنَّى مثلَها هؤلاء على سبيل الاقتراح، كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ وهذا معطوف على محذوف كما سبق آنفاً؛ أي: وقد سألَتْ ثَمُودُ من قبل قومك الآيات، فآتيناها ما سألت، وجعلنا لها الناقةَ حجة واضحة، دالَّةً على وحدانية من خلقها، وصدْقِ رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها، فكفروا بها، ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله تعالى، وانتقَم منهم، وأخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثَمُودَ﴾ ممنوعَ الصرف، وقال هارون: أَهْلُ الكوفة يُنَوِّنونَ ثمودَ في كل وجه، وقال أبو حاتم: لا تنوّنُ العامَّةُ والعلماءُ بالقرآن ثمودَ في وجهٍ من الوجوهِ، وفي أربعة مواطِنَ ألف مكتوبة، ونحن نقرؤها بغير ألف انتهى. وانتصب مبصرةً على الحال، وهي قراءة الجمهور، وقرأ زيد بن عليّ ﴿مبصرةٌ﴾ بالرفع على إضمار مبتدأ؛ أي: هي مبصرةٌ، وأضاف الإبصار إليها على سبيل المجاز، لما كانَتْ يبصرُها الناسُ، والتقدير: آيةٌ مُبْصِرَةٌ، وقرأ قوم

(١) البحر المحيط.

بفتح الصاد، اسمُ مفعول؛ أي: يبصُرها الناس، ويشاهدونها، وقَرأَ قَتَادَةُ: بفتح الميم والصاد، مفعلة من البصر؛ أي: محل إبصار، أجراها مجرى صفات الأمكنة، نَحْو: أرض مَسْبَعة، ومكان مَضَبَّة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصل على المقترحين، فإن لم يخافوا ذلك، نَزَلَ أو بغير المقترحة، كالمعجزات، وآثار القرآن، إلاَّ تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنَّ أمر من بعثت إليهم مؤخر إلى يوم القيامة كرامة لك. أو المعنى؛ أي: إنَّ الله تعالَى يخوّف الناس بما شاء من الآيات، لعلهم يعتبرونَ ويذكرون، فيرجعوا.

ذكر المؤرخون أنَّ الكوفة رجفت ـ زلزلت ـ في عهد ابن مسعود، فقال: أيها النَّاسُ إنَّ رَبَّكُمْ يستعتِبُكُمْ فأَعْتِبُوه، ورويَ أنَّ المدينةَ زلزلت في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرات، فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلَنَّ ولأفعلنَّ، وفي الحديث الصحيح: «إن الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله، وإنَّهما لاَ ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عبادَه، فإذا رأيتم ذلك فأفزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره» ثم قَال: «يا أُمَّةَ محمد، والله ما أحد أَغْيَر من الله أن يَزْنِيَ عَبْدُه أو تَزْنِي أَمَّتُه» يا أمة محمد، والله لو تَعْلَمُون ما أعلم.. لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»، ثم قال سبحانه محرّضاً رسولَه على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عَصَمَه من الناس. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ أوحينا إليك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي: علماً وقدرةً فهم في قبضته فَامْض لأمرك، ولا تَخَفْ أحداً؛ أي: واذكرْ إذ أوحينا إليكَ أنَّ ربك هو القادر على عباده، وهم في قبضته، وتحت قهره، وغلبته، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائِهِ، وقَدَره، وقد عَصَمَكَ من أعدائك، فلا يقدرون على إيصالِ الأذى إليك كما قال ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وخلاصة ذلك: أن الله ناصرك ومؤيدك حتى تُبَلّغَ رِسَالَتَهُ وتُظهر دينه قال الحسن: حالَ بينهم وبين أن يقتلُوه، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾؛ أي: أُريتها ليلةَ الإسراءِ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي إلاً امتحاناً، واختباراً للناس، فأنكرها قومٌ وكذبُوا بها، وكفر كثيرٌ ممن كان قد آمن به، وازْدَادَ المخلِصُون إيماناً، والمرادُ بالرؤيا: ما عايَنَهُ عليه السلام لَيْلَةَ المعراج من عجائب الأرض والسماء، والتعبير عن ذلك بالرؤيا: إمَّا لأنه لاَ فَرْقَ بينه وبين الرؤيا كما في «الكواشي» الرؤيا تكون نَوْماً ويَقظَةً كالرؤية، أو لأنها وَقَعت بالليل، وتقضت بالسرعة، كأنها منامٌ، أو لأن الكَفَرَةَ قالوا: لَعَلَّها رُؤْيَا، فَتَسْميتها رُؤْيا على قول المكذبين، قال في «الحواشي السعدية»: قد يقال: تسميتها رُؤْيَا عَلَى وَجْه التشبيه والاستعارة لِمَا فِيها منَ الخوارق التي هي بالمنام أليق في مجاري العادات. انتهى.

وقوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ معطوف على الرؤيا، والمراد بلعنها فيه: لعن طَاعِمِها على الإسناد المجازِي، أو إبعادها عن الرحمة، فإنَّ تِلكَ الشجرةَ التي هي الزقوم، تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة؛ أي: وما جَعَلْنَا الشجرة الملعونة؛ أي: الملعونُ آكلها المذكورة في القرآن، أو المذمومةُ، أو المؤذيةُ؛ لأن الْعَرَبَ تقول لكل طعام ضار مَلْعُونٌ، إلا فتنة واختباراً لِلنَّاس، فإنهم حين سَمِعُوا ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ اختلفوا: فقوم ازْدَادُوا إيماناً، وقوم ازدادوا كُفراً، كأبي جهل إذْ قال: إنَّ ابْنَ أبي كَبَشة - يعني النبيَّ ﷺ - توعَّدكم بنار تحرق الحجارة، ثُمَّ يزعمُ أنها تنبت شجرة، وتعلمون أنَّ النار تحرق الشجر ولقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابَرُوا قَضِيَّةَ عقولهم، فإنهم يَرَوْنَ النعامة تَبْتَلِعُ الجمرَ وقطعَ الحديد المحماة فلا يضرُّها، ويشاهدون المناديل المُتَّخِذَةَ من وبر السمندل تُلقى في النار، ولا تؤثر فيها، والسمندل: هي دويبة في بلاد الترك، يتخذ من وبره مناديل، فإذا اتسخت طرحت في النار، فيذهَبُ وسخها، وتبقى هي سالمة لا تعمل فيها النَّارُ، قال في «الكشاف»: وقد فات هؤلاء أنَّ في الدنيا أشياءَ كثيرةٌ لا تحرقها النار.

والخلاصة: أنَّ هؤلاء المشركينَ فُتِنُوا بالرؤيا، وفُتنوا بالشجرةِ ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾؛ أي: ونخوِفُ كفَّارَ مكَّةَ بمخاوف الدنيا، والآخرةِ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا

طُغْيَنًا كَبِيرًا﴾ وعتواً متجاوزاً الحَدَّ؛ أي: إلا تمادياً في الطغيان والضلال، فلو أننا أنزَلْنَا عليهم الآيات التي اقترحوها.. لم يَزْدَادُوا بها إلاَّ تَمَرُّداً، وعناداً، واستكباراً في الأرض، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة، من عذاب الاستئصال، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم، إلى حلول الطامة الكبرى، والكلام مسوق لتسليته ﷺ على ما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة، إلى إنزال الآيات المقترحة، لمخالفتها للحكمة من الحزن، لِطَعن الكفار، إذْ رُبَّمَا يقولون: لو كنت رسولاً حقاً.. لأتيت بمثل هذه المعجزات التي أتَى بها من قَبْلك مَنْ الأنبياء والمرسلين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ عطفاً على الرؤيا، فهي مندرجة في الحَصْر؛ أي: وَمَا جعلنا الرؤيَا التي أريناك، والشَّجَرَةَ الملعونةَ في القرآن إلاّ فتنة للناس، وقَرَأَ زيدُ بن علي برفع ﴿والشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ على الإبتداءِ، والخَبَرُ محذوف تقديرُهُ: كذلك؛ أي: فِتْنَةٌ وقرأ الأعمش ﴿ويُخَوّفُهم﴾ بياء الغيبة، والجمهور بنون العظمة.

وذكر سبحانه وتعالى قَصَصَ آدم مَعَ إبليس في سبع سور: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهفْ طه، صَّ، وقد تقدم الكلام فِيهَا فيما سَلَفَ من تلك السور، وها نحن نُفسرها في هذه السورة ﴿و﴾ اذكر يا محمد لقومك قِصَّةَ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: قِصَّةَ وَقْتِ قَوْلِنَا للملائكة ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ تَحِيَّة، وتكريماً لما لَهُ من الفضائل المستوجبة لذلك.

وفي الحقيقة[2]: كانت السجدة للحق تعالى، وكان آدم بمثابة الكعبة قبلةً للسجود، ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾؛ أي: سجدت الملائكة كلهم أجمعون من غير تباطؤ، أداء لحقه عليه السلام، وامتثالاً لأمره تعالى، فدل ائتمارهم بأوامر الحق، والانتهاء عن نواهيه على السعادة الأزَلِيَّةِ، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنه أبى واستكبرَ فدل استكبارُه

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وإباؤه على الشقاوة الأزلية، إذ الأبد مِرْآةُ الأزل، يظهَرُ فيها صورةُ الحال سعادةً وشقاوةً.

قال في «بحر العلوم»: استثني[1] إبليس من الملائكة وهو جنّيّ؛ لأنه قد أمر بالسجود معهم، فغُلِّبوا عليه تغليبَ الرجال على المرأة، في قولك: خرجوا إلا فلانةَ، ثُمَّ استثني الواحد منهم استثناء متصلاً.

﴿قَالَ﴾؛ أي: إبليس اعتراضاً، وعجباً، وتكبراً، وإنكاراً عندما وبَّخهُ الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿ءَأَسۡجُدُ﴾، وأنا مخلوق من العنصر العالي، وهو النار ﴿لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾؛ أي: لمن خلقته من طين؛ أي: ما صح مني أن أسْجُدَ له واستحالَ ذلك مني، لأنَّ الاستفهامَ فيه إنكاري، فهو بمعنى النفي.

وحاصل المعنى: أي[2] واذْكُر أيها الرسول لقومك عداوةَ إبليس، استكبرَ وأبَى أن يَسْجُدَ له افتخاراً عليه، واحتقاراً له، وقال: أأسجد لمَن خلقْته من الطين، وأنا مخلوق من النار، كما جاء في الآية الأخرى ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ فكَفَر بنسبة ربه إلى الجَوْر بتَخَيّله أنه أَفْضل من آدم من قِبَل وأَنَّ الفُرُوعَ ترجع إلى الأصول، وَأَنَّ النَّارَ ـ التي هي أصله ـ أكرم من الطين الذي هو أصل آدم، وقد فَاتَهُ أنَّ الطّينَ أَنْفَعُ من النار، ولئن سلم غير هذا، فالأجسامُ كلّها من جنس واحد، والله هو الذي أوجدها من العدم، ويفضل بعضها على بعض، بما يَحْدُث فيها من الأعراض، فَاسْتَحَقّ اللعن والطردَ والبعدَ. ﴿قَالَ﴾؛ أي: إبليس أيضاً بعد الاستنظار لربه، جرأةً وكفراً، والربُّ يحلم ويُنظِرُ ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾؛ أي: أخبرني يا إلهي ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾، أي: أخبرني عن هذا الذي فضّلته علي، لم فضلته علي، وقد خلقتني من نار، وخلقته من طين، وهل يُوجَدُ ما يدعو إلى تفضيله عليَّ، وهذا كلام قاله على وَجْهِ التعجب والإنكار؛ أي:

---

(١) السمرقندي.

(٢) المراغي.

قال إبليس بَعْدَمَا لُعن وطُردَ وأُبعد إظهاراً للعداوة، وإقداماً على الحَسَدِ: وعزتك وجلالك ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: لئن أنظرتَنِي حَيّاً إلى يوم القيامة ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾؛ أي: لأَسْتَأْصِلَنَّ ولأغوينَّ ﴿ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ وأولاده، ولأستولين عليهم استيلاء قوياً بالإغواء والإضلال، أو لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابةُ بحبلها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم لا أقدرُ أن أقاوِمَ شَكِيمتَهم، وهذا القليل هم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وإنما[1] أقسم اللعين هذا القَسَمَ على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذَكَرهُ، لما ظنهُ من قوة نفوذ كيده في بني آدم، وأنه يجري منهم في مجاري الدم، وأنهم بِحَيْثُ يروجُ عندهم كيده، وتنفق لديهم وسوستُه، إلا من عَصَم الله تعالى، ويؤيِّدُ هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فإنه يفيد، أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن، وقيل: إنه استنبطَ ذلك من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وقيل: عَلِمَ ذلك من طبع البشر؛ لما رُكِّب فيهم من الشهوات، أو ظَنَّ ذلك لأنه وسوس لآدم، فقبل منه ذلك ولم يَجِدْ له عزماً، كما روي عن الحسن.

وقرأ ابن كثير[2]، ونافع وأبو عمرو ﴿وأخرتني﴾ بياءٍ في الوصل، ووَقَفَ ابن كثير بالياء، وقرأ ابن عامرٍ، وعاصم، وحمزة، والكسائي بغير ياء في وصل ولا في وقفٍ، هذا كله في حرف هذه السورة، أمَّا الذي في المنافقون في قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فالياء ثابتة للكل لثبوتها في الرسم الكريم، اهـ «سمين».

ثمَّ ذَكَر سبحانه أنه أَجَابَهُ إلى النَّظِرَةِ، وأخره إلى يوم الوقت المعلوم بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لإبليس اللعين: ﴿ٱذْهَبْ﴾ على طريقتك السوء بالإغواء والإضلال، أو امض لشأنك الذي اخْتَرْتَه، ولِمَا سولته لك نفسك، وقد أخرتك، وهذا كما تَقُول لِمَن يُخالِفُكَ: افعل ما تريدُ.

---

(١) الشوكاني.

(٢) زاد المسير.

وفي «بحر العلوم»[1]: ليسَ من الذهاب الذي هو نقيض المجيءِ، بَلْ معناه: امض لمَا قصدتَه، أو طردت له، تخلية بينه وبين ما سولت له نفسه، أو هو على وجه الإهانَةِ والتهديدِ، تقول لمن لا يقبل منك: اذهَبْ وكُنْ على ما اخترت لنفسك. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ على الضلالة ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾؛ أي: جزاؤُك وجزاؤُهم، فَغَلَّبَ المخاطبَ رعاية لحق المتبوعية، ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ نصب على المصدرية بإضمار فعلِهِ؛ أي: تجزون جزاء مكملاً من وفر الشيء إذَا كمل.

والمعنى: فمن أطاعك من ذرية آدم، وضلَّ عن الحق، فإن جَزاءَكَ على دعائك إياهم، وجزاءَهم على اتباعهم لك وخلافِهم أمري جزاءٌ موفور، لا ينقص لكم منه شيءٌ بما تستحقون من سيء الأعمال، وما دنَّستم به أنْفُسَكُم من قبيح الأفعال، ثم قال تعالى مهدداً له: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾؛ أي: استزل واستخف وأزعج وحرك ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾؛ أي: مِنْ ذرية آدم استزلاله وإزعاجَهُ ﴿بِصَوْتِكَ﴾؛ أي: بوسوستك ودعائك إلى معصية الله تعالى، وقيل: أراد بصوتك الغناءَ، والمزامِيرَ، واللهوَ واللعبَ ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾؛ أي: وَصِحْ على من استطعت من ذرية آدم مصحوباً ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾؛ أي: بِأَعْوَانِك وأنصارك الركاب والمشاة.

فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال: كل راكب أو ماش في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده، وفي «الكواشي»[2]: جلب وأجلب واحدٌ بمعنى: الحث والصياح؛ أي: صِحْ عليهم بأعوانك، وأَنْصَارِكَ من راكب وراجل من أهل الفساد، والخَيْلُ الخيَّالَةُ بتشديد الياءِ، وهي أصحاب الخيول، والرَّجْل بالسكون بمعنى الراجل، وهو من لم يكن له ظهر يركبه.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: إن خيلاً وَرَجلاً من الجن والإنس، فما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، وما كان من راجل يقاتل في معصية الله فهو من رَجْل إبليس.

---

(١) السمرقندي.

(٢) روح البيان.

وقال الزجاج[1]: أي اجْمَعْ عليهم كل ما تقدرُ عليه من مكايدك، فالإجلاب: الجمع و(الباء) في بخيلك زائدة، وقال أبو زيد: فالخيل والرجلُ كناية عن جميع مكايد الشيطان، أو المراد كل راكب وراجل في معصية الله.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بِحَمْلِهِم على كسبها أو جَمْعِها من الحرام، والتصرُّف فيها على ما لا ينبغي من الربا، والإسراف، ومنع الزكاة وغير ذلك، وقال الحسن: مرهم أن يكسبوها من خبيثٍ، وينفقوها في حرام. ﴿و﴾ شاركهم في ﴿الأولاد﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة، والوأد، والإشراكِ كتسميتهم بعبد اللات، وعبد العزى، وعبدِ مناة، والتضليل بالحمل على الأديان الزائِغَةِ، والحِرَفِ الذميمة، والأفعال القبيحة.

وقال الشوكاني: أمَّا المشاركة في الأموال[2]: فَهِيَ كل تصرف فيها يخالف مِيزَانَ الشرع سواء كان أخذاً منْ غير حق، أو وضعاً في غير حق، كالغصب والسرقة، والربا، ومن ذلك تَبْتِيكُ آذان الأنعام، وجعلها بَحِيرَةً وسائبة، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي، وتحصيله بالزنا، وتسميتهم بعبد اللات، وعبد العزى، والإساءةُ في تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر، وأفعال السوءِ، ويدخل فيه ما قَتَلُوا من أولادهم خشية إملاق، ووأدُ البنات، وتصييرُ أولادهم على الملة الكُفْرية التي هم عليها، ومن ذلك مشاركة الشَّيْطَانُ للمُجَامِعِ إذا لم يُسَمِّ .اهـ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ورَجْلِك﴾ بفتح الراء وسكون الجيم، وهو اسم جمع واحدُهُ راجلٍ كرَكْبٍ، وراكب، وقرأ الحسن وأبو عمرو ـ في رواية ـ وحفصٌ بكسر الجيم ـ قال صاحب ـ «اللَّوامح»: بمعنى الرجال، وقرأ قتادةُ وعكرمةُ ﴿ورجالك﴾ وقرىء ﴿ورجّل لك﴾ بضم الراء وتشديد الجيم ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، والأمانيَ الكاذبةَ، وأخبرهم الأخبارَ العاطلةَ الغارةَ لهم كشفاعة الآلهة،

---

(١) الشوكاني.

(٢) فبح القدير.

(٣) البحر المحيط.

والاتكال على كرامة الآباءِ، وتأخير التوبة بتطويل الأمل، وإخبارهم أنْ لاَ جَنَّة ولا نارَ ونحو ذلك.

وخلاصة ذلك[1]: أنه يُغْويهم بأن لا ضَرَرَ مِن فعل هذه المعاصي، فإنه لا جنة ولا نار، ولا حياةَ بعد هذه الحياة، وإنها سبيل اللذَّة والسُّرور، ولا حياة للإنسان إلاّ بها، فتفوِيتُها غَبْنٌ وخُسْرانٌ وقال الشاعر:

خُـذُوْا بِـنَـصِـيْـبٍ مِـنَ سُـرُوْرٍ وَلَـذَّةٍ ... فَـكُـلٌّ وَإِنْ طَـالَ الْـمَـدَىٰ يَـتَـصَـرَّمُ

وينفِّرهم من الطاعة بأَنْ لا فائدةَ فيها، إذ لا رَجْعةَ بعد هذه الحياة، فهي عَبَثٌ مَحْضٌ. فهذه بعض تلبيسَات الشيطان، وهذه خدعة.

قال في «بحر العلوم»[2]: هذه الأوامر المذكورة كلُّها وَارِدَة على طريق التهديد كقوله للعصاة: اعْمَلُوا ما شئتم، وقيل: على سبيل الخذلان والتخلية اهـ. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: إلا بَاطِلاً؛ أي: وما يخبرهم من الأماني الكاذبة، إلاَّ خبراً باطلاً عاطلاً، لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله شيئاً إذا نزل بهم، فمواعيده خدعة. يزينها لهم، ويلبّسها ثَوبَ الحق كما قال إبليس إذ حصحص الحقُّ يومَ يقضِي ربّـك بـالـحـق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

وهذه الجملة[3] اعتراض واقع بين الجمل التي خَاطَبَ الله بها الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الذين أطاعوني، فاتَّبعوا أمري، وعصوك ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على إغوائِهم وإضلالهم ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تَسَلُّطٌ وقدرةٌ، فلا تقدر أن تُغويهم، وتحملَهم على ذنب لا يغفر، فإني قد وفقتهم بالتوكُّل عليَّ فَكفيتهم أمرك، والإضافة في قوله: عبادي للتشريف، وفيه تعريضٌ بأنَّ مَنْ تَبِعَه ليس منهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾؛ أي: مَالِكُ أَمْرِكَ ومُغْوِيكَ وخَاذِلُك يا إبليس من جهة كونه: ﴿وَكِيلًا﴾ أي: حَافِظاً لهم، فهم يتوكلون عليه، ويستمدون منه العون في الخلاص من إغوائك

---

(١) المراغي.

(٢) السمرقندي.

(٣) المراح.

ووسوستك، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يحترز[١] بنفسه عن مواقع الضلال؛ لأنه لو كان الإقدامُ على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسانَ من نَفْسِهِ.. لَوَجَبَ أن يقال: وكفى بالإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان، فلما لَمْ يقل ذلك، بل قال: وكفى بربك وكيلاً.. علمنا أنَّ الكُلّ من الله تعالى، ولهذا قال المحققون: لاَ حَولَ عن معصية الله إلا بِعِصْمَةِ الله، ولا قُوَّةَ على طاعَةِ الله إلاّ بقوته .اهـ كرخي.

وقوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ تعليل[٢] لكفايته، وبيانٌ لقدرته على عصمةِ مَنْ توكل عليه في أموره، وهذا شروع في تذكير بعض النعم عليهم، حَملاً لهم على الإيمان .اهـ شيخنا ﴿رَّبُّكُمُ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: مالككم هو القادر الحكيم الذي ﴿يُزۡجِى﴾ ويجري ويسوق بقدرته الكاملة ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ أي: السفن ﴿فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾ قال في «القاموس»: البَحْرُ الماءُ الكثير، ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾؛ أي: لتطلبوا ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: من رزق هو فضل من قِبَلِهِ؛ أي: لتبتغوا الرِّبْحَ وأنواعَ الأمتعة التي لا تكون عندكم .اهـ بيضاوي. و﴿مِنْ﴾ زائدة في المفعول ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه، وسهل عليكم ما يَعْسر من أسبابه، فالمُرادُ: الرَّحْمَةُ الدنيويةُ، والنعمة الْعَاجِلَةُ المنْقَسِمَةُ إلى الجليلة والحقيرة.

والمعنى: أي إنَّ ربكم أيها القوم، هو القادر الحكيم، الذي يُجري لنَفْعِكُم السفنَ في البحر بالريح اللينة، أو بالآلات البخارِية، أو الكهربائِية لتسهيل نقل أقواتكم، وحجاجكم من إقليم إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أدناها، والعكس بالعكس، ونقلِ أشخاصكم من قطر إلى قطر، ابتغاء للرزق أو للسياحة، ورؤية مظاهرِ الكون على اختلاف الأصقاع، مما يرشد على باهر القدرة، ووافر النعمة عليكم، إنه كان بكم رحيماً، إذ سهل ما فيه الفوائد المَرْجُوَّةَ لكم في هذه الحياة، ثم خَاطَبَ الكفار، بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: الشِدَّةُ، وخوف

---

(١) الفتوحات. (٢) زاده.

الغرق ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾، وذَهَبَ، وغَابَ عن أوهامكم وخَوَاطِرِكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾؛ أي: كُلَّ من تدعون، وتستغيثون به من حوادثكم، من الأصنام وغيرها. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: إلا اللَّهُ تعالى، وحده، فإِنَّكُم لا تذكرون سواه، ولا يَخْطُرُ ببالكم غيرهُ؛ لأنه القادر على إغاثتكم ونجاتكم.

وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل[1]: ﴿ضل من يدعون﴾ بالياء، والمعنى؛ أي: وإذَا نالتكم شِدَّة جهد في البحر، ذهب عن خواطركم كل من تدعونه، وترجون نَفْعَهُ من صنم، أو جن، أو ملك، أو بشر، أو حجر، فلا تَذْكُرونَ إلا الله، ولا يخطر على بالكم سواه، لكشف ما حل بكم.

وخلاصة ذلك: أنكم مَسَّكُم الضر دَعَوْتُم الله مُنِيبِينَ إليه، مخلصين له الدينَ ﴿فَلَمَّا نَجَّنكُمْ﴾؛ أي: أَجَابَ دُعَاءَكم، وأنجاكم من هولِ البحر وشدته، وأخرجكم ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾؛ أي: عن الإيمان والإخلاص، والطاعة، ورجعتم إلى عبادة الأوثان، وكفرتم النِّعْمَةَ وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَنُ﴾؛ أي: جنسُ الإنسان ﴿كَفُورًا﴾؛ أي: كثيرُ الكفران للنعمة، ولم يقل[2]: وكنتم كفورا ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة، والمعنى: أي[3] ومن عجيبِ أمركم أنكم حين دعوتموه، وأغاثكم، وأجاب دعاءكم، ونَجَّاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عن الإخلاص، ورجعتم إلى الإشراك به كفراً منكم بنعمته، ثُمَّ علل هذا الإعراض بقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَنُ كَفُورًا﴾؛ أي: وكانت سجية الإنسان وطبيعته أَن ينسَى النِّعَمَ ويَجْحَدَها إلا مَنْ عصمه الله تعالى.

وخلاصة ما سلف: أنكم حينَ الشدائدِ تجأرون طالبينَ رحمتَه، وحين الرخاء تعرضون عنه، ثمّ حذر من كُفْرَانِ نعمته فقال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري. و(الفاء) عاطفة على محذوف، والخطاب فيه للسابق ذكرهم، والتَّقدير: أَنَجَوْتُم فأَمِنتُمْ أيها الناجون المعرضون

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

عن صُنْع الله الذي نجاكم من أن يَخْسِفَ الله سبحانه وتعالى ويَقْلِبَ جَانِبَ البر وناحيته الذي كنتم عليه حالةَ كون ذلك الجانب مصحوباً بكم، فيحصل بخَسْفِهِ إهلاكُكُم، و﴿بكم﴾ حالٌ من جانب البر، وهو مفعول به لخسف، والمعنى: إنَّ الجِهَاتِ كلَّها له، وفي قدرته برّاً كان أو بحراً، بل إن كان الغرقُ في البحر ففي جانب البر ما هو مثْلُه، وهو الخَسْفُ لأنه يُغَيِّبُ تحت الثرى كما أنَّ الغرقَ يُغَيِّبُ تحت الماء . . اهـ خازن.

قال الزمخشري[1]: و(الفاء) للعطف على محذوف تقديرُهُ: أنجوتمْ فأمنتم انتهى، وتقدم لنا الكلامُ معه في دعواه أنَّ (الفاءَ) و(الواو) في مثْل هذا التركيب للعطف على محذوفٍ بَيْنَ الهمزة وحرف العطف، وأنَّ مَذْهَبَ الجماعة أن لاَ مَحْذُوفَ هُنَاكَ، وأنَّ الْفَاءَ والواو للعطف على ما قبلها، وأنه اعتُنِيَ بهمزة الاستفهام، لكونها لها صدر الكلام، فقدمت، والنية التأخير، وأن التقديرَ: أفأمنتم، وقد رجع الزمخشري إلى مذهب الجماعة. ﴿أَوْ﴾ أمنتم أن ﴿يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ من فوقكم ﴿حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً ترمي الحصباء، وهي الحصى الصغار، يرجمكم بِهَا فيكون أشدَّ عليكم من الغرق في البحر، وقيل: أي أو يمطرَ عليكم حَصْبَاءَ كما أرسلها على قوم لوط، وأصحاب الفيل، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: حفظياً يحفظكم من ذلك، وناصراً يَصْرِفُهُ عنكم، فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

والمعنى: أي أفحَسِبْتُم[2] أنكم بُخُرُوجِكُمْ إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه، فهو إنْ شاء. . خسف بكم جانب البر وغيّبه في أعماق الأرض، وأنتم عليها، وإن شاءَ. . أمطَرَ عليكم حجارةً من السماءِ تقتلكم كما فعل بقوم لوط، ثُمَّ لا تجدُون من تكلون إليه أموركم، فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره جل وعلا.

وخلاصة ذلك: إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

فوقكم بريح يرسلها عليكم، فيهَا الحصباءُ يرجمكم بها، فيكونَ أشدَّ عليكم من الغرق في البحر.

و(أم) في قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ منقطعة تقدر بـ(بل) وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أأمنتم ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في البحر بعد خروجكم إلى البر وسلامتكم ﴿تَارَةً﴾؛ أي: مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾ بخلق دواعٍ وأسباب تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه، فإسناد[1] الإعادة إليه تعالى مع أنَّ العَوْدُ إليه باختيارهم باعتبار خَلْقِ تلك الدواعِي الملجئة، وفيه إيماءٌ إلى كَمَالِ شدة هول ما لاقوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادة لما عادوا، وأوثرت كلمة (في) على كلمة (إلى) المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر ﴿قَاصِفًا﴾، أي: شديداً ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ كاسراً لما مر عليه، والقاصف من الريح هي التي لا تمر بشيء إلا قصفته؛ أي: كسرته، وجعلَتْه كالرميم، وذَكَّرَ قاصفاً؛ لأنه ليس بإزائِه ذَكَرٌ فَجَرى مجرى حائض كما في «الكواشيِ» ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ سبحانه بعد كسر فلككم كما ينبىء عنه عنوانُ القصفَ ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: بسبب إشراككم وكفرانكم، لنعمة الإنجاءِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾ ناصراً ﴿لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بإغْرَاقِكم ﴿تَبِيعًا﴾؛ أي: ثائراً، ولا طالباً يطالبنا بثأر إغراقكم، أو بصرفه عنكم، والمعنى؛ أي: أم أمنتم أيها المعرضون عَنَّا بعدما اعترفتم بتوحيدنا في البحر، حتى خرجتم إلى البر، أَنْ يُعِيدَكم فيه مَرَّةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عليكم ريحاً تقصف السَّوَارِي، وتغرق المَرَاكِبَ بسبب كفركم، وإعراضكم عن الله، ثُمَّ لا تجِدوا لكم نصيراً يعينكم، ويأخذ بثأركم، وقال قتادة في تفسيرها: أي: لا نخاف أحداً يتبعنا بشيء مِمَّا فَعَلْنا، يُرِيدُ أنكم لا تجدون ثائراً يطلبُنا بما فعلنا انتصاراً منا، أو دركاً للثأر من جهتنا، وفي معنى الآية قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، وفي الآية وعيد أيما وعيد، فكأنه قيل: ننتقم منكم من غير أن يكونَ لكم نصيرٌ يدفع عنكم شديد بأسنا.

---

(١) روح البيان.

وقرأ ابن كثير[1]، وأبو عمرو، ﴿نخسف﴾ و﴿أو نرسل﴾ و﴿أن نعيدكم﴾ و﴿فنرسل﴾ و﴿فنغرقكم﴾ خمستها بالنون، وباقي القراء بياء الغيبة، وقرأ مجاهد، وأبو جعفر، فتغرقكم بتاء الغائبة مسنداً إلى الريح، وقرأ الحسن، وأبو رجاءٍ، فيغرقكم بياء الغيبة وفتح الغين، وشدّ الراءِ عَدَاهُ بالتضعيف، والمقرىء لأبي جعفر كذلك إلاَّ بتاء الغيبة، وقرأ حميد بالنون، وإسكان الغين وإدغام القاف في الكاف، ورويت عن أبي عمرو وابن محيصن، وقرأ الجمهور من الريح بالإفراد، وأبو جعفر من الرياح جمعاً، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ (الواو) عاطفة أو استئنافية ﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على ما سبق من الأوامر، ليستكمل التعاليم التي بها قوام أمورهم، أو مستأنفة ﴿لِّعِبَادِى﴾ جار ومجرور متعلق به، ﴿يَقُولُوا۟﴾ فعل مضارع بمعنى يذكروا.. مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون، و(الواو) فاعل ﴿ٱلَّتِى﴾ في محل النصب على المفعولية على كونها صفةً للموصوف المحذوف، تقديره: يقولوا الكلمةَ التي هي أحسن، والمراد بالكلمة: الكلمة اللغوية، على حد قول ابن مالك: وكلمة بها كلام قد يؤم ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملةُ صلةُ الموصول، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَنزَغُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الشيطان ﴿لِلْإِنسَـٰنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عَدُوًّا﴾ ﴿عَدُوًّا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿مُّبِينًا﴾ صفة لـ﴿عَدُوًّا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾،

(١) البحر المحيط.

وجملةُ ﴿إن﴾ مسوقة لتعليل قوله: ﴿يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿إِن يَشَأْ﴾ جازم وشرط مجزوم، وفاعله ضمير يعود على الرب ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة الشرطية مستأنفة ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل ﴿إِن يَشَأْ﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعله ضمير يعود على الرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم على كونه جوابَ الشرط، والجملة الشرطية معطوفة على الشرطية الأولى ﴿وَمَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة الشرط ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿وَكِيلًا﴾ ﴿وَكِيلًا﴾ حال من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: وما أرسلناك إليهم حالةَ كونك موكولاً إليه أمرهم فتحاوِلُ هِدايتهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ﴿بِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية و(اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿فَضَّلْنَا﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَضَّلْنَا﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ فعل

وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾ ﴿زَعَمْتُم﴾ فعل وفاعل ومفعولا ﴿زعم﴾ محذوفان للعلم بهما، تقديره؛ زعمتموهم آلهةً، وجملة زعم صلة الموصول ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من الموصول، لأن في الكلام تقديماً، وتأخيراً، تقديره: قل ادعوا الذين من دونه، زَعَمتم أنهم شركاء لله، فلا يَرِدُ السؤالُ، كيف قال من دونه مَعَ أَنَّ المشركين، ما زعموا غَيْرَ الله إلٰهاً دون الله، بل مع الله على وجه الشركة اهـ كرخي. ﴿فَلَا﴾ (الفاء) استئنافية ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ فعل وفاعل ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق بـ﴿كَشْفَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة (لا) نافية ﴿تَحْوِيلًا﴾ معطوف على ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ واقع على الذينَ زعموهم آلهة من العقلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو عطف بيان عليه ﴿يَدْعُونَ﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ويجوز لك أن تعرب الذين هو الخبر، وجملةُ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿أَيُّهُمْ﴾ أي: اسم موصول في محل الرفع بدل من فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ و(الهاءُ) مضاف إليه ﴿أَقْرَبُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو أقربُ والجملة صلة الموصول، ويجوز أنْ تعرب﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ على الابتداء، والخبر على جعل أيٍّ استفهاميةً، والجملة الاسمية في محل النصب على إسقاط الخافض على إضمار فِعْلِ التعليق، تقديرُهُ: ينظرون في أيهم أقرب، وجملة الفعل المعلق حال من فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَرْجُونَ﴾. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ ناصب واسمه، ومضاف إليه ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾ فعل ناقص وخبره واسمه ضمير يعود على العذاب، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة الخوف.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إن﴾ نافية ﴿مِّن﴾ زائدة ﴿قَرْيَةٍ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ مبتدأ، وخبر ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بـ ﴿مُهْلِكُوهَا﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ معطوف على ﴿مُهْلِكُوهَا﴾ ﴿عَذَابًا﴾ مفعول مطلق لـ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ ﴿شَدِيدًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بـ﴿مَسْطُورًا﴾ ﴿مَسْطُورًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿مَنَعَنَآ﴾ فعل ومفعول أول ﴿أَن نُّرْسِلَ﴾ ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعول الإرسال محذوف، تقديره: نرسل رسولاً ﴿بِٱلْءَايَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نُّرْسِلَ﴾ أو حال من المفعول المحذوف، تقديره: أن نرسل رسولاً حالةَ كونه مُلْتَبِساً بالآيات، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مَفْعُولاً ثانياً لِـ﴿منع﴾ تقديره؛ وما منعنا إرسال رسول بالآيات ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أَن كَذَّبَ﴾ ناصب ومنصوب ﴿بِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لـ ﴿منع﴾ تقديره: وما منعنا إرسال رسول بالآيات إلا تكذيب الأولين بها، وجملة ﴿منع﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة مستأنفة ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال من ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾. ﴿فَظَلَمُوا۟﴾ (الفاء) عاطفة ﴿ظلموا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهَا﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتينا﴾. ﴿وَمَا﴾ (الواو) حالية (ما) نافية ﴿نُرْسِلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِٱلْءَايَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿نُرْسِلُ﴾ أو حال من المفعول المحذوف كما مر نظيره آنفاً ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناءِ مفرغ ﴿تَخْوِيفًا﴾ مفعول لأجله منصوب بـ ﴿نُّرْسِلَ﴾؛ أو حال من فاعل ﴿نُرْسِلُ﴾ أي حالةَ كوننا مخوفين بها، أو من ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: مخوفاً بها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى متعلق بمحذوف تقديره: واذكر لقومك قصة إذ قلنا لك ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قُلْنَا﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَحَاطَ﴾ فعل ماض ﴿بِالنَّاسِۚ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿أَحَاطَ﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾ ﴿وَمَا﴾ (الواو) استئنافية (ما) نافية ﴿جَعَلْنَا الرُّءْيَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة ﴿الَّتِي﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لِـ﴿أَرَيْنَاكَ﴾ ﴿أَرَيْنَاكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره أريناكها، وهو العائد على الموصول، وجملة ﴿أَرَيْنَاكَ﴾ صلة الموصول ﴿إِلَّا﴾ أداء استثناء مفرغ ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَالشَّجَرَةَ﴾ معطوف على ﴿الرُّءْيَا﴾. ﴿الْمَلْعُونَةَ﴾ صفة لـ﴿الشَّجَرَةَ﴾. ﴿فِي الْقُرْءَانِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿الشَّجَرَةَ﴾؛ أي: حالَةَ كونها مذكورة في القرآن، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ (الواو) استئنافية ﴿نخوفهم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿فَمَا﴾ (الفاء) عاطفة (ما) نافية ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على التخويف ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿طُغْيَانًا﴾ مفعول ثان ﴿كَبِيرًا﴾ صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نخوف﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ (الواو) استئنافية (إذ) ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر قِصَّةَ إذ قلنا للملائكة ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ(إذ) ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ متعلق بـ﴿قُلْنَا﴾ ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿اسْجُدُوا﴾ فعل وفاعل ﴿لِآدَمَ﴾ متعلق به، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾ ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿سجدوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قُلْنَا﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾ منصوب على الاستثناء ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ والجملة في محل النصب حال من ﴿إِبْلِيسَ﴾ ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿أسجد﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لِمَنْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أسجد﴾ ﴿خَلَقْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: لمن خلقته ﴿طِينًا﴾ حال من مَنْ الموصولة، والعامل فيه ﴿أسجد﴾ أو مِنَ العائد المحذوف، والعامل ﴿خَلَقْتَ﴾ أو منصوب بنزع الخافض أي: من طين أو مفعول منه، منصوب بـ﴿خَلَقْتَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ﴾؛ أي: من قومه؛ لأن قومَهُ مفعول به كما ذكرنا في مبحثه.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أرأيت﴾ فعل وفاعل، و(الكاف) حرف دال على الخطاب لتأكيد الخطاب المفهوم من (التاء)، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ في محل النصب مفعول أول لـ ﴿رأيت﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه ﴿كَرَّمْتَ﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَىَّ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: كرمته عليَّ والمفعول الثاني لـ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ محذوف لدلالة الصلة عليه، ولا بد من كَوْنِهِ جُمْلَةً استفهامية، والتقدير: أخبرني عن هذا الذي كرمته علي، بأن أمرْتَني بالسجود له، لم كرمتَهُ علي؛ أي: تقديره أرأيتك هذا الذي كرمته علي لم كرمتَه علي، ولم يجِبْهُ الله تعالى عن هذا السؤال، استصغاراً لأمره، واحتقاراً لشأنه، فاختُصِر الكلامُ بحذف ذلك، ثمَّ ابتدأ بالقسم فقال: ﴿لَئِنْ﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول ونون وقاية في محل الجزم

بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿أحتنكن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا يعود على إبليس ﴿ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ مفعول به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿قَلِيلًا﴾ مستثنى من الذرية منصوب بإلا على الاستثناء، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملةُ القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: إن أخرتني أحتنك ذريته إلاَّ قليلاً وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿ٱذْهَبْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿فَمَن﴾ (الفاء) استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما ﴿تَبِعَكَ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿من﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور حالٌ من ضمير الفاعل في ﴿تَبِعَكَ﴾ ﴿فإن﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية ﴿إن جهنم جزاؤكم﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جَواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بالمصدر المذكور قبله، أو بفعل محذوف تقديره: تجزون جزاء ﴿مَّوْفُورًا﴾ صفة لـ﴿جزاء﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱذْهَبْ﴾ ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول

به ﴿ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ فعل وفاعل، ومفعوله، محذوف تقديره: من استطعت استفزازه، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد الضمير المحذوف ﴿مِنۡهُم﴾ جار ومجرور حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿استفزز﴾ ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ ﴿عَلَيۡهِم﴾ متعلق بـ ﴿أجلب﴾ ﴿بِخَيۡلِكَ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿أجلب﴾؛ أي: حالَةَ كونك مصحوباً بخيلك، ﴿وَرَجِلِكَ﴾ معطوف على خيلك، ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ وفاعله ضمير يعود على إبليس ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ متعلق بـ﴿شاركهم﴾، ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ معطوف على الأموال، ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ وفاعله ضمير يعود على إبليس، ﴿وَمَا﴾ (الواو) حالية، أو اعتراضية ﴿ما﴾ نافية ﴿يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿غُرُورًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة لأنه صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا وعداً غروراً؛ أي: باطلاً، والجملة المنفية في محل النصب حال من فاعل، ﴿عدهم﴾، وفي الكلام التفات أو جملة معترضة لا محلَّ لَها من الإعراب لاعتراضها بين الجمل التي خاطب الله بها إبليس .اهـ كرخي.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ ناصب واسمه ﴿لَيۡسَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَكَ﴾ خبر ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿سُلۡطَٰنٞۚ﴾ ﴿سُلۡطَٰنٞۚ﴾ اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر؛ أي: ليس سلطان عليهم كائناً لك، وجملة (إن) مسوقة لتعليل ما قبلَها على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ فعل وفاعل و(الباء) زائدة في فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ ﴿وَكِيلٗا﴾ منصوب على التمييز لنسبة ﴿كَفَىٰ﴾ إلى فاعله، وجملة ﴿كَفَىٰ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل كفايته،

وبيان قدرته على عصمة من توكل عليه في أموره .اهـ زاده. ﴿يُزۡجِي﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ مفعول به ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ حال من الفلك، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تبتغوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لابتغائكم من فضله الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُزۡجِي﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على الرب ﴿بِكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿رَحِيمٗا﴾ ﴿رَحِيمٗا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها فهي تعليل ثان لقوله: ﴿يُزۡجِي﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾.

﴿وَإِذَا﴾ (الواو) عاطفة (إذا) ظرف لما يستقبلُ من الزمان ﴿مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ فعل ومفعول، وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة (إذا) إليها على كونِهَا فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ جار ومجرور حال من كاف المخاطبين تقديره: حالَةَ كونكم في البحر ﴿ضَلَّ﴾ فعل ماض ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ضل، وجملةُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من تدعونه ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء ﴿إِيَّاهُ﴾ في محل النصب على الاستثناء من ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة ﴿ضَلَّ﴾ جواب (إذا) لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ﴾ (الفاء) عاطفة على محذوف تقديره: ولما دعوتموه تعالى نجاكم إلى البر ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية فعلُ شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ جار ومجرور حال من ضمير المخاطبين؛ أي: حَالَةَ كونكم، واصلين إلى البر، أو متعلق بـ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لاَ

محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، ﴿وَكَانَ﴾ (الواو) استئنافية ﴿كَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿أَمِنتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والتقدير: أنجوتم فأمنتم، والجملةُ المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ ناصب وفعل منصوب وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ مفعول به: والتقدير أن يَخْسِفَ جَانِبَ البر حَالَة كونه مصحوباً بكم، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية، في تأويل مصدر مجرور، بحرف جر محذوف، تقديره: أفأمنتم من خسف الله تعالى جَانِبَ البَرّ ﴿بِكُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿أمنتم﴾ ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ معطوف على ﴿يَخْسِفَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿حَاصِبًا﴾ مفعول به ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَجِدُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُرْسِلَ﴾ ﴿لَكُمْ﴾ حال من ﴿وَكِيلًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿وَكِيلًا﴾ مفعول به لـ﴿وجد﴾ فهو من وَجْدانِ الضالة يتعدى لمفعول واحد.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿أَمِنتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أفأمنتم﴾ أو مستأنفة، ويجوز أن تكون ﴿أَمْ﴾ متصلة؛ أي: أي الأمرين كائن ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يعيد﴾ ﴿تَارَةً﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿يعيد﴾ أيضاً ﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ﴿تَارَةً﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: أم أمنتم إعادتَه إيَّاكم فيه مرةً

أخرى ﴿فَيُرْسِلَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿يرسل﴾ معطوف على ﴿يعيد﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عليكم﴾ متعلق به ﴿قَاصِفًا﴾ مفعول به ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ جار ومجرور، صفة لـ﴿قاصفا﴾ ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ (الفاء) عاطفة ﴿يغرقكم﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿يرسل﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِمَا﴾ (الباء) حرف جر وسبب (ما) مصدرية ﴿كَفَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يغرق﴾؛ أي: فيغرقكم بسبب كفركم، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَجِدُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يغرقكم﴾ ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿تَبِيعًا﴾ لأنه كان في الأصل صفة لـ ﴿تبيعا﴾ فَقَدّم عليه على حد قول أبي الطيب المتنبي:

لَـوْلاَ مُـفَـارَقَـةُ ٱلأَحْـبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ ... لَـهَـا ٱلْـمَـنَـايَـا إِلَـىٰ أَرْوَاحِـنَـا سُـبُـلاَ

فقوله: لها متعلق بمحذوف حال من سُبلاً لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، ولا يجوز تعلقه بوجدَتْ، لأن وجد لا يتعدى باللام، وإنما يتعدَّى بنفسه، و﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿تَبِيعًا﴾ أيضاً، و﴿به﴾ متعلق بـ ﴿تبيعا﴾ ﴿تَبِيعًا﴾ مفعول لـ ﴿تجدوا﴾، ويجوز أن يتضمن ﴿تَبِيعًا﴾ بمعنى ﴿نَاصِرًا﴾ فيكون ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق به؛ أي: ناصراً علينا، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يقال: نزغَ بينهم من باب نَفَع، إذا أفسد، وأغرى، وَوَسْوَسَ أي يفسدُ ويهيجُ الشر وَالمراءَ بَيْنَهُمْ فلعل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد، وازديادِ الفساد، وفي «القاموس»: ونزغه كمنعه طعن فيه، واغتابه ﴿وَكِيلًا﴾، والوكيل: هو المفوض إليه الأمر. ﴿زَبُورًا﴾ والزبور: اسم الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام، وتعريف الزبور تارةً، وتنكيرهُ أخرَى إمَّا لأنه في الأصل فعول بمعنى المفعول، كالحلوبَ أو مصدر بمعناه كالقبور، وإما لأن المرادَ إيتاءُ داود زبوراً من الزبر فيه ذكره ﷺ اهـ.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ الزعم بتثليث الزاي: القول المشكوك في صدقه: وقد يُستعمل بمعنى الكذب، حتى قال ابن عباس: كل موضع في كتاب الله ورد فيه

«زعم» فهو كذب ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ أي: لا يستطيعون ﴿كَشْفَ الضُّرِّ﴾ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾؛ أي: إزالته عنكم، أو تحويلهُ، ونقله عنكم إلى غيركم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القرب إليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿مَحْذُورًا﴾، أي يحذره، ويحترس منه كل أحد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مكتوباً اسم مفعول من سطر ـ من باب نصر ـ سَطْراً بالسكون، وَسَطِراً بالتحريك، وجمع السطر بالسكون أسطر كفلس، وأفلُس وجمع السطر بالتحريك: أَسْطَارٌ كسَبَب، وأسبَاب ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾؛ والآيات هي ما اقترحته قريش من جعل الصَّفَا ذهباً. ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ذَاتَ بصيرة، لمن يتأملها، ويتفكر فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: فكفروا بها، وجحدوا ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أي: أحَاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ﴿الرُّؤْيَا﴾ والرؤيا هي ما عاينه ﷺ لَيْلَةَ أُسري به من العجائب. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾، أي: المؤذية، وهي شجرة الزقوم، وللعلماءِ في معنى الملعونةَ ثَلاَثَةَ أقوال:

أحدها: المذمومة. قاله ابن عباس.

والثاني: الملعونُ آكلُها، ذكره الزجَّاجُ، وقال: إن لم يكن في القرآن ذكر لَعْنِها، فَفِيهِ لَعْنُ آكلها، قال: والعَرَبُ تقول لكل طعام مكرُوه وضار ملعون، وأما قَوْلُه: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ فمعناه التي ذُكِرَتْ في القرآن، وهي مذكورةٌ في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

والثالث: أن معنى الملعونة المبعدة عن منازل أهل الفضل. ذكره ابن الأنباري.

وفي هذه الشَّجَرَةِ أيضاً ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّها شجرة الزقوم، رواه عكرمة.

والقول الثاني: أنَّ الشَّجَرَةَ الملعونة هي التي تلتوي على الشجر يعني الكُشُوثي، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً. قَالَ الجوهري: الكشوث نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض قال الشاعر:

هُوَ الْكَشُوثُ فَلاَ أَصْلٌ وَلاَ وَرَقٌ ... وَلاَ نَسِيْمٌ وَلاَ ظِلٌّ وَلاَ ثَمَرُ

والقول الثالث: أنَّ الشجرةَ كنايةٌ عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب ذكره ابن الجوزي في «زادِ المسير»، وهي أَخْبَثُ الشجر المرّ، وهي تنبت بتهامة؛ وتَنْبُت فِي الآخرة في أصل الجحيم، أي قَعْرِها، وتكون طَعَامَ أَهْلِ االنار ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾؛ أي: لأستأصلَنَّ ذُرّيَتَهُ بالإغواءِ منَ احتَنَكَ الجَرَاد الأرضَ إذا جَرَّد ما عليها أكْلاً مأخوذ من الحنك، وقيل: معنى لأَحْتَنِكَنَّ لأسوقنهم، وأقودنهم حيث شئْتَ من حنك الدابَةَ إذا جَعَلَ الرسن في حَنَكِها، وفي «المختار» حَنَكَ الفرسَ جعل في فِيهِ الرسن، وبابه نَصَرَ، وضَرَبَ، وكذا احتَنَكَه، واحتَنَك الجرادُ الأرضَ أكلَ مَا عَلَيْهَا، وأتى على نبتها، وقوله تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ قال الفراءُ: لأستولين عليهم، والحنك المنقار يقال: أسود مثل حنك الغراب، وأسود حَانِكَ مِثْل حَالك، والحنك ما تحت الذقن من الإنسان وغَيْره، ويقال: حَنَكَ الدابّةَ، واحتنكَهَا إِذَا جَعَلَ في حَنَكِهَا الأسفل حبلا يَقُودها به، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامِهِ ﴿ٱذْهَبْ﴾؛ أي: امض لشأنك، فقد خليتك، وما سولت لك نفسك ﴿مَّوْفُورًا﴾؛ أي: مكملاً لا يدخر منه شيء من قولهم: فر لِصَاحِبِكَ عِرْضَه فرة؛ أي: أَكْمِلْه له، قال الشاعر:

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوْفَ مِنْ دُوْنِ عِرْضِهِ   يَـفِـرْهُ وَمَـنْ لاَ يَـتَّـقِ ٱلـشَّـتْـمَ يُـشْـتَـمِ

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ يقال: أفزه الخوف، واستفزه؛ أي: أزعَجَه، واستخفه، وفي «القاموس» «والتاج»: فَزَّ يَفزُّ فَزّاً من باب شد انفردَ، وفز عنه تنحَّى، وعدلَ واستفزه أزعجه، وأخرجه من داره، وقتله. ﴿بِصَوْتِكَ﴾؛ أي: بدعائك إلى معصية الله ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: صح عليهم من الجلبة، وهي الصياح، ويقال: أجلب على العدو إجلاباً إذا جمع عليه الخيولَ، والمعنى: صح وصَوِّت عليهم حالَ كونك مُلْتَبِساً، ومصحوباً بجنودك الركاب، والمشاة، والخيل تطلق على النوع المعروف، وعلى الراكبين لها، والمراد هنا الثاني، أعني الفرسانَ كما جاء في قوله ﷺ في بعض غزواته لأصحابه: يا خيل الله اركبي.

وقيل: معنى ﴿أجلب﴾ اجمع، والباء زائدة؛ أي: أجلب عليهم خيلك، واجْمع، وفي «المختار» وجلب على فرسه يجلُب جَلباً بوزن طلب يطلب طَلباً،

صاحَ بِهِ من خلفه، واستحثه للسبق، وكذا أَجْلَبَ عليه اهـ. وهذا يَقْتَضِي زيادةَ الباء، ويكون المعنى عليه، و﴿حث﴾ و﴿أسرع﴾ عليهم جندك خيلاً ومشاةً، لتدرِكَهم، وتتمكن منهم فليتأمل ﴿وَرَجِلِكَ﴾ اسم جمع لراجل بمعنى الماشي، كصحب اسم جمع لصاحب، وقرىء في السبعة، وَرَجِلِكَ بكسر الجيم، وهو مفرد بمعنى الجمع فهو بمعنى المشاة، وفي «القاموس»: الرجلُ الراجل. والرَّاجلُ مَن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ لا رَاكباً، وجمعه رَجْلٌ ورجَّالة، ورجَّالٌ، ورجال، ورجَالِى، ورَجَالَى ورُجْلاَنُ، ويقال: جاءت الخيالة، والرَّجَّالةُ، وأَغَارَ عليهم بَخَيْلِهِ ورَجله، والخيل الخيَّالةُ ﴿غُرُورًا﴾، والغرور: تزيين الباطل بما يظن أنه حق ﴿وَكِيلًا﴾ والوكيل: الحافظ، والرَّقيب ﴿يُزْجِى﴾؛ أي: يسوق حِيناً بعد حين يجري، ويَسِيرُ وَفي «القاموس» زجاه ساقه، ودَفَعَه كزجاه، وأزجاه اهـ. ومنه قول الشاعر:

يَـا أَيُّـهَـا ٱلـرَّاكِـبُ ٱلْـمُـزْجِـيْ مَـطِـيَّـتَـهُ سَـائِـلْ بَـنِـيْ أَسَـدٍ مَـا هَـذِهِ ٱلـصَّـوْتُ

﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، وفي «المختار» الفلك السفينة، واحدٌ وجَمْعٌ يذكَّر ويؤنث قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فأفردَ، وذَكَّر، وقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فأنَّث، ويحتمل الإفرادَ، والجمعَ، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فَجَمَعَ فكأنَّه يُذهَبُ بها إذا كانت واحدةً إلى المركب، فيُذكَّر، وإلى السفينةِ فيؤنث اهـ. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾، والمراد بالضر هنا: خوف الغرق بتقاذف الأمواج ﴿ضَلَّ﴾؛ أي: غَابَ عن ذكركم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾، والخسف: والخسوف دخول الشيء في الشيء، يقال: عين خَاسِفَةٌ إذا غابت حَدَقَتُها في الرأس، وعين من الماء خاسفة؛ أي: غائرة الماءِ، وخسفت الشمس؛ أي: احتجبت، وكَأَنَّهَا غَارَتْ في السحاب. ﴿حَاصِبًا﴾ الْحَاصِب: الريح الَّتِي تحصب؛ أي: ترمي بالْحَصْبَاءِ والحصباء: الْحِجَارة الصغيرة، واحدتها حصبة كقصبة، وفي «المصباح»: وحصبته حصباً من بَابِ: ضَرَب، وفي لغة منْ باب قتل رميته بالحَصْبَاءِ اهـ قال أبو عبيدة والقتيبي: الحصب الرمي، أي: ريحاً شديدة حاصبة، وهي التي تَرْمي بالحصى الصغار، وقال الزجاج: الحَاصِب التُّرَابُ الذي فيه حصباءُ فالحاصبُ ذو الحصباء كاللابن، والتَّامر، ويقال للسحابة التي ترمِي بالبَرَد

حاصبٌ، ومنه قول الفَرَزْدَق:

مُسْتَقْبِلِيْنَ جِبَالَ ٱلشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيْفِ ٱلْقُطْنِ مَنْثُوْرُ

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بمعنى مَرَّة، وكرَّةً فهو مصدر، ويُجْمَعُ على تيْرَة، وتارات، وألفها يَحْتَمِلُ أَنْ تكُون عن واو أو عن ياء اهـ سمين ﴿قَاصِفًا﴾ والقاصفُ: الرّيح تَقْصفُ الشَّجَرَ وتكسره يقال: قَصَفَه يَقْصِفه من باب ضرب يضرب وَقيل: القاصف الريح التي لها قصيف، وهو الصوت الشديد، كأنها تتقصف؛ أي: تَتَكَسَّرُ، وقيل: التي لا تَمُرُّ بشيء إلاَّ قَصَفَتْهُ. ﴿تَبِيعًا﴾ التَّبِيعُ ـ كأمير ـ: المطالب قال الشماخ: يصف عُقَاباً:

تَـلُـوْذُ ثَـعَـالِـبُ ٱلـشَّـرْقَـيْـنِ مِـنْـهَـا ... كَـمَـا لاَذَ ٱلْـغَـرِيْـمُ مِـنَ ٱلـتَّـبِـيـعِ

أي: تهرب منها ثَعالب الشرقَين ـ بمعنى المُشْرِقينَ ـ كما هرب، والتجأ الغريمُ؛ أي: المدين من التبيع؛ أي: الدَّائِنِ المطالب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديعِ:

فمنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾؛ لأن المرادَ بهم المؤمنونَ.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؛ لأَنَّ مُقْتَضَى السّيَاقِ أن يقال: إنه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية بين قوله: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ لأن قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بيان لـ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ و﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بعد التعميم في قوله:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ رَداً على اليهود، حيثُ زَعَمُوا أنه لا نبي بعد موسى، ولا كِتَابَ بعد التوراة.

ومنها: الإيجازُ بالحذف في قوله: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾؛ أي: ولا تحويلَ الضرّ عنكم إلى غيركم، لدلالة ما قبله عليه.

ومنها: المقابلة اللَّطيفة بين الجملتين ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾، ويَخَافُونَ عذابه.

ومنها: الإظهار في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ للتهويل، وكان مُقْتضى المقام أن يقال: إنه لتقدم المرجع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ...﴾ الخ؛ لأنَّ المنع هنا مجاز عن الترك؛ لأنه محال في حقه تعالى؛ لأنه سبحانه لا يمنعه مانع عن إرادته، فكأنه قال: وما كان سَبَبُ ترك الإرسال بالآيات إلاَّ تَكْذِيبَ الأولين.

ومنها: المجاز العقليُّ في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ لأنه لما كانت الناقة سبباً في إبصارِ الحق، والهدى نسبَ إليها الإبصارُ، ففيه مجاز عَقْليٌّ علاقته السببية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ حيث شبه الرؤيَةَ البصريَّةَ بالرؤيا الحُلْمية، لما فيها من الخَوَارِقِ التي هي بالمنام أليق في مجاري العادات، فاستَعارَ لها لفظ الرؤيا الَّتي هي حقيقةٌ في الحلمية على طريقة الاستعارة التَّصْرِيحِيةِ الأصلية.

ومنها: الجناس المغايِرُ بَيْنَ لَفْظَيْ ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ و﴿أَرَيْنَٰكَ﴾.

ومنها: الإسناد المجازيُّ في قوله: ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ لأنَّ المعنى: الملعونُ طاعمها.

ومنها: المجاز المرسل في استعمال الرؤية بمعنى الإخبار في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ لأنها سببه، فالعلاقة فيها السببية.

ومنها: الاستعارة التمثيليةُ في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ حيث مثل حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداءِ لاستئصالهم.

ومنها: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما تعدهم إلا غروراً، ولكنه عدل عن ذلك تهويناً لأمره، واستصغاراً لأمر الغرور الذي يعدهم به.

ومنها: المجاز العقلي في نسبة الغرور، إلى الوعد على حد قوله: نهاره صائم، وليله قائم.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾؛ لأنه كالتعليل لِمَا سَبَقَ من تسيير السفن، وتسخيرها في البحر.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وفي قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضِعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ
أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا
لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ
ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ
ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن
رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ
قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا
﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا
مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا
لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ
أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلَها[1]: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لما ذَكَر ما امتنَّ به عليهم من إزجاء الفلك في البحر، ومن

(١) البحر المحيط.

تنجيتهم من الغَرَقِ.. تمم ذكرَ المِنَّة بذكر تكرمتهم، ورزقهم، وتفضيلهم. أو يقال: لما هددهم بما هدد به من الخسف، والغرق، وأنهم كافرو نعْمَتِه.. ذَكَرَ ما أنعم به عليهم، لِيَتَذَكَّرُوا فَيشَكرُوا نعَمَهُ ويقلعوا عما كانوا فيه من الكفر، ويطيعوه تعالى، وفي ذكر النِّعَمِ وَتَعْدَادِها هز لشكرها؛ أي: حَثٌّ على شكرها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ...﴾ الآية، مُنَاسَبَةُ هذه الآية لما قبلها: أَنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى[1]، لما ذكر أحوال بني آدم في الدنيا، وذكر أنه أكرَمَهم على كثير من خلقه، وفَضَّلَهُم عليهم تَفْضِيلاً.. فَصَّل في هذه الآيات تَفَاوُتَ أحوالهم في الآخرة مع شرح أحوال السعداءِ، ثم أَرْدَفَه ما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضَّلالِ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر، والتلبيس ثُمَّ قفى على ذلك ببيان أنَّ سنَّتَه قد جَرَتْ بأن الأمم التِي تُلجِىءُ رُسلَها إلى الخروج من أرْضِها، لا بدَّ أن يُصِيبَها الوبال والنكال.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمَّا عدد نعمه على بني آدم، ثُمَّ ذَكَر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومِنْ عَمَى أهل الشقاوة.. أَتْبَع ذَلِكَ بما يهم به الأشقياءُ في الدنيا من المكر والخداع، والتلبيس على سيّد أهل السعادة المقطوع له بالعصمة، ذكره في «البحر».

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لِمَا قَبْلَها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لَما ذَكَر كَيْدهم للرسول ﷺ وَمَا كانُوا يرومونَ به.. أَمَرَهُ الله سبحانه وتعالى أن يُقْبِل على شأنه من عبادة ربه، وأن لا يشغل قلبه بهم، وكان قد تقدَّم القول في الإلٰهيات، والمعادِ، والنبوات، فأردفَ ذلك بالأمر بأشْرفِ العبادات والطاعات بعد الإيمان، وهي الصلاة.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: مناسبةُ هذه الآيات لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَر[1] كَيْدَ الْكُفَّارِ واستفزازهم لرسول الله ﷺ ليخرجوه مِن أَرْضه، وسلاَّه بما سلاَّه به.. أمرهُ بالإقبال على رَبِّه بعبادته، لينصره عليهم، ولا يبالِيَ بسعيهم، ولا يلتفت إليهم، فإنه سبحانه يَدْفَع مكرهم، وشرَّهم، ويجعلُ يدَه فوق أيديهم، ودِينَه عَالِياً على أديانهم، ثُمَّ وَعَدَه بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود، ثُمَّ بَيَّن أن ما أُنزِلَ عليه من كتاب ربه فيه الشفاءُ للقلوب من الأدواء النفسية، والأمراض الاعتقادية، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالاً، لأنه كلَّما نزلت عليه آية ازدَادوا بِهَا كُفْراً وعتواً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تنويعَ ما أنزلَ من القرآنِ شفاء ورحمة للمؤمن، وبزيادة خَسار للظالمِ.. عرَّض بما أنعم به، وما حَوَاهُ من لطائف الشرائع على الإنسان، ومع ذلك أَعْرَض عنه، وبَعَّد بجانبه عنه اشمئزازاً له، وتكبراً عن قرب سماعه، وتبديلاً مَكَانَ شكر الإنعام كفره.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أَنَّ الله سبحانه وتعالى لما[2] امتنَّ على نبيه بما أنزلَ عليه من الكتاب، وذكر أنه شفاء للناس، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنُونه عنه، ثُمَّ أردَفَهُ بمسألة الروح اعتراضاً، لأَنَّ الْيَهُودَ والمشركين اشتغلوا بِهَا عن تدبر الكتاب والانتفاع به، وسألوا تعنتاً عن شيء لم يأذن الله بالعلم به لعباده.. امْتَنَّ عليه بِبَقاءِ ذلك الكتاب، وحذَّرهُ من فتنة الضالين، وإرجافِ المرجفِينَ، وهو المعصوم من الفتنة، فإنَّه لو شاء لأَذْهب ما بقلبه منه، ولكن رحمة بالناس تَرَكَهُ في الصدور، وفي هذا تحذيرٌ عظيم للهداة والعلماء، وهم غير معصومين من الفتنة بأن يُباعِدَ بينهم وبين هدي الدين بمظاهرَتهم للرؤساء، والعامة، وتركهم العمل به اتباعاً لأهوائهم، واستبقاء لودهم، وحفظاً لزعامتهم على الناس.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

ثم ذكر أنَّ القرآنَ وحيٌ يوحى فلا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمِثْلِهِ، ولو كان بعضُهم لِبَعْضٍ مُعِيناً، وقد اشتمل على الحِكَمِ والأحكام، والآداب التي يحتاج إليها البشر في معاشهم، ومعادهم، وكثيرٌ من الناس جحدوا فضله عتواً وكِبْراً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لَما ذكر[1] إنعامَه على نبيه ﷺ بالنبوة، وبإنزال وَحْيه عليه.. ذكَرَ ما منَحَهُ تعالى من الدليل على نبوته الباقي بقاء الدهر، وَهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، وأنَّهُ من أكبر النعم عليه، والفضل الذي أَبْقَى له ذكراً إلى آخر الدهر، وَرَفع لَهُ قَدْراً به في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى، لما[2] أقام الدليل على إعجاز القرآن، ولَزِمَتْهُم الحجة، وغلبوا على أمرهم.. أَخَذوا يُراوِغُونَ، ويقترحون الآيات، ويتعثرون في أذيال الحيْرةِ، فطلبوا آيةً من آيات ست، فإنْ جاءهم بآيةٍ منها، آمنوا به وصدَّقوا برسالته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ الآياتُ، سبب نُزولها[3]: ما أخرجه ابن مردويه، وابن أبي حاتم، من طريق إسحاق عن محمد ابن أبي محمد عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: خرج أميَّةُ بن خلف، وأبو جهل بن هشام، ورجال من قريش، فأتوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: يا محمد، تعالى تَمَسَّحْ بآلهتنا، وندخل معك في دينك، وكان يحب إسلام قومه، فرقَّ لهم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

قلت: هذا أصحُّ ما ورد في سبب نزولها، وإسناده جيد، وله شاهد.

وعن سعيد بن جبير، قال: كان النبي ﷺ يستلمُ الحَجر الأسودَ في طوافه، فمنعته قريش، وقالوا: لا نَدَعُك تَسْتَلِمُ حتى تُلِمَّ بآلهتنا، فحدَّث نفسه، وقال: «ما علي أنْ أُلِمَّ بها بعد أن يَدْعُوني أستلمُ الحجرَ، والله يَعْلَمُ إني لها كاره»، فَأَبَى اللَّهُ ذلك، وأنزلَ عليه هذه الآيةَ.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فَنَزَلَتْ عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾، وهذا صريحٌ في أنَّ الآية مكية، وأخرجه ابن مردويه بلفظ أصْرحَ منه.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود، قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو متوكِّىء على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوهُ عن الروح، وقال بعضُهم: لا تسألُوهُ، لا يجيىء فيه بِشَيْءٍ تكرهونه، فقال بعضُهم: لَنَسْألَنَّه، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكَتَ فقلتُ: إنه يُوحَى إليه، فلما انجلَى عنه قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، قال الأعمش: هي كذا قراءتُنا.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالتْ قريش لليهود: علمُونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالُوا: سلوهُ عن الروح، فنزلَتْ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

قالوا: نحن لم نؤت من العلم إلاَّ قليلاً، وقد أوتينا التوراة فيها حكم الله، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ قال الحافظ بن كثير

---

(١) لباب النقول. (٢) البخاري.

(ج٣/ ص٦٠) في الكلام على الحديث الأول: وهذا الحديث يقتضي فيما يظهر باديء الرأي أن هذه الآية مَدَنِيةٌ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مَعَ أَنَّ السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بِأَنَّها قَدْ تَكُون نَزَلَتْ عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[١] ابن إسحاق، وابن جرير من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس قال: أتى النبيَّ ﷺ سلاَّمُ بن مشكم في عامة من يهود، سماهم، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركتَ قبلَتَنا، وإنَّ هَذَا الذي جئتَ بهِ لا نراه مُتَنَاسِقاً كما تناسق التوراة، فأنزِلْ علينا كتاباً نعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فَأَنْزَلَ الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ الآيات، سبب نزولها[٢]: ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق، عن شيخ من أهل مصر، عن عكرمة عن ابن عباس، أن عُتْبَةَ وشَيبَةَ ابني ربيعةَ، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البحتريّ والأسودَ بن عبد المطلب، وربيعة بن الأسود، والوليدَ بن المغيرة، وأبَا جهل، وعبدَ الله بن أبي أمية، وأميةَ بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيها ومنبها ابني الحَجَّاج اجتمعوا فقالوا: يا محمدُ: ما نَعْلَمُ رجلاً من العرب أَدْخَلَ على قومه ما أدْخَلْتَ على قومك، لقد سببت الآباءَ، وعبت الدِّينَ، وسفَّهتَ الأَحْلاَمَ، وشَتَمْتَ الآلِهةَ، وفرقت الجماعةَ، فما من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كُنتَ إنما جِئْت بهذا الحديث تريد مالاً جَمَعْنَا لك من أموالنا حتى تكون أَكْثَرَ مالاً، وإن كنت إنما تَطْلُب الشَّرَفَ فينا.. سوَّدناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتِيكَ رُبَّمَا يأتيك رئياً تراه قَدْ غلبَ، بذلنا أموالَنا

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

في طلب العلم، حَتَّى نُبْرِئَك منه، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ولكن اللهَ بَعثني إليكم رَسُولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأَمرني أن أَكُونَ لكم مبشراً، ونذيراً» قالوا: فإن كُنْتَ غَيْرَ قَابل مِنّا ما عَرَضْنَا عليك، فقد علمتَ أَنَّهُ ليس أحد من الناس أضيق بلاداً منّا، ولا أقلَّ مالاً، ولا أشدَّ عيشاً منا، فلتسألْ لنا ربك الذي بعثك، فليسير عنّا هذه الجبالَ التي ضيقت علينا، ولْيَبْسطَ لنا بِلاَدَنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لَنَا مَنْ قَدْ مضى من آبائنا، فإن لم تفعل.. فَسَل رَبَّك ملكاً يُصدِّقك بما تقول وأن يجعل لنا جِناناً وكُنوزاً وقُصوراً من ذهب وفضة، نُعِينُك بها على ما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتَلْتَمِسُ المعاشَ، فإن لم تفعل فأَسْقِط السماء كما زعمْت أنَّ ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدُ اللّهِ ابن أبي أمية، فقال: يا محمد، عرض عليكَ قَوْمَكَ ما عرَضُوا، فلم تَقْبَلْهُ منهم، ثُمَّ سَأَلُوكَ لأنفسهم أموراً لِيعرفوا بها منزلتَك من الله، فلم تَفْعَلْ ذلك، ثُمَّ سألوك أن تُعجّل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماءِ سلماً، ثُمَّ ترقى فيه، وأنا أنظر، وحتى تأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة، فيشهدوا لَكَ أَنَّكَ كما تقول: فانصرفَ رسول الله ﷺ حزيناً، فَأَنْزَلَ الله عليه ما قاله عبد الله ابن أبي أمية ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ أي: وعزتي، وجلالي، لقد شرفنا بني آدم قاطبة، وكرمناهم في أنفسهم تَكْرِيماً شاملاً لبرهم وفاجرهم، بالصورة[1] والقامة المعتدلة، والتسلط على ما في الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، والعلم والنطق، وتَنَاوُل الطعام باليد، وغير ذلك. قال ابن عباس: هو أنهم يأكلون بالأيدي، وغيرُ الآدمي يأكل بفيه من الأرض، وقال أيضاً: بالعقلْ،

---

(١) المراح.

وقيل: أكرم الرّجالَ باللحى، والنساء بالذوائب، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء، وأعظم[1] خصال التكريم العقل، فإنَّ به تسلطوا على سائر الحيوانات، ومَيَّزوا بَيْنَ الحَسَنِ والقبيح، وتوسعوا في المطاعم، والمشارب، وكَسَبوا الأَمْوَال التي تسببوا بها إلى تحْصِيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تَمْنَعُهُم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد، وقيل: تكريمهم، هو: أن جَعَل محمداً ﷺ منهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الدواب والقطر والسيارات ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على البواخر، والسفن وفي الهواء على الطائرات، والمطاود واحدها منطاد، وهذا تخصيص لبعض أنواعِ التكريم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾؛ أي: أعطيناهم ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من لذيذ المطاعم، والمشارب، وسائر ما يستلذونه وينتفعون به، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ هم ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيماً؛ أي: على كثير من الخلق بالغلبة، والشرف، والكرامة، فعليهم أن لا يُشْرِكوا بربهم شيئاً، ويرفضوا مَا هُم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان، والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام.

واعلم:[2] أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قال في أوَّل الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، وفي آخرها ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ وَلا بدَّ من الفرق بين التكريم والتفضيل، وإلا لزمَ التكرار، والأقربُ أَنْ يقال في الفرق: أَنَّ الله سبحانه وتعالى كرم الإنسانَ على سائر الحيوان بأمور خَلْقيَّةٍ، ذاتية طبيعيةٍ، مثلُ: العقل والنطق، والخط، وحسن الصورة.

ثم إنه سبحانه عَرَّفَه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتسابَ العقائد الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، فالأولُ: هو التكريم، والثاني: هو التفضيل.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

والخلاصة: أن في الآية حثاً للإنسان على الشكر، وألا يشركَ بربه أحداً؛ لأنه سخر لَهُ ما في البر والبحر، وكلأه بحسن رعايته، وهداه إلى صنعة الفُلْكِ لتجري في البحر، ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من المخلوقات.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾؛ أي: اذكر يا محمد لأمتك، أهوالَ يوم نَدْعُو كل أناس بإمامهم؛ أي بكتابهم الذي فيه أعمالهم، التي قدَّموها، ولا ذكرَ للأنساب حينئذٍ؛ لأنها مقطوعة، فلا يقال: يا ابن فلان، فيقال: يا أصحابَ كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

والخلاصة[1]: أن المعوَّل عليه يومئذٍ الأعمال، والأخلاق، والآراء، والعقائد النفسية، التي تغرس في النفوس، لا الأنسابُ؛ لأن الأولى باقية، والثانية فَانِيَةٌ، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وعلى هذا القول ابن عباس، وقتادةُ، والضحاك، وقيل[2]: معنى ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾؛ أي: بمن اقتدوا به؛ أي: بنبيهم كأن يقال: يا أمة إبراهيم، يا أمةَ موسى؛ يا أمة عيسى، يا أمة محمد، فيقوم أهل الحقّ الذين اتَّبعوا الأنبياء، فيأخذون كتُبَهُم بأيمانهم، وَكَأن يقَالَ: يا أتباعَ فرعون، يا أتباعَ نمروذ، يا أَتباع أبي جهل، وبه قال الزجاج، وقال الضحاك، وابن زيد: بإمامهم أي بكتابهم الذي أنزل عليهم فينادى في القيامة يا أهل القرآن، يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، وقيل: بمذاهبهم، فيقال: يا حَنفِي، يا شافعيُّ، يا معتزليُّ، يا قدريُّ، ونحو ذلك.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ بنون العظمة، وقرأ الحسن ومجاهد ﴿يدعو﴾ بياء الغيبة؛ أي: يدعو الله، وقرأ أبو عمران الجونيُّ ﴿يوم يُدعى﴾ بياء مضمومة، وفتح العين، وبعدها ألف «كل» بالرفع على أنه نائب فاعل ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾؛ أي: فمن أُعطي صحيفة أعماله ﴿بِيَمِينِهِ﴾؛ أي: من جهة يمينه،

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

وهم السعداءُ، وفي إيتاء الكتاب من جهة اليمين تشريف لصاحبه، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ الجمع باعتبار معنى (من) قيل: ووجه الجمع الإشارةُ إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قِراءَتِهم لكتبهم تكون على وَجْه الاجتماع، لا عَلَى وجه الإنفراد، ﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ الذي أوتوه قراءة ظاهرةً مسرورين، فرحينَ بما فيه من الحسنات، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم، ﴿فَتِيلًا﴾؛ أي: قدر فتيلٍ بل يؤتونها مضاعفة، والفَتِيل هو ما يفتل بين أصبعين من الوسخ، أو القشرة التي في شَقِّ النواة، أو أدنى شيءٍ، فإنَّ الْفَتِيل مثل في القلة والحقارة، وقد ثَبَتَ في علم الكيمياءِ أَنَّ وَزْنَ الذَّرَّاتِ التي تَدْخُل في كل جسم بنسب مُعَيَّنَة، فلو أنَّ ذرة واحدةً في عنصر من العناصر الداخلةِ في تركيب؛ أي: جسم من النبات، أو الحيوان أو الْجَماد نقصت عن النسبة المقدَّرةِ لتكوينه لم يتكون ذلك المَخْلُوقُ، وخالق الدنيا هو خالق الآخرة، فالظُّلم مستحيل هناك، كما استَحَالَ هنا في نظم الطَّبِيعَةِ، فما أجلَّ قدرةَ الله سبحانه، وما أعظم حكمته في خلقه.

ولم يَذْكُرِ الأشقياءَ، وإن كانوا يقرؤون كتبَهم أيضاً، لأنهم إذا قرؤوا ما فِيهَا لم يفصحوا به خوفاً وحَياء، وليس لهم شيء من الحسنات ينتفعون به، ولكنه سبحانه ذكر ما يدل على حالهم القبيح فقال: ﴿وَمَن كَانَ﴾ من المدعوين المذكورينَ ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾؛ أي: أعمى القلب لا يهتدي إلى رشده، ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ لا يَرى طريقَ النَّجاة، ويستولي الخوف والدهشة على قلبه، فيثقل لسانه عن قراءة كتابه ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: بل هو أخطأ عن سبيل النجاة في الآخرة من الأعمى في الدنيا، لِزوال الاستعداد، وتعطل الأسباب والآلات، وفقدان المُهلة.

قال النّيسابوري[1]: لا خلاف أن المرادَ بِعَمى الدنيا عمى القلب، وأما

---

(١) الشوكاني.

قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فيحتمل أن يُرادَ به عمى البصر كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾، وفي هذا زيادة العقوبة، ويحتملُ أن يراد عمى القلب، وقيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة؛ أي: فهو في عمل، أو في أمر الآخرة أعمى، وقيل: المُرادُ من عميَ عَن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا، فهو عن نعم الآخرة أعمى، وقيل: مَنْ كَانَ في الدنيا التي تقْبَلُ فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا تَوْبَةَ فيها أعمى، وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حجج الله، فهو في الآخرة أعمى، وقد قيل: إنَّ قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أفعل تفضيل، أي: أشد عمى، وهذا مبنيٌّ على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين.

والمعنى: أي[1] ومن كان في دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد، ولا يتأمَّلُ حجَجَ الله وبيناته التي وضعها في صَحيفة الكَوْنِ، وأمر بالتأمل فيها فهو في الآخرة أعْمَى لا يرى طريق النجاة، وأضلُّ سبيلاً منه في الدنيا؛ لأنَّ الرُّوحَ الباقِيَ بعد الموت، هو الروح الذي كان في هذه الحياة الدنيا، وقد خرج من الجسم، وكأنه وُلِدَ منه كما تلد المرأة الصبيَّ، وكما يُثمر النَّخْل الثمر، والأشجار الفواكهَ، وما الثمرُ والفواكهُ إلا ما كان من طباعِ الشجرة فهكذا الروحُ الباقي هو هذا الروح نفسُه، قد خرج بجميع صفاته، وأخلاقه، وأعماله، فهو ينظر إِلَى نَفْسِهِ، وينفر أو ينشَرِحُ بحسب ما يَرى، وما الثمر إلا بحسب الشجر، فإذا كان هنا ساهياً لاهياً، فهناك يكون أكثرَ سهواً ولَهْواً، وأبعدَ مُدىً في الضلال لأنَّ آلات العلم والعمل قد عُطِّلَتْ، وبقي فيه مناقبهُ ومثالبُه، ولا قدرةَ على الزيادة في الأولى ولا النَّقْصِ في الثانية. وقرأ[2] حمزة، والكسائي وخلفٌ وأبو بكر عن عاصم ﴿أعمى﴾ في الموضعين بالإمالة؛ أي: بكسر الميم، وقرأ يعقوب، وابن كثير، ونافع، وابن عامر ﴿أعمى﴾ في الموضعين بفتح الميم؛ أي: بغير إمالة، وقرأ أبو عمرو ﴿في هذه أعمى﴾ بكسر الميم؛ أي: بالإمالة ﴿فَهُوَ فِي

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير.

﴿ٱلۡأَخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ بفتحها مفخَّماً؛ أي: بغير إمالة[1]؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن كانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلمة، فلا يقبل الإمالة، وأما الأول فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف، فقبلت الإمالة.

وبعد أَنْ ذَكَرَ سبحانه درجات الخَلْقِ في الآخرة، وشرح أحوال السعداء، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم، فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ و(إن) مُخَفَّفَةٌ من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين إن النافية؛ أي: وإنَّ الشَّأْنَ والحالَ قد قارَبَ المشركون بخداعهم أَنْ يوقعوك في الفتنة بصَرْفِكَ ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: عما أوحيناه إليك من الأحكام من الأمر والنهي والوعد والوعيد ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾؛ أي: لتختلق وتَتَقَوَّلَ وتكذب علينا غير الذي أوحيناه إليك، مِمَّا اقْتَرَحُوا عليك. ﴿وَإِذٗا﴾؛ أي: ولو اتبعت أهواءَهم، وفعلت ما طلبوا منك، وعزتي وجلالي ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾؛ أي: لجعلوك ﴿خَلِيلٗا﴾؛ أي: صديقاً، ووليّاً لهم، وكنتَ وليّاً لهم، وخرجْتَ عن ولايتي، و(إذاً) حرف جواب وجزاء، يقدَّر بـ(لو) الشرطيةِ كما أشرنا إليه في الحل، وعبارة «السَّمين»: (إذاً) حَرْفُ جواب وجزاء، ولهذا تقع أداةَ الشرط موقعها، وقوله: ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ جواب قسم محذوف، تقديره؛ أي: وإن افتَتَنْتَ وافْتَرَيْتَ والله لاتخذوك، وهو مستقبل في المعنى، لأن إذاً تقتضي الاستقبال إذ معناها المجازاة، وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾؛ أي: في[2] ظنّهم لا أنهم قَارَبُوا إذ هو عليه السلام مَعْصُومٌ أن يقاربوا فتنتَه عمَّا أوحي إليه، وتلك المقاربة في زَعمهم سَبَبُها رجَاؤهم أن يَفْتَرِي على الله غيرَ ما أوحَى الله إليه، من تبديل الوعد وعيداً، أو الوعيد وعداً، ذكره أبو حيان.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾؛ أي: ولولا تَثْبِيتُنَا إياكَ على الحق وعصْمَتُنَا لك عما دَعَوْكَ إليه موجود ﴿لَقَدۡ كِدتَّ﴾ وَقارَبْت ﴿تَرۡكَنُ﴾ وتَمِيل ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: إلى مرادهم ﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ من الركون الذي هو أدنَى مَيْلٍ فَنَصْبُه على المصدرية؛ أي:

---

(١) النسفي. (٢) البحر المحيط.

لقاربت[1] أن تميل إلى اتّبَاعِ مُرادهم شيئاً يسيراً من الميل اليسير، لقوة خداعهم، وشدة احتيالهم، لكن أدركتك العصمةُ فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلاً عن نفس الركون، وهذا صريحٌ في أنه عليه السلام ما همَّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليلٌ على أنَّ الْعِصْمَة بتوفيق الله وعنايته وحفظه، وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، وابنُ مُصَرِّف ﴿تركن﴾ بضم الكاف مضارع ركن بفتحها.

وخلاصة ذلك: أنك كُنْتَ على أهبة الرُّكون إليهم، لا لضعف منك، بل لشدة مبالغتهم في التحيُّل والخداع، ولكن عنايتنا بك مَنَعَتْكَ أَنْ تقرب من الركون فَضْلاً عن أَنْ تركن إليهم، ثم توعَّده على ذلك أشدَ الوعيد، فقال: ﴿إِذًا﴾؛ أي: لو قاربت أن تركَنَ إليهم أدنى رَكْنَةٍ والله ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ يا محمَّد ﴿ضِعْفَ﴾ عذاب ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: الدنيا ﴿وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾، أي: الآخرة؛ أي[2]: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، فهو ﷺ، لو ركَنَ إِلَيْهِمْ.. يكون عذابه ضعف عذاب غيره على مثل هذا الفعل؛ لأن الذَّنْبَ من العظيم يَكُون عقابه أعظم، ومن ثم يُعَاقَبُ العلماءُ على زلاَّتهم أشدَّ من عقاب العامَّةِ، لأنهم يتبعونهم، ونظير ذلك من وجه ما جاء في نسائه ﷺ من قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وكان أصل الكلام[3]: عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً، ثم حذف المَوْصُوفُ، وأقيمت مقامه الصفة، وهو الضعف، ثُمَّ أُضيفت إضافة موصوفها، فقيل: ضعف الحياة، وضعفَ الممات كما لو قيل: لأذقناك أَليمَ الحياة، وأليمَ الممات.

وخلاصة ذلك[4]: أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك، وعقدت على الركون همك، لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولَصَارَ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

عذابك مثلَيْ عذاب المشرك في الدنيا، ومثلَيْ عذابه في الآخرة، وقد ذكروا في حكمة هذا أنَّ الخَطِيرَ إذَا ارْتَكَبَ جرماً وخطأً خطيئةً يكون سبباً في ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به، فكأنه سَنَّ ذَلِكَ، وقد جاء في الحديث: «من سن سنة سيئةً فعليه وزرها، ووزرُ مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة» أخرجه مسلم وغيره. ﴿ثُمَّ﴾ بعد إذاقتِنَا إيَّاكَ ضعف العذاب ﴿لَا تَجِدُ لَكَ﴾؛ أي: لنفسك ﴿عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يَدْفَعُ عنك العذابَ أو يرفعه عنك روي عن قتادة أنه قال: لما نزل قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلخ قَالَ ﷺ: «اللهم لا تكلني إلَى نفسي طرفَةَ عين» فينبغي للمؤمن أن يتدبرها حين تلاوتها، ويستشعر الخشية، ويستمسك بأهداب دينه، ويقول كما قال النبي ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طَرفَةَ عين» قال النيسابوري[1]: اعلم أنَّ القُرْبَ من الفتنة لا يدلّ على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾؛ أي: وإنَّ الشَّأنَ والحالَ قارب أهل مكة، ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم، وينزعونك بسرعة ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي أنتَ فيها، وهي أرضُ مكة، ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ بما فَعَلُوه من حصرك والتضييق عليك، وقد وقع ذلك بعد نزول الآية، وصار ذلك سبباً لخروجه ﷺ حتى هَاجَرَ بأمر ربه، بعد أن هموا به.

فإن قلت[2]: أليس أخرجوه بشهادة قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾؟

قلت: لَمْ يتحقق الإخراج بعد نُزُولِ هذه الآية، ثم وَقَعَ بعده حيث هاجر عليه السلام بإذن الله تعالى، وكانوا قد ضَايقُوه قبل الهجرة ليخرج، وقولُه: ﴿وَإِذًا﴾؛ أي: ولئن أخرجُوكَ، والله ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾؛ أي: لا يمكثون في الدنيا، أو تلك الأرض ﴿خِلَٰفَكَ﴾؛ أي: بعد إخراجك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلاَّ زماناً قَلِيلاً، وقد كان الأمر كَذَلِكَ؛ فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام، لثمانية

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

عَشَرَ شهراً من ذلك التاريخ[1]. معطوف على ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾؛ أي: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمناً قَلِيلاً ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً.

وقال أبو حيان[2]: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: والله إن استفزوك فخرجتَ لا يلبثون، ولذلك لم تعملْ إذاً لأنها توسطت بين قسم مقدر والفعل، فلا يلبثون لَيسَتْ منصبة عليه من جهة الإعراب، ويحتمل أن تكونَ ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، يدل عليه المعنى تقديره: وهم إذاً لا يلبثون، فوقعت إذاً بين المبتدأ وخبره، فأُلغِيَتْ اهـ. وقرأ[3] عطاء ابن أبي رباح ﴿لا يلبثون﴾ بضم اليَاءِ وفتح اللام، والباءُ مشددة، وقرأ يعقوب كذلك إلا أنه كسر الباء، وقرأ أبي ﴿وإذاً لا يلبثوا﴾ بحذف النون أعملَ إذاً فنصب بها على قول الجمهور، وبأن مضمرةً بعدها على قول بعضهم: وكذا هي في مصحف عبد الله محذوفَ النون، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ﴿خلفك﴾ بمعنى بعدك، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿خِلَٰفَكَ﴾ قال الأخفش: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ في معنى خلفك وبعدك، وقال ابن الأنباري ﴿خِلافَك﴾ بمعنى مخالفتك، والمعنى عليه على مخالفتك، فسقط حَرْفُ الخفض، ومما يدل على أنَّ ﴿خِلاَف﴾ بمعنى بعد قول الشاعر:

عَـفَـتِ ٱلـدِّيَـارُ خِـلاَفَـهَـا فَـكَـأَنَّـمَـا   بَـسَـطَ ٱلـشَّـوَاطِـبُ بَـيْـنَـهُـنَّ حَـصِـيْـرَا

يقال: شطبت المرأة الجريد: إذا شققته لتَعْمَلَ منه الحصيرَ، قال أبو عبيدة: ثم تلقِيه الشاطبة إلى المثقبة، وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل ﴿خُلاَّفُك﴾ بضم الخاء وتشديد اللام، ورفع الفاء، وقرأ عطاء ابن أبي رباح ﴿بَعْدَكَ﴾ مكان ﴿خلفك﴾، والأحسن أن يُجعل تفسيراً لخلفك لا قراءة لأنها تخالف سواد المصحف، وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ منصوب على المصدرية؛ أي: سننَّا ذلك الإهلاك سنة كسُنَّتِنَا في أقوام من قد أرسلنا ﴿قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن

---

(1) الشوكاني.

(2) البحر المحيط.

(3) زاد المسير والشوكاني والبحر المحيط.

﴿رُسُلِنَاۖ﴾؛ أي: عادةً كعادتنا فيهم، فسنة الله تعالى فيهم أن يهلكَ كلَّ أمة أخرجَتْ رسولهم من بين أظهرهم، فالسنة لله تعالى، وإضافتها إلى الرسل؛ لأنها سُنَّت لأجلهم كَمَا يَدُلَّ عليه قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّتِنَا﴾؛ أي: لعادتنا بإهلاك مخرجي الرسل من بينهم ﴿تَحْوِيلًا﴾؛ أي تغييراً عما كانت عليه أوَّلا؛ فإن ما أجرى الله به العادةَ لا يمكن لأحد سواه أن يغيره، ولا أن يحوله.

والمعنى(١): أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم، أَنْ يَأْتِيَهُمُ العذاب، ولَوْلاَ أنه ﷺ رَسُولُ الرحمة، لجاءهم من النّقم ما لا قبل لهم به، ومن ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ الآية.

ولما ذكر سبحانه الإلٰهيات المعادَ والجزاءَ.. أردفها بذكر أشرف الطاعاتِ، وهِيَ الصلاةُ فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يا محمد؛ أي: أدّ الصَّلاَة المفروضة عليكَ، وعلى أمتك ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ أي: بعد دلوك الشمس، وزوالها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: إلى ظلمة الليل، ويشمل ذلك الصلوات الأربعَ: الظهرَ، والعصرَ، والمغربَ، والعشاءَ ﴿و﴾ أقم ﴿قرآن الفجر﴾؛ أي: صلاة الصبح بالنصب عطفاً على مفعول، أقم، أو على الإغراء، أي إلزَمْ، وسميت قرآناً؛ لأنه ركنها كما تسمى ركوعاً وسجوداً، فالآية تدل على تفسير الدلوكِ بالزوال جامعة للصلوات الخمس.

وقد اختلف العلماء في الدلوك المذكور في هذه الآية على قولين(٢):

أحدهما: أنه زوال الشمس عن كَبِدِ السماءِ، قاله عمر، وابنه، وأبو هريرة، وأبو بَرْزَة، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، واختاره ابن جرير.

والقول الثاني: أنه غروبُ الشمس، قاله علي، وابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، وروي عن ابن عباس.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وقد[1] بيَّنَت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله ﷺ تَفَاصيلَ هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليومَ، ممَّا تلقوه عنه خلفاً عن سلفٍ، قرناً بعد قرن، وقد تَقَدَّمَ في سورة البقرَةِ، أنَّ المرادَ بإقامة الصلاة: أداؤها على الوجه الذي سنه الدين، والنهج الذي شرطه من توجيه القلب إلى مناجاة الرب، والخشية منه في السر والعلن، مع اشتمالها على الشرائط والأركان التي أوضحها الأئمة، المجتهدون، والصلاة لب العبادة، لما فيها من مناجاة الخَالِق، والإعراض عن كلّ ما سواه، ودعائِه وحده، وهذا هو مخُّ كلّ عبادة، وفي الحديث «أن تَعْبُدِ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ».

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: إنَّ صلاة الصبح ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ يَشْهدُهُ ويحْضُره ملائكة الليل، وملائكةُ النهار، يَنزِل هؤلاء ويَصْعَد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل، وأوَّل ديوان النهار.

وقد يكون المرادُ كما قال الرازي: أنَّ الإِنْسَانَ يَشْهَدُ فيه آثارَ القدرة، وبدائع الحكمة في السموات والأرض، فهُناكَ الظلام الحالك الذي يزيله النور الساطع، وهناكَ يقظة النوم بعد الخمود، والغيبوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة، في الملك، والملكوت، فكُلُّ العالم يقول بلسان حاله أو مقاله: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الملائكة والروح).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: وبعض ساعات الليل ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن؛ أي: فاسْهَرْ بتلاوته في قيام الليل، وأزل به الهجود، والنومَ، أو المعنَى ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: وبعض ساعات الليل ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾؛ أي: فصل بالقرآن حَالَة كون تِلْكَ الصلاة ﴿نَافِلَةً﴾؛ أي: فريضة زائدة على الصلوات الخمس خاصة. ﴿لَّكَ﴾ دُونَ أمتك يعني فريضةً زائدةً على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك، كما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «ثلاث هن عليَّ فريضة، وهن سنة لكم: الوتر، والسواك، وقيام الليل». وقيل: إنَّ الوُجُوبَ صار منسوخاً في حقه كما في

(١) المراغي.

حق الأمة، فصار قيامُ الليل نَافِلةً؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قَالَ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولم يقل: عليك.

فإن قلت: ما معنى التخصيص إذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه ﷺ؟

قلت: فائدة التخصيص: أن النَّوَافِلَ كفارات لذنوب العباد، والنبي ﷺ قَدْ غُفِر لَه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت له نافلةً، وزيادة في رفع الدرجات.

ويجوز أن تكون ﴿نافلة﴾ مصدراً كالعافية والعاقِبَةَ فَتَكُون مَفْعُولاً مطلقاً، والمعنى فتنفل نافلة لك.

فصل في الأحاديث الواردة في قيام الليل

عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا، وقد غفر الله لك ما تَقَدَّم من ذنبك، وما تأخَّرَ، قال: «أفلا أكون عَبْداً شَكُوراً» متفق عليه.

وعن زيد بن خالد الجهني قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ الليلةَ فتوسدت عتبته، أو فسطاطه (فَقَامَ فصلَّى ركعتين خفيفتين، ثُمَّ صلى ركعتين طويلتينِ طويلتينِ طويلتينِ ثُمَّ صلى ركعتينِ دون اللتين قَبْلَهُمَا ثُم صَلَّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلَهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلَهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثُمَّ أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعةً) أخرجه مسلم، وأبو داود، وهذا لفظ أبي داود.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كَيْفَ كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي» متفق عليه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (كان رسول الله ﷺ يصلّي فيما بَيْنَ أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعةً يسلم بين كل ركعتين، ويوتر بواحدة، ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ أحدكم خمسينَ آيةً قبل أن يَرْفَعَ رَأْسَهُ فإذا سكت المؤَذّنُ من صلاة الفجر، وتبيّن له الفجر، قَامَ فركع ركعتيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة) متفق عليه؛ وعنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذَا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خَفِيفَتَيْنِ) أخرجه البخاري.

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: (قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقامَ فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف، وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام، فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة النساء) أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائي. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (قام رسول الله ﷺ بآية مِنَ القرآن ليلة) أخرجه الترمذي.

وعن الأسود بن يزيد قال: سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل، قالت: (كان ينام أوله ويقوم آخره، فيصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذّن المؤذن، وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك قال: (ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصلياً إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائِماً إلاَّ رأيناه) أخرجه النسائي، زاد في رواية غيره، قال: (وكان يصوم من الشهر حتى نقولَ: لا يفطرُ منه شيئاً، ويفطر حتى نقولَ: لا يصوم منه شيئاً).

﴿عَسَى﴾؛ أي: حق وثبت ووجب ﴿أَن يَبْعَثَكَ﴾ ويقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ يا محمد في الآخرة، ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أي: قِياماً محموداً يحمدك فيه كل الخلائق من الأولين والآخرين، وخالقهم تبارك وتعالى، فعسى هنا تامة، وجملة أن المصدرية

مع مدخولها فاعله، قال ابن جرير: قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من الأهوال في ذلك اليوم.

أخرج النسائي، والحاكم، وجماعة عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «يجمع الله الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادى يا محمد فيقول: لبَّيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، ولا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليتَ سبحانك رب البيت» فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله سبحانه وتعالى.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلةَ، والفضيلةَ، وابعثْه المقام المحمود الذي وعدتَه.. حلت له شفاعتي».

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامَةِ ولا فخرَ، وبيدي لواء الحمد، ولا فخرَ وما من نبي يومئذٍ، آدم فمن سواه.. إلا تحت لوائي» الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي، فهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً» متفق عليه.

﴿وَقُل﴾ يا محمد داعياً ربك ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ في كل[1] مقام تريد إدخالي فيه في الدنيا وفي الآخرة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾؛ أي: إدخالاً صادقاً؛ أي: يستحق الداخل فيه أن يقال له: أنت صادق في قولك وفعلك، ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ من كل ما تخرجني منه ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ أي: إخراجاً صادقاً؛ أي: يستحق الخارج منه أن يقال له:

---

(١) المراغي.

أنت صادق في قولك وفعلك.

وقيل المعنى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ في المدينة ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، أي: إدخالاً مُرضِياً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ من مكةَ إلى المدينةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ أي: إخراجاً مرْضِياً، وذلك[١] حين أُمر النبي ﷺ بالهجرة كما قاله ابن عباس، والحسن، أو المعنى: وأخرجني من المدينة إلى مكة غالباً عليها بِفَتْحِهَا. وقيل: الأكمل مما سبقَ أن يقال: ربِّ أدخلني في الصلاة، وأخرجني منها مع الصدق والإخلاص، وحضور قلبي بذكرك، ومع القيام بلوازم شكرك. والأكمل من ذلك أن يقال: رب أدخلني في القيام بأداءِ مهمات شريعتك، وأخرجني بعد الفراغ منها إخراجاً لا يبقى عليَّ منها تبعة والأعلى مما سبق أن يقال: رب أدخلني في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك، ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول، ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق في معرفة الفرد المنزه عن التغيرات، وقيل: المعنى رب أدخلني القبر إدخالاً مُرْضِياً وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مُرْضِياً ملقىً بالكرامة.

وخلاصة ذلك[٢]: رب أدخلني إِدْخالاً مُرْضِياً كإدخالي للمدينة مهاجراً، وإدخالي مكة فاتحاً، وإدخالي في القبر حين الموت، وأخرجني إخراجاً محفوظاً بالكرامة والرضا، كإخراجي من مكة مهاجراً، وإخراجي من القبر للبعث.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مُخْرَجَ﴾ بضم ميمهما، وهو مقيس في مصدر أفعل الرباعي نحو أكرمته مكرماً؛ أي: إكراماً، وقرأ قتادة، وأبو حيوة، وحميد، وإبراهيم ابن أبي عبلة بفتحهما، وقال صاحب «اللوامح» وهما مصدران من دخل وخَرَج، لكنه جاء من معنى أدخلني، وأخرجني، المتقدمَين دون لفظهما، ومثلهما ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ ويجوز أن يكونا اسم المكان، وانتصابهما على الظرف، وقال غيره: منصوبان مصدرين على تقدير فعل؛ أي: أدخلني فأدخل مدخل

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

صدق، وأخرجني فأخرج مخرجَ صدقٍ، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود، قال الواحدي: وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي﴾ يا إلهي ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: من خزائن نصرك ورحمتك ﴿سُلۡطَٰنًا﴾؛ أي: برهاناً وقهراً ﴿نَّصِيرًا﴾[1] ينصرني على أعداء الدين، أو ملكاً، وعزّاً ناصراً للإسلام مظهراً له على الكفر، فأجيبت دعوته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فإن ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أو المعنى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا﴾، أي[2]: حجة ظاهرةً قاهرةً تنصرني بها على جميع من خالفني، وقيل: اجعل لي من لدنك ملكاً وعزاً قوياً، وكأنه ﷺ عَلِمَ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً. ثم أمره أن يخبر بالإجابة بقوله: ﴿وَقُلۡ﴾ يا محمد للمشركين مهدداً لهم قد ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا مِرْية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع، ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ أي اضمحل بَاطِلهم، وهلك إذ لاَ ثَبَاتَ له مع الحق كما قَالَ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾؛ أي: مضمحلاً لا ثباتَ له في كل آن، والحق كان ثابتاً في كل آن، أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يَوْمَ الفتح، وكَانَ حولَ البيت ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾: - ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

وفي رواية للطبراني، والبيهقي عن ابن عباس أنه ﷺ جاء، ومعه قضيب فجعل يهوي به إلى كل صنم منها، فيخر لوجهه فيقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ حتى مر عليها كلها، وبقي صنم خُزَاعَةَ فَوْقَ الكعبة، وكان

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

من صفر فقال: «يا عليُّ ارم به» فصعد فرمى به فكسره ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ عليك يا محمد ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ بيان[1] مقدم على المبيَّن اعتناءً بشأنه، فإنَّ كل القرآن في تقويم دين المؤمنين واستصلاح نفوسهم، كالدواء الشافي للمرضى ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾؛ أي: ما به يستشفى من الجهل والضلالة، وتزول به أمْرَاض الشك والنفاق والزَّيْغِ والإلحاد ﴿و﴾ ما هو أيضاً ﴿رحمة للمؤمنين﴾ به الذين يعملون بما فيه من الفرائض، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيدخلون الجَنَّةَ وينجون من العذاب.

واختلف أهل العلم في معنى كونه ﴿شِفَاءٌ﴾ على قولين[2]:

الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الرَّيب، وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه.

القول الثاني: أنه شفاء من الأمراض الظَّاهِرَة بالرقى، والتعوذ، ونحو ذلك، ولا مَانِعَ من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حَمْلِ المشترك عَلَى معنييه، وقرأ الجمهور ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ بالنون ومجاهد بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص، وقرأ زيد بن علي ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ بنصبهما ويتخرج النصب على الحال، وخبر ﴿هُوَ﴾ قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعامل فيه ما في الجار والمجرور من الفعل، ونظيره قراءة من قرأ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ بنصب ﴿مطويات﴾ ثم لمَّا ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين، ذكَرَ ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم، فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ القرآن كله، أو بعض منه الكافرين ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الوَاضِعِينَ للأشياء في غير موضعها، الذين وضعوا التكذيبَ موضع التصديق، والشكَّ والارتياب مَوْضِعَ اليقين والاطمئنان؛ أي: لا يزيدهم مع كونه في نفسه شفاءً من الأسقام ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: إلاَّ خسراناً سرمدياً، وهلاكاً أبدياً بكفرهم وتكذيبهم له، لأنهم كلما سمعوا آيةً منه

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ازدادوا بُعداً عن الإيمان، وازدادوا كفراً بالله تمرداً وعناداً؛ لأنه قد طُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وفي الآية[١]: إيماء إلى أنَّ ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعتَرِيَةِ لهم في أثناء الاهتداءِ والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك.

ثمَّ نبه سبحانه وتعالى على قبح بعض ما جُبلَ عليه الإنسان من الطبائعِ المَذْمُومَةِ، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾؛ أي: أحسنا وأفضنا ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: على هذا الجنس بالنّعَم التي توجب الشكر كالمال والعافية، والفتح والنصر، وفعل ما يريد ﴿أَعْرَضَ﴾ عن شكرنا عليها، وعن طاعتنا، وعبادتنا، أو اغتر بها غَافِلاً عن شكرنا، وطاعتنا ﴿وَنَـَٔا﴾؛ أي: تَبَاعَدَ عن أمرنا لاوياً ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ وعطفه عن اتباعه مستكبراً عن قبول الحق، معجباً بنفسه، معادياً لأهل الحق غير مقتد بهم، تعظماً لنفسه كديدنِ المستكبرين من أهل الدنيا، وعبارةُ «الخازن» هُنَا؛ أي: تباعد عنا بنفسه، وترك التَّقَرُّبَ إلينا بالدعاء، وقيل: معناه تكبر وتَعَظَّم، انتهت. وهو[٢] تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراضَ عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه؛ أي: نَاحِيَتَه، والنأي بالجانب: أن يلوِيَ عنه عطفه، ويولّيه ظهره، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا: الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويُراد بالنأي بجانبه: التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[١] ﴿وَنَئَا﴾ بفتحتين بلا إمالة، وقرأ حمزة، والكسائي بالإمالة فيهما، وأمال شعبةُ والسوسي الهمزةَ فقط، وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوانَ وأبو جعفر ﴿ناء﴾ مثل باع بتأخير الهمزة، قيل: هو مقلوب ﴿نأى﴾ فمعناه بَعُدَ، وقيل: معناه نهض بجانبه، وقال الشاعر:

حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱلْتَأَمَتْ مَفَاصِلُهْ وَنَاءَ فِي شَقِّ ٱلشِّمَالِ كَاهِلُهْ

أي: نهض متوكئاً على شماله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: وإذا أصابته الجوائحُ، وانتابته النوائب من فقر أو مرض، أو نازلة من النوازل، وفي إسنادِ[٢] المساسِ إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذان بأَنَّ الْخَيْرَ مرادٌ بالذات والشر ليس كذلك ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾؛ أي: شديد اليأس من روح الله وفضله، والمعنى[٣]: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك، استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكِلتَا الخصلتين مذمومة.

وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذَٰلِكَ شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال: لا منافاة بين الآيتين، فقد يكون مع شدة يأسه، وكثرة قنوطه كثيرَ الدعاء بلسانه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿كُلٌّ﴾؛أي: كل إنسان منا ومنكم ﴿يَعْمَلُ﴾ عمله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ أي: على طريقته التي تشاكل وتوافق حالَه التي جبل، وطبع عليها من الهدي والضلال، قال في «القاموس» الشَّاكِلَةُ الشكل، والشكل المَثَلُ والنَّظِيرُ والناحية، والنية، والطريقة، والمذهب انتهى.

وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، والمعنى: أَنَّ كُلَّ إنسان يعمل عمله على ما يشاكل أَخْلاَقَهُ التي ألفها، وطبع عليها، وهذا ذم للكافر، ومدح لِلْمُؤْمن ﴿فَرَبُّكُمْ﴾

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

الذي برأكم على هذه الطبائع المختلفة، وابتلاكم بهذه الأديان المُخْتَلِفَةِ ﴿أَعْلَمُ﴾ منا ومنكم ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ وأسَدُّ، وأصوب، وأوضح ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طَرِيقاً، ودِيناً فيؤتيه أجره موفوراً، وأعلم بمن هو أضل سبيلاً فيعاقبه بما يستحق؛ أي: يعلم المهتدي، والضال فيجازي كُلاًّ بعمله؛ لأنه الخالق لكم، العالم بما جُبِلْتُم عليه من الطبائع، وما اختلفتم فيه من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة، ولا ييأس عند المحنة، وبَيْنَ الكافر الذي شأنه البطر للنعم، والقنوط عند النقم.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن الأعمال دَلاَئِلُ الأحوال، فمن وجد نفسه في خير وطاعة وشكر، فليحمد الله تعالى كثيراً، ومن وجدها في شر وفسق، وكفران، ويأس فليرجع قَبْلَ أن يخرج الأمر من يده.

وبمعنى الآية قوله سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ولا يخفى ما في هذه الآية من تهديد شديد، ووعيد للمشركين. ولما أجرى الكلام في ذكر الإنسان وما جُبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾؛ أي: ويسألك اليهودُ يا محمد ﴿عَنِ﴾ حقيقة ﴿الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به البدن، هل هو جسماني أو نوراني، أو عن صفته أقديم هو أم حادث؟.

قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يُخْبِرِ الله سبحانه به أحداً من خلقه، ولن يُعْطِ علمه أحداً من عباده، ولذا قال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد في جواب سؤالهم ﴿الرُّوحُ﴾ الذي هو سبب حياة البدن بنفخه فيه ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: شأن من شؤونه تعالى، وفعل من أفعاله، أحدثَ بتكوينه وخلقه وإبداعه من غير مادة، وقد استأثر بعلمه، لا يعلمه إلا هو سبحانه؛ لأنكم لاَ تَعْلَمُون إلاَّ ما تراه حواسكم، وَتَتَصرفُ فيه عقولكم، ولا تعلمون من المادة إلاَّ بَعْضَ أَوْصَافِها، كالألوان، والحركات للبصر، والأصوات للسمع، والطعوم للذوق،

---

(١) روح البيان.

والمشمومات للشم، والحرارة والبرودة للمس فلا يتسنى لكم إدراك ما هو غير مادي كالروح.

وقال القرطبي: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: هو أمر عظيم، وشأن كبير من أمر الله تعالى، مبهماً له وتاركاً تفصيله، لِيَعْرِفَ الإنسان على القطع عَجْزَهُ عن علم حقيقة نفسه، مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا، كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحَقّ تعالى أولى، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مَخْلُوق مجاورٍ له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز، انتهى. أو المعنى ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: شيء من الأشياء التي استأثر الله سبحانه بعلمها، ولم يُعلم بها أحداً من عباده، وقيل: معنى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: من وحيه، وكلامه لا من كلام البشر، فعلى هذا المراد بالروح المسؤول عنه القرآن، والقول الأول هو الظاهرُ الحق.

وفي هذه الآية[1] ما يزجر الخائضينَ في شأن الروح المتكلفينَ لبيان مَاهِيَتِهِ، وإيضاح حَقِيقَتِهِ أبلغ زجر، ويردعهم أعظم ردع، وما أحسنَ قول أحمد بن رسلان في «زبده»:

وَٱلرُّوحُ مَا أَخْبَرَ عَنْهَا ٱلْمُصْطَفَىٰ فَنُمْسِكُ ٱلْمَقَالَ عَنْهَا أَدَبَا

وقد أطالوا البحث في هذا المقام بما لا يقتضيه الحال، وغالبه بل كله من فضول الكلام الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا، وقد حكى بعض المحقّقِينَ أَنَّ أَقْوَال المختلفين في الروح بلغَتْ إلى ثمانية عشرَ ومئة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ، والتعب العاطل عن النفع بعد أن عملوا أن الله سبحانه قَدِ استأثَرَ بِعِلْمِهِ، ولم يُطلع عليه أَنْبِيَاءَهُ، ولا أذن لهم بالسؤال عنه، ولا في البحث عن حقيقَتِهِ فضلاً عن أممهم المقتدين بهم، فيالله العجب!! حيث تَبْلُغُ أَقْوَالُ أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه، ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله سبحانه بالكلام فيه، ولم يُستأثر بعلمه.

---

(١) الشوكاني.

ثم أكد عَدَمَ علم أحَدٍ بها بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾؛ أيها الناس: مؤمنكم ولا كافركم؛ أي: وما أعطيتم ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالنسبة إلى علم الله تعالى، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلا علماً قَلِيلاً تستفيدونه من طرق الحواس الخمس الظاهرة، السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس؛ أي: إن علمكم الذي علمكم الله سبحانه ليس إلا المقدارَ القليلَ بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتيَ حظاً من العلم وافراً، بل عِلمُ الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام.

وخلاصة ذلك(١): أنه ما أطلَعَكم من علمه إلاَّ على القليل، والذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى، ولم يطلعكم عليه.

وقرأ عبد الله بن مسعود والأعمش(٢): ﴿وما أوتوا﴾ بضمير الغيبة عائداً على السائلين.

تنبيه: اختلف في المراد بالروح في هذه الآية على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأول: أنَّ المرادَ بالروح هنا القرآن، وهو المناسب لما تقدمه من قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولما بعدَه من قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وَلأنه سُمّيَ به في مواضع متعددة من القرآن كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، ولأن به تحصل حياةُ الأرواح والعقول، إذ به تحصل معرفة الله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف.

والثاني: أن المرادَ بالروح هنَا جبريل عليه السلام، وهو قول الحسن، وقتادة، وقد سُمّي جبريل في مواضعَ عِدَّةٍ من القرآن بالروح كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ ويؤيد هذا أنه قال في هذه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

الآية ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى﴾ وقال جبريل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل في نفسه، وكيف يقوم بتبليغ الوحي.

والثالث: أنَّ المراد بالروح هنا الذي يحيا به بَدَنُ الإنسان، وهذا قول الجمهور، ويكون ذِكْرُ الآية بين ما قَبْلَهَا وما بعدها اعتراضاً للدلالة على خسارة الظالمين، وضلالهم، وأنهم مشتغلون عن تَدَبُّرِ الكتاب، والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سَدَّ الطريق على معرفته، ويؤيد هذا ما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: مَرَّ رسُولُ الله ﷺ بنفر من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، يسمعكم مَا تَكْرَهُونَ، فقاموا إليه، وقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن الروح، فقام ساعةً ينظر، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إليه، ثم قال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ الآية، ولما ذكر سبحانه أنه ما أتاهم من العلم إلاَّ قليلا.. بيَّن أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل.. لفعل، فقال: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ و(اللام) الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية (لام) الجواب، وهذا الجواب ساد مسد جوابي القسم، والشرط، والمعنى: وعزتي وجلالي لو شئنا لنمحوَن بالقرآن الذي أوحينا إليك يا محمد من الصدور والمصاحف، ولا نترك له أثراً، وبقيت كما كنتَ أولاً لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذهابه ومحوه ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ لا تجد لنفسك برده علينا ﴿عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ أي كَفِيلاً يرده عليك، وناصراً لك علينا ينصرك فيحول بيننا وبين ما نريد بك، ولا قيماً لك يمنعنا من فعل ذلك بك، وعبارة البيضاوي هنا، أي: لا تجد من يتوكل علينا باسترداده مسطوراً محفوظاً اهـ؛ أي: من يتعهد، ويلتزم استردَادَه بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه اهـ «شهاب».

وهذا[1] الكلام وارد على سبيل الفرض، والمحال يصح فرضه لغرض، فكيف ما ليس بمحال؟ ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: إلا أن يرحمك ربك، فيرد

---

(١) روح البيان.

عليك، كأن رحمته تتوكل وتتكفل بالرد عليك، فالاستثناء متصل، وفي «السمين» في الاستثناء قولان: أحدهما: أنه استثناء متصل؛ لأن الرحمةَ تندرج في قوله: ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: إلاَّ رحمةً فإنها إن نالتكَ فَلَعَلَّها تسترده عليك، والثاني أنه مُنْقَطِعٌ فيقدر بـ(لٰكن) عند البصريين، وبـ(بل) عند الكوفيين، والمعنى[1]: أي: لكن أبقيناه إلى قرب قيام الساعةَ رحمة من ربك، فعِنْدَ ذلك يرفَعُ من الصدور والمصاحف. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ﴾ ولطفه سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً إذ أرسلك للناس بشيراً ونذيراً، وأَنْزلَ عليك الكتابَ وأبْقاه في حفظك، ومصاحفك، وفي حفظ أتباعك، ومصاحفهم، وصيرك ولدَ آدم وخَتَمَ بك النبيين والمرسلينَ وأعْطَاكَ المقام المحمودَ، وغير ذلك، ثمَّ نبه إلى شرف القرآن العظيم، وكبير خطره، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد للذين لا يعرفون جلالةَ قدر التنزيل، بَلْ يزعمون أنه من كلام البشر، والله ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾، أي: اتَّفقُوا، وتعاوَنُوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في البلاغة وكمال المعنى، وحسن النظم، والإخبار عن الغيب، وفيهم العربُ العرباءُ، وأرباب البيان، وأهل التحقيق ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾؛ أي: بمثل القرآن؛ أي: لا يأتون بكلام مماثل مشابه له في صفاته البديعة، وهو[2] جواب قسم محذوف، دَلَّ عليه (اللام) الموطئة له في قوله: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾ وساد مسد جزاء الشرط، ولولاها.. لَكَانَ جواباً له بغير جزم، لكون الشرط ماضياً، وإنما[3] أَظْهَرَ في مقام الإضمار، ولم يَكْتَفِ بأن يقول: لاَ يَأْتُونَ به على أن الضميرَ راجع إلى المثل المذكور، لدفع توهم أن يَكُونَ له مثل، وللإشعار بأنَّ المرادَ نفي المثل على أي صفة كانَ.

والمعنى: قُلْ يا مُحَمَّدُ لمن يزعمون أن القرآن من كلام البشر متحدياً لهم، والله لئن اجتمعت الإنس والجن والملائكة كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في البلاغة، وحُسْنِ النَّظْمِ، وكمال المعنَى.. لاَ يَقْدِرُونَ على الإتيان

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾؛ أي: مظاهراً ومعاوناً في الإتيان بمثله؛ أي: لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، ولو تَعَاوَنُوا وتَظَاهَرُوا، فإنَّ هذا غير ميسور لهم، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظيرَ له، ولا مثيل.

وتخصيص الثقلين بالذكر؛ لأن المنكر في كونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأن غَيْرَهُما قادر على المعارضة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾؛ أي: وعزتي وَجَلاَلِي، لقد رَدَدْنَا وكرَّرنا وَبَيَّنَا بوجوه مختلفة توجب زيادةَ بيان ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: لأهل مكة ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنعوت بالنعوت الفاضِلَةِ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كلّ مَعْنىً بديعٍ يشبه المثل في الغرابة ليتلقوه بالقبول.

والمعنى[1]: وعزتي وجلالي، لقد رددنا القول في هذا القرآن بوجوه مختلفة، وكرَّرْنَا الآياتِ والعبرَ، والترغيبَ، والترهيبَ، والأوامرَ، والنواهيَ، وأقاصيصَ الأولين، والجنة والنار، ليدبروا آياته، ويَتَّعِظوا بها ﴿فَأَبَىٰ﴾ وامتنع ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ من أهل مكة، ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: إلاَّ الجحودَ والإنكارَ، والثباتَ على الكفر، والإعراضَ عن الحق، وأنكروا كونَ القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم، وأظهر في مقام الإضمار، حيث قال: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ توكيداً، أو توضيحاً، وقرأ الجمهور ﴿صَرَّفْنَا﴾ بتشديد الراء، والحسن بتخفيفها ذكره في «البحر» وإنما[2] جاز الاستثناء المفرغ من الموجب مع أنَّهُ لا يصح ضربت إلا زيداً، لأن لفظةَ أبىٰ هنا تفيد النفي، فيؤوَّل بالمنفِيِّ فكأنه قيل: فلم يَرْضَوا، ولم يقبلوا، ولم يختاروا إلا كفوراً.

وفي الآية فوائد: منها: أنَّ القرآن العظيم أجلُّ النِعَمِ وأعظمها، فوَجب على كل عَالم وحَافَظ أن يقوم بشكره، ويُحَافِظ على أداء حقوقه، قبل أن يَخْرُجَ الأمر من يده. ولما تم الإقناعُ بالحجة وقُطعت ألسنتهم، وأفحِموا، ولم يَجِدُوا وسيلة للردّ، أرادوا المُرَاوَغَةَ والمُشَاغَبَةَ باقتراح الآيات، وذكَرُوا من ذلك ستَّةَ أنواع:

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات بتصرف.

ذكر الأول منها سبحانه بقوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال مشركو مكة، ورؤساؤهم كأبي سفيان، والنضر بن الحارث ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ يا محمد؛ أي: لن نُصَدّقك، ولن نَعْتَرِف لك بنبوتك ورسالتك، ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾؛ أي: تشقّقَ ﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرض مكة ﴿يَنۢبُوعًا﴾؛ أي: عيناً كَثِيرةَ الماء ينبع ماؤُها، ولا يغور ولا ينقطعُ، وهو يفعول من نبعَ الماءَ و(الياء) زائدة كيعبوب من عب الماء إِذَا كَثُرَ.

والمعنى[1]: وقال رؤساء مكة وصناديدها قولَ المبهوت المحجوج المتحير: لن نصدقك حتى تستنبط لنا عيناً من أرضنا، تدفق بالماء أو تفور، وذلك سَهْلٌ يسير على الله، لو شاء فَعَلَهُ وأجابهم إلى ما يطلبون، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، وقال أيضاً ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ الآيــة، وقــرأ حــمــزة والكسائي، وعاصم ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ مخففاً مثل تقتل، وقرأ الباقون بالتشديد من ﴿فجر﴾ المضعف، ولم يختلفوا في ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أنها مشددة، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار، وهي جمع.

وذكر الثاني منها بقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ وحدك ﴿جَنَّةٌ﴾؛ أي: بستان تستر أشجاره ما تحْتَها من العرصة؛ أي: بستان كائن ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ من أشجار ﴿عنب﴾ وعبر بالثمرة، لأن الانتفاع بغيرها من الكرم قليل ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ والسواقي وتجريها أنت بقوة ﴿خِلَٰلَهَا﴾؛ أي: وسَطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ كثيراً، والمراد إما إجراء الأنهار وَسَطَها عند سقيها، أو إدامة إجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه.

وقال في «القاموس»: خلال الدار، ما حوالي جدورها، وما بين بيوتها، وخلال السحاب مخارج الماء. انتهى، والمعنى: أو يكونُ لَكَ بستانٌ فيه نخيلٌ وعنبٌ تفجر الأنهارَ خِلاَلَهُ تفجيراً لسقيه.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية: و(اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جوابُ القسم لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَرَّمْنَا﴾ ﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿حملنا﴾ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ الواو حرف عطف. ﴿البحرِ﴾: اسم معطوف على ﴿ٱلْبَرِّ﴾ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾: (الواو) حرف عطف ﴿رزقنا﴾ فعل وفاعل (هم) ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به. وجملة ﴿رزقناهم﴾ معطوفة على ﴿كَرَّمْنَا﴾. ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿رزقنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿رزقنا﴾؛ لأنه بمعنى أعطيناهم، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿كَرَّمْنَا﴾ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ متعلق بـ﴿فضلنا﴾ ﴿مِّمَّنْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿كَثِيرٍ﴾ ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: خلقناهم ﴿تَفْضِيلًا﴾ مفعول مطلق لـ ﴿فضلنا﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف تقديره: اذكرُ، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿يوم﴾ ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نَدْعُوا۟﴾ ﴿فَمَنْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت دعاءنا إياهم، وأردت بيانَ حالهم بعد ذلك.. فأقول لك: ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما هو مقرر في كتب النحو، ﴿أُوتِيَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، وهو المفعول الأول لـ﴿أُوتِيَ﴾ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ مفعول ثان لـ﴿أُوتِيَ﴾ لأنه بمعنى أعطي

﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِيَ﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ (الفاء) رابطة لجواب من الشرطية وجوباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (من) الشرطية، في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة استئنافاً، بيانياً، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يَقْرَءُونَ﴾ ﴿فَتِيلًا﴾ منصوب على المفعولية، المطلقة، لأنه صفة لمصدر محذوف تقديره: ظلماً قدر فتيل.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ ﴿أَعْمَىٰ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿فَهُوَ﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جار ومجرور حال من المبتدأ، أو من الضمير في ﴿أَعْمَىٰ﴾. ﴿أَعْمَىٰ﴾ خبر المبتدأ، ﴿وَأَضَلُّ﴾ معطوف على ﴿أَعْمَىٰ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز محول من المبتدأ، منصوب بـ﴿أضل﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جَوَاباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو) استئنافية ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: وإنه ﴿كَادُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وهو من أفعال المقاربة ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿يفتنونك﴾ فعل وفاعل، ومفعول ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر (إنْ) المخففة، وجملة (إن) المخففة مستأنفة، ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف

تقديره: أوحيناه إليك ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تفتري﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق به، ﴿غَيْرَهُۥ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية، صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لافترائك علينا غيره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يفتنون﴾ ﴿وَإِذًا﴾ (الواو) عاطفة ﴿إذاً﴾ حرف جواب وجزاء مقدر بـ ﴿لو﴾ الشرطية؛ أي: ولو فعلت ذلك الافتراء ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿اتخذوك خليلا﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مع جوابه، جواب لو المقدرة، والتقدير: ولو فعلت ذلك الافتراء، والله لاتخذوك خليلاً، وجملة لو المقدرة معطوفة على جملة، قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾ (الواو) استئنافية ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿ثَبَّتْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل النصب بأن المصدرية، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره؛ ولولا تثبيتنا إياك موجود ﴿لَقَدْ﴾ (اللام) رابطة لجواب لولا قد حرف تحقيق ﴿كِدتَّ﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿تَرْكَنُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلّق به ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولٌ مطلقٌ لأنه بمعنى الركون ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لـ﴿شيئا﴾، وجملة ﴿تَرْكَنُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾ وجملة ﴿كاد﴾ جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، مقدرة، بـ﴿لو﴾ الشرطية؛ أي: ولو ركنت إليهم.. ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿أذقناك﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية، جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم جواب ﴿لو﴾ المقدرة، وجملة (لو) المقدرة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَجِدُ﴾ فعل

مضارع، وهو من وجد الضالة، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَجِدُ﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿نَصِيرًا﴾. ﴿نَصِيرًا﴾ مفعول ﴿تَجِدُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أذقناك﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو) عاطفة ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة ﴿كَادُواْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿يستفزونك﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر إن المخففة، وجملة إن المخففة معطوفةٌ على جملة قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿لِيُخْرِجُوكَ﴾ اللام حرف جر، وتعليل ﴿يخرجوك﴾ فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن المضمرة بعد لام كي ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به، وجملة أن المضمرةُ مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإخراجك ﴿منها﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يستفزونك﴾ ﴿وَإِذًا﴾ (الواو) عاطفة ﴿إذاً﴾ حرف جواب، وجزاء، مقدر بـ﴿لو﴾ الشرطية، تقديره: ولو أخرجوك ﴿لَّا﴾ نافية ﴿يَلْبَثُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿خِلَٰفَكَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَلْبَثُونَ﴾، لأنه بمعنى بعدك كما مر ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، لأنه صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا لبثاً قليلاً، وجملة ﴿يَلْبَثُونَ﴾ جواب لقسم محذوف، تقديره؛ والله لا يلبثون، وجملة القسم المحذوف جواب لو المقدرة، وجملة لو المقدرة، معطوفة على جملة ﴿وَإِن كَادُواْ﴾. ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: سن اللَّهُ ذلك سنة، والجملة المحذوفةُ مستأنفة، واختار الفراء نصبها بنزع الخافض؛ أي: كسنة الله في من قد أرسلنا قبلك، واختارَ بعضهم أن ينصب بفعل محذوف، تقديره: اتَّبع: سنة من قد أرسلنا قبلك فالأوجه ثلاثة: ﴿سُنَّةَ﴾ مضاف ﴿مَن﴾ اسم موصول مضاف إليه، ﴿قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من قد أرسلناه ﴿قَبْلَكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿مِن رُّسُلِنَا﴾

حال من العائد المحذوف، أو من ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تَجِدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد لـ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ متعلق بـ﴿تَحْوِيلًا﴾ ﴿تَحْوِيلًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَجِدُ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿سن﴾ المحذوفة.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لِدُلُوكِ﴾ (اللام) ظرف بمعنى بعد متعلق بـ﴿أَقِمِ﴾ أو حرف جر وتعليل متعلق به، وإنما جر بـ﴿اللام﴾ لعدم اتّحادِ الفاعل، ففاعل القيام المخاطب، وفاعل الدلوك، ﴿ٱلشَّمْسِ﴾ وزمنهما مُخْتَلِفٌ أيضاً، فزمن الإقامة متأخر عن زمن الدلوك، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ﴿أَقِمِ﴾ أو حال من الصلاة؛ أي: أقمها ممتدة إلى غسق الليل، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ معطوف على ﴿الصلاة﴾؛ أي: وأقم صلاة الصبحِ، أو منصوب على الإغراءِ؛ أي: إلزم قرآن الفجر، أي: صلاتها. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾ في محل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ ﴿مَشْهُودًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف معلوم من السياق، معطوف على ﴿أَقِمِ﴾ و﴿مِن﴾ تبعيضية، والتقدير: واسهر بعض ساعات الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿تهجد﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به وجملة ﴿تهجد﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، أعني قولنا، واسهر ﴿نَافِلَةً﴾ حال من الصلاة المعلومة من السياق، ﴿لَّكَ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿نافلة﴾، أي: صل به الصلاةَ حالةَ كون الصلاة ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾ فعل ماض تام بمعنى حق، ووجب، وثَبَت ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ ناصب، وفعل ومفعول وفاعل ﴿مَقَامًا﴾ مفعول مطلق معنوي، لـ﴿يَبْعَثَكَ﴾ لأنه بمعنى يقيمك ﴿مَّحْمُودًا﴾

صفة لـ ﴿مَقَامًا﴾ وجملة ﴿يبعث﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لـ﴿عَسَىٰٓ﴾ تقديره: عسى بعث ربك إياك مَقَاماً محموداً؛ أي: إقامته إياكَ من القبر، أو في الآخرة قياماً محموداً.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ (الواو) استئنافية ﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَّبِّ﴾ منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿أَدْخِلْنِى﴾ فعل دعاء ونون وقاية ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مُدْخَلَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مصدر ميمي لـ﴿دخل﴾ وإضافته لـ﴿صِدْقٍ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أو للبيان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ فعل دعاء، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَٱجْعَل﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَدْخِلْنِى﴾. ﴿لِّى﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لاجعل ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿سُلْطَٰنًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾ ﴿نَّصِيرًا﴾ صفة له.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ فعل ناقص، وخبره واسمه ضمير يعود على ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَنُنَزِّلُ﴾ (الواو) استئنافية ﴿نُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ حال من ﴿ما﴾ الموصولة على أنه بيان مقدم، ويجوز أن تكون لابتداءِ الغاية، أو تبعيضية فهي حينئذٍ متعلقة بـ﴿ننزل﴾ كما اختاره أبو حيان ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿هُوَ شِفَآءٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوف على ﴿شِفَآءٌ﴾ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ﴿شِفَآءٌ﴾ أو بـ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ على سبيل التنازع، ﴿وَلَا﴾ (الواو) حالية (لا) نافية ﴿يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على القرآن، ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿خَسَارًا﴾ مفعول ثان له، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَنْعَمْنَا﴾ فعل، وفاعل ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض مضاف إليه لإذا على كونها فعل شرط لها، ﴿أَعْرَضَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محلَّ لَها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾. ﴿وَنَـَٔا﴾ فعل ماض معطوف على ﴿أَعْرَضَ﴾. ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ متعلق به، ﴿وَإِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كَوْنِهَا فِعْلَ شرط لَهَا، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الإنسان، ﴿يَـُٔوسًا﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب (إذا)، وجملة (إذا) معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، كل يعمل إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة، قصد العموم، ﴿يَعْمَلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلٌّ﴾. ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ (الفاء)

تعليلية، أو استئنافية ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ، وخبر ﴿بِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿هُوَ أَهْدَىٰ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب بأفعل التفضيل، والجملة الاسمية صلة ﴿من﴾ الموصولة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة، أو معترضة ﴿عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿سأل﴾ ﴿قُلِ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾ ﴿وَمَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿أُوتِيتُم﴾ فعل، ونائب فاعل ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾ مفعول ثان، لـ﴿أُوتِيتُم﴾ والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية، أعني قوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ (الواو) عاطفة و(اللام) موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿شِئْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعْلَ شَرْطٍ لهَا، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم، من حذف جواب المتأخر منهما استغناءً عنه بجواب المتقدم، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ (اللام) واقعة في جواب القسم، مؤكدة للأولى، زيدت بعد الشرط، إشعاراً بِأَنَّ الجواب المذكورَ للقسم لا للشرط ﴿نذهبن﴾ فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفَتْح والنون المشددة للتوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم، لاَ مَحَلَّ لهَا من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على

جملة قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره، بالذي أوحيناه إليك ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف بمعنى الواو ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَجِدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور حال من ﴿وَكِيلًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تَجِدُ﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿وَكِيلًا﴾. ﴿وَكِيلًا﴾ مفعول به لـ﴿تَجِدُ﴾؛ أي: لا تجد من يتوكل لك علينا؛ أي: من ينصرك عَلَيْنا باسترداده بعد رَفْعِهِ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿رَحْمَةً﴾ مستثنى من ﴿وَكِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء، أو على البدل من ﴿وَكِيلًا﴾ ويجوز أن يكونَ منقطعاً، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، فيعرب ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولاً من أجله، والتقدير: حفظناه عليك للرحمة، أو مفعولاً مطلقاً، والتقدير: لكن رَحِمْنَاك رحمةً ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾ ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الفضل ﴿عَلَيْكَ﴾ حال من ﴿كَبِيرًا﴾ لأنه كان صفة لـ﴿كَبِيرًا﴾ و﴿كَبِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (اللام) موطئة للقسم، ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿وَٱلْجِنُّ﴾ معطوف على ﴿ٱلْإِنسُ﴾ ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره على إتيانهم بمثل هذا القرآن الجار والمجرور متعلقان بـ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾ أو حال من فاعل ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾، أي: متظاهرين، ومتعاونين عَلَى ذلك، وجواب الشرط محذوفٌ على القاعدة المشهورة عندهم، تقديره: قل إن اجتمعت الإنس والجن على ذلك لا يأتون به، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾ ﴿لَا يَأْتُونَ﴾

فعل وفاعل ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جوابُ القسم، لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿وَلَوْ﴾ (الواو) عاطفة على مقدر تقديره: لو لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، لا يأتون بمثله، ولو كان بَعْضُهم الخ، وقد حذف المعطوف عليه، حَذْفاً مُطَّرِداً لدلالة المعطوف دلالةً واضحةً عليه، فإن الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر، فلأن ينتفي عند عدمه أولى، وعلى هذه النكتة، يَدُورُ ما في ﴿إن﴾ و﴿لو﴾ الوصليَّتين من التأكيد، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ بَعْضُهُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿لِبَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿ظَهِيرًا﴾ ﴿ظَهِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف معلوم مما قبلها تقديره: ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. لا يأتون بمثله، وجملة ﴿لَوْ﴾ مع جوابها في محل النصب معطوفة على المحذوف الذي قدرناه سابقاً، والجملة المحذوفة في محل النصب حال من فاعل ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ على كل حال مفروض، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان بمثله فضلاً عن غَيْرِهَا، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة، في روم تبديل بعض آياته ببعض، ذَكَرَهُ أبو السعود، والمعنى: لا يأتون بمثله حَالة كونهم غيرَ متظاهرينَ، وكَوْنِهِم متظاهرينَ ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿بَعْضُهُمْ﴾ اسمها ﴿لِبَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿ظَهِيرًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية (اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿صَرَّفْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿صَرَّفْنَا﴾ وكذا قوله: ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يتعلق به أيضاً ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿كُلِّ مَثَلٍ﴾ مفعول ﴿صَرَّفْنَا﴾ على مذهب الكوفيين، من جواز زيادة من في الإثبات، وعلى مذهب البصريين مفعول ﴿صَرَّفْنَا﴾ محذوف: تقديره البينات، والعبر، ومن كل مثل بيان، لذلك المحذوف، والجملة الفعلية، جواب القسم، لاَ محل لَهَا من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿أبى أكثر الناس﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَرَّفْنَا﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناءِ، مفرغ لأن ﴿أبى﴾ متأول بالنفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفوراً ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به لـ﴿أبى﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ (الواو) عاطفة ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أبى﴾ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير يعود على المشركين، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نُّؤْمِنَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿تَفْجُرَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَنَآ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿يَنۢبُوعًا﴾ ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿تَفْجُرَ﴾ ﴿يَنۢبُوعًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿تَفْجُرَ﴾ صلة (أن) المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره، إلى فجر ينبوع لنا من الأرض، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نُّؤْمِنَ﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتنويع ﴿تَكُونَ﴾ فعل ناقص معطوف على ﴿تَفْجُرَ﴾. ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم ﴿جَنَّةٌ﴾ اسمها مؤخر ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ صفة لـ﴿جَنَّةٌ﴾ ﴿وَعِنَبٍ﴾ معطوف على ﴿نَّخِيلٍ﴾. ﴿فَتُفَجِّرَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿تفجر الأنهار﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿تَكُونَ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿خِلَـٰلَهَا﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾؛ أي: كائنةً خِلالها ﴿تَفْجِيرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من حملته حملاً إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لا تخسفَ بهم الأرض، ولم يغرقهم الماء اهـ «بيضاوي». أو من حملته على كذا، إذًا، أعطيته ما يركبه، وعليه فالمحمول عليه، محذوفٌ يقال: حملته على فَرَسٍ إذًا، أعطيته إياهَا لِيَرْكَبَها.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍ﴾ وفي «القاموس»: الأناس جَمْعُ الناس، وفي «المصباح»: الإنسان من الناس اسم جنس يقع على المذكر، والمؤنث، والواحد، والجمع، والأناس قيل: فُعال بضم (الفاء)، لكن يجوز حذف الهمزة تخفيفاً غَيْرَ قياسٍ، فيبقى نَاس اهـ. فَعَلَى هذا ناس وزنه عال، لأن الفاء التي

هي الهمزة، قد حذفت اهـ. ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾؛ أي: كتابهم، فهو كقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَتِيلًا﴾ والفَتيلُ: الخيط المستطِيلُ في شق النَّواةِ طولاً، وبه يضرب المَثَلُ في الشيء الحقير، التافه، ومثله النَّقِير والقِطْمِيرُ.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لَوْلاَ: هي كلمة موضوعة للدلالة على امتناع جوابِهَا، لوجود شرطها، وفي «المصباح»: ركنت على زيد اعتمدت عليه، وفيه لغات: إحداها من باب تَعِبَ وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ والثانية: ركن ركوناً من باب قَعَدَ، والثالثة: رَكَنَ يركن بفتحتين فيهما، وليست بالأصل بل من تداخل اللغتين؛ لأن شرط باب فعل يفعل بفتحتين أنْ يَكُونَ حلقي العين أو اللام اهـ والرُّكونُ إلى الشيء، الميل إلى ركن منه ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً في الحياة الدنيا ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾؛ أي: عَذَاباً مُضَاعفاً في الممات في القبر، وبعد البعث.

﴿نَصِيرًا﴾؛ أي: معيناً يدفع عنك العذابَ ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾؛ أي: لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بَعْدَك ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: سنتنا بك؛ أي: عادتنا فِيكَ سنة الرُّسل قَبْلَكَ ﴿تَحْوِيلًا﴾؛ أي: تغييراً.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ دلوك الشمس: زوالها: عن دائرة نصف النهار، والدُّلُوكُ مصدر دلكت الشمس، وفيه ثلاثة أقوال:

أشهرها: أنه الزَّوالُ، وهو نصف النهار.

والثاني: أنه من الزوال إلى الغروب، قال الزمخشري: واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإِنسانَ يدلك عينَه عند النظر إليها، قلت: وهذا يفهم أنه ليس بمصدر، لأنه جَعَلَه مشتقاً من المصدر.

والثالث: أنه الغروب، وقال الراغب: دُلُوكُ الشمس ميلها للغروب اهـ. وفي «المصباح» دلكت الشيءَ دلكاً من باب قتل مَرَسْتَهُ بيدك، ودلكت الشمسُ، والنجوم دُلُوكاً من باب قعد، زَالت عن الاستواءِ ويُستعمل في الغروب أيضاً، وفي «القاموس»: دَلَكَتِ الشمس دلوكاً غربَت، أو اصفرت، ومالَت أو زالت عن كَبِدِ السماءِ.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ والغسق: دخول أول الليل، قاله ابن شميل، وقيل: هو سوَادُ الليْلِ وظلمته، وأصله من السيلان، يقال: غَسَقَتِ العين؛ أي: سَالَ دمعها فَكَأَنَّ الظُّلمةَ تنصب على العالم، وتسيل عليهم، ويقال: غسقتِ العين امتلأَتْ دَمْعاً، وغسق الجرحُ امتلأ دماً، فَكَأَنَّ الظلمة ملأت الوجود، وسالت عليهم، ويقال: غسق الليلُ، وأَغْسَقَ، وظلم وأظلم، ودجَى، وأَدْجَى، وغَبَشَ وأغبش نَقَلَه الفراء اهـ «سمين».

﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾؛ أي: إنَّ صلاة الصبح تشهده شَواهد القدرة، وبَدَائِع الحكمة، وبهجة العَالَم العلويّ والسفليّ فمن ظلام حالك، أزالَه ضوء ساطعٌ، ونور باهرٌ، ومن نَوْم وخمود إلى يقظة، وحركة وسعي إلى الأرزاق، فسبحانَ الواحد الخلاق، فَهلْ هناك منظر أجمل في نظر الرَّائِي من ظهور ذلك النور، ينفلِت من خلال الظلام الدامس يدفعه بقوَّة ليضيء العالم، بِجَمَالِه، ويَقْظَة النوام، وحركتهم على ظهر البَسِيطَةِ، وقد كانوا في سكون، فهي حياة متجددة بعد موت، وغيبُوبة للحواسّ ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ التهجد الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿نَافِلَةٗ﴾؛ أي: فريضةً زائدةً على الصلوات الخمس المفروضة عليك، والمعروف في كلام العرب: أن الهجود عبارة عن النوم، بالليل، يقال: هجد فلان، إذا نام بالليل، ثم لما رَأَيْنا في عرف الشرع، أَنَّهُ يقال لمن انتبهَ بالليل من نومه، وقام إلى الصلاة: إنه متهَجّد وَجَبَ أن يقال: سمي ذلك متهجداً من حيث إنه ألقى الهجودَ اهـ. وفي «السمين»: والتهجد ترك الهجود، وهو النَّوْمُ وتفعُّل يأتِي للسلب نحو تَحرَّج، وتأثَّم اهـ.

والمقام المحمود: مقام الشفاعة العظمى، حينَ فَصْلِ القضاءِ حيث لا أحد إلاَّ، وهو تَحْتَ لوائه ﷺ ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ و﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ المُدْخَلُ والمُخْرَجُ بضم الميم، فيهما مصدران ميميان بمعنى الإدخال، والإخراج، فهما كالمُجرى، والمرسى وإضافتهما للبيان، أو من إضافة الموصوف إلى صفته، اهـ «سمين». وفُسّر الصدق بالمَرْضى، لأنَّ الصّدْقَ من أوصاف العقلاء، فإذا وُصف به غيرهم كَانَ دالاً على أنه مرضي اهـ «شهاب». ﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ والسلطان الحجة البينة

والنصير الناصر والمعين وفي «السمين» يجوز أن يَكُونَ بمعنى فاعل للمبالغة، وأنْ يَكُونَ بمعنى مَفْعُولَ، أي: مَنْصُوراً به ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ في «المختار»: زهقت نفسه خرجت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وزهق الباطل؛ أي: زالَ وَاضْمَحَلَّ، وبابهما خضع، وزهقت من - باب تعب - زهوقا لغة فيه عند بعضهم اهـ.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ النأي بالجانب أن يوليه عطْفَه، ويوليه ظهره، وأرَادَ به الاستكبار؛ لأن ذلك ديدن المستكبرين، وفي «المصباح»: ونأى نأياً - منْ باب سعى - إذا بَعُدَ، ويتعدى بنفسه، وبالحرف، وهو الأكثر فيقال: نأيته، ونأيت عنه، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أنأيته ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ مذهبه، وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى، والضلالة من قولهم: طريق ذو شَواكل وَهي الطريق التي تتشعب منه، والمعنى: كل إنسان يعمل حسب جوهر نفسه، فإن كانت نفسه شريفةً طاهرةً، صدَرَتْ عنه أفعالٌ جَمِيلة، وإنْ كَانَتْ نَفْسُه كدرةً خبيثةً، صدرت عنه أفعالٌ خبيثةٌ فَاسِدَةٌ ﴿يَـُٔوسًا﴾؛ أي: شديدَ اليأس، والقنوط من رحمة الله، ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أسد طريقاً وأقوم منهجاً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾؛ أي: مُلْتَزِماً استرداده بَعْدَ الذهاب به كما يَلْتَزِمُ الوكيلُ ذلك فيما يتوكَّل عليه، ﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: معيناً في تحقيق ما يتوخَّوْنه من الإِتْيَانِ بمِثْلِهِ ﴿صَرَّفْنَا﴾؛ أي: كرَّرْنَا، ورَدَّدْنَا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جُحُوداً ﴿يَنۢبُوعًا﴾ والينبوع بفتح الياءِ عين كثيرةُ الماء لا ينقطع ماؤها، ووزنه يفعول من نَبَع الماءُ كيَعْبُوب من عب الماء إذا زَخَر؛ أي: كثر موجه، ومنه: البحر الزَّاخرُ اهـ «بيضاوي»، «وشهاب». ﴿جَنَّةٌ﴾؛ أي: بُستان تستر أشجارُه ما تحتها من الأرض.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿البر﴾، و﴿البحر﴾ في قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ حيث استعير الإمام الذي هو حقيقة في الذي يتقدَّم الناسَ في الصلاة، لكِتَابِ الأعمال؛ لأنه يرافق الإنسان، ويتقدمه يوم القيامة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يُضْرَب مَثَلاً للقلة؛ أي: لا ينقصون من ثواب أَعْمَالِهم مقدار الخيط الذي في شق النواة.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الخ بعد ذكر كتاب الأعمال.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿أذقناك﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾. وفيه: الحذف أيضاً، فقدْ حُذِفَ العذاب تكريماً لمقام النبي ﷺ، وهو في الأصل موصوف؛ أي: عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، ثُمَّ حذفَ الموصوف، وأقيمت الصِّفة مقامه، وهو الضعف، ثُمَّ أضِيفت الصفة إضافةَ الموصوف، فقيل: ضعف الحياة، وضعف الممات.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حيث أطلق الجزءَ على الكل؛ أي: قراءة الفجر، والمراد بها: الصَّلاَة، لأنَّ الْقِرَاءَة جزء منها، فالعلاقة الجزئية.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، لمزيد الاهتمام، والعناية في قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ حيث ذكر القرآنَ أوّلاً بمعنى صلاة الصبح، وأُعِيدَ عليه الضمير بمعنى القرآن المشهود، والاستخدامُ عند البديعيِّين ذكر الشيء بمعنًى، وعود الضمير عليه بمعنى آخر.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، وبَيْنَ ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بَيْنَ أدخلني، ومدخل، وأخرجني، ومُخْرَجَ.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وهو: أن يذيّلَ النَّاظِمُ والناثر كلامه بعد تمامه، وحسن السكوت عليه بجملة تُحقِّقُ ما قبلَهَا من الكلام، وتزيده توكيداً، وتَجْري منه مجرى المثل، لزيادة التحقيق، وهذه الآية من أعظم الشواهد عليه، فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج مخرج المثل السائر.

ومنها: إسناد الخير إلى الله، والشر لغيره في قوله: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى.

لطيفة: ذُكِرَ أنَّ عَالِماً ممن يُنكِرُ المجاز، والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكراً عليه دعوى المجاز في القرآن، وكان ذَلِكَ السائل المنكر أعمى فقال له الشيخ: ما تقول في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾؛ هل المراد بالعمى الحقيقة؟ وهي عَمَى البصر، أم المرادُ به المجاز، وهو عمى البصيرة، فبهت السائل، وانقطعت حجته.

ومنها: الزيادة والحذفُ في عدة موضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ
ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا (٩٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ
جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا
رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ
فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ
عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ
لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا (١١١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ...﴾ الآيات، مناسبة(١) هذه

---

(١) البحر المحيط.

الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما تحداهم بأنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، فتبين عَجْزُهم عن ذلك وإعجازه، وانضمَّتْ إليه معجزات أخر، وبيناتٌ واضحة، فلزمتهم الحجة، وغُلبوا، أخَذوا يتعللون باقتراح آيات فعل الحائر المبهوت، المحجوج، فقالوا: ما حكاه الله عنهم من الآيات المذكورة.

ثم حكى عنهم شبهة أخرى[1]، وهي استبعادُهم أن يُرسلَ الله بشراً رسولاً، فأجابهم بأنَّ أَهْلَ الأرض لَوْ كانوا ملائكةً.. لَوَجَبَ أن تكون رسلُهم من الملائكة؛ لأن الجِنس أميل إلى جنسه.

ثم سلَّى رسوله ﷺ على ما يلاقي من قومه، بأن الهدايةَ، والإيمانَ بيد الله تعالى، ولا قُدْرَةَ له على شيء من ذلك ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ وسيلقون جَزاءَهم نارَ جهنم بما كسبت أيديهم، ودنسوا به أنفسهم، من الكفر، والفجور، والمعاصي، وإنكار البعث والحساب، وهم يعلمون أَنَّ الذي خلق السموات والأرضَ، قادرٌ على أن يعِيدَهم مرة أخرى، ثمَّ بيَّن أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراءِ الأنهار والعيون، وتكثير الأَموال، واتساع المعيشة.. لما كان هناك من فائدة، ولَمَا أَوْصَلُوا النفع إلى أحد، فالإنسانُ بطبعه شحيح بخيل.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ...﴾ الآية، مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: أن المُشْرِكِينَ لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ فطلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لتكثر أقواتهم، وتتسع عليهم، بيَّن تعالى أنهم لو ملكوا خَزَائِنَ رحمة الله.. لبقوا على بُخْلِهم، وشُحِّهم، ولما أقدموا على إيصال النفع لأحد، وعلى هذا، فَلاَ فَائِدة في إسعافهم بما طلبوا، هذا ما قيل في ارتباط هذه الآية، وقاله العسكري.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لَمَا قبلها: أنَّ اللَّهَ[3] سبحانه وتعالى، لما ذكر فيما سَلَف ما اقترحوه من

---

(1) المراغي.
(2) البحر المحيط.
(3) المراغي.

الآيات، وأبَانَ لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئاً، ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتم، وأعظم منه، ولم يجد فرعون وقومه شيئاً، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات، وكَفَاكم الآيات العلمية التي أنزَلَها على عبده ورسوله محمد ﷺ، فإنْ لم تؤمنوا بَعْدَ ظهور تلك الحجج.. أهلكْنَاكم، كما أُهْلِكَ فرعون بالغرق، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ بذكر ما جرى لموسى مع فرعون، وما جوزيَ به فرعون وقومه.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لمَّا أبانَ أنَّ القرآن مُعْجِز دال على صدق الرسول بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ...﴾ الآية، ثُمَّ حَكَى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز، بَلْ طلبوا معجزات أخرى، وأجابهم رَبّهم بأنه لاَ حاجةَ إلى شيء سواهُ، وبأن موسى أتى فرعون وقومَه بتسع آيات، فَجَحَدُوا بها، فأُهْلِكُوا، فلَو أتاكم محمد ﷺ بتلكَ المعجزات التي اقترحتموها، ثم كفرتم بها، أُنزلَ عليكم عذاب الاستئصال، ولم يكن ذلك من الحكمة التي أرادها لعلمه أن منكم من يؤمن، ومنكم من لا يؤمن، ولكِن سيظهر من نَسْله مَنْ يكون مؤمناً.

عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن، وجلالة قدره، وبيان أنه هو الثابتُ الذِي لا يزول، وأنه أنزلَه على نبيه مفرَّقاً، ليسهل حفظه، وتُعرف دقائق أسراره، وأنكم سيان، آمنتم به أو لم تؤمنوا، فَإن من قَبْلَكُم من أهل الكتاب إذا تُلي عليهم خروا له سجداً وبكياً، ثم أردف ذَلِكَ ببيان أنكم إن ناديتم الله، أو ناديتم الرحمٰن، فالأمران سواء، ثمَّ قَفَّى على ذلك بطلب التوسط في القرآن في الصلاة بين الجهر والخفوت، ثم أمر نبيه ﷺ أن يَقُولَ حين الدعاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ الآية، أخرج[١] ابن مردويه وغيره عن ابن

(١) لباب النقول.

عباس، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ بمكَّةَ ذات يوم، فَدَعَا، فقال في دعائه: يا الله، يا رحمٰن، فقال المشركون: انْظُروا إلى هذا الصابىء، ينهانا أن ندعوَا إلٰهين، وهو يدعُو إلٰهين، فأنْزَل الله ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ ...﴾ الآية، سببُ نزول هذه الآية: ما أخرجه البخاري وغيره، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مختف بمكة، وكَانَ إذا صلى بأصحابه، رفع صَوْتَه بالقرآن، وَكَانَ المشركون إذا سمعوا القرآنَ سَبُّوهُ ومن أنزلَه، ومنْ جاء به فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك، فيسمع المشركونَ فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تُسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، وأخرج البخاري، وغيره أيضاً عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها نزلت في الدعاء.

وأخرج ابن جرير وغيره، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن، وهو يصلي تفرقوا، وأبوا أن يَسْتَمِعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمعَ من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو، وهو يصلّي، استَرَقَ السَّمْعَ دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قَدْ عرفوا أنه يَسْتَمِع ذهب خشية أذاهم، فلم يَسْتَمِعْ، فإِنْ خفض رسول الله ﷺ صَوْتَه.. لَمْ يَسْتَمِع الذين يستمعون منْ قراءتِهِ شَيْئاً، فأنزل الله عليه ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرَّقُوا عنك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا يستمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونَهم، لعله يرعوِي إلى بعض ما يَسْمَعُ، فينتفع به ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، وهذا لفظ ابن جرير، ولا تنافِيَ بَيْنَ هذه الأسباب إذ يحتمل أنَّ المشركين يسبون القرآن، ومَنْ جَاءَ به، ويؤذون مَنْ رَأَوْهُ يَسْتَمِعُ للقرآن كما أنه يحتمل أنَّ المرادَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بدعائك فى الصلاةِ، ورواية: أنَّ ذلك في التشهد، كما عند ابن جرير (ج١٥/ ص١٨٧) مبينة لمَوْضِعِه، والله أعلم.

التفسير وأوجه القراءة

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾؛ أي: أو

حَتَّى تسقطَ علينا جرمَ السماء إسقاطاً مماثلاً لما زعمت في قولك: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والكاف في قوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ في محل النصب صفة لمصدر محذوف، كما قدرنا، وقوله: ﴿كِسَفًا﴾ جمع كسفة، كقطع، وقطعة، لفظاً، ومعنًى حال من السماء.

وخلاصة ذلك: لن نؤمنَ لك يا محمد حتى تسقط علينا جرْم السماءِ، حَالَةَ كونها متقطعة قِطعاً قِطعاً عقوبة لنا إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وقيل: هو ما في هذه السورة من قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وكذلك سأل قومُ شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوْ تُسْقِطَ﴾ بتاء الخطاب مضارع أسقط ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ نصباً، وقرأ مجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وحميد، والجحدري ﴿أو تَسْقُطَ﴾ بتاء الغيبة مضارع سقط ﴿السماء﴾ رفعاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي[2]: ﴿كسفاً﴾ بسكون السين في جميع القرآن، إلا في الرُّوم (٤٨) فإنهم حركوا السين، وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين، وفي باقي القرآن بالتسكين، وقرأ ابن عامر هَا هُنا بفتح السين، وفي باقي القرآن بتسكينها.

قال الزجاج: مَنْ قرأ ﴿كسَفاً﴾ بفتح السينْ جَعَلَها جَمْع كِسْفَة، وهي القطعة، ومن قرأ ﴿كِسْفاً﴾ بتسكين السين فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا، واشتقاقه من كسفت الشيء: إذا غطيته، يعنون أسقطها علينا قِطْعة واحدة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

والرابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: أو حتى تأتيَ لنا بالله سبحانه وتعالى حالةَ كونه قبيلاً أي مقابلاً مواجهاً مرئياً لنا ﴿و﴾ بـ ﴿الملائكة﴾ حالَة كونهم ﴿قَبِيلًا﴾؛ أي: مقابلينَ مواجهينَ مرئيينَ لنا، فالقَبِيلُ بمعنى المقابل، كالعَشِير[1] بمعنى المعاشر، فهو حالٌ من الجلالة، وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها؛ أي: والملائكة قبيلاً، وقيل[2]: هو جمع القبيلة؛ أي: تأتِيَ بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً، قاله مجاهد وعطاءٌ، وقيل[3]: قبيلا؛ أي: كَفِيلاً من قبله بكذا، إذا كفله، والقبيلُ والزَّعيم، والكَفِيل بمعنى واحد.

وقال الزمخشري: ﴿قَبِيلًا﴾؛ أي: كفيلاً بما تقولُ شاهداً لصحته، والمعنى أو تأتيَ بالله قبيلاً، والملائكة قبيلاً، وقرأ الأعرج ﴿قُبُلاً﴾ من المقابلة.

وخلاصة ذلك: أي أو تأتي لنا بالله، والملائكة، نُقَابِلُهم مُعَاينةً ومُواجَهةً، ونحو الآية قولُهُم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَوْ﴾ حتى ﴿يَكُونَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ أي: من ذهب وفضةٍ كامل الحُسْن، وقرأ الجمهور ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾[4]، وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿من ذهب﴾ وَلا تُحْمَلُ على أنها قراءة لمخالفة السواد، وإنما هيَ تفسيرُ. وقال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف؛ حتى رأيتُ في قراءة عبد الله من ذهب.

والسادس منها: ما ذكرَهُ بقوله: ﴿أَوْ﴾ حتى ﴿تَرْقَىٰ﴾ وتصعد ﴿فِي﴾ معارج ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ومدارجها وسلالمها، ونحن ننظر إليك، فحذف المضاف يقال: رَقَى في السلم وفي الدرجة، من باب رقِيَ رقياً، أي: صعد وعلاَ صُعُوداً وعَلَوّاً، والظاهر أن السَّماءِ هنا هي المِظَلة، وقيل: المراد: إلى مكان عالٍ، وكلُّ ما علا

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

وارتفع يسمى سماءً ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ﴾ بك؛ أي: لن نصدقك ﴿لِرُقِيِّكَ﴾؛ أي: لأجل رقيك، وصعودك فيها، وحدك، فـ ﴿اللام﴾ للتعليل، أو لن نُصَدِّقَ رُقِيَّكَ، وصُعُودَكَ فيها فـ(اللام) صلة أي زائدة.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من الله فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نحن بلُغَتنا على نهج كلامنا، من غير أن يُتلقَّى من قبلك، وكانوا يَقْصِدُون بمثل هذه الاقتراحات اللجاج والعناد، ولو كان مرادهم الاسترشادَ.. لكفاهم ما شاهدوا من المعجزات؛ أي: ولمَّا ظهر لهم كَوْنُ القرآن معجِزاً.. التمسوا من رسول الله ﷺ سِتَّةَ أنواع من المعجزات، فأمَرَ سبحانه رسولَهُ ﷺ أن يأتِيَ بما يُفيد التعجب من قولهم، والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد متعجباً من مقترحاتهم، ومنزهاً ربك من أن يقترحَ عليه أَحَدٌ، أو يشاركه في القدرة، قرأ[1] نافع وعاصمٌ وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي ﴿قُلْ﴾ وقرأَ، ابنُ كثير، وابنُ عامر ﴿قال﴾ وكذلك في مصَاحِفِ أهل مكة والشام، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾؛ أي: أنزِّه رَبِّي عن أن يَكُونَ له إتيان وذهابٌ، وأتعجب من اقتراحاتهم والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ كُنتُ﴾ للإنكار بمعنى النفي؛ أي: ما كنت ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ لا ملكاً حتى أصعدَ إلى السماء، ﴿رَّسُولًا﴾؛ أي: مأموراً من قبل ربي بتبليغ الرسالة كسائر الرسل، لا يأتون قَوْمَهم إلا بما يظهره الله سبحانه على أيديهم من الآيات، بِحَسَبِ ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه، ولا تحكم منهم عليه.

وخلاصة ذلك[2]: قل أن يتقدم أَحَدٌ بين يديه سبحانه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء.. أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاءَ.. لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلى الله عز وجل، ثم أعقب ذلك

---

(١) زاد المسير.

(٢) المراغي.

بشبهة أخرى، وهي استبعادهم أن يكونَ من البشر رسولٌ فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: وما منع مشركي مَكَّةَ، وهم من حُكيت أباطيلهم مِنْ ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ بك، ويُصَدّقوا رسالتَك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: القرآن؛ أي: ما منَعَهم من الإيمان بك حين مجيء الوحي المقرون بالمعجزات، التي تستدعي الإيمان بنبوتك، وبما نَزَل عليك من الكتاب، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ أي: إلا قولهم جهلاً ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ إنكاراً منهم أن يكونَ الرسولُ من جنس البشر، واعتقاداً منهم بأن الله سبحانَه لَوْ بعث رسولاً إلى الخلق.. لَوَجَب أن يكونَ من الملائكة، و﴿بَشَرًا﴾ حالٌ من ﴿رَّسُولًا﴾ كما في «الكشاف» ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا...﴾ الآية. وقال فرعونُ وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فأجابهم الله سبحانه عن هذه الشبهة ذاكراً وجه الحق منبهاً إلى المصلحة بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد من جهتنا جواباً لقوله: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ ووجد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَدَلٌ من ﴿كَانَ﴾ فيها من البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ عليها بالأقدام، كما يمشي البشر حالَةَ كونهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾؛ أي: مستقرينَ فيها ساكنين بها كما يسكن البشر من غير أن يعرجوا إلى السماء، وعبارة «الجمل»: أي مستوطنينَ فيها لا يَظْعَنُون عنها إلى السماء اهـ.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على الملائكة الساكنين في الأرض ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا﴾ حال من ﴿رَّسُولًا﴾ ليبيِّن[1] لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين؛ لأن الجِنْسَ إلى الجنس يميل، ولما كان سكان الأرض بشراً وَجَبَ أن يكون رَسُولُهم بشراً، لِيُمْكِنَ الإفادة والاستفادة، وهم جهلوا أنَّ التجانس يورث التآنس، والتخالف يوجب التنافرَ.

أي: لنزلنا[2] عليهم من السماء رسُلاً من الملائكة للهداية، والإرشاد،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلُّمه، ولكن طبيعةُ المَلَك لا تصلح للاجتماع بالبشر، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم، لبعد ما بين المَلَكِ وبينهم، ومِنْ ثم لم نَبْعَثْ إليهم ملائكةً، بل بَعَثْنَا خواصَّ البشر؛ لأنَّ الله قد وهبهم نفوساً زكيَّة، وأيدهم بأرواح قدسية، وجَعَلَ لهم نَاحِيَةً مَلَكيةً بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة، وناحية بشرية بها يبلِّغون رسالات ربهم إلى عباده.

وإجمال القول في ذلك: أنه لو جعل الرسلَ ملائكةً.. لما استطاع الناس التخاطب معهم، ولَمَا تمكنوا من الفهم منهم، فَلَزِم أن يُجْعلُوا بشراً حتى يستطيعوا أداءَ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ وقد ثبت أن جبريلَ عليه السلام، جاء في صورة دحية الكلبيّ مراراً عدة، فقد صح أنَّ أَعْرَابِياً جاء وعليه وَعْثَاء السفر، فسأل رَسولَ الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فأجابه عليه السلام بما أجابه، ثم انصرف، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوانُ الله تعالى عليهم، فقال ﷺ: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم».

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد من جهتكَ ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أني بلَّغت ما أرسلْتُ به إليكم، وأنَّكُم كذبتُم وعاندتُم، وقال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، ولم[1] يقل: بيْننَا تحقيقاً للمفارقة الكلية، وقيل: إنَّ إظهارَ المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصدق.

أي قل[2]: إنَّ الله تعالى لما أظهر المعجزةَ، وفْقَ دَعْوَايَ، كان ذلك شهادة منه على صدقي، ومن شَهِدَ له اللَّهُ.. فَهُوَ صادق، فادعاؤكم أنَّ الرسولَ يجب أن يكونَ ملكاً تحكم منكم وتعنُّتٌ.

وخلاصة ذلك: أن الله شاهد عليَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

كاذباً عليه.. لانْتَقَم مِنّي أشد الانتقام كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ثم علل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾؛ أي: عالماً ببواطن أحوالهم، ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: عالماً بظواهرها؛ أي: أنه سبحانه محيط بأحوال عباده الظاهر منها، والباطن، وأعلم بمن يستحق الإحسان، والرّعَايَةَ، ومن هو أهل للشقاءِ والضلال، فيجازي كلاً بما يستحق، وفي هذا إيماء إلى أنه مَا دَعَاهُمْ إلى إنكار نبوته ﷺ إلاّ الحسد، وحب الرياسة، والتَكَبّرُ عن قبول الحق، كما أنَّ فيه تسلية له ﷺ على ما يلقاه من الإصرار والعناد، والإمعان في إيذَائِه، ثم بيَّن سبحانه أن الإقرارَ والإنكار مستندان إلى مشيئته، فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ ابتداء كلام ليس بداخل تحت الأمر؛ أي: ومن يرد الله سبحانه هِدَايته ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إلى الحقّ، كل مطلوب ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: ومن يرد إضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصرونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه، أو إلى طريق النجاة، وقوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حملاً على لفظ ﴿من﴾ وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ حَمْلاً على المعنى، وَوَجْهُ المناسبة في ذلك، والله أعلم: أَنَّهُ لما كان الهُدَى شيئاً واحداً غَيْر متشعِّب السبل، ناسبه التوحيدُ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة، نحو ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ناسبه الجَمْع ذكره في «الفتوحات» والخطاب في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له.

أي: ومن يهد الله للإيمان به، وتصديقك وتصديق ما جئتَ به من عند ربكَ، فهو المهتدي إلى الحق، المصيب سبيلَ الرشد، ومن يضلله لسوء اختياره، وتدنيسهِ نفسَهُ، وركوبه في الغواية والعصيان، كهؤلاء المعانِدينَ، فلن تجد لَهم أنصاراً ينصرونهم من دونه تعالى، ويهدونهم إلى الحق، ويمنعون عنهم العذابَ الذي يقتضيه ضلالهم.

وقوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ قرأه[1] نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل،

---

(١) زاد المسير.

وحذفاها في الوقف، وأثبتها يعقوب في الوقف، وحذفها الأكثرون في الحالتين. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: ونجمعهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في موقف الحساب بعد تفرقهم في القبور حَالَةَ كونهم مسحوبينَ ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾، أو ماشين عليها، فإنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادِرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم. وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟! قال رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ الذي أمشاهُ على الرجلين في الدنيا، قادراً على أن يُمْشِيَهُ على وجهه يوم القيامة»، قال قتادة حين بَلَغه: بلى وعزة رَبّنا. متفق عليه.

وعن أبي هريرة قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامة ثَلاَثَةَ أصناف: صِنفاً مشاةً، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم» قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهمْ قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك». أخرجه الترمذي الحَدْبُ كل ما ارتفع من الأرض.

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ حال من ضمير وجوههم جمع أعمى؛ أي: حَالَةَ كونهم لا يبصرون ما يسر أعينهم ﴿و﴾ حَالَةَ كونهم ﴿بكماً﴾؛ أي: لا ينطقون ما يقبل منهم، جمع أبكم، وهو الذي لا يَنْطِقُ ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿صماً﴾؛ أي: لا يَسْمَعُونَ ما يلذ مسامعَهم، جمع الأصم، وهو الذي لا يسمع، وهذه[1] هيئة يُبْعَثُونَ عليها في أقبحِ صورة، وأشنعِ منظر، قد جمع الله لهم بين عمى البصر، وعدمِ النطق، وعدمِ السمع، مع كونهم مسحوبينَ على وجوههم، كما يُفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه.

والمعنى: أي[2] ونجمعهم في موقف الحساب بعد تفرقهم في القبور عمياً، وبكماً، وصماً، كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامُّون عن استماعه، فهم في الآخرة لا يبصرون ما تقر به أعينهم، ولا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

يسمعونَ ما يلذ لمسامعهم، ولا يَنْطِقُونَ بما يقبل منهم، كما قال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ ثم من وراء ذلك ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: المكان الذي يأوون إليه، ويسكنون فيه؛ أي: منزلهم ومسكنهم ﴿جَهَنَّمُ﴾، والجملة في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة لا محل لها أي ثم بعد أن يَتِمَّ حِسَابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ جهنم؛ أي: كلما سكن لهبها، بأن أكلت جلودَهم، ولُحُومهم، ولم يبق ما تتعلق به وتحرقه ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أي: زدناها لهباً، وتوقداً بهم، بأن نعيدهم إلى ما كانوا عليه فتستعر وتتوقد، وكأن هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الإفناءِ، بِتَكْرَارِها مرة بعد أخرى، ليروها عِيَاناً حيث أَنْكَرُوها برهاناً، وأدغم التاءَ في ﴿خَبَتْ﴾ في زاي ﴿زدناهم﴾ أبو عمرو، والأخوان، وورش، وأظهرها الباقون يقال: خبتِ النَّارُ تخبو خبواً، إذَا خمدتْ، وسكن لهبها. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ تسعراً، وهو التلهب فإن قلت:[1] إن في خبو النار تخفيفاً لعذاب أهلها، فكيف يُجْمَعُ بينه وبين قوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؟.

قُلْتُ: إنَّ المرادَ بعدم التَّخْفِيف أنَّهُ لا يَتَخَلَّلُ زمان محسوسٌ بَيْنَ الخبو والتسعر، وقيل: إنَّهَا تخبُو من غير تخفيف عنهم، من عذابها، ثُمَّ بَيَّنَ علة تعذيبهم، لعله يرجع منهم مَنْ قضي بسعادتِهِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآؤُهُم﴾ الذي أَوْجَبَهُ الله لهم، واستحقوه عنده، والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للسببية؛ أي: بسبب كفرهم بها، فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية، ولا تفكروا في الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ، خبره، ﴿جَزَآؤُهُم﴾ و﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ خبر آخر، ويجوز[2] أن يكونَ ﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثانياً، وخبرُه ما بعده، والجملة خبرُ المبتدأ الأول، ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ منكرينَ لقدرتنا أَشدّ الإنكار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾؛ أي: تُراباً رَمِيماً، و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري، و﴿خَلْقًا﴾ في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مصدر من غير لفظه؛ أي: بعثاً جَدِيداً، أو حال؛ أي: مخلوقاً جديداً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي ذلك العذابُ الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم هو جزاؤهم الذي يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج الَّتي جاءتهم، وعلى استبعادهم وُقُوعَ البعث، وقولهم: أبعدَ ما صرنَا إلى ما صِرْنَا إليه من البِلَى، والهلاك، والتفرق في أرجاءِ الأرض نعاد مرة أخرى؟ استنكاراً منهم، وتَعَجُباً من أن يحصل ذلك، ثم استدل على البعث، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (الهمزة) فيه للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، و(الواو) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من غير مادَّةٍ مع عظمهما، ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصغر على أن المثلَ مقْحمٌ، والمراد بالخلق: الإعادَة؛ أي: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدنىٰ منه أقْدَرُ.

والمعنى: أي ألم يعلموا ولم يَتَدبَّرُوا أنَّ الذي خلق السموات والأرض ابتداعاً على غير مثال سابق، وأقامهما بقدرته قادرٌ على أن يَخْلق أمثالَهم من الخلق بعد فنائهم، وكيف لا يقدر على إعادتهم، والإعادة أهون من الابتداء؟.

وبعد أن أثبت أنَّ الْبَعْثَ أمر ممكن الوجود في نفسه.. أردف ذلك بأن لحصوله وَقْتاً معلوماً عنده، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لإعادتهم، وقيامهم من قبورهم ﴿أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: غير مرتاب فيه؛ أي: أجلاً مضروباً، ومدة مقدرة لا بدَّ من انقضائها، لا يعلمها إلا هو، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ وجُمْلَةُ ﴿جَعَلَ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بنفسها، فَلَيْسَ داخلاً في حيز الاستفهام، أو مستأنفة، لأنه في قوة قد رأوا لأن الاستفهامَ تقريريٌّ، والمعنى[2] قد علموا أنَّ مَنْ قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجَعَلَ لهم ولبعثهم أجلاً محققاً، لا ريب فيه هو يوم القيامة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقيل[1]: في الكلام تقديم وتأخير، أي: أولم يَرَوا أنَّ الله الذي خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه؛ قادر على أن يخلُق مِثْلَهُم. ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾؛ أي: أبى المشركون، وامتنعوا من الانقياد للحق، ولم يرضوا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: إلا جحوداً به، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر، للحكم عليهم بالظلم، ومجاوزة الحد؛ أي: وبعد إقامة الحجة عليهم، أَبَوا إلا تمادياً في ضلالهم، وكفرهم مع وضوح الحجة، وظهور المحجة، ثمَّ بيَّن السَّبَبَ في عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون بأنهم لَوْ ملكوا خزائن الدنيا.. لَبَقوا على شحهم، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّوْ﴾ تملكون ﴿أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾؛ أي: خزائنَ رِزْقِهِ التي أفاضها على كافة الموجودات، وأَنتم مرفوع بفعل يفسره المذكور، عَلَى أَنَّ الضميرَ المنفصلَ بدل من الضمير المتصل، وهو (الواو) لا مبتدأ؛ لأن (لو) لاَ تَدْخُلُ إلا على الفعل، والأصل لَوْ تملكون أنتم تملكون كما قدَّرنا آنِفاً (إذا)؛ أي: لو مَلَكْتُموها ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ ما ملكتم عن الإنفاق ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾؛ أي: مَخَافَةَ الفقر، فلا فَائِدَةَ في إسعافكم بذلك المطلوب الذي التَمَسْتُموه. أو معنى ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لَبخِلْتم[2]، من قولك للبخيل ممسك، فلا يُقدَّر لَهُ مفعول، ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾؛ أي: مَخافَةَ عَاقِبَة الإنفاق، وهو النفاد ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؛ أي: جنْسُه ﴿قَتُورًا﴾؛ أي: بخيلاً منوعاً بطبعه، لأن يَبْنِيَ أمره على الحاجة، والضنة بما يحتاج إليه، وملاحظة العوض فيما يبذل، فالبخل والحرص من الصفات المذمومة، فلا بُدَّ من تطهير النفس عنهما، وتحليتها بالسَّخاءِ والقناعة، وترك طول الأمل، فإن الشَّيْطَانَ يستعبد البخيلَ، ولو كان مطيعاً، وينأى عن السخيِّ، ولو كان فاسقاً، وجنس الإنسان، وإن كان قتوراً مَخْلُوقاً على القبض واليبوسة كالتراب، إلا أن من أفراده خواص متخلقينَ بصفات الله تعالى، ومتحققين بأسرار فعاله.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح النبي ﷺ:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

لَـهُ رَاحَـةٌ لَـوْ أَنَّ مِـعْـشَـارَ جُـوْدِهَـا عَلَىٰ ٱلْبَرِّ كَانَ ٱلْبَرُّ أَنْدَىٰ مِنَ ٱلْبَحْرِ

الراحة: باطن الكف، والمعشار بمعنى العشر.

وعبارة المراغي هنا: المراد من الإنفاق هنا: الفقرُ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وروي نحوه عن قتادة، وإليه ذهب الراغبُ فقال: يقال: أنفق فلان إذا افتقر، وقال أبو عبيدة: أَنْفَقَ، وأملَقَ، وأعدَم، وأصرَم بمعنى.

أي: قل لهم أيها الرسول: لو أنكم تملكون التصرف في خزائن الله، لأَمْسَكْتُم خَشْيَة الفقر؛ أي: خشيةَ أَنْ تَزُول وتَذْهَبَ، مع أنها لا تَفْرُغُ ولا تَنْفَدُ أبداً، وقُصَارَى ذلك، أنَّكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها.. لبقيتم على الشح والبخل، وفي هذا إيماء إلى أن الله لا يجيبكم إلى ما طلبتم من نبيه ﷺ من بساتينٍ، وعُيون تنبعُ، لا بخلاً منه، ولكن اقتضت الحكمة أن يَكُونَ نظام الدنيا هَكَذا، ولا رقيَّ للإنسان إلا على هذا المنوال، فهو يوسع الرزق على قوم، ويضيقه على آخرين، على مقتضى الحكمة والمصلحة، ومن ثَمَّ لم يُنزل مَا اقْتَرَحْتُمُوه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾؛ أي: بَخِيلاً مَنُوعاً بِطَبْعِهِ، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: لو أنَّ لهم نصيباً في ملك الله.. لَمَا أَعطَوا أَحَداً شيئاً، ولا مقدارَ نقير.

وإجمال المعنى[1]: أن اللَّهَ لم يجب محمداً إلى ما طَلَبْتُم، لا هَواناً لنبيه، ولا لأنه لَيْسَ بنبي، ولا بُخلاً - حاشاه - بل لحكمة منه، فَرُبَّمَا كانت وفرة العطاءِ إذا نزلَتْ على غير وجهها مصايب على الناس، فأما أنتم فمَنْعُكم يجري على طريق البُخْل، فَلَوْ سُلِّم لكم السموات والأرضُ، وادارستموها لم تَفْهَمُوا إلا الإمساكَ، ومن ثَمَّ لا يسلمكم مفاتيحَ خزائنه، لِئَلاً تمسكوا الْمَالَ لأنفسكم، ولا تنفعوا خَلْقَه.

---

(١) المراغي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أعطينا مُوسَى بن عمران عليه السلام ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾؛ أي: معجزات ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على صحة نبوته، وصِدْقِهِ وصحةِ مَا جَاءَ به من عند الله، حين أرسل إلى فرعون وقومه، فلم يُؤْمِنُوا بها كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾.

وقد ذكر سبحانه في كتابه العزيز ستَّ عشرةَ معجزةً لموسى عليه السلام:

١ ـ أنَّهُ أزَالَ، العقدة من لسانه؛ أي: أَذْهَبَ العُجْمَةَ عن لسانه، وصار فصيحاً.

٢ ـ انقلاب العَصَا حَيَّةً.

٣ ـ تَلَقُّفُ الْحَيَّةِ حِبَالَهُم وعصيَّهم على كَثْرتِها.

٤ ـ اليدُ البيضاءُ.

٥ ـ الطوفانُ.

٦ ـ الجَرَادُ.

٧ ـ القُمَّلُ.

٨ ـ الضفادع.

٩ ـ الدم.

١٠ ـ شق البحر.

١١ ـ انفلاق الحجر في قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ﴾.

١٢ ـ إظلال الجبل في قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

١٣ ـ إنزَالُ المن والسلوى عليه وعلى قومه.

١٤ و١٥ ـ الجدب ونقص الثمرات في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

١٦ ـ الطمس على أموالِهم من الحنطة والدقيق والأطعمة.

وقد اختلفوا[١] في المراد من هذه التسع، أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، من طرق عدة، عن ابن عباس: أنها الْعَصَا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنون، ونقص الثمرات.

وقيل: المراد بالآيات الأحكام، فقد أخرج أحمد، والبيهقي، والطبراني، والنسائي، وابن ماجه: أن يَهُودِيِّيْن قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تَقْتُلُوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَسْحروا، ولا تَأْكُلُوا الربا، ولا تَمْشُوا ببريءٍ إلى ذي سلطان لِيَقْتُلَه، وَلاَ تَقْذفُوا محصنة، وأنتم يَا يَهُود عليكم خاصة أَن لا تعدوا في السبت» فقبَّلاَ يَدَهُ ورِجْلَه، وَقَالاَ: نشهد أنك نبي، قال: «فما يمنعكما أن تسلما»؟ قَالاَ: إن دَاوُدَ دعا أن لا يَزَالُ من ذريته نبي، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود. قال الشهاب الخفاجي: وهذا هو التفسير الذي عليه المعول في الآية، ثُمَّ خاطب نَبِيَّه فقال: ﴿فَسْـَٔلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين كانوا في عَصْرِكَ، وآمنوا بكَ كعبد الله بن سلام وأصحابه عن قصة مُوسى فيما جرى بينه، وبين فرعون وقومه، لتزيدَ طُمْأنينتك، ويقينك، ولتعلم أَنَّ ذَٰلِك أمر محقق ثابت عندهم في كتابهم، وليظهر صِدْقُ ما ذكرته عند المشركين، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد، وهذه[٢] الجملة اعتراضية بَيْنَ العامل الذي هو ﴿ءَاتَيْنَا﴾، والمعمول الذي هو ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حينَ جَاءَ موسى بني إسرائيل الذين كانوا في زمانه عليه السلام، وهذا الظرف متعلق بـ﴿آتينا﴾؛ أي: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات حين جاء موسى بني إسرائيل، فأظهر ما أتيناه من الآيات عند فرعون، وبلَّغه ما أرسل به ﴿فَقَالَ لَهُۥ﴾؛ أي: لموسى عليه السلام: ﴿فِرْعَوْنُ﴾

(١) المراغي.

(٢) المراح.

اللعين ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾؛ أي: مغلوب العقل، مخلَّطاً عليه أمره، أو مَطْبُوباً؛ أي: سحروك، أو ساحراً[1] بغرائب أفعاله، قاله الفراء وأبو عبيدة، فوضع المفعولَ موضعَ الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم، وميمون، أي شائمٌ ويامِن.

وقيل: إن (إذ) تعليلية لا ظَرْفِيَّة، معللة للسؤال؛ أي: فاسألهم يا محمد يخبروك، لأنَّهُ جاءَهم؛ أي: جاءَ آباءَهم بهذه الآيات، وأبلغَها فِرْعَون فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مخلَّط العقل، ومن ثمَّ ادعيتَ ما ادعيتَ مما لا يقول مثلَه كامل العقل حصيف الرأي.

وقيل: جملة قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾ لَيسَت معترضةً بل هي مقول لقول محذوف تقديره: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ فـ ﴿قلنا﴾ له ﴿اسأل﴾ فرعون ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: فك أولاد يَعْقُوبَ من يده وأسره، أي: سلهم يا موسى من فرعون؟ وقل له: أرسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم، والظرف في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ متعلق بذلك القول المحذوف، أو بـ ﴿اسأل﴾؛ أي: حين جاء موسى بني إسرائيل، وفرعونَ وقومَه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بصيغة الأمر لرسول الله ﷺ، أو لموسى عليه السلام، كما مر تَفْصِيلُه، وقرأ ابْنُ عَبَّاس، وابن نهيك (فسأل بني إسرائيل) على صيغة الماضي؛ أي: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات، فسأل مُوسَى فِرْعَوْنَ أن يرسل معه بني إسرائيلَ إذ جاءهم... الخ.

﴿قَالَ﴾ موسى لفرعون، والله ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: ما أَنْزَلَ علي هذه الآيات التسع التي أريتكها، وأوجدها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ومالكهما حالةَ كونها ﴿بَصَآئِرَ﴾؛ أي: دلالات يستدل بها على قدرة الله تعالى، ووحدانيته، وحجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه، وشاهدة لي على

---

(١) القرطبي.

(٢) زاد المسير.

صدقي وصحة قولي: إني رسول الله، بعثني بها رب السمٰوات والأرض، لأنه هو الذي يقدر عليها وعلى أمثالها، وهي بصائر لمن استبْصَرَ بها، وهدىً لمن اهتدى بها، يَعْرِفُ مَنْ رآها أنَّ من جاء بها فهو محق، وأنَّها من عند الله، لا من عند غيره، إذ كَانَتْ معجزةً لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض، وقرأ[١] الجمهور ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بفتح التاء على خطاب موسى لفرعون، وتبكيته في قوله عنه: إنه مسحور؛ أي: لقد علمت أن ما جئت به ليس من باب السحر، ولا أني خدعت في عقلي، بل عَلِمْتَ أنه ما أنزلها إلاَّ الله سبحانه، وما أحسن ما جاء به مِن إسناد إنزالها إلى لفظ رب السموات والأرض، إذْ هُوَ لما سأله فرعون في أول محاورته، فقال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينبهه على نقصه، وإنه لا تصرف له في الوجود، وقرأ علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، والكسائي ﴿علمت﴾ بضم التاء، أخبر موسى عن نفسه أنه ليس بمسحور كَمَا وَصَفَه فرعون، بَلْ هو يعلم أنَّ مَا أنزلَ هؤلاء الآيات إلا الله، قال[٢] أبو عبيد: المأخوذ به عندنا قراءة الجمهور، أعني فتح التاء، وهو الأصح للمعنى؛ لأن موسى لاَ يقولُ: علمت أنا، وهو الداعي، وروي نحو هذا عن الزجاج.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾؛ أي: مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشر، من قولهم: ما ثبرك عن هذا؛ أي: ما صرفكَ أو هالكاً فإن الثبورَ الهلاك، وقرأ[٣] أبي ﴿وإن إخالك يا فرعون لمثبورا﴾ وهي إن المخففةُ، واللام الفارقة ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ من نتائج ظنه الكاذب ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾؛ أي: أن يُخْرِجَ مُوسَى، وبني إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يُبقي منهم أحداً فعكسنا عليه مكره ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾؛ أي: فرعون في البحر ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من جُنْدِه من القبط ﴿جَمِيعًا﴾ فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج، ونجينا موسى وقومَه من نتائج ظنه الصادق ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد إغراق فرعون وقومه ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: لأولاد يعقوب، ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أرادَ أن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

يستفزَّكم منها، وهي أرض مِصْرَ، إن صح أنهم دَخَلُوها بعده، أو الأرضَ مُطْلقاً، أو أرض الشام، وهي الأرضُ المُقَدَّسَةُ التي وعدتم بها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: البعث بعد الموت؛ أي: البعث الموعود في الدار الآخرة، ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: أحييناكم، وجئنا بكم من قبوركم إلى المحشر، حَالَةَ كونكم ﴿لَفِيفًا﴾؛ أي: مختلطينَ أنتم وهم فَيَخْتَلِطُ جميع الخلق المسلم والكافر، والبر والفاجر، ثُمَّ نحكم بينكم، ونميزُ سُعَداءَكم من أشقيائكم.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وحَالَةَ كون هذا القرآن مُلْتَبِساً بالحق، والحكمة المقتضية لإنزاله، وهي هداية الخلق، وقطع أعذارهم، أنزلناه عليك يا محمد ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: وحَالَةَ كونه ملتبساً بالدين الحق من العقائد الصحيحة، والأحكام الحقة، نَزَلَ عليك يا محمد، أو المعنى: وبالحق أنزلناه من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، في ليلة القدر جُمْلَةً واحدةً، وبالحق نزل عليك مُنَجَّماً بحسب الوقائع.

وهذا الكلام[1] مرتبط في المعنى بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الخ، وهذا على أسلوب العرب حيث ينتقلون في كلامهم من سياق المقصود إلى غيره المناسب له، ثمَّ يَرْجِعُون لِمَا كانوا بصدده اهـ شيخنا، وفي الخطيب أنه معطوف على ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وقيل معنى قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي[2]: وأنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق، ففيه أمر بالعدل، والإنصاف، ومكارم الأخلاق، ونهيٌ عن الظلم والأفعال الذميمة، وذكرُ براهين الوحدانية، وحاجة الناس إلى الرسل لتبشيرهم، وإنذارهم، وحثهم على صالح الأعمال انْتِظَاراً لِيَوْمِ الحساب، والجزاء، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: وَنَزَلَ إليك محفوظاً مَحْرُوساً، لم يشب بغيره، فلم يزد فيه، ولم ينقص[3]، وقد يكون المراد، ونزل إِلَيْكَ مع الحق، وهو شديدُ القوى، الأمين المطاع في الملأ الأعلى جبريل عليه السلام، وبعد أن مَدَحَ الكتابَ، مدح من أنزل عليه، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أيها الرسول إلى مَنْ أرسلناك

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

إليهم من عِبَادِنَا ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة مَنْ أَطَاعَنَا، فانتهى إلى أمرنا؛ أي: إلا هَادِياً ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: ومنذراً لمن عَصَانَا بالعقاب، فهؤلاء الجهال الذين اقترحوا عليك تلك المعجزات، وتمردوا عن قبول دينك، لا شيء عليك من كفرهم.

﴿وَقُرْءَانًا﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره قوله: ﴿فَرَقْنَهُ﴾؛ أي: وأنزلنَا عليك قرآناً فرقناه؛ أي: فصلناه وبيناه، وقيل: فرقنا به بين الحق والباطل، وقيل: معناه أنزلناه نجُوماً لم ينزل مرة واحدةً، بدليل قوله: لتقرأه على الناس، وقد بُدىء بإنزالِهِ ليلة القدر، في رمضان، ثُمَّ أنزل نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَرَقْنَهُ﴾ بتخفيف الراء أي: بينا حَلاَلَه وحرامَهُ، قاله ابن عباس، وعن الحسن: فرقنا فيه بين الحق والباطل، وقال الفراءُ: أحكمناهُ، وفصلناه كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وقرأ أبي، وعبد الله، وعليٌّ وابن عباس، وأبو رجاء، وقتادة، والشعبيُّ وحميد، وعمر بن فائد، وزيد بن عليّ وعمرو بن ذر، وعكرمة، والحسن بخلاف عنه بشد الراءِ، أي: أنزلناه نَجْماً بعد نجم، وفصلناه في النجوم، وقيل: معنى ﴿فرقناه﴾ بالتشديد فرقْنَا آياته بين أمر، ونهي، وحكَم وأحكام، ومواعظ، وأمثال، وقصص وأخبار، مغيبات أتَتْ، وتأتي، وقرأ أبي وعبْد الله ﴿فرقناه عليك﴾ بزيادة عليكَ ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: فَرقْنَاهُ فقال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾؛ أي: أنزلناه مفرَّقاً لتقرأه على الناس على مكث؛ أي: على مهل، وتأن وتؤدة، شيئاً فَشَيْئاً، فإنه أيْسَرُ للحفظ، وأَعْونُ على الفهم؛ أي: وحكمة نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه، ويكونَ ذلك أعون على تفهم معناه، وقد[2] اتفق القراء على ضَمّ المِيم في ﴿مكث﴾ إلا ابن محيصن، فإنه قَرَأ بفتح الميم، وهُمَا لغتان ﴿وَنَزَّلْنَهُ﴾ في ثلاث وعشرين سنة ﴿تَنزِيلًا﴾ على قانون الحكمةِ، وحسبِ الحوادثِ، وجواباتِ السائلين، وفائدة قوله: ﴿وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا﴾ بعد قوله: ﴿فَرَقْنَهُ﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

بيان أنَّ ذلك التنزيل لمقتض ـ وهو التنزيل بحسب الحوادث ـ للمصلحة، لأنهم لو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا، ولم يطيقوا، ثمَّ هددهم سبحانه على لسان نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لَكَ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ ﴿ءَامِنُوا بِهِۦ﴾، أي آمنوا إن شئتم بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الإنس وَالجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ إن شئتم، فإن إيمانَكم بِهِ لا يزيدُه كَمَالاً، وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصاً. ثم علل عدم المبالاة بهم، واحتقار شأنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وأعطوهُ ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من قبل نزول القرآن؛ أي: وَإن تكفروا به أيها المشركون، فإِنَّ الْعُلَمَاءَ الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن، وعَرفُوا أنَّ الله سيبعث نبياً في آخر الزمان، وعرفوا حَقِيقَةَ الوَحْي، وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ أي: يَسْقطُونَ على وجوههم حالَةَ كونهم، ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: ساجدين لله سبحانه وتعالى شكراً له على إنجاز وَعْدِهِ بإرسالك، وهذه الآيةُ من عزائم السَّجَدات، وإنما قَيَّدَ[1] الخُرُورَ وهو السقوط بكونه للأذقان؛ أي: عليها لأنَّ الذقن، وهو مجتمع اللحيين، أَوَّلُ ما يحاذي الأرض، قال الزجاج: لأنَّ الذقن مجتمع اللحيين، وكما يبتدىء الإنسان بالخرور للسجود، فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن. وقيل المراد تعفير اللحية في التراب، فإن ذَلِكَ غاية الخضوع، وإيثار اللام في ﴿للأذقان﴾ للدلالة على الاختصاص، فكأنهم خصوا أذْقَانَهُم بالخرور، أو خصوا الخرور بالأذقان.

والخلاصة[2]: أنكم إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم، وفيه تسلية لرسوله ﷺ وازدراء لشأنهم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وحاصلها[1]: أنه إن لَمْ يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علْمَ عندهم، ولا معرفةَ بكُتب الله، ولا بأنبيائه، فلا تبال بذلك، فقد آمن به أهل العلم، وخَشَعُوا له، وخَضَعُوا عِنْدَ تِلاَوَتِهِ عليهم، خُضُوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يَخِرُّون على أذقانهم سُجَّداً لله.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول الذين أوتوا العلم في سجودهم ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾؛ أي: تَنزِيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب، أو تنزيهاً لَه عن خلف وعده الذي في الكتب السالفة ببعث محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ﴿إِن كَانَ﴾ (إن) مخففة من الثقيلة أي: إن الشَّأْنَ وَالحالَ كان ﴿وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بإنزال القرآن، وبعث محمد ﷺ، ﴿لَمَفْعُولًا﴾؛ أي: منجزاً آتياً كائناً لاَ مَحَالَةَ واقعاً البتة؛ لأن الخُلْفَ نقص، والنَّقْصَ عليه تعالى محال، وقيل: الظاهر[2] أنَّ المرادَ بالوعد، وعد الآخرة كما يدل عليه سياق الآية، من قصة موسى، وفرعون، وما قبلَها من قصة قريش في إنكار البعث، والله أعلم.

ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم بَاكِينَ فقال: ﴿يَخِرُّونَ﴾؛ أي: ويخر الذين أوتوا العلمَ، ويسقطونَ ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾؛ أي: على أذقانهم للسجود، لما أثر فِيهِم، من مواعظ القرآنِ حالةَ كونهم ﴿يَبْكُونَ﴾ من خشية الله تعالى، وكرر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب؛ فإن الأوّلَ: لتعظيم الله تعالى وتنزيهه، والثاني: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم، ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾؛ أي: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له، أو البكاءُ، أو السجود، أو المتلو. ﴿خُشُوعًا﴾؛ أي: تواضعاً لله كما يزيدهم علماً، ويقيناً بالله تعالى؛ أي: يزيدهم لين قلب، ورطوبة عين، فالبكاء مُسْتَحَب عند قراءة القرآن، وفي «الفتوحات»: وتكرر الخرورِ لاختلاف حاليه بالبكاء والسجود، وجاءت الحال الأولى اسماً لدلالته على الاستمرار، والثانية فِعلاً لدلالته على التجدد والحدوث اهـ «سمين».

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقد جاء في مدح البكاء من خشية الله تعالى أخبار كثيرةٌ[1]:

فقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله تعالى، وعين باتَتْ تَحْرُسُ في سبيل الله تعالى».

وأخرج مسلم، والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلِجُ النارَ رجل بَكَى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولاَ اجتمعَ على عبد غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وغيرهما عن عبد الأعلى التميمي، أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يبكه.. لخليق أنْ قَدْ أوتيَ من العلم ما لا ينفعه؛ لأنَّ الله تعالى نعَتَ أَهْلَ العلم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾.

ثم رَد على المشركين المنكرينَ إطلاقَ اسْم الرحمٰن عليه عز وجل فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾؛ أي: قل يا محمد لمشركي قومك الذين أنكروا اسم الرحمٰن، ادعوا اللهَ؛ أي: سموا أيها القومُ مَعْبُودَكم الحَقَّ باسم الله إن شئتم، أو باسم الرحمٰن، إن شئتم؛ أي: قولوا في دعائه إن شئتم: ياالله، وإن شئتم قولوا: يا رحمٰن ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾؛ أي: أي اسم من هذين الاسْمَين تدعوه به، فهو من أسمائه ﴿فَلَهُ﴾؛ أي: لأنَّ له سبحانه أسماء هي ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ الكثيرة، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على الكمال والجلال فمعنى حسن أسماء الله تعالى كونها مفيدة لمعاني التَّحْمِيدَ، والتَّقْديسَ، والتمجيدُ، والتَّعْظِيمُ؛ أي: فبأي اسمين منهما تسمونه فهو حسن، لأنَّ كل أسمائه حسنى؛ إذ فيها التعظيم، والتقديس لأعظم موجود، وهو خالق السموات والأرض، وهذان الاسمان منها.

قال البيضاوي: والدعاء[2] في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين، حذِفَ أولهما استغناء عنه، وأو للتخيير، والتنوين في أياً، عوض عن المضاف إليه، و(ما) صلة لتأكيد ما في أي من الإبهام، والضمير في ﴿فَلَهُ﴾

---

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

للمسمى، لأن التسمية له، لا للاسم، وكان أصل الكلام: أيًّا ما تدعوا فهو حَسَنٌ وضع مَوْضِعَه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه كلها، حسن هذان الاسمان اهـ. فمعنى[1] ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ أي: سموا المعبود بحق بالله، أو بالرحمٰن، فإنهما من الأسماء الحسنى، وإذا حَسُنت أسماؤه كلُّها، فهذان الاسمان منها، والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو أفعل التفضيل، لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء، كما في «القاموس»: وجملتُها تسعة وتسعونَ اسماً كما في الحديث الصحيح، بروايات متعددة عن علي، وأبي هريرة رضي الله عنهما «إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسماً من أَحْصَاهَا دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم...» إلى آخر ما سرده الترمذي في جامعه، وقد شرحناها كلها شرحاً شافياً، في كتابنا «هَدية الأذكياء على طيبة الأسماء» وهو مطبوع منتشر فراجعه إن شئت.

وقرأ طلحة بن مصرف[2]: ﴿أيا من﴾ فاحتمل أن تكون ﴿من﴾ زائدة على مذهب الكسائي، واحتملَ أن يكونَ جمع بين أداتي شرط على وجه الشذوذ.

ثم أمر رسوله ﷺ بالتوسط في القراءة، فلا يجهر صوته، ولا يخافِتْ به، فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ يا محمد ﴿بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: لا ترفع بقراءتك في الصلاة في المسجد الحرام، فيسمعها المشركونَ فيسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء بِهِ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾؛ أي: بقراءة صلاتك؛ أي: لا تسرها عن أصحابكَ، فلا تسمعهم القرآنَ حتى يأخذوه عنك، فَهُوَ على حَذْفِ المضاف، للعلم بأن الجهرَ، والمخافتَةَ من نعوت الصوت، لا من نُعُوت الصلاة؛ لأن الصَّلاَة أفعال، وأذكار، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: واطلب بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: أمراً وسطاً، فإنَّ خير الأمور أوساطها، والتعبير[3] عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمرٌ

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

يتوجَّه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون، فيوصلهم إلى المطلوب، روي أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يَخفت، ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر ـ رضي الله عنه ـ يَجْهَرُ بها، ويقول: أطردُ الشيطان، وأوقظُ الوسنانَ، فلما نزلت هذه الآية، أمر رسول الله ﷺ أبَا بَكْرٍ أن يرفعَ قليلاً وعُمرَ أن يَخْفِض قليلاً.

ولما أمر الله سبحانه رسولَه أنْ لا يناديه إلا بأسمائه الحُسْنَى، علمه كيفية التَّحْمِيد بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ أيها الرسول في ثَنَاءِ ربك ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ اللائق، والشكرُ الدائِمُ مستحق ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ذي الجلال والإكرام، ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ﴾ ولم يَجْعَل لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ ذكراً ولا أنثى، لأن الوِلاَدَةَ من صفات الأجسام والحوادث لا غيرُ، وهو رَدٌّ على اليهود والنصارى وبني مدلج حيث قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بَنَاتُ الله، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلك علواً كبيراً ﴿و﴾ الذي ﴿لم يكن له شريك في الملك﴾؛ أي: في ملك العالم؛ أي: في الألوهية، فإن الكل عبيده، والعبد لا يصلح أن يكون شريكاً لسيده في ملكه، وهو رد على الثنوية القائلين بتعدد الإله ﴿و﴾ الذي ﴿لم يكن له ولي﴾؛ أي: ناصر ينصره ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، والهوان؛ أي: لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به، ليدفعها بموالاته، فإنَّهُ محالٌ أن يذل فَيَحْتَاج إلى أحد يتعزز به، ويدفع عنه المذلة، إذ لَهُ العِزَّةُ كلها، فَلَيْسَ له مَذَلَّةٌ، ولا له احتياج إلى وليٍّ يدفع الذل عنه، وهو رد على المجوس والصابئين في قولهم: لَوْلاَ أولياء الله لذل الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف[1] جعل عدم الولد علة استحقاق الحمد؟.

الجواب: إن هَذَا لَيْسَ بتعليل لوجوب الحمد، إنّما هو بيان من يقع له الحمدُ، كما تقول: الحمد لله، الأول الآخر، الحمد لله رب العالمين انتهى.

وفي «الكشاف»: كيف رتب الحمد على نفي الولد، والشريك، والذل، أي: مع أنه لم يكن من الجميل الاختياري؟.

قلت: إنَّ مَنْ هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نِعْمَةٍ فهو الذي

---

(١) روح البيان.

يستحق جنس الحمد، وقال بعضهم: وترتيب الحمد على عدم اتخاذ الولد؛ لأنَّ من كان هذا وصفهُ فهو القادر ولا شَكَّ على إسباغ النعم، وإيلائها، أما صاحب الولد، فهو مستهدف للتَّلهي بولده عن غيرهم، والاشتغال بهم عن سواهم ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: عظمه تَعْظِيماً، أو قل: الله أكبر من اتخاذ الولد، والشريك، والولي.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بثلاث صفات[1]:

١ ـ أنه لم يتخذ ولداً، فإنَّ من اتخذ الولدَ يمسك جميعَ النِعَمِ لولده، ولأن الوَلَدَ يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه، تنزه ربنا عن ذلك، ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام في كل الحالات، فلا يستحق الحمد على الإطلاق.

٢ ـ أنه ليس له شريك في الملك؛ إذ لو كان له ذلك، لم يعرف أيهما المستحق للحمد، والشكر، ولَكَان عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان.

٣ ـ أنه لم يكن له ولي من الذل؛ أي: لم يوال أحداً من أجل مذلة به يدفعها بموالاته.

والخلاصة: أنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه، وليس له شريك يقف أعماله في الملك، ولا ناصر يدفع العدو المذل له، وإذا تنزه ربنا عن ذلك، فقد أمن الناس نضوب موارده، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد، فلتغترف ـ أيها العبد ـ من مناهله، ولتعلم أنه لا يحابيك لأجل أهلك ولا نسلك، ولا دينك، ولو كنت ابن نبيٍّ من الأنبياء، أو عظيم من العظماء. ومعنى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: وعظّم ربك أيها الرسول بما أمرنَاكَ أن تعظمه به من قول، أو فعل، وأطعه فيما أمرك به، ونهاك عنه، وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون:

١ ـ بتكبيره في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذَاتِهِ، وأنه غني عن كل موجود.

---

(١) المراغي.

٢ ـ بتكبيره في صفاته، باعتقاد أنَّه مستحق لكل صفات الكمال، منزَّهٌ عن صفات النقص.

٣ ـ بتكبيره في أفعاله، فتعتقد أنه لا يجري شيء في ملكه إلاَّ وفق حكمته، وإرادته.

٤ ـ بتكبيره في أحكامه، بأن تعتقدَ أنه مَلِكٌ مطاع، له الأمر والنهي، والرَّفْعُ والخَفْضُ، وأنه لا اعْتِرَاضَ لأحد عليه في شيء من أحكامه، يُعِزُّ من يشاء، ويذل مَن يشاء.

٥ ـ تكبيرُه في أسمائه، فلا يذكرَ إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة.

ثم ينبغي للعبد بَعْد أَنْ يبالغَ في التكبير، والتنزيه، والتحميد، والطاعة، مقدارَ عقله وفهمه، أن يَعْتَرِفَ أن عَقْلَهُ وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وأعضاءه لا تفي بخدمته، فَكَبر الله عن أن يكُونَ تكبيرهُ وَافياً بكنه مجده، وعزته، وروي أن قول العبد: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها، والتكبير[1]: أكبر لفظة للعرب في معنى التعظيم، والإجلال، وأكد بالمصدر تحقيقاً له، وإبلاغاً في معناه، وابتدئت هذه السورة بتنزيه الله تعالى، واختتمت به.

روى أحمد في «مسنده» عن معاذ الجهني: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «آية العز ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾» الآية، وعن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء» وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم ابن أبي أمية، قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمُ الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .﴾ إلَى آخر السورة.

وأخرج ابن جرير عن قتادة، قال: ذكر لنا أَنّ رسولَ الله ﷺ كَانَ يُعَلّم أهله هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .﴾ إلى آخرها، الصغير من أهله والكبير.

---

(١) البحر المحيط.

وأسأل الرحمة قبل الموت، وعند الموت، وبعد الموت، إنه تعالى ناشر العظام، بعد الموت، وسامع الصوت، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم آمين.

الإعراب

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتنويع ﴿تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ فعل ومفعول به معطوف على ﴿تَفْجُرَ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر (ما) مصدرية، ﴿زَعَمْتَ﴾ فعل وفاعل ومفعول الزعم محذوف تقديره: كما زعمت إسقاطَها، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: أو تسقط السماء إسقاطاً كائناً كزعمك؛ أي: كالإسقاط الذي زعمته، ﴿عَلَيْنَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تُسْقِطَ﴾ ﴿كِسَفًا﴾ حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ ﴿أَوْ تَأْتِيَ﴾ فعل مضارع معطوف على ﴿تُسْقِطَ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَأْتِيَ﴾، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿قَبِيلًا﴾ حال من الجلالة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ﴾ فعل ناقص معطوف على ﴿تَفْجُرَ﴾. ﴿لَكَ﴾ خبره مقدم ﴿بَيْتٌ﴾ اسمه مؤخر ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿بَيْتٌ﴾ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ فعل مضارع معطوف على ﴿تَفْجُرَ﴾ منصوب بفتحة مقدرة، للتعذر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرْقَىٰ﴾ ﴿وَلَن﴾ (الواو) عاطفة ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ناصب وفعل منصوب، وفاعله ضمير يعود على المشركين، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نُّؤْمِنَ﴾ و(اللام) إما تعليلية، أو بمعنى (الباء) السببية ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿تُنَزِّلَ﴾ منصوب بأن مضمرةً، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق به ﴿كِتَٰبًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾،

وجملة ﴿تُنَزِّلَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: إلى تنزيلك علينا ﴿كِتَٰبًا﴾ ﴿نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ والجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُّؤۡمِنَ﴾.

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

﴿قُلۡ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي. . .﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿هَلۡ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿كُنتُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بَشَرٗا﴾ خبر كنت أو حال و﴿رَّسُولٗا﴾ نعت أو خبر ثان لـ ﴿كُنتُ﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو) استئنافية (ما) نافية ﴿مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ فعل ومفعول أول ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ ناصب وفعل، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿مَنَعَ﴾ تقديره: وما منع الناس إيمانَهم ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿إِذۡ﴾ تقديره: وما منع الناس إيمانَهم، وقت مجيء الهدى إياهم ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل في محل النصب، بأن المصدرية، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية، لـ﴿مَنَعَ﴾ تقديره: وما منع الناس إيمانَهم وَقْتَ مجيء الهدى إياهم، إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿أَبَعَثَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري ﴿بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿بَشَرٗا﴾ حال من ﴿رَّسُولٗا﴾ لأنه نعت نكرة قدمت عليها، ﴿رَّسُولٗا﴾ مفعول به، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّوۡ﴾ حرف شرط ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ ﴿مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ﴿لَّوۡ﴾ لا محلَّ لَهَا من الإعراب ﴿يَمۡشُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ ﴿مُطۡمَئِنِّينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَمۡشُونَ﴾ ﴿لَنَزَّلۡنَا﴾ (اللام) رابطة لجواب ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية، ﴿نزلنا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿عَلَيۡهِم﴾ متعلق بـ﴿نزلنا﴾ وكذا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿مَلَكٗا﴾ حال من ﴿رَّسُولٗا﴾ و﴿رَّسُولٗا﴾ مفعول ﴿نزلنا﴾.

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل، و(الباء) زائدة في فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ ﴿شَهِيدَۢا﴾ تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿بَيۡنِي﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدَۢا﴾ ﴿وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ معطوف على ﴿بَيۡنِي﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، وفاعله ضمير يعود على الجلالة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿خَبِيرَۢا﴾ ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ خبران لـ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها تعليلية.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾.

﴿وَمَن﴾ (الواو) استئنافية ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، أو في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿يَهۡدِ﴾ ﴿يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿فَهُوَ﴾ (الفاء) رابطة لجواب (من) الشرطية، وجوباً لكون الجواب جملة اسميةً، (هو) مبتدأ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة

اتباعاً لرسم المصحف العثماني، لأنه اسم منقوص، والجملة الاسمية في محل الجزم، بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وَجُمْلَةُ ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَمَن﴾ (الواو) عاطفة ﴿مَن﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب كما مر آنفاً ﴿يُضْلِلْ﴾ فعل مضارع، مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿فَلَن﴾ (الفاء) رابطة لجواب (من) الشرطية وجوباً لكونه مقروناً بـ﴿لن﴾ ﴿تَجِدَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لن﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وراعى في الضمير معنى ﴿من﴾ وفي قوله: ﴿فَهُوَ﴾ لفظها ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول به لـ﴿تَجِدَ﴾ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور حال ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وجملة ﴿لن تجد﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (من) الشرطية معطوفة على جملة (مَن) الأولى على كونها مستأنفةً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف متعلق به ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ حال من (الهاء) في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أحوال أيضاً من ضمير ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿كُلَّمَا﴾ اسم شرط غير جازم، في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بالجواب الآتي ﴿خَبَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَهَنَّمُ﴾، والجملة فَعْلُ شرط لـ ﴿كُلَّمَا﴾ ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ (الباء) حرف جر ﴿أنهم﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلق به، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب كفرهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿جَزَآؤُهُم﴾، ويجوز أن يكون ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكَ﴾ و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ هو الخبر، ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ إلى آخر الآية مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ وإن شئت قلت:

الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عِظَٰمًا﴾ خبره، ﴿وَرُفَٰتًا﴾ معطوف عليه، والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿أَءِنَّا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري مؤكدة، للأول ﴿إنا﴾ ناصب واسمه ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾ و(اللام) حرف ابتداء ﴿خَلْقًا﴾ حال من الضمير المستكن في ﴿مبعوثون﴾ ﴿جَدِيدًا﴾ نعت له ولك أن تجعل ﴿خَلْقًا﴾ مفعولاً مطلقاً من معنى الفعل؛ أي: نبعث بَعْثاً جديداً، وجملة ﴿أَءِنَّا﴾ جواب إذا الشرطية، وجملة إذا الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ (الهمزة) فيه للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و(الواو) عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: ألم يتفكروا، ولم يروا، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محلَّ لها من الإعراب، أو مستأنفة ﴿لم يروا﴾ فعل وفاعل، وجازم، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة للجلالة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿قَادِرٌ﴾ خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سَادّ مسدَّ مفعول، ﴿رأى﴾ ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر ﴿أَن يَخْلُقَ﴾ ناصب وفعل منصوب وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مِثْلَهُمْ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على خلقه مثلهم الجار، والمجرور متعلق بـ﴿قَادِرٌ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾ (الواو) عاطفة ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لـ ﴿جعل﴾ ﴿أَجَلًا﴾ مفعول أول، لـ﴿جعل﴾ ﴿لَّا﴾ نافية ﴿رَيْبَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿فِيهِ﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا رَيْبَ﴾ في محل النصب صفة لـ﴿أَجَلًا﴾، أي: أجلاً غير مرتاب فيه، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأنه في تقدير: قد رأوا، والمعنى: قد علموا بالدلائل العقلية، أن من قدر على خلق السمٰوات والأرضَ

هو قادر على خلق أمثالهم، وجعل لهم أجلاً محققاً لا ريب فيه، ﴿فَأَبَىٰ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿أبى الظالمون﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿جعل﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ لأن ﴿أبى﴾ متأول بالنفي، فكأنه قيل: فَلَم يَرْضوا ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المتصل بالفعل المحذوف، وجوباً بعد ﴿لو﴾ الشرطية يفسره المذكور بعده على سبيل الاشتغال تقديره: لو تملكون ﴿أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لضمير الفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، ﴿تَمْلِكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مفسرة للمحذوفة، لا محل لها من الإعراب، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أَنَّ المسألة من باب الاشتغال، فـ﴿أنتم﴾ مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر، لأن ﴿لَّوْ﴾ لا يليها إلا الفعل ظاهراً، أو مضمراً فهي كـ﴿إن﴾ في قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والأصل: لو تملكون فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه، فانفصل الضمير، وهو الواو إذ لا يمكن بقاؤه متصلاً بعد حذف رافعه.

والثاني: مرفوع بـ﴿كان﴾ وقد كثر حذفها بعد ﴿لَّوْ﴾ التقدير: لو كنتم تملكون، فحذف كان فانفصل الضميرُ وتملكون في محل نصب بكان المحذوف، وهو قول ابن الصائغ اهـ «سمين» ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء مهمل ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ (اللام) رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿أمسكتم﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ مفعول لأجله، ومضاف إليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره و﴿الواو﴾ فيه حالية، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿أمسكتم﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية (اللام) موطئة للقسم، (قد) حرف تحقيق ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، ومضاف إليه ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ صفة ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ والجملة الفعلية جوابُ القسم لاَ محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿فَسْـَٔلْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، إن كَانَ الخطاب لمحمدٍ، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إيتَاءَنَا الآيات لموسى، وأردتَ استخبارَ بني إسرائيل عنهَا.. فأقول لك: ﴿اسأل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مفعول أول، والثاني محذوف تقديره: عنها، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذ المقدرة، وجملة إذ المقدرة، مستأنفة، وإن كَانَ الخطاب لموسى، فـ﴿الفاء﴾ عاطفة لقول محذوف؛ تقديره: فقلنا له: اسأل فرعون بني إسرائيل، ﴿اسأل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والمفعول الأول محذوف تقديره: فاسأل فرعون ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، والقول المحذوف معطوف على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ على الوجه الأول، وبالقول المقدر على الوجه الثاني ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ(إذ) ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به ﴿فِرْعَوْنُ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جاء﴾ ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى﴾ ناصب، واسمه ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿أظنك﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على فرعون، ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ منادىٰ مفرد العلم، وجملة النداء معترضة بين مفعولي ظن على أنها مقول ﴿مَسْحُورًا﴾ مفعول ثان لظن، وجملة الظن في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة مستأنفة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَقَدْ﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿عَلِمْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية ﴿أَنزَلَ﴾ فعل ماض ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في محل النصب مفعول به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فاعل، ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿بَصَآئِرَ﴾ حال من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: أنزلها بصائر، وإنما احتجنا إلى هذا التقدير؛ لأن ما بعد إلا لاَ يكون معمولاً لما قبلها، وأجازه بعضهم، فهي حال من هؤلاء، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ من الفعل، والفاعل، سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾ معلقة عنها بما النافية، ﴿وَإِنِّي﴾ (الواو) عاطفة ﴿إني﴾ ناصب، واسمه ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿أظنك﴾ فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿يَٰفِرْعَوْنُ﴾ منادى مفرد العلم ﴿مَثْبُورًا﴾ مفعول ثان لـ﴿ظن﴾، وجملة ﴿ظن﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) معطوفة على جملة ﴿عَلِمْتَ﴾ على كَوْنِهَا جَوَابَ القسم.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿أراد﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يَعُودُ على فرعون، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على فرعون ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: فأراد استفزازهم من الأرض ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿أغرقناه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أراد﴾ ﴿وَمَن﴾ (الواو) واو المعية ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على كونه مفعولاً، ويجوز عطفه على الضمير ﴿مَّعَهُۥ﴾ ظرف اعتباري، متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

﴿وَقُلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أغرقنا﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قلنا﴾ ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ متعلق به أيضاً ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾

مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، على السعة، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الخفض، بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كَوْنِهَا فِعْلَ شرط لها ﴿جِئۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿بِكُمۡ﴾ متعلق به ﴿لَفِيفٗا﴾ حال من ضمير المخاطبين، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محلَّ لهَا من الإعراب، وجملة إذا في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ على كونها مقول ﴿قلنا﴾.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ (الواو) استئنافية ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أو حال من الفاعل، أي: حالةَ كوننا ملتبسينَ بالحق أو من المفعول، ؛ أي: حَالةَ كونه مُلْتَبِساً بالحق ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿نَزَلَ﴾ أو حال من فاعل ﴿نَزَلَ﴾؛ أي: ملتبساً بالحق ﴿نَزَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على القرآن، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ﴿وَمَآ﴾ (الواو) عاطفة (ما) نافية ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مُبَشِّرٗا﴾ حال من كاف المخاطب ﴿وَنَذِيرٗا﴾ معطوف عليه.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾.

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ (الواو) عاطفة ﴿قرآنا﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: وفرقنا قرآناً، والجملة المحذوفة، معطوفة على جملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جملة مفسرة للمحذوف، لا محلَّ لها من الإعراب، ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تقرأه﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق به ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ جار ومجرور حال من الفاعل، أي: حالَةَ كونك متمهلاً، ومتأنياً، وقارئاً شيئاً بعد شيء، رعايةً لمصالح العباد، ومعايشهم، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لقراءتك إياه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾، ﴿تَنزِيلٗا﴾ منصوب

على المفعولية المطلقة، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦٓ﴾، متعلق به ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، وتفصيل ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامِنُواْ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦٓ﴾ في تأويل مصدر من غير سابك لإصلاح المعنى مرفوع على كونه مبتدأ خبره محذوف، تقديره: إيمانكم به، وعدم إيمانكم به سواء، عندنا، لا نبال بكم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول ثان ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية صلةُ الموصول ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿يُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كَوْنِهَا فِعْلَ شرط لها، ﴿يَخِرُّونَ﴾ فعل وفاعل ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ متعلق به ﴿سُجَّدًا﴾ حال من فاعل ﴿يَخِرُّونَ﴾، وجملة ﴿يَخِرُّونَ﴾ جواب إذا لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر، ﴿إِنَّ﴾ وجملةُ ﴿إِنَّ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها، على كونها مقول ﴿قُلْ﴾ أي: إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به من هو خير منكم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخِرُّونَ﴾. ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿يقولون﴾ وإن شئت قُلْتَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: نسبح ربنا تسبيحاً ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: إنَّه ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لَمَفْعُولًا﴾

(اللام) حرف ابتداء ﴿مَفْعُولًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾ ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخِرُّونَ﴾ الأول ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ متعلق به ﴿يَبْكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَخِرُّونَ﴾ ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على القرآن، أو البكاء، أو السجود، والجملة في محل النصب على الحال، معطوفة على ﴿يَبْكُونَ﴾ أو حال من فاعل ﴿يَبْكُونَ﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ادْعُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ادْعُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾ ﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ادعوا الله ﴿أَيًّا﴾ اسم شرط جازم منصوب على المفعولية بـ ﴿تَدْعُوا﴾ ﴿مَا﴾ زائدة زيدت تأكيداً للإبهام المفهوم من أياً، ونوّنت؛ أي تعويضاً عما فاتها من الإضافة، ﴿تَدْعُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿أَيًّا﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهو حسن دل عليه ما بعده، وجملة الشرط مع جوابه، في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿فَلَهُ﴾ (الفاء) رابطة الجواب، ﴿له﴾ خبر مقدم ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ صفة له، والجملة الإسمية في محل الجزم على كونها جواباً لـ﴿أي﴾ ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ﴿تَجْهَرْ﴾ مجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلِ﴾. ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ متعلق بـ﴿تَجْهَرْ﴾. ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِهَا﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة النهي، ﴿وَابْتَغِ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلِ﴾ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق به، ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول به.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَقُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿ٱلَّذِي﴾ صفة للجلالة ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ جازم، وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول.. ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾ فعل ناقص، وجازم ﴿لَّهُۥ﴾ خبره مقدم ﴿شَرِيكٞ﴾ اسمه مؤخر ﴿فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ متعلق بـ﴿شَرِيكٞ﴾، وجملة ﴿يَكُن﴾ معطوفة على جملة الصلة، ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾ جازم، وفعل ناقص، ﴿لَّهُۥ﴾ خبره مقدم ﴿وَلِيّٞ﴾ اسمه مؤخر ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ متعلق بـ﴿وَلِيّٞ﴾ والجملة معطوفة على جملة الصلة، ﴿وَكَبِّرۡهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿تَكۡبِيرَۢا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلِ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كِسَفًا﴾ يقرأ[1] بفتح السين وسكونها فَمَن فتح السين: جعله جمع كسفة نحو قطعة، وقطع، وكسرة، وكسر، ومن سكن جَعَلَهُ جمع كسفة، أيضاً على حَدّ سِدْرَةٍ وسدر، وقَمْحَةٍ وقَمْحٍ، وجوَّز أبو البقاء فيه وجهين آخرين:

أحدهما: أنه جمعٌ على فَعَل بفتح العين، وإنما سُكّن تَخْفِيفاً، وهذا لا يجوز، لأنَّ الفتحةَ خفيفةٌ يحتملها حرف العلة، حيث يقدِّر فيه غيرها، فكيف بالحرف الصحيح؟.

والثاني: أنه فِعْلُ بمعنى مفعول كطِحْنٍ بمعنى مطحون، فصار في السكون ثلاثةُ أوجه: وأصل الكسف: القطع، يقال: كَسفْتُ الثَّوْبَ قطعتَه، وفي الحديث: في قصة سليمان مع الصافنات الجياد، أنه كسف عَرَاقِيبَها، أي: قَطَعَها، وَقَالَ الزجاج: كَسَفَ الشّيءَ بمعنى غطاه، قِيل: وَلاَ يُعْرَف هذا لغيره، وانتصابه على الحال، فإنْ جعلْناهُ جَمْعاً كان على حذف مضاف، وإن جَعَلْنَاه فعلاً بمعنى مفعول لم يحتج إلى تقدير، وحينئذ فيقال: لِمَ لَمْ يؤَنّث؟ ويجابُ بأنَّ تأنيثَ السماء غير حقيقي، أو بأنها في معنى السقف .اهـ سمين. ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ والرُّقيُّ: الصعود،

---

(١) الفتوحات.

يقال: رقِيَ بالكسر يَرْقَى بالفتح، رُقِيّاً على فعول، والأصل: رقوى فأُدغم بَعْد قلب الواو ياءً، ورَقْياً بزنة ضَرْبٍ اهـ «سمين». وَقَوْلُه: بالكسر؛ أي: في المحسوسات كما هنا، وأما في المعاني: فهو من باب سَعَى يقال: رقى في الخير والشرّ، يرقى بفتح القاف في الماضي، والمضارع، وأمَّا رقى المريضَ بمعنى عَوَّذه، فهو من باب رَمَى يقال: رقاه يرقيه إذا عوذه، وتلا عليه شيئاً من القرآن، وفي «المصباح»: رقيْتُهُ أَرْقِيه ـ من باب رَمَى ـ رَقْياً عَوَّذْتُهُ بالله، والاسم الرقيا: بوزن فَعْلَى، والمرة رقية، والجمع رُقى، مثْلُ مُدْيَة ومُدى، ورقيت في السلم، وغيره أرقى ـ من باب تعب ـ رُقياً على زنة فُعُول ورَقْياً على زنة فلس أيضاً، وَرقا الطائر يرقو ارتَفَعَ في طيرانه اهـ.

﴿زُخْرُفٍ﴾، أي: ذهب، وهُوَ المرادُ هنا، ولها مَعان شَتَّىٰ منها حسن الشيء، وزُخْرفُ الكلام أباطيلُه المموَّهة، وزخرفُ الأرض ألوان نباتها، والجَمْعُ زَخَارِفُ، وزخْرفَ الشَّيءَ حسَّنه وَزَيَّنه، والكلام موَّهه بالكذب ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: سكن لهبها، وأصل خبت خَبَوَتْ بوزن قَعَدَت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان: الألف، وتاءُ، التأنيث، فحذفت الألفُ لالتقاء الساكنين، فوزنهُ الآن فَعَتْ بوزن رمت، لحذف لامه وفي «القاموس» في باب الواو: وخَبتْ النارُ، والحرب خبواً وخبوّاً سكنتْ وطَفئَتْ وأخبَيْتُها أطفأْتُها اهـ وفي «المصباح» خَبَتِ النار خبواً من باب قعد خمد لهبها، ويعدى بالهمزة، وفي «السمين»: وخبت النار تخبُوا إذا سكن لهبها، فإذا ضَعُفَ جَمْرُها قيل: خمدتْ فإذا طفئت بالجملة، قيل: همَدَتْ وكل من خمدتْ، وهمدت من باب: قَعَدَ كما في «المصباح»: والسعير اللهب ﴿وَرُفَٰتًا﴾؛ أي: تراباً وفي «القاموس»: رفته يرفته وَيَرْفِتُه كسره، ودقه، وانكسر، ودَقَّ لازم متعد، وانْقَطَعَ كأرفت إرفاتاً في الكلّ، وكغراب الحطامُ اهـ.

﴿بَصَآئِرَ﴾؛ أي: عبراً وبيّنات جمعُ بصيرة ﴿مَثْبُورًا﴾؛ أي: هَالِكاً أو مصروفاً عن الخير، وفي «المصباح»: وثبر الله الكافرَ ثبوراً من بَاب قَعَدَ أَهْلكه وثبر، هو يتعدى، ويَلْزَمُ قوله ﴿أن يَسْتَفِزَّهم﴾ في «القاموس»: فَزَّعَني عَدَلَ، والظبي فَزِعَ وفز فلانٌ عن موضعه، منْ باب ضربَ فزازاً أزعجه، واستفزه استخفه، وأخرجه

من داره وأفزته أفزَعته اهـ. ﴿لَفِيفًا﴾ قيل: هو مصدر لف، يَلُفُّ لفِيفاً نحو النذير، والنكير، من لَفَّ الشيءَ يلفه لفاً، والألَفُّ المتداني الْفَخِذَيْنِ أو عظيمُ البَطْنِ، وقيل: هو اسم جَمْعٍ لا واحدَ له من لفظه، والمعنى: جئنا بكم جميعاً، واللَّفيفُ أيضاً الجمع العظيم من أخلاط شَتَّى من شريف، ودنيء، ومطيع، وعاص، وقوي، وضعيف، وكل شيء خلَطتَه بغيره فقد لففته.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ والحَقّ هو الثابتُ الذي لاَ يَزُولُ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك، كدلائل التوحيد، وتعظيم الملائكة، ونبوة الأنبياء، وإثبات البعث، والقيامة، وفي «الشهاب»: والحقُّ فيهما ضد الباطل، لكن المرادُ بالأول: الحكمة الإلهيةُ المقتضيةُ لإنزاله، وبالثاني: ما يشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوها اهـ. و﴿فَرَقْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه مفرَّقاً مُنَجَّماً ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ والمُكْثُ «بالضم والفتح» التُّؤُدَةُ، والتَّأنّي، والمُكْثُ أيضاً التَّطَاوُلُ في المدة ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ جَمْعُ ذقن، وهو مجتمعُ اللَّحْيَيْنِ.

﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحُسْنَى مؤنَّثُ الأحسن الذي هو أفعل التفضيل، لا مؤنث الأحسن، المقابل لامرأة حسناء، كما في «القاموس»: يعني: أنَّ أَحْسَن لا يستعمل بمعنى أصل الفعل، وإنما استعمل بمعنى التفضيل، والحُسْنى بالضم ضدُّ السُّوءَى، وقد وصف الجَمْعُ الذي لاَ يَعْقِلُ بما تُوصف به الواحدة، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ وهو فصيح، ولو جاء على المطابقة للجمع.. لكان التركيب الحسن على وزن الأُخَر، كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه، ويوصف بوصف المؤنثات، وإنْ كان المفرد مذكراً اهـ. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾؛ أي: ولا تسر بها، يقال: خَفَتَ الصوت من بابي ضرب، وجلس إذا سكن، ويعدَّى بالباء، فيقال: خَفَت الرجل بصوته إذا لم يرفعه، وخَافَت بقراءته، مخافَتَةً إذا لم يرفع صوتَه بها، وخَفَتَ الزرع، ونَحْوهُ مات فهو خافت اهـ. «مصباح» و«مُختار». وفي «السمين»: والمخافَتَةُ المسارة بحيث لا يسمع الكلام، وضربته حَتَّى خَفَتَ؛ أي: لم يسمع له صوت اهـ. تخافت القوم إذا تساروا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، أي: مشارك له في ملكه، وسلطانه، وربوبيته؛ فهو فعيل بمعنى مفاعل، كالعشير بمعنى المعاشر، والمثيل بمعنى المماثل، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

﴿وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، والوليّ الناصر، ينصره، ويمنعه، ويحفظه من إذلال من يذله، والذل: الهَوان والصّغارُ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضُرُوباً من البلاغة، وأنواعاً من الفَصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿مَن يَهْدِ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وبين ﴿مُبَشِّرًا﴾ ﴿وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿تَجْهَرْ﴾ و﴿تُخَافِتْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ اهتماماً بأمر الحشر.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿مَحْسُورًا﴾ و﴿مَثْبُورًا﴾ لتغير بعض الحروف.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ في مقابلة قول فرعون ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ للتفخيم، فإنه لو تَرَكَ الإظهارَ وَعَدَلَ إلى الإضمار كما يقتضيه السياق فقال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ لم يكن فيه من الفخامة ما فيه الآن، ويسميه بعضهم بالتصريح.

ومنها: الاستطراد في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ على قاعدة أسلوب كلامهم، وهو: أن يستطرد المتكلم بذكر شيء لم يسق له كَلاَمُه، أولاً ثُمَّ يعود إلى كلامه الأول، فقد ذكر سبحانه أوّلاً القرآن، وأنَّ الإنْسَ والجِنَّ عاجزون عن الإتيان بمثله، وفصاحته وبلاغته، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ثُمَّ انتقل إلى ما في منطوياته من مُثُل، وعبر، وبصائرَ، وانساقَ الكلامُ إلى تعنت الكافرين،

وتماديهم في اللجاج، وصدودهم في الغي، والمكابرة، وطمس الحقائق، وإنكار الوقائع، ثمَّ أورد شاهداً على ذلك ما لاقاه موسَى من مكابرة فرعونَ وملئه، وضَرَبَ مثلاً في المغبَّة التي نالها فرعون ومن معه ثُمَّ عاد إلى الموضوع الذي شَرَعَ فيه، وهو كون القرآن نازلاً بالحق، وإليه هادفاً.

ومنها: القصر الإضافي في قوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ والقصر: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، وينقسم إلى حقيقَي، وإضافي فالحقيقي ما كان الاختصاص فيه بحسب الحقيقة، والواقع نحو لا: كاتب في المدينة، إلا علي، والإضافي ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين، نحو ما علي إلاَّ قائم؛ أي: له صفة القيام، لا صفة القعود، و(ما) هنا كذلك، لأنَّ المعنى: ما أرسلناك إلاَّ بصفة التبشير، والإنذار، لا بصفة الهداية، لأنَّ الهداية، والإضلال علينا.

ومنها: التكرير المعنوي في قوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فقد كرر الخرور للذقن، وهو السقوط: على الوجه لاختلاف الحالين، فالأَول خرورهم في حال كونهم ساجدين، والثاني خرورهم في حال كونهم باكينَ.

ومنها: الإتيان بالحال الأول اسماً وهو قوله: ﴿سُجَّدًا﴾ للدلالة على الاستمرار، والحال الثانية، فعلاً، وهي قوله: ﴿يَبْكُونَ﴾ للدلالة على التجدد والحدوثِ، فكأنَّما بكاؤهم يتجدد بتجدد الأحوالِ الطارئةِ، والعِظاتِ المتتالية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءة صلاتك من إطلاق الكل، وإرادة الجزء، والعلاقة الجزئية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ حيث استعار السبيلَ الذي هو محلُّ المرور للصوت الوسط، بين الجهر، والمخافتة بجامع أنَّ كلاً منهما أمر يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقْتَدُونَ فيوصلُهم إلى المطلوب.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة من الموضوعات

١ ـ الإسراء منْ مكة إلى بيت المقْدِس.

٢ ـ تاريخ بني إسرائيل في حالتي الارتقاء والانحطاط.

٣ ـ حكم وعظات للأمة الإسلامية، يجب أن تراعيها حتى لا تذهب دولها، كما ذهبت دولة بني إسرائيل.

٤ ـ بيانُ أنَّ كل ما في السموات، والأرض مسبح لله تعالى.

٥ ـ الكلام في البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه.

٦ ـ الرد على المشركين الذين اتَّخَذوا مع الله آلهة مِنَ الأوثان، والأصنام.

٧ ـ الحكمة في عدم إنزال الآيات التي اقترحوها على محمد ﷺ.

٨ ـ قصص سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس من ذلك.

٩ ـ تَعْداد بعض نِعَمِ الله على عباده.

١٠ ـ طلب المشركين من الرسول ﷺ أنْ يُوافِقَهم في بعض معتقداتهم، وإلحافُهم في ذلك.

١١ ـ أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة، والتهجُّد في الليل.

١٢ ـ بيان إعجاز القرآن، وأنَّ البَشَر يستحيل عليهم أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

١٣ ـ قصص موسى مع فرعون.

١٤ ـ الحِكمة في إنزالِ القرآن منجماً.

١٥ ـ تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك والناصر والمُعين.

والله أعلم

* * *

سورة الكهف

مكية كلها، قال القرطبي: في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة: أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، وقيل[1]: إلا قوله ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ والقول الأول أصح، وهي مئةُ وإحدى عشرة آيةً، وكلماتها ألف وخمس مئة وسبع وسبعون كلمةً، وحروفها ستة آلاف وأربع مئة وستون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لِما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أن سورة الإسراءِ افْتُتِحَتْ بالتسبيح، وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في سائر الكلام، في نحو ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ونحو: سبحان الله وبحمده.

٢ ـ تشابه خِتام السَالِفَةِ وافتتاح هذه فإن كلاً منهما حمد.

٣ ـ أنه ذكر في السَّابقة قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والخطاب فيها لليهود، وذكر هنا قصة موسى نبي بني إسرائيل مع الخضر عليهما السلام، وهي تدل على كثرة معلومات الله التي لا تُحصى، فكانت كالدليل على ما تقدم.

٤ ـ أنه جاء في السورة السابقة ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ثم فصَّل ذلك هنا بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

فضلها: وقد ورد في فضلها أحاديث[3]:

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

منها: ما أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حفظ عَشْر آيات من أول سورة الكهف عصم منْ فتنة الدجال».

وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن حبان، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشرَ الأواخر من سورة الكهف، عُصم من فتنة الدجال».

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن البراء قال: قرأ رجل سورة الكهف، وفي الدار دابة فجعلت تنفر فَنَظَر فإذا ضَبَابة ـ أو سحابة ـ قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلانُ، فإن السكينة نزلت للقرآن» وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير، كما بينه الطبراني.

وأخرج الترمذي، وصححه عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من فتنة الدجال»، وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث.

وأخرج ابن مردويه، والضياءُ ـ في «المختارة» ـ عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الكهف يوم الجمعة.. فهو مَعْصُومٌ إلى ثمانية أيام من كل فِتْنَةٍ تكون، فإن خَرَجَ الدجال عُصم منه».

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، والضياء عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الكهف، كانت له نُوراً من مَقَامِهِ إلى مكة، ومن قرأ عَشْرَ آيات مِنْ آخرها ثُمَّ خَرَجَ الدجال.. لم يضره».

وأخرج الحاكم، وصححه من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة.. أضاءَ له من النور ما بين الجمعتين» وأخرجه البيهقي أَيْضاً في «السنن» من هذا الوجه، ومن وجه آخر، وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سورة الكهف في يوم

الجمعة، سطع له نُورٌ من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضيءُ له يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين».

وأخرج ابن مردويه عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بِسُورة مَلأ عظمتها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه، بعثه الله من أيِّ الليل شاءَ؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «سورة أصحاب الكهف».

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل، قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شَيْطَانٌ تلك الليلة». وفي الباب أحاديث، وآثار، وفيما أوردناه كفاية مغنية.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: وقد أجمع المفسرون على أن لا منسوخ في سورة الكهف، إلا السدي وقتادة فإنهما قَالاَ: فيها آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية (٢٩) ناسخها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ (١) قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن
لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا (٣)
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ
مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا
ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ
مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا (٨) أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذۡ
أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا (١٠) فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا (١١) ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا (١٢) نَّحۡنُ
نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (١٣) وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ
قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا (١٤) هَٰٓؤُلَآءِ
قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبٗا (١٥) وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ
وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا (١٦) ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا
غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا (١٧) وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ
ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا
(١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ
قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ
طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ
يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا (٢٠)﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها(١): أنه لما قال: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ

(١) البحر المحيط.

نَزَلَّ﴾ وذكر المؤمنين به أهل العلم، وأنه يزيدُهم خشوعاً، وأنه تعالى أَمَرَ بالحمد له، وأنه لم يتخذ ولداً: أمره تعالى بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العِوَجِ، القيم على كل الكتب، المنذر من قال اتخذ الله ولداً، المبشر المؤمنين بالأجر الحسن، ثم استطرد إلى حديث كفار قريش، والتَفَتَ من الخطاب في قوله: وكبِّره تكبيراً، إلى الغيبة في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ لما في ﴿عَبْدِهِ﴾ من الإضافة المقتضية تشريفه، ولم يجيء التركيب: أنزل عليك.

أسباب النزول

سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق، عن شيخ من أهل مصر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: بعثَتْ قُرَيْشُ النضر بن الحارث، وعقبة ابن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صِفَته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعِنْدَهُم مَا ليس عِنْدَنَا من علم الأنبياء، فَخَرَجَا حتى أتيا المدينة، فَسَألاَهُمْ فقالوا: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل، فالرجل متقوِّل، فروا فيه رأيكم، سلوهُ عن فتية ذَهَبُوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلَغَ مشارقَ الأرض ومغارِبَها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فأقبلا حتى قَدِما على قريش، فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه فقال: أخبركم غَداً بما سألتم عنه، ولم يَقُل: إن شاء الله.. فانصرفوا فاستلبث الوحي خمسةَ عَشَرَ يوماً، ولا يأتيه جِبْرِيل حتى أرجفَ كفارُ قريش، وقَالُوا: إنَّ مُحَمَّداً قد تركه رئيه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ فَلَمَّا انْقَضَى الأمد، جاءه الوحي بجواب الأسئلة وغيرها، فجاءه جبريل بسورة أهل الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وبيانُ أمر الفتية، والرجل الطوَّاف، وأَنْزَلَ بعد ذلك ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ...﴾ الآية.

(١) لباب النقول والبحر المحيط.

وروي في هذا السبب[1]: أنَّ الْيَهُودَ قالت: إن أجابكم عن الثلاثة، فليس بنبي، وإن أجاب عن اثنتين، وأمسك عن الأخرى فهو نبي، فأنزل الله سُورَةَ أهل الكهف، وأَنْزَلَ بعد ذلك ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، وأخرج[2] ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عُتْبَةُ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعةَ، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمَيَّة بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأبو البحتري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يَرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النَّصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ أي: المدح والثناءُ والشكر كله مستحق ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ لأن وجودَ كلِّ شيء نعمة من نعمه تعالى، فلا منعم إلا هو، قال[3] القيصري رحمه الله تعالى: الحمد قوليٌّ، وفعليٌّ، وحاليٌّ، أما القولي: فحمد اللسان، وثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه على لسان أنبيائه عليهم السلام، وأما الفعلي: فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاءً لوجه الله تعالى، وتوجهاً إلى جنابه الكريم، وأما الحالي: فهو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية، والعملية، والتخلق بالأخلاق الإلٰهية؛ لأن النَّاسَ مأمورون بالتخلق بلسان الأنبياء، صلوات الله عليهم، لتصير الكَمَالاَت مَلَكة نفوسهم وذواتِهم ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ، وفيه[4] إشعارٌ بأنَّ شَأنَ الرسول أن يكون عبداً للمرسل، لا كما زعمت النصارى في حق عيسى ـ عليه السلامُ ـ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي القرآنَ الحقيقَ باسم الكتاب.

علّم[5] سبحانه عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، ووصْفُهُ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.
(٥) الشوكاني.

بالموصول يشعر بعليَّةِ ما في حيز الصلة لِمَا قَبْلَه، ووجه كون إنزال الْكِتَابِ ـ وهو القرآن ـ نِعْمَة على رسوله ﷺ، كونه اطَّلَعَ بواسطته على أسرار التوحيد، وأحوال الملائكة، والأنبياءِ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تَعَبَّدَه اللهُ وتعبَّد أُمَّتَه بها، وكذلك العباد، كان إنزالُ الكتاب على نبيهم نعمةً لهم، لِمثْل ما ذكرناه في النبي ﷺ، و(الواو) في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾؛ أي: الكتاب ﴿عِوَجَاۜ﴾؛ أي: اخْتِلافاً في اللفظ، وتَنَاقُضاً في المعنى، أو ميلاً عن الحق، حاليَّة، فالجملة حال أولى من الكتاب كما قاله الأصبهاني، ولكنها حال سببية؛ أي[1]: أنزله غير جاعل له عِوَجاً؛ أي شَيْئاً من العوج بنوع اختلال في النظم، وتناف في المعنى، أو عدول عن الحق إلى الباطل.

والخلاصة: لا خلل في لفظه، ولا في معناه، واختار حَفْصٌ عن عاصم السكت على ﴿عوجاً﴾ وهو وَقْفَةٌ لَطِيفَةٌ من غير تنفس لئلا يُتَوَهَّمُ أنَّ ما بعده صفة له، وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾؛ أي: مُسْتَقِيماً مُعْتَدِلاً لا إفراطَ فيه، ولا تَفْرِيطَ، أو قَيِّماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وَصْفه بالكمال حال ثانية من الكتاب مؤكدة للأولى، فهي حال مترادفة، أو من الضمير في ﴿له﴾ فهي متداخلة. ومعنى لا إفراط فيه؛ أي: فيما اشتمل عليه من التكاليف، حتى يشق على العباد، ومعنى لا تفريط فيه؛ أي: بإهمالِ ما يحتاج إليه، حتى يحتاج إلى كتاب آخر كما قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

وقال العلماء[2] باللغة والتفسير: في هذه الآية تقديم وتأخير، تقديرها: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، وقال الكرماني: إذا جعلتهُ حالاً ـ وهو الأظهر ـ فليس فيه تقديم ولا تأخير، والصحيح أنهما حالان من الكتاب الأولى جملة، والثانية مفرد، انتهى ذكره في «البحر»، وقرأ أبو رجاءٍ وأبو المتوكل، وأبو الجوزاءِ، وابن يعمر، والنخعي، والأعمش، قِيَماً بكسر القاف وفتح الياء، وقرأ الجمهور ﴿قَيِّمًا﴾ بتشديد الياء وفتح القاف، كما سبق في سورة الأنعام.

---

(١) روح البيان. (٢) زاد المسير.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ ويخوف؛ أي: أنزل على عبده الكتاب لِيُنْذر الكتابُ أو محمدٌ بما فيه الذين كفروا بالله ورسوله، فحذف[1] المفعول الأول، اكتفاءً بدلالة القرينة، واقتصاراً على الغرض المسوق إليه، ﴿بَأْسًا﴾؛ أي: عذاباً ﴿شَدِيدًا﴾ صادراً ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: من عنده تعالى، نازلاً من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم، وهو إما عذاب الاستئصال في الدنيا، أو عذاب النار في العقبى، أو كلاهما، وإنما قال: ﴿من لدنه﴾؛ لأنه هو المعذب دونَ الغير ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ ذلك الكتاب، أو محمدٌ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المصدّقين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمالَ الصالحة وهي ما كانت لوجه الله تعالى ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم في مقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وثواباً جسيماً هو الجنة، وما فيها من النعيم حَالَةَ كونهم ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الأجر الحَسَن ﴿أَبَدًا﴾ من غير انقطاع، وانتهاء وتغير حال، نصب على الظرفيةِ لـ ﴿ماكثين﴾ وتقديم الإنذار على التبشير، لتقدم التَّخْلِيةِ على التحلية.

وقرأ أبو بكر[2]: ﴿من لدنه﴾ بإسكان الدال إسكان الباء من سبع مع إشمامها الضمَّ، ليدل على أَصْلِهِ، وكسر النون لالتقاء الساكنين، وكسر الهاء للإتباع، وروى أبو زيد عن جميع القراءِ فتحَ اللام وضمَّ الدال وسكون النون، وقرأ[3] حمزة والكسائي ﴿يبْشر﴾ بفتح الياء، وسكون الموحدة، وضم الشين، وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وقرىء بالرفع.

والمعنى: حمد الله سبحانه نفسه على إنزاله كِتَابَه العزيز إلى رسوله ﷺ؛ لأنه أعظمُ نعمةٍ أنزلها على أهل الأرض، إذ أخرجَهُمْ به من الظلمات إلى النور، وَجَعَلَهُ كتاباً مستقيماً لا اعوجاجَ فيه، ولا زيغَ، بل يهدي إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى أنزلَ الكتاب على عبده محمد ﷺ مستقيماً لا

---

(١) البيضاوي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

اختلاف فيه ولا تفاوت، بل بعضه يصدق بعضاً، وبعضه يشهد لبعضٍ، ولا اعوجاجَ فيه، ولا ميلَ عن الحق. ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا﴾؛ أي: ليخوف الذين كفروا به عذاباً شديداً، صادراً من عنده تعالى؛ أي: نكالاً في الدنيا، ونارَ جهنم في الآخرة. ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ويبشر المصَدِّقِينَ الله ورسوله، الذِينَ يمتثلون أوامرَه ونواهِيَه بأن لهم ثواباً جزيلاً منه على إيمانهم به، وعَمَلِهم الصالح في الدنيا، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التي وعدها الله المتقينَ، خالدين فيها أبداً، لا ينتقلون منها ولا يُنْقَلُون.

﴿وَيُنذِرَ﴾ الكتابُ أو محمدٌ أيضاً خاصة ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ بأساً شديداً من لدنه ذكر[1] المُنْذَرِينَ دون المُنْذَرِ به، بعكس الأول استغناءً لتقديم ذكره؛ أي: وليحذر من بين هؤلاء الكفار مَنْ قالوا هذه المقالةَ الشَّنْعاءَ: إن الله اتَّخذَ ولداً، وهؤلاء ثلاث طوائف:

١ ـ المشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

٢ ـ اليهود القائلون: عزيرٌ ابن الله.

٣ ـ النصارى القائلون: المسيحُ ابن الله.

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم في الإنذار السّابِقِ لفظاعة حَالِهم، وشَنَاعة كُفْرهم وضَلاَلِها ﴿مَّا لَهُم﴾؛ أي: ما لهؤلاء القائلين ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: باتخاذه تعالى ولداً ﴿مِنۡ عِلۡمٍ﴾؛ أي: بُرهان وحجة بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده، ولا عقل يظاهره، ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾؛ أي: ولا لأسلافهم الذين قلدوهم في تلك المقالة به علم؛ أي: على اتّخاذه تعالى ولداً برهانٌ وحجةٌ؛ أي: وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة، وهم القدوة لهم به من علم، والمعنى: أي: ليس لهم، ولا لأحد من أسلافهم الذين قَلَّدوه علم بهذا القول، أهو صواب أو خطأ، بل إنما قَالُوه رمياً عن جهالة من غير فكر ونظر فيما يجوز على الله، ويَمْتَنِع، و﴿من علم﴾ مرفوع على الابتداء، و﴿من﴾ مزيدة لتأكيد النفي ﴿كَبُرَتۡ﴾؛ أي:

---

(١) النسفي.

عَظُمتْ مقالتهم هذه في الكفر، لما فيها من التَّشْبِيهِ والتشريك، وإيهام احتياجه إلى ولد يعينه، ويخلفه، إلى غير ذلك من الزيغ من جهة كونها ﴿كَلِمَةً﴾ تمييز، وتفسير للضمير المبهم الذهني في كَبُرَتْ مثل ربه رجلاً ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة للكلمة تفيد اسْتِعْظام اجترائهم على التفوه بها، والمراد بتلك الكلمة هي قولهم: اتخذ الله ولداً فـ﴿كَلِمَةً﴾[1] بالنصب على التمييز، وبالرفع على الفاعلية فعل النصب يكون فاعل ﴿كَبُرَتْ﴾ مضمراً مفسراً بما بعده، وهو للذم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: كبرت الكلمة كلمةً خارجةً من أفواههم، والمخصوص بالذم تِلْكَ المقالة الشنعاء، والنصب أقوَى وأبلَغُ، وفيه معنى التعجب؛ أي: ما أكبرها كَلِمةً ﴿إِن يَقُولُونَ﴾؛ أي: ما يقولون في هذا الشأن ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أي: إلاَّ قَوْلاً كَذِباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق فـ﴿كذباً﴾ صفة لمصدر محذوف.

والمعنى: أي[2] عَظمتْ مَقَالتهم هذه في الكفر، حيث لم يكتفوا بخطورها بالبال، وتَرَددها في الصدور، بل تَلَفَّظُوا بها على مرأى من الناس ومسمع، وكثير مما يوسوس به الشيطانُ، وتحدّثُ به النفس لا يتلفظ به، بل يُكتفى بما يعتقده القلب، فكيف سَاغَ لهم أن يَتَجَرَّؤوا على التلفظ بهذا المنكر، الذي لا مستندَ له من عقل ولا نقل.

ثم أكد هذا الإنكار، وبيَّن أنه كما لا علمَ لهم ولا لآبائهم به لا علم لأحد به، لأنه لا وجودَ له، وما هو إلا محض اختلاف بقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أي: ما يقولون إلاَّ قَوْلاً لاَ حقيقة له بحال، وقرىء[3] ﴿كَبُرَتْ﴾ بسكون الباء، وهي في لغة تميم، وقرأ[4] الجُمْهُور ﴿كَلِمَةً﴾ بالنصب، وقرأ ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وأبو رزين، وأبو رجاء، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن، وابن أبي عبلة ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع، قال الفراء: مَنْ نصب أضمر؛ أي: كَبُرَتْ تلك

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

(٤) زاد المسير.

الكلمة كلمة، ومَنْ رفع لم يضمرْ شَيْئاً كما تقول: عظم قولك، وقال الزجاج: مَنْ نَصَبَ فالمعنى كَبُرَتْ مقالتهم: اتخذ الله ولداً، وكلمةً منصوب على التمييز، ومَنْ رفع فالمعنى: عَظُمَت كلمة هي قولهم اتَّخَذَ الله ولداً، ومعنى قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: إنَّها قول بالفَم، لا صِحَّة لها، ولا دَليلَ عليها. ذكره ابن الجوزي.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَاخِعٌ﴾، أي: مهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾ وقاتلُها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: على إعراضِهِم وتوليهم عن الإيمان بك؛ أي: فلعلك يا محمد متبع نفسك وَراءَهم أو مجهدها، أو متعبها، أو مهلكها، وقاتلها غماً وهماً على تولّيهم، وإعراضهم عن الإيمان بك، ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ أي: بهذا القرآن، وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه الترجِّي تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا الحديث فلا تبال بهم، ولا تحزنْ عليهم، ولا تذهب نَفْسَك ﴿أَسَفًا﴾ عليهم، وحزناً على عدم إيمانهم، فهو مفعول له، لـ﴿بَاخِعٌ﴾ أو مصدر في موضع الحال، والأسف أشد الحزن كما في «القاموس».

وقرأ الجمهور[(١)] ﴿بَاخِعٌ﴾ بالتنوين ﴿نَّفْسَكَ﴾ بالنصب، وقرىء ﴿باخع نفسك﴾ بالإضافة، والإشارة بهذا الحديث إلى القرآن قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ وفي «الصحاح» الحديث ضد القديم، ويُستعمل في قليل الكلام وكثيره.

والحاصل: أن لعل[(٢)] هنا للاستفهام الإنكاري، المتضمن معنى النهي، أي لا تبخع نفسك من بعد توليهم عن الإيمان، وإعراضهم عنه أسفاً وحسرة عليهم؛ أي: إنك قد اشتد وجدك عليهم، وبلغت حالاً من الأسى والحَسْرة، صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه أن يبخعها أسى وحَسْرة عليهم، وما كان من حقك أن تَفْعَلَ ذلك إن عليك إلا البَلاَغُ وليس عليك الْهِدَايَةُ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وقد جاء مثل هذا النهي في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

وخلاصة ذلك: أبلغهم رسالة ربك، فمَنِ اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنَّما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم أسًى وحسرةً، فإنما أنت منذرٌ ولَسْتَ عليهم بمسيطر، إن عليك إلا البلاغ، ثم ذكر سبحانه سَبَبَ إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يَقْدِرُ عليه من التبليغ بالبشارة والنذارة، وهو أنه تعالى جعل ما على الأرض زينة لها ليختبر المُحْسِنَ والمسيءَ، ويجازيَ كلاً بما يستحقُّ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حيوان، ونبات، ومعادن ﴿زِينَةٗ لَّهَا﴾، ولأهلها ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾؛ أي: لنعاملهم معاملةَ مَنْ يختبر حتى يَظْهَرَ ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ في تَرْكِ الدنيا، ومُخَالفة هَوَى نفسه، طلباً لِلّهِ ومرضاته؛ أي: أيهم أَطْوَعُ لله، وأشدُّ استمراراً على خدمته، وأيهم أقْبَحُ عملاً في الإعراض عن الله وما عنده من الباقيات الصالحات، والإقبال على الدنيا وما فيها من الفانيات الفاسدات.

قال في «الإرشاد»[1]: أي استفهامية مرفوعة بالابتداءِ، و﴿أَحۡسَنُ﴾ خبرها، و﴿عَمَلٗا﴾ تمييز، والجملة في محل النصب معلقة لفعل البلوى لِمَا فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته؛ أي: إنَّا[2] جَعَلْنَا ما على الأرض زينة لها، لنختبر حالهم في فهم مقاصد تلك الزينة، والاستدلال بها على وجود خالقها، والإخبات إليه، والطاعة له فيما أمر به، والبعد عما نهى عنه، فَتَقُومُ الحجة عليهم، فمن اعتبر بتلك الزينة، وفهم حكمتها، حاز المثوبةَ، وَمَن اجترأ على مخالفة أمره، ولم يَفْهَمْ أَسْرَارها وَمَقاصِدها اسْتَحق العُقُوبة.

وخلاصة ذلك: أنَّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها، لنعاملهم معاملةَ من يختبرون، فنجازي المحسنينَ بالثواب، والمسيئين بالعقاب، ويمتاز أفراد الطبقتين بعضهم عن بعض بحسب درجات أعمالهم.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رُوِيَ: أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «إن الدنيا نضرة حلوة، والله مُسْتَخْلِفُكُم فيها فينظرَ كيف تعملون» وقال: «إن أخوفَ ما أخافُ عليكم ما يُخْرِج الله لكم من زهرةِ الدنيا» قيل: وما زهرةُ الدنيا؟ قال: «بركات الأرض». وروى البخاري أَنَّ عُمَرَ كان يقول: اللهم إنا لا نستطيع إلاَّ أن نفرح بما زيَّنته لنا، اللهم إني أسألك أن ننفقه في حقه.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا، ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ أي: ما على الأرض من المخلوقات قاطبة ﴿صَعِيدًا﴾، أي: ترابا ﴿جُرُزًا﴾؛ أي: لاَ نَبَات فيه، وسنَةٌ جُرُزٌ لا مطرَ فيها؛ أي: وإن الأرض وما عليها بائد فان، وإن المرجعَ إلى الله، فَلاَ تأسَى، ولا تحزن لما تَسْمَعُ وترى، ونحو الآية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

وإجمال المعنى: أنَّ ما على الأرض سَيَصِيرُ تُراباً سَاذجاً بَعْدَما كان يَتَعَجَّبُ من بهجته النظارة، وتسر برؤيته العيون، فلا تحزن لما عاينت من تكذيب هؤلاء، لما أنزلَ عليك من الكتاب، فإنا جَعَلْنَا ما على الأرض من مختلف الأشياءِ زينة لها لنختَبر أعمال أَهْلِها، فنجازيهم بحسب ما هم أهل له، وإنا لمفنون ذلك بعد حين، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وكأنه قيل: لا تَحْزَنْ فَإِنَّا ننتقم لك منهم.

وخلاصة النظم: لا تَحْزَنْ يا محمد مِمَّا وقع من هؤلاء من التكذيب، فإِنَّا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبُونَ ذلك عند انقضاء عمر الدنيا، فَمُجازُوهُم إِنْ خَيْراً.. فخيرٌ، وإنْ شراً.. فشرٌ.

ملخص قصة أهل الكهف كما أُثِرَ عن العرب

رُوِيَ أَنَّ النَّصارَى عَظُمَتْ فيهم الخَطَايَا، وطغَتْ ملوكهم، حتى عَبدُوا الأصنام، وأَكْرَهُوا النَّاسَ على عبادتها، وأصدر الملك دقيانوس الأوامر المشددة في ذلك، ومعاقبةَ من يخالفه، وَأَرَادَ أن يُلزم فتيةً من أشراف قومه عبادتها، وَتَوَعَّدَهُم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على دينهم، فَنَزَع ثيابهم، وحُلِيَّهم، ولكنَّه رحم شَبَابهم، فأمهلهم لعلهم يتوبون إلى رُشْدهم، وهكذا ذَهَبَ الملك إلى مدن أخرى، ليحث أهلها على عبادتها، وإلا قتلوا.

أمَّا الفتية: فإنهم انْطَلَقُوا إلى كهف قريب من مَدِينتهم، أفْسُوس أو طرْسوس، في جَبَلٍ يدعى نيخايوس، وأخذوا يَعْبُدُون اللَّهَ فيه حتى إذا هجم عليهم دَقْيَانوس وقتلَهم ماتوا طائعين، وقد كانوا سبعة، فَلَما مَرُّوا في الطريق إلى الكهف، تبعهم رَاع ومعه كلبُهُ فجَلَسُوا هناك يعبدون اللهَ، وكان من بينهم امرؤ يُدْعَى تَمْلِيخَا يبتاعُ لهم طعامهم، وشَرَابَهم، يبلغهم أخبار دَقْيَانُوس الذي لا يزال مجداً في طَلَبهم، حتى إذا عاد منْ مطافه، ووَصَل إلى مدينتهم، بحث عن هؤلاء العباد والنساك ليَذْبَحهم، أو يسجدوا للأصنام، فسَمِعَ بذلك تَمْليخا بَيْنَما كان يشتري لهم الطعام خفْيةً، فأخبرهم، فبكوا ثُمَّ ضرب الله على آذانهم، فناموا، وتذكرهم دقيانوس، فهدد آباءَهم، إن لم يحضروهم، فدلوه عليهم، وقالوا: إنَّهُمْ في الكهف، فتوجه إليهم، وسده عليهم لِيَمُوتُوا هناك، وينتهي الأمر على ذلك.

وقد كان في حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما، وهما: بيدروس، وروناس فكتبا قصةَ هؤلاء الفتية سراً في لوحين من حجر، وجعلاهما في تابوت من نحاس، وجَعَلاَ التَّابُوتَ في البنيان، ليكون ذلك عظة واعتباراً، وذكرى لمن سَيَجِيءُ من بعد.

ثم مضت قرون يتلو بعضها بَعْضاً، ولم يبق لـ: دقيانوس ذكرٌ وَلاَ أثر، وبعدئذٍ ملك البلادَ ملك صالح يسمى بيدروس، دام ملكه (٦٨) سنة، وانقسم الناس في شَأْنِ البعث والقيامة فِرْقَتَيْنِ، فرقة مؤمنة به، وأخرى كافرة، فحزن الملك لذلك حزناً شديداً، وضرع إلى الله أن يري الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى أولياس، أن يهدم باب الكهف، ويبني به حظيرة لغنمه، فلما هدمه استيقظوا جميعاً، فجلسوا مستبشرين، وقاموا يصلون، ثم قال بعضهم لبعض: كم لبثتم نياماً؟ قال بعضهم: لبثنا يَوْماً أو بَعْضَ يوم، وقال آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ الورق الفِضة ﴿هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ وليحضر لنا جَانباً منه، فذهب تَمْلِيخَا، كما اعتاد من قبل ليشتري لهم الطعامَ، وهو متلطف

في السؤال مختف حذراً من دقيانوس.

وبينما هو ماش سَمِعَ اسْمَ المسيح ينادى بهِ في كل مكان، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، وقال: عجباً لِمَ لَمْ يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين، وبقي حائراً دهشاً، وقال: ربما أكُون في حلم، أو لعل هذه ليستْ مَدِينَتِنَا، فسأل رجلاً ما اسم هذه المدينة؟ قال: أفسوس، وفي آخر مطافهِ تقدم إلى رجل، فأعطاه وَرِقاً ليشتري به طعامَه، فدهش الرجل من نوع هذا النقد، الذي لم يَرَهُ من قبل، وأَخَذَ يقلبُهُ ويعطيه إلى جيرته، وهم يعجبون منه، ويقولون له: أهذا من كنز عثرت عليه؟ فإنَّ هَذِهِ الدَّرَاهِمَ من عهد دقيانوس، وقد مضَتْ عليه حقبة طويلة، ثُمَّ أَخذُوه، وقَادُوه إلى حَاكمَي المدينة، فَظَنَّ في بادىء الأمر أنهم ساقوه إلى دَقْيَانُوس، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه، زَالَ عنه الكَرْبُ، وجفت مدامعه، ثمَّ سأَلَهُ حَاكِمَا المدينة ـ وهما: أرْيُوس، وطنطيوس ـ أينَ الكنز الذي وجدت يا فَتَى؟ وبعد حوار بينه وبينهما، ذكر لهما خبر الفتية، ودَقْيَانُوس، وأنَّ حديثهما كان أَمْسَ وإن كان لديكما ريب من أمري فها هو ذا الكهف، فاذهبا معي لتريا صدق ما أقولُ، فَسَارَا مَعَهُ حَتَّى وصلا إلى باب الكهف، وتقدَّمهما تَمْلِيخَا فأخبرهما بالحديث كله، فداخلهما العَجَبُ حينَ عَلِمَا أنهم نَامُوا تِسْعاً وثلاث مئة سنة، وأنَّهُم أفاقوا ليكونوا آية للناس.

ثم دخل أريوس فَرأَى تابوتاً من نحاس مَخْتُوماً بخاتم، وبدَاخِلِهِ لَوْحَانِ مكتوبٌ عليهما قصَّة هؤلاء الفتية، وكَيْف هربوا من دَقْيانوس حرصاً على عقيدتهم، ودينهم، فسد عليهم بالحجارة، ولما رأى أريوس، ومن معه هذا القصص، خروا لله سجداً، وأرسَلُوا بَرِيداً إلى ملِكِهم أن عجل واحضر لترى آية الله في أمر فتية بُعثوا بعد أن نَامُوا تسعاً وثلاث مئة سَنَة، ثمَّ سار المَلِكُ، ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينَتِهِ حتى أتوا مدينة أفنوس، وكَانَ يوماً مشهوداً، وحينَ رَأى الفتية خر ساجداً لله تعالى، ثُمَّ اعتنقهم، وبكى، وهم لا يزالون يسبحونَ ثُمَّ قال الفتية له: أيُّهَا الملك، نستودعك الله، ونعيذك من شر الإنس والجن، ثمَّ رجعوا إلى مضاجعهم، وقُبضَتْ أرواحهم، فأمر الملك أن يُجْعَل كل منهم في

تابوت من ذهب، وحينَ جَنَّ الليلُ، ونَامَ، رآهم في منامه يقولون له: اتركنا كما كُنَّا في الكهف، نَنَامُ على التراب، حتى يوم البعث، فأَمَرَ الملك أن يُوضَعُوا في تابوت من ساج، وأن لا يدخل عليهم أحدٌ بعد ذلك، وأن يُبنى على بَابِ الكهف مسجد يصلِّي فيه الناس، وجعل لهم ذلك اليومَ عيداً عظيماً. ذلك هو القصص الذي جعله النصارى دليلاً على البعث، أمَّا القرآن الكريم، فإنه يَقُولُ: إن آياتِي على البعث، وإعادة الأرواح بعد الموت لَيْسَتْ مقصورة على هذا القصص وَحْدَهُ، فآياتي عليه لا تعد ولا تحصى، فاقرؤوا صحائفَ هَذَا الوجود، ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم، واجْعَلُوا أنظاركم تتجه إلى ما حَواه الكون، لا إلى ما كُتِبَ في القصص، والحكايات، وإنْ كَانَت فيها الدلائل والآيات.

إجمال القرآن لقصص أصحاب الكهف

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ (أم): هي[1] المنقطعة المقدرة بـ(بل)، والهمزة التي للإنكار مع ملاحظة معنى النهي فيها عند الجمهور، وبـ(بل) وحدها عند بعضهم، والتَّقْدِير: بل أحسبت، أو بل حسبت، ومعناها الانتقال من حديث إلى حديث آخر، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى (بل) في الأصل، والمعنى أنَّ الْقَوْمَ لَمَا تَعَجَّبُوا من قِصَّةِ أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول ﷺ على سَبِيلِ الامتحان قال سبحانه: بل أظننت يا محمدُ ﴿أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾ الكهف الغار الواسع في الجَبَل، فإنْ لم يكن واسعاً فَغَارٌ ﴿وَ﴾ أَصْحَابَ ﴿الرقيم﴾ هو كلبهم بلغة الروم قال في «القَامُوس»: الرقيمُ ـ كأمير: قرية أصحاب الكهف، أو جَبَلُهم، أو كلبهم، أو الوادي، أو الصَّحْراءُ، أو لوح رصاص أو حَجَري نُقش وَرُقّم فيه نسبهم، وأسماؤهم، ودِينهم ومم هربوا، وجُعِلَ على باب الكهف، فالرقيم عَرَبيٌّ، فعيل بمعنى مفعول؛ أي: بَلْ أظننت يا محمد أنهم ﴿كَانُوا۟﴾ في بقائِهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾؛ أي: من بين آياتنا، ودلائل

(١) الشوكاني.

قدرتنا ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: آية ذات عجب وضعاً موضع المضاف، أو وصْفاً لذلك بالمصدر مبالغة، والعجيب ما خَرَجَ عن حد أشكاله، ونظائره وهو خَبر لكانوا، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ حال منه.

والمعنى[1]: أن قصتهم، وإن كانت خارقة للعادات، ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن لله تعالى آيات عجيبة، قصتهم عندها كالنزر الحقير؛ أي: لا تحسب[2] أيُّها الرسول أنَّ قِصَّةَ أصحاب الكهف والرقيم، المذكورةَ في الكتب السَّالفة حين استمروا أَحْياءً أمداً طويلاً عَجيبةٌ بالإضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة، فَلَيْسَتْ هي بالعجب وحدها من بين آياتنا، بل زينة الأرض وعجائِبها أبدع وأعجب منْ قصة أصحاب الكهف، فإذَا وَقَف عُلماء الأديان الأخرى لَدَى أمثالها، دهشين حائرينَ، فأنا أَدْعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها، وهو النظر في الكون وعجائبه من خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر، والكواكب، إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله، وأنه يفعل ما يشاء، لا معقب لحكمه، قال الزجاج: أَعْلَمَ الله سبحانه أن قصَّة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله؛ لأن خلق السمٰوات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى﴾ ظرف لـ﴿عجباً﴾ أو مفعول لاذكر محذوفاً؛ أي[3]: اذكر يا محمد قِصَّةَ حين صار وأتى، وانضم، والتجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ والشبان من أشراف الروم، أكرههم دَقْيَانُوس مَلِكَهم على الشرك، فأبوا، وهربوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هو جَيْرُومُ في جبلهم بنجلوس، واتَّخذُوه مأوى، والفتية جمع فتى، وهو الشاب القوي الحدث ﴿فَقَالُوا۟﴾؛ أي: قالت الفتية في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: أعطنا من عندك، أي من خزائن رحمتك الخاصَّةِ المكنونة عن عيون أهل المُعادَاةِ، فمن ابتدائية متعلقة بـ ﴿آتنا﴾ ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب المغفرة والأمن

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

من الأعداءِ ﴿وهيء لنا﴾؛ أي: يسر لنا، وأصلحْ وَرَتِّبْ، وأتْمِمْ لنا ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي هو مهاجرة الكفار، والمثابرة على الطاعة ﴿رَشَدٗا﴾؛ أي: إصابةً للطريق الموصل إلى المطلوب، واهتداء إليه، وكِلاَ الجارَّين متعلق بـ ﴿هيىء﴾ لاختلافهما في المعنى.

أي: اذْكُر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف، هرباً بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام، والأوثان، وقَالُوا: إذ ذلك ربنا يسر لنا بما نبتغي من رضاك، وطاعتك رشداً من أمرنا وسداداً إلى العمل الذي نحب، وارزقنا المغفرة، والأمن من الأعداء.

﴿فَضَرَبۡنَا﴾ فعقب هذا القول ﴿ضربنا﴾ وألقينا ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ حجاباً يمنع من أنْ تصِل إلَى أسماعهم الأصواتُ المُوقِظَةُ من نومهم حَالَةَ كونهم مستقرينَ ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ أي: سنينَ ذوات عدد كثيرة، وهي ثلاث مئة وتسع سنين، ويستفادُ من وصف السنين بالعدد الكثرة، وقيل[1]: منه التقليل؛ لأنَّ الكثيرَ قليل عند الله سبحانه ﴿ثُمَّ﴾ بعد تلك السنين الكثيرة ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشَّبِيهَةِ بالموت، وفيه دليل على أن النَّوْمَ أخو الموت في اللوازم من البعث، وتعطيل الحياة، والالتحاق بالجمادات، ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ ونختبر ﴿أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾؛ أي: أي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم بالتقدير، والتفويض، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن أحدَ الحِزْبَيْنِ الفتية، والآخر الملوك الذين تَدَاوَلُوا الْمَدِينَةَ مَلِكاً بعد ملك، وذلك لأنَّ اللامَ للعهد، ولا عَهْدَ لغيرهم، والتَّصحيح ما سيأتي قريباً، وأيُّ مبتدأ خبره قوله: ﴿أَحۡصَىٰ﴾ فعل[2] ماض، وهو الصحيح لا أفعل تفضيل، لأنَّ المقصود بالاختبار إظهارُ عجز الكل عن الإحصاءِ رأساً لا إظهار أفضل الْحِزْبَيْنِ وتمييزُه عن الأدنى مع تحقق أصل الإحصاءِ فيهما؛ أي ضبط ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾؛ أي للبثهم فما مصدرية ﴿أَمَدٗا﴾؛ أي: غاية وزمناً، فالمراد بالأمد هنا المدة، وهو مفعول به ﴿لأحصى﴾، والجار

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة؛ أي: لنختبر أي الحزبين أَحْصَى وَضَبَطَ أَمَداً ومدة للبثهم فيظهَرُ لهم عجزهم، ويفوِّضوا ذَلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفُوا حَالَهم، وما صنع الله بهم من حفظ أبدانهم، وأديانهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، ويستبصروا أمر البعث، ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بيِّنةً لكفارهم، وقرأ[1] أبو الجوزاءِ وأبو عمران، والنخعي ﴿ليعلم﴾ بضم الياء على ما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، ويعني بالحزبين المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف؛ أي: لنعلم أهؤلاء أحصى للأمد، أو هؤلاء، فكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، بعد خروجهم من بينهم، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر، والظاهر أنَّ المرادَ بالحزبين نفس أصحاب الكهف، لا أهل المدينة؛ لأنهم لَمَّا تَيَقظوا اخْتَلَفُوا في أنهم كم لبثوا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم، فالحزبان هما: هذان، وكأنَّ الذينَ قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، هم الذين علموا أنَّ لُبْثَهم قد تطاول اهـ من «الفتوحات».

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والزهري[2]: ﴿وهيء﴾ ﴿ويهيء﴾ بيائين من غير همز، يعني أنه أبدل الهمزة الساكنةَ ياء، وفي كتاب ابن خالويه الأعشى عن أبي بكر، عن عاصم، و﴿هي﴾ لنا ﴿ويهي﴾ لكم لا يُهمز انتهى. فَاحْتَمَلَ أن يكونَ أبدل الهمزةَ ياءً، واحتمل أن يكونَ حذفها، فالأول: إبدالٌ قياسي، والثاني: مختلف فيه، ينقاس حذف الحرف المبدل من الهمزة في الأمر أو المضارع إذا كان مجزوماً.

وقرأ أبو رجاء ﴿رُشْدا﴾ بضم الراء وإسكان الشين، وقرأ الجمهور ﴿رَشَداً﴾ بفتحهما، قال ابن عطية: وهي أرجح لِشَبَهِهَا بفواصل الآيات قبل وبعد، وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم، وألفاظه تقتضي ذلك، وينبغي لكل مؤمن أن يَجْعَل دعاءَه في أمر دنياه هذه الآية، فإنها كافية. ثم شرعَ في تفصيل ما أجمل

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.

في قوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾؛ أي: نخبرك يا محمد، ونبين لك ﴿نَبَأَهُم﴾؛ أي: خبر أصحاب الكَهف، والرقيم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: نقص قصاً متلبساً بالحق والصدق، وفيه إشارة إلى أن القصاص كثيراً ما يَقُصون بالباطل، ويزيدون، وينقصون، ويغيرون القِصَّةَ كل واحد يعمل برأيه، موافقاً لطبعه وهَوَاهُ، وما يقص بالحق إلا الله تعالى، ثُمَّ فصَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أَصْحَابَ الكهف والرقيم ﴿فِتْيَةٌ﴾؛ أي: شبان أحداث ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ بالتحقيق لا بالتقليد، صفة لِفتْيَةٌ، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ عَلَى ﴿هُدًى﴾ بالتثبيت على الإيمان والتوفيق للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله، والزهد في الدنيا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد جَرَت[1] العادة أن الفتيانَ أَقْبَلُ للحق، وأهدى للسبل من الشيوخ الذين قَدْ عتوا، وانغمسوا في الأديان الباطلة، ومِنْ ثَمَّ كَانَ أكثر الذين استجابوا لله ورسوله ﷺ شباناً، وبَقِيَ الشُّيُوخُ على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليلُ، ونحو الآيةِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

تنبيه: في أي زمان كان قصص أهل الكهف؟ رجَّح ابن كثيرٍ أن قصص أهل الكهف كَانَ قبل مجيء النصرانيَّةِ لا بعدها، كما رواه كثيرٌ من المفسرين متبعين ما أُثِرَ عَنِ العرب، والدليل على ذلك أنَّ أَحْبَارَ اليهود، كانوا يحفظونَ أخبارَهم، ويعنون بها، فقد رُوي عن ابن عباس، أَنَّ قُرَيْشاً بعثوا إِلَى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياءَ يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، وفي هذا أعظم الأدِلَّةِ على أَنَّ ذَلِكَ كان محفوظاً عند أهل الكتاب، وأنَّه مُقَدَّمٌ على النصرانية.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قوَّينا قلوبَهم بالصبر على هجر الأهل، والأوطان، وفراق الخلان، والأخدان، والجراءة على إظهار الحق، والرد على

---

(١) المراغي.

دقيانوس الجبار، وألهمناهم قوةَ الْعَزِيمَةِ، وَشددنا قلوبَهم بنور الإيمان، ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ ظرف منصوب بربطنا؛ أي: ربطنا على قلوبِهم حِينَ قاموا بين يَدَي الجبار دِقْيَانُوس إذ عاتبهم عَلَى تركهم عبادة الأَصنام، فإنه كان يَدْعُو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبَّت الله تعالى هؤلاء الفتيةَ، حتى عَصَوا ذلك الجبار، وأقروا بربوبية الله تعالى، وصرحوا بالبراءة من الشركاء، ﴿فَقَالُواْ﴾؛ أي: قَالتِ الفتية ﴿رَبُّنَآ﴾؛ أي: مالكُنا، وخالقُنا ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: رب العالَم، ومالكه، وخالقه، والصنم جزء من العالم، فهو مخلوق لا يصلح للعبادة ﴿لن ندعو﴾؛ أي: لن نعبد أبداً ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿إِلَٰهًاۖ﴾؛ أي: مَعْبُوداً آخَرَ لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، والعدول عَنْ أن يقال: (رباً) للتنصيص على رد المخالفينَ حيث كانوا يُسمون أَصْنَامهم آلهة.

أي: لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلٰهاً لا عَلى طريق الاستقلال، ولاَ عَلَى سبيل الاشتراك، إذ لا رب غيره، ولا معبود سواه، وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية، والخلق، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى، ولا يقرون بتوحيد الثانية، بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، وقوله سبحانه حكايةً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وكانوا يقولون في تلبيتهم في الحج: لبَّيك لاَ شريكَ لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملَك.

ثم علَّلوا عَدَم دعوتهم لغيره تعالى بقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ﴾؛ أي: والله لَئِنْ عَبَدْنا غَيْرَه تعالى لقد قُلْنا: ﴿إِذًا﴾؛ أي: حين عبدنا غَيْرَهُ قولاً ﴿شَطَطًا﴾ كذبا وزوراً، وإذا حرف جواب وجزاء مهمل، يقدر بـ ﴿لو﴾، أي: لو دعونا من دونه إلٰهاً، والله لقد قلنا قولاً خارجاً عن حد العقول مفرطاً في الظلم.

وفي هذا: إيماء إلى أنَّهم دعوا لعبادة الأصنام، ولِيموا على تركها، ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالةَ بعضهم لبعض فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، وفي التعبير باسم الإشارة تحقير لهم. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان يعنون أهلَ بلدهم.

﴿اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى خبر المبتدأ ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي: أَصْنَاماً يعبدونها ﴿لَّوْلَا﴾ حرف تحضيض؛ أي: هلا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على عبادة الأصنام ﴿بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾؛ أي: بحجة وَاضِحَةٍ تصلح للتمسك بها، وفيه تبكيت لهم، لأن الإتيانَ بحجة على عبادة الأصنام محال.

أي: إن قومنا هؤلاء، وإن كَانُوا أكبر منا سناً وأكثرَ تَجْرُبَةً، قد أشركوا مع الله غيره، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق ما يقولون، كما أَتَيْنَا على صدق ما ندَّعي بالأدلة الظاهرة، وإنَّهُمْ لأظلم الظالمين، فيما فعلوا، وفيما افتروا، ومن ثَمَّ قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: من أشد ظُلْماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، والاستفهام فيه إنكاري بمعنى النفي؛ أي: لا أظلم ممن افترى على الله الكذب، ونسب إليه الشريك، وزعم أن له ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإنَّ[1] الحُكْمَ بثبوت الشيءِ مع عدم الدليل عليه ظلم وافْتِراء على الله، وهذا من أعظم الدلائل على فَسادِ القول بالتقليد.

والمعنى: أنَّه[2] أظلم من كُلّ ظالم، وعذابه أعظم من كل عذاب؛ لأن الظُّلْمَ موجب للعذاب، فيكون الأعظم للأظلم، ثم قال بعض الفتية لبعض منهم، وَقْتَ اعتزالهم عن قومهم ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ وعبادتَهم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: إلاَّ عبادته سبحانه وتعالى، أَوْ وَإذا اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله؛ أي: وإذ أردتم اعتزالَهم، ومفارقتهم، واعتزالَ الشيء الذي يعبدونه ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: إلا عبادتَهُ.

وعلى التقديرين: فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة، ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان، ﴿فَأْوُۥٓا﴾؛ أي: التجئوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾، وصيروا إليه، واجعلوه مأواكم.

قال الفراء[3]: هو جواب إذ، ومعناه اذهبوا إليه، واجعلوه مأواكم، وقيل:

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

هو دليل على جوابه؛ أي: إذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً، فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانِيّاً، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذَٰلِكَ بالالتجاءِ إلى الكهف، وفيه إشارةٌ إلى أن الاعتزالَ الاعتقادي يوجب الاعتزال الجسمانيَ، ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾؛ أي: يبسط لكم ويوسعُ عَلَيْكُم ﴿رَبُّكُم﴾؛ أي: مالك أَمْركُم ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: من تَفَضُّله، وإنعامه في الدارين ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم﴾؛ أي: يسهل لكم ﴿مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿مِّرۡفَقٗا﴾؛ أي: ما ترتفقون، وتنتفعون به غداً، وجزمهم بذلك لخلوص يقينِهم عن شوب الشك، وقوة وُثُوقِهم.

أي: وإذ[١] فارقتموهم، وخالفتموهم في عبادتهم غَيْرَ الله، ففارقوهم بأبدانكم، والجؤوا إلى الكهف، وأخلصوا لله العبادة في مكان تتمكنون منها بلا رقيب، ولا حسيب، وإنَّكُمْ إن فعلتم ذلك، فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته في الدارين، ويسَهّل لكم من أمر الفرار بدينكم، والتوجُّهِ إليه في عبادتكم ما ترتفقون وتنتفعون به، أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال: ما بعث الله نَبِيّاً إلا وهو شابٌّ. وقرأ ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ وَقرأ[٢] أبو جعفر، والأعرج وشيبة، وحميد، وابن سعدان، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر، في رواية الأعشى، والبِرجميّ، والجعفي عنه، وأبو عمرو في رواية هارونَ، بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدر جَاءَ شاذّاً، كالمرجع والمحيض، فإن قِيَاسَه الفتح، وقرأ ابن أبي إسحاق، وطلحة، والأعمش، وباقي السبعة بكسر الميم وفتح الفاءِ؛ أي: رِفقاً.

ثم بيَّن سبحانه حالَهم بعد أن أووا إلى الكهف، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ يا محمد، أو يا مَنْ يصلح للخطاب ويتأتى منه الرؤية، وليس المراد به الإخبار بوقوع الرؤية تَحْقِيقاً بل الإنباء بكون الكهف بِحَيْثُ لو رأيته ترى الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي تَتَزَاوَرُ وتَتَنَحَّى وتميل بحذف إحدى التائين، من الزور بفتح الواو، وهو الميل ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ الذي.. أووا إليه، فالإضافة لأدنى ملابسة

---

(١) المراغي..
(٢) البحر المحيط.

﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: جهة[1] ذات يمين الكهف عند توجه الداخل إلى قعره؛ أي: جانبه الذي يلي المغربَ، فلا يقع عليهم شعاعها، فيؤذيهم؛ لأنَّ الْكَهْفَ كَانَ جنوبياً؛ أي: كانت ساحته داخلة في جانب الجنوب، أو زَوَّرها الله عنهم، وصَرَفَها على منهاج خرق العادة، كرامةً لهم، وحقيقتها: الجِهة ذات اسم اليمين؛ أي: الجهة المسماة باسم اليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾؛ أي: تَرَاها عند غروبها. ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾، أي: تقطعهم وتَتركهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ أي: جهة ذات شمال الكهف، أي: جانبَهُ الذي يلي المشرق، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: والحال أنهم في فجوة متسع من ذلك الكهف، ووسطه، فيصيبهم نَسِيمُ الهواءِ وبرده.

وخلاصة ذلك[2]: أنهم طُولَ نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها، ولا في غروبها، إذ كان باب الكهف في مقابلة بنات نعش، فهو إلى الجهة الشمالية، والشمس لا تسامت ذلك أبداً، لأنَّها لا تصل إلى أبعد من خط السرطان، وكل بلاد بعده إلى جهة الشَّمَالِ تكون الشمس من وَرائها لاَ أَمَامَها، فيكون الظِلُّ مَائِلاً جهةَ الشمال طولَ السنة، كما يعلم ذلك من علم الفَلَكِ، وإيضاحُ ذلك أنه لو كان باب الكهف في ناحية الشرق، لَمَّا دخل إليه شيء منهَا حين الغروب، ولو كَانَ من ناحية الجنوب، لما دخل منها شيء حين الطلوع ولا الغروب، وما تزاوَرُ الفيء لا يميناً ولا شمالاً، ولو كان جهة الغرب لما دخلَتْهُ وقْتَ الطلوع، بل بعد الزوال، ولا تزال فيه إلى الغروب.

تنبيه: وهنا إشكالٌ لأنه قد تقدَّمَ في القصة أنَّ المَلِكَ الظالم الذي فرُّوا منه بَنَى على باب الكهف سَدّاً، وقال: لكي يموتوا جوعاً وعطشاً، وأنَّ السد اسْتَمَرَّ عليهم مدة لبثهم نياماً، وأنَّ الملك الصالح اجْتَمَعَ بهم حينَ تَيَقَّظُوا، وبَنَى على باب الغار مسجِداً، بَعْدَ موتهم، وصريحُ هاتين الآيتين يَرُدُّ هذا ويُبْطِلُه، إذ لو كان

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

بابُ الغار قَدْ سُدَّ كما ذكر، لم يَسْتَقِمْ قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ إلخ فَليُتَأَمَّل ولْيُحَرَّر، وقرأ[1] الحرْمِيان - نافع وابن كثير - وأبو عمرو: ﴿تزَّاوَر﴾ بإدغام تاء تتزاوَرُ في الزاي، وقرأ الكوفيون، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن مُناذر، وخلفٌ، وأبو عبيد، وابن سعدان، ومحمد بن عيسى الأصبهاني، وأحمد بن جبير الأنطاكي، بتخفيف الزاي، إذا حذفوا التاءَ، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن عامر، وقتادة، وحُميدٌ، ويعقوبُ، عن العمري ﴿تَزْوَرُّ﴾ على وَزن تحمر، وقرأ الجَحْدرِيُّ، وأبو رجاء، وأيُّوبٌ السختيانيُّ، وابنُ أبي عبلة، وجابر، وورد عن أيوب ﴿تَزْوَارُّ﴾ على وزن تحمار، وقرأ ابنُ مسعود، وأبو المتوكل ﴿تَزْوَأَرُّ﴾ بهمزة قبل الراء، على وزن قَولهم: ادهأمَّ واشْعَأل فراراً من التقاء الساكنين، وكلُّها بمعنى الزور، بمعنى المَيل، وقرأ الجمهور ﴿تَقْرِضُهم﴾ بالتاء، وقرأت فرقةٌ بالياء؛ أي: يقرضهم الكهف، وللمفسرين[2] في تعيين مكان الكهفِ أقوال، فقيل: هو قريب من إيلْيَاءَ - بيت المقدس - ببلاد الشام، وقال ابن إسحاق عند نينوى ببلاد الموصل، وقيل: ببلاد الروم، ولم يقم إلى الآن الدَّليل على شيء من ذلك، ولو كَانَ لنا في معرفة ذَلِكَ فائدة دينِية.. لأَرْشدنا اللَّهُ إليه، كما قال ﷺ: «ما تركتُ شيئاً يقرِّبُكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به».

وخلاصة ذلك: أي إن هدايتهم إلى التوحيد، ومخالفتهم قومهم، وآباءهم، وعدَم الاكتِراث بِهِم وبملكهم مع حداثتهم، وإيواءهم إلى كهف تلك صفته، بحيث تَزَاورُ الشمس عنهم طالعةً، وتقرضهم غاربة، وإخبَارَكَ بقصصهم، كل ذلك ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى الكثيرة في الكوْن الدالَّة على كمال قدرته، وعلى أنَّ التَّوحيد هو الدين الحق، وعَلَى أن اللَّهَ يكرم أهله.

والمعنى[3]: أي ما صنع الله بهم من تزوار الشمس وقرضها حالَتَي الطلوع والغُروب، مع كونهم في موقع شعاعها من آيات الله العجيبة الدالة على كمال

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

علمه، وقدرته، وحقّيةِ التوحيد، وكرامة أهله عنده، ثُمَّ بيَّن أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه، فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من يُوفِّقهُ الله للاهتداء بآياته، وحجَجه إلى الحق، كأصحاب الكهف. ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب سَبيل الحق، وفاز بالحظ الأوفر في الدارين، فَلَنْ يقدر على إضلاله أحد، والمراد: إما الثناء عليهم، بأنهم المهتدون، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة، ولكنِ المنتفع بها من وفَّقه الله للاستبصار بها، كأصحاب الكهف، وقوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بدون ياء في الرسم؛ لأنها من ياءات الزوائد، وهي لا تُثْبَتُ فيه، وأما في النطق فعند الوقف تُحذف عند الجميع، وعند الوصل بعض السبعة يَحْذِفُها، وبعضُهم يثبتها اهـ شيخنا.

وفي هذا[1]: إيماء إلَى أن أصحابَ الكهف أصابُوا الصَّوابَ ووُفِّقوا لتحقيق ما أَمَّلُوا من نشر الرحمة عليهم، وتهيئة المِرْفق لهم، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: ومن يضلله الله لسوء استعداده، وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ أي: نَاصِراً يَهْدِيه إلى الحق، كدقيانوس وأصحابه؛ أي: فلَنْ تجد له أبداً خَليلاً، ولا حليفاً يُرشده لإصابة سبل الهداية، ويخلصه من الضلال؛ لأن التَّوْفِيق والخذلان بِيَد الله، يوفق من يشاءُ من عباده، ويخذل من يشاءُ، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ وإرشادٌ له إلى أنه لا ينبغي له أَنْ يحزن على إدبار قَوْمِهِ عنه، وتكْذِيبِهم إياهُ، فإن اللَّهَ لو شاءَ.. لَهداهُم وآمنوا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾؛ أي: وتحسب أيها الرسول أو أيُّها الْمُخَاطَب أصحاب الكهف، وتَظُنُّهم لو رَأَيْتَهُم ﴿أَيْقَاظًا﴾؛ أي: منتبهين لانفتاح أَعْيُنِهم على هَيْئَةِ الناظر ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾؛ أي: نيام جَمْعُ راقد كقاعد، وقعود؛ أي: والحال أنهم راقدُون نائمون؛ أي: ولو رأيتهم.. لَظَنَنْتَهُم في حال يقظة لانفتاح أعيُنهم، كأنهم ينظرون إلَى من أمامهم، والحالُ أنهم: نَائِمُون لما بهم من الحال الخاصة بالنوم، كاسترخاء المَفَاصِل، والأعضاءِ، ولا سيما العَيْنَان والوَجْه ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

ونقلب هؤلاء الفتية في حال رَقْدَتِهم بأَيْدِي الملائكةِ، أو بيد القُدْرَة ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ نُصِبَ على الظرفية؛ أي: جهة تلي أَيْمانهم ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ أي: جهة تلي شمائلهم، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم، على طول الزمان؛ أي: نُحَوِّلُهم في رقدتهم مَرَّة للجنب الأيمن، ومَرَّة للجنب الأيسر، كي ينالَ رُوحُ النَّسِيم جَمِيعَ أبدانهم، ولا يتأثر ما يلي الأرض منها بطول المكث، والمراد بذات اليمين وذات الشمال هنا يمينهم وشمالهم أنفسهم، بخلاف ما تقدم، فَإنَّ المرادَ به يمين الكهف وشِمَالُه كما مر ﴿وَكَلْبُهُم﴾؛ أي: وكَلْبُ أولئك الفتية، وهو كلب راع قد تَبِعَهُمْ عَلَى دينِهم، واسمه قطمير ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية؛ أي: وكلبهم مُلْق يَدَيْهِ على الأرض مَبْسُوطتين غير مقبوضتين ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾؛ أي: بموضع الباب من الكهف والذراع[1] مِنَ المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى قال في «القاموس»: الوصيد الفناءُ وَالعتبة. انتهى قال السدي: الكهف لا يكونُ له عتبة، ولا باب، وإنما أَرَادَ أَنَّ الكَلبَ منه موضع العتبة من البيت ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أهل الكهف، أي: لو شاهدت يا محمد، أو أيها المخاطب في رقدتهم التي رَقَدُوها في الكهف ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لأدبرتَ ﴿فِرَارًا﴾ منهم، والفِرَارُ الهَربُ، وهو منصوب على المصدرية مِن معنى ما قبله، إذ التولية، والفرار مَعْنَاهُما واحد؛ أي: وَلَّيت توليةً، وفررت فراراً. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾؛ أي: ولملئت[2] نفسك حِينَ اطّلاعَكَ عليهم خوفاً وفزعاً، فكل مَنْ رَآهمْ فَزِعَ منهم فزعاً شديداً لأنَّ الله سبحانه قَدْ ألبسهم هيبة ووَقاراً كي لا يصل إِلَيْهِمْ وَاصِل ولا تلمسهم يد لامس، حتى يبلغَ الْكِتَابُ أجله، وتوقظهم من رقدتهم قُدْرَته وسلطانه في الحين الذي أراد أن يجعلهم فيه عبرة لِمَنْ شَاءَ من خلقه، وآية لمن أراد الاحْتِجَاج عليهم من عباده، وليَعْلَمُوا أَنَّ وعد الله حق، وأَنَّ السَّاعَةَ آتية لا ريب فيها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ونقلبهم﴾ بالنون مزيدَ اعتناءِ الله بهم، حيث أسند

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) زاد المسير.

التقليب إليه تعالى، وأنَّه الفاعل ذلك، وحكى الزمخشريُّ أنه قرىء ﴿ويقلِّبهم﴾ بالياء مشدّداً؛ أي: يقلبهم الله، وَقَرَأَ أبو رجاء ﴿وتقلبهم﴾ بتاء مفتوحة، وسكون القاف، وتخفيف اللام المكسورة مضارع قلب مخففاً، وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة: ﴿ونقلبهم﴾ مثلها إلا أنه بالنون، وقرأ الحسن فيما حكى ابن جني، و﴿تقلبهم﴾ مصدر تقلب منصوباً بفعل مقدر، كأنه قيل: وترى، أو تشاهد، تقلبهم، وعنه أيضاً أنه قرأ كَذَلك إلاَّ أنه ضم الباء فهو مصدرٌ مرتفعٌ بالابتداءِ، قاله أبو حاتم، وقرأ أبو جعفر الصادق ﴿وكالبهم﴾؛ أي: صاحب كَلْبِهم كما تقول لابن، وتامِر؛ أي: صاحب لبن وتمر.

وقرأ ابن وثَّاب، والأعمش، وأبو حصين (لو اطلعت) بضم الواو، وصلاً، وقرأ الجمهور بِكَسْرِها، وقد ذكر ضمها عن شَيْبَةَ، وأبي جعفر، ونافع، وقرأ عاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ خفيفةً مهموزة، وقرأ ابن عباس، وابن كثير، ونافع، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، ﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾ بتشديد اللام مهمزاً، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بتشديد اللام، وإبدال الياء من الهمزة، وقرأ الزهريُّ بتخفيف اللام والإبدال، وتقدم الخلاف في ﴿رعباً﴾ في آل عمران، وقرَأَ هنا بضم العين أبو جعفر وعيسى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما[1] أرقدنا هؤلاء الفتيةَ في الكهف، وحَفِظْنَا أجسامهم من البلى على طول الزمان، وثيابهم من العفن؛ على مر الأيام بقُدْرَتِنا. ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرِّفهم عظيمَ سلطاننا، وعجيبَ فعلنا في خلقنا، ليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه، من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم العبادَةَ لله الواحد القهار، إذا تبيَّنوا طول الزمان عليهم، بهيئتهم حين رقدوا، و﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: وليقع التساؤل بينهم، والاختلاف، والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال، وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة السؤال لا ينفي غيرها، وإنَّمَا أفرَدَهُ لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ مبيِّنة لما قبلها من التساؤل بينهم؛ أي: كم مدة لبثكم في النوم؟ قَالُوا:

(١) المراغي.

ذلِكَ لأنهم رأوا في أنفسهم غَيْرَ مَا يعهدونه في العادة.

أي: وكذلك بعثناهم لتكونَ عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضاً، فيقول قائل منهم لأصحابه: كم لبثتم؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طُولَ رَقْدتهم ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾؛ أي: قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ظناً منهم أنَّ الأمْرَ كذلك، قال المفسرون: إنهم دَخَلُوا الكهف غُدوةً وبعثهم الله سبحانه آخرَ النهارَ، فلذلك قَالُوا يوماً، فلما رأوا الشَّمْسَ قالوا: أو بعض يوم، وكان قد بقيتْ بقية من النهار، ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال[1] بعض آخر منهم بما سنحَ لهم من الأدلة، أو بإلهَام من الله ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾؛ أي: أَنْتُمْ لا تعلمون مدة لبثكم؛ لأنها مُتَطَاوِلَةٌ ومقدارها مُبْهَمٌ، وإنما يعلمها الله تعالى، وبه يتحقق التحزب إلى الحزْبَيْنِ المَعْهُودَيْنِ فيما سَبَقَ، وهذا من الأدب البارعِ في الرد على الأولين بأحْسن أسلوب، وأجمل تعبير، وحين عَلِموا أنَّ الأمر مُلْتَبِسٌ عليهم، عَدَلُوا إلى الأهم في أمرهم، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾؛ أي: بدراهمكم ﴿هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهي: طرسوس - بفتح الراء - كما جزَمَ بذلك فخر الدين الرازي، قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث عن مدة لبثهم؛ لأنه مُلْتَبِسٌ لا سبيل لهم إلى علمه، وإقبالاً على ما يهمهم بحسب الحال، كما ينبىء عنه (الفاء)، والوَرق: الفضةُ مضروبةً أو غَيْرَ مضروبة.

وفي قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة[2] إلى أنَّ القَائِلَ كَانَ قد أحضرها ليناولها، بعض أصحابه، وإلى أن التأهب لأسباب المَعَاش بحمل الدراهم، ونحوها لمن خرج من منزله، لا ينافِي التَّوَكُّلَ على الله كما جاء في الحديث «اعْقلْهَا وتوكَّل» وقرأ أبو[3] عمرو، وحمزة، وأبو بكر، والحسن، والأعمش، واليزيديُّ، ويعقوب في رواية، وخَلَفٌ، وأبو عبيد، وابن سَعْدَان: ﴿بوَرْقِكُم﴾ بإسكان الراء، وقرأ باقي

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

السبعة، وزيدُ بن عليّ بكسرها، وقرأ أبو رجاء بكسر الواو، وإسكان الراء، وإدغام القاف في الكاف، وكذا إسماعيل عن ابن محيصن، وعن ابن محيصن أيضاً كذلك إلا أنه كسر الراءَ لِيَصِحّ الإدغامُ، وقال الزمخشري: وقرأ ابن كثير ﴿بورقكم﴾ بكسر الراء، وإدغام القاف في الكاف انتهى، وهو مخالفٌ لما نَقَل النَّاسُ عنه، وحكى الزجاج قراءة بكسر الواو، وسكون الراءِ دُون إدغام، وقرأ عليٌّ بن أبي طالب ﴿بوارقكم﴾ على وزن فاعل جَعَلَهُ اسمَ جَمْع كبَاقِرِ، وجائل.

﴿فَلْيَنظُرْ﴾ ذلك الأحد ﴿أَيُّهَآ﴾؛ أي: أي أهل المدينة ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾؛ أي: أطيب طعاماً وأحل مكسباً، قال الضحاك: وكان أكثرُ أموالهم غُصُوباً أو أرخص سعراً، وقيل[1]: يجوز أن يعودَ الضميرُ إلى الأطعمة المدلول عليها في المقام؛ أي: فليبصرُ أي الأطعمة أجود وألذ ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ﴾؛ أي: بقوت، وطعام، وهو ما يقوم به بدن الإنسان، ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الأزكى طعاماً ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾؛ أي: وليترفق في دخول المدينة، وفي شرائه، وفي إيابه منها، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾؛ أي: وَلاَ يخبرن بِمَكَانِكُم ﴿أَحَدًا﴾ من أهلها، ثمَّ ذكروا تعليل الأمر والنهي السالفين بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: ليبالغ في التلطف وعدم الإشعار لأن أَهْلَ المدينَةِ ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إن يطلعوا عليكم، ويظفروا بكم، والضمير[2] للأهل المقدر في أَيُّها ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾؛ أي: يقتلوكم بالرَّجْم، وهو الرمي بالحجارة، إن دمتم على ما أَنْتُمْ عليه، وهو أخبث القتلة، وكان ذلك من عادَتِهِم، ولهذا خصَّه من بين أنواع ما يقع به القتل، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾؛ أي: يردوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله تعالى، أو يدخلوكم فيها كُرهاً من العَوْدِ بمعنى الصيرورة؛ أي[3]: إن الكُفّار إن علموا بمكانكم، ولم تفعلوا ما يريدون منكم، بَلْ ثبتم على إيمانكم، إمَّا أَنْ يقتلوكم رمياً بالحجارة، وكَانَ ذلك هو المتسع في الأزمنة الغابرة فيمن يُعلن خلاف ما عليه الجماهير في الأمور الدينية والسياسية التي لها شأن في الدولة، وإما أن يعيدوكم إلى مِلة

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

آبائكم التي هُم مستمسكون بها، ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾؛ أي: وإن دَخَلْتُم في دينهم، وملّتهم، ولو بالإكراه، والإلجاء لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾، أي: لاَ في الدنيا، ولا في الآخرة، لأنكم وَإنْ أكرهتم ربما اسْتَدرَجَكُم الشيطان بذلك إلى الإجابة حَقِيقَة، والاستمرارُ عليها، فيكون قد كتب عَلَيْكُمْ الشقاء عند ربكم، والخذلان الذي لا خذلان بعده.

وفي «الكرخي»: واستُشكل الحُكْمُ عليهم بعدم الفلاح، مع الإكراه المستفاد من ﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ إذ المُكْرَهُ لا يؤاخَذُ بما أكره عليه، لخبر «رُفِعَ عن أمَّتِي» الخ، وأُجِيبَ بأنَّ المؤاخذة به كانت في غير هذه الشريعة بدليل ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ وَخبر «رُفِعَ عن أمتي» الخ اهـ وقرأ الحسن، ﴿وليتلطف﴾ بكسر لام الأمر، وعن قُتَيْبَةَ الميال، ﴿وليُتَلَطَّفْ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول، وقرأ أبو صالح، ويزيدُ بن القعقاع، وقُتيبةُ ﴿ولا يشعرن بكم أحد﴾ ببناء الفعل للفاعل، ورفع ﴿أحدٌ﴾ وقرأ زيد بن عليٍّ ﴿يُظْهَروا﴾ بضم الياء مبنيّاً للمفعول.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لَمْ يَجْعَل﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور، في محل المفعول الأول ﴿عِوَجَا ۜ﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة ﴿قَيِّمًا﴾: حال من ضمير له، وهي حال مؤكدة، ويجوز أن تكونَ (الواو) حالية، والجملة الفعلية حال أولى من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿قَيِّمًا﴾: حال ثانية منه متداخلة، والتقدير: أنزله غير جَاعل له عوجاً قيماً.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③﴾.

﴿لِّيُنذِرَ﴾: (اللام) حرف جر وتعليل ﴿ينذر﴾: منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿ينذر﴾ يتعدى إلى مفعولين أولهما محذوف، تقديره: لينذر الذين كفروا به ﴿بَأْسًا﴾: مفعول ثان له ﴿شَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿بَأْسًا﴾، والجملة الفعلية مع أنْ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ(اللام) والجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ والتقدير: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب لإنذاره الذين كفروا به بأساً شديداً، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على الكتاب، والجملة معطوفة على جملة ﴿ينذر﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للمؤمنين ﴿يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبرُها، مقدم ﴿أَجْرًا﴾ اسمها مؤخر ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾ وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يبشر﴾ على رأي من يرى أن ﴿يبشر﴾ يتعدى لمفعولين، وقيل: هو في تأويل مصدر، منصوب بنزع الخافض، والخافض المحذوف متعلق بـ﴿يبشر﴾ والتقدير: ويبشرُ المؤمنينَ بكون أجر حسن لهم، ﴿مَّٰكِثِينَ﴾: حال من (الهاء) في ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ و﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ أيضاً.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول أول معطوف على ﴿ينذر﴾ الأول وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والمفعول الثاني محذوف تقديره بأساً شديداً ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿مَّا﴾ نافية ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة (لا) زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾: جار ومحرور معطوف على الجار والمجرور في ﴿لَهُمْ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتقرير جهالتهم، وأنهم

يقولون مَا لاَ يَعْرِفُون، ﴿كَبُرَتْ﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مبهم مستتر فيه وجوباً مفسر بالنكرة، المذكورة ﴿كَلِمَةً﴾: منصوب على التمييز لفاعل ﴿كبر﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: تلك الكلمة، وجملة ﴿كَبُرَتْ﴾ في محل الرفع خبر مقدم للمخصوص بالذم المحذوف، والجملة الاسمية جملة إنشائية، سيقت لإنشاء الذم، لاَ مَحَلَّ لَهَا من الإعراب، ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على كلمة ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾ والجملة صفة لـ﴿كَلِمَةً﴾ ﴿إِن﴾: نافية ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿كَذِبًا﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: إلا قولاً كذباً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾: (الفاء): استئنافية ﴿لعل﴾: حرف ترج ونصب، وهي من أخوات إن و(الكاف) اسمها ﴿بَاخِعٌ﴾: خبرها ﴿نَّفْسَكَ﴾: مفعول به لـ﴿بَاخِعٌ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿بَاخِعٌ﴾ وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كَوْنِهَا فِعْل شرط لها ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾: بدل من اسم الإشارة ﴿أَسَفًا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿بَاخِعٌ﴾ أو منصوب على أنه مصدر واقع موقع الحال، وجواب الشرط محذوف دل عليه الترجي، والتقدير: إن لم يؤمنوا بهذا الحديث، فلا تحزن، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المقصود من الترجي، ﴿مَّا﴾: في محل النصب مفعول أول لـ﴿جعل﴾ ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صلة لها ﴿زِينَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعل﴾ وإن كان بمعنى خلقنا، فتكون ﴿زِينَةً﴾ حالاً من ﴿ما﴾ الموصولة ﴿لَّهَا﴾: جار ومجرور، صفة

لـ﴿زِينَةً﴾. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل ﴿نبلوهم﴾ فعل ومفعول منصوب بـ(أن) مضمرةً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿أَيُّهُمْ﴾: (أي): اسم استفهام مبتدأ و(الهاء): مضاف إليه ﴿أَحْسَنُ﴾: خبر المبتدأ ﴿عَمَلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد مفعولَيْ ﴿نبلو﴾ لأنه في معنى نعلم، وقد عُلّق عن العمل بـ﴿أي﴾ الاستفهامية، ويجوز أن تكون (أي) موصولة بمعنى الذي وتعرب بدلاً من (الهاء) في ﴿نبلوهم﴾ والتقدير: لنبلو الذي هو أحسن، و﴿أَحْسَنُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ﴿أَحْسَنُ﴾ والجملة صلة (لأي) الموصولة، وتكون الضمة في (أي) ضمة بناء؛ لأن شَرطَهُ موجود، وهو أن تضاف، ويحذف صَدْرُ صِلَتِها، وجملة ﴿نبلوهم﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ(لام) التعليل الجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ والتقدير: إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لبلاء من عليها أيهم أحسن عملاً.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾: (الواو): عاطفة (إنا): ناصب واسمه ﴿لَجَاعِلُونَ﴾: خبره مرفوع بـ(الواو) و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿جاعلون﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿صَعِيدًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جاعلون﴾. ﴿جُرُزًا﴾: صفة لـ﴿صَعِيدًا﴾. ﴿أَمْ﴾: منقطعة تقدر بـ(بل)، وبهمزة الإنكار، ﴿حَسِبْتَ﴾: فعل وفاعل ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾: ناصب واسمه، ومضاف إليه ﴿وَالرَّقِيمِ﴾: معطوف على ﴿الْكَهْفِ﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ حال من ﴿عَجَبًا﴾ ﴿عَجَبًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر (أنَّ) وجملة (أنَّ) في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب، وجملة حسب مستأنفة، والاستفهام المستفاد من أم للإنكار، والنفي، واليس المراد نفي العجب عن قصة أهل الكهف، فهي عجب كما ذكرنا، ولكن الْقَصْدُ نفيَ كونها أعجب الآيات.

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ⑩﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر إذ أوى ﴿أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿إِذۡ﴾ والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوَى﴾. ﴿فَقَالُواْ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَوَى﴾ ﴿رَبَّنَآ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿ءَاتِنَا﴾: فعل ومفعول أول لأنه بمعنى أعطنا، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جَوابَ النداء ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رَحۡمَةً﴾. ﴿رَحۡمَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿رَبَّنَآ﴾ ﴿وَهَيِّئۡ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ﴿هيء﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتِنَا﴾. ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿رَشَدًا﴾. ﴿رَشَدًا﴾: مفعول به.

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ⑪﴾.

﴿فَضَرَبۡنَا﴾: (الفاء): عاطفة ﴿ضربنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قالوا﴾ ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ متعلق به، ومفعول ﴿ضربنا﴾ محذوف تقديره: حجاباً مانِعاً من السماع، ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ﴾: حال من ضمير آذانهم، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، ﴿سِنِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وعلامة نصبه الياء والظرف متعلق بـ﴿ضربنا﴾. ﴿عَدَدًا﴾: نعت لـ﴿سِنِينَ﴾ لأنه فَعَلٌ بمعنى مفعول، أي: سنين معدودة.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ⑫﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ضربنا﴾ ﴿لِنَعۡلَمَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل، أو عاقبة ﴿نعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مع أن

المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلمنا أي الحزبين إلخ الجار والمجرور متعلق بـ﴿بعثنا﴾ ﴿أَيُّ﴾: اسم استفهام مبتدأ مرفوع ﴿ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾: مضاف إليه، ﴿أَحۡصَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أي﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد مفعولي علم؛ لأنها معلقة عنها باسم الاستفهام ﴿لِمَا﴾: اللام حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿لَبِثُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ(اللام) الجار والمجرور متعلق بمحذوف نعت لـ﴿أَمَدٗا﴾ ولكنه لما قُدّمَ عليه جُعِلَ حَالاً ﴿أَمَدٗا﴾: مفعول أحصى، والتقدير: أحصى أمدا للبثهم.

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾.

﴿نَّحۡنُ﴾: مبتدأ ﴿نَقُصُّ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلق بـ﴿نَقُصُّ﴾ ﴿نَبَأَهُم﴾: مفعول به ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: حال من فاعل ﴿نَقُصُّ﴾ أو من مفعوله، وهو النبأ، و(الباء) للملابسة ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لسرد قصتهم ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صفة لـ﴿فِتۡيَةٌ﴾. ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾.

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾.

﴿وَرَبَطۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زدناهم﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿ربطنا﴾ ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿ربطنا﴾ ﴿قَامُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ(إذ) ﴿فَقَالُواْ﴾: (الفاء): عاطفة ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قاموا﴾ ﴿رَبُّنَا﴾: مبتدأ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب

مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿لَن نَّدْعُوَاْ﴾: ناصب ومنصوب وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور حال من ﴿إِلَٰهًا﴾. ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول ﴿نَّدْعُوَاْ﴾. ﴿لَّقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿قُلْنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب، وجزاء، مهمل دال على شرط مقدر، تقديره: إن دعونا إلٰهاً من دونه.. لقد قلنا قولا شططا. ﴿شَطَطًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر، محذوف؛ أي: قَوْلاً ذا شطط، أي إفراط وظلم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: حال من ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، والأول محذوف تقديره: اتخذوا الأصنام آلهةً من دونه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قَالُواْ﴾، وهذه الجملة إخبار في معنى الإنكار، ويجوز أن يكونَ ﴿قَوْمُنَا﴾: هو الخبر، و﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: حالاً. وفي «السمين»: و﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: يجوز أن يتعدى لواحد، بمعنى عملوا؛ لأنهم نحتوها، بأيديهم، ويجوز أَنْ يَكُونَ متعدياً لاثنين بمعنى صيَّروا، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ هو الثاني قدم و﴿ءَالِهَةً﴾ هو الأول، وعلى الوجه الأول، يجوز في ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أنْ يتعلق بـ﴿اتخذوا﴾، وأن يتعلق بمحذوف حالاً من ﴿ءَالِهَةً﴾ إذ لو تأخر.. لجاز أن يَكُونَ صفة ﴿لآلهة﴾ اهـ. ﴿لَّوْلَا﴾: حرف تحضيض مضمن معنى الإنكار، ﴿يَأْتُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: حال من ﴿سلطان﴾ ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتُونَ﴾ ﴿بَيِّنٍ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿فَمَنْ﴾: (الفاء) استئنافية ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع، مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على

كَوْنِها مستأنفة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به لـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

﴿وَإِذِ﴾: (الواو): عاطفة ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالجواب الآتي، ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل مضاف إليه، لـ﴿إذ﴾ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: (الواو) عاطفة (ما) معطوف على (الهاء) في ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ إن كانتْ موصولةً، أو موصوفةً، ويصح كَوْنُها مصدرية، والتقدير: وعبادتهم. ﴿يَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابطُ محذوف، تقديره: وما يعبدونه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿ٱللَّهَ﴾: مستثنى متصل من ﴿ما﴾ أو من العائد المحذوف على تقدير: كونهم مشركين، ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان، ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾: فعل وفاعل و(الفاء) رابطة لجواب ﴿إذ﴾ الشرطية، وجوباً كما قاله الفراء، نظير قولك: إذ فعلت فافعل كذا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذ﴾ الشرطية من شرطها وجوابها في محل النصب، معطوف على جملة قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

﴿يَنشُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به ﴿رَبُّكُم﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونِهَا جواب الطلب ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: جار ومجرور، صفة لمفعول محذوف تقديره: نجاحاً من رحمته، ﴿وَيُهَيِّئْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَنشُرْ﴾. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿يهيىء﴾ ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾: حال من ﴿مِّرْفَقًا﴾ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها ﴿مِّرْفَقًا﴾: مفعول به.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على

أيّ مخاطب، والجملة مستأنفة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿ترى﴾ ويجوز أن تكونَ شرطية مُتَعلّقة بما بعدها ﴿طَلَعَت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، والجملة في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿إِذَا﴾ ﴿تَّزَاوَرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الشمس، ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾: متعلق به ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: ظرف، ومضاف إليه، والإضافة فيه من إضافة المسمى إلى الاسم، والظرف متعلق بـ﴿تَّزَاوَرُ﴾، وجملة ﴿تَّزَاوَرُ﴾: في محل النصب حال من الشمس، أي: وترى الشمس وقت طلوعها، متزاورة عن كهفهم، ذات اليمين؛ أي: جهةَ يمين الكهف، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، أضيف إلى الجملة، معطوف على قوله: ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿ترى﴾ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾. ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تقرض﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَّزَاوَرُ﴾ على كونها حالاً من ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي فَجْوَةٍ﴾: خبره ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فَجْوَةٍ﴾، والجملة في محل النصب حال من هاء ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما ﴿يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل الشرط لها، ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء) رابطة الجواب ﴿هو﴾ ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جوابٌ لهَا، والجملة الشرطية مستأنفة، ﴿وَمَن﴾: (الواو) عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط مبتدأ، والخبر جملة الجواب كما مر آنفاً، ﴿يُضْلِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فِعْل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فَلَن﴾ (الفاء) رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿لن﴾. ﴿لن تجد﴾: ناصب ومنصوب وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على من يصلح للخطاب، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به

﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به لـ﴿تَجِدَ﴾ لأنه من وجد بمعنى أصاب ﴿مُّرْشِدًا﴾: صفة ﴿وَلِيًّا﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة، ﴿وَهُمْ﴾: (الواو) حالية ﴿هم﴾: مبتدأ ﴿رُقُودٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿تحسبهم﴾ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾: (الواو) عاطفة ﴿نقلبهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله سبحانه، ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿نقلبهم﴾ ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿تحسبهم﴾ ﴿وَكَلْبُهُم﴾: (الواو) حالية ﴿كَلْبُهُمْ﴾: مبتدأ ﴿بَاسِطٌ﴾: خبره ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾: مفعول ﴿بَاسِطٌ﴾ ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ متعلق بـ﴿بَاسِطٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب حال من (هاء) ﴿نقلبهم﴾ ﴿لو﴾ شرطية مبنية على سكون مقدر، منع من ظهوره اشتغال بحركة التخلص من التقاء الساكنين، ﴿اطَّلَعْتَ﴾: فعل وفاعل فعل شرط، لـ﴿لو﴾ ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق به ﴿لَوَلَّيْتَ﴾: (اللام) رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿وليت﴾ فعل وفاعل جواب شرط لـ﴿لو﴾ ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿فِرَارًا﴾ ﴿فِرَارًا﴾: مفعول مطلق من معنى الفعل قبله؛ لأنه مرادفه في المعنى، ويجوز أن يُعْرَبَ مصدراً في موضع الحال، أي فاراً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾: (الواو) عاطفة، (اللام): واقعة في جواب ﴿لو﴾، ﴿ملئت﴾ فعل ونائب فاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿رُعْبًا﴾ ﴿رُعْبًا﴾: تمييز محول عن نائب الفاعل، ورجح أبو حيان أن يكونَ مَفْعُولاً ثانياً لـ﴿ملئت﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو) استئنافية ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف

تقديره: بَعَثْنَاهُم بعثاً كائناً كإنامتنا إياهم المدة الطويلة في كون كل منهما آية من آياتنا ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾: (اللام) حرف جر، وتعليل ﴿يتساءلوا﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرةً بعد لام كي ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال، من (واو) الفاعل تقديره: حالةَ كَوْنِهِم متنازعينَ بينهم، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وكذلك بعثناهم لتساؤلهم بَيْنَهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾: فعل، وفاعل ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿قَآئِلٌ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، استئنافاً بيانياً، مسوقة لبيان التساؤل بينهم، ﴿كَمْ﴾ اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم وجوباً ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَبِثْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَآئِلٌ﴾ ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿لَبِثْنَا﴾ ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: معطوف على ﴿يَوْمًا﴾ و﴿أَوْ﴾ فيه للشك ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما لبثتموه ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ﴾: (الفاء) عاطفة على محذوف ﴿ابعثوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فاتركوا التساؤل، وخذوا فيما هو أهم وأجدى، لنا في موقفنا هذا، فابعثوا ﴿أَحَدَكُم﴾: مفعول به ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿ابعثوا﴾ أو حال من أحدكم، والباء للملابسة؛ أي: ملتبساً بها، ومُصَاحِباً لها ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾: صفة لـ﴿ورقكم﴾ ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ متعلق بـ﴿ابعثوا﴾.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلْيَنظُرْ﴾: (الفاء) عاطفة و(اللام) لام الأمر ﴿ينظر﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(لام) الأمر، وفاعله ضمير يعود على الأحد، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾ ﴿أَيُّهَآ﴾ ﴿أي﴾ اسم استفهام؛ مبتدأ مرفوع، و(الهاء) ضمير المؤنثة، مضاف إليه ﴿أَزْكَىٰ﴾: خبر المبتدأ ﴿طَعَامًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل

النصب سادة مسد مفعولي ﴿ينظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام، ويجوز أن يكون، أي: اسماً موصولاً في محل النصب مفعول ﴿ينظر﴾، والضمة فيه ضمة بناء لا إعراب ﴿أَزْكَىٰ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أيها هو أزكى طعاماً كما مر نظيره، في ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. ﴿فَلْيَأْتِكُم﴾: (الفاء) عاطفة، و(اللام) لام الأمر ﴿يأتي﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(الام) الأمر، وعلامة جزمه حذف الياء، وفاعله ضمير يعود على ﴿الأحد﴾، و(الكاف) في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَلْيَنظُرْ﴾. ﴿بِرِزْقٍ﴾ متعلق بـ﴿يأت﴾ ﴿منه﴾ صفة لـ﴿رزق﴾ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ لام الأمر ﴿يتلطف﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لام﴾ الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿الأحد﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلْيَأْتِكُم﴾ ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿يُشْعِرَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿الأحد﴾ ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿يُشْعِرَنَّ﴾ ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿يَظْهَرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فِعْل شرط لها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَظْهَرُوا﴾ ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول مجزوم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كَوْنِهِ جَوَابَ شرط لها؛ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يُعِيدُوكُمْ﴾ أي: يردوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها مستأنفة «مسوقة» لتعليل قوله: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ﴿وَلَن﴾: (الواو) عاطفة ﴿لن﴾ حرف نصب ﴿تُفْلِحُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿لن﴾ ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل، مقدر بـ(أن) أو بـ(لو) الشرطيتين ﴿أَبَدًا﴾: ظرف مستغرق للزمان المستقبل منصوب بفتحة ظاهرة متعلق بـ﴿تُفْلِحُوا﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب.

﴿عِوَجًا﴾ وفي «القاموس» وغيره من معاجم اللغة، عوج بكسر الواو، ويعوج بفتحها ـ من باب تعب ـ عِوجاً، العود، ونحوه انحنى، والإنسان ساء خلقه، فهو أعوج، والعوج بكسر، ففتح الاسم من عَوِجَ: الالتواء، وعدم الاستقامة، ولم تفرّق هذه المعاجم بينهما، وفي «الأساس» ـ يقصد أساس البلاغة ـ: يقال في العود: عوج بفتحتين، وفي الرأي عِوَج بكسر، ففتح ففرِّق بينهما، وهذا هو الحق بدليل الآية، فالعوج بكسر ففتح في المعاني، كالعوج بفتحتين في الأعيان، فالعوج في الآية بكسر ففتح، الانحراف، والميل عن الاستقامة، فلا خلل في لفظه، ولا تَنَاقُض في معناه. ﴿قَيِّمًا﴾؛ أي: مستقيما[1] معتدلاً، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف، حتى يشق عَلَى الْعِبَادِ، ولا تفريط فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه، أو قَيّماً بمصالح العباد، فيكون وصفاً للكتابِ بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو قيماً على الكتب السابقة، مصدقاً لها شاهداً بصحتها.

وفي «القاموس» و«التاج» و«اللسان»: القيم[2] على الأمر متوليه، كقيم الوقف، وغيره، وقيم المرأة زوجها، وأمر قيم مستقيم، والديانة القيمة؛ المستقيمة، وفي التنزيل: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾؛ أي: دِين الأمة القيمة، ويتعدى بـ(الباء) وبـ(على) ﴿والبأس الشديد﴾ العذاب في الآخرة ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده.

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، أي: قَاتِلها ومهلكها قاله ابن عباس، وأنشد قول لبيد:

لَـعَـلَّـكَ يَـوْمَـاً إِنْ فَـقَـدْتَ مَـزَارَهَـا   عَـلَـىٰ بُـعْـدِهِ يَـوْمَـاً لِـنَـفْـسِـكَ بَـاخِـعُ

يقال: بخَعَ الرجل نَفْسَه يبخعها ـ من باب نَفَعَ ـ بخَعاً، وبُخُوعاً أهلكها وجداً.

وقال الليث[3]: بَخَعَ الرجل نَفْسَه قتلها من شدة وجده، وأنشدَ قولَ الفرزدق:

---

(١) المراغي.
(٢) القاموس واللسان.
(٣) البحر المحيط.

أَلاَ أَيُّهَذَا ٱلْبَاخِعُ ٱلْوَجْدُ نَفْسَهُ   لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ ٱلْمَقَادِيْرُ

أي: نحَّته بشد الحاء فخفف.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾؛ أي: من بعدهم؛ أي: من بعد توليهم عن الإيمان، وتباعدهم عنه.

﴿صَعِيدًا﴾؛ أي: تراباً، أو فتاتاً يَضْمَحلُّ بالرياح، لا اليابس الذي يرسب. ﴿جُرُزًا﴾ بضمتين والجرز: الذي لا نَباتَ فيه فهو حائل البهجة، بَاطِلُ الزينة، ويقال[1]: سنة جُرُزٌ، وسنون أَجْرَازٌ لاَ مَطَرَ فيها، وأَرْضٌ جُرُز، وأَرْضُونَ أَجْرَازٌ لا نبات بها، وجُرِزَت الأرض إذا ذَهَب نباتُها بقحط، أو جرادٍ، وجَرَزَ الجَرَادُ الأرض أكل ما فيها، والجرُوزُ المرأة الأكولة: قال الرَّاجز:

إِنَّ ٱلْعَجُوْزَ حَيَّةٌ جَرُوْزَا   تَأْكُلُ كُلَّ لَيْلَةٍ قَفِيْزَا

اهـ «سمين». وجرزه الزمان اجتاحه.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ أم: حرف يدل على الانتقال من كَلامٍ إلى آخر. وهو بمعنى ﴿بل﴾، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بَل أحسبْتَ والخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد غيره كما سبق نظيره.

﴿أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾ والكَهْف النَّقْبُ المُتَّسِع في الجبلْ فإن لم يكن مُتَّسعاً، فهو غار، والجمع كهوف في الكثرة، وأكهف في القلّةِ ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ لوح حجري رقمت فيه أسْمَاؤهم كالألواح الحجرية المصرية، التي يذكر فيها تاريخ الحوادث، وتراجم العُظماء، وفي «القاموس» الرَّقيمُ: الكتاب المرقُوم، ورقم يرقم من باب نَصَر الكتاب بيَّنه، وأعجبه بوضع النقط، والحركات، وغير ذلك وَرَقَم الثوب خططه، والبعير كواهُ، والخبز نَقَشَه، ويقولون: فُلاَنٌ يَرْقُم على الماء لمن يكون ذا حذق في الأمور.

﴿عَجَبًا﴾ والعَجبُ: كل ما يتعجب منه لحسنه، أو قبحه، والتعجب انْفِعَال يَحْدث في النفس، عند الشعور بأمْرٍ خَفِيَ سَبَبُه، ولهذا يقال: إذا ظهر السَّبب

---

(١) الفتوحات.

بطل العجب، ولا يطلق على الله أنه متعجب إذ لاَ شيء يخفى عليه. ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾، أي نزلوه، وسكنوه، والتجؤا إليه، يقال: أَوَى إلى مَنْزله من باب شَرب إذا نزله بنفسه، وسكنه، والمأوى لكل حيوان سكنه .اهـ من «المصباح» و«القاموس».

والفتيةُ جَمْعُ فَتيّ كصبي وصِبْيَةٍ اهـ «بيضاوي» وفي «المصباح» مثله، وفي «القاموس» وفَتِيٌ كغني، الشاب من كل شيء اهـ. وقد كانوا من أَبْنَاءِ أشراف الروم، وعظمائهم لهم أطواق وأسْوِرَةٌ من الذهب. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾؛ أي: يسرْ لنا ﴿رَشَدًا﴾: والرشد بفتحتين، وضم فسكون: الهداية إلى الطَّرِيق الموصل للمطلوب ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾؛ أي: أنمناهم نوماً شديداً من ضربت على يده، إذا منعته من التصرف، وإرادة هذا المعنى على طريق الاستعارة التبعية، كما سيأتي في مبحث البلاغة ﴿عَدَدًا﴾؛ أي: ذوات عدد، والمراد: التكثير؛ لأن القليلَ لا يحتاج إلى العد غالباً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أيقظناهم، وأثرناهم من نومهم ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ والحزبان: هما الحزب القائل: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، والحزب القائل: ربكم أعْلَمُ بما لبثتم.

﴿أحصى أمدا﴾ فعل ماض لا اسم تفضيل، كما قيل: يقال: أَحْصَى الشيء إذا حَفِظَهُ، وضَبَطَهُ، قَالَ الزمخشري: فإن قلت فما تَقُولُ فيمن جعله أفعل التفضيل؟

قلت: ليس بالوجه السديد، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي ليس بقياس اهـ. والأمد مُدَّةٌ لها حد ونهاية، ﴿نَبَأَهُم﴾ النَّبأُ الخبر العظيم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالصدق ﴿وَرَبَطْنَا﴾ والربط: الشَدُّ، وَرَبَطت الدابةَ: شددتها بالرباط، والمربط الحبل، وربط الله على قلبه؛ أي: قوَّى عزيمته ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾؛ أي: وقفوا بين يدي ملكهم الجبار، دقيانوس ﴿إِلَٰهًا﴾؛ أي: مَعْبُوداً آخرَ لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، ﴿شَطَطًا﴾ وقال الفراء: إشتط في الشوْم جاوز القدر، وشط المنزل إذا بعد شطوطاً، وشط الرجل، وأشط جار، وشطَّتِ الجارية شطاطاً، وشطاطة طالت.

﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ أي: نحتوا أصْناماً وعبدوها، والسُّلْطَان الحُجَّةُ. وَالبيِّن: الواضح ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ والاعتزال والتعزل تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب.

﴿مِّرۡفَقٗا﴾ بكسر الميم، وفتح الفاء، وبالعكس، وقد قرىء بِهِمَا ما ترتفقُون به من غداء وعشاء، أي: تنتفعون قال في «أساس البلاغة»: (وارتفقت به) انتفعت ومالي فيه مَرْفقٌ ومِرْفَقٌ، وما فيها مرفَقٌ منْ مَرَافِق الدار نحو المتوضأ، والمطبخ، وقيل: بالكسر في الميم لليد وبالفتح للأمر، وقد يستعمل كل منهما موضعَ الآخر حكاه الأزهري عن ثعلب.

﴿تَّزَٰوَرُ﴾؛ أي: تمايل: أصلُهُ تَتَزَاوَرُ: فخفف بإدغام التاءِ في الزاي، أو حَذْفِها ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: تقطعهم، وتتجاوز عنهم، فَلاَ تصيبُهم البتةَ مأخوذ من معنى القَطِيعَةِ قال الكسائي: يقال: قرضت المكانَ إذا عدلت عنه، ولم تقربه ﴿فَجۡوَةٖ﴾: مُتَّسع من الفجاء، وهو تباعد ما بين الفخذين، ويقال: رَجلٌ أفجأ، وامرأةٌ فَجْوَاءُ وجمع الفجوة، فجاء لقصعة وقصاع ﴿أَيۡقَاظٗا﴾: جمع يقظ بضم القاف وكسرها، وهو المُنْتبِه، وجمعه أيقاظٌ كعضد، وأَعْضاد، ويَقَاظ كرجل، ورجال. ورجل يقظان، وامرأةٌ يَقْظَى ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾: جمع راقد، أي: نائم كقعود وقاعد، وجُلُوس وجالس ﴿الوصيد﴾: فناءُ الكهف ﴿رُعۡبٗا﴾؛ والرعب: الخَوْفُ يَمْلأُ الصدر.

﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾ الورق بفتح (الواو) وكسر الراء ﴿الفضة﴾ مَضْرُوبة كانت أو غَيْرَ مضروبة ﴿أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ﴾ أي: أطيب وأجود، وفي «القاموس»: زكا يزكو زكاء وزكواً الزَرْع نما، والأرض طابت. والزكيُّ مَا كَانَ نَامِياً طَيّباً صَالِحاً ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾؛ أي: يتكلف اللطف في المعاملة، كي لا تَقع خصومة تجر إلى معرفته، ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾؛ أي: لا يفعلن ما يؤدي إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم، ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إن يطلعوا عَلَيْكُم ويعلموا بمكانكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرير في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ فإنَّ نفيَ العوج معناه: إثبات الاستقامة، وإنما جنح إلى التكرير: لفائدة منقطعة النظير، وهي التأكيدُ والبيان، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، مجمع على استقامته، ومع ذلك، فإن الفاحِصَ المدقق قد يجد له أدنى عوج، فلما أثبت له الاستقامة، أزال شبهة بقاء ذلك الأدنى، الذي يدق على النظرة السطحية الأولى.

ومنها: المطابقة في هذه الآية فَقد طابق سبحانه بين العوج، والاستقامة، فجاء الكلام حسناً، لا مجَالَ فيه لمنتقد.

ومنها: الطباق بين ﴿يبشر﴾ و﴿لِّيُنذِرَ﴾ وبينَ ﴿يَهْدِ﴾ و﴿يُضْلِلْ﴾ وبين ﴿أَيْقَاظًا﴾ و﴿رُقُودٌ﴾ وبين ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

ومنها: نفي الشيء بإيجابه في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ وله تسمية أخرى وهي عكس الظاهر، وهو من مستطرفات علم البيان، وهو أن تَذْكُرَ كلاماً يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف، وهي نفي للموصوف أصلاً، ولقائل أن يقول: إنَّ اتِّخَاذ الله ولداً هو في حد ذاته محال، فكيف ساغ قوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؟

قلنا: إن الوَلَدَ في حدّ ذاته محالٌ لا يَسْتَقِيمُ تعلق العلم به، ولكنه ورد على سبيل التهكم، والاستهزاءِ بهم.

ومنها: الإطناب بذكر الخاص في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ بعد ذكر العام في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ لشناعة دعوى الولد لله. وفيه من بديع الحَذْف، وجَلِيل الفصاحة حذف المفعول الأول في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾؛ أي: لينذر الكافرين بَأساً شديداً، ثم ذكر المفعول الأول، وحذف الثاني في قوله ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾؛ أي: عذاباً شديداً، فحذف العذاب لدلالة الأول عليه، وحذف من الأول المنذرِين لدلالة الثاني

عليه، وهذا من ألطف الفصاحة، فيكون في الكلام احتِبَاك.

ومنها: الاستعارةُ التمثيلية في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ حَيْث شبَّهَ حالهُ ﷺ مع المشركين، وهو آسف من عدم هدايتهم بحال من فارقته أحبته، فَهَمَّ بقتل نفسه، أو كاد يهلك وجداً وحزناً عليهم.

ومنها: المجازُ في قوله: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ فإن الجرزَ حقيقة في الأرض التي قطع نباتُها، فجعله هنا وصفاً لما عليها من النبات، فكَأَنَّهُ مجازٌ، علاقته المجاورة ذكره في «الفتوحات».

ومنها: الاستعارة التصريحية التَّبَعِيَّةُ في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ شبهت الإِنَامَة الثقيلة بضرب الحِجَابِ على الآذان، كما تضرب الخيْمة على السكان، ثمَّ استُعير الضرب للإنامة، ثم اشْتقَّ من الضرب بمعنى الإنامة ﴿ضربنا﴾ بمعنى: أنمنا على طريق الاستعارة التّصريحية التبعية.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ للتنصيص على وصفهم، وسنهم، فكانوا في سن الشباب مرداً، وكانوا سبعة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا.

ومنها: الطباق المعنوي بين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ لأن معنى الأول: أنمناهم، والثاني: أيقظناهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الربط في الأصل: هو الشد بالحبل، والمراد هنا: شددنا على قلوبهم، كما تشد الأوعية، بالأوكية؛ أي: قوينا على قلوبهم، بالصَّبْرِ على هجر الأوطان، والفرار بالدين إِلى الكهوف، والغيران، وافتراش صعيدها، وجسرناهم على قول الحق، والجهرية أَمَامَ دقيانوس الجبار.

ومنها: الجِنَاسُ الناقص بين ﴿قَامُوا۟﴾ و﴿قَالُوا۟﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾؛ لأن التشبيهَ هُنا جاءت الأداة فيه فعلاً من أفعال الشك واليقين، تقول: حسبت زيداً في جرأته الأسد،

وعمراً في جوده الغمام، وفي الآية: تشبيه أهل الكهف في حال نومهم بالأيقاظ في بعض صفاتهم، لأنه قيل: إنَّهُمْ كانوا مفتَّحي العيون في حال نومهم.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ لأن اسم الفاعل هنا بمعنى الماضي، وعمل في ذراعيه النصب على إرادة حكاية الحال الماضية، كما قاله الكسائي، ومن تبعه؛ أي: إنه تقدَّر الهيئة الواقعة في الزمن الماضي، واقعة في حال التكلم، والمعنى: يبسط ذراعيه، فيصح وقوع المضارع مَوْقِعَه بدليل أن الواو في ﴿وَكَلْبُهُم﴾ واو الحال، ولذا قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ بالمضارع الدالّ على الحال، ولم يقلْ وقلبناهم بالماضي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ
رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا
تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ
ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ
مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى
حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن
دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ
فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ
بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا
﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾...﴾ الآيتين(١)، جَاءَت هاتان الآيتان إرشاداً، وتأديباً من الله سبحانه لِرَسُوله ﷺ يعلمه بأنه إذَا أراد أن يخبرَ عن شيء سيفعله في مستقبل الأيام، أن يقرن قولَهُ بمشيئة علاَّم الغيوب، الذي يعلم ما كان وَما سَيَكونُ.

---

(١) لباب النقول.

وجاءتا معترضتين أثناءَ القصة؛ لما تضمَّنتاه من تعليم عبادِهِ تفويض الأمور كلها إليه، سبحانه، وبيان أنه لا يَحدث في مُلْكِهِ إلا ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أَنَّ الله سبحانَهُ لما ذكر قَصَص أهل الكهف، ودل اشْتِمَال القرآن عليه على أنه وحي من علام الغيوب.. أمر سبحانه رسولَه ﷺ بالمُواظبة على درسه وتلاوته، وَأن لا يكترث بقول القائلين له ائت بقرآن غير هذا، أو بدِّلْه، ثُمَّ ذكر ما يلحق الكافرين من النكال، والوبال يوم القيامة، وما ينال المتقينَ من النعيم المقيم، كفَاءَ ما عَمِلوا منْ صَالِح الأعمال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ...﴾ الآيتين، رُوي أن هاتين الآيتين نزلتا حين سألت قريشٌ رسول الله ﷺ عَنِ الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين فَقَال عليه الصلاة والسلام: «غداً أُخْبِركم» ولم يَسْتَثْنِ ـ لم يقل إنْ شاء الله ـ فأبطأ عليه الوحي خمسة عشرَ يوماً، فَشق ذَلك عليه، وكذبته قريش.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن مردويه، من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في أُميَّة بن خلف الجمحي، وذلك أنه دعا النبيَّ ﷺ إلى أمر كَرِهَهُ الله من طرد الفقراءِ عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ، وعنده سلمان، فقال عيينة: إذا نحن أتيناك فأخرج هذا، وأدخلنا، فنزلت الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما أنمناهم، وبعثناهم بعد طُول رقدتهم كهيئتهم حينَ رقدوا لِيتساءلوا بينهم، فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى، ومعرفة حسن دفاع

الله عن أوليائه ﴿أَعْثَرْنَا﴾؛ أي: أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أحوال أهل الكهف الفريق الذين كانوا في شك من قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وفي مرية من إنشاءِ أجسام خَلْقه كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ليعلم الفريق الذين أعثرناهم على أحوالِهم العجيبة، وهم الملك ورعيته ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ تعالى بالبعث للروح، والجثة معاً ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: صدق لا شك فيه، بطريق أن القادرَ على إنامتهم مدة طويلة، وإبقائهم على حالهم بلا غذاء، قادر على إحياء الموتى، قال بعض العارفين: الْيَقَظة بَعْدَ النوم علامة على البَعْثِ بعد الموت. ﴿و﴾ ليوقنوا ﴿أن الساعة﴾؛ أي: القيامة مع مَا فِيهَا من الحساب والجزاء آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لا شك في مجيئها، إذ لا حُجَّة لمن أنكرها إلا الاستبعاد، ولكن وُقُوع ذلك الأمر العظيم، وعلمهم به مما يخفف من غلوائهم، ويكبح جماح إنكارهم، ويردهم إلى رشدهم.

ذلك أن حال هؤلاء الفتية في تلك الحقبة الطويلة، وقد حُبست عن التصرف نفوسهم، وعُطلت مشاعرهم وحواسهم، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم، وبقيت على ما كَانَتْ عليه من الطراوة والشباب، ثُمَّ رجعت بعدئذٍ تلك المشاعر والحواس إلى حَالِهَا، وأُطلقت النُّفوس من عقالها، وأُرسلَتْ إلى تدبيرِ أبدانها، فرأت الأمورَ كما كانت، والأعوانَ هم الأعوان، ولم تُنْكِر شيئاً عهدته في مدينتها، ولم تَتَذكر حبسها المَدَى الطويل عن التصرف في شؤونها، وحال الذين يقومون من قبورهم بَعْدَما تعطلت مشاعرهم، وحُبست نفوسهم، من واد واحد في الغرابة، ولا ينكر ذلك إلا جاهل، أو معاندٌ، ووقوع الأول يزيل الارتياب في إمكان وقوع الثاني، ولا يبقى بَعْد ذلك شك في أن وعد الله حق، وأنَّ الله سيبعث من في القبور، فيرد عليهم أرواحَهم، ويُجَازيهم جزاء وِفاقاً بحسب أعمالهم، إنْ خيراً فَخَيْرٌ، وإنْ شراً فشر، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ متعلق بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾؛ أي: وكذلك أعثَرْنَا الناس - بيدروس وقومه - على أصحاب الكهف، حين يتنازعون، أي: يتنازع الناس

بَعْضُهم بَعْضاً فيما ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: في[1] أمر بعثهم، فمن مقرٍ به وجاحد له، وقائل تبعث الأرواح دُونَ الأجساد، ففرح الملك، وفرحوا بآية الله على البعث، وزال ما بينهم من الخلاف في أمر القيامة، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مِمَّا يثبتها ويزيل كل ريب فيها.

والمعنى: أي[2] أعثرنا عليهم وقت التَنَازُع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله في أمر البعث، وقيل: في أمر أصحاب الكهف، في قدر مكثهم، وفي عددهم، وفيما يفعلونه بهم بعد أن اطلعوا عليهم ﴿فَقَالُوا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على أصحاب الكهف ﴿بُنْيَانًا﴾ يسترهم عن أعين الناس لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم، وهم أحياءٌ أمات الفِتْية، فانقسموا في شأنهم فريقين: فريق يقول: نسد عليهم باب الكهف، ونذرهم حيث هم، وفريق يقول: نَبْنِي عَلَيْهم مسجداً يصلي فيه الناس، وقد غلب هذا الفريقُ الفريقَ الأول في الرأي، كما سيأتي.

ثم قال سبحانه حَاكِياً لِقَوْلِ المتنازعين فيهم، وفي عددهم، وفي مدة لبثهم، وفي غير ذلك مما يتعلق بهم، ﴿رَّبُّهُمْ﴾؛ أي: رب أصحاب الكهف ﴿أَعْلَمُ بِهِمْ﴾؛ أي: أعلم بعددهم، وبمدة لبثهم من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هذه الجملة مُعْتَرِضَةٌ من كلام الله تعالى، رَدّاً لِقَوْل الخائضين فيهم، ممن أُعثروا عليهم، أو ممن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب، في بيان أنسابهم، وأسمائهم، وأحوالهم، ومدة لبثهم؛ أي: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإنّي أعلم بهم منكم.

وقال بعض المفسرين[3]: والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ متعلق بـ﴿اذكر﴾ مقدراً، وقال: هو الأظهر، والأنسب لترتيب (الفاء) الآتية عليه، ويكون كلاماً مُنْفَصِلاً عما قبله، ويُؤَيِّدهُ أن الإعثار، ليس في زمن التنازع، بل

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

قبله، والمتنازعون هم: قوم بيدروس، والمعنى: أي: واذكر يا محمد قصةَ حين يتنازع قوم بيدَروس فيما بينهم، في تدبير أمر أصحاب الكهف، حين توفاهم الله ثانياً بالموت كيف يخفون مكانهم، وكيف يستر الطريق إليهم، ﴿فَقَالُوا۟﴾؛ أي: بعض أهل المدينة ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على باب كهفهم ﴿بُنْيَـٰنًا﴾ كي لا يعلم أحد تربتهم، وتكونَ محفوظة من تطرق الناس، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة، قائلينَ: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾؛ أي: بحالهم وشأنهم، لاَ حاجةَ إلى علم الغير بمكانهم.

ويمكن[1] أن يجاب عن صاحب هذا القول، بأن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم، قرناً بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف، إلى وقت الإعثار، ويؤيد ذلك، أن خَبَرَهم كَانَ مَكْتُوباً على باب الغار، كتبه بعض المعاصرين، وهم من المؤمنين الذين يخفون إيمانهم من دقيانوس ملكهم كما قاله المفسرون.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: على أمر أهل الكهف، وتدبير شأنهم، وهم[2]: الملك والمسلمون، أو أولياء أصحاب الكهف، أو رؤساءُ البلدِ، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي ﴿غُلِبُوا﴾ بضم الغين، وكسر اللام ذكره في «البحر». ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾؛ أي: لنبنيَّن على باب كهفهم مسجداً يصلي فيه المسلمون، ونستبقي آثارَهم بسبب ذلك المسجد، قال الزجاج: وهذا يدل على أنَّه لما ظهر أمرهم، غلب المؤمنون بالبَعْثِ والنشور؛ لأنَّ الْمَسَاجِدَ للمؤمنين؛ أي: كانت الكَلِمَةُ لهم، وكَانَ كلامهم هو النافذُ، لأن مَلِكَ الوقت كان مِن جملتهم، وكان مسلماً، وأما المَلِكُ الذي خرجوا هاربينَ منه.. فقد مات في مدة نومهم .اهـ شيخنا.

فصل

وقد ذكر العلماء: أن اتخاذَ القبور مساجد منهي عنه، أشدَّ النهي، حتى ذكر

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

ابن حجر في كتابه «الزواجر»: أنه من الكبائر، لما روي في صحيح الأخبار من النهي عن ذلك، روى أحمدُ، وأبو داودَ، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس: أنَّ النبي ﷺ قال: «لعنَ الله تعالى زائرات القبور، والمتخذينَ عليها المساجد، والسُّرج» وَزَادَ مسلم «ألا وإن من كان قبلكم، كانوا يتخذون قُبُورَ أنبيائهم مساجد، فإنّي أنهاكم عن ذلك».

وروى الشيخان، وأحمد، والنسائي، قوله ﷺ: «إن أولئكَ إذا كان فيهم الرجل الصالح، فمات، بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق يوم القيامة».

وروى أحمد والطبراني: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد» إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة.

اللهم ألهم المسلمين رُشْدَهم، وثبتهم في أمر دينهم، ولا تَجْعَلْهُم يحذون حذو من قبلهم، حذوَ القُذَّة بالقُذَّة، وأرجِعْهم إلى مثلِ ما كان يفعله المسلمون في الصدر الأول وَمَا بعده، فرجاله هم الأسوة، وقد صَحَّ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما وجد قبر دَانِيال في عهده بالعراق، أمر أن يسوى بالأرض، وأن تدفنَ تِلْكَ الرقعة التِي وجدوها عنده، وفيها شيء من الملاحم وغيرها من الأخبار.

ولما ذَكَرَ سبحانه القصة، ونزاع المُتَخَاصِمِينَ فيما بينهم، شرع يقص عَلَيْنا ما دَارَ في عهد النبي ﷺ من الخِلاَفِ في عدد أصحاب الكهف. فقال: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ الخ، والضمائر[1] في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين، لكن لا على وجه إسناد كل قول إلى كل منهم، بل على التوزيع، سألوا رسول الله ﷺ عن أصحاب الكهف، فأخر الجوابَ إلى أن يُوحى إليهِ فيهم، فنزلت إخباراً بما سَيَجْري بينهم من اختلافهم

(١) روح البيان.

في عددهم، وَأَنَّ المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم.

قيل: وإنما أتى[1] بالسين في هذا، لأن في الكلام طيّاً وإدماجاً، تَقْدِيرُه: فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف، فسلهم عن عددهم، فإنهم سيقولون، ولم يأت بهم في باقي الأفعال، لأنها معطوفة على ما فيه السين، فأُعطيت حكمه من الاستقبال .اهـ «سمين»؛ أي: سيقول عبيد الله[2] اليهود لَكَ يا محمد عند سؤالك إياهم عن عدد أصحاب الكهف: هم؛ أي: أصحاب الكهف: ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾؛ أي: ثلاثة أشخاص، وقرأ ابن محيصن، ﴿ثلاث﴾ بإدغام الثَّاء في التاء، وحسن ذلك لقرب مخرجهما، وكونهما مهموسين؛ لأنَّ الساكِنَ الذي قبلَ (الثَّاء) من حروف اللين فحسن ذلك، ذكره في «البحر»، وجملة قوله: ﴿رَّابِعُهُمْ﴾؛ أي: جاعلهم أربعة، بانضمامه إليهم، ﴿كَلْبُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من (ثلاثة)؛ أي: حالة كون كَلْبِهِم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: النصارى، وإنما لم يأت بالسين فيه؛ اكتفاء بعطفه على ما هي فيه: هم ﴿خَمْسَةٌ﴾؛ أي: أصحاب الكهف خمسة أشخاص، وقرأ شبل بن عباد، عن ابن كثير، بفتح ميم خمسة، وهي لغة كَعَشَرة، وقرأ ابن محيصن بِكَسْرِ الخاء والميم، وبإدغام التاء في السين، وعنه أيضاً: إدغام التنوين في السين، بغير غنة ذكره في «البحر». وجملة قوله: ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من خمسة؛ أي: حالة كونه جاعلهم ستة كلبهم بانضمامه إليهم، ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يقول كلا الفريقين ما قالوا من العدد رجماً بالغيب، أي: ظنّاً بالغيب؛ أي: بما خفيَ عنهم من غير دليل، ولا برهان، وانتصابه على الحالية من الضمير في الفعلين معاً؛ أي: يقول كلا الفريقين ما قالوا حَالَةَ كونهم راجمين بالغيب؛ أي: ظانين بالخبر الخفي عنهم، أو على المصدرية منهما، فإن الرجم والقول واحد؛ أي: يرجمون ذلك رجماً بالغيب؛ أي: يقولونه قولاً بالغيب.

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.

والحاصل: أن المقصودين بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين، القائلينَ بأنهم ثلاثة، والقائلينَ بأنهم خَمْسَةٌ، ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المسلمون هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وقرىء: ﴿وثامنهم كالبهم﴾؛ أي: صاحب كلبهم، وهذا هو الحقُّ، بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنَّهما رجم بالغيب، فأرشد ذلك إلى أن الحال في الأخير بخلافه، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم، وطمأنينة نفس، بطريق التلقن من الوحي؛ لأن الوحي مقدم على المقالة المذكورة على ما يدل عليه السين، فعرفوا ذلك بإخْبَار الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام.

و(الواو)[1] الداخلة على الجملة الثالثة هي (الواو) التي تدخل على الجملة الواقعة صفة، كما تدخل على الجملة الواقعة حالاً عن المعرفة، في قولك: جاءني رجل ومعه آخرُ، ومررت بزيد وفي يده سيف، وفائدتها: توكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابتٌ مستقرٌ، وهذه (الواو) هي التي أذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم، ولم يَرْجموا بالظن كما رجم غيرهم، دليله أن الله تعالى أتبع القولَين الأوَّلَيْنِ قوله: ﴿رجماً بالغيب﴾، وأتبع القول الثالثَ قوله: ﴿قُل﴾ يا محمد ـ تحقيقاً للحق، ورداً على الأولين ـ: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ منكم؛ أي: عالم بعدد أصحاب الكهفِ، وقد أخبرَكم بها، بقول: سبعة، وثامنهم كلبهم.

والمعنى: هو سبحانه أَقْوَى علماً، وأَزْيَدَ في الكيفية، فإنَّ مَراتِبَ اليقين متفاوتة في القوة، ولا يَجُوزُ أن يكونَ التفضيلُ بالإضافة إلى الطائفتين الأوليين، إذ لا شِرْكَة لهما في العِلْم، اهـ «كرخي» ثم أثبت علم ذَلِكَ لقليل من الناس فقال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ﴾؛ أي: ما يَعْلَمُ ذواتهم فضلاً عن عددهم، أو ما يعلم عددهم فهو على حذف مضاف، ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ من الناس قد وفقهم الله تعالى، وهم القائلون: هم سبعة، وثامنهم كلبهم.

---

(١) النسفي.

روى قتادة عن ابن عباس أنه قال: أنا من القليل الذي استثنى الله تعالى، كانوا سبعة سوى الكلب.

وفي هذا[1]: دلالة على أن المهمَّ ليس هو معرفة العدد، بل المهم الاعتبار بذلك القصص، وبما يكون نافعاً لعقولنا، وتطهيراً لأخلاقنا، ورقياً في حياتنا الدنيوية، والأخروية، وفي «الفتوحات»: المثبت في حق الله تعالى هو الأعلمية بالمعنى الذي عَرَفْتَه، وفي حق القليل العالمية، فلا تعارض، وهذا هو الحق، لأنَّ العلم بتفاصيل كائنات العالم وحوادثه في الماضي والمستقبل لا يحصل إلا عند الله تعالى، أو عند مَنْ أخبره الله تعالى عنها، اهـ رخى».

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القَصَصَ نهى رسوله ﷺ عن شيئين: المراء في أمرهم، والاستفتاء في شأنهم، فقال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾، والفاء لتفريع[2] النهي على ما قبله؛ أي: إذا عرفت جهل أصحاب القولين الأولين، فَلاَ تُجادِلْهُمْ، ولا تنازعهم ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في شأن أصحاب الكهف ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾؛ أي: إلاَّ جِدَالاً ظاهراً غير متعمق فيه، ونزاعاً سهلاً ليناً، وهو أن تقصَّ عليهم ما في القرآن من غير تكذيب لهم، في تعيين العدد، ولا تصريح لهم بجهلهم، وتفضيح لهم، فإنه مِمَّا يُخل بمكارم الأخلاق التي بُعث لإتمامها، ولا يترتب على ذلك كبير فائدة؛ لأن المَقْصد من القصة هو العظة والاعتبار، ومعرفة أن البعث حَاصِلٌ لاَ محالةَ، وهذا لا يتوقف على عدد معين، بل تقول هذا التعيين لا دليل عليه، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾؛ أي: ولا تسأل في شأن أصحاب الكهف ﴿مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾؛ أي: أحداً من أهل الكتاب، فإنَّهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع، ولا نص صريح، وقد جاءك ربك بالحق الذي لا مريةَ فيه، فهو الحكَمُ المقدم على كل ما تقدم من الكتب والأقوال

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

السالفة، وفي الآية[1] دليل على مَنْعِ المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ نهي تأديب؛ أي: ولا تقولَنَّ يا محمد ﴿لِشَاْىْءٍ﴾؛ أي: لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾؛ أي: فيما يستقبل من الزمان مطلقاً، فيدخل فيه الغد، وهو اسم لليوم الذي بعد يومك، دُخولاً أولياً، فَإِنَّهُ نزل حين قالت اليهود لقريش، سلُوهُ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه ﷺ فقال: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يستثن؛ أي: لم يقل إن شاء الله، وتَسْمِيته استثناءً لأنه يشبه الاستثناء في التخصيص، فأبطأ عليه الوحي أياماً حتى شق عليه، وكذبته قُرَيْش، وقالوا ودَّعه ربه وأبغضه، كما مر في أسباب النزول، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلاَّ قائلاً إن شاء الله تعالى، فهو استثناء مُفَرَّغٌ من النهي؛ أي: لا تقولن لشيء: إنّي فاعل ذلك غداً في حالٍ من الأحوال، إلاَّ في حال تلبسك بالتعليق بالمشيئة على الوجه المعتاد، كأن تقول: إن شاء الله.

والمعنى: أي ولا تقولَنَّ أيها الرَّسولُ لشيء: إنّي سأفعل ذلك غداً إلاَّ أن تقولَ: إن شاءَ الله، ذاك أنه رُبَّما ماتَ المرء قبل مجيء الغد، أو ربما عاقه عائق عن فعله، فَإذا لم يقل: إن شاء الله.. صَارَ كاذباً في ذلك الوعد، ونَفَر الناس منه.

قال ابن الجوزي[2]: وفائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب، إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله: في قصة موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، ولم يصبر، فسلم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه اهـ.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ يا محمد؛ أي: واذكر مشيئة رَبّكَ؛ أي: قل إن شاء الله ﴿إِذَا

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير.

﴿نَسِيتَ﴾ المشيئة، أولاً؛ أي[1]: واذكر مشيئة رَبِّكَ إذَا فرطَ منك نسيان، ثم تذكرت ذلك، وهذا أمر بالتدارك حين التذكرِ سواءٌ أطال الفصل أم قصر. أو المعنى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ بالتسبيح والاستغفار، وغيرهما ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ كلمة المشيئة، وهذا مبالغة في الحث على ذكر هذه الكلمة.

وقد حقق الله سبحانه له ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم مَا كَانَ أوضحَ في الحجة، وأقربَ إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف.

وخلاصة ذلك: اطمعْ من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً، ومنفعة في ضمن ما ألقى إليكَ من الأوامر، والنواهي، وقد استجاب الله دعاءه، فهداه فيما أنزل عليه ما هو خير منفعة، وأجدى فائدة للمسلمين، في دنياهم وآخرتهم، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس، وقيل[2]: الإشارة إلى قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي: عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر، بدل هذا المنسيّ، وأقرب منه رشداً، وأدنى منه خيراً وَمَنْفَعَةً، والأولَى أَوْلَى.

ثم بيّن سبحانه ما أجمل في قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾؛ أي: لبث الفتية في كهفهم أحياء نياماً حين ضَرَبْنا على آذانهم، ﴿ثلاث مئة سنين﴾ فَقَطْ؛ أي: ثلاث مئة سَنَةٍ فقط، على حساب أهل الكتاب الذين علَّموا قومَكَ السؤَال عن شأنهم؛ لأنَّ السِّنِينَ عندهم شَمْسِيَّةٌ ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾؛ أي: وازْدَادَ أصحاب الكهف في لبثهم تسع سنوات على ثلاث مئة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك، فجملة ما لبثوا في كهفهم على حساب قومك، ثلاث مئة سنة وتسع سنوات، لأنَّ السنين عندهم قمريةٌ، ولا شك[3] أنَّ في هذا البيان معجزة لرسوله ﷺ النبي الأمي، الذي لم يقرأ، ولم

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

يكتب، ولم يدرس الحساب، ولا الهندسةَ ولا الفلكَ، فمن أين له أن كل مئة سنة شمسية، تزيدُ ثلاث سنين قمرية، وكلَّ ثلاث وثلاثين سنةً شمسيةً تزيد سنةً قمريةً، وكل سنة شمسية تزيد عَشَرَةَ أيامٍ، وإحدى وعشرين ساعةً، وخُمس ساعة على السنة القمرية.

والسنة الشمسية[1]: مُدَّةُ وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من ذلك البرج، وذلك ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم.

والسنة القمرية: اثنا عشر شهراً قمرياً، ومدتها ثلاث مئة وأربعة وخمسون يوماً وثلث يوم، وقرأ الجمهور ﴿مئة﴾ بالتنوين، فسنين بدل أو عطف بيان لثلاث مئة لا تمييز[2]، وإلا لكان أقل مدة لبثهم عند الخليل ست مئة سنة، لأن أقلَّ الجمع عنده اثنان، وعند غيره تسع مئة، لأن أقله ثلاثةً عندهم، هذا على قراءة ﴿مئةٍ﴾ بالتنوين، وأمّا على قراءة الإضافة، فأقيم الجمع مقام المفرد؛ لأنَّ حق المئة أن يضاف إلى المفرد، وجه ذلك: أن المفردَ في ثلاث مئة درهم في المعنى جمع، فحسن إضافته إلى لفظ الجمع، كما في الأخسرينَ أعْمَالاً فإنه مُيِّز بالجمع.

وقرأ حمزة[3]، والكسائي، وطلحة، ويحيى، والأعمش، والحسن، وابن أبي ليلى، وخلف، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي: ﴿مئة﴾ بغير تنوين مضافاً إلى سنينَ، أوقع الجمْعَ موقع المفرد، كما مر آنفاً، وقرأ أُبَيٌّ ﴿سنة﴾ وكذا في مصحف عبد الله، وقرأ الضحاك: ﴿سنون﴾ بالواو على إضمار، هي سنون، وقَرأ الحسن، وأبو عمرو، في رواية اللؤلؤي عنه ﴿تَسْعا﴾ بفتح التاء كما قالوا عشر، ثم أكد أن المُدَّة المضروبة على آذانهم، هي هذه المدة، فَقَالَ: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد إذا نازعوك فيما ذكرنَا: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا لَبِثُواْ﴾؛ أي: بمدة لبثهم، وقد أخبرنا بمدَّتِه، فهو الحق الذي

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

لا يحومُ حوله شك، وقال البغويُّ: وهذه الجملة مرتبة على محذوف تقديره: إن الأمر في مُدة لبثهم كما ذكرنَا، فإن نازعوك فيها فأجبهم، و﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾؛ أي: بالزمان الذي لبثوا فيه، لأن علم الخفيَّاتِ مختص به تعالى، ولذلك قال: ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى خاصة ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: علْمُ ما غَاب عن أهل الأرض، والسموات فيهما، يعني: أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أحوال أهلها، فإنه العَالِمُ وحده به، فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف، لا يعزب عنه علم شيء منه، فسلِّموا له علم ما لبثت به الفتية في الكهف، وإذا علم الخفي فيهما، فهو بعلْم غيره أدرى.

ومن ذلك العلْمِ الغائب على كثير من العقول، حساب السنة الشمسية والقمرية، فقد غيَّبَه الله عن بعض الناس، ولم يطلع عليه إلاَّ العارفين بحساب الأفلاك، ومنْ ثم يَعجبون من أمر نبيهم، ويعلمون أنَّ هذا مَبْدأُ زينة الأرض وزخرفها.

وفائدة تأخير بيان مدة لُبثهم(١): الدلالة على أنهم تَنَازَعُوا فيها أيضاً، كما تَنَازَعُوا في عددهم على أن هذا البيان من الغيب الذي أخبر الله به نبيه ﷺ لِيكونَ مُعْجِزة له، وجاءَ قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ تذييلاً لِسَابقهِ لِيَكُونَ محاكياً قوله في حكاية عددهم ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

ثم زاد في المبالغة والتأكيد، فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَأَسْمِعْ﴾ به تعالى؛ أي: ما أبصر الله سبحانه وتعالى بكل موجود، وأسمعه بكل مسموع، فهو لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يُتَعَجَّبَ منه، وقَدْ وَرَدَ مثل هذا في الحديث «سُبْحَانَكَ ما أحلمك عمن عصاك، وأقربك ممن دعاك، وأعطفك على من سألك».

فأفاد هذا التركيب التعجب من علمه سبحانه وتعالى، ودل على(٢) أن شَأْنه

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأَنَّهُ يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف، وكأن أَصْله: ما أبصره وما أسمعه، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، و(الباء) زائدة عند سيبويه، وخالفه الأخفش، والبحث عنه مقرر في علم النحو، وسنذكر طَرَفاً منه في مبحث الإعراب، وقرأ عيسى ﴿أسمع به وأبصر﴾ على الخبر فِعْلاً مَاضِياً لا على التعجب؛ أي: أبصر عباده بمعرفته، وأسمعهم، و(الهاء) كناية عن الله تعالى ﴿مَا لَهُم﴾؛ أي: ما لأهل السموات والأرض، وقيل: لأهل الكهف، وقيل: لمعاصري محمد ﷺ من الكفار ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يَلي أمورهم، وناصر ينصرهم، ومدبر يدبر شؤونهم، فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير إعلامه تعالى، وفي هذا بيان لغاية قدرته، وأن الكُلَّ تَحْتَ قهره. ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِي حُكْمِهِۦ﴾ وقضائه، أو في علم غيبه ﴿أَحَدًا﴾ من مَخْلُوقَاتِهِ، فله خاصة الخلق والأمر، لا معقِّب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير، ولا شريك، تعالى الله وتقدست أسماؤه.

أي: لا[1] يجعل الله تعالى أحداً من الموجودات العلوية والسفلية شريكاً لذاته العلية في قضائه الأزلي إلى الأبد، لعزته وغناه، قال الإمام: المعنى أنه تعالى لما حكى أَنَّ لُبْثَهُمْ هو هذا المقدار.. أَرَادَ أنه ليس لأحد أن يَقُولَ بخلافه، انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء على النفي، وقرأ مجاهد بالياء، والجزم قال يعقوب: لا أعرف وجهه. وقرأ ابن عامر، والحسن، وأبو رجاءَ وقتادة، والجحدري، وأبو حيوة، وزيد، وحميد بن الوزير، عن يعقوب، والجعفي، واللؤلؤي، عن أبي بكر، ﴿ولا تشرك﴾ بالتاء والجزم على النهي، والمعنى: ولا تشرك أيها الإنسان ﴿وَٱتْلُ﴾، أي: واقرأ يا محمد ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ما أُنزل إليك ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾؛ أي: من القرآن بيان للموحَى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

إليه، للتقرب إلى الله تعالى بتلاوته، والعمل بموجبه، والاطلاع على أسراره، ولا تسمع لقولم، ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، والفرق[1] بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة قراءة القرآن متابعة كالدراسة، والأوراد الموظفة، والقراءة أعم؛ لأنها جمع الحروف باللفظ لا اتباعها، قِيلَ[2]: ويحتمل أن يكون معنى قَوْلِهِ: ﴿وَٱتْلُ﴾ واتبع أمراً، من التُّلُوّ لا من التلاوة.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لكلمات الله سبحانه وتعالى؛ أي: لا مغير للقرآن؛ أي: لا قادِرَ على تبديله، وتغييره غيره تعالى كقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ فَهُوَ عَامٌّ مَخْصُوصٌ فافهم، فإن قلت[3]: مُوجَب هذا أن لاَّ يتطرق النسخ إليه؟.

قلت: النسخ في الحقيقة ليس بتبديل؛ لأن المنسوخَ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ، فالناسخ المغاير، فكيف يكون تبديلاً، وقِيلَ: معناه لا مغير بما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه، وقيل: معناه لا مُغَيّرَ بأوامره ونواهيه، وبوعده لأولياه، ووعيده لأعدائه.

﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبد الدهْرِ، وإن بَالَغْتَ في الطلب ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: ملجأً وحرزاً تعدل إليه عند نزول بلية، قال الزجاج: لن تجد مَعْدلاً عن أمره ونهيه، أي: إنك إن لم تتبع القرآنَ وتتله، وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه، ومكاناً تميل إليه.

وحاصل معنى الآية: أي[4] واتل أيها الرسولُ الكتاب الذي أوحي إليك، والزم العمل به، واتَّبِعْ ما فيه من أمر ونهي، وإن أحداً لاَ يستطيع أن يغير ما فيه من وعيد لأهل معاصيه، ومن وعد لأهل طاعته، فإن أَنْتَ لم تتبعه، ولم تأتَمَّ به، فنالك وعيد الله الذي أوعد المخالفين حدوده، فلن تجد من دونه موئلاً، ولا ملجأ تلتجىء إليه؛ إذ قدرة الله محيطةٌ بك، وبجميع خلقه، لا يقدرُ أَحَدٌ على

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) الخازن.

(٤) المراغي.

الهرب من أمر أرادَهُ به.

وفي[1] أمره تعالى أن يتلو ما أوحي إليه، وإخباره أنه لا مبدّلَ لكلماته، إشَارةٌ إلى تبديل المتنازعينَ في أهل الكهف، وتحريف أخبارهم، وهذه الآية آخر قصَّةِ أهل الكهف.

ثمَّ شَرَعَ سبحانه في نوع آخر، كما هو دأب الكتاب العزيز فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾؛ أي: احبسها وثبتها مصاحبة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، ويذكرونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ أي: في أول النهار وآخره، والمراد الدوام؛ أي: مداومين على الدعاءِ في جميع الأوقات، أو بالغداةِ لطلب التوفيق والتيسير، والعشي لطلب عفو التَّقْصِير، وقال ابن عمر، ومجاهدٌ، وإبراهيم: ﴿والعشي﴾ إشارةٌ إلى الصلوات الخمس، وقال قتادة: إلى صلاة الفجر، وصلاة العصر.

وقرأ نَصْرُ بن عاصم، ومالك بن دينار، وأبو عبد الرحمٰن، وابن عامر: ﴿بالغدوة﴾ بالواو، واحتجوا بأنها في المصحف كذلك مكتوبة بالواو قَالَ النَّحَّاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكادُ العرب تقول: الغدوة، وجملة قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم في تلك الأوقات ﴿وَجْهَهُۥ﴾ تعالى، ورضاه، حال من الضمير المستكن في يدعون؛ أي: يدعون ربهم حَالَةَ كونهم مريدين بدُعائهم، وعبادتهم، وجهه تعالى ورضاه، لا شيئاً آخر من أعراض الدنيا.

والمعنى: أي احبسْ نفسك وثبتْها مع فقراءِ الصحابة، كعمار بن ياسر، وصهيب، وبلال، وابن مسعود، وأضرابهم ممن يدعون ربَّهُمْ بالغداة والعشي بالتسبيح، وصالح الأعمال، ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون عرضاً مِن أعْرَاضِ الدنيا، ولا شَيْئاً من لذاتها ونعيمها.

/ رُوي: أن عيينة بن حصن الفزاري، أتى النبي ﷺ قَبْلَ أن يسلمَ، وعنده جماعة من فقراءِ أصحابه، فيهم سلمان الفارسي، وعليه شملة قد عرق فيها، وبيده خوص يشقه، ثم ينسجه، فقال له: أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات

(١) الشوكاني.

مُضَر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم النَّاسُ، وما يَمْنَعُنَا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحّهم حتى نتبعك أو اجعل لهم مجلساً، فنزلت هذه الآية كما مَر في أسباب النزول، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، ومقال هؤلاء شبيه بمقالة قوم نوح ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ ثم أمره سبحانه بمراقبة أحوالِهم فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾؛ أي: ولا تلتفت عيناك، ولا تنصرف ولا تمل ﴿عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة، وهَذَا نهيٌ[1] للعينين، والمراد صاحبهما، يعني نهيه عليه السلام عن الازدراء بفقراء المسلمين، لرثاثة زيهم، طموحاً إلى زيّ الأغنياءِ، وقيل: معناه: لا تحتقرهم عيناك، حَالَة كونك يا محمد ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف، وصحبة أهل الدنيا، وفي إضافة الزينة إلى الحياة الدنيا تحقير لشأنها، وتنفير عنها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ على نسبة الفعل إلى العينين، وقَرَأَ الحسن: ﴿تعد﴾ عينيك بالتشديد، والتخفيف من عدَّى أو أعدى، وقرأ الأعمش، وعيسى: ﴿ولا تعد﴾ بالتشديد ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ يا محمد، أي: لا توافق في تنحية الفقراء عن مجلسك، ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾؛ أي: من جعلنا قلْبه غافلاً عن ذكرنا، كعُيينة بن حصن، وقيل: أميَّة بن خلف، والغفلة: معنًى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور؛ أي: جَعَلْنا قَلْبه في فطرتِه الأولى غافلاً عن الذكر، ومختوماً عن التوحيد، كرؤساء قريش، وفيه تنبيه على أنَّ الدَّاعِي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات، وانهماكه في المحسوسات، حتى خفيَ عليه أن الشَّرَف بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعَهُ كان مثله في الغباوة؛ أي: ولا تطع من أغفلنا قَلْبَه عن ذكرنا، أي: عن تَوْحِيدِنَا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: شَهْوَتَه في عبادة الأصنام ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ وشأنه، وعملُه ﴿فُرُطًا﴾؛ أي: ضَائِعاً لا ينتفع به في الدنيا والآخرة.

وفي «التأويلات النجمية»: وكان أمْرُه في متابعة الهوى هلاكاً وَخُسْرَاناً،

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو البقاء.

وقيل: متجاوزاً عن حَدّ الاعتدال، وقرأ أبو مجلز[1]، وعمر بن فائد، وموسى الأسواريّ، وعمرُو بن عبيد ﴿أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ بفتح لام أغفلنا، ورفع باءِ القلب بإسناد الإغفالِ إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه غافلينَ عن ذِكْرنا إياه بالمؤاخذةِ وَالْمُجَازَاة. ومعنى الآية ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ الخ؛ أي[2]: ولا تصرف بصركَ، وَنفسك عنهم رغبة في مُجَالَسَةِ الأغنياء لعلهم يؤمنون.

وخلاصة ذلك: النهيُ عن احتقارهم، وصرف النظر عنهم إلى غيرهم، لسوء حالهم وقبح بزتهم، روي أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: ـ لما نزلت الآيةُ ـ «الحمد لله الذي جعل في أمتي مَنْ أُمرتُ أن أَصْبِرَ نَفسي مَعه» ثم هذا النهي بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا﴾ الخ؛ أي: ولا تطع في تنحية الفقراء عن مجلسك مَنْ جَعَلْنا قلبَهُ غَافِلاً عن ذكر الله وتوحيده، لسُوءِ استعداده، واتباع شهوته، وإسرافه في ذلك غايةَ الإسراف، وتدسِيَتِهِ نَفْسَهُ حتى ران الكفر والفسوقُ والعصيانُ على قلبه، وتمادَى في اجتراح الآثام والأوزار، وبعد أن أمر رسولَه ﷺ أَنْ لا يلتفتَ إلى قول أولئك الأغنياء، الذين قَالُوا: إن طردت أولئك الفقراء آمنَّا بك، أمره أنْ يَقُول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد، هذا هو الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتَّبعوا أهواءهم، هذا الذي أوحي إلي هو ﴿الْحَقُّ﴾ حَالَةَ كونه كائناً ﴿مِن﴾ عند ﴿رَبِّكُمْ﴾ ومالك أمركم، لا من قبل نفسي، وهو الذي يجب عَلَيْكُم اتبَاعه، والعمل به، فقد جاء الحقُّ، وانزاحَتْ العلل، فلم يبق إلاَّ اختياركم لأنفسكم، ما شئتم مما فيه النَّجَاة أو الهلاك، ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أنْ يُؤْمِن به ويدخل في غمار المؤمنين، ولا يتعلل بما لا يصلح أَنْ يكون معذرة له، ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ به، لأن الحَقَّ قد وضح، واختفى الباطل ﴿وَمَن شَاءَ﴾ أن يكفر به، وينبذه وَرَاء ظهره، ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾، ولست بطارد ـ لأجل أهوائكم ـ من كان للحق متبعاً، وبالله وبما أنزل عليَّ مؤمناً، فالله تعالى لم يأذن لي في طرده لأجل أن يدخُلَ في الإيمان جمع من الكفار، وهذه الجملة وَرَدت مورد تهديد، لا مورد

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تخيير، ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّني في غنىً عن متابعتكم، وإنني لا أبالي بكم، ولا بإيمَانِكم، وأمر ذَلِكَ إليكم، وبيد الله التوفيق، والخِذْلان، والهَدى، والضلال، وهو لا يَنْتَفِع بإيمانِ المؤمنين، ولا يضره كُفْرُ الكافرين كما قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وقرأ[2] أبو السِمالِ قعنب ﴿وقل الحَقُّ﴾ بفتح اللام، حَيث وَقَعَ. قال أبو حاتم: وَذَلِك رديء في العربية انتهى. وعنه أيضاً ضم اللام حيث وَقَعَ كَأَنَّهُ إتباع لحركة القاف، وقرأ أيضاً الحقُّ بالنصب، قال صاحبُ «اللَّوامح» هو على صفة المصدر المقدر؛ لأنَّ الفِعْلَ يدل على مصدره، وإن لم يُذكر، فينصبه معرفة كنصبه إيَّاهُ نكرة، والتقدير: وَقُل القول الحقَّ، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي بكسر لامي الأمر.

ولما هدد السامعينَ بأن يختاروا لأنفسهم ما يَجدُونه غَداً عند الله، أتبعه بذكرِ الوعيد على الكفر والمعاصي، والوعد على الأعمال الصالحة، وبدأ بالأولِ فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ راجع[3] لقوله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخ راجع لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ فهو لف ونشر مشوش؛ أي: إنَّا أعددنا وهيأنا، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: للكافرين ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: ناراً عظيمةً عجيبةً، أحاط بهم سورها، وجدرانها، وفُسْطَاطها، فلا مخلص لهم منها؛ أي: إنا قد أعددنا لمن ظلم نفسه، وأنف من قبول الحق، ولم يؤمن بما جاء به الرسول ناراً، يحيطُ بهم لهيبها، المستعر من كل جانب، كما يحيط السُّرَادِقُ والفسطاطُ بمن حل فيه، فلا مخلص منه، ولا ملجأ إلى غيره، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش؛ أي: وإن يستغث هؤلاء الظالمون يَوْمَ القيامة، وهم في النار، فيطلبوا الماءَ لشدة ما هم فيه من العطش لحر جهنم، كما قال في سورة الأعراف حكاية عنهم: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، أي: كدري

---

(1) المراغي.
(2) البحر المحيط.
(3) الفتوحات.

الزيت، أو كالفِضَّةِ المذابَةِ ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ وينضجها، والشيُّ: الإنضاج بالنار من غير إحراق، كما سيأتي في مبحث التصريف؛ أي: إذا قرب إلى الفم ليشربَ سقطت فروة وَجْهه؛ أي: يؤتى لهم بماء غليظ كدريّ الزَّيْت وعكره؛ إذا قرب إليهم للشرب سقطت جلود وجوههم، ونضجت من شِدَّةِ حره.

روى أحمد، والترمذي، والبيهقي، والحاكم عن أبي سعيد الخدري: أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «المهل كعكر الزيت» ـ بفتحتين ـ ما بقي في أسفل الإناء، «فإذا قُرِّب إليه سقطت فروة وجهه» وعن ابن عباس قال: أسود كعكر الزيت.

والمعنى: أنَّه يُنضج به جميع جلودهم. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك الماءُ الموصوف؛ لأن المقصودَ بشرب الماء تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في الإحراق مبلغاً عَظِيماً، فالمخصوص بالذم محذوف تقديره: هُوَ؛ أي: ذلك الماء المستغاث به كما قدرنا ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار، وقبحت ﴿مُرْتَفَقًا﴾؛ أي[1]: متكأ، ومنزلاً، وأصل الارتفاق نصب المرفق، تحت الخد، وهو تمييز محول عن الفاعل، والأصل: قبح مرتفقها، فحوِّل الإسناد إلى النار، ونصب مرتفقاً على التمييز مبالغة وتأكيداً؛ لأن ذِكْرَ الشيء مبهماً ثُمَّ مفسراً أوقع في النفس من أن يُفسَّرَ أولاً، وأعربه بَعْضُهم مَصْدراً بمعنى الارتفاق، فعبر عن الإضرار والعذاب بالمرتفق الذي هو المنتفع به، أو نَفْسُ الانتفاع على سبيل المشاكلة، لقوله في الجنة: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وإلاَّ فأي ارتفاق في النار؟!

والمعنى: أي ما أقبحَ هذا الشراب الذي هو كالمهل، فهو لا يطفىء غلة، ولا يُسَكن حرارة الفؤاد، بَلْ يزيد فيها إلى أقصى غاية، وما أسوأ هذه النارَ منزلاً ومرتَفَقاً، ومُجْتَمَعاً للرفقة مع الكفار والشياطين، وجاءَ في الآية الأخرى ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ ثم ثنى بِذِكْرِ السعداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بالْحَقّ الذي أوحي إليك، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال؛ أي: جمعوا بَيْنَ عَمَلِ القلب، وعَملِ الأَرْكانِ، والصالحات؛ جمع صالحة وهي[2] في الأصل صفة، ثمَّ غلب استعمالها فيما حسَّنَه الشرع من الأعمال، فلم تحتج إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.

موصوف، ومثلها الحسنة فيما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ﴾ منهم ﴿عَمَلًا﴾ مفعول أحسنَ، والتنوين فيه للتقليل، والأجر: الجزاءُ عَلَى العمل؛ أي: لا نبطل ثواب من أَخْلَصَ منهم عملاً، ووضع الظاهر موضع المضمر، إِذْ حق العبارة أن يقال: إنَّا لا نضيع أجرهم، للدلالة على أن الأَجْرَ إنما يُستحق بالعمل دون العلم، إذْ بِهِ يستحق ارتفاع الدرجات، والشرفُ، والرُّتَب، وقرأ عِيسَى الثقفي ﴿إنا لا نضيِّع﴾ من ضيع عداه بالتضعيف، والجمهور من أضاع عدوه بالهمزة.

والمعنى: أي[1] إن الذين آمنوا بالحق الذي يُوحى إليك، وعملوا ما أمرهم به ربهم، فالله لا يضيع أَجْرَهم على ما أحسنوا من الأعمال، ولا يَظْلِمُهُم على ذلك نقيراً ولا قطميراً، ثُمَّ بيَّن ما أعدَّ لهم من النعيم بقوله:

١ - ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: بساتين إقامة وخلود، يعني تخلد هي، ويخلد فيها صاحبها، ويجوز[2] أن يكون العدن: اسماً لموضع معين من الجنة، وهو وسطها، وأشرف مكان فيها، وقوله: جَنَّات لفظ جمع، فَيُمْكِن أن يكونَ المراد ما قاله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾، ويمكن أن يَكُونَ نصيب كل واحد من المكلفينَ جنة على حدة.

٢ - ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾؛ أي: من تحت مساكنهم، وقصورهم ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة من الخمر، واللبن، والعسل، والماءِ العذب، وذلك لأن أفضل البساتين في الدنيا البساتين التي تجري فيها الأنهار؛ أي: إنَّهُ لهم جنات يقيمون فيها، تجري من تحت غرفها الأنهار.

٣ - ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: يُلْبسُون في تلك الجنات، وحكى الفراء ﴿يَحْلَوْنَ﴾ بفتح الياء وسكون الحاء، وفتح اللام من حليت المرأة، إذا لبست الحلي، وهي ما تتحلى وتتزين به من ذهب وفضة وغير ذلك من الجواهر. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿من﴾ زائدة بدليل سقوطها في سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وقيل: ابتدائية، وأساور جمع أسورة، وهي جمع سوار، وهي زينة تلبس في الزند من اليد، وهي من زينة الملوك، يعني في الزمن الأول، وتنكيرها لتعظيم حسنها، قال في «بحر العلوم»[1]: وتنكير أساور للتكثير والتعظيم، ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿من﴾ بيانية صفة لأساور، وتنكيره لتبعيده من الإحالة به، وظاهر[2] الآية: أنها جميعها من ذهب، وجاء في آية أخرى ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، وفي أخرى ﴿مِن ذَهَبٍ﴾، ولؤلؤ فيجمَع بَيْنَها بأنهم يحلون بالأساور الثلاثة، إما على سبيل المعاقبة، أو على سبيل الجمع كما تفعله نساء الدُّنْيا، فيكونُ في الواحد منهم سوار من ذهب، وآخر من فضة، وآخر من لؤلؤ، وَقَرَأَ أبان عن عاصم، من: ﴿أسوره﴾ من غير ألف، وبزيادة هاء، وهو جمع سوار.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوءُ» أخرجه البخاري ومسلم، وغيرهما.

٤ ـ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾؛ أي: ذوات خُضْرة؛ لأن[3] الخُضْرَةَ أحسن الألوان، وأَكْثَرُها طراوة، وأحبها إلى الله تعالى، ولأنها هي اللون الموافق للبصر، وقرأ أبان: ﴿ويلبسون﴾ بكسر الباء وعبارة «المراغي» هنا: واختير اللون الأخضر، لأنه أرفق بالأبصار، ومن ثَمَّ جعله الله لونَ النبات والأشجار، وجعل لون السماء الزرقة؛ لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضاً، وقد قالوا: أربعة مذهبة للهم والحزن: الماء، والخضرة، والبستان، والوجه الحسَنْ. ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ بيان لتلك الثياب، صِفَةٌ لها، وهو ما رق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وَهُوَ ما غلظ منه، والدِّيبَاج: الثوب الذي سدَاه ولحمته إبْريسمٌ وحريرٌ، وإنما جمع بين النوعين للدلالة على أن لبسهما مما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وقرأ ابن محيصن: ﴿واستبرقَ﴾ بوصل الألف وفتح القاف حَيْثُ وقع جعله فِعْلاً ماضياً على وزن استفعل من البريق، ويكون استفعلَ فيه موافقاً للمجرد الذي هو برق، ذكره في «البحر».

---

(١) روح البيان. (٢) السمرقندي. (٣) المراغي.

فإن قيل: ما السبب في أنه تعالى قال في الحُلي ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بالبناء للمفعول، وفي اللباس: ﴿يلبسون﴾ بالبناء للفاعل؟

قلنا: بنى في الأول للمفعول إيذاناً[1] بكرامتهم، وأن غيرهم يَفْعل بهم ذلك، ويزينهم به، بخلاف اللبس، فإن الانسان يَتعاطاهُ بنفسه شريفاً أو حقيراً، وقدم التحلي على اللباس؛ لأنه أشهى للنفس اهـ «سمين».

وقال بعضهم: لا شك[2] أن لباسَ السّتْرِ يلبسه المرء بنفسه، ولو كان سُلْطَاناً.. فلذا أُسند إليه، وأما لباس الزينة فغيره يزيِّنه به عادة كما يشاهد في السلاطين والعرائس، ولذا أُسند إلى غيره على سبيل التعظيم والكرامة.

٥ ـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾؛ أي: حَالَةَ كونهم متكئين في الجنة، وجالسينَ فيها، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ والسرر متربعين عليها، وفي «الجمل»: مُتَّكِئِينَ: حال عاملها محذوف؛ أي: ويجلسون متكئين؛ أي: متربعينَ ومضطجعينَ جمع أريكة، وهي: السَّرِير في الحجال، ولا يسمى السرير وحده أريكة، إلاَّ إذَا كان في الحجال والحجالُ: جمع حَجَلة، وهي بيت يزيَّن بالثياب للعروس، وخص[3] الاتكاء؛ لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أَسِرَّتهم؛ أي: يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور، وفي هذا دليل على منتهى الراحة والنعيم، كما يَكُونُ ذلك في الدنيا، وأصل ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ مؤتكئين؛ لأنه من اتكأ، أصله: أوتكأ، كما سيأتي في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى.

وقد اشتملت الآية[4] على خمسة أنواع من الثواب كما أَشَرْنا إليها بالأرقام، الأول: لهم جنات عدن، الثاني: تجري من تحتهمْ... إلخ، الثالث: يُحلَّوْنَ فيها، الرابع: ويلبسون ثِيَاباً... إلخ، والخامس: متكئين فيها... إلخ اهـ شيخنا.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الذي أثابهم الله به بأنواعه الخمسة المتقدمة، والثواب فاعل والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: هي؛ أي: الجناتُ ﴿وَحَسُنَتْ﴾؛ أي:

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.

الجنات ﴿مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: مقراً، ومنْزلاً، ومجتمعاً لِعِبَادِهِ الصالحين، وقيل: ﴿حسنت﴾؛ أي: الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: متكأ ومقعداً، ومنزلاً للاستراحة.

والمعنى: أي نعمت الجنة لهم جزاءً وفاقاً على جميل أعمالهم، وحسنت منزلاً، ومقيلاً، ونحو الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

الإعراب

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: (الواو): استئنافية، أو عاطفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿أَعْثَرْنَا﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: أعثرنا عليهم قومهم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والتقدير: أعثرنا عليهم إعثاراً مثل: إنامتنا إياهم، وبعثنا إياهم، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾. ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل، ﴿يعلموا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لعلمهم أن وعد الله حقٌّ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾. ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسَدَّ مفعولي علم؛ أي: ليعلموا حقية وعد الله، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَا﴾: نافية ﴿رَيْبَ﴾ اسمها ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المشددة، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر أن الأولى تقديرهُ: ليعلموا حقية وعد الله، وعدم وجود الريب في الساعة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾: فعل وفاعل في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿إذ﴾. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ متعلق به ﴿أَمْرَهُمْ﴾: مفعول به منصوب بـ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ لأن تنازعَ إذا كان بمعنى التجاذب ينصب مفعولاً وقيل: منصوب بنزع الخافض أي في أمرهم.

﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

﴿فَقَالُوا۟﴾: (الفاء) عاطفة ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعْثَرْنَا﴾ ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت: قُلْت ﴿ٱبْنُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ﴿ٱبْنُوا۟﴾ ﴿بُنْيَٰنًا﴾: مفعول به ومنصوب على المصدرية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ إن كان من كلامهم، أو جملة مستأنفة، إنْ قلنا إنه من كلام الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿غَلَبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿غَلَبُوا۟﴾ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: (اللام) موطئة للقسم ﴿نتخذن﴾ فعل مضارع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَّسْجِدًا﴾. ﴿مَّسْجِدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعليةُ جواب القَسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ (السين) حرف استقبال أتى بها للإشارة إلى أنَّ النزاعَ في أمرهم، حصل في زمن النبي ﷺ؛ أي: في المستقبل البعيد بالنسبة لقصتهم، ﴿يقولون﴾ فعل وفاعل، والضمير يعود إلى الخائضين في قصتهم، زمن النبي ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، والجملة الفعلية مستأنفة، قال أبو حيان: وجاء[1] بسين الاستقبال؛ لأنه كان في الكلام طيٌّ، وإدماج، والتقدير: فإذا أجبتهم عن سؤالهم، وقصصت عليهم قصة أهل الكهف، فسلهم عن عددهم، فإنهم إذا سألتهم، سيقولون، ولم يأت بالسين فيما بعده؛ لأنه معطوف على المستقبل، فدخل في

(١) الفتوحات.

الاستقبال، أو لأنه أريد به معنى الاستقبال، الذي هو صالح له، ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم ثلاثة أشخاص، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول القول ﴿رَّابِعُهُمْ﴾: مبتدأ ﴿كَلْبُهُمْ﴾: خبره، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾؛ أي: هم ثلاثة، موصوفون بكون جاعلهم، أربعة كلبهم بانضمامه إليهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سَيَقُولُونَ﴾ ﴿خَمْسَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم خمسة أشخاص، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿خَمْسَةٌ﴾ تقديره: هم خمسة أشخاص، موصوفون بكون جاعلهم ستة كلبهم بانضمامه إليهم ﴿رَجْمًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: يرجمون ذلك رجماً بالغيب؛ أي: يرمون رَمياً بالخبر الخفي المظنون، أو على الحال من فاعل يقولون، أي: يقولون ذلك حالة كونهم رَاجِمينَ بالغيب؛ أي: قائلينَ بما غاب عنهم، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رَجْمًا﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سَيَقُولُونَ﴾ ﴿سَبْعَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم سبعة أشخاص، ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾: (الواو) زائدة، زيدت تشبيهاً[1] للجملة الواقعة صفة للنكرة، بالجملة الواقعة حالاً عن المعرفة، في نحو قولك: جاء زيد، ومعه رجل آخر، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، ودلالة على أن اتصافه بها، أمر ثابت، مستقر في الأذهان، وهذا القول ما اختاره الزمخشري، وابن هشام من الأقوال المتلاطمة في هذه (الواو) التي لا طَائِلَ تحتها. ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿سَبْعَةٌ﴾ تقديره: ويقولون هم سبعة أشخاص، موصوفون بكون جاعلهم ثمانية كلبهم بانضمامه إليهم.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿رَّبِّىٓ

(١) الفتوحات.

﴿أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ، وخبر ﴿بِعِدَّتِهِم﴾ متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿مَّا﴾ نافية ﴿يَعۡلَمُهُمۡ﴾: فعل، ومفعول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلٌۗ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فَلَا﴾: (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط، مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه لا يعلَمُهم إلا قليل مِنْهُمْ، وَأردت بيانَ ما هو اللازم لَكَ.. فأقول لك: لا تمار فيهم، ويَصِحُّ أن تَكُونَ (الفاء) تفريعية، كما في «روح البيان» كما مر عنه ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُمَارِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء والكسرة قبلَها دليل عليها، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿فِيهِمۡ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مِرَآءٗ﴾: مفعول مطلق ﴿ظَٰهِرٗا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَا﴾: (الواو) عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية جازمةٌ ﴿تَسۡتَفۡتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ﴿فِيهِمۡ﴾ متعلق به، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: حال من ﴿أَحَدٗا﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿أَحَدٗا﴾: مفعول به.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة، أو استئنافية، ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَقُولَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله، ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ أو مستأنفة ﴿لِشَاْيۡءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُولَنَّ﴾؛ أي: لأجل شيء تقدم عليه، وتهتم به، وقيل: (اللام) بمعنى في ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿فَاعِلٞ﴾ خبره ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول فاعل ﴿غَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بفاعل ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: لا تقل لشيء في حال من الأحوال، إلا في حال تلبسك بالتعليق، بالمشيئة ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناءِ، ولكن

على حذف مضاف، والتقدير: لا تقولن ذلك في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله، فحذف الوقت، وهو مراد، أو على الحال، والتقدير: لا تقولنَّ أفعل غداً إلاَّ حالة كونك قَائِلاً إنْ شاءَ الله، أو إلا حالة كونك متلبساً بقول إن شاء الله كما في «العُكْبُري».

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

﴿وَٱذْكُر﴾ (الواو): عاطفة ﴿اذكر ربك﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ﴿نَسِيتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذَا﴾ تقديره: واذكر مشيئة رَبِّكَ وقت نسيانك إياها، عند تذكرك بها، ﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة اذكر ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، واسمها ضمير مستتر فيها: تقديره: هو يعود على الرب، والأوْلَى أنْ يَكُونَ ﴿رَبِّي﴾ اسمها مؤخراً، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَهْدِيَنِ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وعلامة نصبه فَتْحَة ظاهرة في آخره، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، وفاعله لفظة ﴿رَبِّي﴾ أو ضمير يعود على الرب لتقدمه رتبة، ﴿لِأَقْرَبَ﴾ متعلق بـ﴿يَهْدِيَنِ﴾ ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ متعلق بـ﴿أقرب﴾ ﴿رَشَدًا﴾: تمييز ﴿لِأَقْرَبَ﴾ أي: لشيء أقرب إرشاداً للناس، أو مفعول مطلق؛ أي: يهديني هدايةً فيكونُ ملاقياً لعامله بهذا المعنى، والأول أقرب، وجملة يهديني مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الخبرية، لـ﴿عَسَىٰٓ﴾، ولكنه في تأويل اسم الفاعل، لِيَصِحَّ الإخبار به، والتقدير: وقل عسى ربي هادياً لي لأقربَ من هذا رشداً.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ ﴿فِى كَهْفِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿لبثوا﴾ ﴿ثَلَٰثَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لبثوا﴾ ﴿مِا۟ئَةٍ﴾ مضاف إليه، ﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان لثلاث مئة،

ولا يصح أن يكون تمييزاً؛ لأن تمييزَ المئة يُجَرُّ، وجره بالإضافة والتنوين مانع منها، نعم قرىء في السبعة بالإضافة، وعليه فـ﴿سِنِينَ﴾ تمييز غير أنه قليل؛ لأن تمييز المئة، الكثير فيه الإفراد، كما قال ابن مالك:

وَمِـئَـةٌ وَٱلأَلْـفُ لِـلْـفَـرْدِ أَضِـفْ   وَمِـئَـةٌ بِـٱلْـجَـمْـعِ نَـزْراً قَـدْ رَدِفْ

﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾.

﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿لَبِثُوٓاْ﴾ ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿لَبِثُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بالزمن الذي لبثوه ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَبْصِرْ﴾: فعل تعجب، لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر، والباء في ﴿بِهِۦ﴾ زائدة في الفاعل إصلاحاً للفظ ﴿وَأَسْمِعْ﴾: معطوف على ﴿أَبْصِرْ﴾، وجملة التعجب جملة إنشائية، لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من ولي ﴿مِّن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، تقديراً، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿يُشْرِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فِي حُكْمِهِۦٓ﴾، متعلق بـ﴿يُشْرِكُ﴾ ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾ (الواو) استئنافية ﴿اتل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به

﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أُوحِىَ﴾ ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ الموصولة ﴿لَا﴾ نافية ﴿مُبَدِّلَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة لا في محل النصب حال من ﴿رَبِّكَ﴾ لأن المُضافَ كالجزء من المضاف إليه، ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ (الواو) عاطفة ﴿لن تجد﴾: ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ﴿مُلْتَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لا﴾ على كونها حالاً من ﴿رَبِّكَ﴾.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾. ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿اصبر﴾ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾ ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: معطوف على ﴿الغداة﴾ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الموصول، أو من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَعْدُ﴾: جازم ومجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ﴿عَيْنَاكَ﴾: فاعل وعلامة رفعه الألف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿تَعْدُ﴾ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: فعل ومفعول به، ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير المخاطب في ﴿عَيْنَاكَ﴾ لأن المضاف جزء من المضاف إليه.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لا تطع﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَن

﴿ذِكْرِنَا﴾ متعلق به، والجملة صلة من الموصولة، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾؛ والجملة معطوفة على ﴿أَغْفَلْنَا﴾ ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿أَغْفَلْنَا﴾ على كونها صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾.

﴿وَقُلْ﴾: (الواو) عاطفة ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾. ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره؛ هذا الذي أوحي إليَّ الحَقُّ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: حال من الحق، والجملة في محل النصب مقول القول، لـ﴿قل﴾ ﴿فَمَن شَآءَ﴾: (الفاء) استئنافية، أو فصيحة ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فِعْل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿فَلْيُؤْمِن﴾: (الفاء) رابطة لجواب من الشرطية، وجوباً لكونه جُمْلَةً طَلَبِيَّةً و(اللام) لام أمر وجزم ﴿يؤمن﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾ على كونها مستأنفة، أو مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾: جملة شرطية معطوفة على جملة من الأولى، ﴿إِنَّـآ﴾: ناصب واسمه ﴿أَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ متعلق به ﴿نَارًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قَبْلَها ﴿أَحَاطَ﴾: فعل ماض ﴿بِهِمْ﴾ متعلق به ﴿سُرَادِقُهَا﴾: فاعل وجملة ﴿أَحَاطَ﴾ في محل النصب صفة لـ﴿نَارًا﴾؛ ولكنها صفة سببية.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾: (الواو) استئنافية ﴿إن يستغيثوا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم على كونه فِعْلَ شرط، وعلامةُ جزمه حذف النون ﴿يُغَاثُواْ﴾: فعل، ونائب فاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جَزْمِهِ حَذْفُ النون ﴿بِمَآءٍ﴾ متعلق بـ﴿يُغَاثُواْ﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: صفة أولى لـ﴿ماء﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿يَشْوِى﴾: فعل مضارع ﴿ٱلْوُجُوهَ﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الماء﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿ماء﴾ أو حال منه لتخصصه بالصفة ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾: فعل وفاعل وهو من أفعال الذم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هو أي: ذلك الماء المستغاث به، وجملة ﴿بِئْسَ﴾ في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف، والجملةُ الاسميةُ، جملة إنشائية لا محلَّ لهَا من الإعراب، ﴿وَسَآءَتْ﴾: فعل ماض، وهي لإنشاء الذم، وفاعله ضمير يعود على النار، ﴿مُرْتَفَقًا﴾: تمييز محول عن فاعل ﴿ساء﴾ والأصل: ساءَ مرتفقها فحول الإسناد من المضاف إلى المضاف إليه، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامَه، فجيء بضمير الرفع، فاستتر في الفعل، ثم جيء بالمضاف المحذوف تمييزاً، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: النار، والجملة معطوفة على جملة ﴿بِئْسَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿لَا﴾: نافية ﴿نُضِيعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿أَجْرَ﴾: مفعول به ﴿مَنْ﴾: مضاف إليه ﴿أَحْسَنَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿عَمَلًا﴾: مفعول به، أو تمييز محول عن الفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر، ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر أول، لـ﴿إن﴾ الأولى، والرابط الضمير المستتر في أحسن أو، الرابط تكرر الظاهر بمعناه، لأن حقَّ العبارةِ أجرهم، ويجوز أنْ تكون جملة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ مُعْتَرِضَةً وخبر، ﴿إن﴾ الأولى جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم للمبتدأ الثاني، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل الرفع خبر ثان، لـ﴿إن﴾ الأولى أعني: إن الذين آمنوا، أو خبر لهَا، إن قلنا: جملة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ معترضةً ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾؛ أو في محل النصب حال من ﴿جَنَّٰتُ﴾ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان، لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أو حال من واو ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: حَالَةَ كونهم كائنين فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة.

﴿أَسَاوِرَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وهو مَمْنُوعٌ من الصرف لصيغة منتهى الجموع، أو جار ومجرور صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾. ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾ ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحَلَّوْنَ﴾. ﴿ثِيَابًا﴾: مفعول به ﴿خُضْرًا﴾: صفة أولى لـ﴿ثِيَابًا﴾ ﴿مِّن سُندُسٍ﴾: جار ومجرور صفة ثانية لـ﴿ثِيَابًا﴾ أو حال من ﴿ثِيَابًا﴾ لتخصصه بالصفة، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: معطوف على ﴿سُندُسٍ﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: حال إما من الضمير في ﴿تَحْتِهِمُ﴾ أو من الضمير في ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أو ﴿يلبسون﴾ ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور حال أيضاً من الضمير في ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أو ﴿يلبسون﴾ وهي حال متداخلة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بـ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾: فعل وفاعل وهو من أفعال المدح، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي؛ أي: الجنات، والجملة الفعلية خبر للمخصوص بالمدح، والجملة الاسمية جملة إنْشَائِية لا محل لَهَا من الإعراب، ﴿وَحَسُنَتْ﴾: فعل ماض لإنشاء المدح، معطوف على نعم، وفاعله ضمير يعود على الجنات ﴿مُرْتَفَقًا﴾: تمييز لفاعل ﴿حسن﴾ محول عن الفاعل، والتقدير: حسن مرتفقها، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: هي؛ أي: الجنات.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أطلعنا عليهم قَوْمَهُمْ، وأظهرناهم، وأعثر يتعدى بالهمزة، وأصل العثار في القدم، وفي «الأساس»: وعثر على كذا اطلع عليه، وأعثره على كذا أطلعه، وأعثره على أصحابه دَلَّه عليهم، ويقال للمتورط: وقع في عاثور، وفلان يبغي صاحبه العواثير، وأصله حفرة تحفر للأسد، وغيره يعثر بها، فيطيح فيها، ويقال: عثر عثوراً، وعثاراً: إذا سقط لوجهه، ويقال في المَثَل: «من سلك الجَدَد أمن العثار» ثم استُعمل في الاطلاع على أمر من غير طلب له.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ والساعة: يوم القيامة، حين يبعث الله الخلائق جميعاً للحساب والمجازاة، والتنازع والتَّخاصُم ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾؛ أي: رمياً بالخبر الخفي، وإتياناً به، والرجم القول بالظن والحدس، ويقال: لكل ما يخرص رجم فيه، وحديث مرجوم، ومرجَّم، وفي «المصباح» الرَّجَمُ بفتحتين الحجارة، ورجمته رجماً من باب قتل، ضربته بالرجم، وهي الحجارة الصغار، ورجمته بالقول، رميته بالفحش، قال تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾؛ أي: ظناً: من غير دليلٍ، ولا برهان، كقول زهير بن أبي سلمى يصف الحرب:

وَمَا الحربُ إلاَّ ما عَلِمتُمْ وذُقْتُم ... وما هُو عَنْهَا بالحَديث المُرَجَّمِ

أي: المظنُون، والغيب ما غاب عن الانسان، فالْمُراد أن يرميَ الانسان ما غاب عنه، ولا يعرفه بالحقيقة، كما يقال: فلان يرمي بالْكَلاَمِ رمياً؛ أي: يَتكلم من غير تدبر، والمراد هنا القول بالظن والتخمين.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾؛ أي: لا تجادل، يُقَال: مارى يماري مماراةً، ومراءً؛ أي: جادل وفي «القاموس» مَارَى مراء ومماراةً جَادَلَ، ونَازَع، ولاج وتماريا تجادلا وامترى في الشيء شك، والمرية بكسر الميم، والمرية الجدل؛ يقال: ما في ذلك مرية، أَيْ: جدل وشك.

﴿مُلۡتَحَدٗا﴾؛ أي: ملتجأ تجنح إليه لائذاً، إن هممت بالتبديل للقرآن، وفي «المصباح» قال أبو عبيدة: ألحد إلحاداً جادل، وماري، ولحد جَارَ، وظلم،

وأَلْحَدَ في الحرم، استحل حرمته وانتهكها، والمُلْتَحدُ بالفتح اسم الموضع، وهو: الملجأ. وفي «القاموس»: التحد عن الدين بمعنى ألحد، والتحد إلى كذا مال، والتحد إلى فُلاَن التجأ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ في «المختار» الصبر: حبس النفس عن الجزع، وبابه: ضرب وصبره حبسه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ اهـ.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾؛ أي: لا تَنْصَرِف يقال: عداه إذا جاوَزه، ومنه قولهم: عدا طورَه، وجاءني القوم عَدا زيداً، فحق الكلام، أنْ يُقَالَ: بالنصب؛ أي: لا تعد عينيك، وإنما عَدَلَ إلى الرفعِ لأنه أراد صاحب العينين، فَهُوَ من المَجازِ كما سيأتي في البلاغة ﴿فُرُطًا﴾ بضمتين؛ أي: مجاوزاً الحدَّ. قال ابن عطية: الفرط يُحْتَمَلُ أن يكونَ بمعنى التفريط، والتضييع للذي يجبَ أن يَلْزَم، ويحتمل: أن يكونَ بمعنى الإفراط والإسراف اهـ «سمين».

والظاهر: أنه مصدر أفرط كما في «المختار» وعبارته: وأَفْرَطَ في الأمر: جاوز فيه الحَدَّ اهـ. وعليه فيكون مصدراً سَمَاعِياً، لا قِيَاسياً، وفي «المختار» أيضاً: وأَمْرٌ فُرُطٌ بضمتين؛ أي: مجاوز فيه الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ اهـ ثُمَّ قال: وفرط إليه مِنْهُ قول سبق، وبابه نصر اهـ.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: أعددنا، وهيأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اختاروا الكفرَ بالله، والْجَحد له، والإنكار لأنبيائه ناراً عظيمة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ أي: اشتمل عليهم، والسُّرادق واحد السرادقات، قال الجوهري: وهي التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف؛ أي: قطن فهو سرادق، ومنه قول رؤبة:

يَـا حَـكَـمُ بْـنَ ٱلْـمُـنْـذِرِ بْـنِ جَـارُوْدْ   سُـرَادِقُ ٱلْـمَـجْـدِ عَـلَـيْـكَ مَـمْـدُوْدْ

وفي «الفتوحات»: والسرادق قيل: هو ما أحاط بشيء، كالمضرب والخباء، وقيل للحائط المشتمل على شيء: سرادق، قاله الهرويُّ، وقيل: هو الحجرة، تكون حولَ الفُسطاط، وقيل: هو ما يمد على صحن الدار، وقال الراغب: السُّرادق فارسيٌّ معرب، وليس في كلامهم اسم مفرد، ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلا هذا، وقيل: هو دخان يحيط بالكفار، قَبْلَ دخول النار، **وقيل**: حائط من نار يطيف بهم، وفي «الكشاف»: شبه ما يحيط بهم من النار

بالسرادق، وهو الحُجْرَةُ الَّتي تكون حول الفسطاط اهـ.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ الياء فيه منقلبةٌ عن واو، إذِ الأصل يستغوثوا، فنقِلَتْ كسرة الواو للساكن قبلها، ثم قلبت ياء لمناسبة الكسرة.

﴿المهل﴾ بضم الميم اسم يجمع معدنيات الجواهر، كالفضة، والحديد، والصفر، مَا كَانَ منها ذائباً، والقطران الرقيق، والزيت الرقيق، والسم، والقيح، أو صديد الميت خاصة، وما يَتَحات عن الخُبْزِ من الرماد، وقيل: هوكعكر الزَّيْتِ؛ أي: ما بقي في الإناء منه.

والخلاصة: هو اسم جامع لكل المستقذرات التي تغشى منها النفس، وتتألم وتنفر ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾؛ أي: ينضجها إذا قدم ليشرب لشدة حرّه، والشيُّ: الإنضاج بالنار من غير إحراق، ﴿مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: مُتَّكأً يقال: بَاتَ فلان مرتفقا؛ أي: مُتَّكِئاً على مرفق يده، وأصل الارتفاق الاتكاء على المرفَق مع نصب الساعد، وهي هيئة المتحزن والمتحسر ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة، واستقرار، يقال: عدن بالمكان إذا أَقَام فيه، واسْتَقر، ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه. ﴿أَسَاوِرَ﴾ جَمْعُ أسورة، والأسورة جَمْعُ سوار، كأَحْمِرَةِ جمع حمارٍ، فالأساور جمع الجمع.

﴿السندس﴾ ما رق من الديباج، ﴿الاستبرق﴾ ما غلظ من الديباج، والاستبرق يونانِيَّةٌ والسندس فارسية، وقيل: هندية ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ أصله موتكئين من اتَّكأ أصله، اوتكأ، والاتكاء: التحامل على الشيء ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكةٍ، وفي «القاموس»: الأريكة ـ كسفينة ـ سرير في حَجَلة، أو كل ما يتكأ عليه من سرير، ومنصَّة، وفراش، أو سرير متخذ مزين في قبة، أو بيْتٍ، فإن لم يكن فيه سريرٌ.. فهو حجلة، والجمع أرائك اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ فَقَدْ شَبَّه

أَمْرَهم بشيء كثر النزاع حولَه، ثم حذف ذلك الشيء، واستُعير النِّزَاعُ القائم حولَه.

ومنها: الاستعارة المَكْنِيَة في قوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ فقد شبه الغَيْب، والخفاء بشيء يرمى بالحجارة، واستُعير الرجم له.

وفي «الفتوحات»: والرجم بمعنى الرمي، وهو: استعارة للتكلم بما لم يَطَّلع عليه لخفائه، عنه تشبيهاً له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غَرَضاً اهـ.

ومنها: صيغة التعجب في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾؛ لأنه أسندَ فعلَ عَدَا، أي: تجاوز إلى العينين، ومن حقه: أن يسندهما إليه؛ لأن عَدَا متعد بنفسه، وإنَّما جنح إلى المجاز؛ لأنه أبلغ من الحقيقة، فكأنَّ عينيه ثابتتان في الرنوّ إليهم، وكأنما أدْرَكتَا ما لا تدركان، وأحستا بوجوب النظر، إلى هؤلاء، وصبر النفس، ورياضتها على ملازمتهم، وقيل: هو من باب التضمين، فقدْ ضَمَّنَ عدا معنى نَبَا، وعلا من قولهم: نبت عينه عنه إذا اقتحمتهُ ولم تعلق به.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ وبين قوله: ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ ﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾.

ومنها: المشاكلة[1] في قوله: ﴿يُغَاثُواْ﴾ إذ لاَ إغاثةَ لَهُمْ بالماء المذكور، بل إتيانهم به، وإلْجَاؤهم لشُرْبه غاية الإضرار، والإغاثة هي الانقاذ من الشدة، فَكَأَنَّهُ قال: يضروا ويعذبوا بماء. الخ وعبر عن هذا الإضرار بالإغاثة مشاكلة لقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ اهـ شيخنا.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾.

ومنها: الجناس المماثِلُ في قوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾.

ومنها: اللف والنشرُ المشوش في قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه راجع

---

(١) الفتوحات.

لِقَوْلِهِ ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه راجع لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ فقد سمى أعلى أَنْوَاعِ العذاب إغاثةً، والإغاثة هي: الإنقاذُ من العذاب تهكماً بهم، وتشفياً منهم، والتهكم: فن طريف من فنونهم.

ومنها: التشبيه[1] المؤكد في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فقد شبه النار المحيطة بهم، بالسرادق المضروب على مَن يحتوِيهم، وأضيف السُّرادِق إلى النار، فَذَلِكَ هو التشبيه المؤكَّدُ، وهو أنْ يُضافَ الْمُشَبَّهُ إلى المشبه به، كقول بعضهم:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

فقد أضاف الأصيلَ، وهو المشبه إلى الذهب، وهو المشبَّهُ به، كما أضاف الماءَ الذي هو المشبه إلى اللجين، الذي هو المشبه به.

ومنها: التشبيه المرسل الْمُفصل في قوله: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ لذكر الأداة، ووجه الشبه، وقيل: وجه الشَّبه فيه الثخن والرداءة في كلٍ كما في «الفتوحات».

ومنها: المقابلة البديعةُ بَيْنَ الجنة في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، والنار في قوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فَقَدْ ذَكَر الارْتِفَاقَ في النار مقابلةً كقوله: فيما بعد في وصف الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عِدَّة مواضعَ.

والله أعلم

* * *

(١) إعراب القرآن.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا
(٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ
مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ
رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ
لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ
طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى
لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ٱلْمَالُ
وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ
ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا
عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلَها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا أمر(١) نبيَّه بِصَبْرِ نفسه مع فُقراءِ المؤمنين، وعدم طاعة أولئك الأغنياءِ من المشركينَ، الذينَ طلبوا منه ﷺ طَرْدَ هؤلاءِ الصعاليك،

---

(١) المراغي.

وأن يُعيِّن لَهُمْ مَجْلِساً، وللسادة مجلساً آخرَ، حتى لا يُؤْذُوهم بمنَاظِرهم ورَوَائِحِهم المستقذرة، وحتَّى لاَ يُقَالَ: إنَّ السَّادَةَ ومواليهم يَجْتَمِعُون في صعيد واحد، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند، وفي ذلك امتهان لكبريائهم، وخفض من عزتهم.. أردف ذلك بمثل يستبين منه أن المَال لا ينبغي أن يكونَ موضع فخار؛ لأنه ظل زائل، وأنه كثيراً ما يصير الفقيرُ غنياً، والغني فقيراً، وإنَّما الذي يَجِبُ أن يَكُونَ أساس التفاخر وعمدة التفاضل، هو: طاعة الله وعبادتُه، والعمل على ما يرضيه في دار الكرامة، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا[1] أبانَ أن الدنيا ظل زائل، وأنه لا ينبغي أن يغتَرَّ أَحَد بزخرفها ونَعيمها، بل يجب أن يكونَ موضع التفاخرِ العمل الصالح الذي فيه رضا الله، وانتظار مثوبته في جنات تجري من تحتها الأنهار.. أردف ذلك بذكرِ أحوال يوم القيامة، وما يكون فيها من أخطار وأهوال، وأنه لا ينجي منها إلاَّ اتباعُ ما أمر به الدين، وترك ما نهَى عنه مما جاء على لسان الأنبياءِ والمرسلين، لا الأموالُ التي يفتخرُ بها المشركون على المؤمنينَ.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هَذَا المثل ضربه الله تعالى لمن يتعززُ ويفتخرُ بالدنيا، ويستنكف عن مجالسةِ الفقراءِ، فهو على هذا مُتَّصِل بقوله: ﴿واصبر نفسك﴾ ﴿وَٱضْرِبْ﴾ هنا بمعنى اجعل، يتعدى إلى مفعولَيْن ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق به ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثان، ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ مفعول أول، أي واجعلْ يا محمد رجلَين موصوفَين بالصفات الآتية، ﴿مَّثَلًا﴾ وشبهًا لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ، وللمؤمنين المكابدينَ لمشاق الفقر؛ أي: مثل حَالَ هؤلاء الكافرين والمؤمنين بحال[2] رَجُلين شريكين في بني إسرائيل، أحدهما

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمِن اسمه يَهُوذا، أو تمليخا، لهما ثمانية آلاف دينار، فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللَّهُم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، وإني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال هذا: اللهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار، وإنّي اشتريت منك داراً في الجنة، بألف دينار، فتصدَّقَ بها، ثم تزوَّج صاحبُهُ امرأة، وأنفقَ عليها ألفَ دينار، فقال هذا: اللَّهُمَّ إني أخطب إليك امرأةً من نساء الجنة بألف دينار، فتصدَّقَ بها، ثُمَّ إن صاحبه اشترى خدماً، ومَتَاعاً بألف دينار، فقال هذا: اللهم إني أشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنة بألف دينار، فَتَصدق بِهَا، ثم أصابته حاجة شديدة، فَقَالَ: لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف، فجلس على طريق، حتى مر به في حَشَمه، فقام إليه، فنظر إليه صاحبُهُ، فعرفَهُ فقال له: فلان؟ قال: نَعَمْ، فَقَالَ: ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بَعْدك، فأتيتك لتعينني بخير، قال: فما فعلت بمالِك؟ فقص عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصَّدقين، فَطَرَده ووبخه على التصدق بماله، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى فنزل في شأنهما قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾؛ أي: واضرب أيهَا الرسولُ لهؤلاء المشركين المتقلبين في نعم الله، والمؤمنينَ المكابدين لمشاق الفقر، مثلاً رجلين؛ أي: اجعل مَثَلَ الفريقين مثل رجلين ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾، وهو الكافر: ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾؛ أي: بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾؛ أي: من كروم متنوعة، فإطلاق الأعناب عليها مجاز، ويجوز أن يكونَ بتقدير المضاف؛ أي: من أشجار أعناب، والأعناب جمع عنب، وهو ثمر الكرم ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾؛ أي: أحطنَا البستانَين ﴿بِنَخۡلٖ﴾؛ أي: جَعَلْنَا النَّخْلَ محيطة بالجنتين مَلْفُوفاً بها، كرومهما ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ أي: وجعلنا وسط البُسْتَانَيْنِ ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكونَ كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة على الشكل الحسن، والترتيب الأنيق.

وخلاصة ذلك[1]: أن أرضه جمعت القوتَ والفواكه، وهي متواصلة

---

(١) المراغي.

متشابكة، فلها مَنْظَرٌ وَرَوَاءٌ حَسنٌ ووضعٌ أنيقٌ يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر.

رُويَ: أن أخوَيْن مِنْ بَني إسرائيل وَرِثَا من أبيهما ثَمَانِيةَ آلاف دينار، فتشاطراها، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً، وأنفق المؤمن ما وَرِثَه في وجوه الخير وطاعة الله، وآلَ أَمْرُهُما إلى ما قصه الله علينا في كتابه، وسواء أصحت الرواية أم لم تصحَّ، فإن ضرب المَثَل لا يَتوقف على صحتها.

وقد ضَربَ الله المثل ليبين حَالَ الفريقَين المؤمنينَ والكافرينَ، من قِبَلِ أن الكفارَ مع تقلبهم في النعيم قد عصوا ربهم، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساءِ قد أطاعوه ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾؛ أي: كل من البُسْتَانَيْنِ ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ أي: أعْطَتْ وَأخرجَتْ ثمرها كل عام، وبلغ مبلغاً صَالِحاً للأكل وإفراد[1] الضمير في ﴿آتت﴾ للحمل على لَفْظ المفرد، قَالَ الحرِيري: ولا يثنى خَبر كِلاَ إلا بالحمل على المعنى ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾؛ أي: ولم تنقص ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من أكلها وثمرها ﴿شَيْـًٔا﴾ في سائر الأعوام على خلاف ما يعهدُ في الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواماً، وتقل أعواماً أخرى، فقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: في بعض السنينَ بل في كل سنة يأتي ثَمَرُها وافياً.

وقرأ الجمهور[2]: كِلْتَا الجنتين، وفي مصحف عبد الله ﴿كلاَ الجنتين﴾، أتى بصيغة التذكير، لأن تأنيث الجنتين مجازي، ثمَّ قَرأ ﴿آتت﴾ فأنَّث، لأنه ضمير مؤنَّث، فصار نظير قولهم: طلع الشَّمْسُ، وأشرقت، وقال الفراء في قراءة ابن مسعود: ﴿كل الجنتين آتى أكله﴾ انتهى. فَأعاد الضمير على كل ﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ أي: أجْرَيْنَا وشققنا ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾؛ ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾؛ أي: وَسَطَ الجنتين ﴿نَهَرًا﴾ ليسقيهما دَائماً من غير انقطاع، وقرأ[3] الجمهور، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد الجيم للمبالغة، وقال الفراء: إنما شدد ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وهو نهر واحد، لأن النهر يمتد، فكان التفجر فيه

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

كله، أعلم الله تعالى أن شربَهما كان من نهر واحد، وهو أغزر الشرب، وقرأ الأعمش وسَلاَّم، ويعقوب، وعيسى بن عمر، بتخفيف الجيم، وكذا قرأ الأعمش في سورة القمر، والتشديد في سورة القمر، أظهرُ لقوله ﴿عيونا﴾ وَقوله ﴿نَهَرًا﴾ وانتصب ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾؛ أي: وسطهما على الظرف لأنه كان النهر يجري من داخل الجنتين، وقرأ الجمهور[1] ﴿نَهَرًا﴾ بفتح الهاء، وَقَرَأ أبو السمال، والفياض بن غزوان، وطلحة بن سليمان بسكون الهاء؛ أي: وشققنا وسط الجنتين نهراً كبيراً، تتفرع منه عدة جداول، ليدوم سقيهما، ويزيد بهاؤهما، وتكثر غلتهما.

ولعل[2] تأخيرَ ذكر تفجير النهر عن ذكر إيتاءِ الأكل مع أن الترتيبَ الخَارِجي على العكس، للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل، وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين، ولو عكس لانفهم أنَّ المجموع خصلة واحدة، بعضها مرتب على بعض، فإن إيْتَاءَ الأكل متفرع على السقي عادة، وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقَّفُ على السقي كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾، أي: لصاحب الجَنَّتَيْنِ ﴿ثَمَرٌ﴾؛ أي: أنواع من المال غير الجنتين من ذهب وفضة ثمرها بما ادخره من غلات الجنتين ومن تجارات أخرى، والثَّمر بفتحتين جمع ثمرة، وهي المجني من الفاكهة، وذكرها وإن كانت الجنة لا تخلو عنها إيذانٌ بكثرة الحاصل له في الجنتين من الثمار وغيرِها، وقالَ ابن[3] عباس وقتادة: الثمر: - يعني إذا قُرِىء بضمتين - جميع المال من الذهب والحيوان وغير ذلك، وقال النابغة:

مَهْلاً فِدَاءٌ لَكَ ٱلأَقْوَامُ كُلُّهُمُ ... وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ

وقال مجاهد: يراد بها: الذهب والفِضَّة خاصة، وقَالَ ابن العلاء: الثمر المال.

وخلاصة ذلك: أنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامِتَها وَناطقها،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

ثاغيها، وراغيها، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه، وخدمه، ولا يستعصي عليه شيء من مسرات الدنيا ومباهجها، ولذاتها ونعيمها.

وقرأ الأعمشُ[1]، وأبو رجاءٍ، وأبو عَمرو بإسكان الميم فِيهِمَا تخفيفاً، أو جمع ثَمَرةٍ، كبدنة وبدن، وقرأ أبو جعفر، والحسن، وجابر بن زيد، والحجاج، وعاصم، وأبو حاتم، ويعقوب عن رويس عنه، بفتح الثاء والميم فيهما، وقرأ رويس عن يعقوبَ: ثمر بضمهما، ﴿وثمره﴾ بفتحهما، وأما الثُّمُرُ بضمتين فقد مر تفسيره آنفاً عن ابن عباس وغيره، وأما مَنْ قرأ بالفتحِ فلا اتكال عليه، لأنَّهُ يعني به حمل الشجر، وقرأ أبو رجاء في رواية ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء وسكون الميم، وفي مصحف أبيٍّ ﴿وآتيناه ثمرا كثيرا﴾ وينبغي أن يُجعل تفسيراً.

وبعد أن تم له الأمْرُ، وقعد على سنام العز والكبرياء، داخَلَهُ الزهو والخيلاءُ ﴿فَقَالَ﴾؛ أي: صاحب الجَنَّتَيْنِ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وأخيه المؤمن الذي جعل مَثَلاً للفقراء المؤمنين ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحالُ أنَّ صاحب الجنتين ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾؛ أي: يُراجِعُ صَاحِبَهُ، ويكَلِّمَه بالكلام الذي فيه الافتِخار بالمال، والخَدَم، وإنكارُ البعث والإشراك بالله، مِنْ حَارَ إذا رجَعَ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ وعن[2] محمد بن الحسن رحمه الله: المال كل ما يتملكه الإنسانُ من دراهم، أو دنانير، أو ذهب، أو فضة، أو حنطة، أو خبز، أو حيوان، أو ثياب، أو سلاح، أو غير ذلك، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ أي: أكثر حَشَماً، وأعواناً، وأولاداً ذكوراً لأنهم الذين يَنْفِرُون مَعَهُ دون الإناث، والنفر بفتحتين من الثلاثة إلى العشرة من الرجال، ولا يقال فيما فوق العشرة، وقال صاحب «روح البيان»: لاح لي هٰهنا إشكال، وهو أنه إن حمل أفعل على حقيقته في التفضيل، يلزمُ أن يكونَ الرجلان المذكوران مقدرين لا محقَّقَيْن أَخَوَيْن، لأنه على تقدير التحقيق يقتضي أن لا يكون لأَحدهما مال أصلاً كما يفصح عنه البيان السابق، وقد أثبتَ هٰهنا الأكثرية للكافر، والأقلية للمؤمن، وجوابُه يُستنبط من السؤال، والله أعلم بحقيقة الحال انتهى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره، وراجَعه الحديث: أنا أكثر منكَ مالاً كما ترى، من جنَّاتي، وزروعي المختلفة، وأعَزُّ عشيرةً، ورهطاً تقوم بالذب عني، ودفع خصومي، وتنفر معي عند الحاجة إلى ذلك.

ثم زاد فخراً على صاحبه المسلم، وأراهُ عياناً ما يتمتع به من المناظر البهيجة في تلك الجنان التي لا تفنٰى في زعمه، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَدَخَلَ﴾ صاحب الجنتين ﴿جَنَّتَهُۥ﴾؛ أي: بستانه مع صاحبه المؤمن يَطُوف به فيها، ويريه حسنها، ويعجبه منها، ويفاخره بها.

وأفرد الجنة[2] لأن المرادَ ما هو جنته، وهي ما مُتِّعَ بِهِ مِن الدنيا تنبيهاً على أنه لا جنَّةَ له غيرها، ولا حظ له في الجنة التي وُعدَ بها المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخولَ يكون في واحدة فواحدة ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحالُ أنَّ صَاحِبَ الجنتين ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ضار لها بعجبه، واعتماده على ماله، وبكفره بالمبدأ والمعاد، وهو أقبح الظلم، كأنه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ ﴿قَالَ﴾ صاحب الجنتين استئناف بَيَانِيٌّ لسبب الظلم، ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ كثيراً ما يستعار الظن للعلم، لأنَّ الظن الغالبَ يداني العلمَ، ويقوم مقامه في العادات والأحكام ومنه: المظنة للعلم ﴿أَن تَبِيدَ﴾ وتفنى، وتهلكَ، وتنعدمَ، من باد إذا ذهب وانقطع ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة يعني جنتيه ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: دهراً فلطُول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، قال ذلك بمقابلة موعظة صاحبه، وتذكيره، بفناء جنته، والاغترار بِها وأمرَهُ بتحصيل الباقيات الصالحات.

والأبد: الدهر[3] كالأمد وانتصابُه على الظرف، والمراد هنا: المكث الطويل، وهو مُدَّةُ حَيَاتِهِ، لا الدوامُ المؤبَّدُ إِذْ لا يَظُنُّه عاقل لدلالة الحسّ والحِدْسِ على أنَّ أحْوَال الدنيا ذاهبة باطلة.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: الْقِيَامَةَ التي هي عبارة عن وقت البعث

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

﴿قَآئِمَةً﴾؛ أي: كائنة حاصلة فيما سيأتي، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾؛ أي: والله لئن رُجعتُ ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث على الفرض، والتقدير: كما زعمت أن الساعةَ آتيةٌ فليس فيه دلالة على أنه كَان عَارِفاً بربه، مع أن العِرْفَانَ لا ينافي الإشراك، وكان كَافِراً مشركاً.

قال في «البرهان»[1]: قال تعالى هنا: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وفي «حم» ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأن الرد يتضمَّن كراهَة المردود، ولما كان في الكهف، تقديره: ولئن رددت عن جنتي هذه التي ما أظن أن تَبيدَ أبداً إلى ربي كانَ لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أولى هنا، وليس في «حم» ما يدل على كراهته، فَذَكَر بلفظ الرَّجْعِ لِيَقَعَ في كل سورة ما يليق بها. انتهى.

﴿لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾؛ أي: من هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ؛ أي: مَرْجِعاً، وعاقبةً، ومَدار هذا الطَّمَعِ واليمين الفاجرة اعتقادُ أنه تعالى إنَّما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، وكرامته عليه سبحانه، وهو معه أَيْنَمَا توجه، ولم يدرِ أن ذلك استدراج.

وحاصل معنى الآيتين: أي ودخل[2] هذا الذي جعلنَا له جنتين من أعناب، وأشجار، ونخيل، ومعه صاحبه هاتين الجنتين، وطاف به فيهما مفاخراً، وقال حين عاين ما فيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة: - ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً، ولا تَخْرَبُ كما قال: وهو شاك في المعاد إلى الله والبعث والنشور، ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون، وقد كان في كل ذلك ظالماً لنفسه، إذ وضع الشيء في غير موضعه، فَقَدْ كان أليق به أن يكون شاكراً لتلك النعم، متواضعاً لربه، لا أن يكون كافراً به منكراً لما جاء به الوحي وأقرته جميع الشرائع.

وخلاصة ذلك: أنه لحقه الخَسَار من وجهين:

١ - ظنه أن تِلكَ الجنةَ لا تَهلكُ، ولا تبيد مدى الحياة.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

٢ ـ ظنه أن يومَ القيامة، لن يكونَ ثمَّ تَمني أمنية أخرى كان في شك منها، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ إلخ؛ أي: والله لئن كَانَ مَعَاد ورجعة إلى الله لَيَكُونَنَّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، والذي جرَّأه على هذا الطَّمع، وعلى تلك اليمين الفاجِرة، اعتقادُهُ أنَّ الله إنما حباه بما حباه به في الدنيا لما له من كرامة لدَيْه، ولِمَا فِيهِ منْ مَزَايَا استحق بها أن ينالَ مَا نَالَ.

وخلاصة ذلك: أنه لم يعطني هذه الجنةَ في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة، ما هو أفضلُ منها، قال ذلك طمعاً، وتمنياً على الله، وادعاءً للكرامة عنده تعالى كما مرَّ.

وقرأ ابن الزبير، وزيدُ بن علي، وأبو بحرية، وأبو جعفر، وشيبة، وابن مُحَيْصِنٍ، وحميد، وابن مناذر، ونافع، وابن كثير، وابن عامر، ﴿لأجدَنَّ خَيْراً منهما﴾ بالتثنية وعَوْدِ الضمير على الجنتين، وكذا في مصاحف مكة، والمدينة، والشام، وقرأ الكوفيون، وأبو عمرو ﴿مِّنْهَا﴾ على الإفراد، وعود الضمير على الجنة المدخولة، وكذا في مصاحف الكوفة، والبصرة، ثُمَّ ذكر سبحانه جواب المؤمن له، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ﴾؛ أي: لصاحب الجنتين ﴿صَاحِبُهُۥ﴾؛ أي: أخوه المؤمن، وهو استئناف بياني كما سَبَقَ ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنَّ صَاحِبَهُ المؤمِنَ ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ أي: يُجاوب الكافرَ، ويخاطبه بالتوبيخ على شكه في حصول البعث.

قال في «الإرشاد»: وفائدة هذه الجملة الحالية: التنبيه من أوَّلِ الأمر على أن ما يَتْلُوهُ كلامٌ معتنى بشأنه مسوق للمحاورة، وقرأ أُبَيٌّ: ﴿وهو يخاصمه﴾ وهي قراءة تفسير لا قراءةُ رواية لمخالفته سواد المصحف ذكره في «البحر».

﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلتَ: ما أظن الساعة قائِمَةً، فإنه شك في صفات الله وقدرته، وقرأ ثابت البناني، ويلك أكفرت، وهو تفسير معنى التوبيخ والإنكار، لا قراءة ثابتة عن الرسول ﷺ، ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾؛ أي[1]: في ضمْن خَلْقِ أَصْلِك آدم عليه السلام. ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنَّه متضمن بخلقه منه، إذ هو أنموذج مشتمل إجمالاً

(١) روح البيان.

على جميع أفراد الجنس، وهمزة الاستفهام فيه للتقرير والإمكان بمعنى ما كان ينبغي أَنْ تَكْفُر، ولِمَ كفرت بمن أوجدك من تراب أولاً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من منيّ في رحم أمك، ثانياً، وهي مادتك القريبة ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾؛ أي: جَعَلَكَ مُعْتَدِل الخلق والقامة حال كَوْنِكَ ﴿رَجُلًا﴾؛ أي: إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، قال في «القاموس» الرَّجُلُ: بضم الجيم وسكونها: معروف، وإنما هو إذا احتلم وشب.

والمعنى: أي[1] قال له صاحبه المؤمنُ واعظاً، وزاجراً عَمَّا هو فيه من الكفر: أَكَفرت بالذي خلقك من التراب، إذ غذاء وَالِدَيك من النبات والحيوان، وغذاء النبات من التراب والماء، وغذاء الحيوان من النبات، ثُمَّ يَصِيرُ هذا الغذاء دماً يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلْقك بشراً سويّاً على أتم حال وأحكمه بحسب ما تقتضيه الحكمة، فهذا الذي خلقك على هذه الحال قادرٌ على أن يخلُقَكَ مرة أخرى.

والخلاصة: كيف تَجْحَدُون ربّكم، ودِلاَلَة خلقكم على وُجودِه ظاهرة جَلِيَّة، يعلمها كُلُّ أحد من نفسه، فما من أحد إلاَّ يَعْلَمَ أنه كان معدوماً، ثمَّ وُجد، وليس وجوده من نفسه، ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنها مِثْله، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾؛ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترفُ بالوحدانية والربوبية، وأقولُ: ﴿هُوَ﴾، أي: الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾؛ أي: مالكي وخالقي.

أصل ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ لكن[2] أَنَا فحذفت الهمزةُ بِنَقْل حركتها إلى نُون لَكِنَ أو بدون نقل على خلاف القياس، فتلاقت النُونَان، فكان الإدغام، وأثبت جميع القراء ألفها في الوقف، وحذفوها في الوصل غير ابن عامر، فإنه أثبتها في الوصل أيضاً لتعويضها عن الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف، و﴿هو﴾: ضمير الشأن مبتدأ خبره ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾، وتلك الجملة خبر (أنا) والعائد منها إِليه ياء الضمير في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿رَبِّيٓ﴾ والاستدراك من قوله: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾ كأَنَّهُ قال لأخيه: أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد، فوقع لكن بين جملتين مختلفتين في النفي والإثبات.

وقرأ الكوفيون[1]، وأبو عمرو وابن كثير، ونافع في رواية ورش، وقَالُون ﴿لكن﴾ بتشديد النون بغير ألف في الوصل، وبألف في الوقف، وأصلُهُ، ولكن أنا نقِلَتْ حركة الهمزةِ إلى نون لكن، وحذفت الهمزة فالتقى مثْلاَن فأدغم أحدهما في الآخر، وقرأ ابنُ عامر، ونافع في رواية المستملى، وزيد بن عليّ، والحسن، والزهري، وأبو بَحريَّة، ويعقوب في رواية، وأبو عمرو في رواية، وكردم، وورش في رواية، وأبو جعفر بإثبات الألف وقفاً، ووصلاً، أما في الوقف، فظاهر، وأما في الوصل فبنو تَمِيمٍ يثبتونَها فيه في الكلام، وغيرهم في الاضطرار، فجاء على لغة بني تميم، وعن أبي جعفر حذف الألف وصلاً ووقفاً، وذلك من رواية الهاشمي، ودل إثباتها في الوصل أيضاً عَلَى أن أصل ذلك: لكن أنا، ويَدلُّ على ذَلِكَ أيْضاً قراءة فرقة ﴿لكننا﴾ بحذف الهمزة، وتخفيف النونين، وقرأ أبيّ والحسن ﴿لكن أنا هو الله ربي﴾ على الانفصال، وفكه من الإدغام، وتحقيق الهمز، وحكاها ابن عطية عن ابن مسعود، وحكاها الأهوازي عن الحسن.

وقد قرىء[2] ﴿لكن هو الله ربي﴾ و﴿لكن أنا لا إلهَ إلا هو ربي﴾ ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ فهو المعبود وحده لا شريكَ له، وفيه إيذانٌ بأَنَّ كُفْرَهُ كَانَ بطريق الإشراك؛ لأن صاحِبَه لما عجّز الله عن البعث، فقد جعله مساوياً لخلقه في هذا العجز، وإذا أثبت المساواة، فَقَدْ أثبت الشريكَ، ثم زاد في عظة صاحبه، فقال له: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾؛ أي: وَهَلاً حينَ دخلت بستانك، فلولا تحضيضية بمعنى هلا ﴿قُلۡتَ﴾ عند إعجابك بها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما موصولة خبر مبتدأ، محذوف أي الأمر هو الذي شاء الله ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لاَ قُوَّةَ لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله تعالى وإقداره.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البيضاوي.

والمراد بهذا الكلام[1]: تحضيضه على الإعتراف بأن جَنَّتهُ، وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أَبْقَاهَا على حالها عامرة وإن شاءَ أفناها وجعلها خربةً؛ أي: هلا قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها، وتدبيرها، إنما هو بمعونته تعالى، وإقداره وفي الحديث «من رأى شيئاً فأعجبَه، فقال: ما شاء الله، لا قُوَّةَ إلا بالله، لم تَضُرُّه العين». وفي الحديث أيضاً «مَن رأى أحداً أُعطي خيراً من أهل أو مالٍ فقال عنده: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. لم ير فيه مَكْرُوهاً».

والمعنى: أي وهلا[2] إذ أعجبتك جنتك حين دخَلْتَها، ونظرت إليها، حمدت اللَّهَ على مَا أَنْعَمَ به عليك، وأعطاك من المال، والولد مَا لَمْ يعط غيرك، وقلت: الأمر ما شاء الله، والكائن ما قدره الله، لِيكُونَ ذلك منك اعترافاً بالعَجْز، وبأن كل خير بمشيئة الله، وفضله، وهلا قلت لاَ قُوَّةَ إلا بالله إقراراً بأنَّ ما قويت به على عمارتها وتدبيرِ أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأييده.

وبعد أَنْ نَصَحَ الكافرَ بالإيمان، وأبانَ له عظيمَ قدرة الله، وكبير سلطانه، أَجَابَهُ عن افتخاره بالمال، والنفس وَرَدَّ على قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وخَدَماً في الدنيا أَصْلُه: إن تَرَنِي، والرؤيَةُ إما بَصَرِيَةُ فـ﴿أقلَّ﴾ حال، وإما علمية فهو مفعول ثان، والأول ياءُ المتكلم المحذوفةُ، وأنا على كلا التقديرين. تأكيد للياء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَقَلَّ﴾ بالنصب مفعولاً ثانياً لـ﴿ترن﴾ إن كَانَت، علميةً أو حالاً إن كانت بصريةً، وقرأ عيسى بن عمر، ﴿أقل﴾ بالرفع على أن تكون ﴿أنا﴾ مبتدأ، و﴿أقل﴾ خبره، والجملة في موضع مفعول ﴿تَرَنِ﴾ الثاني: إن كانت علمية، وفي موضع الحال إن كانت بصرية، ويدل قوله: ﴿وَوَلَدًا﴾ على أن قول صاحبه ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ عنى به الأولاد إذ قابل كثرة المال بالقلة، وعزة النفر بقلة الولد ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي﴾؛ أي: فلعل ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾، أي: أن يعطيني أصله

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

يؤتيني ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هذه في الآخرة بسبب إيماني، لأن الجنة الدنيوية فانية، والأخروية باقية، والجملة جواب الشرط ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على جنتك في الدنيا ﴿حُسْبَانًا﴾؛ أي: عَذاباً يرميها به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من برد أو صاعقة أو نار قال في «القاموس» الحسبان: بالضم جمع حساب، والعَذاب، والبلاء، والشَّرُّ، والصَّاعقة، وإنما توقع[1] في حقه العذاب لعلمه بأنَّ الكفرانَ مؤد إلى الخسران، وأن الإعجاب سبب للخراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ فكلامه هذا جواب عن قول صاحبه المنكر للبعث: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾. ﴿فَتُصْبِحَ﴾ الإصباح هنا بمعنى الصيرورة؛ أي: فتصير جَنَتك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ أي: أَرْضاً ملساء لا نبات فيها، بحيث تزلق الرِجْلُ فيها لكفرك، فـ﴿زَلَقًا﴾ مصدر أريدَ به المفعول مبالغةً؛ أي: فتصبح جنتك بعد إرسال الله عليها حسباناً أرضاً مَلْسَاءَ تزلق فيها الأقدام لملاستها، باستئصال نباتها وأشجارها، وجوز القرطبي أنْ يكُونَ ﴿زلقاً﴾ من زلَق رأسه، إذا حلقه، والمراد: أنه لا يبقى فيها نبات كالرأس المحلوق، فـ﴿زَلَقًا﴾ بمعنى مزلوق أيْضاً ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾؛ أي: ماء جَنَّتِكَ معطوفة على الجملة التي قَبْلَها ﴿غَوْرًا﴾؛ أي: غائراً داخلاً في الأرض ذاهباً فيها، لا تَناله الأيدي، ولا الدلاء، فأطلق هذا المصدر مبالغةً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿غَوْرًا﴾ بفتح الغين، وقرأ البرجمي ﴿غورا﴾ بضم الغين، وقرأت فرقة بضم الغين، وهمز الواو، ويعنون بواو بعد الهمزة فَيَكُونَ ﴿غؤورا﴾ كما جاء في مصدر غارت عينه ﴿غؤورا﴾ ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾؛ أي: فلن تقدر ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: للماء الغَائِر، ﴿طَلَبًا﴾ فضلاً عن وجدانه ورده، قال في «الجلالين»: لا يبقى له أثر تطلبه به؛ أي: لَنْ تَسْتَطِيع طلب الماء الغائر، فضلاً عن وجوده وردّه، ولا تَقْدِرُ عليه بحيلة من الحيل، وقيل[3]: المعنى فلن تستطيع طلَبَ غيره عوضاً عنه.

والمعنى: أي[4] إن ترني أيها الرَّجل أفقر مِنْكَ فإني أرجو اللَّهَ أنْ يقلب

---

(1) روح البيان.
(2) البحر المحيط.
(3) الشوكاني.
(4) المراغي.

الآية، ويجعلَ ما بي بك، ويرْزُقني الغنى، ويرزقني لإيماني جنَّةً خيراً من جنتك، ويَسْلُبك بكفرك نعمته، ويخرِّبَ جنَّتَك بأن يرسل عليها مَطَراً من السماء، يقلع زُرُوعَها، وأشجارَها، أو يجعلُ ماءها يغور في الأرض، فلن تطِيقَ أَنْ تدركه بَعْدَ غوره بطلَبك إياه.

وخلاصة ذلك: أن المؤمن رجَا هلاك جنة صاحبه الكافر، إما بآفة سماويَّةٍ، أو بآفة أرضيةٍ، وهي غور مائها، وكلتاهما تُتْلف الشجرَ والزرع والكرم، ثُمَّ أخبر سبحانَه بأنه قد حقق ما رجاهُ ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ قد قدمنا اختلاف القراء في هذا الحرف وتفسيره؛ أي: أهلك ثمرُ بُستانِه بالكلية، وجَمِيع أمواله مأخوذ[1] من أحاط به العدو لأنَّه إذا أحاط به فقد غلبه، واستولى عليه، فيهلكه، فهو معطوف على مقدر، كأنه قيل: فوقع بعض ما توقَّعَه من المحذور، وأهلك أموالَه المعهودةَ التي هي جنتاه وما حوتاه وأحيط بثمره. ﴿فَأَصْبَحَ﴾؛ أي: صَارَ صاحب الجَنَّتَيْنِ ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبَطْن، ويضْرب إحداهما على الأخرى تأسفاً وتحسراً كَما هُوَ عادة النادمينَ فإن النادم يضرب يديه واحدةً على الأخرى، قال السمرقندي[2] تقليب الْكَفين، وعَض الكف، والأنامل، واليدين، وأكل البنان، وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الندم والحسْرة؛ لأنها من رَوَادفها فتطلق الرَّادفة على المَرْدُوف، فيرتقي الكلام به إلى الذروة العليا، ويزيد الحُسن بقبول السامع. انتهى ولكونه في معنى النَّدَمِ عداه تعديتَه بعلى، كأنَّه قيل: فأصبح يَنْدَم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ﴾ وصرف ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في عمارتها وإصْلاحها من الأموال، ولعل[3] تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنَّه إنَّما يكون على الأفعال الاختيارية، يقولُ الفقير الظاهر: أن الإِنفاق إنما هو لتملكها، فالتَّحسر على ماله مغن عن التحسر على الجنة؛ لأَنَّهَا بَدَله، وهذا شائع في العرف كما يقول بعض النَّادمين: قد صرفت لهذا كذا، وكذا مالاً، وقد آل أمره إلى الهلاك متحسراً على المال المصروف، وجُملة

---

(١) روح البيان.

(٢) بحر العلوم.

(٣) روح البيان.

قوله: ﴿وَهِيَ﴾، أي الجنة من الأعناب المحفوفة بنَخْل ﴿خَاوِيَةٌ﴾؛ أي: خَالِيَةٌ ساقطة، في محل نصب على الحال، يُقَالُ: خَوَت الدارُ خوياً، إذا تهدمت، وخلت من أهلها؛ أي: ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: على دَعائمها المصنوعة للكروم سقطَتْ عُرُوشُها على الأرض، وسَقَط فوقها الكروم، وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع لكونها العمدة، قيل: أَرْسَلَ الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها، وغار ماؤُها، وجملة قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ معطوفة على يقلّبُ، أي: ويقول صاحب الجنة ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾؛ أي: يقول ذلك الكافر: تأسفاً عَلَى تَلَفِ ماله ﴿يا﴾ قوم أتمنى عَدَمَ إشراكي بالله أحداً من المخلوقات، كَأَنَّهُ تذكر موعظة أخيه، وعَلِمَ أنه إنما هلكت جنته بشؤم شركه، فتمنى أن لاَ يَكُون مُشْرِكاً، فلم يصبه ما أصابه حين لا ينفعُهُ التَّمني، ولَمَّا[1] كانت رغبته في الإيمان لطلبَ الدنيا لم يكن قوله هذا توْبة وتوحيداً؛ لخلوه عن الإخلاص.

والمعنى[2]: أي وأحاطت الجوائح بثمار جنته التي كَانَ يقول فيها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فأصبح يقلب كفَّيه نَدماً، وأسفاً على ضياع نفقته الَّتِي أنفقها في عَمَارَتِهَا حين رآها ساقطة على عروشها، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً.

والخلاصة: أنه لما أَنْفَقَ عمره في تحصيل الدنيا، وَأَعْرَضَ عن الدين، ثُمَّ ضاعت منه الدنيا حُرِمَ الدين والدنيا معاً، ومن ثَمَّ عظمت حَسْرتُه، وقال: ﴿ليتني لم أشرك بربي أحدا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾، أي: لذلك الكافر ﴿فِئَةٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾؛ أي: يَقْدِرُون على نصره بدفع الهلاك، أو على رد المهلَك والإتيان بمثله ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى فإنه وحده القادر على نَصْرِه بذلك لا غير، لكنه لاَ يَنْصُرهُ لاستحقاقه الخذلان بكفره ومعاصيه، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾؛ أي: مُمْتَنِعاً بقوته عن انتقامه سبحانه.

والمعنى: أي وَلَم تكن له عَشِيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ويقدرون على دَفْع الجوائح عنه، أو ردِّ المهلَك له من دون الله تعالى، فإنَّ اللَّهَ هُوَ الذي يقدر وحده على نصره، وما كان منتصراً بقوته عن انتقام الله منه بإهلاك جنته.

وخلاصته: أنه لا يقدر على نصره إلا الله، ولا ينصره غيره، من عشيرةٍ وولدٍ، وخدمٍ وحشمٍ، وأعوانٍ كما لا يَقْدِرُ أن ينتصرَ لنفسه.

وقرأ الأخوان[1] - حمزة والكسائي - ومجاهد، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة، وأيوب، وخلف، وأبو عبيد، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير: ﴿ولم يكن﴾ بالياء، لأنَّ تأنيث الفئة مجاز، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة ﴿ولم تكن﴾ بالتاء، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿فئة تنصره﴾ على اللفظ.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في مثل ذلك الوقت، وفي تلك الحال، وفي مثل ذلك المقام ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾؛ أي: النصرة ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده، ولا يقدر عليها أحد ﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: الثَّابت الوجود، أزلاً، وأبداً، وهو تقرير لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: أي في مثل تلك الشدائد والمحن، النصرةُ لله وحده، لاَ يَقْدِرُ عليها غيرُهُ، أو المعنى[2] ينصر في مثل تلك الأحوال أولياءَهُ المؤمنين على الكَفَرة، وينتقم لهم، كما نصر بما فعل بالكَافر أخاه المؤمن، وحقق ظنه وترك عدوه مَخْذُولاً مَقْهوراً، ويؤيِّدُ هذا المعنى قوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ أي[3]: إثابة في الآخرة لِمَن آمَنَ به، والتجأ إليه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: عاقبة في الدنيا لمن رَجاهُ، وعَمِلَ لِوَجْهِهِ، وقيل: المعنى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ أي[4]: أفضل جَزاءً لأهل طاعته، لَوْ كَانَ غيره يثيب ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: عاقبةُ طاعتِه، خير من عاقِبَةِ طاعَةِ غيره، فهو خير إثابةً وعاقبةً.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) الخازن.

وقرأ ابن كثير[1]، ونافع، وابن عامر، وعاصم ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو بمعنى المُوالاة والصلة، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وابن وثاب، وشيبة، وابن غزوان، عن طلحة، وخَلَفُ وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، ﴿الولاية﴾ بكسر الواو، وهي بمعنى الرئَاسَةُ والرعاية، وقَرأَ النحويان: أبو عمرو، والكسائي، وحميد، والأعمش، وابن أبي ليلى، وابن مناذر، واليزيدي، وابن عيسى الأصبهانيُّ ﴿الحَقُّ﴾ برفع القاف، صفة للولايةِ، وقرأ باقي السبعة بخفضها وَصْفاً لله تعالى، وقرأ أُبيٌّ ﴿هنالك الولاية الحق لله﴾ بِرفع الحقّ صفة لـ﴿الولاية﴾ وتقديمها على قوله ﴿لِلَّهِ﴾، وقرأ أبو حيوة، وزيد بن علي، وعمرو بن عبيد، وابن أبي عبلة، وأبو السمال، ويعقوب عن عصمة، عن أبي عمرو ﴿لله الحقَّ﴾ بنصب الحق قال الزمخشري على التأكيد «والمدح».

قال أبو علي[2]: مَنْ كسر قافَ ﴿الحقَّ﴾ جعله مِنْ وصف الله عز وجل، ومَنْ رفعه جَعَلَه صفة لـ﴿الولاية﴾ فَإن قيل: لم نُعِتَ الولاية، وهي مؤنثة بالحق، وهو مصدر؟ فعنه جوابان: ذكَرَهما ابن الأنباري:

أحدهما: أنَّ تأنيثها ليس حقيقياً، فحملت على معنى النصر، والتقدير: هنالك النصر لله الحق، كما حملت الصيحة على معنى الصّيَاح في قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

والثاني: أن الحقَّ مَصْدَرٌ يستوي في لفظه المذكر والمؤنث، والاثنان والجمع، فيقال: قولك حق، وكلمتك حق، وأقوالُكم حَقٌّ، ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية، وعلى المدح لله تعالى بإضمار هو.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائِي ﴿عُقُبًا﴾ بضم القاف، والتنوين، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن، والأعمش، ﴿عقبا﴾ بسكون القاف، والتنوين، وعن عاصم ﴿عقبى﴾ بألف التأنيث المقصورة على وزن رجعى. قال أبو علي: ما كان على ﴿فُعُل﴾ جَازَ تَخْفِيفه بسكون عينه، كالعُنُق

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

والطُّنُب. قال أبو عبيدة: العقُب، والعقْبُ، والعقْبَى والعاقبة بمعنىً، وهي الآخرة، والمعنى: عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره.

وبعد أن ضرب المثل لِدُنْيَا هؤلاء الكافرين التِي أبطرتهم وكانت سبب شقائهم، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، ضرب مثلاً لدار الدنيا عامَّةً في سرعة فنائها، وعدمِ دَوام نعميها. فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾؛ أي: واذكر يا محمد لِقَوْمِكَ وَبيّنْ لهم ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: صفتها العجيبة في فنائها، وبيِّن لهم ما يشبهها في زهرتها، ونَضَارتِها، وسرعة زوالها؛ لئلا يطمئنوا إلَيْهَا ولا يعكفوا عليها، ولا يعرضوا عن الآخرة بالكُلِيّةِ، وقوله: ﴿كَمَآءٍ﴾ استئناف[1] لبيان المثل؛ أي: هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء وحده، بل بمجموع ما في حيز الأداة؛ أي: صفتها، وحالها وهيئتها كصفة، وحال وهيئة ماءٍ أنزلناه من السحاب ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماءِ؛ أي: التف وتكاثَف، وتراكم بسبب ذلك الماءِ ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أشجارها، وزُرُوعها، وحشيشها، حتى خالط بعضه بعضاً، وصار في المنظر في غاية الحسن والنضارة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات؛ أي: فَصَارَ ذلك النبات الملتف إثر بهجته، ونَضَارته ﴿هَشِيمًا﴾؛ أي: مهشوماً مكسوراً لِيُبْسه، من الهشم، وهو: كسر الشيء الرخو ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾؛ أي: تَحْمِله، وتفرقه، وتطيِّره وتُذهبه وتُعدمه، يقال: ذرت الريح الشيءَ، وأذرته، وذرته أطارته وأذهبته، وذَرَا هو بنفسه، ويقال: ذرى الحنطة: إذا نقّاها في الريح كما في «القاموس»، وهذه الآية مُخْتَصِرة من قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ الآية.

شبه الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات أخضرَّ والتف، وأَزْهَرَ، ثمَّ صار هَشِيماً متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذاتَ الشمال، ومن ثمَّ ينبغي أن لا يغترن أهلها بها، ولا يفخرن ذوو الأموال الكثيرة بأموالهم، ولا يستكبرن بها على غيرهم، فإنَّما هي ظلٌّ زائلٌ، وضَيْفٌ راحل، وفي الحديث

---

(١) روح البيان.

«الدنيا كسوق قام ثمَّ انفض».

وقرأ ابن مسعود، وأبي وابن عباس، وابن أبي عبلة[1]: ﴿تذريه﴾ بضم التاء وكسر الراء، بَعْدَهَا ياءُ ساكنة، وهاء مكسورة من أذرى الرباعيّ إلا أنَّ ابْنَ مسعود فتح التاء، وقرأ[2] زيد بن علي، والحسن، والنخعي، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن محيصن، وخلف، وابن عيسى، وابن جرير ﴿الريح﴾ على الإفراد، وقرأ الجمهور ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ بالجمع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ذو الكمال والجلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه من الإنشاء والإبقاء، والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾؛ أي: قَادِراً لا يعجزه شيء، والمقتدر مفتعل من قدرت؛ أي: وكان[3] الله ذُو الْجَلاَل والجمال قادراً على كل شيءٍ إِنْشَاءً وفناءً وإعادة فهو يُوجد الأشياءَ، ثم ينميها ثم يفنيها، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهي تَظْهر أوّلاً ناضرةً ظاهرةً، ثمَّ تتزايد قَلِيلاً قَلِيلاً، ثمَّ تأخذ في الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك، والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يَبْتَهِجَ بما يحوزه منها، أو يفخر به، أو يصعِّر خَدّه استكباراً، ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا، إِثْر بيان حالها بما مَرَّ من المثل، فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ اللذان يفتخر بهما الناس، لا سِيَّمَا رُؤساءُ العرب وأغنياؤهم، ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: شيءٌ يتزينون به في الحياة الدنيا، ويفنى عنهم عن قريب، وليسا من زاد الآخرة، فيقبح بالعاقل أن يفتخر بهما، والزِّينَةُ[4] مصدر في الأصل، أطلق على المفعول مبالغةً، كأنهما نَفَسُ الزينة، وقدم[5] المال على البنين مع كونهم أعزَّ منه لدى جميع الناس من قِبَلِ أَنَّ الزِينَةَ به أتمّ، ولأنه يَمُدُّ الآباءَ والأبناءَ في كل حين، ولأنه مناط ببقاء النفس والأولاد، وبذا يبقى النوع الإنساني، ولأنَّ الْحَاجَةَ إلَيه أمس من الحاجة إليهم، ولأنه زينة بدونهم، دُونَ العكس، فَإِنَّ من له بنون ولا مَالَ له، فهو في بؤس وشقاء.

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعهما الله لأقوام. وهذا[1] رد على الأغنياء والرؤساء الذين يفتخرونَ بالمال والغنى والأبناء، فأخبرهم سبحانه أَنَّ ذلك مما يتزين به في الدنيا، لا مما ينفعُ في الآخرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وقال أيضاً: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، ولهذا عَقَّبَ هذه الزينةَ الدنيويةَ بقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: والأعمالُ الصالحة التي تَبقى ثمراتُها أبدَ الآباد من الصلاة، والصوم، والزكاة، وأعمال الحج، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة البائِسِين وَذَوِي الحاجات، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ونحو ذلك من الكلم الطيب، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ في الآخرة من الفانيات الفاسدات، من المال والبنين؛ أي: أفضل لصاحبها من هذه الزينة بالمال والبنين في الآخرة. ﴿ثَوَابًا﴾ وجزاء، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾؛ أي: رجاء[2] حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كلَّ ما كان يؤمله في الدنيا، وأما ما مر من المال والبنين: فليس لصاحبه أَمَل يناله. يعني أن[3] هذه الأعمالَ الصَّالِحَةَ لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضلَ ممَّا كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرةُ، ولكن هذا التفضيل خَرَجَ مخرج قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ والظاهر أَنَّ الْبَاقِيَاتِ الصالحات كلُّ عمل خير، فلا وَجْهَ لقصرها على الصلاة، كما قالَهُ بعضٌ، ولا لِقصْرِها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعضٌ آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب، لأن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا تعرف أن تَفْسِيرَ الباقياتِ الصالحات في الأحاديث الآتيةِ ببعض الأعمال الصالحةِ بِخُصُوصِهَا لا ينافي إطلاقَ هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرهَا.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم، وصححه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

«استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسول الله؟: قال: التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وأخرج الطبراني وابن مردويه، عن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات، وهُنَّ يَحْطُطْنَ الخطايَا كما تحط الشجرة ورقَها، وهن من كنوز الجنة».

وأخرج النسائي والطبراني والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً «خذوا جُنَّتَكم قيل: يا رسول الله من أي عَدُوّ قد حضر؟ قال: بل جنتكم من النار، قولُ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات، معقبات، ومجنِبات، وهي الباقيات الصالحات».

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى ما يَؤُول إليه حال الدنيا من النفاد، أَعْقَبَ ذَلِكَ بأوائل أحوال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾، وقرأ[1] نافع، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وشيبة، وعاصم، وابن مصرف، وأبو عبد الرحمٰن، ﴿نُسَيِّرُ﴾ بنون العظمة ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ بالنصب، وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى، والزهري وحميد، وطلحة، واليزيدي، والزبيري، عن رجاله، عن يعقوب ﴿تسير﴾ بضم التاء وفتح الياء المشددة مبنياً للمفعول، ﴿الجبال﴾ بالرفع، وعن الحسن كذلك إلاَّ أنه بضم الياء المثناة من تحتها، وقرأ ابن محصين، ومحبوب عن أبي عمرو ﴿ويوم تسير الجبال﴾ من سار الثلاثي، وقرأ أُبي ﴿ويوم سيرت الجبال﴾ بصيغة الماضي المبني للمجهول.

أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة يوم نسير الجبال، ونقلعها، ونزيلها من أمَاكِنِها، وتسير في الجو على هيآتها كما تسير السحاب، أو تسير أجزاؤها بعد أن نجعلها هباء منبثاً، والمراد بتذكيره: تحذير المشركين، مما فيه من الدواهي ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد أو يا كلَّ من يصلح للرؤية ﴿ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي جميع جوانبها حالة كونها ﴿بَارِزَةً﴾؛ أي: ظاهرة منكشفة ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا

---

(١) البحر المحيط.

نبات ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: والحال أنا قد جمعنا الخلائِقَ من الأولين والآخرينَ من كل جانب إلى الموقف. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾؛ أي: لَمْ نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ تحت الأرض إلا وقَدْ جمعناهم لذلك اليوم، يقال: غَادَرُه، وأغدره إذا تركه ومنه الغدر الذي هو ترك الوفاء، ومنه: الغدير، وهو ماءٌ غَادرَهُ السيل، وتَرَكَه في الأرض الغائرة، أي: المنخفضة.

وقال الزمخشري: فإنْ قلت[1]: لِمَ جيء بـ﴿حشرناهم﴾ ماضياً بعد ﴿نسير﴾ و﴿ترى﴾؟

قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروزِ ليعاينوا تِلْكَ الأهوال والعظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبلَ ذلك انتهى. والأولى أن تَكُون (الواو) واو الحال، لا واو العطف، والمعنى: وقد حشرناهم؛ أي: يوقع التسيير في حالة حشرهم، وقيل: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿وَعُرِضُواْ﴾، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ مما وضع فيه الماضي موضعَ المستقبل لتحقيق وقوعه.

وقرأ عمرو بن العاص وابن السميفع وأبو العالية[2]: ﴿وتُرى الأرْضُ بارزة﴾ بضم التاء، والضاد، وقرأ أبو رجاء العطاردي، كذلك إلا أنه فتح ضَادَ الأرض.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿نُغَادِرْ﴾ بنون العظمة وقتادة ﴿تُغادَرُ﴾ على الإسناد إلى القدرة أو الأرض، وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم كذلك، أو بفتح الدال وبالياء مبنياً للمفعول و﴿أحد﴾ بالرفع، وعصمة كذلك، والضحاك ﴿نغدر﴾ بضم النون، وإسكان الغين، وكسر الدال.

﴿وَعُرِضُواْ﴾؛ أي: الخلائق يوم القيامة يعني المحشورين ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ كعرض الجند على السلطان ليُقْضى بينهم حالة كونهم ﴿صَفًّا﴾؛ أي: مصفوفينَ كل أمة وزمرة صف.

والمعنى[4]: صفوفاً يقف بعضهم وراء بعض، غير متفرقين، ولا مُخْتَلِطينَ،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان، لِيَحْكُمَ فيهم بما أراد، لا ليعرفهم، مقولاً لهم وعزتي وجلالي ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أيها العباد حَالَةَ كونكم كائنين ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خلقا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حفاة عراة غرلاً، بلا أموال، وأعوان، وبنينَ كما ورد في الحديث، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قلت: يا رسول الله كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: «عراة حفاة» قلتُ: والنّساء؟ قال: «نعم» قلت: يا رسول الله نستحي؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من ذلك، لَنْ يهمهم أن ينظر بعضهم إلى بعض» وقوله: ﴿بل زعمتم﴾ إضراب وانتقال من كلام إلى كلام آخر للتقريع، والتوبيخ، وهو خطاب لمنكري البعث؛ أي: بل زعمتم، وقلتم أيها المشركون المنكرون للبعث، والزعم الادعاء بالكذب، ﴿أَنَّ﴾ مخففة من الثقيلة؛ أي: بل زعمتم في الدنيا أنه ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم﴾ في الآخرة أبداً ﴿مَّوْعِدًا﴾؛ أي: وقتاً ننجز فيه ما وعدناه لكم على ألسنة الأنبياء من البعث والمحاسبة، والمجازاة خيراً أو شرّاً.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآيات من أحوال يوم القيامة أُموراً:

١ ـ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾؛ أي: واذكر أيها الرسول قِصَّة يوم نقلع الجبال من أماكنها، ونسيرها في الجو كالسحاب، ونجعلها هباء منثوراً كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾؛ أي: تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأَرض سطحاً مُسْتَوياً لا عوج فيه، ولا وادي، ولا جبل، وقال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وقال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: وترى أيها الرائي جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة إذ لم يبق على وجهها شيء من العمائر ولا شيء من الجبال، ولا شيء من الأشجار، فليس عليها ما يسترها، فيكون جميع الخلائق ضاحين لربهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم، وهذا هو المراد من قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

٣ ـ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: وجمعنا الأولينَ والآخرينَ للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً، ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

ولما ذكر سبحانه حشرَ الخلق.. بيَّن كيفية عَرْضهُمْ عَلَى ربهم فقال:

٤ ـ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾؛ أي: يعرض الخلق كلهم على الله صَفّاً واحداً، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا أيها الناس، أحياء كهيئتكم حين خَلَقْنَاكُم أَوَّل مرة فرادى، حفاةً، عراةً، لا شيء معكم من المال، والولد، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وفي هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث، الذين يفخرون في الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار.

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ينادي يوم القيامة: يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، أحضروا حجتكم، ويسروا جَوَابَكم فإنكم مسؤولون مُحَاسَبُون، يَا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أَنَامِلِ أقدامهم للحساب».

وفي الحديث الصحيح: «يجمع الله تعالى الأولينْ والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم البصر...» والحديث له بقية.

٥ ـ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ معطوف على «عرضوا» والمراد[1] بالكتاب، صحائف الأعمال، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس، والوضع: إما حسي بأن توضع صحيفة كل واحد في يده، السعيد في يمينه، والشقي في شماله، أو في الميزان، وإما عقلي، أي: أظهر عمل كل واحد من خير أو شر بالحساب الكائن في ذلك اليوم، وقرأ زيد بن علي ﴿ووضع﴾ مبنياً للفاعل ﴿الكتاب﴾ بالنصب، والفاعل

---

(١) الشوكاني.

الله أو الملك، أي: وُضع[1] في هذا اليوم الرهيب، كتاب كل إنسان في يده اليمنى، إن كَانَ مؤمناً، وفي يده اليسرى إن كان كافراً، فَقد تطايرت الكتب إلى أيدي الخلائق مثل الثلج ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المشركين والْمُنَافِقِينَ ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: خَائِفِينَ مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة؛ أي: يحصل لهم خوف العقاب من الله بذنوبهم، وخوف الفضيحة عند الخلق بظهور الجرائم لأهل الموقف، ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المجرمون عند وقوفهم على ما في الكتاب من السيئات، نقيراً، وقطميراً، تعجباً من شأنه ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يا هلكتنا احضري وتعالَي فهذا أوانك، يدعون على أنفسهم بالويل، لوقوعهم في الهلاك[2]، منادينَ لهلكتهم التي هلكوا بها من بين الهلكات، مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه، فإن الويلَ والويلةَ الهلكة.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال البقاعي[3]: رَسْمُ لام الجر وحده إشارةٌ إلى أنهم صاروا من قوة الرعب، وشدة الكرب، يقفون على بعض الكلمة؛ أي: أي شيء لِهَذَا الكتاب حالَةَ كونه ﴿لَا يُغَادِرُ﴾، ولا يترك ﴿صَغِيرَةً﴾ من السيئات ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنَ الذنوب تصدر عن جانيها، وقدَّم الصغيرةَ اهتماماً بها، وإذا أُحْصِيت فَالْكبيرة أحرى. ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: إلاَّ عدها، وضبطها، وحواها، وأثبتها، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الصَّغِيرةُ التبسم، والكبيرة القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة: المسيس، والكبيرة الزنا؛ وهذا[4] الإحصاء لا يعارض قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾ الآية، إذ لا يلزم من العد عدم التكفير، إذ يجوز أن تُكتب الكبائر لِيُشَاهِدَهَا العبد يوم القيامة، ثُمَّ تُكَفَّرُ عنه، فَيَعْلَمُ قدر نعمة العفو عليه اهـ كرخي.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جَزاءَ ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾، أي مكتوباً مثبتاً في كتابهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ من خلقه، فلا ينقص من حسنات أحد أجره الذي يستحقه، ولا يزيد على سيئات

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.

أحد، فَيَكْتُبُ ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه الملائم لعمله، فيكون إظهاراً لمعدلة القَلَمِ الأزلي. بل يعفو[1] ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله، فإنه سبحانه وَعَدَ بإثابة المطيع، وتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة، وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر، ومن ثم لا يعذب أحداً بما لم يعمله، ولا ينقص ثواب ما عَمِلَه مما أمر به وارتضاه، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذي نهى عنه، ولم يرتضه.

ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وخلاصة ذلك: أن الجزاءَ نتيجة العمل، والعمل مرسوم في قوالب حافظة له، فليس يمكن رفعه، ولا دفعه، ولا يكون الجزاء عليه ظُلْماً، كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلماً، ولا المرض بعد الشرب من الماءِ الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظُلْماً، وإنما تلك مسببات لأسباب كُلُّ عاقل يعلم أنَّها نتيجة حتمية لها.

الإعراب

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ﴾ (الواو): استئنافية، ﴿اضرب﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿اضرب﴾ ﴿مَّثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿اضرب﴾ لأنه بمعنى اجعل ﴿رَّجُلَيْنِ﴾: مفعول أول له؛ أي: واجعل رجلين مثلاً، وشبها لهم، وفي «روح البيان» ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ مفعولان لـ﴿اضرب﴾ أولهما ثانيهما، لأنه المحتاج إلى التفصيل والبيان اهـ ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: مفعول أول له ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾،

(١) المراغي.

والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿رَجُلَيْنِ﴾ ولكنها سببية، ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿بِنَخْلٍ﴾: متعلق بـ﴿حففنا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿زَرْعًا﴾: مفعول أول له، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾.

﴿كِلْتَا﴾: مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين؛ لأنه اسم مقصور ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾: مضاف إليه ﴿ءَاتَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿كِلْتَا﴾ ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول ثان لـ﴿ءَاتَتْ﴾، والأول محذوف تقديره: آتته أكلها؛ لأن ﴿آتى﴾ هنا بمعنى أعطى، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ وقد روعيَ لفظ ﴿كِلْتَا﴾ فأتى الخبرُ مفرداً، وروعيت التثنية المعنوية في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ في قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أو مستأنفة، استئنافاً بيانياً، ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿كِلْتَا﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: حال من ﴿شَيْـًٔا﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به لـ﴿تَظْلِم﴾، أو مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ءَاتَتْ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَاتَتْ﴾ ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿فجرنا﴾ ﴿نَهَرًا﴾: مفعول به، ﴿وَكَانَ﴾: الواو: عاطفة ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم ﴿ثَمَرٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾. ﴿فَقَالَ﴾: (الفاء): عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿قال﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ ﴿وَهُوَ﴾: (الواو) حالية ﴿هو﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل قال ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مِنكَ﴾: متعلق بـ﴿أَكْثَرُ﴾ ﴿مَالًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: معطوف على ﴿أَكْثَرُ مَالًا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ﴾: (الواو) عاطفة ﴿دخل﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنتين ﴿جَنَّتَهُۥ﴾: مفعول به على السعة، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: (الواو) حالية ﴿هو ظالم﴾: مبتدأ وخبر ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾: (اللام) زائدة لـ﴿نفسه﴾ مفعول به لـ﴿ظَالِمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل، ﴿دخل﴾: ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الظلم، وهو الأحسن، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير في ﴿ظَالِمٌ﴾؛ أي: وهو ظالم في حال كونه قَائِلاً كذا في «الجمل». ﴿مَآ﴾ نافية ﴿أَظُنُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الداخل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿أَبَدًا﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿تَبِيدَ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر سَادّ مسد مفعولي ﴿أَظُنُّ﴾ تقديره: ما أظن بَيْدَ هذه الجنة وهلاكها أبداً.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ (الواو): عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿أَظُنُّ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الداخل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ ﴿ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: مفعولان لـ﴿أَظُنُّ﴾ ﴿وَلَئِن﴾: (الواو) عاطفة، و(اللام) موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿رُّدِدتُّ﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْل شرط لها، ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾: متعلق به ﴿لَأَجِدَنَّ﴾: (اللام) واقعة في جواب القسم مؤكدة للأولى ﴿أجدن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الداخل ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به لأنه من وجد بمعنى أصاب ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾ ﴿مُنقَلَبًا﴾: تمييز لـ﴿خَيْرًا﴾ منصوب به، والجملة الفعلية جوابُ القَسَمِ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ على كَوْنِهَا مقول ﴿قَالَ﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم كما هي القاعدة على حَدّ قول ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

التقدير: إن رددت إلى ربي أجد خيراً منها منقلباً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به ﴿صَاحِبُهُۥ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل النصب حال من صاحبه، ﴿أَكَفَرْتَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَكَفَرْتَ﴾: (الهمزة) للاستفهام التوبيخي ﴿كفرت﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلَّذِى﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿خَلَقَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مِن تُرَابٍ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار، والمجرور قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿سَوَّىٰكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿رَجُلًا﴾: حال من (كاف) الخطاب، ولكنه جامد مؤول بمشتق تقديره: كاملاً، ويجوز أن يُعْرَبَ مفعولاً ثانياً لـ﴿سَوَّىٰكَ﴾.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصله لكن أنا هو اللَّه ﴿لكن﴾ حرف استدراك استدرك به على قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾: ﴿أنا﴾ ضمير المتكلم مبتدأ أول ﴿هُوَ﴾: ضمير شأن مبتدأ ثان ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثالث ﴿رَبِّى﴾: خبر للثالث، وجملة الثالث خبر للثاني، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لا﴾ نافية ﴿أُشْرِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الرجل المؤمن منهما ﴿بِرَبِّىٓ﴾ متعلق بـ﴿أُشْرِكُ﴾ ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَلَوْلَآ﴾: الواو استئنافية ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض

بمعنى هلا ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿قُلْتَ﴾ ﴿دَخَلْتَ﴾: فعل وفاعل ﴿جَنَّتَكَ﴾: مفعول به على السعة، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿قُلْتَ﴾: فعل وفاعل والتَّقْدِير: ولولا قلت وقت دخولك جنتك، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْتَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ موصولة في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الذي أعطيته هو ما شاءه الله، وأراده لا بحولي، وقوتي، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْتَ﴾ ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره ما شاءه الله ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل إن ﴿قُوَّةَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿بِٱللَّهِ﴾: خبر لا، وجملة ﴿لا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْتَ﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تَرَنِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وعلامَةُ جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف والفتحة قبلَها دليل عليها، وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة النون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجْتَزَأ عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول أول لـ﴿ترى﴾ ﴿أَنَا﴾ تأكيد لياء المتكلم المحذوفة ﴿أَقَلَّ﴾: مفعول ثان لـ﴿تر﴾ ﴿مِنكَ﴾: متعلق بـ﴿أَقَلَّ﴾ ﴿مَالًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل ﴿وَوَلَدًا﴾: معطوف على ﴿مَالًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَعَسَىٰ﴾: (الفاء) رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة جامديةً ﴿عسى﴾ فعل ماض من أفعال الرجاء ﴿رَبِّىٓ﴾: اسمها ﴿أَن﴾ حرف مصدر ﴿يُؤْتِيَنِ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل النصب مفعول أول ﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان لـ﴿أتى﴾ ﴿مِّن جَنَّتِكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾ والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبرا لـ﴿عسى﴾، ولكنه في تأويل مشتق، والتقدير، فعسى ربي آتياً إياي خيراً من جنتك، وجملة ﴿عسى﴾ في محل الجزم جواب لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في

محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَيُرْسِلَ﴾: معطوف على ﴿يُؤْتِيَنِ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبِّيٓ﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يرسل﴾ ﴿حُسْبَانًا﴾: مفعول به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿حُسْبَانًا﴾ ﴿فَتُصْبِحَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿تصبح﴾ فعل مضارع معطوف على ﴿يرسل﴾ هي فعل من الأفعال الناقصة، واسمها ضمير يعود على ﴿جَنَّتِكَ﴾ ﴿صَعِيدًا﴾: خبر ﴿أصبح﴾ منصوب ﴿زَلَقًا﴾: صفة لـ﴿صَعِيدًا﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره معطوف على قوله: ﴿فَتُصْبِحَ﴾ ﴿فَلَن﴾ (الفاء) عاطفةٌ ﴿لن﴾ حرف نصب ﴿تَسْتَطِيعَ﴾: منصوب بـ﴿لن﴾، وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿طَلَبًا﴾ ﴿طَلَبًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُصْبِحَ﴾. ﴿وَأُحِيطَ﴾: (الواو) عاطفة على محذوف تقديره: فانقضت الصواعق على جنته، وغارت المياه فيها، وأحيط بثمره، ﴿أحيط﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿فَأَصْبَحَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿أصبح﴾ فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على صاحب الجنة ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة، ﴿عَلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُقَلِّبُ﴾ لأنه ضمنه معنى يندم، وجملة ﴿يُقَلِّبُ﴾: في محل النصب خبر ﴿أصبح﴾، وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على جملة ﴿أحيط﴾. ﴿أَنفَقَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿أَنفَقَ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: على ما أنفقه فيها، ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: متعلق بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾ والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿فِيهَا﴾ ﴿وَيَقُولُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُقَلِّبُ﴾ وفاعله ضمير يعودُ على صاحب الجنة، ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى محذوف تقديره: يا قوم ﴿ليتني﴾: ﴿ليت﴾ حرف تمني ونصب، والنون للوقاية لأنَّها تقي حركة البناء الأصلي عن الكسر، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها

﴿لَمْ أُشْرِكْ﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على صاحب الجنة ﴿بِرَبِّيٓ﴾: متعلق بـ﴿أُشْرِكْ﴾ ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أُشْرِكْ﴾: في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَمْ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لم تكن﴾ جازم ومجزوم، ﴿لَّهُۥ﴾: خبر مقدم لـ﴿تَكُن﴾ ﴿فِئَةٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿أحيط﴾. ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة لـ﴿فِئَةٌ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من فاعل ﴿ينصرون﴾ وذكِّرَتْ الصفة، وجمعت لأن الفئة تتضمن الجمع، وهو يتضمن الذكور والإناث، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على صاحب الجنة ﴿مُنتَصِرًا﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾. ﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة يشار به إلى المكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، واللام لبعد المشار إليه، و(الكاف) حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والتقدير: الولايةُ مستحقة مستقرة لله هنالك لا لغيره، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿ٱلْحَقِّ﴾: بالجر صفة للجلالة، وبالرَّفْعِ صفة لـ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾؛ أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي هو الحق، ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ثَوَابًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب بأفعل التفضيل، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ و﴿عُقْبًا﴾ بمعنى عاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ﴾ (الواو): استئنافية ﴿اضرب﴾: فعل أمر بمعنى اذكر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَهُم﴾: متعلق به ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مفعول به ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: واذكر لهم صفة الحياة الدنيا، والجملة مستأنفة ﴿كَمَآءٍ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي كماء، والجملة مستأنفة استئنافاً

بيانياً، ويجوز أن يكون ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مفعولاً أول ﴿كَمَآءٍ﴾: مفعولاً ثانياً؛ أي: واجعل لَهُم مثلَ الحياةِ الدنيا مثل ماء، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿ماء﴾ ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿اختلط﴾: فعل ماض ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿فَأَصْبَحَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿أصبح﴾ فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على نبات الأرض ﴿هَشِيمًا﴾: خبر ﴿أصبح﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿اختلط﴾ ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿هَشِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ ﴿مُّقْتَدِرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلْمَالُ﴾: مبتدأ ﴿وَٱلْبَنُونَ﴾: معطوف عليه ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: خبر، ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للحياة، والجملة مستأنفة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: صفة لـ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ ﴿ثَوَابًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَخَيْرٌ﴾: معطوف على خير ﴿أَمَلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ (الواو) استئنافية ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلّق بمحذوف تقديره: واذكر لهم يوم نسير الجبال؛ أي: قصته وهوله، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿يوم﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول به لأن ﴿ترى﴾ بصرية ﴿بَارِزَةً﴾: حال من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ ولكنه على تقدير قد لكونه فعلاً مَاضِياً؛

أي: ويوم نسير الجبالَ حالةَ كَوْنِنَا حَاشِرِينَ إياهم، ﴿فَلَمْ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿لم﴾ ﴿نُغَادِرْ﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من ﴿أَحَدًا﴾. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾: لأنه ماض معنى بسبب لم.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَعُرِضُوا﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾. ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق به ﴿صَفًّا﴾: حال من (الواو) في ﴿عرضوا﴾ أي: حَالَةَ كونهم مصفوفين ﴿لَّقَدْ﴾: (اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جِئْتُمُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول لقول محذوف حال من (واو) ﴿عرضوا﴾: والتقدير: وعرِضوا على ربك صفا حَالَةَ كونهم مقولاً لهم لقد جئتمونا ﴿كَمَا﴾: (الكاف) حرف جر وتشبيه (ما) مصدرية ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية، (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ(الكاف) تقديره: كخلقنا إياكم أول مرة، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: لقد جئتمونا مجيئاً مُشَابهاً بخلقنا إياكم أول مرة حفاة عراة غرلا. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال مفيد للتوبيخ ﴿زَعَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿أَلَّن﴾ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب، ﴿نَّجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني ﴿مَّوْعِدًا﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾ إذا كان بمعنى صير، وإذا كان الجعل مجردَ الإيجاد كانت لكم متعلقة به و﴿مَّوْعِدًا﴾: هو المفعول به و﴿مَّوْعِدًا﴾ أي مكاناً، وزماناً تبعثون فيه، وجملة ﴿نَّجْعَلَ﴾: في محل الرفع خبر أن المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي زعم، والتقدير: بل زعمتم عدم جعلنا لكم موعدا تبعثون فيه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَعُرِضُواْ﴾ ﴿فَتَرَى﴾: (الفاء) عاطفة ﴿ترى﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾: مفعولان لـ﴿ترى﴾ إن كانت علمية، ﴿مُشۡفِقِينَ﴾: حال إن كانت بصرية، والجملة معطوفة على جملة ﴿وضع﴾ ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَوَجَدُواْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿ويلتنا﴾: منادى مضاف، وجملة النداءِ في محل النصب مقول القول ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لهذا﴾: جار ومجرور خبره ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُغَادِرُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الكتاب ﴿صَغِيرَةً﴾: مفعول به ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾: في محل النصب حال من الكتاب، والعامل فيه، الجار والمجرور، لقيامِه مَقَامَ الفعل، أو الاستقرار الذي تعلق به الجار ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَحۡصَىٰهَاۚ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿صغيرة﴾ و﴿كَبِيرَةً﴾ ويجوز أن تكون الجملة في موضع المفعول الثاني، لأن ﴿يغادر﴾ بمعنى يترك، ويترك قد يتعدى لاثنين اهـ «سمين».

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.

﴿وَوَجَدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَوُضِعَ﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول أول لـ﴿وجدوا﴾ ﴿عَمِلُواْ﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ الموصولة أو صفة ﴿ما﴾ الموصوفة، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما عملوه ﴿حَاضِرٗاۗ﴾: مفعول ثان لـ﴿وجد﴾ ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿جَنَّتَيۡنِ﴾: تثنية جنة، والجنة البُسْتَانُ سميت بذلك لاجتنان أرضها، واستتارها بظل الشجر، وكل مادة (جَ نَ نَ) تفيد الخفاءَ، والاستتارَ كالجنين،

والجن، والمجنون لاستتار عقله، وجن الليل؛ أي: أظلم إلى نحو ذلك ﴿مِّنْ أَعْنَـٰبٍ﴾؛ أي: كروم منوعة، جمع عنب، والعنبة الحبة، وفي «القاموس» وغيره: عنب الكرم صار ذا عنب، والعنب ثمر الكرم، وجمعه أعناب، والحبة منه عنبة ﴿وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ أي: جعلنا النَّخْلَ محيطاً بكل منهما يقال: حفه القوم إذا طافوا به، وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشية، وعشيته به، والمعنى: جَعَلنا النخل محيطاً بهما مطبقاً بحفافيهما؛ أي: جانبيهما، ومنه قوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿أُكُلَهَا﴾؛ أي: ثمَرُها ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾؛ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿نَهَرًا﴾ والنَّهَرَ: بالتحريك لغة في النهْر بالسكون، وهو مجرى الماء العذب ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾؛ أي: أنواع من المال يقال: ثَمَرَ فلان ماله، وأثمره، إذا نماه، قال الحارث بن كلدة:

وَلَـقَـدْ رَأَيْـتُ مَـعَـاشِـرًا ... قَـدْ أَثْـمَـرُوْا مَـالاً وَوُلْـدَا

وفي «البيضاوي»: مأخوذ من ثمر مالهُ بالتشديد إذا كثَّره، وفي «المصباح» الثمر بفتحتين، والثمرة مثله، فالأول مُذَكَّرٌ، ويُجمع على ثِمَارٍ، مثل جَبَلٍ، وجبال، ثم يُجمع الثمار على ثمَر، مثل كِتَابٍ وكتب، ثُمَّ يُجمع على أَثْمَارٍ مِثْل عنق، وأعناق، والثاني مؤنث، والجمع منه: ثمرات مثل قصبة وقصبات، والثمر: هو الحمل الذي تخرجه الشجرة، وسواءٌ أُكِلَ أو لا، فيقال: ثمر الأراك، وثمر العوسج، وثمر الدُّوم، وهو المقل كما يقال: ثمر النخل، وثمر العنب، قال الأزهري: وأثمر الشجر أطلع ثمره، أول ما يخرجه فهو مثمر، ومن هنا قيلَ لما لا نفع فيه: ليس له ثمرة اهـ. وفي «الأساس» ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾؛ أي: مال وانظر ثَمَرَ مالك، ونماءَه، ومال ثمر؛ أي: مبارك فيه، وأثمر القوم، وثَمَرُوا ثموراً، كثر مالهم، وثَمُر ماله، يثمر كثر، وفلان مجدود ما يثمر له مال، والمراد في الآية أنه كان إلى جانب الجنتين الموصوفتين الأموال الدائرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر الْيَسَارِ من كل وجه والصاحب المصاحب لك ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ أي: يجَادِلُهُ، ويراجعه الكلام بالوعظ، والدعاء؛ إلى الإيمان بالله والبعث ﴿نَفَرًا﴾ والمراد من النفر الخَدَم، والحَشَمُ حشم الرجل خدمه ومن يغضب له سموا بذلك لأنهم يغضبون له والأعوان ﴿تَبِيدَ﴾ تفنى وتهلك ﴿مُنقَلَبًا﴾؛ أي: مرجعاً، وعاقِبَةً، وهو اسم مكان من الانقلاب

﴿سَوَّىٰكَ﴾، أي: عدلك، وكملك إنساناً ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أصل التركيب: لكن أنا هو الله ربي دخله نقل، وحذف كما مر في مبحث التفسير.

﴿إِن تَرَنِ﴾ ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ كلاهما رسم بدون ياء؛ لأنها من ياءات الزوائد، وأما في النطق: فبعض السبعة يثبتها، وبعضهم يحذفها كما مر ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: مطراً عظيماً يقلع زرعها، وأشجارها يحتمل إما أن يكون مصدراً كالغُفْرانِ، والبطلان، وإما أن يَكُونَ جمع حسبانة؛ أي: اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء كما في «الشهاب». ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ والصَّعِيد وجْهُ الأرض، الزَّلَقَ الأملس؛ أي: أَرْضاً مَلْسَاءَ لا تثبت عليها القدم، وفي «القاموس» الزلقْ بفتحتين، والزَّلَق بفتح فسكون أرض ملساءُ، ليس بها شيء، وصَيْرُورَتها كذلك لاستئصال نَبَاتها، وأشجارها بالذهاب، والإهلاك، فلم يبق له أثر اهـ. بيضاوي.

﴿غَوْرًا﴾ مصدر غار في الأرض، أي: ذَهَبَ فلا سبيل إليه، فهو بمعنى الفاعل؛ أي: غَائِراً في الأرض لا يدرك، فهو مصدر وصِفَ به مبالغة ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾؛ أي: بأمْوَاله من النقد، والمواشي وغيرهما، يقال: أحاطَ به العدو إذا استولى عليه، وغلبَهُ ثُمَّ استُعمل في كل إهلاك.

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ هذا أُسلُوب في اللُّغة يفيد النَّدَامة والحَسْرَةَ فإن من عظمَتْ حسرته، يصفق بإحدى يديه على الأخرى مُتَأَسفاً متلهفاً، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾؛ أي: سَاقِطَةٌ يقال: خَوَتِ الدَّار، وخويت خياً، وخوياً تهدمت، وخلت من أهلها ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ واحدها عرش، وهي الأعمدةُ التي تُوضع عليها الكروم، وفي «المصباح»: العَرْشُ شبه بيت منْ جريد، يُجعل فوقه الثمامُ، والجمع عروش مثل فلس وفلوس، والعَرِيشُ مثله، وجمعه عرش بضمتين كبريد، وبرد، وعريش الكرم، ما يعمل مُرْتَفَعاً يمتد عليه الكرم، والجمع عرائش أيضاً اهـ. وفي «الشهاب»: العروش جمع عرش، وهو ما يصنع لِيُوضَعَ عليه الكرم، فإذا سقط.. سقط ما عليه اهـ.

﴿مُنتَصِرًا﴾؛ أي: ممتَنِعاً بقوة عن انتقام الله ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتح الواو، وبكسرها المُلك والقهر والسلطنة ﴿عُقْبًا﴾؛ أي: عاقبة ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المَثَلُ الصّفة

﴿هَشِيمًا﴾ أي: يابساً متفرق الأجزاء، وقال الزمخشري: الهشيمُ ما تهشم، وتَحطَّمَ الوَاحِدة هشيمة، وقال ابن قتيبة: كل ما كَانَ رطباً ويَبَسَ فهو هشيم، ويقال: صارت الأرض هشيماً؛ أي: صار ما عليها من النبات والشجر قد يبس وتكسر ﴿تَذْرُوهُ﴾؛ أي: تفرقه وتنشره، وذرت الريح الترابَ وأذرت العين دمعها، وعيناه تذريان الدُّموع، وطعنته فأذريته عن فرسه، وأذراه الفرس عن ظهره رمى به، وذرا حد نابه انسحقت أسنانه، وسقطت أعاليها، وبلغني عنه ذروٌ من قولٍ؛ أي: طرف منه، وأخذ في ذروٍ من الحديث، إذا عرّض، ولم يصرح، قال صخر بن حبناء:

أَتَـانِـيْ عَـنْ مُـغِـيْـرَةَ ذَرْوُ قَـوْلٍ وَعَـنْ عِـيْـسَـىٰ فَـقُـلْـتُ لَـهُ كَـذَاكَ

﴿مُّقْتَدِرًا﴾؛ أي: كامل القدرة، فهو مُفْتَعِل من قدر للمبالغة ﴿بَارِزَةً﴾؛ أي: ظاهرةٍ إذ لم يبق على وجهها شيء من العمائر، ولا من الجبال والأشجار ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: سقناهم إلى الموقف من كل أوب ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾؛ أي: لم نترك يقال غادره، وأغدره إذَا تركه، ومنه الغدر، وهو ترك الوفاء، والغدير: ما غادرهُ السيل؛ أي: تَرَكَهُ من الماء في الغديرة؛ أي: في الحفرة، والغديرة الشَّعر الذي نزل حتى طال، والجمع غَدائِرُ، ومنه قوله: غَدائِره مستشزرات إلى العلا.

والمفاعلة هنا: ليست على بابه؛ أي: ليس فيها مشارَكَةٌ ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: أحضروا لفصل القضاءِ ﴿صَفًّا﴾؛ أي: مصطفين، وهو في الأصل مصدر يقال فيه: صف يصف صفاً من باب شد، واختُلف هنا في ﴿صفا﴾ هل هو مفردٌ وقع موقع الجمع إذ المراد صفوفاً، أو فيه حذف؛ أي: صفاً صفاً كما في آية أخرى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿مَّوْعِدًا﴾؛ أي: وقتاً ننجز فيه ما وَعَدْنَا من البعث، وما يَتْبَعهُ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: جعل كِتَاب كُل عامل في يد صاحبه حين الحساب ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خَائِفِينَ من أَشْفَقَ إذَا خَافَ ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يا هلكتنا أَقْبِلْ فهذا أوانُك والوَيْلُ: الهلاك ﴿أَحْصَىٰهَآ﴾؛ أي: عدها وَضَبَطها ﴿حَاضِرًا﴾؛ أي: مَسْطُوراً في كتاب كل منهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ﴾؛ أي: لا يَتَجاوَزُ ما حده من الثَّوَابِ والعقاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآياتُ ضروباً من البلاغةِ، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لأنَّ وَجْهَ الشبه منتزع من متعدد.

ومنها: التتميم ـ ويُقال لهُ التمام ـ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ لأن وصف الْجَنَّتَيْنِ أولاً باشتمالهما على أعناب، ونخيل ثم تمم ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ لئلا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الانتفاع قاصر على النخيل والأعناب، ولتكونَ كلٌّ من الجنتين جامعة للأقوات والفواكه، متواصلة العَمَار على الشكل الحسن، والترتيب الأنيق، ثم تمم ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ للدلالة على ديمومة الانتفاع بهما، فإن الماء هو سر الحياة، وعامل النمو الأول في النباتات، وإذن فقد استكملَ هذا الرجلُ كُلَّ الملاذ، واستوفى ضُروبَ النّعَمِ ثم تمم ذلك أيضاً بقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ لاستحضار الصورة التامة للانتفاع بالموارد.

ومنها: الاحتراس بقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ لأنه احتراس به من أن يَكُونَ ثمة نقص في الأكل الذي آتته.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ لأَنَّهُ كناية عن تمامها، ونموها دائماً، وأبداً فَلَيست على عادة الأشجار حيث يتم ثمرها في بعض السنين، وينقص في بعض.

ومنها: اللف والنشر المشوش في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الخ لأن[1] حاصل ما قَالَهُ الكافر من القول الشنيع ثلاث مقالات: الأولى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا...﴾ إلخ الثانية: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ...﴾ إلخ الثالثة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً...﴾ إلخ، وقد تعقبه المؤمن في الثلاثة على سبيل اللف، والنشر المشوش، فوبخه على الأخيرة، بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى

---

(١) الفتوحات.

﴿خَلَقَكَ...﴾ إلخ، ووعظه، ونصحه على الثانية بقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ...﴾ إلخ وقرعه على الأولى بقوله: فعسى ربي، الخ اهـ شيخنا.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ لأنه كناية عن التَّحسرَ والندم، لأن النادم يضرب بيمينه على شماله.

ومنها: المبالغة بإطلاق المصدر عَلَى اسم الفاعل في قوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾؛ أي: غائراً.

ومنها: التشبيه التَّمثيلي المقلوب في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية، أما التشبيه التمثيلي: فهو تشبيه الحياة الدنيا، وما فيها من زخارفَ بالنبات الذي اختلط به الماء الهَاطل من السماء، فربا والتفَّ وزَهَا، ورف، وأَمَّا التشبيه المقلوب: فقد كان من حق الكلام أن يقول: فاختلط بنبات الأرض، ووجهه: أنه لَمَّا كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه، عكس للمبالغة في كثرته.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ نداء الويلة قائم على تشبيهها بشخص يطلب إقباله كأنه قيل: يا هلاكنا أقبل، فهذا أوانك.

ومنها: الجمع في قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو أن يجمع الْمُتَكَلِّمُ بين شيئين أَوْ أكثر في حكم واحد، وهو واضح في الآية، ومنه في الحديث قوله ﷺ: «من أصبحَ آمناً في سربه معافىً في بدنه، عنده قوتُ يومه، فَكَأَنَّمَا حيزت له الدنيا بحذافيرها» فجمع الأمن ومعافاة البدن، وقُوتَ اليوم في حوز الدنيا بحذافيرها، أي: بأسرها.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لَما ذكر[1] رَدَّه على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم، وقالوا: كيف نجلس مع هؤلاء، ونحن من أنساب شريفة، وهم من أنساب وضيعة، ونحن أغنياء، وهم فقراء.. أَرْدَفَ ذلك بِذِكْرِ عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم؛ لأن الذي حَدَاهُ إلى ذلك هو كِبْرُهُ وَافْتِخَارُه عليه بأصله ونسبه، إذ قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فأنا أشرف منه أصلاً ونسباً فكيف أسجد له، تنبيهاً على أَنَّ هذه الطريقة السَّالِفَةَ هي بعينها طَرِيقَةُ إبليس، ثُمَّ حَذَّرَ سبحانه منها في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ

(١) المراغي.

وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ وقد تكرر ذكر هذه القصة في مواضع من الكتاب الكريم، وهي في كل موضع سِيقَتْ لفائدة غير ما جاءت له في المواضع الأخرى على اختلاف أساليبها وعباراتها، ولا عزو فهي من نسج العليم الخبير.

وعبارة أبي حيان هنا: ذكروا[1] في ارتباط هذه الآية بما قبلها: أنه تعالى لَمَّا أمر نبيه ﷺ بمجالسة الفقراء، وكان أولئك المتكبرونَ قد تأنفوا عن مجالستهم، وذكروا للرسول ﷺ طردهم عنه، وذلك لما جُبلوا عليه من التكبر، والتكثر بالأموال والأولاد، وبِشَرفِ الأصل والنَّسب، وكان أولئك الفُقراء بخلافهم في ذلك.. ناسب ذكر قصة إبليس بجامع ما اشتركا فيه من التكبر، والافتخار بالأصل الذي خلق منه، وهذا الذي ذكروه في الارتباط هو ظاهر بالنسبة للآيات السابقة قبل ضرب المثلين، وأما أنه واضح بالنسبة لما بعد المثلين فلا، والذي يَظْهَرُ في ارتباطِ هذه الآية بالآية التي قبلها هو أنه لَمَّا ذَكَرَ يَوْمَ القيامة، والحشر، وَذَكَرَ خوف المشركين مما سطر في ذلك الكتاب، وكان إبليس هو الذي حمل المجرمين على معاصيهم، واتخاذ شركاء مع الله، نَاسَبَ ذكر إبليس، والنهي عن اتخاذ ذريته أولياء من دون الله، تبعيداً عن المعاصي وعن امتثال ما يوسوس به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لَمَّا ذكر شبهات المبطلين، ورد عليها بأدلة لا تُدحض، وبرهانات لا ترد.. قفَّى على ذلك ببيان أن في القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكَّر وتدبر، وألقى السمع، وهو شهيد، لكنها القلوب قد تحجرت، والأفئدة قد قست، فلا تنفع فيها الذكرى، ولا تستجيب لوعظ الواعظ، ونصيحة المذكر، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا.. لأرسل عليهم العذاب معجلاً، ولم يبق منهم على ظهر الأرض أحداً، ولكنه الغفور ذو الرحمة، فجعل لِهَلاَكِهم موعداً، لعلهم يتوبون إلى رشدهم ويرعوون عن غيِّهم.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

ثمَّ إنه تعالى عَادَ إلى الرد على أرباب الخيلاء من قريش، فذكر قِصَّة آدم، واستكبار إبليس فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قِصَّةَ وَقْت قولنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ يا ملائكتي ﴿لِءَادَمَ﴾ سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، وكان ذلك مشروعاً في الأمم السالفة، ثم نُسخ بالسلام ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾؛ أي: فسجدت الملائكة جميعاً، امتثالاً لأمر الله وطاعة لطلبه السجود ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ اللعين فإنه أبى واستكبر، ولم يَسْجُدْ، وكأنه قيل: ما باله لم يسجد؟ فقيل: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: كان أصله جنياً خلق من نار السموم، ولم يكن من الملائكةِ، فلهذا عَصَى، فالجملة مستأنفَةٌ مسوقة لبيان سبب عصيانه.

وإنَّمَا صح[1] الاستثناء المُتَّصِلُ لأنه أمر بالسجود معهم، فغلبوا عليه في قوله ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً كقولك: خرجوا إلاّ فُلاَنة، لامرأة بين الرجال.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: خَرَج عن طاعته بترك السجود، فالأمر على حقيقته جعل عدم امتثاله للأمر خُروجاً عنه، ويجوز أن يكون المُراد المأمور به، وهو السجود، والفاء للسببية لا للعطف؛ أي: كونه من الجن سبب فسقه، ولو كان ملكاً.. لم يفسق عن أمر ربه؛ لأن المَلك معصوم دون الجن والإنس.

والمعنى[2]: واذكر - أيها الرسول - لقومك وقت قولنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم اعترافاً بفضله، واعتذاراً عما قَالُوه في شأنه من نحو قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فسجدوا كلهم أجمعون امتثالاً إلا إبليس، ثم بيَّن السَّبَبَ في عصيانه، ومخالفته للأمر فقال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: إن الذي منعه من السجود أَنَّهُ كان جِنّياً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بيْنَهم متَّصِفاً بصفاتهم، بدليل أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ولأنه أثبت له في هذه الآية ذرية وَنَسْلاً، والملائكة لا يَنسلون، ولأن الملائكة لاَ يَسْتَكْبِرُونَ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وَهو قد استكبر ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: فصار فَاسِقاً كافراً بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو في عدادهم، إذ لولا الأمر ما تحقق إباؤه.

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ (الهمزة) للإستفهام الإنكاري التعجبي داخلة على محذوف، و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد علمكم يا بني آدم بِصُدور الفسق من إبليس تتبعونه، وتتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ أي: أولاده وأَتْبَاعه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أصدقاء ﴿مِن دُونِى﴾ تطيعونهم بدلَ طاعتي مجاوزين عني إليهم؛ أي[1]: ذلك الاتخاذ منكر غايةَ الإنكار، حقيق بأن يُتعجب منه، والمراد بالولاية هنا: اتباعُ الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي، فالموالاة مجازٌ عن هذا، لأنه مِنْ لوازمها، فلا يَرِدُ كيف قال ذلك، مَعَ أنَّ الشيطان وذرّيَتَهُ ليسوا أولياء بل أعداء، لأنَّ الأولياء هم الأصدقاء، ذكره في «الفتوحات».

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أن إبليسَ وذُرِيَّته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾؛ أي: أعداء فحقهم أَنْ تعادوهم لاَ أن توالوهم شبه بالمصادر للموازنة كالقبول.

وحاصل المعنى[2]: كيف تصنعون هذا الصنع، وتستبدلون بمن خَلَقَكم وأَنْعَمَ عليكم بجميع ما أنتم فيه من النِعَم مَنْ لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدو لكم، يترقب حصول ما يضركم في كل حين ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: للكافرين ﴿بَدَلًا﴾ من الله، إبليس وذريته، تمييز لفاعل ﴿بئس﴾ البدل لِلْكَافِرين بالله، والمخصوص بالذم إبليس وذرّيته، أي: اتخاذهم إبليس وذريته أولياء من دونه وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم المتفضل عليهم بما لا يُحصى من الفواضل؛ أي: بئس[3] البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) النسفي.

ثم بيّن السبب في عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية في أنفسهم بَعْدَ بيان خَبَاثة أصلهم، فقال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾؛ أي: ما أحضرت إبليسَ وذريته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأعتضد بهم في خلقهما، وأشاورهم في تدبير أمرهما، حيث خلقتهما قَبل خلقهم، وفيه[1] ردٌّ لمن يدَّعي أن الْجِن يَعْلَمُون الغيب؛ لأنهم لَمْ يَحْضرُوا خلق السموات والأرض حتى يَطَّلِعوا على مغيَّباتهما، ﴿وَلَا﴾ أشْهدتهم ﴿خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ولا أشهدت بَعْضَهُمْ خلق بعضهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

والمعنى: أي[2] ما أحضرت إبليس وذرِيَّتَه خلق السموات والأرض، ولا أشهدت بعضهم خلق بَعْضٍ فكيف تطيعُونهم، وتعبدون الأصنامَ من دوني، وهم عبيد أمثالُكم لا يملكون لأنفسهم نَفْعَاً ولا ضَرّاً.

وقصارى ذلك[3]: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصَّصتهم بخصائص لاَ تَكُون لسواهم، حتى يقتديَ الناس بهم، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ليس لي في ذلك شريك ولا وزير.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾؛ أي: الشَّيَاطِينَ الذين يضلون الناس عن الدين، والأصل[4] متخذهم، فوضع المظهَر مَوْضِعَ المضمر، ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال، ﴿عَضُدًا﴾؛ أي: أعْواناً في شأن الخلق وفي شأن من شؤوني حتى يتوهم شركتهم في التولي، بناء على الشركة في بعض الأحكام الربوبية، وقال في «القاموس»: العَضُد النَّاصر، والمعين، وهم عضدي وأعضادي، انتهى.

والمعنى: ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم، ولا شاورتهم، وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعْوَاناً، ووحَّد العَضُدَ لموافقة الفواصِلِ؛ أي: وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذ مَنْ لا يهدون إلى الحق أعواناً وأنصاراً، لأنهم يضلون، فمتبعهم يحور عن قصد السبيل، ولا يصل إلى هدىً فكيف اتبعوهم وعبدوا

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

الأصنام على مقتضى وسوستهم، حتى يكونوا قدوة للناس.

وقرأ عبيد الله بن زياد على المنبر، وهو يخطب[1]: ﴿أفَتَتَّخِذُونَهُ وذريته﴾ بفتح الذال، وقرأ الجمهور ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ بتاء المتكلم، وقرأ أبو جَعْفَرٍ، وشيبة، والسختياني وعون العقيلي، وابن مقسم ﴿ما أشهدناهم﴾ بنون العظمة، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، والحسن، وشيبة، ﴿وَمَا كُنتَ﴾ بفتح التاء خطاباً للرسول ﷺ. قال الزمخشري: والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم. انتهى.

وقرأ علي بن أبي طالب ﴿متخذاً المضلين﴾ أعمل اسم الفاعل، وقرأ عيسى بن عمر ﴿عَضْداً﴾ بسكون الضاد خفف فعلاً كما قالوا: رجل وسبع، في رجل وسبع، وهي لغة عن تميم، وعنه أيضاً بفتحتَيْن، وقرأ شيبة، وأبو عمرو في رواية هارون، وخارجة، والخَفَّاف عَضُداً بضمتين، وعن الحسن عَضَداً بفتحتين، وعنه أيضاً بضمتين، وقرأ الضحاك عضداً بكسر العين، وفتح الضاد، وَقَرَأ عكرمة[2] بضم العين وإسكان الضاد، ولغة تميم فَتْحُ العين وسكونُ الضاد كما مَرَّ فَفِي عَضُدِ ثمان لغات: أفصحها فتح العَيْن، وضَمُّ الضاد، وبها قرأ الجمهور.

واعلم[3]: أَنَّ الله سبحانه وتعالى منفرد في الألوهية، والكل مخلوق له، وَقَدْ خلق الملائكةَ والجنَّ والإنس، فباينَ بينهم في الصورة والأشكال والأحوال. قَالَ سعيد بن المسيب: الْمَلائِكة ليسوا بِذُكُور، ولا إناث، ولا يَتَوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، والجن يتوالدون، وفيهم ذكور وإناث، ويموتون، والشَّياطِين ذكور وإناث، ويتوالدون، ولا يموتون، بل يَخْلُدُون في الدنيا، كما خُلِّد فيها إبليس، وإبليس: هو أبو الجن، وقيل: إنه يُدخِل ذَنَبَه في دبره فَيَبِيضُ بيْضة فتُفْلَقُ البَيْضة عن جماعةٍ من الشياطين.

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يَوْمَ القيامة على رؤوس الأشهاد

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

تقريعاً لهم وتوبيخاً، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة يوم يقول الله سبحانه وتعالى للكفار توبيخاً وتعجيزاً، وهو يوم القيامة، وقال بعضهم: يقول على ألسنة الملائكة، والأظهر هو الأول، لأنه قد ثَبَتَ أنَّ الله تعالى يَتَجَلَّى يَوْمَ القيامة للخلق، مسلمهم وكافرهم، بصور شتَّى، حتى يرونه بحسب ما اعتقدوه في هذه الدار، فلا يبعد كلامه معهم أيضاً، لأنه كلام بالغيب والتوبيخ، لا بالرضى والتشريف، كما كلم إبليس بعد اللعن والطرد على ما سبق في سورة الحجر ونحوها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ بالياء؛ أي: الله مناسبة لقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ وقرأ الأعمش، وطلحة، ويحيى، وابن أبي ليلى، وحمزة، وابن مقسم، ﴿نقول﴾ بنون العظمة مناسبة لقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الخ.

أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركينَ أهوال يوم يقولُ الله عز وجل للكفار توبيخاً لهم وتقريعاً: ﴿نَادُوا شُرَكَآءِيَ﴾ أضافهم إليه، على زعمهم تَهَكماً بهم، وتقريعاً، أي: نادوا آلهتكم التي قلتم إنهم شركائي، وقرأ الجمهور ﴿شركائي﴾ ممدوداً مضافاً للياء، وابن كثير، وأهل مكة مقصوراً مضافاً لها أيضاً، ذكره في «البحر».

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وادَّعيتم أنهم شُفعاؤكم ليشفعوا لكم، ويَمْنَعُوكُم من عذابي، والمراد بهم كل من عُبد من دون الله تعالى ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ أي: نادوهم للإغاثة، ذكر كيفية دعوتهم في آية أخرى ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾؛ أي: فَعلُوا مَا أَمَرَهُم الله به من دعاء الشركاء، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾؛ أي: فَلَمْ يغيثوهم، أي لم يدفعوا عنهم ضراً، ولا أوصلوا إليهم نَفْعاً، إذ لا إمكانَ لذلك، فهو لا ينافي إجابتهم صورة ولفظاً، كما قال: حكاية عن الأصنام، إنها تقول: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين المشركين وآلهتهم ﴿مَّوْبِقًا﴾؛ أي[2]: حاجزاً

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

بعيداً، أو وادياً في جهنم من قيح ودم، وذلك أن المشركين الذِينَ اتَّخَذُوا من دون الله آلهة: الملائكةَ، وعزيراً، وعيسى ومريم، عليهم السلام. دَعَوا هؤلاء فلم يجيبوهم استهانةً بهم، واشتغالاً بأنفسهم، ثم حيل بينهم، فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركينَ جَهَنَّمَ، وأدخل عزيراً وعيسى ومريم الجَنَّة، وسار الملائكة إلى حيث أراد الله من الكرامة، وحصل بين الكفار ومعبوديهم هذا الحاجز وهو ذلك الوادي.

وعلى هذا فهو اسم مكان، ويحتمل كونه مصدراً من وَبَقَ يَبِقَ وُبُوقا، كوثب وثوبا أو من وَبِقَ يَوْبَقَ وَبْقاً كفرح يفرح فرحاً إذا هلك أي: مهلكاً يشتركون فيه، وهو النار، وقال الفراء: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾؛ أي: تَواصُلَهم في الدنيا ﴿مَّوْبِقًا﴾؛ أي: هَلاَكَاً في الآخرة، فالبين على هذا القول التواصلُ كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ في سورة الأنعام على قراءة من ضم النون، ومفعول أول لـ ﴿جعلنا﴾ وعلى الوجه الأول مفعولٌ ثان.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: الكافرون ﴿ٱلنَّارَ﴾ من مكان بعيد ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾؛ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾؛ أي: واردوها[1]، وداخلوها، ومخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير لشدة ما يسمعون من تغيظها، وزفيرها كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، والمكان[2] البيعد، قيل: مسيرة خمس مئة سنة، والظن هنا بمعنى اليقين، والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها، وقيل: إن الكُفَّارَ يرَون النار من مكان بعيد، فيظنون ذلك ظناً ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا﴾؛ أي: عن النار ﴿مَصْرِفًا﴾؛ أي: مهرباً ومعدلاً يعدلون إليه، ومكاناً يَنْصَرِفُون إليه، أَو انْصِرَافاً عَنْهَا، لأن النَّارَ أحاطت بهم من كل مكان.

وفي مصحف عبد الله[3]: ﴿ملاقوها﴾ مكان مواقعوها، وقرأه كذلك الأعمش، وابن غزوان، عن طلحة، والأولى جعله تفسيراً لمخالفته سَوَاد

---

(١) الواحدي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

المصحف، وعن علقمة أنه قرأ ﴿ملافُّوها﴾ بالفاء مشددة من لففت، وأجاز أبو معاذ ﴿مصرفا﴾ بفتح الراء، وهي قراءة زيد بن علي جعله مصدراً، كالمضرب، لأن مضارعه يصرف على وزن يفعل كيضرب.

ولما ذكر[1] سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم، وأجابهم عن ذلك، وضرب لهم الأمثال الواضحة، وحكى بعض أحوال الآخرة فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد كررنا وبيَّنا وذكرنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الكريم ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كل نوع من أنواع الأمثال، كمثل الرجلين المذكورين، ومثل الحياة الدنيا، ليتذكروا ويتعظوا، أو من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن كالمثل ليتلقوه بالقبول؛ فلم يفعلوا، والمعنى؛ أي: ولقد وضحنا للناس كل ما هم في حاجة إليه من أمور دينهم، ودنياهم، ليتذكروا فينيبوا، ويعتبروا، ويزدجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله، وعبادة الأوثان؛ لكنهم لم يقبلوا ذلك، ولم يرعووا عن غيِّهم وعنادهم، واستكبارهم وعتوهم.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: جنس الإنسان بحسب جبلته، ومقتضى طبيعته ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾؛ أي: مراء وخصومة، تمييز؛ أي: أكثر[2] الأشياءِ التي يتأتى منها الجدل، كالجن والملك؛ أي: جدله أكثر من جدل كل مجادل، لا ينبي إلى حق، ولا يزدجِرَ لموعظة، والمراد بذلك خصومة الأمم لأنبيائهم، وردهم عليهم مَا جاؤوا به كَمَا حكى الله عنهم من قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

أخرج الشيخان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي كرم الله وجهه، أن النبي ﷺ طَرَقَهُ وفاطمة ليلاً فقال: «ألا تصليان» فقلت: يا رسول الله؛ إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاءَ أَنْ يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليَّ

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

شيئاً، ثم سمعته وهو مولّ يَضْرِبُ فَخِذَه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» والجدل: هٰهنا شدة الخصومة بالباطل، لاقتضاء خصوصِية المقام ذلك، وإلا فالجدل لاَ يَلْزَم أن يكون بالباطل قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

وخلاصة ذلك: أن جدلَ الإنسان أكثر من جدل كل مجادل لما أتيه من سعة الحيلة، وقوة المعارضة، واختلاف النزعات، والأهواء، وقوة العزيمة إلى غير حد فلو اتجه إلى سبيل الخير، وتاقت نفسه إلى سلوك طريقهِ ارتقى إلى حظيرة الملائكة، ولو نزعت نفسه إلى اتباع وساوس الشيطان انْحَط إلى الدرك الأسفل، ولحق بأنواع الحيوان، يفعل ما يشاءُ، غير مقيَّد بوازع من الدين، ولا زمام من العقل، وصادق العزيمة، ولما بيَّن سبحانه وتعالى إعراضَهُمْ ذكر علة ذلك فَقَال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: لم يَمْنَعْ أَهْلَ مكة من ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ بالله تعالى، ويتركوا الشرك الذي هم عليه ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الكريم الداعي، والقرآن العظيم الهادي ﴿وَ﴾ من أن ﴿يستغفروا ربهم﴾ من أنواع الذُّنوبِ ﴿إِلَّآ﴾ انتظار ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: سنة الله، وعادته في الأمم الماضية، وهو الاستئصال لما كَانَ تعنتهم مفضياً إليه، جُعلوا كأنهم منظرون له. ﴿أَوۡ﴾ انتظار أن ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ أي: عَذَاب الآخرةَ حَالَ كونه ﴿قُبُلٗا﴾؛ أي: أَنْوعاً، جمع قبيل، أو عياناً لهم؛ أي: معايناً.

والمعنى: أي[1] وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البينات الواضحة، والدَّلالات الظاهرة، وعلموا صِحَّةَ ما تدعوهم إليه، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة عما فرِّط منهم من الذنوب، إلا تعنتهم وعنادهم الذي جعلهم يطلبون أحد أَمْرَين:

١ ـ إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

٢ ـ وإمَّا أَنْ تأتِيَهم بأنواع من العذاب، والبلاء يتلوا بَعْضُها بَعْضاً حين

---

(١) المراغي.

وجودهم في الدنيا كقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾، وقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وقرأ الحسن[1]، والأعرج، والأعمش، وابن أبي ليلى، وخلف، وأيوب، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، والكوفيون بضم القاف والباء فاحتمل أن يكونَ بمعنى قِبَلاً، لأنَّ أبا عبيدة حكاهما بمعنى واحد في المقابلة، وأن يَكُونَ جَمْعَ قبيل كسبيل، وسبل، أي: يجيئهم العذاب أنواعاً، وألواناً، وقرأ باقي السبعة، ومجاهد، وعيسى بن عمر ﴿قِبلاً﴾ بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه عياناً، وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضاً بضم القاف وسكون الباءِ وهو تخفيف ﴿قبل﴾ على لغة تميم، وذكر ابن قتيبة: أنه قرىء بفتحتين، وحكاه الزمخشري، وقال: مستقبلاً، وقرأ أُبي بن كعب، وابن غزوان عن طلحة ﴿قَبِيلاً﴾ بفتح القاف، وباء مكسورة بعدها ياء على وزن فعيل.

فحاصل معنى الآية[2]: أنهم لا يؤمنون، ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة، أو معاينته.

ولما كان مجيء ذلك بيد الله وأمره مفوَّض إليه لا إلى الرسول، نبه إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم متلبسين بحال من الأحوال ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين والمطيعينَ بالثواب، والدرجات ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكافرين، والعاصين بالعقاب، والدركات، فَإِنَّ طريق الوصول إلى الأول والحذر عن الثاني مما لا يستقل به العقل، فكان من لطف الله ورحمته أَنْ أرسل الرّسْلَ لبيان ذلك.

والمعنى: أي[3] وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أَهْلَ الإيمان والتصديق بالله ورسوله بجزيل ثوابه في الآخرة، وينذروا أهل الكفر به وتكذيب رُسُلِهِ بعظيم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

عِقَابِه، وأليم عَذَابِه، ولم نُرْسِلْهُم ليقترح عليهم الظالمون من أُممهم الآيات بعد ظهور المعجزات، ويطلبوا منهم ما لا قِبَل لهم به، ثم ذكر أن من شأن المشركين كَثْرَةَ الجَدَلِ للرسول ﷺ فقال:

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مستأنف، فالوقف على ﴿وَمُنذِرِينَۚ﴾، أي: يجادلونَ ويخاصمون الرسل المبشرينَ والمنذرينَ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ حيث يقولون: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ ويقترحون آيات بعد ظهور المعجزات، تعنُّتاً ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾؛ أي: ليزيلوا ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي مع الرسل عن مقره ومركزه، ويبطلوه. مأخوذٌ من إدحَاضِ القدم، وهو إزلاقها عن موطنها، والدحض الزلق؛ أي: ويجادل أولئك المشركون بالباطل كقولهم للنبي ﷺ: أخبرنا عن فتية ذهبوا أوَّل الدهر ما شأنهم؟ وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرضِ وَمَغَارِبَهَا، وعن الروح، وما أَشْبَهَ ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحقّ الذي جاء به الرسل عليهم السلام، لا كشف حقيقة تفيد في دين أو دنيا.

وخلاصة ذلك: أن الرُّسُلَ ما أُرسلوا للجدل والشغب بالباطل، بل بُعثوا للبشارة والإنذار، وأنتم تجادلون بالباطل لتدحضوا الحق الذي جاءكم به رسولي.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ الدالة على الوحدة والقدرة ونحوهما ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾؛ أي: خوِّفوا به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: سُخْرِيةً يعني موضع استهزاء(١) فَيكُون من باب الوصف بالمصدر مبالغة، يقرأ بالواو، وبالهمز سبعيتان، والمعنى؛ أي: واتخَذُوا الحُجَجَ الَّتِي أَحُجُّ بها عليهم، وكتابه الذي أنزل إليهم، والنذر التي أنذروا بها من العذاب والعقاب، استهزاء وسخريةً كقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

ولما حكى عنهم خبيثَ أَحْوَالِهِمْ، وصفهم بما يوجب الخزيَ والنَّكَالَ

---

(١) روح البيان.

فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام إنكاري مضمن للتوبيخ؛ أي: من أشد ظلماً ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾؛ أي: وُعِظَ بالقرآن الكريم فقوله: ﴿ذُكِّرَ﴾ قد رُوعي لَفْظُ (مَنْ) في خمسة مواضع هذا أولُها، ورُوعي مَعْنَاهَا في خمسة أولها: قوله ﴿على قلوبهم﴾ .اهـ شيخنا. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ أي: فصرف عنها، ولم يَتَدبرها، ولم يَتَفكرها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي، وتَغافَلَ عنها، ولم يتفكر في عاقبتها، ولم ينظر في أن المسيءَ والمحسن لا بد لهما من جزاء، ولما كان[1] الإنسان يباشر أكثر أعماله بِيَدَيْهِ غُلِّبت الأعمال باليدين على الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل في عمل القلب: هُوَ مِمَّا عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يَدَيْنِ له: ما قدمت يداك، قال بعضهم: أحق الناس تسمية بالظلم من يرى الآيات فلا يَعْتَبِرُ بها، ويرى طريق الخير فيُعرض عنها، ويرى مواقع الشر فَيَتَّبعها، ولا يجتنب عنها.

وحاصل المعنى: أي لاَ أحد أظلم ممن وُعظ بآيات الله، ودل بها على سبيل الرشاد، وهدي بها إلى طريق النجاة، فأعرض عنها، ولم يَتَدَبَّرْها، ولم يتَّعظ بها، ونسي ما عمله من الكفر والمعاصي، أي: لم يتفكر في عواقبه، ومن ثم لم يتب منها، ولم يُنب إلى ربه.

ثم علل ذلك الإعراض والنسيان بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية جمع كنان، كأزمَّة وزمام كراهية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: أن يَفْقَهُوا ما ذكر من آيات الله تعالى، وتذكير الضمير وتوحيده باعتبار معنى القرآن، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم كَرَاهَةَ أن يَقِفُوا على كُنْهِ الآيات، أو المعنى: جَعَلْنَا على قلوبهم أغطية مانعة من أن يفهموا القرآنَ فيتبعوه، وتلك الأغطية ما رَانَ على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿و﴾ جعلنا ﴿في آذانهم وقرا﴾؛ أي: ثَقِلاً وَصَمَماً يمنعهم عن استماعه، وفيه: إشارة إلى أن أهل اللَّغْوِ والهذيان لا يصيخون إلى القرآن.

والمعنى: أي إن[2] ذلك الإعراض منهم بسبب أنَّا جعلنا على قلوبهم أغطية

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كَرَاهة أن يفقهوا ما ذُكِّروا به، وجعلنا في آذانهم ثِقلاً لِئَلاَّ يَسْمَعُوهُ، والمراد: أنه لا يدع شيئاً مِنَ الخير يصل إليها، فَهِيَ لا تعي شَيئاً من الآيات إذا تليت عليها، ذلك أنهم فَقَدُوا الاسْتِعْداد لقبول الرشاد بما دنَّسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال، وبما اجترحوا من الكفر، والفسوق، والعصيان، فأصبح بينهم وبين سَمَاعِ الحق حجاب غليظ، فلا يَنفذ إلَى السمع شيء مما يُسمع سماع تَدَبُّرٍ واتّعَاظٍ، ولا إلى القلب شيء مما يقال فيعيه وينتفع به، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ وقد تكرر هذا المعنى في غير موضع من الكتاب الكريم.

ثم ذكر سبحانه أثرَ هذا الخَتْمِ على القلوب ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: إلى طريق الفلاح، وهو دين الإسلام ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾؛ أي: لَن يوجَد منهم اهتداء أبداً، أي: مدة التكليف كلها البتة إن دعوتهم إلى الهدى؛ لأنه محال منهم، وتقييده[1] بالأبدية مبالغة في انتفاء هدايتهم، أي: ومهما كررت أيها الرَّسُول مِنَ الدعوة إلى الحق حرصاً منك على نجاتهم، وخَشْيَةَ نزول البلاء بِهِم، فَلَنْ يستجيبوا لك، ولن يهتدوا بهديك، لأن اللهَ قد كتب عليهم الضلال بسوء أعمالهم، وقبح طواياهم، فأنى يفيد النصح وتُجدي العظة، ويرق القلب.

وخلاصة المعنى[2]: كأنه ﷺ حرصاً منه على هداهم قال: مالي أدعوهم رجاء أن تنكشف تلك الأَكِنَّةُ، وتُمزَّقَ بيدِ الدعوةِ، فقيل له: وأنى لك ذلك ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ وَقَدْ جاءت هذه الآية في قومٍ علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركي مكة.

ثم بيَّن أَنَّهُ سبحانه لا يعجل العقوبَة لعباده على ما يَجْتَرِحون من الفسوق والآثام رَجَاء أن يُنيبوا إليه فقال: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد مبتدأ، خبره ﴿ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: البليغ في المغفرة، وهي صيانة العبد عما استحقه من العقاب، للتجاوز عن

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

ذنوبه من الغفر، وهو إلباس الشيء ما يصونه من الدنس ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: الموصوف بالرحمة الواسعة، وهي الإنعام على الخلق، وإيراد[1] المغفرة على صيغة المبالغة دُونَ الرَّحْمَة للتنبيه على كثرة الذنوب، وأن الْمَغْفِرَة ترك المضار، وهو سبحانه قادر على تَرْكِ مَا لاَ يتناهى من العذاب، وأما الرحمة: فهي إنعام، وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلاَّ ما يَتَناهى، وتقديم الوصف الأول؛ لأن التَّخْلِيَةَ مقدم على التحلية. ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾؛ أي: لَوْ يُرِيدُ مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾؛ أي: عَذَابَ الاستئصال في الدنيا من غير إمهال لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه لم يعجل، ولم يؤاخذْ بغتة ﴿بَل﴾ جُعل ﴿لَّهُم﴾؛ أي: لعذابهم ﴿مَّوۡعِدٞ﴾؛ أي: أجل مقدر قيل: هو عذاب الآخرة، وقيل: يوم بدر، فالموعد هنا اسم زمان ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾ ألبتة حين مجيءِ الموعد ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: من غيره سبحانه، وقيل: من دون العذاب ﴿مَوۡئِلٗا﴾؛ أي: منجىً وملجأ، يُقَال: وَأَلَ أَيْ نجا، ووأل إليه أي لجأ إليه، وفيه دِلاَلَةٌ على أَبْلَغِ وَجْه على أن لا ملجأ لهم ولا منجىً، فإن من يكون ملجأه العذابُ.. كيف يرى وجه الخلاص والنجاة منه؟.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَوۡئِلٗا﴾ بسكون الواو، وهمزة بعدها مكسورة، وقرأ الزهري ﴿مولاً﴾ بتشديد الواو من غير همز، ولا ياء، وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه ﴿مولا﴾ بكسر الواو خفيفة من غير همز، ولا ياء.

والمعنى: أي وربك أيها الرسول غَفُورٌ لِذُنوب عباده، ذو رحمة واسعة بهم إذ هم أنابوا إليه، ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه، فيرحمهم واسع الرحمات، ويتجاوزُ لهم عن عظيم الخطيئات، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصي، كإِعْراضهم عن آياته، ومناصبتهم العداء لرسله، ومجادلتهم بالباطل، لعجل لهم العذاب في الدنيا، وأنزل بهم عذاب الاستئصال جزاء وفاقاً لقبيح أعمالهم، ومثل الآية قولُه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ

---

(١) روح البيان.	(٢) البحر المحيط.

عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الباب، ثم أبان أن هذا إمهال لا إهمال، فقال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ ليس لهم منه محيص، ولا ملجأ يلتجئون إليه من عذابه.

ثم ذكر ما هو كالدليل على ما سَلَفَ، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ أي: قرى عاد وثمود وأضرابهما، وهي على تقدير المضاف؛ أي: وأهل تلك القرى مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ واستأصلناهم ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ وكفروا برسلهم؛ أي: وقت ظلمهم مثل ظلم أهل مكة بالتكذيب والجدال وأنواع المعاصي، و﴿لما﴾[1] إما حرف كما قال ابن عصفور، وإما ظرف استُعمل للتعليل، وليس المراد به الوقت المعيَّن الذي عملوا فيه الظلم، بل زمان من ابتداء الظلم إلى آخره ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾؛ أي: لهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾؛ أي: وَقْتاً معيناً لا يتأخرون عنه.

والمعنى: أي[2] وتلك القرى من عاد، وثمود، وأصحاب الأيكة، أهلكناهم لما ظلموا، فكفروا بآياتنا، وجعلنا لهلاكهم ميقاتاً، وأجلاً حين بلغوه جاءهم عذابنا فأهلكناهم به، وهكذا جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك الذين لا يؤمنون بك موعداً لهلاكهم، إذَا جاء أهلكناهم، كما هي سنتنا في الذين خلوا من قبلهم من أضرابهم من سالفي الأمم، فَلْيَعْتَبِرُوا بهم، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم، وقرأ الجمهور[3] ﴿لِمُهْلَكِهِم﴾ بضم الميم، وفتح اللام قال الزجاج: وفيه احتمالان: أحدهما: أَنْ يَكُون مَصْدراً مضافاً إلى المفعول، فيكون المعنى: وجعلنا لإهلاكهم، والثاني: أن يَكُونَ زماناً، فالمعنى لوقت هَلاَكِهِم، وقرأ حفص، وهارون عن أبي بكر بفتح الميم واللام، وهو مصدر مثل الهلاك، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، أيْ لإهلاكهم، وقرأ حفصٌ عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام، فيكون زماناً، أي: لوقت إهلاكهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط وزاد المسير.

الإعراب

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ (الواو): استئنافية (إذ) ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قلنا، والجملة المحذوفة مستأنفةٌ ﴿قُلۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ(إذ) ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾: فعل أمر، وفاعل ﴿لِأٓدَمَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡنَآ﴾ ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿سجدوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قُلۡنَا﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء متصل أو منقطع ﴿إِبۡلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿إِبۡلِيسَ﴾. ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة مسوقة لبيان علة استثناء ﴿إِبۡلِيسَ﴾ من الساجدين ﴿فَفَسَقَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿فسق﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على إبليس ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿كان﴾.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا (٥٠) ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا (٥١)﴾.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على محذوف، و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف ﴿تتخذونه﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول، ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: معطوف على ضمير المفعول، ويجوز أن يكونَ مفعولاً معه ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذ﴾ ﴿مِن دُونِي﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أو متعلق بـ﴿تتخذونه﴾، وجملة ﴿اتخذ﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والتقدير: أَبَعْدَ ما عرفتم فسقه عن أمر ربه تتبعونه، فتتخذونه، وذريته أولياءَ من دوني، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوُّۢ﴾ لأنه صفة على زنة المصادر كالقبول ﴿عَدُوُّۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿تتخذونه﴾ أو

من فاعله لأن فيها مصححاً لكل من الوجهين، وهو الرابط اهـ «سمين» ﴿بِئْسَ﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً مفسر بنكرة مذكورة بعده ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿بَدَلًا﴾ و﴿بَدَلًا﴾: تمييز لفاعل ﴿بِئْسَ﴾ ويجوز أنْ يَتَعَلَّق ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ بمحذوف حال من ﴿بَدَلًا﴾ وأن يتعلق بفعل الذمّ والمخصوص بالذم محذوف وجوباً والتقدير: بئس البدل للظالمين بدلاً، والمخصوص بالذم إبليس وذريته، وجملة ﴿بِئْسَ﴾: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ﴾: مفعول ثان ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على السموات، والجملة مستأنفة ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾: خبره، ومضاف إليه، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ﴿عَضُدًا﴾: مفعول ثان لـ﴿مُتَّخِذَ﴾ لأنه اسم فاعل من اتخذ مضاف إلى مفعوله الأول.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ (الواو): استئنافية ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف تقديرُه: واذكر يا محمد يوم يقول، والجملة المحذوفة مستأنفةٌ ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعُودُ على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿يوم﴾ ﴿نَادُوا﴾: فعل وفاعل ﴿شُرَكَائِيَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿الَّذِينَ﴾: نعت لـ﴿شُرَكَائِيَ﴾، وجملة ﴿نَادُوا﴾: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾ ﴿زَعَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: زعمتموهم شركائي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقُولُ﴾ لأن الماضي هنا بمعنى المستقبل؛ أي: يوم يقول نادوا شركائي فيدعونهم ﴿فَلَمْ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿لم﴾ حرف جزم ونفي ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف في محل المفعول الثاني

لـ﴿جعلنا﴾ ﴿مَّوْبِقًا﴾: هو المفعول الأول له، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾ ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾: (الفاء) عاطفة ﴿ظنوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿رأى﴾ ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظن﴾ ﴿وَلَمْ﴾: (الواو) عاطفة ﴿لم﴾ ﴿يَجِدُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿مَصْرِفًا﴾ و﴿مَصْرِفًا﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾ لأنه بمعنى أصاب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو) استئنافية و(اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿صَرَّفْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: متعلق به ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿صَرَّفْنَا﴾ أيضاً ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: جار ومجرور صفة لمحذوف وقع مفعولاً لـ﴿صرفنا﴾ تقديره: مثلاً من جنس كل مثل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ﴾: خبره ﴿جَدَلًا﴾: تمييز محول عن اسم ﴿كَانَ﴾ والأصل: وكان جدل الإنسان أكثر شيء، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿صَرَّفْنَا﴾ على كونها جوابَ القسم.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): عاطفة أو استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول أول ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾: ناصب وفعل، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً تقديره: وما منع الناس إيمانَهم ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿يُؤْمِنُوٓا۟﴾ ﴿جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُؤْمِنُوٓا۟﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾: ناصب وفعل ومفعول به

مقدم ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: فاعل مؤخر، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿مَنَعَ﴾ ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: وما منع الناس إيمانهم، وقت مجيء الهدى إياهم، واستغفارهم ربهم، إلا إتيان سنة الأولين إياهم؛ أي: إلا انتظار إتيان سنة الأولين إياهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوفة على ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ ﴿قُبُلًا﴾: حال من الضمير، أو من العذاب، والتقدير: أو إلا انتظار إتيان العذاب إياهم، ﴿قُبُلًا﴾: وجملة ﴿مَنَعَ﴾: مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿صَرَّفْنَا﴾ وفي الكرخي: وإنما احتيج إلى حذف المضاف، إذْ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعاً عن إيمانهم، فإن المانع يقارن الممنوع، وإتيان العذاب متأخرٌ عن عدم إيمانهم بمدة كثيرة اهـ.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): عاطفة على ﴿صَرَّفْنَا﴾، أو استئنافية، ﴿ما﴾ نافية ﴿نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف على ﴿مُبَشِّرِينَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة أو معطوفة على ﴿صَرَّفْنَا﴾ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ﴾: (الواو): استئنافية ﴿يجادل الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿يجادل﴾ ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾: (اللام) حرف جر وتعليل ﴿يدحضوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً بعد لام كي، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يدحضوا﴾ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإدحاض الحق به، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يجادل﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾: (الواو) حالية أو استئنافية ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾: فعل وفاعل ﴿ءَايَٰتِى﴾: مفعول أول ﴿وَمَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿ءَايَٰتِى﴾ ﴿أُنذِرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما أنذروا به، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المؤول معطوف على ﴿ءَايَٰتِى﴾، ﴿هُزُوًا﴾ مفعول ثاني لـ﴿اتخذوا﴾ وجملة ﴿اتخذوا﴾ في محل النصب حال من فاعل (يجادل) على

تقدير قد أو مستأنفة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ (الواو): استئنافية من اسم استفهام إنكاري بمعنى النفي في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾ ﴿ذُكِّرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على من والجملة صلة الموصول ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذُكِّرَ﴾ ﴿فَأَعْرَضَ﴾: (الفاء) عاطفة ﴿أعرض﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿ذُكِّرَ﴾ ﴿وَنَسِىَ﴾: فعل ماض، معطوف على ﴿أعرض﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نسي﴾ ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما قدمته يداه ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ خبره، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلَها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾: مفعول أول له ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، وذلك المقدر منصوب على أنه مفعول لأجله، والتقدير: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة كراهية فقههم بآيات الله ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: معطوفة على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَقْرًا﴾: معطوف على ﴿أَكِنَّةً﴾ ﴿وَإِن﴾: (الواو) عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَدْعُهُمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: متعلق به ﴿فَلَن﴾: (الفاء) رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿لن﴾ ﴿يَهْتَدُوٓاْ﴾: فعل وفاعل منصوب بلن ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَهْتَدُوٓاْ﴾، وجملة ﴿يَهْتَدُوٓاْ﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جَواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾: عطف فعلية على اسمية.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾.

﴿وَرَبُّكَ﴾ (الواو): استئنافية ﴿ربُّك﴾: مبتدأ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾: خبر أول ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة، ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوۡ﴾ لاَ محَلَّ لها من الإعراب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ ﴿كَسَبُواْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما كسبوه ﴿لَعَجَّلَ﴾: (اللام) رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿عجل﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾: مفعول به، والجملة جواب لو لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، أو في محل الرفع خبر ثالث، لربك ﴿بَل﴾: حرف إضراب وابتداء ﴿لَّهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّوۡعِدٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَوۡئِلٗا﴾ أو متعلق بـ﴿يَجِدُواْ﴾ و﴿مَوۡئِلٗا﴾: مفعول به، وجملة ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾: في محل النصب حال من ضمير ﴿لَّهُم﴾ أو في محل الرفع صفة لـ﴿مَّوۡعِدٞ﴾ ﴿وَتِلۡكَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ بدل منه ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين متعلق بـ﴿أهلكنا﴾، وجملة ﴿ظَلَمُواْ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لما﴾ الحينية ﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أهلكنا﴾ ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾: حال من ﴿مَّوۡعِدٗا﴾ أو متعلق به لأن ﴿جعل﴾ هنا بمعنى قدر، وعين ﴿مَّوۡعِدٗا﴾: مفعول به لـ﴿جعلنا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾؛ أي: خرج يقال: فسق الرطب إذا خرج عن قشره، قال الفراء: العرب تقول: فسقت الرطبة عن قشرها لخُروجها منه. ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ والذرية: الأولاد، وبذلك قال جمع من العلماء، منهم: الضحَّاك، والأعمش،

والشعبيُّ، وقيل: المراد بهم الأتباع من الشياطين. قال أبو نصر القشيري، وبالجملةِ: فَإن الله تعالى أَخْبَرَ بأن لإبليس أَتْبَاعاً، وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم، وهم أعداؤهم، ولم يثبت عندنا علم بكيفيَّة التوالد منهم، وحدوث الذرية من إبليس، فَيَتوقف الأمر فيه على نَقْل صحيح اهـ. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ والعدو اسم جنس يطلق على الواحد، والكثير، كما قال ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾، وقال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ ﴿عَضُدًا﴾، والعضد: أصله ما بين المرفق إلى الكتف، ويُسْتَعْمَلُ بمعنى المعين كاليد، ونحوها، وهو المراد هنا، وفي «السمين»: والعضد من الإنسان، وغيره معروف، ويعبر به عن المعين، والناصر، يُقَالُ: فلان عضدي، ومنه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: سنقوي نصرتك ومَعُونتك اهـ.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، أي: فلم يجيبُوا لهم فالسين والتاء زائدتان ﴿مَّوْبِقًا﴾ الموبق مكان الوبوق؛ أي: الهَلاك، وهو النار وفي «القاموس»: وبق كوعد ووجل، وورث وبوقا، وموبقاً هلك، وكمجلس المهلك والموعد، والمحبس واد في جهنم، وكل شيء حال بين شيئين، وأوبقه حبسه أو أهلكه وأوبقته ذنوبه: أهلكته اهـ. وفي أبي السعود: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾، أي: بين الداعينَ والمدعوين ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان، أو مصدر من وبق وبوقاً كوثب وثوباً أو وبق وبَقًا كفرح فرحاً، إذا هلك؛ أي: مهلكاً يشتركون فيه وهو النار ﴿مَصْرِفًا﴾ أي: مكاناً ينصرفون إليه. وفي «السمين» والمصرف يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسمَ مَكَانٍ أو زمان، وقال أبو البقاء: ﴿مَصْرِفًا﴾ أي: انصرافاً، ويجوز أن يكون مكاناً اهـ. ﴿جَدَلًا﴾؛ أي: خصومة في الباطل قال الفرزدق:

مَا أَنْتَ بِٱلْحَكَمِ ٱلتُّرْضَىٰ حَكُومَتُهُ ... وَلاَ ٱلأَصِيْلِ وَلاَ ذِيْ ٱلـرَّأْيِ وَٱلْـجَدَلِ

﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الإهلاك بعذاب الاستئصال، ﴿قُبُلًا﴾ والقبل، بضمتين الأنواع والألوانُ واحدها قَبيل كسبل وسبيل وفي «القاموس»: رأيته قبلا (بضمتين) وقَبْلاً (بفتح فسكون) وقَبَلاً (بفتحتين) وقِبَلاً (بكسر ففتح) وقُبَيلاً (بضم ففتح) وقبيلاً؛ أي: عَيَاناً، ومقابلةً، وقال الفراء: إن قبلا جمع قبيل؛ أي: مُتَفرقا يتلو

بعضه بَعْضاً، وقيل: عَيَاناً، وقيل: فجأة ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، والإدحاض الإزلاق يقال أدحض قَدَمَه؛ أي: أزلقها، وأزلها من موضعها، والحجة الداحضة التي لا ثبات لَها، والدحض الطين: لأنه يزلق فيه، ومَكَانٌ دَحْضٌ من هذا اهـ «سمين». وفي «المختار»: دحضت حجته بَطَلَت، وبابه خضع وأَدْحَضَها الله، ودحضت رجله زلقت وَبَابُهُ قطع، والإدحاض الإزلاق اهـ.

﴿أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية جمع كنان كزمام، وأزمة، وأصله أكننة، كأزممة نُقلت حركة النون إلى الكاف، قبلها، ثم أدغمت في التي بعدها اهـ شيخنا وفي «القاموس»: أَنَّه جمع كن أيضاً، ونصه: والكن - بالكسر - وقاء كل شيءٍ وستره كالكنة، والكنان بكسرهما، والجمع أكنان وأكنة اهـ ﴿وَقۡرٗا﴾؛ أي: ثقلا في السمع ﴿مَوۡئِلٗا﴾ وَالْمَوئِل المرجع، من وأل، يئل، وألاً، ووؤلاً إذا رجع، وهو من التأويل، وقال الفراء: المَوئل المنجا، يقال وألت نفسه، أي نجت، وقال ابن قتيبة: الموئل الملجأ يقال وَأَلَ فلان إلى فلان يئل، وأُلاً، ووؤلاً إذا لجأ إليه، وهو هنا مصدر اهـ. وفي «المصباح»: وأَلَ إلى الله يئل - من باب وعد - التجأ إليه، وباسم الفاعل سمي ومنه: وائل بن حجر، وهو صحابي، وسحبان بن وائل، ووأل رجع، وإلى الله الموئل؛ أي: المرجع اهـ. ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ بضم الميم اسم مصدر لأهلك لكنه على زنة اسم المفعول، وهو مضاف لمفعوله؛ أي: لإهلاكنا إياهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ و﴿عَدُوُّۢ﴾ في قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ لأن الأولياء معناه الأصدقاء وإن كَانَ مجازاً عن الأتباع.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ إذ المراد بالمضلين من انتفى عنهم إشهاد خلق السموات والأرض اهـ سمين.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَضُدًا﴾ لأنه حقيقة في العضو المعروف، ثُمَّ استعير للمعين والناصر.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ﴾ لأنه أضافهم إليه على زَعْمِهِم تهكماً بهم، وتقريعاً لهم.

ومنها: الطباق بين ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾، وبين ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ﴿والباطل﴾ في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ لأن الْيَدَيْنِ مجاز عن النفس من إطلاق البعض، وإرادة الكل.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ و﴿يَهْتَدُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ أي: أهل تلك القرى من إطلاق المحل، وإرادة الحال.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا
غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا
عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا
﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ
أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا
فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا
لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] قَصَصَ الْمُشْرِكِينَ الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار، وامتنعوا عن حضور مجلس النبي ﷺ، لئلا يشتركوا مَعَ أولئك الصعاليكِ في مجلس واحد، ولئلا يؤذُوهُم بمناظرهم البَشِعَةِ، وروائحهم المُسْتَقْذَرةِ.. قفَّى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر، ليبين بها أن مُوسَى مع كونه نبياً صادقاً، أرسله الله إلى بني إسرائيل بشيراً ونذيراً، وهو كليم الله، أُمِرَ أن يذهب إلى الخضر، لِيتعلم منه ما لم يعلمه، وفي ذلك دَليل على أن التواضع خير من التكبر.

---

(١) المراغي.

مقدمة تشرح هذا القَصص

١ ـ مَنْ موسى؟

أكثر العلماء على أنَّ موسى الذي ذكر في هذه الآية، هو موسى بن عِمْرَان نبي بني إسرائيل، صاحب المعجزات الظاهرة، والشريعة الباهرة، ولهم على ذلك أدلة:

١ ـ أنه ما ذَكَر الله مُوسى في كتابه إلا أراد صاحبَ التوراة، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه، ولو كَانَ شخصاً آخرَ سمي بهذا الاسم، لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز، وتزيل الشبهة.

٢ ـ ما أخرجه البخاري، ومسلم في جماعة آخرين، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن نوفاً البكالي بن فَضَالة ابن امرأة كعب من أصحاب أمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه، يزعم أن مُوسَى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل، فقال: كذب عدو الله.

وذهب أهل الكتاب وتبعهم بعض المحدثين والمؤرخين، أنَّ موسى هنا هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران، ولهم على ذلك أدلة:

١ ـ أن موسى بعد أَنْ أُنزلت عليه التوراة، وكلَّمَهُ بلا واسطة، وحج خصمه بالمعجزات العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر الأنبياء، يبعد أن يبعثَهُ الله بعد ذلك ليستفيد علماً من غيره. ورُدَّ هذا: بأنه لا يبعد بأن العالِمَ الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض أشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا مشاهد معلومٌ.

٢ ـ أن موسى عليه السلام بَعْدَ خروجه من مصر، وذهابه إلى التيه، توفي، ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته، ولو كانت هذه القصة معه، لاقتضت خروجه من التيه؛ لأنها لم تكن وهُوَ في مصر بالاتفاق.

٣ ـ أنها لو كانت معه لاقتضت غيبته أياماً، ولو كَانَ كذلك. . لعلمها الكثير من بني إسرائيل الذين كانوا معه، ونقلت لتوافر الدواعي على نقلها، ولم

يكن شيء من ذلك، فإذاً لم تكن معه. ورُدَّ هذا: بأنه قَدْ يكون موسى عليه السلام خرج وغابَ أياماً، لكن لم يعلموا أنه ذهب لهذا الغرض، بل ذهب ليناجي ربه، ولم يقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع، لعلمه بقصور فهمهم، فخاف من حط قدره عندهم، فأوصى فَتَاهُ بكتمان ذلك، وعلى الجملة: فإنكارهم لا يؤبَهُ به، وهو جائز عقلاً، وقد أخبر به سُبْحَانَهُ رسوله.

٢ ـ مَنْ فتاه؟

فتى موسى: هو يوشع بن نون، بن أفراشيم، بن يوسف عليه السلام، وقد كان يخدمهُ وَيَتَعلَّمُ منه، والعرب تسمّي الخادمَ فتىً، لأن الخدم أكثر ما يكونون في سن الفتوة، كما يُطلقون على العبد فتىً، وفي الحديث الصحيح: «لِيَقل أحدُكم فتايَ وفتاتي، ولا يقل عبدي وأمتي» وهذا من محاسن الآداب الشرعية.

٣ ـ مَنِ ٱلخَضِرُ؟

الخضر: ـ بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد، وسكونها ـ: لقبٌ لصاحب موسى، واسمه بَلْيَا ـ بفتح الباء وسكون اللام ـ ابن مَلْكَان، والأكثرون على أنه كان نبياً، ولهم على ذلك أدلة:

١ ـ قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، والرحمة النُّبُوَّةَ بدليل قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢ ـ قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وهذا يقتضي أنه علمه بلا واسطة معلم، ولا إرشاد مرشد، وكُلُّ من كان كذلك كان نبياً.

٣ ـ أنه قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، والنبي لا يَتَعَلَّمُ من غير النبي.

٤ ـ أنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ أي: بل قد فعلته بوحي من الله، وهذا دليل النبوة.

٤ ـ أين كان مجمع البحرين؟

مجمع البحرين: هو المكان الذي يجتمع فيه البحران ويصيران بحراً واحداً، وفيه رأيان:

١ ـ أنه ملتقى بحري فارس والروم، ملتقى المحيط الهندي والبحر الأحمر عند باب المندب.

٢ ـ أنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطي عند طنجة، قاله محمد بن كعب القرظي البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق أمام طنجة.

قال البقاعي: والله أعلم إنَّه مجمع النيل، والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر، ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب فيه سفينته للتعدية، كما ورد في الحديث، فَإنَّ الطير لا يشرب من الماء الملح اهـ. وليس في الكتاب الكريم ما يدل على تعيين هذين البحرين، فإن جاء في الخبر الصحيح شيء فذاك، وإلا فيُجمل السكوت عنه.

قصة الخضر مع موسى عليهما السلام

واعلم: أنه قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة بروايات مختلفة، وأتم الروايات وأصحها، ما روى الشيخان عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً الْبُكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر، ليس موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أُبَيُّ بن كعب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت، فهو ثَمَّ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثُمَّ انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في

البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يَوْمِهِمَا وليلتهما، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾» قال سفيان: يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، لا يصيب ماؤها ميتاً إلاَّ عاش، قال: وكان قد أُكلَ منه، فلما قطر عليه الماء عاش، قال: فرجعا يقصان أثرهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجًّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم، قال: أتيتك لتعلِّمني مما عُلِّمتَ رُشْداً، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى، إني على علم من الله علَّمنيه لا تعلمه أَنْتَ، وأنت على علم من الله، علَّمك الله لا أعلمه، قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فكلَّموهم أن يحملوهم، فَعَرَفُوا الخضر، فحملوه بغير نولٍ، فلما رَكِبَا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدُّوم، فَقَالَ له موسى: قوم حملونا بغير نول، عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسَى نِسْيَاناً قَالَ: وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة، فنقرَ في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة، من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الْخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله، فقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل

لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قال: وهذه أشد من الأولى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا، فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم، فلم يطعمونا، ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر، حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: وكان ابن عباس يقرأ: ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين﴾، وبقية روايات سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبيٍّ بن كعب، هي موافقة لهذه الرواية في المعنى، وإن تفَاوتت الألفاظ في بعضها، فلا فَائِدَةَ في الإطالة بذكرها، وكذا روايات غير سعيد عنه.

التفسير وأوجه القراءة

والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره؛ واذكر يا محمد لِقَوْمِكَ قِصَّةَ إذْ قال ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران عليه السلام، ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون بن أفراشيم بن يوسف عليه السلام، لما فيها من العبرة.

قيل[1]: ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة: أن اليهودَ لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف، وقالوا: إنْ أخبركم فهو نبي، وإلا فلا.. ذكر الله قِصَّةَ موسى والخضر، تَنبيهاً على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القَصَصِ والأخبار، والمعنى: واذكر قصة وقت قول موسى لفتاه يوشع بن نون، وهو ابن أخت موسى، وَكَانَ من أكبر أصحابه، ولم يزل معه إلى أن مات، وخلفه في شريعته، وكان من أعظم بني إسرائيل بعد موسى، سُمي فتاه إذ كان

(١) الشوكاني.

يخدمه، ويتبعه، ويتعلم منه، ويسمى الخادم والتلميذ فتى، وإن كان شيخاً، وإليه يشير القول المشهور: تعلم يا فتى فالجهل عار.

﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾: من برح الناقص كزال يزال؛ أي: لا أزال أسير، فحذف الخبر اعتماداً على قرينة الحال؛ إذ كان ذلك عند التوجه إلى السفر، ويدل عليه أيضاً ذكر السفر في قوله: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ وأصل ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾؛ أي: ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وهو المكان الذي وعد الله موسى بلقاء الخضر فيه، والمراد[1] بملتقاهما هنا موضع يقرب التقاؤهما فيه مما يلي المشرق، ويُعطى لما يقرب من الشيء حكم ذلك الشيء ويعبر به عنه، وفيه إشارة إلى أن موسى والخضر عليهما السلام بَحْرَانِ لكثرة علمهما ﴿أَوۡ﴾ حتى ﴿أَمۡضِيَ﴾ وأسير ﴿حُقُبٗا﴾؛ أي: زماناً طويلاً، أتيقن معه فوات المطلب، أو أسير ثمانين سنةً، يعني حتى يقع، إما بلوغ المجمع، أو مضي الحقب؛ قال الجوهري: الحقب ـ بالضم ـ ثمانون سنةً، وقال النَّحَّاس: الذي يعرفه أهل اللغة: أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطاً وقوماً منهم غير محدود، وجمعه أحقاب، وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما رويَ أنه سئِل موسى من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: أنَّ أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين، كما مر في القصة، والمعنى؛ أي[2]: واذكر أيها الرسول قصة حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع: لا أزال أمشي حتى أبلغ مكانَ اجتماع البحرين، أو أسير دهراً طويلاً.

وخلاصة ذلك: أن الله تعالى أعلمَ موسى هذا العالِمَ، وما أعلمه موضعه بعينه، فقال: لا أزال أمشي حتى يجتمع البحران، فيصيرَا بحراً واحداً، أو أمضي دهراً طويلاً حتى أجده.

ومجمل الأمر: أنَّه وطَّن نفسه على تحمل التعب الشديد، والعناء العظيم،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

في السفر مَهْمَا طال به الزمان. وقرأ[1] الضحاك، وعبد الله بن مسلم بن يسار ﴿مجمع﴾ بكسر الميم الثانية، والنضر عن ابن مسلم بالكسر في كلا الحرفين، وهو شاذ، وقياسه: من يفعل بفتح الميم كقراءة الجمهور، والظاهر؛ أن مجمع البحرين، هو اسم مكان جمع البحرين، وقيل: مصدر، وقرأ الضحاكُ حقباً بإسكان القاف، والجمهور بضمها.

قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ معطوف على محذوف تقديره: فذهبا يمشيان، فلما بلغا، أي: بلغ موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾؛ أي: مجمع بين البحرين، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعاً، وهو الموضع الذي وُعِدَ موسى أن يجتمعَ فيه مع الخضر، وفيه الصَّخْرة، وفيه عين ماءِ الحياة، التي لا يصيب ماؤُها مَيْتاً إلا حيي، وقد وقع أنَّهما لَمَّا وضَعَا، أنَّ حوتهما أصابه شيء من ماء الحياة فحيي، وَقيل[2]: البين بمعنى الافتراق؛ أي: البحران المفترقان، يجتمعانِ هناك، وقيل: الضمير لموسى، والخضر؛ أي: وصلا الموضع الذي فيه اجتماع شملهما، ويكون البين: على هذا بمعنى الوصل؛ لأنه من الأضداد، والأول أولى، ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ أي: تركا حوتَهما الذي جُعل فقدانه أَمَارةَ وُجدان المطلوب؛ أي: نسي مُوسَى تذكر الحوت لصاحبه، وصاحبه نسي الإخبار بأمره، فلا يخالفه ما في حديث «الصحيحين» من إسناد النسيان إلى صاحبه، وفي «الأسئلة المقحمة»: كَانَا جَمِيعاً قد زوَّداه لسفرهما، فجاز إضافة ذلك إليهما؛ وإن كَانَ الناسي أحدهما، وهو يوشع: يقال: خرج القوم، وحملوا معهم الزاد، وإنما حمله بعضهم، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوت. إن قُلْتَ: كيف أتى بالفاء، وذهاب الحوت مقدم على النسيان؟

قلت: الفاء فصيحة، ولا يلزم أن يكون المعطوف عليه الذي يُفصح الفاء عنه معطوفاً على نسيا بالفاء، بل بالواو، والتقدير: وحيي الحوت، فَسَقط في البحر، فاتخذَ ﴿سَبِيلَهُۥ﴾؛ أي: طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أي: مسلكا مفعول ثان لـ﴿اتخذ﴾، أي: اتخذ سبيلاً سرباً، والسرب: النفق، الذي يكون في الأرض،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

للضب ونحوه من الحيوانات، وذلك أن الله سبحانه أمسك جِريَة الماء عن الموضع الذي انسرب فيه الحوت ودخل فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه، وانجياب الماء عنه بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض، قال الفراء: لما وقع في الماء جَمَدَ مذهبه في البحر، فكان كالسرب، فلما جَاوَزَا ذلك المكان الذي كانت عنده الصخرة، وذهب الحوت فيه، انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافرين من النصب والكلال، ولم يجدا النصب حَتَّى جَاوَزَا الموضع الذي فيه الخضر، فلهذا قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي: جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين الذي جُعل موعدا للملاقاة، مع الخضر؛ أي: انْطَلَقَا بَقِيَّةَ يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد، أُلقي على موسى الجوع، لِيَتَذكر الحوت، ويرجع إلى مطلبه، فعند ذلك، ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾؛ أي: قرِّب لنا ما نتغدى به، وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب، والغداء ـ بالفتح ـ هو ما يعد للأكل أول النهار، والعشاء ما يعد له آخره، والله ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾ وذقنا ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾؛ أي: من هذا السفر الذي سرناه بعد مجاوزة مجمع البحرين، ﴿نَصَبًا﴾؛ أي: تعباً وإعياء.

وقرأ الجمهور: ﴿نَصَبًا﴾ بفتحتين، وعبد الله بن عبيد بن عمير بضمتين، قال صاحب «اللوامح»: وهي إحدى اللغات الأربع التي فيها، ذكره في «البحر»، قال النواوي: إنما لحقه النصب والجوع، ليطلبَ موسى الغداء، فيتذكر به يوشع الحوت، وفي الحديث: «لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره به»، وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف[1] جاع موسى ونصب في سفرته هذه، وحين خرج إلى الميقات ثلاثينَ يوماً لم يجع ولم ينصب؟

قيل: لأن هذا السفر، كان سفر تأديب وطلب علم، واحتمال مشقة، وذَلِكَ السَّفَرُ كان إلى الله تعالى، انتهى، وجملة القسم في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداءِ ﴿قَالَ﴾ فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ قال ابن ملك[2]: هو يجيىء بمعنى أخبرني، وهنا بمعنى التعجب، ومفعوله محذوف، وذلك المحذوف عامل في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

قوله: ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ والتقدير: أَرَأَيْتَ ما دهاني أو نابني في ذلك الوقت والمكان، وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين، الذي هو الموعد.

والمعنى: عجبت مما أصابني حين وصلنا إلى الصخرة، ونزلنا عندها ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أن أذكر لك أمره، وما شاهدت منه من الأمور العجيبة، نسب النسيان إلى نفسه؛ لأن موسى كَانَ نَائِماً، وأحس يوشع بخروجه من المكتل إلى البحر، ورآه قد اتخذ السرب، فأشفق أن يوقظ موسى، وقال: أؤخر إلى أن يَسْتَيْقِظَ، ثم نسي أن يعلمه حتى ارتَحلا، وجاوزا مجمع البحرين.

وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدم ذكره، لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعلاه زاداً لهما، وأمارةً لوجدان مطلوبهما.

ثم اعتذر بإنساء الشيطان إياه، لأنه لو ذكر ذلك لِموسى ما جاوز ذلك المكان، وما ناله النصب فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾؛ أي: وما أنساني الحوت ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك، ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل اشتمال من الضمير، وقرىء ﴿أَنْ أَذْكُر له﴾ كما في «البيضاوي»؛ أي: وما أنساني ذكر أمر الحوت لك، إلا الشيطان بوسوسته الشاغلة عن ذلك، ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ ومسلكه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ اتخاذا ﴿عَجَبًا﴾، وهو كون مسلكه كالسرب، فلم يلتئم الماء، وجمد ما تحت الحوت منه حتى رجع موسى إليه، فرأى مسلكه، وكون الحوت قد مات، وأُكل شقه الأيسرُ، ثُمَّ حيي بعد ذلك، وقرأ الجمهور ﴿وما أنسَانِيهِ﴾ بكسر الهاء على أصل حركة التقاء الساكنين ولمناسبة الياء وقرأ حفص بضم الهاء هنا وفي «الفتح» في قوله: ﴿عليه الله﴾ بناء على أن الغالب في حركة بناءِ هاء الضمير الضم، جبراً لما فاته من الإعراب، وذلك في الوصل، وقد بسطنا البحث عن ذلك في سورة الفاتحة، فراجعه، وعبارة ابن الجوزي هنا: قرأ الكسائي ﴿أنسِانيهِ﴾ بإمالة السين مع كسر الهاء، وقرأ ابن كثير ﴿أنسانيهي﴾ بإثبات ياء في الوصل بعد الهاء، ورُوي عن حفص ﴿أنسانيه إلا﴾ بضم الهاء في الوصل، وهذا الكلام يحتمل أن يكونَ من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً

للناس، فهو معطوف على جملة قوله؛ ﴿فإنّي نسيت الحوتَ﴾ وما بينهما اعتراض كما في «الجمل»: يعني أنَّ قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، سببهُ ما يجري مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان، ويحتملُ أن يكونَ من كلام الله سبحانه، لبيان طرف آخر من أمر الحوت، كأنه قيل: حيي واضطرب، ووقع في البحر، واتَّخَذَ سبيله فيه سبيلاً عجباً.

قلت: ويحتمل كون جملة، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ حَالاً من الحوت في قوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

وفي «الخازن»[1]: قيل: وأي شيء أعجب من حوت قد أكل منه دهراً، ثم صار حياً بعدما أُكل بعضه.

وفي «القرطبي»: وموضع العَجَبِ: أن يكون حوت قد مات يؤكل شقه الأيسر، ثم حَيِيَ بعد ذلك، وقال أبو شجاع في كتاب «الطبري»: أُتيتُ به، فرأيته، فإذا هو شقٌّ حوت بعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء من اللحم، عليه قشرة رقيقة، تحتها الشوك اهـ.

وحاصل معنى الآية: أي[2] قال له فتاه: أرأيت ما حدث لي حين لجأنا إلى الصخرة التي بمجمع البحرين، إني نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت، إنه حييَّ واضطرب، ووقع في البحر، واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وذلك أن مسلكه كَانَ كالطاق والسرب، وما أنساني ذكره إلاَّ الشيطان ﴿قَالَ﴾ موسى لفتاه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت، ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾؛ أي: الأمر الذي كنا نبغيه ونطلبه لكونه أمارة الظفر بالمطلوب، وهو لقاء الخضر عليه السلام، أصله نبغيه، والضمير العائد إلى الموصول محذوف كما قدرناه.

وقرىء[3]: ﴿نبغ﴾ بغير ياء في الوصل، وإثباتها أحسن، وهي قراءة أبي

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

عمرو، والكسائي، ونافع، وأما الوقف.. فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لرسم المصحف، وأثبتها في الحالين ابن كثير، ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾؛ أي: رجع موسى وفتاه من ذلك الموضع، وهو[1] طرف نهر ينصب إلى البحر، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾؛ أي: على أعقابهما، وطريقهما الذي جاء منه، والآثارُ: الأعلام جمع أثر، وإثر، يقال: خرج في أثره، وفي إثره، أي: بعده وعقبه حالة كونهما يقصان ﴿قَصَصٗا﴾ فهو مصدر فعل محذوف؛ أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، ويتفحصان تفحصاً، حتى أتيا الصخرة التي حيي الحوت عندها، وسَقَطَ في البحر، واتخذ سبيله سرباً، قال البقاعي: إن هذا يدل على أن الأرضَ كانت رملاً لاَ علامة فيها.

وخلاصة ما تقدم[2]: أنه تعالى بيَّن لموسى عليه السلام: أن موضعَ هذا العالم مجمع البحرين، وأن علامة وجوده في المكان المعين انقلاب الحوت الميت الذي في المكتل حياً، فلما بلغا مجمع البحرين، اضطرب الحوت فيه، ووثب في الماء، وقد أمسك الله إجراء الماء على البحر، وجعله كالطاق أو الكوة، حتى سرى الحوت فيه، فلما جاوز موسى، وفتاه المكان المعين، وهو الصخرة بسبب النسيان، وسَارَا كثيراً، وتعبا وجاعا.. قال موسى لفتاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾، قال الفتى: أرأيت ما وقع لي من الحوت حين لجأنا إلى الصخرة، فاتخذ سبيله في البحر اتخاذاً عجباً، إذا انقلب من المكتل، وصار حياً، وألقى نفسه في البحر على غفلة منّي، وإنّي نَسيت أن أبلغك خبره، وما أنسَاني ذكره إلا الشيطان، قال موسى: ذلك الذي كنا نطلبه، لأنه أمَارَة الظفر بالمطلوب، وهو لقاء الخضر، فَرَجَعا في طريقهما الأولى، إذ علما أنهما تجاوزا الموضع الذي يقيم فيه ذلك العالِم ﴿فَوَجَدَا﴾؛ أي: فوجد موسى وفتاه عند الصخرة حين رجعا إليها ﴿عَبۡدٗا﴾ التنكير للتفخيم، ﴿مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ الإضافة للتشريف، وهو الخَضِر، وكان مسجّىً بثوب أبيضَ، فَسَلَّمَ عليه موسى، وعرَّفه نفسه، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى. قال:

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

موسى بني إسرائيل، قال: نعم، والخضر[1] ـ بفتح الخاء المعجمة وكسر الضاد ـ لَقَبُهُ، وسبب تلقِيبِهِ بذلك. ما جاء في «الصحيح» أنه عليه السلام قال: «إنَّما سُميَ الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاءِ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» الفَرْوَة وجه الأرض اليابسة، وقيل: النَّبات اليابس المجتمع، والبيضاء الأرض الفارغة التي لا غرس فيها؛ لأنها تكون بيضاء، واهتزاز النبات تحركه وكنيته أبو العباس، واسمه بَلْيا، ـ بباء موحدة مفتوحة، ثمَّ لام ساكنة، ثمَّ مثناة تحتية ـ ابنُ ملكان ـ بفتح الميم وإسكان اللام ـ ابن فالغ بن عابر بن شالخْ بن أرفخشد، بن سام، بن نوح عليه السلام، وكان ابن ملك من الملوك، فَأَراد أبوه أن يستخلفه من بعده، فَلَمْ يقبل، وهرب منه، ولحق بجزائر البحر، فلم يقدر عليه، وكان أبوه من الرُّوم، وأمه مِنْ فارس، واسمها ألها، وقيل: أمه رومية، وأبوه فارسي، والله أعلم.

وروي[2]: أنهما وجدا الخضرَ، وهو نائم على وجه الماء، وهو مغطى بثوب أبيض، أو أخضر، طرفه تحت رجليه، والآخر تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فرفع رأسه واستوى جالساً، وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال له موسى: ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي، ودلك علي. والصحيح أن الخَضِرَ نبيٌّ، وذهب الجمهور إلى أنه حيٌّ إلى يوم القيامة، لشربه من ماء الحياة. والله أعلم.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أعطيناه ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: نبوة ووحيا كائنة ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ وفضلنا، كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصه بجناب الكبرياء، وقال الإمام مسلم: إن النبوةَ رحمةٌ كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ونحوه، ولكن لا يلزم أن تكون الرحمة نبوةً، فالرحمةُ هنا: هي طول العمر على قول من ذهب إلى عدم نبوته، وقيل: الرحمة: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾؛ أي: علمنا ذلك العبدَ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾؛ أي: من جنابنا، ﴿عِلْمًا﴾ خاصّاً حاصلاً له

(١) روح البيان. (٢) المراح.

بلا وَاسطة معلم، ولا إرشاد مرشد، وهو: ما علمه الله سبحانه من علم الغيوب والإخبار عنها بإذنه تعالى، على ما ذهب إليه ابن عباس ـ رضِيَ الله عنهما ـ أو علم الباطن.

قال السمرقندي[١]: إنما قال: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ مع أن العُلُومَ كلها من لدنه، لأن بعضها بواسطة تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل العلم اللدني: هو الذي ينزله في القلب من غير واسطة أحد، ولا سبب مألوف من خارج، كما كان لعمر، وعليٍّ، ولكثير من أولياء الله المرتضين، الذين فاقوا بالشوق والزهد على كل من سواهم.

قال الزجاج[٢]: وفيما فعل موسى، وهو من أجلَّة الأنبياء، من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كَانَ قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه، ولِذَا ورد: أطلبوا العِلْمَ من المَهْدِ إلى اللحد.

ثم قص سبحانه مَا دَارَ بين موسى والخضر، بعد اجتماعهما فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العبد ﴿مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ كلام[٣] مستأنف مبني على سؤال نشأ من السياق، كأنه قيل: فماذا جرى بينهما من الكلام بعد اجتماعهما؟ فقيل: قال له موسى؛ أي: للخضر عليهما السلام ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؛ أي: هل أصحبك، والاستفهام فيه للاستئذان ﴿عَلَىٰٓ﴾ شرط ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهو في موضع الحال من الكاف، وهو استئذان منه في اتباعه له على وجه التعليم، ويكفيك دليلاً في شرف الاتباع. ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؛ أي: على شرط أن تُعَلّمني علماً ذا رشد وإصابة، أرشد به في ديني، كائناً مما علمك الله سبحانه وتعالى، وفي هذا[٤] السؤال ملاطفة، ومُبَالَغَة في حسن الأدب؛ لأنه استأذنه أن يكون تابِعاً له، على أن يعلمه مما علمه الله تعالى من العلم، قال الإمام: والآية تدل على أن موسى راعى

---

(١) بحر العلوم.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

أنواع الأدب، حيث جَعل نفسه تبعاً له بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ وَاستأذن في إثبات هذه التبعية، وأقرَّ على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم، في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ و(من) في قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ للتبعيض؛ أي: لا أطلب مساواتك في العلوم، وإنما أريد بعضاً من علومك، كالفقير يطلب من الغني جزءاً من ماله، وفي قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأنه أخذ من الله، والرشد: الوقوف على الخير، وإصابة الصَّواب.

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو[1]: ﴿من لدنا﴾ بتخفيف النون، وهي لغة في لدن، وهي الأصل: قيل: وقد أولع كثيرٌ ممن ينتمي إلى الصلاح ادّعاء هذا العلم، ويسمونه العلم اللدني، وأنه يلقى في روع الصالح منهم شيء من ذلك، حتى يخبر بأن من كان من أصحابه، هو من أهل الجنة، على سبيل القطع، وأن بَعْضَهم يرى الخضر، وقرأ الحسن، والزهري، وأبو بحرية، وابن محيصن، وابن مناذر، ويعقوب، وأبو عبيد، واليزيدي ﴿رَشَداً﴾ بفتحتين، وهي قراءة أبي عمرو من السبعة، وقرأ باقي السبعة بضم الراء، وإسكان الشين، وهما لغتان: كالبُخل والبَخَل. وفي الآية دليل على أن الْمُتَعَلّم تبع للعالم، وإن تفاوتت المراتب، وليس في ذلك ما يدل على أن الْخَضِرَ أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يأخذ الفاضل عن الفاضل إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فَقَدْ كان علم مُوسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر علم بعض الغيب، ومعرفة البواطن.

﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ﴾ يا موسى ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: لا تُطيق أن تصبِرَ على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك، فإني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله علمكه لا أعلمه أنا، ثم أكد ذلك مشيراً إلى علة عدم الاستطاعة، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ يا موسى، وتسكت ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ أي: علماً و﴿خُبْرًا﴾ تمييز محول عن الفاعل؛ أي: لم يحط به خبرك؛ أي: علمك، والخبر: العلم

---

(١) البحر المحيط.

بالشيء، والخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، وبما يحتاج إلى الاختبار منها، والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي، وقرأ الحسن، وابن هرمز ﴿خبرا﴾ بضم الباء؛ أي: وكيف[1] تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور، ظواهرها منكرةٌ، وبواطنها مجهولةٌ، والرجل الصالح العالم لا يتمالك أن يصبر إذا رأى ذَلِكَ، بل يبادر بالإنكار، ﴿قال﴾ موسى للخضر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿صَابِرًا﴾ معك ملتزماً طاعتَك، ﴿و﴾ ستجدني ﴿لا أعصي لك أمرا﴾؛ أي: لا أخالف أمراً لك تأمرني به غير مخالف لظاهر أمر الله وشرعه، فجملة: ﴿وَلَآ أَعْصِي﴾ معطوفة على ﴿صَابِرًا﴾ فَيَكُونُ التقييد بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ شاملاً للصبر ونفي المعصية، كما أشرنا إليه في الحل؛ أي: ستجدني صابراً وغير عاص؛ أي: لا أخالفك في شيء، ولا أترك أمرك فيما أمرتني به.

وتعليق الوعد بالمشيئة[2]: إما طلباً لتوفيقه في الصبر ومعونته، أو تيمناً به، أو علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، فإن الصَّبْرَ من مثله عند مشاهدة الفسادِ شديد جدّاً، لا يكون إلا بتأييد الله تعالى.

وقيل: إنما استثنى؛ لأنه لم يكن على ثقة فيما التزمَ من الصبر، وهذه عادة الصالحين، فإن قلت ما معنى قول موسى للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ الآية، ولم يصبرْ، وقول إسماعيل عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فصبر؟ قَالَ بعض العلماء: لأن موسى جاء صحبة الخضر بصورة التعلم، والمتعلم لا يصبر إذا رأى شيئاً حتى يفهمه، بل يعترض على أستاذه كما هو دأب المتعلمين، وإسماعيل لم يكن كذلك، بل كان في معرض التسليم والتفويض إلى الله تعالى، وكلاهما في مقامهما واقفان، وقيل: كَانَ موسى في مقام الغيرة والحدة، والذبيح في مقام الحكم والصبر، قال بعض العارفين: قال الذبيح من الصابرينَ: أدخل نفسه في عداد الصابرين، فدخل، وموسى عليه السلام تفرد بنفسه، وقال: صابراً، فخرج، والتفويض من التفرد أسلم وأوفق لتحصيل المقام ووصول المرام. ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾؛ أي: فإن صحبتني لأخذ العلم، وهو إذن له في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الاتباع، والفاء لتفريع الشرطية، على ما مر من التزامه للصبر والطاعة. ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تشاهده من أفعالي وتنكره مني في نفسك؛ أي: تفاتحني بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾؛ أي: حتى أبتدىء لك ببيانه، وفيه إيذان بأن كل ما صدر منه فله حكمة، وغاية حميدةٌ ألبتة، وهذا من آداب المُتَعلم مع العالم، والتابع مع المتبوع، وهذه[1] الجمل المعنونة بـ﴿قال﴾ و﴿قال﴾: مستأنفة، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة، كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها.

والمعنى: أي قَال لَه الخضرُ: إن سرت معي فلا تفاتحن في شيء أنكرته علي حتى أبتدىء بذكره، فأبين لك وجه صوابه، فإني لا أقدمُ على شيء إلا وهو صواب جائز في نفس الأمر، وإن كَانَ ظاهرهُ غير ذلك، فقبل موسى شرطه، رِعايَةً لأدب المتعلم مع العالم.

وقرأ ابن كثير[2]، وأبو عَمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ ساكنة اللام مخففة النون، وقرأ نافع، وابن عامر، ﴿فلا تسألني﴾ مفتوحة اللام مشددة النون، قال أبو علي: كلهم بياء في الحالين. انتهى. وقرأ ابن عامر، في رواية الداجونيّ ﴿فلا تسألنِّ عن شيء﴾ بتحريك اللام من غير ياء، والنون مكسورة مشددة.

والفاء في قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ فاء الفصيحة، كما في «روح البيان»؛ أي: ذهب موسى والخضر عليهما السلام على ساحل البحر، يطلبان السفينة، وأَمَّا يُوشَعُ فقد صرفَه موسى إلى بني إسرائيل، أو كان معهما، وإنما لم يُذكر في الآية لأنه تابع لموسى، فاكتفى بذكر المتبوع من التابع، فالمقصود ذكر موسى والخضر، فمرت بهم سفينة، فكلموهم أنْ يحملوهم، فحملوهم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾؛ أي: دخلا ﴿فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ والألف واللام ﴿في السفينة﴾ لتعريف الجنس إذ لم يتقدم عهدٌ في

---

(١) الشوكاني.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

سفينة مخصوصة، كما ذكره في «البحر»، وقال في «الإرشاد»: في سورة هود، معنى الركوب العلو على شيء له حركة، إما إراديةٌ كالحيوان، أو قسرية كالسفينة والعجلة، ونحوهما، فإذا استعمل في الأول، يوفر له حظ الأصل، فيقال: ركبت الفرس، وإن استُعمل في الثاني، يلوح بمحلية المفعول بكلمة ﴿في﴾ فيقال: ركبت في السفينة، وفي «الجلالين»: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾ البحر ﴿فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ ﴿خَرَقَهَا﴾؛ أي: ثقبها[1] الخضر وشقها لمَّا بلغوا اللج؛ أي: معظم الماء، حيث أخذ فأساً، فقلع بغتة؛ أي: على غفلة من القوم من ألواحها لوحين مما يلي الماء، فجعل موسى يسد الخرق بثيابه، وأخذ الخضر قدحاً من زجاج، ورقع به خرق السفينة، أو سده بخرقة.

روي أنه لما خَرقَ السَّفينَةَ لم يدخلها الماء.

وقال الإمام في «تفسيره»: والظاهر أنه خرق جدارها، لتكون ظاهرة العيب، ولا يتسارع إلى أهلها الغرق، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى مُنْكِراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ يا خضر، والاستفهام فيه للإنكار المضمن للتوبيخ. ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؛ أي: لتهلك ركابها بالماء، فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها، المفضي إلى غرق أهلها، وهم قد أحسنوا بِنَا حَيْثُ حملونا بغير أجرة، وليس هذا جزاءَهم، فاللام للعاقبة، وقيل: لام العلة.

وقرأ زيد بن علي[2]، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وحمزة، والكسائي، وخلف، وأبو عبيد، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني: ﴿ليغرق﴾ بفتح الياء والراء، وسكون الغين ﴿أهلها﴾ بالرفع، وقرأ باقي السبعة بضم تاء الخطاب، وإسكان الغين، وكسر الراء، ونصب لام أهلها، وقرأ الحسن، وأبو رجاء كذلك، إلا أنهما فتحا الغين، وشددا الراء ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾؛ أي: والله لقد: أتيت وفعلت يا خضر ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾؛ أي: شيئاً عجيباً عظيماً شديداً على القوم، قال في «القاموس»: أمرٌ إمرٌ، منكرٌ عجب: يقال: أمر الأمر إذا كبر، والإمر

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الاسم منه، وقال أبو عبيدة: الإمر: الداهية العظيمة. ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: قد قلت لك: ﴿إِنَّكَ﴾ يا موسى ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: لا تقدر صبراً معي فيما ترى مما أفعل، وهو تذكير لما قاله من قبل متضمن للإنكار على عدم الوفاء بوعد فـ﴿قال﴾ موسى للخضر ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾؛ أي: بنسياني وصيَّتك بعدم السؤال عن حكمة الأفعال قبل البيان، فإنه لا مؤاخذة على الناسي فـ﴿ما﴾ مصدرية، ويحتمل كونها موصولة؛ أي: لا تؤاخذني بالذي نسيته، وهو قول الخضر ﴿فَلَا تَسْئَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وقيل[1]: هذا من التورية، وإيهام خلاف المراد، فالمراد بما نسيه شيء آخر غير الوصية؛ لكنه أوهَمَ أنها المنسية، ليتقي بها من الكذب مع التوصل إلى المقصود، وهو بسط عذره في الإنكار، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾؛ أي: لا تكلفني يا خضر، ولا تحملني ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾؛ أي: في أمر صحبتي إياك مشقة وشدة وصعوبةً، وقرأ أبو جعفر ﴿عسرا﴾ بضم السين حَيْثُ وقع، والمعنى: قال موسى[2] للخضر: لا تؤاخذني بما غفلت عن التسليم لك، وترك الإنكار عليك، ولا تكلفني مَشَقَّةً، ولا تضيِّق عليَّ أمري؛ ولا تعسر عليَّ متابعتَك، بل يسرها بالإغضاءِ، وترك المناقشة، فإني أريد صحبتك، ولا سبيل لي إليها إلا بذلك.

والفاء في قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ فصيحة، والانطلاق: الذهاب؛ أي: فقبل الخضر عذر موسى عليه السلام، فخرجا من السفينة، فانطلقا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ بين قريتين لم يبلغ الحنث يلعب مع عشر صبيان، كان وضيء الوجه اسمه جيشور - بالجيم، أو بالخاء، أو بالحاء - أو حينون، قال السهيلي: فأخذه الخضر من بينهم ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عطف[3] على الشرط، بالفاء، أي: فقتله عقيب اللقاء؛ أي: فقتله بذبحه مضطجعاً بالسكين، أو بفتل عنقه، وقيل: معنى قتله أشار بأصابعه الثلاث: الإبهام، والسبابة، والوسطى، وقلع رأسه، كما قال رسول الله ﷺ: «ثم خرجا من السفينة، فَبَيْنَما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخَضِرُ غلاماً يلعب مع

---

(١) شهاب.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» كذا في «الصحيحين» برواية أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

أي[1]: فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ِ يمشيان على الساحل، فأبصر الخضر غلاماً يلعب مع لداته وأترابه، فقتله، ولم يبين القرآن كيف قتله، أحز رأسه، أم ضرب رأسه بالجدار، أم بطريق آخر؟ وعلينا أن لا نهتم بذلك، إذ لو علم الله فيه خيراً لنا.. لذكره، ولكن بيَّنته السنة كما مر آنفاً. ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر، والجملة جواب الشرط ﴿أَقَتَلْتَ﴾ يا خضر، والاستفهام فيه للتوبيخ المضمن للإنكار ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾؛ أي: طاهرة من الذنوب، لأنها صغيرةً لم تبلغ الحنث؛ أي: الإثم والذنب، وهو قول الأكثرين، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: بغير قتل نفس محرمة، يعني لم تقتل نفساً فيقتص منها، وخص[2] هذا من بين مبيحات القتل، كالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان؛ لأنه أقرب إلى الوقوع، بالنظر إلى حال الغلام، وقرأ ابن عباس[3]، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وحميد، والزهري، ونافع، واليزيدي، وابن مسلم، وزيد، وابن بكير، عن يعقوب، والتمار، عن رويس عنه، وأبو عبيد، وابن جبير، الأنطاكي وابن كثير، وأبو عمرو ﴿زَاكِيَةً﴾ بالألف، وقرأ زيد بن علي، والحسن، والجحدري، وابن عامر، والكوفيون ﴿زكية﴾ بغير ألف وبتشديد الياء وهي أبلغ من زاكية، لأن فعيلا المحول من فاعل يدل على المبالغة، وعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلامَ الذي قتله الخضر طبعَ كَافِراً، ولو عاش لأرهق أَبَوْيهِ طغياناً، وكفراً» متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

والله ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾، وفعلت يا خضر ﴿شَيْئًا نُكْرًا﴾؛ أي: شَيْئاً منكراً، أنكر من الأول؛ لأن ذلك كَانَ خَرْقاً يمكن تَدَارُكه بالسد، وهذا لا سبيل إلى تداركه،

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وقيل: الآمر: أعظم من المنكر، لأن قتل نفس واحدة، أهون من إغراق أهل السفينة.

والمعنى: أي[1] والله لَقَدْ فعلت شيئاً تنكره العقول، وتنفر منه النفوس، وَأتى هنا بقوله: ﴿نُّكۡرٗا﴾ وهناك بقوله: ﴿إِمۡرٗا﴾ لأن قتل الْغلامِ أقبح من خرق السفينة؛ لأن ذلك لَمْ يَكُن إهلاكاً لنفس، إذ ربما لا يحصل الغرق، وفي هذا إتلاف النفس قَطْعاً فكان أنكر.

وقرأ الجمهور: ﴿نُّكۡرٗا﴾ بإسكان الكاف، وقرأ نافع، وأبو بكر، وابن ذكوان، وأبو جعفر، وشيبة، وطلحة، ويعقوب، وأبو حاتم، بضم الكاف حيث كان منصوباً.

قال جَمَاعة من القراء[2]: نصف القرآن عند قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾.

الإعراب

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ (الواو) استئنافية ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصةَ إذ قال موسى لفتاه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَبۡرَحُ﴾ فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على موسى، والخبر محذوف تقديره: لا أبرح ماشياً حتى أبلغ، ويحتمل إنها تامة، فلا تستدعي خبراً، بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير، والطلب، ولا أفارقه، وجملة ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾حتى حرف جَرّ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وغاية، بمعنى إلى كما قاله أبو البقاء، أو بمعنى لام التعليل، كما قاله غيره ﴿أَبْلُغَ﴾ منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد حتى بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على موسى، ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مفعول به، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف ﴿أَمْضِىَ﴾ معطوف على ﴿أَبْلُغَ﴾ وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿حُقُبًا﴾ ظرف زمان متعلق بـ﴿أَمْضِىَ﴾، وجملة ﴿أَبْلُغَ﴾ صلة ﴿أن﴾ المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَبْرَحُ﴾، والتقدير: لا أبرح ماشياً إلى بلوغي مجمع البحرين، أو مُضِيِّي حقباً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة على محذوف، تقديره: فذهبا يمشيان، فلما بَلَغا الخ ﴿لِمَا﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿بَلَغَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، ﴿مَجْمَعَ﴾ مفعول به، وهو مضاف ﴿بَيْنِهِمَا﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع، أو بمعنى الوصل؛ أي: مجمع وصلهما ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لما﴾ لاَ مَحَلَّ لَهَا من الإعراب. وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الفاء عاطفة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ مفعول أول ﴿سَرَبًا﴾ مفعول ثان ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿سَرَبًا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نسي﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿لما﴾ حرف شرط، ﴿جَاوَزَا﴾ فعل وفاعل ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب لما، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على محذوف تقديره: فذهبا يمشيان، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ...﴾ إلخ ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الفتى، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿لَقِينَا﴾ فعل وفاعل ﴿مِن سَفَرِنَا﴾ متعلق به،

﴿هَٰذَا﴾ بدل من ﴿سَفَرِنَا﴾ أو صفة له ﴿نَصَبًا﴾ مفعول به لـ﴿لَقِينَا﴾ والجملة الفعلية جواب القسم، لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الفتى، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فعل وفاعل يتعدى إلى مفعولين، وهو بمعنى أخبرني، ومفعولاه محذوف، والتقدير: رأيت أمرنا ما عاقبته، وفي «البيضاوي» أرأيت ما دهاني؛ أي: أخبرني ما دهاني، ونابني إذ أوينا إلى الصخرة، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمعمول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ المحذوف ﴿أَوَيْنَآ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية، في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ الظرفية ﴿فَإِنِّى﴾ (الفاء) تعليلية لتعليل الدهشة التي اعترتهما مما نابهما، ﴿إني﴾ ناصب واسمه ﴿نَسِيتُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، ﴿ٱلْحُوتَ﴾: مفعول به منصوب والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ (الواو) اعتراضية ﴿ما﴾ نافية ﴿أنساني﴾ فعل ماض والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم مفعول به، و(الهاء) ضمير للمفرد المذكر الغائب في محل النصب مفعول ثان، مبني على الضم، على قراءة حفص، رجوعاً إلى الأصل في حركة بناء هاء الضمير، وإن كان الكسر مناسباً للياء، المذكورة قبله، كما هو قراءة الجمهور ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرَّغ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فاعل ﴿أنساني﴾، والجملة الفعلية معترضة لاعتراضها بين المعطوف، والمعطوف عليه، ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الفتى، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر منصوب على كونه بدل اشتمال من (الهاء) في ﴿نَسِيتُ﴾ والتقدير: وما أنساني ذكره إلا الشيطان. ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ (الواو) عاطفة ﴿اتخذ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ مفعول أول ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إما متعلق بـ﴿اتخذ﴾ أو حال من ﴿عَجَبًا﴾ ﴿عَجَبًا﴾ مفعول ثان، وجملة

﴿ٱتَّخَذَ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿نَبْغِۚ﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، المحذوفة، اتباعاً لرسم المصحف العثماني، لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود على موسى، وفتاه وجملة ﴿نَبْغِۚ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كنا نبغيه ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ الفاء عاطفة ﴿ارتدا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ متعلق بـ﴿ارتدا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾ ﴿قَصَصًا﴾ مفعول مطلق معنوي لـ﴿ارتدا﴾ أو مفعول مطلق لمحذوف تقديره: يقصان قصصاً، والجملة المحذوفة حال من فاعل ﴿ارتدا﴾؛ أي: ارتدا حالَةَ كونهما يقصان قصصاً، ﴿فَوَجَدَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿وجدا عَبْدًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، لأن وجد هنا بمعنى: أصاب يتعدى إلى مفعول واحد ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾ صفة أولى لـ﴿عَبْدًا﴾، وجملة ﴿وجدا﴾ معطوفة على ارتدا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً﴾ فعل وفاعل ومفعولان ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾، وجملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في محل النصب صفة ثانية لـ﴿عَبْدًا﴾ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ حال من ﴿عِلْمًا﴾ لأنه صفة نَكِرَةٍ قدمت عليها، ﴿عِلْمًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿علمنا﴾ لا مفعول مطلق، ولو كان مفعولاً مطلقاً.. لقال تَعليماً، لأن فعله من باب فعل الرباعي.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، ﴿مُوسَىٰ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾ حرف

استفهام واستئذان ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر ﴿أن﴾ حرف نصب ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، و(النون) للوقاية، و(الياء) مفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على تعليمك إياي، الجار والمجرور حال من (الكاف) في ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، أي: أتبعك حالَ كونك معلّماً لي ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ أو حال من ﴿رُشْدًا﴾ ﴿عُلِّمْتَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما علمته ﴿رُشْدًا﴾، مفعول ثان لـ﴿تُعَلِّمَنِ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ ناصب وفعل منصوب، وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿مَعِيَ﴾ ظرف ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿تَسْتَطِيعَ﴾؛ أي: حال كونك معي ﴿صَبْرًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿تَسْتَطِيعَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَكَيْفَ﴾ (الواو) عاطفة ﴿كيف﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري التعجبي في محل نصب على التشبيه بالحال، من فاعل ﴿تَصْبِرُ﴾، ﴿تَصْبِرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على موسى، ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَصْبِرُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّكَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَمْ تُحِطْ﴾ جازم وفعل مجزوم، وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تُحِطْ﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير به ﴿خُبْرًا﴾ مفعول مطلق معنوي لـ﴿تحط﴾ لأن معنى ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ لم تخبر، وأعربها الزمخشري تمييزاً محولاً عن الفاعل، أي: لم يحط به خبرك، وليس ببعيد.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة مستأنفة ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ فعل، ومفعول أول، والنون للوقاية، وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معترضة ﴿صَابِرًا﴾ مفعول ثان لـ﴿تجدني﴾ ﴿وَلَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَعۡصِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَمۡرٗا﴾ ﴿أَمۡرٗا﴾ مفعول به، وجملة ﴿لا أعصي﴾ في محل النصب معطوفة على ﴿صَابِرٗا﴾، والتقدير: ستجدني صابراً غير عاص لك، أو معطوفة على قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنِ﴾ (الفاء) لتفريع الجملة الشرطية، على ما مر من التزامه للصبر، والطاعة، كما في «روح البيان» ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ فعل وفاعل ونون وقاية، ومفعول به في محل الجزم، بـ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾ (الفاء) رابطة لجواب إن الشرطية، ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على موسى، والنون للوقاية، والياء مفعول به ﴿عَن شَيۡءٍ﴾ متعلق بـ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية ﴿أُحۡدِثَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرةً بعد حتى، وفاعله ضمير يعود على الخضر؛ ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿أُحۡدِثَ﴾ ﴿مِنۡهُ﴾ حال من ﴿ذِكۡرٗا﴾ ﴿ذِكۡرٗا﴾ مفعول به، ولا بد من تقدير صفة محذوفة بعد شيء؛ أي: عن شيء خفي عليك سره، وغبي أمره، وجملة ﴿أُحۡدِثَ﴾ مع أنِ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تقديره: إلى إحداثي لك منه ﴿ذِكۡرٗا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة كما في «روح البيان»؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما تقاولا، وأردت بيان حالهما بعد ذلك، فأقول لك: ﴿انطلقا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب، إذا

المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿رَكِبَا﴾ فعل وفاعل ﴿فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿خَرَقَهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الخضر، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها، وجوابُها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، والتقدير: فانطلق إلى خرقه السفينة وقتَ ركوبهما إياها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿انطلقا﴾.

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة مستأنفةٌ ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، ﴿خرقتها﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِتُغْرِقَ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تغرق أَهْلَهَا﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرةً، وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ(اللام) تقديره: لغرقك أهلها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿خرقتها﴾ ﴿لَقَدْ﴾ جئت (اللام) موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جِئْتَ شَيْـًٔا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿إِمْرًا﴾ صفة لـ﴿شَيْـًٔا﴾، والجملة الفعلية جوابُ القسم لاَ مَحلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة مستأنفة ﴿أَلَمْ أَقُلْ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم أقل﴾ جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ ناصب ومنصوب وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿مَعِىَ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَسْتَطِيعَ﴾ ﴿صَبْرًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾

وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿أَقُلْ﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة مستأنفة ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تُؤَاخِذْنِي﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على الخضر، والنون للوقاية الياء مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿بِمَا﴾ (الباء) حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة أو موصوفة ﴿نَسِيتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، أو الموصولة ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بنسياني أو بالذي نسيته، أو بشيء، نسيته، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُؤَاخِذْنِي﴾ ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ جازم وفعل مجزوم ونون وقاية ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ حال من ﴿عُسْرًا﴾ ﴿عُسْرًا﴾ مفعول به.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما تَقَاولا، وأردت بيانَ ما جَرَى بينهما بعد ذلك.. فأقول لك: ﴿انطلقا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إِذَا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل في الزمان ﴿لَقِيَا غُلَامًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَقَتَلَهُ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿قتله﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَقِيَا﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل جر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: فانطلقا إلى قول موسى، وقت لقائهما غلاماً فقتله إياه الجار والمجرور متعلق بـ﴿انطلقا﴾ ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَقَتَلْتَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، ﴿قتلت﴾ ﴿نَفْسًا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿زَكِيَّةً﴾ صفة لـ﴿نَفْسًا﴾، والجملة في محل النصب

مقول ﴿قال﴾ ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قتلت﴾ أو في محل نصب على الحال من الفاعل، أو المفعول؛ أي: قتلته ظالماً، أو مظلوماً ﴿لَّقَدۡ﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جِئۡتَ شَيۡـٔٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿نُّكۡرٗا﴾ صفة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ والجملة جواب القسم لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: اسم مكان من جمع يجمع من باب فَتَح فالقياس في مصدره: ومكانه وزمانه الفتح، وهو ملتقى بحر الروم، وبحر فارس، مما يلي المشرق، وملتقاهما عند البحر المحيط، وقيل: ملتقى البحرين هو بحر الأردن، وبحر القلزم، وقيل: غير ذلك مما هو مذكور في الْمُطَوَّلاَتِ ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾؛ أي: زمناً طويلاً، والحقب ثمانون سنة وقيل: سبعون سنة، وقيل: سنة واحدة. بلغة قريش، ويُجمع على أحقاب كعنق، وأعناق، وفي معناه الحقبة بالكسر، وبالضم، وتجمع الأولى: على حقب كقربة، وقرب، والثانية: على حقب كغرفة وغرف ذكره في «الفتوحات». ﴿سَرَبٗا﴾؛ أي: مسلكا كالسرب، وهو: النفق، فصار الماء عليه كالقنطرة، وفي معاجم اللغة: السرب: بفتحتين الحفيرة، تحت الأرض، والقناة يدخل منها الماء، ويقال: طريق سرب؛ أي: يتتابع فيه الناس. ﴿غَدَآءَنَا﴾، والغداء الطعام الذي يؤكل أولَ النهار، والمراد به هنا الحوت ﴿نَصَبٗا﴾؛ أي: تعباً وإعياءً ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾؛ أي: التجأنا، والصخرة معروفة، وهي حجر كبير ﴿نَبۡغِۚ﴾؛ أي: نطلب ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾؛ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾؛ أي: على طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصٗا﴾؛ أي: اتباعاً من قولهم أثره إذا تبعه ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ لدن، وهي بمعنى عند، فتكون اسماً لزمان الحضور ومكانه، كما أن عند كذلك إلا أن لدن تختص بستة أمور:

١ ـ أنها ملازمة لمبدأ الغايات الزمانية والمكانية، و﴿عند﴾ غير ملازمة فمن ثم يتعاقبان في نحو: جئت من عنده من لدنه، وفي الآية الكريمة.

٢ ـ أن الغالب في لدن استعمالها مجرورة بمن، ونصبها قليل، وجر عند بمن دون جر لدن في الكثرة.

٣ ـ أنها مبنية على السكون بخلاف عند فإنها مُعْرَبَةٌ دائماً.

٤ ـ جواز إضافتها إلى الجمل.

٥ ـ جواز إفرادها قبل غدوة.

٦ ـ أنها لاَ تَقَعُ إلاَّ فَضْلة بخلاف عند، فإنها قد تقع عمدة، وقال بعضهم: إنَّ ﴿عند﴾ في لسان العرب لما ظهر، ولدن، لما بطن، فيكون المراد بالرحمة: ما ظهر من كراماته، وبالعلم الباطن الخفي المعلومُ قَطْعاً بأنَّه خاص.

﴿فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ السفينةُ معروفة، وتجمع على سفن، وعلى سفائن، وتحذف التاء فيقال: سفينة، وسفينٌ، وهو مما بينه وبين مفرده تاء التأنيث، وهو كثير في المَخْلُوق، نادر في المصنوع نحو عمامة وعمام، وقال الشاعر:

مَتَىٰ تَأْتِهِ تَأْتِ لُجَّ بَحْرٍ   تَقَاذَفَ فِيْ غَوَارِبِهُ ٱلسَّفِيْنُ

ذكره في «البحر المحيط».

﴿الرشد﴾ ـ بضم فسكون وبفتحتين ـ إصابةُ الخير والإحاطة بالشيء مَعْرِفَتَهُ معرفة تامة، والخبر المعرفة ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: بَيَاناً ﴿إِمْرًا﴾ بكسر الهمزة؛ أي: مُنْكَراً من أمر الأمر إذا أنكر أو من أمر بمعنى كثر ﴿لا ترهقني﴾؛ أي: لا تحملني ﴿عُسْرًا﴾، والعسر: ضد اليسر، وهو المشقة ﴿زَكِيَّةً﴾؛ أي: طاهرة من الذنوب، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: بغير حق قصاص لك عليها، ﴿نُّكْرًا﴾ والنكر: المنكر الذي تنكره العقول، وتنفرُ منه النفوس.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إطلاق الفتى على الخادم في قوله: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ لأنه حقيقة في الرجل الشابّ، أو العبد.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لأن فيه حذف خَبر برح الناقصة اعتماداً على قرينة الحال؛ تقديره: لا أبرح سائراً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ لأن مضى حقيقة في نفوذ الأمر، فاستعَارَهُ للسير والذهاب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ لأن الرؤيةَ هنا مستعارة للمعرفة التامة، والمشاهدة الكاملة، فهي استعارة تصريحيةٌ تبعية؛ لأنها أجريت في فعل، وقد حذف المشبه، وأقيم المشبه به مقامه، شبهت المعرفة التامة، بالرؤية، فاستعير اسم المشبه به الذي هو الرؤية للمشبه الذي هو المعرفة التامة، ثم اشتُق من الرؤية بمعنى المعرفة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى أعرفت، وشاهدت على طريق الاستعارة، التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿سَرَبًا﴾ لأنه حقيقة في الحفيرة تحت الأرض، ثمَّ استُعير لمسلك الحوت في الماء، بجامع النفوذ في كل.

ومنها: الطباق بين ﴿نَسِيتُ﴾ ﴿وَٱذْكُر﴾.

ومنها: التنكير للتفخيم في قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، والتقريري في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً(١).

---

(١) وكان الفراغ من تسويد هذا المجلد السادس عشر ـ ولله الحمد ـ أوائل ليلة الخميس الليلة الخامسة من شهر صفر من شهور سنة اثنتي عشرة وأربع مئة وألف من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، ويتلوه المجلد السابع عشر بحول الله تعالى وقوته، وتيسيره نسأل الله تعالى الإعانة لنا على التمام والإكمال، كما أعان على الابتداء والافتتاح، والحمد لله أولاً وآخراً حمداً يوافِي نعمهُ ويكافىء مزيده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
قد تم تصحيحه بيد مؤلفه في تاريخ ١٣/٥/١٤١٦ هـ.

شعر

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمِ لَنَا   إِلاَّ مَا أَلْهَمْتَنَا إِلْهَامَا
وَإِنِّيْ إِذَا مَا خَتَمْتُ خَتْمَاً   أَقُوْلُ ٱللَّهُمَّ يَا ٱللَّهُمَّا
لَكَ ٱلْحَمْدُ حَمْدَاً يُوَافِيْ   وَلَكَ ٱلشُّكْرُ شُكْرَاً يُكَافِيْ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السابع عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الموفق سبيل الرشاد، من أرادَ به خيراً من العباد، والصلاة والسلام على من جمع علوم الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء الخامس عشر من القرآن بعون الله وتيسيره.. أردفته بتفسير الجزء السادس عشر منه، راجياً منه سبحانه الإعانة والتوفيق، لما هو المعنى عنده، وأن يكون ذخيرة لي عنده، ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وأقول وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا
تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ
هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ
يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ
أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ...﴾ الآيات، لا يزال الكلام متصلاً في قصص موسى والخضر عليهما السلام، ولكن لوحظ في تقسيم القرآن إلى أجزائه الثلاثين جانب اللفظ، لا جانب المعنى، ولذا تجد نهاية جزء، وبداية آخر، حيث لا يزال الكلام في معنى واحد لم يتم بعد كما هنا.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[١] الأمور التي رآها موسى عليه السلام، حين صاحب الخضر وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه، مرة بعد أخرى، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبراً، وكان من جراء ذلك أنه فارقه، ولم يستطع صحبته.. أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره، مما ينكر ظاهره، وقد أظهر الله تعالى الخضر على حكمة باطنة، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، يحكمون بناء على الظواهر، كما قال النبي ﷺ: «نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر».

وأحكام هذا العالِم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر، وهذه لا يُطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده، ومن ثم اعترض موسى على ما رأى، ولم يعلم ما آتاه الله تعالى الخضر من قوة عقلية، قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور، ويطّلع على حقائق الأشياء فكانت مرتبة موسى في معرفة الشرائع والأحكام بناءً على الظواهر ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والإطلاع على أسرارها الكامنة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ يا موسى ـ والهمزة[٢] فيه للاستفهام التقريري،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

المضمَّن للتوبيخ لموسى على ترك الوصية، زاد هنا كلمة (لك) على سابقه، لتشديد العتاب على رفض الوصية لأنه قد نقض العهد مرتين ـ: إنك لن تستطيع معي صبراً، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار، مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة، قال البغوي: روي أن يوشع كان يقول لموسى: اذكر العهد الذي أنت عليه، وفي البخاري قال: «يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما» ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد[1] هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة فلا تصاحبني ولا ترافقني أي لا تجعلني صاحباً لك ولا تكن مرافقاً معي، بل أبعدني عنك وإن سألتُ صحبتك، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: قد وجدت[2] عذراً من قبلي حين خالفتك مرة بعد أخرى، أو[3] قد بلغت الغاية التي تُعذر بسببها في فراقي، إذ خالفتك مرة بعد أخرى، وهذا كلام نادم أشد الندم، قد اضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف، وفي «البحر» ومعنى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: قد اعتذرت إليَّ وبلغت إليَّ العذر. انتهى.

والعذر[4]: بضمتين وبسكون الذال في الأصل تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، بأن يقول: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، أو فعلت فلا أعود، وهذا الثالث التوبة، فكل توبة عذر بلا عكس، والاعتذار عبارة عن محو أثر الذنب، وأصله القطع، يقال: اعتذرت إليه؛ أي: قطعت ما في قلبه من الموجدة.

وقرأ الجمهور[5]: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ من باب المفاعلة، وقرأ عيسى ويعقوب: ﴿فلا تصحبني﴾ مضارع صحب، وقرأ عيسى أيضاً: ﴿فلا تصحبني﴾ بضم التاء وكسر الحاء مضارع أصحب.

ورواها سهل عن أبي عمرو؛ أي: فلا تصحبني علمك، وقدره بعضهم:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.
(٥) البحر المحيط.

فلا تصحبني إياك، وبعضهم نفسك، وقرأ الأعرج بفتح التاء والباء وتشديد النون، وقرأ الجمهور: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ بإدغام نون لدن في نون الوقاية، التي اتصلت بياء المتكلم، وقرأ نافع وعاصم بتخفيف النون، وهي نون لدن، اتصلت بياء المتكلم، وهو القياس، لأن أصل الأسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلم.. لم تلحق بها نون الوقاية، نحو: غلامي وفرسي، وأشمَّ شعبة الضم في الدال.

ورُوي عن عاصم سكون الدال، قال ابن مجاهد: وهو غلط، وكأنه يعني من جهة الرواية.

وأما من جهة اللغة: فليست بغلط، لأن من لغاتها (لَدْ) بفتح اللام وسكون الدال.

وقرأ عيسى: ﴿عذراً﴾ بضم الذال، ورويت عن أبي عمرو وعن أبيّ ﴿عذري﴾ بكسر الراء مضافاً إلى ياء المتكلم.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾؛ أي: انطلق الخضر وموسى عليهما السلام، بعد المرتين الأوليين، بعد ما شرطا ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ﴾ ووصلا ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ بعد[1] الغروب في ليلة باردة، وهي أنطاكية، بفتح الهمزة وكسرها وسكون النون وكسر الكاف وفتح الياء المخففة، قاعدة العواصم، وهي ذات أعين وسور عظيم من صخر داخله خمسة أجبل، دورها إثنا عشر ميلاً، كما في «القاموس» وقيل: برقة، وقيل: قرية من قرى أذربيجان، وقيل: قرية من قرى الروم ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾؛ أي: طلبا من أهلها أن يطعموهما ضيافة، قيل: لم يسألاهم، ولكن نزولهما عندهم كالسؤال منهم، ووضع[2] الظاهر موضع المضمر، لزيادة التأكيد، أو لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة، لما فيه من الكلفة، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية، بإظهارهم، فقوله: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ جواب إذا، أو صفة لقرية كما سيأتي، وفي الأسئلة المقحمة[3] استطعم موسى هٰهنا فلم يطعم، وحين سقى

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

لبنات شعيب ما استطعم وقد أُطعم، حيث قال: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ والجواب هٰهنا: إن الحرمان كان بسبب المعارضة، بحيث لم يكشف بعلم الله بحاله، بل جنح إلى الاعتماد على مخلوق، فأراد السكوت بحادث مسبوق، وهناك جرى على توكله ولم يُدخل وساطة عن المخلوقين بينه وبين ربه، بل حط الرحل ببابه ﴿فَأَبَوْا﴾؛ أي: فامتنعوا؛ أي: أبى أهل القرية ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾؛ أي: أبوا من تضييفهما وتطعيمهما، وفي قوله: ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ دون أن يقول: فأبوا أن يطعموهما، زيادة تشنيع عليهم، ووصفهم بالدناءة والشح، فإن الكريم قد يردّ السائل المستطعم ولا يعاب، ولكن لا يرد الغريب المستضيف إلا لئيم، ألا تراهم يقولون في أهاجيهم: فلان يطرد الضيف؟ وعن قتادة: شر القرى التي لا يضاف فيها، ولا يُعرف لابن السبيل حقه.

وقرأ ابن الزبير والحسن وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن وعاصم في رواية المفضل وأبان: بكسر الضاد وإسكان الياء من أضاف، كما تقول: ميَّل وأمال، ذكره في «البحر».

﴿فَوَجَدَا﴾؛ أي: فوجد الخضر وموسى عليهما السلام ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القرية ﴿جِدَارًا﴾؛ أي: حائطاً مائلاً ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ أي: يقرب أن يسقط فمسحه بيده ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾؛ أي: أقام الخضر الجدار بالإشارة بيده فاستقام، أو هدمه ثم بناه، وعن ابن عباس: دفعه بيده فاستقام، وهذا أليق بحال الأنبياء، وكان ارتفاع الجدار مئة ذراع، وعرضه خمسون ذراعاً، وامتداده على وجه الأرض خمس مئة ذراع، والمعنى: فوجدا في القرية حائطاً مائلاً، مشرفاً على السقوط، فمسحه بيده، فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته ﴿قَالَ﴾ له موسى لضرورة الحاجة إلى الطعام ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ يا خضر أخذ الأجرة ﴿لَتَّخَذْتَ﴾؛ أي: لأخذت ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على عملك هذا ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: أجرة حتى تشتري بها طعاماً؛ أي: كان[1] ينبغي لك أن تأخذ منهم جعلاً على عملك، لتقصيرهم فينا

---

(١) المراح.

مع حاجتنا، وليس لنا في إصلاح الجدار فائدة، فهو من فضول العمل.

قال بعضهم[(١)]: لما قال له: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾.. قال الخضر: أليس كنت في البحر ولم تغرق بغير سفينة، ولما قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.. قال أليس قتلت القبطي بغير ذنب، ولما قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال: أنسيت سقياك لبنات شعيب من غير أجرة، وهذا من باب لطائف المحاورات.

قال بعضهم[(٢)]: إن قلت: كيف جوز موسى طلب الأجر بمقابلة العمل الذي حصل بمجرد الإشارة، وهو من طريق خرق العادة الذي لا مؤنة فيه؟

قلت: لم ينظر إلى جانب الأسباب، وإنما نظر إلى النفع العائد إلى جانب أصحاب الجدار، ألا ترى أنه جوز أخذ الأجرة بمقابلة الرقية بسورة الفاتحة ونحوها، وهو ليس من قبيل طلب الأجر على الدعوة، فإنه لا يجوز للنبي أن يطلب أجراً من قومه على دعوته وإرشاده، كما أشير إليه في مواضع كثيرة من القرآن.

والمعنى[(٣)]: أي قال موسى ذلك تحريضاً للخضر، وحثاً له على أخذ الجعل - الأجر - على فعله، لإنفاقه في ثمن الطعام والشراب وسائر مهام المعيشة.

وقرأ الجمهور[(٤)]: ﴿يَنقَضَّ﴾، أي: يسقط، من انقضاض الطائر، ووزنه انفعل، نحو انجر، قال صاحب «اللوامح»: من القضة وهي الحصى الصغار، ومنه طعام قضض، إذا كان فيه حصى، فعلى هذا يريد أن ينقض؛ أي: يتفتت فيصير حصاة. انتهى. وقيل: وزنه افعل كاحمر، وقرأ أبي ﴿أَنْ يُنْقَضَ﴾ بضم الياء وفتح القاف والضاد، مبنياً للمفعول من نقضته، وهي مروية عن النبي ﷺ.

وفي حرف عبد الله وقراءة الأعمش ﴿يريد لينقض﴾ كذلك، إلا أنه منصوب

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بأن المقدرة بعد اللام، وقرأ علي، وعكرمة، وأبو شيخ خيوان بن خالد الهنائي، وخليد بن سعد، ويحيى بن يعمر: ﴿ينقاص﴾ بالصاد غير معجمة مع الألف، ووزنه ينفعل اللازم، من قاص يقيص، إذا كسرته.. تقول: قصصته فانقاص، وقرأ الزهري ﴿ينقاض﴾ بألف وضاد معجمة، وهو من قولهم: قضته ـ بضاد معجمة ـ فانقاض؛ أي: هدمته فانهدم، قال أبو علي: والمشهور عن الزهري بصاد غير معجمة. انتهى.

وعبارة ابن الجوزي هنا: وقرأ أبيٌّ بن كعب وأبو رجاء: ﴿ينقاض﴾ بألف وضاد معجمة، وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عثمان النهدي ﴿ينقآص﴾ بألف ومدة وصاد غير معجمة، وكله بلا تشديد، قال الزجاج: فمعنى ينقض يسقط بسرعة، وينقاص غير معجمة ينشق طولاً، يقال: انقاصت سنه، إذا انشقت قال ابن مقسم: انقاصت سنه وانقاضت بالصاد والضاد على معنى واحد. انتهى.

وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قرأ[1] ابن كثير وأبو عمرو ﴿لتخذت﴾ بكسر الخاء، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال، وابن كثير يظهرها.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿لاتخذت﴾ وكلهم أدغموا إلا حفصاً عن عاصم فإنه لم يدغ،م مثل ابن كثير.

قال الزجاج: يقال: تخذ يتخذ، في معنى اتخذ يتخد، نحو تبع واتبع، افتعل من تخذ، وأدغم التاء في التاء.

﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؛ أي: هذا الوقت وقت الفراق بيننا، أو هذا الاعتراض الثالث منك سبب الفراق الموعود بقوله ﴿فلا تصاحبني﴾، أو هذا[2] الاعتراض المتوالي منك، هو سبب الفراق بيني وبينك، بحسب ما شرطت على نفسك، وإنما كان هذا الأخير سبب الفراق دون الأولين لأن ظاهرهما منكر، فكان موسى فيهما معذوراً دون هذا، إذ لا ينكر الإحسان إلى المسيء بل يحمد، وإضافة الفراق إلى البين من إضافة المصدر إلى الظرف

---

(١) زاد المسير. (٢) المراغي.

اتساعاً؛ أي: هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر، هو المفرق بيننا، وتكريره[1] بيني وبينك وعدوله عن بيننا، لمعنى التأكيد، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿فراق بيني وبينك﴾ بالتنوين والجمهور على الإضافة.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾؛ أي: سأخبرك، السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة، وقرأ ابن وثاب: ﴿سأنبيك﴾ بإخلاص الياء من غير همز ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: بعاقبة ومآل ما لم تقدر يا موسى صبراً عليه من الأفعال الثلاثة التي صدرت مني وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، ومألها خلاص السفينة من اليد الغاصبة، وخلاص أبوي الغلام من شره، مع الفوز ببدل حسن، واستخراج اليتيمين للكنز.

وفي قوله[2]: ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ دون أن يقول بتأويل ما فعلت، أو بتأويل ما رأيت ونحوهما، تعريض به عليه السلام وعتاب له.

قال بعضهم[3]: ومن هذا أخذ قول بعض الكبار: من قال لأستاذه: لِمَ.. لم يفلح، والتأويل رجع الشيء إلى مآله، والمراد به هٰهنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به دون التأويل ثم شرع في البيان له.

فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ أعني لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، وكانوا عشرة إخوة، خمسة منهم زمنى ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها أي يكتسبون بها ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مؤاجرة، فإسناد العمل إلى الكل بطريق التغليب أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين.

﴿فَأَرَدتُّ﴾ بحكم الله وإرادته ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ أي: أن أجعلها ذات عيب بالخرق ﴿وَ﴾ الحال أنه كان ورائهم؛ أي: أمامهم كقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ فوراء من الأضداد ﴿مَّلِكٌ﴾ كافر اسمه جلندي بن كركر، ملك غسان وقيل: اسمه هدد بن بدد، كان بجزيرة الأندلس ببلدة قرطبة، وأول فساد ظهر في البحر كان

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ظلمه على ما ذكره أبو الليث، وأول فساد ظاهر في البر قتل قابيل هابيل على ما ذكره أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ الآية، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحة جيدة، وهو من قبيل إيجاز الحذف ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ، أو على الحالية، بمعنى غاصباً، والغصب أخذ الشيء ظلماً وقهراً، ويسمى المغصوب غصباً، والمعنى؛ أي[1]: أما فعلي ما فعلت بالسفينة، فلأنها كانت لقوم ضعفاء، لا يقدرون على دفع الظلمة، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها، فأردت أن أعيبها بالخرق الذي خرقته، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصباً، ويدع كل معيبة، فعبتها لأرده عنها، وخلاصة ذلك: أن السفينة كانت لقوم مساكين عجزة، يكتسبون بها، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون ويعجزون عن دفعه، من غصب ملك قدامهم، من عادته غصب السفن الصالحة؛ أي: إنما خرقتها لأن الملك إذا رآها منخرقة.. تركها ورقعها أهلها فانتفعوا بها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مساكين﴾ بتخفيف السين جمع مسكين، وقرأ علي ـ كرم الله وجهه ـ بتشديد السين، جمع مسَّاك جمع تصحيح، فقيل: المعنى ملاحين، والمساك الذي يمسك رجل السفينة، وكل منهم يصلح لذلك، وقرأ الجمهور: ﴿وَرَآءَهُم﴾ وهو لفظ يطلق على الخلف وعلى الأمام، ومعناه أمامهم في المكان، لأنهم كانوا يسيرون إلى بلده، وقرأ[3] أبي بن كعب وابن مسعود ﴿وكان أمامهم ملك﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب، فلِمَ قدَّم عليه؟.

قلتُ: النية به التأخير وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها لمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته، وهو جيسور، وكان كافراً.. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ من عظماء تلك القرية، اسم أبيه كازبرا، واسم أمه سهوى، كما في «التعريف» ﴿مُؤْمِنَيْنِ﴾؛ أي: مقرين بتوحيد الله تعالى ﴿فَخَشِينَآ﴾؛ أي: خفنا من ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾؛ أي: يكلفهما ﴿طُغْيَٰنًا﴾؛ أي: ضلالةً ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: إشراكاً بالله ويتبعان له لمحبتهما إياه، فيكفران بعد الإيمان، ويضلان بعد الهداية، وإنما خشي الخضر من ذلك لأن الله تعالى أعلمه بحال الولد، أنه طُبع؛ أي: خلق كافراً ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾؛ أي: أن يبدل الأبوين، ويعوضهما ويرزقهما ولداً ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾؛ أي: من المقتول ﴿زَكَوٰةً﴾؛ أي: ديناً وصلاحاً وطهارةً من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ﴾ منه ﴿رُحْمًا﴾؛ أي: رحمةً وبراً بوالديه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أبدلهما الله تعالى جارية، تزوجها نبي من الأنبياء فولدت سبعين نبياً.

قال مطرف: فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي.. لكان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن خير له من قضائه فيما يحب.

وفي الحديث «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وخلاصة ذلك: أنا قد علمنا أنه لو أدرك وبلغ.. لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه في دينه لفرط حبهما له، وإنما قال أولاً فأردت، وثانياً فأردنا، وثالثاً فأراد ربك، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتفاقه، مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على الألسن، وأحسن موقعاً في الأسماع، ذكره في «زاد المسير» وقرأ ابن عباس(١): ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾ وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري ﴿فكان أبواه مؤمنان﴾ فخرجه الزمخشري، وابن عطية، وأبو الفضل الرازي، على أن في ﴿كان﴾ ضمير الشأن والجملة في

---

(١) البحر المحيط.

موضع نصب خبر لكان، وأجاز أبو الفضل أن يكون مؤمناً خبراً لكان، على لغة بني الحرث بن كعب، فيكون منصوباً. وفي قراءة أُبيِّ ﴿فخاف ربك أن يرهقهما﴾ والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيَّره، والظاهر إسناد فعل الخشية في خشينا إلى ضمير الخضر وأصحابه الصالحين، الذين أهمهم الأمر وتكلموا، وقرأ[1] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وشيبة، وحميد، والأعمش، وابن جرير ﴿أن يبدلهما﴾ بالتشديد هنا، وبالتحريم والقلم، وقرأ باقي السبعة والحسن وابن محيصن ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بالتخفيف.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؛ أي: أوصل للرحم، وأبر للوالدين، والرحم والرحمة: العطف، مصدران كالكثر والكثرة، وقال رؤبة بن الحجاج:

يَا مُنْزِلَ ٱلرَّحْمِ عَلَىٰ إِدْرِيسَا ... وَمُنْزِلَ ٱللَّعْنِ عَلَىٰ إِبْلِيسَا

وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه، لأن ذلك الغلام لا زكاة فيه ولا رحمة، وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر في رواية، ويعقوب، وأبو حاتم ﴿رُحُماً﴾ بضم الحاء، وقرأ ابن عباس ﴿رحماً﴾ بفتح الراء وكسر الحاء، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي سويته وأصلحته ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ اسمهما[2] أصرم وصريم ابنا كاشح، وكان سياحاً تقياً، واسم أمهما دنيا، فيما ذكره النقاش كائنين ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي القرية المذكورة سابقاً، وهي أنطاكية، وفيه[3] جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة وعبر عنها بالقرية فيما تقدم تحقيراً لها، لخسة أهلها، وعبر عنها هنا بالمدينة تعظيماً لها، من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى أبيهما اهـ شيخنا ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ﴾؛ أي: تحت ذلك الجدار ﴿كَنزٌ لَّهُمَا﴾؛ أي: مال مدفون لهما، من ذهب وفضة ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ أي: أبو الغلامين ﴿صَٰلِحًا﴾ كان الناس يضعون الودائع عند ذلك الصالح، فيردها إليهم سالمة، فحفظا بصلاح أبيهما في مالهما وأنفسهما، قال جعفر بن محمد: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، فيكون الذي دفن ذلك الكنز جدهما السابع ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يا موسى بالأمر بتسوية

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

الجدار؛ أي: مالكك ومدبر أمرك، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفاً له.

﴿أَن يَبْلُغَآ﴾؛ أي: أن يبلغ الغلامان ﴿أَشُدَّهُمَا﴾؛ أي: حلمهما وكمال رأيهما، وتمام نموهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، ولولا أني أقمته لانقضّ وخرج الكنز من تحته، قبل اقتدارهما على حفظ المال، وتنميته وضاع بالكلية ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهما مصدر في موقع الحال؛ أي: مرحومين من قبله تعالى، أو علة لإرادة، فإن إرادة الخير رحمة، أو مصدر لمحذوف؛ أي: رحمهما الله سبحانه بذلك رحمة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾؛ أي: وما فعلت ما رأيته يا موسى من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار ﴿عَنْ أَمْرِى﴾؛ أي: عن رأيي واجتهادي، وإنما فعلته بأمر الله، ووحيه، وهذا إيضاح لما أشكل على موسى، وتمهيد للعذر في فعله المنكر ظاهراً، والمعنى؛ أي: وما فعلت الذي رأيتني أفعله، عن رأيي ومن تلقاء نفسي، بل فعلته عن أمر الله إياي به، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس، وإراقة دمائهم، لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك، وأوضحت وجوهها لك، ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: مآل وعاقبة الأمر الذي لم تطق ولم تقدر الصبر والسكوت عليه، لكون ظاهره من المنكر؛ أي: لم تستطع الصبر عليه، فحذف[1] التاء للتخفيف، فإن استطاع واسطاع بمعنى واحد، وهو إنجاز للتنبئة الموعودة.

وخلاصة المسائل الثلاثة[2]: أنه حين يتعارض ضرران، يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك، وفاتت منافعها بتاتاً، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه في دينهم ودنياهم، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ومجمل الأمر في ذلك: أن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقها في أنفسها، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن، وتجريد النفس، وتطهير القلب عن العلائق الجسمية، ومن ثم قال في صفة علمه ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة.. بعثه الله إلى هذا العالِم ليعلمه أن كمال المعرفة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر، إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليها في الواقع.

روي[1]: أن موسى لما أراد أن يفارقه.. قال له الخضر: لو صبرت.. لأتيت على ألف عجب، كل عجب أعجب مما رأيت، فبكى موسى على فراقه وقال له: أوصني يا نبي الله، قال لا تطلب العلم لتحدث به الناس، واطلبه لتعمل به، وذلك لأن من لم يعمل بعلمه، فلا فائدة في تحديثه، بل نفعه يعود إلى غيره.

ومن وصايا الخضر: كن نفاعاً، ولا تكن ضراراً، وكن بشاشاً، ولا تكن عبوساً غضاباً، وإياك واللجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير المذنبين خطاياهم بعد الندم، وابك على خطيئتك ما دمت حياً، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، واجعل همك في معادك، ولا تخض فيما لا يعنيك، ولا تأمن لخوف من أمَّنك، ولا تيأس من الأمن من خوفك، وتدبر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك، فقال له موسى: قد أبلغت في الوصية، فأتم الله عليك نعمته، وغمرك في رحمته، وكلأك من عدوه، فقال له الخضر: أوصني أنت يا موسى، فقال له موسى: إياك والغضب إلا في الله، ولا تحب الدنيا، فإنها تخرجك من الإيمان وتدخلك في الكفر.

فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية فأعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله، قال له: آمين،

---

(١) روح البيان.

كما في «التعريف والإعلام» للإمام السهيلي رحمه الله تعالى.

تنبيه: لذكر هذه القصة في الكتاب الكريم فوائد[1]:

١ ـ أن لا يعجب المرء بعلمه، وأن لا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه.

٢ ـ أن فيها تأديباً لنبيه، بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه، واستهزؤوا به، وبكتابه، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف في الدنيا، واستحقاقهم من الله في الآخرة الخزي والعذاب الدائم.

٣ ـ أن ما حدث فيها يجري مثله كل يوم في هذه الحياة، ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لا ذنب له، يشبه الطاعون الذي يهلك الأمم، ويفتك بها فتكاً ذريعاً، والبهائمَ التي تفتك بها السباع، أو تأكلها الناس، ولو تأمل الناس حكمة ذلك.. لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مئة عام أو نحوها ولم يمت منهم أحد.. لضاقت بهم الأرض، ولماتوا جوعاً، ولأكل الابن أباه، ولأصبحت الأرض منتنة، قذرة، ولهلك الناس جميعاً، وأن أكل كواسر الطير لصغارها ليخلو به الجو والأرض من الحيوان المزدحمة، ولولا ذلك.. لأصبحت الأرض مضرة بالناس والحيوان، فاقتناصها رحمة ونعمة على الناس وأن خرق السفينة التي هي لمساكين، أشبه بموت بقرة فلاح فقير، بجانبه رجل غني لم تصب بقرته بسوء، وذلك إنما يكون لحكمة لا يعلمها إلا الله، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفاً، لا يحزنه شيء، وأن الغني إذا لم يهذب نفسه.. تكون روحه مجذوبة إلى هذا العالم، متطلعة إلى ما فيه، فيصير في حسرة حين موته.

وإن ذكر الجدار وإقامته تشيران إلى أن كل من ترى ليس أهلاً للنعمة ظاهراً، وقد أغدقت عليه، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشحاء ليسوا أهلاً للإكرام.

---

(١) المراغي.

وخلاصة ما قال الخضر: إن هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس، بل هي من أعمال الله تعالى، وإنما كنت واسطة فيها، فهي نماذج لفعل ربكم في هذه الحياة.

الإعراب

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير مستتر، يعود على الخضر، والجملة مستأنفةٌ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام التقريري المضمن للتوبيخ ﴿لم أقل﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على الخضر ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول أقل.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة مستأنفة ﴿إِن سَأَلْتُكَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتُكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿عَن شَيْءٍ﴾ جار ومجرور متعلق بسأل، وهو في محل المفعول الثاني، ﴿بَعْدَهَا﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لشيء ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لا﴾ ناهيةٌ جازمةٌ تصاحب فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، و﴿النون﴾ للوقاية والياء مفعول به، والجملة في محل جزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول قال ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿بَلَغْتَ﴾[1]: فعل وفاعل ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ جار ومجرور متعلق ببلغت أو حال من عذراً ﴿عُذْرًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية

---

(١) المراغي.

في محل النصب مقول قال.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧﴾.

﴿فَانطَلَقَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة علىٰ محذوف تقديره: فتقاولا وتشارطاً فانطلقا. ﴿انطلقا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إِذَآ﴾ في مجل الجر بحتى تقديره: فانطلقا إلى استطعامهما أهل قرية، وقت إتيانهما إياها، الجار والمجرور متعلق بانطلقا ﴿فَأَبَوۡاْ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أبوا﴾ فعل وفاعل معطوف على استطعما ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: فأبوا ضيافتهم إياهما ﴿فَوَجَدَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿وجدا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أبوا﴾ متعلق به ﴿جِدَارٗا﴾ مفعول به، ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الجدار والجملة في محل النصب، صفة للجدار ﴿أَن يَنقَضَّ﴾: ناصب ومنصوب وفاعله: ضمير يعود على الجدار، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد إنقضاضه ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة أقامه فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الخضر، والجملة معطوفة على جملة وجدا ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على موسى والجملة مستأنفة ﴿لَوۡ شِئۡتَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿لَوۡ﴾ حرف شرط غير جازم ﴿شِئۡتَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لَتَّخَذۡتَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوۡ﴾ ﴿اتخذت﴾ فعل وفاعل جواب لو ﴿عَلَيۡهِ﴾ حال من أجراً ﴿أَجۡرٗا﴾: مفعول به، وجملة لو الشرطية في محل النصب مقول قال.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ۝٧٨﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الخضر والجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا فِرَاقُ﴾ مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب مقول قال ﴿فِرَاقُ﴾ مضاف ﴿بَيْنِي﴾ مضاف إليه ﴿بين﴾ مضاف و﴿الياء﴾ ضمير المتكلم في محل الجر مضاف إليه ﴿وَبَيْنِكَ﴾ معطوف على بيني وساغت إضافة بين إلى غير متعدد لتكرير بين بالعطف والداعي إلى هذا التكرير التوصل إلى العطف على ضمير الخفض لأنه يجب عند العطف عليه إعادة الخافض، فكأنه قال بيننا .اهـ شيخنا. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ السين: حرف استقبال ﴿أنبئك﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر دخل على مضمون المفعولين الثاني والثالث ﴿تأويل﴾ مجرور بها الجار والمجرور متعلق بـ﴿أنبئك﴾ وهو مضاف و﴿ما﴾ في محل الجر مضاف إليه ﴿لَمْ تَسْتَطِع﴾ جازم وفعل وفاعل مستتر ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بصبرا و﴿صَبْرًا﴾ مفعول به والجملة صلة لما، أو صفة لها.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾ مبتدأ. ﴿فَكَانَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾ واقعة في غير موضعها. ﴿كانت﴾ فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾. ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾: جار ومجرور خبر كان وهو ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع؛ لأنه على زنة مفاعيل. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل صفة لـ﴿مساكين﴾. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وجملة كان في محل الرفع، خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ مستأنفة. ﴿فَأَرَدتُّ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أردت﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كانت﴾ ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿أَعِيبَهَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: فأردت تعييبها ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال ﴿كان﴾ فعل ماض ناقص ﴿وَرَآءَهُم﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر كان مقدم على اسمها ﴿مَّلِكٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة كان في محل النصب حال من

فاعل يعملون ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ ﴿مَّلِكٌ﴾ ﴿غَصْبًا﴾: مفعول مطلق مبين لنوع الأخذ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿يَأْخُذُ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أما﴾ حرف شرط ﴿ٱلْغُلَٰمُ﴾ مبتدأ ﴿فَكَانَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ ﴿كان أبواه مؤمنين﴾ فعل ناقص واسمه وخبره وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ مع خبره جواب ﴿أما﴾ وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أَمَّا﴾ السابقة. ﴿فَخَشِينَآ﴾ الفاء: عاطفة ﴿خشينا﴾ فعل وفاعل معطوف على كان ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الولد ﴿وَكُفْرًا﴾ معطوف على ﴿طُغْيَٰنًا﴾ وجملة ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره فخشينا إرهاقه إياهما طغياناً وكفراً.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أردنا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿خشينا﴾ ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾: ناصب وفعل ومفعول أول ﴿رَبُّهُمَا﴾ فاعل ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾ وجملة ﴿يُبْدِلَهُمَا﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أردنا﴾ تقديره فأردنا إبدال ربهما إياهما خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾: تمييز لاسم التفضيل منصوب به ﴿وَأَقْرَبَ﴾ معطوف على خيراً ﴿رُحْمًا﴾ تمييز لأقرب منصوب به

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أما﴾ حرف شرط ﴿ٱلْجِدَارُ﴾ مبتدأ ﴿فَكَانَ﴾ الفاء: رابطة كان فعل ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱلْجِدَارُ﴾ ﴿لِغُلَٰمَيْنِ﴾ جار ومجرور خبر كان ﴿يَتِيمَيْنِ﴾ صفة أولى ﴿لِغُلَٰمَيْنِ﴾. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ صفة ثانية له

وجملة كان في محل الرفع، خبر المبتدأ وجملة المبتدأ جواب أما وجملة أما معطوفة على جملة أما الأولى ﴿وَكَانَ﴾ فعل ناقص معطوف على كان الأولى ﴿تَحْتَهُۥ﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿كان﴾ ﴿كَنزٌ﴾ اسمها مؤخر ﴿لَّهُمَا﴾ صفة لـ﴿كَنزٌ﴾ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره وجملة كان معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أراد ربك﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره فأراد ربك بلوغهما أشدهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَبْلُغَآ﴾. ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله منصوب بـ﴿أراد﴾ ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿فَعَلْتُهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿عَنْ أَمْرِيۚ﴾ جار ومجرور حال من ضمير المفعول تقديره ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ حالة كونه صادراً ﴿عَنْ أَمْرِيۚ﴾. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة تأويل مضاف ﴿مَا﴾ اسم موصول أو نكرة موصوفة في محل الجر، مضاف إليه ﴿لَمْ تَسْطِع﴾ جازم وفعل وفاعل مستتر أصله تستطع حذفت منه تاء الافتعال للتخفيف ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق ب﴿صَبْرًا﴾ ﴿صَبْرًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ﴾ أي لا تجعلني صاحباً لك والمفاعلة هنا على بابها ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: وجدت عذراً من قبلي ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ والقرية هي أنطاكية كما روي عن ابن عباس أو الأبلة أو الناصرة ولا يوثق بصحة شيء من هذا ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾؛ أي: طلبا منهم أن يطعموهما، وفي تكرير أهلها وجهان:

أحدهما: أنه توكيد، من باب إقامة الظاهر مقام المضمر، والحكمة في ذلك، أنه لو قال استطعماها، لم يصح، لأنهما لم يستطعما القرية، أو قال استطعماهم، فكذلك لأن جملة استطعما أهلها صفة لقرية.

والثاني: أنه للتأسيس، وذلك أن الأهل المأتيين ليسوا جميع الأهل، وإنما هم البعض، إذ لا يمكن أن يأتيا جميع الأهل في العادة في وقت واحد، فلما ذكر الاستطعام ذكره بالنسبة إلى جميع الأهل، كأنهما تتبعا الأهل واحداً واحداً، فلو قيل: استطعماهم، لاحتمل أن يعود الضمير على ذلك البعض المأتي دون غيره، فكرر الأهل لذلك اهـ كرخي.

﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي ينزلوهما أضيافاً يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً، وأضافه وضيَّفه أنزله لديه ضيفاً، وأصل ضاف مال، من قولهم ضاف السهم عن الهدف؛ أي: مال عن الغرض، والجمع ضيوف وأضياف وضيفان ﴿جِدَارًا﴾؛ أي حائطاً ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ أي: يسقط بسرعة، وقد كثر في كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم، كما قال الشاعر:

يُرِيْدُ ٱلرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيْلِ

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾؛ أي: مسحه بيده فقام كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿لَتَخِذْتَ﴾ يقرأ بكسر الخاء مخففة وهو من تخذ يتخذ، إذا عمل شيئاً، ويقرأ بالتشديد وفتح الخاء، وفيه وجهان: أحدهما: هو افتعل من اتخذ، والثاني: أنه من الأخذ، وأصله يتخذ فأبدلت الياء تاء وأدغمت، وأصل الياء الهمزة، ذكره أبو البقاء ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾؛ أي: سأخبرك ببيان سر ووجه ما فعلت في الأمور الثلاثة.

فائدة: في مباحث الأفعال السبعة التي تنصب ثلاثة مفاعل: الأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعل سبعة، وهي: أعلم، وأرى، وأنبأ، ونبَّأ، وأخبر، وخبَّر، وحدَّث.

والأصل في هذه الأفعال، أعلم، وأرى، اللَّذان كان أصلهما قبل دخول

همزة النقل عليهما، علم ورأى المتعديان لاثنين، وأما الخمسة الباقية، فليس لها ثُلاثي يُستعمل في العلم إلا خبَّر، ولكنها أُلحقت في بعض استعمالاتها بأعلم المتعدي إلى ثلاثة، لأن الإنباء والتنْبِيء والإخبار والتخبير والتحديث بمعنى الإعلام، هذا وتستعمل الخمسة متعدية إلى واحد بأنفسها، وإلى مضمون الثاني والثالث، أو مضمون الثالث وحده بالباء، نحو حدثتك بخروج زيد، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

والتأويل من آل إلى كذا؛ أي: صار إليه، فإذا قيل: ما تأويله؛ أي: ما مصيره وفي «الشهاب» المراد بالتأويل إظهار ما كان باطناً ببيان وجهه اهـ.

وفي «القرطبي» المراد: بالتأويل التفسير قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ في «المصباح»: السفينة معروفة، والجمع سفين بحذف الهاء، وسفائن، ويُجمع السفين على سفن بضمتين، وجمع السفينة على سفين شاذ، لأن الجمع الذي بينه وبين واحده الهاء، بابه المخلوقات مثل تمرة وتمر، ونخلة ونخل، وأما في المصنوعات مثل سفينة وسفين فممنوع إلا في ألفاظ قليلة، ومنهم من يقول: السفين لغةٌ في الواحدة، وهي فعيلة بمعنى فاعله، كأنها تسفن الماء؛ أي: تقشره، وصاحبها سفَّان اهـ.

﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو الضعيف العاجز عن الكسب، لأمر في نفسه، أو في بدنه، ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: يكتسبون ويؤاجرون ﴿أَعِيبَهَا﴾؛ أي: أجعلها ذات عيب، بنزع ما نزعته منها ﴿وَرَآءَهُم﴾؛ أي: أمامهم، وهو لفظ يُستعمل في الشيء وضده، كما قال:

أَلَيْسَ وَرَائِيْ أَنْ أَدِبَّ عَلَىٰ ٱلْعَصَا ... فَيَأْمَنَ أَعْدَائِيْ وَيَسْأَمَنِيْ أَهْلِيْ

﴿خشينا﴾؛ أي: خفنا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي يحملهما ويكلفهما ﴿طُغْيَٰنًا﴾ أي مجاوزةً للحدود الإلهية ﴿زَكَوٰةً﴾؛ أي: طهارةً من الذنوب ﴿رُحْمًا﴾؛ أي: رحمةً كالكثر والكثرة ﴿أَشُدَّهُمَا﴾ مفرد بمعنى القوة، وقيل: جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع له واحد من لفظه، قيل: أَشِد بكسر الشين وقيل: أَشَد بفتحها اهـ

شيخنا. ﴿عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾؛ أي: عن رأيي واجتهادي ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع﴾؛ أي: تستطع ماضيه اسطاع، الذي أصله استطاع من باب افتعل الخماسي، حذفت تاء الافتعال منه للتخفيف كما مر، ومضارعه يسطيع، أصله يستطيع، بوزن يستقيم، فحذفت منه التاء أيضا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بزيادة لك في قوله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ﴾ في المرة الثانية للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة بعد مرة، والوسم بعدم الصبر.

ومنها: تكرير ﴿أَهۡلَهَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ للتأكيد، وفيه أيضاً إقامة الظاهر مقام المضمر، لأن مقتضى الظاهر أن يقال استطعماهم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ فقد استُعيرت الإرادة للمشارفة والمداناة، ويجوز أن يكون مجازاً عقلياً، من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، لأن المراد هنا لازم الإرادة العرفي، وهو القرب من الشيء؛ أي: يقرب من السقوط، لأن الإرادة من صفات العقلاء، وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة، وبليغ المجاز، كقول الشاعر:

يُرِيْدُ ٱلرُّمْحُ صَدْرَ أَبِيْ بَرَاءٍ   وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِيْ عَقِيْلِ

ومنها: التكرار في قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ كرر البين لغرض التوصل إلى العطف على ضمير الخفض، لأنه يجب عند العطف عليه، إعادة الخافض، فكأنه قال بيننا كما مر، ومنها اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، بطريقة اللف والنشر المرتب، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التقديم والتأخير لغرض العناية بالمقدم في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ لأن مقتضى الظاهر تأخير قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأن إرادة العيب مسببة عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب، ولكن قدم المسبب على السبب للعناية به، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾؛ أي: صالحة، حذف لدلالة لفظ ﴿أَعِيبَهَا﴾ وكذلك حذف لفظ فكان كافراً من قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ عليه.

ومنها: تعليم الأدب في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه، وأسند الخير إلى الله تعالى، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله عز وجل.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ لأن المراد بهما أبوه وأمه، فثنى الأب تغليباً له على الأم، كالقمرين في الشمس والقمر، والعمرين في أبي بكر وعمر، وهو تثنية لا تنقاس.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وأبدى بعضهم حكمة في اختلاف التعبير، وهي أن:

الأول: لما كان إفساداً محضاً.. عبّر فيه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أدباً مع الله.

والثاني: لما كان فيه نوع إفساد، ونوع إصلاح.. عبر فيه بقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ...﴾ إلخ اهـ. شيخنا «جمل».

والثالث: لما كان إصلاحاً محضاً ونعمة من الله.. عبر فيه بقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ
حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ
فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ
نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ
فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ
نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ
يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

المناسبة

لما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة الخضر.. أعقبها بذكر قصة ذي القرنين، ورحلاته الثلاث إلى الغرب والشرق، وإلى السدين، وبنائه للسد في وجه يأجوج ومأجوج، وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾ سبب نزوله: ما روي عن قتادة قال: إن اليهود يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾.

وقبل الشروع في تفسير الآيات الكريمة، لا بد من بيان مَنْ ذو القرنين،

فنقول: المراد بذي القرنين في الآية الكريمة، هو ذو القرنين الأكبر[١]، واسمه إسكندر بن فيلقوس اليوناني، ملك الدنيا بأسرها، كما قال مجاهد: ملك الأرض أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران نمرود وبختنصر، وفي «مشكاة الأنوار» شداد بن عاد بدل بختنصر، وكان ذو القرنين بعد نمرود في عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ على ما يأتي، ولكنه عاش زمناً طويلاً، ألفاً وست مئة سنة على ما قالوا، وفي تفسير الشيخ، وكان بعد ثمود، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير.

وقال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا ملكاً، وإنما كان مِلكاً صالحاً عادلاً، ملك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم، وانقادت له البلاد، مات بمدينة شهر زور، بعدما خرج من الظلمة (لأنه دخل الظلمة والنور في سياحته)، ودُفن فيها.

وفي «التبيان» مدة دوران ذي القرنين في الدنيا خمس مئة، ولما فرغ من بناء السد. . رجع إلى بيت المقدس ومات به، وإنما سُمي بذي القرنين، لأنه بلغ قرني الشمس؛ أي: جانبيها مشرقها ومغربها، كما لُقِّب أردشير واضع النرد بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد، وفي «القاموس»: لما دعاهم إلى الله تعالى. ضربوه على القرن الأيمن، فمات فأحياه الله، ثم دعاهم فضربوه على قرنه الأيسر، فمات ثم أحياه الله، كما سُمي عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بذي القرنين لما كان شجتان في قرني رأسه، إحداهما من عمرو بن ود، والثانية من ابن ملجم، وفي «قصص الأنبياء»: وكان قد رأى في منامه أنه دنا من الشمس، حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فلما قص رؤياه على قومه، سموه به، وقال السيوطي في «الأوائل»: أول من لبس العمامة ذو القرنين، وذلك أنه طلع له في رأسه قرنان كالظلفين، يتحركان، فلبسها من أجل ذلك، ثم إنه دخل الحمام ومعه كاتبه فوضع العمامة وقال لكاتبه: هذا الأمر لم يطلع عليه غيرك، فإن سمعت به

(١) روح البيان.

من أحد قتلتُك، فخرج الكاتب من الحمام، فأخذه كهيئة الموت، فأتى الصحراء، فوضع فمه بالأرض، ثم نادى: ألا إن للملك قرنين، فأنبت الله من كلمته قصبتين، فمر بهما راع فقطعهما، واتخذهما مزماراً، فكان إذا زمر، خرج من القصبتين: ألا إن للملك قرنين، فانتشر ذلك في المدينة، فقال ذو القرنين: هذا أمر أراد الله تعالى أن يبديه.

وأما ذو القرنين الثاني، وهو إسكندر الرومي، الذي يؤرخ بأيامه الروم، فكان متأخراً عن الأول بدهر طويل أكثر من ألف سنة، كان هذا قبل المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو من ثلاث مئة سنة، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف. وهو الذي حارب دارًا، وأذل ملوك الفرس، ووطىء أرضهم، وكان كافراً، عاش ستاً وثلاثين سنة، فالمراد بذي القرنين في القرآن هو الأول دون الثاني، وقد غلط كثير من العلماء في الفرق بينهما، فظنوا أن المذكور في الآية هو الرومي سامحهم الله اهـ. من «روح البيان».

التفسير وأوجه القراءة

ولما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود، وانتهى الكلام حيث انتهى.. شرع سبحانه في السؤال الثالث، والجواب عنه، فالمراد بالسائلين اليهود، أو كفار قريش بتلقينهم، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد اليهود، أو كفار قريش، بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ الأكبر إسكندر بن فيلقوس اليوناني، كان عبداً صالحاً ملَّكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة، ملك الأقاليم كلها، وقهر أهلها من الملوك وغيرهم، ودانت له البلاد، وكان داعياً إلى الله كما مر؛ أي: يسألونك عن خبره وقصته وحاله، وعبر[1] بصيغة الاستقبال، للدلالة على استمرارهم على ذلك السؤال إلى ورود الجواب.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾؛ أي: سأذكر لكم أيها

---

(١) روح البيان.

السائلون ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من خبر ذي القرنين وحاله، فحذف المضاف ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: نبأ مذكوراً، وبياناً واضحاً، أو المعنى سأتلو عليكم في شأنه من جهته تعالى ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: قرآناً والسين للتأكيد والدلالة على التحقق؛ أي: لا أترك التلاوة البتة، أي: قل لهؤلاء المتعنتين: سأقص عليكم قصصاً وافياً، جامعاً لما تريدون، أعلمنيه ربي، وأخبرني به، ثم فصل ذلك فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾؛ أي: لذي القرنين أمره من التصرف ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كيف يشاء، بحيث يصل إلى جميع مسالكها، ويظهر على سائر ملوكها؛ أي[1]: جعلنا له قدرةً على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والرأي، وعلى الأسباب حيث سخر له السحاب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء في الضوء، وسهل عليه السير في الأرض ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أعطيناه ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في إصلاح ملكه ﴿سَبَبًا﴾؛ أي: طريقاً يوصله إلى ذلك الشيء المقصود، كآلات السير، وكثرة الجند، فأراد بلوغ المغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: سلك طريقا يوصله إلى استقصاء بقاع الأرض، ليملأها عدلاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يمكنه مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الأطلسي الغربي، الذي يقال له: أوقيانوس، الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال، أو جاوز البحر المحيط، ووصل إلى موضع غروبها، ولا مانع من ذلك عقلاً ولا شرعاً، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له في الأرض، والبحر من جملتها، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره، ذكره الشوكاني.

﴿وَجَدَهَا﴾؛ أي: الشمس كأنها ﴿تَغْرُبُ﴾ في رأي العين ﴿فِي عَيْنٍ﴾؛ أي: في بحر محيط ﴿حَمِئَةٍ﴾؛ أي: ذات طين أسود، شديد السخونة، كما يدل عليه قراءة شعبة، وحمزة، والكسائي، وابن عامر ﴿حامية﴾ بألف بعد الحاء، وبياء بعد الميم، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة؛ أي: وجد الشمس تغرب في عين ذات حمأة، وطين أسود، وتلك العين هي نفس البحر المحيط لا غير.

---

(١) المراح.

وخلاصة ذلك(١): أنه بلغ بلاداً لا بلد بعدها تغرب عليها الشمس، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات، فهو قد سار إلى بلاد تونس، ثم مراكش، ووصل إلى البحر، فوجد الشمس كأنها تغيب فيه، وهو أزرق اللون كأنه طين وماء.

قال في «البيان»(٢): ولما وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس، يطلب عين الحياة.. قال له شيخ: هي خلف أرض الظلمة، ولما أراد أن يسلك في الظلمة.. سأل: أي الدواب في الليل أبصر؟ قالوا: الخيل فقال: أي الخيل أبصر؟ قالوا: الإناث فقال: أي الإناث أبصر؟ قالوا: البكارة، فجمع من عسكره ستة آلاف فرس كذلك فركبوا الرماك، وترك بقية عسكره، فدخلوا الظلمات فساروا يوماً وليلة، فأصاب الخضر العين، لأنه كان على مقدمة جيشه صاحب لوائه الأكبر، فشرب منها واغتسل، وأخطأ ذو القرنين، فساروا على حصحاص من حجارة، لا يدرون ما هي، فسألوه عنها فقال الإسكندر: خذوا من هذه الحجارة ما استطعتم، فإنه من أقل منها ندم، ومن أكثر منها ندم، فأخذوا وملأوا مخالي دوابهم من تلك الحجارة، فلما خرجوا.. نظروا إلى ما في مخاليهم، فوجوده زمرداً أخضر، فندموا كلهم لكونهم لم يكثروا ذلك ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾؛ أي: عند تلك العين؛ يعني عند نهاية العمارة ﴿قَوۡمٗاۗ﴾ كفاراً لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما يلفظه البحر من السمك، فخيَّره الله سبحانه، بين أن يعذبهم بالقتل، أو أن يدعوهم إلى الإيمان، وهذا تفصيل قوله ﴿قُلۡنَا﴾ له بطريق الإلهام ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ هؤلاء القوم الكفار؛ أي: أنت مخير في أمرهم بعد الدعوة إلى الإسلام، بين أن تعذبهم بالقتل إن هم أبوا عن الإيمان، ولم يقروا بوحدانيتي، ويذعنوا لك، في ما تدعوهم إليه من طاعتي ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ وتفعل ﴿فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾؛ أي: أمراً ذا حسن، فحذف المضاف؛ أي: وبين أن تفعل فيهم إحساناً بالعفو أو الأسر، وسماهما إحساناً في مقابلة القتل، أي: بأن تتركهم أحياء، أي: فأنت مخير فيهم بين تعذيبهم بالقتل، وبين تركهم أحياء، إن أبوا عن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الإسلام، ويجوز[1] أن يكون ﴿إِمَّآ﴾ ﴿وَإِمَّآ﴾ للتوزيع والتقسيم، دون التخيير؛ أي: ليكن شأنك معهم إما التعذيب، وإما الإحسان.

فالأولى: لمن بقي على حاله ولم يؤمن.

والثانية: لمن تاب وآمن. والإحسان إليهم بتعليمهم طريق الهدى والرشاد، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بالإصرار على الكفر، ولم يقبل الإيمان مني ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾؛ أي: فسنعذبه أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، وعن قتادة: كان يطبخ من كفر في القدور، ومن آمن أعطاه وكساه ﴿ثُمَّ يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ وخالقه في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾؛ أي: يعذب ذلك الظالم ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ أي: عذاباً شديداً منكراً، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ وصدق بالله ووحدانيته بسبب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾؛ أي: فلذلك المؤمن العامل في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: فله المثوبة الحسنى، حال كونه مجزياً بها فـ﴿جزاء﴾ حال، أو فله في الآخرة الجنة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: مما نأمر به ﴿يُسْرًا﴾؛ أي: قولاً سهلاً متيسراً غير شاق عليه، والمعنى[2]: فله في الدارين المثوبة الحسنى جزاء وفاقاً على تلك الخلال الجميلة التي عملها في دنياه، وسنعلمه في الدنيا ما يتيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى ربه، ويليِّن له قلبه ولا يشق عليه فعله مشقةً كبيرةً، كالصلاة، والزكاة، والجهاد، ونحوها.

وقرأ زيد بن علي، والزهري، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، والكوفيون، وابن عامر[3]: ﴿فأتبع﴾ ثلاثتها بالتخفيف وقرأ باقي السبعة بالتشديد، والظاهر أنهما بمعنى واحد وعن يونس بن حبيب، وأبي زيد أنه بقطع الهمزة، عبارة عن المجد المسرع الحثيث الطلب، وبوصلها أنه يتضمن الاقتفاء دون هذه الصفات.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ عبد الله، وطلحة بن عبيد الله، وعمرو بن العاص، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ومعاوية، والحسن، وزيد بن علي، وابن عامر، وحمزة، والكسائي ﴿حامية﴾ بالياء؛ أي: حارة.

وقرأ ابن عباس، وباقي السبعة، وشيبة، وحميد ابن أبي ليلى، ويعقوب، وأبو حاتم، وابن جبير الأنطاكي ﴿حَمِئَةٍ﴾ بهمزة مفتوحة، والزهري يليِّنها؛ أي: ذات طين أسود، ولا تنافي بين الحامية والحمئة، إذ تكون العين جامعة للوصفين، وفي التوراة تغرب في ماء وطين.

وقرأ حمزة[1]، والكسائي، وحفص، وأبو بحرية، والأعمش، وطلحة، وابن مناذر، ويعقوب، وأبو عبيد، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي، ومحمد بن جرير ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً﴾ بالنصب والتنوين، والمراد بالحسنى على قراءة النصب الجنة وقرأ باقي السبعة ﴿جزاء الحسنى﴾ يرفع جزاء مضافاً إلى الحسنى.

قال أبو علي: جزاء الخلال الحسنة التي أتاها وعملها، و﴿جزاء﴾ مبتدأ و﴿له﴾ خبره، وقرأ عبد الله ابن أبي إسحاق ﴿فله جزاء﴾ مرفوعاً منوناً، وهو مبتدأ وخبر، والحسنى بدل من جزاء.

وقرأ ابن عباس، ومسروق ﴿جزاء﴾ بالنصب بغير تنوين الحسنى بالإضافة، ويخرج على حذف المبتدأ لدلالة المعنى عليه؛ أي: فله الجزاء جزاء الحسنى، وخرَّجه المهدوي: على حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو جعفر ﴿يسراً﴾ بضم السين حيث وقع.

﴿ثُمَّ﴾ قفل ذو القرنين راجعاً من مغرب الشمس و﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: سلك طريقاً موصلاً إلى مشرقها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾؛ أي: وصل الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، إذ لا يمكنه أن يبلغ موضع طلوع الشمس، وقيل[2]: مكان طلوعها، لعدم المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

كما أوضحناه فيما سبق، قيل بلغه في اثني عشرة سنة، وقيل: في أقل من ذلك بناءً على ما ذكر من أنه سخر له السحاب، وطوى له الأسباب.

﴿وَجَدَهَا﴾؛ أي: الشمس ﴿تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ عراة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾؛ أي: من دون الشمس وأمامها ﴿سِتْرًا﴾ من اللباس والبناء، يعني ليس لهم لباس يستترون به من حر الشمس، ولا بناء يستظلون فيه، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية لغاية رخاوتها، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، أو البحر من شدة الحر، وإذا ارتفعت عنهم خرجوا؛ أي[1]: حتى إذا بلغ الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من المعمور، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم، لأن أرضهم لا تحمل بنياناً، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس، ويظهرون حين غروبها، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم وأحوالهم، على الضد من أحوال الناس.

وخلاصة ذلك: أنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق، ووجد قوماً لا لباس لهم ولا بناء، فهم عراةٌ في العراء، أو في سراديب في الأرض.

وقرأ الحسن، وعيسى، وابن محيصن ﴿مطلع﴾ بفتح اللام، ورويت عن ابن كثير، وأهل مكة، وهو القياس، وقرأ الجمهور بكسرها، وهو مسموع في أحرف معدودة، وقياس كسره أن يكون المضارع مكسور العين، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في مباحث الصرف، وكان الكسائي يقول: هذه لغة ماتت في كثير من لغات العرب، يعني: ذهب من يقول من العرب.

تطلع بكسر اللام، وبقي مطلع بكسرها في اسم المكان والزمان على ذلك القياس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أمر ذي القرنين وشأنه وحاله كذلك؛ أي: كما وصفناه

---

(١) المراغي.

وبيناه لك يا محمد من قبل من بلوغه طرفي المشرق والمغرب، ومن فعله الأفاعيل المذكورة، فهو قد بلغ الغاية في رفعة الشأن، وبسطة الملك، مما لم يتح لكثير من الناس، أو أمره في أهل المشرق كأمره في أهل المغرب، فحكم في أهل المطلع كما حكم في أهل المغرب، من تعذيب الظالمين، والإحسان إلى المؤمنين ﴿و﴾ نحن ﴿قد أحطنا بما لديه﴾؛ أي: بما عند ذي القرنين من الأسباب والعدد ﴿خُبْرًا﴾؛ أي: علماً، تمييز؛ أي: ونحن قد علمنا بما لديه من الأسباب والعدد، والشؤون والأحوال، علماً محيطاً بظواهره وخفاياه.

وخلاصة ذلك: أنه كما وُصف، وفوق ما وصف، مما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير.

فانظر[١] يا أخي سعة لطف الله تعالى، وإمداده بمن شاء من عباده، فإنه ذكر وهب بن منبه: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل الإسكندرية، ابن امرأة عجوز من عجائزهم، ليس لها ولد غيره، وكان خارجاً عن قومه، ولم يكن بأفضلهم حسباً ولا نسباً، ولكنه نشأ في ذات حسن وجمال، وحلم ومروءة وعفة، من لدن كان غلاماً، إلى أن بلغ رجلاً، ولم يزل منذ نشأ يتخلق بمكارم الأخلاق، ويسمو إلىٰ معالي الأمور، إلىٰ أن علا صيته، وعز في قومه، وألقىٰ الله تعالى عليه الهيبة، ثم إنه زاد به الأمر إلى أن حدَّث نفسه بالأشياء، فكان أول ما أجمع عليه رأيه الإسلام فأسلم، ثم دعا قومه إلى الإسلام، فأسلموا عنوة منه عن آخرهم، ثم كان من أمره ما كان، ثم حكى سبحانه وتعالى سفر ذي القرنين إلى ناحية أخرى، وهي ناحية القطر الشمالي، بعد تهيئة أسبابه، فقال: ﴿ثُمَّ﴾ قفل ذو القرنين راجعاً من مطلع الشمس و﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: سلك طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ ذو القرنين ووصل ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾؛ أي: بين الجبلين الذين سد ما بينهما، وهما جبلان عاليان، في منقطع أرض الترك، مما يلي المشرق، من ورائهما يأجوج ومأجوج،

---

(١) روح البيان.

وانتصاب ﴿بَيْنَ﴾ على المفعولية، لأنه مبلوغ، وهو من الظروف التي تُستعمل أسماء وظروفاً، كما ارتفع في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وانجرَّ في قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

قال وهب[1]: السدان جبلان مرتفعان في السماء، من ورائهما ومن أمامهما البلدان، وهما بمنقطع أرض الترك، مما يلي أرمينية وأذربيجان، وذكر الهروي: أنهما جبلان من وراء بلاد الترك، وقيل: هما جبلان من جهة الشمال، ليّنان أملسان، يزلق عليهما كل شيء، ويسمى الجبلان سدين، لأن كل واحد منهما سد فجاج الأرض، وكانت بينهما فجوة كان يدخل منها يأجوج ومأجوج.

وقرأ مجاهد[2]، وعكرمة، والنخعي، وحفص، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بفتح السين، وقرأ باقي السبعة بضمها، قال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، وقال الخليل وسيبويه: بالضم الاسم، وبالفتح المصدر. ﴿وَجَدَ﴾ ذو القرنين ﴿مِن دُونِهِمَا﴾؛ أي: من دون السدين؛ أي: من ورائهما، مجاوزاً عنهما، وقيل: أمامهما؛ أي: من جهة الأمام، خارجة عنهما، لا داخلة بناحية يأجوج ومأجوج اهـ شيخنا. وفي «الخطيب»: وجد من دونهما؛ أي: بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما، إلى الجهة التي أتى منها ذو القرنين اهـ.

وخلاصة ذلك[3]: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطون إياه، حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حاجزاً بين الجبلين، يمنعهم من الخروج إليهم فلا يصلون إليهم.

وقرأ عاصم[4]، والأعمش، ويعقوب في رواية بالهمز في ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هنا، وكذا في الأنبياء، وهي لغة بني أسد، ذكره الفراء، قيل: ولا وجه له إلا الغريبة المحكية عن العجاج أنه كان يهمز العألم والخأتم، وقرأ باقي السبعة بألف غير مهموزة، وهي لغة كل العرب، غير بني أسد. وقرأ العجاج وابنه رؤبة:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

﴿أجوج﴾ بهمزة بدل الياء، وقرأ الحسن، والأعمش، وطلحة، وخلف، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي، ومن السبعة حمزة والكسائي ﴿خراجا﴾ بألف هنا وفي حرفي قد أفلح، وسكن ابن عامر الراء فيها، وقرأ باقي السبعة ﴿خَرْجًا﴾ فيهما بسكون الراء، فخراج بالألف والخرج بمعنى واحد، كالنول والنوال، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر ﴿سداً﴾ بضم السين، وابن محيصن، وحميد، والزهري، والأعمش، وطلحة، ويعقوب في رواية ابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، وباقي السبعة بفتحها.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين جواباً لهم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾؛ أي: ما بسطه الله لي، وجعلني فيه مكيناً قادراً، من الملك والمال، وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ مما تريدون أن تبذلوه إلي من الخراج، فلا حاجة لي إليه، ومثله قول سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ ومن هذا يؤخذ أنّ الدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة، ولا تأخذ منها مالاً، ما دامت قادرة على إغاثتها.

وخلاصة ذلك: ما أنا فيه خير مما تبذلونه، وقرأ ابن كثير وحميد ﴿ما مكنني﴾ بنونين متحركتين، وباقي السبعة: بإدغام نون مكني في نون الوقاية، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعملة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لا بد منها في البناء ﴿أَجْعَلْ﴾ جواب الأمر ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها القوم ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾؛ أي: وبين يأجوج ومأجوج ﴿رَدْمًا﴾؛ أي: حاجزاً حصيناً، وحجاباً عظيماً، وهو أكبر من السد، وأوثق منه[1]، إذ السد كل ما يسد به، والردم وضع الشيء على الشيء، من حجارة، أو تراب، أو نحوهما، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض.

وقوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾؛ أي: أعطوني وناولوني زبر الحديد، تفسير للقوة، فيكون المراد بها ترتيب الآلات، وهذا لا ينافي رد خراجهم، لأن المأمور به الإيتاء بالثمن والمناولة، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة دون

---

(١) الشوكاني.

الخراج على العمل، وقال الفراء معنى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ إئتوني بها، فلما ألقيت الياء.. زيدت ألفاً، وعلى هذا فانتصاب زبر بنزع الخافض، والزبر[(١)]: جمع زبرة، كغرف جمع غرفة، وهي القطعة الكبيرة، قال في «القصص» قالوا: من أين لنا من الحديد ما يسع هذا العمل، فدلهم على معدن الحديد والنحاس، ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء بها دون سائر الآلات من الصخور ونحوها، لما أن الحاجة إليها أمس، إذ هي الركن في السد، وفي «القصص»: قاس ما بين الصدفين، فوجده ثلاثة أميال.

وقال بعضهم[(٢)]: حفر ما بين السدين، وهو مئة فرسخ حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب بدل الطين لها والبنيان من زبر الحديد، بين كل زبرتين الحطب والفحم، وقرأ الجمهور[(٣)]: ﴿ءَاتُونِي﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم، ﴿إئتوني﴾؛ أي: جيئوني، وانتصب زبر بإيتوني على إسقاط حرف الجر؛ أي: جيئوني بزبر الحديد، وقرأ الجمهور: ﴿زُبَرَ﴾ بفتح الباء، والحسن بضمها، وعبارة «المراح» هنا: وقرأ حمزة ﴿ائتوني﴾ بوصل الهمزة في الموضعين، ووافقه أبو بكر هنا، وخالفه في الموضع الثاني، انتهى.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ معطوف على محذوف، تقديره فأتوه بها، فأمر برص بعضها فوق بعض، فرصوا حتى إذا ساوى ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾؛ أي: بين طرفي الجبلين بالبناء، والصدف[(٤)]: منقطع الجبل، أو ناحيته، وبين: مفعول به، كبين السدين؛ أي: إنهم [(٥)] جاؤوا ذا القرنين بزبر الحديد، فشرع يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك، يعني: ملأ ما بينهما إلى أعلاهما، وكان ارتفاعه مئتي ذراع، وعرضه خمسين ذراعاً، ووضع المنافخ والنار حول ذلك ﴿قَالَ﴾ للعملة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ بالكير؛ أي: في الحديد

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.
(٥) المراح.

المبني، فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾؛ أي: المنفوخ فيه وهو زبر الحديد ﴿نَارًا﴾؛ أي: مثل النار في الحرارة والهيئة، وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين، مع أنه فعل العملة، للتنبيه على أنه العمدة في ذلك، وهم بمنزلة الآلة.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ قطراً أي: نحاساً مذاباً ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: أصبب على الحديد المحمى ﴿قِطۡرًا﴾؛ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغه عليه، فدخل مكان الحطب والفحم، فامتزج بالحديد، والتصق بعضه ببعض، وصار جبلاً صلداً، وهذه كرامة عظيمة، حيث صرف الله تأثير الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين والمفرغين للقطر.

والإفراغ الصب؛ أي: أصبب على الحديد المحمى قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وإسناد الإفراغ إلى نفسه للعلة التي وقفت عليها آنفاً.

وقرأ ابن كثير[1]، وأبو عمرو، وابن عامر، والزهري، ومجاهد، والحسن: ﴿الصُدُفين﴾ بضم الصاد والدال، وأبو بكر، وابن محيصن، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمٰن، كذلك إلا أنه سكَّن الدال، وباقي السبعة، وأبو جعفر، وشيبة، وحميد، وطلحة، وابن أبي ليلى، وجماعة عن يعقوب، وخلف في اختياره، وأبو عبيد، وابن سعدان، بفتحهما وابن جندب بالفتح وإسكان الدال، ورويت عن قتادة.

وقرأ الماجشون: بالفتح وضم الدال، وقرأ قتادة، وأبان عن عاصم بضم الصاد وفتح الدال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ في الكلام حذف، تقديره فنفخوا حتى إذا... وقرأ الجمهور: ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ﴾؛ أي: أعطوني، وقرأ الأعمش، وطلحة، وحمزة، وأبو بكر بخلاف عنه قال ﴿إئتوني﴾؛ أي: جيئوني.

و﴿قِطۡرًا﴾ منصوب بأفرغ، على إعمال الثاني، ومفعول ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ محذوف لدلالة الثاني عليه، كما مر ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف[2] تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

من تلاقي المتقاربين، وقال في «برهان القرآن»:

اختار التخفيف في الأول، لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول، فاختير فيه الحذف والثاني مفعوله اسم واحد، وهو قوله: ﴿نَقْبًا﴾. انتهى.

والفاء[1]: فصيحة؛ أي: فعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر، فأفرغ عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلداً؛ أي: صلباً أملس، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه، فما قدروا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: أن يظهروا الجبل ويعلوه بالصعود، لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾؛ أي: وما استطاع يأجوج ومأجوج نقباً للجبل وثقباً له؛ أي: وما قدروا أن ينقبوه ويخرقوه من أسفله، لصلابته وثخانتِهِ، فلا سبيل إلى مجاوزته إلى غيرهم من الأمم إلا بأحد هذين إما: ارتقاء، وإما نقب، وقد سلب قدرتهم على ذلك.

وهذه معجزة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة، إذا أثرت فيها حرارة النار.. لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها، فضلاً عن النفخ فيها، إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القطر عليها، وكأنه سبحانه صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال، وكان ما كان، والله على كل شيء قدير، كذا في «الإرشاد» أخذاً عن تفسير الإمام. يقول الفقير: ليس ببعيد أن تكون المباشرة بالنفخ والصب من بعيد بطريق من طرق الحيل، ألا ترى أن نار نمرود لما كانت بحيث لا يقرب منها أحد.. عملوا المنجنيق، فألقوا به إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف التاء تخفيفاً، لقربها من الطاء، وقرأ حمزة، وطلحة: بإدغامها في الطاء، كأنه أراد استطاعوا، فأدغم التاء في الطاء، وهو إدغام على غير حده، وقال أبو علي: هي غير جائزة، وقرأ الأعمش عن أبي بكر: ﴿فما اصطاعوا﴾ بالإبدال من السين صاداً لأجل الطاء، وقرأ الأعمش: ﴿فما استطاعوا﴾ بالتاء من غير حذف.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا﴾ السد ﴿رَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ ونعمةٌ جسيمةٌ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ على كافة الخلق، لا سيما على مجاهديه، وفيه[١] إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادةً، بل هو إحسان إلٰهي محض وإن ظهر بمباشرتي.

وقال ابن عطية[٢]: والإشارة بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به، وقال الزمخشري: إشارة إلى السد؛ أي: هذا السد نعمةٌ عظيمةٌ من الله تعالى، ورحمة منه على عباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته، قيل: وفي الكلام حذف تقديره، فلما أكمل بناء السد، واستوى واستحكم.. قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ وقرأ ابن أبي عبلة ﴿هذه رحمة من ربي﴾ بتأنيث اسم الإشارة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾، أي[٣]: وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، وقيل: مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: موعود ربي وهو يوم القيامة، والمراد بمجيئه مجيء أشراطه وأماراته، من خروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام. ونحو ذلك من أشراط يوم القيامة.

﴿جَعَلَهُ﴾؛ أي: جعل هذا السد المشار إليه بما تقدم مع متانته ﴿دَكَّاءَ﴾؛ أي: أرضاً مستويةً، والظاهر[٤] أن جعله بمعنى صيَّره، فدكاً: مفعول ثان، وقال الزمخشري: فإذا دنا[٥] مجيء يوم القيامة، وشارف أن يأتي.. جعل السد دكاً؛ أي: مدكوكاً منبسطاً مستوياً بالأرض، وكل ما انبسط بعد ارتفاع.. فقد اندك. انتهى. وفيه بيان لعظمة قدرته تعالى بعد بيان سعة رحمته.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر[٦]: ﴿دكاً﴾ منوناً غير مهموز ولا ممدود، مصدر دككته، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي ﴿دَكَّاءَ﴾ ممدودةً مهموزةً بلا تنوين.

والمعنى: أي[٧] فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد.. جعل ربي ذلك

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) الكشاف.
(٦) زاد المسير.
(٧) المراغي.

السد بقدرته وسلطانه أرضاً مستويةً، فسلط عليه منهم أو من غيرهم من يهدمه، ويسوي به الأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروجهم وقت قرب الساعة ﴿حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً ثابتاً لا ريب في تحقيقه واقعاً لا محالة فيه البتة، لا يتخلف، أو كان وعده بالثواب والعقاب، وهذا آخر قول ذي القرنين.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، ابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه ابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذين عليهم ارجعوا، فستفتحونه غداً، فيعودون إليه أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه غداً ـ إن شاء الله تعالى ـ ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع مخضبةً بالدماء، فيقولون قهرنا من في الأرض، وعلونا من في السماء قسراً وعلواً، فيبعث الله تعالى عليهم نغفاً في أقفائهم، فيهلكون» قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم».

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلّق قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال: «نعم إذا كثر الخبث» وأخرجا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً قوله: ﴿وَتَرَكْنَا...﴾ إلخ. من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذي القرنين؛ أي: وصيّرنا ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾؛ أي[1]: صيَّرنا بعض يأجوج ومأجوج يوم خروجهم من السد يموج ويختلط ببعضهم الآخر

(١) المراح.

من شدة الازدحام عند خروجهم، لكثرتهم، وذلك عقب موت الدجال، فينحاز عيسى ـ عليه السلام ـ بالمؤمنين إلى جبل الطور فراراً منهم. وروي: أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ولا يصلون إلى من تحصَّن منهم بورد أو ذكر، ويُحبس نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار، فيتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء، فيسلط الله تعالى دوداً في أنوفهم أو آذانهم، فيموتون به، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه رممهم ونتنهم فيتوجه نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله تعالى، فيرسل ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم طيراً فتلقيهم في البحر، ثم يرسل الله مطراً يغسل الأرض حتى تصير كالمرآة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الغنم والإبل، حتى إن اللقحة لتكفي الجماعة الكثيرة، فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى عليهم ريحاً طيبةً، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة ثانية للبعث، وهو القرن الذي ينفخ فيه للبعث من القبور، والمراد بالنفخة هنا: النفخة الثانية التي عندها يكون الحشر، بمقتضى الفاء التي بعدها، لأن الفاء تشعر بذلك، ولم يذكر النفخة الأولى، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة.

والمعنى: نفخ إسرافيل في الصور أرواح الخلائق عند استعداد صور الأجساد لقبول الأرواح، كاستعداد الحشيش لقبول الاشتعال، فتشتعل بأرواحها ﴿فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: جمعنا يأجوج ومأجوج وغيرهم ﴿جَمْعًا﴾؛ أي: جمعاً عجيباً، لم نترك من الملك والإنس والجن والحيوانات أحداً؛ أي: جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء.

الإعراب

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يسألونك﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: جار ومجرور متعلق به وهو في محل المفعول الثاني والجملة مستأنفة ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿السين﴾: حرف استقبال ﴿أتلو﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عليكم﴾ متعلق به ﴿منه﴾ حال من ﴿ذِكْرًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ إن حرف نصب ونا اسمها ﴿مَكَّنَّا﴾: فعل وفاعل ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به وكذا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به أيضاً ومفعول ﴿مَكَّنَّا﴾ محذوف تقديره ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ أمره من التصرف فيها كيف يشاء وجملة ﴿مَكَّنَّا﴾ في محل الرفع خبر إن وجملة إن: مستأنفة مسوقة لبيان الذكر المتلو عليهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: حال من سببا، لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿سَبَبًا﴾ مفعول ثان لـ﴿آتينا﴾ وجملة ﴿آتينا﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿مَكَّنَّا﴾.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿أتبع﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿سَبَبًا﴾: مفعول به والجملة: معطوفة مفرعة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ مفعول به وجملة ﴿بَلَغَ﴾: في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها والظرف: متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجَدَهَا﴾: فعل ومفعول أول وفاعله: ضمير يعود على ذي

القرنين ﴿تَغْرُبُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الشمس ﴿فِي عَيْنٍ﴾: متعلق به ﴿حَمِئَةٍ﴾: صفة لـ﴿عَيْنٍ﴾ وجملة ﴿تَغْرُبُ﴾: في محل النصب مفعول ثان أو حال من مفعول ﴿وَجَدَ﴾ وجملة ﴿وَجَدَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إِذَا﴾: في محل الجر بحتى الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أتبع﴾ والتقدير ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ إلى وجدانه الشمس غاربة ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وقت بلوغه ﴿مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾. ﴿وَوَجَدَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿وَجَدَهَا﴾ وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿عِندَهَا﴾ متعلق بـ﴿وجد﴾ ﴿قَوْمًا﴾ مفعول به ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة: جواب لشرط محذوف تقديره فلما وجدهم ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ الخ. وجملة الشرط المحذوف مستأنفة ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ . . .﴾: منادى مضاف وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾ ونداء الله إياه إن كان نبياً فبوحي وإن كان غيره فبإلهام أو على لسان نبي اهـ. بيضاوي. ﴿إِمَّآ﴾: حرف تفصيل ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿تُعَذِّبَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه خبر مبتدإ محذوف تقديره إما الشأن فيهم تعذيبك إياهم أو على كونه مبتدأ خبره محذوف تقديره: إما تعذيبك إياهم واقع ومن شواهد الرفع قول الشاعر:

فَسِيْرُوْا فَإِمَّا حَاجَةٌ تَقْضِيَانِهَا وَإِمَّا مَقِيْلٌ صَالِحٌ وَصَدِيْقُ

أو في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً لفعل محذوف، تقديره: إما فعلت التعذيب أو إختر إما: التعذيب ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ معطوف على ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَتَّخِذَ﴾ أو مفعول ثان لـ﴿تَتَّخِذَ﴾ و﴿حُسْناً﴾ مفعول أول.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة مستأنفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿ظَلَمَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على من والجملة صلة الموصول ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾. ﴿سوف﴾: حرف استقبال ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾: فعل

ومفعول وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب ﴿أَمَّا﴾: لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿أَمَّا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿يُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على من ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: متعلق به والجملة معطوفة على جملة نعذبه ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿يعذبه﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَذَابًا﴾ مفعول مطلق ﴿نُّكْرًا﴾: صفة له وجملة يعذب معطوفة على جملة ﴿يُرَدُّ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على من والجملة صلة الموصول ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به أو صفة لمصدر محذوف أي عملاً صالحاً والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب أما له خبر مقدم ﴿جَزَآءً﴾: حال من ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: فالحسنى كائنة له حالة كونه مجزياً بها، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر من الموصولة والجملة الإسمية جواب أما لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿أَمَّا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَمَّا﴾: الأولى ﴿وَسَنَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نقول﴾ ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿يُسْرًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿يُسْرًا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق لأنه صفة لمصدر محذوف والتقدير سنقول له من أمرنا قولاً يسراً وجملة ﴿نقول﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على كونها خبراً لمن الموصولة.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول والجملة: معطوفة على جملة قوله ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ السابق ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾: مفعول به والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجَدَهَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة إذا في محل الجر بحتى وحتى متعلقة بـ﴿أَتْبَعَ﴾ والتقدير: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ إلى وجدانه الشمس طالعة على قوم وقت بلوغه ﴿مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق بـ﴿تَطْلُعُ﴾ وجملة ﴿تَطْلُعُ﴾ في محل النصب حال من مفعول وجد أو مفعول ثان لوجد ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ﴿نَجْعَل﴾: مجزوم بلم وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّهُم﴾ جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لجعل ﴿مِّن دُونِهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿سِتْرًا﴾. ﴿سِتْرًا﴾ مفعول أول لجعل وجملة نجعل في محل الجر صفة لقوم.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كائن كذلك والجملة مستأنفة؛ أي: أمر ذي القرنين كائن كما وصفناه من بلوغه مغرب الشمس وبلوغه مطلع الشمس وبسطة الملك له. ﴿وَقَدْ﴾ الواو: استئنافية ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿أَحَطْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة أو حالية أو معطوفة ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بأحطنا ﴿لَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة الموصول ﴿خُبْرًا﴾: تمييز محول عن فاعل ﴿أَحَطْنَا﴾؛ أي: وقد أحاط علمنا بما لديه.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿أَتْبَعَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿سَبَبًا﴾: مفعول به والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿بَلَغَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ مفعول به والجملة في محل

الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجَدَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿مِن دُونِهِمَا﴾: مفعول ثان لوجد ﴿قَوْمًا﴾ مفعول أول له وجملة ﴿وَجَدَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بحتى و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلق بـ﴿أَتْبَعَ﴾ والتقدير ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾إلى وجدانه ﴿قَوْمًا﴾ من دون السدين وقت بلوغه بينهما ﴿لَا يَكَادُونَ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل النصب خبر كاد وجملة كاد في محل النصب صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل ﴿والواو﴾: ضمير يعود على أولئك القوم والجملة مستأنفة ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾: منادى مضاف وجملة النداء: في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ﴾: ناصب واسمه ﴿وَمَأْجُوجَ﴾: معطوف على يأجوج ﴿مُفْسِدُونَ﴾: خبر إن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول قال على كونها جواب النداء ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿هل﴾ حرف استفهام استخباري ﴿نَجْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على أولئك القوم ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لجعل ﴿خَرْجًا﴾: مفعول أول والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة إن ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر ﴿أَن تَجْعَلَ﴾: ناصب وفعل منصوب وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لتجعل ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾ معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾ ﴿سَدًّا﴾: مفعول أول لتجعل وجملة تجعل مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بعلى تقديره: على جعلك سداً بيننا وبينهم الجار والمجرور: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿خَرْجًا﴾ تقديره: خرجا قائماً على شرط جعلك سداً بيننا وبينهم.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة مستأنفة

﴿مَا مَكَّنِّي﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿مَكَّنِّي﴾ فعل ماض، ونون وقاية، وياء مفعول ﴿فِيهِ﴾ متعلق به ﴿رَبِّي﴾ فاعل والجملة صلة الموصول ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَعِينُونِي﴾ الفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفتم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: أعينوني. ﴿أعينوني﴾ فعل وفاعل ونون وقاية وياء مفعول ﴿بِقُوَّةٍ﴾ متعلق به والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول قال ﴿أَجْعَلْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف في محل المفعول الثاني لـ﴿أَجْعَلْ﴾ ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾ معطوف عليه ﴿رَدْمًا﴾ مفعول أول لأجعل والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ءَاتُونِي﴾ فعل أمر وفاعل ونون وقاية والياء مفعول أول ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾: مفعول ثان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مفسرة لأعينوني ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية متعلقة بمحذوف تقديره. فجاؤوه بما طلب فبنى وجعل ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ الفحم والحطب حتى ﴿إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾... إلخ. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿سَاوَىٰ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها والظرف: متعلق بالجواب الآتي ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿سَاوَىٰ﴾ كما مر في مبحث التفسير، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة إذا في محل الجر بحتى تقديره وجعل بين الصدفين الفحم والحطب والحديد إلى قوله لهم: ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ وقت مساواته ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾. ﴿ٱنفُخُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول قال ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر

وغاية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ فعل ومفعولان وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة: في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بحتى تقديره إلى قوله آتوني وقت جعله إياه ناراً الجار والمجرور متعلق بـ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾. ﴿ءَاتُونِىٓ﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول أول والمفعول الثاني محذوف لدلالة العامل الثاني عليه لأن المسألة من باب التنازع تقديره ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ قطراً والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أُفۡرِغۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به ﴿قِطۡرًا﴾: مفعول به لـ﴿أُفۡرِغۡ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب، فأُعمل الثاني هنا على مذهب البصريين لقربه، ولو أعمل الأول لقيل آتوني أفرغه عليه قطرا.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره فجاء قوم يأجوج ومأجوج بعد أن أنهى بناءه وتسويته يحاولون أن يعلوه أو يثقبوه فما اسطاعوا والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ فعل ماض وفاعل ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول به والجملة في تأويل مصدر على المفعولية والتقدير فما اسطاعوا ظهورهم إياه والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به ﴿نَقۡبًا﴾: مفعول به والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ذي القرنين والجملة: مستأنفة ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مِّن رَّبِّي﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَحۡمَةٞ﴾ والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿فَإِذَآ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية[1] ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على

كونها فعل شرط لها والظرف: متعلق بالجواب الآتي ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعولان والجملة: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة على كونها مقول قال ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية ﴿كان وعد ربي حقاً﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه وخبره والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ أو على جملة جوابها أو حال من فاعل ﴿جَآءَ﴾.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿تركنا بعضهم﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله والتنوين في إذ عوض عن الجملة المحذوفة كما مر تقديره؛ أي: يوم إذ يدك السد أو يوم إذ يخرج يأجوج ومأجوج والظرف متعلق بـ﴿يَمُوجُ﴾ أي: ﴿يَمُوجُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على بعضهم ﴿فِي بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿يَمُوجُ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿تركنا﴾ لأن ترك هنا من أفعال التصيير وجملة ﴿تركنا﴾: مستأنفة. ﴿وَنُفِخَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿نفخ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿تركنا﴾ ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿جَمْعًا﴾: مفعول مطلق ﴿والفاء﴾: عاطفة والجملة: معطوفة على جملة ﴿نفخ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: نبأ مذكوراً، وهو القرآن ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ يقال: مكنه ومكن له، كنصحه ونصح له؛ أي: مهد له الأسباب، وجعله قادراً على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والرأي.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ قد سبق لك في مبحث القراءة، أن نافعاً، وابن كثير، وأبا عامر، وابن عامر قرؤوا ﴿فَأَتْبَعَ﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ في المواضع كلها، بهمزة وصل، وتشديد التاء من افتعل الخماسيّ، والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء من أتبع الرباعي، فقيل: هما بمعنى واحد فيتعديان لمفعول واحد، وقيل: ﴿أتبع﴾

بالقطع متعد لاثنين حذف أحدهما تقديره ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ سبباً آخر أو فأتبع أمره سبباً. ومنه: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فعداه لاثنين، ومن حذف أحد المفعولين قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾؛ أي: أتبعوا جنودهم، واختار أبو عبيد ﴿اتَّبع﴾ بالوصل، قال: لأنه من المسير، قال: تقول: تبعت القوم واتبعتهم، فأما الإتباع بالقطع فمعناه اللحاق، كقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وقال يونس، وأبو زيد: ﴿أتبع﴾ بالقطع، عبارة عن المجد المسرع الحثيث الطلب، وبالوصل إنما يتضمن الاقتفاء دون هذه الصفات. اهـ «سمين».

﴿سَبَبًا﴾؛ أي: طريقاً يوصله إليه، من علم أو قدرة أو آلة ﴿حَمِئَةٍ﴾؛ أي: ذات حمئة، وهي الطين الأسود، وفي «المصباح» والحمأة بسكون الميم: طين أسود، وحمئت البئر حمأً، من باب تعب، صار فيها الحمأة، وحميت الحديدة تحمى، من باب تعب فهي حامية، إذا اشتد حرها بالنار، ويتعدى بالهمزة فيقال: أحميتها فهي محماة، ولا يقال: حميتها بغير ألف. اهـ والعين الحمئة: ماء يجري على الطين الأسود.

﴿مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾: بكسر الراء؛ أي: مكان غروبها، والقياس: فتحها لأن القاعدة[1] عند الصرفيين: أن كل فعل ثلاثي متصرف، لا يأتي مضارعه على وزن يفعل بكسر العين، بل يأتي على يفعل بضمها، أو على يفعل بفتحها ككرم يكرم، ونصر ينصر، وفرح يفرح، وغرب يغرب، وطلع يطلع، قياس مفعله فتح الميم والعين مع سكون فائه، سواء أريد به المصدر، أو الزمان أو المكان، والكسر فيه شاذ كما قال ابن مالك في «لامية الأفعال»:

مِنْ ذِيْ ٱلثَّلاَثَةِ لاَ يَفْعَلْ لَهُ إئت بمفـ ـعل مَصْدَرَ أَو مَا فِيهِ قَدْ عَمِلاَ

﴿حُسْنًا﴾؛ أي: أمراً ذا حسن ﴿نُّكْرًا﴾؛ أي: منكراً فظيعاً ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبة الحسنى ﴿يُسْرًا﴾؛ أي: سهلاً ميسراً غير شاق ﴿سِتْرًا﴾؛ أي: بناءً، وكانوا إذا طلعت الشمس تغوّروا في المياه، وإذا غربت خرجوا ﴿خُبْرًا﴾؛ أي: علماً

---

(١) مناهل الرجال.

يتعلق بظواهره وخفاياه ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾؛ أي: بين الجبلين، ويُروى: أن ذا القرنين سد ما بينهما، وإطلاق السد على الجبل لأنه سد في الجملة، وفي «القاموس»: السد الجبل الحاجز، أو لكونه ملاصقاً للسد، فهو مجاز علاقته المجاورة، والقول الثاني هو المناسب لما قبله .اهـ «شهاب».

﴿يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ اسمان أعجميان، بدليل منع الصرف فيهما للعلمية والعجمة، وقيل: بل هما عربيان، واختلف في اشتقاقهما، فقيل: من أجيج النار، وهو التهابها وشدة توقدها، وقيل: من الأوجة، وهي الأخلاط، أو شدة الحر، وقيل: من الأوج، وهو سرعة العدو، وإنما منعا من الصرف، للعلمية والتأنيث، وكلاهما من أج الظليم، إذا أسرع، أو من أجت النار، إذا التهبت، ﴿خَرْجًا﴾؛ أي: جعلاً من أموالنا والخراج: ما لزمك أداؤه ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس ﴿رَدْمًا﴾ والردم أكبر من السد وأوثق منه، يقال: ثوب مردم؛ أي: فيه رقاع فوق رقاع.

﴿ءَاتُونِي﴾ قرأ أبو بكر[1] ﴿ائتوني﴾ بهمزة وصل، من أتى يأتي في الموضعين من هذه السورة، بخلاف عنه في الثاني، ووافقه حمزة على الثاني من غير خلاف عنه، والباقون بهمزة القطع فيهما، فزبر على قراءة همزة الوصل منصوبة على إسقاط الخافض؛ أي: جيئوني بزبر الحديد وفي قراءة قطعها على المفعول الثاني، لأنه يتعدى بالهمزة إلى اثنين، وعلى قراءة أبي بكر يحتاج إلى كسر التنوين، من ﴿رَدْمًا﴾ لالتقاء الساكنين، لأن همزة الوصل تسقط درجا، فيقرأ له بكسر التنوين وبعده همزة ساكنة هي فاء الكلمة، وإذا ابتدأت بكلمة ائتوني في قراءتِهِ وفي قراءة حمزة.. تبدأ بهمزة مكسورة للوصل، ثم ياء صريحة هي بدل عن همزة فاء الكلمة، وفي الدرج تسقط همزة الوصل، فتعود الهمزة لزوال موجب إبدالها، والباقون يبتدئون ويصلون بهمزة مفتوحة، لأنها همزة قطع ويتركون تنوين ﴿رَدْمًا﴾ على حاله من السكون، هذا كله ظاهر لأهل النحو، خفيٌّ على القراء.

---

(١) الفتوحات.

﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾؛ أي: قطع الحديد، جمع زبرة كغرفة وغرف ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحتين وضمتين أيضاً، وضم الأول وسكون الثاني، وقد قرىء بالثلاث جميعاً، مثنى صدف بفتحتين، وصدف بضمتين، وصدف بضم الأول وفتح الثاني، وبالعكس منقطع الجبل، أو ناصيته، وقد سميا بذلك لأنهما يتقابلان وفي زاده وسميت كل ناحية من الجبلين صدفاً لكونه مصادفاً، ومقابلاً للآخر من قولك صادفت الرجل؛ أي: لقيته اهـ.

﴿قِطْرًا﴾؛ أي: نحاساً مذاباً، فالقطر بكسر فسكون النحاس المذاب على الحديد المحمى، وقيل: رصاصاً مذاباً ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته ﴿رَحْمَةٌ﴾؛ أي: أثر رحمة ﴿دَكَّآءَ﴾؛ أي: مثل دكاء وهي الناقة التي لا سنام لها، والمراد بها: الأرض المستوية ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً واقعاً لا محالة ﴿يَمُوجُ﴾؛ أي: يضطرب اضطراب البحر ﴿ٱلصُّورِ﴾ قرن ينفخ فيه والبوق.

فائدة في مبحث اسْطاع: قالوا: الأصل في اسطاع واستطاع أن التاء حذفت تخفيفاً، وفتحت همزة الوصل وقطعت، وهو قول الفراء، وفي استطاع لغات: اسطاع يستطيع، بفتح الهمزة في الماضي وضم حرف المضارعة، فهو أطاع يطيع، وأصله يطوع بقلب الفتحة من الواو إلى الطاء في أطوع، إعلالاً له حملاً على الماضي، فصار أطاع، ثم دخلت السين كالعوض من عين الفعل، هذا مذهب سيبويه، واللغة الثانية استطاع يستطيع بكسر الهمزة في الماضي ووصلها، وفتح حرف المضارعة، وهو استفعل نحو استقام واستعان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: تكرار ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿مَغْرِبَ﴾ و﴿مَطْلِعَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿مَغْرِبَ﴾ و﴿تَغْرُبُ﴾ و﴿مَطْلِعَ﴾ و﴿تَطْلُعُ﴾.

ومنها: التفصيل أو التخيير في قوله: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ لأن السبب حقيقة في الحبل، فاستعير هنا لكل ما يُتوصل به إلى المقصود من الآلات والعملة وآلات السير وكثرة الجند.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مقابل قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ...﴾ الآية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾؛ أي: بين الجبلين، لأن السد حقيقة في الحاجز المبني، فاستعماله في الجبل مجاز، علاقته المجاورة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار، وحذفت أداة التشبيه فأصبح بليغاً.

ومنها: التفنن في قوله: ﴿رَدْمًا﴾ لأنه بمعنى سداً، إلا أنه أبلغ منه في المعنى.

ومنها: استعمال الماضي في المستقبل، في قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ لأن الاستطاعة المنفية مستقبلة بالنظر إلى وقت القول.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض، بموج البحر المتلاطم، واستعار لفظ يموج لذلك الاختلاط، ففيه استعارة تبعية، والاستعارة هنا من نوع استعارة محسوس لمحسوس، كما هو من أقسام الاستعارة، فإن أصل الموج تحريك المياه، فاستعير لحركة يأجوج ومأجوج، أو لحركة الخلق كلهم، لاشتراك المستعار والمستعار له في الحركة، وهي استعارة مكنية تبعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر(١) أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ في الصور لقيام الخلق من قبورهم، بعد أن تقطعت أوصالهم، وتمزقت أجسامهم، وجمعهم في صعيد واحد للحساب والجزاء.. أردف ذلك ببيان أنه إذ ذاك يُبرز النار للكافرين، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، وفي ذلك تعجيل الهم والحزن لهم، من قبل أنهم تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم من عذابه، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم، وكل ذلك وهم وخيال، فلا فائدة منه في ذلك اليوم ولا نقيم لهم إذ ذاك وزناً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(٢) ما أعده للكافرين من العذاب

---

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

في جهنم جزاء كفرهم بربهم، واستهزائهم برسله وآياته.. أردف ذلك بما يرغِّب المؤمنين في العمل الصالح، من جنات تجري من تحتها الأنهار، جزاءً وفاقاً على إنابتهم إليه، وإخباتهم له، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذي ذكر فيه الدلائل والبينات على وحدانيته، وإرساله الرسل، والبعث والجزاء، للدلالة على عظيم فضله، ومزيد إنعامه، ثم أعقب ذلك ببيان أن العمل لا يُتقبل إلا إذا صاحَبَهُ أمران: أن يكون خالصاً لوجهه تعالى، وأن يكون مبرءاً من الشرك الخفي والجلي.

أسباب النزول

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] الحاكم وغيره، عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ وقال اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى...﴾ إلخ. الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ...﴾ الآية، أخرج ابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» عن طاووس قال: قال رجل: يا رسول الله إني أقف أريد وجه الله وأحب أن يُرى موطني، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ مرسل وأخرجه الحاكم في «المستدرك» موصولاً، عن طاووس، عن ابن عباس صححه على شرط الشيخين.

وأخرج[2] ابن أبي حاتم عن مجاهد، قال: كان رجل من المسلمين يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه فأنزل الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ...﴾. الآية.

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

وأخرج أبو نعيم، وابن عساكر في تاريخه، من طريق السدى الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: قال جندب عن زهير: إذا صلى الرجل، أو صام، أو تصدق، فذُكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس له فنزلت في تلك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ . . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أبرزنا نار جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور، وجمعناهم جمعاً وأظهرناها ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله وبرسله ﴿عَرْضًا﴾ هائلاً وإظهاراً عجيباً، لا يُعرف كنهه حتى يروا أهوالها، وشديد نكالها، ويسمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وفي هذا تعجيل للهم والحزن لهم، ومعرفة أنهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مصرفا.

وتخصيص العرض بالكافرين[1]، مع أنها بمرىءً من أهل الجمع قاطبةً، لأن ذلك لأجلهم خاصةً، وهذا العرض يجري مجرى العقاب لهم من أول الأمر، لما يتداخلهم من الغم العظيم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموصول مع صلته نعت للكافرين، أو بدل ولذا لا وقف على عرضا، كما في «الكواشي» ﴿كانت أعينهم﴾؛ أي: أعين قلوبهم، وهم في الدنيا ﴿فِى غِطَآءٍ﴾؛ أي: في غلاف وغيظ وأغشية كثيفة، محاطة بذلك من جميع الجوانب، والغطاء: ما يغطي الشيء ويستره ﴿عَن ذِكْرِى﴾ على وجه يليق بي، وعن كتابي فلا يهتدون به؛ أي: في غطاء عن الآيات المؤدية لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيد، كما قيل:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿وَكَانُواْ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يقدرون لفرط تصاممهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾؛ أي: استماعاً لذكري وكلامي وقرآني، فلا يؤمنون به، يعني: أن حالهم أعظم من الصمم، فإن الأصم قد يستطيع السمع إذا

---

(١) روح البيان.

صيح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة.

والمعنى(١): أن هذا العذاب إنما نالهم من جراء أنهم كانوا لا ينظرون في آيات الله، فيتفكروا فيها، ولا يتأملون حججه، فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم، وينقادوا لأمره ونهيه، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله، الذي ذكرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آي كتابه، فتغافلوا وتعاموا، وتصاموا عن قبول الهدي، واتباع الحق كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ ذاك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح الذنوب والآثام، وأطاعوا وساوس الشيطان وما نصبه لهم من الحبائل.. طبع الله على قلوبهم، وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ثم بيَّن أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات لا يجديهم نفعاً، فقال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والهمزة فيه للتوبيخ والتقريع المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والحسبان هنا بمعنى الظن، والتقدير أكفروا بي(٢) مع جلالة شأني، فحسبوا وظنوا ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ من الملائكة، وعيسى وعزير، وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿مِن دُونِي﴾ مجاوزين إيّاي؛ أي: تاركين عبادتي ﴿أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: معبودين ينصرونهم من بأسي، والمعنى: أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم، أو يرفع عنهم ما يحل بهم من النكال والوبال، وخلاصة هذا: أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم وأنه لا يغضبني؟ كلا.

وقرأ علي بن أبي طالب(٣)، وزيد بن علي بن الحسين، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن ميسرة، والضحاك، وابن أبي ليلى، وابن كثير، ويعقوب بخلاف عنهما، وابن محيصن، وأبو حيوة، والشافعي، ومسعود بن صالح ﴿أَفَحَسْبُ﴾ بإسكان السين وضم الباء مضافاً إلى الذين؛ أي: أفكفايتهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء، على أنه مبتدأ وخبر، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

ثم أكد هذا الإنكار بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾؛ أي: أعددنا وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين ﴿نُزُلًا﴾ وهو ما يعد للنزيل والضيف؛ أي: أحضرنا جهنم للكافرين، كالنزل المعد للضيف، وفيه تهكم بهم، كقولهم: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والمعنى: إن جهنم معدة لهم عندنا، كما يعد النزل للضيف؛ أي[1]: إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضاً مما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زاداً ليوم المعاد، والخلاصة: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر عُدةً، هي جهنم وبئس المصير.

وقرأ أبو حيوة، وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿نزْلاً﴾ بسكون الزاي وفي ذلك تهكم بهم، وتخطئة لهم في حسبانهم ذلك، وإيماء إلى أن لهم وراء جهنم ألوان أخرى من العذاب، وما جهنم إلا أنموذج منه.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن من ادعى محبة الله وولاءه، لا يتخذ من دون الله أولياء، أياً كان، إذ لا يجتمع ولاية الحق وولاية الخلق، ومن كفر بنعمة الولاء واتخذ من دون الله أولياء، فله جهنم البعد والقطيعة أبداً.

ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل الكتابين، اليهود والنصارى، ومن المشركين ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُم﴾ أيها الكفرة؛ أي: هل نخبركم أنا ومن تبعني من المؤمنين ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ في الآخرة ﴿أَعۡمَٰلًا﴾ نصب على التمييز والجمع، للإيذان بتنوعها؛ أي: بالقوم الذين هم أشد الخلق وأعظمهم خسراناً فيما عملوا، قال في «الإرشاد» هذا بيان حال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في أنفسها، من صلة الرحم، وإطعام الفقراء، وعتق الرقاب ونحوها، وفي حسبانهم أيضاً حيث كانوا معجبين بها، واثقين بنيل ثوابها، ومشاهدة آثارها غِبَّ بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة في أنفسها، مع كونها حسنة في حسبانهم. انتهى.

وقال في «البحر»: والأخسر من أتعب نفسه بعمل فأدى تعبه به إلى النار،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نعوذ بالله من ذلك ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضل؛ أي: ضاع وبطل سعيهم وجهدهم في إقامة الأعمال الحسنة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلالة، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ﴾ أي: ضل سعيهم والحال أنهم ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ أي: يظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ أي: يعملون عملاً ينفعهم في الآخرة؛ أي[1]: يحسبون أنهم يعملون ذلك، على الوجه اللائق، وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعوا في إقامتها، وكابدوا في تحصيلها.

وفي الآية: إشارة إلى أهل الأهواء والبدع، وأهل الرياء والسمعة، فإن اليسير من الرياء شرك، وإن الشرك محبط الأعمال، لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ والمعنى[2]: قل لهم يا محمد: هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ثواباً وفضلاً، فنالوا به هلاكاً وبواراً، كالمشتري سلعةً يرجو بها ربحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعته، ووكس في الذي رجا فضله.

وخلاصة ذلك: أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له، وأنهم يحسنون صنعاً، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين، وفي ضلال مبين، وأن سعيهم الذي سعوه في الدنيا ذهب هباءً، فلم يجدهم نقيراً ولا قطميراً.

ثم بيَّن السبب في بطلان سعيهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من ضلال سعيهم مع الحسبان المذكور هم ﴿الذين كفروا بآيات ربهم﴾؛ أي: بدلائله الداعية إلى توحيده عقلاً ونقلاً ﴿و﴾ كفروا بـ﴿لقائه﴾ سبحانه وتعالى بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة، على ما هي عليه ﴿فَحَبِطَتْ﴾؛ أي: ضاعت وبطلت بذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عملوها مما يحسبونها حسنة حبوطاً كلياً، فلا يثابون عليها، وذلك خسران وضلالٌ مبين.

وقرأ ابن عباس وأبو السمال[3]: ﴿فحبطت﴾ بفتح الباء، والجمهور

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

بكسرها، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا نجعل لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ وقدراً؛ أي[1]: فنزدري بهم، ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالمرة، ولما كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الأعمال.. عطف عليه بطريق التفريع، وأما ما هو من أجزية الكفر، فسيجيء بعد ذلك.

والمعنى[2]: أن هؤلاء الأخسرين أعمالاً، هم الذين كفروا بالدلائل المنبثة في الآفاق والأنفس، التي تدعو إلى توحيده، وكفروا بالبعث والحساب، وما يتبع ذلك من أمور الآخرة، ومن ثم حبطت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها، بل لهم منها عذاب وخزي طويل، ولا تثقل بها موازينهم، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة، وليس لهم منها شيء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ بالنون ﴿وَزْنًا﴾ بالنصب، ومجاهد، وعبيد بن عمير ﴿فلا يقيم﴾ بالياء لتقدم قوله ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وعن عبيد أيضاً ﴿يقوم﴾ بفتح الياء كأنه جعل قام متعدياً، وعن مجاهد، وابن محيصن، ويعقوب بخلاف عنهم ﴿فلا يقوم﴾ مضارع قام ﴿وزنٌ﴾ مرفوع به وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا - إن شئتم -: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» متفق عليه.

ثم بيَّن مآلهم بسبب كفرهم، وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة[4] إلى ما ذكر، من حبوط أعمالهم، وخسة قدرهم عند الله، فاسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك؛ أي: أمر هؤلاء المذكورين، وشأنهم ذلك الذي ذكرناه، وقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان جزائهم؛ أي: جزاء هؤلاء المذكورين نار جهنم، وقيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الخازن.

المعنى: ذلك التصغير لهم، وجزاؤهم جهنم، فأضمرت واو الحال، ذكره ابن الجوزي ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ الدالة على وحدانيتي ﴿وَرُسُلِي﴾ المؤيدين بالمعجزات ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها؛ أي: جزاؤهم[1] جهنم بسبب كفرهم وإنكارهم لما يجب إيمانهم وإقرارهم به، واتخاذهم القرآن وغيره من الكتب الإلهية ورسل الله وأنبيائه سخرية واستهزاء، وهذا من قبيل الوصف بالمصدر للمبالغة، يعني: أنهم بالغوا في الاستهزاء بآيات الله ورسله، فكأنهم جعلوها وإياهم عين الاستهزاء، أو المعنى مهزوءاً بهما كما مر، أو مكان هزء ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار، الوعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بآيات ربهم ولقائه في الدنيا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال وهي ما كانت خالصةً لوجه الله تعالى ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله تعالى في الأزل، وإنما قدرنا ذلك جواباً عما يقال المقام للمضارع، فما وجه المعنى هنا؟

وحاصل الجواب: أن الكينونة المذكورة بحسب علم الله الأزلي وإن كانت الكينونة المقارنة بالدخول ستحصل، ذكره في «الفتوحات» ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾؛ أي: ثمار بساتين الفردوس ﴿نُزُلًا﴾ معداً لهم مبالغةً في إكرامهم حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدرين الخلود في تلك الجنات حالة كونهم ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ مصدر كالصغر؛ أي: لا يطلبون تحولاً وانتقالاً عنها إلى غيرها، كما ينتقل الرجل في الدنيا من دار إذا لم توافقه إلى دار، إذ لا مزيد عليها وفيها كل المطالب، والمراد بنفي التحويل تأكيد الخلود، والفردوس[2]: ربوة خضراء في الجنة أعلاها وأحسنها، يقال: لها سرة الجنة، وفي حديث[3] عبادة: «الفردوس أعلاها»؛ يعني: أعلا الجنة، قال قتادة: وربوتها ومنها تفجر أنهار الجنة، قال أبو هريرة: جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وفي حديث أبي أمامة «الفردوس سرة الجنة» قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وقال مجاهد: الفردوس البستان باللغة الرومية، واختار

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الزجاج ما قاله مجاهد.

ومعنى الآي: أي[1] إن الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا صالح الأعمال، ابتغاء المثوبة من ربهم، لهم بساتين الفردوس في أعلى الجنة وأوسطها منزلاً، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمٰن تبارك وتعالى ومنه تفجر الأنهار».

حالة كونهم خالدين ولابثين فيها أبداً، لا يبغون تحولاً عنها إلى غيرها، قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه، إلى دار أخرى، وخلاصة هذا: أنه لا مكان أعز منها عندهم، ولا أرفع شأناً. حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وتطمح إليه أبصارهم، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المجادلين لك ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾؛ أي: جنس ماء البحر ﴿مِدَادًا﴾ وحبراً ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾؛ أي: لكتابتها وهي حكمه وعجائبه، والكلمات هي: العبارات عنها كما في «الجلالين» ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾؛ أي: لفنى جنس ماء البحر بأسره، مع كثرته ولم يبق فيه شيء، لأن كل جسم متناه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ وتفنى ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾؛ أي: من غير[2] أن تفنى معلوماته وحكمه، فإنها غير متناهية لا تنفد، كعلمه فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر.

و﴿قَبْلَ﴾ هنا بمعنى غير أو بمعنى دون، وإنما اختار جمع القلة على الكثرة، وهي الكلم - تنبيهاً على أن ذلك لا يقابل بالقليل، فكيف بالكثير كما في «بحر العلوم» ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾؛ أي: بمثل ماء البحر الموجود ﴿مَدَدًا﴾ تمييز؛ أي: زيادة ومعونة.. ما نفدت كلمات - الله تعالى - لأن كلمات الله غير متناهية، فلا نفاد لها، فحذف جواب الشرط الثاني لدلالة الأول عليه، والواو[3] لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها؛ أي: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

كلماته لو لم يجيء بمثله مدداً ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

والمعنى[١]: قل لهم أيها الرسول: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وعلومه.. لنفد ماء البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات ولو مددنا ماء البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً وعوناً، لأن مجموع المتناهيين متناه وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها، والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وقرأ عبد الله[٢]، وابن عباس، والأعمش، ومجاهد، والأعرج، والحسن، والمنقري عن أبي عمرو ﴿مددا لكلمات ربي﴾ بدل ﴿مِدَادًا﴾ وقرأ[٣] ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم ﴿تَنفَدَ﴾ بالتاء الفوقانية وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعمرو بن عبيد، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى ﴿ينفد﴾ بالياء التحتانية، قال أبو علي: التأنيث أحسن لأن المسند إليه الفعل مؤنث، والتذكير حسن لأن التأنيث ليس بحقيقي، وإنما لم تنفد كلمات الله، لأن كلامه صفة من صفات الله، ولا يتطرق على صفاته النفاد.

وقرأ السلمي[٤]: ﴿أن تنفد﴾ بتشديد الفاء على وزن تفعل على المضي، وجاء كذلك عن عاصم، وأبي عمرو، فهو مطاوع من نفَّد مشدداً، نحو كسرته فتكسّر، وفي قراءة الجماعة مطاوع، لأنفد وقرأ الجمهور: ﴿بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ بفتح الميم والدال بغير ألف، والأعرج بكسر الميم، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والأعمش بخلاف عنه، وأبو رجاء، وقتادة، وابن محيصن، والتيمي، وحميد، والحسن في رواية، وأبو عمرو في رواية، وحفص في رواية: ﴿بمثله مداداً﴾ بألف بين الدالين وكسر الميم.

فإن قيل[٥]: لِمَ قال في أول الآية ﴿مِدَادًا﴾ وفي آخرها ﴿مَدَدًا﴾ وكلاهما

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير والبحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.
(٥) زاد المسير.

بمعنى واحد، واشتقاقهما غير مختلف، فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: لما كان الثاني آخر آية وأواخر الآيات هاهنا أتت على الفعل، والفعل كقوله نزلاً هزواً حولاً، كان قوله: ﴿مدداً﴾ أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد واتفاق المقاطع عند أواخر الآيي، وانقضاء الأبيات، وتمام السجع في النثر، أخف على الألسن وأحلى موقعاً في الأسماع، فاختلفت اللفظتان لهذه العلة، وفي «الفتوحات»: المعنى مختلف كاللفظ، فلا اعتراض كما عُلم من هذا ومما سبق.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المجادلين لك بعد ما بينت لهم شأن كلمات الله تعالى، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: ما أنا إلا آدمي مثلكم في الصورة، ومساويكم في الصفات البشرية؛ أي: إنَّ حالي[1] مقصور على البشرية، لا يتخطاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدَّعى الإحاطة بكلمات الله، إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه، كما قال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربي من بعض تلك الكلمات، وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر، ثم بيَّن أن الذي أوحي إليه هو قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: منفرد في ألوهيته وربوبيته، لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، يعني: أنا معترف ببشريتي ولكن الله منّ عليّ من بينكم بالنبوة والرسالة، وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن بني آدم في البشرية واستعداد الإنسانية سواء، النبي والولي والمؤمن والكافر، والفرق بينهم بفضيلة الإيمان والولاية والنبوة والوحي والمعرفة، بأن إله العالمين إله واحد صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد .اهـ.

وفي هذا: إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد، فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ ويطمع شرط جزاؤه ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ قال في «الإرشاد» (كان) للاستمرار، والرجاء: توقع وصول الخير في المستقبل؛ أي: فمن كان يرجو ويأمل ويطمع ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي: رؤية ربه أو كرامة ربه وثوابه، أو من كان يخاف

---

(١) روح البيان.

لقاء ربه والمصير إليه للمجازاة.. ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل ذلك المطلوب العزيز ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ لائقاً بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من قبل.

وقال الإمام[١]: حمل أصحابنا لقاء الرب على رؤيته، والمعتزلة على لقاء ثوابه، يقال: لقيه كرضيه رآه، كما في «القاموس» والرجاء: يكون بمعنى الخوف، وبمعنى الأمل، كما في «البغوي».

والمعنى[٢]: من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله وقال في «التأويلات النجمية» العمل الصالح متابعة النبي ﷺ والتأسي بسنته ظاهراً وباطناً، فأما سُنَّة باطنِهِ فالتبتل إلى الله تعالى وقطع النظر عما سواه.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ من المخلوقات سواء كان صالحاً أو طالحاً حيواناً أو جماداً قال أبو البقاء[٣]: أي: في عبادة ربه، ويجوز أن تكون الباء على بابها؛ أي بسبب عبادة ربه .اهـ.

ومعنى الآية: أي فمن كان يطمع في ثواب الله على طاعته.. فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية، ولا يشرك به سواه لا إشراكاً جلياً كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفياً كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله وعلمه الدنيا، أو الجاه، أو التسمية، أو الوظيفة، أو الشهرة، وهذا هو الشرك الأصغر، كما صح في الحديث وروي مستفيضاً في الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يُقبل، فقد أخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك».

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بياء الغائب كالأمر في قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي عنه ﴿ولا تشرك﴾ بالتاء خطاباً للسامع والتفاتاً من

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، وهو المأمور بالصالح، ثم عاد إلى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، في قوله: ﴿بربه﴾ ولم يأت التركيب بربك إيذاناً بأنَّ الضميرين لمدلولٍ واحد، وهو ﴿من﴾ في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾.

خاتمة

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها: ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم».

وأخرج ابن راهويه، والبزار، والحاكم وصححه، والشّيرازي في «الألقاب» وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ . . .﴾ الآية كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة» قال ابن كثير بعد إخراجه: غريب جداً.

وأخرج ابن الضريس، عن أبي الدرداء قال: «من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه» وفي «تفسير الحدادي» عن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف.. فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون فيها، ومن قرأ الآية التي في آخرها حين يأخذ من مضجعه.. كان له نور يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة، يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه، وإن كان مضجعه بمكة فتلاها.. كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة، يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ».

وفي «تفسير البيضاوي» عن النبي ﷺ «من قرأ عند مضجعه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ﴾.. كان له نور في مضجعه، يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة، يصلون عليه حتى يستيقظ».

وفي «فتح القريب» من قرأ عند إرادة النوم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخ. ثم قال: اللهم أيقظني في أحب الأوقات إليك، واستعملني

بأحب الأعمال إليك.. فإنه سبحانه يوقظه، ويكتبه من قوّام الليل. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا أردت أن تقوم أية ساعة شئت من الليل.. فاقرأ إذا أخذت مضجعك ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ الآية. فإن الله يوقظك متى شئت من الليل.

وتكلموا في القراءة في الفراش مضطجعاً[1]: قال في «الفتاوي الحمدية»: لا بأس للمضطجع بقراءة القرآن. انتهى. والأولىٰ أن لا يقرأ وهو أقرب إلى التعظيم، كما في «شرح الشرعة» ليحيى الفقيه وعن ظهير الدين المرغيناني لا بأس للمضطجع بالقراءة مضطجعاً إذا أخرج رأسه من اللحاف، لأنه يكون كاللبس وإلا فلا نقله قاض خان وفي «المحيط»: لا بأس بالقراءة إذا وضع جنبيه على الأرض لكن يضم رجليه إلى نفسه. انتهى. نسأل الله تعالى أن يوقظنا من الغفلة قبل انقضاء الأعمار، ويؤنسنا بالقرآن آناء الليل وأطراف النهار، آمين.

الإعراب

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَعَرَضْنَا﴾ الواو: عاطفة ﴿عرضنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تركنا﴾ ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول به ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ ﴿عرضنا﴾ و﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿عرضنا﴾ أيضاً ﴿عَرْضًا﴾: مفعول مطلق. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أو بدل منه ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِى غِطَآءٍ﴾ جار ومجرور خبر كان ﴿عَن ذِكْرِى﴾ صفة لـ﴿غِطَآءٍ﴾ أو متعلق به وجملة كان صلة الموصول ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى على كونها صلة الموصول.

---

(١) روح البيان.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف ﴿والفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف تقديره أكفر الذين كفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا ﴿حسب﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل والجملة معطوفة على ذلك المحذوف والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿عِبَادِى﴾ مفعول أول لاتخذ ﴿مِن دُونِى﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَوْلِيَآءَ﴾. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثان له وجملة ﴿اتخذ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر سَدّ مسد مفعولي ﴿حسب﴾. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل الإنكار المفهوم من الاستفهام ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ حال من ﴿نُزُلًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿نُزُلًا﴾ حال من ﴿جَهَنَّمَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة: مستأنفة ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ ﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام الاستعلامي ﴿نُنَبِّئُكُم﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول أول ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ﴾ الباء داخلة على مضمون المفعولين الثاني والثالث، وجملة ﴿نبأ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ ﴿أَعْمَٰلًا﴾: تمييز ﴿الأخسرين﴾: منصوب به وجمع التمييز، والأصل فيه الافراد، لمشاكلة المميز، وللإيذان بأن خسرانهم، إنما كان من جهاتٍ شتى، لا من جهة واحدة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: من هم الأخسرون أعمالاً؟ فقيل: هم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة: صلة الموصول ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ متعلق بالسعي ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿هم﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَحْسَبُونَ﴾ خبره والجملة الإسمية: في محل النصب، حال من ضمير

﴿سَعْيُهُمْ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وما في خبرها سد مسد مفعولي ﴿يَحْسَبُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة: صلة الموصول ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ معطوفة على ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿فَحَبِطَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿حبطت أعمالهم﴾: فعل وفاعل والجملة، معطوفة على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لا﴾: نافية ﴿نُقِيمُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة: معطوفة على جملة ﴿حبطت﴾ ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُقِيمُ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿نُقِيمُ﴾ ﴿وَزْنًا﴾ مفعول به.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك أي أمر هؤلاء الكفرة، وشأنهم ذلك الذي ذكرناه من حبوط أعمالهم، وخسة قدرهم، والجملة مستأنفة ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة مسوقة لبيان جزاء الذين حبطت أعمالهم، ويجوز أن يعرب ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبر ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ والجملة: خبر المبتدأ الأول، وهو ﴿ذَٰلِكَ﴾، ويجوز أن يعرب ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبر و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل أو عطف بيان لقوله ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾، أي: حالة كونهم مجزيين بها بسبب كفرهم أو متعلق بـ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ لأن الخبر من معمولات المبتدأ فليس أجنبياً كما في «الجمل» ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرُسُلِى﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتِى﴾. ﴿هُزُوًا﴾ مفعول ثان والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿كَانَتْ﴾ فعل ناقص ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿نُزُلًا﴾. ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ اسمها ﴿نُزُلًا﴾ خبرها وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ وهذا أيضاً باعتبار الأزل؛ أي: حال كونهم محكوماً لهم في الأزل بالخلود فيها، كما في «الجمل» ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿لَا يَبْغُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ﴿حِوَلًا﴾. ﴿حِوَلًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله: ضمير يعود على محمد والجملة. مستأنفة لو كان البحر إلى آخر الآية مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره والجملة: فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿مِدَادًا﴾ ومضاف إليه ﴿لَنَفِدَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾ ﴿نفد البحر﴾: فعل وفاعل ﴿قَبْلَ﴾: ظرف متعلق به والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿لَّوْ﴾: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾ لنفد البحر قبل أن تنفد ناصب وفعل وفاعل ومضاف إليه والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره قبل نفاد ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ما بعدها على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها تقديرها ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ كلماته لو لم يجىء بمثله مددا والجملة المحذوفة في محل النصب حال من ﴿رَبِّي﴾ ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿جِئْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ متعلق به ﴿مَدَدًا﴾ تمييز ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ منصوب به وجواب ﴿لَّوْ﴾ محذوف تقديره ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ لنفد ولم تفرغ وجملة

﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة لو المحذوفة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق به ﴿أَنَّمَآ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿ما﴾ كافة لكفها ما قبلها عما بعدها ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾: مبتدأ ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة ﴿إِلَٰهٌ﴾ والجملة الاسمية: صلة ﴿أن﴾ المكفوفة لأن ما الكافة وإن كفتها عن العمل لا تخرجها عن المصدرية، و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع، على كونها نائب فاعل ليوحى، تقديره: يوحى إليّ وحدانية الله سبحانه وجملة يوحى في محل الرفع صفة ثانية لبشر والمعنى[1] لم يوح إليّ إلا وحدانية إلا ﴿إِلَٰهٌ﴾؛ أي: لا تعدده، فالحصر نسبي .اهـ شيخنا. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر: جملة الجواب، أو الشرط أو هما، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها واسمها: ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ تقديره فمن كان راجياً لقاء ربه ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملةً طلبيةً ﴿واللام﴾ حرف أمر وجزم ﴿يعمل﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وفاعله: ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿عَمَلًا﴾ مفعول به أو مطلق ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة له والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾: ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿يُشْرِكْ﴾ مجزوم بلا الناهية وفاعله: ضمير يعود على

---

(١) الفتوحات.

﴿من﴾ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿يُشۡرِكۡ﴾ ﴿أَحَدَۢا﴾ مفعول به وجملة ﴿لا يشرك﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾ على كونها جواب ﴿من﴾ الشرطية.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾؛ أي: أعددنا وهيأنا ﴿نُزُلًا﴾: والنزل: الطعام النفيس يعد للضيف إكراماً وقال في «القاموس»: النزل[1] بضمتين المنزل، وما يهيأ للضيف أن ينزل عليه والجمع: أنزال والطعام ذو البركة كالنزيل والفضل والطعام .اهـ.
﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾: قال في «الجلالين» الإضافة فيه للبيان، ولعل وجه الجمع حينئذٍ اعتبار ما فيه؛ أي: في الفردوس من القصور وغيرها فكأنه جنان متعددة .اهـ. شيخنا.

في «القاموس» و«التاج»: الفردوس: بالكسر الأودية التي تنبت ضروباً من النبت، والبستان: يجمع كل ما يكون في البساتين، تكون فيه الكروم، وقد يؤنث عربيةً، أو روميةً نقلت، أو سريانيةً، وروضةً دون اليمامة لبني يربوع، وماء لبني تميم، قرب الكوفة وقلعة فردوس بقزوين، إلى أن يقول والفردسة: السعة، وصدر مفردس: واسع أو ومنه الفردوس، قال شارحه، قوله: أو ومنه الفردوس؛ أي: ومن اشتقاقه كما نقله ابن القطاع، وهذا يؤيد كونه عربياً، ويدل له أيضاً قول حسان رضي الله عنه:

وَإِنَّ ثَوَابَ ٱللَّهِ كُلَّ مُوَحِّدِ ... جِنَانٌ مِنَ ٱلْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ

قال أبو حيان[2]: قيل: ولم يسمع الفردوس في كلام العرب، إلا في هذا البيت، بيت حسان وهذا لا يصح، فقد قال أمية بن أبي الصلت:

كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً ... فِيهَا ٱلْفَرَادِيسُ ثُمَّ ٱلْفُومُ وَٱلْبَصَلُ

والفراديس: جمع فردوس والظاهر: أن معنى جنات الفردوس: بساتين

---

(١) القاموس.
(٢) البحر المحيط.

حول الفردوس، ولذلك أضاف الجنات إليه، ويقال: كرم مفردس؛ أي: معرش، وكذلك سميت الروضة التي دون اليمامة فردوساً، لاجتماع نخلها، وتعريشها على أرضها، وفي دمشق، باب الفراديس، يخرج منه إلى البساتين. انتهى.

﴿حِوَلًا﴾؛ أي: تحولاً إلى غيرها، فحول مصدر سماعي التحول. انتهى. شيخنا. وفي «السمين» «الحول» قيل: مصدر بمعنى التحول، يقال: حال عن مكانه ﴿حِوَلًا﴾ فهو مصدر كالعوج والصغر. انتهى.

قال الزمخشري: يقال: حال عن مكانه حولا كقوله عادني حبها عوداً، يعني لا مزيد عليها، حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم، وهذه غاية الوصف، لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان.. فهو طامح الطرف إلى أرفع منه، ويجوز أن يراد نفي التحول، وتأكيد الخلود. انتهى.

وقال ابن عطية: والحول بمعنى التحول، قال مجاهد: متحولاً وقال الشاعر:

لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَجَلُ ... ثُمَّ يُتَاحُ لَهَا حِوَلُ

﴿مِدَادًا﴾ والمداد: ما يمد به الشيء، واختص به تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السماد مداد الأرض ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾؛ أي: معلوماته غير المتناهية ﴿يَرْجُواْ﴾ والرجاء: طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾؛ أي: كانوا ينظرون فلا يعتبرون، وتعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاءٍ وحجاب، وإنما هو بطريق التمثيل، وكذا قوله: ﴿وَكَانُواْ لَا

﴿يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لأن هذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي يفيد التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

ومنها: جناس التصحيف في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ويسمى الجناس الناقص، وهو أن يكون النقط فيه فارقاً بين الكلمتين على حد قول البحتري:

وَلَمْ يَكُنِ ٱلْمُغْتَرُّ بِٱللَّهِ إِذْ سَرَىٰ   لِيُعْجِزَ وَٱلْمُعْتَزُّ بِٱللَّهِ طَالِبُهْ

والجناس ويقال له: التجنس والمجانسة والتجانس لغةً مشتق من الجنس واصطلاحاً تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى، وفائدته: أن يميل بالسامع إلى الإصغاء، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليها.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ والمغاير في قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

١ ـ وصف الكتاب الكريم بأنه قيم، لا عوج فيه، جاء للتبشير والإنذار.

٢ ـ جعل ما على ظهر الأرض زينة لها، وقد خلقه الله تعالى ابتلاءً للإنسان، ليرى كيف ينتفع به.

٣ ـ ما جاء من قصص أهل الكهف، ليس بالعظيم إذا قيس بما في ملكوت السموات والأرض.

٤ ـ وصف الكهف وأهله، ومدة لبثهم فيه، وبيان عدد أهله.

٥ ـ أمر النبي ﷺ بالجلوس مع الفقراء المؤمنين، وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابةً لدعوتهم.

٦ ـ ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة.

٧ ـ ضرب مثل، بين حال فقراء المؤمنين، وأغنياء المشركين.

٨ ـ ضرب المثل لحال الدنيا.

٩ ـ عرض كتاب المرء عليه في الآخرة وخوف المجرمين منه.

١٠ ـ عداوة إبليس لآدم وبنيه.

١١ ـ قصص موسى والخضر.

١٢ ـ وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة في الآخرة.

١٣ ـ قصص ذي القرنين وسدُّ يأجوج ومأجوج وكيف صنعه ذو القرنين.

١٤ ـ ما يلقاه المؤمنون من النعيم في الآخرة.

١٥ ـ علومُ الله تعالى لا نهاية لها[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم بعون الله تعالى وتوفيقه، تفسير سورة الكهف، في الساعة الخامسة، من ليلة الخميس، الثامن عشر من شهر صفر، من شهور سنة ألف وأربع مئة واثنتي عشرة سنة من التاريخ الهجري ١٨/ ٢/ ١٤١٢هـ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أعمالنا مقبولة، وسعينا مشكوراً، وذنبنا مغفوراً، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وصلى الله على سيدنا، وحبيبنا، خاتم النبيين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين آمين.

يَا مَنْ يُضِيْعُ عُمْرَهُ فِيْ اللَّهْوِ أَمْسِكْ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ ذَاهِبٌ كَذَهَابِ أَمْسِكْ

سورة مريم

سورة مريم مكيَّة كلها، أو إلا آيتين هما: (٥٨) و(٧١) فمدنيتان، وهي ثمان أو تسع وتسعون آية، وكلماتها تسع مئة واثنتان وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وثلاث مئةٍ وحرفان، وسميت سورة مريم، لذكر مريم فيها، ولم[١] تذكر امرأة باسمها صريحاً في القرآن إلا مريم، فقد ذكرت فيه في ثلاثين موضعاً.

ومن فضائلها: ما روي[٢] عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أُعطي عشر حسنات، بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيي ومريم وعيسى وسائر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ المذكورين فيها، وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع» ولكنه موضوع لا أصل له.

وروى محمد بن إسحاق في السيرة، من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل، عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي فبكى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وقد ذكر ابن إسحاق القصة بطولها.

ومناسبتها لسورة الكهف[٣]: اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص، كقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام.

وقال أبو حيان[٤]: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى ضمّن السورة قبلها قصصاً عجباً، كقصة أهل الكهف، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، وهذه

---

(١) الفتوحات.

(٢) البيضاوي.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

السورة تضمنت قصصاً عجباً، من ولادة يحيى بين شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ، وولادة عيسى من غير أب، فلما اجتمعا في هذا الشيء المستغرب. . ناسب ذكر هذه السورة بعد تلك.

الناسخ والمنسوخ من هذه السورة: قال أبو عبد الله محمد بن حزم الأندلسي: في سورة مريم خمس آيات من المنسوخ.

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ (٣٩) الآية. نسخ الإنذار هنا بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (٥٩) الآية. نسخت بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ (٦٠).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ (٧٥) الآية. نسخت بآية السيف.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية (٨٤). نسخ أولها بآية السيف.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية (٥٩). نسخت بالاستثناء، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ (٦٠). وفيها تقديم في النظم. انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا
(٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
(٤) وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا
(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ
ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ
وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن
سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا (١١) يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا (١٢) وَحَنَانٗا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا (١٣) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ
وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا (١٥) وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا
(١٦) فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧) قَالَتۡ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا
(١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ
هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا (٢١) ۞ فَحَمَلَتۡهُ
فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (٢٤)
وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (٢٥) فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ
مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا (٢٦)﴾.

المناسبة

قد سبق لك بيان مناسبة جملة هذه السورة للسورة السابقة آنفاً، وأما مناسبة

أول هذه السورة لآخر السابقة، فلأنه سبحانه ذكر في آخر السابقة الرحمة في ضمن قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: يرجو رحمة ربه وثوابه يوم لقائه وعرضه عليه للمجازاة، وبدأ هذه السورة بقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ﴾ فذكر الرحمة هنا صريحاً هذا ما ظهر لي بعد التأمل.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه - تعالى - لما ذكر قصة زكريا وطلبه الولد، وإجابة الله إياه، فوُلد له من شيخ فانٍ وعجوزٍ له عاقرٍ، وكان ذلك مما يتعجب منه.. أردفَه بما هو أعظم في الغرابة والعجب، وهو وجود ولد من غير ذكر، فدل ذلك على عظم قدرة الله تعالى وحكمته، ذكره في «البحر».

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾[1] قرأ ابن كثير ﴿كهيعص ذكر﴾ بفتح الهاء والياء، وتبيين الدال التي في هجاء ﴿صاد﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿كهيعَصَ﴾ بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الذال، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح، ولا يُدغم الدال التي في هجاء (صاد) في الذال من ﴿ذِكْرُ﴾، وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي: بكسر الهاء والياء، إلا أن الكسائي لا يبين الدال، وعاصم يبينها، وقرأ ابن عامر، وحمزة: بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان، وقرأ أبي بن كعب: ﴿كهَيعَصَ﴾ برفع الهاء وفتح الياء، وقد ذكرنا في أول البقرة ما يشتمل على بيان هذا الجنس ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ هذه الأحرف الخمسة يتعين في الكاف والصاد منها المد المطول المذكور باتفاق السبعة، وهو ثلاث ألفات، ويتعين في الهاء والياء المد الطبيعي باتفاقهم أيضاً، وهو قدر ألف، ويجوز في العين المد المطول المذكور وقصره بقدر ألفين، القراءتان سبعيتان، ويتعين في النون من عين إخفاؤها في الصاد وغنها، ويجوز في الدال من صاد إظهارها وإدغامها في ذال ذكر والقراءتان سبعيتان. انتهى. شيخنا. وقد خص المفسرون

---

(١) زاد المسير.

هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال:

أحدهما[1]: أنها حروف من أسماء الله تعالى، قاله الأكثرون، ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أيِّ اسم هو على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من اسم الله الكبير.

والثاني: من الكريم.

والثالث: من الكافي، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والرابع: أنه من الملك، قاله محمد بن كعب، فأما الهاء.. فكلهم قالوا: هي من اسمه الهادي، إلا القرظي فإنه قال: من اسمه الله.

وأما الياء: ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها من حكيم.

والثاني: من رحيم.

والثالث: من أمين، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس، فأما العين ففيها أربعة أقوال:

أحدها: أنها من عليم.

والثاني: من عالم.

والثالث: من عزيز رواها أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والرابع: أنها من عدل، قاله الضحاك.

---

(١) زاد المسير.

وأما الصاد ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها من صادق.

والثاني: من صدوق، رواهما سعيد بن جبير أيضاً عن ابن عباس.

والثالث: من الصمد، قاله محمد بن كعب.

والقول الثاني: إن ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وروي عن عليّ ـ عليه السلام ـ أنه قال: هو اسم من أسماء الله تعالى، وروي عنه أنه كان يقول: يا ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ اغفر لي، قال الزجاج: والقسم بهذا الدعاء به لا يدل على أنه اسم واحد، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها.. فكأنه قال: يا كافي، يا هادي، يا عالم، يا صادق، وإذا أقسم بها.. فكأنه قال: والكافي، الهادي، العالم، الصادق، وأسكنت هذه الأحرف لأنها حروف تهج، النية فيها الوقف.

والثالث: أنه اسم للسورة، قاله الحسن ومجاهد.

والرابع: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة، فإن[1] قيل لِمَ قالوا: هايا، ولم يقولوا في الكاف: كا، وفي العين: عا، وفي الصاد: صا، لتتفق المعاني كما اتفقت العلل.. فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ، واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم، فيغيِّرون بعض الكلم ليختلف الوزن وتتغير المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن، وأحلى في الأسماع، وعبارةُ «المراغي» هنا: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾. تقدم الكلام في المراد من أوائل السور، وأن المختار أن المقصود بها التنبيه، كحروف التنبيه التي تقع أول الكلام، نحو: ألا و يا، وغيرهما، وتقرأ بأسمائها فيقال: ﴿كاف ها يا عين صاد﴾. انتهت.

---

(١) زاد المسير.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج[1]: الذكر: مرفوع بالمضمر؛ والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك يا محمد، ذكر رحمة ربك عبده ﴿ذِكْرُ﴾ مضاف إلى مفعوله ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول ﴿رَحْمَتِ﴾، ﴿زَكَرِيَّآ﴾: بدل منه وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى هذا الذي نتلوه عليك ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة.

والحاصل: أن ﴿ذِكْرُ﴾[2]: مصدر مضاف إلى مفعوله، وفاعله: محذوف؛ أي: ذكر الله رحمة عبده زكريا، و﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾: مضاف لفاعله، و﴿عَبْدَهُۥ﴾: مفعوله، وهذه التاء لا تمنع من عمل المصدر، لأنه مبني عليها، أي: مقترن بها وضعاً، فليست للوحدة والمرة، والتاء التي تمنع من عمل المصدر هي التي يؤتىٰ بها للدلالة على المرة؛ والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك يا محمد في هذه السورة، ذكر إجابة ربك عبده زكريا دعاءه إياه، حين دعاه وسأله الولد نداءً خفياً ودعاءً سرّاً؛ ومعنى ذكر الرحمة: ذكر بلوغها وإصابتها له، وإجابته دعائه، و﴿زَكَرِيَّآ﴾ يمد ويقصر، ابن آزر، قال الإمام: زكريا من ولد هارون أخي موسى، وهما من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحاق ـ عليهم السلام ـ وقرأ الحسن[3]، وابن يعمر: ﴿ذكر﴾ فعلاً ماضياً ﴿رحمة﴾، أي: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك وذكر الداني عن ابن يعمر: ﴿ذكر﴾ فعل أمر من التذكير ﴿رحمة﴾ بالنصب، و﴿عَبْدَهُۥ﴾ نصب بالرحمة وذكر صاحب «اللوامح» أن: ﴿ذكر﴾ بالتشديد ماضياً، عن الحسن باختلاف وهو صحيح عن ابن يعمر، معناه: أنَّ المتلو أي القرآن ذكَّر برحمة ربك، فلما نزع الباء.. انتصب، ويجوز أن يكون معناه: أن القرآن ذكر الناس تذكيراً أن رحم الله عبده، فيكون المصدر عاملاً في عبده ﴿زَكَرِيَّآ﴾ لأنه ذكَّرهم بما نسوه من رحمة، فتجدد عليهم بالقرآن ونزوله على النبي ﷺ ويجوز أن يكون ذكر على المضي مسنداً إلى الله سبحانه، وقرأ الكلبي: ﴿ذكر﴾ على المضي خفيفاً من الذكر ﴿رحمة ربك﴾: بنصب التاء

---

(١) زاد المسير.
(٢) الفتوحات.
(٣) البحر المحيط.

﴿عبده﴾ بالرفع على إسناد الفعل إليه، وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾؛ أي: دعا: ظرف لرحمة ربك؛ أي: دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ في المحراب ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾؛ أي: دعاءً سراً من قومه في جوف الليل، ولقد[1] راعى ـ عليه السلام ـ في إخفاء دعائه، حسن الأدب، لأن الجهر والإسرار عند الله تعالى سيَّان، لكنِ الإخفاء أولى، لأنه أبعد عن الرياء، وأدخل في الإخلاص، وقيل: أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في غير وقته، وكان سنه وقتئذٍ تسعاً وتسعين على ما اختاره الكاشفيّ، ولكونه من أمور الدنيا، وقيل أخفاه مخافةً من قومه الذين خافهم أن يطلعوا عليه، وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه لكونه قد صار ضعيفاً هرماً لا يقدر على الجهر، كما يدل عليه قوله الآتي ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، وقيل لأن الإخفاء سنة الأنبياء، والجهر به يعدّ من الإعتداء، فإن قلت[2]: شرط النداء الجهر، فكيف يكون خفياً؟

قلت: دعا في الصلاة فأخفاه، قال بعضهم: النداء وإن كان بمعنى الصوت، لكن الصوت قد يتصف بالضعف، ويقال: صوت خفيٌّ وهو الهمس، فكذا النداء، والوجه في عبارة النداء الإشارة إلى شدة الإقبال والتوجه في الأمر المتوجه إليه، كما هو شأن الأنبياء ومن له بهم أسوة من كُمَّلِ الأولياء؛ والمعنى: أي: مما نقص عليك يا محمد، ذكر رحمة ربك عبده زكريا، حين دعا ربه دعاءً خفياً مستوراً عن أعين الناس، وإنما أخفىٰ دعاءه، لأنه أدل على الإخلاص، وأبعد من الرياء، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس، على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة، وقصارى ذلك: أن في هذه السورة ذكر الرحمة التي رحم الله بها عبده زكريا، حين أسرَّ بدعائه إليه، ثم فصل كيفية دعائه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ استئناف وقع بياناً للنداء؛ أي: قال زكريا: يا رب ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ وضعف ﴿ٱلْعَظْمُ﴾ حالة كونه كائناً ﴿مِنِّي﴾ فالجملة[3] مفسرة لقوله: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ يقال: وهن يهن وهناً، إذا ضعف فهو واهن، وقرىء: بالحركات الثلاث، كما سيأتي، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وإنما أسند الوهن إلى العظم، لأنه عمود

---

(١) روح البيان والخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

بيت البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا أصابه الضعف مع صلابته وقلة تأثره بالعلل.. أصاب سائر الأجزاء، وتساقطت قوته، ولأن أشد ما في الإنسان صلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، وأفرد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام، وقال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس كما في «البغوي».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَهَنَ﴾ بفتح الهاء وقرأ الأعمش: بكسرها، وقرىء: بضمها لغاتٌ ثلاثٌ ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ﴾ منّي: حذف اكتفاءً بما سبق؛ أي: وابيضَّ الشعر مني. ﴿شَيۡبٗا﴾؛ أي: أخذ رأسي شمطاً، وقد صار مثل شواظ النار، شبّه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار، وانتشاره وفشوّه في الشعر باشتعالها مبالغةً[2]، وإشعاراً لشمول الشيب جميع الرأس، حتى لم يبق من السواد شيء، وجعل الشيب تمييزاً إيضاحاً، للمقصود، والأصل اشتعل شيب رأسي، فوزانه بالنسبة إلى الأصل وزان اشتعل بيته ناراً، بالنسبة إلى اشتعل النار في بيته.

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾؛ أي: ولم أكن بدعائي إياك يا ربي خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كلما دعوتك استجبت لي، وهذا توسّلٌ منه بما سلف من الاستجابة عند كل دعوة، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة، من كبر السن، وضعف الحال، فإنه تعالى بعدما عوّد عبده بالإجابة دهراً طويلاً، لا يخيبه أبداً لا سيما عند اضطرارٍ وشدة افتقارٍ؛ والمعنى: أي: قد أحسنت إليّ فيما سلف، وسعدت بدعائي إياك، فالإنعام يقتضي أن تجيبني آخراً كما أجبتني أولاً، ذكره في «البحر».

قال العلماء[3]: يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع وذكر نعم الله عليه، كما فعل زكريا هاهنا، فإن في قوله: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه وبلوغ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

مآربه وفي قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ذكر ما عوده الله من الإنعام عليه، بإجابة أدعيته، يقال: شقي بكذا؛ أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه، ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾؛ أي: خفت جور مواليّ وورثتي وبني عمّي الذين يخلفونني في السياسة وفي القيامة بأمر الدين ﴿مِن وَرَآءِى﴾؛ أي: بعد موتي، فلا بدّ لي من الخلف، وهم بنو عمّه، وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف ـ عليه السلام ـ أن لا يُحسنوا خلافته في أمته، ويبدّلوا عليهم دينهم، وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: فعل الموالي، أو جور الموالي، كما قدرنا آنفاً لا بـ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى، والجملة[1]: معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ مترتب مضمونها على مضمونها، فإن ضعف القوى وكبر السن من مبادي خوفه ممن يلي أمره بعد موته.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء، على أن فاعله ضمير يعود إلى ﴿زَكَرِيَّآ﴾ ومفعوله ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾، وأسكن الزهري ياء ﴿الموالي﴾ وقرأ عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يعمر، وابن جبير، وعلي بن الحسين، وولده محمد، وزيد، وشبيل بن عزرة، والوليد بن مسلم ﴿خفت الموالي﴾ بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر تاء التأنيث وسكون ياء ﴿الموالي﴾ على أنه فاعل ﴿خفت﴾؛ أي: قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي، أو انقطعوا بالموت مأخوذاً، من خفت القوم إذا ارتحلوا، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب، وقرأ الجمهور: ﴿وَرَآءِى﴾ بالهمز والمد وسكون الياء، وقرأ ابن كثير: بالهمز والمد وفتح الياء، وروي عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء، مثل عصاي، واختلفوا في وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، وأراد أن يرثه ولده، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً، وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب ولياً يقوم به بعد موته، وهذا القول أرجح من الأول، لأن الأنبياء لا يورثون، وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.

فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين، وقد ثبت عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورث، ما تركناه صدقة».

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾؛ أي: لا تلد من حين شبابها، اسمها إيشاع بنت فاقوذ بن فيل، وهي أخت حنّة بنت فاقوذ أم مريم، والعاقر من الرجال والنساء: من لا يولد له ولد، وكان سنّها حينئذٍ ثمان وتسعين على ما اختاره الكاشفي، ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، ﴿وَلِيًّا﴾؛ أي: ولداً من صلبي ﴿يَرِثُنِى﴾ من حيث العلم والدين والنبوة، فإن الأنبياء لا يورّثون المال كما مر آنفاً، ولم يصرّح بطلب الولد، لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما.

فإن قلت[1]: وقد وصف الوليَّ بالوراثة ولم يستجب له في ذلك، فإنَّ يحيى خرج من الدنيا قبل زكريا على ما هو المشهور.

قلتُ: الأنبياء وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات، حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية المبنية على الحكم البالغة، ألا ترى إلى دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في حق أبيه وإلى دعوة النبي ﷺ حيث قال: «وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها». وقد كان من قضائه تعالى: أن يهبه يحيى نبياً مرضياً ولا يرثه، فاستُجيب دعاؤه في الأول دون الثاني ﴿وَيَرِثُ﴾ الملك ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة والصحبة، أو الموافقة في الدين، وقال[2] الكلبي ومقاتل: هو يعقوب بن ماثان، أخو عمران بن ماثان، من نسل سليمان بن أبو مريم عليه السلام، وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا، قال الكلبي: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذٍ، فأراد

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

أن يرث ولده حبورته ـ وكان حبرا ـ ويرث من بني ماثان ملكهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة[1]: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفع الفعلين صفةً للولي، فالمعنى عليه: هب لي ولياً وارثاً، وقرأ النحويان أبو عمرو، والكسائي، والزهري، والأعمش، وطلحة، واليزيدي، وابن عيسى الأصبهاني، وابن محيصن، وقتادة: بجزمهما على جواب الأمر، كقولك إن وهبته لي ورثني، ورجح أبو عبيد القراءة الأولى، وقرأ عليّ، وابن عباس، والحسن، وابن يعمر، والجحدري، وقتادة، وأبو حرب بن أبي الأسود، وجعفر بن محمد، وأبو نهيك: ﴿يَرِثُنِي﴾ بالرفع والياء ﴿وارث﴾ جعلوه فعلاً مضارعاً من ورث، قال صاحب «اللوامح»: وفيه تقديم؛ فمعناه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ من آل يعقوب ﴿يرثني﴾ إن متّ قبله؛ أي: نبوتي، وأرثه إن مات قبلي؛ أي: ماله، وهذا معنى قول الحسن وقرأ علي، وابن عباس، والجحدري ﴿يرثني وأرث من آل يعقوب﴾ قال أبو الفتح: هذا هو التجريد. التقدير: يرثني منه وأرث، وقال الزمخشري: وأرث؛ أي: يرثني به وارث، ويسمى التجريد في علم البيان، لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد.

وقرأ مجاهد: ﴿أو يرث من آل يعقوب﴾ على التصغير، وأصله وُوَيْرِث، فأبدلت الواو همزة على اللزوم، لاجتماع الواوين، وهو وارث؛ أي: غُلَيْم صغير، وعن الجحدري: ﴿وارث﴾ بكسر الواو؛ يعني به: الإمالة المحضة لا الكسر الخالص، وهذه القراءات في غاية الشذوذ لفظاً ومعنًى، ﴿وَٱجْعَلْهُ﴾؛ أي: الولد الموهوب لي يا ﴿رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: مرضياً عندك قولاً وفعلاً، وتوسيط[2] ﴿رب﴾ بين مفعولي الجعل، كتوسيطه بين كان وخبرها فيما سبق لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع، ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه.. فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

واعلم: أن الله تعالى لا يمكن العبد من الدعاء إلا لإجابته كلاً أو بعضاً،

(١) البحر المحيط وزاد المسير. (٢) روح البيان.

كما وقع لزكريا ـ عليه السلام ـ وفي الحديث: «من فتح له باب الدعاء.. فتحت له أبواب الرحمة» ومعنى الآية؛ أي: أعطني من واسع فضلك، وعظيم جودك وعطائك، لا بطريق الأسباب العادية ولداً من صلبي، يرث الحبورة مني ويرث من آل يعقوب ملكهم وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذٍ ويكون براً تقياً مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه ويحبونه لدينه وخلقه ومحاسن شيمته.

ونحو الآية قوله تعالى في سورة آل عمران حكايةً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقوله في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

والحاصل: أن زكريا ـ عليه السلام ـ قد عرف ببعض الأمارات، أن عصبته وهم إخوته وبنو عمه ربما استمروا على عادتهم في الشر والفساد، فخافهم أن يغيروه، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه يقتدى به في إحيائه، وينهج نهجه فيه، فدعا بهذا الدعاء، ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه، وتولى تسمية الولد بنفسه، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ وفي الكلام حذف تقديره؛ أي: فاستجاب له دعاءه، فقال بوساطة الملك، يا زكريا، كما قال في سورة آل عمران، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾؛ أي: بولد ذكر يرث العلم والنبوة في حياتك، فإنه قتل قبل موت أبيه، وبين هذه البشارة ووجود الغلام في الخارج بالفعل، ثلاث عشرة سنة كما تقدم في سورة آل عمران، وإن طلب زكريا للولد والبشارة به كان في صغر مريم وهي في كفالته، وإن الحمل بيحيى كان مقارناً للحمل بعيسى، وكانت مريم إذ ذاك بنت ثلاث عشرة سنة، وتقدم أن أشاع حملت بيحيى قبل حمل مريم بعيسى بستة أشهر .اهـ. شيخنا.

والبشارة بكسر الباء: الإخبار بما يظهر سروراً في المخبر ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ سمي به لإحيائه رحم أمه بعد موته بالعقم، أو لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها، وتولّى الله تسميته بنفسه تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ﴾؛ أي: ليحيى ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل ولادته ﴿سَمِيًّا﴾؛ أي: شريكاً له في هذا الاسم، حيث لم

يكن قبل يحيى أحد يسمى بيحيى، وقيل؛ أي: شبيهاً في الفضل والكمال، فإنه لم يعص، ولم يهم بمعصية من حال الصغر، وأنه صار سيدَ الشهداء على الإطلاق، والأظهر[1]: أن يحيى أعجمي، وإن كان عربياً فهو منقول عن الفعل، كيعمر ويعيش، وهذا شاهد بأن التسمية بالأسامي الغريبة تنويه للمسمّىٰ وإياها كانت العرب تعني لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النير.

وفي إخباره سبحانه بأنه لم يسمَّ بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين[2]:

الأولى: أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به، ولم يكلها إلى الأبوين.

والجهة الثانية: أن تسميته باسم لم يوضع لغيره، يفيد تشريفه وتعظيمه ﴿قَالَ﴾ زكريا، استئناف بياني على سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال زكريا حينئذ، فقيل: قال: ﴿رَبِّ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه، بتوسط الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة، والجد في التبتل إليه تعالى، والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه بما صدر منه متوقف على توسطه، كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه، متوقف على ذلك في عامة الأوقات ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ أي: كيف يكون لي غلام!؟ أو من أين يحدث لي غلام!؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة الله تعالى، وبديع صنعه، حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر، وشيخ كبير، ﴿و﴾ الحال أنه قد ﴿كانت امرأتي عاقراً﴾؛ أي: لم تلد في شبابها وشبابي، فكيف وهي عجوز الآن ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ﴾ أنا ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾؛ أي: من أجل كبر السن ﴿عِتِيًّا﴾؛ أي[3]: يبوسةً وجفافاً، كالعود اليابس، من قولهم عتاالعود إذا يبس، وعتا الشيخ إذا كبر وهرم وولى، ويقال لكل شيء انتهى قد عتا، وإنما استعجب الولد من شيخ فان وعجوز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته، وأن الوسائط عند التحقيق

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

ملغاة، فـ﴿أنَّى﴾ استعجاب واستبعاد من حيث العادة لا من حيث القدرة.

وقرأ أبو بحرية، وابن أبي ليلى، والأعمش، وحمزة، والكسائي: ﴿عِتِيًّا﴾ و﴿بكياً﴾ و﴿صِلِيًّا﴾ بكسر أوائلها، ووافقهم حفص عن عاصم، إلا في قوله: ﴿بكيا﴾ فإنه ضم أوله، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بضم أوائلها، وقرأ عبد الله: ﴿عتياً﴾ و﴿صلياً﴾ بفتح العين والصاد، وعن عبد الله ومجاهد ﴿عسيا﴾ بضم العين والسين.

قال الإمام[1]: فإن قيل: لم تعجَّب زكريا بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ﴾ مع أنه طلبه؟

قلنا: تعجب من أن يجعلهما شابين، ثم يرزقهما الولد، أو يتركهما شيخين، ويلدان مع الشيخوخة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ أي: أعدنا له قوة الولادة. انتهى.

وفي «الأسئلة المقحمة»: أراد من التي يكون منه هذا الولد، أمن هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها، أو مملوكة؛ أي: ومن أي وجه يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعفت من الكبر عن مباضعة النساء، أبأن تقويني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجي ولوداً، وأنت القادر على ما تشاء، أم بأن أتزوج زوجاً غير تلك العاقر؟.

وخلاصة ذلك: أنه يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون من قبلها الولد الذي بشره به، لا إنكار منه لذلك، وكيف يكون منه الإنكار لذلك، وهو المبتدىء مسألة ربه بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؟.

وإجمال المعنى: أنه تعجب حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن الوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته عاقر لم تلد

---

(١) روح البيان.

من أول عمرها، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا؛ أي: يبس عظمه ونحل، ولم يبق له قدرة على قربان النساء، وكأنه يقول: إني حين كنت شاباً وكهلاً لم أرزق الولد، لاختلال أحد السببين، وهو: عقم المرأة، أفحين اختل السببان أرزقه؟

ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى الأمر: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما قلنا لك من خلق ولد من بينكما، فسنهب لك الولد مع ما أنتما عليه من العقم والشيخوخة؛ أي: أمرنا وشأننا ذلك الذي قلنا لك وهذا تصديق له.

ثم علل هذا بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾؛ أي: قال ربك الذي عودك الإحسان ﴿هُوَ﴾؛ أي: خلق ولد منكما على هذه الحال ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: سهل علي خاصةً، وإن كان في العادة مستحيلاً، فإني إذا أردت شيئاً كان دون توقف على الأسباب العادية التي رسمتها للحمل والولادة، وهذه الجملة مقررة للوعد المذكور بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾دالة على إنجازه، وقرأ[1] معاذ القاريّ، وعاصم الجحدري. ﴿هين﴾ بإسكان الياء، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ يا زكريا ﴿مِن قَبْلُ﴾ يحيى في تضاعيف خلق آدم. ﴿وَلَمْ تَكُ﴾ يا زكريا إذ ذاك ﴿شَيْئًا﴾ موجوداً أصلاً بل عدماً صرفاً، فخلق يحيى من البشرين، أهون من خلقك مفرداً والمراد خلق آدم، لأنه أنموذج مشتمل على جميع الذرية، قال الإمام: وجه الاستدلال بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ الخ. أن خلقه من العدم الصرف، خلق للذات والصفات، وخلق الولد من شيخين لا يحتاج إلا إلى تبديل الصفات، والقادر على خلق الذات والصفات، أولى أن يقدر على تبديل الصفات. انتهى.

وخلاصة ذلك: أن من قدر على خلق الذوات والصفات والآثار من العدم، أجدر بأن يكون قادراً على تبديل الصفات، فيعيد إليه وإلى زوجه القوة وسائر الوسائل التي بها يمكن أن ينشأ منهما الولد، كما قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير.

يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ بتاء المتكلم وقرأ الأعمش، وطلحة، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي: ﴿خلقناك﴾ بنون العظمة، وقال الزمخشري: وإنما قال: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ لأن المعدوم ليس بشيء أو شيئاً يعتد به.

ثم أخبر سبحانه: أن زكريا تاقت نفسه إلى سرعة وجود المبشر به، ليطمئن قلبه بما وعد به، لا لتوقف عن صدق ما وعد به، ولا لتوهم أن ذلك من عند غير الله، لعصمة الأنبياء عن مثل ذلك ﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾؛ أي: علامةً على تحقق المسؤول في زمن معين، إذ كانت البشارة غير مقيدة بوقت، والحمل خفي في مبدئه، ولا سيما ممن انقطع حيضها لكبرها، إلا أنه أراد أن يطلعه على ذلك ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر حين حدوثها، ثم بين أنه أجابه إلى ما طلب فقال: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿ءَايَتُكَ﴾؛ أي: علامتك على وجود المبشر به، وحصول الحمل: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أن لا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المعروف في محاوراتهم ومخاطباتهم، مع القدرة على التسبيح والذكر، كما هو المفهوم من تخصيص الناس ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيامها وإنما قيدنا بالأيام، لأن الليالي الثلاث قد تكون من يومين، لأن الليل سابق على النهار، فحينئذٍ يحصل التعارض بين ما هنا وبين الآية الأخرى، وإنما عبر هنا بالليالي وهناك بالأيام، لأن هذه السورة مكيّة، والمكي سابق على المدني والليل سابق على النهار، فأُعطي السابق للسابق، وسورة آل عمران مدنية، والمدني متأخر عن المكي، والنهار متأخر عن الليل، فأعطى المتأخر للمتأخر سلوكاً مسلك التناسب، ذكره في «الفتوحات». حالة كونك ﴿سَوِيًّا﴾؛ أي: سوي الخلق تامه، سليم الجوارح صحيحها، ليس بك علة ولا مرض ولا شائبة بكم ولا خرس؛ أي: علامتك امتناعك من كلامهم حالة كونك صحيحاً سليماً، قالوا: رجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها، ووقع الولد في رحمها فلما أصبح امتنع عليه الكلام مع الناس ﴿فَخَرَجَ﴾ زكريا صبيحة حمل امرأته ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾؛ أي: من

---

(١) البحر المحيط.

المصلى، أو من الغرفة، والمحراب هنا: هو المسمى[1] عند أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدم المعبد، لها باب يصعد إليه بسلم ذي درج قليلة، يكون من فيه محجوباً عمن في المعبد؛ أي: خرج عليهم من المحراب متغير اللون، منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس، وقد كانوا ينتظرون أن يفتح لهم الباب إذ كانَ من عادتهم أن يصلوا معه صلاتي الغداة والعشي في محرابه، فأنكروه صامتاً، وقالوا: مالك يا زكريا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: أشار إليهم لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾؛ أي: أومأ زكريا إلى قومه برأسه ويده ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أن إما مصدرية أو مفسرة، لأوحى، والمعنى؛ أي: صلوا أو بأن صلوا ﴿بُكْرَةً﴾؛ أي: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، ﴿وَعَشِيًّا﴾: هو من وقت زوال الشمس إلى أن تغرب وهما ظرفا زمان التسبيح، وعن أبي العالية: أن المراد بها صلاة الفجر، وصلاة العصر، أو سبحوا ربكم ونزهوه عن الشريك والولد، وعن كل نقص، طرفي النهار، وقولوا: سبحان الله، ولعله[2] كان مأموراً بأن يسبح شكراً، ويأمر قومه بذلك، كما في «الإرشاد».

يقول الفقير: هو الظاهر لأن معنى التسبيح في هذا الموضع تنزيه الله تعالى عن العجز عن خلق ولد يُستبعد وقوعه من الشيخين، لأن الله تعالى على كل شيء قدير، وقد ورد في «الأذكار»: «لكل أُعجوبة سبحان الله» وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية، فلما تعذر عليه الكلام. . أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب في مجرى العادة فسروا به.

وقرأ طلحة[3]: ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ بهاء الضمير عائدة على الله تعالى، وروى ابن غزوان عن طلحة: ﴿أن سبحن﴾ بنون مشددة من غير واو، ألحق فعل الأمر نون التوكيد الثقيلة، وقوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على إرادة القول؛ أي: ووهبنا له يحيى، وقلنا له بعدما بلغ سناً يؤمر فيه مثله يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: خذ التوراة التي هي نعمة الله على بني إسرائيل ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد واجتهاد وحرص على العمل

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

بها، ثم وصفه الله تعالى بصفاتٍ كلها مناهج للخير، ووسائل للطاعة:

١ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وأعطينا يحيى ﴿ٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الفهم في التوراة، والفقه في الدين، والإقبال على الخير حالة كونه ﴿صَبِيًّا﴾؛ أي: صغيراً لم يتم سبع سنين، وروي: أنه ـ عليه السلام ـ دعاه الصبيان إلى اللعب فقال: ما للّعبِ خُلقنا، اذهبوا بنا نصلي، وعن بعض السلفِ: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ، فهو ممن أوتي الحكم صبياً، وقال ابن عباس: الحكم: النبوة، استنبأه الله تعالى وهو ابن ثلاث سنين أو سبع، وإنما سمِّيت النبوة حكماً لأن الله تعالى أحكم عقله في صباه، وأوحي إليه.

٢ ـ **وقوله:** ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ معطوف على الحكم وتنوينه للتفخيم، وهو في الأصل التحنن والاشتياق، يقال: حن؛ أي: ارتاح واشتاق، ثم استعمل في العطف والرأفة؛ أي: وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه، كائنة من جنابنا، أو رحمة في قلبه، وشفقةً على أبويه وغيرهما. أو المعنى[1]: أي وجعلناه ذا حنانٍ وشفقة على الناس، وحسن نظر فيما وليه من الحكم فيهم، وقد وصف الله سبحانه نبيه ﷺ بمثل هذا في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣ ـ ﴿وَزَكَوٰةً﴾؛ أي: وآتيناه طهارةً من الدنس، وبعداً من اجتراح الذنوب والآثام، قال الإمام: لم تدعه شفقته إلى الإخلال بواجب، لأن الرأفة ربما أورثت ترك الواجب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فالمعنى: جمعنا له التعطف عليهم مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات انتهى. أو جعلناه صدقةً؛ أي: تصدق الله به على أبويه، أو وفقناه للتصدق على الناس.

٤ ـ ﴿وَكَانَ﴾ يحيى ﴿تَقِيًّا﴾؛ أي: مطيعاً لما أمر به، ومتجنباً عن المعاصي لم يعمل خطيئةً قط، ولم يهم بها، ومن جملة تقواه: أنه كان يتقوت بالعشب، وكان كثير البكاء، فكان لدمعه مجار على خده .اهـ شيخنا.

---

(١) المراغي.

٥ ـ ﴿و﴾ كان ﴿براً بوالديه﴾ عطف على تقياً؛ أي: براً بهما، لطيفاً بهما، محسناً إليهما، والمعنى؛ أي: كان كثير البر بهما، والإحسان إليهما، والحدب عليهما، بعيداً عن عقوقهما قولاً وفعلاً، وقد جعل الله طاعة الوالدين في المرتبة التي تلي مرتبة طاعته فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وقرأ[1] الحسن، وأبو جعفر في رواية، وأبو نهيك، وأبو مجلز: ﴿وبراً﴾ في الموضعين بكسر الباء؛ أي: وذا برّ.

٦ ـ ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾؛ أي: ولم يكن يحيى متكبراً على الناس، بل كان لين الجانب، متواضعاً لهم، وقد أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بمثل هذا في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ ووصفه بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ومن ثم لما تجبر إبليس وتمرد.. صار مبعداً من رحمة ربه، وقال في «بحر العلوم[2]»: الجبار المتكبر، وقيل: هو الذي يضرب ويقتل على الغضب، لا ينظر في العواقب وقيل: هو المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله .اهـ.

٧ ـ ولم يكن: ﴿عَصِيًّا﴾؛ أي: عاصياً لربه، مخالفاً له فيما أمر به ونهى عنه، عاقاً بوالديه ثم ذكر سبحانه جزاءه على ما قدم من عمل صالح، وأسلف من طاعة ربه، فقال: ﴿سَلَـٰمٌ﴾؛ أي: سلامة من الله تعالى وأمان ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على يحيى، أصله[3]: وسلمنا عليه في هذه الأحوال الثلاثة، وهي أوحش المواطن، لكن نقل إلى الجملة الاسمية، للدلالة على ثبات السلام واستقراره، فإن وحشتها لا تكاد تزول إلا بثبات السلام فيها ودوامه ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ وخرج من رحم أمه، من طعن الشيطان كما يطعن سائر بني آدم ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ بموت الطبيعي، من هول الموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ من القبر حال كونه ﴿حَيًّا﴾ من هول القيامة وعذاب النار، والمعنى[4]: وتحية من الله عليه أول ما يرى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) السمرقندي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

الدنيا، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار، وإنما خص هذه المواضع الثلاثة لأن العبد أحوج ما يكون إلى رضا ربه فيها، لضعفه، وحاجته، وقلة حيلته، وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به.

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد للناس ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن وفي هذه السورة الكريمة، فإنها بعض من الكتاب، فصح إطلاقه عليها ﴿مَرۡيَمَ﴾؛ أي: خبر مريم بنت عمران وقصتها، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان، ومريم بمعنى العابدة.

فائدة: قال بعض العلماء[1] في حكمة ذكر مريم في القرآن باسمها دون غيرها من النساء: إن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ، ولا يبتذلون أسماءهن، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والعيال والأهل ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن، ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها، فلما قالت النصارى في حق مريم ما قالت وفي ابنها.. صرح الله تعالى باسمها ولم يكنّ عنها تأكيداً للأمة والعبودية التي هي صفة لها، وإجراءً للكلام على عادة العرب في ذكر إمائها، ومع هذا فإن عيسى ـ عليه السلام ـ لا أب له، واعتقاد هذا واجب، فإذا تكرّر ذكرهُ منسوباً إلى الأم.. استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود ـ لعنهم الله تعالى ـ كذا في «التعريف والإعلام» للإمام السهيلي.

وقال في «أسئلة الحكم»: سميت مريم[2] في القرآن باسمها لأنها أقامت نفسها في الطاعة كالرجل الكامل، فذكرت باسمها كما يذكر الرجال، من موسى وعيسى ونحوهما ـ عليهم السلام ـ وخوطبت كما خوطب الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولذا قيل بنبوتها، وقوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ وابتعدت، ظرف لذلك المضاف المقدر، من النبذ وهو الطرح، والانتباذ انفعال منه ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾؛ أي: من قومها متعلق بانتبذت ﴿مَكَانٗا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿شَرْقِيًّا﴾ مفعول به لانتبذت، باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان؛ أي: مكاناً في الدار، مما يلي الشرق، والشرق: بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس عند الطلوع، وإنما[1] خص المكان بالشرق، لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق، لأنها مطلع الأنوار. حكى معناه ابن جرير.

ومن ثمة اتخذ النصارى المشرق قبلةً، كما اتخذ اليهود المغرب قبلةً، لأن الميقات وإيتاء التوراة واقعان في جانب الجبل الغربي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

والمعنى: أي[2] واذكر يا محمد لقومك قصة مريم بنت عمران، حين اعتزلت وانفردت وتباعدت من قومها، فأتت مكاناً شرقياً من دار خالتها إيشاع، زوجة زكريا فإن موضعها كان المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فاحتاجت يوماً إلى الاغتسال، وكان الوقت وقت الشتاء، فجاءت إلى ناحيةٍ شرقيةٍ من الدار، وموضع مقابل للشمس، لأن ذلك اليوم كان شاتياً، شديدَ البرد.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾؛ أي: فأرخت من أدنى مكان أهلها ﴿حِجَابًا﴾؛ أي: ستراً تتستّر به حال التطهر من الحيض؛ أي: أرخت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها عنهم، لئلا يروها حال التطهر من الحيض، فبينما هي في مغتسلها وقد تطهرت ولبست ثوبها.. أتاها الملك في صورة آدميٍّ شابٍّ أمرد، وضيىء الوجه، جعد الشعر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا﴾؛ أي: إلى مريم في مغتسلها ذلك ﴿رُوحَنَا﴾؛ أي: رسولنا جبريل ـ عليه السلام ـ فإنه كان روحانياً، فأطلق عليه الروح للطافته مثله، ولأن الدين يحيى به ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾؛ أي: فتصور وتشبه لأجلها وانتصاب قوله: ﴿بَشَرًا﴾ على أنه مفعول به؛ أي: تشبه لأجلها آدمياً ﴿سَوِيًّا﴾؛ أي: تام الخلق، كامل البنية، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

وقيل: تمثل لها في صورة تِرْبٍ لها اسمه يوسف، من خدم بيت المقدس، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه، ولم تستطع استماع كلامه، ولأنه جاء للنفخ المنتج للبشر فتمثّل بشراً، ولو جاء على صورة الملك لجاء عيسى على صورة الروحانيين كما لا يخفى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القربان بعد الطهر التام أطهر والولد إذن أنجب، فافهم.

وقرأ أبو حيوة وسهل[1]: ﴿روحنا﴾ بفتح الراء، لأنه سبب لما فيه روح العباد، وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾؛ أي: مقربنا وذا روحنا، وذكر النقاش: أنه قرىء: ﴿روحنا﴾ بتشديد النون: اسم ملك من الملائكة، فلما رأته في صورة إنسان حسن كامل الخلق، قد خرق عليها الحجاب.. ظنت أنه يريدها بسوءٍ فاستعاذت بالله منه و﴿قَالَتْ﴾؛ أي: مريم ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾ وأتحصن وامتنع ﴿بـ﴾ عصمة ﴿الرحمٰن من﴾ شر﴿ك﴾ يا شاب، ذكره[2] تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها، قال في «الكشاف»: دل على عفافها وورعها، أنها تعوذت الله من تلك الصورة الجميلة ﴿إِن كُنتَ﴾ أيها الشاب ﴿تَقِيًّا﴾ تتقي الله وتبالي الاستعاذة به، وقيل[3]: إن ﴿تَقِيًّا﴾: اسم رجل صالح، فتعوذت منه تعجباً، وقيل: إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت، يتبع النساء، فظنت مريم أنَّ ذلك المشاهد هو ذلك التقي، فمن ذلك تعوذت منه، وخصت الرحمٰن بالذكر ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه، والأول أولى، وجواب الشرط: محذوف ثقةً بدلالة السياق عليه؛ أي: فإني عائذة به أو فلا تتعرض.

والمعنى: أي فلما رأته فزعت منه وقالت: إني أستجير بالرحمٰن منك أن تنال مني ما حرم الله عليك، إن كنت ذا تقوى له، تتقي محارمه، وتجتنب معاصيه، فمن يتق الله.. يجتنب ذلك.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وإجمال المعنى: أنه لما تبدى لها في صورة البشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب.. خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: إني أعوذ بالله منك، إن كنت تخافه، وقد فعلت المشروع في الدفع، وهو أن يكون بالهوينى، والأسهل فالأسهل.

وخلاصة ذلك: أن الاستعاذة لا تؤثر إلا في التقي، لأن الله تعالى يخشى في حال دون حال، فهو كقوله تعالى ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن الإيمان يوجب ذلك، فلما علم جبريل خوفها.. ﴿قَالَ﴾ مجيباً لها، ومزيلاً لما حصل لها من الخوف على نفسها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الناظر في مصلحتك، والمالك لأمرك، ولست ممن تظنّين، ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر، ولكن رسول ربك، بعثني إليك.

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾؛ أي: ولداً طاهراً مبرأً من العيوب، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده، بأن نفخ في جيبها بأمر الله تعالى، أو لكونه سبباً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، والزكي: الطاهر من الذنوب، الذي ينمو على النزاهة والعفة، وقيل: المراد بالزكيّ: النبي.

وقرأ شيبة[1]، وأبو الحسن، وأبو بحرية، والزهري، وابن مناذر، ويعقوب، واليزيديّ، ومن السبعة نافع، وأبو عمرو: ﴿ليهب﴾؛ أي: ليهب ربك وقرأ الجمهور، وباقي السبعة، ﴿لِأَهَبَ﴾ بهمزة المتكلم فلما عجبت مريم مما سمعت.. ﴿قَالَتْ﴾ مستبعدةً متعجبةً من حيث العادة، لا مستبعدةً من حيث القدرة؛ أي: قالت لجبريل: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾؛ أي: من أي وجه يكون لي ولد كما وصفت ﴿و﴾ الحال أني ﴿لم يمسسني بشر﴾؛ أي: لم يباشرني، ولم يقربني رجل بنكاح، ولست بذات زوج ﴿و﴾ الحال أني أيضاً ﴿لم أك بغياً﴾؛ أي: فاجرةً تبغي الرجال، ولا يتصور منّي الفجور، تريد أنَّ الولد إما أن يكون من نكاح، أو سفاح ولم يكن هٰهنا واحد منهما، ولم يقل[2] بغية، لأنه وصف

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

غالب على المؤنث، كحائض؛ أي: فاجرة تبغي الرجال، يريد نفي الوطأ مطلقاً وأن الولد إما من النكاح الحلال أو الحرام، أما الحلال فلأنها لم يمسها بشر، وأما الحرام فلأنها لم تك بغياً، فإذا انتفى السببان جميعاً.. انتفى الولد.

﴿قَالَ﴾ جبريل مجيباً لها عما سألت ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ أي: الأمر كما قلت لك من هبة الولد لك، أو الأمر كما قلت[1] لي من أنه لم يمسسك رجل نكاحاً أو سفاحاً ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ ومالك أمرك الذي أرسلني إليك ﴿هُوَ﴾؛ أي: هبة الولد لك، وخلقه منك من غير أن يمسك بشر أصلاً ﴿عَلَيَّ﴾ خاصةً ﴿هَيِّنٌ﴾؛ أي: سهل وإن كان مستحيلاً عادةً، لأني لا أحتاج إلى الوسائط.

والمعنى[2]: أي قال الملك مجيباً لها عما سألت إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلام، ولم تكوني ذات بعلٍ ولا تقترفين فاحشةً، فإنه تعالى على ما يشاء قدير، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده، ولا يحتاج في إنشائه إلى المواد والآلات، ونحو الآية قوله في سورة آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ﴾ معطوف على علةٍ محذوفة لمعلول محذوف، تقديره: فعلنا ذلك لنبين به قدرتنا، ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب ﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: برهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا، وباهر حكمتنا، أو علة لمعلول محذوف متأخر، تقديره؛ أي: ولنجعله آيةً للناس خلقناه.

والمعنى: وفعلنا ذلك لنجعل خلقه من غير أبٍ برهاناً على قدرتنا، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلقنا عيسى من أنثى من غير ذكر، وخلقنا حواء من ذكر من غير أنثى، وخلقنا بقية بني آدم من ذكر وأنثى، فجمله أنواع خلق البشر أربعة، وإلى الأولين أشار القائل:

أَلاَ رُبَّ مَوْلُوْدٍ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ ... وَذِيْ وَلَدٍ لَمْ يَلِدْهُ أَبَوَانِ

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾: معطوف على ﴿آية﴾؛ أي: وخلقناه لنجعله رحمة

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

عظيمةً كائنةً منا للناس، لما يناله منه من الهداية، والخير الكثير، لأن كل نبي رحمةٌ لأمته لأنه يدعوهم إلى توحيده وعبادته ﴿وَكَانَ﴾ خلقه بلا فحل ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضيت به في سابق علمي، وحكمت بوقوعه لا محالة، فيمتنع خلافه، فلا فائدة في الحزن لأنه لا يبدّل ولا يغيّر ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ قبله كلام مطوي والتقدير: فلما قال لها جبريل ما قال.. استسلمت لقضاء الله، واطمأنت إلى قوله، فدنا منها فنفخ في جيب درعها - الفتحة التي في القميص من الأمام - فوصلت النفخة إلى بطنها، فحملته، قاله ابن عباس، وقيل[1]: كانت النفخة في ذيلها، وقيل: في فمها، والقرآن قد أثبت النفخ فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ ولم يعين موضع النفخة، فلا نجزم بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع، قيل: إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل، من غير مضي مدة للحمل، ويدل على ذلك قوله: ﴿فَانتَبَذَتْ﴾ ابتعدت واعتزلت وتنحت من الناس ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالذي حملته، وهو عيسى - عليه السلام - حيث أتى بفاء التعقيب، وقيل[2]: كانت مدة الحمل ثلاث ساعات، وقيل حمل في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة أشهر، كما قاله أبو العالية، والضحاك، وعطاء، وقيل: ثمانية أشهر، ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر إلا عيسى، وهذه أقوال مضطربة متناقضة، كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً، إلا أن المفسرين ذكروها وسودوا بها الورق.

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل، ولا حاجة إليها في العبرة، فنقول: إنها كانت كما يكون غيرها من النساء، إلا إذا ثبت غيره، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ، إذ لا يتعلق به كبير فائدة، لأنه قيل: كانت بنت أربع عشرة سنة، وقيل: بنت خمس عشرة سنة، وقيل: بنت ثلاث عشرة، وقيل: بنت اثنتي عشرة سنة، وقيل: عشر سنين: وقيل: بعد أن حاضت حيضتين. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾؛

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أي: مكاناً قصياً بعيداً عن أهلها، قيل: كان هذا المكان وراء الجبل، وقيل: أبعد مكان في تلك الدار، وقيل: أقصى الوادي وقيل: إنها فرت إلى مصر: وقيل: إلى موضع يعرف ببيت لحم، بينه وبين إيلياء أربعة أميال، ولا حاجة إلى تعيينه، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة ﴿قاصيا﴾ ذكره ابن الجوزي.

وإنما اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها، وهي من سلائل بيت النبوة، ولأنها استشعرت منهم باتهامها بالريبة، فرأت أن لا تراهم، وأن لا يروها.

قال وهب بن منبه[1]: لما حملت مريم بعيسى.. كان معها ابن عم لها، يقال له يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلم في أهل زمانهما أحد أشد عبادةً منهما، وأوَّل من علم حمل مريم هو يوسف، فتحيَّر في أمرها فكلما أراد أن يتهمها.. ذكر عبادتها، وأنها لم تغب عنه ساعةً قطّ، وإذا أراد أن يبرئها.. رأى الذي ظهر بها من الحمل، فأول ما تكلم به أن قال: قد وقع في نفسي من أمرك شيء، وقد حرصت على كتمانه، فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت: قل: قولاً جميلاً، قال: أخبريني يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر، وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكر، قالت: نعم ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث، وبالقدرة جعل الغيث حياةَ الشجرة، بعدما خلق كل واحد منهما على حدة، أو نقول: إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف: لا أقول هذا، ولكني أقول: إن الله قادر على ما يشاء، فيقول له: كن فيكون، فقالت له مريم: ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى، فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه، وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل، وضيق القلب، فلما دنت ولادتها.. أوحى الله إليها أن أخرجي من أرض قومك، فخرجت إلى أقصى الدار ﴿فَأَجَآءَهَا

---

(١) الخازن.

﴿ٱلْمَخَاضُ﴾؛ أي: فألجأها وجع الولادة وألم الطلق، يقال: جاء بها، وأجاءها، فهو تعدية جاء بالهمزة، ويقال: مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾؛ أي: ساقها واضطرها، وقال الشاعر:

وجَارٌ سَارَ مُعْتَمِدَاً إِلَيْكُم   أَجَاءَتْهُ ٱلْمَخَافَةُ والرَّجَاءُ

وأمال فتحة الجيم الأعمش، وطلحة، وقرأ حماد بن سلمة عن عاصم: قال ابن عطية، وشبيل بن عزرة: ﴿فاجأها﴾ من المفاجأة، وقال صاحب «اللوامح» شبيل بن عزرة: ﴿فاجأها﴾ فقيل: هو من المفاجأة، بوزن فاعلها وروي عن مجاهد: كقراءة حماد عن عاصم، وقرأ[2] عكرمة، وإبراهيم النخعي، وعاصم الجحدري ﴿المِخَاض﴾ بكسر الميم؛ أي: فألجأها واضطرها وجه الولادة أن تستند ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾؛ أي: إلى[3] أصل نخلة يابسة، لا رأس لها للتشبث به، لتسهل الولادة، كما أن الحامل تتعلق لشدة وجع الولادة بشيء مما تجد عندها، وكان الوقت شتاءً شديد البرد، فلما اعتمدت عليه بصدرها أخضر، وأطلع الجريد والخوص والثمر رطباً في وقت واحد، كما أن حمل عيسى وتصويره وولادته في وقت واحد، وكأن الله أرشدها إلى النخلة ليريها من آياته ما يسكن روعتها، وليطعمها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، فهو خرسة لها.

والخرسة بالتاء: طعام النفساء، وبدونها طعام الولادة، ولأن النخلة من أقل الأشجار صبراً على الأرض، ولأنها لا تثمر إلا عند اللقاح من ذكر النخل، وإذا قطعت رأسها ماتت، فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إني أظهر الرطب من غير اللقاح، ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر، فحملها بمجرد هزها أنسب شيء بإتيانها بولد من غير والد.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) المراح.

والجذع ما بين العرق والغصن؛ أي: أسفلها ما دون الرأس الذي عليه الثمر ﴿قَالَتْ﴾ مريم لما خافت أن يظن بها السوء في دينها، فيقع في المعصية من يتكلم فيها، وهي راضية بما بشرها به جبريل:

﴿يا﴾؛ أي: أنبهك يا أيها المخاطب، أو يا هؤلاء ﴿ليتني مت﴾؛ أي: أتمنى موت نفسي ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ الوقت الذي رأيت فيه ما رأيت من الأمر العظيم، وقرأ[1] نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي: ﴿مِتُّ﴾ بكسر الميم، والباقون بالضم ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾؛ أي: شيئاً تافهاً حقيراً، شأنه أن ينسى، ولا يعتد به أصلاً، كخرقة الطمث ونحوها، وقرأ حفص، وحمزة، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى: بفتح النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، والكسائي: بكسر النون، وهو فعل بمعنى مفعول، كالذبح وهو ما من شأنه أن يذبح، وقرأ محمد بن كعب القرظي ﴿نساءً﴾ بكسر النون والهمز مكان الياء، وهي: قراءة نوف الأعرابي، وقرأ بكر بن حبيب السهمي، ومحمد بن كعب، أيضاً: ﴿نسأ﴾ بفتح النون والهمزة، وهو مصدر من نسأت اللبن، إذا صببت عليه ماءً، فاستهلك اللبن فيه لقلته، فكأنها تمنت أن تكون مثل ذلك اللبن، الذي لا يرى ولا يتميز من الماء، وقال ابن عطية: وقرأ بكر بن حبيب ﴿نسأ﴾ بفتح النون والسين من غير همز، بناه على فعل كالقبض والنقض، بمعنى المقبوض والمنقوض ﴿مَّنسِيًّا﴾؛ أي: متروكاً لا يخطر ببال أحد من الناس، وهو نعت للمبالغة.

وهذا جري على عادة الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم[2]، فإنهم يقولون مثل ذلك، كما روي عن أبي بكر: أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر، تقع على الشجرة وتأكل من الثمر، وددت أني ثمرةٌ ينقرها الطائر. وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة ولم أك شيئاً. وعن علي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

أنه قال يوم الجمل: يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وعن بلال أنه قال: ليت بلالاً لم تلده أمه.

وقرأ الأعمش، وأبو جعفر في رواية[1]: ﴿منسيا﴾ بكسر الميم إتباعاً لحركة السين، كما قالوا: منتن باتباع حركة الميم لحركة التاء.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾؛ أي: فنادى جبريل مريم ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت مريم من مكان أسفل منها، تحت الأكمة، حين سمع جزعها، لأن عيسى لم يتكلم حتى أتت به قومها، وقال في[2] القصص من تحت النخلة، أو فناداها[3] عيسى ـ عليه السلام ـ كما قال الحسن البصري، وسعيد بن جبير: وقد أنطقه الله حين وضعته تطييباً لقلبها، وإزالةً للوحدة عنها، حتى تشاهد بادىء ذي بدءٍ علو شأن ذلك المولود الذي بشرها جبريل به.

وقرأ ابن عباس[4]: ﴿فناداها ملك من تحتها﴾ وقرأ البراء بن عازب، وابن عباس، والحسن، وزيد بن علي، والضحاك، وعمرو بن ميمون، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم والتاء حرف جر، وقرأ الابنان: ابن كثير، وابن عامر، والأبوان: أبو عمرو، وأبو بكر، وعاصم وزر ومجاهد، والجحدري، والحسن، وابن عباس في رواية عنهما: ﴿مَنْ تحتَها﴾ بفتح الميم والتاء بمعنى الذي، وتحت: ظرف منصوب صلة لـ(من)، قال ابن الجوزي[5]: فمن قرأ بكسر الميم ففيه وجهان:

أحدهما: ناداها الملك من تحت النخلة، وقيل: كانت على نشز فناداها الملك أسفل منها.

والثاني: ناداها عيسى لما خرج من بطنها. قال ابن عباس: كل ما رفعت إليه طرفك فهو فوقك، وكل ما خفضت إليه طرفك فهو تحتك.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط وزاد المسير.
(٥) زاد المسير.

ومن قرأ بفتح الميم ففيه الوجهان المذكوران، وكان الفراء يقول: ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً. انتهى.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أن إما مفسرة للنداء؛ أي: لا تحزني يا مريم بولادة عيسى وبمكان القحط، أو لا تحزني يا أمي، أو مصدرية على حذف الباء؛ أي: بأن لا تحزني والحزن[1]: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو حصول ضار ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ﴾ المحسن إليك ﴿تَحْتَكِ﴾؛ أي في مكان أسفل منك، أو قريب منك، أو تحت ذيلك ﴿سَرِيًّا﴾؛ أي: نهراً صغيراً، أو غلاماً رفيع الشأن، سامي القدر، ذا سخاء في مروءةٍ.

قال جمهور المفسرين[2]: السري: النهر الصغير، والمعنى قد جعل ربك تحت قدمك نهراً، قيل: كان نهراً قد انقطع عنه الماء فأرسل الله فيه الماء لمريم، وأحيا به ذلك الجذع اليابس، الذي اعتمدت عليه، حتى أورق وأثمر، وقيل: المراد بالسريّ هنا عيسى، والسريّ العظيمُ من الرجال، ومنه قولهم: فلان سريّ؛ أي: عظيم، ومن قومٍ سراةٍ؛ أي: عظام.

والمعنى على قراءة ﴿مِنْ﴾ الجارَّة: فناداها[3] جبريل من مكان أسفل منها تحت الأكمة؛ أي: لا تحزني يا مريم على ولادة عيسى، قد جعل ربك بمكان أسفل منك، أو قريباً منك، نهراً صغيراً، أو إنساناً شريفاً جليلاً، ويدل على ذلك قراءة من قرأ: ﴿فناداها ملك من تحتها﴾ أو ناداها المولود كائناً من تحت ذيلها؛ أي: لا تحزني يا أمي قد جعل ربك تحتك جدولاً يجري، ويمسك بأمرك، أو نبياً مرتفعَ القدر، وعلى قراءة: ﴿مَنْ﴾ الموصولة فناداها عيسى الذي كان تحت ذيلها؛ أي: لا تحزني قد جعل ربك تحتك رئيساً عزيزاً، لا يكاد يوجد له نظير، أو جدولاً بضرب جبريل الأرض برجله، أو فناداها جبريل من تحتها يقبل الولد كالقابلة، أو من تحت النخلة، بأن لا تحزني قد جعل ربك قربك عين ماء عذب،

---

(1) روح البيان.
(2) الشوكاني.
(3) المراح.

تعظيماً لشأنك، فإن الله تعالى أرسل جبريل إليها ليناديها بهذه الكلمات، كما أرسل إليها في أول الأمر، ليكون ذلك تذكيراً لها ما تقدم من أصناف البشارات.

أو يقال: إن الله تعالى أنطق عيسى لها حين وضعته، تطييباً لقلبها، وإزالةً للوحشة عنها، حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل، من علو شأن ذلك المولود، كما قال الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: إن عيسى ـ عليه السلام ـ لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى بالكلام.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾؛ أي: حركي وأميلي ﴿إِلَيۡكِ﴾؛ أي: إلى جهتك يا مريم ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، أي: جذع النخلة، فالباء صلة للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾؛ أي: حركي أصل النخلة تحريكاً عنيفاً إلى جهتك ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾؛ أي: تسقط النخلة ﴿عَلَيۡكِ﴾ إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز.

﴿رُطَبٗا﴾؛ أي: بسراً ناضجاً ﴿جَنِيّٗا﴾؛ أي: صالحاً للأجناء، والجني فعيل بمعنى مفعول؛ أي: رطباً مجنياً؛ أي: صالحاً للاجتناء، قد بلغ الغاية، قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل.

والمعنى: أي[1] أميلي إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه، يسقط عليك رطباً جنباً تأكلين منه ما تشائين، وتلك آية أخرى لها، روي أنها كانت نخلةً يابسةً لا رأس لها ولا ثمر، وكان الوقت شتاءً، فأنزل الله لها رزقاً، فجعل للنخلة رأساً وخوصاً، وجعل لها ثمراً رطباً، وهذه رواية يعوزها الدليل.

وفي هذا إيماءٌ وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء، يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية، وإلى أن السعي في الرزق مطلوب، ولا ينافي التوكل، ولله درّ القائل:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلـلَّـهَ أَوْحَـىٰ لِـمَـرْيَـم ... وَهُزِّيْ إِلَيْكِ ٱلْجِذْعَ يُسَاقِطِ ٱلرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَحْنَىٰ ٱلْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ ... إِلَـيْـهَـا وَلَـكِـنْ كُـلُّ شَـيْءٍ لَـهُ سَـبَـبْ

---

(١) المراغي.

وقرأ ابن كثير[١]، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَسَّاقَط﴾ بفتح التاء والسين وشدها بعدها ألف وفتح القاف، وقرأ حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب، ومسروق ﴿تساقط﴾ كذلك إلا أنهم خففوا السين وقرأ حفص عن عاصم: ﴿تُسَٰقِطْ﴾ بضم التاء وكسر القاف مخففة السين، مضارع ساقطت، وقرأ يعقوب، وأبو زيد عن المفضل، والبراء بن عازب، والأعمش في رواية: ﴿يساقط﴾ بالياء مفتوحةً وتشديد السين وفتح القاف، فهذه القراءات المشاهير، وقرأ أبي بن كعب، وأبو حيوة، ومسروق: ﴿تسقط﴾ بالتاء من فوق مضمومة وكسر القاف، وعن أبي حيوة كذلك إلا أنه بالياء من تحت، وعنه أيضاً: ﴿تسقط﴾ بالتاء من فوق مفتوحةً وضمّ القاف، وعنه كذلك إلا أنه بالياء من تحت، وقال بعضهم في قراءة أبي حيوة هذه: أنه قرأ: ﴿رطب جني﴾ بالرفع على الفاعلية، وقرأ أبو السماك العدوي، وابن حزام: ﴿تتساقط﴾ بتاءَين مفتوحتين وبألف، وقرأ معاذ القارىء، وابن يعمر ﴿نساقط﴾ بالنون.

وقال الزجاج[٢]: من قرأ ﴿يساقط﴾. فالمعنى: يتساقط فأدغمت التاء في السين، ومن قرأ ﴿تساقط﴾.. فكذلك أيضاً، وأنَّث لأن لفظ النخلة يؤنث، ومن قرأ ﴿تساقط﴾ بالتاء والتخفيف.. فإنه حذف من تتساقط اجتماع التاءَين، ومن قرأ ﴿يساقط﴾.. ذهب إلى معنى تساقط الجذع عليك، ومن قرأ ﴿نساقط﴾ بالنون.. فالمعنى: نحن نساقط عليك فنجعله لك آيةً، وقرأ[٣] طلحة بن سليمان ﴿جنياً﴾ بكسر الجيم اتباعاً لحركة النون ﴿فَكُلِي﴾ يا مريم من ذلك الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من ماء النهر، أو فكلي من ذلك الرطب، واشربي من عصيره، وكان[٤] ذلك إرهاصاً لعيسى، أو كرامةً لأمه، وليس معجزة لفقد شرطها وهو: التحدي كما في «بحر العلوم».

قال الإمام: وقدم الأكل على الشرب لأن حاجتها إليه أشد من حاجتها إلى

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) زاد المسير.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

الماء، لكثرة ما سال منها من الدماء ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي وطيبي نفساً، وبردي قلبك، وارفضي عنه ما أحزنك، وأهمك، فإن الله تعالى قد نزه ساحتك بالخوارق، من جرى النهر المنقطع، واخضرار النخلة اليابسة، وإثمارها قبل وقتها، لأنهم إذا رأوا ذلك، لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فحل، واشتقاقه من القرار، فإن العين إذا رأت ما يسر النفس.. سكنت إليه من النظر إلى غيره، يقال: أقر الله عينيك؛ أي: صادف فؤادك ما يرضيك، فيقر عينك من النظر إلى غيره.

والمعنى: أي طيبي نفساً بولدك عيسى، فالعين إذا رأت ما يسر النفس.. سكنت إليه من النظر إلى غيره، وإنّ دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ولذلك يقال للمحبوب: قرة العين وللمكروه سخنة العين، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك، ويبعد عنك تخرصات المبطلين، الذين يتقيدون بالسنن التي جعلها الله تعالى الطريق للولادة في البشر، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسة والطهر، وقرأ الجمهور[1]: ﴿قرّي﴾ بفتح القاف، وحكىٰ ابن جرير: أنه قرىء بكسرها، قال وهي لغة نجدٍ.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾؛ أي: فإن تري أحداً من البشر كائناً من كان، فيسألك عن شأنك وشأن ولدك، و(ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط، وهي بمنزلة لام القسم في أنها إذا دخلت على الفعل.. دخلت معها النون المؤكدة ﴿فَقُولِىٓ﴾ له باللسان أو فأشيري له بالأركان: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وأوجبت على نفسي ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه ﴿صَوْمًا﴾؛ أي: صمتاً عن الكلام، أو صياماً، وكان صيام المجتهدين في بني إسرائيل بالإمساك عن الطعام والكلام حتى يمسي، وقد نسخ في هذه الأمة، لأنه ﷺ نهى عن صوم الصمت.

أي: قولي إن طلب منك الكلام أحد من الناس ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وصمتاً ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾؛ أي: آدمياً بعد أن أخبرتك بنذري، وإنما

---

(١) الشوكاني.

أكلم الملائكة وأناجي ربي، وإنما منعت مريم من الكلام ليكون عيسى المتكلم عنها، فيكون أقوى لحجتها في إزالة التّهمَة عنها، ولكراهة مجادلة السفهاء.

والمعنى: أي فإن رأيت أحداً من بني آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته. . فأشيري إليهم: أني أوجبت على نفسي لله صمتاً ألا أكلم اليوم أحداً فإن كلامي يقبل الرد والجدل، ولكن يتكلم عني هذا المولود، الذي لا يقبل كلامه الدفع والرد، وإني أنزه نفسي مجادلة السفهاء، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجي الخالق، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس: سفيه لم يجد مسافهاً، وفي الآية إشارة إلى الصوم عن الالتفات لغير الله تعالى، كما قال بعض السلف: الدنيا يوم ولنا فيه صوم، ولا يكون إفطار إلا على مشاهدة الهلال.

والظاهر(١): أن الآمر لها بالأكل والشرب وذلك القول هو ولدها، وقيل: جبريل ـ عليه السلام ـ على الخلاف المار، وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام، فقد روي أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم، فقال: إن الإسلام قد هدّم هذا فتكلمي.

وقرأ ابن عباس(٢)، وأبو مجلز، وابن السميقع، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: ﴿ترئنَّ﴾ بهمزة مكسورة من غير ياءٍ، وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه ابن رومي: ﴿ترئن﴾ بالإبدال من الياء همزةً وروي عنه: ﴿لترؤن﴾ بالهمزة أيضاً، بدل الواو، قال ابن خالويه: وهو عند أكثر النحويين لحن، وقرأ أبو جعفر، وشيبة: ﴿ترين﴾ بسكون الياء وفتح النون خفيفةً، قال ابن جنّي: وهي شاذة؛ يعني: لأنه لم يؤثر الجازم فيحذف النون، وقرأ(٣) أبي: ﴿إني نذرت للرحمٰن صوماً صمتاً﴾ بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس، وروي عنه أنه قرأ: ﴿صوماً وصمتاً﴾ بالواو.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

الإعراب

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾: إن قلنا إنه من الأمور التي استأثر الله سبحانه بعلمها.. فلا محل له من الإعراب، لأن الإعراب فرع عن المعنى، والمعنى لم يعرف، وإن قلنا: إنه علم على السورة.. فيجري عليه من الإعراب، ما يجري على أسماء التراجم من الأوجه الخمسة أو السبعة، كما ذكرناها في «مناهل الرجال على لامية الأفعال» ﴿ذِكْرُ﴾: خبر لمبتدء محذوف تقديره هذا المتلو عليك من القرآن ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أو مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾: والجملة الإسمية: مستأنفة ﴿ذِكْرُ﴾ مضاف ﴿رَحْمَتِ﴾: مضاف إليه وهو من إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل، محذوف تقديره ذكر الله رحمة عبده زكريا ﴿رَحْمَتِ﴾ مضاف، ﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه وهو من إضافة المصدر لفاعله ﴿عَبْدَهُۥ﴾: مفعول به لرحمة ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل من عبده أو عطف بيان له ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق برحمة ربك؛ أي: رحمة الله إياه وقت ندائه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ فعل ومفعول وفاعله: ضمير يعود على عبده ﴿نِدَآءً﴾: مفعول مطلق ﴿خَفِيًّا﴾: صفة له والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّآ﴾ والجملة الفعلية: في محل الجر بدل من جملة نادى ﴿رَبِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مقول محكي وإن شئت قلت ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء: في محل النصب مقول قال ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾: فعل وفاعل ﴿مِنِّي﴾: حال من ﴿ٱلْعَظْمُ﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر إن وجملة، إن في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾.

﴿شَيْبًا﴾: تمييز محول عن الفاعل منصوب بـ﴿اشتعل﴾ والتقدير: واشتعل شيب الرأس ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لم﴾: حرف جزم ﴿أَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، واسمها: ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّآ﴾ تقديره: أنا ﴿شَقِيًّا﴾: خبرها ﴿بِدُعَآئِكَ﴾: متعلق بـ﴿شَقِيًّا﴾ ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وجملة ﴿لم أكن﴾ في محل الرفع معطوف على جملة قوله ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ على كونها خبر إن.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إني﴾: ناصب واسمه ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن وَرَآءِى﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾. ﴿مِن﴾: متعلق بمحذوف أو بما تضمنه ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ من معنى الفعل تقديره: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ﴾ فعل ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ أو ﴿خِفْتُ﴾ الذين يلون الأمر ﴿مِن وَرَآءِى﴾ ولا يصح تعلقه بخفت لفساد المعنى، كما في «السمين» ووجه فساده: أن الخوف واقع في الحال لا فيما يستقبل، فلو جعل ﴿مِن وَرَآءِى﴾ متعلقاً بخفت.. لزم أن يكون الخوف واقعاً في المستقبل؛ أي: بعد موته وهو كما ترى ظاهر الفساد، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر إن وجملة إن: في محل النصب معطوفة على جملة إن في قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره والجملة: في محل النصب حال من فاعل خفت ﴿فَهَبْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا علمتَ يا إلهي شكواي إليك، وأردت بيان مسألتي منك فأقول لك ﴿هب﴾ فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لِي﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿وَلِيًّا﴾ ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به منصوب بهب والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة: إذا المقدرة: في محل النصب مقول قال ﴿يَرِثُنِي﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول والثاني محذوف. تقديره: النبوة والحبورة، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿وَلِيًّا﴾ ﴿وَيَرِثُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر

ومفعوله محذوف، تقديره، العلم، والدين، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يَرِثُنِي﴾ ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يرث﴾ ﴿وَٱجْعَلْهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف ﴿رَضِيًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿جعل﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على جملة قوله ﴿هَبْ لِي﴾.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ منادى مفرد العلم مبني على الضم المقدر، أو الظاهر وجملة النداء وما بعده: في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قال الله سبحانه ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ وجملة القول المحذوف: مستأنفة ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ متعلق به والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول القول المحذوف، على كونها جواب النداء ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ مبتدأ وخبر والجملة، في محل الجر صفة أولى لـ﴿غلام﴾ ﴿لَمْ نَجْعَل﴾ جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لجعل ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سَمِيًّا﴾. ﴿سَمِيًّا﴾: مفعول أول لجعل وجملة ﴿نَجْعَل﴾ في محل جر صفة ثانية لـ﴿غلام﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّآ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام للتعجب في محل النصب الظرفية المكانية بمعنى أين، أو في محل النصب على الحالية بمعنى كيف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر يكون ﴿لِي﴾: خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم ﴿غُلَٰمٌ﴾: اسمه مؤخر وجملة ﴿يَكُونُ﴾: في محل النصب مقول قال ﴿وَكَانَتِ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال ﴿كانت امرأتي عاقراً﴾: فعل ناقص واسمه وخبره والجملة: في محل النصب حال من الياء في ﴿لِي﴾ ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾:

حالية ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿بَلَغْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾: حال من ﴿عِتِيًّا﴾. ﴿عِتِيًّا﴾: مفعول به لـ﴿بَلَغْتُ﴾: والجملة الفعلية: في محل النصب حال ثانية من الياء في ﴿لِى﴾ أو من الياء في ﴿ٱمْرَأَتِى﴾ لأن المضاف كالجزء من المضاف إليه لأن المرأة كاللباس للرجل. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله أو على جبريل والجملة: مستأنفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدء محذوف تقديره، الأمر كذلك والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل كرره للتأكيد ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىَّ﴾ متعلق بـ﴿هَيِّنٌ﴾. ﴿هَيِّنٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿خَلَقْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بخلقتك والجملة الفعلية: في محل النصب حال من الياء في ﴿عَلَىَّ﴾ ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تك﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه سكون ظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير يعود على زكريا ﴿شَيْـًٔا﴾: خبرها وجملة تكون في محل النصب حال من كاف ﴿خَلَقْتُكَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّآ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة ﴿ٱجْعَل﴾: فعل دعاء ﴿لِّى﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿ءَايَةً﴾ مفعول أول لجعل والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله والجملة مستأنفة ﴿ءَايَتُكَ﴾ مبتدأ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَا﴾: نافية ﴿تُكَلِّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وفاعله ضمير يعود على زكريا ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُكَلِّمَ﴾. ﴿سَوِيًّا﴾: حال من فاعل تكلم أي حالة كونك سليماً بلا علة ولا مرض، أو منصوب على كونه صفة لثلاث بمعنى أنها كاملات، وجملة ﴿تُكَلِّمَ﴾: في محل

الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ﴾ الفاء: استئنافية ﴿خرج﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على زكريا ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿خرج﴾ وكذا قوله: ﴿مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ متعلق بـ﴿خرج﴾. ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أوحى﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على زكريا ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به والجملة معطوفة على جملة ﴿خرج﴾ ﴿أَن﴾: مفسرة، أو مصدرية على تقدير الباء ﴿سَبِّحُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول مبني على حذف النون ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: منصوبان على الظرفية الزمانية، متعلقان بـ﴿سَبِّحُوا۟﴾ والجملة: جملة مفسرة لـ﴿أوحى﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في محل الجر بالباء المقدرة المتعلقة بـ﴿أوحى﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ ﴿يا﴾ أداة نداء ﴿يَحْيَىٰ﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب مبني على الضم المقدرة للتعذر وجملة النداء: في محل النصب مقول لقول محذوف معطوف على مقدر، تقديره: فحملت به ووضعته ومضى عليه سنتان مثلاً، فقال له الرب ـ جل جلاله ـ على لسان الملك ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على يحيى ﴿بِقُوَّةٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿خُذِ﴾؛ أي: حالة كونك متلبساً بجدٍ واجتهادٍ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان لأن آتى بمعنى أعطى والجملة مستأنفة أو معطوفة على قولٍ محذوف؛ أي: فقلنا له: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿صَبِيًّا﴾: حال من الهاء في ﴿آتيناه﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَحَنَانًا﴾: معطوف على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: وآتيناه ﴿حناناً﴾؛ أي: رحمةً ورقةً في قلبه وعطفاً على الآخرين ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حناناً﴾ ﴿وَزَكَوٰةً﴾ معطوف على ﴿حناناً﴾. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فعل ناقص وخبره واسمه ضمير يعود على ﴿يَحْيَىٰ﴾ والجملة معطوفة على ﴿آتيناه﴾ ﴿وَبَرًّا﴾ معطوفة على ﴿تَقِيًّا﴾

﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿براً﴾ ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾: جازم ومجزوم وهي فعل من الأفعال الناقصة، واسمها ضمير يعود على ﴿يَحۡيَىٰ﴾. ﴿جَبَّارًا﴾: خبرها ﴿عَصِيًّا﴾ صفة ﴿جَبَّارًا﴾ وجملة ﴿يَكُن﴾: معطوفة على جملة ﴿كان﴾، ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة، قصد الدعاء ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة مستأنفة ﴿يَوۡمَ﴾. ظرف متعلق بالسلام. ﴿وُلِدَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿يَحۡيَىٰ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ﴾: معطوفان على ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾. ﴿حَيًّا﴾: حال من نائب فاعل ﴿يُبۡعَثُ﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ١٦﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿اذكر﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿اذكر﴾ ﴿مَرۡيَمَ﴾: مفعول به ولكنه على حذف مضاف؛ أي: قصة مريم وخبرها ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالمضاف المحذوف؛ أي: واذكر قصة مريم وقت انتباذها من أهلها ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَرۡيَمَ﴾. ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾: متعلق به والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿مَكَانًا﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾؛ أي: في مكان شرقي ﴿شَرۡقِيًّا﴾: صفة لـ﴿مَكَانًا﴾: ويجوز أن يعرب ﴿مَكَانًا﴾ مفعولاً به على أن معنى ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ أتت.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿اتخذت﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَرۡيَمَ﴾. ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لاتخذ ﴿حِجَابًا﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾ والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿اتخذت﴾ ﴿إِلَيۡهَا﴾: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رُوحَنَا﴾ مفعول به. ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تمثل﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الروح ﴿لَهَا﴾ متعلق بـ﴿تمثل﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿بَشَرًا﴾: حال

من فاعل ﴿تمثل﴾ ﴿سَوِيًّا﴾: صفة لـ﴿بَشَرًا﴾ وسوغ وقوع الحال جامدةً وصفها بما بعدها ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَرْيَمَ﴾ والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَرْيَمَ﴾. ﴿بِالرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿مِنكَ﴾: متعلق به أيضاً والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة: ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿تَقِيًّا﴾: خبرها وجواب الشرط محذوف تقديره: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ لله تعالى فاتركني وانته عني، والجملة الشرطية: في محل النصب مقول قال.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الملك، والجملة: مستأنفة ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾ خبره والجملة: في محر النصب مقول قال ﴿لِأَهَبَ﴾ ﴿اللام﴾، حرف جر وتعليل ﴿أهب﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وفاعله: ضمير يعود على الملك، ﴿لَكِ﴾ متعلق به ﴿غُلَٰمًا﴾: مفعول به ﴿زَكِيًّا﴾: صفة له والجملة الفعلية: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره لهبتي ﴿لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على مريم، والجملة: مستأنفة ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام تعجب بمعنى. كيف في محل النصب على الحال مبني على السكون ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿لِي﴾: خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم ﴿غُلَٰمٌ﴾ اسمها مؤخر وجملة ﴿يَكُونُ﴾: في محل النصب مقول قال ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالة لم حرف نفي وجزم ﴿يَمْسَسْنِي﴾: مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ والنون نون الوقاية والياء ضمير المتكلم في محل النصب على المفعولية ﴿بَشَرٌ﴾: فاعل والجملة: في محل النصب حال من الياء في ﴿لِي﴾. ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿أَكُ﴾: فعل مضارع ناقص

مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه سكون ظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير يعود على مريم تقديره ﴿وَلَمْ أَكُ﴾ أنا ﴿بَغِيًّا﴾: خبرها منصوب والجملة الفعلية: في محل النصب على الحال معطوفة على جملة ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الملك والجملة: مستأنفة ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة معللة للجملة التي قبلها كأنه قيل: الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾ لأنه علينا ﴿هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ...﴾ إلخ. ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلَيَّ﴾ متعلق بـ﴿هَيِّنٌ﴾. ﴿هَيِّنٌ﴾: خبر والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على علة محذوفة لمعلول محذوف تقديره: فعلنا ذلك لنبين به قدرتنا ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ ﴿لنجعله﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿نجعله﴾: فعل مضارع ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وفاعله ضمير يعود على الله سبحانه ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثان لجعل ﴿لِّلنَّاسِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ءَايَةً﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل والتقدير ولجعلنا إياه ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قولنا لنبين به قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿ءَايَةً﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رحمة﴾. ﴿وَكَانَ أَمْرًا﴾: فعل ناقص وخبره واسمه ضمير مستتر يعود على خلقه ﴿مَّقْضِيًّا﴾: صفة ﴿أَمْرًا﴾: والجملة: مستأنفة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره فنفخ جبريل في جيب

درعها ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ ﴿حملته﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على مريم ومفعول به والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿فَٱنتَبَذَتْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿انتبذت﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على مريم والجملة: معطوفة على جملة ﴿حملت﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرو حال من فاعل ﴿انتبذت﴾؛ أي: حالة كونه منتبذةً بالمولود ﴿مَكَانًا﴾: مفعول فيه أو مفعول به ﴿قَصِيًّا﴾ صفة لـ﴿مَكَانًا﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فعل وفاعل مؤخر و﴿الفاء﴾ للتعقيب ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ متعلق بمحذوف حال ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على مريم، والجملة: مستأنفة ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ ﴿يا﴾ حرف نداءٍ والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء أو يا مخاطب أو يا لمجرد التنبيه ﴿ليتني﴾ ﴿ليت﴾ حرف تمنٍ ونصبٍ والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم اسمها ﴿مِتُّ﴾ فعل وفاعل ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿مِتُّ﴾ وجملة ﴿مِتُّ﴾: في محل الرفع خبر ليت وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول قال ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿مِتُّ﴾. ﴿مَّنسِيًّا﴾: خبر ثان لكان مؤكد لـ﴿نَسْيًا﴾، لأنه بمعناه ولك أن تعربه نعتاً له.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ناداها﴾ فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على الملك أو على عيسى أو الجملة: معطوفة على جملة ﴿قَالَتْ﴾ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿ناداها﴾؛ أي: في مكانٍ أسفل من مكانها، أو متعلق بمحذوف حالٍ من فاعل ﴿ناداها﴾؛ أي: ناداها وهو تحتها ﴿أَلَّا﴾ ﴿أَن﴾: مفسرة لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه، و﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَحْزَنِى﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية والجملة جملة مفسرة لـ﴿ناداها﴾: لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿أَن﴾ مصدرية و﴿لا﴾: نافية تحزني فعل وفاعل منصوب بها و﴿أَن﴾ المصدرية وما بعدها: في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة المتعلقة بالنداء؛ أي: و﴿ناداها﴾ بعدم الحزن، والأول أسهل وأوضح ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿جَعَلَ رَبُّكِ﴾ فعل وفاعل ﴿تَحْتَكِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾

﴿سَرِيًّا﴾: مفعول أول له والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُزِّيٓ﴾: فعل وفاعل مبني على حذف النون معطوف على قوله ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾. ﴿إِلَيۡكِ﴾: متعلق به. ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والباء: زائدة ﴿تُسَٰقِطۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ أي: تسقط ﴿عَلَيۡكِ﴾: متعلق بـ﴿تُسَٰقِطۡ﴾. ﴿رُطَبٗا﴾: مفعول به ﴿جَنِيّٗا﴾ صفة لـ﴿رُطَبٗا﴾. ﴿فَكُلِي﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا تم لك هذا المذكور كله وأردت بيان ما هو الأصلح لك فأقول لك ﴿كلي﴾. ﴿كلي﴾: فعل وفاعل مبني على حذف النون والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كلي﴾ وكذلك ﴿وَقَرِّي﴾: معطوف عليه ﴿عَيۡنٗاۖ﴾: تمييز محول عن الفاعل إذ الأصل لتقرَّ عينك ﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة ﴿ما﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى الشرط مبني على السكون ﴿تَرَيِنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها وعلامة جزمه حذف النون والياء ضمير للمؤنثة المخاطبة: في محل الرفع فاعل والنون المشددة نون التوكيد مبني على الفتح وأصله: ترأيينن بهمزة هي عين الفعل، وياء مكسورة هي لامه وأخرى ساكنة هي ياء الفاعل والنون الأولى: نون علامة الرفع حذفت هنا للجازم، والنون المشددة نون التوكيد، وإنما أُعرب الفعل هنا بالجزم لعدم مباشرة نون التوكيد به ﴿مِنَ ٱلۡبَشَرِ﴾: حال من ﴿أَحَدٗا﴾: لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿أَحَدٗا﴾: مفعول به لأن ترى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد ﴿فَقُولِيٓ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً لكون الجواب جملةً طلبيةً ﴿قولي﴾ فعل أمر مبني على حذف النون والياء فاعل والجملة الفعلية: في محل الجزم بأن الشرطية على كونها جواب الشرط وجملة إن الشرطية: في محل

النصب معطوفة على جملة ﴿كلي﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿نَذَرْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق به، ﴿صَوْمًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قولي﴾. ﴿فَلَنْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لن﴾: حرف نفي ونصب ﴿أُكَلِّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ وفاعله: ضمير يعود على مريم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أُكَلِّمَ﴾ ﴿إِنسِيًّا﴾: مفعول به وجملة ﴿أُكَلِّمَ﴾: في محل الرفع معطوفة مفرعة على جملة ﴿نَذَرْتُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿زَكَرِيَّآ﴾: يمد ويقصر من ولد سليمان بن داود ـ عليهم السلام ـ وكان نجاراً.

﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾؛ أي: مستوراً عن الناس لم يسمعه أحدٌ منهم.

﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ ضعف ورق من الكبر إذ قد بلغ خمساً وسبعين سنةً أو ثمانين.

وفي «المصباح»: وهن يهن: من باب وعد ضعف، فهو واهن في الأمر، أو العمل، أو البدن، ووهنته: أضعفته، يتعدى ولا يتعدى في لغة، فهو موهون البدن والعظم، والأجود أن يتعدى بالهمزة، فيقال أوهنته، والوهن: بفتحتين لغةٌ في المصدر، ووهن يهن بالكسر: فيهما لغة قال أبو زيد: سمعت من العرب من يقرأ فما وهنوا بالكسر اهـ. وفي «البيضاوي»: وقرىء وهن بالضم ووهن بالكسر، ونظيره كمل في الحركات الثلاث انتهى.

وفي «القاموس» وغيره: وهنه يهنه وهنا، وأوهنه أضعفه، ووهن وأوهن الرجل، دخل في الوهن من الليل، ووهن ووهن يهن ووهن يوهن وهناً ووهنا ووهن يوهن، وهنا ضعف في الأمر أو العمل، أو البدن، وتوهن البعير. اضطجع، والطائر: أثقل من أكل الجيف، فلم يقدر على النهوض، والوهن

مصدر، ومن الرجال أو الإبل الغليظ القصير، والوهن من الليل: نحو منتصفه أو بعد ساعة منه، والوهن من الليل كالوهن، والوهانة من النساء الكسلى عن العمل تنعماً.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: صار الشيب كالنار، والشعر كأنه الحطب، ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه.

﴿شَقِيًّا﴾؛ أي: خائباً يقال: شقي بكذا؛ أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه، والمراد: أنه خائب غير مستجاب الدعوة.

﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ والموالى هنا: هم الأقارب الذين يرثون الرجل وسائر العصبات من بني العم ونحوهم، والعرب تسمى هؤلاء موالى قال الشاعر:

مَهْلاً بَنِيْ عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِيْنَا لاَ تَنْشُرُوْا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُوْنَاً

فالموالي: جمع مولى وهو العاصب، قال في «القاموس»: المولى، المالك والعبد والمعتِق، والمعتَق والصاحب والقريب، كابن العم ونحوه، والجار والحليف والابن، والعم والنزيل والشريك، وابن الأخت والولي والرب والناصر، والمنعم والمنعم عليه، والمحب والتابع والصهر انتهى.

﴿مِن وَرَآءِى﴾؛ أي: من بعدي.

﴿عَاقِرًا﴾؛ أي: لا تلد يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، إذا كانا عقيمين، وقال في «القاموس»: عقرت المرأة تعقر عقراً: من باب ضرب وعقراً وعقاراً، وعقرت تعقر: من باب نصر عقراً وعقارةً، وعقرت المرأة أو الناقة، صارت عاقراً؛ أي: حبس رحمها فلم تلد، وعقر الأمر عقراً لم ينتج عاقبةً، وعقر عقراً: من باب فرح الرجل دهش اهـ.

﴿وَلِيًّا﴾؛ أي: ابنا، وهو أحد معانيه السابقة عن «القاموس».

﴿يَحْيَىٰ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وتقول في تثنية: يحييان رفعاً، ويحيين نصباً وجراً، على حد قوله:

وَٱحْذِفْ مِنَ ٱلْمَقْصُوْرِ فِيْ جَمْعٍ عَلَىٰ حَـدِّ ٱلْـمُـثَـنَّـىٰ مَـا بِـهِ تَـكَـمَّـلاَ

﴿سَمِيًّا﴾: السمي المسمى؛ أي: شريكاً له في الاسم، فلم يسم أحدٌ بهذا الاسم قبله، وهو فعيل بمعنى مفعول، أصله. سميو، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء.

﴿عِتِيًّا﴾: من عتا يعتو عتواً، والعتو اليبس في العظم والعصب والجلد، وفي «المختار»: عتا من باب سما يعتو عتواً وعتياً بضم العين وكسرها، وهو عات فالعاتي: المجاوز للحد في الاستكبار وعتا الشيخ يعتو عتواً بضم العين وكسرها، كبر وولى عتياً أصله: عتوو، كقعودٍ فاستثقلوا توالي الضمتين والواوين، فكسروا التاء فانقلبت الواو الأولى ياءً لمناسبة الكسرة، ثم قلبت الثانية ياءً لتدغم فيها الياء، وكسرت الفاء تخفيفاً.

﴿مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾: قال في «القاموس»: المحراب الغرفة وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس، ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها اهـ. وفي «الشهاب» وأما المحراب المعروف الآن وهو طاقٌ مجوفٌ في حائط المسجد، يصلي فيه الإمام.. فهو محدث لا تعرفه العرب، فتسميته محراب اصطلاح للفقهاء اهـ.

وقوله: اصطلاح للفقهاء، ممنوع بل هو معنى لغوي إذ هو من أفراد المعنى اللغوي الذي ذكره في «القاموس» بقوله: ومقام الإمام من المسجد اهـ. ذكره في «الفتوحات».

﴿عَصِيًّا﴾: صيغة مبالغة، وأصل عصياً: عصيٌ بوزن فعيل، أدغمت الياء فيه وأتي بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل، لأن المنفي أصل العصيان، لا المبالغة فيه.

﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ الانتباذ: الاعتزال والانفراد، فقد تخلت مريم للعبادة في مكانٍ مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلةً عن الناس، وقيل: غير ذلك

وفي «المصباح»: وانتبذت مكاناً اتخذته بمعزل يكون بعيداً عن القوم.

﴿بَغِيًّا﴾ البغي: الفاجرة التي تبغي الرجال، وأصله: بغوي بزنة فعول، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما ـ وهي الواو ـ بالسكون، فقلبت ياءً على القاعدة، وأدغمت في الياء وكسرت الغين لتصح الياء، فلما كان بزنة فعول.. لم تلحقه التاء، كما قال في الخلاصة:

وَلاَ تَلِي فَارِقَةٌ فَعُوْلاَ أَصْلاً وَلاَ ٱلْمِفْعَالَ وَٱلْمِفْعِيْلاَ

اهـ شيخنا

وفي «القاموس» و«شرحه»: بغي يبغي من باب ضرب الشيء بغاءً بضم الفاء، وبغياً بفتحها وبغىً وبغيةً: طلبه، وبغى الرجل: عدل عن الحق، وعصى وبغى عليه: استطال عليه، وظلمه، فهو باغ فلعل إطلاقهم كلمة البغاء على العهر والزنا، مأخوذٌ من هذا المعنى، لأنه من دواعي ما يطلبه أهل الخنا والفجور.

﴿قَصِيًّا﴾؛ أي: بعيداً من أهلها.

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ يقال: جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد، والأصل في جاء: أن يتعدى لواحد بنفسه، فإذا دخلت عليه الهمزة.. كان القياس يقتضي تعديته، لاثنين، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل، فصار بمعنى ألجأ إلى كذا، ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد، كما تقول بلغته وأبلغنيه، ونظيره أتى حيث لم يُستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل أتيت المكان وآتانيه فلان.

﴿ٱلْمَخَاضُ﴾: المخاض وجع الولادة، وفي «القاموس» مخض يمخض بتثليث الخاء في المضارع مخضاً اللبن استخرج زبده، فهو لبن مخيض وممخوض، ومخض الشيء حركه شديداً، ومخض الرأي قلبه وتدبر عواقبه حتى ظهر له الصواب، ومخضت بكسر الخاء تمخض بفتحها الحامل مخاضاً بكسر الميم، ومخاضاً بفتحها، ومخضت بالبناء للمجهول، ومخضت بتشديد الخاء، وتمخضت الحامل: دنا ولادها وأخذها الطلق، فهي ماخض، والجمع مخض بضم الميم، وتشديد الخاء ومواخض.

﴿مِتُّ﴾: بكسر الميم وضمها، يقال: مات يمات كخاف يخاف، ومات يموت كقال يقول. ﴿نَسْيًا﴾: النسي: بفتح النون وكسرها بمعنى المنسي: الذبح بمعنى المذبوح، وكل ما من حقه أن يطرح ويُرمى ويُنسى ﴿مَنسِيًّا﴾؛ أي: شيئاً متروكاً حقيراً كالوتد وقطع الحبل وخرق الحيض، من كل شيءٍ حقيرٍ، فهو تأكيد لـ ﴿نسيا﴾.

﴿سَرِيًّا﴾: وفي «المصباح»: والسري، الجدول، وهو النهر الصغير، والجمع: سريان، مثل: رغيف ورغفان، والسريّ: الرئيس والجمع سراة، وهو عزيز لا يكاد يوجد له نظير، لأنه لا يُجمع فعيل على فعلة، وجمع السراة سروات، والسري فيه قولان:

أحدهما: أنه الرجل المرتفع القدر، من سرو يسرو كشرف يشرف، فهو سري، وأصله: سريو، فأعل إعلال سيد، فلامه واو، والمراد به في الآية: عيسى ـ عليه السلام ـ وقيل: السري، من سريت الثوب؛ أي: نزعته وسررت الحبل عن الفرس؛ أي: نزعته، كأن السري سرى ثوبه، بخلاف المد ثرو المزمل، قاله الراغب.

والثاني: أنه النهر الصغير، ويناسبه ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ واشتقاقه من سرىٰ يسري، لأن الماء يسري فيه، فلامه على هذا ياء انتهى «سمين».

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾: الرطب بضم ففتح: ما نضج من البسر قبل أن يصير ثمراً، والجنيّ: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: صار طرياً صالحاً للاجتناء، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ أي: طيبي نفساً ولا تغتمي، وارفضي ما أحزنك، وفي «المصباح»: وقرّت العين: من باب ضرب قرة بالضم وقرورا بردت سروراً، وفي لغةٍ أخرى من باب تعب: وأقر الله العين بالولد وغيره إقراراً في التعدية اهـ.

والمعنى: أعطاه الله ما يسكن عينه، فلا تطمح؛ أي: لا تلتفت إلى غيره.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾: أصله: ترأيينن بهمزة هي عين الفعل، وياء مكسورة هي لامه، وأخرى ساكنة هي ياء الضمير، والنون الأولى: علامة الرفع، والثانية: نون

التوكيد الثقيلة، وطريق حذل اللام أنها تحركت وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقت ساكنة مع ياء الضمير، فحذفت لالتقاء الساكنين، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وهو الراء، ثم حذفت الهمزة ثم حذفت نون الرفع للجازم وهو إن الشرطية، ثم حركت ياء الضمير لالتفاءِ الساكنين، هما ياء الضمير والنون الأولى من نوني التوكيد فإنها بنونين، فصار ترين بوزن تفين.

والحاصل: أن الأعمال ستة أو سبعة: قلب الياء ألفاً، ثم حذفها، ثم نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وحذفها، ثم حذف نون الرفع، ثم إدخال نون التوكيد، ثم تحريك ياء الضمير اهـ. شيخنا.

﴿فَقُولِيٓ﴾؛ أي: أشيري إليهم، قال الفراء: العرب تسمي كل ما أفهم الإنسان شيئاً كلاماً بأيّ طريق كان، إلا إذا أكد بالمصدر، فيكون حقيقة في الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاحتراس في قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل أو لبس أو إيهام، فيفطن لذلك حال العمل، فيأتي في صلب الكلام بما يخلصه من ذلك كله، فاحترس هنا بقوله: ﴿خَفِيّٗا﴾ مما يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر، أو اللوم على طلب الولد في إبّانِ الكبر والشيخوخة، وقيل: احتراس من مواليه الذين خافهم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ فإنه كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ شبه انتشار الشيب وكثرته في الرأس باشتعال النار في الحطب، واستُعير الاشتعال للانتشار، واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر على طريق الاستعارة التبعية.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً﴾ والجناس المماثل بين ﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ و﴿وَلِيًّا﴾.

ومنها: المبالغة في التضرع والدعاء، بتوسيط النداء بين جعل ومفعوله الثاني في قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ كتوسيطه بين كان وخبرها في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ كما في «روح البيان».

ومنها: التجريد في قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ والتجريد معناه أن ينتزع المتكلم من أمرٍ ذي صفة أمراً آخر يماثله في تلك الصفة مبالغةً لكمالها، فكأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة إلى حيث يصح أن يُنتزع منه موصوف آخر بتلك الصفة، وهو أقسام، منها: ما يكون بمن التجريدية كقولهم: لي من فلان صديق حميم.

ومنها: الآية الكريمة كما ذكر في «إعراب القرآن».

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾.

ومنها: الكناية اللّطيفة في قوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ فإن المسّ كناية عن الوطْءِ الحلال، أما الزنا فإنما يقال فيه، خبث بها، أو فجر أو زنى.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

ومنها: الزيادةُ والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾
وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا
لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ
أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ
كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ
رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا
﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة مريم، واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله تعالى.. أعقبها بذكر قصة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمٰن، من توحيد الرب الديان، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً، والنصارى عبدوا

المسيح، ومشركو العرب عبدوا الأوثان، وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر قصة مريم وابنها عيسى، واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله، وكانا من قبيل من قامت بهما الحياة.. ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً، والفريقان وإن اشتركا في الضلال، فالفريق العابد الجماد منهما أضل، ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه، تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله تعالى، وتبيين أنهم سالكوا غير طريقه، وفيه صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به، وأن ذلك متلقى بالوحي.

التفسير وأوجه القراءة

ولما اطمأنت مريم بما رأت من الآيات، وفرغت من نفاسها.. جاءت قومها مع ولدها، راجعةً إليهم عندما طهرت من نفاسها، ومضى لها أربعون يوماً، كما قال سبحانه ﴿فَأَتَتْ﴾؛ أي: جاءت مريم ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: مع ولدها عيسى، فالباء بمعنى مع، وجعلها الكاشفي للتعدية ﴿قَوْمَهَا﴾؛ أي: أهلها من المكان القصي الذي اعتزلت فيه للوضع، قيل: في يوم الوضع، وقيل: بعد أربعين يوماً كما سيأتي، وجملة قوله: ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿أتت﴾؛ أي: حالة كونها حاملةً له؛ أي: فجاءتهم مع ولدها عيسى حاملةً له، وهو ابن أربعين يوماً، روي[٢] عن ابن عباس أن يوسف انتهى بمريم إلى غار، فأدخلها فيه أربعين يوماً، حتى طهرت من النفاس، ثم حملته إلى قومها فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أُمّاه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي.. بكوا وحزنوا، وكانوا أهل بيتٍ صالحين.

وروي عن ابن عباس أيضاً[٣]: أنها خرجت من عندهم حين شرقت الشمس، وجاءتهم عند الظهر ومعها الولد، والله أعلم.

وروي: أنّ زكريا افتقد مريم فلم يجدها في محرابها، فاغتمّ غماً شديداً

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

وقال لابن خالها يوسف: اخرج في طلبها، فخرج يقص أثرها حتى لقيها تحت النخلة، فلما رجعت إلى قومها ـ وهم أهل بيت صالحون ـ وزكريا جالس معهم. . بكوا وحزنوا ثم ﴿قَالُوا﴾ موبخين لها ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ والله ﴿لَقَدْ جِئْتِ﴾ وفعلت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾؛ أي: منكراً عظيماً حين ولدت ولداً بغير أب؛ أي: إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها، ولا تكلم أحداً من البشر، وأنها ستكفى أمرها، ويقام بحجّتها، سلمت أمرها إلى الله تعالى، واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك. . أعظموا ما رأوا واستنكروا، وقالوا: يا مريم، لقد جئت أمراً عظيماً منكراً، ثم زادوا تأكيداً في توبيخها وتعييرها فقالوا:

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾؛ أي: يا شبيهة هارون في العبادة، وكان هارون هذا رجلاً صالحاً من أفضل الناس من بني إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، وهارون هذا لما مات تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون، تبركاً به وباسمه، والمراد: إنك يا مريم كنت في الزهد كهارون، فكيف صرت هكذا؟ وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وغيرهم، عن المغيرة بن شعبة قال: (بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا بكذا، فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم». وهذا التفسير النبوي، يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك، أو المعنى: يا من أنت نسل هارون أخي موسى، كما يقال للتميمي يا أخا تميم، وللمصري يا أخا مصر.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾؛ أي: ما كان أبوك عمران رجلاً زانياً، والمرء[1] مع ألف الوصل الإنسان أو الرجل، ولا يُجمع من لفظه كما في «القاموس» وسوء بفتح السين، وبإضافة ﴿ٱمْرَأَ﴾ إليه وهي أكثر استعمالاً من الصفة.

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنة بنت فاقوذ ﴿بَغِيًّا﴾؛ أي: امرأةً زانيةً، فمن أين لك

(١) روح البيان.

هذا الولد من غير زوج؟ وهو تقرير لكون ما جاءت به فرياً منكراً، وتنبيهٌ على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى عيسى، أن كلموه ليجيبكم، ويكون كلامه حجةً لي، والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها، وأنها بمعزل عن محاورة الإنس، قال ابن مسعود: لما لم يكن لها حجة.. أشارت إليه ليكون كلامه حجةً لها، وقيل: لما أشارت إليه.. غضب القوم وقالوا: فعلت ما فعلت وتسخرين بنا، ثم ﴿قَالُوا﴾ منكرين لجوابها موبخين لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ ونحدث ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ﴾؛ أي: في الحجر أو السرير حالة كونه ﴿صَبِيًّا﴾؛ أي: صغيراً ابن أربعين يوماً، والاستفهام[1] هنا للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم، قيل: أراد بالمهد حجرها، وقيل المهد بعينه وهو شيء معروف يتخذ لتنويم الصبي، أو سرير له، ولم نعهد فيما سلف صبياً رضيعاً في الحجر يكلمه عاقل، لأنه لا قدرة له على فهم الخطاب، ورد الجواب، روي أن عيسى كان يرضع، فلما سمع ذلك.. ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار بسبابة يمينه، فتكلم ووصف نفسه بصفاتٍ ثمانيةٍ، أولها عبودية الله وآخرها تأمين الله له في أخوف المقامات:

١ - ﴿قَالَ﴾ عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الذي له صفات الكمال، لا أعبد غيره، فاعترف له بالعبودية، لئلا يتخذوه إلَهاً، وإنما[2] نص عيسى على إثبات عبودية نفسه، لأن إزالة التهمة عن الله تعالى تفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله تعالى لا يخص الفاجرة بولدٍ في هذه الدرجة العالية، أما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى، قال الجنيد[3]: المعنى: إني عبد الله ولست بعبد سوء، ولا عبد طمع، ولا عبد شهوة، وفيه

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

إشارة إلى أن أفضل أسماء البشرية العبودية، وقال بعضهم: إن عبد الله فوق عبد الرحمٰن، وهو فوق عبد الرحيم، وهو فوق عبد الكريم، ولذا جعل رسول الله ﷺ عبد الله، وكذا عبد الحي وعبد الحق أعلى الأسماء وأمثلها، لأن بعض الأسماء الإلٰهية يدل على الذات، وبعضها على الصفات، وبعضها على الأفعال، والأولى أرفع من الثانية، وهي أرفع من الثالثة.

٢ - ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الإنجيل؛ أي: حكم لي بإيتائي الكتاب في الأزل، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال، وقيل: إنه آتاه الكتاب في تلك الحال وهو بعيد، والمعنى: سيؤتيني الكتاب، وسكن ياء ﴿أتاني﴾ حمزة.

٣ - ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾؛ أي: وسيجعلني نبياً، وفي هذا براءة لأمه، لأن الله سبحانه لا يصطفي لنبوته أولاد سفاح.

٤ - ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾؛ أي: نفاعاً للناس، معلماً للخير آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ أي: في أي مكان كنت فيه؛ أي: سيجعلني نفاعاً للعباد، هادياً لهم إلى طريق الرشاد في أي مكان كنت فيه، وهذه[1] الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع، تنبيهاً على تحقق وقوعه، لكونه قد سبق في القضاء المبرم.

٥ - ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: أمرني بأدائها في وقتها المحدد، أمراً مؤكداً ما دمت حياً، إذ في إقامتها وإدامتها على الوجه الذي سنه الدين تطهير النفوس من الأرجاس، ومنع لها من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ﴿و﴾ أمرني بـ﴿الزكاة ما دمت حيا﴾ في الدنيا؛ أي: وأمرني بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ما دمت حياً في الدنيا، لما في ذلك من تطهير المال، وقال بعضهم: والظاهر[2] أن إيصاءه بها لا يستلزم غناه، بل هي بالنسبة إلى أغنياء أمته، وعموم الخطابات الإلهية منسوب إلى الأنبياء، تهييجاً للأمة على الائتمار والانتهاء، قيل: المعنى أمرني بأداء الصلاة والزكاة إذا بلغت، وقيل أن أفعلهما

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

من الآن، قولان للمفسرين اهـ. شيخنا. وقيل: المراد أن الله تعالى صيَّره حين انفصل من أمه بالغاً عاقلاً، وهذا القول أظهر اهـ. «خازن».

قال في «بحر العلوم» وفي قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ دلالة بينة على أن العبد ما دام حياً لا يسقط عنه التكاليف والعبادات الظاهرة، فالقول بسقوطها كما نقل عن بعض الإباحيين كفر وضلال، انتهى. وقال[1] ابن عطية، وقرأ: ﴿دِمت﴾ بضم الدال عاصم وجماعة، وقرأ: ﴿دِمْتُ﴾ بكسر الدال أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، انتهى. والذي في كتب القراءات أن القراء السبعة قرؤوا ﴿دُمْتُ حَيًّا﴾ بضم الدال، وقد طالعنا جملةً من الشواذ، فلم نجدها لا في شواذ السبعة، ولا في شواذ غيرهم، على أنها لغة.

٦ - ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾؛ أي: وجعلني باراً بوالدتي، محسناً إليها، مطيعاً لها، وفي هذا إشارة إلى أنه بلا فحل، وفيه أيضاً إيماء إلى نفي الريبة عنها، إذ لو لم تكن كذلك.. لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها، وقد سبق[2] لك أنه قرىء ﴿وبراً﴾ بكسر الباء فإما على حذف مضاف؛ أي: وذا برّ، وإما على المبالغة، جعل ذاته من فرط برّه، ويجوز أن يضمر فعل في معنى أوصاني، وهو كلفني، لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد، ومن قرأ ﴿براً﴾ بفتح الباء، فقال الحوفي وأبو البقاء: إنه معطوف على ﴿مُبَارَكًا﴾ وفيه بعد الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة التي هي ﴿أوصاني﴾ ومتعلقها، والأولى إضمار فعل؛ أي: جعلني ﴿برّاً﴾ وحكى الزهراوي، وأبو البقاء، أنه قرىء ﴿وبر﴾ بكسر الباء والراء عطفاً على ﴿بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾.

٧ - ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾؛ أي: متكبراً مترفعاً متعاظماً على الناس ﴿شَقِيًّا﴾؛ أي: عاصياً لربه، والجبار المتعظم: الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والشقي: العاصي لربه، وقيل: الخائب، وقيل: العاق.

٨ - ﴿وَالسَّلَامُ﴾؛ أي: الأمان من الله ﴿عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾؛ أي: حين ولدت

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

بلا والدٍ طبيعي، من طعن الشيطان ﴿و﴾ السلام علي ﴿يوم أموت﴾ من شدائد الموت وضغطة القبر ﴿و﴾ السلام علي ﴿يوم أبعث﴾ من القبر حالة كوني ﴿حَيًّا﴾ من هول القيامة وعذاب النار، وإنما خص هذه المواضع الثلاثة لكونها أخوف من غيرها، وإنما عرَّف السلام هنا بإدخال الألف واللام عليه، بخلافه في يحيى، لأنه[1] قد تقدم لفظه في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: ذلك السلام الموجه إلى يحيى، موجه ﴿إلي﴾ وهذا على أن التعريف للعهد، والأظهر[2] على أنه للجنس والتعريف باللعن على أعدائه، فإن إثبات جنس السلام لنفسه، تعريض لإثبات ضده لأضداده، كما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى، فلما كلمهم عيسى بهذا الكلام.. أيقنوا ببراءة أمه، وأنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، ولم يتكلم بعد حتى بلغ سن الكلام.

والمعنى: أي والأمنة من الله عليّ فلا يقدر أحد على ضري في هذه المواطن الثلاثة، التي هي أشق ما تكون على العباد، وقرأ[3] زيد بن علي: ﴿يوم ولدت﴾؛ أي: يوم ولدتني، جعله ماضياً لحقته تاء التأنيث، ورجح ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ على ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ لكونه من الله تعالى، وهذا من قول عيسى عليه السلام، وقيل: سلام عيسى أرجح، لأنه تعالى أقامه في ذلك مقام نفسه، فسلم نائباً عن الله.

﴿ذلك﴾ المذكور الذي فصلنا خصاله الحميدة هو ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فكذلك[4] اعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشيدة، وإنه ابن يوسف النجّار، ولا كما قالت النصارى، إنه الإله أو ابن الإله ﴿قولُ الحق﴾ بالرفع، قال الكسائي: نعت لعيسى؛ أي: ذلك المذكور هو عيسى ابن مريم قول الله الحق؛ أي: الثابت الوجود، وكلمته، وسمي قول الحق، كما سمي كلمة الله، لوقوعه بكلمة كن بلا وساطة أبٍ، والقول والقيل والمقال والقال والقول: بمعنى واحد،

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) القرطبي.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ صفة لعيسى أيضاً؛ أي: ذلك عيسى ابن مريم ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قول الحق وكلمته، ومعنى ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يختلفون، على أنه من المماراة، أو يشكون، على أنه من المرية، وقد وقع الاختلاف في عيسى، فقالت اليهود: هو ساحر، وقالت النصارى: هو ابن الله، وكذا وقع الشك فيه من النصارى، هل هو ابن الله، أو كلمته ألقاها إلى مريم؟.

وقيل: يحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: قوله السابق من الصفات الثمانية القول الحق؛ أي: الصدق الذي فيه يمترون، والحق بمعنى الصدق، وإضافة القول إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل حقّ اليقين، والموصول على هذا صفة للقول.

وعلى قراءة نصب القول يكون القول مفعولاً مطلقاً، لقوله: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض؛ أي: قال: إني عبد الله قول الحق؛ أي: القول الصدق الذي فيه يمترون.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي: ﴿قول الحق﴾ برفع اللام، وقرأ زيد بن علي، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وابن أبي إسحاق، والحسن، ويعقوب ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بنصب اللام، وانتصابه على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة، وقرأ[1] ابن مسعود والأعمش: ﴿قال﴾ بألف ورفع اللام وقرأ الحسن: ﴿قول﴾ بضم القاف ورفع اللام، وهي مصادر كالرهب والرهب والرهب، وقرأ طلحة، والأعمش في رواية زائدة: ﴿قال﴾ بألف جعله فعلاً ماضياً ﴿الحق﴾ برفع القاف على الفاعلية، والمعنى: قال الحق وهو الله ذلك الناطق الموصوف بتلك الأوصاف هو عيسى ابن مريم، و﴿ٱلَّذِى﴾: على هذا خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وقرأ علي ـ كرم الله وجهه ـ وأبو مجلز، ومعاذ القارىء، وابن يعمر، وأبو رجاء، والسلمي، وداود بن أبي هند، ونافع في روايةٍ، والكسائي وفي رواية: ﴿تمترون﴾ بتاء الخطاب، والجمهور:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

بياء الغيبة.

والمعنى: أي[1] ذلك الذي فصلت نبوته، وذكرت مناقبه وأوصافه، هو عيسى ابن مريم، نقول ذلك قول الصدق الذي لا ريب فيه، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء، ثم أكد ما دل عليه سياق الكلام، من كونه ابناً لمريم لا لغيرها، بقوله: ﴿مَّا كَانَ لِلَّهِ﴾؛ أي: ما صح ولا استقام لله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾؛ أي: أن يتخذ ولداً، لأنه يلزم من اتخاذه ولداً الحاجة، وهو نقص، فـ﴿من﴾[2] صلة للكلام، و(أن) في موضع رفع اسم ﴿كَانَ﴾؛ أي: ما كان اتخاذ ولد من صفته، وقال الزجاج ﴿مِن﴾ في ﴿مِن وَلَدٍ﴾ مؤكدةٌ تدل على نفي الواحد والجماعة.

ثم نزه نفسه سبحانه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه الله سبحانه وتقدس عن مقالتهم هذه، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ من الأمور؛ أي: إذا أراد أن يحدث أمراً من الأمور، وأن يوجد شيئاً من الكائنات ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾؛ أي: احدث ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيوجد ذلك الأمر كما قال لعيسى كن فكان من غير أب، والقول[3] هنا مجاز عن سرعة الإيجاد، والمعنى: أنه تعالى إذا أراد تكوين الأشياء لم تمتنع عليه، ووجدت كما أرادها على الفور من غير تأخير في ذلك، كالمأمور المطيع الذي إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.. كان المأمور به مفعولاً، لا حبس ولا إبطاء، وهو المجاز الذي يسمى التمثيل، وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عبلة ﴿فيكونَ﴾ بالنصب.

والخلاصة[4]: لا يليق بحكمة الله وكمال ألوهيته، أن يتخذ الولد، لأنه لو أراده.. لخلقه بقوله: ﴿كُن﴾ فلا حمل ولا ولادة، ولأن الولد إنما يُرغب فيه

---

(١) المراغي.

(٢) القرطبي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

ليكون حافظاً لأبيه، يعوله وهو حي، وذكراً له بعد الموت، والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من ذلك، فالعالم كله خاضع له لا حاجة له إلى ولد ينفعه، وهو حيٌّ أبداً، ومن كان هذا شأنه، فكيف يتوهم أن يكون له ولد؟ لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج ﴿و﴾ قال عيسى أيضاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى هو ﴿رَبِّى﴾ أي مالكي وخالقي ومعبودي ﴿وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالككم وخالقكم ومعبودكم، ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ والخطاب فيه لمعاصري رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى، أمر الله تعالى أن يقول لهم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد هذا الكلام، وقيل: الخطاب للذين خاطبهم عيسى بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الآية. ذكره في «البحر» وقرأ الجمهور[1]؛ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾ عطفاً على قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أو على الاستئناف، ويؤيده قراءة أبيّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بالكسر بغير واو، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، ﴿وأن الله﴾ بالواو وفتح الهمزة، وخرج على حذف حرف الجر متعلقاً بما بعده؛ أي: ولأن الله، أو بسبب أنه تعالى ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾على ما قاله الخليل، وسيبويه، وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض، عطفاً على الصلاة في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وبـ﴿أن الله ربي وربكم﴾.

﴿هَٰذَا﴾ الذي[2] ذكرته من التوحيد ونفي الولد والزوجة ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إلى الجنة وإلى رضا الله سبحانه وتعالى لا يضل سالكه، وسمي هذا القول صراطاً مستقيماً تشبيهاً له بالطريق، لأنه المؤدي إلى الجنة.

والمعنى: أي[3] هذا الذي أوصيتكم أن الله أمرني به، هو الطريق المستقيم، فمن سلكه.. نجا، ومن اتبعه.. اهتدى، لأنه هو الدين الذي أمر به أنبياءه، من خالفه.. ضل وغوى وسلك سبيل الردىٰ، ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر في شأن عيسى، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، اختلفوا فيه كما قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ والجماعة ﴿مِن﴾ اليهود

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والنصارى في شأن عيسى فيما ﴿بَيْنِهِمْ﴾ فاليهود قالوا: إنه ساحر، وقالوا: إنه ابن يوسف النجار، والنصارى اختلفت فرقهم فيه، فقالت النسطورية منهم ـ نسبة إلى عالم يسمى نسطور ـ: هو ابن الله، أظهره ما شاء، ثم رفعه إليه، وقالت الملكانية ـ نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفاً عالماً ـ: إنه عبد الله كسائر خلقه، وهذا الرأي هو الذي نصره الملك، ونصره غيره من شيعته، وقالت اليعقوبية ـ نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب ـ: هو الله هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى السماء، فأفرطت النصارى وغلت، وفرّطت اليهود وقصّرت.

ومن في قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾[1]: زائدة؛ أي: فاختلف الأحزاب بينهم أو حال[2] من الأحزاب، والمعنى: حال كون الأحزاب بعضهم؛ أي: بعض النصارى، إذ بقيت منهم فرقة مؤمنةٌ يقولون: إنه عبد الله ورسوله، وقيل: البين هنا بمعنى البعد، ومن بمعنى اللام؛ أي: اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق، ذكره في «البحر»، ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: فشدة عذاب ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واختلفوا في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ من اليهود والنصارى، والويل: الهلاك وهو نكرة وقعت مبتدأ وخبره ما بعده، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، ونظيره سلام عليك، فإن أصله: منصوب نائب مناب فعله لكنه عدل به إلى الرفع على الابتداء للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: من شهود وحضور يوم عظيم، هو له، وما يجري فيه من الحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه للحساب، وهول الموقف أو من وقت حضوره، أو من[3] شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو شهادة الملائكة والأنبياء، وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر، وسوء الأعمال، وقيل: فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراح.

(٤) الخازن.

وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغة تعجبٍ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الماضي، فعجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ منهم؛ أي[1]: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، أخبر ـ سبحانه ـ أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا أو يبصروا في الدنيا، وقيل: معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدّع قلوبهم. وعبارة النسفي هنا: الجمهور على أن لفظه أمر ومعناه التعجب، والله تعالى لا يوصف بالتعجب، ولكن المراد أن أسماعهم وأبصارهم جدير بأن يُتعجب منهما بعدما كانوا صمّاً وعمياً في الدنيا، قال قتادة: إن عموا وصموا عن الحق في الدنيا.. فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم و﴿بِهِمْ﴾ مرفوع المحل على الفاعلية كأكرم بزيد، فمعناه كرم زيد جداً ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أقيم الظاهر مقام المضمر؛ أي: لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يُجدي عليهم، ووضعوا العبادة في غير موضعها ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ وخطأٍ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهر وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدوث فيه، إشعاراً بأن لا ظلم أشدّ من ظلمهم.

والمعنى: أي[2] لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أنداداً، وزعموا أن له ولداً عمياً في الدنيا عن إبصار الحق، والنظر إلى حجج الله التي أودعها في الكون دالةً على وحدانيته، وعظيم قدرته، وبديع حكمته، صماً عن سماع آي كتبه، وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.. فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة، وما أبصرهم حينئذ حيث لا يُجدي السماع والإبصار شيئاً، ويعضون على أناملهم حسرةً وأسفاً ويتمنون على الله الأمانيّ، فيودّون الرجوعَ إلى الدنيا، ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل، ولكن هيهات هيهات، فقد فات الأوان.

صَاحِ هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ   رَدَّ فِيْ ٱلضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ ٱلْحِلَابِ

---

(١) مدارك التنزيل.   (٢) المراغي.

ومن ثم لا يجاب لهم طلب، بل يقال لكل أفاك أثيم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣﴾.

ثم أمر ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ أن ينذر قومه المشركين جميعاً، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾؛ أي: وخوّف يا محمد كفار مكة والناس جميعاً ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾؛ أي: أهوال يوم الحسرة والندامة، ليتوبوا عما هم عليه من الكفر والعصيان، وهو يوم القيامة سمي بذلك، لأن المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا زاد في الإحسان، وقوله: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: بدل من يوم الحسرة، أي: إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بالخلود فيها، بذبح الموت، وذبحه تصوير لأن كلاً من الفريقين يفهم فهماً لا لبس فيه، أنه لا موت بعد ذلك، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن ذلك اليوم وأهواله في الدنيا وكذا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بالقيامة والبعث والمجازاة: جملتان[1] حاليتان من مفعول أنذرهم؛ أي: وأنذرهم وهم على هاتين الحالتين، أو حالان من الضمير المستتر في قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: استقروا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهم على هاتين الحالتين السيئتين، وعلى هذا يكون قوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ اعتراضاً.

والمعنى: أي[2] وأنذر يا محمد الناس جميعاً، يوم يتحسر الظالمون على ما فرّطوا في جنب الله، حين فرغ من الحساب، وذهب أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، ونودي كلٌّ من الفريقين: لا خروج من هذا بعد اليوم، ولا موت بعد اليوم، وهم في الدنيا غافلون عن ذلك اليوم غير مصدقين به.

روى الشيخان، والترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتىٰ بالموت كهيئة كبش أملح يخالط بياضه سواد، فينادِي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلّهم قد رآه، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾، زاد الترمذي: «ولو أنّ أحداً مات فرحاً.. لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً.. لمات أهل النار».

ثم سلّىٰ رسوله وتوعد المشركين فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾. تأكيد للضمير في ﴿إِنَّا﴾ لأنه بمعناه، فإن قيل: ما الفائدة في ﴿نَحْنُ﴾ وقد كفت عنها ﴿إِنَّا﴾.. فالجواب: أنه لما جاز في قول المعظم ﴿إِنَّا﴾ نفعل أن يوهم أن أتباعه فعلوا.. أبانت (نحن) بأنّ الفعل مضاف إليه حقيقةً، ذكر الجواب عنه ابن الأنباري، ذكره ابن الجوزي ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: نميت سكان الأرض جميعاً، فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً، فإن قيل: فلم قال ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ وهو يرث الآدميين وغيرهم.. فالجواب أن ﴿مَن﴾ تختص أهل التمييز، وغير المميزين يدخلون في معنى الأرض، ويجرون مجراها، ذكر الجواب عن هذا السؤال لابن الأنباري أيضاً.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يردون إلينا يوم القيامة، لا إلى غيرنا، فنجازي كلاً بعمله.

والمعنى: أي لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم، ثم نجازي كلّ نفسٍ بما عملت حينئذٍ، فنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء من تحت مبنياً للمفعول، والأعرج: بالتاء من فوق، وقرأ السلميّ، وابن أبي إسحاق، وعيسى: بالياء من تحت مبنياً للفاعل، وحكى الدانيّ عنهم بالتاء.

---

(١) الجمهور.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾؛ أي: واتل يا محمد على قومك في القرآن، أو في هذه السورة ﴿إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾؛ أي: قصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ونبأه وبلغها إياهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ وذلك[1] أن أهل الملل كانوا يعترفون بفضله، ومشركو العرب يفتخرون بكونهم من أبنائه، فأمر الله تعالى حبيبه ـ عليه السلام ـ أن يخبرهم بتوحيده الذي هو ملة إبراهيم، ليقلعوا عن الشرك، فعساهم باستماع قصته يتركون ما هم فيه من القبائح، وجملة قوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾؛ أي: إن إبراهيم كان ﴿صِدِّيقًا﴾؛ أي: ملازماً للصدق في كل ما يأتي وما يذر، مبالغاً فيه قائماً به في جميع الأوقات ﴿نَّبِيًّا﴾؛ أي: رفيع القدر عند الله، وعند الناس، فلا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطةً بينه وبين عباده، تعليل[2] لما تقدم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن يذكره، وهي معترضة بين البدل الآتي والمبدل منه، وقرأ أبو البرهشيم ﴿إنه كان صادقاً﴾ وقوله: ﴿نَّبِيًّا﴾ خبر آخر لكان مقيد[3] للأول، مخصص له أي: كان جامعاً بين الصديقية والنبوة، وذلك أن الصديقية تلو النبوة، ومن شرطها أن لا يكون نبياً إلا وهو صديق، وليس من شرط الصديق أن يكون نبياً، ولأرباب الصدق مراتب: صادق، وصدوق، وصديق، فالصادق من صدق في قيامه مع الله بالله وفي الله، وهو الفاني عن نفسه، والباقي بربه، والفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول من بعث لتبليغ الأحكام ملكاً كان أو إنساناً، بخلاف النبي فإنه مختص بالإنسان.

فائدة[4]: عاش إبراهيم ـ عليه السلام ـ من العمر مئةً وخمساً وسبعين سنةً، وبينه وبين آدم ألفا سنةٍ، وبينه وبين نوح ألف سنة، كما ذكره السيوطي في «التحبير».

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بدل اشتمالٍ من إبراهيم؛ أي: من خبره المقدر، والمبدل منه محذوف، والبدل باعتبار ما أضيف إليه الظرف، وهو قوله: ﴿قَالَ

---

(1) روح البيان.
(2) الشوكاني.
(3) روح البيان.
(4) الفتوحات.

﴿لِأَبِيهِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه آزر متلطفاً في الدعوة، مسهلاً له ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي فإن التاء عوض عن ياء الإضافة، ولذلك لا يجتمعان في أفصح اللغات، فلا يقال: يا أبتي لامتناع الجمع بين العوض والمعوض عنه، ولا يقال أيضاً: يا أبتا في أفصح اللغات، لكون الألف بدلاً من الياء، كما بسطنا البحث عن ذلك في رسالتنا «هدية أولي العلم والإنصاف في إعراب المنادى المضاف» وقرأ ابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر. ﴿يا أبت﴾ بفتح التاء، وقد لحن هارون هذه القراءة، وفي مصحف عبد الله ﴿وأبت﴾ بواوٍ بدل ياءٍ، ذكره في «البحر».

والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ للإنكار والتوبيخ، واللام فيه حرف جر دخلت على ما الاستفهامية، كما يدخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، وعلام، وفيم، وإلام، ومم، وعم، وحذفت ألفها فرقاً بينها وبين ما الموصولة، إذا دخل عليها حرف الجر وقلّ استعمال الأصل فيها، و(ما) في قوله: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ عبارةٌ[1] عن الصور والتماثيل؛ أي: يا أبي لم تعبد الأصنام والتماثيل التي لا تسمع ثناءَك وتضرعك لها عند عبادتك لها، مريداً بها الثواب ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه، وما تفعله من عبادته مريداً بها الثواب، ويجوز[2] أن يُحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك؛ أي: لا يسمع شيئاً من المسموعات، ولا يُبصر شيئاً من المبصرات ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: ولا ينفعك شيئاً من الأشياء، فلا يجلب لك نفعاً، ولا يدفع عنك ضرراً، أو ولا يدفع عنك شيئاً من عذاب الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فـ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، أو ولا يغنيك شيئاً من الإغناء، وهو القليل منه، فـ﴿شَيْـًٔا﴾ مصدر؛ أي: ولأي شيء، ولأي سببٍ تعبدها، مع أن فيها ما يقتضي عدم عبادتها، وهو عدم سمعها وبصرها اهـ. شيخنا.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ومعنى الآية: أي[1] واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام، ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمٰن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته وهو الصديق النبي حين نهى قومه عن عبادتها، وقال لأبيه: ما الذي حبب إليك أن تعبد ما لا يسمع ثناءك على حين عبادتك له، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه، ولا ينفعك فيدفع عنك ضراً إذا استنصرت به.

وقد سلك عليه السلام في دعوته أجمل الآداب في الحجاج، واحتج بأروع البرهانات، ليرده عن غيه، ويقفه على طريق الهدى والرشاد، فاستهجن منه أن يعبد ما يستخف به كل ذي لب، ويأبىٰ الركون إليه كل ذي عقل، فالعبادة هي القصوى في التعظيم، فلا يستحقها إلا الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب، لا الأصنام التي لا تسمع الأصوات، ولا تنظر الأشياء، وتعجز عن جلب المنافع ودفع المضار.

وقصارى ما قال: أن الإنسان السميع البصير، يأنف أن يعبد نظيره، فكيف تعبد ما خرج عن الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه، وعن الإنسانية بفقد العقل، وعن الحيوانية بفقد الحواس، أما كان لك عبرة في حاجته وفقده السمع والبصر.

واعلم: أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أورد على أبيه الدلائل والنصائح، وصدر كلاً منها بالنداء المضمن للرفق واللين، استمالةً لقلبه، وامتثالاً لأمر ربه، ثم كرر دعوته إلى الحق فقال: ﴿يَتَأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي﴾؛ أي: قد وصل إلي بطريق الوحي ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بالله ومعرفته ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ أي: نصيب لم يصل إليك، وأنه قد تجدد لي حصول ما أتوصل به منه إلى الحق، وأقتدر به على إرشاد الضالّ ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ على ديني من الإيمان والتوحيد، ولا تستنكف عن التعلم مني ﴿أَهْدِكَ﴾ وأدلك ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب منجياً من الضلال والمعاطب[2]، ولم يشافهه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يصف نفسه بالعلم الفائق، وإن كان كذلك، بل جعل نفسه في صورة رفيق له في مسير يكون أعرف، وذلك من باب البِرّ والرفق واللطف.

والمعنى: أي[1] يا أبي إني وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك، لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه، فاتبعني أهدك طريقاً مستقيماً لا زيغ فيه، يوصلك إلى نيل المطلوب، وينجيك من كلّ مرهوب.

وفي قوله: ﴿قَدْ جَآءَنِى﴾ إيماء إلى أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبىء، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل ما يوصله إلى الجنة ونعيمها، ويبعد به عن النار وعذابها.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يزينها لك، ويغريك عليها، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾؛ أي: عاصياً له، مخالفاً لأمره، حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه.. فهو عاص لله، ومعلوم أن طاعة العاصي تورث النقم، وتسلب النعم والتعرض[2] لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه، قال الكسائي: العصي والعاص بمعنى واحد، ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن مت على ما أنت عليه من متابعة الشيطان، وعصيان الرحمٰن ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ ويصيبك ﴿عَذَابٌ﴾ كائن ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ﴾ يا أبي ﴿لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾؛ أي: مقارناً له في اللعن المخلد، والعذاب المؤبد، أو قريباً منه في النار، تليه ويليك من الولي وهو القرب، قال الفراء[3]: معنى ﴿أخاف﴾ هنا: أعلم، وقال الأكثرون، إن الخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير هو: أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

والمعنى: يا أبي إني أخاف لمحبتي لك، وغيرتي عليك، أن يصيبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾؛ أي: قريناً وتابعاً له في النار.

وقصارىٰ ذلك: إني أخاف أن تكون تابعاً للشيطان في الدنيا، فيمسك عذابٌ من الرحمن في العقبىٰ.

ولما دعا إبراهيم أباه إلى التوحيد، وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان، وأردف ذلك بالوعظ واللطف.. قابله أبوه بجواب هو على الضد من ذلك، حيث قابله بالغلظة والفظاظة والقسوة ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ استئنافٌ بيانيٌ كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقيل: قال أبوه آزر مصراً على عناده، ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ أي: أمعرض أنت عن عبادة آلهتي، وأصنامي، ومنصرف إلى غيرها يا إبراهيم؛ أي[1]: أتاركها أنت، وتارك عبادتها، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ والتعجيب، وَجْهُ الإنكار[2] إلى نفسه الرغبةُ مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل، فضلاً عن ترغيب الغير عنها، قدم الخبر على المبتدأ للاهتمام به، والأولى كونه مبتدأ، وأنت فاعله سد مسد الخبر، لئلا يلزم الفصل بين الصفة وما يتعلق بها، وهو (عن).

والخلاصة: أتكره آلهتي ولا ترغب في عبادتها يا إبراهيم، ثم توعده فقال: والله ﴿لئن لم تنته﴾ وتنزجر يا إبراهيم، وترجع عما أنت فيه من النهي عن عبادتها والدعوة إلى ما دعوتني إليه.. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة، وأرمينك بها حتى تموت، أو تبعد عني، وقيل[3] باللسان فيكون معناه لأشتمنك، وقيل: معناه لأضربنك، وقيل: لأظهرن أمرك، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾: معطوف على ما دل عليه، لأرجمنك؛ أي: فاحذرني واتركني ﴿مَلِيًّا﴾؛ أي: زماناً طويلاً سالماً مني، ولا تكلمني؛ أي: فاحذرني وأبعد عني بالمفارقة من الدار والبلد دهراً طويلاً، من الملاوة وهو الدهر، ومنه قول مهلهل:

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ ٱلْجِبَالِ لِمَوْتِهِ   وَبَكَتْ عَلَيْهِ ٱلْمُرْمِلَاتُ مَلِيَّا

وقيل معناه: اعتزلني سالم العرض، لا تصيبك مني معرة، واختار هذا ابن جرير، فـ﴿ملياً﴾ على هذا: منتصب على الحال من إبراهيم، وعلى القول الأول منتصب على الظرفية.

وقد قابل[1] الأب رفق الابن بالعنف، فلم يقل: يا بني، كما قاله الابن ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وقابل وعظه بالسفاهة إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وفي ذلك تسليةٌ للنبي ﷺ وتأسية له بإبراهيم فيما كان يلقى من الأذى من قومه، ويقاسيه منهم، ومن عمه أبي لهب من العنت والمكروه. فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد.. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم استئناف بياني ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾؛ أي: سلام توديع مني، وتحية مفارقة لك، ومشاركةٍ لك على ما أنت عليه، كائن عليك، لا سلام لطفٍ وإحسان لأنه ليس بدعاءٍ له كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، ودل على جواز مشاركة المنصوح له إذا أظهر اللجاج.

والمعنى: سلمت مني لا أصيبك بمكروه بعد، ولا أشافهك بما يؤذيك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ والسين فيه للاستقبال، أو لمجرد التأكيد؛ أي: أدعو لك ربي أن يهديك إلى الإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر: طلب التوفيق للإيمان المؤدي إلى المغفرة، كما يلوح به تعليل قوله ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والاستغفار[2] بهذا المعنى للكافر قبل تبيين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاؤه له مع بقائه على الكفر، فإنه مما لا مساغ له عقلاً ولا نقلاً، وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل، وإنما الذي يمنعه السمع، ألا ترى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنْه عنه» فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية. ولا اشتباه في أن هذا الوعد من

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

إبراهيم، وكذا قوله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وما ترتب عليهما من قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ إنما كان قبل انقطاع رجاءه عن إيمانه، لعدم تبيّن أمره، كما قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

والمعنى: سأطلب لك من ربي الغفران، بأن يوفقك للهداية، أو ينير بصيرتك لقبول الحق، ويرشدك إلى ما فيه الخير، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: بليغاً في البر والإلطاف تعليل لما قبلها، والمعنى: سأطلب لك المغفرة من الله فإنه كان بي كثير البر واللطف. وقال الفراء: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾؛ أي: عالماً لطيفاً، يجيبني إذا دعوته.

والمعنى[1]: أنه سبحانه للطفه بي، وإنعامه علي، عودني الإجابة، فإذا أنا استغفرت لك.. أغاثك بجوده وكرمه وغفر لك ذنوبك إن تبت إليه وأنبت، ثم بيّن ما بيَّت النية عليه، وعزم على إنفاذه فقال: ﴿أَعْتَزِلُكُمْ﴾؛ أي: أتباعد عنك، وعن قومك، بالمهاجرة بديني، حيث لم يؤثر فيكم نصائحي ﴿وَ﴾ أتباعد عـ﴿ما تدعون﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من الأوثان والأصنام، وأفر بديني وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفعني ويضرني، وقد روي أنه عليه السلام هاجر إلى بلاد الشام، وفي هجرته هذه تزوج سارة، ولقي الجبار الذي أخدم سارة هاجر ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾؛ أي: وأعبد ربي سبحانه وحده، وأجتنب عبادة غيره من المعبودات ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ﴾؛ أي: أترجّىٰ أن لا أكون ﴿بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ المنعم علي ﴿شَقِيًّا﴾؛ أي: خائباً؛ أي: أترجّىٰ عدم كوني خائباً محروماً بسبب دعائي وعبادتي إياه، كما خبتم أنتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان، التي لا تجيب دعاءَكم ولا تنفعكم ولا تضركم، وفيه تعريض[2] لشقائهم في عبادتهم آلهتهم، وفي تصدير الكلام بـ﴿عسى﴾: إظهار التواضع، ومراعاة حسن الأدب، والمراد بالدعاء هنا العبادة، لأن «الدعاء مخ العبادة» قيل أراد بهذا الدعاء هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله، ويطمئن إليهم عند وحشته، وقيل: أراد دعاءَه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

لأبيه بالهداية، وقد حقق ما عزم عليه، فحقق الله سبحانه رجاءه، وأجاب دعاءه فقال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾؛ أي: فلما اعتزل إبراهيم أباه وقومه ﴿و﴾ اعتزل ﴿ما يعبدون من دون الله﴾ سبحانه وتعالى بالمهاجرة إلى الشام، فارتحل من كوثي إلى الأرض المقدسة ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولده، أي: آنسنا وحشته من فراقهم بأولادٍ أكرم على الله من أبيه وقومه الكفرة، لأنه عاش حتى رأى يعقوب، لا عقيب المجاوزة والمهاجرة، فإن المشهور، أن الموهوب حينئذٍ إسماعيل، لقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ إثر دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ ولعل[1] تخصيصهما بالذكر أنهما شجرة الأنبياء، أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضل على انفراده؛ أي: اعتزل أباه وقومه الكفرة، وأصنامهم بالمهاجرة إلى الأرض المقدسة، ولم يضره فراقهم لا في دين ولا في دنيا، بل نفعه ذلك إذ أبدله[2] بهم من هم خير منهم، ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بني إسرائيل، ولهم الشأن الخطير والقدر العظيم، فقد وهبه إسحاق وولد لإسحاق يعقوب، وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة، أما إسماعيل.. فتولى الله سبحانه تربيته بعد نقله رضيعاً إلى المسجد الحرام، فأحيا تلك المشاعر العظام، ومن ثم أفرده بالذكر بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...﴾ الآية.

﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: وكل[3] واحد من إسحاق ويعقوب، وقال مقاتل: ﴿وَكُلًّا﴾: يعني: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب؛ أي: وكل واحد منهم ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ بنبئهم[4] الله - سبحانه وتعالى - بعلوم المعارف، وهم ينبئون الخلق بتوحيد الله، وبالإسلام، وانتصاب[5] ﴿كُلًّا﴾ على أنه المفعول الأول لـ﴿جعلنا﴾، قدم عليه للتخصيص، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم؛ أي: كل واحد منهم ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ لا بعضهم دون بعض ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الثلاثة ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾؛ أي: كل خير ديني ودنيوي، مما لم يوهب لأحد من العالمين من المال

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) زاد المسير.
(٤) المراح.
(٥) الشوكاني.

والجاه والأتباع والذرية الطيبة؛ أي: وآتيناهم من فضلنا الديني والدنيوي ما لم نؤته أحداً من العالمين، فآتيناهم النسل الطاهر، والذرية المباركة، وإجابة الدعاء، واللطف في القضاء، والبركة في المال والأولاد، إلى نحو أولئك من خيري الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المذكورين ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾؛ أي: ثناءً صادقاً ﴿عَلِيًّا﴾؛ أي: رفيعاً مشهوراً دائماً إلى يوم القيامة، يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم، وتذكرهم الأمم كلها إلى يوم القيامة، بما لهم من الخصال المرضية، وتقول هذه الأمة في الصلوات الخمس: «كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» إلى قيام الساعة، إجابةً لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

والمراد بلسان الصدق[1]: الثناء الحسن، عبَّر عنه باللسان لكونه يوجد به، كما عُبِّر باليد عن العطية، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو، للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتحول الدول، وتبدل الملل.

وهذا[2]: توبيخ لكفار مكة، إذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين، أن يتبعوهم في الدين، مع أنهم لم يفعلوا اهـ. شيخنا.

الاعراب

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَتَتْ﴾ الفاء: استئنافية ﴿أتت﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَرْيَمَ﴾ ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل المستتر في ﴿أتت﴾؛ أي: حالة كونها مصحوبةً به، كما قاله أبو البقاء، وهو حسن ولا نرى مانعاً من تعلقه بـ﴿أتت﴾ و﴿قَوْمَهَا﴾: مفعول به والجملة، مستأنفة ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول والجملة. في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿أتت﴾ ﴿قَالُوا۟﴾: فعل

(١) البيضاوي والشوكاني. (٢) الفتوحات.

وفاعل والجملة، مستأنفة ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾: منادى مفرد العلم، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿لَقَدۡ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جِئۡتِ﴾: فعل وفاعل ﴿شَيۡـٔٗا﴾: مفعول به ﴿فَرِيّٗا﴾ صفة لـ﴿شَيۡـٔٗا﴾ ويجوز إعراب ﴿شَيۡـٔٗا﴾ على المصدرية، أي: نوعاً من المجيء غريباً، والجملة الفعلية: جواب القسم المحذوف وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾: منادى مضاف وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة، معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَأَشَارَتۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿أشارت﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَرۡيَمَ﴾ ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق به والجملة معطوفة مفرعة على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال ﴿نُكَلِّمُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على المتكلمين ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾: جار ومجرور حال من اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿صَبِيّٗا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول.

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على عيسى والجملة: مستأنفة ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: فعل ماض ونون وقاية ومفعولان وفاعله ضمير يعود على الله،

والجملة الفعلية، في محل النصب حال من اسم ﴿إن﴾. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: فعل ونون وقاية وفاعل مستتر يعود على الله ومفعولان والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكذا جملة قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿أَيْنَ مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على الفتح، والظرف متعلق بفعل الشرط أو بالجواب المحذوف، و﴿كُنتُ﴾: تامة والتاء فاعلها وهو في محل الجزم بـ﴿أين﴾ على كونه فعل شرط لها، ويجوز أن تكون ناقصة، والتاء اسمها و﴿أَيْنَ مَا﴾: متعلق بمحذوف خبرها المقدم، وجواب الشرط: محذوف دل عليه ما قبله تقديره: أينما كنت جعلني مباركاً أو جوابه هو نفس المتقدم عند من يرى ذلك، وجملة الشرط في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ولا يجوز أن تكون استفهامية، لأنه يلزم أن يعمل فيها ما قبلها، وأسماء الاستفهام لها صدر الكلام، فتعين أن تكون شرطية لأنها منحصرة في هذين المعنيين اهـ. «كرخى» ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية معطوفة على ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: معطوف على ﴿الصلاةِ﴾. ﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية ﴿دُمْتُ حَيًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره وجملة ﴿دام﴾: صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه والظرف المقدر متعلق بـ﴿أوصاني﴾ والتقدير، ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ مدة دوامي ﴿حَيًّا﴾.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَبَرًّۢا﴾ معطوف على ﴿مُبَارَكًا﴾؛ أي: وجعلني بارا ﴿بِوَٰلِدَتِي﴾: متعلق بـ﴿براً﴾. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعولان معطوف على ﴿وَجَعَلَنِي﴾. ﴿شَقِيًّا﴾ صفة لـ﴿جَبَّارًا﴾. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَيَّ﴾ خبره والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية ﴿وُلِدتُّ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ والظرف: متعلق بالاستقرار الذي

تعلق به الخبر أعني ﴿عَلَيَّ﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ﴾: معطوفان على ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾. ﴿حَيًّا﴾: حال من فاعل ﴿أُبْعَثُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾ مبتدأ وخبر والجملة: مستأنفة ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة أولى لـ﴿عِيسَى﴾ ﴿قَوْلَ﴾: صفة ثانية له ﴿ٱلْحَقِّ﴾: بمعنى الله مضاف إليه؛ أي: كلمة الله ﴿ٱلْحَقِّ﴾ كما مر في مبحث التفسير ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ثالثة لـ﴿عِيسَى﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يَمْتَرُونَ﴾ وجملة ﴿يَمْتَرُونَ﴾: صلة الموصول هذا على قراءة الرفع، وأما على قراءة النصب فـ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾: منصوب بفعل محذوف تقديره. قال: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾، ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بمعنى الصدق ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ وجملة ﴿يَمْتَرُونَ﴾: صفة له ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾ ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿يَتَّخِذَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلَدٍ﴾: مفعول به لـ﴿يَتَّخِذَ﴾ وجملة ﴿يَتَّخِذَ﴾: مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً تقديره ما كان اتخاذ ولد لائقاً بالله وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره سبح ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: فعل ومفعول مفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية: في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً ﴿إنما﴾: أداة حصر ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بيقول وجملة ﴿يَقُولُ﴾: جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة ﴿كُن﴾: فعل أمر تام بمعنى أحدث، وفاعله: ضمير يعود على ذلك الأمر وجملة ﴿كُن﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾: بالرفع الفاء: استئنافية ﴿يكون﴾: فعل مضارع تام وفاعله ضمير يعود على ذلك الأمر والجملة: في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره (فـ) هو ﴿يَكُونُ﴾ والجملة: مستأنفة وبالنصب هو منصوب بأن

مضمرة وجوباً بعد (الفاء) السببية الواقعة في جواب الأمر والجملة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر مقيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره ليكن تكوينه فكونه.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة ﴿إن الله ربي﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبِّي﴾ والجملة: مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ كما مر في محبث التفسير، هذا على قراءة كسر همزة ﴿إن﴾ وأما على فتحها فعلى تقديره حرف جر متعلق بما بعده، تقديره: و﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفتم أن الله ربي وربكم وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: ﴿اعبدوه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٌ﴾ والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿اختلف الأحزاب﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ تقديره: حالة كون المختلفين بعضهم ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة ﴿ويل﴾ مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء عليهم ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة الفعلية قبلها أعني قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ عطف اسمية على فعلية ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن مَّشْهَدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ويل﴾ ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾ ﴿أَسْمِعْ﴾ فعل تعجب لفظه لفظ الأمر، ومعناه المضي مبني على السكون نظراً للفظ أو بفتح مقدر على الآخر الساكن نظراً لمعناه ﴿بِهِمْ﴾ الباء: زائدة زيدت وجوباً لرفع قبح رفع ما لفظه

أمر للضمير البارز والهاء: ضمير الغائبين في محل الرفع فاعل والجملة الفعلية: جملة تعجبية لا محل لها من الإعراب ﴿وَأَبْصِرْ﴾: معطوف على ﴿أَسْمِعْ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿أسمع﴾ أو بـ﴿أبصر﴾: على سبيل التنازع ﴿يَأْتُونَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل الجر مضاف إليه ليوم ﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بالاسقرار الذي تعلق به الخبر ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ والجملة، الاستدراكية: مستأنفة.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾: فعل أمر ومفعول به وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة. مستأنفة ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بأنذرهم ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾. ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: فعل أمر ونائب فاعل والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة، في محل النصب حال من مفعول ﴿أنذرهم﴾ أو من الضمير المستتر ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كما مر في مبحث التفسير ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لاسم ﴿إِنَّ﴾ الذي هو بمعنى ﴿نَحْنُ﴾ لأنه بمعناه ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿وَمَنْ﴾ اسم موصول معطوف على الأرض ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور صلة الموصول والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَإِلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿مَن﴾ الموصولة أو في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿نَرِثُ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ الواو: استئنافية ﴿اذكر﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على

محمد، والجملة: مستأنفة ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق به ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول به ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾. ﴿نَّبِيًّا﴾: خبر ثان لها وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة: ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من المضاف المقدر في ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والتقدير: واذكر قصة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿لِأَبِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾ والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أبت﴾: منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المعوضة عنها تاء التأنيث للتفخيم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالفتحة المجلوبة لمناسبة التاء، لأن التاء لا يكون ما قبلها إلا مفتوحاً ﴿أب﴾: مضاف وياء المتكلم المعوضة عنها تاء التأنيث في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، وتاء التأنيث المعوضة عن الياء المحذوفة حرف لا محل لها من الإعراب مبنية على الكسر، وإنما حركت لكونها على حرف واحد، وكانت الحركة كسرةً قصداً لتعويض كسرها عن الكسر الذي كان يستحقه ما قبل الياء في الأصل، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِمَ﴾ اللام: حرف ﴿مَ﴾ اسم استفهام في محل الجر باللام مبني على السكون الظاهر على الألف المحذوفة، فرقا بينها وبين ما الموصولة الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَعْبُدُ﴾. ﴿تَعْبُدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على أبي إبراهيم، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿تَعْبُدُ﴾. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَسْمَعُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ والجملة: صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة، لها ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ معطوف على قوله ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ وكذا جملة قوله ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ معطوفة عليه ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ﴿يُغْنِي﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به منصوب على المصدرية أي شيئاً من الإغناء.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ

لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: منادى مضاف والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جَآءَنِي﴾: فعل ماض ونون وقاية ومفعول به ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَنِي﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في الرفع فاعل ﴿جاء﴾، ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿يَأْتِكَ﴾: فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ وجزمه حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَا﴾: والجملة: صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿جَآءَنِي﴾: في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه قد جاءني من العلم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿اتبعني﴾. ﴿اتبعني﴾: فعل أمر ونون وقاية وياء المفعول وفاعله ضمير يعود على أبي إبراهيم، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَهْدِكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول مجزوم بالطلب السابق وجزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾. ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول ثان ﴿سَوِيًّا﴾: صفة ﴿صِرَٰطًا﴾. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: منادى مضاف ﴿لَا﴾: ناهية جازمة ﴿تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية وفاعلة ضمير يعود على أبي إبراهيم، والجملة: في محل النصب مقول قال على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾. ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿عَصِيًّا﴾. ﴿عَصِيًّا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾: وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: منادى مضاف ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ وجملة ﴿أَخَافُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾: ناصب وفعل

مضارع ومفعول به ﴿عَذَابٌ﴾: مفعول به ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾ وجملة ﴿يَمَسَّكَ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَخَافُ﴾ تقديره: إني أخاف مس عذاب الرحمٰن إياك ﴿فَتَكُونَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿يَمَسَّكَ﴾: واسمها ضمير يعود على أبي إبراهيم ﴿لِلشَّيْطَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿أَخَافُ﴾. ﴿وَلِيًّا﴾: خبر ﴿تكون﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على أبي إبراهيم، والجملة: مستأنفة ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ إلى قوله، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري ﴿راغب﴾: مبتدأ وسوَّغ الابتداء بالنكرة اعتماده على همزة الإستفهام ﴿أَنتَ﴾: فاعل سد مسد الخبر ﴿عَنْ ءَالِهَتِى﴾ متعلق بـ﴿راغب﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: منادى مفرد العلم ﴿لَئِن لَّمْ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم ﴿تَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ وجزمه حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: اللام: موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿أرجمن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف: مفعول به وفاعله ضمير يعود على أبي إبراهيم، والجملة الفعلية، جواب القسم لا محل لها وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية، محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن لم تنته أرجمك وجملة ﴿إن﴾: الشرطية معترضة بين القسم وجوابه لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾: فعل أمر ونون وقاية وياء مفعول، وفاعله، ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ والجلمة الفعلية، معطوفة على جملة محذوفة، تقديرها: فاحذرني واهجرني عند من يمنع عطف الإنشائية على الخبرية على أن سيبويه يجيز عطف الجملة الخبرية على الإنشائية، فليس هذا التقدير بلازم، فيجوز عطفها على ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾. ﴿مَلِيًّا﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿اهجرني﴾ وقيل: هو حال من فاعل ﴿اهجرني﴾ ومعناه: سالماً سوياً لا

يصيبك مني معرة.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾، والجملة: مستأنفة ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة، ما فيه من معنى الدعاء ﴿عَلَيۡكَۖ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية. في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ﴾ (السين) حرف تنفيس للاستقبال القريب ﴿أستغفر﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿أستغفر﴾. ﴿رَبِّيٓ﴾: مفعول به والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض واسمه ضمير يعود على الله ﴿بي﴾: متعلق بـ﴿حَفِيّٗا﴾. ﴿حَفِيّٗا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، على كونها معللةً لما قبلها ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعله: ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أستغفر﴾ ﴿وَمَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب معطوفة على كاف المخاطبين ﴿تَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها والعائد أو الرابط، محذوف تقديره: ما تدعونه. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿تَدۡعُونَ﴾: أي: حالة كونكم مجاوزين الله ﴿وَأَدۡعُواْ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾. ﴿رَبِّي﴾: مفعول به والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أستغفر لك﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء واسمها ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره: هو يعود على الشأن ﴿أَلَّآ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَا﴾ نافية ﴿أَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أن﴾ واسمه ضمير يعود على المتكلم ﴿بِدُعَآءِ رَبِّي﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَقِيّٗا﴾، ﴿شَقِيّٗا﴾: خبر ﴿أَكُونَ﴾، وجملة ﴿أَكُونَ﴾: في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰٓ﴾؛ تقديره عسى هو ـ أي: الشأن ـ عدم كوني ﴿شَقِيّٗا﴾ بدعاء ربي، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿لما﴾: ظرفية شرطية غير جازمة متعلقة بجوابها ﴿ٱعْتَزَلَهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ والجملة: فعل شرط لـ﴿لما﴾ ﴿وَمَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوف على ضمير المفعول ﴿يَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول أو صفة الموصوفة والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وما يعبدونه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم مجاوزين الله ﴿وَهَبْنَا﴾ فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿وَهَبْنَا﴾. ﴿إِسْحَٰقَ﴾ مفعول به ﴿وَيَعْقُوبَ﴾: معطوف عليه ﴿وَكُلًّا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿نَبِيًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَهَبْنَا﴾ على كونه جواب ﴿لما﴾. ﴿وَوَهَبْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَهَبْنَا﴾، الأول ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿وَهَبْنَا﴾. ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ متعلق به أيضاً ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَهَبْنَا﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هو المفعول الأول لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿عَلِيًّا﴾ صفة لـ﴿لِسَانَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَرِيًّا﴾؛ أي: شيئاً عظيماً خارقاً للعادة، وهي الولادة بلا أب، والفري: البديع من فرى الجلد، والفري: العظيم من الأمر، يقال: في الخير والشر، وقيل: الفرى: العجيب، وقيل: المفتعل، ومن الأول الحديث في وصف عمر بن الخطاب «فلم أر عبقرياً يفري فريه» والفرى: قطع الجلد للخرز والإصلاح، وفي «المختار» فرى الشيء قطعه لإصلاحه، وبابه رمى، وفرى كذباً خلقه وافتراه واختلقه، والاسم الفرية وقوله: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾؛ أي: مصنوعاً مختلقاً، وقيل عظيماً، وأفرى الأوداج: قطعها، وأفرى الشيء: شقّه فانفرى وتفرى، أي: انشق، وقال الكسائي: أفرى الأديم: قطعه على جهة الإفساد وفراه قطعه على

جهة الإصلاح.

﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾: والمهد: الموضع يهيأ للصبي، ويوطأ له، والجمع: مهود ومهده كمنعه بسطه، وككتاب الفراش، والأرض كالمهاد والجمع: أمهدة ومهد اهـ. «قاموس» ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ أي: نفاعاً للناس حيثما توجه، لأنه كان يحيى الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص، ويرشد ويهدي ﴿جَبَّارًا﴾، الجبار، المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ﴿شَقِيًّا﴾: والشقي: العاصي لربه ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: جمع حزبٍ وهم الجماعة و﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: مشهد مفعل، إما من الشهادة وإما من الشهود، وهو: الحضور ومشهد يجوز أن يراد به الزمان أو المكان أو المصدر، فإذا كان من الشهادة كان المراد به الزمان، فتقديره: من وقت شهادة يوم، وإن أريد به المكان فتقديره من مكان شهادة يوم، وإن أريد به المصدر فتقديره: من شهادة ذلك اليوم، وأن تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم والملائكة والأنبياء، وإذا كان من الشهود وهو الحضور فتقديره: من شهود الحساب والجزاء يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه، وهو الموقف أو من وقت الشهود، وإذا كان مصدراً بحالتيه المتقدمتين فتكون إضافته إلى الظرف من باب الاتساع، كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ ويجوز أن يكون المصدر مضافاً لفاعله على من يجعل اليوم شاهداً بينهم، إما حقيقةً وإما مجازاً اهـ «سمين».

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾؛ أي: يوم الندامة، هو يوم القيامة حين يندم الناس على ما فرّطوا في جنب الله ﴿صِدِّيقًا﴾؛ أي: مبالغاً في الصدق لم يكذب قط في أقواله وأفعاله وأحواله، وفي تصديق غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، والصديق: من أبنية المبالغة، ونظيره الضحيك والنطيق، والمراد: أنه بليغ الصدق في أقواله ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل السعادة ﴿وَلِيًّا﴾ تليه ويليك في العذاب ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾؛ أي: كاره لها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ أي: لأشتمنك باللسان، أو لأرجمنك بالحجارة، من رجم يرجم من باب نصر ﴿مَلِيًّا﴾؛ أي: زمناً طويلاً، ﴿بِي حَفِيًّا﴾؛ أي: مبالغاً في بري

وإكرامي من حفي بكذا حفاوةً، إذا اعتنى به وبالغ في إكرامه اهـ. شيخنا. وفي «المختار» حفي به بالكسر حفاوةً بفتح الحاء فهو حفي، أي: بالغ في إكرامه وإلطافه والعناية بأمره، والحفي أيضاً المستقصى في السؤال، ومن الأول قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ اهـ. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾؛ أي: أترككم بالارتحال من بلادكم، وقد فعل وارتحل من بابل إلى الأرض المقدسة، وفي «القاموس» وبابل كصاحب: موضع بالعراق، وفيه أيضاً وكوثى بالضم بلدة بالعراق اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه في قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، أي: شبيهة هارون في صلاحها وعبادتها.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

ومنها: التعبير بالماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ إشارةً إلى تحقق وقوعه.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ﴾ إن قلنا إن الألف واللام فيه للجنس، لأن فيه تعريضاً باللعنة على متَّهمي مريم وأعدائها من اليهود، لأن المعنى حينئذ وجنس السلام عليَّ خاصةً فقد عرَّض بأن ضده عليكم ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ اهـ «سمين» وقيل: التعريف فيه للعهد لأنه قد تقدم لفظه في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشعاراً بعلة الحكم، كما في «أبي السعود» لأن حق المقام أن يقال فويل لهم؛ أي: للأحزاب المختلفين فيه.

ومنها: التعجب في قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾؛ أي: أهوال يوم الحسرة.

ومنها: التعبير بالماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ وقوله: ﴿بِدُعَآءِ رَبِّى﴾.

ومنها: التهديد والتقريع في قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والمراد جهنم فأطلق الحال وأريد المحل، لأن الضلال لا يحل فيه وإنما يحل في مكانه والعلاقة الحالية، وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ والغفلة: لا يحل فيها أيضاً، وإنما يحل أصحابها في أسبابها من الكفر والمعاصي.

ومنها: المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ من إطلاق اسم الآلة وهي: اللسان لأنها آلة الكلام وإرادة ما ينشأ عنها، فعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يُفعل باليد وهو العطاء، فهو مجاز علاقته السببية.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ فإن لفظ نحن تأكيد للضمير في ﴿إِنَّا﴾ لأنه بمعناه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ
صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا
الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا
نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا
مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ
لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ
رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...﴾ قدم[1] الكلام في موسى على الكلام في إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه في نسقٍ واحد دون فاصل بينهما، وإسماعيل هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمٰن ـ عليهما السلام ـ وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفاتٍ هي مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل في هذه الدنيا.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أفرد كل رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم بالثناء عليه بما هو جدير به.. أردفه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم، فقد هداهم إلى سبل الخير واصطفاهم من سائر خلقه.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حزب السعداء وهم الأنبياء، ومن تبعهم بإحسان ممن قاموا بحدود الدين، فاتبعوا أوامره وأدوا فرائضه، وتركوا نواهيه.. أردف هذا بذكر من خلفهم ممن أضاعوا واجباته، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال في الآخرة، إلا من تاب وأناب فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولا ينقصه شيئاً من جزاء أعماله.

قوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر سبحانه أنه يدخل التائبين الجنة.. وصف هذه الجنة بجملة أوصافٍ كلها غاية في تعظيم أمرها، وشريف قدرها، وجليل خطرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - تثبيتاً له ﷺ وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم، وذكر جزاء الفريقين.. أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبي ﷺ إذ زعم المشركون أن الله ودَّعه وقلاه، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أمر بالعبادة، والمصابرة عليها، على ما فيها من مشاق وشدائد.. أبان فائدة ذلك وهي أنها تنجيهم يوم الحشر ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

---

(١) المراغي.

وهو يوم لا ريب فيه، ولا وجه لإنكاره، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذٍ من الذل والهوان، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار، ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص عمله.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل في النزول أربعين يوماً، فذكر نحوه. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: سأل النبي ﷺ جبريل: «أي البقاع أحب إلى الله، وأي البقاع أبغض إلى الله» فقال: ما أدري حتى أسأل، فنزل جبريل وكان قد أبطأ عليه، فقال: «لقد أبطأت عليَّ حتى ظننتُ أن بربي عليَّ موجدةً، فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . .﴾» الآية.

وأخرج ابن أبي إسحاق عن ابن عباس أن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، ولم يدر كيف يجيب، فحزن واشتد عليه ذلك، وقال المشركون: إن ربه ودَّعه وقلاه، ومكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، فنزل جبريل فقال له: «يا جبريل احتبست عني حتى ساء ظني واشتقت إليك» فقال: إني إليك لأشوق ولكني عبد مأمور، إذا بعثت.. نزلت، وإذا حبست.. احتبست، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ. . .﴾ الآية، روى الكلبي[2]: أنها نزلت في أبيّ بن خلف، أخذ عظماً بالياً، فجعل يفته بيده، ويذريه في الريح، ويقول: زعم فلان أنّا نبعث بعد أن نموت، ونكون مثل هذا! إن هذا لن يكون أبداً!!

التفسير وأوجه القراءة

ولما فرغ سبحانه عن قصة إبراهيم.. أردفه بقصة موسى لأنه يتلوه في

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

الشرف والفضل وقدم موسى على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: واتل يا محمد على قومك، وعلى سائر الناس في القرآن، أو في هذه السورة قصة موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: موسى ـ عليه السلام ـ ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ أهل الكوفة: عاصم، وحمزة، والكسائي، وكذا أبو رزين، ويحيى، وقتادة: بفتح اللام؛ أي: مصطفًى مختاراً، اختاره الله تعالى[1] ثم استخلصه واصطفاه على عالمي زمانه لرسالة رب العالمين، وكلامه، وقرأ الباقون: بكسر اللام؛ أي: مخلصاً في طاعته وعبادته لله تعالى، ولم يراء ولم يشرك، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله.

والمعنى[2]: واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى ـ عليه السلام ـ من صفات الجلال والكمال، التي سأقصها عليك، ليستبين لك علو قدره، وعظيم شأنه، وتلك الأوصاف:

أولها: ما ذكره بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾؛ أي: إن الله تعالى أخلصه واصطفاه، وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام، كما جاء في الآية الأخرى ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾.

وثانيها وثالثها: ما ذكره بقوله: ﴿وَكَانَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ﴿رَسُولًا﴾ أرسله الله سبحانه إلى الخلق داعياً ومبشراً ونذيراً، والرسول: هو من أرسله الله إلى الناس، ومعه كتاب فيه شريعته التي أرسله بها، كموسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وقيل: الرسول إنسان أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه إلى الخلق، كهؤلاء المذكورين، وارتضى هذا القول بعضهم، وكان موسى ـ عليه السلام ـ ﴿نَبِيًّا﴾ فأنبأهم عن الله، ولذلك قدم ﴿رَسُولًا﴾ مع كونه أخص وأعلى، وقال بعضهم: تأخير ﴿نَبِيًّا﴾ لأجل رعاية الفواصل، والنبي هو الذي ينبىء عن الله، ويخبر قومه عنه، وليس معه كتاب كيوشع ـ عليه السلام ـ وقيل: النبي: إنسان أوحي إليه بشرع يعمل به في حق نفسه، ولم يؤمر بتبليغه، كالخضر ـ عليه

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

السلام - لأنه نبي على ما رجحه أكثر العلماء، كما مر في مبحثه، فبين الرسول والنبي عموم وخصوص وجهي، فكل رسول نبي ولا عكس، وقال النيسابوري[1]: الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي: الذي ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، وكان المناسب ذكرالأعم قبل الأخص، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك، كقوله في طه: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ انتهى.

ورابعها: ما ذكره بقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: نادينا موسى ودعوناه وكلمناه ليلة الجمعة، بقولنا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾؛ أي: من ناحية جبل الطور اليمنى فالأيمن صفة للجانب، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، وهي التي تلي يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر، إذ لا يمين ولا شمال للجبل، والمراد بالطور[2]: الجبل الذي عند بيت المقدس، لا الطور الذي عند السويس، لأنه يكون على يسار المتوجه من مدين إلى مصر، كما هو محسوس مشاهد، أو المعنى: ناديناه من جانبه الميمون؛ أي: المبارك لموسى، من اليمن بمعنى البركة، لأنه سمع عنده كلام الله تعالى؛ أي: وكلمناه من الجانب الأيمن للطور؛ أي: الذي عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجهاً إلى مصر، وأنبأناه بأنه رسولنا، ثم واعدناه إليه؛ أي: عنده بعد إغراق آل فرعون، ورحمنا بني إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم.

وخامسها: ما ذكره بقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾؛ أي: وقربنا موسى إلينا تقريب تشريفٍ وإجلالٍ وإكرام، حالة كونه نجياً؛ أي: مناجياً معنا تلك الليلة؛ أي: مستمعاً كلامنا، فهو حال من أحد الضميرين في ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾: فقد شبه حاله - عليه السلام - مع ربه بحال من قَرَّبَهُ الملك لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته، ورفع الوسائط، وقيل معناه[3]: ورفعناه مكاناً عالياً فوق السموات، حتى سمع صرير القلم، حيث كتبت التوراة في الألواح، وفي «القاموس»: ناجاه مناجاةً، إذا سارّه ونجيّ: فعيل من المناجاة، بمعنى: مناجٍ، كالجليس، وهو: المنفرد

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراح.

بالمناجاة، وهي المسارة بالقول.

وقصارىٰ ذلك[1]: أنه تجاوز العالم المادي، وانغمس في العالم الروحي، فقرب من ربه، وارتقت نفسه، حتى بلغت أقصى مناها، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت، ورؤية ما غاب عن عالم المادة.

وسادسها: ما ذكره بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾؛ أي: لموسى ﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾؛ أي: من أجل رحمتنا ورأفتنا ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ أخاه مفعول ﴿وَهَبْنَا﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾: عطف بيان لـ﴿أَخَاهُ﴾، حالة كون هارون ﴿نَبِيًّا﴾ من الأنبياء، ليكون معه وزيراً كما سأل ذلك ربه فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ فالهبة على ظاهرها، كما في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فإن هارون كان أسنَّ من موسى، فوجب الحمل على المعاضدة والموازرة.

والمعنى: أي[2] وجعلنا أخاه هارون نبياً من أجل رأفتنا به، ليكون وزيراً له ومعيناً له في تبليغ الرسالة، وهذا إشارة إلى أن النبوة ليست كسبية، بل هي من مواهب الله تعالى، يهب لمن يشاء النبوة والرسالة، وإشارة إلى أن لموسى إختصاصاً بالقربة والقبول عند الله تعالى، حتى يهب أخاه هارون النبوة والرسالة بشفاعته، كما يهب الأنبياء والرسل بشفاعة سيدنا محمد ﷺ لقوله ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيمَ الخليل عليه السلام». قال بعض السلف[3]: ما شفع أحد في أحد في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾؛ أي: واتل يا محمد في القرآن قصة جدك إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - على قومك، وبلغها إليهم، فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الإعتناء بأمره، بإيراده مستقلاً، ولم يخالف أحد في أنه إسماعيل بن إبراهيم، إلا من لا يعتد به، فقال: هو إسماعيل بن حزقيل، بعثه الله إلى

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

قومه، فسلخوا جلدة رأسه، فخيَّره الله فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إسماعيل ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ أي: وافيه فيما بينه وبين الله، وكذا فيما بينه وبين الناس، ووصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ إسماعيل بصدق الوعد، مع كون جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهوراً بذلك، مبالغاً فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح، فوفى بذلك حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قيل[1] إنه لم يعد شيئاً إلا وفى به. قيل: إنه وعد رجلاً أن يقوم مكانه حتى يرجع الرجل، فوقف إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل، وقيل: إنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به، فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف، سئل الشعبي عن الرجل يعد الرجل ميعاداً إلى أي وقت ينتظر، فقال: إن وعده نهاراً.. فكل النهار، وإن وعده ليلاً.. فكل الليل، وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال: إن وعده في وقت صلاة ينتظر إلى وقت صلاة أخرى.

والوعد[2]: عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها، والوعيد الإخبار بإيصال الضرر قبل وقوعه، والعرب لا تعد عيباً ولا خلفاً، إن يعد أحد شراً.. لا يفعله، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً، كما قيل.

وَإِنِّـــيْ إِذَا أَوْعَـــدْتُـــهُ أَوْ وَعَـــدْتُـــهُ   لَـمُـخْـلِـفُ إِيْـعَـادِيْ وَمُـنْـجِـزٌ وَعْـدِيْ

وقيل:

إِذَا وَعَــدَ ٱلـسَّـــرَّاءَ نَـجَّـزَ وَعْـدَهُ   وَإِنْ أَوْعَـدَ ٱلـضَّـرَّاءَ فَـٱلْـعَـقْـلُ مَـانِـعُـهْ

وفي الحديث: «من وعد لأحد على عمله ثواباً.. فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً.. فهو بالخيار». وفي الآية حث على صدق الوعد والوفاء به، والأصل فيه: نيته؛ لقوله ـ عليه السلام ـ: «إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي فلم يف ولم يجىء للميعاد.. فلا إثم عليه».

ومعنى الآية: واتل[3] أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

علهم يهتدون بهديه، ويحتذون حذوه، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها:

١ - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ أي: وافي الوعد، فما وعد عدةً إلا وفى بها، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فصدق في ذلك ووفى بما قال، وامتثل حتى جاءه الفداء، وصدق الوعد[١] من الصفات التي حث عليها الدين وشدد فيها، أيّما تشديد، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث.. كذب، وإذا وعد.. أخلف، وإذا أؤتمن.. خان» وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين، فلا تجد عالماً ولا جاهلاً إلا وهو بمنأىً عنها، ولا سيما التجار والصناع والعمال.

٢ - ﴿وَكَانَ﴾ إسماعيل - عليه السلام - ﴿رَسُولًا﴾ إلى جرهم، الذين حلوا بمكة معه ومع أمه، وإلى العماليق، وإلى قبائل اليمن، بتبليغ شريعة إبراهيم، زمن أبيه إبراهيم - عليهما السلام - قال في «القاموس» جرهم كقنفذ حيٌّ من اليمن، تزوج فيهم إسماعيل اهـ. وقد استدل[٢] بقوله تعالى في إسماعيل ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، وقيل إنه وصفه بالرسالة، لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم، وكان إسماعيل ﴿نَّبِيًّا﴾ يخبر عن الله تعالى، وكان على شريعة أبيه إبراهيم، فنبأ بها قومه، وأنذرهم وخوفهم، ولم يكن له كتابٌ أُنزل إليه بإجماع العلماء، وكذا لوط وإسحاق، ويعقوب، ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل.

٣ - وكان إسماعيل ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ الخاص[٣]: وهو من اتصل به بجهة الزوجية والولادة، والعام: وهو من اتصل به بجهة الدعوة، وهم قومه، ويجوز أن يرجح الأول، لأن الأهم أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه، وعلى من هو

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وقال ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ فإنهم إذا صلحوا.. صلح الكل، وتزيًّا بزيهم بالخير والصلاح ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أشرف العبادات البدنية ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ التي هي أفضل العبادات المالية، وفيه إشارة إلى أن من حق الصالح أن ينصح للأقارب والأجانب، ويحظيهم بالفوائد الدينية.

٤ - ﴿وَكَانَ﴾ إسماعيل ﴿عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ في الأقوال والأفعال والأحوال؛ أي: مرضياً عمله عند ربه، محموداً فيما كلّفه به، غير مقصرٍ في طاعته، فائزاً في كل طاعاته بأعلى الدرجات، فاقتد أيها الرسول به لأنه من أجل أبائك، وعن[1] بعض الصالحين، أنه قال: نزل عندي أضياف، وعلمت أنهم أبدال من عباد الله الصالحين، فقلت لهم: أوصوني بوصية بالغة، حتى أخاف الله، قالوا: نوصيك بستة أشياء:

أولها: من كثر نومه.. فلا يطمع في رقة قلبه.

وثانيها: من كثر أكله.. فلا يطمع في قيام الليل.

وثالثها: من اختار صحبة ظالم.. فلا يطمع في استقامة دينه.

ورابعها: من كان الكذب والغيبة عادته.. فلا يطمع في أن يخرج من الدنيا مع الإيمان.

وخامسها: من كثر اختلاطه بالناس.. فلا يطمع في حلاوة العبادة.

وسادسها: من طلب رضىٰ الناس.. فلا يطمع في رضىٰ الله تعالى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَرْضِيًّا﴾ وهو اسم مفعل أصله مرضوو فأُعِلّ بقلب واوه ياءً، كما سيأتي في مبحث التصريف، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مرضوا﴾ مصححاً، وقالت العرب أرض مسنية ومسنوّة، وهي التي تسقى بالسواني.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن ﴿إِدْرِيسَ﴾؛ أي: قصته؛

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

أي: واتل يا محمد في القرآن قصة إدريس - عليه السلام - على قومك بالثناء، والنسابون يقولون: إنه[1] جد أبي نوح، فإن نوحاً بن لمك، بن مشوشلخ، بن أخنوخ وهو إدريس النبي - عليه السلام - بن يرد، بن مهلاييل، بن قينان، بن أنوش، بن شيث، بن آدم - عليه السلام - ولد إدريس وآدم حي قبل أن يموت بمئة سنة، كذا في «روضة الخطيب» ويقولون: إنه أول من وضع الميزان والمكيال، وأول من اتخذ السلاح، وجاهد في سبيل الله، وسبى واسترق بني قابيل، وأول من خط بالقلم، ونظر في علم الحساب والنجوم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وكانوا قبله يلبسون الجلود، وأول من لبس ثوب القطن، واشتقاقه من الدرس، فلُقِّب به لكثرة دراسته، إذ رُوي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفةً، وجعل الله ذلك من معجزاته، وإن تقادم العهد، وطول الزمن، وعدم وجود السند الصحيح الذي يعوَّل عليه في الرواية يجعلنا في شكٍ من كل هذا، فعلينا أن نكتفي بما جاء به الكتاب الكريم في شأنه، وقد وصفه الله بجملة صفاتٍ كلها مفاخر، ومناقب إعظام وإجلالٍ:

١ - ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إدريس - عليه السلام - ﴿كَانَ صِدِّيقًا﴾؛ أي: ملازماً للصدق في أحواله.

٢ - ﴿نَّبِيًّا﴾ ينبىء عن الله تعالى - خبر آخر لـ﴿كان﴾ مخصص للأول - إذ ليس كل صديق نبياً، قال عباس بن عطاءٍ: أدنى منازل المرسلين أعلى مراتب النبيين، وأدنى مراتب النبيين أعلى مراتب الصديقين، وأدنى مراتب الصديقين أعلى مراتب المؤمنين ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي[2]: أعلينا قدره، ورفعنا ذكره في الملأ، ونحو هذا قوله لنبيه محمد ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ وقيل: إن معنى رفعه ما أعطي من شرف النبوة، وقيل: إنه رفع إلى الجنة، وقيل: معنى قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: رفعناه إلى السماء الرابعة، وهذا القول أصح. ويدل عليه ما روى أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ «أنه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رأى إدريس في السماء الرابعة، ليلة المعراج» متفق عليه.

وكان سبب رفعه إليها[1]: أنه سار ذات يوم في حاجة، فأصابه وهج الشمس، فقال: يا رب إني قد مشيت فيها يوماً فأصابني منها ما أصابني، فكيف من يحملها مسيرة خمس مئة في يوم واحد؟ اللهم خفف عنها من ثقلها وحرها، فلما أصبح الملك.. وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يا رب خففت عني حر الشمس، فما الذي قضيت فيه، قال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها، فأجبته، قال: يا رب اجعل بيني وبينه خلةً، فأذن الله تعالى له حتى أتىٰ إدريس ورفعه إلى السماء.

واختلف القائلون بأنه في السماء[2]، أهو حيٌّ فيها أم ميت، فالجمهور: على أنه حيٌّ وهو الصحيح، وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء: اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى، كما في «بحر العلوم».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ العشرة المذكورون في هذه السورة من زكريا إلى إدريس - عليهم الصلاة والسلام - هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيۡهِم﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية، حال كونهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمرسلين بيان للوصول حالة كون بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل من النبيين، بإعادة الجار، ويجوز[3] أن تكون ﴿مِن﴾ فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء، وأخص من الذرية؛ يعني به إدريس ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾؛ أي: ومن ذرية من حملنا مع نوح في سفينته؛ يريد: إبراهيم، لأنه من ذرية سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ يعني: إسحاق وإسماعيل ويعقوب ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم؛ أي: ومن ذرية إسرائيل؛ أي: يعقوب وكان منهم موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية، لأن عيسى من مريم، وهي من نسل يعقوب ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾؛

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) البيضاوي.

أي: وحالة كونهم من جملة من هديناهم، وأرشدناهم إلى الحق ﴿و﴾ من جملة من ﴿اجتبينا﴾ هم واصطفيناهم للنبوة والكرامة، قالوا: ﴿من﴾ فيه للتبيين، إن عطف على ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وللتبعيض إن عطف على و﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الأنبياء ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: آيات الترغيب والترهيب في كتبهم المنزلة عليهم ﴿خَرُّواْ﴾؛ أي: سقطوا على الأرض حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: ساجدين جمع ساجد ﴿وَبُكِيًّا﴾؛ أي: باكين جمع باكٍ، وأصله بكوياً؛ يعني[1]: إن الأنبياء قبلكم مع مالهم من علو المرتبة في شرف النسب، وكمال النفس، والزلفى من الله تعالى، كانوا يسجدون ويبكون لسماع آيات الله تعالى، فكونوا مثلهم وفي الحديث: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» وعن ابن عباس: إذا قرأتم سجدة سبحان.. فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم.. فليبك قلبه. قال صالح المريّ: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء اهـ. وقد استدل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة.

والمعنى: أي[2] إذا تتلى على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه.. خروا لله سجداً استكانةً له وتذللاً وخضوعاً لأمره، وانقياداً له وهم باكون خشيةً منه، وحذراً من عقابه، وقصارى ذلك إنه سبحانه أبان علو أمرهم في الدين والنسب والقرب منه. ويقول في سجود التلاوة: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً. ذكره النسفي في «تفسيره» في هذا الموضع.

فصل

وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن[3]، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة، وقيل: يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعو بما يناسب تلك السجدة، فإن قرأ سجدةَ سبحان.. قال: اللهم اجعلني من

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

الباكين إليك والخاشعين لك، وإن قرأ سجدة مريم.. قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك، وإن سجد سجدة ﴿آلم﴾ السجدة... قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المتكبرين عن أمرك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُتْلَىٰ﴾ بتاء التأنيث، وقرأ عبد الله، وأبو جعفر، وشيبة، وشبل بن عباد، وأبو حيوة، وعبد الله بن أحمد العجلي، عن حمزة، وقتيبة في رواية، وورش في رواية النحاس، وابن ذكوان في رواية الثعلبي: بالياء، وقرأ الجمهور ﴿بكيا﴾ بضم الباء، وعبد الله، ويحيى، والأعمش، وحمزة، والكسائي: بكسرها اتباعاً لحركة الكاف، كعصيّ ودليّ، والظاهر أنه جمع لمناسبة الجمع قبله، وقال ابن عطية: ﴿وبكياً﴾ بكسر الباء هو مصدر لا يحتمل غير ذلك. انتهى.

ولما مدح سبحانه هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم، وسلوك طريقتهم.. ذكر أضدادهم تنفيراً للناس عن طريقتهم، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: جاء ووجد من بعد هؤلاء الأنبياء المذكورين وعقب عنهم ﴿خلف﴾؛ أي: عقب سوءٍ من أولادهم، وفي «الجلالين»: بقي من بعد هؤلاء قوم سوء يعني اليهود والنصارى والمجوس. انتهى. قال أهل اللغة: يقال لعقب الخير: خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بسكون اللام، واختلفوا[2] فيمن نزلت هذه الآية فيه، فقيل: في اليهود، وقيل: في النصارى، وقيل في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في آخر الزمان؛ أي: جاء من بعد هؤلاء المذكورين قوم سوء ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: تركوها أو أخروها عن وقتها، أو ضيّعوا ثوابها بعد الأداء، بالنميمة والغيبة والكذب ونحوها، أو شرعوا فيها بلا نيةٍ، وقاموا لها بلا خضوع ولا خشوع، وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها، وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع، وقيل: إقامتها في غير الجماعات، وقيل: تعطيل المساجد

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

والاشتغال بالصنائع والأسباب، والظاهر: أن من أخر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضاً من فروضها، أو شرطاً من شروطها، أو ركناً من أركانها، فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها المرة أو جحدها دخولاً أولياً. وقرأ عبد الله، والحسن، وأبو رزين العقيلي، والضحاك، وابن مقسم ﴿الصلوات﴾ جمعاً ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: ارتكبوا شهوات أنفسهم، وآثروها على طاعة الله تعالى؛ أي: فعلوا ما تشتهيه أنفسهم، وترغب إليه من المحرمات، كشرب الخمر، والدخان، والحشيش، وفعل الزنا، واللواط، وإدمان النظر إلى الأجنبيات، والاختلاط بهن، وإضاعة الوقت في استماع الملاهي والنظر إليها، كالتلفزيون والفيديو، والاشتغال بما لا يغني، من إكثار قيل وقال، والولع بقراءة الجرائد والأخبار عن تلاوة كتاب الله تعالى وقراءة الحديث، إلى نحو أولئك من الشهوات التي انهمك فيها أهل الزمان، حتى يظنونها من الأمور الدينية، لجهلهم أو لعدم مبالاتهم بدينهم، وبالجملة فالشهوات عام في كل مشتهًى يشغل عن الصلاة، وذكر الله تعالى، كاللعب بالكريات مما لا ينفع في الحرب.

والمعنى: أي[1] فجاء من بعد الأنبياء الذين ذكروا، خلف سوءٍ خلفوهم في الأرض، كاليهود والنصارى، ومن على شاكلتهم من أهل الضلال، إذ تركوا الصلوات المفروضة عليهم، وآثروا شهواتهم على طاعة الله تعالى، فانكبوا على شرب الخمور، وشهادة الزور، ولعب الميسر، وإتيان الفاحشة خفيةً وعلانيةً.

وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم، في جماعة آخرين، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية قال: «يكون خلف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن، لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر».

وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، عن عقبة بن عامر، قال: سمعت

---

(١) المراغي.

رسول الله ﷺ قال: «سيهلك من أمتي أهل الكتاب، وأهل اللبن» قلت: يا رسول الله، ما أهل الكتاب؟ قال: «قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا» قلت: وما أهل اللبن؟ قال: «قوم يتبعون الشهوات، ويضيعون الصلوات» ثم ذكر عاقبة أعمالهم وسوء مآلهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿غَيًّا﴾؛ أي: شراً وخسراناً لإهمالهم أداء واجبات الدين، وانهماكهم في المعاصي والآثام، فإن كلّ[1] شر عند العرب غي، فكل خير رشاد، وعن الضحاك: أي جزاءَ غي، كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾؛ أي: جزاءَ أثام وقيل ﴿غَيًّا﴾؛ أي: وادياً في جهنم، يستعيذ من حرّه أوديتها، أعد للزاني، وشارب الخمر، وآكل الربا، وشاهد الزور، ولأهل العقوق، وتارك الصلاة، وقيل: الغيّ الضلال، وقيل: الخيبة، وقرىء فيما حكىٰ الأخفش: ﴿يُلَقَّوْنَ﴾ بضم الياء وفتح اللام وشد القاف ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ منهم ورجع مما فرط منه من تضييع الصلوات، واتباع الشهوات، إلى طاعة الله تعالى ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله من الكفر ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ بعد التوبة والندم، وفي هذا[2] الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة، لا في المسلمين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالتوبة، والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بموجب الوعد المحتوم، قرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر ﴿يدخلون﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقون: بفتح الياء وضم الخاء وقرأ ابن غزوان عن طلحة: ﴿سيدخلون﴾ بسين الاستقبال مبنياً للفاعل.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا ينقص من أجورهم شيء، وإن كان قليلاً، فإن الله سبحانه وتعالى يوفي إليهم أجورهم، وانتصاب ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ على البدل من الجنة بدل البعض لكون جنات عدن بعضاً من الجنة، ويكون قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ اعتراضاً، أو حالاً كما في «البحر» قال الزجاج: ويجوز ﴿جنات عدن﴾ بالرفع وقرىء كذلك؛ يعني: على الابتداء، والخبر ﴿التي﴾، وقرأ الجمهور[3]

---

(1) روح البيان.

(2) الشوكاني.

(3) البحر المحيط.

﴿جَنَّٰتِ﴾ نصباً جمعاً بدلاً من الجنة كما مر آنفاً، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر، والأعمش، وأحمد بن موسى عن أبي عمرو ﴿جنات﴾ رفعاً جمعاً؛ أي: تلك جنات أو الخبر (التي) وقرأ الحسن بن حي وعلي بن صالح ﴿جنة عدن﴾ نصباً مفرداً، ورويت عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف عبد الله، وقرأ اليماني، والحسن، وإسحٰق الأزرق عن حمزة ﴿جنة عدن﴾ رفعاً مفرداً وقرىء بصرف ﴿عَدْنٍ﴾ ومنعه، على أنها علم لمعنى العدن وهو: الإقامة، أو علم لأرض الجنة، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ إلخ؛ أي: لكن[1] من أنابوا إلى ربهم، وأقلعوا عن ذنبهم، وآمنوا بالله ورسوله، وأطاعوه فيما أمر به، وأدوا فرائضه، فأولئك يدخلهم ربهم جناته، ويغفر لهم حوباتهم، فالتوبة تجبُّ ما قبلها، كما جاء في الحديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم، إذ أفعالهم السابقة ذهبت هباءً، وصارت نسياً منسياً بكرم اللطيف الخبير، وعظيم حلمه على عباده، ولما ذكر أن التائب يدخل الجنة.. وصف هذه الجنة بأمورٍ فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: هذه الجنة هي جنات إقامة مؤبدة، لا كجنات الدنيا، وجنات عدن علم لجنة مخصوصة، كشهر رمضان، وقد يحذف فيقال: جاء رمضان، وقيل: جنات عدن: علم لدار الثواب جميعاً، والعدن: الإقامة وهو الأنسب بمثل هذا المقام، فإن جنة عدن المخصوصة، وجنة الفردوس لا يدخلها العوام بالأصالة، لأنهما مقام المقربين ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: وعدها إياهم حالة كونها متلبسة ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ عنهم؛ أي: والحال أنها غائبة[2] عنهم غير حاضرة، أو حالة كونهم غائبين عنها لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار، والتعرض لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدها وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى، وفي الإضافة في قوله: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ إشارة إلى أن المراد من يعبده مخلصاً له في العبودية، لا يعبد الدنيا، والنفس والهوى، إذ كمال التشريف بالإضافة، إنما يحصل بهذا المعنى، فله جنة عدن المخصوصة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾؛ أي: موعوده

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الذي هو الجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾؛ أي: يأتيه من وعد له لا محالة بغير خلف، لأن وعده تعالى لا يخلف، فالمأتي بمعنى المفعول من الإتيان؛ أي: مفعولاً أو بمعنى الفاعل؛ أي: جائياً آتياً ألبتة.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنان ﴿لَغْوًا﴾؛ أي: فضول كلامٍ لا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يُجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع؛ أي: لكن يسمعون تسليم الملائكة، أو تسليم بعضهم على بعض، والمعنى: إن[1] أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم، وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: ولأولئك الموصوفين بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿رِزْقُهُمْ﴾؛ أي: ما يشتهون من المطاعم والمشارب ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جنات عدن ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: في قدر وقت البكرة ووقت العشي من نهار أيام الدنيا؛ أي: إن[2] الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قدر ما بين غداء أحدنا في الدنيا وعشائه، إذ لا نهار ثمة ولا ليل، بل هم في نور أبداً، وإنما وصف الجنة بذلك لأن العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي.

وخلاصة ذلك: أنه لا بكرة في الجنة ولا عشي، إذ لا ليل ولا نهار، وإنما يؤتون بأرزاقهم في مقدار طرفي النهار، كما كانوا في الدنيا، ولما ذكر أن هذه الجنة تخالف جنات الدنيا.. ذكر الدواعي التي توجب استحقاقها فقال: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: هذه الجنة التي وصفت بهذه الصفات الشريفة هي ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾؛ أي: مجتنباً عن الشرك والمعاصي، مطيعاً لله تعالى؛ أي: نورثها ونعطيها بغير اختيار الوارث من كان من أهل التقوى من عبادنا؛ أي: هي التي نجعلها ملكاً وميراثاً لعبادنا المتقين، الذين يطيعون الله في السر والعلن، ويحمدونه على السراء والضراء، كملك الميراث الذي هو أقوى تمليك، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: نورث من كان تقياً من عبادنا، والمعنى[3]:

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقي على الوارث مال مورثه ونمتعه به، قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف قال ﴿نُورِثُ﴾ والميراث ما انتقل من شخص إلى شخص؟ والجواب أن هذا على وجه التشبيه، أراد أن الأعمال سبب لها، كالنسب سبب ملك بلا كسب ولا تكلف، وكذا الجنة عطاء من الله ورحمة منه، خلافاً للقدرية. انتهى.

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى أن قال ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُورِثُ﴾ مضارع أورث وقرأ الأعمش: ﴿نورثها﴾ بإبراز الضمير العائد على الموصول، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، ورويس، وحميد، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، ومحبوب عن أبي عمرو: بفتح الواو وتشديد الراء المكسورة، من ورث المضعف.

قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه: قل يا جبريل لمحمد جواباً عن استبطائه لنزولك: وما تتنزل الملائكة يا محمد بالوحي على الرسل وقتاً بعد وقت ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وإذنه وإرادته على ما تقتضيه حكمته، وتدعو إليه مصلحة عباده، ويكون فيه الخير لهم. في دينهم ودنياهم، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ بالنون عن جبريل نفسه والملائكة، وقرأ الأعرج ﴿يتنزل﴾ بالياء على أنه خبر من الله تعالى، ذكره في «البحر» ثم علل الملك ذلك بقوله: ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الأزمنة المستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الأزمنة الماضية ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بين الأيدي والخلف من الأزمنة الحاضرة فلا ننزل في زمانٍ دون زمان إلا بإذنه، فهو المدبر لنا في جميع الأزمنة، أو المعنى[2]؛ أي: لربك ما قدامنا وما خلفنا من الجهات، وما نحن فيه فلا ننتقل من جهة إلى جهة، ومن مكان إلى مكان، إلا بأمره ومشيئته.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

وقصارى ذلك: أن أمرنا موكول إلى الله تعالى، يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته، لا اعتراض لأحد عليه، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل، وقيل المعنى[1]: له ما سلف من أمر الدنيا، وما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك، وهو ما بين النفختين، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحالة التي نحن فيها، وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء، لا يخفى عليه خافيةٌ ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، وقال: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل: وما بين ذينك بالتثنية، لأن المراد: وما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿نَسِيًّا﴾؛ أي: تاركاً لك بتأخير الوحي عنك، فعدم النزول لعدم الأمر به لحكمةٍ بالغةٍ فيه، قال أهل التفسير[2]: ﴿نَسِيًّا﴾ فعيل بمعنى فاعل من النسيان بمعنى: الترك؛ أي: تاركاً لك كما زعمت الكفرة، وإن تأخر الوحي عنك لمصلحة، أو بمعنى نقيض الذكر الذي هو الغفلة؛ أي: غافلاً عنك، والمعنى؛ أي: إنه[3] تعالى لإحاطة علمه بملكه لا يطرأ عليه غفلة ولا نيسان، حتى يغفل عنك، وعن الإيحاء إليك، وإنما كان تأخير الوحي لحكمة علمها جل شأنه.

أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني في جماعة آخرين، عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾».

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله هو سبحانه ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مالكهما وخالقهما، فهو: خبر لمبتدأ محذوف كما قدرنا ﴿وَ﴾ خالق ﴿مَا

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بينهما﴾؛ أي: ما بين السموات والأرض، ومالكه، ومن كان كذلك فالنسيان محال عليه، فإن من بيده ملكوت كل شيء، كيف يتصور أن تحوم حوله الغفلة والنسيان: ثم بيَّن ما ينبغي لرسوله أن يفعله بعد أن عرف هذا من عبادته والصبر عليها، فقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ (الفاء) فيه فاء الفصيحة؛ أي: إذا عرفت يا محمد أنه الرب المسيطر على ما في السموات والأرض، وما بينهما، والقابض على أعنتها، وأردت بيان ما ينبغي لك.. فأقول لك أعبده ـ سبحانه وتعالى ـ واثبت على عبادته، والعبادة: قيام العبد بما تعبد به وتكلف من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ بجسدك ونفسك وقلبك وسرك وروحك، فعبادة جسدك إياه بأركان الشريعة، وهي الائتمار بما أمرك الله به، والانتهاء عما نهاك عنه، وعبادة نفسك بآداب الطريقة، وهي ترك موافقة هواها، ولزوم مخالفة هواها، وعبادة القلب الإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة ومكارمها، وعبادة السر خلوّه عن تعلقات الكونين اتصالاً بالله تعالى، ومحبةً. وعبادة الروح: ببذل الوجود لنيل الشهود ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: واصبر على مشاقها وشدائدها، ولا تحزن بإبطاء الوحي واستهزاء الكفرة، وشماتتهم بك، فإنه يراقبك ويراعيك، ويلطف بك في الدنيا والآخرة، وإياك أن يصدك عنها ما يحدث من إبطاء الوحي وتقوُّل المشركين الخراصين عن سببه.

وتعدية[1] الاصطبار باللام، لا بحرف الاستعلاء كقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ لتضمنه معنى الثبات للعبادة، فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق، كقولك للمبارز اصطبر لقرنك؛ أي: أثبت له فيما يورد عليك من شدائده وحملانه.

ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾؛ أي: هل تعلم يا محمد للرب سبحانه ﴿سَمِيًّا﴾؛ أي: مشاركاً له في اسمه؛ أي: في تسميته بلفظ الجلالة، أو برب السموات والأرض، والاستفهام[2] فيه للإنكار، والمعنى: أنه ليس له مثل

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة، وتخلص له، وهذا مبني على أن المراد بالسمي هو الشريك في المسمى، وقيل: المراد به: الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل: المعنى إنه لم يسم شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعني: بعد دخول الألف واللام التي عوّضت عن الهمزة، ولزمت، وقيل: المراد هل تعلم أحداً اسمه الرحمٰن غيره.

قال الزجاج: تأويله ـ والله أعلم ـ هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له خالق، وقادر، وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سمي لله في جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله.

والمعنى[1]: هل تعلم له سبحانه شبيهاً ومثلاً يستحق العبادة، لكونه منعماً متفضلاً بجليل النعم وحقيرها، ومن ثم يجب تعظيمه غاية التعظيم، بالاعتراف بربوبيته، والخضوع لسلطانه، روي[2] أن بعض الجبابرة سمى نفسه بلفظ الجلالة فصهر ما في بطنه من دبره، وهلك من ساعته. وقال فرعون مصر للقبط: أنا ربكم الأعلى، ولم يقدر أن يقول أنا الله.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ بإظهار اللام عند التاء، وقرأ الأخوان حمزة، والكسائي، وهشام وعلي بن نصر، وهارون كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والأعمش، وعيسى، وابن محيصن: بالإدغام فيهما قال أبو عبيدة: لغتان، وعلى الإدغام أنشدوا بيت مزاحم العقيلي:

فَذَرْ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تُعِينُ مُتَيَّماً   عَلَىٰ ضَوْءِ بَرْقٍ آخِرَ ٱللَّيْلِ نَاصِبِ

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بطريق الإنكار والاستبعاد للبعث، وهو أبيّ بن خلف حين فتّ عظماً بالياً فقال: يزعم محمد أنا نبعث بعدما نموت ونصير إلى هذه الحال!

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

فأل فيه للتعريف العهدي وقيل[1]: اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض وهم الكفرة، فقد يسند للجماعة ما قام بواحدٍ منهم ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ وكنت رميماً ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من القبر حالة كوني ﴿حَيًّا﴾ وتقديم[2] الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار، لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابه بفعلٍ دل عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ وهو البعث لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها لصدارتها، وهي في الأصل: للحال، وهٰهنا للتأكيد المجرد؛ أي: لتأكيد معنى همزة الإنكار في ﴿أَءِذَا﴾ ولذا جاز اقترانها بسوف الذي هو حرف الاستقبال، وفي «التكملة» اللام في قوله تعالى: ﴿لَسَوْفَ﴾ ليست للتأكيد فإنه منكر، فكيف يحقق ما ينكر، وإنما كلامه حكاية لكلام النبي ﷺ كأنه ﷺ قال: إن الإنسان إذا مات لسوف يخرج حياً، فأنكل الكافر ذلك، وحكى قوله فنزلت الآية على ذلك. حكاه الجرجاني في كتاب «نظم القرآن».

قال في «بحر العلوم[3]»: لما كانت هذه اللام لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر.. وجب تقدير مبتدأ وخبر، وأن يكون أصله لأنا سوف أخرج حياً وما في ﴿أَءِذَا مَا﴾ للتوكيد أيضاً وتكرير التوكيد إنكار على إنكار. انتهى ﴿والهمزة﴾ في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذول و(الواو) عاطفة للجملة المنفية على ذلك المحذوف، والذكر في الأصل هو العلم بما قد علم من قبل، ثم تخلله سهو وهم ما كانوا عالمين، فالمراد به هنا التذكر والتفكر، والتقدير: أيقول الإنسان ذلك الكلام؛ أعني قوله: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؛ أي: أيقول ذلك ولا يتفكر ولا يتذكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وأوجدناه من نطفة منتنة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه الحالة التي هو فيها الآن، وهي حالة بقائه ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لم يك شيئاً﴾ موجوداً بل كان عدماً صرفاً، فيعلم أن من قدر على الابتداء من غير سبق مادة قدر على الإعادة بجمع المواد بعد تفريقها، وفي

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) السمرقندي.

هذا دليل على صحة القياس، حيث، أنكر عليه جهله في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى، فيستدل به على البعث والإعادة، قيل: لو اجتمع الخلق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار.. ما قدروا.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ أصله[1]: لم يكن، حذفت النون تخفيفاً لكثرة الاستعمال، أو تشبيهاً بحروف العلة في امتداد الصوت، وقال الرضي: النون مشابه للواو في الغنة.

والمعنى: أي[2] أيقول ذلك ولا يتفكر الإنسان المجترىء على ربه المنكر لتلك الإعادة بعد الفناء، وللأحياء بعد الممات، أن الله خلقه من قبل مماته، فأنشأه بشراً سوياً من غير شيءٍ، فليعتبر بذلك، وليعلم أن من أنشأه كذلك لا يعجز عن إحيائه بعد مماته، وإيجاده بعد فنائه.

والخلاصة: أي[3] ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه، فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود، ابتداعاً وإختراعاً، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة، فقد تقدم عليها النشأة الأولى، فكانت كالمثال لها.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿أَءِذَا﴾ بهمزة الاستفهام وقرأت فرقة ـ منهم ابن ذكوان بخلافٍ عنه ـ: ﴿إذا﴾ بدون همزة الاستفهام، وقرأ الجمهور: ﴿لَسَوْفَ﴾ باللام، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿سأخرج﴾ بغير لام وسين الاستقبال عوض سوف، فعلى قراءته تكون إذا معمولاً لقوله: ﴿سأخرج﴾ لأن حرف التنفيس لا يمنع من عمل ما بعده من الفعل فيما قبله، على أن فيه خلافاً شاذاً، وصاحبه محجوج بالسماع، قال الشاعر:

فَلَمَّا رَأَتْهُ آمِنَاً هَانَ وَجْدُهَا وَقَالَتْ أَبُوْنَا هَكَذَا سَوْفَ يَفْعَلُ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

فهكذا منصوب بيفعل، وهو بحرف التنفيس، وحكى الزمخشري: أن طلحة بن مصرف قرأ: ﴿لسأخرج﴾ وقال الزمخشري: فإن قلت: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال؟ قلت: لم تجامعها إلا مخلصةً للتوكيد، كما أخلصت الهمزة في يا ألله للتعويض واضمحلّ عنها معنى التعريف. انتهى وقرأ الجمهور ﴿أُخْرَجُ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن، وأبو حيوة: مبنياً للفاعل، وقرأ أبو بحرية، والحسن، وشيبة، وابن أبي ليلى، وابن مناذر، وأبو حاتم، ومن السبعة عاصم، وابن عامر، ونافع ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ خفيفاً مضارع ذكر، وقرأ باقي السبعة، بفتح الذال والكاف وتشديدهما، أصله: يتذكر أدغم التاء في الذال، وقرأ أبيّ ﴿يتذكر﴾ على الأصل، قال الزمخشري: الواو عاطفة ﴿لا يذكر﴾ على يقول، ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف.

وهذا رجوع منه إلى مذهب الجماعة، من أن حرف العطف إذا تقدمته الهمزة فإنما عطف ما بعدها على ما قبلها، وقدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام، وكان مذهبه أن يقدر بين الهمزة والحرف ما يصلح أن يُعطف عليه ما بعد الواو، فيُقرَّ الهمزة على حالها، وليست مقدمةً من تأخير، وقد رددنا عليه هذه المقالة، ثم لما جاء ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الحجة التي أجمع العقلاءُ على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها. . أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريفاً وتعظيماً، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾؛ أي: فأقسمت لك يا محمد بربك ومالك أمرك لنحشرن هؤلاء القائلين بعدم البعث، أي: لنجمعنهم بالسوق إلى المحشر، ومعنى[1]: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياءً، كما كانوا، (والواو) في قوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ للعطف على الضمير المنصوب، أو بمعنى مع، روي أن كل كافر يحشر مع شيطانه الذي يضله في سلسلة.

(١) الشوكاني.

والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم الله تعالى مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للعهد، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فلكونه قد وُجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ بعد الوقوف الطويل في المحشر ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ من خارجها حال كونهم ﴿جِثِيًّا﴾؛ أي: جالسين[1] على الركب إهانةً لهم، أو لما يعرضهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم، جمع جاث، من جثا يجثو ويجثى جثواً وجثياً فيهما، جلس على ركبتيه، كما في «القاموس» وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿جِثِيًّا﴾؛ أي: جماعات جماعاتٍ، جمع جثوة وهي الجماعة أو المجموع، من الشراب أو الحجارة ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾؛ أي: لنأخذن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾؛ أي: من كل فرقةٍ وجماعة منهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: من هو أشد على الرحمٰن الذي غمرهم إحسانه ﴿عِتِيًّا﴾؛ أي: تكبراً وجراءةً على المعاصي ومجاوزة للحدود التي سنها لخلقه، والشيعة: الفرقة تبعت ديناً من الأديان، وخصص ذلك الزمخشري فقال: هي الطائفة التي شايعت؛ أي: تبعت غاوياً من الغواة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ ومعنى ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾؛ أي: ثم لنخرجن من كل أمة من كان أعصى لله وأعتى، فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم، والعتي ها هنا مصدر كالعتو، وهو: التمرد في العصيان، وقيل: المعنى: لننزعن من كل أهل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وقصارى[2] ذلك أن الله تعالى يحضرهم أولاً حول جهنم، ثم يميز بعضهم عن بعض، فمن كان أشدهم تمرداً في كفره.. خص بعذاب أعظم، فعذاب الضال المضل فوق عذاب من يضل بالتبع لغيره.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص[3]: ﴿جِثِيًّا﴾ و﴿عِتِيًّا﴾ و﴿صِلِيًّا﴾ بكسر الجيم والعين والصاد، والجمهور: بضمها وقرأ الجمهور ﴿أَيُّهُمْ﴾ بالرفع، وهي حركة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

بناء على مذهب سيبويه، وحركة إعراب على مذهب الخليل ويونس، وقرأ طلحة بن مصرف، ومعاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء، وزائدة، عن الأعمش ﴿أيهم﴾ بالنصب مفعولاً بـ﴿لننزعن﴾ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق ﴿بِهَا﴾؛ أي: بجهنم ﴿صِلِيًّا﴾؛ أي: دخولاً، فنبدأ بهم وهم المنتزعون من كل شيعة، والمعنى؛ أي: ثم لنحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها، وبما اجترحوا من السيئات، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات، وبمن هم أولى بجهنم دخولاً واحتراقاً، فنبدأ بهم أولاً، ثم بمن يليهم.

وخلاصة ذلك: أنهم جميعاً يستحقون العذاب، لكنا ندخلهم في جهنم بحسب عتيهم وتجبرهم في كفرهم، ثم خاطب سبحانه الناس جميعاً، فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾؛ أي: وما منكم أيها الناس، وقيل: القسم فيه مضمر؛ أي: والله ما منكم من أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ أي: واصل جهنم وداخلها ﴿كَانَ﴾ ورودهم إياها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿حَتْمًا﴾؛ أي: أمراً محتوماً، أوجبه الله سبحانه على نفسه، بمقتضى وعيده ﴿مَّقْضِيًّا﴾؛ أي: مفروغاً منه قضاؤه، حتى إنه لا بد من وقوعه البتة؛ أي[1]: وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم، ويصير حولها، قد قضى ربك بذلك، وجعله أمراً محتوماً مفروغاً منه، روى السدي عن ابن مسعود قال: «يرد الناس جميعاً الصراط، ويقومون حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل...» في حديث طويل، وقال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون بأعمالهم».

ولا يخفى[2] أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار، مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابها، أو بحمله على المضي فوق الجسر

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

المنصوب عليها وهو الصراط.

﴿ثُمَّ﴾ إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة، على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب ﴿نُنَجِّى﴾ نحن ونسلم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشرك والمعاصي منها بحسب أعمالهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: ونترك الظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في نار جهنم ﴿جِثِيًّا﴾؛ أي: جاثين جالسين على الركب كما جاؤوا، فإن قلت[1]: إذا لم يكن في دخول المؤمنين عذاب، فما الفائدة فيه؟.

قلت: فيه وجوه:

الأول: أن يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه.

الثاني: يزيد غم أهل النار، لظهور فضيحتهم عند المؤمنين الذين يخوفونهم بالنار.

والثالث: يرون أعداءَهم المؤمنين قد تخلصوا منها، وهم يبقون فيها.

والرابع: أن المؤمنين إذا كانوا معهم فيها.. بكتوهم فيزداد غمهم.

والخامس: أن مشاهدة عذابهم توجب مزيد التذاذهم بنعيم الجنة.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وجماعة[2]: ﴿وإن منهم﴾ بالهاء للغيبة على ما تقدم من الضمائر، وقرأ الجمهور: ﴿ثُمَّ﴾ بحرف العطف، وهذا يدل على أن الورود عام، وقرأ عبد الله، وابن عباس، وأبي، وعلي، والجحدري، وابن أبي ليلى، ومعاوية بن قرة، ويعقوب ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: هناك، ووقف ابن أبي ليلى ﴿ثمة﴾ بهاء السكت، وقرأ الجمهور: ﴿نُنَجِّى﴾ بفتح النون وتشديد الجيم، وقرأ يحيىٰ، والأعمش، والكسائي، وابن محيصن: بإسكان النون وتخفيف الجيم، وقرأ فرقة ﴿نجي﴾ بنون واحدة مضمومة وجيم مشددة وقرأ علي ﴿ننحي﴾ بحاء مهملة مضارع نحَّى.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الإعراب

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾.

﴿وَاذْكُرْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اذكر﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿مُخْلَصًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾: فعل ناقص وخبره واسمه ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى ﴿نَبِيًّا﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾ ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ناديناه﴾. ﴿الْأَيْمَنِ﴾ صفة لـ﴿جَانِبِ﴾ ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ناديناه﴾. ﴿نَجِيًّا﴾ حال من أحد الضميرين في ﴿ناديناه﴾ ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ وهو فعيل بمعنى فاعل؛ أي: مناجياً ﴿وَوَهَبْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ناديناه﴾. ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ﴿وَهَبْنَا﴾. ﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾ متعلق بـ﴿وَهَبْنَا﴾ أيضاً ومعنى ﴿مِن﴾ هنا للتبعيض؛ أي: بعض رحمتنا، أو للتعليل؛ أي: من أجل رحمتنا إياه ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول به لـ﴿وَهَبْنَا﴾. ﴿هَارُونَ﴾ بدل من ﴿أَخَاهُ﴾. ﴿نَبِيًّا﴾ حال من ﴿هَارُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾.

﴿وَاذْكُرْ﴾ فعل أمر ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ متعلق به وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ مفعول به والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾: فعل ناقص وخبره واسمه ضمير يعود على إسماعيل وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ فعل ناقص وخبره ﴿نَبِيًّا﴾: خبر ثان له واسمه

ضمير يعود على ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص معطوف على ﴿كَانَ﴾: الأولى واسمه ضمير يعود على ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾. ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ وجملة ﴿يَأْمُرُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ متعلق بـ﴿يأمر﴾ ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: معطوف على ﴿الصلاةِ﴾، ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص معطوف على ﴿كَانَ﴾ الأولى واسمه ضمير يعود على ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾. ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿مَرْضِيًّا﴾. ﴿مَرْضِيًّا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ فعل أمر معطوف على ﴿اذكر﴾ الأول وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق به ﴿إِدْرِيسَ﴾: مفعول به ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ صِدِّيقًا﴾: فعل ناقص وخبره ﴿نَّبِيًّا﴾: خبر ثان له واسمه ضمير يعود على ﴿إِدْرِيسَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَرَفَعْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿مَكَانًا﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿رفعناه﴾. ﴿عَلِيًّا﴾: صفة لـ﴿مَكَانًا﴾ وجملة ﴿رفعناه﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ والخطاب لمحمد ﷺ واسم الإشارة: واقع على الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وهم عشرة: أولهم في الذكر زكريا وآخرهم إدريس ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، أو بدل من اسم الإشارة، والجملة الاسمية، مستأنفة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾: والجملة صلة الموصول ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ حال من الموصول ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: بدل ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ بإعادة الجار، ﴿وَمِمَّنْ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾. ﴿حَمَلْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف تقديره: وممن حملناه ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ ظرف متعلق

بـ﴿حَمَلْنَا﴾ ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، معطوف على قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾: معطوف على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ ﴿هَدَيْنَا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول والعائد محذوف تقديره: هديناهم ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾: معطوف على ﴿هَدَيْنَا﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾، متعلق به ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿خَرُّوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿سُجَّدًا﴾ حال من فاعل ﴿خَرُّوا۟﴾. ﴿وَبُكِيًّا﴾ معطوف على ﴿سُجَّدًا﴾ وجملة ﴿خَرُّوا۟﴾: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إِذَا﴾ مع جوابها: مستأنفة لا محل لها من الإعراب إذا أعربنا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبراً وإذا أعربنا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً فتكون هي الخبر.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَخَلَفَ﴾ (الفاء) عاطفة أو استئنافية ﴿خلف﴾: فعل ماض ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خلف﴾ أو حال من ﴿خَلْفٌ﴾. ﴿خَلْفٌ﴾: فاعل والجملة: معطوفة على جملة الصلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أو مستأنفة ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿خَلْفٌ﴾. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفت قبائح هؤلاء الخلف وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك ﴿سوف يلقون﴾. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة: إذا المقدرة: مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء متصل على الراجح ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من فاعل ﴿يَلْقَوْنَ﴾ مبني على السكون ﴿تَابَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿وَءَامَنَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿تَابَ﴾ وكذلك ﴿وَعَمِلَ﴾: معطوف عليه ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به أو مفعول مطلق؛

أي: عملاً صالحاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت هذا الاستثناء وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك ﴿أولئك﴾. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق ولك أن تجعله مفعولاً ثانياً بتضمين ﴿يُظْلَمُونَ﴾ معنى ينقصون، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ﴾: بدل من الجنة منصوب بالكسرة ﴿عَدْنٍ﴾: مضاف إليه من عدن بالمكان إذا أقام، وقد جرى مجرى العلم، ولذلك ساغ وصفها بالتي ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية: صلة الموصول والعائد محذوف تقديره: وعدها الرحمٰن عباده ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: وعدهم إياها وهم غائبون عنها لا يرونها، أو حال من ضمير ﴿الجنة﴾ العائد على الموصول؛ أي: وعدها إياهم وهي غائبة عنهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، والضمير في إنه يعود على ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والمعنى. إن الرحمٰن كان وعده مأتياً، أو على الشأن، لأنه مقام تعظيم وتفخيم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة: في محل النصب حال من ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم في الجنة ﴿لَغْوًا﴾: مفعول به لـ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع ﴿سَلَٰمًا﴾ منصوب على الاستثناء ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿رِزْقُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير ﴿رِزْقُهُمْ﴾؛ أي: حالة كونهم مستقرين فيها، والجملة: مستأنفة ﴿بُكْرَةً﴾ ظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر في قوله ﴿لَهُمْ﴾. ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوف على ﴿بُكْرَةً﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة: مستأنفة ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾. ﴿نُورِثُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ولجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف تقديره: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ جار ومجرور حال من اسم ﴿كَانَ﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نُورِثُ﴾ ﴿كَانَ﴾. فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿تَقِيًّا﴾ خبرها وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية ﴿مَا﴾ نافية ﴿نَتَنَزَّلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على جبريل ومن معه من الملائكة، والجملة: مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء من أعم الأحوال ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿نَتَنَزَّلُ﴾؛ أي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ في حال من الأحوال إلا في حالة كوننا متلبسين ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وإذنه ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر والجملة: في محل النصب حال من ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول ﴿أَيْدِينَا﴾: مضاف إليه للظرف ﴿وَمَآ﴾ (الواو) عاطفة ﴿مَا﴾ موصول في محل الرفع معطوف على ما الموصولة في قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ﴿خَلْفَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: معطوف أيضاً على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة ﴿كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿وَمَا﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره، إذا عرفت أنه مالك السموات والأرض، وأردت بيان ما هو اللازم لك في حقه سبحانه: فأقول لك ﴿اعبده﴾ ﴿أعبده﴾: فعل أمر ومفعول به وفاعله ضمير يعود على محمد،

والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾. وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿اصطبر﴾. ﴿هَلۡ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿تَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لـ﴿تَعۡلَمُ﴾ ﴿سَمِيًّا﴾ مفعول أول له والجملة الفعلية: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ﴾ الواو: استئنافية ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿أَءِذَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بفعل محذوف دل عليه قوله ﴿لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ﴾؛ لأن (اللام): تمنع من تعلقه بـ﴿أُخۡرَجُ﴾ المذكور بعده لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها، والتقدير: أإذا ما مت أبعث ﴿مَا﴾: زائدة ﴿مِتُّ﴾ فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿لَسَوۡفَ﴾: اللام حرف ابتداء جيء بها لمجرد تأكيد الإنكار ﴿سوف﴾ حرف استقبال ﴿أُخۡرَجُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على الإنسان ﴿حَيًّا﴾: حال من فاعل ﴿أُخۡرَجُ﴾ وجملة ﴿أُخۡرَجُ﴾: دال على جواب إذا لا محل لها من الإعراب، أو هي الجواب، واللام زائدة، والتقدير: أأخرج حيا وقت موتي، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾ وساغ اجتماع اللام وهي تمحض الفعل للحال وسوف وهي تمحضه للاستقبال، لأن اللام هنا لمجرد التوكيد، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم ﴿سوف﴾ دون أن تجرد ﴿سوف﴾ من معناها لتلائم اللام لأنه لو عُكس هكذا للغت ﴿سوف﴾ إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأما اللام فإنها إذا جردت من الحال.. بقي لها التوكيد فلم تلغ، ﴿أَوَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، ﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية ﴿يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: فعل وفاعل والجملة: معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً، ولا يذكر أنا خلقنا.. إلخ. والجملة. المحذوفة: مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل

ومفعول ﴿مِن قَبۡلُ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ وجملة ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة: ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية فـ﴿يذكر﴾ والتقدير: أولا يذكر الإنسان خلقنا إياه من قبل ﴿وَلَمۡ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾: وعلامة جزمه سكون ظاهر على النون المحذوفة للتخفيف هي فعل من الأفعال الناقصة والناسخة، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾. ﴿شَيۡـٔٗا﴾: خبرها والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الفاء: استئنافية. ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿رَبِّكَ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره أقسم بربك يا محمد، والجملة المحذوفة: مستأنفة ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾: اللام موطئة للقسم ﴿نحشرن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على الله، والهاء: ضمير الغائبين في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: معطوف على ضمير الغائبين، أو الواو واو المعية ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: مفعول معه ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف و﴿لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿نحضرنهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ونون توكيد ومفعول به معطوف على ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾. ﴿حَوۡلَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿نحضرن﴾ ﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه ﴿جِثِيّٗا﴾: حال من هاء ﴿نحضرنهم﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿ننزعن﴾ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله: ضمير يعود على الله والجملة: معطوفة على جملة ﴿لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ﴾. ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: جار ومجرور إليه متعلق بـ﴿ننزعن﴾. ﴿أَيُّهُمۡ﴾ ﴿أَيُّ﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل النصب مفعول به، مبني على الضم، لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً لافتقارها إلى جملة

الصلة، وإنما حركت ليعلم أن لها أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة ضمة إيثاراً لها بأقوى الحركات، والهاء مضاف إليه، والميم للجمع ﴿أَشَدُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو أشد والجملة الاسمية: صلة لأي الموصولة ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾ ﴿عِتِيًّا﴾: تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو ﴿أَشَدُّ﴾: منصوب باسم التفضيل، والأصل عتوه، أي: جراءَته على الرحمٰن أشد من جراءة غيره.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿لَنَحْنُ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿أَعْلَمُ﴾ خبر والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿هُمْ أَوْلَىٰ﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ ﴿صِلِيًّا﴾ تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل والجملة الاسمية صلة الموصول وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب، لا التخصيص بأصل العذاب لاشتراكهم فيه.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: ما. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار مجرور صفة لمبتدأ محذوف تقديره: وما أحد كائن منكم ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر ﴿وَارِدُهَا﴾ خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على الورود ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿حَتْمًا﴾. ﴿حَتْمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مَّقْضِيًّا﴾ صفة ﴿حَتْمًا﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿نُنَجِّى ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ وما بينهما اعتراض ﴿ٱتَّقَوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿نُنَجِّى﴾: وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿نذر﴾ أو بـ﴿جِثِيًّا﴾. ﴿جِثِيًّا﴾: حال من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أو مفعول ثان لـ﴿نذر﴾؛ أي: نتركهم فيها ﴿جِثِيًّا﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾؛ أي: إن الله أخلصه واصطفاه، وأبعد عنه الرجس، وطهره من الذنوب والآثام، كما جاء في الآية الأخرى ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ ﴿نَجِيًّا﴾؛ أي: مناجياً مكلماً لله بلا واسطة، أصله: نجيو من نجا ينجو، اجتمعت حرفا علة فسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، ثم أدغمت الياء في الياء فصار ﴿نَجِيًّا﴾.

﴿مَرْضِيًّا﴾ العامة على قراءته كذلك معتلاً، وأصله: مرضووٌ بواوين الأولى زائدة كهي في مضروب، والثانية لام الكلمة لأنه من الرضوان، فأعل بقلب الواو الأخيرة ياءً، لوقوعها متطرفةً، فاجتمعت الياء والواو فسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، فأدغمت الياء في الياء فصار ﴿مَرْضِيًّا﴾ ويجوز النطق بالأصل، وقرأ ابن أبي عبلة: بهذا الأصل وهو الأكثر اهـ. «سمين».

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ قيل سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح، لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس.. لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية، فكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليل على عجمته، وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة.. كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى إدريس في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس، وما أجمل حرية الرأي .اهـ من «إعراب القرآن».

﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: جمع ساجدٍ وباكٍ والأول قياس كراكع وركع وعاذل وعذَّل، والثاني شاذ، لأن قياس فاعل من المنقوص أن يُجمع على فعلة، كقاضٍ وقضاةٍ وباغٍ وبغاةٍ ورامٍ ورماةٍ وساعٍ وسعاةٍ وطاغٍ وطغاةٍ، فقياس باكٍ هنا أن يجمع على بكاةٍ، كما قال ابن مالك.

فِـيْ نَـحْـوِ رَامٍ ذُوْ ٱطِّـرَادٍ فُـعَـلَـهْ

﴿فَخَلَفَ﴾؛ أي: وجد وحدث ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد النبيين

المذكورين ﴿خلف﴾؛ أي: عقب، وجماعة يستعملون الخلف بسكون اللام كما هنا في الشر، فيقال خلف سوءٍ وبفتحها في الخير، فيقال: خلف صالح قال في «الكشاف» خلفه إذا عقبه، ثم قيل: في عقب الخير خَلَف بالفتح، وفي عقب السوء خلْف بالسكون، كما قالوا وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر، وقال اللحياني: الخلف بفتحتين الولد الصالح، والخلف بفتح فسكون الرديء ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: كلّ شرٍ عند العرب غي، وكل خيرٍ رشاد، قال المرقش الأصغر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ ٱلنَّاسَ أَمْرُهُ وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَىٰ ٱلْغَيِّ لاَئِمَا

﴿جِثِيًّا﴾ على الركب يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه، وهي قعدة الخائف الذليل، كما في «البحر» يجثو ويجثي جثواً وجثايةً فهو جمع جاثٍ، وأصله: جثوو إن قلنا من جثا يجثو بواوين قلت الواو الثانية ياءً ثم الأولى كذلك، وأدغمت الياء في الياء، أو جثوى إن قلنا من جثا يجثي، فقلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء، وعلى كلا الوجهين كسرت الثاء لتصح الياء، فالجيم مكسورة ومضمومة: قراءتان سبعيتان ﴿صِلِيًّا﴾؛ أي: دخولاً واحتراقاً، مصدر من صلي، يقال: صلي يصلى صلياً، مثل لقى يلقى لقياً، وصلى يصلي مثل مضى يمضي مضياً، أصله: صلوي اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، وكسرت اللام لتصح الياء، ويقال: صلى بالنار إذا قاسى حرها ﴿وَارِدُهَا﴾؛ أي: مار عليها ﴿حَتْمًا﴾؛ أي: واجباً ﴿مَقْضِيًّا﴾؛ أي: قضي بوقوعه البتة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ شبه المكانة العظيمة، والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾؛ أي: مبالغةً في الصدق.

ومنها: الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ تنزيلاً لبعد المعنوي منزلة البعد الحسي.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ وهو قسمان:

أحدهما: أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء، صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها في صفة الذم المنفية، ومنه قول النابغة الذبياني:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فقد جعل الفلول عيباً علي سبيل التجوز، بتاً لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان فلول السيف من القراع عيباً فإنهم ذوو عيب، معناه: إن لم يكن عيباً فليس فيهم عيب البتة، لأنه لا شيء سوى هذا، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل.

وثانيهما: أن تثبت لشيء صفة مدحٍ وتعقب ذلك بأداة استثناء، يليها صفة مدحٍ أخرى لذلك الشيء، نحو «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش».

ومنها: التشبيه التمثيلي البليغ في قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣﴾ فقد شبه عطاء الجنة لهم بالعطاء الذي لا يرد وهو: الميراث الذي يرثه الوارث، فلا يرجع فيه المورث؛ أي: نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم، كما يُبقى على الوارث مال مورثه، والوراثة أقوى لفظٍ يستعمل في التمليك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخٍ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ وبين ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

ومنها: فن القسم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾ وهو: أن يريد المتكلم الحلف على شيء، فيحلف بما يكون فيه، فخر له وتعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره، أو ما يكون ذماً لغيره، أو جارياً مجرى الغزل والترقق، أو خارجاً

مخرج الموعظة والزهد، فقد أفاد القسم هنا أمرين:

أحدهما: أن العادة جرت بتأكيد الخبر باليمين.

والثاني: أن في إقسام الله تعالى باسمه مضافاً إلى رسوله ﷺ رفعاً منه لقدره، وتنويهاً بشأنه، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

ومنها: الافتنان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ والافتنان أن يَفْتنَّ المتكلم، فيأتي في كلامه بفنَّين: إما متضادين أو مختلفين أو متفقين، والآية التي نحن بصددها جمعت بين المتضادين، جمعت بين الوعد والوعيد، وبين التبشير والتحذير، وما يلزم من هذين الفنين من المدح للمختصين بالبشارة، والذم لأهل النذارة.

ومنها: الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ففيه التفات من الغيبة في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ و﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وكان مقتضى السياق ﴿وإن منهم إلا واردها﴾ كما قرأ به عكرمة، وجماعة، لكن الأكثرون على أن المخاطب العالم كلهم كما في «الخازن».

ومنها: ذكر العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به الكافر، لأنه هو المنكر للبعث.

ومنها: الطباق بين ﴿مِتُّ﴾ و﴿حَيًّا﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ
نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ
ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ
جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا
(٧٦) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ
عَهْدًا (٧٨) كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا
(٨٠) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَّا
يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ
شَيْـًٔا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ
ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ
أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا (٩٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش، المتكبرين للبعث بعد الفناء، وللعودة إلى حياة أخرى.. أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها، وعارضوا بها حجة الله التي يشهد بصحتها كل منصف، ويعتقدها من له أدنى مسكة من عقل.

تلك أنهم قالوا: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل.. لكان حالكم في

الدنيا أحسن وأطيب من حالنا، من قبل أن الحكيم لا يليق به أن يوقع المخلصين من أوليائه في الذل والمهانة، وأعدائه في العز والراحة، لكننا نجد الأمر على العكس من هذا، فإنا نحن الذين يمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم، وأنتم في ضنكٍ وفقرٍ وخوفٍ وذلٍ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل وقد رد الله تعالى عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وكانوا أحسن منكم حالاً، وأكثر أموالاً، قد أبادهم الله، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما ذكر الدلائل على صحة البعث، ثم أورد شبه المنكرين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذي لب.. أردف ذلك بذكر مقالتهم التي قالوها استهزاءً وطعناً في القول بالحشر والبعث.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر إنكار المشركين للبعث مع قيام الدليل على إمكانه بما نشاهد من أمر الخلق في النشأة الأولى.. أردف ذلك بالرد على عباد الأصنام، الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم، ويكونوا شفعاء لهم لديه، فبيَّن أنهم سيكونون لهم أعداء، وأنه ما جرَّأهم على تلك الغواية إلا وسوسة الشيطان لهم، ثم طلب إلى رسوله أن لا يستعجل المشركين، فإنما هي أنفاس معدودات ثم يهلكون، ثم ذكر ما يحوط المؤمنين من الكرامة حين وفودهم إلى ربهم، وما يحيق بالمشركين من الإهانة حين يرِدون عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما[2] رد على عبدة الأوثان، وأثبت لهم بقاطع

---

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

الأدلة أنهم في ضلالهم يعمهون، وأنهم عن الحق معرضون.. أردف ذلك بالرد على من أثبت له الولد، كاليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ...﴾ الآية، مناسبة الآية لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى، لما فصَّل أحوال الكافرين في الدنيا والآخرة، وبالغ في الرد عليهم.. ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين وبيّن أنه سبحانه سيغرس محبتهم في قلوب عباده، وبعد أن استقصى في السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر، ورد فيها على فرق المبطلين، بيّن أنه ذلك بلسان نبيه ﷺ ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً من المشركين ذوي الجدل والمماراة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري في (ج٥/ ص٢٢١) قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن خباب قال: كنت قيناً في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث، قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ والحديث رواه مسلم، والترمذي، وأحمد، والطيالسي، وابن سعد، وابن جرير، والطبراني، وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن جرير، عن عبد الرحمٰن بن عوف لما هاجر إلى المدينة.. وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة، منهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة

(١) البخاري.
(٢) لباب النقول.

وأمية بن خلف، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ قال: محبةً في قلوب المؤمنين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية الناطقة بحسن حال المؤمنين، وسوء حال الكفرة حالة كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: مرتلاتِ الألفاظ، مبينات المعاني، واضحاتِ الإعجاز، وهي[1] حال مؤكدة، فإن آيات الله لا ينفك عنها الوضوح، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: الذين مردوا منهم على الكفر، ومرنوا على العناد، كنضر بن الحارث وأتباعه الفجرة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: لفقراء المؤمنين الذين هم في خشونة عيش، ورثاثة ثياب، وضيق منزل، ـ واللام فيه للتبليغ ـ لأنهم شافهوا المؤمنين وخاطبوهم بقولهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم؛ أي: من المؤمنين والكافرين، كأنهم قالوا أينا ﴿خَيْرٌ﴾ وأحسن ﴿مَّقَامًا﴾؛ أي: منزلاً ومسكناً، أنحن أم أنتم، وهو موضع الإقامة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً ومجتمعاً؛ أي: أنحن أم أنتم، قال بعض المفسرين: الندي المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم، وقرأ الجمهور ﴿مَّقَامًا﴾ بفتح الميم وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحميد، والجعفي، وأبو حاتم عن أبي عمرو: بضم الميم واحتمل الفتح والضم أن يكون مصدراً، أو موضع قيام، أو إقامةٍ وانتصابه على التمييز.

والمعنى: أي وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحات الدلالة.. قالوا مفتخرين على المؤمنين، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل: أي الفريقين منا ومنكم أوسع عيشاً، وأنعم بالاً، وأفضل مسكناً، وأحسن مجلساً، وأجمع عدداً، أنحن أم أنتم؟ فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك المستخفون المستترون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا

---

(١) روح البيان.

سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾.

روي[1]: أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنوها، ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، فإذا سمعوا الآيات الواضحات، وعجزوا عن معارضتها، والدخل عليها.. قالوا مفتخرين بالحظوظ الدنيوية على فقراء المؤمنين: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل.. لكان حالكم في الدنيا أحسن، لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه في العذاب والذل، وأعداءه في العز والراحة لكن الأمر بالعكس، وقصدهم بهذا الكلام، صرفهم عن دينهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ وكم: خبرية بمعنى عدد كثير مفعول مقدم لـ﴿﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ و﴿مِّن قَرۡنٍ﴾: بيان لإبهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم، لأنهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة، وهو: مقدمها وقوله: و﴿هُمۡ أَحۡسَنُ﴾ في محل الجر على أنه صفة لقرن، وما في «الشوكاني» هنا أنه في محل نصب صفة لكم غير صواب ﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز عن النسبة وهو متاع البيت ﴿وَرِءۡيًا﴾ هو المنظر والهيئة؛ أي: وقد أهلكنا قبل هؤلاء المشركين كثيراً من أمةٍ عاتيةٍ، كعاد، وثمود، وغيرهما ﴿هُمۡ﴾؛ أي: أولئك القرون أحسن من هؤلاء المشركين أثاثاً ورئياً؛ أي: أموالاً وأمتعةً، ومناظر ذات جمال وزخرف.

والمعنى[2]: كثيراً من القرون التي كانوا أفضل منهم فيما يفتخرون به، من الحظوظ الدنيوية، كعاد، وثمود، وأضرابهم من الأمم العاتية، قبل هؤلاء؛ أي: كفار قريش أهلكنا هم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا.. لما فعلنا بهم ما فعلنا؛ أي: فإن ما أنتم[3] أيها المشركون فيه من النعم محض استدراج لم ينفعكم الترفه شيئاً عند نزول البلاء بكم، كما وقع للأمم الماضية، حيث كانوا في رفاهيةٍ أكثر منكم، ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم، ولم ينفعهم الترفه شيئاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

وخلاصة هذا[1]: إن كثيراً ممن كانوا أعظم منكم نعمةً في الدنيا، كعاد، وثمود، وأضرابهم من الأمم العاتية، قد أهلكهم الله، فلو صدق ما تدعون من أن النعمة في الدنيا تدل على الكرامة عند الله.. ما أهلك أحداً من المتنعمين بها، وفي هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى، وكأنه قيل: فليترقب هؤلاء أيضاً مثل ذلك، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَرِءْيًا﴾ بالهمزة من رؤية العين، فعل بمعنى مفعول، كالطحن بمعنى المطحون، والذبح بمعنى المذبوح، وقال ابن عباس: الرأي: المنظر، وقال الحسن: معناه صوراً، وقرأ الزهري، وأبو جعفر، وشيبة، وطلحة، في رواية الهمداني، وأيوب، وابن سعدان، وابن ذكوان، وقالون: ﴿وريا﴾ بتشديد الياء من غير همز، فاحتمل أن يكون مهموز الأصل من الرواء والمنظر، سهلت همزته بإبدالها ياءً، ثم أدغمت الياء في الياء، واحتمل أن يكون من الري ضد العطش، لأن الريان من الماء له من الحسن والنضارة ما يستحب ويستحسن، كما له منظر حسن من وجه آخر مما يرى ويقال، وقرأ أبو بكر في رواية الأعمش عن عاصم وحميد ﴿وريئاً﴾ بياء ساكنة بعدها همزة وهو على القلب ووزنه فلعاً، وكأنه من راء وقرىء ﴿ورياءً﴾ بياء بعدها ألف وبعدها همزة، حكاها اليزيدي، وأصله: ورئاء من المراآة؛ أي: يرى بعضهم بعضاً حسنه، وقرأ ابن عباس، فيما روى عن طلحة ﴿ورياً﴾ من غير همزٍ ولا تشديدٍ، فتجاسر بعض الناس وقال: هي لحن، وليس كذلك، بل لها توجيه: بأن تكون من الرواء وقلب فصار ﴿وَرِءْيًا﴾ ثم نقلت حركة الهمزة إلى الياء، وحذفت، أو بأن تكون من الري وحذفت إحدى الياءَين تخفيفاً كما حذفت في لا سيما، والمحذوفة الثانية، لأنها لام الكلمة، لأن الثقل إنما حصل للكلمة بانضمامها إلى الأولى، فهي أولى بالحذف، وقرأ ابن عباس أيضاً، وابن جبير، ويزيد البربري، والأعصم المكي ﴿وزيا﴾ بالزاي مشدد الياء، والزي: الهيئة الحسنة والآلات المجتمعة المستحسنة، من زويت بمعنى جمعت، فيكون أصلها: زوياً فقلبت الواو ياءً ثم

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

أُدغمت في الياء، والزي محاسن مجموعة، وفي «التأويلات النجمية» في معنى الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ من الحقائق والأسرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ستروا الحق بالإنكار والاستهزاء ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ من أهل التحقيق إذا رأوهم مرتاضين مجاهدين مع أنفسهم، متحملين متواضعين متذللين متخاشعين، وهم متنعمون متمولون متكبرون متبعوا شهوات أنفسهم، ضاحكون مستبشرون ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم ﴿خَيْرٌ﴾؛ أي: أفريقنا خير أم فريقكم خير ﴿مَّقَامًا﴾؛ أي: منزلةً ومرتبةً في الدنيا، ووجاهةً عند الناس، وتوسعاً في المعيشة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً ومنصباً وحكماً، فقال تعالى في جوابهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: أهلكنا بحب الدنيا ونعيمها، إذ أغرقناهم في بحر شهواتها، واستيفاء لذاتها، والتعزز بمناصبها ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾؛ أي: استعداداً واستحقاقاً في الكمالات الدينية منكم، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا» اهـ.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بالمال والمنال بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين للمؤمنين: أي الفريقين خير مقاماً، وأحسن ندياً ﴿مَن﴾ شرطية ﴿كَانَ﴾ مستقراً ﴿فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾؛ أي: في الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الأمور ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أمر بمعنى الخبر؛ أي: يمد له الرحمن، ويزيده في شهواته، ويمهله بطول العمر، وإعطاء المال، والتمكين من التصرفات؛ أي: يمد له الرحمن مداً، ويزيده في المال زيادةً، ويمهله في العمر إمهالاً، استدراجاً له وقطعاً للمعاذير يوم القيامة.

وإخراجه[1] على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يُفعل بموجب الحكمة، لقطع المعاذير، أو للاستدراج، واعتبار الاستقرار في الضلالة، لما أن المد لا يكون إلا للمصرين عليها، إذ رب ضال يهديه الله، والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية.

---

(١) روح البيان.

وذكر الرحمن في هذه السورة في ستة عشر موضعاً اهـ شيخنا. وقيل[1]: المراد بالآية الدعاء بالمد، والنفيس، قال الزجاج: تأويله أن الله سبحانه جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر، كأن المتكلم يقول: أفعل ذلك وآمر به نفسي. انتهى.

وقال: بعضهم معنى ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾؛ أي[2]: فليستدرجه الرحمٰن استدراجاً بمد عمره، وتوسيع ماله، وتكثير ولده، أو فليمهله الرحمٰن إمهالاً بمد راحته على الطغيان، وإيصال نعمته على وجه الإحسان، حتى يقع في العقاب والعذاب، على سبيل التدريج لا التعجيل، فيكون عقابه وعذابه أكمل وأشمل أثراً وألماً، لأن الأخذ على طريق التدريج والنعمة، أشد منه على سبيل التعجيل والنقمة، مع أن مبدأ المد مطلقاً هو الرحمٰن دون القهار أو الجبار، لأن كلاً منهما مبدأ الشدة، ولذلك عبر به لا بغيره، هذا هو الخاطر ببالي في وجه التعبير بالرحمٰن، وإن كانت أشدية عقاب الرحمٰن وجهاً، لكن وجه أشدية عقابه ما ذكرنا، لأنه إذا أراد العقاب.. يأتي به على وجه الرحمة والنعمة، فيكون كدراً بعد الصفاء، وألماً بعد الراحة، وشدةً بعد الرخاء، فهذا أقوى أثراً، والحاصل: أنه لا يتصور وقوع المد المذكور، إلا من الرحمٰن، لأنه أصله ومنشؤه. انتهى كلامه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾[3] غاية للمد الممتد، وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى من، كما أن الإفراد في الضميرين الأولين باعتبار لفظها؛ أي: من كان في الضلالة يمد له الرحمٰن مداً، ويستدرجهم استدراجاً، حتى إذا رأوا ما يوعدون من الله، وقوله: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود على سبيل البدل، فإنه إما العذاب أو الساعة؛ أي: حتى إذا رأوا الموعود لهم، إما العذاب الدنيوي، بغلبة المسلمين، واستيلائهم عليهم، وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً، وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال، على طريقة الخلو

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

دون الجمع، فإن العذاب الأخروي لا ينفك عنهم بحال، وقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط؛ أي: حتى إذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوي، أو الأخروي فقط.. فسيعلمون حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: منزلاً من الفريقين ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾؛ أي: أنصاراً وأعواناً منهما، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يحسبونه فيعلمون أنهم شر مكاناً لا خير مقاماً ويرون أنهم أضعف جنداً وأعواناً وأنصاراً، لا أحسن ندياً كما كانوا يدعونه.

والمعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شر مكاناً لا خير مكاناً، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين، وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء، بل لا جند لهم أصلاً، كما في قوله سبحانه ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

ومعنى الآية[1]: أي قل يا محمد لهؤلاء المدعين أنهم على الحق، وأنكم على الباطل: إن ما افتخرتم به من زخرف الدنيا وزينتها، لا يدل على حسن الحال في الآخرة، فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين في الضلالة، مرخين لأنفسهم الأعنة في سلوك المعاصي والآثام، يبسط لهم نعيم الدنيا، ويطيب عيشهم فيها، ويمتعهم بأنواع اللذات، ولا يزال يمهلهم استدراجاً لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين، إما عذاباً في الدنيا كما حصل يوم بدر، وإما مجيء الساعة وهم بها مكذبون، وعن الاستعداد لها مفرطون، وإذ ذاك يعلمون من هو شرّ من الفريقين مكاناً، وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرون، وسيرون أنهم شر مكاناً، وأضعف جنداً، وأقل ناصراً من المؤمنين، وهذا رد على قولهم ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وقصارى ذلك: أن من كان في الضلالة، فسنة الله أن يمد له، ويستدرجه ليزداد إثماً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، إما بعذاب في الدنيا يأتيه من حيث لا يحتسب، وإما بعذاب في الآخرة لا قبل له بدفعه، وحينئذ يعلم أنه كان في

---

(١) المراغي.

ضلال مبين، ويندم ولات ساعة مندم:

نَـدِمَ ٱلْـبُـغَـاةُ وَلاَتَ سَـاعَـةَ مَـنْـدَمِ   وَٱلْـبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيْـهِ وَخِـيْـمُ

ولا يجد عن النار محيصاً ولا مهرباً، ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة.. أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا﴾ بالإيمان ﴿هُدًىۗ﴾ بالإخلاص وبالعبادات المتفرعة على الإيمان، وبالثواب على ذلك الإيمان، وهذا كلام[1] مستأنف سيق لبيان حال المهتدين، إثر بيان حال الضالين؛ أي: ويزيد الله سبحانه وتعالى المؤمنين إيماناً، وعملاً ويقيناً ورشداً، كما زاد الضالين ضلالاً، ومدهم في استدراجهم، وذلك أن بعض الهدى يجر إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير.

والمعنى: أي[2] ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان هدىً بما ينزل عليهم من الآيات عوضاً مما منعوا من زينة الدنيا، كرامةً لهم من ربهم، كما بسط للضالين فيها لهوانهم عليه.

ومجمل هذا: أن من كان في الضلالة من الفريقين.. يمهله الله، وينفس له في حياته، ليزداد في الإثم والغي، ويجمع له عذاب الدارين، ومن كان في الهداية منهما.. يزيد الله في هدايته، ويجمع له خيري السعادتين.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾؛ أي: والأذكار التي يبقى ثوابها لصاحبها أبد الآباد والأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ التي تبقى عائدتها أبداً ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿ثَوَابًا﴾؛ أي: جزاءً مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾؛ أي: مرجعاً وعاقبةً، لأن مآلها رضوان الله، والنعيم الدائم، ومآل هذه السخط والعذاب المقيم، والتفضيل[3]: للتهكم بهم، للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً والمرد هنا: مصدر كالرد، والمعنى: خير رداً للثواب على عامليها، فليست

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

كأعمال الكفار التي خسروها. فبطلت، ذكره ابن الجوزي.

واعلم: أن الباقيات الصالحات هي أعمال الآخرة كلها، ومنها الكلمات الطيبة، قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم وأخذ عوداً يابساً، وأزال الورق عنه ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ليحط الخطايا كما يحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، فهن الباقيات الصالحات، وهي من كنوز الجنة».

والمعنى: أي[1] والطاعات التي بها تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، وتصل إلى القرب من الله، ونيل رضوانه خير عند ربك منفعةً وعاقبةً مما متع به أولئك الكفرة من النعم الفانية، التي يفخرون بها من مالٍ وولدٍ وجاهٍ ومنافعَ تحصل منها، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة، والعذاب المقيم.

وخلاصة هذا: أن الطاعات التي يبقى ثوابها لأهلها، خير عند ربهم جزاءً وخير عاقبةً من مقامات هؤلاء المشركين بالله، وأنديتهم التي يفخرون بها على أهل الإيمان في الدنيا، ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ (الهمزة) فيه[2] للاستفهام التعجبي من حاله، والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن يُرى ويقضى منها العجب داخلة على محذوف و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا التي من جملتها آيات البعث ﴿وَقَالَ﴾ مستهزئاً بها مصدراً كلامه باليمين والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾؛ أي: لأعطين في الآخرة إن بعثت ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ أي: انظر إليه يا محمد فتعجب من حالته البديعة، وجراءته الشنيعة، والغرض من هذا الاستفهام: التعجيب، فكأنه[3] قال: تعجب يا محمد

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

من قصة هذا الكافر، ومن مقالته المذكورة، وعطف هذه الجملة بالفاء إيذاناً بإفادة التعقيب، كأنه قيل: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر عقب قصة أولئك، وهذا الكافر هو العاص بن وائل، أبو سيدنا عمرو بن العاص، فهو جد عبد الله بن عمرو، أحد العبادلة المشهورة، كما مر في أسباب النزول.

وأرأيت بمعنى: أخبرني كما قد عرفته، والموصول هو المفعول الأول والثاني هو الجملة الاستفهامية من قوله ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ و﴿لَأُوتَيَنَّ﴾: جواب قسم محذوف، والجملة القسمية كأنها في محل نصب بالقول .اهـ شيخنا. والاستفهام في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ للإنكار، وأصله: أاطلع من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه، وطلع الثنية، فحذفت همزة الوصل وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة؛ أي: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة.

والمعنى: أقد بلغ من عظمة الشأن، إلى أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به العليم الخبير، حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ على ذلك؛ أي: أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين: علم الغيب، وعهد من عالمه، وقيل، العهد[1]: كلمة الشهادة والعمل الصالح، فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد الموثق عليه فمعنى ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؛ أي: أم قال: لا إله إلا الله فأرحمه بها، أو أم قدم عملاً صالحاً فهو يرجوه، وقيل: المعنى أنظر في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وقرأ الجمهور[2]، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿وَلَدًا﴾ أربعتهن هنا وفي الزخرف ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ بفتح الواو واللام، ويأتي الخلاف في الذي في نوح ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وابن أبي ليلى، وابن عيسى الأصبهاني: بضم الواو وإسكان اللام، وقال الفراء: وهما لغتان كالعدم والعدم، والعرب والعرب، وليس بجمع وقيل: يجعل الولد

---

(١) الشوكاني مع روح البيان.
(٢) البحر المحيط زاد المسير.

بالضم جمعاً، والولد بالفتح واحداً.

فعلى قراءة الجمهور[1]: يكون المعنى على الجنس، لا ملحوظاً فيه الإفراد، وإن كان مفرد اللفظ، وعلى قراءة غيرهم، فقيل: هو جمع كأَسَدْ وأُسْد، واحتج قائل ذلك بقول الشاعر:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِراً ... قَدْ ثَمَّرُوْا مَالاً وَوُلْدا

وقيل: هو مرادف للولد بالفتحتين، واحتجوا بقوله:

فَلَيْتَ فُلاَنَاً كَانَ فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ ... وَلَيْتَ فُلاَنَاً كَانْ وَلَدَ حِمَارِ

وقرأ عبد الله، ويحيىٰ بن يعمر: بكسر الواو وسكون اللام، والهمزة: في ﴿أَطَّلَعَ﴾ للاستفهام ولذلك عادلتها ﴿أَمِ﴾ وقرىء: بكسر الهمزة في الإبتداء وحذفها في الوصل، على تقدير: حذف همزة الاستفهام لدلالة ﴿أَمِ﴾ عليها كقوله:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ ٱلْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

يريد أبسبعٍ.

وقصارى ذلك: أوقد بلغ من عظم شأنه، أن ارتقى إلى علم الغيب الذي انفرد به الواحد القهار، أم أعطاه الله عهداً موثقاً، وقال له: إن ذلك كائن لا محالة، ثم زاد في تأكيد خطئه وهدده بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر؛ أي: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد، ويجوز[2] أن يكون معنى ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: إنه لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله عهداً ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: سنأمر الحفظة بإثبات قوله، لنجازيه به، أو سنحفظ عليه ما يقوله من الكذب والكفر والاستهزاء، فنجازيه في الآخرة، أو سنظهر ما يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿وَنَمُدُّ لَمُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي: نزيده من العذاب عذاباً فوق عذابه، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

نطوّل[1] له من العذاب ما يستحقه، ونضاعفه له جزاء كفره وافترائه على الله تعالى، واستهزائه بآياته، أو نجعل له بعض العذاب إثر بعض ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ إنه له[2] في الجنة، فنجعله لغيره من المسلمين، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، أو نرث ما عنده من المال والولد، بإهلاكنا إياه، وإبطال ملكه، وهو مري عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة، قال الزجاج: المعنى سنسلبه المال والولد، ونجعله لغيره ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ وحيداً خالياً لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثمة زائداً، وقيل: المعنى نحرمه ما تمناه من المال والولد، ونعطيه لغيره.

وفي الآية: إشارة إلى أن[3] أهل الغرور يدعون الإحراز للفضيلتين: المال والولد في الدنيا، والنجاة والدرجات في الآخرة، وينكرون على أهل التجرد في الإعراض عن الكسب، واعتزال النساء والأولاد، ولا يدرون أنهم يقعون بذلك في عذاب البعد، إذ لا سند لهم أصلاً.

وقرأ أبو نهيك: ﴿كلاً﴾ بالتنوين فيهما هنا، وهو مصدر من كل السيف كلاً إذا نبا عن الضرب، وانتصابه على إضمار فعل من لفظه، تقديره: كلوا كلاً عن عبادة الله، أو عن الحق ونحو ذلك.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بالنون، والأعمش: بياءٍ مضمومةٍ والتاء مفتوحة مبنياً للمفعول، وذكرت عن عاصم، وقرأ أبو[5] العالية الرياحي، وأبو رجاء العطاردي: ﴿سيكتب﴾ ﴿ويرثه﴾ بياء مفتوحة، وقرأ علي بن أبي طالب ﴿ونمد له﴾ يقال مده وأمده بمعنىً.

﴿وَاتَّخَذُوا﴾؛ أي: واتخذ مشركوا مكة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً﴾؛ أي: اتخذوا الأصنام آلهةً متجاوزين الله تعالى ﴿لِيَكُونُوا﴾؛ أي: ليكون الأصنام ﴿لَهُمْ﴾؛ أي:

---

(١) المراح.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.
(٥) زاد المسير.

للمشركين ﴿عِزًّا﴾؛ أي: منعةً؛ أي: ليكون الأصنام مانعين لهم من عذاب الله تعالى؛ أي: ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلةً إليه تعالى، وشفعاء عنده، وأنصاراً ينجون بهم من عذاب الله تعالى.

قال بعضهم[1]: كيف تظفر بالعز وأنت تطلبه في محل الذل ومكانه، إذ ذللت نفسك بسؤال الخلق، ولو كنت موفقاً لأعززت نفسك بسؤال الحق، أو بذكره، أو بالرضى لما يرد عليك منه، فتكون عزيزاً في كل حال: دنيا وآخرة.

﴿كَلَّاۚ﴾؛ أي: ليس الأمر على ما ظنوا ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾؛ أي: سيكفر الكفرة، وينكرون حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم، وينكرون ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: بعبادة الكفرة للأصنام ﴿وَيَكُونُونَ﴾؛ أي: ويكون الكفرة ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الأصنام ﴿ضِدًّا﴾؛ أي: أعداءً؛ أي: ويكون المشركون أعداءً لآلهتهم، كافرين بعبادتها، بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها.

والمعنى عليه: فيكون المشركون للآلهة ضداً وأعداءً يكفرون بها، بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون، ويصح أن يكون الضمير في ﴿يكفرون﴾ ﴿وَيَكُونُونَ﴾ للآلهة والمعنى حينئذٍ ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ﴾؛ أي: سيجحد الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: بعبادة المشركين لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا ﴿وَيَكُونُونَ﴾؛ أي: وتكون الأوثان التي يرجون أن تكون لهم منعةً من العذاب ﴿ضِدًّا﴾؛ أي: أعداءً وأعواناً بالعذاب، فإنهم وقود النار، ولأنهم عذبوا بسبب عبادتهم، وذلك أن الله تعالى يحشر آلهتهم، فينطقهم ويركب فيهم العقول، فتقول: يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك، أو المعنى عليه وتكون هذه الآلهة التي ظنوها عزاً لهم، ضداً عليهم؛ أي: ضداً للعز وضد العز الذل، وقرأ ابن أبي نهيك ﴿كلاً﴾ بالتنوين وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها، فعلى الضم هي بمعنى جميعاً، وانتصابها بفعل مضمر، كأنه قال: سيكفرون كلاً سيكفرون بعبادتهم، وعلى الفتح يكون مصدراً لفعل محذوف تقديره كل هذا الرأي ﴿كلا﴾ وقراءة الجمهور: هي الصواب وهي حرف ردع وزجر، ذكره الشوكاني، وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء

(١) روح البيان.

الكفار مع آلهتهم في الآخرة.. ذكر مالهم مع الشياطين في الدنيا، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم يا محمد ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ أي: سلطنا الشياطين ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومكناهم من إضلالهم بسبب سوء اختيارهم، حال كون تلك الشياطين ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾؛ أي: تؤز الكافرين وتغريهم وتهيجهم على المعاصي ﴿أَزًّا﴾؛ أي: تهييجاً شديداً. بأنواع الوساوس والتسويلات، فإن الأز والهز والاستفزاز أخوات، معناها: شدة الإزعاج وفي «العيون» الإز في الأصل: هو الحركة مع صوتٍ متصل من أزيز القدر؛ أي: غليانه.

والمعنى[1]: تحثهم وتحرضهم على المعاصي تحريضاً شديداً وفي الآية دليل على أن الله تعالى مدبر لجميع الكائنات.

وخلاصة ما سلف[2]: تعجيب رسوله محمد ﷺ مما حكته الآيات السالفة عن هؤلاء الكفرة، من تماديهم في الغي، وانهماكهم في الضلال، وتصميمهم على الكفر، بدون رادعٍ ولا زاجرٍ، ومدافعتهم للحق مع وضوحه، وتنبيه له إلى أن ذلك إنما كان بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا لقصور في التبليغ، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وتهوين للأمر على نفسه ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فلا تستعجل يا محمد بطلب العقوبة عليهم حسبما تقتضيه جناياتهم، حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم، وتطهر الأرض من فسادهم، يقال: عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيام آجالهم ﴿عَدًّا﴾؛ أي: لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة، وأنفاس معدودة، فنجازيهم بها؛ أي[3]: نعد لهم الليالي والأيام والشهور والأعوام، وقيل: الأنفاس التي يتنفسونها في الدنيا، إلى الأجل الذي أجل لعذابهم، وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إذا قرأها.. بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك. وعن ابن السماك، أنه كان عند

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

المأمون، فقرأ الآية، ثم قال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد:

إِنَّ ٱلْحَبِيْبَ مِنَ ٱلأَحْبَابِ مُخْتَلَسُ ... لاَ يَمْنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلاَ حَرَسُ
وَكَيْفَ يَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا ... فَتَىً يُعَدُّ عَلَيْهِ ٱللَّفْظُ وَٱلنَّفَسُ

والعد هنا: كناية عن القلة، ولا ينافي هذا ما مر من أنه يمد لمن كان في الضلالة؛ أي: يطول لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم، وهو قليل باعتبار عاقبته وعند العد .اهـ «شهاب».

ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر، وأجاب عن شبهة منكريه.. أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذٍ فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر؛ أي: اذكر يا محمد لقومك بطريق الترغيب والترهيب، يوم يجمع أهل التقوى والطاعة ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة، حال كونهم ﴿وَفْدًا﴾؛ أي: وافدين عليه، كما يفد الوفود على الملوك راكبين منتظرين لكرامتهم وإنعامهم، والوافد من يأتي بالخير، والوفد جمع وافد كركب جمع راكب، ومعنى[1] حشرهم إلى الرحمٰن: حشرهم إلى جنته ودار كرامته، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وفي «التأويلات النجمية» إنما خص حشر وفد المتقين إلى حضرة الرحمانية، لأنها من صفات اللطف، ومن شأنها الجود والإنعام، والفضل والكرم، والتقريب والمواهب. انتهى.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين والعاصين بكفرهم ومعاصيهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ كما تساق البهائم حالة كونهم ﴿وِرْدًا﴾؛ أي: مشاةً عطاشاً، قد تقطعت أعناقهم من العطش، وقرأ الحسن[2]، والجحدري ﴿يحشر المتقون﴾ ﴿ويساق المجرمون﴾ مبنياً للمفعول.

وجملة قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور، والضمير فيه: إما راجع إلى المتقين خاصةً، ويكون حينئذ معنى

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

العهد في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ الإذن في الشفاعة والمعنى؛ أي: لا يملك أحد من المتقين أياً كان أن يشفع للعصاة، إلا من اتخذ من الله إذناً في الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فالشفاعة على هذا مصدر من المبني للفاعل، وإما راجع إلى المجرمين خاصةً، ويكون حينئذٍ معنى العهد الإيمان والإسلام، والشفاعة: مصدر من المبني للمفعول، والمعنى لا يملك المجرمون؛ أي: لا يستحق المجرمون أن يشفع لهم إلا من اتخذ عند الرحمٰن إيماناً؛ أي: إلا من كان منهم مسلماً مؤمناً؛ أي: لا يستحق(١) هؤلاء المجرمون أن يشفع لهم غيرهم، إلا من اتخذ كلمة الشهادة بالتوحيد والنبوة، ولو كانوا أهل الكبائر، وروى ابن مسعود أنه ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي.. تقربني من الشر، وتبعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع، ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة.. نادى منادٍ أين الذين لهم عند الرحمٰن عهد؟ فيدخلون الجنة» أخرجه الطبراني، والحاكم وصححه غيرهما.

ويحتمل عود الضمير في ﴿يَمْلِكُونَ﴾ إلى الفريقين جميعاً، وهو أولى، والمعنى حينئذ؛ أي: لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم، أو المشفوعين بأن يكون مؤمناً تقياً، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله تعالى ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال الكافرون ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ أي: قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وهذه الجملة مستأنفة، وقرأ يحيى(٢) بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي ﴿ولداً﴾ بضم الواو وإسكان اللام، وقرأ

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني.

الباقون في الأربعة المواضع المذكورة في هذه السورة بفتح الواو واللام، وقد قدمنا الفرق بين القراءتين.

فقال الله تعالى وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أيها القائلون بمقالكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾؛ أي[١]: شيئاً منكراً عظيماً يدل على الجرأة على الله، وكمال القِحَةِ عليه سبحانه، وإنه ليغضبه أشد الغضب، ويسخطه أعظم السخط، والإد[٢] والإدة بكسرهما: العجب والأمر الفظيع، والداهية والمنكر كالأد بالفتح، كما في «القاموس» أي: فعلتم أمراً منكراً شديداً لا يقادر قدره، فإن جاء وأتى يستعملان بمعنى فعل فيعديان تعديته.

وقرأ الجمهور: ﴿إِدًّا﴾ بكسر الهمزة، وعلي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمٰن: بفتحها، وقرأ ابن عباس، وأبو العالية ﴿آداً﴾ مثل مادا.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾؛ أي: تقرب السموات السبع من أن ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ويتشققن مرةً بعد أخرى ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من قولهم اتخذ الرحمٰن ولداً ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: وتكاد الأرض أن تنشق وتتصدع أجزاؤها، وتنخسف بهم من ذلك القول ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: وتكاد الجبال أن تخر وتسقط منطبقةً عليهم، وتهد ﴿هَدًّا﴾؛ أي: تسقط سقوطاً، وتنهدم هدماً، وتنكسر كسراً من ذلك القول، والهد: الهدم الشديد، والكسر كالهدود، كما في «القاموس»[٣] فهو مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال.

والمعنى: إن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة، لم تطق بها هاتيك الأجرام العظام، وتفتتت من شدتها، أو إن فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط، بحيث لولا حلمه تعالى على أهل الأرض، وأنه لا يعاجلهم بالعقاب، لخرب العالم، وبدد قوائمه غضباً على من تفوَّه بها.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

روي عن ابن عباس أنه قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق، إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله وكماله.

وقرأ ابن كثير[١]، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء الفوقية وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يكاد﴾ بالياء التحتية، وقرأا جميعاً ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالياء والتاء مشددة الطاء، ووافقهما ابن كثير، وحفص عن عاصم، في ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ينفطرن﴾ بالنون، وقرأ حمزة، وابن عامر في مريم: مثل أبي عمرو، وفي الشورى مثل ابن كثير، ومعنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: يقاربن الانشقاق من قولهم. قال ابن قتيبة: وقوله تعالى: ﴿هَدًّا﴾؛ أي: سقوطاً.

وقوله من: ﴿أَن دَعَوْا﴾ وسموا ونسبوا ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ أي: من نسبتهم الولد للرحمٰن، بدل[٢] من الهاء في منه السابق في ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أو منصوب[٣] بحذف اللام المتعلقة بـ﴿تكاد﴾ أو مجرور بإضمارها؛ أي: تكاد السموات تتفطرن، والأرض تنشق، والجبال تخر، لأن دعوا له سبحانه ولداً ودعوا من دعا، بمعنى سمى المتعدي إلى المفعولين، وقد اقتصر على ثانيهما، ليتناول كل ما دعي له من عيسى، وعزير، والملائكة، ونحوهم، إذ لو قيل دعوا، عيسى ولداً.. لما علم الحكم على العموم، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان؛ أي: انتسب إليه، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: ما يصلح له[٤]، ولا يليق به اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي مجانسةً، وكل متخذ ولداً يتخذه من جنسه، والله تعالى منزه عن أن يجانس شيئاً، أو يجانسه شيء، فمحال في حقه اتخاذ الولد، حال[٥] من فاعل ﴿قَالُوا﴾ وينبغي مضارع بغى: إذا طلب؛ أي: قالوا اتخذ الله ولداً، والحال أنه ما يليق به ـ تعالى ـ اتخاذ الولد، ولا يتطلب له لو طلب مثلاً لاستحالته في نفسه، وذلك لأن الولد بضعة من الوالد، فهو مركب

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) زاد المسير.
(٥) روح البيان.

ولا بد للمركب من مؤلف، فالمحتاج إلى المؤلف لا يصلح أن يكون إلٰهاً ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما كل من في السموات والأرض من الملائكة والثقلين وغيرهم ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه يوم القيامة حال كونه ﴿عَبْدًا﴾؛ أي: مقراً بالعبودية، خاضعاً ذليلاً، كما قال ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين، والمعنى: أن الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولداً له، فـ﴿إن﴾[1] نافية بمعنى ما و﴿كُلُّ﴾: مبتدأ خبره ﴿ءَاتِي﴾ و﴿مَن﴾، موصوفة، لأنها وقعت بعد كل نكرة، وفي «العيون» سيأتي جميع الخلائق يوم القيامة إلى الرحمٰن خاضعاً ذليلاً مقراً بالعبودية، كالملائكة وعيسى وعزير وغيرهم؛ يعني: يلتجئون إلى ربوبيته، منقادين، كما يفعل العبيد للملوك، فلا يليق به اتخاذ الولد منهم. انتهى.

وقرأ عبد الله، وابن الزبير، وأبو حيوة، وطلحة، وأبو بحرية، وابن أبي عبلة، ويعقوب: ﴿إلا آت﴾ بالتنوين ﴿الرحمٰن﴾ بالنصب، والجمهور: بالإضافة، وتكرر لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيهاً على أنه لا يستحق هذا الاسم غيره، إذ أصول النعم وفروعها منه.

وعزتي وجلالي ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ أي: لقد أحصى الله جملة الخلائق، وحصرهم وأحاط بهم علماً، بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته، وملكوته، مع إفراط كثرتهم، فهم تحت أمره وتدبيره، يعلم ما خفي من أحوالهم، وما ظهر، لا يفوته شيء منها ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: وعد أشخاصهم وأنفاسهم، وأفعالهم وأقوالهم وآجالهم، فكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة ﴿وَكُلُّهُمْ﴾؛ أي: وكل امرىءٍ من الخلائق ﴿ءَاتِيهِ﴾؛ أي: يأتيه سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: آتٍ إياه سبحانه ﴿فَرْدًا﴾ وحيداً يوم القيامة، منفرداً عن الأهالي والأموال والأولاد، وعن الاتباع والأنصار، منقطعاً إليه تعالى، محتاجاً إلى معونته ورحمته، فلا يجانسه شيء من ذلك، ليتخذه ولداً، ولا يناسبه ليشرك به.

ولما ذكر سبحانه إتيان كل من في السموات وفي الأرض في حال العبودية

---

(١) روح البيان.

والانفراد.. آنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم ﴿وُدًّا﴾ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وصدقوا برسله، وبما جاؤوهم به من عنده ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾؛ أي: محبة الناس لهم في الدنيا؛ أي: سيحدث لهم في القلوب محبةً من غير تعرض منهم لأسبابها، من قرابةٍ أو صداقةٍ أو اصطناع معروفٍ أو غير ذلك، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، تخصيصاً لأوليائه بهذه الكرامة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب، إعظاماً لهم؛ أي: إن الله تعالى وعدهم أن يؤلف بين قلوبهم في الدنيا إذا ظهر الإسلام، وأن يحببهم إلى خلقه يوم القيامة بما يظهر من حسناتهم، وينشر من ديوان أعمالهم على رؤوس الأشهاد، والسين: إما لأن السورة مكية، وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة، فوعدهم الله ذلك إذا قوي الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله إلى خلقه بما يظهر من حسناتهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وُدًّا﴾ بضم الواو وقرأ أبو الحارث الحنفي: بفتحها وقرأ جناح بن حبيش، ﴿وِداً﴾ بكسر الواو، ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن، خصوصاً هذه السورة، لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: فإنما سهلنا هذا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: إنزاله على لغتك[2] (والباء): بمعنى (على) و(الفاء): لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة: بلِّغ هذا المنزل، وبشر به وأنذر، وإنما يسرناه بلسانك العربي المبين، ثم علل ما ذكره من التيسير فقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾؛ أي: بهذا القرآن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالجنة؛ أي: المتلبسين بالتقوى، المتصفين بها، أو الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾؛ أي: ولتخوف بهذا القرآن ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾؛ أي: شديدي الخصومة، لا يؤمنون به لجاجاً وعناداً بالعذاب، يقال: أنذره بالأمر إنذاراً، أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه، كما في «القاموس» واللد: جمع الألد وهو الشديد الخصومة، اللجوج المعاند،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وفي «القاموس»، الألد: الخصم الشحيح، الذي لا يزيغ إلى الحق، وفي الحديث «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

والمعنى[1]: أي فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية، لتقرأه على الناس، وتبشر به من اتقى عقاب الله، فأدى فرائضه، واجتنب نواهيه، بأن له الجنة، وتنذر به من عصاه من قريش بالعذاب، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى، ممن لا يقبل حقاً، ولا يحيد عن باطل، ولو أنزلناه بغيرها لم يتيسر التبشير به ولا الإنذار، لعدم فهم المخاطبين لغيرها.

وقصارى ذلك: بلِّغ هذا المنزل، وبشر به وأنذر، فإنما أنزلناه بلسانك العربي المبين، ليسهل على الناس حفظه، ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: وكثيراً من الأمم الماضية، والقرون الخالية، قد أهلكنا قبل هؤلاء اللد المعاندين لك، حين سلكوا في خلاف مسلك هؤلاء، وركبوا معاصي فـ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ وتجد يا محمد ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أولئك القرون ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: هل تجد أحداً منهم فتراه وتعاينه ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؛ أي: صوتاً خفياً، لا أنهم بادوا، وخلت منهم الديار، وأقفرت المنازل، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل، وإن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك، والاستفهام فيه إنكاري كما أشرنا إليه آنفاً في الحل.

والمعنى: استأصلناهم بالكلية، بحيث لا يُرى منهم أحد، ولا يُسمع لهم صوت خفي، كما في «أبي السعود».

وفي هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين، ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين، وحث له على التبشير والإنذار.

وقصارى ذلك: أنا أهلكناهم فلم نبق منهم أحداً تراه، ولا تسمع له صوتاً خفياً ولا ظاهراً.

---

(١) المراغي.

وقرأ الجمهور: ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ بضم التاء وكسر الحاء، مضارع أحس الرباعي، وقرأ أبو حيوة، وأبو بحرية، وابن أبي عبلة، وأبو جعفر المدني: ﴿تُحِسُّ﴾ بفتح التاء وضم الحاء، وقرأ بعضهم: ﴿تحس﴾ بفتح التاء وكسر الحاء، من حسه إذا شعر به، ومنه الحواس الخمس والمحسوسات، وقرأ حنظلة: ﴿أو تسمع﴾ مضارع أسمعت: مبنياً للمفعول.

وختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة، لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا، ومن الانتهاء إلى الموت.. خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة في الآخرة، فكانوا أقرب إلى الحذر من المعاصي.

الإعراب

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو: استئنافية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾ ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿أَىُّ﴾: استفهامية مبتدأ ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ مضاف إليه ﴿خَيْرٌ﴾ خبر والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَّقَامًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل ﴿وَأَحْسَنُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿نَدِيًّا﴾ تمييز منصوب به.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَكَمْ﴾ الواو: استئنافية ﴿كم﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾: مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً

﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿قَبۡلَهُم﴾ متعلق بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾: تمييز غير صريح لـ﴿كم﴾ لجره بـ﴿مِّن﴾ الزائدة لأن تمييز ﴿كم﴾ الخبرية كثيراً ما يكون مجروراً بـ﴿من﴾. ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ﴾: مبتدأ وخبر والجملة: في محل الجر صفة لـ﴿قَرۡنٍ﴾ وليست صفةً لـ﴿كم﴾ كما قيل لأن كم استفهاميةً أو خبريةً لا توصف ولا يوصف بها ﴿أَثَٰثًا﴾: تمييز محول عن المتبدأ منصوب باسم التفضيل ﴿وَرِءۡيًا﴾: معطوف على ﴿أَثَٰثًا﴾.

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة: مستأنفة ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر: جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً (اللام) لام الأمر ﴿يمدد﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿لَهُ﴾ متعلق به ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فاعل ﴿مَدًّاۚ﴾ مفعول مطلق وجملة: ﴿يمدد﴾ في محل الجزم بمن على كونها جواب الشرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية وقيل ﴿حَتَّىٰٓ﴾: هنا ابتدائية؛ أي: تبدأ بعدها الجمل قال الشهاب في «حاشيته» على «البيضاوي» و﴿حَتَّىٰٓ﴾: هنا حرف ابتداء، أي: تبدأ بعدها الجمل؛ أي: تستأنف، فليست جارة ولا عاطفة، وهكذا حيث دخلت على إذا الشرطية عند الجمهور .اهـ وفي «زكريا» أنها جارة، والمعنى: فيستمرون في الطغيان إلى أن يشاهدوا الموعود .اهـ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿رَأَوۡاْ﴾ فعل وفاعل ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول أو صلة لـ﴿مَا﴾ والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يوعدونه ﴿إِمَّا﴾: حرف تفصيل وهي مانعة خلوّ تجوز الجمع ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: بدل من ﴿مَا﴾ الموصولة بدل تفصيل من مجمل ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾: معطوفة على ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾

﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً لاقترانه بحرف التنفيس ﴿يعلمون﴾: فعل وفاعل والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة لأن ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية أو في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ و﴿حَتَّىٰٓ﴾: متعلقة بـ﴿يمدد﴾ والتقدير: فيمدد لهم الرحمٰن مداً إلى علمهم ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ وقت رؤيتهم ما يوعدون ﴿مَنۡ﴾، اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يعلمون﴾: لأن علم هنا بمعنى عرف ﴿هُوَ شَرّٞ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن تكون من استفهاميةً في محل الرفع، مبتدأ أول و﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثان و﴿شَرّٞ﴾ خبر المبتدأ الثاني و﴿هُوَ﴾ وخبره خبر ﴿مَنۡ﴾ وجملة ﴿مَنۡ﴾ في محل النصب بـ﴿يعلمون﴾ على أنها معلقة لها ﴿مَّكَانٗا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾: معطوف على ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة: مستأنفة ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿هُدٗىۗ﴾ تمييز أو مفعول ثان للفعل ﴿يزيد﴾ ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: صفة للمبتدأ ﴿خَيۡرٌ﴾ خبر ﴿الباقيات﴾ والجملة: مستأنفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿خَيۡرٌ﴾. ﴿ثَوَابٗا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب بـ﴿خَيۡرٌ﴾ ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ معطوف على ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ الهمزة: للاستفهام التعجبي داخلة على محذوف و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: أنظرت فرأيت ﴿رأيت﴾. فعل وفاعل بمعنى أخبرني يتعدى لمفعولين ﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأيت﴾ وجملة ﴿رأيت﴾: معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة: مستأنفة ﴿كَفَرَ﴾: فعل وفاعل مستتر ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة: صلة الموصول ﴿وَقَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿كَفَرَ﴾ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿أوتين﴾ فعل مضارع مغير الصيغة في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ونائب فاعله وفاعله: ضمير مستتر فيه تقديره: أنا ﴿مَالٗا﴾: مفعول ثان ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ لأنه بمعنى أعطى ﴿وَوَلَدًا﴾: معطوف على ﴿مَالٗا﴾ والجملة

الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾.

﴿أَطَّلَعَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿طلع﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الكافر ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مفعول به والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿رأيت﴾ علق عنها بهمزة الاستفهام ﴿أَمِ﴾: حرف عطف معادل للهمزة ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الكافر ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ ﴿عَهْدًا﴾: مفعول أول لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ ﴿عَهْدًا﴾: مفعول أول لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وجملة ﴿ٱتَّخَذَ﴾: معطوفة على جملة ﴿اطلع﴾.

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾.

﴿كَلَّا ۚ﴾: حرف ردع وزجر ﴿سَنَكْتُبُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله تقديره، نحن وصدره بالسين من باب ما يقوله المتوعد لخصمه سوف أنتقم منك، يعني: لا تغتر بطول الزمان، فإن الانتقام آتيك، أو ستظهر له وتعلمه أنا كتبنا ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، في محل النصب مفعول به لـ﴿نكتب﴾ والجملة الفعلية: مستأنفة ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الكافر وجملة ﴿يَقُولُ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يقوله ﴿وَنَمُدُّ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾: وفاعله ضمير يعود على الله تقديره: نحن ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نمد﴾ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: حال من ﴿مَدًّا ۚ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿مَدًّا ۚ﴾: مفعول مطلق أو مفعول به أو منصوب بنزع الخافض ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعله ضمير يعود على الله والجملة معطوفة: على جملة ﴿نمد﴾: ﴿مَا﴾ بدل اشتمال من الهاء والمعنى نرث ما عنده من المال والأهل والولد ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الكافر والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف تقديره: ما يقوله ﴿وَيَأْتِينَا﴾: الواو: عاطفة ﴿يأتينا﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على الكافر ﴿فَرْدًا﴾:

حال من فاعل ﴿يأتينا﴾: والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿نرثه﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ الواو: استئنافية ﴿اتخذوا﴾: فعل وفاعل ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من ﴿ءَالِهَةً﴾ ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول ثان والأول محذوف لدلالة السياق عليه والتقدير: واتخذوا الأصنام آلهة من دون الله والجملة: مستأنفة ﴿لِّيَكُونُوا۟﴾ (اللام): حرف جر وتعليل ﴿يكونوا﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي و(الواو) اسمها ﴿لَهُمْ﴾ حال من ﴿عِزًّا﴾ ﴿عِزًّا﴾ خبرها والجملة: في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لكونهم عزاً لهم الجار والمجرور متعلق بـ﴿اتخذوا﴾. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾: متعلق به والجملة: مستأنفة ﴿وَيَكُونُونَ﴾: فعل مضارع ناقص واسمها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حال من ﴿ضِدًّا﴾. ﴿ضِدًّا﴾: خبر يكون ووحده وهو جمع لمحاً لأصله، لأنه في الأصل مصدر والمصادر لا تثنى ولا تجمع، أو لأنه مفرد في معنى الجمع، والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: للإستفهام التقريري ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾: وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على محمد تقديره: أنت والجملة: مستأنفة ﴿أَنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: متعلق به وجملة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿تَرَ﴾. ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿أَزًّا﴾: مفعول مطلق وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾. ﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿لا تعجل﴾. ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَعْجَلْ﴾: فعل

مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾: الناهية وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة: مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة ﴿نَعُدُّ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به ﴿عَدًّا﴾: مفعول مطلق وجملة: ﴿نَعُدُّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية بفعل محذوف تقديره: اذكر لهم يا محمد يوم نحشر المتقين والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿نَحْشُرُ﴾ ﴿وَفْدًا﴾: حال من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: وافدين وجملة ﴿نَحْشُرُ﴾ في محل الجر مضاف إليه للظرف ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿نَحْشُرُ﴾ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بـ﴿نسوق﴾. ﴿وِرْدًا﴾ حال من ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: واردين ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير حال الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، ولا علاقة لها بالفريقين المتقدمين ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر واستثناء ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الرفع بدل من الواو في ﴿يَمْلِكُونَ﴾ أو في محل النصب على الاستثناء المتصل ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾ ﴿عِندَ الرَّحْمَٰنِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لـ﴿اتَّخَذَ﴾. ﴿عَهْدًا﴾: هو المفعول الأول له، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وقد اختار أبو البقاء والزمخشري: أن يكون الاستثناء منقطعاً.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿لَّقَدْ﴾ (اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْتُمْ شَيْئًا﴾: فعل وفاعل ومفعول و﴿إِدًّا﴾ صفة ﴿شَيْئًا﴾ والجملة الفعلية: جواب لقسم محذوف، وجملة القسم، في محل النصب مقول

لقول محذوف تقديره: قال الله سبحانه والله لقد جئتم شيئاً إداً، ﴿تَكَادُ﴾ فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: اسمها ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: فعل وفاعل منه متعلق به والجملة في محل النصب خبر كاد وجملة ﴿تَكَادُ﴾: مستأنفة أو صفة لـ﴿إِدًّا﴾ كما في «الفتوحات» ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب خبر لكاد المحذوفة المعلومة من السياق، والتقدير وتكاد الأرض تنشق منه، والجملة معطوفة، على جملة كاد الأول ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾: فعل وفاعل ﴿هَدًّا﴾: حال من الجبال؛ أي: مهدودةً أو مفعول مطلق معنوي لـ﴿تخر﴾ لأن الخرور والهد معناهما السقوط، والجملة الفعلية: خبر لكاد المحذوفة تقديره: وتكاد الجبال تخر هدا ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿دَعَوْا﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿دَعَوْا﴾. ﴿وَلَدًا﴾ مفعول ثان لـ﴿دَعَوْا﴾ والأول محذوف تقديره: معبودهم لأن ﴿دَعَوْا﴾ بمعنى سموا وهي تتعدى لاثنين بنفسها، أو بالباء، وجملة ﴿دَعَوْا﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من ضمير ﴿مِنْهُ﴾ في قوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أو مجرور بلام جر محذوفة متعلقة بـ﴿تَكَادُ﴾ والتقدير: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ لأجل دعوتهم ونسبتهم ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ (الواو): حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿يَنۢبَغِى﴾: فعل مضارع ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق به ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَتَّخِذَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿وَمَا﴾ المصدرية وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. ﴿وَلَدًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ﴾ اتخاذ ولد وجملة ﴿يَنۢبَغِى﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في قوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ﴾. ﴿إِن﴾: نافية ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه لـ﴿كُلُّ﴾ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول ﴿والأرض﴾ معطوف على السموات ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: خبر المبتدأ ومضاف إليه ﴿عَبْدًا﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿ءَاتِى﴾ والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿أَحْصَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والجملة الفعلية: جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَعَدَّهُمْ﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. ﴿عَدًّا﴾ مفعول مطلق والجملة معطوفة على جملة ﴿أَحْصَىٰهُمْ﴾. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ﴾: مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ءَاتِيهِ﴾. ﴿فَرْدًا﴾ حال من الضمير المستتر في ﴿ءَاتِيهِ﴾ والجملة الاسمية: معطوفة على جملة القسم، أو مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿سَيَجْعَلُ﴾: فعل مضارع ﴿لَهُمُ﴾ مفعول ثان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فاعل ﴿وُدًّا﴾: مفعول أول له والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: تعليلية لمعلول محذوف دل عليه السياق تقديره: بلّغ هذا المنزّل عليك وبشر به وأنذر لأنَّا يسَّرناه بلسانك لتبشر به كما في «أبي السعود» ﴿إنما﴾: أداة حصر ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿بِلِسَانِكَ﴾ جار ومجرور حال من ضمير ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ تقديره: حالة كونه جارياً على لسانك والجملة الفعلية: في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بـ(الفاء) تعليلية والجملة المعللة المحذوفة: مستأنفة ﴿لِتُبَشِّرَ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تبشر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مفعول به والجملة الفعلية، مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ(اللام) تقديره: لتبشيرك به المتقين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ ﴿وَتُنذِرَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿تبشر﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به ﴿لُّدًّا﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾. ﴿وَكَمْ﴾ (الواو): استئنافية ﴿كم﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب مفعول مقدم

لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿قَبْلَهُم﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كم﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾ الزائدة ﴿هَلْ﴾ للاستفهام الإنكاري ﴿تُحِسُّ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مِنْهُم﴾ حال ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾: لأنه كان صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿أَحَدٍ﴾: مفعول به منصوب محلاً والجملة: جملة إنشائية مستأنفة ﴿أَوْ تَسْمَعُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة: معطوفة على جملة ﴿تُحِسُّ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: حال من ﴿رِكْزًا﴾. ﴿رِكْزًا﴾: مفعول به.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: ظاهرات الإعجاز ﴿مَّقَامًا﴾؛ أي: مكاناً ومنزلاً بفتح الميم اسم مكان من قام الثلاثي أو مصدر ميمي وقرىء بالضم، فيكون أيضاً اسم مكان أو مصدراً ميمياً من أقام الرباعي المزيد، والمراد، هنا: موضع القوم؛ أي: خير مكان قيام أو إقامةٍ ﴿نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً ومجتمعاً، ومثله النادي وقيل: هو المجلس يجتمع فيه لحادثة أو مشورةٍ، ومنه دار الندوة التي كان المشركون يتشاورون فيها في أمورهم، والندي فعيل، أصله: نديو لأن لامه واو يقال: ندوتهم أندوهم؛ أي: أتيت ناديهم، والنادي مثله ومنه ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أهل ناديه، والندي والنادي، مجلس القوم ومتحدثهم، وقيل: هو مشتق من الندىٰ وهو الكرم، لأن الكرماء يجتمعون فيه ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ والقرن مفرد لفظاً متعدد معنًى ﴿أَثَٰثًا﴾ والأثاث: متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها والمال، ويقال: أث يئث ويأث ويؤث أثاثاً وأثوثاً وأثاثةً، وأثَّ النبات أو الشعر: التف وكثر فهو أث وأثيث ﴿رئيا﴾ والرئي: فعل بمعنى مفعول فهو المرئيُّ كالذِبح والطِحن بمعنى المذبوح والمطحون، فهو بمعنى المنظر الحسن والصورة والهيئة الحسنة والنضارة، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ﴿مَّرَدًّا﴾؛ أي: مرجعاً وعاقبةً ﴿وَوَلَدًا﴾ والولد، بفتحتين: اسم مفرد قائم مقام الجمع، وأما بالضم فالإسكان فقيل: هو كالولد بفتحتين، فيقال: ولد وولد كما يقال، عرب وعرب، وقيل: بل هو جمع ولد نحو: أسد وأسد كما في «السمين».

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾، أصله: أإطّلع بفتح الهمزة الاستفهامية وكسر همزة الوصل فحذفت همزة الوصل تخفيفاً وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة، واطلع: يتعدى بنفسه كقولهم اطلع الجبل، ويقال: اطلع الأمر، وعليه علمه، ويقال أيضاً: اطلع طلع العدو بكسر الطاء وسكون اللام عرف باطن أمرهم، وقد توهم بعضهم أنه لا يعدى إلا بعلى، فأعرب الغيب بنزع الخافض، وإنما هو من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه، وطلع الثنية: قال جرير:

إِنِّـيْ إِذَا مُـضَـرٌ عَـلَـيَّ تَـحَـدَّثَـتْ   لاَقَـيْـتُ مُـطَّـلَـعَ الْـجِـبَـالِ وُعُـوْرَاً

فمطلع اسم مكان من اطلع المشدد، أصله: اطتلع على بناء الافتعال، فقلبت التاء طاءً وأُدغمت الطاء في الطاء، وهو في البيت نصب على الظرفية، والوعور جمع وعر؛ أي: صعب يريد الشاعر: إذا تقولت عليَّ مضر ما لا أرتضيه، أو حدثتها نفسها بقتلي.. تمرست بالصعاب ولا أُبالي بها ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ مضارع مد الشيء يمده من باب نصر: أطاله وبسطه وجذبه ومد الحبل فامتد وهذا ممد الحبل.

فائدة في مبحث كلا: للنحويين في هذه اللفظة ستة مذاهب:

أحدها: وهو مذهب جمهور البصريين كالخليل وسيبويه وأبي الحسن الأخفش وأبي العباس: أنها حرف ردع وزجر وهذا معنى لائق بها، حيث وقعت في القرآن، وما أحسن ما جاءت في هذه الآية زجرت وردت ذلك القائل.

والثاني: وهو مذهب النضر بن شميل: إنها حرف تصديق بمعنى نعم، فتكون جواباً ولا بد حينئذٍ من أن يتقدمها شيء لفظاً أو تقديراً وقد تُستعمل في القسم.

والثالث: هو مذهب الكسائي وأبي بكر بن الأنباري ونصر بن يوسف وابن واصل: أنها بمعنى حقاً.

والرابع: وهو مذهب أبي عبد الله الباهلي: أنها رد لما قبلها، وهذا قريب من معنى الردع.

والخامس: أنها صلة في الكلام بمعنى إي كذا قيل، وفيه نظر: فإن إي

حرف جوابٍ ولكنه مختص بالقسم.

والسادس: أنها حرف استفتاح، وهو قول أبي حاتم، ولتقرير هذه المذاهب موضع هو أليق بها قد حققتها بحمد الله فيه .اهـ «سمين».

وذكرت كلا في القرآن في النصف الثاني منه فقط، وذكرت في خمس عشرة سورةً منه كلها مكية، وجملة ما ذكر منها في القرآن. ثلاثة وثلاثون مرة، ترجع إلى أقسام ثلاثة:

قسم: يجوز الوقف عليها، وعلى ما قبلها فيُبتدأ بها وهذا باتفاق.

وقسم: اختلف فيه، هل يجوز الوقف عليها أو يتعين على ما قبلها.

وقسم: لا يجوز الوقف عليها باتفاق.

فالقسم الأول: خمسة مواضع: اللتان في هذه السورة، واللتان في سورة الشعراء، وواحدة في سورة سبأ.

والقسم الثاني: تسعة واحدة في سورة المؤمنين، وثنتان في سورة سأل سائل، وثنتان في سورة المدثر الأولى والثالثة، والأولى في سورة القيامة، والثانية في سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ والأولى في سورة الفجر، والتي في سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ﴾..

والقسم الثالث: هو التسع عشرة الباقية .اهـ شيخنا عن العز بن جماعة. ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾؛ أي: نسلبه منه ونأخذه بأن نخرجه من الدنيا خالياً من ذلك، والمراد نزوي عنه ما يقوله من أنه سيناله في الآخرة.

﴿ضِدًّا﴾ وإنما وحَّد الضد وإن كان خبراً عن جمع لأحد وجهين، إما لأنه مصدر في الأصل، والمصادر موحدة مذكرة، وإما لأنه مفرد في معنى الجمع .اهـ «خازن» وفي «القاموس» وضده في الخصومة من باب رد غلبه ومنعه برفق، والقربة ملأها وأضد غضب وضاده: خالفه، وهما متضادان .اهـ فضد كأنه مصدر سماعي أو اسم مصدر تأمل ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾: تهيجهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتجيب الشهوات، والمراد: تعجيب الرسول ﷺ من أقاويل الكفرة،

وتماديهم في الغيّ وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآية المتقدمة .اهـ «بيضاوي» وفي «السمين» ﴿أَزًّا﴾ مصدر مؤكد والأز والأزيز والهز والهزيز، قال الزمخشري: أخوات، وهو التهييج وشدة الإزعاج والأز أيضاً: شدة الصوت وفي «القاموس» وأزَّت القدر تؤز بالضم، وتئز بالكسر أزّاً وأزيزاً وأزازاً بالفتح: اشتد غليانه، وأز النار: أوقدها وأز الشيء حرَّكه شديداً .اهـ.

﴿وَفْدًا﴾: الوفد مصدر وفد يفد وفداً ووفوداً ووفادةً وإفادةً وفد إلى أو على الأمير: قدم وورد رسولاً فهو وافد، والوفد أيضاً: جمع وافِدٍ وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج، والمراد: يقدمون مكرمين مبجلين ركباناً ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: إلى دار كرامته وهي الجنة ﴿وِرْدًا﴾ والورد: القوم الواردون إلى الماء عطاشاً، قد تقطعت أعناقهم من العطش ﴿إِدًّا﴾ بالكسر والفتح العجب، وقيل: العظيم المنكر والإدة: الشدة وآدّني الأمر: أثقلني وعظم لي ﴿إِدًّا﴾ وفي «القاموس» الإد والإدة بكسرهما العجب، والأمر الفظيع والداهية: والمنكر كالإد بالفتح وأدَّته الداهية تؤده بالضم، وتئده بالكسر، وتأده بالفتح: دهشة ﴿يتفطرن﴾ من التفطر وهو التشقق ﴿ينفطرن﴾ من الانفطار وهو الانشقاق ﴿وَتَخِرُّ﴾ تسقط وتنهدم ﴿دَعَوْا﴾؛ أي: نسبوا وأثبتوا.

﴿وُدًّا﴾؛ أي: محبةً ومودةً وفي «المصباح» وددته أوده من باب تعب وداً بفتح الواو وضمها: أحببته والاسم: المودة وودت لو كان كذا أيضاً وداً ووِدادةً تمنيته، وفي «المختار» الود بضم الواو وفتحها وكسرها: المحبة فهي مثلثة الواو، والأرجح: الضم وبها قرأ السبعة، وقرىء في غير السبعة، بفتحها وكسرها، ويحتمل أن يكون المفتوح مصدراً، والمضموم والمكسور اسمين. ﴿لُّدًّا﴾ جمع ألد؛ أي: شديد الخصومة، وهذا الجمع من قبيل قوله: فعل لنحو أحمر وحمراء ﴿تُحِسُّ﴾ بضم التاء: مضارع أحس، وفي «المصباح»: الحس والحسيس: الصوت الخفي وحسه حساً فهو حسيس، مثل قتلته قتلاً فهو قتيل، وأحس الرجل الشيء إحساساً علم به، يتعدى بنفسه مع الألف قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وربما زيدت فيه الباء، فقيل: أحس به على معنى شعر به، وحسست به من باب قتل لغة والمصدر: الحس بالكسر يتعدى بالباء على معنى شعرت أيضاً

﴿رِكْزًا﴾ الركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح، إذا غُيِّب طرفه في الأرض، ومنه الركاز وهو المال المدفون.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ فقد شبه الغيب المجهول الملثَّم بالأسرار بجبل شامخ، الذرىٰ لا يرقى الطير إلى مداه، فهو مجهول تتحطم عليه آمال الذين يريدون استشفاف آفاقه، وإدراك تهاويله، ثم حذف الجبل؛ أي: المشبه به وأخذ شيئاً من خصائصه ولوازمه وهو: الاطلاع والارتقاء، واستشراف مغيباته والغرض من هذه الاستعارة السخرية البالغة، كأنه يقول: أو بلغ هذا مع حقارته، وتفاهة أمره، وصغار شأنه، أن ارتقى إلى الغيب المحجب بالأسرار، المطلسم بالخفاء .اهـ من «إعراب القرآن».

ومنها: إخراج الخبر على صيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يُفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما يُنبىء عنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾.

ومنها: التعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية ذكره أبو السعود.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: نأمر الملائكة بالكتابة، فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، وفي قوله: ﴿ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾، وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

ومنها: الطباق بين: ﴿تبشر﴾ و﴿تنذر﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين، وبين حال الأبرار والأشرار في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين قوله: ﴿وَفْدًا﴾ ﴿وِرْدًا﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿خَيْرٌ﴾. و﴿شَرٌّ﴾.

ومنها: التكرار فقد تكرر ذكر الرحمٰن كما قلنا ست عشرة مرة في هذه السورة معظمها في خواتيمها، والفائدة فيه: أنه هو الرحمٰن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، وخلق لهم جميع متطلباتهم التي بها قوام معايشهم، فهل اعتبر الإنسان أم لا يزال الغطاء مسدولاً على عينيه، والوقر يغشي أذنيه فمن أضاف إليه ولداً، جعله كالأناس المخلوقة وأخرجه بذاك عن استحقاق هذا الاسم الجدير به وحده.

ومنها: الإلتفات في قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ إلتفت من الغيبة إلى الخطاب، لمشافهتهم بالأمر المنكر الذي اجترحوه، والبدع العجيب الذي ارتكبوه.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ والاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من المقاصد

١ ـ دعاء زكريا ربه أن يهب له ولداً سرياً مع ذكر الأسباب التي دعته إلى ذلك.

٢ ـ استجابة الله دعاءه وبشارته بولد يسمى بيحيىٰ لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه.

٣ ـ تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين، أم عاقر وأب شيخ هرم.

٤ ـ طلبه العلامة على أن امرأته حامل.

٥ ـ إيتاء يحيى النبوة والحكم صبياً.

٦ ـ ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها، وتمثل جبريل لها بشراً سوياً، والتجائها إلى أن يدفع عنها شر هذا الرجل، وإخباره لها أنه ملك لا بشر.

٧ ـ حملها بعيسى ـ عليه السلام ـ وانتباذها مكاناً قصياً، حتى لا يراها الناس، وهي على تلك الحال.

٨ ـ نداء عيسى لها حين الولادة، وأمرها بهز النخلة حتى تساقط عليها رطباً جنياً.

٩ ـ مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهي على تلك الحال، وقد انهال عليها اللوم والتعنيف بأنها فعلت ما لم يسبقها إليه أحد، من تلك الأسرة الشريفة التي اشتهرت بالصلاح والتقوى.

١٠ ـ كلام عيسى وهو في المهد تبرئةً لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال، من النبوة، والبركة والبر بوالدته، وأنه لم يكن جباراً متكبراً على خالقه..

١١ ـ اختلاف النصارى في شأنه.

١٢ ـ قصص إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه آزر، ووصفه له بالجهل، وعدم التأمل في المعبودات التي يعبدها من دون الله، ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله، ورد أبيه عليه مهدداً متوعداً.

١٣ ـ هبة الله له إسحاق ويعقوب، وإيتاؤهما الحكم والنبوة.

١٤ ـ قصص موسى ومناجاته ربه في الطور، والامتنان عليه بجعل أخيه هارون وزيراً ونبياً.

١٥ ـ قصص إسماعيل ووصف الله له بصدق الوعد، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

١٦ ـ قصص إدريس ـ عليه السلام ـ، ووصف الله له بأنه صديق نبي، رفيع القدر، عظيم المنزلة عند ربه.

١٧ ـ مجيء خلفٍ من بعد هؤلاء الأنبياء، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

١٨ ـ وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحاً بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم.

١٩ ـ إن جبريل لا ينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ربه.

٢٠ ـ إنكار المشركين للبعث استبعاداً له، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئاً.

٢١ ـ الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين، ثم يحضرهم حول جهنم جثياً، ثم بدئه بمن هو أشد جرماً والله أعلم بهم.

٢٢ ـ الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين جثياً.

٢٣ ـ بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلساً، وأكرم منهم مكاناً.

٢٤ ـ تهديدهم بأنه أهلك كثيراً ممن كان مثلهم في العتو والاستكبار، وأكثر أثاثاً ورياشاً.

٢٥ ـ بيان أن الله يمد للظالم ويمهله، ليجترح من السيئات ما شاء، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

٢٦ ـ النعي على المشركين باتخاذ الشركاء، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء.

٢٧ ـ نهي النبي ﷺ عن طلب تعجيل هلاك المشركين. إذ أن حياتهم مهما طالت فهي محدودةٌ معدودةٌ.

٢٨ ـ التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة، وسوق المجرمين إلى دار الخزي والهوان.

٢٩ ـ النعي الشديد على من ادعى أن لله ولداً.

٣٠ ـ بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربي مبين، ليبشر به المتقين، وينذر به الكافرين ذوي اللدد والخصومة(١).

والله أعلم

* * *

---

(١) وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد، خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، إلى هنا تم تفسير سورة مريم بإذن الله وتوفيقه، وله الحمد والشكر على إمداده وإحسانه، أوائل ليلة الثلاثاء السادسة عشرة من ربيع الأول من شهور سنة ألف وأربع مئة واثنتي عشر سنة ١٦/ ٣/ ١٤١٢، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة طه

سورة طه: مكية كلها عند الجميع، قيل: إلا آيتي (١٣٠ * ١٣١) فمدنيتان، نزلت بعد سورة مريم، وآيها مئة وخمس وثلاثون آيةً، وكلماتها ألف وثلاث مئة وإحدى وأربعون، وحروفها خمسة آلاف ومئتان واثنان وأربعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه(١):

١ ـ أنه لما ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين، بعضها بطريق البسط والإيجاز، كقصص إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبعضها موجز مجمل، كقصة موسى ـ عليه السلام ـ ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال. ذكر هنا قصة موسى التي أجملت فيما سلف، واستوعبها غاية الاستيعاب، ثم فصل قصة آدم ـ عليه السلام ـ ولم يذكر في سورة مريم إلا اسمه فحسب.

٢ ـ أنه روي عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها.

٣ ـ أن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة، ومناسب له في المعنى، إذ ذكر في آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربي المبين، ليكون تبشيراً للمتقين، وإنذاراً للمعاندين، وفي أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى.

ومن فضائلها: ما أخرج(٢) الدارمي وابن خزيمة في «التوحيد»، والعقيلي في «الضعفاء»، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويّس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن.. قالوا طوبىٰ لأمةٍ ينزل عليها هذا، وطوبىٰ لأجوافٍ تحمل هذا، وطوبىٰ لألسنةٍ تكلمت بهذا» قال ابن خزيمة بعد إخراجه: حديث غريب وفيه نكارة.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ومنها[1]: ما أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول، وأعطيت سورة طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلةً» وفيه مقال. والنافلة: الزيادة.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة، فلا يقرؤون منه شيئاً، إلا سورة طه ويس، فإنهم يقرؤون بهما في الجنة». وفيه مقال.

ومنها: ما أخرجه الدارقطني في «سننه»، عن أنس بن مالك، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه، وكان ذلك بسبب إسلام عمر، والقصة مشهورة في كتب السير.

الناسخ والمنسوخ من هذه السورة: قال أبو[2] عبد الله محمد بن حزم: جملة المنسوخ من هذه السورة ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾(١١٤) الآية. نُسخ معناها لا لفظها بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ الأعلى.

والآية الثانية: قوله: تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(١٣٠) الآية. نُسخ الصبر منها بآية السيف.

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾(١٣٥)، جميع هذه الآية منسوخ بآية السيف.

والله أعلم

* * *

(١) الشوكاني.
(٢) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ
خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟
إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ
﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا
تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾
لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ
لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى
﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ
بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ
لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها[1]: أنه تعالى، لما ذكر تبشير القرآن

(١) البحر المحيط.

بلسان الرسول ﷺ؛ أي: بلغته، وكان فيما علل به قوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.. أكد ذلك بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ والتذكرة: هي البشارة والنذارة، وأن ما ادعاه المشركون من إنزاله للشقاء ليس كذلك، بل إنما نزل تذكرةً.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن[1] الله سبحانه لما عظَّم كتابه والرسول الذي أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ والإنذار والتبشير.. أتبع ذلك بما يقوي قلبه من قصص الأنبياء، وما فعلته أممهم معهم، وكيف كانت العاقبة لهم، والنصر حليفهم، ففي هذا سلوى له، وتأس بهم فيما قاموا به من الذود عن الحق، مهما أصابهم من العنت والأذى، من جراء الدعوة إليه، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

وبدأ بقصص موسى، لأن محنته كانت أشد، فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال، وقابل ذلك بعزم لا يفتر، وبقوة تفل الحديد.

وعبارة أبي حيان هنا[2]: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر تعظيم كتابه، وتضمن تعظيم رسوله.. أتبعه بقصة موسى ليتأسىٰ به في تحمل أعباء النبوة، وتكاليف الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[3] مناجاته لموسى، حين رأى النار التي في الشجرة، واختياره نبياً، وإيحاءه إليه أن لا إلٰه إلا هو، وأمره بإقامة الصلاة، لما فيها من ذكره، وتخصيصه بالعبادة دون سواه، ثم إخباره بأن الساعة آتية لا

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

محالة، ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بما دسى به نفسه جزاءً وفاقاً.. قفىٰ على ذلك بذكر البرهانات التي آتاها موسى دلالةً على نبوته، وتصديقاً له على رسالته، فبدأ بذكر العصا التي انقلبت حيةً تسعى حين ألقاها من يده، وكان قد سأله عنها استجماعاً لقلبه، وتهدئةً لروعه في هذا المقام الرهيب، وإعلاماً بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن، وجليل المنافع والمزايا، التي لم تكن تدور بخلده عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[١]: أن الله سبحانه لما ذكر المعجزة الأولى، الدالة على نبوة موسى عليه السلام وعلى صدق رسالته، وهي العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض.. قفىٰ على ذلك بذكر المعجزة الثانية التي آتاه إياها، وهي معجزة اليد، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد، ثم أخرجها.. أضاءت كشعاع الشمس، تغشي البصر، ثم بذكر أمره له بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالة ربه، ثم دعائه ربه أن يشرح له صدره، ويسهل له أمره، وأن يجعل له أخاه هارون نبياً، كي يشد أزره، ويقوى على تبليغ الرسالة ويتعاونا على ذكر الله وعبادته.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر[٢] موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون.. عرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط، وصدر فسيح، فسأل ربه، ورغب في أن يشرح صدره، ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصدر، وأن يسهل عليه أمره الذي هو خلافة الله في أرضه، وما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب، وقد علم ما عليه فرعون من الجبروت والتمرد والتسلط.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

قبلها: أن موسى ـ عليه السلام ـ لما سأل ربه أموراً ثمانية، وكان قيامه بما كلف به لا يتم على الطريق المرضي إلا إذا أجابه إليها.. لا جرم أجابه الله تعالى إلى ما طلب، ليكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذي كلف به، ثم ذكره بنعمه السالفة حين كانت أمه ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه، فألهمها أن تصنع تابوتاً، وتضعه فيه وتلقيه في النيل، ففعلت فألقاه النيل في الساحل، فالتقطه آل فرعون وربوه في منزلهم، وألقىٰ الله محبةً في قلوبهم له، وصار كأنه ابنهم، ثم ذكره بنجاته من القصاص حين قتل المصري وهرب إلى مدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه عبد الله بن حميد في «تفسيره»، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل حتى نزلت آية: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل عليه الوحي، يقوم على صدور قدميه إذا صلى فأنزل الله ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

وروى مقاتل[2]: أن أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومطعم بن عدي، والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال عليه السلام: «بل بعثت رحمةً للعالمين» قالوا: بل أنت تشقىٰ، فأنزل الله الآية رداً عليهم، وتعريفاً لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو السبيل إلى نيل كل فوز، وسبب إدراك كل سعادة، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه.

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿طه ①﴾ اختلفوا فيه[1] أكثر مما اختلف في غيره من المقطعات، فقال بعضهم: هو اسم القرآن، أو اسم السورة، أو اسم الله، أو مفتاح الإسم الطاهر والهادي، وقال بعضهم: هو اسم من أسماء الرسول ﷺ مثل أحمد ويّس، وغير ذلك، كما قال ـ عليه السلام ـ: «أنا محمد، وأنا أحمد، والفاتح، والقاسم، والحاشر، والعاقب، والماحي، وطه، ويّس». ويؤيد هذا القول الخطاب في ﴿عَلَيْكَ﴾ فيكون حرف النداء محذوفاً؛ أي: يا طه، والطاء والهاء إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ طالب الشفاعة للناس، وهادي البشر، أو أنه طاهر من الذنوب، وهاد إلى معرفة علاّم الغيوب، وقيل: إنه من المتشابه الذي لا يفهم المراد به، بناءً على أنه من الحروف المقطعة التي استأثر الله بعلمها، فعليه يكون الوقف عليها تاماً، وهي آية مستقلة لا محل لها من الإعراب، وقيل[2]: إنه بمعنى: يا رجل في لغة عكل، وفي لغة عك، قال الكلبي: لو قلت لرجلٍ من عك: يا رجل.. لم يجب، حتى تقول: طٰه، وأنشد ابن جرير:

دَعَوْتُ بِطَهَ فِيْ ٱلْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ   فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُوْنَ مُوَاثِلاً

ويُروى مزاولاً، وقيل: إنها في لغة عكٍ بمعنى: يا حبيبي، وقال قطرب: هي كذلك في لغة طي؛ أي: بمعنى: يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة، وقيل: هي كذلك في اللغة السريانية، حكاه المهدي، وقيل: إن معناه طوبىٰ لمن اهتدى، وقيل: معناه: طاء الأرض يا محمد، قال ابن الأنباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم، ويحتاج إلى التروح، فقيل له: طاء الأرض؛ أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى التروح، وحكى القاضي عياض في «الشفاء» عن الربيع بن أنس، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه ①﴾؛ يعني: طاء الأرض يا محمد، وحكي عن الحسن البصري أنه قرأ طه على وزن دع: أمر بالوطء، والأصل طأ

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.

فقلبت الهمزة هاءً.

وقد تقدم القول أن[1] أصح الآراء في الحروف المقطعة التي في أوائل السور أنها حروف تنبيهٍ كـ(ألا) و(يا)، ونحوهما، مما يُذكر في أوائل الجمل لقصد تنبيه المخاطب إلى ما يُلقى بعدها لأهميته، وإرادة إصغائه إليه، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ويُنطق بأسمائها عند قراءتها فيقال: طاها.

وقيل[2]: (طا) فعل أمر، وأصله: طأ فخففت الهمزة بإبدالها ألفاً، و(ها) مفعول به، وهو ضمير الأرض؛ أي: طاء الأرض بقدميك، ولا تراوح إذ كان يراوح حتى تورمت قدماه، وقرأت فرقة، منهم الحسن، وعكرمة، وأبو حنيفة، وورش، في اختياره: طه، قيل: أصله طأ، فحذفت الهمزة، وأُدخلت هاء السكت، وأُجري الوصل مجرىٰ الوقف، أو أصله: طأ وأبدلت همزته هاء، فقيل: طه، وقرأ الضحاك وعمرو بن فائد: ﴿طاوى﴾.

وقال ابن الجوزي[3]: وفي طه قراءات: قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿طه ﴿١﴾﴾ بفتح الطاء والهاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿طه﴾ بكسر الطاء والهاء، وقرأ نافع: ﴿طه﴾ بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب، كذلك قال خلف عن المسيبي، وقرأ أبو عمرو: ﴿طه﴾ بفتح الطاء وكسر الهاء، وروىٰ عنه عباس مثل حمزة، وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين العقيلي، وسعيد بن المسيب، وأبو العالية: ﴿طه﴾ بكسر الطاء وفتح الهاء، وقرأ الحسن: ﴿طه﴾ بفتح الطاء وسكون الهاء، وقرأ الضحاك، ومورق: ﴿طه﴾ بكسر الطاء وسكون الهاء. انتهى.

وجملة: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾: مستأنفة[4] مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، والشقاء: يجيء في

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.
(٤) الشوكاني.

معنى التعب، قال ابن كيسان: وأصل الشقاء في اللغة: العناء والتعب، ومنه قول الشاعر:

ذُوْ ٱلْعَقْلِ يَشْقَىٰ فِيْ ٱلنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ   وَأَخُوْ ٱلْجَهَالَةِ فِيْ ٱلشَّقَاوَةِ يَنْعُمُ

والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن لا يؤمنوا، فهو كقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾؛ أي[1]: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتغلو في مكابدة الشدائد، حين تحاور أولئك القوم الطغاة، وتقاول أولئك العتاة، وتفرط في الأسىٰ على كفرهم، وتتحسر على عدم إيمانهم، بل أنزلناه عليك لتبلِّغ وتذكِّر، وقد فعلت، فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد هذا.

وقصارى ذلك: أنا أنزلناه عليك لتذكر به، فمن آمن وأصلح.. فلنفسه، ومن كفر.. فلا يحزنك كفره، إن عليك إلا البلاغ، ولست عليهم بمسيطر.

وقرأ طلحة[2]: ﴿ما نزِّل عليك﴾ بنون مضمومة وزاي مكسورة مشددة، مبنياً للمفعول ﴿القرآن﴾ بالرفع وقرأ الجمهور ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ نصب على أنه مفعول له لـ﴿أَنزَلۡنَا﴾ معطوف على ﴿تشقىٰ﴾ بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع، فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين إلا من حيث البدلية، أو العطف، كأنه قيل: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب في تبليغه، ولكن أنزلناه تذكيراً وموعظةً لمن يخشى الله تعالى، ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه، وحسن استعداده؛ أي: تذكيراً وموعظةً لمن يعلم الله منه أن يخشى بالتذكرة والتخويف، أو لمن يؤول أمره إلى الخشية، والخشية باعثة على الإيمان والطاعة، وقد كان ـ عليه السلام ـ يعظهم به بتلاوته، وتفسير ما جاء به من مقاصد وأغراض ومصالح لهم في دنياهم وآخرتهم، وقد جرَّد[3] التذكرة عن اللام، لكونها فعلاً لفاعل الفعل المعلل.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

وخص الخاشعين بالذكر، مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم، لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لأنهم المنتفعون بها، فكأن غيرهم لا وجود له، لعدم انتفاعه به.

وخلاصة ذلك: حسبك ما حُمِّلْته من متاعب التبليغ والتبشير والإنذار، ولا تنهك بدنك بحملهم على قبول الدعوة والاستجابة لأمرك، فإن ذلك من شأننا لا من شأنك، وبيدنا لا بيدك، قال في «الكبير» ويدخل تحت قوله: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الرسول، لأنه في الخشية والتذكرة فوق الكل.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ منصوب على المصدرية، بفعل محذوف تقديره: نُزِّل هذا القرآن عليك تنزيلاً من ربك، الذي خلق الأرض والسموات؛ أي: أوجدهما من العدم إلى الوجود، وتخصيص[1] خلق الأرض والسموات، لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل، ولأنهما قوام العالم وأصوله، وتقديم[2] الأرض لكونها أقرب إلى الحس، وأظهر عنده من السموات.

ووصف السموات بالعلى[3]؛ أي: المرافعة، وهو جمع العليا مؤنث الأعلى، مثل الكبرى والأكبر والكبر، للدلالة على عظم قدرة خالقها بعلوها، وعطف السموات على الأرض، من عطف الجنس على الجنس، لأن التعريف مصروف إلى الجنس، لا من عطف الجمع على المفرد، حتى يلزم ترك الأولى من رعاية التطابق بين المعطوف والمعطوف عليه، والمراد بهما: ما في جهة السفل والعلو، ويستتبع ذلك كل ما يتعلق بهما، وقرأ ابن[4] أبي عبلة ﴿تنزل﴾ رفعاً على إضمار هو، وهذه القراءة تدل على عدم تعلق ﴿يخشى﴾ بتنزيل، وأنه منقطع مما قبله فنصبه على إضمار نزل، كما ذكرناه آنفاً، والظاهر في ﴿مَن﴾ أنها متعلقة بتنزيل، ويجوز أن يكون في موضع الصفة، فيتعلق بمحذوف وفي قوله

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تعظيم وتفخيم لشأن القرآن، إذ هو منسوب تنزيله إلى من هذه أفعاله وصفاته، وتحقير لمعبوداتهم، وتعريض للنفوس على الفكر والنظر، وكأن في قوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ التفاتاً، إذ فيها الخروج من ضمير التكلم، وهو في ما أنزلناه إلى الغيبة، وفيه عادة التفنن في الكلام، وهو مما يحسن الكلام، إذ لا يبقى على نظام واحد، وجريان هذه الصفات على لفظ الغيبة والتفخيم، بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظم نفسه، ثم إسناده إلى من اختص بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد، فحصل التعظيم من الوجهين، ذكره أبو حيان في «البحر».

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ رفع[1] على المدح على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو سبحانه الرحمٰن الذي على عرشه استوى وارتفع وعلا، استواءً يليق به، نعتقده ونثبته، ولا نمثله ولا نكيفه ولا نعطله، وقد تقدم هذا في سورة الأعراف ببسط وإطناب، أو مبتدأ، واللام فيه للعهد مشاراً به إلى ﴿من خلق﴾ خبره ما بعده.

وروى جناح بن حبيش عن بعضهم: أنه قرأ: ﴿الرحمٰن﴾ بالكسر، والأحسن أن يكون ﴿الرحمٰن﴾ حينئذ بدلاً من ﴿من﴾ الموصولة في قوله: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وعلى قراءة الجر يكون التقدير: هو على العرش استوى ﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سواء كان ما فيهما جزءاً منهما، أو حالاً فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: ما بين السموات والأرض من الموجودات الكائنة في الجو دائماً، كالهواء والسحاب، أو أكثرياً كالطير؛ أي: له جميع ذلك ملكاً وخلقاً وتدبيراً وتصرفاً ﴿و﴾ له ﴿ما تحت الثرى﴾؛ أي: وله ما واراه التراب، وأخفاه من المعادن وغيرها، والثرىٰ في اللغة: التراب الندي، قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه سبحانه أراد الثرىٰ الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض، ولا يعلم ما تحت الثرىٰ إلا الله سبحانه.

والمعنى عليه: وله سبحانه[2] الذي تحت الأرض السابعة السفلىٰ، لأن

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الأرضين على ظهر الحوت، والحوت على الماء، والماء على صخرةٍ خضراء، فخضرة السماء منها، والصخرة على قرني ثور، والثور على الثرىٰ وهو: التراب الندي، ولا يعلم ما تحته إلا الله سبحانه.

والمعنى[1]: أنه تعالى مالك لهذه الأقسام الأربعة، تصرفاً وإيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً، وجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ محذوف تقديره: وإن تجهر وترفع صوتك بذكر الله تعالى ودعائه.. فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك وإعلانك ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ ما هو و﴿أخفى﴾ من السر، فالفاء فيه تعليلية للجواب المحذوف، وهذا[2] إما نهي عن الجهر، كقوله سبحانه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وإما إرشاد[3] للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه، بل لغرض آخر من تصور النفس بالذكر، ورسوخه فيها، ومنعها من الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار، وإيقاظ الغير، ونشر البركات، إلى مدى صوته، وتكثير إشهاد، ونحو ذلك، والجهر بالقول: هو رفع الصوت به، والسر ما حدَّث به الإنسان نفسه، وأسره إليه، والأخفى من السر: هو ما حدث به الإنسان نفسه، وأخطره بباله.

والمعنى: أي[4] وإن تجهر بدعاء الله وذكره.. فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك، لأنه يعلم ما أسررته إلى غيرك، ولم ترفع به صوتك، وأخفى منه مما تخطره ببالك دون أن تتفوه به. والدعاء والذكر باللسان، إنما شرعا ليتصور الداعي والذاكر المعنى في نفسه، لا ليسمع صوته، ولا فضل للنطق والجهر به إلا في منع الشواغل الشاغلة عن حضور المعاني في القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ ثم ذكر سبحانه أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه، المنزه عن الشريك، المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي:

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.
(٥) روح البيان.

ذلك الموصوف بما ذكر من الأوصاف الكمالية، هو الله؛ أي: المعبود بحق لا غيره، وجملة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود في الأرض ولا في السماء موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: إلا ذلك الغائب عن الحواس، الموجود في الأزل قبل وجود الكائنات، مستأنفة لبيان اختصاص الإلٰهية به سبحانه؛ أي: لا إلٰه في الوجود إلا هو سبحانه، ودل قوله[1] ﴿إِلَّا هُوَ﴾: على الهوية، فإن هو كناية عن غائب موجود، والغائب عن الحواس الموجود في الأزل هو الله تعالى، وفيه معنى حسن، وهو: التعالي عن درك الحواس، حتى استحق اسم الكناية عن الغائب من غير غيبة، كما في «بحر العلوم» وكذا جملة قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مستأنفة مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح، ومبينة لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية، والمالكية، والعالمية، أسماءه وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى، فإنه رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا أللّه، يا رحمٰن، قالوا: ينهانا أن نعبد إلٰهين، وقد يدعو إلٰهاً آخر، و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، يوصف به الواحدة المؤنثة، والجمع من المذكر والمؤنث، كـ﴿مآرب أخرىٰ﴾ و﴿ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وفضل أسماء الله تعالى في الحسن على سائر الأسماء، لدلالتها على معاني التقديس، والتمجيد، والتعظيم، والربوبية، والأفعال التي هي النهاية في الفضل والحسن.

والمعنى[2]: أي إن ما ذكر من صفات الكمال التي تقدمت، ليس بأهل لها إلا ذلك المعبود الحق، الذي لا رب غيره، ولا إلٰه سواه، وله الصفات الحسنى، الدالة على التقديس والتمجيد، والأفعال التي هي الغاية في الحكمة والسداد.

ثم قرر سبحانه أمر التوحيد، بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ يا محمد وبلغك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ بن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عمران عليه السلام؛ أي: وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحي إلى موسى، وتكليم الله سبحانه إياه، والاستفهام[1] فيه للتقرير، ومعناه: أليس قد أتاك حديث موسى، وقيل معناه: قد أتاك حديث موسى، وقال الكلبي: لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك.

ومن سنن العربية[2]: أنه إذا أريد تثبيت الخبر، وتقرير الجواب في نفس المخاطب، أن يلقى إليه بطريق الاستفهام، فيقول المرء لصاحبه: هل بلغك كذا وكذا، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر، ويُصغي إليه أتم الإصغاء.

وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها، ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله، والمراد بالحديث: القصة الواقعة لموسى، رُوي أن موسى ـ عليه السلام ـ استأذن شعيباً في الرجوع إلى والدته، فأذن له بعد أن قضى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، فخرج وسار قاصداً مصر بعد أن طالت غيبته عنها، فقد زادت على عشر سنين، ومعه زوجه فوُلد له ابنٌ في الطريق في ليلة شاتية، ذات ثلج وبردٍ وسحابٍ وضبابٍ وظلامٍ، وكانت ليلة جمعة، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، وجعل يقدس بزندٍ كان معه ليوري ناراً، فلم تور المقدحة شيئاً، وبينا هو يزاول ذلك ويعالجه ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ من بُعدٍ عن يسار الطريق ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿لِأَهْلِهِ﴾؛ أي: لامرأته وولدها وخادمها، فإن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد والعبيد والإماء والأقارب وبالأصحاب وبالمجموع، كما في «شرح المشارق» لابن ملك. مبشراً لهم ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾؛ أي: أقيموا مكانكم ولا تتبعوني ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾ وسأذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾؛ أي: لعلي أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى﴾ تلك ﴿ٱلنَّارِ هُدًى﴾؛ أي: هادياً يدلني على الطريق، لأن النار قلَّما تخلو من أهل لها، وناس عندها، على أنه مصدر سمي به الفاعل مبالغةً، أو حُذف منه المضاف؛ أي: ذا هداية وكلمة،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أو لمنع الخلو دون منع الجمع، ومعنى الاستيلاء في على: أن أهل النار يكتنفونها عند الاصطلاء قياماً وقعوداً، فيشرفون عليها.

وجاء في سورة القصص ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

وقصارىٰ ذلك[1]: أنه قال لأهله: أقيموا مكانكم، وإني قد رأيت ناراً، فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه ناراً تصطلون بها، وإما أن أجد دليلاً يرشدني إلى الطريق المسلوك، وكان قد ضل عنه.

ومعنى أمكثوا: أقيموا مكانكم، وعبَّر بالمكث دون الإقامة، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك، وقرأ[2] الأعمش وطلحة وحمزة ونافع في رواية: ﴿لأهله امكثوا﴾ بضم الهاء وكذا في القصص، وقرأ الجمهور بكسرها قوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾؛ أي: بشعلة نار؛ أي: بشيء فيه لهب مقتبس من معظم النار، وهي المرادة بالجذوة في سورة القصص، وبالشهاب القبس في سورة «النمل»، يقال: قبست منه ناراً في رأس عود، أو فتيلة أو غيرهما.

ولم يقطع موسى بأن يقول إني آتيكم، لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به، أنظر كيف احترز موسى عن شائبة الكذب قبل نبوته، فإنه حينئذٍ لم يكن مبعوثاً، قال أكثر المفسرين: إن الذي رآه موسى لم يكن ناراً، بل كان نور الرب سبحانه، ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً، وقال الإمام: الصحيح أنه رأى ناراً ليكون صادقاً في خبره، إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء. انتهى.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ أي: فلما أتىٰ موسى النار التي آنسها.. ﴿نُودِىَ﴾ موسى من الشجرة، كما هو مصرّح بذلك في سورة القصص؛ أي: من جهتها وناحيتها؛ أي: فلما انتهى إلى النار التي آنسها.. رأى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها، أحاطت بها نار بيضاء، تتقد كأضواء ما يكون، ولم ير هناك أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا النار تغير

---

(١) المراغي.　　(٢) البحر المحيط.

خضرتها، ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار، قيل: كانت الشجرة سمرةً خضراء، وقيل: عوسجةً، وقيل: علّيقاً، وقيل: شجرة العناب وهي شجرة لا نار فيها، بخلاف غيرها من الأشجار، قالوا[1]: النار أربعة أصناف: صنف يأكل ولا يشرب، وهي نار الدنيا، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنم، وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى، وقالوا أيضاً: هي أربعة أنواع: نوع له إحراق بلا نور، وهي نار الجحيم، ونوع له نور بلا إحراق، وهي نار موسى، ونوع له إحراق ونور، وهي نار الدنيا، ونوع ليس له إحراق ولا نور، وهي نار الأشجار، قيل: إن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة، فكان كلما دنا.. نأت عنه، وإذا نأى.. دنت منه، فوقف متحيراً، فسمع تسبيح الملائكة، ورأىٰ نوراً عظيماً تكل عنه الأبصار، فوضع يديه على عينيه وخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة والطمأنينة، فعند ذلك نودي، فقيل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ فأجاب سريعاً فقال: لبيك، من المتكلم إني أسمع صوتك ولا أرى شخصك، فأين أنت؟ فقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ للتوكيد والتحقيق ﴿رَبُّكَ﴾ ومالك أمرك يا موسى، وأنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك، وأقرب إليك منك، فعلم أن ذلك لا ينبغي ولا يكون إلا من الله تعالى، فأيقن به وسمع الكلام بكل أجزائه، حتى إن كل جارحة منه كانت أذناً، وسمعه من جميع الجهات.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِنِّيٓ﴾ بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين، وعلى معاملة النداء معاملة القول، لا أنه ضربٌ منه على مذهب الكوفيين، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر وابن محيصن وحميد واليزيدي: ﴿أني﴾ بفتح الهمزة، والظاهر أن التقدير: بأني أنا ربك، وقال ابن عطية: لأجل أني أنا ربك، فاخلع نعليك، وأنا مبتدأ أو فصل أو توكيد لضمير النصب، وفي هذه الأعاريب حصل التركيب لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ثم أمره أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال: ﴿فَٱخْلَعْ﴾ وانزع ﴿نَعْلَيْكَ﴾ يا موسى عن قدميك، لأن الحفوة أقرب إلى التواضع، وحسن الأدب معه تعالى، وإلى التشريف والتكريم لتلك المقدسة، وقيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ.

وفي «الترمذي»، عن النبي ﷺ قال: «كان على موسى يومَ كلَّمه ربه كساء صوف، وجبة صوف، وكمة صوف، وسراويل صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت» قال: هذا حديث غريب. والكمة: القلنسوة الصغيرة، وكونهما من جلد حمار ميت غير مدبوغ قول عكرمة وقتادة والسدي ومقاتل والكلبي والضحاك، وقيل: كانتا من جلد بقرة ذكي، لكن أمر بخلعهما لبيان بركة الوادي المقدس، حتى وتمس قدماه تربته، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين، وروي: أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي.

ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا موسى ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي[1]: المطهر والمستبعد من السوء ﴿طُوًى﴾: اسم الوادي، بدل أو عطف بيان منه؛ أي: لأنك بالوادي المطهر المسمى بطوى، فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته، والمقدس: المطهر، والقدس: الطهارة، والأرض المقدسة: المطهرة، سميت بذلك لأن الله أخرج منها الكافرين، وعمرها بالمؤمنين.

وقرأ الحسن[2] والأعمش وأبو حيوة وابن أبي إسحاق وأبو السُّمال وابن محيصن: بكسر الطاء منوناً، وقرأ الكوفيون وابن عامر: بضمها منوناً، وقرأ الحرميان نافع وابن كثير وأبو عمرو: بضمها غير منون، وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو: بكسرها غير منون، وقرأ عيسى بن عمرو والضحاك ﴿طاوى﴾ فمن نوَّن فعلى تأويل المكان، ومن لم ينون وضم الطاء، فيحتمل أن يكون معدولاً عن فعل، نحو زفر وقثم، أو أعجمياً أو على معنى البقعة، ومن كسر ولم ينون فمنع

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الصرف باعتبار البقعة.

﴿وَأَنَا اَخْتَرْتُكَ﴾ واصطفيتك من قومك للنبوة والرسالة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾؛ أي: للذي يوحىٰ إليك مني من الأمر والنهي، واللام: متعلقة بالسمع، مزيدة في المفعول كما في ردف لكم، والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وقرأ[1] الجمهور، أبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي وأهل مكة وأهل المدينة: ﴿وَأَنَا اَخْتَرْتُكَ﴾ بالإفراد، وقرأ حمزة وطلحة والأعمش وابن أبي ليلىٰ وخلف في اختياره: ﴿وأنا اخترناك﴾ بفتح الهمزة وشد النون ﴿اخترناك﴾ بنون العظمة، وقرأ السلمي وابن هرمز والأعمش في رواية: ﴿وإنا﴾ بكسر الهمزة ﴿اخترناك﴾ بنون العظمة عطفاً على ﴿إني أنا ربك﴾ لأنهم كسروا ذلك أيضاً، وقرأ أُبيٌّ ﴿وأني﴾ بفتح الهمزة وياء المتكلم ﴿اَخْتَرْتُكَ﴾ بالتاء عطفاً على ﴿إِنِّيٓ أَنَاْ رَبُّكَ﴾.

وقصارى ذلك[2]: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهب له، واجعل كل خاطرك إليه، وقد قالوا: إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور القلب، والعزم، وقد بيَّن سبحانه أهم ما يوحى إليه بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا اَللَّهُ﴾ وهو بدل من ﴿ما﴾ في ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ دال على تقدم علم الأصول على علم الفروع، فإن التوحيد من مسائل الأصول، والعبادة الآتية من الفروع ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾؛ أي: إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: ﴿فَاَعْبُدْنِي﴾ و(الفاء): فيه أيضاً لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن اختصاص الإلٰهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة؛ أي: فخصني بالعبادة والتوحيد، ولا تشرك بعبادتي أحدا؛ أي: وإذ كنت أنا الإلٰه حقاً، ولا معبود سواي، فخصني بالعبادة والتذلل والانقياد في جميع ما كلفتك به ﴿وَأَقِمِ اَلصَّلَوٰةَ﴾ من عطف الخاص على العام؛ أي: وأد الصلاة على الوجه الذي أمرتك به، مقومة الأركان، مستوفاة الشروط ﴿لِذِكْرِيٓ﴾؛ أي: لتذكرني فيها، وتدعوني دعاءً خالصاً، لا يشوبه

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

(٢) المراغي.

إشراك ولا توجه إلى سواي، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، ويحتمل كونه من إضافة المصدر إلى فاعله؛ أي: لأذكرك بالإثابة.

وخص[(١)] الصلاة بالذكر مع كونها داخلةً تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة، وأفضل عبادة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾؛ أي: لتذكري، فإن الذكرالكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى: لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، وقيل: المعنى لأذكرك بالمدح في عليين.

وقرأ السلمي والنخعي وأبو رجاء[(٢)]: ﴿للذكرىٰ﴾ بلام التعريف وألف التأنيث، فالذكرىٰ: بمعنى التذكرة؛ أي: لتذكيري إياك، إذا ذكرتك بعد نسيانك، فأقمها، وقرأت فرقة: ﴿لذكرىٰ﴾ بألف التأنيث بغير لام التعريف، وقرأت فرقة: ﴿للذكر﴾.

ثم بيَّن السبب في وجوب العبادة، وإقامة الصلاة فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: كائنة حاصلة واقعة لا محالة، والساعة[(٣)]: اسم لوقت تقوم فيه القيامة، سمي بها لأنها ساعة حقيقةً، يحدث فهيا أمر عظيم، وإنما عبَّر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾؛ أي: أريد[(٤)] إخفاء وقتها فـ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى أريد، أو أقرب أن أخفيها، فلا أقول إنها آتية، ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار.. لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها، فالإخفاء بمعنى الإظهار، من أخفىٰ الشيء إذا أظهره، وسلب خفاءه، ويؤيده قراءة فتح الهمزة، من خفاه إذا أظهره، ذكره البيضاوي، وقيل: ﴿أَكَادُ﴾[(٥)] زائدة، والمعنى: إن الساعة آتية أسترها عن الخلق، للتهويل والتعظيم، وقال ابن الأنباري: في الآية تفسير آخر[(٦)]

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

(٤) البيضاوي.

(٥) روح البيان.

(٦) الشوكاني.

وهو: أن الكلام ينقطع على ﴿أَكَادُ﴾ وبعده مضمر؛ أي: أكاد آتي بها، ووقع الابتداء بـ﴿أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ واختاره النحاس.

وقال الواحدي: قال أكثر المفسرين: ﴿أُخْفِيهَا﴾ من نفسي، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة، وقال المبرد وقطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب، يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء.. كتمته حتى من نفسي؛ أي: لم أطّلع عليه، ومعنى الآية على هذا القول؛ أي[1]: إن الساعة آتية لا محالة، وإني أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها غيري من الخلق، وقد جاء هذا على سنن العرب في تخاطبهم، يقول أحدهم: إذا بالغ في كتمان السر: كتمت سري من نفسي، يريد: أنه أخفاه غاية الإخفاء، وقرأ أبو الدرداء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير وأبو رجاء العطاردي والحسن ومجاهد وحميد بن قيس، ﴿أخفيها﴾ بفتح الهمزة ورويت عن ابن كثير وعاصم، قال الزجاج: ومعناه: أكاد أظهرها، من خفيت الشيء بمعنى: أظهرته.

وفائدة إخفائها: التهويل والتخويف، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة.. يكونوا منها على حذر، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت، لأن المرء إذا علم وقت موته، وانقضاء أجله.. اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب ذلك الحين، فيتوب ويصلح عمله، وقد وعد الله بقبول توبته، وهذا يكون كالإغراء على المعصية، لكنه إن لم يعلم حين منيته.. كان منها على حذر، ولا يزال على قدم الخوف والوجل، فيترك المعاصي، ويتوب منها في كل حين خوف معاجلة الموت.

واللام في قوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بـ﴿أتية﴾ وما بينهما اعتراض أو بـ﴿أُخْفِيهَا﴾ و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: إن الساعة آتية لتجزي كل نفس بسعيها وعملها، خيراً كان أو شراً، وتخصيص[2] السعي بالذكر للإيذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

سوء اختيار العصاة، أو يقال: والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال فهو هنا يعم الأفعال والتروك للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه، مأخوذ به ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾؛ أي: فلا يصرفنك يا موسى ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الإيمان بالساعة، والتصديق بها، أو عن ذكرها ومراقبتها؛ أي: لا يمنعنك عن ذكر الساعة ومراقبتها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ﴾ ولا يصدق ولا يقر ﴿بِهَا﴾؛ أي: بإتيان الساعة وقيامها من الكفرة، وهذا النهي[1] وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صد موسى عن الإيمان بالساعة، فهو في الحقيقة نهيٌ لموسى عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده، فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني، وإبطال للسببية من أصلها، أو نهي[2] له عن إظهار اللين للكافرين، فهو من باب لا أرينك ها هنا، كما هو معروف، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَنَهُ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي: من لا يؤمن، ومن اتبع هواه؛ أي: اتبع هوى نفسه وشهواتها بالانهماك في اللذات الحسية الفانية ﴿فَتَرْدَىٰ﴾؛ أي: فتهلك هلاكاً أبدياً، لأن انصدادك عنها بصد الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له، لما في ذلك الانصداد من الإغفال عنها وعن تحصيل ما ينجي من أهوالها لا محالة، والمراد، بهذا النهي: الأمر بالاستقامة في الدين، وهو خطاب له، والمراد: غيره وقرأ يحيى: ﴿فتردى﴾ بكسر التاء، والمعنى؛ أي[3]: فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها، ولا يصدق بالبعث، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، بل يتبع هواه، ويخالف أمر ربه ونهيه، فإنك إن فعلت ذلك وقعت في هاوية الخذلان والعصيان، وهذا الخطاب من وادي قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين، كما تقدم غير مرة.

وخلاصة ذلك: لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة، وأقبل على لذاته في دنياه، وعصى أمر ربه، واتبع هواه، فإن من سلك سبيلهم.. خاب وخسر، كما

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

قال: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

واعلم[1]: أن هذه الآيات والآتية بعدها دلت على أن الله تعالى كلم موسى ـ عليه السلام ـ وأنه سمع كلام الله تعالى، فإن قيل: بأي شيء علم موسى أنه كلام الله؟ قيل: لم ينقطع بالنفس مع الحق، كما ينقطع به مع المخلوق، بل كلَّمه تعالى بمدد وحداني غير منقطع، وبأنه سمع الكلام من الجهات الست، وبجميع الأجزاء، فصار الوجود كله سمعاً، وكذا المؤمن في الآخرة.

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾، للتقرير ﴿وَمَا﴾: مبتدأ و﴿تِلْكَ﴾: خبره وهي بمعنى: هذه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال والعامل فيها ﴿مَآ﴾ في اسم الإشارة، من معنى الفعل، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ أي: أي شيء هذه الخشبة حالة كونها مأخوذةً بيمينك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ ويصح أن تكون ﴿مَآ﴾ خبراً مقدماً لـ﴿تِلْكَ﴾ وهو أوفق بالجواب من عكسه.

وقال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون ﴿تِلْكَ﴾ اسماً موصولاً، صلته بـ﴿بِيَمِينِكَ﴾ ولم يذكر ابن عطية غيره، وليس ذلك مذهباً للبصريين، وإنما ذهب إليه الكوفيون، قالوا: يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولاً، حيث يتقدر بالموصول، كأنه قيل: وما التي بيمينك، وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفاً، كأنه قيل: وما التي استقرت بيمينك، وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ استئناس عظيم، وتشريف كريم.

سأله سبحانه عما في يده وهو العليم به[3]، ليبين له أنه سيجعل لتلك الخشبة التي ليس لها خطر كبير، ولا منفعة عظيمة، جليل المزايا والفوائد التي لم تكن تخطر له على بال، كانقلابها حيةً تسعى، وضرب البحر بها حتى ينفلق، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته، وبالغ عظمته، إذ أظهر لأحقر الأشياء هذه المنافع العظيمة، على سنن الناس في

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

تخاطبهم، إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً، أن يأخذه ويعرضه على النظارة، ويقول لهم: ما هذا؟ فيقولون: هو كذا، فيفيض في شرح ماله من فائق المزايا، وجليل المنافع التي لم تكن تدور بخلدهم، ولم تخطر ببالهم. فأجابه موسى معدداً ما لها من فوائد ومزايا، بحسب ما وصلت إليه معرفة البشر فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِيَ﴾؛ أي: هذه الخشبة التي بيميني هي ﴿عَصَايَ﴾ يا إلهي، نسبها إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام وكانت هذه العصا لآدم، ورثها شعيب من آدم، وأمر شعيب ابنته بعدما زوجها له أن تعطى لموسى، يدفع بها السباع عن غنمه، وكان عصا الأنبياء عنده، فوقع في يدها عصا آدم من آس الجنة، فأخذها موسى بعلم شعيب.

وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري[1]: ﴿عصيَّ﴾ بقلب الألف ياءً وإدغامها في ياء المتكلم، وقرأ الحسن ﴿عصايِ﴾ بكسر الياء، وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضاً، وأبي عمرو معاً وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين، وعن أبي إسحاق، والجحدري ﴿عصايْ﴾ بسكون الياء.

وبقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ تم[2] الجواب، ولكن ذكر موسى ما لها من فوائد، إذ أحب مكالمة ربه، فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل، وواحدةً على سبيل الإجمال فقال:

١ ـ ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾؛ أي: أعتمد عليها إذا مشيت، أو تعبت، أو وقفت على رأس القطيع من الغنم في المرعى.

٢ ـ ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾؛ أي: وأخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمي، فتأكله، وقرأت فرقة: ﴿غنْمي﴾ بسكون النون وفرقة: ﴿على غنمي﴾ بإيقاع الفعل على الغنم، وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَأَهُشُّ﴾ بضم الهاء والشين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

المعجمة، والنخعي: بكسرها، وهي بمعنى المضمومة الهاء، والمفعول محذوف؛ أي: الورق، وقرأ الحسن، وعكرمة، ﴿وأهس﴾ بضم الهاء والسين غير معجمة، والهس: السوق، ونقل ابن خالويه عن النحعي: أنه قرأ ﴿وأهش﴾ بضم الهمزة، من أهش الرباعي، وذكر صاحب «اللوامح» عن عكرمة، ومجاهد: ﴿وأهش﴾ بضم الهاء وتخفيف الشين، قال ولا أعرف له وجهاً، إلا أن يكون مخفف القراءة العامة، لأن الشين فيه تفش، فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي، فيكون كتخفيف ظلت ونحوه.

٣ ـ ﴿وَلِيَ فِيهَا﴾؛ أي: في عصاي ﴿مَآرِبُ﴾ وحوائج ومصالح ومنافع ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير ذلك المذكور، كحمل الزاد، والسقي، وطرد السباع عن الغنم، وإذا شئت.. ألقيتها على عاتقي، فعلقت بها قوسي، وكنانتي، ومخلاتي، وثوبي، وإذا وردت ماءً قصر عنه رشائي.. وصلته بها.

وقد أجمل ـ عليه السلام ـ في المآرب، رجاء أن يسأله ربه عنها، فيسمع كلامه مرةً أخرى، ويطول الحديث بهذا، وقرأ الزهري[1]، وشيبة: ﴿مارب﴾ بغير همز، كذا قال الأهوازي في «كتاب الإقناع» في القراءات.

وقد تعرض[2] قوم لتعداد منافع العصا، فذكروا من ذلك أشياء: منها: قول بعض العرب: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفرها، وأعتمد بها في مشيتي، ليتسع خَطْوي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثر، وأُلقي عليها كسائي، فتقيني الحر، وتدفيني من القر، وتدني إلي ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي، وعلاقة أدواتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بنيَّ. انتهى.

وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام، والآيات

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

الجسام ما أمن به من كيد السحرة، ومعرة المعاندين، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته، وطول صلاته، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعنزته، وكان يخطب بالقضيب، وكذلك الخلفاء من بعده، وكانت عادة العرب العرباء أخذ العصا، والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب.

فإن قلت[1]: ما الفائدة في سؤال الله تعالى له بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وهو يعلم؟.

فعنه جوابان:

أحدهما: أن لفظه لفظ الاستفهام، ومجراه مجرى السؤال ليجيب المخاطب، لا إقرار به، فتثبت عليه الحجة باعترافه، فلا يمكنه الجحد، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعنده ماء: ما هذا؟ فيقول: ماء، فتضع عليه شيئاً من الصبغ، فإن قال: لم يزل هكذا.. قلت له: ألست قد اعترفت بأنه ماء، فتثبت عليه الحجة، هذا قول الزجاج، فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرر موسى أنها عصا، لما أراد أن يريه من قدرته في انقلابها حيةً، فوقع المعجز بها بعد التثبت في أمرها.

والثاني: أنه لما اطلع الله تعالى على ما في قلب موسى، من الهيبة والإجلال، حين التكليم.. أراد أن يؤانسه، ويخفف عنه ثقل ما كان فيه من الخوف، فأجرىٰ هذا الكلام للاستئناس، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

فإن قيل: قد كان يكفي في الجواب أن يقول: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، فما الفائدة في قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ إلى آخر الكلام، وإنما يشرح هذا لمن لا يعلم فوائدها؟

فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدهما: أنه أجاب بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ فقيل له: ما تصنع بها، فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثان. قاله ابن عباس، ووهب.

---

(١) زاد المسير.

والثاني: أنه إنما أظهر فوائدها، وبيَّن حاجته إليها خوفاً من أن يأمره بإلقائها، كالنعلين. قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أنه بيَّن منافعها، لئلا يكون عابثاً بحملها، قاله الماوردي. فإن قيل: فلِمَ اقتصر على ذكر بعض منافعها، ولم يطل الشرح؟

فعنه ثلاثة أجوبةٍ:

أحدها: أنه كره أن يشتغل عن كلام الله بتعداد منافعها.

والثاني: استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد.

والثالث: أنه اقتصر على اللازم دون العارض، وقيل: كانت تضيء له بالليل، وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتهىٰ الثمار، وفي جنسها قولان:

أحدهما: أنها كانت من آس الجنة، قاله ابن عباس.

والثاني: أنها كانت من عوسج.

فإن قيل: المآرب جمع، فكيف قال ﴿أخرى﴾، ولم يقل أخر؟

فالجواب: أن المآرب في معنى جماعة، فكأنه قال: جماعة من الحاجات أخرى، قاله الزجاج اهـ. «زاد المسير» ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، استئناف[1] بياني واقع في جواب سؤال مقدر، أمره سبحانه بإلقائها، ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿أَلْقِهَا﴾؛ أي: ألق هذه العصا وأطرحها ﴿يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا﴾ موسى على الأرض، والإلقاء والنبذ والطرح، بمعنىً واحدٍ ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: تلك العصا المطروحة، وإذا هنا للمفاجأة ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾؛ أي: ثعبان عظيم ينتقل من مكان إلى آخر مسرعاً، وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها، حتى صارت حية تسعى؛ أي: تمشي بسرعةٍ وخفةٍ، قيل: كانت عصا ذات شعبتين، فصار الشعبتان فماً، وباقيها جسم حيةٍ، تنتقل من مكان إلى مكان، وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها، وفظاعة منظرها، فلما رآها كذلك.. خاف وفزع وولى

---

(١) روح البيان.

مدبراً ولم يعقب، وجاء تشبيهها بالجان، وهو: الصغير من الحيات، في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة، لا لصغرها، وقال في آية أخرىٰ ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ والحية: تطلق على الصغيرة والكبيرة، والذكر والأنثىٰ، والجان: الرقيق من الحيات، والثعبان: العظيم منها، ولا تنافي بين تشبيهها بالجان، وبين كونها ثعباناً، لأن تشبيهها بالجان هو في أول حالها، ثم زيدت حتى صارت ثعباناً، أو شبهت بالجان وهي ثعبان في سرعة حركتها واهتزازها، مع عظم خلقها، قيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وصارت شعبتا العصا لها فماً، وبين لحييها أربعون ذراعاً، أو ثمانون، وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً تبتلع الصخر والشجر، وعيناها تتقدان، فلما رأى هذا الأمر العجيب الهائل.. لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهل العقول.

وحكمة انقلابها وقت مناجاته: تأسيسه بهذا المعجز الهائل، حتى يلقيها لفرعون فلا يلحقه ذعر منها في ذلك الوقت، وقد جرت له بذلك عادة وتدريب في تلقي تكاليف النبوة، ومشاق الرسالة، ثم أمره تعالى بالإقدام على أخذها، ونهاه عن أن يخاف منها حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه: استئناف بياني ﴿خُذْهَا﴾؛ أي: خذ هذه الحية بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها فإنه لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر.. خاف وهرب منها، وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذي لا يعرف له نظير، ولا يدرك له سبب، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره ـ عليه السلام ـ قيل: لما قال له ربه لا تخف.. بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه أن أدخل يده في فمها، وأخذ بلحييها ﴿سَنُعِيدُهَا﴾؛ أي: سنعيد هذه الحية بعد أخذها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: إلى هيئتها وحالتها الأولى، التي هي الهيئة العصوية، فانتصابه بنزع الخافض، فوضع يده في فم الحية، فصارت عصاً كما كانت، ويده في شعبتيها في الموضع الذي يضعها فيه إذا توكأ، وأراه هذه الآية كيلا يخاف عند فرعون إذا انقلبت حية ﴿وَٱضْمُمْ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

أي: أدخل وضم ﴿يَدَكَ﴾ اليمنى ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾؛ أي: إلى جنبك الأيسر، تحت العضد؛ أي: أدخل كفك اليمنى في إبطك الأيسر، وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ أي: مشرقةً مثل البرق، أو مشرقة تضيء كشعاع الشمس، تغطي البصر عن الإدراك، فهو حال من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ حال من الضمير في ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ أي: كائنةً من غير عيب وقبح، كنى به عن البرص، كما كنى بالسوءة عن العورة، لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه، روي أن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون، فإذا أدخل يده اليمنىٰ تحت إبطه الأيسر وأخرجها.. كان عليها شعاع كشعاع الشمس، يغشي البصر، ويسد الأفق، ثم إذا ردها إلى جنبه.. صارت إلى لونها الأول، بلا نور وبريقٍ، حالة كون تلك اليد البيضاء ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي: معجزةً أخرى غير العصا، وانتصابها على الحالية من الضمير في بيضاء، وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره؛ أي: فعلنا ما فعلنا من قلب العصا حيةً، وجعل اليد بيضاء، لنريك بهاتين الآيتين ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾؛ أي: بعض آياتنا العظمىٰ، فكل من العصا واليد، من الأيات الكبرىٰ، والدلائل العظام، وهي تسع كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وقد سبق بيانها، ومن المعلوم: أن الكبرى اسم تفضيل؛ أي: التي هي أكبر من غيرها، حتى من العصا، وذلك لأن المراد الكبرىٰ في الإعجاز، واليد كذلك فإنها أكبر آيات موسى، كما نقله الخازن عن ابن عباس، لأنها لم تعارض أصلاً، وأما العصا فقد عارضها السحرة كما سيأتي.

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال: ﴿ٱذْهَبْ﴾ يا موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بما رأيته من الآيتين العظيمتين، وادعه إلى عبادتي، وحذره من نقمتي، وخصه بالذكر، لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: عصى، وتكبر، وكفر، وتجبر، وجاوز الحد، حتى تجاسر على دعوىٰ الربوبية، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قال وهب بن منبه[1]: قال الله لموسى: (اسمع كلامي، واحفظ وصيتي،

---

(١) المراغي.

وانطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي ونصري، وإني ألبستك جبةً من سلطاني، تستكمل بها القوة في أمرك، أبعثك إلى خلقٍ ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا، حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، أقسم بعزتي، لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي.. بطشت به بطشة جبار، ولكن هان علي، وسقط من عيني، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي، وحذره نقمتي، وقل له قولاً ليناً، لا يغتر بلباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي)، قال: فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم، حتى جاءه ملك فقال: أجب ربك فيما أمرك، فحينئذ ﴿قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ مستعيناً بالله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾: جملة مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر: كأنه قيل: فماذا قال؟ قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾؛ أي: رب وسع لي صدري وقلبي، لأعي عنك ما تودعه فيه من وحيك، وأجترىء به على خطاب فرعون، فإنك كلفتني أمراً عظيماً، لا يحتمله إلا ذو جأش رابط، وصدر فسيح، فقد بعثتني إلى أعظم ملك على وجه الأرض، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، وقد بلغ من تمرده: أنه لا يعلم إلٰهاً غيره، والمراد[1] بالصدر هنا: القلب، لا العضو، الذي فيه القلب؛ أي: وسع قلبي حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجهم، ولا يخاف من شوكتهم وكثرتهم.

وخلاصة ذلك: أنه خاف فرعون لشدة شوكته، وكثرة جنوده، فسأل الله تعالى: أن يوسع قلبه، ليكون حمولاً لما يستقبل من الشدائد والمكاره بجميل الصبر، وحسن الثبات، فقال: اجعلني رابط الجأش، حتى لا أخاف سواك، ولا أرهب غيرك، حين تبليغ رسالتك، وكن عوني ونصيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾؛ أي: سهل وهون علي تبليغ الرسالة إلى فرعون، بإحداث الأسباب، ورفع الموانع.

والمعنى: هوّن[2] وسهل علي القيام بما كلفتني به من تبليغ الرسالة،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وحملتني من الطاعة، وأفض علي من القوة ما يفي بالعمل على نشر الدين؛ وإصلاح الخلق ﴿وَٱحْلُلْ﴾؛ أي: فك وافتح ﴿عُقْدَةً﴾؛ أي: ربطةً ورتةً؛ أي: حبسةً ﴿مِّن لِّسَانِي﴾: متعلق بـ﴿أحلل﴾ وتنكير ﴿عُقْدَةً﴾: يدل على قلتها في نفسها، قالوا: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مرسلة، أو صورة ممثلة، والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ أي: أطلق عن لساني العجمة، واللكنة، والحبسة، بالنطق التي كانت فيه من الجمرة التي ألقاها في فيه وهو طفل، وذلك أن فرعون حمله يوماً، فأخذ لحيته ونتفها لما كانت مرصعةً بالجواهر، فغضب وقال: إن هذا عدوي المطلوب، وأمر بقتله، فقالت زوجته آسية: أيها الملك، إنه صبي لا يفرق بين الجمر والتمر، فأحضرا بين يدي موسى، بأن جعل الجمر في طست والتمر في آخر، فقصد إلى أخذ التمر، فأمال جبريل يده إلى الجمر، فرفعه إلى فيه فاحترق لسانه، فكانت منه لكنة وعجمة، قيل[1]: أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها، بدليل قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وقيل: لم تذهب كلها، لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام، بدليل قوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾؛ أي: كائنةً من عقد لساني، ويؤيد ذلك قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وقوله حكايةً عن فرعون ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وجواب الأمر قوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: إن حللت عقدتي.. يفهم فرعون وقومه قولي وكلامي عند تبليغ الرسالة، فإنما يحسن التبليغ من البليغ.

ولما كان التعاون على نشر الدين، مع خلوص الود قربةً عظيمةً لله.. طلب موسى المعاونة على ذلك فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾؛ أي: موازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلفتني به، ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾؛ أي: من خواصي وأقربائي، فوزيراً: مفعول ثان لـ﴿اجعل﴾ لأنه نكرة و﴿هَٰرُونَ﴾ مفعول أول لأنه معرفة، وقدم[2] الثاني عليه اعتناءً بشأن الوزارة، لأن مقصوده الأهم طلب الوزير، وكان أكبر من موسى بأربعة أعوام، كما مر ﴿أَخِي﴾ بدل من هارون، و(لي) متعلق بمحذوف، على أنه حال من ﴿وَزِيرًا﴾ و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾: متعلق بـ﴿اجعل﴾ والمعنى: واجعل من أهلي

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

هارون أخي متحملاً معي أعباء ما كلفتني به، ومعيناً على أمري، يقوي أمري وأثق برأيه.

والخلاصة[1]: أي واجعل لي عوناً من أهل بيتي، هارون أخي، ليحمل معي أعباء الرسالة، ويكون ظهيراً لي عند الشدائد، وحلول المكاره، ولمثل هذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وقال النبي ﷺ: «إن لي في السماء وزيرين، وفي الأرض وزيرين، فاللذان في السماء: جبريل وميكائيل، واللذان في الأرض: أبو بكر وعمر» وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بملك خيراً.. قيَّض له وزيراً صالحاً، إن نسي.. ذكره، وإن نوى خيراً.. أعانه، وإن أراد شراً.. كفه» ثم طلب موسى من ربه أن يشد به أزره فقال: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾؛ أي: قوِّ يا رب بهارون ظهري، وأعني به ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: اجعله يا رب شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي، فإن قيل: كيف[2] سأل لأخيه النبوة؟ فإنما هي باختيار الله تعالى كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

قلت: إن في إجابة الله دليلاً على أن سؤاله كان بإذن الله، دليلاً وإلهاماً منه، ولما كان التعاون في الدين درجةً عظيمة، طلب أن لا يحصل إلا لأخيه.

وفيه إشارة[3] إلى أن صحبة الأخيار وموازرتهم مرغوب للأنبياء، فضلاً عن غيرهم، ولا ينبغي أن يكون المرء مستبداً برأيه، مغروراً بقوته وشوكته، وينبغي أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه. ولا تقدح وزارة هارون في نبوته، وقد كان أكثر أنبياء بني إسرائيل كذلك؛ أي: كان أحدهم موازراً ومعيناً للآخر في تبليغ الرسالة، وكان هارون بمصر، حين بعث موسى نبياً بالشام، وقرأ الجمهور[4]: ﴿ٱشْدُدْ﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾ على معنى الدعاء في شد الأزر، وتشريك هارون في النبوة، بهمزة وصل في: ﴿أشدد﴾ وهمزة قطع في ﴿أشركه﴾ وقرأ الحسن، وزيد بن علي

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

وابن عامر ﴿أشدد﴾ بفتح الهمزة ﴿وأشركه﴾ بضمها فعلاً مضارعاً مجزوماً في جواب الطلب، وعطف عليه ﴿وأشركه﴾ وقال صاحب «اللوامح» عن الحسن أنه: ﴿أشدد به﴾ مضارع شدد للتكثير والتكرير؛ أي: كلما حزنني أمر.. شددت به أزري، وفي مصحف عبد الله ﴿أخي وأشدد﴾ وقرأ[1]: بفتح الماء من ﴿أخي﴾ ابن كثير، وأبو عمرو، ثم حكى سبحانه: ما لأجله دعا موسى بالأدعية الثلاثة الأخيرة؛ أي: دعوتك يا رب بهذه الأدعية ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ تسبيحاً ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ننزهك عما لا يليق بك من الأفعال والصفات، التي من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية، ويقبله منه جماعته الباغية، من ادعاء الشركة في الألوهية ﴿و﴾ كي ﴿نذكرك﴾ ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: على كل حال، ونفسك بما يليق بك من صفات الكمال، ونعوت الجمال، والجلال، زماناً كثيراً، ومن جملته زمانُ دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، فإن التعاون يهيج الرعيات، ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده، وانتصاب ﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين: على أنه نعت مصدر محذوف، أو لزمان محذوف، وفيه[2] إشارة إلى أن للجليس الصالح، والصديق الصدّيق أثراً عظيماً في المعاونة على كثرة الطاعات، والمرافقة في اقتحام عقبات السلوك، وقطع مفاوزه.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ الباء: متعلقة بـ﴿بَصِيرًا﴾ قدمت عليه لرعاية الفواصل؛ أي: إنك كنت عليماً بأحوالنا، وأن ما طلبناه مما يفيدنا في تحقيق ما كلفتنا به، من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها، فإن هارون نعم العون على أداء ما أمرت به، من نشر معالم الدين، وكبح جماح المضلين، وإرشادهم إلى حق اليقين، فإنه أكبر مني سناً، وأفصح لساناً، وكان أكبر من موسى بأربع سنين، أو بسنةٍ، على اختلاف الروايات.

ولما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره، وييسر له أمره، ويحلل عقدةً من لسانه، ويجعل له وزيراً من أهله.. أخبره الله سبحانه، بأنه قد أجاب ذلك

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

الدعاء فـ﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ وأُعطيت ﴿سُؤْلَكَ﴾؛ أي: مسؤولك ومطلوبك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ فهو فعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز، والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له؛ أي: قال الله سبحانه لموسى: قد أعطيتك جميع ما سألتني، من شرح صدرك، وتيسير أمرك، وحل عقدة لسانك، وجعل أخيك هارون وزيراً لك، وشد أزرك به، وإشراكه في الرسالة معك ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أنعمنا عليك يا موسى، وأكرمناك بكرامات ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ أي: في وقتٍ غير هذا الوقت، من غير أن تسألنا، فلأن ننعم عليك بمثل تلك النعم التامة، وأنت طالب له، أولىٰ؛ أي[1]: ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة، ومن راعى مصلحتك قبل سؤلك، وأعطاك ما ترجوه، أفيمنع عنك ما تريد بعد سؤالك، ومن رقىٰ بك إلى مراتب الكمال، وصعد بك في أوج المعالي، وسما بك إلى درجات الرفعة، ووكل إليك ذلك المنصب الخطير، أفيليق به وهو الجواد الكريم أن يحجز عنك ما تُؤَمِّل، مما أنت في شدة الحاجة إليه لتبليغ رسالته، وفي التعبير عن تلك النعم بالمنن، إيماء إلى أنها إنما وصلت إليه لمحض التفضل والإحسان.

وقد عد سبحانه من تلك النعم ثماني، فقال:

١ - ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾: ظرف لـ﴿مَنَنَّا﴾ والمراد[2]: من هذا الوحي: وحي إلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ بأن أوقع في قلبها عزيمةً جازمةً على ما فعلته من اتخاذ التابوت، والقذف، وليس المراد هنا: الوحي الواصل إلى الأنبياء، لأن أم موسى ما كانت من الأنبياء، فإن المرأة لا تصلح للإمارة والقضاء، فكيف تصلح للنبوة، ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ المراد به: ما سيأتي من الأمر بقذفه في التابوت والبحر، أبهم أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه عليه السلام؛ أي: ولقد مننا عليك مرة أخرى، حين[3] ألهمنا أمك الذي يلهَم، أو أريناها في

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

منامها ما يُرى، لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسرةً بمعنى: أي، لأن الوحي من باب القول، ومعنى القذف هنا: الوضع، وفي قوله: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ بمعنى الإلقاء، وليس المراد: القذف بلا تابوتٍ، واليم نيل مصر في قول جميع المفسرين؛ أي: ولقد مننا عليك حين قلنا لها ضعي الصبي المولود في الصندوق، فألقى الصندوق في بحر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾؛ أي: فليطرح البحر الصندوق ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾؛ أي: بطرفه، ولما[1] كان إلقاء البحر إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به.. جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع، أمر بذلك، والساحل[2]: هو شط البحر، سمي ساحلاً لأن الماء سحله، قاله ابن دريد، والمراد هنا: ما يلي الساحل من البحر، لا نفس الساحل، قيل: والأولى في هذه الضمائر كلها عودها لموسى، لا للتابوت، وإن كان قد ألقي معه، لكن المقصود هو موسى، مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له.

والمعنى[3]: ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى قبل هذا، حين ألهمنا أمك، وأوقعنا في قلبها عزيمةً صادقةً، أن أمثل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته، أن تضعك في تابوت «صندوقٍ»، ثم تطرح هذا التابوت في نهر النيل، ففعلت، فألقاك النهر في الساحل، فأخذك فرعون ـ عدو الله ـ ورباك في بيته، وسيصير عدواً لك بعد ذلك، كما هو عدو لي، روي: أنها جعلت في التابوت قطناً محلوباً، ووضعته فيه، وطلت ظاهره بالجص والقار، ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه ـ يتفرع ـ نهر كبير إلى بستان فرعون، فبينا هو جالس إلى رأس بركةٍ مع زوجته آسية، إذ بتابوت يجري به الماء، فأمر فرعون غلمانه وجواريه بإخراجه، ففعلوا وفتحوا رأسه، فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون حباً شديداً، لم يتمالك أن يصبر عنه، وجملة قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾: جواب الأمر بالإلقاء، وتكرير[4] ﴿عَدُوٌّ﴾ للمبالغة وهو فرعون، فالأول: باعتبار الواقع لكفره وعتوه، والثاني: باعتبار ما يؤول إليه، وما لو ظهر لفرعون حال

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

موسى لقتله، ولما وجده في اليم عند الشجر سماه موسى، و(مو): هو الماء عند القبطية و(سا): هو الشجر، وأحبه حباً شديداً، لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى:

٢ ـ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ عظيمةً كائنةً ﴿مِّنِّي﴾ قد ركزتها في القلوب، وزرعتها فيها، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، ولذا أحبك عدو الله فرعون وزوجته، حتى قالت: ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ روي أنه كان على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة، لا يكاد يصبر عنه من رآه.

٣ ـ ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾؛ أي: ولتربَّى حالة كونك ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي: متلبساً بحفظي ورعايتي، معطوف على علة مقدرة، متعلقة بـ﴿ألقيت﴾ والتقدير: و﴿ألقيت عليك المحبة، ليعطف عليك، ولتربىٰ بالشفقة والحنو، حالة كونك متلبساً بحفظي ورعايتي، وأنا مراقبك ومراعيك وحافظك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، من قولهم صنع إليه معروفاً، إذا أحسن إليه، و﴿على عيني﴾ حال من الضمير المستتر في ﴿لتصنع﴾ لا صلة له، جعل العين مجازاً مرسلاً عن الرعاية والحراسة، بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ بكسر لام كي وضم التاء، ونصب الفعل؛ أي: ولتربىٰ ويحسن إليك، وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وقرأ الحسن، وأبو نهيك: بفتح التاء، قال ثعلب معناه:

لتكون حركتك وتصرفك على عين مني. وقرأ شيبة، وأبو جعفر في روايةٍ: بإسكان اللام والعين وضم التاء، فعل أمر، وعن أبي جعفر: كذلك إلا أنه كسر اللام.

٤ ـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ مريم وهي شقيقة له، وهي غير أم عيسى، ظرف

---

(١) البحر المحيط.

لـ﴿ألقيت﴾ أو لـ﴿تصنع﴾؛ أي: وألقيت عليك محبةً مني، حين تمشي أختك تتبعك متعرفةً، حتى وجدتك وصادفتهم يطلبون لك مرضعاً تقبل ثديها، حتى اضطروا إلى تتبع النساء ﴿فَنَقُولُ﴾ لفرعون وآسية؛ أي: فلما رأت منهم ذلك.. جاءت إليهم متنكرةً وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وصيغة[1] المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية، كما سيأتي في مبحث البلاغة، أي: قالت ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؛ أي: يضمه إلى نفسه ويرضعه ويربيه، و(الفاء) في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فقالوا دلينا عليه، فجاءت بأمك، فقبلت ثديها، فرجعناك إليها؛ أي: رددناك إليها بما لطف الله لك من التدبير ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾ وتبرد ﴿عَيْنُهَا﴾ فتطيب نفسها بلقائك ورؤيتك ووصولك إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بوصول لبن غيرها إلى باطنك، وفي «الإرشاد» أي: لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين، فإن التخلية متقدمة على التحلية. انتهى. أو المعنى: كي لا تحزن أنت بفراقك، وكانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر أو أربعة قبل إلقائه في اليم.

وحاصل قصة رضاعه[2]: أن آسية عرضته للرضاع، فلم يقبل امرأةً، فجعلت تنادي عليه في المدينة، ويطاف به ويعرض للمراضع فيأبى، وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومةً، فأمرت أخته بالتفتيش في المدينة، لعلها تقع على خبره، فبصرت به في طوافها، فقالت: أنا أدلكم على من يكفله لكم، وهم له ناصحون، فتعلقوا بها وقالوا: أنت تعرفين هذا الصبي؟ فقالت: لا، ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب إلى الملكة، والجد في خدمتها ورضاها، فتركوها وسألوها الدلالة، فجاءت بأم موسى، فلما قربته.. شرب ثديها، فسرت آسية وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت: ما كنت لأدع بيتي وولدي، ولكنه يكون عندي، قالت: نعم، فأحسنت إلى أهل ذلك البيت غاية الإحسان، واعتز بنو إسرائيل بهذا الرضاع والنسب من الملكة، ولما كمل رضاعه.. أرسلت آسية إليها أن جيئيني بولدي ليوم كذا، وأمرت خدمها ومن لها

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

أن يلقينه بالتحف والهدايا واللباس، فوصل إليها إلى ذلك، وهو بخير حال، وأجمل شباب، فسرَّت به، ودخلت به على فرعون ليراه، وليهبه، فأعجبه وقرَّبه، فأخذ موسى لحية فرعون، وتقدم ما جرى له عند ذكر العقدة.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾ بفتح التاء والقاف، وقرأت فرقة: بكسر القاف، وتقدم أنهما لغتان في قوله: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وقرأ جناح بن حبيش: بضم التاء وفتح القاف، مبنياً للمفعول.

٥ ـ ﴿وَقَتَلْتَ﴾ بعد كبرك ﴿نَفْسًا﴾؛ أي: قبطياً وكزته حين استغاث بك الإسرائيلي، كما يأتي في سورة القصص، وكان طباخاً لفرعون اسمه قاب قان، وكان عمر موسى إذ ذاك ثلاثين سنةً ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ الذي نزل بك بسبب قتل القبطي من وجهين:

أولاً ـ عقاب الدنيا باقتصاص فرعون، كما جاء في الآية ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

ثانياً ـ عقابنا إذ قتلته بغير أمر منا، فغفرنا لك ذنبك حين قلت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ وكان قتله للكافر خطأ، ووفقناك للهجرة إلى مدين.

والغم[٢]: ما يغم على القلب، بسبب خوف أو فوات مقصود، والغم بلغة قريش: القتل، وقيل: من غم التابوت، وقيل: من غم البحر، والظاهر: أنه من غم القتل، حين ذهبنا بك من مصر إلى مدين.

٦ ـ ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ والفتنة[٣]: تكون بمعنى المحنة، وبمعنى: الأمر الشاق، وكل ما يبتلىٰ به الإنسان، والفتون: يجوز أن يكون مصدراً كالثبور، والشكور، والكفور؛ أي: ابتليناك ابتلاءً، واختبرناك اختباراً، وامتحناك امتحاناً، ويجوز أن يكون جمع فتنة، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث، كحجورٍ في حجرة، وبدور في

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

بدرة؛ أي: وأوقعناك في محنة بعد محنة، وفتنة بعد فتنة، وتفضلنا عليك بالخلاص منها، فمن ذلك:

(أ): أن أمك حملت بك في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأبناء، فنجاك الله من الذبح.

(ب): أن أمك ألقتك في البحر بعد وضعك في التابوت، فالتقطك آل فرعون وعنوا بتربيتك ورعايتك.

(ج): أنك امتنعتَ عن الرضاع إلا من ثدي أمك، وكان ذلك وسيلةً إلى إرجاعك إليها.

(د): أنك أخذت لحية فرعون فغضب من ذلك، وأراد قتلك، لولا أن قالت له زوجته إنه صغير، لا يفرق بين الجمرة والتمرة، وأُتي لك بهما فأخذت الجمرة.

(هـ): قتلك القبطي، وخروجك إلى مدين هارباً، ومهاجرتك من الوطن، ومفارقتك الأحباب، والمشي راجلاً، وفقد الزاد، ونحو ذلك مما وقع قبل وصوله إلى مدين.

٧ ـ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾؛ أي: مكثت عشر سنين ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ عند شعيب لرعي الأغنام، لأن شعيباً أنكحه بنته صفوراء، على أن يخدمه ثماني سنين، فخدمه عشراً قضاءً لأكثر الأجلين، كما يأتي في سورة القصص، فقاسيت أثناءها من المحن ما قاسيت، فتحملت بسبب الفقر والغربة آلاماً كثيرةً، حتى احتجت إلى أن تؤاجر نفسك لشعيب، وترعى غنمه.

وذكر اللبث دون الوصول إليهم[1]: إشارة إلى مقاساة شدائد أخرى في تلك السنين، كإيجار نفسه ونحوه مما كان من قبيل الفتون، قال الفراء: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾: معطوف على محذوف تقديره: وفتناك فتوناً، فخرجت إلى أهل مدين،

(١) روح البيان.

فوصلت إليهم، فلبثت فيهم سنين، و(الفاء): في ﴿فَلَبِثْتَ﴾ تدل على أن المراد بالفتن المذكورة هي ما كان قبل لبثه في أهل مدين، ومدين: كانت على ثماني مراحل من مصر ﴿ثُمَّ﴾ بعدما لبثت عشر سنين في أهل مدين، توجهت إلى مصر لزيارة أمك وأخيك و﴿جِئْتَ﴾؛ أي: وصلت في مسيرك هذا إلى المكان الذي ناجيتك فيه، وكلمتك واستنبأتك فيه، وهو الوادي المقدس ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: في وقتٍ معين قدرته لمناجاتك، لم تتقدمه ولم تتأخر عنه، أو على مقدار من السن يوحىٰ فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، قال الشاعر:

نال الخلافة إذ جاءت على قدرٍ كما أتى ربَّه موسى على قدرِ

وكرر قوله[1]: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريفاً له ـ عليه السلام ـ وتنبيهاً على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى، التي وقعت قبل المرة المحكية.

والمعنى: أي جئت لميقات قدرته لمجيئك قبل خلقك، وكان على رأس أربعين سنة، وهو الوقت الذي يوحىٰ فيه إلى الأنبياء، هذا قول الأكثرين، وقال الفراء؛ أي: على ما أراد الله به من تكليمه.

٨ ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾؛ أي: اخترتك من بين الناس ﴿لِنَفْسِى﴾؛ أي: لأداء أوامري، وإقامة حججي، وتبليغ رسالتي، فحركاتك وسكناتك لي، لا لنفسك، ولا لأحد غيرك، والاصطناع: افتعال من الصنع بالضم، وهو مصدر قولك: صنع إليه معروفاً، واصطناع فلان: اتخاذه صنيعاً محسناً إليه، بتقريبه وتخصيصه بالتكريم والإجلال؛ أي: اصطفيتك واختصصتك باصطناعي وإحساني إليك بالمعروف.

وخلاصة ذلك[2]: أني جعلتك من خواصي، واصطفيتك برسالاتي وبكلامي، فصرت بما آتيتك من كرامة النبوة، وجليل النعمة بالمكالمة أشبه بمن يراه الملك أهلاً لكرامته، فيقربه إليه، ويجعله من خواصه وندمائه، ويصطنعه بالإحسان إليه في الحين بعد الحين، والفينة بعد الفينة.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الإعراب

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

﴿طه ۝١﴾: إن قلنا إن الحروف المقطعة مما استأثر الله بعلمها، فلا محل لها من الإعراب، أي: لا توصف بإعرابٍ ولا بناءٍ، لأن الحكم بالإعراب والبناء، على الكلمة، فرع عن إدراك معناها، وإن قلنا إنها اسم للسورة، فهو إما: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي هذه سورة طه، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: سورة طه هذا محله، والجملة الاسمية: مستأنفة استئنافاً نحوياً، وقيل: إن ﴿طه ۝١﴾ اسم محمد، حذف منه حرف النداء. ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول به ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل ﴿تشقىٰ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لشقائك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع ﴿تَذْكِرَةً﴾: مفعول لأجله لفعل محذوف، دل عليه المذكور تقديره: ما أنزلناه ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون مفعولاً لأجله ﴿لأنزلنا﴾ المذكور، لأنها قد تعدت إلى مفعول له، وهو ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ فلا تتعدى لآخر من جنسه، ولا يصح أن يعمل فيها ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لفساد المعنى، وقيل: ﴿تَذْكِرَةً﴾: مصدر في موضع الحال، واختار الزمخشري أن تكون تذكرةً: مفعولاً لأجله، قال: وكل واحد من ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ و﴿تَذْكِرَةً﴾: علة للفعل، إلا أن الأول: وجب مجيئه مع اللام، لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل، ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه، ونصبه لاستجماع الشرائط، وعلى هذا جرى معظم المعربين والمفسرين، وقال الكرخي: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: منقطع وإن ﴿تَذْكِرَةً﴾: مفعول من أجله، والعامل أنزلناه المقدر لا المذكور، وكل واحد من ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ و﴿تَذْكِرَةً﴾: علة لقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ وتعدى في ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ بـ(اللام) لاختلاف العامل، لأن ضمير ﴿أَنزَلْنَا﴾ لله وضمير ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ للنبي، فلم يتحد الفاعل، واتحد في ﴿تَذْكِرَةً﴾ لأن المذكر هو الله تعالى، وهو المنزل فنصب بغير لام. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ﴿لِّمَن﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿تَذْكِرَةً﴾ ﴿يَخْشَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة: صلة الموصول.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَنزِيلًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزلناه ﴿تَنزِيلًا﴾ فحذف وجوباً على حد قول ابن مالك:

والحذف حتم مع آيات بدلاً   من فعله كندلاً اللذ كأندلا

والجملة المحذوفة: مستأنفة ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَنزِيلًا﴾ ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول ﴿وَالسَّمَاوَاتِ﴾: معطوف على ﴿الْأَرْضَ﴾. ﴿الْعُلَى﴾: صفة لـ﴿لسماوات﴾ ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الرحمٰن، أو مبتدأ ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: متعلق بـ﴿اسْتَوَىٰ﴾ وجملة: ﴿اسْتَوَىٰ﴾: خبر ثان لـ هو المقدرة، أو خبر ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَهُ﴾: خبر مقدم ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أيضاً ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿تَجْهَرْ﴾: فعل مضارع مجزوم، وفاعله: ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب ﴿بِالْقَوْلِ﴾: متعلق به ﴿فَإِنَّهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً ﴿إنه﴾: ناصب واسمه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة: ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على

كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَأَخْفَى﴾: معطوف على ﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ أي: ﴿أخفى﴾ منه، وتنكيره للمبالغة في الخفاء، فهو: اسم تفضيل من خفي بمعنى: استتر وغاب، وأجاز بعضهم: أن يكون فعلاً ماضياً؛ أي: وأخفى الله عن عباده غيبه، وعندنا أن ذلك غير جائز، لأنه من جهة اللفظ يلزم منه عطف الفعلية على الاسمية، إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى؛ أو عطف الماضي على المضارع، إن كان المعطوف عليه الجملة الصغرىٰ، وكلاهما دون الأحسن، ومن جهة المعنى، واضح أن المقصود: الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته، من حيث: إن الله يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل مناسبة لترك الجهر، وأما إذا جُعل فعلاً فيخرج عن مقصود السياق، واعلم: أنهم قد يحذفون (من) من أفعل، إذا أريد به التفضيل، ومعنى الفعل، وهم يريدونها فتكون كالمنطوق بها، نحو زيد أكرم وأفضل.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَآ﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، مبني على الفتح، وخبر ﴿لَآ﴾: محذوف جوازاً، تقديره: موجود ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزّه عن المذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستتر فيخبر ﴿لَآ﴾ وجملة ﴿لَآ﴾: في محل الرفع خبر أول للمبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة ﴿لَهُ﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ ومعلوم أن جمع التكسير في غير العقلاء، يعامل معاملة المفردة المؤنثة، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَهَلْ﴾ الواو: استئنافية ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام التقريري، ومعناه: أليس قد أتاك حديث موسى، وقيل: معناه: قد أتاك ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير أمر التوحيد، الذي انتهى إليه مساق الحديث، وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء، كابراً عن

كابرٍ، وقد خوطب به موسى ـ عليه السلام ـ حيث قيل له: إنني أنا الله لا إله إلا أنا، وبه ختم موسى ـ عليه السلام ـ مقالته، قال إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو. اهـ «أبو السعود». ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿حَدِيثُ﴾ ﴿رَءَا﴾: فعل ماض وهي بصرية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿نَارًا﴾: مفعول به ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿رَءَا﴾. ﴿لِأَهْلِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿لَّعَلِّىٓ﴾: ناصب واسمه ﴿ءَاتِيكُم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿قبس﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿بِقَبَسٍ﴾: متعلق بـ﴿أتيكم﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر لـ﴿لعل﴾ وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطفٍ وتنويعٍ ﴿أَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿أَجِدُ﴾. ﴿هُدًى﴾: مفعول به ﴿لأجد﴾ فهو يتعدى لمفعولٍ واحدٍ، لأنه من وجد الضالة، وجملة: ﴿أَجِدُ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ءَاتِيكُم﴾: على كونها خبر ﴿لعل﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فيمم شطر النار، فلما أتاها ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بجوابه ﴿أَتَىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل الجر بإضافة ﴿لما﴾ إليها ﴿نُودِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿موسى﴾ والجملة: جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة المذكورة آنفاً ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل الرفع نائب فاعل لقول محذوف، تقديره: ﴿نُودِىَ﴾ وقيل له ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنَا۠﴾: تأكيد للضمير، أو مبتدأ ﴿رَبُّكَ﴾: خبر ﴿إن﴾ أو خبر ﴿أَنَا۠﴾ والجملة: خبر ﴿إن﴾ والأول أولى، وجملة ﴿إن﴾: في محل الرفع نائب فاعل للقول المحذوف، على كونها جواب النداء ﴿فَٱخۡلَعۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أني أنا ربك، وأردت بيان الأدب لك.. فأقول لك: ﴿اخلع﴾. ﴿اخلع﴾: فعل أمر وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿نَعۡلَيۡكَ﴾: مفعول به منصوب بالياء، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل الرفع نائب فاعل للقول المحذوف، ويصح كون الفاء: تفريعية ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ الباء: حرف جر ﴿الواد﴾: مجرور بالباء، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين لفظاً، المحذوفة خطاً أيضاً، تبعاً للفظ، على قاعدة رسم المصحف العثماني، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾ أي: إنك كائن ﴿بِٱلۡوَادِ﴾. ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾: صفة للوادي ﴿طُوًى﴾: بدل من الوادي، أو عطف بيان عنه، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، على إرادة البقعة، أو مصروف على إرادة معنى الموضع، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع نائب فاعل للقول المحذوف على أنها معللة لما قبلها، ﴿وَأَنَا﴾ الواو: عاطفة ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية: معطوفة على جملة ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾. ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية ﴿استمع﴾ فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ ﴿لِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿استمع﴾ ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّنِيٓ﴾: ناصب واسمه ونون وقاية ﴿أَنَا۠﴾: تأكيد للضمير المنصوب، أو

مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر ﴿إن﴾ أو خبر ﴿أَنَا۠﴾ والجملة: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل الجر بدل من ﴿ما﴾ في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿لَآ﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾: محذوف تقديره: موجود ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَنَا۠﴾: بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لَآ﴾ وجملة ﴿لَآ﴾: في محل الرفع خبر ثان لـ﴿إن﴾ ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنني أنا الله، لا إله إلا أنا، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾. ﴿اعبدني﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: نائب فاعل للقول المحذوف، المذكور سابقاً ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول معطوف على ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أقم﴾ وهو مصدر مضاف للمفعول؛ أي: لتذكرني فيها، أو مضاف للفاعل؛ أي: لذكري إياك.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة: مستأنفة ﴿أَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص، من أفعال المقاربة، واسمها: ضمير مستتر فيها يعود على الله ﴿أُخْفِيهَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿أَكَادُ﴾ وجملة: ﴿أَكَادُ﴾: في محل الرفع خبر ثان لـ﴿إن﴾. ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لجزاء كل نفس ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُخْفِيهَا﴾ أو بـ﴿أتية﴾ و﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: جملة اعتراض بينهما، لا نعت لـ﴿أتية﴾ حتى يلزم إعمال اسم الفاعل الموصوف، فإن عمل ثم وصف جاز .اهـ «كرخي» ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (الباء) حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة اسمية ﴿تَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على النفس،

والجملة الاسمية: صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسعيها أو لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: بما سعته، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: بعقاب سعيها، أو بعقاب ما سعته.
﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿لا يصدنك﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿يصدن﴾ فعل مضارع في محل الجزم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و(الكاف): مفعول به ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿لَّا﴾ نافية ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ على كونها صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ (الفاء): عاطفة سببية ﴿تردى﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب النهي، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ أو على أيِّ مخاطب، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: فلا يكن صد من لا يؤمن بها إياك عنها فرداك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية ﴿مَآ﴾ استفهامية للاستفهام التقريري، في محل الرفع مبتدأ ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة في محل الرفع خبر، والجملة: مستأنفة ﴿بِيَمِينِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من اسم الإشارة، والعامل في الحال المقدرة: ما في الإشارة من معنى الفعل ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ والجملة: في محل النصب حال من ﴿عَصَاىَ﴾ أو من ياء المتكلم. ﴿وَأَهُشُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿بِهَا﴾:

متعلق به، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾. ﴿عَلَىٰ غَنَمِى﴾: متعلق بـ﴿أهش﴾ أيضاً ﴿وَلِيَ﴾ الواو: عاطفة ﴿لِيَ﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾ حال من ﴿مَـَارِبُ﴾. ﴿مَـَارِبُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة لـ﴿مَـَارِبُ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَـٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مستأنفة ﴿أَلْقِهَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَلْقَـٰهَا﴾ (الفاء): حرف عطف وتفريع ﴿ألقاها﴾ فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: معطوفة مفرعة على جملة ﴿قَالَ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿إذا﴾: فجائية ﴿هِىَ حَيَّةٌ﴾: مبتدأ وخبر، وجملة ﴿تَسْعَىٰ﴾: يجوز أن تكون خبراً ثانياً، وأن تكون حالاً كما ذكره أبو البقاء، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿فَأَلْقَـٰهَا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مستأنفة ﴿خُذْهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَا﴾: ناهية جازمة ﴿تَخَفْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿خُذْهَا﴾. ﴿سَنُعِيدُهَا﴾: فعل ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿سِيرَتَهَا﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى ﴿سِيرَتَهَا﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفة للسيرة.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على ﴿أَلْقِهَا﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ

﴿جَنَاحِكَ﴾: متعلق بـ﴿اضمم﴾. ﴿تَخْرُجْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على اليد ﴿بَيْضَآءَ﴾: حال من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: متعلق بـ﴿بَيْضَآءَ﴾ لما فيها من معنى الفعل، أو متعلق بـ﴿تخرج﴾. ﴿ءَايَةً﴾: حال ثانية من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾ أيضاً ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة ﴿ءَايَةً﴾ ﴿لِنُرِيَكَ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل ﴿نريك﴾ فعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾: حال من ﴿ٱلْكُبْرَى﴾. ﴿ٱلْكُبْرَى﴾: صفة للمفعول الثاني المحذوف، تقديره: لنريك الآية الكبرى حالة كونها من آياتنا، وجملة ﴿نريك﴾ مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإراءتنا إياك الآية الكبرى من آياتنا، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: أمرناك بما ذكرنا لإراءتنا إياك، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿ٱذْهَبْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، يعود على ﴿موسى﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿ٱذْهَبْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه وجملة: ﴿طَغَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة: ﴿إن﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها على أنها مقول قال.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱشْرَحْ﴾ فعل دعاء، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿لِى﴾ متعلق بـ﴿ٱشْرَحْ﴾ ﴿صَدْرِى﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَيَسِّرْ﴾: فعل دعاء معطوف على ﴿ٱشْرَحْ﴾ وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿لِى﴾ متعلق به ﴿أَمْرِى﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَٱحْلُلْ﴾: فعل دعاء معطوف على ﴿ٱشْرَحْ﴾. ﴿عُقْدَةً﴾: مفعول به ﴿مِّن لِّسَانِى﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عُقْدَةً﴾. ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون ﴿وَٱجْعَل﴾ فعل دعاء، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱشْرَحْ﴾ ﴿لِى﴾: متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿وَزِيرًا﴾: مفعول

أول ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ صفة لـ﴿وَزِيرًا﴾ ﴿هَٰرُونَ﴾: بدل من ﴿وَزِيرًا﴾ ﴿أَخِي﴾ بدل من ﴿هَٰرُونَ﴾ ويجوز أن يكون ﴿وَزِيرًا﴾ مفعولاً ثانياً و﴿هَٰرُونَ﴾ مفعولاً أول، وقدم الثاني عليه اعتناءً بأمر الوزارة ﴿وَلِيَ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿وَزِيرًا﴾ أو متعلق بنفس ﴿اجعل﴾ و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾: صفة ﴿وَزِيرًا﴾ ويجوز أن يكون ﴿وَزِيرًا﴾ هو المفعول الأول و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ هو الثاني، وجميع هذه الأوجه متساوية الرجحان.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱشْدُدْ﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير مستتر يعود على الله تقديره: أنت ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق به ﴿أَزْرِى﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على ﴿ٱشْرَحْ﴾ بعاطف مقدر ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿ٱشْرَحْ﴾. ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾: متعلق بـ﴿أشركه﴾ وقرىء ﴿ٱشْدُدْ﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾: مضارعين مجزومين بالطلب السابق، ﴿كَىْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿نُسَبِّحَكَ﴾: فعل ومفعول منصوب بـ﴿كَىْ﴾: وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾ تقديره: نحن ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: تسبيحاً كثيراً. أو صفة لزمان محذوف تقديره: زمانا كثيرا فهو مفعول مطلق، أو مفعول فيه، والجملة الفعلية: صلة ﴿كَىْ﴾ المصدرية ﴿كَىْ﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، علل بها لكل من الأفعال الثلاثة الأخيرة ﴿وَٱجْعَل﴾ و﴿ٱشْدُدْ﴾ و﴿أشرك﴾ تقديره: اجعله وزيراً لي ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ لتسبيحنا إياك تسبيحاً كثيراً أو زماناً كثيراً ﴿وَنَذْكُرَكَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر معطوف على ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾: صفة مصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً أو زماناً كثيرا ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿بِنَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مستأنفة ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: قد حرف تحقيق ﴿أُوتِيتَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ﴿سُؤْلَكَ﴾ مفعول ثان لـ﴿أُوتِيتَ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم مبني بضم مقدر، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية و(اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿مَنَنَّا﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به ﴿مَرَّةً﴾: ظرف أو مفعول مطلق ﴿أُخْرَىٰٓ﴾ صفة لـ﴿مَرَّةً﴾ والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتقرير ما قبلها، ولزيادة توطين نفس موسى بإجابة مسؤوله ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مفيد للتعليل متعلق بـ﴿مَنَنَّا﴾. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾: متعلق به والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة وهي تفيد الإبهام، ويصح كون ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿أَنِ﴾: مفسرة بمعنى، أي: ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾: متعلق بـ﴿اقذفيه﴾ ولم تختلف الضمائر، لأن المقذوف هو موسى عليه السلام. ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ الفاء: عاطفة و﴿اللام﴾ لام الأمر ﴿يلق﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿ٱلْيَمُّ﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ وهذا أمر معناه الخبر، ولكونه أمراً لفظاً جزم جوابه في قوله: ﴿يَأْخُذْهُ﴾. ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾: متعلق بـ﴿يلقه﴾. ﴿يَأْخُذْهُ﴾: فعل ومفعول به مجزوم بالطلب السابق ﴿عَدُوٌّ﴾ فاعل ﴿لِّي﴾ صفة له ﴿لَّهُۥ﴾ ﴿وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ معطوف على ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾.

﴿وَأَلْقَيْتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به

﴿مَحَبَّةً﴾: مفعول به ﴿مِّنِّي﴾ صفة لـ﴿مَحَبَّةً﴾؛ أي: محبةً عظيمةً كائنةً مني ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ (الواو): عاطفة (اللام): حرف جر وتعليل ﴿تصنع﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة بعد (اللام): ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ولتربَّى ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستتر في ﴿تصنع﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على علة مقدرة قبلها، وتلك العلة المقدرة متعلقة بـ﴿ألقيت﴾؛ أي: وألقيت عليك محبة مني ليعطف عليك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿ألقيت﴾ أو بـ﴿تصنع﴾ أو بمحذوف تقديره: أذكر ﴿تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ ﴿فَتَقُولُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿تَمْشِيٓ﴾: وفاعله ضمير يعود على الأخت ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الاستخباري ﴿أَدُلُّكُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الأخت. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿تَقُولُ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَدُلُّكُمْ﴾. ﴿يَكْفُلُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فقالوا دلينا عليه فجاءت بأمِّك، فَقَبِلْتَ ثديها ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾. ﴿رجعناك﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾: متعلق به والجملة: معطوفة، على تلك المحذوفة ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة، تقديره: لقرة عينها ﴿ولاَ تَحْزَنَ﴾ معطوف على ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قَتَلْتَ﴾ ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ متعلق بـ﴿نجيناك﴾. ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿فُتُونًا﴾: مفعول مطلق إذا كان مصدراً، وهو الأرجح، كالقعود والجلوس، أو منصوب بنزع الخافض، إذا كان جمع فتنة؛ أي: بضروب من الفتن والمعنى: ابتليناك وامتحناك بأنواع من الشدائد ﴿فَلَبِثْتَ﴾:

فعل وفاعل معطوف على ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ﴿سِنِينَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿لبثت﴾. ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لبثت﴾. ﴿مَدۡيَنَ﴾ مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿جِئۡتَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لبثت﴾. ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿جِئۡتَ﴾؛ أي: حالة كونك موافقاً لما قدر لك، أو مستقراً على قدر معين ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿لِنَفۡسِي﴾ متعلق به، والجملة: مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ أي: لتتعب نفسك، من شقي يشقىٰ من باب رضي ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾؛ أي: تذكيراً وعظةً، مصدر: ذكر يذكر، من باب فعل المضعف تذكيراً وتذكرةً، ولكن الأول قياسي، والثاني سماعي، إلا في المعتل، كزكى تزكيةً ﴿يَخۡشَىٰ﴾؛ أي: يخاف الله؛ أي: لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف منه ﴿ٱلۡعُلَى﴾: جمع العليا، مؤنث الأعلىٰ، كالكبرىٰ مؤنث الأكبر، يجمع على كبر، ويجوز كتابتها بالياء والألف، لأن الفعل علا يعلو، وعلى يعلىٰ، وهي المرتبة والرفعة، وقال السيوطي، وأبو البقاء: هي جمع عليا ككبرى وكبر، فكتبت بالياء ﴿ٱلثَّرَىٰ﴾ في «المصباح» الثرى وزان الحصى، ندى الأرض وأثرت الأرض بالألف كثر ثراها، والثرى: أيضاً التراب الندي، فإن لم يكن ندياً فهو تراب، ولا يقال له حينئذٍ: ثرى .اهـ.

وفي «اللسان»: وثرى المطر التراب يثريه، وهو مثرى، وثري التراب: فهو ثر، وثريت التراب: نديته، وثريت السويق: كذلك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ قال ابن عباس: السر: ما حدث به الإنسان غيره في خفاء، وأخفى منه ما أضمره في نفسه، مما لم يحدث به غيره ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مؤنث الأحسن، فهي اسم تفضيل يوصف به الواحد من المؤنث، والجمع من المذكر .اهـ «أبو السعود» وفي «السمين»: والحسنى تأنيث الأحسن، وقد تقدم غير مرة أن جمع التكسير في غير العقلاء، يعامل معاملة المؤنثة الواحدة.

﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع، أو الوحي في يقظته أو في منامه ﴿لِأَهْلِهِ﴾؛ أي: لامرأته، وهي بنت شعيب، واسمها صفوراء، وقيل: صفورياء، وقيل: صفورة، واسم أختها ليل، وقيل شرفا، وقيل عبدا ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ المكث: الإقامة ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾؛ أي: أبصرت إبصاراً بيناً، لا شبهة فيه .اهـ «أبو السعود» والإيناس: الإبصار البين، ومنه إنسان العين، لأنه يبصر به الأشياء، والإنس لظهورهم، كما قيل: الجن لاستتارهم، وقيل: هو الوجدان، وقيل: الإحساس، فهو أعم من الإبصار اهـ «سمين» ﴿بِقَبَسٍ﴾: عبارة «السمين»: القبس: الجذوة من النار، وهي الشعلة في رأس عود، أو قصبة ونحوهما، وهو فَعَل بمعنى مفعول، كالقبض والنفض، بمعنى المقبوض والمنفوض، ويقال: أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً، ففرقوا بينهما، هذا قول المبرد، وقال الكسائي: إن فعل وأفعل يقالان في المعنيين، فيقال: قبسته ناراً وعلماً، وأقبسته أيضاً ناراً وعلماً ﴿عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾؛ أي: هادياً يدلني على الطريق، فهو: مصدر بمعنى اسم الفاعل.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ قال في «القاموس»: الوادي: مفرج بين جبال أو تلال أو آكام ﴿طُوًى﴾: اسم علم للوادي، ويقرأ بغير تنوين، على أنه معرفة: علم مؤنث للبقعة، وقيل: هو معدول، وإن لم يعرف لفظ المعدول عنه، فكأنه أصله: طاوي، فهو في ذلك كجمع وكتع، وقال في «القاموس»، وطوى: بالضم والكسر وينون: واد بالشام، وقال علماء النحو: وأما طوى فمن منع صرفه، فالمعتبر فيه التأنيث، باعتبار البقعة لا العدل عن طاو، لأنه؛ أي: العدل قد أمكن غيره، وهو: التأنيث فلا وجه لتكلف العدل ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ وفي «المختار»: ردى من باب صدي؛ أي: هلك وأرداه غيره، وردي في البئر. يردي بالكسر: من باب رمىٰ، وتردى: إذا سقط فيها، أو تهور من جبل .اهـ.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: أعتمد عليها في المشي، وحين الوقوف على رأس القطيع في المرعى، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ يقال: هش الورق يهشه ويهشه: خبطه بعصا ليتحات؛ أي: ضربه ضرباً شديداً ليسقط، والمعنى: أخبط بها الورق على رأس غنمي لتأكله، وفي «المصباح»: هش الرجل هشاً: من باب رد صال

بعصاه، وفي التنزيل ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ وهش الشجرة هشاً أيضاً: ضربها ليتساقط ورقها، وهش الشيء يَهَش، من باب تعب هشاشةً: إذا لان واسترخى، فهو هش، وهش العود يهش أيضاً هشوشاً: صار هشاً؛ أي: سريع الكسر، وهش الرجل هشاشةً: إذا تبسم وارتاح، من بابي تعب وضرب اهـ.

﴿مَـَٔارِبُ﴾: جمع مأربة، مثلثة الراء، وهي الحاجة ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: الحية تطلق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى من هذا النوع، والثعبان: العظيم من الحياة، والجان: الصغير منها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: حالتها الأولى، وهي كونها عصا، يقال لكل من كان على أمر فتركه، وتحول عنه ثم راجعه، عاد فلان سيرته الأولى ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾: اسم تفضيل مؤنث الأكبر؛ أي: التي هي أكبر من غيرها، حتى من العصا، وذلك لأن المراد الكبرىٰ في الإعجاز، واليد كذلك، فإنها أكبر آيات موسى، كما نقله الخازن عن ابن عباس.

﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ والوزير: قيل: مشتق من الوزر وهو: الثقل، وسمي بذلك لأنه يتحمل أعباء الملك ومؤنه، فهو معين على أمر الملك، وقائم بأمره، وقيل: بل هو من الوزر، وهو: الملجأ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ وقيل: من الموازرة وهي: المعاونة، نقله الزمخشري عن الأصمعي، قال: وكان القياس أزيراً يعني: بالهمزة، لأن المادة كذلك اهـ «سمين» وفي «القاموس»: الأزر: الإحاطة والقوة، والضعف: ضد التقوية والظهر .اهـ يقال: آزره إذا قواه وأعانه. ﴿سُؤْلَكَ﴾؛ أي: مسؤولك، ففُعل بمعنى المفعول، كالخبز والأكل، بمعنى المخبوز والمأكول. ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ أي: في وقت ذي مر وذهاب؛ أي: وقتاً غير هذا الوقت، فإن أخرى: تأنيث آخر، بمعنى غير، والمرة في الأصل: اسم للمر الواحد، الذي هو مصدر. مر يمر مراً ومروراً؛ أي: ذهب، ثم أطلق على فعلة واحدة من الفعلات، متعديةً كانت أو لازمة، ثم شاع في كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متحدة، فصار علماً في ذلك، حتى جُعِل معياراً لما في معناه من سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرة، ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة، والمراد به هٰهنا: الوقت الممتد، الذي وقع فيه ما سيأتي ذكره، من المنن العظيمة الكثيرة .اهـ «روح البيان» ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ والساحل: فاعل بمعنى مفعول، من

السحل، لأنه يسحل الماء؛ أي: يقشره ويسلخه، وينزع عنه ما هو بمنزلة القشر على ظاهره، يقال: قشرت العود نزعت عنه قشره. ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾؛ أي: اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، من الاصطناع، وهو: افتعال من الصنع بالضم، وهو مصدر قولك: صنع إليه معروفاً كما مر، وعن القفال: اصطنعتك أصله من قولهم: اصطنع فلان فلاناً، إذا أحسن إليه، حتى يضاف إليه، فيقال: هذا صنع فلان، كما يقال: هذا جريح فلان، وفي «القاموس» ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾: إخترتك لخاصة أمرٍ أستكفيكه. انتهى.

﴿فُتُونٗا﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أنه مصدر على فعول كالقعود والجلوس، إلا أن فعولاً قليل في المتعدي، ومنه الشكور والكفور والثبور واللزوم، قال تعالى: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

والثاني: أنه جمع فتن أو فتنة، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث، كحجوز وبدور، في حجزة وبدرة؛ أي: فتناك ضروباً من الفتن .اهـ «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشويق والحث على الإصغاء في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾.

ومنها: فن الإبهام في قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ وهو فن رفيع ينطوي على الكثير من جلائل المعاني ودقائقها، وهو ضد الإيجاز، وضد الإطناب، وحدُّه، أن يأتي المتكلم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل، فيدل عليه باللفظ الكثير، لا لقصد إفهام البليد، وسماع البعيد، ولا للتقرير والتوكيد، بل للإتيان بمعنى يتشعب إلى عدة أمور، كل واحد منها مستقل المفهومية، فقد قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ ولم يبت في الأمر،

لئلا يعد ما ليس بمستيقن من الوفاء به، وما أجملها حكمةً تكون درساً، لمن يكيلون الوعود جزافاً ولا يفكرون في الوفاء بها.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿هُدًى﴾ حيث أطلق المصدر، وأراد اسم الفاعل؛ أي: هادياً.

ومنها: التهويل والتعظيم في قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾.

ومنها: التأكيد بدلالة إنّ، واسمية الجملة فقط في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ هنا وفي سورة الحج بحذف لام التأكيد، وأثبتها في سورة غافر حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لأنها إنما تزاد لتأكيد الخبر، وتأكيده: إنما يحتاج إليه إذا كان المخبر به شاكاً في الخبر، والمخاطبون في غافرهم: الكفار، فأكدها باللام بخلاف تينك.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ وكان يكفي أن يقول: هي عصاي، ولكنه توسع في الجواب تلذذاً بالخطاب.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ بعد التفصيل.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أصل الجناح: للطائر، ثم استُعير لجنب الإنسان، لأن كل جنب للإنسان في موضع الجناح للطائر، فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة.

ومنها: الاحتراس في قوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وهو عند علماء البيان: أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد، وذلك أن البياض قد يراد به البرص والبهق، فلو اقتصر على قوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق، ولذلك احترس بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ فالعين هنا: بمعنى الرعاية، مجازاً مرسلاً، من إطلاق السبب وهو العين؛ أي: نظرها على المسبب، وهو الحفظ والرعاية، وفيه أيضاً الاستعارة التمثيلية: شبه شدة الرعاية

وفرط الحفظ والكلأة، بمن يصنع بمرأى من الناظر، لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه، فمثل لذلك بمن يصنع على عين الآخر.

ومنها: زيادة ﴿لِي﴾ في قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ لإفادة أن منفعة شرح الصدر، وتيسير الأمر، راجعة إليه، وعائدة عليه، فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره ـ تعالى وتقدس ـ.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ دلالةً على أنه لم يسأله حل جميع عقد لسانه، بل حل بعضها الذي يمنع الإفهام، بدليل قوله: ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

ومنها: التفسير بعد الإبهام في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ فأبهم الكلام وأتى به مجملاً، ليتعلق الذهن، ويتطلع ما عسى أن يكون السؤل، وما هي المنة الأخرى.

ومنها: الإبهام المجرد في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ حيث أسند الإلقاء إلى اليم، وهو لا يعقل، من إسناد الشيء إلى السبب.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ للتفخيم والتعظيم.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ حيث عبر في الفعلين بالمضارع، والأصل: إذ مشت أختك فقالت.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، حيث استعير القر بمعنى البرد، للسرور.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا
لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا
تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ
عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ
هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى
(٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا
مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا
لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا
نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ
فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم
بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ
ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ
(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً
مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ
سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد[1] المنن الثمانية بإزاء ما طلبه موسى من المطالب

---

(١) المراغي.

الثمان.. شرع يذكر الأوامر والنواهي التي طلب إليه أن يقوم بتنفيذها وأداءها على النهج الذي أمره به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر سؤال فرعون عن رب موسى.. قفى على ذلك ببيان أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله، كقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ والدالة على نبوته، كإلقاء العصا وصيرورتها ثعباناً، ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء، فعلم كل هذا، وكذب به كفراً وعناداً، كما قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما ذكر أن موسى وفرعون، اتفقا على موعد يجتمعان فيه، وهو يوم عيد لهم.. أردف ذلك بذكر ما دبره فرعون بعد انصرافه عن المجلس، من أمر السحرة، وآلات السحر، وأتى بجميع ذلك، ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لا قبل لهم به إن أقدموا على ما هم عازمون عليه، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى، تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون، بالغوا في إخفاء ما يريدون، وقالوا: ما موسى وهارون إلا ساحران، يريدان أن يغلباكم ويخرجاكم من دياركم، ويرجوان أن تتركوا دينكم، وهو أمثل الأديان وأفضلها، لتعتنقوا دينهما، فحذار أن تفعلوا ذلك، ولا يتخلفن أحد منكم، وائتوا صفاً واحداً، وقد فاز بالمطلوب من غلب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الموعد، وهو يوم الزينة، وذكر أنهم قالوا: ائتوا صفاً.. ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء ما معه، وأن يبدؤوا هم، فاختار الثانية، وحين بدؤوا فألقوا حبالهم

---

(١) المراغي.

وعصيهم، خاف موسى عاقبة أمره، فأوحى إليه ربه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ فسيكون لك الفلج والظفر عليهم، وقد تحقق ما وعد الله به، وكتب له النصر، وآمن به السحرة، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ﴾ يا موسى، وهذا كلام[١] مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الإصطناع ﴿و﴾ ليذهب ﴿أخوك﴾ هارون حسبما[٢] استدعيت، عطف عليه لأنه كان غائباً عن موسى وقتئذٍ، والذهاب: المضي، يقال: ذهب بالشيء وأذهبه، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾.

والأخوة: المشاركة في الولادة من الطرفين أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويُستعار الأخ لكل مشارك لغيره في القبلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودة، أو في غير ذلك من المناسبات؛ أي: اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل، حالة كونكما متلبسين ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾؛ أي: بمعجزاتي[٣]، متمسكين بها في إجراء أحكام الرسالة، وإكمال أمر الدعوة، لا مجرد إذهابهما وإيصالهما إليه، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد الآيات التسع التي أنزلت إليه، وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقباً بعده، ويحتمل أن يكون الجمع للتعظيم، والمراد: العصا واليد، ففي كل منهما آيات شتى، فانقلاب العصا حيواناً آية، وكونها ثعباناً عظيماً آية أخرى، وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرىٰ، ثم أخرى، ثم إنه ـ عليه السلام ـ يدخل يده في فيه فلا يضره آية أخرى، ثم انقلابه عصا آية أخرى، وكذلك اليد فإن بياضها آية، وشعاعها آية أخرى، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى، أو لأن أقل الجمع عند الخليل إثنان، يعني: أن إطلاق الآيات على الآيتين وارد على الأدنى

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾؛ أي: لا تضعفا، ولا تفترا، ولا تقصرا ﴿فِي ذِكْرِي﴾؛ أي: في مداومة ذكري لساناً وجَناناً، فإنه آلة لتحصيل كل المقاصد، فإن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحدٍ إلا بذكري، فالفتور في الأمور بسبب الفتور في ذكر الله، وهو تذكير بقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قال بعضهم: الحكمة في هذا التكليف: أن من ذكر جلال الله تعالى وعظمته.. استخف غيره، فلا يخاف أحداً غيره، فتقوى روحه بذلك الذكر، فلا يضعف في مقصوده. أو المعنى: فلا تنيا ولا تضعفا عن تبليغ رسالتي، فإن الذكر يطلق على كل عبادة، والتبليغ من أعظم العبادات.

والمعنى: أي[1] اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل، وإني ممدكما بحججي وبرهاناتي الدالة على صدق نبوتكما، ومظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح العلل والمعاذير به، ولا تفترا في دعوتهم، وتبليغ الرسالة إليهم، فبينا لهم أن الله أرسلكما إليهم، مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه.

وقرأ ابن وثاب[2]: ﴿ولا تنيا﴾: بكسر التاء اتباعاً لحركة النون، وفي مصحف عبد الله ﴿ولا تهنا﴾؛ أي: ولا تلنا، في قولهم: هين لين ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هذا أمر وخطاب لهما جميعاً بالذهاب، موسى حاضر وهارون غائب، إما بطريق التغليب لموسى لأنه الأصل في أداء الرسالة، أو بعد ملاقاة أحدهما الآخر، وتكرير الأمر بالذهاب[3]: لترتيب ما بعده عليه، وفرعون: اسم أعجمي، لقب الوليد بن مصعب صاحب موسى، وقد اعتبر غوايته، فقيل: تفرعن فلان، إذا تعاطى فعل فرعون، وتخلق بخلقه، كما يقال: أبلس وتَبَلَّس، ومنه قيل للطغاة الفراعنة والأبالسة، وعلل الأمر بالذهاب بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن فرعون ﴿طَغَىٰ﴾؛ أي: تجاوز حد العبودية بدعوى الربوبية؛ أي: جاوز الحد في الكفر والتمرد.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

وخص[1] موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير، وقيل: إن في هذا دليلاً على أنه لا يكفي ذهاب أحدهما، وقيل: الأول: أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون.

والمعنى[2]: أي اذهبا معاً إلى فرعون، وناضلاه الحجة بالحجة، وقارعاه البرهان بالبرهان، لأنه طغى وتجبر وتمرد، حتى ادعى الربوبية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وتخصيص فرعون بالدعوة آخراً، بعد أن كانت الدعوة عامة أولاً، من قبل أنه إذا صادفت الدعوة من فرعون أذناً صاغيةً، واستجاب لدعوتهما، وآمن بهما.. تبعه المصريون قاطبةً، كما قيل: الناس على دين ملوكهم.

قال في «العرائس»: أمر الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالذهاب إلى فرعون، لقطع حجته، وإظهار كذبه في دعواه، وهذا تهديد لكل مدع لا يكون معه بينة من الله في دعواه، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء: ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله، ومن يعجز عن هداية غيره.. فأيضاً يعجز عن هداية نفسه، كالطبيب العاجز عن معالجة الغير، فإنه عاجز عن معالجة نفسه أيضاً، وليعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب، ويشكروا بما أنعم الله عليهم بلطفه، وربما يصطادون من بين الكفرة من يكون له استعداد بنظر الغيب، مثل: حبيب النجار، والرجل من آل فرعون، وامرأة فرعون، والسحرة. انتهى.

ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له، لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادىء بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر فقال: ﴿فَقُولَا﴾ أنتما، يا موسى وهارون ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لفرعون ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ أي: سهلاً؛ أي[3]: كلماه باللين والرفق، من غير خشونة ولا تعنيف، ويسرا، ولا تعسرا، فإنه ما دخل الرفق في شيء إلا وقد زانه، وما دخل الخرق في شيء إلا وقد

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

شانه، وكان في موسى حدة وصلابة وخشونة، بحيث إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً، فعالج حدته وخشونته باللين ليكون حليماً، وهو معنى قول من قال: طبع الحبيب كان على اللين والرحمة، فلذا أمر بالغلظة كما قال تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ تحققاً بكمال الجلال، وطبع الكليم على الشدة والحدة والصلابة، فلذا أمر بالقول اللين، تحققاً بكمال الجمال.

وقيل[1]: أمر الله موسى باللين مع الكافر، مراعاةً لحق التربية، لأنه كان رباه، فنبه به على نهاية تعظيم حق الوالدين، وقيل: أمر موسى باللين ليكون حجة على فرعون، لئلا يقول: أغلظ علي القول في دعوته، وفي «الإحياء»: سئل الحسن عن الولد، كيف يحتسب على والده؟ فقال: يعظه ما لم يغضب، فإذا غضب سكت. فعلم منه أنه ليس للولد الحسبة على الوالد بالتعنيف والضرب، وليس كذلك التلميذ مع الأستاذ، إذ لا حرمة لعالم غير عامل، وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ هذه الآية، فبكىٰ وقال: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، فكيف بمن يقول أنت الإله.

والمعنى: أي فكلماه بكلام رقيق لين، ليكون أوقع في نفسه، وأنجع في استجابته للدعوة، فبرقيق القول تلين قلوب العصاة، وتنكسر سورة الطغاة، ومن ثم جاء الأمر به لنبيه محمد ﷺ في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ ومن هذا ما حكى عن موسى في قوله لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

ثم علل الأمر بإلانة القول بقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: لعل فرعون يتذكر بما بلَّغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغَّبتُماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقابي، وكلمة ﴿أَوْ﴾ لمنع الخلو دون الجمع. انتهى من «الإرشاد»؛ أي: باشرا[2] مباشرة من يرجو ويطمع تذكره أو خشيته، فالرجاء والطمع راجع إليهما؛ أي: قولا له ذلك راجين

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

أن يترك الإصرار على إنكار الحق وتكذيبه، وإما بأن يتذكر ويتعظ ويقبل الحق قلباً وقالباً، أو بأن يتوهم أنه حق فيخشى بذلك، من أن يصر على الإنكار، ويبقى متردداً ومتوقفاً بين الأمرين، وذلك خير بالنسبة إلى الإنكار والإصرار عليه، لأنه من أسباب القول، ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم ينفعاه، وذلك حين ألجمه الغرق، ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقيل[1]: ﴿لعل﴾ ها هنا بمعنى الاستفهام، والمعنى: فانظرا هل يتذكر أو يخشى، وقيل: بمعنى كي، والتذكر: النظر فيما بلَّغاه من الذكر، وهو إمعان الفكر فيه، حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية: هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما.

والظاهر: أن ﴿لعل﴾ في مثل هذا لتوقع حصول ما بعدها؛ أي: أديا[2] الرسالة، وقوما بتنفيذ ما دعوتكما إليه، واسعيا إلى إنجازه، سعي من يرجو ويطمع أن يثمر عمله، ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد قدر استطاعته، ويحتشد بأقصى وسعه، آملاً أن تكلل أعماله بالنجاح والفوز والفلاح.

وقصارى ذلك: اصدعا بالأمر وأنتما طامعان أن أعمالكما ستثمر، وأنكما ستهديانه إلى سواء السبيل، وقد جرت العادة أن من رجا شيئاً.. طلبه، ومن يئس.. انقطع عمل، والمقصد من ذلك إلزامه الحجة، وقطع المعذرة، وإن لم يفد هدايته.

﴿قَالَا﴾؛ أي: قال موسى وهارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: أن يعجل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى تمام الدعوة، وإظهار المعجزة، فيتعطل المطلوب من الإرسال إليه ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؛ أي: أن يزداد طغياناً، فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لعظيم جرأته، وقساوة قلبه، وفجوره، وشديد عصيانه، ولما كان طغيانه في حق الله أعظم من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

إفراطه في حقهما.. ختم الكلام به.

فالخوف[1]: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف من المعاصي واختيار الطاعات، فإن قلت: كيف هذا الخوف وقد علما أنهما رسولا رب العزة إليه؟ قلت: جريا على الخوف الذي هو مركوز في جبلة الإنسان، حتى أنه لو بلغ مرتبة النبوة والرسالة، فإنه لا يخرج الخوف من جبلته، كما قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾؛ يعني نخاف أن يقتلنا، ولكن الخوف ليس بجهة القتل، وإنما نخاف فوات عبوديتك بالقيام لأداء الرسالة والتبليغ كما أمرتنا، أو يتمرد بجهله ولا ينقاد لأوامرك، ويسبك.

وقرأ يحيى، وأبو نوفل، وابن محيصن في روايته[2]: ﴿أن يفرط﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: يسبق في العقوبة، ويسرع بها، من فرط إذا تقدم بالقصد، ومنه الفارط إلى الماء؛ أي: المتقدم لإصلاح الدلو، ويجوز أن يكون من الإفراط ومجاوزة الحد في العقوبة، خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعذاب، من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية، أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط المتمردين. وقرأت فرقة، والزعفراني عن ابن محيصن: ﴿يفرط﴾ بضم الياء وكسر الراء، من الإفراط في الأذية.

﴿قَالَ﴾: استئناف[3] بياني، كأنه قيل: فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل: قال الله سبحانه لهما ﴿لَا تَخَافَآ﴾ مما عرض في قلبكما من إذاية فرعون لكما، ومن ازدياد كفره، قال بعضهم: ليس المراد منه النهي عن الخوف،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

لأنه من حيث كونه أمراً طبيعياً لا مدخل للاختيار فيه، لا يدخل تحت التكليف ثبوتاً وانتفاءً، بل المراد به التسلي بوعد الحفظ والنصرة، كما يدل عليه قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بكمال الحفظ والنصرة، فإن الله تعالى منزه عن المعية المكانية ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ أي: ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل في كل حال ما يليق بها، من دفع ضرر وشر، وجلب نفع وخير، فمن كان الله معه.. يحفظه من كل جبار عنيد؛ أي[1]: إنني معينكما وعالم بما يليق من حالكما معه، أسمع كلامه معكما، فأسخره للاستماع منكما، وأرى أفعاله، فلا أتركه يفعل بكما ما تكرهانه.

والخلاصة: لست بغافل عنكما، وإني سأفعل ما يؤدي إلى حفظكما، ونصركما عليه، فلا تهتما بأمره، ﴿فَأْتِيَاهُ﴾؛ أي: فقابلا فرعون ﴿فَقُولَا﴾ له ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قد أرسلنا إليك، فالإتيان هنا: عبارة عن الوصول إليه، بعد أمرهما بالذهاب إليه، فلا تكرار، وفي التعبير بقولهما: ﴿رَبِّكَ﴾: إيماء[2] إلى أن ما ادعيته من الربوبية لنفسك، مما لا ينبغي أن يلتفت إليه، ولا أن يُنظر إليه نظرة الاعتبار والصدق: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ﴾؛ أي: أطلق معنا ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: من الأسر، نذهب بهم إلى أرضهم؛ أي: فأطلقهم وخلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهم، وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين المهملة: هي البلاد التي بين الشام وأرض مصر، منها الرملة، وغزة، وعسقلان، وغيرها طهرها الله من دنس اليهود الغاصبين ورجسهم .اهـ «بحر العلوم».

وفي ذلك إدخال النقص على ملكه، لأنه كان محتاجاً إليهم فيما يريده من الأعمال، من بناء أو غيره ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتسخيرهم إياهم في شاق الأعمال، كالحفر والبناء، ونقل الأحجار، وقد كان المصريون يستخدمونهم هم ونساؤهم في تلك الأعمال، ويذبحون أبناءهم عاماً دون عام، ويستحيون نساءهم بأمر فرعون، وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة هذا الطاغية وقومه إلى الإيمان، لأنه

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

أخف وأسهل من ذلك، لما فيه من تبديل الاعتقاد، وهو عسر شاق على النفس، وقال في «الإرشاد»: والمراد بالإرسال: إطلاقهم من الأسر والقسر، وإخراجهم من تحت اليد العادية، لا تكليفه أن يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبىء عنه قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ أي: بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط، يستخدمونهم في الأعمال الصعبة القادحة، من الحفر، ونقل الأحجار، وغيرهما من الأمور الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، عاماً دون عام، ويستخدومونهم، كما مر آنفاً.

وتوسيط[(١)] حكم الإرسال بين بيان رسالتهما، وبين ذكر المجيء بآيةٍ دالة على صحتها، لإظهار الاعتناء به، لأن تخليص المؤمنين من أيدي الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، كما قيل، ثم ذكرا ما يوجب امتثال أمرهما، ويؤكد دعوى رسالتهما بقولهما: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ﴾ وأتيناك ﴿بِآيَةٍ﴾؛ أي: بمعجزةٍ باهرةٍ كائنةٍ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وخالقك يا فرعون؛ أي: قد[(٢)] جئناك بالحجة البالغة، والبرهان الساطع، على أنه أرسلنا إليك، وإن لم تصدقنا فيما نقول.. أريناكها ﴿وَالسَّلَامُ﴾؛ أي: والسلامة والأمن من العذاب، في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: على من اتبع رسل ربه، واهتدى بآياته التي ترشد إلى الحق، وتنيل البغية وتبعد عن الغي والضلال، قال الزجاج؛ أي: من اتبع الهدى.. سلم من سخط الله وعذابه، وليس بتحية، والدليل على ذلك: أنه ليس بابتداء لقاءٍ ولا خطاب .اهـ.

وهذا[(٣)] من جملة قوله تعالى، الذي أمرهما أن يقولاه لفرعون؛ أي: وقولا له: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ وفي هذا ترغيب في التصديق على أتم وجوهه، وتنفير من مخالفته، وصد عنها على أقصى غاية، كما لا يخفى، ثم ذكرا علة لما سبق لهما من النصح والإرشاد بقولهما ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾؛ أي: إنا قد أخبرنا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

الله فيما أوحاه إلينا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: أن عذابه الذي لا نفاد له، ولا انقطاع في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بما ندعوا إليه من توحيده وطاعته، وإجابة رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: وأدبر معرضاً عما جئناه به من الحق.

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

وأصل الوحي[1]: الإشارة السريعة، وذلك قد يكون بالكلام الخفي على لسان جبريل، وقد يكون بالإلهام، والمنام، والوحي إلى موسى بوساطة جبريل، وإلى هارون بوساطته ووساطة موسى، والمراد[2] بالعذاب: الهلاك والدمار في الدنيا، والخلود في النار، والمراد بالتكذيب: التكذيب بآيات الله وبرسله، والتولي: الإعراض عن قبولها والإيمان بها.

فإن قلت: إن قوله: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يقتضي قصر العذاب على المكذبين، مع أن غيرهم قد يعذبون على عصيانهم.

قلتُ: إن المراد بالعذاب هنا: العذاب الدائم، الذي لا ينقطع، لأن العذاب المتناهي كلا عذاب ﴿قَالَ﴾ فرعون، بعدما أتياه وبلغا ما أمرا به: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: فمن إلٰهكما الذي أرسلكما، لم يقل فمن ربي مع قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ لغاية عتوه، ونهاية طغيانه، و(الفاء) في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كنتما رسولي ربكما.. فأخبرا من ربكما الذي أرسلكما إليَّ، و﴿من﴾: للاستفهام التعجبي.

قال الإمام: أثبت نفسه رباً في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فذكر ذلك على سبيل التعجب، كأنه قال: أنا ربك، فلم تدعو رباً آخر يا موسى، وإنما خص موسى بالنداء، مع توجيه الخطاب إليهما، لما ظهر له أنه هو الأصل، وهارون وزيره، فأجاب موسى عن سؤاله.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً لفرعون ﴿رَبُّنَا﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ من محض فضله ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ من المخلوقات ﴿خَلۡقَهُۥ﴾؛ أي: صورته[1] وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، فأعطى العين الشكل الذي يطابق ما يراد بها من الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وهكذا الأنف، واليد، والرجل، وجميع أعضاء الجسم، شكل كل منها مطابق للمنفعة المنوطة بها، ومن هذا يفهم: أن ضمير الجمع في ﴿رَبُّنَا﴾ عام لموسى وهارون وغيرهم، ولم[2] يقل ربنا الله، بل وصفه بأفعاله، ليستدل بالفعل على الفاعل، أو المعنى: أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به، وقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه، وقيل: المعنى: أعطى كل شيء من أعضاء الجسم خلقه؛ منفعته التي خلق لأجله، فخلق اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، وقيل: المعنى: أعطى كل حيوان خلقه؛ أي: نظيره وشكله، زوجاً، فجعل زوجة الرجل المرأة، والبعير الناقة، والفرس الرمكة، وهي الحجرة، والحمار الأتان، وقيل: المعنى: أعطى كل ما خلق خلقته، وصورته الخاصة به على ما يناسبه من الإتقان، لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً، وقال الشاعر:

وَلَهُ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ خِلْقَةٌ   وَكَذٰلِكَ ٱللَّهُ مَا شَاءَ فَعَلْ

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه، وقرأ[3] عبد الله، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ وأبو نهيك، وابن أبي إسحاق، والأعمش، والحسن، ونصير عن الكسائي، وابن نوح عن قتيبة، وسلاَّم: ﴿خَلَقَه﴾ بفتح اللام، فعلاً ماضياً في موضع الصفة لكل شيء، أو لشيء، ومفعول ﴿أَعۡطَىٰ﴾ الثاني حذف اقتصاراً؛ أي: أعطى كل شيء خلقه عطاءه وإنعامه، وقَدَّره ابن عطية: كماله أو مصلحته.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ أي: ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه، ويرتفق به، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله، إما اختياراً كما في الحيوان، وإما طبعاً كما في النبات والجماد، أو ألهمه كيف يأتي الذكر والأنثى.

وخلاصة هذا[1]: ربنا الذي خلق كل شيء على الوجه الذي يليق بما قدر له من المنافع والخواص، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له، وجعل ذلك دليلاً على وجوده، وعظيم جوده، وكأنه يقول له: إن ذلك الخالق والهادي هو الله.

ولما كان[2] الخلق الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء، وتسوية الأجسام، متقدماً على الهداية، التي هي عبارة عن إيداع القوى المحركة المدركة في تلك الأجسام، وسَّط بينهما كلمة التراخي، وبعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى، الذين لم يعبدوا هذا الإلٰه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: فما حال القرون الماضية؟ وما خبر الأمم الخالية؟ مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ وما للاستفهام الاستخباري، والبال: الحال التي يُكترث بها، ولذا يقال: ما باليت بكذا؛ أي: ما اكترثت به، ويعبر به عن الحال الذي ينطوي عليه الإنسان، فيقال: ما خطر ببالي كذا، والقرون: القوم المقترنون في زمن واحد، والأولى: تأنيث الأول، وواحد الأول، كالكبرى والأكبر، والكبر؛ أي: فما حال الأمم الماضية، الذين لم يعبدوا الله، بل عبدوا غيره، فإنها كانت تعبد الأصنام، وتنكر البعث، إنما قال[3] فرعون ذلك لموسى حين خوَّفهم مصارع الأمم الخالية، فحينئذ قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أو ما حالهم عندك، كيف هلكوا، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ أي: فلما ذكر[4] موسى ـ عليه السلام ـ برهاناً نيراً على هذا المطلوب.. خاف فرعون أن يزيد موسى في تصوير تلك الحجة، فيظهر للناس صدقه ـ عليه السلام ـ وحقيقة مقالاته، ويتبين عندهم بطلان خرافات

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) المراح.

نفسه، فأراد فرعون أن يصرف موسى - عليه السلام - عن ذلك الكلام الذي يتعلق بالرسالة، إلى الحكايات، فعسى يظهر منه نوع غفلة، فيرتقي فرعون إلى أن يدعي قدام قومه نوع معرفة، فقال: ما حال القرون الخالية؟ لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا، ومن ثم أوجز في رده، ووكل أمر ذلك إلى ربه.

﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له، ﴿عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم أحوال تلك القرون كائن ﴿عِندَ رَبِّي﴾؛ أي: من[1] الغيوب التي لا يعلمها إلا الله، ولا ملابسة للعلم بأحوالهم بمنصب الرسالة، فلا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾؛ أي: مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾؛ أي: لا يخطىء ابتداءً، بل يعلم كل المعلومات، ولا يخفى عليه شيء منها ﴿وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: ولا يسهو عن شيء منها بقاءً ودواماً، بل هو ثابت عنده أبداً، وهو لبيان أن إثباته في اللوح المحفوظ، ليس لحاجته تعالى إليه في العلم به ابتداءً وبقاءً، وإنما كتب أحكام الكائنات في كتاب ليظهرها للملائكة، فيزيد استدلالهم بها على تنزه علمه تعالى عن السهو والغفلة.

والضلال: أن تخطىء الشيء في مكانه، فلم تهتد إليه، والنسيان: أن تغفل عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات، وقال[2] مجاهد: معنى الجملتين واحد، وهو إشارة إلى أنه لا يعرض في علمه ما يغيره، وقال ابن جرير: لا يخطىء في التدبير، فيعتقد في غير الصواب صواباً، وإذا عرفه لا ينساه.

ومعنى الآية: أي إن[3] ذلك من علوم الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، فهو الذي ضبط أعمالهم، وأحصاها في كتاب لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته شيء، لا كبير ولا صغير، ولا ينسى شيئاً، وسيجزيهم بما عملوا جزاءً وفاقاً.

وقصارى ذلك: أن علمه تعالى محيط بكل شيء، وأنه لا ينسى شيئاً - تبارك

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

وتعالى - فعلمه ليس كعلم المخلوقين، الذي يعتريه النقص من وجهين: عدم الإحاطة بالأشياء، ونسيانها بعد علمها.

وقرأ الحسن[1]، وقتادة، والجحدري، وحماد بن سلمة، وابن محيصن، وعيسى الثقفي: ﴿لا يضل﴾ بضم الياء؛ أي: لا يضل الله ذلك الكتاب، فيضيع، ولا ينسى ما أثبته فيه، وقرأ السلمي: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ مبنيتين للمفعول، والظاهر: أن الجملتين استئناف وإخبار عنه تعالى، بانتفاء هاتين الصفتين عنه، وإجمال سؤاله، أنه إذا كان الأمر كما ذكرت.. ففصل لنا حال الماضين من سعادةٍ وشقاءٍ، فرد - عليه السلام - عليه: بأن علم ذلك إلى الله تعالى، ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول، بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: ربي الذي لا يضل ولا ينسىٰ هو الذي جعل لكم الأرض كالمهاد والفراش، تتمهدونها وتستقرون عليها، فتقومون، وتنامون، وتسافرون على ظهرها، وقرأ[2] الأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مَهْدًا﴾ بفتح الميم وإسكان الهاء، وباقي السبعة: ﴿مهاداً﴾ وكذا في الزخرف، وقال المفضل: هما مصدران، يقال: مهد مهداً ومهاداً، وقال أبو عبيد: مهاداً: اسم، ومهداً: مصدر، ومعنى ذلك: أنه تعالى جعلها لهم، يتصرفون عليها في جميع أحوالهم ومنافعهم؛ أي: جعل كل موضع منها مهداً وفراشاً لكل واحد منكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: وهو الذي جعل لأجلكم لا لغيركم في الأرض سبلاً وطرقاً كثيرةً، بين الجبال والأودية والبراري، تمشون في مناكبها، وتسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يقال: سلكت الشيء في الشيء: أدخلته، والسبل[3]: جمع سبيل، وهو من الطرق ما هو معتاد السلوك.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿وَأَنزَلَ﴾ النزول: هو الانحطاط من علو، يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا: حط رحله فيه، وأنزل غيره ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من الفلك أو من السحاب، فإن كل ما علا سماء ﴿مَآءً﴾ وهو: جسم سيال، قد أحاط حول الأرض، والمراد، هنا: المطر، وهو الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض، ونكره قصداً إلى معنى البعضية؛ أي: أنزل من السماء بعض الماء. وهذا[1] تمام كلام موسى ـ عليه السلام ـ ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه، تتميماً لكلام موسى، لخطاب أهل مكة فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾؛ أي: مختلفةٍ في الطعم والرائحة والشكل والنفع، بعضها صالح للناس، وبعضها للبهائم، على اختلاف وجوه الصلاح، والأظهر: أن ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ صفتان لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾ وأخر شتى رعايةً للفواصل، وقيل: هذا من تمام كلام موسى ـ عليه السلام ـ وكأنه يقول: ربي الذي جعل لكم كذا وكذا، فأخرجنا نحن معشر عباده بذلك الماء بالحراثة ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ وقال صاحب «الكشاف»: إن كلام موسى ـ عليه السلام ـ تم عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثم ابتدأ كلام الله من قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ فهو خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ ويكون الانتقال من الغيبة إلى التكلم التفاتاً، للدلالة على كمال القدرة، والحكمة، وللإعلام بأن ذلك لا يتأتى إلا من قادر مطاع، عظيم الشأن.

وجملة قوله: ﴿كُلُوا۟﴾: حال من ضمير ﴿فأخرجنا﴾، على إرادة القول؛ أي: فأخرجنا به أصناف النباتات، قائلين لكم ﴿كُلُوا۟﴾ منها؛ أي: من الثمار والحبوب ونحوهما ﴿وَٱرْعَوْا۟﴾؛ أي: أسيموا واسرحوا فيها ﴿أَنْعَٰمَكُمْ﴾؛ أي: مواشيكم، الإبل، والبقر، والضأن، والمعز؛ أي[2]: اقصدوا الانتفاع بها بالذات وبالواسطة، آذنين في الانتفاع بها، مبيحين بأن تأكلوا بعضها، وتعلفوا بعضها.

قال في «التأويلات النجمية» يشير إلى أن السماء، والماء، والنبات،

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

والأنعام، كلها مخلوقة لكم، ولولا احتياجكم للتعيش بهذه الأشياء، بل بجميع المخلوقات، ما خلقتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الشؤون والأفعال الإلٰهية، من جعل الأرض مهداً، وسلك السبل فيها، وإنزال الماء، وإخراج أصناف النبات ﴿لَآيَٰتٍ﴾ كثيرةً جليلةً واضحة الدلالة على الصانع ووحدته، وعظيم قدرته، وباهر حكمته ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة، الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما تدعيه الطاغية، وتقبله من الفئة الباغية، وتخصيص أولي النهى مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها.

وحاصل معنى الآية: أي[1] وأنزل من السماء مطراً، فأخرج به مختلف أنواع النبات، من زروع، وثمار حامضة وحلوة، وهي أيضاً مختلفة النفع، واللون، والرائحة، والشكل، بعضها يصلح للإنسان، وبعضها يصلح للحيوان، وفي هذا بيان لنعمه على خلقه، بما يحدث لهم من الغيث، الذي يولد تلك المنافع ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ﴾؛ أي: فأخرجنا أصناف النبات، قائلين لكم: كلوا وارعوا أنعامكم.. الخ، فشيء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم قوتاً لها، أخضر ويابساً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما وصفت لكم من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه، لأدلة على وحدانيته، وأنه لا إلٰه غيره، إذا كنتم من ذوي العقول الراجحة، والأفكار الثاقبة. ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء.. بيَّن أنها غير مقصودة لذاتها، بل هي وسائل إلى منافع الآخرة، فقال: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بوساطة خلق أبيكم آدم منها، وإلا فمَن عدا آدم وحواء مخلوق من النطفة، وأصل الخلق: التقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاءٍ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ويُستعمل في إيجاد الشيء من الشيء، كما في هذا المقام، وقيل في سبب خلقهم من الأرض: أنه إذا وقعت النطفة في الرحم.. انطلق الملك الموكل بالرحم، فيأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه فيذره على النطفة، فيخلق الله الولد من النطفة، ومن ذلك التراب، وأيضاً إن تولد الإنسان، إنما هو من النطفة ودم الطمث، وهما يتولدان من

---

(١) المراغي.

الأغذية، وهي تنتهي إلى النبات، وهي إنما تحدث من امتزاج الماء والتراب.

والمعنى: أي ومن الأرض خلقنا النطفة المتولدة من الأغذية، التي تكونت منها بوسائط، إذ الغذاء إما حيواني، وإما نباتي، والحيواني: ينتهي إلى نباتي، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء التراب ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الأرض ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ بعد مماتكم، فتصيرون تراباً كما كنتم قبل نشأتكم، أو بالدفن[1] في الموضع الذي أُخذ ترابكم منه، وإيثار كلمة (في) دون (إلى): للدلالة على الاستقرار، والعود: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إما انصراف بالذات، أو بالقول والعزيمة، وإعادة الشيء كالحديث وغيره تكريره.

﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن الأرض ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ بعد مماتكم بالبعث والنشور، وتأليف أجزائكم المتفتّة، المختلطة بالتراب، على الهيئة السابقة قبل الموت، ورد أرواحكم إليها ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي: مرةً أخرى، وكون[2] هذا الإخراج ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ باعتبار أن خلقهم من الأرض: إخراج لهم منها، وإن لم يكن على نهج التارة الثانية، والتارة في الأصل: اسم للتور الواحد، وهو: الجريان، ثم أُطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة، كما مر في المَرَّة. ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد بصَّرنا فرعون وعرفناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ ودلائل قدرتنا، الدالة على وحدانيتنا، وعلى صدق موسى، على يدي موسى من العصا، واليد، وغيرهما، والمراد بالآيات: هي الآيات التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ على أن الإضافة فيه عهدية، وقيل[3]: المراد جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وأن موسى قد كان عرَّفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء، والأوَّل أولى ﴿كُلَّهَا﴾؛ أي: كل الآيات تأكيد لشمول الأنواع ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات كلها من فرط عناده، من غير تردد وتأخير، وزعم أنها سحر ﴿وَأَبَىٰ﴾ عن قبولها لعتوه، والإباء: شدة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد، لأنه رأى

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

الآيات وكذب بها، كما في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى خوفاً من أن يتبعه الناس: مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ والهمزة في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ للإنكار لما جاء به موسى من الآيات، والمجيء[1] إما على حقيقته، أو بمعنى الإقبال على الأمر، والتصدي له؛ أي: أجئتنا يا موسى من مكانك الذي كنت فيه بعدما غبت عنا، أو أقبلت علينا ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ معشر القبطيين ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾؛ أي: من أرض مصر بالغلبة والاستيلاء، ﴿بِـ﴾ـما أظهرته من ﴿سحرك يا موسى﴾ من العصا واليد، فإن ذلك مما لا يصدر عن العاقل، لكونه من باب محاولة المحال، والسحر: خداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذون، من صرف الأبصار عما تفعله بخفة، وما يفعله النمام بقول حرف عائق للأسماع.

وإنما ذكر[2] الملعونُ الإخراجَ من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع في أذهانهم، وتقرر في أفهامهم، أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم.. كانوا غير قابلين لكلامه، ولا ناظرين في معجزاته، ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير و(الفاء) في قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك.. فأقول لك، والله ﴿لنأتينك﴾ ﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: بسحر مثل سحرك، فلا تغلب علينا؛ أي: والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله الساحر ﴿فَٱجْعَلْ﴾؛ أي: صيِّر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ لإظهار السحر ﴿مَوْعِدًا﴾ هو مصدر؛ أي: وعداً لقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾؛ أي: لا نخلف ذلك الوعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ يا موسى، وقيل: المراد بالموعد[3]: اسم زمان، وقيل: اسم مكان؛ أي: اجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معلوماً، لا نخلفه، قال القشيري: والأظهر أنه مصدر، ولهذا قال: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ والإخلاف: أن تعد شيئاً

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

ولا تنجزه، وفوَّض تعيين الموعد إلى موسى، إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، طال الأمد أم قصر.

وانتصاب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل مقدر، يدل عليه المصدر لا به، فإنه موصوف، أو على أنه بدل من ﴿مَوْعِدًا﴾ و﴿سُوًى﴾ بضم السين وكسرها بمعنى: العدل والمساواة؛ أي: عدلنا مكاناً عدلاً بيننا وبينك، وسطاً يستوي طرفاه، من حيث المسافة علينا وعليكم، لا يكون فيه أحد الطرفين أرجح من الآخر، أو مكاناً مستوياً لا يحجب العين ارتفاعه ولا انخفاضه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة[1]: ﴿لا تخلفه﴾ بجزم الفاء، على أنه جواب الأمر، وقرأ الجمهور: برفعها صفةً لـ﴿مَوْعِدًا﴾ وقرأ ابن عامر، وحمزة، ويعقوب، والحسن، وقتادة، وطلحة، والأعمش، وابن أبي ليلى، وأبو حاتم، وابن جرير ﴿سُوًى﴾ بضم السين منوناً في الوصل، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: بكسر السين منوناً في الوصل، وقرأ الحسن أيضاً ﴿سوى﴾ بضم السين من غير تنوين في الحالين، أجرىٰ الوصل مجرى الوقف، لا أنه منعه الصرف، لأن: فُعَلاً من الصفات، منصرف كحطم ولبدٍ، وقرأ عيسى: ﴿سوى﴾ بكسر السين من غير تنوين في الحالين، أجرى الوصل أيضاً مجرى الوقف، وقرأ أبي[2] بن كعب، وأبو المتوكل، وابن أبي عبلة: ﴿مكاناً سواءً﴾ بالمد والهمزة والنصب والتنوين وفتح السين، وقرأ ابن مسعود: مثله إلا أنه كسر السين، قال أبو عبيدة: هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين، والمعنى: مكاناً تستوي مسافته على الفريقين، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر، قال[3] أبو علي: كأنه قال: قربه منكم، قربه منا، وقال الأخفش[4]: ﴿سوى﴾ مقصورة إن كسرت سينها، أو ضممت، وممدودة إن فتحتها، ثلاث لغات، ويكون فيها جميعاً بمعنى غير، وبمعنى: عدل ووسط بين الفريقين، وقال الشاعر:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

وَإِنَّ أَبَانَا كَانَ حَلَّ بِأَهْلِهِ سِوَىً   بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ غَيْلَانَ وَٱلْفَزْرْ

والفزر: سعد بن زيد مناة، قال: وتقول: مررت برجل سِواك وسَواك وسُواك؛ أي: غيرك، ويكون للجميع، وأعلى هذه اللغات الكسر، قاله النحاس.

ثم واعده موسى بوقت معلوم فـ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ﴾؛ أي: زمان وعدكم للاجتماع ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾؛ أي: يوم يتزين فيه الناس، وهو يوم عيد النيروز، وكان[1] على رأس سنتهم حين يفرغ الناس من أعمالهم، ويجتمعون لعيدهم، ليكون الحفل عاماً، ويتحدث الناس بذلك الأمر العجيب في القرى والأمصار، فتعلو كلمة الله، ويظهر دينه، ويزهق الباطل، وينتصر الحق على رؤوس الأشهاد، أما رفع اليوم: فقال البصريون: التقدير: وقت موعدكم ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ فناب الموعد عن الوقت، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إذا ظهر، وأما نصبه: فقال الزجاج: المعنى: موعدكم يقع ﴿يَوْمَ ٱلزِّينَةِ﴾ اهـ «زاد المسير».

وفي «أبي السعود» وكان يوم عاشوراء، واتفق أنه في هذه الواقعة يوم سبت، وإنما خصه ـ عليه السلام ـ بالتعيين لإظهار كمال قوته، وكونه على ثقةٍ من أمره، وعدم مبالاته بهم، لما أن ذلك اليوم وقت ظهور شوكتهم، وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل في يوم مشهور على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك فيما بين كل باد وحاضر .اهـ.

سألوا عن مكان الاجتماع[2]، فأجابهم بالزمان، فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم.

واعلم: أن الأعياد خمسة:

أحدها: عيد قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وفيه جعل إبراهيم الأصنام جذاذاً.

والثاني: عيد قوم فرعون، وهو يوم الزينة.

والثالث: عيد قوم عيسى، كما مر في أواخر المائدة.

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

والرابع والخامس: عيد أهل المدينة في الجاهلية، وذلك يومان في السنة، فأبدلها الله تعالى في الإسلام يومي: الفطر والأضحى، وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ في محله وجهان[1]:

أحدهما: الجر عطفاً على ﴿ٱلزِّينَةِ﴾؛ أي: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ﴿و﴾ يوم ﴿أن يحشر الناس﴾؛ أي: ويوم حشر الناس واجتماعهم.

الثاني: الرفع عطفاً على ﴿يَوْمُ﴾ والتقدير: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ﴿و﴾ موعدكم ﴿أن يحشر الناس﴾؛ أي: حشرهم .اهـ «سمين» والحشر: إخراج الجماعة عن مقارهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، ولا يقال إلا في الجماعة، وقوله: ﴿ضُحًى﴾؛ أي: ضُحى ذلك اليوم، نصب على الظرف؛ أي: وأن يُجمع الناس في وقت الضحى من ذلك اليوم، ليكون أبعد من الريبة، والضحى: عبارة عن ارتفاع الشمس، وفي «بحر العلوم»: الضحى: صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها، وقال الإمام الراغب: الضحى: انبساط النهار وامتداده، سمي الوقت به، وقال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضحى، وهو: حين تشرق الشمس .اهـ. وخص[2] الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع.

والمراد بالناس: أهل مصر، والمعنى: يحشرون إلى العيد وقت الضحى، وينظرون أمر موسى وفرعون، قال الفراء: المعنى: إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى.. فذلك الموعد، قال: وجرى عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم.

قال في «هزام السقط[3]»: أول اليوم الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الضحوة، ثم الهجيرة، ثم الظهيرة، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة عند

---

(١) الفتوحات.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

مغيب الشفق .اهـ.

وقرأ ابن مسعود[1]، والجحدري، وأبو عمران الجوني، وأبو نهيك، وعمرو بن فايد ﴿وأن تحشر الناس﴾ بتاء الخطاب؛ أي: وأن تحشر أنت يا فرعون، وروي عنهم: ﴿وأن يحشر الناس﴾ بالبناء للفاعل، والناس نصب في كلتا القراءتين، قال صاحب «اللوامح» وأن يحشر الحاشر الناس ضحىً، فحذف الفاعل للعلم به. انتهى. وحذف الفاعل في مثل هذا لا يجوز عند البصريين، وقال غيره: ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون، ذكره بلفظ الغيبة، وروي عن الجحدري أنه قرأ: ﴿وأن نحشر﴾ بالنون وقرأ الباقون بالتحتية، على البناء للمفعول.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾؛ أي: انصرف عن المجلس، وفارق موسى، فرجع إلى أهله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾؛ أي: مكره وسحره وحيله؛ أي: جمع ما يكاد به من السحرة وأدواتهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بهم الموعد، وأتى موسى أيضاً، والمراد[2]: أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: أربع مئة، وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعة عشر ألفاً، وقال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً، ثم أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه، وفي الإتيان بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للتراخي إيماء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد تأخير، وجملة قوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾: مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا صنع موسى عند إتيان فرعون مع السحرة؟ فقيل: قال لهم: بطريق النصيحة؛ أي: قال موسى للسحرة الذين جاؤوا مع فرعون، على طريق النصيحة لهم: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصله[3]: الدعاء بالهلاك، بمعنى: ألزمكم الله ويلاً؛ أي: هلاكاً وعذاباً، والمراد هنا: الزجر، والردع، والحث، والتحريض على ترك الافتراء.

والمعنى: أي فانصرف[4] فرعون عن مجلس اللجاج والمناظرة، وشرع

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

يُعد ما يكيد به من السحرة، وآلاتهم، وأنصاره، وأعوانه كثير ما هم، ثم أتى وأقبل إلى الموعد الذي عُيِّن، ومعه جمعه، وجلس على سرير ملكه، وحوله أكابر دولته، واصطفت الرعية يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة صفوفاً بين يدي فرعون، يحرضهم، ويستحثهم، ويرغبهم في جودة العمل، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، وقد جاء في سورة الشعراء ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَقَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال موسى للسحرة: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي[1]: لا تختلقوا على الله الكذب، ولا تتقوّلوه عليه، بأن تدَّعوا أن الآيات التي ستظهر على يدي سحر، كما فعل فرعون، أولا تشركوا مع الله أحداً، والافتراء: التقول والكذب عن عمد.

وفي «التأويل»: قال موسى للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بإتيان السحر في معرض المعجزة، ادعاءً بأن الله قد أعطانا مثل ما أعطى الأنبياء من المعجزة ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾؛ أي: فيهلككم ويستأصلكم، يقال: أسحت الشيء، إذا أعدمه واستأصله ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائل لا يقادر قدره؛ أي: بعذاب من عنده، لا يُبقي أحداً منكم ولا يذر.

وقرأ حمزة[2]، والكسائي، وحفص، والأعمش، وطلحة، وابن جرير: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ بضم الياء وكسر الحاء، ومن أسحت رباعياً، وهي لغة بني تميم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم، ورويس، وابن عباعي: ﴿فيسحتكم﴾ بفتح الياء والحاء، من سحت ثلاثياً، وهي لغة أهل الحجاز، يقال: سحت وأسحت، بمعنى، والسحت: الاستئصال.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾؛ أي: خسر وهلك ﴿مَنِ افْتَرَىٰ﴾ واختلق على الله الكذب، كائناً من كان، بأي وجه كان، ولم يُفلح في سعيه، ولم يصل إلى غرضه، فابتعدوا من اختلاق الأكاذيب، ولا تضلوا سواء السبيل، حتى لا يصيبكم ما

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط وزاد المسير.

أصاب المفترين ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ولما سمع السحرة كلام موسى.. هاجهم وغاظهم كلامه: ﴿فَتَنَازَعُوا﴾؛ أي: تناظروا وتشاوروا ﴿أَمْرَهُم﴾ وعملهم الذي أريد منهم، من مغالبة موسى ـ عليه السلام ـ وتجاذبوا أطراف الكلام في كيفية المعارضة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وتفاوضوا ماذا يفعلون ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؛ أي: أخفوا المحادثة والمشاورة في ذلك عن موسى وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ لئلا يقفا عليه فيدافعاه؛ أي: وبالغوا[1] في كتمان ما يقولون عن موسى وأخيه، حتى لا يسمعا ما يدور بينهم من القول والمشاورة، فيعدا للأمر عدته، ويهيئا وسائل الدفاع، ومن الطبعي في مثل هذه الأحوال أن يُخفي أحد المتخاصمين كل ما يدبره من وسائل الفوز والفلج عن خصمه الآخر، والنجوى: المناجاة، يكون اسماً ومصدراً، ثم بيَّن سبحانه خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور بقوله: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ وكانت[2] نجواهم هي قولهم: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وقيل: إنهم تناجوا فيما بينهم، فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحراً.. فسنغلبه، وإن كان من عند الله.. فسيكون له أمر، وقيل: الذي أسروه أنه: إذا غلبهم.. اتبعوه، قاله الفراء والزجاج.

وقيل: الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: قالوا ما هذا بقول ساحر، وإن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين إن النافية، والمشار إليه موسى وهارون؛ أي: قالت السحرة بطريق التناجي والإسرار فيما بينهم: إن هذان لساحران؛ أي: إن هذا الرجل وأخاه ساحران خبيران بصناعة السحر، وهما ﴿يُرِيدَانِ أَنْ﴾ يغلباكم وقومكم و﴿يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ودياركم؛ أي: من أرض مصر بالغلبة والاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه من قبل ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[3] المثلى: تأنيث الأمثل، وهو الأشرف؛ أي: ويذهبا بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأحسنها، بإظهار مذهبما، وإعلاء دينهما، يريدون ما كان عليه قوم فرعون، لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

﴿يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ لا طريقة السحر، لأنهم ما يعتقدونها ديناً، قال في «بحر العلوم»: سموا مذهبهم بها لزيادة سرورهم، وكمال فرحهم بذلك، وأنه الذي تطمئن به نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال الإمام الراغب: الطريق: السبيل الذي يطرق بالأرجل ويضرب .اهـ.

وقيل المعنى: ويذهبا بأشراف قومكم بميلهم إليهما لغلبتهما، وهم بنو إسرائيل، فإنهم ذوو مال وعلم، ذكره في «المراح».

وخلاصة ما قالوه[1]: التنفير بهما لوجوه ثلاثة:

١ ـ الطعن في نبوتهما، ونسبتهما إلى السحر، وكل ذي طبع سليم ينفر من السحر، ويبغض السحرة، ويعلم أن السحر لا بقاء له، ولا ينبغي اتباع من جاء به، ولا اعتناق مذهبه وطريقته.

٢ ـ إن بغيتهما إخراجكم من أرضكم، ومفارقة الوطن شديدة الوطأة على النفوس، ومن ثم قال فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾.

٣ ـ إنهما يريدان أن يستوليا على جميع المناصب والرياسات، ولا يبقيا شيئاً من شؤون الدولة، ويريدان التصرف في أمورها العامة.

وإجمال هذا: أنهما إذا تم لهما الأمر أخرجاكم من دياركم، وتمحضت لهما الرياسة دونكم.

وقرأ أبو جعفر[2]، والحسن، وشيبة، والأعمش، وطلحة، وحميد، وأيوب، وخلف في اختياره، وأبو عبيد، وأبو حاتم، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، وابن جبير الأنطاكي، والأخوان: حمزة، والكسائي والصاحبان: نافع، وابن عامر من السبعة: ﴿إنّ﴾ بتشديد النون ﴿هَـٰذَانِ﴾ بألف ونون خفيفةٍ ﴿لَسَـٰحِرَانِ﴾ واختُلف في تخريج هذه القراءة، فقال القدماء من النحاة: إنه على حذف ضمير الشأن، والتقدير: إنه هذان لساحران، وخبر ﴿إنّ﴾ الجملة من قوله:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ و(اللام) في ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾: داخلة على خبر المبتدأ، وضعف هذا القول: بأن حذف هذا الضمير لا يجيء إلا في الشعر، وبأن دخول اللام في الخبر شاذ، وقيل: إن ﴿إِنَّ﴾ بمعنىٰ نعم.

وقرأ أبو بحرية[1]، وأبو حيوة، والزهري، وابن محيصن، وحميد، وابن سعدان، وحفص، وابن كثير: ﴿إن﴾ بتخفيف النون ﴿هَٰذَٰنِ﴾ بالألف، وشدد ابن كثير نون ﴿هذان﴾ وتخريج هذه القراءة واضح، وهو: على أن ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، و﴿هَٰذَٰنِ﴾: مبتدأ و﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ الخبر و(اللام) للفرق بين إن النافية، وإن المخففة من الثقيلة، على رأي البصريين، والكوفيون يزعمون: أن إن نافية، واللام بمعنى إلا، وقرأت فرقة: ﴿إن ذان لساحران﴾ وتخريجها كتخريج القراءة التي قبلها، وقرأت عائشة، والحسن، والنخعي، والجحدري، والأعمش، وابن جبير، وابن عبيد، وأبو عمرو: ﴿إن هذين﴾ بتشديد نون ﴿إن﴾ وبالياء في ﴿هذين﴾ بدل الألف رفعاً، والياء نصباً وجرا، وقال الزجاج: لا أجيز قراءة أبي عمرو، لأنها خلاف المصحف، وقرأ عبد الله ﴿إن ذان إلا ساحران﴾ قاله ابن خالويه، وعزاها الزمخشري لأبيّ، وقال ابن مسعود: ﴿أنَّ هذان ساحران﴾ بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى. انتهى وقرأت فرقة ﴿ما هذان إلاّ ساحران﴾.

ثم بيَّن السحرة ما يجب لمقابلة هذا الخطر الداهم، والبلاء المقبل، فقالوا: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ و(الفاء) فيه فاء[2] الفصيحة، وأجمعوا من الإجماع، يقال: أجمع الأمر إذا أحكمه وعزم عليه، وحقيقته: جمع رأيه عليه، وأجمع المسلمون كذا: اجتمعت آراؤهم عليه، وأكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالتدبير والفكرة.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين، يريدان بكم ما ذُكر من الإخراج والإذهاب، فأزمعوا مكركم وحيلكم في رفع هذا المزاحم، واجعلوه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم، وأرموا عن قوس واحدة، ولا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفًّاۚ﴾؛ أي: مصطفين في الموعد ومجتمعين، ليكون أشد لهيبتكم، وأنظم لأمركم، فجاؤوا في سبعين صفاً، كل صف ألف، وألقوا ما في أيديهم دفعةً واحدةً، ليبهروا الأبصار، وتعظم هيبتهم في هذا المشهد الحافل، والصف: أن يجعل الشيء على خط مستوٍ، كالناس والأشجار ونحو ذلك، وقد يُجعل بمعنى الصاف.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ بقطع الهمزة وكسر الميم، من أجمع رباعياً؛ أي: اعزموا واجعلوه مجمعاً عليه، حتى لا تختلفوا، ولا يتخلف واحد منكم عن المسألة المجمع عليها، وقرأ الزهري، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب في روايةٍ، وأبو حاتم: بوصل الألف وفتح الميم موافقاً لقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ وتقدم الكلام في جمع وأجمع في سورة يونس، في قصة نوح ـ عليه السلام ـ.

وقرأ شبل بن عباد[2]، وابن كثير في رواية شبل عنه: ﴿ثم ايتوا﴾ بكسر الميم وإبدال الهمزة ياءً تخفيفاً، قال أبو علي: وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من ﴿ثُمَّ﴾ وقال صاحب «اللوامح» وذلك لالتقاء الساكنين، كما كانت الفتحة في العامة كذلك.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ﴾ وفاز وظفر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ بالمطلوب ﴿مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ أي: من غلب منا ونال علو المرتبة بين الناس، أما نحن فقد وُعدنا بالعطاء الجزيل، والقرب من الملك ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾ وأما هو فسينال الرياسة، وما مقصدهم من ذلك إلا تشديد العزائم، وحفز الهمم، ليبذلوا أقصى الجهد للفوز، والفلج بالمطلوب.

والفلاح[3]: الظفر وإدراك البغية، والاستعلاء: قد يكون طلب العلو

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

المذموم، وقد يكون طلب العلاء؛ أي: الرفعة، والآية تحتمل الأمرين.

وجملة قوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: السحرة بعد إجماعهم وإتيانهم الموعد، واصطفافهم فيه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ اختر: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما تلقيه من العصا أولاً، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾ نحن ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما يلقيه من العصي والحبال، مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا: يا موسى ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ...﴾ إلخ وكانت السحرة معهم عصي، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته.. قالوا له هذا القول. و﴿أَن﴾ مع ما في حيزها: في محل نصب بفعل مضمر، تقديره: اختر إلقاءك أولاً، أو إلقاءنا، أو في محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدإٍ محذوف، تقديره: الأمر إما إلقاؤك أو إلقاؤُنا.

وهذا التخيير منهم حسن أدب معه[1]، وتواضع منهم، وتنبيه إلى إعطائه النصفة من أنفسهم، وكأن الله ألهمهم ذلك، وعلَّم موسى أن من الخير له اختيار إلقائهم أولاً، لأنهم إذا أبرزوا ما معهم من مكايد السحر، واستنفذوا أقصى مجهودهم.. أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلَّط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آيةً نيرةً للناظرين، وعبرةً بينةً للمعتبرين، ومن ثم حكى عنه ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ وفي هذا التخيير إشارة إلى أن السحرة لما أعزوا موسى - عليه السلام - بالتقديم والتخيير في الإلقاء.. أعزهم الله بالإيمان الحقيقي، حتى رأوا بنور الإيمان معجزة موسى، فآمنوا به تحقيقاً لا تقليداً.

ثم إن موسى[2] - عليه السلام - قابل أدبهم بأدبٍ أحسن من أدبهم، حيث بت القول بإلقائهم أولاً، لأنه فهم أنَّ مرادهم الابتداء فـ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: لا ألقي أنا أولاً ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولاً إن كنتم محقين، لنرى ما تصنعون من السحر، ويظهر للناس حقيقة أمركم، وحين ألقوا ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وإنما أمرهم بالإلقاء أولاً لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم، ثم يلقي هو

(١) المراغي. (٢) المراح.

عصاه فتبتلع ذلك، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم، وجملة قوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى موسى ﴿مِن﴾ أجل ﴿سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾ حيات ﴿تَسْعَىٰ﴾؛ أي: تمشي قبلها، محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿إذا﴾ هذه للمفاجأة، وهي حرف أو ظرف، ثم اختلف أهو ظرف مكان أو زمان، وهي تطلب متعلقاً ينصبها من فعل المفاجأة، وجملةً ابتدائيةً تضاف إليها، والتقدير: فألقوا ما معهم من الحبال والعصي، ميلاً من هذا الجانب، وميلاً من هذا الجانب.

ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وهذا تمثيل، والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم، مخيلةً إليه السعي، كسعي ما يكون حياً من الحيات من أجل سحرهم، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس.. اضطربت واهتزت، فخيل إليه أنها تتحرك. وقرأ الحسن[1]، وأبو رجاء العطاردي، وأبو عمران الجوني، وأبو الجوزاء: ﴿وعصيهم﴾ بضم العين حيث كان، وهو الأصل، لأن الكسر إتباع لحركة الصاد، وحركة الصاد لأجل الياء، وفي كتاب «اللوامح»: قرأ الحسن: ﴿وعصيهم﴾ بضم العين، وإسكان الصاد، وتخفيف الياء، مع الرفع، فهو أيضاً جمع كالعامة، لكنه على فعل، وقرأ الزهري، والحسن، وعيسى، وأبو حيوة، وقتادة، والجحدري، وأبو رزين العقيلي، وأبو عبد الرحمٰن السلمي، وابن أبي عبلة، وروح، والوليدان، وابن ذكوان: ﴿تخيل﴾ بالتاء مبنياً للمفعول، وفيه ضمير الحبال والعصي، و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: بدل اشتمال من ذلك الضمير، وقرأ أبو السماك: ﴿تخيل﴾ بفتح التاء؛ أي: تتخيل، وفيها أيضاً ضمير ما ذكر، و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال أيضاً من ذلك الضمير، لكنه فاعل من جهة المعنى، وقرىء[2]: ﴿نخيل﴾ بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك، وقرىء ﴿يخيل﴾ بالياء التحتية، مبنياً لفاعل على أن المخيل هو الكيد.

﴿فَأَوْجَسَ﴾؛ أي: أحس وأضمر ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: في قلبه ﴿خِيفَةً﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

خوفاً، مفعول به ﴿مُوسَىٰ﴾ فاعل أوجس؛ أي: أضمر موسى في قلبه بعض خوف من أن لا يظفر بهم، فيقتلون من آمن به ـ عليه السلام ـ.

والمعنى[1]: أضمر موسى في نفسه بعض خوف من مفاجأته، بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات، والاحتراز عن ضررها المعتاد من اللسع ونحوه، كما دل عليه قوله: ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ لأنه من خطرات النفس، لا من القلب، وفي الحقيقة: أن الله تعالى ألبس السحر لباس القهر، فخاف موسى من قهر الله، لا من غيره، لأنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الفاسقون. وقيل[2]: خاف أن يُفتن الناس قبل أن يُلقي عصاه، وقيل: إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله: ﴿قُلْنَا﴾ لموسى ﴿لَا تَخَفْ﴾ ما توهمت ﴿إِنَّكَ﴾؛ أي: لأنك ﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي[3]: الغالب القاهر لهم، ونحن معك في جميع أحوالك، فإنك القائم بالمسبب، وهم القائمون المعتمدون على الأسباب، وأيضاً معك آياتنا الكبرى، وهو لباس حفظنا، وجملة ﴿إن﴾ تعليل للنهي عن الخوف، وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن خوف البشرية مركوز في جبلة الإنسان ولو كان نبياً إلى أن ينزع الله الخوف منه انتزاعاً ربانياً، بقولٍ صمداني كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: أعلى درجةً من أن تخاف من المخلوقات دون الخالق.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ أي: عصاك على الأرض، والإبهام، لتفخيم شأنها، والإيذان بأنها ليست من جنس العصي المعهودة، لأنها مستتبعة لآثار غريبةٍ.

والمعنى[4]: لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم، فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها، ولم يأت التركيب: وألق عصاك لما في لفظ اليمين من البركة ﴿تَلْقَفْ﴾؛ أي: تلتقم وتبتلع ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾؛

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

أي: ما طرحوا من الحبال والعصي الذي خيّل إليك سعيها وخفتها، وهو مجزوم بالطلب السابق، قال الزجاج: القراءة بالجزم: جواب الأمر، ويجوز الرفع على معنى الحال، كأنه قال ألقها متلقفة، وجملة: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ﴾: تعليل لقوله: ﴿تَلْقَفْ﴾؛ أي: لأن الذي صنعوه عمل ساحر، و﴿ما﴾[1]: موصولة؛ أي: إن الذي صنعوه، فحقها أن تفصل من نون إنّ .اهـ. شيخنا. لكنها ثبتت في خط المصحف الإمام موصولةً، كما ذكره شيخ الإسلام في «شرح الجزرية»؛ أي: إن الذي فعلوه بعد تدرب كثير، وممارسة طويلة، كيد سحري، لا حقيقة له ولا بقاء.

وخلاصة ذلك: أن الذي معك يا موسى معجزة إلٰهية، والذي معهم تمويه وتلفيق، ظاهر عليه الزور والبهتان، فكيف يتعارضان ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ أي: ولا ينال الساحر مقصوده بالسحر، خيراً كان أو شراً، حيثما كان، وأين أقبل من الأرض وعمل السحر فيها، وهو من تمام التعليل، ومعناه: لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز، وليس معنى ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ لا يستطيع السحر، بل إذا سحر فلا يفلح، ولا يأمن حيث وُجد، فذلك عدم فلاحه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تلقف﴾ بفتح اللام وتشديد القاف، مجزوماً على جواب الأمر، والأصل: تتلقف فحذف إحدى التائين، وقرأ ابن عامر كذلك، ويرفع الفاء على الاستئناف، أو على الحال من الملقى، كما مر، وقرأ أبو جعفر، وحفص، وعصمة عن عاصم ﴿تَلْقَفْ﴾ بإسكان اللام والفاء، وتخفيف القاف، وكان ابن كثير يشدد التاء، من ﴿تلقف﴾ يريد تتلقف، وقرأ ابن مسعود[3]، وأبيٌّ بن كعب، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء: ﴿تلقم﴾ بالميم وقرأ الجمهور[4]: ﴿كَيْدُ﴾ بالرفع على أن ﴿مَآ﴾ موصولة بمعنى الذي، والعائد: محذوف، وقرأ مجاهد، وحميد، وزيد بن علي: ﴿كيد سحر﴾ بالنصب مفعولاً لـ﴿صنعوا﴾ و﴿ما﴾ مهيئة، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بحرية،

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.
(٤) البحر المحيط.

والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن عيسى، وابن جبير، وابن جرير: ﴿كيد سحر﴾ بكسر السين وسكون الحاء، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع، من غير تقدير، أو بتقدير: ذي سحر، أو ذوي سحر أو هم لمشغولهم في سحرهم، كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بيِّن الكيد، لأنه يكون سحراً وغير سحر، نظير علم فقه، وعلم نحو.

وقرأ الباقون: ﴿كيد ساحر﴾ بألف اسم فاعل من سحر، وأفرد ﴿ساحر﴾ من حيث إن فعل الجميع نوع واحد من السحر تلك الحبال والعصي، فكأنه صدر من ساحر واحد، لعدم اختلاف أنواعه، وقرأت فرقة: ﴿أين أتى﴾؛ أي: لا يظفر ببغيته حيث توجه وسلك.

قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ معطوف على جمل محذوفة، والتقدير: فزال إيجاس الخيفة، وألقى ما في يمينه، وتلقفت حبالهم وعصيهم، ثم انقلبت عصا، وفقدوا الحبال والعصي، وعلموا أن ذلك معجز ليس في طوق البشر ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي[1]: فألقى ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى، من اليد والعصا، السحرةَ على الأرض، حالة كونهم ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: ساجدين لله تعالى، وجاء التركيب ﴿فألقى السحرة﴾ ولم يأت فسجدوا، كأنه جاءهم أمر وأزعجهم وأخذهم، فصنع بهم ذلك، وهو عبارة عن سرعة ما تأثروا لذلك الخارق العظيم، فلم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين لله. وقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماذا قالوا في سجودهم، فقيل: قالوا أي: قالت السحرة في سجودهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وقال رئيسهم: كنا نغالب الناس بالسحر، وكانت الآلات تبقى علينا لو غُلبنا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقيناه!؟ وإنما[2] قدم هارون على موسى هنا في حكاية كلامهم، رعاية لفواصل الآي وعنايةً بتوافق رؤوسها، أو لأن فرعون ربَّى موسى من صغره، فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره، فربما توهم أن المراد بالرب فرعون، وذكر هارون على الاستتباع، أو قدم هارون لأنه كان أكبر

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

من موسى سناً، وقدم موسى على سقط من الطب فألحقه هارون في الأعراف، لأجل الفواصل أيضاً، ولكون موسى هو المنسوب إليه العصا التي ظهر فيها ما ظهر من الإعجاز.

ومعنى إضافة الرب إليهما، أنه هو الذي يدعوان إليه، وأجرى ما أجرى على يديهما، وقالوا[1] رب هارون وموسى، ولم يكتفوا بقولهم: رب العالمين، للنص على أنهم آمنوا برب هذين، وكان فيما قيل: يزعم أنه رب العالمين، كما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ روي أن رئيسهم قال: كنا نغلب الناس، وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقيناه من الآلات، فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر، وبظهور ذلك على يد موسى على صحة رسالته، فتابوا وأتوا بنهاية الخضوع، وهو السجود، قال[2] جار الله: ما أعجب أمرهم: ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين .اهـ روي عن ابن عباس أنه قال: كانوا أول النهار سحرةً، وفي آخره شهداء بررةً، وروىٰ عنه عكرمة: أنه قال: كان السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرةً، وأمسوا شهداء.

الإعراب

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ٱذۡهَبۡ﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مؤكد لضمير الفاعل المستتر ﴿وَأَخُوكَ﴾: معطوف على ضمير الفاعل المستتر في الفعل، وعلامة رفعه (الواو) والجملة: مستأنفة، مسوقة لتقرير المراد بالاصطناع ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: جار ومجرور، حال من ضمير الفاعل وما عطف عليه و(الباء): للمصاحبة؛ أي: حالة كونكما مصحوبين ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: ومعتصمين بها، وليست الباء للتعدية، لأن المراد إظهار الآيات للناس، لا مجرد الذهاب إلى

---
(١) روح البيان.
(٢) الكشاف.

فرعون ﴿وَلَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَآ﴾ ناهية ﴿تَنِيَا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱذْهَبْ﴾. ﴿فِى ذِكْرِى﴾: متعلق به ﴿ٱذْهَبَآ﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة: مستأنفة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿ٱذْهَبَآ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿طَغَىٰ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿فَقُولَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿قُولَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱذْهَبَآ﴾. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿قُولَا﴾. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق ﴿لَّيِّنًا﴾: صفة له ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: خبره ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: معطوفة على ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، و﴿لعل﴾ هنا للتعليل كما قاله الفراء، فهي بمثابة كي التعليلية، نظير قولك: اعمل لعلك تأخذ أجرك؛ أي: كي تأخذ أجرك.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قَالَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿رَبَّنَآ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَا﴾. ﴿إِنَّنَا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿نَخَافُ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَفْرُطَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به و﴿أن﴾ وما في حيّزها: مفعول ﴿نَخَافُ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَطْغَىٰ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ وما في حيزها: معطوف على ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ والتقدير: إننا نخاف فرطه علينا أو طغيانه.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مستأنفة ﴿لَآ﴾: ناهية ﴿تَخَافَآ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية والألف فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّنِى﴾: ناصب ونون وقاية، واسمه ﴿مَعَكُمَآ﴾:

ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾. ﴿أَسْمَعُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله وجملة ﴿أَسْمَعُ﴾ في محل الرفع خبر ثان، لـ﴿إن﴾ أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إن﴾. ﴿وَأَرَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَسْمَعُ﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: مسوقة لتعليل ما قبلها: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ (الفاء): عاطفة كما في «الجمل» ﴿أتياه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، مبني على حذف النون، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ﴿فقولا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قُولَا﴾: فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة: معطوفة على جملة ﴿اتياه﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناسب واسمه ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾: خبره ومضاف إليه، وجملة: ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قولا﴾. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ (الفاء): حرف عطف وتفريع ﴿أرسل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿مَعَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أرسل﴾ وجملة: ﴿أرسل﴾: معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية جازمة ﴿تُعَذِّبْهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿أرسل﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ متعلق بـ﴿جِئْنَٰكَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ صفة لـ﴿آية﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من اسم ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، جرت مجرى التفسير والبيان والجملة ﴿إن﴾ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا مدعومةً بالآيات والدلائل الظاهرة الدالة عليها ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ (الواو) استئنافية ﴿السلام﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة: مستأنفة على كونها مقول ﴿قُولَا﴾. ﴿ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به صلة الموصول.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿إِلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ مَن﴾: جار ومجرور خبره ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صلة

﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع، على كونه نائب فاعل لـ﴿أُوحِىَ﴾؛ أي: ﴿أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ كون العذاب على من كذب وتولى. وجملة ﴿أُوحِىَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ الأولى وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قولا﴾.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿فرعون﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلتما إنا رسولا ربكما.. ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾. ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل الرفع مبتدأ ﴿رَّبُّكُمَا﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة: في محل النصب مقول، لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول ﴿خَلْقَهُۥ﴾: مفعول ثان، وقيل: ﴿خَلْقَهُۥ﴾ أول مفعولي ﴿أَعْطَىٰ﴾ و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ ثانيهما وقدم للاهتمام؛ أي: أعطى خليقته وهو: جميع الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، وقرىء ﴿خلقه﴾: على أنه فعل ماض، والمفعول الثاني محذوف للعلم به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَعْطَىٰ﴾ وفاعله: ضمير يعود على الله، والمفعول: محذوف تقديره: ثم هدى كل شيء ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلتما إنا رسولا ربكما.. فأقول لكما: ﴿ما بال القرون الأولى﴾ ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجيزي في محل الرفع مبتدأ ﴿بَالُ ٱلْقُرُونِ﴾: خبر ومضاف إليه ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة،

وجملة: إذا المقدرة، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿عِندَ رَبِّي﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿عِلْمُهَا﴾؛ أي: حالة كونها مكتوبةً ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أو ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾: هو الخبر و﴿عِندَ رَبِّي﴾: حال أو هما خبر ﴿إن﴾ أو هما خبر واحد على حد قولك الرمان حلو حامض؛ أي: مز ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا يَنسَى﴾ معطوف على ﴿يَضِلُّ﴾. ﴿ٱلَّذِي﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو ﴿ٱلَّذِي﴾ والجملة: مستأنفة ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَهْدًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مَهْدًا﴾؛ مفعول ثان له ﴿وَسَلَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾ حال من ﴿سُبُلًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿سلك﴾. ﴿سُبُلًا﴾: مفعول به.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾.

﴿وَأَنزَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَنزَلَ﴾. ﴿بِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول به ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾: صفة أولى لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾. ﴿شَتَّىٰ﴾: صفة ثانية له، أو حال منه، لأنه وصف، وأجاز الزمخشري: أن يكون صفة للنبات ﴿كُلُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل،

والجملة، في محل النصب مقول لقول محذوف: حال من فاعل ﴿أخرجنا﴾؛ أي: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ حالة كوننا قائلين لكم ﴿كُلُوا۟﴾ منها. ﴿وَٱرْعَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿أَنْعَٰمَكُمْ﴾: مفعول به ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ (اللام): حرف ابتداء ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾: مؤخر ﴿لِّأُو۟لِى﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾. ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ مضاف إليه، وهي جمع نهية، وقيل: اسم مفرد، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿خلقنا﴾. ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: مستأنفة ﴿وَفِيهَا﴾: متعلق بـ﴿نعيد﴾. ﴿نُعِيدُكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾. ﴿تَارَةً﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة لـ﴿تَارَةً﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية (واللام): موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: فعل وفاعل، ومفعولان من رأى البصرية، ولكنها تعدت إلى اثنين لدخول همزة النقل عليها ﴿كُلَّهَا﴾: تأكيد لـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة ﴿فَكَذَّبَ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿كذب﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على فرعون، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَرَيْنَٰهُ﴾. ﴿وَأَبَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿كذب﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على فرعون، والجملة: مستأنفة ﴿أَجِئْتَنَا﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ (اللام): حرف جر وتعليل ﴿تخرجنا﴾: فعل ومفعول وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾: متعلق بـ﴿تخرجنا﴾. ﴿بِسِحْرِكَ﴾: متعلق به أيضاً ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم، والجملة الفعلية مع أن

المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإخراجك إيانا ﴿مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿جئتنا﴾. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر كذلك.. فأقول لك: ﴿لنأتينك﴾ و(اللام): موطئة للقسم ﴿نأتينك﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة و(الكاف): مفعول به، وفاعله: ضمير يعود على فرعون وقومه ﴿بِسِحْرٍ﴾: متعلق بـ﴿نأتين﴾. ﴿مِّثْلِهِۦ﴾: صفة لـ﴿سحر﴾ ويجوز أن يتعلق ﴿بِسِحْرٍ﴾ بمحذوف حال؛ أي: متلبسين ﴿بِسِحْرٍ﴾ والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة ﴿فَٱجْعَلْ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿اجعل﴾: أمر وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿نأتينك﴾ ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف مفعول ثان لجعل ﴿وَبَيْنَكَ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾ ﴿مَوْعِدًا﴾: مصدر ميمي مفعول أول لجعل، وجملة ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾: صفة لـ﴿مَوْعِدًا﴾ ﴿نَحْنُ﴾: تأكيد للضمير في نخلفه ﴿وَلَآ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَنتَ﴾ معطوف على الضمير المستتر في ﴿نُخْلِفُهُۥ﴾ ﴿مَكَانًا﴾ بدل من ﴿مَوْعِدًا﴾ بتقدير مضاف؛ أي: مكان موعد، أو منصوب بفعل دل عليه المصدر، تقديره: عدلنا مكاناً ﴿سُوًى﴾. ﴿سُوًى﴾: صفة لـ﴿مَكَانًا﴾؛ أي: ﴿مَكَانًا﴾ وسطاً.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: خبر له والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿ضُحًى﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يُحْشَرَ﴾ والجملة الفعلية مع أن

المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع، معطوف على ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تقديره: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وحشر ﴿ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أو مجرور معطوف على ﴿ٱلزِّينَةِ﴾ تقديره ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ويوم حشر ﴿ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿تولى فرعون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ﴾. ﴿فَجَمَعَ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿جمع كيده﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿تولى﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿أَتَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة: معطوفة على ﴿جمع﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض ﴿لَهُم﴾ متعلق به ﴿مُوسَىٰ﴾ فاعل، والجملة: مستأنفة ﴿وَيْلَكُمْ﴾: مصدر للدعاء، أمات العرب فعله، منصوب بفعل محذوف وجوباً، لجريانه مجرىٰ المثل، تقديره: ألزمكم الله ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهو مضاف، و(الكاف): مضاف إليه، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَفْتَرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ (الفاء): عاطفة سببية ﴿يسحتكم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد (الفاء) السببية الواقعة في جواب النهي ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿يسحتكم﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن افتراؤكم على الله كذباً فإسحاته إياكم ﴿بِعَذَابٍ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ (الواو): حالية ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿خَابَ مَنِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من الجلالة، والرابط محذوف، والتقدير: لا تفتروا على الله كذباً، والحال أنه قد خاب وخسر من افترى عليه كذباً ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر صلة من الموصولة.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟﴾ الفاء: عاطفة ﴿تنازعوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾. ﴿أَمْرَهُم﴾: مفعول به، أو منصوب بنزع الخافض ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف

متعلق بمحذوف حال من ﴿أَمْرَهُم﴾. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تنازعوا﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان ما أسروا ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أو مهملة ﴿هَٰذَٰنِ﴾: مبتدأ في محل الرفع، مبني على الألف ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (اللام): حرف ابتداء ﴿ساحران﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ المخففة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿يُرِيدَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: في محل الرفع صفة ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿يُخْرِجَاكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾: متعلق به ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يُخْرِجَاكُم﴾؛ أي: حالة كونهما متلبسين ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ والجملة الفعلية، مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدَانِ﴾ تقديره: يريدان إخراجهما إياكم من أرضكم بسحرهما ﴿وَيَذْهَبَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُخْرِجَاكُم﴾. ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يذهبا﴾. ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ صفة لـ﴿طريقتكم﴾.

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين... الخ وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿أجمعوا كيدكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أجمعوا﴾. ﴿صَفًّا﴾: حال من فاعل ﴿ٱئْتُوا۟﴾؛ أي: حالة كونكم مصطفين. ﴿وَقَدْ﴾ (الواو): حالية ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق به ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿أَفْلَحَ﴾ والجملة: في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿ٱئْتُوا۟﴾ والرابط: محذوف تقديره: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ والحال أنه ﴿قد أفلح اليوم من استعلى﴾ منكم وجملة ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾ صلة الموصول.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ

وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِمَّآ﴾: حرف تفصيل وتخيير ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿تُلْقِىَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة الفعلية، مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لفعل محذوف، تقديره: اختر إما إلقاءك أولاً، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَإِمَّآ﴾ (الواو): عاطفة ﴿إِمَّآ﴾ على ﴿إِمَّآ﴾ الأولى. ﴿إِمَّآ﴾ الثانية: عاطفة ما بعدها على قبلها ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿نَّكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أن﴾ واسمها ضمير يعود على السحرة ﴿أَوَّلَ﴾: خبر ﴿نَّكُونَ﴾ وهو مضاف ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿أَلْقَىٰ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿نَّكُونَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، على كونه مفعولاً لفعل محذوف، والتقدير: يا موسى اختر إما إلقاءك أولاً، وإما كوننا أول من ألقى ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على موسى، والجملة: مستأنفة ﴿بَلْ﴾ حرف إضرابٍ إضراباً إبطالياً وابتداء ﴿أَلْقُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة على محذوف تقديره فألقوا ﴿إذا﴾: فجائية في محل النصب على الظرفية الزمانية، أو حرف لا محل لها من الإعراب ﴿حِبَالُهُمْ﴾: مبتدأ ﴿وَعِصِيُّهُمْ﴾: معطوف عليه ﴿يُخَيَّلُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يُخَيَّلُ﴾ أيضاً ﴿أَنَّهَا﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿تَسْعَىٰ﴾: خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر مرفوع، على كونه نائب فاعل لـ﴿يُخَيَّلُ﴾ والتقدير: يخيل إليه سعيها من أجل سحرهم، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: فإذا حبالهم وعصيهم مخيل إليه سعيها من سحرهم، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية: في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذا﴾ الفجائية، والظرف متعلق بفعل محذوف معطوف على محذوف، والتقدير: فألقوا ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم، والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلةً إليه السعي، أو فاجأ موسى تخييل

سعي حبالهم وعصيهم.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾.

﴿فَأَوْجَسَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أوجس﴾: فعل ماض ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾: متعلق به ﴿خِيفَةً﴾ مفعول به ﴿مُّوسَىٰ﴾: فاعل والجملة: معطوف على جملة المفاجأة المقدرة ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿لَا تَخَفْ﴾: جازم وفعل مجزوم، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُّوسَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل أو تأكيد ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة: ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾ مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

﴿وَأَلْقِ﴾ الواو: عاطفة ﴿ألق﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُّوسَىٰ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿لَا تَخَفْ﴾ ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿ألق﴾. ﴿فِي يَمِينِكَ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها ﴿تَلْقَفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على عصاه ﴿مَآ﴾: مفعول به لـ﴿تَلْقَفْ﴾. ﴿صَنَعُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف تقديره: ما صنعوه ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب اسمها ﴿صَنَعُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف تقديره: إن الذي صنعوه ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾: مسوقة لتعليل قوله: ﴿تَلْقَفْ﴾. ﴿وَلَا﴾ (الواو): حالية أو عاطفة ﴿لَآ﴾ نافية ﴿يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من ﴿سَٰحِرٍ﴾ لأن المقصود منه الجنس، والتقدير: حالة كون جنس الساحر غير مفلح، أو معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾. ﴿حَيْثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الضم متعلق

بـ﴿يُفْلِحُ﴾ وجملة ﴿أَتَىٰ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿فَأُلْقِيَ﴾ (الفاء) عاطفة على محذوف، تقديره: فألقى موسى عصاه فتلقفت كل ما صنعوه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ﴿ألقي السحرة﴾: فعل ونائب فاعل معطوف علي ذلك المحذوف ﴿سُجَّدًا﴾: حال من ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال ثانية من ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي: حالة كونكم ساجدين قائلين ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿بِرَبِّ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿هَٰرُونَ﴾: مضاف إليه ﴿وَمُوسَىٰ﴾: معطوف على ﴿هَٰرُونَ﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱذْهَبْ﴾ أنت يا موسى، والذهاب: المضي، يقال: ذهب بالشيء وأذهبه، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني ﴿وَأَخُوكَ﴾ والأخوة: المشاركة في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار الأخ لكل مشارك لغيره، في القبلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودة، أو في غير ذلك من المناسبات كما مر ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ هي المعجزات، والمراد بها: العصا، واليد البيضاء، والمراد بالجمع: ما فوق الواحد ﴿وَلَا تَنِيَا﴾؛ أي: ولا تفترا ولا تقصرا في ذكري؛ أي: في تبليغ رسالتي، فالذكر: يطلق على كل العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها، من الوني: وهي الفتور والتقصير، يقال: ونىٰ يني ونياً، كوعد يعد وعداً: إذا فتر، والاسم الوني وهو: الفتور: وونى فعل لازم لا يتعدى، وزعم بعض النحاة أنه يكون من أخوات زال وانفك، فيعمل عملهما بشرط النفي، يقال ما ونى زيد قائماً؛ أي: ما زال زيدٌ قائماً، وفي «المصباح»: ونى في الأمر ونياً: من باب تعب ووعد: ضعف وفتر، فهو وانٍ وفي التنزيل ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ وتوانىٰ في الأمر توانياً: لم يبادر إلى ضبطه، ولم يهتم به، فهو متوان؛ أي: غير مهتمٍ ولا محتفل، وهو في الآية من باب وعد، لأجل كسر النون، إذ لو كان من باب تعب لكان بفتحها ﴿طَغَىٰ﴾ أي تجاوز الحد ﴿يَفْرُطَ﴾ يقال: فرط يفرط: من باب قعد علينا فلان: إذا عجل بمكروه ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ أي: لا عنف فيه ولا غلظة ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: يتأمل فيذعن للحق ويؤمن

﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾؛ أي: يخاف من بطش الله وعذابه ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ والعذاب[1]: هو الإيحاء الشديد، وقد عذبه تعذيباً؛ أي: أكثر حبسه في العذاب، وأصله: من قولهم عذب الرجل: إذا ترك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب، فالتعذيب في الأصل: هو حمل الإنسان على أن يعذب؛ أي: يجوع ويسهر، وقيل: أصله: من العذب، فعذبته: أزلت عذب حياته، على بناء مرضته وقويته، وقيل: أصل التعذيب: إكثار الضرب بعذبة السوط؛ أي: طرفه ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ (اللام) لتعريف الماهية، والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، والمراد هنا: إما التحية، فالمعنىٰ: والتحية المستتبعة بسلامة الدارين من الله والملائكة؛ أي: خزنة الجنة وغيرهم من المسلمين ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: أعطىٰ كل نوع صورته وشكله، الذي يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ أي: ثم عرّفه كيف يرتفق بما أُعطي له.

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والبال: الحال التي يكترث ويعتنىٰ بها ﴿مَهْدًا﴾ قال الإمام الراغب: المهد: ما يهيأ للصبي، والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ ﴿وَسَلَكَ﴾ السلوك: النفاذ في الطريق، وسلك لازم ومتعد، يقال: سلكت الشيء في الشيء: أدخلته، والسبل: جمع سبيل، وهو من الطرق ما هو معتاد السلوك ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والماء: هو جسم سيّال قد أحاط حول الأرض والمراد هنا: المطر ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ جمع شتيت كمريض ومرضىٰ؛ أي: مختلفة النفع والطعم واللون والشكل، والأزواج: جمع زوج، سميت الأصناف بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض، لأنه يقال: لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له، أو مضاداً: زوج، ولكل قرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخف والنعل، قال الراغب: النبت والنبات: ما يخرج من الأرض من الناميات، سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له ساق كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له، بل قد اختص عند العامة بما تأكله الحيوانات، ومتىٰ اعتبرت الحقائق.. فإنه

---

(١) الفتوحات.

يُستعمل في كل نام، نباتاً كان، أو حيواناً، إو إنساناً. انتهى.

﴿شَتَّىٰ﴾ بوزن فعلىٰ وألفه للتأنيث، وهو جمع شتيت نحو مريض ومرضى، وجريح وجرحى، وقتيل وقتلى، يقال: شت الأمر يشت شتاتاً، فهو شت؛ أي: تفرق وشتان: اسم فعل ماض، بمعنىٰ: افترق، ولذلك لا يكتفي بواحد ﴿وَارْعَوْا﴾ الرعي: في الأصل: حفظ الحيوان، إما بغذائه الحافظ لحياته، أو بذب العدو عنه ﴿لِأُوْلِي النُّهَىٰ﴾: جمع نهية بالضم، وهي: العقل، سمي بها العقل لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح، وقيل: إنه اسم مفرد، وهو مصدر كالهدى والسرعة، قاله أبو علي اهـ «سمين» ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ﴾ يقال: أخلف وعده: إذا خالف في الميعاد.

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾؛ أي: يهلككم من أسحت الرباعي، وهي لغة نجد وتميم؛ أي: أهلك، ويقال: سحت وهي لغة الحجاز، وأصل هذه المادة تدل على الاستقصاء والنفاد، ومنه سحت الحالق الشعر؛ أي: استقصاه فلم يترك منه شيئاً، ويُستعمل في الإهلاك والإذهاب، وفي «القاموس»: سحت يسحت من باب فتح، وسحت بالتشديد: اكتسب السحت؛ أي: المال الحرام، وسحته أهلكه واستأصله وذبحه، وسحت الشحم عن اللحم: قشره، وسحت وجه الأرض: محاه، وأسحت: أفسده وأهلكه واستأصله ﴿الْمُثْلَىٰ﴾: مؤنث أمثل، بمعنى أشرف، وإنما أُنِّث باعتبار التعبير بالطريقة، وإلا فباعتبار المعنى كأن يقال: أماثل .اهـ. شيخنا. ﴿فَأَجْمِعُوا﴾؛ أي: أزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه، حتى لا تختلفوا، كالمسألة المجمع عليها، ويقال: أجمعوا الأمر وأجمعوا عليه، وفلانة بجمع؛ أي: عذراء، وضربه بجمع كفه ﴿فَأَوْجَسَ﴾ الإيجاس: الإضمار، وإيجاس الخوف: إضمار شيء منه ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾، والحبال: جمع حبل، وهو: الرسن، والعصي: جمع عصا، أصله: عصوو، بوزن: فلوس، قلبت الواو الثانية ياءً، ثم الأولى لاجتماعها ساكنة مع الياء، وكسرت الصاد لتصح الياء، وكسرت العين اتباعاً للصاد ﴿خِيفَةً﴾ أصله: خوفاً، قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ﴿تَلْقَفْ﴾: تبتلع، وأصله: التناول بسرعة، قال في «القاموس»: لقف يلقف، من

باب تعب لقفاً، والتقف الشيء: تناوله بسرعة ﴿صَنَعُوٓاْ﴾؛ أي: زوّروا وافتعلوا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾؛ أي: كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات.

فصل في بيان السحر

﴿ٱلسِّحْرَ﴾ في اللغة: كل ما لطف ودق، ومنه السحر للصبح الكاذب، وقوله ـ عليه السلام ـ: «إن من البيان لسحرا» وبابه: منع وفي العرف: إراءة الباطل في صورة الحق، وهو عندنا أمر ثابت، لقوله ﷺ: «السحر حق، والعين حق» وفي «شرح الأمالي» السحر من سحر يسحر سحراً: إذا خدع أحداً، وجعله مدهوشاً متحيراً، وهذا إنما يكون بأن يفعل الساحر شيئاً يعجز عن فعله، وإدراكه المسحور عليه، وفي كتاب «اختلاف الأئمة» السحر: رقىً وعزائم وعقد، تؤثر في الأبدان والقلوب، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، وله حقيقة عند الأئمة الثلاثة، وقال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: لا حقيقة له، ولا تأثير له في الجسم، وبه قال أبو جعفر الإسترابادي من الشافعية، وفي «شرح المقاصد»: السحر إظهار أمرٍ خارقٍ للعادة، من نفس شريرة خبيثة، بمباشرة أعمال مخصوصة، يجري فيها التعلم والتعليم، وبهذين الاعتبارين، يفارق المعجزة والكرامة، وبأنه لا يكون بحسب اقتراح المقترحين، وبأنه يخص الأزمنة أو الأمكنة أو الشرائط، وبأنه قد يتصدى لمعارضته، ويبذل الجهد في الإتيان بمثله، وبأن صاحبه ربما يعلن بالفسق، ويتصف بالرجس في الظاهر والباطن، والخزي في الدنيا والآخرة، وهو؛ أي: السحر عند أهل الحق: جائز عقلاً، ثابت سمعاً، وكذا الإصابة بالعين، وقال المعتزلة: بل هو مجرد إراءة ما لا حقيقة له، بمنزلة الشعوذة التي سببها خفة حركات اليد، أو إخفاء وجه الحيلة، ويقال لها: الشعبذة، معرب شعباذة، اسم رجل ينسب إليه هذا العلم، وهي خيالات مبنية على خفة اليد، وأخذ البصر في تقليب الأشياء، كالمشي على الأرسال، واللعب بالمهارق والحقات وغير ذلك، وللسحر: خمسة أنواع على المشهور:

منها: الطلسم، قيل: هو مقلوب المسلط، وهو جمع الآثار السماوية، مع عقاقير الأرض ليظهر منها أمر عجيب.

ومنها: النيرنج: وهو التمويه والتخييل، قالوا: ذلك تمزيج قوى جواهر الأرض، ليحدُثَ منها أمر عجيب.

منها: الرقية: وهو النفث في الماء، وسمي به لأنهم ينفثون في الماء، ثم يشربونه، أو يصبون عليه، وإنما سميت رقية، لأنها كلمات رقيت من صدر الراقي، فبعضها فهوية، وبعضها قبطية، وبعضها بلا معنى، يزعمون أنها مسموعة من الجن، أو في المنام.

ومنها: الخلفطيرات، وهي: خطوط عقدت عليها حروف وأشكال؛ أي: خلق ودوائر، يزعمون أن لها تأثيرات بالخاصية.

ومنها: الشعبذة المارة، والمذهب: أن التأثير الحاصل عقيب الكل، هو فعل الله تعالى، على وفق إجراء عادته، ووجه الحكمة فيه، لا يعلمه إلا هو سبحانه. انتهى من «روح البيان».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ففيه إيجاز بليغ، لأنه حذف جملاً لا يقع عليها الحصر، لأنه ليس بالمتاح إحصاء المخلوقات الحية وغير الحية، العاقلة وغير العاقلة، التي خلقها الله تعالى، ولكل منها عمله الميسر له، على حد قوله ﷺ: «كل ميسر لما خلق له».

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى لفظ التكلم في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا...﴾ الخ. وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا...﴾ إلخ.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ حيث قابل بين

﴿مِّنْهَا﴾ و﴿فِيهَا﴾، وبين الخلق والإعادة، وهذا من المحسنات البديعية.

ومنها: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ وسماه المتأخرون التصدير، وهو أخف على السمع، وأليق بالمقام، وهو توافق كلمة في الصدر، مع كلمة في الآخر، وله أقسام مذكور في محله.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾؛ أي: فألقوا فإذا حبالهم، حذف لدلالة المعنى عليه، ومثله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ بعد قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل، وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ إنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه، ويسمى: إيجاز حذف.

ومنها: استدراج الخصم لموسى حيث قال: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ثقةً منهم بأنهم فائزون عليه، حيث فوَّضوا ضرب الموعد إليه، ولكن موسى استدرجهم بإلهام من الله عز وجل، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أفضح بكيدهم، وأهتك لسترهم، ولما استدرجوه بالتخيير في الإلقاء، أيكون هو البادىء، أم يكونون هم البادئين.. استدرجهم هو إلى أن يجعلهم مبتدئين، بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفاً بالحق على الباطل، فيدمغه فإذا هو زاهق، فما أروع هذا الكلام.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ بالضميرين اللذين هما: ﴿نَّكُونَ﴾ و﴿نَحْنُ﴾ دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه، والإلقاء قبله.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ فتوكيد الضميرين ها هنا في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت للغلبة والقهر، ولو قال لا تخف إنك الأعلى.. لم يكن فيه من التقرير والإثبات لنفي الخوف، ما لقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ لتفخيم شأنها، والإيذان بأنها ليست من جنس العصي المعهودة، لأنها مستتبعة لآثار غريبة.

ومنها: في قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ست فوائد من البلاغة:

١ ـ ﴿إِنَّ﴾ المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وتأكيده، وقد نص علماء المعاني، على أن الخبر يكون مع ﴿إِنَّ﴾ طلبياً، أو إنكارياً لا ابتدائياً، كقولك: زيد قائم، ثم تقول: إن زيداً قائم، ففي قولك: إن زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد، ما ليس في قولك: زيد قائم.

٢ ـ تكرير الضمير في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ ولو اقتصر على أحد الضميرين.. لما كان بهذه المثابة في التقرير، لغلبة موسى والإثبات.

٣ ـ لام التعريف في قوله: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولم يقل أعلى أو عال، لأنه لو قال ذلك.. لكان قد نكَّره، وكان صالحاً لكل واحد من جنس، كقولك: رجل فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال، وإذا قلت الرجل.. فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف، وجعلته علماً فيهم، وكذلك جاء قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: دون غيرك.

٤ ـ لفظ أفعل الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل: العالي فهو أعلى من كل عال.

٥ ـ لفظ العلو الدال على أن الغلبة ثابتة له من جهة العلو، ومعلوم أن الغرض من قوله: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الغلبة، إلا أن في ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ زيادةً، وهي كونها صادرةً من مكان عال.

٦ ـ الاستئناف وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولم يقل لأنك أنت الأعلى، فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى ـ عليه السلام ـ بالغلبة والاستعلاء، وأثبت ذلك في قرارة نفسه، بما لا يدع أيّ: مجال للشك.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ
عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا
آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ
مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ
الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ
أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١)
وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) ۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى
(٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ
وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا
حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦)
قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ
(٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ
أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما: قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) قصص موسى مع سحرة فرعون، وأنه تم له الغلب عليهم، وأن السحرة آمنوا، وأن فرعون أبى أن يذعن

(١) المراغي.

للحق، وتمادىٰ هو وقومه في العناد والإعراض عن سبيل الرشاد. . أردف ذلك بذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه، من الغرق في البحر، حين تبعوا موسى للحاق به، لما خرج من مصر ذاهباً إلى الطور، وطوى في البين ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة من الآيات المفصلة، التي حدثت على يد موسى في مدة عشرين سنة، بحسب ما فصّل في سورة الأعراف، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب. . وعد أن يُرسل بني إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب، فإذا هو انكشف. . نكص على عقبيه، ونكث في عهده، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلاً من مصر، ثم عدد بعدئذٍ نعمه الدينية والدنيوية على بني إسرائيل، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم، وقد كان ينزل بهم ضروباً من الظلم، من قتل وإذلال، وتعبٍ في الأعمال، وأنه ذكر أنه أنزل عليهم كتاباً فيه بيان دينهم، وتفصيل شريعتهم، وأنه أنزل لهم المن والسلوى، وأنه أمرهم بأكل الطيبات من الرزق، وزجرهم عن العصيان، وأن من عصى ثم تاب. . كانت توبته مقبولةً عند ربه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أنه أوحى[1] إلى موسى أن يخرج هو وقومه من مصر ليلاً، ويخترق بهم البحر، ولا يخشى غرقاً ولا دركاً من فرعون وجنده، وأن البحر أغرق فرعون وقومه جميعاً، حينما أرادوا اللحاق ببني إسرائيل، ثم عدد نعمه عليهم، من إنجائهم من عدوهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، ثم أمرهم بأكل الطيبات من الرزق، ونهاهم عن الطغيان، ثم ذكر أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً. . أعقب هذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام، حين موافاته الميقات بحسب المواعدة التي ذُكرت آنفاً، وبما حدث من فتنة السامري لبني إسرائيل، ورجوع موسى إليهم غضبانَ أسفاً، ثم معاقبته لهم على ما صنعوا، ثم ذكر الحيلة التي فعلها السامري حين أخرج لهم من حليّهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، فرد الله عليهم،

(١) المراغي.

وويخهم بأن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في دينهم ولا دنياهم.

التفسير وأوجه القراءة

ولما خاف فرعون أن يكون إلقاء السحرة سجداً سبباً لاقتداء الناس بهم في الإيمان بالله ورسوله.. ألقى شبهةً في النبي ونبوته فـ ﴿قال﴾؛ أي: فرعون للسحرة موبخاً لهم ﴿ءَامَنتُمْ﴾؛ أي: هل آمنتم ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لموسى وصدقتموه فيما يدعيه، و(اللام): هنا لتضمين الفعل معنى الإتباع وفي «بحر العلوم»: ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لربهما، على أن (اللام) بمعنى الباء، كما يدل عليه قوله في سورة الأعراف: ﴿قال آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ و﴿ءَامَنتُمْ﴾: بالمد على الإخبار، و(الهمزة) الأولى فيه: للاستفهام التوبيخي؛ أي: قال لهم توبيخاً: هل فعلتم هذا الفعل ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي[1]: من غير أن آذن لكم في الإيمان له، وآمركم به كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ لا أن الإذن لهم في ذلك واقع بعده، أو متوقع، والإذن في الشيء الإعلام بإجازته، وأذنته بكذا وآذنته بمعنىً ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾؛ أي: أستاذكم ومعلمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وإنكم تلامذته في السحر، فتوافقتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم، ترويجاً لشأنه، وتفخيماً لأمره، فلا عبرة بما أظهرتموه، قال الكسائي[2]: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه.. قال: جئت من عند كبيري، وقال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر، قال الواحدي: والكبير في اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير، أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس، حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة.

والخلاصة[3]: أنكم قد فعلتم جريمتين، وارتكبتم إساءتين:

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

١ ـ أنكم آمنتم له قبل البحث والتفكير، فإيمانكم لم يكن عن بصيرة وأناة، فلا يُعتد به.

٢ ـ أنكم تلاميذه في السحر، فتواطأتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم، ترويجاً لدعوته، وتفخيماً لأمره. وبعد أن أورد هذه الشبهة، اشتغل بالتهديد، تنفيراً لهم من الإيمان، وتحذيراً لغيرهم عن الاقتداء بهما، فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ أي: فوالله لأقطعن ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ حالة كونها ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: مختلفات في الاسم والصفة، لأنها إذا خالف بعضها بعضاً، بأن هذا يد وذاك رجل، وهذا يمين وذاك يسار.. فقد اتصفت بالاختلاف، وتعيين القطع وكيفيته لكونه أفظع من غيره، والمعنى لأقطعن من كل شق طرفاً، وهو أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، لا يدين ولا رجلين، ولا يمنين ولا يسارين، وصيغة[1] التفعيل في قطع: للتكثير، وكذا في الفعل الآتي، والقطع: فصل شيءٍ مدركاً بالبصر كالأجسام، أو مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة، و﴿مِّنْ﴾ فيه لابتداء الغاية؛ أي: ابتداء القطع من مخالفة العضو العضو، لا من وفاقه إياه، وإنما اختار ذلك دون القطع من وفاق لأن فيه إهلاكاً وتفويتاً للمنفعة ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾؛ أي: على جذوع النخل وأصولها، زيادةً في إيلامكم، وتشهيراً بكم، والصلب: الذي هو تعليق الإنسان للقتل، قيل: هو شد صلبه على خشب؛ أي: على أصول النخل في شاطىء النيل.

وأراد بالتقطيع والتصليب في الجذوع[2]: التمثيل بهم، ولما كان الجذع مقراً للمصلوب، واشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف.. عُدّي الفعل بفي التي للوعاء، وقيل: ﴿فِي﴾: بمعنى على، وقيل: نقر فرعون الخشب، وصلبهم في داخله، فصار ظرفاً لهم حقيقةً، حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً، ومن تعدية صلب بفي قول الشاعر:

وَهُمْ صَلَبُوْا اَلْعَبْدِيَّ فِيْ جِذْعِ نَخْلَةٍ   فَلاَ عَطَسَتْ شَيْبَانُ إلاَّ بِأَجْدَعَا

---

(١) روح البيان.   (٢) البحر المحيط.

وفرعون أول من صلب، وأقسم فرعون على ذلك، وهو فعل نفسه، وعلى فعل غيره، وهو قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ . . .﴾ إلخ، فإن قيل[1]: مع قرب عهده بانقلاب العصا حيةً، وقصدها ابتلاع قصره، واستغاثته بموسى من شرها، كيف يُعقل أن يهدد السحرة إلى هذا الحد، ويستهزىء بموسى؟

قلنا: يجوز أن يكون في أشد الخوف، ويُظهر الجلادة، تمشيةً لناموسه، وترويجاً لأمره، والاستقراء يوقفك على أمثاله. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾؛ أي: أييّ وأيّ موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾؛ أي: ولتعلمن جواب أينا أشد عذاباً؛ أي: هل أنا أشد عذاباً على إيمانكم به، أو موسى أشد عذاباً على ترك الإيمان به، ومراده بالأشد عذاباً نفسه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي: أدوم عذاباً، وموسى لم يكن في شيء من التعذيب، إلا أن فرعون ظن السحرة خافوا من قبل موسى على أنفسهم، حين رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم، فقال ما قال، وعلى ما سبق من «بحر العلوم» في ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ يكون المراد بـ﴿أَيُّنَآ﴾ نفسه ورب موسى؛ أي[2]: ولتعلمن أنا أو إلٰه موسى أشد عذاباً وأبقى، وفي ذلك إيماء إلى اقتداره وقهره، وبيان ما ألفه وضري به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، كما فيه تحقير لشأن موسى، واستضعاف له مع السخرية منه، ثم لما صال عليهم بذلك، وتوعدهم.. هانت عليهم أنفسهم في الله فـ﴿قالوا﴾؛ أي: السحرة، غير مكترثين بوعيده: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾؛ أي: لن نختارك بالإيمان والاتباع ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله على يد موسى ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: من المعجزات الظاهرة، التي لا شبهة في حقيَّتها، كاليد والعصا، وكان من استدلالهم أنهم قالوا: لو كان هذا سحراً.. فأين حبالنا وعصينا، وقيل[3]: إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه من سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة.

وفي هذا: إشارة إلى أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان بموسى،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

وإلا فعل بهم ما أوعدهم به، وإلى أن[1] القوم شاهدوا في رؤية الآيات أنوار الذات والصفات، فهان عليهم عظائم البليات، ومن آثر الله على الأشياء.. هان عليه ما يلقى في ذات الله، وقد قال بعض الكبار: ليخفف عنك ألم البلاء علمُك بأن الله هو المبتَلي.

والمعنى: أي قالوا لن نختار اتباعك، وكوننا من حزبك، وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات، وهي: المعجزة التي أتتنا، وعلمنا صحتها، وفي قولهم هذا توهين له، واستصغار لما هددهم به، وعدم اكتراثٍ بقوله، وفي نسبة المجيء إليهم، وإن كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم، لأنهم كانوا أعرف بالسحر من غيرهم، وقد علموا أن ما جاء به ليس بسحر، فكانوا على جلية من العلم بالمعجز، وغيرهم يقلدهم في ذلك، وأيضاً فكانوا هم الذين حصل لهم النفع بها، وكانت بيناتٍ واضحةً في حقهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾؛ أي: خلقنا وسائر المخلوقات، معطوف على ما جاءنا؛ أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات، وعلى عبادة الذي فطرنا وتأخيره لأن ما في ضمنه آية عقلية نظرية، وما شاهدوه آية حسية ظاهرة.

والحاصل: أنه لما لاحت لهم حجة الله في المعجزة.. بدؤوا بها، ثم ترقوا إلى القادر على خرق العادة، وهو الله تعالى، وذكروا وصف الاختراع، وهو قولهم: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ تبييناً لعجز فرعون، وتكذيبه في ادعاء ربوبيته وإلاهيته، وهو عاجز عن صرف ذبابة، فضلاً عن اختراعها، وقيل: الواو للقسم، وجوابه: محذوف لدلالة المذكور عليه؛ أي: وحق الذي فطرنا لا نؤثرك، ولا يكون ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ جواباً، لأنه لا يجاب في النفي بلن إلا في شاذ من الشعر، وقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده بقوله: ﴿لأقطعن﴾.. الخ؛ أي: فأصنع ما أنت صانعه، أو احكم فينا ما أنت فيه حاكم، من القطع والصلب، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: فاحكم وأجر علينا ما قضى الله لنا في الأزل من

---

(١) المراح.

الشهادة ما أنت قادر على الحكم علينا.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى﴾ وتحكم ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: إنما سلطانك علينا، ونفوذ أمرك فينا في هذه الحياة الدنيا، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة في محل النصب على الظرفية، أو على المفعولية، و﴿ما﴾ كافة.

والمعنى[1]: أي لأنك إنما تحكم علينا في الدنيا فقط، وليس لك علينا سلطان في الآخرة، وأنت تجري على حكمك في الآخرة، وما لنا من رغبة في حلاوة الدنيا، ولا رهبة من عذابها، وقرأ[2] الجمهور: ﴿تَقْضِى﴾ مبنياً للفاعل، خطاباً لفرعون، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، ﴿تقضي﴾ مبنياً للمفعول ﴿هذه الحياة﴾ بالرفع اتسع في الظرف، فأُجري مجرى المفعول به، ثم بنىٰ الفعل لذلك، ورُفع به، كما تقول: صيم يوم الجمعة.

ولم يصرح في القرآن بأنه أنفذ فيهم وعيده، ولا أنه قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على الجذوع، بل الظاهر أنه تعالى سلمهم منه، ويدل على ذلك قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وقيل: أنفذ فيهم وعيده، وصلبهم على الجذوع، ذكره أبو حيان في «البحر» ولكن[3] الراجح: أنه نفَّذ ذلك، كما يرشد إلى ذلك قول ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداءً بررةً ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا ﴿بِـ﴾ـربوبية ﴿رَبِّنَا﴾ وألوهية خالقنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا﴾ ويستر عنا ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ وذنوبنا من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة، لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية، حتى نتأثر بما وعدتنا به من القطع والصلب.

فائدة[4]: والمغفرة صيانة العبد عما استحقه من العقاب، للتجاوز عن ذنوبه، من الغفر، وهو إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس، والخطايا: جمع الخطية، والفرق بينها وبين السيئة: أن السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات، والخطية فيما يقصد بالعرض، لأنها من الخطأ، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

﴿ٱلسِّحْرِۗ﴾ عطف على خطايانا؛ أي: وليغفر لنا السحر الذي عملنا في معارضة موسى، رغبةً في خيرك، ورهبةً من شرك، بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية، خصوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم، إظهاراً لغاية نفرتهم منه، ورغبتهم في مغفرته ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿خَيۡرٞ﴾ منك ثواباً إن أطعناه ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ أي: أدوم منك عقاباً إن عصيناه؛ أي: خيره خير من خيرك، وعذابه أدوم من عذابك، قال الحسن: سبحان الله لقوم كفارهم أشد الكافرين كفراً ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا: ﴿اقض ما أنت قاض﴾ في ذات الله تعالى، والله إن أحدهم اليوم ليصحب القرآن ستين عاماً، ثم إنه ليبيع دينه بثمن حقير.

ثم ختم السحرة كلامهم بشرح أحوال المجرمين، وأحوال المؤمنين يوم العرض والحساب، عظةً لفرعون، وتحذيراً له من نقمة الله وعذابه السرمدي، وترغيباً له في ثوابه الأبدي فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الشأن والحال، وهو تعليل من جهتهم، لكونه تعالى خيراً وأبقى؛ أي: لأنه ﴿مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ﴾ يوم القيامة حالة كونه ﴿مُجۡرِمٗا﴾؛ أي: متلبساً بالكفر والمعاصي، متوغلاً في إجرامه، منهمكاً فيه، بأن يموت على الكفر والمعاصي، ولأنه مذكور في مقابلة المؤمن ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم، فينتهي عذابه ويستريح، وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً ينتفع بها.

والمعنى[1]: أي إن من يلق الله تعالى وهو مجرم بكفره ومعاصيه.. فإن له جهنم لا يموت فيها فينتهي عذابه، ولا يحيا حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم، قال المبرد: لا يموت ميتةً مريحةً، ولا يحيا حياةً ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي، ويبلغ به حالة الموت في المكروه، إلا أنه لا يعطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت، إذا كان غير منتفع بحياته، كما قالت زوج صخر حين سئلت عنه وهو مريض: لا هو حي فيرجى، ولا ميت فينعىٰ ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى يوم القيامة حالة كونه ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ به تعالى وبما

---

(١) المراغي.

جاء من عنده من المعجزات، التي من جملتها ما شاهدناه، وحالة كونه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي جاءت به رسله، والصالحة كالحسنة، صفة جارية مجرى الاسم، ولذلك لا تذكر غالباً مع الموصوف، وهي ككل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها؛ أي: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ جمع العليا، تأنيث الأعلى؛ أي: المنازل الرفيعة في الجنة، وفيه[1] إشارة إلى الفرق بين أهل الإيمان المجرد، وبين الجامع بين الإيمان والعمل، حيث إن الدرجات العالية للثاني وغيرها لغيره.

والمعنى[2]: أي ومن لقي ربه مؤمناً به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات، التي من جملتها ما رأيناه وشاهدناه، ثم عمل صالح الأعمال.. فهؤلاء لهم بسبب إيمانهم، وجليل أعمالهم، المنازل الرفيعة، والدرجات العالية.

وفي «الصحيحين»: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم، كما ترون الكوكب العابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» وفي «السنن» «أن أبا بكر وعمر لمنهم ونعما» ثم فسر تلك الدرجات العلىٰ بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات العلىٰ ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء، واللبن، والخمر، والعسل، حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مقدرين الخلود ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات، فهو حال من الضمير في لهم، والعامل: معنى الاستقرار، أو الإشارة ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكور من الثواب ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهر من دنس الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا لكون ثواب الله تعالى أبقى.

والجزاء[3]: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

يقال: جزيته كذا بكذا، والفرق بين الأجر والجزاء: أن الأجر يقال فيما كان من عقد، وما يجري مجرىٰ العقد، ولا يقال إلا في النفع دون الضر، والجزاء يقال فيما كان من عقد ومن غير عقد، ويقال في النافع والضار.

والمعنى[1]: أي تلك الدرجات العلىٰ، هي جنات إقامة، تجري من تحت غرفها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الفوز الذي أوتوه، جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر، ومن تدسية أنفسهم بأوضار الذنوب والآثام، وعلى عبادتهم لله وحده، لا شريك له، واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاؤوا به من عند ربهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ شروع في بيان إنجاء بني إسرائيل، وإهلاك عدوهم، وقد تقدم في البقرة، وفي الأعراف، وفي يونس، و(اللام) في ﴿لقد﴾: موطئة للقسم وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أوحينا إلى موسى، بعد إجراء الآيات التسع في نحو عشرين سنة، كما في «الإرشاد» لكن يخالفه ما في بعض الروايات المشهورة، من أن موسى ـ عليه السلام ـ دعا ربه في حق فرعون وقومه، فاستجيب له، ولكن أثره بعد أربعين سنة، على ما قالوا عند قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: سر بعبادي بني إسرائيل ليلاً، من أرض مصر إلى ساحل البحر، لئلا يعوقهم أعوان فرعون، فـ﴿أَنْ﴾: مفسرة بمعنى أي، أو مصدرية؛ أي: بـ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ والسري، والإسراء: سير الليل، وقرأ[2] نافع، وابن كثير: بكسر نون ﴿أَنِ﴾ وهمزة وصل.

وفي التعبير[3] عن بني إسرائيل ﴿بِعِبَادِى﴾ إظهار للعناية بأمرهم والرحمة، وتنبيه إلى قبح صنيع فرعون بهم، إذ هو قد استعبدهم، وفعل بهم من ضروب الظلم ما فعل، ولم يراقب فيهم مولاهم الحق.

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾؛ أي: فأجعل لهم بالضرب بعصاك طريقاً في البحر يابساً، ليس فيه وحل ولا نداوة، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً؛ أي: جعل له نصيباً، أو فاتخذ واعمل لهم في البحر طريقاً يابساً، من قولهم: ضرب اللبن: إذا عمله.

والطريق[1]: كل ما يطرقه طارق، معتاداً كان أو غير معتاد، قال الراغب: الطريق: السبيل الذي يطرق بالأرجل ويضرب، والبحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، والمراد هنا: بحر القلزم، قال في «القاموس»: القلزم: هو بلد بين مصر ومكة، قرب جبل الطور، وإليه يضاف بحر القلزم، لأنه على طرفه، أو لأنه يبتلع من ركبه، لأن القلزمة: الابتلاع، ومعنى ﴿يبساً﴾: يابساً، وصف به الفاعل للمبالغة، وذلك أن الله تعالى، أيبس لهم تلك الطريق، حتى لم يكن فيها ماء ولا طين، واليبس: المكان الذي كان فيه ماء فذهب.

وقرأ الحسن وأبو المتوكل والنخعي[2]: ﴿يَبۡسًا﴾ بسكون الباء، على أنه مخفف من يبساً المحرك، أو جمع يابس كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيداً، وقرأ أبو حيوة، والشعبي، وأبو رجاء، وابن السميقع ﴿يابساً﴾ بألف اسم فاعل، قال أبو عبيدة: اليبس محرك الحروف، بمعنى اليابس، يقال: شاة يبس؛ أي: يابسة ليس لهم لبن، وقال ابن قتيبة: يقال لليابس: يَبَسٌ ويَبْسٌ.

وقوله: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ حال مقدرة من المأمور؛ أي: من موسى، والدرك: محركةً اسم من الإدراك، كالدرك بالسكون، والدرك: اللحاق بهم من فرعون وجنوده؛ والمعنى: فاجعل لهم طريقاً في البحر يبساً، حالة كونك آمناً لا تخاف من أن يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ الغرق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ بالألف والرفع، وهي أرجح، لعدم الجزم في ﴿تخشى﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفةً أخرى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط وزاد المسير.
(٣) البحر المحيط.

لـ﴿طَرِيقًا﴾ مع حذف العائد؛ أي: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ فيه ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ فيه، وقرأ الأعمش، وحمزة، وابن أبي ليلى: ﴿لا تخف﴾ بالجزم على جواب الأمر، أو على نهيٍ مستأنفٍ، قاله الزجاج، وقرأ أبو حيوة، وطلحة، والأعمش: ﴿دركاً﴾ بسكون الراء، والجمهور: بفتحها، والدرك والدرك: اسمان من الإدراك؛ أي: لا يدركك فرعون وجنوده، ولا يلحقونك ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أنت ولا قومك غرقاً، وعطفه على قراءة الجمهور على ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ ظاهر، وأما على قراءة الجزم، فخرج على أن الألف جيء بها لأجل أواخر الآي فاصلةً، نحو قوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أو على أنه إخبار مستأنف؛ أي: وأنت ﴿لا تخشى﴾ أو على أنه مجزوم بحذف الحركة المقدرة على لغة من قال: ألم يأتيك، وهي لغة قليلة، وقال الشاعر:

إِذَا ٱلْعَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقِ وَلاَ تَرَضَّاهَا وَلاَ تُمَلِّقِ

وحاصل معنى الآية: أي[1] ولقد أوحينا إلى رسولنا موسى، حين تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيب لأمر ربه، وتمادى في طغيانه، بـ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ الذين أرسلتك لإنقاذهم من هذا الطاغية، واخرج بهم من مصر، فاتخذ لهم طريقاً يابساً في البحر، ولا تخف من فرعون وقومه أن يدركوك، ولا تخشى أن يغرقك البحر.

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ففعل موسى ما أمر به من الإسراء بهم، وضرب الطريق وسلوكه، فتبعهم فرعون حالة كونه مصاحباً بجنوده وأعوانه، حتى لحقوهم وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها، يقال: أتبعهم؛ أي: تبعهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحقتهم، فالفرق بين تبعه وأتبعه، أن يقال: أتبعه إتباعاً، إذا طلب الثاني اللحوق بالأول، وتبعه تبعاً، إذا مر به، ومضى معه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ بسكون التاء، وأتبع: قد يكون بمعنى تبع فيتعدى إلى واحد، وقال الزجاج: تبع الرجل الشيء وأتبعه، بمعنى واحد .اهـ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقرأ أبو عمرو في رواية، والحسن: ﴿فأتبعهم﴾، بتشديد التاء، وكذا عن الحسن في جميع ما في القرآن إلا ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وفي[1] قراءة من قرأ بالتشديد، دليل على أنه اتبعهم ومعه الجنود، ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فمعناه: ألحق جنوده بهم، وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ، وجائز أن لا يكون، إلا أنه قد كان معهم، وقال الزجاج: وقرىء: ﴿وجنوده﴾ عطفاً على فرعون، روي أن موسى خرج بهم أول الليل، وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً، فأخبر فرعون بذلك فأتبعهم بعساكره، وكانت مقدمته سبع مئة ألف، فقص أثرهم فلحقهم، بحيث تراءىٰ الجمعان، فعند ذلك ضرب موسى ـ عليه السلام ـ بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كل فرق كالطود العظيم، وبقي الماء قائماً بين الطرق، وعبر موسى بمن معه من الأسباط سالمين، وتبعهم فرعون بجنوده ﴿فَغَشِيَهُم﴾؛ أي: سترهم وعلاهم ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: من بحر القلزم ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ وسترهم؛ أي: الموج الهائل، الذي لا يعلم كنهه إلا الله، والتكرير للتعظيم والتهويل، كما في قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾.

والظاهر[2]: أن الضمير في ﴿غَشِيَهُمْ﴾ في الموضعين: عائد على فرعون وجنوده، وقيل: الأول على فرعون وقومه، والثاني على موسى وقومه، وفي الكلام حذف على هذا القول، تقديره: فنجا موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، وقرأ الجمهور[3] ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ على وزن فعل مجرد من الزيادة، وقرأت فرقة، منهم الأعمش ﴿فغشاهم من اليم ما غشيهم﴾ بتضعيف العين، فالفاعل في القراءة الأولى: ﴿مَآ﴾ وفي الثانية الفاعل الله؛ أي: فغشاهم الله، قال الزمخشري: أو فرعون، لأنه الذي ورط جنوده، وتسبب لهلاكهم، وقال: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة؛ أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾؛ أي: سلك بهم مسلكاً أداهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا معاً، حيث ماتوا

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتصل بالعذاب الخالد الأخروي ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾؛ أي: وما أرشدهم قط إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية، وهو[1] تقرير لإضلاله، وتأكيد له، إذ: رب مضل قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه، وفيه نوع تهكم، فإن نفي الهداية من شخص مشعر بكونه ممن تتصور منه الهداية في الجملة، وذلك إنما يتصور في حقه بطريق التهكم. أو المعنى؛ أي: أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى طريق النجاة، لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه، لكونهم بين يديه، يمشون في طريق يابسة، وبين أيديهم البحر.

ثم شرع سبحانه يعدد نعمه على بني إسرائيل، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وقلنا لهم بعد إغراق فرعون وقومه، وإنجائهم منهم: يا أولاد يعقوب ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون وقومه، حيث كانوا يذبحون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، ويستخدمونكم في الأعمال الشاقة، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر، بمرأى من بني إسرائيل، كما قال: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ والعدو: يجيء بمعنى الوحدة، وبمعنى الجماعة ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ بوساطة نبيكم موسى - عليه السلام - ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾؛ أي: إتيان جانبه الأيمن، نظراً إلى السالك من مصر إلى الشام، وإلا فليس للجبل يمين ولا يسار، والمراد: يمين الشخص، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل، معناه: عن يمينك من الجبل؛ أي: واعدناكم إتيان موسى للمناجاة، وإنزال التوراة عليه، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى نظراً إلى ملابستها إياهم، وسراية منفعتها إليهم، قال النحاس: والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه، لنكلمه بحضرتكم، فتسمعوا الكلام، وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور، فالوعد كان لموسى، وإنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم، وانتصاب[2] ﴿جَانِبَ﴾ على أنه مفعول به، لا على الظرفية، لأنه مكان معين غير مبهم، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة، قال مكي: وهذا أصل لا خلاف فيه، وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

ويعقوب: ﴿ووعدناكم﴾ بغير ألف واختاره أبو عبيدة، لأن الوعد، إنما هو من الله لموسى خاصةً، والمواعدة: لا تكون إلا من اثنين، وقرأ[1] حمزة، والكسائي، وطلحة: ﴿قد أنجيتكم﴾ ﴿وواعدتكم﴾ ﴿ما رزقتكم﴾ بتاء الضمير، وباقي السبعة: بنون العظمة، وقرأ حميد ﴿نجيناكم﴾ بتشديد الجيم من غير ألف قبلها، وبنون العظمة و﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾: منصوب على أنه صفة للجانب وقرىء بجر ﴿الأيمن﴾ على أنه صفة للمضاف إليه.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ﴾ في التيه ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ وهو: شيء حلو أبيض مثل الثلج، كان ينزل على الشجر كالطل، من الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع، يقال له: الترنجبين، معرب كرنكبين ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وهو: طائر يقال له: السماني، يبعثه عليهم ريح الجنوب، فيذبح الرجل منهم ما يكفيه، والتيه. المذكور آنفاً: المفازة التي يُتَاه فيها، وذلك حين أمروا بأن يدخلوا مدينة الجبارين فأبوا ذلك، فعاقبهم الله بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، كما مر في سورة المائدة، ومثل[2] ذلك كمثل الوالد المشفق، يضرب ولده العاصي ليتأدب، وهو لا يقطع عنه إحسانه، فقد ابتلوا بالتيه، ورزقوا بما لا تعب فيه.

وقلنا لكم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: من لذائذ ما رزقناكم أو حلالاته، قال الراغب: أصل الطيِّب ما تستلذه الحواس والنفس، والطعام الطيب في الشرع: ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنه متىٰ كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً لا يستوخم، وإلا فإنه وإن كان طيباً عاجلاً لم يطب آجلاً.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾؛ أي: ولا تتجاوزوا الحد ﴿فِيهِ﴾؛ أي: فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وبالسرف والبطر، والمنع من المستحق، والادخار منه لأكثر من يوم وليلة، قال ابن عباس: لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه، يعني: بغير حق ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ جواب للنهي، أي: فيلزمكم عقوبتي، وتجب

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لكم، من حَل الدَّين يحل بالكسر: إذا وجب أداؤه، وأما يحُل بالضم: فهو بمعنى الحلول؛ أي: النزول، والغضب ثوران دم القلب عند إرادة الانتقام، وإذا وصف الله تعالى به، فالمراد: الانتقام دون غيره، والقول الأسلم الذي عليه السلف أن يقال: إن غضب الله سبحانه صفة ثابتة له، نعتقدها ولا نعطلها، أثرها الانتقام ممن استحقه؛ أي: ولا تطغوا في رزقي بالإخلال بشكره، وتعدي حدودي فيه، بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي.

والظاهر[١]: أن الخطاب لمن نجا مع موسى بعد إغراق فرعون، وقيل: لمعاصري الرسول ﷺ اعتراضاً في أثناء قصة موسى، توبيخاً لهم، إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله، فهو على حذف مضاف؛ أي: أنجينا آباءكم من تعذيب آل فرعون، وخاطب الجميع بـ﴿واعدناكم﴾ وإن كان الموعودون هم السبعين الذين اختارهم موسى ـ عليه السلام ـ لسماع كلام الله، لأن سماع أولئك السبعين تعود منفعته على جميعهم، إذ به تطمئن قلوبهم وتسكن. وقرأ زيد بن علي ﴿ولا تطغوا﴾ بضم الغين ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾؛ أي: ومن ينزل عليه غضبي.. ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾؛ أي: شقي وهلك، وتردى وسقط في الهلاك الأبدي، وأصله: أن يسقط من جبل فيهلك؛ أي: صار إلى الهاوية، وسقط فيها، ومن بلاغات الزمخشري: من أرسل نفسه مع الهوى فقد هوى في أبعد الهوى.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿فَيَحِلَّ﴾ بكسر الحاء ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ بكسر اللام؛ أي: فيجب ويلحق، وقرأ الكسائي: بضم الحاء في ﴿يحل﴾ وضم اللام في ﴿يحلل﴾؛ أي: ينزل، وهي قراءة قتادة، وأبي حيوة، والأعمش، وطلحة، ووافق ابن عيينة في ﴿يحلل﴾ فضم اللام، قال[٣] الفراء: والكسر أحب إلي، لأن الضم من الحلول، ومعناه: الوقوع، ويحل بالكسر: يجب، وجاء التفسير بالوجوب لا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) زاد المسير.

بالوقوع، وفي «الإقناع» لأبي علي الأهوازي: ما نصه: قرأ ابن غزوان عن طلحة: ﴿لا يحلن عليكم غضبي﴾ بلام ونون مشددة، وفتح اللام وكسر الحاء، وفي «كتاب اللوامح» قرأ قتادة، وعبد الله بن مسلم بن يسار، وابن وثاب، والأعمش: ﴿فيحل﴾ بضم الياء وكسر الحاء من الإحلال، فهو متعد من حل بنفسه، والفاعل فيه: مقدر ترك لشهرته، تقديره: فيحل طغيانكم فيه غضبي عليكم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾؛ أي: لستار الذنوب ﴿لِّمَن تَابَ﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي، التي من جملتها الطغيان فيما ذكر.

فائدة: قال في «المفاتيح شرح المصابيح»[1]: الفرق بين الغفور والغفار، أن الغفور: كثير المغفرة، وهي: صيانة العبد عما استحقه من العقاب، للتجاوز عن ذنوبه، من الغفر وهو: إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس، ولعل الغفار أبلغ منه، لزيادة بنائه، وقيل: الفرق بينه وبين الغفار، أن المبالغة فيه من جهة الكيفية، وفي الغفار: باعتبار الكمية. انتهى.

﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مما ندب إليه الشرع وحسنه، وفيه[2]: ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر، وحث على التوبة والإيمان ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾؛ أي: استقام على الهدى، ولزمه حتى مات، وهو إشارة إلى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران، وقيل[3]: لم يشك في إيمانه، وقيل: أقام على السنة والجماعة، وقيل: تعلم العلم ليهتدى به، وقيل: علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً، والأول أرجح مما بعدهُ ﴿ثُمَّ﴾[4] للتراخي الرتبي، قال في «بحر العلوم»: ثم: لتراخي الاستقامة على الخير، عن الخير نفسه، وفضلها عليه، لأنها أعلى منه وأجلُّ، لأن الشأن كله فيها، وهي مزلة أقدام الرجال، قال ابن عطاء ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾؛ أي: رجع من طريق

---

(١) المفاتيح.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

المخالفة إلى طريق الموافقة، وصدق موعود الله فيه، واتبع السنة ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾؛ أي: أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلكاً وطريقاً.

ولما نهض[1] موسى ـ عليه السلام ـ ببني إسرائيل، إلى جانب الطور الأيمن، حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل.. رأى على وجه الاجتهاد أن يقدم وحده، مبادراً إلى أمر الله، وحرصاً على القرب منه، وشوقاً إلى مناجاته، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وقال لهم موسى: تسيرون إلى جانب الطور، فلما انتهى موسى ـ عليه السلام ـ وناجى ربه.. زاده في الأجل عشراً، وحينئذ وقفه على استعجاله دون القوم ليخبره موسى أنهم على الأثر، فيقع الإعلام له بما صنعوا، فقال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي[2]: وقلنا له: أي شيء حملك على العجلة، وأوجب سبقك منفرداً عن قومك؟ وهم النقباء السبعون المختارون للخروج معه إلى الطور، وذلك أنه سبقهم شوقاً إلى ميعاد الله، وأمرهم أن يتبعوه، قال في «العرائس»: ضاق صدر موسى من معاشرة الخلق، وتذكر أيام وصال الحق، فعلَّة العجلة: الشوق إلى لقاء الله تعالى، و﴿مَآ﴾ للاستفهام الإنكاري مبتدأ، وجملة ﴿أَعۡجَلَكَ﴾ خبره.

وهو[3] سؤال عن سبب العجلة، يتضمن إنكارها، من حيث إنها نقيصة في نفسها، انضم إليها إغفال القوم، وإيهام التعظيم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين، وقدم جواب الإنكار لأنه أهم؛ أي: وما حملك على العجلة عن قومك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هُمۡ﴾؛ أي: قومي ﴿أُوْلَآءِ﴾؛ أي: قريبون مني يأتون ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾؛ أي: من بعدي يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة، لا يعتد بها، يتقدم بها بعض الرفقة على بعض، ثم أعقبه بجواب السؤال فقال: ﴿وَعَجِلۡتُ﴾؛ أي: وسارعت ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ أي: إلى الموعد الذي واعدت بسبقي إياهم ﴿رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ عني؛ أي: لتزداد رضاً عني، فإن المسارعة إلى امتثال أمرك، والوفاء

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.

بعهدك، توجب مرضاتك، وهذا[1] دليل على جواز الاجتهاد. ومعنى ﴿عجلت إليك﴾: عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه، لترضىٰ عني، يقال: رجل عجل وعجول وعجلان: بَيِّنُ العجلة، والعجلة: خلاف البطء.

قال أبو حاتم[2]: قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون ﴿أولا﴾ مقصورةً وأهل الحجاز يقولون ﴿أولاء﴾ ممدودةً.

وقرأ الحسن وابن معاذ عن أبيه[3]: ﴿أولائي﴾ بياءٍ مكسورةٍ، وابن وثاب، وعيسى في رواية: ﴿أولا﴾ بالقصر وقرأت فرقة: ﴿أولاي﴾ بياء مفتوحة، وقرأ عيسى، ويعقوب، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وزيد بن علي ﴿على إثري﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء، وحكى الكسائي ﴿أثري﴾ بضم الهمزة وسكون الثاء، وتروى عن عيسى، وقرأ الجمهور ﴿أُوْلَآءِ﴾ بالمد والهمز ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ بفتح الهمز والثاء.

والمعنى: أي[4] قال موسى مجيباً ربه: هم أولاء بالقرب مني آتون على أثري، وما تقدمتهم إلا بخطاً يسيرةٍ لا يعتد بها، وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة، يتقدم بها بعض الرفقة على بعض، وعجلت إلى موعدك رب لتزداد عني رضاً بالمسارعة إلى امتثال أمرك، والوفاء بعهدك.

وخلاصة معذرته[5]: إني اجتهدت أن أتقدم قومي بخطا يسيرة، ظناً مني أن مثل ذلك لا ينكر، فأخطأت في اجتهادي، وقد حملني على ذلك طلب الزيادة في مرضاتك، وكأنه ـ عليه السلام ـ يقول: إنما أغفلت هذا الأمر مبادرةً إلى رضاك، ومسارعةً إلى الميعاد، والموعود بما يسر يود لو ركب أجنحة الطير، ليحظىٰ بما يبتغي ويريد.

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.
(٥) المراغي.

وجملة قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾: مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله له؟ فقيل: قال الله سبحانه له: فإنا قد فتنا وابتلينا واختبرنا قومك بعبادة العجل، وأوقعناهم في فتنة عبادته من بعد ذهابك من بينهم، وانطلاقك من عندهم، وهم الذين خلفهم موسى مع هارون على ساحل البحر، وكانوا ست مئة ألف، ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً، قال ابن الأنباري: صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل، من بعد انطلاقك من بينهم، وهم الذين خلفهم مع هارون .اهـ وهذه الفتنة، وقعت لهم بعد خروج موسى بعشرين يوماً ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلى عبادة العجل؛ أي: دعاهم إلى الضلالة باتخاذ العجل، وكان[1] من قوم يعبدون البقر، فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر، وفي قلبه ما فيه من عبادة العجل، وكان من قبيلة تسمى بالسامرة، وقال لمن معه من بني إسرائيل: إنما تخلىٰ موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه، لما صار معكم من الحلي، وهي حرام عليكم، وأمرهم بإلقائها في النار، فكان من أمر العجل ما كان.

قال في «الأسئلة المحقمة»: أضاف الإضلال إلى السامري، لأنه كان حصل بتقريره ودعوته، وأضاف الفتنة إلى نفسه، لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقه، وعلى هذا أبداً إضافة الأشياء إلى أسبابها ومسبباتها. انتهى. وإخباره[2] تعالى بوقوع هذه الفتنة، عند قدومه ـ عليه السلام ـ إما باعتبار تحققها في علمه ومشيئته تعالى، وإما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع، أو لأن السامري قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى، وتصدىٰ لترتيب مباديها، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار.

والسامري: رجل من عظماء بني إسرائيل، منسوب إلى قبيلة السامرة منهم، أو علجٌ من أهل كرمان، من قوم يعبدون البقر، وحين دخل ديار بني إسرائيل أسلم معهم وفي قلبه حب عبادة البقر، فابتلى الله بني إسرائيل، فكشف له عن

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

بصره، فرأى أثر فرس الحياة لجبريل، ويقال له: حيزوم، وأخذ من ترابه وألقاه - بوحي الشيطان - في الحلي المذابة، كما سيأتي.

وكان[1] السامري قد رباه جبريل، فكان يغذيه من أصابعه الثلاثة، فيخرج له من أحدها لبن، ومن الأخرىٰ سمن، ومن الأخرىٰ عسل، قيل اسمه موسى بن ظفر، وقيل: منجا، وهو ابن خالة موسى، أو ابن عمه، وذلك لأن فرعون لما شرع في ذبح الولدان، كانت المرأة من بني إسرائيل تأخذ ولدها وتلقيه في حفيرة، أو كهف من جبل، أو غير ذلك، وكانت الملائكة تتعهد هذه الأطفال بالتربية، حتى يكبروا فيدخلوا بين الناس.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَأَضَلَّهُمُ﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ أبو معاذ، وفرقة ﴿وأضلهم﴾ برفع اللام مبتدأ و﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾ خبره وكان أشدهم ضلالاً، لأنه ضال في نفسه، مضل غيره.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الميعاد ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بعدما استوفى الأربعين، ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وأخذ الألواح المكتوب فيها التوراة، وكانت ألف سورة، كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً، حالة كونه ﴿غَضۡبَٰنَ﴾؛ أي: شديد الغضب على قومه، وحالة كونه ﴿أَسِفٗاۚ﴾؛ أي: حزيناً بما فعلوا، روي أنه لما رجع موسى.. سمع الصياح، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة.

والمعنى: فانصرف موسى إلى قومه بني إسرائيل، بعد انقضاء الليالي الأربعين، مغتاظاً من قومه، حزيناً لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى، والاستفهام هنا تقريري خلافاً لما قاله بعضهم من أنه إنكاري، فإنه غير صواب؛ أي: وعدكم وعداً صادقاً، بحيث لا سبيل لكم إلى إنكاره، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادي إلى الشرائع والأحكام، ووعدكم

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

الثواب العظيم في الآخرة بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين ودياهم.

قال في «بحر العلوم» ﴿وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾؛ أي: متناهياً في الحسن، فإنه تعالى وعدهم أن يعطيهم التوراة، التي فيها هدىً ونور، ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل.

وفيه إشارة(١) إلى أن الله تعالى إذا وعد قوماً.. لا بد له من الوفاء بالوعد، فيحتمل أن يكون ذلك الوفاء فتنة للقوم، وبلاءً لهم، كما كان لقوم موسى، إذ وعدهم الله بإيتاء التوراة، ومكالمته موسى وقومه السعبين المختارين، فلما وفىٰ به.. تولدت لهم الفتنة والبلاء من وفائه، وهي الضلال وعبادة العجل، ولكن الوعد لما كان موصوفاً بالحسن.. كان البلاء الحاصل من الوعد الحسن بلاءً حسناً، وكان عاقبة أمرهم التوبة والنجاة، ورفعة الدرجات.

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ للاستفهام الإنكاري: داخلة على محذوف و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أوعدكم وعداً حسناً، فطال عليكم زمان إنجاز العهد، فأخطأتم بسببه ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ﴾ وقصدتم ﴿أَن يَحِلَّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾؛ أي: عذاب عظيم، وانتقام شديد، كائن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: من مالك أمركم على الإطلاق، بسبب عبادة ما هو مثل في الغباوة والبلادة؛ أي: أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾؛ أي: وعدكم إياي بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات، على إضافة المصدر إلى مفعوله، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على كل واحد، من شقَّي الترديدِ على سبيل البدل، كأنه قيل: أنسيتم الوعد بطول العهد، فأخلفتموه خطأً، أم أردتم حلول الغضب عليكم، فأخلفتموه عمداً.

لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور، وقيل: وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقفوا، فأجابوه و﴿قَالُوا۟

---

(١) روح البيان.

﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾؛ أي: وعدنا إياك الثبات على ما أمرتنا به ﴿بِمَلۡكِنَا﴾؛ أي: بقدرتنا واختيارنا.

لكن غلبنا من كيد السامري وتسويله، وذلك أن المرء إذا وقع في البلية والفتنة.. لم يملك نفسه، ويكون مغلوباً، والملك: القدرة.

والمعنى[١]: أي قالوا: ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك، إلا لأنا لم نملك أمرنا، فلو خلينا وأنفسنا، ولم يسول لنا السامري ما سوله.. لما أخلفنا، وفي هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب، ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة.

وقصارى كلامهم: أن السامري سول لنا ما سول، وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك، وقرأ الأخوان[٢]: الكسائي وحمزة، والحسن، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلىٰ، وقعنب: ﴿بمُلْكِنا﴾ بضم الميم، وقرأ زيد بن علي، ونافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، وابن سعدان: بفتحها وباقي السبعة: بكسرها، وقرأ عمر - رضي الله عنه -: ﴿بِمَلَكِنَا﴾ بفتح الميم واللام، وحقيقته: بسلطاننا، فالملك والملك، بمنزلة النَّقَض والنَّقْض، والظاهر: أنها لغات، والمعنى واحد.

وفرق أبو علي، وغيره بين معانيها، فمعنى الملك بالضم: السلطان والقدرة؛ أي: إنه لم يكن لنا ملك فتخلف موعدك بسلطانه، وإنما أخلفناه بنظر أدى إليه ما فعل السامري، والملك بالفتح: المصدر، يقال: ملكت الشيء أملكه ملكاً، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأنا ملكنا الصواب، ولا وفقنا له، بل غلبتنا أنفسنا، والملك بالكسر: ما حوته اليد، وكثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان، ومعناها: كمعنىٰ التي قبلها، والمصدر: في هذين الوجهين: مضاف إلى الفاعل، والمفعول: مقدر؛ أي: بملكنا الصواب

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقال الزمخشري؛ أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا؛ أي: لو ملكنا أمرنا، وخلينا ورأينا.. ما أخلفناه، ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده.

واختلف فيمن قال هذا لموسى على قولين[1]:

أحدهما: أنهم الذين لم يعبدوا العجل.

والثاني: عابدوه. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾؛ أي: ولكنا أمرنا أن نحمل ﴿أَوْزَارًا﴾ وأحمالاً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: من حلي القوم القبطيين، التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس، وفي الواقع: ليس للعرس؛ أي أمرنا موسى باستعارتها من آل فرعون، والخروج بها، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم، أو وليمة، والأوزار: الأثقال أو الآثام، سمي به ما استعاروه من القبط لثقله، أو لسبب أنهم أثموا في ذلك باتخاذها عجلاً، أو بعدم ردهم العارية إلى أصحابها، وقيل: الأوزار: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً؛ أي: آثاماً، لأنه لا يحل لهم أخذها، ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ورويس، وشيبة، وحميد، ويعقوب: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ بضم الحاء وكسر الميم المشددة، وقرأ أبو رجاء: ﴿حملنا﴾ بضم الحاء وكسر الميم المخففة، وقرأ الأخوان: الكسائي، وحمزة، وأبو عمرو، وابن محيصن ﴿حملنا﴾ بفتح الحاء والميم مخففة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، وما حملوها كرهاً ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾؛ أي: فطرحنا تلك الزينة والحلي في النار، أو في[2] الحفيرة، أوقدت فيها النار طلباً للخلاص من إثمها، وكان أشار عليهم بذلك السامري، فحفرت حفرة وسجرت فيها النار، وقذف كل من معه شيء ما عنده من ذلك في النار، وقذف السامري ما معه فيها، وقيل: المعنى طرحناها إلى السامري لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرىٰ في رأيه.

---

(١) زاد المسير.

(٢) البحر المحيط.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما عنده من الحلي في النار، ومعنى ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل[١] قذفنا إياها ألقىٰ السامري ما كان معه في النار، أراهم أنه يُلقي حلياً في يده مثل ما ألقوا، وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطىء حيزوم - فرس جبريل عليه السلام - أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتاً صار حيواناً ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾؛ أي: للقائلين، السامريُّ من الحفيرة ﴿عِجْلًا﴾؛ أي: تبيعاً خلقه الله تعالى من الحلي، التي سبكتها النار، والعجل: ولد البقرة ﴿جَسَدًا﴾ بدل من عجلاً؛ أي: جثةً ذا دم ولحم وعظم، أو جسداً من ذهب لا روح له، ولا امتناع في ظهور الخارق على يد الضال ﴿لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك العجل ﴿خُوَارٌ﴾؛ أي: صياح نعت ﴿عِجْلًا﴾ يقال: خار العجل يخور خواراً: إذا صاح؛ أي: له صوت العجاجيل، فسجدوا له، وقيل: خواره كان بالريح، لأنه كان عمل فيه خروقاً، فإذا دخلت الريح في جوفه.. خار، ولم يكن فيه حياة ﴿فَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال السامري ومن وافقه أول ما رأوا لمن توقف من بني إسرائيل ﴿هَٰذَآ﴾ العجل ﴿إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾؛ أي: فضَّل[٢] موسى وأخطأ، ولم يعلم مكان إلٰهه هذا، وذهب يطلبه في الطور، وقيل: المعنى: فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلٰهه وإلٰهكم، وقيل: الناسي هو السامري؛ أي: ترك السامري ما أمر به موسى من الإيمان وضل، كذا قال ابن الأعرابي، وقيل: فنسي السامري أن العجل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ للاستفهام التوبيخي: داخلة على محذوف معلوم من السياق (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا يتفكرون فلا يرون ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة؛ أي: أنه ﴿لا يرجع﴾ العجل ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ ولا كلاماً ولا جواباً؛ أي: ألا يتفكر السامري وأصحابه، فلا يعلمون أن العجل لا يرجع إليهم قولاً من الأقوال، وقرأ الجمهور: برفع ﴿يَرْجِعُ﴾ وقرأ أبو حيوة ﴿أن لا يرجع﴾ بنصب العين، ووافقه على ذلك الزعفراني، وابن صبيح، وأبان،

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

والشافعي محمد بن إدريس الإمام المطلبي، جعلوها ﴿أَنْ﴾ الناصبة للمضارع، وتكون الرؤية من الإبصار؛ أي: ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولاً من الأقوال، فقوله[1] ﴿يَرْجِعُ﴾: من الرجع المتعدي بمعنى الإعادة، لا من الرجوع اللازم بمعنى العود، والمعنىٰ؛ أي: أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولاً؛ أي: لا يرد عليهم جواباً، ولا يكلمهم إذا كلموه، فكيف يتوهمون أنه إلٰه، وهو عاجز عن المكالمة.

وجملة قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ العجل ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لعابديه ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ معطوفة[2] على جملة: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾؛ أي: أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً، ولا يجلب لهم نفعاً، فيخافوه كما يخافون فرعون، ويرجون منه كما يرجون من فرعون، فكيف يقولون ذلك، وفي الكلام[3] توبيخ لهم، إذ عبدوا ما لا يملك ضراً من ترك عبادته، ولا ينفع من عبده، وكان العجل فتنةً من الله تعالى ابتلىٰ به بني إسرائيل.

قال في «التأويلات النجمية»[4] فيه: إشارة إلى أن الله تعالى: إذا أراد أن يقضي قضاءً.. سلب ذوي العقول عقولهم، وأعمىٰ أبصارهم بعد أن رأوا الآيات، وشاهدوا المعجزات، كأنهم لم يروا شيئاً فيها، فلهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: العجل وعجزه ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ أي: شيئاً من القول ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ انتهى.

قال بعضهم:

أَيَا سَامِعاً لَيْسَ ٱلسَّمَاعُ بِنَافِعٍ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا أَنْتَ سَامِعُ
إِذَا كُنْتَ فِيْ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْخَيْرِ عَاجِزاً ... فَمَا أَنْتَ فِيْ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ صَانِعُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

الإعراب

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على فرعون، والجملة: مستأنفة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ (الهمزة): فيه للاستفهام التوبيخي، حذفت الهمزة الأولى، وسهلت الثانية، وهو فعل وفاعل ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به ﴿قَبْلَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿ءَاذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَنْ﴾ وفاعله ضمير يعود على فرعون ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به والمصدر المؤول من ﴿أَنْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿قَبْلَ﴾ تقديره: قبل إذني ﴿لَكُمْ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ (اللام): حرف ابتداء ﴿كبير﴾ خبر ﴿إن﴾ مرفوع و(الكاف): مضاف إليه، وجملة: ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان شأني فيكم.. فأقول لكم و(اللام): موطئة للقسم ﴿أقطعنّ﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على فرعون ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: مفعول به ﴿وَأَرْجُلَكُم﴾: معطوف عليه ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ جار ومجرور حال من الأيدي والأرجل، أي: حالة كونها مختلفات في الاسم والصفة، والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ (الواو): عاطفة و(اللام): موطئة للقسم ﴿أصلبن﴾ فعل مضارع مبني على الفتح، و(الكاف): مفعول به، وفاعله: ضمير يعود على فرعون، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿لأقطعن﴾ على كونها جواب القسم ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أصلبن﴾.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ (الواو): عاطفة و(اللام) موطئة للقسم ﴿تعلمن﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكين؛ في محل الرفع فاعل، أصله: لتعلمونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، والواو لالتقاء الساكنين، فصار ﴿تعلمُن﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿لأقطعن﴾. ﴿أَيُّنَآ﴾ ﴿أي﴾: اسم استفهام مبتدأ مرفوع، و(نا) مضاف إليه ﴿أَشَدُّ﴾ خبره ﴿عَذَابٗا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب، سادة مسد المفعولين لعلم إن كانت على بابها، أو مسد المفعول الواحد، إن كانت عرفانية، لأن الفعل علق بـ﴿أي﴾ الاستفهامية، ويجوز[1] على جعلها عرفانية، أن تكون ﴿أي﴾ موصولةً بمعنى الذي، وبنيت لأنها قد أضيفت، وحذف صدر صلتها و﴿أَشَدُّ﴾ خبر مبتدأٍ محذوف، والجملة الاسمية، صلة: ﴿أي﴾ الموصولة و﴿أي﴾: الموصولة في محل النصب مفعول به لعلم العرفانية، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ﴾ في أحد أوجهه، كما تقدم.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى موسى مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾: ناصب وفعل ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على السحرة، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾: ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُّؤۡثِرَكَ﴾. ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾ والجملة: صلة الموصول ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَآءَنَا﴾. ﴿وَٱلَّذِي﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿مَآ﴾ وأخروا ذكرالباري من باب تقديم الأدنىٰ على الأعلى

(١) الفتوحات.

﴿فَطَرَنَا﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، والجملة: صلة الموصول، ويحتمل أن تكون (الواو) في ﴿وَالَّذِي﴾ للقسم، ﴿الَّذِي﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره نقسم ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ وجواب القسم: محذوف، تقديره: لن نؤثرك، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿فَاقْضِ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره. إذا عرفت ما قلنا لك، وأردت بيان غاية ما نقول لك.. فنقول لك ﴿اقض ما أنت قاض﴾ ﴿اقض﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على فرعون و﴿مَا﴾: مفعول به ﴿أَنتَ قَاضٍ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما أنت قاضيه، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوا﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿تَقْضِي﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿هَذِهِ﴾ ظرف زمان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿تَقْضِي﴾. ﴿الْحَيَاةَ﴾: بدل من اسم الإشارة ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿الْحَيَاةَ﴾، ومفعول ﴿تَقْضِي﴾ محذوف تقديره، إنما تقضي غرضك في هذه الحياة الدنيا، ويجوز[1]: أن تكون ﴿الْحَيَاةَ﴾ مفعول به على الاتساع، ويجوز أن تكون ما في ﴿إِنَّمَا﴾: مصدرية، وجملة ﴿تَقْضِي﴾ مع ﴿مَا﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه اسم ﴿إن﴾ والخبر الظرف، والتقدير: إن قضاءك كائن في هذه الحياة الدنيا فقط، بمعنى إن لك الدنيا فقط، ولنا الآخرة اهـ «سمين» ويجوز كونها موصولة اسم ﴿إن﴾ وعائدها: محذوف؛ أي: إن الذي تقضيه كائن في الحياة الدنيا.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل ﴿بِرَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿آمَنَّا﴾

---

(١) الفتوحات.

والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿لِيَغْفِرَ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿يغفر﴾ ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لغفرانه لنا خطايانا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿وَمَآ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾. ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة: صلة الموصول ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾ وهو العائد على ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ أو من ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب، أو الشرط، أو هما ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به ﴿مُجْرِمًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾ (الفاء) رابطة لجواب من الشرطية ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿لَهُۥ﴾ خبر ﴿إن﴾ مقدم على اسمها ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة: ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿لَا يَمُوتُ﴾: ناف وفعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَمُوتُ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾: أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾ وجملة ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا يَمُوتُ﴾.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب، أو الشرط، أو هما ﴿يَأْتِهِۦ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿مَن﴾ على

كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مُؤْمِنًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِ﴾ ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعل: مستتر يعود على ﴿مَن﴾ والجملة: في محل النصب صفة لـ﴿مُؤْمِنًا﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿أولئك﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾: مبتدأ ثان مؤخر ﴿ٱلْعُلَىٰ﴾ صفة ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ والجملة: من المبتدأ الثاني، وخبره: في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول وخبره: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: بدل من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل والجملة الفعلية: في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿أولئك﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآؤُا۟﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: مستأنفة، في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿تَزَكَّىٰ﴾: صلته.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية و(اللام) موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ ﴿أَنْ﴾: مفسرة بمعنى، أي: ﴿أَسْرِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: مفسرة لجملة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿بِعِبَادِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَسْرِ﴾ ﴿فَٱضْرِبْ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿اضرب﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَسْرِ﴾. ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿اضرب﴾: قائم مقام المفعول الثاني، لأن ضرب هنا بمعنى جعل ﴿طَرِيقًا﴾

مفعول به أول ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ صفة أولى لـ﴿طَرِيقًا﴾. ﴿يَبَسًا﴾: صفة ثانية له وهو وصف له بما يؤول إليه ﴿لَّا﴾: نافية ﴿تَخَٰفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿دَرَكًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿اضرب﴾؛ أي: اضرب لهم طريقاً حالة كونك غير خائف، أو صفة لـ﴿طَرِيقًا﴾ والعائد: محذوف؛ أي: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ فيه أو هي: جملة مستأنفة، وجملة: ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿أتبعهم﴾: فعل ومفعول ﴿فِرْعَوْنُ﴾ فاعل ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فرعون؛ أي: حالة كونه متلبساً بجنوده والجملة الفعلية: معطوفة على محذوف تقديره، ففعل موسى ما أمر به من الإسراء بهم، وضرب البحر، وسلوكه فتبعهم فرعون حالة كونه مصاحباً بجنوده وأعوانه، حتى لحقوهم.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَغَشِيَهُم﴾ (الفاء): عاطفة ﴿غَشِيَهُمْ﴾: فعل ومفعول ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿غَشِيَهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾ والجملة: صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿غشي﴾ الأولى: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ﴾ فعل وفاعل ﴿قَوْمَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَغَشِيَهُم﴾ ولكن في الكلام تقديم وتأخير، لأن إضلاله قومه كان قبل الغرق طبعاً ﴿وَمَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿مَا﴾ نافية ﴿هَدَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله، ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿أضل﴾. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة: النداء مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا لهم بعد إغراق فرعون: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب مقول للقول المحذوف، على كونها

جواب النداء ﴿مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾. ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول معطوف على ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: إتيان جانب الطور، ولا يكون ظرفاً لأنه محدود ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾: صفة لـ﴿جَانِبَ﴾. ﴿وَنَزَّلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿واعدنا﴾ ﴿عَلَيۡكُمُ﴾: متعلق بـ﴿نزلنا﴾. ﴿ٱلۡمَنَّ﴾: مفعول به ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمَنَّ﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

﴿كُلُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا لهم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: مضاف ﴿مَآ﴾: مضاف إليه ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: صلة لـ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد: محذوف تقديره، ما رزقناكموه ﴿وَلَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كُلُواْ﴾ ﴿فَيَحِلَّ﴾ (الفاء): عاطفة سببية ﴿يَحِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب النهي ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به ﴿غَضَبِيۖ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن طغيانكم فيه فحلول غضبي عليكم ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ﴾ (الواو): استئنافية ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب، أو الشرط، أو هما ﴿يَحۡلِلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به ﴿غَضَبِيۖ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿فَقَدۡ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿هَوَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ الواو: عاطفة ﴿إِنِّ﴾: ناصب واسمه ﴿لَغَفَّارٌ﴾ (اللام): حرف ابتداء ﴿غفار﴾ خبر إن ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿غفار﴾ وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿تَابَ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة وجملة: ﴿وآمن عمل﴾ معطوفة على جملة ﴿تَابَ﴾. ﴿صَٰلِحًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً، أو مفعول به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿عَمِلَ﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ الواو: عاطفة لقول محذوف معطوف على فعل محذوف، تقديره: فسار موسى إلى موعد الميقات مع قومه، فجاء وحده مستعجلاً، وقلنا له: ﴿ما أعجلك﴾ ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي المضمّن للإنكار، في محل الرفع مبتدأ ﴿أَعْجَلَكَ﴾: فعل ماض ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿عَن قَوْمِكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قلنا، وجملة: قلنا: معطوفة على الجملة المحذوفة التي قدرناها آنفاً ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم، في محل النصب على المفعولية، وجملة النداء: في محل النصب مقول لقلنا ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿أُولَآءِ﴾: خبره ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ثان للمبتدأ، أو حال من الخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَعَجِلْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية، في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ (اللام) حرف جر وتعليل، ﴿ترضى﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل

مصدر مجرور باللام، تقديره: لرضاك عني، الجار والمجرور متعلق بـ﴿عجلت﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿فَإِنَّا﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلت لك، وأردت بيان حال قومك.. فأقول لك ﴿إنا﴾. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾: متعلق بـ﴿فتنا﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب. مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

﴿فَرَجَعَ﴾ (الفاء): عاطفة مجردة عن التعقيب ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أضل﴾. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿رجع﴾. ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: حالان من ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة، للاستفهام التقريري، وأخطأ من قال: إنها للاستفهام الإنكاري ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول أول وفاعل، مجزوم بـ﴿لم﴾ والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إعطاء التوراة ﴿وَعْدًا﴾: مفعول مطلق ﴿حَسَنًا﴾ صفة له، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَفَطَالَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف و(الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أوعدكم ربكم وعداً حسناً، فطال عليكم العهد ﴿طال﴾: فعل ماض ﴿عَلَيْكُمُ﴾: متعلق به ﴿ٱلْعَهْدُ﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والجملة

المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف معادل للهمزة ﴿أَرَدتُّمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿طال﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿يَحِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به ﴿غَضَبٌ﴾: فاعل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿غَضَبٌ﴾ والجملة الفعلية، مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أم أردتم حلول غضب من ربكم عليكم ﴿فَأَخْلَفْتُم﴾ (الفاء): عاطفة ﴿أخلفتم﴾: فعل وفاعل ﴿مَّوْعِدِى﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَرَدتُّمْ﴾.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أَخْلَفْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مَوْعِدَكَ﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿بِمَلْكِنَا﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَخْلَفْنَا﴾؛ أي: ما أخلفنا موعدك حال كوننا مالكين أمرنا، ولكنا غلبنا على أمرنا من جهة السامري وكيده، ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لكنا﴾: ناصب واسمه ﴿حُمِّلْنَآ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿أَوْزَارًا﴾ مفعول ثان ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لـ﴿أَوْزَارًا﴾ والجملة الاستدراكية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَخْلَفْنَا﴾. ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قذفناها﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿حُمِّلْنَآ﴾. ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على قذفنا والتقدير: فألقى السامري إلقاء مثل إلقائنا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿أخرج﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أخرج﴾. ﴿عِجْلًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ لئلا يتوهم أنه من كلامهم، وما

بينهما اعتراض ﴿جَسَدًا﴾: بدل من ﴿عِجۡلًا﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: خبر مقدم ﴿خُوَارٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب صفة لـ﴿جَسَدًا﴾ ﴿فَقَالُواْ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ﴾. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾: خبر ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾: معطوف عليه، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿فَنَسِيَ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿نسي﴾ فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾. ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ (الهمزة) فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، معلوم من السياق (والفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا يتفكرون فلا يرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة ﴿لا﴾ نافية ﴿يَرَوۡنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن؛ أي: أنه لا يرجع: ﴿لا﴾ نافية ﴿يَرۡجِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على العجل ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿يَرۡجِعُ﴾. ﴿قَوۡلٗا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المَخففة: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَرَوۡنَ﴾ إن كانت بصرية، أو ساد مسد مفعولي ﴿يَرَوۡنَ﴾ إن كانت علمية، تقديره: أفلا يرون عدم رجوعه إليهم قولاً ﴿وَلَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَآ﴾ نافية ﴿يَمۡلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على العجل ﴿لَهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿يَمۡلِكُ﴾. ﴿ضَرّٗا﴾: مفعول به ﴿وَلَا نَفۡعٗا﴾: معطوف على ﴿ضَرّٗا﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لا يرجع﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ أصله[1]: أأمن كأكرم، قلبت الهمزة الثانية ألفاً على القاعدة في اجتماع الهمزتين، ثم أُدخلت عليه همزة الاستفهام، فصار في الكلمة همزتان: غير المنقلبة ألفاً فإما أن يقرأ بتحقيقهما، وإما أن يُقرأ بحذف الأولى، التي هي همزة الاستفهام ﴿طَرِيقٗا﴾ والمراد بالطريق: جنسه، فإن الطريق كانت

(١) الفتوحات.

ثنتي عشرة، بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿يَبَسًا﴾ قيل: هو في الأصل: مصدر وصف به مبالغة، أو على حذف مضاف، أو جمع: يابس كخادم وخدم، وصف به الواحد مبالغة، قال في «القاموس»: يبس الشيء ييبس: من بابي علم وحسب يبساً ويبساً، واتبس كان رطباً، فجف فهو: يبس ويبس ويابس ويبوس ويبيس وأبيس ﴿دَرَكًا﴾ بفتحتين؛ أي: أن يدركك فرعون وجنوده، والدرك بفتح الدال، وسكون الراء، وبفتحتين: اللحاق، وإدراك الحاجة، وأقصى قعر الشيء يقال: بلغ الغواص درك البحر، ويقال: فرس درك الطريدة؛ أي: يدركها، ومنه قولهم: ما لحقك من درك فعلي خلاصه.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ لم[1] يقرأ إلا بإثبات الألف، وكان من حق من قرأ لا تخف جزماً أن يقرأ ﴿لا تخشى﴾ بحذفها، كذا قاله بعضهم، وليس بشيءٍ لأن القراءة سنة متبعة، وفيها أوجه:

أحدها: أن يكون حالاً، وفيه إشكال وهو: أن المضارع المنفي بلا، كالمثبت في عدم مباشرة الواو له، وتأويله على حذف مبتدأ؛ أي: وأنت ﴿لا تخشى﴾.

والثاني: أنه مستأنف، أخبره تعالى أنه لا يحصل له خوف.

والثالث: أنه مجزوم بحذف الحركة تقديراً، ومثله فلا تنسى في أحد القولين، إجراءً لحرف العلة مجرى الحرف الصحيح.

والرابع: أنه مجزوم أيضاً بحذف حرف العلة، وهذه الألف ليست تلك؛ أعني: لام الكلمة، وإنما هي ألف إشباعٍ أتي بها موافقةً للفواصل ورؤوس الآي، فهي كالألف في قوله: ﴿الرسولا﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ و﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ وهذه الأوجه إنما يحتاج إليها في قراءة جزم ﴿لا تخف﴾ وأما من قرأه مرفوعاً.. فهذا معطوف عليه اهـ «سمين».

---

(١) الفتوحات.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ وأتبع وتبع بمعنى واحد ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ أي: فغمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل، الذي لا يعلم كنهه إلا الله ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾؛ أي: سلك بهم مسلكاً، أداهم إلى الخسران في دينهم ودنياهم، إذ أغرقوا فأُدخلوا ناراً ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾؛ أي: وما أرشدهم إلى طريق يصل إليهم إلى طريق السعادة ﴿الْأَيْمَنَ﴾؛ أي: الجانب الذي عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ﴿الْمَنَّ﴾: نوع من الحلوى، يسمى الترنجبين كما مر ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾: طائر شبيه بالسماني ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: فلا تأخذوه من غير حاجة إليه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾؛ أي: ينزل بكم سخطي ﴿هَوَىٰ﴾ سقط وهلك ﴿غفار﴾؛ أي: كثير المغفرة والستر للذنوب ﴿اهْتَدَىٰ﴾؛ أي: لزم الهداية واستقام ﴿عَلَىٰ أَثَرِي﴾ يقال: جاء على أثره بفتحتين، وبكسر فسكون: إذا جاء لاحقاً به بلا تأخر، والأثر: الخبر، وبقية الشيء، والجمع: آثار وأثور، وخرج في أثره وإثره؛ أي: بعده، وائتثره وتأثره تبع أثره ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾؛ أي: اختبرناهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾؛ أي: أوقعهم في الضلال والخسران، والسامري: من شعب بني إسرائيل، من بطن يقال له: السامرة، واسمه موسى بن ظفر، وقيل: إنه ابن زنا رمته أمه في الجبل بعد وضعه، وقد قيل فيه وفي موسى بن عمران:

وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ جِبْرِيْلُ كَافِرُ ... وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وفي «القاموس»: السامري: هو الذي عبد العجل، وكان علجاً من كرمان، أو عظيماً من بني إسرائيل، يُنسب إلى قبيلة من بني إسرائيل، يقال لها: السامرة، نسبة إلى مقاطعةٍ في فلسطين .اهـ.

والأسف: الحزين، والوعد الحسن: إعطاء التوراة التي فيها هدى ونور، والعهد: زمان الإنجاز ﴿مَّوْعِدِي﴾؛ أي: وعدكم إياي بالثبات على الإيمان، وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف ﴿بِمَلْكِنَا﴾؛ أي: بقدرتنا مصدر ملك وهو مثلث الميم، وفي «القاموس» وشرحه «التاج»: ملك يملك من باب تعب ملكاً وملكاً وملكاً، بفتح الميم وضمها وكسرها، وملكةً ومملكةً بفتح اللام، ومملكة وملكة بضمها: الشيء احتواه قادراً على التصرف والاستبداد به، وملك على

القوم: استولى عليهم، وملك على فلان أمره: استولى عليه، وملك على نفسه: قدر على حبسها، وملك المرأة تزوجها. انتهى.

﴿أَوۡزَارًا﴾؛ أي: أثقالاً، وأرادوا بها حلي القبط التي استعاروها منهم، وأرادوا بالأوزار، أنها آثام وتبعات، لأنهم استعاروها منهم، وليس لهم فيها حق ﴿خُوَارٌ﴾ بضم الخاء: صوت البقر والعجاجيل ﴿جَسَدًا﴾ وفي «المصباح»: الجسد جمع أجساد، وهو الجثة، وعبَّر عنه بالجسد مع أنه لا يقال الجسد إلا للحيوان العاقل، وهو الإنس والجن والملائكة، تشبيهاً له بالعاقل، كأنه غاير البقر، ولا يقال الغير الحيوان العاقل: جسد إلا للزعفران، فيقال له: جساد بفتح الجيم، وإلا للدم إذا يبس فيقال له جاسد أيضاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية التبعية في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ وتقريرها: أنه شبه استعلاء المصلوب على الجذوع، بظرفية المقبور في قبره، ثم استُعمل في المشبه ﴿فِي﴾ الموضوعة للمشبه به؛ أعني: الظرفية، فجرت الاستعارة في الاستعلاءِ، والظرفية، وبتبعيتها في لفظ على وفي وإذن، ففي على بابها من الظرفية، وهذا أصح الأقوال فيها، وقيل: إن ﴿فِي﴾ بمعنى على، فلا يكون في الكلام استعارة، وعبارة الدرديري في «شرحه» على «تحفة الأخواد»: مثال الاستعارة في الحرف، استعارة لفظ ﴿فِي﴾ لمعنى على في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾؛ أي: عليها، شبَّه الاستعلاء الكلي بالظرفية الكلية، بجامع التمكن في كل، واستُعير لفظ الظرفية للاستعلاء؛ أي: بقدر ذلك فسرىٰ التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، التي هي معاني الحروف، فاستُعير لفظ ﴿فِي﴾ الموضوعة لكل جزئي من الجزئيات الظرفية، لمعنى على وهو الاستعلاء الخاص؛ أي: المتعلق بالتصليب، والجذوع في هذا المثال.

ومنها: الطباق بين ﴿يَمُوتُ﴾ و﴿يَحْيَىٰ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ وبين قوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلخ. والمقابلة: هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتىٰ بما يقابل ذلك.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَبَسًا﴾ لأنه لم يكن حين خاطبه الله تعالى يبساً، ولكن باعتبار ما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقد تقدم القول فيه مفصلاً.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ للتهويل؛ أي: علاهم وغمرهم من الأمر الهائل، الذي ليس في طوقهم احتماله، مما لا يمكن إدراك كنهه، ولا سبر غوره، وهو من جوامع الكلم التي يقل لفظها، ويتشعب القول في معناها.

ومنها: الطباق بين ﴿وَأَضَلَّ﴾ و﴿هَدَىٰ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ لأن المواعدة كانت لموسى ـ عليه السلام ـ لا لهم، فأضيفت إليهم لأدنى ملابسة، لأنه لما كانت المواعدة لإنزال كتاب بسببهم، إذ فيه صلاح دينهم ودنياهم وأخراهم.. أضيفت إليهم بهذه الملابسة، فهو من المجاز العقلي .اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ استعار لفظ الهوى، وهو: السقوط من علو إلى سفل، للهلاك والدمار.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ أي كثير المغفرة للذنوب.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾.

فائدة: والاستفهام من الله تعالى لا يقع لاستدعاء المعرفة، ولكنه يخرج عن معناه الأصلي لأغراض أخر، تدرك من سياق الكلام، وقد أفاد السؤال هنا أغراضاً نوجزها فيما يلي:

١ ـ تعريف المسؤول بما يجهله من أمور، وقد أراد سبحانه تعريفه بفتنة قومه، فقد قيل: إنهم كانوا نحو ست مئة ألف نفس، ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

٢ ـ تبكيت المسؤول وتفهيمه، وتنبيهه إلى خطإ ما جاء به من ترك القوم، وإفساح المجال للسامري كي يضلهم، لأنه مغرق في الضلالة، وما هو في الإضلال.

٣ ـ تعليم المسول آداب السفر، وهي: أنه ينبغي لرئيس القوم أن يتأخر عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بهم، ونافذاً فيهم، ومهيمناً عليهم، وقاطعاً الطريق على كل فتنة قد تتسرب إلى صفوفهم.

ومنها: إطلاق الماضي على المستقبل في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ على حد قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى
نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ
وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ
سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ
وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا
﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا
عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا
هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ
ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ
وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل، لأنه لا يستجيب لهم دعاءً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.. أكد هذا وزاد عليهم في التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذي نبههم إلى خطإ ما

فعلوا، ثم حكى معاتبة موسى لهارون على سكوته على بني إسرائيل، وهو يراهم يعبدون العجل، ثم ذكر أنه اعتذر له، ولكنه لم يقبل معذرته، ثم قص علينا ما قاله السامري، وما أنَّبه به موسى، وما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه وإلقائه في البحر، ثم بيَّن لهم أن الإلٰه الحق هو الذي يحيط علمه بما في السمٰوات والأرض، لا ذاك الجماد الذي لا يضر ولا ينفع، ولا يرد جواباً، ولا يسمع خطاباً.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما شرح قصص موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون أولاً، ثم مع السامري ثانيا، على نمط بديع، وأسلوب قديم.. بين لنبيه محمد ﷺ أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية، والقرون الغابرة، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، نلقيه إليك تسليةً لقلبك، وإذهاباً لحزنك، إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك، من شدائد الأهوال، وتذكيراً للمستبصرين في دينهم، وتأكيداً للحجة على من عاند وكابر من غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى[2] حال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، التي تجعل المجرمين يتخافتون في حديثهم، وينسون مقدار لبثهم في الدنيا، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان، إلى نحو أولئك مما سلف.. قفَّىٰ على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر عن الجبال وأحوالها في ذلك اليوم، ثم الإجابة عنه، وضم إلى الجواب أموراً أخر، تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله، فبيَّن أن الأرض في ذلك اليوم تكون مستوية، ولا ارتفاع فيها ولا انخفاض، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعي، ولا يُسمع لهم كلام إلا همس، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، إلا إذا أذن لهم الرحمٰن، ورضي للمشفوع له قولاً، ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر، وهم لا يحيطون به علماً، وفي ذلك

---

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

اليوم تذل الوجوه، وتخضع للواحد الديان، وقد خسر هنالك من ظلم نفسه، فأشرك مع الله غيره، وعبد معه سواه، وعصى أوامره ونواهيه، وأما المتقون فهم لا يُظلمون، فلا يُزداد في سيئاتهم، ولا يُنقص من حسناتهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما ذكر سبحانه أنه أنزل الآيات المشتملة على الوعيد، المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها.. ذكر هنا أنه أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد، قرآناً عربياً، يفهمه العرب، ويقفون على ما فيه من النظم البديع، والأسلوب العجيب، الخارج عن طوق البشر، ثم بيَّن سبحانه نفع هذا القرآن لعباده، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي.

أسباب النزول[1]

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المنذر، عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: (كان النبي ﷺ إذا نزل إليه جبريل بالقرآن.. أتعب نفسه في حفظه، حتى يشق على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾) وتقدم له سبب آخر، وهذا أصح.

التفسير وأوجه القراءة

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾: موطئة للقسم، والجملة[2] مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم، والتوبيخ لهم؛ أي: والله

---

(١) لباب النقول. (٢) الشوكاني.

لقد نصح وقال لهم هارون من قبل أن يأتي موسى، ويرجع إليهم ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾؛ أي: وقعتم في الفتنة بسبب العجل، وابتليتم به، وضللتم عن طريق الحق لأجله، قيل: ومعنى القصر المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾: هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم، لا لرشادهم، وليس معناه: أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره، والمعنى[1]: أي: ولقد قال هارون لعبدة العجل من بني إسرائيل، من قبل رجوع موسى إليهم: يا قوم إنما اختبر الله إيمانكم، ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل، الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم، من المريض الشاك. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ وخالقكم وخالق كل شيء هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الذي عمت رحمته جميع مخلوقاته، فآتاهم ما فيه كما لهم الجسمي والروحي، وما به سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وفي ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق، إثر زجرهم عن الباطل، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا.. قُبلت توبتهم.

﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ على ديني في عبادة الله سبحانه وتعالى، ولا تتبعوا السامري في عبادة العجل ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ في ترك عبادة العجل.

اعلم[2]: أن هارون ـ عليه السلام ـ سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى شرائع بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ فهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد من إماطة الأذىٰ عن الطريق، وهي إزالة الشبهات، ثم معرفة الله، فإنها هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة، وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فخص هذا الموضع بهذا الاسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا.. قبل الله توبتهم، لأنه هو التواب الرحيم، فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود، وفي هذا الوعظ[3] شفقة على نفسه وعلى الخلق، أما على نفسه: فإنه كان مأموراً من عند الله بالأمر

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن عند أخيه بقوله: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فلو لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر.. لخالف أمر الله وأمر موسى، وإنه لا يجوز.

وقرأ الحسن وعيسى وأبو عمرو في رواية[1]: ﴿وأن ربكم﴾ بفتح الهمزة، والجمهور: بكسرها المصدر المنسبك منها: في موضع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: والأمر كون الرحمٰن ربكم، فهو من عطف جملة على جملة، وقدره أبو حاتم: ولأن ربكم الرحمٰن، وقرأت فرقة: ﴿أنما﴾ و﴿أن﴾ بفتح الهمزتين، وتخريج هذه القراءة على لغة سُليم، حيث يفتحون أن بعد القول مطلقاً، ثم بيَّن أنهم لم يسمعوا نصحه، ولم يُطيعوا أمره بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال عبدة العجل من قوم موسى في جواب هارون: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: لن نزال على العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾؛ أي: مقيمين، قال الراغب: العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم، قال في «الكبير»: رحمته تعالى خلَّصتهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوه بالتقليد فقالوا: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾؛ أي: لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر هل يقرنا على عبادته، أو ينهانا عنها، جعلوا رجوعه غايةً لعكوفه، لكن لا على طريق الوعد بترك عبادته عند رجوعه، بل بطريق التعليل والتسويف. اهـ «أبو السعود».

فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامري، كأنهم قالوا: لن نقبل حجتك، ولا نقبل إلا قول موسى، وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف، وعدم إجابة طلب هارون، فلما رجع موسى.. سمع الصياح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون.. أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله، وكان طويل الشعر و﴿قَالَ﴾ له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ والاستفهام فيه: توبيخي، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه

---

(١) البحر المحيط.

قيل: فما قال لهارون حين رجع إليهم؟ فقيل: قال له وهو مغتاظ: يا هارون ما منعك؛ أي[1]: أيُّ شيء منعك ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾؛ أي: أخطؤوا طريق عبودية الله بعبادة العجل، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بالمقالة الشنعاء ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ (لا) مزيدة، وهو مفعول ثان لمنع، وهو عامل في (إذ)؛ أي: أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعني في الغضب لله، والمقاتلة مع من كفر به، وأن تأتي عقبي، وتلحقني وتخبرني لأرجع إليهم، لئلا يقعوا في هلاك هذه الفتنة؟ أو غير مزيدة على أن ﴿مَنَعَكَ﴾ مجاز عن دعاك، والمعنى ما دعاك إلى ترك اتباعي، وعدمه في شدة الغضب لله ولدينه؟ ونظير ﴿لَآ﴾ هذه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ في الوجهين.

والمعنى[2]: أي قال موسى لهارون: أي شيء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقني إلى جبل الطور بمن آمن معك؟ وقد كان موسى يرى أن مفارقة هارون لهم، وخروجه من بينهم، بعد تلك النصائح القولية، يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها، لما في ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمرٍ مبغوضٍ عليهم مما تشق على النفوس، وتقتضي ترك ذلك الأمر الذي يكرهه ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ فيما قدمت إليك من قولي. ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وكان[3] ظهور العجل في السادس والثلاثين يوماً من خروج موسى، وعبدوه، وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين، فعاتبهُ موسى على عدم اتباعه، لما رآهم قد ضلوا. قرأ[4] ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أن لا تتبعني﴾ بياء ساكنة في الوصل، ويقف ابن كثير بالياء، وأبو عمرو بغير ياء، وروىٰ إسماعيل بن جعفر عن نافع: ﴿أن تتبعني أفعصيت﴾ بياء مفتوحة، وروىٰ قالون عن نافع مثل أبي عمرو، سواءً وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياء في الوصل والوقف، وفي «الجمل» وهذه الياء من ياءات الزوائد، فحقها أن تحذف في الرسم، كما هي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) زاد المسير.

كذلك في مصحف الإمام، و(الهمزة) في قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف كما مر نظائره مراراً، والتقدير: أأقمت بين هؤلاء الذين عبدوا العجل، فعصيت وخالفت أمري لك بالقيام لله، ومنابذة من خالف دينه، وعبارة «روح البيان» هنا: و(الهمزة) للإنكار التوبيخي و(الفاء): عطف على مقدر، يقتضيه المقام؛ أي: أخالفتني فعصيت أمري بالصلابة في الدين، والمحاماة عليه، كما عصىٰ هؤلاء القوم أمري، فإن قوله ـ عليه السلام ـ: ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ متضمن للأمر بهما حتماً، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضراً .اهـ.

فلما أقام بينهم[1]، ولم يبالغ في الإنكار عليهم.. نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره، فترفق هارون في خطاب موسى استعطافاً له، وترقيقاً لقلبه، إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه، حيث امتلأ موسى غضباً مما رأى، وألقىٰ ما في يده من الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فـ﴿قَالَ﴾ هارون ﴿يا ابن أم لا تأخذ بـ﴾شعر ﴿لحيتي ولا بـ﴾شعر ﴿رأسي﴾، وقد روي: أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله، وكان ـ عليه السلام ـ شديداً غضوباً لله تعالى، وقد شاهد مشاهد، وغلب على ظنه تقصير هارون ـ عليه السلام ـ ففعل ما فعل، والأم[2] بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدة التي ولدت من ولدته، ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه ﴿أَمّ﴾ وأصله: يا ابن أمي: أبدلت الياء ألفاً فقيل: يا ابن أما، ثم حذف الألف واكتفي بالفتحة لكثرة الاستعمال، وطول اللفظ، وثقل التضعيف. وقرىء: ﴿يا ابن أمِ﴾ بالكسر بحذف الياء، والاكتفاء بالكسرة، وقد مر اختلاف القراء فيه في سورة الأعراف، وخص الأم بالإضافة استعظاماً لحقها، وترقيقاً لقلبه، واعتداداً لنسبها، وإشارةً إلى أنهما من بطن واحد، وإلا فالجمهور على أنهما لأب وأم، قال بعض الكبار: كانت نبوة هارون من حضرة الرحمة، كما قال

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ ولذا ناداه بأمه، إذ كانت الرحمة للأم أوفر، ولذا صبرت على مباشرة التربية، وقرأ[1] عيسى بن سليمان الحجازي ﴿بلحيتي﴾ بفتح اللام، وهي لغة أهل الحجاز، قال صاحب «الكشاف»: كان موسى[2] ـ عليه السلام ـ رجلاً شديداً، مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله، بعدما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى ألواح التوراة، لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة، غضباً لله، واستنكافاً وحميةً، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف، قابضاً على شعر رأسه ـ وكان أفرع ـ وعلى شعر وجهه يجره إليه .اهـ.

ثم بيَّن علة هذا النهي بأني لست عاصياً أمرك، ولا مقصراً في المصلحة، بل ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ وخفت لو قاتلت بعضهم ببعض، وتفرقوا ﴿أَن تَقُولَ﴾ لي ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ برأيك، وأراد بالتفريق: ما يستتبعه القتال من تفريق لا يُرجى بعده الاجتماع؛ أي: خشيت إن فارقتهم واتبعتك، أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً، فتقول أوقعت الفرق فيما بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾؛ أي: لم تحفظ وصيتي لك في حسن الخلافة عليهم، ويريد به قوله: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ فإن الإصلاح: ضم النشر وحفظ جماعات الناس، والمداراة بهم إلى أن ترجع إليهم، وترى فيهم ما ترى، فتكون أنت المتدارك للأمر بنفسك، المتلاقي برأيك، لا سيما وقد كانوا في غاية القوة، ونحن على القلة والضعف، كما يُعرف من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ وعلى هذا التفسير يكون قوله ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ معطوفاً على ﴿فَرَّقْتَ﴾ والياء في ﴿قَوْلِي﴾ واقعة على موسى؛ أي: وخشيت أن تقول لي إنك: لم ترقب قولي لك: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وعلى هذا التفسير أكثر المفسرين، كالسمين، والبيضاوي، والخازن، والخطيب، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ معطوفاً على ﴿أَن تَقُولَ﴾ فتكون الياء في ﴿قَوْلِي﴾ واقعةً على هارون؛ أي: وخشيت عدم ترقبك وانتظارك لقولي، حتى تتأمل فيه، وتفهم منه عذري اهـ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الكشاف.

«جمل» بتصرف وقرأ أبو جعفر: ﴿ولم ترقب﴾ بضم التاء وكسر القاف. مضارع أَرْقَب الرباعي، وهذا الكلام من هارون اعتذار، والعذر[١]: ضابطه: هو تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه وإساءته، وذلك ثلاثة أضرب: أن يقول لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً، أو يقول فعلت ولا أعود، ونحو ذلك، وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر دون العكس، وكان هارون حليماً رفيقاً، ولذا كان بنو إسرائيل أشد حباً له، وقوله: ﴿قَالَ﴾ موسى للسامري: استئناف بياني، واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا صنع موسى بعد اعتذار القوم، واعتذار هارون، واستقرار أصل الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موسى موبخاً له: هذا شأنهم ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؛ أي: ما شأنك وما مطلوبك فيما فعلت، وما الذي حملك عليه، والخطب لغةً: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، وهو من تقاليب الخبط، خاطبه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه، ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالاً للمفتونين به، ولمن خلفهم من الأمم ﴿قَالَ﴾ السامري مجيباً لموسى ـ عليه السلام ـ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾؛ أي: رأيت ما لم يره القوم، أو علمت بما لم يعلموا، وفطنت لما لم يفطنوا له، وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة، وكان كلما وضع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس.. يخرج من تحته النبات في الحال، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطئه حفنة من تراب.

وقرأ الأعمش وأبو السماك[٢]: ﴿بصرت﴾ بكسر الصاد ﴿بما لم تبصروا﴾ بفتح الصاد، وقرأ عمرو بن عبيد ﴿بصرت﴾ بضم الباء وكسر الصاد ﴿بما لم تبصروا﴾ بضم التاء وفتح الصاد، مبنياً للمفعول فيهما، وقرأ الجمهور ﴿بصرت﴾ بضم الصاد، وحمزة، والكسائي، وأبو بحرية، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وابن مناذرٍ، وابن سعدان، وقعنب ﴿تبصروا﴾ بتاء الخطاب لموسى وبني إسرائيل، وباقي السبعة ﴿يَبْصُرُوا﴾ بياء الغيبة. وروي: أن السامري لما قال:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾.. قال[1] له موسى ـ عليه السلام ـ: وما ذلك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة، فألقى في نفسي أن أقبض من أثرها، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم، فحين رأيت قومك سألوك أن تجعل لهم إلٰهاً.. زينت لي نفسي ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾؛ أي: أخذت حفنةً ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: من تربة موطىء فرس الملك الذي أرسل إليك؛ أي: من تراب حافر فرس جبريل، والمراد: فرس الحياة لجبريل، ولم يقل: جبريل أو روح القدس، لأنه لم يعرف أنه جبريل، وأراد بذلك: أنه رأى جبريل على فرس الحياة، فألقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً، والقبضة: المرة من القبض، وهو الأخذ بجميع الكف، أُطلقت على المقبوض مرةً كما سيأتي، والأثر: التراب الذي تحت حافره.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد المعجمة فيهما؛ أي: أخذت بكفي على الأصابع، وقرأ عبد الله، وأبيّ، وابن الزبير، وحميد، والحسن: ﴿فقبصت قبصة﴾ بالصاد فيهما، وهو الأخذ: بأطراف الأصابع، وقرأ الحسن ـ بخلاف عنه ـ وقتادة، ونصر بن عاصم: بضم القاف والصاد المهملة، وأدغم ابن محيصن الضاد المنقوطة في تاء المتكلم، وأبقىٰ الإطباق مع تشديد التاء. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾؛ أي: نبذت تلك القبضة، وطرحتها في الحلي المذابة، المسبوكة، على صورة العجل، أو في فم العجل، فكان ما كان.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف[3]: ﴿فنبذتها﴾ بالإدغام ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾؛ أي: وزينت[4] لي نفسي بشقاوتي ومحنتي، تزييناً كائناً مثل ذلك التزيين الذي فعلته، من القبض والنبذ؛ فالمعنى: لم يدعني إلى ما فعلته أحد غيري، بل اتبعت هواي فيه، والتسويل[5]: تزيين النفس لما تحرص عليه،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.
(٤) المراح.
(٥) روح البيان.

وتصوير القبيح منها بصورته الحسن، وأصل التركيب: سولت لي نفسي تسويلاً كائناً مثل ذلك التسويل، على أن يكون مثل صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعد، فقدم على الفعل لإفادة القصر، واعتبرت الكاف مقحمةً لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة، من الفخامة، فصار مصدراً مؤكداً، لا صفةً؛ أي: ذلك التزيين البديع، زينت لي نفسي ما فعلته من القرض والنبذ، لا تزييناً أدنى، ولذلك فعلته.

وحاصل جوابه: أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء وغوائها، لا بشيءٍ آخر من البرهان العقلي، والإلهام الإلهي، أو المعنى؛ أي: كما زينت لي نفسي أولاً اتباع سنتك، واقتفاء أثرك، زينت لي أيضاً ترك ذلك بمحض الهوى، لا لشيء آخر من برهان عقلي، أو إلهام إلهي، ولما سمع موسى من السامري ما سمع.. بيَّن له ما سينزل به من الجزاء في الدنيا والآخرة، وذكر له حال إلٰهه، أما جزاؤه هو في الدنيا.. فما حكاه سبحانه عنه ﴿قَالَ﴾ له موسى ـ عليه السلام ـ مكافئاً له ﴿فَٱذْهَبْ﴾ يا سامري طريداً بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: ثابت لك مدة حياتك عقوبة ما فعلت ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: قولك: لا مساس؛ أي: لا يمسني أحد، ولا أمس أحداً خوفاً من أن تمسكما الحمى؛ أي: فإن قولك: لا مساس ثابت لك في مدة حياتك، لا ينفك عنك، فكان يصيح بأعلى صوته لا مساس؛ أي[1]: لا أَمَس ولا أُمَس، إذا مسه أحدهم.. أخذت الحمى الماس والممسوس، فكان إذا أراد أحد أن يمسه.. صاح خوفاً من الحمى وقال: لا مساس، وحرم موسى عليهم ملاقاته، ومواجته، ومكالمته، ومبايعته، وغيرها مما يعتاد جريانه بين الناس من المعاملات، فكان يهيم في البرية وحيداً طريداً مع السباع، والوحوش. وفي «التأويلات النجمية»[2]: يشير إلى أن قصدك ونيتك فيما سولت نفسك أن تكون مطاعاً متبوعاً، آلفاً مألوفاً، فجزاؤك في الدنيا أن تكون طريداً وحيداً، ممقتاً ممقوتاً متشرداً متنفراً، تقول لمن رآك: لا تمسني ولا أمسك فنهلك .اهـ. وذلك

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

لأن في الانقطاع بعد الاتصال ألماً شديداً، بخلاف الانقطاع الأصلي.

والمعنى[1]: أي قال له موسى: اذهب فأنت طريد من بين الناس، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحداً، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لا مساس؛ أي: لا يماسني أحد ولا أماس أحداً، قال مقاتل: إن موسى ـ عليه السلام ـ أمره هو وأهله بالخروج من محلة بني إسرائيل، فخرج طريداً في البراري.

وقصارى ذلك: أنه خاف وهرب، وجعل يهيم في الصحارى والقفار، حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك، وقيل[2]: أراد موسى قتله، فمنعه الله من قتله، لأنه كان شيخاً، قال بعض مشايخنا: وقد وقع مثل هذا في شرعنا في قصة الثلاثة الذين خالفوا أمر الرسول ـ عليه السلام ـ أن لا يكلموا ولا يخالطوا، وأن يعتزلوا نساءهم، حتى تاب الله عليهم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بفتح السين والميم المكسورة، ومساس: مصدر ماس كقتال من قاتل، وهو منفي بـ﴿لا﴾ التي لنفي الجنس، وهو نفي يريد به النهي، أي: لا تمسني ولا أمسك، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وقعنب: بفتح الميم وكسر السين، فقال صاحب «اللوامح»: هو على صورة نزال ونظار، من أسماء الأفعال، بمعنى أنزل وأنظر، فهذه الأسماء التي بهذه الصيغة معارف، ولا تدخل عليها لا النافية، التي تنصب النكرات، نحو لا مال لك، لكنه فيه نفي الفعل، فتقديره: لا يكون منك مساس، ولا أقول مساس، ومعناه: النهي؛ أي: لا تمسني. انتهى.

وظاهر هذا: أن مساس: اسم فعل، وقال الزمخشري: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بوزن فجار، معدول عن المصدر الذي هو المسة، كفجار معدولاً عن الفجرة.

وأما جزاؤه في الآخرة: فقد ذكره بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾؛ أي: وعداً في

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الآخرة بالعقاب على الشرك والإفساد ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾؛ أي[1]: لن يخلفه الله ذلك الوعد، بل ينجزه البتة، بعدما عاقبك في الدنيا، والخلف والإخلاف: المخالفة في الوعد، يقال: وعدني فأخلفني؛ أي: خالف في الميعاد، وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ بالتاء المضمومة وفتح اللام، على معنى لن يقع فيه خلف، بل ينجزه لك الله في الآخرة، على الشرك والإفساد بعد ما عاقبك في الدنيا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، والأعمش، وابن محيص، واليزيدي، والحسن: ﴿لن تخلِفه﴾؛ أي: لن تستطيع الروغان والاختفاء والحيدة عنه، فتغيب عن موعد العذاب، وقرأ ابن مسعود، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لن نخلفه﴾ بالنون وكسر اللام؛ أي: لا ننقص مما وعدنا لك من الزمان شيئاً.

وأما حال إلٰهه: فقد بيَّنه بقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾؛ أي: إلى هذا المعبود بزعمك ﴿الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: صرت مقيماً على عبادته، والله ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار[3]، ويؤيده قراءة: ﴿لنحرقنه﴾ من الإحراق، وهو إيقاع نارٍ ذات لهب في الشيء، بخلاف الحرق فإنه إيقاع حرارة في الشيء من غير لهب، كحرق الثوب بالدق أو لنحرقنه بالمبرد، على أنه مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد، ويعضده قراءة، ﴿لنحرقنه﴾ بفتح النون وضم الراء؛ أي: لنبردنه، يقال: بردت الحديد بالمبرد، والبرادة: ما سقط منه، وقرأ[4] الجمهور: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بضم النون وتشديد الراء، من حرقه يحرقه.

وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو جعفر، وأبو رجاء، والكلبي: ﴿لنحرقنه﴾ بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يحرقه رباعياً، وقرأ علي، وابن عباس، وحميد، وأبو جعفر ـ في رواية ـ وعمرو بن فائد، وابن محيصن، وأشهب والعقيلي: ﴿لنحرقنه﴾ بفتح النون وضم الراء مخففةً، من حرقت الشيء: أحرقه وأحرقه بضم راء المضارع وكسرها، إذا بردته، وحككت بعضه ببعض؛ أي: لنبردنه بالمبارد، ويقال للمبرد: المحرق، والقراءة الأولى أولى، ومعناها

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

الإحراق بالنار، وكذلك معنى القراءة الثانية، لأن الظاهر أن حرق وأحرق إنما يكون بالنار، وقد جُمع[1] بين هذه القراءات الثلاث بأنه أحرق بالنار أولاً، ثم برد بالمبرد، وفي مصحف أُبي، وابن مسعود[2] ﴿لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفنه﴾ وتوافق هذه القراءة من روى أنه صار لحماً ودماً ذا روح، ويترتب الإحراق بالنار على هذا، وأما إذا كان جماداً مصوغاً من الحلي فيترتب برده لا إحراقه، إلا إن عنى به إذابته، وقال السدي: أمر موسى بذبح العجل، فذُبح وسال منه الدم، ثم أُحرق ونُسف رماده، وقيل: بردت عظامه بالمبرد، حتى صارت بحيث يمكن نسفها. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: لنذرينه في هواء البحر، ونرمينه ﴿نَسْفًا﴾؛ أي: ذروا ورمياً إذا كان رماداً أو مبروداً، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، حتى صار سحالةً كذرات الهباء، يقال: نسفت الريح التراب إذا أقلعته وأزالته، وذرته، والنسف[3]: نقض الشيء ليذهب به الريح، والمنسف: ما يُنسف به الطعام، وهو شيء منصوب الصدر، أعلاه مرتفع، والنُّسَافة: ما يسقط منه.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ بكسر السين، وقرأت فرقة ـ منهم عيسى ـ: بضم السين، وقرأ ابن مقسم: ﴿لننسفنه﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد السين، ولقد بر موسى[5] في قسمه، وفعل ما أوعده به، كما يدل على ذلك قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ﴾ ولم يصرح بهذا تنبيهاً إلى وضوحه واستحالة خلفه في وعيده المؤكد باليمين، وفي فعله ذلك به عقوبة للسامري، وإظهار لغباوة المفتونين به، لمن له أدنى نظر، وبعد أن فرغ من إبطال الباطل، شرع في تحقيق الدين الحق فقال: ﴿إنما إلهكم﴾؛ أي: معبودكم المستحق منكم العبادة؛ أي: لا معبود لشيء من الأشياء موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكام الألوهية، لا هذا العجل الذي فتنتم به؛ أي: ليس هذا بإلهكم، وإنما المستحق للعبادة والتعظيم: الله الذي لا

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) المراغي.

إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فكل شيء فقير إليه، وهو الخالق لكل شيء، قال في «بحر العلوم»: قوله: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ تقرير لاختصاص الإلهية، ونحوه قولك: القبلة الكعبة التي لا قبلة إلا هي، وقرىء[1] ﴿الله لا إله إلا هو الرحمٰن رب العرش﴾ ﴿وَسِعَ﴾ سبحانه ﴿كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وانتصاب ﴿عِلْمًا﴾ على التمييز عن الفاعل؛ أي: وسع علمه ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء، فيعلم من يعبده ومن لا يعبده؛ أي: وسع علمه بكل ما كان وما يكون؛ أي: علم كل شيء وأحاط به عداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والجملة الفعلية: بدل من الصلة كأنه قيل: إنما إلهكم الله الذي وسع كل شيء علماً لا غيره، كائناً من كان، فدخل فيه العجل دخولاً أولياً، وقرأ[2] الجمهور: ﴿وَسِعَ﴾ السين مخففة وهو متعد إلى مفعول واحد، وهو ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ و﴿عِلْمًا﴾ تمييز كما مر آنفاً، وقرأ مجاهد وقتادة ﴿وسع﴾ بتشديد السين وفتحها، فيتعدى إلى مفعولين، ويكون انتصاب ﴿عِلْمًا﴾ على أنه المفعول الأول، وإن كان متأخراً، لأنه في الأصل: فاعل، والتقدير: وسع علمه كل شيء.

و﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الكاف: صفة لمصدر محذوف تقديره؛ أي: نقص عليك يا محمد ونخبر لك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ﴾؛ أي[3]: من أخبار الأمور الماضية، والأمم الدارجة، قصصاً مثل قص قصة موسى عليك فيما مر، تسليةً لك وزيادةً في علمك، ودلالةً على صدقك، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك، والقص[4]: تتبع الأثر، والقصص: الأخبار المتتبَّعة، و﴿مَن﴾ مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ بالاعتبار مضمونه، والنبأ: خبر ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي فيه نبأ: أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر وخبر الله تعالى وخبر النبي ـ عليه السلام ـ.

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان.

والمعنى: نقص عليك يا محمد بعض الحوادث الماضية الجارية على الأمم السالفة، مثل ذلك القص البديع الذي سمعت، لا قصاً ناقصاً عنه، تبصرةً لك، وتوفيراً لعلمك، وتكثيراً لمعجزاتك، وتنبيهاً للمعتبرين من أمتك.

والحاصل: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخاطب نبيه[1] ﷺ ويبين له أنه كما قص عليه خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجهوده، على هذا الأسلوب الرائع، والمسلك البديع، يقص عليه أخبار الحوادث التي جرت عليه الأمم الخالية، ليكون له ذلك سلوةً، ليتأسى بالأنبياء السالفين وما لاقوه من أممهم من شديد العناد، والجحود والتكذيب، ومكابدة الشدائد والأهوال ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ يا محمد؛ أي: ولقد أعطيناك ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: كتاباً شريفاً[2] مطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتذكر به، جديراً بالتفكر فيه، والاعتبار به لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم يعط نبي قبلك مثله، فهو جامع للأخبار، حاوٍ للأحكام التي فيها صلاح حال البشر في دينهم ودنياهم، مشتمل على مكارم الأخلاق وسامي الآداب التي بها يرتفع قدر الأمم، وينبه ذكرها، وفي «الكبير» في تسميته به وجوه:

الأول: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه في أمر دينهم ودنياهم.

والثاني: أن يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه، وفيه التذكير والموعظة.

والثالث: فيه الذكر والشرف لك ولقومك، وسمىٰ الله سبحانه كل كتبه ذكراً فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الذكر العظيم الشأن، الجامع لوجوه السعادة والنجاة، فلم يعتبر، ولم يعمل به لإنكاره إياه، وتكذيبه به، وابتغى الهدى من غيره. و﴿مَنْ﴾ إما شرطية أو موصولة، وأياً ما كانت، فالجملة صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن ذلك المعرض عنه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾؛ أي: عقوبةً ثقيلةً على كفره، وسائر ذنوبه، وتسميتها وزراً: تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يقدح الحامل، وينقض

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

ظهره؛ أي: فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ويحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله، بل ينقض ظهره، وبمعنى الآية قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وكل من بلغه القرآن من العرب والعجم، من أهل الكتاب وغيرهم، فهو نذير له، فمن اتبعه.. ٱهتدىٰ، ومن أعرض عنه.. ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، كما قال ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الوزر؛ أي: في عقوبته مكثاً مؤبداً، لا يجدون عنها محيصاً، ولا انفكاكاً، فهو حال من الضمير المستتر في يحمل، والجمع: بالنظر إلى معنى ﴿من﴾ لما أن الخلود في النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها فيها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَحْمِلُ﴾، مضارع حمل الثلاثي، مخففاً مبنياً للفاعل، وقرأت فرقة - منهم داود بن رفيع -: ﴿يحمل﴾ مشدد الميم من حُمّل المضعف، مبنياً للمفعول، لأنه يكلف ذلك، لا أنه يحمله طوعاً ووزراً، مفعول ثان ﴿وَسَآءَ﴾؛ أي: وبئس الوزر ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمعرضين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من جهة كونه ﴿حِمْلًا﴾ ثقيلاً ﴿لَهُمْ﴾، والمخصوص بالذم: محذوف تقديره: وزرهم ﴿وَسَآءَ﴾[2] هنا هي التي جرت مجرى بئس، لا ساء التي بمعنى أحزن وأهم، لفساد المعنى، و(اللام) في ﴿لَهُمْ﴾: للبيان كهي في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لا متعلقة بـ﴿ساء﴾ كأنه لما قيل: ﴿ساء﴾ قيل: لمن يقال هذا؟ فأجيب بـ﴿لَهُمْ﴾ وجمع الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ حملاً على معنى ﴿مَن﴾ بعد الحمل على لفظها في ﴿أَعْرَضَ﴾ وفي ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يحمل، وإعادة يوم القيامة لزيادة التقرير والتهويل؛ أي: وبئس عقاب وزرهم الذي حملوه يوم القيامة، جزاءَ إعراضهم وكفرهم، وسائر ذنوبهم، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من يوم القيامة، أو منصوب بإضمارك اذكر؛ أي: اذكر يا محمد لقومك، ولسائر الناس قصة يوم ينفخ إسرافيل في القرن، الذي التقمه للنفخ ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ونخرج المتوغلين في الإجرام والآثام،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

المنهمكين فيها، وهم الكفرة والمشركون، من مقابرهم، ونجمعهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يُنفخ في الصور، وذكره صريحاً مع تعين أن الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل حالة كونهم ﴿زُرْقًا﴾؛ أي: زرق العيون، جمع أزرق، والزرقة: الخضرة في العين كعين الهرة، والعرب تتشاءم بزرقة العين، وهي أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق، وقال الإمام في «المفردات» قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾؛ أي: عمياً عيونهم، لا نور لها، لأن حدقة الأعمى تزرق، يعني أن العين إذا زال نورها أزرقت.

والمعنى[1]: هذا اليوم؛ أي: يوم القيامة هو يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية، إيذاناً بالقيام للحشر والحساب، ويوم يساق فيه المجرمون إلى المحشر شاحبي الألوان، زرق الوجوه، لما هم فيه من مكابدة الأهوال، ومقاساة الشدائد، التي تحل بهم، والجمع[2] بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ ما قيل: من أن ليوم القيامة حالاتٍ ومواطن، تختلف فيها صفاتهم، ويتنوع عندها عذابهم، وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُنفَخُ﴾ مبنياً للمفعول ﴿وَنَحْشُرُ﴾ بالنون مبنياً للفاعل بنون العظمة، وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، وحميد ﴿ننفخ﴾ بنون العظمة لـ﴿نحشر﴾ أسند النفخ إلى الآمر به، والنافخ: هو إسرافيل، ولكرامته أسند ما يتولاه إلى ذاته المقدسة، وقرىء ﴿ينفخ﴾ و﴿يحشر﴾ بالياء مبنياً للفاعل، وقرأ الحسن، وابن عياض في جماعة ﴿في الصور﴾ على وزن درر، والحسن ﴿ينفخ﴾ بالياء مبنياً للمفعول و﴿يحشر﴾ مبنياً للفاعل وبالياء؛ أي: ويحشر الله تعالى، وقوله: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ استئناف[4] لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ، ويصح أن يكون حالاً من ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والتخافت: إسرار المنطق وإخفاؤه؛ أي: يقول بعضهم لبعض خفيةً، من غير رفع صوت، بسبب امتلاء صدورهم من الخوف والهوان، أو استيلاء الضعف عليهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾؛ أي: ما أقمتم وما مكثتم في الدنيا، أو في القبر

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

﴿إِلَّا عَشْرًا﴾؛ أي: إلا عشر ليال، أو عشر ساعات استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لزوالها، لأن أيام الراحة قليلة، والساعات تمر مر السحاب؛ أي: يساررون فيما بينهم، حال كونهم قائلين في السر: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ عشر ليال، لأنهم يرون من شدة[1] أهوال ذلك اليوم ما يقلل ذلك في أعينهم، فهم يحسبون أنهم ما لبثوا في الدنيا، أو في القبور إلا عشرة أيام مع لياليها، وهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه في الدنيا، لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك، اعترافاً به، وتحقيقاً لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم في القبور إلا مدةً يسيرة، وقوله[2]: ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يحتمل عشر ليال، أو عشرة أيام، لأن المذكر إذا حذف وأبقى عدده، قد لا يؤتى بالتاء، حكىٰ الكسائي عن أبي الجراح: صمنا من الشهر خمساً، ومنه ما جاء في الحديث: «ثم أتبعه بست من شوال» يريد ستة أيام، وحسَّن الحذف هنا كون ذلك فاصلةً رأس آية، ودل قوله الآتي ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾ على أن المراد بقولهم عشراً: عشرة أيام، ثم لما قالوا هذا القول.. قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ﴾ وأوفرهم وأوفاهم ﴿طَرِيقَةً﴾؛ أي: رأياً وعقلاً، وأعلمهم عند نفسه: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾؛ أي: ما لبثتم إلا يوماً واحداً، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، لكونه أدل على شدة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصدق.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾؛ أي: ويسألك يا محمد مشركو مكة على سبيل الاستهزاء ﴿عَنِ﴾ حال ﴿الْجِبَالِ﴾ يوم القيامة، وقد كانوا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأمره الله ـ سبحانه ـ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿فَقُلْ﴾ و(الفاء)[3] في قوله ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد: واقعة في جواب شرط مقدر تقديره: إن سألوك فقل جواباً لهم ﴿يَنسِفُهَا﴾؛ أي: يقلعها ﴿رَبِّي﴾ من أصولها ﴿نَسْفًا﴾؛ أي: قلعاً ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش، تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالهباء المنثور والضمير في ﴿فَيَذَرُهَا﴾ عائد إلى ﴿الْجِبَالِ﴾ باعتبار مواضعها؛ أي: فيذر

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

مواضعها، ويتركها بعد نسف ما كان عليها من الجبال، وعبارة «أبي السعود» هنا: أي يتركها، والضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السالفة الباقية بعد النسف، وهي مقارها ومراكزها؛ أي: فيذر ما انبسط منها وساوى مسطح أجزاء الأرض بعد نسف الشاهق منها، وإما الأرض المدلول عليها بقرينة الحال، لأنها الباقية بعد نسف الجبال. انتهت. ﴿قَاعًا﴾؛ أي: مكاناً فارغاً سهلاً مطمئناً ﴿صَفْصَفًا﴾؛ أي: مستوياً، كأن أجزاءها على صف واحد من كل جهة، والظاهر من لغة العرب أن القاع: الموضع المنكشف البارز، والصفصف: المستوي الأملس، والخطاب[1] في قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ لكل من يتأتى منه الرؤية، وهو استئناف مبين لكيفية القاع الصفصف؛ أي: لا ترى أيها المخاطب لا بالبصر ولا بالبصيرة فيها؛ أي: في مقار الجبال ومواضعها بعد نسفها ﴿عِوَجًا﴾؛ أي: انخفاضاً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾؛ أي: ارتفاعاً يسيراً، قال الزمخشري: الأَمْتُ: النتوء اليسير.

والمعنى: أي[2] ويسألك المشركون أيها الرسول، عن الجبال كيف تكون يوم القيامة، فقل مجيباً لهم: يدكها ربي دكاً، ويصيِّرها هباءً تذروه الرياح، فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساءَ مستويةً، لا نبات فيها ولا بناءَ، ولا ارتفاع ولا انخفاض.

وخلاصة هذا: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابيةً، ولا مكاناً مرتفعاً ولا منخفضاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ نسفت الجبال، على إضافة اليوم إلى وقت النسف، وهو ظرف لقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: الناس ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ الذي يدعوهم إلى الموقف والمحشر، وهو إسرافيل ـ عليه السلام ـ يدعو الناس عند النفخة الثانية قائماً على صخرة بيت المقدس، كما قيل، ويقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قوموا إلى عرض الرحمٰن، فيقبلون من كل أوب صوبه؛ أي: من كل جانبٍ إلى جهته ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا ميل ولا انحراف لهم عن دعائه؛ أي: لا يزيغون[3] عنه يميناً ولا شمالاً، بل يأتونه

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

سراعاً. اهـ «خازن».

وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفةً، وأن تكون حالاً من ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ ويجوز أن تكون نعتاً لمصدر محذوف، تقديره: يتبعونه اتباعاً لا عوج له، والضمير: في ﴿لَهُۥ﴾ فيه أوجه:

أظهرها: أنه يعود على ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾؛ أي: لا عوج لدعائه، بل يُسمع جميعهم، فلا يميل إلى ناس دون ناس.

والثاني: قيل هو عائد على ذلك المصدر المحذوف؛ أي: لا عوج لذلك الاتباع.

والثالث: أن في الكلام قلباً، تقديره: لا عوج لهم عنه اهـ «سمين».

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾؛ أي: سكنت وخفتت وخفضت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: لهيبته، وذلت أصحابها، وخضعت لجلاله سبحانه، والخشوع: الخضوع، وهو: التواضع والسكون، أو هو في الصوت والبصر، والخضوع في البدن، وفي «المفردات»[1] الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، والضراعة: أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب.. خشعت الجوارح، والصوت: هواء متموج بتصادم جسمين، وهو عام، والحرف: مخصوص بالإنسان ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ أيها المخاطب ويا محمد حينئذ ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾؛ أي: إلا صوتاً خفياً، وهو صوت وطء الأقدام في مشيها إلى المحشر، كصوت أخفاف الإبل في مشيها، يقال: همست الإبل: إذا سمع ذلك من وقع أخفافها على الأرض اهـ «سمين»، ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾؛ أي: يوم[2] يرى الناس هذه الأهوال.. يتبعون صوت داعي الله الذي يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء، ولا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه يقبلون، إذا أمروا بشيء قالوا: لبيك ونحن بين يديك والأمر منك وإليك، كما قال ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ومعنى: ﴿وَخَشَعَتِ

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾؛ أي: وعلمت الخلائق أن لا مالك لهم سواه، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذي لا يكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه، وحق لمن كان الله سبحانه محاسبه أن يخشع طرفه، ويضعف صوته، ويخلص قوله، ويطول غمه، قال أبو مسلم: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ أي: لا تنفع شفاعة الشافعين أحداً من المشفوعين ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: إلا مشفوعاً أذن الرحمٰن في أن يشفع له؛ أي: في شفاعة الشافعين له ﴿وَرَضِىَ﴾ الرحمٰن ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المشفوع ﴿قَوْلًا﴾ من أقواله الحاصلة له في الدنيا، وهو قول: شهادة أن لا إله إلا الله، بأن مات على الإسلام وإن عمل السيئات، وأما من عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فرض صدورها من الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق، وهي نافعة لهم، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من أعم المفاعيل كما قدرنا آنفاً، أو المعنى: يومئذ لا تنفع شفاعة الشافعين، ولا تُقبل منهم، إلا من أذن له الرحمٰن؛ أي: إلا شفاعة شافعٍ أذن له الرحمن في شفاعته للغير، ورضى له قولاً في طلب شفاعته للغير، وعلى هذا المعنى فـ﴿مَنْ﴾ الموصولة في محل الرفع على البدلية من الشفاعة، ولكنه على حذف مضاف، تقديره؛ أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمٰن، ورضي له قولاً، قال الإمام الراغب: الشفاعة[1]: الانضمام إلى آخر ناصراً له، وسائلاً عنه، وأكثر ما يُستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبةً إلى من هو أدنى منه، ومنه الشفاعة في القيامة، والإذن في الشيء: الإعلام بإجازته والرخصة فيه، كما سيأتي.

المعنى: أي يومئذ[2] لا تنفع الشفاعة أحداً، إلا شفاعة من أذن له الرحمٰن أن يشفع، ورضى له قولاً صدر منه، والفاسق قد قال قولاً يرضاه الرحمٰن، فقد قال: لا إله إلا الله، كما روي عن ابن عباس.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والخلاصة: أن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين:

١ ـ إذن الله للشافع بالشفاعة فيه.

٢ ـ رضا الله عن قول صدر من المشفوع له، ليأذن بشفاعة الشافع له.

وقصارى ذلك: أنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمٰن في أن يشفع له، وكان له قول يرضي الله سبحانه، وبمعنى الآية قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه.. علل ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من[1] أمور الآخرة؛ أي: يعلم سبحانه ما بين أيدي المتبعين الداعي، وهم الخلق جميعاً ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الدنيا ﴿و﴾ هم ﴿لا يحيطون به﴾؛ أي: بما بين أيديهم وما خلفهم ﴿عِلْمًا﴾؛ أي: لا يعلمون ذلك. وقيل: المعنى: يعلم الله سبحانه ما بين أيديهم، أي[2]: ما تقدمهم من الأحوال وما خلفهم؛ أي: وما بعدهم مما يستقبلون.

والمعنى[3]: أي يعلم ما بين أيدي عباده من شؤون الدنيا، وما خلفهم من أمور الآخرة، وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله، وقيل: المعنى: ولا يحيطون به[4] تعالى علماً؛ أي: لا تحيط علومهم بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته، لأنه تعالى قديم، وعلم المخلوقين لا يحيط بالقديم، قال الراغب: والإحاطة بالشيء: هي أن تعلم وجوده، وجنسه، وكيفيته، وغرضه المقصود به إيجاده، وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولما ذكر خشوع الأصوات.. أتبعه خضوع ذويها فقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾؛ أي: ذلت وجوه الخلائق وذواتهم كلها، صالحةً وعاصيةً، إن قلنا: إن ﴿أل﴾ فيه للجنس، أو

---

(١) الجلالين.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

(٤) الشوكاني.

وجوه العصاة، إن قلنا: إنها للعهد كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وعبر عن المكلفين بالوجوه لأن الخضوع فيها يتبين، كما في «الكبير»؛ أي[1]: ذلت الوجوه يوم الحشر وخضعت ﴿لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ خضوع العناة؛ أي: الأسارىٰ في يد ملك قهار، وفي «التأويلات النجمية» خضعت وتذللت وجوه المكونات لمكونها الحي الذي به حياة كل حي، القيوم الذي به قيام كل شيء، احتياجاً واضطراراً واستسلاماً، يقال: عني يعنو عنواً: إذا خضع، ومنه قيل للأسير: عانٍ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت.

مَلِيْكٌ عَلَىٰ عَرْشِ ٱلسَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُوْ ٱلْوُجُوْهُ وَتَسْجُدُ

ثم قسم الوجوه إلى قسمين بقوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ...﴾ إلخ. وقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ...﴾ إلخ، أي: وقد خاب وخسر وهلك هلاكاً أبدياً يوم الحشر ﴿من حمل﴾ وارتكب في الدنيا ﴿ظُلۡمٗا﴾؛ أي: شركاً وكفراً بالله وبرسوله، ومات على ذلك ولم يتب منه، قال الراغب: الخيبة: فوت المطلب.

والمعنى: أي[2] وقد حرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله، كافر بأنبيائه، أو تارك لأوامره، منغمس في معاصيه.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي[3]: بعض الصالحات، لـ﴿من﴾ مفعول ﴿يَعۡمَلۡ﴾ باعتبار مضمونه ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾؛ أي: والحال أنه مؤمن بالله ورسوله، وبجميع ما جاء به، لأن الإيمان شرط في صحة الطاعات، وقبول الحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ من الله ﴿ظُلۡمٗا﴾ بزيادةٍ في سيئاته، أو بمنع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿وَلَا هَضۡمٗا﴾ بنقص من حسناته، أو ولا كسراً منه بنقص، قيل: الظلم[4] والهضم متقاربان، وفرق القاضي الماوردي بينهما فقال: الظلم: منع جميع الحق، والهضم: منع بعضه.

والمعنى: أي[5] ومن يعمل صالح العمل على قدر طاقته، وهو مؤمن بربه

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.
(٥) المراغي.

ورسله، وما أنزله عليهم من كتبه، فلا يخاف من الله ظلماً، بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وخلاصة ذلك: أنه لا يؤاخذ العبد بذنب لم يعمله، ولا تبطل له حسنة قد عملها.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ على الخبر؛ أي: فهو لا يخاف، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحميد: ﴿فلا يخف﴾ على النهي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما أنزلنا عليك ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها ﴿وأنزلناه﴾؛ أي: أنزلنا القرآن كله، وإضماره من غير سبق ذكر للإيذان بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان، قال الزمخشري: وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات، أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة .اهـ وعبارة «السمين». ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾: معطوف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ اهـ قال في «بحر العلوم»: ويجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر ﴿أَنزَلْنَا﴾؛ أي: مثل ذلك الإنزال البين ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي[1]: بلغة العرب ليفهموه، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، نازلاً من عند خلاق القوى والقدر.

والمعنى: وكما أنزلنا[2] ما ذكر من الوعد وأحوال يوم القيامة وأهوالها، أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربي مبين، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم، ويتفقهوا بدراسته، ويسعدوا بالعمل بما حواه، مما فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: كما أنزلنا الصحائف والكتب إلى آدم وغيره من الأنبياء بألسنتهم ولغاتهم المختلفة، كذلك أنزلنا إليك قرآناً عربياً بلغة العرب، وحقيقة كلامه التي هي الصفة القائمة بذاته، منزهة عن الحروف والأصوات المختلفة المخلوقة، وإنما الأصوات والحروف تتعلق باللغات والألسنة

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

المختلفة .اهـ. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ﴾؛ أي: وبينا في القرآن، وكررنا فيه بعض الوعيد والتهديد، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أوعدنا فيه قومك بأصناف العقوبات التي عاقبنا بها الأمم الماضية، وكررنا ذلك عليهم، قال في الكبير: يدخل تحته بيان الفرائض والمحارم، لأن الوعيد بهما يتعلق. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي يخافوا عقاب الله، فيجتنبوا الشرك والمعاصي، بالفعل ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ القرآن ويجدد لهم ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: إيقاظاً واتعاظاً واعتباراً بهلاك من قبلهم من الأمم، حين يسمعونهم فيثبطوا عنها، ولهذه[1] النكتة أسند التقوى إليهم والإحداث إلى القرآن، وإحداث[2] الشيء إيجاده بعد أن لم يكن، والحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن عرضاً كان أو جوهراً. وفي «الكرخي»: أضيف الذكر إلى القرآن ولم تضف التقوى إليه، لأن التقوى: عبارة عن أن لا يفعل القبيح، وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يحسن إسناده إلى القرآن، وأما حدوث الذكر.. فأمر يحدث بعد أن لم يكن، فجازت إضافته إلى القرآن .اهـ. وقرأ[3] الحسن: ﴿أو يحدث﴾ ساكنة الثاء، وقرأ عبد الله، ومجاهد، وأبو حيوة، والحسن - في رواية - والجحدري، وسلام: ﴿أو نحدث﴾ بالنون وجزم الثاء، وذلك حمل وصل على وقف، أو تسكين حرف الإعراب استثقالاً لحركته، وفي «زاد المسير»: وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري: ﴿أو نحدث﴾ بنون مرفوعة. انتهى.

ومعنى الآية: أي وخوفناهم بضروب من الوعيد، كي يجتنبوا الشرك، والوقوع في المعاصي والآثام، أو يحدث لهم عظةً تدعوهم إلى فعل الطاعات.

وخلاصة ذلك: أنهم بدراستهم: إما أن يصلوا إلى مرتبة هي ترك المعاصي والوقوع في الآثام، وإما أن يرتقوا إلى مرتبة هي فوق ذلك، وهي: أن يفعلوا الطاعات، ويؤدوا الفرائض والواجبات.

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وبعد أن عظم الله كتابه، أردفه بتعظيم نفسه فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ - سبحانه وتعالى -؛ أي: ارتفع بذاته، وتنزه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: السلطان النافذ أمره ونهيه، الحقيق بأن يرجى وعده، ويخشى وعيده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيته، الحقيق بالملك لذاته.

الحاصل: أنه سبحانه، لما بيَّن[1] للعباد عظيم نعمته عليهم، بإنزال القرآن.. نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء؛ أي: جل الله عن إلحاد الملحدين، وعما يقول المشركون في صفاته، فإنه الملك الذي بيده الثواب والعقاب، وإنه الحق؛ أي: ذو الحق، ولا يخفى[2] ما في هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن، وبيان أن قواعده وزواجره سياسات إلهية، فيها صلاح الدارين، لا يحيد عنها إلا من خذله الله، وأن ما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله، لا يحوم الباطل حول حماه، وأن المحق من أقبل عليه بشراشره، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: بقراءته في نفسك ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ﴾ ويؤدي ﴿إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾؛ أي: إلقاؤه وقراءته، ويفرغ منه ويتم جبريل تبليغه لك، وكان[3] محمد ﷺ إذا ألقى إليه جبريل الوحي.. يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنهي عن ذلك، إذ ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها.

المعنى: لا تعجل بقراءة القرآن خوف النسيان والانفلات قبل أن يستتم جبريل قراءته، ويفرغ من الإبلاغ والتلقين، فإذا بلَّغ فاقرأه، وقال أبو مسلم: ولا تعجل بقراءته في نفسك، أو في تأديته إلى غيرك، أو في اعتقاد ظاهره، أو في تعريف غيرك ما يقتضيه ظاهره، وفي هذا أنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وخلاصة ذلك: أنصت حين نزول الوحي بالقرآن عليك، حتى إذا فرغ الملك من قراءته.. فاقرأه من بعده.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ مبنياً للمفعول ﴿وَحْيُهُۥ﴾: مرفوع به، وقرأ عبد الله، والجحدري والحسن، وأبو حيوة، ويعقوب، وسلام، والزعفراني، وابن مقسم: ﴿نقضي﴾ بنون العظمة، مفتوح الياء ﴿وحيه﴾: بالنصب، وقرأ الأعمش: كذلك إلا أنه سكن الياء من ﴿نقضي﴾ قال صاحب «اللوامح» وذلك على لغة من لا يرى فتح الياء، بحال إذا انكسر ما قبلها وحلت طرفاً. انتهى.

وفي «التأويلات النجمية» وفي قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ إشارة إلى سكوته عند قراءة القرآن، وآستماعه والتدبر في معانيه وأسراره، للتنور بأنواره، وكشف حقائقه، ولهذا قال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد في نفسك ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾؛ أي: فهماً[2] لإدراك حقائقه، فإنها غير متناهية، وتنوراً بأنواره، وتخلقاً بخلقه، وقال بعضهم: ﴿عِلْمًا﴾ بالقرآن، فكان كل ما نزل عليه شيء من القرآن.. ازداد به علماً.

والمعنى: أي سل الله زيادةً في العلم، دون استعجال بتلاوة الوحي، فإن ما أوحي إليك يبقى لا محالة، روى الترمذي، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً والحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار».

وكان ابن مسعود: إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم زدني إيماناً وفقهاً ويقيناً وعلماً.

وفي الآية: بيان لشرف العلم، وقيل: ما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في طلب العلم، والمعتبر هو العلم النافع، ولذلك قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» والعلم بالله لا يتيسر إلا بتصفية الباطن، فتصفية القلب عما سوى الله تعالى من أعظم القربات، وأفضل الطاعات، ولذلك

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

كان مطمع نظر الأكابر في إصلاح القلوب والسرائر.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية و(اللام): موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿قَالَ﴾: فعل ماض ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به ﴿هَٰرُونُ﴾: فاعل ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾ أيضاً، أو حال من ﴿هَٰرُونُ﴾ والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة ﴿فُتِنتُم﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل ﴿به﴾ متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونه جواب النداء ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ (الواو): عاطفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿رَبَّكُمُ﴾ اسمها ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: خبرها، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن ربكم الرحمن، وأردتم إظهار النصيحة لكم.. فأقول لكم ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ ﴿اتبعوني﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾ وإن شئت قلت. ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب ﴿نَّبْرَحَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿لَن﴾ واسمها: ضمير مستتر عائد على عابدي العجل ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿عَٰكِفِينَ﴾ ﴿عَٰكِفِينَ﴾: خبر ﴿نَّبْرَحَ﴾ منصوب بالياء، وجملة ﴿نَّبْرَحَ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، بمعنى إلى ﴿يَرْجِعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى ﴿إِلَيۡنَا﴾: متعلق به ﴿مُوسَىٰ﴾: فاعل والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره، إلى رجوع ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿إِلَيۡنَا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَّبۡرَحَ﴾ أو بـ﴿عَٰكِفِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: معطوفة بعاطف مقدر على جملة محذوفة، تقديرها: فرجع موسى إليهم و﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ. . .﴾ إلخ. ﴿يَٰهَٰرُونُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت. . قلت ﴿يَٰهَٰرُونُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستقهام التوبيخ، في محل الرفع مبتدأ ﴿مَنَعَكَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿إِذۡ﴾: ظرف متعلق بـ﴿مَنَعَكَ﴾. ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، وجملة: ﴿ضَلُّوٓاْ﴾ في محل النصب مفول ثان لـ﴿رأيت﴾ إن قلنا إنها قلبية، أو في محل النصب حال من ضمير المفعول إن قلنا إنها بصرية، وجملة ﴿رأيت﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾. ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾ زائدة ﴿تتبع﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله: ضمير يعود على ﴿هَٰرُونُ﴾ و﴿النون﴾ نون الوقاية وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية: في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بحرف محذوف، تقديره: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من اتباعك إياي في الجبل، أو في الغضب لله الجار والمجرور متعلق بـ﴿منع﴾.

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾.

﴿أَفَعَصَيۡتَ﴾ الهمزة: فيه للاستفهام التوبيخي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أأقمت بين هؤلاء الذين عبدوا العجل ﴿فعصيت أمري﴾. ﴿عصيت أمري﴾: فعل وفاعل ومفعول،

والجملة، معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله: ضمير يعود على ﴿هَارُونُ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿ابن﴾: منادى مضاف منصوب بفتحة ظاهرة ﴿ابن﴾: مضاف ﴿أَمَّ﴾ بالفتح: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المنقلبة ألفاً للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحة لمناسبة الألف المحذوفة اجتزاءً عنها بالفتحة ﴿أَمَّ﴾ مضاف وياء المتكلم المنقلبة ألفاً محذوفةً: في محل الجر مضاف إليه، وبالكسر مضاف إليه مجرور وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ﴿أم﴾: مضاف وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، وقد بسطنا إعراب المنادى المضاف إلى ياء المتكلم في رسالتنا «هدية أولى العلم والإنصاف في إعراب المنادى المضاف» فراجعها إن أردت بسط المقام، وجملة المنادى: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَآ﴾: ناهية جازمة ﴿تَأْخُذْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَآ﴾: ناهية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿بِلِحْيَتِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَأْخُذْ﴾. ﴿وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾: معطوف على ﴿بِلِحْيَتِى﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه ﴿خَشِيتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة الفعلية، مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ قولك ﴿فَرَّقْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿تَقُولَ﴾. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿فَرَّقْتَ﴾ ﴿بَيْنَ﴾ مضاف ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مضاف إليه ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لم ترقب﴾: جازم ومجزوم، وفاعله: ضمير يعود على ﴿هارون﴾. ﴿قَوْلِى﴾: مفعول به ومضاف إليه وياء المتكلم: واقعة على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَرَّقْتَ﴾: على كونها مقولاً لتقول؛ أي: ﴿و﴾

خشيت أن تقول ﴿لم ترقب قولي﴾: أي: ﴿قَوْلِي﴾ لك ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وعلى هذا الاحتمال جمهور المفسرين، ويجوز عطف قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ على ﴿أَن تَقُولَ﴾: فيكون الضمير في ﴿قَوْلِي﴾ واقعاً على ﴿هَارُونُ﴾؛ أي: وخشيت عدم ترقبك لـ﴿قَوْلِي﴾؛ أي: ﴿خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ﴾ وخشيت عدم تأملك في ﴿قَوْلِي﴾ حتى تفهم عذري.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: اتخذت العجل إلهاً ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع مبتدأ ﴿خَطْبُكَ﴾: خبر المبتدأ، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿يَـٰسَـٰمِرِيُّ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿بَصُرْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَمْ يَبْصُرُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد: ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿فَقَبَضْتُ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قبضت﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿بَصُرْتُ﴾. ﴿قَبْضَةً﴾: مفعول به وهو مصدر مرة من قبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿قَبْضَةً﴾ وهو على تقدير مضافين؛ أي: ﴿مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرس ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ والمعنى: من تربة موطئه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ (الفاء) عاطفة ﴿نبذتها﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قبضت﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿سَوَّلَتْ﴾. ﴿نَفْسِي﴾ فعل

وفاعل ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سَوَّلَتْ﴾ والتقدير وسولت لي نفسي عبادة العجل تسويلاً كائناً كتسويل الذي فعلته من القبض والنبذ، ويصح كون (الكاف) زائدة واسم الإشارة مفعولاً مقدماً لـ﴿سَوَّلَتْ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلها، على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة: مستأنفة ﴿فَاذْهَبْ﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلت: إن فعلك هذا من تسويل النفس، وأردت بيان جزائك.. فأقول لك ﴿اذهب﴾. ﴿اذهب﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على ﴿السَّامِرِيُّ﴾ والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لأن ﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿إن﴾ ﴿أَن تَقُولَ﴾: ناصب وفعل منصوب، وفاعله: ضمير يعود على ﴿السَّامِرِيُّ﴾ والجملة الفعلية: في تأويل مصدر منصوب على كونه اسم ﴿إِنَّ﴾ تقديره: فإن قولك ﴿لَا مِسَاسَ﴾ كائن لك ﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿اذهب﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿لَا﴾ نافية تعمل عمل إن ﴿مِسَاسَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَا﴾: محذوف تقديره: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ كائن لي، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول ﴿تَقُولَ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم ﴿مَوْعِدًا﴾: اسمها مؤخر ﴿لَن﴾ حرف نصب ﴿تُخْلَفَهُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ﴿لَن﴾ ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿السَّامِرِيُّ﴾ وهو المفعول الأول، و(الهاء): ضمير متصل في محل النصب مفعول ثان له، والجملة الفعلية: في محل النصب صفة لـ﴿مَوْعِدًا﴾ ولكنها سببية، والتقدير: وإن موعدا لن تخلفه كائن لك، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ المذكورة قبلها.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

﴿وَٱنظُرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱذْهَبْ﴾. ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿انظر﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل جر صفة لـ﴿إِلَٰهِكَ﴾. ﴿ظَلْتَ﴾: فعل ناقص واسمه وأصله: ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفاً كما سيأتي في مبحث التصريف ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿عَاكِفًا﴾. ﴿عَاكِفًا﴾ خبر ﴿ظَلْتَ﴾ والجملة: صلة الموصول، والعائد: ضمير عليه ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ (اللام): موطئة للقسم ﴿نحرقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ ومن معه و(الهاء): ضمير متصل في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ (اللام): موطئة للقسم ﴿ننسفن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ ومن معه و(الهاء): ضمير متصل في محل النصب مفعول به، وجملة القسم: معطوفة على جملة القسم المذكورة قبلها ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾: متعلق بـ﴿ننسفن﴾. ﴿نَسْفًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة ﴿إِلَٰهُكُمُ﴾: مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره والجملة: مستأنفة أو في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة للجلالة ﴿لَآ﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسم ﴿لَآ﴾ وخبر ﴿لَآ﴾: محذوف تقديره: موجود ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها صلة الموصول ﴿وَسِعَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الموصول ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿عِلْمًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، والجملة

الفعلية: بدل من جملة ﴿لَآ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿نَقُصُّ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، والتقدير: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصاً كائناً كقص قصة موسى ـ عليه السلام ـ والجملة: مستأنفة ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لموصوف محذوف هو مفعول به ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نبأ كائناً ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ﴿أَنۢبَآءِ﴾ مضاف ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَآ﴾ والجملة: صلة لـ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ذِكْرًا﴾. ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول ثان لـ﴿أتيناك﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿نَقُصُّ﴾ أو مستأنفة.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿أَعْرَضَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾: الشرطية لكون الجواب جملة اسميةً ﴿إن﴾: حرف نصب و(الهاء): اسمها ﴿يَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به ﴿وِزْرًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَحْمِلُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل النصب صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ منطوياً مشتملاً على هذه القصص ﴿يَحْمِلُ﴾ المعرض عنه ﴿وِزْرًا﴾ كاملاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَحْمِلُ﴾ العائد على ﴿مَن﴾ الشرطية مراعاة لمعناها بعد مراعاة لفظها ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾

والضمير: يعود للوزر ﴿وَسَآءَ﴾ (الواو): استئنافية ﴿ساء﴾ فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: هو يعود على المبهم الذي يفسره التمييز المتأخر عنه لفظاً ورتبة ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بالقول المقدر؛ أي: يقال: هذا الكلام لهم في حقهم لا متعلقة بـ﴿ساء﴾ وقيل: هي كاللام في ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: لمجرد البيان، فراجع سورة يوسف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿ساء﴾. ﴿حِمۡلٗا﴾ تمييز لفاعل ﴿ساء﴾ وجملة ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ جملة إنشائية مستأنفة، والمخصوص بالذم، محذوف تقديره: وزرهم، والمعنى: بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفراً بالقرآن .اهـ «كرخي».

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿يَوۡمَ﴾: بدل من ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. ﴿يُنفَخُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿فِي ٱلصُّورِۚ﴾: جار ومجرور نائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿وَنَحۡشُرُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُنفَخُ﴾ وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: مفعول به ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف أضيف إلى ظرف متعلق بـ﴿نحشر﴾ والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة ﴿زُرۡقٗا﴾: حال من ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وجملة.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: حال من المجرمين أو مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في ذلك اليوم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾. ﴿إِن﴾: نافية ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل إلا أداة حصر استثناء مفرغ ﴿عَشۡرٗا﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لقول محذوف، واقع حالاً من فاعل ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ أي: يتسارون بينهم، حال كونهم قائلين: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾. ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ ﴿إِذۡ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ ﴿يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ﴾ فعل وفاعل ﴿طَرِيقَةً﴾ تمييز ذات، والجملة: مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿إِن﴾ نافية ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر ﴿يَوۡمٗا﴾ ظرف متعلق بـ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾ والجملة الفعلية: في

محل النصب مقول ﴿يقول﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ الواو: استئنافية ﴿يسألونك﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ في محل المفعول الثاني، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير تعنتهم وإصرارهم على الجدل والمكابرة والاستهزاء ﴿فَقُلْ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على محمد، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يسألونك﴾. ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى﴾: فعل ومفعول به وفاعل ﴿نَسْفًا﴾: مفعول مطلق، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿يذرها﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَنسِفُهَا﴾. ﴿قَاعًا﴾: حال من الضمير المنصوب، أو مفعول ثان لتضمين ﴿يذر﴾ معنى التصيير ﴿صَفْصَفًا﴾: حال ثانية، أو بدل من المفعول الثاني، وأعربه بعضهم صفةً له ﴿لَّآ﴾: نافية ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب ﴿فِيهَا﴾، متعلق بـ﴿تَرَىٰ﴾. ﴿عِوَجًا﴾: مفعول به لأن ﴿تَرَىٰ﴾: بصرية ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾: معطوف على ﴿عِوَجًا﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال ثالثة أو حال أولى.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يومَ﴾: منصوب على الظرفية وهو مضاف ﴿إذٍ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، والتنوين: عوض عن الجملة المحذوف، والظرف: متعلق بـ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أو بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المتقدم ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة ﴿لا﴾ نافية ﴿عِوَجَ﴾ في محل النصب اسم ﴿لا﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ وجملة ﴿لا﴾: في محل النصب حال من ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: يتبعونه اتباعاً ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة، والأول: أظهر، لأن

الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود عليه؛ أي: ﴿لَا عِوَجَ﴾ لدعائه بل يسمع جميعهم، فلا يميل إلى أناس دون أناس ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَتَّبِعُونَ﴾. ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿خشعت﴾. ﴿فَلَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿تَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير مستتر فيه يعود على أي مخاطب، أو على محمد ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هَمْسًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خشعت﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى ظرف متعلق بـ﴿لَّا تَنفَعُ﴾. ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول واقع على المشفوع، في محل النصب مفعول به لـ﴿تَنفَعُ﴾ ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ على قاعدة المستثنى المنفي، أو النصب على الاستثناء المتصل من ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ ولا بد في هذين الوجهين من تقدير مضاف، تقديره: إلا شفاعة من أذن له، وإذا اعتبر المستثنى منقطعاً.. وجب نصبه، فتلخص فيه أربعة أوجه متقاربة الرجحان، ورجح الزمخشري الرفع على البدلية، وتبعه القاضي البيضاوي ﴿أَذِنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُ﴾ متعلق به ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فاعل والجملة: صلة الموصول ﴿ورضي﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على الله ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ﴿رضي﴾ ﴿قَوْلًا﴾ مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَذِنَ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير علمه تعالى ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة الموصول ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: معطوف على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿وَلَا﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُحِيطُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿عِلْمًا﴾ تمييز محول عن الفاعل منصوب بـ﴿يُحِيطُونَ﴾. ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿لِلْحَيِّ﴾:

جار ومجرور متعلق بـ﴿عنت﴾. ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: صفة ﴿لِلْحَيِّ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ (الواو): حالية ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿خَابَ﴾: فعل ماض ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة: في محل النصب حال من ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾ والرابط محذوف، تقديره: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ والحال أنه قد خاب من حمل ظلما من أصحابها ﴿حَمَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ظُلْمًا﴾ مفعول به والجملة: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جار ومجرور صفة لمفعول محذوف تقديره: أعمالاً ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾ ﴿فَلَا﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿لا﴾ نافية ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول به ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿يَخَافُ﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الواو: عاطفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والتقدير: وأنزلنا القرآن كله إنزالاً مثل إنزال هذه الآيات، المتضمنة لأحوال يوم القيامة، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أو مستأنفة ﴿قُرْءَانًا﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة له ﴿وَصَرَّفْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلقة بـ﴿صرفنا﴾. ﴿مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: صرفنا فيه وعيداً من الوعيد أو ﴿مِنَ﴾ زائدة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه،

وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾ وجملة ﴿لعل﴾: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، لأن ﴿لعل﴾ هنا للتعليل؛ أي: لكي ﴿يَتَّقُونَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف ﴿يُحْدِثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على القرآن ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُحْدِثُ﴾. ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَتَعَالَى﴾ الفاء: استئنافية ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿الْمَلِكُ﴾: صفة أولى للجلالة ﴿الْحَقُّ﴾: صفة ثانية له ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَعْجَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ ناهية، وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿بِالْقُرْآنِ﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿تعالى﴾ ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَعْجَلْ﴾ ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يُقْضَى﴾: فعل مضارع مغير الصغة منصوب بـ﴿أن﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿وَحْيُهُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ قضاء وحيه إليك وقل: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على محمد، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿زِدْنِي عِلْمًا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعولان ونون وقاية، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾؛ أي: مقيمين على عبادته، قال الراغب: العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾؛ أي: شأنك، وما الأمر العظيم الذي صدر منك، والخطب لغةً: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، وهو من تقاليب الخبط، ففيه إشارة إلى عظيم خبطه كما مر ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بضم الصاد فيهما؛ أي: علمت بما لم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا

له، يقال: بصر بالشيء بضم الصاد: إذا علمه وأبصره إذا نظر إليه، وهو من باب ظرف، ويقال: بصر بالكسر من باب علم، قال في «القاموس»: بصر به ككرم وفرح بصراً وبصارةً، ويكسر صار مبصراً، وفي «المفردات»: قلما يقال: بصرت في الحاسة إذا لم تضامه رؤية القلب ﴿فَقَبَضْتُ﴾ يقال: قبض الشيء بيده يقبض: من باب جلس، وعلى الشيء: إذا أمسكه بيده، وضم إليه أصابعه، وقبض يده عن الشيء: امتنع عن إمساكه، وقبضه عن الأمر: أنحاه وقبضه الله أمانته، وقبض الشيء خلاف بسطه ووسعه، وقبض الطائر جناحه جمعه وقبض الدار ونحوها تسلمها، وقبض منه المال: أخذه لنفسه، وقبض قبضة: أخذها.

والقبضة: المرة من القبض، وهو الأخذ بجميع الكف، أطلقت على المقبوض مرةً، ويقال: قبص بالصاد المهملة، لأنهما تتعاقبان في كثير من الكلمات، قال يعقوب بن السكيت: وقبضت قبضة وقبصت قبصة، ويقال: إن القبضة أقل من القبصة، وقال غيره: القبص: بأطراف الأصابع، والقبض: بالكف كلها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ النبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به؛ أي: طرحتها في الحلي المذابة، أو في فم العجل، فكان ما كان كما مر.

﴿لَا مِسَاسَ﴾ بكسر الميم مصدر ماس من باب فاعل، قال في «المفردات» المس: كاللمس، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء، وإن لم يوجد، والمس يقال: فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، وفي «القاموس»: قوله تعالى: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ بالكسر، أي: لا أَمُسُّ ولا أُمَسُّ، وكذلك التماس ومنه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. انتهى؛ أي: لا مسني أحد، ولا أمس أحداً خوفاً من أن تأخذ كما الحمى؛ أي: لا مخالطة فلا يخالطه أحد، ولا يخالط أحداً، فعاش وحيداً طريداً ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ والخلف والإخلاف: المخالفة في الوعد، يقال: وعدني فأخلفني؛ أي: خالف في الميعاد ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أصله: ظللت بلامين، أولاهما مكسورة، فحذفت الأولى تخفيفاً قال في «المفردات»: ظلت بحذف إحدى اللامين يعبر به عما يُفعل بالنهار، ويجري مجرى صرت، والمعنى: صرت مقيماً على عبادته ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ من نسفت الريح التراب: إذا أقلعته وأزالته وذرته،

والنسف: التفرقة والتذرية، وقيل: قلع الشيء من أصله، يقال: نسفه ينسفه بكسر السين وضمها في المضارع ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ والقص: تتبع الأثر، والقصص: الأخبار المتتبعة ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ جمع نبأ، والنبأ: خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ والصور: قرن ونحوه، ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر، كما ينفخ فيه في الدنيا حين الأسفار، وفي المعسكرات ﴿زُرْقًا﴾؛ أي: زرق الأبدان، سود الوجوه، لما هم فيه من الشدائد والأهوال، جمع أزرق، وهو: صفة مشبهة فيها ضمير مستتر هو فاعلها ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ أي: يخفضون أصواتهم ويخفونها لما لحقهم من الرعب والهول .اهـ «أبو السعود» وفي «المختار»: خفت الصوت: سكن وبابه جلس، والمخافتة والتخافت والخفت، بوزن السبت: إسرار المنطق .اهـ.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ يقال: لبث بالمكان: أقام به ملازماً له ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾؛ أي: أفضلهم وأعدلهم رأياً أو عملاً في الحياة الدنيا، وجمعه: أماثل ومثل، ومؤنثه: مثلىٰ قال في «المفردات»: الأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفاضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم: كناية عن خيارهم وعلى هذا قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ انتهى والطريقة المثلىٰ: الشبهىٰ بالحق، ويقال: المريض اليوم أمثل؛ أي: أحسن حالة ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ في «المصباح»: نسفت الريح التراب نسفاً، من باب ضرب: اقتلعته وفرقته، ونسفت البناء نسفاً: قلعته من أصله، ونسفت الحبَّ نسفاً، واسم الآلة منسف بكسر الميم. انتهى ﴿قَاعًا﴾ القاع: أرض سهلة مطمئنة، انفرجت عنها الجبال والآكام، والجمع: أقواع وأقوع وقيع وقيعان وقيعه، وقيل: هو المنكشف من الأرض، وقيل: المستوي الصلب منها، وقيل: ما لا نبات فيه ولا بناء.

﴿صَفْصَفًا﴾ والصفصف: الأرض المستوية الملساء، كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة، وفي «القاموس»: الصفصف: المستوى من الأرض، وقاع صفصف: مستو مطمئن، فهو بمثابة التأكيد للقاع لأنه بمعناه ﴿عِوَجًا﴾ العوج بفتح العين في المحسوسات، وبكسرها في المعاني، وما هنا من قبيل الأول، لكنه عبر

فيه بمكسور العين لكونه لشدة خفائه، كأنه صار من قبيل المعاني؛ أي: لا تدركه فيها لو تأملته بالمقاييس الهندسية اهـ «أبو السعود». ﴿أَمْتًا﴾ الأمت: هو النتو اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت، وقيل: الأمت: هو التل، وهو قريب من الأول، وقيل: هو الشقوق في الأرض، وقيل: الآكام .اهـ «سمين» وفي «القاموس»: أَمَتَهُ يَأْمُتُهُ، قدره وحزره، كأَمَّتَهُ وقَصَدَهُ، وأجل مأموت مؤقت، والأمت: المكان المرتفع، والتلال الصغار، والانخفاض، والارتفاع، والاختلاف في الشيء، والجمع: آمات وأموت، والضعف والوهن، والطريقة والعوج والعيب في الفم، وفي الثوب والحجر، وأن يغلظ مكان ويرق مكان، والمؤمَّت: المملوء والمتهم بالشر ونحوه، والخمر حرمت لا أمت فيها، أي: لا شك في حرمتها .اهـ ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمس: الصوت الخفي، وهو مصدر همست الكلام من باب ضرب، إذا أخفيته، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: ما يسمع من وقع الأقدام على الأرض، ومنه همست الإبل: إذا سمع ذلك من وقع أخفافها على الأرض .اهـ «سمين».

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ في «المختار»: عنا يعنو من باب سما يسموا، فالألف محذوفة قبل تاء التأنيث لالتقاء الساكنين: إذا ذل وخضع، ومنه العناة: جمع عان وهو الأسير، فأصله الأول: عنوت الوجوه، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار عنات ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث، وكأن هذا ليس بلازم، بل يصح أن يقال حذفت الواو ابتداءً وفي «السمين» يقال: عنا يعنو عناءً: إذا ذل وخضع، وأعناه غيره؛ أي: أذله، ومنه العناة جمع عان وهوا لأسير .اهـ. وأما عني كرضي، يعني عناءً: فهو بمعنى تعب .اهـ شيخنا.

﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ القائم بتدبير أمور عباده، ومجازات كل نفس بما كسبت ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ والضم: النقص، تقول العرب: هضمت لزيد من حقه؛ أي: نقصت منه، ومنه: هضم الكشحين؛ أي: ضامرهما، ورجل هضيم ومهتضم؛ أي: مظلوم، وهضمته واهتضمته وتهضمته كله بمعنى ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعالى تفعل من العلو، وليست مرتبة شريفة إلا والحق تعالى في أعلى درجاتٍ منها وأرفعها، وذلك لأنه

مؤثر وواجب لذاته، وكل ما سواه أثر وممكن، ولا مناسبة بين الواجب والممكن، قال في «الإرشاد» وهو استعظام له تعالى ولشؤونه، التي يُصَرِّف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، وغير ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بزيادة حرف في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۦٓ﴾ لأن لا حرف زائد للتأكيد.

ومنها: إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول في قوله: ﴿قَبْضَةً﴾ لأن القبضة المرة من القبض، فأُطلق على المقبوض، كضرب الأمير.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ لأن الأصل من أثر حافر فرس الرسول.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وهو: تشبيه مرسل مجمل.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ شبه الوزر بالحمل الثقيل، بطريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾؛ أي: في الوزر، والوزر: لا يقام فيه، ولكن أراد العقاب المتسبب عن الوزر، فالعلاقة فيه السببية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنه كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ وجناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ وفي قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ لأن الإعراض حقيقة في المحسوس، وهذا كناية عن عدم اتباعه، وترك العمل به، وفي قوله: ﴿يحمل... وزرا﴾ فإنه كناية عن مباشرة العقوبة.

ومنها: إنشاء الذم في قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾.

ومنها: إبهام الفاعل في قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ إفادةً للتهويل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ لما فيه من إطلاق العام وإرادة الخاص، لأن المراد به كلمة لا إله إلا الله، وفي قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ لما فيه من إطلاق الجزء وإرادة الكل، لأن المراد: أصحابها، وخُصت بالذكر، لأن الذل أول ما يظهر فيها.

منها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا
يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا
تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ
﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ
مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا
﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ
وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ
ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها(١): أن الله سبحانه وتعالى لما أمر رسوله ﷺ بأن يقول رب زدني علماً،

(١) البحر المحيط.

كان من ذلك ذكر قصة آدم، وذكر شيء من أحواله فيها لم يتقدم ذكرها، فكان في ذلك مزيد علم له عليه الصلاة والسلام.

وعبارة المراغي هنا: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه صرَّف الوعيد في القرآن، وكرره لعلهم يتقون، أو يحدث لهم ذكراً.. أردف[1] ذلك ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك، ونسوه كما لم يلتفت أبوهم آدم إلى الوعيد، ونسي العهد، فمخالفتهم قديمة، وعرقهم فيها راسخ، ثم فصَّل عهده لآدم، وبيَّن كيف نسيه، وفقد العزم، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم، وتحذيره من الخروج من الجنة إذا اتبع نصائحه، وهو بعد كل هذا قد أطاع وساوسه، وقبل إرشاده، فأكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدو له ولذريته.

ثم بيَّن أن من جاءه الهدى من ربه، واتبعه.. عاش في الدنيا قرير العين، هادىء البال، ويؤتىٰ في الآخرة ما شاء الله أن يؤتىٰ، من ألوان النعيم والسعادة، ومن أعرض عن ذلك.. عاش في الدنيا عيشةً ضنكاً، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها، ومن ثم يغلب عليه الشح والبخل، ويفعل كل منكر في سبيل جمع المال من أي وجه كان، ولا يبالي أمن حلال كان أم من حرام، أما المؤمن الذي لا يعنيه جمع حطام الدنيا، فإنه في سرور وراحةٍ، قل ماله أو كثر، ثم أردف هذا ببيان سبب ذلك، وهو إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التي تهديه إلى سبيل الرشاد، ومن ثم يسير في جهالته إلى يوم القيامة، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية، من حين مماته إلى حين الحشر، وهكذا يجازي الله المسرفين المكذبين بآياته في الدنيا والآخرة، جزاءً وفاقاً لما اجترحوا من السيئات، وارتكبوا من الذنوب والآثام، كما قال سبحانه: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ...﴾ الآيات، مناسبة

---

(١) المراغي.

هذه الآيات لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال من أعرض عن ذكر الله في الآخرة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.. أتبعه بما يكون عبرةً للمشركين لو تفكروا فيه، وهو ما نزل بالمكذبين للرسل ممن قبلهم من الأمم، الذين يمرون بديارهم بكرةً وعشياً، كقوم عاد وثمود، وكيف أصبحت ديارهم خراباً بلقعاً، ليس فيها ديَّار ولا نافخ نار، ثم بيَّن أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى.. لحاق بهم مثل ما حاق ممن قبلهم، ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به، من نحو قولهم: إنه ساحر، وإنه مجنون، وعدم المبالاة بمقالتهم، وعليه أن يكثر من التسبيح، وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار، ولا يلتفت إلى شيء مما متع به الكفار من زهرة الدنيا، التي أوتيت لهم لتكون ابتلاءً واختباراً، وما عند الله خير منها وأبقى، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها، وهو لا يكلفه رزقاً لنفسه ولا لغيره، فالله يرزقه من واسع فضله، وعظيم عطائه، والعاقبة لمن اتقى ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1]، لما أمر رسوله ﷺ بالصبر على أقاويلهم، التي أرادوا بها تكذيبه والكيد له، وشديد أذاه.. حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم، كما حكى الله عنهم من قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ثم ختم السورة بضرب من الوعيد، وكأنه قال: قل لهم: كل منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم، وحينئذٍ يتميز المحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم، وعلى الثاني من ضروب الخزي والإهانة، ويظهر مَنْ منا سار على الطريق السوي ومن المهتدي.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والبزار، وأبو يعلى عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض» فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد عهدنا إلى آدم أبي البشر، ووصيناه، وأمرناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أكله منها، أو من قبل[2] هؤلاء الذين تركوا أمري، ونقضوا عهدي بتكذيبك ﴿فَنَسِىَ﴾ عهدنا، وأكل منها ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾؛ أي: تصميماً على الاحتياط، وحفظاً لما أمر به، وثباتاً عليه، أو صبراً عن أكل الشجرة، يقال: عهد فلان إلى فلان بعهد؛ أي: ألقى العهد إليه، وأوصاه بحفظه، والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي: الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، وعهد الله تارةً يكون بما ركزه في عقولنا، وتارةً يكون بما أمرنا به بكتابه وبألسنة رسله، وتارةً بما نلتزمه، وليس بلازم في أصل الشرع، كالنذور وما يجري مجراها.

وآدم أبو البشر ـ عليه السلام ـ قيل: سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل: لسمرة لونه، يقال: رجل آدم؛ أي: أسمر، وقيل: سمي بذلك لكونه من عناصر مختلفة، وقوىً مفترقة، يقال: جعلت فلاناً أُدْمَةَ أهلي؛ أي: خلطته بهم، وقيل: سمي بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه، وجعل له من العقل والفهم، والرؤية التي فُضل بها على غيره، وذلك من قولهم: الإدام، وهو: ما يطيب به الطعام، وقيل: أعجمي وهو الأظهر.

---

(١) لباب النقول. (٢) الوجيز.

والمعنى: وعزتي وجلالي، لقد أمرنا آدم ووصيناه بأن لا يأكل من الشجرة، وهي المعهودة، وسيأتي بيانها بعد هذه الآية ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِىَ﴾ العهد ولم يهتم به حتى غفل عنه، والنسيان بمعنى: عدم الذكر، أو تركه ترك المنسي عنه، قال الراغب: النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة أو عن قصد، حتى ينحذف عن القلب ذكره، وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به فهو ما كان أصله عن تعمد، وما عذر فيه. وأما ما روي من قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» فهو ما لم يكن سببه منه، والوجود في قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يجوز[1] أن يكون بمعنىٰ العلم، ومفعولاه حينئذٍ ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ وقدم الثاني على الأول لكونه ظرفاً، وأن يكون نقيض العدم، كأنه قال: وعدمنا ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ وهذا هو الأنسب بالمقام.

والمعنى[2]: لم نعلم له، أو لم نصادق له تصميم رأي، وثبات قدم في الأمور، ومحافظةً على ما أمر به، وعزيمةً على القيام به، إذ لو كان كذلك لما أزله الشيطان، ولما استطاع تغريره، وكان ذلك منه في بدء أمره من قبل أن يجرب الأمور، ويتولى قارّها وحارّها، ويذوق شريّها وأريّها، لا من نقصان عقله، فإنه أرجح الناس عقلاً، كما قال ـ عليه السلام ـ: «لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه» وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ ومعنى هذا: أن آدم مع ذلك أثر فيه وسوسته، فكيف في غيره، قيل: لم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعاً عن الإنسان، فكان مؤاخذاً به، وإنما رفع عنا معشر الأمة المحمدية.

قال أبو الفتح البستي في الإعتذار من النسيان إلى بعض الرؤساء:

يَا أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ إِحْسَانَاً إِلَىٰ ٱلنَّاسِ   يَا أَحْسَنَ ٱلْخَلْقِ إِعْرَاضاً عَنْ ٱلْبَاسِ

---

(١) روح البيان.
(٢) الكشاف.
(٣) روح البيان.

نَسِيتُ وَعْدَكَ وَٱلنِّسْيَانُ مُغْتَفَرٌ   فَٱغْفِرْ فَأَوَّلُ ٱلنَّاسِ أَوَّلُ ٱلنَّاسِي

وقرأ[1] معاذ القارىء، وعاصم الجحدري، وابن السميقع، واليماني، والأعمش: ﴿نسي﴾ بضم النون وتشديد السين؛ أي: نساه الشيطان.

فائدة: قال علي[2] رضي الله عنه: عشرة أمور يورثن النسيان: كثرة الهم، والحجامة في النقرة، والبول في الماء الراكد، وأكل التفاح الحامض، وأكل الكزبرة، وأكل سؤر الفأر، وقراءة ألواح القبور، والنظرة إلى المصلوب، والمشي بين الجملين المقطورين، وإلقاء القملة حية.

وزاد في «المقاصد الحسنة» مضغ العلك؛ أي: للرجال إذا لم يكن من علة كالبخر، ولا يكره للمرأة إن لم تكن صائمة، لقيامه مقام السواك في حقهن، لأن سنها أضعف من سن الرجال، كسائر أعضائها، فيخاف من السواك سقوط سنها، وهو ينقي الأسنان، وتشد اللثة كالسواك.

اعلم: أن من أشد أسباب النسيان: العصيان، فنسأل الله العصمة والحفظ.

ثم شرع سبحانه في بيان كيفية ظهور نسيانه، وفقدان عزمه، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ والعامل في إذ مقدر، تقديره: اذكر، وتعليق[3] الذكر بالوقت، مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة، لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت، كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى، وقد تقدم تفسير هذه القصة في البقرة مستوفى؛ أي: واذكر يا محمد قصة وقت قولنا: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ لمن في الأرض والسماء منهم عموماً كما سبق تحقيقه ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ سجود تحيةٍ وتكريمٍ.

قال البيضاوي[4]: اذكر حاله في ذلك الوقت، ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات، وفيه[5] إشارة إلى استحقاقه لسجودهم لمعان جمة:

---

(١) زاد المسير والبحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) البيضاوي.
(٥) روح البيان.

منها: أنه خلق لأمر عظيم هو الخلافة.

ومنها: أنه خلقه على صورة الرحمٰن، كما ورد في الحديث.

ومنها: أنه سبحانه قال في شأنه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

ومنها: أنه اختص بعلم الأسماء كلها، وأنهم احتاجوا إليه في إنباء الأسماء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ فوجب عليهم أداء حقوقه بالسجود له.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾؛ أي: فسجد الملائكة كلهم أجمعون تعظيماً لأمر ربهم، وامتثالاً له ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنه لم يسجد، ولم يطرح أردية الكبر، ولم يخفض جناحه، يقال: أبلس إذا تحير، ومنه إبليس، أو هو أعجمي كما في «القاموس» وقوله: ﴿أَبَىٰ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: ما باله لم يسجد فقيل: أبىٰ السجود وامتنع منه، قال في «المفردات» الإباء شدة الامتناع، فكل إباءٍ امتناع، وليس كل امتناع إباء.

المعنى[1]: أي اذكر أيها الرسول الكريم: ما وقع في ذلك منا ومن آدم، حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه، إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فلبوا الأمر، إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين، وقد تقدم ذكر هذا القصص في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وسيأتي ذكره في سورة صٓ، وفيه إشارة إلى تكريم آدم وتفضيله على كثير ممن خلق. ﴿فَقُلۡنَا﴾ له عقيب ذلك، اعتناءً بنصحه وإرشاده ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الحقير الذي رأيت منه ما رأيت من التكبر ﴿عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ حواء، ومن ثم لم يسجد لك، وخالف أمري وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، والزوج: اسم للمفرد، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه، ذكراً كان أو أنثى، ولعداوته وجوه[2]:

الأول: أنه كان حسوداً له، فلما رأى نعم الله على آدم.. حسده فصار

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عدواً له، وفيه إشارة إلى أن كل من حسد أحداً يكون عدواً، ويريد هلاكه ويسعى في إفساد حاله.

والثاني: أنه كان شاباً عالماً، وإبليس شيخاً جاهلاً، لأنه أثبت فضيلته بفضيلة أصله، وأنه جاهل، والشيخ الجاهل يكون أبداً عدو الشاب العالم.

الثالث: أنه مخلوق من النار، وآدم من الماء والتراب، وبين أصليهما عداوة فبقيت العداوة بينهما ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: فلا يكونن إبليس سبباً لإخراجكما من الجنة، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى سببه، وإلا فالمخرج حقيقةً هو الله سبحانه وتعالى، وظاهره: وإن كان نهىٰ إبليس عن الإخراج، إلا أن المراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان في إخراجهما منها بالطريق البرهاني ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾؛ أي: فتتعبا بمتاعب الدنيا، التي لا تكاد تحصى، فهو جواب النهي.

وخلاصة ذلك(١): إياك أن تسعىٰ في إخراجك منها، فتتعب وتشقىٰ في طلب رزقك، وأنت هٰهنا في عيش رغدٍ هنيء، بلا كلفةٍ ولا مشقةٍ، ولم يقل: فتشقيا، لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده، فهو المخاطب فاكتفى به، أو لأنه الكاسب، فكان التعب في حقه أكثر، ذكره الماوردي، أو لأن إسناد الشقاء إليه لرعاية الفواصل، ولأصالته فيه، وفي «القاموس» الشقاء: الشدة والعسر، ويمد. انتهى.

فالمعنى(٢): لا تباشر أسباب الخروج، فيحصل الشقاء، وهو: الكد والتعب الدنيوي، مثل الحرث والزرع والحصد والطحن والعجن والخبز ونحو ذلك، مما لا يخلو الناس في أمر تعيشهم، ويؤيده ما بعد الآية، وعن ابن جبير: أهبط له ثور أحمر، يحرث عليه فيأكل بكد يمينه، وعرق جبينه.

ثم علل ما يوجبه ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ ﴿لَكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ و﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ في محل النصب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

على الاسمية؛ أي: قلنا له: إن حالك يا آدم، ما دمت في الجنة عدم الجوع، إذ النعم كلها حاضرةً فيها ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ أي: وإن لك فيها أن لا تعرى من الثياب، لأن الملبوسات كلها موجودة في الجنة، والعري: تجرد الجلد عما يستره، وقرأ[(١)] أبيّ بن كعب ﴿لا تُجوع﴾ ﴿ولا تُعرى﴾ بالتاء المضمومة والألف ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ﴾ ولا تعطش ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، لأن العيون والأنهار جارية على الدوام ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾؛ أي: لا يصيبك حر الشمس في الجنة، إذ لا شمس فيها، وأهلها في ظلٍ ممدودٍ، يقال: ضحيَ الرجل للشمس بكسر الحاء: إذا برز وتعرّض لها، و﴿أن﴾ بالفتح مع ما في حيزها: عطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ وفصل[(٢)] الظمأ عن الجوع، دفعاً لتوهم أن نفيهما نعمة واحدة، وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو.

والمعنى[(٣)]: أي لا يكون لك في الجنة جوع ولا عري، ولا ظمأ ولا إصابة بحر الشمس، وقرن بين الجوع والعري أولاً، لأن في الجوع ذل الباطن، وفي العري ذل الظاهر، وبين حر الباطن وهو العطش، وحر الظاهر وهو الضحى ثانياً، فنفى الله عن ساكن الجنة ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن، وقد ذكر الله[(٤)] سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش، وتعب الكد في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع، والري، والكسوة، والسكن، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه.. فله في الجنة هذا كله، وإن ضيَّع وصيته، ولم يحفظ عهده.. أخرجه من الجنة إلى الدنيا، فيحل به التعب والنصب، بما يدفع الجوع والعري، والظمأ والضحو، فالمراد بالشقاء: شقاء الدنيا، كما قاله كثير من المفسرين، لا شقاء الأخرىٰ، قال الفراء: هو أن يأكل من كد يديه، وقرأ شيبة، ونافع، وحفص، وابن سعدان: ﴿وإنك لا تظمأ﴾ بكسر همزة ﴿وإنك﴾ وقرأ الجمهور: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص

---

(١) زاد المسير.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

عن عاصم؛ ﴿وَأَنَّكَ﴾ بفتحها، قال أبو علي: من فتح.. حمله على ﴿أن لك أن لا تجوع﴾ ﴿وأن لك أن لا تظمأ﴾ ومن كسر استأنف.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: أنهى إلى آدم وسوسته وأبلغ، فتعديته بإلى باعتبار تضمينه معنى الإنهاء والإبلاغ، والوسوسة: الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي لأصواتها، وهو فعل لازم، وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ إما بدل من ﴿وسوس﴾ أو مستأنفة بتقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال في وسوسته، فقيل: ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾؛ أي[1]: على شجرة من أكل منها.. خلد، ولم يمت أصلاً، سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكاً، فأضافها إلى ﴿الْخُلْدِ﴾ وهو الخلود لأنها سببه بزعمه، كما قيل لحيزوم فرس الحياة لأنها سببها؛ أي فألقىٰ النصيحة إلى آدم، وقال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها.. خلدت ولم تمت، وملكت ملكاً لا ينقضي ولا يفنى.

قال الراغب: الخلود تبرِّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها، من غير اعتراض الفساد عليها ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾؛ أي: لا يزول ولا ينقضي، ولا يختل بوجه من الوجوه؛ أي: تصرف يدوم ولا ينقطع[2]؛ أي: هل أدلك على الشجرة التي من أكل منها خلف، ولا يموت أصلاً، ودام ملكه، إما على حاله أو على أن يصير ملكاً ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾؛ أي: أكل آدم وحواء من الشجرة ﴿فـ﴾عريا من الثياب التي كانت عليهما حتى ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾؛ أي: عوراتهما، وظهرت فروجهما، يقال: بدا الشيء بَدْواً وبُدُواً: ظهر ظهوراً بيناً، وكنى عن الفرج: بالسوءة، لأنه يسوء الإنسان انكشافه؛ أي: يغمه ويحزنه؛ أي: ظهر لكل منهما قُبله وقُبل الآخر ودُبره.

قال الحصيري: بدت لهما ولم تبد لغيرهما، لئلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علما، ولو بدت للأغيار.. لقال بدت منهما؛ أي: ظهرت فروجهما

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

لكل منهما بسبب تساقط حلل الجنة عنهما لما أكلا من الشجرة، قال ابن عباس: إنهما عريا عن النور الذي كان الله ألبسهما إياه، حتى بدت فروجهما، وقيل[1]: وكان لباسهما الظفر، فلما أصاب الخطيئة.. نزع عنهما، وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع، وعن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «إن أباكم آدم كان رجلاً طويلاً كالنخلة السحوق، كثير الشعر مواري العورة، فلما واقع الخطيئة.. بدت سوءته، فانطلق في الجنة هارباً، فمر بشجرة فأخذت بناصيته فأجلسته، فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا رب، ولكن حياءً منك» ﴿وَطَفِقَا﴾؛ أي: شرع آدم وحواء ﴿يَخْصِفَانِ﴾؛ أي: يلزقان ويطبقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: لأجل ستر سوآتهما، فـ﴿على﴾ تعليلية ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: من ورق أشجار الجنة، وهو ورق التين على ما قيل؛ أي: يلزقان ويضمان ورق التين بعضه ببعض، ورقةً ورقةً حتى يصير طويلاً عريضاً يصلح للاستتار به، كلما ألزقا بعضه ببعض تساقط، قيل: كان مدوراً فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما.

المعنى: أي[2] فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما، فانكشفت عورتهما وكانت مستورةً عن أعينهما، فشرعا يلزقان ورق التين عليهما، ليغطيا جسمهما ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: خالف نهي ربه بأكله من الشجرة، لأنه اعتقد أن النهي عن شجرة معينة، وأن غيرها ليس منهياً عنه ﴿فَغَوَىٰ﴾؛ أي: ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود في الجنة، وخاب من نعيم الجنة، فلم يصب بأكله من الشجرة ما أراده، لأنه إنما أكل منها ليصير ملكه دائماً، فلما أكل.. زال ملكه وخاب سعيه، أو ضل عن المأمور به، وهو التباعد عن الشجرة في ضمن ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، لأن الغي خلاف الرشد، وقيل: فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا، ومعنى ﴿عصى آدم ربه﴾؛ أي[3]: خالف نهيه، فالعصيان: هو

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

المخالفة، لكنه خالف بتأويل، لأنه اعتقد أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو لأنه اعتقد أن النهي قد نسخ لما حلف له إبليس، أو لأنه اعتقد أن النهي عن شجرة معينة، وأن غيرها من بقية أفراد الجنس ليس منهياً عنه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدَّره الله تعالى عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين عاماً، فحج آدم موسى» متفق عليه.

قال القاضي أبو بكر ابن عربي[1]: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم.

قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومما قلته في هذا المعنى:

عَصَىٰ أَبُوْ ٱلْعَالَمِ وَهْوَ ٱلَّذِيْ ... مِنْ طِيْنَةٍ صَوَّرَهُ ٱللَّهُ
وَأَسْجَدَ ٱلأَمْلَاكَ مِنْ أَجْلِهِ ... وَصَيَّرَ ٱلْجَنَّةَ مَأْوَاهُ
أَغْوَاهُ إِبْلِيْسُ فَمَنْ ذا أَنَا ٱلْمِسْـ ... ـكِيْنُ إِنْ إِبْلِيْسُ أَغْوَاهُ

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اصطفاه واختاره وقربه إليه، بالحمل على التوبة والتوفيق لها، قال ابن فورك: كانت المعصية من آدم قبل النبوة، فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿فَتَابَ﴾ ربه ﴿عَلَيْهِ﴾ وعلى زوجته؛ أي: قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. ووجه تخصيص آدم بالذكر: لأن الكلام من أول القصة كان مع آدم وحده، كما مر هناك ﴿وَهَدَىٰ﴾؛ أي: هداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة، وفيه[2] إشارة إلى أنه لو وُكل إلى نفسه وغريزته التي جبل عليها.. ما كانت التوبة من شأنه، ولا الرجوع إلى الله من برهانه، ولكن الله بفضله وكرمه اجتباه، وبجذبة العناية رقاه، وإلى حضرة الربوبية هداه، وفي الحديث «لو جُمع

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود ـ لكان بكاؤه أكثر، ولو جُمع ذلك إلى بكاء نوح ـ لكان بكاؤه أكثر، ولو جُمع ذلك كله إلى بكاء آدم على خطيئته.. لكان أكثر».

ومعنى الآية[1]: أي ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته، ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك

قال الإمام فخر الدين الرازي: اختلف[2] الناس في عصمة الأنبياء، وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة:

أحدها: ما يقع في باب الاعتقاد، وهو اعتقاد الكفر والضلال، فإن ذلك غير جائز عليهم.

الثاني: ما يتعلق بالتبليغ فقط: اجتمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب، مواظبين على التبليغ والتحريض، وإلا لارتفع الوثوق بالأداء، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً ولا سهواً، ومن الناس من جوَّز ذلك سهواً، قالوا: لأن الاحتراز عنه غير ممكن.

الثالث: ما يتعلق بالفتيا، فأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد، وأجازه بعضهم على سبيل السهو.

الرابع: ما يقع في أفعالهم:

فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال:

أحدها: قول من جوّز عليهم الكبائر.

الثاني: قول من منع من الكبائر، وجوّز الصغائر على جهة العمد، وهو قول أكثر المعتزلة.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

الثالث: لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة، بل على وجه التأويل، وهو قول الجبائي.

الرابع: أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ.

الخامس: أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة، لا على سبيل العمد، ولا على سبيل السهو، ولا على سبيل التأويل، وهو قول الشيعة.

واختلف الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال:

أحدها: قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة، وهو قول الشيعة.

الثاني: قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم، وهو قول أكثر المعتزلة.

الثالث: قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة، وهو قول أكثر أصحابنا، وأبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة.

قال الإمام: والمختار عندنا: أنه لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة، من حين جاءتهم النبوة، ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه لو صدر الذنب عنهم.. لكان أقل درجة من أحد الأمة، وذلك غير جائز أيضاً، لأن درجة الأنبياء غاية في الرفعة والشرف.

والثاني: أنه لو صدر منه.. وجب أن يكون مقبول الشهادة، فكان أقل حالاً من عدول الأمة، وذلك غير جائز أيضاً، لأن معنى النبوة والرسالة: هو أن يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم، وأيضاً فإنه يوم القيامة شاهد على الكل.

الثالث: لو صدر من النبي ذنب.. وجب الاقتداء به فيه، وذلك محال.

الرابع: ثبت ببديهة العقل أنه لا شيء أقبح ممن رفع الله درجته، وائتمنه على وحيه، وجعله خليفته في عباده وبلاده، يسمع ربه يناديه: لا تفعل كذا، فيقدم عليه ويفعله ترجيحاً لغرضه، واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون

الناس بطاعة الله، فلو لم يطيعوه لدخل تحت قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾.

الخامس: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ولفظه للعموم، فيتناول الكل، ويدل على فعل ما ينبغي فعله، وترك ما ينبغي تركه، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير، وتاركين لكل منهي، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم.

السادس: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ وقال الله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقال تعالى في حق موسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم، وذكر غير ذلك من الوجوه.

قال: وأما المخالف فقد تمسك بآيات:

منها: قصة آدم هذه، والجواب عنها: أن تقول: إن كلامهم إنما يتم لو بيَّنوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبوة، وذلك ممنوع، ولم لا يجوز أن يقال: إن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبياً، وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة، وإن الله تعالى قبل توبته، وشرفَّه بالنبوة والرسالة.

وقال القاضي عياض: وأما قصة آدم، وقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؛ أي: جهل، وقيل: أخطأ، فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾؛ أي: نسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه، وقيل: لم يقصد المخالفة استحلالاً لها، ولكنه اغتر بحلف إبليس له ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وتوهم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، وقيل: نسي ولم ينو المخالفة، فلذلك قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾؛ أي: قصداً للمخالفة، وقيل:

بل أكل من الشجرة متأولاً، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نُهي عنها، لأنه تأوَّل نهي الله عن شجرة مخصوصة، لا على الجنس، ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفظ، لا من المخالفة، وقيل: تأول أن الله تعالى لم ينهه عنها نهي تحريم.

فإن قلت: إذا نُفيت عنهم الذنوب والمعاصي.. فما معنى قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم، وتوبتهم واستغفارهم، وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم، وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه؟

قلت: إن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده، وعظيم سلطانه، وقوة بطشه، مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤخذ به غيرهم، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها، ولم يؤمروا بها، وأتوها على وجه التأويل أو السهو، خائفون وجلون، وهي الذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم، ومعاصٍ بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم، وكان هذا أدنى أفعالهم، وأسوأ ما يجري من أحوالهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ أي: يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات، وسنذكر في كل موضع ما يليق به وما قيل فيه، إن شاء الله تعالى.

﴿قَالَ﴾؛ أي: قال الرب الذي انتهكت حرمة داره، وخولف أمره لآدم وحواء، بعد صدور الزلة منهما: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾؛ أي: انزلا من الجنة إلى الأرض، حالة كونكما ﴿جَمِيعًۢا﴾؛ أي: مجتمعين في الهبوط، وهذا خطاب العتاب واللوم في الصورة، وخطاب التكميل والتشريف في المعنى، يقال: هبط هبوطاً: إذا نزل من علو إلى سفل، وخصهما بالهبوط لأنهما أصل البشر، ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: حالة كونه بعض ذريتكما متعادين لبعض في أمر المعاش، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والتحاسد والتباغض، وجمع الخطاب باعتبار أنهما أصل الذرية،

ومآله بعضكم يا ذرية آدم عدو لبعض، أو المعنى[1]: انزلا من الجنة إلى الأرض، أنتما عدو لإبليس وذريته، وإبليس عدوكما وعدو ذريتكما.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير[2] إلى أنه جعل فيما بينهم العداوة، لئلا يكون لهم حبيب إلا هو، كما قال تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ولما اختص آدم منهم بالاجتباء والاصطفاء، وأهبطه إلى الأرض معهم للابتلاء.. وعده بالاهتداء فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾؛ أي: فإن يأتكم يا ذرية آدم وحواء ﴿مِّنِّى هُدًى﴾؛ أي: هادٍ من كتابٍ ورسول، والأصل: فإن يأتكم و﴿ما﴾: مزيدة لتأكيد معنى الشرط و﴿ما﴾ هذه مثل لام القسم في دخول النون المؤكدة معها، وإنما جيء بكلمة الشك، وهي ﴿إن﴾ الشرطية إيذاناً بأن إتيان الهدى بطريق الكتاب والرسول، ليس بقطعي الوقوع، وأنه تعالى إن شاء.. هدى وإن شاء.. ترك، لا يجب عليه شيء، ولك أن تقول: إتيان الكتاب والرسول لما لم يكن لازم التحقق والوقوع أبرز في معرض الشك، وأكد حرف الشرط والفعل بالنون، دلالةً على رجحان جهة الوقوع والتحقق.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾؛ أي: فمن آمن بالكتاب، وصدق بالرسول ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا عن طريق الدين القويم ما دام حياً ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾؛ أي: لا يذل في الآخرة بالعذاب الدائم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾؛ أي: عن الكتاب الذاكر لي، والرسول الداعي إلي، والذكر يقع على القرآن وغيره من كتب الله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في هذه الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ أي: معيشةً ضيقةً، لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا، والتهالك على ازديادها، والخوف من انتقاصها، فترى الشح غالباً عليه، والبخل راسخاً في أعراقه، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه قد يضيّق الله عليه بشؤم الكفر، ويوسع بركة الإيمان، وقرىء ﴿ضنكىٰ﴾ بضم الضاد على وزن فعلىٰ، وقرأ الحسن ﴿ضنكى﴾ بألف التأنيث بلا تنوين، وبالإمالة على وزن فعلىٰ كسكرى، وقرأ الجمهور ﴿ضَنكًا﴾ بالتنوين وفتح الكاف فتحة إعراب.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ومعنى الآية[١]: أن الله عز وجل، جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه، أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً، غير مهموم ولا مغموم، ولا متعبٍ نفسه، كما قال سبحانه ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وجعل لمن اتبع هواه وأعرض عن دينه، أن يعيش عيشاً ضيقاً في تعب ونصب، مع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب، فهو في الآخرة أشد تعباً، وأعظم ضيقاً، وأكثر نصباً، وذلك معنى قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾؛ أي: المُعْرِض؛ أي: نبعثه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: فاقد البصر، وقيل: أعمى عن جهات الخير، لا يهتدى إلى شيء منها، أو جاهلاً بوجود الحق، كما كان جاهلاً في الدنيا؛ أي[٢]: فإذا خرج هو من القبر.. خرج بصيراً. فإذا سيق إلى المحشر.. عَمَى، فإذا دخل النار.. زال عماه، ليرى محله وحاله.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ بالنون، وفرقة منهم أبان بن تغلب: بسكون الراء، فيجوز أن يكون تخفيفاً، ويجوز أن يكون جزماً بالعطف على موضع ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ لأنه جواب الشرط، وقرأت فرقة ﴿ويحشره﴾ بالياء، وقرى ﴿ويحشره﴾ بسكون الهاء على لفظ الوقف.

وقصارى ذلك[٤]: أن الله سبحانه، جعل لمن اتبع هداه، وتمسك بدينه العيش الهنيء، الذي لا هم فيه ولا غم، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب، وهو في الآخرة أشد تعباً، وأعظم ضيقاً، وأكثر ألماً ﴿قَالَ﴾المعرض الذي حُشر أعمى، استئناف بياني ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ﴾ وبعثتني - استفهام استخباري - حالة كوني ﴿أَعْمَىٰ﴾؛ أي: فاقد البصر ﴿و﴾ الحال أني ﴿قد كنت بصيراً﴾، أي: ذا بصر في الدنيا؛ أي: ﴿قَالَ﴾ المعرض ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ عن حجتي وعن رؤية الأشياء على حقيقتها، ﴿وَقَدْ كُنتُ﴾ في الدنيا ذا بصر بذلك كله، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

﴿قَالَ﴾ربه مجيباً هذا السائل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أمرنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ما فعلنا بك من حشرك أعمى، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي حشرناك أعمى حشراً مثل الذي فعلت في الدنيا، من إعراضك عن الحق، ثم فسره بقوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: آيات الكتاب، أو دلائل القدرة، وعلامات الوحدة، واضحةً نيرةً، بحيث لا تخفىٰ على أحد ﴿فَنَسِيتَهَا﴾؛ أي: أعرضت عنها وتركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلاً، ولم تنظر فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾؛ أي: تترك في العمى والعذاب، جزاءً وفاقاً، لكن لا أبداً كما قيل: بل إلى ما شاء الله، ثم يزيله عنه، ليرى أهوال القيامة، ويشاهد مقعده من النار، ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب، وكذلك البكم والصمم، يزيلهما الله عنهم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

والمعنى: أي فكما تركت آياتنا ترك المنسي الذي لا يذكر أصلاً، وأعرضت عنها اليوم ننساك فنتركك في النار.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ وجاوز الحد في عصيانه، بالانهماك في الشهوات، والإسراف: مجاوزة الإنسان الحد في كل فعل يفعله، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن وسائر المعجزات، بل كذبها وأعرض عنها.

والمعنى: أي وهكذا نعاقب من أسرف فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكاً، أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنه قال: في الآية يقول: كل مال أعطيته عبداً من عبادي، قلّ أو كثر، لا يتقيني فيه.. فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة.

ولما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين[1]: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمىٰ في العقبى.. ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذاب النار ﴿أَشَدُّ﴾ وأوجع مما نعذبهم به في الدنيا، من ضنك

(١) النسفي.

العيش ونحوه ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ وأدوم وأكثر بقاءً، لأنه لا أمد له ولا نهاية ولا انقطاع، فمن أراد أن ينجو من عذاب الله، وينال ثوابه.. فعليه أن يصبر على الشدائد في الدنيا في طاعة الله، ويجتنب المعاصي وشهوات الدنيا، فإن الجنة قد حُفّت بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات، كما ورد في الحديث.

وجملة قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها، و(الهمزة)[1] فيها للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والهداية هنا: بمعنى التبين، من هدى بمعنى: اهتدى، فهو لازم، والفاعل: المصدر المأخوذ من ﴿أَهْلَكْنَا﴾ من غير سابك لإصلاح المعنى، لأن ذلك جائز كثير في كلامهم، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ، والقرون: جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد، والتقدير: أغفل هؤلاء المشركون فلم يتبين لهم إهلاكنا كثيراً من القرون قبلهم، حين كذبوا رسلهم، كعاد، وثمود، وقوم لوط، فيعتبروا بهذا الإهلاك، فيرجعوا عن تكذيب الرسول محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله، ويؤيده القراءة بالنون، والهداية: من هدى المتعدي، فمفعوله محذوف، والتقدير: أجهل هؤلاء المشركون مآل أمرهم، فلم يبين الله سبحانه لهم خبر من ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ حال كون القرون ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ويتقلبون في ديارهم في أمن وراحة، أو حالة كون هؤلاء المشركين يمشون في مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة، وطلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية، خاويةً خاربةً، من أصحاب الحجر، وثمود، وقرى قوم لوط، فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَهْدِ﴾ بالياء، وقرأت فرقة ـ منهم ابن عباس والسلمي ـ: ﴿أفلم نهد﴾ بالنون، والمعنى على هذه القراءة: واضح والتقدير: أفلم نبين لأهل مكة بياناً يهتدون به، كثرة من

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

أهلكنا من القرون الماضية، من أصحاب الحجر، وثمود، وقرى قوم لوط، وجملة[1] قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ تعليل للإنكار، وتقرير للهداية، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مضمون قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلى آخره.

والنُّهى: جمع نهيةٍ، وهي العقل، والمعنى: إن في ذلك الإهلاك بالعذاب، لعبراً كثيرةً، ودلالاتٍ واضحةً على الحق، لأصحاب العقول الكاملة الناهية عن القبائح.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ولولا الكلمة السابقة من ربك، والحكم الأزلي منه، بتأخير العذاب عن هذه الأمة؛ أي: أمة الدعوة، إلى الدار الآخرة، والمراد بتلك الكلمة[2]: العِدَةُ من الله بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، لحكمة تقتضيه، يعني: أن الكلمة إخبار الله ملائكته، وكتبه في اللوح المحفوظ: أن أمة محمد ﷺ إن كذبوا فسيؤخرون، ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال، لعلمه أن فيهم من يؤمن، ولو نزل بهم العذاب.. لعمهم الهلاك ﴿لَكَانَ﴾ عذاب ذنوبهم ﴿لِزَامًا﴾؛ أي: لازماً لهم، لا ينفك عنهم بحال، ولا يتأخر عنهم ساعةً، لزوم ما نزل بأولئك الغابرين عند تكذيبهم رسلهم، واللِّزَام: مصدر لازم الرباعي، من باب فاعل كقاتل، وُصف به للمبالغة، وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾ قاله الزجاج وغيره، والفصل[3] للإشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب، ولمراعاة فواصل الآي؛ أي: ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة، أو يوم بدر.. لكان عذاب جناياتهم لازماً لهم، ولما تأخر عنهم ساعةً.

قيل[4]: ويجوز عطف ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على الضمير المستتر في ﴿كان﴾ العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد، والتقدير ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ﴾ الأخذ العاجل ﴿لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

لازمين لهم، كما كانا لازمين لعاد وثمود، قاله الزمخشري، وفيه تعسف ظاهر.

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال.. أمره بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من أنك ساحر كذاب، ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة و(الفاء) فيه: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت كون الأمر على ما ذكر، من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال، وأنه لازم لهم البتة، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك من كلمات الكفر والنسبة لك إلى السحر والجنون، إلى أن يحكم الله فيهم، فإن علمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنهم معذبون لا محالة، مما يسليه ويحمله على الصبر.

والمعنى: لا تهتم بهم، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً، لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: هذا منسوخ بآية القتال، وفي «الشهاب» ما نصه؛ أي: إذا[1] لم نعذبهم عاجلاً.. فاصبر، فـ(الفاء): سببية، والمراد بالصبر: عدم الاضطراب لما صدر منهم من الأذية، لا ترك القتال، حتى تكون الآية منسوخةً، وفي «الكبير» هذا غير لازم. لجواز أن يقاتل ويصبر على ما يسمع منهم من الأذى، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، كما سيأتي في مباحث الصرف ﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: نزه ربك عما لا يليق به، حالة كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وثنائه؛ أي: صل حامداً لربك على هدايته وتوفيقه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاةَ الفجر، فهو[2] من إطلاق اسم الجزء على الكل، وفي الخبر «إن الذكر والتسبيح إلى طلوع الشمس أفضل من إعتاق ثمانين رقبة من ولد إسماعيل» وفيه مقال، خص إسماعيل بالذكر لشرفه، وكونه أبا العرب، وإنما أمره بالتسبيح لأن التسبيح وذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة، وينسي جميع ما أصاب من الغموم والأحزان ﴿و﴾ صلّ ﴿قبل غروبها﴾؛ أي: قبل غروب الشمس: صلاتي الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها وبعد زوالها ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: بعض ساعاته، جمع إنىً بالكسر والقصر، كمِعى وأمعاء، وآناء بالفتح والمد؛ أي: وبعض ساعات الليل ﴿فَسَبِّحْ﴾؛ أي:

---

(١) الشهاب. (٢) روح البيان.

فصل المغرب والعشاء[1]، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق ﴿و﴾ صل ﴿أطراف النهار﴾ صلاة التطوع، أمر بالتطوع في أجزاء النهار وفي «عيون المعاني»: هو بالنصب عطف على ما قبله من الظروف؛ أي: سبح في أطراف النهار، وهي صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار، لإرادة الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ صلاة العصر عند بعض المفسرين. انتهى.

وقال الطبري[2]: قبل غروبها وهي العصر، ومن آناء الليل هي العشاء الآخرة، وأطراف النهار الظهر والمغرب، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار وفي أول الطرف الثاني، فكأنها بين الطرفين، والمغرب في آخر الطرف الثاني فكانت أطرافاً، انتهى.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ معطوف[3] على محل ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ﴾ المنصوب بـ﴿سبح﴾ المقرون بـ﴿الفاء﴾ الزائدة، أو معطوفة على ﴿قَبْلَ﴾؛ أي: في طرف نصفيه؛ أي: في الوقت الذي يجمع الطرفين، وهو وقت الزوال، فهو نهاية للنصف الأول وبداية للنصف الثاني؛ أي: اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات عما ينسبونه إليه تعالى، مما لا يليق به، حامداً له على ما ميزك بالهدى، أو المعنى: صل وأنت حامد لربك على كمال هدايته إياك صلاة الصبح، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء، وصلاة الظهر، والآية جامعة لذكر الصلوات الخمس.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ بنصب الفاء، وهو معطوف على ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ وقيل: معطوف على ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر: ﴿وأطراف﴾ بخفض الفاء عطفاً على ﴿آناء﴾ وقوله تعالى: ﴿لعلك ترضى﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) الطبري.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

متعلق بـ﴿سبح﴾؛ أي: سبح في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب، ويسر به قلبك، وقرأ الجمهور ﴿تَرْضَىٰ﴾ بفتح التاء بالبناء للفاعل، وقرأ أبو حيوة، وطلحة، والكسائي، وأبو بكر، وأبان، وعصمة، وأبو عمارة عن حفص، وأبو زيد عن المفضل، وأبو عبيد، ومحمد بن عيسى الأصبهاني: ﴿ترضى﴾ بضم التاء بالبناء للمفعول؛ أي: لعلك تُعطىٰ ما يُرضيك.

ولما صبَّر رسوله على ما يقولون، وأمره بالتسبيح.. أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه إلى ما متعوا به من زينة الدنيا فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: لا تُطل[1] نظرهما بطريق الرغبة والميل، استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به، وتمنياً أن لك مثله ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾؛ أي: إلى ما أعطينا به من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أصنافاً من الكفرة، كالوثنيّ، والكتابيّ من اليهود والنصارى، بني قريظة والنضير، وهو مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾ حالة كون ما متعناهم به ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها وبهجتها ونضارتها وحسنها، قال الواسطي: هذه تسلية للفقراء، وتعزية لهم، حيث منع خير الخلق من النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿زَهْرَةَ﴾ بسكون الهاء، وقرأ الحسن، وأبو البرهشيم، وأبو حيوة، وطلحة، وحُميد، وسلاَّم، ويعقوب، وسهل، وعيسى، والزهري: بفتحها والزَّهرة والزُّهرة: بمعنى واحد، كالجَهرة والجُهرة، وأجاز الزمخشري في ﴿زَهَرَةَ﴾ المفتوح الهاء أن يكون جمع زاهر، نحو كافر وكفرة، وصفهم بأنهم زاهر. واللام في قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ متعلق بـ﴿متعنا﴾؛ أي: لا تلتفت بعينيك إلى ما متعنا لهم به لنفتنهم به؛ أي: لنجعل ذلك المتاع فتنةً وضلالةً لهم، ابتلاءً منا لهم، أو[3] لنعاملهم فيما أعطيناهم معاملة من نبتليهم حتى يستوجبوا العذاب، بأن يزيد لهم النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً، فلا بد من التنفير عنه، فإنه عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، أو لنعذبهم بسببه، وقرأ الأصمعي عن نافع

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿لنفتنهم﴾ بضم النون، من أفتنه: إذا جعل الفتنة واقعةً فيه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ثواب الله وما ادخره لصالحي عباده في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما رزقهم في الدنيا، لأنه مع كونه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة، بخلاف ما منحوه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي: أدوم، فإنه لا يكاد ينقطع أبداً وهذا ينقطع.

ومعنى الآية: أي[1] ولا تُطل النظر استحساناً ورغبةً فيما مُتِّع به هؤلاء المترفون من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، نختبرهم بها، ونعلم هل يؤدون شكرها أو تكون وبالاً عليهم، ونكالاً لهم، وقد آتاك ربك خيراً مما آتاهم، فرضاه خيرٌ وأبقى كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ وخلاصة هذا: التنفير من الانهماك في التمتع بزهرة الدنيا: لسوء عاقبتها.

وبعد أن أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالتسبيح في تلك الأوقات المذكورة، ونهاه عن مد بصره إلى ما متع به الكفار، أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة، التي هي بعد الشهادة آكد أركان الإسلام، وأمره بالاصطبار على مداومتها ومشاقها، وأن لا يشتغل عنها، وأخبره تعالى أن لا يسأله أن يرزق نفسه، وأن لا يسعى في تحصيل الرزق، ويدأب في ذلك، بل أمره بتفريغ باله لأمر الآخرة، ويدخل في خطابه - عليه السلام - أمته فقال: ﴿وَأْمُرْ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿أَهْلَكَ﴾؛ أي: أهل بيتك، أو أهل دينك ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة عليك وعليهم؛ أي: وأمرهم بالصلاة كما أمرناك بها بقولنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ...﴾ الآية. فإن الفقير ينبغي أن يستعين بها على فقره، ولا يهتم بأمر المعيشة، ولا يلتفت إلى جانب أهل الثروة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: وداوم أنت وهم عليها، غير مشتغل بأمر المعاش، فكان النبي ﷺ يذهب إلى فاطمة وعلي كل صباح ويقول: «الصلاة» كان يفعل ذلك أشهراً.

قال ابن عطاء: أشد أنواع الصبر الاصطبار، وهو السكون تحت موارد

---

(١) المراغي.

البلاء بالسر والقلب، والصبر بالنفس لا غير. انتهى.

أي: واصبر على الصلاة، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ﴾؛ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة، فإن من كان في عمل الله.. كان الله في عمله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة وهي الجنة. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف، كما قاله الأخفش، وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر، وعليها تدور دوائر الخير، وقرأ الجمهور: ﴿نَرْزُقُكَۗ﴾ بضم القاف، وقرأت فرقة ـ منهم ابن وثاب ـ: بإدغام القاف في الكاف، وجاء ذلك عن يعقوب.

والخلاصة(١): داوم على الصلاة لا نكلفك مالاً، بل نكلفك عملاً نؤتيك عليه أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً، ونحن نعطيك المال، ونكسبك ولا نسألك، والعاقبة الصالحة لأهل الخشية والتقوى، لا لمن لا يخاف عقاباً، ولا يرجو ثواباً كما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وأخرج مالك والبيهقي، عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي، حتى إذا كان آخر الليل.. أيقظ أهله للصلاة، ويقول لهم الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال كفار قريش: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾؛ أي: هلا يأتينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فـ ﴿لولا﴾ تحضيضية بمعنى هلا؛ أي: هلا يأتينا ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزةٍ مما اقترحنا نحن ومن نعتد به، أو بآيةٍ كائنةٍ ﴿مِّن﴾ آيات ﴿رَّبِّهِۦٓ﴾ كما يأتي بها من كان قبله من الأنبياء، كموسى، وعيسى، لتكون علامةً على صدقه، وذلك كالناقة والعصىٰ، بلغوا من العناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات من قبيل الآيات، حتى اجترؤوا على التفوه بهذه الكلمة العظيمة، فأجاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف[1]، والبينة: الدلالة الواضحة عقليةً كانت أو حسيةً، والمراد بها هنا: القرآن الذي فيه بيان للناس، و﴿مَا﴾: عبارة عن العقائد الصحيحة وأصول الأحكام التي اجتمعت عليها كافة الرسل، والصحف: جمع صحيفة وهي التي يكتب فيها، وحروف التهجي صحيفة على حدة، مما أُنزل على آدم، والمراد بها: التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب السماوية، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به، ولذلك فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم، والتقدير: ألم يأتهم سائر الآيات، ولم يأتهم القرآن الذي هو بيان ما في الصحف الأولى، من العقائد المحقة، وأصول الأحكام؛ أي: قد أتاهم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز وهو: القرآن.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص: ﴿تأتهم﴾ بالتاء على لفظ بينة، وقرأ باقي السبعة، وأبو بحرية، وابن محيصن، وطلحة، وابن أبي ليلىٰ، وابن مناذر، وخلف، وأبو عبيدة، وابن سعدان، وابن عيسى، وابن جبير الأنطاكي ﴿يأتهم﴾ بالياء لمجاز تأنيث الآية، والفصل، أو لأن البينة بمعنى البيان والبرهان، وقرأ الجمهور[2]: بإضافة ﴿بَيِّنَةُ﴾ إلى ﴿مَآ﴾ وفرقة منهم أبو زيد عن أبي عمر بالتنوين و﴿مَآ﴾ بدل، وقرأت فرقة: بنصب ﴿بَيِّنَةُ﴾ والتنوين و﴿مَآ﴾ فاعل بـ﴿تَأْتِهِم﴾ و﴿بَيِّنَةُ﴾ نصب على الحال، فمن قرأ: ﴿يأتهم﴾ بالياء فعلى لفظ ﴿مَآ﴾ ومن قرأ بالتاء راعى المعنى، لأنه أشياء مختلفة وعلوم من مضى، وما شاء الله، وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلصُّحُفِ﴾ بضم الحاء، وفرقة منهم ابن عباس بإسكانها.

ثم بيَّن أنه لا عذر لهم في ترك الشرائع، وسلوك طرق الضلالة بوجه ما فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾؛ أي: أهلكنا كفار مكة في الدنيا، أو الكفرة ﴿بِعَذَابٍ﴾ مستأصل ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَٰهُم﴾؛ أي: من قبل محمد ﷺ أو من قبل

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

إتيان البينة، أو من قبل إرسال الرسل ﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة احتجاجاً واعتذاراً ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾؛ أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً يأمرنا وينهانا في الدنيا مع كتاب ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي أتىٰ بها الرسول ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾؛ أي: من قبل أن يحصل لنا الذل والهوان في الدنيا بعذاب القتل والسبي، كما وقع يوم بدر، والذل الهوان ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ ونفتضح في الآخرة، بدخول النار.

والمعنى[1]: ولكن ألم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك اعترفوا و﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾.

قال في «الأسئلة المقحمة»: هذا يدل[2] على أنه يجب على الله أن يفعل ما هو الأصلح لعباده المكلفين، إذ لو لم يفعل.. لقامت لهم عليه الحجة، بأن قالوا: هلا فعلت بنا ذلك حتى نؤمن.

والجواب: لو كان يجب عليه ما هو الأصلح لهم.. لما خلقهم، فليس في خلقه إياهم وإرسال الرسل إليهم رعاية الأصلح لهم، مع علمه بأنهم لا يؤمنون به، ولكنه أرسل الرسل وأكد الحجة، وسلب التوفيق، ولله تعالى أن يفعل ما يشاء بحق المالكية. انتهى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ مبني للفاعل، وقرأ ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وزيد بن علي، والحسن في رواية عباد، والعمري، وداود، والفزاري، وأبو حاتم، ويعقوب: مبنياً للمفعول.

والمعنى: أي[4] ولو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب الاستئصال من قبل إتيان البينة، وهي القرآن.. لقالوا يوم القيامة: ربنا هلا أرسلت إلينا في الدنيا رسولاً معه الآيات الدالة على صدقه، فنتبع حججك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك، من قبل أن نذل بتعذيبك، ونفتضح به.

---

(١) روح البيان.
(٢) أسئلة المقحمة.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

والخلاصة: أنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم الكتاب العظيم.. لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تُهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه، لكنا لم نهلكهم قبله، فانقطعت معذرتهم، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾؛ أي: منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم:

قال في «الكبير» كل[1] منا ومنكم منتظر عاقبة أمره، إما قبل الموت بسبب الجهاد وظهور الدولة والقوة، أو بعد الموت بالثواب والعقاب، وبما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله، وعلى المبطل من أنواع إهانته، وروي: أن المشركين قالوا: نتربص بمحمد حوادث الدهر، فإذا مات.. تخلصنا ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾؛ أي: فانتظروا أنتم عاقبة أمرنا، ونحن نتربص عاقبة أمركم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أيها الكفرة عن قريب، إذا جاء أمر الله ونصره ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾؛ أي: جواب من أصحاب الصراط المستقيم، والأصحاب -جمع صاحب: بمعنى الملازم، والصراط: من السبيل ما لا التواء فيه؛ أي: لا إعوجاج فيه، بل يكون على سبيل القصد ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾؛ أي: وجواب من اهتدى من الضلال؛ أي: أنحن أم أنتم، كما قال بعضهم:

سَوْفَ تَرَىٰ إِذَا ٱنْجَلَىٰ ٱلْغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

وفيه تهديد شديد لهم.

واعلم: أن الله سبحانه قطع المعذرة بالإمهال والإرشاد فلك الحجة البالغة، وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾: على وزن فعيل؛ أي: المستوي وقرأ أبو مجلز، وعمران بن حدير: ﴿السواء﴾؛ أي: الوسط، وقرأ الجحدري، وابن يعمر ﴿السوأىٰ﴾ على وزن فعلى، أنث لتأنيث ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ وهو مما يذكر ويؤنث تأنيث الأسوء، وقرىء ﴿السوي﴾ بضم السين وفتح الواو وشد الياء: تصغير السوء، قاله الزمخشري، وليس بجيِّد، إذ لو كان تصغير سوءٍ.. لثبتت همزته في

(١) روح البيان.   (٢) البحر المحيط.

التصغير، فكنت تقول: سؤيي، والأجود أن يكون تصغير سواءٍ، كما قالوا في عطاءٍ عطي، ومن قرأ ﴿السوأى﴾ أو ﴿السوء﴾ كان في ذلك مقابلةً لقوله: ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وعلى قراءة الجمهور لم تراع المقابلة في الاستفهام.

والمعنى[1]: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين بالله: كلنا منتظر لمن يكون الفلاح له، وإلام أمرنا وأمركم فتربصوا وارتقبوا، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم، وستعلمون من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ ولا يخفى ما بين بداية السورة وخاتمتها من المناسبة، فإنها بُدئت ببيان أن القرآن قد أنزل لتحمل تعب الإبلاغ، وحيث قد بلغت فلا عليك، وختمت بطلب الإقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى قدر الطاقة، وأمر أهله بالصلاة، وترك الذين لا يُنجح فيهم الإنذار، فإنه تذكره لمن يخشى، ويندم المخالف حيث لا ينفع الندم.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية و(اللام): موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿عَهِدْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾: متعلق به ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور ومتعلق بـ﴿عَهِدْنَآ﴾ أيضاً، أو حال من ﴿ءَادَمَ﴾ والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة مسوقة لتقرير مساوىء النسيان، الذي هو صنو الجهل، وقرينه، ولذلك يجب التحوط عنه، والدعاء دائماً، لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ ﴿فَنَسِىَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿نسي﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ءَادَمَ﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿عَهِدْنَآ﴾ ﴿وَلَمْ نَجِدْ﴾ (الواو): عاطفة ﴿لم نجد﴾: جازم ومجزوم، وفاعله: ضمير يعود على الله، تقديره: نحن ﴿لَهُۥ﴾: جار

---

(١) المراغي.

ومجرور في محل المفعول الثاني ﴿عَزْمًا﴾: مفعول أول لـ﴿نَجِدْ﴾ إن[1] كان من الوجدان بمعنى العلم، فينصب مفعولين، ويحتمل كونه من الوجود ضد العدم، فينصب مفعولاً واحداً وهو ﴿عَزْمًا﴾ و﴿لَهُۥ﴾: حال منه، أو متعلق بـ﴿نَجِدْ﴾ اهـ «بيضاوي».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة ﴿إذ قلنا للملائكة﴾ ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل ﴿لِءَادَمَ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾. ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ الفاء: عاطفة ﴿سجدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿قُلْنَا﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء، ولا تنس اختلاف العلماء في اتصال الاستثناء وانقطاعه ﴿أَبَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ والجملة: في محل النصب حال من ﴿إِبْلِيسَ﴾ ﴿فَقُلْنَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾. ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره ﴿لَّكَ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ أو صفة له ﴿وَلِزَوْجِكَ﴾: معطوف على ﴿لَّكَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾ على كونه جواب النداء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿يخرجن﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾ و(الكاف): ضمير للمثنى المخاطب، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾. ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ (الفاء):

---

(١) الفتوحات.

عاطفة سببية ﴿تشقى﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد (الفاء) السببية الواقعة في جواب النهي، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ءَادَمَ﴾ والجملة الفعلية: صلة أن المضمرة الواقعة في جواب النهي، أن مع صلتها: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن إخراجه إياكما فشقاؤكما، وأفرد الضمير في ﴿تشقى﴾ لأن آدم هو المخاطب من أول القصة، فهو المقصود، وإلا فمقتضى السياق أن يقال فتشقيا كما مر في مبحث التفسير.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تَجُوعَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿ءَادَمَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿تجوع﴾. ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾: معطوف على ﴿تَجُوعَ﴾ وجملة ﴿تَجُوعَ﴾: صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿أَنْ﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على كونه اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخراً، تقديره: إن عدم الجوع والعرى كائن لك، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾. ﴿وَأَنَّكَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿أنك﴾: ناصب واسمه ﴿لَا تَظْمَؤُا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿تَظْمَؤُا﴾ ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: معطوف على ﴿لَا تَظْمَؤُا﴾ وجملة ﴿لَا تَظْمَؤُا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ والتقدير: وأنك عادم الظمأ فيها، وعادم الضحو، وجملة ﴿أن﴾ المشددة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من ﴿أَنْ﴾ المصدرية في قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾: عطف مفرد على مفرد، على كونه اسم ﴿إِنَّ﴾ المكسورة، والتقدير: إن لك عدم الجوع، وعدم العرى، وعدم الظمأ والضحو، وجاز أن تكون ﴿أن﴾ بالفتح اسماً، لـ﴿إِنَّ﴾ بالكسر للفصل بينهما، ولولا ذلك لم يجز، حتى لو قلت: إن أن زيداً قائم لم يجز، فلما فُصل بينهما جاز، فتقول إن عندي أن زيداً قائم، فعندي: هو الخبر قدم على الاسم، وهو أن وما في حيزها، لكونه ظرفاً، والآية من هذا القبيل، إذ التقدير: وإن لك أنك لا

تظمأ اهـ من «السمين». ﴿فَوَسْوَسَ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿وسوس﴾: فعل ماض ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿قُلْنَا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ والجملة بدل من جملة ﴿وسوس﴾ ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هل﴾ حرف للاستفهام الاستنصاحي ﴿أَدُلُّكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ﴿عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَدُلُّكَ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمُلْكٍ﴾ معطوف على ﴿شَجَرَةِ﴾ وجملة ﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿ملك﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿فَأَكَلَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿أكلا﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وسوس﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أكلا﴾. ﴿فَبَدَتْ﴾ (الفاء): عاطفة ﴿بدت﴾: فعل ماض ﴿لهما﴾ متعلق به ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه والجملة: معطوفة على جملة ﴿أكلا﴾. ﴿وَطَفِقَا﴾: فعل ناقص واسمه، لأنه من أفعال الشروع، تعمل عمل كان وجملة ﴿يَخْصِفَانِ﴾: في محل النصب خبر ﴿طفقا﴾ وجملة ﴿طفقا﴾: معطوفة على جملة ﴿بدت﴾. ﴿عَلَيْهِمَا﴾ متعلق بـ﴿يَخْصِفَانِ﴾؛ أي: لأجل ستر سوءتيهما فـ﴿على﴾ تعليلية ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لموصوف محذوف هو المفعول به؛ أي: ورقاً كائناً ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا﴾ ﴿فَغَوَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: فعل ومفعول به ﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿غوى﴾. ﴿فَتَابَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الرب ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تاب﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾. ﴿وَهَدَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿تَابَ﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل: مستتر يعود على الله، والجملة: مستأنفة ﴿ٱهْبِطَا﴾: فعل أمر وفاعل يعود على آدم وحواء، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿ٱهْبِطَا﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿ٱهْبِطَا﴾ ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ ﴿لِبَعْضٍ﴾: حال من ﴿عَدُوٌّ﴾ لأنه كان صفة له، أو متعلق به ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱهْبِطَا﴾. ﴿فَإِمَّا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿إما﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿ما﴾ زائدة ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ﴿مِّنِّي﴾: متعلق به ﴿هُدًى﴾: فاعل ﴿فَمَن﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿ٱتَّبَعَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿هُدَاىَ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿فَلَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية لاقترانه بـ﴿لا﴾. ﴿لا﴾: نافية ﴿يَضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل، يعود على ﴿مَن﴾. ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿يَضِلُّ﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾: الشرطية: جواب ﴿إن﴾ الشرطية وجملة ﴿إن﴾: الشرطية معطوفة على ﴿ٱهْبِطَا﴾: على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل رفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿أَعْرَضَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَن ذِكْرِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَعْرَضَ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿مَن﴾: الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿لَهُۥ﴾:

جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿مَعِيشَةً﴾ اسمها مؤخر وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية ﴿ضَنكًا﴾ مصدر بمعنى ضيقةً صفة لـ﴿مَعِيشَةً﴾ فلهذا لم يؤنث بأن يقال: ضنكةً، فهذا من قبيل القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله في الخلاصة:

وَنَعَتُوْا بِمَصْدَرٍ كَثِيْرَا فَالْتَزَمُوْا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيْرَا

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف متعلق به ﴿أَعْمَىٰ﴾ حال من ضمير المفعول في ﴿نحشره﴾؛ أي: فاقد البصر، والجملة الفعلية: في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها جواباً لـ﴿من﴾ الشرطية وقد قرىء ﴿وَنَحْشُرْهُ﴾ بالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على المعرض، والجملة: مستأنفة ﴿لِمَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر ﴿م﴾ اسم استفهام في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿حَشَرْتَنِيٓ﴾. ﴿حَشَرْتَنِيٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية ﴿أَعْمَىٰ﴾: حال من ياء المتكلم، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: في محل النصب حال ثانية من ياء المتكلم، وعبارة القرطبي ﴿أَعْمَىٰ﴾؛ أي: في حال بصيراً؛ أي: في حال انتهى.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: حشرناك حشراً مثل ذلك الحشر، يعني: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أو فعلنا بك مثل ذلك، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَتَتْكَ﴾: فعل ومفعول ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ (الفاء): عاطفة ﴿نسيتها﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَتَتْكَ﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الواو): عاطفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

صفة لمصدر محذوف تقديره: ومثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُنسَىٰ﴾. ﴿تُنسَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على المعرض، والتقدير: وتنسىٰ اليوم نسياناً مثل نسيانك في الدنيا، والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نسيتها﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الواو: عاطفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمحذوف ﴿نَجْزِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نَجْزِى﴾. ﴿أَسْرَفَ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية: صفة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والتقدير: ونجزي من أسرف وجاوز الحد جزاءً مثل جزاء المعرض عن آياتنا في حشره أعمى، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾: على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ﴾ جازم ومجزوم وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾: وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾: معطوفة على جملة ﴿أَسْرَفَ﴾ على كونها صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وَلَعَذَابُ﴾ (الواو): عاطفة و(اللام): حرف ابتداء ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿أَشَدُّ﴾: خبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: معطوف عليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نَجْزِى﴾ أو مستأنفة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿قَبْلَهُم﴾: متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: جار ومجرور صفة لتمييز ﴿كَمْ﴾ المحذوف تقديره: كم أهلكنا قبلهم قرناً كائناً من القرون، وجملة ﴿يَمْشُونَ﴾ في محل النصب حال من

مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أو من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَمْشُونَ﴾ والضمير يعود على المهلَكين بفتح اللام، وجملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾ من الفعل والفاعل: في تأويل مصدر من غير سابك لإصلاح المعنى، مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَهْدِ﴾ والتقدير: أغفل هؤلاء المشركون فلم يهد لهم إهلاكنا كثيراً من القرون قبلهم، حالة كونهم ماشين في مساكن المهلكين، في أسفارهم إلى الشام، وجملة ﴿يَهْدِ﴾: من الفعل والفاعل معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ (اللام): حرف ابتداء ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾: مؤخر ﴿لأولي النهى﴾ جار ومجرور صفة ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ والتقدير: إن آيات لأولى النهى لكائنة في ذلك، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ الواو: استئنافية ﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٌ﴾: مبتدأ وجملة ﴿سَبَقَتْ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٌ﴾ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَتْ﴾ وخبر المبتدأ محذوف وجوباً تقديره: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ سابقة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ موجودة ﴿لَكَانَ﴾ (اللام) رابطة لجواب ﴿لَوْلَا﴾ كان: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على الإهلاك ﴿لِزَامًا﴾ خبر ﴿كان﴾ والتقدير: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عنهم ﴿لَكَانَ﴾ الإهلاك العاجل لازما لهم ﴿وَأَجَلٌ﴾: معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة له، والتقدير: ولولا أجل مسمى لإهلاكهم لكان الإهلاك العاجل لازماً لهم. ويجوز كما قال الزمخشري، وأبو البقاء: أن يكون ﴿أجل﴾ معطوفاً على الضمير المستتر في ﴿كان﴾ وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد بالضمير المنفصل، فيكون من قبيل قول ابن مالك: أو فاصلٍ ما؛ أي: لكان الإهلاك العاجل، وأجل مسمى لازمين لهم، كما كانا لازمين لعادٍ وثمود.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا كان الأمر على ما ذكر، من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال، وهو واقع بهم، وآتٍ عليهم، وأردت ما هو اللازم لك.. فأقول لك ﴿اصبر﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ والعائد محذوف، تقديره: على ما يقولونه، وجملة ﴿اصبر﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة: إذا المقدرة: مستأنفة ﴿وَسَبِّحْ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿اصبر﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: حالة كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سبح﴾. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾. ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ الَّيْلِ﴾: الواو عاطفة ﴿من آناء الليل﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سبح﴾ المذكور بعده ﴿فَسَبِّحْ﴾ الفاء: زائدة ﴿سبح﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: معطوفة على جملة ﴿سبح﴾ الأول، وقال في «الشهاب» في هذه الفاء ثلاثة أوجه: إما عاطفة على مقدر، أو واقعة في جواب شرط مقدر، أو زائدة. انتهى. ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: معطوف على محل ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ الَّيْلِ﴾ المنصوب بـ﴿سبح﴾ المقرون بـ﴿الفاء﴾ الزائدة؛ أي: صل في أطراف النهار، وعبارة «السمين»: قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: العامة على نصبه، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على محل ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ الَّيْلِ﴾.

والثاني: أنه عطف على ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾. انتهى.

﴿لَعَلَّكَ﴾ ﴿لعل﴾: حرف نصب وترج و(الكاف): اسمها وجملة ﴿تَرْضَىٰ﴾: خبرها، ومتعلق ﴿تَرْضَىٰ﴾: محذوف مفهوم من السياق؛ أي: بما تعطاه من الثواب، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: صلِّ حال كونك راجياً في أن الله تعالى يرضيك بما يعطيه من الثواب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ (الواو) عاطفة ﴿لَآ﴾: ناهية جازمة ﴿تَمُدَّنَّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿عَيْنَيْكَ﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰ مَآ﴾ متعلق بـ﴿تَمُدَّنَّ﴾. ﴿مَتَّعْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق به، وهو العائد على ﴿مَآ﴾ الموصولة، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ وجملة ﴿تَمُدَّنَّ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾. ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ويجوز أن يُنصب ﴿أَزْوَٰجًا﴾ على الحال من الهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾ راعى لفظ ﴿ما﴾ مرةً، ومعناها أخرى، فلذلك جمع .اهـ «سمين». فيكون منهم متعلقاً بـ﴿مَتَّعْنَا﴾ ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في نصبه تسعة أوجه:

الأول: أن يكون مفعولاً ثانياً لـ﴿مَتَّعْنَا﴾ إذا أعربنا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ على أنه مفعول أول لأنه ضمَّن ﴿مَتَّعْنَا﴾ معنى: أعطينا فـ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول أول، و﴿زَهْرَةَ﴾: مفعول ثان.

الثاني: أن يكون بدلاً من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ وذلك إما على حذف مضاف؛ أي ذوي زهرة، وإما على المبالغة، كأنهم نفس الزهرة.

الثالث: أن يكون منصوباً لفعل مضمر، دل عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾ تقديره: جعلنا لهم ﴿زَهْرَةَ﴾.

الرابع: نصبه على الذم؛ أي: أذم ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

الخامس: أن يكون بدلاً من موضع الموصول.

السادس: أن ينتصب بدلاً من محل ﴿بِهِۦٓ﴾.

السابع: أن ينتصب حالاً من ﴿مَآ﴾ الموصولة.

الثامن: أنه حال من الهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾ وهو ضمير الموصول، وهذا كالذي قبله في المعنى.

التاسع: أنه تمييز لـ﴿ما﴾ أو للهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾ قاله الفراء .اهـ «سمين» ﴿زَهْرَةَ﴾: مضاف ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾ صفة لـ﴿حياة﴾. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾: اللام: للتعليل ﴿نفتن﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله:

ضمير يعود على الله والهاء: مفعول به الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿نفتنهم﴾. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿تَمُدَّنَّ﴾.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَأْمُرْ﴾ (الواو): استئنافية أو عاطفة ﴿أمر أهلك﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ متعلق به، والجملة: مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل: مستتر معطوف على ما قبله ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به ﴿لَآ﴾ نافية ﴿نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان، والجملة: مستأنفة ﴿نَّحْنُ﴾: مبتدأ ﴿نَرْزُقُكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ (الواو): استئنافية ﴿العاقبة﴾: مبتدأ ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾: خبر المبتدأ، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: لأهل التقوىٰ، والجملة: مستأنفة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿يَأْتِينَا﴾: فعل ومفعول به وفاعله: ضمير يعود على محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿آية﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ ﴿أَوَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿تَأْتِهِم﴾: فعل ومفعول ومجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿بَيِّنَةُ مَا﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿فِى ٱلصُّحُفِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾. ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألم يأتهم سائر الآيات ولم يأتهم بيان ﴿مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة: مستأنفة.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ

ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّآ﴾ الواو: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿أَنَّآ﴾: ناصب واسمه ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿بِعَذَابٖ﴾ متعلق بـ﴿أهلكنا﴾ ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عذاب﴾ أو متعلق بـ﴿أهلكنا﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع بفعل محذوف هو فعل شرط لـ﴿لو﴾ تقديره: ولو ثبت إهلاكنا إياهم بعذاب من قبله ﴿لَقَالُواْ﴾ (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿لَوۡلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أَرۡسَلۡتَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيۡنَآ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡتَ﴾ ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ (الفاء): عاطفة سببية ﴿نتبع﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد (الفاء) السببية الواقعة في جواب التحضيض، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: نحن يعود على الكفرة ﴿ءَايَٰتِكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿مِن قَبۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نتبع﴾ والجملة الفعلية: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: هلا إرسالك إلينا رسولاً فاتباعنا آياتك ﴿أَن﴾: حرف مصدر ﴿نَّذِلَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل: مستتر منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: ﴿مِن قَبۡلِ﴾ ذلنا وخزينا.

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله: ضمير يعود على محمد، والجملة: مستأنفة ﴿كُلّٞ﴾: مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد العموم ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾: خبر والجملة في

محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن كلاً منا ومنكم متربص، وأردتم بيان مقتضى ذلك.. فأقول لكم ﴿تربصوا﴾، ﴿تربصوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) استئنافية ﴿ستعلمون﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾: خبر ومضاف إليه والجملة الاستفهامية في محل النصب سادة مسد مفعولي علم، والكلام: على حذف مضاف؛ أي: فستعلمون جواب من أصحاب الصراط السوي؛ أي: فستعلمون جواب هذا السؤال وهو أنه هم المؤمنون ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾ مضاف إليه ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ الواو: عاطفة ﴿مَنِ﴾ اسم استفهام مبتدأ ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ؛ أي: ومن المهتدي؛ أي: وجواب من المهتدي منا ومنكم، والجملة الاستفهامية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على كونها سادة مسد مفعولي علم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ﴾ والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، كما مر، والوصية: يقال عهد إليه الملك بكذا، وتقدم إليه بكذا: إذا أمره وأوصاه.

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل وجود هؤلاء المخالفين.

﴿عَزْمًا﴾ والعزم على الشيء: تصميم الرأي، والثبات عليه.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ يقال: ضحىٰ كسعىٰ، وضحي كرضي: إذا أصابته الشمس بحرها اللافح، وفي «القاموس»: وضحا يضحو، كغزا يغزو، ضحواً: إذا برز للشمس، وكسعىٰ ورضي، ضحواً وضحياً: أصابته الشمس. انتهى.

﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: الشجرة التي إذا أكل منها الإنسان.. خلد ولم يمت.

﴿فَوَسْوَسَ﴾ يقال: وسوس إليه؛ أي: أنهى إليه الوسوسة، وأما وسوس له، فمعناه: وسوس لأجله، وقال أبو البقاء: عُدِّي وسوس بـ﴿إلى﴾، لأنه بمعنىٰ أَسَرَّ، وعُدِّي في موضع آخر باللام، لكونه بمعنى ذكر له، ويكون بمعنى لأجله .اهـ «سمين» وسوسة الشيطان: كولولة الثكلىٰ، ووعوعة الذئب في أنها حكايات للأصوات، وستتحدث عن أسماء الأصوات وحكايتها في فصل مستقل، في آخر مباحث الصرف إن شاء الله تعالى.

وفي «القاموس» وسوس الشيطان له، وإليه وسواساً ووسوسةً: إذا حدَّثه بشر أو بما لا نفع فيه ولا خير، ووسوس الرجل: أصيب في عقله، وتكلم بغير نظام، وأصابته الوساوس: فهو موسوس، وتكلم بكلام خفي، والوسواس: صوت الحلي كما مر، ووُسْوِس الرجل كلاماً خفياً، ووسوس به، بالبناء للمجهول: اختلط كلامه ودهش، والوسواس الاسم من وسوس، والوسواس الشيطان، والوسواس مرض يحدث من غلبة السوداء، ويختلط معه الذهن، ويقال، لما يخطر بالقلب من شر أو لما لا خير فيه: وسواس وجمعه: وساوس.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ في «القاموس»: خصف النعل يخصفها: خرزها، والورق على بدنه: ألزقها وأطبقها عليه ورقةً ورقةً، ويقال: خصف ورق الشجرة بعضه ببعض، حتى يصير عريضاً صالحاً للاستتار.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ يقال: عصى عصياناً: إذا خرج عن الطاعة، وأصله: أن يمتنع بعصاه.

﴿فَغَوَىٰ﴾؛ أي: ضل عن الرشد، حيث اغتر بقول عدوه.

و﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾؛ أي: اصطفاه وقربه بالحمل على التوبة، والتوفيق لها، من جبى إلى كذا فاجتبيته، مثل جليت على العروس فاجتليتها، وأصل الكلمة: الجمع .اهـ «بيضاوي».

فالمجتبى: كأنه في الأصل مَنْ جُمِعَتْ فيه المحاسن، حتى اختاره غيره. انتهى «شهاب». ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ يقال: هبط هبوطاً إلى نزل، قال الراغب:

الهبوط الإنحدار على سبيل القهر، كهبوط الحجر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وإذا استعمل في الإنسان الهبوط، فعلى سبيل الاستخفاف، بخلاف الإنزال، فإن الإنزال ذكره الله في الأشياء التي نبه على شرفها، كإنزال القرآن، والملائكة، والمطر، وغير ذلك، والهبوط: ذكره حيث نبه على البعض، نحو ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

﴿عَن ذِكْرِي﴾؛ أي: عن الهداية بكتبي السماوية.

﴿ضَنكًا﴾ والضَّنْك: الضيق الشديد في كل شيء، يقال للذكر والأنثى: ضَنُكَ ككرم ضنكاً وضناكةً وضنوكة: إذا ضاق .اهـ «قاموس» وفي «السمين»: قوله ﴿ضَنكًا﴾: صفة لمعيشة، وأصله المصدر، ولذلك لم يؤنث كما مر، ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد، وقرىء: ﴿ضنكى﴾ بألف كسكرىٰ، وفي هذه الألف احتمالان:

أحدهما: أنها بدل من التنوين، وإنما أُجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن تكون ألف التأنيث، بُنِي المصدر على فعلىٰ نحو دعوى، والضَّنْك: الضيق والشدة، يقال منه: ضَنُك عيشه، يَضْنُك ضناكةً وضنكاً، وامرأة ضَنَّاك كثيرة لحم البدن، كأنهم تخيلوا ضيق جلدها به .اهـ «سمين».

﴿أَعْمَىٰ﴾؛ أي: عن النظر في الحجج والبراهين الإلهية.

﴿أَسْرَفَ﴾؛ أي: انهمك في الشهوات، واسترسل فيها.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ أي: لم يهتد لهم، فهو لازم فمعناه يتبين.

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جمع قرن، وهو: القوم المقترنون في زمن واحد كما مر.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ قال الراغب: المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، والسكون: ثبوت الشيء بعد تحرك، ويستعمل في الاستيطان، نحو سكن فلان مكان كذا؛ أي: استوطنه، واسم المكان: مسكن، والجمع: مساكن.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الراجحة، جمع نهية، وهو: العقل.

﴿لِزَامًا﴾؛ أي: لازماً لهم، لا يتأخر عنهم، وهو في الأصل: مصدر لازم، بوزن فاعل، وإن كان هنا بمعنى اسم الفاعل.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قال الراغب: الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر: لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة.. يسمى صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربةٍ.. سمي: شجاعةً، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبةٍ.. سمي: رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام.. سمي كتماناً، ويضاده البذل، وقد سمي الله تعالى كل ذلك، ونبه عليه بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ ويسمى الصوم: صبراً لكونه كالنوع منه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه.

﴿آنَاءِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: في ساعات الليل. و﴿مِنْ﴾ بمعنى في، والآناء جمع إنىً بكسر الهمزة وبالقصر، كمعىً بكسر الميم جمعه: أمعاء، وهو محذوف اللام، فوزنه فِعَىٰ بكسر الفاء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المراد بالجمع: ما فوق الواحد، لأن المراد بالأطراف الزمن، الذي هو آخر النصف الأول، وأول النصف الثاني فهما طرفان؛ أي: آخر الأول، وأول الثاني طرفان للنهار؛ أي: طرفان لنصفيه، كل واحد منهما طرف لنصف، وإن كانا متصلين .اهـ شيخنا.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أصل المد: الجر، ومنه المدة للوقت الممتد، وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمد في المكروه، ونحو ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ وقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ والعين: الجارحة بخلاف البصر.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: لذَّذْنا به؛ أي: فالإمتاع والتمتع معناه: الإيقاع في اللذة .اهـ شيخنا. وفي «الكبير»: ألذذنا به، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة، ويُسمع من الأصوات المطربة، ويشم من الريح الطيبة، وغير ذلك من الملابس والمناكح.

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ قال الراغب: الذُّل: ما كان من قهر، والذِّل: ما كان بعد تصعب وشماس من غير قهر، وقال الراغب أيضاً، خزي الرجل: لحقه انكسار، إما من نفسه، وإما من غيره، فالذي يلحقه من نفسه، هو: الحياء المفرط، ومصدره: الخزاية، والذي يلحقه من غيره، يقال: هو ضرب من الاستحقاق، ومصدره: الخزي.

فصل في أسماء الأصوات

وعدناك ببحث أسماء الأصوات، ونرى أن نتوسع فيها قليلاً، لأن كتب النحو قلما تهتم لها، فهي تجري مجرىٰ أسماء الأفعال، لأنها متواخية معها، وهي مبنية، وتنقسم إلى قسمين:

الأول: منهما: ما خوطب به ما لا يعقل، مما يشبه اسم الفعل في الاكتفاء به، ولكن اسم الفعل مركب، واسم الصوت مفرد، لعدم تحمله الضمير، كقولهم في دعاء الإبل لتشرب: جِىء جِىء بكسر الجيم فيهما، مكررين مهموزين، وفي «المحكم»: أنهما أمر للإبل بورود الماء، يقال: جأجأت الإبل: إذا دعوتها لتشرب الماء، فقلت: جِىء جِىء، نقله الجوهري عن الأموي، وكقولهم في دعاء الضأن: حاحا، وفي دعاء المعز: عاعا غير مهموزين، والفعل منهما: حاحيت وعاعيت، قال سيبويه: وأبدلوا الألف من الياء لشبهها بها، لأن قولك: حاحيت، إنما هو صوت بنيت منه فعلاً، وليست فاعلت، وكقولهم في زجر البغل:

عَدَسْ مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِيْنَ طَلِيْقُ

فعدس: يزجر به البغل، وقد سمي البغل به، والتقدير: على التسمية به: يا عدس، فحذف حرف النداء، وإمارة بكسر الهمزة؛ أي: حكم.

والثاني: منهما: ما حكي به صوت مسموع، والمحكي صوته قسمان: حيوان، وغيره.

والأول: كغاق بالغين المعجمة، والقاف لصوت الغراب.

والثاني: نحو طاق، حكايةً لصوت الضرب، وطق بفتح الطاء، حكايةً لصوت وقع الحجارة بعضها على بعضٍ هذا.

نبذة في تعداد أسماء الأصوات

الصرير: صوت القلم والسرير والباب والطست والنعلِ، والنشيش: صوت غليان القدر بالشراب، الرنين: صوت الثكلى والقوس، القصيف: صوت الرعد والبحر وهدير الفحل، النقيق: صوت الدجاج والضفدع، القعقعة: صوت السلاح والجلد اليابس والقرطاس، الغرغرة: صوت غليان القدر وتردد النفس في صدر المحتضر، العجيج: صوت الرعد والنساء والشاء، الزفير: صوت النار والحمار، والمكروب إذا امتلأ صدره غماً، فزفر به، الخشخشة، والشحشحة: صوت حركة القرطاس والثوب الجديد والدرع، الجلجلة: صوت السبع وحركة الجلاجل، الحفيف: صوت حركة الأغصان وجناح الطائر وحركة الحية، الصليل، والصلصلة: صوت الحديد واللجام والسيف والدراهم والمسامير، الطنين: صوت البعوض والذباب والطنبور، والأطيط: صوت الناقة والمحمل والرحل ـ إذا أثقله ما عليه ـ الصرصرة: صوت البازي والبط، الدوي: صوت النحل والأذن والمطر والرعد، الأنقاض: صوت الدجاجة والفروخ، التغريد: صوت المغني والحادي والطائر، وكل صائت طرب الصوت فهو غرد، الزمزمة، والزهزمة: صوت الرعد ولهب النار وحكاية صوت المجوسي إذا تكلم الكلام وهو مطبق فمه. انتهى من «إعراب القرآن».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾.

ومنها: إضافة السبب إلى المسبب في قوله: ﴿عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمرتها، وهو ذكر

الشيء بمعنى، وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿أَعْمَىٰ﴾ و﴿بَصِيرًا﴾.

ومنها: التشبيه المجمل المرسل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبخي في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ من إطلاق الجزء، وإرادة الكل، لأنه بمعنى صل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وبين الليل والنهار في قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مثل لنعم الدنيا بالزهر، وهو: النور، لأن الزهر له منظر حسن، ثم يذبل ويضمحل، وكذلك نعيم الدنيا.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ وفي قوله: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

١ ـ أن القرآن أُنزل على نبيه ﷺ تذكرةً لمن يخشى، أنزله من خلق الأرض والسموات العلىٰ.

٢ ـ قصص موسى ـ عليه السلام ـ وتكليمه ربه في الطور، وحديث العصا واليد البيضاء من غير سوء، وطلبه من ربه أن يجعل له أخاه هارون وزيراً، وإجابة سؤاله في ذلك، وامتنانه عليه بما حدث له حين وضع في التابوت، وأُلقي في اليم، وقص أخته ورجوعه إلى أمه، ثم طلب ربه منه أن يُبلغ فرعون دعوته، وينصح له في قبول دينه، وإقامة شعائره، وإجابة فرعون له بأنه ساحر كذاب، وأنه سيجمع له السحرة، فتوعدهم فرعون بالعذاب، فلم يأبهوا له، واستمر فرعون في غيّه حتى أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر، فأتبعه هو وجنوده فأُغرقوا.

٣ ـ حديث السامري، وإضلاله بني إسرائيل، باتخاذه عجلاً جسداً له خوار، حين كان موسى بالطور، وحين رجع ورأى ذلك هاله الأمر، وغضب من أخيه هارون، وأخذ يجره من رأسه، ثم إغلاظه القول للسامري، ودعوته عليه بأنه يعيش طريداً في الحياة، وسيعذبه الله في الآخرة أشد العذاب، ثم نسف إلٰهه وإلقاؤه في اليم.

٤ ـ بيان أن من أعرض عن القرآن.. فإنه سيلقى الجزاء والوبال يوم القيامة.

٥ ـ ذكر أوصاف المجرمين حينئذٍ، وأنهم يختلفون في مدة لبثهم في الدنيا.

٦ ـ سؤال المشركين عن حال الجبال يوم القيامة، وأن الأصوات حينئذٍ تخشع للرحمٰن، فلا تسمع إلا همساً، وأن الوجوه تخضع لربها القائم بأمرها.

٧ ـ وصف القرآن الكريم بأنه عربي مبين، أنزل تذكرة للناس، وأن الله سيعصم رسوله من نسيانه، فلا ينبغي أن يعجل بتلاوته قبل أن يتم تبليغ جبريل له.

٨ ـ قصص آدم ـ عليه السلام ـ مع إبليس وترك آدم للعهد الذي وصاه به ربه، وقبول نصيحة إبليس، مما كان سبباً في إخراجه من الجنة.

٩ ـ بيان أن من أعرض عن ذكر ربه.. عاش في الدنيا عيشةً ضنكاً، وعمي في الآخرة عن الحجة التي تنقذه من العذاب، لأنه قد كان في الدنيا أعمى عنها، تاركاً لها فتركه ربه من إنعامه.

١٠ ـ بيان أن في المثلات التي سلفت للأمم قبلهم، ممن يمرون على ديارهم مصبحين، وبالليل، كعادٍ وثمود، ما ينبغي أن يكون رادعاً لهم، وزاجراً لو تدبروا وعقلوا.

١١ ـ إن كلمة الله قد سبقت بأنه سيؤخر عذاب المشركين إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة.

١٢ ـ طلبه من رسوله تنزيهه، والثناء عليه آناء الليل وأطراف النهار، رجاء أن يعطيه ما يرضيه.

١٣ ـ أمر رسوله أن يأمر أهله بالصلاة، ويصطبر هو عليها، وهي لا تكون شاغلاً لهم عن الرزق.

١٤ ـ طلب المشركين من الرسول أن يأتيهم بآية من نوع ما أوتي الرسل الأولون.

١٥ ـ إن إنزال القرآن على رسوله، ليزيح العلة، ويمنع المعذرة، يوم القيامة، فلا يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وأتينا بكتاب نتبعه.

١٦ ـ وعيد المشركين بأنهم يتربصون، وسيعلمون يوم القيامة لمن يكون له حسن العاقبة.

* * *

ربنا إنك رؤوف بعبادك، رحيم بهم، ربنا اجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت تفاسير سورة طه، في الليلة السابعة عشرة من شهر جمادى الأولى، من شهور سنة اثنتي عشرة وأربع مئة وألف، من هجرة من له العز والشرف، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.

وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد السابع عشر، أوائل الليلة السابعة عشرة ليلة السبت المبارك، من شهر الجمادي الأولى، من شهور سنة ألف وأربع مئة واثنتي عشرة، سنة ١٧/ ٥/ ١٤١٢ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

بحول الله سبحانه وتيسيره، ونسأله الإعانة على التمام والإكمال، كما أعان على الابتداء والافتتاح، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدين. آمين.

بورك تفسير الروح والريحان   كما بورك جنا الزيتون والرمان

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثامن عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ   وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ

تَرُوْمُ ٱلْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلاً   يَغُوْصُ ٱلْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ ٱللَّالِيْ

عُلُوُّ ٱلْكَعْبِ بِٱلْهِمَمِ ٱلْعَوَالِيْ   وَعِزُّ ٱلْمَرْءِ فِيْ سَهَرِ ٱللَّيَالِيْ

وَمَنْ رَامَ ٱلْعُلاَ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ   أَضَاعَ ٱلْعُمْرَ فِيْ طَلَبِ ٱلْمُحَالِ

تَرَكْتُ ٱلنَّوْمَ رَبِّيْ فِيْ ٱللَّيَالِيْ   لأَجْلِ رِضَاكَ يَا مَوْلَىٰ ٱلْمَوَالِيْ

فَوَفِّقْنِيْ إِلَىٰ تَحْصِيْلِ عِلْمٍ   وَبَلِّغْنِيْ إِلَىٰ أَقْصَىٰ ٱلْمَعَالِيْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمدك يا إلهنا حمد من أقر بربوبيتك؛ وٱعترف بوحدانيتك، وصدق بكتابك، وٱقتدىٰ بمحكمه، وآمن بمتشابهه، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله، سيّدُ الأولين والآخرين، من أنزلت عليه الكتاب المستبين، والقرآن المبين، وصلّ وسلّم عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء السادس عشر من القرآن الكريم.. أخذت ـ بعون الله ـ في تفسير الجزء السابع عشر منه، راجياً من الله التوفيق، والهداية فيما نحن بصدده إلى أقوم الطريق، فقلت:

سورة الأنبياء

مكية، قال القرطبي: عند جميع المفسرين. وعدد[1] آياتها مئة واثنتا عشرة آية، أو إحدى عشرة. وعدد كلماتها ألف كلمةٍ، ومئة وثمان وستون كلمة. وعدد حروفها أربعة آلاف حرف، وثمان مئة وتسعون حرفاً.

فضلها: ومما ورد في فضلها[2]:

ما أخرجه البخاري، وغيره عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي».

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، في «الحلية»، عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل، فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ وادياً ما في العرب، وادٍ أفضل منه، وقد

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك، ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾.

وعن النبي ﷺ[1]: «من قرأ ﴿اقترب﴾ حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن» ولكن لا أصل له. وسميت بذلك لذكر قصص الأنبياء فيها.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم: في سورة الأنبياء آيتان منسوختان:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية (٩٨).

وثانيتهما: الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٩٩). وهاتان الآيتان نسختا كلتاهما بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية (١٠١) من سورة الأنبياء، انتهى.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنةً، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وأن العاقبة للمتقين، وبُدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون، وقلوبهم لاهية عنه.

والله أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ (١) مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم
مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (٢) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٤) بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ
أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ (٥) مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا
رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٩)
لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠) وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ
وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ (١٢) لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ
إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ (١٣) قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلۡكَ
دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوۡ
أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ
عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ (٢٠) أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ
يُنشِرُونَ (٢١) لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسۡـَٔلُ
عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ
مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ
إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ (٢٥) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ (٢٦)
لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ (٢٧) يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ
إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ
نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩)﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة قد مرّ بيانها آنفاً.

وقال أبو حيَّان[1]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر في آخر السورة السَّالفة ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ قال مشركو قريش: محمد يهدّدنا بالمعاد، والجزاء على الأعمال، وليس بصحيح، وإن صحَّ ففيه بعد، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر فيما سلف إنكارهم لأن يكون الرسول بشراً بقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله في الرسل قبل محمد ﷺ، فهو ليس ببدع بينهم، وإن كنتم في ريب من ذلك، فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم، ثم ذكر أنَّ الرسل كسائر البشر في سنن الطبيعة البشرية، يأكلون الطعام، ولا يخلدون في الأرض، بل يموتون كما يموت سائر الناس، وقد صدقهم الله وعده فينجيهم، ومن آمن بهم، ويهلك المكذبين لهم، وأعقب ذلك بأن في القرآن عظةً لهم لو كانوا يعقلون ما في تضاعيفه من مواعظ، وزواجر، وأجر ووعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[2] إهلاكه للمسرفين في كفرهم بالله، والعاصين لأوامره، ونواهيه.. بيَّن هنا طريق إهلاكهم، وكثرة ما حدث من ذلك في كثير من الأمم، ثم بيّن أنه أنشأ بعد الهالكين قوماً آخرين، وأنهم حينما أحسوا بأس الله، فرّوا هاربين، فقيل لهم على ضرب من التهكم والسخرية: فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم، وإلى تلك المساكن المشيّدة، والفرش المنجَّدة، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومنازلكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، ثم بعد أن يئسوا من الخلاص، وأيقنوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

بالعذاب قالوا: هلاكاً لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا، مستوجبين العذاب بما قدّمناه، وما زالوا يكرّرون هذه الكلمة، ويردّدونها، وجعلوها هجيراهم، حتى صاروا كالنبات المحصود، والنار الخامدة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] مطاعنهم في نبوة محمد ﷺ بتلك المقالات التي سلف ذكرها قفىٰ على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن، وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التي ظهرت على يديه من باب العبث واللعب، تنزّه ربنا عن ذلك، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلاّ لعبادته، ومعرفته، ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم، ولن يتم علم هذا إلاّ بإنزال الكتب وإرسال الرسل، صلوات الله عليهم، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهواً ولعباً، تعالى خالقهما علواً كبيراً، ثم أردف هذا بالرد على من ادَّعى أنَّ المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، بأنه لو اتخذ ولداً لاتّخذه من الملائكة، وعقّب على هذا بأن الغلبة للحق دائماً، مهما طال أمد الباطل، وأن جميع من في السموات والأرض كلهم عبيده، لا يستكبرون عن عبادته، ولا يملّون.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمّا[2] بين في سابق الآيات، أن كثيراً من الأمم المكذّبة لرسلها قد أبيدت، وأنشىء بعدها أقوام آخرون، وأنهم حين أحسّوا بالبأس، ارعووا وندموا حيث لا ينفع الندم، ثم أردف ذلك ذكر أن من في السموات والأرض عبيده، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، ولا يكلّون ولا يملون منها.. ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد، لكنهم لم يفعلوا ذلك بل فعلوا ضدّه، فكانوا جديرين بالتوبيخ، والتعنيف، ثم أقام البرهان على وحدانيته، وأنه لو كان في السموات والأرض إلٰهان لهلك من فيهما،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

تنزَّه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون، وقد كذب من اتخذ آلهة لا دليل عليها، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد، كما كذب من جعل له ولداً، فقال: الملائكة بنات الله.

والملائكة خلق مطيعون لربهم، لا يفعلون إلاّ ما يؤمرون به، ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى، وهم من خوفه حذرون، ومن يقل منهم: إنه إله.. فلا جزاء له إلا جهنم، وهي جزاء كل ظالم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعي إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: «يا رب فمن لأمتي» فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱقْتَرَبَ﴾؛ أي: قرب ودنا ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي للمشركين ﴿حِسَابُهُمْ﴾؛ أي[2]: وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم يوم القيامة، نزلت في منكري البعث؛ أي: قرب[3] بالنسبة إلى ما مضى، أو عند الله تعالى لقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾، أو لأن كل ما هو آت قريب، وإنما البعيد ما انقرض ومضى، قال الشاعر:

فَمَا زَالَ مَنْ يَهْوَاهُ أَقْرَبُ مِنْ غَدِ وَمَا زَالَ مَنْ يَخْشَاهُ أَبْعَدُ مِنْ أَمْسِ

واللام صلة لـ﴿اقترب﴾، أو تأكيد للإضافة، وأصله: اقترب حساب الناس، ثم صار اقترب للناس الحساب، ثم صار اقترب للناس حسابهم، وقال في «العيون»: اللام بمعنى من، متعلقة بالفعل، وتقديمها على الفاعل للمسارعة

---

(١) لباب النقول.

(٢) الخازن.

(٣) البيضاوي.

إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبةً وانزعاجاً من المقترب. وإنما ذكر(١) الله سبحانه هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين، فيكونون أقرب إلى التأهّب له، والمراد بـ﴿النَّاس﴾، المحاسبون، وهم المكلَّفون دون غيرهم. وقيل: هم المشركون لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وعلى هذا فهو من باب إطلاق اسم الجنس على بعض أفراده.

والحساب بمعنى المحاسبة(٢)، وهو إظهار ما للبعيد وما عليه ليجازى على ذلك، والمراد باقتراب حسابهم: اقترابه في ضمن اقتراب الساعة، وسمي يوم القيامة بيوم الحساب، تسمية للزمان بأعظم ما وقع فيه، وأشدّه وقعاً في القلوب، فإن الحساب هو الكاشف عن حال المرء، ومعنى اقترابه لهم تقاربه، ودنوّه منهم بعد بعده عنهم، فإنه في كل ساعة من ساعات الزمان أقرب إليهم من الساعة السابقة، ما أن ما مضى أكثر مما بقي، وفي الحديث: «أمّا بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس» وإنما لم يعيّن الوقت؛ لأن كتمانه أصلح كوقت الموت.

والمعنى(٣): دنا من مشركي قريش وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم السيئة، الموجبة للعقاب يوم القيامة، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي: والحال أنهم في غفلة تامة من الحساب على النقير والقطمير، والتأهّب له، ساهون عنه بالكلية، لا أنهم غير مبالين مع اعترافهم بإتيانه، بل منكرون له، كافرون به مع اقتضاء عقولهم له، لأن الأعمال لا بد لها من الجزاء، وإلاّ لزم التسوية بين المطيع، والعاصي وهي بعيدة عن مقتضى الحكمة والعدالة ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان والآيات، والنذر المنبّهة لهم من سنة الغفلة.

وهما خبران للضمير، وحيث كانت الغفلة أمراً جبلياً لهم، جعل الخبر الأول ظرفا منبئاً عن الاستقرار بخلاف الأعراض. والجملة حال من ﴿النَّاس﴾،

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

ويجوز أن يكون الظرف حالا من المستكن في ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾. وعبارة الشوكاني هنا: وهم في غفلة بالدنيا، معرضون عن الآخرة، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والقيام بفرائضه، والانزجار عن مناهيه، انتهت.

وحاصل المعنى: أي[1] دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وعلى النِّعَم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم، وعقولهم، ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها، فانتهوا إلى أمره ونهيه، أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة، ومن ثمّ تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهُّب له جهلاً منهم بما هم لاقوه حينئذٍ من عظيم البلاء، وشديد الأهوال، وآثر بيان اقتراب هذا اليوم مع أن الكلام مع المشركين المنكرين للبعث للإشارة إلى أن البعث لا ريب فيه، وأن الذي يرجى بيانه ذكر ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب على وجه أكيد، ونهج سديد.

وخلاصة ذلك: أنه قد دنا وقت الساعة، وهم غافلون عن حسابهم، ساهون، لا يتفكرون في عاقبتهم، مع أن قضية العقل تقضي بجزاء المحسن والمسيء، وإذا هم نبهوا من غفلتهم بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا، وسدوا أسماعهم عن سماعه، ثم ذكر ما يدل على غفلتهم، وإعراضهم بقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم﴾؛ أي: ما يأتي هؤلاء المشركين ﴿مِّن ذِكۡرٍ﴾ ينبّههم عن سِنة الغفلة والضلالة، أي:[2] طائفة نازلة من القرآن تذكرهم الحساب أكمل تذكير، وتنبّههم عن الغفلة أتم تنبيه، كأنها نفس الذكر والعظة ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ ﴿من﴾ لابتداء الغاية، متعلقة بـ ﴿يَأۡتِيهِم﴾، أو صفة لـ﴿ذِكۡرٍ﴾ وفيه دلالة على فضله وشرفه، وكمال شناعة ما فعلوا به ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ بالجر صفة لـ﴿ذِكۡرٍ﴾؛ أي: متجدد تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، ليكرر على أسماعهم التنبيه، كي يتعظوا، فالمحدث[3] هو تنزيله في كل وقت على حسب المصالح، وقدر الحاجة، لا الكلام الذي هو صفة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

قديمة أزلية، وأيضاً الموصوف بالإتيان وبأنه ذكر هو المركب من الحروف والأصوات، وحدوثه مما لا نزاع فيه.

قلت: والأسلم الإمساك عن القول بحدوث القرآن وقدمه، وتفويض علم ذلك إلى الله سبحانه، فإنه لم يسمع من النبي ﷺ، ولا من السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم شيء من الكلام في ذلك.

قالوا: القرآن اسم مشترك يطلق على الكلام الأزلي الذي هو صفة الله، وهو الكلام النفسي القديم، من قال بحدوثه كفر.

ويطلق أيضاً على ما يدل عليه وهو النظم المتلو الحادث، من قال بقدمه سجّل على كمال جهله. وقيل: الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ، وبيّنه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه إليه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ قاله في «الخازن».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ بالجر صفة لـ﴿ذكر﴾ على اللفظ. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع، صفة لـ﴿ذكر﴾ على المحل. وقرأ زيد بن علي بالنصب، على الحال من ذكر، إذ قد وصف بقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾.

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ من النبي عليه السلام أو غيره ممن يتلوه. استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول ﴿يأتيهم﴾ بإضمار قد. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يستهزئون به، ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب. وجملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في محل نصب على الحال أيضاً من فاعل ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾. يقال: لعب إذا كان فعل فعلاً غير قاصد به مقصداً صحيحاً. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى؛ أي ساهيةً معرضةً غافلةً قلوبهم عن ذكر الله تعالى. يقال: لها عنه إذا ذهل وغفل. قال الراغب: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، يقال: لهوت بكذا، ولهيت بكذا، اشتغلت عنه، يلهو وألهاه عن كذا شغله عما هو أهم. وقرأ ابن أبي عبلة، وعيسى ﴿لَاهِيَةٌ﴾ بالرفع على

---

(١) البحر المحيط.

أنه خبر لقوله: ﴿وهم﴾ والمعنى[1]: ما يأتيهم ذكر من ربهم، مُحْدَثٍ في حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه، لاعبينَ مستهزئينَ به لاهين متشاغلينَ عن التأمل فيه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب.

قدم اللعب على اللهو تنبيهاً على أنهم إنما أقدموا على اللعب، لذهولهم عن الحق، فاللعب الذي هو السخرية والاستهزاء نتيجة اللهو، الذي هو الغفلة عن الحق، والذهول عن التفكر. قال بعضهم: القلب اللاهي: هو المشغول بأحوال الدنيا، والغافل عن أحوال العقبى. قال الواسطي: لاَهِيةً عن المصادر والموارد، والمبدأ والمنتهى.

وقصارى ذلك: أنه[2] ما ينزل الله من قرآن ويذكرهم به إلاَّ استمعوه وهم لاهون لاعبون مستهزئون.

والخلاصة: أنه ما جدد لهم الذكر وقتاً فوقتا، وكررَّ على أسماعهم التنبيه، والموعظة لعلهم يتعظون، إلا زادَهم ذلك سخرية واستهزاء، وفي هذا ذم لأولئك الكفار، وزَجْر لغيرهم عن مثله، فالانتفاع بما يُسْمَعُ لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإلا حصل مجرد الاستماع الذي تشارك البهيمة فيه الإنسان.

وبعد أن ذكر ما يُظْهِرَونَه حين الاستماع من اللهو واللعب، ذَكَرَ ما يخفونه بقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: وأمر هؤلاء الذين اقْتَرَبَتِ الساعة منهم، وهم في غفلتهم معرضون التناجي بينهم، وأخفوه عن سواهم. والنجوى في الأصل: مصدر، ثم جُعِلَ اسماً من التناجي بمعنى القول الواقع بطريق المسارة؛ أي: السر بين اثنين فصاعداً. يقال: تناجى القوم إذا تساروا، وتكالموا سراً عن غيرهم. ومعنى[3] إسرارها مع أنها لا تكون إلا سراً أنهم بالغوا في إخفائها. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ على أنفسهم بالشرك، والمعصية. بدل[4] واو ﴿أسروا﴾ للإيماء بأنهم ظلموا فيما أسروا به. أو فاعل له والواو علامة الجمع، أو مبتدأ، والجملة المتقدمة خبره، وأصله: وهؤلاء الغافلون أسروا النجوى، فوضع

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البيضاوي

الموصول موضعه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظُلْمٌ. أو منصوب على الذم. ثم بَيَّن ما تَنَاجَوا بِهِ فقال: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والاستفهام فيه إنكاري، بمعنى النفي، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الرجل محمد ﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾؛ أي[1]: دم ولحم مساوٍ لكم في المأكل والمشرب وكل ما يحتاج إليه البشر، والموت مقصور على البشرية، ليس له وصف الرسالة التي يدعيها، والبَشْرُ ظاهرُ الجلد، والأدمة باطنه، عبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف، والشعر والوبر. واستوى في لفظ البشر الواحدُ والجمعُ. وخص في القرآن كل موضع عبر عن الإنسان جثته، وظاهره بلفظ البشر.

والمعنى[2]: أي قالوا في تناجيهم متعجبين من دعواه النبوة: هل هذا الذي أتاكم بهذا الذكر إلا بشر مثلكم، في خلقه وأخلاقه، يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون، ويموت كما تموتون، فكيف يختص دونكم بالرسالة؟ والهمزة في قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ للاستفهام الإنكاري الابتعادي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف. وجملة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿تأتون﴾، مقرّرة للإنكار، ومؤكدة الابتعاد؛ أي[3] ما هذا الرجل الذي يدّعي النبوة إلاّ من جنسكم، وما أتى به ـ يعنون القرآن ـ سحر، أتعلمون ذلك فتأتونه، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول، وأنتم تبصرون، وتعاينون أنه سحر، قالوا ذلك لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلاّ ملكاً، وأن كلَّ ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحرِ؛ أي: الخداع والتخيلات التي لا حقيقة لها.

وخلاصة ذلك: أنهم طعنوا في نبوته بأمرين:

١ ـ أن الرسول لا يكون إلاّ ملكاً.

٢ ـ أنَّ الذي يظهر على يديه من قبيل السحر. وذلك فاسد إذ حجة النبوة تعرف من المعجزة، لا من الصورة، ولو بعث الملك إليهم.. لم يعلموا نبوته

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

بصورته، بل بالمعجزة، فإذا ظهر على يد بشر وجب قبوله.

وإنما أسرّوا ذلك لأنه كالتشاور بينهم والتحاور لطلب الطريق الموصل إلى هدم دينه، وإطفاء نور النبوة، وقد جرت عادة المتشاورين في خطب عظيم أن لا يشركوا أعداءهم في مشورتهم، بل يجتهدون في طيّ سرّهم عنهم مَّا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، كما جاء في أمثالهم: (استعينوا في قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود) فأطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ما تناجوا به، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ سرّاً كان أو جهراً حال كون ذلك القول ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فضلاً عما أسرّوا به، وإذا علم القول علم الفعل؛ أي: قل لهم أيها الرسول: إنكم، وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فيَّ فإن ربكم عليم بذلك، وإنه معاقبكم عليه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع المعلومات؛ أي: المبالغ في العلم بالمسموعات، والمعلومات التي من جملتها ما أسرّوه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. وفي هذا من التهديد، والوعيد، ما لا يخفى، وإنما آثر كلمة ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ التي تعمّ السرّ والجهر دون كلمة (السرّ) التي تقدمت في الكلام للإيذان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة، لا تفاوت فيه بالجلاء والخفاء كما في علوم العباد.

وخلاصة ذلك[١]: أنه يعلم هذا الضرب من الكلام، وأعلى منه، وأدنى منه، وفي هذا مبالغة في علمه تعالى بكل ما يمكن أن يسمع أو يعلم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، وأيوب، وخلف، وابن سعدان، وابن جبير الأنطاكي، وابن جرير[٢]: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على معنى الخبر عن نبيّه ﷺ، وكذا في مصاحف الكوفيين. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿قل ربي﴾ على الأمر لنبيّه ﷺ.

ولمّا ذكر سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا: إنَّ ما أتى به سحر، ذكر

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

اضطرابهم في مقالاتهم، فذكر أنهم أضربوا عن نسبة السحر إليه بقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾؛ أي: ما أتى به أباطيل منامات لا يصحّ تأويلها لاختلاطها. والأضغاث[1]: جمع ضغث بالكسر، والضغث قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. وأضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها، لاختلاطها كما في «القاموس». والأحلام جمع حلم، والحلم بضم الحاء وسكون اللام الرؤيا. وضم اللام أيضاً لغة فيه، فالأحلام بمعنى المنامات، سواء كانت باطلة أو حقةً. وأضيفت الأضغاث بمعنى الأباطيل إليها، على طريق إضافة الخاص إلى العام إضافة بمعنى من، وقد تخص الرؤيا بالمنام الحق، والحلم بالمنام الباطل كما في قوله ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان». ثم إن هذا إضرابٌ من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قول إلى آخر؛ أي: لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه عليه السلام: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾، وفي حق ما ظهر على يده من القرآن إنه سحر، بل قالوا: تخاليط أحلام؛ أي: أخلاط أحلام كاذبة، رآها في المنام ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: بل قالوا: افتراه، واختلقه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا، وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر يخيّل إلى السامع معاني لا حقيقة لها.

أي: بل قال بعضهم: أخلاط أحلام قد رآها في النوم. وقال آخرون: بل اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله تعالى. وقال قوم: بل هو شاعر، وما أتى به شعر.

وخلاصة ذلك[2]: أنهم ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أقروا أنه من عند الله، ولا أنه وحي أوحاه الله إليه، بل قالوا هذه المقالات.

وفي هذا الاضطراب منهم[3]، والتلوّن والتردد، أعظم دليل على أنهم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

جاهلون بحقيقة ما جاء به، لا يدرون ما هو، ولا يعرفون كنهه، أو كانوا قد علموا أنه حق، وأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر، ويرموه بكل حجر ومدر، وهذا شأن من غلبته الحجة، وقهره البرهان.

وقد ذكرت[1] هذه المقالات على هذا الوضع إشارة إلى ترقيها في الفساد، فإن كونها سحراً أقرب من كونها أضغاث أحلام، قد يقال: «إن من البيان لسحرا» بخلاف تخاليط الكلام التي لا تضبط، ولا شبه لها بهذا النظم البديع، وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد، لأنه عليه الصلاة والسلام قد شهر بالأمانة والصدق، إلى أنهم أعرف الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور، وبين ما يساق له الشعر وما سيق له هذا الكلام، إلى أنهم يعلمون من مخالطته مدى أربعين سنة أنه لا يسهل له الشعر وإن أراده.

وفي «روح البيان»: قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ كثير من المفسرين[2] حملوه على أنهم رموه بكونه آتياً بشعر منظوم مقفى، حتى تأوّلوا عليه ما جاء في القرآن من كل لفظةٍ تشبه الموزون من نحو قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، وقال بعض المحقِّقين: لم يقصدوا هذا المقصد فيما رموه به، وذلك أنه ظاهر من هذا الكلام أنه ليس على أساليب الشعر، ولا يخفى ذلك على الأغنام من العجم، فضلاً عن بلغاء العرب، وإنما رموه بالكذب، فإن الشعر يعبّر به عن الكذب، والشاعر الكاذب حتى سمّوا الأدلة الكاذبة بالشعر، ولكون الشعر مقرُّ الكذب قيل: أحسن الشعر أكذبه. فالمراد بقولهم: إنه شاعر: القدرة على إنشاء الكلام الموزون، وليس من مقتضاها التكلم.

ثم بعد ما قدحوا في القرآن، طلبوا آيةً أخرى غيره فقالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ وهذا جواب شرط مقدّر يدل عليه السياق، تقديره: إن لم يكن كما قلنا، بل كان

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

رسولاً من الله، فليأتنا بآية جليلة ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون، كاليد، والعصا، وإحياء الموتى، والناقة، ونظائرها حتى نؤمن به، فـ﴿ما﴾ موصولة، وعائدها محذوف، ومحل الكاف الجرّ على أنها صفة لآية. ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف؛ أي: إتياناً مثل إرسال الأولين.

والمعنى: أي[1] إن كان صادقاً في أن الله تعالى بعثه رسولاً إلينا، وأن الذي يتلوه وحي أوحاه الله إليه.. فليأتنا بحجة تدل على ما يقول ويدعي كما جاء به الرسل الأولون من قبله، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل، وفي التعبير بقولهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ بيان كونها آيات مسلَّمات تثبت الرسالة بمثلها، ويترتب عليها المقصود، وليس لأحد أن ينازع فيها.

ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنته خاتمة مقالهم من الوعد بالإيمان حين إتيان الآية المقترحة، وبين أن في ترك إجابتهم عما طلبوا إبقاء عليه، فإنهم لو أوتوها، ولم يؤمنوا بها لاستؤصلوا بالعذاب كما هي سنة الله في الأمم السالفة إذا كذبت رسلها بعد إتيانهم بما اقترحوا، ولكن قد سبقت كلمة الله أن مشركي هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقال: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم﴾؛ أي: قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾؛ أي: أهل قرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وهو في محل الرفع على الفاعلية. و﴿من﴾ مزيدة لتأكيد العموم ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾؛ أي: بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات. صفة قرية.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري[2]، لإنكار الوقوع داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: إنه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سئلوا، وأعطوا ما اقترحوا، مع كونهم أعتى منهم وأطغى، كما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ يعني أن كفاركم مثل أولئك الكفار المعدودين قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون، فهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه، قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

وَلاَ تَكُ كَٱلشَّاةِ ٱلَّتِيْ كَانَ حَتْفُهَا بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا فَلَمْ تَرْضَ مَحْفَرا

وأصله: أن رجلاً وجد شاة، وأراد ذبحها فلم يظفر بسكين، وكانت مربوطةً، فلم تزل تبحث برجليها حتى أبرزت سكيناً كانت مدفونة، فذبحها بها، يضرب في مادة تودي صاحبها إلى التلف، وما يورط الرجل فيه نفسه.

وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للترحم بهم، إذ لو أتي به لم يؤمنوا، واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم، وقد سلف وعده تعالى في حق هذه الأمة أن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة. ومعنى الآية؛ أي: إنَّ هؤلاء أشد عتواً من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، ووعدوا أنهم يؤمنون حين مجيئها، فلما جاءتهم نكثوا العهد، وخالفوا، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلو أعطوا ما اقترحوا... لكانوا أشد نكثاً، فينزل بهم عذاب الاستئصال، وقد سبقت كلمة ربك أنه يؤخر عذابهم إلى اليوم المعلوم.

قال قتادة: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إذا كان ما تقوله حقاً، ويسرُّك أن نؤمن فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال: إن شئت.. كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك؟ قال: «بل أستأني بقومي» فأنزل الله ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ الآية كما سبق في مبحث الأسباب.

ثم أجاب سبحانه عن قولهم: هل هذا إلاّ بشر مثلكم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ أيها الرسول رسولاً إلى أمة من الأمم التي خلت من قبلك ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثالهم ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ما نريد من أمرنا ونهينا، لا ملكا نوحي إليهم بوساطة الناموس ما نوحي من الشرائع والأحكام، والقصص والأخبار، فما بالهم لا يفهمون أنك لست بدعاً من الرسل.

والمعنى: أي[1] وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلاّ رجالاً مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والإرسال، نوحي إليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام، وغيرهما من القصص والأخبار، كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي، وحقيقة مدلوله، كما لا فرق بينه وبينهم في البشرية، فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعاً من الرسل، وأن ما أوحي إليك ليس مخالفاً لما أوحي إليهم، فيقولون ما يقولون.

وجاء بمعنى الآية قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقوله: حكاية عمن تقدم من الأمم: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾.

وقرأ حفص، وحمزة، والكسائي ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون وكسر الحاء. وقرأ الجمهور ﴿يوحى﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول.

ثم أمرهم سبحانه أن يسألوا في ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى تبكيتاً لهم، وإزالةً لما علق بأذهانهم من الاستبعاد، بعد أن بيَّن لهم وجه الحق فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ أيها الكفرة الجهلة ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: أهل الكتاب ممن يؤمن بالتورة، والإنجيل، الواقفين على أحوال الرسل السالفة لتزول شبهتكم ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ الحق؛ أي: أن الرسل بشر، ولا يتبيّن لكم الصواب، يخبروكم عن ذلك، أمروا بذلك، لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم، لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عدواته ﷺ، ويشاورونهم في أمره، وكانوا لا ينكرون كون الرسل بشراً، وإن أنكروا نبوته ﷺ. روي أنه قيل للإمام الغزالي رحمه الله: بماذا حصل لكم الإحاطة بالأصول والفروع؟ فتلا هذه الآية، وأشار إلى أن السؤال من أسباب العلم وطرائقه.

وبعد أن بيّن أنه ﷺ على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلاً، بيّن أنه على سنتهم في سائر الأوصاف التي حكم بها على البشر في معيشتهم وموتهم

---

(١) روح البيان.

فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك إلى الأمم الماضية قبل أمتك ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾؛ أي: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام، بل جعلناهم أجسادا مثلك، يأكلون الطعام، وتعرض لهم أطوار البشر جميعاً من صحة ومرض وسرور وحزن، ونوم ويقظة، والجسد جسم الإنسان والجن والملائكة، وسيأتي الفرق بينه وبين الجسم في مباحث مفردات اللغة. وجملة ﴿لا يأكلون الطعام» صفة لـ ﴿جَسَدًا﴾. والطعام البرّ، وما يؤكل. والطعم تناول الغذاء؛ أي:[1] وما جعلناهم جسدا مستغنياً عن الأكل والشرب، بل محتاجاً إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مخلدين لا يموتون، ولا يفنون، ولكنهم غبروا حيناً من الدهر وهم أحياء، ثم طواهم الثرى، وضمّتهم القبور، لأن مآل التحلّل هو الفناء لا محالة.

وخلاصة ذلك[2]: أنا جعلنا الرسل أجساماً تتغذى حين الحياة، ثم يصير أمرها إلى الفناء بعد استيفاء آجالها، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون، وما كانوا مخلدين بأجسادهم، بل يموتون كما مات الناس قبلهم وبعدهم، وإنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس بما يأتيهم عن الله من الوحي والزلفى عنده.

والخلود[3] تبرّىء الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والمراد إمّا المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبدي وهم معتقدون أنهم لا يموتون.

والمعنى: جعلناهم أجساداً متغذية حائرة بالموت إلى الآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة، ولا أجساداً مستغنيةً عن الأغذية مصونةً عن التحلل كالملائكة.

وجملة قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ معطوفة على جملة محذوفة، يدل عليها

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

السياق، والتقدير: إنا أرسلنا رسلاً من البشر، وأوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقنا وعدنا إياهم؛ أي: أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم، وإهلاك من كذبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا المؤمنين؛ أي: فنصرناهم على المكذبين، وأنجيناهم، هم ومن آمن معهم من العذاب الدنيوي ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المجاوزين للحد في الكفر والمعاصي، وهم المشركون بالعذاب الدنيوي.

وبعد أن حقق رسالته ﷺ ببيان أنه كسائر الرسل الكرام شرع يحقق فضل القرآن الكريم، ويبين نفعه للناس، بعد أن ذكر في صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته، واضطرابهم في شأنه فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش، أي: وعزتي وجلالي لقد أنزلنا إلى رسولكم محمد ﷺ ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيم الشأن نير البرهان، وهو القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾، أي: فيه شرفكم لكونه بلسانكم، أو فيه موعظتكم بذكر الوعد والوعيد لترغبوا، وتحذورا، أو فيه ذكر أمر دينكم بما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق، وفاضل الآداب، وسديد الشرائع، والأحكام مما فيه سعادة البشر في حياتهم الدنيوية والأخروية، وليس بسحر، ولا شعر، ولا أضغاث أحلام، ولا مفترىً كما تدّعون.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي التقريعي. والفاء عاطفة على محذوف، والتقدير: ألا تتفكرون فتعقلوا أن الأمر كذلك، أي: أفلا تتفكرون فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ، وقوارع الزواجر، فتحذروا الوقوع فيما يخالف أمره ونهيه، ولا يخفى ما في هذا من الحثّ على التدبر؛ لأن الخوف من لوازم العقل، فمن لم يتدبَّرْ فكأنه لا عقل له.

وروي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه[1] ـ: لمّا دنا فراق رسول الله ﷺ جمعنا في بيت أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثم نظر إلينا فدمعت عيناه، وقال: «مرحبا بكم، حيّاكم الله، رحمكم الله تعالى، أوصيكم بتقوى الله تعالى وطاعته،

(١) روح البيان.

قد دنا الفراق، وحان المنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، يغسلني رجال أهل بيتي، ويكفنونني في ثيابي هذه إن شاؤوا، أو في حلة يمانية، فإذا غسلوني، وكفّنوني، ضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير لحدي، ثم اخرجوا عني ساعةً، فأول من يصلي عليّ حبيبي جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت، مع جنودهم، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً، وصلّوا عليّ» فلما سمعوا فراقه صاحوا وبكوا وقالوا: يا رسول الله أنت نور ربنا، وشمع جمعنا، وسلطان أمرنا، إذا ذهبت عنا إلى من نرجع في أمورنا؟ قال: «تركتكم على المحجّة البيضاء - أي الطريق الواسع الواضح - ليلها كنهارها - في الوضوح - وتركت لكم واعظين، ناطقاً وصامتاً: فالناطق القرآن، والصامت الموت، فإذا أشكل عليكم أمر فارجعوا إلى القرآن والسنة، وإذا قست قلوبكم فلينوها بالاعتبار في أحوال الموت».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «من تعلم القرآن في صغره اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره فهو يتفلت منه، ولا يتركه، فله أجره مرتين» وجه الأول أنه في الصغر خال عن الشواغل، وما صادف قلباً خالياً يتمكن فيه، قال الشاعر:

أَتَانِيْ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ ٱلْهَوَىٰ   فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا

ويدخل في الثاني من له حصر، أو عيّ؛ لأن من قرأ القرآن وهو عليه شاق، فله أجران: أجر لقراءته، وأجر لمشقته. كذا في «شرح المصابيح».

ثم حذّرهم وأوعدهم ما جرى على الأمم المكذبة فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كم خبرية للتكثير، محلها النصب على أنها مفعول به لـ ﴿قَصَمْنَا﴾ ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. القصم كسر الشيء ودقه من الإبانة، وإزالة تأليفه بالكلية، وفي التعبير به من الدلالة على الغضب وشدة السخط ما لا يخفى.

والمعنى هنا: الإهلاك والعذاب ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة ﴿قَرْيَةٍ﴾ على تقدير مضاف، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر

موضع الإيمان؛ أي[1]: وكثيراً كسرنا وأهلكنا من أهل قرية كانوا ظالمين آيات الله، كافرين بها كدأبكم يا معشر قريش ﴿وَأَنشَأْنَا﴾؛ أي: أوجدنا، وأحدثنا ﴿بَعْدَهَا﴾؛ أي بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي ليسوا منهم نسباً، ولا ديناً. ونحو الآية قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

ثم بيَّن حالهم حين حلول البأس، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾؛ أي: فلما أحس أهل تلك القرية الظالمة، وأدركوا ﴿بَأْسَنَآ﴾؛ أي: عذابنا الشديد إداركاً تامًّا، كأنه إدراك المشاهد المحسوس، ورأوه ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: من القرية. ويحتمل أن يعود على ﴿بَأْسَنَآ﴾، لأنه في معنى الشدة، فأنّث على المعنى. ذكره في «البحر». و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة. و﴿هُم﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿يَرْكُضُونَ﴾؛ أي: يهربون مسرعين راكضين مثل دوابّهم، أو مشبّهين بهم من إفراط الإسراع.

أي[2]: فلمّا أيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما أوعدهم أنبياؤهم، إذا هم يهربون سراعاً عجلين يعدون منهزمين.

والخلاصة: أنهم لمَّا علموا شدة بأسنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا في ديارهم هاربين من قراهم، بعد أن كانوا قد تجبروا على رسلهم، وقالوا لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

ثم ذكر أنهم في ذلك الحين ينهون عن الهرب، ويقال لهم بلسان الحال، أو بلسان المقال من الملك، أو ممن هنالك من المؤمنين على طريق الاستهزاء والتهكم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾، أي: لا تهربوا من مساكنكم ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي[3] إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم. والمترف: المنعم. يقال: أترف فلانٌ؛ أي: وسع عليه في معاشه، وأترفته النعمة أطغته. وأترف فلان أصر على البغي، أي: ارجعوا إلى ما أعطيتموه من العيش الواسع، والحال الطيبة،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

حتى بطرتم به، فكفرتم وأعرضتم عن المعطي وشكره ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: تقصدون من جهة الناس للسؤال، والتشاور، والتدبير في المهمات، والنوازل، كما هو عادة الناس مع عظمائهم في كل قرية، لا يزالون يقطعون أمراً دونهم، أو تسألون عما نزل بكم وبأموالكم ومساكنكم من العذاب، فتجيبوا السائلين عما تشاهدون.

والمعنى: أي يقال لهم على طريق الاستهزاء والسخرية: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة، والسرور، والمساكن الطيبة، والفرش المنجّدة الوثيرة، لعلكم تقصدون للسؤال عما جرى علكيم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائلين عما تشاهدون وتعلمون.

ثم حكى عنهم ما أجابوا به القائلين لهم: لا تركضوا وارجعوا، فقال: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أهل تلك القرية الظالمة لمَّا يئسوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾؛ أي: يا هلاكنا تعال فهذا أوانك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا مستوجبين للعذاب بما قدّمنا، وهو اعتراف منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، وندمهم عليه حين لا ينفعهم ذلك.

والمعنى: أي قالوا حين يئسوا من الخلاق إذ نزل بهم بأس الله بظلمهم أنفسهم: يا قومنا هلاكاً لنا لكفرنا بربنا، وهذا منهم اعتراف بكفرهم، وندم عليه حين لا ينفع الندم.

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةُ مَنْدَمِ   وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيْمُ

قال المفسرون وأهل الأخبار[1]: إن المراد بهذه القرية أهل حضور ـ بوزن شكور ـ قرية من قرى اليمن. وقيل: كانت بأرض الحجاز من ناحية الشام، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم، وقبر شعيب هذا في اليمن بجبل يقال له «ضِيْن». قال في «القاموس»: ضين بالكسر جبل عظيم بصنعاء، اهـ وليس هو شعيباً صاحب مدين، فقتلوا نبيهم فسلط الله عليهم بُخْتَنَصَّر، وقتل

(١) روح البيان.

أصحاب الرس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان، فسلط الله عليهم أيضاً بختنصر، فخرب بلادهم.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الكلمة؛ أي كلمة ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهي اسم «زال»، وخبره قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: دعاؤهم ونداؤهم. والدعوى مصدر دعا دعوى ودعوة كقوله: وآخر دعواهم لأن الويل كأنه يدعو الويل. أي: رددوها وكرروها مرة بعد مرة ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: حتى صيرنا أهل تلك القرية ﴿حَصِيدًا﴾؛ أي: محصودين بالعذاب كما يحصد الزرع بالمنجل؛ أي: مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع والنبت، ولذلك لم يجمع؛ لأن الفعيل بمعنى المفعول، يستوي فيه المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث، حالة كونهم ﴿خَٰمِدِينَ﴾؛ أي: ميّتين. حال من المنصوب في ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾. من خمدت النار إذا أطفىء لهبها، وخمدت الحمى إذا سكنت حرارتها.

والمعنى: أي[1] فما زالوا يردّدون هذه المقالة، ويجعلونها هجيراهم حتى حصدوا حصداً، وخمدت حركاتهم، وهدأت أصواتهم، ولم ينبسوا ببنت شفة.

وخلاصة هذا: أنهم صاروا يكرّرون الاعتراف بظلمهم أنفسهم، ولكن لم ينفعهم ذلك كما قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ حتى لم يبق لهم حس، ولا حركة، وأبيدوا كما يباد الحصيد، وخمدوا كما تخمد النار. وفي الحديث: «خمس في خمس: ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طفّفوا الكيل إلاّ منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا منع عنهم القطر».

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي[2]: وما أبدعنا السماء التي هي كالقبة المضروبة، والخيمة المطنبة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي كالفراش والبساط ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أنواع الخلائق، وأصناف العجائب، حالة كوننا ﴿لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: عابثين. بل لحكم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ومصالح، وهي أن تكون مبدأ لوجود الإنسان، وسبباً لمعاشه، ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى، وكل شيء فهو إمّا مظهر لطفه تعالى، أو قهره، وفي كل ذرّة سرّ عجيب.

قال الكرماني: «اللعب: فعلٌ يدعو إليه الجهل، يروق أوله، ولا ثبات له، وإنما خلقناهما لنجازي المحسن والمسيء، وليستدل بهما على وحدانيته، والقدرة» انتهى.

أي[١]: لم نخلقهما عبثاً، ولا باطلاً، بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره. وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم. والمراد بـ﴿ما بينهما﴾ سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض، على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها من الهواء والسحاب والرياح. والمعنى؛ أي: وما خلقنا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة للهو واللعب، بل خلقناهما لفوائد دينية، وحكم ربّانية، كأن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها، ووسيلة للعظة والاعتبار، إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها.

وخلاصة ذلك[٢]: أن إيجاد العالم كله، ولا سيما النوع الإنساني، واستخلافه في الأرض، مبني على بديع الحكم، مستتبع لغايات جليلة لا تخفى على ذوي الألباب، وقد علم بعضها من أمعنوا النظر في الكون وعجائبه، وأوتوا حظًّا من صادق المعرفة، فعرفوا بعض أسراره، وانتفعوا ببعض ما أودع في باطن الأرض، وما على ظاهر سطحها مما كان سبباً في رقيّ الإنسان، ولا يزال العلم يؤكّد لنا كل يوم عجيباً، ويظهر لنا من كنوزها غريباً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ثم أكّد نفي اللعب بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي[٣] ما يتلهّى ويلعب به

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

على أنه مصدر بمعنى المفعول. وقال الراغب: «اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، ويعبّر به عن كل ما به استمتاع باللهو قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، وقول من قال: أراد باللهو المرأة والولد فتخصيص ببعض ما هو من زينة الحياة الدنيا» انتهى. ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ﴾؛ أي: لاتخذنا اللهو. جواب لو ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: من عندنا، ومن جهة قدرتنا عليه، لا من عندكم لتعلقها بكل شيء من المقدورات، أو مما نصطفيه ونختاره مما نشاء من خلقنا من الحور العين، أو من غيرها. قال الواحدي: «معنى ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا بحيث لا يظهر لكم، ولا تطلعون عليه، ولا يجري لأحد فيه تصرف، لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره». وفي[1] هذا: ردّ على من قال بإضافة الصاحبة، والولد إلى الله، ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ. وقيل: أراد الرَّدَّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله. وقال ابن قتيبة: الآية ردّ على النصارى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك الاتخاذ لاتخذناه، لكن[2] تستحيل إرادتنا ذلك لمنافاته الحكمة، لا لعدم القدرة على اتخاذه ولا لغيره، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً. و﴿إِن﴾ للشرط على سبيل الفرض والتقدير، وجواب «إنْ» محذوف لدلالة جواب المتقدم عليه؛ أي: إن كنا فاعلين لاتخذناه، ويجوز أن تكون ﴿إِن﴾ نافية؛ أي: ما كنا فاعلين اتخاذ اللهو لعدم إرادتنا به. أي:[3] لو أردنا أن نتخذ لهواً كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا من العوالم المجردة من المادة كالملائكة، لكنّا لا نتنّزل لملابسة ما هو من شأنكم المادي كالزوج والولد، إذ لا يجمل بنا، لأنه خارج عن سنن حكمتنا، وقوانين نظامنا، ورفعة قدرنا، فحن لا نلهو بالصور الجسمية، ولا بالنفوس الروحية.

وخلاصة هذا: أنا خلقناكم لحكمة، وصوّرناكم لغاية، وجعلنا لكم السمع والأبصار لمنافع قدرناها لكم، لا للهونا ولعبنا، ومن ثمّ لا نترككم سدًى، بل نحاسبكم ونؤاخذكم، والجد مطلبنا، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

لا من شأن رب العالمين، ونحو الآية قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾ اضراب[1] عن اتخاذ الولد وإرادته، كأنه قيل: لكنا لا نريد اتخاذ اللهو والولد، بل شأننا أن نقذف بالحق الذي من جملته الجدّ والإيمان، والقرآن ونحوها، ونرميه، ونغلبه على الباطل الذي من جملته اللهو، والكفر، والأباطيل الأخر ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾؛ أي: يصيب دماغه فيهلكه ويعدمه ويذهبه بالكلية، كما فعلنا بأهل القرى المحكية ﴿فَإِذَا﴾ فجائية ﴿هُوَ﴾؛ أي: الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾؛ أي: ذاهب بالكلية. والزهوق ذهاب الروح. يقال: زهقت نفسه خرجت من الأسف. وفي «إذا» المفاجأة، والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل، فجملة قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾ انتقال من إرادة اتخاذ اللهو إلى تنزيه ذاته تعالى، كأنه تعالى قال: سبحاننا أن نريد اتخاذ اللهو، بل شأننا بمقتضى حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق. والمقصود من هذه الآية: تقرير نبوة محمد ﷺ، والردّ على منكريها، لأنه تعالى أظهر المعجزة عليه ﷺ، فإن كان محمد كاذباً.. كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب، وذلك منفي عنه تعالى، وإن كان صادقاً.. فهو المطلوب، وحينئذٍ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن ﴿وَلَكُمُ﴾ يا كفار مكة ﴿ٱلْوَيْلُ﴾؛ أي: شدة العذاب ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «من» تعليلية متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الخبر؛ أي: استقرَّ لكم الويل والهلاك أيها المشركون من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل من اتخاذ الصاحبة والولد، ووصف كلامه بأنه سحر، وأضغاث أحلام، ونحو ذلك من الأباطيل.

وقرأ عيسى بن عمر[2]: ﴿فَيَدْمَغَه﴾ بنصب الغين. وقال الزمخشري: وهو في ضعف كقوله:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِيْ لِبَنِيْ تَمِيْمٍ   وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيْحَا

وقرىء ﴿فَيَدْمُغه﴾ بضم الميم، انتهى.

وحاصل معنى الآية: أي أنَّ من شأننا أن نرمي الحق الذي من جملته الجدّ على الباطل الذي منه اللعب، فيكسر دماغه بحيث يشق غشاءه، فيؤدي ذلك إلى زهوق روحه فيهلك، وقد شبّه الباطل بإنسان كسر دماغه فهلك، وإذا كان هذا من شأننا فكيف نترككم بلا إنذار، كأننا خلقناكم لنلهو بكم ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته، وقولكم: إنه اتخذ ولداً وزوجة، وافتراؤكم ذلك عليه.

ولمَّا حكى كلام الطاعنين في النبوات[١]، وأجاب عنها، وبيَّن أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرّد، والعناد.. بيَّن في هذه الآية أنه غني عن طاعتهم؛ لأنه هو المالك لجميع المخلوقات، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له، خائفون منه، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه، وما أخلقهم أن يعبدوه، فقال: ﴿وَلَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ أي: جميع المخلوقات فيهما خلقاً، وملكاً، وتدبيراً، وتصرفاً، وإحياءً وإماتة وتعذيباً، وإثابةً دون أن يكون لأحد في ذلك سلطان، لا استقلالاً، ولا استتباعاً. وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى معطوف على (من) الأولى، من عطف الخاص على العام؛ أي: وله[٢] سبحانه الملائكة المكرمون عنده، المنزَّلون لكرامتهم عليه منزلة المقرّبين عند الملوك على طريقة التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على أكثر خلقه، لا على الجميع كما زعم أبو بكر الباقلاني، وجميع المعتزلة، فالمراد بالعندية: عندية الشرف، لا عندية المكان والجهة، و«عند» وإن كان من الظروف المكانية إلاّ أنه شبَّه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة، فعبَّر عن المشبّه بلفظ المشبّه به.

وجملة قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ حال من (من) الثانية؛ أي: وله

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

سبحانه مَن عنده حالة كونهم لا يَتَكَبَّرُون ولا يَتَعَظَّمُون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه وتعالى والتذلل له. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ معطوف على ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: وحالة كونهم لا يكلّون ولا يعيون ولا يسأمون عن عبادته، فالبشر مع نهاية ضفهم أولى أن يطيعوه.

ويجعل أبو السعود ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أو المعنى عليه، أي: والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته، ولا يكلون ولا يتعبون. وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم. كما خص جبريل من بين الملائكة في قوله ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾.

ثم بيّن سبحانه كيف يعبدون ربهم، فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ جملة مستأنفة لبيان عبادتهم، كأنه قيل: كيف يعبدون؟ فقيل: يسبّحون الليل والنهار؛ أي: ينزّهونه سبحانه وتعالى في جميع الأوقات عن وصمة الحدوث، وعن الأنداد، ويعظمونه ويمجّدونه دائماً حالة كونهم ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ ولا يسكنون عن نشاطهم في العبادة؛ أي: لا يتخلل تسبيحهم فترة وانقطاع وسكون طرفة عين بفراغ منه، أو بشغل آخر، لأنهم يعيشون بالتسبيح، كما يعيش الإنسان بالنفس، والحوت بالماء، يعني[1]: أن التسبيح بالنسبة إلى الملائكة كالتنفس بالنسبة إلينا، فكما أن قيامنا وقعودنا وتكلُّمنا، وغير ذلك من أفعالنا، لا يشغلنا عن التنفس، فكذلك الملائكة لا يشغلهم عن التسبيح شيء من أفعالهم، كما قال عبد الله بن الحارث لكعب: أليس أنهم يؤدون الرسالة، ويلعنون من لعنه الله، كما قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؟ فقال: التسبيح لهم كالتنفس لنا، فلا يمنعهم عن عمل. فإن قلت: التسبيح، واللعن من جنس الكلام، فكيف لا يمنع أحدهما الآخر؟

قلنا: لا يبعد أن يخلق الله لهم ألسنةً كثيرةً، ببعضها يسبحون، وببعضها يلعنون. أو المعنى: لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته، كما يقال: فلان

(١) روح البيان.

مواظب على الجماعة، لا يفتر عنها، فإنه لا يراد به دوام الاشتغال بها، وإنما يراد العزم على أدائها في أوقاتها كما في الكبير.

و﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ منقطعة[1] مقدرة ببل، وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: إنكار وقوع النشر، لا إنكار الاتخاذ الواقع. والضمير للمشركين. والمراد بالآلهة: الأصنام ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿اتخذوا﴾؛ أي: بل اتخذ وصنع ونحت المشركون آلهةً وأصناما ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ويبعثون الموتى من القبور من بعض أجزاء الأرض، وحجارتها، وجواهرها، كالذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص. وجملة ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ صفة لآلهة، وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل، والتشنيع، لا نفس الاتخاذ، فإنه واقع لا محالة.

والمعنى: بل اتخذوا آلهةً من الأرض هم خاصةً مع حقارتهم وجماديتهم، ينشرون الموتى، كلا فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك، وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً، فإنهم لم يثبتوا النشر لله تعالى كما قالوا: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فكيف يثبتونه للأصنام؛ لكنهم حيث ادَّعوا لها الإلهية، فكأنهم ادَّعوا لها النشر، والبعث للموتى ضرورة أنّه من الخصائص الإلهية حتماً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُنْشِرُونَ﴾ مضارع أنشر الرباعي، ومعناه: يحيون.

وقرأ الحسن، ومجاهد ﴿يَنْشُرُون﴾ مضارع نشر. وهما لغتان، نشر وأنشر متعديان، ونشر يأتي لازماً، يقال: أنشر الله الموتى فنشروا؛ أي فحيوا.

ثم أقام[3] الدليل العقلي على التوحيد، ونفى أن يكون هناك إلهٌ غير الله تعالى، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾، أي: في السموات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ أي: إله غير الله تعالى ﴿لَفَسَدَتَا﴾، أي: لفسدت السموات والأرض، وخرجتا عن هذا النظام المشاهد؛ لأن كل أمر بين اثنين لا يجري على نظام واحد، والرعية

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

تفسد بتدبير الملِكين، وحيث انتفى التالي انتفى المقدم، ذاك[1] أنه لو كان فيهما إلهان، فإما أن يختلفا، أو يتفقا في التصرف في الكون، والأول ظاهر البطلان، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معاً، فيريد أحدهما الإيجاد، والثاني لا يريده، فيثبت الوجود والعدم لشيء واحد اختلفا فيه، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثاني، فيكون هذا مغلول اليد عاجزاً، والإله لا يكون كذلك، والثاني باطل أيضاً؛ لأنهما إذا أوجداه معاً وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد. والجمع في قوله: ﴿ءَالِهَةٌ﴾ ليس بقيد، وإنما عبّر به مشاكلةً لقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً﴾، وهذه الجملة[2] تنزيه من الله سبحانه لنفسه عن الشريك بالنظر العقلي، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى (غير) على أنها صفة آلهة؛ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل، سواء كان الله معهم أو لم يكن. قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف قال: لو كان فيهما، فجعل السموات ظرفاً، وهو تحديد؟ والجواب: لم يرد به معنى الظرف وإنما هو كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾. قال الكسائي وسيبويه[3]، والأخفش، والزجاج، وجمهور النحاة: إن ﴿إلا﴾ هنا ليست للاستثناء، بل بمعنى غير، صفة لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها، وظهر فيه إعراب غير التي جاءت ﴿إِلَّا﴾ بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وَكُــلُّ أَخٍ مُــفَــارِقُــهُ أَخُــوهُ   لَــعَــمْــرُ أَبِــيْــكَ إِلاَّ ٱلْــفَــرْقَــدَانِ

وقال الفرّاء: إن ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لَفَسدتا.

ولمّا أثبت بالدليل أن المدبّر للسموات والأرض لا يكون إلاّ واحداً، وأنَّ ذلك الواحد لا يكون إلاّ الله قال: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فتنزيهاً لله ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: مالك العرش المحيط بهذا الكون، ومركز تدبير العالم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولداً، وشريكاً وصاحبةً.

والفاء في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أي: إذا ثبتت الوحدانية بالبرهان، فنزّهوا الله تنزيهاً عما يقول الكفار من وجود آلهة غير الله تعالى، وفيه إرشاد للعباد أن ينزِّهوا الربَّ سبحانه عما لا يليق به.

ثم أكد هذا التنزيه بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ سبحانه ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾؛ أي: عما يحكم في عباده من إعزاز، وإذلال، وهدى وإضلال، وإسعاد، وإشقاء لأنه المالك القاهر. فهذه الجملة مستأنفة مبيّنة أنه سبحانه لقوة سلطانه، وعظيم جلاله، لا يسأله أحدٌ من خلقه عن شيء من قضائه وقدره، وإنما لا يسأل سبحانه سؤال إنكار، ويجوز السؤال عنه على سبيل الاستكشاف والبيان كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، وعلى سبيل التضرّع والحاجة كقوله تعالى حكاية عن الكافر: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾. قال في «بحر العلوم»[(١)]: إنما لا يسأل عما يفعل، لأنَّه ربّ مالك علاّم، لا نهاية لعلمه، وكل من سواه مربوبٌ مملوك، جاهلٌ لا يعلم شيئاً إلاّ بتعليم، فليس للمملوك الجاهل أن يعترض على سيّده العليم بكل شيء فيما يفعل ويقول: لم فعلت؟ وهلاّ فعلت؟ مثلاً.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً وقطميراً، لأنهم مملوكون مستعبدون خطاؤون فيقال لهم في كل شيء فعلوه: لم فعلتم؟. والسؤال استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، وجوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة. فإن قيل: ما معنى السؤال بالنسبة إلى الله تعالى؟

قلنا: تعريف للقوم وتبكيتهم، لا تعريف لله تعالى فإنه علاّم الغيوب، فالسؤال كما يكون للاستعلام يكون للتبكيت. وقرأ الحسن ﴿لا يسل وهم يسلون﴾ بفتح السين، نقل حركة الهمزة إلى السين، وحذف الهمزة. وقيل: إن المعنى[(٢)]

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله، وهم يؤاخذون. قيل: والمراد بذلك أنه سبحانه بيَّن لعباده أن من يسأل عن أعماله، كالمسيح والملائكة، لا يصلح لأن يكون إلهاً. والمعنى؛ أي[1]: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وعلمه وحكمته وعدله ولطفه، وهو سائل خلقه عما يفعلون كما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

ثم أعاد وكرّر الإنكار مرَّةً أخرى، استفظاعاً لشأنهم، واستعظاماً لكفرهم، وإظهاراً لجهلهم، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ فـ ﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الإنكار كالسابقة؛ أي: للإضراب والانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهةً لا يصلح للألوهية، لخلوها عن خصائصها إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، مع خلوها عن تلك الخصائص بالمرة. والهمزة لإنكار الاتخاذ المذكور، واستقباحه اهـ «أبو السعود»؛ أي: أبعد ظهور هذه الأدلة، يقولون: إن لله شركاء. و﴿مِن﴾ متعلقة بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، والمعنى: بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى آلهةً مع ظهور خلوهم عن خواص الألوهية بالكلية.

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدّعون، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد بطريق الإلزام وإلقام الحجر ﴿هَاتُوا﴾؛ أي: [2] أعطوني ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم على ما تدّعون من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه في الأمور الدينية، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير. قال في «المفردات»: البرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً. أي: قل لهم: هاتوا برهانكم على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهةٍ سوى الله تعالى، ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك، لا من عقلٍ، ولا من نقلٍ، لأن دليل العقل قد مرَّ بيانه. وأمّا دليل النقل فقد أشارإليه بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمّن للبرهان القاطع ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾؛ أي: عظةٌ من معي من أمتي، وتذكيرهم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وحجتهم ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۚ﴾؛ أي: عظة من سبق قبلي من الأمم السالفة وتذكيرهم وحجتهم، وقد أقمته عليكم، وأوضحته لكم، فأقيموا أنتم برهانكم. وقيل: المعنى[١]: هذا القرآن المنزّل عليَّ ذكر من معي من الأمة وتذكيرهم وحجتهم على التوحيد، فالقرآن ذكر وعظة لمن اتّبعه ﷺ إلى يوم القيامة، وهذه الكتب الموجودة بين أيديكم من التوراة، والإنجيل، والزبور، ذكر من قبلي من الأمم الماضية، وحجتهم على التوحيد، فانظروا هل في واحد منها أنَّ الله أمر باتخاذ إلهٍ سواه. قال الزجاج: قل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أخبر أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وكتابهم وهو القرآن، وفي ذكر من قبلي وكتبهم، وهي التوراة والإنجيل والزبور إلا توحيد الله سبحانه وتعالى. وقيل: معنى الكلام الوعيد والتهديد؛ أي: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء.

وعبارة «أبي السعود»[٢]: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾؛ أي: عظتهم ومتمسكهم على التوحيد، فأقيموا أنتم برهانكم على التعدد، اهـ. و﴿هذا﴾ اسم[٣] إشارة مبتدأ، أشار به للكتب السماوية، وقد أخبر عنه بخبرين، فبالنظر للخبر الأول يرادبه القرآن، وبالنظر للخبر الثاني يراد به ما عداه من الكتب السماوية.

وقرأ الجمهور[٤]: بإضافة ﴿ذكر﴾ إلى ﴿من﴾ فيهما على إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾. وقرىء بتنوين ﴿ذكر﴾ فيهما، و﴿من﴾ مفعول منصوب بالذكر كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾. وقرأ يحيى بن يعمر، وطلحة بتنوين ﴿ذِكْرٌ﴾ فيهما، وكسر ميم ﴿من﴾ فيهما، ومعنى ﴿مَّعِىَ﴾ هنا عندي، والمعنى: هذا ذكر من عندي، ومن قبلي؛ أي: أذكّركم بهذ القرآن الذي عندي، كما ذكّر الأنبياء من قبلي أممهم. ودخول ﴿مَن﴾ على ﴿مع﴾ نادر، ولكنه اسم يدل على الصحبة والاجتماع، أجري مجرى الظرف، فدخلت

---

(١) الشوكاني.

(٢) أبو السعود.

(٣) الفتوحات.

(٤) البحر المحيط.

عليه ﴿مَنْ﴾ كما دخلت على (قبل) و(بعد) و(عند). وضعّف أبو حاتم هذه القراءة لدخول (من) على (مع)، ولم أرَ لها وجهاً. وعن طلحة ﴿ذِكْرٌ﴾ منوّنا ﴿معي﴾ دون ﴿من﴾ و﴿ذكرٌ﴾ منوّنا ﴿قبلي﴾ دون ﴿من﴾. وقرأ فرقة: و﴿ذِكْرِ مَنْ﴾ بالإضافة و﴿ذِكْرٌ﴾ منوّنا ﴿مِن قبلي﴾ بكسر ميم ﴿من﴾.

ثم لمّا توجهت الحجة عليهم، ذمّهم بالجهل بمواضع الحق فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ إضراب من جهته تعالى، غير داخل في الكلام الملقن؛ أي: إضراب من جهته سبحانه، وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان، لكونهم جاهلين للحق، لا يميّزون بينه وبين الباطل، فلا تنجع فيهم المحاجّة بإظهار حقيّة الحق وبطلان الحق. وفي «بحر العلوم»: كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الفساد كله، وهو الجهل وعدم التمييز بين الحق والباطل، فمن ثمَّة جاء الإعراض، ومن هناك ورد الإنكار ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، وأما أقلّهم العالمون فلا يقبلونه عناداً، أي: فهم[1] لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم أعرضوا عن قبول الحق، وعن النظر الموصول إليه، فلا يتأملون حجةً، ولا يتدبرون برهاناً، ولا يتفكرون في دليل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿الْحَقَّ﴾ بالنصب، والظاهر نصبه على المفعول به. وقرأ الحسن، وحميد، وابن محيصن ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذا القول هو الحق، والوقف على هذه القراءة على ﴿يَعْلَمُونَ﴾.

ولما ذكر انتفاء عِلْمِهِم الحق، وإعراضهم عنه أخبر أنه ما أرسل من رسول، إلاّ جاء مقرّراً لتوحيد الله وإفراده بالإلهية، والأمر بالعبادة، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مرسل إلى أمة من الأمم ﴿إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلاّ أوحينا إليه ﴿أَنَّهُ﴾؛ أي: أن الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في السموات والأرض ﴿إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أنت وأمتك؛ أي: فأخلصوا لي

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

العبادة، وأفردوا لي الألوهية، أي: وحّدوني ولا تشركوا بي. وفيه إشارة إلى أن الحكمة في بعثة جميع الأنبياء والرسل مقصودة على هاتين المصلحتين، وهما إثبات وحدانية الله تعالى، وتعبّده بالإخلاص؛ لتكون فائدة تينك المصلحتين راجعة إلى العباد، لا إلى الله تعالى، كما قال: «خلقت الخلق ليربحوا عليّ، لا لأربح عليهم».

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ الرسل جميعاً أرسلوا بالإخلاص، والتوحيد، لا يقبل منهم سواه، ونحو الآية قوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

ولما كان[2] ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ عاماً لفظاً ومعنًى أفرد على اللفظ في قوله: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾، ثم جمع على المعنى في قوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، ولم يأت التركيب ﴿فاعبدني﴾. ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته، وهذه العقيدة من توحيد الله، لم تختلف فيها النبوات، وإنما وقع الاختلاف في أشياء من الأحكام.

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ والأعمش، وطلحة، وابن أبي ليلى، والقطعي، وابن غزوان، عن أيوب، وخلف، وابن سعدان، وابن عيسى، وابن جرير: ﴿نوحي﴾ بالنون وكسر الحاء، وباقي السبعة بالياء وفتح الحاء، واختلف عن عاصم.

وقال بعضهم: التوحيد على ثلاث مراتب[3]: توحيد أهل البداية وهو: لا إله إلاّ هو، وسير أهل هذا التوحيد في عالم الأجسام. وتوحيد أهل التوسط، وهو: لا إله إلاّ أنت، وسير أهل هذا التوحيد في عالم الأرواح. وتوحيد أهل النهاية، وهو: لا إله إلا أنا، وسير أهل هذا التوحيد في عالم الحقيقة، انتهى.

وبعد أن بيَّن سبحانه الدلائل الباهرة على أنه منزَّه عن الشريك والندّ. .

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال[1] فريق من هؤلاء المشركين، وهم بطون من خزاعة، وجهينة، وبني سلمة ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ من الملائكة، وادّعوا أنهم بنات الله، وأنه تعالى صاهر سروات الجن، فولدت له الملائكة، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن ذلك لأنَّ الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان له ولد لأشبهه، ولا مجانسة بين النعمة والمنعم، والخالق والمخلوق، وهو مقولٌ على ألسنة العباد؛ أي: سبحوه تسبيحه اللائق به. قال في «بحر العلوم»[2]: ويجوز أن يكون تعجباً من كلمتهم الحمقاء؛ أي: ما أبعد من ينعم بجلائل النعم ودقائقها، وما أعلاه عما يضاف إليه من اتخاذ الولد، والصاحبة، والشريك. وقال في «الكشف»: التنزيه لا ينافي التعجب.

ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال: ﴿بَلْ﴾ ليست الملائكة كما قالوا: بل هم ﴿عِبَادٌ﴾ مخلوقون له تعالى ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ مقرَّبون عنده، مفضَّلون على كثير من العباد، لا على كلهم، والمخلوقية تنافي الولادة؛ لأنها تقتضي المناسبة؛ فليسوا بأولاد، وإكرامهم لا يقتضي كونهم أولاداً كما زعموا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا يتقدمونه بالقول، ولا بالفعل. صفة أخرى لـ ﴿عِبَادٌ﴾. وأصل[3] السبق التقدم في السير، ثم تجوِّز به في غيره من التقدم؛ أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى ويأمرهم لكمال انقيادهم وطاعتهم كالعبيد المؤدَّبين.

وقرأ عكرمة ﴿مُكَرَّمُون﴾ بالتشديد. والجمهور بالتخفيف. وقرأ الجمهور ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ﴾ بكسر الباء. وقرىء بضمها، من سابقني فسبقته أسبقه. ﴿وَهُم﴾؛ أي: الملائكة ﴿بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كما أنهم يقولون بأمره كذلك يعملون بأمره، لا بغير أمره أصلاً، فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة إلى

---

(١) المراغي.
(٢) السمرقندي.
(٣) روح البيان.

غير أمره، لا إلى أمر غيره. والأمر مصدر أمرته إذا كلّفْتَه أن يفعل شيئاً. وفي الآية إشارة إلى أن العباد المكرمين بالتقرب إلى الله تعالى، والوصول إليه، لا يقولون شيئاً من تلقاء نفوسهم، ولا يفعلون شيئاً بإرادتهم، بل إذا نطقوا نطقوا بالله، وإذا سكتوا سكتوا بالله. وجملة قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ تعليل لما قبلها. ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدَّموا وأخّروا لم يعملوا عملاً، ولا يقولوا إلاّ بأمره؛ أي: يعلم الله سبحانه وتعالى، ولا يخفى عليه ما بين أيديهم؛ أي: ما قدَّموا من الأقوال والأعمال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: وما أخَّروا منهما، وهو الذي ما قالوه، وما عملوه بعد، فيعلمهم بإحاطته تعالى بذلك، أو يعلم ما بين أيديهم، وهو الآخرة، وما خلفهم وهو الدنيا، ولا يزالون يراقبون أحوالهم، فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى، فهو تعليل لما قبله، وتميهدٌ لما بعده كما مرّ آنفاً.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ الله تعالى أن يشفع له من أهل الإيمان مهابةً منه تعالى؛ أي: وهم لا يشفعون إلاّ لمن رضي الله عنه، فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى، قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقد ثبت في الصحيح أنَّ الملائكة يشفعون في الدار الآخرة. قال قتادة؛ أي: لأهل التوحيد. والشفاعة[1] الإنضمام إلى آخر ناصراً له، كما سيأتي في «مفردات اللغة».

﴿وَهُم﴾؛ أي: الملائكة مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾؛ أي: من خشيتهم منه تعالى وخوفهم منه. فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: مرتعدون. والخشية: الخوف مع التعظيم، والإشفاق: الخوف مع التوقع والحذر؛ أي: لا يأمنون مكر الله تعالى. والمعنى: أي: وهم من خوف الله، والإشفاق من عقابه، حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: حال كونه متجاوزاً إياه تعالى. قال المفسرون[2]: عنى بهذا إبليس، لأنه لم يقل أحد من الملائكة: إني إله إلاّ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

إبليس. وقيل: الضمير إلى الأنبياء ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل على سبيل الفرض والتقدير فرض محال، فهذا لا يدل على أنهم قالوه ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ بسبب هذا القول الذي قاله كما نجزى غيره من المجرمين؛ أي: ومن يدِّعي منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادَّعى كسائر المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية، وأفعالهم المرضية، وهو تهديد للمشركين، بتهديد مدعي الربوبية ليمتنعوا عن شركهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مصدر[1] تشبيهي مؤكد لمضمون ما قبله؛ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويتعدون أطوارهم بالإشراك وادعاء الإلهية. والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان، دون الزيادة؛ أي: لا جزاء أنقص منه. والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً.. فخير، وإن شرا. فشر، يقال: جزيته كذا، وبكذا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نجزيه﴾ بفتح النون. وقرأ أبو عبد الرحمن المقرىء بضمها، أراد ﴿نُجْزِئه﴾ بالهمز، من أجزأني كذا كفاني، ثم خفف الهمزة، فانقلبت ياءً.

وخلاصة ما تقدم[3]: أنه تعالى وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية، وتنافي الولادة:

١ - المبالغة في الطاعة، فإنهم لا يقولون قولاً، ولا يفعلون فعلاً إلاّ بإذنه.

٢ - أنه سبحانه يعلم أسرارهم، وهم لا يعلمون أسراره، فهو المستحق للعبادة، فهم كما قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾.

٣ - أنهم لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى الشفاعة، ومن يكون إلهاً أو ولداً

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

للإله لا يكون كذلك.

٤ ـ أنهم في نهاية الإشفاق والوجل من الله.

٥ ـ أن حالهم كحال سائر المكلفين في الوعد والوعيد، فكيف يكونون آلهة.

الإعراب

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾.

﴿ٱقۡتَرَبَ﴾: فعل ماض. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿حِسَابُهُمۡ﴾: فاعل، ومضاف إليه، الجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ جار ومجرور، خبر أول. ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ خبر ثان. والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿حِسَابُهُمۡ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَأۡتِيهِم﴾ فعل ومفعول. ﴿مِّن﴾ حرف جر زائد لسبقه بالنفي. ﴿ذِكۡرٖ﴾ فاعل مجرور لفظاً، مرفوع تقديراً. ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة أولى لـ ﴿ذِكۡرٖ﴾، أو متعلق بـ ﴿يَأۡتِيهِم﴾. ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ذِكۡرٖ﴾، تابع للفظه. والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب، حال من مفعول ﴿يَأۡتِيهِم﴾، ولكنها على تقدير قد لكونها ماضوية؛ أي: إلاّ حالة كونهم مستمعين إياه. ﴿وَهُمۡ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾، أي: إلاّ استمعوه حالة كونهم لاعبين.

﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾.

﴿لَاهِيَةٗ﴾: حال من فاعل ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، فتكون حالاً متداخلة، أو حال من فاعل ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ أيضاً، فتكون حالاً مترادفةً؛ لأن الحال يجوز تعددها كالصفة.

﴿قُلُوبُهُمْۗ﴾ فاعل ﴿لَاهِيَةً﴾. ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أسرّوا النجوى﴾ فعل وفاعل ومفعول به. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿واو﴾ ﴿أسرّوا﴾، إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش، والجملة مستأنفة.

فائدة: قال أبو البقاء[1]: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في موضعه ثلاثة أوجه:

أحدها: الرفع وفيه أربعة أوجه:

١ ـ أن يكون بدلاً من ﴿الواو﴾ في ﴿أسروا﴾.

٢ ـ أن يكون فاعلاً، و﴿الواو﴾ حرف للجمع، لا اسم.

٣ ـ أن يكون مبتدأ، والخبر قوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾، والتقدير: الذين ظلموا يقولون: ﴿هَلْ هَٰذَآ...﴾ الخ.

٤ ـ أن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين ظلموا.

وثانيها: أن يكون منصوباً على إضمار أعني.

وثالثها: أن يكون مجروراً صفة ﴿لِلنَّاسِ﴾، والمعروف أن الفعل يجب أن يبقى مع الفاعل بصيغة الواحد، وإن كان مثنًى أو مجموعاً، قال ابن مالك:

وَجَرِّدِ ٱلْفِعْلَ إِذَا مَا أُسْنِدَا ... لاُثْنَيْنِ أَوْ جَمْعٍ كَفَازَ ٱلشُّهَدَا

إلاَّ على لغةٍ ضعيفةٍ لبعض العرب تسمى لغة (أكلوني البراغيث) فيطابق فيها الفعل الفاعل إفراداً، وتثنية وجمعاً. وحكى البصريون عن طيء، وحكى بعضهم عن أزد شنوءة، نحو: ضربوني قومك، وضربتني نسوتك، وضرباني أخواك. وقال عمرو بن ملقط الجاهليُّ:

أُلْفِيَتَا عَيْنَاكَ عِنْدَ ٱلْقَفَا ... أَوْلَىٰ فَأَوْلَىٰ لَكَ ذَا وَاقِيَهْ

فألفيتا فعل ماض مبني للمجهول، عيناك نائب فاعل، فألحق الفعل علامة

---

(١) العكبري.

التثنية مع إسناده إلى الظاهر، ونائب الفاعل كالفاعل. عند متعلق بألفيتا. ذا واقية حال من المضاف إليه في عيناك، وهو الكاف. وواقية مصدر معناه الوقاية كالكاذبة بمعنى الكذب. أولى بمعنى الهلاك، مبتدأ خبره لك. أولى الثاني تأكيد للأول.

﴿ظَلَمُوا﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾ خبر. ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ صفة لـ ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب بدل من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ لأنها بمثابة التفسير لها، أو جملة مفسرةٌ لا محل لها من الإعراب، أو مقول لقول مضمر هو جواب عن سؤال مقدّر، نشأ مما قبله، كأنه قيل: فماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا... الخ. ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿تأتون ٱلسِّحْرَ﴾ فعل وفعل ومفعول. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: أتعلمون ذلك فتأتون السحر. والجملة المحذوفة في محل النصب، بدل ثانٍ من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ وعبارة السمين: يجوز في هاتين الجملتين الاستفهاميتين أن تكونا في محل نصب بدلاً من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾، وأن تكونا في محل نصب بإضمار القول، قالهما الزمخشري، وأن تكونا في محل نصب على أنهما محكيتان لـ﴿ٱلنَّجْوَى﴾، لأنها في معنى القول. ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿تأتون﴾، مقرّرة للإنكار.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّي﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ أو مقول ﴿قل﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْقَوْلَ﴾، أو متعلق بـ ﴿يَعْلَمُ﴾. و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿وَهُوَ

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان لـ ﴿هو﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أتى به أضغاث أحلام، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿بَلِ﴾ حرف اضراب. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب. ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن لم يكن الأمرك ما قلنا، بل كان رسولاً، وأردتم بيان ما يطلب منه فأقول لكم: ﴿ليأتنا﴾ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، و﴿اللام﴾ لام الأمر. ﴿يأتنا﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لام﴾ الأمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿يأتنا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه. و﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجرّ بالكاف الجار والمجرور صفة لـ﴿لآية﴾؛ أي: بآية كائنة كالآية التي أرسل بها الأولون، أو ﴿الكاف﴾ اسم بمعنى مثل، في محل الجر، صفة لـ ﴿آية﴾، و﴿الكاف﴾ مضاف و﴿ما﴾ اسم موصول، في محل الجر، مضاف إليه؛ أي: بآية مثل الآية التي أرسل بها الأولون. ﴿أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أرسل بها الأولون.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿مَآ﴾: نافية. ﴿ءَامَنَتْ﴾: فعل ماض وتاء تأنيث. ﴿قَبْلَهُم﴾: متعلق به. ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿قَرْيَةٍ﴾: فاعل والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم واستبعاد إيمانهم. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل الرفع صفة لقرية

﴿أَفَهُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتلك القرية المهلكة لم تؤمنوا فهم يؤمنون؛ أي: فهؤلاء يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سئلوا وأعطوا ما اقترحوا، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿قَبْلَكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿رِجَالًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾. ﴿نُّوحِىٓ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿رِجَالًا﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿نوحي﴾ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا سمعتم أيها الكفرة ما أخبرته لكم، وأردتم يقينه فأقول لكم: اسألوا أهل الذكر ﴿اسألوا﴾ فعل وفاعل. ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، ومفعول العلم محذوف، تقديره: أن الرسل بشر. وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم لا تعلمون ذلك... فاسألوا أهل الذكر، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية. ﴿جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وما أرسلنا قبلك﴾ ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ ﴿جَسَدًا﴾.

و﴿جَسَدًا﴾ مفرد أريد به الجمع، وإنما وحّده ليشمل الجنس عامة؛ لأن الجسد لا بد له من غذاء، وهو على حذف مضاف؛ أي: ذوي جسد غير آكلين. ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ فعل ناقص، واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب. ﴿صَدَقْنَٰهُمُ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿ٱلْوَعْدَ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ لأن «صدق» يتعدى إلى اثنين، إلى ثانيهما بحرف الجر، والأصل «في الوعد»، والجملة معطوفة على ما يفهم من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ الخ، كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم به في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائهم اهـ أبو السعود ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿أنجيناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿صَدَقْنَٰهُمُ﴾ و﴿وَمَن﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على الهاء في ﴿أنجيناهم﴾. ﴿نَّشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديرِ: ومن نشاء إنجاءه. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أنجينا﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدّم. ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كم﴾ خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب معفول مقدّم لـ ﴿قَصَمْنَا﴾. ﴿قَصَمْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لـ ﴿كم﴾ مجرور بـ

﴿مِن﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ فعل ناقص وخبره، واسمه ضمير مستتر يعود على ﴿قَرۡيَةٍ﴾، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾. ﴿وَأَنشَأۡنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قَصَمۡنَا﴾ ﴿بَعۡدَهَا﴾ متعلق به. ﴿قَوۡمًا﴾ مفعول ﴿أنشأنا﴾ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة ﴿قَوۡمًا﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ۝١٣﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت إهلاكنا كثيراً من القرية، وأردت بيان حالهم عند إهلاكها فأقول لك. «لما» حرف شرط غير جازم. ﴿أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب لمّا وجوبا لكونه جملة اسمية. ﴿هُم﴾ مبتدأ. ﴿مِّنۡهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَرۡكُضُونَ﴾، وجملة ﴿يَرۡكُضُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَرۡكُضُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقيل لهم: لا تركضوا، وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ ﴿إِلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ارجعوا﴾ ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير فيه. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ معطوف على ﴿مَآ﴾، مجرور بالكسرة ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿ويلنا﴾

منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَمَا زَالَت﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿زَالَت﴾ فعل ماض ناقص من أخوات ﴿كان﴾ ﴿تِّلْكَ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ خبرها منصوب بفتحة مقدّرة على الألف، و﴿الهاء﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿زَالَت﴾ معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعلنا﴾ لأن حكمهما حكم الواحد، نحو قولك: جعله حلواً حامضاً؛ أي مزّا، ولك أن تجعل ﴿خَٰمِدِينَ﴾ صفة لـ ﴿حَصِيدًا﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ على تأويلها بمصدر، تقديره: إلى جعلنا إياهم حصيداً خامدين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿زَالَت﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ اسم موصول في محل النصب، معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف، ومضاف إليه، صلة لـ ﴿ما﴾؛ أو صفة لها، ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾ منصوب بالياء.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَدْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿نَّتَّخِذَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهْوًا﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: لَوْ أردنا اتخاذ لهو ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿اتخذناه﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: لاتخذناه اتخاذاً كائناً من لدنا، والجملة جواب لو، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ مستأنفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنَّا﴾ فعل

ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط. ﴿فَٰعِلِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنا فاعلين لاتخذناه من لدنا، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ويجوز أن تكون ﴿إن﴾ نافية بمعنى ﴿ما﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿اتخذناه﴾، تقديره: حالة كوننا غير فاعلين ذلك الاتخاذ، والأول أصح، وأقعد ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب. ﴿نَقْذِفُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿نَقْذِفُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿الحق﴾ أي: حال كونه مستعلياً على الباطل. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿يدمغه﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الحق﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَقْذِفُ﴾. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿إذا﴾ فجائية. ﴿هُوَ زَاهِقٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿يدمغه﴾ عطف اسمية على فعلية. ﴿وَلَكُمُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لكم﴾ خبر مقدم. ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، أي استقر لكم الويل من كل ما ﴿تَصِفُونَ﴾، وجملة ﴿تَصِفُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، أو ﴿ما﴾ المصدرية.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ
(١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَلَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة من الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع معطوف على من الأولى. ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف ومضاف إليه، صلة من الموصولة، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ حال من من الثانية. ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ معطوف على ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ويجوز أن تكون ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من عنده﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ معطوف عليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: فعل وفاعل

﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ظرفان متعلقان به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتقرير ما يصنعه من عند الله في عبادتهم، وجملة ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَمِ﴾: منقطعة بمعنى بل، و﴿همزة﴾ الإنكار. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿ءَالِهَةٗ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ جار ومجرور، صفة أولى لـ ﴿ءَالِهَةٗ﴾ ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنشِرُونَ﴾ خبره، ومفعول ﴿يُنشِرُونَ﴾ محذوف تقديره: الموتى، والجملة الاسمية في محل النصب، صفة ثانية لـ ﴿ءَالِهَةٗ﴾. ﴿لَوۡ﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿فِيهِمَآ﴾ خبر كان مقدم. ﴿ءَالِهَةٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾ اسم بمعنى غير، صفة لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾، ولكن ظهر إعرابها فيما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف، ولا يصح أن تكون استثنائية لأن مفهوم الاستثناء فاسد هنا، إذ حاصله أنه لو كان فيهما آلهة لم يستثن الله منهم لم تفسدا. وليس كذلك، فإن مجرد تعدد الآلهة يوجب لزوم الفساد مطلقاً ﴿ٱللَّهُ﴾ صفة. ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوۡ﴾ ﴿فسدتا﴾ ﴿فسد﴾ فعل ماض، و﴿التاء﴾ علامة تأنيث الفاعل، و﴿الألف﴾ ضمير للمثنى في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوۡ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوۡ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿سبحان﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً عما لا يليق به. ولفظ الجلالة مضاف إليه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ صفة للجلالة، ومضاف إليه. ﴿عَمَّا﴾ متعلق بـ ﴿سبحان﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، أو لـ ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُسۡـَٔلُ﴾ فعل مضارع مغير الصفة، ونائب فاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان تفرده سبحانه بالسلطان بحيث لا يسأله أحد عما يفعله ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُسۡـَٔلُ﴾. ﴿يَفۡعَلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾

الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما يفعله. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يُسْئَلُونَ﴾ فعل، ونائب فاعل، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَا يُسْئَلُ﴾، أو في محل النصب حال من مرفوع ﴿لَا يُسْئَلُ﴾، والرابط مقدر تقديره: لا يسأل عما يفعل حالة كونهم مسؤولين له.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿أَمِ﴾: منقطعة بمعنى (بل)، و(همزة) الإنكار. ﴿اتَّخَذُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول أول لـ﴿اتَّخَذُوا﴾، أو الجار والمجرور حال من فاعل ﴿اتَّخَذُوا﴾، أي: حالة كونهم متجاوزين الله، أو متعلق بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَاتُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. ﴿ذِكْرُ مَن﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة في محل النصب، مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مَّعِىَ﴾ ظرف، ومضاف إليه، صلة من الموصولة. ﴿وَذِكْرُ﴾ معطوف على ﴿ذِكْرُ﴾، وهو مضاف، و﴿مَن﴾ الموصولة في محل الجر، مضاف إليه. ﴿قَبْلِى﴾ ظرف، ومضاف إليه، صلة من الموصولة، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب. ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿الْحَقَّ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَهُم﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع. ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على الجملة التي قبلها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور حال ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾

زائدة. ﴿رَّسُولٍ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، منصوب بفتحة مقدرة، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿نُوحِيٓ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من فاعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: وما أرسلنا رسولاً من قبلك إلاّ حالة كوننا مُوحدين إليه أنه لا إله إلاّ أنا. ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب، و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿لَآ﴾ نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف، تقديره: لا إله موجود. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنَا۠﴾ ضمير رفع في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعول ﴿نُوحِيٓ﴾، تقديره: إلاّ نوحي إليه عدم وجود إله إلاّ أنا. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ثبوت الوحدانية لي، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: ﴿اعبدون﴾ ﴿اعبدوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، و﴿النون﴾ نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة مستأنفة ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب ﴿عِبَادٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: بل هم عباد ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادٌ﴾، والجملة مستأنفة ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْبِقُونَهُۥ﴾، والجملة في محل الرفع، صفة ثانية لـ﴿عِبَادٌ﴾ ﴿وَهُم﴾ مبتدأ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع، صفة ثالثة لـ ﴿عِبَادٌ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع، صفة رابعة لـ ﴿عِبَادٌ﴾، أو مستأنفة. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف، صلة لـ ﴿مَا﴾ ﴿وَمَا﴾ معطوف على ما الأولى. ﴿خَلْفَهُمْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿ما﴾. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَعْلَمُ﴾ على كونها صفة خامسة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿لِمَنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَشْفَعُونَ﴾. ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: إلاّ لمن ارتضاه. ﴿وَهُم﴾ مبتدأ. ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿مُشْفِقُونَ﴾. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَشْفَعُونَ﴾ على كونها صفة سادسة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿يَشْفَعُونَ﴾.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿يَقُلْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل يقل. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور، صفة لِـ ﴿إِلَٰهٌ﴾، أو متعلق به، لأنه بمعنى معبود، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُلْ﴾. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿ذلك﴾ مبتدأ. ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعولان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ذلك﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم جوابٌ لـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾ على كونها صفة سابعة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والتقدير: نجزي الظالمين جزاءً

مثل ذلك الجزاء، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ وقرب بمعنى، والمراد من اقتراب الحساب؛ اقترابُ زمانه، وهو مجيء الساعة. وفي «أبي السعود»: وإسناد الاقتراب إليه، لا إلى الساعة كما في الآية الأخرى، مع استتباعها له، ولسائر ما فيها من الأحوال، والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه، وإعراضهم عما يذكرهم ذلك اهـ ﴿الناس﴾ هم المكلّفون.

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ أي: عن التأهب لهذا اليوم، يقال: أعرض؛ أي: ولّى مبدياً عرضه؛ أي: ناحيته ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾ في الأصل مصدر، ثم جعل اسماً من التناجي بمعنى القول الواقع بطريق المسارَّة؛ أي: السر بين اثنين فصاعداً، يقال: تناجى القوم إذا تسارّوا، وتكالموا سرّاً عن غيرهم، والمراد: أنَّهم أخفوا تناجيهم، ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم. قال الراغب: ناجيته ساررته، وأصله: ارتحلوا به في نجوة من الأرض؛ أي: المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلاّ سراً أنهم بالغوا في إخفائها.

﴿مِّن ذِكۡرٍ﴾؛ أي: قرآن ﴿مُّحۡدَثٍ﴾؛ أي: جديد نزوله ﴿بَشَرٌ﴾ اسم جنس يستوي فيه الواحد والجمع ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ﴾ بل كلمة يؤتى بها للانتقال من غرض إلى غرض آخر، ولا تذكر في القرآن إلاَّ على هذا الوجه كما قاله ابن مالك، وسبقه إليه صاحب «الوسيط»، ووافقه ابن الحاجب، وهو الحق.

﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾؛ أي: أخلاط رآها في النوم، وقد تقدم البحث فيها ﴿جَسَدًا﴾ قال الراغب: الجسد كالجسم لكنه أخص فإن الجسد ما له لون، والجسم يقال: لما لا يبين له لون كالماء، والهواء، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ والخلود: تبرؤُ الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والمراد إما المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبديُّ وهم معتقدون أنهم لا يموتون ﴿ٱلۡوَعۡدَ﴾ نصرهم وإهلاك أعدائهم ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ أي: الكافرين، قال الراغب:

السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ ﴿كم﴾ كلمة تفيد تكثير وقوع ما بعدها، والقصم هو الكسر بتفريق الأجزاء، وإذهاب التئامها، والقصم، أبلغ من الكسر. وفي «القاموس»: قصم من باب ضرب قصماً الشيء إذا كسره، وقصم الرجل أهلكه، ويقال: قصم الله ظهر الظالم؛ أي أنزل به البلية ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ والإنشاء والاختراع، والتكوين، والتخليق، والإيجاد، أسماء مترادفةٌ يراد بها معنى واحد، وهو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود، كما في «بحر العلوم». قال الراغب: الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان كما في هذه الآية ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ والإحساس الإدراك بالحاسة؛ أي: أدركوا بحاسّة البصر عذابنا الشديد، والبأس الشدة والمكروه، والنكاية، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ والركض: ضرب الدابة بالرجل، يقال: ركض الدابة يركضها ركضاً من باب قتل، إذا ضربها برجله، والركض هنا، كنايةٌ عن الهرب والفرار، ويقال: ركض الرجل الفرس برجليه إذا كدّه بساقيه، ثم كثر حتى قيل: ركض الفرس إذا عدا، فمتى نسب إلى الراكب: فهو إعداء مركوبه نحو ركضت الفرس، ومتى ما نسب إلى الماشي، فوطىء الأرض، ومنه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ﴿إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾ يقال: أترفته النعمة أطغته، وأترف فلان أصر على البغي، والإتراف إبطار النعمة، يقال: أترف فلان؛ أي: وسع عليه في معاشه، وقل فيه همه ﴿حَصِيدًا﴾ فعيل بمعنى مفعول، يستوي فيه الواحد وغيره، وحصد يأتي من باب ضرب، ونصر، والكلام على التشبيه البليغ؛ أي كالزرع المحصود بالمناجل ﴿خَٰمِدِينَ﴾؛ أي: كالنار التي خمدت، وانطفأت، يقال: خمدت النار إذا انطفأ لهبها، والكلام على التشبيه البليغ أيضاً، يقال: خمدت النار وهمدت، كل منهما من باب دخل، لكن الأول عبارة عن سكون لهبها مع بقاء الجمر، والثاني: عبارة عن ذهابها بالكية حتى تصير رماداً اهـ «فتوحات».

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل، ولا احتذاء ﴿لَٰعِبِينَ﴾ واللعب الفعل الذي لا يقصد به مقصد صحيح، واللهو: الفعل الذي يفعل ترويحاً عن النفس، ومن ثم تسمى المرأة والولد لهواً؛ لأنه يستروح بكل منهما. ويقال لامرأة الرجل وولده:

ريحانتاه، يقال: لعب فلان إذا: فعل شيئاً غير قاصد به مقصداً صحيحاً، ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الراغب: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه، ويهمّه ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو. وفي «المصباح»: اللهو معروف، يقول أهل نجد: لهوت عنه ألهو لهيا أصله لهوى على وزن فعول من باب قعد، وأهلُ العالية: لهيت عنه ألهى من باب تعب، ومعناه السلوان، والترك. وألهوت به لهواً من باب قتل أولعت به، ولهيت به أيضاً. قال الطرطوشي: وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، وألهاني الشيء ـ بالألف ـ شغلني.

﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ القذف: الرمي البعيد الشديد المستلزم لصلابة المرمى، قال الراغب: القذف الرمي البعيد، ولاعتبار البعد فيه قيل: منزل قذف وقذيف وبلدة قذوف طروح بعيدة. والباطل: نقيض الحق، وهو الذي لا ثبات له عنه الفحص عنه ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾؛ أي: فيهلكه ويعدمه، من باب: قطع. وفي «القاموس»: دمغه قهره، ودمغ الحق بالباطل أبطله ومحقه. وأصل الدمغ: كسر الشيء الرخو الأجوف، وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدّي إلى زهوق الروح، ويراد به هنا: القهر والإهلاك ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾؛ أي: زائل ذاهب، والزهوق: ذهاب الروح وخروجها يقال: زهقت نفسه إذا خرجت من الأسف.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾؛ أي: الهلاك، قال الأصمعي: ويل قبوح، وقد يستعمل في التحسر، وويس استصغار، وويح ترحم. ومن قال: الويل واد في جهنم، فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد أن من قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحق مقرًّا من النار، وثبت ذلك له ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ أي: يكلون ويتعبون يقال: استحسر البعير؛ أي: كل وتعب. ويقال: حسر وحسرته أنا فيكون لازماً ومتعدياً. وأحسرته أيضاً فيكون فعل وأفعل بمعنى واحد. ويقال: حسر واستحسر إذا تعب، وأعيى يعني أتى استفعل بمعنى فعل نحو قر واستقر، قال في «المفردات»: الحسر كشف الملبس عما عليه، يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، اهـ. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ قال الراغب: الفتور: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة ﴿يُنشِرُونَ﴾ وفي «المصباح»: نشر الموتى نشوراً من باب قعد حيوا، ونشرهم الله يتعدى ولا يتعدى، ويتعدى

بالهمزة أيضاً فيقال: أنشرهم الله، ونشرت الأرض نشوراً حييت وأنبتت، اهـ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ الفساد خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أم كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هات: من أسماء الأفعال، يقال: هات الشيء؛ أي: أعطيه. وقال الراغب: البرهان: فعلان مثل الرجحان والبنيان اهـ. وقال بعضهم: هو مصدر بره يبره إذا ابيض، انتهى. وقد أشار صاحب «القاموس» إلى كليهما حيث قال في باب النون: البرهان ـ بالضم ـ الحجة، وبرهن عليه أقام البرهان، وفي باب الهاء: أبره أتى بالبرهان. وقال في «المفردات»: البرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ﴾ قال الراغب: الأخذ: وضع الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول نحو قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾، وتارة بالقهر نحو قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ويقال: أخذته الحمى، ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ، والاتخاذ افتعال منه، فيتعدى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي: تنزه بالذات تنزهه اللائق به، على أن السبحان مصدر من سبح؛ أي بعد، أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح، وهو مقول على ألسنة العباد، أو سبحوه تسبيحه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ الشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له، وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ للتعظيم والتفخيم.

ومنها: الدلالة على فخامة الذكر وشرفه وفضله في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾.

ومنها: إبدال الظاهر من المضمر في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومنها: الإضراب والترقي في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. وهذا الاضراب في وصف القرآن يدل على التردد، والتحيّر في تزويرهم للحق الساطع المنير، فقولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث: أفسد من الثاني.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَرْيَةٍ﴾ إذ المراد أهلها، وقد تقدم أمثال ذلك كثيراً.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وحق العبارة: إلا رجالا أوحينا إليهم.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ للدلالة على فخامة شأنه وعظيم فضله.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ لأن الركض كناية عن الهرب.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ لأن الترجي هنا استهزاء بهم، وتهكم بما كانوا يظنونه بأنفسهم من أنهم مظنة السخاء ومطلع الكرم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ فقد خاطبوا الويل ـ وهو الهلاك ـ كأنه شخص حتى يدعونه لينقذهم مما هم فيه.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾؛ أي: جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة، فقد شبَّههم بعد حلول العذاب بهم بالحصيد

أولاً، وهو الزرع المحصود، ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به هو الاستئصال من المنابت، ثم شبههم ثانياً بالنار المنطفئة، ولم يبق منها إلا جمر منطفىء لا نفع فيه، ولا قابلية لشيء من النفع منه، فلا ترى إلا أشلاء متناثرة وأجزاء متفرقة، قد تبددت، وقد ران عليها البلى.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فقد شبّه الحق والباطل ـ وهما معنويان ـ بشيئين مادّيين محسوسين يقذفان ويدفعان، ثم حذف هذين الشيئين، واستعار ما هو من لوازمهما، وهما القذف والدمغ لتجسيد الإطاحة بالباطل واعتلاء الحق عليه، وتصوير إبطاله وإهداره ومحقه، كأنه جرم صلب كصخرة، أو ما يماثلها في القوة والصلابة قذف على جرم رخو أجوف فدمغه، وهي من استعارة المحسوس للمعقول.

ومنها: قوة اللفظ لقوة المعنى، وهو نقل اللفظ من وزن إلى وزن آخر أكثر منه ليتضمّن من المعنى الدال عليه أكثر مما تضمّنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا الضرب من الزيادة لا يستعمل إلاّ في مقام المبالغة، وهو هنا في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ فقد عدل عن الثلاثي، وهو حسر إلى السداسي، وهو استحسر، وقد كان ظاهر الكلام أن يقال: يحسرون؛ أي: يكلون ويتعبون.

ومنها: التصريح بالضمير في قوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ وقد كان يكفي أن يقول: ينشرون، ولكنه عدل عن ذلك إلى التصريح بالضمير لإفادة معنى المخصوصية أولاً، كأنهم قالوا: ليس هنا من يقدر على الإنشار غيرهم، وثانياً لتسجيل إلزامهم ادّعاء صفات الألوهية لآلهتهم، وهذا الإدعاء قد أبطله الله في الآية التالية لهذه الآية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

ومنها: المذهب الكلامي في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وتعريفه: أنه هو احتجاج المتكلّم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام، وله طرق متعددة كما هو مبين في محله.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾.

ومنها: التبكيت وإلقام الحجر للخصم في قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا حكى[1] مقالات أولئك المشركين الذين كانوا يعبدون آلهةً من دون الله، ومقالات أولئك

---

(١) المراغي.

الذين قالوا: اتخذ الله ولداً من الملائكة، وطالبهم بالدليل على صدق ما يدَّعون، وبين لهم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك، لا من طريق العقل كما هو واضح، ولا من طريق النقل، إذ كل الرسل السابقين كان أس دعوتهم ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.. أردف ذلك بتوبيخهم عل عدم تدبرهم الآيات المنصوبة في الكون الدالة على التوحيد، ولفت أنظارهم إلى أنه لا ينبغي عبادة الأصنام، والأوثان، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات، لا يعبد سواه من حجر أو شجر لا يضر ولا ينفع.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر، بما يرون من الآيات الكونية.. أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام، ولا خلق من فيها للبقاء، بل خلقت للابتلاء والامتحان، ولتكون وسيلةً إلى الآخرة التي هي دار الخلود، فلا تشمتوا إذا مات محمد ﷺ فما هذا بسبيله وحده، بل هذه سنة الله في الخلق أجمعين، قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ:

تَـمَـنَّـىٰ رِجَـالٌ أَنْ أَمُـوْتَ وَإِنْ أَمُـتْ   فَـتِـلْـكَ سَـبِـيْـلٌ لَـسْـتُ فِـيْـهَـا بِـأَوْحَـدِ
فَقُلْ لِلَّذِيْ يَبْغِيْ خِلاَفَ ٱلَّذِيْ مَضَىٰ   تَـزَوَّدْ لأُخْـرَىٰ مِـثْـلِـهَـا فَـكَـأَنْ قَـدِ

ثم ذكر أنهم نعوا على نبيه ﷺ ذكر آلهتهم التي لا تضرّ ولا تنفع بالسوء، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده الخالق لهم المحيي المميت، ولا شيء أقبح من هذا وأخلق بالذم منه.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر أنه كلما أتى المشركين آية كفروا بها، وكلما توعّدهم بالعذاب كذبوا به، وقالوا تهكماً وإنكاراً: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.. قفّى على ذلك بنهيهم عن العجلة، وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التي جبل عليها، ثم ذكرهم بجهلهم ما يستعجلون فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلدهم ذلك المطلب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيّن أن الكافرين في الآخرة لا يستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار، ولا عن ظهورهم، وأنه سيكون لهم من الأهوال ما لم يكن يخطر لهم ببال.. أعقب ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة في الدنيا، وحرسهم إلى حين لما بقوا سالمين، وأنه مع إنعامه عليهم ليلاً ونهاراً بالحفظ والحراسة هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لا حافظ لهم سواه، وأنه قد كان ينبغي لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التي لا حظ لها في شيء من ذلك، فهي لا تستطيع أن تحفظ أنفسها من الآفات، فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم، ثم أردف ذلك ببيان أن الذي حملهم على الإعراض عن ذلك، هو طول الأمد حتى نسوا العهد، وجهلوا مواقع النعمة، وقد كان لهم في نقص الأرض من أطرافها، وفتح المسلمين لها عبرة أيما عبرة، فها هم يرون محمد ﷺ وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة، ويدخلونها تحت راية الإسلام، ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين، فمن حقهم أن يفكروا في هذا مليًّا، ويرعووا عن غيهم، ويعلموا آثار قدرتنا، وأن جندنا هم الغالبون، ثم قفّي على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هي الإنذار والتبليغ، وليس عليهم الإلزام والقبول، فإذا كانت القلوب متحجّرة، والآذان صمّاء، فماذا تجدى العظة! وماذا ينفع النصح.

ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين، ثم قفّى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لا ظلم فيها، ولا محاباة، فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير، فهناك تنصب موازين العدل، ويجازي كل امرىء بما قدّم من خير أو شرّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: إنما أنذركم بالوحي.. أردفه ببيان أنَّ هذه سنة الله في أنبيائه، فكلهم قد أتاهم الوحي، وبلغهم من الشرائع والأحكام مافيه هدايةٌ للبشر، وسعادةٌ لهم في دنياهم وآخرتهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي أنه ﷺ مرّ على أبي سفيان، وأبي جهل، وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك، وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان وقال: أتنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل، فوقع به وخوَّفه، وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلاّ حمية، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، روي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث وهو القائل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لإنكار نفي الرؤية[2]، وإنكار النفي نفي له، ونفي النفي إثبات. و﴿الواو﴾ للعطف على مقدر، والرؤية قلبية، لا بصريةٌ حتى لا يناقض قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: ألم يتفكروا، أو ألم يستفسروا من العلماء، أو ألم يطالعوا الكتب، أو ألم يسمعوا الوحي ولم يعلموا: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ ثنى الضمير الراجع إلى الجمع باعتبار أن المرجع إليه جماعتان: جماعة السموات، وجماعة الأرض ﴿رَتْقًا﴾؛ أي ذواتي رتق، فهو على حذف مضاف. ولم يقل: رتقين، لأنه مصدر؛ أي: ملتزقتين ومنضمَّتين، لا فضاء ولا هواء بينهما، ولا فرج، فإن الرتق هو

---

(١) لباب النقول.

(٢) روح البيان.

الضم والإلتحام خلقةً كان أو صنعة؛ أي كانت شيئاً واحداً، وحقيقة متحدةً ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ من الفتق، وهو الفصل بين المتصلين، وهو ضد الرتق؛ أي: ففصلنا إحداهما عن الأخرى بالهواء والريح، أي رفعنا السماء[1]، وأبقينا الأرض مكانها، أو[2] كانت السموات واحدةً ففتقت بالتحريكات المختلفة، حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدةً، فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوالها طبقاتٍ أو أقاليم. وقيل: كانتا رتقاً لا تمطر ولا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا، وجمعها باعتبار الآفاق، أو السموات بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار، إذ التأثير إنما يحصل من جهة العلو، والكفرة، وإن لم يعلموا ذلك، فهم متمكنون من العلم به نظراً، أو استفساراً من العلماء، أو مطالعةً للكتب.

واعلم: أن المراد برؤية الآيات الانتقال من رؤيتها إلى رؤية صانعها، رؤيةً قلبيةً، هي حقيقة الإيمان. والمعنى؛ أي: ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين؛ أي: ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما.

وعبارة ابن الجوزي هنا: واعلم أن للمفسرين في المراد بالفتق ثلاثة أقوال[3]:

أحدها: أن السموات كانت رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات. رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة، ومجاهد، في رواية، والضحاك في آخرين.

والثاني: أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) زاد المسير.

والثالث: أنه فتق من الأرض ست أرضين، فصارت سبعاً، ومن السماء ست سموات، فصارت سبعاً، رواه السدي عن أشياخه وابن أبي نجيح عن مجاهد انتهت.

واعلم: أنه سبحان وتعالى ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر لو تدبّرها المنصفون، وعقلها الجاحدون لم يجدوا مجالاً للإنكار، ولا سبيلاً إلى الجحد:

الأول: ما ذكره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ إلخ. وقرأ ابن كثير، وحميدٍ، وابن محيصن[1]: ﴿ألم ير﴾ بغير ﴿واو﴾ العطف بين الهمزة ولم. والجمهور ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ ﴿بالواو﴾، وقرأ الجمهور ﴿رَتْقًا﴾ بسكون التاء، وهو مصدر يوصف به كزور وعدل، فوقع خبراً للمثنى. وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وعيسى ﴿رَتَقاً﴾ بفتح التاء، وهو اسم بمعنى المرتوق كالقبض والنقض، فكان قياسه أن يثنّى ليطابق الخبر الاسم. ذكره في «البحر».

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؛ أي: وخلقنا من الماء كل شيء متصفٍ بالحياة؛ أي: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء، ويدخل في الآية النبات والشجر لنمائهما بالماء[2]، والحياة قد تطلق على القوة النامية الموجودة في النبات، والحيوان، كما في «المفردات». ويدل على حياتهما قوله تعالى: ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ كما في «الكبير». وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين، وعرّف الماء باللام قصداً إلى الجنس، أي: جعلنا مبدأ كل شيء حي من هذا الجنس؛ أي: جنس الماء، وهو النطفة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي: كل فرد من أفراد الدواب من نطفه معينة، هي نطفة أبيه المختصة به، أو كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع المياه، وهو

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

نوع النطفة التي تختص بذلك النوع من الدواب. وفرّق بعضهم بين الحيّ والحيوان بأن كل حيوان حيٌّ، وليس كل حيّ حيواناً، كالملك، فالظاهر ما جاء في بعض الروايات من أن الله تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وآدم من تراب خلقه منه، والجن من نار خلقها منه.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿حَيٍّ﴾ بالخفض، صفة لشيء. وقرأ حميد ﴿حَيًّا﴾ بالنصب، مفعولاً ثانياً لـ ﴿جعلنا﴾، والجار والمجرور لغو؛ أي: ليس مفعولاً ثانياً لـ ﴿جعلنا﴾. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري التعجبي للإنكار عليهم حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية، داخلةٌ على محذوف و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا يتدبرون هذه الأدلة فلا يؤمنون بتوحيدي.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت. جمع راسية من رسا إذا ثبت ورسخ، كراهة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ الأرض، وتميل، وتتحرك، وتضطرب، وتدور ﴿بِهِمْ﴾؛ أي بما عليها من المخلوقات. والأرض[٢] جسم غليظ، أغلظ ما يكون من الأجسام، واقف على مركز العالم، مبين لكيفية الجهات الست، فالشرق حيث تطلع الشمس والقمر، والغرب حيث تغيب، والشمال حيث مدار الجدي، والجنوب حيث مدار سهيل، والفوق ما يلي المحيط، والأسفل ما يلي مركز الأرض. والميد اضطراب الشيء العظيم ودورانه كاضطراب الأرض، يقال: ماد يميد ميداً إذا تحرك، ومنه سميت المائدة، وهي الطبق الذي عليه الطعام. قال ابن عباس[٣] ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: إنّ الأرض بسطت على وجه الماء، فكانت تميد بأهلها، كما تميد السفينة على الماء، فأرساها الله بالجبال الثوابت، كما ترسى السفينة بالمرساة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وسئل علي ـ رضي الله عنه ـ: أيُّ الخلق أشدُّ؟ قال: أشد الخلق الجبال الرواسي، والحديد أشد منها يحث به الجبل، والنار تغلب الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح يحمل السحاب، والإنسان يغلب الريح بالثبات، والنوم يغلب الإنسان، والهم يغلب النوم، والموت يغلب كلها، انتهى.

واعلم[1]: أنه قد أثبت العلم حديثاً أن الأرض كانت ناراً ملتهبةً، ثم بردت قشرتها، وصارت صوانيةً صلبةً، وقدّروا زمن ذلك بنحو ثلاث مئة مليون سنةً. ومما يدل على صدق هذه النظرية ما نراه من حمم النيران التي تخرجها البراكين في جهات كثيرة من الأرض كما حدث في سنة (١٩٠٩) لبركان فيزوف بإيطاليا، وقد طغى على مدينة مسينا، وابتلعها في باطنه، ولم يبق منها شيئاً، فهذه البراكين أشبه بأفواهٍ تتنفس بها الأرض لتخرج من باطنها نيراناً، ومواد ذائبة، مما يرشد إلى أنها كلها في أحقاب طويلة كانت كذلك.

ولولا هذه القشرة الصلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر جهاتها، كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثوران والفوران، وهذه القشرة الصوانية البعيدة الفور المغلقة للكرة النارية هي الحافظة لكرة النار التي تحتها، وهي التي تنبت منها الجبال التي نراها فوق أرضنا، وقد جعلت لحفظ الأرض من أن تميد، وما هي إلاّ كأسنانٍ لها، طالت وامتدت فوق طبقات الأرض، فلو زالت هذه الجبال لبقي ما تحتها مفتوحاً، وإذ ذاك ربما تثور البراكين في جهات كثيرةٍ من الأرض، وتضطرب اضطراباً شديداً، وتزلزل زلزالاً كثيراً.

وخلاصة ذلك: أنه لو لم تكن هذه الجبال التي هي قطعةٌ من قشرة الأرض مرتفعةٌ لما وجد ما يحفظ النيران المشتعلة في باطن الأرض من الظهور على سطحها، بالبراكين والزلازل، وإذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطراباً شديداً، وتخرج نيرانها الملتهبة من باطنها، وتطغىٰ على سطحها، وتهلك الحرث والنسل.

وهذه هي المعجزة الثالثة في الآية التي ترشد إلى أن القرآن وحي يوحى،

---

(١) المراغي.

فما محمد، ولا قومه، ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئاً من هذه الآيات الكونية التي أيد صحتها تقدم العلوم، ففهم ظاهر الأرض وباطنها، وفي هذا مصداق لما أثر عن علي ـ رضي الله عنه ـ: «القرآن جديد لا تبلى جدته».

والرابع: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي في الأرض، أو في الرواسي، وعليه اقتصر في الجلالين، لأنها المحتاجة إلى الطرق ﴿فِجَاجًا﴾، أي: طرقاً ﴿سُبُلًا﴾؛ أي مسلوكةً، لأن السبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك، والفجُّ الشقُّ بين الجبلين. قال أبو عبيدة: الفجاج المسالك.

وقال الزجاج: الفجاج جمع فجّ، وهو كل مخترق بين جبلين، و«سُبُلاً» تفسير للفجاج، لأنَّ الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي يهتدوا إلى مصالحهم ومهماتهم التي جعلت لهم في البلاد البعيدة، أو إرادة أن يهتدوا إلى ذلك.

وعبارة النسفي هنا: ﴿فِجَاجًا﴾ أي[1]: طرقا واسعة: جمع فج، وهو الطريق الواسع، ونصب على الحال من ﴿سُبُلًا﴾ متقدمة، فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ وبين هذه الآية؟

قلت: الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة. والثاني لبيان أنه حين خلقها، خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثَمَّ، انتهت.

وعبارة البيضاوي: قوله: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي[2]: مسالك واسعة، وإنما قدّم ﴿فِجَاجاً﴾ وهو وصف له ليصير حالاً، فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو ليبدل منها سبلاً، فيدل ضمناً على أنه خلقها، ووسعها للسابلة مع ما يكون فيه من التوكيد انتهت.

والمعنى: أي وجعلنا في الأرض طرقاً بين جبالها يسلكها الناس من قطر إلى

---

(١) النسفي.

(٢) البيضاوي.

قطر، ومن إقليم إلى آخر، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم، ومهامّ أمورهم المعيشية.

والخامس: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ سميت سقفاً لأنها للأرض كالسقف ﴿مَّحْفُوظًا﴾ من أن يقع ويسقط على الأرض كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال الفرّاء[1]: ﴿مَحْفُوظاً﴾ من الشياطين بالشهب كقوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، وقيل: محفوظاً لا يحتاج إلى عماد. وقيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع. وقيل: مَحْفُوظاً من الشرك والمعاصي. وقيل: مَحْفُوظاً عن الهدم والنقض ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾؛ أي: عن الأدلة الواضحة التي خلقها الله تعالى فيها، وجعلها علاماتٍ نيّرةً على وجوده ووحدته وكمال صنعه، وعظيم قدرته، وباهر حكمته مثل الشمس والقمر والنجوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين، ولا متدبرين فيها فيؤمنون؛ أي[2]: معرضون عن أحوالها، وكيفية حركاتها في أفلاكها، ومطالعها ومغاربها، والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، لا يتفكرون ولا يعتبرون بها. وقرأ الجمهور[3]: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ بالجمع، وقرأ مجاهد وحميد ﴿عن أَيَتِها﴾ بالإفراد.

والمعنى[4]: أي أنه سبحانه وتعالى نظم السماء، وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشموس والكواكب في مداراتها، بحيث لا يختلط بعضها ببعض، ولا يتخبط بعضها في بعض، بل جعلت في أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية، فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها، وإلاّ اختل نظام هذا العالم، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار، الحادثين من جري الأرض حول الشمس. ونحو الآية قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: والمشركون معرضون عن التفكر في تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا.

السادس: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد لكم ﴿ٱلَّيْلَ﴾ الذي هو[1] ظل الأرض، لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ الذي هو ضوء الشمس، لتتصرفو في معايشكم ﴿و﴾ خلق ﴿الشمس﴾ الذي هو كوكب مضيء نهاري، وجعلها آية النهار ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ الذي هو كوكب مضيء ليلي، وجعله آية الليل؛ أي: خلقهما، لتعلموا عدد السنين والحساب، كما مرّ بيانه في سورة الإسراء؛ أي: فالله سبحانه وتعالى، هو الذي أوجد هذه الأشياء، وأخرجها من العدم إلى الوجود دون غيره، فله القدرة الكاملة، والحكمة الباهرة ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم. والتَّنوين[2] فيه عوض عن المضاف إليه؛ أي: كلهم، والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما: جنس الطوالع. وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم، وهو السباحة، وحسَّن ذلك. كونه جاء فاصلة رأس آية. وهو مبتدأ، وقوله: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ الواقع خبراً عن المبتدأ؛ أي: كل من الشمس والقمر والنجوم يسبحون في فلكٍ على حدة؛ أي[3]: يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، والفلك مدار النجوم الذي يضمها، وهو في كلام العرب، كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك. وقيل: الفلك طاحونة، كهيئة فلك المغزل، يريد: أن الذي تجري فيه النجوم، مستدير كاستدارة الرحى. وقيل: الفلك: السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه، قال الراغب: الفلك مجرى الكواكب، وتسميته بذلك، لكونه كالفلك.

والمعنى[4]: أن الكواكب يجرون في سطح الفلك، كالسبح في الماء، فإن السبح المرور السريع في الماء، أو في الهواء، واستعير لمرور النجوم في الفلك، كما في «المفردات» ويفهم منه: أن الكواكب مرتكزة في الأفلاك، ارتكاز فض

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) الخازن.

(٤) روح البيان.

الخاتم في الخاتم، قال في «شرح التقويم»: كل واحد من الكوكب مركوز في فلك مغرق فيه، كالكرة المنغمسة في الماء، لا كالسمك فيه. والأفلاك متحركة بالإرادة من المشرق إلى المغرب، والكواكب بالعرض. وقال بعضهم، أخذاً بظاهر الآية: إن الفلك موج مكفوف، من السيلان دون السماء، تجري فيه الشمس والقمر، كما تسبح السمكة في الماء.

والحق، أنه لا سبيل إلى معرفة صفة السموات؛ إلاّ بإخبار الصادق المصدوق، ولم يرد منه نص في بيان ذلك، والأسلم الإمساك عن البحث فيها، إلاّ بما ورد النص فيه، فسبحان الخالق المدبّر لخلقه، بالحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، غير المتناهية.

والمعنى[١]: أي والله خلق لكم الليل والنهار، نعمة منه عليكم، وحجة على عظيم سلطانه، فهما يختلفان عليكم، لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الأرض والشمس والقمر، تجري في أفلاكها كما يجري السمك في الماء.

وهذا هو الرأي الحديث، وأن هذه كلها تجري في عالم الأثير، المالىء لهذا الفضاء، فالشمس تجري، والأرض تجري، والقمر يجري، وبينها هذه المخلوقات الحية، فما مثل هذه العوالم، إلا كآلة الطباعة، والمخلوقات كلماتها وسطورها، أو كدار صناعة تخرج كل يوم منصوعات جديدة، بعد فناء القديمة وزوالها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ والبقاء والدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية، كما في «أبي السعود»؛ أي[٢]: وما جعلنا لفرد من أفراد الإنسان من قبلك، يا محمد، دوام البقاء في الدنيا؛ أي: ليس من سنتنا أن نخلد آدمياً في الدنيا، وإن كنا قادرين على تخليده، فلا أحد إلاّ وهو عرضة للموت. قال في «بحر العلوم»: المراد بالخلود: المكث الطويل، سواء كان معه دوام أم لا، اهـ. فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ في الدنيا بقدرتنا، لا بل أنت وهم ميتون، كما هو من سنتنا، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، فالمراد بإنكار الخلود ونفيه إنكار الشماتة التي كان الخلود مداراً لها، وجوداً وعدماً، قال الشاعر:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

والهمزة في قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والفاء في ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾: رابطة الجواب بالشرط، والتقدير: أيبقى هؤلاء المشركون حتى يشمتوا بموتك، فإن متّ يا محمد بأجلك المحتوم.. فهم الخالدون في الدنيا بعدك؟ وقرىء ﴿مِّتَّ﴾ بكسر الميم وضمها لغتان.

والمعنى: أي[1] وما كتب لأحد من قبلك البقاء في الدنيا، حتى نبقيك فيها، بل قدّر لك أن تموت، كما مات رسلنا من قبلك، أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك، لا ليس الأمر كذلك، بل هم ميّتون، عشت أو مت. أخرج البيهقي وغيره، عن عائشة قالت: دخل أبو بكر على النبي ﷺ، وقد مات فقبّله، وقال: وانبيّاهُ، واخليلاه، واصفيّاه، ثم تلا ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ...﴾ الآية.

ثم أكّد ما سلف، وبيّن أن أحداً لا يبقى في هذه الدنيا، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: كل نفس منفوسة من خلقه، ذائقة مرارة الموت ومتجرعة كأسه، وشدة مفارقة الروح للبدن، وقد جاء في الحديث: «إن للموت لسكرات»، فلا يفرحنّ أحد لموت أحد، ولا يظهرن التشفي منه، كما لا ينبغي أن تبدوا عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد.

وهذا برهان على ما أنكر من خلودهم[2]، والمراد: النفس الناطقة، التي هي الروح الإنساني، وموتها عبارة عن مفارقتها جسدها؛ أي: ذائقة مرارة المفارقة، والذوق هذا لا يمكن إجراؤه على ظاهره؛ لأن الموت ليس من المطعوم حتى يذاق، بل الذوق إدراك خاص، فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك، والموت: صفة وجودية خلقت ضدّاً للحياة، أو هو عبارة عن زوال

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

القوة الحيوانية، وإبانة الروح عن الجسد.

وفي «التعريفات»: النفس: هي الجوهر البخاري اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية. وسماه الحكيم: الروح الحيواني، فهي جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، والنوم والموت من جنس واحد؛ لأن الموت هو الانقطاع الكلي، والنوم هو الانقطاع الناقص.

والحاصل: أنه إن لم ينقطع ضوء جوهر النفس، عن ظاهر البدن وباطنه.. فهو اليقظة، وإن انقطع عن ظاهره دون باطنه.. فهو النوم، أو بالكلية.. فهو الموت.

وهذا[1] العموم مخصوص بقوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى حيّ دائم لا يموت، لا يجوز عليه الموت، كما أشرنا إلى هذا التخصيص أولاً بقولنا: منفوسة من خلقه. والذوق هنا: عبارة عن مقدمات الموت، وآلامه العظيمة قبل حلوله.

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾؛ أي[2]: ونختبركم أيها الناس، بالمضارّ الدنيوية، من الفقر والآلام وسائر الشدائد، وبنعم الدنيا، من الصحة واللذة والسرور والتمكين، من حصول ما تريدون لنرى أتصبرون في المحن، وتشكرون في المنح، فيزداد ثوابكم عند ربكم، إذا قمت بأداء ذلك، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، ومن ثم قال عمر - رضي الله عنه -: بُلينا بالضرّاء فصبرنا، وبلينا بالسرّاء فلم نصبر. وقال علي - كرّم الله وجهه -: مَن وسع عليه دنياه، فلم يعلم أنه قد مكر به.. فهو مخدوع عن عقله. وقوله: ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿نبلوكم﴾ من غير لفظه؛ أي: نبلوكم بلاءً واختباراً.

وخلاصة ذلك: أنّا نعاملكم معاملة من يختبركم، ونفتنكم كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش، لنرى أتصبرون في الشدائد، وتشكرون حين الرّخاء ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا، لا استقلالاً، ولا اشتراكاً؛

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

أي: إلى حكمنا ترجعون بعد الموت، فنجازيكم وفق ما يظهر من أعمالم، ولا يخفى ما في هذا من الوعد والوعيد، وفيه إيماء[1] إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعرض للثواب والعقاب، واعلم أن المجازاة لا تسعها دار التكليف، فلا بد من دار أخرى، لا يصار إليها إلاّ بالموت والنشور، فلا بد لكل نفس من أن تموت، ثم تبعث.

قال بعضهم: فائدة حالة المفارقة رفع الخبائث التي حصلت للروح بصحبة الأجسام، وفائدة حالة الإعادة حصول التنعمات الأخروية، التي أعدت لعباد الله الصالحين، ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بتاء الخطاب مبيناً للمفعول. وقرأت فرقة: بضم الياء للغيبة. مبنياً للمفعول، على سبيل الالتفات. وقرأت فرقة، منهم ابن عامر، بالتاء مفتوحة مبنياً للفاعل.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ يا محمد هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وأشركوا بالله تعالى، يعني المستهزئين منهم، كأبي جهل وأضرابه من صناديد قريش ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: ما يتخذونك إلاّ مهزوءاً بك. والهزء مزح في خفية؛ أي: لا يفعلون بك إلاّ اتخاذك مهزوءاً بك. والمراد: قصر معاملتهم معه على اتخاذهم إياه هزؤاً، لا قصر اتخاذهم على كونه هزواً كما هو المتبادر، حالة كونهم يقولون في حال الهزء ﴿أَهَٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بسوء ويسبها. وإنما أطلقه[3] لدلالة الحال عليه، فإن ذكر العدوّ لا يكون إلاّ بسوء؛ أي: يقول بعضهم لبعض فيما بينهم: أهذا الرجل هو الذي يسبُّ ويعيِّب آلهتكم وأصنامكم؛ أي: يبطل كونها معبودة، ويقبح عبادتها. يقال: فلان يذكر الناس؛ أي: يغتابهم ويذكرهم بالعيوب، وفلان يذكر الله؛ أي: يصفه بالتعظيم ويثني عليه. وجملة قوله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ حال[4] من فاعل ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾، والضمير الأول

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان.

مبتدأ، خبره ﴿كَٰفِرُونَ﴾. والثاني: تأكيد لفظي له. و﴿بِذِكْرِ﴾ متعلق بالخبر، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أي: يعيبون أن يذكر النبي ﷺ آلهتهم التي لا تضرّ ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم كافرون بأن يذكروا الرحمن المنعم عليهم بما يجب أن يذكر به، من الوحدانية، فهم أحقاء بالعيب والإنكار، ومعنى الآية؛ أي[1]: وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلاّ أن يجعلوك موضع السخرية والهزوء، وقد كان من حقهم أن يفكروا ملياً فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك، وفيما ينزل عليك من الوحي، الذي فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون، لعل بصائرهم تستنير، وطباعهم ترقّ، وقلوبهم ترعوي عن غيها، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

ويقولون استنكاراً وتعجباً: أهذا الذي يسبّ آلهتكم، ويسفّه أحلامكم، وكيف يعجبون من ذلك، وهم كافرون بالله، الذي خلقهم وأنعم عليهم، وبيده نفعهم وضرهم، وإليه مرجعهم.

وخلاصة ذلك: كيف يعجبون من ذكر آلهتهم بالسوء، وهم قد كفروا بربهم الذي برأهم وصوّرهم، فأحسن صورهم، وإليه مرجعهم، فيحاسبهم على النقير والقطمير.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن كل من كان محجوباً عن الله بالكفر لا ينظر إلى خواص الحق إلاّ بعين الإنكار والاستهزاء؛ لأن خواص الحق من الأنبياء والعلماء يقبحون في أعينهم ما اتخذوا لهم آلهةً من شهوات الدنيا، من جاهها ومالها وغير ذلك مما اتخذوه آلهة، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وكل محب يغار على محبوبه، ولذا يذكرونهم بعيب ونقصان، والحال أن العيب والنقصان فيهم، لا في أضدادهم، فعلى العاقل أن يصون لسانه عن ذكر العيوب، ويشتغل في جميع الأوقات بذكر علام الغيوب، وأفضل الذكر: «لا إله إلاّ الله»؛ لأنه إعراض عما سوى الله تعالى. وإقبال بالكلية على الله سبحانه. قيل:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

إن سائر العبادات والأذكار تصل إلى الله تعالى بواسطة الملك، أما هذه الكلمة فتصل إلى الله بلا واسطة الملك، من قالها مرة خالصاً غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر.

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أي: جنسه ﴿مِنۡ عَجَلٖۚ﴾؛ أي[1]: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل، قال الفرّاء: كأنه يقول: بنيته وخلقته من العجلة، وعلى العجلة. والعجلة[2] طلب الشيء وتحرِّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة حتى قيل: العجلة من الشيطان، جعل الإنسان لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق منه، كما يقال: خلق زيد من الكرم، تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان، إيذاناً بغاية لزومه وعدم انفكاكه عنه، ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد. قال النضر بن الحارث: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾. وقرأ مجاهد وحميد وابن مقسم[3]: ﴿خلَقَ﴾ مبنياً للفاعل. ﴿الإنسان﴾ بالنصب؛ أي: خلق الله الإنسان.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن المراد بالإنسان آدم، وأنه حين بلغت الروح صدره أراد أن يقوم؛ أي: استعجل بالقيام قبل أن يبلغ الروح أسفله، فسقط فقيل: خلق الإنسان من عجل. والمعنى؛ أي: إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة، وجعلها من سَجِيَّته وجِبِلَّتِه، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله، ونزول نقمته بهم، وقد كان من الحق عليهم أن يتريّثوا قليلاً، فإن الله تعالى سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم، ويحل بهم من العذاب ما لا قبل لهم بدفعه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ أي: نقماتي منكم بعذاب النار؛ أي: سأريكم عذابي ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ في طلبه؛ أي: فلا تستعجلوني في الإتيان به، بطريق إيذاء نبي، والاستهزاء به،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

فإنه نازل بكم لا محالة، والمعنى؛ أي: إن نقمتي ستصيبكم لا محالة، فلا تستعجلوا عذابي، واصبروا حتى يأتي وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد، وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركبت في طبيعته من قبل أنه أوتي المقدرة التي يستطيع بها تركها وكف النفس عنها، ثم حكى عنهم ما يستعجلون فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بطريق الاستعجال والاستهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: وعد العذاب والساعة فليأتنا بسرعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم بأنه يأتينا، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة عن مجيء الوعد.

أي: ويقولون للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين، الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة، ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاءً: متى يجيئنا هذا العذاب الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في وعدكم. وهذا استبطاء منهم للموعود به، يراد به إنكار وقوعه، وأنه لن يكون ألبتة، وفي ذمِّ العجل قيل:

لاَ تَـعْـجَـلَـنَّ لأَمْـرٍ أَنْـتَ طَـالِـبُـهُ   فَقَـلَّـمَا يُدْرِكُ ٱلْـمَـطْـلُـوْبَ ذُوْ ٱلْـعَـجَلِ
فَـذُوْ ٱلـتَّـأَنِّـيْ مُـصِـيـبٌ فِـيْ مَـقَـاصِـدِهِ   وَذُوْ ٱلـتَّـعَـجُّـلِ لاَ يَـخْـلُـوْ عَـنِ ٱلـزَّلَـلِ

ثُم بين شديد جهلهم بما يستعجلون وعظيم حماقتهم لهذا الطلب، فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ إلخ، جملة مقررة لما قبلها، وجواب لو محذوف. وإيثار[1] صيغة المضارع في الشرط، وإن كان المعنى ماضياً لإفادة استمرار عدم العلم و﴿حِينَ﴾ مفعول به لـ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: لو عرف الذين كفروا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ ولا يدفعون فيه ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ قيل: السياط ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون من العذاب لما أقاموا على كفرهم[2]، ولما استعجلوا بالعذاب، ولما قالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ أي: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، ولكن جهلهم به هو الذي هوَّنه عندهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

والمعنى[1]: لو علموا الوقت الذي يستعجلونه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب، بحيث لا يقدرون على دفعها، ولا يجدون ناصراً يمنعها عنهم.. لما استعجلوا. وتخصيص الوجوه والظهور، يعني: القدّام والخلف، لكونهما أشرف الجوانب، ولاستلزام الإحاطة بهما الإحاطة بالكل، بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، ولأن مسّ العذاب لهما أعظم موقعاً.

والخلاصة: أي[2] لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون، ماذا أعدّ لهم ربهم من البلاء، حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، فلا يستطيعون ردّها عن تلك الوجوه، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور، ولا يجدون ناصراً ينصرهم وينقذهم من ذلك العذاب، لما أقاموا على كفرهم بربهم، ولسارعوا إلى التوبة منه، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال.

ولمّا بيّن شدة العذاب في ذلك اليوم، بيّن أن وقته لا يكون معلوماً فقال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ وهذا الكلام إضراب[3] انتقالي، حكى الله عنهم أنهم يستعجلون العذاب الموعود بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وبين أن سبب ذلك الاستعجال هو عدم علمهم بهول وقت وقوعه، وما فيه من العذاب الشديد، ثم أضرب وانتقل من بيان السبب إلى بيان كيفية وقوع الموعود، فقال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾؛ أي: بل تأتيهم العدة، أو النار، أو الساعة بغتة؛ أي؛ فجأة. والبغتة مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب. وهو مصدر؛ لأن البغتة نوع من الإتيان، أو حال؛ أي: باغتة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾؛ أي: تحيّرهم. والبهت الحيرة والدهشة. وقال الجوهري: بهته بهتاً أخذه بغتةً؛ أي: فتفجؤهم. قال الإمام: وإنما لم يُعلم الله وقت الموت والساعة؛ لأن المرء مع الكتمان أشدُّ حذراً

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

وأقرب إلى التدارك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾؛ أي: ردّ النار وصرفها[1] عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، فالضمير راجع إلى النار. وقيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة. وقيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار، أو ليسترحوا طرفة عين. من الإنظار بمعنى الإمهال، أو من النظر؛ أي: لا ينظر إليهم، ولا إلى تضرُّعهم.

وفيه إشارة إلى أنه لو علم أهل الإنكار[2] قبل أن يكافئهم الله تعالى على إنكارهم، نار القطيعة والحسرة والبعد والطرد، لما أقاموا على إنكارهم، ولتابوا ورجعوا إلى طلب الحق، وعلم منه أن أعظم المقاصد هو طلب الحق والوصول إليه.

والمعنى: أي[3] بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين، فتدعهم حائرين، لا يستطيعون حيلة في ردّها، ولا منصرفاً عما يأتيهم منها، ولا هم يمهلون لتوبة، ولا لتقديم معذرة، فقد فات ما فات، وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون.

وقرأ الأعمش[4]: ﴿بل يأتيهم﴾ بالياء ﴿بَغَتَةً﴾ بفتح الغين ﴿فيبهتهم﴾ بالياء، والضمير عائد إلى الوعد، أو الحين، قاله الزمخشري. وقال أبو الفضل الرازي: لعله جعل النار بمعنى العذاب فذكَّر، ثم ردَّ ردّها إلى ظاهر اللفظ.

ولما[5] كان استعجالهم ذلك بطريق الاستهزاء، وكان عليه الصلاة والسلام يتأذى من ذلك نزل قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فالجملة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، وتعزيته، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلا، فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل، على كثرة عددهم وخطر شأنهم؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد استهزيء برسل أولي شأن خطير، وذوي عدد كثير، كائنين في زمان قبل زمانك،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) زاده.

كما استهزأ بك قومك فصبروا. ففيه حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه ﴿فَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ونزل ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾؛ أي: بالكفار الذين استهزؤوا من الرسل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: العذاب الذي كانوا به يستعجلون ووضع ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ موضع ﴿يستعجلون﴾؛ لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء، وهو وَعْدٌ له، بأن ما يفعلون به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا، يعني جزاؤه.

والمعنى[١]: أي والله لقد استهزىء برسل من رسلنا، الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم، فنزل بالذين استهزؤوا بهم، العذاب والبلاء، الذي كانت الرسل تخوِّفهم نزوله، ولن يعدوا أن يكون أمر هؤلاء المشركين كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم، مثل ما نزل بمن قبلهم، فانتظر لهم عاقبةً وخيمةً كعاقبة أولئك، وسيكون لك النصر عليهم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستهزئين على سبيل التقريع والتبكيت ﴿مَن﴾ للاستفهام التقريعي، المضمّن للإنكار ﴿يَكْلَؤُكُم﴾؛ أي: يحفظكم ويحرسكم. الكلاء الكلاءة، بكسر أولهما حفظ الشيء وتبقيته. والكالىء الذي يحفظ. وقرأ أبو جعفر والزهري وشيبة[٢]: ﴿يَكْلُوكم﴾ بضمة خفيفة من غير همز. وحكى الكسائي والفرّاء ﴿يَكْلَوكم﴾ بفتح اللام وإسكان الواو.

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: فيهما ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: من بأسه الذي يستحقون نزوله ليلاً أو نهاراً إن أراد بكم؛ أي: لا يمنعكم من عذابه إلاّ هو. وفي[٣] ذكر ﴿الرحمن﴾ تنبيه على أنه لا كالىء غير رحمته العامة، وأنّ اندفاعه بمهلته وتقديم

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعاً، وأشدّ وقعاً؛ أي: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار، من بأس الرحمن وعذابه، الذي تستحقون حلوله بكم، ونزوله عليكم.

والخلاصة: من يحفظكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا تصرّفتم في أمور معايشكم، من عذاب الرحمن إن نزل بكم، ومن بأسه إذا حل بساحتكم.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾؛ أي: عن القرآن ومواعظه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: لا يتأملون في شيء منها؛ أي: لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم، فضلاً عن أن يخافوا الله، ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة، حفظاً وكلاءةً، حتى يسألوا عن الكالىء؛ أي: دعهم عن هذا السؤال؛ لأنهم لا يصلحون له لإعراضهم عن ذكر الله تعالى.

والمعنى: أي إن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم، فلا يذكرون الله تعالى حتى يخافوا بأسه، فهم مع وجود الدلائل العقلية، والنقلية، الدالة على أنه تعالى هو الكالىء الحافظ، معرضون عنها، لا يتأملون فيها. وفي ذكر[1] «الرب» إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه، وأنهم في ملكوته وتدبيره وجميل رعايته وتربيته، وهم على ذلك معرضون، فهم في الغاية القصوى من الضلال، وفي النهاية الكبرى من الجهل والغباء.

والحاصل: أن الله سبحانه، لمّا بيّن[2] أنهم سيصيبهم لا محالة مثل ما أصاب الأولين، بيّن أن عدم إصابة ذلك لهم عاجلاً إنما هو بحفظه، حيث أمهلهم مدة بمقتضى رحمته العامة، فأمره ﷺ بأن يسألهم عن الكالىء ليقروا وينتبهوا، لكونهم في قبضة قدرته، ليكفوا عن الاستهزاء، ثم أضرب عن ذلك الأمر بقوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: دعهم يا محمد عن هذا السؤال؛ لأنهم لا يصلحون له لإعراضهم عن ذكر الله، فلا يخطرونه ببالهم حتى يخوّفوا بالله، ثم إذا رزقوا الكلأة من عذابه عرفوا أن الحافظ هو الله،

---

(١) المراغي.
(٢) زاده على البيضاوي.

وصلحوا للسؤال عنه، ثم أضرب إلى ما هو أهمّ، وهو الإنكار عليهم فيما زعموا أن لهم آلهة تنصرهم وتمنعهم من العذاب، فقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ و﴿أَمۡ﴾ فيه منقطعة، بمعنى همزة الإنكار، و﴿بل﴾ التي للإضراب، والانتقال من الكلام السابق، المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم، إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، والدفع عنها؛ أي: بل ألهؤلاء المستعجلي عذابنا آلهة تمنعهم منا إن نحن أنزلناه بهم، وتدفع عنهم بأسنا، إن حلّ بساحتهم. وقيل[1]: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أم لهم آلهة من دوننا، تمنعهم من عذابنا، ومجمل ذلك أن آلهتهم لا تمنعهم بأسنا إن أردنا؛ أي: ليس لهم.

ثم وصف تلك الآلهة التي اتخذوها بالضعف فقال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الإنكار، وموضح لبطلان اعتقادهم؛ أي: أن آلهتهم لا يقدرون أن ينصروا أنفسهم، وحمايتها من الآفات، فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ممن عبدهم ﴿وَلَا هُمۡ﴾؛ أي: ولا آلهتهم ﴿مِّنَّا﴾؛ أي: من عذابنا ﴿يُصۡحَبُونَ﴾؛ أي: يمنعون، فكيف يمنعون غيرهم من العذاب. أو المعنى ولا يصحبون بالنصر من جهتنا[2]. قال الراغب: لا يكون لهم من جهتنا ما يصحبهم، من سكينة وروح وترفق وغير ذلك، مما يصحب أولياءنا، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم.

والخلاصة: أنهم في غاية العجز، فكيف يتوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة، ثم بيّن سبحانه تفضله عليهم، مع سوء ما أتوا به من الأعمال، فقال: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا﴾ وأنعمنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين في الدنيا ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ الكفار من قبلهم وأمهلناهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾؛ أي: طال عليهم الأجل، وامتدّ بهم الزمان في التمتع، فاغترّوا وحسبوا أنهم ما زالوا على ذلك لا يغلبون. والعمر[3]: بضم الميم وسكونها، اسم لمدة عمارة البدن

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

بالحياة. وهذه الجملة، إضراب[1] عما توهموا، من أن ما هم فيه من الحفظ من جهة أن لهم آلهة تمنعهم من تطرق البأساء إليهم، كأنه قيل: دع ما زعموا من كونهم محفوظين بكلاءة آلهتهم، بل ما هم فيه من الحفظ إنما هو منا، حفظناهم من البأساء، ومتّعناهم بأنواع السرّاء، لكونهم من أهل الاستدراج والانهماك فيما يؤديهم إلى العذاب.

والمعنى: أن الذي غرّهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متّعوا في الحياة الدنيا، ونعموا بها، وطال عليهم العمر، حتى اعتقدوا أنهم على شيء، وقصارى ذلك: أنهم طالت أعمارهم وهم في الغفلة، فنسوا عهدنا، وجهلوا مواقع نعمتنا فاغتروا بذلك، ولم يعرفوا مواضع الشكر.

ثم بيّن لهم سوء مغبّتهم فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا ينظر ولا يتدبر هؤلاء المشركون بالله، المستعجلون بالعذاب فلا يرون ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؛ أي: نأخذ أرض الكفرة، التي هي دار الحرب حالة كوننا ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ونواحيها؛ أي: ننقصها من أرض الكفرة واحدة بعد واحدة، وبلدة بعد بلدة، بتسليط المؤمنين عليها من أطرافها، ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة لمحمد ﷺ، وأصحابه، ونميت رؤساء المشركين المتمتعين بالدنيا، وننقص من الشرك بإهلاك أهله، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا، والهمزة في قوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد نقصان أرضهم من أطرافها هم طامعون في النجاة من بأسنا، فهم الغالبون على محمد وأصحابه؛ أي: لا يطمعوا في ذلك فهم المغلوبون، والله ورسوله والمؤمنون هم الغالبون.

وهذا تمثيل وتصوير لما يخرّبه الله من ديارهم على أيدي المسلمين، ويضيفه إلى دار الإسلام، وذلك أن الله لا يأتي، بل العساكر تغزو أرض الكفرة، وتأتي غالبة عليها ناقصة من نواحيها. والمعنى؛ أي: أفلا يرى هؤلاء المشركون

---

(١) روح البيان.
(٢) زاده.

بالله، المستعجلون للعذاب، آثار قدرتنا في إتيان الأرض ناقصة من جوانبها، ففتحناها للمؤمنين، وزدناها في ملكهم، واقتطعناها من أيدي المشركين، فقد تم لهم فتح البلاد التي حوالي مكة، وقتل رؤسائها، وإزالة دولة الشرك وأهله منها، ألا يتفكرون في هذا، فيكون لهم فيه مزدجر لو كانوا يعقلون.

والخلاصة: ألا يعتبرون ويحذروا أن ينزل بهم بأسنا، كما أنزلناه بسواهم، ثم وبّخهم، وأنّبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه فقال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؛ أي: أفهم الغالبون أم نحن؛ أي: فبعد ظهور ما ذكر، ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم.

وبعد أن بيّن هول ما يستعجلون، وحالهم السيئة حين نزوله بهم، ثم نعى عليهم جهلهم، وإعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار، أمر رسوله أن يقول لهم: إن ما أخبركم به جاء به الوحي الصادق، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستعجلين عذابنا ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ وأخوفكم وأحذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها ﴿بِٱلْوَحْيِۚ﴾ الصادق والقرآن الناطق بحصوله، وفظاعة أهواله، وقد أمرني ربي بذلك، وها أنا ذا قد قمت بما أمرني به، فإن لم تجيبوا داعي الله، وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال، لا عليّ.

ثم أردف هذا ببيان أن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدي فتيلاً، فما حالهم إلاّ حال الصمّ الذين لا يسمعون دعوة الداعي، فقال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾ جمع الأصمّ. والصمم فقدان حاسة السمع ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ إلى الإيمان ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ أي: يخوفون من عذاب الله سبحانه.

والمعنى: أن من أصمّ الله سمعه، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء. شبّهوا بالصُمّ[1]، وهم صحاح الحواس؛ لأنهم إذا سمعوا ما ينذرون به من آيات الله، لا تعيه آذانهم، وكان سماعهم كلا سماع، فكانت حالهم

---

(١) روح البيان.

لانتفاء جدوى السماع، كحال الذين عدموا صحيح السماع، وينعق بهم، فلا يسمعون. وتقييد نفي السماع به، مع أن الصُمَّ لا يسمعون الكلام إنذاراً كان، أو تبشيراً، لبيان كمال شدة الصمم، كما أنَّ إيثار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك، فإن الإنذار عادةً يكون بأصوات عالية، مكررة مقارنة لهيئةٍ دالةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها، يكون صممهم في غايةٍ من تتمة الكلام ورائها، وهذا من تتمة الكلام الملقن، ويجوز أن يكون من جهته تعالى، كأنه قيل: قل لهم ذلك وأنت بمعزل من إسماعهم.

والمعنى[١]: أي فما مثلهم إذ لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار، على كثرته وتتابعه، إلاَّ مثل الصم، الذين لا يسمعون شيئاً، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب، بل العمل بما يسمع بالإقدام على فعل الواجب، والتحرّز من المحرم ومعرفة الحق، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فلا جدوى في السمع، وكأن لم يكن.

والخلاصة: أن الكافر بالله لا يوجِّه همَّه إلى العظة بما في كتابه، من المواعظ، حتى يقلع عما هو عليه مقيمٌ من الضلال، بل يعرض عن التفكر فيها فعل الأصم، الذي لا يسمع ما يقال له حتى يعمل به.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿يَسْمَعُ﴾ بفتح الياء والميم، الصُمُّ رفع به، والدعاء نصب. وقرأ ابن عامر وأحمد بن جبير عن أبي عمرو وابن الصلت عن حفص بالتاء من فوق مضمومة، وكسر الميم، ﴿الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ بنصبهما، والفاعل ضمير المخاطب، وهو الرسول ﷺ. وكذا قرأه أبو حيوة ويحيى بن الحارث. وقرأ ابن يعمر والحسن كذلك إلاّ أنه بالياء من تحت؛ أي: ولا يسمع الرسول، وعنهما أيضاً. ولا يسمع مبنياً للمفعول. الصم رفع به، ذكره ابن خالويه، وكذا قرأه أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميقع. وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي عن اليزيدي عن أبي عمرو ﴿يُسْمِعِ﴾ بضم الياء وكسر الميم، ﴿الصمَّ﴾ نصباً،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿الدعاءُ﴾ رفعا بـ ﴿يُسْمِعُ﴾، أسند الفعل إلى الدعاء اتساعاً والمفعول الثاني محذوف، كأنه قيل: ولا يسمع النداء الصم شيئاً.

ثُمَّ بيَّن سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه، إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجيء خبره فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ﴾؛ أي: قطع ودفعة، أو فوحة وشمةٌ، أو شيء قليل ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ من غاية الاضطراب وشدة الحيرة ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ ويا هلاكنا احضر إلينا، فهذا أوانك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسنا، بكفرنا بالله تعالى وتكذيبنا رسوله ﷺ؛ أي: ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك، ويعترفون عليها بالظلم حين تصامّوا وأعرضوا عن الحق.

والمعنى: أي[1] ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب، أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به، وتكذيبهم برسوله.. ليقولون إنا كنا ظالمين لأنفسنا، بعبادتنا الآلهة والأنداد، وتركنا عبادة الذي برأنا وأنعم علينا، وجحودنا لما يجب علينا من الشكر له، بالإخلاص في عبادته.

والخلاصة: أنهم يوم القيامة، حين يمسَّهم العذاب، يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، ويقولون: هلاكاً لنا، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بمن خلقنا، وخضوعنا لمن لا يضرُّ ولا ينفع، ويندمون على ما فُرّط منهم، ولات ساعة مندم.

ثم بيَّن الأحداث، التي ستقع حين يأتي ما أنذروا به، فقال: ونضع الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال، ونحضرها لأجل جزاء يوم القيمة، فاللام للتعليل. وقيل: بمعنى في؛ أي: في يوم القيامة، أو توزن الأعمال باعتبار التجوهر والتجسم. وهذا قول أئمة السلف. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: المراد من الوزن العدل بينهم، فلا يظلم عباده مثقال ذرة فمن أحاطت حسناته بسيئاته، ثقلت موازينه؛ أي: ذهبت حسناته بسيئاته، ومن أحاطت سيئاته

---

(١) المراغي.

بحسناته خفت موازينه؛ أي: ذهبت سيئاته بحسناته. وقرىء القسط بالصاد والطاء.

والموازين[1]: جمع ميزان، قال الراغب: والوزن معرفة قدر الشيء، وجمع الموازين باعتبار تعدد الأعمال، أو لأن لكل شخص ميزاناً. وأفرد القسط؛ لأنه مصدر وصف به مبالغة كرجل عدل. قال الإمام[2]: وصف الموازين بالقسط؛ لأنها قد لا تكون مستقيمة. وقال الراغب: وذكر الموازين في بعض المواضع بلفظ الواحد، اعتباراً بالمحاسبة، وفي بعضها بلفظ الجمع اعتباراً بالمحاسبين، انتهى. وفي «الفتوحات»: وصف الموازين بذلك؛ لأن الميزان قد يكون مستقيماً، وقد يكون غير مستقيم، فبيَّن الله تعالى أن تلك الموازين تجري على حد العدل، ومعنى وضعها: إحضارها اهـ «خازن» ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس عاصيةً كانت أو مطيعةً ﴿شَيْئًا﴾ من الظلم، بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، على أن يكون مفعولا مطلقاً، فلا ينقص ثوابها الذي تستحقه، ولا يزاد عذابها الذي كان لها، على قدر ما دست به نفسها من سيء الأعمال، أو لا تنقص حقاً من حقوقها على أن يكون مفعولاً ثانياً لـ ﴿تظلم﴾، لأنه بمعنى تنقص، وتنقص يتعدى إلى مفعولين، يقال: نقصه حقه.

﴿وَإِن كَانَ﴾؛ أي: العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ أي: وزن حبة كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ والمثقال ما يوزن به من الثقل؛ أي: مقدار حبة كائنة من خردل؛ أي: وإن كان في غاية القلة والحقارة، فإن حبة الخردل مثل في الصغر، والخردل حبُّ شجرٍ مسخن ملطف، جاذب قالع للبلغم، ملين هاضم، نافع طلاؤه للنقرس والنسا والبرص، ودخانه يطرد الحيات، وماؤه يسكن وجع الأسنان تقطيراً، ومسحوقه على الضرس الوجع غاية «قاموس» ﴿أَتَيْنَا﴾ بقصر الهمزة من الإتيان، والباء في قوله ﴿بِهَا﴾ للتعدية؛ أي: أحضرنا ذلك العمل المعبَّر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن، والتأنيث لإضافته إلى الحبّة.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

أي[1]: وإن كان العمل الذي فعلته النفس صغيراً، مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاءً وفاقاً، سيئاً كان أو حسناً ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾ حالة كوننا ﴿حَٰسِبِينَ﴾؛ أي: محصين وعادّين لأعمال عبادنا. والحسب في الأصل، معناه: العدّ؛ لأنه من حسب المال إذا عدّه. وقيل: كفى بنا عالمين؛ لأنه من حسب شيئاً علمه وحفظه. وقيل: كفى بنا مجازين على ما قدّموه من خير أو شر، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا. والباء زائدة، و﴿نا﴾ فاعل، و﴿حَٰسِبِينَ﴾ حال منه. والمعنى أي: وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم، محصين لها؛ لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم، وما سلف منهم في الدنيا، من صالح أو سيء منها. ولا يخفى ما في الآية من التحذير وشديد الوعيد للكافرين، على ما فرطوا في جنب الله، فإن المحاسب إذا كان عليماً بكل شيء، ولا يعجز عن شيء.. كان جديراً بالعاقل أن يكون في حذر وخوف منه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب، خبر ﴿كَانَ﴾. وقرأ زيد بن علي وأبو جعفر وشيبة ونافع: ﴿مثقالُ﴾ بالرفع الى الفاعلية، و﴿كَانَ﴾ تامة. وقرأ الجمهور: ﴿أَتَيْنَا﴾ بالقصر، من الإتيان؛ أي: جئنا بها. وقرأ أبي ﴿جِئْنا﴾ كأنه تفسيرٌ لـ ﴿أتَيْنا﴾. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن جبير وابن أبي إسحاق والعلاء بن سَيابة وجعفر بن محمد وابن شريح الأصبهاني ﴿آتينا﴾ بمدة على وزن «فاعلنا» من المواتاة، وهي المجازاة والمكافأة، فمعناه: جازينا بها، ولذلك تعدى بحرف الجر، ولو كان على (أفعلنا) من الإيتاء بالمد، على ما توهمه بعضهم لتعدَّى مطلقاً دون جار، قاله أبو الفضل الرازي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا موسى وأخاه هارون الفرقان؛ أي: كتاباً[3] جامعا بين كونه

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

فرقاناً بين الحق والباطل، وكونه ضياءً ونورا يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، وكونه ذكراً، وعظةً، يتعظ بها من يتعظ، ويتذكر بها ما يجب لله من اعتقاد وعمل، وينبغي سلوكه من أدب وفضيلة، فالمراد بجمع هذه الصفات واحدٌ، وهو التوراة، وتخصيص المتقين بالذكر؛ لأنهم المستضيؤون.

والخلاصة[1]: لقد آتيناهما كتاباً جامعاً لأوصافٍ كلها مدحٌ وفخار، ثم ذكر أوصاف المتقين، فقال:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ مجرور المحل، على أنه صفة مادحة للمتقين؛ أي: الذين يخافون عذابه، وهو غائب عنهم، غير مرئي لهم ومشاهد، فيعملون له تعالى. ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه من العذاب، فقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما حال من المفعول؛ أي: حالة كونه غائباً عنهم، أو من الفاعل؛ أي: يخشون عذاب ربهم، حال كونهم في الخلوات منفردين عن الناس، فخشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم، لا أنَّ ذلك مما يظهرونه في الملأ.

٢ - ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: من عذاب يوم القيامة، وسائر أحوالها، من الحساب والميزان ﴿مُشۡفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون، فيعدلون بسبب ذلك الخوف عن معصية الله تعالى. والساعة[2]: اسم لوقتٍ تقوم فيه القيامة، سمّي بها لأنها ساعة خفية، يحدث فيها أمر عظيم، وسُمّيت الساعة ساعة، لسعيها إلى جانب الوقوع ومسافته الأنفاس، وقال الراغب: الساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبَّر بها عن القيامة، وسُمّيت القيامة بذلك لسرعة حسابها، وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق، للإيذان بكونها معظم المخوفات، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وبعد أن ذكر فرقان موسى، وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به، حثَّهم على التمسك بالكتاب الذي نزّله على رسوله ﷺ، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الكريم الذي أنزلناه على محمد ﷺ، أشار إليه بإشارة القريب إيذاناً بغاية وضوح أمره ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من تذكر، وموعظة لمن اتعظ بها ﴿مُّبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير الخير والنفع لمن اتبع أوامره، وانتهى بنواهيه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ، صفة ثانية لذكر، أو خبر آخر. وبعد أن أبان صفة هذا الكتاب، وبّخهم على إنكارهم له، فقال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، إنكار[1] لإنكارهم له، بعد ظهور كون إنزاله من الله كإيتاء التوراة، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد أن علمتم، أن شأنه كشأن التوراة، في الإيتاء والإيحاء، فأنتم منكرون لكونه منزلاً من عندنا، فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة، مما لا مساغ له أصلاً.

أي[2]: فبعد أن استبان لكم جليل خطره، وعظيم أمره تنكرون وتقولون: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

وقد يكون المعنى: كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله تعالى، وأنتم من أهل اللسان، تدركون مزايا الكلام ولطائفه، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم، وفيه شرفكم وصيتكم.

وخلاصة ذلك: أفبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة، تنكرون أنه منزل من عند الله، فهذا ما لا يستسيغه عقل راجح، ولا فكر رصين، فمثل هذا في غاية الوضوح والجلاء.

الإعراب

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

﴿ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم. ﴿يَرَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألم يتفكر الذين كفروا، ولم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ناصب واسمه. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿كَانَتَا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿رَتْقًا﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَتَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ير. ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿كَانَتَا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿جعلنا﴾ إن كان ﴿جعل﴾ بمعنى خلق أو حال من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول به لـ ﴿جعل﴾ ويحتمل كونه بمعنى: صيّر، فيكون ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: في محل المفعول الثاني، و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول أول. ﴿حَىٍّ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا يتدبرون هذه الأدلة، فلا يؤمنون بتوحيدي، والجملة المحذوفة، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إما مفعول ثان. ﴿رَوَٰسِىَ﴾ هو المفعول الأول، وإما متعلق بـ ﴿جعلنا﴾، أو بمحذوف حال، و﴿رَوَٰسِىَ﴾ مفعول به. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَمِيدَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَمِيدَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل

مصدر، مجرور بإضافة المصدر، المقدّر المنصوب، على كونه مفعولاً لأجله، والتقدير: وجعلنا في الأرض رواسي، كراهية ميدها بهم. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلنا﴾ الأول. ﴿فِيهَا﴾: هو المفعول الثاني، أو متعلق بـ﴿جعلنا﴾. ﴿فِجَاجًا﴾ حال من ﴿سُبُلًا﴾؛ لأنه كان صفة لـ ﴿سُبُلًا﴾، فقدّم عليه. ﴿سُبُلًا﴾ مفعول أول، أو مفعول به. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾: في محل الجرّ بلام التعليل، المقدرة، تقديره: لاهتدائهم إلى مصالحهم ومقاصدهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان. ﴿مَّحْفُوظًا﴾ صفة ﴿سَقْفًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾ الأول. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ متعلق بـ ﴿مُعْرِضُونَ﴾، و﴿مُعْرِضُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، ولكنها حالة سببية، والرابط ضمير ﴿ءَايَٰتِهَا﴾، أو الجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوفات على الليل. ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى العموم. ﴿فِى فَلَكٍ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يَسْبَحُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الشمس والقمر والنجوم، المقدّرة لدلالة السياق عليها، وإنما جعل الضمير واو العقلاء لوصفه إياها بفعل العقلاء، الذي هو السباحة، وتقدم نظيره في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

فائدة: ذهب سيبويه والجمهور، إلى القول[1]: بأن لفظي كل وبعض،

---

(١) إعراب القرآن.

معرفتان بنية الإضافة، ولذلك يأتي الحال منهما في نحو قولهم: مررت بكل قائماً، وببعض جالساً، وأصل صاحب الحال التعريف. وذهب الفارسي: إلى أنهما نكرتان، وألزم من قال بتعريفهما أن يقول: إن نصفاً وسدساً وثلثاً وربعاً ونحوها، معارف؛ لأنها في المعنى مضافات، وهي نكرات بإجماع. وردّ بأن العرب، تحذف المضاف وتريده، وقد لا تريده، ودل مجيء الحال بعد كل وبعض على إرادته. بقي هنا سؤال واحد، وهو: لم أتى بصيغة الجمع في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مع أن مرجع الضمير اثنان فقط، وهو الشمس والقمر؟ والجواب: أن الضمير عائد عليهما مع الليل والنهار، وذلك لأن الليل والنهار يسبحان أيضاً؛ لأن الليل ظل الأرض، وهو يدور على محيط كرة الأرض، على حسب دوران الأرض، وكذلك النهار يدور أيضاً؛ لأنه يخلف الليل في المحيط.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية. ﴿جَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿لِبَشَرٍ﴾ جار ومجرور في محل نصب، مفعول ثان. و﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة ﴿لِبَشَرٍ﴾ ﴿ٱلْخُلْدَ﴾: مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾ الأول، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير عدم خلود البشر. ﴿أَفَإِيْن﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿مِّتَّ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَهُمُ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿هم الخالدون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وهي على نية التقديم؛ لأن أصل الكلام: أفهم الخالدون إن متّ، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: أيبقى هؤلاء المشركون حتى يشمتوا بموته، فإن مت يا محمد، فهم الخالدون في الدنيا بعدك، كما مر في مبحث التفسير، والجملة المحذوفة، جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿كُلُّ

نَفۡسٖ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، مسوقة للاستدلال على عدم الخلود، فلا مجال للشماتة فيه. ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ الواو: استئنافية ﴿نبلوكم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ متعلق به، ﴿وَٱلۡخَيۡرِ﴾ معطوف على الشر؛ أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر، وبما يجب فيه الشكر. ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿نبلوكم﴾ من غير لفظه، منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأن الابتلاء فتنة، فكأنه قيل: نفتنكم فتنة، ويجوز أن يعرب مفعولاً من أجله، أو نصباً على الحال، من فاعل ﴿نبلوكم﴾؛ أي: فاتنين لكم. ﴿وَإِلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾. ﴿تُرۡجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نبلوكم﴾، أو في محل النصب على الحال من مفعول ﴿نبلوكم﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَءَاكَ﴾ فعل ومفعول به لأن رأى بصرية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿رَءَاكَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، مرفوع بالنون. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿هُزُوًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿اتخذ﴾، والجملة الفعلية جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة.

فائدة في جواب إذا: تخالف إذا أدوات الشرط جميعاً، فإن أدوات الشرط، متى أجيبت بأن النافية، أو بما النافية.. وجب الإتيان بالفاء، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، انتهت.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧﴾.

﴿أَهَٰذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام السخري التعجبي. ﴿هذا﴾ مبتدأ

﴿ٱلَّذِى﴾: خبر. ﴿يَذْكُرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: حالة كونهم قائلين: أهذا الذي يذكر آلهتكم. ﴿وَهُم﴾ مبتدأ. ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جار ومجرور ومضاف متعلق بـ ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿هُمْ﴾ تأكيد لضمير المبتدأ. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب. حال من فاعل يتخذونك، أو من فاعل القول المقدر. ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يخلق﴾، أو حال من الإنسان. ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾: السين حرف استقبال. ﴿أريكم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿ءَايَٰتِى﴾ معفول ثان؛ لأنه من رأى البصرية فتعدّى بالهمزة إلى مفعولين، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتأكيد العجلة، وعاقبتها التي هي رؤية العذاب. ﴿فَلَا﴾: الفاء عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية، رعاية للفاصلة، في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة أريكم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة، لإيراد نمط من استعجالهم المذموم. ﴿مَتَىٰ﴾ اسم استفهام، للاستفهام الاستخباري، في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ بدل منه، والتقدير: هذا الوعد كائن متى، أو بفعل محذوف يقع خبر المبتدأ، تقديره: هذا الوعد متى يجيء، أو في محل الرفع خبر مقدم، وهذا هو المشهور، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ليقولون. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بأن الشرطية. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبره. وجواب إن الشرطية معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فمتى هو، وجملة إن الشرطية في محل النصب

مقول القول.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. وعلم هنا بمعنى: عرف، يتعدى لمفعول واحد، تقديره: لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود، الذي سألوا عنه واستبطأوه ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بالمفعول المحذوف، الذي هو مجيء، أو مفعول به لـ ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكُفُّونَ﴾ فعل وفاعل: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَكُفُّونَ﴾. ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول به. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة، ﴿لَا﴾ زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿عَن ظُهُورِهِمْ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة. ﴿لا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ ﴿حِينَ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: لو يعلم الذين كفروا مجيء العذاب الموعود لهم، حين لا يقدرون على كف النار ودفعها عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، ولا يقدرون على نصر أنفسهم لمَّا استمروا على الكفر، واستعجلوا بالعذاب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وابتداء، ﴿تَأْتِيهِم﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على النار والجملة مستأنفة. ﴿بَغْتَةً﴾ حال من فاعل تأتيهم، ولكنه بتأويله بمتشق، أي: حالة كونها باغتة فاجئة، أو مفعول مطلق؛ لأن البغتة نوع من الإتيان. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة ﴿تبهتهم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على النار، والجملة معطوفة على جملة تأتيهم. ﴿فَلَا﴾ الفاء عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تبهتهم﴾. ﴿رَدَّهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنظَرُونَ﴾ خبره، والجملة

الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾ موطئة للقسم و﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بِرُسُلٍ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَحَاقَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿حاق﴾ فعل ماض. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ متعلق به. ﴿سَخِرُوا۟﴾ فعل وفعل صلة الموصول. ﴿مِنْهُم﴾ حال من فاعل ﴿سَخِرُوا۟﴾، أو متعلق به. ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل حاق. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر كانوا، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿حاق﴾ معطوفة على جملة ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ على كونها جواب القسم.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قل. ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ﴿يَكْلَؤُكُم﴾. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على الليل. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ أيضاً. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وابتداء. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿مُّعْرِضُونَ﴾. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، مسوقة للإضراب عما تضمنه الكلام من النفي، والتقدير: ليس لهم كالىء، ولا مانع غير الرحمن، مع أنهم لا يخطرونه في بالهم، فضلاً عن أن يخافوا بأسه وعذابه. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، والتقدير: بل ألهم آلهة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ءَالِهَةٌ﴾

مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿تَمْنَعُهُم﴾ فعل ومفعول وفاعل مستتر، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾. ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه. صفة ثانية لـ ﴿ءَالِهَةٌ﴾. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿هُم﴾ مبتدأ. ﴿مِّنَّا﴾ متعلق بـ ﴿يُصْحَبُونَ﴾. ﴿يُصْحَبُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿مَتَّعْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في محل النصب مفعول به. ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾: معطوف على ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿طَالَ﴾: فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْعُمُرُۗ﴾ فاعل، والجملة الفعلية، في تأويل مصدر، مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى طول العمر. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ الجار والمجرور، متعلق بمحذوف، تقديره: بل متعنا هؤلاء وآبائهم، وأمهلناهم إلى طول العمر بهم. ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألا يتدبر هؤلاء المشركون، المستعجلون بالعذاب فلا يرون. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، سادّ مسدّ مفعولي ﴿يَرَوْنَ﴾؛ لأن الرؤية هنا علمية، ويجوز أن تكون بصرية. ﴿نَنقُصُهَا﴾ فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله تقديره: نحن. ﴿مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾ متعلق بـ ﴿ننقص﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿نَأْتِى﴾، أو من مفعوله؛ أي: نفتحها أرضاً بعد أرض، بما ينقص من أطراف المشركين، ويزيد في أطراف المؤمنين.

﴿أَفَهُمُ﴾ الهمزة للاتسفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد نقصان أرضهم من أطرافها، هم طامعون في النجاة من بأسنا، فهم الغالبون. ﴿هم الغالبون﴾ مبتدأ وخبر والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر. ﴿أُنذِرُكُم﴾ فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرّد عن معنى الشرط ﴿ما﴾ زائدة ﴿يُنذَرُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بـ ﴿يَسْمَعُ﴾. ﴿وَلَئِن﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿نَفْحَةٌ﴾: فاعل. ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ ﴿نَفْحَةٌ﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف لدلالة جواب القسم عليه، والتقدير: وإن مستهم نفحة من عذاب ربك، يقولون: يا ويلنا إلخ، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام، موطئة للقسم، مؤكدة للأولى. ﴿يقولن﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، فاعل، والنون للتوكيد والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿ويلنا﴾ منادي مضاف. نادى الويل ليحضر فيتعجب منه؛ لأن الوقت أوانه. ويحتمل أن تكون الياء للتنبيه. ﴿ويلنا﴾: منصوب بفعل محذوف وجوباً تقديره: ألزمنا الله ويلنا، وجملة النداء، أو الفعل المحذوف، في محل النصب مقول القول. والويل الهلاك، أو كلمة تقال لمن وقع في هلكة.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿ظَٰلِمِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿نضع الموازين﴾ فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾، وقد وصفت بنفس المصدر مبالغة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نضع﴾، واللام فيه بمعنى في ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتقريع. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به ثان لـ ﴿تُظْلَمُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نضع﴾ ﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو يعود على العمل. ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ ومضاف إليه. ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ صفة لـ﴿حَبَّةٍ﴾. ﴿أَتَيْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها. ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿أَتَيْنَا﴾. وأنث ضمير المثقال؛ لأنه أضيف إلى الحبة، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَكَفَىٰ﴾ الواو عاطفة. ﴿كفى﴾ فعل ماض. ﴿بِنَا﴾ فاعل، والباء: زائدة. ﴿حَٰسِبِينَ﴾ تمييز لفاعل كفى، أو حال منه، والجملة معطوفة على جملة إن الشرطية. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَىٰ﴾ مفعول أول. ﴿وَهَٰرُونَ﴾ معطوف عليه. ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ مفعول ثان لأن آتى بمعنى أعطى. ﴿وَضِيَآءً﴾: معطوف على ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾. ﴿وَذِكْرًا﴾ معطوف على ضياء. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿ضياء﴾. وعطف الصفات جائز عندهم، فهو من هذا الوادي. وفي «السمين»: قوله: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾: يجوز أن يكون من باب عطف

الصفات، فالمراد به شيء واحد؛ أي: آتيناهما الكتاب الجامع بين هذه الأشياء. وقيل: الواو زائدة. قال أبو البقاء: ﴿وَضِيَآءً﴾ على هذا حال من الفرقان.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ولك أن تعربه خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين. ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾؛ أي: حال كونهم غائبين ومنفردين عن الناس، أو حال من المفعول. ﴿وَهُم﴾ الواو: عاطفة، أو حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ متعلق بمشفقون. و﴿مُشْفِقُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، أو حال من فاعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾، وذكر الاشفاق من الساعة بعد الخشية، من ذكر الخاص بعد العام، لكونها أعظم المخلوقات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون، وآثر الجملة الاسمية، للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه اهـ من «أبي السعود» ﴿وَهَٰذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هذا ذكر﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لخطاب أهل مكة، ومحاورتهم حول القرآن الكريم، الذي أنزل بلسانهم. ﴿مُّبَارَكٌ﴾ صفة أولى لـ ﴿ذِكْرٌ﴾ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة ثانية لذكر. ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي المضمّن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿مُنكِرُونَ﴾. و﴿مُنكِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنتم عالمون، أن شأنه كشأن التوراة، فأنتم له منكرون، والجملة المحذوفة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الرتق: الضم والإلتحام خلقة كان أو صنعة. والفتق: الفصل بين الشيئين الملتصقين وفي

«المختار»: الرتق: ضد الفتق، وقد رتقت الفتق، من باب نصر سددته فارتتق؛ أي: التأم، ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، والرتق بفتحتين مصدر قولك، امرأة رتقاء؛ أي: لا يستطاع جماعها لارتتاق ذلك الموضع منها، وفي الأساس: رتق الفتق حتى ارتتق. وقرىء: ﴿كَانَتَا رَتَقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وعن ابن الكلبي: كانتا رتقاوين، ففتق الله السماء بالماء، وفتق الأرض بالنبات، وامرأة رتقاء بينة الرتق إذا لم يكن لها خرق إلا المبال. وفي «المختار» أيضاً: فتق الشيء شقه، وبابه نصر، وفتقه تفتيقاً مثله فانفتق اهـ.

﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسية، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ. اهـ «أبو السعود». وفي «المختار»: والرواسي من الجبال الرواسخ، واحدتها راسية. وفي «المصباح»: رسا الشيء يرسو رسواً ورسوا، إذا ثبت فهو راسٍ، وجبالٌ راسيةٌ وراسياتٌ ورواسي.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؛ أي: أن تتحرك وتضطرب. وفي «المصباح»: ماد يميد ميدا من باب باع، وميدانا بفتح الياء إذا تحرك. وفي «الأساس»: غصن مائد مائل وماد يميد ميداناً.

﴿فِجَاجًا﴾ وفي «المختار»: الفج بالفتح: الطريق الواسع بين الجبلين، والجمع فجاج بالكسر، مثل سهم وسهام. والفج بالكسر البطيخ الشامي، وكل شيء من البطيخ والفواكه لم ينضج، فهو فجّ بالكسر. وفي «القاموس» الفج وجمعه فجاج الطريق الواسع بين جبلين، والسبل جمع سبيل، وهو الطريق الواسع مطلقاً.

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ والفلك: كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك، وعبارة الخازن: وقيل: الفلك: طاحونة مستديرة كهيئة فلك المغزل بمعنى: أن الذي تجري فيه النجوم، مستدير كاستدارة الرحى. وقيل: الفلك: السماء الذي فيه ذلك الكوكب، وكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه. وفي «تفسير الرازي»: المسألة الثالثة: الفلك في كلام العرب، كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك.

واختلف العقلاء فيه: فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو استدارة هذه النجوم. وقال الأكثرون: الأفلاك؛ أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم: الفلك موج مكفوف. تجري الشمس والقمر والنجوم فيه. وقال الكلبي: ماء مكفوف تجري فيه الكواكب، واحتج بأن السباحة لا تكون إلا في الماء. قلنا: لا نسلم ذلك، فإنه يقال في الفرس: الذي يمد يديه في الجري سابح. المسألة الرابعة: اختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة. فإنه إما أن يكون الفلك ساكناً، والكواكب تتحرك فيه، كحركة السمك في الماء الراكد، وإما أن يكون الفلك متحركاً، والكواكب تتحرك فيه أيضاً، إما مخالفة لجهة حركته، أو موافقة لجهتها، إما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء، أو مخالفةً، وإما أن يكون الفلك متحركاً والكواكب ساكنة، والذي يدل عليه لفظ القرآن الأول، وهو أن تكون الأفلاك ساكنة، والكواكب جارية فيها، كما تسبح السمكة في الماء الراكد، اهـ «التفسير الكبير للرازي».

﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ الخلود والبقاء ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾؛ أي: مخلوقةٍ، فلا يرد الباري تعالى ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾؛ أي: مرارة مفارقة جسدها، اهـ شيخنا. وهذا دليل على ما أنكر من خلودهم، اهـ «أبو السعود». والذوق هنا: الإدراك. والمراد من الموت، مقدماته من الآلام العظيمة، والمدرك لذلك هي النفس المفارقة، التي تدرك مفارقتها للبدن ﴿نبلوكم﴾ أي: نختبركم. والمراد: نعاملكم معاملة من يختبركم ﴿بالخير والشر﴾؛ أي: بالمحبوب والمكروه ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ أي: بلاءً واختباراً، فهو مصدر مؤكد لنبلوكم، من غير لفظه. وأصل الفتن، إدخال الذهب النار. لتظهر جودته من رداءته. وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يجرِّب أحدكم بالبلاء. كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار. فمنه من يخرج كالذهب، فذاك الذي افتتن». قال الراغب: يقال: بلى الثوب بلى؛ أي خلق، وبلوته اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له، وسمي الغم بلاءً، من حيث إنه يبلي الجسم ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: ما يتخذونك إلاّ مهزوءاً به؛ أي: مسخوراً منه.

﴿مِنْ عَجَلٍۚ﴾ في «المختار»: العجل والعجلة، ضد البطء، وقد عجل من باب طرب، اهـ. وقيل: هما طلب الشيء قبل أوانه، وهما من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة، والمراد بالإنسان هذا النوع، وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، مبالغةً، كما يقال للرجل الذكي: هو نار تشتعل. ويقال لمن يكثر منه الكرم: فلانٌ خلق من الكرم.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ في «المصباح»: بهت وبهت، من بابي قرب وتعب. دهش وتحيَّر، ويعدَّى بالحركة، فيقال: بهته يبهته بفتحتين، اهـ ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ يقال: حاق به، يحيق حيقاً، أحاط به. وحاق بهم الأمر، لزمهم ووجب عليهم، وحاق نزل، ولا يكاد يستعمل إلاّ في الشر. الحيق: ما يشمل الإنسان من مكروه، فعل ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم ﴿مِنَ الرَّحْمَٰنِۗ﴾؛ أي: من بأسه وعقابه، الذي تستحقونه ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾؛ أي: من غيرنا. وفي «المصباح»: كلأه الله يكلؤه، مهموزٌ بفتحتين من باب قطع، كلاءةً بالكسر والمد حفظه، ويجوز التخفيف، فيقال: كليته أكلاه وكلئته أكلؤه من باب تعب لغة قريش، لكنهم قالوا: مكلو بالواو وأكثر من مكلي بالياء اهـ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي: يجارون من عذابنا. تقول العرب: أنا لك جار. وصاحب من فلان؛ أي: ومجير منه. واختاره الطبري.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ المتاع: انتفاع ممتد الوقت، يقال: متعه الله بكذا، وأمتعه وتمتع به ﴿الْعُمُرُۗ﴾ بضم اليمم وسكونها، اسم لمدة عمارة البدن بالحياة؛ أي: طال عليهم الأجل في التمتع فاغتروا. وحسبوا أنهم ما زالوا على ذلك لا يغلبون.

﴿مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾ والأطراف: جمع طرف بالتحريك، وهو ناحية من النواحي، وطائفة من الشيء ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾؛ أي: قسط ونصيب ضئيل. والمس اللمس، ويقال في كل ما ينال الإنسان من أذى. والنفحة من الريح الدفعة، ومن العذاب القطعة. كما في «القاموس». قال في «بحر العلوم». من نفحته الدابة، إذا ضربته؛ أي: ضربة، أو من نفحت الريح إذا هبت؛ أي: هبة،

أو من نفح الطيب، إذا فاح؛ أي: فوحة، كما يقال: شمة. وقال ابن جريج؛ أي: نصيب من نفحه فلان من ماله إذا أعطاه حظاً منه.

فصل في مصادر المرة والنوع أو الهيئة

مصدر المرة، هو ما يذكر لبيان عدد الفعل، ويبنى من الثلاثي المجرد على وزن فعلة. بفتح الفاء وسكون العين، مثل وقفت وقفة ووقفتين ووقفات، فإن كان الفعل فوق الثلاثي ألحقت بمصدره التاء، مثل أكرمته إكرامة، وفرحته تفريحة، وتدحرج تدحرجة، إلا إن كان المصدر ملحقاً في الأصل، بالتاء، فيذكر بعده ما يدل على العدد، مثل رحمته رحمة واحدة، وأقمت إقامة واحدة، واستقمت استقامة واحدة.

أما مصدر النوع أو الهيئة: فهو ما يذكر لبيان نوع الفعل. وصفته، نحو وقفت وقفةً، ويبنى من الثلاثي المجرد، على وزن فعلة بكسر الفاء، مثل عاش عيشة حسنة، ومات ميتة سيئة، وفلان حسن الجلسة، وفلانة هادئة المشية، فإن كان الفعل فوق الثلاثي يصير مصدره، بالوصف مصدر نوع، مثل أكرمته إكراماً عظيماً.

هذا، وهنا تنبيه هام. نبه عليه الشيخ أبو حيان، وهو أن هذه التاء الدالة على المرة الواحدة، لا تدخل على كل مصدر، بل على المصادر الصادرة عن الجوارح المدركة بالحس، نحو قومة وضربةٍ وقعدة وأكلة. وأما مصادر الأفعال الباطنة، والخصال الجليلة الثابتة، نحو: الظرف والحسن والجبن والعلم، فلا يقال، من ذلك: علمته علمةً، ولا فهمته فهمةً، ولا صبرته صبرةً.

﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ الخردل: نبات له حب صغير جداً أسود مقرح، والواحدة خردلة، ويقال: خردل الطعام: أكل خياره، وخردل اللحم: قطع أعضاءه، والخرادل: القطع من اللحم.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزان، والجمع فيه للتعظيم، أو باعتبار أجزائه فإن الصحيح أنه ميزان واحد لجميع الأمم، ولجميع الأعمال، وهو جسم مخصوص،

له لسان وكفتان وعمود، كل كفة، قدر ما بين المشرق والمغرب، ومكانه بين الجنة والنار، كفته اليمنى للحسنات عن يمين العرش، وكفته اليسرى للسيئات عن يساره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التعجبي الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

ومنها: الطباق بين الرتق والفتق في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

ومنها: التنكير للتعميم في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾.

ومنها: التذييل بقوله: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾. وعرّفوه بقولهم: بأنه تذييل الكلام بعد تمامه، وحسن السكوت عليه، بجملة تحقق ما قبلها من الكلام، وتزيده توكيداً، وتخرجه مخرج المثل السائر، ليشيع الكلام بعد دورانه على الألسنة، فإن لم تكن الزيادة تفيد ذلك، فلا يسمى تذييلا. أما في الآية التي نحن بصددها، فإن المعنى مستوفى في الإخبار، بأنه سبحانه لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد، ثم ذيل ذلك الإخبار بما أخرجه مخرج تجاهل العارف، وهو قوله: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، ثم ذيلّ هذا التذييل بما أخرجه مخرج المثل السائر. حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة، التي أنعم بها على العباد.

ومنها: الطباق بين الشر والخير في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف، في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: بكل سوء، لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي ﷺ، من القدح في آلهتهم، بأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر.

ومنها: الاستعارة المكنية، في قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فقد شبّه العجل الذي طبع عليه الشخص، وصار له كالجبلة بأصل مادته، وهي الطين، تشبيهاً مضمراً في النفس، ثم حذف المشبّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله: خلق. وقيل: لا استعارة فيه، وإنما هو من باب القلب، والأصل خلق العجل من الإنسان، لشدة صدوره منه، وملازمته له، والقلب موجود في كلامهم كثيراً، والأول أولى وأقعد بالبلاغة، ومن بدع التفاسير ما قالوه: من أن العجل هو الطين، بلغة حمير.

ومنها: إيثار صيغة المضارع والشرط في قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وإن كان المعنى على المضي، لإفادة استمرار عدم العلم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنه كناية عن إحاطة النار بهم من كل جانب، ذكره أبو السعود.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ لفائدة التسجيل عليهم، فقد كان مقتضى السياق أن يقول: ﴿ولا يسمعون﴾ ولكنه صرح بالصم، وتجاوز بالظاهر عن ضميره، للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم، إذا أنذروا، وللدلالة على صدور إنكار شديد، وغضب عظيم، وتعجب من نبو أسماعهم عن الوحي، وعدم إصاغتهم لما ينفعهم وإمعانهم في ركوب الغي والضلال.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ حيث استعار الصم للكفار؛ لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء، ولا تفقه النداء.

ومنها: إسناد الضمير إلى الله تعالى في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أسند سبحانه الضمير إلى نفسه. تعظيماً للمسلمين، الذين

أجرى على أيديهم الانتصار العظيم، وافتتاح البلاد والأمصار. تنويهاً بقدر المجاهدين، وتعظيماً لما أتوا به من فضائل الأعمال.

ومنها: ثلاث مبالغات في قوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾.

١ ـ ذكر المس وهو أقل شيء، بل هو شيءٌ رفيقٌ جداً، فما بالك إذا انثال عليهم، أي: يكفي للدلالة على ذلهم، وهو أن أمرهم، ووهن عزيمتهم، أن أقل من يكفيهم ليذعنوا ويتطامنوا ويعلنوا ذلهم وخضوعهم، والإقرار على أنفسهم. بأنهم تصامّوا وأعرضوا.

٢ ـ وما في النفحة، من معنى القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة ونفحة بعطيَّة.

٣ ـ بناء المرة من النفح، فمصدر المرة، يأتي على فعلة؛ أي: نفحة واحدة لا ثاني لها، تكفي لتشتيت أمرهم، وتوهين كيانهم، وتصدع صفوفهم، فكيف إذا عززت بثانية أو ثالثة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ لأن السبح حقيقة في المر السريع في الماء، أو في الهواء، فاستعير لمر الشمس والقمر والنجوم في الفلك.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿سَقْفًا﴾؛ أي؛ كالسقف للأرض.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يَذْكُر﴾ و﴿ذِكْر﴾ في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وبين عجل ويستعجلون في قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿استهزىء﴾ و﴿يستهزئون﴾، في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الآية، وبين ﴿إنما أنذركم﴾ و﴿ينذرون﴾، في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ...﴾ الآية.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَآ﴾ تنزيلاً له منزلة العاقل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ لأنه كناية عن العمل، ولو كان في غاية القلة والحقارة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ
مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ
أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا
عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي
بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ
ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت
تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ
مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ
يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ
وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ
عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن
يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا قدّ الكلام في دلائل التوحيد[1]، والنبوة والمعاد، أتبع ذلك بثلاثة عشر نبياً غير مراعٍ في ذكرهم الترتيب الزماني، وذكر بعض ما نال كثيراً منهم من الابتلاء، كل ذلك تسليةً للرسول ﷺ، وليتأسى بهم فيما جرى عليه من قومه.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الكفرة، لما أقروا[2] على أنفسهم، بأن لا فائدة في آلهتهم، قامت لإبراهيم الحجة عليهم، فوبّخهم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع، إذ هذا مما لا ينبغي لعاقل، أن يقدم عليه، وبعد أن دحضت حجتهم، وبان عجزهم، انقلبوا إلى العناد واستعمال القوة الحسية، إذ أعيتهم الحجة، فقالوا: حرّقوا إبراهيم بالنار، وانصروا آلهتكم التي جعلها جذاذاً، ولكن الله سلّمه من كيدهم، وجعل النار برداً وسلاماً عليه.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمّا ذكر ما أكرم به إبراهيم، من نجاته من النار، قفّى على ذلك، ببيان أنه أخرجه من بين قومه مهاجراً إلى بلاد الشام، وهي الأرض المباركة، ثم وهب له من الذرية إسحاق وابنه يعقوب عليهما السلام، وكانا أهل صلاح وتقوى يقتدى بهما، ويؤتمر بأمرهما، ثم أردف ذلك، بذكر ما آتى لوطاً من العلم والنبوة، وجعله يعزف عن مفاسد تلك القرية، التي كان يقيم فيها بين ظهراني أهلها، وقد أهلكهم جميعاً وأنجاه هو وأهله، وأدخله في جنات النعيم، وقرّبه إلى حظيرة قدسه وساحة رحمته.

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى؛ لما ذكر قصة إبراهيم، وهو أبو العرب، أردفها بقصة نوح، وهو الأب الثاني للبشر على المشهور، من أن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى، لمّا ذكر ما أنعم به على نوح عليه السلام من النعم الجليلة، قفّى على ذلك بذكر الإحسان العظيم، الذي آتاه داود وسليمان عليهما السلام، وهو قسمان:

أولاً: نعم مشتركة بينهما وبين غيرهما من النبيين، وهي العلم والفهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ثانياً: نعم خاصة بواحد دون الآخر:

١ ـ فأنعم على داود بتسخير الجبال والطير للتسبيح معه، وتعليم صنعة الدروع، للوقاية من أذى الحرب.

٢ ـ وأنعم على سليمان بتسخير الريح العاصفة التي تجري بأمره، وبتسخير الشياطين تغوص في البحار، لتخرج اللؤلؤ والمرجان، وتعلم له أخرى غير ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

ولما تكلم(١) الله سبحانه وتعالى، في دلائل التوحيد، والنبوة، شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام: تسلية لرسوله ﷺ، فيما يناله من أذى قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة، والصبر على كل عارض، وذكر منها عشر قصص:

الأولى: قصة موسى عليه السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ

---

(١) الفتوحات.

وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

القصة الثانية: قصة إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

القصة الثالثة: قصة لوط عليه السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

القصة الرابعة: قصة نوح عليه السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن﴾.

القصة الخامسة: قصة داود وسليمان عليهما السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾.

القصة السادسة: قصة أيوب عليه السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾.

القصة السابعة: قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل، المذكورة في قوله: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾.

القصة الثامنة: قصة يونس عليه السلام المذكورة في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾.

القصة التاسعة: قصة زكريا عليه السلام المذكورة في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾.

القصة العاشرة: قصة مريم وابنها عليه السلام، المذكورة في قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ الخ، اهـ من الخطيب.

ثم شرع في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي؛ وعزتي وجلالي لقد آتينا وأعطينا إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿رُشْدَهُۥ﴾؛ أي[1]: ما فيه صلاحه وهداه ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل موسى وهارون ووفقناه

---

(١) المراغي.

للحق، وأضأنا له سبيل الرشاد، وأنقذناه من بين قومه، من عباد الأصنام، وقال الفراء: أعطيناه هداه، من قبل النبوة والبلوغ، اهـ، أي: وفقناه للنظر والاستدلال. لمَّا جنّ عليه الليل، فرأى الشمس والقمر والنجم، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين.

والرشد[1]: خلاف الغي، وهو الابتداء لمصالح الدين والدنيا، وكماله يكون بالنبوة؛ أي: بالله لقد آتينا بجلالنا وعظيم شأننا إبراهيم الخليل عليه السلام، الرشد اللائق به، وبأمثاله من الرسل الكبار، على ما أفادته الإضافة من قبل؛ أي؛ من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة، وتقديم زكريا إيتائها، لما بينه وبين إنزال القرآن من الشبه التام ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾؛ أي؛ وكنا عالمين، بأنه أهل لما آتيناه، من الرشد والنبوة، وتقديم الظرف، لمجرد الاهتمام، مع رعاية الفاصلة، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿رشده﴾ بضم الراء وسكون الشين، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿رشده﴾ بفتح الراء والشين، وأضاف الرشد إلى إبراهيم، بمعنى: رُشْدَ مِثْله، وهو رشد الأنبياء، وله شأن؛ أي: شأن. أو المعنى: وكنا عالمين بأنه ذو يقين، وإيمان بالله، وتوحيد له، لا يشرك به شيئاً، فهو جامع لأحاسن الفضائل، ومكارم الأخلاق، وجميل الصفات. والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ متعلق بآتينا، على أنه وقت متسع، وقع فيه الإيتاء، وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله. أو بمحذوف، تقديره: اذكر حين قال إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، والظاهر، من عدم التعرض لأمه، كونها مؤمنةً، كما يدل عليه تبريه وامتناعه من أبيه دونها ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ نمرود ومن اتبعه.

والمراد من قومه[3]: أهل بابل بالعراق، وهي بلاد معروفة، من عبادان إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الموصل طولاً، ومن القادسية إلى حلوان عرضاً، سميت بها، لكونها على عراق دجلة والفرات؛ أي؛ شاطئهما.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ أي: آتيناه الرشد، حين قال لأبيه آزر ولقومه، وهم مجتمعون: ما هذه الأصنام التي تقيمون على عبادتها وتعظيمها، وقد أراد عليه السلام، بهذا السؤال، تنبيه أذهانهم، إلى التأمل في شأنها، وتحقير أمرها، متجاهلاً حقيقتها، وكأنه يومىء بذلك، إلى أنهم لو تأملوا قليلاً، لأدركوا أن مثل هذه الأحجار، والخشب، لا تغني عنهم قُلًّا، ولا كثراً؛ أي[1] ما هذه الصور التي أنتم عابدون لها، وكانت تلك الأصنام اثنين وسبعين صنماً، بعضها من ذهب، وبعضها من فضة، وبعضها من حديد، وبعضها من رصاص، وبعضها من نحاس، وبعضها من حجر، وبعضها من خشب، وكان كبيرها من ذهب مكلّلا من جواهر، في عينيه ياقوتتان، تتقدان، تضيئان في الليل.

والتماثيل[2]: جمع تمثال، وهو الشيء المصوَّر، المصنوع مشبهاً بخلق من خلائق الله، والممثل المصوّر على مثال غيره. من مثلث الشيء بالشيء، إذا شبّهته به. والعكوف الإقبال على الشيء، وملازمته على سبيل التعظيم، لغرض من الأغراض، ضمَّن معنى العبادة، كما يدل عليه الجواب الآتي، ولذا جيء باللام دون على؛ أي: ما هذه الأصنام التي أنتم لها عابدون لها، مقيمون عليها. وهذا السؤال، تجاهل منه، وإلاّ فهو يعرف أن حقيقتها حجر، أو شجر، اتخذوها معبوداً، فالاستفهام فيه، استفهام متجاهل.

وقوله: ﴿قَالُواْ﴾ كلام مستأنف، واقع في جواب سؤال مقدر، تقديره: قال إبراهيم لهم: أي شيءٍ حملكم على عبادتها؟ قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿لَهَا عَٰبِدِينَ﴾؛ أي: عابدين لها، فنحن نعبدها اقتداء بهم، وهو جواب العاجز عن الإتيان بالدليل.

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا[1] التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء؛ أي: وجدنا آباءنا يعبدونها، فعبدناها، اقتداء بهم، ومشيا على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة، من أهل هذه الملة الإسلامية، وإن العالم بالكتاب والسنة؛ إذا أنكر عليهم العمل، بمحض الرأي، المدفوع بالدليل.. قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين، وبرأيه آخذين، وجوابهم، هو ما أجاب به الخليل ها هنا بقوله: ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: والله ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ وأسلافكم الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأ بيّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ذلك، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام. التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران.

وقال آخر أيضا:

يَـأْبَـىٰ ٱلْـفَـتَـىٰ إِلاَّ ٱتِّـبَـاعَ ٱلْـهَـوَىٰ وَمَـنْـهَـجُ ٱلْـحَـقِّ لَـهُ وَاضِـحُ

ثم لمَّا سمع أولئك الكفرة مقالة الخليل ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ أنت فيما تقول لنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق والجد ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ والمازحين بنا، فتقول ما تقول على وجه المزاح واللعب، حسبوا أنهم، إنما أنكر عليهم دينهم القديم، مع كثرتهم وشوكتم على وجه المزاح واللعب. وفي[2] إيراد الشق الثاني بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم، اهـ شيخنا.

والاستفهام فيه استفهام تعجب واستبعاد؛ أي[3]: قالوا له حين سمعوا مقالته، مستبعدين أنهم في ضلال، ومتعجبين من تضليله إياهم: أجادٌ أنت فيما تقول، أم أنت لاعبٌ مازحٌ. فإنّا لم نسمع بمثله من قبل.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

وخلاصة هذا: أنهم لما سمعوا منه، ما يدل على تحقير آلهتهم وتضليله إياهم، وشاهدوا منه الجد في القول، والغلظة فيه، طلبوا منه الدليل على صدق ما يقول: إن كان جاداً، ثم ارتقوا من هذا، إلى بيان أنه هازل لاعبٌ، كما هو دأبه وعادته من قبل، ولا يقصد بذلك إظهار حق ألبتة. وفيه إشارة لطيفة، وهي كما أن أهل الصدق والطلب يرون أهل الدنيا لاعبين، والدنيا لعباً ولهواً، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ كذلك أهل الدنيا، يرون أهل الدين لاعبين، والدين لعباً ولهواً. فرد عليهم منتقلاً من تضليلهم في عبادة الأوثان، إلى بيان الحق، وذكر المستحق للعبادة مضرباً عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد ف ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم: ﴿بَل﴾ جئتكم بالحق، لا باللعب ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن ربكم ومالككم الذي يستحق منكم العبادة، مالك السموات والأرض ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي: أنشأ السموات والأرض، وخلقهن ابتداء من غير مثال سابق يحتذى، فهو الخالق كما أنه المربي. فالضمير[1] للسموات والأرض، أو للتماثيل؛ أي: فكيف تعبدون من كان من جملة المخلوقات.

وخلاصة هذا: أن الجدير بالعبادة، هو من ربّاكم تحت ظلال عطفه، وأنعم عليكم بجزيل برّه ولطفه، وأوجدكم، وأوجد السموات والأرض من العدم، لا من كان بمعزل عن كل ذلك.

وفي هذا، إرشاد إلى أنه، ينبغي لهم أن يرعووا عن غيِّهم، ويعلموا من يستحق العبادة فيعبدونه، ويخضعون له وبذلك يهتدون إلى الطريق السوي.

ثم ختم مقاله: بنفي اللعب والهزل عن نفسه فقال: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الذي ذكرته لكم، من كون ربكم رب السموات والأرض فقط، دون ما عداه، كائناً ما كان ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من العالمين به على الحقيقة المبرهنين عليه، وليس المراد حقيقة الشهادة؛ لأنه لا شهادة من المدعي، بل استعيرت الشهادة لتحقيق الدعوى بالحجة والبرهان؛ أي: لست من اللاعبين في الدعاوى، بل من المحتجين عليها بالبراهين القاطعة، بمنزلة الشاهد الذي تقطع به الدعاوي.

---

(١) روح البيان.

أي[1]: وأنا أستدل على ما أقول بالحجة، كما تصحَّح الدعوى بالشهادة، وأبرهن عليه، كما تبين القضايا بالبينات، فلست مثلكم أقول ما لا أقدر على إثباته، فإنكم لم تقدروا على الاحتجاج على مذهبكم، ولم تزيدوا على أن تقولوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون.

وقصارى ما أقول[2]: لست من اللاعبين الهازلين، بل من العالمين بذلك بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، كالشاهد الذي يكون قوله الفصل في إثبات الدعوى وإحقاق الحق.

وبعد أن أقام البرهان على إثبات الحق، أتبعه بالتهديد لهدم الباطل، ومحو آثاره، وأنه سينقل من المحاجة القولية إلى تغيير المنكر، ثقة بالله ومحاماة عن دينه، جمعا بين القول والفعل، فقال: ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ القوي العظيم، وقرأ الجمهور: ﴿وتالله﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ معاذ بن جبل وأحمد بن حنبل ﴿بِٱللَّهِ﴾ بالباء الموحدة ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾؛ أي: لأمكرن وأجتهدن في كسر أصنامكم، وإلحاق الأذى بها. قال مجاهد وقتادة: قال إبراهيم، عليه السلام هذه المقالة سرّاً من قومه، ولم يسمع ذلك إلاّ رجل واحد منهم، فأفشاه عليه، وقال: إنا سمعنا فتى يذكرهم، يقال له إبراهيم. وفي التعبير بالكيد إيذان بصعوبة الوصول إلى كسرها، وتوقفه على استعمال الحيل، لا سيما زمن نمرود، على عتوّه واستكباره وقوة سلطانه، وتهالكه على نصرة دينه.

فإن قيل[3]: لِمَ قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ والكيد: هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به، والأصنام جمادات لا تتضرر بالكسر ونحوه، وأيضاً ليست هي، مما يحتال في إيقاع الكسر عليها؛ لأن الاحتيال إنما يكون في حق من له شعور؟

أجيب: بأن ذلك من قبيل التوسع في الكلام، فإن القوم كانوا يزعمون أن الأصنام لهن شعور، ويجوز عليهن الضرر، فقال ذلك بناء على زعمهم. وقيل:

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

المراد: لأكيدنكم في أصنامكم؛ لأنه بذلك الفعل، قد أنزل بهم الغم.

والأصنام: جمع صنم، وهي جثة متخذة من فضة، أو نحاس أو خشب مثلاً كانوا يعبدونها، متقربين بها إلى الله تعالى، كما في «المفردات».

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾ وترجعوا[1] من عبادتها. مضارع ولّى مشدداً ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وذاهبين إلى عيدكم، وهو حال مؤكدة، لأن التولية والإدبار بمعنى، والإدبار نقيض الإقبال وهو الذهاب إلى خلف؛ أي بعد أن ترجعوا عن عبادتها حالة كونكم ذاهبين ومنطلقين إلى عيدكم. وقرأ الجمهور: ﴿تُولوا﴾ بضم التاء، مضارع ولّى الرباعي وقرأ عيسى بن عمر ﴿تولّوا﴾ بفتح التاء فحذف إحدى التاءين وهي الثانية على مذهب البصريين، والأولى على مذهب هشام، وهو مضارع تولى الخماسي، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ذكره في «البحر».

وقال السدي: كان[2] لهم في كل سنة مجمع عيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم، دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد، قال آزر: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا، أعجبك ديننا فخرج معهم، ولما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيم، أشتكي برجلي. فلمّا مضوا، نادى في آخرهم، وقد بقي فيهم ضعفاء الناس: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، وهي في بهو عظيم، وكان مستقبل هذا البهو، صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض، يليه أصغر منه إلى باب البهو - والبهو: البيت الذي يقيمونه أمام البيوت، ويجتمون فيه للندوة - وإذا هم قد جعلوا طعاماً، فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا، وباركت الآلهة عليه أكلنا منه، فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم، مستهزئاً: ألا تأكلون؟ فلما لم يجيبوه قال لهم: ما لكم لا تنطقون، وراغ عليهم ضرباً باليمين، وجعل يكسرهن بفأس في يده، حتى إذا لم يبق إلاّ الصنم الأكبر، علّق الفأس في عنقه، ثم خرج فذلك

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ والفاء فيه فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال إبراهيم لهم، وأردت بيان ما فعله بالأصنام.. فأقول لك: جعل إبراهيم الأصنام جذاذاً؛ أي: حطاماً رفاتاً فتاتاً قطاعاً مكسرة، إلاّ كبيرا للأصنام لم يكسره، فهو[1] استثناء من مفعول قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، و﴿لَّهُمْ﴾ صفة لـ﴿كبيراً﴾، والضمير للأصنام؛ أي: لم يكسر الكبير وتركه على حاله، وعلّق الفأس في عنقه. وكبره في التعظيم، أو في الجثة، أو فيهما. وهذا هو الكيد الذي وعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل أولئك الضُلّال ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الكبير. وتقديم الظرف للاختصاص، أو لمجرد الاهتمام مع رعاية الفاصلة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها؛ أي[2]: لعل أولئك الطغاة، يرجعون إلى الكبير، كما يرجع إلى العالم، في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء الصغار مكسورة، وما لك صحيحاً، والفأس في عنقك، أو في يدك، وحينئذٍ يستبين لهم، أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، ويظهر لهم أنهم في عبادتهم على جهل عظيم، وقد كان هذا بناء على ظنه في أمرهم، لما جرَّب وذاق من مكابرتهم، واعتقادهم في آلهتهم، وتعظيمهم لها، فيستجهلهم ويبكتهم بذلك.

وقيل: الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى إبراهيم؛ أي: لعلهم إلى إبراهيم يرجعون، لاشتهاره بإنكار دينهم وسبّ آلهتهم وعداوتهم، فيحاججهم بقوله: بل فعله كبيرهم، فيحججهم ويبكتهم، كما في «الإرشاد» وغيره، أو لعلهم[3] يرجعون إلى دين إبراهيم بوجوب الحجة عليهم، قاله الزجاج.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿جُذَاذًا﴾ بضم الجيم. وقرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود وأبو رزين وقتاد وابن محيصن والأعمش والكسائي: ﴿جِذاذاً﴾ بكسر الجيم. وقرأ أبو رجاء العطاردي وأيوب السختياني وعاصم الجحدري وابن عباس وأبو نهيك وأبو السماك ﴿جَذاذا﴾ بفتح الجيم. وقرأ الضحاك وابن يعمر ﴿جَذذا﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) زاد المسير.

(٤) زاد المسير والبحر المحيط.

بفتح الجيم من غير ألف. وقرأ معاذ القارىء وأبو حيوة وابن وثاب ﴿جُذذا﴾ بضم الجيم من غير ألف.

قال قطرب: هي في لغاتها كلها مصدر، فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث اهـ. وقال أبو حاتم: أجودها الضم، كالحطام والرفات، وهي قراءة العامة، والظاهر أن المضموم اسم للشيء المكسور، كالحطام والرفات والفتات بمعنى: الشيء المحطم والمفتّت. وقال اليزيدي: المضموم جمع جُذاذة بالضم، نحو زجاج في زجاجة، والمكسور جمع جذيذ، نحو كرام في كريم. وقال بعضهم: المفتوح مصدر بمعنى المفعول.

فلما رجعوا من عيدهم إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال قوم إبراهيم على سبيل التوبيخ، والتأنيب حين رأوا آلهتهم قد صارت جذاذاً؛ إلاّ الذي علق فيه إبراهيم الفأس ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ الكسر ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؛ أي: من كسر هذه الآلهة وجعلها هكذا. والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ. ولم يقولوا ﴿بهؤلاء﴾ مع أنها كانت بين أيديهم حيث قالوا: ﴿بآلهتنا﴾ مبالغة في اللوم، والتعنيف والتشنيع ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بكسرها، حيث عرض نفسه للهلاك؛ أي: إنه لمن زمرة الذين ظلموا أنفسهم، وتجرؤوا على إهانة هذه الآلهة، وهي المستحقة بالإعظام والتكريم ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بعض منهم ممن سمع قوله: تالله لأكيدن أصنامكم، للسائلين، فالآية تدل على أن القائلين جماعة منهم ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى﴾ وهو الطري من الشبان ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ بسوء. صفة أولى لـ ﴿فَتٗى﴾؛ أي: يعيب آلهتنا، ويستهزىء بهم، ولم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وإنا لنظن أنه صنع ذلك بهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: يطلق عليه هذا الاسم. صفة له ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: السائلون. قال بعضهم: بلغ ذلك النمرود الجبار وأشراف قومه، فقالوا فيما بينهم؛ أي: قال أولئك القائلون: من فعل هذا بآلهتنا؟ إذا كان الأمر كما ذكرتم ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بإبراهيم، والفاء فيه للإفصاح ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ حال[1] من ضمير ﴿به﴾؛ أي: إذا كان الأمر كما قلتم، فأتوا به، حالة

---

(١) روح البيان.

كونه ظاهراً على أعين الناس، مكشوفاً بمرأى منهم، ومنظر ومسمع منهم، بحيث تتمكن صورته في أعينهم، تمكّن الراكب على المركوب ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أنه الذي فعل ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا؛ أي: لعل بعضاً منهم يشهدون بفعله، أو بقوله ذلك، لئلا نأخذه بلا بينة.

وفيه إشارة إلى أن في بعض الكفار، من لا يحكم على أهل الجنايات إلاّ بمشهد من العدول، فكل حاكم يحكم على متّهم بالجناية، من غير بيّنة، فهو أسوأ حالا منهم، ومن قوم نمرود كما في «التأويلات النجمية».

وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب شرط مقدر تقديره: فلما أتوا به وشهدوا عليه، قالوا منكرين عليه فعله، موبّخين له ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ الكسر ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾ وأصنامنا ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؛ أي[1]: أأنت الذي كسر هذه الأصنام، وجعلهم جذاذاً، وقد طلبوا منه الاعتراف بذلك، ليقدموا على إيذائه، وهم مقتنعون بصحة هذه الجريمة في زعمهم، فما كان منه إلاّ أن بادرهم بما أدهشهم، حتى تمنّوا الخلاص منه، فـ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: الذي كان الفأس على عنقه، مشيراً إلى الذي لم يكسره، وهذا صفة لـ ﴿كبير﴾؛ أي: قال إبراهيم: بل الذي فعل هذا الكسر، هو الصنم الأكبر، الذي لم يكسر. أسند[2] الفعل إليه باعتبار أنه الحامل عليه؛ لأنه لما رأى الأصنام مصطفة، مزينة يعظمها المشركون، ورأى على الكبير ما يدل على زيادة تعظيمهم له، وتخصيصهم إياه بمزيد التواضع، والخضوع غاظه، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد، وقال بعضهم: فعله كبيرهم هذا، غضب من أن تعبد معه هذه الصغار، وهو أكبر منها.

وإيضاح هذا[3]: أن إبراهيم عليه السلام، لمّا رأى تعظيمهم لهذا الصنم، أشدّ من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام، غضب أشد الغضب، وأسند إليه الفعل الصادر منه من قبل أنه هو الذي حمله على ذلك، وهو يومىء بذلك إلى

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

مقصده، وهو إلزامهم الحجة على ألطف وجه، وأحسنه، مع حملهم على التأمل في شأن آلهتهم.

ومجمل كلامه: أن شديد غضبي من تعظيمكم له، حملني على أن أفعل هذا، والفعل كما ينسب إلى المباشر له، ينسب إلى الباعث عليه، فهذا الصنم الأكبر، قد كان السبب في استهانتي بهم، وتحطيمي إياهم؛ أي: قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم، مبكتاً لهم: بل فعله كبيرهم هذا، مشيراً إلى الصنم الذي تركه، ولم يكسره ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾؛ أي: فاسألوهم؛ أي: فاسألوا هؤلاء الأصنام المكسورة، عن كاسرهم ليخبروكم به ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾؛ أي[1]: إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه السلام، أن يبيّن لهم، أن من لا يتكلم، ولا يعلم، ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل، أن يطلق عليه أنه إلٰه، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم، بما يوقعهم في الاعتراف، بأن الجمادات التي عبدوها، ليست بآلهة؛ لأنهم إذا قالوا: إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم، بما يقع عنده، في المكان الذي هو فيه، فهذا الكلام، من باب فرض الباطل مع الخصم، حتى تلزمه الحجة، ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته، وأدفع لمكابرته.

وفي الحديث المتفق عليه[2]: «لم يكذب إبراهيم النبي قط، إلاّ ثلاث كذبات» سميت المعاريض كذباً، لمَّا شابهت صورتها صورته، وإلاّ فالكذب الصريح كبيرة، فالأنبياء معصومون منها. فإن قلت: إذا كانت هذه معاريض، لم جعلها سبباً في تقاعده عن الشفاعة، حين يأتي الناس إليه، يوم القيامة؟ قلت: الذي يليق بمرتبة النبوة والخلة، أن يصدع بالحق، ويصرح بالأمر، ولكنه قد تنزّل إلى الرخصة، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والتعريض: تورية الكلام عن الشيء بالشيء، وهو أن تشير بالكلام إلى

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

شيء، والغرض منه شيء آخر، فالغرض من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ الإعلام بأن من لم يستطع دفع المضرة عن نفسه.. كيف يستطيع دفع المضرة عن غيره، فكيف يصلح إلهاً؟!

وقرأ ابن السميقع[1]: ﴿بل فعلّه﴾ بتشديد اللام على معنى بل، فلعل الكاسر والفاعل ذلك كبيرهم ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه، المراجع لعقله، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقالة بينهم وبين إبراهيم، أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن فعل به، مافعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة، ولهذا ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم، بعبادة هذه الجمادات، وليس الظالم، من نسبتم الظلم إليه بقولكم ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وما هذا منكم إلاّ غرور وجهل، بما ينبغي أن تكون عليه حال المعبود.

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذٍ[2]، ورجعوا عن فكرة سليمة، لا غبار عليها، بوصفهم أنفسهم بالظلم إلى فكرة خاطئة، وهي الحكم بصحة عبادتها، مع اعترافهم بأن حالهم دون حال الحيوان، فلا ينبغي لعاقل أن يعبدها، فقال: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟﴾ وانكبوا ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه، عودهم إلى الباطل، بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. وقيل: المعنى أنهم طأطؤوا رؤوسهم خجلةً من إبراهيم؛ أي: انقلبوا عن الفكرة الصالحة إلى الحالة الأولى، فأخذوا في المجادلة بالباطل قائلين: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿يَنطِقُونَ﴾؛ أي: لقد علمت أنه ليس من شأنهم النطق، فكيف تأمرنا بسؤالهم.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم وابن الجارود والبكراوي[3]:

---

(١) الشوكاني والبحر.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

كلاهما عن هشام ﴿نكّسوا﴾ بالتشديد. وقرىء ﴿نَكَسُوا﴾ بالبناء للفاعل مع التخفيف؛ أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم، وهي قراءة رضوان بن عبد المعبود، أي: لقد بلغ الأمر بهم، إلى أن قالوا: إنما اتخذناهم آلهة، مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون، فكيف تأمرنا بسؤالهم، وإنما قال: ﴿يَنطِقُونَ﴾، ولم يقل: يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب، وأن عدم نطقهم أبلغ في تبكيتهم فـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مبكتاً لهم وموبخاً ﴿أ﴾ تعلمون ذلك ﴿فتعبدون من دون الله﴾ سبحانه؛ أي: حال كونكم متجاوزين عبادته تعالى، فالهمزة للاستفهام التوبيخي التبكيتي المضمّن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير أتعلمون عدم نطقها، فتعبدون من دون الله ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؛ أي: فتعبدون من دون الله معبودات، لا تنفعكم شيئاً من النفع إن عبدتموها، فتعلقوا رجاءكم بها، ولا تضركم شيئاً من الضرر إن لم تعبدوها فتخافوها، فإن العلم بالحالة المنافية للألوهية، مما يوجب الاجتناب عن عبادتها قطعاً ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾؛ أي؛ تباً ونتناً لكم ﴿و﴾ قبحاً ﴿لما تعبدون﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه، أي: لمعبوداتكم التي اتخذتموها من دون الله. واللام[1] لبيان المتضجر لأجله؛ أي: هذا التأفف لكم ولآلهتكم، لا لغيركم. وعائد الموصول محذوف كما قدَّرناه، وهذا تضجر منه عليه السلام، من إصرارهم على الباطل البيِّن. و﴿أُفٍّ﴾ صوت التضجر، إذا صوت بها الإنسان علم أنه متضجّر، ومعناه: قبحاً ونتناً. وفي كتب النحو، من أسماء الأفعال ﴿أُفٍّ﴾ بمعنى أتضجر. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك، والتقدير: أجننتم، فلا تعقلون قبح صنيعكم؛ أي: أليس لكم عقل تعقلون به، أنَّ هذه الأصنام لا تستحق العبادة.

والمعنى: أي[2] أفلا تتدبرون ما أنتم فيه، من الضلال والكفر، الذي لا يروج إلا على جاهل فاجر، وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره، وحنَّكتهم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تجارب الأيام، فمن حقكم أن تعاودوا الرأي وتقلبوه ظهراً لبطن، لعلكم ترشدون بعد الضلال، وتهتدون بعد الغيّ والعمى.

قال ابن عطاء[1]: دعا الله تعالى عباده إليه، وقطعهم عما دونه بقوله: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ. . .﴾ إلخ كيف تعتمده وهو عاجز مثلك، ولا تعتمد من إليه المرجع، وبيده الضرُّ والنفع. قال حمدون القصَّار: استغاثة الخلق بالخلق، كاستغاثة المسجون بالمسجون. وقال بعض الكبار: طلبك من غيره لوجود بعدك عنه، إذ لو كنت حاضراً بقلبك معه، ما صح منك توجه لغيره، وكل ما دون الله، خوض ولعب، فالتعلق به زور وكذب، فدع الكل جانباً، وتعلق بمولاك حتماً، تجده في كل مهم وغيره مغنياً، وعند كل شيء حقاً يقيناً، جعلنا الله ممن تعلق به بلا علة، وعافانا من الذلة والزلة والقلة.

ولما بان عجزهم عن مجادلته، وحصحص الحق لجؤوا إلى الغلظة واستعمال القسوة فـ ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض، والقائل ملكهم نمرود بن كنعان. وقيل: القائل، رجل من أكراد فارس، اسمه هينون، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: حرّقوا إبراهيم بالنار، واتفقت كلمتهم على إحراقه لأنه أشدّ العقوبات ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ بالانتقام لها؛ أي: انتقموا منه لآلهتكم ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ نصرها، ولا تريدون خذلانها وترك عبادتها.

ذكر القصة في ذلك

فلما[2] اجتمع نمروذ وقومه، لإحراق إبراهيم، حبسوه في بيت، وبنوا بنياناً كالحظيرة بقرية يقال لها «كُوثَى» ـ بضم الكاف، قريةٌ بالعراق ـ: ثم جمعوا له أصلاب الحطب، وأصناف الخشب مدة شهر، حتى كان الرجل يمرض، فيقول: لئن عوفيت لأجمعن حطباً لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب: لئن أصابته، لتحطبن في نار إبراهيم، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، احتساباً في دينها، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب من ماله لإبراهيم، فلما

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

جمعوا ما أرادوا، وأشعلوا في كل ناحية من الحطب ناراً، فاشتعلت النار واشتدت، حتى أن الطير ليمر بها فيحترق، من شدة وهجها وحرها، فأوقدوا عليها سبعة أيام، فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقونه، فقيل: إن إبليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق، فعملوه، ثم عادوا إلى إبراهيم فقيدوه، ورفعوه على رأس البنيان، ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة، وجميع الخلق: إلاّ الثقلين صيحة واحدة: أي: ربنا إبراهيم خليلك يلقى في النار، وليس في أرضك أحد يعبدك غيره، فائذن لنا في نصرته، فقال الله تعالى: إنه خليلي ليس لي خليل غيره، وأنا إلهه ليس له إله غيري، فإن استغاث بأحد منكم، أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به، وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خازن المياه وقال: إن أردت، أخمدت النار، وأتاه خازن الهواء، وقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروى عن أبي بن كعب[١]: أن إبراهيم، قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال جبريل: فاسأل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قال: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ، حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم أخرجه البخاري.

قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفىء عنه النار إلاّ الوزغ، فإنه كان ينفخ في النار.

---

(١) الخازن.

وعن أم شريك أن رسول الله ﷺ، أمر بقتل الأوزاغ. متفق عليه، زاد البخاري: وكان ينفخ على إبراهيم.

ثم أبان سبحانه، أنه أبطل كيدهم، ودفع عنه هلاكاً محققاً بمعونته وتأييده، فقال: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِى﴾؛ أي: فأوقدوا له ناراً ليحرقوه، ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: يا نار كوني ﴿بَرْدًا﴾؛ أي: ذات برد من حرّك ﴿وَسَلَٰمًا﴾؛ أي: ذات سلامةٍ من ضرر بردك ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خليلنا؛ أي: أبردي برداً غير ضارٍ به، فزال ما فيها من الحرارة والإحراق، وبقي ما فيها من الإضاءة والإشراق. هذا[1] ما اختاره المحققون لدلالة الظاهر عليه، وهذا كما ترى، من أبدع المعجزات فإن انقلاب النار هواء طيباً وإن لم يكن بدعاً من قدرة الله، لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة، مما يخرق العادات. وقيل: كانت النار بحالها، إلاّ أنه تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفيةً مانعة من وصول أذى النار إليه، كخزنة جهنم في الآخرة، وكما أنه ركب بنية النعامة، بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة، وبدن السمندل، بحيث لا يضره المكث في النار، كما يشعر به ظاهر قوله على إبراهيم.

ومكث إبراهيم في النار سبعة أيام[2]، فما أحرقت منه إلا وثاقه، قاله كعب الأحبار ووهب بن منبه. وقال غيرهما: أربعين أو خمسين يوماً. وقال إبراهيم: ما كنت أطيب عيشاً زماناً من الأيام، التي كنت فيها في النار، فنزل جبريل بقميص من الجنة، وطنفسة من الجنة، فألبسه القميص، وأجلسه على الطنفسة، وقعد معه يحدثه، وإن آزر أتى نمرود فقال: ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم فأدفنها، فانطلق نمرود ومعه الناس، فأمر بالحائط فنقب، فإذا إبراهيم في روضة تهتز وثيابه تندى، وعليه القميص، وتحته الطنفسة، والملك إلى جنبه، فناداه نمرود: يا إبراهيم إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير هل تستطيع أن تخرج؟ قال: نعم، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج، فقال: من الذي رأيت معك؟ قال: ملك أرسله إليّ ربي ليؤنسني، فقال نمرود: إني مقرب لإلهك قرباناً لما رأيت من

(١) روح البيان. (٢) زاد المسير.

قدرته، فقال: إذن لا يقبل الله منك، ما كنت على دينك، فقال: يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبح له، فذبح القربان، وكف عن إبراهيم.

وكان وقت إلقائه فيها، ابن ست عشرة سنة، ذكره أبو السعود. وقيل: كان ابن ست وعشرين سنة، قاله الماوردي، والله أعلم. روى أبو هريرة أن النبي ﷺ، قال: «لمّا ألقي إبراهيم في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك».

فائدة: فإن قلت: لم ابتلاه الله بالنار في نفسه؟

قلت: كل رسول يأتي بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان أهل ذلك الزمان، يعبدون النار والشمس والقمر والنجوم، معتقدين ألوهيتها وتأثيرها، فأراهم الله تعالى، أنها لا تأثير لها.

﴿وَأَرَادُوا﴾؛ أي: وأراد نمرود وقومه ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بإبراهيم عليه السلام، ﴿كَيْدًا﴾ أي: مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؛ أي: من ذوي الخسران والوبال، فإنهم خسروا السعي والنفقة، فلم يحصل لهم مرادهم، وهلكوا بإرسال الله عليهم البعوض، فأكلت لحومهم، وشربت دماؤهم، ودخلت في دماغ نمرود بعوضة فأهلكته. أو المعنى ﴿جعلناهم من الأخسرين﴾؛ أي: من الهالكين بتسليط البعوض عليهم، وقتله إياهم، وهو أضعف خلق الله تعالى، وما برح النمرود، حتى رأى أصحابه، قد أكلت البعوض لحومهم، وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره، فلم تزل تأكل، إلى أن وصلت إلى دماغه، وكان أكرم الناس عليه، الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد، فأقام بهذا، نحواً من أربع مئة سنة. وقال هنا: ﴿من الأخسرين﴾، وفي الصافات: ﴿من الأسفلين﴾ لما تقدم على كل منهما، فتمت المناسبة في الموضعين.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ أي: إبراهيم من الإحراق، ومن شر النمرود ﴿و﴾ نجينا معه ﴿لُوطًا﴾ ابن أخي إبراهيم هاران الأصغر من الخسف، وكان لهما أخ ثالث، اسمه: ناخور، والثلاثة أولاد آزر، وأما هاران الأكبر، فكان عمّا لإبراهيم، وكانت سارة بنت عم إبراهيم، الذي هو هاران الأكبر مهاجرين ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي

بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: أنزلنا البركة فيها للعالمين في الدين والدنيا؛ أي: أخرجناهما من العراق إلى أرض الشام المباركة، وقد[1] خرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق، ومعه لوط وسارة يلتمس الفرار والأمان بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حرّان، فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج منها، وجاء إلى مصر، ثم رجع إلى الشام، ونزل بفلسطين، وترك لوطاً بالمؤتفكة، وهي منها مسيرة يوم وليلة، وبعثه الله نبياً إلى أهلها.

وقد كان الله تعالى، بارك في الأرض المقدسة، ببعث أكثر الأنبياء فيها، ونشر شرائعهم، التي هي البركات الحقيقية، الموصلة للعالمين، إلى الكمالات والسعادة الدينية والدنيوية، وبكثرة الماء. والشجر والثمر والحطب وطيب عيش الغني والفقير فيها.

ثم ذكر سبحانه ما أفاضه من النعم على إبراهيم فقال:

١ - ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾؛ أي: لإبراهيم بعد نزوله في الأرض المباركة، وطلب الولد منها ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ ولدا لصلبه من سارة، معناه: بالعبرانية الضحّاك، كما أن معنى إسماعيل بها، مطيع الله ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾؛ أي: ووهبنا له يعقوب أيضاً، حال كونه ﴿نَافِلَةٗۖ﴾؛ أي: ولد ولد، فهو حال من المعطوف عليه، فقط لعدم اللبس، وسمّي يعقوب؛ لأنه خرج عقيب أخيه عيص أو متمسكاً بعقبه، وعاش إسحاق مئة وسبعاً وأربعين سنة، كذا في «التحبير».

وقيل المعنى[2]: وهبناهما لإبراهيم نافلة؛ أي: عطية وفضلاً من غير أن يكونا جزاءاً مستحقاً. فنافلة منصوب على المصدر. وقيل[3]: النافلة الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه، أن يهب له ولداً، فوهب له إسحاق، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة؛ أي: زيادة.

٢ - ﴿وَكُلࣰّا﴾؛ أي: وكل واحد من هؤلاء الأربعة: إبراهيم ولوط وإسحاق

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

ويعقوب، لا بعضهم دون بعض، جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة ربه، تاركاً لمعاصيه. وقيل: المراد بالصلاح هنا النبوة.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وجعلنا هؤلاء الأربعة ﴿أَئِمَّةً﴾؛ أي: رؤساء يقتدى بهم، في الخيرات، وأعمال الطاعات ﴿يَهْدُونَ﴾؛ أي: يدعون الناس إلى دين الله تعالى، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإذننا لهم فيه؛ أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي، حتى صاروا مكملين.

٤ - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى هؤلاء الأربعة، فيما أوحينا ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: أن افعلوا الطاعات، واتركوا المحرمات، حتى صاروا كاملين، بانضمام العمل إلى العلم، بناء على أن التكاليف، يشترك فيها الأنبياء والأمم.

٥ - ٦ - ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من[1] عطف الخاص على العام، دلالة على فضله، وحذفت تاء الإقامة المعوضة من إحدى الألفين، لقيام المضاف إليه مقامها، أي: وأوحينا إليهم أن أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، والمال شقيق الروح، ومجموع العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق.

وبعد أن بيّن صنوف نعمه عليهم، ذكر اشتغالهم بعبادته، فقال: ﴿وَكَانُوا۟﴾؛ أي: وكان هؤلاء الأربعة ﴿لَنَا﴾ خاصة دون غيرنا ﴿عابدين﴾؛ أي: مطيعين فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما ننهاهم عنه، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا، والعبادة غاية التذلل.

وبعد أن ذكر ما أنعم به على إبراهيم، أتبعه بذكر ما أنعم به على لوط، فقال:

١ - ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وآتينا لوطاً

---

(١) روح البيان.

﴿حُكۡمٗا﴾؛ أي: فصلاً بين الخصوم في القضاء؛ أي: حسنه.

٢ ـ ﴿وَعِلۡمٗا﴾ بأمر دينه وما يجب عليه لله من واجب الطاعة والإخبات له؛ أي: علما نافعاً، يتعلق بأمور الدين، وقواعد الشرع والملة.

٣ ـ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ أي: ونجينا لوطا ﴿مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ أي: من عذاب أهل قرية سدوم، أعظم القرى المؤتفكة؛ أي: المجعول عاليها سافلها، وهي سبع كما سبق ﴿ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾؛ أي: التي كان أهلها يعملون الأعمال الخبائث، والرذائل الدنيئة[١]: من اللواط ورمي المارّة بالبندق، واللعب بالطيور، والتضارط في أنديتهم، وغير ذلك؛ أي: ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل تلك القرية التي كانت تعمل خبائث الأعمال التي من أشنعها إتيان البيوت من غير أبوابها. ثم بيّن السبب الذي دعاهم إلى ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ أي: أهل تلك القرية ﴿كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾؛ أي: قوماً أصحاب عمل سيء ﴿فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعتنا، منهمكين في الكفر والمعاصي، متوغلين في ذلك؛ أي: إن الذي حملهم على ذلك، وجرّأهم على ارتكابه، أنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، منتهكين حرماته، قد دسوا أنفسهم بقبيح الأفعال والأقوال، فلا عجب إذا هم لجّوا في طغيانهم يعمهون. وفي[٢] الآية إشارة إلى أن النجاة من الجليس السوء من المواهب، والاقتران معه من الخذلان.

٤ ـ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: أدخلنا لوطا ﴿فِي رَحۡمَتِنَآ﴾؛ أي: في أهل رحمتنا بإنجائه من القوم المذكورين، أو في أهل رحمتنا الخاصة، وهي النبوة، أو وجعلناه في جملة من يستحقون رحمتنا ولطفنا، بإدخاله جنتنا، كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله، عز وجل للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي». ثمَّ ذكر علة هذا بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن لوطاً كان ﴿من عبادنا الصالحين﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى، إذ كان ممن يعملون بطاعتنا، فيأتمرون بأمرنا وينتهون عن نهينا.

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

ولمّا ذكر تعالى قصة إبراهيم، وهو أبو العرب، وتنجيته من أعدائه، ذكر قصة أبي العالم الأنسي كلهم، وهو الأب الثاني لآدم، لأنه ليس أحد إلاّ من نسله، من سام وحام ويافث، فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾؛ أي: واذكر أيها الرسول الكريم نوحاً؛ أي: قصة نوح إذ نادى ودعا ربه بالهلاك، على قومه حين كذبوه؛ أي: اذكر نبأه، الواقع حين دعائه على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه الذي هو قوله: «إني مغلوب فانتصر»؛ أي: أجبنا له دعاءه بإهلاك قومه ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ المؤمنين به ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي[1]: من الغم العظيم، الذي كانوا فيه من أذىٰ قومه، أو من الغرق بالطوفان.

والمعنى[2]: أي واذكر أيها الرسول نبأ نوح، إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل هؤلاء المذكورين، فسألنا أن نهلك قومه، الذين كذبوا الله، فيما توعدهم به من وعيده، وكذبوه فيما آتاهم به، من الحق عند ربه، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ فاستجبنا له دعاءه، ونجيناه وأهل الإيمان من أولاده وأزواجهم، ومن قومه مما حل بالمكذبين من الغرق.

روى أنه بعث وهو ابن الأربعين، ومكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، فذلك ألف وخمسون سنة. كذا في «التحبير».

﴿وَنَصَرْنَـٰهُ﴾؛ أي: ونصرنا نوحاً نصراً مستتبعاً للانتقام والانتصار، ولذلك عدي بمن حيث قال: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: انتقمنا له من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾؛ أي: بحججنا وأدلتنا كلها أولاً وآخراً. وقيل: من بمعنى على؛ أي نصرناه على القوم الذين كذبوا بآياتنا، قاله أبو عبيدة. وقيل: معنى نصرناه؛ أي: حفظناه من أن يصلوا[3] إليه بسوء مع طول مكثه فيهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾؛ أي: أصحاب عمل سيء من الشرك والمعاصي ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: كلهم، فلم نترك منهم أحدا، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم لإصرارهم على تكذيب الحق، ولانهماكهم في الشر والفساد، فإنه لم يجتمع الإصرار على التكذيب والانهماك في الشر والفساد في قوم.. إلاّ أهلكهم الله تعالى. وهذا بيان للوجه الذي خلصه الله منهم به.

والمعنى: أي لأنهم كانوا يسيئون الأعمال فيعصون الله، ويخالفون أوامره ويتصدون لأذى نبيهم، ويتواصون جيلاً بعد جيل، بمخالفة أمره، ورفع راية العصيان في وجهه.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: واذكر أيها الرسول نبأ داود وسليمان وقصتهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى﴾ شأن ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ والزرع. قيل: كان زرعاً. وقيل: كرماً. واسم الحرث يطلق عليهما ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ وانتشرت وتفرقت ورعت. ظرف للحكم ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الزرع ﴿غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلا ترعى بلا راع، فرعته وأفسدته، فإن النفش أن ينتشر الغنم ليلاً بلا راع. والغنم محركة، الشاة، لا واحد لها من لفظها. الواحدة شاة، كما سيأتي في مبحث التصريف ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾؛ أي: لحكم[1] داود وسليمان، فذكرهما بلفظ الجمع؛ لأن الاثنين جمع، كذا قاله الفراء، وفيه دليل لمن يقول، بأن أقل الجمع اثنان. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبي عبلة ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ على التثنية، أو المعنى لحكمهم؛ أي: لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما، قاله أبو سليمان الدمشقي ﴿شَٰهِدِينَ﴾؛ أي: حاضرين غير غائبين؛ أي: كان ذلك بعلمنا ومرأى منا، لا يخفى علينا من أمرهم شيء.

فإن قيل[2]: كيف يجوز أن يجعل الضمير لمجموع الحاكمين، والمتحاكمين، وهو يستلزم إضافة المصدر إلى فاعله ومفعوله دفعةً واحدةً، وهو

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

إنما يضاف إلى أحدهما فقط؛ لأن إضافته إلى الفاعل على سبيل القيام به. وإضافته إلى المفعول على سبيل الوقوع عليه، فهما معمولان مختلفان، فلا يكون اللفظ الواحد مستعملاً فيهما معاً، وأيضاً أنه يستلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز، لأن إضافته إلى الفاعل حقيقةٌ، وإلى المفعول مجاز؟

فالجواب: أن هذه الإضافة لمجرد الاختصاص، مع كون القطع عن كون المضاف إليه فاعلاً أو مفعولاً، على طريق عموم المجاز، كأنه قيل: وكنا للحكم المتعلق بهم ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حاضرين علماً، وهو مفيد لمزيد الاعتناء بشأن الحكم. وجملة قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ اعتراضية[1]. وجملة قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ معطوفة على ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾؛ لأنه في حكم الماضي. وقرأ عكرمة: ﴿فأفَهَمْناها﴾ عُدي بالهمزة كما عدى في قراءة الجمهور بالتضعيف، فالضمير في ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى؛ أي: ففهمنا الحكومة ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ وهو ابن إحدى عشرة سنة. قال في «التأويلات النجمية». يشير إلى رفعة درجة بعض المجتهدين على بعض، وأن الاعتبار في الكبر والفضيلة بالعلم، وفهم الأحكام والمعاني والأسرار، لا بالسن، فإنه فهم بالأحق والأصوب، وهو ابن صغير، وداود نبي مرسل كبير.

وفي القصص[2]: أن بني إسرائيل حسدوا سليمان على ما أوتي من العلم في صغر سنه، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود إن الحكمة تسعون جزءاً، سبعون منها في سليمان، وعشرون في بقية الناس؛ أي: علّمناه وألهمناه حكم القضية ﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: كل واحد من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: أعطيناه ﴿حُكْمًا﴾ أي: فيصلاً؛ أي: علم فصل بين الخصوم ﴿وَعِلْمًا﴾ كثيراً نافعاً في الدين والدنيا، لا سليمان وحده، فحكم كليهما حكم شرعي. وعاش دادو مئة سنة، وابنه سليمان تسعاً وخمسين سنة. كذا في «التحبير».

والمعنى: أي[3] واذكر أيها الرسول الكريم نبأ داود وسليمان عليهما السلام حين حكما في الزرع الذي رعته غنمٌ لقوم آخرين غير صاحب الحرث، ليلاً

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

فأفسدته، وكان ربك شاهداً عليماً، بما حكم به داود وسليمان بين القوم، الذين أفسدت غنمهم الحرث، وصاحب الحرث لا يخفى عليه شيء منه، ولا يغيب عنه علمه، ففهم الفتيا في ذلك لسليمان دون داود، وقد كان كل منهما فيصلاً في الحكم وفي الخصومات، ذا علم بالدين والتشريع.

وقد روى الرواة في تفصيل هذه القصة: أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا الرجل أرسل غنمه في حرثي، فلم تبق منه شيئاً، فقال داود: اذهب فإن الغنم كلها لك. ومر صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود، فقال: يا نبي الله، إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له منافعها من درّها وأولادها وأشعارها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يترادَّان فيأخذ صاحب الحرث حرثه، وصاحب الغنم غنمه. فقال داود: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك.

وجه الرأي لدى كل منهما[1]، أن داود قدر الضرر في الحرث، فكان مساوياً لقيمة الغنم، فسلم الغنم للمجني عليه، وأن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحرث فحكم بها، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحي، إذ لو كان به ما أمكن تغييره.

فإن قلت: فما حكم[2] هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية والملة الإسلامية؟

قلت: قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث البراء، أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عيناً، أو قيمةً. وقد ذهب جمهور فيه العلماء، إلى العمل بما تضمنّه هذا الحديث. وقد ذهب أبو

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين، إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار، أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جبار» قياساً لجميع أفعالها على جرحها. ويجاب عنه، بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه في مقابلة النص، ومن أهل العلم، من ذهب إلى أنه، يضمن رب الماشية، ما أفسدته، من غير فرق بين الليل والنهار. ويجاب عنه بحديث البراء.

ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختص بكل واحد منهما، فبدأ بداود، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾؛ أي: وذلّلنا ﴿مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ و﴿مَعَ﴾ متعلقة بالتسخير، وهو تذليل الشيء وجعله طائعاً منقاداً، وقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حال من الجبال؛ أي[1]: حالة كونهن يقدسن الله تعالى، بحيث يسمع الحاضرون تسبيحهن، فإنه هو الذي يليق بمقام الامتنان، لا انعكاس الصدى، فإنه عام. وكذا ما كان بلسان الحال فاعرف؛ أي:[2] ينطق بالتسبيح، وكان داود يسبح وحده، فالله تعالى خلق فيها الكلام، كما سبّح الحصى في كف رسول الله ﷺ وسمع الناس ذلك.

وقال أبو حيان[3]: قيل كان يمر بالجبال مسبّحاً وهي تجاوبه. وقيل: كانت تسير معه حيث سار. والظاهر وقوع التسبيح منها بالنطق، خلق الله فيها الكلام كما سبّح الحصى في كف رسول الله ﷺ، وسمع الناس ذلك، وكان داود يسمعه، قاله يحيى بن سلام. وقيل: كل واحد.

وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفاً على الجبال؛ أي: وسخرنا الطير معه حالة كونها تسبّح معه. وقدمت الجبال على الطير[4] لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد، والطير حيوان،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

(٤) روح البيان.

يعني إذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: قادرين على أن نفعل هذا، وإن كان عجباً عندكم، أو فاعلين هذه الأعاجيب، من تسخير الجبال وتسبيحهن والطير لمن نخصه بكرامتنا. روي أن داود كان إذا مرّ يسمعه تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه. وقرىء[1] ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ مرفوعاً على الابتداء، والخبر محذوف؛ أي: مسخر، لدلالة «سخرنا» عليه، أو على الضمير المرفوع في ﴿يُسبِّحن﴾ على مذهب الكوفيين، وهو توجيه قراءة شاذة.

ومعنى الآية: أي[2] وسخرنا الجبال والطير لداود، تقدس الله معه، بحيث تتمثل له مسبحة، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره، فيستغرق في التسبيح، وكنا فاعلين لأمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كنتم تعجبون منه، فإن المستغرقين في التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله في نظرهم مسبحاً، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به، بلسان أفصح من لسان المقال، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾؛ أي: وعلمنا داود ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾؛ أي: عمل الدروع وإصلاحها والصنع[3] وكذا الصنعة إجادة الفعل، فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعاً، والصناعة حرفة الصانع كالكتابة والحياكة، وعمل الصنعة. واللبوس في الأصل: اللباس درعاً كان أو غيرها، وكانت الدروع قبل داود صفائح؛ أي: قطع حديد عراضا، فحلقها وسردها ﴿لَكُمْ﴾ أي: لأجل نفعكم يا أهل مكة فإن الله تعالى ألان الحديد لداود، فكان يعمل منه بغير نار، كأنه طين، فهو متعلق بـ «علمنا»، أو بمحذوف هو صفة ﴿لبوس﴾.

والمعجزة فيه أنه فعل ذلك من غير استعانة بأداة وآلةٍ، من نحو الكير والنار

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والسندان والمطرقة، وكان لقمان يجلس مع داود، ويرى ما يصنع ويهم أن يسأل عنها، لأنه لم يرها قبل ذلك، فيسكت، فلما فرغ داود من الدرع قام وأفرغه على نفسه، وقال: نعم الرداء هذا للحرب. فقال لقمان عندها: إن من الصمت لحكمة، قالت الحكماء: وإن كان الكلام فضة فالصمت من ذهب ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾؛ أي: لتحرزكم وتحفظكم تلك اللبوس والدروع، وهو بدل اشتمال من ﴿لكم﴾ بإعادة الجار، لأن ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ في تأويل لإحصانكم، وبين الإحصان وضمير لكم ملابسة الاشتمال، مبين لكيفية الاختصاص، والمنفعة المستفادة من لكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: من حرب عدوكم. والبأس هنا بمعنى الحرب، وإن وقع على السوء كله، وفي الآية دلالة على أن جميع الصنائع بخلق الله تعالى وتعليمه. وفي الحديث: «إن الله خلق كل صانع وصنعه».

والمعنى: أي[1] وعلمناه صنعة الدروع، وقد كانت صفائح، فجعلها حلقا فتمنع عنكم إذا لبستموها ولقيتم أعداءكم أذى الحرب، من قتل وجرح ونحوهما ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ لهذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم. والاستفهام هنا في معنى الأمر؛ أي: فاشكروا الله تعالى على ما يسره لكم من هذه الصنعة، التي تمنع عنكم غوائل الحروب، وتقيكم ضررها وعظيم أذاها. والخطاب[2] فيه لهذه الأمة، من أهل مكة ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أخبر الله تعالى، أن أول من عمل الدروع داود، ثم تعلم الناس، فعمّت النعمة بها كل محارب، من الخلق، إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على هذه النعمة.

وقال بعضهم: الخطاب لداود وأهل بيته، بتقدير القول؛ أي: فقلنا لهم بعد ما أنعمنا عليهم بهذه النعم، فهل أنتم شاكرون، على ما أعطى لكم من النعم، التي ذكرت، من تسخير الجبال له، والطير، وإلانة الحديد، وعلم صنعة اللبوس.

وقرىء[3]: ﴿لُبوس﴾ بضم اللام، والجمهور بفتحها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي[4]: ﴿ليحصنكم﴾ بالياء. وقرأ ابن عامر وحفص عن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) زاد المسير.
(٤) البحر المحيط.

خفيفة. وقرأ أبو الدرداء وأبو عمران الجوني وأبو حيوة: ﴿لتحصّنكم﴾ بتاء مضمومة وفتح الحاء وتشديد الصاد. وقرأ ابن مسعود وأبو الجوزاء وحميد بن قيس: ﴿لتحصّنكم﴾ بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها. وقرأ أبو رزين العقيلي وأبو المتوكل ومجاهد: ﴿لنحصّنكم﴾ بنون مضمومة وحاء مفتوحة وصاد مكسورة مع تشديدها. وقرأ معاذ القارىء وعكرمة وابن يعمر وعاصم الجحدري وابن السميقع: ﴿ليحصّنكم﴾ بياء مضمومة وحاء ساكنة وصاد مكسورة ونون مشددة.

فمن قرأ بالياء ففيه أربعة أوجه: قال أبو علي الفارسي: أن يكون الفاعل اسم الله لتقدم معناه، ويجوزأن يكون اللباس؛ لأن اللبوس بمعنى اللباس، من حيث إنه كان ضرباً منه، ويجوز أن يكون داود، ويجوز أن يكون التعليم. وقد دل عليه ﴿علمناه﴾. ومن قرأ بالتاء حمله على المعنى؛ لأنه الدرع. ومن قرأ بالنون فلتقدم قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، ومعنى لتحصنكم: لتحرزكم وتمنعكم من بأسكم؛ أي: من حربكم كما مرّ.

﴿و﴾ سخّرنا ﴿لسليمان الريح﴾ عبّر هنا باللام الدالة على التمليك، وفي حق داود بـ﴿مع﴾ الدالة على الاصطحاب؛ لأن الجبال والطير لما اشتركا معه في التسبيح، ناسب فيه ذكر (مع) الدالة على الاصطحاب، ولما كانت الريح مستخدمة لسليمان، أتى بلام الملك؛ لأنها في طاعته وتحت أمره، اهـ من «البحر». والريح[1] جسم لطيف متحرك، ممتنع بلطفه، من القبض عليه، يظهر للحس بحركته، ويخفى عن البصر بلطفه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿الريح﴾ مفرداً بالنصب. وقرأ ابن هرمز وأبو بكر في رواية بالرفع مفرداً. وقرأ الحسن وأبو رجاء ﴿الرياح﴾ بالجمع والنصب. وقرأ بالجمع والرفع أبو حيوة. فالنصب على إضمار سخرنا، والرفع على الابتداء.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

وقوله: ﴿عَاصِفَةً﴾ حال من الريح؛ أي:[1] حالة كونها شديدة الهبوب، من حيث إنها تبعد بكرسيه في مدة يسيرة من الزمان، وكانت ليِّنة في نفسها، طيبة كالنسيم، فكان جمعها بين الرخاوة في نفسها، وعصفها في عملها، مع طاعتها لسليمان، وهبوبها حسبما يريد، ويحتكم معجزة مع معجزة.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت: قد وصف الله سبحانه، هنا الريح بالعصف، وفي آية أخرى بالرخاء، وهي الريح الليّنة، فبين الوصفين معارضة؟

قلتُ: لا منافاة بينهما؛ لأن الريح كانت تحت أمره، إن أراد أن تشتدّ، اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، انتهت.

وحالة كونها ﴿تَجْرِى﴾؛ أي: الريح ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: بأمر سليمان وإذنه ومشيئته ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الشامية ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا﴾؛ أي: أنزلنا البركة ﴿فِيهَا﴾ للعالمين بكثرة المياه والأنهار والأشجار، وكانت الريح تذهب به، غدوة من الشام إلى ناحية من نواحي الأرض، وبينها وبين الشام مسيرة شهر، إلى وقت الزوال، ثم ترجع به منها بعد الزوال إلى الشام عند الغروب، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ والمعنى؛ أي[2]: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، شديدة الهبوب تارةً، ورخاء لينة تارة أخرى، وفي كل حال منهما تجري بأمره إلى أي بقعة من الأرض المقدسة، فيخرج هو وأصحابه حين الغداة إلى حيث شاؤوا، ثم يرجعون في يومهم إلى منزله بالشام.

قال مقاتل: عملت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ من ذهب في إبريسم، وكان يوضع له منبر من ذهب في وسطه، فيقعد عليه، وحوله كراسي من ذهب وفضة، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تطلع عليه الشمس، وترفع الريح الصبا، البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح، ومن الرواح إلى الغروب، وكان عليه السلام امرأً، قلّما يقعد عن الغزو،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ولا يسمع في ناحية من الأرض ملكاً إلاّ أتاه ودعاه إلى الحق ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: بتدبير كل شيء من الكائنات ﴿عَٰلِمِينَ﴾ فنجريه على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا؛ فما آتيناه الملك والنبوة، وما سخرنا له الريح تجري بأمره إلاّ لعلمنا بما في ذلك من الحكمة والمصلحة، وأن قومه سيعرفون نعمتنا، فيشكروننا عليها ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: وسخرنا له من الشياطين والجن، ﴿مَن يَغُوصُونَ﴾؛ أي: يدخلون تحت البحر، ويستخرجون ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لسليمان من نفائس البحر وجواهره ودرره، من اللؤلؤ والمرجان ونحو ذلك ﴿وَ﴾ من ﴿يعملون﴾ له ﴿عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور؛ أي: عملاً آخر غير ذلك المذكور، من الغوص في البحر، كبناء المدن والمحاريب والتماثيل والقصور والجفان ونحو ذلك، واختراع الصنائع الغريبة، وهؤلاء[1] إما الفرقة الأولى أو غيرها، لعموم كلمة ﴿مَنْ﴾، كأنه قيل: ومن يعملون. روي أن المسخر له كفارهم لا مؤمنوهم، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الشياطين المسخرين له ﴿حَٰفِظِينَ﴾ من أن يزيغوا عن أمره ويعصوا ويتمردوا عليه، أو يفسدوا ما عملوا على ما هو مقتضى جبلتهم، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار. والشياطين وإن كانوا أجساماً لطيفة، لكنهم يتشكلون بأشكال مختلفة، ويقدرون على الأعمال الشاقة. ألا ترى أن لطافة الريح لا تمنع عصوفها، لا سيما أنهم تكشفوا في زمن سليمان، فكانوا بحيث يراهم الناس ويستعملونهم في الأعمال. وقال في «الأسئلة المقحمة»: فلماذا لم تخرج الشياطين عن طاعة سليمان مع استعمالهم في تلك الأمور الشديدة؟ فالجواب أن الله تعالى، أوقع لسليمان في قلوبهم من الخوف والهيبة، حتى خافوا أن يخرجوا عن طاعته، وهذا من معجزاته.

والمعنى: أي[2] وكنا حافظين لأعمالهم، فلا يناله أحد منهم بسوء، فكل في قبضته، وتحت قهره، لا يجسر على الدنو منه، وهو المتحكم فيهم، إن شاء حبس، وإن شاء أطلق، كما قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الإعراب

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول أول. ﴿رُشْدَهُۥ﴾ مفعول ثان. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور، حال من إبراهيم؛ أي: حالة كونه من قبل موسى وهارون، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾. ﴿وَكُنَّا﴾: الواو: عاطفة ﴿كنا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿عَٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَآ﴾. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ أو متعلق بـ ﴿اذكر﴾ محذوفاً. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿لِأَبِيهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ معطوف على ﴿أبيه﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾ ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي، في محل الرفع مبتدأ، ﴿هَٰذِهِ﴾ خبر. ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول قال، ﴿ٱلَّتِىٓ﴾ صفة للتماثيل. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿لَهَا﴾ متعلق بـ ﴿عَٰكِفُونَ﴾. ﴿عَٰكِفُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَجَدْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿ءَابَآءَنَا﴾ مفعول أول ومضاف إليه. ﴿لَهَا﴾ متعلق بـ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ مفعول ثان، وجملة وجد في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة. ﴿لَقَدْ كُنتُمْ...﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿اللام﴾، موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لتاء

المخاطبين. ﴿وَءَابَآؤُكُمۡ﴾ معطوف على التاء. ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿كان﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَجِئۡتَنَا﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي. وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام التعجبي الاستبعادي. ﴿جئتنا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿جئتنا﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَمۡ﴾ حرف عطف متصل معادل للهمزة. ﴿أَنتَ﴾. مبتدأ ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿جئتنا﴾.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة. ﴿بَل رَّبُّكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ مقول محكي. وإن شئت قلت: ﴿بَل﴾: حرف ابتداء وإضراب. ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على السموات، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱلَّذِي﴾ اسم موصول، في محل الرفع. صفة لـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنَا۠﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾: متعلق بـ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة و﴿التاء﴾ حرف جر وقسم. ﴿الله﴾ مقسم به مجرور بتاء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم تالله، والجملة القسمية في محل النصب معطوفة على جملة بل ربكم على كونها مقول قال. ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ اللام موطئة للقسم. ﴿أكيدن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿أَصۡنَٰمَكُم﴾ مفعول به، والجملة جواب

القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿بَعْدَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿أكيدن﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تُوَلُّواْ﴾ فعل مضارع وفاعل منصوب بحذف النون. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تُوَلُّواْ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: بعد توليتكم مدبرين. ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال إبراهيم لهم، وأردت بيان ما فعله بالأصنام، فأقول لك: جعل إبراهيم الأصنام جذاذاً. ﴿جعل﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول. ﴿جُذَاذًا﴾ مفعول ثان. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿كَبِيرًا﴾ منصوب على الاستثناء من ضمير ﴿جعلهم﴾. ﴿لَّهُمْ﴾ صفة لـ ﴿كَبِيرًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة لعل، في محل الجر بلام التعليل المقدرة، مسوقة لتعليل الاستثناء.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ. ﴿فَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿هَٰذَا﴾ مفعول به. ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ متعلق بـ ﴿فَعَلَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول قالوا. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿من الظالمين﴾ جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول قالوا، مسوقة لتأكيد إنكار ما قبلها. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿فَتًى﴾: مفعول أول لـ ﴿سمع﴾، وجملة ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ في محل النصب مفعول ثان له؛ لأن سمع هنا دخل على ما لا يسمع، فيتعدى إلى مفعولين، بخلاف ما إذا دخل على ما يسمع، كسمعت كلام زيد، يقول كذا

وكذا، فيتعدى إلى مفعول واحد. ﴿يُقَالُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق به. ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ ﴿فَتًى﴾ ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَأْتُوا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر. تقديره: إذا كان الأمر كذلك، وأردتم إقامة البينة عليه فنقول لكم: ائتوا به. ﴿ائتوا﴾ فعل أمر وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من الضمير في﴿بِهِۦ﴾؛ أي: ائتوا به حال كونه معايناً، مشاهداً للناس، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول قالوا. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَشْهَدُونَ﴾ خبرها ومفعول الشهادة محذوف تقديره: أنه الفاعل ذلك، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول قالوا، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي. ﴿أنت﴾: مبتدأ، ﴿فَعَلْتَ هَٰذَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قالوا. ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول قالوا. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وابتداء. ﴿فَعَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول. ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه. ﴿هَٰذَا﴾ نعت لـ ﴿كَبِيرُهُمْ﴾، أو بدل منه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ الفاء عاطفة. ﴿اسألوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿يَنطِقُونَ﴾ في محل النصب خبر

﴿كان﴾، جواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه ما قبلها تقديره: إن كانوا ينطقون فاسألوهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿رجعوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿رجعوا﴾. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿رجعوا﴾. ﴿إِنَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنتُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، ويجوز يجعل ﴿أَنتُمُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبره، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿نُكِسُواْ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾. ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ جار ومجرور حال من الواو؛ أي: حال كونهم كائنين على رؤوسهم، أو متعلق بـ ﴿نُكِسُواْ﴾. ﴿لَقَدۡ﴾ اللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿عَلِمۡتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب، مقول لقول محذوف، حال من الواو في نكسوا، تقديره: ثم نكسوا على رؤوسهم، حالة كونهم قائلين: والله لقد علمت. ﴿مَا﴾ حجازية. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في محل الرفع اسمها، وجملة ﴿يَنطِقُونَ﴾ في محل النصب خبرها، وجملة ما الحجازية في محل النصب، سادّة مسد مفعولي علم، إن كانت يقينية، أو مسدّ مفعوله إن كانت عرفانية. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿تعبدون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتعلمون عدم نطقها فتعبدون. والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من واو تعبدون؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله. ﴿مَا﴾ موصولة في محل النصب مفعول

﴿تعبدون﴾. ﴿لَا يَنفَعُكُمْ﴾ فعل ومفعول به أول، وفاعله مستتر يعود على ما. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول مطلق أو ثان. ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿يَنفَعُكُمْ﴾، وجملة ﴿ينفع﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿أُفٍّ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم تقديره: أنا. ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُفٍّ﴾. واللام فيه للبيان، وجملة اسم الفعل مع فاعله في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلِمَا﴾: جار ومجرور معطوف على لكم. ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ولما تعبدونه. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من واو الفاعل في تعبدون. ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أجننتم فلا تعقلون سوء صنيعكم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿حَرِّقُوهُ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿حَرِّقُوهُ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٰعِلِينَ﴾ خبره، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف دل عليه ما قبلها، تقديره: إن كنتم فاعلين فحرقوه وانصروا آلهتكم، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰنَارُ﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء في محل النصب مقول قلنا. ﴿كُونِى﴾: فعل أمر ناقص واسمه. ﴿بَرْدًا﴾ خبر كوني. ﴿وَسَلَٰمًا﴾: معطوف عليه، وجملة كوني في محل النصب، مقول ﴿قُلْنَا﴾ على كونه جواب النداء. ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ جار ومجرور صفة ﴿سلاماً﴾. ﴿وَأَرَادُواْ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿كَيْدًا﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ﴾ الفاء عاطفة. ﴿جعلناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول

أول. ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿أرادوا﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نجيناه﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على ضمير المفعول، أو مفعول معه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ﴾ ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿نجينا﴾، أو متعلق بمحذوف حال، من ضمير المفعول والمعطوف عليه؛ أي: حال كونهما مهاجرين إلى الأرض. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة للأرض. ﴿بَٰرَكْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿بَٰرَكْنَا﴾. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير فيها. ﴿وَوَهَبْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿نجينا﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بـ ﴿وهبنا﴾. ﴿إِسْحَٰقَ﴾ مفعول به. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ معطوف على ﴿إِسْحَٰقَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نجيناه﴾. ﴿نَافِلَةً﴾ حال من ﴿يعقوب﴾؛ أي: ووهبنا له يعقوب، حالة كونه زيادة من غير سؤال؛ لأن المعنى ووهبنا له إسحاق إجابة لسؤاله، ويعقوب زيادة على مسؤوله، ويصح أن يكون مفعولاً مطلقاً، معنوياً لـ ﴿وهبنا﴾؛ لأن الهبة والعطية متقاربتان. ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ مقدم عليه. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿صَٰلِحِينَ﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿وهبنا﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. ﴿يَهْدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة لـ﴿أَئِمَّةً﴾. ﴿بِأَمْرِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من واو ﴿يَهْدُونَ﴾، تقديره: يهدون إلى ديننا ملتبسين بأمرنا. ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. مفعول به. ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: معطوفان على ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه.

﴿لَنَا﴾ متعلق بـ ﴿عَٰبِدِينَ﴾. ﴿عَٰبِدِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾: منصوب بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وآتينا لوطاً، فهو مفعول أول له، فهو من باب الاشتغال، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ مفسرة، لا محل لها من الإعراب. ﴿حُكْمًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿آتيناه﴾ المحذوف. ﴿وَعِلْمًا﴾: معطوف على ﴿حُكْمًا﴾. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾. ﴿مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجيناه﴾. ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ ﴿القرية﴾. ﴿كَانَت﴾ فعل ناقص واسمها ضمير مستتر، يعود على الموصول. ﴿تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على القرية وجملة ﴿تَّعْمَلُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ خبره. ﴿فَٰسِقِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿نجيناه﴾. ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أدخلنا﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنُوحًا﴾: معطوف على ﴿لوطا﴾، فيكون مشتركاً معه في عامله، الذي هو ﴿آتينا﴾ المفسر بـ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ الظاهر، وكذلك داود وسليمان، والتقدير: ونوحاً آتيناه حكماً، وداود وسلميان آتيناهما حكما. و﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال من نوحاً، ودادو وسليمان، ولك أن تعرب نوحاً وداود وسليمان مفعولاً به لفعل محذوف،

تقديره: واذكر نوحاً وداود وسليمان؛ أي اذكر خبرهم وقصتهم، فتكون ﴿إِذۡ﴾ منصوبة بنفس المقدر؛ أي: خبرهم الواقع في وقت كذا. ﴿نَادَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿نوح﴾. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه. ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿استجبنا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَادَىٰ﴾. ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿استجبنا﴾. ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نجينا﴾. ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿الكرب﴾. ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿نجينا﴾. ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾. متعلق بـ ﴿نصرناه﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾. ﴿كَذَّبُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ خبر ﴿كان﴾. ﴿سَوۡءٖ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿أَجۡمَعِينَ﴾. تأكيد لهاء الغائبين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَانُواْ﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: واذكر داود. ﴿وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ معطوف عليه كما مر. ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالمضاف المقدر، كما مر، تقديره: واذكر خبر داود وسليمان الواقع في وقت كذا وكذا. ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذۡ﴾. ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ﴾ إذ ظرف لما مضى. بدل من إذا الأولى، على كونه متعلقاً بالمضاف المحذوف. ﴿نَفَشَتۡ﴾ فعل ماض. ﴿فِيهِ﴾ متعلق به. ﴿غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذۡ﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ الواو: اعتراضية. ﴿كنا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿شَٰهِدِينَ﴾.

﴿شَٰهِدِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان. ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾: مفعول أول، قدم عليه الثاني، لكونه ضميراً متصلاً، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿يَحْكُمَانِ﴾؛ لأنه بمعنى الماضي. ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول أول مقدم لـ ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿حُكْمًا﴾ مفعول ثان. ﴿وَعِلْمًا﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿ففهمنا﴾. ﴿وَسَخَّرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾ متعلق بـ ﴿سخرنا﴾. ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ مفعول به. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الجبال؛ أي: حالة كونها مسبحة. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال، أو مفعول معه. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أو على ﴿سخرنا﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ مفعول ثان. و﴿لَبُوسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿علمناه﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَخَّرْنَا﴾. ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ اللام حرف جر وتعليل. ﴿تحصنكم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾. ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تحصنكم﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لإحصانها إياكم، الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور قبله، على كونه متعلقاً بعلّمناه. ﴿فَهَلْ﴾ الفاء: استئنافية. ﴿هل﴾ حرف استفهام للاستفهام التوبيخي، ﴿أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لسليمان﴾: متعلق بمحذوف تقديره: وسخرنا لسليمان، والجملة المحذوفة، معطوفة على جملة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ﴾.

﴿ٱلرِّيحَ﴾ مفعول به لـ ﴿سخرنا﴾ المحذوف المفهوم من قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ﴾. ﴿عَاصِفَةً﴾ حال من ﴿ٱلرِّيحَ﴾ ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلرِّيحَ﴾. ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وجملة تجري في محل النصب حال ثانية من ﴿ٱلرِّيحَ﴾. ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ﴿الأرض﴾. ﴿بَٰرَكْنَا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ ﴿بَٰرَكْنَا﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عَٰلِمِينَ﴾ و﴿عَٰلِمِينَ﴾ خبره وجملة ﴿كان﴾ جملة اعتراضية، أو استئنافية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم الموصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ عطف اسمية على فعلية، ولك أن تعطف ﴿من﴾ الموصولة على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ حال ﴿مَن﴾ من الموصولة. ﴿يَغُوصُونَ﴾ فعل وفاعل صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجمع الضمير حملاً على معنى من، وحسّن ذلك تقدّم جمع قبله. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿يَغُوصُونَ﴾. ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَغُوصُونَ﴾. ﴿عَمَلًا﴾ مفعول به، أو مفعول مطلق. ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَمَلًا﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰفِظِينَ﴾. ﴿حَٰفِظِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رُشْدَهُۥ﴾ الرشد: الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والاسترشاد الإلهي. كما في «أبي السعود».

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ واحدها تمثال، وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير، أو شجر، أو إنسان، والمراد بها هنا الأصنام، سمّاها بذلك تحقيراً لشأنها، وهذا الوزن فيه زائدان: أحدهما قبل الفاء. والآخر قبل اللام، وقد جاء اسما وصفة، فالاسم تمثال للصورة، ويجمع على تماثيل. وقالوا: تجفاف وتبيان، فالتجفاف واحد تجافيف الفرس، وهو ما يلبس عند الحرب

والزينة. وتبيان، بمعنى البيان، فمنهم من يجعله مصدراً من قبيل الشاذ؛ لأن المصادر إنما تجيء على تفعال ـ بالفتح ـ نحو التلعاب والتهدار، ولم يجيء بالكسر إلاّ تبيان وتلقاء. وسيبويه يجعلهما من الأسماء التي وضعت موضع المصادر، كالغارة وضعت موضع الإغارة. وقال غير واحد من علماء اللغة: التمثال هو الصورة المصنوعة من رخام، أو نحاس، أو خشب، شبيهة بخلق الآدمي.

﴿والعكوف﴾ على الشيء: ملازمته والإقبال عليه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالشيء الثابت في الواقع ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾؛ أي: الهازلين ﴿فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي: أنشأهن ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: المتحققين صحته المثبتة بالبرهان ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ الكيد: الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه، والمراد المبالغة في إلحاق الأذى بها.

﴿جُذَٰذًا﴾؛ أي: قطاعاً فعال بمعنى المفعول، من الجذ الذي هو القطع، كالحطام من الحطم، الذي هو الكسر. وفي «القاموس»: الجذ القطع المستأصل والكسر، والاسم الجذاذ. والجذاذ بتثليث الجيم ما تكسر من الشيء، وفعله جد يجد من باب نصر ﴿فَتًى﴾ هو الطري من الشبان.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ من قولهم: نكس المريض؛ إذا عاد إلى مرضه الأول بعد العافية. والنكس قلب الشيء، ورد آخره على أوله. والتنكيس القلب أيضاً، يقال: نكس رأسه ونكسه مخففاً ومشدداً؛ أي طأطأه حتى صار أعلاه أسفله ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ البرد خلاف الحر، والسلام التعري من الآفات.

﴿نَافِلَةً﴾ قال في «القاموس»: النافلة: الغنيمة والعطية، وما تفعله، مما لم يجب كالنفل، وولد الولد.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال بعضهم: جعلوا المصدر من المبني للمفعول بمعنى، أن يفعل الخيرات بناء على أن التكاليف يشترك فيها الأنبياء والأمم، ولكن قوله في أواخر هذه السورة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، وقوله تعالى في سورة مريم حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ ينادي على أنه من المبني للفاعل، ولا يضر ذلك في الاشتراك إذ الأنبياء أصل في الذي أوحي إليهم من الأوامر.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ القاعدة في مصدر الفعل، الرباعي على وزن أفعل، أن يأتي على إفعال، إن كان صحيح العين، نحو أكرم إكراماً، وأوجد إيجاداً، فإن اعتلت عينه، نحو أقام وأعان وأبان، جاء مصدره على إفالة كإقامة وإعانة وإبانة، حذف عين المصدر، وعوّض منها تاء التأنيث، والأصل: إقوام وأعوان وإبيان، فنقلت حركة الواو والياء، وهي الفتحة إلى الحرف الساكن قبلهما، ثم حذفتا، فراراً من اجتماع الساكنين، وعوض منهما التاء، وقد تحذف هذه التاء من المصدر إذا أضيف، كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾، وما كان منه معتلّ اللام، مثل: أعطى وأهدى وأولى، قلبت لامه في المصدر همزة، مثل: إعطاء وإهداء وإيلاء، والأصل إعطاو وإهداي وإيلاي. قال في «شرح القاموس»: العرب تهمز الواو والياء إذا جاءتا بعد ألف؛ لأن الهمزة أحمد للحركة منهما؛ ولأنهم يستثقلون الوقف على الواو، وكذلك الياء مثل الرداء أصله رداي، هذا ويرجع في هذا إلى بحث الإبدال، في كتب الصرف المطولة.

﴿ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ والخبائث جمع خبيثة، والخبيثة: ما يكره رداءةً وخساسةً، يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ قال الراغب: السوء: كل ما يغمّ الإنسان، من الأمور الدنيوية والأخروية، ويعبر به عن كل ما يقبح، وهو مقابل الحسن.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ قال في «بحر العلوم»: الاستجابة الإجابة، لكن الاستجابة تتعدى إلى الدعاء بنفسها، وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدّي إلى الداعي في الغالب، فيقال: استجاب الله دعاءه، أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب دعاءه، وهو الدليل على أن النداء المذكور بمعنى الدعاء، لأن الاستجابة تقتضي دعاءه.

﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قال الراغب: الكرب: الغم الشديد، من كرب

الأرض قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة ذلك.

﴿فِي ٱلْحَرْثِ﴾ الحرث: الزرع، وبابه نصر، أو كتب كما في «المختار». وفي «القاموس»: الحرث مصدر، والأرض التي تستنبت بالبذر والنوى والغرس. قال ابن عباس وأكثر المفسرين: أن الحرث كان كرماً، قد تدلت عناقيده. وقيل: كان زرعاً.

﴿نَفَشَتْ﴾ تفرقت وانتشرت فيه فرعته وأفسدته. وفي «المختار»: نفشت الغنم والإبل؛ أي: رعت ليلاً بلا راع، من باب جلس. والنفش ـ بفتحتين ـ اسم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، ولا يكون النفش إلاّ بالليل، ونفش الصوف والقطن، من باب نصر، والنفش تشعيب الشيء بأصابعك حتى ينتشر، والنفش أيضاً أن ينتشر الغنم ليلاً بلا راع.

﴿الغنم﴾ محركة، الشاة، لا واحد لها من لفظها، الواحدة شاة، وهو اسم مؤنث للجنس، يقع على الذكور والإناث، وعليهما جميعاً، كما في «القاموس».

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ قال في «المختار»: التسخير: التكليف للعمل بلا أجرة، وسخّرة تسخيراً، إذا كلفه عملاً بلا أجرة، اهـ ﴿والطير﴾ جمع طائر، مثل صحب وصاحب وركب وراكب، وجمع الطير طيور وأطيار، ويقع الطير على الواحد والجمع. وقال ابن الأنباري: الطير جماعة، وتأنيثها أكثر من التذكير. ولا يقال للواحد طير، بل طائر، وقلما يقال للأنثى طائرة، اهـ.

﴿لبوس﴾ اللبوس اللباس، قالوا: إلبس، لكل حال لبوسها. والمراد: الدرع قال قتادة: كانت صفائح، فأول من سردها وخلقها، داود، فجمعت الخفة والتحصين، وهي المسماة، بالدرع، والدرع ـ كما في «المختار» ـ مؤنثة، وقال أبو عبيدة: تؤنث وتذكر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تجاهل العارف في قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لأن هذا السؤال تجاهل من إبراهيم، وإلاّ فهو يعرف أن حقيقتها حجر، أو شجرٌ اتخذوها معبوداً.

ومنها: العدول عن على، التي يتعدى بها فعل العكوف، إلى اللام في قوله: ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لقصد معنى العبادة، من العكوف ليجيبوه بقوله: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ تسجيلاً عليهم بالتقليد، والقول بغير برهان، والانجرار إلى ما عليه آباؤهم.

ومنها: المخالفة بين الجملتين في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾ لملاحظة التجدد في إحداهما، حيث أبرزها في صورة الفعلية بقوله: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، ولملاحظة الثبات والدوام في الأخرى، حيث أبرزها في صورة الاسمية بقوله: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ والمعنى: أحدثت عندنا الإتيان بالحق، وهو التوحيد فيما نسمعه منك، أم أنت على ما كنت عليه من اللعب، منذ أيام الصبا، وأرادوا بالتجدد في الجملة، أن التوحيد أمر مستحدث مخترع، وبالثبات في الثانية، أنه على عادتهم المستمرة من اللعب تحقيراً له.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾؛ لأن الكيد حقيقة في الاحتيال. في إيصال الضرر إلى الغير، بطريق خفي، وهو هنا كناية عن الاجتهاد في إزالتها، فتجوّز به عنه إما استعارة، أو استعمالاً له في لازمه؛ لأن الكيد يستلزم الاجتهاد «الجمل» بتصرف.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنه ليس المراد هنا حقيقة الشهادة؛ لأنه لا شهادة من المدعي، بل استعيرت الشهادة لتحقيق الدعوى بالحجة والبرهان؛ أي: لست من اللاعبين في الدعاوى، بل من المحتجين عليها بالبراهين القاطعة، التي بمنزلة الشاهد الذي تقطع به الدعاوى، اهـ «روح البيان».

ومنها: تقديم الظرف في قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ للاختصاص أو لمجرد الاهتمام.

ومنها: تجاهل العارف في قوله: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة. تجاهلاً منه، ليخرج الكلام مخرج المدح أو الذم، أو ليدل على شدة الوله في الحب، أو لقصد التعجب، أو التوبيخ، أو التقرير كما هنا، وهو على قسمين: موجب ومنفي، والآية التي نحن بصددها، من التجاهل الموجب، الجاري مجرى التقرير.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أراد إبراهيم عليه السلام، أن يبيّن لهم، أن من لا يتكلم، ولا يعلم، ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل، أن يطلق عليه أنه إله، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم، بما يوقعهم في الاعتراف، بأن الجمادات التي عبدوها، ليست بآلهة؛ لأنهم إذا قالوا: لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان، الذي هو فيه، فهذا الكلام من فرض الباطل مع الخصم، حتى تلزمه الحجة، ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته، وأدفع لمكابرته.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ شبّه رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب الشخص، حتى يصبح أسفله أعلاه، بطريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: الطباق بين ﴿يَنفَعُكُمْ﴾ و﴿يَضُرُّكُمْ﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ حيث أطلق المصدر، وأراد اسم الفاعل مبالغة؛ أي: باردة، أو ذات برد.

ومنها: عطف الخاص على العام اهتماماً بشأنه في قوله: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ لأن الصلاة والزكاة من الخيرات، وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً على علو شأنهما وفضلهما.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ والمراد أهلها، من إطلاق المحل وإرادة الحال، والعلاقة الحالية.

ومنها: المجاز والمرسل أيضاً في قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾؛ أي: في جنتنا؛ لأنها مكان الرحمة، فهو مجاز مرسل، علاقته المحلية.

ومنها: الاحتراس في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام.

ومنها: حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها في قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

ومنها: جمع المختلف والمؤتلف في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ الخ وهو عبارة، عن أن يريد المتكلم التسوية، بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ثم يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر، بزيادة فضل لا ينقص مدح الآخر، فيأتي لأجل ذلك الترجيح بمعان تخالف معاني التسوية.

والآية الكريمة ساوت بين داود وسليمان، في التأهل للحكم، وشرّكت بينهما فيه حيث قالت: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ وأخبرت أن الله سبحانه، فهم سليمان إصابة الحكم، ففضل أباه بذلك بعد المساواة، ثم التفت سبحانه، إلى مراعاة حق الوالد فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فرجعا بذلك إلى المساواة بعد ترجيح سليمان، ليعلم الولد بذلك برّ الوالد، ويعرف ما له عليه من الحق، حتى إذا فكر الناظر في هذا الكلام، وقال: من أين جاءت المساواة في الحكم، والعلم بعد الإخبار، بأن سليمان فهم من الحكم، ما لم يفهمه أبوه، علم أن حق الأبوة قام مقام تلك الفضيلة، فحصلت المساواة.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي التشنيعي في قوله: ﴿ فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حيث أكّد بإن، وباللام، وبإسمية الجملة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

ومنها: تبكيتهم وتعجيزهم في قوله: ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ لأنه على إرادة القول؛ أي: قائلين: لقد علمت يا إبراهيم.

ومنها: الإطلاق في قوله: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ لدلالة الحال عليه، فإن ذكر من يكره إبراهيم ويبغضه، إنما يكون بذم وسوء، ونظيره قولك: «سمعت فلاناً يذكرك» فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰنَارُ كُونِى﴾ تنزيلاً له منزلة العاقل.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ حيث جعل الله النار باردة، من غير أن يكون هناك قول، ولا خطاب لقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ لغرض الحصر.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾.

ومنها: إيراد الاستفهام مراداً به الأمر في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؛ أي: فاشكروا نعمتي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم
مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ
أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ
﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾
وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم
مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ
لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ
أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ
نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ
﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ

حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] قصص داود وسليمان، وما كان منهما، من شكر على النعماء.. أردف ذلك قصص أيوب، لما فيه من صبر على البلاء، فداود وسليمان شكرا على النعم المترادفة، وأيوب صبر على النقم النازلة فأزيلت عنه، وإن في قصصه الذي ذكر هنا، وفي مواضع من الكتاب الكريم، لعبراً له ولغيره، ممن سمع به، ولفتا لأنظارهم، إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء، أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله، ويصبر في حالي السرّاء والضرّاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر صبر أيوب عليه السلام، ودعاءه ربه وانقطاعه إليه، حتى كشف عنه الضرّ.. قفى على ذلك بذكر هؤلاء الأنبياء، الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد.

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لمّا ذكر[2] صبر أولئك، الذين صبروا على المحن والشدائد.. بيّن هنا انقطاع زكريا إلى ربه، لمّا مسّه الضرّ بتفرده، وأحبّ أن يكون معه من يؤنسه، ويقوّيه على أمر دينه ودنياه، ويقوم مقامه بعد موته، فدعا ربه دعاء مخلص عارف، بأنه قادر على ذلك، وأنه قد انتهت الحال به، وبزوجه من كبر، وغيره إلى اليأس من الولد على مجرى العادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ...﴾ الآيات: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمّا ذكر قصص

(١) المراغي. (٢) المراغي.

جمع من الأنبياء، كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى، وبيّن ما أوتوا من الشرائع والأحكام، على وجه الإجمال.. قفى على ذلك، ببيان أن لبّ الدين عند الله واحد، وأن جميع الأنبياء قد اتفقوا عليه، ولم يختلفوا فيه في عصر من العصور، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، وأنه هو القاهر فوق عباده، المالك لجميع السموات والأرض، لا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم، وإن اختلفوا في الرسوم والأشكال، بحسب اختلاف الأزمان والأمكنة، فعليكم أيها المسلمون، أن تحافظوا على وحدة دينكم، وأن لا تجعلوه عضين، وكأنه يقول لهم: عليكم أن لا تركنوا إلى خوارق العادات، كما رأيتم في قصص موسى، ولا تدعوا نظم الدولة، بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان، ولا تذروا الصبر في جميع الأعمال، كما رأيتم في قصص أيوب ومن بعده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر هول الموقف ودعاء المشركين على أنفسهم بالهلاك في هذا الحين، وشخوص أبصارهم من الحيرة والدهش، مما يشاهدون ويرون.. أردف هذا ذكر ما يؤول إليه أمرهم بعد الحساب، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم، من الأصنام والأوثان حطباً للنار حين يردونها، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير، حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض، لفظاعة ما هم فيه من العذاب، ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذٍ، وأنها تطوى طيا، وكأنها لم تكن كما يطوي الكاتب الطومار الذي يكتب فيه، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر، فيخلق الله أرضاً جديدة وكواكب جديدة، ويعيد الناس للحساب، وهو القادر على ذلك، فكما قدر على خلقه أول مرة، يعيده في حال أخرى، كما قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أحوال كل من الكافرين والمؤمنين.. ذكر أن الدنيا ليست كالآخرة، فلا يرثها إلاّ من كان قادراً

على إصلاحها، والانتفاع بخيراتها، والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها، فمن كان أحصف رأياً، وأحكم فكراً، ملكها وتسلط عليها، وجنى ثمارها، واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أورد الحجج والبراهين، لإقناع الكافرين بأن رسالة الرسول حق، حتى لم يبق في القوس منزع، وبلغ الغاية التي ليس بعدها غاية، وبيّن أن هذا الرسول رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد، ومن نأى عنه ضل وسار في طريق الغواية والعناد.. أردف ذلك ما يكون إعذاراً وإنذاراً في مجاهدتهم، والإقدام على مناوأتهم، بعد أن أعيته الحيل، وضاقت به السبل، ولم تغنهم الآيات والنذر، فتمادوا في غوايتهم، ولجّوا في عنادهم، وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما رواه الطبراني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال عبد الله بن الزبعري: أنا أخصم لكم محمداً فقال: يا محمد، أليس فيما أنزل عليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾؟ قال: «نعم، فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو تميم تعبد الملائكة، فهؤلاء في النار» فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعّفه جماعة.

وذكره الخطيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، قال المشركون: فإن عيسى يُعبد، وعزير والشمس والقمر؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ولا منافاة للرواية الأولى في قوله: (فقال المشركون) لأن عبد الله بن الزبعري منهم.

التفسر وأوجه القراءة

﴿وَأَيُّوبَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة أيوب لأمتك ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ودعا ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ وخالقه بـ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: أصابتني الشدة في جسدي، والضرّ بأنواعه، فأل للجنس، فارحمني ونجني منها ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وألطفهم لعباده.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَنِّى﴾ بفتح الهمزة، وعيسى بن عمر بكسرها إما على إضمار القول: أي: قائلاً: إني، وإما على إجراء نادى مجرى قال، وكسر إني بعدها، وهذا الثاني مذهب الكوفيين، والأول مذهب البصريين، والضرّ بالفتح الضرر في كل شيء نفساً، أو مالاً، أو أهلاً، وبالضم خاص بالضرر في النفس، كمرض وهزال، فرّق بين البنائين لاختلاف المعنيين، وقد ألطف أيوب في السؤال، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسّه، فإن[2] أكثر أسئلة الأنبياء في كشف البلاء عنهم، إنما هي على سبيل التعريض.

وَفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ   سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

فإن قيل: أليس زكريا صرّح في الدعاء، حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؟ قلنا: هذا سؤال العطاء، لا يجمل فيه التعريض، وذلك كشف البلاء، فيجمل فيه التعريض، لئلا يشبه بالشكاية. قال وهب بن منبه: كان أيوب رجلاً من الروم، وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، عليهما السلام، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران، وكان الله سبحانه وتعالى، اصطفاه وجعله نبيًا، وقد أعطاه من الدنيا حظاً وافراً من النعم والدواب

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

والبساتين، وأعطاه أولاداً كثيراً من رجال ونساء، وكان له سبعة بنين وسبع بنات، وكان رحيماً بالمساكين، وكان يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، أرسله الله سبحانه، إلى أهل حرّان، وهي قرية بغوطة دمشق، فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بسقوط البيت عليهم، وبذهاب أمواله، وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، وسنّه إذ ذاك سبعون سنة، فإنه خرج من فرقه إلى قدمه ثآليل، وقد وقعت في جسده حكة لا يملكها، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره، ثم حكها بالمسوح الخشنة، ثم حكها بالفخار والحجارة، ولم يزل يحكها حتى تقطّع لحمه وأنتن، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشاً.

روي: أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام، أو رحمة بنت أفرايم بن يوسف قالت له يوماً: لو دعوت الله تعالى؟ فقال: كم كانت مدة الرخاء فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

وروي أن إبليس أتاها على هيئة عظيمة. فقال: أنا إله الأرض، فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني، وعبد إله السماء، لو سجدت لي سجدة، لرجعت المال والولد، وعافيت زوجك، فرجعت إلى أيوب، وكان ملقى في الكناسة، لا يقرب منه أحد، فأخبرته بالقصة، فقال عليه السلام: كأنك افتتنت بقول اللعين، لئن عافاني الله تعالى، لأضربنك مئة سوط، وحرام عليّ أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك، فطردها، فذهبت فبقي طريحاً في الكناسة، لا يحوم حوله أحد من الناس، فلما نظر أيوب في شأنه، وليس عنده طعام ولا شراب، ولا صديق، وقد ذهبت امرأته خرّ ساجداً، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فقال تعالى ارفع رأسك فقد استجبت لك، أركض برجلك، فركض برجله، فنبعت من تحته عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبق في ظاهر بدنه دابّة، إلاّ سقطت منه، ولا جراحة إلاّ برئت، ثم ركض برجله مرة أخرى، بعد أن مشى أربعين خطوة، فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء إلاّ خرج، وعاد صحيحاً، ورجع إليه شبابه وجماله، حتى صار أحسن، ثم كسي

حلةً، فلما قام، جعل يلتفت، فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل والولد والمال إلاّ وقد ضاعفه الله تعالى، حتى روي أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب، فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت في نفسها: هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعاً، وتأكله السباع. لأرجعنّ إليه، فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة، ولا تلك الحال، وقد تغيرت الأمور، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي، وهابت صاحب الحلة، أن تأتيه وتسأله عنه، فأرسل إليها أيوب ودعاها فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة، فقال لها أيوب عليه السلام: ما كان منك؟ فبكت وقالت: بعلي، فقال: أفتعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: وهل يخفى، فتبسم وقال: أنا هو، فعرفته بضحكه، فاعتنقته، ثم قال: إنك أمرتني أن أذبح سخلة لإبليس، وإني أطعت الله، وعصيت الشيطان، ودعوت الله تعالى، فردني على ما ترين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: أجبنا له دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؛ أي: أزلنا منه ما به من الضرر، من مرض وهزال، وقد كان الذي نزل به امتحاناً من الله، واختباراً له؛ أي: شفاه الله مما كان به. وأعاضه بما ذهب عليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وأعطينا أيوب في الدنيا ﴿أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي[1]: مثل أهله عدداً مع زيادة مثل آخر، فولد له من الأولاد ضعف ما كان. قيل[2]: تركهم الله، عز وجل له، وأعطاه مثلهم في الدنيا. قال النحاس: والإسناد بذلك صحيح، وقد كان مات أهله جميعاً إلاّ امرأته، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر، وآتاه مثلهم معهم، وانتصاب ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ على العلة؛ أي: آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾؛ أي: وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، فيثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة؛ أي: آتيناه ما ذكر لرحمتنا إياه بالرحمة الخاصة، وتذكرة، وعبرة لغيره، من العابدين، ليعلموا بذلك كمال قدرتنا، ويصبروا كما صبر أيوب، فيثابوا كما أثيب.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

واعلم[1]: أن بلاء أيوب من قبيل الامتحان، ليبرز ما في ضميره، فيظهر درجته لخلقه، أين هو من ربه، وبلاء يوسف من قبيل تعجيل العقوبة؛ أي: على قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وبلاء يحيى، حيث ذبح، من قبيل الكرامة إذ لم يهمّ بخطيئة قط.

وإنما ختم القصة هنا، بقوله: ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾، وختمها في سورة ص بقوله: ﴿مِّنَّا﴾؛ لأن أيوب بالغ هنا في التضرع بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فبالغ تعالى في الإجابة، فناسب ذكر ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾؛ لأن ﴿عِندِنَا﴾ يدل على أنه تعالى. تولى ذلك بنفسه، ولا مبالغة في ص، فناسب فيها ذكر ﴿مِّنَّا﴾ لعدم دلالته على ما دل عليه ﴿عِندِنَا﴾. قاله شيخ الإسلام زكريا» اهـ كرخي.

قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين[2]: رد الله إليه أهله، وأولاده بأعيانهم، أحياهم الله، وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن. وعن ابن عباس رواية أخرى أن الله رد إلى المرأة شبابها، فولدت له ستة وعشرين ذكراً. وقيل: سبعة بنين وسبع بنات. وعن أنس يرفعه أنه كان له إندران، أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق، حتى فاضا. وروي أن الله بعث إليه ملكاً، وقال له: إن ربك يقرئك السلام بصبرك، فاخرج إلى أندرك، فخرج إليه، فأرسل الله عليه جراداً من ذهب، فذهبت واحدة، فأتبعها وردها إلى أندره، فقال له الملك: ما يكفيك ما في أندرك، فقال: هذه بركة من بركات ربي، ولا أشبع من بركاته.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكنني لا غنى لي عن بركاتك».

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

وخلاصة ما سلف[1]: أن أيوب ابتلي في نفسه وولده وماله، فابتلي بالمرض وهلاك الأولاد وضياع الأموال امتحانا منه تعالى، واختباراً له، ثم كشف عنه ما به من ضر، فشفي من أمراضه التي أصيب بها، وأنجب من الأولاد ضعف ما كان، وحسن حاله في ماله، فزال ما به من عدم وإقتار، ولم يصرح القرآن الكريم بما صار إليه من سعة في المال كما صرح بما صار إليه أمره من كثرة الولد.

وما روى من مقدار ما لحقه من الضر في نفسه، حتى وصل إلى حد النفرة منه، وأن الناس جميعاً تحاشوه، وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكناسة، ولم يكن يتصل به إلاّ امرأته التي تذهب إليه بالزاد والقوت.. فكل ذلك من الإسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها[2]؛ لأنه ليس لها من سند صحيح يؤيدها، ولأن من شروط النبوة أن لا يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه، ولأنه متى كان كذلك، لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم، وسيأتي لهذا مزيد إيضاح في سورة صٓ.

ولما ذكر الله سبحانه، أمر أيوب وصبره على البلاء، أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء، الذين سيذكرهم، لأنهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة أيضاً فقال: ﴿و﴾ اذكر ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم عليهما السلام، ومعناه: مطيع الله؛ أي: اذكر قصته لقومك، وعاش إسماعيل مئة وثلاثين سنة، وكان له، حين مات أبوه تسع وثمانون سنة، وأخوه إسحاق ولد بعده بأربع عشرة سنة، وعاش مئة وثمانين سنة، اهـ من «التحبير». ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم، واسمه أخنوخ، قال بعضهم: سمّي به لكثرة دراسته، هو جد نوح، وولد في حياة آدم قبل موته بمئة سنة، وبعث بعد موته بمئتي سنة، وعاش بعد نبوته مئة وخمسين سنة، فتكون

---

(١) المراغي.

(٢) بالنسبة للإسرائيليات قال ابن كثير: لا تصدق ولا تكذب. انظر «تفسيره» (١/ ١٧٢، ١٧٣)، و«تاريخه» (١/ ٨) وانظر أيضاً «المسجد الحرام» (١٦٥ ـ ١٧٥) للدكتور وصي الله عباس ومحمد أبو الليث، وأرجو الاطلاع على ما كتبه أستاذنا محمد محمد أبو شهبة رحمه الله في كتابه «الإسرائيليات» فتجدون أن ذلك الحكم... حكمتم به على الإسرائيليات اطلاقه وإنما هو مقيد.

جملة عمره أربع مئة وخمسين سنة، وكان بينه وبين نوح. ألف سنة، اهـ من «التحبير». ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ بمعنى[1] الكفالة والضمان؛ لأن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه، أني أريد قبض روحك، فأعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم بالنهار لا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فسلم ملكك إليه، ففعل ذلك، فقال شاب: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل ووفى به، فشكره الله، ونبّأه، فسمي ذا الكفل. ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الصبر على مشاق الطاعات واحتمال البليات.

والمعنى: واذكر يا محمد نبأ هؤلاء الرسل الكرام، الذين صبروا على ما ابتلاهم اللهبه، وأخبتوا له، فنالوا رضاه، وأدخلهم جنته:

١ ـ أما إسماعيل: فإنه صبر على الانقياد للذبح، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه، ولا ضرع، ولا بناء، وصبر على بناء البيت، وتكلف المشاق في ذلك، وقد أكرمه الله سبحانه، فأخرج من صلبه خاتم النبيين محمداً، ﷺ.

٢ ـ وأما إدريس ـ أخنوخ ـ فقد صبر على دراسة الكتب، وبعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله تعالى، فأبوا[2]، فأهلكهم الله، ورفعه إلى السماء الرابعة.

ويزعم كثير من الناس، أنه أول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح عدّة.

٣ ـ وأما ذو الكفل: فقد اختلف العلماء في شأنه: فمن قائل: إنه نبي، وهم الأكثرون، وقالوا: إنه ابن أيوب عليه السلام، بعثه الله نبياً بعد أبيه، وسمّاه ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيد الله، وأقام عمره بالشام. وقال أبو موسى الأشعري ومجاهد: لم يكن نبياً، بل كان عبداً صالحاً، استخلفه إليسع عنه، على أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب ففعل.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وأدخلنا كل هؤلاء ﴿فِى﴾ محل ﴿رَحْمَتِنَآ﴾ جنات

---

(١) روح البيان.
(٢) مراح.

النعيم، جزاء لهم على ما فعلوا من صالح الأعمال، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء، فصلاحهم معصوم من كدر الفساد.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة ذي النون؛ أي: قصة صاحب الحوت، والمراد به يونس بن متّى ـ بفتح الميم وتشديد التاء المثناة فوق مفتوحة ـ قيل[1]: هو اسم أم يونس، كذا في جامع الأصول. وقال عطاء: سألت كعباً عن متّى أهو اسم أبيه أم أمه؟ فقال: اسم أبيه، وأمه بدورة، وهي من ولد هارون، وسمّي يونس بذي النون، لأنه ابتلعه الحوت. قال الامام السهيلي: أضافه هنا إلى النون، وقد قال في سورة القلم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وذلك أنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: ذو النون، فإن الإضافة بذو أشرف من الإضافة بصاحب، لأن قولك: ذو يضاف إلى التابع، وصاحب إلى المتبوع، تقول: أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ صاحب النبي عليه السلام، ولا تقول: النبي صاحب أبي هريرة، إلاّ على جهة. وأما (ذو) فإنك تقول: ذو مال، وذو العرش، فتجد الاسم للاسم متبوعاً غير تابع، ولفظ النون أشرف من الحوت لوجوده في حروف التهجي، وفي أوائل بعض السور نحو ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾.

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ ظرف لما مضى، متعلق بالمضاف المقدر؛ أي: اذكر خبره وقت ذهابه حال كونه ﴿مُغَٰضِبًا﴾؛ أي: مغضباً ومراغماً لقومه أهل نينوى، وهي قرية بالموصل، أو غضبان على قومه، لما مر من طول دعوته إياهم، وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر؛ لأنهم لما لم يؤمنوا، وعدهم بنزول العذاب بهم لأجل معلوم، وفارقهم، ثم بلغه بعد مضي الأجل، أنه تعالى لم يعذبهم، ولم يعلم سببه، وهو أنهم حين رأوا أمارات العذاب، تابوا وأخلصوا في الدعاء والتضرع إلى الله، فاندفع العذاب عنهم، فظن أنه كذبهم، وغضب من اندفاع العذاب عنهم، وذهب غضبان. وقرأ أبو شرف ﴿مُغَٰضِبًا﴾ اسم مفعول ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: أنه لن نضيق عليه الأمر بالحبس أو

(١) روح البيان.

بغيره؛ أي: فإنه ظن أنه مخير، إن شاء أقام، وإن شاء خرج، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، فأتى بحر الروم، فوجد قوماً هيؤوا سفينة، فركب معهم، فلما توسطت السفينة البحر وقفت، ولم تجر بحال، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص، أو عبد آبق، لأن السفينة لا تكون هكذا إلاّ، وفيها رجل عاص، أو آبق، ومن عادتنا إذا ابتلينا بهذا البلاء أن نقترع، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، فاقترعوا ثلاث مرات، فوقعت القرعة فيها كلها على يونس، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى بنفسه في البحر، فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى ذلك الحوت: لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإنه ليس رزقاً لك، وما جعلتك له إلا سجناً، لا طعاماً.

وقرأ الجمهور: ﴿نَّقْدِرَ﴾ بنون العظمة مخففاً. وقرأ ابن أبي ليلى وأبو شرف والكلبي وحميد بن قيس ويعقوب: بضم الياء وفتح الدال مخففاً. وعيسى والحسن: بالياء مفتوحة وكسر الدال. وعلي بن أبي طالب واليماني: بضم الياء وفتح القاف والدال مشددة. والزهري: بالنون مضمومة وفتح القاف وكسر الدال مشددة.

وبناء المفاعلة في قوله: ﴿مُغَاضِبًا﴾ ليس على بابه[1]، فلا مشاركة كعاقبت اللص، وسافرت، بل للدلالة على كمال غضبه والمبالغة فيه، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة؛ أي: غاضب قومه، وغاضبوه، حين لم يؤمنوا في أول الأمر، اهـ كرخي.

والفاء في قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فاقترعوا فخرجت عليه القرعة، فرموه في البحر، فالتقمه الحوت، فنادى في الظلمات، ؛ أي: في ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. وقيل: ابتلع حوته حوت آخر فحصل في ظلمتي بطن الحوتين وظلمة البحر والليل. وقال الشيخ السمرقندي في تفسيره «بحر العلوم»: وعندي ـ والله أعلم ـ أن تلك الظلمات

---

(١) الفتوحات.

كانت من الجهات الست، كما قال عليه السلام: «ورأيت رجلاً من أمتي، من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير في الظلمات».

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾؛ أي[1]: بأنه، فأن مخففة من أنّ المشددة، أو مفسرة بمعنى أي ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: أنزهك تنزيهاً لائقا بك، من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بفراري من قومي بغير إذنك، فكان ذلك ظلماً، فعوقب[2] على ترك الأفضل، الذي هو المكث فيهم صابراً على أذاهم، فإنه خرج لا على تعمّد المعصية، بل لظنه أن خروجه موسّع، يجوز أن يقدّم ويؤخّر، فقد وصف يونس عليه السلام ربه، بكمال الربوبية، وهذا القدر يكفي في السؤال، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءه الذي دعا به، وأظهر به التوبة على ألطف وجه وأحسنه، وأول هذا الدعاء تهليل، وأوسطه تسبيح، وآخره إقرار بالذنب، اهـ شيخنا.

وعن رسول الله ﷺ: «ما من مكروب يدعو بدعوة ذي النون في بطن الحوت إلا استجيب له». وروى ابن جرير والبيهقي في جماعة عن سعد بن أبي وقاص، أن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون في بطن الحوت: لا إله إلاّ أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط، إلاّ استجاب له».

وروي عن أنس مرفوعاً «أنه عليه السلام حين دعا بذلك، أقبلت دعوته تحف بالعرش، فقالت الملائكة: هذا صوت ضعيف، معروف من بلاد غريبة ـ وفي رواية: صوتاً معروفاً من مكان مجهول ـ فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب من هو؟ قال: ذاك عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل مقبول، ودعوة مستجابة، يا رب أفلا ترحم من كان يصنع في الرخاء: فتنجيه من البلاء، قال: بلى، فأمر الحوت، فطرحه»، فذلك قوله:

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ أي: نجينا ذا النون ﴿مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ والهم، الذي ناله حين التقمه الحوت؛ أي: نجيناه من غم الالتقام والبحر، بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات ـ قال الشعبي[1]: التقمه ضحى، ولفظه عشيةً، أو[2] بعد ثلاثة أيام، أو سبعة أيام، أو أربعين يوماً ـ وذهب به إلى البحار القاصية، وتخوم الأرض السابعة، وقال بعضهم: كان رأس الحوت فوق الماء، وفمه مفتوحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما أنجينا يونس من كرب الحبس إذ دعانا ﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا، داعين وطالبين رحمتنا. قال الرازي: شرط كل من يلتجيء إلى الله أن يبدأ بالتوحيد، ثم بعده بالتسبيح والثناء، ثم بالاستغفار والاعتراف بالذنب.

وعن جعفر بن محمد قال: عجبت ممن يبتلى بأربع، كيف يغفل عن أربع: عجبت لمن يبتلى بالهم كيف لا يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وعجبت لمن يخاف شيئاً من السوء كيف لا يقول: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾. وعجبت لمن يخاف مكر الناس كيف لا يقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾، وعجبت لمن يرغب في الجنة كيف لا يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وعن خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يا رسول الله، إني أروع في منامي، قال: قل: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

وقرأ الجمهور[3]: ﴿نُـۨجِي﴾ مضارع أنجى. والجحدري مشدداً مضارع نجّى. وقرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿نجّي﴾ بنون مضمومة وجيم مشددة وياء ساكنة،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وكذلك هي في مصحف الإمام، ومصاحف الأمصار بنون واحدة، واختارها أبو عبيدة، لموافقة المصاحف، وقال الزجاج[1]: هذا لحن لا وجه له. وقال أبو علي الفارسي: غلط الراوي عن عاصم، ويدل على هذا، إسكانه الياء من نجّي، ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسم فاعله.. ما سكن الياء، ولرفع المؤمنين.

﴿و﴾ اذكر يا محمد لقومك ﴿زكريا﴾؛ أي: خبر زكريا بن آذن بن ماتان، من أنبياء بني إسرائيل، والظرف في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ودعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ وخالقه، متعلق بالمضاف المقدر، وقال في دعائه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ولا تتركني وحيداً، بلا ولد يرثني إرث نبوة، وعلم وحكمة. ومثل[2] هذه العبارة من العبد للسيد، تضرع ودعاء، لا نهي؛ أي: هب لي ولداً، ولا تدعني وحيداً، بلا ولد يرثني، لما بلغ عمر زكريا، عليه السلام مئة سنة، وبلغ عمر زوجته تسعاً وتسعين سنة، ولم يرزق لهما ولد، أحب أن يرزقه الله من يؤنسه، ويقويه على أمر دينه ودنياه، ويكون قائماً مقامه بعد موته، فدعا، ثم رد الأمر إلى مولاه مستسلماً ومنقاداً لمشيئته فقال ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ أي: خير من يبقى بعد من يموت، فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً، فهو ثناء على الله تعالى، بأنه الباقي بعد فناء الخلق، وله ميراث السموات والأرض ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: أجبنا لزكريا دعاءه في حق الولد كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ نبياً حكيماً عظيماً، لا في حق الوراثة، إذ المشهور أن يحيى قتل، قبل موت أبيه، وهذا لا يقدح في شأن زكريا، كما لا يقدح عدم استجابة دعاء إبراهيم في حق أبيه في شأنه، فإن الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا مجابي الدعوة، لكن أثر بعض الدعوات، لا يظهر في هذا الموطن للحكمة الإلهية ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ إيشاع بنت عمران، أو بنت فاقود للولادة، بعد انتهائها إلى سن اليأس منها، بحكم العادة؛ أي: جعلناها ولوداً. بعد أن كانت عقيماً، فإنها لم تلد قط بعد أن بلغت تسعاً وتسعين سنة.

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ لتعليل ما قبلها من إحسانه سبحانه، إلى زكريا وأهله، وإلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فالضمير[1] إما عائد إلى زكريا وزوجه ويحيى، أو إلى الأنبياء المذكورين، فيكون تعليلاً لما فصّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بهم مثل إيتاء موسى وهارون الفرقان، وتبريد النار وإطفائها لإبراهيم، وإنجاء لوط مما نزل بقومه، وإنجاء نوح، ومن كان معه في السفينة، من أذى القوم، وكرب الطوفان، وغير ذلك، مما تفضّل به على الأنبياء السابقين، أي: أنهم كانوا ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخيرات، وهو السر في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية. قال الراغب: «الخير ما يرغب فيه الكل بكل حال، وهو الخير المطلق، والشر ضده».

والمسارعة في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء[2]، لأنها تدل على حرص عظيم في طاعة الله تعالى. ﴿و﴾ كانوا ﴿يدعوننا﴾ أي يفزعون إلينا ﴿رَغَبًا﴾ أي رغبة في ثوابنا ﴿وَرَهَبًا﴾ أي: رهبة من عقابنا. وقيل؛ الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهبة رفع ظهورها إليها. أو حال كونهم راغبين في اللطف والجمال، وخائفين من القهر والجلال، أو راغبين فينا، وراهبين مما سوانا ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي خائفين متواضعين في عبادتهم، حذرين عن الانبساط في الأمور، أي[3] كانوا لنا عابدين في تواضع وضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، ولكن شأن الأنبياء أعلى من أن يكون حالهم منحصراً في الظاهر، فلهم خشوع كامل في القلب والقالب جميعاً، وأكل العبد خشنا، واللبس خشنا، وطأطأة الرأس ونحوها من غير أن يكون في قلبه الإخلاص، والخوف من الله تعالى صفة المرائي والمتصنع.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

والمعنى: أنهم نالوا من الله ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة، فليفعل من أراد الإجابة إلى مطلوبه مثل ما فعلوا، وليتخلق بتلك الأخلاق.

وخلاصة معنى الآيات: أي واذكر خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبياً، فقال خفية عن قومه: «رب لا تدعني وحيداً، لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي في النادي، فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث» فأجبنا سؤله، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجة بأن أزلنا عنها الموانع التي كانت تمنعها من الولادة، فولدت له بعد أن كانت عقيماً، ثم ذكر السبب في إجابة مطلبهم، فقال: إنهم كانوا أي لأن زكريا وزوجه ويحيىٰ كانوا يسارعون في طاعتنا، والعمل بما يقربهم إلينا حال كونهم يدعوننا، ويعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا، وخوفاً من عذابنا وعقابنا، وكانوا لنا متواضعين متذللين، لا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا.

وقرأ ابن مسعود وابن محيصن[1]: ﴿يدعونا﴾ بحذف نون الرفع. وطلحة بنون مشددة، أدغم نون الرفع في «نا» ضمير النصب. وقرأ ابن وثاب والأعمش ووهيب بن عمرو النحوي وهارون وأبو معمر الأصمعي واللؤلؤي ويونس وأبو زيد سبعتهم عن أبي عمرو ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ بالفتح وإسكان الهاء، والأشهر عن الأعمش بضمتين فيهما. وقرأت فرقة بضم الراءين وسكون الغين والهاء.

﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿التي أحصنت فرجها﴾؛ أي: قصة مريم بنت عمران، التي أحصنت فرجها إحصاناً كلياً، وحفظته حفظاً تاماً من أن يصل إليه أحد من الرجال بحلال أو حرام جميعاً كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، وجاء في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

﴿فَنَفَخْنَا﴾ الروح في عيسى، وأحييناه حالة كونه كائناً ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جوفها وبطنها، فهو[2] حال من المفعول المحذوف ﴿مِن﴾ جهة ﴿رُّوحِنَا﴾ جبريل الأمين وبواسطته؛ أي؛ أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها، فخلقنا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

بذلك النفخ المسيح في بطنها. وقال السهيلي: «النفخ في روح القدس بأمر القدوس، فأضاف القدس إلى القدوس، ونزه المقدسة عن الظن الكاذب والحدس. وقيل: المعنى فنفخنا فيها بعض روحنا؛ أي: بعض الأرواح المخلوقة لنا، وذلك البعض هو روح عيسى؛ لأنها وصلت في الهواء، الذي نفخه إلى درعها. وقد سبقت قصة النفخ في سورة مريم. ومعنى «أحصنت» عفت، فامتنعت من الفاحشة وغيرها. وقيل: المراد بالفرج جيب القميص؛ أي: أنها طاهرة الأثواب.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي: جعلنا حالهما وشأنهما ﴿ءَايَةً﴾ عظيمة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وعلامة دالة على القدرة الكاملة، لأهل زمانهما، ولمن بعدهما، فإن من تأمل في ظهور ولد، من بتول عذراء، من غير فحل، تحقق كمال قدرته تعالى. ولم يقل: «آيتَيْن»؛ لأنها قصة واحدة، وهي ولادتها له من غير ذكر، ولكل واحد منهما آيات مستقلة متكاثرة، كما أشير إلى بعض منها في القرآن، وإلى بعض آخر في التفاسير وكتب القصص، أما آيات مريم فمنها: ظهور الحمل من غير ذكر. ومنها: أن الملائكة كانت تأتيها برزقها، كما حكى القرآن قول زكريا لها وردها عليه: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. وأما آيات عيسى فقد سبق تفصيلها في سورتي آل عمران ومريم.

ثم لمّا ذكر سبحانه الأنبياء، بيَّن أنهم كلَّهم مجتمعون على التوحيد فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الملة التي هي ملة الإسلام والتوحيد المذكورة في كتابكم ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم وطريقتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها. والظاهر أن قوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خطاب لمعاصري الرسول ﷺ، حالة كونها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ملة واحدة متفقة، لا يخرج عنها إلاّ المشركون بالله؛ أي: إن هذه الشريعة المنزلة على محمد ﷺ، شريعتكم، أيها الناس، التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، ولا تخلوا بشيء منها، حالة كونها شريعة واحدة، غير مختلفة فيما بين الأنبياء، فإنهم متفقون في الأصول، وإن كانوا مختلفين في الفروع، بحسب اختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ ومالككم، لا إله لكم غيري ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصة، لا غيري كائناً ما كان؛ أي: لا دين سوى ديني، ولا رب لكم غيري، فوحّدوني بالعبادة، ولا تشركوا بي شيئاً من صنم، أو وثن شجر، أو حجر، أو بشر، أو ملك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بالرفع خبر ﴿إن﴾. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على الحال. وقيل: بدل من ﴿هَٰذِهِ﴾. وقرأ الحسن ﴿أُمَّتَكُمْ﴾ بالنصب بدل من ﴿هَٰذِهِ﴾. وقرأ أيضاً هو وابن إسحاق والأشهب العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ برفع الثلاثة على أن ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ و﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ خبر ﴿إن﴾، أو ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ بدل من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بدل نكرة من معرفة، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أمة واحدة.

ثم نعى على المسلمين ما فعلوا من تفريق شأنهم فرقاً وشيعاً فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: تفرقوا في أمرهم، وجعلوا دينهم قطعاً، ومذاهب مختلفة بينهم، بأن آمنوا بالبعض، وكفروا بالبعض. والضمير[2] في ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات؛ أي: وتقطعتم. ولما كان هذا الفعل من أقبح المرتكبات، عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة، كأن هذا الفعل ما صدر من المخاطبين؛ لأن في الإخبار عنهم بذلك نعياً عليهم ما أفسدوه، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم، ويقول: ألا ترى إلى ما ارتكب هؤلاء في دين الله، جعلوا أمر دينهم قطعاً، كما يتوزع الجماعة الشيء، لهذا نصيب، ولهذا نصيب، تمثيلاً لاختلافهم. وقرأ الأعمش ﴿زبرا﴾ بفتح الباء، جمع زبرة ذكره أبو حيان في «البحر».

والمعنى[3]: جعل الناس أمر الدين قطعاً، واختلفوا فيه، فصاروا فرقاً، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء، حيث جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، فأصاب كل جماعة قطعة من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الدين، فصاروا بتقطيع دينهم كأنهم قطع شتى، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرّأ بعضهم من بعض. وإنما قال هنا: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، وفي المؤمنون: ﴿فَاتَّقُونِ﴾؛ لأن الخطاب في هذه الآية للكفار، فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد. وفي سورة المؤمنين الخطاب للمؤمنين والرسل فأمرهم بالتقوى، اهـ كرخي.

قال الحسن البصري[1]: في هذه الآية يبيّن لهم ما يتقون، وما يأتون، يريد أن هذا إخبار بالغيب بما سيكون منهم.

والخلاصة: أنهم قد غفلوا عما أمر به دينهم، من وجوب الاعتصام بوحدة الأمة ونبذ الفرقة، ففعلوا ضد هذا، وذاق بعضهم بأس بعض، وكان في هذا وبال للجميع، وتمكن عدوهم من أن يهيض جناحهم، ويبطش بهم، ويستعبدهم في عقر دارهم، ويسيمهم الخسف والصَّغار، بعد أن كانوا سادة أحراراً، ولله الأمر من قبل، ومن بعد.

ثم توعدهم على ما فعلوا، فقال: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحدة من الفرق المتقطعة ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿رَاجِعُونَ﴾ بالبعث فنجازيهم حينئذٍ بحسب أعمالهم؛ أي: أنهم سيرجعون إلينا، ونجازيهم على تفرقهم واختلافهم شيعاً. وفي هذا إخبار بالغيب، بما سيحدث في هذه الأمة، التي ذاقت وبال أمرها، وعاقبة اختلافها، وكانت لقمة سائغة للآكلين، ونهبا مقسماً بين الطامعين جزاء ما اجترحت من التفرق.

وبعد أن أبان أن افتراق الأمة واقع لا محالة، أردفه فتح باب الرجاء في لم شعثها واتفاقها بعد تفرقها، عسى أن تقوم من كبوتها، وترجع إلى وحدتها، وتصير لها الدولة والصولة، كما كانت في سالف عهدها، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: من بعض الأعمال الصالحة، لا كلها إذ لا يطيق ذلك أحد. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾؛ أي: لا جحود لعمله، ولا تضييع لجزائه، ولا حرمان لثواب عمله. وفي قراءة[2] ابن

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

مسعود ﴿فلا كفر لسعيه﴾.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لسعيه ﴿كَٰتِبُونَ﴾؛ أي: مثبتون في صحائف أعمالهم، حافظون له، لا نغادر منه شيئاً.

والمعنى: أي[1] ومن يعمل صالح الأعمال، وقلبه مليء بالإيمان بربه، والتصدق لأنبيائه ورسله، واليقين باليوم الآخر، يوم تجزي كل نفس بما عملت، من خير أو شر، فإنا لا نضيع سعيه، ولا نبخسه حقه، بل نوفيه على عمله الجزاء الأوفى، وإنا مثبتون له ذلك في صحيفة أعماله، لا نترك منه شيئاً جلَّ أو قلَّ، عظم أو حقر، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾؛ أي: ممتنع، خبر مقدم ﴿عَلَىٰ﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾؛ أي: استأصلناها بالعذاب في الدنيا، لكفرهم، متعلق بـ «حرام»، وجملة قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلينا في الآخرة، للمجازاة في تأويل مصدر مرفوع، على كونه مبتدأ مؤخراً، أو فاعلاً سدّ مسدّ الخبر. والمعنى[2]: وممتنع ألبتة على أهل القرية المهلكة عدم رجوعهم إلينا للجزاء بأن يذهبوا تحت التراب، من غير إحساس بالنعمة، أو بالعذاب، بل لا بد من جزائهم في الآخرة على أعمالهم السيئة.

وقيل المعنى[3]: واجب على أهل قرية أهلكناها بالموت عدم رجوعهم عن الشرك والمعاصي، فإن الحرام قد يأتي بمعنى الواجب، ومنه قول الخنساء:

وَإِنَّ حَـرَامَـاً لاَ أَرَىٰ ٱلـدَّهْـرَ بَـاكِـيَـاً   عَـلَىٰ شَجْوِهِ إِلاَّ بَكَيْتُ عَلَىٰ صَخْرِ

وقيل[4]: إن ﴿لَآ﴾ في ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة؛ أي: حرام على أهل قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا. واختار هذا أبو عبيدة. قال النحاس:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) الشوكاني.

والآية مشكلة، ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس وغيرهم، عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون؛ أي: لا يتوبون. قال الزجاج وأبو علي الفارسي: إن في الكلام إضماراً؛ أي: وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل؛ لأنهم لا يرجعون؛ أي: لا يتوبون.

وتخصيص[1] امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾؛ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم.

وفي «التأويلات النجمية»[2]: يشير إلى قلوب أهل الأهواء والبدع المهلكة باعتقاد السوء، ومخالفات الشرع، أنهم لا يتوبون إلى الله، ولا يرجعون إلى الحق، يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وطلحة والأعمش وأبو حنيفة وأبو عمرو في رواية ﴿وحِرْمٌ﴾ بكسر الحاء وسكون الراء. وقرأ قتادة ومطر الورّاق ومحبوب عن أبي عمرو بفتح الحاء وسكون الراء. وقرأ عكرمة ﴿وحَرِمٌ﴾ بكسر الراء والتنوين. وقرأ ابن عباس وعكرمة أيضاً وابن المسيب وقتادة أيضاً بكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضي، بخلاف عنهما. وأبو العالية وزيد بن علي بضم الراء وفتح الحاء والميم على المضي. وقرأ ابن عباس أيضاً: بفتح الحاء والراء والميم على المضي. وقرأ اليمان ﴿وحُرِّمَ﴾ بضم الحاء وكسر الراء مشدّدة وفتح الميم. وقرأ الجمهور ﴿أهلكناها﴾ بنون العظمة. وقرأ السلمي وقتادة بتاء المتكلم.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وقرئ ﴿إِنَّهُمْ﴾ بكسر الهمزة، فيكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ ويقدر حينئذٍ مبتدأ مؤخر، ويكون ﴿حرام﴾ خبراً مقدماً له، والمعنى: وحرام على أهل قرية قدّرنا إهلاكهم لكفرهم عمل صالح، ينجون به من الإهلاك، ثم أكد ذلك وعلّله بقوله: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك. وقراءة الجمهور بالفتح تصح على هذا المعنى، وتكون ﴿لا﴾ نافية على بابها، والتقدير لأنهم لا يرجعون.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ليست بحرف جر، ولا حرف عطف، بل هي حرف يبتدأ بعدها الكلام، غاية لما يدل عليه ما قبلها، كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ إلخ، أو لا يرجعون عن الكفر، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع. و﴿إذا﴾ شرطية جوابها قوله الآتي. ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾. وقيل: جوابها محذوف تقديره: يرجعون إلينا ويقولون: يا ويلنا كما قدّرناه آنفاً. وقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ معطوف على الجواب المحذوف. ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحهما فتح سدهما، فهو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وقد سبقت قصة يأجوج ومأجوج وبناء السد عليهم وفتحه في آخر الزمان في سورة الكهف. والتقدير: حتى إذا فتح سدّ يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم﴾؛ أي: والحال أن يأجوج ومأجوج ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي إلى كل مكان مرتفع من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يسرعون المشي إليه لينزلوا فيه، ويظهروا فيه، ويتفرقون في الأرض، وينتشرون فيها. قال ابن عباس: من كل شرف يقبلون، أي: لكثرتهم ينسلون من كل ناحية. روى أنهم يسيرون في الأرض، ويقبلون على الناس من كل موضع مرتفع والحدب المكان المرتفع، والنسلان مقاربة الخطو من الإسراع. وقرأ ابن مسعود[1]، وابن عباس: ﴿من كل جدث﴾ بالجيم والثاء المثلثة، وهو القبر. وقرأ الجمهور: ﴿يَنسِلُونَ﴾ بكسر السين. وابن

(١) البحر المحيط.

إسحاق وأبو اليمان بضمها.

وذلك[1] بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، ثم يهلكون بدعائه عليهم، فتملأ رممهم وجيفهم الأرض، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً، فيغسل الأرض من آثارهم، ثم يقول الله للأرض: أنبتي ثمرك، فيكثر الرزق جدًّا، ويستقيم الحال لعيسى والمؤمنين، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحاً طيبة، تقبض روح كل مؤمن ومسلم، وتبقي شرار الناس يتهارجون كتهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة اهـ «خازن». وبين موت عيسى والنفخة الأولى مئة وعشرون سنة، لكن السنة بقدر شهر، كما أن الشهر بقدر جمعة، والجمعة بقدر يوم، واليوم بقدر ساعة، فيكون بين عيسى والنفخة الأولى قدر ثنتي عشرة سنة من السنين المعتادة، اهـ.

وقيل: الضمير في قوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ يعود على العالم بأسره، ولكن الأول أظهر. والمعنى على هذا؛ أي[2]: ويستمر هذا الإمتناع إلى قيام الساعة، ومن أماراتها فتح سد يأجوج ومأجوج، وإتيان الناس سراعاً من كل مرتفع من الأرض، والمقصود الرد على المشركين في إنكارهم البعث والجزاء.

والخلاصة: أنه لا تزال حياة من مات وهلك ممتنعةً، ولا يمكن رجوعهم إليها حتى تقوم الساعة، ويسرع الناس من كل حدب من الأرض. قال أبو حيان: والظاهر أن ضمير ﴿وهم﴾ عائد على يأجوج ومأجوج. وقيل: الضمير للعالم، ويدل عليه قراءة عبد الله وابن عباس ﴿من كل جدث﴾ بالجيم والثاء المثلثة، وهو القبر. وقرىء بالفاء. والثاء للحجاز، والفاء لتميم، وهي بدل من الثاء كما أبدلوا الثاء منها قالوا: المغثور، وأصله مغفور. ذكره في «البحر» كما مر بعضه.

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: القيامة ـ عطف على ﴿فتحت﴾، والمراد: ما بعد النفخة الثانية، من البعث والحساب والجزاء ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: القصة ﴿شَاخِصَةٌ﴾؛ أي: مرتفعة ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الدهشة والحيرة، حالة

---

(١) الخازن.　　(٢) المراغي.

كونهم قائلين تحسراً وندامة ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ ويا هلاكنا، تعال إلينا، فهذا أوان حضورك. وجملة قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾. وإذا[1] للمفاجأة سدّ مسدّ الفاء الجزائية كقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة. و﴿شَٰخِصَةٌ﴾ خبر مقدم لـ ﴿أَبۡصَٰرُ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر، خبر ضمير القصة مفسرة له.

وقال الفراء والكسائي[2]: الواو في قوله: ﴿واقترب الوعد﴾ زائدة مقحمة في جواب الشرط، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق نظير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾؛ أي: ناديناه. وعلى هذا القول، فالفاء في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ تكون عاطفة على هذا الجواب. فإن قيل[3]: فتح السد واقتراب الوعد الحق يحصل في آخر أيام الدنيا، والجزاء وشخوص الأبصار إنما يحصل يوم القيامة، والشرط والجزاء لا بد وأن يكونا متقاربين؟

فالجواب: أن التفاوت القليل يجري مجرى العدم، وفي الآية دلالة على أن قيام الساعة. لا يتأخر عن خروج يأجوج ومأجوج، كما روي عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لو أن رجلاً اقتنى، فلوّا بعد خروج يأجوج ومأجوج، لم يركبه حتى تقوم الساعة. والفلوّ المهر؛ أي: ولد الفرس.

والمعنى[4]: أن القيامة إذا قامت ارتفعت أبصار هؤلاء، من شدة الأهوال، فلا تكاد تطرف من شدة ما يخافونه قائلين: يا ويلنا؛ أي: هلاكنا تعال فهذا أوان حضورك ﴿قَدۡ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ تامة ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ الذي أصابنا ودهمنا من البعث والرجوع إليه للجزاء، ولم نعلم أنه حق، وقوله: ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إضراب[5] عما قبله، من وصف أنفسهم بالغفلة؛ أي: لم نكن غافلين

---

(١) البيضاوي.
(٢) القرطبي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح.
(٥) روح البيان.

عنه، حيث نبّهنا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر، مكذبين بها، أو ظالمين لأنفسنا، بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب، فليتفكر العاقل من هذا البيان والتذكار، فقد نبّه الله، وقطع الأعذار. وفي الحديث: «يقول الله عز وجل: يا معشر الجن الإنس، إني قد نصحت لكم، فإنما هي أعمالكم في صحفكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه».

وعن بعض الحكماء، أنه نظر إلى أناس يترحمون على ميت، خلف جنازته، فقال: لو تترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، أما إنه قد مات ونجا من ثلاثة أهوال: أولها رؤية ملك الموت، والثاني مرارة الموت، والثالث خوف الخاتمة.

وصفوة القول[1]: إن الناس لا يرجعون إلى الحياة، حتى تزلزل الأرض زلزالها، ويختل نظام هذا العالم، فتموج الأمم في بعض، بتفريق أجزائها، لا فرق بين يأجوج ومأجوج وغيرهما، فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها، فكأنه قيل: إنهم لا يرجعون إلى الحياة إلاّ إذا اختل نظام العالم، ورجّت الأرض رجّاً، وماجت الأمم بعضها في بعض، وخرج الكفار من قبورهم شاخصة أبصارهم، من الهول الذي هم فيه.

ثم بيّن سبحانه حال معبوداتهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: والأصنام التي تعبدونها، متجاوزين عبادة الله، وذلك[2] بدلالة ما، فإنها لما لا يعقل، فخرج عزير وعيسى والملائكة ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وقود جهنم، تحصبون فيها، وترمون فتكونون وقودها. وهو بفتح المهملتين، اسم لما يحصب؛ أي: يرمى في النار، فتهيج به، من حصبه إذا رماه بالحصباء، ولا يقال له: حصب إلاّ وهو في النار، وأما قبل ذلك، فيقال له: حطب وشجر وخشب ونحو ذلك ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: واردون عليها، وداخلون فيها

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

على طريق الخلود. والخطاب لهم، ولما يعبدون، تغليباً لهم. واللام في قوله: ﴿لَهَا﴾ للتقوية، لضعف عمل اسم الفاعل. وقيل: هي بمعنى ﴿عَلَى﴾، والمراد بالورود هنا الدخول.

والمعنى[1]: إنكم أيها المشركون بالله، العابدون من دونه الأوثان والأصنام، وما تعبدون من دونه، من الآلهة وقود جهنم، وإنكم واردوها وداخلون فيها، ونحو الآية قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

والحكمة في أن الآلهة تقرب بهم، وتدخل معهم في النار:

١ ـ أنهم كلما رأوهم، ازدادوا غمًّا وحسرةً؛ لأنهم ما وقعوا في العذاب إلاّ بسببهم، وقد قالوا: «النظرْ إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب».

٢ ـ أنهم قد كانوا في الدنيا، يظنون أنهم يشفعون لهم في الآخرة، ويدفعون عنهم العذاب، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

٣ ـ أن إلقاءهم في النار استهزاء بهم وبعبادتهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿حَصَبُ﴾ بالحاء والصاد المهملتين، وهو ما يحصب به؛ أي: يرمى به في نار جهنم. وقرأ ابن السميقع وابن أبي عبلة ومحبوب وأبو حاتم عن ابن كثير: بإسكان الصاد، ورويت عن ابن عباس، وهو مصدر، يراد به المفعول؛ أي: المحصوب. وقرأ ابن عباس: بالضاد المعجمة المفتوحة. وعنه إسكانها. وبذلك قرأ كثير عزة. والحصب ما يرمى به في النار. وقرأ أبيّ وعليّ وعائشة وابن الزبير وزيد بن علي ﴿حطب﴾ بالطاء.

ثم بيّن لهم بالدليل خطأ ما يعتقدون فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: لو كانت هذه الأصنام ﴿ءَالِهَةً﴾ على الحقيقة، كما تزعمون أيها العابدون ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾؛ أي: ما وردت تلك الآلهة النار، ولا دخلوها، لكنه قد اتضح لكم

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

على أتم وجهٍ أنهم وردوها إذ صاروا حطبها، فامتنع كونهم آلهة، أو: ما ورد العابدون والمعبودون النار. وقيل: ما ورد العابدون فقط. وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام، وتوبيخ شديد لهم. وقرأ الجمهور: ﴿آلهة﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كان﴾ وقرأ طلحة: بالرفع على أن في ﴿كَانَ﴾ ضمير الشأن. وقصارى ذلك أن الأصنام، إذا كانت لا تنفع نفسها، ولا تدفع الضر عنها، فهي أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها، ومن جرّاء ذلك، فهي جديرة بالتحقير والإهانة، لا بالتعظيم والعبادة ﴿وَكُلٌّ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَالِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها أبدا، لا خلاص لهم منها.

ثم بيّن أحوالهم فيها، فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الذين وردوا النار ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿زَفِيرٌ﴾ أي: أنين وتنفس شديد، متقطع، من شدة ما ينالهم من العذاب. والزفير: ترديد النفس حتى تنفخ الضلوع منه، وهو مع كونه، من أفعال العبدة، أضيف إلى الكل للتغليب ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الذين دخلوا النار ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يسمع بعضهم، زفير بعض لعظم الهول، وفظاعة العذاب. وقيل(1): لا يسمعون شيئاً؛ لأنهم يحشرون صمًّا كما قال سبحانه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، وإنما سلبوا السماع؛ لأن فيه بعض تروّح وتأنس. وقيل: لا يسمعون ما يسرّهم، بل يسمعون ما يسوؤهم.

ثم لمّا بيّن سبحانه هؤلاء الأشقياء، شرع في بيان حال السعداء، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا﴾؛ أي: من جهتنا، وفي علمنا الخصلة ﴿الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الخصال، وهي السعادة. وقيل: التوفيق، أو التبشير بالجنة، أو نفس الجنة. وهم كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصفة المذكورة ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن نار جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ لأنهم قد صاروا في الجنة،

---

(1) الشوكاني.

وشتّان بينها وبين النار؛ لأن الجنة في أعلى عليين، والنار في أسفل السافلين.

وقال بعضهم[1]: ﴿أن﴾ هنا بمعنى إلاّ؛ أي: إلاّ الذين سبقت لهم منا الحسنى، يعني: السعادة والعدة الجميلة بالجنة. والمعنى: إن الذين سبق لهم التوفيق للطاعة، وأخبتوا لله، وأخلصوا له العمل لا يدخلون النار، ولا يقربونها ألبتة.

ثم ذكر أوصافهم حينئذٍ فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ أي: لا يسمعون صوت حركة النار، الذي يسمع من شدة تحركها واضطرابها وتوهّجها. والحسيس[2] صوت يحس به؛ أي: لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود، عند كون المصوت بعيداً وإن كان صوته في غاية الشدة، لا أنهم لا يسمعون صوتها الخفي في نفسه فقط، قال جعفر الصادق: كيف يسمعون حسيسها والنار تخمد لمطالعتهم، وتتلاشى برؤيتهم. وهذه الجملة[3] بدل من ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو حال من ضميره، أو خبر ثان، وهي مذكورة للمبالغة في انقاذهم منها.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الموصوفون بالصفات المذكورة ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ﴾ وتمنّت والتذّت ﴿أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾؛ أي: دائمون في غاية التنعم والاشتهاء، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذ به الأعين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، والشهوة[4]: طلب النفس اللذة. وتقديم الظرف للقصر والاهتمام، وهو بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك. والمعنى: أنهم في حبور دائم، ونعيم لا ينقطع ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾؛ أي: لا يخيفهم ﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾؛ أي: هول النفخة الأخيرة في الصور، حين قيامهم من قبورهم للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾، أو[5] حين تغلق النار على أهلها، وييأسون من

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) روح البيان.

(٥) المراح.

الخروج منها، أو حين يذبح الموت في صورة كبش أملح بين الجنة والنار، وينادي يا أهل النار، خلود بلا موت، فييأس أهل النار من الخروج منها، أو حين يؤمر بالكافر، بالذهاب إلى النار.

وهذا[1]: بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية، بعد بيان نجاتهم من النار، لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع، لا يحزنهم ما عداه بالضرورة. والفزع: انقباض ونفور، يعترى الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الفزع. ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه. وقال بعضهم: الفزع الأكبر ذبح الموت بمرأى من الفريقين، وإطباق جهنم على أهلها؛ أي: وضع الطبق عليها بعد ما أخرج منها من أخرج، فيفزع أهلها حينئذٍ فزعاً شديداً، لم يفزعوا فزعاً أشد منه. وقال الراغب: الفزع الأكبر هو الفزع من دخول النار، اهـ.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن[2]: ﴿لا يُحزنهم﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزن الرباعي لغة تميم. وقرأ الباقون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾ بفتح الياء وضم الزاي؛ قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: وتستقبلهم الملائكة الحفظة، الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم على أبواب الجنة، بالبشرى، بالنجاة من العذاب، أو ملائكة الرحمة مهنّئين لهم، قائلين: ﴿هَـٰذَا﴾ اليوم، وهذا الوقت هو ﴿يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا بمجيئه، وتبشرون بما لكم فيه من الثواب، كفاء إيمانكم بالله وطاعتكم له، وتزكية أنفسكم بصالح الأعمال باتباعكم أوامر ربكم، واجتنابكم نواهيه. وقصارى ذلك أنهم خلصوا من كل ما يكرهون، وفازوا بكل ما يحبون.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بـ ﴿ٱذْكُرْ﴾ محذوفاً، وهو أولى وأوضح. والطي ضد النشر، وهو الجمع والدرج. والمراد، بالسماء: الجنس. والكاف في قوله: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ صفة لمصدر محذوف. والسجل: القرطاس والصحيفة، فالطي حينئذٍ، مصدر مضاد لمفعوله، والفاعل

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

محذوف. والكتاب إما مصدر بمعنى الكتابة، أو بمعنى المكتوب. واللام على معناها؛ أي: للتعليل. والمعنى: واذكر يا محمد، لأمتك هول يوم نطوي السماء، ونلقها طيًّا ولفًّا، كما يطوي الرجل السجل والقرطاس، ويلفه لأجل الكتابة فيه، في مبدأ شغل الكتابة، أو يلفه لحفظ ما كتب فيه من المعاني الكثيرة والإعمال المنتشرة، في نهاية شغل الكتابة. وقيل: السجل اسم ملك في السماء الثالثة، فإن هذا الملك يطوي كتب الأعمال، إذا رفعت إليه، وعلى هذا المعنى، فالطي: مصدر مضاف إلى فاعله، والكتاب، بمعنى: المكتوب، والمعنى على هذا، طياً كطي الملك، المسمى بالسجل، وجمعه صحائف الأعمال، إذا رفعت الحفظة أعمال العباد إليه، فاللام على هذا زائدة.

وقيل: الظرف متعلق بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ والمعنى عليه: لا يحزنهم[1] الفزع الأكبر حين تطوي السماء وتزال، وتأتي سماء أخرى جديدة، وكواكب أخرى، كما يطوي الطومار والقرطاس على ما يكتب فيه لحفظه من الضياع والمحو. واللام على هذا بمعنى على.

والخلاصة: أنه لا يلحقهم الفزع حين تمحى رسوم السماء، وتذهب آثارها، وتخلق أرض جديدة وكواكب جديدة.

وقيل: الظرف متعلق بـ «نعيده» الآتي؛ أي: نعيده يوم نطوي السماء. وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نَطْوِى﴾ بنون العظمة. وقرأ أبو جعفر وأبو العالية وابن أبي عبلة وفرقة ﴿تُطوى﴾ بتاء مضمومة وواو مفتوحة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ رفعاً وذلك بمحو رسومها، وتكدير نجومها، وتكوير شمسها. وقرأت[3] فرقة: منهم مجاهد وشيبة بن نصّاح ﴿يَطوي﴾ بياء الغيبة، مبنياً للفاعل على معنى: يطوي الله السماء.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط وزاد المسير.

(٣) البحر المحيط وزاد المسير.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ بكسر السين والجيم وتشديد اللام. وقرأ الحسن وأبو المتوكل وأبو الجوزاء ومحبوب عن أبي عمرو ﴿السِّجْل﴾ بكسر السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام. وقال أبو عمرو: وقراءة أهل مكة مثل قراءة الحسن. وقرأ الأعمش وطلحة وأبو السماك ﴿السَّجْل﴾ بفتح السين وسكون الجيم وتخفيف اللام. وقرأ أبو هريرة وصاحبه وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ﴿السُّجُلّ﴾ بضمتين وتشديد اللام.

وقرأ الجمهور ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿للكتاب﴾ بالإفراد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿لِلْكُتُبِۚ﴾ بالجمع. وسكّن التاء الأعمش.

والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ جارّة، وما مصدرية، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف. والمعنى: نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا له؛ أي: كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود، وهذا لاينافي الإعادة من عجب الذنب. وخلق مصدر بمعنى الخلائق. فلذلك أفرده اهـ «سمين». ففي الآية تشبيه الإعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء. قال الزمخشري: فإن قلت: ما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟

قلت: أوله إيجاده من العدم. فكما أوجده أولاً من عدم، يعيده ثانياً من عدم.

تنبيه[1]: اختلفوا في كيفية الإعادة، فقيل: إن الله تعالى يفرّق أجزاء الأجسام، ولا يعدمها، ثم إنه يعيد تأليفها، فذلك هو الإعادة. وقيل: إنه تعالى يعدمها بالكلية، ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه؛ لأنه تعالى شبّه الإعادة بالابتداء، والابتداء، ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة، بل عن الوجود بعد العدم. فوجب أن تكون الإعادة كذلك.

واحتج الأولون بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، فدل هذا على أن السموات، حال كونها مطوية تكون موجودة، وبقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ

---

(١) الفتوحات.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وهذا يدل على أن الأرض باقية، لكنها جعلت غير الأرض، اهـ كرخي.

والمعنى على الوجهين: أي[1] نعيد ما خلقناه أولاً إعادة مثل بدئنا إياه، في كونه إيجاداً بعد عدم، أو جمعاً للأجزاء المتبدّدة، فهو تشبيه للإعادة بالابتداء في تناول قدرة الله تعالى لهما، على السواء. وقيل[2]: معناه: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم. حفاة عراة غرلاً، كذلك نعيدهم يوم القيامة. روي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة عراة. حفاة، غرلاً كما خلقوا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ متفق عليه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد.

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ منصوب بـ(وعدنا) مقدراً، وهو مؤكد لمضمون ما قبله؛ أي: وعدنا بالإعادة وعداً حقاً علينا إنجازه، والوفاء به بسبب الإخبار عن ذلك، وتعلق العلم بوقوعه، وأن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ما وعدنا لا محالة. قال العمادي: أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له. وقال الزجاج: معنى ﴿إنا كنا فاعلين﴾: إنا كنا قادرين على ما نشاء، وهو البعث والإعادة، وهذه الجملة، ذكرت تأكيداً لتحتم الخبر.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾، أي: وعزتي وجلالي لقد كتبنا وأثبتنا في الكتب المنزلة من السماء، التوراة، والإنجيل والزبور والفرقان ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ ما كتبناه في ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ وأثبتناه في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أن أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات في الدنيا، من بعد بعثهم وإعادتهم في الآخرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وعلى هذا المعنى: فالمراد بالزبور جميع الكتب المنزلة من السماء التوراة والإنجيل والزبور والقرآن؛ لأن الزبور والكتاب بمعنى واحد، يقال: زبرت وكتبت، قاله

---

(١) المراح.   (٢) زاد المسير.

الزجاج، ويؤيده ما قاله حمزة في الزبور بضم الزاي فإنه جمع زبر. وبالذكر اللوح المحفوظ. وبالأرض أرض الجنة. وبالصالحين عامة المؤمنين.

وقيل: المراد بالزبور كتاب داود، وبالذكر توراة موسى. وقيل: المراد بالزبور القرآن، وبالذكر التوراة والإنجيل. وقيل: المراد بالأرض: أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا محمد ﷺ وأمته بفتحها. وقيل: المراد بها الأرض المقدسة. يرثها بنو إسرائيل بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾. والظاهر[1]: أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ، بوراثة أرض الكافرين، وإعزاز المسلمين، وإظهار الدين. وعليه أكثر المفسرين. وقرأ حمزة ﴿عبادي﴾ بتسكين الياء، وقرأ الباقون: بتحريكها.

وقيل معنى الآية: أي[2] ولقد كتب الله عنده، وأثبت في قديم علمه الأزلي، الذي لا ينسى، ثم أثبت في الكتب السماوية من بعد ذلك، أن الأرض لا يعمرها من عباده إلاّ من يصلح لعمارتها، من أي دين كان، وأي مذهب انتحل.

وصلاح الأمة، يقوم على أربعة أركان:

١ ـ أن يكون قادتها علماء مفكرين، وساستها حكماء عادلين، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة، يأخذون بيد المظلوم، وينصفونه من الظالم، ويعملون لخير الأمة وسعادتها، ويواصلون ليلهم بنهارهم في كل ما يرفع من شأنها، ويسمو بها على الأمم.

٢ ـ أن يكون لها جيش منظم، يحمي حريمها، ويدافع عنها، إذا جدّ الجدّ، وأدلهم الخطب، ولن يكون كذلك، إلاّ إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون، ولديه من السلاح، وعداد الحرب، ما يكشف عنه العلم، من وسائل الدفاع من طائرات، وغوّاصات وسفن حربية، وآلات للهدم والتدمير، وجند حذقوا فنون الحرب، وبلوا أساليبها المختلفة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

٣ ـ أن يقوم أبناء الحرف المختلفة، من تجّار وصنّاع وزرّاع، بأداء أعمالهم على الوجه المرضي، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى، وتعاونها لخير الجميع، وتقوم بما يجب نحوها، من المساعدة فيما يكفل نجاح الجميع.

٤ ـ أن تنظم هذه الطوائف أعمالها، بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد، بحسب حاجة الأمة إليها، حتى لا تمد يدها إلى غيرها لمعونتها، ويكون في كل طائفة جماعة، مبرزون يفكرون فيما يرقى بشؤون الطائفة، بحيث تنافس أمثالها في الأمم الأخرى، أو تفوقها بما أوتيت، من حسن التدبير والتصرف.

وهذا(١): حكم أيّدته التجارب في سائر العصور، لدى جميع الدول، فما من أمة تهاونت في هذه الأمور، أو في شيء منها إلاّ حكم عليها بالفناء والزوال، وتواريخ الفرس والروم والأمم الإسلامية والدولة التركية تدل على صدق ما نقول.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ المذكور في هذه السورة(٢)، من البراهين الدالة على التوحيد، وصحة النبوة والوعد والوعيد والمواعظ البالغة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: لكفاية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾؛ أي عاملين بعلومهم، مشغولين بعبادة الله، مهتمّين بها، لا يعبدون أحداً من دون الله تعالى. وقيل: المعنى إن في هذا القرآن المنزل عليك لبلاغاً؛ أي: لوصولا إلى البغية، يعني من اتبع القرآن، وعمل بما فيه وصل إلى ما يرجو من الثواب، وهم أمة محمد ﷺ، أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج. والمعنى: أن من اتبع القرآن، وعمل به كان القرآن بلاغه إلى الجنة. وقيل: المعنى ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾؛ أي(٣): إن فيما ذكر في هذه السورة، من أنظمة

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

الدول، والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء، وعلى أصلبها كالحديد، ومن الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق في ذكر الله، وتسخير العمّال في المباني العظيمة، واستخراج ما في البحار، من أصناف اللآلي، وما في باطن الأرض، من مختلف المعادن، لكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل، إذ يعلمون أن العلم شجرة ثمرتها العمل، فعلى المسلمين قاطبةً، أن يصدعوا بما أمروا به في هذا الكتاب، وأن يعرضوا عن الجاهلين بأمور دينهم، فالله محاسبهم على أعمالهم، كما يحاسبهم على قُدَرِهم الجسمية، وليعلموا أنه متى ذاعت هذه الآراء في الأمة، قامت كلها قومة رجل واحد، في تنظيم شؤونها، وتربية أبنائها، تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنساني.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد[1] بهذا القرآن وأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك، من الأمور التي هي مناط السعادة في الدارين، في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونك ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قاطبةً في الدين والدنيا، فإن ما بعث به سبب لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن أعرض عنه واستكبر، فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه فلا يُرحَم. فإن[2] الناس كانوا في ضلالة وحيرة، فبعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ، فبيَّن لهم سبيل الثواب، وأظهر الأحكام، وميَّز الحلال من الحرام، وإن كل نبي قبل نبينا، إذا كذَّبه قومه أهلكهم الله تعالىٰ بالخسف والمسخ والغرق فالله تعالىٰ أخَّر عذاب من كذّبه إلى الموت، ورفع عذاب الاستئصال عنهم به ﷺ فجاء رحمةً في حق الكفار بسبب تأخير عقوبتهم. وقيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، والأول أولى بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: في سورة مريم بين قوله في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ وبين قوله، في حق نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ فرق عظيم، وهو أنه في حق عيسى ذكر الرحمة مقيدة بحرف ﴿مِّنَ﴾، و﴿مِّنَ﴾ للتبعض، فلهذا كان عيسى رحمة لمن آمن به، واتبع ما جاء به،

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

إلى أن بعث نبينا محمد ﷺ، ثم انقطعت الرحمة من أمته بنسخ دينه، وفي حق نبينا ﷺ ذكر الرحمة للعالمين مطلقاً، فلهذا لا ترفع الرحمة عن العالمين أبداً، أما في الدنيا، فبأن لا ينسخ دينه، وأما في الآخرة، فبأن يكون الخلق محتاجين إلى شفاعته، حتى إبراهيم عليه السلام فافهم جداً، انتهى.

ثم بين سبحانه، أن أصل تلك الرحمة، هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال: ﴿قل﴾ يا محمد لمشركي قومك ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما يوحىٰ إليّ في هذا القرآن شيء إلاّ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: إلاّ كون إلهكم إلهاً منفرداً، لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقال الشهاب: في هذه الآية قصران:

الأول: قصر الصفة على الموصوف.

والثاني: بالعكس، فالثاني قصر فيه الله على الوحدانية، والأول قصر فيه الوحي على الوحدانية، والمعنى: لا يوحي إليّ إلاّ اختصاص الإله بالوحدانية. وأورد عليه أنه كيف يقصر الوحي على الوحدانية، وقد أوحي إليه أمور كثيرة غيرها؟

وأجيب: بأنه معنى قصره عليها، أنها الأصل الأصيل، والأساس المقصود من البعثة، فإن ما عداها متفرع عليها، غير منظور إليه في جنبها، فهو قصر ادعائي، ليس حقيقياً، إذا المقصود نفي ما يصفه المشركون ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ يا أهل مكة؛ أي: منقادون لما يوحى إليّ من إخلاص الإلهية والتوحيد لله. والمراد بهذا الاستفهام الأمر، أي: أسلموا وأخلصوا عبادتكم لله تعالى.

والمعنى: أي قل يا محمد لمشركي قومك، ولمن بلغته الدعوة من غيرهم ما أوحى إليّ ربي، إلاّ أنه لا إله إلاّ هو، فلا تصلح العبادة لسواه، فانقادوا لأمره، وأذعنوا لطاعته، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام، وتبرّؤوا منها حتى تسلكوا سبيل النجاة، وتفوزوا بالسعادة ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن اتباع ما أوحي إليك، ولم يسلموا ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ها أنا إذاً ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ وأعلمتكم، بأني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، فأنا بريءٌ منكم، كما أنكم برآء مني، وأنتم كائنون ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ في هذا الإعلام، لا أخص أحداً منكم دون أحد، وما

فرقت بينكم في هذا النصح وتبليغ الرسالة. فالجار والمجرور حال من مفعول ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾؛ أي: كائنين على سواء في الإعلام به، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وعبارة «البيضاوي» هنا[1]: فقل: آذنتكم وأعلمتكم ما أمرت به، أو حربي لكم على سواءٍ؛ أي: مستوين في الإعلام به، أو مستوين أنا وأنتم في العلم، بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذاناً على سواء، وقيل: أعلمتم أني على سواء؛ أي: عدل واستقامة رأي بالبرهان النير انتهت.

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي: ما أدري، وما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: ما أعلم جواب أقريب ما توعدون به، من غلبة المسلمين وظهور الدين، أو الحشر مع كونه آتياً لا محالة، أم بعيد هو، ولا جرم أن العذاب والذلة يلحقكم لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه، ولا بعده؛ لأن الله لم يطلعني على ذلك.

و﴿إِنْ﴾: نافية. و﴿أَدْرِيٓ﴾ معلّقة، والجملة الاستفهامية في موضع نصب بـ ﴿أَدْرِيٓ﴾، وتأخر المستفهم عنه، لكونه فاصلة، إذ لو كان التركيب: أقريب ما توعدون أم بعيد، لم تكن فاصلة، وكثيراً ما يرجح الحكم في الشيء، لكونه فاصلة آخر آية ذكره في «البحر».

ومعنى الآية: أي[2] فإن أعرضوا عن توحيد المعبود، فقل لهم، يا محمد: إني أعلمتكم بأني محارب لكم، على إعلان، ولكن لا أدري متى يأذن لي ربي في محاربتكم، فتبين بهذا، أن السورة مكية، فإن الأمر بالجهاد كان بعد الهجرة.

وعن ابن عامر في رواية[3] ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ﴾ بفتح الياء في الآيتين تشبيهاً بياء الإضافة لفظاً، وإن كانت لام الفعل لا تفتح إلاّ بعامل. وأنكر ابن مجاهد هذه الياء، والمعنى: أنه تعالى لم يُعْلِمْني علمه، ولم يطلعني عليه، والله هو العالم، الذي لا يخفى عليه شيء.

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي[1]: يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ وتخفونه من الحسد والعداوة للرسول ﷺ، وللمسلمين، فيجازيكم عليه نقيراً وقطميراً. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعد؛ أي: لا يغيب عن علمه شيء منكم، في علانيتكم وسركم. قال بعض الكبار: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها، من الخير والشر، والنفع والضر، فما يكتمونه أظهر مما يبدونه، وما يبدونه مثل ما يكتمونه، جل الحق أن يخفى عليه خافية.

قال في «التأويلات النجمية»: ﴿يعلم ما تجهرون﴾ من دعاوي الإسلام والإيمان والزهد والصلاح والمعارف ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الصدق والإخلاص والرياء والسمعة والنفاق ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾؛ أي: وما أدري ﴿لَعَلَّهُ﴾؛ أي: لعل تأخير العذاب الموعود عنكم ﴿فِتْنَةٌ﴾؛ أي: اختبار ﴿لَّكُمْ﴾ ليرى كيف صنيعكم، وهو أعلم بكم ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: تمتيع لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين انقضاء آجالكم تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة، ليكون ذلك حجة عليكم، وليقع الجزاء في وقت هو فيه حكمة.

و﴿لعل﴾[2] معلّقة هنا أيضاً، ولكن لا أعلم أحداً ذهب إلى أن ﴿لعل﴾ من أدوات التعليق، وإن كان ظاهراً فيها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ والمعنى: أي[3]: وما أدري سبب تأخير جزائكم، ولعل ذلك زيادة في افتتانكم وامتحانكم لينظر كيف تعملون، وإنه ليؤخركم إلى حين كي تتمتعوا بلذات الدنيا، مع إعراضكم عن الإيمان، فيكون في ذلك زيادة عذابكم؛ لأن المعرض عن الإيمان مع توالي الآيات، وتتابع البينات والنذر يكون عقابه

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

أشد. وقيل: المعنى: وما أدري[1] لعل تأخير الجهاد استدراج وضرر لكم، وتمتيع لكم إلى انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ﴾ الرسول الكريم، ﷺ، فهو حكاية لدعائه، ﷺ ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ بيني وبين هؤلاء المكذبين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بما هو الحق عندك، ففوض الأمر إليه سبحانه؛ أي: احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل المستلزم لتعجيل العذاب، وقد استجيب دعاؤه ﷺ، حيث عذبوا في بدر وأُحد والخندق وحنين ﴿وَرَبُّنَا﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده، وهي وإن كانت بمعنى الأنعام فمن صفات الفعل، وإن أريد بها إرادة إيصال الخير، فمن صفات الذات ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ خبر آخر؛ أي: المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تقولون من أن الشوكة، تكون لهم، وإن راية الإسلام تخفق أياماً، ثم تركد وتسكن، فكذّب الله ظنونهم، وخذلهم ونصر رسوله ﷺ، والمؤمنين. ومعنى الآية؛ أي[2]: قال الرسول ﷺ: رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قومي، وكفر بك وعبد غيرك بإحلال عذابك، ونقمتك به بالعدل، الذي يقتضي تعجيل العذاب به وتشديده عليه.

وخلاصة ذلك: رب عجّل بعذابهم، وقد أجاب الله دعاءه، وأنزل بهم العذاب الأليم يوم بدر. قال قتادة: كان الأنبياء يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ فأمر رسوله أن يقول ذلك، ﴿وربنا المستعان على ما تصفون﴾، من الشرك والكفر والكذب والأباطيل من قولكم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، وقولكم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. ومن قولكم: ﴿إن الشوكة تكون لكم﴾ وقولكم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

وخلاصة ذلك: أنه طلب من ربه، أن يحكم بما يظهر الحق للجميع، وأمره ربه أن يتوعد الكفار بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. وقد كثر استعمال «الوصف» في الكتاب الكريم بمعنى الكذب كقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا

(١) المراح. (٢) المراغي.

﴿تَصِفُونَ﴾، وقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قُل رَّبِّ﴾ بصيغة الأمر، وبكسر الباء. وقرأ حفص ﴿قَالَ﴾ بصيغة الماضي. وقرأ أبو جعفر ﴿ربُّ﴾ بضم الباء، وهو من اللغات الجائزة في «يا غلامي»، وهي أن تبنيه على الضم، وأنت تنوي الإضافة، لما قطعته عن الإضافة، وأنت تريدها بنيته، فمعنى ﴿رَبِّ﴾ يا ربي. وقرأ الجمهور: ﴿ٱحْكُم﴾ على الأمر من حكم. وقرأ ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن: ﴿ربي﴾ بإسكان الياء ﴿احكم﴾ جعله أفعل التفضيل، ﴿فربي احكم﴾ مبتدأ وخبر. وروي زيد عن يعقوب ﴿ربي﴾ بفتح الياء. وقرأت فرقة: ﴿أحكم﴾ فعلاً ماضياً. وقرأ الجمهور: ﴿تَصِفُونَ﴾ بتاء الخطاب. وروي أن النبي ﷺ قرأ على أبيّ ﴿على ما يصفون﴾ بياء الغيبة، ورويت عن ابن عامر وعاصم.

وفي الآية: إشارة إلى أنه، لا يطلب من الله تعالى، ولا يطمع في حق المطيع والعاصي، إلاّ ما هو مستحقه، وقد جرى حكم الله فيهما في الأزل، وإن رحمته غير متناهية، وإن كانت أنواعها مئة، على ما قال النبي ﷺ: «إن لله مئة رحمة»، فعلى العاقل أن لا يغتر بطول العمر وكثرة الأموال والأولاد، فإن الاغترار بذلك من صفات الكفرة، ومن كلمات أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «مَنْ وسَّع الله عليه دنياه، فلم يعلم أنه قد يمكر به فهو مخدوع عن عقله».

الإعراب

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَأَيُّوبَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أيوب﴾: مفعول به لفعل محذوف تقديره: واذكر أيوب، ولكنه على حذف مضاف تقديره: واذكر خبر أيوب، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وإبراهيم﴾. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من

(١) البحر المحيط.

الزمان. ﴿نَادَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على أيوب. ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾، والظرف بدل من المضاف المقدر في أيوب على كونه معمولاً لمحذوف تقديره: واذكر خبر أيوب حين نادى ربه. ﴿أَنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، وجملة أن ومعموليها في محل الجر بحرف جر محذوف تقديره: بأني مسني الضر. ﴿وَأَنتَ﴾ الواو حالية. ﴿أنت أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل فعل محذوف، تقديره: فارحمني وأنت أرحم الراحمين. أو حال من ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ على طريق الالتفات.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استجبنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَادَىٰ﴾. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿فَكَشَفْنَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿كشفنا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿استجبنا﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿كشفنا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿مِن ضُرٍّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿كشفنا﴾. ﴿أَهْلَهُۥ﴾ مفعول ثان لـ ﴿آتينا﴾؛ لأنه بمعنى أعطينا. ﴿وَمِثْلَهُم﴾ معطوف على ﴿أَهْلَهُۥ﴾، أو مفعول معه. ﴿مَّعَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿مثلهم﴾؛ لأنه تخصص بالإضافة وإن لم يعرف؛ أي: كائنين معهم. ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول من أجله، منصوب بـ ﴿آتينا﴾. ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ جار ومجرور مضاف إليه، صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف تقديره: رحمناه رحمة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ معطوف على ﴿رَحْمَةً﴾. ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿ذكرى﴾؛ أي: تذكرة لهم. فيصبروا ويثابوا كما صبر أيوب وأثيب.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: منصوب بـ ﴿اذكر﴾ محذوفاً، والجملة معطوفة على جملة واذكر إبراهيم، ويجوز أن يعطف نسقاً على من تقدم من الأنبياء. ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ معطوف على ﴿إسماعيل﴾. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ معطوف عليه أيضاً، منصوب بالألف ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مبتدأ وخبر، وسوّغ الابتداء بالنكرة الإضافة المقدّرة، أو العموم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أدخلنا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: فأعطيناهم ثواب الصابرين وأدخلناهم. ﴿إِنَّهُم﴾ ناصب واسمه. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جار ومجرور خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: منصوب بـ ﴿اذكر﴾: محذوفاً، ولكنه على تقدير مضاف، أي: واذكر خبر ذي النون، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة: واذكر إبراهيم. ﴿إِذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿ذَّهَبَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ذي النون. ﴿مُغَٰضِبًا﴾ حال من فاعل ذهب، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، والظرف بدل من المضاف المقدر؛ أي: واذكر خبر ذي النون حين ذهب مغاضباً. ﴿فَظَنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ظن﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ذي النون، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ذهب. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿نَّقْدِرَ﴾ منصوب بـ ﴿لَّن﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿نَّقْدِرَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر، سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظن﴾، تقديره: فظن عدم قدرتنا عليه. ﴿فَنَادَىٰ﴾ الفاء: عاطفة ﴿نادى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ذي النون. ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل نادى، والجملة الفعلية

معطوفة على محذوف، تقديره: فهرب من قومه، فركب السفينة، فوقفت، فاقترعوا، فرموه، فالتقمه الحوت، فنادى في الظلمات، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة فظن. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أنه. ﴿لَّآ﴾: نافية تعمل عمل ان. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر لا محذوف جوازاً تقديره: موجود. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنتَ﴾: ضمير رفع منفصل، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن، في خبر ﴿لَّآ﴾، وجملة ﴿لَّآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع، خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في محل الجر بحرف جر محذوف: تقديره: بأنه لا إله إلا أنت، ويجوز أن تكون ﴿أَن﴾ مفسرة؛ لأن النداء فيه، معنى القول دون حروفه، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: أسبحك سبحاناً، والجملة المحذوفة حال من ضمير أنت؛ أي: حالة كونك منزهاً، عن كل ما لا يليق بك. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنتُ﴾. فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبره، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾، وجملة ﴿أَن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل فعل محذوف، تقديره: فارحمني، لأني كنت من الظالمين.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استجبنا﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استجبنا﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الواو استئنافية. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الله والتقدير: وننجي المؤمنين قاطبة من كربهم، إنجاء مثل إنجائنا يونس من غمه، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾: منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر زكريا، ولكنه على

تقدير مضاف تقديره: واذكر خبر زكريا، كما مرّ مراراً، والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، بدل من المضاف المقدر؛ أي: واذكر خبر زكريا حين نادى ربه. ﴿نَادَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿زكريا﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل نادى؛ أي: حالة كونه قائلاً: رب لا تذرني فرداً، ﴿لا﴾ دعائية. ﴿تَذَرْنِي﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الدعائية، وعلامة جزمه سكون آخره، وفاعله ضمير يعود على الرب. والنون للوقاية، والياء مفعول به. ﴿فَرْدًا﴾ حال من ياء المتكلم؛ أي: حالة كونه منفرداً عن وارث، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف، على كونها جواب النداء. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فارزقني وارثاً وأنت خير الوارثين. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿استجبنا﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة نادى. ﴿وَوَهَبْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استجبنا﴾. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿يَحْيَىٰ﴾ مفعول به. ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على استجبنا. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿زَوْجَهُۥٓ﴾ مفعول به، والمراد بإصلاحها جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وعقمها، والعُقْمُ انسداد الرحم عن الولادة كما في «المختار». ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإصلاح. ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾. ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: مصدران منصوبان على الحالية، من فاعل يدعون، ولكن بعد تأويله بمشتق تقديره: حالة كونهم راغبين في الثواب، وراهبين من العقاب، أو منصوبان على المفعول من أجله، أو على المصدرية لفعل محذوف تقديره: يرغبون رغباً في الثواب، ويرهبون رهباً من العقاب. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰشِعِينَ﴾. و﴿خَٰشِعِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كانوا﴾ معطوفة على

جملة كانوا الأولى.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿التي﴾ اسم موصول في محل النصب. بفعل محذوف تقديره: واذكر قصة مريم التي أحصنت، والجملة المحذوفة معطوفة على الجمل المذكورة قبلها. ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿فَنَفَخْنَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿نفخنا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة أحصنت. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: متعلق بـ ﴿نفخنا﴾: أيضاً، ولك أن تعرب التي مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: فيما يتلى عليهم. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَٱبْنَهَآ﴾ معطوف على الهاء، أو مفعول معه. ﴿ءَايَةً﴾ مفعول ثان، وإنما لم يطابق المفعول الأول فيُثنى؛ لأن كلًّا من مريم وابنها آية بانضمامه للآخر، فصارا آية واحدة، أو يقال: إنه حذف من أحدهما لدلالة الثاني عليه؛ أي: وجعلنا مريم آية، وابنها آية، أو بالعكس. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جار ومجرور صفة لآية. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿أُمَّةً﴾ حال لازمة من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾: وقيل: بدل من ﴿هَٰذِهِۦ﴾، وقد فصل بين البدل والمبدل منه بالخبر، نحو: إن زيداً قائم أخاك. و﴿وَٰحِدَةً﴾ صفة لازمة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنا ربكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول: ﴿اعبدون﴾ ﴿اعبدوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها، بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ الواو: عاطفة على محذوف تقديره: فأعرضوا عن العبادة، وتقطعوا أمرهم. ﴿تقطعوا﴾: فعل ماض وفاعل.

﴿أَمْرَهُم﴾ مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تقطعوا﴾. ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَيْنَا﴾ متعلق بـ ﴿رَاجِعُونَ﴾. و﴿رَاجِعُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿مِنَ﴾ زائدة. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفعول به، أو من تبعيضية بمعنى بعض في محل النصب مفعول به، أو الجار والمجرور صفة لمفعول به محذوف تقديره: عملا كائناً من الصالحات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾. ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿كُفْرَانَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿لِسَعْيِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كُفْرَانَ﴾، والخبر محذوف تقديره: فلا كفران لسعيه موجود، أو هو خبر لا، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ ﴿مِنَ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِنَّا﴾ الواو: استئنافية، أو حالية. ﴿إنا﴾ ناصب واسمها. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿كَٰتِبُونَ﴾. و﴿كَٰتِبُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، والجملة مستأنفة، أو حال عامله محذوف دل عليه السياق، تقديره: فلا نكفر لسعيه حالة كوننا كاتبين له.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَحَرَٰمٌ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة. ﴿حرام﴾: خبر مقدم. ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا﴾ نافية، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ المفتوحة في تأويل مصدر، مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً، والتقدير: وعدم رجوع قرية أهلكناها إلينا

للمجازاة حرام ممتنع في علمنا؛ لأنه لا بد من رجوعهم إلينا ومجازاتهم على أعمالهم السيئة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء وغاية لمحذوف تقديره: ويستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا فتحت. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿وَمَأْجُوجُ﴾ معطوف على ﴿يَأْجُوجُ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿وَهُم﴾ مبتدأ. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَنسِلُونَ﴾، وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾. ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فُتِحَتْ﴾. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً. ﴿إِذَا﴾ فجائية مؤكدة للفاء الرابطة. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ خبره، ﴿أَبْصَٰرُ﴾ فاعل ﴿شَٰخِصَةٌ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿أَبْصَٰرُ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والجملة الاسمية جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، وقعت غاية لمحذوف، كما قدّرنا سابقاً. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء مقول لقول محذوف، تقديره: قائلين: يا ويلنا. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾. ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿غَفْلَةٍ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف، على كونها جواب النداء. ﴿بَلْ﴾ حرف اضراب. ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿وَمَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على الكاف. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تعبدونه. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ما الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه، مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي، أو للعلمية والعجمة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿وَارِدُونَ﴾. ﴿وَارِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو بدل من﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أو حال من﴿جَهَنَّمَ﴾؛ لأن حصب جزء، من جهنم.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿وَرَدُوهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَكُلٌّ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾. و﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿وَرَدُوهَا﴾. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور حال من ضمير لهم. ﴿زَفِيرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والتقدير: زفير كائن لهم، حالة كونهم مستقرين فيها، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾. ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير لهم، أو معطوفة على جملة لهم فيها زفير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَبَقَتْ﴾ فعل ماض. ﴿لَهُم﴾ متعلق به. ﴿مِّنَّا﴾ جار ومجرور حال من الحسنى. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾. فاعل، والجملة صلة

الموصول. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿مُبْعَدُونَ﴾. ﴿مُبْعَدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿حَسِيسَهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ثان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو بدل من ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو في محل النصب، حال من ضمير ﴿مُبْعَدُونَ﴾. ﴿وَهُمْ﴾ الواو: حالية، أو استئنافية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿فِي مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾. فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فيما اشتهته أنفسهم. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب حال، من الضمير المستكن في ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو من فاعل ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿ٱلْأَكْبَرُ﴾: صفة لـ ﴿فزع﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿أن﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُبْعَدُونَ﴾. ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾. ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف. وقع حالاً من الملائكة، والتقدير؛ وتتلقاهم الملائكة حالة كون الملائكة قائلين: هذا يومكم ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ليومكم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: توعدونه.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يوم نطوي السماء، أو متعلق بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾، أو بقوله: ﴿تتلقاهم﴾. ﴿نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر

مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿كَطَيِّ﴾ جار ومجرور صفة، لمصدر محذوف تقديره: طيا كائناً كطي السجل. ﴿طي﴾ مضاف. ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ مضاف إليه، وهو مصدر مضاف للمفعول؛ أي: كما يطوي الرجل صحيفته ليكتب فيها. ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾ جار ومجرور متعلق بطي، فهي لتقوية التعدية. ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ﴾ الكاف حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿بَدَأۡنَآ﴾ فعل وفاعل. ﴿أَوَّلَ خَلۡقٖ﴾: مفعول ﴿بَدَأۡنَآ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بالكاف، والجار والمجرور نعت لمصدر محذوف، تقديره: نعيد أول خلق إعادة، مثل بدئنا إياه. ﴿نُّعِيدُهُۥۚ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿وَعۡدًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف تقديره: وعدنا تلك الإعادة وعداً حقّاً. ﴿عَلَيۡنَآۚ﴾. صفة لـ ﴿وعد﴾، أو متعلق به، والجملة المحذوفة مؤكدة لمضمون ما قبلها. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. واختار العمادي، كون جملة ﴿إنّ﴾ حالاً من فاعل ﴿وعدنا﴾ المقدر، تقديره: ﴿وعدنا﴾ ذلك، حالة كوننا، محققين ذلك الوعد.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كَتَبۡنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾ متعلق به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ٱلزَّبُورِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ناصب واسمه. ﴿يَرِثُهَا﴾ فعل ومفعول. ﴿عِبَادِيَ﴾ فاعل ومضاف إليه. ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادِيَ﴾، وجملة ﴿يَرِثُهَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية لـ ﴿كَتَبۡنَا﴾، والتقدير: ولقد كتبنا في الزبور وراثة الصالحين الأرض.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي هَٰذَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَبَلَٰغًا﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿بلاغا﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لِّقَوْمٍ﴾ جار ومجرور صفة ﴿لَبَلَٰغًا﴾. ﴿عَٰبِدِينَ﴾ صفة ﴿قوم﴾، والتقدير: إن بلاغاً لقوم عابدين، لكائن في هذا، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله، أو حال مبالغةً في أن جعله نفس الرحمة، أو على حذف مضاف؛ أي: ذا رحمة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾، أو يتعلق بنفس الرحمة.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿إِلَيَّ﴾ متعلقان به ﴿أَنَّمَآ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب وتوكيد ومصدر، ولكن بطل عملها، لدخول ما الكافة عليها. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٌ﴾. وجملة ﴿أن﴾ وما في حيّزها. من المبتدأ والخبر، في تأويل مصدر مرفوع، على كونه نائب فاعل لـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، والتقدير: قل لهم يا محمد، ما يوحى إليّ إلاّ كون إلهكم إلهاً واحداً، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قل. ﴿فَهَلْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من التوحيد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم هل أنتم مسلمون؛ أي: أسلموا. ﴿هل﴾: حرف استفهام بمعنى الأمر. ﴿أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعل ماض وفاعل في محل الجزم بأن الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَقُلْ﴾ الفاء، رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم﴾ مقول محكي. وإن شئت قلت: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والثاني: محذوف تقديره: بالعذاب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ جار ومجرور حال من مفعول ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾؛ أي: حالة كونكم على سواء في الإعلام به، لم أطوه عن أحد منكم، وما فرّقت بينكم في النصح وتبليغ الرسالة؛ أي: مستوين في علمه. ﴿وَإِنْ﴾ الواو: حالية. ﴿إن﴾: نافية. ﴿أَدْرِىٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أَقَرِيبٌ﴾: الهمزة للاستفهام، الذي هو لطلب التعيين. ﴿قريب﴾ خبر مقدم. ﴿أَم﴾ حرف عطف. ﴿بَعِيدٌ﴾ معطوف على قريب. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما توعدونه، والجملة الاسمية في محل النصب، سادّة مسدّ مفعولي أدري؛ لأنها معلقة عنها بهمزة الاستفهام، وجملة ﴿أَدْرِىٓ﴾ في محل النصب، حال من فاعل ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: جار ومجرور. حال من الجهر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿وَيَعْلَمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يعلم﴾ في محل الرفع معطوفة على ﴿يعلم﴾ الأولى، وجملة ﴿تَكْتُمُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: تكتمونه.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾ نافية ﴿أَدْرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿أَدْرِي﴾ في محل النصب معطوفة على ﴿أَدْرِي﴾ الأولى. ﴿لَعَلَّهُ﴾ ناصب واسمه. ﴿فِتْنَةٌ﴾ خبره. ﴿لَّكُمْ﴾ صفة لفتنة. ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ معطوف على فتنة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ صفة لـ ﴿متاع﴾، أو متعلق به؛ لأنه بمعنى تمتيع، وجملة ﴿لعل﴾ في محل نصب بـ ﴿أَدْرِي﴾. والكوفيون يجرون الترجي، مجرى الاستفهام، في التعليق عن العمل، ولكن النحاة، لم يذكروا ﴿لعل﴾ من المعلقات، ولكنها وردت كثيراً في القرآن، كقوله في هذه الآية، وكقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾. وقيل: إن قوله﴿وَمَتَٰعٌ﴾ ليس داخلاً في حيز الترجي؛ لأنه محقق، فلا يصح عطفه على فتنة؛ لأنه حيث كان معطوفاً على خبرها، كان معمولاً لها، وداخلاً في حيّزها، وفي نطاق الترجي الذي تدل عليه، فالأولى إذن أن يقال: إن قوله: ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهذا متاع إلى حين؛ أي؛ وتأخير عذابكم متاع لكم، وتكون الجملة مستأنفة، وليس هذا ببعيد، فليتأمل.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَٰلَ﴾: فعل ماض، أو ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَٰلَ﴾. ﴿ٱحْكُم﴾ فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَرَبُّنَا﴾ الواو استئنافية. ﴿ربنا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ خبر ثان، ويجوز أن يكون الرحمن صفة لـ ﴿ربنا﴾، والمستعان خبر المبتدأ؛ لأنه المحدّث به، والجملة الاسمية مستأنفة على كونها مقول القول. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾، وجملة ﴿تَصِفُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تصفونه مما هو مخالف للواقع.

﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ والفرق بين الضر، بفتح الضاد، والضر بضمها، أن الضر بالفتح هو: الضرر بكل شيء، والضر بالضم: هو الضرر في النفس من هزال ومرض، وفرّق بين البناءين لافتراق المعنيين، وقد نظم بعضهم الفرق بينهما، كما أورد معاني أخرى لهما، حيث قال:

وَضِدُّ نَفْعٍ قِيلَ فِيهِ ضَرُّ   وُجُودُ ضَرَّةٍ لِعُرْسٍ ضَرُّ
وَسُوءُ حَالِ ٱلْمَرْءِ ذَاكَ ضُرُّ   كَذَا هُزَالُ مَرَضٍ أَوْ كِبَرُ

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ هذا لقبه، والكفل: هو النصيب، واسمه بشير. وقيل: الياس. وقيل: زكريا، كأنه سمي بذلك لأنه المجدور وذو النصيب الأوفى من الحظ. وقيل: ذو الكفل اسمه، وقد كان له اسمان، ولم يكن لقباً.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ وفي «المختار»: النون الحوت، وجمعه أنوان ونينان، وذو النون: لقب يونس بن متّى ـ على وزن شتّى ـ اسم والده على ما ذكر في «القاموس»، أو اسم لأمه، على ما قاله ابن الأثير في «النهاية» وغيره، اهـ كرخي. وكان متّى رجلاً صالحاً، وتوفي متى ويونس في بطن أمه، وله أربعة أشهر، اهـ زكريا. وعبارة «الشهاب» ومتى اسم أبيه على الصحيح، وقال ابن الأثير وغيره: أنه اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه، غير يونس وعيسى، عليهما السلام، اهـ.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: غضبان، فالمفاعلة ليست على بابها، فلا مشاركة، كعاقبت اللص، وسافرت. ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة؛ أي؛ غاضب قومه وغاضبوه، حيث لم يؤمنوا في أول الأمر، اهـ كرخي.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: أي: لن نقضي عليه بما قضينا من حبسه في بطن الحوت، أو نضيق عليه بذلك، فهي من القدر، لا من القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾. وفي «المصباح»: أن قدر بكل من المعنيين المذكورين، يأتي من بابي ضرب ونصر، اهـ. وذهب جمهور من

العلماء، أن معناها: فظن أن لن نضيّق عليه، من ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾؛ أي: ضيّق وقتّر.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ بالمد، علم نبي، وألفه للتأنيث، فلذلك منع من الصرف، وهو أيضاً، غير مصروف للعجمة والتعريف. وقيل: هو عربي مشتق من زكر؛ أي: امتلأ، أو تزكر.

﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يقال: رغب الشيء اتسع، فإذا قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، فإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه. والرغبة العطاء الكثير لكونه مرغوباً فيه، فيكون مشتقاً من الأصل، فإن أصل الرغبة السعة في الشيء، ومنه ليلة الرغائب؛ أي: العطايا الجزيلة. يقال: يعطي الرغائب من يشاء ويمنع. والرهبة مخافة مع تحرك واضطراب، اهـ «روح البيان» وفي «المختار»: رغب ورهب كل منهما من باب طرب، اهـ.

﴿وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ﴾ والحصن في الأصل: كل موضع حصين؛ أي: محكم لا يوصل إلى جوفه. وأحصنه، جعله في حصن وحرز، ثم تجوّز في كل تحرز، وامرأة حصان ـ كسحاب ـ عفيفة أو متزوجة؛ أي: ومريم التي منعت نفسها من قربان الرجال.

﴿فَرْجَهَا﴾ والفرج والفرجة: الشق بين الشيئين كفرجة الحائط. والفرج ما بين الرجلين. وكنى به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه. والفرج انكشاف الغم. وقال السهيلي ـ رحمه الله ـ: يريد فرج القميص؛ أي: لم يعلق بثوبها ريبة؛ أي: أنها طاهرة الأثواب. وفروج القميص أربعة: الكمّان، والأعلى، والأسفل، فلا يذهب وهمك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية، انتهى.

﴿رُّوحِنَا﴾ والروح هو المعنى المعروف، ونفخ الروح هو الإحياء.

﴿ءَايَةً﴾؛ أي: برهاناً ودليلاً على قدرة الله تعالى.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: غير مختلفة. قال في «القاموس»: الأمة جماعة أرسل إليهم رسول، انتهى. فأصلها القوم الذين يجتمعون على دين واحد، ثم اتّسع فيها، فأطلقت على ما اجتمعوا عليه من الدين والملة. واشتقاقها من أم بمعنى: قصد. فالقوم: هم الجماعة القاصدة، وما اجتمعوا عليه هو الملة المقصودة.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً. والقطع فصل الشيء مدركاً بالبصر كالأجسام، أو بالبصيرة كالأشياء المعقولة والتفعّل هنا للتعدية، نحو: علمته الفقه فتعلم الفقه اهـ من «الروح».

﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ الكفران: مصدر بمعنى الكفر، كالشكران بمعنى الشكر، فهو كناية عن حرمان ثواب عمله.

﴿لِسَعْيِهِۦ﴾ والسعي، في الأصل: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر، خيراً كان أو شراً، وأكثر ما يستعمل في الأفعال المحمودة.

﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ والقرية: اسم للمصر الجامع كما في «القاموس»، واسم للموضع، الذي يجتمع فيه الناس، كما في «المفردات».

﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ والحدب: النشز من الأرض؛ أي: المرتفع، وكل كدية أو أكمةٍ فهي حدبة، وبها سمي القبر، لظهوره على وجه الأرض. قال الراغب: يجوز أن يكون الأصل في الحدب حدث الظهر، وهو خروجه، ودخول الصدر والبطن، ثم شبه به ما ارتفع من الأرض، فسمي حدباً، ومنه محدب الفلك.

﴿يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يسرعون، والنسلان: مقاربة الخطا مع الإسراع، يقال: نسل ينسل ـ بالفتح في الماضي، والكسر والضم في المضارع، اهـ «سمين». وفي «المصباح»: نسل في مشيه نسلاناً أسرع، وهو من باب ضرب، اهـ. وفي «بحر العلوم»: من نسل الذئب إذا أسرع في مشيه.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ يقال: شخص بصره، فهو شاخص، إذا فتح عينيه، وجعل لا يطرف، وبصره رفعه، وشخص شخوصاً ارتفع.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ والغفلة: سهو يعترى من قلة التحفظ والتيقظ.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الحصب المحصوب به؛ أي: يحصب بهم في النار. والحصب الرمي. وفي «المختار»: والحصب ـ بفتحتين ـ ما تحصب به النار؛ أي: ترمى، وكل ما ألقيته في النار لاشتعالها فقد حصبتها به. من حصبه يحصبه من باب ضرب إذا رماه بالحصباء.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ والزفير: صوت نفس المغموم، يخرج من أقصى الجوف.

﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛ أي: الكلمة الحسنى التي تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم.

﴿حَسِيسَهَا﴾ والحسيس: الصوت الذي يحس من حركتها.

﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ﴾ والشهوة: طلب النفس اللذة.

﴿ٱلْفَزَعُ﴾ انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع كما مر.

وفي «المصباح»: حزن من باب قتل.

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ والطي: ضد النشر. وقال ابن عباس: السجل الصحيفة، والمعنى: كطي الصحيفة على مكتوبها.

﴿ٱلزَّبُورِ﴾: الكتب التي أنزلت على الأنبياء. قال الراغب: زبرت الكتاب، كتبته كتابة غليظة، وكل كتابٍ غليظ الكتابة يقال له الزبور. قال في «القاموس»: الزبور الكتاب بمعنى المزبور، والجمع زبر، وكتاب داود، عليه السلام، انتهى.

و﴿ٱلذِّكْرِ﴾: اللوح المحفوظ. ﴿والبلاغ﴾: الكفاية.

﴿والعابد﴾ من عمل بما يعلم، من أحكام الشريعة وآدابها.

﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾؛ أي: أعلمتكم، فالهمزة فيه للنقل. قال الزمخشري: آذن منقول من أذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في إجرائه مجرى الإنذار، اهـ سمين» كما في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾: من غلبة المسلمين عليكم.

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: اختبار.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التلطف في طلب الرحمة في قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ولم يقل: ارحمني، لطفاً في السؤال، وحفظاً للأدب في الخطاب، فإن أكثر أسئلة الأنبياء في كشف البلاء، إنما هي على سبيل التعريض.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومنها: إدخال أل الجنسية على الضر، لتشمل أنواعه المتقدمة.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿الصابرين﴾ و﴿الصالحين﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، وبين ﴿قريب﴾ أم ﴿بعيد﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه تعالى، على جهة التشريف كقوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة، تتوزّع الشيء، لهذا نصيب ولهذا نصيب، وهذا من لطيف الاستعارة.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تشنيعاً

عليهم بسوء صنيعهم، اهـ «سمين». وكان حق التركيب: وتقطعتم على الأول، إلاّ أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾؛ لأن الأمة حقيقة في الأمة المجتمعة، ثم تجوّز فيها، فأطلقت على ما اجتمعوا عليه من الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ أي: دين وملة، اهـ زاده. قال الشهاب: وظاهر كلام الراغب، أنه حقيقة في هذا المعنى.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ شبه ردّ العمل، ومنع الثواب بالكفران، الذي هو ستر النعمة وإنكارها بجامع المنع في كل، فاستعار له لفظ الكفران.

ومنها: نفي الجنس في قوله: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ﴾ قصدا للمبالغة، لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾؛ لأن السعي في الأصل المشي السريع، وهو دون العدو، فاستعاره للعمل المحمود، بجامع الجدّ في كل.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ حيث استعار الحرام للممتنع الوجود، بجامع أن كلا منهما غير مرجو الحصول، اهـ «شهاب».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾؛ أي: على أهلها، حيث أطلق لمحل، وأراد الحال.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾؛ لأنَّ الحدب حقيقة في حدب الظهر، وهو خروجه ودخول الصدر والبطن، ثم استعاره لما ارتفع من الأرض، بجامع مع الظهور في كل.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾؛ أي: ويقولون: يا ويلنا، ومثله قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

ومنها: المذهب الكلامي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وقد تقرَّر أن المذهب الكلامي، هو احتجاج المتكلم، على ما يريد إثباته بحجة، تقطع المعاند له؛ لأن المعنى؛ أن هؤلاء الأصنام والأوثان ليسوا بآلهة، فلو كانوا آلهة فهم حصب جهنم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وذلك لأن، لقائل أن يقول: إذا نزل أهل الجنة منازلهم فيها، فأي بشارة لهم. في أنهم لا يسمعون حسيسها؟ فالجواب: أنه تأكيد للمبالغة في البعد عنها، وأنها لن تقرب منهم أبداً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾؛ لأنه كناية عن نجاتهم من جميع الأفزاع بالكلية؛ لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع، لا يحزنهم ما عداه بالضرورة.

ومنها: تقديم الظرف على عامله في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لغرض القصر والاهتمام بهم، وهو بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك كما مر.

ومنها: التشبيه المرسل المفصل في قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾؛ أي: طياً مثل طي الصحيفة، على ما كتب فيها.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾؛ لأن فيه تشبيهاً للإعادة بالابتداء، في تناول القدرة لهما على السواء.

ومنها: القصر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لأن في هذه الآية قصرين:

الأول: قصر الصفة على الموصوف، وذلك في قصر الوحي على الوحدانية، والمعنى: لا يوحى إليّ إلاّ اختصاص الإله بالوحدانية، لا أنه، لم يوح إليه بشيء غيرها، ولكنها الأصل الرئيسي في كل عبادة وعمل، وهي المطلوبة أولاً وقبل كل شيء، حتى كان ما عداها غير منظور إليه، أو غير جدير

بالذكر، وهو قصر إدعائي.

والثاني: قصر الموصوف على الصفة، وذلك في قصر الله على الوحدانية، وهو ظاهر.

ومنها: الإيجاز في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ لأن في هذه الآية إيجاز قصر؛ لأنه تحدث بثلاث كلمات، وهي: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ عن كلام طويل؛ أي: إن تولوا بعد هذه الآيات والشواهد، وأعرضوا وطووا كشحاً فقل لهم: لقد أعلمناكم علي بيان أنّا وإياكم في حرب لا مهادنة فيها، ولا صلح بيننا، ولكنني لا أدري متى يأذن الله لي في محاربتكم.

ومنها: الاستفهام الذي يراد به الأمر في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: أسلموا.

ومنها: تكرير العلم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ لتكرير الوعيد وتوكيده.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: استدراج من إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأنه لما كان الاستدراج سبباً للفتنة والعذاب، أطلق عليه لفظ الفتنة مجازاً مرسلاً، أو امتحان لكم؛ كيف تعملون؛ أي: معاملة تشبيهية بالامتحان على طريق الاستعارة التمثيلية، ذكره في «روح البيان».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم.

٢ ـ إنكار المشركين بنبوة محمد ﷺ؛ لأنه بشر مثلهم، وأ ما جاء به أضغاث أحلام، وأنه قد افتراه، ولو كان نبياً حقاً، لأتى بآية، كآيات موسى وعيسى، عليهما السلام.

٣ ـ الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعاً كانوا بشراً، وأهل العلم من اليهود والنصارى، يعلمون ذلك حق العلم.

٤ ـ الإخبار بأن الله، أهلك كثيراً من الأمم، المكذبة لرسلها، وأنشأ بعدهم أقواماً آخرين.

٥ ـ بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثاً، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، ولا يملون.

٦ ـ إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى، والنعي على من يتخذ آلهة من دونه، بلا دليل على صدق ما يقولون، مع أن الأنبياء جميعاً أوحي إليهم أنه لا إله إلاّ هو.

٧ ـ النعي على من ادعى أن الملائكة بنات الله.

٨ ـ وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقاً فانفصلتا، وأن الجبال جعلت على الأرض أوتاداً حتى لا تميد بأهلها، وأن كلا من الشمس والقمر يسبح في فلكه.

٩ ـ استعجال الكافرين للعذاب، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه.

١٠ ـ بيان أن الساعة تأتيهم بغتة، وهم لا يشعرون.

١١ ـ قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم.

١٢ ـ بيان أن الدين الحق عند الله، هو الإسلام، وبه جاءت جميع الشرائع، والاختلاف بينها، إنما هو في الرسوم، بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة.

١٣ ـ حادث يأجوج ومأجوج، من أشراط الساعة، واقتراب يوم القيامة.

١٤ ـ بيان أن الأصنام وعابديها، يكونون يوم القيامة حطب جهنم، وأنهم لو كانوا آلهة حقًّا، ما دخلوها.

١٥ ـ وصف ما يلاقيه الكفار، من الأهوال في النار، يوم القيامة.

١٦ ـ وصف النعيم الذي يستمتع به أهل الجنة إذ ذاك.

١٧ ـ بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض، وأن السماء تطوي طي السجل للكتاب.

١٨ ـ إن سنة الله في الكون، أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها، من أي دين كان، وأي مذهب اعتنق.

١٩ ـ الوحي إنما جاء بالتوحيد، وأن لا إله إلا واحد، وأن الواجب الاستسلام له، والانقياد لأمره.

٢٠ ـ ما ختمت به السورة من طلب الرسول ﷺ، أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين، وأن الله هو المستعان على ما يصفونه به، من أنه مفترٍ، وأنه مجنون، وأنه شاعر، يتربصون به ريب المنون.

والله أعلم

* * *

سورة الحج

اختلف أهل العلم، هل هي مكية أو مدنية؟ وقال البيضاوي والخازن: سورة الحج مكية[1] كلها، إلاّ ست آيات، من قوله عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وفي «تنوير المقياس»: «سورة الحج كلها مكية[2] إلاّ خمس آيات ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ إلى آخر الآيتين، وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ إلى آخر الآيتين، والسجدة الأخيرة، فهؤلاء الآيات مدنيات، وكل شيء في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني، وكل شيء في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي أو مدني، ولا نجد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مكية» انتهى. وحكى القرطبي عن ابن عباس: أنها مكية سوى ثلاث آيات، وقيل أربع آيات إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وحكي عن النقّاش: أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات، وفي «المراغي»: هي مدنية كلها، إلاّ أربع آيات، (٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥)، فبين مكة والمدينة. قال القرطبي: وقال الجمهور: إن السورة مختلطة، منها مكي، ومنها مدني، قال وهذا هو الصحيح. قال العزيزي: هي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكيّاً ومدنياً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً.

وآياتها ثمان وسبعون آية، وكلماتها ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة، وحروفها خمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفاً.

فضلها: وقد ورد في فضلها[3]:

ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن مردويه والبيهقي في

---

(١) البيضاوي والخازن.
(٢) تنوير المقياس.
(٣) الشوكاني.

«سننه» عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما» قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقويّ.

وأخرج أبو داود في المراسيل والبيهقي عن خالد بن معدان: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين».

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والإسماعيلي وابن مردويه والبيقهي، عن عمر، أنه كان يسجد سجدتين في الحج، وقال: إن هذه السورة فضلت على سائر القرآن بسجدتين. وقد روي عن كثير من الصحابة أنَّ فيها سجدتين، وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وقال بعضهم: إن فيها سجدة واحدة، وهو قول سفيان الثوري. وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عباس وإبراهيم النخعي.

التسمية: سمّيت سورة الحج، تخليداً لدعوى الخليل إبراهيم، عليه السلام، حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى الناس لحج البيت الحرام، فتواضعت الجبال، حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام، وأجابوا النداء بقولهم: «لبيك اللهم لبيك».

وهي بحسب موضوعاتها أقسام ثلاثة(١):

١ ـ البعث، والدليل عليه وما يتبع ذلك.

٢ ـ الحج والمسجد الحرام.

٣ ـ أمور عامة، كالقتال وهلاك الظالمين، والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق، وضرب المثل بعجز الأصنام، وعدم استطاعتها خلق الذباب.

المناسبة: ومناسبتها للسورة التي قبلها من وجوه:

١ ـ أن آخر السورة قبلها كان في أمر القيامة كقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ

---

(١) المراغي.

كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾، وقوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية.

٢ ـ أنه قد أقيمت في السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية، وفي هذه جعل العلم الطبيعي من براهين البعث.

٣ ـ في السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم، وفي هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة، وهو خطاب يسترعى السمع، ويوجب علينا ولو إجمالاً أن نعرف صنع الله في أرضه وسمائه، وتدبيره خلق الأجنة والنبات والحيوان.

قال أبو حيان[١]: ومناسبة أول هذه السورة لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى ذكر فيما قبلها حال الأشقياء والسعداء، وذكر الفزع الأكبر، وهو ما يكون يوم القيامة، وكان مشركو مكة قد أنكروا المعاد، وكذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم، فنزلت هذه السورة تحذيراً لهم، وتخويفاً لما انطوت عليه من ذكر زلزلة الساعة، وشدة هولها، وذكر ما أعد لمنكريها، وتنبيههم على البعث بتطويرهم في خلقهم، وبهمود الأرض واهتزازها بعد بالنبات.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله[٢] محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الحج مكية وهي من أعاجيب القرآن، لأن فيها مكيًا ومدنياً، حضرياً وسفرياً، وفيها حربياً وفيها سلمياً، وفيها ليلياً، وفيها نهارياً. فأما المكي. فمن رأس الثلاثين آية إلى آخرها. وأما المدني منها فمن رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين. وأما الليلي منها فمن أولها إلى رأس خمس آيات. وأما النهاري منها فمن رأس الخمس إلى رأس اثنتيّ عشرة. وأما الحضريّ فإلى رأس العشرين. ونسب إلى المدينة لقربه منها. وفيها ناسخ ومنسوخ، فمن ذلك المنسوخ آيتان:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية (٥٢) نسخت بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ الآية (٦) من سورة الأعلى.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية (٥٦) نسختها آية السيف.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ (١) يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ
كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ (٣) كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن
مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ
طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا
يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن
كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ
عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٨) ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (١١) يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (١٢) يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ (١٣) إِنَّ
ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ
(١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ
هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ
ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ (١٨)﴾ .

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه[1] لما أنجز الكلام في خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها.. بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها، حثاً على التقوى، التي هي أنفع زاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا أخبر[2] فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها، ودعا الناس إلى تقوى الله تعالى.. بيّن مع هذا التحذير الشديد أن كثيراً من الناس ينكرون هذا البعث، ويجادلون في أمور الغيب بغير علم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما حكى عن المشركين الجدال بغير علم في البعث والحشر، وذمهم على ذلك.. قفّى على هذا بإثباته من وجهين:

١ ـ الاستدلال بخلق الحيوان، وهو ما أشار إليه في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾.

٢ ـ الاستدلال بحال خلق النبات في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً...﴾ إلخ.

وعبارة أبي حيان هنا[3]: ولما ذكر تعالى من يجادل في قدرة الله بغير علم، وكان جدالهم في الحشر والمعاد، ذكر دليلين واضحين على ذلك:

أحدهما: في نفس الإنسان وابتداء خلقه وتطوره في مراتب سبع، وهي التراب والنطفة والعلقة والمضغة والإخراج طفلاً وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد إلى الهرم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والثاني: في الأرض التي تشاهدون تنقلها من حال إلى حال، فإذا اعتبر العاقل ذلك، ثبت عنده جوازه عقلاً، فإذا ورد خبر الشرع بوقوعه، وجب التصديق به، وأنه واقع لا محالة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾ الآيات مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في الآية قبلها حال الضُّلَّال المقلدين، الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصي.. أردف ذلك، بذكر حال الدعاة إلى الضلال، من رؤوس الكفرة والمبتدعين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر حال الضّالين المقلدين، الذين يجادلون في توحيد الله، بلا بينة ولا دليل، وحال المضلين الذين يجادلون بلا سلطان من عقل، ولا برهان صحيح من نقل، ثم بيَّن سوء مآلهما في الدنيا والآخرة، وأن لهما في الدنيا خزيا، وفي الآخرة عذاباً في النار، تحترق منه أجسامهما.. أعقب ذلك بذكر قوم مضطربي الإيمان، مذبذبين في دينهم، لا ثبات لهم في عقيدتهم، ولا استقرار لهم في آرائهم، إن أصابوا خيراً فرحوا به، وركنوا إليه، وإن نالهم بلاء وشدة في أنفسهم، أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفاراً، فلحقهم الخسار والدمار في دينهم ودنياهم، وذلك هو الخسران الذي لا خسران بعده، وهم في ذلك الحين يعبدون الأصنام والأوثان لتكشف عنهم ضرهم، وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء، وقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر في الآية السالفة حال المنافقين وحال معبوديهم.. عطف على ذلك بذكر حال المؤمنين، الذين آمنوا بقلوبهم، وصدَّقوا إيمانهم بأفعالهم، وعملوا الصالحات، وتركوا المنكرات.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: الله سبحانه وتعالى، لمّا ذكر[1] حال المجادل بالباطل

---

(١) المراغي.

وخذلانه في الدنيا، لأنه لا يدْلِي بحجةٍ من العقل، ولا ببرهان من الوحي، ثم بين ما يؤول إليه أمره من النكال في الدنيا، والخزي في الآخرة، ثم ذكر متابعيه وعمم خسارتهم في الدارين، وأردف ذلك ذكر حال المؤمنين، وما يلقونه من السعادة، والنعيم في الدار الآخرة.. قفى على ذلك، بذكر المجادل عنهم، وعن دين الله، بالتي هي أحسن، وهو رسول الله ﷺ، وبالغ في إثبات نصره بمالا مزيد عليه، ثم ذكر شأن كتابه، وأنه آيات واضحات، ترشد إلى سواء السبيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه، لما ذكر أنه يهدى من يريد.. أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه لما أبان فيما سلف، أنه يقضي بين أرباب الفرق السالفة يوم القيامة، وهو شهيد على أقوالهم وأفعالهم.. أردف هذا ببيان أنه ما كان ينبغي لهم أن يختلفوا، ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها، شمسها وقمرها ونجومها وجبالها وحيوانها ونباتها، خاضعة لجبروته، مسخرة لقدرته، وقد كان في هذا مفتاح لهم لو أرادوا، ولكن من يهنه الله، ويكتب عليه الشقاء فلا يستطيع أحد أن يسعده، فالله وحده هو القدير على الإشقاء والإسعاد.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ. . .﴾ الآيتين، عن عمران بن حصين وغيره(١): أن هاتين الآيتين، نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً، فنادى رسول الله ﷺ: «فحثوا المطي» حتى كانوا حول رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم، فلم ير باكياً أكثر من تلك الليلة، فلمّا أصبحوا، لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام، ولم يطبخوا، والناس بين باك، وجالس حزين متفكر، فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ يوم ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم، يقول الله لآدم: قم، فابعث من ذريتك بعث النار». أخرجه(٢) سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد والترمذي، وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم،

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات ما أخرجه ابن أبي حاتم: أن هذه الآيات، نزلت في النضر بن الحارث، وكان مجادلاً يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا يقدر الله على مَنْ بلي وصار تراباً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه البخاري ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الرجل يقدم المدينة فيسلم، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله.. قال هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولداً ذكراً ولم تنتج خيله.. قال: هذا دين سوء، فأنزل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ...﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال: أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره وماله وولده، فتشآم بالإسلام، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً، ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والظاهر أن الخطاب فيه عام لكل ناس، يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد، على ما تقرر في موضعه. ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي[2]: احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم بطاعته، فأطيعوه ولا تعصوه بفعل ما أمركم به من الواجبات، وترك ما نهاكم عنه من المحرمات، فهو خطاب ينتظم فيه المكلفون حين النزول، ومن سيوجدون بعده إلى يوم القيامة. ثم علّل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: إن تحرك الأرض وزلزلتها، التي هي أحد أشراط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة، عند قرب الساعة والقيامة، هذا قول الجمهور. وقيل: إنها تكون في النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها،

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان.

فيكون الذهول والوضع، الآيتان على حقيقتهما. وقيل: تكون الزلزلة يوم القيامة، فيحملان على التمثيل، والأظهر ما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «إن زلزلة الساعة قيامها»، فيكون معناها، أن الزلزلة الواقعة عند قيام الساعة ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يحيط به الوصف، فلا بد من التقوى، لتخليص النفس من العذاب؛ أي: أمر هائل وخطر عظيم لا يعرف قدره إلا موجده، وإذا كانت الزلزلة وحدها لا تحتمل، فما بالك بما يحدث في ذلك اليوم من الحشر، والجزاء والحساب على الأعمال، لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. والزلزلة[1]: التحريك الشديد، بطريق التكرير، كما يدل عليه تكرير الحروف؛ لأن زلزل مضاعف زل. والساعة عبارة عن القيامة، سميت بذلك لسرعة حسابها كما في «المفردات»، والمعنى: أن[2] شدة حركة الأرض، في قرب الساعة، في نصف رمضان معها طلوع الشمس، من مغربها، أمر حادث جليل هائل، لا تدرك العقول كنهه.

روي عن رسول الله ﷺ، في حديث الصور: أنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعقة، ونفخة القيام لرب العالمين، وأنه عند نفخة الفزع، يسير الله الجبال، وترجف الراجفة تتبعها الرادفة، قلوب يومئذٍ واجفة، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح. ثم بين شيئاً من أهوال هذا اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ انتصاب الظرف بما بعده، والضمير يرجع إلى الزلزلة؛ أي: وقت رؤيتكم تلك الزلزلة ﴿تَذْهَلُ﴾؛ أي: تشغل وتغفل دهشة وحيرة، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؛ أي: كل امرأة ملتبسة بإرضاع ولدها ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾؛ أي: عن ولدها الذي ترضعه، وهو أعز شيء لديها، فكيف بذهولها عن سواه، وهذا على جعل ﴿ما﴾ موصولاً اسمياً، وقال المبرد[3]: إن (ما) في ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ مصدرية؛ أي: تذهل عن إرضاعها، قال: وهذا يدل على، أن هذه الزلزلة في الدنيا، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع إلا أن يقال: من ماتت مرضعة بعثت كذلك، ويقال: هذا مثل كما يقال: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

﴿ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾. وقيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما في قوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾. والذهول: الذهاب[1] عن الأمر مع دهشة. والمرضعة: المرأة المباشرة للإرضاع بالفعل، وبغير التاء، هي التي من شأنها الإرضاع، لكن لم تلابس الفعل، ومثلها حائض وحائضة. والتعبير عن الطفل بما، دون مَنْ، لتأكيد الذهول، وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا؛ أي تغفل مع حيرة، عما هي بصدد إرضاعه، من طفلها الذي ألقمته ثديها، اشتغالاً بنفسها وخوفاً.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ معطوف على تذهل؛ أي: ويوم ترونها تضع وتسقط وتلقي كل صاحبة حمل وجنين، ﴿حَمْلَهَا﴾؛ أي: جنينها لغير تمام، من شدة ما غشيها من الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك. والحمل بالفتح: ما كان في البطن أو على رأس الشجر، وبالكسر ما كان على الظهر. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ معطوف أيضاً على تذهل؛ أي: يوم ترونها.. ترى أيها المخاطب أو يا محمد الناس؛ أي: أهل الموقف، ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ جمع سكران؛ أي: تراهم أنهم سكارى، من شدة الهول والفزع، ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقة؛ أي: من الشراب. وإفراد الخطاب هنا بعد جمعه في ترونها؛ لأن الزلزلة يراها الجميع، لكونها أمراً مغايراً للناس، بخلاف الحالة القائمة بهم من أثر السكر، فإن كل واحد لا يرى إلا ما قام بغيره. والسكر حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب، وقد يعترى من الغضب والعشق والخوف والفزع، ومنه سكرات الموت، قال جعفر ـ رحمه الله تعالى ـ: «أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز والجبروت، وسرادق الكبرياء، حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: «نفسي نفسي». والمعنى: ترى الناس كأنهم من ذهول عقولهم، لشدة ما يمر بهم، يضربون اضطراب السكران من الشراب. وقرأ الجمهور:[2] ﴿تذهل كل﴾ بفتح التاء والهاء ورفع ﴿كل﴾، وابن أبي عبلة واليماني بضم التاء وكسر الهاء؛ أي ﴿تُذهِل﴾ الزلزلة أو الساعة ﴿كل﴾ بالنصب.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿وترى﴾ بالتاء مفتوحة بخطاب المفرد. وزيد بن علي بضم التاء وكسر الراء؛ أي؛ وترى الزلزلة أو الساعة. وقرأ الزعفراني وعباس في اختياره بضم التاء وفتح الراء ورفع الناس، وأنث على تأويل الجماعة. وقرأ أبو هريرة وأبو زرعة هرم بن عمرو بن جرير وأبو نهيك كذلك، إلا أنهم نصبوا الناس، عدّي ترى إلى مفاعيل ثلاثة، أحدها: الضمير المستكن في ترى، وهو ضمير المخاطب، مفعول لم يسم فاعله، والثاني والثالث: الناس سكارى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُكَارَى﴾ بضم السين فيهما على وزن فعالى، واختلف في فعالى بضم الفاء، أهو جمع أو اسم جمع، وقرأ أبو هريرة وأبو نهيك وعيسى بفتح السين فيهما، وهو جمع تكسير واحده سكران، وقال أبو حاتم هي لغة تميم، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي، وابن سعدان ومسعود بن صالح ﴿سكرى﴾ فيهما، وهي قراءة عبد الله وأصحابه وحذيفة، وقرأ الحسن والأعرج وأبو زرعة وابن جبير والأعمش ﴿سكرى﴾ بضم السين فيهما، قال أبو الفتح هو اسم مفرد، كالبشرى، وبهذا أفتاني أبو علي انتهى. وقال الزمخشري: هو غريب، ذكره في «البحر المحيط».

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فغشيهم هوله، وطير عقولهم وسلب تمييزهم؛ أي: فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم، واضطربت أفهامهم، فصاروا كالسكارى من الشراب.

﴿ولكن﴾ استدراك[2] على محذوف تقديره: فهذه الأحوال، وهي الذهول والوضع ورؤية الناس شبه السكارى، هينة لينة، ولكن عذاب الله شديد؛ أي: ليس ليناً ولا سهلاً، فما بعد لكن، مخالف لما قبلها، اهـ من «أبي حيان». فلما ذكر الله سبحانه وتعالى، أهوال يوم القيامة، ذكر من غفل عن الجزاء في ذلك، وكذب به، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ ويخاصم وينازع ﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في قدرته وصفاته وفي كتابه ونبيه وشؤونه، ويقول فيه ما لا خير فيه، من الأباطيل، حالة كون ذلك المجادل ملابساً، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ وبرهان وحجة؛ أي: يجادل

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

بسبب جهله وتمرّده كالنضر بن الحارث وأبي جهل وأبي بن خلف فإنهم ينكرون البعث، ويقولون: إن الله لا يقدر على إحياء من صار تراباً، ويكذبون القرآن والنبي ﷺ، ولكن[١] الآية عامة في كل كافر، يجادل في ذات الله وصفاته بالجهل، وعدم اتباع البرهان وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن من يجادل في الله، ماله علم بالله ولا معرفة به وإلا لم يجادل فيه وإنما يجادل لاتباعه الشيطان، كما قال: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ ذلك المجادل في جداله، وعامة أحواله: ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾؛ أي: متجرد للفساد متعرّ من الخيرات، وهم رؤساء الكفرة، الذين يدعون من دونهم إلى الكفر أو إبليس وجنوده.

والمعنى: أنه[٢] يخاصم في قدرة الله تعالى، فيزعم أنه غير قادر على البعث، بغير علم يعلمه، ولا حجة يستدل بها، ويتبع فيما يقوله ويتعاطاه، ويحتج به كل شيطان مرد، أي متمردٍ عاتٍ على الله تعالى.

والخلاصة: أي[٣] ومن الناس من يتبع في كل ما يأتي وما يذر من شؤونه وأهوائه شياطين من شياطين الإنس والجن، الذين يزينون له طرق الغواية، ويسلكون به الطرق التي تزلق به في المهاوي، ويقودونه إلى الأعمال التي تصل به إلى النار، من شرك بالله، وعبادة للأوثان والأصنام، وشرب للخمر، ولعب بالميسر إلى نحو ذلك، ممّا يحسنون له عمله، ويكونون له فيه القادة الذين لا يرد لهم قول، ولا يقبح منهم فعل.

وقرأ زيد بن علي[٤]: ﴿ويتبع﴾ خفيفاً. ثم وصف سبحانه ذلك الشيطان بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: كتب على ذلك الشيطان، من الجن والإنس في اللوح المحفوظ، وقضي وقدر عليه في علم الله تعالى، ونائب فاعله ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: أن الشأن من تولى ذلك الشيطان واتخذه ولياً وتبعه ﴿فإنه يضله﴾ بالفتح، على أنه خبر، مبتدأ محذوف؛ أي: فشأن ذلك الشيطان أن يضل من تولاه عن طريق الحق والجنة، ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ ويدله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بحمله

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

على مباشرة، ما يؤدي إليه من السيئات، وإضافة العذاب إلى السعير، وهي النار الشديدة الاشتعال بيانية كشجر الأراك، وعن الحسن «أنه اسم من أسماء جهنم».

قال في «التأويلات النجمية»[1]: أما الشيطان الجني، فيضله بالوساوس والتسويلات والقاء الشبه، وأما الشيطان الإنسي، فبإيقاعه في مذاهب أهل الأهواء والبدع، والفلاسفة والزنادقة، المنكرين للبعث والمستدلين بالبراهين المعقولة، بالعقول المشوبة بشوائب الوهم والخيال، وظلمة الطبيعة، فيستدل بشبههم ويتمسك بعقائدهم، حتى يصير من جملتهم، ويعد في زمرتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ ويهديه بهذه الاستدلالات والشبهات إلى عذاب السعير، سعير القطيعة والحرمان، انتهى.

والمعنى: أي قدر سبحانه أن من اتبع ذلك الشيطان، وسلك سبيله، أضله في الدنيا بما يوسوس له، ويدسي به نفسه، ويزين لها من أتباع الغواية والفجور، وسلوك سبيل المعاصي والآثام، التي توبقه في جهنم وبئس القرار.

وخلاصة ذلك: أنه يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، بما يجترح من السيئات ويتركب من الآثام.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كتب﴾ مبنيا للمفعول، وقرأ أبو عمران الجوني ﴿كتب﴾ بفتح الكاف؛ أي: كتب الله سبحانه، وقرأ الجمهور أنه بفتح الهمزة في موضع المفعول، الذي لم يسم فاعله ﴿فإنه﴾ بفتحها أيضاً، والفاء رابطة جواب من الشرطية إن جعلتها شرطية، أو داخلة في خبر من الموصولة، إن كانت موصولة، وقرأ أبو عمران الجوني ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة ﴿فإنه﴾ بكسر الهمزة، وقرأ أبو مجلز وأبو العالية وابن أبي ليلى والضحاك وابن يعمر والأعمش والجعفي ﴿إنه﴾ ﴿فإنه﴾ بكسر الهمزة فيهما.

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار، بعد فراغه من تلك المقدمة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يا أهل مكة، المنكرين للبعث ﴿إن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط وزاد المسير.

﴿كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ وشك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ والإعادة والقيامة. وعبر سبحانه بالريب، مع أنهم موقنون بعدم حصوله، إيذاناً بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم، وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، أما الجزم بعدم إمكانه، فلا يدور بخلد عاقل على حال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿البعث﴾ بسكون العين، والكوفيون إسكان العين، عندهم تخفيف يقيسونه بما وسط حرف حلق، كالنهْر والنهَر والشعْر والشعَر، والبصريون لا يقيسونه، وما ورد من ذلك هو عندهم، مما جاء فيه لغتان، وقرأ الحسن ﴿من البعث﴾ بفتح العين، وهي لغة فيه، كالحلب والطرد في الحَلْب والطَرْد، والبعث[2]: الإخراج من الأرض والتسيير إلى الموقف، وجيء بإن مع كثرة المرتابين لاشتمال المقام على ما يقلع الريب من أصله، وتصوير أن المقام لا يصلح إلا لمجرد الفرض له، كما يفرض المحال. وشكهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في إمكانه؛ أي: إن كنتم في شك من إمكان الإعادة. وكونها مقدورة له تعالى، أو من وقوعها، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ ليس جزاء للشرط؛ لأن خلقهم مقدم على كونهم مرتابين، بل هو علة للجزاء المحذوف، والمعنى: يا أيها الناس إن كنتم في شك من إمكان الإعادة، أو من وقوعها، فانظروا إلى مبدأ خلقكم، ليزول عنكم الريب، ويرتفع الشك، وتدحض الشبهة الباطلة، لأنا خلقنا كل فرد منكم خلقاً إجمالياً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم منه.

والخلاصة: إن شككتم في بعثكم، فتدبروا أمر خلقكم وابتدائكم، فإنكم لا تجدون في القدرة، فرقا بين الابتداء والإعادة. ﴿ثُمَّ﴾ خلقناكم خلقاً تفصيلياً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من منيّ، وهي الماء الصافي قل أو كثر، ويعبر بها عن ماء الرجل من نطف الماء إذا سال، أو من النطف وهو الصبّ، ﴿ثُمَّ﴾ خلقناكم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾؛ أي: من قطعة من الدم جامدة، مكوّنة من المني، ﴿ثُمَّ﴾ خلقناكم ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾؛ أي: قطعة من اللحم، مكوّنة من العلق، وهي في الأصل، مقدار ما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ بالجر صفة مضغة؛ أي: تامّة التصوير والتخطيط والحواس ومستبينتها ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ أي: وناقصة في هذه الأمور وغير مستبينتها، والمراد تفصيل حال المضغة وكونهاأولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهر بعد ذلك شيء، لكنّه أخر غير المخلقة على خلاف الترتيب الطبعي لكونها عدم الملكة، والعدم مؤخر عن الوجود، كذا في «الإرشاد» ويؤيده قول صاحب «التأويلات» ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾؛ أي: منفوخة فيها الروح ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ أي: صورة لا روح فيها، أو المعنى[1]؛ أي: ثم من قطعة من اللحم مسوّاة لا نقص فيها، ولا عيب في ابتداء خلقها، ومضغة غير مسوّاءة فيها عيب، وبهذا التفاوت في الخلق يتفاضل الناس في صورهم، وأشكالهم وطولهم وقصرهم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ هذا تقسيم على سبيل التسمح، فإن كل مضغة تكون أولاً غير مخلقة، ثم تصير مخلقة، ولو جاء النظم هكذا: ثم من نطفة غير مخلقة، ثم من مخلقة لكان أوضح.

وعبارة أبي السعود: كان مقتضى الترتيب السابق، المبني على التدريج من المبادىء البعيدة على القريبة، أن يقدم غير المخلقة على المخلقة، وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة. اهـ. وقال القرطبي: قال ابن زيد: المخلقة: التي خلق الله فيها الرأس، واليدين والرجلين، وغير المخلقة: التي لم يخلق فيها شيء. أو يقال: إن الواو لا تقتضي ترتيباً، فكأنه قال: غير مخلقة ومخلقة، وقد يقال: إن الإثبات مقدم على النفي؛ لأن غير مخلقة من قبيل النفي، وقيل غير ذلك. وفي «الفتوحات» أيضاً: تأمل[2] في هذا الترتيب، فإنه يقتضي أن الإنسان الكامل خلق أولاً من نطفة، ثم ثانياً من علقة، ثم ثالثاً من مضغة، مع أن أصل الخلق من نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم صارت العلقة مضغة، كما يصرح به قوله في آية أخرى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً...﴾ إلخ، إلا أن يقال: فإنّا صيرنا مادة خلقكم من تراب، ثم من نطفة إلخ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿مخلقة﴾ بالنصب ﴿وغير﴾ بالنصب أيضاً، نصباً على الحال من النكرة المتقدمة، وهو قليل وقاسه سيبويه.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

والللام في قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلقة بـ ﴿خلقنا﴾؛ أي: خلقناكم على هذا النمط البديع، لنبين لكم كمال قدرتنا، بتصريفنا أطوار خلقكم، وجميل نظامنا وعظيم حكمتنا، التي من جملتها أمر البعث والنشور، فإن من قدر على خلق البشر أوّلاً، من تراب، لم يشم رائحة الحياة قط.. فهو قادر على إعادته. وقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ونبقي في أرحام النساء، بعد تمام خلقه، ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أن نقره فيها من الأجنة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين؛ أي: إلى الوقت الذي قدّر أن تلد فيه المرأة. كلام مستأنف[1]، مسوق لبيان حالهم، بعد تمام خلقهم؛ أي: ونحن نقر في الأرحام ما نشاء من الأجنة؛ إلى وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر عند الكل، وأقصاه سنتان عند أبي حنيفة، وأربع سنين عند الشافعي، وخمس سنين عند مالك، روي أن الضحاك بن مزاحم التابعي، مكث في بطن أمه سنتين، ومالكاً ثلاث سنين، كما ذكره السيوطي، وأخبر الإمام مالك - رحمه الله تعالى - أن جارية له ولدت ثلاثة أولاد، في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل واحد أربع سنين، وقال ﴿ما نشاء﴾، ولم يقل من نشاء؛ لأنه يرجع إلى الحمل، وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح، وفي الآية إشارة، إلى أن بعض ما في الأرحام، لا يشاء الله تعالى إقراره فيها، بعد تكامل خلقه، فيسقط وتمجه الأرحام.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿ليبين لكم ويقر﴾ بالياء، وقرأ يعقوب وعاصم في رواية و﴿نقر﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لنبين﴾، وعن عاصم أيضاً ﴿ثم يخرجكم﴾ بنصب الجيم عطفاً على ﴿ونقر﴾ إذا نصب، وعن يعقوب ﴿ونَقُرُّ﴾ بفتح النون وضم القاف والراء من قر الماء صبه، وقرأ أبو زيد النحوي ﴿ويَقِرَّ﴾ بفتح الياء والراء وكسر القاف، وقرأ الجمهور[3]: ﴿نقر﴾ بالرفع على الاستئناف؛ أي: ونحن نقر كما مر، قال الزجاج ﴿نُقر﴾ بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك، لنقر في الأرحام ما نشاء، وقرىء ﴿ليبين﴾ ﴿ويقر﴾ ﴿ويخرجكم﴾ بالتحتية

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

في الأفعال الثلاثة، وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ما نشاء﴾ بكسر النون. ﴿ثُمَّ﴾ بعد إقراركم فيها ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم عند تمام الأجل المسمى حال كونكم ﴿طِفْلًا﴾؛ أي: أطفالاً صغاراً بحيث لا تقومون بمصالح أموركم من غاية الضعف، وإنما وحد الطفل، اعتباراً بكل واحد منهم، أو لإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد، والطفل الولد ما دام ناعماً، كما في «المفردات». وقال المولى الفنادي في تفسير الفاتحة: حد الطفل من أول ما يولد حين يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام، انتهى. وقيل: يطلق الطفل على الصغير، من وقت انفصاله إلى البلوغ، ﴿ثُمَّ﴾ بعد إخراجكم طفلاً نُسَهِّلُ في تربيتكم أموراً ﴿لِتَبْلُغُوٓا﴾ ولتصلوا ﴿أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي: غاية كمالكم في القوة والعقل والتمييز، فهو علة لمحذوف، وقيل: هو[1] علة لنخرجكم، معطوفة على علة أخرى، مناسبة لها، كأنه قيل: ثم نخرجكم طفلاً لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز، وهو فيما بين الثلاثين والأربعين. وفي «القاموس» ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين. مفرد جاء على بناء الجمع كـ: آنُكٍ، ولا نظير لهما، انتهى.

وقيل[2]: إن ﴿ثُمَّ﴾ هنا، زائدة، والتقدير: ثم نخرجكم طفلاً لتبلغوا، إلخ، وقيل: إنه معطوف على نبين، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغ الكبر؛ أي: يقبض روحه ويموت بعد بلوغ الأشد أو قبله، والتوفي عبارة عن الموت، يقال توفاه الله إذا قبض روحه.

وقرىء ﴿يَتوفّى﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل؛ أي: يستوفي أجله، والجمهور بالضم مبنياً للمفعول؛ أي: بعد الأشد وقبل الهرم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾؛ أي: يبقى ويعمر إلى بلوغه أرذل العمر، وأخس الحياة وأدناها وأردأها، وهو الهرم والخرف والرذل والرذال المرغوب عنه لردائته، والعمر مدة عمارة البدن بالحياة، فيصير[3] إلى حالة الطفولية ضعيف البنية سخيف

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

العقل، ولا زمان لذلك محدود، بل ذلك بحسب ما يقع في الناس، وقد نرى من علت سنه وقارب المئة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط، وترى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته، أوضح تعالى أنه قادر على إنهائه إلى حالة الخرف، كما أنه كان قادراً على تدريجه إلى حالة التمام، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد التي درجها في هذه المناقل، وإنشائها النشأة الثانية.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا﴾ متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾؛ أي: لكيلا ﴿يَعْلَمَ﴾ ويعقل ذلك المردود إلى أرذل العمر ﴿من بعد علمه﴾ وفهمه وعقله الأشياء، أو من بعد علمه الكثير ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء، أو شيئاً من العلم، والمعنى[1]: أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء، وفهم لها، لا علم له ولا فهم، وهو مبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله، وإلا فهو يعلم بعض الأشياء كالطفل، فهذا الرد خاص، بغير قارىء القرآن والعلماء، أما قارىء القرآن والعلماء، فلا يردون في آخر عمرهم إلى الأرذل، بل يزداد عقلهم كلما طال عمرهم، اهـ شيخنا؛ أي: ليعود إلى ما كان عليه أوان الطفولية من ضعف البنية، وسخافة العقل وقلة الفهم، فينسى ما عمله، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه. وقال الزمخشري؛ أي: ليصير نسّاء، بحيث إذا كسب علماً في شيء، لم ينشب أن ينساه ويزلَّ عنه علمه، حتى يسأل عنه من ساعته، يقول لك من هذا، فتقول فلان، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه، اهـ. وروي عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم العمر.

والمعنى: أي[2] ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال عقله، ومنكم من يبقى حتى يبلغ الهرم والخرف، فيصير كما كان في أول طفولته، ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم.

وخلاصة ذلك: أنه إما أن يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر، الذي يسلب فيه العلم والقدرة على العمل. وفي «التأويلات النجمية»: في الآية[3] إشارة إلى

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أن أطفال المكونات كانوا في أرحام أمهات العدم، متقررين بتقرير الحق إياهم فيها، ولكل خارج منها أجل مسمى، بالإرادة القديمة والحكمة الأزلية، فلا يخرج طفل مكون من رحم العدم، إلا بمشيئة الله تعالى، وأوان أجله. وفي هذا رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث، بحال خلق النبات أيضاً، فقال: ﴿وَتَرَى﴾ أيها المجادل أو يا من شأنه الرؤية، وهو حجة أخرى على البعث، ﴿ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ميتة يابسة لا تنبت شيئاً، يقال: همدت النار إذا صارت رماداً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرض الهامدة، ﴿ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: ماء المطر والعيون والأنهار، ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحركت بالنبات، والاهتزاز الحركة الواقعة على البهجة والسرور، فلا يكاد يقال اهتزّ فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع؛ أي: تحركت في رأي العين بسبب حركة النبات وظهوره. ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخت وازدادت للنبات. من ربا يربو ربا، إذا زاد ونما، وربا الفرس ربواً، إذا انتفخ من عدو وفزع، كما في «القاموس». ﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾ أي: وأخرجت بالماء، ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: من كل نوع من أنواع النبات، ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن يسر ناظره، وإسناد الإنبات إلى الأرض مجاز، كما سيأتي؛ لأن المنبت هو الله سبحانه وتعالى.

وقرأ أبو جعفر[١] وعبد الله بن جعفر وخالد بن إلياس وأبو عمرو في رواية ﴿وَرَبَأَتْ﴾ بالهمز هنا، وفي فُصِّلَتْ؛ أي: ارتفعت وأشرفت، يقال: فلان يربأ بنفسه عن كذا؛ أي: يترفع بها عنه.

والمعنى: أي[٢] وترى الأرض يابسة دارسة الآثار، من النبات والزرع، فإذا نحن أنزلنا عليها الماء، تحركت بالنبات، وازدادت وانتفخت، لما يتداخلها من الماء والنبات، ثم أنبتت أنواعاً يسرّ الناظرين ببديع منظرها، وجميل شكلها واختلاف طعومها، وروائحها ومقاديرها ومنافعها. وبعد أن قرّر سبحانه، هذين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

البرهانين، رتب عليهما النتيجة الحتمية لذلك، وذكر أموراً خمسة:

١ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصنع البديع، وهو خلق الإنسان على أطوار مختلفة، وتصريفه في أطوار متباينة، وإحياء الأرض بعد موتها حاصل بسبب، ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت بنفسه الذي به يتحقق الأشياء، أو المعنى[1]: ذكرنا ذلك، لتعلموا بأن الله هو الحق، الثابت الموجود، إلخ. والحق هو الموجود، الذي لا يتغير ولا يزول، وقيل ذو الحق على عباده، وقيل الحق أفعاله.

والمعنى: أي[2] هذا الذي ذكرت لكم من بدئنا خلقم في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلاً وكهلاً وشيوخاً في حال الهرم، وتنبيهنا إياكم إلى فعلنا بالأرض الهامدة بما ينزل عليها من الغيث لتصدّقوا بأن الذي فعل ذلك هو الله الحق، الذي لا شك فيه، وأن ما تعبدون من الأوثان والأصنام فهو باطل؛ لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك.

٢ - ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: شأنه وفعله إحياء الموتى.

وحاصله[3]: أنه تعالى قادر على إحيائها بدأً وإعادة، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مراراً بعد مرار، والمعنى؛ أي: ولتعلموا أن الذي قدر على هذه الأشياء البديعة لا يتعذر عليه أن يحي الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب.

٣ - ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: مبالغ في القدرة، وإلاّ لما أوجد هذه الموجودات؛ أي[4] ولتعلموا أن فاعل ذلك قادر على كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات، ومن ذلك إعادة الأجسام بعد موتها.

٤ - ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾؛ أي: القيامة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ فيما سيأتي، لمجازاة المحسن

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والمسيء، ﴿لَّا رَيْبَ﴾ ولا شك ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في إتيانها، إذ قد وضح دليلها وظهر أمرها، وهو خبر ثان لـ ﴿أن﴾؛ أي: ولتعلموا أن الساعة التي وعدكم أن يبعث فيها الموتى من قبورهم آتية لا ريب ولا محالة فيها، ولا شك في حدوثها، وليس لأحد أن يرتاب فيها.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ إلى آخره توكيد[1] لقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والظاهر أن قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس داخلاً في سبب ما تقدم ذكره، فليس معطوفاً على ﴿أَنَّهُۥ﴾ الذي يليه، فيكون على تقدير: والأمر أن الساعة إلخ.

٥ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿يَبْعَثُ﴾ ويجمع بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى للمجازاة، جمع قبر وهو مقر الميت، «والبعث»: هو أن ينشر الله الموتى من القبور، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية، ويعيد الأرواح إليها، وأنكره الفلاسفة، بناء على امتناع إعادة المعدوم.

أي: ولتوقنوا بأن الله حينئذٍ، يبعث من في القبور أحياء إلى مواقف الحساب.

وخلاصة ذلك: أنكم إذا تأملتم في خلق الحيوان، والنبات، أمكنكم أن تستدلوا بذلك على وجود الخالق، وقدرته على إحياء الموتى وعلى غيرها من الممكنات، وأن الساعة آتية لا شك فيها، وأنه يبعث من في القبور للحساب والجزاء، ولولا ذلك، ما أوجد هذا العالم؛ لأن أفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة، والغايات السامية.

وعبارة أبي السعود: أي هذه الآثار من آثار الألوهية، وأحكام شؤونه الذاتية والوصفية والفعلية، وإن إتيان الساعة وإتيان البعث اللذين ينكرون وجودهما، من أسباب تلك الآثار العجيبة، التي يشاهدونها في الأنفس والآفاق؛ أي: ذلك الصنيع البديع حاصل بسبب أنه تعالى، هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق والموجد لما سواه من الأشياء، فهذه الآثار الخاصة،

---

(١) البحر المحيط.

من فروع القدرة العامة، التامة ومسبباتها، ومن جملة فروعها ومتعلقاتها إحياء الموتى، وتخصيصه بالذكر، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها، تصريحٌ بمحل النزاع، وتقديمه للاعتناء به، اهـ. بتصرف. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ هو أبو جهل أو النضر بن الحارث ﴿يُجَٰدِلُ﴾ ويخاصم وينازع ﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شأنه ودينه وكتابه ونبيّه، حالة كون ذلك المجادل ملابساً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروري أو بديهي فطري، وهذا تكرير[1] لما تقدم للتأكيد، ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي: ولا استدلال ونظر صحيح هاد إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ من الله ﴿مُّنِيرٍ﴾؛ أي: له نور، ولا وحي مظهر للحق.

والمعنى: ومن الناس[2] من يخاصم في توحيد الله، والإقرار بالألوهية بغير علم منه بما يخاصم به، ولا برهان معه على ما يقول، ولا وحي من الله أتاه ينير حجته، بل يقول ما يقول من الجهل، ظناً منه وتخرصاً.

وخلاصة ذلك: أنه يجادل بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل يجادل اتباعاً للرّأي والهوى.

وقيل: الآية عامة[3] لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم، وعلى كل حال، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ، وإن كان السبب خاصّاً، ومعنى اللفظ: ﴿ومن الناس﴾ فريق يجادل في الله، فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، حالة كونه بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير. والمراد بالعلم هو العلم الضروري، وبالهدى هو العلم النظري الاستدلالي، والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغويّ، وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو القرآن. والمنير: النيّر البيّن الحجة الواضح. وهو وإن دخل تحت قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر بعد الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل، الفائق على غيره من أفراد العلم.

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

قيل: والمراد بهذا المجادل في هذه الآية، هو المجادل في الآية الأولى، أعني قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ وبذلك قال كثير من المفسرين: والتكرير للمبالغة في الذم، كما تقول للرجل تذمه وتوبخه: أنت فعلت هذا، أنت فعلت هذا. ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصَفَه في كُلِّ آية، بزيادة على ما صوفه في الآية الأخرى، فكأنه قال: ومن الناس من يجادل في الله، ويتبع كل شيطان مريد بغير علم ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ ليضل عن سبيل الله. وفي «الفتوحات» وليست هذه الآية مكررة مع السابقة؛ لأن الأولى واردة في المقلدين بكسر اللام لتقلدهم واتباعهم للشيطان، وهذه واردة في المقلدين بفتح اللام لقوله: ﴿ليضل...﴾ إلخ قال في «الكشاف»: وهو أوفق وأظهر بالمقام. اهـ شيخنا. وأصله في «الرازي».

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ حال ثانية: من فاعل يجادل؛ أي: حالة كونه معرضاً بجانبه عن الحق متكبرا عنه، من ثنى العود إذا حناه. وعطفه لأنه ضم أحد طرفيه إلى الآخر. وعطف الإنسان بكسر العين، جانبه من رأسه إلى وركه أو قدمه. وفي «الجلالين»: لاَوَى عنقه تكبراً. وفي «الإرشاد»: عاطفاً بجانبه، وطاوياً كشحه معرضا متكبراً: تقول العرب: جاءني فلان ثاني عطفه، إذا جاء متبختراً متكبراً.

فالمراد[1]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ وهو لاوٍ عنقه، معرض عما يدعى إليه من الحق، متكبر عن قبوله. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ متعلق بـ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، فإنه غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال؛ أي: ليخرج المؤمنين عن الهدى إلى الضلال، أو ليثبت الكفرة عليه.

وقرأ الحسن[2]: ﴿ثاني عطفه﴾ بفتح العين؛ أي: تعطفه وترحّمه. وقرأ مجاهد وأهل مكة وأبو عمرو في رواية: ﴿ليَضل﴾ بفتح الياء؛ أي: ليضل في نفسه. والجمهور بضمها؛ أي: ليُضل غيره، وهو يترتب على إضلاله كثرة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

العذاب، إذ عليه وِزْر مَنْ عمل به؛ أي: ليصد المؤمنين بالله عن دينهم، الذي هداهم الله إليه، ويستنزلهم عنه. وبعد أن ذكر فعله وثمرته، ذكر ما أعد له عليه في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ جملة مستأنفة[1] مبنية لما يحصل له بسبب جداله من العذاب المعّجل وسوء الذكر على ألسن الناس؛ وقيل: الخزي الدنيوي هو القتل، كما وقع في يوم بدر، والأسر والهزيمة، وقد أسر النضر؛ أي: لذلك المجادل في الدنيا إهانة، وذلك كفاء استكباره عن آيات الله، كما حدث من القتل والأسر بأيدي المؤمنين يوم بدر.

﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾؛ أي: ونذيق ذلك المجادل ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ أي: العذاب المحرق، وهو النار، والحريق قيل طبقة من طباق جهنم، وقد يكون من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: العذاب الحريق؛ أي: المحرق، كالسميع بمعنى المسمع. وقرأ زيد بن علي﴿فَأُذِيقُهُۥ﴾ بهمزة المتكلم؛ أي: وسيصلى في الآخرة عذاب النار، ويحرق بلهبها، ثم بين سبحانه، سبب هذا الخزي المعجل والعذاب المؤجل فقال ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الدنيوي والأخروي ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾؛ أي: بسبب ما عملته من الكفر والمعاصي؛ أي: يقال له يوم القيامة: ذلك الخزي في الدنيا، وعذاب الآخرة كائن بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي: وإسناده[2] إلى يديه لما أن الاكتساب عادة بالأيدي. ويجوز أن يكون الكلام من باب الالتفات، لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد، فكأنه قال: ذلك بما قدمت يداه.

ومحل (أن) ومعموليها في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: والأمر والشأن أن الله سبحانه وتعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم. وقيل: علة لمحذوف تقديره وقد فعلنا[3] ذلك لأن الله لا يظلم عباده، فيعاقب بعض عبيده على جرم، ويعفو عن مثله عن آخر غيره،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وقصارى ذلك أنهم استحقوا هذا العذاب لما اجترحوه من الآثام والذنوب، والله لا يظلم أحداً بغير جرم قد فعله، ومآل ذلك توبيخهم وتبكيتهم، بأنهم هم سبب هذا العذاب.

فإن قلت: الظاهر أن يقال: ليس[1] بظالم للعبيد، ليفيد نفي أصل الظلم، ونفي كونه مبالغاً مفرطاً في الظلم لا يفيد نفي أصله.

قلت: المراد نفي أصل الظلم. وذكر لفظ المبالغة مبني على كثرة العبيد، فالظالم لهم، يكون كثير الظلم، لإصابة كل منهم ظلماً؛ لأن العبيد دال على الاستغراق، فيكون ليس بظالم لهذا ولا ذلك إلى ما لا يحصى. وأيضاً أن من عدله تعالى، أن يعذب المسيء من العبيد، ويحسن إلى المحسن، ولا يزيد في العقاب، ولا ينقص من الأجر، لكن بناء على وعده المحتوم، فلو عذب من لا يستحق العذاب، لكان قليلُ الظلم منه، كثيراً لاستغنائه عن فعله، وتنزيهه عن قبحه.

وهذا كما يقال: زَلَّةُ العالم كبيرةٌ.

وعن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا» الحديث. أخرجه مسلم، ويقال من كثر ظلمه، واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه، وشر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم. وفي الآية إشارة؛ إلى أن العبيد ظلاّمون لأنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بأن يضعوا العبادة، والطلب والاستغاثة في غير موضعها.

فصل في مبحث الجدال

واعلم: أن جدال المنافق، والمرائي وأهل الأهواء والبدع والخرافات مذموم. وأما من يجادل في معرفة الله، ودفع الشبه، وبيان الطريق إلى الله تعالى، بالعلم، وهدي نبيّه ﷺ، وشاهد نصّ كتابٍ منيرٍ، يظهر بنوره الحق من الباطل.. فجداله

---

(١) روح البيان.

محمود. قال بعضهم: البحث والتفتيش عما جاءت به السنة، بعد ما وضح سنده، وصحّ، يجر الباحث إلى التّعمّق والتوغل في الدين، فإنه مفتاح الضلال لكثير من الأمة، يعني الذين لم يرزقوا بأذهان وقّادة وقرائح نقادة، وما هلكت الأمم الماضية إلا بطول الجدال، وكثرة القيل والقال، فالواجب أن يعض بأضراسه على ما ثبت من السنة. ويعمل بها، ويدعو إليها، ويحكم بها، ولا يصغي إلى كلام أهل البدعة، ولا يميل إليهم ولا إلى سماع كلامهم، فإنَّ كل ذلك منهي عنه شرعاً. وقد ورد فيه وعيد شديد، وقالوا: الطبع جذاب، والمقارنة مؤثرة، والأمراض سارية.

وقال المولى الجامي ـ رحمه الله تعالى ـ: كلام أهل البدعة والأهواء، والخرافات كخوار العجل، فكما أن السامري ضل بذلك الخوار، وأضل كثيراً من بني إسرائيل، فكذا كل من كان في حكمه، فإنه يغتر بأوهامه وخيالاته، ظنًّا أنها علوم صحيحة، فيدعو أهل الأوهام إليها فيضلهم، بخلاف من له علم صحيح وكشف صريح، فإنه لا يلتفت إلى كلمات الجهال، ولا يميل إلى خوازق العادات، التي تظهر على أيدي أهل البدع والخرافات، استدراجاً لهم التي يسمونها كرامة لهم، ألا ترى من ثبت على دين موسى عليه السلام، لم يصخ إلى الخوار، وعرف أنه ابتلاء من الله، تعالى للعباد، فويل للمجادل المبطل، وويل للسامع إلى كلامه، وقد ذمَّ هذا المجادل بالكبر، وهو من الصفات العائقة عن قبول الحق، ولا شيء فوقه من المذمة.

وعن أرسطو[1]: من تكبر على الناس أحب الناس ذلته، وعنه بإصابة المنطق يعظم القدر، وبالتواضع تكثر المحبة، وبالحلم تكثر الأنصار، وبالرفق يستخدم القلوب، وبالوفاء يدوم الإخاء، وبالصدق يتم الفضل. نسأل الله سبحانه، التخلي عن الصفات القبيحة الرذيلة، والتحلي بالملكات الحسنة الجميلة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وبعض الناس يعبد الله، سبحانه وتعالى،

---

(١) روح البيان.

حالة كونه ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ وطرف من الدين، لا في وسطه وقلبه، وشك وضعف يقين، فلا ثبات له فيه، كالذي ينحرف على طرف الجيش، فإن أحس بظفر قرّ، وإلاّ فرَّ. فالحرف الطرف والناحية. وصف الدين بما هو من صفات الأجسام، على سبيل الاستعارة التمثيلية، كما سيأتي. قال أكثر المفسرين[1]: الحرف الشك وأصله من حرف الشيء، وهو طرفه، مثل حرف الجبل والحائط، فإن القائم عليه غير مستقر، والذي يعبد الله على حرف، قلق في دينه، على غير ثبات وطمأنينة، كالذي هو على حرف الجبل، ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه. فقيل للشاك في دينه: إنه يعبد الله على حرف؛ لأنه على غير يقين من وعده ووعيده، بخلاف المؤمن؛ لأنه يعبده على يقين وبصيرة. فلم يكن على حرف.

وقيل: الحرف الشرط؛ أي: من الناس من يعبد الله على شرط، والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ﴾ وناله ﴿خَيْرٌ﴾؛ أي: دنيوي من الصحة والخصب والسعة ﴿ٱطْمَأَنَّ﴾ وثبت ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الخير في الدين، ولا يتزلزل عنه، ويرضى به. ومعنى اطمأن به ثبت على دينه، واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه؛ أي[2]: ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا باطناً، إذ ليس له اطمئنان المؤمنين الراسخين، والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شيء يفتتن به، من مكروه يصيبه في نفسه أو أهله أو ماله، فالمراد بالفتنة: ما يستكرهه الطبع، ويثقل على النفس، كالجدري والمرض وسائر المحن، وإلا لما صح أن يجعل مقابلاً للخير؛ لأنه؛ أي: الخير أيضاً فتنة وامتحان، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ولذلك قال بعضهم: وإنما لم يقل: وإن أصابه شرّ، مع أنه المقابل للخير؛ لأن ما ينفر عنه الطبع ليس شرّاً في نفسه، بل هو سبب القربة، ورفع الدرجة، بشرط التسليم والرضا بالقضاء ﴿ٱنقَلَبَ﴾ وانكبّ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: ارتدّ ورجع إلى جهته وحالته وطريقته التي كان عليها أولاً، من الكفر. والانقلاب الانصراف والرجوع. والوجه بمعنى الجهة والطريقة، وقال في «بحر العلوم»: انقلب على وجهه؛ أي: تحوّل عن

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

الجهة التي أقبل إليها وهي الإسلام، فأنكب ورجع إلى ما كان عليه أوّلاً من الكفر، فـ﴿على﴾ على هذا بمعنى عن؛ أي: والمعنى فإن أصابه[1] رخاء وسعة في العيش، سكن واستبشر بهذا الخير والدين، فعبد الله، وإن أصابه شرّ وبلاء في جسمه، أو ضيق في معيشته.. ارتدّ ورجع إلى الكفر.

والثبات في الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق، وطاعة الرب، والخوف من عقابه، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجّل، فإنه يظهر في السراء، ويختفي لدى الضراء، وهذا هو النفاق بعينه، كما يرشد إلى ذلك. قوله: في المنافقين ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

وخلاصة ذلك: أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو مرجحٌ مضطربٌ، مذبذبٌ، يعبد الله على وجه التجربة، انتظاراً للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمناً، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال، أو فقد ولد.. ترك دينه وارتد كافراً.

ثم بيَّن سبحانه، حاله بعد انقلابه على وجهه، وسوء عاقبة عمله، فقال: ﴿خَسِرَ﴾ وحرم ذلك المنقلب ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: خيري الدنيا والآخرة؛ أي: ضيعهما وفقدهما، فلا حظَّ له في الدنيا، من الغنيمة والثناء الحسن، ولا في الآخرة من الأجر، وما أعده الله للصالحين من عباده؛ أي[2]: ضيعهما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالإرتداد والأظهر أن خسران الدنيا ذهاب أهله، حيث أصابته فتنة، وخسران الآخرة الحرمان من الثواب، حيث ذهب الدين ودخل النار مع الداخلين. وقال بعضهم: «الخسران في الدنيا ترك الطاعات ولزوم المخالفات، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات».

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن من طريق الزعفراني وقعنب والجحدري وبن مقسم ﴿خاسر الدنيا والآخرة﴾ اسم فاعل نصباً على الحال.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقرىء ﴿خاسر الدنيا﴾ اسم فاعل مرفوعاً على تقدير هو خاسر الدنيا. وقرأ الجمهور: ﴿خَسِرَ﴾ فعلاً ماضياً، وهو استئناف إخبار. ويجوز أن يكون في موضع الحال، ولا يحتاج إلى إضمار قد؛ لأنه كثر وقوع الماضي حالاً، في لسان العرب بغير قد، فساغ القياس عليه. والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله لمن تدبر فيه وتفكّر، ثم أكد عظم ذلك الخسران بقوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مبين لعظم الخسران، فيكون الضمير راجعاً إلى المرتد المشرك المنقلب على وجهه؛ أي: هذا المرتد الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر يدعو من دون الله؛ أي: يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام. ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾؛ أي: معبوداً لا يضره إن ترك عبادته. ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده لكون ذلك المعبود جماداً، لا يقدر على ضرّ ولا نفع؛ أي: يعبد جماداً ليس من شأنه الضرّ والنفع، كما يلوح به تكرير كلمة ما. والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ أي: ذلك الدعاء هو الضلال البعيد عن الحق والهدى، والخطأ البعيد عن الصواب والرشاد، مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق، فطالت وبعدت مسافة ضلاله، فإن القرب والبعد من عوارض المسافة الحسية.

والمعنى[1]: أي ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون الله، هو السير على غير استقامة، والذهاب على غير هدى، فما مثله إلا مثل من أبعد في التيه ضالاً وبعدت مسافته في ضلاله، فلم يهتد إلى الصراط المستقيم السويّ، ولم ينل ما يبتغي، وبلغت به الحيرة كل مبلغ.

ثم زاد ما سلف توكيداً وبين مآل دعائه، وعبادته غير الله تعالى، فقال: ﴿يَدْعُوا۟﴾ وينادي ذلك الكافر، المنقلب يوم القيامة برفع صوت ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

(١) المراغي.

مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ﴾ وقبح ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ والناصر لي ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾؛ أي: الصاحب والعشير والمخالط لي، والدعاء[1] بمعنى القول. واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولاً له. و﴿مَن﴾ مبتدأ. خبره جملة القسم الآتية. ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ ﴿أقرب﴾ خبره، والجملة صلة من الموصولة. وقوله ﴿لَبِئۡسَ﴾ إلخ جواب لقسم محذوف، وهو وجوابه خبر لـ ﴿من﴾ الموصولة.

والمعنى: يقول ذلك الكافر يوم القيامة بنداء بناء ورفع صوت وصراخ، حين يرى تضرره بمعبوده، ودخوله النار بسببه، ولا يرى منه أثر النفع أصلاً لمن ضره أقرب من نفعه: والله، لبئس الناصر ولبئس الصاحب والمعاشر؛ أي: يقول في ذمه وبيان قبحه لمعبودي، الذي تضرري بعبادته أقرب من انتفاعي بها، أقسم في ذمه وبيان قبحه بقولي: والله، لبئس المولى والناصر هو؛ أي؛ معبودي، ولبئس العشير والصاحب هو؛ أي: معبودي.

وخلاصة ذلك: أيُّ عشير هذا، وأيُّ ناصر ذاك، الذي لا ينفع ولا ينصر من يعاشره، والله لبئس العشير، ولبس النصير. فالآية استئناف، مسوق لبيان مآل دعائه المذكور، وتقرير كونه ضلالاً بعيداً، وإيراد صيغة التفضيل، مع خلوه عن النفع، بالكلية، للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعان في ذمه. والظاهر أن اللام زائدة. و﴿من﴾ مفعول ﴿يدعو﴾، و﴿ضره﴾ مبتدأ و﴿أقرب﴾ خبره، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، ويؤيده القراءة بغير اللام؛ أي: يعبد من ضره بكونه معبوداً؛ لأنه يوجب القتل في الدنيا، والعذاب في الآخرة ـ أقرب من نفعه، الذي يتوقع بعبادته في زعمهم، وهو الشفاعة والتوسل إلى الله. فإيراد كلمة (من) وصيغة التفضيل تهكم به، والجملة القسمية حينئذٍ مستأنفة، ويؤيِّد هذا الوجه قراءة عبد الله ﴿يدعو من ضره﴾ بإسقاط اللام. وقيل: إن يدعو بمعنى: يسمي، ومفعوله الثاني محذوف، واللام زائدة، تقديره: أي: يدعو ويسمي من ضره أقرب من نفعه إلهاً، وجملة القسم حينئذٍ مستأنفة. فإن قلت: نفى[2] سبحانه الضر والنفع عن الأصنام،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

في قوله: ﴿مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ وأثبتهما لها في قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ فحصل التعارض والتناقض بين الآيتين.

قلت: أجيب عنه بأنها، لا تضر ولا تنفع بأنفسها، فنفاهما عنها، ولكن يحصل الضرر بسبب عبادتها، فنسب الضرر إليها، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، حيث أضاف الإضلال إليها، من حيث إنها كانت سبب الضلال اهـ، شيخنا.

وفي «البيضاوي»: لا يضر بنفسه ولا ينفع، اهـ. وأشار بذكر نفسه إلى الجمع، بين نفي الضرر والنفع بمعبودهم هنا، وإثباتهما له، في قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾.

وحاصله: أنه لا ضرر له ولا نفع له بنفسه، وله ذلك بسبب معبوديته، كما أشار له بقوله: «بكونه معبوداً»، أما الضرر فظاهر، وأما النفع فبزعمهم اهـ. زكريا. وقال الشهاب: دفع التنافي، بأن النفي باعتبار ما في نفس الأمر، والإثبات باعتبار زعمهم الباطل اهـ. وقال أبو حيان: نفى الله سبحانه النفع والضر، في قوله: ﴿مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ وأثبتهما في قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾، لاختلاف المتعلق. وذلك أن قوله: ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ هو الأصنام والأوثان، ولذلك أتى التعبير عنها، بـ(ما) التي لا تكون لآحاد من يعقل، وقوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ هو من عبد باقتضاء، وطلب من عابديه من المدعين الإلهية، كفرعون وغيره، من ملوك بني عبيد، الذين كانوا بالمغرب، ثم ملكوا مصر، فإنهم كانوا يدعون الإلهية، ويطاف بقصرهم في مصر، وينادون بما ينادي به رب العالمين، من التسبيح والتقديس، فهؤلاء وإن كان منهم نفع ما، لعابديهم في دار الدنيا، فضررهم أعظم وأقرب من نفعهم، إذ هم في الدنيا مملوكون للكفار، وعابدون لغير الله، وفي الآخرة معذبون العذاب الدائم، ولهذا كان التعبير هنا. بـ﴿مَن﴾ التي هي لمن يعقل، وعلى هذا، فتكون الجملتان من إخبار الله تعالى، عمن يدعو إلهاً غير الله تعالى اهـ.

ولمَّا فرغ من ذكر حال المشركين، ومن يعبد الله على حرف، ذكر حال

المؤمنين في الآخرة، وأنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورت، واجتناب المنهيات ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الجارية فيها. وهذا[1] بيانٌ لكمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى، إثر بيان سوء حال الكفرة. والجنة الأرض المشتملة على الأشجار المتكاثفة، الساترة لما تحتها. والنهر مجرى الماء الفائض، فإسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد الحكمي، كقولهم: سال الميزاب، إذ الجريان من أوصاف الماء، لا من أوصاف النهر. ووصف الجنات به، دلالة على أنها من جنس ما هو أبهى الأماكن، التي يعرفونها لتميل إليها طباعهم. واعلم أنه وإن أريد بالجنات الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض، فلا بد من تقدير مضاف؛ أي: من تحت أشجارها. والمعنى أن الله سبحانه، يتفضل على المؤمنين، الذين عملوا صالح الأعمال، ويكافئهم لقاء إحسانهم بدخول الجنات، التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، جزاءً وفاقاً على ما قاموا به من جليل الأعمال، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال.

ولمَّا بين سبحانه، حال الفريقين، ذكر أنه قادر على أن يفعل بهما ما يشاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إكرام من يطيعه، وإهانة من يعصيه، لا راد لحكمه، ولا مانع لقضائه، فهو يعطي المتقين ضروباً من الفضل والإحسان، زيادة على أجورهم، كما قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ويدخل الكافرين ناراً وقودها الناس والحجارة، لما دَسُّوا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق، وهذه الجملة تعليل لما قبلها؛ أي: يفعل ما يريده من الأفعال، لا يسأل عما يفعل، فيثيب من يشاء، ويعذب من يشاء.

﴿مَن﴾ شرطية ﴿كَانَ يَظُنُّ﴾ ويحسب ويتوهم من أعدائه وحاسديه، ﷺ ﴿أَن

---

(١) روح البيان.

لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنَّ الله سبحانه، لا ينصر محمداً ﷺ، ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإعلاء كلمته، وإظهار دينه، وقهر أعدائه ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بإعلاء درجته، والانتقام من مكذِّبيه، وأراد أن يقطع عنه النصر، الذي أوتيه من ربه ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ويبسط ﴿بِسَبَبٍ﴾ وحبل واصل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يصل به إلى ما فوقها؛ أي؛ فليطلب حيلةً، يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ النصر الذي يأتيه من ربه، إن أمكن له ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ وليفكر بعد احتياله، وكيده في قطع نصره، أنه إن فعل ذلك ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ واحتياله في ذلك ﴿مَا يَغِيظُ﴾ ويكره ذلك الحاسد من نصره ﷺ. قال النحاس: هذا من أحسن ما قيل في تفسيره هذه الآية، أو الضمير في ﴿يَغِيظُ﴾ يعود على ﴿مَا﴾، أي: ما يغضبه.

وقيل المعنى: من كان يظن، ويحسب أن لن ينصر الله، محمداً ﷺ، حتى يظهره على الدين كله، فليمدد بسبب إلى جهة السماء والعلو؛ أي: فليشدد حبلاً في سقف بيته، ثم ليربط طرفه الأسفل في عنقه ثم ليقطع؛ أي: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً به. ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾؛ أي: صنيعه وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾؛ أي: غيظه. و﴿مَا﴾ مصدرية. والمعنى فليختنق غيظاً حتى يموت، فإن الله ناصره، ومظهره، ولا ينفعه غيظه. وقيل: إن الضمير في ينصره، يعود إلى ﴿مَن﴾ والمعنى من كان يظن، أن الله لا يرزقه، فليقتل نفسه، وبه قال أبو عبيدة. وقيل: إن الضمير إلى الدين؛ أي: من كان يظن أن لن ينصر الله دينه إلخ. والمعنى: أي[1] من كان يحسب، أن الله لن ينصر محمداً، ﷺ، في الدنيا والآخرة.. فليمدد بحبل إلى سماء بيته، ثم ليختنق به، ثم ليصور في نفسه النظر، هل يذهبن ذلك الكيد الذي كاده، والفعل الذي فعله ما يغيظه من النصرة؟ كلاَّ يعني أنه لا يقدر على دفع النصرة، وإن مات غيظاً.

وخلاصة المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً ولا كتابه ولا دينه، فليذهب وليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، كما

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وسيعلي كلمته في الدنيا، ويظهر دينه، ويرفع في الآخرة درجته، ويدخل من صدقه، جنات تجري من تحتها الأنهار، وينتقم ممن كذّبه، ويذيقه عذاب الحريق، فمن كان من أعاديه، يغيظه ذلك، فليبالغ في كيده إلى أقصى مجهوده، فقصارى أمره خيبة مسعاه، ودوام غيظه، دون أن يصل إلى غاية، أو يبلغ أمنيته.

وتلخيص هذا(١): أيها الكاره لمحمد ﷺ، الذي أرسل لانقاذك، إنَّ نعم الله على عباده كثيرة، ولا سيما بعثة الأنبياء، فإذا كرهت ما أنعم الله به عليك، ببعثة محمد ﷺ... فكأنك تختنق؛ لأنك تكره النعم لنفسك، فتستبيح خنقها من حيث لا تشعر.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر(٢): ﴿ليقطع﴾ ﴿ثم ليقضوا﴾ بكسر اللام، زاد ابن عامر ﴿وليوفوا﴾ ﴿وَلِيَطَّوَّفُوْا﴾ بكسر اللام أيضاً. وكسر ابن كثير لام ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوْا﴾ فحسب. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون هذه اللامات، وكذلك في كل القرآن، إذا كان قبلها واو، أو فاء، أو ثم. قال الفرّاء: من سكن فقد خفّف. وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء فأكثر، كلام العرب تسكينها، وقد كسرها بعضهم. قال أبو علي: الأصل الكسر، لأنك إذا ابتدأت قلت: لِيقم زيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل إنزالنا ما تقدم من الآيات، من أول السورة إلى هنا ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا القرآن كله؛ أي: ومثل ذلك الإنزال البديع، المنطوي على الحكم البالغة، أنزلناه؛ أي: أنزلنا القرآن الكريم كله حال كونه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على معانيها اللطيفة، والأسرار العجيبة.

والمعنى: أي وكما بينت لكم حججي، على من جحد قدرتي على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه، وأوضحتها غاية الإيضاح، أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها.

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير.

ومحل جملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ ويضل من يريد الرفع[1] على أنه خبر؛ أي: والأمر أن الله سبحانه وتعالى، يهدي بالقرآن ابتداء، أو يثبت به على الهدى، أو يزيد فيه بسببه من يريد هدايته، أو تثبيته، أو زيادته. أو الجملة علة لمحذوف معطوف على ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وكذلك أنزله ليوفق به سبيل الحق من أراد هدايته، وإرشاده إلى سبل السلام. أو الجملة معطوفة على هاء ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والمعنى: وأنزلنا أن الله يهدي من يريد؛ أي: أنزلنا هداية الله لمن يريد هدايته. فـ ﴿أَنَّ﴾ وصلتها في محل نصب. وفي الحديث: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين»؛ أي: يرفع بالقرآن درجة أقوام، وهم من آمن به وعمل بمقتضاه، ويحط به أقواماً آخرين، وهم من أعرض عنه، ولم يحفظ وصاياه، وكان نظر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وشغلهم في الأحوال والأعمال، ولذا كانوا يتعلمون عشر آيات، لا يجاوزونها إلى غيرها، حتى يعملوا بما فيها. قال في «الإحياء»: مات النبي ﷺ، عن عشرين ألفا من الصحابة، ولم يحفظ القرآن منهم إلا ستة، اختلف منهم في اثنين، فكان أكثرهم يحفظ السورة أو السورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم، فالاشتغال بالقرآن والعمل بمقتضاه من علامات الهداية، ولا بد من الاجتهاد آناء الليل وأطراف النهار، إلى أن يحصل المقصود، فإن من أراد أن يصل إلى ماء الحياة، يقطع الظلمات بلا فتور وجمود، والملال من العلم، واستماعه سبب الانقطاع عن طريق التحقيق، وأثر الحرمان من العناية والتوفيق انتهى.

تنبيه: ثم اعلم[2] أن كون القرآن مشتملاً على متشابهات وغوامض، لا ينافي كون آياته بينات؛ لأنه ليس فيه ما لا يعلم معناه، لكن العلماء يتفاوتون في طبقات المعرفة، هدانا الله وإياكم، إلى ما هدى الله العلماء الراسخين إليه، وشرّفنا في كل غامض بالإطلاع عليه آمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وبكل ما يجب أن يؤمن به، أو بما ذكر من

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الآيات البينات ﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ أي: دخلوا في اليهودية، وهم المنتسبون إلى ملة موسى، عليه السلام. قال الراغب: الهود: الرجوع برفق، وصار في التعارف التوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تبنا إليك، قال بعضهم: اليهود في الأصل: هو من قولهم: «هدنا إليك»، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شرعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قوله: ﴿من أنصاري إلى الله﴾، ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم.

﴿وَالصَّٰبِـِٔينَ﴾؛ أي: الذين صبؤوا عن الأديان كلها؛ أي: خرجوا واختاروا عبادة الملائكة والكواكب. من صبأ الرجل عن دينه، إذا خرج عنه إلى دين آخر. قال الراغب: الصابؤون: قوم كانوا على دين نوح. وقيل: لكل خارج من الدين إلى دين آخر صابىء، من قولهم: صبأ، ناب البعير إذا طلع. وقيل: وهم من جنس النصارى وليس بصحيح، بل هم فرقة معروفة، لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء، والصحيح المقرر في الفروع الصابؤون: فرقة من النصارى اهـ، شيخنا. والنصارى: هم المنتسبون إلى ملة عيسى، عليه السلام.

وقدم النصارى على الصابئين في سورة البقرة[1]، وأخرهم عنهم هنا، قيل: وجه تقديم النصارى هناك أنهم أهل كتاب دون الصابئين، فلهم شرف عليهم، ووجه تقديم الصابئين هنا أن زمنهم متقدم على زمن النصارى. ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم قوم يعبدون النار، ويقولون إن للعالم أصلين، النور، والظلمة. وقيل: هم قوم يعبدون الشمس والقمر. وقيل: قوم يستعملون النجاسات. وقيل: هم قوم من النصارى، اعتزلوهم ولبسوا المسوح. وقيل: إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى، وليسوا[2] من أهل الكتاب، ولذا لا تنكح نساؤهم، ولا تؤكل ذبائحهم، وإنما أخذت الجزية منهم؛ لأنهم من العجم، لا لأنهم من أهل الكتاب. ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ بالله سبحانه، وعبدوا الأوثان والأصنام وغيرها.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

بين هؤلاء الستة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيدخل المؤمنين الجنّة، والكافرين النار. والظاهر تعميم الكلام لعبدة الأوثان، ولعباد الشمس والقمر والنجوم اهـ. كرخي في محل الرفع، خبر لـ﴿إن﴾ الأولى. وفي «السمين»[1]: هذه الآية فيها وجهان:

أحدهما: أن ﴿إن﴾ الثانية واسمها وخبرها في محل رفع خبر لـ﴿أن﴾ الأولى. قال الزمخشري: أدخلت ﴿إن﴾ على كل واحد من جزأي الجملة، لزيادة التأكيد وحسن دخول ﴿إن﴾ في الخبر، طول الفصل بينهما بالمعاطيف.

والثاني: أن ﴿إن﴾ الثانية تكرير للأولى على سبيل التوكيد.

أي: يقضي بين[2] المؤمنين وبين الفرق الخمسة، المتفقة في الكفر، بإظهار المحق من المبطل، بإثابة الأول وعقاب الثاني، بحسب الاستحقاق. يعني أن الله تعالى، يعامل كل صنف منهم يوم القيامة، على حسب استحقاقه، إما بالنعيم وإما بالجحيم. وعلم من الآية، أن الأديان ستة، واحد للرحمن، وهو دين المؤمنين الذي هو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وخمسة للشيطان، وهي ما عدا الإسلام؛ لأنها مما دعا إليها الشيطان، وزينها في أعين الكفرة.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3] تعليل لما قبلها؛ أي: أنه سبحانه وتعالى على كل شيء من أفعال خلقه، وأقوالهم شهيد، لا يعزب عنه شيء منها. والمعنى؛ أي[4]: أن الله سبحانه، يقضي بين هذه الفرق، ويجازي كلاً بما يفعل، ويضعه في الموضع اللائق به، إذ ليس شيء من أحوالهم بغائب عنه، بل هو عليم بأقوالهم، مراقب لأفعالهم.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى يحكم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ويلقي من كفر به في جهنم، وبئس القرار. وهو الشهيد على أعمالهم، الحفيظ لأفعالهم، العليم بسرائرهم، وما تكنّه ضمائرهم.

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

والرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي العلمية لا البصرية؛ لأن رؤية سجود هذه الأمور لله، إنما جاءنا من طريق العقل؛ لأنا لا نراه بأبصارنا اهـ. شيخنا. والخطاب لكل من يصلح له، وهو من تتأتي الرؤية منه. والمراد بالسجود هنا: المعنى اللغوي، وهو الإنقياد الكامل والتذلل البالغ، لا السجود الشرعي، الذي هو وضع الجبهة، الخاص بالعقلاء، سواء جعلت كلمة (من) خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم ولغيرهم. وإنما حملنا السجود على المعنىٰ اللغوي، الذي هو التسخير والتذلل؛ لأنه ليس في كفرة الإنس ومردة الجن والشياطين، وسائر الحيوانات والجمادت، سجود طاعة وعبادة، الذي هو وضع الجبهة على الأرض، خصوصاً لله تعالى، ولهذا عطف ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ على ﴿مَن﴾ فإن ذلك يفيد أن السجود هو الأنقياد الكامل، لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر، مع كونها داخلة تحت ﴿مَن﴾ على تقدير جعلها عامة، لكون قيام السجود بها في العادة، وجملة ما ذكره هنا ثمانية.

والمعنى: ألم تعلم أيها المخاطب، أن الله سبحانه وتعالى، ينقاد لتدبيره ومشيئته، من في السموات، من الملائكة، ومن في الأرض من الجن والإنس، مطيعاً كان أو عاصياً، والشمس والقمر والنجوم بالسير والطلوع والغروب، لمنافع العباد، والجبال بإجراء الينابيع، وإنبات المعادن والشجر بالظل وحمل الثمار ونحوها، والدواب بعجائب التركيب ونحوها، فكل شيء ينقاد له سبحانه، على ما خلقه وعلى ما رزقه، وعلى ما أصحّه وعلى ما أسقمه، فالبر والفاجر والمؤمن والكافر في هذا سواء.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مرفوع بفعل محذوف، يدل عليه المذكور؛ أي: ويسجد له سبحانه كثير من الناس، سجود طاعة وعبادة. وقيل: مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، تقديره: وكثير من الناس يستحق الثواب، والأول أظهر، وإنما لم يرتفع[1] بالعطف على ﴿مَن﴾ لأنّ سجود هؤلاء الكثير من

---

(١) الشوكاني.

الناس، هو سجود الطاعة، الخاص بالعقلاء، والمراد بالسجود المتقدم، هو الانقياد، فلو ارتفع بالعطف على ﴿مَن﴾ لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد، وأنت خبير، بأنه لا ملجأ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس، هو انقيادهم، لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه بالعطف لا بأس به، وإن أبى ذلك صاحب «الكشاف» ومتابعوه.

قال في «التأويلات النجمية»: أهل العرفان، يسجدون سجود عبادة، بالإرادة، والجماد وما لا يعقل، ومن لا يدين، يسجدون سجود خضوع للحاجة.

وخلاصة معنى الآية: ألم تعلم[1] أيها المخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها، وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعاً أو كرهاً، فهي مفتقرة في وجودها، وبقائها إليه، فهو الذي أنشأها ورتبها، وأكمل وجودها على النحو الذي أراده، والحكمة التي قدّرها لها في البقاء.

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر؛ لأنها قد عبدت من دون الله تعالى، فعبدت الشمس حِمير، والقمر كنانة، والشعرى لخم، والثريا طيءُ، والمصريون عبدوا العجل أبيس وعبدت العزَّى شجرة غطفان.

وأما قوله: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بسبب كفره وامتناعه من السجود، وهو من لا يوحد الله تعالى، فقال الكسائي والفراء: إنه مرفوع بالابتداء وخبره ما بعده، وقيل: هو معطوف على ﴿كثير﴾ الأول، ويكون المعنى: وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك، وقيل المعنى: وكثير من الناس في الجنة، وكثير منهم حق عليهم العذاب، هكذا حكاه ابن الأنباري.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ومن أهانه الله سبحانه، وأذله، فكتب عليه الشقاء لسوء استعداده ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يسعده ومعز يعزه، فيصير

---

(١) المراغي.

سيعداً عزيزاً. وحكى الأخفش والكسائي والفرّاء أنَّ المعنى: ومن يهن الله، فما له من مكرم؛ أي: إكرام؛ لأن الأمور كلها بيده تعالى، يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء لتدسيته نفسه، واجتراحه للسيئات وارتكابه للآثام والمعاصي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره، من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة؛ أي: أن الله سبحانه يفعل في خلقه ما يشاء، من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد إكرامه، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

تنبيه: هذه السجدة[1] من عزائم سجود القرآن، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها. وقرأ جناح بن حبيش[2]: ﴿وكبير حق﴾ بالباء الموحدة، وقرىء ﴿وكثير حقا﴾؛ أي: حق عليهم العذاب حقاً. وقرىء ﴿حُق﴾ بضم الحاء ومن مفعول مقدم بـ(يهن). وقرأ الجمهور[3]: ﴿من مكرم﴾ بصيغة اسم الفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراء على المصدر، أي: من إكرام.

قال الامام النيسابوري ـ رحمه الله تعالى ـ في «كشف الأسرار»[4]: جعل الله الكفار أكثر من المؤمنين، ليريهم أنه مستغن عن طاعتهم، كما قال: «خلَقْتُ الخَلْق ليربحوا عليَّ لا لأربح عليهم» وقيل: ليظهر عز المؤمنين فيما بين ذلك؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها، والشيء أذا قل وجوده عزَّ، ألا ترى أن المعدن، لعزته صار مظهراً للاسم العزيز. وقيل: ليرى الحبيب قدرته، بحفظه بين أعدائه الكثيرة، كما حفظ رسول الله ﷺ، وهو واحد، وأهل الأرض أعداء كلهم، ليتبين أن النصر من عند الله تعالى، والقليل يغلب الكثير بعونه وعنايته ومن أكرمه بالغلبة، لا يهان بالخذلان ألبتة.

فإن قيل: إن رحمته سبقت، وغلبت غضبه، فيقتضي الأمر، أن يكون أهل الرحمة أكثر من أهل الغضب، وأهل الغضب، تسع وتسعون من كل ألف، واحد

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

يؤخذ للجنة، كما ورد في «الصحيح»، وورد «أهل الرحمة كشعرة بيضاء في جلد الثور الأسود».

قلنا: هذه الكثرة بالنسبة إلى بني آدم، وأما أهل الرحمة بالنسبة إليهم وإلى الملائكة والحور والغلمان، فأكثر من أهل الغضب.

مشكلةٌ: فإن قلت: إن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يسجد مفهومه أن قليلاً منهم أبوا من السجود، فيناقض كثيراً الثاني، وأن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ مفهومه أن قليلاً منهم يسجد، فيناقض كثيراً الأول، فبين الكثيرين تناقض.

قلت: إن المراد بالكثير، الأول: كثرته في ذاته، فلا ينافي قلته بالنسبة إلى الكثير الثاني، وقد أشكلني هذا التناقض زماناً، فبحثت عن جوابه في كتب التفاسير، فلم أجده، فظهر لي هذا الجواب بفضله، فلله الحمد، ثم رأيت ما يوافقه في تفسير «روح البيان»، ونص عبارته، يقول الفقير: الكثير الأول كثير في نفسه، قليل بالنسبة إلى الكثير الثاني، إذ أهل الجمال أقل من أهل الجلال، وهو الواحد من الألف، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن الواحد على الحق، هو السواد الأعظم. وعن بعضهم: قليل إذا عدوا، كثير إذا شدوا؛ أي: أظهروا الشدة انتهت.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، زيدت تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لـ ﴿أي﴾، أو بدل منها، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مبني على حذف النون، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿شَيْءٌ﴾: خبره: ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿شَيْءٌ﴾ والإضافة في ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، أو إلى مفعوله، فعلى الأول كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، وعلى الثاني على طريقة الاتساع في الظرف، وإجراءه مجرى المفعول به، كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل

ما قبلها، لا محل لها من الإعراب.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ ﴿تَذْهَلُ﴾ الآتي، ولم يذكر الزمخشري غيره، الثاني: أنه منصوب بـ ﴿عَظِيمٌ﴾، الثالث أنه منصوب بإضمار أذكر، وقيل غير ذلك. ﴿تَرَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿عَمَّآ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تَذْهَلُ﴾ و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية ﴿أَرْضَعَتْ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الـ ﴿مُرْضِعَةٍ﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره عن الذي أرضعته، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: عن إرضاعها. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَذْهَلُ﴾، ﴿كُلُّ﴾ مضاف ﴿ذَاتِ﴾ مضاف إليه ﴿ذَاتِ﴾: مضاف ﴿حَمْلٍ﴾ مضاف إليه ﴿حَمْلَهَا﴾: مفعول به، ﴿وَتَرَى﴾: الواو عاطفة ﴿ترى﴾ فعل مضارع بصرية، معطوف على ﴿تَرَوْنَهَا﴾ وفاعله ضمير، يعود على أيِّ مخاطب، وإنما جمع الضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾، وأفرد هنا لأن الرؤية الأولىٰ علقت بالزلزلة أو الساعة، وكل الناس يرونها، أما الثانية فهي متعلقة بكون الناس ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ فلا بد من جعل كل أحد رائياً للباقي، بقطع النظر عن اتصافه بالسُّكر ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به ﴿سُكَٰرَىٰ﴾: حال من الناس ﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿ما﴾ حجازية ﴿هُم﴾: في محل الرفع اسمها ﴿بِسُكَٰرَىٰ﴾ الباء: زائدة ﴿سُكَٰرَىٰ﴾: خبرها منصوب، بفتحة مقدرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بالكسرة المجلوبة لحرف جر زائد، الممنوعة للتعذر، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية في محل النصب، حال ثانية من ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو عاطفة ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ﴿شَدِيدٌ﴾: خبرها، والجملة استدراكية، معطوفة على محذوف، مخالف لما بعد ﴿لكن﴾ وهذا حكم مطرد فيها، والتقدير كما في «البحر» لأبي حيان، فهذه الأحوال وهي الذهول والوضع ورؤية الناس، شبه السكارى هينة لينة، ولكن

عذاب الله شديد؛ أي: ليس ليناً وسهلاً فيما بعد، لكن مخالف لما قبلها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾: نكرة موصوفة حتماً أو موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان من غفل عن الجزاء في ذلك اليوم، ﴿يُجَٰدِلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾ والجملة صفة ﴿مَن﴾، تقدير ومن الناس فريق مجادل في الله، أو صلة لها؛ أي: ومن الناس الفريق الذي يجادل في الله لا تنفعهم العظات، ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يُجَٰدِلُ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل في ﴿يُجَٰدِلُ﴾ موضحة لما تشعر به المجادلة من الجهل؛ أي: ملتبساً بغير علم، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُجَٰدِلُ﴾ وفاعله ضمير، يعود على ﴿مَن﴾. ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿مَّرِيدٍ﴾ صفة.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به ﴿أَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو اسم موصول مبتدأ ﴿تَوَلَّاهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة في محل الجزم فعل شرط لـ ﴿مَن﴾، إن قلنا شرطية، أو صلة لها، إن قلنا موصولة. ﴿فَأَنَّهُۥ﴾: الفاء، رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية إن كانت شرطية، أو واقعة في خبر ﴿مَن﴾ الموصولة، إن كانت موصولة لـ ﴿ما﴾ في الموصول من رائحة الشرط، ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والهاء: في محل النصب اسمها ﴿يُضِلُّهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الـ ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾: فعل ومفعول معطوف على يضله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يهديه﴾، وجملة ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو مُضِلُّهُ وهاديه إلى عذاب السعير، والجملة الاسمية في محل الجزم، جواب ﴿مَن﴾ الشرطية أو خبر ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة الشرط، أو الموصول في محل

الرفع خبر ﴿أَنَّهُۥ﴾، وجملة ﴿أَنَّهُۥ﴾ في تأويل مصدر مرفوع، على كونه نائب فاعل لـ ﴿كُتِبَ﴾، تقديره: كتب عليه إضلاله وهدايته، من تولاه إلى عذاب السعير، وجملة ﴿كُتِبَ﴾ من الفعل ونائب فاعله، في محل الجر صفة ثانية لـ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ ولكنها سببية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يا: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أيّ﴾ أو بدل منها، وجملة النداء مستأنفة ﴿إِن كُنتُمْ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فِي رَيْبٍ﴾ خبر ﴿كان﴾ ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾: متعلق بـ ﴿رَيْبٍ﴾ أو صفة له، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة للجواب ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها جوابا لها، ولكنه على تأويل: فَمُزِيلُ رَيْبكم، إن تنظروا في بدء خلقكم، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: جار ومجرور معطوف على قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: وعطف فيه وفيما بعده بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على وجود تراخ في تطور الخلق، وتدرجه من حال إلى حال ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ معطوف على ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ معطوف على ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾، ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ صفة لـ ﴿مُّضْغَةٍ﴾ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ معطوف على ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً، ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿نبين﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً. بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿خلقنا﴾، ومفعول التبيين محذوف

للتفخيم، والتقدير: فإنا خلقناكم على هذه الأطوار، لتبيين دلائل قدرتنا لكم، ﴿وَنُقِرُّ﴾ الواو: استئنافية ﴿نقر﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة؛ لأنه ليس المعنى خلقناكم لنقر ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ والعائد محذوف تقديره: ما نشاء إقراره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ ﴿نقر﴾، أو حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة ﴿أَجَلٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على الله معطوف على ﴿نقر﴾، ﴿طِفْلًا﴾ حال من مفعول نخرجكم؛ أي: صغاراً، وإنما وحد: لأنه في الأصل مصدر، كالرضا والعدل، فيلزم الإفراد والتذكير، قاله المبرد.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿أَشُدَّكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة، في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لبلوغكم أشدكم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، معطوف على نخرجكم، تقديره: ثم نخرجكم طفلاً، ثم نربيكم لبلوغكم أشدكم، وقيل: إنّ ﴿ثُمَّ﴾ زائدة، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ ﴿وَمِنكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾: والجملة صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والتقدير: ومن يتوفي بعد بلوغ الأشد، وقبل الهرم كائن منكم، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿وَمِنكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مَّن يُرَدُّ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿لِكَيْلَا﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿كي﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾ نافية ﴿يَعْلَمَ﴾: فعل مضارع

منصوب بـ ﴿كي﴾ وفاعله ضمير يعود على المردود ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾ جار ومجرور حال من ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ و﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى عرف، والجملة الفعلية مع ﴿كي﴾ المصدرية في تأويل مصدر. مجرور باللام، تقديره: لعدم علمه شيئاً، الجار والمجررو متعلق بـ ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على أيِّ مخاطب ومفعول به؛ لأن ترى بصرية ﴿هَامِدَةٗ﴾ حال من الأرض، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِذَآ﴾: الفاء: عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أَنزَلۡنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيۡهَا﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾، ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿ترى﴾، ﴿وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ﴾ معطوفان على اهتزت ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لمفعول محذوف، تقديره: وأنبتت أصنافاً كائنة من كل صنف بهيج، و﴿بَهِيجٖ﴾ صفة لـ ﴿زَوۡجِۭ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب أن الله إلخ. والجملة مستأنفة ﴿أن الله﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كون الله هو الحق، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: خبره والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٞ﴾ و﴿قَدِيرٞ﴾ خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ الأولى أيضاً، والتقدير: ذلك كائن، بسبب كون الله هو الحق، وإحيائه الموتى وقدرته على كل شيء.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾.

﴿وَأَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية ﴿أن الساعة آتية﴾: ناصب واسمه

وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مرفوع على كونه خبر، لمبتدأ محذوف، تقديره: والأمر إتيان الساعة حالة كونها ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أو مستأنفة ﴿لَّا﴾ نافية ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿فِيهَا﴾ خبرها، والجملة في محل النصب، حال من الضمير المستكن في خبر ﴿أن﴾ أو خبر ثان لـ ﴿أن﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿أن الله﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَبْعَثُ﴾ خبرها ﴿مَن﴾ مفعول به ﴿فِي ٱلْقُبُورِ﴾ متعلقان بمحذوف صلة ﴿مَن﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: أولاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾. ﴿يُجَٰدِلُ﴾: فعل وفاعل مستتر ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال. من فاعل ﴿يُجَٰدِلُ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ﴾: معطوفان على علم ﴿مُّنِيرٍ﴾ صفة كتاب ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿يُجَٰدِلُ﴾، وجاز نصبه على الحال، مع إضافته؛ لأن إضافته لفظية لا تفيد التعريف؛ لأنها في نية الانفصال، كما هو مقرر في محله ﴿لِيُضِلَّ﴾ اللام حرف جر وتعليل ﴿يضل﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على المجادل ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يضل﴾ والجملة الفعلية، مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإضلاله الناس عن سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿خِزْيٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿خِزْيٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿يضل﴾ أو مستأنفة ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ونقول له ذلك بما قدمت يداك. ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾. فعل وفاعل صلة الموصول والعائد محذوف، تقديره: قدمته يداك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. واسمه ضمير يعود على الله ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾ والباء: زائدة ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾. متعلق بـ ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في محل الجر، معطوفة على ﴿ما﴾ الموصولة، تقديره: ذلك حاصل بسبب ما قدمته يداك، وبسبب عدم كون الله ظلاماً للعبيد. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ، مؤخر، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حال المرتابين، أو معطوفة على جملة قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على من ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ حال من فاعل ﴿يَعۡبُدُ﴾ أي: حالة كونه مضطرباً مترجرجاً، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَن﴾ الموصولة أو الموصوفة.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿فَإِنۡ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿أَصَابَهُۥ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿خَيۡرٌ﴾ فاعل ﴿ٱطۡمَأَنَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ذلك العابد، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية، معطوفة على جملة ﴿يَعۡبُدُ﴾ على كونها صلة الموصول، ﴿به﴾ متعلقان به ﴿وَإِنۡ﴾: الواو: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ على كونه جواباً لها وفاعله ضمير يعود على العابد ﴿ٱنقَلَبَ﴾ فعل ماض مبني على الفتح وفاعله يعود على العابد والجملة جواب الشرط. ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ٱنقَلَبَ﴾، أو حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبَ﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة

﴿إن﴾ الأولى. ﴿خَسِرَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على العابد والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبَ﴾، ولا حاجة إلى تقدير، قد على الصحيح، أو بدل من قوله: ﴿ٱنقَلَبَ﴾ كما أبدل المضارع من مثله في قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مفعول ﴿خَسِرَ﴾. ﴿وَٱلْأٓخِرَةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾ خبر. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾.

﴿يَدْعُواْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على العابد، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَعْبُدُ﴾ في قوله: ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. جار ومجرور، حال من فاعل ﴿يَدْعُواْ﴾ أي: حالة كونه، متجاوزاً الله، بعبادته إلى غيره. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب. مفعول به لـ ﴿يَدْعُواْ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَضُرُّهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مِن﴾، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ﴾: معطوف على ما لا يضره ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ خبر ﴿ٱلْبَعِيدُ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة. ﴿يَدْعُواْ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على العابد، و﴿يَدْعُواْ﴾ هنا بمعنى يقول. ﴿لَمَن﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿من﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ. ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَقْرَبُ﴾: خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾. ﴿مِن نَّفْعِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾، والجملة من هذا المبتدأ الأخير وخبره، صلة لـ ﴿مِن﴾ الموصولة. ﴿لَبِئْسَ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿بئس﴾: فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: فاعل والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هو؛ أي: ذلك المعبود، وهو مبتدأ، خبره جملة ﴿بئس﴾، أو خبر لمحذوف، تقديره: والمخصوص بالذم هو، وجملة ﴿بئس﴾ جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر لـ ﴿من﴾ الموصولة؛ أي: يقول ذلك العابد: لمن ضره أقرب من نفعه، لأقسم فيه، بقولي: بئس المولى هو. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: هو،

وجملة ﴿يَدۡعُواْ﴾ بمعنى يقول مستأنفة. أو خبر من الموصولة محذوف، تقديره: يقول ذلك العابد، لمن ضره أقرب من نفعه. إله أو إلهي، وموضع الجملة نصب بالقول، وجملة لبئس مستأنفة؛ لأنها لا يصح دخولها في الحكاية؛ لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم: لبئس المولى ولبئس العشير. وهناك وجه آخر مقبول، وهو أن تكون اللام زائدة في المفعول به لـ ﴿يَدۡعُواْ﴾، ويؤيد هذا الوجه، قراءة عبد الله ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ فـ ﴿مَن﴾ مفعول ﴿يَدۡعُواْ﴾ و﴿يَدۡعُواْ﴾ على معناه، ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ ﴿أَقۡرَبُ﴾ خبره، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة القسم مستأنفة. وقد اختار الجلال السيوطي هذا الوجه، ودعمه شارحوه. قال الزمخشري: وهناك أوجه تربو على سبعةٍ، قد سلكها المفسرون، أكثرها غير مقبولة لما فيها من الغرابة والشذوذ، وإنما أوردناها مع كونها آراء غير مقبولة، لنخلص إلى القول، أن هذه الآية من المشكلات، التي شغلت علماء النحو والتفسير، ولم يأتوا فيها بما ينقع الغليل ويشفي العليل، وكلام الله المعجز اسمى من أن تطاله القواعد، التي وضعها الإنسان. انتهى بتصرف. ﴿وَلَبِئۡسَ﴾ الواو عاطفة. واللام، موطئة للقسم. ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد، لإنشاء الذم ﴿ٱلۡعَشِيرُ﴾ فاعل والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هو، وجملة هذا القسم، معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول. وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصولة. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفول به ثان على السعة، أو نصب بنزع الخافض، وجملة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: صفة لـ ﴿جَنَّٰتٖ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَفۡعَلُ مَا﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: يريده، وجملة

﴿يفعل﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما تقدم.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، أو الخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، كما مر مراراً، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، واسمه ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿يَظُنُّ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر، يعود على ﴿مَن﴾، وجملة ﴿يَظُنُّ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف؛ أي: أنه. ﴿لَّن﴾ حرف نصب ﴿يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل مضارع ومفعول وفاعل منصوب بـ ﴿لَّن﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿يَنصُرَهُ﴾. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ معطوف على الدنيا، وجملة ﴿يَنصُرَهُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿لَّن﴾ المخففة في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿ظن﴾، تقديره: من كان يظن عدم نصر الله تعالى، محمداً، ﷺ، في الدنيا والآخرة. ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾: الفاء، رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجوباً، لكون الجواب جملة طلبية، أو واقعة في خبر ﴿مَن﴾ الموصولة، لشبهها بالشرط في العموم. واللام: لام الأمر. ﴿يمدد﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على من ﴿بِسَبَبٍ﴾ متعلق بـ ﴿يمدد﴾ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لسبب؛ أي: بسبب واصل إلى السماء. والمراد بالسماء، سقف البيت، أو على حقيقتها على سبيل التقدير. وجملة ﴿يمدد﴾ في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، أو خبر ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية، أو الموصولة مستأنفة.

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لْيَقْطَعْ﴾: اللام: لام الأمر ﴿يقطع﴾: فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم،

معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾. على كونها جواب ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: لام الأمر. ﴿ينظر﴾ فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الجزم، معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام. ﴿يُذْهِبَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿كَيْدُهُۥ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به. ﴿يَغِيظُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾. ومفعول محذوف، تقديره ما يغيظه، فالضمير المرفوع في ﴿يغيظه﴾: عائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والمنصوب عائد على ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾، وجملة ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ﴾ في محل نَصْب بـ ﴿ينظر﴾؛ لأنها معلقة عنها بحرف الاستفهام، وفي «السمين»: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ﴾: الجملة الاستفهامية، في محل نصب على إسقاط الخافض؛ لأن النظر تعلق بالاستفهام، وإذا كان بمعنى الفكر. تعدى بفي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ حال من مفعول ﴿أنزلنا﴾. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لـ ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾: والتقدير، وأنزلنا القرآن كله، حالة كونه آيات بينات. إنزالاً مثل الآيات السابقة، من أول السورة إلى هنا، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو عاطفة، أو حالية. ﴿أن الله﴾ ناصب واسمه يـ ﴿يَهْدِى﴾. فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يريد هدايته، وجملة ﴿يَهْدِى﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، معطوف على مفعول ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والتقدير: وكذلك أنزلنا عليه القرآن كله. وهداية الله من يريد هدايته، أو في تأويل مصدر مرفوع، على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: والأمر هداية الله من يريد، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾. معطوف على الموصول الأول. وجملة ﴿هَادُواْ﴾: صلته. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. وكذلك قوله: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ﴾: معطوفات على الموصول الأول. وجملة ﴿أَشْرَكُوٓاْ﴾: صلة الموصول الأخير. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَفْصِلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَفْصِلُ﴾، وكذلك يتعلق به الظرف في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الثانية، في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ الأولى. أعني قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾ و﴿شهيد﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾. وكأن قائلاً قال: أهذا الفصل عن علم، أو لا، فقيل: إن الله على كل شيء شهيد؛ أي: عالم، اهـ شيخنا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾ وفاعله ضمير، يعود على كل من يصلح للخطاب، وترى هنا علمية، كما مر في مبحث التفسير. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَسْجُدُ﴾ فعل مضارع ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿يَسْجُدُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، سادّ مسدّ مفعولي ﴿تَرَ﴾، تقديره: ألم تر سجود من السموات ومن في الأرض، ومن بعدهما. لله سبحانه وتعالى. وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جملة إنشائية مستأنفة. ﴿فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ﴾ معطوفات على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿وَكَثِيرٌ﴾. ﴿وَكَثِيرٌ﴾ ليس معطوفاً على ما قبله، بل هو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: مطيعون أو مجزيون أو مثابون، أو نحو ذلك، لدلالة ما قبله عليه، وسوغ الابتداء بالنكرة، وقوعه في معرض التقسيم، ووصفه بما بعده، والجملة من المبتدأ والخبر حينئذٍ، معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ في كونها سادة مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾، وقيل هو مرفوع، بفعل محذوف، تقديره: ويسجد له كثير من الناس. ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التقسيم. ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾. ﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية (من) اسم شرط جازم، في محل النصب مفعول به مقدم ﴿يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ﴿مَا﴾ النافية ﴿ما﴾ نافية ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿مُّكْرِمٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَفْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مَا﴾ موصولة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يشاؤه، وجملة ﴿يَفْعَلُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ التقوى: التباعد عن كل ما يكسب الإثم، من فعل أو ترك. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ الزلزلة: الحركة الشديدة، بحيث تزيل الأشياء من أماكنها، وقيل: الزلزلة: التحريك الشديد بطريق التكرير، كما يدل عليه تكرير الحروف؛ لأن زلزل مضاعف زل، ويحتمل في هذه الإضافة، أن تكون من إضافة

المصدر إلى فاعله؛ إن كان من زلزل اللازم، الذي بمعنى: تزلزل. والتقدير: إن تزلزل الساعة، أو من زلزل المتعدى ويكون المفعول محذوفاً، والتقدير: إن زلزال الساعة الناس، كذا قدره أبو البقاء، وأحسن من هذا، أن يقدر إن زلزال الساعة الأرض، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ والذهول، الدهش الناشيء عن الهم والغم الكثير. والمرضعة: الأنثى الملابسة للإرضاع، والمرضع: ما من شأنها أن ترضع، وإن لم تلابس به نظير حائض وحائضةٍ. ﴿حَمْلَهَا﴾ والحمل بفتح الحاء: ما كان في البطن أو على رأس الشجر، وبالكسر: ما كان على الظهر، اهـ «سمين». ﴿سُكَٰرَىٰ﴾: جمع سكران، والسكر، حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب.

﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمقاتلة، وأصله من جدلت الحبل؛ أي: أحكمت فتله، كأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه. ﴿مَّرِيدٍ﴾ عات متجرد للفساد: يقال: مرد الشيء، إذا جاوز حدَّ مثله، وأصله العرى يقال: غلام أمرد إذا عرى من الشعر والورق. قال: الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس، وقال في «القاموس» وشرحه: المارد العاتي المرتفع، يقال: بناء مارد؛ أي: مرتفع، وهو مجاز. وجمعه مردة وماردون ومراد، والمريد الشديد المرادة والخبيث الشرير، وجمعه مرد ومؤنثه مرداء، يقال: مرد على جرد؛ أي: شبان مرد على خيول جرد.

﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ الريب: الشك. والبعث: الإخراج من الأرض، والتسيير إلى الموقف. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وأصل النطفة الماء العذب، ويراد بها هنا ماء الرجل. ﴿عَلَقَةٍ﴾ والعلقة: القطعة الجامدة من الدم. ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾ المضغة: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ. ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ والأجل المسمى: حين الوضع. ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال ابن زيد: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين. وغير المخلقة التي لم يخلق فيها شيء.

﴿طِفْلًا﴾ والطفل: يطلق على الولد من حين الإنفصال إلى البلوغ، ويطلق

على الواحد والجمع، وأما الطفل بفتح الطاء وسكون الفاء، فهو الناعم، والمرأة طفلة، وأما الطفل بفتح الطاء والفاء، فوقت ما بعد العصر من قولهم: طفلت الشمس إذا مالت للغروب، وأطفلت المرأة؛ أي: ذات طفل. ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ والأشد: القوة، وهو في الأصل جمع شدة، كأنعم جمع نعمة، اهـ «بيضاوي». وهو من ألفاظ الجمع، التي لم يستعمل لها واحد، وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين. ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أدنؤه وأردؤه، وهو الخرف، والخرف: فساد العقل من الكبر و﴿ٱلْعُمُرِ﴾: مدة عمارة البدن بالحياة، كما مر. ﴿هَامِدَةً﴾؛ أي: ميتة يابسة، من همدت الأرض، إذا يبست ودرست، وهمد الثوب إذا بلي، والهمود السكون والخشوع ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحركت، وتجوز به هنا، عن إنبات الأرض نباتها بالماء؛ أي: اهتز نباتها وتحرك. ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ازدادت وانفتخت لما يتداخلها من الماء والنبات ﴿زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف. ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن، سار للناظرين من البهجة، وهو حسن اللون وظهور السرور فيه، وابتهج بكذا سروراً، بأن أثره في وجهه. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والحق: هو الثابت الوجود، الذي يحق ثبوته، ويجب وجوده. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ والهدى: الاستدلال والنظر الصحيح، الموصل إلى المعرفة، والكتاب المنير: هو الوحي المظهر للحق.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ الثني، اللي، وفي «القاموس» ثنى الشيء يثني، عطفه وطواه، ورد بعضه على بعض وكفه. والعطف بكسر العين الجانب، يعطفه الإنسان ويلويه ويميله عن الإعراض عن الشيء، وهو عبارة عن التكبر، والعطف، بفتح العين: التعطف والرحمة والشفقة، والمعنى هنا، لاوياً جانبه: متكبراً مختالاً ونحوه تصغير الخد. وليُّ الجيد. ﴿خِزْيٌ﴾ والخزي: الهوان والذل والفضيحة. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: عذاب النار التي تحرق داخليها، فيحتمل أن يكون من إضافة المسبَّب إلى سببه، على أن يكون الحريق عبارة عن النار، وأن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصل العذاب الحريق؛ أي: المحرق وهو النار.

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ أي؛ على طرف وشك في الدين. ﴿خَيْرٌ﴾ كل ما يستلذه

الطبع وينشرح به القلب، كالصحة وكثرة المال والولد. ﴿فِتْنَةٌ﴾ والفتنة: كل ما يستكرهه الطبع، ويثقل على النفس كالجدب والمرض، كما مر. ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ الانقلاب: الانصراف والرجوع، والوجه بمعنى الجهة والطريقة.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: ضيعهما إذ فاته فيهما ما يسره. ﴿يَدْعُواْ﴾ الأولى يراد به يعبد. و﴿يَدْعُواْ﴾ الثانية يراد بها يقول. ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر. ﴿ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب والمعاشر. ﴿بِسَبَبٍ﴾ السبب: الحبل الذي تصعد به النخل؛ أي: ليربط بحبل إلى سقف بيته؛ لأن كل ما علاك فهو سماء. ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ قال في «القاموس»: قطع فلان الحبل إذا اختنق به، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؛ أي: ليخنق انتهى. وسمى الاختناق قطعاً؛ لأن المختنق يقطع نفسه، بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ المراد: تقدير النظر، وتصوره؛ لأن الأمر بالنظر بعد الاختناق، غير معقول؛ أي: فليتصور في نفسه، وليقدر النظر إن فعل. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾؛ أي: فعل ذلك بنفسه، وسماه كيدا: لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على وجه الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسود، وإنما كاد به نفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ الغيظ أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه؛ أي: ما يغيظه من النصرة لمحمد ﷺ.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾. جمع نصران ونصرانة، مثل: الندامى جمع ندمان وندمانة، ويستعمل بغير الياء فيقال: رجل نصران وامرأة نصرانة. ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ قال في «القاموس»: مجوس كصبور، رجل صغير الأذنين وضع ديناً، ودعا إليه، معرب، منج كوش ورجل مجوسيٌّ، جمعه مجوس، كيهودي ويهود اهـ. والأصل: نجوس بالنون، فأبدلت ميما اهـ «سمين».

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم، والسجود: لغة التطامن والتذلل، ثم أطلق على التذلل لله وعبادته، وهو ضربان: سجود بالاختيار: وهو خاص بالإنسان وبه يستحق الثواب، وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه: وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلت قدرته. ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ جمع دابة، بتشديد الباء؛ لأنه مشتق من الدبيب، فأما من قرأ بتخفيف الباء، فقد حذفها كراهية التضعيف،

والدابة: مؤنث الداب ما دب من الحيوان؛ أي: مشى على البطن كالحية، أو على اليدين والرجلين كالطفل، وغلبت الدابة على ما يركب ويحمل عليه، وتقع على المذكر والمؤنث، والتاء فيه للوحدة، وتصغير الدابة دويبة، والدباب الشديد الدبيب، والضعيف الذي يدب في المشي. قال الشاعر:

زَعَمَتْنِي شَيْخاً وَلَسْتُ بِشَيْخٍ ... إِنَّمَا ٱلشَّيْخُ مَنْ يَدُبُّ دَبِيبَا

والدبابة، مؤنث الدباب، وسميت بها آلة كانت في الماضي، تتخذ في الحصار، وكانوا يدخلون في جوفها، ثم تدفع في أصل الحصن فينقبونه، وهم في أجوافها، ثم أطلقت في العصر الحديث على سيارة مصفحة، تهجم على صفوف الأعداء، وترمىٰ منها القذائف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لأن إسناد الزلزلة إلى الساعة على سبيل المجاز العقلي؛ لأنها لما كانت من أشراطها أضيفت إليها.

ومنها: التشبيه البليغ المؤكد في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: تراهم كالسكارى من شدة الهول، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه، فقد شبه حال الناس في ذلك اليوم العصيب بحالة السكارى، الذين فقدوا التمييز، وأضاعوا الرشد، فالآية الكريمة بعد أن أثبتت السكر المجازي، نفت الحقيقة، أبلغ نفي مؤكد بالباء، والسر في تأكيده، التنبيه على أن هذا السكر، الذي هو بهم في تلك الحالة، ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله.

ومنها: أن في عدوله عن مرضع إلى مرضعة سراً. قلّ من يتفطن له، وهو

أن المرضعة هي التي باشرت الإرضاع فعلاً؛ فنزعها الثدي من فم طفلها عند حدوث الهول ووقوع الإرتباك، أدل على الدهشة، وأكثر تجسداً لمواطن الذهول، الذي استولى عليها.

ومنها: الاستعارة التصريحية، في قوله: ﴿شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ حيث استعار لفظ الشيطان لكل طاغية، متمرد على أمر الله.

ومنها: أسلوب التهكم، في قوله: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ومنها: الطباق، في قوله: ﴿يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ﴾.

ومنها: طباق السلب، في قوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة، في قوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له، ثم يتحرك وينتعش، وتدب فيه الحياة، بنزول المطر عليه، ففيها استعارة تبعية.

ومنها: ائتلاف الطباق والتكافؤ في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ لمجيء أحد الضدين، أو أحد المتقابلين حقيقة، والآخر مجازاً، فهمود الأرض واهتزازها ضدان، لأن الهمود سكون فالاهتزاز هنا حركة خاصة، وهما مجازان، والربو والإنبات ضدان، وهما حقيقتان، وإنما قلنا ذلك؛ لأن الأرض تربو حالة نزول الماء عليها، وهي لا تنبت في تلك الحالة، فإذا انقطعت مادة السماء، وجفّفَ الهواء رطوبة الماء، خمد الربو، وعادت الأرض، إلى حالها، من الاستواء، وتشققت وأنبتت، فصدر الآية تكافؤ، وما قابله في عجزها طباقٌ.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فقد أسند الإنبات إلى الأرض، وهو مجاز عقلي، لأن المنبت في الحقيقة، هو الله تعالى.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾؛ لأنه كناية عن الإعراض والتكبر والخيلاء.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ علاقته السببية؛ لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ حيث شبه المنافقين، وما هم فيه، من قلق واضطراب في دينهم، بمن يقف على شفا الهاوية، يريد العبادة والصلاة. ويا له من تمثيل رائع.

ومنها: المقابلة البديعة بين ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ و﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يَضُـرُّهُۥ﴾ و﴿يَنفَعُهُۥ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ لتأكيد الوعيد، وتشديد التهديد؛ لأن الأصل بما قدمت يداه.

ومنها: الاستعارة المصرحة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ حيث استعار ضلال من أبعد في التيه ضالاً، عن الطريق، فطالت وبدت مسافة ضلاله لخطأ، من أخطأ عن الحق والهدى، وبعد عنه، فإن القرب، والبعد من عوارض المسافة الحسية.

ومنها: إيراد صيغة المبالغة في قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ مع خلوه عن النفع بالكلية، للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعان في ذمه.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾؛ لأن تسميته مولى تهكم به.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد الحكمي، كقولهم: سال الميزاب إذ الجريان من أوصاف الماء، لا من أوصاف النهر، والنهر مجرى الماء الفائض.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَدْعُوا۟﴾ وفي قوله: ﴿لَبِئْسَ﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا

يَغِيظُ﴾؛ لأن معناه: من كان يظن من حاسدي محمد ﷺ، ومبغضيه أن الله لن ينصره، وأنه يفعل شيئاً مغايراً للنصر. ومن كان يغيظه أن محمداً يظفر بمطلوبه، ويبلغ ما هدف إليه من المثل العليا، التي رسمناها له، فليستقص وسعه، وليستفرغ جهده، فلن يكون مثله إلا مثل من يأخذ حبلاً، يمده إلى سماء بيته، فيخنق نفسه به، ثم بعد ذلك كله، ليعد النظر، والتأمل مجدداً، ليرى هل ذهب نصر الله، الذي يغيظه، وهل ذهب عنه ما كان يساوره، من حرقة وارتماض.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾؛ أي: ويضل من يريد.

ومنها: تصدير الجملتين بـ ﴿إن﴾ زيادة في تأكيد الكلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ...﴾ إلخ بعد قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ
مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ (١٩) يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ (٢١)
كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ (٢٣) وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ
سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (٢٥) وَإِذۡ بَوَّأۡنَا
لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ
عَمِيقٖ (٢٧) لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ
بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ
نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ
رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ
وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ (٣١) ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ (٣٢) لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (٣٣)
وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ
أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٥) وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ
فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ
كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ
مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ...﴾ الآيات مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه سبحانه وتعالى، لما ذكر أهل السعادة وأهل الشقاوة، ذكر ما دار بينهم من الخصومة في دينه.

وعبارة المراغي هنا: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أرباب الفرق الست، فيما سلف وذكر، أن الله تعالى، يفصل بينهم يوم القيامة، وهو العليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم.. قفى على ذلك، بذكر طرفي الخصومة، وتعيين موضع الخصومة، وتعيين موضع الخصومة، وبيان مآل كل من الفريقين، من الإهانة والكرامة والعذاب والنعيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[2] مآل كل فريق من الكفار، والمؤمنين.. أردف ذلك ببيان عظيم حرمة البيت، وأنكر على الكفار صدهم المؤمنين، عن شهوده وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أنَّ كثيراً من مشركي قريش، صدوا عن دين الله، وعن دخول المسجد الحرام، أردف بتأنيبهم وتوبيخهم على ما يفعلون، فبيّن أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، فإن أباهم إبراهيم الذي يفخرون به. وينتسبون إليه، هو الذي بناه وجعله مباءة للناس، وأمر بتطهيره من الشرك للطائفين والمصلين، وأن ينادي في الناس بالحج، ليأتوه من كل فج عميق، لما لهم في ذلك من منافع دينية ودنيوية، ويذكروا اسم الله في أيام النحر، على ما آتاهم من بهيمة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ...﴾

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أنه أمر إبراهيم ببناء البيت، وتطهيره من عبادة الأوثان والأصنام، وأن ينادي الناس ليحجوا هذا البيت الحرام، مشاة وركباناً، من كل فج عميق، لما لهم في ذلك من منافع دنيوية ودينية، وأن ينحروا البدن الهدايا، ذاكرين اسم الله عليها، في أيام معلومات، وأن يأكلوا منها، ويطعموا البائس الفقير.. قفَّى على ذلك ببيان أن اجتناب المحرمات، حال الإحرام، خير عند الله مثوبة، وأعظم أجراً، وأن ذبح الأنعام، وأكلها حلال، إلا ما حرم عليكم، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان، وترك شهادة الزور، وأن من يشرك بالله فقد هلك، وأن تعظيم شعائر الله، علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى والخوف من الله، وأن في هذه الهدايا منافع من الدر والصوف والنسل، إلى أجل مسمى، وهو أن تنحر، ثم تؤكل ويتصدق بلحومها.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى، وأن محل نحرها هو البيت العتيق.. قفى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى، ليس بخاص بهذه الأمة، بل لكل أمة مناسك، وذبائح تذكر باسم الله حين ذبحها، والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر، فالإله واحد، والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح، وبعدئذٍ أمر رسوله أن يبشر المتواضعين، الخاشعين لله، الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم، بجنات تجري من تحتها الأنهار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما حث على التقرب بالأنعام كلها، وبين أن ذلك من تقوى القلوب.. خص من بينها الإبل؛ لأنها أعظمها خلقاً، وأكثرها نفعاً، وأنفسها قيمة.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه الشيخان وغيرهما، عن أبي ذر قال: نزلت هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ في ستة من قريش، علي، وحمزة، وعبيد بن الحارث وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وكان أبو ذر يقسم أن هذه الآيات نزلت في هؤلاء المتابرزين.

وروى البخاري وغيره عن علي أنه قال: فينا نزلت هذه الآية، وأنا أول من يجثوا في الخصومة على ركبتيه، بين يدي الله يوم القيامة.

وأخرج الحاكم عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية، في مبارزتنا يوم بدر ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله تعالى منكم، وأقدم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، فقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد ﷺ، وآمنا بنبيكم، وبما أنزل الله تعالى من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، فنزلت الآية: وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه، حين صدوا رسول الله ﷺ، وأصحابه عام الحديبية، عن المسجد الحرام، وقد كره، عليه الصلاة والسلام، أن يقاتلهم، وكان محرماً بعمرة، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل.

وأخرج[2] ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين، أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصارى، ثم ارتد عن

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

الإسلام، وهرب إلى مكة فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال: «كانوا لا يركبون فأنزل الله ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد، ورخص لهم الركوب والمتجر.

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب النبي ﷺ: فنحن أحق أن نضمخ فأنزل الله ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَٰذَانِ﴾ الجمعان، جمع المؤمنين وجمع الكفرة المنقسمة إلى الفرق الخمس. ﴿خَصْمَانِ﴾؛ أي: فريقان مختصمان. ﴿اخْتَصَمُوا﴾ وجادلوا وتنازعوا. ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾؛ أي: شأنه أو في دينه، أو في ذاته وصفاته، أو في شريعته التي شرعها لعباده والكل من شؤونه، فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه، وبطلان ما عليه صاحبه، وبناء أقواله وأفعاله عليه، خصومة للفريق الآخر، وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام، وكان مقتضى السياق أن يقول: اختصما، بألف الإثنين، ولكن جمع الضمير نظراً إلى معنى الفريقين. فالمراد بالخصمين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، والظاهر[1] أن الاختصام هو في الآخرة، بدليل التقسيم بالفاء، الدالة على التعقيب في قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولذلك قال علي ـ رضي الله عنه ـ: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة، بين يدي الله تعالى.

وقيل: المراد بالخصمين[2]: الجنة والنار، قالت الجنة: خلقني لرحمته، وقالت النار: خلقني لعقوبته، وقيل المراد بالخصمين، هم الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين، حمزة وعلي وعبيدة، ومن الكافرين، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. وقد كان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ يقسم أن هذه الآية، نزلت في

---

(١) الفتوحات.
(٢) الشوكاني.

هؤلاء المتبارزين، كما ثبت عنه في الصحيح. وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول. وقرأ[1] ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة وابن كثير ﴿هاذان﴾ بتشديد النون. وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿اختصما﴾ راعى لفظ التثنية.

ثم فصَّل سبحانه، ما أجمله في قوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بجميع مللهم. ﴿قُطِّعَتْ﴾ وقدرت ﴿لَهُمْ﴾: على مقادير جثتهم. ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: لباس من نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها، كما تقطع الثياب الملبوسة. قال الأزهري[3]: أي سوّيت وجعلت لبوساً لهم، شبهت النار بالثياب؛ لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب. وعبر بالماضي عن المستقبل، تنبيهاً على تحقق وقوعه. وقيل إن هذه الثياب من نحاس، قد أذيب فصار كالنار، وهي السرابيل المذكورة في آية أخرى. وقيل: المعنى: في الآية أحاطت بهم النار. وقرأ الزعفراني في «اختياره»[4]: ﴿قُطِعَتْ﴾ بتخفيف الطاء.

ومعنى الآية[5]: أي إن أهل الأديان الستة، التي سبق ذكرها فريقان، فريق المؤمنين، وفريق الكافرين أرباب الديانات الخمس المتقدمة، جادلوا في دين الله، فكل فريق يعتقد أن ما هو عليه هو الحق، وأن ما عليه خصمه هو الباطل، وبنى على ذلك كل أقواله وأفعاله، وهذا كاف في تحقيق الخصومة، وإن لم يحصل بينهما تحاور بالفعل.

ثم ذكر مآل كل فريق، وما يلقاه من الجزاء، بعد أن يفصل الله بينهما، وذكر من جزاء فريق الكافرين أموراً ثلاثة:

١ - ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسامهم، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من التهكم بهم، واحتقار شأنهم، والتعبير بثياب للإشارة إلى تراكم

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) المراغي.

طبقات النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوق بعض. ونظير هذه الآية قوله ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

٢ - ﴿يُصَبُّ﴾ ويراق ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾؛ أي: الماء الحار الذي انتهت حرارته، لو قطرت قطرة منه على جبال الدنيا لأذابتها. ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾؛ أي: يذاب بذلك الحميم من فرط الحرارة. ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الأمعاء والأحشاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾؛ أي: وتشوى جلودهم فتتساقط فهو معطوف على ﴿ما﴾؛ أي: يصهر به الجلود، وتأخيره عنه لمراعاة الفواصل؛ أي: إذا صب الحميم على رؤوسهم يؤثر، من فرط حرارته في باطنهم، نحو تأثيره في ظاهرهم، فيذاب به أحشاؤم، كما يذاب به جلودهم، ثم يعاد كما كان، فله أثر في الظاهر والباطن وقرأ الحسن وفرقة: ﴿يُصَهَّر﴾ بفتح الصاد وتشديد الهاء، ذكره في «البحر».

٣ - ﴿وَلَهُم﴾؛ أي: وللكفرة؛ أي: ولتعذيبهم وجلدهم ﴿مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾؛ أي: سياط من حديد، تضرب بها رؤوسهم ووجوههم. جمع مقمعة، وهي آلة القمع. وفي الحديث «لو وضعت مقمعة منها في الأرض، فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها منها»؛ أي: رفعوها.

أي: يقمعون ويجلدون بها، ويردون إلى النار ردًّا عنيفاً إذا أرادوا الهرب منها، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ وحاولوا ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ وأشرفوا على الخروج ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من النار ودنوا إلى الخروج. وقوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل اشتمال من ضمير منها، أعيد معه الجار وحذف الرابط لفهم المعنى؛ أي: من غمها؛ أي: من غم شديد من غمومها. ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في قعرها بأن ردوا من أعلاها إلى أسفلها، من غير أن يخرجوا منها. ﴿و﴾ قيل لهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾؛ أي: باشروا العذاب المحرق وذوقوا ألمه. والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا مجاز عن إدراك الألم. وروي «أنها تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها، ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً». وهو من ذكر البعض وإرادة الكل، إذا الخريف آخر الفصول الأربعة.

والمعنى: أي[1] إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم والخروج منها، حين يلحقهم عظيم عذابها، أعيدوا فيها، وضربوا بسياط من حديد، وقيل لهم ذوقوا عذاب هذه النار التي تحرق الأمعاء والأحشاء.

وبعد أن بين الله سبحانه، حال الكافرين.. أردف ذلك ببيان ما يناله المؤمنون، من الكرامة في المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل. فقال:

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسله وبجميع ما جاؤوا به ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: اتصفوا بها فعلاً أو تركاً، ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين وحدائق ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿من تحت﴾ أشجار ﴿ها﴾ وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة. الماء واللبن والخمر والعسل، كما بينه في سورة محمد؛ أي: إن الله سبحانه، يدخل من آمن به وبرسله وعمل صالح الأعمال، التي تزكي نفوسهم، وتقربهم إلى ربهم، جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الوارفة الظلال، الأنهار الواسعة، يستمتعوا بها كما شاؤوا، ثم بين سبحانه، بعض ما أعد لهم من النعيم، بعد دخولهم الجنة، فقال:

٢ - ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: يلبسون في الجنة في أيديهم ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ أي: بعض أساور، وهي جمع أسورة جمع سوار، وهي ما يلبس في الساعد. ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيان للأساور ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل من أساور. وقرىء بالجر، عطفاً على ذهب، على أن الأساور مرصعة بالذهب واللؤلؤ، أو على أنهم يسوَّرون بالجنسين، إما على المعاقبة، وإما على الجمع، كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحلى، وما أحسن المعصم إذا كان فيه سواران، سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ أبيض. واللؤلؤ ما يستخرج من البحر من جوف الصدف. قال القشيري: والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ. ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مُصمَّت، كما أن فيها أساور من ذهب؛ أي: تحليهم الملائكة بأمره تعالى

---

(١) المراغي.

وتزينهم بأساور من ذهب وبلؤلؤ؛ أي: يلبسون في أيديهم حلية من ذهب، وفي رؤوسهم تيجاناً من لؤلؤ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُحَلَّون﴾ بضم الياء وفتح الحاء وتشديد اللام؛ أي: يزينون. وقرى بضم الياء والتخفيف، وهو بمعنى المشدد. وقرأ ابن عباس ﴿يَحْلَون﴾ بفتح الياء واللام وسكون الحاء من قولهم حلي الرجل وحلت المرأة، إذا صارت ذات حلي، أي: يلبسون حليهم. وقرأ ابن عباس ﴿مِنْ أَسْوِر﴾ بفتح الراء من غير ألف ولا هاء، وكان قياسه أن يصرفه؛ لأنه نقص بناؤه، فصار كجندل لكنه قدر المحذوف موجوداً فمنعه من الصرف. وقرأ عاصم ونافع والحسن والجحدري والأعرج وأبو جعفر وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ هنا، وفي فاطر بالنصب، وحمله أبو الفتح، على إضمار فعل، وقدره الزمخشري ويؤتون لؤلؤاً، ومن جعل ﴿مِن﴾ في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ زائدة جاز أن يعطف ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ على موضع ﴿أَسَاوِرَ﴾. وقيل: يعطف على ﴿من أساور﴾؛ لأنه يقدر ويحلون حلياً من أساور. وقرأ باقي السبعة[2] والحسن أيضاً، وطلحة وابن وثاب والأعمش وأهل مكة ﴿ولؤلؤٍ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿أَسَاوِرَ﴾. أو على ﴿ذَهَبٍ﴾. وقرأ الفياض ﴿ولوليا﴾ قلب الهمزتين واواً، صارت الثانية واواً قبلها ضمة، فقلبت الواو ياء والضمة كسرة. وقرأ ابن عباس ﴿وليليا﴾ أبدل الهمزتين واوين ثم قلبهما ياءين، أتبع الأولى للثانية. وقرأ طلحة: ﴿ولول﴾ مجروراً عطفاً، على ما عطف عليه المهموز.

٣ - ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿حَرِيرٌ﴾؛ أي: إن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة، فلا يمكن عراؤهم منه؛ أي:[3] ويلبسون الحرير الذي حرم عليهم لبسه في الدنيا، وكان فيها عنوان العزة والكرامة، فأوتوه في الآخرة إجلالاً، وتعظيماً لهم، ففيها ما تشتهيه الأنفس، وكل منهم يعطىٰ ما تشتهيه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

نفسه، وينال ما يريده، وغير الأسلوب، حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً للمحافظة على الفواصل؛ لأنه لو قال ما ذكر لكان في آخر الفاصلة الألف في الكتابة، والوقف بخلاف البقية اهـ. شيخنا.

٤ - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: وأرشدوا إلى القول الطيب، وهو قولهم حين دخول الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وقيل: هو لا إله إلا الله. وقيل: الحمد لله. وقيل: القرآن. وقيل: هو ما يأتيهم من الله سبحانه، من البشارات، وقد ورد في القرآن، ما يدل على هذا القول. المجمل هنا. وهو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

٥ - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو إما من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: أرشدوا إلى الصراط المحمود، وهو طريق الجنة، أو إلى موصوف محذوف، بقيت صفته؛ أي: إلى صراط الله الحميد، أي: المحمود ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وهو دينه القويم، الذي هو الإسلام، والمعنى على الأول وأرشدوا إلى الطريق الحميد، الذي يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم، لما فيها مما يجمل في المعاشرة والاجتماع. وأخر[1] بيان الهداية لرعاية الفواصل. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَيَصُدُّونَ﴾؛ أي: ويمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن طاعة الله تعالى، والدخول في دينه عطف[2] المضارع على الماضي؛ لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصد، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. والمراد بالصد هنا، الاستمرار، لا مجرد الاستقبال؛ أي: وصدوا عن سبيل الله، فصح بذلك عطفه على الماضي، ويجوز أن تكون الواو في ﴿ويصدون﴾ واو الحال؛ أي: كفروا والحال أنهم يصدون، وقيل: الواو زائدة والمضارع خبر ﴿أن﴾. والأولى أن يقدر خبر ﴿إن﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلْبَادِ﴾. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله، قيل:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

المراد[1] به المسجد نفسه، كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني، وقيل: الحرم كله؛ لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه، عنه يوم الحديبية، وقيل: المراد به مكة؛ أي: ويمنعون المؤمنين عن دخول المسجد الحرام؛ أي: المحترم من كل وجه، فلا يصاد صيده ولا يقطع شوكه ولا يسفك فيه الدماء.

﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ﴾ صفة للمسجد؛ أي: صيرناه حال كونه معبداً وقبلة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كائناً من كان، من غير فرق بين مكي وآفاقي. ﴿سَوَآءً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ أي: جعلناه مستوياً فيه، ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ الملازم له ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾؛ أي: الواصل إليه من البادية. والمراد به الطارىء عليه، من غير فرق بين كونه من أهل البادية، أو من غيرهم. والعاكف مرتفع بسواء؛ لأنه بمعنى مستوٍ، وصف المسجد الحرام بذلك، لزيادة التشنيع والتقريع والتوبيخ للصادين عنه، وهذا على قراءة النصب، وبها قرأ حفص عن عاصم والأعمش. وقرأ الجمهور[2]: برفع ﴿سواء﴾ على أنه مبتدأ وخبر، والجملة في موضع المفعول الثاني، والأحسن أن يكون العاكف والبادي. هو المبتدأ و﴿سواء﴾ الخبر، وقد أجيز العكس. وقرأ فرقة، منهم الأعمش في رواة القطعي ويعقوب بنصب ﴿سواءً﴾، وجر العاكف على أنه صفة للناس؛ أي: جعلناه للناس العاكف والبادي سواء. وأثبت الياء في البادي ابن كثير وصلا ووقفاً، وحذفها أبو عمرو في الوقف، وحذفها نافع في الوصل والوقف.

واختلفوا في معنى الآية[3]، فقيل: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ في تعظيم حرمته وقضاء النسك به، وإليه ذهب مجاهد والحسن، وجماعة قالوا: والمراد منه نفس المسجد الحرام. ومعنى التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة، وفي فضل الصلاة فيه والطواف به.

وعن جبير بن مطعم، أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، لا تمنعوا

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

أحداً طاف بهذا البيت، وصلى أية ساعة، شاء من ليل أو نهار». أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي. وقيل: المراد منه جميع الحرم. ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء، في النزول به، ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر، غير أنه لا يزعج أحدٌ أحداً، إذا كان قد سبق إلى منزل. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد هما سواء في البيوت والمنازل. قال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة، لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم، وكانت دورهم بغير أبواب، حتى كثرت السرقة، فاتخذ رجل باباً، فأنكر عليه عمر، وقال: أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله، فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه، فاتخذ الناس الأبواب، فعلى هذا القول، لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، قالوا: إن أرض مكة لا تملك؛ لأنها لو ملكت لم يسو العاكف فيها والبادي، فلما استوى ثبت أن سبيلها سبيل المساجد، وإليه ذهب أبو حنيفة، وبه قال الثوري.

قالوا: والمراد بالمسجد الحرام، جميع الحرم. وعلى القول الأول، الأقرب إلى الصواب، أنه يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وإليه ذهب الشافعي واحتج الشافعي في ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ أضاف الديار إلى مالكيها، وقال النبي ﷺ، يوم فتح مكة: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان، فهو آمن» فنسب الديار إليهم نسبة ملك، واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بمكة، بأربعة آلاف درهم، فدلت هذه النصوص على جواز بيعها.

والحاصل: أن الكلام في هذا راجع إلى أصلين:

الأصل الأول: ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم أو مكة على الخصوص، كما ذكرناه مفصلاً.

والأصل الثاني: هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة، وعلى فرض أن فتحها كان عنوة، هل أقرها النبي ﷺ في يد أهلها على الخصوص، أو جعلها لمن نزلها على العموم. وخبر أن محذوف؛ أي: معذبون، كما يدل عليه آخر الآية.

والمعنى: أي[1] إن الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسوله، وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم، ويمنعون الناس أن يدخلوا في دين الله، ويصدون عن الدخول في المسجد الحرام الذي جعله للذين آمنوا به كافة، سواء منهم المقيم فيه والطارىء عليه، النازع إليه من غربته.. نذيقهم عذاباً مؤلماً موجعاً لهم، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾؛ أي: في المسجد الحرام. والباء في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ زائدة في المفعول، وفي قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ سببية متعلقة بإلحاد؛ أي: ومن يرد في المسجد الحرام إلحاداً وميلاً عن الحق بسبب ظلم. قال الكازروني[2]: وفائدة قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ بعد قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أن الإلحاد قد يكون بحق كونه في مقابلة الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾، اهـ. شيخنا.

وقيل[3]: المفعول محذوف، والجار والمجرور في الموضعين، حالان من فاعل يرد؛ أي: ومن يرد فيه مراداً ما حال كونه مائلاً عن القصد والعدل ملتبساً بظلم. وقرأت فرقة ﴿ومن يرد﴾ بفتح الياء من الورود، وحكاها الكسائي والفرَّاء، ومعناه: ومن أتى به بإلحاد ظالماً ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب ﴿مَن﴾ الشرطية؛ أي: ومن يرد فيه أن يميل إلى الظلم في المسجد الحرام، فيعصي الله ويخالف أوامره.. يذقه يوم القيامة العذاب الموجع له.

وخلاصة ذلك: أن الله سبحانه وتعالى توعد الكفار الذين يصدون عن الدين، ويمنعون الناس عن اعتناقه، ويحولون بين الناس ودخول مكة، بالعذاب المؤلم لهم يوم القيامة، كما توعد بذلك من يرتكب الذنوب والآثام في المسجد الحرام.

وقد اختلف[4] في هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك، وقيل: هو الشرك والقتل، وقيل: صيد حيواناته وقطع أشجاره. وقيل: هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة، وقيل: المراد المعاصي فيه على العموم، وقيل المراد بهذه

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

الآية: أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان. وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم، حتى قالوا: لو هم الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن.. لعذبه الله.

ولما ذكر سبحانه[1] حال الكفار وصدهم عن المسجد الحرام، وتوعد فيه من أراد فيه بإلحاد.. ذكر حال أبيهم إبراهيم، وتوبيخهم على سلوكهم غير طريقه؛ من كفرهم باتخاذ الأصنام، وامتنانه عليهم بإيفاد العالم إليهم، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول المسجد الحرام، إذ بوأنا وبيَّنا لإبراهيم الخليل عليه السلام مكان البيت؛ أي: أذكر لهم الوقت الذي بينا فيه لإبراهيم مكان البيت، وأريناه أصله وأساسه ليبنيه، وكان البيت[2] قد درس بالطوفان، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام.. أمره الله ببنائه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً، فبعث الله له ريحاً هفافةً، فكشفت عن أساس آدم، فرتب قواعده عليه. وقيل: بعث الله تعالى سحابة بقدر البيت، فقامت بحيال البيت، وفيها رأس يتكلم: يا إبراهيم! ابن على دوري فبنى عليه. اهـ. «خطيب».

وكانت الأنبياء بعد رفعه يحجون مكانه، ولا يعلمونه حتى بوأه الله وبينه لإبراهيم، فبناه على أساس آدم، وجعل طوله في السماء سبعة أذرع بذراعهم، وذرعه في الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعهم، وأدخل الحجر في البيت، ولم يجعل له سقفاً، وجعل له باباً، وحفر له بئراً، يلقى فيها ما يهدى للبيت، وبناه قبله شيث، وقبل شيث آدم، وقبل آدم الملائكة، ثم بعد إبراهيم بنته قريش، وكان بناؤه هذه المرة قبل المبعث بخمس عشرة سنة، ثم بناه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ثم بناه الحجاج، وهو البناء الموجود الآن.

وقال المحدث الكازروني في «مناسكه»: إنَّ هذا[3] البيت خامس خمس

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

عشرة، سبعة منها في السماء إلى العرش، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، لكل بيت منها حرم، كحرم هذا البيت، لو سقط منها بيت.. لسقط بعضها على بعض، إلى تخوم الأرض السابعة، ولكل بيت من أهل السماء والأرض من يعمره، كما يعمر هذا البيت، وأفضل الكل الكعبة المكرمة. اهـ.

والمراد بذكر الوقت[1]: ذكر ما وقع فيه من حوادث جسام؛ ليتذكروا فيقلعوا عن غيهم، ويرعووا إلى رشدهم، ويستبين لهم عظيم ما ارتكبوا من خطأ، وكبير ما اجترحوا من جرم، بصدهم الناس عن بيت بناه أبوهم، وجعله الله قبلةً للناس في الصلاة، ومكاناً للطواف حين أداء شعيرة الحج: و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ زائدة، والجملة مقول لقول محذوف؛ أي: وقلنا له لا تشرك بي في بناء البيت شيئاً من الأغراض، ولا تجعل لي في العبادة شريكاً من خلقي من الأوثان وغيرها، أو المعنى: واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مبوأً ومرجعاً للعمَّارة وللعبادة؛ بأن يكون موحداً بقلبه لرب البيت عن الشريك، مشتغلاً بجسده بعمارة البيت وتنظيفه عن الأوثان، وذلك أن جرهماً والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت.

وقرأ عكرمة وأبو نهيك[2]: ﴿أن لا يشرك﴾ بالياء؛ أي: وأمرناه أن لا يشرك بي شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾؛ أي: وقلنا له طهر بيتي من الكفرو الأوثان والدماء وسائر النجاسات؛ أي: نزهه عن أن يعبد فيه صنم، وهذا أمر بإظهار التوحيد. وقرأ نافع وحفص وهشام ﴿بَيْتِيَ﴾ بفتح الياء. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾؛ أي: وللمصلين إليه، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد؛ أي: وللمصلين الجامعين بين القيام والركوع والسجود. وصرح بهذه الثلاثة لكونها أعظم أركان الصلاة. والمراد بالقائمين هنا، هم المصلون، وذكر الركع السجود بعده لبيان أركان الصلاة، دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا في البيت، فالطواف عنده والصلاة إليه.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقيل[1]: إن المراد بالقائمين المقيمون بالبيت، فيكون المراد بالطائفين: من يطوف به، وآفاقي غير مقيم هناك. ﴿و﴾ قلنا له ﴿أذن﴾؛ أي: ناد ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ بدعوة ﴿الحج﴾ والأمر به وقرأ الجمهور ﴿وَأَذِّن﴾ بالتشديد من أذن من باب فعل المضعف؛ أي: ناد. روي أنه صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم. وقرأ الحسن وابن محيصن ﴿وَآذِن﴾ بمد الهمزة وتخفيف الذال من آذن، من باب أفعل كأكرم؛ أي: أعلم. وقرأ الجمهور ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بفتح الحاء، وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها.

قال الواحدي[2]: قال جماعة من المفسرين: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، جاءه جبريل فأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب من يبلغ صوتي؟ فقال الله سبحانه: أذن وعلي البلاغ، فعلا المقام فأشرف به، حتى صار كأعلى الجبال، فأدخل أصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، وقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج إلى البيت، فأجيبوا ربكم، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء.. لبيك اللهم لبيك.

وقال ابن عباس[3]: وأول من أجابه أهل اليمن، فليس حاج يحج من يومئذٍ إلى يوم تقوم الساعة إلا من كان أجاب إبراهيم عليه السلام يومئذٍ. زاد غيره: فمن لبى مرة.. حج مرة، ومن لبى مرتين.. حج مرتين، ومن أكثر.. حج بقدر تلبيته.

قال في «أسئلة الحكم»: فأجابوه من ظهور الآباء، وبطون الأمهات في عالم الأرواح.

وفي «الخصائص الصغرى»: وافترض على هذه الأمة ما افترض على الأنبياء والرسل، وهو الوضوء والغسل من الجنابة والحج والجهاد. وما وجب في حق نبي.. وجب في حق أمته، إلا أن يقوم الدليل الصحيح على الخصوصية.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) قسطلاني.

﴿يَأْتُوكَ﴾ يا إبراهيم، جواب للأمر، والخطاب لإبراهيم. وقال: ﴿يأتوك﴾ وإن كانوا يأتون البيت؛ لأن من أتى الكعبة حاجًّا.. فكأنه قد أتى إبراهيم؛ لأنه مجيب ندائه، أو الكلام على حذف مضاف؛ أي: يأتوا بيتك، كما في «الكرخي»؛ أي: يأتوا البيت الذي بنيته حالة كونهم. ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم ـ جمع راجل ـ كقيام جمع قائم ـ وقدم الرجال على الركبان في الذكر؛ لزيادة تعبهم بالمشي. وعبارة «الفتوحات» هنا: وقدم الراجل لفضله، إذ للراكب بكل خطوة سبعون حسنة، وللراجل سبع مئة من حسنات الحرم، كل حسنة مئة ألف حسنة، وإبراهيم وإسماعيل حجا ماشيين، اهـ «كرخي».

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ معطوف على ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: يأتونك حالة كونهم مشاة على أرجلهم، وركباناً على كل بعير ضامر؛ أي: مهزول أتعبه بُعدُ السفر. ﴿يَأْتِينَ﴾ تلك الضوامر، صفة لضامر باعتبار المعنى؛ لأن المعنى على ضوامر من جماعة الإبل يأتين. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾؛ أي: طريق واسع ﴿عَمِيقٍ﴾؛ أي: بعيد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رِجَالًا﴾ بكسر الراء مع التخفيف. وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ورجالا﴾ بضم الراء وتخفيف الجيم، وروي كذلك عن عكرمة والحسن وأبي مجلز، وهو اسم جمع كـ: ظُؤار.

وروي عنهم وعن ابن عباس ومجاهد وجعفر بن محمد بضم الراء وتشديد الجيم، ﴿رُجَّالا﴾ وعن عكرمة أيضاً ﴿رَجَالى﴾ على وزن النعامى بألف التأنيث المقصورة. وقرأ مجاهد ﴿رُجالى﴾ على وزن فعالى مثل كُسالى. وقرأ الجمهور: ﴿يأتين﴾ بضمير الإناث اعتباراً بمعنى الضامر. وقرأ عبد الله وأصحابه والضحاك وابن أبي عبلة ﴿يأتون﴾ على أنه صفة لرجالاً. وقر ابن مسعود ﴿معيق﴾ وهو بمعنى[2]: بعيد يقال: بئر بعيدة العمق والمعق بمعنى.

والمعنى: أي وقلنا له: ناد الناس داعياً لهم إلى الحج، وزيارة هذا البيت،

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) البيضاوي.

الذي أمرت ببنائه، يأتوك مشاة على أرجلهم، وركباناً على ضوامر من الإبل، من كل طريق بعيد، ثم بين السبب في هذه الزيارة فقال: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ متعلق بـ ﴿يَأۡتُوكَ﴾، وقيل: بقوله: وأذن الشهود هو الحضور؛ أي: ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ كائنة ﴿لَهُمۡ﴾ من المنافع الدينية والدنيوية، وهي العفو والمغفرة والتجارة في أيام الحج، فتنكيرها؛ لأن المراد بها نوع من المنافع، مخصوص بهذه العبادة، لا يوجد في غيرها من العبادات. وقيل: المراد بها المناسك. وقيل: المغفرة. وقيل: التجارة كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص.

﴿وَيَذۡكُرُواْ﴾ معطوف على يشهدوا؛ أي: وليذكروا عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وفي جعله[1] غاية للإتيان، إيذان بأنه الغاية القصوى دون غيره. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ هي أيام النحر، يوم العيد وأيام التشريق، كما يفيد ذلك قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾؛ أي: على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام؛ أي: لأجل ما رزقهم وهي الإبل والبقر والغنم، وقيل: عشر ذي الحجة. و﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ هي الأنعام، فالإضافة فيه. كالإضافة في مسجد الجامع. والأنعام جمع نعم، وهو مختص بالإبل، وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة، لكن الأنعام يقال: للإبل والبقر والغنم، ولا يقال لها، أنعام حتى يكون في جملتها الإبل.

والمراد بالذكر[2]: ما وقع عند الذبح، علق الفعل بالمرزوق، وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبيهاً على مقتضى الذكر، والبهيمة اسم لكل ذات أربع في البحر والبر، فبينت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم؛ لأن الهدي والذبيحة لا يكونان من غيرها.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] يأتونك ليحضروا منافع لهم في الدنيا، من تجارة رائجة وسلع نافقة، ومنافع في الآخرة، بما يعملون من عمل يرضي ربهم، وبما يحمدونه على النعم التي تترى عليهم، وما رزقهم من الهدايا والبدن التي أهدوها أيام النحر الثلاثة، يوم العيد ويومين بعده، والفاء في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، فكلوا من لحومها إذ كانت مستحبة، والأمر فيه للإباحة، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، ويصح أن تكون الفاء فصيحة.

وفي «الخطيب»: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾؛ أي: من لحومها أمر إباحة، وذلك أن الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً، فأمر الله تعالى بمخالفتهم. واتفق العلماء، على أن الهدى، إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه، وكذلك أضحية التطوع، واختلفوا في الهدى الواجب بالشرع، مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج، وفوته وجزاء الصيد، هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً؟، قال: الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا يأكل منه شيئاً، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر. وقال ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، ويأكل مما سوى ذلك، وبه قال: أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتع، ومن كل هدي وجب عليه، إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والنذر، وعن أصحاب أبي حنيفة، أنه يأكل من دم التمتع والقران، لكونها دم الشكر لا دم الجناية، ولا يأكل من واجب سواهما، اهـ. وكذا لا يأكل أولاده وأهله وعبيده وإماؤوه، وكذا الأغنياء إذ الصدقة الواجبة حقٌّ للفقراء.

والأمر في قوله: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ للوجوب؛ أي: وأطعموا البائس الذي أصابه بؤس وشدة وزمانة، ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾؛ أي: المحتاج، فذكر الفقير بعده لمزيد الإيضاح. فالبائس الشديد الفقر، والفقير المحتاج الذي أضعفه الإعسار ليس له غنى، أو البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون

(١) المراغي.

كذلك، بأن تكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني. وفي «مختصر الكرخي» أوصى بثلث ماله للبائس الفقير والمسكين. قال: فهو يقسم إلى ثلاثة أجزاء، جزءٌ للبائس وهو الذي به الزمانة إذا كان به محتاجاً. والفقير المحتاج الذي لا يعرف بالأبواب، والمسكين الذي يسأل ويطوف، وعن أبي يوسف إلى جزئين، الفقير والمسكين واحد.

قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ عطف على يذكروا؛ أي: ثم بعد خروجهم من الإحرام، ليقطعوا أدرانهم، ويزيلوا أوساخهم، بحلق الرأس وقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال؛ أي: الخروج من الإحرام. فالتفث الوسخ، يقال للرجل: ما أتفثك، وما أدرنك؛ أي: وما أوسخك، وكل ما يستقذر من الشعث، وطول الظفر ونحوهما تفث.

﴿وَلْيُوفُوا﴾؛ أي: وليؤدوا ﴿نُذُورَهُمْ﴾؛ أي: ما أوجبوه على أنفسهم من أعمال البر، في أيام الحج مما لا يقتضي الحج وجوبه من الضحايا وغيرها، والنذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب. وقرأ[1] أبو بكر وشعبة عن عاصم ﴿وَلْيُوفُّوا﴾ بفتح الواو وتشديد الفاء وتسكين اللام.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الركن الذي يتم به التحلل، فإنه قرينة قضاء التفث ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ أي: القديم، فإنه أول بيت وضع للناس، أو المعتق من تسلط الجبابرة، فكم من جبار سار إليه ليهدمه فعصمه الله، وأما الحجاج الثقفي، فإنما قصد إخراج ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ حين تحصن به، لا التسلط عليه، ولما قصد التسلط عليه أبرهة، فعل به ما فعل.

فصل

واعلم: أن طواف الحجاج ثلاثة:

الأول: **طواف القدوم**: وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعاً، يرمل

---

(١) المراح والبحر المحيط.

ثلاثاً من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه، ويمشي أربعاً وهذا الطواف سنة لا شيء بتركه.

والثاني: طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، ويسمى أيضاً طواف الزيارة، وهو ركن لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأت به.

والثالث: طواف الوداع، لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر في أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعاً، فمن تركه فعليه دم، إلا المرأة الحائضة، فإنه يجوز لها ترك طواف الوداع، ثم إن الرمل يختص بطواف القدوم، ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع.

والمعنى: أي ثم ليزيلوا ما علق بهم من الأوساخ، فيحلقوا الشعر ويقلموا الأظفار ويأخذوا من الشوارب والعارضين، وليوفوا ما نذروه من أعمال البر، وليطوفوا طواف الإفاضة أو الوداع بالبيت العتيق، إذ هو أقدم بيت للعبادة في حياة البشر. وفي قراءة[1] أبي عمرو تحريك اللامات الثلاثة بالكسر، وفي قراءة ابن ذكوان بكسر اللامين الأخيرين، وفي قراءة الباقين بإسكان الكل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أي: الأمر والشأن ذلك الذي ذكر من قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ إلى قوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن هذه الآية مشتملة على الأحكام المأمور بها، والمنهي عنها، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين، أو بين وجهي كلام واحد، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: ذلك الأمر المذكور لازمٌ لكم، أو مفعول لمحذوف، أي: احفظوا ذلك. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: جميع تكاليف الله تعالى، من مناسك الحج وغيرها بالعمل بموجبه، جمع[2] حرمة، وهي ما لا يحل هتكه، وهو خرق الستر عما وراءه؛ أي: يعظم أحكامه وفرائضه وسننه، وسائر ما لا يحل هتكه، كالكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام، بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه. ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: التعظيم المفهوم من يعظم ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ ثواباً ﴿عِندَ

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

رَبِّهِۦ﴾؛ أي: في الآخرة من التهاون بشيء منها؛ أي: قربة وطاعة يثاب عليها عند الله تعالى.

وقيل: إن صيغة التفضيل هنا[١] لا يراد بها معناها الحقيقي، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهي عدة بخير؛ أي: فالتعظيم خير له عند ربه؛ أي: قربة منه وزيادة في طاعته يثيبه عليها. وفي الآية، إشارة[٢] إلى أن تعظيم حرمات الله، هو نفس تعظيم الله تعالى، في ترك ما حرمه الله عليه، وفعل ما أمره به. يقال: بالطاعة يصل العبد إلى الجنة، وبالحرمة يصل إلى الله، ولهذا قال: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يعني تعظيم الحرمة، والتكاليف، خير للعبد، في التقرب إلى الله، من تقربه بالطاعة. ويقال: ترك الخدمة يوجب العقوبة. وترك الحرمة يوجب الفرقة. ويقال: كل شيء من المخالفات، فالعفو فيه مساغ وللأمل فيه طريق، وترك الحرمة على خطر أن لا يغفر ذلك، وذلك بأن يؤدي شؤمه لصاحبه إلى أن يختل دينه وتوحيده. والمعنى؛ أي: هذا الذي أمر به من قضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواب بالبيت، هو الفرض الواجب عليكم أيها الناس في حجكم، ومن يجتنب ما أمر باجتنابه في حال إحرامه تعظيماً منه لحدود الله، أن يواقعها، وحرمه أن يستحلها فهو خير له عند ربه في الآخرة، بما يناله من رضاه وجزيل ثوابه.

﴿وَأُحِلَّتْ﴾؛ أي: جعلت حلالاً وهو من حل العقدة، ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم ﴿ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ وهي الأزواج الثمانية على الإطلاق، من الضأن اثنين، أي: الذكر والأنثى، ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، فالخيل والبغال والحمير خارجة من الأنعام. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه في آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ في سورة المائدة.

أي: وأحل لكم[٣] أيها الناس، أن تأكلوا الأنعام إذا ذكيتموها، فلم يحرم

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

عليكم بحيرةً ولا سائبةً ولا وصيلةً ولا حامياً، إلا ما يتلى عليكم تحريمه في كتاب الله تعالى، وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب، فإن كل ذلك رجس. أو المعنى: ورخصت لكم حال الإحرام ذبيحة الأنعام، وأكل لحومها، إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه، مما حرم منها لعارضٍ، كالميتة، وما أهل به لغير الله تعالى.

والفاء في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ تفريعية[١] على قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فلما حث على المحافظة على حدود الله، وترك الشرك تفرع عنه هذا، اهـ. «شهاب».

أي: وابتعدوا عن الرجس الذي هو الأوثان واتركوا عبادتها، فإنها سبب الرجس الذي هو العذاب، أو هي الرجس الذي هو النجس؛ لأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات؛ أي: فاجتنبوا عبادة الرجس والنجس الذي هو الأوثان. والرجس الشيء القذر، يقال: رجل رجس ورجال أرجاس والرجس يكون على أربعة أوجه، إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشريعة، وإما من كل ذلك، كالميتة فإنها تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً. والرجس من جهة الشرع: الخمر والميسر والأوثان، وهي جمع وثن، وهو حجارة كانت تعبد، كما في «المفردات» وقال بعضهم[٢]: الفرق بينه وبين الصنم: أن الصنم هو الذي يؤلف من شجر، أو ذهب، أو فضة في صورة الإنسان. والوثن هو الذي ليس كذلك، وأصله من وثن الشيء؛ أي: أقام في مقامه، وسمي الصليب وثناً؛ لأنه ينصب ويركز في مقامه، فلا يبرح عنه.

قال في «الإرشاد»: قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟...﴾ إلخ، مرتب على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها،

---

(١) شهاب.

(٢) روح البيان.

ولما كان بيان حل الأنعام من دواعي التعاطي، لا من مبادي الاجتناب.. عقبه بما يجب الاجتناب عنه من المحرمات، ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات، كأنه قيل: ومن يعظم حرمات الله، فهو خير له، والأنعام ليست من الحرمات، فإنها محللة لكم، إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه، فإنه مما يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور، التي يجب الاجتناب عنها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾؛ أي: الكذب والبهتان. وهذا تعميم[1] بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، والمشرك يزعم أن الوثن يحق له العبادة، كأنه قيل: فاجتنبوا عبادة الأوثان، التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله، ولا تقربوا شيئاً منه، وكأنه لما حث على تعظيم الحرمات، أتبع ذلك ردًّا لما كانت الكفرة عليه، من تحريم السوائب والبحائر ونحوهما. والافتراء على الله تعالى، بأنه حكم بذلك. وقيل: المراد به شهادة الزور، والأولى أن يحمل على العموم، كما قلنا أولاً. وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان، وسمي زوراً لأنه مائل عن الحق. ومنه قوله تعالى: ﴿تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ حال من واو فاجتنبوا؛ أي: حال كونكم مائلين عن كل دين، زائغ إلى الدين الحق مخلصين له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئاً من الأشياء، كما يفيده الحذف من العموم، فيدخل في ذلك الأوثان دخولاً أولياً، وهو حال أخرى من الواو، لكن الأولى مؤسسة، والثانية مؤكدة، فدل ذلك، على أن المكلف ينوي بما يأتيه من العبادة، الإخلاص لله بها لا غيره. والمعنى: أي[2]: فابتعدوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، فإن ذلك رجس، واتقوا قول الكذب والفرية على الله، كقولكم في الآلهة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ وقولكم: الملائكة بنات الله، ونحو هذا من القول، فإن ذلك كذب وزور، وشرك بالله، وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾؛ أي: تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده، دون إشراك أحد سواه معه. ولما أمر باجتناب عبادة الأوثان، وقول الزور.. ضرب مثلاً للمشرك فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ سبحانه غيره تعالى، قولاً

---

(1) المراغي. (2) المراغي.

أو فعلاً ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ وسقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾؛ أي: تسلبه وتختلسه، وتأخذه الطير بسرعة وتقطع لحمه ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ أي: ترمي به الريح وتسقطه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ أي: بعيد، غرضه بهذا، ضرب مثل لمن يشرك بالله، اهـ شيخنا.

ومعنى الآية: أن[1] من أشرك مع الله غيره، فقد أهلك نفسه هلاكاً، ليس وراءه هلاك، وكانت حاله أشبه بحال من سقط من السماء، فتخطفه الطير، ففرقت أجزاءه في حواصلها إرباً إرباً، أو عصفت به الريح، فهوت به في المهاوي البعيدة، التي لا رجعة له منها.

وقيل[2]: شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء؛ لأنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح، فهو هالك لا محالة؛ إما باستلاب الطير لحمه، أو بسقوطه في المكان السحيق.

وقرأ نافع[3]: ﴿فتَخَطَّفَه﴾ بفتح الخاء والطاء مشددة. وقرأ الجمهور: ﴿فتَخْطَفُه﴾ بسكون الخاء وتخفيف الطاء. وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش: بكسر التاء والخاء والطاء مشددة. وعن الحسن كذلك إلا أنه فتح الطاء مشددة. وقرأ الأعمش أيضاً: ﴿تَخْطَفُه﴾ بغير فاءٍ وإسكان الخاء وفتح الطاء مخففة. وقرأ أبو جعفر والحسن وأبو رجاء الرياح بالجمع.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، كما مر نظيره؛ أي: الأمر والشأن ذلك الذي ذكر، من أن تعظيم حرمات الله خير، وأن الاجتناب عن الشرك، وقول الزور أمر لازم، امتثلوا ذلك واحتفظوا عليه ولا تتهاونوا في الحرص عليه، والسير على نهجه.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ومعالم دينه التي منها الهدايا المشعرة، فإنها من

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

معالم الحج وشعائره، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ وهو الأوفق[1] لما بعده والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة من الإشعار، وهو الإعلام والشعور العلم. وسميت البدنة شعيرة، من حيث إنها تشعر بأن تطعن في سنامها من الجانب الأيمن والأيسر، حتى يسيل الدم فيعلم أنها هدي فلا يتعرض لها، فهي من جملة معالم الحج، بل من أظهرها وأشهرها علامةً، وتعظيمها: اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات، وأن يختارها حساناً سماناً غالية الأثمان. ﴿فَإِنَّهَا﴾؛ أي: فإن تعظيمها ناشىء ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وتخصيصها بالإضافة لأنها مركز التقوى، التي إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء.

والمعنى: أي[2] ومن يعظم البدن التي يهديها للحرم، بأن يختارها عظيمة الأجسام سمينة غير هزيلة، غالية الثمن، ويترك المكاس حين شرائها.. فقد اتقى الله حقاً، فإن تعظيمها باب من أبواب التقوى، بل هو من أعظم أبوابها. وقرىء ﴿القلوبُ﴾ بالرفع على الفاعلية، بالمصدر الذي هو تقوى. روي أن النبي ﷺ أهدى مئة بدنة، فيها جمل لأبي جهل في أذنه برة (حِلَقٌ) من ذهب. وأنَّ عمر أهدى نجيبة (ناقة) طلبت منه بثلاث مئة دينار وقد سأل رسول الله ﷺ أن يبيعها، ويشتري بثمنها بهماً، فنهاه عن ذلك، وقال: بل أهداها. وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي - ثياب مصرية غالية الثمن - فيتصدق بلحومها وبجلالها.

﴿لَكُمْ﴾ أيها السائقون للهدايا إلى الحرم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الهدايا المشعرة ليعرف أنها هدى ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في درها ونسلها وصوفها وظهرها، فإن للمهدي أن ينتفع بهديه إلى وقت النحر، إذا احتاج إليه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين معلوم هو وقت نحرها والتصدق بلحمها، والأكل منه. ﴿ثُمَّ﴾ بعد تلك المنافع المذكورة ﴿مَحِلُّهَآ﴾؛ أي: مكان حل نحرها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؛ أي: عند البيت، فإلى بمعنى عند، كما في «الفتوحات»؛ أي: عند الحرم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

جميعه، إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام.

والمعنى[1]: أي لكم في تلك الهدايا منافع، كركوبها حين الحاجة، وشرب ألبانها حين الضرورة إلى أن تنحر، ويؤكل منها، ويتصدق بلحومها، ثم مكان حل نحرها عند البيت العتيق؛ أي: عند الحرم جميعه، إذ الحرم كله في حكم البيت كما مر آنفاً. وقيل: المعنى: ثم بعد انتفاعكم بها محلها؛ أي: حلول تلك الهدايا، ونزولها ونهاية أمرها وحياتها إلى حرم البيت العتيق؛ لأنها تذبح في الحرم. والعتيق[2] المتقدم في الزمان والمكان والرتبة. أخرج البخاري في «تاريخه»، والترمذي، وحسنه، والحاكم وصححه، وابن جرير والطبري وغيرهم عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سماه الله البيت العتيق؛ لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط» وإلى هذا ذهب قتادة، وقد قصده تبع ليهدمه فأصابه الفالج، فأشير إليه أن يكف عنه، وقيل له: «إن له ربا يمنعه»، فتركه وكساه، وهو أول من كساه. وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم، لا لبعض منهم دون بعض، فالتقديم للتخصيص. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ أي: متعبداً وقرباناً يتقربون به إلى الله تعالى، والمراد به إراقة الدماء لوجه الله تعالى. والمعنى: شرعنا لكل أمة مؤمنة أن ينسكوا له تعالى. يقال: نسك ينسك ونسوكاً ومنسكاً بفتح السين إذا ذبح القربان. وقرأ الجمهور[3]: ﴿منسَكا﴾ بفتح السين على القياس مطلقاً؛ لأنه من باب نصر، كما سيأتي في مبحث التصريف، وقرأ بكسرها على الشذوذ الأخوان حمزة والكسائي وابن سعدان وأبو حاتم عن أبي عمرو، ويونس ومحبوب وعبد الوارث إلا القصبي عنه، قال ابن عطية: والكسر في هذا من الشاذ، ولا يسوغ فيه القياس، ويشبه أن يكون الكسائي سمعه من بعض العرب اهـ.

والأمة الجماعة المجتمعة على مذهب واحد. والمعنى: وجعلنا لكل أهل

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

دين من الأديان ذبحاً يذبحونه ودما يريقونه، أو متعبداً، أو طاعة، أو عيداً، أو حجاً يحجونه، وليس ذلك خاصاً بقوم دون آخرين.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ وحده دون غيره، ويجعلوا نسكهم خالصاً لوجهه الكريم، علَّل[1] الجعل به تنبيهاً على أن المقصود الأصلي من المناسك تذكر المعبود. ﴿عَلَىٰ﴾ ذبح ﴿مَا رَزَقَهُم﴾ وإعطائهم ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ أي: عند ذبحها. وفي تبيين[2] البهيمة بإضافتها إلى الأنعام، تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام، وأما البهائم التي ليست من الأنعام كالخيل والبغال والحمير، فلا يجوز ذبحها في القرابين، وإن جاز أكلها، وسماها بهيمة؛ لأنها لا تتكلم. والمعنى؛ أي: وإنما شرعنا لهم ذلك كي يذكروا الله حين ذبحها، ويشكروه على ما أنعم به عليهم، إذ هو المقصود الأعظم.

وفي «الصحيحين»: عن أنس أنه أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين فيهما بياض يخالطه سواد أقرنين، فسمى وكبر، ووضع رجله على صفاحهما. وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال: قلت: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة». قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالألوهية، وأنه لا شريك له. فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ والفاء فيه لترتيب ما بعدها، على ما قبلها من الجعل المذكور، وتعليله. والخطاب للكل تغليباً للمخاطبين على غيرهم؛ أي: جعلنا لكل أمة منسكاً، فإن إلهكم إله منفرد يمتنع أن يشاركه شيء في ذاته وصفاته، وإلا لاختل النظام في العالم؛ أي[3]: فإن معبودكم واحد، وإن اختلفت العبادات بحسب الأزمنة والأمكنة، ونسخ بعضها بعضاً، فما المقصد منها جميعاً إلا عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

(3) المراغي.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

ثم أمرهم بالإسلام له والانقياد لطاعته وعبادته فقال: ﴿فَلَهُۥٓ﴾ سبحانه لا لغيره؛ لأن تقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر، والفاء فيه للإفصاح؛ أي: فإذا كان إلهكم إلهاً واحداً فله ﴿أَسۡلِمُواْۗ﴾؛ أي: استسلموا لحكمه، وانقادوا له في جميع ما كفلكم به، وأخلصوا له العمل، واجعلوا التقرب أو الذكر خالصاً لوجهه الكريم، ولا تشوبوه بالإشراك. وفي «التأويلات النجمية»: والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات. ثم تصفيه الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال من الإلتفاتات، ثم تصفية الأنفاس من الأغيار انتهى.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يبشر المخبتين، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾؛ أي: وبشر أيها الرسول الكريم، الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة، بما أعد لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه. مأخوذٌ من الخبت، وهو المنخفض من الأرض. وقيل: إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم، وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا، ولا يخفى حسن التعبير بالمخبتين هنا، من حيث إن نزول الخبت مناسب للحجاج، لما فيهم من صفات المتواضعين، كالتجرد عن اللباس، وكشف الرأس، والغربة عن الأوطان، ولذا وصفهم بالصبر، وذكر إقامة الصلاة؛ لأن السفر مظنة التقصير فيها. اهـ. «شهاب».

ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين، وبين علاماتهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ذكروه أو ذكره غيرهم ﴿وَجِلَتۡ﴾؛ أي: خافت منه تعالى. ﴿قُلُوبُهُمۡ﴾ وحذرت مخالفته لإشراق أشعة جلاله عليها، وطلوع أنوار عظمته لها، وحصول الوجل منهم، عند الذكر له سبحانه، دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم. ووصفهم أيضاً بالصبر، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ من المصائب والنوائب، ومن التكاليف والمحن في طاعة الله تعالى.

قال في «بحر العلوم»: الذين صبروا على البلايا والمصائب من مفارقة أوطانهم، وعشائرهم، ومن تجرع الغصص والأحزان، واحتمال المشاق والشدائد

في نصر الله وطاعته، وازدياد الخير، ومعنى الصبر الحبس، يقال: صبرت نفسي على كذا؛ أي: حبستها. ثم وصفهم بإقامة الصلاة؛ أي: بالإتيان بها في أوقتها على وجه الكمال. فقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. أصله والمقيمين الصلاة، والإضافة فيه لفظية؛ أي: والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة في الأوقات التي حددها. ثم وصفهم بالإنفاق، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخيرات، وقدم[1] المفعول إشعاراً بكونه أهم، كأنه قيل: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، والمراد به إما الزكاة المفروضة لاقترانها بالصلاة المفروضة، أو مطلق ما ينفق في سبيل الله، لوروده مطلق اللفظ، من غير قرينة الخصوص.

والمعنى: أي وينفقون بعض ما آتاهم الله، من طيب الرزق في وجوه البر، وعلى أهليهم وأقاربهم، وعلى الخلق كافة، ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون في أثمانها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة، وحذفت النون لأجلها وقرأ ابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو في رواية ﴿الصلاة﴾ بالنصب على توهم بقاء النون وحذفت النون لأجلها. وقرأ ابن مسعود والأعمش ﴿والمقيمين﴾ بالنون ﴿الصلاة﴾ بالنَّصْب. وقرأ الضحاك ﴿والمقيم الصلاة﴾.

وناسب[3] تبشير من اتصف بالإخبات هنا؛ لأن أفعال الحج من نزع الثياب والتجرد من المخيط وكشف الرأس والتردد في تلك المواضع الغبرة المحجرة، والتلبس بأفعال شاقةٍ، لا يعلم معناها إلا الله تعالى، مؤذن بالاستسلام المحض، والتواضع المفرط حيث يخرج الإنسان عن مألوفه إلى أفعال غريبة، ولذلك وصفهم بالإخبات والوجل إذا ذكر الله تعالى، والصبر على ما أصابهم من المشاق، وإقامة الصلوات في مواضع لا يقيمها إلا المؤمنون المصطفون،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

والإنفاق مما رزقهم ومنها الهدايا التي يغالون فيها، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ منصوب بمضمر يفسره ما بعده، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: وجعلنا البدن ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي[1]: من أعلام دينه التي شرعها الله لكم، مفعول ثان للجعل، ولكم ظرف لغو متعلق به؛ أي: لأجلكم. والبدن جمع بدنة، وهي الإبل والبقر، مما يجوز في الهدي والأضاحي، سميت بها لعظم بدنها. والبدن هي الشعائر المذكورة في قوله أولاً: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

قال في «بحر العلوم»: البدنة في اللغة من الإبل خاصة، وتقع على الذكر والأنثى، وأما في الشريعة فللإبل والبقر، لاشتركهما في البدانة. والبدانة السمن. ولذا ألحق النبي ﷺ البقر بالإبل في الإجزاء عن السبعة، كما رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة»، وأضيف الشعائر إلى اسم الله تعظيماً لها، كبيت الله، فإن المضاف إلى العظيم عظيم.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في البدن ﴿خَيْرٌ﴾؛ أي: نفع كثير في الدنيا من درها، ونسلها، وصوفها، وظهرها، وأجر عظيم في العقبى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ بإسكان الدال، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وشيبة وعيسى بضمها، وهي الأصل، ورويت عن أبي جعفر ونافع. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً بضم الباء والدال وتشديد النون، فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً، بني على فعل كعتل، واحتمل أن يكون التشديد من التضعيف الجائز في الوقف، وأجرى الوصل مجرى الوقف. والجمهور على نصب. ﴿والبدن﴾ على الاشتغال؛ أي: وجعلنا البدن كما مر آنفاً، وقرىء بالرفع على الابتداء.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على نحرها بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم منك وإليك؛ أي: عطاءٌ منك، ونتقرب بها إليك، حالة كونها ﴿صَوَآفَّ﴾؛ أي: قائمات قد صففن أيديهن اليمنى وأرجلهن،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

معقولة الأيدي اليسرى؛ لأن قيام الإبل، يستلزم أن تصف أيديها وأرجلها. جمع صافة. والآية دلت على أن الإبل تنحر قائمة معقولة.

وقرأ الجمهور ﴿صواف﴾ بتشديد الفاء ونصبها بلا تنوين، كدواب، جمع صافة، كدابة في دواب. وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري وشقيق وسليمان التيمي ﴿صَوافِيَ﴾ كروابي، جمع صافية؛ أي: خوالص لوجه الله تعالى، لا تشركوا بالله أحداً في التسمية على نحوها، وخوالص من العيوب. وقرأ عمرو بن عبيد ﴿صوافيا﴾ بالتنوين عوضاً عن حرف الإطلاق عند الوقف، قاله الزمخشري، والأولى أن يكون على لغة من صرف ما لا ينصرف، ولا سيما الجمع المتناهي. وقرأ الحسن أيضاً ﴿صَوافٍ﴾ مثل عوارٍ، وهو على قول من قال: فكسوت عار لحمه، يريد عارياً، وقولهم أعط القوس باريها. وقرأ عبد الله وابن عمر وابن عباس والباقر وقتادة ومجاهد وعطاء والضحاك والكلبي والأعمش بخلاف عنه ﴿صوافن﴾ بالنون جع صافنة، والصافنة من الإبل هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل، لئلا تضطرب، ومن الخيل ما اعتمدت على طرف رجل بعد تمكنها بثلاث قوائم، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾؛ أي: جنوب البدن على الأرض بعد نحرها، وذلك عند خروج روحها، وهو كناية عن موتها، جمع جنب. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾؛ أي: من لحومها إن شئتم إذا كانت تطوعاً، بأن لم تكن دم الجناية، والكفارة، والنذر. والأمر فيه للندب، كما ذهب إليه الجمهور. وللوجوب في قوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ﴾؛ أي: الراضي بما عنده، وبما يدفع إليه من غير مسألة. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾؛ أي: الذي يعتر ويتعرض بالسؤال بالسلام عليك، ولا يسألك بل يرى نفسه للناس كالزائر. وقال مجاهد[1]: القانع الجار وإن كان غنياً، وقال قتادة: القانع من القناعة، والمعتر المتعرض للسؤال. وقيل: المعتر الصديق

---

(١) البحر المحيط.

الزائر. وقرأ أبو رجاء: القنع بغير ألف؛ أي: القانع فحذف الألف كالحذر والحاذر. وقرأ الحسن والمعترى اسم فاعل من اعترى، وهو بمعنى اعتر. وقرأ عمرو وإسماعيل ﴿والمعترِ﴾ بكسر الراء دون ياء، هكذا نقل ابن خالويه.

والمعنى: أي[١] فإذا سقطت وزهقت أرواحها، ولم يبق لها حركة، فكلوا منها، وأطعموا القانع المستغني بما يعطونه، وهو في بيته بلا مسألة. والمعتر الذي يتعرض لكم، ويأتي إليكم لتطعموه من لحمها.

وخلاصة ذلك: كلوا وأطعموا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: تسخيراً مثل ذلك التسخير البديع، المفهوم من قوله: صواف ﴿سَخَّرْنَٰهَا﴾، أي: سخرنا البدن وذللناها ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لمنافعكم مع كمال عظمها، ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم حتى تأخذوها منقادةً، فصارت منقادة لكم إلى مواضع نحرها، فتعقلونها، وتحبسونها صافة قوائمها، ثم تطعنون في لباتها؛ أي: مناحرها من الصدور، ولولا تسخير الله لم تطق. ولم تكن أعجز من بعض الوحوش، التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوة، وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها، والركوب على ظهرها، والحلب لها، ونحو ذلك.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا إنعامنا عليكم، بالتقرب والإخلاص في أعمالكم، ولما كان أهل الجاهلية ينضحون البيت؛ أي: الكعبة بدماء قرابينهم، ويشرحون اللحم ويضعونه حوله، زاعمين أن ذلك قربة، قال: نهياً للمسلمين ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لن يصعد إليه، ولن يبلغ ويدرك رضاه، ولا يكون مقبولاً عنده ﴿لُحُومُهَا﴾ المأكولة، والمتصدق بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المراقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ وهو قصد الائتمار، وطلب الرضى، والاحتراز عن الحرام والشبهة. وفيه دليل على أنه لا يفيد العمل بلا نية وإخلاص. والمعنى؛ أي: لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها، ولا الدماء المراقة بالنحر، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة،

---

(١) المراغي.

والإخلاص فيها بإرادة وجهه تعالى فحسب.

والخلاصة: لن يرضي اللَّهَ المضحون، والمتقربون إلى ربهم باللحوم والدماء، إلا إذا أحسنوا النية، وأخلصوا له في أعمالهم، فإذا لم يراعوا ذلك، لم تُغْنِ عنهم التضحية، والتقرب بها شيئاً، وإن كثر ذلك. فقد جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

قال الزجاج[١]: أعلم الله أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله، ووصل إليه، فخاطب الله الخلق كعادتهم في مخاطبتهم.

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها لافتاً أنظارهم إلى ما أوجب عليهم، بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: تسخيراً مثل ذلك التسخير المذكور ﴿سَخَّرَهَا﴾؛ أي: سخر الله سبحانه البدن ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لأجل منافعكم، كرره للتذكير وللتعليل بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي[٢]: لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحدوه بالكبرياء ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ﴿عَلَىٰ﴾ متعلقة بـ ﴿تكبروا﴾ لتضمنه معنى الشكر. و﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: لتشكروه على هدايته إياكم إلى معالم دينه، ومناسك حجه، فتقولوا: الله أكبر على ما هدانا، ولله الحمد على ما أولانا، أو موصولة؛ أي: لتشكروه على ما هداكم إليه، وأرشدكم من معالم دينه وقضاء نسكه، وذبح قرابينه.

والمراد قول الناحر[٣]: الله أكبر عند النحر، فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها. وذكر هنا: التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير. وقيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء، كما مرت الإشارة إليه آنفاً، ثم وعد من امتثل بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

المخلصين في كل ما يأتون، وما يذرون في أمور دينهم بالجنة، أو بقبول الطاعات. والمعنى؛ أي: وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله، فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا، بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

قال ابن الشيخ[١]: هم الذين يعبدون الله، كأنهم يرونه، يبتغون فضله، ورضوانه، لا يحملهم على ما يأتونه، وما يذرونه إلا هذا الابتغاء، وإمارة ذلك، أن لا يستثقل ولا يتبرم بشيء مما فعله، أو تركه، والمقصود منه، الحث والتحريض على استصحاب معنى الإحسان، في جميع أفعال الحج.

وقرأ مالك بن دينار والأعرج ويحيى بن يعمر وعاصم الجحدري وابن أبي عبلة ويقوب والزعفراني[٢]: ﴿لن تنال الله لحومها﴾ بالتاء ﴿ولكن تناله التقوى﴾ بالتاء أيضاً. وقرأ زيد بن علي: ﴿لحومها ولا دماءها﴾ بالنصب ﴿ولكن يناله﴾ بضم الياء، فمن قرأ: ﴿تناله التقوى﴾ بالتاء، فإنه أنث للفظ التقوى، ومن قرأ ﴿يناله﴾ بالياء، فلأن التقوى والتقى واحدٌ. قال المفسرون[٣]: ومعنى الآية، لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنا يرفع إليه التقوى، وهو ما أريد وجهه منكم؛ أي: لا يرفع نفس اللحم والدم، وإنما يرفع العمل الصالح، ومنه التصدق باللحم، فالتصدق من عمل العبد فيرفع إلى الله، وأما نفس اللحم المتصدَّق به فلا يرفع. والمعنى: أنه لا يثيبكم على لحمها، إلا إذا وقع موقعاً من وجوه الخير اهـ. شيخنا.

الإعراب

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط وزاد المسير.

(٣) زاد المسير.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معترضة، أو مستأنفة، مسوقة لسرد قصة المتبارزين يوم بدر، كما سبق. ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾، والجملة الفعلية صفة لـ ﴿خَصْمَانِ﴾، ولك أن تجعل الجملة الفعلية خبراً وخصمان بدلاً من هذان، وإنما قال: ﴿خَصْمَانِ﴾ ثم جمع الفعل؛ لأن الخصم في الأصل مصدر، ولذلك يوحد ويذكر غالباً، ويجوز أن يثنى ويجمع، أو الجمع مراعاة للمعنى، لأن المتخاصمين كانوا فرقاً شتى، وطوائف كثيرة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. الفاء: حرف عطف وتفصيل، ﴿الذين﴾ مبتدأ ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿قُطِّعَتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به. ﴿ثِيَابٌ﴾ نائب فاعل. ﴿مِّن نَّارٍ﴾: جار ومجرور صفة ﴿ثِيَابٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر، معطوفة على جملة ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ عطف مفصل على مجمل. ويحتمل أن تكون الفاء: في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله سبحانه، يفصل بين أولئك الفرق، أعني قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الخ. وأردت بيان كيفية الفصل بينهم، فأقول، لك: فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من إلخ. والجملة من المبتدأ والخبر على هذا الوجه، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة معطوفة على جملة ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، وجملة ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ معترضة، أو مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية الفصل. ﴿يُصَبُّ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُصَبُّ﴾. ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لاسم الموصول، أو حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، أو مستأنفة. ﴿يُصْهَرُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يُصْهَرُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع، نائب فاعل ليصهر. ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ الموصولة، وتأخيره إما لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدة الحرارة، بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها بالعكس اهـ. كرخي. وجملة ﴿يُصْهَرُ﴾ في محل النصب حال من الحميم. واختار بعضهم أن يكون ﴿الجلود﴾ مرفوعاً بفعل

مقدر؛ أي: وتحرق الجلود. قالوا: لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض إذا صليت بالنار، فهو من باب علفتها تبناً وماءاً بارداً؛ أي: وسقيتها ماء بارداً؛ لأن الماء لا يكون علفاً. ﴿وَلَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ مبتدأ مأخر. ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ صفة لـ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير ﴿بُطُونِهِمْ﴾، هذا إن قلنا: إن الضمير في ﴿لهم﴾: عائد إلى الكفرة، وإن قلنا: إنه عائد على الزبانية، فالجملة مستأنفة، ولم يتقدم لهم ذكر، ولكن سياق الكلام يدل عليه.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كُلَّمَآ﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب. ﴿أَرَادُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿كُلَّمَآ﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية، في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: كلما أرادوا الخروج منها. ﴿مِنْ غَمٍّ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله، بدل اشتمال؛ لأنها تشمل عليه. ويجوز أن تكون من للتعليل، فتتعلق بـ ﴿يَخْرُجُواْ﴾ أيضاً؛ أي: أن يخرجوا من النار، لأجل الغم الذي لحق بهم. ﴿أُعِيدُواْ﴾: فعل ماض ونائب فاعل. ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب كلما، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في النار. ﴿وَذُوقُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق، والقول المحذوف معطوف على ﴿أُعِيدُواْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول

وفاعله ضمير يعود على الله: والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة إن مستأنفة معطوفة في المعنى على جملة قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾: ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ليدخل على التوسع. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل. والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بالفتحة المجلوبة، النائبة عن الكسرة المجلوبة، لحركة حرف جر زائد؛ لأنه اسم لا ينصرف لصيغة منتهى الجموع. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ في ﴿مِنْ﴾ الأولى ثلاثة أوجه، أحدها: إنها زائدة، كما تقدم، والثاني: إنها للتبعيض؛ أي: بعض أساور، والثالث: إنها لبيان الجنس. و﴿مِن﴾: في ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ لابتداء لغاية نعت ﴿أَسَاوِرَ﴾؛ أي: أساور كائنة من ذهب. والأقرب أن يكون ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ نعتا لمفعول محذوف؛ أي: حلياً ناشئاً من أساور كائنة من ذهب. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ معطوف على محل من أساور؛ لأن محلها النصب. كذا قال المعربون. وجعله الزمخشري منصوباً بفعل محذوف، تقديره: ويؤتون لؤلؤاً. ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ حال من ضمير ﴿لباسهم﴾. ﴿حَرِيرٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل النصب. معطوفة على جملة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾. وفي هذا العدول عن الفعلية إلى الاسمية، دلالة على الديمومة، حيث لم يقل: ويلبسون حريراً، فقد دل على أن الحرير ثيابهم المعتادة، والدائمة في الجنة، كما أن فيه رعاية للمحافظة على الفواصل؛ لأنه لو قال: ويلبسون حريراً لكان في آخر الفاصلة الألف في الكتابة، والوقف بخلاف البقية.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هدوا﴾. فعل ونائب فاعل، معطوف على

﴿يُحَلَّوْنَ﴾. ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾. متعلق به. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: حال من الطيب، أو حال من الضمير المستكن فيه. و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، أو للبيان اهـ «سمين». ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ما قبله. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ متعلق به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب، واسمه ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾ على تأويله بالماضي لعطفه على الماضي. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، تقديره: خسروا، أو هلكوا، وقدره الزمخشري ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة معطوفة في المعنى على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل الجر، صفة ثانية لـ ﴿المسجد﴾. ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة الموصول. ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنه كان صفة وتقدم، ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب مفعول ثان لـ ﴿جعلنا﴾، إن جعلناه متعدياً لاثنين، وإن كانت متعدية لواحد، أعربت سواءً حالاً من هاء ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾. ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ فاعل لـ ﴿سَوَآءً﴾ لأنه مصدر بمعنى مستو. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾: أو بـ﴿سَوَآءً﴾. ﴿وَٱلْبَادِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾. مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، تبعاً لرسم المصحف العثماني، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. وقد انفرد حفص بقراءة النصب في ﴿سَوَآءً﴾. والجمهور على رفعها، على أنه خبر مقدم، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ و﴿وَٱلْبَادِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿جعلنا﴾، أو حال من هاء ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُرِدْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿يُرِدْ﴾. ﴿بِإِلْحَادٍ﴾. الباء: زائدة ﴿إلحاد﴾ مفعول به. ﴿بِظُلْمٍ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يُرِدْ﴾، أو

متعلق ﴿بِإِلْحَادٍ﴾؛ أي: ومن يرد فيه إلحاداً، حالة كونه ملتبساً بظلم، أو إلحاداً بظلم. ﴿نُّذِقْهُ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿مِنْ﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على الله، تقديره نحن. ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿نُّذِقْهُ﴾. ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾. وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة. وقيل: مفعول يرد محذوف، ليتناول كل ما يمكن تناوله. و﴿بِإِلْحَادٍ﴾ حال من فاعل ﴿يُرِدْ﴾. و﴿بِظُلْمٍ﴾ حال أيضاً. فهما حالان مترادفتان؛ كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً عادلاً عن القصد ظالماً. وهذا أولى من تقدير زيادة الباء، في إلحاد وجعله هو المفعول.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا إذ بوأنا، الجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بَوَّأْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾. ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مفعول ﴿بَوَّأْنَا﴾، واختار أبو البقاء، وغيره، أن تكون اللام: زائدة؛ أي: أنزلناه مكان البيت، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأما على القول الأول، فيكون معنى ﴿بَوَّأْنَا﴾ هيأنا. ﴿أَن﴾ زائدة. ﴿لَّا﴾: ناهية جازمة ﴿تُشْرِكْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبراهيم﴾. ﴿بِي﴾ متعلق بـ ﴿تُشْرِكْ﴾ ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لـ ﴿تُشْرِكْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: قائلين له لا تشرك بي شيئاً، ويصح أن تكون ﴿أن﴾ مفسرة، لوقوعها بعد قول مقدر؛ أي: قائلين أن لا تشرك. ﴿وَطَهِّرْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿إبراهيم﴾. ﴿بَيْتِيَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تُشْرِكْ﴾. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ متعلق بـ ﴿طهر﴾. ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ﴾ معطوفان على ﴿الطائفين﴾. ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ صفة لـ﴿الركع﴾. والأولى أن تجعل الكلمتان، بمثابة الكلمة الواحدة؛ لأنهما عملان في عمل واحد، وهو الصلاة. ﴿وَأَذِّن﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير

يعود على ﴿إبراهيم﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿طهر﴾. ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿وَأَذِّن﴾. ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿وَأَذِّن﴾؛ أي: حالة كونك معلناً بالحج. ﴿يَأْتُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿رِجَالًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ أي: مشاة. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، معطوف على ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: مشاة وركبانا على كل ضامر. ﴿يَأْتِينَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿يَأْتِينَ﴾ في محل الجر صفة لـ ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ لأنه في معنى الجمع؛ أي: على كل ضوامر آتيات. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَأْتِينَ﴾. ﴿عَمِيقٍ﴾ صفة لـ ﴿فَجٍّ﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يشهدوا﴾. فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد (لام كي). و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿مَنَٰفِعَ﴾ مفعول به ﴿لَهُمْ﴾ صفة لـ ﴿مَنَٰفِعَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لشهودهم منافع لهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَأْتُوكَ﴾ ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. معطوف على ﴿يشهدوا﴾. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ﴾: متعلق بـ ﴿يذكروا﴾. ﴿مَّعْلُومَٰتٍ﴾ صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾. ﴿رَزَقَهُم﴾ صفة لـ ﴿أَيَّامٍ﴾ ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يذكروا﴾ أيضاً، وعلى تعليلة هنا. ﴿رَزَقَهُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول من ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، متعلق بـ﴿رَزَقَهُم﴾. ﴿فَكُلُوا۟﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، عند ذبحها فكلوا منها ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل معطوف على تلك الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة، ويصح أن تكون الفاء: للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنكم تذكرون اسم الله عليها، وعرفتم بيان ما تفعلون بها بعد الذبح.

فأقول لكم كلوا منها إلخ: وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ ﴿كلوا﴾. ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كلوا﴾. ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡبَآئِسَ﴾.

﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾ اللام، لام الأمر. ﴿يقضوا﴾. فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر. ﴿تَفَثَهُمۡ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿يذكروا﴾. ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بلام الأمر، معطوف على ﴿يقضوا﴾. ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، معطوف على ﴿يقضوا﴾ أيضاً ﴿بِٱلۡبَيۡتِ﴾: متعلق بـ ﴿يطوفوا﴾. ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ صفة لـ﴿البيت﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر والشأن ذلك المذكور، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: ذلك الأمر الذي ذكرته. وقيل: في موضع نصب بمحذوف، تقديره: امتثلوا ذلك. وعلى كل التقادير فالجملة مستأنفة. وهذا مثل فعل من يكتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر، يقول: هذا وقد كان كذا، وفائدة هذا، أنه يذكر للفصل بين كلامين، أو بين وجهي كلام واحد. ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ﴾ الواو استئنافية: ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ: والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها: ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿هُوَ خَيۡرٞ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿خَيۡرٞ﴾. ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ظرف متعلق بمحذوف، حال من الضمير المستكن في خير؛ أي: حال كونه مدخراً له عند

ربه. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَأُحِلَّتْ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿أحلت﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به. ﴿الْأَنْعَامُ﴾ نائب فاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿يُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُتْلَىٰ﴾ والجملة صلة الموصول ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفتم أن تعظيم حرمات الله خير لمن عظمها، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم؟ فأقول لكم اجتنبوا الرجس. ﴿اجتنبوا الرجس﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ حال من ﴿الرِّجْسَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وقيل الفاء تفريع على قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ومضاف إليه معطوف على ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿حُنَفَاءَ﴾: حال مؤسسة من ضمير ﴿اجتنبوا﴾. ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿حُنَفَاءَ﴾ ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾: حال مؤكدة منه. ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُشْرِكِينَ﴾. ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾ الواو استئنافية. ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُشْرِكْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَن﴾، على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُشْرِكْ﴾. ﴿فَكَأَنَّمَا﴾ الفاء رابطة الجواب جوازاً. ﴿كأن﴾ حرف نصب وتشبيه، ولكن بطل عملها لدخول ما الكافة عليها. ﴿مَا﴾ كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿خَرَّ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ متعلق بـ﴿خَرَّ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لضرب المثل لمن يشرك بالله.

﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿تخطفه الطير﴾ فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم معطوف على خرَّ: ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتنويع. ﴿تَهْوِى﴾ فعل مضارع معطوف على تخطف. ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَهْوِى﴾. ﴿ٱلرِّيحُ﴾: فاعل. ﴿فِى مَكَانٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَهْوِى﴾. ﴿سَحِيقٍ﴾ صفة لـ ﴿مَكَانٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر والشأن، ذلك المذكور السابق، والجملة مستأنفة، وهو نظير ما سبق في أوجه الإعراب السابقة وفي فائدته. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الفاء رابطة الجواب وجوباً. ﴿إن﴾ حرف نصب، والهاء اسمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. والعائد على ﴿من﴾ محذوف، تقديره منهم أو منه، نظراً للفظ ﴿من﴾، ومن جوز إقامة ألْ مقام الضمير، وهم الكوفيون أجاز ذلك هنا، والتقدير من تقوى قلوبهم، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مَنَٰفِعُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو حال من ضمير فانها. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿مَنَٰفِعُ﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة لِـ ﴿أَجَلٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ. ﴿مَحِلُّهَآ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ﴾ خبر. ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ صفة لـ﴿البيت﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ الواو استئنافية. ﴿لكل أمة﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف مفعول ثان، لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ مقدم عليه. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتقرير التشريع الخاص بكل أمة، ونوع التعبد الذي يتقربون به إلى الله.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

﴿لِيَذْكُرُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿اسْمَ اللَّهِ﴾ مفعول به ﴿عَلَى مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يذكروا﴾. ﴿رَزَقَهُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ متعلق بـ ﴿رَزَقَهُم﴾، وجملة ﴿رَزَقَهُم﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿يذكروا﴾ مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لذكرهم اسم الله. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنا جاعلون منسكاً لكل أمة، وأردتم بيان إلهكم، فأقول لكم إلهكم إله واحد. ﴿إلهكم﴾ مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره. ﴿وَاحِدٌ﴾ صفة إله، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَلَهُ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ويصح كونها فصيحة كما مر في مبحث التفسير. ﴿له﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَسْلِمُوا﴾. ﴿أَسْلِمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إلهكم﴾. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسْلِمُوا﴾.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾، أو بدل منه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ذُكِرَ اللَّهُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل. والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا صلة الموصول، والعائد ضمير قلوبهم. ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ معطوف على الموصول. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿الصابرين﴾. ﴿أَصَابَهُمْ﴾. فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ معطوف على الموصول أيضاً. ﴿الصَّلَاةِ﴾: مضاف

إليه وحذفت النون فيه للإضافة. ﴿وَمِمَّا﴾. جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره ومما رزقناهموه. ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة إذا، على كونها صلة الذين؛ أي: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وينفقون مما رزقناهم.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

﴿وَالْبُدْنَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿وَالْبُدْنَ﴾ مفعول لفعل محذوف وجوباً. يفسره المذكور بعده، على سبيل الاشتغال، تقديره: وجعلنا البدن جعلنا فعل وفاعل، البدن مفعوله، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿جَعَلْنَاهَا﴾. ﴿مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ التي هي بمعنى التصيير، والجملة الفعلية جملة مفسرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿خَيْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر؛ والجملة في محل النصب حال إما من هاء جعلناها، وإما من شعائر الله. وهذان مبنيان على أن الضمير في فيها، هل هو عائد على البدن، أو على شعائر؟ والأول قول الجمهور. اهـ «سمين».

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿فَاذْكُرُوا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن البدن من شعائر الله، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اذكروا اسم الله. ﴿اذكروا اسم الله﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ ﴿اذكروا﴾. ﴿صَوَافَّ﴾ حال من الهاء في عليها، ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف؛ لأنه على صيغة منتهى الجموع. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ الفاء:

فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنكم تذكرون اسم الله عليها، عند الذبح، وأردتم بيان ما تفعلون بها بعد الذبح، فأقول لكم: ﴿إذا وجبت﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَكُلُوا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كلوا﴾. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: معطوف على ﴿كلوا﴾. ﴿كَذَلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿سَخَّرْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: سخرناها لكم تسخيراً، مثل ذلك التسخير البديع، المفهوم من قوله: ﴿صَوَافَّ﴾ كما يفهم من «أبي السعود». ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، والجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ أي: وسخرناها لكم لكي تشكرونا على ذلك التسخير البديع.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا﴾: ناصب وفعل ومفعول وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾: معطوف على لحومها. ﴿وَلَكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿التَّقْوَىٰ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿سَخَّرَهَا﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿سَخَّرَهَا﴾، والجملة مستأنفة، والتقدير: سخرها الله سبحانه لكم، تسخيراً، مثل ذلك التسخير المذكور. ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تكبروا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره لتكبيركم إياه، الجار والمجرور متعلق بسخرها. ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر. ﴿مَا﴾ مصدرية، أو

موصولة ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله: والجملة صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، تقديره: على الذي هداكم إليه، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿تكبروا﴾. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على محمد، ومفعول به، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ واحده خصم، وهو من له رأي غير رأيك في موضوع ما، وكل منهما يحاج صاحبه فيه. وفي «السمين» الخصم في الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالباً، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ ويجوز أن يثنى ويؤنث، وعليه هذه الآية. ولما كان كل خصم فريقاً يجمع طوائف، قال: اختصموا بصيغة الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ فالجمع مراعاة للمعنى.

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾؛ أي: قدرت لهم على قدر جثثهم؛ لأن الثياب الجدد تقطع وتفصل على مقدار بدن من يلبسها، فالتقطيع مجاز عن التقدير بذكر المسبب، وهو التقطيع. وإرادة السبب وهو التقدير والتخمين، كما سيأتي في مبحث البلاغة. ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾: قال الراغب: الحميم، الشديد الحرارة، وسمي العرق حميماً على التشبيه، واستحم الفرس إذا عرق، وسمي الحمام حماماً، إما لأنه يعرق، وإما لما في من الماء الحار، وسميت الحمى بذلك، إما لما فيها من الحرارة المفرطة، وإما لما يعرض فيها من الحميم؛ أي: العرق، وإما لكونها من إمارات الحمام؛ أي: الموت.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الحميم من فرط الحرارة، يقال: صهرت الشيء فانصهر؛ أي: أذبته فذاب فهو صهير. والصهر إذابة الشيء، والصهارة ما ذاب منه، يقال: صهرت الشحم من باب قطع إذا أذبته، والصهارة الألية المذابة، وصهرته الشمس أذابته. ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ جمع مقمعة بكسر الميم، وهي آلة القمع، يقال: قمعه يقمعه من باب قطع إذا ضربه بشيء يزجره ويذله. والمقمعة المطرقة،

وقيل: السوط اهـ. «سمين». ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ والغم الحزن الشديد. ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، ؛ أي: العذاب المحرق؛ أي: البالغ نهاية الإحراق؛ لأن فعيلا بمعنى مُفْعِل من صيغ المبالغة اهـ. شيخنا. ﴿الْأَنْهَارُ﴾ جمع نهر بفتحتين، وأما نهر بسكون ثانيه، فجمعه أنهر بوزن أفعل كأفلس. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ الجمهور على ضم الياء وفتح اللام، مشددة من حلاه تحلية إذا ألبسه الحلي. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سوار، اهـ. «بيضاوي».

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والمراد به مكة، وعبر به عنها، لأنه المقصود المهم منها ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ وفي «المختار» ألحد في دين الله؛ أي: حاد عنه وعدل، ولحد من باب قطع لغة فيه، وألحد الرجل ظلم في الحرم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ يقال: بوأه منزلا: أي: أنزله فيه. ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل، ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر، أو مدر، أو صوف، أو وبر، والمراد به هنا الكعبة، وقد بنيت عدة مرات في أوقات مختلفة.

﴿رِجَالًا﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم، جمع راجل، كقيام جمع قائم، قال الراغب: اشتق من الرجل رجل وراجل للماشي، يقال رجل يرجل بفتح الجيم رجلاً بفتحتين سار على رجليه لا راكباً، ويقال هذا رجل؛ أي: كامل في الرجال بين الرجولية والرجولية. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: وركباناً على كل بعير ضامر؛ أي: مهزول، يقال ضمر الفرس والبعير من باب دخل إذا أتعبه بعد السفر فهزل، قال الراغب: الضامر من الفرس: الخفيف اللحم من الأصل لا من الهزال، وتضمير الفرس أيضاً، أن تعلفه حتى يسمن، ثم ترده إلى القوت، وذلك في أربعين يوماً. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ والفج بفتح الفاء: الطريق الواسع، قال الراغب: الفج طريق يكتنفها جبلان، ويجمع على فجاج بكسر الفاء، والفجاج بضم الفاء: الطريق الواسع الواضح بين الجبلين. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، وأصل العمق البعد سفلاً، يقال بئر عميق إذا كانت بعيدة القعر. ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؛ أي: أوساخهم، وقضاء التفث، المراد به قص الأظافر، ونتف الإبط قال الراغب: أصل التفث،

وسخ الظفر وغيره، مما شأنه أن يزال عن البدن، كطول الظفر وفي المصباح تفث تفثاً فهو تفث، مثل تعب تعباً. فهو تعب إذا ترك الادهان والاستحداد فعلاه الوسخ وحكى قطرب: تفث الرجل إذا كثر وسخه في سفره، ومعنى ليقضوا ليصنعوا ما يصنعه المحرم من إزالة شعر وشعث ونحوهما عند حله.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يقال وفى بعهده، وأوفى إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه، كما دل عليه الغدر، وهو الترك. ﴿والنذور﴾ أن توجب على نفسك ما ليس بواجب، والمراد بالنذور ما نذروه من أعمال البر في أيام الحج، فإن الرجل إذا حج واعتمر، فقد يوجب على نفسه من الهدى وغيره. ما لولا إيجابه لم يكن الحج تقتضيه، وإن كان على الرجل نذور مطلقة، فالأفضل أن يتصدق بها على أهل مكة.

﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الحرمات بضمتين، ويقال في الجمع أيضاً حرمات بضم ففتح، وحرم بضم ففتح، جمع حرمة بضم فسكون، وحرمة بضمتين وحرمة بضم ففتح، وهي الذمة والمهابة، وما وجب القيام به من حقوق الله، والتكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها. وتعظيمها العلم بوجوبها، والعمل على موجب ذلك. ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ بتشديد الراء المكسورة وسكون الجيم، والرجس بتشديد الراء المفتوحة وفتح الجيم، والرجس بتشديد الراء المفتوحة وكسر الجيم القذر والأوساخ، وسمى الأوثان رجساً على طريق التشبيه؛ لأنها قذر معنوي. ﴿ٱلزُّورِ﴾ الشرك بالله والباطل والكذب، ومن معانيه العقل والقوة، يقال ماله زور ولا صيور؛ أي: لا قوة له ولا مرجع إليه، وهو من الزور، أو الإزورار وهو الانحراف. ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ في «القاموس» خطف يخطف من باب تعب، خطفاً خطف الشيء إذا استلبه بسرعة، وخطف البرق البصر ذهب به بسرعة.

﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ جمع شعيرة، أو شعارة بالكسر بوزن قلادة، وفي «المصباح» والشعائر أعلام الحج وأفعاله، الواحدة شعيرة أو شعارة بالكسر، والمشاعر مواضع المناسك، والمراد بها الهدايا من الإبل وغيرها، وتعظيمها أن تختار حساناً سماناً غالية الأثمان. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أن تنحر وتذبح. و﴿مَحِلُّهَآ﴾ مكان نحرها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ بفتح السين وكسرها، فالفتح على أنها مصدر ميمي، والكسر على أنها اسم مكان، وفي «المصباح» نسك الله، ينسك، من باب قتل تطوع بقربة، والنسك بضمتين اسم منه وفي التنزيل ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ والمَنْسك بفتح السين وكسرها يكون زماناً ومصدراً ويكون اسم المكان الذي تذبح فيه النسيكة، وهي الذبيحة وزنا، ومعنى، ومناسك الحج عباداته، وقيل مواضع العبادات، وفي «القاموس» المنسك بفتح السين المكان المألوف، والمنسك بالفتح أيضاً مصدر نسك، والمنسك بالكسر شرعة النسك وموضع تذبح فيه النسيكة اهـ.

﴿بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ سمَّاها بهيمة؛ لأنها لا تتكلم، وقيد بالأنعام لأن ما سواها لا يجوز ذبحه في القرابين، وإن جاز أكله اهـ «خازن». وفي «القاموس» البهيمة كل ذات أربع قوائم ولو في الماء، أو كل حي لا يميز، والجمع بهائم. والأبهم الأعجم، واستبهم استعجم فلم يقدر على الكلام اهـ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾؛ أي: المطيعين المتواضعين، وهذا أصل معناه، لأن الإخبات نزول الخبت، وهو المكان المنخفض، وهو من أخبت الرجل إذا سار في الخبت، وهو المطمئن من الأرض. وفي «القاموس» الخبت المتسع من بطون الأرض، والجمع أخبات وخبوت اهـ.

﴿وَالْبُدْنَ﴾ بضم الباء جمع بدنة، سميت بذلك لعظم بدنها، وهي خاصة بالإبل، كما قال الأزهري، أو هي تشمل الإبل والبقر، كما قال صاحب «الصحاح» قال القسطلاني: البدن عند الشافعي خاصة بالإبل، وعند أبي حنيفة من الإبل والبقر، فكلام الشافعية موافق لكلام الأزهري، وكلام الحنفية موافق لكلام «الصحاح». وأما الهدي فيشمل الإبل والبقر والغنم.

﴿صَوَافَّ﴾؛ أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، جمع صافةٍ، وقرىء ﴿صوافن﴾ من صفن الفرس. إذا قام على ثلاث، وينصب الرابعة على طرف سنبكه؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها.

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ وجوب الجنوب وقوعها على الأرض. من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت. قال أبو تمام:

فَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ غَرَبَتْ   وَٱلشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ

ومنه الواجب الشرعي، كأنه سقط علينا ولزمنا اهـ «سمين». وهذا كناية عن الموت وزهوق الروح وفقدان الحركة. وجمع الجنوب مع أن البعير إذا خر، يسقط على أحد جنبيه، لأن ذلك الجمع في مقابلة جمع البدن اهـ. شيخنا.

﴿ٱلْقَانِعَ﴾؛ أي: الراضي بما عنده وبما يعطي من غير مسألة قال لبيد:

فَمِنْهُمْ سَعِيْدٌ آخِذٌ بِنَصِيْبِهِ   وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِٱلْمَعِيْشَةِ قَانِعُ

وقيل: القانع السائل المتذلل، والخارج من مكان إلى مكان، وخادم القوم، وأجيرهم والجمع قانعون وقنعٌ، يقال قنع يقنع من باب تعب تعباً قنعاً وقناعة وقنعانا إذا رضى بما قسم له، وقنع يقنع نم باب فتح قنوعاً سأل وتذلل. وفي «الأساس» و«اللسان» العز في القناعة والذل في القنوع، وهو السؤال.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: المعترض بسؤال، وعره وعراه بمعنى واحد، وقيل: القانع: السائل، والمعتر: المتعرض للسؤال من غير طلب، يقال: عره واعتره وعراه واعتراه، إذا تعرض للمعروف من غير مسألة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ بذكر المسبب، وهو التقطيع وإرادة السبب وهو التقدير والتخمين. وفيه أيضاً استعارة تمثيلية تهكمية، حيث شبه إعداد النار وإحاطتها بهم بتفصيل الثياب، وتقطيعها على قددهم، مع التهكم الذي ينطوي عليه. وجمع الثياب؛ لأن النار لتراكمها عليهم، كالثياب الملبوس بعضها فوق بعض، وهذا أبلغ من جعلها من مقابلة الجمع

بالجمع. وفيه أيضاً التعبير بالماضي عن المستقبل، حيث قال: قطعت، لأنه بمعنى إعدادها لهم، كما في «الشهاب»، أو إشارةً إلى تحقق الوقوع.

ومنها: الإرداف في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾؛ لأنه لمّا كانت الثياب تشمل جميع الجسد غير الرأس، أفرد الرؤوس بالذكر بقوله: يصب الخ.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في دين ربهم، فهو على حذف مضاف.

ومنها: رعاية الفواصل في قوله: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ حيث أخّره عن قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ مع أن ملابستها بالجلود أسبق من ملابستها بالباطن، إشعاراً بغاية شدة الحرارة، بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها بالعكس.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾؛ لأن لإرادة هنا مجاز عن القرب، والمراد: أنها ترفعهم وترميهم إلى أعلاها فلا خروج لهم. لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ ولهذا قال: ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ دون إليها. وبعضهم أبقى الإرادة على حقيقتها، وأجاب عن قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ بأنهم لا يستمرون على الخروج، وبأن العود قد يتعدى بفي، للدلالة على التمكن والاستمرار، وذكر الإرادة للدلالة على رغبتهم في الخروج، اهـ. من «الشهاب».

ومنها: تغيير الأسلوب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخ. حيث لم يقل والذين آمنوا إلخ عطفاً على الذين كفروا تعظيماً لشأن المؤمنين، اهـ. شيخنا. وفي قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً، للمحافظة على الفواصل؛ لأنه لو قال، من ذكر، لكان في آخر الفاصلة الألف في الكتابة والوقف، بخلاف البقية، كما مر في مبحث التفسير. وفي «الكرخي» غير أسلوب الكلام فيه، حيث لم يقل ويلبسون حريراً للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة، فإن العدول إلى

الجملة الاسمية يدل على الدوام. والمعنى: أنه تعالى يوصلهم في الآخرة إلى ما حرمه عليهم في الدنيا. قال ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة، ولم يلبسه»، ومحله فيمن مات مصرًّا على ذلك اهـ.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْعَـٰكِفُ، وَٱلْبَادِۚ﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة، والبادي القادم من البادية.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ كقوله: ﴿ناقة الله وروح الله﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ لأن القضاء في الأصل القطع والفصل، فأريد به هنا الإزالة مجازاً.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ فإن عبادة الأوثان رأس الزور.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ فإنه تأكيد لقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾.

ومنها: التشبيه المركب والتمثيلي، في قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. وهو ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، وبيان ذلك، أنه انقسمت فيه حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما:

الأول: منهما المتذبذب الشاك المتمادي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين شبه بمن اختطفه الطير، وتوزعته، فلا يستولي طائر على مزعة منه، إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب، لا يلوح له خيال إلا أتبعه، ونزل عما كان عليه.

والثاني: مشرك مصمم على معتقد باطل، لو نشر بالمناشير لم يتراجع عن تصميمه، لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج

لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى وادٍ سحيق سافل فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق، الذي هو أبعد ما يكون من السماء.

وأجاز الزمخشري أن كون هذا التشبيه من المركب والمفرق، فقال: إن كان تشبيهاً مركباً، فكأنه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده هلاك، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء، فاختطفته الطير متفرقاً موزعاً في حواصلها، وعصفت به الريح، حتى هوت به في بعض الأماكن البعيدة، وإن كان مفرقاً، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح ويذهب به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي عصفت به، في بعض المهاوي المتلفة.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾؛ لأن القانع المتعفف، والمعتر السائل.

ومنها: العدول إلى صيغة المضارع في قوله: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ مع عطفه على الماضي وهو ﴿خَرَّ﴾ لتصوير هذه الحالة الهائلة، التي اجترأ عليها المشرك للسامعين، التي هي كونه موزعاً في حواصل الطير.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ
إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ
وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾
ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾
وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ
يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ
أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ
﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ
أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ
فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ
لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ
قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم
مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[١] صد المشركين عن دين الله وعن المسجد الحرام، ثم أردفه بذكر مناسك الحج، وبين ما فيها من منافع في الدين والدنيا.. قفى على ذلك، ببيان ما يزيل الصد عنه، ويؤمن معه من التمكن من أداء تلك الفريضة على أتم الوجوه.

وعبارة أبي حيان هنا: ومناسبة هذه الآية لما قبلها[٢]: أنه تعالى لما ذكر جملة مما يفعل في الحج، وكان المشركون قد صدوا رسول الله ﷺ، عام الحديبية، وآذوا من كان بمكة من المؤمنين.. أنزل الله تعالى هذه الآيات، مبشرة المؤمنين بدفعه تعالى عنهم، ومشيرة إلى نصرهم، وإذنه لهم في القتال، وتمكينهم في الأرض بردهم إلى ديارهم، وفتح مكة، وأن عاقبة الأمور راجعة إلى الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بيَّن[٣] فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأنه أذن لهم في مقاتلتهم، وضمن لهم النصرة عليهم.. أردف هذا تسلية لرسوله ﷺ، على ما يرى من قومه، وتصبيره على أذاهم وتكذيبهم إياه، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعاً في الأمم، فكثير منها قد كذبت رسلها، فحل بها من البوار ما فيه عبرة لمن اعتبر، وتذكر مما يشاهدونه رأي العين في حلهم وترحالهم، وفي غدوهم، ورواحهم، فلا تحزن على ما ترى، واصبر فإن العاقبة للمتقين.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ذكر أن المشركين كذبوا رسوله، وبالغوا في تكذيبه، وسلاَّه على ذلك، بأنك لست ببدع في الرسل، فكثير ممن قبلك منهم قد كذبوا، وأوذوا، فلا تبتئس بما يفعلون، واصبر على ما تدعو إليه ولا يضيرنك ما يأتون وما يذرون.. قفى على ذلك ببيان أنهم لاستهزائهم به، وشديد تكذيبهم، كانوا يستعجلونه العذاب. كما قال تعالى، حكاية عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم أنبهم على إنكار ذلك العذاب، وقد سبق وعد الله به، فكان لزاماً عليهم أن لا يستعجلوه، فإنهم لو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده، ما طلبوا استعجاله، فيوم عند ربك تصيبهم فيه المحن والشدائد كألف سنة، لو بقوا وعذبوا في الدنيا، ثم ذكرهم بأن كثيراً من القرى الظالمة أمهلت، ولم تعذب لعلها ترعوي عن غيها، ثم أخذت أخذ عزيز مقتدر، وحسابها مدخر ليوم تشخص فيه الأبصار، ثم أبان أن وظيفة الرسول إنما هي الإنذار والتحذير، وليس عليهم من حسابهم من شيء، فإن شاء الله عجل لهم العذاب، وإن شاء أخره عنهم. وقد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة من الذنوب، ودخول دار النعيم، وأوعد الذين يثبّطون العزائم عن قبول دعوة الإسلام، بدوام العذاب في نار الجحيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في الآيات السالفة، أن قومه قد كذَّبوه بوسائل شتى من التكذيب، فقالوا تارة: إنه ساحر، وأخرى: إنه شاعر، وثالثة: إن القرآن أساطير الأولين، ثم سلاه على هذا، بأنه ليس بدعاً من الرسل، فكثير قبله قد كذبوا، ثم ذكر أنهم لعظيم استهزائهم به وتهكمهم بما يبلغهم عن ربه، طلبوا منه استعجال العذاب الذي يعدهم به.. أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب، وهو إلقاؤهم الشبه والأوهام فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن، ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به من الحق، ويكون في ذلك فتنة لضعاف الإيمان، وللكافرين، وليزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً بأنه الحق من ربهم، فتخبت له قلوبهم، وأن هذه حالهمْ حتى يموتوا، أو يأتيهم عذاب لا يبلغ الوصف كنه حقيقته، وعندئذٍ يحكم الله بين عباده، فيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات

جنات النعيم، ويجازي الذين كذبوا بآياته، وكانوا في مرية من رسالة رسوله بالعذاب المهين، جزاء وفاقاً على تدسية أنفسهم وتدنيسها بزائغ العقائد، وسيء الأعمال، وباطلها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن الملك له يوم القيامة، وأنه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين، وأنه يدخل المؤمنين جنات النعيم.. أردف ذلك ذكر وعده الكريم للمهاجرين في سبيله، بأنه يرزقهم الرزق الحسن ويدخلهم مدخلاً يرضونه، ثم ذكر وعده لمن قاتل مبغياً عليه بأن اضطر إلى الهجرة، ومفارقة الوطن، بأنه ينصره وهو قدير على ذلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس، أنه قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن القوم فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال. وقيل[2]: نزلت هذه الآية في قوم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فاعترضهم مشركو مكة، فأذن الله لهم في قتال الكفار، الذين يمنعونهم من الهجرة، بسبب أنهم مظلومون بالإيذاء. وقيل: كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ أذى شديداً، وكانوا يأتونه ﷺ، من بين مضروب ومشجوج يشكون إليه فيقول لهم اصبروا، فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان ـ رضي

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الله عنه ـ قال: فينا نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ . . .﴾ والآية التي بعدها. أخرجنا من ديارنا بغير حق، ثم مكننا في الأرض، وأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، فهي لي ولأصحابي.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ. . .﴾ الآية. قال: لولا دفع الله بأصحاب محمد ﷺ عن التابعين لهدمت صوامع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُدَٰفِعُ﴾ غوائل المشركين وضررهم وكيدهم ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ بالله ورسوله، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه؛ أي: يبالغ في دفع شر الأشرار، وكيد الفجار عنهم، ويحميهم أشد الحماية من أذاهم، ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم، ويكتب لهم الفلج عليهم، والظفر بهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع[1]: ﴿يدافع﴾ و﴿لولا دفاع الله﴾. وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿يَدْفَع﴾ ﴿ولولا دَفْع﴾. وقرأ الكوفيون وابن عامر ﴿يدافع﴾ ﴿ولولا دفع﴾ وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الأصليِّ، وهو وقوع الفعل من الجانبين، كما تدل عليه القراءة الأخرى. ففاعل هنا بمعنى المجرد، نحو جاوزت وجزت؛ لأن هذه[2] الصيغة قد ترد ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً، نحو عاقبت اللصَّ. وقيل: إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة. وقيل: للدلالة على تكرر الواقع، والمعنى يبالغ في دفع ضرر المشركين عن المؤمنين. وقيل: يُعْلي حجتهم. وقيل: يوفقهم، والجملة مستأنفة، لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين، وأنه المتولى للمدافعة عنهم. وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أي: يبغض ﴿كُلَّ خَوَّانٍ﴾؛ أي: كثير الخيانة في أمانة الله

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

تعالى، أمراً كان، أو نهياً، أو غيرهما من الأمانات. ﴿كَفُورٍ﴾؛ أي: كثير الكفران لنعمته، مقررة[١] معللة لمضمون الجملة الأولى، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين، مشعرة أتم إشعار بأنهم مبغضون إلى الله، غير محبوبين له، فلا يرضى فعلهم ولا ينصرهم.

أي: وإنما[٢] دفعهم وقهرهم؛ لأنهم خانوا أمانة الله، وهي أوامره ونواهيه، وكفروا أنعمه التي يسديها إليهم بكرةً وعشياً، وعبدوا غيره مما لا يضر ولا ينفع، وفي هذا إيماء إلى أن المؤمنين هم أحباء الله. قال الزجاج: من ذكر غير اسم الله، وتقرب إلى الأصنام بذبيحة، فهو خوان كفور، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع، لا لإخراج من خان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم. واعلم[٣] أن الكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً وأن الخيانة والنفاق واحد؛ لأن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ونقيض الأمانة ومن الخيانة الكفر، فإنه إهلاك للنفس التي هي أمانة الله عند الإنسان. وتجري الخيانة في الأعضاء كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ وتجري في الصلاة والصوم ونحوهما، وإما بتركها، أو بترك شرط من شرائطها الظاهرة والباطنة، فأكل السحور مع غلبة الظن بطلوع الفجر، أو الإفطار مع الشك بالغروب خيانة للصوم، ومن أكل السحور فنام عن صلاة الصبح، حتى طلعت الشمس، فقد كفر بنعمة الله التي هي السحور، وخانه بالصلاة أيضاً، فترك الفرض لأجل السنة تجارة خاسرة.

ثم إن المؤمن الكامل، منصور على كل حال، فلا يضره كيد الخائنين، فإن الله لا يحب الخائنين، فإذا لم يحبهم لم ينصرهم، ويحب المؤمن فينصره.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ولما هاجر المؤمنون إلى المدينة، أذن الله لهم في القتال، كما قال ﴿أُذِنَ﴾؛ أي: رخص في القتال ﴿لِلَّذِينَ﴾؛ أي: للمؤمنين الذين ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء على صيغة المجهول؛ أي: يقاتلهم المشركون ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾ أي: بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروب ومشجوج، ويتظلمون إليه، فيقول لهم عليه السلام: «اصبروا، فإني لم أومر بالقتال»، حتى هاجروا، فنزلت، وهي أول آية نزلت في القتال، بعد ما نهي عنه في نيفٍ وسبعين آية. كما رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس.

وهذه الجملة مقررة أيضاً لمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ فإن إباحة القتال لهم، هي من جملة دفع الله عنهم. والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾ للسببية؛ أي: رُخّص للمؤمنين، وأبيح لهم أن يقاتلوا المشركين، بسبب أنهم ظلموا، بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب، وطرد.

وقرأ[1] نافع وعاصم وأبو عمرو بضم همزة ﴿أُذِنَ﴾ مبنياً للمفعول، وفتح باقي السبعة مبنياً للفاعل. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء مبنياً للمفعول والباقون بكسرها مبنياً للفاعل. والمأذون فيه محذوف؛ أي: في القتال، كما مر، لدلالة يقاتلون عليه. وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله تعالى لعباده المؤمنين، بأنهم إذا صلحوا للقتال، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم.

ثم وعدهم الله سبحانه بالنصر، والغلبة على المشركين، بعد ما وعدهم بدفع أذاهم وتخليصهم من أيديهم، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾؛ أي: نصر المؤمنين الذين يقاتلون في سبيله ﴿لَقَدِيرٌ﴾؛ أي: لقادر وقد فعل، فأعزهم، ورفعهم، وأهلك عدوهم، وأذلهم بأيديهم. وفي هذا الأسلوب مبالغة عظيمة، زيادة في توطين عزائم المؤمنين وتثبيتهم على الجهاد في سبيله.

والقدير[2]: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه. ولذلك لا يصح أن يوصف به غير الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وإنما شرع[1] الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر من المؤمنين عدداً، حتى أخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، وشردوا أصحابه، فذهبت طائفة منهم إلى الحبشة، وذهب آخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة، وأتاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا إليه، وقاموا بنصره، وصارت المدينة لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الجهاد ونزلت هذه الآية مرخصة فيه.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾؛ أي: أولئك المظلومون هم الذين أخرجهم المشركون من ديارهم وبلدهم مكة إلى المدينة ظلماً. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير استحقاق خروج؛ أي: أخرجوا بغير موجب استحقوا الخروج به، وعذبوا بعضهم، وسبوا بعضاً آخر، وما كان لهم من إساءة إليهم، ولا ذنب جنوه ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. قال سيبويه: الاستثناء منقطع؛ أي: لكن لقولهم ربنا الله؛ أي: أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم، لكن لقولهم ربنا الله. وقال الفراء والزجاج: هو استثناء متصل، والتقدير: الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق، إلا بأن يقولوا: ربنا الله، فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ وقول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

ونحو الآية قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ وقوله: في قصة أصحاب الأخدود ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ ولما كان المسلمون ينشدون حين بناء الخندق:

لاَهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا ٱهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ ٱلأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

كان رسول الله ﷺ يوافقهم ويقول معهم آخر كل قافية قالوا: إذا أرادوا فتنة

(١) المراغي.

أبينا، يقول: أبينا ويمد بها صوته.

ثم حرض المؤمنين على القتال، وبيَّن أنه أجرى العادة به في الأمم الماضية، لينتظم أمر الجماعات وتقوم الشرائع، وتصان بيوت العبادة من الهدم فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ قرأ نافع: ﴿ولولا دفاع﴾. وقرأ الباقون ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾ كما مر. ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين في كل عصر وزمان. والمراد ببعضهم، الكافرون. وببعض، المؤمنون. والمراد بالدفع، أذن الله لأهل دينه في مجاهدة الكفار، فكأنه قال: ولولا دفع الله أهل الشرك، بالمؤمنين، بالإذن لهم في جهادهم، لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان، وعطلوا مواضع العبادة، والمراد بهذه المواضع، مواضع عبادات المؤمنين منهم. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾؛ أي: لخربت باستيلاء المشركين عليها. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ معبد الرهبان للنصارى. ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارىٰ، وذلك في زمان عيسى عليه السلام، والهدم إسقاط البناء. والتهديم للتكثير. ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾؛ أي: كنائس لليهود في زمن شريعة موسى عليه السلام. سميت بالصلوات، لأنها يصلى فيها. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين في أيام شريعة محمد ﷺ.

والمعنى[(١)]: ولولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء. لاستولى أهل الشرك، وذهبت مواضع العبادة من الأرض، باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل. وقيل: المعنى: لولا هذا الدفع، لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية. وقيل: المعنى: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة. وقيل: لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار. وقيل: غير ذلك.

والصوامع جمع صومعة، وهي معبد الرهبان المتخذ في الصحراء، وهو بناء مرتفع خارج عن العمران. ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الإسلام.

---

(١) الشوكاني.

والبيع جمع بيعة، وهي معابد النصارى المتخذة في البلد، وهما أعني الصوامع والبيع للنصارى. وقيل[1]: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى. والصلوات كنائس اليهود، ويسمونها بالعبرانية صلوتا.

وقدم[2] ما سوى المساجد عليها في الذكر لكونها أقدم في الوجود بالنسبة إليها، أو ليكون الانتقال فيها من شريف إلى أشرف، وفي «الأسئلة المقحمة» تقديم الشيء بالذكر لا يدل على شرفه، كقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

وقرأ[3] الحرميان وأيوب وقتادة وطلحة وزائدة عن الأعمش، والزعفراني ﴿لهدمت﴾ مخففاً. وباقي السبعة وجماعة مشدداً. لما كانت المواضع كثيرة ناسب مجيء التضعيف لكثرة المواضع، فتكرر الهدم لتكثيرها. وقرأ الجمهور ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ جمع صلاة. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وصُلُوات﴾ بضم الصاد واللام. وحكى عنه ابن خالويه: ﴿صِلْوات﴾ بسكون اللام وكسر الصاد. وحكيت عن الجحدري: ﴿صَلَوات﴾ بضم الصاد وفتح اللام. وحكيت عن الكلبي وأبو العالية بفتح الصاد وسكون اللام ﴿صلوات﴾. والحجاج بن يوسف والجحدري أيضاً: ﴿وصُلُوَتٌ﴾ بضمتين من غير ألف. ومجاهد كذلك، إلا أنه بفتح التاء وألف بعدها. والضحاك والكلبي: ﴿صلُوث﴾ بضمتين من غير ألف وبثاءٍ منقوطة بثلاث. وجاء كذلك عن أبي رجاء والجحدري وأبي العالية ومجاهد كذلك إلا أنه بعد الثاء ألف. وقرأ عكرمة ﴿وصِلْوِيْثَا﴾ بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث، بعدها ألف. والجحدري أيضاً: ﴿صُلْوَاثُ﴾ بضم الصاد وسكون اللام وفتح الواو بعدها ألف بعدها ثاء مثلثة النقط. وحكى ابن مجاهد، أنه قرئ كذلك، إلا أنه بكسر الصاد. وحكى ابن خالويه وابن عطية عن الحجاج والجحدري ﴿صُلُوب﴾ بالباء الموحدة على وزن

---

(1) الخازن.

(2) روح البيان.

(3) البحر المحيط.

كعوب جمع صليب، كظريف وظروف، وهو جمع شاذ، أعني: جمع فعيل على فعول، فهذه ثلاث عشرة قراءة.

وروى هارون عن أبي عمرو ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كقراءة الجماعة، إلا أنه لا ينون التاء كأنه جعله اسم موضع كالمواضع التي قبله، وكأنه علم فمنعه من الصرف للعلمية والعجمية. وكملت القراءات بهذه أربع عشرة قراءة ذكره في «البحر المحيط».

وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك المساجد ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير وغيرها عند الصلاة. ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ذكرا كثيراً ووقتاً كثيراً، صفة مادحة للمساجد خصت بها[1] دلالة على فضلها وفضل أهلها. ويجوز أن يكون صفة للأربع؛ لأن الذكر في الصوامع والبيع والصلوات كان معتبراً قبل انتساخ شرائع أهلها.

والمعنى: أي[2] فليقاتل المؤمنون الكافرين، فلولا القتال، وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان، لهدمت في شريعة كل نبي معابد أمته، فتهدم صوامع النصارى وبيعهم وصلوات اليهود ومساجد المسلمين، التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً.

وفي هذا ترق، وانتقال من الأقل إلى الأكثر، حتى انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عمَّاراً، وأكثر عباداً، وهم ذووا القصد الصحيح.

والخلاصة: أنه لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، وإقامة حدود الأديان.. لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة، وهدموها، وقد يكون المراد لولا هذا الدفع، لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ واللام: فيه موطئة لقسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لينصرن الله سبحانه وليعينن من يقاتل في سبيله، لتكون كلمته العليا،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وتكون كلمة عدو دينه السفلى، أو كلمة من ينصر أولياءه هي العليا. ولقد أنجز الله وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد قريش، وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَقَوِيٌّ﴾ على كل ما يريده ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه. والقوي[1] القادر على الشيء. والعزيز الجليل الشريف. قاله الزجاج.

وقيل: الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع. وفي[2] «بحر العلوم» غني بقدرته وعزته في إهلاك أعداء دينه عنهم، وإنما كلفهم النصر باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة الأعداء، وبذل الأرواح، والأموال لينتفعوا به، ويصلوا بامتثال الأمر فيها، إلى منافع دينية ودنيوية. فإن قلت[3]: فإذا كان الله قوياً عزيزاً غالباً غلبة لا يجد معها المغلوب نوع مدافعة وانفلات، فما وجه انهزام المسلمين في بعض المغازي وقد وعدهم الله تعالى النصر؟

قلت: إن النصرة والغلبة منصب شريف، فلا يليق بحال الكافر، لكن الله تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين؛ لأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات، لحصل العلم الاضطراري، بأن الإيمان حق، وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف، والثواب، والعقاب. فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر، لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل في صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله، ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي. فيكون تشديد المحنة عليه في الدنيا كفارة له في الدنيا، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله، كالطاعون مثلاً. فإنه رحمة وطهرة للمؤمنين، ورجز ـ أي: عذاب ـ وغضب للكافرين.

روي: أنَّ عامراً مرَّ برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين أضر بالمظلومين، فرأى في منامه كأن القيامة قد قامت، وكأنه دخل

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الجنة فرأى المصلوب فيها في أعلى عليين فإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

واعلم: أن الله تعالى يدفع في كل عصر مدبراً بمقبل، ومبطلاً بمحق، وفرعوناً بموسى، ودجالاً بعيسى، وأبا جهل بمحمد، فلا تستبطىء ولا تتضجر.

والخلاصة: أن الله سبحانه لقوي على نصر من جاهد في سبيله من أهل طاعته، منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب. ونحو الآية قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ والموصول[١] في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في موضع نصب صفة لـ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ قاله الزجاج، وقال غيره هو في موضع جر صفة لقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾. وقيل: المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. وقيل: أهل الصلوات الخمس. وقيل: ولاة العدل، وقيل غير ذلك. وفيه إيجاب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على من مكنه الله في الأرض، وأقدره على القيام بذلك.

أي: ولينصرن الله الذين إن مكناهم في الأرض، وأعطيناهم زمام الأحكام. ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لتعظيمي؛ أي: أدوها بحقوقها، وشرائطها. قال الراغب[٢]: كل موضع مدح الله بفعل الصلاة، أو حث عليه ذكر بلفظ الإقامة، ولم يقل المصلين، إلا في المنافقين، نحو ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤﴾ وإنما[٣] خص لفظ الإقامة تنبيهاً على أن المقصود من فعلها، توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيأتها فقط، ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل. ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمساعدة عبادي؛ أي: أدوا وأعطوا زكاة أموالهم في مصارفها. ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾؛ أي: بكل ما عرف حسنه شرعاً، وعرفاً من التوحيد وأصناف الواجبات، والمندوبات. ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾؛ أي: عن كل ما استقبحه الشرع

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

والعقل السليم من الإشراك وأصناف المحرمات والمكروهات. ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: آخر أمور الخلائق؛ أي: مرجعها، ومصيرها إلى حكمه وتقديره وتدبيره دون غيره، في الثواب عليها أو العقاب في الدار الآخرة. ونحو الآية قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

والمعنى: أي[1] هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم. هم الذين إن مكنا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة على النحو الذي طلبه، وأعطوا زكاة أموالهم التي حباها لهم، ودعوا الناس إلى توحيده، والعمل بطاعته، وأمروا بما حثت عليه الشريعة، ونهوا عن الشرك واجتراح السيئات.

وخلاصة ذلك: أنهم هم الذين كملوا أنفسهم باستحضار المعبود، والتوجه إليه في الصلاة على قدر الطاقة، وكانوا عوناً لأممهم بإعانة فقرائهم، وذوي الحاجة منهم، وكملوا غيرهم فأفاضوا عليهم من علومهم وآدابهم، ومنعوا المفاسد التي تعوق غيرهم عن الوصول إلى الرقي الخلقي، والأدب السامي.

وعن ابن عباس[2] ـ رضي الله عنهما ـ رفعه إلى النبي ﷺ «إن من أشراط الساعة، إماتة الصلوات واتباع الشهوات، والميل إلى الهوى، ويكون أمراء خونة، ووزراء فسقة» فوثب سلمان، فقال: بأبي وأمي إنَّ هذا لكائن؟ قال: «نعم يا سلمان، عندها يذوب قلب المؤمن، كما يذوب الملح في الماء، ولا يستطيع أن يغير» قال: أو يكون ذلك؟ قال: «نعم يا سلمان، إن أذل الناس يومئذٍ المؤمن، يمشي بين أظهرهم بالمخالفة، إن تكلم أكلوه، وإن سكت مات بغيظه». قال عمر ـ رضي الله عنه ـ للنبي عليه السلام: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد، ما هو؟ فقال: «ظل الله في الأرض، فإذا أحسن فله الأجر، وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر، وعليكم الصبر». وفي الحديث: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وعن إزد شير: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل، وحسن سياسة. قيل: السياسة أساس الرياسة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد[1] وصيغة المضارع في الشرط مع تحقيق التكذيب، لما أن المقصود تسليته عليه السلام، عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع؛ أي: وإن تحزن على تكذيب قومك إياك، فاعلم أنك لست بأوحدي في ذلك، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل تكذيبهم إياك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً. ﴿و﴾ كذبت ﴿عاد﴾ هوداً. ﴿و﴾ كذبت ﴿ثمود﴾ صالحاً. ﴿و﴾ كذبت ﴿قوم إبراهيم﴾ إبراهيم ﴿و﴾ كذبت ﴿قوم لوط﴾ لوطاً. ﴿و﴾ كذب ﴿أصحاب مدين﴾ شعيباً. ومدين كان ابنا لإبراهيم عليه السلام، ثم صار علماً لقرية شعيب. وعدل عن قوم شعيب؛ لأن أصحاب مدين أعرق من أصحاب الأيكة في التكذيب، فلذلك خصهم بالذكر.

وفيه[2] إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه، والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك. وقد تقدم ذكر هذه الأمم، وما كان منهم ومن أنبيائهم، وكيف كانت عاقبتهم. وإنما غير النظم في قوله: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ فجاء بالفعل مبنياً للمفعول؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه، وإنما كذبه غيرهم من القبط. وفي «المختار» القبط بوزن القسط، أهل مصر، وهم أصلها. واحدهم قبطي اهـ.

أي: كذبه[3] القبط، وأصروا إلى وقت الهلاك. وأما بنوا إسرائيل فإنهم وإن قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ونحوه، فما استمروا على العناد، بل كلما تجددت لهم المعجزة، جددوا الإيمان. هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقال. وغير النظم بذكر المفعول، وبناء الفعل له، للإيذان بأن تكذيبهم له كان في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أمهلت للكافرين، وأخرت عنهم العقوبة إلى أجلهم المسمى. والفاء لترتيب الإمهال على

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

التكذيب. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾؛ أي: أخذت كل فريق من فرق المكذبين، بعد انقضاء مدة إملائه، وإمهاله بعذاب الطوفان والريح الصرصر، والصيحة، وجند البعوض، والخسف، والحجارة، وعذاب يوم الظلة، والغرق في بحر القلزم، والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه. والمعنى: فليقر المخاطبون بأن إهلاكي لهؤلاء، كان واقعاً موقعه هذا، وحمله على التعجب أوضح. فكأنه قيل: ما أشد ما كان إنكاري عليهم؛ أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم بتغيير ما كانوا فيه من النعم محناً، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً؛ أي: فكان ذلك في غاية الهول، والفظاعة. وحاصل الآية: قد أعطيت هؤلاء الأنبياء ما وعدتهم من النصرة، فاستراحوا، فاصبر أنت إلى هلاك من يعاديك فتستريح.

والنكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أي: ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر. وأثبت ياء نكير، حيث وقع في القرآن، وَرْشٌ في الوصل، وحذفها في الوقف. والباقون يحذفونها وصلاً، ووقفاً اهـ «سمين».

والمعنى: أي[1] فإن يكذبك هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق، وما يعدهم به من العذاب على كفرهم به.. فلست بأوحدي في ذلك، فتلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية، المكذبة لرسلها، وذلك منهاج من قبلهم، فلا يصدنك ذلك فإن العذاب من ورائهم، ونصري إياك وأتباعك عليهم آت لا محالة، كما أتى عذابي على أسلافهم، من الأمم من قبلهم، بعد الإمهال. فقد أمهلت أهل الكفر من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة، والعذاب، ثم أحللت بهم عقابي بعدئذٍ. فانظر أيها الرسول كيف كان تغييري، ما كان بهم من نعمة، وتنكري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم، ألم أبدلهم بالكثرة قلة، وبالحياة موتاً وهلاكاً، وبالعمارة خراباً. فكذلك سأفعل بمكذبيك من قريش، وإن أمليت لهم

(١) المراغي.

إلى آجالهم، فإني منجزك وعدي فيهم، كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أممهم، فأهلكتهم، وأنجيت رسلي من بين أظهرهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ قال المولى الجامي[1]: في «شرح الكافية» من الكناية كأين، وإنما بني لأن كاف التشبيه دخلت على أيّ، وأيٌّ كان في الأصل معرباً، لكنه انمحى عن الجزأين معناهما الإفرادي فصار المجموع كاسم مفرد، بمعنى كم الخبرية، فصار كأنه اسم مبني على السكون آخره نون ساكنة، كما في من، لا تنوين تمكن، ولهذا يكتب بعد الياء نون مع أن التنوين لا صورة له في الخط. انتهى. والمعنى: فكثير من القرى. وهو مبتدأ، وقوله: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ خبره. وقوله: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حالية من مفعول ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾. والمراد ظلم أهلها بالكفر والمعاصي، وهو بيان لعدله، وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر أنه لم يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم. وقرأ[2] أبو عمرو وجماعة: ﴿أهلكتها﴾ بتاء المتكلم، على وفق قوله: فأمليت ثم أخذت. وقرأ الجمهور ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ بنون العظمة.

أي: فكثير من أهل القرى أهلكناهم، والحال أن أهلها ظالمون بالإشراك والمعاصي وجملة قوله: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ معطوفة على ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾. والمراد[3] بضمير القرية حيطانها، والخواء بمعنى السقوط، من خوى النجم إذا سقط؛ أي: ساقطة حيطان تلك القرية. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: على سقوفها، بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. فالعروش السقوف؛ لأن كل مرتفع أظللت فهو عرش، سقفاً كان، أو كرماً، ظلة أو نحوها.

﴿وَبِئْرٍ﴾ معطوف على قرية؛ أي: وكم من بئر عامرة في البوادي؛ أي: فيها الماء ومعها آلات الاستقاء ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي: متروكة مخلاة، لا يستقى منها

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

لهلاك أهلها. وقرأ الجحدري والحسن وجماعة: ﴿مُعْطَلَةٍ﴾ مخففاً. ﴿و﴾ كم من ﴿قصر﴾؛ أي: بناء ﴿مَّشِيدٍ﴾؛ أي: رفيع طويل عال. وقيل مجصص خال عن السكان لهلاك أهلها.

والمعنى[١]: وكم من قرية ﴿أهلكناها﴾، وكم بئر عطلناها عن سقاتها، وكم قصر مشيد أخليناه عن ساكنيه، فترك ذلك لدلالة معطلة عليه. وإنما بني ﴿مشيد﴾ هنا من شاده. وفي النساء من شيده، لأنه هناك وقع بعد جمع، فناسب التكثير. وهنا وقع بعد مفرد، فناسب التخفيف؛ ولأنه رأس آية وفاصلة، اهـ «سمين».

وقيل[٢]: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن، أما القصر فعلى قُلَّةِ جبل، والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم، كانوا في نعمة، فكفروا، فأهلكهم الله تعالى، وبقي البئر والقصر خاليين، وقيل: إن هذه البئر كانت بحضرموت، في بلدة يقال لها: حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب، أتوا إلى حضرموت ومعهم صالح، فلما حضروه مات صالح، فسمي المكان حضرموت لذلك. ولما مات صالح بنوا حاضوراء، وقعدوا على هذه البئر، وأمروا عليهم رجلاً منهم، فأقاموا دهراً، وتناسلوا حتى كثروا، وعبدوا الأصنام، وكفروا فأرسل الله تعالى إليهم نبياً يقال له: حنظلة بن صفوان، وكان حمالاً فيهم، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله تعالى، وعطلت بئرهم، وخرب قصرهم. قال الإمام السهيلي: قيل: أن البئر الرس. وكانت بعدن لأمة من بقايا ثمود، وكان لهم ملك عدل حسن السيرة يقال له العَلَسُ، وكانت البئر تسقي المدينة كلها، وباديتها، وجميع ما فيها من الدواب، والغنم، والبقر، وغير ذلك. وقال الثعلبي: وأما القصر، فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم، لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا، وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنس، وإقفاره بعد العمران.

والمعنى[٣]: أي فكثير من القرى أهلكناها، إذ كان أهلها يعبدون غير من

---

(١) الكشاف.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

ينبغي أن يعبد، ويعصون من لا ينبغي أن يعصى، فخوت من مكانها، وتساقطت على عروشها؛ أي: سقطت حيطانها فوق سقوفها، وكم من بئر عطلناها، بإفناء أهلها، وأهلاك واردها، فلا واردة لها ولا صادرة منها، وكم من قصر شيد بالصخور والجص قد خلا من سكانه، بما أذقنا أهله بسوء أفعالهم، فبادوا وبقيت القصور المشيدة خالية منهم. قال قتادة: شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركه، ثم أكد لهم صدق وعيده، وأحالهم على ما يشاهدون بكرة وعشيا. فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي:[1] أغفل أهل مكة فلم يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في اليمن والشام ليروا مصارع المهلكين. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما يشاهدونه من مواد الاعتبار. وقرأ مبشر بن عبيد ﴿فيكون﴾ بالياء. والجمهور بالتاء. وهو منصوب على جواب الاستفهام، وهو في التحقيق منفي. ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد. ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس، فإنهم أعرف منهم بحالهم، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين، فحثوا على ذلك فالاستفهام للإنكار.

﴿فَإِنَّهَا﴾؛ أي: فإن القصة، فالضمير فيه للقصة. وحسن التأنيث هنا ورجحه كون الضمير وليه فعل بعلامة التأنيث، وهي التاء في ﴿لا تعمى﴾، ويجوز في الكلام التذكير. وقرأ به عبد الله، ﴿فإنه لا تعمى﴾، ذكره في «البحر». ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: أبصار العيون. ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة؛ أي: لا تدرك عقولهم مواطن الحق، ومواضع الاعتبار. قال الفراء والزجاج: إن قوله: ﴿التي في الصدور﴾، من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام، كقوله: عشرة كاملة، ويقولون بأفواههم، ويطير بجناحيه. وللتنبيه على

---

(١) روح البيان.

أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يختص بالبصر، وأكثر الناس عميان بصيرة القلب، لا يبصرون به أمر دينهم. والمعنى[1]: إن عمى القلب، هو الضار في أمر الدين، لا عمى البصر، لأن البصر الظاهر بُلْغَةٌ ومُتْعَةٌ، وبصر القلوب، هو البصر النافع. ومعنى الآية أي: أفلم يسر[2] هؤلاء المكذبون بآيات الله، الجاحدون لقدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع أضرابهم، من مكذبي رسل الله، الذين خلوا من قبلهم، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وشعيب، ويروا أوطانهم، ومساكنهم، ويسمعوا بآذانهم أخبارهم، فيتفكروا، ويعتبروا بها، ويعلموا أمرها، وأمر أهلها، وكيف نابتهم النوائب، وغالتهم غوائل الدهر فيكون في ذلك معتبر لهم لو أرادوا، فينيبوا إلى ربهم، ويعقلوا حججه التي بثها في الآفاق، ثم أظهر اليأس من إيمانهم؛ لأن القلوب قد عميت فلا تبصر الدلائل الكونية، ولا البراهين لعقلية، فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: إن أبصارهم وإن كانت سالمة لا عمى بها، فقد أصابهم عمى القلوب. والعمدة على الثاني، لا على الأول، فعمى الأبصار ليس بشيء، إذا قيس بعمى القلوب، والبصائر. وفي هذا تهويل أيما تهويل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾؛ أي: ويطلب منك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة المكذبون بالله وكتابه ورسوله، واليوم الآخر ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: بمجيء العذاب الذي تحذرهم منه وتوعدهم إياه عجلة إنكاراً منهم لوقوعه، واستهزاء بحلوله، وتعجيزاً له، واستبعاداً لمجيئه.

أي: يطلبون عجلتك بالعذاب؛ أي: أن تأتيهم به عاجلاً. وكانوا يقولون له كما تقول الأمم السابقة لأنبيائهم ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. ثم بين أنه آت لا محالة، فقال: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: لن يترك وفاء ما وعده لك من نصرك عليهم، وإنزال العذاب لهم في الدنيا. وقد أنجز الله وعده يوم بدر، فقتل منهم سبعون، وأسر منهم سبعون.

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

ثم ذكر[١] أن لهم مع عذاب الدنيا في الآخرة عذاباً طويلاً، فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ من أيام عذابهم في الآخرة لشدة هوله، وأليم عذابه ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من سني الدنيا في الثقل، والاستطالة وكثرة الآلام، فلو عرفوا حال عذاب الآخرة أنه بهذا الوصف لما استعجلوه. والخطاب فيه للرسول ومن معه من المؤمنين. كأنه قيل: كيف يستعجلون بالعذاب، ويوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيّكم. إما من حيث طول أيام عذابه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة، كما يقال: ليل الفراق طويل وأيام الوصل قصار. ويقال: سنة الوصل سنة. وسنة الهجر سنة. اهـ «روح البيان».

وقيل معناه[٢]: أن يوماً عنده وألف سنة في الإمهال سواء؛ لأنه قادر متى شاء أخذهم، لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره.

ومعنى ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ أي[٣]: وكيف ينكرون مجيء ذلك العذاب، وقد وعد الله به، وما وعد به كائن لا محالة، وهو كما فعل بمن قبلهم، يفعل بهم؛ لأن ذلك هو نهجه الثابت، وصراطه المستقيم، وسيحل بهم مثل ما حل بغيرهم.

ومعنى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي: وإن قلتم: إن العهد قد طال، ولم يحل بنا العذاب، فأين هو؟ قلنا: إن الله سبحانه حليم، وألف سنة عندكم كيوم عنده، فهو سينفد وعده بعد أمد طويل عندكم، قريب عنده، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ فإذا تأخر عذاب الآخرة أمداً طويلاً فلا يكون في ذلك إخلاف للوعد، فعشرون ألف سنة عند ربك كعشرين يوماً عندكم.

والخلاصة[٤]: أن سنتي لا بد من نفاذها، ولا بد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين، أمماً وأفراداً، في الدينا والآخرة، أو عذابهم في الآخرة فحسب مع

---

(١) الواحدي.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) المراغي.

الأكدار في الدنيا وهم لا يشعرون.

وقال أبو حيان[1]: واختلفوا في هذا التشبيه، فقيل: في العدد؛ أي: اليوم عند الله ألف سنة من عددكم. وفي الحديث الصحيح: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمس مئة عام». فالمعنى: وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أيام الله. وقيل: التشبيه وقع في الطول للعذاب فيه والشدة؛ أي: وإن يوماً من أيام عذاب الله، لشدة العذاب فيه وطوله، كألف سنة من عددكم، إذ أيام الترحة مستطالة، وأيام الفرحة مستقصرة. وكان ذلك اليوم كألف سنة من سني العذاب. والمعنى: أنهم لو عرفوا حال الآخرة ما استعجلوه. وقيل: التشبيه بالنسبة إلى علمه تعالى وقدرته، وإنفاذ ما يريد كألف سنة. وقال ابن عيسى: يجمع لهم عذاب ألف سنة في يوم واحد، ولأهل الجنة سرور ألف سنة في يوم واحد واقتصر في التشبيه على الألف؛ لأن الألف منتهى العدد بلا تكرار. انتهى.

وقيل المعنى[2]: وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا، فيها خوف وشدة، وكذلك يوم النعيم قياساً. وجملة قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ محلها النصب على الحال؛ أي: والحال أنه لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتماً، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها. وعلى الأول تكون جملة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ إلخ مستأنفة، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها، مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال.

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ: ﴿مما يعدون﴾ بالتحتية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. ﴿وتستعجلون بالعذاب﴾ واختارها أبو حاتم. ويكون فيه التفات. فعلى[3] العاقل أن يلاحظ أن كل آت قريب، ولا يغتر بالإمهال، فإن بطش الله شديد، وعذابه لا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

يطاق، ويسارع إلى رضى الله تعالى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وترك الاستهزاء بالدين وأهله بأحكام الله، ووعده، ووعيده، فإن الله صادق في قوله، حكيم في فعله، وليس للعبد إلا تعظيمه وتعظيم أمره.

ثم أكد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإن طال الأمد، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكثير من أهل قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾؛ أي: أمهلتها بتأخير العذاب، كما أمهلت لهؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة لها، كدأب هؤلاء ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ وأهلكتها بالعذاب بعد طول الإمهال. ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: إلى[1] حكمي ومجازاتي مرجع الكل، لا إلى أحد غيري، لا استقلالاً ولا شركة، فأفعل بهم ما أفعل مما يليق بأعمالهم. وفيه إشارة إلى أن الإمهال يكون من الله تعالى، والإهمال لا يكون منه، فإنه يمهل ولا يهمل، ويدع الظالم في ظلمه، ويوسع له الحبل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه يفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي أراد. ويأخذه من حيث لا يرتقب، فيعلوه ندامة ولات حينه. وكيف يستبقي بالحياة ما حق في التقدير عدمه، وإلى الله مرجعه، فالظلم من العبد سبب للأخذ من الله، فلا يلومن إلا نفسه.

وجملة قوله: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ تذييلية، ذكرت لتقرير ما قبلها. والمعنى؛ أي: وكم[2] من قرية أخرت إهلاكها مع استمرارها على ظلمها، فاغترت بذلك التأخير، ثم أنزلت بها بأسي، وشديد انتقامي، وحسابها بعد مدخر ليوم الحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد، وعظيم التهديد.

فائدة: فإن قلت[3]: لم كرر التكثير بكأين من القرى؟

قلت: لا تكرار فيه؛ لأن الثانية أفادت غير ما أفادت الأولى؛ لأنه ذكر في الأولى القرية التي أهلكها بدون إملاء وإمهال، بل أعقب الإهلاك بعد التذكير.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط بتصرف.

وذكر في الثانية القرية التي أمهل لها حتى استعجلت بالعذاب، ثم جاء إهلاكها، تنبيهاً على أن قريشاً وإن أمهلهم حتى استعجلوا بالعذاب لا بد من عذابهم، فلا يغتروا بتأخير العذاب عنهم.

فإن قلت: لم عطفت الأولى بالفاء، والثانية بالواو، فما الفرق بينهما؟

قلت: الأولى وقعت بدلاً من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فناسبتها الفاء، والثانية وقعت بعد الجملتين المعطوفتين بالواو. أعني قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ فناسبها العطف بالواو، كما ذكره الزمخشري. ثم أبان لهم عظيم خطأهم في طلب تعجيل العذاب من الرسول بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المستعجيلن للعذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم إنذاراً بيناً بما أوحي إلي من أخبار الأمم المهلكة، من غير أن يكون لي دخل في إتيان ما توعدونه من العذاب، حتى تستعجلوني به.

فإن قلت: لِمَ اقتصر[1] هنا على الإنذار فقط، مع أنه بين حال الفريقين فيما بعد؟

قلت: لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين وعقابهم، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم فيما بعد زيادة في غيظهم.

والمعنى: قل يا أيها المشركون المستعجلون مجيء العذاب: ليس ذلك إلي، وإنما أرسلني ربي نذيراًلكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، بل أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب وينيب إليه. ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ثم فصل هذا الإنذار بذكر الوعد للمتقين، والوعيد للكافرين، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وحده وصدقوا رسوله، وقبلوا ما جاء به. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الخيرات بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ﴿لَهُم﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: ستر وتجاوز عن ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: نعيم دائم لا ينقطع أبداً في الجنة.

---

(١) روح البيان بتصرف.

والمعنى: أي[1] فالذين آمنت قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة لهم، مغفرة لما سلف من سيئاتهم، وثواب جسيم عند ربهم على ما قدموا من حسناته، ولهم رزق كريم في الجنة، يفوق وصف الواصفين، ومقال المادحين. كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وفي الحديث: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟﴾ واجتهدوا ﴿فِىٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ ورد دعوتنا وتكذيب رسولنا وثبطوا الناس عن متابعته حالة كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين عجزنا عن أخذهم، أو سبقهم عذابنا، ظنا منهم أنهم يعجزوننا، وأنهم لا يبعثون. أو معارضين المؤمنين، فكلما طلب المؤمنون إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله. يقال[2]: عاجزه إذا سابقه؛ لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، قاله الأخفش. وقيل: معنى معاجزين ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه، ويفوتوه فلا يعذبهم. قاله الزجاج. وقيل: معاندين. قاله الفراء. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالسعي والمعاجزة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: ملازموا النار الموقدة، مقيمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال والزعفراني[3]: ﴿مُعجزين﴾ بالتشديد هنا، وفي حرفي سبأ زاد الجحدري في جميع القرآن؛ أي: مثبطين. وقرأ باقي السبعة ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بألف. وقر ابن الزبير ﴿مُعْجِزين﴾ بسكون العين وتخفيف الزاي، من أعجزني، إذا سبقك ففاتك. قال صاحب «اللوامح»: لكنه هنا، بمعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين أنهم يعجزوننا. وذلك لظنهم أنهم لا يبعثون. وقيل في معاجزين: بمعنى معاندين، ومعجزين بالتشديد. بمعنى: مثبطين الناس عن الإسلام، ومعجزين بالتخفيف، بمعنى: ناسبين أصحاب النبي ﷺ إلى العجز. كما تقول: فسقت فلاناً. إذا نسبته إلى الفسق. قاله أبو علي الفارسي.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ إلخ. شروع في تسلية ثانية لرسول الله ﷺ، بعد التسلية الأولى، بقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ إلخ. والمراد بالرسول هنا من جاء بشرع جديد، كموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم. والنبي من جاء لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام؛ أي: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ﴿وَلَا﴾ نبأنا من ﴿نَبِيٍّ﴾ في حال من الأحوال ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾؛ أي: إلا والحال أنه إذا تمنى وقرأ ذلك الرسول أو النبي ما أوحي إليه من الكتاب. ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في قلوب سامعيه شبهة ﴿فِيٓ﴾ شأن ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؛ أي: في شأن قراءته، فيلقي في قلوب بعض السامعين إن هذا المقروء سحر. وفي قلوب بعضهم أنه شعر وفي قلوب بعضهم أنه أساطير الأولين، وفي قلوب بعضهم أنه كهنة. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فيزيل الله سبحانه وتعالى، ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في قلوب السامعين من تلك الشبهات والخرافت بنور الهداية، بأن يقيض للدين من يدافع عنه، ويدفع تلك الشبهات. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ويثبت ﴿ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ التي تلاها الرسول، أو النبي في قلوب السامعين وغيرهم، حتى لا يجد أحد سبيلاً إلى ردها وإبطالها؛ أي: ثم يجعل آياته محكمة مثبتة، لا تقبل الرد بحال.

وخلاصة ذلك(١): أن الله سبحانه وتعالى حين أنزل القرآن، وقرأه الرسول ﷺ، قال المشركون: فيه ما قالوا من تلك الشبهات السابقة، ثم لما استبان الحق، وجاءت غزوة بدر، ونصر الله المسلمين الذين بشرهم، كتابه بالنصر على أعدائهم ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم في دينهم أفواجاً. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطفيلية، التي تنبت في الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول، وعدس، وحمص، وغيرها مما يحتاج إليه الناس، ولا تزال تلك الطفيلية تتغذى من الأرض، وتأخذ غذاء النبات

---

(١) المراغي.

النافع، فلا يهدأ للزارع بالٌ حتى يزيلها، ويوفر غذاءها للنبات الذي هو في أشد الحاجة إليه.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فإنك الآن لترى أهل أوربا يرسلون الجيوش، والمبشرين من القساوسة، التي تفتح المدارس في بلاد الشرق وغيرها، ويقولون: للمسلمين إن دينهم محشو بالخرافات، والأكاذيب، ويشككون فيه من تعلموا في تلك المدارس، ويصدق بعض غوغائهم تلك الأباطيل، حتى لقد قيل: إن هذا الدين لا يعيش في ظل العلم، ولا يقبل الأفكار والآراء، وهو والعلم عدوان لا يجتمعان.

ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون: حال المسلمين من الخمول، وسوء الأحوال، وقبيح المعتقدات والأعمال، مما جعلهم مضغة في أفواه الأمم المتمدنة. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

وإن الله لينسخ تلك الوساوس ويزيل هذه الأوهام، فقد تصدى كثير من ذوي المعرفة لدحض تلك المفتريات، فقام العالم الحكيم محمد عبده، وألف كتابه «الإسلام والنصرانية» ودفع كثيراً من مطعان أولئك المبشرين. وقام بعده كثير من أهل الفقه بالدين، فاحتذوا حذوه، وواصلوا الليل بالنهار، في دحض تلك الشبه، وإن الله لناصر دينه ولو كره الكافرون.

هذا وقد دس[1] بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة، لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها. وأنها ليست من الحق في شيء، وهي مما تشكك المسلمين في دينهم وتجعلهم في حيرة من أمر الوحي، وكلام الرسول، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهرياً. وأن لا يضيعوا الزمن في تأويلها وتخريجها، وأن لا يسرفوا الأوراق والحبر في كتابتها ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدثين على وضعها وكذبها، لمصادمتها لأصول الدين التي لا تقبل شكاً ولا امتراء.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وهي قصة الغرانيق. وقد سئل الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية عن قصة الغرانيق؟ فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً. وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وقال ما معناه إن رواتها مطعون عليهم، وليس في «الصحاح»، ولا في التصانيف الحديثة شيء مما ذكروه، فوجب اطراحه، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه. والعجب من نقل هذا، وهم يتلون في كتاب الله تعالى ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ الآيات.

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. وقال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إليه، وبما ألقى الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: ذو الحكمة البالغة في تمكينه من ذلك الإلقاء، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه؛ أي: والله عليم بكل شيء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء. حكيم في أفعاله، ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات، ليحاج أولياءه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها، ودحض المفتريات التي يتشدقون بها، ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء، من بين تلك الظلمات، فتمحو الظلام الذي كان عالقاً بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الرشاد. وإلى الفريقين أشار بقوله:

١ - ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ وهذه الجملة علة للإلقاء؛ أي: ذلك الإلقاء من الشيطان لكي يجعل سبحانه وتعالى ﴿ما يلقي﴾ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في قلوب أوليائه من تلك الشبهات ﴿فِتۡنَةً﴾ واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق؛ لأنه مرض قلبي، مؤد إلى الهلاك الروحاني. كما أن المرض القلبي مؤد إلى الهلاك الجسماني. ﴿و﴾ فتنة لـ ﴿القاسية قلوبهم﴾؛ أي: فتنة للذين قست قلوبهم، وغلظت عن قبول التوحيد، وهم المشركون؛ لأن قلوبهم لا تلين للحق أبداً، ولا ترجع إلى

الصواب بحال.

أي: ذلك الإلقاء ليجعل ما يلقيه الشيطان في قلوب أوليائه فتنة، وضلالة للمنافقين، الذين في قلوبهم مرض، ونفاق. وللكافرين الذين قست قلوبهم فلا تلين لقبول الحق، ولا ترعوي عما هي فيه من الغي والضلال. ثم[1] سجل سبحانه على هاتين الطائفتين، وهما من في قلبه مرض، ومن في قلبه قسوة، بأنهم ظالمون. فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من سعادة الدارين يعني المنافقين والمشركين، ففيه وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم اسم الظلم. ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ﴾ وخلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق والصواب؛ أي: لفي عداوة شديدة، ومخالفة تامة. ووصف الشقاق بالبعد، مع أن الموصوف به حقيقة من قام به للمبالغة.

أي: وإن[2] هذين الصنفين من الضلال لفي عداوة لأمر الله، وبعد عن الرشاد والسداد بما لا مطمع لهما معه في النجاة، والفوز برضا الله تعالى.

ولما بيَّن سبحانه، أن ذلك الإلقاء كان فتنة في حق أهل النفاق والشرك، بين أنه في حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به، سبب لحصول العلم لهم، بأن القرآن حق وصدق فقال:

٢ - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: ولكي يعلم الذين رزقوا العلم بالله وبآياته، بنسخ ما يلقي الشيطان في قلوب أوليائه من تلك الشبهات وبإحكام آياته ﴿أَنَّهُ﴾؛ أي: أن القرآن المقروء للرسول هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: من عند ربهم ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: فيصدقوا به. أي:[3] يثبتوا على الإيمان به، أو يزدادوا إيماناً برد ما يلقي الشيطان. وهو عطف على قوله ليعلم. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ﴾ أي: للقرآن؛ أي: تخشع وتتواضع له ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب الذين أوتوا العلم وتذعن للإقرار به نفوسهم، وتنقاد له، وتعمل بما فيه من عبادات، وآداب،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وأحكام. وهي مثلجة الصدر، هادئة مطمئنة ببرد اليقين والسير على نهج سيد المرسلين.

ثم بين حسن مآلهم، وفوزهم بسعادة العقبى. فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الأمور الدينية خصوصاً في المداحض، والمشكلات التي من جملتها هذا الإلقاء ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى نظر صحيح موصل إلى الحق الصريح.

أي: وإن الله سبحانه لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله، وموفقهم إلى الحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسوله حين تلاوة الوحي، وحفظ أصول الدين الصحيحة في نفوسهم، والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وخلاصة ذلك: أن الله ليهدي الذين آمنوا إلى تأويل ما تشابه من الدين، وتفصيل ما أجمل منه بما تقتضيه الأصول المحكمة، فلا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة، ولا تزلزل أقدامهم ترهات المبطلين.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالإضافة. وأبو حيوة وابن أبي عبلة بتنوين ﴿لهادٍ﴾. ثم أردفه ببيان مآل الفريق الأول، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: مما ألقى الشيطان في قلوبهم من تلك الشبهات والخرافات حين قراءة الرسول القرآن عليهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي:[(٢)] حتى يأتيهم الموت فجأة، وهم في بيوتهم آمنون. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؛ أي: أو يشتبكوا مع المؤمنين في قتال يهلك فيه أبطالهم، وصناديدهم، كما حدث يوم بدر. وقد جعل هذا اليوم عقيماً؛ لأن المقاتلين يسمون أبناء الحرب، فإذا هم قتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم.

أو المعنى[(٣)]: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة؛ لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيماً. والعقيم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

في اللغة من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى، جعل ذلك كهيئة الولادة، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم، ولا ليلة وصف بالعقيم. وقيل: إن اليوم وصف بالعقيم، لأنه لا رأفة فيه، ولا رحمة. فكأنه عقيم عن الخير. فكأنه قال: حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها.

وخلاصة هذا: أنه لا مطمح في إيمانهم ولا لزوال المرية من قلوبهم، فهم لا يزالون كذلك حتى يهلكوا. وبعد أن بين سبحانه حال الفريقين في الدنيا، أرشد إلى حالهم في الآخرة. فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: السلطان القاهر، والاستيلاء التام، والتصرف على الإطلاق. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة، أو العذاب ﴿لِّلَّهِ﴾ سبحانه وحده لا منازع له فيه، ولا مدافع له عنه. وجملة قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا يصنع بهم حينئذٍ، فقيل: يحكم بين فريقي المؤمنين بالقرآن، والمجادلين فيه بالمجازاة اللائقة بكل منهما.

أي: إذا جاء[1] يوم القيامة.. حكم ربهم بينهم بالحق، وجازى كلا منهما بما هو له أهل، وبما أعد نفسه له في الدنيا من عمل صالح، زكى به نفسه، وطهر به روحه، أو عمل سيء دسَّاها به، فرانت على قلبه غشاوة الشكوك والأوهام، واجترام المعاصي والآثام.

ثم فسر هذا الحكم والمحكوم عليهم، وفصله بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالقرآن ولم يجادلوا فيه. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الخيرات بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه مستقرون ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون؛ أي: فالذين آمنوا بهذا القرآن وبمن أنزله، وبمن جاء به، وعمل بما فيه من أوامر ونواه، يثيبهم ربهم جنات النعيم، يستمتعون فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، جزاء وفاقاً على ما زكوا به أرواحهم، وأخلصوا له في أعمالهم، وراقبوه في السر والعلن، وخافوا عذابه في ذلك اليوم

---

(١) المراغي.

الذي تشيب من هوله الولدان. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: أصروا على ذلك، واستمروا. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب ذو إهانة، يذهب بعزهم وكبرهم رأساً، وبالكلية، ويلحقهم من الخزي والصغار ما لا يحيط به الوصف، و[1] إدخال الفاء في خبر الثاني، دون الأول، تنبيه على أن إثابة المؤمنين بطريق التفضل، لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وأن عقاب الكافرين بسبب أعمالهم السيئة.

والمعنى: أي[2] والذين كفروا بالله وكذبوا رسوله، وجحدوا بآيات كتابه، وقالوا إنما هو إفك افتراه محمد، وأعانه عليه قوم آخرون، أولئك لهم عذاب عند ربهم، يذلهم، ويخزيهم، كفاء استكبارهم عن النظر فيها، وجحودهم بها عناداً، وقد كان لهم فيها ـ لو تأملوا حق التأمل ـ ما يكون صاداً لهم عن غيهم، ورادعا لهم عن ضلالهم.

واعلم[3]: أن الفصل والحكومة العادلة كائن لا محالة، وإن كان الكفار في شك من القرآن، وما نطق به من البعث، والمجازاة. روي أن لقمان وعظ ابنه وقال: يا بني إن كنت في شك من الموت فادفع عن نفسك النوم، ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شك من البعث، فإذا نمت فادفع عن نفسك الانتباه، ولن تستطيع ذلك، فإنك إذا فكرت في هذا، علمت أن نفسك بيد غيرك، فإن النوم بمنزلة الموت، واليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت، فإذا عرف العبد مولاه قبل أمره، ونال به عزة لا تنقطع أبداً، وهي عزة الآخرة التي تستصغر عندها عزة الدنيا.

وروي أن عابداً رأى سليمان عليه السلام، في عزة الملك فقال: يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً. فقال سليمان: لتسبيحة واحدة خير مما فيه سليمان تبقى، وملك سليمان يفنى. فإذا كانت التسبيحة الواحدة أفضل من ملك

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

سليمان، فما ظنك بتلاوة القرآن الذي هو أفضل الكتب الإلهية.

ثم أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر، تخصيصاً لهم بمزيد الشرف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ وفارقوا أوطانهم، وتركوا عشائرهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته، وجهاد أعدائه، طلباً لرضاه سبحانه.

وقال بعض المفسرين[1]: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقال بعضهم: هم الذين هاجروا من الأوطان في سرية، أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين، والكل من سبيل الله. ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ أي: قتلهم أعداء الله في الجهاد. قرأ ابن عامر وأهل الشام ﴿ثم قتّلوا﴾ بالشتديد على التكثير. وقرأ الباقون بالتخفيف. ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ في حال المهاجرة في سفر، أو حضر من غير قتل. واللام في قوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ جواب قسم محذوف، والجملة القسمية وجوابها خبر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾. وفيه دليل على وقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ؛ أي: وعزتي وجلالي ليثيبنهم الله تعالى ثواباً جزيلاً لا ينقطع أبداً، هو نعيم الجنة، جزاء ما ناضلوا عن دينه، وأخلصوا في الذود عنه.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضل المعطين، وأجود الأكرمين، يعطي من يشاء بغير حساب، ويرزق الخلق كافَّةً، بارهم وفاجرهم، وكل رزق يجري على يد العباد بعضهم لبعض فهو منه سبحانه، لا رزاق سواه، ولا معطي غيره. وجملة ﴿إن﴾ تذييلية مقررة لما قبلها. والرزق العطاء الجاري دنيوياً كان أو أخروياً.

وجملة قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾؛ أي: ليدخلن الله سبحانه وتعالى المهاجرين. واللام فيه للقسم. ﴿مُّدْخَلًا﴾ اسم مكان أريد به الجنة. قرأ أهل المدينة: مدخلاً بفتح الميم، والباقون بضمها. وانتصابه على أنه مفعول ثان، أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور. جملة مستأنفة، أو بدل من جملة ليرزقنهم الله؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

وعزتي وجلالي ليدخلنهم الله سبحانه مسكناً يحبونه لما أنهم يرون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا. وفي هذا من الامتنان عليهم، والتبشير لهم ما لا يقادر قدره، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم، والأقرب إلى مطلبهم.

والمعنى: أي والله ليدخلن الله المقتولين في سبيله، والموتى مهاجرين في طاعة ربهم، وذوداً عن دينه جنات النعيم، ويكرمون فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لما لا ينالهم فيها مكروه، ولا أذى. كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بدرجات العالمين، ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تفريط المفرطين منهم، لا يعاجلهم بالعقوبة.

والمعنى: أي وإن الله الذي عمت رحمته، وعظمت نعمته لعليم بمقاصدهم، وأعمالهم، وأعمال أعدائهم، حليم فلم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة جزاء تكذيبهم ومقاومتهم دعوة الدين مع غاية الاقتدار.

روي: «أن إبراهيم عليه السلام، رأى عاصياً في معصيته فدعا عليه، وقال اللهم أهلكه ثم رأى ثانياً وثالثاً ورابعاً فدعا عليه، فقال الله تعالى: يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى ما بقي إلا القليل، ولكن إذا عصى أمْهَلْناه فإن تاب قبلناه، وإن استغفر أخرنا العذاب عنه، لعلمنا أنه لا يخرج عن ملكنا».

الإعراب

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُدَافِعُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿عَنِ الَّذِينَ﴾ متعلق به ومفعول يدافع محذوف، تقديره: عوادي المشركين وغوائلهم. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتأكيد البشرى. ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا﴾ نافية ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿كُلَّ

﴿خَوَّانٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿كَفُورٍ﴾ صفة ﴿خَوَّانٍ﴾. وجملة ﴿لَا يُحِبُّ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

﴿أُذِنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والمأذون فيه محذوف لعلمه؛ أي: في القتال، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان الإذن في قتال المشركين. ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: حرف جر وسبب. ﴿أنهم﴾ ناصب واسمه. ﴿ظُلِمُواْۚ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء؛ أي: بسبب ظلمم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أُذِنَ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إن الله﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قدير﴾ ﴿لَقَدِيرٌ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿قدير﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة للوعد لهم بالنصر، على طريق الرمز والكناية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر نعت، أو بدل من ﴿الذين يقاتلون﴾، أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف. ﴿أُخْرِجُواْ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول. ﴿مِن دِيَٰرِهِم﴾ متعلق بأخرجوا. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من واو ﴿أُخْرِجُواْ﴾؛ أي: حالة كون إخراجهم ملتبساً بغير حق، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُواْ﴾، وجملة ﴿يَقُولُواْ﴾ في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير حرف الجر، كما في المستثنى منه؛ أي: ما أخرجوا بشيء من الأشياء إلا بقولهم ربنا الله. واختار الزمخشري وغيره: أن يكون الاستثناء مفرغاً لوجود النفي بغير، فـ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر. و﴿أَن يَقُولُواْ﴾ في محل جر على الإبدال من ﴿حَقٍّ﴾؛ أي: بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين، لا موجب الإخراج والتسيير. ﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود متضمن

معنى الشرط. ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ خبره محذوف وجوباً لقيام جواب ﴿لولا﴾ مقامه، تقديره موجود. وهو مصدر مضاف إلى الفاعل. ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به لـ﴿دَفْعُ﴾؛ لأن المعنى ولولا أن دفع الله الناس. ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بعضهم بدل بعض من الناس. ﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بدفع.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿هدمت صوامع﴾ فعل مغير ونائب فاعل. ﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ معطوفات على ﴿صَوَٰمِعُ﴾. والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة. ﴿يُذْكَرُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿فِيهَا﴾ متعلق به. ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ نائب فاعل لـ ﴿يُذْكَرُ﴾. ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكرا كثيراً، أو صفة لظرف محذوف؛ أي: وقتا كثيراً. والجملة الفعلية في محل الرفع صفة للمواضع المذكورة. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. واللام: موطئة للقسم. ﴿ينصرن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم. في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف. وجملة القسم مستأنفة. ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَقَوِىٌّ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿قوي﴾ خبر أول لأن. ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر ثان لها وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل النصر.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قبلها، أو نعت ثان لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾؛ أي:

لينصرن الله، الذي هم إن مكناهم. ذكر هذا الوجه الزجاج. ﴿إِن﴾. حرف شرط. ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾، على كونه فعل شرط لها. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾. ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَقَامُواْ﴾. ﴿وَأَمَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقَامُواْ﴾ أيضاً. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: متعلق بـ ﴿أمروا﴾. ﴿وَنَهَوۡاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقَامُواْ﴾. ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾: متعلق بـ ﴿نهوا﴾. ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾: الواو استئنافية ﴿لله﴾ خبر مقدم. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿فَقَدۡ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كَذَّبَتۡ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ متعلق به. ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿وَعَادٞ﴾ معطوف على ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾. ﴿وَثَمُودُ﴾ معطوف عليه أيضاً. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ معطوف على ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾. وكذا قوله: ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾. معطوفان عليه. و﴿مَدۡيَنَۖ﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي كزينب.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كُذِّب موسى﴾: فعل ونائب فاعل. والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾. ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿أمليت﴾: فعل وفاعل في محل الجزم معطوف على

جملة الجواب. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق به. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم معطوف على ﴿أمليت﴾. ﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء، عاطفة. ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التقريري التعجبي. في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم معطوف على ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾. ﴿نَكِيرِ﴾: اسمها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة الممنوعة بسكون الوقف. ﴿نَكِيرِ﴾: مضاف وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَكَأَيِّن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿كأين﴾ خبرية بمعنى عدد كثير في محل الرفع، مبتدأ مبني على السكون لشبهها بالحرف، شبها معنوياً لتضمنه معنى رب التكثيرية. ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لـ﴿كأين﴾ مجرور بـ ﴿مِّن﴾ الزائدة. ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿كأين﴾. والجملة الاسمية مستأنفة، ويجوز نصب ﴿كأين﴾ على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، فتكون جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ مفسرة، ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾. ﴿فَهِىَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿هي خاوية﴾ مبتدأو خبر. والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَاوِيَةٌ﴾. ﴿وَبِئْرٍ﴾ معطوف على ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ صفة لـ ﴿بئر﴾. ﴿وَقَصْرٍ﴾ معطوف أيضاً على ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿مَّشِيدٍ﴾ صفة ﴿قصر﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار داخلة على محذوف. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: أغفل أهل مكة فلم يسيروا في الأرض. ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم. ﴿يَسِيرُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ

﴿لم﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَتَكُونَ﴾ الفاء: عاطفة سببية ﴿تكون﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً، بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الاستفهام، أو النفي. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور مقدم لـ ﴿تكون﴾. ﴿قُلُوبٌ﴾. اسمها. ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ ﴿قُلُوبٌ﴾، والتقدير: فتكون قلوب عاقلون بها كائنة لهم. وجملة ﴿تكون﴾ صلة إن المضمرة، ﴿إن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر. معطوف على مصدر متصل من الجملة التي قبلها، من غير سابكٍ لإصلاح المعنى. تقديره: هل يكون سيرهم في الأرض، فكون قلوب عاقلة لهم. أو لم يكن سيرهم في الأرض. فكون قلوب عاقلة لهم. ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾: معطوف على ﴿قُلُوبٌ﴾ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ فعل وفاعل صفة لـ﴿ءَاذَانٌ﴾ ﴿بِهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿فَإِنَّهَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿إنَّ﴾ حرف نصب. الهاء: ضمير القصة في محل النصب اسمها ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فعل وفاعل. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ مفسرة لضمير الشأن. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾ فعل وفاعل. والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا تَعْمَى﴾ على كونها خبراً ﴿لأن﴾ ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لـ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾. ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يستعجلونك﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به. ﴿وَلَن يُخْلِفَ﴾ الواو: حالية ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿يُخْلِفَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لن﴾. ﴿وَعْدَهُۥ﴾ مفعول به. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يستعجلونك﴾، والرابط محذوف،

تقديره ويستعجلونك بالعذاب، حالة كونهم، لن يخلف الله وعدهم. ﴿وَإِنَّ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿إن يوماً﴾: ناصب واسمه. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿إن﴾. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة ﴿سَنَةٍ﴾، وجملة: ﴿تَعُدُّونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها. والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: مما تعدونه. وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها حالاً من فاعل ﴿يستعجلون﴾، والتقدير: ويستعجلونك بالعذاب، حالة كونهم، لن يخلف الله وعدهم، وحالة كون يوم مما وعدهم ربهم، كألف سنة مما تعدون، أو جملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿كأين﴾: خبرية في محل الرفع مبتدأ. ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: تمييز لها في محل النصب مجرور بـ ﴿مِّن﴾. ﴿أَمْلَيْتُ﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل الرفع خبر ﴿كأين﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يستعجلونك﴾. ﴿لَهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَمْلَيْتُ﴾. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب حال من ضمير لها. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ فعل وفعل ومفعول معطوف على ﴿أَمْلَيْتُ﴾. ﴿وَإِلَيَّ﴾ خبر مقدم. ﴿الْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو حال من ضمير ﴿أَخَذْتُهَا﴾؛ أي: ثم أخذتها حال، كون مصيرها إلي، لا إلى غيري.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي. وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿النَّاسُ﴾: بدل لـ﴿أي﴾. وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿أَنَا﴾ مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بما بعده ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر المبتدأ ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلت لهم: يا أيها الناس، إنما أنا لكم بشير ونذير، وأردت بيان مآلهم.. فأقول لك: الذين آمنوا. ﴿الذين﴾ مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ ثان مؤخر. ﴿وَرِزْقٌ﴾ معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾. ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة لـ ﴿رزق﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره. في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿سَعَوْاْ﴾ فعل وفعل صلة الموصول. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿سَعَوْاْ﴾. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: حال من فاعل ﴿سَعَوْاْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ خبره. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية: ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أرسلنا﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿رَّسُولٍ﴾ مفعول به لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿وَلَا نَبِىٍّ﴾ معطوف على الرسول. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأوقات ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على رسول أو نبي، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب إذا لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا من فعل شرطها وجوابها في محل النصب على الاستثناء من

أعم الأوقات، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك من رسول، ولا نبي في وقت من الأوقات، إلا وقت القاء الشيطان في أمنيته وقت تمنيه وقراءته. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ الفاء: عاطفة ﴿ينسخ الله ما﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَلْقَى﴾ ﴿يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل وفاعل صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما يلقيه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ينسخ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الجار ومتعلقه.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿لِّيَجْعَلَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجعل﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾ في محل النصب مفعول أول لـ ﴿جعل﴾. ﴿يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعل وفاعل صلة لما، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما يلقيه الشيطان. ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾، وجملة يجعل مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لجعل الله ما يلقي الشيطان فتنة، للذين في قلوبهم مرضٌ. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُحْكِمُ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ﴾ في متعلق هذه اللام ثلاثة أوجه:

أظهرها: أنها متعلق بـ ﴿يُحْكِمُ﴾.

والثاني: أنها متعلق بـ ﴿ينسخ﴾، وهذا الوجه ظاهر أيضاً.

والثالث: أنها متعلق بـ ﴿أَلْقَى﴾، وليس بظاهر، انتهى. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿فِتْنَةً﴾، أو متعلق به. ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ﴾ معطوف على الذين. ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل القاسية. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الواو حالية، أو استئنافية. ﴿إن الظالمين﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِي﴾ اللام حرف ابتداء. ﴿في شقاق﴾ جار ومجرور خبر ﴿إن﴾. ﴿بَعِيدٍ﴾ صفة ﴿شِقَاقٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب

حال، من الموصول وما عطف عليه، والرابط إعادة صاحب الحال بمعناه، والتقدير: حالة كون الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم كائنين في شقاق بعيد، أو جملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يعلم الذين﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، الجار والمجرور معطوف على الجال والمجرور في قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ﴾، وقد تقدم لك بيان متعلقه. ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿يعلم﴾؛ أي: كونه الحق من ربهم. ﴿فَيُؤْمِنُوا۟﴾: الفاء عاطفة. ﴿يؤمنوا﴾، فعل وفاعل مطعوف على ﴿ليعلم﴾ منصوب بأن مضمرة. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يؤمنوا﴾. ﴿فَتُخْبِتَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿تخبت﴾ فعل مضارع معطوف على ﴿يؤمنوا﴾، منصوب بأن مضمرة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تخبت﴾. ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل لـ ﴿تخبت﴾. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهَادِ﴾ اللام: حرف ابتداء ﴿هاد﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص وحذفت خطًّا تبعاً للفظ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿هاد﴾؛ لأنه اسم فاعل، ويجوز فيه الإضافة، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفعل صلة الموصول. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بـ ﴿هاد﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة صراط.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَزَالُ﴾: فعل مضارع ناقص من أخوات كان. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة

الموصول. ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾: جار ومجرور خبر﴿يَزَالُ﴾. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مِرْيَةٍ﴾، أو متعلق به، وجملة ﴿لا يزال﴾ من اسمها وخبرها معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ ليستكمل شرح حال الكافرين ويستوفيها ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً. بعد حتى بمعنى إلى﴿السَّاعَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره إلى إتيان الساعة إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَزَالُ﴾. ﴿بَغْتَةً﴾ حال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ فعل ومفعول معطوف على﴿تَأْتِيَهُمُ﴾. ﴿عَذَابُ يَوْمٍ﴾ فاعل ومضاف إليه.﴿عَقِيمٍ﴾ صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿الْمُلْكُ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿لِّلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يَحْكُمُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: إذا كان الملك لله سبحانه، فماذا يصنع بهم. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾. ﴿فَالَّذِينَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه يحكم بينهم، وأردت بيان كيفية الحكم بينهم. فأقول لك: ﴿الذين﴾ مبتدأ ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَذَّبُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على كفروا. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بكذبوا. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ، لما في المبتدأ من رائحة الشرط. ﴿أولئك﴾ مبتدأ ثان. ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ ثالث مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾

صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، وجملة الثالث خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾ مبتدأ. ﴿هَاجَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به. ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾ ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قُتِلُوٓاْ﴾. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ﴾ اللام، موطئة للقسم. ﴿يرزقنهم﴾: فعل ومفعول في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول مطلق. ﴿حَسَنًاۚ﴾ صفة له، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿لَهُوَ﴾ اللام، حرف ابتداء. ﴿هو﴾ ضمير فصل. ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يدخلنهم﴾: فعل مضارع ومفعول به. في محل الرفع، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جوابا القسم، وجملة القسم بدل من قوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾، أو مستأنفة. ﴿مُّدْخَلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول صفة لمدخلاً. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَعَلِيمٌ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿عليم﴾: خبر أول لأن. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة القسم أو مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُدَٰفِعُ﴾؛ أي: يدفع فالمبالغة ليست على بابها. قال الراغب: الدفع إذا عدى بإلى اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾. وإذا

عدى بعن، اقتضى معنى الحماية: نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: يبالغ في دفع ضرر المشركين عن المؤمنين، ويحميهم أشد الحماية من أذاهم. ﴿خَوَّانٍ﴾ بليغ الخيانة في أمانة الله، أمراً كان، أو نهياً، أو غيرهما من الأمانات. ﴿كَفُورٍ﴾ بليغ الكفران لنعمته، فلا يرضى فعلهم ولا ينصرهم. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً. وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنهم كانوا كذلك، لا لتقييد البعض بغاية الخيانة والكفر، فإن نفي الحب كناية عن البغض.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ والمراد بديارهم: مكة المكرمة. وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها للتصرف. يقال: ديار بكر لبلادهم، وتقول العرب: الذي حوالي مكة، نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد. قال الراغب: «الدار المنزل اعتباراً بدورانها الذي لها بالحائط». وقيل: دارة وجمعها ديار، ثم تسمى البلدة داراً. اهـ. «روح البيان».

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ الهدم: إسقاط البناء، والتهديم للتكثير؛ أي: لخربت باستيلاء المشركين عليها. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة وصومع، وهو جبل أو مكان مرتفع يسكنه الراهب، أو المتعبد قصد الإنفراد. ثم أطلقت الكلمة على الدير والصومعة أيضاً العقاب والبرنس وأعلى كل جبل، إذا كان منتدق الرأس. وفي «السمين» الصومعة: البناء المرتفع المحدب الأعلى. ووزنها فوعلة، كدحرجة. وهي متعبد الرهبان. وقيل: متعبد الصابئين.

﴿بيع﴾ جمع بيعة بكسر الباء، المعبد للنصارى واليهود، والجمع بيه بكسر الباء وفتح الياء، وبيعات بكسر الباء وسكون الياء. ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾: بفتح الصاد واللام، جمع صلاة. وسميت الكنيسة صلاة، لأنه يصلي فيها. وقيل: هي كلمة معربه، أصلها بالعبرانية: صلوثا بفتح الصاد والثاء المثلثة، كما في «الخفاجي على البيضاوي»، وبه قرىء في الشواذ.

ومعناه في لغتهم: المصلى فلا يكون مجازاً. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ جمع مسجد، وهو معبد المسلمين.

﴿وَأْمُرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال الراغب المعروف: اسمٌ لكل فعل يعرف بالعقل، والشرع حسنه و﴿ٱلْمُنكَرِۗ﴾: ما ينكر بهما.

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلتهم إلى أجلهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾ قال الراغب: الأخذ: وضع الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول. نحو ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ وتارة بالقهر ومنه الآية. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ والنكير: مصدر بمعنى الإنكار، كالنذير بمعنى الإنذار، فالمراد بالإنكار: التغيير بالضد بأن غير حياتهم بإهلاكهم وموتهم، وعمارتهم بالخراب. وليس بمعنى الإنكار اللساني والقلبي، اهـ. شيخنا. وفي «المراغي»، والنكير والإنكار على الشيء: أن تفعل فعلاً به يزجر المنكر عليه على ما فعل. ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾؛ أي: ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: سقوفها.

﴿وَبِئْرٍ﴾ البئر في الأصل: حفيرٌ يستر رأسها لئلا يقع فيها من مر عليها. وفي «المختار» بأر يبأر بأراً بهمزة بعد الباء إذا حفرها، وبابه قطع، وقد تبدل همزته ياء والبئر فعلٌ بمعنى مفعول، كالذبح بمعنى المذبوح، حفرة في الأرض عظيمة، يستقىٰ منها الماء، والجمع آبار وأبائر، وبئار وأبؤر، وهي مؤنثة. وفي «الأساس» الفاسق من ابتأر، والفويسق من ابتهر، يقال ابترت الجارية إذا قال: فعلت بها وهو صادق، وابتهرتها إذا قال: ذلك وهو كاذبٌ، ومنه التأبير، وهو شق كيزان طلع الإناث، وذر طلع الذكور فيه.

﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: متروكة بموت أهلها، معطلة عن منافعها، مع أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء. ﴿وَقَصْرٍ﴾ يقال: قصرت كذا ضممت بعضه إلى بعض، ومنه سمي القصر. قال في «القاموس»: القصر خلاف الطول وخلاف المد والمنزل، وكل بيت من حجر. ﴿مَّشِيدٍ﴾؛ أي؛ مبني بالشيد وهو الجص. وقيل: مشيد؛ أي: مطول مرفوع البنيان وفي «القاموس» شاد الحائط يشيده إذا طلاه بالشيد، وهو ما طلي به حائط من جصٍّ ونحوه. والمشيد المعمول به، وكمؤيد المطول انتهى.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والكريم من كل نوع: ما يجمع فضائله، ويحوز كمالاته.

اهـ «بيضاوي». ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ وأصل السعي: الإسراع في المشي، ثم استعمل في الإصلاح والإفساد. يقال سعى في أمر فلان، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه؛ أي: سعوا واجتهدوا في إبطال آياتنا حيث قالوا: القرآن شعر، أو سحر، أو أساطير الأولين. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم، فكلما طلبوا إظهار الحق، طلب هؤلاء إبطاله. وأصله من قولهم عاجزه فأعجزه إذا سابقه فسبقه.

و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ الجحيم: النار الموقدة، وقيل: اسم دركة من دركاتها ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾؛ أي: قرأ، قال في «القاموس»: تمنَّى الكتاب، قرأه، والحديث اخترعه وافتعله. اهـ.

وقال الراغب: التمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، والأمنية الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء. وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

معناه إلا تلاوةً مجردة عن المعرفة، من حيث إن التلاوة بلا معرفة المعنى: تجري عند صاحبها مجرى أمنية تمناها على التخمين، اهـ. «روح البيان».

وإنما سميت القراءة أُمنيةً؛ لأن القارىء إذا انتهى إلى آية رحمة، تمنى حصولها، وإذا انتهى إلى آية عذاب، تمنى أن لا يبتلى به، اهـ من الرازي. وفي «المختار» والأمنية، واحد الأماني، تقول منه تمنى الكتاب إذا قرأه، اهـ.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يزيل ويبطل، فالمراد بالنسخ هو النسخ اللغوي، لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام. ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ من القسوة وهو غلظ القلب، وأصله من حجر قاس، والمقاساة معالجة ذلك. وأل في القاسية موصولة، والصفة صلتها، وقلوبهم فاعل بها، والضمير المضاف إليه هو عائد الموصول. وأنث الصلة لأن مرفوعها مؤنث مجازي، ولو وضع فعل موضعها لجاز تأنيثه. والقاسية عطف على الذين، كما سبق في مبحث الإعراب؛ أي: فتنة للذين في قلوبهم مرض، وفتنة للقاسية قلوبهم، اهـ. «سمين» ـ والمراد بهم الكفار المجاهرون بالكفر.

﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: عداوة شديدة. ﴿فَتُخْبِتَ﴾؛ أي: تذل وتخضع. ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: شكٍ وريبٍ وجدال من القرآن. والمرية بالكسر والضم لغتان مشهورتان، وظاهر كلام أبي البقاء أنهما قراءتان ولا أحفظ الضم هنا، اهـ «سمين». قال الراغب: المرية التردد في الأمر، هي أخص من الشك.

﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة أو الموت. ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؛ أي: منفرد عن سائر الأيام، لا مثيل له في شدته. والمراد الحرب الضروس. وأصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الراغب: النعيم، النعمة الكثيرة، اهـ. ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ أي: أفضل المعطين، فأفعل التفضيل على بابه، ومعلوم أن كل الرزق من عنده تعالى، فالتفاوت إنما كان بسبب أنه تعالى مختص، بأن يرزق لما لا يقدر عليه غيره. وقيل: إن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه، إما لأجل خروجه عن الواجب، أو لأجل أن يستحق به حمداً أو ثناء، أو لأجل الرقة الجنسية، وأما الحق سبحانه وتعالى، فإن كماله صفة ذاتية له، فلا يستفيد من شيء كمالاً زائداً، فالرزق الصادر منه لمحض الإحسان، اهـ. كرخي.

﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ والقتل: إزاة الروح عن الجسد، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال له قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال له موتٌ.

﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم من أدخل يدخل مدخلاً؛ أي: إدخالاً فيكون مدخلاً اسماً لمصدر الفعل الذي قبله، فيكون المفعول به محذوفاً؛ أي: ليدخلنهم الجنة إدخالاً يرضونه، وقراءة نافع بفتحها موضع الدخول، فيكون المدخل مصدر، دخل يدخل دخولاً ومدخلاً فيكون مفعولاً للفعل قبله، ليدخلنهم مكاناً يرضونه، اهـ. كرخي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لأن فعالاً وفعولاً من أوزان المبالغة.

ومنها: حذف مفعول يدافع اختصاراً لدلالة المقام على تعيينه؛ أي: غوائل المشركين. قال أبو حيان: لم يذكر الله ما يدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم.

ومنها: حذف مفعول: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ لدلالة السياق عليه؛ أي: أذن لهم في القتال بعد الهجرة.

ومنها: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟﴾؛ أي: بسبب قولهم إشارة إلى استمرار ذلك القول. ودوامه لهم.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ زيادة في التشنيع عليهم. وللنداء عليهم بصفة الكفر، وحق العبارة أن يقال: فأمليت لهم.

ومنها: الاستفهام التقريري التعجبي في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ من إسناد ما للحال إلى المحل؛ لأن الظلم من وصف أهلها، لا من وصف القرية.

ومنها: تأنيث ضمير الشأن في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وحسن التأنيث في الضمير، كونه وليه فعل بعلامة تأنيث، ولو ذكر في الكلام فقيل: فإنه لجاز، وهي قراءة مروية عن عبد الله، والتذكير باعتبار الأمر والشأن، والتأنيث باعتبار القصة، اهـ «سمين».

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بدليل التعميم المذكور

فيما بعد، وكان القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير لذكر الفريقين بعده.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق، في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿ينسخ ثم يحكم﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم ونداءً باسم الظلم، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ بأن شبه مالا خير فيه من الزمان بالنساء العقيم، كما شبهت الريح التي لا تحمل السحاب، ولا تلقح الأشجار بهن، تشبيهاً مضمراً في النفس، وإثبات العقم تخيل، فإن الأيام بعضها نتائج لبعض، فكل يوم يلد مثله، اهـ. من «الشهاب». أو لأن يوم الحرب يقتل فيه أولاد النساء فيصرن كأنهن عقم لم يلدن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ
ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ
وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ
نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ
فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ
﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ
﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا
يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى
ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ
سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ
فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها واضحة، وهو أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر وقتل ومات في سبيل الله أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغىٰ عليهم وهو قديرٌ على ذلك إذ من قدر على إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل بأن يزيد من أحدهما ما ينقصه من الآخر.. يقدر على نصره وهو الثابت الإلهية وحده إذ لا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل الحلم وأن ما سواه باطل لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] ما دلّ على قدرته الباهرة، من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وهما أمران مشاهدان بمجيء الظلمة والنور، ذكر أيضاً ما هو مشاهد من العالم العلوي والعالم السفلي، وهو نزول المطر وإنبات الأرض، وإنزال المطر واخضرار الأرض مرئيّان.

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما قدّم[2] ذكر نعمه، وأنه رؤوف بعباده رحيم بهم، وأنّ الإنسان كفور بطبعه، ومن ثمّ جحد الخالق لهذه النعم، أتبعه بزجر معاصريه ﷺ من أهل الأديان السماوية، عن منازعته بذكر خطأهم فيما تمسكوا به من الشرائع، وبيان أنّ لكل أمة شريعة خاصّة. ثمّ أمره بالثبات على ما هو عليه من الحقّ، وأنه لا يضره عناد الجاحدين، فالله هو الحكم بينهم وبينه يوم القيامة. وفي «الفتوحات»: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ هذه مشتملة على النعم التكليفية، والتي قبلها مشتملة على نعم غير تكليفية، اهـ انتهت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّه سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] الفصل بين الكفار والمؤمنين يوم القيامة، أعقب تعالى ذلك بأنّه عالم بجميع ما في السماء والأرض، فلا تخفى عليه أعمالكم، وأنّ ذلك في كتاب.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر أنّه يحكم بين عباده يوم القيامة، ويجازي كلاً من المسيء والمحسن بما هو له أهل.. أعقب هذا ببيان أنّه العليم بما يستحقّه كلّ منهم، فيقع حكمه بينهم بالعدل.

ثمّ أرشد إلى أنّه على وضوح الدلائل وعظيم النعم عليهم عبدوا غيره مما لم يقم الدليل على وجوده، وأنّهم مع جهلهم إذا نبّهوا إلى الحقّ، وعرضت عليهم المعجزة، وتلي عليهم الكتاب الكريم، ظهر في وجوههم الغيظ والغضب، وهمّوا أن يبطشوا بمن يذكّرهم بآيته إنكاراً منهم لما خوطبوا به. ثمّ أبان لهم أنّ ما ينالهم من النار التي يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم، أعظم مما ينالهم من الغمّ والغيظ حين تلاوة هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر أنّ الكفار يعبدون ما لا دليل على عبادته، لا من سمع ولا من عقل، ويتركون عبادة من خلقهم.. ذكر ما عليه معبوداتهم من انتفاء القدرة على خلق أقلّ الأشياء، بل على ردّ ما أخذه ذلك الأقلّ منه، وفي ذلك تجهيل عظيم لهم، حيث عبدوا من هذه صفته.

مناسبة[2] هذه الآيات لما قبلها واضحة: وهو أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر وقتل، أو مات في سبيل الله، أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا، على من بغى عليهم، وهو قادر على ذلك، إذ من[3] قدر على إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، بأن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر يقدر على

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

نصره، وو الثابت الإلهية وحده، إذ لا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة، كامل العلم، وأن ما سواه باطلٌ.

وعبارة المراغي هنا: لما ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم عليه من الوحي، ولا دليل عليه من العقل.. أردف هذا بما يدل على إبطاله ويؤكد جهلهم بمقام الألوهية وما ينبغي أن يكون لها من إجلال وتعظيم، ثم أعقب ذلك ببيان أنه سبحانه يصطفي من الملائكة والناس لرسالته من يشاء، وهو العليم بمن يختار ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ولما ذكر[١] تعالى أنه اصطفى رسلاً من البشر إلى الخلق، أمرهم بإقامة ما جاءت به الرسل من التكاليف، وهو الصلاة. قيل: كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع، ويركعون بلا سجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات، ثم في النبوات، أتبعها بالكلام في الشرائع والأحكام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ...﴾ الآية، سبب[٢] نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل «أنها نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ، فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة وذكروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، ونصروا عليهم، فنزلت هذه الآية».

التفسير وأوجه القراءة

والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم، فهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) لباب النقول.

الأمر والشأن ذلك الذي قصننا عليكم وبينا لكم، من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، والجملة[1] لتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلامٌ مستأنفٌ.

والمعنى: أي[2] ذلك الرزق الحسن والمدخل الكريم، لمن قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا، ولهم أيضاً النصر في الدنيا على أعدائهم. وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ وجازى الظالم ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ أي: بمثل ما ظلمه، ولم يزد في الاقتصاص على ذلك المثل، والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به، ولم يزد عليه، والعقوبة[3] في الأصل اسم لما يعقب الجرم من الجزاء، وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو جزاء الجناية؛ أي: مع أنه ليس بجزاء يعقب الجريمة للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وكقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أو على سبيل المجاز المرسل، فإنه ما وقع ابتداءً سببٌ لما وقع جزاء وعقوبة، فسمي السبب باسم المسبب.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: اعتدى عليه؛ أي: إن الظالم في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى. قيل: المراد بهذا البغي هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم، بعد أن كذبوا نبيهم، وآذوا من آمن به. واللام في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لينصرن الله المبغي عليه؛ أي: المظلوم على الباغي؛ أي: الظالم لا محالة وهو خبر من.

وقيل[4]: إن معنى ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: ثم كان المجازي مبغياً عليه؛ أي: مظلوماً ومعنى (ثم) تفاوت الرتبة؛ لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم، كما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

قيل في أمثال العرب: البادي أظلم.

والمعنى: أي[1] وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلماً من المشركين، فقاتلهم كما قاتلوه، ثم بغي عليه باضطراه إلى الهجرة، ومفارقة الوطن.. لينصرنه الله الذي لا يغالب، ولينتقمن له من أعدائه، ولينكلن بهم، ويمكننه منهم، ويجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخلاصة: أنه تعالى كما يدخلهم مدخلاً كريماً، يعدهم بالنصر على أعدائهم، إذا هم قاتلوهم، وبغوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي أحاطت قدرته بكل شيء ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: لكثير العفو والغفران للمؤمنين، فيما وقع منهم من الذنوب. وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين، من ترجيح الانتقام على العفو؛ أي: ليعفو عن المؤمنين فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام، وما أعرضوا عنه مما ندب من العفو؛ بمثل قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم وأحرى بمثلهم.

والخلاصة: كأنه سبحانه قال: عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم؛ لأني أذنت بها.

وفي «بحر العلوم»[2]: ﴿لَعَفُوٌّ﴾؛ أي: محاء للذنوب بإزالة آثارها من ديوان الحفظة والقلوب بالكلية كي لا يطالبهم بها يوم القيامة، ولا يخجلوا عند تذكرها، وبأن يثبت مكان كل ذنب عملاً صالحاً، كما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: مريد لإزالة العقوبة عن مستحقها، من الغفر، وهو الستر؛ أي: ستور عليهم، وقدم العفو؛ لأنه أبلغ لأنه يشعر بالمحو الذي هو أبلغ من الستر، وفيه إشارة إلى أن الأليق بالمنتصر، والأقرب بحاله، أن يعفو

---

(١) المراغي.

(٢) للسمرقندي.

ويغفر عن كل من ظلمه، ويقابله بالإحسان، ولا يذكر ما صدر منه من أنواع الجفاء والأذى، فإنه متى فعل ذلك فإن الله أكرم الأكرمين أولى أن يفعل ذلك على أن الانتصار لا يؤمن فيه تجاوز التسوية والاعتداء خصوصاً في حال الغضب والحرب والتهاب الحمية، فربما كان المنتصر من الظالمين، وهو لا يشعر، انتهى كلام «البحر».

وقال بعضهم[1]: الإنسان الكامل كالبحر، فمن آذاه واغتابه، أو قصد إليه بسوء، فإنه لا يتكدر به بل يعفو عنه، ألا ترى أن البول إذا وقع في البحر، فالبحر يطهره، وكذا من أجنب، إذا دخل البحر، واغتسل، فإنه يطهر، ولا يتغير البحر لا بالبول ولا بدخول الجنب. وقال في «الخلاصة» في كتاب الحدود: رجل قال لآخر: يا خبيث هل يقول له: بل أنت، الأحسن: أن يكف عنه ولا يجيب، ولو رفع الأمر إلى القاضي ليؤدب يجوز، ومع هذا لو أجاب لا بأس به. وفي «مجمع الفتاوى» في كتاب «الجنايات» لو قال: لغيره يا خبيث فجازاه بمثله جاز؛ لأنه انتصار بعد الظلم وذلك مأذون فيه قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ والعفو أفضل. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. وإن كانت تلك الكلمة موجبة للحد لا ينبغي له أن يجيبه بمثلها، تحرزا على إيجاب الحد على نفسه. انتهى. كما قال في «التنوير»: لو قال لآخر: يا زاني، فقال الآخر: أنت الزاني.. حد، بخلاف ما لو قال له مثلاً: يا خبيث، فقال أنت، تكافأا. وفي «التنوير» أيضاً ضرب غيره بغير حق، وضربه المضروب يعزران، ويبدؤوا في إقامة التعزير بالبادىء.

ثم قرر نصره لعباده المؤمنين، وأكده بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر الذي أنصره لمن بغي عليه، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ والباء فيه سببية؛ أي: كائن بسبب أن الله سبحانه وتعالى ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل بعض ساعات الليل في النهار، فيزيد النهار بقدر ما نقص من الليل. ﴿وَيُولِجُ

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾؛ أي: يدخل بعض ساعات النهار في الليل، فيزيد الليل بقدر ما نقص من النهار.

أي: ذلك بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وعبر عن الزيادة بالإيلاج، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر. والمراد تحصيل أحد العرضين الظلام والضياء في محل الآخر؛ أي: إنه يحصل ظلمة الليل في مكان ضياء النهار، بتغييب الشمس وضياء النهار في مكان ظلمة الليل، بإطلاعها وجعلها طالعة، أو يزيد في أحد الملوين ما ينقص من الآخر من الساعات.

والمعنى[1]: أي ذلك النصر الذي أنصره لمن بغي عليه، لأني أنا القادر على ما أشاء، ألا ترونني أدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، وأدخل ما ينقص من ساعات النهار في ساعات الليل، وبهذه القدرة التي تفعل ذلك أنصر محمداً وصحبه على الذين قد بغوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم، وأموالهم، وآذوهم أشد الأذى على إيمانهم بي وحدي. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعُۢ﴾ يسمع قول العاقب والمعاقب ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما، فلا يهملهما.

والمعنى: أي وبسبب أن الله تعالى سميع للأقوال، وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات بصير بما يعملون، لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء، وإن كان مثقال ذرة.

ولمَّا وصف نفسه بما لا يقدر عليه، غيره علل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: ذلك الاتصاف بكمال القدرة، وكمال العلم بسبب أن الله هو الثابت لذاته، وأنه لا مثيل له، ولا شريك. ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: وأن الذين يعبدون من دونه تعالى من الآلهة ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في ألوهيته المعدوم في حد ذاته، لا يقدر على صنع شيء، بل هو المصنوع الموجد بعد

---

(١) المراغي.

العدم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء، وكل شيء دونه. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

وخلاصة ذلك[1]: أفتتركون أيها الجهال عبادة من بيده النفع والضر، وهو القادر على كل شيء، وكل شيء دونه، وهو فوق كل شيء، وتعبدون من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً وضراً.

وعبارة الشوكاني هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: هو سبحانه ذو الحق فدينه حق، وعبادته حق، ونصره لأوليائه على أعدائه حق، ووعده حق، فهو عز وجل في نفسه وأفعاله وصفاته حق. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾؛ أي: العالي على كل شيء بقدرته المتقدس عن الأشباه، والأنداد، والمنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: ذو الكبرياء، وهو عبارة عن كمال ذاته، وتفرده بالإلهية. انتهت.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿وَأَنَّ مَا﴾ بفتح الهمزة. وقرأ الحسن بكسرها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأخوان حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿يَدْعُونَ﴾ بياء الغيبة هنا وفي لقمان على الخبر. واختار هذه القراءة أبو عبيدة. وقرأ باقي السبعة ﴿تَدْعُون﴾ بتاء الخطاب للمشركين واختار هذه القراءة أبو حاتم.

والمعنى: وأن الذين تدعونهم آلهة، وهي الأصنام، هو الباطل الذي لا ثبوت له، وكلا هاتين القراءتين الفعل فيهما مبني للفاعل. وقرأ مجاهد واليماني وموسى الأسواري ﴿يُدْعَون﴾ بالياء مبنياً للمفعول، والواو عائدة على ﴿ما﴾. على معناها، و﴿ما﴾ الظاهر أنها أصنامهم. وقيل الشياطين. والأولى العموم في كل مدعو دون الله سبحانه وتعالى.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير. والرؤية هنا إما علمية كما قاله الرازي، أو بصرية. والخطاب فيه للنبي ﷺ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؛

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أي: ذات خضرة؛ أي: فتصير الأرض نامية بما فيه رزق العباد، وعمارة البلاد. والفاء فيه للعطف على ﴿أنزل﴾. وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر. كما قاله الخليل وسيبويه. وفي «الشهاب» ولم ينصب[1] هذا المضارع في جواب الاستفهام؛ لأنه استفهام تقريري مؤول بالخبر؛ أي: قد رأيت. والخبر لا جواب له. وأيضاً لا تصح السببية هنا، فإن الرؤية لا يثبت عنها إخضرار الأرض، بل إنما يوجبه إنزال المطر. وأيضاً جواب الاستفهام ينعقد منه شرط وجزاء، وهنا لا يصح ذلك، إذ لا يقال: إن تر إنزال المطر تصبح الأرض، اهـ. ملخصاً منه.

وقرىء ﴿مَخْضَرَّة﴾ على وزن مفعلة ومسبعة. قال الزمخشري: فإن قلت[2]: هلا قيل: فأصبحت، ولم صرف إلى لفظ المضارع؟

قلت: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع، اهـ. قال ابن عطية[3]: ولا يكون هذا الإخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمكة وتهامة، والظاهر أن المراد بالإخضرار اخضرار الأرض في نفسها لا باعتبار النبات فيها، كما في قول تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

وقال أبو عبد الله الرازي في «تفسيره الكبير» قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ ذكر هنا من آثار قدرته ستة أشياء:

أولها: إنزال المطر الناشىء عنه اخضرار الأرض، وفسر الرؤيا بالعلم دون الإبصار؛ لأن الماء وإن كان مرئياً إلا أن كون الله منزلاً له من السماء غير مرئي. وقال: ﴿فتصبح الأرض﴾ دون أصبحت لإفادته بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان.

الثاني: قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومن جملته خلق المطر،

---

(١) الشهاب.
(٢) الكشاف.
(٣) البحر المحيط.

والنبات نفعاً للحيوان، مع أن الله لا يحتاج لذلك، ولا ينتفع به.

الثالث: تسخير ما في الأرض؛ أي: ذلل لكم ما فيها كالحجر والحديد، والنار لما يراد منها، والحيوان للأكل والركوب، والحمل عليه، والنظر إليه.

الرابع: تسخير الفلك بالماء والرياح، فلو لا أن الله سخرها لكانت تغوص أو تقف.

الخامس: إمساك السماء؛ لأن النعم المتقدمة لا تكمل إلا به، والسماء جرم ثقيل، وما كان كذلك، لا بد له من السقوط، لو لا مانع يمنع منه، وهو القدرة. فأمسكها الله بقدرته لئلا تقع فتبطل النعم التي أمتن بها علينا.

سادسها: الإحياء ثم الإماتة ثم الإحياء، نبه بهذا على أن هذه النعم لمن أحياه الله، فنبه بالإحياء الأول على إنعامه في الدنيا بكل ما تقدم، ونبه بالإماتة والإحياء ثانياً على إنعامه علينا في الآخرة. ولما فصل تعالى هذه النعم، قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾؛ أي: لهذه النعم. اهـ. من «الرازي».

والمعنى: أي ألم تبصر، أو ألم تعلم أيها الرائي، أن الله تعالى ينزل من السماء مطراً فيحيي به الأرض، فتنبت ضروباً مختلفة من النبات، بديعة الألوان، والأشكال، ذات خضرة سندسية، تبهر العين بحسن منظرها، وبديع تنسيقها. ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: يصل علمه إلى كل دقيق، وجليل. وقيل: لطيف بأرزاق عباده. وقيل: لطيف باستخراج النبات. ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: ذو خبرة بتدبير عباده، وما يصلح لهم. وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط واليأس عند تأخير المطر، وقيل: خبير بحاجتهم وفاقتهم.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره. ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي:

---

(١) الفخر الرازي.

جميع ما فيهما خلقاً، وملكاً، وتصرفاً، وكلهم محتاجون إلى رزقه، منقادون لأمره، لا امتناع لهم من تصرفه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء، المستغني عن حمد الحامدين، فلا يحتاج إلى شيء. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المستحق للحمد في ذاته وصفاته وأفعاله. وقال الغزالي: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ هو المحمود المثني عليه، والله تعالى هو الحميد لحمده لنفسه أزلا، ولحمد عباده له أبداً. ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال، منسوبان إلى ذكر الذاكرين له، فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال، من حيث هو كمال.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وذلل ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جعل جميع مافيهما مذللة لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم، فلا أصلب من الحجر، ولا أشد من الحديد، ولا أهيب من النار، وهي مسخرة منقادة لكم.

أي: إنه تعالى[1] سخر ما في ظاهر الأرض وباطنها، لينتفع بها الإنسان في مصالحه ومرافقه المختلفة، ويصرفه فيما أراد من شؤون معايشه ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور، مما لم يكن يخطر لأسلافه على بال، مما لو حدث به السالفون لقالوا: إنه ترهات، وأباطيل، وما صدقه بشر. ولا يزال العلم يولد كل يوم جديداً. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويهتدي العقل إلى ما هو أشبه بالمعجزات، لولا أن سدت أبواب النبوات.

ونحو الآية قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿مَّا﴾، أو على اسم ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بمشيئته وتيسيره، حال من الفلك؛ أي: وسخر لكم السفن تجري في البحار برفق، وتؤدةٍ حاملةً ما تريدون، من نائي الأصقاع، وبعيد المسافات من سلع، وحيوان، وأناسي، وبذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء. وإنما أفردها بالذكر، وإن اندرجت بطريق العموم تحت ما في قوله: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لظهور

---

(١) المراغي.

الامتنان بها، ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب، وضم اللام ابن مقسم والكسائي عن الحسن، وانتصب عطفاً على ﴿مَا﴾. وجوز أن يكون معطوفاً على الجلالة، بتقدير وأن الفلك، وهو إعراب بعيد عن الفصاحة. وقرأ السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني بضم الكاف مبتدأ وجملة تجري خبره.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: وإن الله سبحانه يمسك السماء من ﴿أَن تَقَعَ﴾ وتسقط ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن خلقها متداعية إلى الاستمساك. يقال: أمسك الشيء إذا أخذه والوقوع السقوط. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا بمشيئته، وإرادته.

قال الراغب: الإذن في الشيء: الإعلام بإجازته، والرخصة فيه، انتهى. وذلك يوم القيامة. وفيه رد لاستمساكها بذاتها، فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلة للميل الهابط، كقبول غيرها، والمعنى؛ أي: وإن الله يمسك أجرام الكواكب من شمس، وقمر، وكواكب نيرات بنظام الجاذبية، إذ جعل لكل منها مداراً خاصاً بها، لا تعدوه بحالٍ، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها. وانتثرت في الفضاء، كما ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ الآية. ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها ببعض. وفسد العالم الأرضي ولم يعش على ظهر البسيطة إنسان، ولا حيوان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير الرأفة والرحمة، حيث سخر هذه الأمور لعباده، وهيأ لهم أسباب المعاش، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم، تفضلاً منه على عباده، وإنعاماً عليهم، وفتح لهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار، وأوضح لهم مناهج الاستقلال بالآيات التكوينية، والتنزيلية. والرؤوف(٢) بمعنى الرحيم، إذ الرأفة أشد الرحمة، أو أرقها. كما في «القاموس». قال في «بحر العلوم». ﴿الرؤوف﴾؛ أي: المريد

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

للتخفيف على عباده. ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مريد للإنعام عليهم.

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم نطفاً جماداً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث للثواب والعقاب.

والمعنى: أي وهو سبحانه، هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم، وجعلكم أجساماً حيةً بعد أن كنتم تراباً، ثم يميتكم حين انقضاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث والنشور إلى عالم آخر، تلقون فيه حسابكم وجزاءكم من نعيم أو جحيم.

ثم بين طبيعة الإنسان التي فطر عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾؛ أي: كثير الجحد، لنعم الله عليه مع كونها ظاهرةً غير مستترة، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد، لأن المراد وصف جميع الجنس، بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغةً، وهو المشرك كُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، وأبو جهل، والعاص بن وائل، وأبي بن خلف، وغيرهم.

والمعنى: أي[1] إن الإنسان لم يوجه همه إلى كل هذه الآلاء التي يتقلب فيها ليلاً ونهاراً بل جحدها، وجحد خالقها على وضوح أمرها، وعبد غيره، وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان. ونحو الآية قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ثم عاد سبحانه، إلى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصري رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ معينة من الأمم الماضية والباقية. والأمة جماعة أرسل إليهم رسول. ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: وضعنا وشرعنا ﴿مَنسَكًا﴾؛ أي: شريعة خاصة بهم، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها، إلى شريعة أخرى، على معنى عيّن كل شريعة لأمة معينة من الأمم، بحيث لا تتخطاها إلى شريعة أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. وجملة قوله: ﴿هُمْ

(١) المراغي.

﴿نَاسِكُوهُۖ﴾ صفة لمنسكاً مؤكدة للقصر، المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل، والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها؛ أي: تلك الأمة المعينة هي الناسكة والعاملة به لا غيرها. فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام، منسكهم التوراة هم ناسكوها، والعاملون بها لا غيرهم، والأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ، منسكهم الإنجيل هم ناسكوه، والعاملون بها لا غيرهم، والأمة التي من مبعث محمد ﷺ، إلى يوم القيامة منسكهم الفرقان ليس إلا، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع، التي تناسب من فيه في تلك الحقبة. والمنسك مصدر ميمي مأخوذ من النسك، وهو العبادة. لا اسم[1] مكان، كما يدل عليه قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾، ولم يقل ناسكون فيه. وقيل المنسك موضع أداء العبادة. وقيل: هو الذبائح. ولا وجه للتخصيص، ولا اعتبار بخصوص السبب. والفاء: في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد أنا جعلنا لكل أمة منسكاً، وأردت بيان ما هو اللازم لمعاصريك، فأقول لك: لا ينزعنك؛ أي: لا يخاصمنك من يعاصرك من أهل الملل. ﴿فِي ٱلْأَمْرِۚ﴾؛ أي: في أمر دينك، زعماً منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم الأولين من التوراة والإنجيل فإنهما شريعتان لمن مضى من الأمم قبل انتساخها، وهؤلاء أمة مستقلة، منسكهم القرآن المجيد فحسب.

والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزجاج: إنه نهي له ﷺ عن منازعتهم؛ أي: لا تنازعهم أنت، كما تقول: لا يخاصمك فلان؛ أي: لا تخاصمه، وكما تقول: لا يضاربنك فلان؛ أي: لا تضاربه. وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً.

والمعنى: أي[2] فلا ينبغي لهم أن ينازعوك في أمر هذا الدين، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة، موجب لطاعة هؤلاء لك، وعدم منازعتهم إياك في

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أمر هذه الشريعة، زعماً منهم أن شريعتهم هي ما عين لآبائهم من التوراة والإنجيل. فذلك خطأ منهم، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن.

والخلاصة: أثبت أيها الرسول على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك منه، ليزيلوك عنه. والمراد بذلك: تهييج حميته ﷺ، وإلهاب غضبه لله ولدينه ومثل هذا كثير في كتاب الله، وكأنه قد قيل له: تأس بالأنبياء قبلك في مشاركة القوم الظالمين، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم.

وقال: ابن جرير الطبري[1] (١٧/ ١٩٩): يقول تعالى: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله، يا محمد، في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله، فإنك أولى بالحق منهم؛ لأنك محق وهم مبطلون. وذلك أن كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة، فقالوا: كيف تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله يعنون الميتة.

وقرىء ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ بالنون الخفيفة. وقرأ أبو مجلز ﴿فلا ينزعنك في الأمر﴾ من النزع، بمعنى فلا يقلعنك من دينك، فيحملوك إلى أديانهم من نزعته من كذا، أو لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك، وقرأ الباقون: ﴿يُنازِعُنَّكَ﴾ من المنازعة، بمعنى المخاصمة والمجادلة.

فائدة: وإنما[2] قال: فيما سبق ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ بواو العطف، وقال: هنا ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر المناسك، فعطفت على أخواتها، وأمَّا هذه فواقعة مع أباعد عن معناها، فلم تجد معطفاً. قاله الزمخشري.

﴿وَٱدْعُ﴾ هؤلاء المنازعين، أو ادع الناس كافة، ولا تخص أمة دون أمة بالدعوة، فإن كل الناس أمتك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى توحيد ربك، وعباداته

---

(١) الطبري. (٢) البحر المحيط.

حسبما بين لهم في منسكهم وشريعتهم ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه؛ أي: على طريق موصل إلى الحق، وشريعة توصل إلى السعادة الأبدية. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي: وإن جادلك هؤلاء المشركون في نسكك، وخاصموك مراءً وتعنتا بعد أن ظهر الحق، ولزمتهم الحجة، كما يفعله السفهاء ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل التهديد، والوعيد، والإنذار. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عليم بأعمالكم، وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم بها. وعليم بأعمالنا فمجاز لنا بها. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

وبعد أن أمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم، وكان ذلك شديد الوقع على النفس، سلاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة، على ما يقولون ويفعلون. فقال ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: يفصل ويقضي بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بينكم في الدنيا بالحجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيتبين المحق من المبطل.

وقصارى ما سلف[1]: ادع إلى شريعتك، ولا تخص بالدعاء أمة دون أمة، فكلهم أمتك، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة، تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة، فإن عدلوا عن النظر في الأدلة إلى المراء، والتمسك بالعادات، وبما وجدوا عليه الآباء والأجداد.. فدعهم في غيهم يعمهون. فقد أنذرت وما عليك إلا البلاغ، وقل لهم، مهدداً منذراً: الله يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة، ويتبين المحق من المبطل ويجازي كلا بما يستحق.

---

(١) المراغي.

وفي هذه الآية[1]: تعليم لهذه الأمة، بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل. وقيل: إنها منسوخة بآية السيف. وجملة قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ مستأنفة، مقررة لمضمون ما قبلها، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون.

والمعنى: أي قد علمت يا محمد، أن علم الله محيط بما في السموات وما في الأرض، لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة، على علم منه، بما عملوه في الدنيا، فمجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته. ثم أكد علمه بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿فِي كِتَابٍ﴾؛ أي: مكتوب عنده في أم الكتاب، واللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، قبل أن يخلقه، فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به. وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾؛ أي: إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما في السماء والأرض وإثباته في اللوح المحفوظ يسير عليه، إذ لا يخفى عليه شيء، ولا يتعسر عليه مقدور. ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين، وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون بالله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾؛ أي: أصناماً لم ينزل الله بجواز عبادتها ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة وبرهاناً من السماء في كتاب من كتبه، التي أنزلها على رسله ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: ويعبدون ما ليس لهم علم، من ضرورة العقل، بجواز عبادته، أو بأنه إله. وهي الأصنام المذكورة، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بغير حجة ولا برهان.

والخلاصة[2]: ويعبدون من دون الله ما لم يقم عليه دليل من الوحي، ولا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

دليل من العقل على صحة عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد. ونحو الآية قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: وليس للمشركين، الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم، ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾؛ أي: ناصر يدفع عنهم العذاب، الذي يعتريهم بسبب ظلمهم. وفي «التأويلات النجمية»[1] يشير سبحانه، إلى أن من كان من جملة خواصه أفرده، ببرهان وأيده ببيان، وأعزه بسلطان، وما لأهل الخذلان سلطان، فيما عبدوه من أصناف الأوثان، ولا برهان على ما طلبوه، وما لهم نصرة من الله، بل خذلان.

وجملة قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ معطوفة على يعبدون؛ أي: وإذا قرئت على هؤلاء المشركين ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ من القرآن حالة كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على العقائد الحقية، والأحكام الإلهية. وجملة قوله: ﴿تَعْرِفُ﴾ جواب ﴿إذا﴾. أي: تعرف أيها المخاطب ﴿فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظهار في مقام الاضمار ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾؛ أي[2]: الأمر المنكر، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام؛ أي: تعرف في وجوههم إنكارها، وترى فيها علامته من العبوس والكراهة. وقيل: هو التجبر والتكبر. وقرأ عيسى بن عمر ﴿يعرف﴾ مبنياً للمفعول ورفع المنكر.

واعلم: أنّ[3] الوجوه كالمرآة، فكل صورة من الإقرار والإنكار تظهر فيها، فهي أثر أحوال الباطن، وكل إناء يترشح بما فيه، كتلون وجوه قوم صالح، فما ظهر عليهم في ظاهرهم، إلا حكم ما استقر في باطنهم.

والمعنى: أي[4] وإذا تتلى على هؤلاء المشركين العابدين من دون الله، ما لم ينزل به سلطاناً. آيات القرآن ذوات الحجج والبينات، بدت وظهرت على وجوههم

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

أمارات الإنكار، بالتهجُّم والعبوس والبسور، ونحو ذلك، مما يدل على الغيظ، والحقيدة الكامنة في نفوسهم، مما يسمعون منها. ثم بين مقدار ذلك الغيظ، ومبلغ أمره، فقال: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ هذه الجملة[1] حال إما من الموصول، وإن كان مضافاً إليه، لأنَّ المضاف جزؤه، وإما من الوجوه؛ لأنها يعبر بها عن أصحابها، كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ ويسطون ضمن معنى يبطشون، فتعدى تعديته، وإلا فهو متعد بعلى، يقال سطا عليه؛ أي: وإذا تتلى عليه آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا أمارات الإنكار، حالة كونهم يقاربون أن يسطوا ويبطشوا. ﴿بِ﴾ المؤمنين ﴿الذين يتلون﴾ ويقرؤون ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ويوقعوا عليهم السرر، من فرط غيظهم وشدة غضبهم؛ أي: هم من شدة خنقهم على من يتلوا عليهم آياتنا من المؤمنين يكادون يثبون عليهم ويبطشون بهم، ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء. وقصارى ذلك أنهم قد بلغوا من الجهالة حدًّا لا ينفع فيه العلاج، ولا تقنع فيه البينات والحجج. والسطوة شدة البطش، يقال سطا به يسطو إذا بطش به بضرب أو شتم أو أخذ باليد. وأصل السطو القهر، كما سيأتي في مبحث الصرف.

وهكذا[2]: ترى أهل البدع المضلة والخرافات المحدثة، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم السني عليهم، من آيات الكتاب وأحاديث الرسول الصحيحة، مخالفاً لما اعتقدوه من الباطل والضلالة.. رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم، لفعل به ما لا يفعله بالمشركين. وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع، ما لا يحيط به الوصف. والله ناصر الحق، ومظهر الدين، وداحض الباطل، ودامغ البدع، وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس، ما نزل إليهم. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم ذكر لهم أن هذا الغيظ الكمين في نفوسهم ليس بشيء، إذا قيس بما سيلاقونه من العذاب يوم القيامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن

---

(١) الفتوحات الإلهية. (٢) الشوكاني.

﴿ذَٰلِكُمُۗ﴾ والهمزة فيه للاستفهام التقريعي داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: قل لهم أيها الرسول أتسمعون ما أقول: فأخبركم بأشر وأقبح، وأشد ضرراً عليكم من ذلكم الذي في قلوبكم من الغيظ على التالين للآيات، وأكره عليكم من سماع القرآن، حتى قاربتم أن تسطوا بهم وتمدوا إليهم أيديكم وألسنتكم بالسوء. ثم أجاب عن هذا الاستفهام، فقال ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: ذلك الأشر، هو النار، على أنه جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ما هو؟ فأجاب بقوله: ذلك الشر، هو النار التي أعدها الله تعالى لكم و﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾؛ أي: خوف بها الذين كفروا ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ أي: وقبح الموضع الذي تصيرون وترجعون إليه وهو النار.

والمعنى: أي[1] النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، ومما تنالون منهم، إن نلتم بإرادتكم واختياركم. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ أي: وبئس النار موئلاً ومقاماً لهؤلاء المشركين بالله. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿النار﴾ رفعاً على إضمار مبتدأ كأن قائلاً يقول قال: وما هو؟ قال: النار؛ أي: نار جهنم. وجملة وعدها، إما حال من النار، وإما خبر بعد خبر وإما مستأنفة. وأجاز الزمخشري أن تكون ﴿النار﴾ مبتدأ، وجملة ﴿وعدها﴾ خبراً عنها. وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن يوسف عن الأعشى وزيد بن علي: ﴿النارَ﴾ بالنصب على الاختصاص. قال: الزمخشري: ومن أجاز في الرفع أن تكون النار مبتدأ، فقياسه أن يجيز النصب على الاشتغال. وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن نوح عن قتيبة ﴿النارِ﴾ بالجر على البدل من ﴿شر﴾، فتكون جملة ﴿وعدها﴾ مستأنفة.

والظاهر أن الضمير في ﴿وعدها﴾ هو المفعول الأول، على أنه تعالى وعد النار بالكفار أن يطعمها إياهم، ألا ترى إلى قولها: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ ويجوز أن

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

يكون الضمير هو المفعول الثاني، والذين كفروا هو الأول. كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ كلام متصل بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: يا أهل مكة ضرب مثل؛ أي:[1] بين لكم حالة مستغربة أو قصة بديعة حقيقية، بأن تسمى مثلاً، وتسير في الأمصار والأعصار ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾؛ أي: لذلك المثل استماع تدبر، وتدبروه حق تدبر، فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع. قال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً، قال وهذا من أحسن ما قيل فيه؛ أي: بين الله لكم شبهاً ولمعبودكم. وأصل[2] المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول مسيرة في الناس، مستغربة عندهم. وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، كـ(الصيف ضيعتَ اللبن)، ثم قد يستعيرونها للقصة، أو الحالة، أو الصفة المستغربة، لكونها مماثلة لها في الغرابة، كهذه القصة المذكورة في هذه الآية.

فإن قلت[3]: الذي جاء به، ليس بمثل، فكيف سماه مثلاً؟

قلت: لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة، جاز أن يسمى كل كلام، كان كذلك مثلاً. وقال في «الكشاف»: قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، لكونها مسيرةً عندهم مستحسنةً مستغربة.

والمعنى: جعل لي شبيها وشبه بي الأوثان؛ أي: جعل المشركون الأصنام أشباهي وشركائي يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾؛ أي: إن الأصنام التي تعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين عبادة الله، وهو بيان للمثل وتفسير له.

﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾؛ أي: لن يقدروا على خلق ذبابٍ واحدٍ أبداً مع صغره

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) الخازن.

وحقارته فإنّ[1] (لَنْ) بما فيها من تأكيد النفي، دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: لخلقه، والجواب محذوف، تقديره: لن يخلقوه. والمعنى: أن هذه الأصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة، على ضعفها وصغرها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً له. وجملة قوله: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ مع الجواب المقدر في موضع حال جيء بها للمبالغة؛ أي؛ لا يقدرون على خلقه مجتمعين له، متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين.

وقرأ الجمهور: ﴿تدعون﴾ بالتاء. وقرأ الحسن ويعقوب وهارون والخفاف ومحبوب عن أبي عمر ﴿يدعون﴾ بالياء، وكلاهما مبني للفاعل، وقرأ اليماني وموسى الأسواري بالياء من أسفل مبنياً للمفعول.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: وإن يأخذ الذباب منهم شيئاً ويخطفه ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾؛ أي؛ لا يستردوه من الذباب مع غاية ضعفه لعجزهم. قيل: كانوا يطيبون الأصنام بالطيب والعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

أي: وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، وعن استنقاذ ما أخذه منهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً، وأشد منه قوة أعجز وأضعف. ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب. فقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس: الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم، والمطلوب هو الصنم. وقيل: الطالب الصنم، من حيث إنه يطلب خلق الذباب، أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب وقيل: الطالب عابد الصنم، والمطلوب الصنم. وقال الضحاك؛ أي: ضعف العابد والمعبود، ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب، وعابده أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال. قال ابن جرير الطبري: والصواب عندنا من التأويلات المذكورة، تأويل ابن عباس؛ لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فلأن يكون ذلك خبراً

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

عما هو متصلٌ به أشبه من أن يكون عما هو عنه منقطع انتهى.

ثم بين الله سبحانه، أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهةً، عاجزةً، إلى هذه الغاية في العجز، ما عرفوا الله حق معرفته فقال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: ما قدر المشركون الله، وما عظموه ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ أي: حق عظمته، وما عرفوه حق معرفته وما وصفوه حق صفته، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب، ولا ينتصر منه، وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء منه مناسبةً. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَقَوِيٌّ﴾ على خلق كل شيء. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين. فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضر، ولا تقدر على شيء.

وحاصل معنى الآيتين(١): يا أيها الناس، يعني: المؤمنين جعل المشركون لي أشباهاً وأنداداً، وهي الآلهة التي يعبدونها معي، فأنصتوا وتفهموا حال ما جعلوهم لي، في عبادتهم إياهم أشباهاً وأمثالاً، وحال هؤلاء الأشباه، أنه لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأوثان على أن يخلقوا ذبابة واحدة، على صغر حجمها، وحقارة شأنها.. ما قدروا، وما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

روي عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي!؟ فَلْيَخْلُقُوا ذُرَّةً، فليخلقوا شعيرة!!».

وإن يسلب الذباب الآلهة والأصنام شيئاً، مما عليها من طيب وما أشبهه، لا تستنقذ ذلك منه على ضعفه.

والخلاصة: أنهم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أعجب من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومته، والانتصار منه لو سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه.

وفي ذلك إشارة إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة، وأشركوا بالله القادر على كل شي آلهتهم من الأصنام والأوثان، التي لا تقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها وهو الذباب، ولو اجتمعت له. ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها

---

(١) المراغي.

شيئاً. عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من المطلوب، وهو الذباب ما سلبها إياه من الطيب وما أشبهه.

وقصارى هذا: أنه سبحانه، وصف هذه الآلهة بما وصف للدلالة على مهانتها وضعفها، تقريعاً منه لعبدتها من مشركي قريش؛ وكأنه قيل لهم كيف تجعلون لي مثلاً في العبادة، وتشركون معي فيها، ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ منه الذباب شيئاً، لم يقدر أن ينتصر منه، وأنا الخالق لما في السموات والأرض، المالك لجميع ذلك، المحيي لما أردت، والمميت له، إن فاعل ذلك بالغ غاية الجهل وعظيم السفه. ثم زاد هذا الإنكار توكيداً، فقال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ما عظموه حق التعظيم، الذي هو إفراده بالعبادة، إذ عبدوا معه غيره، من هذه الأصنام، التي لا تقاوم الذباب لضعفها، ولا تنتصر منه إن سلبها شيئاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: إنه تعالى قوي لا يتعذر عليه شيء، وبقدرته خلق كل شيء. عزيز لا يغالب لعظمته وسلطانه، ولا يقدر شيء أن يسلبه من ملكه شيئاً وليس كآلهتكم التي تدعونها من دون الله تعالى.

ونحو الآية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ وبعد أن ذكر ما يتعلق بالإلهيات، ذكر ما يتعلق بالنبوات فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَصْطَفِى﴾ ويختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي، كجبريل وميكائيل، وإسرافيل. فإن قلت: إن قوله من الملائكة، يقتضي أن تكون الرسل بعض الملائكة لا كلهم فيناقض قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ قلت: يدفع هذا التناقض، بأن المراد بما هنا من كان رسولاً من الملائكة إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة كجبريل، وعزرائيل والحفظة. وبأن المراد من قوله: ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾؛ أي: بعضهم رسلاً إلى البعض. اهـ «جمل».

﴿و﴾ يصطفي ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رسلاً يدعون عباده إلى ما لا يرضيه، ويبلغونهم

ما نزله عليهم من وحيه، إرشاداً لهم وتشريعاً للأحكام التي فيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم، فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة.

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما كان بين أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ويعلم ما هو كان بعد فنائهم. وعبارة العمادي: ما بين أيديهم ما مضى، وما خلفهم ما لم يأت.

وخلاصة ذلك: يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها، وقيل: يعلم ما عملوه وما سيعملونه من أمور الدنيا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد غيره، لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿تُرْجَعُ﴾ وترد من[1] الرجع القهقرى ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ كلها في الآخرة؛ لأنه مالكها بالذات، ولا أمر ولا نهي لأحد سواه. وهو يجازي كلا بما عمل إن خيراً، وإن شراً. لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره، وهم يسألون. وفي هذا إشارة إلى التفرد بالإلهية، والحكم، وإلى الزجر عن المعصية.

ولمَّا تضمن ما ذكره من أنّ الأمور ترجع إليه الزجر لعباده عن معاصيه، والحض لهم على طاعاته صرح بالمقصود، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وصدقوها ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾؛ أي: اخضعوا لله ﴿وَٱسْجُدُوا۟﴾؛ أي: خروا له سجداً. وقيل: ارجعوا[2] من تكبر قيام الإنسانية إلى تواضع الحيوانية، وذلة النباتية. قال: ابن عباس: إن الناس كانوا في أول الإسلام يركعون ولا يسجدون، حتى نزلت هذه الآية. قال أبو الليث: كانوا يسجدون بغير ركوع، فأمرهم الله بأن يركعوا ويسجدوا. وقال بعضهم: كانوا يركعون بلا سجود، ويسجدون بلا ركوع.

والمعنى: صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم. عبر عن الصلاة بهما؛ لأنهما أعظم أركانها. وخص الصلاة بالذكر؛ لأنها أشرف عبادات البدن. وقال الإمام

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

الأعظم أبو حنيفة والإمام مالك: دل مقارنة السجود بالركوع في الآية على أن المراد سجود الصلاة، ثم عمَّم فقال: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: واعبدوه بسائر ما تعبدكم به خالصاً لوجهه.

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الذي أمركم بفعله، من صلة الأرحام ومكارم الأخلاق. وقيل: فعل[1] الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله تعالى، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف، والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تسعدوا وتفوزوا من ربكم بما تأملون من الثواب والرضوان والجنة؛ أي: افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الإفلاح، غير متيقنين له واثقين بأعمالكم.

فصل في حكم سجود التلاوة هنا

لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة، واختلفوا في السجدة الثانية. فروي عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى أنهم قالوا: في الحج سجدتان. وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق.

يدل عليه ما روي عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله، أفي الحج سجدتان؟ قال: «نعم. ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما». أخرجه الترمذي وأبو داود. وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ سورة الحج، فسجد فيها سجدتين، وقال: إن هذه السورة فضلت بسجدتين. أخرجه مالك في الموطأ.

وذهب قوم إلى أن في الحج سجدة واحدة، وهي الأولى وليست هذه بسجدة. وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك، بدليل أنه قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة

---

(١) الخازن.

صلاةٍ لا سجدة تلاوةٍ.

واختلف العلماء في عدة سجود التلاوة، فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم، إلى أنها أربع عشرة سجدة، لكن قال الشافعي: في الحج سجدتان، وأسقط سجدة ﴿ص﴾ وقال أبو حنيفة في الحج سجدة واحدة، وأثبت سجدة ﴿ص﴾. وبه قال: أحمد في إحدى الروايتين عنه، فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة.

وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود. ويروى ذلك عن أبي بن كعب وابن عباس وبه قال مالك. فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة. يدل عليه ما روي عن أبي الدراء أن النبي ﷺ قال: «في القرآن أحد عشرة سجدة». أخرجه أبو داود، وقال: إسناده واهٍ. ودليل من قال: في القرآن خمس عشرة سجدة؟ ما روي عن عمرو بن العاص قال: أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة. منها: ثلاثة في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان. أخرجه أبو داود. وصح من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في إقرأ، وإذا السماء انشقت. أخرجه مسلم.

وسجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع. وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة هو واجب. ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبيرة الإحرام والسلام خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي. ولا يجزىء الركوع عن سجود التلاوة. وقال: أبو حنيفة يجزىء. ولا يسجد المستمع إذالم يسجد التالي. نص عليه أحمد. وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات خلافاً للشافعي. ذكره ابن الجوزي.

﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في[1] سبيله وطاعته، ونصر دينه على أعداء دينه الظاهرة والباطنة، من أهل الضلال والبدع والهوى والنفس.

---

(١) المراح.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾؛ أي: جهاداً حقاً خالصاً لوجهه. لا تخشون فيه لومة لائم. قيل: المراد به الجهاد الأكبر، وهو الغزو للكفار، ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين. وقيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به، في الآية المتقدمة، أو امتثال جميع ما أمر به، ونهى عنه. على العموم.

ومعنى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ المبالغة(١) في الأمر بهذا الجهاد؛ لأنه أضاف الحق إلى الجهاد. والأصل إضافة الجهاد إلى الحق؛ أي: جهاداً خالصاً لله، فعكس ذلك لقصد المبالغة. وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لاختصاصه به سبحانه، من حيث كونه مفعولاً له، ومن أجله. وقيل: المراد بحق جهاده، هو أن لا يخافوا في الله لومة لائم. وقيل: المراد به استفراغ ما في وسعهم في إحياء دين الله.

وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ كما أن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ منسوخ بذلك. ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ.

ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه لا غيره ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ أي(٢): اختاركم من سائر الأمم، وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع. وقيل: اختاركم للاشتغال بطاعته من بين سائر البريات. وقيل: اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره. وفيه(٣) تنبيه على ما يقتضي الجهاد، ويدعو إليه. قال ابن عطاء: الاجتبائية أورثت المجاهدة، لا المجاهدة أورثت الاجتبائية، انتهى.

وفيه تشريف لهم عظيم، ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيتها الأمة المحمدية ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ الذي تعبّدكم به ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: من ضيق وشدة وصعوبة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لا مخرج لكم منه، بل وسع عليكم، وجعل لكم من كل ذنب مخلصاً، فرخص لكم في المضايق، فالصلاة وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى ركعتين ويصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، وأباح الفطر حين السفر وحين الإرضاع والحمل والشغل في شاق الأعمال، ولم يوجب علينا الجمعة في المساجد حين السفر، أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر، إلى نحو أولئك كما فتح لكم باب التوبة، وشرع لكم الكفارات في حقوقه، ودفع الدية بدل القصاص إذا رضي الولي.

وعبارة الشوكاني هنا: وقد اختلف العلماء في هذا الحرج، الذي رفعه الله، فقيل: هو ما أحله الله من النساء، مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين. وقيل: المراد قصر الصلاة والإفطار للمسافر، والصلاة بالإيماء، على من لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة. وكذا في الفطر والأضحى. وقيل: المعنى أنه سبحانه وتعالى ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج، فلم يتعبدهم بها، كما تعبد بها بني إسرائيل. وقيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً. بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار، والتكفير فيما شرع فيه الكفارة، والأرش أو القصاص في الجنايات، ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه.

والظاهر: أن الآية أعم من هذا كله، فقد حط الله سبحانه، ما فيه مشقة، من التكاليف على عباده، إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل، لا مشقة فيه، أو مشروعية التخلص من الذنب بالوجه الذي شرعه، وما أنفع هذه الآية، وأجل موقعها وأعظم فائدتها. ومثلها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

فإن قلت[١]: كيف لا حرج فيه، مع أنَّ في قطع اليد بسرقة ربع دينار، ورجم محصن بزنا مرةٍ، ووجوب صوم شهرين متتابعين، بإفساد صوم يوم من رمضان بوطء ونحو ذلك حرجاً؟

فالجواب: المراد بالدين التوحيد، ولا حرج فيه، بل فيه تخفيف، فإنه يكفر ما قبله من الشرك وإن امتد، ولا يتوقف الإتيان به على زمان أو مكان معين، أو أن كل ما يقع فيه الإنسان من المعاصي، يجد له في الشرع مخرجاً بتوبةٍ، أو كفارةٍ، أو رخصةٍ.

أو المراد نفي الحرج الذي كان في زمن بني إسرائيل، من الإصر والتشديد، والتضييق بتكليف ما لا يطيقون، فلا يرد نحو المخاطرة بالنفس والمال في الحج والغزو اهـ. كرخي.

وفي «القرطبي»: قال العلماء[٢]: رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم، بمفارقتهم الدين، وليس في الشرع أعظم حرجاً، من إلزام ثبات رجلٍ لاثنين في سبل الله، لكنه مع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج، اهـ.

وانتصاب ملة في قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله، تقديره: وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا أظهر ما ذكروه هنا من الأوجه، كما قاله الزمخشري. أو منصوب بـ ﴿اتبعوا﴾ مضمراً قاله الحوفي، وتبعه أبو البقاء. أو منصوب على الاختصاص؛ أي: أعني بالدين ملة أبيكم. أو منصوب بـ(جعل) مقدراً. قاله ابن عطية؛ أي: جعل لكم ملة أبيكم دينا، أو منصوب بنزع الخافض، تقديره: ملتكم كملة أبيكم إبراهيم في السهولة.

فإن قلت: لم يكن إبراهيم أباً للأمة كلها، فكيف سماه الله سبحانه، أبا، في قوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾؟

---

(١) الفتوحات. (٢) القرطبي.

قلت: إن كان الخطاب للعرب، فهو أبو العرب قاطبةً فلا إشكال، وإن كان الخطاب لكل المسلمين، فهو أبو المسلمين لكونه أباً لنبيهم ﷺ. والمراد: أن احترامه وحفظ حقه واجب عليهم، كما يجب احترام الأب.

والضمير في قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عائد إلى الله، بدليل قراءة أبي ﴿الله سماكم﴾ والمعنى: هو سبحانه وتعالى سماكم المسلمين، في الكتب القديمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ نزول القرآن. وقيل: عائد على إبراهيم، يعني أن إبراهيم سماكم المسلمين في زمنه، من قبل هذا الوقت، كما حكاه تعالى في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ فاستجاب الله دعاءه فينا.

﴿وَ﴾ سماكم الله سبحانه مسلمين ﴿في هذا﴾ القرآن بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. وقيل: الله سماكم المسلمين في الأزل، من قبل أن خلقكم، وبعد أن خلقكم، أو سماكم إبراهيم مسلمين في هذا القرآن. وتسميته إياهم[١] مسلمين في القرآن وإن لم تكن منه كان بسبب تسميته من قبل في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. وقيل: التقدير في قوله: ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: وفي هذا القرآن بيان تسميته إياكم مسلمين.

ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ متعلق بـ ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾، واللام فيه، لام العاقبة؛ أي: ليكون الرسول محمد ﷺ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنه قد بلغكم رسالة ربكم، فيدل هذا على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاعه منكم، وعصيان من عصاه ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ أنتم أيتها الأمة المحمدية ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾؛ أي: على الأمم الماضية، بأن رسلهم قد بلغتهم.

والمنعى: أي[٢] إنما جعلكم هكذا أمة وسطاً عدولاً مشهوداً بعدالتكم بين الأمم، ليكون محمد ﷺ شهيداً عليهم يوم القيامة، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم، وتكونوا شهداء على الناس، بأن رسلهم قد بلغوهم ما أرسلوا به إليهم.

وإنما قبلت شهادتهم على الناس لسائر الأنبياء لأنهم لم يفرقوا بين أحد

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

منهم، وعلموا أخبارهم من كتابهم على لسان نبيِّهم ولاعتراف سائر الأمم يومئذٍ بفضلهم على سواهم، وقد تقدم ذكر هذا في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الآية.

ولما ندبهم لأداء الشهادة على الأمم جميعاً، طلب منهم دوام عبادته، والاعتصام بحبله المتين، فقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فداوموا أيها المؤمنون، على إقامة الصلوات الخمس، وأدائها بحقوقها وشروطها في أوقاتها. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وداوموا على إيتائها وأدائها لمستحقيها، وتقربوا إليه بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل العظيم، والشرف الجسيم، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر، من بين أنواع الطاعات، لفضلها على غيرهما، فإن الأولى تدل على تعظيم أمر الله تعالى. والثانية على الشفقة على الخلق، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: واحتفظوا بالله مما تحذرون وتخافون منه، واعتمدوا عليه، والتجؤوا إليه، وثقوا به في مجامع أموركم ديناً ودنيا، وانتصروا به على أعدائكم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه تعالى. ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: ناصركم وحافظكم ومتولي أحوالكم. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله تعالى.

والمعنى: أي فقابلوا هذه النعم العظيمة، بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم، بطاعته فيما أوجب، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة، التي هي صلة بينكم وبين ربكم، وإيتاء الزكاة التي هي طهرة أبدانكم، وصلة ما بينكم وبين إخوانكم، واستعينوا بالله في جميع أموركم، وهو ناصركم على من يعاديكم.

ثم علل الاعتصام به بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ مولاكم، لا مماثل له في الولاية لأموركم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ناصركم، لا مماثل له في النصرة لكم؛ أي: إن من تولاه كفاه، كل ما أهمه، وإذا نصر أحداً، أعلاه على كل من خاصمه، إذ لا ناصر في الحقيقة سواه، ولا ولي غيره، فله الحمد، وهو رب العالمين.

الإعراب

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك، من إنجاز الوعد للمهاجرن الذين قتلوا أو ماتوا. وفي الخطيب ذلك؛ أي: الأمر المقرر من صفات الله تعالى، الذي قصصنا عليك. اهـ. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ﴾: الواو استئنافية. ﴿مَنۡ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما، أو موصولة مبتدأ. ﴿عَاقَبَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿مَنۡ﴾ على كونها شرطية، أو صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة على كونها موصولة. وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِمِثۡلِ مَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عَاقَبَ﴾، والباء سببية هنا لا باء الآلة. ﴿عُوقِبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿عُوقِبَ﴾، وجملة ﴿عُوقِبَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب. ﴿بُغِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، معطوف على ﴿عاقب﴾ على كونها فعل شرط لـ ﴿من﴾ إن كانت شرطية، أو على كونها صلة لها؛ إن كانت موصولة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ ﴿بُغِيَ﴾. ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿ينصرن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم، مبنيٌّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. والهاء: مفعول به ولفظ الجلالة فاعل. والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، تقديره: وعزتي وجلالي لينصرنه الله. وجملة القسم في محل الجزم جواب ﴿مَنۡ﴾ الشرطية، أو في محل الرفع خبر ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، أو الموصولة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره. واللام: حرف ابتداء. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾، جملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: الباء حرف جر ﴿أن الله﴾: ناصب واسمه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿يُولِجُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء. تقديره: ذلك بسبب إيلاج الله الليل ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب قدرة الله، على إيلاج الليل في النهار، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتقرير قدرته تعالى على النصر. ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُولِجُ﴾. و﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يُولِجُ﴾. ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿يُولِجُ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر ثان لها. وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: جار ومجرور خبره والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير دليل آخر، إلى جانب الدليل الأول، وهو القدرة على جميع الممكنات، وهو كونه تعالى حقاً ثابتاً، وما عداه معدوم وزائل. ﴿أن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبرها، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء ﴿وَأَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب، اسم ﴿أن﴾ ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يدعونه ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من فاعل: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾: خبر ﴿أن﴾. وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾: خبر أول لـ﴿أن﴾. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾. خبر ثان لها، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ

لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير مستتر، يعود على محمد، أو على أيٍّ مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به. ﴿مَآءً﴾ مفعول به. وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ لأنها علمية، أو سادة مسد مفعولها، إن كانت بصرية. ﴿فَتُصْبِحُ﴾: الفاء: عاطفة، لا سببية؛ لأن الاستفهام تقرير مؤول بالخبر؛ أي: قد رأيت، والخبر لا جواب له، وأيضاً لا تصح السببية هنا، فإن الرؤية لا يتسبب عنها اخضرار الأرض، بل إنما يوجبه إنزال الماء، بعد أن تصبح جهة تصبح فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: اسمها. ﴿مُخْضَرَّةً﴾ خبرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبر ثانٍ. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَّهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هو﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: خبر أول لـ ﴿أنَّ﴾. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان لها وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لم﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿سَخَّرَ﴾ وجملة ﴿سَخَّرَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾. لأنها

علمية. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب، مفعول ﴿سَخَّرَ﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: معطوف على ﴿ما في الأرض﴾. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الفلك. ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية حال من الفلك. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿تَجْرِي﴾ أو متعلق به.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾ معطوف على ﴿سخر﴾ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَقَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير يعود على السماء. ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور، بإضافة المصدر المقدر المعلِّل، للجملة الفعلية، تقديره: كراهية وقوعها على الأرض، أو في تأويل مصدر مجرور بمن المقدرة، تقديره: ويمسك السماء من وقوعها على الأرض. واختار أبو البقاء، وغيره، أن تكون بدل اشتمال من السماء؛ أي: ويمسك وقوعها على الأرض بمعنى يمنعه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو لا يقع في الكلام الموجب، إلا أن قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: في قوة النفي؛ أي: لا يتركها، تقع في حالةٍ من الأحوال، إلا في حالة كونها ملتبسة بإذن الله ومشيئته. فالباء للملابسة. اهـ. زاده. ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾: جار ومجرور. ومضاف إليه. متعلق بمحذوف حال من فاعل تقع؛ أي: لا تقع على الأرض إلا حالة كونها ملتبسة بإذنه تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿بِٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿رؤوف﴾. ﴿لَرَءُوفٌ﴾: خبر أول لـ ﴿إِنَّ﴾. واللام حرف ابتداء. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَحْيَاكُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر عائد على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾:

فعل ومفعول وفاعل مستتر معطوف على أحياكم. وكذا قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَكَفُورٌ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مفيدة لتعليل عدم الاعتبار، والتبصر بعد هذه العبر والدلائل.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، مفعول ثان مقدم لـ ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مَنسَكًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ والجملة الفعلية مستأنفة، استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿نَاسِكُوهُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لمنسكاً. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد، أنا جعلنا لكل أمة منسكاً وأردت بان ما هو اللازم لمعاصريك.. فأقول: لك لا ينازعنك من يعاصرك من أهل الملل. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿ينازعن﴾. فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامته جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والكاف مفعول به، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة، ولم تؤثر هنا في بناء المضارع، لأنها لم تباشره. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: متعلق بـ ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱدْعُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾: خبره، واللام حرف ابتداء. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾. صفة ﴿هُدًى﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَـٰدَلُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فَقُلِ﴾: الفاء: رابطة الجواب، ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جوابا لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿يُنَـٰزِعُنَّكَ﴾ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قل﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما تعملونه. ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾ خبره. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿قل﴾. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾. وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد ضمير فيه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿لم تعلم﴾: جازم ومجزوم وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَعْلَمْ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾ مضارع والجملة خبر ﴿أن﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السماء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾: جار ومجرور خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسِيرٌ﴾. ﴿يَسِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها أيضاً.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ

﴿مِن نَّصِيرٍ ۝٧١﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل يعبدون؛ أي: حالة كونهم متجاوزين الله. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَمْ يُنَزِّلْ﴾: جازم وفعل مضارع، مجزوم وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنه في الأصل صفة نكرة. قدمت عليها. ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة ينزل صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ما الأولى. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ناقص. ﴿لَهُم﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾ ﴿عِلْمٌ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿نَّصِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: وما نصير كائن للظالمين. والجملة الاسمية معطوفة على جملة يعبدون.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل ومضاف إليه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من الآيات، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿تَعْرِفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على أي مخاطب أو على محمد ﴿فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَعْرِفُ﴾. وجملة ﴿تَعْرِفُ﴾ جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصولة ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: مفعول به لـ ﴿تَعْرِفُ﴾. ﴿يَكَادُونَ﴾: فعل مضارع ناقص واسمها. ﴿يَسْطُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يَسْطُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكَادُونَ﴾. وجملة ﴿يَكَادُونَ﴾ في محل النصب حال من الموصول قبله. وإن كان مضاف إليه؛ لأن المضاف جزؤه، ويجوز أن يكون

حالاً من وجوه؛ لأن المراد بها أصحابها. ﴿يَتْلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾: مفعول به. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر. يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾. وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام التقريعي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: قل لهم أيها الرسول، أتسمعون ما أقول لكم، فأنبئكم بشر من ذلكم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿أنبئكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ومفعول به. ﴿بِشَرٍّ﴾: متعلق به ﴿مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: متعلق ﴿بِشَرٍّ﴾. وجملة ﴿أنبئكم﴾ في محل النصب، معطوفة على تلك الجملة، المحذوفة على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: ذلك الشر النار، أو النار مبتدأ وجملة وعدها خبره، والجملة الاسمية على كلا التقديرين، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها مفسرة لشر. ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول ثان لـ ﴿وعد﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، وجملة وعدها، حال من النار على التقدير الأول، أو مستأنفة أو خبر بعد خبر. ويجوز أن يكون الضمير في ﴿وَعَدَهَا﴾ هو المفعول الثاني، والذين كفروا، هو المفعول الأول، ولعل هذا هو الأرجح؛ لأن الموصول بمنزلة الآخذ، والنار بمنزلة المأخوذ في باب أعطى. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: فعل وفاعل والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: هي، والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها سيقت لإنشاء الذم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّاسُ﴾، صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، من ضرب المثل، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: استمعوا ما أقول لكم. ﴿استمعوا﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف، تقديره: ما

أقول لكم، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿له﴾ متعلقان به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: تدعونهم. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله. ﴿لَن يَخْلُقُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، منصوب بحذف النون ﴿ذُبَابًا﴾: مفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مفسرة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها مسوقة لتفسير المثل. ﴿وَلَوِ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿ٱجْتَمَعُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿ٱجْتَمَعُواْ﴾. والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف، معلوم مما قبلها، تقديره: ولو اجتمعوا له لن يخلقوا ذباباً. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب على الحال، معطوفة على جملة محذوفة، وقعت حالاً من فاعل ﴿يَخْلُقُواْ﴾، والتقدير: إن الذين تدعون من دون الله، لن يخلقوا ذباباً، لو انفردوا في خلقه لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه. والمعنى: إن الذين تدعون من دون الله، لن يخلقوا ذباباً، حالة كونهم منفردين في خلقه، وحالة كونهم مجتعين على خلقه. ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾ فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿ٱلذُّبَابُ﴾: فاعل. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ثان له. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق به. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾: على كونها خبراً لـ ﴿إن﴾. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: معطوف على ﴿ٱلطَّالِبُ﴾. والجملة الفعلية: إما حال من فاعل يستنقذون؛ أي: حالة كونهما ضعيفين، أو

مستأنفة مسوقة للتعجب من حالهم. ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَا﴾: نافية. ﴿قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَقَوِيٌّ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿قوي﴾: خبر أول لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿يَصْطَفِى﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: حال من رسلاً؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ولك أن تعلقه بيصطفى. ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾: معطوف على ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وحذف من الثاني، لدلالة الأول عليه؛ أي: ويصطفي من الناس رسلاً، وجملة يصطفي في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتقرير اصطفائه تعالى الرسل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾: ناصب واسمه وخبره الأول. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره الثاني، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثالث لـ﴿أن﴾، أو مستأنفة. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾: معطوف على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: الواو: عاطفة، أو استئنافية. ﴿إلى الله﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُرْجَعُ﴾. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾، أو مستأنفة. ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل. صلة الموصول.

﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ فعل وفاعل جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ أيضاً ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف عليه أيضاً، على كونه جواب النداء، لا محل له من الإعراب ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. أو حال من الواو في ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ وما عطف عليه، أي: افعلوا هذه الأمور، حالة كونكم راجين الفلاح.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾.

﴿وَجَٰهِدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ أيضاً. ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: متعلق به ولا بد من حذف مفعول ﴿جاهدوا﴾؛ أي: جاهدوا أعداءكم في ذات الله ومن أجله ففي للسببية. و﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾: مفعول مطلق. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب حال من الجلالة. ﴿وَمَا جَعَلَ﴾: الواو: عاطفة ﴿ما﴾: نافية. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الرفع معطوفة على ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلَ﴾. ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾: حال ﴿مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿مِنۡ﴾: زائدة. ﴿حَرَجٖۚ﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف معلوم من مضمون ما تقدمها، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فانتصب انتصابه. والجملة المحذوفة مستأنفة. قال الزمخشري: وهذا أحسن الأوجه في هذا المقام. ويجوز نصبها على الاختصاص؛ أي: أخص بالدين ملة أبيكم، أو بتقدير فعل مضمر، تقديره: اتبعوا ملة أبيكم. وهناك أوجه أخرى، لا تخرج عن هذه الأوجه. ﴿أَبِيكُمۡ﴾ مضاف إليه. ﴿إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾: بدل من ﴿أَبِيكُمۡ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾: فعل

ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم أو على الله. ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: مفعول ثان. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ويحتمل كون هو ضميراً يعود على الله، وكذا فاعل ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ فتكون الجملة الاسمية حينئذٍ حالاً من فاعل، وسع المحذوف، أو من فاعل جعل. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾؛ أي: من قبل هذا الكتاب ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: معطوف على ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: وفي هذا الكتاب.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿لِيَكُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يكون﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ اسمها. ﴿شَهِيدًا﴾: خبرها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾. وجملة ﴿يكون﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لكون الرسول شهيداً. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾. وفي «الفتوحات» واللام فيه للعاقبة، لأن التعليل، غير ظاهر هنا كما قيل. والظاهر أنه لا مانع منه، فإن تسمية الله، أو إبراهيم لهم به حكم بإسلامهم وعدالتهم، وهو سبب لقبول شهادة الرسول، الداخل فيهم دخولاً أولياً، وقبول شهادتهم على الأمم اهـ. «شهاب» ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿شُهَدَآءَ﴾. ﴿فَأَقِيمُوا۟﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن الله سماكم المسلمين، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم أقيموا الصلاة. ﴿أقيموا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذ المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أقيموا﴾. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أقيموا﴾ أيضاً. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿اعتصموا﴾. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: الفاء استئنافية. ﴿نعم﴾: فعل ماض لإنشاء المدح. ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: فاعل.

والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: هو، أي: المولي. والجملة مستأنفة. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نعم المولى﴾. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره هو.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ والعقاب: مأخوذ من التعاقب، وهو مجيء الشيء بعد غيره، وحينئذٍ فتسمية ما عوقب به عقاباً، من باب المشاكلة كما سبق ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْـهِ﴾ يقال: بغى عليه بغياً إذا علا وظلم.

قال الراغب: البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى تجاوزه، أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدرة التي هي الكمية، وتارة يعتبر في الوصف، الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب. ﴿مُخْضَرَّةً﴾ قال الراغب: الخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب، ولهذا يسمى الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقيل: سواد العراق للموضع الذي تكثر فيه الخضرة. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: يطلق على الواحد والجمع بهذه الصيغة، فالواحدة يقال، لها: فلك، فتكون حركته حينئذٍ كحركة قفل، والجمع يقال له: فلك فتكون حركته حينئذٍ كحركة بدن. اهـ شيخنا.

﴿مَنسَكًا﴾ بفتح السين وكسرها؛ أي: شريعة ومنهاجاً؛ لأنه مأخوذ من النسيكة، وهي العبادة، وقد تقدم الكلام على هذه المادة مستوفى. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ يقال: نزع الشيء إذا جذبه من مقره كنزع القوس عن كبده، والمنازعة المخاصمة.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي: خاصموك بعد ظهور الحق، وأصله من جدلت الحبل؛ أي: حكمت فتله، فكأن المجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه. ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ بوزن اسم المفعول مصدر ميمي، بمعنى الإنكار وهو على حذف مضاف؛ أي: أثر الإنكار من العبوس ﴿يَسْطُونَ﴾؛ أي: يبطشون. يقال: سطا عليه إذا بطش به، والسطو: الوثب والبطش، ولذلك عدى بالباء، وإلا فهو يتعدى بعلى، يقال: سطا عليه، وأصله القهر والغلبة. وقيل: هو إظهار ما يهول

للإخافة، ولفلان سطوة؛ أي: تسلط وقهر، اهـ «سمين». وفي «الأساس» وسطا بقرنه وعلى قرنه: وثب عليه وبطش به، والفحل يسطو على طروقته. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المصير: المرجع، وهو النار.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ المثل في الأصل، بمعنى: المثل، ثم خص بما شبه مضربه بمورده من الكلام السائر، فصار حقيقة عرفية فيه، ثم استعير لكل حال غريبة، أو قصة من الكلام فصيحة غريبة، لمشابهتها له في ذلك، اهـ «شهاب» ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ والذباب: من الذب وهو المنع؛ لأنه يذب؛ أي: يمنع ويدفع. قال في «المفردات»: الذباب يقع على الحيوان المعروف من الحشرات الطائرة، وعلى النحل، والزنابير. وفي قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ فهو المعروف. وفي حياة الحيوان في الحديث (الذباب في النار إلا النحل) وهو يتولَّد من العفونة، لم يخلق لها أجفان لصغر أحداقها، ومن شأن الأجفان أن تصقل مرأة الحدقة من الغبار، فجعل الله لها يدين تصقل بهما مرآة حدقتها، فلهذا ترى الذباب أبداً يمسح بيديه عينيه، وإذا بخر البيت بورق القرع. ذهب منه الذباب، اهـ. دُمَيري. وهو اسم جنس واحده ذبابة، يقع على المذكر والمؤنث، ويجمع على ذباب بالكسر كغربان وذباب بالضم كقضبان وعلى أذبة كأغربة، وهو أجهل الحيوانات؛ لأنه يرمي نفسه في المهلكات، ومدة عيشه أربعون يوماً، وأصل خلقته من العفونات، ثم يتوالد بعضه من بعض، يقع روثه على الشيء الأبيض فيرى أسود، وعلى الأسود فيرى أبيض، والذباب مأخوذ من ذب إذا طرد وآب إذا رجع، لأنك تذبه فيرجع عليك، اهـ. شيخنا.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾؛ أي: يختطف منهم بسرعة. ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الاستنقاذ استفعال بمعنى الإفعال، يقال: أنقذه منه بكذا؛ أي: أنجاه منه وخلصه. اهـ «سمين».

﴿يَصْطَفِى﴾ قال في «المفردات»: أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب، والاصطفاء تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار تناول خيره، والاجتباء تناول جبايته، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب

الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه، وإن لم يتعرّ من ذلك الشوب، الذي تعرى منه الأول، اهـ. «روح البيان».

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وهو ثلاثة أضرب، مجاهدة العدو الظاهر كالكفار، مجاهدة الشيطان، مجاهدة النفس والهوى وهذه أعظمها.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الراغب: الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء، ليتوصلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين، أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي، الذي تسند إليه، نحو اتبعوا ملة إبراهيم، واتبعت ملة آبائي. ولا يكاد يوجد مضافاً إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمة النبي، ولا يستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، ولا يقال: ملة الله، ولا ملتي وملة زيد، كما يقال: دين الله وأصل الملة من مللت الكتاب، ويقال الملة اعتباراً بالنبي الذي شرعها، والدين يقال: اعتباراً بمن يقيمه إذا كان معناه الطاعة، هذا كله في مفردات الراغب. قال ابن عطاء ملة إبراهيم هو السخاء، والبذل وحسن الأخلاق والخروج عن النفس، والأهل والمال والولد.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والفلاح: الظفر، وإدراك البغية وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدنيويُّ: الظفر بالسعادات التي يطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء، والغنى، والعز. والعلم، والأخروي أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة.

و﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ أي: اختاركم. ﴿حَرَجٍ﴾؛ أي: ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم. ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: استعينوا به وتوكلوا عليه. ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المشاكلة والإزدواج في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ الخ. حيث سمى

الفعل الصادر منهم ابتداء بالعقاب، مع أن العقاب إنما هو الجزاء على الجناية للازدواج. أو هو من باب المجاز المرسل، حيث سمى ما وقع ابتداء عقاباً، لكونه سبباً لما وقع جزاء وعقوبة، فسمى السبب باسم المسبب. وعبارة «الفتوحات» هنا فتلخص أن قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ بمعنى جازى حقيقة لغوية. وأن قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ مجازٌ من قبيل المشاكلة أو من قبيل تسمية السبب باسم المسبب مجازاً مرسلاً، اهـ. مع زيادة.

ومنها: إيراد صيغة المضارع بدل الماضي حيث قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بدل أصبحت لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان.

ومنها: الامتنان بتعداد النعم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى . . .﴾ إلخ. وكذلك الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

ومنها: وصف ﴿مَنسَكًا﴾ بقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ تأكيداً للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل، في قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾.

ومنها: النهي الذي يراد منه نفي الشيء في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾؛ أي: لا ينبغي لهم منازعتك، فقد ظهر الحق وبان.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ حيث شبه الخصومة الواقعة بينه وبينهم بجدل الحبل، وفتله؛ لأن أصل الجدل فتل الحبل، فكأن المجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قد علمت.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تسجيلاً

عليهم باسم الظلم.

ومنها: إيقاع الظاهر موقع المضمر في قوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للشهادة عليهم بوصف الكفر، اهـ «سمين». وفيه الاستعارة اللطيفة؛ أي: تستدل من وجوههم على المكروه، وإرادة الفعل القبيح، مثل قولهم عرفت في وجه فلان الشر.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية، حيث أستعير المثل لصفة غريبة، وقصة عجيبة، تشبيهاً لها ببعض الأمثال، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم. كما في «الخازن».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: صلوا؛ لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص، لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص، في قوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ بدأ بخاص، ثم بعام، ثم بأعم.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: رسلاً حيث حذف من الثاني لدلالة الأول عليه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمَّنت هذه السورة من الحكم والأحكام

جملتها سبعة عشرة

١ ـ وصف حال يوم القيامة، وما فيه من شدائد وأهوالٍ تشيب منها الولدان.

٢ ـ جدال عبدة الأصنام والأوثان، بلا حجة وبرهان.

٣ ـ إثبات البعث وإقامة الأدلة عليه.

٤ ـ وصف المنافقين المذبذبين في دينهم، وعدم ثباتهم على حال واحدة.

٥ ـ ما أعد الله لعباده المؤمنين، من الثواب المقيم، في جنات النعيم.

٦ ـ بيان أن الله ناصر نبيه، ومظهر دينه على سائر الأديان.

٧ ـ بيان أن الله يحكم يوم القيامة بين عباده، من أرباب الديانات المختلفة، ويجازي كلا بما يستحق.

٨ ـ إقامة الأدلة على وجود خالق السموات والأرض، وبيان أن العالم كله خاضع لقدرته.

٩ ـ أمر المؤمنين بقتال المشركين، الذين أخرجوهم من ديارهم، وبيان أن هذا القتال لا بد منه لنصرة الحق في كل زمان ومكان، وأن الله ينصر من يدافع عنه.

١٠ ـ تسلية الرسول على ما يناله من أذى قومه، وأنهم ليسوا بدعاً في الأمم، فكثير ممن قبلهم كذبوا رسلهم، ثم كانت العاقبة للمتقين، وأهلك الله القوم الظالمين، والعبر ماثلةٌ في حلهم وترحالهم.

١١ ـ بيان أن المفسدين يلقون الشبهات على الحق، ليزلزلوا عقائد المؤمنين، لكنها لا تلبث أن تزول، وينكشف نور الحق ويزيل ظلام الباطل.

١٢ ـ الثواب على الهجرة لله ورسوله، سواء قتل المهاجر أو مات.

١٣ ـ وصف حال الكافرين، إذا تلي عليهم القرآن بما يظهر على وجوههم من أمارات الغضب.

١٤ ـ بيان أن الله يرسل رسلاً من الملائكة، ورسلاً من البشر، وأن الله عليم بمن يصلح لهذه الرسالة.

١٥ ـ أمر المؤمنين بدوام الصلاة والزكاة، وفعل الخيرات والجهاد حق الجهاد في سبيل الحق.

١٦ ـ بيان أن الدين يسرٌ لا عسرٌ، وأنه كمِلَّة إبراهيم سمح لا شدة فيه.

١٧ ـ بيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة، وأن هذه الأمة تشهد على الأمم السالفة، بأن رسلهم قد بلغوهم شرائع الله وما قصروا في ذلك.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعل الأمر مشتبهاً علينا، فإذاً نضيع. آمين آمين. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(١).

* * *

(١) قد انتهى المجلد الثامن عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» قبيل الغروب من يوم الجمعة المبارك، الحادي والعشرين من شهر شوال من شهور سنة ألف وأربع مئة واثنتي عشرة سنة (٢١/ ١٠/ ١٤١٢) من الهجرة المصطفوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

اللهم يا ربنا كما يسرت لي ما مضى من هذا التفسير، وبشرتني بالفراغ من هذا المجلد، فأكرمني بالفراغ من كل الكتاب وإكماله، واجعل البركة لي في عمري مع صرف العوائق والمعائق عني إلى تمامه، وتقبَّل اجتهادي فيه، وسائر أعمالنا، إنك أنت السميع القريب المجيب.

وكان الفراغ منه بمكة المكرمة في المسفلة حارة الرشد، جوار الحرم الشريف. في تاريخ ٢١/ ١٠/ ١٤١٢ هـ وكان الفراغ من تصحيح هذا المجلد بيد مؤلفه في تاريخ ٢٢/ ٦/ ١٤١٧ هـ.

شعرٌ

يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـا مَـنْ لاَ شَـرِيْـكَ لَـهُ   يَا سَامِعَ ٱلأَصْوَاتِ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ صَمَمِ
يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـا ذَا ٱلْـجُـوْدِ يَـا أَمَـلِيْ   يَا ذَا ٱلْجَلاَلِ وَيَا ذَا ٱللُّطْفِ فِيْ ٱلأُمَمِ

آخرُ

أَلْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ عَـلَـىٰ مَـا أَوْلَـىٰ   وَنِـعِـمْ مَـا أَوْلَـىٰ فَـنِـعْـمِ ٱلْـمَـوْلَـىٰ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد التاسع عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

بُوْرِكَ تَفْسِيْرُ ٱلرَّوْحِ وَٱلرَّيْحَانِ   كَمَا بُوْرِكَ جَنَا ٱلزَّيْتُوْنِ وَٱلرُّمَّانِ
كِتَابٌ لَوْ يُبَاعُ بِوَزْنِهِ ذَهَبَاً   لَكَانَ ٱلْبَائِعُ فِيْهِ ٱلْمَغْبُوْنَا
حَوَىٰ مِنْ عُلُوْمِ ٱلتَّفْسِيْرِ أَفْنَانَاً   فَٱلْحَمْدُ لِلْمَوْلَىٰ عَلَىٰ مَا حَبَانَا

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَّىٰ   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارٍ   مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ

آخرُ

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيْمٍ حَاجَةً   فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيْكَ وَٱلتَّسْلِيْمُ
فَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمَاً عَرَفَ ٱلَّذيْ   حَمَّلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُوْمُ

آخرُ

أَأَذْكُرُ حَاجَتِيْ أَمْ قَدْ كَفَانِيْ   حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيْمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَىٰ عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمَاً   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

آخرُ

سَوْفَ تَرَىٰ إِذَا ٱنْجَلَىٰ ٱلْغُبَارُ   أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

آخرُ

لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَجَلُ   ثُمَّ يُتَاحُ لَهَا حِوَلُ
إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتْ   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي يحمده الأولون والآخِرون القائل في كتابه الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والصلاة والسلام على الرسول الكريم، سيدنا محمد، المصطفى الصادق الأمين، وعلى آله وصبحه أجمعين.

أما بعد: فلما فرغت من تفسير الجزء السابع عشر من القرآن الكريم، بتوفيقه وتيسيره.. أخذت في تفسير الجزء الثامن عشر منه، مستمداً منه الهداية وكل التوفيق في تفسير كتابه لأقوم الطريق، وها أنا أقول، وقولي هذا: فذلكة في سورة المؤمنين:

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون مكية كلها عند الجميع، وقيل: إلا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ إلى آخرها، نزلت بعد سورة الأنبياء، وهي مئة وثماني عشرة آية(١)، وألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، يُسمع عند وجهه دويٌّ كدوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً، فمكث ساعة، ثم سرى عنه، فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى عشر آيات من أولها، وقال: «من أقام هذه العشر آيات.. دخل الجنة» ثم استقبل القبلة، ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا»

---

(١) الخازن.

وأخرج البيهقي من حديث أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لما خلق الله الجنة، قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾». وأخرجه أيضاً ابن أبي عدي، والحاكم، وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه، من حديث ابن عباس مثله.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»[1]، والنسائي وابن المنذر، والحاكم، وصححه وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن يزيد بن بابنوس، قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون؟ إقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

وروي: أن أولها وآخرها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها، فقد نجا وأفلح.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى[2]: في سورة المؤمنون آيتان منسوختان:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ الآية (٥٤) نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ الآية (٩٧) نسخت بآية السيف أيضاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه[3]:

١ ـ أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين، وأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات، لعلهم يفلحون، وحقق فلاحهم في بدء هذه السورة[2].

---

(١) الشوكاني.
(٢) ابن حزم.
(٣) المراغي.

٢ ـ أنه تكلم في كل من السورتين في النشأة الأولى، وجعل ذلك دليلاً على البعث والنشور.

٣ ـ أن في كل من السورتين قصصاً للأنبياء الماضين وأممهم، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين.

٤ ـ أنه نصب في كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)
أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي
الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ
لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا
تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ
أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ...﴾ الآيات، مناسبة[1] هذه الآيات لآخر السورة التي قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى خاطب المؤمنون بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ﴾ الآية، وفيه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك على سبيل الترجية، فمناسبة ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إخباراً بحصول ما كانوا رجوه من الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال السعداء المفلحين، قفى ذلك بذكر مبدأهم، ومآل أمرهم، وأمر غيرهم من بني الإنسان، وفي هذا إعظام للمنة، وحث على الاتصاف بحميد الصفات، وتحمل مؤونة التكاليف، ثم ذكر أن كل ذلك منته إلى غاية، هي يوم القيامة، الذي تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشر.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر تعالى أن المتصفين بتلك الصفات الجليلة، هم يرثون الفردوس، فتضمن ذلك المعاد الأخروي ذكر النشأة الأولى، ليستدل على صحة النشأة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر خلق الإنسان في أطواره المختلفة، واستدل بذلك على قدرته، وتفرده بالتصرف في الملك، والملكوت.. أردفه ببيان ما يحتاج إليه في بقاءه، لما فيه من المنافع، التي لا غنى له عنها.

وعبارة أبي حيان هنا[3]: لما ذكر تعالى ابتداء خلق الإنسان، وانتهاء أمره، ذكره بنعمته، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

سبحانه لما ذكر من دلائل قدرته خلق الطرائق السبع.. قفى على ذلك ببيان ما فيها من منافع للإنسان، فمنها ينزل الماء الذي به تنشأ الجنات من النخيل والأعناب، وكثير من أشجار الفاكهة التي تؤكل، وينبت به شجر الزيتون، الذي يؤخذ من ثمره الزيت، الذي يتخذ دهناً للأجسام، وإداماً في الطعام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر سبحانه بنعمة إنزاله الماء من السماء، الذي به جنات النخيل، والأعناب، والفواكه المختلفة، والزيتون.. أردفها بذكر النعم المختلفة، التي سخرها لنا من خلق الحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه سبحانه لما ذكر أولاً بدء الإنسان، وتطوره في تلك الأطوار، وما امتن به عليه، مما جعله تعالى سبباً لحياتهم، وإدراك مقاصدهم، ذكر أمثالاً لكفار قريش من الأمم السابقة، المنكرة لإرسال الله رسلاً، المكذبة بما جاءتهم به الأنبياء عن الله تعالى، فابتدأ بقصة نوح؛ لأنه أبو البشر الثاني، كما ذكر أولاً آدم في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، ولقصته أيضاً مناسبة لما قبلها إذ قبلها: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فذكر قصة من صنع الفلك أولاً، وأنه كان سبب نجاة من آمن، وإهلاك من لم يكن معه في الفلك، فالفلك من نعمة الله تعالى، وكل هذه القصص يحذر بها قريشاً نقم الله، ويذكرهم بنعمه.

وعبارة المراغي هنا[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها أن الله سبحانه لما عدد ما أنعم به على عباده، في نشأتهم الأولى، وفي خلق الماء لهم؛ لينتفعوا به، وفي خلق الحيوان كذلك.. ذكر هنا أن كثيراً من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار في هذا، فكفروا بهذه النعم، وجهلوا قدر المنعم بها، وعبدوا غيره، وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم، فحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، وأهلكهم

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بعذاب من عنده، فأصبحوا كأمس الدابر، والمثل السائر، وفي هذا تخويفٌ لقريش، وإنذار لهم على ما يفعلون، وأنه سيحل بهم ما داموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى، رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ فطأطأ رأسه، وأخرجه ابن مردويه، بلفظ: كان يلتفت في الصلاة، وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن سيرين مرسلاً، بلفظ: كان يقلب بصره، فنزلت وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن سيرين مرسلاً: كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ روي فيه عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله صلينا خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكم، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فقلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت يا عمر!» أخرجه الطيالسي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز وسعد حقاً ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: المصدقون بما جاء به الرسول ﷺ، ونالوا البقاء والدوام في الجنة، ويدل عليه، ما روي «أن الله تعالى لما خلق جنة عدن بيده، قال: تكلّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ فقال: طوبى لك منزل الملوك» أي: ملوك الجنة، وهم الفقراء الصابرون، وقد هنا: للتحقيق؛ أي: التحقيق ما يحصل في المستقبل، وتنزيله منزلة الواقع، ومعنى فاز

المؤمنون[1]؛ أي: ظفروا بمقصدهم، ونجوا من كل مكروه، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ والمؤمنون جمع مؤمن، وهو المصدق بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره.

وقرأ طلحة بن مصرق، وعمرو بن عبيد[2]: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ بضم الهمزة وكسر اللام مبنياً للمفعول، ومعناه: أدخلوا في الفلاح، فاحتمل أن يكون من فلح لازماً، أو يكون أفلح، يأتي متعدياً ولازماً، وقرأ طلحة: أيضاً بفتح الهمزة واللام وضم الحاء، قال عيسى بن عمر: سمعت طلحة بن مصرق يقرأ: ﴿قد أفلحوا المؤمنون﴾ فقلت له: أتلحن. قال: نعم، كما لحن أصحابي، انتهى. يعني: أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي، وليس بلحن؛ لأنه على لغة أكلوني البراغيث، قال الزمخشري: أو على الإبهام والتفسير، وقال ابن عطية: وهي قراءة مردودة، وفي كتاب ابن خالويه مكتوباً بواو بعد الحاء، وفي «اللوامح»: وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولةً على الوصل، نحو: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وقال الزمخشري: وعنه ـ أي عن طلحة ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: ولو أن الأطباء كان حولي. انتهى.

وليس بجيد؛ لأن الواو في أفلح حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلها.

والحاصل: أن الله سبحانه حكم بالفلاح لمن كان جامعاً لخصال سبع من خصال الخير:

الأول: الإيمان، وذكره بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾؛ أي: فاز وسعد المصدقون بالله، ورسله، واليوم الآخر.

والثاني: الخشوع في الصلاة، وذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾؛ أي: الذين هم مخبتون لله، متذللون له، مناقدون له، خائفون من عذابه، ملزمون

---

(١) الصاوي.
(٢) البحر المحيط.

أبصارهم مساجدهم. أو المعنى[1]: خاضعون للمعبود، بالقلب غير ملتقين بالخواطر إلى شيء سوى التعظيم ساكنون بالجوارح، مطرقون ناظرون إلى مواضع سجودهم، لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولا يرفعون أيديهم. والخشوع من فروض الصلاة عند الغزالي، والحضور عندنا ليس شرطاً للإجزاء، بل شرط للقبول، كما قاله الرازي: قدم الصلاة؛ لأنها أعظم أركان الدين، بعد الشهادتين، فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم؟

قلت: لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي: هو المنتفع بها وحده، وهي عدته وذخيرته، فهي صلاته، وأما المصلى له: فغني متعال عن الحاجة إليها، والانتفاع بها، ذكره في «البحر» وقد اختلف الناس في الخشوع[2]، هل هو من فرائض الصلاة؟ أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني، وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء، على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره، قال: ومما يدل على صحة هذا القول، قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ أي: بالظاهر والباطن[3]، أما الظاهر فخشوع الرأس بانتكاسه، وخشوع العين بانغماضها عن الالتفات، وخشوع الأذن بالتذلل للاستماع، وخشوع اللسان بالقراءة، والحضور، والتأني، وخشوع اليدين وضع اليمين على الشمال، بالتعظيم كالعبد، وخشوع الظهر انحناؤه في الركوع مستوياً، وخشوع الفرج، نفي الخواطر الشهوانية، وخشوع القدمين بثباتهما على الموضع، وسكونها عن الحركة.

أما الباطن: فخشوع النفس سكونها عن الخواطر، والهواجس، وخشوع القلب بملازمة الذكر، ودوام الحضور، وخشوع السر بالمراقبة في ترك اللحظات

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

إلى المكونات، وخشوع الروح استغراقه في بحر المحبة، وذوبانه عند تجلي صفة الجمال والجلال، انتهى. وفي «الصاوي»: ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ أي: ظاهراً وباطناً، فالخشوع الظاهري: التمسك بآداب الصلاة، كعدم الالتفات، والعبث، وسبق الإمام ووضع اليد في الخاصرة، وغير ذلك، والخشوع الباطن: استحضار عظمة الله، وعدم التفكر بأمر دنيوي، انتهى.

وروى الحاكم أن النبي ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى ببصره إلى نحو مسجده؛ أي: موضوع سجوده.

والخشوع واجب على المرء في الصلاة، لوجوه:

١ ـ للتدبر فيما يقرأ، كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، والتدبر لا يكون بدون الوقوف على المعنى، كما قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: لتقف على عجائب أسراره، وبديع حكمه وأحكامه.

٢ ـ لتذكر الله والخوف من وعيده؛ كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

٣ ـ أن المصلي يناجي ربه، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة، ومن ثم قالوا: صلاة بلا خشوع جسد بلا روح، وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطاً للخروج من عهدة التكليف وأداء الواجب، وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله، وبلوغ رضوانه.

والثالث: الإعراض عن اللغو، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾؛ أي: عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: مجتنبون عنه في جميع الأوقات، غير ملتفتين إليه؛ أي[1]: الذين هم تاركون لما لا حاجة إليه في أمور الدين والدنيا، من الأقوال والأفعال في عامة أوقاتهم، قال الزجاج: واللغو هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية، وما لا يجمل من القول والفعل، انتهى. والمراد به[2]: كل ما لا يعود على الشخص منه فائدة في الدين، أو الدنيا، قولاً أو فعلاً مكروهاً أو مباحاً، كالهزل واللعب، وضياع الأوقات فيما لا يعني، والتوغل في

---

(١) المراح. (٢) الصاوي.

الشهوات، وغير ذلك مما نهى عنه. وتوسيط حديث الإعراض بين الطاعة البدنية والمالية، لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة، وقال أبو حيان: ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعهم الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف، انتهى.

والمعنى: أي الذين يعرضون عن كل ما لا يعنيهم، وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب والهزل والسبّ، إذ لهؤلاء من الجد ما يشغلهم، فهم في صلاتهم معرضون عن كل شيء، إلا عن خالقهم، وفي خارجهم معرضون عن كل ما لا فائدة فيه، فهم متجهون للجد، وصالح الأعمال، فهم قد استفادوا من خشوع الصلاة وانتفعوا منه بعدها، وتخلقوا بأخلاق النبيين والصديقين.

والرابع: تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة، وذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: للصدقة المفروضة ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: مؤدونها إلى مستحقيها من الأصناف الثمانية المذكورة في سورة التوبة؛ لأجل طهارة أنفسهم وتزكيتها، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

واعلم[١]: أن الزكاة تطلق على القدر المخرج، كربع العشر من النقدين، والعشر أو نصفه من الحبوب والثمار، والشاة من الأربعين، فيكون على هذا معنى فاعلون: مؤدون؛ لأن القدر المخرج لا معنى لفعله، فعبر عن التأدية بالفعل؛ لأنها مما يصدق عليه الفعل، وتطلق على المصدر الذي هو فعل الفاعل، وعلى هذا يكون فاعلون على بابه؛ أي: والذين هم لتزكية أنفسهم، وتطهيرها فاعلون؛ بإخراج المال في مصارف الزكاة، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الزكاة إنما وجبت لتزكية النفس عن الصفات الذميمة النجسة من حب الدنيا، أو غيره، ولم يكن المراد مجرد إعطاء المال وحبه في القلب، وإنما كان لمصلحة إزالة حب الدنيا عن القلب، ومثل حب الدنيا جميع الصفات الذميمة إلى أن تتم إزالتها.

والخامس: حفظ الفرج، وذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾؛

---

(١) الصاوي.

أي: ممسكون ومانعون لها من الحرام، ولا يرسلونها على أحد، ولا يبذلونها ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾؛ أي: زوجاتهم، فإن الزوج يقع على الذكر والأنثى ﴿أَوۡ﴾ على ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ أي: أيديهم من الإماء فما ملكت[1] أيمانهم، وإن كان عاماً للرجال أيضاً، لكنه مختص بالنساء إجماعاً، وإنما قال: (ما) إجراء للمماليك مجرى غير العقلاء؛ إذ الملك أصل شائع فيه، وعبارة الشوكاني وعبر عنهن بـ(ما) التي لغير العقلاء؛ لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن، كسائر السلع، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، انتهى. وإنما ذكر بلفظ (على) لاستلائهم على أزواجهم لا لاستلائهن عليهم وكانوا عليهن لا مملوكين لهن.

والفرج[2] يطلق على فرج الرجل والمرأة، ومعنى حفظهم: أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم، قيل والمراد هنا: الرجل خاصة دون النساء، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه.

والمعنى: أن الذين يحفظون فروجهم في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم قربان الأمة بالملك.

وقال في «الأسئلة المقحمة»[3]: كيف يجوز أن يسمى الرقيق ملك يمين ولا يسمى به سائر الأملاك، الجواب: ملك الجارية والعبد أخص؛ لأنه يختص بجواز التصرف فيه، ولا يعم كسائر الأملاك، فإن مالك الدار مثلاً يجوز له نقض الدار وهدمها، ولا يجوز لمالك العبد نقض بنيته وقتله، انتهى.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ على عدم حفظها منهن، إذا كان إتيانهن على وجه الحلال؛ أي: وإنما لا يلامون فيما إذا كان الإتيان على وجه أذن فيه الشرع، دون الإتيان في غير المأتى شرعاً، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور، فلا يجوز، ومن فعله فإنه ملوم، واللوم عذل إنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، كما سيأتي

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

في «مبحث التصريف»، والمراد بهذا الوصف: مدحهم بنهاية العفة، والإعراض عن الشهوات، وفي «التأويلات النجمية»، يعني: يحفظون عن التلذذ بالشهوات؛ أي: لا يكون أزواجهم وإماؤهم عدواً لهم، بأن يشغلوهم عن الله وطلبه، فحينئذٍ يلزم الحذر منه كقوله: ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ وطلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من الحد المتسع، وهو أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: الكاملون في العدوان، المتناهون فيه، أو المتعدون من الحلال إلى الحرام.

والمعنى: فمن التمس وطلب سوى الأزواج والولائد، وهن الجواري المملوكة، فأولئك هم الظالمون، المجاوزون لحدود الله من الحلال إلى الحرام، قال البغوي: وفي الآية دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة[1]، وقال أحمد بن حنبل: يجوز إخراجها لحاجة؛ لأنها فضلة، كدم الفصد والحجامة، لكن بشروط ثلاثة: أن يخاف الزنا، وأن لا يجد مهر حرة أو ثمن أمة، وأن يفعله بيده، لا بيد أجنبي أو أجنبية، ويجوز بيد زوجته أو جاريته، لكن قال القاضي حسين: مع الكراهة؛ لأنه في معنى العزل.

الخلاصة: الصائم إذا عالج ذكره حتى أمنى، يجب عليه القضاء[2]، ولا كفارة عليه، ولا يحل هذا الفعل، خارج رمضان، إن قصد تسكين شهوته، وأرجو أن لا يكون عليه ويل. ا هـ.

وقال ابن جريج: سألت عطاء عنه، فقال: سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم. والواجب على فاعله التعزير، كما قاله ابن الملقن وغيره.

والسادس: رعاية الأمانة والعهد، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾؛ أي: لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق، أو الخلق ﴿رَٰعُونَ﴾؛ أي: قائمون عليها، وحافظون لها على وجه الإصلاح؛ أي: والذين هم لأماناتهم؛

---

(١) الصاوي. (٢) روح البيان.

أي: لما ائتمنوا عليه، من حقوق الخالق، كالصلاة والصوم والحجّ، وفعل المعروف، والنهي عن المنكر، وحقوق الخلق، كالودائع والصنائع، وأعراض الخلق، وعوراتهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ مرادف للأمانات ﴿رَٰعُونَ﴾؛ أي: حافظون، غير مضيعون لها. ا هـ «صاوي» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: في رواية ﴿لأمانتهم﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع، ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: أي والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة لأهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا، بما عاهدوا عليه، إذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين، كما جاء في الحديث «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقصارى ذلك، أنهم يؤدون ما ائتمنوا وعوهدوا عليه، من الرب، أو العبد، كالتكاليف الشرعية، والأموال المودعة، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، والأمانة[2]، اسم لما يؤتمن عليه الإنسان، والعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، ويسمى الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً. فالأمانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه، من جهة الله سبحانه، أو من جهة عباده، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين، أو الدنيا، والأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة ولا عكس. ذكره «الشوكاني» وقال محمد بن الفضل[3]: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها، بأمر، فأمانة العين، الغضّ عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع، صيانتها عن اللغو، والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل، المشي إلى الطاعات والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم، أن لا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليد، أن لا يمدها إلى الحرام، ولا يمسكها عن المعروف، وأمانة القلب، مراعاة الحق على دوام الأوقات، حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه، انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

والسابع: المحافظة على الصلوات، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي: ﴿على صلاتهم﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يواظبون عليها بشرائطها وآدابها، ويؤدونها في أوقاتها، التي رسمها الدين، على أكمل وجه، وعبر بـ﴿يُحَافِظُونَ﴾ بصفة المضارع، لما في الصلاة من التجدد والتكرار، وهو السر في جمعها، وليس فيه تكرير الخشوع؛ لأن المحافظة فضيلة أخرى. فإن قلت[1]: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً؟

قلت: هما ذكران مختلفان، فليس تكراراً، وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة، وآخراً بالمحافظة عليها.

قال الزمخشري: ووحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، وجمعت آخراً، لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، والجنازة والاستسقاء والكسوف وصلاة الضحى والتهجد وغيرها من النوافل، قال: في «التأويلات النجمية»: يحافظون لئلا يقع خلل في صورتها، ومعناها: ولا يضيع منهم الحضور في الصف الأول صورةً ومعنىً.

وفي الحديث: «يكتب للذي خلف الإمام بحذائه في الصف الأول، ثواب مئة صلاة، وللذي في الأيمن، خمس وسبعون، وللذي في الأيسر خمسون، وللذي في سائر الصفوف، خمس وعشرون» كما في «شرح المجمع»، والصف الأول، أعلم بحال الإمام، فتكون متابعته أكثر، وثوابه أتم، وأوفر، كما في «شرح المشارق» لابن الملك وفي الحديث: «أول زمرة تدخل المسجد، هم أهل الصف الأول، وإن صلوا في نواحي المسجد» كما في «خالصة الحقائق».

روي عن ابن مسعود أنه قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي: العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: قلت: ثم أي؟ قال:

---

(١) الخازن.

«بر الوالدين» قلت: ثم أي، قال: «الجهاد في سبيل الله». ا هـ الشيخان.

وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة، بالصلاة، واختتمها بالصلاة، دلالة على عظيم فضلها، وكبير مناقبها، وقد ورد في الحديث: «إعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» ولما كان الجزاء في الآخرة، نتيجة للعمل في الدنيا، وما فيها من نعيم حصاد، لما زرع فيها، رتب على ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ منازل أهل النار من الجنة، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فمن مات ودخل النار.. ورث أهل الجنة منزله، ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» ذكره البغوي، بغير سند.

وقيل: معنى الوارث: هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وينالوها، كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث، والمعنى: أولئك هم الأحقاء بأن يسموا وارثاً، دون من عداهم، ممن ورث رغائب الأموال، والذخائر، وكرائمها. والوراثة، انتقال مال إليك من غيرك، من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد وسمي بذلك المتنقل عن الميت، فيقال للمال الموروث: ميراث ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتقييد للوراثة بعد إطلاقها وتفسير لها بعد إبهامها، تفخيماً لشأنها، ورفعاً لمحلها، وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم، للمبالغة فيه؛ لأن الوراثة، أقوى سبب يقع في ملك الشيء، ولا يتعقبه رد ولا فسخ، ولا إقالة ولا نقض، فيسمى انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ولا معرفة بمقدارها وراثة.

والمعنى: أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهو الذي يرث من الجنة ذلك المكان، ولفظ الفردوس لغة رومية معربة، وقيل: فارسية، وقيل: حبشية، وقيل: هي عربية ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الفردوس، والتأنيث فيه، مع أنه راجع إلى الفردوس، لأنه اسم للجنة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر، روي أنه تعالى، بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وجعل

خلالها المسك الإذفر، وغرس فيها من جيد الفاكهة، وجيد الريحان ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون مكثاً مؤبداً لا يخرجون منها، ولا يموتون، والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها، من غير اعتراض الكون، والفساد عليها، فإن قيل: كيف حكم على الموصوفين، بالصفات السبعة، بالفلاح مع أنه لم يتمم ذكر العبادات الواجبة، كالصوم والحج؟

فالجواب: أن قوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ يأتي على جميع الواجبات من الأفعال، والتروك، والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات، لكونها من شرائطها، والحصر إضافي لا حقيقي؛ لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور، ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ اهـ «كرخي».

وقصارى ما سلف: أن فلاح المؤمن، موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر العظيمة الأثر في حياته الروحية، وكمالاته النفسية، اللهم اجعلنا من الذين يرثون الفردوس، ويتنعمون بنعيمها، ويصلون إلى نسيمها، واحفظنا عن الأسباب المؤدية إلى النار وجسيمها.

ولما حثّ سبحانه عباده على العبادة، ووعدهم الفردوس، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد، ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى: في هذه الآيات من هنا إلى قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى:

الأول: تقلب الإنسان في أطوار خلقته، وهي تسعة، آخرها قوله: ﴿تُبْعَثُونَ﴾.

الثاني: خلق السماوات.

الثالث: إنزال الماء.

الرابع: منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع. اهـ. رازي، واللام فيه: موطئة لقسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا أصل هذا النوع الإنساني، وأول أفراده وهو آدم عليه السلام ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من صفوة طين.

والخلاصة: سلت واستخرجت، وصفيت من كل تربة، والطين التراب والماء المختلط به.

وفي «التأويلات النجمية»[1] يشير إلى سلالة سلت، واستخرجت من جميع أنواع الأرض، طيبها وسبخها وسهلها وجبلها، باختلاف ألوانها وطبائعها المتفاوتة، ولهذا اختلفت ألوانهم وأخلاقهم؛ لأنه مودع في طبيعتهم ما هو من خواص الطين الذي اختص بخاصية منها نوع من الحيوان، من جنس البهائم والسباع والجوارح والحشرات المؤذيات الغالبة على كل واحد منها صفة من الصفات الذميمة والحميدة.

فأما الذميمة: فكالحرص في الفأرة والنملة، وكالشهوة في العصفور، وكالغضب في الفهد، والأسد، وكالكبر في النمر، وكالبخل في الكلب، وكالشره في الخنزير، وكالحقد في الحية، وغير ذلك من الصفات الذميمة، وأما الحميدة فكالشجاعة في الأسد والسخاوة في الديك، والقناعة في البوم، وكالحلم في الجمل، وكالتواضع في الهرة، وكالوفاء في الكلب، وكالبكور في الغراب، وكالهمة في البازي والسلحفاة، وغير ذلك من الصفات الحميدة، فقد جمعها كلها مع خواصها وطبائعها، ثم أودعها في طينة الإنسان، وهو آدم عليه السلام.

ويروي جماعة من المفسرين[2]: أن المراد بالإنسان هنا، ولد آدم، وهم يقولون: إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية، وهي إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى نباتية، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء، فالإنسان على الحقيقة، متوالد من سلالة من طين، ثم تواردت على تلك السلالة أطوار الخلقة، إلى أن صارت نطفاً.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ثم جعلنا نسله ﴿نُطْفَةً﴾؛ أي: نطفاً في أصلاب الآباء، ثم قذفت إلى الأرحام، فصارت محفوظة ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أي: في حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة؛ أي: ثم جعلنا السلالة منياً أربعين يوماً، في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

مكان حريز، فإن الله تعالى خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، في صلب الأب، فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم الأم، فصار الرحم مستقراً حصيناً لهذه النطفة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾؛ أي: ثم حولنا النطفة من صفتها الثانية، إلى صفة العلقة، وهي الدم الجامد بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء.

والمعنى[1]: أي ثم صيرنا المني الأبيض دماً جامداً أربعين يوماً، قيل: كلها تجعل علقة، وقيل: جزء منها، والباقي يوضع نصفه في موضع تربته، والنصف الثاني يوضع في السماء، فإذا أراد الله إحياء الخلق من القبور، أمطرت السماء، فتلاقي النطف النازلة من السماء، النطف الباقية في الأرض، فتوجد الخلائق بينهما، وهذا هو حكمة قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾؛ أي: ثم صيرنا ذلك الدم الجامد الأحمر، مضغة؛ أي: لحماً صغيراً بمقدار ما يمضغ أربعين يوماً، لا استبانة ولا تمايز فيها ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾؛ أي: غالبها ومعظمها أو كلها ﴿عِظَٰمًا﴾؛ أي: فصيرنا اللحم الصغير عظاماً بلا لحم، بعد ثلاث أربعينات بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن على هيئات مخصوصة من رأس ورجلين، وما بينهما، وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، أو ميزنا بين أجزائها، فما كان منها: من العناصر الداخلة في تكوين العظام، جعلناه عظاماً، وما كان من مواد اللحم، جعلناه لحماً، والمواد الغذائية شاملة لذلك، ومنبتة في الدم، ومن ثم قال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾ المعهودة ﴿لَحْمًا﴾ من بقية المضغة، وشددناها بالأعصاب، والعروق، فاللحم يستر العظام، كالكسوة؛ أي: كسونا كل عظم من تلك العظام، ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به، وهيئات مناسبة له؛ أي: فجعلنا اللحم كسوة لها، من قبل أن يستر العظام، فأشبه الكسوة الساترة للجسم، وجمع العظام لاختلافها.

واختلاف العواطف بالفاء[2]، و(ثم) لتفاوت الاستحالات، يعني: أن بعضها مستبعد حصوله، مما قبله، وهو المعطوف بـ﴿ثم﴾، فجعل الاستبعاد

---

(١) المراح. (٢) الفتوحات.

عقلاً، أو رتبةً بمنزلة التراخي، والبعد الحسّي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً، وكذا جعل النطفة البيضاء دماً أحمراً، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون، والصورة، وكذا تصلبها حتى تصير عظماً؛ لأنه قد يحصل ذلك بالمكث، فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه؛ ليستره، فسقط ما قيل: إن الوارد في الحديث؛ إن مدة كل استحالة أربعون، وذلك يقتضي عطف الجمع بـ﴿ثم﴾، إن نظر لآخر المدة، وأولها، أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط ا هـ من «الشهاب»، مع تقديم وتأخير. وهذا في العواطف الخمسة الأولى، وأما قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، فعطفه بـ﴿ثم﴾ للتفاوت بين الخلقين، كما في «البيضاوي».

وقرأ الجمهور[1] ﴿عِظَـٰمًا﴾ والعظام: بالجمع فيهما، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبان والمفضل والحسن وقتادة وهارون والجعفي ويونس عن أبي عمرو وزيد بن علي بالإفراد فيهما، وقرأ السلمي وقتادة أيضاً، والأعرج والأعمش ومجاهد وابن محيصن بإفراد الأول، وجمع الثاني، وقرأ أبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكر ومجاهد أيضاً بجمع الأول وإفراد الثاني، فالإفراد يراد به الجنس.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ﴾؛ أي: صيرنا ذلك المذكور من العظام وكسوته ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: خلقاً مبايناً للخلق الأول إذ نفخنا فيه الروح، وجعلناه حيواناً بعد ما كان أشبه بالجماد، ناطقاً سميعاً بصيراً، وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها، وباطنها ما لا يحصى.

أي: حولنا العظام المستورة باللحم، عن صفاتها، إلى صفة لا يحيط بها شرح الشارحين، فإن الله جعلها حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً عاقلاً، وأودع كل جزء من أجزائه، عجائب وغرائب، لا يحيط بها وصف الواصفين، والإنشاء إيجاد الشيء، وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك، في الحيوان، و﴿ثم﴾ هنا لكمال التفاوت

---

(١) البحر المحيط.

بين الخلقين، واحتج به أبو حنيفة رحمه الله، على أن من غصب بيضة، فأفرخت عنده، لزمه ضمان البيضة لا الفرخ، فإنه خلق آخر.

قال في «الأسئلة المقحمة»[1]: خلق الله الآدمي أطواراً، ولو خلقه دفعة واحدة كان أظهر في كمال القدرة، وأبعد عن نسبة الأسباب، فما معناه؟ فالجواب: لا، بل الخلق بعد الخلق، بتقليب الأعيان، واختراع الأشخاص، أظهر في القدرة، فإنه تعالى خلق الآدمي من نطفة متماثلة الأجزاء، ومن أشياء كثيرة، مختلفة المراتب، متفاوتة الدرجات، من لحم وعظم ودم وجلد وشعر وغيرها، ثم خصّ كل جزء منها، بتركيب عجيب، واختصاص غريب من السمع والبصر واللمس والمشي والذوق والشم وغيرها، وهي أبلغ في إظهار كمال الإلهية، والقدرة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تزايد بره وخيره، وإحسانه لعباده مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة، إن قلنا إنه مأخوذ من البركة، أو تعالى شأنه من علمه الشامل، وقدرته الباهرة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدل من الجلالة؛ أي: أحسن الخالقين خلقاً؛ أي: أحسن المقدرين تقديراً، حذف المميز لدلالة الخالقين عليه، فالحسن للخلق.

وفي «الأسئلة المقحمة»: هذا يدل على أن العبد خالق أفعاله، ويكون الرب أحسن في الخالقية؟ فالجواب معناه: أحسن المصورين لأن المصور يصور الصورة، ويشكلها على صورة المخلوق، أخبر به سبحانه؛ لأنه لا يبلغ في تصويره إلى حدّ الخالق؛ لأنه لن يقدر على أن ينفخ فيها الروح، وقد ورد الخلق في القرآن، بمعنى: التصوير. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾؛ أي: وإذ تصور فكذلك ههنا انتهى.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بني آدم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد ما ذكر من التركيب بالأمور العجيبة؛ أي: ثم أنكم بعد النشأة الأولى من العدم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾؛ أي: لصائرون إلى الموت، لا محالة، كما تؤذن به صيغة فيعل، الدالة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل.

---

(١) روح البيان.

وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن[1]: ﴿لمائتون﴾ بالألف، يريد حدوث الصفة، فيقال: أنت مائت عن قليل، وميت، ولا يقال: مائت، للذي قد مات، وقال الزمخشري: والفرق بين الميت والمائت، أن الميت، كالحي صفة ثابتةً، وأما المائت، فيدل على الحدوث، تقول: زيد مائت الآن، ومائت غداً، كقولك: يموت، ومثله: ضيق وضائق، في قوله: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ انتهى. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: عند النفخة الثانية، ﴿تُبۡعَثُونَ﴾؛ أي: تخرجون من قبوركم للحساب، ثم المجازاة بالثواب، والعقاب، إذ يوفى كل عامل جراء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وخلاصة ما تقدم: أنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف، بيّن أن هذه التكاليف شكر من الإنسان لربه، الذي أنشأه النشأة الأولى، وقلبه في أطوار مختلفة، حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله، فأصبح قادراً على تكليفه بتلك التكاليف، ولا بدّ له من طور يستحق فيه الجزاء، على ما كلف به، وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي، خلقنا فوقكم يا أهل الأرض، ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾؛ أي: سبع سماوات، وهي طرائق للكواكب وللملائكة، جمع طريقة، كما أن الطرق جمع طريق، والمراد طباق السماوات السبع سميت بالطرائق؟ لأنها طروق بعضها فوق بعض، مطارقة النعل، فإن كل شيء فوق مثله، فهو طريقه؛ أي: لكون بعضها موضوعاً فوق بعض، طاقاً فوق طاق، كمطارقة النعل.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ﴾؛ أي: عن ذلك المخلوق، الذي هو السماوات، أو عن المخلوقات، سواء كانت هذه الطرائق أو غيرها ﴿غَٰفِلِينَ﴾ عن أمرها مهملين لها، بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها، من الكمال، حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، إذ تسير الكواكب

---

(١) البحر المحيط.

في تلك الطرائق، بحساب منتظم، لو أهملناها لاختل توازنها، وسار كل كوكب في غير مداره، أو زل نجم عن سنن سيره، ففسد النظام العام، للعالم العلوي، والعالم الأرضي.

والخلاصة: أنا خلقنا السماوات، لمنافعهم، ولسنا غافلين عن مصالحهم، بل نفيض عليهم ما تقتضيه الحكمة، فخلقها دال على كمال قدرتنا، وتدبير أمرها، دال على كمال علمنا، وقال أكثر المفسرين: المراد بالخلق كلهم؛ أي: لسنا بغافلين عنهم، بل حفظنا السماوات عن أن تسقط، وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم، فتهلكهم، أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم، وما يعيشون به، ونفي الغفلة عن حفظهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بقدر الحاجة لا هو بالكثير، فيفسد الأرض، ولا هو بالقليل، فلا يكفي الزرع، والثمار[1]، حتى إن الأرضين التي تحتاج إلى ماء كثير لزرعها، ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها، يساق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال: لمثلها ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ فيساق إليها ماء النيل، حاملاً معه الطين الأحمر، يجترفه من بلاد الحبشة، في زمن الأمطار، فيستقر فيها، ويكون سماداً لها، ونافعاً لزرعها ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: فجعلنا ذلك الماء، النازل من السماء، ثابتاً قاراً في الأرض، فيتغذى به، فهما من الحب والنوى، ومنه تتكون الآبار والعيون، التي تمر على معادن مختلفة، فتتشكل، وتتصف بصفاتها، فيكون ماؤها حاوياً، إما للنشادر، وإما للكبريت، وإما للأملاح، وهكذا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾؛ أي: على إذهابه وإزالته بالإفساد، أو التصعيد أو التغوير ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ بحيث يتعذر استخراجه، حتى تهلكوا أنتم، ومواشيكم عطشاً، كما كنا قادرين على إنزاله، ولو شئنا أن لا يمطر السحاب لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى جهات أخرى، لا تستفيدون منه، كالأراضي السبخة، والصحارى، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل في

---

(١) المراغي.

الأرض يغور فيها، إلى مدى بعيد، لا تصلون إليه، ولا تنتفعون به، ولكن بلطفنا، ورحمتنا، ننزل عليكم الماء العذب الفرات، ونسكنه في الأرض، ونسلكه ينابيع فيها، لتسقوا به الزرع، والثمار، وتشربوا منه أنتم ودوابكم وأنعامكم.

وفي هذا تهديد شديد، لما يدل عليه، من قدرته سبحانه على إذهابه، وتغويره، حتى يهلك الناس بالعطش، وتهلك مواشيهم، ومثله قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾.

ثم بيّن سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ﴾؛ أي: فأخرجنا لكم من الأرض به؛ أي: بسبب ذلك الماء، الذي أنزلناه من السماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: بساتين فيها نخيل، وأعناب، وإنما ذكرهما الله سبحانه لكثرة منافعهما، فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه، رطباً ويابساً، وقال ابن جرير: اقتصر سبحانه، على النخيل والأعناب؛ لأنها الموجودة بالطائف والمدينة، وما يتصل بذلك، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرةً وأطيبها منفعةً، وطعماً ولذّةً ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ من أنواع شتى، تتفكهون بها، وتتطعمون منها، زيادةً على ثمرات النخيل، والأعناب: كالزيتون والرمان، والتفاح والموز، وغيرها.

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة، على ماذا يطلق؟ اختلافاً كثيراً، وأحسن ما قيل: إنها تطلق على الثمرات التي يأكلها الناس، وليست بقوت لهم، ولا طعام، ولا إدام، واختلف في البقول، هل تدخل في الفاكهة أم لا؟ ﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن تلك الجنات حبوبها وثمارها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً، أو ترزقون، وتحصلون معايشكم من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن تجارة يتربح بها.

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطف على جنات، وتخصيصها[1] بالذكر من بين سائر الأشجار، لاستقلالها بمنافع معروفة، قيل: هي أول شجرة، نبتت بعد الطوفان، وهي شجرة الزيتون، قال في «إنسان العيون»: شجرة الزيتون، تعمر ثلاثة آلاف

---

(١) روح البيان.

سنة؛ أي: وأنشأنا لكم زيتونة ﴿تَخْرُجُ﴾ وتنبت ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ هو جبل بين مصر وأيلة نودي عليه موسى عليه السلام ﴿تَنۢبُتُ﴾ تلك الشجرة، صفة ثانية لشجرة، والباء في قوله: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ للملابسة متعلّقة بمحذوف حال من الشجرة؛ أي: تنبت تلك الشجرة، حالة كونها متلبسة بالدهن، مستصحبة بالدهن، كما قال الراغب معناه: تنبت والدهن موجود فيها بالقوة، ويجوز كون الباء صلة معدية لتنبت، كما في قولك: ذهبت بزيد؛ أي: تنبت الدهن بمعنى: تتضمنه وتحصله، فإن النبات حقيقةً، صفة للشجرة لا للدهن، ﴿وَصِبْغٍ﴾ معطوف على الدهن، جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر؛ أي: إدام ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾ من قولهم: اصطبغت بالخل؛ أي: تأدمت به؛ أي: تنبت الشجرة بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به، ويسرج منه، وكونه إداماً يصبغ فيه الخبز؛ أي: يغمس للائتدام ويلون به، كالدبس والخل مثلاً، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، وشبه الإدام به؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به.

والمعنى[1]: أي وأنشأنا لكم شجرة الزيتون، التي تنبت في الجبل، بتلك البقعة المباركة، وتثمر زيتوناً تصنع منه الزيوت، التي يدهن بها وتتخذ إداماً للآكلين.

ذكر تعالى شرف مقر هذه الشجرة، وهو الجبل الذي كلم الله فيه نجيه موسى عليه السلام، ثم ذكر ما فيها من الدهن، والصبغ، ووصفها بالبركة في قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ وهي كثيرة بالشام، وقال الجمهور: سيناء اسم الجبل، كما تقول جبل أحد، من إضافة العام إلى الخاص، وقال مجاهد: معنى سيناء مبارك، وقال قتادة معناه: الحسن، والقولان عن ابن عباس، وقيل: سيناء: اسم حجارة بعينها، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده، قاله مجاهد أيضاً.

وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو والحسن بكسر السين، وهي لغة لبني كنانة، وقرأ عمر بن الخطاب وباقي السبعة بالفتح، وهي لغة سائر العرب، وقرىء ﴿سينا﴾ مقصوراً، وبفتح السين، والأصح أن سيناء اسم بقعة،

---

(١) المراغي.

وأنه ليس مشتقاً من السناء، لاختلاف المادتين، على تقدير أن يكون سيناء عربي الوضع؛ لأن نون السناء عين الكلمة، وعين سيناء ياء، وقرأ الجمهور: ﴿تنبت﴾ بفتح التاء وضم الباء، والباء في بالدهن على هذا باء الحال؛ أي: تنبت مصحوبة بالدهن ومعها الدهن، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو وسلام وسهل ورويس والجحدري بضم التاء وكسر الباء، فقيل: بالدهن، مفعول، والباء زائدة والتقدير: تنبت الدهن وقرأ الحسن والزهري وابن هرمز: بضم التاء وفتح الباء مبنيّاً للمفعول، ﴿وبالدهن﴾ حال، وقرأ زرّ بن حبيش بضم التاء وكسر الباء ﴿الدهنَ﴾. بالنصب، وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: ﴿بالدهان﴾ بالألف وما رووا[1] من قراءة عبد الله يخرج الدهن، وقراءة أبيّ ﴿تثمر بالدهن﴾، محمول على التفسير، لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثانية عنهما كقراءة الجمهور، وقرأ الأعمش ﴿وصبغاً﴾ بالنصب، وقرأ عامر بن عبد الله، ﴿وصباغ﴾ بالألف، وقرأ عامر بن عبد قيس ﴿ومتاعاً للآكلين﴾ كأنه يريد تفسير الصبغ.

﴿إن لكم من الأنعام﴾؛ أي: وإن لكم أيها الناس في خلق الأنعام من الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾؛ أي: لعظة وآية تعتبرون بحالها، وتستدلون على عظيم قدرة خالقها، ولطف حكمته، فضلاً عن كونها نعمة، وخص الأنعام بالعبرة دون النبات؛ لأن العبرة فيها أظهر. انتهى «أبو السعود». ووجه العبرة فيها[2]: أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول في الغدد التي في الضرع إلى شراب طيب لذيد الطعم، صالح للتغذية، وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها.

وهذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام، في سورة النحل بالإبل والبقرة والغنم. قال النيسابوري في «تفسيره»: ولعل القصد بالأنعام هنا خصوص الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرنها بالفلك، وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر، وبيّن سبحانه أنها عبرة؛ لأنها مما يستدل بخلقها وأحوالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصل منافعها، وذكر منها أربعة، فقال:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

١ - ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى، فتتخذون منها الزبدة والسمن والجبن، والأقط ونحوها.

و(ما)[(١)] عبارة إما عن الألبان، فـ(من) تبعيضية، والمراد بالبطون الجوف، أو عن العلف، الذي يتكون منه اللبن، فـ(من) ابتدائية، والبطون على حقيقتها، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم، ﴿نسقيكم﴾ بفتح النون، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: بضمها، وقرىء: بالتاء الفوقية، على أن الفاعل هو الأنعام، فإن قلت: لم قال هنا: ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ بالتأنيث، وقال في سورة النحل: ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾ بالتذكير فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: يفرق بينها، بأن ما في النحل يراد به الإناث فقط، والتقدير: وإن لكم في بعض الأنعام، وذلك البعض هو الإناث فأتى بالضمير مفرداً مذكراً، وأما في المؤمنون فالمراد منه الكل الشامل للإناث والذكور، بدليل العطف في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ فإن هذا لا يخص الإناث وهذا العطف لم يذكر في النحل، اهـ «كرماني» وقال زكريا في «متشابه القرآن» ذكره هنا بلفظ الجمع؛ لأنه راجع للأنعام، مراداً بها الجمع وفي النحل، قال: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ بالإفراد نظراً إلى أن الأنعام اسم مفرد، انتهى.

والمعنى: أي تنتفعون بلبنها في الشرب وغيره، ووجه الاعتبار في اللبن، أنه يجتمع في الضرع ويتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى، فيستحيل إلى طهارة ولون وطعم، موافق للشهوة، ويصير غذاءً، فهذا اللبن الذي يخرج من بطونها إلى ضرعها، تجده شراباً طيباً نافعاً للبدن، وإذا دبحتها لم تجد له أثراً، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته، كان ذلك معدوداً من النعم الدينية، ومن انتفع به كان معدوداً من النعم الدنيوية.

٢ - ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذكر، فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشاً للدفء، وبيوتاً في الصحارى ونحوها مما يجري هذا المجرى، وتنتفعون بثمنها وأجرتها.

---

(١) روح البيان.

٣ ـ ﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن الأنعام بعد ذبحها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فكما انتفعتم بها، وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل.

٤ ـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ أي: وعلى الأنعام؛ أي: بعضها وهي الإبل ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾؛ أي: وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية، كما قال في آية أخرى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقصارى ذلك[١]: أن في خلق الأنعام عبراً ونعماً من وجوه شتى، ففيه دلائل على قدرة الخالق بخلق الألبان، من مصادر هي أبعد ما تكون منها ونعماً لنا في مرافقها وأعيانها فننتفع بألبانها، وأصوافها ولحمها، ونجعلها مطايا لنا في أسفارنا، إلى نحو أولئك من شتى المنافع، وإنما لم يقل[٢]: وفي الفلك، كقوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾؛ لأن معنى الإبعاد ومعنى الاستعلاء، كلاهما مستقيم؛ لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له، يستعليها، فلما صح المعنيان، صحت العبارتان، وأيضاً هو يطابق قوله عليها، ويزاوجه كذا في «بحر العلوم».

ولما ذكر سبحانه الفلك، أتبعه بذكر نوح؛ لأنه أول من صنعه وذكر ما صنعه قوم نوح معه، بسبب إهمالهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه، والتذكر لنعمه عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ واللام فيه موطئة لقسم محذوف، وتصدير القصة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وهم جميعُ أهل الأرض.

وهذا[٣] شروع في ذكر خمس قصص، غير قصة خلق آدم، فتكون معها ستاً:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

الأولى: قصة نوح، وهذا أولها.

الثانية: قصة هود، أولها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾.

والثالثة: قصة القرون الآخرين، أولها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

والرابعة: قصة موسى وهارون، المذكورة بقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.. إلخ.

والخامسة: قصة عيسى وأمه المذكورة، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

ونوح لقبه، واسمه قيل: عبد الغفار، وقيل: عبد الله على ما قاله السيوطي، وقيل: يشكر على ما قاله الرازي، وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين عاماً، وأرسل على رأس الأربعين، ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، وجاء في قصيدة جمال الدين[1]:

مِنْ كَثِيرِ ٱلذَّنْبِ نُوحُوا ... نَوْحَ نُوحٍ فِيْ ٱلرُّسُلْ

إِنَّهُ عُمْراً طَوِيْـ ... ـلاً مِنْ قَلِيلِ ٱلنُّطْقِ نَاحْ

وهو أنه عليه السلام مر على كلب به جرب، فقال: بئس الكلب هذا، ثم ندم، فناح من أول عمره إلى آخره، وقدمت قصته، لتتصل بقصة آدم المذكورة، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.. إلخ للمناسبة بين نوح وآدم، من حيث إنه؛ أي: نوحاً آدم الثاني؛ لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله ﴿فَقَالَ﴾ نوح داعياً لهم إلى التوحيد ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: يا قومي ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، وجملة قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها؛ أي: ما لكم في الوجود، أو في العالم إله غير الله، فـ﴿غيرُ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إله﴾ باعتبار محله، الذي هو الرفع، على أنه مبتدأ،

---

(١) روح البيان.

وخبره ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنْ﴾ زائدة. وقرأ الكسائي بالجر، لـ﴿غيره﴾، اعتباراً للفظ إله، والمعنى[1]؛ أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، منذراً لهم عذاب الله، وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به، وتكذيب رسوله، فقال لهم متعطفاً عليهم مستميلاً لهم لقبول الحق، يا قوم اعبدوا الله وحده، وأطيعوه ولا تشركوا معه رباً سواه، فإنه لا رب لكم غيره، ولا معبود لكم سواه.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لإنكار الواقع، واستقباحه، داخلة على محذوف يستدعيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون ذلك؛ أي: مضمون قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فلا تتقون ولا تخافون عذابه، بسبب إشراككم به، في العبادة مالا يستحق الوجود، لولا إيجاد الله إياه، فضلاً عن استحقاق العبادة، فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقيق ما يوجبه.

والخلاصة: أي أفلا تخشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾؛ أي: الأشراف والسادة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: من قوم نوح؛ أي[2]: قالوا لعوامهم مبالغةً في وضع الرتبة العالية، وحطها عن منصب النبوة: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الشيخ يعنون نوحاً ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ﴾ ويتشرف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويتقدمكم بادعاء الرسالة، مع كونه مثلكم؛ أي: يطلب أن يتشرف عليكم، فيكون أفضل منكم؛ بأن يكون متبوعاً، وتكونوا له تبعاً، وصفوه بذلك إغضاباً للمخاطبين عليه، وإغراءً على معاداته، والمعنى؛ أي[3]: فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين في الكفر ومن ذوي الكلمة المسموعة والرأي المطاع: ما نوح إلا رجل منكم، ليس له ميزة عليكم في فضل، ولا خلق، فيكون أهلاً للنبوة، وتلقي الوحي من ربه، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم، ويكون له الصولة والسلطان عليكم، وقد ادعى الرسالة؛ ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وليس له من حقيقتها شيء، وبعد أن بيّنوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة.. ذكروا الموانع التي تحول بينه وبينها، فذكروا أموراً ثلاثة:

١ - ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه إرسال رسول إلينا، أو لو شاء الله أن لا نعبد سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لأرسل رسلاً من الملائكة يدعونكم إلى ما دعاكم نوح إليه، وإنما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾؛ لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، ومفعول المثتية محذوف، كما قدرناه.

٢ - ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾؛ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله، خاصة ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: الماضين قبل بعثته؛ أي: ما سمعنا في القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد، بمثل هذا الذي يدعو إليه نوح من أنه: لا إلٰه إلا إلٰه واحد لا رب غيره، ولا معبود سواه، وفي هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأي لهم، وإنما يعولون على التقليد، وقول الآباء والأجداد، فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئاً مثل هذا أنكروا نبوته، وفيه إشارة أيضاً إلى أنهم قد بلغوا الغاية في العناد، والتكذيب والانهماك في الغيّ والضلال.

٣ - ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هو؛ أي: ما نوح ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون، ولذلك يقول ما يقول؛ أي: وما نوح إلا رجل به خبل ونقص في عقله، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجلٍ لا يزن قوله، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة، فلا يلتفت إذاً إلى ما يدعي، ولا ينبغي أن نضيع الوقت في محاجته، ودحض مزاعمه في صدق دعوته، وبعد أن ذكروا موانع نبوته.. ذكروا الطريق المثلى في إبطال دعوته، فقالوا: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: فاصبروا عليه، وانتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت يفيق فيه من الجنون؛ أي: أخروا شأنه حتى يتبين أمره؛ بأن يفيق من جنونه، فيترك هذه الدعوى، ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم، ودين آبائكم وأجدادكم، أو حتى يموت فتستريحوا منه، وهذا من مكابرتهم، لفرط عنادهم، إذ هم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً.

ولم يرد سبحانه على هذه الشبه لسخافتها، ووضوح فسادها، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز عن غيره بالمعجزات التي تأتي على يديه، سواء كان ملكاً أم بشراً.

وإرادته التفضيل عليهم، إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا، فلا ضير في ذلك، بل هو واجب، وإن أرادوا أنه يبغي التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك، وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اعتناق للتقليد، وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة، وضوح الشمس في رائعة النهار، وقولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ كذب صراح؛ لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته، وما أوتيه من أصالة الرأي وثاقب الفكر.

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالتهم، وتماديهم في غيهم، ويأسه من إيمانهم، وأوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك، إلا من قد آمن.. طلب إلى ربه أن ينصره عليهم، و﴿قَالَ﴾ نوح يا رب ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء، وكيف تريد، والباء في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي؛ أي: رب انصرني بإنجاز ما أوعدتهم به من العذاب، بقولي: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، وقال الزمخشري[1]: أي بدل (ما كذبون) على أن الباء للبدل، كما تقول: هذا بذاك؛ أي: بدل ذاك ومكانه.

والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم. وقرأ أبو جعفر وابن محيصن ﴿قال ربُّ﴾ بضم الباء.

وقد أجاب الله سبحانه دعاءه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك؛ أي: فأعلمناه في خفاء فإن الإيحاء والوحي، إعلام في خفاء ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ واعملها، (أن) مفسّرة لما في الوحي من معنى القول، والصنع إجادة الفعل؛ أي: فقلنا له ؛ حين استنصرنا على كفرة قومه، بواسطة جبريل: اصنع السفينة، واعملها حالة كونك متلبساً ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحفظنا ورعايتنا، نحفظك من أن تخطىء في صنعته، أو يفسده عليك مفسد، يقال: فلان بعيني؛ أي: أحفظه وأراعيه، كقولك: هو مني بمرأى ومسمع ﴿و﴾ ملتبساً بـ﴿وحينا﴾؛ أي: بأمرنا وتعليمنا إياك، كيفية صنعها، فإن الله أرسل إليه جبريل، فعلمه صنعتها وصنعها في عامين، وجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، والذراع

---

(١) البحر المحيط.

إلى المنكب، وهذا أشهر الروايات.

وقيل؛ غير ذلك، وقد تقدم في هود، أنه جعلها ثلاث طباق: السفلى للسباع، والهوامّ، والوسطى للدواب والأنعام، والعليا للإنس، والفاء في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، لترتيب[1] ما بعدها على ما قبلها، من صنع الفلك، وقيل: الفاء استئنافية؛ أي: فإذا اقترب وقت قضائنا بعذابهم، عقب تمام صنعة الفلك ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر؛ أي: ونبع التنور الماء على خرق العادة؛ أي: المخبز الذي كان لآدم، فصار إلى نوح عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وكان في موضع مسجد الكوفة، عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل: كان في عين وردة من الشام. أو المعنى: ونبع الماء من وجه الأرض، وظاهرها، وروي أنه قيل له عليه السلام: إذا فار الماء من التنور.. اركب أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾؛ أي: فأدخل في الفلك ﴿مِن كُلٍّ﴾ حيوان غير البشر، حضر في هذا الوقت، من السباع والطير وغيرهما، من كل ما يلد، أو يبيض، بخلاف ما يلد من العفونات، كالدود والبق، فلم يحمله فيها، وفي القصة[2] أن الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما، فجعل يضرب بيديه في كل نوع، فتقع يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الأنثى، فيحملهما في السفينة ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: فردين مزدوجين ذكراً وأنثى؛ لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد لزوجين، وقرأ حفص بتنوين كل، ﴿فزوجين﴾، مفعول به، و﴿اثنين﴾ تأكيد له؛ أي: أدخل من كل نوع زوجين، وقرأ الباقون: بغير تنوين، ف﴿اثنين﴾ مفعول به ﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل محذوف، معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾ لا بالعطف[3]، على زوجين، أو على ﴿اثنين﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلاف المعنى، والتقدير: واسلك أهلك، والمراد: امرأته المؤمنة، وبنوه الثلاثة المؤمنون، سام أبو العرب، وحام أبو

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

السودان، ويافث أبو الترك، وتأخير الأهل[1]؛ لما فيه من ضرب تفضيل بذكر الاستثناء وغيره.

أي: وأدخل في الفلك أهل بيتك من زوجك وأولادك، أو ومن آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ﴾ في الأزل ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والقضاء بالإهلاك حالة كونه كائناً ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل بيتك، وهما ولده كنعان وأمه واعلة، فإنهما كانا كافرين، أو من سائر الكفرة، وإنما جيء بعلى؛ لكون السابق ضاراً، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛ لكونه نافعاً.

والمعنى: أي فإذا جاء وقت قضائنا على قومك، بعذابهم وإهلاكهم، ونبع الماء من المخبز، أو من وجه الأرض، فأدخل في السفينة من كل جنس من الحيوان فردين مزدوجين، كناقة وجمل وحصان ورمكة، وأدخل زوجتك المؤمنة، وأولادك ونساءهم، إلا من سبق عليه القول منا، بأنه هالك فيمن يهلك، فلا تحمله معك، وهو كنعان وأمه، وكانا كافرين ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾؛ أي: ولا تكلمني يا نوح ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بالكفر، بالدعاء لإنجائهم؛ أي: لا تسألني أن أنجي الذين كفروا بالله، من الغرق ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليل للنهي قبله؛ أي: مقضي عليهم بالإغراق بالطوفان، لا محالة لظلمهم بالإشراك، وسائر المعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له، ولا يشفع فيه، كيف لا؟ وقد أمر بالحمد على النجاة منهم.. بإهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ وعلوت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ والسفينة واطمأننت فيها، راكبين عليها.. ﴿فَقُلِ﴾ يا نوح ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الشكر الكامل، والثناء الجميل، لله سبحانه، تبارك وتعالى ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ معاشر المؤمنين ﴿مِنَ﴾ شر ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وإذايتهم؛ أي: حال بيننا وبينهم، وخلصنا منهم بإغراقهم، وإنما[2] جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاةً من الغرق جزماً؛ لأنه قد سبق أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا من العذاب وإفراده بالذكر مع شركة الكل في الاستواء والنجاة.. لإظهار فضله، والإشعار بأن في دعائه وثنائه مندوحة عما عداه.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

والمعنى: أي فإذا اطمأننت في السفينة أنت ومن معك، ممن حملته من أهلك وأتباعك، فقل: الحمد لله الذي نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة، وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدواً إلا إذا اشتملت على دفع ضرره، أو تطهير الأرض من دنس شركه وضلاله.

قال ابن عباس: كان في السفينة ثمانون إنساناً نوح وامرأته غير التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً، وكل الخلائق من نسل من كان معه في السفينة. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له، وأتمّ فائدةً فقال: ﴿وَقُل﴾ يا نوح، حين ركبت على السفينة، أو حين خرجت منها، واستوت على الجودي، وكان يوم عاشوراء، وابتداء ركوبه السفينة كان لعشر خلون من رجب فكان مدة مكثهم في السفينة ستة أشهر ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾؛ أي: مكاناً ذا بركة وخير كثير، وهو نفس السفينة؛ لأن من ركبها خلصته من الغرق، أو وجه الأرض، وأراد بالبركة: كثرة النسل والرزق، أو كثرة الماء والأشجار فيه، قيل: أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة، وقيل: عند خروجه منها، وفي الآية، تعليم من الله لعباده، إذا ركبوا ثم نزلوا بأن يقولوا، هذا القول، والعبرة[1] بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فهذا الدعاء ينبغي قراءته لكل من نزل في محل، يريد الإقامة فيه.

وقرأ الجمهور[2] ﴿منزلاً﴾ بضم الميم وفتح الزاي، فجاز أن يكون مصدراً ومكاناً؛ أي: إنزالاً مباركاً أو مكاناً مباركاً، وقرأ أبو بكر عن عاصم والمفضل وأبو حيوة وابن أبي عبلة، وأبان وزر بن حبيش ﴿منزلاً﴾ بفتح المين وكسر الزاي على أنه اسم مكان؛ أي: مكاناً مباركاً.

والمعنى: أي وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة رب أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين؛ أي: وأنت خير من أنزل عباده المنازل في الدنيا

---

(١) الصاوي. (٢) البحر المحيط.

والآخرة، وقد أجاب الله دعاءه، حيث قال: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ فبارك فيهم بعد إنزالهم من السفينة، حتى كان جميع الخلق من نسل نوح ومن معه في السفينة.

والمعنى: أنه قد يكون الإنزال من غير الله، كما يكون من الله سبحانه، فحسن أن يقول: وأنت خير المنزلين؛ لأنه يحفظ من أنزله، ويكلوه في سائر أحواله، ويدفع عنه المكاره، بخلاف منزل الضيف، فإنه لا يقدر على ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة نوح، وقومه من إنجائه وإغراقهم، والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالات تدل على كمال قدرتنا، وعلامات يستدل بها، على عظيم شأننا[1]، فإن إظهار تلك المياه العظيمة، ثم الإذهاب بها، لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات، وظهور تلك الواقعة على وفق ما قال نوح عليه السلام، يدل على المعجز العظيم، وإفناء الكفار، وبقاء الأرض لأهل الدين، من أعظم أنواع العبر في الدعاء، إلى الإيمان، والزجر عن الكفر.

﴿وَإِن كُنَّا﴾؛ أي: وإن الشأن كنا ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾؛ أي: لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، هو الطوفان، مختبرين به عبادنا فيما بعد، لننظر من يتذكر ويتعظ، أو لمختبرين لهم بإرسال نوح إليهم، ليظهر المطيع والعاصي للناس، أو للملائكة، فـ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة، والمعنى: وإننا كنا معاملين قوم نوح، معاملة المختبر، لننظر هل يتبعونه، ويتعظون بوعظه، أم لا وقيل: ﴿إِنَّ﴾ نافية واللام بمعنى: إلا؛ أي: وما كنا إلا مبتلين، كما في «السمين».

والمعنى: أي وقل: إذا سلمت وخرجت في السفينة: رب أنزلني من الأرض منزلاً مباركاً، وأنت خير من أنزل عباده المنازل الكريمة، في الدنيا والآخرة.

قال قتادة: علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وحين ركوب الدابة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

---

(١) المراح.

وحين النزول ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إن فيما فعلنا بقوم نوح، من إهلاكهم، إذ كذبوا رسولنا، وجحدوا وحدانيتنا، وعبدوا الآلهة والأصنام، لعبراً لقومك، من مشركي قريش، وحججاً لنا عليهم، يستدلون بها سنننا في أمثالهم، فينزجرون عن كفرهم، ويرتدون عن تكذيبهم، حذر أن يصيبهم مثل الذي أصاب من قبلهم، من العذاب، وقد كنا مختبريهم بالتذكير، بهذه الآيات، لننظر ماذا يفعلون، قبل أن ينزل بهم عقوبتنا، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ وقد تقدم هذا القصص بتفصيل في سورة هود عليه السلام.

الإعراب

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع، صفة لـ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَاشِعُونَ﴾ قدم عليه للاهتمام به، وحسنه كون متعلقه، فأصله ﴿خَاشِعُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة صلة الموصول. ﴿وَالَّذِينَ﴾ في محل الرفع، معطوف على الموصول الأول، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَنِ اللَّغْوِ﴾: متعلق بما بعده ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ متعلق بما بعده، وضمن ﴿فَاعِلُونَ﴾ معنى مؤدون، وقيل: (اللام): زائدة في المفعول به، لتقدمه على عامله ﴿فَاعِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ متعلق بما بعده ﴿حَافِظُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة صلة الموصول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر بمعنى من ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾: الجار

والمجرور، متعلق بـ﴿حَٰفِظُونَ﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بـ﴿حَٰفِظُونَ﴾ على تضمين معنى ممسكين، أو قاصرين، وكلاهما يتعدى بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.

الثاني: أن ﴿على﴾، بمعنى من؛ أي: إلا من أزواجهم، فـ﴿على﴾ بمعنى: من، كما جاءت ﴿من﴾، بمعنى: على في قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾. وإليه ذهب الفراء.

الثالث: أن يكون في موضع نصب على الحال، قال الزمخشري؛ أي: إلا والين أو قوامين عليهم من قولك: كان فلان على فلانة، فمات عنها، فخلف عليها فلان، ونظيره كان زياد على البصرة؛ أي: والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثم سميت المرأة فراشاً.

الرابع: أن يتعلق بمحذوف، يدل عليه، غير ملومين، قال الزمخشري: وكأنه قيل يلامون إلا على أزواجهم؛ أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أحل لهم، فإنهم غير ملومين عليه ا هـ. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿مَا﴾: اسم موصول، في محل الجر، معطوف على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وعبر بما دون من، وإن كان المقام لمن، لنقصهن بالأنوثة، وشبههن بالبهائم في حل البيع مثلاً ا هـ «شيخنا». ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وما ملكته أيمانهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، مسوقة لتعليل الاستثناء. ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها، في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾.

﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم غير ملومين في ذلك، وأردت بيان حكم ما وراء ذلك.. فأقول لك: ﴿من ابتغى﴾ ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾: فعل ماض، في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمفعول ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ المحذوف، تقديره: فمن ابتغى شيئاً، كائناً وراء ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْعَادُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، أو معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع، معطوف على الموصول الأول ﴿هم﴾ مبتدأ ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿رَٰعُونَ﴾، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أماناتهم﴾ ﴿رَٰعُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾: متعلق بما بعده ﴿يُحَافِظُونَ﴾: فعل وفاعل خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ
لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ
﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: وموطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق

﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾ ﴿مِّن طِينٍ﴾: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أو متعلق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ لأنها بمعنى مسلولة، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾ ﴿فِى قَرَارٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نُطْفَةً﴾، ﴿مَّكِينٍ﴾: صفة لـ﴿قَرَارٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَلَقَةً﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ﴿فَخَلَقْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب. ﴿خلقنا العلقة مضغة﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾. ﴿فَخَلَقْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿خلقنا المضغة عظاماً﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿كسونا العظام لحماً﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿فَكَسَوْنَا﴾، ﴿خَلْقًا﴾: حال من المفعول في ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة لـ﴿خَلْقًا﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿تبارك الله﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة معترضة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: بدل من الجلالة، ومضاف إليه، وليس بصفة لها؛ لأنها نكرة، وتمييز أحسن محذوف، للعلم به، تقديره: خلقاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِنَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ميتون﴾ أو حال من كاف المخاطبين ﴿لَمَيِّتُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ميتون﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: عطف إسمية على فعلية، وما بينهما اعتراض ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُبْعَثُونَ﴾. ﴿تُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿فَوْقَكُمْ﴾: ظرف مكان، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لذكر خلق السماوات التي تعلو الإنسان، بعد ذكر خلقه ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: نافية ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾: متعلق بما بعده ﴿غَٰفِلِينَ﴾: خبر كان. والجملة في محل النصب من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾ والجملة معطوفة على ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿مَآءًۢ﴾ مفعول به. ﴿بِقَدَرٍ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿مَآءًۢ﴾ أي: ماء ملتبساً بقدر معلوم، يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾. ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أسكناه﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أنزلنا﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أسكنا﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍۭ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿قادرون﴾ قدم عليه؛ لرعاية الفاصلة ﴿به﴾ متعلق بـ﴿ذَهَابٍۭ﴾ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب، حال من فاعل ﴿أسكناه﴾، ﴿فَأَنشَأْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنشأنا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿أنشأنا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أنشأنا﴾ أيضاً ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أسكناه﴾. ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾: معطوف على ﴿نَّخِيلٍ﴾. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير المخاطبين ﴿فَوَٰكِهُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿كَثِيرَةٌ﴾: صفة لـ﴿فَوَٰكِهُ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب، صفة ثانية لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أو حال منها، لوصفها بالجار والمجرور. ﴿وَمِنْهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿منها﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾، والجملة في محل النصب، صفة لـ﴿شجرة﴾. ﴿مِن﴾: حرف جر ﴿طُورِ﴾: مجرور ومضاف. ﴿سَيْنَآءَ﴾: مضاف إليه، مجرور بالفتحة، ممنوع من الصرف، للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنى البقعة، وألفه ليست للتأنيث، بل للإلحاق بقرطاس ﴿تَنۢبُتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شجرة، والجملة في محل النصب صفة ثانية، لـ﴿شجرة﴾. ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾: جار ومجرور في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَخْرُجُ﴾؛ أي: حالة كونها ملتبسة بالدهن، ومصحوبةً به، والدهن: عصارة كل شيء ذي دسم، ﴿وَصِبْغٍ﴾ معطوف على ﴿الدهن﴾، جار على إعرابه، عطف أحد وصفي الشيء على الآخر؛ أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به، ويسرج منه، وكونه إداماً يصبغ به الخبر، أي يغمس فيه للائتدام به ﴿لِّلْءَاكِلِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿صبغ﴾. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، وخبر مقدم لـ﴿إن﴾ ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: حال من عبرة، لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿لَعِبْرَةً﴾. (اللام): حرف ابتداء. ﴿عبرة﴾: اسم إن مؤخر وجملة إن معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿نُّسْقِيكُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على ﴿الله﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نُّسْقِيكُم﴾. والجملة الفعلية، جملة مفسرة لعبرة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى بُطُونِهَا﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿وَلَكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَنَٰفِعُ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مَنَٰفِعُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿كَثِيرَةٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نُّسْقِيكُم﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على

جملة ﴿نُّسْقِيكُم﴾. ﴿وَعَلَيْهَا﴾. ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿عليها﴾، متعلق بـ﴿تُحْمَلُونَ﴾. ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿تُحْمَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم وجملة القسم مستأنفة مسوقة لسرد خمس قصص، أولها: قصة نوح، ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿يَٰقَوْمِ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر، مرفوع محلاً ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ على المحل، وقرىء بالجر على اللفظ، وهو جائز والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري لإنكار الواقع منهم، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون عدم إله غير الله لكم، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: عذابه، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون ذلك فلا تتقون عذابه، والجملة المحذوفة، في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال الملأ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للملأ ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ

﴿أَنصُرۡنِي﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿بَشَرٌ﴾: خبر ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾: صفة أولى لـ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿يَتَفَضَّلَ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد تفضله عليكم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، الجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَأَنزَلَ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿أنزل﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة ﴿مَّا﴾: نافية ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿سَمِعۡنَا﴾. ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾ متعلق بـ﴿سَمِعۡنَا﴾. أيضاً، أو حال من اسم الإشارة، ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآئِنَا﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنۡ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَجُلُۢ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿جِنَّةٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿رَجُلُۢ﴾. ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حقيقته المذكورة لكم، من أنه بشر مثلكم، ورجل به جنة، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: ﴿تربصوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل

النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تربصوا﴾. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به أيضاً. ﴿قَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر، يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية ﴿كَذَّبُونِ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء السببية، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱنصُرۡنِي﴾ والتقدير: انصرني بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، كما قيل، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قالوا. وقال نوح، وأردت بيان أمره، وأمرهم.. فأقول لك: ﴿أوحينا﴾. ﴿أوحينا﴾: فعل وفاعل ومضاف ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أَنِ﴾: مفسرة لوقوعها بعد جملة فيها معنى القول، دون حروفه، وهو ﴿أوحينا﴾. ﴿ٱصۡنَعِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحًا﴾. ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من الضمير المستتر في ﴿ٱصۡنَعِ﴾، تقديره: حالة كونك ملتبساً بأعيننا. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾: معطوف على ﴿أعيننا﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا امتثلت أمرنا، وصنعت الفلك، وأردت بيان عاقبة أمرها.. فأقول لك: ﴿إذا جاء أمرنا﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: فعل

وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عطف بيان على مبين ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿اسلك﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿نُوحًا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به. ﴿مِن كُلٍّ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ أو من ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾: مفعول به لـ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾. ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾: صفة مؤكدة له. ﴿وَأَهۡلَكَ﴾: مفعول لفعل محذوف، معطوف على ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ تقديره: واسلك فيها أهلك، كما مر في مبحث التفسير مع علته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء المتصل. ﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَ﴾. ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾ فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾. ﴿فِي ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾. ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفت ما أمرتك به، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿إذا استويت﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد للتاء. ﴿وَمَن﴾: معطوف على التاء. ﴿مَّعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول ﴿عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾. ﴿فَقُلِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية وجوباً ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول

لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: متبدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿نَجَّىٰنَا﴾: فعل وفاعل مستتر مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّىٰنَا﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿قل﴾ الأول. ﴿رَّبِّ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَّبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿أَنزِلْنِى﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به أول. ﴿مُنزَلًا﴾: اسم مكان، أو مصدر مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قل﴾ على كونها جواب النداء ﴿مُّبَارَكًا﴾: صفة لـ﴿مُنزَلًا﴾. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أَنزِلْنِى﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مسأتفة. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿مبتلين﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ وكلمة ﴿قَدْ﴾ هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لأن المؤمنون كانوا متوقعين ذلك الفلاح من فضل الله، والفلاح: البقاء، والفوز بالمراد، والنجاة من المكروه، والإفلاح: الدخول في ذلك، كالإبشار الذي هو الدخول في البشارة، وقد يجيء متعدياً بمعنى الإدخال فيه، وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول. اهـ. «روح». و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: جمع مؤمن،

والمؤمن: هو المصدق، بما جاء عن ربه على لسان نبيه، من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ﴿خَٰشِعُونَ﴾ جمع خاشع. والخاشع: هو الخاضع المتذلل، مع خوف وسكون للجوارح.

وقال في «المفردات»: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد على القلب، ولذلك قيل فيما ورد: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ وفي «المفردات» اللغو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، ويجري مجرى اللغا، وهو صوت العصافير ونحوها، من الطيور. ا هـ. وفي «التأويلات النجمية» اللغو: كل فعل لا لله، وكل قول لا من الله، ورؤية غير الله، وكل ما يشغلك عن الله، فهو لغو. ا هـ. ويقال: أعرض أظهر عرضه؛ أي: ناحيته، فإذا قيل: عرض لي كذا؛ أي: بدا عرضه فأمكن تناوله، وإذا قيل: أعرض، فمعناه ولى مبدياً عرضه؛ أي: معرضوه عن اللغو في عامة أوقاتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ والزكاة: تزكية النفس وطهارتها، بفعل العبادة المالية، ضمن فاعلون معنى مؤدون، إذ لا يصح فعل الأعيان، التي هي القدر المخرج من المزكي للمستحقين، ويصح حمل الزكاة على المصدر، الذي هو التزكية، فيصح نسبة الفعل إليها، من غير تضمين. ا هـ. من «البحر» ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ والفروج: جمع فرج، والفرج: سوءة الرجل والمرأة، وحفظه التعفف عن الحرام، وفي كتب اللغة: الفرج والفرجة: الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوءة وكثر حتى صار كالصريح. ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾؛ أي: طلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غير ذلك ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: المتناهون في العدوان، ومجاوزة الحدود الشرعية، وفي «الروح» العدوان: الإخلال بالعدالة، والاعتداء. مجاوزة الحق.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ والأمانات: جمع أمانة، والأمانة: هي ما ائتمن المرء عليه من قبل الله تعالى، كالتكاليف الشرعية، أو من قبل الناس، كالأموال

المودعة لديه، والنذور والعقود ونحوها، والعهد ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه، وما أمر به الله، كما قال ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾. ﴿رَٰعُونَ﴾: جمع راعٍ من الرعي، وهو الحفظ، والراعي: القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه. ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يواظبون عليها بشرائطها وآدابها كما مر.

﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾: جمع وارث، والوراثة: انتقال المال إليك من غيرك، من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت، فيقال للمال: المورث ميراث. اهـ. «روح».

والفردوس: اسم لأعلى طبقات الجنة، وهو في الأصل: البستان الجامع، لجميع أصناف الثمر، هم فيها ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جمع خالد، والخلود: تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والخلود في الجنة، بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون، والفساد عليها.

﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ والسلالة: كل ما سل عن الشيء، واستخرج منه، يقال: سل الشيء من الشيء، إذا نزع كسل السيف من الغمد، وسل الشيء من البيت على سبيل السرقة، وسل الولد من الأب، ومنه قيل للولد: سليل، فالسلالة: اسم ما سل من الشيء، واستخرج منه، فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل، فتارةً تكون مقصودة كخلاصات الأشياء، كالزبد من اللبن، وأخرى غير مقصودة، كقلامة الظفر، وكناسة البيت. والسلالة هنا: من القبيل الأول، فإنها مقصودة ما يسل.

﴿مِّن طِينٖ﴾. والطين: التراب والماء المختلط به. ﴿نُطۡفَةٗ﴾ والنطفة: الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل ﴿فِي قَرَارٖ﴾؛ أي: مستقر، وهو الرحم، عبر عنها بالقرار، الذي هو المصدر مبالغة. ﴿مَّكِينٖ﴾؛ أي: متمكن أو حصين، وهو وصف لها، بصفة ما استقر فيها، مثل طريق سائر. ﴿عَلَقَةٗ﴾: قال الراغب: العلق الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد. ﴿مُضۡغَةٗ﴾ والمضغة: قطعة لحم قدر ما يمضغ. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تزايد بره وإحسانه، وتعالى شأنه وعلمه، وتقدمت ذاته وصفاته ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾: الطرائق: السماوات، جمع طريقة، بمعنى مطروقة؛ أي: مطروق بعضها فوق بعض، من قولهم طارق بين ثوبين، إذا ألبس

ثوباً فوق ثوب، أو من طرق النعل، إذا وضع طاقاته بعضها فوق بعض، قيل: فعلى هذا لا تكون سماء الدنيا من الطرائق، إذ لا سماء تحتها، فجعلها منها من باب التغليب، ولا يخفى أن المعنى وضع طاقاً فوق طاق مساوياً له، فيندرج ما تحت الكل لكون مطارقاً؛ أي: له نسبه، ونتلو بالمطارقة فلا حاجة إلى التغليب. ا هـ. «شهاب».

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: عذباً، وإلا، فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط، والعذب يقل مع القحط ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ الذهاب مصدر ذهب، والباء في به، للتعدية، مرادفة للهمزة؛ أي: لقادرون على إذهابه، وإزالته، والإذهاب إما بالإفساد، وإما بالتصديع، وإما بالتعميق والتغوير في الأرض.

﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ قال في «المفردات»: النخيل معروف، ويستعمل في الواحد، والجمع، وجمعه نخيل. ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾: جمع عنب، قال في «المفردات»: العنب يقال: الثمرة الكرم، وللكرم نفسه، الواحدة عنبة، انتهى.

﴿فَوَٰكِهُ﴾: قال في «المفردات» الفاكهة، قيل: هي الثمار كلها، وقيل: بل هي الثمار، ما عدا العنب والرمان، وقائل هذا كأنه نظر إلى اختصاصهما بالذكر، وعطفهما على الفاكهة، انتهى.

﴿وَشَجَرَةً﴾: وفي «المفردات» الشجرة من النبت ما له ساق، يقال: شجرة وشجر، ونحو ثمرة وثمر. ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: وطور سنين، قال الزمخشري: لا يخلو، إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون إسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وكبعلبك فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء، فقد منع من الصرف، للتعريف والعجمة، أو التأنيث؛ لأنها بقعة وفعلاء، لا يكون ألفه للتأنيث، كعلباء وحرباء، ومن فتح فلم يصرف؛ لأن الألف للتأنيث، كصحراء هذا وسيناء شبه جزيرة، يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالاً، وقناة السويس وخليج السويس غرباً، وفلسطين وخليج العقبة شرقاً، تنتهي جنوباً عند رأس محمد في البحر الأحمر، وسيناء جبل واقع

في شبه جزيرة سيناء جنوباً، والمراد بالشجرة، شجرة الزيتون، وخصت بطور سيناء مع أنها تخرج في غيره؛ لأن أصلها منه ثم نقلت إلى غيره.

﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾ والدهن: عصارة كل شيء ذي دسم. ا هـ. «سمين». ﴿وصبغ﴾؛ أي: إدام يصبغ اللقمة، إذا أغمست فيه وفي «المصباح»: صبغ من باب ضرب، وقتل ونفع. ا هـ.

قال في «المغرب»، يقال: صبغ الثوب بصبغ حسن، وصباغ حسن، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام؛ لأن الخبز يغمس فيه، ويلون به كالخل والزيت. ا هـ. ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: السفينة قال الراغب: ويستعمل الفلك للواحد، والجمع، وتقديرهما مختلفان، فإن الفلك إذا كان واحداً كان كبناء قفل، وإذا كان جمعاً فكبناء حمر. ا هـ.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ الملأ: أشراف القوم. ﴿يَتَفَضَّلَ﴾؛ أي: يدعي الفضل والسيادة ﴿جِنَّةٌ﴾؛ أي: حالة جنون، ففعلة مستعملة في الهيئة على حد قوله. وفعلة لهيئة كالجلسة. ا هـ. «شيخنا». والجنون: اختلال حائل بين النفس والعقل، وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن أحوال الحقيقة عند أرباب الطبيعة جنون، كما أن أحوال أرباب الطبيعة عند أهل الحقيقة جنون. ا هـ.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا، قال الراغب: التربص: الانتظار بالشيء ساعة، يقصد بها غلاء، أو رخصاً أوأمراً ينتظر زواله أو حصوله، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يقال: فار الماء، إذا نبع يفور فوراً، من باب قال، والفور شدة الغليان، ويقال ذلك في النار نفسها، إذا هاجت وفي القدر، وفي الغضب، وفوارة الماء، سميت تشبيهاً بغليان القدر، ويقال: الفور الساعة، والتنور: تنور الخبز، ابتدأ منه النبوع على خرق العادة ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾؛ أي: أدخل في الفلك، يقال: سلك فيه؛ أي: دخل وسلكه فيه؛ أي: أدخله، ومنه قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾ قال الراغب: استوى: يقال على وجهين:

أحدهما: أن يسند إليه، فاعلان فصاعداً، نحو: استوى زيد وعمرو في

كذا؛ أي: تساويا. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾.

والثاني: أن يقال: لاعتدال الشيء في ذاته، فإذا استويت، ومتى عدي بعلى اقتضى معنى الاستعلاء نحو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، ونحو ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾.

وفي «السمين» قوله: ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي والباقون بضم الميم، وفتح الزاي والمَنْزِل، والمُنْزَل كل منهما يحتمل أن يكون اسم مصدر وهو الإنزال، أو النزول، وأن يكون اسم مكان للنزول، أو الإنزال إلا أن قياس مصدر الفعل المذكور هنا منزل بالضم والفتح، وأما الفتح والكسر، فعلى نيابة مصدر الثلاثي مناب مصدر الرباعي، كقوله: أنبتكم من الأرض نباتاً. ا هـ. والنزول في الأصل هو الانحطاط من علو، يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا، حطّ رحله فيه، ونزل به.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: اسم فاعل من ابتلى الخماسي. قال الراغب: إذا قيل: ابتلي فلان بكذا وأبلاه فذلك يتضمن أمرين:

أحدهما: تعرف حاله، والوقوف على ما يجهل من أمره.

والثاني: ظهور جودته ورداءته دون التعرف بحاله، والوقوف على ما يجهل من أمره، إذا كان من الله علام الغيوب. ا هـ.

واعلم أن البلاء كالملح، وأن أكابر الأنبياء، إنما كانوا من أولي العزم ببلايا ابتلاهم الله بها، فصبروا، ألا ترى إلى حال نوح عليه السلام، كيف ابتلي ألف سنة إلا خمسين عاماً، فصبر، حتى قيل له: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ا هـ. «روح البيان».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإخبار بصيغة الماضي؛ لإفادة التحقيق والثبوت في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ كما أن ﴿قَدْ﴾؛ لإفادة التحقيق أيضاً.

ومنها: بر الاستهلال في هذه السورة؛ لأنها ذكرت أحوال المؤمنين، على جهة التفصيل. والتفصيل عندهم قسمان: متصل، ومنفصل. فالمتصل: كل كلام وقع فيه أما وأما كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ إلى آخر الكلام.

وأما المنفصل فهو ما يأتي مجمله في مكان ومفصله في مكان آخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦﴾. فإن قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ إجمال المحرمات، وقد تقدمت مفسرة في سورة النساء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ فإن هذه الآية اشتملت على خمسة عشر محرماً من أصناف النساء، وذوات الأرحام، وثلاثة عشر صنفاً ومن الأجانب صنفان.

ومنها: طباق الإيجاب بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③﴾ فقد جمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك، إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة، وترك اللغو، وهذا كله من طباق الإيجاب المعنوي.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿فَاعِلُونَ﴾؛ لأنه ضمن فاعلون معنى مؤدون، إذ لا يصح فعل الأعيان التي هي القدر المخرج من المزكي للمستحقين.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩﴾؛ لأن ضمير الفعل يفيد الحصر.

ومنها: تقييد الوراثة بقوله: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بعد إطلاقها أولاً تفخيماً لشأنها، ورفعاً لمحلها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ حيث شبه

استحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم بالوراثة، للمبالغة فيه، بجامع قوة الملك؛ لأن الوراثة أقوى سبب يقع في ملك الشيء، ولا يتعقبه رد ولا فسخ ولا إقالة ولا نقض.

ومنها: أسرار لطيفة المأخذ، دقيقة المعنى، في مخالفة حروف العطف في آيات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ الآيات، فقد ذكر تعالى تفاصيل حال المخلوق في تنقله، فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثاني، الذي هو خلق نسل عطفه بثم لما بينهما من التراخي، وحيث صار إلى التقدير الذي: يتبع بعضه بعضاً، من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى، وهو آخر الخلق، عطفه بثم، ونحن نعلم أن الزمن الذي تصير فيه النطفة علقة طويل، ولكن الحالتين متصلتان، فأحياناً ينظر إلى طول الزمان، فيعطف بثم، وأحياناً ينظر إلى اتصال الحالين، ثانيهما بأولهما من غير فاصل بينهما بغيرهما، فيعطف بالفاء، ومثل هذا تزوج محمد فولد له.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ حيث شبه الرحم بالقرار؛ أي: بموضع الاستقرار فخذف المشبه، الذي هو الرحم، وأبقى المشبه به، وهو القرار، ثم وصفه بمكين، بمعنى متمكن، لتمكنه في نفسه، بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن ما يحل فيه، كقولهم: طريق سائر؛ أي: يسار فيه.

ومنها: تنزيل غير المنكر، منزلة المنكر، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ الناس لا ينكرون الموت، ولكن غفلتهم عنه، وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح، يعدان من علامات الإنكار، ولذلك نزلوا منزلة المنكرين، وألقى الخبر مؤكداً، بمؤكدين إن واللام.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ شبهت السماوات السبع بطرائق النعل، التي يجعل بعضها فوق بعض، بطريق الاستعارة.

ومنها: العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

حيث لم يقل: وأنزلنا منهن؛ لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها بصفة العلو.

ومنها: تقديم المعمول على عامله لرعاية الفاصلة، في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ حيث شبه الإدام من المائعات بالصبغ، ثم حذف المشبه، وأبقى المشبه به، بجامع التلون، بلون إذا غمس به.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث عبر عن الحفظ بالأعين؛ لأن شأن من نظر إلى الشيء بعينه، حفظه فأطلق الملزوم الذي هو الأعين، وأريد اللازم الذي هو الحفظ، وجمع الأعين مبالغة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: لأنه كناية عن شدة نبع الماء.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، و﴿يَرِثُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا
مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ
هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)
قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣)
ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ
لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟
مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً
وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ
زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن
مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧)
وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما قصّ[1] علينا قصص بعض الأنبياء

(١) المراغي.

السالفين.. عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعاً، بأن يأكلوا من الحلال، ويعملوا صالح الأعمال، كفاء ما أنعم به عليهم، من النعم العظيمة، والمزايا الجليلة، التي لا يقدر قدرها، ثم حذرهم، وأنذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم، ظاهرها وباطنها، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد، لا تعدد فيه، ولكن قد فرقت الأمم، دينها شيعاً، وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به، كما هي حال قريش، ثم خاطب رسوله، بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين، ثم ذكر أنهم في عماية، حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم، هو حظوة من ربهم لهم، كلا فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم، وعاقبة حالهم، ولو عقلوا لعلموا، أنهم في سكرتهم يعمهون.

قوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذم من فرقوا دينهم شيعاً، وفرحوا بما عملوا، وظنوا أن ما نالوا من حظوظ الدنيا، هو وسيلة لنيل الثواب في الآخرة، وبين أنهم واهمون فيما حسبوا.. قفى على ذلك، بذكر صفات من له المسارعة في الخيرات، ومن هو جدير بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر صفات المؤمنين المخلصين، الذين يسارعون إلى الخيرات، أرشد إلى أن ما كلفوا به، سهل يسير، لا يخرج عن حد الوسع والطاقة وأنه مهما قل، فهو محفوظ عنده في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى، وهو لا يظلم أحداً من خلقه، بل يجزي بقدر العمل، وبما نطقت به الصحف، وعلى وجه الحق والعدل.

التفسير وأوجه القراءة

قصة هود عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾؛ أي: أوجدنا وأحدثنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد إهلاك قوم نوح، وإغراقهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: قوماً آخرين ليكونوا خلفاء عنهم في الأرض.

(١) المراغي.

قال أكثر المفسرين[1]: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد ـ قوم هود؛ لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح، في غير هذا الموضع، ولقوله في الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

وقيل: هم ثمود؛ لأنهم هم الذين هلكوا بالصيحة، وقد قال الله سبحانه، في هذه القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾.

وقيل: هم أصحاب مدين ـ قوم شعيب ـ لأنهم ممن أهلكوا بالصيحة.

وقيل: القرن ثمود، والرسول صالح، والأول أصح، والقرن[2]: القوم المقترنون من زمن واحد؛ أي: أهل زمان واحد ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾؛ أي: أولئك القرن؛ أي: إليهم ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من جملتهم نسباً، وهو هود عليه السلام على أن يكون المراد عاداً، وهو الظاهر، وعدى فعل الإرسال، بفي مع أنه يتعدى بإلى؛ للادلة على أن هذا الرسول المرسل إليه، نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه ومولده؛ ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم، و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ مفسرة لأرسلنا لما في الإرسال من معنى القول؛ أي: قلنا لهم على لسان ذلك الرسول: اعبدوا الله تعالى وحده؛ لأنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تعالى فالجملة معللة للأمر بالعبادة، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتشركون بالله تعالى، فلا تخافون عذابه على الإشراك؟ قاله في «بحر العلوم» فالشرك وعدم الاتقاء كلاهما منكران.

والمعنى[3]: أي أوجدنا من بدء مهلك قوم نوح قوماً آخرين، وهم عاد، فأرسلنا فيهم رسولاً منهم، وهو هود عليه السلام، داعياً لهم، قائلاً: يا قوم اعبدوا الله، وأطيعوه دون الأوثان والأصنام، فإن العبادة لا تنبغي إلا له، ولا تصلح لسواه، أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره من وثن أو صنم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف والقادة ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: من قوم هود، ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: كذبوا بلقاء ما في الآخرة من الحساب والثواب والعقاب، أو كذبوا بالمصير إلى الآخرة بالبعث، وصفهم بالكفر ذماً لهم؛ أي: قال الأشراف الكافرون المكذبون من قومه.

فائدة: وقال هنا[1]: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالواو دون الفاء كما قال في قصة نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ لأن كلا منهم هنا لم يتصل بكلام الرسول، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول ذلك القول الحق، وهذا القول الباطل، وشتان ما بينهما.

وقال أبو حيان[2]: وجاء هنا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بالواو، وفي الأعراف وسورة هود في قصته، بغير واو، قصد في الواو العطف على ما قاله؛ أي: اجتمع قوله الذي هو الحق، وقولهم الذي هو باطل، كأنه إخبار بتباين الحالين، والتي بغير واو قصد به الاستئناف، وكأنه جواب لسؤال مقدر؛ أي: فما كان قولهم له، قال: قالوا: كيت وكيت. ا هـ.

وقال في «برهان القرآن»[3]: قدم ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ في هذه الآية، وأخر فيما قبلها؛ لأن صلة الذين فيما قبل اقتصرت على فعل وضمير الفاعلين، ثم ذكر بعده الجار والمجرور، ثم الفاعل، ثم المفعول، وهو المقول، وليس كذلك هذه الآية، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة أخرى، فقدم الجار والمجرور؛ لأن تأخيره ملبس وتوسطه ركيك، فخص بالتقديم. ا هـ.

وقوله: ﴿أترفناهم﴾ معطوف على الصلة؛ أي: نعمناهم ووسعنا عليهم. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد؛ أي: قالوا لأعقابهم مضلين لهم، ﴿مَا هَٰذَآ﴾؛ أي: هود ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: مماثل لكم في الصفات

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) برهان القرآن.

والأحوال البشرية ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ منه، فكيف يكون رسولاً، وهو تقرير للمماثلة، وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل والشرب، وذلك يستلزم عندهم، أنه لا فضل له عليهم، والمعنى: أي: وقال: أشراف قومه الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا بالبعث والحساب، وقد وسعنا عليهم في الحياة الدنيا، بما بسطنا لهم من الرزق، حتى بطروا وعتوا، وكفروا بربهم: ما هود إلا بشر مثلكم لا ميزة له عنكم، فهو يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون، فكيف يكون رسولاً؟ ومرادهم بذلك توهين أمره وتحقير شأنه.

واللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ موطئة للقسم؛ أي: والله لئن امتثلتم ﴿بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾؛ أي: آدمياً مماثلاً لكم في الخلق والصفات، فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾؛ أي: إذا أطعتموه ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في آرائكم مغلوبون في عقولكم جاهلون بمصالحكم، حيث تركتم آلهتكم، وأذللتم أنفسكم، باتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

﴿إذاً﴾[1] هنا ليست هي الناصبة للمضارع، وإنما هي إذا الشرطية، حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذ، ولهذا لا يختص دخولها على المضارع، بل تدخل على الماضي وعلى الاسم. كقوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم﴾. ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قاله الحافظ السيوطي في «الإتقان». اهـ. «كرخي».

فتحصل من هذا أن ﴿إذاً﴾ بمعنى: أن الشرطية، وأن التنوين المتصل بها عوض عن جملة الشرط كما قدرنا، وحينئذ فلا جواب لها إنما ذكرت توكيداً لما قبلها، توكيداً لفظياً، من قبيل إعادة الشيء بمرادفه. والمعنى؛ أي: ولئن أطعتم بشراً مثلكم فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول.. إنكم إذاً لمغبونون حظوظكم من الشرف، والرفعة في الدنيا ثم بينوا سبب إنكارهم لأتباعه، واستبعادهم وقوع ما

---

(١) الفتوحات.

يدعيه بقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقدير ما قبلها من تقبيح اتباعهم له. وقرىء بكسر الميم، من (مِتم) من مات يمات، كخاف يخاف. وقرىء بضمها من مات يموت كقال يقول؛ أي: أيخبركم أنكم، إذا قبضت أرواحكم ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾؛ أي: وصارت أجسامكم تراباً، ﴿وَعِظَامًا﴾؛ أي: وصار بعض أجزائكم تراباً، وبعضها عظاماً نخرة مجردةً لا لحم فيها ولا أعصاب عليها. ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياءً كما كنتم، و(أنكم) الثانية لا عمل لها؛ لأنها تأكيد لفظي لأنكم الأولى أكد بها لما طال الفصل بين اسم الأولى وهو: الكاف، وبين خبرها وهو: ﴿مخرجون﴾، والظرف متعلق بـ﴿مُخْرَجُونَ﴾. وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم.

وقيل المعنى: كان متقدموكم تراباً ومتأخروكم عظاماً. وفي «روح البيان» الظاهر أن مرادهم، بيان صيرورتهم عظاماً ثم تراباً؛ لأن الواو لمطلق الجمع. اهـ.

والمعنى[1]: أي أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياءً، كما كنتم أولاً إذا متم، وكنتم تراباً في القبور، بعد أن تذهب لحومكم وتبقى عظامكم، ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسم فعل ماض بمعنى بعد، ﴿هَيْهَاتَ﴾ توكيد لفظي للأولى، واللام في قوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ زائدة في الفاعل؛ أي: بعد عن القول ما توعدون، وتخبرون به أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم تراباً وعظاماً تخرجون من قبوركم للبعث والحساب، ثم الجزاء على ما تعملون.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي[2]: ﴿هيهات هيهات﴾ بفتح التاء فيهما في الوصل، وإسكانها في الوقف، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ أبيّ بن كعب وأبو مجلز وهارون عن أبي عمرو «هيهاتاً هيهاتاً» بالفتح والتنوين. ونسبها ابن عطية لخالد ابن إلياس. وقرأ ابن مسعود وعاصم الجحدري وأبو حيوة الحضرمي وابن السميقع: ﴿هيهات هيهات﴾ بالضم

---

(١) المراغي. (٢) زاد المسير والبحر المحيط.

والتنوين. وقرأ أبو العالية وقتادة وعيسى وخالد بن إلياس: ﴿هيهات هيهات﴾ بالكسر والتنوين. وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿هيهات هيهات﴾ بالكسر من غير تنوين، وروي هذا عن عيسى أيضاً، وهي لغة تميم وأسد، ويقفون عليه بالهاء. وقرأ أبو المتوكل الناجي وسعيد بن جبير وعكرمة ﴿هيهات هيهات﴾ بالرفع من غير تنوين. وقرأ معاذ القارىء وابن يعمر وأبو رجاء وخارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى أيضاً: ﴿هيهات هيهات﴾ بإسكان التاء فيهما.

قال ابن الجوزي: وفي ﴿هيهات﴾ عشر لغات، قد ذكرنا منها سبعةً عن القراء، والثامنة: ﴿إيهات﴾ بالهمزة في أوله. والتاسعة: ﴿إيهان﴾ بالنون آخره. والعاشرة: ﴿إيها﴾ بغير تنوين ا هـ.

وقال أبو حيان: وهذه الكلمة تلاعبت بها العرب تلاعباً كبيراً، بالحذف والإبدال والتنوين وغيره، وقد ذكرنا في «التكميل لشرح التسهيل» ما ينيف على أربعين لغة. وتحرير ما فيها، مذكور في علم النحو، ولا تستعمل هذه الكلمة غالباً إلا مكررة. وجاءت غير مكررة في قول جرير:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ٱلْعَقِيْقُ وَمَنْ بِهِ ... وَهَيْهَاتَ خِلٌّ بِٱلْعَقِيْقِ نُوَاصِلُهْ

والعقيق: وادٍ بالمدينة.

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ﴾؛ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الدانية الفانية، لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها، وجملة قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة للجملة المتقدمة؛ أي: مفسرة لما ادعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا؛ أي: يموت بعضنا ويحيى بعضنا، بمعنى[1] يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، أو يصيبنا الأمران الموت والحياة، يعنون الحياة المتقدمة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة، وعبارة القرطبي هنا فإن قلت: كيف قالوا: نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث؟

قلت: أجيب عنه بأجوبة منها: أن يكون المعنى نكون مواتاً؛ أي: نطفاً ثم

---

(١) روح البيان.

نحيا في الدنيا. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت. كما قال: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾. وقيل: نموت ـ يعني الآباء ـ ونحيى، يعني الأولاد. ا هـ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ أي: بمنشرين بعد الموت، كما تزعم يا هود؛ أي: ما لنا[1] حياة إلا هذه الحياة في الدنيا تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا ويولدون، وما نحن بمبعوثين بعد الموت، إنما مثلنا مثل الزرع يُحصد هذا وينبت ذلك.

والخلاصة: أنه يموت منا من هو موجود، وينشأ آخرون بعدهم، انظر كيف عميت قلوبهم، حتى لم يروا أن الإعادة أهون من الابتداء، وأن الذي هو قادر على إيجاد شيء من العدم وإعدامه من الوجود، يكون قادراً على إعادته ثانياً، وبعد أن كان أمرهم معه مقصوراً على الاستبعاد فحسب، جاهروا بتكذيبه فيما يدعي، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هود ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾؛ أي: إلا شخص ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من الرسالة، وفيما يعدنا من أن الله تعالى يبعثنا ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين فيما يقول؛ أي[2]: ما هو إلا رجل يختلق الكذب على الله، فتارة يقول: ما لكم من إله غير الله خالق السماوات والأرض، وأخرى يقول: إنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون، وما نحن بمصدقيه فيما يدعي ويزعم من التوحيد والبعث، ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.. فزع إلى ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه؛ أي: قال بعد أن يئس من إيمانهم، وقد سلك في دعوتهم كل مسلك متضرعاً إلى ربه: رب انصرني عليهم، وانتقم لي منهم بتكذيبهم إياي فيما دعوتهم إليه من الحق، وإصرارهم على الباطل، فأجابه ربه إلى ما سأل. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، مجيباً لدعائه، واعداً له بالقبول لما دعا به ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

بعد زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليصيرن؛ أي: الكفار المكذبين ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما وقع منهم من التكذيب والعناد، والإصرار على الكفر، وذلك عند معاينتهم العذاب و﴿ما﴾ في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ مزيدة بين الجار والمجرور تأكيداً لقلة الزمان، كما في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ أي: فأهلكتهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة، تصدعت منها قلوبهم فماتوا. والصيحة رفع الصوت، فإن قلت[1]: هذا يدل على أن المراد بالقرن، المذكور في صدر القصة، ثمود قوم صالح، فإن عادا أهلكوا بالريح العقيم.

قلت: لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، فأصيبوا في تضاعفها بصيحة هائلة أيضاً، كما كان عذاب قوم لوط بالقلب والصيحة.

وقد روي أن شداد بن عاد حين أتم بناء إرم، سار إليها بأهله، فلم دنا منها، بعث الله عليهم صيحة من السماء، فهلكوا. وقيل: المراد بالصيحة هنا نفس العذاب والموت. وفي «الجلالين» صيحة العذاب والهلاك. والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلقة بأخذتهم؛ أي: أخذتهم[2] الصيحة بالوجه الثابت، الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله سبحانه، كقولك فلان يقضي بالحق، أو بالوعد الصدق، والمراد: حاق بهم عذابه، ونزل عليهم سخطه بالوعد الصدق، وبالأمر المبرم من الله تعالى، ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: فصيرنا أولئك المكذبين لهود ﴿غُثَآءً﴾؛ أي: كغثاء السيل الذي يحتمله ولا ينتفع به، والغثاء: هو كل ما يحمله السيل على ظاهر الماء، من الزبد والورق والعيدان، وبالي الشجر والحشيش، والمعنى: صيرهم هلكى، فيبسوا كما يبس الغثاء، كقولك: سال به الوادي، لمن هلك. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: بعد الظالمون من رحمة الله بعداً، وطردوا منها طرداً؛ أي: هلكوا. والمعنى: ألزمنا بعداً من الرحمة للقوم الظالمين. وهذه الجملة تحتمل الإخبار والدعاء، وهو من المصادر التي لا يذكر فعلها معها. واللام لبيان من

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.

دعي عليه بالبعد، وقيل: له ذلك؛ أي: قيل للظالمين بعدوا بعداً، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل، كما في «البيضاوي».

والمعنى: أبعد الله[1] القوم الكافرين من رحمته بهلاكهم إذا كفروا بربهم وعصوا رسوله، وظلموا أنفسهم، وفي هذا من الذلة، والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى، وأن الذي ينزل بهم في الآخرة، من البعد، من النعيم والثواب، أعظم مما حل بهم، من العقاب في الدنيا، وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم، ممن هم عرضة لمثله.

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام

﴿ثم أنشأنا﴾؛ أي: خلقنا وأوجدنا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: من بعد إهلاك القرن المذكور وهم عاد على الأشهر، ﴿قُرُونًا﴾ وأمما ﴿ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: مع رسلهم، هم قوم صالح ولوط وشعيب وهود وغيرهم، كأيوب ويونس عليهم السلام كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود. وقيل: هم بنو إسرائيل. والقرون والأمم، ولعل[2] وجه الجمع للقرون هنا، والإفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ههنا أمماً متعددة، وهناك أمة واحدة؛ أي: أنشأنا أقواماً آخرين إظهاراً لقدرتنا، وليعلم كل أمة استغناءنا عنهم، وأنهم إن قبلوا دعوة الأنبياء وتابعوا الرسل.. تعود فائدة استسلامهم وانقيادهم وقيامهم بالطاعات إليهم. فالله تعالى[3] ما أخلى الأرض من مكلفين، بل أوجدهم وبلغهم حدّ التكليف، حتى قاموا مقام من كان قبلهم، في عمارة الدنيا.

ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في شأن عباده، فقال: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ ﴿من﴾ مزيدة للاستغراق؛ أي: ما تتقدم أمة من الأمم المجتمعة في قرن المقضي عليها بالهلاك. ﴿أَجَلَهَا﴾؛ أي: الوقت الذي حد وعين لهلاكها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ أي: وما يتأخرون عن ذلك الأجل بساعة وطرفة عين، بل تموت

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

وتهلك عند ما حد لها من الزمن. والمعنى؛ أي: ما تتقدم أمة من تلك الأمم المهلكة، الوقت الذي قدر لهلاكهم، وما يستأخرون عنه.

والخلاصة: ما تهلك أمة قبل مجيء أجلها ولا بعده، فلكل شيء ميقات لا يعدوه، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ معطوف[1] على ﴿أَنشَأْنَا﴾، لكن لا على معنى أن إرسالهم متأخر ومتراخ عن إنشاء تلك القرون المذكورة جميعاً، بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين، وقد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به.

والمعنى: أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذي أرسل إليه، وليس المعنى: أن إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً؛ أي: أرسلنا رسلنا حالة كونهم ﴿تَتْرَا﴾؛ أي: متواترين ومتتابعين واحداً بعد واحد، وهو مصدر من المواترة كشبعى ودعوى، والتاء فيه مبدلة من الواو، واصلة وتراً، والتتر المتابعة مع مهلة، وهو منصوب على الحالية، كما قررنا في الحل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن والشافعي[2]: ﴿تترى﴾ منوناً، وباقي السبعة: بغير تنوين، وانتصب على الحال؛ أي: متواترين واحداً بعد واحد، ولكن مع انقطاع فترة طويلة بينهما.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ منهم ﴿رَّسُولُهَا﴾ المخصوص بها بالبينات، وبلغها أمر الله تعالى ﴿كَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذب ذلك الرسول أكثرهم لا كلهم، كما في «بحر العلوم» بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وسلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من أهلكوا.

وعبارة «المراح» هنا ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾؛ أي[3]: أرسلنا إلى كل قرن من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

القرون رسولاً خاصاً به، حالة كونهم ﴿تَتْرَا﴾؛ أي: واحداً بعد واحد، بينهما زمان طويل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: وهي قراءة الشافعي: ﴿تترى﴾ بالتنوين، فألفه للإلحاق بجعفر، فلما نون ذهبت ألفه لالتقاء الساكنين، وباقي السبعة: بألف صريحة دون تنوين، والألف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة، والتاء بدل من الواو، فإنه مأخوذ من الوتر وهو الفرد: وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل وقع حالاً؛ أي: متواترة؛ أي: متتابعة فرادى. انتهت.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية بينها؛ أي: بين الهمزة وبين الواو، بأن تنطق بها متوسطة بينهما. ﴿رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كلما بلغهم الرسول ما جاء به من عند ربه من الشرائع والأحكام.. كذبوه، كما فعل قومك بك حين أمرتهم بذلك.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وجعلنا تلك الأمم المهلكة ﴿أَحَادِيثَ﴾ وحكايات وأمثالاً وأعاجيب، يتحدث ويتعجب منها لمن بعدهم، جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به عجباً وتسلياً ومسامرة، أو جمع حديث على غير قياس، كما سيأتي في مبحث التصريف، والمراد هنا: المعنى الأول؛ أي: صاروا يتحدث بهم وبحالهم في الإهلاك، على سبيل التعجب والاعتبار، وضرب المثل بهم؛ أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، إلا حكايات يسمر بها، ويتعجب منها، ويعتبر بها المعتبرون من أهل السعادة.

فإن قلت: لِمَ أضاف[1] الرسل إلى نفسه سبحانه، حيث قال: ﴿رسلنا﴾ وأضاف الرسول إلى الأمة، حيث قال: ﴿رَّسُولُهَا﴾؟

قلت: إن الإضافة تكون للملابسة، والرسول يلابس المرسل والمرسل إليه.

فالأول: كانت الإضافة فيه لتشريف الرسل.

والثاني: كانت الإضافة فيه إلى الأمة حيث كذبته، ولم ينجح فيهم إرساله

(١) البحر المحيط بتصرف.

إليهم، فناسبت الإضافة إليهم.

﴿فَبُعْدًا﴾؛ أي: ألزمنا بعداً من الرحمة ﴿لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله تعالى، ولا يصدقون رسوله، وبما جاء به أيّاً كانوا. فإن قلت: لم نكر[1] القوم هنا حيث قال: ﴿لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وعرفه فيما تقدم. حيث قال: ﴿لِلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟

قلت: نكره هنا؛ لأن القرون المذكورة هنا منكرة غير معينة، بخلاف ما تقدم، فإنه في حق قوم معين كما سبق، وفي الآية[2] دلالة على أن عدم الإيمان سبب للهلاك والعذاب في النيران، كما أن التصديق مدار للنجاة والتنعم في الجنان.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ثُمَّ﴾ بعد هؤلاء الرسل الذين تقدم ذكرهم ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بن عمران، وكان أكبر من موسى بسنتين، حالة كونهما مؤيدين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع من اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون، ولا مساغ لعد فلق البحر منها. إذ المراد الآيات التي كذبوها ﴿و﴾ مؤيدين بـ﴿سلطان مبين﴾؛ أي: بحجة واضحة ملزمة للخصم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة، وهي العصا، وخصصها بذكرها ثانياً؛ لفضلها على سائر الآيات، باشتمالها على معجزات كثيرة، كانقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانقلاب البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها إلى غير ذلك، ولأنها أول المعجزات وأمها. اهـ. «بيضاوي». أو المراد بالسلطان نفس الآيات المذكورة، عبر عنها بسلطان على طريق العطف، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين، وتنزيلاً لتغايرها في التعبير والاسم منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه من القبط، وخصوا بالذكر؛ لأن

---

(١) روح البيان بتصرف.
(٢) روح البيان.

إرسال بني إسرائيل بآرائهم، لا بآراء أعقابهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ أي: فاستكبر فرعون وملؤه عن الإيمان والمتابعة لهما؛ أي: امتنعوا عن قبول الإيمان تكبّراً وعناداً، وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد بآيات ربهم وبرسالاته بعد وضوحها، وانتفاء الشك عنها، ويتعظموا عن امتثالها وقبولها.

﴿وَكَانُواْ﴾؛ أي: وكان فرعون وملؤه ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾؛ أي: متكبرين مجاوزين للحد في الكبر والطغيان؛ أي: كانوا قوماً عادتهم الاستكبار والتمرد، أو قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم.

والمعنى: أي ثم[1] أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل موسى وأخاه هارون، إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة، فاستكبروا عن اتباعهما، والانقياد لما أمروا به.. ودعوا إليه من الإيمان، وترك تعذيب بني إسرائيل، كما جاء في سورة النازعات: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾. وقد كان من دأبهم العتو والبغي على الناس، وظلمهم كبراً وعلواً في الأرض.

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت بقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطف على استكبروا، وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار؛ أي: قال فرعون وملؤه فيما بينهم على طريق المناصحة ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ الهمزة فيه للإنكار بمعنى لا نؤمن، وما ينبغي أن يصدر منا الإيمان ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعنون موسى وهارون، وصف بالمثل الاثنان؛ لأنه في حكم المصدر العام للإفراد والتثنية والجمع المذكر والمؤنث، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿عَٰبِدُونَ﴾ قدمت عليه لرعاية الفاصلة، والجملة حال من فاعل نؤمن؛ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعرض لشأنهما، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة، من وجه آخر غير البشرية.

قال المبرد: العابد: المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمي كل من

---

(١) المراغي.

دان لملك عابداً له. وقيل: يحتمل أنه كان يدعي الألوهية، فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه.

أي: فقال فرعون وملؤه: كيف ندين لموسى وأخيه، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا، ويتلقون أوامرنا؟ وما قصدوا بهذا إلا الإهانة بهما. والحط من قدرهما، وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة، وقد قاسوا الشرف الديني، والإمامة في تبليغ الوحي عن الله تعالى، بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال.

وهم في هذا أشبه بقريش، إذ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقد فاتهم أن مدار أمر النبوة، والإصطفاء للرسالة، إنما هو السبق في الفضائل النفسية والصفات السنية، التي يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، فالأنبياء لصفاء نفوسهم، يتصلون بالعالم العلوي وعالم المادة، فيتلقون الوحي من الملأ الأعلى، ويبلغونه إلى البشر، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق.

وإن تعجب من شيء، فاعجب لهؤلاء وأمثالهم، ممن لم يرض النبوة للبشر، كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

ثم ذكر سبحانه عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾؛ أي[1]: فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون، واستمروا عليه ﴿فَكَانُوا﴾؛ أي: فصاروا ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر القلزم (البحر الأحمر)؛ أي: فأهلكهم الله تعالى بالغرق، كما أهلك من أهلكهم من الأمم بفنون من العذاب بتكذيبهم لرسلهم.

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أعطينا ﴿مُوسَى﴾ بعد إهلاكهم وإنجاء بني

---

(١) المراغي.

إسرائيل من أيديهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة، وفيها الأحكام من الأوامر والنواهي ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل بني إسرائيل ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام.

وخص موسى[1] بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في الطور، وكان هارون خليفته في قومه، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاءً لقومه؛ لأنها وإن كانت منزلة على موسى فهي لإرشاد قومه. وقيل: إن ثم مضافاً محذوفاً أقيم المضاف إليه مقامه؛ أي: آتينا قوم موسى الكتاب.

قصة عيسى عليه السلام إجمالاً

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: عيسى ابن مريم آية للناس دالة على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا، إذ خلقناه من غير أب، وأنطقناه في المهد، وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿و﴾ جعلنا ﴿أمه﴾ مريم بنت عمران ﴿ءَايَةً﴾ للناس دالة على قدرتنا، إذ حملته من غير أب؛ أي: جعلنا ابن مريم آية في نفسه، بأن تكلم في المهد، فظهرت منه معجزات جمة، وجعلنا أمه آية في نفسها، بأنها ولدته من غير مسيس بشر، فحذف الأولى لدلالة الثانية عليها، أو جعلناهما آية واحدة بولادته منها من غير مسيس بشر، فالآيتان أمر واحد.

قال في «العيون»: ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: عبرة لبني إسرائيل بعد موسى؛ لأن عيسى تكلم في المهد وأحيا الموتى ومريم ولدته من غير مسيس، وهما آيتان قطعاً، فيكون هذا من قبيل الاكتفاء بذكر إحداهما، انتهى.

وفي «الجلالين» وأفرد الآية حيث لم يقل: آيتين؛ لأن الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل وذلك لأن ولادته من غير فحل أمر خارق للعادة، وينسب لها وله. فيقال: ولدته من غير فحل، وولد هو من غير فحل. ا هـ. «شيخنا»؛ أي: فاشتركا في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة، وذلك؛ لأن نفس المعجز

(١) روح البيان.

ظهر فيهما، لا أنه ظهر على يديهما؛ لأن الولادة فيه وفيها، بخلاف الآيات التي ظهرت على يده.

فإن قلت: لم قدم عيسى هنا على أمه حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ وقدمها على عيسى في سورة الأنبياء حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؟.

قلت: قدمه هنا نظراً لأصالته فيما ذكر، من ولادته من غير أب، وقدمها هناك نظراً لأصالتها فيما نسب إليها، من الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾؛ أي: جعلنا ابن مريم وأمه يأويان وينضمان ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾؛ أي: إلى مكان مرتفع؛ أي[1]: أنزلناهما في مكان مرتفع من الأرض، وجعلناه مأواهما ومنزلهما، وهي إيليا أرض بيت المقدس، فإنها مرتفعة، وإنها كبد الأرض، وأقربها إلى السماء، وأزيدها على سائر الأرض ارتفاعاً، بثمانية عشر ميلاً على ما يروى عن كعب وقتادة، وقال الإمام السهيلي: أوت مريم بعيسى طفلاً إلى قرية من دمشق يقال لها: ناصرة وبناصرة تسمى النصارى، واشتق اسمهم منها. انتهى.

وقيل: هي أرض دمشق، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل. وقيل: أرض فلسطين، وبه قال السدي.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾؛ أي: ذات مستقر يستقر عليه ساكنوه؛ لكونها ذات ثمار وزروع، فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها، أو مستويةً يمكن القرار فيها للحراثة والحراسة.

﴿وَمَعِينٍ﴾؛ أي: ذات معين، أي: ماء جار على ظاهر الأرض. قال الزجاج[2]: المعين: هو الماء الجاري في العيون، فالميم على هذا زائدة، كزيادتها في منبع، وقيل: هو فعيل بمعنى مفعول، قال علي بن سليمان الأخفش:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

معن الماء إذا جرى، فهو معين وممعون، وكذا قال ابن الأعرابي. وقيل: هو مأخوذ من الماعون، وهو النفع وبمثل ما قال الزجاج، قال الفراء.

والخلاصة: أي وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض، ذي ثمار وماء جار كثير. وفي وصف[1] ماء تلك الربوة بذلك، إيذان بكونه جامعاً لفنون المنافع، من الشرب وسقي ما يسقى من الحيوان، والنبات بغير كلفة، ومن التنزه بمنظره الحسن المعجب، ولولا أن يكون الماء الجاري، لكان السرور الأوفر فائتاً، وطيب المكان مفقوداً، ومن أحاديث المقاصد الحسنة ثلاث يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن؛ أي: مما يحل النظر إليه، فإن النظر إلى الأمرد الصبيح ممنوع.

وقرأ الجمهور[2] وابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿رَبْوَةٍ﴾ بضم الراء، وهي لغة قريش، وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمٰن وعاصم وابن عامر بفتح الراء، وأبو إسحاق السبيعي بكسرها، وابن أبي إسحاق ﴿رباوة﴾ بضم الراء وبالألف، وزيد بن علي والأشهب العقيلي والفرزدق والسلمي في نقل صاحب «اللوامح» بفتحها وبالألف. وقرىء بكسرها والألف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ نداء[3] وخطاب لجميع الأنبياء، لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة؛ لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة، بل على أن كلاً منهم، خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخولاً أولياً، فهذا حكاية لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام، وأمه إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادىء التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام، بل إباحة الطعام شرع قديم، جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام، ووصوا به؛ أي: وقلنا لكل رسول كُلْ من الطيبات، واعمل صالحاً، فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الفتوحات.

الحكاية إجمالاً للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبان من رفض الطيبات ما لا يخفى. ا هـ. من «البيضاوي» و«أبي السعود».

ويعلم من قوله: فهذا حكاية لرسول الله... إلخ، أن في الكلام حذفاً، تقديره: ونخبرك يا محمد، أنا أمرنا الرسل المتقدمين قبلك، وقلنا لهم: يا أيها الرسل ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من الحلالات، سواء كانت مستلذة أو لا، وسواء كانت من المآكل والمشارب.

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً من الفرائض، والنوافل، فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم، وهذا الأمر للوجوب، بخلاف الأول فإنه للإرشاد.

فائدة[1]: وفي هذا رد وهدم لما قالهُ بعض الجهلة، من أن العبد إذا بلغ غاية المحبة، وصفا قلبه، واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق، سقطت عنه الأعمال الصالحة من العبادات الظاهرة، وتكون عبادته التفكر، وهذا كفر وضلال، فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الرسل، خصوصاً حبيب الله محمد ﷺ مع أن التكاليف بالأعمال الصالحة والعبادات في حقهم أتم وأكمل.

وذكر الطبري[2]: أن المراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عيسى ابن مريم عليه السلام، كما تقول في الكلام للرجل الواحد: كفوا عنا أذاكم وكما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ والمراد بالناس رجل واحد، وقال القرطبي[3]: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، وأنه أقامه مقام الرسل، وقال الزجاج: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا؛ أي: كلوا من الحلال. وقال ابن كثير[4]: يأمر الله عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) الطبري.
(٣) القرطبي.
(٤) ابن كثير.

فجزاهم الله عن العباد خيراً. ا هـ.

وحاصل معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أن الله سبحانه[1] أمر كل نبي في زمانه، بأن يأكل من المال الحلال ما لذّ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال ليكون ذلك كفاء من أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

وهذا الأمر، وإن كان موجهاً إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا: أيها المسلمون في جميع الأقطار، كلوا من الطيبات؛ أي: من الحلال الصافي القوام، الحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل، واعملوا صالح الأعمال.

أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس - رضي الله عنها - أنها بعثت إلى النبي ﷺ، بقدح لبن حين فطره وهو صائم فرد إليها رسولها، وقال: «من أين لك هذا؟» فقالت: من شاة لي، ثم رده وقال: «من أين هذه الشاة؟» فقالت: اشتريتها بمالي فأخذه، فلما كان من الغد أمته، وقالت: يا رسول الله، لم رددت اللبن؟ فقال ﷺ: «أمرت الرسل أن لا يأكلوا إلا طيباً، ولا يعملوا إلا صالحاً».

وأخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء يا رب يارب، فأنى يستجاب له؟».

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا

---

(١) المراغي.

يتقبل، إلا إذا سبق بأكل المال الحلال، وجاء في بعض الأخبار، «أن الله تعالى لا يقبل عبادة من في جوفه لقمة من حرام». وصح أيضاً «أيّما لحم نبت من سحت، فالنار أولى به». ثم علل هذا الأمر بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه؛ أي: إني بأعمالكم عليم، لا يخفى عليَّ شيء منها، وأنا مجازيكم بجميعها وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا في صالح الأعمال، واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكراً لربكم على ما أنعم به عليكم.

وفي هذا[1] تحذير من مخالفتهم ما أمروا به، وإذا قيل للأنبياء ذلك، فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها وترعوي عن غيها، وتخشى بأس الله تعالى، وشديد عقابه، وأتى هنا بلفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ وفي سبأ بلفظ ﴿بصير﴾ إذ ما هنا تقدمه إيتاء الكتاب وجعل مريم وابنها آية والعلم بهما، أنسب من بصرهما، وما هناك تقدمه قوله: (وألنا له الحديد)، والبصر بإلانة الحديد أنسب من العلم بها. ا هـ زكريا.

﴿و﴾ أقول لكم أيها الرسل: ﴿إن هذه﴾ العقائد التي هي عقائد التوحيد والإيمان ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم ودينكم جميعاً ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. حال من ﴿هذه﴾؛ أي: حالة كونها ملة وشريعة متحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدل، ولا تتغير بتبدل الأعصار والأزمان، وتلك الملة المتحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأما اختلاف الشرائع والأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال، لا يسمى اختلافاً في الدين؛ لأن الأصول متحدة، فالحائض والطاهر من النساء دينها واحد، وإن افترق تكليفهما.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ ومالككم لا شريك لي في الربوبية، ﴿فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: فاحذروا عقابي وخافوا عذابي، وفي هذا إيماء إلى أن دين الجميع واحد، فيما يتصل لمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه. والفاء في قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنني أنا ربكم

(١) المراغي.

ومالككم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اتقون في شق العصا، ومخالفة الكلمة، والضمير للرسل والأمم جميعاً، على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب.

فإن قلت: لم قال في سورة الأنبياء: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ وقال هنا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؟

قلت: لأن الخطاب في سورة الأنبياء للكفار، فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد، والخطاب هنا للرسل والمؤمنين بدليل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ والأنبياء والمؤمنون إنما يؤمرون بالتقوى لا بالتوحيد. وقال هناك: ﴿وتقطعوا﴾ بالواو، وقال: هنا ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ بالفاء؛ لأن التقطع هناك قد وقع منهم قبل هذا القول لهم، وما بعد الواو ليس مرتباً على ما قبلها، والتقطع هنا وقع منهم بعد هذا القول، فما بعد الفاء مرتب على ما قبلها. ا هـ. «زكريا».

وعبارة ابن حيان هنا[1]: وجاء هنا ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وهو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ لأن هذه جاءت عقيب إهلاك طوائف كثيرين من قوم نوح والأمم الذين من بعدهم، وفي الأنبياء، وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته تعالى، وجاء هنا ﴿فتقطعوا﴾ بالفاء إيذاناً بأن التقطع اعتقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم، وفي نفورهم عن توحيد الله وعبادته، وجاء في الأنبياء بالواو، فاحتمل معنى الفاء، واحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر بالعبادة. ا هـ.

وقرأ الكوفيون[2]: ﴿وإن﴾: بكسر الهمزة والتشديد على الاستئناف، والحرميان وأبو عمرو بالفتح والتشديد؛ أي: ولأن، وابن عامر: بالفتح والتخفيف، وهي المخففة من الثقيلة. ذكره في «البحر».

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وعبارة «الشوكاني» هنا: قرىء[1] بكسر ﴿إن﴾ على الاستئناف المقرر لما تقدمه، وقرىء بفتحها وتشديدها. قال الخليل: هي في موضع نصب لما زال الخافض؛ أي: أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به. وقال الفراء: أن متعلقة بفعل محذوف، تقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. وقال سيبويه: هي متعلقة باتقون، والتقدير: فاتقون؛ لأن أمتكم أمة واحدة.

ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم، من مخالفتهم لما أمرتهم الرسل به، فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾؛ أي: فجعل أتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُم﴾؛ أي: أمر دينهم مع اتحاده في الوضع الإلهي قطعاً متفرقة، وأدياناً مختلفة فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حالة كون أمرهم ﴿زُبُرًا﴾؛ أي: قطعاً مختلفة. جمع زبرة، بمعنى قطعة، كغرفة وغرف، فهو حال من أمرهم، أو من واو تقطعوا؛ أي: حال كونهم طائفة مختلفة متفرقة. ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾؛ أي: كل جماعة من أولئك المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾؛ أي: مسرورون معجبون معتقدون أنه الحق دون ما سواه.

فيا أتباع[2] الأنبياء أين عقولكم إن الله تعالى أرسل إليكم رسلاً، فجعلتموهم محل الشقاق، ومنار النزاع، لم هذا؟ هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافي المودة والمحبة؟ وأين أنتم يا أتباع محمد، ما لكم كيف تفرقتم أحزاباً؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وشيعة يفرق العقيدة، وكيف يكون سبب التفرقة فهل تغير الدين، وهل تغير القرآن، وهل تغيرت القبلة؟ وهل حدث إشراك؟ كلا كلا، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تنابذها، فما أجدركم أن يلحقكم الذم على تنابذكم، وأنتم أهل دين واحد.

ولا علة لهذا إلا الجهالة الجهلاء، فقد خيم الجهل فوق ربوعكم ومدت طنبه بين ظهرانيكم؛ لأنكم فرطتم في كتاب ربكم، ظننتم أن أسس الدين هي مسائل العبادات والأحكام وتركتم الأخلاق وراءكم ظهرياً، وتركتم آيات التوحيد

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والنظر في الأكوان، ولو أنكم نظرتم إلى شيء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم، وأنتم عنه غافلون.

وقرأ ابن عباس وأبو عمران الجوني[1]: ﴿زُبراً﴾ بضم الزاي وفتح الباء. وقرأ أبو الجوزاء وابن السميقع: ﴿زبراً﴾ بضم الزاي وإسكان الباء. قال الزجاج: من قرأ ﴿زبراً﴾ بضم الباء، فتأويله جعلوا دينهم كتباً مختلفةً، جمع زبور. ومن قرأه: ﴿زبراً﴾ بفتح الباء أراد قطعاً كقطع الحديد.

وبعد[2] أن ذكر سبحانه ما حدث من أمم أولئك الأنبياء، من التفرق والانقسام فيما كان يجب عليهم فيه اتفاق الكلمة، ومن فرحهم بما فعلوا.. أمر نبيه أن يتركهم في جهلهم الذي لا جهل فوقه؛ لأنه لا ينجع فيهم النصح، ولا يجدي فيهم الإرشاد، فقال: ﴿فذرهم﴾ والفاء فيه فصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد تقطعهم في أمرهم، وفرحهم بما هم عليه من الأديان الباطلة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، فأقول لك: أترك هؤلاء الكفرة المتفرقة ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾؛ أي: على غيهم وضلالهم، ولا تشغل قلبك بهم، وبتفرقهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين قتلهم أو موتهم على الكفر، أو نزول العذاب بهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسلية لرسول الله ﷺ، ونهي له عن الاستعجال بعذابهم، والجزع من تأخيره، فالآية خرجت مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ، شبه سبحانه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة ويسترها؛ لأنهم مغمورون فيها لا عيون لها، **والمعنى**: اتركهم في جهلهم، فليسوا بأهل للهداية ولا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء أجل معلوم.

ونحو الآية قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿في غمرتهم﴾، وعلي بن أبي طالب وأبو حيوة والسلمي:

---

(١) زاد المسير. (٢) المراغي.

﴿في غمراتهم﴾ على الجمع؛ لأن لكل واحد غمرة، وعلى قراءة الجمهور: فغمرة تعم إذا أضيفت إلى عام.

ثم بيّن خطأهم فيما يظنون، من أن سعة الرزق في الدنيا علامة رضا الله عنهم في الآخرة، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ الهمزة فيه[1] الإنكار الواقع واستقباحه. وما موصولة؛ أي: أيظن هؤلاء الكفرة، أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، ﴿من مال وبنين﴾ بيان للموصول، وتخصيص البنين لشدة افتخارهم بهم. ﴿نُسَارِعُ﴾ به ﴿لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: فيما فيه خيرهم وإكرامهم، وجواب الاستفهام محذوف، يدل عليه قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنه معطوف على مقدر يدل عليه السياق؛ أي: كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما خولناهم من النعم، وأمددناهم به من الخيرات، إنما هو استدراج لهم، ليزدادوا إثماً. كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾.

والمعنى: أيظن هؤلاء المغرورون، أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد كرامة لهم وإجلال لأقدارهم عندنا، كلا إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً في المعاصي، واستجراراً لهم إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات، إذ هم أشبه بالبهائم، لا فطنة لهم ولا شعور، حتى يتفكروا في أنه إستدراج هو أم مسارعة في الخيرات.

ونحو الآية قوله تعالى: حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قال قتادة في تفسير الآية[2]: مكر الله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم لا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»، قالوا: وما بوائقه يا رسول؟ قال: «غشه وظلمه».

وقرأ ابن وثاب[1]: ﴿أنما نمدهم﴾ بكسر الهمزة، وقرأ[2] عكرمة وأبو الجوزاء: ﴿يمدهم﴾ بضم الياء وكسر الميم. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿نمدهم﴾ بفتح النون وضم الميم. وقرأ ابن عباس وعكرمة وأيوب السختياني: ﴿يسارع﴾ بضم الياء وكسر الراء. وقرأ معاذ القارىء وأبو المتوكل: مثله، إلا أنهما فتحا الراء. وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدري وابن السميفع: ﴿يسرع﴾ بضم الياء وسكون السين وفتح الراء من غير ألف. وقرأ الباقون: ﴿نسارع﴾ بالنون. قال الثعلبي: وهذه القراءة هي الصواب لقوله: ﴿نمدهم﴾.

ولما نفى الله سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين، أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً، فوصفهم بصفات أربع:

الأولى: ما ذكرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: من خوف عذاب ربهم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: دائبون في طاعته، جادون في نيل مرضاته، حذرون من أسباب العذاب، خائفون منها، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصي، والمعنى[3]: إن المؤمنين الذين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عذابه. قال الحسن البصري: المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً. والفرق بين[4] الخشية والإشفاق أن الخشية خوف يشوبه تعظيم، والإشفاق عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

وعبارة «الشوكاني» هنا: فظاهر ما في الآية التكرار، وأجيب بحمل الخشية على العذاب؛ أي: من عذاب ربهم خائفون، وبه قال الكلبي ومقاتل. وأجيب بحمل الإشفاق على ما هو أثر له، وهو الدوام على الطاعة؛ أي: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته. وأجيب أيضاً: بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار. وقيل: هو تكرار للتأكيد.

والصفة الثانية: ذكرها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة في الآفاق المنزلة على الإطلاق ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون مدلولها، ولا يكذبونها بقول، ولا فعل بأن يستدلوا بهذه المخلوقات على وجود الصانع، ويصدقوا بأن ما في القرآن حق من ربهم. والمعنى؛ أي: والذين هم بآيات ربهم الكونية، التي نصبها في الأنفس والآفاق دلالة على وجوده، ووحدانيته، وبآياته المنزلة على رسله، مصدقون موقنون، لا يعتريهم شك ولا ريب.

والصفة الثالثة: ذكرها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ غيره شركاً جليّاً ولا خفياً؛ أي: والذين لا يعبدون مع الله سواه، ويعلمون أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس له صاحبة ولا ولد.

وفيما سبق وصف لله بتوحيد الربوبية، وهنا وصف له بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الأول، لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى، وعبدوا معبودات مختلفة.

والصفة الرابعة: ذكرها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾؛ أي: والذين يعطون ما أعطوه من الزكوات والصدقات، ويفعلون ما توسلوا به إلى الله تعالى، من الخيرات والمبرات، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والماضي على التحقق، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال من فاعل يؤتون؛ أي: والحال أن قلوبهم خائفة أن

---

(١) المراغي.

لا يتقبل ذلك منهم، وأن لا يقع على الوجه المرضي. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: خائفون عدم قبولها حين يبعثون، ويرجعون إلى ربهم، وتنكشف الحقائق، ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه، وإن قل. وجملة ﴿أن﴾ في محل الجر بجار محذوف، متعلق بـ﴿وجلة﴾؛ أي: وجلة من رجوعهم، أو لأجل رجوعهم إلى الله تعالى. وسبب الوجل[١] هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، **وقيل**: المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب، وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية، لم يخل من وجل.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الإيتاء؛ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، وقرأت عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي: ﴿يأتون ما آتوا﴾ من الإتيان؛ أي: يفعلون ما فعلوا. وقرأ الأعمش: ﴿إنهم﴾ بالكسر.

ويدخل في قوله[٣]: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ كل حق يلزم إيتاؤه، سواءاً كان من حقوق الله، كالزكاة والكفارة وغيرها، أم من حقوق العباد، كالودائع والديون والعدل بين الناس فمتى فعلوا ذلك، وقلوبهم وجلة من التقصير والإخلال بها بنقصان أو غيره.. اجتهدوا في أن يوفوها حقها حين الأداء.

وسألت عائشة رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكن هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل ذلك منه».

وهذه الموصولات الأربعة[٤] عبارة عن طائفة واحدة متصفة بجميع ما ذكر في حيّز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

بواحد من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وبآيات ربهم يؤمنون إلخ. وإنما كرر الموصول إيذاناً باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحى بالتوبة، والطاعة تطلب بتصحيحها، والإخلاص والصدق فيها، فإذا كان فاعل الطاعات خائفاً مضطرباً، فكيف لا يخاف غيره.

وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ﴾ خبر إن؛ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف المذكورة الجليلة خاصة دون غيرهم. ﴿يسارعون﴾؛ أي: يبادرون ﴿فِي﴾ نيل ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾. وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: أولئك الذين جمعوا هذه المحاسن، يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرونها لئلا تفوتهم إذا هم ماتوا، ويتعجلون في الدنيا وجوه الخيرات العاجلة، التي وعدوا بها على الأعمال الصالحة في نحو قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية، وقيل: المراد بالخيرات الطاعات، والمعنى: يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس.

قال في «الإرشاد»: إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى)؛ للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها، متوجهون إليها بطريق المسارعة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ الخ.

وقرأ الحُرُّ النحوي: ﴿يسرعون﴾ مضارع أسرع، يقال: أسرعت إلى الشيء وسرعت إليه بمعنى واحد، وأما المسارعة فالمسابقة؛ أي: يسارعون غيرهم.

وجملة قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مؤكدة لما قبلها، مفيدة للثبوت بعد ما أفادت الأولى التجدد، ومفعول المسابقة محذوف، واللام بمعنى إلى؛ أي: وهم

يسابقون الناس إلى تلك الخيرات لينالوا رضا الله تعالى؛ أي: إنهم يرغبون في الطاعات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الثواب، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منا لهم، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات، وإنما الذي يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراك به، وعدم الرياء في العمل، والتصديق مع الخوف منه.

وخلاصة ذلك: أن النعم ليست هي السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها، بل هي العمل الطيب بإيتاء الصدقات، ونحوها، مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ من النفوس ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾؛ أي: قدر طاقتها، فقول: لا إلٰه إلا الله، والعمل بما يترتب عليه من الأحكام من قبيل ما هو في الوسع؛ أي: أن[1] سنتنا جارية على أن لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في وسعها وقدر طاقتها، ومن ثم قال مقاتل: من لم يستطع القيام في الصلاة، فليصل قاعداً، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء؛ أي: فإن الله تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين، فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم.

﴿وَلَدَيْنَا﴾؛ أي: وعندنا، عندية رتبة واختصاص. ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي[2]: صحائف أعمال قد أثبت فيها أعمال كل أحد على ما هي عليه ﴿يَنطِقُ﴾ ذلك الكتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع؛ أي: يظهر الحق ويبينه للناظر فيه، كما يبينه النطق، ويظهر للسامع، فأعمال العباد كلها مثبتة في صحائفهم، فيقرؤونها حين الحساب، وتظهر فيها أعمالهم التي عملوها في الدنيا دون لبس ولا ريب، ويجازون عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ وفي هذا تهديد للعصاة، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم.

وجملة قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ مستأنفة[1]، للتحريض على ما وصف به السابقون، من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الكرامات، ببيان سهولته، وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وأن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده، وجملة قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾ من تمام ما قبلها، من نفي التكليف بما فوق الوسع، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شيء، وقيل: المراد بالكتاب القرآن والأول أولى.

ثم بيّن فضله على عباده، وعدله بينهم في الجزاء إثر بيان لطفه في التكليف وكتابة الأعمال على ما هي عليه، فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في الجزاء بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها، ونطقت بها صحائفها بالحق، والجمع في ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ باعتبار عموم النفس لوقوعها في سياق النفي.

الإعراب

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من ﴿قَرْنًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿قَرْنًا﴾: مفعول به. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَرْنًا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فأغرقنا قوم نوح لما كذبوه، ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور صفة

(١) الشوكاني.

لـ﴿رَسُولًا﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَا﴾. ﴿أَنِ﴾: مفسرة؛ لأن في الإرسال معنى القول دون حروفه؛ أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر، مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بـ﴿أرسلنا﴾؛ أي: أرسلنا فيهم رسولاً منهم، بعبادة الله تعالى. بأن أعبدوا ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة. ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: صفة لإله بالرفع، تبعاً لمحله، وبالجر تبعاً للفظه. والجملة الإسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، والتقدير: أتشركون بالله فلا تتقون عذابه. ﴿لا﴾: نافية. و﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قال الملأ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أرسلنا﴾. ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمِهِۦ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كذبوا﴾. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أترفناهم﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَشَرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول قال: ﴿يَأْكُلُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لبشر. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به وهو العائد على الموصول. ﴿وَيَشْرَبُ﴾ معطوف على يأكل. ﴿مِمَّا﴾ متعلق به. ﴿تَشْرَبُونَ﴾ صلة الموصول،

والعائد محذوف اكتفاء بالعائد الأول، وهو ضمير منه لاستكمال شروط جواز حذفه، وهي اتحاد الحرف والمتعلق، وعدم قيامه مقام مرفوع، وعدم ضمير آخر، وقد أشار إليها ابن مالك بقوله:

كَذَا ٱلَّذِيْ جُرَّ بِمَا ٱلْمَوْصُوْلَ جَرّ   كَمُرَّ بِٱلَّذِيْ مَرَرْتُ فَهُوَ بَرّ

هذا إذا جعلناها بمعنى الذي، فإن جعلناها مصدراً، لم تحتج إلى عائد، ويكون المصدر واقعاً موقع المفعول؛ أي: من مشروبكم. ا هـ. «كرخي».

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. (واللام): موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿أن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿بَشَرًا﴾ مفعول به. ﴿مِّثْلَكُمْ﴾: صفة له. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمها. ﴿إِذًا﴾: حرف شرط غير جازم، بمعنى إن الشرطية، جيء بها لتأكيد مضمون الشرط، توكيداً لفظياً، من قبيل إعادة الشيء بمرادفه، والتنوين فيها عوض عن جملة شرطها المحذوفة، تقديره: إنكم إن أطعتموه.. لخاسرون، ولا جواب لها؛ لأنها إنما ذكرت.. لتأكيد ما قبلها. كذا في «الإتقان» للحافظ السيوطي. ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ اللام حرف ابتداء. ﴿خاسرون﴾: خبر ﴿إن﴾. وجملة إن المكسورة، جواب القسم لا محل لها. وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾، وجواب إن الشرطية محذوف، دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن أطعتم بشراً مثلكم.. فإنكم إذاً لخاسرون، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ أيضاً، على كونها معترضة بين القسم وجوابه، ولا يصلح أن تكون جملة ﴿إن﴾ المكسورة جواب الشرط؛ لعدم وجود الفاء، وهذا جرى على القاعدة التي ذكرها ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ (الهمزة): فيه للاستفهام الإنكاري. ﴿يعدكم﴾: فعل ومفعول به

أول، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة، مسوقة لتقرير ما قبلها، ومن زجرهم عن اتباعه؛ بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به، واستبعاده، كما في «أبي السعود». ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بمخرجون. ﴿مِتُّمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿متم﴾. ﴿وَعِظَٰمًا﴾ معطوف على ﴿تراباً﴾. ﴿أَنَّكُم﴾ توكيد لفظي لـ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى أكد بها لما طال الفصل بين اسمها وهو الكاف، وخبرها وهو ﴿مُّخْرَجُونَ﴾. ﴿مُّخْرَجُونَ﴾: خبر ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى، وجملة ﴿أن﴾ الأولى في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يعدكم﴾، والتقدير: أيعدكم إخراجكم من القبور وقت موتكم، وكونكم تراباً وعظاماً. ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسم فعل ماض بمعنى بعد، مبني على الفتح، والغالب في الاستعمال أن تستعمل هذه الكلمة مكررة، والثانية توكيد لفظي للأولى. ﴿لِمَا﴾ اللام زائدة في الفاعل. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل لـ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعد ما توعدون ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما توعدونه، ويجوز أن تكون ما مصدرية، والمصدر المؤول منها فاعل ﴿هَيْهَاتَ﴾، وجملة ﴿هَيْهَاتَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، أصله إن الحياة إلا حياتنا، فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها، حذراً، من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن التصريح، كما في قولهم: هي النفس تتحمل ما حملت، وهي العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس، كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة النافية للجنس اهـ «أبو السعود». ﴿إِلَّا﴾: اداة استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾:

خبر المبتدأ. ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿حَيَاتُنَا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة، مسوقة لتقرير معتقدهم، بأن العالم قديم بالطبع، ولم يزل كذلك، ولم يحدث بإحداث محدث، والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيماً، وهذا كفر صريح وضلال بعيد. ﴿نَمُوتُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على المتكلمين من قوم هود، والجملة في محل النصب حال من الضمير المضاف إليه في ﴿حَيَاتُنَا﴾. ﴿وَنَحۡيَا﴾: معطوف على نموت. ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿نَحۡنُ﴾: اسمها. ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾. ﴿إِنۡ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَجُلٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة. ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على رجل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبٗا﴾: مفعول به، والجملة في محل الرفع صفة لرجل. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿نَحۡنُ﴾: اسمها. ﴿له﴾: متعلق ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾. ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على هود، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الرب، و(النون): للوقاية. و(الياء): مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِمَا﴾: (الباء): جرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَذَّبُونِ﴾: فعل ماض وفاعل. و(النون): للوقاية. و(ياء): المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بالباء؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱنصُرۡنِي﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: ﴿عن﴾: حرف جر بمعنى بعد. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿قَلِيلٖ﴾: مجرور بعن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يصبحن﴾ أو بنادمين ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿يصبحن﴾ فعل مضارع ناقص مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال.

والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع اسمها، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة. ﴿نَٰدِمِينَ﴾: خبر أصبح، وجملة يصبح جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذتهم﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: فاعل. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الصيحة، والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جعلناهم غثاء﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. ﴿فَبُعْدًا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿بعداً﴾: منصوب بفعل محذوف وجوباً لنيابته عنه، تقديره: ألزمنا، أو أوجبنا. ﴿بعداً﴾: مفعول به. ﴿لِّلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بعداً﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة ﴿للقوم﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، أو مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، لنيابة المصدر عنه، تقديره: بعدوا بعداً.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿أَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿قروناً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿قُرُونًا﴾: مفعول به. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة قروناً. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿تَسْبِقُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿أُمَّةٍ﴾: فاعل مرفوع محلاً، مجرور لفظاً. ﴿أَجَلَهَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَسْبِقُ﴾، وذكر الضمير في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بعد تأنيثه لمراعاة المعنى؛ لأن أمة بمعنى قوم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿رُسُلَنَا﴾: مفعول

به. ﴿تَتْرَا﴾: حال من ﴿رسلنا﴾، وعلامة نصبه فتحة مقدرة للتعذر؛ لأنه اسم مقصور، ألفه للإلحاق بجعفر كأرطى وعلقى، والتاء فيه مبدلة من الواو، وأصله وترى؛ أي: متعاقبين متتابعين بعضهم بعضاً، أو هو مصدر كشبعى ودعوى فألفه للتأنيث، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَا﴾. ﴿كل ما﴾: اسم شرط غير جازم، في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿أمة﴾: مفعول به مقدم. ﴿رَّسُولُهَا﴾: فاعل مؤخر وجوباً لاتصاله بضمير المفعول، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿كل ما﴾. ﴿كَذَّبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿كل ما﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كل ما﴾: مستأنفة.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَأَتْبَعْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أتبعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَعْضَهُم﴾: مفعول به أول. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به ثان، والجملة معطوفة على ﴿كَذَّبُوهُ﴾. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَحَادِيثَ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. ﴿فَبُعْدًا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿بعداً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً لنيابته عنه، تقديره بعدوا بعداً، وهذا دعاء عليهم، أو أوجبنا بعداً. ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بعداً﴾، ولا تتعلق به هذه اللام؛ لأنه لا يحفظ حذف هذه اللام، ووصول المصدر إلى مجرورها ألبتة. والجملة المحذوفة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: في محل الجر صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾. ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿هَارُونَ﴾: بدل من ﴿أخاه﴾، أو عطف بيان له. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾ و﴿هَارُونَ﴾؛ أي: حالة كونهما ملتبسين بآياتنا، فالباء للملابسة. ﴿وَسُلْطَانٍ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾:

صفة لـ﴿سلطان﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والعجمية، متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: معطوف على فرعون. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استكبروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿استكبروا﴾. ﴿عَالِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استكبروا﴾. ﴿أَنُؤْمِنُ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري، ﴿نؤمن﴾: فعل وفاعل مستتر يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿نؤمن﴾. ﴿مِثْلِنَا﴾: صفة ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ وهو اسم كغير في أنه يوصف بهما الاثنان، والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يقع على الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾: مبتدأ مضاف إليه. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نؤمن﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كذبوهما﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَقَالُوٓا۟﴾. ﴿فَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذبوهما﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعولان لـ﴿أتينا﴾؛ لأنه بمعنى أعطى، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ ونصب والهاء اسمها، والضمير يعود إلى قوم موسى؛ لأن فرعون وقومه كانوا قد بادوا، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾: معطوف على ابن مريم. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾، ولم يقل آيتين؛ لأن فيهما واحدة، وهي الولادة من غير أب، ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿جعلنا﴾. ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: متعلق بـ﴿آويناهما﴾. ﴿ذَاتِ﴾: صفة لـ﴿رَبْوَةٍ﴾. ﴿قَرَارٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَعِينٍ﴾: معطوف على ﴿قَرَارٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، أو عطف بيان، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿صَٰلِحًا ۖ﴾ مفعول به أو مفعول مطلق. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عليم﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تعملونه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن هذه أمتكم﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة على قراءة كسر همزة ﴿إن﴾، وأما على قراءة فتحها فالجملة سادة مسد مفعولي علم المحذوفة، تقديرها: واعلموا أن هذه أمتكم أمة واحدة، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ﴾. ﴿أُمَّةً﴾: حال لازمة من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿لأمة﴾. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وأنا ربكم وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم ﴿اتقون﴾. ﴿اتقون﴾: فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل، والنون نون

الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿تقطعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَمْرَهُم﴾: إما منصوب بنزع الخافض؛ أي: تفرقوا في أمرهم، أو مفعول به وعدى تقطعوا إليه؛ لأنه بمعنى قطعوا. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تقطعوا﴾. ﴿زُبُرًاۖ﴾: حال من فاعل ﴿تقطعوا﴾؛ أي: حالة كونهم أحزاباً متخالفين. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحُونَ﴾. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾. ﴿فَرِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل تقطعوا.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تقطعهم يا محمد وتفرقهم وفرح كل حزب بما لديهم، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، فأقول لك: ذرهم. ﴿ذرهم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول أول، والضمير لكفار مكة. ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان، أو حال من ضمير المفعول؛ أي: أتركهم متخبطين في غمرتهم، أو حالة كونهم متخبطين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذرهم﴾. ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾: (الهمزة) فيه للاستفهام التقريعي الإنكاري. ﴿يحسبون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وكان من حقها أن تكتب مفصولة، ولكنها موصولة اتباعاً لرسم المصحف. ﴿نُمِدُّهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نُمِدُّهُم﴾، وهو العائد على الموصول، وجملة ﴿نُمِدُّهُم﴾ صلة الموصول، ﴿مِن مَّالٍ﴾: حال من الموصول ﴿وَبَنِينَ﴾: معطوف على ﴿مَّالٍ﴾. ﴿نُسَارِعُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، تقديره: نحن.

﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿نسارع﴾. ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، والرابط بين هذه الجملة، واسم ﴿أن﴾ محذوف، تقديره: نسارع لهم به، أو فيه، إلا أن حذف مثله قليل، وقيل: الرابط بينهما هو اسم الظاهر الذي قام مقام المضمر، من قوله: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، وهذا يتمشى على مذهب الأخفش، إذ يرى الربط بالأسماء الظاهرة، وإن لم يكن بلفظ الأول. وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب، والتقدير: أيحسبون مسارعتنا إياهم في الخيرات، بما أمددناهم به من مال وبنين. ﴿بَل﴾: حرف إضراب، للإضراب الانتقالي عن الحسبان. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَشۡعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام؛ أي: لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم، لا فطنة لهم، ولا شعور يتيح لهم التأمل، فيعرفون أن ذلك الإمداد ما هو إلا استدراج لهم، واستجرار إلى زيادة الإثم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾. ﴿مشفقون﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ، والخبر صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ وجملة ﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿يُؤۡتُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَآ﴾: مفعول ﴿يؤتون﴾. ﴿ءَاتَواْ﴾: فعل وفاعل،

والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما آتوه. ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قلوبهم﴾: مبتدأ. ﴿وَجِلَةٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رَٰجِعُونَ﴾. ﴿رَٰجِعُونَ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، والجار المحذوف متعلق بـ﴿وجلة﴾؛ أي: قلوبهم خائفة من رجوعهم إلى ربهم.

﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يسارعون﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿أن﴾؛ أي: خبر عن أن الذين هم من خشية ربهم وما عطف عليه، فاسم ﴿أن﴾ أربع موصولات، وخبرها جملة أولئك.. الخ. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ ﴿لَهَا﴾ متعلق بـ﴿سَٰبِقُونَ﴾، قدم عليه للفاصلة وللاختصاص. ﴿سَٰبِقُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على سابقتها عطف تأكيد لها. ﴿وَلَا نُكَلِّفُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُكَلِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به أول، والجملة مستأنفة، مسوقة للدلالة على أن التكليف غير خارج عن حدود الطاقات والإمكانيات. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَدَيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لدينا﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم، ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا نُكَلِّفُ﴾، وجملة ﴿يَنطِقُ﴾ صفة كتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق به، أو حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾؛ أي: حالة كونه ملتبساً بالحق. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على سابقتها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَرْنًا﴾: القرن: الأمة. والمراد بهم: عاد قوم هود، لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾؛ أي: نعمناهم ووسعنا عليهم، يقال: ترف فلان؛ أي: توسع في النعمة وأترفته النعمة: أطغته. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في آرائكم، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم. ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعد. ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ هو البعث والحساب. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين. ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾؛ أي: بعد زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾؛ أي: ليصيرن. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾، والصيحة: العذاب الشديد، كما قال:

صَاحَ ٱلزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكَ صَيْحَةً ... خَرُّوْا لِشِدَّتِهَا عَلَىٰ ٱلأَذْقَانِ

﴿غُثَآءً﴾: الغثاء العشب إذا يبس، يجمع على أغثية كغراب وأغربة، وعلى غثيان كغراب وغربان. وقال الزجاج: هو البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل به فخالط زبده. وقيل: كل ما يلقيه السيل، والقدر مما لا ينتفع به، وبه يضرب المثل في ذلك. ولامه واو؛ لأنه من غثا الوادي يغثو غثواً، وكذلك غثت القدر، وأما غثيت نفسه تغثى غثياناً؛ أي: خبثت فهو قريب من معناه، ولكنه من مادة الياء، وتشدد ثاء الغثاء وتخفف، وقد جمع على أغثاء وهو شاذ بل كان قياسه أن يجمع على أغثية كأغربة، أو على غثيان كغربان وغلمان. ا هـ. «سمين».

وقال الزمخشري: شبَّههم في دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل مما بلى، واسود من بلي العيدان والورق. ا هـ.

﴿تَتْرَا﴾ من المواترة، وهي التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها، قاله الأصمعي، والتاء فيه مبدلة من الواو، وأصله وترى وهو مصدر كشبعى ودعوى. فألفه للتأنيث، وهو منصوب على الحالية؛ أي: متتابعين، والتتر: المتابعة مع مهلة، فإن كانت بدونها، قيل لها: مداركة ومواصلة، كما في «القاموس».

﴿أَحَادِيثَ﴾: جمع أحدوثة، كأضاحيك وألاعيب وأعاجيب، جمع أضحوكة وألعوبة وأعجوبة، والأحدوثة: هي كل ما يتحدث به الناس تعجباً منه، وتلهياً به ودفعاً للملالة، واجتلاباً للسلوى، وتزجية للفراغ، أو جمع حديث على غير قياس.

وفي «السمين» قيل: هو جمع حديث، ولكنه شاذ، وقيل: بل جمع أحدوثة كأضحوكة. وقال الأخفش: لا يقال ذلك إلا في الشر، ولا يقال في الخير. وقد شذت العرب في ألفاظ، فجمعوها على صيغة مفاعيل كأباطيل وأقاطيع. وقال الزمخشري: الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ، وأفاعيل ليس من أبنية اسم الجمع، وإنما ذكره أصحابنا فيما شذ من الجموع، كقطيع وأقاطيع، وإذا كان عباديد قد حكموا عليه بأنه جمع تكسير، مع أنهم لم يلفظوا له بواحد، فأحرى أحاديث، وقد لفظ له بواحد وهو حديث، فاتضح أنه جمع تكسير، لا اسم جمع لما ذكرنا. ا هـ. وفي «القاموس» صاروا أحاديث؛ أي: انقرضوا. ا هـ.

﴿عَالِينَ﴾؛ أي: متكبرين. ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾: تثنية بشر، والبشر يقع على الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقد يطابق، ومنه هذه الآية، وأمّا إفراد مثلنا؛ فلأنه يجري مجرى المصادر في الإفراد، والتذكير ولا يؤنث أصلاً، وقد يطابق ما هو له تثنيةً كقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾. وجمعاً كقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُم﴾، وقيل: أريد المماثلة في البشرية لا الكمية، وقيل: اكتفى بالواحد عن الاثنين. ا هـ.

﴿عَابِدُونَ﴾؛ أي: خدم منقادون. قال أبو عبيدة: العرب تسمي كل من دان للملك عابداً. وقال المبرد: العابد: المطيع الخاضع.

﴿وَءَاوَيْنَاهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾؛ أي: أسكناهما وأنزلناهما في ربوة؛ أي: أوصلناهما إلى ربوة، وسبب ذلك أن ملك ذلك الزمان، كان أراد أن يقتل عيسى عليه السلام، فهربت به أمه إلى تلك الربوة، ومكثت بها ثنتي عشرة سنة، حتى هلك ذلك الملك. ا هـ. من «الخطيب».

والربوة والرباوة: الأرض المرتفعة، وفي رائها الحركات الثلاث، وقد اختلف المفسرون في المراد بها، فقيل: بيت المقدس، وقيل: دمشق وغوطتها. وعن الحسن: فلسطين أو الرملة، أو مصر، أقوال.

﴿معين﴾: اسم مفعول من عان يعين كباع يبيع، فهو معين كمبيع، فالميم

زائدة، وأصله معيون كمبيوع، وقد دخله الإعلال. والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته، فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين؛ لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه، نحو ركبه إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً، أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة. وقال الراغب: هو من معن الماء إذا جرى، ويسمى مجرى الماء معياناً، وأمعن الفرس تباعد في عدوه، وأمعن بحقي ذهب به، وفلان معن في حاجته؛ أي: سريع، قلت: وهذا كله راجع إلى معنى الجري والسرعة.

وفي «السمين» قوله: ومعين صفة لموصوف محذوف؛ أي: وماء معين، وفيه قولان:

أحدهما: أن ميمه زائدة، وأصله معيون؛ أي: مبصر بالعين، فأعل إعلال مبيع، وبابه وهو مثل قولهم: كبدته؛ أي: ضربت كبده، ورأسته؛ أي: أصبت رأسه، وعنته؛ أي: أدركته بعيني، ولذلك أدخله الخليل في مادة ع ي ن.

والثاني: أن الميم أصلية، ووزنه فعيل، مشتق من المعن، واختلف في المعن. فقيل: هو الشيء القليل، ومنه الماعون، وقيل: هو من معن الشيء، معانة إذا كثر.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جمع طيب، والطيب: ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه. ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم وشريعتكم. ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾؛ أي: قطعوا ومزقوا. ﴿أَمْرَهُم﴾؛ أي: أمر دينهم. ﴿زُبُرًا﴾؛ أي: قطعاً، واحدها زبور: بمعنى فريق. اهـ. «بيضاوي». أو جمع زبرة بمعنى القطعة؛ أي: الطائفة من الناس، وهي مثل غرفة، فتجمع على زبر بالضم وبالفتح، كما في الكهف فهما جمعان، كما في «القاموس». وقيل: معنى زبراً، كتباً؛ أي: تمسك كل قوم بكتاب، فآمنوا به، وكفروا بما سواه من الكتب. اهـ. «خطيب».

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ، والضمير لكفار مكة، في غمرتهم؛ أي: في ضلالتهم، شبهها بالماء الذي يغمر القامة؛ لأنهم يغمرون فيها، والغمر في الأصل الماء الذي يغمر القامة، والغمر أيضاً الذي يغمر

الأرض، ثم استعير ذلك للجهالة، فقيل: فلان في غمره، والمادة تدل على الغطاء والاستتار، ومنه الغمر بالضم لمن لم يجرب الأمور، والغمر بالكسر: الحقد؛ لأنه يغطي القلب، والغمرات: الشدائد، والغامر: الذي يلقي نفسه في المهالك. ا هـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾.

ومنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالقبائح والشناعات.

ومنها: ذكر الخاص بعنوان العام في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾؛ لأن المراد بالرسول هنا هو عليه السلام بقرينة ما سبق في سورة الأعراف.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾؛ أي: منه.

ومنها: إقامة الضمير مقام الظاهر في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، فأقيم الضمير مقام الأولى، لدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرر وإشعاراً بإغنائها عن التصريح.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وكذلك بين ﴿تَسْبِقُ﴾ و﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ أي: كالغثاء في سرعة زواله ومهانة حاله، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾؛ لتغيير بعض الحروف والشكل.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إفادة للتعليل وإشعاراً بالعلية.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ حيث شبه ضلالتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقه إلى قدمه بجامع الاستتار في كلٍّ، وإن كان مختلفاً بكونه في الماء حسيّاً وفي الجهالة معنوياً، واستعير اسم المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾.

ومنها: حذف الرابط في قوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ حذف به؛ أي: نسارع لهم به في الخيرات وحسن حذفه؛ لاستطالة الكلام مع أمن اللبس.

ومنها: الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة البديعة في قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ فالنطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه، والكتاب ليس له لسان فوصف سبحانه الكتاب بالنطق، مبالغةً في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان، أو تشبيهاً باللسان الناطق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا
مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ
جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ
جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ
رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ
ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا
ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا

﴿... عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه، لما ذكر سماحة هذا الدين، وأنه دين يسر لا عسر، ولا يكلف النفس إلا ما تطيق، وأن ما يعمله المرء فهو محفوظ في كتاب، لا يبخس منه شيئاً، ولا يزاد له فيه شيء.. أردف هذا ببيان أن المشركين في غفلة عن هذا، الذي بيّن في القرآن، ولهم أعمال سوء أخرى، من فنون الكفر والمعاصي، كطعنهم في القرآن، واستهزائهم بالنبي ﷺ، وإيذائهم للمؤمنين، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة.. جأروا واستغاثوا فقلنا لهم: لا فائدة فيما تعملون، فقد جاءتكم الآيات والنذر، فأعرضتم عنها، واتخذتموها هزواً، تسمرون بها في البيت الحرام، وقد كان من حقكم أن تتدبروا القرآن؛ لتعلموا أنه الحق من ربكم، وأن مجيء الكتب إلى الرسل سنة قديمة، فكيف تنكرونها؟ وهل رابكم في رسولكم شيء، حتى تمتنعوا من تصديقه، وتقولوا إن به جنةً، وأنتم تعلمون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم رأياً، لا إن الأمر على غير ما تظنون، إنه قد جاءكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون، لما دسيتم به أنفسكم من الزيغ والإنصراف عن سبيل الحق، ولو أجابكم ربكم إلى ما في أنفسكم من الهوى، وشرع الأمور وفق ذلك.. لفسدت السماوات والأرض لفساد أهوائكم، واختلافها، وأنتم لو تأملتم، لعلمتم أن ما جاءكم به هو فخركم، فكيف تعرضون عنه؟ وهل تظنون أنه يسألكم أجراً على هدايتكم، وإرشادكم، فما عند الله خير مما عندكم، وهو خير الرازقين. فها هو ذا قد تبين الرشد من الغي، واستبان أن ما تدعوهم إليه هو الحق، الذي لا محيص منه، وأن الذين لا يؤمنون به عادلون عن طريق الحق، وقد بلغوا حدّاً من التمرد والعناد لا يرجى معه صلاح، فلو أنهم ردوا في الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم.

ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر، فما خضعوا ولا انقادوا لربهم ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه، بل استمروا في غيهم وضلالهم، كما قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ما لم يكونوا

(١) المراغي.

يحتسبون أيسوا من كل خير، وانقطع رجاؤهم من كل راحة وسعادة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر(1) إعراض المشركين عن سماع الأدلة ورؤية العبر، والتأمل في الحقائق.. أردف ذلك الامتنان على عباده، بأنه قد أعطاهم الحواس من السمع والبصر وغيرهما، ووفقهم لاستعمالها، وكان من حقهم أن يستفيدوا بها، ليتبين لهم الرشد من الغي، لكنها لم تغن عنهم شيئاً، فكأنهم فقدوها، كما قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثم ساق أدلة أخرى على وجوده وقدرته، فبين أنه أوجدهم من العدم، وأن حشرهم إليه، وأنه هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وأنه هو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، أفلا عقل لكم تتأملون به فيما تشاهدون.

وعبارة أبي حيان هنا: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ...﴾ إلخ. مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما بين إعراض الكفار عن سماع الأدلة ورؤية العبر، والتأمل في الحقائق.. خاطب - قيل: المؤمنين - والظاهر العالم بأسرهم، تنبيهاً على أن من لم يعمل هذه الأعضاء في ما خلقه الله تعالى، وتدبر ما أودعه فيها، من الدلالة على وحدانيته، وباهر قدرته، فهو كعادم هذه الأعضاء. انتهى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر(2) أدلة التوحيد المبثوثة في الأكوان والأنفس، والتي يراها الناس في كل آن، أعقبها بذكر البعث والحشر، وإنكار المشركين لهما، وترددادهم مقالة من سبقهم، من الكافرين الجاحدين في استبعادهما والتكذيب بحصولهما.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

---

(1) المراغي.
(2) المراغي.

لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى، لما ذكر[١] شبهات المشركين في أمر البعث والحساب والجزاء وأحوال النشأة الآخرة.. عقب ذلك بذكر الأدلة التي تثبت تحققه، وأنه كائن لا محالة.

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ...﴾ الآيتين. مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر[٢] أن المشركين كاذبون في إنكار البعث والجزاء، وفي مقالتهم إن القرآن أساطير الأولين.. قفى على ذلك بيان أنهم كاذبون في أمرين، اتخاذ الله للولد، وإثبات الشريك له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سبب[٣] نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به، ويفتخرون به، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾. سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه النسائي والحاكم عن ابن عباس قال: إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أنشدك بالله والرحم، لقد أكلنا الظهر ـ الوبر ـ والدم فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» بلفظ، أن ثمامة بن أثال الحنفي، لما أتى به النبي ﷺ، وهو أسير خلى سبيله، ثم أسلم فلحق بمكة، ثم رجع إلى اليمامة، فحال بين أهل مكة وبين المسيرة من اليمامة، فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز[٤]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فقال له: أنشدك بالله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

(٤) **العلهز**: شيء يتخذونه من الوبر ا هـ. روح البيان.

والأبناء بالجوع فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

ثم أضرب سبحانه عما سبق، وذكر أحوال الكفار فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: قلوب الكفرة ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾؛ أي: في غفلة غامرة؛ أي: ساترة لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي بين في القرآن، من أن لدينا كتاباً ينطق بالحق؛ أي: ديوان الحفظة الذي يظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد، فيجزون بها؛ أي[1]: بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها، عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو على الأمر الذي عليه المؤمنون، يقال: غمره الماء إذا غطاه، ونهر غمر يغطي من دخله. والمراد بها هنا: الغطاء أو الحيرة والعمي. وقد تقدم الكلام على الغمرة قريباً.

والمعنى: أي[2] بل قلوب المشركين في غفلة عن هذا القرآن، والاسترشاد بما جاء به، مما فيه سعاده الناس في دينهم ودنياهم، فلو قرؤوه وتدبروه لرأوا أنه كتاب ينطق بالحق والصدق، وأنه يقضي بأن أعمال المرء مهما دقت فهو محاسب عليها، وأن ربك لا يظلم من عباده أحداً. ثم ذكر جنايات أخرى لهم فوق جنايتهم السابقة، فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: وللكفار ﴿أَعْمَٰلٌ﴾ كثيرة خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي، من طعنهم في القرآن، وإقامة إمائهم في الزنا. ﴿هُمْ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَهَا﴾؛ أي: لتلك الأعمال ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ أي: معتادون فعلها، مستمرون عليها.

والمعنى: أي إن لهم أعمالاً أخرى أسوأ من ذلك، فقد أغرقوا في الشرك والمعاصي واتخذوا هذا الكتاب هزواً، وجعلوه سمرهم في البيت الحرام، يقولون فيه ما هو منه براء، يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وما هو إلا كلام شاعر، ويتقولون على من أرسل به، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، وأنه قد تعلمه من غيره من أهل الكتاب، وانغمسوا في عبادة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الأوثان والأصنام. ولقد تراهم إذا جاء البرهان الساطع أعرضوا عنه وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ وهذه الجملة غاية لأعمالهم المذكورة، ومقررة لما قبلها. وحتى هذه ابتدائية، وهي يبتدأ بعدها الكلام. والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة بعدها؛ أي[1]: لا يزالون يعملون أعمالهم الخبيثة إلى حيث إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الأخروي إذ هو الذي يفاجؤون عنده الخوار فيجابون بالرد والإقناط، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار. والمراد[2] بالمترفين المتنعمين منهم. وهم الذين أمدهم الله تعالى بما تقدم ذكره من المال والبنين. أو المراد بهم الرؤساء منهم. وقيل: المراد بالعذاب، هو عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبي ﷺ عليهم، حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف». والأول أظهر؛ لأن الجؤار إنما يقع عند عذاب الآخرة.

وجملة قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ جواب الشرط، وإذا هي الفجائية، والضمير راجع إلى المترفين؛ أي: إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا الصراخ بالاستغاثة؛ أي: يرفعون أصواتهم بها، ويتضرعون في طلب النجاة، فإن أصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع والدعاء. يقال: جأر الرجل إذا تضرع بالدعاء.

وتخصيص[3] المترفين بأخذ العذاب، ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم، وأيضاً إذا كان لقاؤهم هذه الحالة الفظيعة ثابتاً واقعاً، فما ظنك بحال الأصاغر والخدم.

وقال بعضهم: المراد بالمترفين المعذبين، أبو جهل وأصحابه، الذين قتلوا ببدر، والذين هم يجأرون أهل مكة، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رجع إليه ضمير

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

مترفيهم، وهم الكفرة مطلقاً.

والمعنى: أي حتى[1] إذا حل بهم بأسنا يوم القيامة، وحاق بهم سوء العذاب.. صاحوا صيحة منكرة، وقالوا: واغوثاه واسوء منقلباه، لشدة ما يرونه من الكرب والهول ولا سيما مترفوهم الذين انقلب أمرهم من النعيم إلى العذاب الأليم، وندموا حين لا ينفع الندم.

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيْمُ

ثم أبان أن الصريخ والعويل لا يجديهم نفعاً، فقال: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ فهو على إضمار القول، وتخصيص اليوم بالذكر، وهو يوم القيامة لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار؛ أي: فيقال لهم على وجه التبكيت والتقريع: لا تصرخوا اليوم، ولا تلتجئوا إلينا، ولا تستغيثوا بنا.

وجملة قوله: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار، والمعنى إنكم من عذابنا لا تمنعون، ولا ينفعكم جزعكم. وقيل المعنى: إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب.

والمعنى: أي قلنا لهم هيهات هيهات، قد فات ما فات، الآن لا يجديكم البكاء والعويل؛ فهذا وقت الجزاء على ما كسبت أيديكم، وقد حقت عليكم كلمة ربكم، ولا مغيث من أمره، ولا ناصر يحول بينكم وبين بأسه، ولا يخفى ما في ذلك من التهويل الشديد لذلك اليوم، وأنه لا يجدي فيه ضراعة، ولا استغاثة، ولا ينفع فيه ولي ولا نصير.

ثم عدد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم، وبياناً أن البكاء والصراخ لا ينفع شيئاً، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ التي هي القرآن ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؛ أي: وراءكم ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أي: ترجعون القهقرى، وتعرضون عن سماعها، وتنفرون عمن يتلوها.

---

(١) المراغي.

والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر الرجل، والنكوص الرجوع القهقرى؛ أي: معرضون عن سماعها أشد الإعراض فضلاً عن تصديقها والعمل بها.

والمعنى: أي[1] دعوا الصراخ، فإنه لا يمنعكم منا، واتركوا النصير، فإنه لا ينفعكم عندنا، فقد ركبتم شططاً، وجاءتكم الآيات والنذر، فأعرضتم عن سماعها فضلاً عن تصديقها، والعمل بها، وكنتم كمن ينكص على عقبيه موليّاً القهقرى نافراً مما يسمع ويرى. وعلى أعقابكم متعلق بـ﴿تَنكِصُونَ﴾، وهو استعارة عن الإعراض عن الحق، كما سيأتي.

وقرأ علي بن أبي طالب ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ بدل ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ وقرأ تنكُصون بضم الكاف.

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنكِصُونَ﴾، والضمير[2] في ﴿بِهِۦ﴾ راجع إلى البيت العتيق. وقيل: للحرم، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته، والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم وخدامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين. والمعنى عليه: فكنتم ترجعون عن آياتي على أدباركم حالة كونكم متعظمين بالبيت، ومفتخرين بالحرم وخدمته.

وقيل: الضمير عائد إلى الآيات، بمعنى الكتاب، وضمن الاستكبار معنى التكذيب، فعداه بالباء. والمعنى: فكنتم تنكصون عنها على أعقابكم، حالة كونكم مكذبين بكتابي، ومستكبرين عن الإيمان به. والمعنى: أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به.

قال ابن عطية: وهذا قول جيد، وقال النحاس: القول الأول أولى، وبينه بما ذكرنا، فعلى القول الأول: يكون (به) متعلقاً بمستكبرين. وعلى الثاني: يكون متعلقاً بـ﴿سَـٰمِرًا﴾؛ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن، والطعن فيه، وتسميته سحراً وشعراً وهو اسم جمع كالحاضر

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

في الإطلاق على الجمع. وقال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل؛ أي: يتحدثون فيه، فهو حال بعد حال من فاعل تنكصون، أو من الضمير في مستكبرين. والمعنى: وحالة كونكم سامرين ومتحدثين حول البيت في شأن القرآن.

ويجوز أن يتعلق ﴿بِهِۦ﴾ بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر بالفتح، وهو الهذيان، وهو حال أخرى؛ أي: وحالة كونكم تهذون في شأن القرآن وتسبونه، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم، وهو الفحش في المنطق، وفيه ذم لمن يسمر في غير طاعة الله تعالى. وكان عليه السلام يؤخر العشاء إلى ثلث الليل، ويكره النوم قبلها، والحديث بعدها. رواه مسلم عن أبي برزة الأسلمي.

ومعنى قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: تعرضون عن الإيمان مستعظمين بالبيت الحرام، تقولون: نحن أهل حرمه وخدام بيته، فلا يظهر علينا أحد، ولا نخاف أحداً، وتسمرون حوله، وتتخذون القرآن سلواكم والطعن فيه هجيراكم، تهذون فتقولون هو سحر، هو شعر، هو كهانة إلى آخر ما يحلو لكم أن تتقولوه.

والخلاصة: أنكم كنتم عن سماع آياتي معرضين مستعظمين بأنكم خدام البيت وجيرانه فلا تضامون، وتهذون في أمر القرآن، وتقولون فيه ما ليس فيه مسحة من الحق، ولا جانب من الصواب.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿سَٰمِرًا﴾ وابن مسعود وابن عباس وأبو حيوة وابن محيصن وعكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو: سمَّراً بضم السين وفتح الميم المشددة جمع سامر. وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي وأبو رجاء وأبو نهيك (سمارا) كذلك. وبزيادة ألف بين الميم والراء، جمع سامر أيضاً، وهما جمعان مقيسان، في مثل سامر وعاذل.

وقرأ الجمهور وابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي:

---

(١) البحر المحيط.

﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم. وروى ابن أبي عاصم: ﴿يهجرون﴾ بالياء بدل التاء على سبيل الغيبة. قال ابن عباس: تهجرون الحق وذكر الله، وتقطعونه من الهجر. وقال ابن زيد وأبو حاتم: من هجر المريض إذا هذى؛ أي: يقولون اللغو من القول. وقرأ ابن عباس وابن محيصن ونافع وحميد بضم التاء وكسر الجيم من أهجر الرباعي؛ أي: يقولون الهجر بضم الهاء وهو الفحش. قال ابن عباس إشارة إلى السب للصحابة وغيرهم. وقرأ ابن مسعود وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي وعكرمة وأبو نهيك وابن محيصن أيضاً وأبو حيوة ﴿يهجرون﴾ بضم الياء وفتح الهاء وتشديد الجيم من هجر المضاعف من الهجر بالفتح بمعنى مقابل الوصل، أو الهذيان، أو من الهُجر بضم الهاء، وهو السب والإفحاش في المنطق، يريد سبهم للنبي ﷺ، ومن اتبعه.

وعبارة «المراح»: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء؛ أي:[1] تسبون القرآن، وتسمونه سحراً وشعراً. وتهجرون بفتح التاء؛ أي: تتركون القرآن وتعرضون عنه، وكانوا يجتمعون حول الكعبة في الليل يتحدثون، وكان أكثر حديثهم ذكر القرآن، والطعن فيه، وتسميته سحراً وشعراً، وسب رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا يقولون: لا يعلو علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم كما مر.

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، وقوله: ﴿سَٰمِرًا﴾ وقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أحوال مترادفة من الواو في ﴿تَنكِصُونَ﴾ أو كل واحدة حال من ضمير ما قبلها، فتكون أحوالاً متداخلة، وسامراً اسم جمع كحاج وراكب وحاضر وغائب وباقر جمع البقر، وجامل جمع الجمل، فالكل يطلق على الجمع. اهـ. وفي «القرطبي» الحاضر هم القوم النازلون على الماء. اهـ.

ثم أنبهم سبحانه وتعالى وبيّن أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة الآتية:

الأول: ما ذكره بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: القرآن، فإنهم لو تدبروا

---

(١) المراح.

معانيه؛ لظهر لهم صدقه، وآمنوا به وبما فيه، والاستفهام فيه[1] لإنكار الواقع واستقباحه داخل على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعل الكفار ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر، فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة المدلول، والإخبار عن الغيب. أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به فضلاً عما فعلوا في شأنه من القبائح. والتدبر إحضار القلب للفهم، وفي «الجلالين» والاستفهام المصرح به في هذا الموضع والذي في ضمن (أم) في المواضع الثلاثة الآتية للتقرير؛ أي: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه؛ أي: وللتوبيخ، كما ذكره غيره، انتهى بتصرفٍ وزيادة من «الجمل».

والمعنى[2]: أي إنهم لم يتدبروا القرآن، فيعلموا ما خص به من فصاحة وبلاغة، وقد كان لديهم فسحة من الوقت، تمكنهم من التدبر فيه، ومعرفة أنه الحق من ربهم، وأنه مبرأ من التناقض، وسائر العيوب التي تعتري الكلام، إلى ما فيه من حجج دامغة وبراهين ساطعة، إلى ما فيه من فضائل الآداب وسامي الأخلاق، إلى ما فيه من تشريع إن هم اتبعوه.. كانوا سادة البشر، واتبعهم الأسود والأحمر، كما كان لمن اتبعه من السابقين الأولين من المؤمنين.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾؛ أي[3]: هل جاءهم من الكتاب وبعثة الرسل ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كأسماعيل عليه السلام، وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحرث بن كعب وأسد بن خزيمة وتميم بن مرة وتبع وضبة بن آد، فكلهم آمنوا بالله تعالى وكتبه ورسله، فإن مجيء الكتاب من الله تعالى إلى الرسل عادة قديمة له تعالى، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه.

وأم فيه منقطعة، مقدرة ببل[4]، التي للإضراب الانتقالي عن التوبيخ، بما ذكر إلى التوبيخ بأمر آخر، وبالهمزة التي لإنكار الواقع؛ أي: بل أجاءهم من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكارها وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه؟.

والخلاصة[1]: أي أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر لم تسبق به السنن من قبلهم، فاستبعدوا وقوعه، لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى، وتظهر على أيديهم المعجزات، فهلا كان ذلك داعياً لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذي جاء بذلك الكتاب الذي لا ريب فيه.

وقيل المعنى[2]: أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين، كإسماعيل ومن بعده.

الثالث: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال من التوبيخ، بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر. والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً؛ أي: بل ألم يعرفوه ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم، مع عدم التعليم من أحد؛ إلى غير ذلك من صفات الأنبياء. ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون بنبوته، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك. فحيث انتفى عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ظهر بطلان إنكارهم؛ لأنه مترتب عليه.

والخلاصة: أي[3] أم أنهم لم يعرفوا رسولهم بأمانته وصدقه وجميل خصاله قبل أن يدعي النبوة، كلا إنهم لقد عرفوه بكل فضيلة وشهر لديهم باسم (الأمين). فكيف ينكرون رسالته، ولقد قال جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للنجاشي: إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه، ونعرف صدقه وأمانته. وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانوا بعد كفاراً لم يسلموا.

والرابع: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهذا أيضاً[4] انتقال من

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

توبيخ إلى توبيخ؛ أي: بل أيقول المشركون: بمحمد ﷺ جنون، ويقولون: إنما حمله على ادعائه الرسالة جنون، فلا يدري ما يقول، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة. ولكنه جاء بما يخالف هواهم، فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية.

ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول، بل جاءهم الرسول متلبساً بالحق والصدق الثابت، الذي لا ميل عنه، ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، فما هو إلا توحيد الله وما شرعه لعباده مما فيه سعادة البشر، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ من حيث هو حق؛ أي: حق كان لا لهذا الحق فقط، كما ينبىء عنه الإظهار في موضع الإضمار. ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، لما ران على قلوبهم من ظلمات الشرك، والإسراف في المعاصي والآثام.

وظاهر[1] النظم القرآني أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكارهين له، وفي «فتح الرحمٰن» فإن قلت: كيف[2] قال: ذلك - مع أنهم كلهم كانوا كارهين للتوحيد -؟ قلت: كان منهم من ترك الإيمان به أنفةً وتكبراً من توبيخ قومهم لئلا يقولوا: ترك دين آبائه لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب:

فَـوَٱللَّـهِ لَـوْلاَ أَنْ أَجِـيْءَ بِـسُـبَّـةٍ   تَجُـرُّ عَلَـىٰ أَشْيَـاخِـنَـا فِـيْ ٱلْقَـبَـائِـلِ
إِذاً لاَتَّـبَـعْـنَـاهُ عَـلَـىٰ كُـلِّ حَـالَـةٍ   مِـنَ ٱلدَّهْـرِ جِـدّاً غَـيْـرَ قَـوْلِ ٱلتَّـخَـاذُلِ

ثم بيّن سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي إلى الفساد العظيم، فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور[3]: على كسر الواو لالتقاء الساكنين، وابن وثاب بضمها تشبيهاً بواو الضمير، كما كسرت واو الضمير تشبيهاً بها. ا هـ. «سمين»؛ أي:

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) الفتوحات.

ولو اتبع ووافق الحق الذي كرهوه، ومن جملته ما جاء به عليه السلام من القرآن. ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: مشتهيات الكفرة، بأن جاء القرآن موافقاً لمراداتهم، فجعل موافقته اتباعاً على التوسع والمجاز ﴿لَفَسَدَتِ﴾ وخربت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، وقرأ ابن مسعود ﴿وما بينهما﴾ من الملائكة والإنس والجن، وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية؛ لأن مناط النظام وما به قوام العالم، ليس إلا الحق الذي من جملته الإسلام والتوحيد والعدل، ونحو ذلك. قال بعضهم[1]: لولا أن الله أمر بمخالفة النفوس ومباينتها لاتبع الخلق أهواءهم وشهواتهم، ولو فعلوا ذلك، لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله تعالى، وأعرضوا عن طاعته ولزموا مخالفته، والهوى يهوي بمتابعيه إلى الهاوية، انتهى. واعلم أن سبب[2] فساد المكلفين من بني آدم ظاهر، وهو ذنوبهم التي من جملتها الهوى المخالف للحق، وأما فساد ما عداهم، فعلى وجه التبع؛ لأنهم مدبرون في الغالب بسبب العقول فلما فسدوا.. فسدوا.

والمعنى[3]: أي ولو سلك القرآن طريقهم، بأن جاء مؤيّداً للشرك بالله، واتخاذ الولد تعالى الله عن ذلك وزين الآثام واجتراح السيئات.. لاختل نظام العالم كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ولو أباح الظلم وترك العدل.. لوقع الناس في هرج ومرج، ولوقع أمر الجماعات في اضطراب وفساد، والمشاهد في الأمم التي يفشو فيها التخاذل والذلة والمسكنة يؤول أمرها إلى الزوال، ولو أباح العدوان واغتصاب الأموال، وأن يكون الضعيف فريسة للقوي لما استتب أمن ولا ساد نظام، وحال العرب قبل الإسلام شاهد صدق على ذلك.

ولو أباح الزنا لفسدت الأنساب، وما عرف والد ولده، فلا تتكون الأسر ولا يكون من يعول الأبناء، ولا من يبحث لهم عن رزق، فيكونون شرداً في الطرق لا مأوى لهم، ولا عائل يقوم بشؤونهم، وأكبر برهان على هذا ما هو

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

حادث في أوروبا الآن، من وجود نسل بازدواج غير شرعي، مما تئن منه الأمم والجماعات، إلى نحو ذلك، مما هو ظلم وعدوان، وبعد أن أنبهم سبحانه على كراهتهم للحق، شنع عليهم بإعراضهم عما فيه الخير لهم، وهو يخالف ما جبلت عليه النفوس من الرغبة في ذلك، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذي يقوم به العالم إلى تشنيعهم بالإعراض عما فيه فخرهم وشرفهم، وهو القرآن المعبر عنه بالذكر؛ أي: بل جئناهم بالقرآن الذي فيه ذكرهم وفخرهم وشرفهم، الذي يجب عليهم أن يقبلوه ويقبلوا عليه أكمل إقبال؛ أي: كيف يكرهون الحق مع أن القرآن أتاهم بتشريفهم وتعظيمهم، فاللائق بهم الانقياد.

وفي «التأويلات النجمية»: بل أتيناهم بما فيه لهم صلاح في الحال، وذكر في المآل ﴿فَهُمْ﴾ مع ذلك بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾؛ أي: عن صلاح حالهم وشرف مآلهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، لا عن غير ذلك مما لا يحسن الإقبال عليه، والاعتناء به من أهوائهم. ونسبة الإتيان الحقيقي إلى الله لا تصح، وإنما هو مجاز؛ أي: بل آتاهم كتابنا أو رسولنا.

والمعنى[1]: بل جئناهم بالقرآن، الذي فيه فخرهم وشرفهم، فأعرضوا عنه ونكصوا على أعقابهم وازدروا به، وجعلوه هزواً وسخريةً، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بل أتينهم﴾ بنون العظمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويونس عن أبي عمرو ﴿بل أتيتهم﴾ بتاء المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى أيضاً وأبو البرهشيم وأبو حيوة والجحدري وابن قطيب وأبو رجاء (بل أتيتهم) بتاء الخطاب للرسول ﷺ. وقرأ الجمهور ﴿بِذِكْرِهِم﴾؛ أي: بوعظهم،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

والبيان لهم، قاله ابن عباس. وقرأ عيسى ﴿بذكراهم﴾ بألف التأنيث. وقرأ قتادة ﴿نذكرهم﴾ بالنون والتشديد مضارع ذكر من التذكير. وتكون الجملة على هذه القراءة في محل نصب على الحال. وقرأ[1] ابن مسعود وأبي بن كعب وأبو رجاء وأبو الجوزاء ﴿بل آتيناهم بذكراهم فهم عن ذكراهم معرضون﴾ بألف فيهما.

ثم بيّن سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ، ليست مشوبة بأطماع الدنيا فقال: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ﴾ وأم هي المنقطعة، بمعنى همزة الإنكار التوبيخي، وبل التي للإضراب الانتقالي؛ لأنه انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم، أم يقولون به جنة إلى التوبيخ بوجه آخر. والمعنى: أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾؛ أي: جعلاً وأجراً تأخذه منهم، فتركوا الإيمان بك، وبما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ وثوابه ﴿خيرٌ﴾ لك، تعليل لنفي السؤال المستفاد من الإنكار؛ أي: لا تسألهم ذلك فإن رزق ربك الذي يرزقك في الدنيا، وأجره الذي يعطيكه في الآخرة خير لك مما ذكر لسعته ودوامه، ففيه استغناء لك من عطائهم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ أي: خير من أعطى عوضاً على عمل؛ لأن ما يعطيه لا ينقطع ولا يتكدر. وهذه الجملة مقررة لخيرة خراجه تعالى.

وفي «التأويلات النجمية»: فيه[2] إشارة إلى أن العلماء بالله الراسخين في العلم، لا يدنسون وجوه قلوبهم الناضرة بدنس الأطماع الفاسدة الصالحة الدنيوية والأخروية، فيما يعاملون الله في دعوة الخلق إلى الله، بالله، لله.

وفي «الفتوحات المكية» مذهبنا أن للواعظ أخذ الأجرة على وعظه الناس، وهو من أحل ما يأكله، وإن كان ترك ذلك أفضل، إيضاح ذلك: أن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الإجارة، فإنه ما من نبي دعا إلى الله إلا قال: إن أجري إلا على الله، فأثبت الأجر على الدعاء، ولكن اختار أن يأخذه من الله لا من المخلوق، انتهى.

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

وقرأ ابن كثير[1] ونافع وأبو عمرو وعاصم ﴿خرجا﴾ بغير ألف ﴿فَخَرَاجُ﴾ بألف وقرأ ابن عامر (خرجا فخرج) بغير ألف في الحرفين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿خراجا﴾ بألف ﴿فخراج﴾ بألف في الحرفين. وقرأ الحسن[2] وعيسى ﴿خراجاً﴾ بألف في الأولى ﴿فخرج﴾ بغير ألف في الثانية. فكملت بهذه القراءة أربع قراءات. والخرج: هو الذي يكون مقابلاً للدخل، فيقال: لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجاً. والخراج[3]: غالب في الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج المصدر، والخراج الاسم. قال النضر بن شميل: سألت عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج، فقال: الخراج ما لزمك، والخرج ما تبرعت به. وروى عنه أنه قال: الخرج من الرقاب، والخراج من الأرض. ففيه[4] إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقال في «تفسير المناسبات»: وكأنه سماه خراجاً إشارة إلى أنه أوجب رزق كل أحد على نفسه بوعد، لا خلف فيه.

وبعد أن فند سبحانه آراءهم.. أتبعها ببيان صحة ما جاء به الرسول، وأنه الحق الذي لا معدل عنه فقال: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: لتدعو هؤلاء المشركين من قومك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى ذلك الدين القيم الذي تشهد العقول السليمة باستقامته وبعده عن الضلال والهوى، والاعوجاج والزيغ. ثم بيّن سبحانه أن الذين ينكرون البعث هم في ضلالٍ مبين، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: بالبعث بعد الموت وبقيام الساعة ومجازاة الله عباده في الآخرة ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ المستقيم الذي تدعوهم إليه ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾؛ أي: لمائلون عادلون عنه، فإن الإيمان بالآخرة، وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق، وسلوك سبيله، وليس لهم إيمان وخوف حتى يطلبوا الحق، ويسلكوا سبيله، ففي الوصف بعدم الإيمان بالآخرة

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

إشعار بعلة الحكم.

والمعنى[1]: أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط، أو جنس الصراط لعادلون عنه.

ثم بيّن سبحانه أنهم مصرون على الكفر، لا يرجعون عنه بحال. فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا﴾؛ أي: أزلنا عنه ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾؛ أي: من سوء الحال، يعني: القحط والجدب الذي أصابهم وغلب عليهم، ﴿لَّلَجُّوا۟﴾؛ أي: لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وضلالهم حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتذبذبون في طغيانهم، ويتخبطون فيه. وأصل اللجاج التمادي في العناد، ومنه اللجّة بالفتح لتردد الصوت، ولجة البحر تردد أمواجه، ولجة الليل تردد ظلامه. وأصل[2] العمه: التردد في الأمر من التحير؛ أي: عامهين عن الهدى، مترددين في الضلالة، لا يدرون أين يتوجهون، كمن يضل عن الطريق في الفلاة، لا رأي له ولا دراية بالطريق.

والمعنى: أي ولو كشفنا عنهم ما أصابهم، من جوع وسائر مضار الدنيا، لتمادوا في ضلالهم، وهم متحيرون عن الهدى، لا يبصرون الحق. وقد كان الأمر كذلك. وقيل المعنى؛ أي: إنهم بلغوا في التمرد والعناد حداً لا يرجى معه صلاح لهم، ولو أنهم ردوا من الآخرة إلى الدنيا ولم ندخلهم النار.. لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم وتدنيسهم لأنفسهم. وهذا[3] القول بعيد، والظاهر أن هذا التعليق إنما يكون في الدنيا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. واللام فيه موطئة للقسم.

والعذاب[4] قيل: هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط، وقيل: المرض. وقيل: القتل يوم بدر، واختاره الزجاج. وقيل: الموت، وقيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أخذنا أهل مكة

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

بالعذاب الدنيوي وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر.

وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائده تنبيهاً لهم ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾؛ أي: ما خضعوا وتذللوا ﴿لربهم﴾؛ أي: بالانقياد الظاهري، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله، والانهماك في معاصيه. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: وما يخشعون لله بقلوبهم في الشدائد عند إصابتها لهم، ولا يدعونه لرفع ذلك، والظاهر أن آية ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ مع الآيتين بعدها مدنيات فإن إصابتهم بالقحط إنما كانت بعد خروجه ﷺ من بينهم، كما يدل عليه تفسير الشديد بقتلهم يوم بدر، وهذا إنما كان بعد الهجرة. اهـ. «جمل».

والمعنى: أي محناهم بكل[1] محنة من القتل والأسر، والجوع الذي هو أشد منهما. فما رؤي منهم لين انقياد وتوجه إلى الإسلام قط. وأما ما أظهره أبو سفيان من الشكوى، كما مر في أسباب النزول، فليس من الاستكانة له تعالى، والتضرع إليه تعالى في شيء، وإنما هو نوع خشوع إلى أن يتم غرضه، فجاء، كما قيل: إذا جاع ضغا، وإذا شبع طغى، وأكثرهم مستمرون على ذلك العناد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة ﴿إِذَا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط ﴿هُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: متحيرون آيسون من كل خير؛ أي: أكثرهم[2] مستمرون على ذلك العناد إلى أن يروا عذاب الآخرة، فحينئذٍ يبلسون كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ قال عكرمة: هو باب من أبواب جهنم عليه من الخزنة أربع مئة ألف، سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد قلعت الرحمة من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عليهم. نسأل الله العافية من ذلك، والمبلس: الآيس من الشر الذي ناله.

والمعنى: أي[3] حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، وأخذهم

---

(١) المرام.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون أيسوا من كل خير، وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم. وقرأ السلمي: ﴿مبلسون﴾ بفتح اللام من أبلسه؛ أي: أدخله في الإبلاس، وهو القنوط من رحمة الله تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿الَّذِيٓ أَنشَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم ﴿السَّمْعَ﴾ وهي: قوة في الأذن بها تدرك الأصوات، والفعل يقال له: السمع أيضاً، ويعبر تارة بالسمع عن الأذن. ﴿وَالْأَبْصَٰرَ﴾ جمع بصر، يقال: للجارحة الناظرة وللقوة فيها، ﴿وَالْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد وهو القلب. وخص هذه[1] الثلاثة بالذكر؛ لأن أكثر المنافع الدينية والدنيوية متعلق بها. والخطاب لجملة الخلق والمقصود به التقريع والتوبيخ بالنسبة للكافرين وتذكير النعم بالنسبة للمؤمنين.

والمعنى: وهو سبحانه هو الإله الذي أحدث لكم السمع لتسمعوا به الأصوات التي تخاطبون بها والمواعظ، والأبصار لتشاهدوا بها الأضواء والألوان والأشكال المختلفة، وتنظروا العبر، والعقول لتفهموا بها ما ينفعكم، وتتفكروا بها فيما يوصلكم إلى سعادة الدارين الدنيا والعقبى.

وخص[2] هذه الثلاثة بالذكر، لأنها طريق الاستدلال الحسي والعقلي لمعرفة الموجودات، وذكرها على هذا الترتيب لما أثبته الطب، أن الطفل في الأيام الثلاثة الأولى يسمع ولا يبصر، ثم يبدأ الرؤية بعدئذٍ، ومن الواضح تأخر العقل عن ذلك.

أي: وهو الذي أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة، فلم تنتفعوا بشيء منها لإصراركم على الكفر، وبعدكم عن الحق، ولم تشكروه على ذلك. ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي[3]: شكراً قليلاً حقيراً، غير معتدٍ به باعتبار تلك النعم الجليلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾، فـ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة.

وقيل المعنى: أنهم لا يشكرونه ألبتة. وقد كان ينبغي أن يشكروه عليها في

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

كل حين، لا أن لهم شكراً قليلاً، كما يقال لجاحد النعمة: ما أقل شكره؛ أي: لا يشكر.

وفي «العيون»: لم تشكروه لا قليلاً ولا كثيراً. وذلك لأن القلة ربما تستعمل في العدم، وهو موافق لحال الكفار، وشكر هذه النعم استعمالها في طاعة المنعم وعبوديته، فشكر السمع حفظه عن استماع المنهيات، وأن لا يسمع إلا لله، وبالله، وعن الله. وشكر البصر حفظه عن النظر إلى المحرمات، وأن ينظر بنظر العبرة لله، وبالله، وإلى الله، وشكر القلب تصفيته عن ريب الأخلاق الذميمة، وقطع تعلقه عن الكونين، فلا يشهد غير الله، ولا يحب إلا لله.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾؛ أي: خلقكم وبثكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالتناسل فيها. يقال: ذرأ الله الخلق؛ أي: أوجد أشخاصهم. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره؛ أي: إلى حكمه وقضائه وجزائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فما لكم لا تؤمنون به، ولا تشكرون له.

والمعنى: أي[1] وهو سبحانه الإله الذي خلقكم في الأرض، وبثكم فيها، على اختلاف أجناسكم ولغاتكم، ثم يجمعكم لميقات يوم معلوم في دار لا حاكم فيها سواه. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿الَّذِي يُحْيِي﴾؛ أي: يعطي الحياة النطف والتراب والبيض والموتى يوم القيامة. ﴿وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يأخذ الحياة من الأحياء من غير أن يشاركه في ذلك أحد. ولم يقل[2]: أحيا وأمات بصيغة الماضي، كما قال: أنشأكم وذرأكم، ولكن جاء على لفظ المضارع ليدل على أن الإحياء والإماتة سنته؛ أي: وهو الذي جعل الخلق أحياء بنفخ الروح فيهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً، ثم يميتهم بعد أن أحياهم، ثم يعيدهم تارة أخرى للثواب والعقاب. ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه خاصة ﴿اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ خلقاً وإيجاداً ازدياداً وانتقاصاً، أو مجيئاً وذهاباً، وهو المؤثر في تعاقبهما لا الشمس.

قال الفراء: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان، ويختلفان في السواد

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والبياض. وقيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر. وقيل: تكررهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة؛ أي: وهو الذي سخر الليل والنهار، وجعلهما متعاقبين، يطلب كل منهما الآخر طلباً حثيثاً، لا يملان ولا يفترقان، كما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ثم أنب سبحانه من ترك النظر في كل هذا، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتغفلون[1] عن تلك الآيات، فلا تعقلون بالنظر والتأمل، أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم الممكنات، وأن البعث من جملتها؛ أي: أفلا تتفكرون في هذه الموجودات، لتعلموا أن هذه صنع الإلٰه العليم، القادر على كل شيء، وأن كل شيء خاضع له تحت قبضته، دال على وجوده. وقرأ أبو عمرو في رواية ﴿يعقلون﴾ بيا الغيبة على الالتفات.

ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث، إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد، فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام؛ أي: لم يعقلوا تلك الآيات، بل قالوا؛ أي: كفار مكة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: كما قال من قبلهم من الكفار من قوم نوح، وهود وصالح وغيرهم في إنكار البعث مع وضوح الدلائل.

أي[2]: ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله، ولا تدبروا حججه الدالة على قدرته على فعل كل ما يريد، كإعادة الأجسام بالبعث، وحياتها حياة أخرى للحساب والجزاء، بل قالوا مثل مقالة أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها من قبلهم، تقليداً لهم دون برهان ولا دليل.

ثم بيّن ما قال الأولون فقال: ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي[3]: قال الأولون ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾؛ أي: أنبعث إذا متنا ﴿وَكُنَّا﴾؛ أي: صرنا ﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ قد بليت أجسامنا، وجردت عظامنا من لحومنا.. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من قبورنا أحياء كهيأتنا قبل

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

الممات؛ أي: لا نبعث، والاستفهام فيه للإنكار والتعجب، استبعدوا ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا، والعامل في (إذا) ما دل عليه (لمبعثون)، وهو نبعث؛ لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها، وقدم التراب على العظام مع كونه مؤخراً عنه لشدة استبعادهم له.

وفي الهمزتين في الموضعين التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين، وترك الإدخال عليهما، فالقراءات أربعة كلها سبعية. ا هـ. «شيخنا».

ثم أكّد كفار مكة هذا الإنكار بقولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾؛ أي: قال كفار مكة: لقد وعدنا ﴿نَحْنُ﴾ هذا الوعد الذي تعدنا به يا محمد، من البعث بعد موتنا، وصيرورتنا تراباً وعظاماً على لسانك ووعد ﴿آباؤنا هذا﴾؛ أي: مثل هذا الوعد الذي وعدتنا به من البعث بعد الموت ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل مجيئك إلينا، أو من قبل وجودنا على ألسنة قوم زعموا أنهم رسل الله تعالى، ثم لم يوجد ذلك الوعد مع طول العهد.

وفي المثل[1] إبهام، وفيما قاله الأولون إبهام، فبين الثاني بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلخ. وبيّن الأول بقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ الخ. فالأول؛ أي: قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلخ. مقول الأولين. وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ إلخ مقولهم؛ أي: مقول كفار مكة. ا هـ. «شيخنا».

ثم صرحوا بالتكذيب، وفروا إلى مجرد الزعم الباطل، فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا البعث الذي وعدتنا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأكاذيبهم التي سطروها في الكتب جمع أسطورة، كأحدوثة، والأساطير الأباطيل، والترهات والكذب؛ أي: ما هذا الذي تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب الأولين، قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظلّ من الحقيقة، ولا نصيب من الصحة.

فائدة: وقال هنا[2]: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ بتأخير هذا عن قوله:

---

(١) الفتوحات.
(٢) الفتوحات.

(نحن وآباؤنا)، وقال: في النمل: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ بتقديم هذا على نحن وآباؤنا، جريا هنا على القيام من تقديم المرفوع على المنصوب، وعكس ثم بياناً لجواز تقديم المنصوب على المرفوع، وخص ما هنا بتقديم المرفوع على المنصوب، الذي هو لفظ هذا، جرياً على الأصل بلا وجود مقتض لخلافه، وخص ما هناك بتقديم المنصوب، اهتماماً به من منكري البعث، فكأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً من سائر الأنبياء، ثم لم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في الدنيا، ثم قالوا: لما لم يكن ذلك فهو من أساطير الأولين. ا هـ. «كرخي».

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف بها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات، عبر بمن تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً ما فأخبروني بخالقهما، فإن ذلك كاف في الجواب، وفيه[1] من البالغة في الاستهانة بهم وفي تجهيلهم ما لا يخفى.

والمعنى: قل أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك، لمن ملك السمٰوات والأرض، ومن فيها من الخلق إن كنتم من أهل العلم بذلك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: إنهم سيقرون بأنهما لله تعالى ملكاً وخلقاً، وتدبيراً، دون غيره؛ لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها، وهذا إخبار من الله بما يقع منهم في الجواب قبل وقوعه.

ثم أمر رسوله أن يرغبهم في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتقولون ذلك، وتنكرون البعث: فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداءً.. قادر على إعادتها ثانياً، فإن البدء

(١) روح البيان.

ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس، في قياس العقول.

والمعنى: قل لهم أيها الرسول، حين يعترفون بذلك موبخاً لهم، أفلا تتدبرون، فتعلموا أن من قدر على خلق ذلك ابتداء، فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم، وإعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ترقى[1] في الأمر بالسؤال، من الأدنى والأصغر إلى الأعلى والأكبر، فإن السماوات والعرش أعظم ممن في الأرض، ولا يلزم منه أن يكون من في السمٰوات، أجل ممن في الأرض، حتى تكون الملائكة أفضل من جنس البشر، كما لا يخفى.

وقرأ ابن محيصن العظيم برفع الميم نعتاً للرب. ﴿سَيَقُولُونَ﴾ هما لله الذي له كل شيء، وهو رب ذلك، ليس لهم جواب غيره. وأتى باللام نظراً إلى معنى السؤال، فإن قولك من ربه، ولمن هو في معنى واحد، يعني إذا قلت من رب هذا، فمعناه لمن هذا، فالجواب لفلان.

﴿قُلْ﴾ لهم توبيخاً ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه بالعمل، بموجب العلم، حيث تكفرون به، وتنكرون البعث، وتثبتون له شريكاً في الربوبية، وفي «فتح الرحمٰن»: إنما قال هنا بلفظ ﴿لِلَّهِ﴾ وفيما بعد بلفظ الله مرتين؛ لأنه في الأول وقع في جواب مجرور باللام في قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ فطابقه بجره اللام، بخلاف ذلك في الأخيرين، فإنهما إنما وقعا في جواب مجرد عن اللام، انتهى.

وقدم التذكر على التقوى؛ لأنهم بالتذكر يصلون إلى المعرفة، وبعد أن عرفوه علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته؛ أي: قل لهم منكراً وموبخاً: أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقاب ربكم، فتنكروا ما أخبر به من البعث.

---

(١) روح البيان.

وقرأ أبو عمرو وأهل العراق[1]: ﴿سيقولون الله﴾ بغير لام، نظراً إلى لفظ السؤال، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور، أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام دون ألف، وهكذا قرأ الجمهور في قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال أيضاً.

وبعد أن قررهم بأن العالمين العلوي والسفلي ملك له تعالى، أمره أن يقررهم بأن له تدبير شؤونهما وتدبير كل شيء، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ذكر، ومما لم يذكر؛ أي: ملكه التام، فإن الملكوت الملك، والتاء للمبالغة. قال الراغب: الملكوت مختص بملك الله تعالى. ا هـ.

واليد صفة ثابتة له تعالى نثبتها ونعتقدها، ولا نكيفها، ولا نمثلها. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾؛ أي: يغيث غيره إذا شاء ويحفظه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ولا يغاث عليه أحد؛ أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه؛ أي: لا يمنع أحد أحداً من عذاب الله، ولا يقدر على نصره وإغاثته، وتعديته بعلى لتضمين معنى النصرة، يقال: أجرت فلاناً، إذا استغاث بك، فحميته، وأجرت عليه إذا حميت عنه.

وفي «التأويلات النجمية»: وهو يجير الأشياء من الهلاك بالقيومية، ولا يجار عليه؛ أي: لا مانع له ممن أراد هلاكه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فأجيبوني. **والمعنى**؛ أي[2]: قل لهم: من المالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء، وفي قبضته وتحت سلطانه وتصرفه كل شيء، وهو يغيث من يشاء، فيكون في حرز لا يقدر أحد على الدنو منه، ولا يغاث أحد، ولا يمنع منه؛ لأنه ليس في العوالم كلها ما هو خارج عن قبضته.

والخلاصة: أنه المدبر لنظام العالم جميعه، وهو الذي يغيث من شاء، ولا يستطيع أحد أن يغيث منه، ثم أجاب عن هذا السؤال قبل أن يجيبوا، فقال:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ لك في الجواب ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لله سبحانه ملكوت كل شيء دون غيره، وهو الذي يجير ولا يجار عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد على طريق التوبيخ والاستهجان ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؛ أي: فكيف تخدعون، وتصرفون عن توحيد الله وطاعته مع علمكم به، فأنتم بعبادة الأصنام، أو بعض البشر قد سحرت عقولكم، كأنما غابت عن رشدها، واعتراها الذهول، فتصورت الأشياء على غير ما هي عليها، فإن من لا يكون مسحوراً مختلاً عقله، لا يكون كذلك، والخادع هو الشيطان، أو الهوى، أو كلاهما.

والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً، والصحيح فاسداً، والمراد بالسحر التخيل والتوهم، لا حقيقته. وقد ثبت بالتجربة أن تكرار الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير الحق حقاً، وتتوهم صدق ما يقال، وإن كان باطلاً، ومن ثم كثرت المذاهب الإسلامية، وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب والنظم ما خدعوا به عقول الشعوب في دينهم ودنياهم.

وقرأ أبو عمرو[1]: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الأخيرتين من غير لام جر مع رفع الجلالة، جواباً على اللفظ، لقوله من؛ لأن المسؤول به مرفوع المحل، وهو من، فجاء جوابه مرفوعاً. وقرأ الباقون: ﴿لِلَّهِ﴾ باللام في الأخيرتين، وهو جواب على المعنى؛ لأن التقدير في الموضع الأول منهما: قل من له السماوات السبع والعرش، وفي الثاني: قل من له ملكوت كل شيء، فلام الجر مقدرة في السؤال، فظهرت في الجواب نظراً للمعنى. وأما جواب السؤال الأول، فهو لله باللام، باتفاق السبعة؛ لأنها قد صرح بها في السؤال.

ثم بيّن سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾ وجئناهم على لسان رسولنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر الحق، الواضح، الذي يحق ويجب اتباعه، وهو التوحيد والوعد بالبعث. وقرىء: ﴿بل أتيناهم﴾ بتاء المتكلم، وابن أبي إسحاق بتاء الخطاب.

---

(١) المراح.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن هؤلاء المشركين ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، وفي إنكار البعث. والمعنى؛ أي[1]: ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من قولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، بل جئناهم فيه بالدين الحق الذي فيه سعادة البشر، وإنهم لكاذبون في إنكار ذلك، لا أن عقولهم قد سحرت بخداع الآباء، وتكرار القول، وحكم العادة، وهي طبيعة ثانية.

وقد بيّن[2] أنهم أصروا على جحودهم، وأقاموا على عتوهم ونبوهم بعد أن أزيحت العلل، فلات حين عذر، وليس المساهلة موجب بقاء، وقد انتقم الله منهم، فإنه يمهل ولا يهمل. قال سقراط أهل الدنيا كسطور في صحيفة، كلما نشر بعضها طوي بعضها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة، وليأتين عليها مئون من سنين ليس عليها موحدون يعني عند آخر الزمان، فكل من السعيد والشقي، لا يبقى على وجه الأرض، فيموت ثم يبعث فيجازى.

ثم نفى سبحانه عن نفسه شيئين:

١ - ﴿مَا اتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول النصارى، والقائلون إن الملائكة بنات الله؛ لأنه لم يجانس أحداً، ولم يماثله أحد حتى يكون له من جنسه وشبهه صاحبة، فيتوالدا، وأيضاً إن الولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين، والله غني عن كل شيء.

٢ - ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُمْ﴾ تعالى ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الأولوهية، لا قبل خلق العالم، ولا حين خلقه له، ولا بعد خلقه، كما يقول عبدة الأصنام وغيرهم. و(من) في الموضعين زائدة لتأكيد النفي.

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدد الآلهة، فقال:

١ - ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وإذا في أصلها حرف جواب وجزاء، وهنا

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بمعنى لو الشرطية؛ أي: لو كان معه تعالى آلهة أخرى كما يقولون لذهب كل إلٰه؛ أي: لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين؛ أي: لو قدر تعدد الآلهة.. لانفرد كل منهم بما خلق، إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة غيره، فكان يحصل التباين في نظم الخلق والإيجاد، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون، والمشاهد أنه منتظم متسق، وهو الغاية في الكمال، كما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

٢ - ﴿ولـ﴾ وقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب و﴿علا بعضهم﴾؛ أي: ولغلب بعضهم ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: ولغلب القوي منهم الضعيف، وقهره وأخذ ملكه كعادة ملوك الدنيا، وإذا لم تروا أثراً للتحارب والتغالب، فاعلموا أنه إلٰه واحد، بيده ملكوت كل شيء، وإلٰه ترجعون.

وبعد أن وضح الحق، وصار كفلق الصباح، جاء بما هو كالنتيجة لذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ه، ويضيفونه إليه تعالى من الأولاد والشركاء؛ أي: تنزه ربنا وتقدس عما يقوله الكافرون، من أن له ولداً أو شريكاً، أو نزهوه تنزيهاً، وقرىء: ﴿عما تصفون﴾ بتاء الخطاب.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم السر والعلانية، بالجر على أنه بدل من الجلالة، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو سبحانه وتعالى العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء، فلا يرونه، ولا يشاهدونه، وبما يرونه ويبصرونه؟.

والمراد(١): أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا، فإنهم يقولون عن غير علم، وأن الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها، ولاتخفى عليه خافية من أمرهما قد نفى ذلك، فخبره هو الحق دون خبرهم.

وقرأ الإبنان(٢) - ابن كثير وابن عامر - وأبو عمرو وحفص: ﴿عالم﴾ بالجر

(١) المراغي.　　(٢) البحر المحيط.

صفة للجلالة وقرأ باقي السبعة، وابن أبي عبلة وأبو حيوة وأبو بحرية بالرفع. قال الأخفش: الجر أجود؛ ليكون الكلام من وجه واحد. وقال ابن عطية: الرفع عندي أبرع، والغيب ما غاب عن الناس، والشهادة ما شاهدوه.

ثم إن الغيب بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إليه تعالى، فهو عالم به وبالشهادة على سواء، وهو دليل آخر على انتفاء الشريك، بناءً على توفقهم في تفرده تعالى بذلك، ولذلك رتب عليه بالفاء في قوله: ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ الله وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به مما لا يعلم شيئاً من الغيب، ولا يتكامل عليه بالشهادة، فإن تفرده بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك؛ أي: تقدس عما يقول الجاحدون والظالمون. و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ عاطفة على محذوف معلوم من السياق، فكأنه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته؛ أي: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول؛ أي: أقول فتعالى الله. والمعنى: أنه سبحانه متعالٍ عن أن يكون له شريك في الملك. والله أعلم.

الإعراب

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب[1] للانتقال إلى أحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ الخ. والجمل التي بينهما وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ اعتراض في خلال الكلام، المتعلق بالكفار ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾: خبر. ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿غَمْرَةٍ﴾؛ أي: كائنة من هذا الذي وصف به المؤمنون، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَعْمَٰلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿أَعْمَٰلٌ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَٰمِلُونَ﴾ ﴿عَٰمِلُونَ﴾: خبرهم؛ أي: مستمرون عليها، ومعنى من دون

(١) الفتوحات.

ذلك؛ أي: متجاوزة متخطية لما وصف به المؤمنون، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لأعمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء يبدأ بها الكلام. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه وهو يجأرون، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب. ﴿أَخَذۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿أَخَذۡنَا﴾. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إذا﴾ الثانية: فجائية، قائمة مقام فاء الجزاء في الربط، حرف لا محل لها من الإعراب، كأنه قيل: فهم لا يجأرون على حد قوله. وتخلف الفاء إذا المفاجأة. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾: خبره، والجملة الإسمية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر،وغاية. وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية: في محل الجر بها، والتقدير: لا يزالون يعملون أعمالهم الخبيثة، إلى مفاجأة جؤارهم وقت أخذنا إياهم بالعذاب الشديد.

﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَجۡـَٔرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَجۡـَٔرُواْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: لا تجأروا اليوم. ﴿إِنَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿مِّنَّا﴾: جار ومجرور متعلق بتنصرون. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تُنصَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة إن مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي المذكور قبلها. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر فيه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتۡلَىٰ﴾: في محل النصب خبر (كان)، وجملة (كان) مستأنفة. ﴿فَكُنتُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كنتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾:

جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَنكِصُونَ﴾، وجملة ﴿نَنكِصُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة (كان) الأولى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾: حال أولى من فاعل ﴿نَنكِصُونَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: بسببه، والضمير للحرم أو للبيت، أو الضمير عائد إلى القرآن. وبه بمعنى فيه متعلق بسامرا. ﴿سَٰمِرًا﴾: حال ثانية من فاعل ﴿نَنكِصُونَ﴾ أيضاً. وجملة ﴿تَهْجُرُونَ﴾: حال ثانية منه أيضاً، فالثلاثة: إما أحوال مترادفة من الواو في ﴿نَنكِصُونَ﴾، أو متداخلة؛ أي: كل واحدة حال مما قبلها. ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعل الكفار ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر. ﴿فلم يدبروا﴾: ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يدبروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أم﴾ عاطفة بمعنى بل الانتقالية. وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل أجاءهم. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿جاء﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿لم يدبروا﴾. ﴿لَمْ يَأْتِ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّا﴾. ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾، وجملة ﴿يَأْتِ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف، بمعنى بل الانتقالية، وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل ألم يعرفوا. ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول معطوف على جملة ﴿لم يدبروا﴾: ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿له﴾: متعلق بمنكرون. ﴿مُنكِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل أيقولون. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿لم يدبروا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿جِنَّةٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الإبطالي. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل جاء؛ أي: بل جاءهم محمد حال كونه ملتبساً بالحق. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿أكثرهم﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿كَٰرِهُونَ﴾. ﴿كَٰرِهُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير المفعول في ﴿جَآءَهُم﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية فعل شرط لـ(لو). ﴿لَفَسَدَتِ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿فسدت﴾: فعل ماض. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف عليه، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على السموات ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾: متعلق بأتيناهم، والجملة مستأنفة ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: عاطفة بمعنى بل الانتقالية. وهمزة الاستفهام التوبيخي الإنكاري؛

أي: بل أتسألهم. ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿خَرْجًا﴾: مفعول ثان والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، وما بينهما اعتراض. ﴿فَخَرَاجُ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿خراج﴾: مبتدأ. ﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجر، معللة لنفي السؤال المستفاد من الإنكار؛ أي: لا تسألهم ذلك؛ لأن خراج ربك خير. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَإِنَّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف نصب. و(الكاف): اسمها: ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿تدعوهم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ متعلق بتدعوهم. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة (صراط).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾: متعلق بناكبون. ﴿لَنَاكِبُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ناكبون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية: ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿رَحِمْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَشَفْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿رحمنا﴾. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به. ﴿بِهِم﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾؛ أي: ما نزل بهم من القحط والجدب. ﴿مِّن ضُرٍّ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿لَّلَجُّوا﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿لجوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: متعلق به، أو بـ﴿يَعْمَهُونَ﴾. والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿لجوا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾. ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿أخذنا﴾. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على أخذنا. ﴿لِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة التي يبتدأ بها. وقيل: هي حرف جر وغاية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، والشرط متعلق بالجواب الآتي، أعني قوله: ﴿مُبْلِسُونَ﴾. ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿بَابًا﴾: مفعول به. ﴿ذَا عَذَابٍ﴾: صفة لـ﴿بَابًا﴾، ومضاف إليه. ﴿شَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿إذا﴾: فجائية، قائمة مقام الفاء في ربط الجواب. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُبْلِسُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب لـ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، وقيل: جملة إذا في محل الجر بحتى، على أنها جارة متعلقة بـ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾، والتقدير: فما استكانوا لربهم وما يتضرعون إلى إبلاسهم من رحمتنا، وقت فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو الذي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنشَأَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: معطوفات عليه، والجملة صلة الموصول. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، وهو المفعول المطلق حقيقة، تقديره: شكراً قليلاً. ﴿مَّا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد القلة المفادة بالتنكير بمعنى حقاً. ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل

وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من ضمير المخاطبين، تقديره: وهو الذي أنشأ لكم هذه الأعضاء، حالة كونكم شاكرين له شكراً قليلاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ﴾ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ذَرَأَكُمْ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على جملة الصلة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: وهو الذي أنشأ لكم. ﴿يُحْىِۦ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف على (يحيي). ﴿وَلَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على الليل، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتغفلون عن تلك الآيات فلا تعقلون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب انتقالي. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿مِثْلَ﴾: منصوب على المفعولية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف هو المفعول المطلق أصالة. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة ما المصدرية، وجملة ما المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر مجرور بإضافة مثلي إليه. والتقدير: بل قالوا قولاً مثل قول الأولين، والجملة الفعلية معطوفة على محذوف، يقتضيه المقام، والتقدير: لم يعقلوا تلك الآيات السابقة، بل قالوا مثل ما قال الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَءِذَا﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري الاستبعادي داخلة على محذوف معلوم من جواب إذا. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذا

إليها. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿وَعِظَامًا﴾: معطوف على ﴿تراباً﴾، وجملة كان معطوفة على جملة متنا، وجملة متنا في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، لكونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بمحذوف، معلوم من الجواب، لا بالجواب؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها، كما سبق. ﴿أَءِنَّا﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري التعجبي. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾: (اللام): للابتداء. ﴿مبعوثون﴾: خبر ﴿إن﴾: وجملة ﴿إن﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿وُعِدْنَا﴾: فعل ونائب فاعل والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول قالوا. ﴿نَحْنُ﴾: تأكيد لضمير النائب ليصح العطف عليه. ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾: معطوف على ضمير النائب. ﴿هَٰذَا﴾: مفعول ثان لوعدنا. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿وعدنا﴾. ﴿إن﴾: نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الإسمية في محل النصب مقول (قالوا).

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وضمير مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَنِ﴾: (اللام): حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر، مقدم وجوباً. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول، في محل الرفع معطوف على الأرض. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور، صلة (من) الموصولة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب، خبر (كان) وجواب

﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك، فأخبروني بخالقهما، وفي هذا تلويح بغباوتهم. ﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة للإخبار من الله تعالى، عما يقع منهم، في الجواب قبل وقوعه. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي كائنة، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. والتقدير: أتقولون ذلك وتنكرون البعث. ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلسَّبْعِ﴾: صفة لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: معطوف على ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالجر: صفة للعرش، وبالرفع صفة لرب. ﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هما لله سبحانه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿سَيَقُولُونَ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على المحذوف، والتقدير: أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية خبر من الاستفهامية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُجِيرُ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، أو معطوفة على جملة (من) الاستفهامية. ﴿وَلَا يُجَارُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل له، والجملة معطوفة على جملة يجير. ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك، فأخبروني، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ملكوت كل شيء لله سبحانه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَنَّى﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ذلك، فأقول لكم: ﴿أنى تسحرون﴾. ﴿أنى﴾: اسم استفهام، بمعنى: كيف، في محل النصب على الحال من نائب فاعل ﴿تُسْحَرُونَ﴾. ﴿تُسْحَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿أَتَيْنَاهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق به، أو حال من فاعل ﴿أَتَيْنَاهُم﴾؛ أي: حالة كوننا متلبسين بالحق، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿أَتَيْنَاهُم﴾، أو في محل النصب حال من مفعول ﴿أَتَيْنَاهُم﴾. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول، و﴿ما﴾ نافية و﴿مِن﴾: زائدة. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا كَانَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف مكان ومضاف إليه خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: اسم كان مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل، قائم مقام لو الشرطية، المحذوفة مع فعل شرطها، تقديره: ولو كان معه آلهة أخرى. ﴿لَّذَهَبَ﴾: (اللام): رابطة لجواب الشرط المحذوف. ﴿ذهب كل إله﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ المحذوفة مع فعل شرطها، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه معطوفة، تعاطف مقدر على جملة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بذهب. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كل إله، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما خلقه. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿لَّذَهَبَ﴾، و(اللام): فيه لام الربط. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بعلا. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبح الله سبحاناً، أو سبحوا الله سبحاناً. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَانَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: عما يصفونه به، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: عن وصفهم. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بالجر: بدل من الجلالة، أو صفة له، وبالرفع خبر لمبتدأ محذوف. ﴿الْغَيْبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: معطوفة عليه. ﴿فَتَعَالَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف، كأنه قيل: علم الله الغيب فتعالى، والجملة مستأنفة. ﴿تعالى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾: ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد محذوف، تقديره: عما يشركون به، ويجوز أن تكون ما مصدرية؛ أي: عن إشراكهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾: الغمرة: الجهالة والضلالة، وفي الأصل: ماء يغمر قامة الإنسان. ﴿مُتْرَفِيهِم﴾: أي: أغنياءهم ورؤساءهم، جمع مترف، اسم مفعول من أترف الرباعي. ﴿يَجْأَرُونَ﴾؛ أي: يصيحون ويصرخون، ويبتهلون ويستغيثون

بربهم، ويلتجئون إليه في كشف العذاب عنهم، ومع ذلك لا ينفعهم، ولذلك قيل: لا تجأروا اليوم. وفي «القاموس» جأر: كمنع، جأراً وجؤاراً إذا رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث، وجأرت البقرة والثور، إذا صاحا، وجأر النبات إذا طال، وجأرت الأرض؛ إذا طال نبتها، والجؤار: من النبت الغض والكثير، والرجل الضخم. ا هـ.

وقال في «اللسان»: والأساس، الجؤار: الصراخ باستغاثة، ويقال: جأر الرجل، إذا صاح ورفع صوته.

﴿لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا تمنعون من عذابنا؛ أي: لا يجيركم أحد ولا ينصركم ﴿أَعْقَٰبِكُمْ﴾ جمع عقب، وهو مؤخر القدم، ورجوع الشخص على عقبه، رجوعه في طريقه الأولى، كما يقال: رجع على بدئه.

﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أي: تعرضون عن سماعها، وأصل النكوص الرجوع على الأعقاب؛ أي: ترجعون القهقرى؛ أي: إلى جهة الخلف، وهذه أقبح المشيات، وهذا كناية عن إعراضهم عن الآيات، وفي «المختار»، ما يدل على أنه من بابي جلس ودخل.

﴿سَٰمِرًا﴾ السامر: مأخوذ من السمر، وهو سهر الليل. وقال الراغب: قيل: معناه: سماراً. فوضع الواحد موضع الجميع، تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه. وقيل: بل السامر الليل المظلم، والسمر سواد الليل،ومنه قيل: للحديث بالليل سمر، وسمر فلان إذا تحدث ليلاً، وقيل: اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب، كما مر.

﴿تَهْجُرُونَ﴾: بفتح التاء وضم الجيم، مضارع هجر الثلاثي، من باب قتل، من الهجران وهو الترك، أو من هجر هجراً، إذا هذى وتكلم بغير معقول لمرض، أو لغيره؛ أي: تتكلمون في القرآن مالا ينبغي. وقرىء بضم التاء وكسر الجيم من أهجر إهجاراً، إذا أفحش في كلامه، يقال أهجر يهجر إهجاراً، كأكرم يكرم إكراماً، واسم المصدر الهجر بضم الهاء، وهو التكلم بالفحش.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ قال الراغب: التدبر: التفكر في دبر الأمور. ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ أي: جنون.

﴿خَرْجًا﴾؛ أي: أجراً وجعلاً، ويغلب في الخرج أن يكون مال العتق، وفي الخراج مال العقار، ونقيض الدخل. وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه. والوجه: أن الخرج أخص من الخراج.

ومعنى الآية: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير لك.

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾؛ أي: لعادلون عن طريق الرشاد، يقال: نكب عن الطريق إذا زاغ عنه، وكل من لا يؤمن بالآخرة فهو ناكب، وفي «المصباح» نكب عن الطريق نكوباً من باب قعد إذا عدل عنه ومال إليه غيره، والنكوب والنكب: العدول والميل، ومنه النكباء للريح بين ريحين، سميت بذلك؛ لعدولها عن المهاب، ونكبت حوادث الدهر؛ أي: هبت هبوب النكباء. اهـ. «سمين».

﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ في اللغة: الطريق، فسمي الدين طريقاً؛ لأنها تؤدي إليه تعالى. ﴿للجوا﴾ جواب لو، وقد توالى فيه لامان، وفيه تضعيف لقول من قال: إن جوابها إذا نفي بلم ونحوها مما صدر فيه حرف النفي باللام، أنه لا يجوز دخول اللام، فإذا قلت: لو قام زيد للم يقم عمرو لم يجز. قال ذلك القائل: لئلا يتوالى اللامان، وهذا موجود في الإيجاب كهذه الآية، ولم يمتنع، وإلا فما الفرق بين النفي والإثبات في ذلك. اهـ. «فتوحات». وفي «المصباح» لج في الأمر لججاً من باب تعب، ولجاجاً ولجاجة فهو لجوج ولجوجة، مبالغة إذا لازم الشيء وواظبه. وباب ضرب لغةٌ. اهـ.

﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان: مجاوزة الحد في الشيء، وكل مجاوز حده في الطغيان طاغ. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: في «المصباح» عمه في طغيانه عمها، من باب تعب إذا تردد متحيراً، وتعامه مأخوذ من قولهم أرض عمهاء إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النجاة، فهو عمه وأعمه. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ يقال: استكان؛ أي: انتقل من كون إلى كون، كاستحال إذا انتقل من حال إلى حال. وأصله استكون، نقلت

حركة الواو إلى ما قبلها، ثم قلبت ألفاً. هذا ما قاله علماء اللغة، ولكن اعترض بعضهم على هذا التنظير، وحجته أن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل الذي معناه التحول، كقولهم استحجر الطين استنوق الجمل. وأما استحال فثلاثية، حال إذا انتقل من حال إلى حال، وإذا كان الثلاثي يفيد التحول لم يبق لصيغة استفعل فيه أثر، فليس استحال من استفعل للتحول، ولكنه من استفعل بمعنى فعل، وهو أحد أقسامه إذا لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنىً، ثم نعود إلى تأويله، فنقول: المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله.

﴿مُبۡلِسُونَ﴾ في «المصباح» البلاس مثل سلام: المسح، وهو فارسي معرب، والجمع بلس بضمتين. مثل عناق وعنق، وأبلس الرجل إبلاساً سكت. وأبلس أيس، وفي التنزيل فإذا هم مبلسون. ا هـ. ومنه إبليس ليأسه من رحمة الله. ا هـ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ أي: لتحسوا بهما ما نصب من الآيات، وفيه تنبيه، على أن من لم يعمل هذه الأعضاء، فيما خلقت له.. فهو بمنزلة عادمها. ﴿ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خلقكم وبثكم فيها. ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما من قولهم: فلان يختلف إلى فلان؛ أي: يتردد عليه بالمجيء والذهاب. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ واحدها أسطورة، كأحدوثة وأعجوبة، قاله المبرد وجماعة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أصله تتذكرون، فقلبت التاء الثانية ذالاً فأدغمت الذال في الذال.

﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ والواو والتاء في الملكوت زائدتان: للمبالغة كزيادتهما في الرحموت والرهبوت والجبروت للمبالغة في الرحمة والرهبة والجبر. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ يقال: أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه إذا حميت عنه. ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾؛ أي: فكيف تخدعون وتصرفون عن الرشد.

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قال الراغب: شرك الإنسان في الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال: أشرك فلان

بالله، وذلك أعظم كفر.

والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وذلك كالرياء والسمعة والنفاق. وفي الحديث: «والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا» نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المنقطعين عما سواه. والعاملين بالله لله في الله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ حيث مثل إعراضهم عن الحق، بالرجوع القهقرى إلى الخلف، وذكر شيئاً من لوازمه وهو الإعقاب.

ومنها: تخصيص اليوم بالذكر في قوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة؛ لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾؛ لإنكار الواقع واستقباحه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾؛ للتأكيد والتشنيع عليهم.

ومنها: الجناس المماثل الناقص بين ﴿خَرْجًا﴾ و﴿فَخَرَاجُ﴾ وهو في غاية البلاغة، حيث ذكر الأول: في جانب عوضهم، والثاني: في جانب ما يعطيه الله سبحانه، فالخراج، أبلغ من الخرج بلا ألف؛ لأن الخرج يقال لما يدفع مرة، ولا يجب تكراره، والخراج بالألف يقال للملتزم الذي يجب تكراره، كخراج الأرض.

ومنها: التأكيد بالجملة القسمية في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ للشرطية

قبلها، أعني قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾.

ومنها: عطف المضارع على الماضي في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ لإفادة الماضي وجود الفعل وتحققه، وهو بالاستكانة أحق، بخلاف التضرع، فإنه أخبر عنهم بنفي ذلك في الاستقبال، وأما الاستكانة، فقد توجد منهم. ا هـ. «سمين».

ومنها: الامتنان بالنعم العظيمة عليهم في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ تذكيراً لهم.

ومنها: إفراد السمع دون الأبصار والأفئدة، في قوله المذكور لوحدة المسموع، وهو الصوت دون المبصرات والمفكرات أو لأنه مصدر في الأصل، والمصادر لا تجمع فلمح فيه إلى الأصل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

ومنها: التنكير إفادةً للتقليل في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ومنها: زيادة ما فيه تأكيداً للقلة المستفادة من التنكير، والمعنى: شكراً قليلاً، وهو كناية عن عدم الشكر.

ومنها: الفصل في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: قطع إحدى الجملتين عن الأخرى للاتحاد فقد فصل ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الخ. عما قبله لقصد البدل لكونه أوفى بالمقصود من الأول؛ لأن ما قال الأولون أقوال كثيرة، ولا يدرى أي قول يراد من تلك الأقوال، والأحسن أن يقال: إن أريد بقوله: مثل ما قال الأولون ما نقل عنهم من قولهم: أئذا متنا الخ. وهو الظاهر كان بدل كل من كل.

ومنها: الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها: حذف جواب الشرط ثقة بدلالة اللفظ عليه في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾.

ومنها: تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾؛ أي: ما اتخذ ولداً، وما كان معه إلٰه تأكيداً وتثبيتاً للنفي.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ
أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ
وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ
﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ
عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ
أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ
اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ
اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما لهم من مقالات السوء، كإنكار البعث والجزاء واتخاذ الولد، ووصف الله بما لا يليق، وكان كل هذا مما يدعو إلى استئصالهم وأخذهم بالعذاب.. أمر رسوله أن يدعوه، بأن لا يجعله قريناً

(١) المراغي.

لهم، فيما يحيق بهم من العذاب، ثم ذكر أنه قدير على أن يعجل لهم العذاب، ولكنه أخره ليوم معلوم، ثم أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو إحسان المرء إلى من يسيء إليه، حتى تعود عداوته صداقةً، وعنفه ليناً، كما قال:

أَحْسِنْ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ فَطَالَمَا ٱسْتَعْبَدَ ٱلإِنْسَانَ إِحْسَانُ

ثم أمره أن يستعيذ من حيل الشياطين، وأن يحضروه في أي عمل من أعماله، ولا يكون كالكافرين الذين قبلوا همزها، وأطاعوا وسوستها حتى إذا ما حان وقت الاحتضار، تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، وأنه لا يسمع لمثل هؤلاء دعاء، فإنه لا رجعة لهم بعد هذا، وأمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أن وراء الرجوع إلى الدنيا حاجزاً إلى يوم القيامة.. أعقب ذلك بذكر أحوال هذا اليوم، فبين أنه عند البعث وإعادة الأرواح في الأجسام، لا تنفع الأحساب، ولا يسأل القريب قريبه، وهو يبصره، وأن من رجحت حسناته على سيئاته، فاز ونجا من النار، ودخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته خاب وهلك، وأدخل النار خالداً فيها أبداً، وكان عابس الوجه متقلص الشفتين من شدة الاحتراق، وأنه يقال: لأهل النار توبيخاً لهم على ما ارتكبوا من الكفر والآثام، ألست قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، فيقولون: بلى، ولكنا لم ننقد لها ولم نتبعها فضللنا، ربنا ارددنا إلى دار الدنيا، فإن نحن عدنا فإنا ظالمون مستحقون العقوبة، فيجيبهم ربهم: أمكثوا في النار صاغرين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا إنكم كنتم تستهزئون بعبادي المؤمنين، وكنتم منهم تضحكون، إنهم اليوم هم الفائزون، جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم.

قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر إنكارهم للبعث، وأنهم لا يعترفون بحياة إلا ما كان في هذه الدنيا، وأنه بعد الفناء لا حياة، ولا إعادة..

ذكر هنا أنهم بعد أن يستقروا في النار، ويوقنوا أنهم مخلدون فيها أبداً، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض، ليستبين لهم أن ما ظنوه أمداً طويلاً يسير بالنسبة إلى ما أنكروه، وحينئذٍ يزدادون حسرة وألماً على ما كانوا يعتقدون في الدنيا، حين رأوا خلاف ما ظنوا، ثم بين بعدئذٍ ما هو كالدليل على وجود البعث، وهو تمييز المطيع من العاصي، ولولاه لكان خلق العالم عبثاً، تنزه ربنا عن ذلك، ثم أتبع هذا بالرد على من أشرك معه غيره، وأنذره بالعذاب الأليم. ثم أمر رسوله أن يطلب منه غفران الذنوب، وأن يثني عليه بما هو أهله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُل﴾: يا محمد في الدعاء يا ﴿رَّبِّ﴾؛ أي: يا مالك أمري. ﴿إِمَّا﴾ أصله (إن ما). و(ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط، كالنون في قوله: ﴿تريني﴾؛ أي: إن كان لا بد من أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: ما يوعد هؤلاء المشركون من العذاب الدنيوي المستأصل، والوعد يكون في الخير والشر، وأعاد[1] لفظ ﴿رَّبِّ﴾ مبالغة في التضرع.. ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: معهم في العذاب، ففي بمعنى مع؛ أي: لا تجعلني قريباً لهم في العذاب، وأخرجني من بين أيديهم سالماً. والمراد بالظلم: الشرك، وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه، من لا يكاد يمكن أن يحيق به، ورد لإنكارهم إياه، واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء. وهذا يدل على أن البلاء ربما يعم أهل الولاء، كما قال: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، وأن للحق سبحانه أن يفعل ما يريد، ولو عذب البر لم يكن ذلك منه ظلماً، ولا قبيحاً.

والمعنى: أي[2] قل يا محمد: رب إن عاقبتهم وأنا مشاهد ذلك.. فلا تجعلني فيهم، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ونجني من عذابك وسخطك، واجعلني ممن رضيت عنهم من أوليائك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

روى الإمام أحمد، والترمذي، أن النبي ﷺ كان يدعو: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون». ومعلوم أنه عليه السلام[1]، معصوم مما يكون سبباً لجعله معهم، ولكنه أمره أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لله تعالى. واستغفار رسول الله ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة من هذا القبيل، وقرأ الضحاك وأبو عمران الجوني: ﴿ترئني﴾ بالهمز بدل الياء، وهذا كما قرئ فإما ﴿ترئت﴾ و﴿لترؤن﴾ بالهمز، وهو إبدال ضعيف.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب المستأصل ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم.

والمعنى: أي وإنا أيها الرسول لقاردون، على أن نريك ما ننزله بهم من العذاب، فلا يحزننك تكذيبهم بك، وإنما نؤخره حتى يبلغ الكتاب أجله، علماً منا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن، ومن جراء ذلك لا نستأصلهم، ولا نمحو آثارهم، ثم أرشده إلى ما يفعل بهم إذا لحقه أذاهم، فقال: ﴿ٱدْفَعْ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّتِى﴾؛ أي: بالطريقة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: أحسن طرق الدفع من الحلم والصفح، ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ التي تأتيك منهم من الأذى والمكروه، وهو مفعول ادفع. والسيئة: الفعلة القبيحة، وهو ضد الحسنة.

قال بعضهم[2]: أي استعمل معهم ما جعلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة، فإنك أعظم خطراً من أن يؤثر فيك ما يظهرونه من أنواع المخالفات.

وفي «التأويلات النجمية» يعني: مكافأة السيئة جائزة، لكن العفو عنها أحسن، ويقال: ادفع بالوفاء الجفاء. ويقال: الأحسن ما أشار إليه القلب بالمعافاة، والسيئة ما تدعو إليه النفس للمكافأة. **والمعنى**[3]؛ أي: قابل إساءتهم بما أمكن من الإحسان وتكذيبهم بالكلام الجميل، وبيان الأدلة على أحسن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الوجوه، قيل: هذه الآية محكمة؛ لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى وهن في الدين، أو نقصان في المروءة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ويذكرون؛ أي: بما[1] يصفونك به على خلاف ما أنت عليه، كالسحر والشعر والجنون، والوصف: ذكر الشيء بحليته ونعته، فقد يكون حقّاً، وقد يكون باطلاً، وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسلية لرسول الله ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

والخلاصة: أي ادفع[2] الأذى عنه، بالخصلة التي هي أحسن بالإغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك، ونحن أعلم بما يصفوننا به، وينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب، وبما يقولون فيك من السوء، وهجر القول، ومجازوهم على ما يقولون فلا يحزنك ذلك، واصبر صبراً جميلاً.

ونحو الآية قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. روي عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال في الآية: يقول الرجل لأخيه: ما ليس فيه، فيقول له: إن كنت كاذباً، فإني أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً، فإني أسأل الله أن يغفر لي.

ولما أدب الله سبحانه رسوله أن يدفع بالحسن.. أمره أن يستعيذ من نخسات الشياطين، فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد يا ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ والتجأ إليك. والعوذ: الالتجاء إلى الغير، والتعلق به، ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به، من المحاسن التي من جملتها، دفع السيئة بالحسنة، وهمزات الشياطين: نزعاتهم ووساوسهم، كما قاله المفسرون. والجمع فيه باعتبار المرات، أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد المضاف إليه. ومن همزات الشيطان سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل نبيه المعصوم مع

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟

قلتُ: يجوز أن يسأل العبد ربه، ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله، إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه، وإخباتاً له. انتهى.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: من أن يحضروني، ويحوموا حولي في حال من الأحوال صلاة، أو تلاوة، أو عند الموت، أو غير ذلك؛ لأنهم إنما يحضرون بقصد سوء، وكرر ذلك للمبالغة، والاعتناء بهذه الاستعاذة؛ أي: وقل رب في كل وقت؛ لأن العصمة والحفظ من الشيطان أمرها عظيم جداً، وهو وإن كان معصوماً فالمقصود تعليم أمته، وإظهار الالتجاء إليه، ذكره «الصاوي».

أي: وقل[1] رب إني ألتجىء إليك من أن يصل إلي الشياطين بوساوسهم، أو أن يبعثوا إلي أعداءك لإيذائي، وهكذا يدعو المؤمنون، فإن الشيطان لا يصل إليهم، إلا بأحد هذين الأمرين. وإذا انقطع العبد إلى مولاه وتبتل إليه، وسأله أن يعيذه من الشياطين استيقظ قلبه، وتذكر ربه فيما يأتي ويذر، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة، وازدجر عن المعصية، واستعاذ ﷺ أن تحضره الشياطين في عمل من أعماله، ولا سيما حين الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل. أخرج أحمد وأبو داود، والترمذي وحسنه والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا كلمات نقولها عند النوم خوف الفزع: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون». قال: فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فيعلقها في عنقه.

وأخرج أحمد عن الوليد أنه قال: يا رسول الله، إني أجد وحشة، قال: «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر

---

(١) المراغي.

عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون فإنه لا يحضرك، وبالحري لا يضرك».

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ، كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن تتخبطني الشياطين عند الموت»، وكلمات الله كتبه المنزلة على أنبيائه، أو صفات الله، كالعزة والقدرة. وصفها بالتمام، لعرائها عن النقص والانقصام.

وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ هي الابتدائية. دخلت على الجملة الشرطية، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله: ﴿لَكَـٰذِبُونَ﴾، وقيل: بـ﴿يَصِفُونَ﴾. والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته؛ أي: هي[1] معمولة لمحذوف، يدل عليه ذلك، أي يستمر كفار مكة على التكذيب، أو على الوصف المذكور حتى إذا جاء أحدهم الموت، الذي لا مرد له، وظهرت له أحوال الآخرة.

﴿قَالَ﴾ ذلك الأحد تحسراً، على ما فرط من الإيمان والعمل ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا رب ﴿ٱرْجِعُونِ﴾؛ أي: ردني إلى دار الدنيا ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ﴾؛ أي: لكي أعمل عملاً ﴿صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾؛ أي: في الإيمان الذي تركته، وقصرت فيه، وفي العبادات البدنية والمالية والحقوق؛ أي: لعلي أعمل في الإيمان الذي آتي به ألبتة، عملاً صالحاً، فلم ينظم الإيمان في سلك الرجاء، كسائر الأعمال الصالحة، بأن يقول: لعلي أومن فأعمل إلخ. للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع، غني عن الإخبار بوقوعه، فضلاً عن كونه مرجو الوقوع.

وقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾[2] خطاب لله. وجمع الضمير تعظيماً لله؛ لأن العرب تخاطب الواحد الجليل الشأن بلفظ الجماعة. وفيه رد على من يقول الجمع للتعظيم في غير المتكلم، إنما ورد في كلام المولدين.

وقيل: الخطاب للملائكة، الذين يقبضون الأرواح، من ملك الموت

---

(١) المراح. (٢) المراح.

وأعوانه. ورب للقسم، كما في «الكبير». واستعان بالله أولاً، ثم بهم كما في «الأسئلة المقحمة».

وقوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ قبله حذف، تقديره: ثم إنه سبحانه يقول له: إلى أي شيء نردك، أتذهب إلى جمع المال، أو غرس الغراس، أو بناء البنيان، أو شق الأنهار؟ فيقول ذلك الكافر: لعلي أعمل صالحاً فيما تركت؛ أي: لكي أصير عند الرجعة مؤدياً لحق الله تعالى فيما قصرت فيه.

فيقول الجبار جل جلاله: ﴿كَلَّآۚ﴾ ردع وزجر له، عن طلب الرجعة، واستبعاد لها؛ أي: ليرتدع عما يقول، وينزجر، فإنه لا يرد إلى الدنيا أبداً ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: قولة: رب ارجعون ﴿كَلِمَةٌ﴾ الكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضه مع بعض. ﴿هُوَ﴾؛ أي: ذلك الأحد ﴿قَآئِلُهَاۖ﴾ عند الموت لا محالة لتسلط الحزن عليه، ولكنه لا يجاب لها، ولا تفيده، وليس الأمر على ما يظنه، من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه لو أجيب إلى ذلك، لما حصل منه الوفاء، كما في قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾. قال القرطبي: سؤال الرجعة غير مختص بالكافر؛ أي: بل يعم المؤمن المقصر.

وروي: أنه ﷺ قال لعائشة - رضي الله عنها -: «إذا عاين المؤمن الملائكة.. قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان، لا بل قدوماً على الله تعالى، وأما الكافر فيقال له: نرجعك، فيقول: ارجعون، فيقال له: إلى أي شيء ترغب؟ إلى جمع المال؟ أو غرس الغراس؟ أو بناء البنيان؟ أو شق الأنهار؟ فيقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ فيقول الجبار ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾».

والمعنى: أي[1] ولا يزال الكافر يجترح السيئات، ولا يبالي بما يأتي وما يذر، من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت، وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله.. ندم على ما فات، وأسف على ما فرط في جنب الله، وقال: رب

---

(١) المراغي.

ارجعني إلى الدنيا، لأعمل صالحاً فيما قصرت فيه من عبادتك، وحقوق خلقك.

وخلاصة ذلك: أنه حين الاحتضار يعاين ما هو مقبل عليه من العذاب، فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليصلح ما أفسد؛ ويطيع فيما عصى، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾.

ومن كل هذا تعلم أنهم يطلبون الرجعة حين الاحتضار، وحين النشور، وحين العرض على الملك الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات جهنم، فلا يجابون إليها في كل حال ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ أي: إنا لا نجيبه إلى ما طلب؛ لأن طلبه الرد ليعمل صالحاً هو قوله فحسب، ولا عمل معه، وهو كاذب، ولو رد لما عمل، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: ومن أمامهم، وهو ظرف مكان بمعنى خلف، ولكنه هنا بمعنى أمام؛ لأنه من اسم الأضداد؛ أي[1]: ومن أمام ذلك الأحد، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنه في حكم كلهم، كما إن الإفراد في قال وما يليه، باعتبار اللفظ ﴿بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حائل بينهم وبين الرجعة، وهو القبر. وفي «التأويلات النجمية» وهو ما بين الموت إلى البعث؛ أي: بين الدنيا والآخرة، وهو غير البرزخ الذي بين عالم الأرواح المثالي، وبين هذه النشأة العنصرية. ا هـ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم وهو يوم القيامة، وهو إقناط كلي من الرجعة إلى الدنيا، لما علم أن لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا. وأما الرجعة حينئذ فإلى الحياة الأخروية.

---

(١) روح البيان.

واختلف في معنى الآية[1]، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد: حاجز بين الموت والبعث. وقال الكلبي: هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة، وقال السدي: هو الأجل، و﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هو يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية، التي عندها البعث والنشور. والنفخ: نفخ الريح في الشيء. والصور مثل قرن ينفخ فيه. فيجعل الله ذلك سبباً لعود الأرواح إلى أجسادها، وقيل المعنى: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة لا القرن، ويدل على هذا قراءة[2] ابن عباس والحسن وابن عياض: ﴿الصُّوَرِ﴾ بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة. وقرأ أبو رزين بكسر الصاد وفتح الواو، وكذا قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسر الفاء شاذ.

﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ تنفعهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الخلائق، ﴿يوم إذٍ﴾؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور، كما بينهم اليوم لزوال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها. والنسب: القرابة بين اثنين فصاعداً؛ أي: اشتراك من جهة أحد الأبوين. وذلك ضربان: نسب بالطول، كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض، كالنسب بين الأخوة وبني الأعمام. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، فلا يقول له: من أنت، ومن أي قبيلة ونسب أنت، ونحو ذلك؛ لاشتغال كل منهم بنفسه؛ لشدة الهول، فلا يتعارفون ولا يتساءلون، كما أنه إذا عظم الأمر في الدنيا.. لم يتعرف الوالد لولده.

وقرأ عبد الله[3]: ﴿ولا يسألون﴾ بتشديد السين، أدغم التاء في السين، إذ أصله يتساءلون. والمعنى؛ أي[4]: فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور، لا تنفعهم الأنساب؛ لأن التعاطف يزول والود يختفي لاستيلاء؛

---

(1) الشوكاني.

(2) البحر المحيط.

(3) البحر المحيط.

(4) المراغي.

الدهشة والحيرة عليهم، واشتغال كل امرىء بنفسه، كما جاء في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: ولا يسأل القريب قريبه، وهو يبصره؛ لاشتغاله بأمر نفسه، كمال قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

ولا يناقض ما[1] هنا قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾؛ لأن عدم التساؤل عند ابتداء النفخة الثانية قبل المحاسبة، والتساؤل بعد ذلك، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل، فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة، ففي موطن يشتد عليهم الهول والفزع، بحيث يشغلهم عن التساؤل والتعارف، فلا يفطنون لذلك، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون ويتعارفون.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادي منادٍ: ألا إن هذا فلان بن فلان، فمن كان له عليه حق.. فليأت إلى حقه، فيفرح العبد يومئذٍ أن يثبت له حق على والده، أو ولده، أو زوجته أو أخيه، فلا أنساب بينهم يومئذٍ.

وعن قتادة: لا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة، من أن يرى من يعرفه، أن يثبت له عليه شيء، ثم تلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية. قال محمد بن علي الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ: الأنساب كلها منقطعة، إلا من كانت نسبته صحيحة في عبودية ربه، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبداً، وتلك النسبة المفتخر بها، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد.

فائدة: قال الأصمعي: كنت أطوف بالكعبة في ليلة مقمرة، فسمعت صوتاً حزيناً فتبعت الصوت، فإذا أنا بشابٍ حسن ظريف، تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت الملك الحي القيوم، وقد غلقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرسها وحجابها، وبابك مفتوح للسائلين، فها أنا سائلك ببابك، مذنباً فقيراً مسكيناً أسيراً جئت أنتظر رحمتك، يا أرحم الراحمين،

---

(١) روح البيان.

ثم أنشأ يقول:

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ ... يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوَىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَٱنْتَبَهُوْا ... وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَمْ تَنَمِ
أَدْعُوْكَ رَبِّيْ وَمَوْلاَيَ وَمُسْتَنَدِيْ ... فَٱرْحَمْ بُكَائِيْ بِحَقِّ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَرَمِ
أَنْتَ ٱلْغَفُوْرُ فَجُدْ لِيْ مِنْكَ مَغْفِرَةً ... وَاعْفُ عَنِّيَ يَا ذَا ٱلْجُوْدِ وَٱلنِّعَمِ
إِنْ كَانَ عَفْوُكَ لاَ يَرْجُوْهُ ذُوْ جُرُمٍ ... فَمَنْ يَجُوْدُ عَلَىٰ ٱلْعَاصِيْنَ بِٱلْكَرَمِ

ثم رفع رأسه نحو السماء وهو ينادي: يا إلٰهي وسيدي ومولاي، إن أطعتك فلك المنة علي، وإن عصيتك فبجهلي، فلك الحجة علي، اللهم فبإظهار مننك علي، وإثبات حجتك لدي ارحمني، واغفر ذنوبي، ولا تحرمني رؤية جدي وقرة عيني، وحبيبك وصفيك ونبيك محمد ﷺ، ثم أنشأ يقول:

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَامُوْلُ فِيْ كُلِّ شِدَّةٍ ... إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ
أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ ... فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ ... عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ ... وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

فكان يكرر هذه الأبيات حتى سقط على الأرض مغشياً عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فوضعت رأسه في حجري، وبكيت لبكائه بكاءً شديداً عليه، فقطر من دموعي على وجهه، فأفاق من غشيته وفتح عينيه وقال: من الذي شغلني عن ذكر مولاي؟ فقلت: أنا الأصمعي يا سيدي، ما هذا البكاء وما هذا الجزع؟ وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، أليس الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: فاستوى جالساً وقال: يا أصمعي، هيهات! إن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه، وإن كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه، وإن كان ملكاً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم شرع سبحانه يبين أحوال السعداء، وأحوال الأشقياء حينئذٍ، فقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: فمن رجحت موزونات حسناته وأخلاقه من العقائد والأعمال؛ أي: فمن كان له عقائد صحيحة، وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى، فهو جمع موزون، بمعنى العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى. . ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، الناجون من الأمور التي يخافونها. ولما كان لفظ ﴿من﴾ يصلح للواحد والجمع، وحد على اللفظ في قوله: ﴿موازينه﴾، وجمع على المعنى في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وهي أعماله الصالحة؛ أي: ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عند الله تعالى، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾؛ أي: ضيعوها[١] وتركوا ما ينفعها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من صلة الموصول، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً. وجملة قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في خالدون، أو تكون خبراً آخر لأولئك؛ أي: تضربها وتأكل لحومها، وتحرق جلودها. يقال: لفحته النار بحرها إذا أحرقته كما في «القاموس». واللفح كالنفخ، إلا أنه أشد تأثيراً، كما في «الإرشاد» وغيره، وخص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، وأعظم ما يصان منها، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل.

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم ﴿كَٰلِحُونَ﴾؛ أي: متقلصوا الشفتين عن الأسنان من شدة الاحتراق، والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان وظهورها، كما ترى ذلك في الرؤوس المشوية. وفي الحديث[٢]: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته». أخرجه

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ﴿كلحون﴾ بغير ألف. وجملة قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً، لما به استحقوا، ما ابتلوا به من العذاب: ألم تكن آياتي المنزلة تقرأ عليكم في الدنيا، تبين لكم بالدلائل الواضحة، كيفية سلوك الطريق الحق ﴿فَكُنتُم بِهَا﴾؛ أي: بآياتي ﴿تكذبون﴾ فصرتم مستحقين للعذاب الأليم، يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها في الدنيا فلا تنتهون بها، فصرتم اليوم مستحقين للعذاب الأليم بسبب تكذيبها، والاستفهام فيها للتقرير المضمن للتوبيخ والتقريع، وجملة قوله: قالوا: يا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ ملكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وآثامنا التي اقترفناها بسوء اختيارنا، فصارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة. مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا قالوا بعد التوبيخ المذكور، فقيل: قالوا: ربنا... إلخ. قال القرطبي: وأحسن[(١)] ما قيل: في معناه: غلبت علينا لذاتنا، وأهواؤنا، فسمى اللذات، والأهواء شقوة؛ لأنهما تؤديان إليها، فأطلق اسم المسبب على السبب، قال أبو تراب: الشقوة حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائي والمفضل عن عاصم، وأبان والزعفراني وابن مقسم[(٢)]: ﴿شقاوتنا﴾ بوزن السعادة، وهي لغة فاشية. وقرأ قتادة أيضاً والحسن في رواية خالد بن حوشب عنه كذلك، إلا أنه بكسر الشين. وباقي السبعة والجمهور بكسر الشين وسكون القاف، وهي لغة كثيرة في الحجاز. قال الفراء: أنشدني أبو شروان، وكان فصيحاً:

عُلِّقَ مِنْ عَنَائِهِ وَشِقْوَتِهْ بِنْتَ ثَمَانِيْ عَشْرَ مِنْ حُجَّتِهْ

وقرأ شبل في «اختياره» بفتح الشين وسكون القاف. ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك

---

(١) القرطبي.
(٢) البحر المحيط.

﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب وسائر المعاصي.

والخلاصة[1]: إنا كنا نعرف الحق، ولكن العادة وخشية الناس ملكتا علينا أمرنا، فلم نقدر على الخلاص مما نحن فيه، وما مثلنا إلا مثل شاربي الخمر، والمولعين بحب الكبرياء والعظمة، والمغرمين بالإسراف، فإنهم يعرفون أضرارها، ثم لا يجدون سبيلاً إلى تركها ولا للبعد عنها.

ثم طلبوا ما لا يجابون إليه، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾؛ أي: من النار، ومن هذه الدار إلى دار الدنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ ورجعنا إلى الأعمال السيئة، وما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعود إلى ذلك.

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم بطريق القهر، على لسان مالك، بعد قدر الدنيا مرتين، وقدرها قيل: سبعة آلاف سنة، بعدد الكواكب السيارة. وقيل: اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج، وقيل: ثلاث مئة ألف سنة وستون ألف سنة بعدد أيام السنة. ا هـ. من تذكرة القرطبي.

﴿اخْسَـُٔواْ﴾؛ أي: ذلوا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار، واسكتوا سكوت هوان، فإنها ليست مقام سؤال، وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت، من خسأة الكلب إذا زجرته وطردته مستهيناً به فخسأ؛ أي: انزجر. وقال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط، وابعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا أبعدوا في جهنم، كما يقال للكلب إخسأ؛ أي: أبعد. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ أي: في إخراجكم من النار، ورجوعكم إلى الدنيا، فإنه لا يكون أبداً، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: لا تكلمون رأساً.

والمعنى[2]: أي قالوا: ربنا أخرجنا من النار، واردنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى مثل ما سلف منا من الشرور والأثام كنا ظالمين لأنفسنا، جديرين بالعقوبة. ثم ذكر ما أجيبوا به عن طلبهم هذا، فقال: ﴿قَالَ اخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾؛ أي: قال: امكثوا فيها أذلاء صاغرين، واسكتوا ولا تعودوا إلى مثل سؤالكم

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

هذا، فإنه لا رجعة لكم إلى الدنيا، وإنما يكلمني من سمت نفسه إلى عالم الأرواح، ولبس رداء الخوف والخشية من ربه، واحتقر الدنيا وشهواتها، وعزف عنها لما يرجوه من ربه من ثواب عميم ونعيم مقيم.

ثم بين سبحانه السبب فيما نالهم من العذاب، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال، وقرأ أبيّ بفتح الهمزة؛ أي: لأنه ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾؛ أي: طائفة ﴿مِّنْ عِبَادِى﴾ المؤمنين. قيل: هم الصحابة. وقيل: هم المهاجرون. وقيل: هم أهل الصفة ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقنا بك، وبجميع ما جاء من عندك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: استر ذنوبنا ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾؛ أي: وانعم علينا بنعمتك، التي من جملتها الفوز بالجنة، والنجاة من النار ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأفضلهم وأرحم علينا من الوالدين؛ لأن رحمتك منبع كل رحمة ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: فجعلتموهم ﴿سخرياً﴾؛ أي: مهزوءاً بهم تسخرون منهم وتستهزئون بهم؛ أي: فاتخذتموهم هزأة تهزؤون منهم، وهذا محط التعليل الذي سيقت له ﴿إنّ﴾؛ لأن جملة ﴿إنّ﴾ تعليل لما قبلها من الزجر عن دعائهم بالخروج منها، بقوله ولا تكلمون؛ أي: اسكتوا عن الدعاء، بقولكم: ربنا أخرجنا إلخ؛ لأنكم كنتم تستهزؤون بالداعين بقولهم ربنا آمنا إلخ. وتتشاغلون باستهزائهم، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾؛ أي: حتى أنساكم الاستهزاء بهم، فإن أنفسهم ليست سبب الإنساء ﴿ذِكْرِى﴾؛ أي: ذكركم إياي والخوف مني، والعمل بطاعتي من فرط اشتغالكم باستهزائهم فلم تخافوني في أوليائي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاء بهم، وذلك غاية الاستهزاء، وقال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وأمثالهم من فقراء الصحابة، كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة وأبي بن خلف وأضرابهم يستهزئون بهم وبإسلامهم، ويؤذونهم.

وقرأ حمزة والكسائي ونافع[1]: ﴿سُخرياً﴾ بضم السين، وباقي السبعة بالكسر. وقال ابن عطية: وقرأ أصحاب عبد الله وابن أبي إسحاق والأعرج بضم

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

السين كل ما في القرآن. وقرأ الحسن وأبوعمرو بالكسر، إلا التي في الزخرف فإنهما ضما السين كما فعل الناس. انتهى.

والخلاصة[1]: إنكم أضفتم إلى سيئاتكم الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات، ويتقربون إلى رب الأرض والسماوات. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾؛ أي: أولئك الفريق ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: يوم الآخرة ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب صبرهم على إذايتكم إياهم. والصبر: حبس النفس عن الشهوات، وعلى المشاق. ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بفتح همزة أن ثاني مفعولي الجزاء؛ أي: جزيتهم بسبب صبرهم فوزهم بمجامع مراداتهم، مخصوصين به. وعلى كسرها مفعول الجزاء الثاني محذوف. وجملة إن مسوقة للتعليل، والتقدير: إني جزيتهم اليوم النعيم المقيم؛ لأنهم هم الفائزون بمراداتهم.

والخلاصة: أنهم صبروا فجوزوا أحسن الجزاء.

وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي، وخارجة عن نافع ﴿إنهم هم﴾ بكسر الهمزة. وباقي السبعة بالفتح، ومفعول جزيتهم الثاني محذوف، تقديره: الجنة، أو رضواني. وقال الزمخشري: في قراءة من قرأ ﴿أنهم﴾ بالفتح هو المفعول الثاني؛ أي: جزيتهم فوزهم، انتهى. والظاهر أنه تعليل؛ أي: جزيتهم لأنهم. والكسر هو على الاستئناف، وقد يراد به التعليل، فيكون الكسر مثل الفتح من حيث المعنى، فإن الاستئناف يعلل به أيضاً، لا من حيث الإعراب؛ لاضطرار المفتوحة إلى عامل.

وفي «التأويلات النجمية»: وفيه[2] من اللطائف أن أهل السعادة كما ينتفعون بمعاملاتهم الصالحة مع الله من الله، ينتفعون بإنكار منكريهم، واستخفاف

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

مستهزئيهم. وأن أهل الشقاوة كما يخسرون بمعاملاتهم الفاسدة مع أنفسهم، يخسرون باستهزائهم وإنكارهم على الناصحين المرشدين.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى، تذكيراً لما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه، من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ أي: قال الله لهم بلسان مالك ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ وأقمتم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها. يقال لبث بالمكان، إذا أقام به ملازماً له. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز[1] لكم، لما في كم من الإبهام، و﴿سنين﴾ بفتح النون على أنها نون الجمع. ومن العرب من يخفضها وينونها.

والمراد بالأرض هي الأرض التي طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة، وفي القبور. والاستفهام هنا إنكاري لتوبيخهم بإنكار الآخرة. ا هـ. «شهاب». وقال زاده: القصد من هذا الاستفهام التبكيت، والإلزام؛ لأنهم كانوا ينكرون اللبث في الآخرة رأساً لإنكارهم للبعث.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير[2]: ﴿قل كم﴾ والمخاطب ملك يسألهم، أو بعض أهل النار. وقرأ باقي السبعة ﴿قَالَ﴾ والقائل الله تعالى، أو المأمور بسؤالهم من الملائكة. وقال الزمخشري: ﴿قَالَ﴾ في مصاحف أهل الكوفة. و﴿قل﴾ في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام. وقال ابن عطية: وفي المصاحف قال فيهما إلا في مصحف الكوفة، فإن فيه ﴿قل﴾ بغير ألف، وتقدم إدغام ثاء لبثت في البقرة. وعبارة «زاد المسير» هنا وأبو عمرو وحمزة والكسائي يدغمون ثاء ﴿لبثتم﴾، والباقون لا يدغمونها فمن أدغم فلتقارب الثاء والتاء، ومن لم يدغم فلتباين المخرجين. انتهى.

سألهم سؤال توقيف على المدة. وقرأ الجمهور ﴿عدد سنين﴾ على الإضافة، و﴿كم﴾ في موضع نصب على ظرف الزمان، وتمييزها ﴿عدد﴾. وقرأ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

الأعمش والمفضل عن عاصم ﴿عدداً﴾ بالتنوين، والمعنى؛ أي: قال الملك المأمور بسؤالهم: كم لبثتم في الأرض والدنيا التي تطلبون أن ترجعوا إليها عدداً من السنين، والغرض من هذا السؤال: التبكيت؛ لأنهم كانوا لا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا، ويظنون أن الفناء يدوم بعد الموت، ولا إعادة. فلما حصلوا في النار، وأيقنوا أنهم مخلدون فيها، سألهم الله: كم لبثتم في الأرض، فإنهم فيها تمكنوا من العلم والعمل، تذكيراً لهم بأن الذي ظنوه طويلاً فهو قليل بالنسبة إلى ما أنكروه، فحينئذٍ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا، حيث أيقنوا خلافه، ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال أهل النار جواباً لسؤال ربهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ ثم شكوا في ذلك فقالوا: ﴿أَوْ﴾ لبثنا ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى دخولهم في النار، أو لأنها كانت أيام السرور وأيام السرور قصار، أو لأنها منقضية، والمنقضي كالمعدوم، وقد اعترفوا بالنسيان، حيث قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؛ أي: الذين يعلمون عدد أيام الدنيا وساعاتها أو الذين يحصون الأعمال وأوقات الحياة والممات إن أردت تحقيقها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ يعني: الذين يعدون أنفاسنا وأيامنا وليالينا، من الملائكة الموكلين علينا. اهـ. وقال قتادة: يعني الحساب. وقرأ الحسن والزهري وأبو عمران الجوني والكسائي: ﴿العَادِينَ﴾ بتخفيف الدال؛ أي: الظلمة رؤساءنا الذين أضلونا. وقرىء: ﴿العاديين﴾ بياء مشددة، جمع عادى؛ أي: القدماء المعمرين. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه لهم بلسان مالك ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾؛ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ تصديقاً لهم في تقليلهم لسني لبثهم في الدنيا. وقليلاً صفة مصدر محذوف؛ أي: لبثاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم، لعلمتم يومئذٍ قلة لبثكم في الدنيا، كما علمتم اليوم.

---

(١) المراح.

وفي «بحر العلوم»: أي لو كنتم تعلمون مقدار لبثكم من الطول، لما أجبتم بهذه المدة، وفي «المراح»: لو كنتم تعلمون أن لبثكم في الآخرة لا نهاية له.. لأصلحتم أعمالكم في الدنيا، ولتقربتم بها إلى الله تعالى.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر[1]: ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿قل إن لبثتم﴾ على معنى: قل أيها السائل عن لبثهم. وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة ﴿قل﴾ في الموضعين. فقرأهما حمزة والكسائي على ما في مصاحفهم.

وحاصل معنى الآية[2]: أنه قد نسي هؤلاء الأشقياء مدة لبثهم في الدنيا، لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب، وقصر عندهم الأمد الذي مكثوه فيها ما حل بهم من نعمة الله، حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوماً أو بعض يوم، ولعل بعضهم يكون قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثير.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؛ أي: فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم. كما روي ذلك جماعة عن مجاهد ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾؛ أي: قال لهم الملك: ما لبثتم إلا زمناً يسيراً، ولو كنتم تعلمون شيئاً من العلم، لعملتم على مقتضى ذلك، ولما صدر منكم ما أوجب خلودكم في النار، ولما قلنا لكم: اخسئوا فيها ولا تكلمون.

روي مرفوعاً: «أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قال: لنعم ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، فيقول: بئسما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين».

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراغي.

فعلى العاقل[1] أن يتدارك حاله، ويصلح أعماله، قبل أن تنفد الأنفاس، وينهدم الأساس. وقيل شعراً:

أَلاَ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَظِلٌ سَحَابَةٍ أَظَلَّتْكَ يَوْمَاً ثُمَّ عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَانَاً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ وَلاَ تَكُ جَزْعَانَاً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

قال بعضهم: لا تركنن إلى الدنيا فإنها لا تبقى على أحد، ولا تتركها فإن الآخرة لا تنال إلا بها. وقال الزمخشري: استغنم تنفس الأجل وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، وعمر غير ممدود. وقال بعضهم: لو علمت أن ما فات من عمرك لا عوض له.. لم يصح منك غفلة ولا إهمال. ولكنت تأخذ بالعزم والحزم، بحيث تبادر الأوقات وتراقب الحالات خوف الفوات عاملاً على قول القائل:

السِّبَاقَ ٱلسِّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوْقِ

وما حصل من عمرك، إذا علمت أن لاقيمة له كنت تستغرق أوقاتك في شكر الحاصل وتحصيل الواصل. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: بقية عمر المرء ما لها ثمن، يدرك به منها ما فات، ويحيي ما مات. وقد جاء في الخبر: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، ومعناه: أن الصحيح ينبغي أن يكون مشغولاً بدين أو دنيا، فهو مغبون فيهما.

ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة، وتركهم النظر الصحيح، فيما يرشد إلى حقية البعث والقيامة، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الهمزة[2]: فيه للاستفهام الإنكاري، المضمن للتوبيخ، داخله على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. والحِسبان بالكسر الظن. وعبثاً حال من نون العظمة، بمعنى عابثين، وهو ما ليس لفاعله غرض صحيح، أو ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة. والتقدير: أغفلتم وظننتم من فرط غفلتكم، أنا خلقناكم بغير حكمة، ولا ثواب ولا عقاب. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ عطف على إنما

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

خلقناكم؛ أي: وحسبتم عدم رجوعكم إلينا، يعني: أن الحكمة من خلقكم الأمر بالعمل، ثم البعث للجزاء. ومعنى الرجوع إلى الله إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه.

قال الترمذي: إن الله خلق الخلق ليعبدوه، فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها. فإن عبدوه.. فإنهم عبيد أحرار، كرام من رق الدنيا، ملوك في دار السلام. وإن رفضوا العبودية.. فهم اليوم عبيد أُبَّاق، سقاط لئام، وغداً أعداء في السجون، بين أطباق النيران.

والمعنى: أي[1] أظننتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعباً وباطلاً، كلا، بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم، لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه، لا كما ظننتم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء. وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم لمجازاتهم على ما قدموا من عمل، وأسلفوا من سعي في الحياة الدنيا.

حكاية

وعن بهلول[2] قال: كنت يوماً في بعض شوارع البصرة، فإذا بصبيان يلعبون بالجوز واللوز، وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي، فقلت: هذا صبي يتحسر على ما في أيدي الصبيان، ولا شيء معه فيلعب به، فقلت: أي بني ما يبكيك، أشتري لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان؟ فرفع بصره إليّ، وقال: يا قليل العقل، ما للعب خلقنا؟ فقلت: أي بني لماذا خلقنا؟ فقال: للعلم والعبادة، فقلت: من أين لك ذلك، بارك الله فيك، قال: من قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ قلت: أي بني أراك حكيماً فعظني وأوجز، فأنشأ يقول:

أَرَىٰ ٱلدُّنْيَا تُجَهِّزُ بِٱنْطِلَاقِ مُشَمِّرَةً عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقِ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فَلاَ ٱلدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ   وَلاَ حَيٌّ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا بِبَاقِ
كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَدَثَانِ فِيهَا   إِلَىٰ نَفْسِ ٱلْفَتَىٰ فَرَسَا سِبَاقِ
فَيَا مَغْرُورُ بِٱلدُّنْيَا رُوَيْداً   وَمِنْهَا خُذْ لِنَفْسِكَ بِٱلْوِثَاقِ

ثم رمق السماء بعينيه، وأشار إليها بكفيه، ودموعه تتحدر على خديه، وهو يقول:

يَا مَنْ إِلَيْهِ ٱلْمُبْتَهَلْ   يَا مَنْ عَلَيْهِ ٱلْمُتَّكَلْ
يَا مَنْ إِذَا مَا آمِلٌ   يَرْجُوهُ لَمْ يُخْطِ الأَمَلْ

قال: فلما أتمّ كلامه، خر مغشياً عليه، فرفعت رأسه إلى حجري ونفضت التراب عن وجهه بكمي، فلما أفاق قلت له: أي بني ما نزل بك وأنت صبي صغير، لم يكتب عليك ذنب؟ قال: إليك عني يا بهلول، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار، فلا تتقد إلا بالصغار، وإني أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم، قال: فسألت عنه؟ فقالوا: ذلك من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. قلت: قد عجبت من أن تكون هذه الثمرة إلا من تلك الشجرة. نفعنا الله تعالى بعلمه، وبعلوم آبائه، آمين.

وقرأ الأخوان حمزة والكسائي[١] ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ بفتح التاء مبنياً للفاعل. وقرأ باقي السبعة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، بضم التاء مبنيّاً للمفعول. وقيل[٢]: إنه يجوز عطف ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ على ﴿عَبَثًا﴾، معنى: إنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع.

ثم نزّه الله نفسه عما يصفه به المشركون، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: ترفع بذاته عن كل ما لا يليق به، من الصاحبة والولد والشريك، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحكم

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

والمصالح والغايات الجليلة. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: الذي[1] يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداماً، بدأً وإعادةً وإحياءً وإماتةً وعقاباً وإثابةً، وكل ما سواه مملوك له، مقهور تحت ملكه العظيم. قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود.

﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الوجود في ذاته وصفاته وأفعاله. وفي المفردات ﴿الحق﴾ موجود الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي[2]: تبرأ الله سبحانه عن العبث، وعن خلو أفعاله عن المصالح والغايات الحميدة، ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: المتصرف في كل شيء ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزول ملكه ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، فإن كل ما عداه عبيده. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكيف لا يكون إلٰهاً ورباً لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، وإنما خص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات. ووصف[3] العرش بالكريم، لنزول الرحمة والخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال: بيت كريم، إذا كان ساكنوه كراماً. **وقيل**: معنى الكريم الرفيع المرتفع كما في «الخازن». وقال ابن الجوزي: والكريم في صفة الجهاد الحسن. ا هـ.

وقرأ أبان بن تغلب وابن محيصن وأبو جعفر وإسماعيل عن ابن كثير ﴿الكريم﴾ بالرفع على أنه صفة لرب، أو صفة للعرش، ويكون مقطوعاً على معنى المدح. وقرأ الباقون، بالجر على أنه نعت للعرش. وقال القرطبي: وليس في القرآن وصف العرش بالكريم في غير هذا الموضع. ا هـ.

وإنما وصف العرش هنا بالكريم وفيما تقدم بالعظيم للتفنن، أو لمناسبة السياق؛ لأن السياق هنا في ذكر الرحمة والغفران، والكرم يناسبها، وفيما تقدم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

في إثبات الربوبية والتصرف له تعالى والعظمة تناسبها. هكذا ظهر لي بعد الإمعان. والله أعلم بأسرار كتابه.

ومعنى الآية: أي تنزه ربنا ذو الملك والملكوت الذي لا يزول، وليس هناك معبود سواه، وهو ذو العرش الكريم، الذي يدبر فيه نظام الكون علويه وسفليه، وجميع ما خلق عن أن يخلق الخلق عبثاً، وأن تخلو أفعاله عن الحكم والمقاصد الحميدة، وأن يكون له ولد أو شريك.

وبعد أن ذكر أنه الملك الحق الذي لا إلٰه إلا هو.. أتبعه ببيان أن من ادعى أن في الكون إلٰهاً سواه.. فقد ادعى باطلاً، وركب شططاً. فقال: ﴿وَمَن يَدۡعُ﴾ ويعبد ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو. ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إفراداً أو اشتراكاً. ﴿لَا بُرۡهَٰنَ﴾ ولا حجة ﴿له﴾؛ أي: لذلك العابد. ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: على عبادته معه. فالباء بمعنى على. وجملة[1] لا برهان، صفة لازمة لإلٰهاً. كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ إذ لا يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان، إذ الباطل ليس له برهان. جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليها، تنبيهاً على أن الدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت بداهة العقول بخلافه. وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وجملة ﴿لا برهان له به﴾ معترضة بين الشرط والجزاء؛ أي: فإنما جزاؤه وعقابه على تلك الفعلة القبيحة، معد له عند ربه في الآخرة، مجاز له على قدر ما يستحقه. وقيل: إن جواب الشرط قوله: ﴿لا برهان له به﴾، على حذف فاء الجزاء، كقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾ ولا يفوز ولا يسعد ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بعبادة غير الله سبحانه معه، مستأنفة مسوقة لتعليل جواب الشرط؛ أي: وإنما كان عذابه مدخراً له في الآخرة؛ لأنه لا ينجو يومئذٍ من سوء الحساب وأليم العذاب.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الحسن[1] وقتادة بفتح همزة أن من قوله: ﴿أنه لا يفلح﴾ على التعليل؛ أي: لا يفلح هو، فوضع الكافرون موضع الضمير، حملاً على معنى من؛ لأن من يدع في معنى الجمع. وقرأ الجمهور: بالكسر على الاستئناف. وقرأ الحسن: ﴿يفلح﴾ بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح، ففعل وأفعل فيه بمعنى واحد.

والمعنى[2]: أي ومن يعبد مع ذلك المعبود، الذي لا تصلح العبادة إلا له، معبوداً آخر لا بينة له به، فجزاؤه مهيأ له عند ربه في الآخرة، وهو موفيه ما يستحقه من جزاء وعقاب. وفي ذلك من شديد التوبيخ والتقريع ما لا يخفى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: إنه سبحانه لا يسعد أهل الشرك، ولا ينجيهم من العذاب، وما ألطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بخيبة الكافرين، وعدم فوزهم بما يؤملون. فانظر تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام.

وبعد أن شرح أحوال الكافرين وجهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة.. أمر رسوله بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله: ﴿وَقُل﴾ أيها الرسول ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾.

وقرأ ابن محيصن ﴿رب﴾ بضم الباء؛ أي: يا رب استر ذنوبي بعفوك عنها ﴿وَٱرْحَمْ﴾؛ أي: وارحمني بقبول توبتي، وترك عقابي على ما اجترحت من آثام وأوزار. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ أي: وأنت ربنا خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته وتجاوز عن عقابه، إنك ربنا خير غافر، وإنك المتولي للسرائر، والمرجو لإصلاح الضمائر.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن حبان في جماعة عن أبي بكر أنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

واعلم: أنه سبحانه أمر[1] رسوله ﷺ، بالاستغفار والاسترحام، إيذاناً بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به، من غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه، كما قال: في «التأويلات النجمية» الخطاب مع محمد ﷺ يشير إلى أنه مع كمال محبوبيته، وغاية خصوصيته، ورتبة نبوته ورسالته محتاج إلى مغفرته ورحمته، فكيف بمن دونه وبمن يدعو مع الله إلٰهاً آخر؛ أي: فلا بدّ لأمته من الاقتداء به في هذا الدعاء. والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾: إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾: مقول محكي. وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِمَّا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿تُرِيَنِّي﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الله، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول له. و﴿مَا﴾: مفعول ثان له، فهي بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة؛ لأنه من أرى الرباعي. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يوعدون به من العذاب.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وكرر مبالغةً في التضرع والابتهال إلى الله سبحانه. ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، (لا) دعائية جازمة. ﴿تَجْعَلْنِي﴾: فعل

---

(١) روح البيان.

مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية. والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول. ﴿فِي ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني. و﴿فِي﴾: بمعنى مع ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: خرف نصب ومصدر. ﴿نُّرِيَكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾: مفعول ثان ﴿لنرى﴾، وتقدم القول: في أرى البصرية آنفاً. ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعله ضمير مستتر فيه، يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما نعدهم به. والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعلى، تقديره: على إراءتك ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿قادرون﴾. ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾: (اللام): لام الابتداء زحلقت إلى الخبر. ﴿قادرون﴾: خبر ﴿إنا﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿ٱدْفَعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة لحث النبي ﷺ على الصفح عن مساءتهم. ﴿بِٱلَّتِى﴾: جار ومجرور متعلق بادفع. ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾: مفعول به. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿يَصِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما يصفونه. ويجوز أن تكون ما مصدرية؛ أي: بوصفهم لك، وسوء ذكرهم، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قُل﴾: أمر وفاعل مستتر يعود على محمد.

والجملة معطوفة على جملة قل الأول. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَعُوذُ﴾ الأول. ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾: منادى مضاف، كرر اعتناء بالاستعاذة. ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَحْضُرُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، و﴿الواو﴾: فاعل. و(النون): للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية ولرعاية الفاصلة، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأعوذ بك رب من حضورهم إياي.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة التي تبدأ بها، وحرف غاية لكونها غاية لمحذوف. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة الفعلية في محل الخفض، فبإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير مستتر يعود على الأحد، وجملة ﴿قَالَ﴾: جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا في محل الجر بحتى الواقعة غاية لمحذوف، تقديره: ويستمر كفار مكة على التكذيب أو على الوصف المذكور إلى قول أحدهم رب ارجعون وقت مجيء الموت إياه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: فعل دعاء مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و(النون): للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به.

والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، وإنما جمع ضمير الفاعل في ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ مع كون المخاطب واحداً، وهو الله سبحانه للتعظيم. ﴿لَعَلِّيٓ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وترج. والياء: ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿أَعۡمَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، تقديره: أنا، ﴿صَٰلِحٗا﴾: مفعول به أو مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب المذكور قبلها. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور صفة لصالحاً؛ أي: صالحاً بدلاً عما تركت، أو متعلق بـ﴿أَعۡمَلُ﴾: ﴿تَرَكۡتُۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾. والعائد محذوف، تقديره: فيما تركته.

﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

﴿كَلَّآۚ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَلِمَةٌ﴾: خبرها. ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿كَلِمَةٌ﴾. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿بَرۡزَخٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَرۡزَخٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿يُبۡعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمِ﴾؛ أي: إلى يوم بعثهم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُفِخَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بما في الجواب من معنى النفي، وانتفى ذلك النسب وقت النفخ في الصور. ﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَنسَابَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ أي: فلا أنساب كائنة بينهم، وجملة ﴿لا﴾ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿يَوۡمَئِذٖ وَلَا

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، وهو مضاف. ﴿إذا﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه. والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور، والظرف متعلق بما تعلق به الظرف المذكور قبله، أو الأول: صفة لأنساب، والثاني: خبر لـ﴿لا﴾؛ أي: فلا أنساب كائنة بينهم في الدنيا، نافعة يومئذٍ. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لا﴾ النافية.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه لا أنساب بينهم يوم القيامة، وأردت بيان حالهم في ذلك اليوم، بالنسبة إلى الفلاح والخسران.. فأقول لك: ﴿من ثقلت﴾. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية ﴿أولئك الذين﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى، على كونها، مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. ﴿تَلْفَحُ﴾: فعل مضارع.

﴿وُجُوهَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلنَّارُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية إما مستأنفة، أو خبر ثان لـ﴿أولئك﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿ كَٰلِحُونَ﴾. ﴿ كَٰلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿وُجُوهَهُمُ﴾.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ﴾: الهمزة: الاستفهام التقريري. ﴿لم تكن﴾: جازم ومجزوم. ﴿ءَايَٰتِي﴾: اسم ﴿تَكُنۡ﴾، وجملة ﴿تُتۡلَىٰ﴾: خبرها. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿تُتۡلَىٰ﴾. وجملة ﴿تَكُنۡ﴾ جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَكُنتُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كنتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾: وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿غَلَبَتۡ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيۡنَا﴾: متعلق به. ﴿شِقۡوَتُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَكُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿غَلَبَتۡ﴾. ﴿قَوۡمٗا﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿ضَآلِّينَ﴾: صفة ﴿قَوۡمٗا﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف كرره للعناية به. ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾: فعل دعاء ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾. ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿عُدۡنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿اخْسَئُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُكَلِّمُونِ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. و(النون): نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اخْسَئُوا﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِّنْ عِبَادِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَاغْفِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿آمَنَّا﴾. ﴿لَنَا﴾: متعلق باغفر. ﴿وَارْحَمْنَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿اغفر﴾. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ارحمنا﴾. ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿اتخذتموهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. و(الميم): علامة الجمع، و﴿الواو﴾: حرف زائد لإشباع ضمة الميم. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذ﴾، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿أَنسَوْكُمْ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول، في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة. ﴿ذِكْرِي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى،

الجار والمجرور متعلق بـ﴿اتخذتموهم﴾؛ أي: إلى إنساءهم إياكم ذكري. ﴿وَكُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَضْحَكُونَ﴾. وجملة ﴿تَضْحَكُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنسَوْكُمْ﴾ على كونها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿صَبَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جزيت﴾؛ أي: جزيتهم بسبب صبرهم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ للتأكيد ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جزيت﴾؛ أي: جزيتهم فوزهم بسبب صبرهم. ﴿قَٰلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، وهو متعلق بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾. ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿لبثتم﴾ أيضاً، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿لَبِثْتُمْ﴾، ﴿عَدَدَ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾، منصوب به. ﴿سِنِينَ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿لَبِثْتُمْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَبِثْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿لَبِثْنَا﴾، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: معطوف على ﴿يَوْمًا﴾. ﴿فَسْـَٔلِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت جوابنا وشكنا وجهلنا، وأردت بيان الحقيقة.. فنقول لك: ﴿اسأل العادين﴾. ﴿اسأل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾: مفعول أول لـ﴿اسأل﴾، والثاني محذوف، تقديره: فاسأل العادين عددها، والجملة الفعلية في محل

النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾.

﴿قَـٰلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلٗا﴾: صفة لظرف محذوف، أو مصدر محذوف؛ أي: زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً. ﴿لَّوۡ﴾: حرف شرط غير جازم وامتناع لامتناع. ﴿أَنَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، ومفعول العلم محذوف، تقديره: مقدار ﴿لبثكم﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، هو فعل شرط لـ﴿لَّوۡ﴾، وجواب ﴿لَّوۡ﴾ الشرطية محذوف، والتقدير: لو ثبت علمكم مقدار لبثكم في الطول.. لما أجبتم بهذه المدة القليلة، أعني لبثنا يوماً أو بعض يوم، وجملة ﴿لَّوۡ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلتم وظننتم من فرط غفلتكم أنما خلقناكم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿حسبتم﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّمَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب وتوكيد، ولكن بطل عملها لدخول ﴿ما﴾ الكافة عليها. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿عَبَثٗا﴾: منصوب على الحالية من فاعل ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: حالة كوننا ﴿عابثين﴾، أو منصوب على المصدرية؛ أي: خلقاً عبثاً، أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: لأجل العبث، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿حسب﴾؛ أي: أغفلتم وظننتم حلقنا إياكم عبثاً. ﴿وَأَنَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِلَيۡنَا﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حسب﴾؛ أي: وعدم رجوعكم إلينا.
﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿تعالى الله﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: صفتان للجلالة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَّا﴾؛ أي: لا إله موجود هو إلا هو سبحانه، وجملة ﴿لا﴾: في محل النصب حال من الجلالة في قوله: فتعالى الله. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: صفة ثالثة ومضاف إليه. ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾: بالجر صفة للعرش، وبالرفع صفة للرب.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيدع. ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به ليدع. ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة أولى له، ﴿لا﴾: نافية للجنس. ﴿بُرْهَٰنَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بُرْهَٰنَ﴾. و(الباء) بمعنى على، أي لا برهان عليه كائن له. وجملة لا في محل النصب صفة ثانية لـ﴿إلٰهاً﴾، وهي صفة لازمة لا مفهوم لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿حِسَابُهُۥ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱرْحَمْ﴾: معطوف على ﴿اغفر﴾. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ارحم﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: جمع همزة،وهي النخسة والدفعة بيد أو بغيرها، والمهماز، مفعال من ذلك كالمحراث من الحرث، والهمَّاز الذي يعيب الناس، كأنه يدفع بلسانه، وينخس به. ا هـ. «سمين».

وفي «الأساس» و«اللسان» همز رأسه عصره، وهمز الجوزة بكفه، ومن المجاز همز الرجل في قفاه غمز بعينه، ورجل همزة وهماز، والشيطان يهمز الإنسان، يهمس في قلبه وسواساً، ويقال: أعوذ بالله من همسه وهمزه ولمزه.

وأعوذ بك من همزات الشيطان. وفي «المختار» وهمزات الشيطان: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان. ا هـ. وفي «البيضاوي» وأصل الهمز النخس. ومنه مهماز الرائض، شبه حثهم الناس على المعاصي، بهمز الرائض الدواب على المشي، والجمع للمرات، أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد المضاف إليه. ا هـ. فلا يرد ما يقال: الهمزة الواحدة أيضاً ينبغي أن يتعوذ منها، فما وجه الجمع ا هـ «كرخي». قلت: مهماز الرائض: حديدة توضع في مؤخر الرحل ينخس بها الدابة لتسرع. ا هـ.

﴿كَلَّآ﴾: كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب. ﴿مِّن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: من أمامهم. ﴿بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز بينهم وبين الرجعة؛ أي: حاجز يصدهم عن الرجوع إلى الدنيا، وهو المدة التي من حين الموت إلى البعث. وفي «السمين» البرزخ: الحاجز بين المتنافيين، وقيل: الحجاب بين الشيئين يمنع أن

يصل أحدهما إلى الآخر، وهو بمعنى الأول، وقال الراغب: أصله برزه بالهاء، فعرب، وهو في القيامة الحائل بين الإنسان وبين المنازل الرفيعة، والبرزخ قيل: هو الحائل بين الإنسان وبين الرجعة التي يتمناها ا هـ.

﴿فِي الصُّورِ﴾: الصور واحدها صورة، نحو بسر وبسرة؛ أي: نفخت في الأجساد أرواحها. ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ جمع نسب، والنسب: القرابة بين اثنين فصاعداً؛ أي: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول، كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض، كالنسب بين الأخوة وبني الأعمام، كما مر في مبحث التفسير.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ أي: موزونات أعماله، فالموازين جمع موزون، ويجوز كونه جمع ميزان. وجمعه حينئذٍ مع وحدته لتعدد الموزون ا هـ «شهاب»؛ أي: ثقلت موازينه بالحسنات، بثقلها على السيئات، بأن تجسم وتصور بصور حسان، وتوضع في كفة الميزان اليمنى، التي على يمين العرش، أو خفت موازينه بالحسنات، بثقل السيئات عليها بسبب زيادتها على الحسنات، بأن تجسم السيئات وتصور بصور ظلمانية، وتوضع في كفة الميزان اليسرى، التي هي على يسار العرش ا هـ. «شيخنا».

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تحرقها، واللفح: أشد النفخ؛ لأنه الإصابة بشدة، والنفح الإصابة مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ وفي «القاموس» لفح يلفح من باب فتح فلاناً بالسيف ضربه به، ولفحت النار لفحاً ولفحاناً، أو السموم بحرها فلاناً، أصابت وجهه، وأحرقته ﴿كَالِحُونَ﴾؛ أي: عابسون، الكلوح أن تتقلص الشفتان، وتتشمرا عن الأسنان، كما ترى الرؤس المشوية.

وفي «المختار» الكلوح تكشر في عبوس، وبابه خضع. قلت: ومنه كلوح الأسد؛ أي: تكشيره عن أنيابه، ودهر كالح وبرد كالح؛ أي: شديد.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أحد مصادر شقي. وفي «المختار» الشقاء والشقاوة بالفتح: ضد السعادة. وقرأ قتادة شقاوتنا بالكسر، وهي لغة، وقد شقي بالكسر

شقاء وشقاوة أيضاً. وأشقاه الله فهو شقي؛ أي: بين الشقوة. وفي «القاموس» وشرحه شقي يشقى من باب تعب شقاً، وشقاوة وشقاوة وشقوة وشقوة ضد سعد فهو شقي، والجمع أشقياء. والشقاوة سوء العاقبة.

﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾؛ أي: ذلوا فيها وانزجروا، كما تنزجر الكلاب إذا زجرت. وفي «الصحاح» خسأت الكلب وخسأ يتعدى بنفسه، ولا يتعدى. وفي «المختار» خسأ الكلب طرده، من باب قطع وخسأ هو بنفسه إذا خضع.

﴿سِخۡرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها، أصله سخراً بضم السين وكسرها أيضاً، وزيدت فيه ياء النسب، للدلالة على المبالغة في قوة الفعل، وهو المسخرة. ا هـ. «شيخنا». وفي «السمين» وزيدت الياء للدلالة على قوة الفعل، فالسخرى أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية دلالة على قوة ذلك. وفي «المصباح» سخرت منه سخراً من باب تعب هزئت به، والسخرِي بالكسر لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم، أو دابة بلا أجر، والسخرى بالضم بمعناه، وسخرته في العمل بالتثقيل استعملته مجاناً، وسخر الله الإبل ذللها وسهلها. ا هـ.

﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ واللبث: الإقامة، ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ بتشديد الدال جمع عاد من عدّ الشيء يعده، بضم العين في المضارع إذا أحصاه وحبسه. والمراد هنا: الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم، كما مر.

﴿عَبَثًا﴾: العبث بفتحتين: اللعب، وما لا فائدة فيه، وكل ما ليس فيه غرض صحيح، يقال: عبث يعبث عبثاً إذا خلط عمله بلعب، وأصله من قولهم: عبثت الأقط؛ أي: خلطته، والعبث طعام مخلوط، ومنه العوثباني لتمرٍ وسويق وسمن مختلط.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يبيد ولا يزول ملكه. وفي «البيضاوي» ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الذي يحق له الملك مطلقاً، فإن ما عداه مملوك بالذات، مالك بالعرض من وجه دون وجه، وفي حال دون حال. ا هـ.

و﴿ٱلْعَرْشِ﴾: هو مركز تدبير العالم، ووصفه بالكريم لشرفه، وكل ما شرف في جنسه يوصف بالكرم، كما في قوله: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وفي «أبي السعود» قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ أي: فكيف بما تحته وما أحاط به من المخلوقات، كائناً ما كان، ووصف بالكرم، إما لأنه ينزل منه الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين تعالى من حيث أنه أعظم مخلوقاته ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن وباللام وباسمية الجملة في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ لإنكار المخاطبين ذلك.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ لأن المعنى: ادفع بالحسنة السيئة، فهو طباق بالمعنى لا باللفظ.

وفي قوله أيضاً: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من البلاغة العدول عن مقتضى السياق لسر بليغ، فالظاهر أن يقول ادفع بالحسنة السيئة، ولكنه عدل عن مقتضى الكلام لما فيه من التفصيل، والمعنى: ادفع السيئة بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان، وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة.

ومنها: إعادة لفظ الرب في قوله: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ مبالغة في الابتهال والتضرع..

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن الأصل فلا تجعلني فيهم.

ومنها: إعادة كل من العامل والنداء في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ مبالغةً وزيادة اعتناء بهذه الاستعاذة.

ومنها: الإتيان بضمير الجمع، مع كون المرجع المفرد المعظم المنزه في قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ تعظيماً لله تعالى.

ومنها: جمع الضمير في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِم﴾ مع عوده إلى الأحد، اعتباراً بالمعنى؛ لأنه في حكم كلهم، كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ، ذكره «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ حيث أطلق الكلمة على الجملة، وهو من إطلاق الجزء، وإرادة الكل.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فقد قصد بنفي الأنساب، وهي موجودة أمراً آخر لنكتة فيه، فإن الأنساب ثابتة لا يصح نفيها.

وقد كان العرب يتفاخرون بها في الدنيا، ولكنه جنح إلى نفيها، إما لأنها تلغو في الآخرة، إذ يقع التقاطع بينهم فيتفرقون معاقبين، أو مثابين، أو أنه قصد بالنفي صفة للأنساب محذوفة؛ أي: يعتد بها حيث تزول بالمرة، وتبطل لزوال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة عليهم.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وبين ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ حتى أنساكم استهزاؤهم ذكري، فهو من إسناد ما للشيء إلى صاحبه.

ومنها: الاستفهام التبكيتي الإلزامي في قوله: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ استحضاراً

للصورة الماضية.

ومنها: حذف جواب لو في قوله: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثقةً بدلالة ما سبق عليه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للنداء عليه بهذا الوصف القبيح. وفيه أيضاً مراعاة معنى من؛ لأن الأصل إنه لا يفلح.

ومنها: تقديم المغفرة على الرحمة في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾؛ لأن باب التخلية مقدم على باب التحلية.

ومنها: تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام، حيث بدأ السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وأورد في خاتمتها أنه لا يفلح الكافرون. ذكره في «البحر».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الحكم والأحكام والآداب

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ فوز المؤمنين ذوي الصفات الفاضلة، بدخول الجنات خالدين فيها أبداً.

٢ ـ ذكر حال النشأة الأولى.

٣ ـ خلق السماوات السبع وإنزال المطر من السماء، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب، وذكر منافع الحيوان للإنسان.

٤ ـ قصص بعض الأنبياء، كنوح وشعيب وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام، ثم أمرهم جميعاً بأكل الطيبات وعمل الصالحات.

٥ ـ أنه لا يكلف الله عباده، إلا بما فيه يسر وسماحة.

٦ ـ وصف ما يلقاه الكافرون من النكال والوبال يوم القيامة، وتأنيبهم على عدم الإيمان بالرسول، وتفنيد المعاذير التي اعتذروا بها.

٧ ـ ذكر ما أنعم به على عباده، من الحواس والمشاعر.

٨ ـ إنكار المشركين للبعث والجزاء، والحجاج على إثبات ذلك.

٩ ـ النعي على من أثبت الولد، والشريك لله تعالى.

١٠ ـ دعاء النبي ﷺ ربه أن لا يجعله في القوم الظالمين، حين عذابهم.

١١ ـ تعليم نبيه ﷺ الأدب في معاملة الناس، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين عنه.

١٢ ـ طلب الكفار العودة إلى الدنيا، حين رؤية العذاب، لعلهم إذا عادوا عملوا صالحاً.

١٣ ـ وصف أهوال يوم القيامة، وبيان ما فيها من الشدائد.

١٤ ـ أوصاف السعداء والأشقياء.

١٥ ـ تأنيب الكافرين على طلبهم العودة إلى الدنيا، وزجرهم على هذا الطلب.

١٦ ـ سؤال المشركين عن مدة لبثهم في الدنيا، وبيان أنهم ينسون ذلك.

١٧ ـ النعي على من عبد مع الله إلهاً آخر.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) قد تمّ تفسير سورة المؤمنون بعون الله تعالى، وتوفيقه، بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٤١٢ هـ. وفي أوائل الليلة السابعة من شهر الله ذي الحجة من شهور سنة ألف وأربع مئة واثني عشرة سنة، من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة النور

مدنية بالإجماع، كما في «القرطبي»، وهي[1] اثنتان أو أربع وستون آية، وألف وثلاث مئة وست عشر كلمة، وخمسة آلاف وتسع مئة وثمانون حرفاً.

ومن فضائلها[2]: ما روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه»، وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن عائشة مرفوعاً «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة» يعني النساء «وعلموهن الغزل وسورة النور».

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نسائكم سورة النور» وهو مرسل.

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب، أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله[3] محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جملة ما في سورة النور من المنسوخ سبع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ الآية (٤) نسخت بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ (٥).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (٣) هذه الآية من أعاجيب آيات القرآن، لأن لفظها لفظ الخبر، ومعناها: النهي، تقدير الكلام: - والله أعلم - لا تنكحوا زانيةً ولا مشركةً، ناسخها قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية (٣٢) النور.

---

(١) المراح.

(٢) زاد المسير والشوكاني.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ الآية (٦) نسخها بالآيتين اللتين بعدها، وهما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ (٧) وكذلك ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ (٩).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ الآية (٢٧) نسخت بقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ الآية (٢٩).

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ الآية (٣١) نسخ بعضها بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾ الآية (٥٤). نسخها آية السيف.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ الآية (٥٨) نسخها بالآية التي تليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ الآية (٥٩) انتهى.

ومناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

١ ـ أنه قال في السورة السالفة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغضّ البصر الذي هو داعية الزنا، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، والنهي عن إكراه الفتيات على الزنا.

٢ ـ أنه تعالى لما قال فيما سلف أنه لم يخلق عبثاً، بل للأمر والنهي، ذكر هنا جملةً من الأوامر والنواهي. وتسميتها بسورة النور لذكر لفظ النور فيها.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لما قبلها قد مرت قريباً: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه[1] لما نفَّر من نكاح الزانيات، وإنكاح الزانين، وبين أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسله.. نهى هنا عن رمي المحصنات به، وشدد في عقوبته الدنيوية والأخروية، فجعل عقوبته في الدنيا الجلد، وأن لا تقبل له شهادة أبداً، فيكون ساقط الاعتبار في نظر الناس، ملغى القول، لا تسمع له كلمة، وجعل عقوبته في الآخرة العذاب المؤلم الموجع، إلا

(١) المراغي.

إذا تاب إلى الله، وأناب وأصلح أعماله، فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه لما بين الله سبحانه حكم قاذف الأجنبيات بالزنا، وذكر أنه لا يعفى القاذف عن العقوبة، إلا إذا أتى بأربعة شهداء.. ذكر هنا ما هو في حكم الاستثناء من ذلك، وهو قذف الزوجات، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة في الآية؛ لأن في تكليف الزوج إحضار الزوج إعناتاً وإحراجاً، ولما يلحقه من الغيرة على أهله، ثم كظم الغيظ إذ لم يجد مخلصاً من ضيقه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً...﴾ الآية، اختلف العلماء[1] في سبب نزول هذه الآية، فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم، ولا عشائر، وفي المدينة نساء بغايا، هن أخصب أهل المدينة، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن، لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فنزلت هذه الآية، فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا؛ لأنهن كن مشركات. وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس.

وقال عكرمة: نزلت في نساءٍ كن بمكة والمدينة، لهن رايات يعرفن بها، منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وكان في الجاهلية من ينكح الزانية يتخذها مأكلة، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة، فاستأذن رجل رسول الله ﷺ في نكاح أم مهزول، واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

---

(١) الخازن.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت بمكة بغي، يقال لها: عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرّم الزنا، قالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد شيئاً، فنزلت آية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني، فقرأها علي، وقال: «لا تنكحها». أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، بألفاظ متقاربة المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ . . .﴾ الآيات، قال الإمام[1] البخاري رحمه الله تعالى في (ج ١/ ص ٦٤): حدثنا إسحاق، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا الأوزاعي قال: حدثني الزهري عن سهل بن سعد، أن عويمراً أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ السائل، فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل، وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله: «قد أنزل الله القرآن فيك، وفي صاحبتك»، فأمره رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها، ثم قال: يا رسول، إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها، فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا، فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين، عظيم الإليتين، خدلج الساقين.. فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها. وإن جاءت به أحمر كأنه وحرة، فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ

(١) البخاري.

من تصديق عويمر، فكان بَعدُ ينسب إلى أمه. والحديث أخرجه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد ومالك والدارمي والدارقطني وابن جرير.

وأخرج البزار عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كانت فاعلاً به»؟ قال: كنت والله فاعلاً به شرّاً. «فأنت يا عمر»؟ قال: كنت والله قاتله، كنت أقول: لعن الله الأعجز، فإنه خبيث فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

وأخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة أو حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وأخرجه أحمد بلفظ لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً. قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا نزلت يا رسول الله: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟ قالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني أعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أنحيه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا أتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه، وسمع بأُذنه فلم يهجه حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله ﷺ، وقال له: إني جئت أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في

الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منه مخرجاً، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، فأنزل الله عليه الوحي، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...﴾ الآية.

وأخرج أبو يعلى مثله من حديث أنس، قال الحافظ ابن حجر: اختلف الأئمة في هذه المواضع، فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر. ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال. ومنهم من جمع بينهما؛ بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادق بمجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً. وإلى هذا جنح النووي، وتبعه الخطيب، فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد. قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال، فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال أعلمه النبي ﷺ بالحكم، ولذا قال في قصة هلال: فنزل جبريل، وفي قصة عويمر قد أنزل الله فيك، فيؤول قوله: قد أنزل الله فيك؛ أي: فيمن وقع له مثل ما وقع لك. وبهذا أجاب ابن الصباغ في «الشامل»، وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين.

التفسير وأوجه القراءة

قال القرطبي: مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر وغيرها، من الأحكام الدينية المفصلة. ﴿سُورَةٌ﴾. قرأ الجمهور سورة بالرفع؛ أي: هذه الآيات الآتي ذكرها سورة أنزلناها، على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجوزوا أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: سورة أنزلناها فيما أوحينا إليك يا محمد أو فيما يتلى عليك. قال الزجاج: وهذا قبيح[1]؛ لأنها نكرة وإنما الرفع على إضمار هذه.

وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وعيسى بن عمر الثقفي البصري وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو وأم الدرداء ﴿سُورَةً﴾ بالنصب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، فيكون من باب الاشتغال؛ أي: أنزلنا سورة أنزلناها، أو بفعل مقدر غير مفسر، تقديره: أتل

---

(١) زاد المسير.

سورة أنزلناها، أو اتبعوا سورة أنزلناها أو على الإغراء؛ أي: دونك سورة أنزلناها. قاله الزمخشري.

وسورة القرآن[1] طائفة منه محيطة بما فيها من الآيات والكلمات والعلوم والمعارف، مأخوذة من سور المدينة، وهو حائطها المشتمل عليها، وإنما أشير إليها في قولنا هذه سورة مع عدم سبق ذكرها؛ لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد، والتنكير مفيد للفخامة من حيث الذات، كما في قوله: ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: مفيد لها من حيث الصفة؛ أي: أنزلنا إليك من عالم القدس بواسطة جبريل، أو أعطيناكها أيها الرسول.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: قرأ الجمهور بتخفيف الراء؛ أي: أوجبنا[2] ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وألزمناكم العمل بها، فإن أصل الفرض قطع الشيء الصلب، والتأثير فيه، كقطع الحديد. وقيل معناه: قدرنا ما فيها من الحدود. وقيل: أوجبناها عليكم، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة، وفيه من الإيذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى.

وقرأ[3] عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير بتشديد الراء لتأكيد[4] الإيجاب، أو لكثرة الفرائض فيها، كالزنا والقذف واللعان والاستئذان وغض البصر وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في تضاعيف السورة وأثنائها ﴿ءَايَاتٍ﴾ نيطت بها الأحكام المفروضة، كما هو الظاهر، لا جميع الآيات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على أحكامها المفروضة، لتكون لكم أيها المؤمنون قبساً ونبراساً. وقيل معنى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: أمثالاً[5] ومواعظ وأحكاماً ليس فيها مشكل يحتاج إلى تأويل.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.
(٤) أبو السعود.
(٥) البحر المحيط.

وفي «الشهاب» قال الإمام الرازي: ذكر الله في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ إشارة إلى الأحكام وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إشارة إلى ما بين فيها من دلائل التوحيد ويؤيده قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى نؤمر بتذكرها.

وتكرير[1] أنزلناها مع استلزام إنزال السورة لإنزالها، لإبراز كمال العناية بشأنها، فكأنه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة، وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتعظون فتتقون المحارم؛ أي: لكي تتعظوا، وتعتبروا بهذه الأحكام، وتعملوا بموجبها.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال[2]، وحذف إحدى التائين. والباقون بالتشديد. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على ذكر منهم، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى[3] امتن على عباده بما أنزل عليهم في هذه السورة من الفرائض والأحكام، وفصله لهم من أدلة التوحيد وبيناته الواضحة، التي لا تقبل جدلاً، ليعدهم بذلك؛ لأن يتعظوا ويعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم وفي صلاحهم، فإن في حفظ الفروج صيانة للأنساب، واطمئناناً على سلامتها مما يشوبها، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد، التي قد تجر إلى القتل، وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد، وأمناً على الصحة، والبعد من الأمراض التي قد تودي بحياة المرء وتوقعه في أشد المصائب، وأعظم ألوان المهالك.

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع، ففيها نظام دخول البيت للتزاور، وفيها حفظ الألسنة، وصونها عن الولوغ في الأعراض بما لا ينبغي أن يقال، حتى لا ينتشر الفحش بين الناس. وفيها تحذير للعباد من ذلك

---

(١) أبو السعود.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والخلاصة: أنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود الشرعية، وفي آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته. فأشار إلى الأول بقوله: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وإلى الثانية بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ والفائدة في كل هذا اتقاء المحارم والبعد عنها، ومعرفة الله حق المعرفة، التي تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قل أو كثر، فإذا تمّ له ذلك.. صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع، وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس.

مبحث في عقوبة الزنا

الزاني والزانية إما أن يكونا محصنين؛ أي: متزوجين، أو غير محصنين؛ أي: غير متزوجين. وعقوبة الزنا إما دنيوية، وإما أخروية. أما الدنيوية: فإن كان الزانيان محصنين، واستوفيا الشروط الآتية، وهي أن يكونا بالغين عاقلين، حرين متزوجين بعقد نكاح صحيح.. وجب رجمهما؛ أي: رميهما بالحجارة حتى يموتا. ويكون ذلك في حقل عام للمسلمين، ليعتبر بهما غيرهما. واعتبرت[1] الحنفية الإسلام أيضاً. وهو مردود برجمه ﷺ يهوديين، ولا يعارضه حديث «من أشرك بالله فليس بمحصن» إذ المراد بالمحصن فيه هو الذي يقتص له من المسلم، ولا رجم على الرقيق؛ لأنه لا ينتصف.

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة. ورواه الثقات عن النبي ﷺ. فقد رواه أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وزيد بن خالد وبريدة الأسلمي مع آخرين من الصحابة. وجاء في رواياتهم: (أن رجلاً من الصحابة يسمى ماعزاً أقرّ بالزنا فرجم. وأن امرأتين من بني لخم وبني غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس، ومرأى منهم).

---

(١) الخازن.

وإن كان الزانيان غير محصنين.. فالعقوبة مئة جلدة بمحضر جمع من المسلمين، كما بينته الآية، ليفتضح أمرهما، كما مر ذلك قريباً، والرقيق على النصف من ذلك.

وزاد الشافعي[1]: عليه تغريب الحر سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «البكر بالبكر، جلد مئة وتغريب عام». وليس في الآية ما يدفعه لنسخ أحدهما بالآخر نسخاً مقبولاً، أو مردوداً. وله في العبد ثلاثة أقوال. وقال أبو حنيفة: التغريب إلى رأي الإمام. وقال مالك: يجلد الرجل مئة جلدة ويغرب. وتجلد المرأة ولا تغرب.

طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة:

١ ـ الإقرار به. وهذا هو الطريق الذي ثبت به الزنا في الإسلام، وبه أوقع النبي ﷺ وصحابته العقوبة على من زنى.

٢ ـ الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها.

٣ ـ شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما متلبسان بالجريمة.

عقوبة الزنا الأخروية

تقدم بياننا المساوي والأضرار التي تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات في الدنيا، وهنا نذكر حكمه الأخروي، فنقول: اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر الآثام، وأنه من الذنوب التي شدد الدين في تركها، وأغلظ في العقوبة على فعلها، وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره، مما حرم الله تعالى، فقد قرن بالشرك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) البيضاوي.

وروي عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ، قال: «يا معشر الناس، اتقوا الزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، أما التي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر. وأما التي في الآخرة: فسخط الله سبحانه وتعالى، وسوء الحساب، وعذاب النار».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي: قال: «وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك»، قلت: ثم أي: قال: «وأن تزني بحليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾. متفق عليه.

ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فأل فيهما موصولة بمعنى: التي، والذي. فلذلك ربط الخبر بالفاء، لما في المبتدأ من معنى الشرط، وهو العموم، والتقدير: التي زنت من النساء، والذي زنى من الرجال، وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين، فاجلدوا كلا منهما مئة جلدة، عقوبة له على ما أتى من معصية الله.

والزاني[1]: من وطىء المرأة من غير عقد شرعي، ولا شبهة.

والزانية: هي المرأة المطاوعة للزنى الممكنة منه، كما تبنىء عنه الصيغة. لا المزنية كرها. وكذلك الزاني، والخطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين.

فإن قلت: لم قدمت[2] المرأة في آية حد الزنا، وأخرت في آية حد السرقة؟

قلت: إن الزنا إنما يتولد بشهوة الوقاع، وهي في المرأة أقوى وأكثر،

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات بتصرف.

ولكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة، وهي في الرجل أقوى وأكثر، كما مرّ في المائدة.

والجلد[1]: الضرب بالجلد، وهو بكسر الجيم قشر البدن. يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه. وقالت الحنفية: وهذا دليل على أن التغريب ليس بمشروع؛ لأن الفاء إنما يدخل على الجزاء، وهو اسم للكافي. والتغريب المروي منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ وقوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بهذه الآية. ذكره النسفي في تفسيره.

تنبيه: وكان[2] هذا الحكم عامّاً في المحصن وغيره، وقد نسخ في المحصن قطعاً بالقرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه، وهو: ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ وبالسنة المتواترة، وبإجماع أهل العلم. ويكفينا في حق الناسخ القطع بأنه عليه السلام قد رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالكتاب، وبالسنة المشهورة. فحد المحصن الرجم، وحد غير المحصن الجلد.

وشرائط الإحصان في باب الرجم ستة عند أبي حنيفة، كما مرّ: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ، والنكاح الصحيح، والدخول. فلا إحصان عند فقد واحدة منها. وفي باب القذف: الأربع الأول والعفة.

فمعنى قولهم: حدّ الزنا رجم محصن؛ أي: مسلم حر عاقل بالغ متزوج ذي دخول. ومعنى قولهم: من قذف محصناً؛ أي: مسلماً حراً عاقلاً بالغاً عفيفاً، وإذا فقدت واحدة منها فلا إحصان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ بالرفع، وعبد الله ﴿والزان﴾ بغير ياء. وقرأ عيسى الثقفي ويحيى بن يعمر وعمرو بن فائد وأبو جعفر وشيبة وأبو السمال

---

(1) الشوكاني.

(2) روح البيان بزيادة.

(3) البحر المحيط.

ورويس ﴿الزانيةَ والزاني﴾ بنصبهما على الاشتغال؛ أي: واجلدوا الزانية والزاني، كقولك زيداً فاضربه، ولدخول الفاء هنا وفي أمثاله تقرير ذكر في علم النحو، والنصب هنا أحسن منه في ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا﴾ لأجل الأمر.

وقال أبو حيان: وقد تضمنت[1] هذه السورة أحكاماً كثيرةً فيما يتعلق بالزنا، ونكاح الزناة، وقذف المحصنات، والتلاعن والحجاب وغير ذلك، فبدىء بالزنا لقبحه، وما يحدث عنه من المفاسد والعار، وكان قد نشأ في العرب وصار من إمائهم أصحاب رايات.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ أيها المسلمون ﴿بِهِمَا﴾؛ أي: بالزانية والزاني ﴿رَأْفَةٌ﴾؛ أي: رحمة ورقة، وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. كما في «النسفي». وتنكيرها للتقليل؛ أي[2]: لا يأخذكم شيء قليل من الرحمة والشفقة عليهما ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: في طاعته وإقامة حده، فتعطلوه أو تسامحوا فيه بعدم الإيجاع ضرباً، والتكميل حدّاً، ولذلك قال عليه السلام: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». وذلك أن المضروب يفعل أثناء الضرب أفعالاً غريبة، ويتضرع ويستغيث، ويسترحم، وربما يغشى عليه، فيرأف به الإمام، أو الضارب أو بعض الحاضرين، لا سيما إذا كان أحب الناس إليه، كالولد والأخ مثلاً، فلا يستوفي حد الله وحقه، ولا يكمل جلده مئة بل ينقصه بترك شيء منها، أو بتخفيف الضرب، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك. وفيه تنبيه على أن الله تعالى إذا أوجب أمراً قبح استعمال الرحمة فيه.

وفي الحديث: «يؤتى بوالٍ نقَّص من حدٍ سوطاً، فيقال: لم نقصت؟ فيقول: رحمة لعبادك، فيقال له: أنت أرحم مني، انطلقوا به إلى النار، ويؤتى بمن زاد سوطاً. فيقال: لم زدت؟ فيقول: لينتهوا عن معاصيك، فيقال له: أنت أحكم مني فيؤمر به إلى النار».

قال في «الأسئلة المقحمة»: إن الله تعالى نهى عن الرأفة والرحمة، وعلى

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

هذا، إن وجدنا واحداً بقلبه إشفاق على أخيه المسلم حيث وقع في المعصية هل يؤاخذ بها؟ والجواب: أنه لم يرد الرأفة الجبلية والرحمة الغريزية، فإنها لا تدخل تحت التكليف، وإنما أراد بذلك الرأفة التي تمنع عن إقامة حدود الله،وتفضي إلى تعطيل أحكام الشرع، فهي منهي عنها.

قال في «بحر العلوم»: وفيه دلالة على أن المخاطبين يجب عليهم أن يجتهدوا في حد الزنى، ولا يخففوا الضرب بل يوجعوها ضرباً، وكذلك حق القذف عند الزهري، لا حدّ الشرب، وعن قتادة يخفف في حدّ الشرب والقذف، ويجتهد في حدّ الزنى.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ بالتاء لتأنيث لفظ الرأفة. وقرأ أبو عبد الرحمٰن[1] السلمي وأبو رزين والضحاك وابن يعمر والأعمش ﴿يأخذكم﴾ بالياء. وقرأ الجمهور: نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿رَأْفَةٌ﴾ بسكون الهمزة بوزن رحمة. وقرأ أبو المتوكل ومجاهد وأبو عمران الجوني وابن كثير ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة وقصرها على وزن رعفة. وقرأ سعيد بن جبير والضحاك وأبو رجاء العطاردي ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة ومدها على وزن سآمة وكآبة، وكلها مصادر أشهرها الأول.

فصل

واختلف[2] العلماء في شدة الضرب في الحدود، فقال الحسن البصري: ضرب الزنا أشد من القذف، والقذف أشد من الشرب، وضرب الشارب أشد من ضرب التعزير، وعلى هذا مذهب أصحابنا. وقال أبو حنيفة: التعزير أشد الضرب. وضرب الزنا أشد من ضرب الشارب، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف. وقال: مالك: الضرب في الحدود كلها سواء غير مبرح.

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

فأما ما يضرب من الأعضاء: فنقل الميموني عن أحمد في جلد الزاني، قال: يجرد ويعطى كل عضو حقه، ولا يضرب وجهه ولا رأسه، ونقل يعقوب بن بختان لا يضرب الرأس ولا الوجه ولا المذاكير، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: لا يضرب إلا في الظهر. وقال الشافعي: يتقى الفرج والوجه. وكيفية الضرب: أن يكون[1] بسوط لين له رأس واحدة، ويجرد الرجل من ثيابه إلا من إزار كما سيأتي. والمرأة مما يقيها ألم الضرب، وتوضع في قفة فيها تراب للستر.

والخلاصة: ولا تأخذكم[2] بهما رحمة ورقة في تنفيذ حكم الله تعالى؛ فتعطلوا الحدود، أو تخففوا الضرب، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا في دين الله، ولا يأخذكم اللين والهوادة في استيفاء الحدود، وكفى برسول الله ﷺ أسوة لكم في ذلك، إذ قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ وتصدقون ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربكم ﴿وَ﴾ بأنكم تبعثون للحشر في ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: يوم القيامة، وتجازون بالثواب والعقاب، فإن من كان مصدّقاً بذلك لا يخالف أمر الله ونهيه، خوف عقابه على معاصيه. وفي هذا[3] تهييج وتحريض والتهاب الغضب لله، ولدينه ولتنفيذ حدوده، وإقامة شريعته. فإن الإيمان بهما يقتضي الجد في طاعته، والاجتهاد في إجراء الأحكام.

قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الشفقة على المخالفين، كالإعراض عن الموافقين، وذكر اليوم الآخر؛ لتذكر ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة، والتعطيل. وإنما سمى يوم القيامة اليوم الآخر؛ لأنه لا يكون بعده ليل فيصير كله بمنزلة يوم واحد. وقد قيل: إنه تجتمع الأنوار كلها، وتصير في الجنة يوماً واحداً، وتجتمع الظلمات كلها وتصير في النار ليلة واحدة.

﴿وَلْيَشْهَدْ﴾؛ أي: وليحضر وجوباً نظراً لظاهر الأمر، لكن الفقهاء قالوا

---

(١) الصاوي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

بالاستحباب ﴿عَذَابَهُمَا﴾؛ أي: حدهما إذا أقيم عليهما ﴿طَآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحصل بهما التشهير لأمرهما، أقلهم ثلاثة، وأكثرهم عشرة فما فوقها، فإنهما إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، والزيادة في تأنيبهما على ما فعلا.

والطائفة[1]: الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف، أقل الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

تنبيه: فحد غير المحصن[2]: جلد مئة وسطاً بسوط لا ثمرة له، ويجلد الرجل قائماً وينزع عنه ثيابه إلا إزاره، ويفرق على بدنه إلا رأسه ووجهه. وتجلد المرأة قاعدةً لا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو، وجاز الحفر لها، لا له. ولا يجمع بين جلد ورجم، ولا بين جلد ونفي إلا سياسة، ويرجم مريض زنى، ولا يجلد حتى يبرأ، وحامل زنت ترجم حين وضعت، وتجلد بعد النفاس، وللعبد والأمة نصفها، ولا يحدهما سيدهما إلا بإذن الإمام خلافاً للشافعي.

وفي الحديث: «إقامة حدّ بأرض، خير لأهلها من مطر أربعين ليلة» واعلم أن الزنا حرام وكبيرة، وقد تقدم ما فيه من المساوي والإضرار، ومن الزنى زنى النظر، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس اللعين.

ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني والزانية، فقال: ﴿ٱلزَّانِي﴾؛ أي: الرجل الذي زنى، وقد تقدم حدّ الزنا، بأنه وطء الرجل للمرأة في فرجها، من غير نكاح ولا شبهة نكاح، وقيل: هو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرماً شرعاً. ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ أي[3]: الخبيث الذي من شأنه الزنا، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ولا يتزوجها، وإنما يرغب في خبيثة من شكله، أو في مشركة. ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾؛ أي: والمرأة التي طاوعت الزنا، ومكنت منه؛ أي: والخبيثة التي من شأنها الزنا ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾؛ أي: لا يتزوجها ﴿إلا زان﴾ مثلها ﴿أو

---

(1) الشوكاني.
(2) روح البيان.
(3) النسفي.

مشرك﴾؛ أي: لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وإنما يرغب في نكاحها وتزوجها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين؛ أي: إنما يتزوجها من هو مثلها، أو أخس منها.

وهذا حكم[١] مؤسس على الغالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني، بعد زجرهم عن الزنا بهن، يعني الغالب أن المائل إلى الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله، أو مشركة، والمسافحة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها، أو مشرك. فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع، كما أن المخالفة سبب الوحشة والافتراق. فالآية تزهد في نكاح البغايا، إذ الزنا عديل الشرك في القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

وقدم الزاني على الزانية في هذه الآية عكس ما تقدم؛ لأن الرجل في النكاح من حيث إنه هو الطالب، ومنه تبدأ الخطبة؛ ولأن الآية نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كن بالمدينة من بغايا المشركين، لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية.

والمعنى[٢]: أن الفاسق الفاجر الذي من شأنه الزنا والفسق، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة، أو في مشركة مثله، والفاسقة المستهترة لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال، بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة، ولقد قالوا في أمثالهم: إن الطيور على أشكالها تقع.

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب، كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل الخير من ليس بتقي، فكذا هذا، فإن الزاني قد ينكح

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

المؤمنة العفيفة، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف.

قال ابن جرير الطبري: (١٨/ ٧٥) وأولى الأقوال[١] في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عني بالنكاح في هذا الموضع الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان. فمعلوم إذ كان ذلك كذلك أنه لم يعن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، لا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذاكان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية، لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحله.

قال ابن كثير: ومن[٢] ها هنا ذهب الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد اختلف[٣] في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعي وأبو حنيفة: بجواز ذلك، وروي عن ابن عباس وروي عن عمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك، فهما زانيان أبداً وبه قال مالك.

وقال الزمخشري: فإن قلت[٤]: أي فرق بين معنى الجملة الأولى، أعني قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ومعنى الجملة الثانية، أعني قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾؟

قلت: معنى الأولى وصف الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في

---

(١) الطبري.

(٢) ابن كثير.

(٣) الشوكاني.

(٤) الكشاف.

الفواجر. ومعنى الثانية، وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن للزناة. وهما معنيان مختلفان.

وعن عمرو بن عبيد ﴿لَا يَنكِحُ﴾ بالجزم على النهي، والمرفوع فيه معنى النهي. ولكن هو أبلغ وآكد، كما أن رحمك على ذلك، وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة، ويتصون عنها، انتهى.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: نكاح الزواني والمشركات. وقيل: الضمير يعود للزنا. قاله الفراء. ذكره ابن الجوزي. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب بسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد اللاتي لا تكاد تليق بأحد من الأداني والأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبر عن كراهة التنزيه بالتحريم مبالغة في الزجر. والحكم إما مخصوص بسبب النزول، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ فإنه متناول للمسافحات. وبقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ ويؤيده ما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله سفاح وآخره نكاح» والحرام لا يحرم الحلال.

وفي الآية إشارة إلى الحذر عن أخدان السوء، والحث على مخالطة أهل الصحبة والأخدان في الله تعالى، فإن الطبع من الطبع يسرق، والمقارنة مؤثرة، والأمراض سارية. وفي الحديث: «لا تسكنوا مع المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم وليس منا»؛ أي: لا تسكنوا مع المشركين في المسكن الواحد، ولا تجامعوا معهم في المجلس الواحد، حتى لا تسري إليكم أخلاقهم، وسيرهم القبيحة بحكم المقارنة، وللناس أشكال، وكل يطير بشكله، وكل مساكن مثله، كما قال قائلهم:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِيْنَهُ ... فَإِنَّ ٱلْقَرِيْنَ بِٱلْمُقَارَنِ يَقْتَدِيْ

فأما أهل الفساد فالفساد يجمعهم، وإن تناءت ديارهم، أما أهل السداد، فالسداد يجمعهم وإن تباعد مزارهم، ومن بلاغات الزمخشري «لا ترض لمجالستك إلا أهل مجانستك»؛ أي: لا ترض أن تكون جليس أحد من غير

جنسك، فإنه العذاب الشديد ليس إلا. وجاء في مسائل الفقه أن من رأى نصرانية سمينة أو جميلة فتمنى أن يكون نصرانياً ليتزوجها كفر، فعلى العاقل أن يصون نفسه بقدر الإمكان، فإن الله تعالى غيور ينبغي أن يخاف منه كل آنٍ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول. وقرأ أبو البرهشيم: ﴿وحرم ذلك﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: حرم الله ذلك. وقرأ زيد بن علي ﴿وحرم ذلك﴾ بفتح الحاء وضم الراء مخففة. وقرأ أبيّ بن كعب وأبو المتكل وأبو الجوزاء ﴿وحرم الله ذلك﴾ بزيادة اسم الله عز وجل مع فتح حروف حرم كلها.

والمعنى: أي إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح الزانية، ورغبته فيها، واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا، محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفساق، ومن حضور مواضع الفسق والفجور، التي قد تسبب له سوء القالة، واغتياب الناس له، وكم في مجالسه الفساق من التعرض لاقتراف الآثام فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار.

وجاء في الخبر: «من حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه».

مبحث حكم قذف غير الزوجة من النساء

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ أي: يشتمون ويقذفون ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: الحرائر المكلفات العفيفات، من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا، وظاهر قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ الذكور، ولكن حكم الراميات كحكمهم. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ إلى الحكام على ما رموهن به من ذلك ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ذكور عدول، يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾؛ أي: فاضربوا أيها الحكام أولئك القاذفين ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾؛ أي: ضربة، جزاء لهم على ما فعلوا من ثلم العرض، وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق لظهور كذبهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء.

---

(١) زاد المسير.

والمراد بالمحصنات هنا(١): الأجنبيات؛ لأن رمي الأزواج؛ أي: النساء الداخلات تحت نكاح الرامين حكمه سيأتي، وتخصيص المحصنات لشيوع الرمي فيهن، وإلا فقذف الذكر والأنثى سواء في الحكم المذكور.

وبيان حكم الآية(٢): أن من قذف محصناً، أو محصنة بالزنا، فقال له أو لها: يا زاني أو يا زانية، أو زنيت، أو يا ابن الزاني، يا ابن الزانية، أو يا ولد الزنى، أو لست لأبيك، ويا ابن فلان.. فيجب عليه جلد ثمانين إن كان القاذف حرّاً، وإن كان عبداً يجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير. وأجمعوا على أن شرائط إحصان القذف خمسة: الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة من الزنا، حتى لو زنى في عمره مرة واحدة، ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك، ثم قذفه قاذف، فلا حدّ عليه، فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا، أو أقام القاذف أربعة شهود يشهدون عليه بالزنا، سقط الحد عن القاذف؛ لأن الحد إنما وجب عليه لأجل الفرية وقد ثبت صدقه.

وأما الكنايات في القذف، مثل أن يقول: يا فاسق، أو يا فاجر، أو يا خبيث، أو يا مؤاجر، أو يقول امرأتي لا ترد يد لامس، فهذا ونحوه لا يكون قذفاً إلا إذا أراد بذلك القذف. وأما التعريض، مثل أن يقول: أما أنا فما زنيت، أو ليست امرأتي زانية، فليس بقذف عند الشافعي وأبي حنيفة. وقال مالك: يجب فيه الحد. وقال أحمد: هو قذف في حال الغضب، دون حال الرضا.

والقذف(٣) بغير الزنا مثل أن يقول: يا شارب الخمر، يا آكل الربا يا نصراني، يا يهودي، يا مجوسي، فيوجب التعزير، كقذف غير المحصن. وأكثر التعزير تسعة وثلاثون سوطاً وأقله ثلاثة؛ لأن التعزير ينبغي أن لا يبلغ أقل الحد أربعين جلدة وهي حدّ العبيد في القذف والزنا.

والفرق بين التعزير والحد: أن الحد مقدر، والتعزير مفوض إلى رأي

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

الإمام، وأن الحد يندرىء بالشبهات دونه، وأن الحد لا يجب على الصبي، والتعزير شرع فيه، والحد يطلق على الذمي إن كان مقدراً، والتعزير لا يطلق عليه، لأن التعزير شرع للتطهير والكافر ليس من أهل التطهير. وإنما يسمى في حق أهل الذمة إذا كان غير مقدر عقوبةً، وإن التقاوم يسقط الحد دون التعزير، وإن التعزير حق العبد كسائر حقوقه، يجوز فيه الإبراء والعفو والشهادة على الشهادة، ويجري فيه اليمين، ولا يجوز شيء منها في الحد.

وفي كلمة[1] ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إشعار بجواز تأخيره الإتيان بالشهود، وفي كلمة ﴿لم﴾ إشارة إلى العجز عن الإتيان بهم، ولا بدّ من اجتماع الشهود عند الأداء عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ؛ أي: الواجب أن يحضروا في مجلس واحد.

وإن جاؤوا متفرقين كانوا قذفة، وفي قوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ دلالة على أنهم إن شهدوا ثلاثة يجب حدهم لعدم النصاب، وكذا إن شهدوا عمياناً، أو محدودين في قذف، أو أحدهم محدود، أو عبد لعدم أهلية الشهادة.

وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، ونصب جلدة على التمييز، كما سيأتي في مبحث الإعراب. أي: اضربوا كل واحد من الرامين ثمانين ضربة، إن كان القاذف حرّاً، وأربعين إن كان رقيقاً، كما مرّ، لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، كما سبق.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ عطف[2] على ﴿اجلدوا﴾ داخل في حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر؛ لأنه مؤلم للقلب، كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاء وفاقاً؛ أي: فاجمعوا لهم بين الأمرين الجلد وترك قبول الشهادة؛ لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول، بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية. ذكره الشوكاني.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفائدتها: تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمي، وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام؛ لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة، بل أهليته لها حدثت بعد إسلامه، فلا يتناولها الرد.

والمعنى: لا تقبلوا من القاذفين شهادةً من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند القذف ﴿أَبَدًا﴾؛ أي[1]: ما داموا مصرين على عدم التوبة، وهذا هو المراد بالأبدية بدليل الاستثناء الآتي، وهذا على مذهب الإمام الشافعي ومالك، من رد الاستثناء إلى الجملتين، وأما على مذهب أبي حنيفة من رده إلى الأخير فقط.. فالمراد بالأبد مدة حياتهم، وإن تابوا وأصلحوا.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ القاذفون ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: المحكوم عليهم بالفسق؛ أي: الكاملون في الفسق، والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحدود. قال في «الكبير»: يفيد أن القذف من الكبائر؛ لأن الفسق لا يقع إلا على صاحبه.

والمعنى: أي[2] وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم، إذ أنهم فسقوا عن أمره، وارتكبوا كبيرة من الكبائر، باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذباً وبهتاناً، وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات، وأوقعوا السامعين في شك من أمرهن دون أن يكون في ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن في ذلك مصلحة في الدين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا عما قالوا، وندموا على ما تكلموا. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم، والقذف الذميم، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام لحد، والاستحلال من المقذوف.

وقد[3] اختلف في هذا الاستثناء، أيعود إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

جملة الحكم عليهم بالفسق، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة أبداً، وإن تاب، وإلى هذا ذهب من السلف القاضي شريح وسعيد بن جبير وأبو حنيفة، أم يعود إلى الجملتين الأخيرتين الثانية، وهي جملة عدم قبول الشهادة والثالثة هي جملة الحكم عليهم بالفسق، وعليه فتقبل شهادته ويرفع عنه حكم الفسق؛ لأن سبب ردها، وهو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف قد زال بالتوبة بالإجماع، فتكون شهادته مقبولة، وعلى هذا القول جمهور العلماء، منهم سعيد بن المسيب وجماعة من السلف، وهو رأي مالك والشافعي وأحمد، وهذا[1] هو القول الحق الراجح؛ لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها، مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أن الاستثناء لا يعود إلى جملة الجلد، بل يجلد التائب كالمصر.

وقد اختلف العلماء في صورة توبة القاذف، فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة: إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه، وأقيم عليه الحد بسببه، وقالت فرقة منهم مالك وغيره: أن توبته تكون بأن يحسن حاله ويصلح عمله، ويندم على ما فرط منه، ويستغفر الله من ذلك، ويعزم على ترك العود إلى مثله، وإن لم يكذب نفسه، ولا رجع عن قوله، ويؤيد هذا القول الآيات والأحاديث الواردة في التوبة، فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، ولو كان كفراً، فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى، هكذا حكى الإجماع القرطبي.

وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة وصيرورته مغفوراً له، مرحوماً من الرحمٰن الرحيم، غير فاسق ولا مردود الشهادة، ولا مرفوع العدالة، كأنه قيل: فحينئذٍ لا يؤاخذهم

(١) الشوكاني.

الله سبحانه بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين؛ لأنه مبالغ في المغفرة والرحمة؛ أي: فإن الله ستار لذنوبهم التي أقدموا عليها، بعد أن تابوا عنها، رحيم بهم، فيزيل عنهم ذلك العار، الذي لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بميسم الفسوق الذي وصفوا به.

وفي الآية[1]: إشارة إلى غاية كرم الله تعالى، ورحمته على عباده، بأن يستر عليهم ما أراد بعضهم إظهاره على بعض، وإن لم يظهر صدق أحدهما أو كذبه، ولتأديبهم أوجب عليهم الحد، ورد قبول شهادتهم أبداً، وسماهم الفاسقين، وليتصفوا بصفاته الستارية والكريمية والرحيمية فيما يسترون عيوب إخوانهم المؤمنين. ولا يتبعوا عوراتهم.

حكم قذف الرجل زوجه

ثم بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات على العموم ذكر حكم نوع من أنواع القذف، وهو قذف الزوج للمرأة التي تحته بعقد النكاح، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾؛ أي: والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون لهم بصحة ما قذفوهن به من الفاحشة ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات بالله على أنه صادق فيما رماها به من الزنا، فجملة: ﴿إنه لمن الصادقين﴾، هي المشهود به، وأصله (على أنه)، فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها.

﴿و﴾ الشهادة ﴿الخامسة﴾ للأربع المتقدمة؛ أي: الجاعلة لها خمساً بانضمامها إليهن، وهي مبتدأ خبره قوله: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وطرده من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على الملاعن ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الرجل.. حبست الزوجة حتى تعترف فترجم، أو تلاعن.

---

(١) روح البيان.

وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ جمع زوج بمعنى الزوجة، فإن حذف التاء منها أفصح من إثباتها، إلا في الفرائض، ولم يقيدها بالمحصنات، إشارة إلى أن اللعان يشرع في قذف المحصنة وغيرها، فهو في قذف المحصنة يسقط الحد عن الزوج، وفي قذف غيرها يسقط التعزير، كأن كانت ذميةً أو أمة، أو صغيرة تحتمل الوطء بخلاف الصغيرة التي لا تحتمله، وبخلاف قذف الكبيرة التي ثبت زناها ببينة أو إقرار، فإن الواجب في قذفها التعزير، لكنه لا يلاعن لدفعه كما في كتب الفروع.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ لا مفهوم لهذا القيد، فإنه يلاعن ولو كان واجداً للشهود الذين يشهودن بزناها، وعبارة «المنهج مع شرحه»: ويلاعن ولو مع إمكان بينة بزناها؛ لأنه حجة كالبينة، وصدنا عن الأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ من اشتراط تعذر البينة الإجماع، فالآية مؤولة بأن يقال: فإن لم يرغب في البينة فيلاعن، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، على أن هذا القيد خرج على سبب، وسبب الآية: كان الزوج فيه فاقداً للبينة، وشرط العمل بالمفهوم أن لا يخرج القيد على سبب فيلاعن مطلقاً لنفي الولد ولدفع العقوبة حداً أو تعزيراً. اهـ.

وصورة قذفها بأن يقول لها[2]: يا زانية أو زنيت، أو رأيتك تزني. قال في «بحر العلوم»: إذا قال: يا زانية، وهما محصنان، فردت بلا بل أنت حدت؛ لأنها قذفت الزوج، وقذفه إياها لا يوجب الحد بل اللعان، وما لم ترفع القاذف إلى الإمام لم يجب اللعان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ بإضافة أربعة إلى شهداء. وقرأ أبو زرعة وعبد الله بن مسلم ﴿بأربعة﴾ بالتنوين، وهي قراءة فصيحة؛ لأنه إذا اجتمع اسم العدد والصفة، كان الاتباع أجود من الإضافية، ولذلك رجح ابن جني هذه

---

(١) الجمل.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

القراءة على قراءة الجمهور، من حيث أخذ مطلق الصفة، وليس كذلك؛ لأن الصفة إذا جرت مجرى الأسماء وباشرتها العوامل جرت في العدد وفي غيره مجرى الأسماء، فتكون الإضافة فيها أرجح من الاتباع.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بالياء وهو الفصيح؛ لأنه إذا كان العامل مفرغاً لما بعد إلا، وهو مؤنث، فالفصيح أن يقول: ما قام إلا هند. وقرأ أبو المتوكل وابن يعمر والنخعي ﴿تكن﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ بفتح العين بالنصب على المصدرية، وارتفع فشهادة على كونه خبراً لمحذوف؛ أي: فالحكم أو الواجب شهادة أحدهم، أو على كونه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فشهادة أحدهم كافية، أو واجبة، أو فعليهم شهادة أحدهم، وبالله من صلة شهادات. ويجوز أن يكون من صلة فشهادة. قاله ابن عطية. وقال الزجاج: من رفع ﴿أربع﴾ فالمعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حداً لقذف أربع. ومن نصب فالمعنى: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع. ا هـ.

وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي - وحفص والحسن وقتادة والزعفراني وابن مقسم وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وأبان وابن سعدان ﴿أربع﴾ بالرفع خبراً للمبتدأ. وهو فشهادة. وبالله من صلة شهادات على هذه القراءة. ولا يجوز أن يتعلق، بـ﴿فشهادة﴾ للفصل بين المصدر ومعموله بحرف الجر. ولا يجوز ذلك. وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ بالرفع في الموضعين. وقرأ طلحة والسلمي والحسن وقتادة والأعمش وخالد بن أياس ويقال: ابن الياس بالنصب فيهما. وقرأ حفص والزعفراني بنصب الثانية دون الأولى. فالرفع على الابتداء، وما بعده الخبر. ومن نصب الأولى فعطف على أربع في قراءة من نصب أربع. وعلى إضمار فعل يدل عليه المعنى في قراءة من رفع أربع؛ أي: وتشهد الخامسة. ومن نصب الثانية فعطف على أربع. وعلى قراءة النصب في الخامسة يكون أن بعده على إسقاط حرف الجر؛ أي: بأن. وجوز أن يكون أن وما بعده بدلاً من الخامسة.

وقرأ نافع: ﴿أن لعنة﴾ بتخفيف أن، ورفع لعنة. و﴿أن غضب﴾، بتخفيف

أن، وغضب فعل ماض، والجلالة بعد مرفوعة، وهي أن المخففة من الثقيلة لما خففت حذف اسمها وهو ضمير الشأن. وقرأ أبورجاء وقتادة وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون والأعرج ويعقوب بخلاف عنهما. والحسن ﴿أن لعنة﴾ كقراءة نافع، و﴿أن غضب﴾ بتخفيف أن وغضب مصدر مرفوع وما بعده خبره. وهي أن المخففة من الثقيلة. وقرأ باقي السبعة: ﴿أن لعنة الله﴾، و﴿أن غضب الله﴾ بتشديد أن ونصب ما بعدها اسماً لها، وخبرها ما بعدها. قال ابن عطية: وأن الخفيفة على قراءة نافع في قوله: ﴿أن غضب﴾ قد وليها الفعل. قال أبو علي: وأهل العربية يستقبحون أن يليها الفعل، إلا أن يفصل بينهما وبينه بشيء، نحو قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾.

فصل في بيان حكم الآية

واعلم: أن الرجل إذا قذف[1] امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبية، وجوب الحد عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن كانت غير محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف، فإذا قذف أجنبياً أو أجنبية يقام عليه الحد، إلا أن يأتي بأربعة يشهدون بالزنا، أو يقر المقذوف بالزنا، فيسقط عنه الحد. وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين، أو لاعن، سقط عنه الحد. فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة؛ لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً، ربما لا يمكنه إقامة البينة، ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه. فقال تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وإذا أقام الزوج بينة على زناها، أو اعترفت هي بالزنا.. سقط عنه الحد واللعان إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه، فله أن يلاعن لنفيه، وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما.. بدأ بالرجل فيقيمه، ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه.. سماه في اللعان، ويقول كما يلقنه الإمام، وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه، يقول: وإن هذا الولد، أو هذا الحمل لَمِنَ الزنا، ما هو مني، ويقول في الخامسة: علي لعنة

---

(١) الخازن.

الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الإمام، لا تحسب. فإذا فرغ الرجل من اللعان، وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة، وحرمت عليه على التأبيد، وانتفى عنه النسب، وسقط عنه الحد، ووجب على المرأة حد الزنا. فهذه خمسة أحكام تتعلق بلعان الزوج.

﴿وَيَدْرَؤُا﴾؛ أي: يدفع ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن المرأة المرمية ﴿الْعَذَابَ﴾ الدنيوي، وهو الحد. وفاعل يدرأ قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾؛ أي: أن تحلف بالله أربعة أيمان ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: أن الزوج الذي رماني ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا؛ أي: ويدفع عن المرأة الحد، شهادتها أربع شهادات بالله، إن هذا الزوج الذي رماني لمن الكاذبين فيما رماني به.

﴿والْخَامِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على أربع شهادات؛ أي: وتشهد المرة الخامسة للمرات الأربع. كذلك قرأ[1] حفص والحسن والسلمي وطلحة والأعمش. وقرأ الباقون: بالرفع على الابتداء وخبره ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عليها﴾؛ أي: علي ﴿إِن كَانَ﴾ هذا الزوج الذي رماني ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا.

والغضب[2]: ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، ولذلك قال ﷺ: «اتقوا الغضب، فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». فإذا وصف الله به فالمراد لازمه، وهو الانتقام دون غيره، وتخصيص الغضب بجانب المرأة، واللعن بجانب الرجل للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته؛ لأن الغضب أشد من اللعنة؛ لأن اللعنة مطلق الطرد من الرحمة، والغضب الطرد من الرحمة مع إرادة الانتقام منه، ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، فربما تجترىء على التفوه به لسقوط وقعه على قلوبهن بخلاف الغضب.

ومعنى الآية: أي[3] ويدفع عنها العقوبة الدنيوية، وهي الحد، أن تحلف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بالله أربعة أيمان أن زوجها الذي رماها بما رماها، من الفاحشة، لمن الكاذبين فيما قال، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما اتهمها به. وخصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله عليها؛ تغليظاً عليها؛ لأنها هي سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطماعها الرجل في نفسها، كما مر آنفاً.

نبذة من أحكام اللعان

واعلم: أن الزوج إذا لاعن[1].. وجب على المرأة حدّ الزنا، فإن أرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة: علي غضب الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به. ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد، وهو إسقاط الحد عنها، ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان.

وعند أصحاب الرأي: لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن حبس حتى يلاعن، فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان، حبست حتى تلاعن. وعند الآخرين اللعان حجة صدقه، والقاذف إذا قعد عن إقامة البينة على صدقه لا يحبس، بل يحد، كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة. وعند أبي حنيفة: موجب اللعان وقوع الفرقة، ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعاً، وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الأكثرين. وبه قال الشافعي. وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه، لا فيما له، فيلزمه الحد، ويلحقه الولد، لكن لا يرتفع تأبيد التحريم. وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق، فإذا أكذب نفسه.. جاز له أن ينكحها. وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم. وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل. وكل من صح يمينه.. صح لعانه حرّاً كان أو عبداً مسلماً كان أو ذمياً. وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار

(١) الفتوحات.

والحسن، وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم.

وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجري اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين، فإن كان أحد الزوجين رقيقاً أو ذمياً أو محدوداً في قذف، فلا لعان بينهما. وظاهر القرآن حجة لمن قال: يجري اللعان بينهما؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره.

ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو نائبه، ويغلظ اللعان بأربعة أشياء، بتعدد الألفاظ وبالمكان والزمان، وأن يكون بمحضر جماعة من الناس. أما تعدد الألفاظ فيجب، ولا يجوز الإخلال بشيء منها. وأما المكان: فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن، فإن كان بمكة فبين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند منبر النبي ﷺ. وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر. وأما الزمان: فهو أن يكون بعد العصر. وأما الجمع فأقله أربعة، والتغليظ بالجمع سنة، فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز. وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان. وبيان اللعان متبعاً موضعه كتب الفروع، فيطلب هناك، وكذا القذف.

وبعد أن ذكر حكم الرامي للمحصنات وللأزواج، بين أن في هذا تفضلاً على عباده، ورحمة بهم، فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تفضله سبحانه ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها القاذفون والمقذوفات ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ سبحانه بالستر لكم؛ أي: لولا تفضله عليكم بالستر ورحمته لكم به في القذف. وجواب ﴿لولا﴾ محذوف، تقديره: لنال الكاذب منكم عذاب عظيم. وفي قوله: عليكم[1] التفات عن الغيبة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ إلى الخطاب. والخطاب لكل من الفريقين؛ أي: القاذفين والمقذوفات، ففي الكلام تغليب صيغة الذكور على صيغة الإناث، حيث لم يقل: عليكم وعليكن.

وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿تَوَّابٌ﴾ بعوده على من يرجع عن

(١) الفتوحات.

المعاصي بالرحمة. ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: فيما فرضه من الحدود. معطوفة على مدخول ﴿لولا﴾. وحذف[1] جواب ﴿لولا﴾ للتهويل والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: لولا تفضله عليكم ورحمته، أيها الرامون والمرميات. وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة. حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان. ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك.. لوجب على الزوج حدّ القذف، مع أن الظاهر صدقه؛ لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها؛ لاشتراكهما في الفضاحة.

وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل شهاداته موجبة لحدّ القذف عليه.. لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما حتماً، دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية. وقد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأه عنه وأطم. وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى. أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهال له، والستر عليه في الدنيا، ودرأ الحد عنه، وتعريضه للتوبة، حسبما ينبىء عنه التعرض لعنوان توابيته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته وأدق حكمته.

والخلاصة[2]: أي ولولا تفضله سبحانه ورحمته بكم، وأنه قابل لتوبتكم في كل آن، وأنه حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي منها ما شرعه لكم من اللعان.. لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، ودفع عنكم الحد باللعان، إذ لو لم يشرع لكم ذلك.. لوجب على الزوج حدّ القذف، مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه؛ لأنه أعرف بحال زوجه، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحة. ولو جعل شهادته موجبةً لحد الزنا عليها.. لأهمل أمرها، وكثر افتراء الزوج عليها، لضغينة قد تكون في نفسه من أهلها. وفي كل

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

هذا خروج من سابق الحكمة والفضل والرحمة. ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة عند العقوبة الدنيوية. وإن كان قد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهادته بأشد مما درأه عن نفسه، وهو العقاب الأخروي.

تنبيه: وكررت[1] ﴿لولا﴾ في هذا السياق أربع مرات، لاختلاف الأجوبة فيها، إذ جواب الأول منها محذوف، تقديره: لفضحكم. وجواب الثاني مذكور، وهو قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وجواب الثالث محذوف، تقديره: لعجل لكم العذاب. وجواب الرابع مذكور. وهو قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

قال ابن جرير الطبري: (١٨/ ٨٦) يقول تعالى ذكره: ولولا[2] فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم وسياسته لهم.. لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبكم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلاً رحمة منه بكم، وتفضلاً عليكم، فاشكروا نعمه وانتهوا عن التقدم عما عنه نهاكم من معاصيه. وترك الجواب في ذلك، اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه. ا هـ.

الإعراب

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿سُورَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه الآيات الآتي ذكرها. أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها. وسوغ الابتداء بالنكرة وصفها بجملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿سُورَةٌ﴾. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. وكذلك جملة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿أنزلنا﴾. ﴿ءَايَاتٍ﴾:

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الطبري.

مفعول به لـ﴿أنزلنا﴾. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾. ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٱلزَّانِى﴾: معطوف عليه. ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط في العموم، كما مر. ﴿اجلدوا﴾: فعل وفاعل. ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُمَا﴾: صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، لنيابته عن المصدر، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتفصيل ما ذكر من الآيات البينات. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ في رفعهما وجهان:

أحدهما: مذهب سيبويه، أنه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فيما يتلى عليكم، حكم الزانية والزاني. و﴿الفاء﴾: في ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ على هذا الوجه: تفصيلية للحكم المتلو المجمل؛ لأنه لما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل.. ذكر حكمهما مفصلاً بقوله: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾؛ لأنه أوقع في النفس من ذكره أول وهلة.

وثانيهما: مذهب الأخفش وغيره، وهو أنه مبتدأ، والخبر جملة الأمر، كما جرينا عليه في إعرابنا؛ لأن عدم التقدير أولى من التقدير. ودخلت الفاء حينئذٍ، لشبه المبتدأ بالشرط. فالفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ، لكونه جملة طلبية، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة مستوفى عند قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾. فجدد به عهداً.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَأْخُذْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿بِهِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿رَأْفَةٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾. ﴿فِى دِينِ

﴿ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَأْخُذْكُم﴾ أيضاً. وهذه الجملة دالة على جواب الشرط بعدها، أو هي نفس الجواب عند بعضهم. ا هـ. «سمين». ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾، على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلْآخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾. وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فلا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة. ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و(اللام): لام الأمر. ﴿يشهد﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿عَذَابَهُمَا﴾: مفعول به. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: فاعل. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿طائفة﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلزَّانِى﴾: مبتدأ. ﴿لَا يَنكِحُ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿زَانِيَةً﴾: مفعول به. ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان حال الفاسق الخبيث. ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾: مبتدأ. ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾: فعل ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿زَانٍ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص. ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان حكم نكاح الزواني والمشركات.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿لَمۡ يَأۡتُواْ﴾: جازم وفعل مجزوم وفاعل. ﴿بِأَرۡبَعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يأتوا﴾. ﴿شُهَدَآءَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة، لمنعه من الصرف، لمكان ألف التأنيث الممدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿يرمون﴾. ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لخبر الموصول المتضمن معنى الشرط. ﴿اجلدوهم﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿ثَمَٰنِينَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿جَلۡدَةً﴾: تمييز له منصوب به والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان نوع آخر من حدود الزنا. ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقۡبَلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف، حال من ﴿شَهَٰدَةً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَهَٰدَةً﴾: مفعول به. ﴿أَبَدٗاۚ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿تَقۡبَلُواْ﴾. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان. ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: خبر عن ﴿أولئك﴾، أو خبرهم، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ على كونها خبر الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب على الاستثناء. ﴿تَابُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَابُواْ﴾. واختلف في هذا الاستثناء، فقيل: هو متصل؛ لأن المستثنى منه في الحقيقة ﴿الذين يرمون﴾، والتائبون من جملتهم لكنهم مخرجون من الحكم. وهذا شأن المتصل. وقيل: هو منقطع؛ لأنه لم يقصد إخراجه من الحكم السابق، بل قصد به إثبات أمر آخر، وهو أن التائب لا يبقى فاسقاً؛ ولأنه غير داخل في صدر الكلام؛ لأنه غير فاسق ا هـ. «شهاب». وهذا التوجيه ضعيف جداً، إذ يلزم عليه، أن يكون كل استثناء منقطعاً، لجريان التوجيه المذكور فيه تأمل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٞ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة،

مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ومتعلق ﴿يرمون﴾ محذوف، تقديره: بالزنا. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لم يكن﴾: جازم ومجزوم. ﴿لَّهُمْ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿شُهَدَاءُ﴾: اسمها مؤخر. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: بدل من ﴿شهداء﴾. ويجوز أن تكون ﴿إِلَّا﴾: بمعنى غير. فتكون ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: نعتاً لـ﴿شُهَدَاءُ﴾. وقد ظهر عليها إعراب إلا على حد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، لشبه الموصول بأسماء الشروط في العموم. ﴿شهادة أحدهم﴾: مبتدأ شأن ومضاف إليه. ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ بالرفع خبر للمبتدأ الثاني ومضاف إليه. ﴿بِاللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهَادَاتٍ﴾، أو ﴿بشهادة﴾. فالمسألة من باب التنازع، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره، مستأنفة مسوقة لبيان أحكام اللعان، وهو مبسوط في كتب الفقه. وقرأ الجمهور: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب، فيكون خبر فـ﴿شَهَادَةُ﴾ مقدراً، إما مقدماً، تقديره: فعليهم شهادة أحدهم، أربع شهادات. أو مؤخراً، تقديره: فشهادة أحدهم، أربع شهادات كائنة، أو واجبة. أو هو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فالواجب شهادة أحدهم: أربع منصوب على المفعولية المطلقة، والعامل فيه مصدر مثله. نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ وقد ناب هنا عن المصدر عدده، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، وكسرت همزة ﴿إن﴾ لوجود اللام المزحلقة و(اللام): حرف ابتداء ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: وما بعدها في محل النصب معمول ﴿شَهَادَاتٍ﴾، أو شهادة؛ لأن أصله يشهد على أنه صادق، فحذف الجار وكسرت ﴿إن﴾، وعلق العامل عنها لأجل اللام في الخبر.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿الخامسة﴾: مبتدأ؛ أي: الشهادة الخامسة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية. للمبتدأ، والتقدير: والخامسة إثبات لعنة الله عليه، والجملة الاسمية معترضة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على الملاعن؛ أي: الزوج. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف دل عليه ما قبله؛ أي: إن كان من الكاذبين فيما رماها به، فعليه لعنة الله سبحانه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية معترضة. ويقرأ: الخامسة، بالنصب على تقدير ويشهد الخامسة، والتقدير: ويشهد الخامسة بأن لعنة الله عليه. ويجوز أن يكون بدلاً، من الخامسة. ذكره أبو البقاء.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ⑧﴾.

﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يدرأ﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿تَشْهَدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية وفاعله ضمير يعود على الملاعنة ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: أو بـ﴿تَشْهَدَ﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: ويدرأ عنها العذاب شهادة أربع شهادات بالله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية في قوله: والذين يرمون المحصنات. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: خبره. و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ ومعموليها في محل النصب معمول لـ﴿تَشْهَدَ﴾، ولكنه علق عنه باللام: وذلك كسرت همزة ﴿إن﴾، والأصل أن تشهد أربع شهادات، على أنه لمن الكاذبين.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ⑨﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾: بالنصب معطوف على ﴿أَرْبَعَ﴾؛ أي: وتشهد الخامسة. ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهَآ﴾: جار ومجرور خبر

﴿أن﴾. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف؛ أي: وتشهد الخامسة على كون ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾. وبالرفع مبتدأ، والخبر جملة أن غضب الله عليها. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير يعود على الزوج. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبرها. وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: إن كان من الصادقين، فعلي غضب الله.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَوۡلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: ولولا فضل الله عليكم موجود. ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ معطوف على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف، تقديره: لبين الحق في ذلك، وعاجل بالعقوبة لمن يستحقها، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿تَوَّابٌ﴾ خبر أول له. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان له. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، معطوف على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ على كونه مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره: ولولا كون الله تواباً حكيماً موجود.. لنال الكاذب منهما عذاب عظيم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سُورَةٌ﴾: السورة: في اللغة المنزلة السامية، والمكانة الرفيعة. قال النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلـلَّـهَ أَعْـطَـاكَ سُـوْرَةً   تَـرَىٰ كُـلَّ مُـلْـكٍ دُوْنَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

وسميت المجموعة من الآيات لها بدء ونهاية: سورةً، لشرفها وارتفاعها، كما يسمى السور للمرتفع من الجدار.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ قال في المفردات: الزنى: يقصر، وقد يمد، فيقال: الزناء، ويصح أن يكون الممدود مصدر المفاعلة، والنسبة إليه زنوى. انتهى. فبنية الزنا والزناء بالقصر، والمد قال الفرزدق:

أَبَـا خَـالِـدٍ مَـنْ يَـزْنِ يُـعْـلَـمْ زِنَـاؤُهُ   وَمَنْ يَشْرَبِ ٱلْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا

قال الفراء: المقصور من زنى الثلاثي والممدود من زاني الرباعي. يقال:

زاناها مزاناة وزناء، وخرجت فلانة تزاني وتباغي، وقد زنى بها. وجمع الزاني زناة، كالطاغي والطغاة والباغي والبغاة. وجمع الزانية الزواني كالجارية والجواري، وزناة تزنية نسبه إلى الزنا، وهو ولد زنية بفتح الزاي وكسرها.

﴿رَأْفَةٌ﴾: في «المختار» والرأفة: أشد الرحمة، وقد رؤف بالضم، رآفة ورأف به يرأف مثل قطع يقطع. ورئف به من باب طرب، كله من كلام العرب، فهو رؤوف على وزن فعول. ورؤف على وزن فعل ا هـ.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الشهود: الحضور. والعذاب: الإيجاع الشديد، قال بعضهم: العذاب: إكثار الضرب بعذبة السوط؛ أي: بطرفه. وقيل: غير ذلك. وفي تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة، ويجوز أن يسمى عذاباً؛ لأنه ألم مانع من معاودة، كما يسمى نكالاً؛ أي: عقاباً يردع عن المعاودة. والطائفة: فرقة يمكن أن تكون حافة حول الشيء، وحلقة من الطوف. والمراد به جمع يحصل به التشهير والزجر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الرمي يقال في الأعيان كالسهم والحجر، ويقال: في المقال كناية عن الشتم كالقذف، فإنه في الأصل الرمي بالحجارة ونحوها مطلقاً. قال في «الإرشاد»: في التعبير عن التفوه، بما قالوا في حقهن بالرمي المنبي عن صلابة الآلة، وإيلام المرمي، وبعده إيذان بشدة تأثيره فيهن. والمحصنات: العفائف وهو بالفتح، يقال: إذا تصور حصنها من نفسها وبالكسر يقال: إذا تصور حصنها من غيرها، والحصن في الأصل معروف، ثم تجوز به في كل تحرز. ومنه درع حصينة لكونها حصناً للبدن وفرس حصان؛ لكونه حصناً لراكبه، وامرأة حصان، للعفيفة. وأصل الإحصان المنع، سميت العفيفة (محصنة)؛ لأنها منعت نفسها عن القبيح. ومنه الحصن؛ لأنه يمنع من الأعداء. (يدرأ)؛ أي: يدفع من الدرء، وهو الدفع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان

والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ حيث حذف المبتدأ أو الخبر. وأشير إليها بالمبتدأ المحذوف. مع عدم سبق ذكرها؛ لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد.

ومنها: التنكير في سورة للتفخيم؛ أي: هذه سورة عظيمة الشأن جليلة القدر أنزلها الله سبحانه.

ومنها: الإطناب بتكرير لفظ أنزلنا في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ لإبراز كمال العناية بشأنها، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، للعناية والاهتمام به.

ومنها: التهييج والإلهاب في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: التحريض وإثارة الغضب لله وإلهاب الحفاظ لدين الله وحكمه. وكذا في قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لما في النهي والشرط من التحريض، وإثارة المؤمنين على أن يتصلبوا في دينهم، وأن لا تأخذهم هوادة أولين، في تنفيذ ما أمرهم به، لاستيفاء حدوده.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ لأن ظاهر النظم يشعر بأن الزاني لا ينكح المؤمنة العفيفة، وأن الزانية لا ينكحها المؤمن التقي، ولما كان ذلك غير ظاهر الصحة، كان لا بد من حمل الأخبار على الأعم الأغلب، كما في قولك لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل الخير من ليس بتقي.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ لأن أصل الرمي القذف بالحجارة، أو بشيء صلب، ثم استعير للقذف باللسان، بجامع الإيذاء في كل، لكونه جناية بالقول، كما قال النابغة: وجرح اللسان كجرح اليد.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فإن فعولاً وفعيلاً وفعالاً من أوزان المبالغة، وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ومنها: حذف جواب لولا للتهويل في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وللإشعار بضيق العبارة عن حصره، حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب، فيكون أبلغ في البيان، وأبعد في التهويل والزجر.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فقد التفت من الغيبة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى الخطاب لتسجيل المنة على المخاطبين، بحيث لا تبقى لديهم أعذار واهية، يتشبثون بها إذا هم تجاوزوا حدود ما بينه لهم.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فقد غلب صيغة الذكور على صيغة الإناث حيث لم يقل عليكم وعليكن؛ لأنه بصدد مخاطبة الفريقين؛ أي: القاذفين والمقذوفات.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تتمة: في التعبير بالإحصان في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إشارة لطيفة إلى أن قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحد القذف، وأما إذا كان الشخص معروفاً بالفجور، أو مشهوراً بالاستهتار، والمجون فلا حد على قاذفه؛ لأنه كرامة للفاسق الماجن، فتدبر.

دقيقة: لماذا عدل عن قوله: ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة، والجواب أن الله عز وجل، أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين، فلو لم يكن اللعان مشروعاً، لوجب على الزوج حد القذف، مع أن الظاهر صدقه ولو اكتفى لعانه.. لوجب على الزوجة حدّ الزنا، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً، أن شرع هذا الحكم، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات. فسبحانه ما أوسع رحمته وأجلّ حكمته.

قال بعضهم: وإنما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ولم يقل: ولولا فضل عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر الله ﴿مَا زَكَىٰ

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، لنعلم أن العبادات وإن كثرت فإنها من نتائج الفضل والإحسان. اللهم اجعلنا من أهل الفضل والعطاء والمحبة والولاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم
مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١١) لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (١٢) لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ
بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ
عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (١٥) وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (١٩) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٢٠) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ
أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١) وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ
أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ
عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ
دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (٢٥) ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ
لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ
فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٢٨) لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ
مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ (٢٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حكم من قذف الأجنبيات، وحكم من قذف الزوجات.. ذكر في هذه الآيات العشر، براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين، صيانة لعرض رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة[2] هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصص أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبين عقاب من اتهمها بالإفك، وشديد عذابه يوم القيامة، وأسهب في هذا.. أعقب ذلك ببيان حكم عام، وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة بالخنا والفجور، فهو مطرود من رحمة الله تعالى، بعيد عن دار نعيمه، معذب في جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما برأ عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامي المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله تعالى.. أردف ذلك دليلاً ينفي الريبة عن عائشة بأجلى وضوح. ذلك أن السنة الجارية بين الخلق، مبنية على مشاكلة الأخلاق، والصفات بين الزوجين، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين. ورسول الله تعالى من أطيب الطيبين، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات، على مقتضى المنطق السليم، والعادة الشائعة بين الخلق.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ...﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حكم قذف المحصنات الأجنبيات، وحكم قذف الزوجات، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك، وبسط ذلك غاية البسط، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة في كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة.. أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره، وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام، حتى لا يوجد بحال تورث

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

التهمة التي أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة، إلى أن الإنسان قد يكون في بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٢)، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري في (ج ٦ ص/١٩٨) قال: حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود، وأفهمني بعضه أحمد قال: حدثني فليح عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص الليثي وعبيد بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله منه. قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم أوعى من بعض له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، زعموا أن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً، أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة، وهي غزوة المريسيع، وتسمى أيضاً غزوة بني المصطلق، وكانت في السنة الرابعة، وقيل: في السادسة، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل، فلمست صدري فإذا عقد لي جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً، لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما

---

(١) البخاري.

أنا جالسة، غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، وأتاني وكان يراني قبل الحجاب، يعني قبل نزول الحجاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فاستيقظت باسترجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهراً، والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجيهي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم، لا أشعر بشيء من ذلك، حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية، أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها. فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلاً شهد بدراً، فقلت: يا هنتاه ألم تسمعوا ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرض.

فلما رجعت إلى بيتي، دخل على رسول الله ﷺ فسلم، فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي، فقلت لأمي ما يتحدث به الناس، فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، أو لقد يتحدث الناس بهذا! قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: يا بريرة، هل رأيت فيها شيئاً يريبك،

فقالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن، فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال رسول الله ﷺ: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير، فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فنزل وخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتي ويوماً، حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن كذلك، إذ دخل رسول الله ﷺ، فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها. وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهَّد ثم قال: يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب.. تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم، وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة،

والله يعلم إني لبريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم إني بريئة منه لتصدِّقُنِّي، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف، إذ قال: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون. ثم تحولت على فراشي، وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل الله في شأني وحياً، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه. فلما سرى عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله. فقالت أمي: قومي إلى رسول الله. فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ الآيات العشر. فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قاله لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقالت: يا زينب ما علمت ما رأيت؟ فقالت: أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك». الحديث أخرجه البخاري في غير ما موضع. وكذا أخرجه مسلم مختصراً. والترمذي وغيرهم.

وقال عروة: لم يسم لي من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فَـإِنَّ أَبِـيْ وَوَالِـدَتِـيْ وَعِـرْضِـيْ   لِـعِـرْضِ مُـحَـمَّـدٍ مِـنْـكُـمْ وِقَـاءُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ...﴾ الآية، سبب[1] نزول هذه الآية: ما أخرجه الطبراني عن الضحاك بن مزاحم، قال: نزلت هذه الآية في نساء النبي ﷺ خاصة، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات، عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، قال: هذه الآية نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرأها الله تعالى من ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت، قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على الحال التي لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتيني آت فيدخل علي وأنا على تلك الحال. فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ...﴾ الآية. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام، ليس فيها ساكن، فأنزل الله ﴿ليس عليكم جناح..﴾ الآية «القرطبي».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو﴾ واختلقوا ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾؛ أي: بأشد الكذب وأبلغه، وتكلموا به. مأخوذ[2] من الإفك وهو القلب؛ أي: الصرف؛ لأنه مأفوك عن وجهه وسننه. والمراد به ما أفك على عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الأمانة والعفة والشرف، فمن رماها بالسوء.. قلب الأمر عن وجهه. ﴿عُصۡبَةٞ﴾ خبر إن؛ أي: جماعة قليلة. ﴿مِّنكُمۡۚ﴾ أيها المؤمنون، هم زيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وعباد بن المطلب وحمنة بنت جحش وهي زوجة طلحة بن عبيد الله وعبد الله بن أبي بن سلول ومن ساعدهم؛ أي: إن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة، جماعة كائنة منكم في

---

(١) لباب النقول.   (٢) روح البيان.

كونهم موصوفين بالإيمان وعبد الله بن أبي أيضاً كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهراً، وإن كان رئيس المنافقين خفية.

والمعنى: أي[1] إن الذين جاؤوا بالكذب والبهتان في حق عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون، تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلانه وإذاعته بين الناس، لمقاصد لهم أخفوها. والله عليم بما يفعلون. والعصبة والعصابة: جماعة من العشرة إلى الأربعين، وفي التعبير بعصبة: بيان أن هؤلاء شرذمة قليلون، وأنهم هم الذين ينشرونه، لا أنهم عدد كثير من الناس.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ كلام مستأنف؛ أي: لا تظنوا أيها المؤمنون ذلك الإفك والكذب ﴿شَرًّا لَّكُمْ﴾؛ أي: ضرراً لكم، والخطاب فيه للنبي ﷺ، وأبي بكر وعائشة وصفوان، وكل من ساءه ذلك الإفك، تسلية لهم أول الأمر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: لا تظنوا أن فيه فتنة وشرّاً، بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وإظهار كرامتكم على الله تعالى بإنزال قرآن يتلى مدى الدهر في براءتكم وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن يتكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيراً، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية، والآداب التي لا تخفى على من تأملها.

فإن[2] قصة الإفك كانت في حق النبي ﷺ وفي حق عائشة وأبويها، وفي حق جميع الصحابة امتحاناً لهم وتهذيباً، فإن البلاء للأولياء كاللهب للذهب، كما قال ﷺ: «إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» وقال ﷺ: «يبتلى الرجل على قدر دينه»؛ أي: وذلك لأن الله سبحانه غيور على قلوب خواص عباده المحبوبين، فإذا حصلت مساكنة بعضهم إلى بعض.. أجرى الله تعالى ما يرد كل واحد منهم عن صاحبه، ويرده إلى حضرته. وأن النبي ﷺ لما قيل له: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فساكنها وقال: «يا عائشة حبك في قلبي كالعقدة».

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

وفي بعض الأخبار أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله، إني أحبك وأحب قربك. ا هـ. فأجرى الله تعالى حديث أهل الإفك، حتى رد الله سبحانه رسوله عن عائشة إلى الله بانحلال عقدة حبها عن قلبه، ورد عائشة عنه ﷺ إلى الله تعالى، حتى قالت لما ظهرت براءة ساحتها: بحمد الله لا بحمدك.

والشر[1] ما زاد ضره على نفعه، والخير ما زاد نفعه على ضره. وأما الخير الذي لا شر فيه فهو الجنة، والشر الذي لا خير فيه فهو النار. ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ﴾؛ أي: على كل إنسان ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من تلك العصبة. فاللام بمعنى على، والمرء: الإنسان، والرجل كالمرء، والألف فيه للوصل. ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ﴾؛ أي: جزاء ما اجترح ﴿مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ والذنب بقدر ما خاض فيه، فإن بعضهم تكلم، وبعضهم كالمسرور الراضي بما سمع، وبعضهم أقل وبعضهم أكثر، فقدر العقاب يكون بقدر الخوض في الإثم، وفي «التأويلات النجمية» على حسب سعايتهم وفساد ظنهم، وهتك حرمة حرم نبيهم يكون عقابهم. انتهى.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾؛ أي: تحمل معظم ذلك الإثم وأكثره ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أولئك العصبة؛ أي: والذي ابتدأ به، ورغب في إشاعته، وهو عبد الله بن أبي ﴿له﴾؛ أي: لذلك المتولي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد، وأما في الآخرة فبعذاب لا يقدر قدره إلا العليم الحكيم، وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ.

واختلف[2] في هذا الذي تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم. فقيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو حسان، والأول هو الصحيح. وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهو مسطح بن أثاثة

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وقيل: جلد عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ولم يجلد مسطحاً؛ لأنه لم يصرح بالقذف، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح، وقيل: لم يجلد أحداً منهم.

قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء، أن الذين حدُّوا: حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحدٍّ لعبد الله بن أبيّ، ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم حسان ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، وكان مسطح في آخر عمره مكفوف البصر، وهو ابن خالة أبي بكر الصديق، وصار حسان في آخر عمره أعمى أشل اليدين.

واختلفوا في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبيّ. فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحَدَّ من عداه؛ ليكون ذلك تكفيراً لذنبهم. كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنه قال: «إنها كفارة لمن أقيمت عليه»، وقيل: ترك حده تألُّفاً لقومه واحتراماً لابنه، فإنه كان من صالحي المؤمنين، وإطفاءً لنائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه، كما في «صحيح» مسلم.

وقيل[1]: الذي تولى كبره حسان كما تقدم، والعذاب العظيم عناه وحده، وضرب صفوان له بالسيف على رأسه. وقال له:

تَوَقَّ ذُبَابَ ٱلسَّيْفِ عَنِّيْ فَإِنَّنِيْ غُلَامٌ إِذَا هُوْجِيْتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ
وَلَكِنَّنِيْ أَحْمِيْ حِمَايَ وَأَتَّقِيْ مِنَ ٱلْبَاهِتِ ٱلرَّامِيْ ٱلْبَرِيْءِ ٱلظَّوَاهِرِ

وأنشد حسان أبياتاً يثني فيها على أم المؤمنين ويظهر براءته مما نسب إليه وهي:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزِنُّ بِرِيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُوْمِ ٱلْغَوَافِلِ
حَلِيْلَةُ خَيْرِ ٱلنَّاسِ دِيْنَاً وَمَنْصِبَاً نَبِيُّ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْمَكْرُمَاتِ ٱلْفَوَاضِلِ

---

(١) البحر المحيط.

عَقِيْلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ كِرَامِ ٱلْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ ٱللَّهُ خَيْمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كَانَ مَا بُلِّغْتِ عَنِّيَ قُلْتُهُ فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِيْ إِلَيَّ أَنَامِلِيْ
وَكَيْفَ وَوِدِّيْ مَا حَيِيْتُ وَنُصْرَتِيْ بِآلِ رَسُوْلِ ٱللَّهِ زَيْنِ ٱلْمَحَافِلِ
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَضْلُهَا تَقَاصَرَ عَنْهَا سُوْرَةُ ٱلْمُتَطَاوِلِ

وقرأ الجمهور:[1] ﴿كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف. وقرأ الحسن وعمرة بنت عبد الرحمٰن والزهري وأبو رجاء ومجاهد وأبو البرهشيم والأعمش وحميد وابن أبي عبلة وسفيان الثوري ويزيد بن قطيب ويعقوب والزعفراني وابن مقسم وسورة عن الكسائي ومحبوب عن أبي عمرو بضم الكاف، والكِبْرُ والكُبْرُ مصدران لكَبُرَ الشيء إذا عَظُمَ، لكن استعمال العرب الضم ليس إلا في السن يقال: هذا كبر القوم؛ أي: كبيرهم سناً أو مكانة، وفي الحديث في قصة حويصة ومحيصة (الكُبر الكُبر) بضم. وقيل: كبره بالضم معظمه، وبالكسر البداءة بالإفك. وقيل: بالكسر الإثم.

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات، وعاتبهم وغيرهم وزجرهم بتسعة زواجر:

الأول: هذا.

والثاني: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ...﴾ الخ.

والثالث: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

والرابع: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ...﴾ إلخ.

والخامس: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ إلخ.

والسادس: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ.

---

(١) البحر المحيط.

والسابع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ...﴾ إلخ.

والثامن: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ.

والتاسع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ...﴾ إلى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ا هـ. «شيخنا». ذكره في «الفتوحات».

قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ لولا هنا تحضيضية، بمعنى (هلا) جيء بها تأكيداً للتوبيخ والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم، ومعناها[1]: إذا دخلت على الماضي التوبيخ واللوم على ترك الفعل، إذ لا يتصور الطلب في الماضي، وإذا دخلت على المضارع فمعناها الحض على الفعل والطلب له، فهي في المضارع بمعنى الأمر؛ أي: هلا إذ سمعتم الإفك إيها الخائضون؛ أي: الشارعون في القول الباطل ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: بأبناء دينهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: عفافاً وصلاحاً، وفيه عدول إلى الغيبة لتأكيد التوبيخ فإن مقتضى الإيمان الظن بالمؤمن خيراً، وذب الطاعنين فيه، فمن ترك هذا الظن والذب، فقد ترك العمل بمقتضى الإيمان.

المراد بأنفسهم أبناء جنسهم ودينهم، النازلون منزلة أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن المراد لا يعيب بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس واحدة إذ كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوا الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غيره من غير توقف ولا تردد بأمثالهم من آحاد المؤمنين خيراً؛ أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو في أم المؤمنين أبعد.

والمعنى: هلا ظن المؤمنون والمؤمنات بأمثالهم من المؤمنين خيراً وعفافاً وقت سماعهم ذلك الإفك، ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال المؤمنون ﴿هَٰذَآ﴾ الإفك المنسوب إلى عائشة - رضي الله عنها - ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذب ظاهر بين كونه إفكاً، فكيف بالصديقة بنت الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله ﷺ.

---

(١) روح البيان.

وإنما عدل[1] عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم، ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان، على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الحسن، الذي قل القائم به والحافظ، وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه بإخوانه.

وإنما[2] جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف؛ لأنه منزل منزلته من حيث إنه لا ينفك عنه، ولذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكر الظرف أهم. فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله؛ أي: هلا إذ سمعتم[3] ما قال أهل الإفك في عائشة.. ظننتم بمن اتهم بذلك خيراً وعفافاً؛ لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم الظن بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم، وهلا قلتم حينئذٍ هذا إفك ظاهر، فإن الذي وقع لم يكن فيه ما يرتاب منه.

ذاك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك، ورسول الله بين أظهرهم، ينفي كل شك، وإنما قيل لحسد في القلوب كامن وبغض في النفوس مكتوم.

وقيل المعنى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: هذا[4] إذ سمعتم أيتها العصبة الكاذبة قذف عائشة ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من العصبة الكاذبة، وهم حسان ومسطح ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ وهي حمنة بنت جحش ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: بأمهاتهم أو بأخواتهم أو بأهل دينهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: صلاحاً وعفافاً ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ﴾ القذف لعائشة ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذب ظاهر لا حقيقة له.

ثم علّل سبحانه كذب الآفكين، ووبخهم على ما اختلقوه وأذاعوه بقوله[5]:

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.
(٤) زاد المسير.
(٥) البحر المحيط.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ﴾ وهذا إما من تمام ما يقوله المؤمنون؛ أي: وقالوا: هلا جاء الخائضون ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ على ما قالوا، أو ابتداء كلام من الله سبحانه؛ أي: هلا جاءت العصبة الكاذبة على قذفهم عائشة، بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا، وما رموها به؛ أي: يشهدون بأنهم عاينوا ما رموها به. فجعل الله[1] سبحانه فصلاً بين الرمي الصادق والرمي الكاذب ثبوت أربعة شهداء وانتفائها.

وقرأ الضحاك وعاصم الجحدري بأربعة منونة. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة؛ أي: فحين لم يقيموا بينةً على ما قالوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفسدون الخائضون في الإفك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة.. ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الكذب المشهود عليه بذلك، المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ولولا هنا[2] امتناعية؛ أي: امتناع الشيء لوجود غيره. والخطاب للسامعين والمسلمين جميعاً؛ أي: ولولا تفضله سبحانه عليكم أيها المسلمون ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بضروب النعم التي من أجلها الإمهال للتوبة ﴿و﴾ رحمته لكم في ﴿الآخرة﴾ بضروب الآلاء، التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة المقدران لكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: بسبب الإفك الذي أفضتم وخضتم فيه، فما موصولة، والباء سببية. ويصح أن تكون مصدرية.

والمعنى: حينئذٍ لمسكم بسبب إفاضتكم وخوضكم فيه؛ أي: في الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة؛ أي: شديد يستحقر دونه التوبيخ والجلد الذي وقع لهم، غير ابن سلول فإن عذابه محتم في الآخرة، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: لعجل لكم العقاب في الدنيا، من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان.

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذي كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمس أو للإفاضة؛ أي:

---

(١) زاد المسير.
(٢) روح البيان.

أي: لمسكم ذلك العذاب العظيم، وقت تلقيكم واستقبالكم ومواجهتكم ذلك الإفك، وأخذكم إياه من المخترعين ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه ويرويه بعضكم من بعض. وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل، فيقول له: ما وراءك، فيحدثه بحديث الإفك، حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا دار إلا طارَ فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ بفتح الثلاث وشد القاف، وشد التاء البزي وأدغم ذال إذ في التاء، وكذلك النحويان أبو عمر والكسائي وحمزة؛ أي: يأخذه بعضكم من بعض وقرأ عمر بن الخطاب ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بتاء واحدة خفيفة مضمومة وإسكان اللام وقاف منقوطة بنقطتين مضمومة خفيفة، من ألقى يلقي. وقرأ معاوية وابن السميقع مثله إلا أنهما فتحا التاء والقاف من لقي الثلاثي، وقرأ ابن مسعود ﴿إذ تتلقونه﴾ بتاءين مفتوحتين مع نصب اللام وتشديد القاف. وقرأ أبيّ بن كعب وعائشة ومجاهد وأبو حيوة وابن عباس وعيسى وابن يعمر وزيد بن علي ﴿تلقونه﴾ بتاء واحدة خفيفة مفتوحة وكسر اللام ورفع القاف. ومعناه: إذ تسرعون بالكذب. يقال: ولق يلق إذا أسرع في الكذب. وقرأ ابن أسلم وأبو جعفر ﴿تألقونه﴾ بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام مكسورة من الألق. وهو الكذب. وقرأ يعقوب في رواية المازني ﴿تيلقونه﴾ بتاء مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة، كأنه مضارع ولق بكسر اللام كما قالوا تيجل مضارع وجلت. وقال سفيان: سمعت أمي تقرأ ﴿إذ تثقفونه﴾ يعني مضارع ثقف. قال: وكان أبوها يقرأ بحرف ابن مسعود.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: تقولون بأفواهكم كلاماً مختصاً بالأفواه لا مساعد له من القلوب؛ لأنه ليس تعبيراً عما تعلمه وتعتقده قلوبكم، وإنما[2] قيد بالأفواه، مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب أولاً، ثم يترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على الألسنة من غير علم به في القلب. نظير قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ

(١) البحر المحيط وزاد المسير. (٢) النسفي.

﴿بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وهو حرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

والمعنى[1]: وتقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب؛ لأنه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم؛ أي: إن قولهم هذا مختص بالأفواه، من غير أن يكون واقعاً في الخارج، معتقداً في القلوب. وقيل: إن ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله: ﴿ويطير بجناحيه﴾ والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له، وتظنون حديث الإفك ﴿هَيِّنًا﴾؛ أي: شيئاً سهلاً لا تبعة له، أو ليس له كثير عقوبة، أو شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، حيث سكتم عن إنكاره.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ حال من ضمير المفعول؛ أي: وتحسبون ذلك الإفك هيناً، والحال أنه عند الله عظيم ذنبه وعقابه. وفي كلام بعض السلف: لا تقولن لشيء من سيئاتك نقير فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير. وقيل المعنى: وتحسبونه هيناً؛ أي: ذنباً صغيراً وهو عند الله عظيم؛ أي: ذنب كبير.

ومعنى الآية[2]: ولولا تفضله ورحمته لكم لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك، وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه. وقولكم قولاً بأفواه دون أن يكون له منشأ في القلوب يؤيده، وظنكم إياه هيناً سهلاً لا يعبأ به، وهو من العظائم والكبائر عند الله تعالى.

وخلاصة ذلك: أنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها.

١ ـ تلقي الإفك بالألسنة، فقد كان الرجل يلقى أخاه، فيقول له: ما وراءك، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر، حتى لم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

٢ ـ أنه قول بلا روية ولا فكر، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب، إذ ليس هناك علم يؤيده، ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه.

٣ ـ استصغار ذلك وحسبانه مما لا يؤبه له، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحقة لشديد العقوبة.

و﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ وهذا عتاب لجميع المؤمنين؛ أي: هلا إذ سمعتم حديث الإفك ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً للخائضين فيه المفترين له ﴿مَا يَكُونُ﴾ وينبغي ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الإفك العظيم، ولا يمكننا أن نخوض فيه، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: ننزهك يا ربنا، عن أن تجعل لنبيك زوجة فاجرة، حالة كوننا متعجبين ممن تفوه بهذا الحديث. ﴿هَٰذَآ﴾ الإفك الذي لا يصح لأحد أن يتكلم به. ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: كذب عظيم عند الله، التقاول به مصدر بهته؛ أي: قال: عليه ما لم يفعله. كما في «التأويلات النجمية».

وأصل سبحانك[١]، للتعجب من عظم الأمر. ومعنى التعجب في كلمة التسبيح: أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه. أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة. وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة، كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أن تكون فاجرة؛ لأن النبي ﷺ مبعوث إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه، والكفر غير منفر عندهم وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات.

والمعنى: أي[٢] وهلا حين سمعتموه ممن بدأ به، وانتحله، أو ممن تابعه في القول قلتم تكذيباً له، وتهويلاً لشأن ما ارتكبه من الجرم: لا يحل لنا أن نتكلم بهذا، ولا ينبغي لنا أن نتفوه به. سبحانك رب هذا كذب صراح، يحير السامعين أمره، لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس بيت النبوة الذي هو بالعليا من الإجلال والاحترام، وعظيم المكانة. وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة. فماذا يبقى

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

للمؤمنين بعدئذ، أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة وينبوع الطهر، ومنهم يقتبس المؤمنون فضائل الدين، وشريف الأخلاق، وإنا لنبرأ إليك ربنا منه، أن تلوكه ألسنتنا، وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفاك أثيم، سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين.

وخلاصة هذا: تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين، وأن لا يعاقبهم على عظيم ما ارتكبوا، وكبير ما اجترحوا من الإثم والفسوق، وأن توسم زوج نبيه بالفجوز، والعقل والدين يمنعان الخوض في مثل هذا؛ لأن فيه إيذاء للنبي ﷺ. والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ ولأن فيه إشاعة الفاحشة التي أمر الله بسترها، ولأن في إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تخلقاً بأخلاق الله، والنبي ﷺ يقول: «تخلقوا بأخلاق الله».

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز الفصل بين ﴿لولا﴾ و﴿قلتم﴾؟

قلت: للظروف شأن، وهو تنزلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها. انتهى.

قلت[١]: وما ذكره من أدوات التحضيض يوهم أن ذلك مختص بالظرف، وليس كذلك بل يجوز تقديم المفعول به على الفعل، فتقول: لولا زيداً ضربت، وهلا عمراً قتلت.

وقال الزمخشري أيضاً: فإن قلت: فأي فائدةٍ في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟.

قلت: الفائدة بيان أنه كان الواجب عليهم، أن ينقادوا حال ما سمعوه بالإفك وينزجروا عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم. فإن قلت: ما معنى يكون، والكلام بدونه تام، لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا؟

---

(١) البحر المحيط.

قلت: معناه: ما ينبغي ويصح؛ أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا، ولا يصح لنا. ومثله قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾.

ثم حذر عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه الوعظ والنصح والتذكير بالعواقب؛ أي: ينصحكم الله سبحانه، ويذكركم أيها الخائضون في أمر عائشة. ويعظكم بهذه المواعظ، التي بها تعرفون عظم هذا الذنب، وكبر هذا الجرم، وأن فيه النكال والعقاب بالحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، كراهية ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ وترجعوا، أو من أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿لِمِثۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: لمثل هذا القذف. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة حياتكم، أو ما دمتم أحياء مكلفين. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بالله وبرسوله وباليوم الآخر، تتعظون بعظات الله، وتأتمرون بأمره، وتنتهون عما نهاكم عنه، فإن ذلك من مقتضى الإيمان الكامل، فإن الملك من مقتضى الإيمان الكامل. وفي قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إيماء[1] إلى أن الإيمان يمنع من فعل هذا. وفيه[2] حث لهم على الاتعاظ، وتهييج عظيم، وتقريع بالغ، لأن من شأن المؤمن الاحتراز مما يشينه من القبائح.

قال في «الكبير»: يدخل في هذا من قال وسمع ولم ينكر، لاستوائهما في فعل ما لا يجوز، وإن كان المقدم أعظم ذنباً.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾؛ أي: ويفصل الله سبحانه وتعالى لأجلكم أيها المؤمنون في كتابه. ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة، لتتعظوا وتتأدبوا بها؛ أي: ينزلها مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها، لا يخفى عليه شيء منها. فيجازي المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤونكم وفيما كلفكم به، مما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم. وبه تسمو نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح، وتكونون خير

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الأمم في ساحات الشعوب وعمارة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولقد صدق الله سبحانه وعده، وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفاً في ذلك الحين، وبثوا فيه فضائل الدين وسماحته، حتى صاروا مضرب الأمثال، فلما انحرفوا عن الصراط المستقيم والنهج القويم، تقلص ظلهم، وذهب ريحهم، وصاروا أذلاء مستعبدين، بعد أن كانوا سادةً حاكمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولما كان من أنفع المواعظ بيان ما يستحقه المذنب من العقاب على جرمه بين ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ هم عبد الله بن أبيّ ومن تبعه في حديث الإفك ﴿يُحِبُّونَ﴾؛ أي: يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ وتنتشر ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ ويظهر خبرها بين الناس. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. والمراد هنا الزنا.

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وأخلصوا دينهم لله سبحانه. وأحصنوا فروجهم عن المحرمات، كعائشة وصفوان ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك الذين أشاعوا الفاحشة بسبب ذلك. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجع بإقامة حدّ القذف عليهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ واللعن والذم من الناس لهم فيها. ﴿و﴾ بعذاب النار في ﴿الآخرة﴾ وبئس القرار.

قال ابن الشيخ[1]: ليس معناه مجرد وصفهم بأنهم يحبون شيوعها في حق الذين آمنوا من غير أن يشيعوا ويظهروا، فإن ذلك لا يوجب الحد في الدنيا، بل المعنى: أن الذين يشيعون الفاحشة والزنا في الذين آمنوا، كعائشة وصفوان عن قصد ومحبة لإشاعتها، وفي «الإرشاد» يحبون شيوعها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة، فإنها مستتبعة له لا محالة.

وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» وعنه ﷺ أنه قال: «لا يستر عبد

(١) روح البيان.

مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة، ومن أقال عثرة مسلم، أقال الله عثرته يوم القيامة». و﴿الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور وخصوصاً ما في ضمائر من أحب الإشاعة، فردوا الأمور إلى ربكم ترشدوا ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلا ترووا ما لا علم لكم به، وابنوا الأمر في الحد وغيره على الظواهر، والله يتولى السرائر.

ثم كرر فضله ورحمته على عباده، للمنة عليهم بترك المعاجلة بالعقاب. فقال: ﴿وَلَوْلَا﴾ هنا امتناعية، حذف جوابها لدلالة ما قبلها عليه؛ أي: ولولا ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾؛ أي: تفضله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ أي: إنعامه لكم. وجملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوفة على فضل الله؛ أي: ولولا فضله عليكم ورحمته لكم، وأنه بليغ الرأفة والرحمة بكم، لعاجلكم بالعقاب على ما صدر منكم، ومن رأفته بعباده أن لا يعاجلهم بذنوبهم. ومن رحمته لهم أن يقدم إليهم بمثل هذا الإعذار والإنذار.

وفي الآيتين إشارات:

منها: أن أهل الإفك كما يعاقبون على الإظهار، يعاقبون بإسرار محبة الإشاعة، فدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين، كوجوب كف الجوارح والقول عما يضرهم. وفي الحديث: «أيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة، وهو منها بريء، يرى أن يشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يرميه بها في النار». فالصنيع الذي ذكر من أهل الإفك ليس صنيع أهل الإيمان، فإن من صنيع أهل الإيمان ما قاله عليه السلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كنفس واحدة، إذا اشتكى منها عضو، تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر». فمن أركان الدين: مظاهرة المسلمين، وإعانة أهل الدين وإرادة الخير بكافة المؤمنين. والذي يود الفتنة وافتضاح الناس فهو شر الخلق كالخناس.

ومنها: أن ترك المعاجلة بالعذاب تعريض للتوبة. فدل على أن عذاب الآخرة، إنما هو من تقدير الإصرار.

ومنها: غاية كرم الله ورحمته وفضله على عباده، حيث يتفضل عليهم، ويرحمهم ويزكيهم عن أوصافهم الذميمة مع استحقاقهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فإنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، ولو كان للعذاب.. لكان من جهتهم بسوء اختيارهم. عصمنا الله وإياكم من الأوصاف الذميمة الموجبة للعذاب الأليم، وشرفنا بالأخلاق الحميدة، الباعثة على الدرجات والتنعمات في دار النعيم.

والمعنى(١): ولولا أن الله تفضل عليكم، وأبقاكم بعد الخوض في الإفك، ومكنكم من التلافي بالتوبة لهلكتم، لكنه لرأفته بعباده لا يدع ما هو أصلح للعبد وإن جنى على نفسه.

وبعدئذٍ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: لا تسلكوا سبل الشيطان وطرقه، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء في الذين آمنوا بروايتكم إياها عمَّن نقلها إليكم، والخطوات(٢) في الأصل جمع خطوة بضم الخاء، وهي ما بين القدمين كما سيأتي في مباحث اللغة، ثم استعمل اتباع الخطوات في الاقتداء، وإن لم يكن ثمة خطو. والمراد بها هنا سيرة الشيطان وطريقته. والمعنى: لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويوسوس بها في قلوبكم ويزينها لأعينكم، ومن جملتها إشاعة الفاحشة في المؤمنين وحبّها.

وقرأ الجمهور(٣): ﴿خطوات﴾ بضم الخاء والطاء. وقرأ عاصم والأعمش بضم الخاء وإسكان الطاء.

ثم ذكر سبب النهي، فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: ومن اتبع وسلك طرق الشيطان، ومسالكه ومذاهبه.. فقد ارتكب الفحشاء والمنكر. فقوله:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ علة للجزاء وضعت موضعه؛ لأن دأبه أن يستمر آمراً لغيره بهما. والفحشاء ما أفرط قبحه من المنكرات كالزنا. والمنكر كل ما ينكره الشرع. وضمير إنه للشيطان. وقيل: للشأن. والأولى أن يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان؛ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر. وعبارة أبي السعود هنا. وقيل: إن الضمير في أنه عائد على من؛ أي: فإن المتبع للشيطان يأمر الناس بهما؛ فإن شأن الشيطان هو الإضلال، فمن اتبعه فإنه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد.

والمعنى: أي ومن اتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر، فإنه لا يأمر إلا بهما. ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه ولا طاعته.

ثم أكد منته على عباده، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بهذه البيانات، والتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وشرع الحدود المكفرة لها.. ﴿مَا زَكَىٰ﴾؛ أي: ما طهر من دنس الذنوب ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ﴿من﴾: الأولى بيانية، والثانية: زائدة، و﴿أَحَدٍ﴾ في حيز الرفع على الفاعلية. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: آخر الدهر لا إلى نهاية، وجملة ﴿زَكَىٰ﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾ الامتناعية.

والمعنى: أي[1] ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم، بتوفيقكم للتوبة التي تمحو الذنوب، وتغسل أدرانها.. ما طهر أحد منكم من ذنبه ما دام حياً، وكانت عاقبته النكال والوبال. ولعاجلكم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقال الكسائي[2]: إن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معترض. وقوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب لقوله أولاً وثانياً. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ يفيد[3] أنهم قد طهروا وتابوا،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

وهو كذلك يعني: غير عبد الله بن أبيّ، فإنه استمر على الشقاوة حتى هلك. ا هـ. شيخنا.

وقرأ الجمهور: ﴿زكى﴾ بالتخفيف. وقرأ الأعمش وابن محيصن وأبو جعفر بالتشديد؛ أي: ما طهره الله. وقراءة التخفيف أرجح لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بالتفضُّل عليهم، والرحمة لهم؛ أي: ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب، التي اجترحوها تفضلاً منه ورحمة، كما فعل بمن سلم من داء النفاق، ممن وقع في حديث الإفك، كحسان ومسطح وغيرهما. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم، من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها، ومجازيكم بكل ذلك. وفي هذا حث لهم على الإخلاص في التوبة، والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية، وارتكاب الأوزار والآثام: وتهييج عظيم لعباده التائبين ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾؛ أي: ولا يحلف أصحاب الفضل والدرجة في الدين ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿و﴾ أصحاب ﴿السعة﴾ في المال على ﴿أَن﴾ لا ﴿يُؤْتُوٓاْ﴾ ولا يعطوا شيئاً من الأموال ولا يحسنوا بالإنفاق. فهو على إسقاط الخافض، وتقدير: لا. وهو كثير شائع ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب القرابة. وقال أبو عبيدة: لا حاجة إلى تقدير: لا؛ أي: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] صفات لموصوف واحد، جيء بها بطريق العطف، تنبيهاً على أن كلاً منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء؛ لأن الكلام فيمن كان كذلك؛ لأن مسطحاً قريب ومسكين ومهاجر. والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل والسعة، على أن لا يعطوا ناساً جامعين لصفة القرابة

---

(١) روح البيان.

والمسكنة والهجرة نفقة من أموالهم. ومسطح[1] كان ابن خالة أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -، وكان من المهاجرين وممن شهد بدراً، وكان مسكيناً، وكان ما نسب إليه داعياً أبا بكر أن لا يحسن إليه، فأمر هو ومن جرى مجراه بالعفو والصفح.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾. وقرأ عبد الله بن عياش بن ربيعة وأبو جعفر مولاه وزيد بن أسلم والحسن وأبو العالية وابن أبي عبلة. ﴿ولا يتأل﴾ بهمزة مفتوحة بين التاء واللام وتشديد اللام على وزن يتعل. وقرأ أبو حيوة وابن قطيب وأبو البرهشيم: ﴿أن تؤتوا﴾ بالتاء على الالتفات ويناسبه ﴿ألا تحبون﴾.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾؛ أي: وليتجاوز أولو الفضل عن ذنب الخائضين، الذي أذنبوه عليهم، وجنايتهم التي اقترفوها، من عفا الربع إذا درس. والمراد: محو الذنب، حتى لا يبقى له أثر. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾؛ أي: وليعرضوا عن لومهم بالإغضاء عن الجاني، والإغماض عن جنايته.

قال الراغب: الصفح ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح. اهـ. وقرأ عبد الله والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد ﴿ولتعفوا ولتصفحوا﴾ بالتاء بأمر خطاب الحاضرين.

أي[2]: وليتركوا عقوبتهم على ذلك، بحرمانهم مما كانوا يؤتونهم، وليعودوا لهم إلى مثل الذي كان لهم عليهم من الأفضال. ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ بهمزة الاستفهام التوبيخي؛ أي: ألا تحبون يا أرباب الفضل والسعة، أن يستر الله عليكم ذنوبكم بأفضاله عليكم، والجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح الله عنك. فحينئذٍ قال الصديق: بلى والله، نحب أن يغفر لنا ربنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وكفر عن يمينه. وقال والله لا أنزعها منه أبداً. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من أطاعه واتبع أمره.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿رَّحِيمٌ﴾ به، لا يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم. وفي هذا ترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب. وحث على مكارم الأخلاق.

وفي «معجم الطبراني الكبير» أنه أضعف له النفقة التي كان يعطيه إياها قبل القذف؛ أي: أعطاه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك. وقال بعضهم:

مَنْ كَانَ يَرْجُوْ عَفْوَ مَنْ فَوْقَهُ ... فَلْيَعْفُ عَنْ ذَنْبِ الَّذِيْ دُوْنَهُ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾؛ أي: يقذفون بالزنا ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾؛ أي: العفائف مما رمين به من الفاحشة والزنا، وأجمعوا على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حدّ القذف. ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفاحشة على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً. ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس من المحصنات ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ أي: المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات، والمحظورات وغيرها، إيماناً حقيقياً تفصيلياً، كما ينبىء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها، مع أصالة وصف الإيمان. والمراد بها عائشة الصديقة ـ رضي الله عنها ـ. والجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين، لاشتراك الكل في العصمة والنزاهة، والانتساب إلى رسول الله ﷺ. كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ ونظائره.

وجملة قوله: ﴿لُعِنُواْ﴾ خبر ثان؛ أي[1]: لعنوا وطردوا من رحمة الله تعالى بسبب ما قالوا في المحصنات وهتكوا حرمتهن ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً. وأصل اللعنة: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع عن قبول فيضه وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره.

﴿وَلَهُمۡ﴾؛ أي: لأولئك الرامين مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) روح البيان.

لعظم ذنوبهم. قال مقاتل: هذا خاص في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق.

وفي «الشوكاني» وقد[1] اختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أم عامة؟ فقال سعيد بن جبير: هي خاصة فيمن رمى عائشة ـ رضي الله عنها ـ. وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله بن أبي رأس المنافقين. وقال الضحاك والكلبي: هذه الآية هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ دون سائر المؤمنون والمؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبي ﷺ، فهو من أهل هذه الآية.

قال الضحاك: ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ. ومن قذف غيرهن.. فقد جعل الله له التوبة، كما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وقيل: إن هذه الآية خاصة بمن أصر على القذف، ولم يتب. وقيل: إنها تعم كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين. واختاره الناس. وهو الموافق لما قرره أهل الأصول، من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: إنها خاصة بمشركي مكة؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة.. فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحد وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين. وإن كان المراد من قذف عائشة خاصة، كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبي رأس المنافقين. وإن كان في مشركي مكة فإنهم ملعونون.

وقيل المعنى[2]: ﴿لُعِنُوا۟﴾؛ أي: عذبوا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحد وفي ﴿الآخرة﴾ بالنار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب الكفر.

والخلاصة: أي[3] إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها، المؤمنات بالله ورسوله يبعدون من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم في الآخرة عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جناياتهم، فهم مصدر قالة السوء في المؤمنات،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، والقدوة السيئة لمن يتكلم بها، فعليهم وزرها ووزر من تكلم بها. كما ورد في الحديث «من سن سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها، مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل، بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف. والعامل في الظرف الاستقرار الذي تعلق به الخبر، والتقدير: وعذاب عظيم كائن لهم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ إلخ. وإنما[1] لم يجعل منصوباً بالمصدر وهو عذاب؛ لأن شرط عمله عند البصريين أن لا يوصف وهنا قد وصف، وأجيب عن هذا، بأن الظرف يتسع فيه ما لا يتسع في غيره. ا هـ. من «السمين».

وتقديم[2] ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل، للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم. والشهادة معناها: قول صادر عن علم، حصل بمشاهدة بصر، أو بصيرة؛ أي: تشهد عليهم ألسنتهم بغير اختيار منهم ذنوبهم التي اقترفوها. فالمشهود به محذوف. وهذا قبل أن يختم على أفواههم، فلا تعارض بينه وبين قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتخبر كل جارحة بما صدر من أفاعيل صاحبها، لا أن كلاً منها تخبر بجنايتها المعهودة فقط. فالموصول عبارة عن جميع أعمالهم السيئة.

وقيل المعنى[3]: تشهد ألسنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم. وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم، بما تكلموا به، وأيديهم وأرجلهم بما عملوا بها في الدنيا. وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم.

وقرأ الأخوان[4] حمزة والكسائي والزعفراني وابن مقسم وابن سعدان ﴿يشهد﴾ بياء من تحت؛ لأنه تأنيث مجازي، ووقع الفصل، وباقي السبعة بالتاء.

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

أي: ولهم[1] ذلك العذاب الذي لا يقدر قدره، يوم يجحدون ما اكتسبوا في الدنيا من الذنوب حين سؤالهم عنها، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، من قول أو فعل. إذ ينطقها الله سبحانه بقدرته، فتخبر كل جارحة بما صدر منها من أفاعيل صاحبها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾.

وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا فيحلفون. ثم يصمهم الله، فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، ثم يدخلهم النار». ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان، لئلا يعارض قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بل شهادة الإثبات والبيان. إذ كل ما يعمله الإنسان في الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة على العضو الذي فعله، فالكلمة يقولها تنطبع لها صورة على اللسان، واليد التي تمتد لفعل شيء والرجل التي تخطو إلى عمل، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التي فعلته، فما أشبه ذلك بالصور التي تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين وبصمات أيديهم وأرجلهم في فلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك المجرمين. فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافياً جد الكفاية في إثبات الجرم على أولئك المجرمين والطغاة الظالمين.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة. ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يعطيهم الله سبحانه جزاءهم الحق الثابت، الذي لا شك في ثبوته على أعمالهم موفراً كاملاً. والتوفية[2] بذل الشيء وافياً. والوافي الذي بلغ التمام والدين الجزاء والحق منصوب على أنه صفة للدين.

والمعنى: أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الثابت الواجب الذي هم أهله وافياً كاملاً. ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوال والخطوب ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الوجود ﴿الْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر حقيته، لما أنه أبان لهم حقية ما كان يعدهم به في الدنيا من الجزاء.

والخلاصة[1]: أي في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم، ويعلمون أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه. ويزول عنهم كل ريب كان قد ألم بهم في الدار الأولى.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». رواه الشيخان.

قال صاحب «الكشاف»: ولو قلبت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه. ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث.. لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا. وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله. ا هـ.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿يُوَفِيهِمُ﴾ مخففاً من أوفى، وقرأ من عداه: بالتشديد من وفى. وقرأ الجمهور ﴿الحق﴾ بالنصب صفة لدينهم. وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة: بالرفع على أنه صفة للجلالة. وروي ذلك عن ابن مسعود. قال أبو عبيدة: ولولا كراهة خلاف الناس.. لكان الوجه الرفع، ليكون نعتاً لله عز وجل، ولتكون موافقة لقراءة أبيّ. وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿يوفيهم الله الحق دينهم﴾ قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة فيه أيضاً؛ لأنه لو صح أنه مصحف أبي كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من الحق.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾؟ قلت: معناه: ذو الحق المبين، العادل الذي لا ظلم في حكمه، والمحق الذي لا يوصف بباطل، ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء، ولا إحسان محسن. فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه. انتهى.

وفي الآية أمور(١):

منها: بيان جواز اللعنة على من كان من أهلها. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الصفات المقتضية للعن ثلاث: الكفر، والبدعة، والفسق. وله في كل واحدة، ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين، أو المبتدعة، أو الفسقة.

والثانية: اللعن بأوصاف أخص منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى، أو على القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة، والظلمة وآكل الربا. وكل ذلك جائز، ولكن في لعن بعض أصناف المبتدعة خطر؛ لأن معرفة البدعة غامضة، فما لم يرد فيه لفظ مأثور ينبغي أن يمنع منه العوام؛ لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله، ويثير نزاعاً وفساداً بين الناس.

والثالثة: اللعن على الشخص، فينظر فيه، إن كان ممن ثبت كفره شرعاً، فيجوز لعنه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، كقولك: لعنة الله على النمرود وفرعون وأبي جهل؛ لأنه ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر، وعرف ذلك شرعاً. وإن كان ممن لم يثبت حال خاتمته بعد، كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي أو

---

(١) روح البيان.

فاسق، فهذا فيه خطر؛ لأنه ربما يسلم، أو يتوب فيموت مقرباً عند الله تعالى، فكيف يحكم بكونه ملعوناً.

ومنها: شهادة الأعضاء، وذلك بإنطاق الله تعالى، فكما تشهد على المذنبين بذنوبهم تشهد للمطيعين بطاعتهم، فاللسان يشهد على الإقرار وقراءة القرآن، واليد تشهد بأخذ المصحف، والرجل تشهد بالمشي إلى المسجد، والعين تشهد بالبكاء، والأذن تشهد باستماع كلام الله تعالى. وقيل[1]: شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة، وشهادتها في المحبة اليوم معجلة من صفرة الوجه وتغير اللون ونحافة الجسم وانسكاب الدموع وخفقان القلب وغير ذلك.

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة، فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال لا يتجاوزونهم ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من النساء؛ لأن المجانسة من دواعي الألفة ودوام العشرة ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، لما قد عرفت من الأنس بمن يحاكيك في الصفات، ويجانسك في الفضل والكمال. ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ منهم أيضاً ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ منهن، لا تجاوزوهن إلى من عداهن. وإذا كان رسول الله ﷺ من أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين.. استبان أن الصديقة ـ رضي الله عنها ـ من أطيب الطيبات، واستبان بطلان ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين[2]: المعنى: الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: ومعناه: لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء. ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء. وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبيث، ومدح للذين برؤوها.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقيل: إن هذه الآية مبنية على قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾. فالخبيثات الزواني والطيبات العفائف. وكذا الخبيثون والطيبون.

والإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ راجعة إلى الطيبين والطيبات؛ أي: أولئك الطيبون والطيبات، ومنهم صفوان وعائشة مبرؤون مما يقول الخبيثون من الرجال والخبيثات من النساء. وقيل: الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ. وقيل: إلى رسول الله ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل. وقيل: عائشة وصفوان فقط. قال الفراء: وجمع كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ والمراد أخوان.

وقال في «الأسئلة المقحمة»[1]: آية الإفك نزلت في عائشة وصفوان، فكيف ذكرها بلفظ الجمع؟ والجواب: لأن الشين وعار الزنا والمعرة بسببه تتعدى إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه زوجها وإلى أبي بكر الصديق؛ لأنه أبوها، وإلى عامة المسلمين؛ لأنها أمهم، فذكر الكل بلفظ الجمع؛ أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن، يعني أهل البيت مبرؤون؛ أي: منزهون مما يقوله أهل الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة في جميع الأعصار والأطوار إلى يوم القيامة. ﴿لَهُم﴾؛ أي: لأولئك المبرئين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب التي اقترحوها من قبل. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: كثير أو حسن عند ربهم في جنات النعيم.

روي: أن[2] عائشة كانت افتخرت بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها:

منها: أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها في سرقة حرير، وقال: هذه زوجتك. وروي أنه أتى بصورتها في راحته.

ومنها: أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، وقبض رسول الله ﷺ في حجرها وفي يومها ودفن في بيتها. وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف. ونزلت براءتها من السماء. وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله ﷺ. وخلقت

---

(١) روح البيان.   (٢) الخازن.

طيبة، ووعدت مغفرةً ورزقاً كريماً، وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من السماء.

وفي «القرطبي»: قال[1] بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام، لما رمي بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد. وأن مريم لما رميت بالفحشاء برأها الله على لسان ولدها عيسى عليه السلام، وأن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله بالقول، ما رضي لها براءة صبي ولا نبي حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان. اهـ.

ولما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان، لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء. فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين. وأيضاً أن الإنسان يكون في بيته وتكون خلوته على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره. فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا﴾ لستم تملكونها ولا تسكنونها ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تسكنونها بملك أو إجارة، أو إعارة مثلاً.

ووصف[2] البيوت بمغايرة بيوتهم خارجة مخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلا فالمؤجر والمعير لا يدخلان إلا بإذنٍ ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾؛ أي: حتى تستأذنوا الدخول ممن يملك الإذن من أصحابها، وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا، وحتى يؤذن لكم. فالدخول بالإذن من الآداب الجميلة والأفعال المرضية المستتبعة لسعادة الدارين، مأخوذ من الاستئناس، بمعنى الاستسلام من آنس الشيء إذا أبصره مكشوفاً فعلم به، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو لا. ومن الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لما أن المستأنس مستوحش، خائف أن لا يؤذن له، فإذا أذن له.. استأنس، ولهذا يقال في جواب القادم المستأذن مرحباً: أهلاً وسهلاً؛ أي:

---

(1) القرطبي.　　(2) روح البيان.

وجدت مكاناً واسعاً وأتيت أهلاً لا أجانب، ونزلت مكاناً سهلاً لا حزناً ليزول به استيحاشه وتطيب نفسه. فيؤول المعنى إلى أن يؤذن لكم، فهو من باب الكناية، حيث ذكر الاستئناس اللازم وأريد الإذن الملزوم.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾؛ أي: على سكانها عند الاستئذان، بأن يقول الواحد منكم: السلام عليم، أأدخل ـ ثلاث مرات ـ فإن أذن له، دخل وسلم ثانياً، وإلا رجع. كما ورد في الحديث. وقال عطاء: الاستئذان واجب على كل محتلم. والظاهر مطلق الاستئذان، فيكفي فيه المرة الواحدة. وفي الحديث الاستئذان ثلاث يعني كمالُهُ فإن أذِنَ له وإلا فليرجع، ولا يزيد على ثلاث، إلا أن يتحقق أن من في البيت لم يسمع. ذكره في «البحر».

واختلفوا هل[1] يقدم الاستئذان على السلام أو بالعكس. فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أأدخل، سلام عليكم، لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الأكثرون: يقدم السلام على الاستئذان. فيقول السلام عليكم أأدخل. وهو الحق؛ لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا. وتقدير الآية: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا، وهو كذلك في مصحف ابن مسعود. ويكون كل من السلام والاستئذان ثلاث مرات يفصل بين كل مرتين بسكونٍ يسير، فالأول: إعلام، والثاني: للتهيء، والثالث: استئذان في الدخول أو الرجوع. وإذا أتى الباب، لم يستقبله من تلقاء وجهه، بل يجيء من جهة ركنه الأيمن أو الأيسر. وقيل: إن وقع بصره على أحد في البيت، قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم. ا هـ. «خازن».

وروى[2] الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: استأذنت على النبي ﷺ فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال النبي ﷺ: أنا أنا. كأنه كره ذلك. قال علماؤنا: إنما كره النبي ﷺ ذلك؛ لأن قوله: أنا لا يحصل به تعريف، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه، كما فعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأبو

---

(١) الخازن بتصرف. (٢) القرطبي.

موسى الأشعري؛ لأن في ذكر الاسم إسقاط كلمة السؤال والجواب، وقد ثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه أتى النبي ﷺ وهو في مشربة له فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟ وفي «صحيح مسلم» أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعري. الحديث. ا هـ. من «القرطبي».

وقد أدب الله سبحانه عباده المؤمنين بآداب نافعة في بقاء الود وحسن العشرة بينهم ومن ذلك: أن لا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام، حتى لا يطلعوا على عورات غيرهم، ولا ينظروا إلى ما لا يحل لهم النظر إليه، ولا يقفوا على الأحوال التي يطويها الناس في العادة، ويستحفظون من اطلاع أحد عليها، إلى أن في هذا تصرفاً في ملك غيرك، فلا بد أن يكون برضاه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من[1] الدخول بغتة بغير استئذان، ولو على الأم، فإنها تحتمل أن تكون عريانة. أو من الدخول على عادة الجاهلية، حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته، يقول: حييتم صباحاً، حييتم مساءً، ثم يدخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أمرتكم بالاستئذان كي تذكروا وتتعظوا وتعلموا بموجبه. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: بتخفيف الذال. والباقون بالتشديد. ا هـ. «مراح».

واعلم: أن[2] السلام من سنة المسلمين، وهو تحية أهل الجنة، ومجلبة للمودة، وناف للحقد والضغينة. روي عنه عليه السلام قال: «لما خلق الله تعالى آدم، ونفخ فيه الروح، عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله تعالى: يرحمك ربك يا آدم. اذهب إلى هؤلاء الملائكة وملأ منهم جلوس فقل: السلام عليكم، فلما فعل ذلك رجع إلى ربه. قال: هذه تحيتك وتحية ذريتك».

---

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.

ثم اعلم: أنه إذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق، أو قتل نفس بغير حق، أو ظهور منكر يجب إزالته، فحينئذ لا يجب الاستئذان والتسليم، فإن كان ذلك مستثنى بالدليل، وهو ما قاله الفقهاء: من أن مواقع الضرورات مستثناة من قواعد الشرع؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات. قال صاحب «الكشاف»: وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة، قد تركوا العمل بها، وباب الاستئذان من ذلك. ا هـ.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك البيوت ﴿أَحَدًا﴾ ممن يملك الإذن، على أنَّ من لا يمكله من النساء والولدان والعبيد وجدانه كفقدانه، فلا يدخله حتى يأذن له من يملك الإذن، وهو رب الدار، أو لم تجدوا فيها أحداً أصلاً. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ فاصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي[1]: من جهة من يملك الإذن عند إتيانه، فإن في دخول بيت فيه النساء والولدان اطلاعٌ على العورات، وفي دخول البيوت الخالية اطلاعٌ على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً. والمعنى: إن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن.

والظاهر[2]: أنه يجوز للإنسان أن يدخل بيت نفسه من غير استئذان ولا سلام لقوله: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾؛ أي: وإن قال لكم أهل البيت الذي تستأذنون فيه، ﴿ارْجِعُوا﴾؛ أي: انصرفوا، ﴿فَارْجِعُوا﴾؛ أي: فاذهبوا ولا تقفوا على أبواب الناس؛ أي: إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أم لا، فارجعوا ولا تلحُّوا بتكرير الاستئذان. كما في الوجه الأول، أو لا تلحُّوا بالإصرار على الانتظار على الأبواب إلى أن يأتي الإذن، كما في الثاني. فإنَّ ذلك مما يجلب الكراهة في قلوب الناس، ويقدح في المروءة أيَّ قدحٍ.

﴿هُوَ﴾؛ أي: الرجوع والانصراف ﴿أَزْكَىٰ﴾ وأطهر ﴿لَكُمْ﴾ مما لا يخلو عنه

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرزانة. وأفضل لكم في دينكم ودنياكم؛ لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان. ولما في ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس، وربما ظُنَّ بأهل البيت سوءٌ من وقوف الأجانب على أبوابهم، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية، فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه. وفي ذلك توعد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غيره، والنظر لما لا يحل.

ولما بين سبحانه حكم البيوت المسكونة.. بين حكم البيوت غير المسكونة، فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم ولا حرج في ﴿أَن تَدۡخُلُواْ﴾ بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾؛ أي: غير معدة لسكنى قوم معينين، وطائفة مخصوصة فقط، بل هي معدة لينتفع ويتمتع بها من يحتاج ويضطر إليها كائناً من كان، من غير أن يتخذها سكناً. كالفنادق والحوانيت والحمامات والرُّبَط ونحوها؛ فإنها معدة لمصالح الناس كافةً، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡۚ﴾ فإنه صفة للبيوت؛ أي: لكم فيها حق التمتع والانتفاع بها، كالمبيت فيها والاستكنان بها من الحر والبرد، وإيواء الأمتعة والرحال، والشراء والبيع، والاغتسال فيها، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخلها، كقضاء حاجة الإنسان من البول والغائط. فلا بأس في دخولها بغير استئذان من قُوَّام الرباطات وأصحاب الحوانيت ومتصرفي الحمامات ونحوهم؛ لأن السبب الذي لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم غير موجود فيها.

روي: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنا لنختلف في تجارتنا، فننزل هذه الخانات، أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت هذه الآية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ أي: ما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة. ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: ما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس، أو من قصد

ريبة أو فساد، وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله في دخول بيوت الغير.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿عُصۡبَةٞ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِّنكُمۡ﴾: صفة لـ﴿عُصۡبَةٞ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحۡسَبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿شَرّٗا﴾: مفعول ثان لحسب. ﴿لَّكُم﴾: متعلق بـ﴿شَرّٗا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتسلية النبي ﷺ، ولكل من تأسف بذلك الإفك. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿هُوَ خَيۡرٞ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُم﴾: متعلق بـ﴿خَيۡرٞ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مِّنۡهُم﴾: صفة لامرىء. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱكۡتَسَبَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱمۡرِيٕٖ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما اكتسبه. ﴿مِنَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف. ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذي﴾: مبتدأ. ﴿تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول صلة الموصول. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾. ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿عَظِيمٞ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، أعني الموصول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾.

﴿لَّوۡلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا، متضمن معنى الزجر والتوبيخ. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق

بـ﴿ظَنَّ﴾ الذي هو مدخول ﴿لَّوْلَآ﴾. ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿ظن﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان له، وجملة ﴿ظَنَّ﴾: مستأنفة. ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ظَنَّ﴾. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَّوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا أيضاً. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿شهداء﴾. ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. ﴿لَمْ يَأْتُوا۟﴾: جازم وفعل مجزوم وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتُوا۟﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذْ﴾. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذْ﴾. وجملة ﴿إِذْ﴾ مع جوابها معطوفة على جملة ﴿لَّوْلَا جَآءُو﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور، حال من الفضل والرحمة. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على الدنيا، والتقدير: حالة كونهما كائنين في الدنيا والآخرة، وخبر ﴿لَّوْلا﴾ محذوف وجوباً لقيام جواب ﴿لَّوْلا﴾ مقامه تقديره: موجودان، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لَّوْلا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾

(اللام): رابطة لجواب ﴿لَّوْلا﴾. ﴿مسكم﴾: فعل ومفعول. ﴿فِي﴾: حرف جر وسبب. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الجر بـ﴿فِي﴾. الجار والمجرور متعلق بـ﴿مسكم﴾. ﴿أَفَضْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿فيه﴾. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل لـ﴿مسكم﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْلا﴾، وجملة ﴿لَّوْلا﴾ معطوفة على جملة ﴿لَّوْلا﴾ الأولى.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ﴿أَفَضْتُمْ﴾، أو بـ﴿مسكم﴾. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل الخفض، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾. ﴿وَتَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾. ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾: متعلق بـ﴿تقولون﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تقولون﴾؛ لأنه بمعنى تذكرون. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُم﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾. ﴿عِلْمٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: صلة ﴿مَّا﴾ الموصولة. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول. ﴿هَيِّنًا﴾: مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿عَظِيمٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَظِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من المفعول ﴿تحسبونه﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض وتوبيخ. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿قُلْتُم﴾. ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿قُلْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿يَكُونُ﴾: فعل ناقص. ﴿لَنَآ﴾: خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم. ﴿أَن﴾: حرف

نصب. ﴿نَّتَكَلَّمَ﴾: في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ والتقدير: ما يكون التكلم بهذا كائناً لنا. وجملة ﴿يَكُونُ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾. ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلقان بـ﴿نَّتَكَلَّمَ﴾ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، تقديره: نسبحك سبحاناً. والجملة المحذوفة، في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾، أو حال من فاعل ﴿قُلْتُم﴾، والتقدير: هلا قلتم، ما ينبغي لنا، أن نتكلم بهذا، حال كونكم متعجبين من هذا الأمر، العجيب الغريب. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿بُهْتَٰنٌ﴾: خبر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿بُهْتَٰنٌ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾. ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿أَن تَعُودُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض المتعلق بـ﴿يَعِظُكُمُ﴾، والتقدير: يعظكم من عودكم لمثله أبداً. ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿تَعُودُوا۟﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَعُودُوا۟﴾ أيضاً. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فلا تعودوا لمثله. وجملة الشرط مستأنفة.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعِظُكُمُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يبين﴾. ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يبين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية. والتقدير: إن الذين يحبون شيوع الفاحشة. ﴿فِى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَشِيعَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾:

معطوف على ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾. والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾. وجملة ﴿أن﴾: مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٢٠﴾.

﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لوْلاَ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾. وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: موجودات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿فَضۡلُ﴾؛ أي: وكون الله رؤوفاً رحيماً موجوداً. وجواب ﴿لوْلاَ﴾ محذوف، تقديره: لعاجلكم بالعقوبة. وجملة ﴿لوْلاَ﴾: مستأنفة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٢١﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات. ﴿أي﴾: من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب أو الرفع صفة لـ﴿أي﴾. وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَّبِعۡ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه، فعل شرط لها. وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿يَأۡمُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾. ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: متعلق به.

﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾: معطوف على ﴿الفحشاء﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استنافية. ﴿لوْلاَ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾: معطوف عليه، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: موجودات. ﴿ما﴾: نافية. ﴿زَكَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿مِنكُم﴾: حال من ﴿أَحَدٍ﴾. ﴿مِّنۡ﴾: زائدة. ﴿أَحَدٍ﴾: فاعل ﴿زَكَىٰ﴾. ﴿أَبَدٗا﴾: ظرف متعلق بـ﴿زَكَىٰ﴾. والجملة الفعلية جواب ﴿لوْلاَ﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لوْلاَ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿يُزَكِّي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول، في محل النصب مفعول به. وجملة ﴿يَشَآءُۗ﴾: صلة الموصول. وجملة ﴿يُزَكِّي﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾. وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لوْلاَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿عَلِيمٞ﴾: خبر ثان له. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُزَكِّي﴾.

﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَأۡتَلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء. ﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنكُمۡ﴾: حال من الفاعل. ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: معطوفان على ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿المهاجرين﴾. وجملة ﴿يُؤۡتُوٓاْ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، مع تقدير ﴿لَا﴾ النافية؛ أي: عدم إيتاء ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: والجار المحذوف متعلق بـ﴿يَأۡتَلِ﴾.

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): لام الأمر. ﴿يعفوا﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلام الأمر. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَأْتَلِ﴾. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أيضاً. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. والجملة في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية؛ أي: ألا تحبون مغفرة الله لكم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿يَغْفِرَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾: صفتان للمحصنات. ﴿لُعِنُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: متعلق به. ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿لُعِنُوا۟﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار. الذي تعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ والتقدير: عذاب عظيم كائن لهم، يوم تشهد عليهم، ويجوز تعلقه بالمصدر، وهو عذاب؛ لأن الظروف يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها. ﴿تَشْهَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾: فاعل. ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾: معطوفان عليه. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَشْهَدُ﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه.

وجملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما كانوا يعملونه. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾. ﴿يَوۡمَ﴾: مضاف، ﴿إِذٍ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مضاف ليوم والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة، والتقدير: يوم إذ تشهد عليهم ألسنتهم الخ. ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿دِينَهُمُ﴾: مفعول ثان. ﴿ٱلۡحَقَّ﴾: صفة لـ﴿دِينَهُمُ﴾. ﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿هو﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبر أن. ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿يعلمون﴾.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان سنة الله في خلقه، في أن يسوق كل صنف إلى صنفه، وأن يقع كل طير على شكله. ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾: خبر. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾: خبر. والجملة معطوفة. ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾: خبر للمبتدأ. والجملة معطوفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مُبَرَّءُونَ﴾: خبر. والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿مُبَرَّءُونَ﴾. ﴿يَقُولُونَۖ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: يقولونه. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَرِزۡقٞ﴾: معطوف على ﴿مغفرة﴾. ﴿كَرِيمٞ﴾: صفة ﴿رزق﴾. والجملة الاسمية خبر ثان لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدۡخُلُواْ﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَ﴾: صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿بُيُوتِكُمْ﴾: مضاف إليه. وجملة النهي جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر، وغاية بمعنى إلى. ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة وجوباً. بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿وَتُسَلِّمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تسلموا﴾. وجملة ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ صلة أن المضمرة. أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. تقديره: إلى استئناسكم، وتسليمكم على أهلها. الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَدْخُلُوا﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بخير. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: خبره. وجملة لعل مستأنفة، مسوقة لتعليل فعل محذوف، تقديره: أنزل هذا عليكم لكي تتذكروا به.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط لها. ﴿لَّمْ تَجِدُوا﴾ مضارع مجزوم بلم ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿تَجِدُوا﴾. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به؛ لأنه من وجد الضالة، فيتعدى لمفعول واحد. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُؤْذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب، بأن مضمرة بعد حتى. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤْذَنَ﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى. تقديره: إلى إذن أهلها لكم الجار والمجرور متعلق بـ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بإن الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِيلَ﴾. ﴿ارْجِعُوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على

حذف النون. والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجزم، جواب ﴿إن﴾ الشرطية. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿أَزۡكَىٰ﴾: خبر. ﴿لَكُم﴾: متعلق به. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُوْنَ﴾: صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبر ﴿لَّيۡسَ﴾ مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿لَّيۡسَ﴾: مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَدۡخُلُواْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول به. ﴿غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾: صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في دخولكم بيوتاً. والجار المحذوف، صفة لـ﴿جناح﴾. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مَتَٰعٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لَّكُمۡ﴾: صفة ﴿مَتَٰعٞ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة ثانية لـ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ما﴾: موصولة في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿تُبۡدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما تبدونه. ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الإفك﴾: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان، لا تشعر به حتى يفجأك. وأصله الإفك؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه؛ أي: مصروف عن وجهه كما مر في مبحث التفسير.

﴿عُصۡبَةٞ﴾: والعصبة وكذا العصابة الجماعة، وكثر إطلاقها على العشرة فما

فوقها إلى الأربعين. ﴿كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف وضمها وسكون الباء؛ أي: معظمه فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه.

﴿لَّوْلَآ﴾ كلمة بمعنى: هلا تفيد التحضيض، والحث على فعل ما بعدها. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر مكشوف ﴿أَفَضْتُمْ﴾؛ أي: خضتم في حديث الإفك.

﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقى القول من فلان وتلقنه وتلقفه ولقفه إذا أخذ من لفظه وفهمه. وفي «الإرشاد» التلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة، خلا أن في الأول: معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف والأخذ بسرعة. وفي الثالث: معنى الحذق والمهارة. ا هـ. «أبو السعود». وفي «الشهاب» الأفعال المذكورة متقاربة المعاني، إلا أن في التلقي معنى الاستقبال. وفي التلقن الحذق في التناول.

وفي التلقن الاحتيال فيه، كما ذكره الراغب. وقوله: معنى الاستقبال، المراد به المقابلة والمواجهة، كما في كتب اللغة.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تعجب ممن تفوه به. ﴿بُهْتَٰنٌ﴾؛ أي: كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته. ﴿يَعِظُكُمُ﴾؛ أي: ينصحكم. ﴿تَشِيعَ﴾: تنشر.

﴿خُطُوَٰتِ﴾: جمع خطوة بفتح الخاء وضمها وسكون الطاء. وكل ما كان على وزن فعل بكسر الفاء أو فعل بفتح الفاء مع سكون العين فيهما. يجوز فيه إذا أردنا جمعه جمعاً مؤنثاً سالماً، الإتباع والفتح والتسكين. فنقول في خطوة خطوات بضمتين، وخطوات بضم ففتح. وخطوات بضم فسكون والخطوة بضم الخاء في الأصل هي ما بين القدمين؛ أي: ما بين رجلي الخاطي. وبالفتح المرة الواحدة من الخطو، ثم استعمل اتباع الخطوات في الاقتداء، وإن لم يكن ثمة خطوٌ.

يقال: اتبع خطوات فلان ومشى على عقبه، إذا استن بسنته، والمراد ههنا، سيرة الشيطان وطريقته.

﴿الفحشاء﴾: الخصلة المفرطة في القبح، وهي الزنا. وفي «الروح»

والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه عرفاً وعقلاً، سواء كان فعلاً أو قولاً. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما ينكره الشرع. وقال أبو الليث: المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. وفي «المفردات» المنكر كل شيء تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه العقول، وتحكم بقبحه الشريعة.

﴿زَكَىٰ﴾: طهر من دنس الذنوب. ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: ﴿لَا﴾: ناهية والفعل مجزوم بحذف الياء لأنه معتل بها كما مر يقال: ائتلى يأتلي بوزن انتهى ينتهي من الألية كهدية. ومعناها: الحلف. يقال: ألية وألايا بوزن هدية وهدايا. ا هـ. شيخنا. وفي «المختار» آلى يؤلي إيلاءً إذا حلف وتألى وائتلى مثله. قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾. والألية: اليمين. وجمعها ألايا. ا هـ. وعبارة «أبو السعود» ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين وكفى به دليلاً على فضل الصديق، والسعة في المال. ا هـ. فالفضل الزيادة في الدين، والسعة: الغنى.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عن ذنبهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾؛ أي: ليعرضوا عن لومهم، فإن العفو أن يتجاوز عن الجاني. والصفح: أن يتناسى جرمه. وقيل: العفو بالفعل، والصفح بالقلب. ا هـ. زاده. وقال الراغب: الصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.

﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾؛ أي: السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر، لأنهن لم يجربن الأمور، ولم يرزَنَّ الأحوال، فلا يفطنَّ لما تفطن له بالمجرِّبات العرَّافات. قال الشاعر:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطِفْلَةٍ مَيَّالَةٍ ... بَلْهَاءَ تُطْلِعُنِي عَلَىٰ أَسْرَارِهَا

لهوت تلاهيت ولعبت بطفلة بالفتح؛ أي: امرأة ناعمة لينة. يقال: امرأة طفلة الأنامل؛ أي: رخصتها لينتها، ميالة مختالة وبلهاء، غافلة لا مكر عندها ولا دهاء، فلذلك تطلعني على ضمائرها. وقال في «التعريفات» الغفلة عن الشيء، هو أن لا يخطر ذلك بباله. ا هـ.

﴿لُعِنُوا۟﴾؛ أي: طردوا من رحمة الله في الآخرة، وعذبوا في الدنيا بالحد. ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ التوفية بذل الشيء وافياً. والوافي الذي بلغ التمام. والدين الجزاء، ومنه (كما تدين تدان). ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الثابت الذي يحق لهم لا محالة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وعده ووعيده. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: العدل الذي لا جور فيه.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال الراغب: كل شيء يشرف في بابه، فإنه يوصف بالكرم، وقال بعضهم: الرزق الكريم: هو الكفاف الذي لا منّة فيه لأحد في الدنيا، ولا تبعة له في الآخرة.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: وقال الراغب: الخبيث ما يكره رداءة وخساسةً محسوساً كان أو معقولاً. وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد. والكذب في المقال، والقبيح في الفعال ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: وأصل الطيب ما يستلذه الحواس.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾؛ أي: حتى تستأذنوا إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت، وبدونه يستوحشون، يشق عليهم الدخول. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتعظون. ﴿أَزْكَىٰ﴾؛ أي: أطهر. ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: خرج. ﴿مَتَٰعٌ﴾؛ أي: حق تمتع ومنفعة، كإيواء الأمتعة والرحال.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق في قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾. فقد طابق بين الشر والخير، وبين الهين والعظيم.

ومنها: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه كان الأصل ظننتم. وفي قوله: قالوا: فإنه كان الأصل وقلتم.

وسياق الكلام أن يقال: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم. عدل

عن مقتضى السياق إلى ما قال مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم، وذب الطاعنين عنهم، كما يذبونهم عن أنفسهم. ا هـ. «كرخي».

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: هلا جاؤوا، وغرضه التوبيخ واللوم.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فِي مَآ أَفَضْتُمْ﴾ لتهويل أمره.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ تعريضاً وإشعاراً بأن هذه الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علمٍ به في القلب.

ومنها: التعجب في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يسبح الله تعالى، عند رؤية العجيب من صنائعه تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته. ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه.

ومنها: التقديم والتأخير في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ قدم الظرف لفائدة هامة، وهي بيان أنه كان من الواجب أن ينزجروا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ شبه سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر. خطوةً خطوةً بطريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَن يُؤْتُوٓا﴾؛ أي: أن لا يؤتوا، حذفت منه لدلالة المعنى عليه، وهو كثير في اللغة.

ومنها: صيغة التعظيم في قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والمراد به أبو بكر الصديق.

ومنها: العموم في قوله: ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ وإن كان الكلام مسوقاً في عائشة، والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من وقع في قذف سيدتهن.

ومنها: المجاز العقلي، في شهادة الأيدي والأرجل.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يَعْمَلُونَ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا :

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا
ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ
أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ
فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ
آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن
شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ
اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا
بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ
عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ
مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه[1] الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعاً للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم.. أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غضّ البصر عن المحارم، لمثل السبب المتقدم، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التي نهى الدين عنها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما أمر بغضّ الأبصار، وحفظ الفروج ونحوهما، مما يفضي إلى السفاح.. أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى؛ لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع، وحفظ الأنساب الذي يستدعي مزيد الشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم، ودوام الألفة بينهم. ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه. ثم رغب في مكاتبة الأرقاء، ليصيروا أحراراً في أنفسهم وفي أموالهم يتزوجون كما يشاؤون. وبعدئذ أردف ذلك بالنهي عن إكراه الإماء على الفجور - إن أردن العفة - ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا.

ثم ختم هذا، ببيان أنه أنزل عليكم في هذه السورة وفي غيرها، آيات مبينات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة وعقوبات رادعة وقصص عجيبة من الماضين وأمثال مضروبة، لتكون عبرة وذكرى لكم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أنه أنزل في هذه السورة آيات مبينات لكل ما يحتاج إليه الناس، في صلاح أحوالهم في معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق.. بين أنه نور السماوات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية، والآيات التي أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وسائر صفاته من قدرة وعلم، إلى نحو أولئك، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر نوره لعباده، وهدايته إياهم على أتم الوجوه.. بين هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه لما بين أحوال المؤمنين، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله، وبه يستمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم.. أردف ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار، فذكر أنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران والبوار، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض. وضرب لكلتا الحالتين مثلاً يوضحها أتم الإيضاح والبيان.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما[1] أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله: حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن، يعني الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن. فقالت أسماء: ما أقبح هذا. فأنزل في ذلك ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة، واتخذت جزعاً، فمرت على قوم، فضربت برجلها، فوقع الخلخال على الجزع، فصوت، فأنزل الله ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ...﴾ الآية.

(١) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن السكن في «معرفة الصحابة»، عن عبد الله بن صبيح عن أبيه، قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى، فسألته الكتاب، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب جميعاً عن أبي معاوية واللفظ لأبي كريب حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية: له اذهبي فابغينا شيئاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وأخرج مسلم أيضاً من طريق آخر تنتمي إلى الأعمش عن أبي سفيان بهذا الحديث. وفيه أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية.

وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير، عن جابر قال: كانت مسيكة لبعض الأنصار فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء، فنزلت: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ...﴾ الآية.

وأخرج البزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية، فلما حرم الزنا، قالت: لا والله، لا أزني أبداً، فنزلت: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج فيه غضّ البصر من المستأذن. كما قال ﷺ: «إنما جعل الإذن من أجل

البصر». فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخص[1] على غيرهم لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم. وقيل: إن في الآية دليلاً على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم ومقول القول أمر قد حذف لدلالة جوابه عليه، تقديره: قل لهم: غضوا. ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: يكفوا أبصارهم عن الحرام. والغض[2] إطباق الجفن، بحيث يمنع الرؤية. ومنه قول جرير:

وَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

وقول عنترة:

وَأَغُضُّ طَرْفِيْ مَا بَدَتْ لِيْ جَارَتِيْ ... حَتَّىٰ تُوَارِيْ جَارَتِيْ مَأْوَاهَا

و(من) في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ زائدة، أو تبعيضية. وإليه ذهب الأكثرون؛ لأن الغالب أن الاحتراز عن النظرة الأولى لا يمكن؛ لأنها تقع بغير قصد، فوقع العفو عنها. سواء قصدها، أو لم يقصدها، ولا يجوز أن يكرر النظر إلى الأجنبية. لقوله ﷺ: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة». وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه.

ومعنى ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾: أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم. وقيل: المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين فالكل يدخل تحت حفظ الفرج. والفرج الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط. والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

وأتى بمن التبعيضية[3] في جانب الأبصار دون الفروج، مع أن المأمور به حفظ كل واحد منهما عن بعض ما تعلقا به. فإن المستثنى من البصر كثير، فإن الرجل يحل له النظر إلى جميع أعضاء أزواجه، وأعضاء ما ملكت يمينه. وكذا لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

بأس عليه في النظر إلى شعور محارمه، وصدورهن، وأيديهن، وأعضائهن، وسوقهن وأرجلهن وكذا لا بأس عليه في النظر من أمة الغير حال عرضها للبيع، ومن الحرة الأجنبية إلى وجهها وكفيها وقدميها. في رواية القدم بخلاف المستثنى من الفرج فإنه شيء نادر قليل، وهو فرج زوجته وأمته. فلذلك أطلق لفظ الفرج، ولم يقيد بما استثنى منه لقلته، وقيد غضّ البصر بحرف التبعيض.

والمعنى[1]: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: قل أيها الرسول للمؤمنين، كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم، ولا تنظروا إلا إلى ما يباح لكم النظر إليه، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرفوا أبصارهم عنه سريعاً. كما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة؟ فأمرني أن أصرف بصري. وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة». كما مر. وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات». قالوا: يا رسول الله، لا بدّ لنا من مجالسنا نتحدث فيها. فقال ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غضّ البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

والحكمة في ذلك[2]: أن في غض البصر سداً لباب الشر، ومنعاً لارتكاب المآثم والذنوب. ولله در أحمد شوقي حيث يقول:

نَـظْـرَةٌ فَـابْـتِـسَـامَـةٌ فَـسَـلَامُ   فَـكَـلَامٌ فَـمَـوْعِـدٌ فَـلِـقَـاءُ

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ بمنعها من عمل الفاحشة، أو بحفظها من أن أحداً ينظر إليها. وقد جاء في الحديث: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك».

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من غض البصر وحفظ الفروج. ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أطهر لهم من دنس الريبة، وأنفع لهم ديناً ودنيا. فقد قالوا: النظر بريد الزنا ورائد الفجور. ولله در شاعرهم:

كُلُّ ٱلْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ ٱلنَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ ٱلشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِيْ قَلْبِ فَاعِلِهَا ... فِعْلَ ٱلسِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ
وَٱلْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِيْ أَعْيُنِ ٱلْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَىٰ ٱلْخَطَرِ
يَسُرُّ نَاظِرَهُ مَا ضَرَّ خَاطِرَهُ ... لاَ مَرْحَبَاً بِسُرُوْرٍ عَادَ بِٱلضَّرَرِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: بما يصنع المؤمنون وغيرهم من سائر العباد، فلا يخفى عليه شيء مما يصدر منهم من الأفعال. كإجالة النظر، واستعمال سائر الحواس، وماذا يراد بذلك فليكونوا على حذر منه تعالى في حركة وسكون، وفي كل ما يأتون وما يذرون.

روي[(١)] عن عيسى بن مريم عليه السلام، أنه قال: إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وفي الأثر «يا ابن آدم لك النظرة الأولى، فما بال الثانية». وفي الحديث: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، أصدقوا إذا حدثتم، أوفوا إذا وعدتم، وأدوا ما ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم».

وبعد أن أمر سبحانه رسوله بأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم.. أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، من عورات الرجال والنساء (ما بين السرة والركبة) عند أبي حنيفة وأحمد. وعند مالك ما عدا الوجه والأطراف. والأصح من مذهب الشافعي أنها لا تنظر إليه كما لا ينظر هو إليها. وإذا نظرت إلى ما عدا ذلك، أعني ما بين السرة والركبة بشهوة حرم، وبدونها لا يحرم، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن وأجمل، لما روى أبو داود والترمذي عن أم سلمة

(١) روح البيان.

أنها كانت عند رسول الله ﷺ، وميمونة، إذا أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله أليس هو لا يبصرنا، ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أنتما، أو لستما تبصرانه».

والحاصل[١]: أن الله سبحانه أمر المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا للمرأة أن تنظر إلى الرجل، فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها. وقال مجاهد: إذا أقبلت المرأة جلس إبليس على رأسها، فزينها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن ينظر. ا هـ. «قرطبي». وخص[٢] سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً، كما في سائر الخطابات القرآنية.

وظهر التضعيف في يغضضن، ولم يظهر في يغضوا؛ لأن لام الفعل من الأول متحركة، ومن الثاني ساكنةً. وهما في موضع جزم جواباً للأمر. وبدأ سبحانه في الموضعين بالغضّ قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج. والوسيلة مقدمة على المتوسل إليه.

ومعنى يغضضن من أبصارهن كمعنى يغضوا من أبصارهم، فيستدل به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهن. وكذلك يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم، وقد اشتملت هذه الآية على خمسة وعشرين ضميراً للإناث، ما بين مرفوع ومجرور، ولم يوجد لها نظير في القرآن في هذا الشأن. ا هـ. «كرخي».

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق، ويسترنها حتى لا يراها أحد، ولا خلاف[٣] بين الأئمة في وجوب ستر العورة عن أعين الناس. واختلفوا كما سبق في العورة ما هي. فقال أبو حنيفة: عورة الرجل ما تحت

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

سرته إلى تحت ركبته، والركبة عورة. وفي «نصاب الاحتساب» من لم يستر الركبة ينكر عليه برفق؛ لأن في كونها عورةً اختلافاً مشهوراً. ومن لم يستر الفخذ يعنف عليه ولا يضرب؛ لأن في كونها عورة خلاف بعض أهل الحديث. ومن لم يستر السوءة يؤدب إذ لا خلاف في كونها عورة انتهى.

ومثل الرجل الأمة، وبالأولى بطنها وظهرها؛ لأنه موضع مشتهى. والمكاتبة وأم الولد والمدبرة كالأمة. وجميع الحرة عورة إلا وجهها وكفيها. والصحيح عنده أن قدميها عورة خارج الصلاة، لا في الصلاة.

وقال مالك: عورة الرجل فرجاه وفخذاه. والأمة مثله. وكذا المدبرة والمعتقة إلى أجل، والحرة كلها عورة: إلا وجهها ويديها، ويستحب عنده لأم الولد أن تستر من جسدها ما يجب على الحرة ستره. والمكاتبة مثلها.

وقال الشافعي وأحمد: عورة الرجل ما بين السرة والركبة، وليست الركبة من العورة، وكذا الأمة والمكاتبة وأم الولد والمدبرة والمعتق بعضها. والحرة كلها عورة سوى الوجه والكفين عند الشافعي، وعند أحمد سوى الوجه فقط على الصحيح. وأما سرة الرجل فليست من العورة بالاتفاق، كما في «فتح الرحمٰن».

﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾؛ أي: ولا يظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ للأجانب؛ أي: ما يتزين به من الحلية وغيرها. وهي ثلاثة أمور[1]: أحدها: الثياب، وثانيها: الحلي كالخاتم والسوار. وثالثها: الأصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة في حاجبيها، والغمزة في خديها، والحناء في كفيها وقدميها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهيٌ عن إبداء مواضعها من أبدانهن بالأولى.

ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالجلباب والخمار ونحوهما مما على الكف والقدمين من الحلية ونحوها.

والمراد بالزينة هنا محلها من البدن، وهو الوجه والكفان، كذلك يراد بها

(١) المراح.

البدن في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلخ. وأما في قوله: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فالمراد ما يتزين. ذكره «الجمل».

قال القرطبي في «تفسيره» الزينة[1] على قسمين، خلقية ومكتسبة. فالخلقية وجهها، فإنه أصل الزينة، والزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها، كالثياب والحلي والكحل والخضاب. ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾.

وقول الشاعر:

يَأْخُذْنَ زِيْنَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَىٰ ... وَإِذَا عَطِلْتَ فَهُنَّ خَيْرُ عَوَاطِلِ

قال ابن الشيخ[2]: الزينة ما تزينت به المرأة، من حلي أو كحل، أو ثوب أو صبغ، فما كان منها ظاهراً كالخاتم والفتخة، وهي ما لا فص فيه من الخاتم، والكحل والصبغ فلا بأس بإبدائه للأجانب بشرط الأمن من الشهوة. وما خفي منها كالسوار والدملج، وهي حلقة تحملها المرأة على عضدها، والوشاح والقرط فلا يحل لها إبداؤها إلا للمذكورات فيما بعد بقوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ الآية.

والخلاصة: أي[3] ولا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل فلا يؤاخذن إلا في إبداء ما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة؛ لأن هذه الزينة واقعة في مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى في الآية بعد. وهي: الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن.

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾؛ أي: وليلقين ويضعن خمرهن ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن عن الأجانب، حتى لا يرى منها شيء. والمراد بالجيب هنا محله وهو العنق، وإلا فهو في الأصل طوق القميص. كما سيأتي.

---

(١) القرطبي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

قال المفسرون: إن[1] نساء الجاهلية، كن يسدلن خمرهن من خلفهن، وكانت جيوبهن من قدام واسعة، فكانت تنكشف نحورهن وقلائدهن فنهين عن ذلك، وأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب، لتستر بذلك ما كان يبدو. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: رحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو الإلصاق. والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها. والجيوب: جمع جيب، وهو موضع القطع من الدرع والقميص، مأخوذ من الجوب وهو القطع، وهذا هو معناه الحقيقي، الذي فسر به الجمهور. وقال مقاتل: إن معنى على جيوبهن: على صدورهن، فيكون في الآية مضاف محذوف؛ أي: على مواضع جيوبهن.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بإسكان اللام التي للأمر. وقرأ عياش عن أبي عمرو: بكسرها على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. وقرأ الجمهور: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ بتحريك الميم، وقرأ طلحة بن مصرف: بسكونها. وقرأ الجمهور: ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾ بضم الجيم. وقرأ ابن كثير وبعض الكوفيين: بكسرها. وكثير من متقدمي النحويين لا يجوِّزون هذه القراءة. وقال الزجاج: يجوز أن يبدل من الضمة كسرة. فأما ما روي عن حمزة من الجميع بين الضم والكسر فمحال، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء.

ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: ولا يظهرن زينتهن الخفية المنهية عن إبدائها للأجانب، كالسوار والدملج والوشاح والقرط ونحوها، فضلاً عن إبداء مواقعها. كرره لبيان من يحل له الإبداء، ومن لا يحل له.

وفي «الخطيب»: ولا يبدين زينتهن؛ أي: الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للأجانب. وهي ما عدا الوجه والكفين. ا هـ.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني والبحر المحيط.

وقال أبو الليث[1]: لا يظهرن مواضع زينتهن، وهو الصدر والساق والساعد والرأس؛ لأن الصدر موضع الوشاح، والساق موضع الخلخال، والساعد موضع السوار، والرأس موضع الإكليل، فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة، انتهى.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: إلا لأزواجهن وسادتهن، فإن البعل هو الزوج والسيد في كلام العرب. وجملة المستثنيات اثنا عشر نوعاً، آخرها أو الطفِل. ا هـ. «شيخنا».

وقدم البعولة على غيرهم؛ لأنهم المقصود خصوصاً، إذا كان النظر لتقوية الشهوة، إلا أنه يكره له النظر إلى الفرج بالاتفاق، حتى إلى فرج نفسه، لأنه يروى أنه يورث الطمس والعمى. وفي كلام عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما رأى مني، ولا رأيت منه؛ أي: العورة.

قال في «النصاب»: إن الزينة الباطنة يجوز إبداؤها لزوجها وذلك لاستدعائه ورغبته فيها. ولذلك لعن رسول الله ﷺ السلقاء والمرهاء. فالسلقاء: التي لا تختضب. والمرهاء: التي لا تكتحل.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وإن عَلَوْا سواء كانوا من جهة الذكران أو الإناث. ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، وإن عَلوا، سواء كانوا من النسب أو الرضاع. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ وإن سفلوا من النسب أو الرضاع. ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ من غيرهن، وإن سفلوا. ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ من النسب أو الرضاع. جمع أخ، كالإخوة. فهو جمع له أيضاً. ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كذلك.

والمراد[2] بأبناء بعولتهن: ذكور أولاد الزوج، ويدخل في قوله: ﴿أو أبنائهن﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا. وأولاد بناتهن، وإن سفلوا. وكذا آباء البعولة يدخل فيه آباء الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا. وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا وكذلك أبناء الإخوة والأخوات.

---

(١) بحر العلوم.

(٢) الشوكاني.

وذهب الجمهور: إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم. وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط أن يستترن منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم. والمعنى: إن سائر القرابات تشترك مع الأب والابن في المحرمية، إلا ابن العم والخال. وهذا من الدلالات البليغة في وجوب الاحتياط عليهن في النسب. ا هـ. «كرخي». وليس في الآية ذكر الرضاع وهو كالنسب. وقال الشعبي وعكرمة: ليس العم والخال من المحارم.

والمعنى: أي[1] قل يا محمد للمؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن فإنهم المقصودون بزينتهن، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم، حتى إن لهم ضَرْبَهُنَّ على تركها، ولهم النظر إلى جميع بدنهن. أو لآباء النساء، أو لآباء الأزواج، أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن، أو لإخوانهن، أو لأبناء الإخوة، أو لأبناء الأخوات؛ لكثرة المخالطة بينهم وبينهن، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتتن بالقريبات إلا أنهن محتاجات إلى صحبتهم في الأسفار للركوب أو النزول.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: نساء[2] أهل دينهن المختصات بهن بالصحبة والخدمة، من حرائر المؤمنات. فإن الكوافر لا يتأثمن عن وصفهن للرجال، فيكون تصور الأجانب إياها بمنزلة نظرهم إليها. فإن وصف مواقع زينة المؤمنات للرجال الأجانب معدود من جملة الآثام عند المؤمنات.

فالمراد بنسائهن نساء أهل دينهن. وهذا قولُ أكثر السلف، فإنهم جعلوا المرأة اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية في حكم الرجل الأجنبي، فمنعوا المسلمة من كشف بدنها عندهن؛ إلا أن تكون أمةً لها. كما منعوها من التجرد عند الأجانب. والظاهر أن العلة شيئان: عدم المجانسة ديناً، فإن الإيمان والكفر فرق بينهما. وعدم الأمن من الوصف المذكور. وإضافة النساء إليهن تدل على

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

اختصاص ذلك بالمؤمنات. وقال الإمام: قول السلف محمول على الاستحباب. والمذهب أن المراد بقوله: أو نسائهن، جميع النساء.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء، أما العبيد[1] فقد اختلفوا فيهم، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها. فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً، وله أن ينظر إلى مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم. وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة. وقد روي أنَّ عائشة كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها. وقال قوم: هو كالأجنبي معها. وهو رأي ابن مسعود والحسن وابن سيرين. ومن ثم قالوا: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته، فهو بمنزلة الأجنبي منها، خصياً كان أو فحلاً. وهو قول أبي حنيفة. وعليه عامة العلماء، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه وإن جاز رؤيته إياها إذا وجد الأمن من الشهوة.

وقال ابن الشيخ[2]: فإن قيل: ما الفائدة في تخصيص الإماء بالذكر بعد قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ أنه تعالى لما قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ دل ذلك على أن المرأة لا يحل لها أن تبدي زينتها للكافرات، سواء كن حرائر أو إماءً لغيرها أو لنفسها، فلما قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مطلقاً؛ أي: مؤمنات كن أو مشركات، علم أنه يحل للأمة أن تنظر إلى زينة سيدتها مسلمةً كانت الأمة أو كافرة، لما في كشف مواضع الزينة الباطنة لأمتها الكافرة في أحوال استخدامها إياها من الضرورة التي لا تخفى. ففارقت الحرة الكافرة بذلك.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ الذين يتبعون القوم إلى بيوتهم، ليصيبوا من فضل طعامهم لا غرض ولا همة لهم إلا ذلك. ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ والحاجة إلى النساء حالة كونهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ الذين طعنوا في السن، ففنيت شهواتهم إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم. وقيل[3]: المراد بغير أولي الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء. وقيل: العنين. وقيل: الخصي ـ من قطع خصيتاه ـ،

---

(1) المراغي.

(2) روح البيان.

(3) الشوكاني.

وقيل: المجبوب ـ من قطع ذكره ـ. وقيل: المخنث، وهو الذي في أعضائه لين، وفي لسانه تكسر في أصل الخلقة، فلا يشتهي النساء، ولا حاجة لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها، وهم من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له في النساء ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال. فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه.

قال ابن عطية: ويدخل في هذه الصفة المجنون والمعتوه والمخنث والشيخ الفاني والزَّمِن الموقوذ بزمانته. وقال بعضهم[1]: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ محكم. وقوله: و﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ مجمل. والعمل بالمحكم أولى، فلا رخصة للمذكورين من الخصي ونحوه في النظر إلى محاسن النساء، وإن لم يكن هناك احتمال الفتنة.

وفي «الكشاف»: لا يحل إمساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشرائهم، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم. انتهى. وعن ميسون بنت بحدل زوجة معاوية، أن معاوية دخل عليها ومعه خصي، فتقنعت منه، فقال: هو خصي، فقالت: يا معاوية، أترى المثلة تحلل ما حرم الله من النظر؟ فتعجب من فطنتها وفهمها. ذكره في «كتاب النصاب».

وفي «البستان» أنه لا يجوز خصاء بني آدم؛ لأنه لا منفعة فيه؛ لأنه لا يجوز للخصي أن ينظر إلى النساء، كما لا يجوز للفحل. بخلاف خصاء سائر الحيوانات، ألا ترى أن خصي الغنم أطيب لحماً، وأكثر شحماً. وقس عليه غيره.

وروى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل رسول الله ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأةً ـ بنت غيلان ـ، قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعرف ما ههنا،

---

(١) روح البيان.

لا يدخل عليكن فاحجبوه». زاد أبو داود في رواية: «وأخرجوه إلى البيداء، يدخل كل جمعة فيستطعم».

وقرأ ابن عامر وأبو بكر[1]: ﴿غَيْرَ﴾ بالنصب على الحال أو الاستثناء. وباقي السبعة بالجر على النعت. وعطف قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ على من الرجال، فقسم التابعين غير أولي الإربة إلى قسمين: رجال، وأطفال. والمفرد المحكي بأل يكون للجنس فيعم. ولذلك وصفه بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ ولم يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يكشفوها للمجامعة؛ أي: حال كون غير أولي الإربة من الرجال البالغين، أو من الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملامسة النساء وفي مصحف أبيّ ﴿الأطفال﴾؛ أي[2]: الذين لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع، فيطلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر. وقيل: لم يطيقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حد الشهوة. وقيل: الطفولية اسم للصبي ما لم يحتلم.

وفي «الروضة»: وجعل الإمام أمر الصبي ثلاثة درجات[3]:

إحداها: أن لا يبلغ أن يحكي ما رأى.

والثانية: أن يبلغه ولا يكون فيه ثوران شهوة.

والثالثة: أن يكون فيه ذلك.

فالأول: حضوره كغيبته، ويجوز التكشف له من كل وجه. والثاني: كالمحرم. والثالث: كالبالغ. واعلم أن الصبي لا تكليف عليه، وإذا جعلناه كالبالغ، فمعناه: أنه يلزم المنظور إليها الاحتجاب منه كما أنه يلزمها الاحتجاب من المجنون قطعاً.

قلت: وإذا جعلنا الصبي كالبالغ لزم الولي أن يمنعه النظر، كما يلزمه أن يمنعه من الزنا وسائر المحرمات. والله أعلم. ا هـ.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) الفتوحات.

وقال الفناري في تفسير الفاتحة: حد الطفل من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام. وقال في «فتح القريب»: العورة كل ما يستحى منه إذا ظهر. وسيأتي البسط عنه في مبحث المفردات.

وقال بعضهم[1]: يفهم من عبارة الطفل، أن التقوى منع الصبيان حضرة النساء بعد سبع سنين، فإن ابن السبع، وإن لم يكن في حد الشهوة، لكنه في حد التمييز، مع أن بعض من لم يبلغ حدّ الحلم مشتهىً، فلا خير في مخالطة النساء. وفي «ملتقط الناصري» الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال، ولم يكن صبيحاً فحكمه حكم الرجال. وإن كان صبيحاً فحكمه حكم النساء، وهو عورة من قرنه إلى قدمه، يعني لا يحل النظر إليه عن شهوة، فأما السلام والنظر بلا شهوة فلا بأس به. ولهذا لم يؤمر بالنقاب، ويكره مجالسة الأحداث والصبيان والسفهاء؛ لأنه يذهب بالمهابة. كما في «البستان».

قال في «أنوار المشارق»: يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة، سواء نظر بشهوة أم لا. وسواء أمن الفتنة أم خافها. ويجب على من في الحمام أن يصون نظره ويده وغيرهما عن عورة غيره. وأن يصون عورته عن نظر غيره. ويجب الإنكار على كاشف العورة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عَوْرَٰتِ﴾ بسكون الواو. وهي لغة أكثر العرب. لا يحركون الواو والياء في نحو هذا الجمع. وروي عن ابن عباس تحريك واو عورات بالفتح. والمشهور في كتب النحو أن تحريك الواو والياء في مثل هذا الجمع هو لغة هذيل بن مدركة.

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلي بعد النهي عن إبداء مواضعه، فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الأرض ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾؛ أي: ما يخفينه من الرؤية. ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ أي: خلاخلهن؛ أي[3]: لا يضربن النساء المؤمنات بأرجلهن الأرض،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ليتقعقع ويصوت خلخالهن. فيعلم أنهن ذوات خلخال. فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. وإذا كان إسماع صوت خلخالها للأجانب حراماً.. كان رفع صوتها بحيث يسمع الأجانب كلامها حراماً بطريق الأولى؛ لأن صوت نفسها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ولذلك كرهوا أذان النساء؛ لأنه يُحتاج فيه إلى رفع الصوت.

وفي «الشهاب»: وهذا سدٌّ لباب المحرمات، وتعليم للأحوط، وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي، فضلاً عن صوت خلخالهن. ا هـ.

وفي «القرطبي»: من فعل ذلك منهن فرحاً بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم. وكذلك من ضرب بنعله الأرض من الرجال، إن فعل ذلك عجباً حرم، فإن العجب كبيرة، وإن فعل ذلك تبرجاً لم يحرم. ا هـ.

وللنساء أفانين في هذا الباب[1]، فقد يجعلن الخرز ونحوه في جوف الخلخال، فإذا مشين ولو هوناً كان له رنين وصوت خاص، ومن الناس من تهيجه وسوسة الحلي أكثر مما يهيجه رؤيته.

﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ وارجعوا من عمل المعاصي ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى حالة كونكم ﴿جميعاً﴾؛ أي: مجتمعين عليها ﴿أيها المؤمنون﴾ بالله ورسوله، إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط في أمره ونهيه، سيما في الكف عن الشهوات. و﴿أيها المؤمنون﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتماً. وفي هذه الآية دليل على أن الذنب لا يخرج العبد عن الإيمان؛ لأنه تعالى قال: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما أمر بالتوبة التي تتعلق بالذنب. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بسعادة الدارين. وصَّى الله سبحانه جميع المؤمنين بالتوبة والاستغفار؛ لأن العبد الضعيف لا ينفك عن تقصير يقع منه وإن اجتهد في رعاية تكاليف الله تعالى.

---

(١) المراغي.

والمعنى: أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، من غض البصر وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسليم، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة. وأخرج أحمد والبخاري والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه كل يوم مئة مرة».

ومن شرط التوبة(١): الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود إليه. ورد الحقوق إلى أهلها. لا كما يظن الناس الآن، أنها كلمة تلاك باللسان، دون أن يكون لها أثر في القلب ولا عزم على عدم العود، حتى إن كثيراً ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره، وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم، مراؤون في أفعالهم.

والجمهور(٢) على فتح الهاء، وإثبات ألفٍ بعد الهاء في ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهي ها، التي للتنبيه. وقرأ ابن عامر: ﴿أيه المؤمنون﴾ هنا، و﴿يا أيه الساحر﴾ في الزخرف. و﴿أيه الثقلان﴾ في الرحمٰن بضم الهاء وصلاً، وإذا وقف سكن. ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين استثقلت الفتحة على الهاء، فأتبعت حركتها حركة ما قبلها، فضمت الهاء إتباعاً للرسم، وضم ها، التي للتنبيه بعد أي لغة لبني مالك رهط شقيق ابن سلمة وقد رسمت هذه المواضع الثلاثة دون ألف، فوقف أبو عمرو والكسائي بألف. والباقون بدونها اتباعاً للرسم، ولموافقة الخط للفظ. وثبتت في غير هذه المواضع، حملاً لها على الأصل نحو ﴿يا أيها الناس﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. وبالجملة فالرسم سنة متبعة. ا هـ. «سمين».

وقال بعضهم: إن الله(٣) سبحانه وتعالى طالب المؤمنين جميعاً في هذه

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات والبحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الآية بالتوبة. ومن آمن بالله وترك الشرك.. فقد تاب، وصحت توبته ورجوعه إلى الله، وإن خطر عليه خاطر، أو جرى عليه معصية في حين التوبة، فإن المؤمن إذا جرى عليه معصية.. ضاق صدره واهتم قلبه، وندم روحه ورجع سره. ا هـ.

ولما أمر سبحانه بغض الأبصار، وحفظ الفروج.. أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحل. فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيم[1]. والأيم: من لا زوج له من الرجال والنساء، بكراً كان أو صبياً. وقال أبو عمرو والكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل، هي المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال: رجل أيم، وامرأة أيم. وأكثر ما يكون من النساء. وهو كالمستعار في الرجال. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَلِيّ ... أَيِّمٌ مِنْهُمْ وَنَاكِحْ

والخطاب في الآية للأولياء. وقيل: للأزواج. والأول: أرجح. وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها. وقد خالف في ذلك أبو حنيفة. **والمعنى**: زوجوا أيها الأولياء من لا زوج له من أحرار قومكم وحرائر عشيرتكم، فإن النكاح سبب لبقاء النوع، وحافظ من السفاح. والمراد بذلك مديد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كإمدادهم بالمال، وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة.

واختلف أهل العلم في النكاح[2]، هل هو مباح، أو مستحب، أو واجب. فذهب إلى الأول الشافعي وغيره. وإلى الثاني مالك وأبو حنيفة، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية.. وجب عليه، وإلا فلا. والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية.

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح - بعد ترغيبه في النكاح -: «ومن رغب عن سنتي فليس مني»، ولكن مع القدرة عليه وعلى مؤنه.

والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر. وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾؛ أي: وزوجوا أيها السادات الصالحين؛ أي: المؤمنين من عبادكم وإمائكم لحصن دينهم. وهم الذين تنزلونهم منزلة الأولاد في المودة، في بذل المال والمنافع. وقال في «الوسيط»: معنى الصلاح هاهنا: الإيمان. وتقييد[1] الأرقاء بالصالحين دون الأحرار فلأن من لا صلاح له من الأرقاء بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بدّ منه شرعاً وعادةً من بذل المال والمنافع، بل حقه أن لا يستبقيه عنده. وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر، فإن الغالب فيهم الصلاح، بخلاف المماليك؛ ولأنهم مستقلون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم.

وقيل المعنى: وزوجوا أيها السادات الصالحين والصالحات من عبادكم وإمائكم؛ أي[2]: القادرين والقادرات على النكاح، والقيام بحقوق الزوجية، بأن يقوم العبد بما يلزم لها، وتقوم الأمة بما يلزم للزوج. أو المراد بالصلاح أن لا تكون صغيرة لا تحتاج إلى النكاح.

والخلاصة: أن في الآية أمراً للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية، وللسادة بتزويج العبيد والإماء. والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان، لا على الوجوب؛ لأنه قد كان في عصر النبي ﷺ، وفي سائر العصور بعده أيامى من الرجال والنساء، ولم ينكر ذلك أحد عليهم. والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة، وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وفي الآية دليل على أن المملوك لا يزوِّج نفسه، وإنما يزوجه مالكه. وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك: لا يجوز. وقرأ مجاهد والحسن: ﴿من عبيد﴾، بالياء مكان الألف وفتح العين. ذكره في «البحر».

فإن قلت[١]: قد أطلق سبحانه في هذه الآية الكريمة العبد والأمة على الغلام والجارية. وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح كما رواه مسلم: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، كلُّ النساء إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي».

قلت: إن ذلك إنما يكره إذا قاله على طريق التطاول على الرقيق، والتحقير لشأنه، والتعظيم لنفسه. فسقط التعارض. والحمد لله تعالى.

ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾؛ أي: لا تمتنعوا أيها الأولياء من تزويج الأحرار والحرائر بسبب فقرهم؛ لأنهم إن يكونوا فقراء عادمي المال ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه؛ أي[٢]: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم، أو فقر من تريدون زواجها. ففي فضل الله سبحانه ما يغنيهم، والمال غاد ورائح. والله سبحانه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب. قال بعضهم: من صح افتقاره إلى الله.. صح استغناؤه بالله.

قال الزجاج[٣]: حث الله سبحانه على النكاح، وأعلم أنه سبب لنفي الفقر، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة، وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا. وإنما كان النكاح يسبب الغنى؛ لأن العقد الديني يجلب العقد الدنيوي، إما من حيث لا يحتسبه الفقير، أو من حيث أن النكاح سبب للجد في الكسب، والكسب ينفي الفقر. وقيل المعنى: إنه يغنيه بغنى النفس. وقيل المعنى: إن يكونوا فقراء إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

النكاح.. يغنيهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأول أولى. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك.

وجملة قوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿وَاسِعٌ﴾؛ أي: ذو سعة وغنى. فلا انتهاء لفضله، ولا حد لقدرته، فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. مؤكدة لما قبلها، ومقررة لها.

والمعنى: أنه سبحانه ذو سعة، ولا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده، عليم بمصالح خلقه، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله». أخرجه ابن ماجه في سننه، والترمذي والنسائي أيضاً.

وبعد أن بيَّن سبحانه حال القادرين على النكاح ووسائله.. بين حال العاجزين عن تلك الوسائل، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾؛ أي: وليطلب العفة عن الزنا، والحرام والاجتناب عنه. ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿نِكَاحًا﴾؛ أي: سبب نكاح ووسيلته وهو المال. وقيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة، كاللحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس؛ أي: وليجتهد[1] في العفة وقمع الشهوة من لا يجد أسباب نكاح من مهر ونفقة - فإنه لا معنى لوجدان نفس العقد والتزوج - وذلك بالصوم. كما قال عليه السلام: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» معناه: إن الصوم يضعف شهوته، ويقهرها على طلب الجماع، فيحصل بذلك صيانة الفرج وعفته. والأمر في ﴿ليستعفف﴾ محمول على الوجوب في صورة التوقان.

ثم قيد سبحانه هذا الأمر بغايةٍ هي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن

---

(١) الشوكاني.

﴿فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: وليجتهدوا في الاستعفاف حتى يرزقهم الله سبحانه رزقاً يستغنون به، ويتمكنون بسببه من النكاح.

والخلاصة: أي وليجتهد في العفة وصون النفس من لا يتمكن من المال الذي به يتم النكاح، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله، حتى يصل إلى بغيته من النكاح، ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: والمماليك الذين يطلبون المكاتبة والإعتاق على المال ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم من عبيدكم وإماءكم، ليصيروا أحراراً، والموصول في محل رفع مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ أي: فصيروهم أحراراً بعقد الكتابة. والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط. ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده؛ أي: وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب. والأمر فيه للندب؛ لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في أولئك المماليك ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: أمانةً ورشداً، وقدرةً على أداء مال الكتابة بتحصيله من وجه حلال، وصلاحاً بحيث لا يؤذي الناس بعد العتق وإطلاق العنان. وهو شرط في استحباب[1] عقد الكتابة المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. فاللام من انتفاء هذا القيد، انتفاء الاستحباب، لا انتفاء الجواز.

فصل في بيان معنى الكتابة وحكمها وكيفيتها

والكتابة لغة: مصدر كاتب يكاتب كتابة وكتاباً ومكاتبة. نظير قاتل يقاتل قتالاً ومقاتلة. وشرعاً: أن يقول[2] السيد لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال، ويسمى مالاً معلوماً، تؤدي ذلك في نجمين، أو في نجوم معلومة، في كل نجم كذا. فإذا أديت ذلك.. فأنت حر، ويقبل العبد ذلك. فإذا أدى العبد ذلك المال عتق، ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة. وإذا عتق بأداء المال، فما فضل

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

في يده من المال فهو له، ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق. وإذا عجز عن أداء المال، كان لمولاه أن يفسخ كتابته، ويرده إلى الرق. وما في يده من المال فهو لسيده لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم». أخرجه أبو داود.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب، يجب على السيد أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيراً إذا سأل العبد ذلك على قيمته، أو على أكثر من قيمته، وإن سأل على أقل من قيمته لا يجب. وهو قول عطاء وعمرو بن دينار. لما روي أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه - وكان كثير المال - فأبى، فانطلق سيرين إلى عمر فشكاه، فدعاه عمر فقال له: كاتبه، فأبى، فضربه بالدرَّة، وتلا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه.

ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي؛ لأنه عقد جوز إرفاقاً بالعبد. ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل، حتى يؤديه على مهلٍ، فيحصل المقصود. وجوز أبو حنيفة الكتابة حالة منجمة بنجم واحد.

ومعنى المفاعلة(١) في هذا العقد: أن المولى يكتب؛ أي: يفرض، ويوجب على نفسه أن يعتق المكاتب إذا أدى البدل، ويكتب العبد على نفسه أن يؤدي البدل من غير إخلال. وأيضاً بدل هذا العقد مؤجل منجم على المكاتب، والمال المؤجل يكتب فيه كتاب على من عليه المال غالباً.

واختلفوا في معنى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فقال ابن عمر: قوةً على الكسب. وهو قول مالك والثوري. وقيل: مالاً. روي أن عبداً لسلمان الفارسي قال له: كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: أتريد أن تطعمني أوساخ الناس، ولم يكاتبه. قيل: لو أراد به المال لقال: إن علمتم لهم خيراً. وقيل: صدقاً وأمانةً. وقال الشافعي: أظهر معاني الخير في العبد، الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من الكتابة إذا كان هكذا. وقيل: معنى الخير، أن يكون العبد عاقلاً بالغاً.

---

(١) روح البيان.

فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما؛ لأن الابتغاء منهما لا يصح. وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق.

والمعنى: أي والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوماً، ليصيروا بعد أدائها أحراراً، ويكونوا قادرين على الكسب، وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق فكاتبوهم، ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحراراً في رقابهم وفي كسبهم.

ثم حث المؤمنين جميعاً على تحرير الرقاق، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾؛ أي: واعطوا أيها السادة المكاتبين شيئاً ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم، وليس لكم فيه فضل، فإن الله ربكم ورب عبيدكم، وأموالكم ملكه. أو أعطوا أيها الحكام المكاتبين سهامهم التي جعلها الله لهم في بيت المال في مصارف الزكاة بقوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: وفي تحرير الأرقاء.

وعلى القول بأن الخطاب للسادة.. فالواجب إما أن يعطوهم شيئاً من المال، أو يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه. وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار. وقيل: الثلث. وقيل: الربع. وقيل: العشر. ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم وسياق الكلام معهم، فإنهم المأمورون بالكتابة. وقال الحسن والنخعي وبريدة: إن الخطاب بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ لجميع الناس.

ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك.. نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا، فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾؛ أي: لا تجبروا أيها السادة ﴿فَتَيَٰتِكُمْ﴾؛ أي: إمائكم، فإن كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة. وباعتبار المفهوم الأصلي، وهو أن الفتى: الطري من الشباب، ظهر مزيد مناسبة الفتيات لقوله: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن الشواب؛ لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون ما عداهن من العجائز والصغار.

﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾؛ أي: على الزنا، مصدر بغت المرأة تبغي بغاءً، إذا زنت وفجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها. ثم الإكراه إنما يحصل متى حصل

التخويف بما يقتضي تلف النفس، أو تلف العضو. وأما باليسير من التخويف فلا تصير مكرهة ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ تلك الفتيات ﴿تَحَصُّنًا﴾؛ أي: تعفيفاً عن الزنا؛ أي: جعلن أنفسهن في عفة كالحصن. وهذا[1] القيد، ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا. وإخراج ما عداها من حكمه، بل للمحافظة على عادتهم المسمرة، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه.

وكان لعبد الله بن أبيّ ست جوارٍ جميلةٍ، وهي معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وفتيلة، يكرههن على الزنا. وضرب عليهن ضرائب، جمع ضريبة ـ وهي الغلة المضروبة على العبيد ـ والجزية، فشكت اثنتان إلى رسول الله ﷺ وهي معاذة ومسيكة، فنزلت.

وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه من إمائه، فضلاً عن أمرهن وإكراههن عليه، لاسيما عند إرادتهن التعفف. وفي[2] ذلك إشارة إلى أن للسادة إكراههن على النكاح، فليس للأمة أن تمتنع على السيد إذا زوجها.

وفي «الخازن» واختلف العلماء[3] في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ على أقوالٍ:

أحدها: إن الكلام ورد على سبب، وهو الذي ذكر في سبب نزول الآية، فخرج النهي على صفة السبب وإن لم يكن شرطاً فيه.

الثاني: إنما شرط إرادة التحصن؛ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن؛ فإنها تبغي بالطبع طوعاً.

الثالث: (إنَّ) (إنْ) بمعنى إذا؛ أي: إذا أردن، وليس معناه الشرط؛ لأنه لا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

يجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصناً. كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: إذا كنتم مؤمنين.

القول الرابع: إن في هذه الآية تقديماً وتأخيراً، فيكون هذا القيد راجعاً إلى الأيامى. ويكون تقدير الكلام؛ أي: وانكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء. ا هـ.

وقيل[1]: إن هذا الشرط ملغى. وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن. وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه. فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام، كما فيمن لا رغبة لها في النكاح. والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن.

ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: لا تكرهوهن أيها السادة على الزنا، لتطلبوا بهذا الإكراه حطام هذه الحياة الدنيا. والعرض[2] ما لا يكون له ثبوت. ومنه استعار المتكلمون العرض، لما لا ثبات له قائماً بالجوهر. كاللون والطعم. وقيل: الدنيا عرض حاضر، تنبيهاً على أن لا ثبات لها.

والمعنى: لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال من كسبهن وبيع أولادهن. وهذا التعليل أيضاً خارج مخرج الغالب.

والمعنى: أن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب؛ لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾؛ أي: ومن يكره منكم أيها السادة الإماء على البغاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾؛ أي: من بعد إكراهكم إياهن، فهو مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: من بعد كونهن مكرهات على البغاء ﴿غَفُورٌ﴾ لهن ما قد يعرض لهن في تضاعيف الزنا، وتكراره من شائبة المطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية، أو بكون الإكراه قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن بعدم مؤاخذتهن على البغاء، وفي هذا التفسير جواب عما يقال: إن المكرهة على الزنا غير آثمة.

ويشهد لهذا المعنى قراءة ابن مسعود وجابر بن عبد الله وسعيد بن جبير ﴿لهن غفور رحيم﴾ بزيادة لهن، وتوسيط[1] الإكراه بين اسم إن وخبرها للإيذان. بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة.

وفيه دلالة على أن المكرهين محرومون منهما بالكلية. وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم، باعتبار أنهن وإن كن مكرهات، لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية. كما مرّ آنفاً. أو أتي بالمغفرة لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه، والتشديد في تحذير المكرهين، ببيان أنهن حيث كنَّ عرضة للعقوبة. لولا أن تداركتهن المغفرة والرحمة، مع قيام العذر في حقهن، فما حال من يكرههن في استحقاق العقاب. ا هـ. «أبو السعود».

وفي «الكواشي» المغفرة هاهنا عدم الإثم؛ لأنها لا إثم عليها إذا أكرهت على الزنا بقتل أو ضرب مفضٍ إلى تلف النفس، أو تلف العضو. وأما الرجل فلا يحل له الزنا، وإن أكره عليه؛ لأن الفعل من جهته ولا يتأتى إلا بعزيمة منه فيه، فكان كالقتل بغير حق، لا يبيحه الإكراه بحال. انتهى. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهم، إما مطلقاً أو بشرط التوبة.

ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام.. شرع[2] في وصف القرآن

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

بصفات ثلاث:

الأول: كونه آيات مبينات. والثانية: كونه مثلاً. والثالثة: كونه موعظة. فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون في هذه السورة الكريمة آيات مبينات، لكل ما بكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب والتبيين في الحقيقة لله تعالى. وإسناده إلى الآيات مجاز عقلي.

وقرأ[1] ﴿مبينات﴾ بفتح الياء الحرميان نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر؛ أي: بين الله في هذه السورة وأوضح آياتٍ تضمنت أحكاماً وحدوداً وفرائض. فتلك الآيات هي المبينة. ويجوز أن يكون المراد مبيناً فيها ثم اتبع، فيكون المبين في الحقيقة غيرها. وهي ظرف للمبين. وقرأ باقي السبعة والحسن وطلحة والأعمش بكسر الياء. فإما أن تكون متعدية؛ أي: مبينات غيرها من الأحكام والحدود. فأسند ذلك إليها مجازاً. وإما أن تكون لا تتعدى؛ أي: بينات في نفسها، لا تحتاج إلى موضح، بل هي واضحة. لقولهم في المثل:

قد بين الصبح لذي عينين؛ أي: قد ظهر ووضح.

﴿وَمَثَلًا﴾ معطوف على آيات؛ أي: وأنزلنا[2] إليكم مثلاً كائناً ﴿مِّنَ﴾ قبيل أمثال ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ أي: مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء. فتنتظم قصة عائشة الحاكية لقصة يوسف وقصة مريم في القرابة وسائر الأمثال الواردة انتظاماً واضحاً، فإن في قصتهما ذكر تهمة من هو بريء مما اتهم به. فيوسف اتهمته زليخا، ومريم اتهمتها اليهود مع براءتهما.

أي: وأنزلنا إليكم قصة غريبة من جنس قصص الذين خلوا من قبلكم في الغرابة. وهي[3] قصة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإنها كقصة يوسف ومريم، ولقد

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان بتصرف.

(٣) البيضاوي.

برأ الله سبحانه أربعة بأربعة. برأ يوسف بلسان الشاهد، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها، وبرأ عائشة بتلك الآيات. وفي هذا تخويف لهم، أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين. ﴿و﴾ أنزلنا إليكم ﴿موعظة﴾ وتذكرةً ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للذين يتقون الشرك والكبائر، يتعظون بها وينزجرون عما لا ينبغي لهم من المحرمات والمكروهات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب، ومدار[1] العطف هو التغاير العنواني المنزل منزلة التغاير الذاتي، فالموعظة ما وعظ به في الآيات. من[2] قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ وقوله: ﴿يعظكم أن تعودوا لمثله أبدا﴾ وخص المتقين بالذكر مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الإنزال؛ لأنهم المنتفعون بها، المغتنمون لآثارها، المقتبسون من أنوارها. وأما غير المتقين، فإن الله سبحانه قد ختم على قلوبهم، وجعل على بصرهم غشاوةً عن سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفهم ما تشتمل عليه الآيات.

والمعنى: أي ولقد أنزلنا إليكم آيات القرآن مبينات لما أنتم في حاجة إليه من الأحكام والآداب. كما أنزلنا قصصاً من أخبار الأمم السالفة، كقصة يوسف وقصة مريم، وفيهما شبه بقصة عائشة. وفيهما عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه، وخشي عذابه.

وأثر عن علي ـ كرم الله وجهه ـ في وصف القرآن. فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله اهـ.

فإن قلت: لم قال[3] هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ بذكر واو العطف. وقال فيما سيأتي: ﴿لقد أنزلنا﴾ بدون الواو، وزاد هنا ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ بخلاف ما سيأتي؟

قلت: لأن اتصال ما هنا بما قبله أشد. إذ قوله هنا: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) فتح الرحمٰن.

مصروف إلى الجمل السابقة من قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ إلى آخره، وفيه معطوفان بالواو، فناسب ذكرها بالعطف، وذكر ﴿إِلَيْكُمْ﴾ ليفيد أن الآيات المبينات نزلت في المخاطبين في الجمل السابقة. وما ذكر بعدُ خالٍ عن ذلك، فناسبه الاستئناف والحذف.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى مثلين:

أحدهما: في بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور.

والثاني: في بيان أن أديان الكفرة في غاية الظلمة.

أما المثل الأول: فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مظهرهما[١] ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية.

وقال ابن عباس: أي الله هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة ينجون. فمعنى النور هو الهداية؛ أي: ذو نور؛ أي: ذو هداية لأهلهما. وقيل: معناه[٢] الله منور السماوات والأرض. نور السماء بالملائكة. ونور الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقيل: زين الأرض بالنبات والأشجار.

واعلم: أن النور على أربعة أوجه[٣]:

أولها: نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها، كنور الشمس وأمثالها، فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها.

وثانيها: نور البصر، وهو يظهر الأشياء للإبصار ولكنه يراها. وهذا النور أشرف من الأول.

وثالثها: نور العقل، وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهل

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

للبصائر، وهو يدركها ويراها.

ورابعها: نور الحق تعالى، وهو يظهر الأشياء المعدومة المخفية في العدم للأبصار والبصائر من الملك والملكوت، وهو يراها في الوجود. كما كان يراها في العدم؛ لأنها كانت موجودة في علم الله، وإن كانت معدومة في ذاتها، فما تغير علم الله، ورؤيته بإظهارها في الوجود، بل كان التغير راجعاً إلى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ أي: صفة نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة، وهو القرآن المبين، كما في «الإرشاد». فهو تمثيل له في جلاء مدلوله، وظهور ما تضمنه من الهدى بالمشكاة المنعوتة.

والمراد بالمثل الصفة العجيبة؛ أي: صفة نوره العجيب، وإضافته إلى ضميره تعالى، دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره. كما في «البيضاوي».

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: كصفة كوة، غير نافذة في الجدار في الإنارة. قال بعض أهل المعاني: معنى الآية، كمثل مصباح في مشكاة. فهو من المقلوب ذكره ابن الجوزي.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك المشكاة ﴿مِصْبَاحٌ﴾؛ أي: سراج ضخم ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾؛ أي: ذلك المصباح كائن ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر. وفائدة جعل المصباح في زجاجة. والزجاجة في كوة، غير نافذة شدة الإضاءة؛ لأن المكان، كلما تضايق، كان أجمع للضوء. بخلاف الواسع، فالضوء ينتشر فيه. وخص الزجاج؛ لأنه أحكى الجواهر لما فيه.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾؛ أي: تلك الزجاجة والقنديل ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: نجم متلألىء وقّاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته، كالمشتري والزهرة والمريخ ودرازى الكواكب عظامها المشهورة ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لزجاجة، واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري. وفي إعادة المصباح والزجاجة معرفين عقب ذكرهما منكرين. والإخبار بما بعدهما مع انتظام الكلام، بأن يقال: كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها

كوكب دري من تفخيم شأنها بالتفسير بعد الإبهام ما لا يخفى.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح؛ أي: يبتدأ إيقاد ذلك المصباح ﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: كثيرة المنافع؛ لأن الزيت يسرج به، وهو إدام، ودهان ودباغ ويوقد بحطب الزيتون وبثفله، ورماده يغسل به الأبريسم. ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى عصار. وفيه زيادة الإشراق، وقلة الدخان. وهو مصحة من الباسور. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة خصها من بين سائر الأشجار؛ لأن دهنها أضوأ وأصفى. قال في إنسان العيون: شجرة الزيتون تعمِّر ثلاثة آلاف سنة. وهو أول شجرة نبت في الدنيا، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان، ونبتت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة. ودعا لها سبعون نبياً بالبركة. منهم إبراهيم، ومنهم محمد ﷺ فإنه قال مرتين: «اللهم بارك في الزيت والزيتون». ا هـ. «مراح».

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي: لا شرقية تطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط. ولا غربية تقع عليها حين الغروب فقط، بل بحيث تقع عليها طول النهار، فلا يسترها عن الشمس في وقت من النهار شيء، كالتي على قمة جبل، أو صحراء. فتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى. أولا في مضحى، تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها، ولا في مغيباة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً، أو لا نابتة في شرق المعمورة نحو كنكدزِ وديار الصين. ولا في غربها، نحو طنجة وطرابلس وديار قيروان. بل في وسطها، وهو الشام. فإن زيتونته أجود الزيتون أو في خط الاستواء بين المشرق والمغرب. وهي قبة الأرض، فلا توصف بأحد منهما، فلا يصل إليها حر ولا برد مضران. وقبة الأرض وسط الأرض عامرها خرابها. وهو في مكان تعتدل فيه الأزمان في الحر والبرد، ويستوي الليل والنهار فيها أبداً، لا يزيد أحدهما على الآخر؛ أي: يكون كل منهما اثنتي عشرة ساعة.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الله هادي أهل السماوات والأرض، بما نصب من الأدلة في الأكوان. وبما أنزل على رسله من الآيات البينات فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلال ينجون.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: صفة نور الله عز وجل في قلب المؤمن. وهو

النور الذي يهتدى به ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: كصفة نور مشكاة؛ أي: كوة غير نافذة في شدة الإشراق والإضاءة، أو مثل أدلته التي بثها في الآفاق. وهدى بها من شاء من عباده، كمثل نور مشكاة فيها ﴿مِصْبَاحٌ﴾؛ أي: سراج ضخم ثاقب، له الصفات الآتية. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: ذلك المصباح في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: تلك الزجاجة، كأنها كوكب ضخم مضيء من دراري النجوم.

النجوم وعظامها: كالزهرة والمشتري.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح والسراج ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: رويت وشربت فتيلته وخيطه من زيت شجرة زيتونة، كثيرة المنافع زرعت على جبل عال، أو صحراء واسعة، فهي ضاحية للشمس لا يظللها جبل ولا شجر، ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها. فزيتها أشد ما يكون صفاء. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فحسب ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فحسب بل هي شرقية غربية، تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها. كما يقال: فلان لا مسافر ولا مقيم، إذا كان يسافر أحياناً ويقيم أخرى.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾؛ أي: يقرب زيتها. صفة لشجرة أيضاً؛ أي: من شجرة مباركة موصوفة بأنه يكاد زيتها لشدة صفائه ﴿يُضِىٓءُ﴾ المكان بنفسه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أصلاً. وهذه[1] الجملة معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً، والتقدير: يكاد زيتها يضيء، لو مسته نار ولو لم تمسسه نار؛ أي: تضيء كائناً على كل حال، من وجود الشرط وعدمه. فالجملة حالية جيء بها لاستقصاء الأحوال، حتى في هذه الحال.

والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته، يكاد يضيء بنفسه على كل حال؛ أي: سواء مسته النار أو لم تمسسه، وفي «السمين» قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ جواب لو محذوف؛ أي: لأضاء لدلالة ما تقدم عليه.

(١) روح البيان.

والمعنى: أي[1] زيتها لصفائه وبريقه ولمعانه، كأنه يضيء بنفسه دون أن تمسه النار؛ لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رئي من بعد يرى كأن له شعاعاً، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء. كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه ازداد نوراً على نور وهدى على هدى.

قال يحيى بن سلام: قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له، لموافقته إياه، وهو المراد من قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».

وارتفاع ﴿نُورٌ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف و﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ متعلق بمحذوف، هو صفة لـ﴿نور﴾ مؤكدة له؛ أي: ذلك النور الذي عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة الشأن، بما فصل من صفة المشكاة؛ أي: نور المصباح نور كائن على نور؛ أي: نور متضاعف. فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت، وزهرة القنديل، وضبط المشكاة لأشعته، فليس عبارةً عن مجموع نورين اثنين فقط. بل المراد به التكثير. كما يقال: فلان يضع درهماً على درهم. ولا يراد به درهمان.

أي: نور المصباح نور مترادف متضاعف، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة. والمصباح والزيت حتى لم يبق بقية مما يقوي النور، ويزيده إشراقاً، ويمده بإضاءة. ذلك أن المصباح إذا كان في مكان ضيق كالمشكاة.. كان أضوأ له، وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء ينبعث فيه وينتشر. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه.

فإن قلت: ولم مثل الله نوره؛ أي: معرفته في قلب المؤمن بنور المصباح، دون نور الشمس، مع أن نورها أتم؟

قلت: لأن المقصود، تمثيل النور في القلب. والقلب في الصدر، والصدر في البدن كالمصباح، والمصباح في الزجاجة والزجاجة في القنديل. وهذا التمثيل لا يتقيم إلا فيما ذكر؛ ولأن نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها

---

(١) المراغي.

كالذهن والفهم والعقل واليقظة وغيرها من الصفات الحميدة. كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة وغيرها، أو لأن نور الشمس يشرق متوجهاً إلى العالم السفلي، ونور المعرفة يشرق متوجهاً إلى العالم العلوي كنور المصباح. ولكثرة نفع الزيت، وخلوصه عما يخالطه غالبا، وقع التشبيه في نوره دون نور الشمس مع أنه أتم من نور المصباح. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ سبحانه هداية[1] خاصةً موصلة إلى المطلوب حتماً، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة. ﴿لنوره﴾؛ أي: لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته. وكونه من عند الله من الإعجاز، والإخبار عن الغيب، وغير ذلك من موجبات الإيمان. وهذا من قبيل الهداية الخاصة. ولذا قال: من يشاء من عباده. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية، وملاكها ليس إلا مشيئته. وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل عن الإفضاء إلى المطلوب.

والمعنى: أي[2] يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق، بالنظر والتدبر، وتوجيه الفكر لسلوك الطريق الجادة الموصلة إليه. ومن لم يتدبر، فهو كالأعمى. سواء لديه جنح الليل الدامس، وضحوة النهار الشامس. وعن علي - رضي الله عنه - ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ونشر فيهما الحق وبثه فأضاء له بنوره.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؛ أي: الأشباه ويبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلاً لسبل الإدراك؛ أي: يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها، تقريباً لها إلى الأفهام والأذهان، وتسهيلاً لإدراكها؛ لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً. وهذا من قبيل الهداية العامة. ولذا قال: للناس.

والمعنى: أي ويسوق الله الأمثال للناس في تضاعيف هدايتهم، بحسب ما تدعو إليه حالهم، لما فيها من الفوائد في النصح والإرشاد. إذ بها تتفتق الأذهان

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

للوصول إلى الحق، وبها تأنس النفس بتصويرها المعاني بصور المحسوسات التي تألفها، وتدين بها. ولأمر ما كثرت في القرآن الكريم فقلما ساق حجاجاً، أو أقام دليلاً إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع، وأرجىء للاقتناع.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾ من الأشياء من ضرب الأمثال وغيره من دقائق المعقولات، والمحسوسات، وحقائق الجليات، والخفيات ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يغيب عن علمه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً أو باطناً، فيعطي هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم، واستعدوا لتلقي أحكام الدين وآدابه. وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى، بحسب اختلاف أحوال عباده، لتقوم له الحجة عليهم.

وفي هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها، ووعيد وإنذار لمن يتفكر فيها ولم يكترث بها. فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدي لطريقه.

وخلاصة ذلك: ما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هذا مثل نور الله، وهداه في قلب المؤمن. فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء، يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى، قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه ازداد هدىً على هدىً، ونوراً على نور.

فصل في بيان القراءة الجارية في الآية

وقرأ علي[١] بن أبي طالب وأبو جعفر وعبد العزيز المكي وزيد بن علي وثابت بن أبي حفصة ومسلمة بن عبد الملك وأبو عبد الرحمٰن السلمي والقورصي وعبد الله بن عياش بن أبي ربعة: ﴿اللَّهُ نَوَّرَ﴾ فعلاً ماضياً. ﴿السَّمَوَاتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنصب.

وقرأ أبو[٢] رجاء العطاردي ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد وابن أبي عبلة: ﴿في زَجاجة الزَّجاجة﴾ بفتح الزاي فيهما. وقرأ معاذ القاري وعاصم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

الجحدري وابن يعمر بكسر الزاي فيهما. وقرأ الجمهور: بضم الزاي فيهما. وقرأ الجمهور من السبعة نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وابن كثير: ﴿درى﴾ بضم الدال وتشديد الراء والياء من غير مد ولا همز، والظاهر نسبة الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه. ويحتمل أن يكون أصله الهمز، فأبدل وأدغم.

وقرأ أبو عمرو والكسائي وأبان عن عاصم بكسر ﴿دريىء﴾ بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً. وهو بناء كثير في الأسماء، نحو سكين. وفي الأوصاف نحو: سكِّير قال ابن قتيبة: المعنى على هذا إنه من الكواكب الدرارىء، وهي اللاتي يدرأن عليك؛ أي: يطلعن. وقال الزجاج: هو مأخوذ من درأ يدرأ إذا اندفع منقضاً فتضاعف نوره. يقال: تدارأ الرجلان إذا تدافعا. وقرأ عبد الله بن عمر والزهري والمفضل عن عاصم ﴿درى﴾ بكسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مد. وقرأ عثمان بن عفان وابن عباس وعاصم الجحدري ﴿دريىء﴾ بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً. وقرأ أبيّ بن كعب وسعيد بن المسيب وقتادة وزيد والضحاك ﴿دريّ﴾ بفتح الدال وتشديد الراء والياء من غير مد ولا همز. وقرأ ابن مسعود وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وابن يعمر ﴿درىء﴾ بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم والوليد بن عتبة عن ابن عامر ﴿دريىء﴾ بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمد.

وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي - وأبو بكر عن عاصم والحسن وزيد بن علي وقتادة وابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش: ﴿توقد﴾ بضم التاء والدال؛ أي: الزجاجة؛ أي: مصباحها مضارع أوقدت مبنياً للمفعول. وقرأ[1] نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿يوقد﴾ بالياء مضمومة مع ضم الدال؛ أي: المصباح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿توقد﴾ بفتح الحروف الأربعة وتشديد القاف فعلاً ماضياً من باب تفعل؛ أي: المصباح أيضاً؛ لأنه هو الذي يوقد. وقرأ

---

(١) البحر المحيط.

الحسن والسلمي وقتادة وابن محيصن وسلام ومجاهد وابن أبي إسحاق والمفضل عن عاصم: ﴿توقد﴾ بفتح الحروف الثلاثة الأولى، وضم الدال مضارع توقد، وأصله تتوقد؛ أي: الزجاجة يعني مصباحها. وقرأ عبد الله ﴿وقد﴾ بغير تاء وشدد القاف جعله فعلاً ماضياً؛ أي: وقد المصباح. وقرأ السلمي وقتادة وسلام أيضاً كذلك. إلا أنه بالياء من تحت ﴿يوقد﴾ وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن. وأصله يتوقد؛ أي: المصابح إلا أن حذف التاء في تتوقد مقيس لدلالة ما أبقى على ما حذف. وفي يتوقد شاذ جداً؛ لأن الياء الباقية لا تدل على التاء المحذوفة. وله وجه من القياس. وهو حمله على يعد، إذ حمل يعد على تعد في حذف الواو. وكذلك هذا لما حذفوا من تتوقد بالتاءين حذفوا التاء مع الياء، وإن لم يكن اجتماع التاء والياء مستثقلاً.

وقرأ الجمهور: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بالخفض على أنه صفة لزيتونة. وقرأ الضحاك بالرفع؛ أي: لا هي شرقية ولا غربية. والجملة في موضع الصفة. وقرأ الجمهور: ﴿تَمْسَسْهُ﴾ بالتاء، وابن عباس والحسن بالباء من تحت وحسنه الفصل وإن تأنيث النار مجازي. وهو مؤنث بغير علامة.

وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بمحذوف، صفة لمشكاة، والتقدير: مثل نوره سبحانه كمثل نور مشكاة وكوة كائنة في بيوت ومساجد. ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وأمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ أي: أن تبنى تلك البيوت والمساجد رفيعةً وتطهر وتنظف من الأنجاس والأقذار. وقيل: تعظم فلا يذكر فيها الفحش من القول.

وقد كره(١) بعض العلماء تعليم الصبيان في المساجد، ورأى أنه من باب البيع، وهذا إذا كان بأجرة. فلو كان بغير أجرة، لمنع أيضاً من وجه آخر، وهو أن الصبيان لا يتحرزون من الأقذار والأوساخ، فيؤدي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد. وقد أمر رسول الله ﷺ بتنظيفها وتطييبها. فقال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وسل سيوفكم، وإقامة حدودكم، ورفع أصواتكم

---

(١) المراح والقرطبي.

وخصوماتكم، وجمروها في الجمع، واجعلوا لها على أبوابها المطاهر».

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ فيه ستة أوجه:

أحدها: أنه صفة لمشكاة؛ أي: كمشكاة كائنة في بيوت؛ أي: في بيت من بيوت الله.

الثاني: أنه صفة لمصباح.

الثالث: أنه صفة لزجاجة.

الرابع: أنه متعلق بتوقد، وعلى هذه الأقوال لا يوقف على عليم.

والخامس: أنه متعلق بمحذوف. كقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾؛ أي: سبحوه في بيوت.

السادس: أنه متعلق بيسبح؛ أي: يسبح رجال في بيوت. ولفظ فيها حينئذٍ مكرر للتوكيد. كقوله تعالى: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وعلى هذين القولين فيوقف على عليم. ا هـ. «سمين».

قيل[١]: المراد بالبيوت هنا، جميع المساجد. فقد قال ابن عباس: بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض. وقيل: المراد بها أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي، الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلةً. وبيت المقدس بناه داود وسليمان. ومسجد المدينة، ومسجد قباء، بناهما رسول الله ﷺ. ا هـ. «خازن».

وقيل: المراد بها[٢] بيوت بيت المقدس. روي ذلك عن الحسن.

وقيل: بيوت النبي ﷺ رواه مجاهد. وقيل: هي البيوت كلها، والقول الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

وقد يقال: على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح، أو بتوقد ما الوجه، في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت، ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد. وأجيب بأن هذا من الخطاب، الذي يفتح أوله بالتوحيد، ويختم بالجمع، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ونحوه.

وقيل: معنى في بيوت، في كل واحد من البيوت فكأنه قال: في كل بيت، أو في كل واحد من البيوت. وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ معطوف على ﴿ترفع﴾؛ أي: وأمر أن يذكر فيها اسمه. واسم[1] الله تعالى كل ما يصح أن يطلق عليه بالنظر إلى ذاته كلفظ الجلالة، أو باعتبار صفة من صفاته السلبية كالقدوس، أو الثبوتية كالعليم. أو باعتبار فعل من أفعاله كالخالق. لكنها توفيقية عند بعض العلماء. وذكر الله هنا عام في كل ذكر توحيداً كان أو تسبيحاً أو تحميداً أو تكبيراً أو تلاوة قرآن، أو مذكرة علوم شرعية، أو ما كان آلةً لها، أو آذاناً، أو إقامة، أو نحوها.

والمعنى مثل نوره كمشكاة، كمصباح موضوع في مشكاة كائنة في بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية، والمعنوية، كاللغو ورفث الحديث. وأمر بذكره فيها، وإخلاص العبادة له.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك البيوت، وينزهه ويقدسه عما لا يليق به. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾؛ أي: في أول النهار وآخره. ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يسبح﴾. وخصوا بالذكر؛ لأن النساء ليس عليهن حضور المسجد لجمعة ولا لجماعة. ا هـ. «سمين».

ولفظ فيها تكرير، لقوله: في بيوت للتأكيد والتذكير، لما بينهما من الفاصلة. إن قلنا إن قوله: ﴿في بيوت﴾ متعلق بـ﴿يسبح﴾. وللإيذان بأن التقديم للاهتمام، لا لقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط. والتسبيح تنزيه الله

---

(١) روح البيان.

تعالى عما لا يليق به، وجعل عاماً في جميع العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيةً. ولكن أريد به هنا الصلوات المفروضة. كما ينبىء عنه تعيين الأوقات، بقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ أي: بالغدوات والعشيات.

فالمراد بالغدو وقت صلاة الفجر؛ لأنها مؤداة فيه. وبالآصال ما عداه من أوقات صلوات الظهر والعصر والعشائين؛ لأن الأصيل يجمعها ويشملها. كما في «الكواشي» وغيره؛ أي: يسبح له فيها رجال موصوفون بأنهم ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾؛ أي: لا تشغلهم من غاية الاستغراق في مقام الشهود، وهو في محل رفع صفة أولى لرجال. ﴿تجارة﴾؛ أي: تقليب المال لغرض الربح؛ أي: التصرف في رأس المال طالباً الربح. وتخصيص[1] التجارة لكونها أقوى الصوارف عندهم، وأشهرها؛ أي: لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ﴿ولا بيع﴾ لأموالهم، ﴿ولا﴾ شراء لأموال غيرهم. فالبيع ضابطه إعطاء المثمن وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثمن؛ أي: ولا فرد من أفراد البيوع. وعطف البيع على التجارة من عطف الخاص على العام، لشمول التجارة للبيع والشراء. وإن كان في غاية الربح. وإفراده بالذكر من اندراجه تحت التجارة، لكونه أهم من قسمي التجارة، فإن الربح يتحقق بالبيع، ويتوقع بالشراء؛ أي: ربح الشراء متوقع في ثاني الحال عند البيع، فلم يكن ناجزاً كربح البيع، فإذا لم يلههم المقطوع، فالمظنون أولى.

فإن قلت: لم عطف البيع على التجارة مع شمولها له؟

قلت: لأن التجارة هي التصرف في المال، لقصد الربح، والبيع أعم من ذلك، فعطفه عليها لئلا يتوهم القصور على بيع التجارة، أو أريد بالتجارة الشراء لقصد الربح، وبالبيع البيع مطلقاً. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتمجيد، أو عن حضور المسجد لإقامة الصلاة كما في «الخازن». ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: وعن إقامتها، وأدائها جماعة في مواقيتها من غير تأخير؛ لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي

---

(١) روح البيان.

الصلاة. وقد أسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال، وعوض عنها الإضافة.

قال الراغب: قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ الآية. ليس ذلك نهياً عن التجارة وكراهيةً لها، بل نهى عن التهافت والاشتغال عن الصلوات والعبادات بها. انتهى.

قال ابن الشيخ: إقامة الصلاة إتمامها برعاية جميع ما اعتبره الشرع من الأركان والشروط والسنن والآداب، فمن تساهل في شيء منها.. لا يكون مقيماً لها.

﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: إعطاء المال الذي فرض إخراجه للمستحقين. وإيراده ههنا، وإن لم يكن مما يفعل في البيوت، لكونه قرين إقامة الصلاة لا يفارقها في عامة المواضع. وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله والإخلاص فيها، إذ ليس لكل مؤمن مال.

ومعنى الآية: ينزه الله[1] ويقدسه في أول النهار وآخره، رجال لا تشغلهم الدنيا وزخرفها، ولا بيوعهم، ولا تجارتهم عن ذكر ربهم. وهو خالقهم ورازقهم. إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم، وأنفع مما بأيديهم. فما عندهم ينفد وما عند الله باقٍ. ويؤدون الصلاة في مواقيتها، على الوجه الذي رسمه الدين، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم، تطهيراً لأنفسهم من الأرجاس. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾.

وقرأ الجمهور[2] ابن كثير وحفص عن عاصم ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بالياء التحتانية المضمومة والباء الموحدة المشددة المكسورة، و﴿رجال﴾ فاعل له. وقرأ ابن وثاب وأبو حيوة ومعاذ القارىء ﴿تسبح﴾ بالتاء الفوقانية المضمومة وكسر الباء المشددة، و﴿رجال﴾ فاعل له.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم والبختري عن حفص ومحبوب عن أبي عمرو والمنهال عن يعقوب والمفضل وأبان ﴿يسبح﴾ بالياء المضمومة التحتانية، والباء الموحدة المفتوحة على صيغة المبني للمفعول، وأحد المجرورات الثلاثة المذكورة بعده في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله. والأولى منها الذي يلي الفعل؛ لأن طلب الفعل للمرفوع أقوى من طلبه للمنصوب الفضلة. وعلى هذه القراءة، فرجال مرفوع بفعل محذوف، تقديره: يسبحه رجال، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: المسبحون له رجال.

وقرأ أبو جعفر: ﴿تسبح﴾ بالتاء الفوقية المضمومة، وفتح الباء الموحدة على صفة المبني للمجهول. قال الزمخشري: ووجه هذه القراءة أن تسند إلى أوقات الغدو والآصال على زيادة الباء، وتجعل الأوقات مسبحة. والمراد ربُّها كـ: صِيْدَ عليه يومان. والمراد وحشهما انتهى.

ويجوز أن يكون النائب عن الفاعل ضمير التسبيحة الدال عليه تسبح؛ أي: تسبح له هي؛ أي: التسبيحة. كما قالوا.

﴿ليجزى قوماً﴾ في قراءة من بناه للمفعول، ليجزى هو؛ أي: الجزاء. وقرأ أبو مجلز ﴿والإيصال﴾ بدل الآصال.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ يجوز أن يكون نعتاً ثانياً لرجال، وأن يكون حالاً من مفعول تلهيهم. ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به، لا ظرف على الأظهر، وهو يوم القيامة. ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ صفة لـ﴿يوماً﴾، كما سيأتي في مبحث الإعراب؛ أي: يسبح له فيها رجال يخافون عذاب يوم تتقلب وتضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ والأفئدة من شدة الهول والفزع. ﴿و﴾ تشخص فيه ﴿الأبصار﴾ من الهلع والحيرة، والرعب والخوف.

وقرأ ابن محيصن ﴿تقلب﴾ بإدغام التاء في التاء؛ أي: يخافون[1] يوماً

---

(١) المراغي.

تتقلب في ذلك اليوم القلوب بين طمع في النجاة وخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار من أي ناحية يؤمر بهم، أمن ناحية اليمين، أم من ناحية الشمال. ومن أي ناحية يعطون كتابهم، أمن قبل اليمين، أم من قبل الشمال؛ أي: فإنهم وإن بالغوا في ذكر الله تعالى، والطاعات خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته.

وقيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك إلى اليقين، وتنفتح الأبصار من الأغطية. وقيل: يتقلب القلب في الجوف فيرتفع إلى الحنجرة، فلا ينزل ولا يخرج. ويتقلب البصر فيشخص من هول الأمر وشدته. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ واللام[1] فيه للعاقبة والصيرورة لا للعلة متعلقة بمحذوف تقديره: يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ليجزيهم الله سبحانه أحسن ما عملوا؛ أي: حسن ما عملوا. فالمفاضلة ليست على بابها، فالمحترز عنه، المجازاة على العمل القبيح. فالمعنى: ليجزيهم الله سبحانه على ما عملوا من الحسنات حسبما وعدهم، من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبع مئة ضعف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا يجزون على ما عملوا من السيئات؛ أي: عملوا ما عملوا ليصير مآل أمرهم، وعاقبته الجزاء الحسن، فليست اللام للعلة، كما مر آنفاً؛ لأن هذه مرتبة عامة المؤمنين، وتلك الأوصاف إنما هي لكامل الإيمان.

﴿وَيَزِيدَهُم﴾ سبحانه ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه وكرمه أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم، ولم تخطر ببالهم. وهو العطاء الخاص لا لعمل؛ أي: فلا يقتصر في

---

(١) الصاوي.

إعطائهم على جزاء أعمالهم، بل يعطون أشياء لم تخطر ببالهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَرْزُقُ﴾ ويعطي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاءه لا نهاية له. والرزق: العطاء الجاري، والحساب: استعمال العدد؛ أي: يفيض ويعطي من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق. يقال: فلان ينفق بغير حساب؛ أي: يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه، فهو كناية عن كون الله يعطيهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. بغير نهاية فوق ما وعدهم به. وهذا تذييل ووعد كريم، بأنه تعالى يعطيهم فوق أجور أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب.

قال بعض السلف[1]: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة.. تركوا كل شغل وبادروا إليها؛ أي: لا في أصحاب الصفة، وأمثالهم الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد، فإنه تعالى قال: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة. ا هـ.

ولما ضرب[2] الله سبحانه المثل للمؤمنين بأشرف الأمثال وأعلاها.. ضرب المثل للكفار بأشر الأشياء وأخسها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾.

والحاصل: أن الله سبحانه ضرب للكفار مثلين: مثل لأعمالهم الحسنة بقوله: ﴿كَسَرَابٍ﴾ الخ، ومثل لأعمالهم السيئة بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ الخ. والاسم الموصول مبتدأ أول، و﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلته، و﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، ﴿كَسَرَابٍ﴾ خبر الثاني. والمبتدأ الثاني وخبره خبر الأول.

أي: والذين كفروا بالله ورسوله، أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وعتق الأرقاء، وعمارة البيت، وسقاية الحاج، وإغاثة الملهوفين، وقرى الأضياف، وإراقة الدماء، ونحو ذلك، مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب ولا تتوقف صحته على نية كائنة، كسراب ﴿بِقِيعَةٍ﴾؛ أي: كائن في قيعة. فالباء

---

(١) روح البيان.

(٢) الصاوي.

بمعنى في. والسراب هو شبه[1] ماء يرى نصف النهار، عند شدة الحر في البراري، يظنه من رآه ماء. فإذا قرب منه، لم ير شيئاً، وسمي سراباً؛ لأنه يتسرب؛ أي: يجرى كالماء. ويسمى آلاً أيضاً. قال الشاعر:

إِذَا أَنَـا كَـالَّـذِيْ يَـجْـرِيْ لِـوِرْدِهِ ... إِلَـىٰ آلٍ فَـلَـمْ يُـدْرِكْ بِـلاَلاَ

والقيعة: جمع قاع، كجيرة جمع جار، وهي الأرض المنبسطة المستوية، قد انفجرت عنها الجبال.

﴿يَحْسَبُهُ﴾؛ أي: يتوهمه ويظنه ﴿الظمآن﴾ أي: العطشان. وكذا كل من رآه ﴿مَآءً﴾ حقيقةً، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائناً من كان من العطشان، والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه. وهو الابتداء المطمع والانتهاء المؤيس. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: جاء ما توهمه ماءً، وعلق به رجاءه ليشرب منه، فهو غاية لمحذوف؛ أي: يستمر سائراً إليه حتى إذا جاءه. ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾؛ أي: لم يجد ما حسبه ماء. ﴿شَيْـًٔا﴾ أصلاً، لا متحققاً ولا متوهماً، كما يراه من قبل، فضلاً عن وجدان ماءٍ فيزداد عطشاً.

كذلك الكافر، يحسب أن عمله كصدقة ينفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه، لم يجد عمله؛ أي: لم ينفعه. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي: وجد وعد الله بالجزاء على عمله، والمعنى: وجد عذاب الله له، عند مجيئه.

﴿فَوَفَّىٰهُ﴾؛ أي: أعطاه وافياً كاملاً ﴿حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: حساب عمله وجزاءه. يعني: ظهر له بعد ذلك، من سوء الحال، ما لا قدر عنده، للخيبة والقنوط أصلاً. كمن يجيء إلى باب السلطان للصلة، فيضرب ضرباً وجيعاً.

والحاصل[2]: أنه شبه حال الكافر من حيث اعتقاده، أن عمله الصالح ينفعه في الآخرة، فإذا جاء يوم القيامة، لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم، والعذاب الأليم، فتغير ظن النفع العظيم إلى تيقن الضُّر العظيم.

---

(١) الخازن.
(٢) الصاوي.

فعظمت حسرته، بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب تعلق به، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، وإفراد[١] الضمير الراجع إلى الذين كفروا في قوله: ﴿فوفاه حسابه﴾ لإرادة الجنس، أو لإرادة كل واحد منهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب؛ لأنه عالم بجميع المعلومات، فلا يشق عليه الحساب.

وقرأ مسلمة بن محارب[٢]: ﴿بقيعاه﴾ بهاء مدورة. كما يقال: رجل عزهاه. وروي أنه قرأ ﴿بقيعات﴾ بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأول. وجمع قيعة على الثاني. وروي عن نافع وأبي جعفر وشيبة أنهم قرؤوا ﴿الظمان﴾ بغير همز. والمشهور عنهم الهمز.

وحاصل معنى الآية: أنه[٣] سبحانه وتعالى شبه الأعمال الصالحة التي يعملها، من جحدوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن وبمن جاء به ويظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب في العاقبة آمالهم، ويلقون خلاف ما قدروا بالسراب، يراه من اشتد به العطش، فيحسبه ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغي، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، هكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعةً منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم العذاب يوم القيامة، لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه، إلا كما ينتفع بالسراب من اشتد ظمؤه، واحتاج إلى ما به يروي غلته.

ثم بين شديد عقابه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: ووجد عقاب الله الذي توعد به الكافرين أمامه، وتحول ما كان يظنه نفعاً عظيماً إلى ضرر محقق، وتجيؤه الزبانية تعتله وتسوقه إلى جهنم، وتسقيه الحميم والفساق، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر.

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

وخلاصة ما سلف: أن الخيبة والخسران في الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال في الدنيا، كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك، وظنوا أنها تنجيهم من عذاب ربهم، وهم مع ذلك جاحدوا وحدانية الله، مكذبون لرسله، فما مثلهم إلا مثل من اشتد ظمؤه ورأى السراب فخاله ماء، وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، ورجع بخفي حنين.

هذه حالهم في الآخرة، أما حالهم في الدنيا فكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ معطوف على كـ﴿سراب﴾، ولكنه على[1] حذف مضاف واحد، تقديره: أو كذي ظلمات، ودل على هذا المضاف قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فالضمير يعود إلى المضاف المحذوف، وهو قول أبي علي، أو على حذف مضافين، تقديره: أو كأعمال ذي ظلمات، فقدر ذي، ليصح عود الضمير إليه في قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾. وقدر أعمال، ليصح تشبيه أعمال الكفار، بأعمال صاحب الظلمات، إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمات. وقيل: لا حاجة إلى حذف ألبتة.

والمعنى: أنه شبه أعمال الكفار في حيلولتها بين القلب، وما يهتدى به بالظلمة، وأما الضميران في ﴿أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ فيعودان على محذوف دل عليه المعنى؛ أي: إذا أخرج يده من فيها. ا هـ. «سمين».

و﴿أَوْ﴾ فيه إما للتقسيم؛ لأن أعمال الكفار تنقسم إلى قمسين، قسم: كالسراب، وهو العمل الصالح. وقسم: كالظلمات، وهو العمل السيء. ا هـ. «شيخنا».

وفي «البيضاوي»: أن ﴿أَوْ﴾ فيه، إما للإباحة، فإن أعمالهم لكونها لاغية، لا منفعة لها، كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق، كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والسحاب والأمواج. فكأنه قال: إن شئت مثل بالسراب، وإن شئت مثل بهذه الظلمات. أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب، وإن

---

(١) الفتوحات.

كانت سيئةً فكالظلمات. أو للتقيم باعتبار وقتين، فإنها كالظلمات في الدنيا، وكالسراب في الآخرة. ا هـ.

أي: والذين كفروا أعمالهم كسراب، أو كظلمات كائنة. ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾؛ أي: في بحر عميق كثير الماء. منسوب إلى اللج، وهو معظم ماء البحر. ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ صفة ثانية لبحر؛ أي: يستر ذلك البحر، ويغطيه بالكلية موج. والموج: ما ارتفع من الماء. ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾؛ أي: من فوق ذلك الموج الأول موج آخر؛ أي: أمواج متراكمة بعضها على بعض. ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾؛ أي: غيم. صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾ الثاني؛ أي: من فوق الموج الثاني، الأعلى سحاب غطى النجوم، وحجب أنوارها، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب، ﴿ظلمات﴾؛ أي: هذه المذكورات من الأمواج والسحاب، ظلمات متكاثفة متراكمة، ﴿بعضها فوق بعض﴾.

وفي «الخازن»(١): معناه أن البحر اللجي، يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء وكثرته وارتفاعه، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة، فإن كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى. ووجه الشبه، أن الله عز وجل، ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات، ظلمة البحر، وظلمة الأمواج وظلمة السحاب. وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات، ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول وظلمة العمل.

وقيل: شبه بالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه، ولكن هذا بعيد عن لغة العرب. كما في «الشوكاني». قال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلم، كلامه ظلمة وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار.

والمعنى(٢): أو الذين كفروا أعمالهم القبيحة كظلمات كائنة في بحر عميق،

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.

يعلوه موج كائن من فوقه موج كائن من فوق ذلك الموج الثاني سحاب ستر ضوء النجوم. وما تقدم ذكره ظلمات متراكمة، وهي ظلمة البحر وظلمة الموج الأول، وظلمة الموج الثاني، وظلمة السحاب. وهذا بيان لكمال شدة الظلمات. كما أن قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيان لغاية قوة النور. إلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به.

وقرأ سفيان[1] بن حسين ﴿أو كظلمات﴾ بفتح الواو، جعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه، الخالي عن محض الاستفهام، وقرأ الجمهور: ﴿سحاب﴾ بالتنوين. ﴿ظلمات﴾ بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه، أو تلك ظلمات. وقرأ البزي وابن محيصن ﴿سحاب ظلمات﴾ بإضافة ﴿سحاب﴾ إلى ﴿ظلمات﴾، وجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأضيف إليها لهذه الملابسة. وقرأ قنبل ﴿سحابٌ﴾ بالتنوين، ﴿ظلمات﴾ بالجر بدلاً من ﴿ظلمات﴾ الأولى.

ثم بالغ سبحانه، في هذه الظلمات المذكورة، بقوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾؛ أي: من[2] ابتلي بهذه الظلمات، أو الحاضر فيها، وإضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه، دلالة واضحة ﴿يَدَهُۥ﴾ وهي أقرب أعضائه المرئية إليه، وجعلها بمرأى منه قريبةً من عينه لينظر إليها. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة فضلاً عن أن يراها.

قال الزجاج وأبو عبيدة: المعنى لم يرها، ولم يكد. وقال الفراء إن ﴿يكد﴾ زائدة.

والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها. كما تقول: ما كدت أعرفه. وقال المبرد، يعني: لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس: أصح الأقوال في هذا، أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يرها رؤيةً بعيدةً، ولا قريبةً.

وجملة قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مقررة لما قبلها، من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

كون أعمال الكفرة على تلك الصفة.

والمعنى: ومن لم يجعل الله له هدايةً، فماله من هداية. قال الزجاج: ذلك في الدنيا. والمعنى من لم يهده الله لم يهتد؛ أي: ومن لم يشأ الله سبحانه أن يهديه لنور القرآن، ولم يوفقه للإيمان به فما له من نور؛ أي: فما له هداية ما من أحد أصلاً.

وقيل المعنى: من لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة.

وخلاصة ذلك: من لم يوله الله نور توفيقه ولطفه، فهو في ظلمة الباطل لا نور له.

الإعراب

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان أحكام كلية شاملة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: كافةً يندرج فيها، حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت، اندراجاً كليّاً. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، ومقوله محذوف، تقديره: قل للمؤمنين غضوا أبصاركم، لدلالة جوابه عليه، وهو ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: ﴿يَغُضُّوا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق. ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. و﴿مِنْ﴾ قيل: تبعيضية. وقيل: زائدة. وقيل: ابتدائية. والجملة الفعلية جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَغُضُّوا﴾ على كونه مجزوماً بالطلب. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى﴾: مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَزْكَى﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبره والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. ﴿يَصْنَعُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما يصنعونه.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

﴿وَقُل﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: متعلق به، ومقوله محذوف، تقديره: اغضضن من أبصاركن، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُل﴾ الأولى. ﴿يَغْضُضْنَ﴾: فعل مضارع، وفاعل في محل الجزم بالطلب السابق، مبني على السكون، لاتصاله بنون الإناث. ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَغْضُضْنَ﴾. والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَحْفَظْنَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَغْضُضْنَ﴾. ﴿فُرُوجَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يُبْدِينَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿زِينَتَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْضُضْنَ﴾ على كونها جوابية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿زينتهن﴾. ﴿ظَهَرَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): لام الأمر. ﴿يضربن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلام الأمر. مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع فاعل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾. ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: (الباء): زائدة، أو تبعيضية. ﴿خمرهن﴾: مفعول به. ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يضربن﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يُبْدِينَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. والجملة معطوفة على جملة ﴿وليضربن﴾. ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُبْدِينَ﴾، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿بعولتهن﴾ ومضاف إليه.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

﴿أَوْ ءَابَآءِ﴾: معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾، وهو مضاف ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾: مضاف إليه. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾: معطوف على بعولتهن أيضاً. ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: معطوف ومضاف إليه. ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ معطوف على بعولتهن. ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾: معطوف ومضاف إليه. وكذا قوله: ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ معطوفان على بعولتهن. ﴿أَوْ مَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أو ما ملكته أيمانهن. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾: معطوف على ﴿بعولتهن﴾ مجرور بالياء ﴿غَيْرِ﴾: بالجر صفة لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وبالنصب على الاستثناء. أو على الحال، وهو مضاف. ﴿أُو۟لِى﴾ مضاف إليه مجرور بالياء المحذوفة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. أولي مضاف. ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: حال من ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾: معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلطِّفْلِ﴾؛ لأنه بمعنى الأطفال. ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَظْهَرُوا۟﴾.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَضْرِبْنَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾: متعلق به والمفعول محذوف، تقديره: الأرض. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾. ﴿لِيُعْلَمَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، وعلم هنا بمعنى عرف، يتعدى لمفعول

واحد؛ أي: ليعلم الرجال ما يخفين. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلم الرجال ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَضْرِبْنَ﴾. ﴿يُخْفِينَ﴾: فعل وفاعل مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما يخفينه. ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿توبوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون. و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿توبوا﴾. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة. ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: (أي): منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، في محل النصب مبني على الضم. (ها): حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة مبني بسكون على الألف المحذوفة لفظاً، لالتقاء الساكنين، وخطاً تبعاً للرسم، للفظ على قاعدة رسم المصحف العثماني؛ لأن اتباعها واجب. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: صفة لأي، تابع للفظه. وجملة النداء واقعة في جواب الطلب، لبيان المخاطبين، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي: توبوا إلى الله سبحانه، لكي تفلحوا.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من الأيامى. ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾. ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾: حال من ﴿الصالحين﴾. ﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾: معطوف على ﴿عِبَادِكُمْ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير حكم النكاح. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فُقَرَآءَ﴾: خبر ﴿يَكُونُواْ﴾. ﴿يُغْنِهِمُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ولفظ الجلالة فاعل له. ﴿مِن

﴿فَضۡلِهِۦ﴾: متعلق به. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المحذوف، تقديره: لا تمتنعوا أيها الأولياء من تزويج الأحرار والحرائر، بسبب فقرهم؛ لأنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر له، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): حرف أمر وجزم. ﴿يستعفف﴾: فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يُغۡنِيَهُمُ﴾. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى إغناء الله سبحانه إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يستعفف﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول، منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب، فكاتبوهم، أو مبتدأ خبره جملة ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾. والأول أرجح لمكان. ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾. ﴿كاتبوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الموصول. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَبۡتَغُونَ﴾. ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: مما ملكته أيمانكم. ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿كاتبوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة إما مفسرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب، أو خبر المبتدأ في محل الرفع. ﴿إِنۡ﴾: حرف شرط جازم. ﴿عَلِمۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فِيهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿عَلِمۡتُمۡ﴾. ﴿خَيۡرٗا﴾: مفعول

به. وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف، دل عليه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ أي: إن علمتم فيهم خيراً، فكاتبوهم. وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول معطوف على ﴿كاتبوا﴾؛ لأنه بمعنى أعطى ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿آتوهم﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما يستعينون به على أداء النجوم. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للمال. ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: آتاكموه، وهو العائد على الموصول. الجملة صلة الموصول.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُكْرِهُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾. ﴿فَتَيَـٰتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ متعلق بـ﴿تُكْرِهُوا۟﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَرَدْنَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿تَحَصُّنًا﴾: مفعول به وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره إن أردن تحصناً لا تكرهوهن على البغاء. والجملة الشرطية معترضة، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿تبتغوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾. والجملة الفعلية، مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره لابتغائكم ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُكْرِهُوا۟﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُكْرِههُّنَّ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ مجزوم بمن الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف

إليه متعلق بـ﴿غَفُورٌ﴾. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾: الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتٍ﴾: مفعول به. ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لها. والجملة الفعلية جواب القسم. وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لبيان حقيقة الآيات المنزلة. ﴿وَمَثَلًا﴾: معطوف على آيات. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: صفة لمثلاً. ﴿خَلَوْا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَوْا۟﴾، أو متعلق بـ﴿خَلَوْا۟﴾. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتٍ﴾. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: صفة لـ﴿موعظة﴾.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: (الكاف): اسم بمعنى مثل، في محل الرفع خبر، وهو مضاف. ﴿مشكاة﴾: مضاف إليه. ويجوز إعراب الكاف: حرف جر والجار والمجرور خبر ﴿مَثَلُ﴾. والجملة من المبتدأ والخبر، جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مِصْبَاحٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مشكاة﴾. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾: مبتدأ ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة تفسير لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾: مبتدأ ﴿كَأَنَّهَا﴾:

ناصب واسمه. ﴿كَوْكَبٌ﴾: خبره. ﴿دُرِّيٌّ﴾: صفة لـ﴿كَوْكَبٌ﴾. وجملة ﴿كأن﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة من المبتدأ والخبر، جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿يُوقَدُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾. ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُوقَدُ﴾، ولكنه على تقدير مضاف، من زيت شجرة. والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾، العائد إلى المصباح، تقديره: المصباح كائن هو في زجاجة حالة كونه يوقد من زيت شجرة. ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: صفة لـ﴿شَجَرَةٍ﴾. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾: بدل ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿شَجَرَةٍ﴾، وزيدت ﴿لا﴾ لتفيد النفي، فلا تكون فاصلة بين الصفة والموصوف. ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: معطوف على ﴿شَرْقِيَّةٍ﴾. ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة. ﴿زَيْتُهَا﴾: اسمها. وجملة ﴿يُضِيٓءُ﴾: خبرها. وجملة ﴿يَكَادُ﴾ في محل الجر صفة ثالثة لـ﴿شَجَرَةٍ﴾. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على جملة شرط محذوف، وقعت حالاً من فاعل ﴿يُضِيٓءُ﴾، تقديره: يضيء زيتها لو مسته نار لأضاء، ولو لم تمسسه نار لأضاء. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَمْسَسْهُ﴾ فعل ومفعول مجزوم بلم. ﴿نَارٌ﴾: فاعل. والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. وجوابها محذوف، تقديره: لأضاء ذلك الزيت. وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب على الحال، معطوفة على شرط محذوف. كما قدرناه آنفاً، والتقدير: يكاد زيتها يضيء، حالة مس النار إياه، وحالة عدم مسها إياه. ﴿نُّورٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: نور المصباح الذي شبه به الحق، نور على نور؛ أي: نور بالزيت كائن من نور بالنار. ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نُّورٌ﴾؛ أي: هذا النور نور كائن مع نور، فعلى بمعنى مع. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان فخامة ذلك النور. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير تنفيذ مشيئته تعالى: ﴿لِنُورِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَهْدِى﴾.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يضرب﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة. ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿يضرب﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مشكاة﴾؛ أي: كمصباح مشكاة كائنة في بيوت، أو لمصباح، أو لزجاجة، أو متعلق بـ﴿يُوقَدُ﴾. وعلى هذا لا يوقف على عليم. ولك أن تقف على عليم، فتعلقه بمحذوف، تقدير: سبحوه في بيوت، أو بيسبح. ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿بُيُوتٍ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُرْفَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿بُيُوتٍ﴾. والجملة في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف. تقديره: أذن الله في رفعها وتطهيرها، وهي المساجد، والجار المحذوف متعلق بـ﴿أَذِنَ﴾ ﴿وَيُذْكَرَ﴾ معطوف على ترفع. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿يذكر﴾ ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ نائب فاعل. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿يُسَبِّحُ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به أيضاً. ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رِجَالٌ﴾. ﴿وَٱلْآصَالِ﴾: معطوف على ﴿الغدو﴾؛ أي: ملتبسين بالغدو والآصال. ﴿رِجَالٌ﴾: فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ وجملة ﴿يُسَبِّحُ﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ﴿بُيُوتٍ﴾. ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: معطوف على ﴿تِجَٰرَةٌ﴾. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُلْهِيهِمْ﴾. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ معطوفات على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾. أو في محل النصب حال من مفعول ﴿تُلْهِيهِمْ﴾. ﴿تَتَقَلَّبُ﴾: فعل مضارع. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَقَلَّبُ﴾. ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾: فاعل لتتقلب. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾: معطوف على القلوب.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يجزيهم الله﴾: فعل مضارع ومفعول أول، وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿أَحْسَنَ مَا﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. وجملة ﴿عَمِلُوا۟﴾ صلة الموصول. وجملة ﴿يجزيهم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام. الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: فعلوا ما ذكر من التسبيح والصلاة والزكاة لجزاء الله سبحانه إياهم أحسن ما عملوا، أي رجاء جزائه سبحانه. ﴿وَيَزِيدَهُم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿يجزيهم﴾ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ متعلقان به. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يَرْزُقُ مَن﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلق بـ﴿يَرْزُقُ﴾، أو حال من فاعل ﴿يَرْزُقُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: مبتدأ ثان. ﴿كَسَرَابٍۭ﴾: جار ومجرور خبر للمبتدأ الثاني. والمبتدأ الثاني مع خبره، خبر الأول. وجملة الأول مستأنفة، مسوقة لبيان حال عمل الكفار، بعد أن بين المؤمنين بضرب مثل لهم، بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾. ﴿بِقِيعَةٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿سراب﴾. ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مَآءً﴾: مفعول ثان له. والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿سراب﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾: فعل ومفعولان مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا

محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ و﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بمحذوف وقعت غاية له، تقديره: واستمر ذاهباً إليه إلى عدم وجدانه شيئاً، وقت مجيئه إياه. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿يَحْسَبُهُ﴾. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه، في محل المفعول الثاني لوجد؛ أي: وجد الله كائناً عنده. ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿وفاه حسابه﴾: فعل ومفعولان معطوف على وجد. وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾: جار ومجرور معطوف على قوله كسراب. ﴿فِى بَحْرٍ﴾: جار ومجرور صفة لظلمات. ﴿لُّجِّىٍّ﴾: صفة لبحر؛ أي: منسوب إلى اللج. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿بَحْرٍ﴾. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَوْجٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل الرفع صفة لموج الأول. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ خبر مقدم. ﴿سَحَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الرفع صفة لموج الثاني. ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه ظلمات. والجملة جملة مفسرة لما قبلها لا محل لها من الإعراب. ﴿بَعْضُهَا﴾: مبتدأ. ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾: خبر. والجملة في محل الرفع صفة لظلمات. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَخْرَجَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على المبتلى بتلك الظلمات. ﴿يَدَهُۥ﴾: مفعول به. والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَآ﴾. والظرف متعلق بالجواب. ﴿لَمْ يَكَدْ﴾: جازم وفعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمها ضمير يعود على صاحب اليد. ﴿يَرَىٰهَا﴾: فعل ومفعول به لأنها بصرية، وفاعله ضمير يعود على صاحب اليد. والجملة الفعلية في محل النصب خبر يكد. وجملة ﴿لَمْ

﴿يَكَدْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾. وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال من في تلك الظلمات. ﴿وَمَن﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَجْعَلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلم. ﴿له﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لجعل. ﴿نُورًا﴾ مفعول أول له. والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿له﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿نُورٍ﴾: مبتدأ مؤخر مجرور لفظاً، مرفوع محلاً. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة من الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَغُضُّوا﴾ الغضّ: إطباق الجفن، بحيث يمنع الرؤية. ا هـ. «سمين». وفي «المصباح»: غض الرجل صوته وطرفه ومن صوته ومن طرفه غضاً من باب قتل إذا خفض. ومنه يقال: غض من فلان غضاً، وغضغضه إذا انتقصه. ا هـ. وأدغم أحد المثلين هنا في الثاني بخلاف قوله الآتي: يغضضن. وذلك لأن الثاني هنا متحرك، فأدغم فيه الأول، وفيما سيأتي ساكن، فلم يتأت إدغام الأول فيه أشار له «القرطبي».

﴿فُرُوجَهُمْ﴾: جمع فرج، والفرج الشق بني الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوأة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أطهر لهم من دنس الريبة، وأفعل هنا: إما مجرد عن معنى التفضيل، أو المراد أنه أزكى من كل شيءٍ نافعٍ، أو أبعد عن الريبة ا هـ. «شهاب».

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: يقال: بدا الشيء بدواً وبدواً؛ أي: ظهر ظهوراً بيناً. وأبدى إذا أظهر. والزينة ما تزينت به المرأة، من حلي أو كحل، أو غير ذلك.

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ الخمر بضم الخاء والميم جمع خمار بكسر الخاء، وهو ما تغطي به المرأة رأسها والستر عموماً، ويجمع على أخمرة وخمرٍ بضم الخاء وسكون الميم وخمر بضمتين.

﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ جمع جيب. والجيب من القميص طوقه، وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد. والجيب أيضاً: القلب والصدر. وعند العامة، الجيب: هو كيس يخاط في جانب الثوب من الداخل، ويجعل فمه من الخارج.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ والبعولة: الأزواج، واحدهم بعل. قال في «المفردات» البعل هو الذكر من الزوجين، وجمعه بعولة كفحل وفحولة ا هـ.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ جمع أخ، كالأخوة، فهو جمع له أيضاً. وفي «المصباح» الأخ لامه محذوفة، وهي واو. وترد في التثنية على الأشهر، فيقال: أخوان، وفي لغة، يستعمل منقوصاً، فيقال: أخان، وجمعه إخوة وإخوان بكسر الهمزة فيهما وضمها لغة. وقل جمعه بالواو والنون، وعلى آخاء وزان آباء أقل. والأنثى أخت، وجمعها أخوات، وهو جمع مؤنث سالم ا هـ.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾: جمع تابع. قال ابن عباس: التابع: هو الأحمق العنين. وقيل: هو الذي لا يستطيع غشيان النساء، ولا يشتهيهن. وقيل: غير ذلك. كما مر في «مبحث التفسير». وبعضهم فسر التابعين بالممسوحين، وهو ظاهر.

﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾؛ أي: غير أصحاب الإربة، والحاجة إلى النساء، والإربة الحاجة. وفي «المصباح» الإرب بفتحتين، والإربة بالكسر، والمأربة بفتح الراء وضمها الحاجة، والجمع المآرب. والأرب في الأصل مصدر من باب تعب. يقال: أرب الرجل إلى الشيء إذا احتاج إليه فهو آرب على فاعل. والإرب بالكسر، يستعمل في الحاجة وفي العضو. والجمع آراب مثل حمل وأحمال ا هـ.

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾. والطفل: جنس، وضع موضع الجمع، اكتفاءً بدلالة الوصف عليه، كالعدو، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ قال في «المفردات» الطفل: الولد ما دام ناعماً، ويطلق على المثنى

والجمع. والطفيلي رجل معروف بحضور الدعوات. وقال الفناري: حد الطفل من أول ما يولد إلى انقضاء ستة أعوام. والعورات جمع عورة، وهي ما يريد الإنسان ستره من بدنه، وغلب في السوءتين. الدبر والقبل، وأصلها من العار، وذلك لما يلحق في ظهورها من العار؛ أي: المذمة ولذلك سمي النساء عورة، ومن ذلك العوراء؛ أي: الكلمة القبيحة، كما في «المفردات» وقال أهل اللغة: سميت العورة عورة لقبح ظهورها. ولغض الأبصار عنها، مأخوذ من العور، وهو النقص والقبح، ومنه عور العين ا هـ. والعامة: على عورات بسكون الواو، وهي لغة عامة العرب، سكنوها تخفيفاً لحرف العلة.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الأيامى مقلوب أيايم، جمع أيّم، كيتامى مقلوب يتايم جمع يتيم. فقلب قلب مكان، ثم أبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فصار أيامى. والأيم: من لا زوج له من الرجال والنساء بكراً كان أو ثيباً. وقال في «المفردات». الأيم المرأة التي لا بعل لها، وقد قيل: للرجل الذي لا زوج له، وذلك على طريق التشبيه بالمرأة لا على التحقيق ا هـ.

وفي «السمين» قوله: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: جمع أيم بزنة فيعل، يقال منه آم يئيم، كباع يبيع، وقياس جمعه أيائم كسيد وسيائد، وأيامى فيه وجهان، أظهرها من كلام سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه جمع على فعالى غير مقلوب، وكذلك يتامى. وقيل: إن الأصل أيائم ويتايم في أيم ويتيم فقلبا. وعن رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العيمة والغيمة، والأيمة والكزم والقرم» قلت: أما العيمة بالمهملة فشدة شهوة اللبن، وبالمعجمة شدة العطش، والأيمة طول العزبة والكزم شدة شهوة الأكل، والقرم شدة شهوة اللحم ا هـ.

﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ أي: الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه. وفي «المفردات» الصلاح: ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال.

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ جمع عبد؛ أي: رقيق، وله جموع كثيرة، تبلغ نحو اثنين وعشرين صيغة، منها، عبيد وأعابد، وأعبد ذكرتها في كتابي «سلم المعراج على خطبة المنهاج».

﴿وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ جمع أمة، وهي الرقيقة غير الحرة، ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ استعفف من استفعل، والعفة حصول حالة للنفس، تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف: المتعاطي لذلك، بضرب من الممارسة والقهر، والاستعفاف طلب العفة، والمعنى يجتهد في العفة وقمع الشهوة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، يراد بها شرعاً إعتاق المملوك، بعد أداء شيء من المال منجماً؛ أي: في موعدين أو أكثر فيقول له: كاتبتك على كذا درهماً، ويقبل المملوك ذلك، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه، كما صار أحق بنفسه، ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت لك الوفاء بالمال، وكتبت عليَّ العتق، وله أحكام مبسوطة في كتب الفقه. وفي «الأساس» و«اللسان» كتب عليه كذا قضي عليه، وكتب الله الأجل والرزق، وكتب على عباده الطاعة، وعلى نفسه الرحمة، وهذا كتاب الله؛ أي: قدره. قال الجعدي:

يَا بِنْتَ عَمِّيْ كِتَابُ ٱللَّهِ أَخْرَجَنِيْ عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ ٱللَّهَ مَا فَعَلاَ

فالمكاتبة: مفاعلة من الجانبين؛ لأن السيد كتب على نفسه العتق، والعبد كتب على نفسه النجوم. اهـ. «شخينا».

﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ جمع فتاة. وفي «المختار» والفتى الشاب والفتاة الشابة. وقد فتى بالكسر فتاء بالفتح والمد، فهو فتى السن؛ أي: بين الفتاء والفتى أيضاً السخي الكريم، وجمع الفتى في القلة فتية، وفي الكثرة فتيان وجمع الفتاة فتيات اهـ.

﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ البغاء: الزنا، وبغت فلانة بغاءً وهي بغي طلوب للرجال، وهن بغايا. ومنه قيل: للإماء البغايا، لأنهن كن يباغين في الجاهلية، يقال: قامت البغايا على رؤوسهم. وفي «المصباح» وبغت المرأة تبغي بغاء بالكسر والمد من باب رمى إذا فجرت، وهي بغي، والجمع البغايا، وهو وصف مختص بالمرأة، فلا يقال: للرجل بغي. قاله الأزهري. والبغي القينة، وإن كانت عفيفة، لثبوت الفجور لها في الأصل. قاله الجوهري. ولا يراد به الشتم؛ لأنه اسم جعل

كاللقب، والأمة تباغي؛ أي: تزاني اهـ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: منورهما، وإنما أولناه باسم الفاعل؛ لأن حقيقة النور كيفية؛ أي: عرض يدرك بالبصر، فلا يصح حمله على الذات الأقدس اهـ. «شيخنا». وعبارة «البيضاوي» النور في الأصل، كيفية تدركها بالباصرة أولاً، وتدرك بواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى، لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، إلا بتقدير مضاف، كقولك زيد عدل بمعنى ذو عدل، أو على معنى منور السماوات والأرض. وفي «القرطبي» واختلف العلماء في تأويل هذه الآية. فقيل: المعنى؛ أي: به وبقدرته أنارت أضواؤهما، واستقامت أمورهما، وقامت مصنوعاتهما. فالكلام على التقريب للذهن، كما يقال: الملك نور أهل البلد؛ أي: به قوام أهلها، وصلاح جملتها، وفلان قمر الزمن، وشمس العصر. ومنه قول النابغة:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ ... إِذَا ظَهَرَتْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقول الآخر:

هَلاَّ قَصَدْتَ مِنَ الْبِلاَدِ لِمُفْضِلٍ ... قَمَرِ الْقَبَائِلِ خَالِدِ بْنِ يَزِيْدِ

ومن ذلك قول الشاعر:

إِذَا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ مَرْوَ لَيْلَةً ... فَقَدْ سَارَ مِنْهَا نُوْرُهَا وَجَمَالُهَا

وقول الآخر:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَىٰ ... نُوْراً وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُوْدَا

فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه، على طريقة المدح، لكونه أوجد الأشياء المنورة وأوجد أنوارها ونورها.

﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ المشكاة: الكورة غير النافذة. وقيل: هي الحديدة، أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت. وقيل: هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح. وقيل: ما يعلق فيه القنديل من الحديدة. وفي «القاموس» وشرحه

المشكاة: كل كوة غير نافذة، وكل ما يوضع فيه، أو عليه المصباح. وقيل: المشكاة حبشية معربة، ورسمت بالواو كالصلاة والزكاة.

﴿زُجَاجَةٍ﴾ الزجاج بفتح الزاي وضمها، وكسرها: جسم شفاف يصنع من الرمل والقلى، والإناء: والقطعة منه، زجاجة بتثليث الزاي أيضاً. وأراد به قنديلاً من زجاج صافي أزهر.

﴿مِصْبَاحٌ﴾ المصباح: السراج الضخم الثاقب. ﴿كَوْكَبٌ﴾ والكوكب: كل نجم مضيء. ﴿دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء، بضم الدال من غير همز، وبالتشديد منسوب إلى الدرّ، شبه به لصفائه وإضاءته. ويجوز أن يكون أصله الهمز، ولكن خففت الهمزة، وهو فعيل من الدر، وهو دفع الظلمة بضوئه. ويقرأ بالكسر على معنى الوجه الثاني، ويكون على فعيل كسكين وصديق. وفي «المختار» الدرء الدفع، وبابه قطع، وذرأ طلع مفاجأة، وبابه خضع. ومنه كوكب دري كسكيت لشدة توقده وتلألئه، ودري بالضم منسوب إلى الدر. وفيه أيضاً، ومن المجاز درأ الكوكب إذا طلع كأنه يدرأ الظلام، ودرأت النار أضاءت.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يبين الله للناس الأشباه والنظائر. تقريباً للمعقول من المحسوس. ا هـ. «بيضاوي».

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال في «المفردات» أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل. ثم قد يقال: من غير اعتبار الليل فيه. وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر. ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر، ومن صوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر، وعبر عن مكان الشيء، بأنه بيته. والمراد بالبيوت هنا: المساجد كلها، لقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم في الأرض. ا هـ.

والإذن في الشيء: الإعلام بإجازته والرخصة فيه. وقال الإمام الراغب: والرفع يقال: تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها من مقرها. كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وتارةً في البناء إذا طولته كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ وتارةً في الذكر إذا توهته، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾.

وتارة في المنزلة إذا شرفتها، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المرُّ السريع في عبادة الله، فإن السبح المر السريع في الماء، أو في الهواء، ويستعمل باللام وبدونها أيضاً. وجعل عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية، أريد به ههنا الصلوات المفروضة، كما ينبىء عنه تعين الأوقات، بقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ و(الغدو) في الأصل مصدر، يقال غدا يغدو غدواً من باب سما، أي دخل في وقت الغدوة، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. والمصدر لا يقع فيه الفعل فأطلق على الوقت حسبما يشعر اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل، وهو العشي؛ أي: من زوال الشمس إلى طلوع الفجر. وقيل: الآصال جمع أصيل، وهو الوقت بين العصر والمغرب، ويجمع أيضاً على أصائل وأصل وأصلان.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ يقال: ألهاه عن كذا، إذا شغله عما هو أهم. ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ قال في «المفردات»: التجارة: التصرف في رأس المال طالباً للربح، وليس في كلامهم تاء بعدها جيم، غير هذه اللفظة. ﴿بَيْعٌ﴾ والبيع إعطاء المثمن وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثمن. كما مرّ.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء؛ لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، وكان الأصل إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقاماً، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هنا في التعويض، مقام الهاء المحذوفة. وهذا إجماع من النحويين. انتهى.

﴿يَخَافُونَ﴾ والخوف: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أومعلومة. كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن إمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف والأمن. ا هـ. من «الروح». ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ والتقلب: التصرف والتغير من حال إلى حال، وقلب الإنسان سمي به لكثرة تقلبه من وجه إلى وجه، والبصر يقال: للجارحة الناظرة، وللقوة التي فيها.

﴿كَسَرَابٍۭ﴾ السراب: ما يشاهد نصف النهار من اشتداد الحر، كأنه ماء

تنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها، ويضرب به المثل في الكذب والخداع. يقال: أخدع من السراب، وسمي سراباً؛ لأنه يسرب؛ أي: يجري كالماء. يقال: سرب الفحل؛ أي: مضى وسار، ويسمى الآل أيضاً. ولا يكون إلا في البرية والحر، فيغتر به الظمآن.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ في «المختار» حسبت زيداً صالحاً، بالكسر أحسبه بالفتح والكسر محسبةً، ومحسبةً بكسر السين وفتحها، وحسباناً بالكسر ظننته. ا هـ. وفي «المصباح» وحسبت زيداً قائماً، أحسبه، ما باب تعب، في لغة جميع العرب، إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس، وحسباناً بمعنى ظننت. ا هـ.

﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: العطشان؛ أي: وكذا غيره من كل من يراه، وخص الظمآن؛ لأنه أحوج إليه من غيره، فالتشبيه به أتم. ا هـ. «شيخنا». وهو صفة من ظمىء بالكسر يظمأ، والظميء بالكسر ما بين الشربتين والورودين، والظمأ: العطش الذي يحدث من ذلك. ا هـ. «الروح».

﴿بِقِيعَةٍ﴾ القيعة بمعنى القاع، أو جمع قاع، وهو: المنبسط المستوى من الأرض. وفي «المصباح» والقاع: المستوى من الأرض، والجمع أقواع وقيعان، فصارت الواو ياء لكسر ما قبلها، والقيعة مثل القاع، وهو أيضاً من الواوي، وبعضهم يقول: هو جمع. وقال الهروي: والقيعة جمع القاع، مثل جيرة وجار. وفي «الأساس» هو كسراب بقيعة وبقاع، ونزلوا بسراب قيعان، ولهم قاعة واسعة وهي عرصة الدار، وأهل مكة يسمون سفل الدار القاعة، ويقولون: فلان في العلية، ووضع قماشة في القاعة. وفي «القاموس» و«التاج» ما يفهم منه أن القاع أرض سهلة مطمئنة، قد انفرجت منها الجبال والآكام، ويجمع على أقواع وأقوع، وقيع وقيعان وقيعة.

﴿لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج، وهو معظم البحر، هكذا قال الزمخشري، وقال غيره: منسوب إلى اللجة بالتاء، وهي أيضاً معظمه،

فاللجي هو الماء الكثير العميق.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾ وأصل السحب الجر، وسمي به السحاب إما لجر الريح أو لجره الماء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: دخول من الجارة على غض الأبصار، دون الفروج في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ إشعاراً بأن باب النظر موسع دون الفرج؛ لأنه ينظر من المحارم ما سوى العورة، بخلاف الفرج، فإنه لا يحل له إلا فرج حليلته.

ومنها: تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج إيذاناً بأن النظر بريدة الزنا، ورائده الذي لا يخطىء.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ لأن المراد عما حرم الله تعالى، لا عن كل شيء، فحذف ذلك أكتفاءً بفهم المخاطبين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ لأن المراد منه مواقع الزينة، وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل. قال الزمخشري: وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾؛ لأن المراد على أعناقهن، وإلا فهو في الأصل طوق القميص.

ومنها: الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فقد أقحم هذا الاعتراض ليبشع ذلك الإكراه عند المخاطب، ويحذره من الوقوع فيه، ولكي يستيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجز شرعي ووجه التبشيع عليه أن مضمون الآية النداء عليه، بأن أمته خير منه؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها.

ومنها: إطلاق المصدر على اسم الفاعل، للمبالغة في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بمعنى منورهما، عبر عنه بالمصدر، كأنه عين نورهما. قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة على تفسير بعض العلماء. والمراد عندهم أنه هادي أهل السماوات والأرض، بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ الآية. فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة، وهي الكاف. والمراد النور الذي شبه به الحق، نور متضاعف قد اجتمع فيه المشكاة والزجاجة، والمصباح، والزيت، حتى لم تبق بقية مما يقوى النور. واختلفوا في هذا التشبيه، هل هو تشبيه تمثيل؛ أي: مركب قصد فيه تشبيه جملة بجملة، من غير نظر إلى مقابلة جزء بجزء، بل قصد تشبيه هداه وإتقانه، صنعته في كل مخلوق على الجملة بهذه الجملة، من النور الذي تتخذونه، وهو أبلغ صفات النور عندكم. أو تشبيه غير تمثيل؛ أي: غير مركب قصد فيه مقابلة جزءٍ بجزءٍ، وأجاز «القرطبي» الوجهين فراجعه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ وقد تكلم علماء البيان كثيراً عن هذا الطباق، والمقصود منه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ إشعاراً بفخامة شأنه، وبأنه لا أرشق ولا أجمل منه.

ومنها: تشابه الأطراف في هذه الآية، وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظة وقعت في آخر جملة من الفقرة في النثر، أو آخر لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم، فيبتدىء بها، تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ ومن أمثلته في الشعر، قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف:

إِذَا نَزَلَ ٱلْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَىٰ دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ ٱلدَّاءِ ٱلْعُضَالِ ٱلَّذِيْ بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ ٱلْقَنَاةَ سَقَاهَا

سَقَاهَا فَرَوَّاهَا بِشُرْبِ سِجَالُهُ   دِمَاءُ رِجَالٍ يَحْلِبُوْنَ حِرَاهَا

ومنها: الإطناب بذكر الخاص بعد العام، تنويهاً بشأنه في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ لأن الصلاة من ذكر الله تعالى.

ومنها: فن الغلو في قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ والغلو: الإفراط في وصف الشيء المستحيل، عقلاً وعادةً، وهو ينقسم إلى قمسين: مقبول وغير مقبول:

القسم الأول: فالمقبول لا بد أن يقربه المتكلم إلى القبول، بأداة التقريب، إلا أن يكون الغلو في مدح النبي ﷺ فلا غلو حينئذٍ. ويجب على المتكلم أن يسبكه في قالب التخيلات، التي تدعو العقل إلى قبولها في أول وهلة، كالآية الكريمة، فإن إضاءة الزيت من غير مس النار مستحيلة عقلاً، ولكن لفظة يكاد قربته فصار مقبولاً.

والقسم الثاني: وهو الغلو غير المقبول، كقول أبي نواس:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ ٱلشِّرْكِ حَتَّىٰ أَنَّهُ   لَتَخَافُكَ ٱلنُّطَفُ ٱلَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فقد أسند إلى القلوب والأبصار التقلب والاضطراب من الهول والفزع، وحق الإسناد أن يكون لصاحبها.

ومنها: التشبيه التمثيلي الرائع في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ إلخ. وكذلك في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ الآية. ووجه التشبيه، أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر، ويعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى، وليس كذلك، فإذا وفى عرصات القيامة، لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم، والعذاب الأليم. فعظمت حسرته، وتناهى غمه، فشبه حاله بحال الظمآن، الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر.. تعلق قلبه، فإذا جاءه.. لم يجده شيئاً، فكذلك حال الكافر، يحسب أن عمله نافعة، فإذا احتاج إلى عمله.. لم يجده أغنى عنه شيئاً.

ومنها: العطف على محذوف في قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فإنه معطوف على مقدر، وليست الجملة معطوفة على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ بل على ما يفهم منه، بطريق التمثيل، من عدم وجدان الكفرة، من أعمالهم المذكورة عيناً، ولا أثراً، كأنه قيل: حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم، التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا حكم الله وقضاءه لهم بالمرصاد.

ومنها: المبالغة في التشبيه في قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقرب أن يراها. فضلاً عن أن يراها.

ومنها: التقسيم أو التنويع في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ
وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣)
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤) وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)
وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
(٤٧) وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟
إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
(٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا
حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف[1] قلوب المؤمنين

---

(١) المراغي.

بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة.. أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها أربعةً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر لي الآيات السابقة ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية، وأحوال الحيوان.. ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات، دالة على وجود الخالق المدبر للكون، لا خفاء فيها.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة الواضحة على توحيده، وأتم بيانها، ثم ذكر أنه يهدي من يشاء، من عباده إلى صراط مستقيم.. أعقبه بذكر من لم يهتد بها، وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فيقولون: آمنا بالله وبالرسول، ثم يفعلون ضد ما يقولون. فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه.. أبوا وخافوا أن يحيف عليهم. والمؤمن الصادق الإيمان، إذا ما دعي إلى الله والرسول.. قال: سمعاً وطاعةً.

ثم بين بعض أكاذيبهم التي يراؤون بها، ويدعون الإخلاص فيها، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الأيمان أنهم مطيعون للرسول في كل ما يأمرهم به، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعاً، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان؛ لأن طاعتهم معروفة، لا تحتاج إلى يمين، وبأن يقول لهم: أطيعوا الله حقّاً، لا رياءً، فإن أبيتم، فإنما علي التبليغ، وعليكم السمع والطاعة. فإن أطعتموني اهتديتم، وإن توليتم، فقد فعلت ما كلفت به، وعلى الله الحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن من أطاع الرسول.. فقد اهتدى إلى الحق، ومن اهتدى إلى الحق، فجزاؤه دار النعيم.. أردف ذلك وعده الكريم، بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله، خلفاء في الأرض، ويؤيدهم

بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، فيعبدون الله وحده، وهم آمنون. ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك.. فقد عصى ربه، وكفر أنعمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم في الأرض، ويجعل لهم من بعد الخوف أمناً.. أردف ذلك بأمرهم، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة شكراً له، على ما أنعم به عليهم. وإحساناً إلى عباده البائسين الفقراء، كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزةً، وضعفهم قوةً. ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عددهم وعُددهم، وبعدئذ ذكر أن مآلهم إلى النار وبئس القرار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من مرسل الحسن، قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل الآخر منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض. فقال: «انطلق إلى فلان»، فأنزل الله ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ...﴾ الآية، سبب[2] نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم بسنده، عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتي نكون آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هذا حديث صحيح الإسناد لم

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه وأقرّه الذهبي.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام(١) في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتقرير. والمراد من الرؤية، رؤية القلب. فإن التسبيح الآتي لا يتعلق به نظر البصر؛ أي: قد علمت يا محمد علماً يشبه المشاهدة في القوة واليقين بالوحي، أو الاستدلال، أن الله سبحانه وتعالى، ينزهه على الدوام في ذاته وصفاته وأفعاله، عن كل ما لا يليق بشأنه من نقص، وآفة أهل السماوات والأرض، من العقلاء وغيرهم، وعبر بـ﴿مَن﴾ الموضوعة للعقلاء، تغلباً لهم على غيرهم.

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطف على من، جمع طائر، كركب وراكب. والطائر: كل ذي جناح يسبح في الهواء. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض، لعدم استقرارها قرار ما فيها؛ لأنها تكون بين السماء والأرض غالباً؛ أي: تسبحه تعالى حالة كونها ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي: باسطات أجنحتها في الهواء تصففن. وأصل الصف البسط. ولهذا سمي اللحم القديد صفيفاً؛ لأنه يبسط.

والمعنى: أي(٢) ألم تعلم يا محمد، أو أيها المخاطِب، بالدليل أن الله سبحانه ينزهه آناً فآناً، في ذاته وصفاته وأفعاله، جميع ما في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً تفهمه أرباب العقول السليمة، إذ كل المخلوقات في وجودها وبقائها، دالة على وجود خالقٍ لها، متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص. وخصّ التنزيه بالذكر، مع دلالة ما فيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال، من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

كما ذكر الطير، مع دخولها في جملة ما في الأرض، من قبل أنها غير مستقرة فيهما. وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء ولا من الأرض، ولاستقلالها ببديع الصنع، وإنبائها عن كمال قدرة خالقها، ولطف تدبير مبدعها، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة، الوسائل التي تتمكن بها من الوقوف في الجو، وتتحرك كيف تشاء، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً حجة واضحة الدلالة، على كمال قدرة الصانع المجيد، وحكمة المبدع المعيد. وفي ذلك تقريع للكفار، وتوبيخ لهم، حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له، يعبدونها كعبادته عز وجل.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ مرفوعاً عطفاً ﴿مَن﴾، و﴿صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ نصب على الحال وقرأ الأعرج: والطيرَ، بالنصب على أنه مفعول معه، وقرأ الحسن وخارجة عن نافع: والطير صافات برفعهما مبتدأ وخبراً، تقديره: يسبحن. قيل: وتسبيح الطير حقيقي. قاله الجمهور.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾؛ أي: دعاءه وتسبيحه، اللذين ألهمهما الله تعالى إياه، فالضمائر[٢] كلها عائدة على كل. قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكرر للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً. وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية.

والمعنى: إن[٣] كل مصل ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة، التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

انظر إلى النحل كيف تبني بيوتها السداسية الأشكال، التي لا يتمكن من

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

بنائها فطاحل المهندسين، إلا بدقيق الآلات. وإلى العنكبوت، كيف تفعل الحيل اللطيفة، لاصطياد الذباب. وإلى الدب يستلقي في ممر الثور، حتى إذا قرب منه ورام نطحه، شبَّث ذراعيه بقرنيه، ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يثخنه ثم يفترسه. وهذا التسبيح محمول عند البعض على ما كان بلسان المقال، فإنه يجوز أن يكون لغير العقلاء أيضاً تسبيح حقيقة، لا يعمله إلا الله، ومن شاء من عباده. كما في «الكواشي». وقال بعضهم: تسبيح الحيوان والجماد محمول على ما كان بلسان الحال، فإن كل شيء يدل بوجوده وأحواله على وجود صانع واجب الوجود، متصف بصفات الكمال، مقدس عن كل ما لا يليق بشأنه.

وروي عن أبي ثابت قال: كنت جالساً عند محمد بن جعفر الباقر، فقال لي: أتدري ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس، وبعد طلوعها؟ قلت: لا. قال: فإنهن يقدسن ربهن، ويسألنه قوت يومهن. وقال بعض العلماء: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالاً لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء. وهذا دليل على أن الله تعالى يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه. وقال مجاهد: الصلاة للبشر، والتسبيح لما عداهم.

وقيل: إن الضمير[1] في ﴿قد علم﴾ يعود على الله سبحانه؛ أي: كل مصل منهم ومسبح، قد علم الله سبحانه صلاته وتسبيحه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: بما يفعلونه من الطاعة والصلاة والتسبيح، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، طاعتها، ومعصيتها، وعلمه محيط بها، ومجازيهم عليها.

والمعنى على هذا القول أي: كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إياه. والأول أرجح، لاتفاق القراء على رفع كل. ولو كان الضمير في ﴿علم لله﴾، لكان نصب (كل) أولى. وذكر بعض المفسرين أنها قراءة طائفة من القراء. وقرأ الحسن[2] وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمرو ﴿تفعلون﴾ بتاء الخطاب. وفيه وعيد وتخويف لكفرة الثقلين، حيث لا تسبيح لهم

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

طوعاً واختياراً.

ثم بين سبحانه، أن المبدأ منه والمعاد إليه. فقال: ﴿﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾؛ لأنه الخالق لهما، ولما فيهما من الذوات والصفات، وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً، إبداءً وإعادةً. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه خاصة لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والرجوع بالفناء، والبعث بعد الموت، فعلى العاقل أن يعبد هذا المالك القوي، ويسبحه باللسان الصوري والمعنوي.

والمعنى: أن لله سبحانه وتعالى ملك السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، وإليه وحده مصيركم ومعادكم، فيوفيكم أجور أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادته، واجتهدوا في طاعته، وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على وحدانيته وقدرته من الآثار العلوية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ والاستفهام فيه للتقرير. والرؤية هنا بصرية، والخطاب فيه لمحمد ﷺ، أو لكل ما يصلح للخطاب. والإزجاء: سوق الشيء برفق وسهولة، كما سيأتي. والسحاب: الغيم. سمي به[1] لانسحابه في الهواء؛ أي: انجراره والمراد هنا: قطع السحاب بقرينة إضافة بين إلى ضميره؛ لأنه لا يضاف إلا إلى متعدد. قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر، ولولاه لأفسد المطر ما يقع عليه.

والمعنى: قد رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب، رؤية بصرية أن الله يسوق غيماً إلى حيث يشاء.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ سبحانه ويجمع ﴿بَيْنَهُۥ﴾؛ أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه، فيجعله شيئاً واحداً بعد أن كان قطعا، ليقوى ويتصل ويكثف.

---

(١) روح البيان.

قال الفراء: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه؛ لأنه جمع وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ا هـ. وقرأ[1] ورش: ﴿يولف﴾ بالواو. وباقي السبعة بالهمز. وهو الأصل.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾؛ أي: ثم يجعل سبحانه السحاب ﴿رُكَامًا﴾؛ أي: متراكماً متراكباً مجتمعاً بعضه فوق بعض، فإنه إذا اجتمع شيء فوق شيء، فهو ركوم مجتمع. ﴿فَتَرَى﴾؛ أي: تبصر أيها الناظر ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ أي: المطر إثر تكاثف السحاب وتراكمه. وجملة قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من ثقبه، حال[2] من الودق؛ لأن الرؤية بصرية. والخلال جمع خلل، كجبال وجبل. وقيل: هو مفرد، كحجاب. وهو فرجة بين الشيئين. والمراد ههنا: مخارج القطر. **والمعنى**: حال كون ذلك الودق، يخرج من أثناء ذلك السحاب، وفتوقه التي حدثت بالتراكم وانعصار بعضه من بعض.

وقرأ ابن مسعود[3] وابن عباس والضحاك وأبو العالية ومعاذ العنبري عن أبي عمرو والزعفراني ﴿من خلله﴾ بالإفراد.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من الغمام، فإن كل ما علاك سماء، وسماء كل شيء أعلاه. ﴿مِن جِبَالٍ﴾؛ أي: من قطع عظام، تشبه الجبال في العظم كائنة ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في السماء، فإن السماء من المؤنثات السماعية. ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول (ينزل) على أن ﴿من﴾ تبعيضية، والأوليان لابتداء الغاية، على أن الثانية بدل اشتمال من الأولى بإعادة الجار. والبرد محركةً الماء المنعقد؛ أي: ما يبرد من المطر في الهواء فيصلب، كما في «المفردات».

والمعنى: ويُنزل الله سبحانه مبتدئاً من السماء من جبال كائنة فيها بعض برد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل بسكون النون من أنزل، والباقون بفتحها وتشديد الزاي من نزل من باب فعل المضعف. قال بعضهم[4]: إن الله تعالى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

خلق جبالاً كثيرة في السماء، من البرد والثلج، ووكل بها ملكاً من الملائكة، فإذا أراد أن يرسل البرود والثلج على قطر من أقطار الأرض، يأمره بذلك، فثلج هناك ما شاء الله تعالى، بوزن ومقدار في صحبة كل حبة منها ملك يضعها حيث أمر بوضعها.

والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوي البرد.. اجتمعت هناك، وصارت سحاباً، فإن لم يشتد البرد.. تقاطرت مطراً وإن اشتد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها.. نزل برداً. وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً، فينقبض وينعقد سحاباً، وينزل منه المطر، أو الثلج، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح. وفي «شرح القانون» الفرق بين الدخان والبخار، هو أن تركيب الدخان من الأجزاء الأرضية والنارية، وتركيب البخار من المائية والهوائية. فيكون البخار ألطف من الدخان.

﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بما ينزل من البرد. والباء للتعدية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، فيناله ما يناله من ضرر في نفسه وماله، نحو الزرع والضرع والثمرة. ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾؛ أي: يصرف سبحانه ذلك البرد ويرده ﴿عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيأمن غائلته وضرره. ﴿يَكَادُ﴾ ويقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾؛ أي: ضوء برق السحاب، فإن السنا بالقصر بمعنى الضوء، وبالمد بمعنى الرفعة والعلو، والبرق لمعان السحاب. ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: يخطف الأبصار الناظرة له، ويسلبها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها. فسبحان من يظهر الضد من الضد.

وقرأ الجمهور: ﴿سَنَا﴾ مقصوراً. ﴿بَرْقِهِۦ﴾ مفرداً. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿سناء﴾ ممدوداً. ﴿برقه﴾ بضم الباء وفتح الراء جمع برقة بضم الباء. وهي المقدار من البرق، كالغرفة واللقمة، وعنه بضم الباء والراء، أتبع حركة الراء لحركة الباء. كما أتبعت في ظلمات. وأصلها السكون. والسناء بالمد ارتفاع الشأن، كأنه شبه المحسوس من البرق لارتفاعه في الهواء بغير المحسوس من الإنسان، فإن ذلك صيِّب، لا يحس به بصر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياء والهاء، وأبو جعفر ﴿يذهب﴾ بضم الياء وكسر الهاء. وخرج ذلك على زيادة الباء؛ أي: يذهب الأبصار، أو على أن الباء، بمعنى من، والمفعول محذوف، تقديره: يذهب النور من الأبصار.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة[2] بينهما، أو بنقص أحدهما أو زيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد، والظلمة والنور، وغيرها مما يقع فيهما من الأمور التي من جملتها ما ذكر، من إزجاء السحاب، وما يترتب عليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فصل من الإزجاء إلى التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾؛ أي: لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم، ووحدته، وكمال قدرته، وإحاطة عمله بجميع الأشياء، ونفاذ مشيئته، وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي. ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة، والبصائر السليمة؛ أي: لكل من يبصر بقلبه، وجارحته.

ويقال: لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال: للجارحة بصيرة. كما في «المفردات»، يعني لمن له بصيرة يعبر بها من المذكور إلى معرفة المدبر الحكيم. وسئل سعيد بن المسيب: أي العبادة أفضل؟ قال: التفكر في خلقه، والتفقه في دينه. فعلى العاقل الاعتبار آناء الليل، وأطراف النهار.

وخلاصة معنى الآيتين[3]: أنظر أيها الرسول الكريم، إلى السحاب يسوقه الله بقدرته، أول ما ينشئه، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه، ثم يجعل بعضه متراكماً فوق بعض، فينزل المطر من فوقه، وحيناً ينزل منه قطعاً كبيرة من البرد، كأنها الجبال فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده، فيناله الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد، إذا كان فوق الحاجة، ويصرفه عمن يشاء أن يصرفه عنه. وإلى ما في هذا السحاب من برق يضيء بشدة وسرعة، حتى ليكاد يخطف الأبصار.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، إذ فيه توليد الضد من الضد. ففيه توليد النار من الماء.

وانظر أيضاً إلى اختلاف الليل والنهار، وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، إن في هذا لعبرة لمن اعتبر، وعظة لمن تأمل فيه، ممن له عقل. فهو واضح الدلالة على أن له مدبراً ومقلباً لا يشبهه شيء. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: كل حيوان يدب ويمشي على الأرض، والدابة كل ما يحرك أمامه قدماً، ويدخل فيه الطير. اهـ من «البحر».

﴿مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي[1]: من الماء، الذي هو أحد جزء مادته؛ أي: أحد العناصر الأربعة، على أن يكون التنوين فيه للوحدة الجنسية، فدخل فيه آدم المخلوق من تراب، وعيسى المخلوق من روح، أو خلقها من ماء مخصوص، الذي هو النطفة؛ أي: ماء الذكر والأنثى على أن يكون التنوين للوحدة النوعية، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، إذ من الحيوان ما يتولد لا عن نطفة.

قال في «الكواشي»: تنكير ماء مؤذن أن كل دابة مخلوقة من ماء مختص بها، وهو النطفة، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة، وتعريف الماء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ نظراً إلى الجنس الذي خلق منه جميع الحيوان؛ لأن أصل جميع الخلق من الماء.

وعبارة أبي حيان هنا: فإن قلت: لم نكر الماء هنا، وعرفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؟

---

(١) روح البيان.

قلتُ: لأن المعنى هنا: خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بهذه الدابة، أو من ماء مخصوص أو هو النطفة. وهناك قصد أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس، الذي هو جنس الماء، وهو الأصل الذي هو من العناصر الأربعة.

قالوا: خلق الله ماء فجعل بعضه ريحاً، فخلق منها الملائكة، وجعل بعضه ناراً فخلق منها الجن، وبعضه طيناً فخلق منه آدم، انتهى.

والمعنى على القول الأول؛ أي[1]: والله سبحانه وتعالى خلق كل حيوان يدب على الأرض، من ماء هو جزء مادته، وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد لظهور احتياج الحيوان إليه، ولا سيما بعد كمال تركيبه، ولامتزاج الأجزاء الترابية به. ويخرج من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجان فإنهم خلقوا من نار.

وعبارة «الجمل» هنا: وهذا بحسب الأغلب في حيوانات الأرض المشاهدة، وإلا فالملائكة خلقوا من النور، وهم أكثر المخلوقات عدداً، والجن خلقوا من النار وهم بقدر تسعة أعشار الإنس، وآدم خلق من الطين، وعيسى خلق من الريح الذي نفخه جبريل في جيب مريم، والدود يخلق من نحو الفاكهة ومن العفونات. ا هـ. «شيخنا».

فإن قلت: لم خص[2] الدابة بالذكر، مع أن غيرها مثلها، كما شمله قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؟

قلت: لأن القدرة فيها أظهر وأعجب منها في غيرها. وقرأ[3] الجمهور ﴿خلق﴾ فعلاً ماضياً كل بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش ﴿خالق﴾ اسم فاعل مضاف إلى كل.

---

(١) المراغي.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) البحر المحيط.

ثم فصل سبحانه أقسام الحيوان، مما يدب على وجه الأرض، فقال: ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن الدواب ﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والحوت ونحوهما. ولما[1] كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز، فأعطى ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون. فمن ثمة قال: فمنهم بضمير العقلاء، وإنما قال: يمشي على وجه المجاز، وإن كان حقيقة المشي بالرجل؛ لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع، يعني أن تسمية حركة الحية مثلاً ومرورها مشياً، مع كونها زحفاً للمشاكلة، فإن المشي حقيقة هو قطع المسافة والمرور عليها، مع قيد كون ذلك المرور على الأرجل، وإشارة إلى كمال القدرة، وإنها مع عدم وجود آلة المشي كأنها تمشي. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ﴾ كالأنعام والوحوش والفرس والبغال والحمير. ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، كالعقارب والعنكبوت والحيوان، والمعروف بأم أربع وأربعين. وإنما لم يذكر هذا القسم. إما لندوره، أو لأنه عند المشي يعتمد على أربع فقط، أو لدخوله في قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، بسيطاً كان أو مركباً، على ما شاء من الصور والأعضاء، والهيئات والحركات والطبائع، والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته.

وفي «الإرشاد»: وإنما لم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع، كالعناكب ونحوها، من الحشرات لعدم الاعتداد بها. وقال في «فتح الرحمٰن»: إنما تركها؛ لأنها في الصورة كالتي تمشي على أربع، أو لأنها إنما تمشي على أربع منها.

وتذكير[2] الضمير في (منهم)، لتغليب العقلاء، والتعبير عن الأصناف بـ(من)، ليوافق التفصيل الإجمال، وهو (هم) في (منهم)، والترتيب حيث قدم الزاحف على الماشي على رجلين، وهو على الماشي على أربع؛ لأن المشي بلا آلة أدخل في القدرة من المشي على الرجلين، وهو أثبت لها بالنسبة إلى من مشى على أربع. وفي «فتح الرحمٰن» قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية، فيه

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

مجاز التغليب، حيث استعمل ﴿من﴾ وهي لمن يعقل في غيره، لوقوعه تفصيلاً لما يعمهما، وهو كل دابة. وفيه أيضاً مجاز التشبيه إذ إسناد ما ذكر إلى الحية، زحف لا مشي، لكنه يشبهه في السير. ا هـ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فيفعل ما يشاء كما يشاء، فلا يمنعه مانع؛ أي: إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء لذو قدرة تامة، فلا يتعذر عليه شيء أراده. وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات في الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمال. والاختلاف لا بد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها، وأسرار خلقها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، تعالى الله عما يقول الجاحدون علواً كبيراً.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنزلنا عليك يا محمد دلائل واضحات، على طريق الحق والرشاد، لكن لا يصل إلى فهمها إلا من أوتي بصيرة نيرة، وفطرة سليمة تضيء له الفكر، حتى يسير على نهج الحق، ويبتعد عن الغي والضلال.

ومن ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَهْدِى﴾ ويرشد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى طريق سويٍّ لا اعوجاج فيه، موصل إلى الجنة، وإلى رضا الله سبحانه، وهو إخلاص العبادة له وحده، والإنابة إليه.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء المنافقون: صدقنا بالله وبالرسول. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في بِشْرٍ المنافق، خاصم يهودياً في أرض، فدعاه إلى كعب بن الأشرف من أحبار اليهود، ودعاه اليهودي إلى النبي ﷺ ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي، فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام، فقال: نتحاكم إلى عمر - رضي الله عنه -، فلما ذهبا إليه، قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: بلى. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر - رضي الله عنه - بيته، وخرج بسيفه، فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي،

لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ. فصيغة الجمع للإيذان بأن للقائل طائفةً يساعدونه ويتابعونه في تلك المقالة، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، والقاتل منهم واحد.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ هما في الأمر والنهي، والإطاعة فعل يعمل بالأمر لا غير، لأنها الانقياد، وهو لا يتصور إلا بعد الأمر، بخلاف العبادة وغيرها. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ ويعرض عن قبول حكمهما ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: جماعة من القائلين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القول المذكور ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدعون الإيمان والإطاعة، ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم في الاعتقاد والعمل ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة؛ أي: بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان، بل هم ممن في قلوبهم مرض، وقد مرنوا على النفاق، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وخلاصة ذلك: لا يدخل في زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة، ويتجاوز إلى غير المؤمنين.

ثم بين هذا التولي بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: وإذا دعي هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختصموا فيه بحكم الله تعالى. فالضمير في يحكم راجع إلى الرسول؛ لأنه المباشر للحكم، وإن كان الحكم حكم الله حقيقة. وذكر الله لتفخيمه ﷺ والإيذان بجلالة قدره عنده تعالى. ﴿وإذ فريق﴾ وجماعة ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من المنافقين ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبول الحكم، ومستكبرون عن اتباع حكمه؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق.

وقرأ أبو جعفر ليحكم في الموضعين مبيناً للمفعول.

والمعنى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه عليه السلام يحكم بالحق عليهم، ولا يقبل الرشوة. وهذا شرح للتولي، ومبالغة فيه. وإذا الثانية للفجأة جواب إذا الأولى الشرطية. وهذا أحد الدلائل على أن الجواب لا يعمل في إذا الشرطية، خلافاً للأكثرين من النحاة؛ لأن إذا الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وإن لم يكن لهم الحق﴾؛ أي: الحكم لهم لا عليهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الرسول حالة كونهم ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ أي: منقادين لحكمه لجزمهم بأنه يحكم لهم فقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتُوٓا۟﴾؛ لأن الإتيان والمجيء يتعديان بإلى، أو بـ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ لأنه بمعنى مسرعين في الطاعة.

والمعنى[1]: أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم.. جاؤوا إلى الرسول مطيعين، لعلمهم بأنه يحكم لهم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق، بل لأنه وافق هواهم، ومن جراء هذا لمَّا خالف الحق قصدهم، عدلوا عنه إلى غيره.

ثم فصل، ما يحتمل أن يكون السبب في عدولهم، عن قبول حكمه ﷺ إذا كان الحكم عليهم، بقوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والاستقباح لإعراضهم المذكور، وبيان لمنشأة؛ أي: أذلك الإعراض لأنه في قلوبهم مرض؛ أي: نفاق وكفر. ﴿أَمِ﴾ لأنهم ﴿ٱرْتَابُوٓا۟﴾؛ أي: شكوا في أمر نبوته عليه السلام، مع ظهور حقيقتها ﴿أَمِ﴾ لأنهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: يجورا عليهم في الحكم، ويظلماهم فيه.

وفي «الفتوحات»: والاستفهام[2] في قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم﴾ للإنكار لكن النفي المستفاد به لا يتسلط على هذه الأمور الثلاثة؛ لأنها واقعة لهم وقائمة بهم. والواقع لا ينفي وإنما هو متسلط على منشئيتها وسببيتها لإعراضهم؛ أي: ليس منشؤه شيئاً من هذه الثلاثة، بل منشؤه شيء آخر وهو ظلمهم، فبينه بالإضراب الانتقالي بقوله: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. اهـ. «شيخنا».

---

(١) المراغي.
(٢) جمل.

و﴿أَمِ﴾ في الموضعين منقطعة، تقدر عند الجمهور ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام، تقديره: بل أرتابوا بل أيخافون. ومعنى الاستفهام هنا التقرير والتوقيف والتوبيخ ليقروا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار؛ إبهاماً عليهم. وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة، ويبالغ به تارة في الذم وتارة في المدح. ا هـ. «سمين».

ثم أضرب عن الكل، وأبطل منشئيته، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المعرضون عن حكم الله تعالى. ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأصحاب الحقوق عليهم؛ أي[1]: ليس إعراضهم عن الحكم لواحد من هذه الثلاثة، بل لأنهم هم الظالمون؛ أي: يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم، ويتم لهم جحوده، فيأبون المحاكمة إليه ﷺ لعلمهم بأنه عليه الصلاة والسلام يقضي عليهم بالحق.

والحاصل: أنه[2] ليس ذلك الإعراض لشيء مما ذكر.

أما الأولان: فلأنه لو كان الإعراض لشيء منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم، ولما أتوا إليه مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذٍ أيضاً. وأما الثالث فلانتفائه رأساً، حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلاً، لمعرفتهم وتيقنهم أمانته ﷺ، وثباته على الحق، فمناط النفي المستفاد من الإضراب في الأولين هو وصف منشئيتهما في الإعراض فقط، مع تحققهما في نفسهما.

وفي الثالث: هو الوصف مع عدم تحققه في نفسه.

وفي الرابع: هو الأصل والوصف جميعاً.

ومعنى الآية: أي[3] أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في نبوته، عليه السلام على

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ظهور أمرها؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟

وخلاصة ذلك: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق، أو عروض شك في الدين، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم، أيّاً كان الأمر، فهو كفر وضلال، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض.

ثم أبطل السببين الأولين، وأثبت الثالث، فقال: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب، فهم ما عدلوا إلا لما في قلوبهم من المرض والنفاق، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم، ومعصيتهم له فيما أمرهم به، من الرضا بحكم رسوله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم لقضائه.

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق، بين صفات المؤمن الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصب، على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ وأن وما في حيزها اسمها. ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى كتابه ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: وإلى سنة رسوله ﷺ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم، سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ الدعاء وأجبناه ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرهما بالإجابة، والقبول، والطاعة موافقة الأمر طوعاً، وهي تجوز لله ولغيره، كما في «فتح الرحمٰن».

وقرأ الجمهور[1]: قول المؤمنين بالنصب على أنه خبر كان، وأن يقولوا اسمها، وهذا أقوى صناعةً؛ لأن الأولى جعل الأعرف اسم كان، وأن يقولوا أوغل في التعريف؛ لأن الفعل المصدَّر بأن لا سبيل إلى تنكيره، بخلاف قول المؤمنين، فإنه يجوز تنكيره، بعزل الإضافة عنه.

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين المخلصين عند الدعوة خصوصية، قولهم: سمعنا وأطعنا.

وقرأ علي[2] وابن أبي إسحاق والحسن قول المؤمنين بالرفع، وهذا أفيد

---

(١) المراح. (٢) المراح.

بحسب المعنى، لأن محط الفائدة هو الخبر، فالأحق بالخبرية ما هو أكثر فائدة، وأظهر دلالة على الحديث.

والمعنى: إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين خصوصيةً قولهم: سمعنا وأطعنا، لا قولاً آخر. وهذا تعليم أدب الشرع، بمعنى أنَّ ما يجب أن يسلك المؤمنون هكذا.

وقرأ أبو جعفر[١] والجحدري وخالد بن إلياس: ﴿ليحكم بينهم﴾، مبنياً للمفعول، والمفعول الذي لم يسم فاعله، هو ضمير المصدر؛ أي: ليحكم هو؛ أي: الحكم.

والمعنى: ليفعل الحكم بينهم. ومثله قولهم: جمع بينهما، وألف بينهما. وقوله تعالى: ﴿وحيل بينهم﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الناجون من غضب الله وسخطه، ومن عذاب النار، وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع، من الطاعة، أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز. فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال ما أمرا به، واجتناب ما نهيا عنه كائناً من كان ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه، أن يكون مأخوذاً بها، فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصي. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

وأصله[٢]: يتقيه، فحذف الياء للجزم فصار يتقه بكسر القاف والهاء. ثم سكن القاف تخفيفاً على خلاف القياس؛ لأن ما هو على صيغة فعل إنما يسكن عينه إذا كانت كلمة واحدة، نحو كَتْفٍ في كَتِف فسُكِّن وسطه، كما سُكِّن وسط كَتْفٍ.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالطاعة والخشية والاتقاء ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم. والخلود في جنات النعيم، والتقلب في رضا المولى الكريم، لا من عداهم. وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه. وإنما فسرنا الفلاح فيما سبق بالنجاة والفوز هنا بالنعيم؛ لأن باب التخلية مقدم على باب التحلية، ولأنه المناسب لسياق الكلام.

وقرأ حفص[1] ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بإسكان القاف وكسر الهاء، باختلاس على نية الجزم، إجراء للمعتل مجرى الصحيح على لغة من قال: لم أر زيداً بإسكان الراء. ولم أشتر طعاماً، بإسكانها أيضاً. يسقطون الياء للجازم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها. ومنه قول الشار: قالت سليمى اشتر لنا دقيقاً.

وقرأ الباقون بكسر القاف؛ لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، ولكن قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وورش عن نافع: ﴿ويتقهي﴾ بياء موصولة. وقرأ قالون عن نافع: ﴿ويتقه﴾ بكسر الهاء، لا يصل بها الياء. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ويتقه﴾ بإسكان الهاء.

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه.. أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أقسم المنافقون، وحلفوا بالله سبحانه وتعالى ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: أقصى مراتب اليمين، وغايتها ونهايتها في الوكادة والشدة. قيل[2]: جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً. وقيل: بتعداد أسماء الله وصفاته. وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسماً لكل حلف. والجهد بالفتح: الطاقة. والأيمان جمع يمين، واليمين في اللغة: القوة. وفي الشرع: تقوية أحد طرفي الخبر بذكر الله. قال الإمام الراغب: اليمين في الحلف مستعار من اليد، اعتباراً بما يفعله المجاهد والمعاهد عنده من المصافحة.

---

(١) الشوكاني وزاد المسير.

(٢) الخازن.

قال في «الإرشاد»[1]: جهد أيمانهم، نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المحذوف الذي هو في حيز النصب، على أنه من فاعل أقسموا؛ أي: أقسموا بالله تعالى يجهدون أيمانهم جهداً. ومعنى جهد اليمين: بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم: جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها؛ أي: أقسموا جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة، فمن قال: أقسم بالله، فقد جهد يمينه. ومعنى الاستعارة: أنه لما لم يكن لليمين وسعٌ وطاقةٌ، حتى يبلغ المنافقون أقصى وسع اليمين، وطاقتها، كان أصله، يجهدون أيمانهم جهداً، ثم حذف الفعل، وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، نحو فضرب الرقاب، انتهى.

وقيل: هو منتصب على الحال، والتقدير: مجتهدين في أيمانهم، كقولهم: افعل ذلك جهدك وطاقتك جاهداً. ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾؛ أي: بالخروج إلى الغزو، فإنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت تكن معك، ولئن خرجت خرجنا معك، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا.

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى الغزو جواب لأقسموا؛ لأن اللام الموطئة للقسم في قوله: ﴿لئن أمرتهم﴾ جعلت ما يأتي بعد الشرط المذكور جواباً للقسم، لا جزاء للشرط. وكان جزاء الشرط مضمراً، مدلولاً عليه بجواب القسم، وجواب القسم وجزاء الشرط، لما كانا متماثلين، اقتصر على جواب القسم، على القاعدة المشهورة عندهم، عند اجتماع القسم والشرط.

والمعنى: أي[2] وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد، والغزو.. ليلبن الطلب، وليخرجن كما أمرت.

والخلاصة: أنهم أغلظوا الأيمان، وشددوها في أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك، وقالوا: أينما كنت نكن معك، فإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة، وأمره

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أن يقول بهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد، لهؤلاء المنافقين ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾؛ أي: لا تحلفوا بالله، على ما تدعون من الطاعة والخروج إلى الجهاد، إن أمرتم به. وها هنا تمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وارتفاع طاعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف. والجملة[1] تعليل للنهي المذكور؛ أي: لا تقسموا؛ لأن طاعتكم نفاقية، واقعة باللسان فقط، من غير مواطأة من القلب، وإنما عبر عنها بمعروفة، للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد. كذا في «الإرشاد».

ويجوز أن يكون طاعة مبتدأ خبرها محذوف؛ لأنها قد خصصت بالصفة.

والمعنى: طاعة معروفة بالإخلاص وصدق النية خير لكم، وأمثل من قسمكم باللسان؛ فالمطلوب منكم هي، لا اليمين الكاذبة المنكرة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ بالكذب قولاً، بل أطيعوا فعلاً. فإنه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ بالأفعال غير دعوى القيل والقال. وقرأ زيد بن علي واليزيدي ﴿طَاعَةً﴾ بالنصب على المصدر لفعل محذوف؛ أي: أطيعوا طاعة. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمرونه من المخالفة، لما تنطق به ألسنتكم، ومطلع[2] على سرائركم، ففاضحكم ومجازيكم عليه. والتفت من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنه أبلغ في تبكيتهم، ولمَّا بكتهم بأنه مطلع على سرائرهم تلطف بهم، فأمرهم بطاعة الله، وطاعة الرسول، وهو أمر عام للمنافقين وغيرهم، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ﴾ سبحانه بأداء تكاليفه ﴿وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ باتباعه طاعة ظاهرةً وباطنةً بخلوص اعتقاد، وصحة نية.

وهذا التكرير منه تعالى[3]، لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ في حكم الأمر بالطاعة. وقيل: إنهما مختلفان.

فالأول: نهي بطريق الرد، والتوبيخ. والثاني: أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

ثم أكد الأمر السابق، وبالغ في إيجاب الامتثال به، والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: فإن تتولوا وتعرضوا عن هذه الطاعة، إثر ما أمرتم بها، وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: فاعلموا إنما عليه ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾؛ أي: ما كلف، وأمر به من تبليغ الرسالة، وقد فعل ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: ما أمرتم به من الإجابة والطاعة. ولعل[1] التعبير هنا بالتحمل للإشعار بثقله، وكونه مؤونة وكلفة باقية في عهدتهم بعد، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل، فهو وعيد لهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: فلا ضرر عليه. وقوله تعالى: ﴿فإنما عليه...﴾ إلخ. تعليل لهذا المحذوف.

والمعنى: أي فإن[2] تتولوا عن الطاعة، بعد أن أمركم الرسول بها.. فما ضررتم الرسول بشيء، بل ضررتم أنفسكم؛ لأنه عليه ما أمر به، من تبليغ الرسالة، وقد فعل، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتم.. فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه.. فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾؛ أي: وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به من الطاعة.. ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأسنى، الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر. وتأخيره[3] عن بيان حكم التولي، لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب، وجملة قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ. ويبعد أن يحمل على الجنس، كما في «الشوكاني»؛ لأنه أعيد معرفاً. ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مقررة لما قبلها؛ أي: ما عليه إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح، وقد فعل، وإنما بقي ما حملتم، فإن أديتم فلكم، وإن توليتم فعليكم.

والمعنى: أي وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه.. تهتدوا إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الحق الموصل إلى كل خير، المنجي من كل شر، وما الرسول إلا ناصح، وهاد ومبلغ لكم، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب، وإن خالفتموه.. أوقعتم أنفسكم في الهلكة.

والخلاصة: أن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة، وقد بقي عليكم أن تفعلوه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قيل: يجوز[1] أن يكون قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقول لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة. والأول أرجح، ويؤيده الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ ويؤيده أيضاً قراءة البزي ﴿فَإِن تَّوَلَّوْا﴾ بتشديد التاء، وإن كانت ضعيفة، لما فيها من جمع الساكنين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخطاب لعامة الكفرة. و(من) تبعيضية، أو له ﷺ ولمن معه من المؤمنين. و(من) بيانية؛ أي: الذين هم أنتم. وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان. والمفعول الثاني محذوف، تقديره: الاستخلاف في الأرض، وتمكين دينهم، وتبديل خوفهم بالأمن.

وأما قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهو جواب لقسم محذوف، تقديره: وعدهم الله، وأقسم ليستخلفنهم في الأرض. وهذا الجواب، دال على المفعول المحذوف، أو جواب للوعد، بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق إنجازه لا محالة.

وهذه الجملة مقررة لما قبلها، من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات،

---

(١) الشوكاني.

بالاستخلاف لهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة.

وقيل: هو خاص بالصحابة، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله.. فقد أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ. وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. وظاهر قوله: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كل من استخلفه الله سبحانه في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها.

والمعنى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات استخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم بالأمن. وأقسم سبحانه: وعزتي وجلالي، ليجعلنهم خلفاء في الأرض، متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، استخلافاً كائناً، كاستخلاف الذين من قبلهم، وهم بنو إسرائيل، استخلفهم الله في مصر والشام، بعد إهلاك فرعون والجبابرة. وظاهر الآية العموم كما مر آنفاً.

وقرأ الجمهور(١): ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل. وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول وكسر اللام، فالموصول مرفوع.

وجملة قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم، داخلة تحت حكمه، كائنة من جملة الجواب. والمراد بالتمكين هنا، التثبيت والتقرير؛ أي: يجعله الله ثابتاً مقرراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان. والمراد بالدين هنا الإسلام؛ أي: وليثبتن الله لهم دينهم الذي اختار لهم، ويجعلنه مقرراً ثابتاً، بحيث يستمرون على العمل بأحكامه من غير منازع.

---

(١) الشوكاني.

قال في «التأويلات النجمية»: يعني[1] يمكن كل صنف من الخلفاء حمل أمانته التي ارتضى لهم من أنواع مراتب دينهم، فإنهم أئمة أركان الإسلام، ودعائم الملة الناصحون لعباده، الهادون من يسترشد في الله حفاظ الدين. وهم أصناف: قوم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام، وحفاظ القرآن، وهم بمنزلة الخزنة. وقوم هم علماء الأصول من الرادِّين على أهل العناد، أصحاب البدع بواضح الأدلة، غير مخلطين الأصول بعلوم الفلاسفة وشبههم، فإنها مهلكة عظيمة، لا يسلم منها إلا العلماء الراسخون، والأولياء القائمون بالحق، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه. وقوم هم الفقهاء، الذين إليهم الرجوع في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات، وهم في الدين بمنزلة الوكلاء، والمتصرفين في الملك.

وذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ، بل على وجه الاستقرار والثبات، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم.

وجملة ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ معطوفة على التي قبلها؛ أي: وليجعلن لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه، بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه، ولا يرجون غيره، وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم كانوا في غاية الأمن والدعة، وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فللّه الحمد.

وقال أبو العالية[2]: لما أظهر الله عز وجل رسوله ﷺ على جزيرة

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

العرب. . وضعوا السلاح، وآمنوا، ثم قبض الله نبيه ﷺ فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة، فأدخل الله عليهم الخوف، فغيروا، فغير الله ما بهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتشديد من بدل المضعف، واختارها أبو عبيد. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر والحسن بالتخفيف من أبدل. واختارها أبو حاتم، وهما لغتان. وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى. فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتشديد فرقاً، وأنه يقال: بدلته؛ أي: غيرته، وأبدلته أزلته، وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القول صحيح.

والمعنى: أي[2] وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم، وليجعلنهم ملوكها وساستها كما استخلف بني إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة، وجعلهم ملوكها وسكانها. وقد وفى سبحانه بوعده، فإنه لم يمت عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأخذ الجزية من مجوسي هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، والمقوقس في مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

ولما قُبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى. . قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون، فنهجوا منهجه، وملكوا خزائنهم، واستعبدوا أبناء القياصرة، وصدق قول رسوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ أمتي ما زوي لي منها».

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: وليجعلن دين الإسلام راسخاً قوياً مقرراً، ثابت القدم، ويعظم أهله في نفوس أعدائه، الذين يواصلون الليل بالنهار، في التدبير لإطفاء أنواره، لتعفوا آثاره. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أي: وليغيرن حالهم من الخوف إلى الأمن. قال الربيع بن أنس: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده لا شريك له، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها، فأمرهم الله سبحانه بالقتال، فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله تعالى، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم، محتبياً ليس فيه حديدة» فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ إلى آخر الآية. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وجملة ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد؛ أي: وعد الله الذين آمنوا بالاستخلاف والتمكين، حالة كونهم مستمرين على عبادتي وتوحيدي. ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم.

وجملة ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ حال من الواو في ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ أي: يعبدونني[١] حالة كونهم غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء.

وقيل معناه: لا يراؤون بعبادتي أحداً، وقيل معناه: لا يخافون غيري، وقيل معناه: لا يحبون غيري.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وارتد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، ولم يتأثر بما مر من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار[٢] عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف، زائد على الأصل، أو من كفر هذه النعمة العظيمة بعد ذلك الوعد الصحيح. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكافرون لهذه النعم ﴿هُمُ﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

لا غيرهم ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسق والخروج عن الطاعة، وفي الطغيان حدود الكفر.

قال المفسرون: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان - رضي الله عنه - فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن، وأدخل عليهم الخوف الذي رفع عنهم، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين. والله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وفي الحديث: «إذا وضع السيف في أمتي، لا يرفع عنها إلى يوم القيامة».

وجملة قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفة[1] على مقدر يدل عليه السياق، كأنه قيل لهم: فآمنوا واعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة إلخ. وقيل: معطوف على ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾. وقيل: التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة؛ أي: أدوا الصلوات الخمس في مواقيتها بأركانها وشروطها وآدابها، وأعطوا الزكاة المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: اتبعوا الرسول محمد ﷺ، فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو من باب التكميل. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي تنالوا رحمة الله سبحانه في الدنيا والآخرة؛ أي: افعلوا ما ذكر من الإقامة والإيتاء والإطاعة، راجين أن يرحمكم الله سبحانه وتعالى بسبب امتثالكم هذه المأمورات. فهو متعلق بالأوامر الثلاثة. وكرر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد، وخصه بالطاعة لأن طاعته طاعة الله تعالى. ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم، كما يشعر به الحذف، على ما تقرر في علم المعاني، من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد، أو يا من يصلح للخطاب كائناً من كان ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعول أول للحساب. ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]؛ أي: معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم في قطر من الأقطار بما رحبت، فائتين عنه، وإن هربوا منها

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

كل مهرب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: مسكنهم ومقرهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم.

والجملة الاسمية معطوفة على جملة النهي بتأويلها بجملة خبرية؛ أي: لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض، فإنهم مدركون، ومأواهم النار. ﴿وَلَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم النار. والجملة جواب لقسم محذوف. والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لبئس المصير، والمرجع لهم. هي؛ أي: النار.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية؛ أي: لا تحسبن يا محمد. وقرأ حمزة وابن عامر وأبو حيوة ﴿لا يحسبن﴾ بالياء التحتيَّة، فيكون الموصول فاعلاً على هذه القراءة والمفعول الأول محذوف، أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض. قال النحاس: وما علمت أحداً بصرياً، ولا كوفياً إلا وهو يخطىء قراءة حمزة.

وفي الآية[٢]: إشارة إلى كفران النعمة، فإن الذين أنفقوا النعمة في المعاصي، وغيروا ما بهم من الطاعات مأواهم نار القطيعة. قال علي - رضي الله عنه -: أقل ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه.

ومعنى الآيتين[٣]: وأقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذي رسمه الله في مواقيتها، ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التي فرضها الله على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوي البؤس والحاجة، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه، ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال، ولا يجدون مهرباً مما أوعدهم به ربهم فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تظنن أيها الرسول الكافرين يجدون مهرباً في الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

والبطش بهم متى أردنا. وبعدئذٍ بين مآلهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: كما أنا سنضيف عليهم في الدنيا، وننكل بهم، ولا يفلتون من عذابنا سنجعل عاقبة أمرهم ناراً تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

والخلاصة: أنه سيلحقهم سخطنا في الدنيا، وسينالهم الذل والصغار، وسيكون مصيرهم في الآخرة سعيراً وحميماً وغساقاً، جزاءً وفاقاً، إنهم كذبوا بآياتنا كذاباً.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم ومجزوم وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير هذه الحقيقة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع ﴿له﴾ متعلق به. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وجملة ﴿يُسَبِّحُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى؛ لأن الرؤية هنا قلبية تتعدى إلى مفعولين؛ لأن تسبيح المسبحين لا تتعلق به رؤية البصر. ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾: معطوف على ﴿مَن﴾. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير ومفعول صافات محذوف؛ أي: باسطات أجنحتها. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على كل، أو على الله. وقال أبو البقاء: إن عودته على كل أرجح؛ لأن القراءة برفع كل على الابتداء، فيرجع ضمير الفاعل إليه. ولو كان فيه ضمير اسم الله لكان الأولى نصب كل، لأن الفعل الذي بعدها قد نصب ما هو من سببها، فيصير كقولك: زيداً ضرب عمرو غلامه. ﴿صَلَاتَهُۥ﴾: مفعول به. ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾: معطوف عليه. وجملة ﴿عَلِمَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ.

﴿عَلِيمٌ﴾: خبره. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿الْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): فيه للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم وفعل مجزوم، وفاعل مستتر. تقديره أنت. والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾: فعل وفاعل مستتر، يعود على الله ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تر، إن قلنا إنها قلبية، ويصح كونها بصرية، تقديره: ألم تر إزجاء الله سحاباً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يُؤَلِّفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يُزْجِي﴾. ﴿بَيْنَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُزْجِي﴾. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان معطوف على ﴿يُؤَلِّفُ﴾. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ترى الودق﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به مطعوف على ﴿يَجْعَلُهُ﴾. ﴿يَخْرُجُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿الْوَدْقَ﴾. ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُ﴾. والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿الْوَدْقَ﴾. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُزْجِي﴾ على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾. فـ﴿مِن﴾: ابتدائية. ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله، بدل اشتمال. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جِبَالٍ﴾. ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾. وهو في موضع مفعول الإنزال وهي تبعيضية. وفي «الفتوحات» قد ذكرت ﴿مِن﴾ هنا ثلاث مرات. فالأولى: ابتدائية

باتفاق المفسرين. والثانية: قيل زائدة. وقيل تبعيضية. وقيل: ابتدائية على جعل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار. والثالثة: فيها هذه الأقوال الثلاثة. وتزيد بقول رابع: وهو أنها لبيان الجنس انتهى. ﴿فَيُصِيبُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يصيب﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ينزل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يصيب﴾. ﴿مَن﴾ مفعول به لـ﴿يصيب﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. والعائد محذوف، تقديره: من يشاء إصابته. ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على يصيب. ﴿عَن مَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يصرف﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة. ﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ اسمها ومضاف إليه. وجملة ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكَادُ﴾. وجملة ﴿يَكَادُ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿بَرَدٖ﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلنَّهَارَۚ﴾: معطوف على الليل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾: اسمها مؤخر. واللام فيه حرف ابتداء. ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه صفة ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان أصناف الخلق. ﴿مِّن مَّآءٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: من نطفة. بحسب الأغلب. ﴿فَمِنۡهُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، عطف مفصل على مجمل. ﴿يَمۡشِي﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على من. ﴿عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾: متعلق به. والجملة

الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة ﴿وَمِنْهُم﴾ خبر مقدم. ﴿من﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يَمْشِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر على ﴿من﴾. ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿يَمْشِى﴾. والجملة الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ إعرابه نظير ما قبله، ومعطوف عليه ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: صفة ﴿ءَايَٰتٍ﴾. والجملة الفعلية لقسم محذوف، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِى﴾ خبره. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَشَآءُ﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور، وصفة متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. والجملة في محل النصب مقول ليقولون. ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على بالله. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾: فعل وفاعل معطوف على يقولون. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسمها. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها. والباء: زائدة. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ لتخصصه بالصفة.

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ

ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متضمن معنى الشرط. ﴿دُعُوٓا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿دُعُوٓا۟﴾. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿لِيَحْكُمَ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يحكم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يحكم﴾ والجملة مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحكمه. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿دُعُوٓا۟﴾. ﴿إِذَا﴾ فجائية، قائمة مقام الفاء، في ربط الجواب بشرطه. وهو ﴿إذا﴾ الأولى، حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة له. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾. ﴿وَإِن يَكُن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص. مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لَّهُمُ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: اسمها مؤخر. ﴿يَأْتُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتُوٓا۟﴾. ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُوٓا۟﴾. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفِى﴾ الهمزة فيه: للاستفهام التقريري. جيء بها للمبالغة في الذم. ﴿في قلوبهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة، مسوقة لتقسيم الأمر في صدودهم عن حكومته، إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله. ﴿أَمِ﴾: حرف عطف منقطعة، تقدر ببل الإضرابية. وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿ٱرْتَابُوٓا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة معطوفة على الجملة التي

قبلها. ﴿أَمِ﴾: عاطفة متقطعة تقدر ببل. وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿يَخَافُونَ﴾ فعل وفاعل. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَحِيفَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَحِيفَ﴾. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على الجلالة. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أم يخافون حيف الله ورسوله عليهم. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر بمعنى ما النافية وإلا المثبتة. أو تقول: ﴿إن﴾: حرف نصب مكفوفة عن العمل. ﴿ما﴾: كافة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط. ﴿دُعُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿دُعُوٓاْ﴾. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. والظرف متعلق بقول المؤمنين. ﴿لِيَحْكُمَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يحكم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يحكم﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحكمه. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿دُعُوٓاْ﴾. ﴿أَن يَقُولُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، والتقدير: إنما كان قول سمعنا وأطعنا قول المؤمنين، وقت دعوتهم إلى الله، ورسوله ليحكم بينهم. وجملة كان مستأنفة. وإنما ترجح نصب قول المؤمنين على رفعه، لأنه متى اجتمع معرفتان فالأولى جعل أوغلهما في التعريف اسماً لكان. ولكن سيبويه لم يفرق بينهما. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ مقول محكي ليقولوا. وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل النصب مقول ليقولوا. ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾ فعل وفاعل معطوف على سمعنا. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر. والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ معطوف على ﴿يُطِعِ﴾ على كونه فعل شرط لمن. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على من معطوف على يطع، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وسكنت القاف على قراءة حفص للتخفيف، أو مجزوم بسكون القاف إجراء للمعتل مجرى الصحيح، كما مر في مبحث القراءة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أقسموا﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿أقسموا﴾. ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، أو حال من فاعل ﴿أقسموا﴾؛ أي: مجتهدين في أيمانهم. ﴿لَئِنْ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَمَرْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿يخرجن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة: لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، ونون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب. ولم يبن الفعل هنا، لأن النون لم تباشره. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: إن أمرتهم، يخرجون. وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿لَّا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُقْسِمُواْ﴾: فعل

وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. واالجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ صفته. وسوغ الابتداء بالنكرة هذا الوصف. والخبر محذوف، تقديره: خير لكم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمركم الذي أنتم عليه طاعة معروفة؛ أي: نفاقية لسانية. قال الواسطي: وهذا الوجه أولى؛ لأن الخبر محط الفائدة، وعليه فالمعنى: أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة، معلومة لا يشك فيها، ولا يرتاب ا هـ. «كرخي». والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبره. ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على أطيعوا الله. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، من أمركم بالإطاعة وأردتم بيان حكم ما إذا تتولوا عن الطاعة فأقول لكم. ﴿إن تولوا﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تتولوا فحذفت إحدى التاءين للتخفيف. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: رابطة الجواب. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ما﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿حُمِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول. والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَعَلَيْكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية

في محل الجزم، معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها جواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿تَهْتَدُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْبَلَـٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفته. والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: (اللام): واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: وأقسم. ﴿يستخلفنهم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ونون التوكيد الثقيلة، ومفعول به في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿ٱسْتَخْلَفَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية (ما): مع صلتها

في تأويل مصدر، مجرور بالكاف، تقديره: كاستخلافه الذين من قبلهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف، لوقوعه صفة لمصدر محذوف، تقديره: ليستخلفنهم استخلافاً كائناً، كاستخلاف الذين من قبلهم. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿يمكنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب، والجازم مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم، معطوفة على جملة القسم، في قوله: ﴿ليستخلفنهم﴾: ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يمكنن﴾ ﴿دِينَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿دِينَهُمُ﴾. ﴿ارْتَضَى﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾. متعلق به. والجملة صلة الموصول. والعائد محذوف، تقديره ارتضاه لهم. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. (واللام): موطئة للقسم. ﴿يبدلنهم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به أول، ونون توكيد ثقيلة. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. ﴿مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ليبدلنهم﴾. ﴿أَمْنًا﴾ مفعول ثان ليبدلن. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ ﴿يعبدون﴾: فعل مضارع وفاعل مرفوع بثبات النون. والنون نون الوقاية. والياء مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة على الأرجح، استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. كأنه قيل: ما بالهم بعد ذلك. فقيل: يعبدونني. ويجوز أن تكون حالاً من مفعول ليستخلفنهم؛ أي: حالة كونهم عابدين إياي. ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِي﴾: متعلق به. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. والجملة الفعلية في محل النصب بدل من جملة ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أو حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾؛ أي: يعبدونني حالة كونهم موحدين. وهو جيد. ولك أن تجعلها استئنافية كسابقتها. ﴿وَمَنْ﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع. مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿كَفَرَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير

فصل. ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾: خبر. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مِن﴾ على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية، مستأنفة.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة معطوفة على محذوف، معلوم من السياق، تقديره: فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا الصلاة، أو معطوفة على وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول. قال الزمخشري: وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل؛ لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كلاهما فعل وفاعل ومفعول به معطوفان على ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾: خبر ﴿لعل﴾. مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لَا﴾، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب مفعول أول لحسب. وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مفعول ثان لحسب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ومتعلق ﴿مُعْجِزِينَ﴾ محذوف، تقديره: لنا. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: مبتدأ وخبر، أو بالعكس. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ عطف خبر على إنشاء، على رأي بعضهم، أو معطوفة على مقدر، تقديره: بل هم مقهورون مدركون ومأواهم الخ. وهذا أولى، لأنه يكون عطف خبر على خبر. ﴿وَلَبِئْسَ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: فاعل والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: مصيرهم، يعني النار. والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف. وجملة القسم مستأنفة.

﴿وَالطَّيْرُ﴾: جمع طائر، كركب وراكب. والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء. قال أبو عبيدة: وقطرب: الطير يقع على الواحد والجمع. وقال ابن الأنباري: الطير جماعة، وتأنيثها أكثر من التذكير. وفي «المصباح» الطائر على صيغة اسم الفاعل، من طار يطير طيراناً، وهو له في الجو كمشي الحيوان في الأرض، ويعدى بالهمزة. والتضعيف. فيقال: طيرته وأطرته. وجمع الطائر طير كصحب وصاحب. وجمع الطير طيور وأطيار.

﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؛ أي: باسطات أجنحتهن في الهواء، من الصف، وهو البسط. ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾؛ أي: يسوق سوقاً برفق، والإزجاء سوق الشيء برفق وسهولة لينساق، غلب في سوق شيء يسير، أو غير معتد به. ومنه البضاعة المزجاة، فإنها يزجيها كل أحد، ويدفعها لقلة الاعتداد بها. ففيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى، مما لا يعتد به. وفي «المختار» زجى الشيء تزجية، دفعه برفق، وتزجى بكذا اكتفى به. وأزجى الإبل ساقها. والمزجي الشيء القليل تسوقه. وفي «القاموس» وشرحه زجا يزجو زجواً وزجى تزجية وأزجى إزجاء وازدجاه: ساقه، ودفعه برفق. يقال: كيف تزجي أيامك؛ أي: كيف تدفعها. وزجى فلان حاجتي؛ أي: سهل تحصيلها، وأزجى الأمر أخره وأزجى الدرهم روجه.

وسمي السحاب سحاباً لانسحابه في الهواء؛ أي: انجراره، هو اسم جنس يصح إطلاقه على سحابة واحدة وما فوقها. والمراد ههنا، قطع السحاب بقرينة إضافة بين إلى ضميره، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد كما مر.

﴿رُكَامًا﴾: الركام بضم الراء المتراكم بعضه فوق بعض. قال في «المفردات»: يقال: سحاب مركوم؛ أي: متراكم، والركام ما يلقى بعضه على بعض. وفي «المختار» ركم الشيء إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، وبابه نصر، وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع. والركام الرمل المتراكم. والسحاب

ونحوه. ا هـ.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾: الودق: المطر، قيل: هو خاص بالضعيف. وقيل: هو المطر ضعيفاً كان أو شديداً، وهو في الأصل مصدر. يقال: ودق السحاب يدق من باب وعد، وفي «المفردات» الودق قيل: ما يكون خلال المطر، كأنه غبار، وقد يعبر به عن المطر ا هـ.

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من ثقبه. وفي «القرطبي» الخلال جمع خلل، كجبال جمع جبل. وهي فرجه ومخارج القطر منه. وقد تقدم في البقرة، أن كعباً قال: إن السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المطر من السماء.. لأفسد ما يقع عليه من الأرض. ا هـ. ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ البرد: محركة الماء المنعقد؛ أي: ما يبرد من المطر في الهواء، فيصلب. كما في «المفردات».

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ في «المختار» السنا: مقصوراً، ضوء البرق الساطع، والسنا أيضاً: هو نبت يتداوى به، وهو من ذي الواو، يقال: سنا يسنوا سناً؛ أي: أضاء يضيء ا هـ. «سمين». والسناء من الرفعة ممدود، والشيء الرفيع وأسناه رفعه، وسناه تسنية فتحه وسهله. وفي «القاموس» البرق واحد بروق السحاب، أو ضرب ملك السحاب، وتحريكه إياه لينساق. فترى النيران. وفي «إخوان الصفا» البرق: نار، تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدخانية، في جوف السحاب.

﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: يخطفها بسرعة، جمع بصر، بمعنى الجارحة. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا، في قصر ذاك، حتى يعتدلا، ويغير أحوالهما بالحر والبرد.

﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: لأهل العقول والبصائر، جمع بصيرة. ويقال: لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة. كما في «المفردات». ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾: الدب والدبيب مشي خفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر، كما في «المفردات». والدابة هنا: ليست عبارة عن مطلق ما يمشي ويتحرك، بل هي اسم للحيوان الذي يدب على الأرض، ومسكنه

هنالك، فيخرج منها الملائكة والجن، فإن الملائكة خلقوا من نور، والجن من نار. وقال في «فتح الرحمٰن»: خلق كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة والجن، لأنا لا نشاهدهم. ا هـ.

والمعنى: خلق كل حيوان يدب على الأرض.

﴿يَمْشِي﴾ والمشي: ضابطه، هو قطع المسافة، والمرور عليها، مع قيد كون ذلك المرور على الأرجل. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ من الإطاعة، وهو فعل يعمل بالأمر، لا غير؛ لأنها الانقياد، وهو لا يتصور إلا بعد الأمر، كما مر. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ والحكم بالشيء، أن تقضي بأنه كذا، وليس بكذا، سواء ألزمت بذلك غيرك، أو لم تلزمه.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ يقال: أعرض إذا أظهر عرضه؛ أي: ناحيته. ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ أي: منقادين. ﴿مَرَضٌ﴾؛ أي: فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال. ﴿أَرْتَابُوا﴾ شكوا في نبوتك. ﴿أَن يَحِيفَ﴾ والحيف الجور، والظلم، والميل في الحكم إلى أحد الجانبين. يقال: حاف في قضيته؛ أي: جار فيما حكم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بحذف النون؛ لأن أصله تتولوا بتاءين، إحداهما تاء المضارعة، والأخرى تاء المطاوعة؛ لأن ماضيه تولى من باب تفعل الخماسي.

﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ البلاغ اسم مصدر لبلغ المضعف، فهو بمعنى التبليغ، الذي هو مصدر بلغ. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الراغب: الخلافة النيابة عن الغير. إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ التمكين جعل الشيء مكاناً لآخر. يقال: مكن له في الأرض؛ أي: جعلها مقراً له. يقال: مكنتك ومكنت لك مثل نصحتك ونصحت لك.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ التبديل جعل الشيء مكان آخر، وهو أعم من العوض، فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل يقال: للتغير وإن لم تأت ببدله.

﴿أَمْنًا﴾ وأصل الأمن طمأنينة النفس، وزوال الخوف. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع. يقال: صار إلى كذا؛ أي: انتهى إليه. ومنه صير الباب لمصيره الذي ينتهي إليه في تنقله وتحركه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بعد قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استقرارها فيها قرار ما فيها؛ لأنها تكون بين السماء والأرض.

ومنها: فن العنوان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ الآية. وهو فن انفرد به القليل من علماء البيان، ويسمونه فن العنوان، وعرفوه بأنه أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف، أو فخر، أو مدح، أو عتاب، أو هجاء، أو غير ذلك من الفنون، ثم يأتي لقصد تكميله وتوكيده، بأمثلة من ألفاظ، تكون عنوانات لأخبار متقدمة، وقصص سالفة، ومنه نوع عظيم جداً، وهو ما يكون عنواناً للعلوم، وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظ تكون مفاتيح العلوم، ومداخل لها، والآية التي نحن بصددها، فيها عنوان العلم المعروف بالآثار العلوية، والجغرافيا الرياضية وعلم الفلك.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يصيب﴾ وقوله: ﴿يصرفه﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إذ ليس المراد التقليب المادي للأشياء الذاتية، وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

المراد بالأول العيون الباصرة، وبالثانية العقول المدركة.

ومنها: الإجمال ثم التفسير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية. فقد ذكر سبحانه أولاً الجنس الأعلى، حيث قال: كل دابة، فاستغرق أجناس كل ما دب، ثم فسر هذا الجنس الأعلى، بالأجناس المتوسطة. حيث قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ و﴿مِّنْهُم﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ فقد سمي الزحف على البطن مشياً على سبيل الاستعارة المكنية، كما قالوا في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر. ويقال فلان لا يتمشى له أمر.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ لأنه لما اختلط غير العاقل بالعاقل في قوله كل دابة، عبر بـ﴿من﴾ تغليباً للعاقل على غيره لشرفه.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

ومنها: حسن التقسيم في قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية. لأن الآية لم تبق قسماً يقع في القلوب، من الصوارف عن القبول، إلا جاءت به، ألا ترى أنه تعالى بعد قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ذكر الريبة؛ لأنه لا بد أن يكون الصارف عن الإجابة لحكم الله ورسوله، إما إبطان الكفر، وإظهار الإسلام، وهو المرض، أو التشكك والتردد، والتذبذب في حكم الله، هل هو جار على العدل، أو على غيره، وذلك هو الريبة. أو يكون الصارف خوف الحيف الذي لا يشعر به رجاء الإنصاف، فلم يبق قسم من الصوارف إلا ذكر فيها.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين، فيها أقصى المراتب في الشدة، والتوكيد بـ﴿من﴾ يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه، ويبذل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: عليه أمر

التبليغ، وعليكم وزر التكذيب.

ومنها: الطباق بين الخوف والأمن في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لما[1] نهى فيما سلف عن

---

(١) المراغي.

دخول الأجانب في البيوت، إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها، وبين أن في ذلك الخير كل الخير لهم، فإن لم يجدوا فيها أحداً رجعوا، لما لذلك من كبير الأثر في المجتمع الإسلامي بصيانة الآداب العامة، ومنع القيل والقال، وحفظ الأعراض والأنساب.. استثنى في هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض، ودخول المملوكين على سادتهم، وبين أن الاستئذان لا يكون في جميع الأوقات، بل في ثلاث أوقات، هي عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكلفة، وقلة التحفظ في الستر. ثم ذكر أن النساء الطاعنات في السن، إذا لم يطمعن في الزواج، فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أن للمماليك والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات الثلاث بلا استئذان، ولا إذن من أهل البيت.. ذكر هنا أنه لا حرج على أهل هذه الأعذار الثلاثة، في تركهم للجهاد وما يشبهه، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه ﷺ، فلهم القعود من غير استئذان، ولا إذن كما لا حرج عمن ذكروا بعدهم في الأكل، من البيوت المذكورة في الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول، أمرهم بالاستئذان حين الخروج، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ، كتشاور في قتال أحد، أو في حادث عرض، وبين أن من يفعل ذلك.. فهو من كامل الإيمان. ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم، ولا يسموه باسمه، بل يقولون يا نبي الله، ويا رسول الله. وليحذروا أن يخالفوا أمره. وسنته وشريعته، بل عليهم أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه، فهو مردود على فاعله وقائله، كائناً من كان. وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقال أبو حيان[1]: لما افتتح الله سبحانه وتعالى، هذه السورة بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ وذكر أنواعاً من الأوامر والحدود، مما أنزله على الرسول عليه السلام.. اختتمها بما يجب له عليه السلام، على أمته من التتابع. والتشايع على ما فيه مصلحة الإسلام، ومن طلب استئذانه، إن عرض لأحد منهم عارض، ومن توقيره في دعائهم إياه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية، روي[2] أن سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر - رضي الله عنه - غلاماً من الأنصار، يقال له: مدلج بن عمرو، وكان عمر نائماً فدق عليه الباب، ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء، فقال: لوددت لو أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا، وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن فانطلق معه إلى رسول الله ﷺ، فوجد الآية قد نزلت فخر ساجداً، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب - رضي الله عنه - الوحي.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[3] عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى والأعرج والمريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته، فكانت الزمنى يتحرجون من ذلك، يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ تحرج المسلمون، وقالوا الطعام من أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

أحد، فكف الناس عن ذلك، فنزل ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ الآية.

وأخرج الضحاك قال: كان أهل المدينة، قبل أن يبعث النبي ﷺ، لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم. وأخرج عن مقسم قال: كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج فنزلت هذه الآية.

وأخرج[1] الثعلبي في «تفسيره» عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج الحارث غازياً مع رسول الله ﷺ، فخلف على أهله خالد بن زيد، فحرج أن يأكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية، وأخرج البزار بسند صحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير فيدفعون مفاتيحهم إلى زمناهم ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، وكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أنهم أذنوا عن غير طيب نفس، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

وأخرج ابن جرير عن الزهري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا، فقال: أخبرني عبد الله بن عبد الله، قال: إن المسلمين كانوا إذا غزوا، خلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون لا ندخلها وهم غيب، فأنزل الله عز وجل هذه الآية رخصةً لهم. وأخرج عن قتادة قال: نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ في حي من العرب، كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده، وكان يحمله بعض يوم، حتى يجد من يأكله معه، فربما قعد، والطعام بين يديه،

---

(١) لباب النقول.

لا يجد من يؤاكله حتى يمسي، فيضطر إلى الأكل وحده. قال: بعض الشعراء:

إِذَا مَا صَنَعْتِ ٱلزَّادَ فَٱلْتَمِسِيْ لَهُ   أَكِيْلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِيْ

وأخرج عن عكرمة وأبي صالح، قالا: كانت الأنصار، إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت رخصةً لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، أخرج[1] ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل» عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما، قالوا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر المدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمىٰ إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ، الخبر فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم، من رسول الله ﷺ، ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين، إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، يستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ رجوع[3] إلى

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.
(٣) البيضاوي.

تتمة الأحكام السالفة، بعد الفراغ من الإلهيات، الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيره، والوعد عليها، والوعيد على الإعراض عنها. والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال. واللام في قوله: ﴿ليستأذنكم﴾ لام الأمر، والاستئذان[1] طلب الإذن، والإذن في الشيء إعلام بإجازته، والرخصة فيه؛ أي: يا أيها الذين أمنوا بالله ورسوله من الرجال والنساء، ليطلب منكم الإذن في الدخول عليكم الأناس، الذين ملكت أيديكم من العبيد والإماء الكبار. ﴿و﴾ الصبيان ﴿الذين لم يبلغوا الحلم﴾ أي لم يصلوا أوان البلوغ والاحتلام، القاصرون عن درجة البلوغ المعهود. والتعبير عن البلوغ بالاحتلام، لكونه أظهر دلائله، وبلوغ الغلام صيرورته بحال لو جامع لأنزل.

قرأ الجمهور ﴿الحلم﴾ بضمتين. وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية وطلحة ﴿الحلم﴾ بسكون اللام وهي لغة تميم، حالة كون الذين لم يبلغوا الحلم كائنين ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ ظرف[2] زمان ليستأذن؛ أي: ليستأذنوا في الدخول عليكم ثلاثة أوقات في اليوم والليلة؛ لأنها ساعات غرة وغفلة، أو منصوب على المصدرية؛ أي: ثلاث استئذانات. ورجح هذا الوجه أبو حيان. وعبر بالمرات عن الأوقات، لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين، لا نفس الأوقات.

ثم فسر تلك الأوقات بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لظهور أنه وقت القيام عن المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة. ومحله النصب، على أنه بدل من ثلاث مرات، بدل تفصيل من مجمل؛ أي: ليستأذنوا ثلاثة أوقات وقتاً من قبل صلاة الصبح. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ﴾ وتنزعون ﴿ثِيَابَكُم﴾ التي تلبسونها في النهار؛ أي: ووقتاً حين تخلعون ثيابكم عن أبدانكم لأجل القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار سواء كان معها نوم أم لا.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين، وهي شدة الحر عند انتصاف النهار؛ أي[1]: حين ذلك الوقت الذي هو الظهيرة. وقيل (من) بمعنى في؛ أي: تضعونها في الظهيرة، أو بمعنى اللام؛ أي: من أجل حر الظهيرة.

والتصريح[2] بمدار الأمر، أعني وضع الثياب في هذا الحين، دون الأول والآخر، لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها ووقوعها في النهار، الذي هو مظنة لكثرة الورود والصدور، ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما في الوقتين، فإن تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.

ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث، فقال: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ الآخرة ضرورة، أنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف، وهو كل ثوب تغطيت به؛ أي: وقتاً بعد صلاة العشاء الآخرة.

وإنما خص[3] سبحانه هذه الثلاثة الأوقات، لأنها ساعات الخلوات، ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يجوز أن يراه أحد من العبيد والصبيان، فأمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات. وغير العبيد والصبيان يستأذن في جميع الأوقات.

ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ﴾ كائنة، ﴿لَّكُمۡۚ﴾ أيها المؤمنون والمؤمنات بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه الثلاثة المذكورة ثلاث عورات لكم؛ أي: ثلاثة أوقات يختل فيها عادةً ستر عورات لكم. أو المعنى هذه ثلاث خلوات لكم. كما في «تنوير المقياس»، والعورة: الخلل الذي يرى منه ما يراد ستره. وسميت الأوقات المذكورة عورات مع أنها ليست نفس العورات، بل هذه أوقات العورات، على طريق تسمية الشيء باسم ما يقع فيه، مبالغة في كونه محلاً له.

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.

قرأ[1] ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿ثلاث عورات﴾ برفع الثاء المثلثة من ثلاث.

والمعنى: هذه الأوقات هي ثلاث عورات، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه، فربما بدت عورته. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ثلاث عورات﴾ بنصب المثلثة. قال أبو علي وجعلوه بدلاً من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ والأوقات ليست بعورات، ولكن المعنى أنها أوقات ثلاث عورات، فلما حذف المضاف أعرب بإعراب المحذوف.

وقرأ[2] أبو عبد الرحمٰن السلمي وسعيد بن جبير والأعمش ﴿عَوَرَاتٍ﴾ بفتح الواو وهي لغة هديل بن مدركة وبني تميم.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون الأحرار والحرائر في تمكينهم من الدخول عليكم ﴿وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: ولا على المماليك والخدم والصبيان ﴿جُنَاحُۢ﴾؛ أي: حرج وإثم في الدخول عليكم بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والاطلاع على العورات، ولعدم تكليف الصبيان. ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾؛ أي: بعد مضي هذه الأوقات الثلاثة. فرفع الحرج عن الفريقين جميعاً؛ أي: بعد[3] كل واحدة من تلك العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كل وقتين منهن، فالاستئذان لهؤلاء مشروع فيها، لا بعدها. ولغيرهم في جميع الأوقات. وهذه الجملة مستأنفة، مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة. ويجوز أن تكون في محل رفع صفةً لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة.

ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات، بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم يعني المماليك والصبيان جوالون ﴿عَلَيۡكُم﴾ أيها الأحرار والحرائر للخدمة طوافاً كثير، يذهبون ويجيؤون. والطواف: الدوران

---

(1) زاد المسير.

(2) البحر المحيط.

(3) روح البيان.

حول الشيء. ومنه الطواف بالبيت. كما سيأتي في مباحث الصرف. ومنه أيضاً الحديث في الهرة: «إنما هي من الطوافين عليكم والطوافات»؛ أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن؛ أي: يدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن، إلا في تلك الأوقات الثلاثة. والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان.

ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: بعضكم يطوف، أو طائف، وهم المماليك والصغار على بعض، وهم الأحرار والكبار. وهذه[1] الجملة بدل مما قبلها، أو مؤكدة لها.

والمعنى: أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالي، والموالي على العبيد؛ أي: هم يطوفون عليكم للخدمة، وأنتم تطوفون عليهم للاستخدام. ولو كلفهم الاستئذان في كل طوفة؛ أي: في هذه الأوقات الثلاثة وغيرها.. لضاق الأمر عليهم. فلذا رخص لكم في ترك الاستئذان فيما وراء هذه الأوقات.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿طوافين﴾ بالنصب على الحال من ضمير عليهم. وقال الحسن: إذا بات الرجل خادمه معه، فلا استئذان عليه، ولا في هذه الأوقات الثلاثة. والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل الذي بعده، والكاف صفة لمصدر محذوف.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: يبين الله سبحانه وتعالى لكم أيها المؤمنين، الآيات الدالة على الأحكام تبييناً كائناً مثل تبيين هذه الآيات المذكورة هنا؛ أي: ينزلها مبينة واضحة الدلالات عليها. لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في العلم بجميع المعلومات جليلها ودقيقها، فيعلم أحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشاً ومعاداً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

وحاصل معنى الآية: أي لا يدخل[1] أيها المؤمنون، في بيوتكم عبيدكم، وإمائكم، ثلاث مرات في ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة وكل ذلك مظنة انكشاف العورة، وحين تخلعون ثيابكم التي تلبسونها وقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة، ولبس ثياب النوم. وخص هذه الأوقات الثلاثة، لأنها ساعات الخلوة، ووضع الثياب والالتحاف باللحاف. وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم، ثم علل طلب الاستئذان بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾؛ أي: لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم، يختل فيها التستر عادة.

وبعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث، بين حكم ما عدا ذلك، فقال: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾؛ أي: ليس عليكم معشر أرباب البيوت، ولا على الذين ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج، ولا إثم في غير هذه العورات الثلاث.

والخلاصة: لا حرج ولاإثم على الناس أن يدخل عليهم مماليكهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاث. أما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال.

ثم علل الإباحة في غيرها بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾؛ أي: هؤلاء المماليك والصبيان الصغار يدخلون ويخرجون على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوة وعشية بغير إذن؛ لأنهم يخدمونهم، أو لاحتياج الأقارب إليهم. كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قراباتهم ومماليكهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم.

ثم بين فضله على عباده في بيان أحكام دينهم لهم. فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾؛ أي: ومثل ذلك التبيين لتلك الأحكام يبين لكم

---

(١) المراغي.

أيها المؤمنون شرائع دينكم وأحكامه، والله عليم بما يصلح أحوال عباده. حكيم في تدبير أمورهم، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم في المعاش والمعاد.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس، ترك الناس ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ الآية. وقوله في النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الآية. وقوله في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

وعن عكرمة عن ابن عباس، أن رجلين من أهل العراق، سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث، التي أمر الله بها في القرآن، فقال: إن الله ستير يحب الستر، كأن الناس ليس لهم ستور على أبوابهم. وحجال في بيوتهم، فربما فجأ الرجل خادمه، أو ولده، أو يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأوا أن ذلك قد كفاهم، من الاستئذان الذي أمروا به.

ففيه(١) دليل على أن الحكم إذا ثبت لمعنى، فإذا زال المعنى، زال الحكم، فالتبسط في اللباس والمعاش والسكنى، ونحوها مرخص فيه، إذا لم يؤد إلى كبر واغترار. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إذا وسع الله عليكم، فوسعوا على أنفسكم. ويقال: اليسار مفسدة للنساء، لاستيلاء شهواتهن على عقولهن. وفي الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». يعني: إذا أتى الله عبده نعمته من نعم الدنيا، فليظهرها من نفسه، وليلبس ثياباً نظيفةً، يليق بحاله، ولتكن نيته في لبسه إظهار نعمة الله عليه، ليقصده المحتاجون لطلب الزكاة والصدقات، وليس لبس الخلق مع اليسار من التواضع.

وفي الآية رخصة في اتخاذ العبيد والإماء للخدمة، لمن قام بحقهم. وبيان أن حق الموالي عليهم الخدمة. ودلت الآية على أن من لم يبلغ، وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع. وينهي عن ارتكاب القبائح، فإنه تعالى أمرهم بالاستئذان في

---

(١) روح البيان.

الأوقات المذكورة. وفي الحديث: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر». وإنما يؤمر بذلك ليعتاده، ويسهل عليه بعد البلوغ، ولذا كره إلباسه ذهباً أو حريراً لئلا يعتاده، والإثم على الملبس، كما في «القهستاني».

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إذا بلغ الصبي عشر سنين، كتبت له حسناته، ولم تكتب سيئاته، حتى يحتلم. قال في الأشباه، وتصح عبادة الصبي، وإن لم تجب عليه، واختلفوا في ثوابها. والمعتمد أنه له، وللمعلم ثواب التعليم. وكذا جميع حسناته، وليس كالبالغ في النظر إلى الأجنبية، والخلوة بها. فيجوز له الدخول على النساء إلى خمس عشرة سنة. كما في «الملتقط»، فإن قلت: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم، مع أنهم غير مكلفين؟ قلت: الأمر في الحقيقة لأوليائهم ليؤدبوهم. كذا في «فتح الرحمٰن».

ولما بين الله سبحانه حكم الأرقاء والصبيان، الذين هم أطوع للأمر، وأقبل لكل خير.. أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ﴾ الأحرار الأجانب[1]، فخرج العبد البالغ، فإنه لا يستأذن في الدخول على سيدته في غير الأوقات الثلاثة المذكورة كما قال في التتمة: يدخل العبد على سيدته بلا إذنها بالإجماع. ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: سن الاحتلام والبلوغ. ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ أي: فليطلبوا الإذن في الدخول عليكم إن أرادوا الدخول. ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾ بلغوا الحلم ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كما يستأذن الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية. فالمعنى: فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم، بأن يستأذنوا في جميع الأوقات، ويرجعوا إن قيل لهم: ارجعوا.

والمعنى: إن[2] هؤلاء الذين بلغوا الحلم، يستأذنون في جميع الأوقات، في أوقات العورات الثلاث وفي غيرها. كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء.

وذكر الله[1] سبحانه في هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا، ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا، مع أن ما قبلها فيه ذكر المماليك والأطفال، لأن حكم ملكت اليمين واحد، كبارهم وصغارهم، وهو الاستئذان في الساعات الثلاث التي ذكرت في الآية قبل فقط. وقرأ الحسن ﴿الحلْم﴾ بسكون اللام فحذف الضمة لثقلها. كما مر.

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم ما ذكر غاية البيان ﴿يُبَيِّنُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: آيات أحكامه مما فيه سعادتكم في دنياكم وآخرتكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه ظواهرها وبواطنها، فيجازيهم عليها. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره وشرعه لهم. كرره للتأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان.

فائدة: فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ الآية. ختم[2] هذه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بالإضافة إلى ضميره. وختم ما قبلها وما بعدها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ بالتعريف بأل، فما الفرق بينها، وبينهما؟

قلت: الفرق أن ما قبلها وما بعدها يشتملان على علامات يمكننا الوقوف عليها. وهي في الأولى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وفي الأخيرة: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ الآية. فختم الآيتين بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ وأما بلوغ الأطفال، فلم يذكر له علامات يمكننا الوقوف عليها، بل تفرد تعالى بعلمه بذلك، فخصها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بالإضافة إليه. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

ولما بين سبحانه، حكم الحجاب، حين إقبال الشباب، أتبعه بحكمه حين إدباره، فقال: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ مبتدأ. جمع قاعد بلا هاء، ليدل حذفها على أنه قعود

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن.

الكبر لا قعود الجلوس. كما قالوا: امرأة حامل، ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل، لا حمل متاع. ويقال: قاعدة في بيتها بمعنى جالسة في بيتها، وحاملة على ظهرها. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال من الضمير المستكن في القواعد؛ أي: والعجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل حالة كونهن من النساء ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ وزواجاً، صفة للقواعد لا للنساء؛ أي: لا يطمعن في النكاح لكبرهن، فاعتبر فيهن القعود عن الحيض والحمل والكبر أيضاً، لأنه ربما ينقطع الحيض والرغبة فيهن باقية. ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾. الجملة خبر المبتدأ؛ أي: فليس عليهن إثم ووبال في ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ وينزعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالجلباب والإزار فوق الثياب، والقناع فوق الخمار عند الرجال الأجانب، لا الثياب التي على العورة الخاصة. وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا رغبة للرجال فيهن، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن تخفيفاً عليهن.

ثم استثنى حالةً من حالاتهن. فقال: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ حال من فاعل يضعن؛ أي: حالة كونهن غير مظهرات للزينة الخفية، التي أمرن بإخفائها في قوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالسوار والخلخال والقلادة.

والمعنى[1]: من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهن، ولا متعرضات بالتزين لينظر إليهن الرجال. والتبرج التكشف والظهور للعيون. ومنه بروج مشيدة، وبروج السماء. ومنه قولهم سفينة بارجة؛ أي: لا غطاء عليها.

وقال في «فتح الرحمٰن»، فإن قلت: كيف أباح تعالى بذلك للقواعد من النساء، وهن العجائز، التجرد من الثياب بحضرة الرجال؟

قلت: المراد بالثياب الزائدة على ما يسترهن.

والمعنى: أي[2] والنساء اللواتي قعدن عن الولد كبراً، وقد يئسن من التبعل، فلا يطمعن في الأزواج، فليس عليهن إثم، ولا حرج في أن يخلعن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ثيابهن الظاهرة. كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار، إذا كن لا يبدين زينة خفية، كشعر ونحر وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء.

وخلاصة ذلك: أنه لا جناح على القواعد من النساء أن يجلسن في بيوتهن بدرع وخمار ويضعن الجلباب، ما لم يقصدن بذلك الزينة، وإظهار ما يجب إخفاؤه. هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمالٍ تورث الشهوة، فإن كان فيهن ذلك، فلا يدخلن في حكم الآية.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾؛ أي: وإن يطلبن العفة بترك وضع الثياب. وهو مبتدأ خبره ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها لبعده من التهمة؛ أي: استعفافهن بعدم إلقاء الجلباب خير لهن من الإلقاء؛ أي: وإن تعففن عن وضع جلابيبهن وأرديتهن، فلبسها كالشباب، كان ذلك خيراً لهن من خلعها، لتباعدهن حينئذٍ عن التهمة. ولقد قالوا: لكل ساقطة في الحي لاقطة.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿وأن يعففن﴾ بغير سين. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه[2] الآية دلالة، على أنه يباح للعجوز كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال. وأما شعرها فيحرم النظر إليه كشعر الشابة.

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ بما يجري بينهن وبين الرجال من الأحاديث والمقاولات ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهن، لا تخفى عليه خافية من أمرهن، فاحذروا أن يسول لكم الشيطان مخالفة ما به أمر، وعنه نهى، فهو سبحانه سميع لما يقوله كل قائل، عليم بمقاصده. فيجازي كلا على عمله الظاهر والباطن، وفي ذكر هاتين الصفتين توعد وتحذير.

واعلم: أن العجوز[3] إذا كانت بحيث لا تشتهى جاز النظر إليها لا من الشهوة. وفيه إشارة إلى أن الأمور إذا خرجت عن معرض الفتنة، وسكنت نائرة الآفات سهل الأمر، وارتفعت الصعوبة، وأبيحت الرخص، ولكن التقوى فوق

---

(١) الشوكاني.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.

أمر الفتوى. كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

وفي الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس». قال ابن سيرين: ما غشيت امرأة قط، لا في يقظة ولا في نوم، غير أم عبد الله. وإني لأرى المرأة في المنام، فاعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري. قال بعضهم: ليت عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام.

واعلم: أن عدم رجاء النكاح إنما هو من طرف الرجل لا من طرف العجوز غالباً، فإنه حكي أن عجوزاً مرضت، فأتى ابنها بطبيب، فرآها متزينة بأثواب مصبوغة فعرف حالها، فقال: ما أحوجها إلى الزوج. فقال الابن: ما للعجائز والأزواج. فقالت: ويحك أنت أعرف من الطبيب.

وحكي: أنه لما مات زوج رابعة العدوية، استأذن عليها الحسن البصري وأصحابه، فأذنت لهم بالدخول عليها، وأرخت ستراً، وجلست وراء الستر. فقال لها الحسن وأصحابه: إنه قد مات بعلك ولا بد لك منه. قالت: نعم وكرامةً. قالت: من أعلمكم حتى أزوِّجه نفسي، فقالوا: الحسن البصري. فقالت: إن أجبتني في أربع مسائل فأنا لك. فقال: سلي إن وفقني الله أجبتك. فقالت: ما تقول: لو مت أنا وخرجت من الدنيا، مت على الإيمان أم لا؟ قال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله. ثم قالت: ما تقول: لو وضعت في القبر وسألني منكر ونكير أأقدر على جوابهما أم لا. قال: هذا غيب أيضاً. ثم قالت: إذا حشر الناس يوم القيامة وتطايرت الكتب أأعطى كتابي بيميني أم بشمالي. قال: هذا غيب أيضاً. ثم قالت: إذا نودي في الخلق: فريق في الجنة، وفريق في السعير، كنت أنا من أي الفريقين؟ قال: هذا غيب أيضاً. قالت: من كان ليس له علم هذه الأربعة، كيف يشتغل بالتزوج. ثم قالت: يا حسن أخبرني كم خلق الله العقل؟ قال: عشرة أجزاء تسعة للرجال وواحد للنساء. ثم قالت: يا حسن كم خلق الله الشهوة. قال: عشرة أجزاء، تسعة للنساء وواحد للرجال. قالت: يا حسن أنا أقدر على حفظ تسعة أجزاء من الشهوة بجزء من العقل. وأنت لا تقدر على حفظ جزء من الشهوة بتسعة أجزاء من العقل. فبكى الحسن وخرج من عندها.

وعن سليمان بن داود عليهما السلام، الغالب على شهوته أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: على فاقد البصر ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: إثم ووبال ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ وهو من كان في رجله اعوجاج يمنعه من الاعتدال في المشي، أو من الاستواء في الجلوس. ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾؛ أي: على من به آفة؛ أي: ليس[1] على هؤلاء الثلاثة حرج في مؤاكلتهم مع الأصحاء، كانت هذه الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم. فإن الأعمى ربما سبقت إليه عين مؤاكلة ولا يشعر به. والأعرج يتفسح في مجلسه، فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه. والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي قرينه؛ أي: برائحة كريهة أو جرح يبدو، أو أنف يسيل، أو نحو ذلك. فأنزل الله عز وجل ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلخ؛ أي: لا بأس لهم بأن يأكلوا مع الناس ولا مأثم عليهم. وعلى هذا التأويل فـ(على) على معناها.

وقال ابن[2] عباس، لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الأموال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول، فلا يستوفي من الطعام حقه. فأنزل الله هذه الآية.

فعلى هذا التأويل يكون (على) بمعنى في، أي: ليس في الأعمى. **والمعنى**: ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والمريض والأعرج حرج.

وقيل: نزلت ترخيصاً لهؤلاء، في الأكل من بيوت من سماهم في باقي الآية. وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل في طلب الطعام فإذا لم يكن

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

عنده شيء، ذهب بهم إلى بيت أبيه أو بيت أمه، أو بعض من سمى الله تعالى. فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: كان المسلمون إذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم إلى الزمنى، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: لا ندخلها وأصحابها غيب. فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم.

وقيل: نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد، فعلى هذا التأويل، تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلام مستأنف.

والحاصل[1]: أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم.. فيكون ﴿وَلَا عَلَىٰٓ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف، التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج وعدم المرض.. فقوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾ ابتداء كلام، غير متصلٍ بما قبله.

قيل: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قالوا لا يحل لأحد منا، أن يأكل عند أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أولادكم وعيالكم وأزواجكم بغير إذن بالعدل، فالكلام على حذف[2] مضاف وإلا فانتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيت نفسه معلوم، فلا حاجة إلى بيانه، لأن بيت ولده أو زوجته كبيته، فنسبه إليه لما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». وقوله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه». فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء وبيوت الأمهات، ومن بعدهم. وقيل[3]: إنما ذكره مع كونه معلوماً، ليعطف عليه ما بعده في اللفظ، وليساويه في الحكم.

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) المراغي.

﴿أَوْ﴾ تأكلوا من ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ وإن علوا، جمع أب. والأب الوالد؛ أي[1]: حيوان يتولد من نطفته حيوان آخر. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وإن علون. جمع أم زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق. والأم بإزاء الأب؛ أي: الوالدة. وقرأ طلحة: ﴿إمهاتكم﴾ بكسر الهمزة. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ جمع أخ. والأخ: هو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ جمع أخت. والأخت تأنيث الأخ. وجعل التاء فيها كالعوض عن المحذوف منه. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ﴾ جمع عم. والعم أخ الأب، والعمة أخته. وأصل ذلك من العموم، وهو الشمول ومنه العامة لكثرتهم، وعمومهم في البلد، ومنه العمامة أيضاً لشمولها الرأس. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ جمع عمة. وهي أخت الأب كما مر آنفاً. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ جمع خال. والخال أخو الأم. والخالة أختها. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ جمع خالة. وإنما نفى[2] سبحانه الحرج في الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، لما علم بالعادة، أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب.

وقيد بعض العلماء[3]، جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم، وقال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبذولاً، فإن كان محرزاً دونهم لم يجز لهم أكله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ﴾ أن تأكلوا من ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾؛ أي: أو من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزان، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته، بإعطائهم مفاتحه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

وقال بعضهم[1]: هو ما يكون تحت أيديهم، وتصرفهم من ضيعة، أو ماشية وكالةً أو حفظاً، فملك المفاتح حينئذٍ كناية عن كون المال في يد الرجل، وحفظه.

والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من أموال لكم عليها يد، لكن لا من أعيانها، بل من أتباعها وغلاتها، كثمر البستان، ولبن الماشية، فلا حرج على وكيل الرجل، وقيمه في ضيعته وماشيته، أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية، ولكن لا يحمل ولا يدخر. وهذا إذ لم يجعل له أجراً على ذلك، فإن جعل له أجراً فلا يحل له أكل شيء منها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ملكتم﴾ بفتح الميم واللام خفيفة. وقرأ ابن جبير: بضم الميم وكسر اللام مشددة. وقرأ الجمهور ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مفتح. وابن جبير: ﴿مفاتيحه﴾ جمع مفتاح. وقتادة وهارون عن أبي عمرو: مفتاحه مفرداً.

﴿أَوْ﴾ من بيوت ﴿صَدِيقِكُمْۚ﴾ قرىء بكسر الصاد اتباعاً لحركة الدال، حكاه حميد الخزاز. والصديق يكون للواحد والجمع. والصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، كما سيأتي في مبحث اللغة. والمعنى: أو من بيوت أصدقائكم، الذين يصدقونكم المودة، وتصدقونهم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسر به من كثير من الأقرباء. هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن، أو بشاهد الحال، ولا فرق بينهم وبين غيرهم، إذا وجد الإذن صراحةً.

وعن الحسن، أنه دخل يوماً بيته، فرأى جماعة من أصدقائه، قد أخذوا طعاماً من تحت سريره، وهم يأكلون فتهلل وجهه سروراً، وقال: هكذا وجدناهم، يعني: من لقي من البدريين.

وعن جعفر الصادق، من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط، ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ. وقيل: لأفلاطون من أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي، ولكن أنى هو، فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال: نلت ما نلت

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

حتى الخلافة وأعوزني صديق لا أحتشم منه.

قال المفسرون[1]: هذا كله إذا علم رضا صاحبك بصريح الإذن، أو بقرينة دالة كالقرابة والصداقة ونحو ذلك. ولذلك خص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم. والمعنى: ليس عليكم جناح، في أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها، وإن لم يحضروا ويعلموا من غير أن تتزودوا وتحملوا.

قال الإمام الواحدي في «الوسيط»: وهذه الرخصة في أكل مال القرابات، وهم لا يعلمون ذلك كرخصته لمن دخل حائطاً، وهو جائع أن يصيب من ثمره، أو مر في سفر بغنم، وهو عطشان أن يشرب من رسلها توسعةً منه تعالى، ولطفاً بعباده، ورغبةً بهم عن دناءة الأخلاق وضيق النظر.

وإنما خص هؤلاء بالذكر لأنهم اعتادوا التبسط بينهم، والرضا فيهم محقق غالباً. والمقصود من هذه الآية، إثبات الإباحة في الجملة، لا إثبات الإباحة في جميع الأوقات.

قال ابن زيد[2]: وهذا شيء قد انقطع، إنما كان في أوله، ولم يكن لهم ستور أبواب، أو كانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، وربما وجد الطعام وهو جائع، فسوغ له أن يأكل منه. ثم قال: ذهب ذلك اليوم، البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا. ا هـ.

ثم استأنف سبحانه، حكماً آخر من نوع ما قبله، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: مأثم في ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ من بيوتكم حال كونكم ﴿جميعاً﴾؛ أي: مجتمعين ﴿أَوْ﴾ حال كونكم ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: متفرقين، جمع شت، بمعنى: متفرق على أنه صفة، كالحق، أو بمعنى تفرق على أنه مصدر، وصف به مبالغةً، وأما شتى فجمع شتيت، كمرضى ومريض؛ أي: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم، مجتمعين أو متفرقين. وقد كان بعض العرب، يتحرج أن يأكل وحده، حتى يجد له أكيلاً يؤاكله فيأكل معه. وبعض العرب،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كان لا يأكل إلا مع ضيف، ومنه قول حاتم:

إِذَا مَا صَنَعْتِ ٱلزَّادَ فَٱلْتَمِسِيْ لَهُ أَكِيْلاً فَإِنِّيْ لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِيْ

وفي الحديث: «شر الناس من أكل وحده، وضرب عبده ومنع رفده». وإنما ذم هذا؛ لأنه بخل بالقرى. وقال أكثر المفسرين: نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من كنانة، كانوا يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه، لا يتناوله من الصباح إلى الرواح. وربما كان معه الإبل الحفل، فلا يشرب من ألبانها، حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل. فأعلم الله سبحانه وتعالى أن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه. هذا قول ابن عباس.

وقيل: نزلت في قوم من الأنصار، كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم. فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا، جميعاً؛ أي: مجتمعين، أو أشتاتاً؛ أي: متفرقين. قال النسفي رحمه الله، دل قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ على جواز التناهد في الأسفار، وهو إخراج كل واحد من الرفقة نفقة على قدر نفقة صاحبه؛ أي: على السوية. وقال بعضهم: في خلط المال ثم أكل الكل منه والأولى أن يستحل كل منهم غذاء كل، أو يتبرعون لأمين، ثم يتبرع لهم الأمين، ا هـ. «من الروح».

ثم شرع سبحانه، يبين ما ينبغي رعايته، حين دخول البيت، بعد أن ذكر الرخصة فيه، فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾؛ أي: فإذا دخلتم، أيها المؤمنون بيوتاً، من البيوت المذكورة، أو غيرها، مسكونة كانت، أو غير مسكونة ولو مسجداً.

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: فابدأوا[1] بالسلام على أهلها، الذين هم بمنزلة أنفسكم، لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية، والنسبية الموجبة لذلك، فالله تعالى، جعل أنفس المسلمين، كالنفس الواحدة، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) المراح.

تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ وقيل: معنى فسلموا على أنفسكم؛ أي: قولوا: السلام؛ أي: من الله علينا، وعلى عباد الله الصالحين. فإن الملائكة ترد عليهم، إن لم يكن بها أحد، وإلا فقولوا السلام عليكم. وقال ابن عباس: إن لم يكن في البيت أحد، فليقل السلام علينا من ربنا، وعلى عباد الله الصالحين. وإذا دخل المسجد، فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا.

وقال قتادة: إذا دخلت بيتك، فسلم على أهلك، فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه، فقل السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه. وقال القفال: وإن كان في البيت أهل الذمة، فليقل السلام على من اتبع الهدى.

واختلفوا في البيوت[١]. فقيل: المراد غير البيوت التي تقدم ذكرها. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً. وعلى القول الأول فقال الحسن والنخعي: هي المساجد وقيل: المراد بالبيوت هنا، هي كل البيوت المسكونة وغيرها، المساجد وغيرها. فيسلم على أهل المسكونة. وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح.

وانتصاب ﴿تَحِيَّةً﴾ على المصدرية المعنوية بسلموا، لأنه بمعنى التسليم؛ أي: سلموا تسليماً وتحية. ثابتةً ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمره مشروعةً من لدنه. ويجوز[٢] أن يكون صلة تحية، فإنها طلب الحياة التي من عنده تعالى. والتسليم طلب السلامة من الله للمسلم عليه. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾؛ أي: مستتبعة بزيادة الخير والثواب ودوامها. ﴿طَيِّبَةًۚ﴾؛ أي: تطيب بها نفس المستمع.

والمعنى[٣]: حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى، مشروعة من لدنه، يرجى بها زيادة الخير والثواب، ويطيب بها قلب المستمع. وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله، مباركة

---

(١) الشوكاني بتصرف.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

طيبة. أخرجه البخاري وغيره.

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال. قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك، يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير، تكن من رفقائي يوم القيامة».

والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل الذي يذكر بعده؛ أي: مثل ذلك التبيين الذي بيناه في هذه الآية ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام؛ أي: ينزلها مبينة واضحة الدلالات عليها ﴿لعلكم﴾؛ أي: لكي تفهموا ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام والآداب، وتعلموا بموجبها، وتفوزوا بذلك سعادة الدارين، فهو تأكيد لما قبله.

والمعنى[1]: هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم، كما فصل لكم في هذه الآية ما أحل لكم فيها، عرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه، لكي تفقهوا أمره ونهيه وأدبه، وبذا تفوزون سعادة الدارين، ويكون لكم المقام المحمود عند ربكم.

وفي الحديث: «إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أهلها، وإذا طعم أحدكم طعاماً، فليذكر اسم الله عليه، فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته معه، وإذا ذكر الله على طعامه، قال: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإن لم يسلم حين يدخل بيته، ولم يذكر الله على طعامه، قال: أدركتم العشاء والمبيت».

والتسليم[2] على الصبيان العقلاء أفضل من تركه، كما في «البستان». ولا يسلم على جماعة النساء الشواب، كيلا يحصل بينهما معرفة، وانبساط، فيحدث من تلك المعرفة فتنة، ولا يبتدىء اليهود والنصارى بالسلام، فإنه حرام. لأنه إعزاز الكافر وذا لا يجوز. وكذا السلام على أهل البدعة والفسقة، ولو سلم على من لا يعرفه فظهر ذمياً، أو مبتدعاً أو فاسقاً، يقول: استرجعت سلامي تحقيراً

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

له، ولو احتاج إلى سلام أهل الكتاب يقول: السلام على من اتبع الهدى، ولو رد يقول: وعليكم فقط. وقد مر ما يتعلق بالسلام، مشبعاً في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية. فراجعه.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ نزلت حين جمع النبي عليه السلام المسلمين يوم الجمعة، ليستشيرهم في أمر الغزو، وكان يثقل المقام عنده على البعض، فيخرج بغير إذنه، أو في حفر الخندق، وكان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله ﷺ، وكان الحفر من أهم الأمور، حتى حفر رسول الله بنفسه، وشغل عن أربع صلوات، حتى دخلت في حد القضاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الإيمان، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ عن صميم قلوبهم، وأطاعوهما في جميع الأحكام في السر والعلانية. ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ ﷺ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى آخره. معطوف على آمنوا، داخل معه في حيز الصلة؛ أي: على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والأعياد، والحروب والمشاورة في الأمور، وصلاة الاستسقاء وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع. ووصف الأمر بالجمع للمبالغة، في كونه سبباً لاجتماع الناس، فإن الأمر لكونه مهماً عظيم الشأن، صار كأنه قد جمع الناس، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى السبب؛ أي: والذين إذا كانوا معه على أمر جامع ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ من المجمع. ولم يفترقوا عنه لعروض عذر تجوز معه الإقامة في المسجد، كالزكام والصداع، فإن كان العذر يمنع المكث في المسجد، كالحيض والجنابة والإسهال، فإنهم لا يحتاجون إلى الاستئذان من النبي ﷺ، بل هم مأذون لهم شرعاً ا هـ. «شيخنا».

﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ﷺ في الذهاب فيأذن لهم، واعتبر في كمال الإيمان عدم الذهاب قبل الاستئذان، لأنه المميز للمخلص من المنافق. وقرأ اليماني (على أمر جميع).

والحاصل: أن الأمر الجامع، أو الجميع هو الذي يعم نفعه، أو ضرره. وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن.

ثم قال: لمزيد التأكيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾؛ أي: يطلبون الإذن منك، رعاية للأدب، وتعظيماً لهذا الأمر. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حق الإيمان لا غير المستأذنين، وهذا أدب على نهج سابقه، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان، حين الدخول، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع. روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس، فليسلم، فإذا أراد أن يقوم، فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة».

ولما ذكر ما يلزم المؤمن، من الاستئذان، أعقبه بما يفعله الرسول حينئذٍ، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾، الفاء فيه: فاء الفصيحة؛ أي: إذا عرفت يا محمد، أن الكاملين في الإيمان، هم الجامعون بين الإيمان بهما، وبين الاستئذان.. فأقول لك: إذا طلبوا منك الإذن في الانصراف والذهاب ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ أي: لبعض أمرهم المهم، أو خطبهم المسلم.

والشأن[1] الحال والأمر، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور، كما في «المفردات». ولم يقل لشؤونهم بل قيد بالبعض تغليظاً عليهم في أمر الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة.

﴿فَأْذَن﴾ يا محمد، في الانصراف والذهب عن مجلسك، لحاجة مهمة ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ الإذن له ﴿مِنْهُمْ﴾ وأمنع من شئت، على حسب ما تقتضيه المصلحة التي تراها.

والمعنى: إن شئت فأذن، وإن شئت فلا تأذن. فالأمر مفوض إليك؛ أي: فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم، فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تراها، كما وقع لعمر - رضي الله عنه - حين خرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، حيث استأذن في الرجوع إلى أهله، فأذن له ﷺ وقال له: «ارجع فلست بمنافق».

---

(١) روح البيان.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾؛ أي: للمستأذنين الذين أذنت لهم ﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بعد الإذن، فإن الاستئذان، وإن كان لعذر قوي، لا يخلو عن شائنة تفضيل أمر الدنيا على الآخرة. ففيه إشارة إلى أن الأفضل، أن لا يحدث المرء نفسه بالذهاب، فضلاً عن الذهاب، أو أن الاستغفار في مقابلة تمسكهم بآداب الله تعالى، في الاستئذان؛ أي: وادع الله لهم، أن يتفضل عليهم بالعفو، والغفران عن تبعات ما بينه وبينهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة بهم، فلا يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

وفي الآية بيان حفظ الأدب، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين، ينبغي أن لايرجعوا إلا بإذنه، ولا يخالفوا أمير السرية، ويرجعوا بالإذن إذا خرجوا للغزو ونحوه، وللإمام أن يأذن، وله أن لا يأذن إلا على ما يرى. فمن تفرق بغير إذن صار من أهل الهوى والبدع. وكان عليه السلام إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد رجل الخروج وقف حيث يراه، فيأذن له إن شاء.

وبعد أن ظهر في هذه السورة شرف الرسول، ولا سيما في هذه الآية التي بهرت العقول، أردف هذا ما يؤكده، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إما مصدر مضاف[1] إلى الفاعل؛ أي: لا تجعلوا دعوته وأمره إياكم في الاعتقاد والعمل بها ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾؛ أي: لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة، والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته ﷺ واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، بل أجيبوه فوراً وإن كنتم في الصلاة. إذا كان أمره فرضاً لازماً. وهذا قول المبرد والقفال: ومختار أبي العباس، وأقرب إلى نظم الآية. كما قاله ابن عادل والرازي وغيره.

وقيل[2]: لا تجعلوا دعاء الرسول ربهُ مثل ما يدعو صغيركم وكبيركم، فإنه

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

قد يجاب، وقد يرد، فإن دعوات الرسول مستجابة، فاحذروا سخطه، فإن دعاءه مجاب، ليس كدعاء غيره. وهذا كما قاله ابن عباس. وإما مصدر مضاف إلى المفعول. والمعنى: لا تجعلوا نداءكم إياه، وتسميتكم له، كنداء بعضكم بعضاً باسمه، مثل يا محمد، ويا ابن عبد الله، ويا أبا القاسم، ورفع الصوت به والنداء وراء الحجرات، بل نادوه بغاية التوقير. وبلقبه المعظم، مثل يا نبي الله ويا رسول الله، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ مع التواضع، وخفض الصوت، فلا تنادوه باسمه، ولا بكنيته. وروي هذا أيضاً عن ابن عباس. وقال أبو الليث في «تفسيره»: وفي الآية بيان توقير معلم الخير، لأن رسول الله ﷺ، كان معلم الخير، فأمر الله بتوقيره، وتعظيمه، معرفة حق الأستاذ. وفيه معرفة أهل الفضل. قال في «حقائق البقليّ»: إحترام الرسول من احترام الله، ومعرفته من معرفته، والأدب في متابعته، من الأدب مع الله تعالى.

وقرأ الحسن[١] ويعقوب في رواية: ﴿نبيكم﴾ بنون مفتوحة وباء موحدة مكسورة، وياء تحتانية مشدة، بدل قراءة الجمهور ﴿نبيكم﴾ ظرفاً. قال صاحب «اللوامح»: وهو النبي ﷺ على البدل من الرسول.

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾؛ أي: يخرجون من المسجد خفيةً من بين الناس واحداً واحداً، حالة كونهم ﴿لِوَاذًا﴾؛ أي: متلاوذين بالناس؛ أي: متسترين بهم؛ أي: يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً على خفية.

و﴿قد﴾[٢] هنا للتحقيق: بطريق الاستعارة لاقتضاء الوعيد إياه، كما أن رب يجيء للتكثير، وفي «الكواشي» قد هنا مؤذنة بقلة المتسللين؛ لأنهم كانوا أقل من غيرهم. وقيل: قد هنا بمعنى ربما مفيدة للتكثير.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ يزيد بن قطيب[1]: ﴿لِوَاذًا﴾ بفتح اللام، فاحتمل أن يكون مصدر، لاذ الثلاثي، ولم يقبل؛ لأنه لا كسرة قبل الواو، فهو كطاف طوافاً، واحتمل أن يكون مصدر لاوذ الرباعي، وكانت فتحة اللام لأجل فتحة الواو. واللواذ من الملاوذة. وهو أن تستتر بشيء مخافة من يراك. وقيل: اللواذ الفرار من الجهاد. وبه قال الحسن. ومنه قول حسان:

وَقُرَيْشٌ تَجُوْلُ مِنْكُمُ لِوَاذَا ... لَمْ تُحَافِظْ وَجَفَّ مِنْهَا ٱلْحُلُوْمُ

والتسلل: الخروج بخفية.

والمعنى: قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد في الخطبة، واحداً بعد واحد، من غير استئذان، خفيةً مستترين بشيء. وإن عملهم هذا إن خفي على الرسول ﷺ، فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى، ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة، ويعلم الدواعي التي تحملهم على ذلك، ولديه الجزاء على ما يفعلون.

روى أبو داود أنه كان من المنافقين، من يثقل عليه استماع الخطبة، والجلوس في المسجد، فإذا استأذن أحد من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه يستتر به، فأنزل الله سبحانه الآية.

والفاء في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لترتيب الحذر[2]، أو الأمر به، على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم، فإنه مما يوجب الحذر ألبتة، فإن قلت[3]: كيف عدى (خالف) بعن مع أنه يتعدى بنفسه؟

قلت: ضمن خالف بمعنى أعرض، أو عدل فعداه تعديته، أو يقال: عن متعلقه بمحذوف تقديره: يخالفونه تعالى، ويعدلون عن أمره أو هي زائدة على قول الأخفش. والضمير في أمره إما لله، لأنه الآمر حقيقة، أو للرسول، لأنه المقصود بالذكر.

---

(١) أبو السعود.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) روح البيان.

أي: فليحذر ويجتنب الذين يخالفون أمره تعالى، ويعرضون عن طاعة رسوله ﷺ من ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: محنة وبلية في الدنيا، إما في البدن أو في المال، أو في الولد، كالمرض والقتل والهلاك وتسلط السلطان الجائر عليهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد في الآخرة وقال بعضهم: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: بلية تظهر نفاقهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عاجل في الدنيا، انتهى.

وكلمة (أو) لمنع الخلو دون الجمع، وإعادة الفعل صريحاً للاعتناء بالتحذير، وفي ترتيب العذابين على المخالفة، دلالة على أن الأمر للوجوب، فيجب امتثال أمره، وتحرم مخالفته.

والآية تعم كل من خالف أمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ واستمر على التقليد، من بعد ما تبين له الهدى، وظهر له الصواب، من الخطأ، وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السماوات والأرض. ثم حذر كل مخالف لرسوله ﷺ، ثم ختم السورة ببيان أنه المالك للموجودات بأسرها، خلقاً وملكاً وتصرفاً وإيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا أيها العباد، من سنة الغفلة، واعتقدوا بقلوبكم، وقولوا بألسنتكم ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً بدءاً وإعادةً. ﴿قَدْ﴾ يقال فيها، ما قيل في السابقة آنفاً ﴿يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع، التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق، فيجازيكم بحسب ذلك، ويعلم هنا بمعنى علم. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿ما أنتم عليه﴾. ﴿ويوم﴾ مفعول به، لا ظرف؛ أي: يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، ويعلم تحقيقاً يوم ترجعون إليه؛ أي: يوم يرد الخلائق إليه للمجازاة، فيجازيكم فيه بما عملتم.

أو المعنى يعلم ما أنتم عليه أيها العباد، ويعلم يوم يرد المنافقون، المخالفون للأمر إليه تعالى، للجزاء والعقاب. فيرجعون من الرجع المتعدي، لا من الرجوع اللازم، والعلم بوقت وقوع الشيء، مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه.

وقرأ الجمهور[1]: يرجعون مبنياً للمفعول. وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمرو، مبنياً للفاعل، من الرجوع اللازم. والتفت من ضمير الخطاب في أنتم إلى ضمير الغيبة في يرجعون. ويجوز أن يكون، ما أنتم عليه خطاباً عاماً، ويكون يرجعون للمنافقين. والظاهر من السياق، أن هذا الوعيد للمنافقين، كما في «الشوكاني».

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: يخبر الخلائق بما عملوا في الدنيا، فلا يعاقبهم ولا يثيبهم إلا بعد إخبارهم بما عملوا وبيانه، أو يخبر المنافقين بما عملوا في الدنيا، من الأعمال السيئة، التي من جملتها مخالفة الأمر؛ أي[2]: يظهر لهم على رؤوس الأشهاد، ويعلمهم أي شيء شنيع عملوا في الدنيا، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء، وعبر عن إظهاره بالتنبئة، لما بينهما من الملابسة، في أنهما سببان للعلم، تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه، غافلين عن سوء عاقبته، لغلبة أحكام الكثرة الخلقية الإمكانية، وآثار الأمزجة الطبيعية الحيوانية نشأتهم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإن كان المنافقون يجتهدون في ستر أعمالهم عن العيون، وإخفائها.

ومعنى الآية[3]: أي أنه تعالى مالك السماوات والأرض، وأنه عالم بما يعمل العباد، كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ ثم هدد وتوعد، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ﴾؛ أي: ويوم يرجع الخلائق إلى ربهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

حين العرض والحساب، فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقير وكبير وصغير، كما قال: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ وقال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ثم ذكر ما هو، كالدليل على ما سلف بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنه سينبئهم بما عملوا في حياتهم الأولى؛ لأنه ذو علم بكل شيء، وإحاطة به، وهو موف كل عامل أمر عمله، يوم يرجعون إلى حكمه، إذ لا حَكَم يومئذٍ إلا هو.

قال بعضهم: كل ما ألهاك عن مولاك فهو دنياك، فعلى العاقل أن يقطع حبل العلاقات ويتصل بخالق البريات، ويتفكر في أمره، ويحاسب نفسه، قبل أن يجيء يوم الجزاء والمكافآت، فإن عقب هذه الحياة ممات، وهذا البقاء ليس على الدوام والثبات، وفي الأثر: ما قال الناس: «لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأ لهم الدهر يوم سوء» قال الشاعر:

إِنَّ اللَّيَالِيَ لَمْ تُحْسِنْ إِلَىٰ أَحَدٍ ... إِلاَّ أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

وقال الآخر:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ شَرَّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وقال آخر:

لاَ صِحَّةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا تُؤَخِّرُهُ ... وَلاَ يُقَدِّمُ يَوْمًا مَوْتَهُ الْوَجَعُ

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب، مبني على الضم. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لأي. ﴿آمَنُوا﴾ صلة الموصول. وجملة النداء مستأنفة، مسوقة لبيان حكم الاستئذان. ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾: اللام: لام

الأمر. ﴿يستأذنكم﴾: فعل ومفعول به، مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ملكتهم أيمانكم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه الموصول الأول. ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَبْلُغُوا۟﴾. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، أو على المفعولية المطلقة، فإن قدرت بمعنى: ثلاثة أوقات، فهي ظرف، وإن قدرت بمعنى: ثلاث استئذانات، فهي مفعول مطلق. ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل النصب، بدل من ثلاث مرات. ﴿وَحِينَ﴾ معطوف على محل ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وهو مضاف. ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿حين﴾. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾: حال من حين؛ أي: حال كون ذلك الوقت من الظهيرة. أو متعلق بـ﴿تَضَعُونَ﴾. ومن بمعنى في. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، في محل النصب، معطوف على ما قبله، على كونه بدلاً من ثلاث مرات. ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه الأوقات ثلاث عورات. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿ثَلَٰثُ﴾؛ أي: كائنات لكم. وبالنصب، بدل من محل ما قبله. والجملة مستأنفة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم. ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾: معطوف على ﴿عَلَيْكُمْ﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر. ﴿بَعْدَهُنَّ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿جُنَاحٌ﴾. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع، صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾؛ أي: هن ثلاث عورات، موصوفة بعدم جناح بعدهن عليكم ولا عليهم. ﴿طَوَّٰفُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم طوافون ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق بـ﴿طَوَّٰفُونَ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، أي: بعضكم طائف على بعض. والجملة بدل تفصيل لما قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل

وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: مفعول به. والجملة مستأنفة، والتقدير: ويبين الله لكم الآيات، تبييناً كائناً، مثل تبيين هذه الآية. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنكُمُ﴾: حال من ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾. ﴿ٱلْحُلُمَ﴾: مفعول به. ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. و(اللام): لام الأمر. ﴿يستأذنوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر. والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، مسوقة لتقرير حكم ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾. ﴿كَمَا﴾: الكاف حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾: المصدرية. ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بالكاف، تقديره: كاستئذان الذين قبلهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: فليستأذنوا استئذاناً كائناً كاستئذان الذين من قبلهم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: جملة اسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿القواعد﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: حال من القواعد. ﴿ٱلَّٰتِى﴾: صفة لـ﴿القواعد﴾، لا للنساء. ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿فَلَيْسَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط العموم؛ لأن الألف واللام في القواعد، موصولة

بمعنى واللاتي قعدن. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَضَعْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾: حال من فاعل ﴿يَضَعْنَ﴾. ﴿بِزِينَةٍ﴾: متعلق بـ﴿مُتَبَرِّجَاتٍ﴾. وجملة يضعن مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فليس عليهن جناح في وضعهن ثيابهن. الجار والمجرور متعلق بجناح، أو صفة له. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾: فعل مضارع وفاعل في محل النصب، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة. والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُنَّ﴾: متعلق بخير. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: والقواعد. فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿حَرَجٌ﴾: اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخر. وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: زائدة. زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ معطوف على الأعمى. ﴿حَرَجٌ﴾: معطوف على ﴿حَرَجٌ﴾. وكذلك قوله: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: معطوف على قوله: ﴿عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾. ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لمبتدأ مؤخر، محذوف معلوم من السياق، تقديره: ولا على أنفسكم حرج، والجملة مستأنفة. ﴿أَن تَأْكُلُوا﴾: فعل وفاعل

منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في أكلكم من بيوتكم، والجار المحذوف، متعلق بالمبتدأ المحذوف، والتقدير: ولا على أنفسكم حرج في أكلكم من بيوتكم. وقوله: ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ معطوفات على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ ومضافة إلى ما بعدها، على كونها مجرورة بـ﴿من﴾.

﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿ما﴾: اسم موصول، في محل الجر معطوف على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾. ﴿مَلَكۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: مفعول به. والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة. والعائد ضمير مفاتحه. ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾: معطوف على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ أيضاً. ولكنه على حذف مضاف، تقديره: أو بيت صديقكم. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حكم آخر، من جنس ما بين قبله، حيث كان فريق من المؤمنين كبني ليث بن عمرو، يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، كما في «الجمل». ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿تَأۡكُلُواْ﴾. ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كونكم مجتمعين، أو متفرقين. والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في أكلكم مجتمعين أو متفرقين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جُنَاحٌ﴾. ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول على السعة. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَسَلِّمُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿سلموا﴾: فعل

وفاعل. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾: لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿تَحِيَّةً﴾ مفعول مطلق معنوي لـ﴿سلموا﴾ منصوب به على حد قعدت جلوساً. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة أولى لتحية. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾: صفة ثانية لها. ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة ثالثة لها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر ﴿كان﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾: متعلق بـ﴿كان﴾ ﴿جَامِعٍ﴾: صفة أمر. ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل. والجملة جواب ﴿إذا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد حتى الجارة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: لم يذهبوا إلى استئذانهم الرسول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن المستأذنين هم الكاملون في الإيمان، وأردت بيان حكم ما إذا استأذنوك.. فأقول لك: ﴿إذا استأذنوك﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿اسْتَـْذَنُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأْذَن﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿إئذن﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لمن﴾: جار ومجرور متعلق به. والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿شِئْتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: لمن شئته. ﴿مِنْهُم﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على ﴿إئذن﴾. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق باستغفر ﴿اللَّهَ﴾ مفعول به. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها. وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَجْعَلُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. والجملة مستأنفة. ﴿دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾: مفعول أول. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من الرسول. ﴿كَدُعَاءِ﴾: الكاف اسم بمعنى مثل في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. الكاف مضاف. ﴿دعاء﴾: مضاف إليه. ﴿دعاء﴾: مضاف ﴿بَعْضِكُم﴾: مضاف إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به لـ﴿دعاء﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف بمعنى: ربما مفيدة للتكثير. ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾. ﴿لِوَاذًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة المعنوية؛ لأنه بمعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ تسللاً، أو يلاوذون لواذاً، ويجوز نصبه على الحال بمعنى ملاوذين.

﴿فَلۡيَحۡذَرِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت علم الله المتسللين، وأردتم بيان ما هو الأحوط لكم.. فأقول لكم ليحذروا. و(اللام): لام الأمر. ﴿يحذر﴾: مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿يُخَالِفُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول عن زائدة. ﴿أَمۡرِهِۦٓ﴾: مفعول به.

﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾: ناصب وفعل ومفعول به وفاعل. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يحذر﴾. والتقدير: فليحذر الذين يخالفون أمره إصابة فتنة إياهم. ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل وصفة معطوفة على جملة ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾، أو إصابة عذاب أليم إياهم. ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر. وجملة إن مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على السماوات. ﴿قَدۡ﴾: حرف تكثير بمعنى رب التكثيرية. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿أَنتُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيۡهِ﴾: خبره. والجملة الاسمية صلة ﴿ما﴾ الموصولة. وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: حال لازمة للجلالة. ﴿وَيَوۡمَ﴾: معطوف على مفعول يعلم. ﴿يُرۡجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق به. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ينبئهم﴾: فعل ومفعول أول وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿ينبئهم﴾. وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما عملوه. وجملة ﴿ينبئهم﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾: استأذن من باب استفعل. فالسين والتاء فيه للطلب، فهو على بابه؛ لأن الاستئذان، طلب الإذن. والإذن في الشيء: إعلام بإجازته، والرخصة فيه، كما مر. ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ يشمل العبيد والإماء.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: وقت البلوغ، إما بالاحتلام، وإما ببلوغ خمس عشرة سنة من حلم بفتح اللام. قال في «القاموس»: الحلم بالضم، والاحتلام الجماع في النوم. والاسم الحلم كعنق. انتهى. وفي «المفردات» ليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكن فسروه بذلك، في نحو قوله: أولو الأحلام لكونه من مسببات العقل. ويسمى البلوغ بالحلم، لكونه جديراً صاحبه بالحلم ا هـ.

﴿تَضَعُونَ﴾ تخلعون. ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾: وقت اشتداد الحر حين انتصاف النهار. قال في «القاموس»: الظهيرة حد انتصاف النهار. وإنما ذلك في القيظ. ﴿عَوْرَٰتٍ﴾ جمع عورة. من أعور الفارس، إذا اختلت حاله. والعورة في الأصل الخلل. ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه، ويتعين ستره.

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: صيغة مبالغة من الطواف. والطواف: الدوران حول الشيء. ومنه الطائف لمن يدور حول البيت حافاً. ومنه استعير الطائف من الجن، والخيال والحادثة وغيرها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: أوان البلوغ، كرره للتأكيد كما مر. واعلم(١): أن بلوغ الصغير بالإحبال والإنزال والاحتلام. وبلوغ الصغيرة بهما وبالحيض والحبل. فإن لم يوجد فيهما شيء من العلامات المذكورة فيبلغان حين تم لهما خمس عشرة سنة. كما هو المشهور. وبه يفتى لقصر أعمار أهل زماننا. قال بعض الصحابة: كان الرجل فيمن قبلكم لا يحتلم حتى يأتي عليه ثمانون سنة. قال وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ولد مائتي سنة. وأدنى مدة

---

(١) روح البيان.

البلوغ للغلام اثنتا عشرة سنة، وللجارية تسع سنوات.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: جمع قاعد بلا هاء، لاختصاصها بالمرأة. قال في «القاموس»: القاعد التي قعدت عن الولد، وعن الحيض، وعن الزوج. وفي «المصباح» وقعدت المرأة عن الحيض، أسنت وانقطع حيضها، فهي قاعد بغير تاء. والجمع قواعد. وقعدت عن الزوج فهي لا تشتهيه، ولولا تخصيصهن بذلك، لوجبت التاء، نحو ضاربة وقاعدة من القعود، بمعنى الجلوس.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: مظهرات للزينة. وحقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه، من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها. والبرج: محركة سعة العين، يرى بياضها محيطاً بسوادها كله، لا يغيب منه شيء، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال، بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها للرجال. فالبرج يعطي معنى الاتساع، يقال: برج يبرج برجاً من باب تعب، اتسع أمره في الأكل والشرب ونحوهما. وبرجت عيناه اتسعت، بحيث يرى بياضها محدّقاً بالسواد كله، والبرج الركن والحصن والقصر، وكل بناء مرتفع على شكل مستدير، أو مربع. ويكون منفرداً، أو قسماً من بناية عظيمةٍ. وجمعه برج بضمتين وأبراج وأبرجة. والبرج أيضاً أحد بروج السماء، وهي اثنا عشر. كما مر. والبارجة: سفينة كبيرة للقتال، وتجمع على بوارج، ومن أمثالهم ما فلان إلا بارجة، قد جمع فيه كل الشر؛ أي: إنه شرير.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾: استفعال من العفة، وهي حصول حالة للنفس، تمتنع بها عن غلبة الشهوة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ والحرج لغة الضيق، ويراد به في الدين الإثم، (الأعمى) مفتقد البصر.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ من العروج، وهو ذهاب في صعود. وعرج مشى مشي العارج؛ أي: الذاهب في صعود. يقال: عرج يعرج من باب دخل، إذا أصابه شيء في رجله، فمشى مشية العرجان. وعرج كطرب إذا صار ذلك خلقة له.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ صفة من المرض. والمرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان. ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ والأكل تناول المطعم أكلاً، أو

شرباً. والبيوت جمع بيت. والبيت في الأصل مأوى الإنسان بالليل. وقد يقال: من غير اعتبار الليل فيه. لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مفتح. والمفاتيح جمع مفتاح. كلاهما آلة الفتح. والفتح: إزالة الإغلاق والإشكال. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ من الصداقة. والصداقة صدق الاعتقاد في المودة. وذلك مختص بالإنسان. دون غيره. والصديق من صدقك في مودته. قال أبو عثمان: الصديق من لا يخالف باطنه باطنك، كما لا يخالف ظاهره ظاهرك إذ ذاك يكون الانبساط إليه مباحاً في كل شيء من أمور الدين والدنيا. ونعم ما قيل: صديقك من صدقك، لا من صدَّقك. ويطلق على الواحد والجمع. وكذلك الخليط والقطين والعدو.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ جمع شت بمعنى تفرق. وفي «المختار» أمر شت بالفتح؛ أي: متفرق. يقال: شت الأمر يشت بالكسر من باب ضرب شتاً وشتاتاً، بفتح الشين فيهما؛ أي: تفرق ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ أي: خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب، والآراء، كقتال عدو أو تشاور في حادث قد عرض.

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ ينسلون واحداً بعد واحد، أو قليلاً قليلاً. وفي «أبي السعود» التسلل: الخروج من البين على التدريج والخفية اهـ. يقال: تسلل الرجل؛ أي: انسرق من الناس وفارقهم، بحيث لا يعلمون.

﴿لِوَاذًا﴾: واللِّواذ والملاوذة التستر. يقال: لاذ فلان بكذا، إذا استتر به. واللواذ مصدر لاوذ، وإنما صحت الواو فيه، وإن انكسر ما قبلها ولم تقلب ياء، كما قلبت في قيام وصيام؛ لأنها صحت في الفعل، نحو لاوذ، فلو أعلت في الفعل لأعلت في المصدر. نحو القيام والصيام لقلبها ألفاً في قام وصام. وأما مصدر لاذ بكذا يلوذ به، فمعتل نحو لاذ به يلوذ لياذاً، مثل صام صياماً وقام قياماً. واللواذ والملاوذة: التستر في خفية.

﴿يُخَالِفُونَ﴾: يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه، وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه. والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله.

﴿فِتۡنَةٌ﴾؛ أي: بلاء وامتحان في الدنيا. وقال أبو بكر بن طاهر: الفتنة مأخوذ بها والبلاء معفو عنه ومثاب عليه. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلخ.

ومنها: الإجمال بعد التفصيل في ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما يقع فيه، مبالغة في كونه محلاً له في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ حيث سمى الأوقات المذكورة عورات، مع أنها ليست نفس العورات، بل هي أوقات العورات.

ومنها: الإيضاح في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ الآية. وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، ثم يوضحه في بقية كلامه. وهنا في هذه الآية ترد على ظاهرها أربعة أسئلة:

أولها: ما الفائدة في الإخبار برفع الجناح، عمن أكل من بيته، وكيف يظن أن على من أكل من بيته جناحاً؟ فالجواب عنه أن يقال: فائدة الإخبار برفع الجناح عمن أكل من بيته التوطئة، ليبنى عليه ما يعطفه على جملته من البيوت، التي قصد إباحة الأكل منها. فإنه إذا علم، أن الإنسان لا جناح عليه أن يأكل من بيته، فكذلك لا جناح عليه أن يأكل من هذه البيوت، ليشير إلى أن أموال هذه القرابة، كمال الإنسان، وإذا تساوت هذه الأموال، سرى ذلك التساوي إلى الأزواج، فيكون سبحانه، قد أدمج في ذلك الحض، على صلة الأرحام، ومعاملتهم معاملة الإنسان نفسه.

وثانيها: لم لم يذكر بيوت الأولاد، كما ذكر بيوت غيرهم من الأقارب القريبة؟ فالجواب عنه: أن يقال: إن أموال الأولاد كمال نفسه، فتصرف الوالدين

فيها، كتصرفهم في أموالهم أنفسهم، لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه.

وثالثها: ما فائدة قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وظاهر الحال، أن هذا داخل في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يراد بما في البيوت، المال التليد العتيد، وما ملك الإنسان مفاتحه، المال الطريف المكتسب، الذي يتسبب الإنسان في تحصيله، ويتعب في اكتسابه.

ورابعها: كيف وقعت التسوية بين الصديق، وبين هؤلاء الأقارب؟ قلنا: سر التسوية بين الصديق وبين هؤلاء الأقارب، تعريف حق الصديق، الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاص المودة. ولا يكون صديقاً حتى يكون كذلك.

وقد اشتملت هذه الآية، على تسعة أضرب من فنون البديع:

١ ـ صحة التقسيم، وذلك لاستيعاب الكلام، جميع أقسام الأقارب القريبة، بحيث لم يغادر منها شيئاً.

٢ ـ التهذيب، وذلك في انتقال الكلام على مقتضى البلاغة في هذا المكان، فإن مقتضى البلاغة، تقديم الأقرب فالأقرب. كما جاء فيها.

٣ ـ حسن النسق، وذلك في اختياره. ﴿أَوْ﴾: لعطف الجمل، وهي تدل على الإباحة.

٤ ـ الكناية، فقد كنى سبحانه عن الأموال، بالبيوت التي هي حرز الأموال ومقرها، من باب تسمية الشيء بما جاوره، كقولهم: سال الميزاب، وجرى النهر.

٥ ـ المناسبة: وذلك بمناسبة الألفاظ بعضها بعضاً في الزنة، وهي واضحة في لفظة آبائكم وإخوانكم وأعمامكم وأخوالكم.

٦ ـ المثل: وذلك في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ خرج مخرج المثل السائر، الذي يصح أن يتمثل به في كل واقعة، تشبه واقعته.

٧ ـ التذييل، فإن الكلام الذي خرج مخرج المثل جاء تذييلاً لمعنى الكلام المتقدم، لقصد توكيده وتقريره.

٨ ـ المطابقة: وذلك في قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾ فإن هاتين اللفظتين تضادتا تضاداً، أوجب لهما وصفهما بالمطابقة؛ لأن المعنى جميعاً أو متفرقاً.

٩ ـ المقارنة: وذلك في موضعين:

أحدهما: اقتران التمثيل بالتذييل، كما تقدم بيانه.

والثاني: اقتران المطابقة بالتمكين، فإن فاصلة هذا الكلام في غاية التمكين.

ومنها: الطباق بين ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾؛ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين.

ومنها: الإطناب، بتكيرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ لأن الأمر لما كان سبباً في جمعهم، نسب الجمع إليه مجازاً ا هـ. «سمين».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ عقوبة الزاني والزانية.

٢ ـ عقوبة قاذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

٣ ـ حكم قذف الزوجات.

٤ ـ قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة.

٥ ـ آداب الزيارة.

٦ ـ أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج.

٧ ـ نهي النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن إلخ.

٨ ـ أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء، فالمجتمع الإسلامي كأنه أسرة واحدة.

٩ ـ أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح، لعدم وجود المال، أو سواه، بالعفة حتى يغنيه الله تعالى.

١٠ ـ بيان أن الأعمال الصالحة، التي يعملها الكافرون في الدنيا، لا تجدي عنهم نفعاً يوم القيامة، بل تكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

١١ ـ الأدلة التي نصبها الله في الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته.

١٢ ـ المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

١٣ ـ وصف المؤمنين الصادقين.

١٤ ـ وعد الله عباده المؤمنين، بأنه يستخلفنهم في الأرض، وينشر دينهم الذي ارتضى لهم.

١٥ ـ استئذان الموالي والأطفال في أوقات ثلاث، إذا أرادوا الدخول على أهليهم.

١٦ ـ رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الجهاد.

١٧ ـ لا حرج في الأكل من بيوت الآباء والأمهات إلخ. بلا إذن.

١٨ ـ نهي المؤمنين عن الانصراف، من مجلس رسول الله ﷺ، إذا كانوا معه في أمر جامع.

١٩ ـ إباحة إذنه لهم إن شاء، حين الطلب.

٢٠ ـ بيان أن مجلس الرسول مبجل موقر، وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) انتهينا من تفسير سورة النور، في اليوم التاسع والعشرين، من شهر الله المحرم في تاريخ: ٢٩/١/١٤١٣ هـ. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الفرقان

سورة الفرقان: مكية كلها، عند الجمهور. كذا أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه من طرق عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير. قال القرطبي: وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها، نزلت بالمدينة. وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وهي سبع وسبعون آية[1]، وثمان مئة واثنتان وسبعون كلمة، وثلاث آلاف وسبع مئة وثلاثة وستون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ: وجملة ما فيها من المنسوخ آيتان[2]:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ نسخها بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

والآية الثانية: قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ منسوخة في حق الكفار، بآية السيف، وبعض معناها محكم في حق المؤمنين.

علة التسمية: سميت[3] بسورة الفرقان؛ لأن بها الفرق بين الحق والباطل، لاشتمالها على أحكام التوحيد وأدلته، ومكارم الأخلاق وأحوال العباد.

فضلها: أخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم وابن حبان والبيهقي في «سننه» عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت هشام بن حكيم، يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى

---

(١) المراح.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن حزم.

(٣) الصاوي.

سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأته، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: «أرسله أقرئنا هشام». فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «أقرئنا عمر». فقرأت القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه».

وعن النبي ﷺ[١]: «من قرأ سورة الفرقان، لقي الله، وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأدخل الجنة بغير نصب» ولكن هذا الحديث موضوع.

المناسبة: مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها[٢]، أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول، وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم، توقف انفصال واحد منهم على إذنه، وحذر من يخالف أمره، وذكر أن له ملك السماوات والأرض، وأنه تعالى عالم بما هم عليه، ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار. ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى، منزه في صفاته عن النقائص، كثير الخير. ومن خيره أنه نزل الفرقان على رسوله منذراً لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره، وتحذير من عقابه.

وفي «المراغي»: مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه[٣]:

١ ـ أنه سبحانه اختتم السورة السابقة، بكونه مالكاً لما في السماوات والأرض، مصرفاً له على ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة العامة مع النظام البديع، والوضع الأنيق وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيراً كان أو شراً. وافتتح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته، وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هادياً، وسراجاً، منيراً.

---

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

٢ ـ اختتم السورة السالفة، بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك، وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة، والعذاب الأليم، وافتتح هذه بمدح الرسول، وإنزال الكتاب عليه، لإرشادهم إلى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته، بقولهم: إنه رجل مسحور، وإنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا.

٣ ـ في كل من السورتين وصف السحاب، وإنزال الأمطار، وإحياء الأرض الجزر. فقال في السالفة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلخ. وقال في هذه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ إلخ.

٤ ـ ذكر في كل منهما، وصف أعمال الكافرين يوم القيامة، وأنها لا تجزيهم فتيلاً ولا قطميراً، فقال في الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلخ. وقال في هذه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

٥ ـ وصف النشأة الأولى للإنسان في أثنائهما. فقال في الأولى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. وفي الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ
عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا
رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ
جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ
أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن
دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا
كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى

ﭐلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾.

حوت هذه السورة توحيد الله، وإثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان صفات النبي ﷺ، والرد على من أنكروا نبوته ﷺ. ثم بيان أحوال يوم القيامة، وما يكون فيها من الأهوال. ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين، الذين يمشون على الأرض هوناً. ثم ذكر جلال الله، وتصرفه في خلقه، وتفرده بالخلق والتقدير.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه، لما وصف نفسه بصفات العزة والجلال، وبين وجه الحق في ذلك، أردفه حكاية أباطيل عبدة الأوثان، الذين اتخذوا من دونه آلهة تعجيباً لأولي النهى من حالهم، وتنبيهاً إلى خطأ أفعالهم، وتسفيهاً لأحلامهم. فقد انحرفوا عن منهج الحق، وركبوا المركب الذي لا يركبه إلا كل آمن الرأي مسلوب العقل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما تكلم أولاً في التوحيد، ثم في الرد على عبدة الأوثان، أردف ذلك بالرد على الطاعنين في نبوة محمد ﷺ، وقد قسموا مطاعنهم قسمين، مطاعن في القرآن، ومطاعن فيمن نزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما حكى شبهتهم فيما يتعلق بالمنزل، وهو القرآن، ساق شبهتهم في المنزل عليه، وهو الرسول على الوجه الذي ذكره. ثم فند تلك الشبه، وبين سخفها، وأنها لا تصلح مطعناً في النبي. ثم حكى عنهم نوعاً ثالثاً من أباطيلهم، وهو تكذيبهم بيوم القيامة. ثم وصف ما أعد للكافرين فيه، مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى، يسمعون لها تغيظاً وزفيراً،

---

(١) المراغي.

ووضعهم فيها مقرنين في الأصفاد، ونداؤهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه. ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم، بوصف ما يلقاه المتقون في جنات النعيم. مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذي لا خلف لوعده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة، من الشدائد والأهوال في النار، ودعائهم على أنفسهم، بالويل والثبور. . أردفه ذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله، وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم. ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم، ولا يجدون من يستنصروه به.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه، لما ذكر مقالتهم التي طعنوا فيها على رسوله بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ زاعمين أن هذا مما لا ينبغي للرسول أن يفعل مثله، أردف ذلك بالاحتجاج عليهم، بأن محمداً ليس بدعاً في الرسل، فكلهم كانوا يفعلون فعله. وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، وتصبير له على أذاهم. ثم بين أن سنته، أن يبتلي بعض الناس ببعض، فيبتلي الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم، فيناصبوهم العداء، ويؤذوهم ليعلم أيهم يصبر، وأيهم يجزع، وهو البصير بحال الصابرين، وحال الجازعين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير وابن أبي حاتم عن خثيمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها، لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة، وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قال: بل اجمعهما لي في الآخرة فنزلت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الواحدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، حزن رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير نحوه من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي: تزايد وتكاثر خير الإله وإحسانه، الذي من أجله وأعظمه إرسال الرسول، وإنزال القرآن. ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: أنزل القرآن إنزالاً متكرراً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ. ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك العبد أو إنزال القرآن. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: للمكلفين من الثقلين. ﴿نَذِيرًا﴾؛ أي: مخوفاً من عذاب الله تعالى. أو المعنى[1]: تعالى الله الذي نزل القرآن على عبده الأخلص، ونبيه الأخص، وحبيبه الأعلى، وصفيه الأولى محمد المصطفى ﷺ في ذاته وصفاته وأفعاله. فتعالت ذاته من جواز التغير والفناء، وعن مشابهة شيء من الممكنات. وتعالت صفاته عن الحدوث، وأفعاله عن العبث. ومن جملة أفعاله تنزيل القرآن، المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية. وفي الإتيان بعنوان العبد إعلام بكون سيدنا محمد ﷺ، في أقصى مراتب العبودية، وتشريف له بالعبدية المطلقة، وتفضيل له بها على جميع الأنبياء، فإنه تعالى لم يسم أحداً منهم بالعبد مطلقاً، كقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل، رداً عى النصارى. ولذا قدم في التشهد عبده على رسوله.

---

(١) المراح وروح البيان.

وقال الشوكاني: تكلم[1] سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم. ثم في النبوة؛ لأنها الواسطة، ثم في المعاد؛ لأنه الخاتمة. وأصل تبارك: مأخوذ من البركة، وهي النماء، حسيةً كانت أو معنوية.

قال الزجاج: تبارك تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير. وقال الفراء: إنَّ تبارك وتقدس في العربية واحد. ومعناهما العظمة. وقيل: المعنى: تبارك عطاؤه؛ أي: زاد وكثر. وقيل: المعنى؛ أي: دام وثبت. قال النحاس: وهذا أولاها في اللغة.

قال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي، وخص في هذا الموضع بالذكر، لأن ما بعده أمر عظيم، وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله تعالى.

والفرقان القرآن، سمي فرقاناً، لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه، أو بين المحق والمبطل؛ أي: بين المؤمن والكافر، أو لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة. ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق. ثم علل التنزيل بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ أي: ليكون[2] العبد منذراً بالقرآن للإنس والجن ممن عاصره، أو جاء بعده مخوفاً لهم من عذاب الله، وموجبات سخطه. والمراد بعبده محمد ﷺ كما مر. وبالعالمين هنا الإنس والجن. لأن النبي ﷺ مرسل إليهما فقط. فإن الملائكة، وإن كانوا من جملة أجناس العالم، إلا أن النبي ﷺ لم يكن رسولاً إليهم، فلم يبق من العالمين المكلفين إلا الجن والإنس، فهو رسول إليهما جميعاً، فتكون الآية وقوله عليه السلام: «أرسلت للخلق كافة» من العام المخصوص. ولم يبعث نبي غيره ﷺ إلا إلى قوم معينين. وأما نوح عليه السلام، فإنه وإن كان له عموم بعثة، لكن رسالته ليست بعامة لمن بعده. وأما سليمان عليه السلام، فإن كونه مبعوثاً إلى الجن وما كان له من التسخير العام. . لا يستلزم عموم الدعوة.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والآية حجة لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في قوله: ليس للجن ثواب إذا أطاعوه سوى النجاة من العذاب، ولهم عقاب إذا عصوا حيث اكتفى بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ولم يذكر البشارة. قال في «الإرشاد» عدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة.

وفي «المراغي»: وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير، مع أن الرسول مرسل بهما، من قبل أن السورة بصدد بيان حال المعاندين، المتخذين لله ولداً، والطاعنين في كتبه ورسله واليوم الآخر. والنذير المنذر؛ أي: ليكون محمداً منذراً، أو ليكون إنزال القرآن منذراً. ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة؛ أي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً. وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز. والحمل على الحقيقة أولى. ولكونه أقرب مذكور. وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ بالإفراد، وهو محمد ﷺ. وقرأ ابن الزبير ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: الرسول وأمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وقرأ ابن الزبير: ﴿للعالمين الجن والإنس﴾ وهو تفسير للعالمين.

وخلاصة ذلك[2]: تعالى الله عما سواه، في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن المعجز الناطق بعلو شأنه، وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم، والمصالح على عبده محمد ﷺ لينذر به الناس، ويخوفهم بأسه ووقائعه بمن خلا قبلهم من الأمم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

فائدة: لفظة تبارك[3] كلمة لا تستعمل إلا لله تعالى بلفظ الماضي، وذكرت

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) فتح الرحمٰن.

في هذه السورة في ثلاثة مواضع تعظيماً لله تعالى:

الأول: عند ذكر الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

والثاني: عند ذكر النبي ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾.

والثالث: عند ذكر البروج: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

ومثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وخصت مواضعها بذكرها لعظم ما بعدها:

الأول: ذكر الفرقان، وهو القرآن المشتمل على معاني كتب الله تعالى.

والثاني: ذكر النبي ﷺ، ومخاطبة الله تعالى له فيه.

وفي الأثر: «لولاك يا محمد ما خلقت الكائنات» وفي «كشف الخفاء»: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك». قال الصغاني: هذا حديث موضوع. وكذلك قال «الشوكاني». قال العجلوني بعد ذكره الأثر. وأقول: لكن معناه صحيح، وإن لم يكن حديثاً.

والثالث: ذكر البروج والشمس والقمر والليل والنهار، ولولاها لما وجد في الأرض حيوان ولا نبات.

ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات، من صفات الكبرياء:

الأولى: ذكرها بقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من الموصول الأول، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الذي ﴿لَهُۥ﴾ خاصة دون غيره استقلالاً أو اشتراكاً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك التصرف بالأمر والنهي في الجمهور؛ أي: له السلطان القاهر عليهما، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجاداً وإعداماً، وأمراً ونهياً بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح.

والصفة الثانية: ذكرها بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ أي: لم ينزل أحداً منزلة ولد، فهو عطف على الصلة. وهذا رد على اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب؛ أي: ولم يكن له ولد ليرث ملكه؛ لأنه حي لا يموت، كما زعم الذين

قالوا: ذلك للمسيح وعزير، والملائكة. كما حكى الله سبحانه عنهم، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾.

والصفة الثالثة: ذكرها بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: في ملك السماوات والأرض، لينازعه أو ليعاونه في الإيجاد. فهو تأكيد لقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية، وأهل الشرك الخفي؛ أي: وما كان لله سبحانه شريك في ملكه وسلطانه، يصلح أن يعبد من دونه، فأفردوا له العبادة، وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس. وفيه أيضاً رد على المشركين العرب، القائلين في تلبيتهم للحج: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو ملك.

والصفة الرابعة: ذكرها بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الموجودات؛ أي: أحدث(١) وأوجد كل موجودات، من مواد مخصوصة على صور معينة، ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الأحكام والآثار ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: فهيأه لما أراده منه، من الخصائص والأفعال اللائقة به، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبر في أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصنائع المتنوعة، ومزاولة الأعمال المختلفة. وهكذا أحوال سائر الأنواع.

والمعنى: أي(٢) وأوجد كل شيء بحسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة، وهيأه لما أراد به من الخصائص، والأفعال التي تليق به، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبر، في أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصناعات المختلفة، والانتفاع بما في ظاهر الأرض وباطنها. وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبإدراكها.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

والخلاصة: أن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه، ومليكه وإلهه. وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره. ومن كان كذلك، فكيف يخطر بالبال، أو يدور في الخلد كونه سبحانه والداً له، أو شريكاً له في ملكه، كما قال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ . . .﴾ الآية.

وفي «فتح الرحمٰن» إن قلت: الخلق[1] هو التقدير. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ فكيف جمع بينهما؟

قلت: الخلق من الله هو إيجاد، فصح الجمع بينه وبين التقدير.. ولو سلم أنه التقدير، لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظاً. كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ﴾ انتهى.

ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان. فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾؛ أي: واتخذ المنذرون من كفار مكة كأبي جهل وأصحابه؛ أي: واتخذوا لأنفسهم وجعلوا لها ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي: معبودات يعبدونها من دونه تعالى؛ أي: جعلوا لأنفسهم متجاوزين الله آلهة. ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلاً. والجملة في محل نصب صفة لآلهة، وغلب العقلاء على غيرهم؛ لأن في معبودات الكفار الملائكة وعزير والمسيح.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم مخلوقون لله سبحانه وتعالى، فكيف تُتخذ آلهة؟ وقيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء، جرياً على اعتقاد الكفار، أنها تضر وتنفع. وقيل معنى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أن عبدتهم يصورونهم. وقال[2] هنا: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ بالضمير، وفي مريم ويس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بلفظ الجلالة. حيث قال في مريم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ وفي يس: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ موافقة لما قبله في المواضع الثلاثة.

ثم لما وصف الله سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة.. وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ. فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يستطيعون ﴿ضَرًّا﴾؛

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) فتح الرحمٰن.

أي: دفع ضر عنها، قُدِّم لكونه أهم من النفع. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: ولا جلب نفع لها، فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم؟ فهم أعجز من الحيوان، فإنه ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع لنفسه في الجملة.

وفي «فتح الرحمٰن»: قدم[1] الضر على النفع لمناسبة ما بعده، من تقديم الموت على الحياة. انتهى. ثم زاد في بيان عجزهم، فنصَّصَ على هذه الأمور. فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: لا يقدرون على إماتة الأحياء. وإحيائهم أولاً وبعثهم ثانياً. ومن كان كذلك، فبمعزل عن الألوهية، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها.

وفيه[2] تنبيه على أن الإلٰه، يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء، يعني أن الضار والنافع والمميت والمحيي والباعث هو الله سبحانه، فهو المعبود الحقيقي، وما سواه فليس بمعبود بل عابد لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

وفي الآية إشارة إلى الأصنام المعنوية، وهم المشايخ المدعون، والدجاجلة المضلون، فإنهم ليسوا بقادرين على إحياء القلوب، وإماتة النفوس، فالتابعون لهم في حكم عابدي الأصنام. فليحذر العاقل من اتخاذ أهل الهوى متبوعاً، فإن الموت الأكبر الذي هو الجهل، إنما يزول بالحياة الأشرف الذي هو العلم. فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق، العلم النافع، ودعاؤهم إلى الله على بصيرة.. فهو الذي رقى غيره من الجهل إلى المعرفة، وأنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة بإذن الله تعالى. وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء العاملين. وأما من سقط عن هذه الرتبة، من الجهلة الذين اتخذهم الناس سادةً، لنسبهم إلى العلماء، فليس الاستماع إلى كلامه إلا كاستماع بني إسرائيل إلى صوت العجل.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: كونوا في جملة الصادقين ومصاحبين لهم وبعضهم ولذا قالوا يلزم المرء أن يختار من البقاء أحسنها ديناً،

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) روح البيان.

حتى يتعاون بالأخوان الصادقين. قيل لعيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ فقال: من يزيدكم في علمه منطقه، ويذكركم الله رؤيته، ويرغبكم في الآخرة عمله.

اللهم بحق الفرقان اجعلنا مع الصادقين من الإخوان.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى[١] بين ما بآلهتهم من النقائص من وجوه متعددة:

الأولى: أنها لا تخلق شيئاً. والإلٰه يكون قادراً على الخلق والإيجاد.

والثاني: أنها مخلوقة. والمخلوق محتاج. والإلٰه يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه.

والثالث: أنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن تملك ذلك لغيرها، ومن كان كذلك، فلا فائدة في عبادته وإجلاله وتعظيمه.

والرابع: أنها لا تقدر على التصرف في شيء ما، فلا تستطيع إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم. ومن كان كذلك، فكيف يسمىٰ إلٰهاً، وتعطى له خصائص الآلهة، من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله.

وعلى الجملة[٢] فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق، المالك لكل شيء، المتصرف فيه بقدرته وسلطانه. وعبدوا ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، وليس بعد هذا من حماقة، ولا يرضى بمثله، من له مسكنه من عقل، ولا أثارة من علم.

ولما فرغ الله سبحانه من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين.. شرع في ذكر شبه منكري النبوة. فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من أهل مكة، كنضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن تابعهم ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي[٣]: كذب مصروف

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

عن وجهه؛ لأن الإفك كل مصروف عن وجهه، الذي يحق أن يكون عليه. ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: المؤتفكات. ورجل مأفوك؛ أي: مصروف عن الحق إلى الباطل. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اختلقه محمد من عند نفسه. والفرق بين الافتراء والكذب أنَّ الافتراء هو افتعال الكذب. من قبل نفسه. والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، كما في الأسئلة المقحمة.

﴿وَأَعَانَهُۥ﴾؛ أي: وأعان محمداً ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على اختلاقه ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: قوم غير قومه؛ أي: اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبر عنها بعبارته. قال الكلبي[1] ومقاتل: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، فهو الذي قال هذا القول. وقال: أعانه عليه عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء عامر بن الحضري، وجبر مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرأون التوراة، ويحدثون أحاديث منها في مكة، فلما أسلموا، كان النبي ﷺ يتعهدهم، ويختلف إليهم، فزعم النضر وأصحابه، أنهم يلقون إليه ﷺ أخبار الأمم الماضية، وهو ﷺ يعبر عنها بعبارات من عنده، فهذا معنى إعانتهم له، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال. فرد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾؛ أي: قائلوا هذه المقالة؛ أي: فعلوا بما قالوا ظلماً وزوراً.

والمعنى: أي وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله تعالى، بل اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب، ممن أسلموا وكان يتعهدهم، ويختلف إليهم (تقدم ذكر أسمائهم) فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته، وأسلوبه الخاص، فرد الله عليهم مقالهم فقال: ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾؛ أي: فعلوا بما قالوا، فإن جاؤوا أتى يستعملان بمعنى فعل فيتعديان تعديته ﴿ظُلْمًا﴾ عظيماً بجعل الكلام المعجز إفكاً مختلفاً مفتعلاً من اليهود، يعني: وضعوا الإفك في غيره. ﴿وَزُورًا﴾؛ أي: كذباً كبيراً، حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو

---

(١) المراح.

بريء منه؛ أي: فقد[1] وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه إفكاً مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذووا اللسن والفصاحة، والغاية في البلاغة فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعاً في معارضته، وقد ركبوا الصعب، والذلول، ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولو كان محمد ﷺ، قد استعان في ذلك بغيره.. لأمكنهم أيضاً أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله في اللغة إلا مثلهم، فلما لم يفعلوا.. علم أنه قد بلغ الغاية التي لا تجارى. وانتهى إلى حد الإعجاز، إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التي فيها سعادة البشر في معاشهم ومعادهم، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب، التي لا تصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم. وبعد أن حكى عنهم قولهم في الافتراء، بإعانة قوم آخرين عليه.. حكى عنهم طريق تلك الإعانة بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذه هي الشبهة الثانية؛ أي: وقال الذين كفروا في حق القرآن، وهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، أساطير الأولين؛ أي: ما سطره[2] وكتبه المتقدمون من الخرافات والأباطيل والأحاديث التي لا نظام لها مثل حديث رستم واسفنديار. ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ أي: انتسخها محمد ﷺ، من جبر ويسار وعداس؛ أي: أمر أن تكتب له؛ لأنه ﷺ كان لا يكتب، وهو كاحتجم وافتصد إذا أمر بذلك؛ أي: أمرهم بكتابتها له، وقراءتها عليه ليحفظها، لأنه أمي. ﴿فهي﴾؛ أي: فتلك الأساطير. ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تلقى على محمد ﷺ، وتقرأ عليه، بعد اكتتابها وانتساخها، ليحفظها من أفواه من يمليها عليه، لكونه أمياً، لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة والإملاء في الأصل حكاية القول لمن يكتبه. وهنا القراءة عليه من المكتوب.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ أي: دائماً أو خفيةً قبل انتشار الناس وحين يأوون إلى مساكنهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ ابن مسعود[1] وإبراهيم النخعي وطلحة بن مصرف ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ بضم التاء الأولى وكسر الثانية، مبنياً للمفعول، والابتداء على قراءتهم بضم الهمزة.

والمعنى[2]: اكتتبها له كاتب؛ لأنه كان أمياً لا يكتب. ثم حذفت اللام، فأفضي الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بني الفعل للضمير الذي هو إياه، فانقلب مرفوعاً مستتراً، بعد أن كان منصوباً بارزاً، كذا قال في «الكشاف». واعترضه أبو حيان. وقرأ[3] طلحة وعيسى ﴿فهي تتلى﴾ بالتاء بدل الميم.

والمعنى: أي[4] وقال المشركون: الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى؛ أي: ما هذا الذي يقرأه محمد ﷺ إلا أحاديث الأولين، الذين كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها من اليهود، فهي تستنسخ منهم، وتقرأ عليه ليحفظها غدوةً وعشياً؛ أي: قبل انتشار الناس، وحين يأتون إلى مساكنهم. وقد عنوا بذلك، أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال، وهذه جرأة عظيمة منهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾. وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائماً.

ثم أمره الله سبحانه وتعالى، بإجابتهم عمّا قالوا بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ـ رداً وتحقيقاً للحق ـ، ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين، بل هو أمر سماوي. ﴿أَنزَلَهُ﴾ الإله ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ والغيب ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا يعزب عن علمه شيء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفكار، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته. كما أخبركم فيه بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة، لا يعلمها إلا عالم الأسرار ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير، فكيف تجعلونه أساطير الأولين؟

وخص السر[5] إشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة، لا تبلغ

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.
(٥) الشوكاني.

إليها عقول البشر. والسر الغيب؛ أي: يعلم الغيب الكائن فيهما. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. تعليل لتأخير العقوبة؛ أي: إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله، والظلم له، فإنه لا يعجلها عليكم بذلك؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة؛ أي[1]: إنه تعالى أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل على عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها، واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صباً. وفيه إشارة إلى أهل الضلالة من الذين نسبوا القرآن إلى الإفك، لو رجعوا عن قولهم وتابوا إلى الله، يكون غفوراً لهم رحيماً بهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

واعلم: أن الله تعالى أنزل القرآن على وفق الحكمة الأزلية في رعاية مصالح الخلق؛ ليهتدي به أهل السعادة، وليضِلَّ به أهل الشقاوة، وينسبوه إلى الإفك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ والقرآن لا يدرك إلا بنور الإيمان. والكفر ظلمة. وبالظلمة لا يرى إلا الظلمة، فبظلمة الكفر؛ أي: الكفار القرآن النوراني القديم كلاماً مخلوقاً ظلمانياً من جنس كلام البشر، فكذلك أهل البدعة.. لما رأوا القرآن بظلمة البدعة، رأوا كلاماً مخلوقاً ظلمانياً بظلمة الحدوث، وظلموا أنفسهم بوضع القرآن في غير موضعه من كلام البشر. وفي الحديث: «القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، فمن قال بكونه مخلوقاً فقد كفر بالذي أنزله». نسأل الله العصمة والحفظ من الإلحاد وسوء الاعتقاد.

ولما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن.. ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ، وذكر هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبي ﷺ، تمنع النبوة في زعمهم. ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال المشركون من أشراف قريش، كأبي جهل وعتبة وأمية وعاص وأمثالهم. وذلك حين اجتماعهم عند ظهر الكعبة. ﴿ما﴾ استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، في محل الرفع على الابتداء خبرها قوله: ﴿لِهَٰذَا الرَّسُولِ﴾ وجدت اللام مفصولة عن الهاء في المصحف، واتباعه سنة.

---

(١) روح البيان.

وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه رسولاً استهزاء وسخرية؛ أي: أيُّ سبب حصل لهذا الذي يدعي الرسالة؟ حال كونه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل ـ والطعام كل ما يتناول من الغذاء ـ ﴿و﴾ حالة كونه ﴿يمشي في الأسواق﴾ لطلب المعاش كما نمشي ـ وهو الموضع الذي يجلب إليه المتاع للبيع ويساق ـ أنكروا أن يكون الرسول بصفة البشر، يعني إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا، ولم يؤت ميزةً دوننا.

وما هذا[1] منهم إلا لضعف عقولهم، وقصور إدراكهم، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية، بل بصفات روحية، وفضائل نفسية، فطرهم الله تعالى عليها. توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

قال بعضهم[2]: ليس بَمَلكٍ، ولا مَلِكٍ، وذلك؛ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، والملوك لا يتسوقون ولا يبتذلون، فعجبوا أن يكون مثلهم في الحال، ولا يمتاز من بينهم بعلو المحل والجلال لعدم بصيرتهم وقصور نظرهم على المحسوسات، فإن تمييز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأحوال نفسانية، فالبشرية مركب الصورة. والصورة مركب القلب. والقلب مركب العقل. والعقل مركب الروح. والروح مركب المعرفة، والمعرفة قوة قدسية صدرت عن كشف عين الحق.

وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن الكفار صم بكم عمي، فهم لا يعقلون؛ لأنهم نظروا إلى الرسول بنظر الحواس الحيوانية، وهم بمعزل من الحواس الروحانية والربانية. فما رأوا منه إلا ما يرى من الحيوان، وما رأوه بنظر يرى به النبوة والرسالة، ليعرفوه أنه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين.

وقالوا أيضاً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا؛

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي: هلا أنزل إلى محمد ﷺ ملك من الملائكة على هيأته وصورته المباينة لصورة البشر والجن. ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنصب بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التحضيض.

قرأ الجمهور: بالنصب، وقرىء ﴿فتكون﴾ بالرفع، حكاه أبو معاذ عطفاً على ﴿أنزل﴾؛ لأن ﴿أنزل﴾ في موضع رفع، وهو ماض وقع موقع المضارع؛ أي: هلا ينزل إليه ملك، أو هو جواب التحضيض على إضمار هو؛ أي: فيكون ذلك الملك ﴿مَعَهُ﴾؛ أي: مع محمد ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾؛ أي: منذراً للناس مخوفاً لهم من عذاب الله تعالى، معيناً له في الإنذار، معلوماً صدقه بتصديقه.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ معطوف على ﴿أنزل﴾، ولا يجوز عطفه على ﴿فيكون﴾؛ أي: أو هلا يلقى إلى محمد ﷺ كنز ومال كثير من السماء، يستظهر به ويستغنىٰ به عن المشي في الأسواق لتحصيل المعاش، والكنز: المال المكنوز؛ أي: المجموع المحفوظ.

﴿أَوْ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾؛ أي: لمحمد ﷺ ﴿جَنَّةٌ﴾ وبستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ من ثمارها، ويعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس؛ أي: إن لم يلق إليه كنز، فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بغلته كما لأهل الغنى والقرى.

قال صاحب «الكشاف»: إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكاً، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك يعينه، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنز. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرزق منه. ا هـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وتكون له جنة﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ الأعمش وقتادة ﴿يكون﴾ بالتحتية؛ لأن تأنيث الجنة غير حقيقي. وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي وابن وثاب وطلحة والأعمش: ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ بنون الجمع؛ أي: يأكلون هم من ذلك البستان فينفقون به في دنياهم ومعاشهم، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بياء الغيبة، يعنون الرسول ﷺ؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

يأكل هو وحده منه، ليكون له بذلك مزية علينا، حيث يكون أكله من جنته. قال النحاس: والقراءتان حسنتان، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدم ذكر الرسول ﷺ وحده، فعود الضمير إليه بَيِّنٌ.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: إن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحتري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبه بن الحجاج، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعتذروا منه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك، قال: فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعتذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث، تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نسودك، وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به.. فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي.. أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً، مما عرضناه عليك.. فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكاً يصدقك فيما تقول، ويراجعنا عنك. وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش، كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً»، فأنزل الله في ذلك هذه الآية. أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر.

وبعد أن[1] حكى عنهم أولاً أنهم يثبتون له كمال العقل، ولكنهم ينتقصونه

---

(١) المراغي.

بصفات في شؤون الدنيا.. حكى عنهم ثانياً: أنهم نفوا عنه العقل بتاتاً، وادعوا أنه مختل الشعور والإدراك، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: وقال الذين ظلموا أنفسهم، بنسبتهم إلى الرسول ﷺ ما هو منه بريء، وهم القائلون بالمقالات السابقة. وإنما وضع[1] الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بوصف الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوا، لكونه إضلالاً خارجاً عن حد الضلال؛ أي: قالوا للمؤمنين ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما تتبعون أيها المؤمنون به ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: مختل النظر والعقل؛ أي: إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر؛ أي: قد سحر فغلب على عقله، حتى يزول عنه.

قال بعض أهل الحقائق: كانوا يرون قبح حالهم في مرآة النبوة، وهم يحسبون أنه حال النبي عليه السلام. وقيل: ذا سُحْرٌ، وهي الرئة؛ أي: بشراً له رئة لا ملكاً، والمعنى: أي: ما تتبعون إلا رجلاً سُحِرَ فاختل عقله، فهو لا يعني ما يقول، ومثله لا يطاع له رأي. وهذا منهم ترق في انتقاصه، وأنه لا يصلح للنبوة بحال.

ولما ذكر ضلالاتهم.. التفت إلى رسوله ﷺ مسلياً له بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: أنظر واعجب لهم يا محمد، كيف ضربوا لك، وقالوا فيك تلك الأمثال الفاسدة، والأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الأحوال الشاذة البعيدة عن الوقوع، ليتوصلوا بها إلى تكذيبك. وذلك من جهلهم بحالك، وغفلتهم عن جمالك.

والأمثال: هي الأقوال النادرة والاقتراحات الغريبة، وهي ما ذكروه هنا ﴿فضلوا﴾ بسببها عن الحق، ضلالاً بعيداً، فلا يجدون طريقاً إليه، ولا وصلوا إلى شيء منه، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائغة التي لا تصدر عن أدنى العقلاء، وأقلهم تمييزاً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن ضلالتهم. قال بعضهم: وقد أبطلوا الاستعداد بالاعتراض والإنكار على النبوة،

---

(١) روح البيان.

فحرموا من الوصول إلى الله تعالى. أو لا يجدون إلى القدح في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق.

والمعنى: أي[1] انظر واعجب لهم كيف جرؤوا على التفوه بتلك الأقاويل العجيبة، فاخترعوا لك صفات وأحوالاً بعيدة كل البعد عن صفاتك التي أنت عليها، فضلوا بذلك عن طريق الهدى، وصاروا حائرين لا يدرون ماذا يقولون، ولا يقدحون به في نبوتك إلا مثل السخف والهذر.

والخلاصة: أن ما أتوا به لا يصلح أن يكون قادحاً في نبوتك، ولا مطعناً فيك، فإن كان لهم مطعن في المعجزات التي أتيت بها فليفعلوا، ولكن أنى لهم ذلك. ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ أي تزايد وكثر خير ربك الذي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ أي وهب لك في الدنيا، لأنه قد شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إعطاءً خيراً مما قالوا أو اقترحوا من إلقاء الكنز وجعل الجنة، ولكن أخره إلى الآخرة؛ لأنه خير وأبقى.

وخص[2] هذا الموضع بذكر تبارك؛ لأن ما بعده من العظائم حيث ذكر النبي ﷺ والله خاطبه بقوله: «لولاك يا محمد ما خلقت الكائنات» كذا في «برهان القرآن». قلت: هذا الأثر من الموضوعات لا أصل له كما مر.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل من خيراً، ومحقق لخيريته مما قالوا؛ لأن ذلك كان مطلقاً، عن قيد التعدد وجريان الأنهار. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في الدنيا ﴿قُصُورًۢا﴾؛ أي: بيوتاً مشيدة؛ أي: رفيعة كقصور الجنة. وجملة ﴿يجعل﴾ معطوفة على محل الجزاء الذي هو جعل، وهو الجزم وبجزم يجعل.

قرأ الجمهور[3]: نافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو قالوا عطفاً على موضع جعل؛ لأن التقدير: إن يشأ يجعل. وقرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو بكر ومجاهد وحميد ومحبوب عن أبي عمرو بالرفع على أنه مستأنف، وقد تقرر في علم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

الإعراب، أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أن يكون ﴿جعل﴾ هنا في محل جزم ورفع. فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع. وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان ويجعل بالنصب على إضمار أن. وقال أبو الفتح: هي على جواب الشرط بالواو. وهي قراءة ضعيفة. انتهى.

وقرىء بإدغام لام ﴿يجعل﴾ في لام لك، لاجتماع المثلين. وقرىء بترك الإدغام، لأن الكلمتين منفصلتان.

والحاصل: أنه قرىء ﴿يجعل﴾ بالجزم والرفع والنصب. ونظير هذه القراءات الثلاث قول النابغة:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ   رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ   أَجَبِّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامُ

يروى بجزم نأخذ ورفعه ونصبه.

والمعنى: أي كثر[1] خير ربك، فإن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما اقترحوا، فإن أراد جعل لك في الدنيا مثل ما وعدك به في الآخرة، فأعطاك جنات تجري من تحتها الأنهار، وآتاك القصور الشامخة، والصياصي التي لا يصل إلى مثلها أكثرهم مالاً وأعزهم نفراً، ولكن الله لم يشأ ذلك؛ لأنه أراد أن عطاءه لك في الدار الباقية الدائمة، لا في الدار الزائلة الفانية. وإنما كانت خيراً مما ذكروا لكثرتها، وجريان الأنهار من تحت أشجارها، وبناء المساكن الرفيعة فيها، والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً.

تنبيه: وفي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ...﴾ الآية. إشارة إلى أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح، فيفتح على بعضهم أبواب المعارف والعلوم، ويسد عليه أبواب الدنيا. ويفتح على آخرين أبواب الرزق، ويحرمه لذة الفهم والعلم، ولا اعتراض عليه؛ لأنه فعال لما يريد.

---

(١) المراغي.

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم، من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي[1]: بالقيامة والحشر والنشر. والساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك، لسرعة حسابه. كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أو لما نبه عليه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ كما في «المفردات» وهو إضراب عن توبيخهم، بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقال منه.

والمعنى: أي[2] ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق، وتقولوا عليك ما تقولوا، إلا من قبل أنهم لا يوقنون بالبعث، ولا يصدقون بالثواب والعقاب.

والخلاصة: أنهم أتوا بأعجب من هذا كله، وهو تكذيبهم بالساعة، ومن ثم فهم لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها. ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثلهم من الخيبة والخذلان. فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيأنا وأحضرنا. وأصله أعددنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي: بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء. وضع[3] الظاهر موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً عظيمة شديدة الاشتعال تسعر وتتقد عليهم. قال بعضهم: سعير الآخرة، إنما سعرت من سعير الدنيا وهي حرص العبد على الدنيا، وملاذها ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ صفة للسعير؛ أي: إذا[4] كانت تلك السعير بمرأىً منهم، وقابلتهم بحيث صاروا بإزائها، كقولهم داري تنظر دارك؛ أي: تقابلها، فأطلق الملزوم، وهو الرؤية وأريد اللازم، وهو كون الشيء بحيث يرى، والانتقال من الملزوم إلى اللازم مجاز.

والمعنى: إذا قابلتهم تلك السعير، أو المعنى: إذا رأتهم رؤية حقيقية بعينها، كما جاء في حديث: «أن لها عينين» ولا مانع منه. ا هـ. «شيخنا».

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو أقصى ما يمكن أن يرى منه. قيل: من المشرق إلى المغرب وهي خمس مئة عام. وفيه إشارة إلى أن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد في المسافات المعهودة.

فإن قلت[1]: كيف تتصور الرؤية من النار، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؟

قلت: يجوز أن يخلق الله لها حياةً وعقلاً ورؤيةً ونطقاً فالبنية ليست شرطاً. قال بعضهم: وهذا هو الحق، كما يدل عليه، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ فلا حاجة إلى تأويل أمثال هذا المقام.

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾؛ أي: للنار ﴿تَغَيُّظًا﴾؛ أي: غلياناً ﴿وَزَفِيرًا﴾؛ أي: صوتاً كصوت الحمار. وقيل: تغيظاً؛ أي: صوت تغيظ وغضب على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ؛ أي: الغضبان إذا غلى صدره من الغيظ، فعند ذلك يهمهم. والهمهمة ترديد الصوت في الصدر.

فإن قلت: كيف يسمع التغيظ الذي هو بمعنى الغضب؟

قلت: في الكلام تقديم وتأخير وتقدير. والمعنى: إذا رأتهم سمعوا لها زفيراً، وعلموا لها تغيظاً. نظير قول الشاعر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فِي ٱلْوَغَىٰ ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحَا

أي: وحاملاً رمحاً. والمعنى: وإذا كانت منهم بمرأى الناظر.. سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ لشدة توقدها، وصوت الزفير الذي يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألماً.

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال: إن جهنم لتزفر زفرةً، لا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا خرّ لوجهه ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام، ليحثوا على ركبتيه. ويقول رب، لا أسألك اليوم إلا نفسي.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا﴾؛ أي: من السعير ﴿مَكَانًا﴾؛ أي: في مكان. ومنها بيان

---

(١) الخازن بزيادة.

مقدم فصار حالاً منه. ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً[1] مفيدة لزيادة شدة حال الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة.

واعلم: أنه تضيق عليهم جهنم، كما تضيق حديدة الرمح على الرمح، أو تكون لهم كحال الوتد في الحائط، فيضم العذاب، وهو الضيق الشديد إلى العذاب، وذلك لتضيق قلوبهم في الدنيا حتى لم تسع فيها للإيمان.

أي: وإذا ألقوا وطرحوا في مكان ذا ضيق منها حالة كونهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: حالة كونهم قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم مشدودة إليها بسلسلة، أو مقرنين مع شياطينهم سلسلة في سلسلة. والتقرين تقييد الأرجل وجمع الأيدي والأعناق في السلاسل. ا هـ. «صاوي».

﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾؛ أي: نادوا في ذلك المكان الضيق الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً؛ أي: يتمنون هلاكاً وينادونه، فيقولون: يا ثبوراه، يا ويلاه، يا هلاكاه، تعال فهذا أوانك. فيقول الله تعالى لهم، أو فيقال لهم على ألسنة الملائكة، تنبيهاً على خلود عذابهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد، أي على مرة واحدة. ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ أي: بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنه شيء واحد.

والمعنى[2]: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً، وادعوه أدعية كثيرة، فإنَّ ما أنتم فيه من العذاب، أشد من ذلك لطول مدته، وعدم تناهيه، ومستوجب لتكرير الدعاء في كل آن.

وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك، من غير أن يكون هناك قول.

وقيل: إن المعنى أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، بل هو ثبور كثير، لأن العذاب أنواع. والأولى أن يقال: إن المراد بهذا الجواب عليهم

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك، المنجي لهم مما هم فيه.

وقرأ ابن كثير وعبيد عن أبي عمرو[١]: ﴿ضيقاً﴾. عن ابن عطية، وقرأ أبو شيبة صحاب معاذ بن جبل (مقرنون) بالواو، وهي قراءة شاذة. والوجه قراءة الجمهور ونسبها ابن خالويه إلى معاذ بن جبل، ووجهها أن يرتفع على البدل من ضمير ألقوا بدل نكرة من معرفة. وقرأ عاصم الجحدري وابن السميقع وعمرو بن محمد ﴿ثبوراً﴾، بفتح الثاء المثلثة في ثلاثتها. وفعول بفتح الفاء في المصادر قليل نحو البتول.

والمعنى: أي[٢] وإذا ألقوا منها، في مكان ضيق، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل.. استغاثوا، وقالوا: يا ثبوراه؛ أي: يا هلاكنا احضر فهذا وقتك. فيقال لهم: لا تنادوا هلاكاً واحداً وادعوا هلاكاً كثيراً؛ أي إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم واحداً، إنما ثبوركم منه كثير، لأن العذاب ألوان وأنواع، ولكل منها ثبور لشدته وفظاعته.

وخلاصة ذلك: أن الله سبحانه، قد أعد لمن كذب بالساعة ناراً مستعرة، وإذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد.. سمعوا صوت غليانها، وإذا طرحوا في مكان ضيق، وهم مقرنون في السلاسل والأغلال.. تمنوا الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه. كما قيل: أشد من الموت ما يتمنى منه الموت، فيقال لهم حينئذٍ: لا تدعوا هلاكاً واحداً، فإنه لا يخلصكم، بل اطلبوا هلاكاً كثيراً لتخلصوا به. والمقصد من ذلك تيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك. وتنبيه إلى أن عذابهم أبدي لا خلاص لهم منه.

وروى[٣] أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يكسى من أهل النار، يوم القيامة، إبليس، يكسى حلة من النار فيضعها على حاجبيه، ويسحبها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) زاد المسير.

من خلفه، وهو يقول: واثبوراه، وهم ينادون يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فينادي يا ثبوراه، وينادون يا ثبورهم، فيقول الله، عز وجلّ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾. رواه أحمد في «المسند» والطبري والسيوطي في «الدر» والبيهقي في «البعث» عن أنس.

وبعد أن وصف سبحانه عقاب المكذبين بالساعة.. أردفه ما يؤكد حسرتهم وندامتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿أَذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور من النار المسعرة الموصوفة بالصفات السابقة. والإشارة بقوله: ذلك إلى السعير المتصفة بتلك الصفات الفظيعة؛ أي: أتلك السعير ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ والدوام ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خير؛ أي: المتصفون بمطلق التقوى، التي هي اجتناب الشرك، فالمؤمن، وإن كان عاصياً فهو متق لاتقائه الشرك. وجنة الخلد هي الدار التي لا ينقطع نعيمها، ولا ينقل عنها أهلها، وإضافة[1] الجنة إلى الخلد للمدح، وإلا فالجنة اسم للدار المخلدة. ويجوز أن تكون الجنة اسماً يدل على البستان الجامع لوجوه البهجة، ولا يدخل الخلود في مفهومها، فأضيفت إليه للدلالة على الخلود، فإن قيل: كيف يتصور الشك في أنه أيهما خير، حتى يحسن الاستفهام والترديد، وهل يجوز للعاقل أن يقول السكر أحلى أم الصبر، وهو دواء مر؟ قلت: يقال: ذلك في معرض التقريع والتهكم والتحسير على ما فات. وفي «الوسيط» هذا للتنبيه على تفاوت ما بين المنزلتين، لا على أن في السعير خيراً. ا هـ.

وقال بعضهم: هذا على المجاز، وإن لم يكن في النار خير. والعرب تقول العافية خير من البلاء، وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم. وقيل: ليس[2] هذا من باب التفضيل، وإنما هو كقولك عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال الشاعر:

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنة الموصوفة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمتقين في علم الله تعالى، أو في اللوح المحفوظ. ﴿جَزَآءً﴾ وثواباً على أعمالهم، بمقتضى الكرم لا بالاستحقاق ﴿وَمَصِيرًا﴾ يصيرون إليه، ومرجعاً يرجعون إليه. ومنقلباً ينقلبون إليه.

فإن قلت[1]: كيف قال: في وصف الجنة، كانت لهم جزاءً، بصيغة الماضي، مع أنها لم تكن حينئذٍ جزاءً ومصيراً؟

قلت: إنما قال ذلك؛ لأن ما وعد الله به، فهو في تحققه كأنه قد كان، فلا بد من وقوعه، أو لأنه كان في اللوح المحفوظ أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

والمعنى: قل يا محمد[2] لهؤلاء المكذبين تهكماً بهم، وتحسيراً لهم على ما فاتهم، أهذه النار التي وصفت لكم خيراً أو جنة الخلد التي يدوم نعيمها ولا يبيد وقد وعدها من اتقاه في الدنيا بطاعته فيما به أمره أو نهاه. ثم حقق أمرها تأكيداً للبشارة بقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؛ أي: كانت تلك الجنة لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بطاعته، وثواباً لهم على تقواه، ومرجعاً لهم ينتقلون إليه في الآخرة.

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك المتقين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جنة الخلد ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: ما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فإن قلت[3]: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، وليس هو في الجنة؟

قلت: إن الله سبحانه يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة بل كل واحد من أهل الجنة مشتغل بما هو فيها من اللذات الشاغلة عن الالتفات إلى غيرها. أو المعنى: لهم[4] فيها ما يشاؤونه من أنواع النعيم واللذات مما يليق بمرتبتهم، فإنهم بحسب نشأتهم لا يريدون درجات من فوقهم، فلا يلزم تساوي مراتب أهل

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

الجنات في كل شيء. ومن هذا يعلم فساد ما قيل في «شرح الأشباه»: بجواز اللواطة في الجنة لجواز أن يريدها أهل الجنة ويشتهيها. وذلك لأن اللواطة من الخبائث، التي ما تعلقت الحكمة بتحليلها في عصر من الأعصار كالزنى، فكيف يكون ما يخالف الحكمة، مراداً ومشتهىً في الجنة. فالقول بجوازها ليس إلا من الخباثة.

والحاصل: أن عموم الآية، إنما هو بالنسبة إلى المتعارف، ولذا قال بعضهم: في الآية دليل، على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة، ولما لم تكن اللواطة مراداً في الدنيا للطيبين، فكذا في الآخرة حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ فيها أبداً بلا انقطاع ولا زوال. حال من الهاء في لهم، أو من الواو في يشاؤون. قيد بالخلود، لأن من تمام النعيم أن يكون دائماً، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم. وأنشد في المعنى:

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِيْ فِيْ سُرُوْرٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ٱنْتِقَالاَ

﴿كَانَ﴾ المذكور من الدخول، أو الخلود، ما يشاؤون. ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾؛ أي: موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب؛ لأنه[1] جزاء وأجر، أومسؤولاً سألته الملائكة في قولهم: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم. قاله محمد بن كعب أو الناس في قولهم: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة. قال معناه ابن عباس وابن زيد: وما في على من معنى الوجوب لاستحالة الخلف في وعده تعالى، فإن تعلق إرادته تعالى بالموعود، متقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلام متصل في المعنى بقوله: في أول السورة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ الخ وتعلق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد؛ أي: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم، يحشر الله سبحانه وتعالى فيه، والذين اتخذوا من دونه آلهة، ويجمعهم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من

---

(١) البحر المحيط.

الأصنام وغيرها؛ لأن ما عام يعم العقلاء وغيرهم، لكن المراد هنا، بقرينة الجواب الآتي: العقلاء من الملائكة وعيسى وعزير. قلت: ولا مانع من العموم، كأن يخلق في الأصنام الحياة فينطقها، أو كأن جوابها بلسان الحال، كما ذكره بعضهم في تسبيح الموات، وفي شهادة الأيدي والأرجل. وغلب غير العقلاء من الأصنام، ونحوها، على العقلاء من الملائكة، والجن والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركةً في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر، ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبدها.

أي: واذكر يوم يحشر الله العابدين لغير الله، ومعبوديهم، ويجمعهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه وتعالى للمعبودين ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ العابدين لكم عن عبادتي، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم وأمرتموهم بها ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ الحق؛ أي: تركوها وعبدوكم بهوى أنفسهم؛ أي: أخطؤوا عن الطريق المستقيم بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، فحذف الجار، وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ والأصل إلى السبيل، أو للسبيل، والاستفهام[1] في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع.

والمعنى: أكان ضلالهم بسببكم، وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم، لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وابن كثير وحفص عن عاصم[2] ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء فيهما. واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله في أول الكلام على ربك. وقرأ الحسن وطلحة وابن عامر؛ بالنون فيهما على التعظيم. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿نحشرهم﴾ بالنون ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء. وقرأ الأعرج[3] ﴿نحشرهم﴾ بكسر الشين في جميع القرآن. قال ابن عطية: هي

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

قليلة في الاستعمال، قوية في القياس؛ لأن يفعل بكسر العين في المتعدي، أقيس من يفعل بضمها. انتهى.

وهذا ليس كما ذكروا، بل فعل المفتوح المتعدي الصحيح، جميع حروفه إذا لم يكن للمبالغة، ولا حلقي عين، ولا لام، فإنه جاء على يفعل ويفعل كثراً، فإن شهر أحد الاستعمالين اتبع، وإلا فالخيار حتى إن بعض أصحابنا، خير فيهما، سُمع للكلمة أو لم يُسمع.

وقوله: ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال المعبودون، كلام مستأنف، واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هو تعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل؛ أي: تعجباً مما قيل فينا ونسب إلينا، أو تنزيه لله تعالى عن الأنداد؛ أي: تنزيهاً لك يا إلهنا عن الشركاء. ﴿مَا كَانَ﴾ الشأن. ﴿يَنۢبَغِى﴾ ويستقيم ﴿لَنَآ﴾ ويليق بنا، ويصح منا ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ ونجعل لأنفسنا ﴿مِن دُونِكَ﴾؛ أي: متجاوزين إياك ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: آلهة نعبدهم.

أي[1]: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ لأنفسنا آلهة من دونك، فكيف ندعوا عبادك إلى عبادتنا نحن، مع كوننا لا نعبد غيرك، فدل هذا الجواب، على أنهم لم يأمروا بعبادتهم. وهذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿نَّتَّخِذَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي وابن جبير والحسن وقتادة وأبو جعفر وابن يعمر وعاصم الجحدري وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء ونصر بن علقمة وزيد بن علي وأخوه الباقر ومكحول وحفص وعبيد والنخعي والزعفراني وغيرهم ﴿أن نتخذ﴾ بضم النون وفتح الخاء مبنياً للمفعول. والمعنى عليه؛ أي: ما كان ينبغي لنا، أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك.

قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة. ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية. وقال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة، لأن الله

---

(١) الشوكاني.

سبحانه ذكر ﴿مِن﴾ مرتين. ولو كان كما قرؤوا لقال: ﴿أن نتخذ من دونك أولياء﴾ بحذف ﴿من﴾ الثانية. وقيل: أن ﴿من﴾ الثانية زائدة. وقرأ عيسى الأسود القارىء ﴿ينبغى﴾ مبنياً للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة. وقرأ علقمة ﴿ما ينبغي﴾ بسقوط كان. وقراءة الجمهور بثبوتها أمكن في المعنى، لأنهم أخبروا عن حال، كانت في الدنيا ووقت الإخبار، لا عمل فيه ذكره أبو حيان.

وفي «الروح»: إنَّ ﴿مِنْ﴾ الثانية زائدة، لتأكيد النفي، وأولياء مفعول به لـ﴿نَّتَّخِذَ﴾. وهو من اتخذ الذي يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾.

والمعنى[1]: ما كان ينبغي لنا، أن نتخذ من دونك معبودين، نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له، وهي العصمة، أو عدم القدرة، فأنى يتصور أن نحمل غيرنا، أن يتخذ ولياً غيرك، فضلاً عن أن يتخذنا ولياً. قال ابن الشيخ: جعل قولهم: ما كان ينبغي لنا... إلخ كناية عن استبعاد، أن يدعوا واحداً إلى اتخاذ ولي دونه؛ لأن نفس قولهم: بصريحه لا يفيد المقصود، وهو نفي ما نسب إليهم، من إضلال العباد، وحملهم على اتخاذ الأولياء، من دون الله تعالى.

وفي «التأويلات النجمية»: نزهوا الله عن أن يكون له شريك، ونزهوا أنفسهم عن أن يتخذوا ولياً غير الله، ويرضوا لغيرهم، أن يعبدوا غير الله.

ثم حكى عنهم سبحانه، بأنهم بعد هذا الجواب، ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: ما أضللناهم، ولكن جعلتهم وآباءهم متمتعين منتفعين بالغمر الطويل، وأنواع النعم ليعرفوا حقها، ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا فيها. ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾؛ أي: غفلوا عن ذكرك، وتركوا ما وعظوا به، أو غفلوا عن التذكر لآلائك، والتدبر في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية، وفي هذا نسبة الضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم، فحملهم عليه

---

(١) روح البيان.

كأنه قيل: إنا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال، ولكن أضللت أنت، بأن فعلت لهم ما يؤثرون به الضلال، فخلقت فيهم ذلك.

والمعنى[1]: ما أضللناهم، ولكنك يا رب متعتهم، ومتعت آبائهم بالنعم، ووسعت لهم العمر، حتى غفلوا عن ذكرك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك. ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: وكان هؤلاء الذين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلي ﴿قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: هالكين، فاسدي القلوب، خاسرين في الدنيا والآخرة. جمع بائر. مأخوذ من البوار، وهو الهلاك.

فيقول الله سبحانه وتعالى للعابدين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾؛ أي: فقد كذبكم المعبودون، أيها العابدون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: في قولكم إنهم آلهة، والباء بمعنى في ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: فما تملكون أيها العابدون ﴿صَرْفًا﴾؛ أي: دفعاً للعذاب عنكم، بوجه من الوجوه، لا بالذات ولا بالواسطة. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾؛ أي: ولا فرداً من أفراد النصر، لا من جهة أنفسكم، ولا من جهة غيركم مما عبدتم، وقد كنتم زعمتم أنهم يدفعون عنكم العذاب وينصرونكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بالتاء من فوق. وقرأ أبو حيوة وابن الصلت عن قنبل وسعيد بن جبير ومجاهد ومعاذ القارىء ﴿بما يقولون﴾ والمعنى: فقد كذبكم أيها العابدون المعبودون بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ إلخ.. وهذا[3] قول الأكثرين. وقال ابن زيد الخطاب للمؤمنين. فالمعنى: فقد كذبكم المشركون أيها المؤمنون بما تقولون؛ أي: في قولكم: إن محمداً رسول الله ﷺ.

وقرأ حفص وأبو حيوة والأعمش وطلحة: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء الخطاب للعابدين، ويؤيد هذه القراءة، أن الخطاب في كذبوكم للعابدين. وقرأ الجمهور: ﴿فما يستطيعون﴾ بالياء من تحت. وفيه وجهان:

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.

أحدهما: فما يستطيع المعبودون صرفاً للعذاب عنكم، ولا نصراً لكم.

والثاني: فما يستطيع العابدون صرفاً، لعذاب الله عنهم، ولا نصراً لأنفسهم. وفي هذه القراءة التفات. وذكر[1] عن ابن كثير وأبي بكر أنهما قرأا، ﴿بما يقولون﴾ ﴿فما يستطيعون﴾ بالياء فيهما. والمعنى عليه: فقد كذبكم المعبودون، أيها العابدون بما يقولون؛ أي: بقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ فما يستطيع المعبودون صرفاً عنكم، ولا نصراً لكم.

والحاصل: أنه إن كان الخطاب في ﴿كَذَّبُوكُم﴾ للعابدين.. فالتاء جارية على ذلك، والياء التفات، وإن كان الخطاب للمعبودين، فالتاء التفات، والياء جارية على ضمير ﴿كَذَّبُوكُم﴾ المرفوع. وإن كان الخطاب للمؤمنين، أمة الرسول عليه السلام، في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾.. فالمعنى أنهم شديدوا الشكيمة في التكذيب، فما تستطيعون أنتم صرفهم عما هم عليه من ذلك. وبالياء فما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عما هم عليه، أو ما يستطيعون صرفكم عن الحق، الذي أنتم عليه، ولا نصراً لأنفسهم، من البلاء الذي استوجبوه بتكذيبهم. وحكى الفراء: أنه يجوز أن يقرأ: ﴿فقد كذبوكم﴾ مخففاً ﴿بما يقولون﴾؛ أي: كذبوكم في قولهم.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ والظاهر أن الخطاب فيه عام لكل ظالم،ويدخل تحته الذين فيهم، السياق، دخولاً أولياً. وقيل: خطاب للمؤمنين. وقيل: خطاب للكافرين. والظلم هنا الشرك. قاله: ابن عباس؛ أي: ومن يشرك منكم أيها المكلفون. كما دل عليه قوله: ﴿نُذِقْهُ﴾؛ أي: نذق ذلك الظالم ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾؛ أي: عذاباً شديداً، هو النار والخلود فيها، فإن ما يترتب عليه العذاب الكبير، ليس إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك. وفيه وعيد أيضاً لفساق المؤمنين، وهذه الآية وأمثالها، مقيدة بعدم التوبة.

والمعنى: أي[2] ومن يكفر منكم أيها المكلفون، فيعبد مع الله إلٰهاً آخر،

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) المراغي.

كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة.. نذقه في الآخرة، وندخله عذاباً كبيراً، لا يقدر قدره، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه.

وقرأ عاصم الجحدري والضحاك وأبو الجوزاء وقتادة[1]: ﴿يذقه﴾ بياء الغيبة؛ أي: الله، كما هو الظاهر، أو الظلم المفهوم من الفعل، على سبيل المجاز بإسناد إذاقة العذاب إلى السبب.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله، موضحاً لبطلان قولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق. فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ يا محمد أحداً ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ﴾ رسلاً قيل فيهم: ﴿إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم، فأنت لا تكون بدعاً منهم. وكسرت همزة ﴿إن﴾ لوقوعها بعد قول محذوف وقع صفة لموصوف محذوف، كما قدرناه، وإن تكسر بعد القول قاعدةً مطردةً. هذا ما ظهر لي في هذا المقام.

والمعنى: أي إن[2] جميع من سبقك من الرسل، كانوا يأكلون الطعام للتغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة. ولم يقل: أحد إن ذلك نقص لهم، يغض من كرامتهم، ويزري بهم، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم في هذا، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة، وخصائصهم السامية، وآدابهم العالية، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات وباهر المعجزات، مما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة نافذة، على صدق ما جاؤوا به من عند ربهم، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل، إذ يأكلُ ويمشي في الأسواق، وليس هذا بذم له، ولا مطعن في صدق رسالته، كما تزعمون. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

وإن[3] مكسورة باتفاق العشرة، و(اللام): لام الابتداء زيدت في الخبر.

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.

والجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ حالية. والمعنى؛ أي: وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من المرسلين، إلا وحالهم آكلون، وماشون، فأنت مثلهم في ذلك. قاله ابن الأنباري. وقال الزجاج: الجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ صفة لموصوف محذوف.

والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين، إلا آكلين وماشين، وإنما حذف الموصوف، لأن في قوله: من المرسلين دليلاً عليه نظيره ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾؛ أي: وما منا أحد. وقال الفراء: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول، محذوف هو المفعول، والتقدير: إلا من أنهم ليأكلون الطعام. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ وما بعده، راجع إلى ﴿مِنَ﴾ المقدرة، وقال الزجاج: هذا خطأ، لأن ﴿مِنَ﴾ الموصلة لا يجوز حذفها.

وقرىء[١]: أنهم بالفتح على زيادة اللام وأن مصدرية، والتقدير: إلا أنهم يأكلون الطعام؛ أي: ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلهم في الأكل والمشي. وقرأ الجمهور: ﴿يمشون﴾ مضارع مشى خفيفاً. وقرأ علي وابن مسعود وعبد الرحمٰن بن عبد الله: يمشون مشدداً مبنياً للمفعول؛ أي: يمشيهم حوائجهم والناس. وقال الزمخشري: ولو قرىء: يمشون، لكان أوجه لولا الرواية. انتهى. وقد قرأ كذلك أبو عبد الرحمٰن السلمي مشدداً مبنياً للفاعل، وهي بمعنى يمشون. قراءة الجمهور.

والخطاب في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ عام لجميع الناس، المؤمن والكافر؛ أي[٢]: وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة؛ أي: ابتلاء ومحنة لبعض آخر. الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم، ومناصبتهم لهم العداوة وأذاهم لهم، والسقماء بالأصحاء، والأسافل بالأعالي، والرعايا بالسلاطين، والموالي بذوي الأنساب، والعميان بالبصراء، والضعفاء بالأقوياء. قال الواسطي

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ـ رحمه الله ـ: ما وجد موجود إلا لفتنة، وما فقد مفقود إلا لفتنة.

فالمريض يقول[1]: لم لم أجعل كالصحيح، وكذا كل صاحب آفة. والصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه ولا يحقره والغني مبتلى بالفقير يواسيه والفقير مبتلى بالغني يحسده، ونحو هذا مثله.

وقيل المراد بالآية، أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره، فذلك افتتان بعضهم ببعض. واختار هذا القول الفراء والزجاج، ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء وإن كانوا سبب النزول فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ثم قال سبحانه، بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم. والاستفهام فيه للتقرير، وهو[2] علة للجعل المذكور.

والمعنى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، لنعلم أتصبرون على الابتلاء، أم تجزعون عنه.

أو حث على الصبر، على ما افتتنوا به؛ أي: اصبروا على ابتلائكم ولا تجزعوا. وقال أبو الليث: اللفظ لفظ الاستفهام. والمراد الأمر، يعني اصبروا على الابتلاء. كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: توبوا. وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ أي: انتهوا.

ثم وعد الله الصابرين بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بكل من يصبر، ومن لا يصبر، فيجازي كلا منهما بما يستحقه.

والمعنى: أي[3] وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض، فجعلنا هذا نبياً

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكاً وخصصناه بالدنيا. وهذا فقيراً وحرمناه من لذات الدنيا ونعيمها، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم، مما أعطيه الغني، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة. وكيف يكون رضى كل منهم بما أعطي، وقسم له، وطاعته ربه على حرمانه، مما أعطي سواه، ومن جراء هذا لم أعط محمداً الدنيا، وجعلته يمشي في الأسواق، يطلب المعاش لأبتليكم، وأختبر طاعتكم وإجابتكم إياه، إلى ما دعاكم إليه، وهو لم يرج منكم عرضاً من أعراض الدنيا، ولو أعطيتها إياه، لسارع كثيرة منكم إلى متابعته، طمعاً في أن ينال شيئاً من دنياه.

والخلاصة: لو شئت أن أجعل الدنيا، مع رسلي، حتى لا يخالفوا.. لفعلت، لكني أردت أن ابتلي العباد بهم، وابتليهم بالعباد، فينالهم منهم الأذى، ويناصبوهم العداء، فاصبروا على البلاء، فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: وربك أيها الرسول، بصير بمن يجزع، وبمن يصبر، على ما امتحن به من المحن، ويجازي كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب.

وفي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم، فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم». هذا لفظ البخاري، ولمسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

واعلم: أن العبد، لا بد له من السكون إلى قضاء الله تعالى، في حال فقره وغناه، ومن الصبر على كل أمر يرد عليه من مولاه، فإنه تعالى بصير بحاله، مطلع عليه في كل فعاله، وربما يشدد المحنة عليه بحكمته، ويمنع مراده عنه، مع كمال قدرته.

الإعراب

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: فعل ماض جامد. ﴿الَّذِي﴾: فاعل. والجملة مستأنفة استئنافاً

نحوياً. ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. والجملة صلة الموصول ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾. ﴿لِيَكُونَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن المضمرة بعد لام كي، واسمها ضمير مستتر يعود على عبده، أو على الفرقان، أو على الله سبحانه. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿نَذِيرًا﴾، قدم عليه للفاصلة. ﴿نَذِيرًا﴾: خبرها. وجملة ﴿يكون﴾ مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لكونه نذيراً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾: بدل من الموصول الأول، أو عطف بيان منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السماوات. والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. جازم وفعل مجزوم، وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به معطوف على جملة الصلة. ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿له﴾: خبر مقدم لـ﴿يَكُن﴾. ﴿شَرِيكٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿فِى ٱلْمُلْكِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَرِيكٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة الصلة أيضاً. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة الصلة. وهذه الجملة بمنزلة العلة لما قبلها. ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قدره﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿تَقْدِيرًا﴾: مفعول مطلق. والجملة معطوفة على جملة خلق.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان ما عليه الكفار من

عبادة الأصنام. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لاتخذوا. ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول له. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل النصب صفة أولى لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يُخْلَقُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ومعنى كونهم مخلوقين أن العابدين ينحتونهم ويصورونهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة ثالثة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُونَ﴾. ﴿ضَرًّا﴾ مفعول به له. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: معطوف على ضراً. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة رابعة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿مَوْتًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾: معطوفان على موتاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة، مسوقة لحكاية أباطيلهم، المتعلقة بالمنزل. والمنزل عليه معاً، وإبطالها. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر. ﴿إِفْكٌ﴾: خبر ﴿هَٰذَآ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿إِفْكٌ﴾. ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾: فعل ومفعول به. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿قَوْمٌ﴾: فاعل. ﴿ءَاخَرُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾. ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، لكون ما قبلها علة لما بعدها. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل. وجاء هنا، بعنى فعل، يتعدى إلى مفعول. ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول به. ﴿وَزُورًا﴾: معطوف عليه. وجملة ﴿جاء﴾ معطوفة على جملة ﴿قال﴾ على كونها مفرعة عليها. وفي «الفتوحات» ﴿الفاء﴾: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة، بل على أن

الثاني، هو عين الأول حقيقة، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري. وقد لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور. ا هـ. «أبو السعود». ا هـ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قال الذين. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: هذا القرآن أساطير الأولين، أو مبتدأ. وجملة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول قالوا ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب حال، من أساطير الأولين على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني خبر له. ﴿فَهِىَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هي﴾: مبتدأ. ﴿تُمْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الأساطير. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُمْلَىٰ﴾. ﴿بُكْرَةً﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُمْلَىٰ﴾. ﴿وَأَصِيلًا﴾: معطوف على ﴿بُكْرَةً﴾. وجملة ﴿تُمْلَىٰ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿اكتتبها﴾.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَهُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلَّذِى﴾: فاعل ﴿أنزل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿ٱلسِّرَّ﴾: مفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من السر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أو مستأنفة

مسوقة في بيان قبائحهم، التي قالوها في شأن الرسول، وهي ستة كما ستأتي، والأخيرة منها هي قوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. ﴿مَالِ﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي المضمن للإنكار في محل الرفع مبتدأ. ﴿هَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿ٱلرَّسُولِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والتقدير: أي شيء ثابت لهذا الرسول. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. وفي «الكشاف»: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ وقعت اللام مفصولة عن هذا في المصحف، خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير. ا هـ. ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب، حال من اسم الإشارة. والعامل في الحال هو الاستقرار العامل في الجار، أو نفس الجار، ذكره أبو البقاء. ﴿وَيَمْشِى﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَأْكُلُ﴾. ﴿فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾: متعلق بـ﴿وَيَمْشِى﴾. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَلَكٌ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿فَيَكُونَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن مضمرة وجوباً، بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب التحضيض. واسمها ضمير يعود على ملك. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف مكان، حال من ﴿نَذِيرًا﴾. ﴿نَذِيرًا﴾: خبر ﴿يكون﴾. وجملة ﴿يكون﴾ صلة أن المضمرة. ﴿أن﴾ مع صلتها، في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد، من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: هلا يكن إنزال ملك إليه فكونه نذيراً معه.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿يُلْقَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿كَنزٌ﴾: نائب فاعل ليلقى. والجملة معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَ﴾، وجاز عطف المضارع على الماضي؛ لأنه بمعنى المضارع، إذ التقدير: لولا ينزل إليه ملك، أو يلقى إليه كنز. ﴿أَوْ تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص.

﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم لها. ﴿جَنَّةٌ﴾: اسمها مؤخر. والجملة معطوفة أيضاً على جملة ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿يَأْكُلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الرسول. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأْكُلُ﴾. والجملة في محل الرفع صفة لجنة. ﴿وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَقَالُوا﴾. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿تَتَّبِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿رَجُلًا﴾: مفعول به. ﴿مَّسْحُورًا﴾: صفة ﴿رَجُلًا﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿انظُرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال من فاعل ﴿ضَرَبُوا﴾ معلقة ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿ضَرَبُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكَ﴾: متعلق به. ﴿الْأَمْثَالَ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب، مفعول ﴿انظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿فَضَلُّوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ضَرَبُوا﴾. ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ضلوا﴾. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَاءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الموصول في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية صلة الموصول. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿خَيْرًا﴾ مفعول أول له. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بدل من خيراً منصوب بالكسرة. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾. ﴿الْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِي﴾ وجملة ﴿تَجْرِي﴾ في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿وَيَجْعَل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الموصول، معطوف على محل ﴿جَعَلَ﴾ الواقع جواباً للشرط. ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿يجعل﴾. ﴿قُصُورًا﴾: مفعول أول له.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، أضرب بها عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة، وانتقل منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى، للتخلص إلى بيان ما لهم في الآخرة من فنون العذاب. ا هـ. «أبو السعود». ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِالسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو مستأنفة. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعتدنا﴾. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل وفاعل مستتر على ﴿من﴾. والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿بِالسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول ﴿أعتدنا﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَأَتْهُم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿السعير﴾، ومفعول به. ﴿مِّن مَّكَانٍ﴾: جار ومجرور حال من المفعول، أو من الفاعل. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿مَّكَانٍ﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿سَمِعُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهَا﴾: حال من ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿تَغَيُّظًا﴾: مفعول به. ﴿وَزَفِيرًا﴾: معطوف عليه. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾. وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل النصب صفة لـ﴿سَعِيرًا﴾.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف مضمن معنى الشرط. ﴿أُلْقُوا﴾: فعل ونائب فاعل. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنْهَا﴾: حال من مكاناً؛ لأنه في الأصل، صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مَكَانًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿أُلْقُوا﴾. ﴿ضَيِّقًا﴾: صفة لـ﴿مَكَانًا﴾. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: حال من الواو في ﴿أُلْقُوا﴾. ﴿دَعَوْا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿دَعَوْا﴾. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به

لـ﴿دَعَوْا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ على كونها صفة لـ﴿سَعِيرًا﴾. ﴿لَّا تَدْعُوا۟﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْعُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّا﴾ الناهية. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تَدْعُوا۟﴾. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به. ﴿وَٰحِدًا﴾: صفة له. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً. ﴿وَٱدْعُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تَدْعُوا۟﴾.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَذَٰلِكَ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التقريعي التهكمي. ﴿ذلك خيرٌ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَمْ﴾: عاطفة. ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾: معطوف على ﴿ذلك﴾. ﴿ٱلْخُلْدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلَّتِى﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾. ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وعدها المتقون. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على الجنة. ﴿لَهُمْ﴾: حال من ﴿جَزَآءً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿جَزَآءً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَمَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿جَزَآءً﴾. وجملة ﴿كَانَتْ﴾ في محل النصب حالة من ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾. ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير ﴿لَّهُمْ﴾، أو من الضمير المستكن في الظرف. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. وجملة ﴿يَشَآءُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما يشاؤونه. وجملة ﴿كَانَ﴾ حال ثانية من ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الهاء في لهم، أو من الواو في ﴿يَشَآءُونَ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، أو على الوعد المفهوم من ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾: حال من ﴿وَعْدًا﴾. ﴿وَعْدًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مَّسْـُٔولًا﴾: صفة لـ﴿وَعْدًا﴾. وجملة

﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا يوم يحشرهم. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على ضمير المفعول، أو منصوب على المعية. ﴿يَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وما يعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾. ﴿فَيَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾. ﴿ءَأَنتُمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عِبَادِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: بدل من ﴿عِبَادِى﴾، أو صفة له؛ أي: المشار إليهم وجملة ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. ﴿هم﴾: مبتدأ. وجملة ﴿ضَلُّوا۟﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: منصوب بنزع الخافض، لأن أصله ضلوا عن السبيل.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: نسبحك سبحاناً. والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن مستتر فيها. ﴿يَنۢبَغِى﴾: فعل مضارع. ﴿لَنَآ﴾: متعلق به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿نَّتَّخِذَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب. بـ﴿أن﴾. ﴿مِن دُونِكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني

لـ﴿اتخذ﴾. ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: ﴿من﴾: زائدة لتأكيد النفي. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾. وجملة ﴿نَّتَّخِذَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَنۢبَغِى﴾؛ أي: ما كان ينبغي لنا اتخاذ أولياء من دونك. وجملة ﴿يَنۢبَغِى﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ معطوف على ضمير المفعول، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى. والجملة في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. والجار والمجرور متعلق بـ﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾؛ أي: ولكن متعتهم إلى نسيانهم الذكر. ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَوْمًا﴾: خبره. ﴿بُورًا﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿نَسُواْ﴾. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم مقالة المعبودين في الجواب، وأردتم بيان مرادهم بتلك المقالة.. فأقول لكم قد كذبوكم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبُوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَذَّبُوكُم﴾. والباء: بمعنى في. وجملة ﴿تَقُولُونَ﴾: صلة ما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: في ما تقولونه. ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على كذبوكم. ﴿صَرْفًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾: معطوف على ﴿صَرْفًا﴾. ﴿وَمَن﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما. ﴿يَظْلِم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿يَظْلِم﴾؛ أي: كائناً منكم أيها المكلفون ﴿نُذِقْهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على الله مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة له. وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ فعل وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ. ﴿قَبۡلَكَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أيضاً، أو بمحذوف صفة لمفعول محذوف، تقديره: أحداً من المرسلين. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، والمستثنى محذوف، تقديره: إلا رسلاً قيل فيهم: إنهم ليأكلون الطعام إلخ، ﴿رسلاً﴾: مستثنى منصوب على الاستثناء. قيل: فعل ماض مغير الصيغة. فيهم: جار ومجرور نائب فاعل لقيل. وجملة قيل: في محل النصب صفة لرسلاً، المحذوف الواقع مستثنى. ﴿إِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء زحلقت إلى الخبر. ﴿يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف الذي قدرناه. ﴿وَيَمۡشُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾. ﴿فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾: متعلق بـ﴿يمشون﴾. وقد تلاطمت أقوال العلماء في إعراب هذا المقام، فراجعها. ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لِبَعۡضٖ﴾: حال من ﴿فِتۡنَةً﴾؛ لأنه كان في الأصل صفة لـ﴿فِتۡنَةً﴾ قدمت عليها. كقول الشاعر: لمية موحشاً طلل. أصله لمية طلل موحش. ﴿فِتۡنَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلۡنَا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ. ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿تصبرون﴾: فعل وفاعل. والجملة لفظها لفظ الاستفهام. ومعنا ها الأمر، إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها بمعنى ﴿اصبروا﴾ كقوله تعالى: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ معناه: أسلموا. ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿كان ربك بصيراً﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ من البركة، وهي كثرة الخير لعباده، بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. ثم إن تبارك: فعل ماض جامد لا ينصرف، فلا يأتي منه مضارع ولا اسم فاعل، ولا مصدر. ولا يستعمل في غير الله تعالى.

فائدة في بحث فعل الجامد: والفعل الجامد: هو ما أشبه الحرف من حيث أداؤه معنى مجرداً عن الزمان، والحدث المعتبرين في سائر الأفعال، فلزم مثله طريقة واحدة في التعبير بلفظ واحد، فهو لا يقبل التحول من صيغة إلى صيغة أخرى، بل يلزم صيغة واحدة، ماضياً كان أو مضارعاً أو أمراً، مثل عسى وليس ويهيط وهب، بمعنى: أحسب من أخوات ظن، ولم يرد من مادته بهذا المعنى إلا الأمر. وأما هب المشتق من الهبة فإنه فعل أمر متصرف، فماضيه وهب، ومضارعه يهب. والفعل الجامد ثلاثة أقسام ما يلازم صيغة الماضي. مثل عسى وليس ونعم وبئس وتبارك الله سبحانه. وما يلازم صيغة المضارع، مثل: يهيط ومعناه: يصيح ويفح، يقال: ما زال منذ اليوم يهيط هيطاً، وهو مضارع لا ماضي له، كما في «لسان العرب» و«تاج العروس». ويقال: ما زال في هيط وميط بفتح أولهما، وفي هياط ومياط بكسر أولهما؛ أي: ضجاج وشر جلبة. وقيل: في هياط ومياط، في دنو وتباعد. والهياط: الإقبال والميط الإدبار، والهائط: الجائي، والمائط: الذاهب.

والمهايطة والهياط: الصياح والجلبة، وما يلازم صيغة الأمر. نحو هب بمعنى: أحسب وهات وتعال وهلم، على لغة تميم؛ لأنه عندهم: فعل يقبل علامته، فتلحقه الضمائر. أما في لغة الحجاز، فهي اسم فعل أمر؛ لأنها عندهم تكون بلفظ واحد للجميع، ومن الأفعال الجامدة قل بصيغة الماضي للنفي المحض، وإذا لحقته ما الزائدة كفته عن العمل، فلا يليه حينئذٍ إلا الفعل، ولا فاعل له لجريانه مجرى حرف النفي، نحو قلما فعلت كذا، وقلما أفعله؛ أي: ما فعلته ولا أفعله. ومثل قلما في عدم التصرف طالما وكثر ما وقصر ما، وشدما، فإن ما فيهن زائدة للتوكيد، كافة لهن عن العمل فلا فاعل لهن ولا يليهن إلا

فعل، فهن كقلما. ومن الأفعال الجامدة قولهم سقط في يده، بمعنى ندم وتحير وزل وأخطأ، وهو ملازم صورة الماضي المجهول. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ وقد تقدم بحثه.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: القرآن؛ لأنه فرق بين الحق والباطل. وقيل: لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة، بحسب الوقائع. وفي «المصباح» فرقت بين الشيئين فرقاً. من باب قتل، فصلت أبعاضه، وفرقت بين الحق والباطل فصلت أيضاً، هذه هي اللغة العالية، وبها قرأ السبعة، في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي لغة، من باب ضرب، وقرأ بها بعض التابعين. قال ابن الأعرابي: فرقت بين الكلامين، فافترقا، مخفف، وفرقت بين العبدين فتفرقا، مثقل، فجعل المخفف في المعاني، والمثقل في الأعيان، والذي حكاه غيره أنهما بمعنى، والتثقيل مبالغة.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الإمام الراغب: العالم اسم للفلك، وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم لما يطبع ويختم به. وجعل بناؤه على هذه الصيغة لسكونه كالآلة، فالعالم آلة في الدلالة على صانعه. وأما جمعه، فلأن كل نوع قد يسمى عالماً، فيقال: عالم الإنسان وعالم الماء، وعالم النار. وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس في جملتهم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكمه، انتهى. قال ابن الشيخ: جمع بالواو والنون؛ لأن المقصود استغراق أفراد العقلاء، من جنس الجن والأنس، فإن جنس الملائكة، وإن كان من جملة أجناس العالم، إلا أن النبي ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة فلم يكن من العالمين، المكلفين إلا الجن والإنس، فهو رسول إليهما جميعاً، انتهى.

﴿نَذِيرًا﴾ النذير، بمعنى: المنذر، والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ قال في «المفردات»: تخذ بمعنى أخذ، واتخذ افتعل منه. والولد المولود. ويقال: الواحد والجمع والصغير والكبير والذكر والأنثى.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الافتراء: الاختلاق، والكذب. من قولهم: افتريت الأديم (الجلد) إذا قطعته للإفساد، والفرق بين الافتراء والكذب، أن الافتراء: هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب: قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، كما في الأسئلة المقحمة.

﴿فَقَدْ جَآءُو﴾؛ أي: أتوا وفعلوا. ﴿ظُلْمًا﴾: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى ما هو مبرأ منه. والزور الكذب. قال الراغب: قيل: للكذب زور لكونه مائلاً عن جهته؛ لأن الزور ميل في الزور؛ أي: وسط الصدر، والأزور المائل الزور.

﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ أي: أمر غيره بكتابتها ونسخها؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ الخط ولا يكتب باعترافهم. وقال في «المفردات»: الاكتتاب متعارف في الاختلاف.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جمع أسطار جمع سطر، أو جمع أسطورة كأحدوثة وأحاديث وأعجوبة وأعاجيب. قال في «القاموس»: السطر الصف من الشيء، الكتاب والشجر وغيره. والخط والكتابة والقطع بالسيف، ومنه الساطر للقصاب، وأسطره كتبه والأساطير الأحاديث التي لا نظام لها.

﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تقرأ عليه، فليس المراد بالإملاء هنا معناه الأصلي، لأن الإملاء في الأصل، عبارة عن إلقاء الكلام على الغير ليكتبه. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: صباحاً ومساءً والمراد دائماً. وفي ضرام السقط أول اليوم الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الضحوة، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة عند مغيب الشفق ا هـ.

﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ أي: الغيب؛ أي: ما غاب عنا. ﴿ٱلطَّعَامَ﴾: وهو كل ما يتناول من الغذاء كما مر. و﴿ٱلْأَسْوَاقِ﴾ جمع سوق، وهو الموضع الذي يجلب إليه المتاع، ويساق. سمي سوقاً لقيامهم فيها على سوقهم.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ والكنز المال المكنوز؛ أي: المجموع المحفوظ. ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: سحر فاختل عقله، والسحر، مشتق من السحر، الذي هو اختلاط الضوء والظلمة من غير تخلص لأحد الجانبين، والسحر له وجه إلى الحق، ووجه إلى الباطل، فإنه يخيل إلى المسحور أنه فعل ولم يفعل.

﴿ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾: الأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال. قال بعضهم: مثلوك بالمسحور، والفقير الذي لا يصلح أن يكون رسولاً، والناقص عن القيام بالأمور، إذ طلبوا أن يكون معك مثلك.

﴿قُصُورًا﴾؛ أي: بيوتاً رفيعة في الدنيا، كقصور الجنة. قال الراغب: يقال: قصرت كذا، ضممت بعضه إلى بعض. ومنه سمي القصر. انتهى.

﴿سَعِيرًا﴾ والسعير: النار الشديدة الاشتعال. وفي «المصباح» وسعرت النار سعراً من باب نفع، وأسعرتها إسعاراً أوقدتها فاستعرت ا هـ. وفي«المختار»: سعر النار والحرب: هيجها وألهبها. وبابه قطع. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ قرىء مخففاً ومشدداً. والتشديد للمبالغة، واستعرت النار وتسعرت توقدت، والسعير: النار. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ قال الفراء: في عناء وعذاب السعر: الجنون. ا هـ.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؛ أي: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، من قولهم: (دور تتراءى)؛ أي: تتناظر. ومنه قوله ﷺ: «إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما»؛ أي: لا تتقاربان، بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك في أمور الدين.

﴿تَغَيُّظًا﴾ التغيظ: إظهار الغيظ الذي هو الغضب الكامن في القلب، كما قاله الشهاب. وفي «المفردات» التغيظ: إظهار الغيظ، وهو أشد الغضب، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع، والغضب: هو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه.

﴿وَزَفِيرًا﴾ والزفير: إخراج النفس بعد مدة. وفي «السمين» قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا

﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إن قيل التغيظ: لا يسمع فما معنى هذا الكلام، فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف؛ أي: صوت تغيظها.

والثاني: أنه على حذف تقديره: سمعوا ورأوا تغيظاً وزفيراً، فيرجع كل واحد إلى ما يليق به؛ أي: رأوا تغيظاً وسمعوا زفيراً.

والثالث: أن يضمن سمعوا معنى يشمل الشيئين؛ أي: أدركوا لها تغيظاً وزفيراً ا هـ.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: مصفدين قد قرنت؛ أي: جمعت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. يقال: قرنت البعير بالبعير، جمعت بينهما، وقرنته بالتشديد على التكثير. ويقال: قرنت الأسارى في الحبال. وفعله الثلاثي قرن يقرن من باب ضرب يضرب. قرنا الشيء بالشيء شده به ووصل إليه. وقرن الثورين، جعلهما في نير واحد. وقرن البعيرين جمعهما في حبل. وهي في قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ تفيد شيئين: التصفيد؛ أي: تقييد الأرجل وجمع الأيدي، والأعناق بالسلاسل.

﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، يقال: ثبره الله، أهلكه هلاكاً دائماً لاينتعش بعده. ومن ثم يدعو أهل النار: واثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك ما ثبطك، وهذا مثبر فلانة لمكان ولادتها، حيث يثبرها النفاس.

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هي التي لا ينقطع نعيمها ولا ينقل عنها أهلها، فإن الخلود، هو تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها.

﴿جَزَآءً﴾؛ أي: ثواباً، والجزاء: الغنى والكفاية. فالجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم.

﴿وَمَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعاً، والفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى، ولا كذلك المرجع.

﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي بمعنى تابع؛ أي: عابد. فأولياء بمعنى الأتباع، وفي «الكرخي» من أولياء؛ أي: أتباعاً، فإن الولي كما يطلق على المتبوع، يطلق على التابع، كالمولى يطلق على الأعلى والأسفل، ومنه أولياء الشيطان؛ أي: أتباعه.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ والذكر، ما ذكر به الناس على ألسنة أنبيائهم. ﴿بُورًا﴾؛ أي: هالكين، جمع بائر. كما في «المفردات». أو مصدر وصف به الفاعل مبالغة، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع. يقال: رجل بائر، وقوم بور، وهو الفاسد الذي لا خير فيه. قال الراغب: البوار فرط الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبر البوار عن الهلاك.

﴿صَرْفًا﴾؛ أي: دفعاً للعذاب. ﴿وَمَن يَظْلِم﴾؛ أي: يكفر. ﴿فِتْنَةً﴾؛ أي: بلية ومحنة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ قال الإمام الغزالي: البصير: هو الذي يشاهد ويرى، حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره أيضاً، منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان، فمن ارتكب معصية، فهو يعلم أن الله سبحانه يراه، فما أجسره فأخسره، ومن ظن أنه لا يراه فما أكفره ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ذكره بهذا الوصف، ولم يذكره باسمه؛ لأن العبودية أشرف أوصاف الإنسان، وليس للمؤمن صفة أتم، ولا أشرف من العبودية، لأنها غاية التذلل، ولقد أحسن القاضي عياض في نظمه، حيث قال:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفاً وَتِيهَا ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ ٱلثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِيْ ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

ومنها: تقديم المعمول على عامله، رعاية للفاصلة في قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وفيه الاكتفاء أيضاً؛ لأنه ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير؛ لأن السورة مكية، وفي ذلك الوقت، لم يصلحوا للتبشير.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿يَخْلُقُونَ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ وبين ﴿مَوْتًا﴾ و﴿حَيَوٰةً﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ ﴿وَزُورًا﴾.

ومنها: إطلاق الجزء وإرادة الكل في قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾.

ومنها: الاستفهام للتهكم والتحقير في قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تسجيلاً عليهم بوصف الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوا.

ومنها: إطلاق الملزوم، وإرادة اللازم في قوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ لأن المراد بالسحر هنا لازمه، وهو اختلال العقل.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ للمبالغة في التشنيع عليهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ، وزفيره، وهو صوت يسمع من جوفه، وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ والغضبان.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ومنها: الجناس غير التام، في قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) اللهم اجعلنا من الصابرين على إذابة السفهاء والكفار، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وارزقنا من لدنك قناعةً وغنى، نبرأ بهما عما في أيدي الناس، وثبت أقدامنا في فهم كتابك الكريم، وبلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما تقدم لهم من نور، يهتدون به إلى صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين آمين.

إلى هنا انتهى تفسير الجزء الثامن عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان» في تاريخ ٦/ ٢/ ١٤١٣ هـ الموافق ٤/ ٨/ ١٩٩٢م. الحمد لله الذي تتم به الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل البريات سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أفضل الأمات، وجميع التابعين والتابعات، إلى يوم الحشر والقيامات.

انتهى المجلد التاسع عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» ويليه المجلد العشرون وأوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية (٢١).

صححت هذه النسخة بيد مؤلفه وانتهى تصحيحها في تاريخ ٢٥/ ٨/ ١٤١٧هـ.

شعرٌ

أَلاَ أَيُّـهَـا ٱلْـمَـأْمُـوْلُ فِـيْ كُـلِّ حَـاجَـةٍ   إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ
أَلاَ يَـا رَجَـائِـيْ أَنْـتَ كَـاشِـفُ كُـرْبَـتِـيْ   فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَـزَادِيْ قَـلِـيْـلٌ مَـا أَرَاهُ مُـبَـلِّـغِـيْ   عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَـيْـتُ بِـأَعْـمَـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيْـئَـةٍ   وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

آخرُ

رَأَيْـتُ أَخَـا ٱلـدُّنْـيَـا وَإِنْ كَـانَ ثَـاوِيَـا   أَخَـا سَـفَـرٍ يُـسْـرَىٰ وَهُـوَ لاَ يَـدْرِيْ

آخرُ

إِنَّـمَـا ٱلـدُّنْـيَـا كَـبَـيْـت   نَـسْـجُـهُ مِـنْ عَـنْـكَـبُـوْت

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد العشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

جَزَى اللَّهُ خِيراً مَنْ تَأمَّلَ صَنْعَتِي   وَقَابَلَ مَا فِيهَا مِنَ السَّهْوِ بالعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطأْتُ فِيه بفَضْلِه   وفطْنَته أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ سَهْوِي

آخر

إنْ تَجِدَ عَيْباً فَسُدَّ الخَلَلا   جَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيهِ وعَلاَ

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَى   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِاصْطِبَارِ   مَا قِيلَ هَيْهات لاَ يَكُونْ

آخرُ

السبَاقَ السباقَ قولاً وفِعْلاً   حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المَسْبُوقِ
رَأَيْتُ أَخَا الدنْيا وإنْ كان ثَاوِيَا   أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لاَ يَدْرِي

آخرُ

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتِ   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوتِ

آخرُ

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لنَا إلاَّ   مَا عَلَّمْتَ وَأَلْهَمْتَ لَنَا إِلْهَاماً

آخرُ

إلٰهِي رَبِّ سَامِعَا   عَلِّمْنَا عِلْماً نَافِعَا
وَفِّقْنَا يَسَاراً وَيُسْراً   جَنِّبْنا إعْسَاراً وَعُسْراً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي سرح قلوبنا في ميادين التنزيل، وشرح صدورنا برشحات التفسير والتأويل، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الفرد الجليل، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيّه الحبيب الخليل، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء الثامن عشر من القرآن تفرّغت لتفسير الجزء التاسع عشر منه، راجياً من الله سبحانه التوفيق والهداية لأقوم الطريق، فقلت وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ
أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا
﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ
مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي
ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ
بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا
﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ
تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا
مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا
﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا

أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَۖ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ
يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ
ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ
يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا
﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ
قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ
نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾
لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا
وَصِهْرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما حكى أباطيل المشركين السالفة بطعنهم في نبوة محمد ﷺ بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.. أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم في هذا الصدد، فقالوا: «هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه، أو نرى ربنا فينبئنا بذلك، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم: لا بشرى لكم اليوم، بل فيه منعكم من كل خير، فإن ما قدمتم من

(١) المراغي.

عمل صالح في الدنيا صار هباء منثوراً، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر وحسن المقيل في ظل ظليل، ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة حين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، ولعل في ذكر هذا ما يكون حافزاً لهم على مراجعة أنفسهم، وتخمير الرأي ليرشدوا إلى طريق السداد، ويقلعوا عما هم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين في سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة.. أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهي هذا العالم الدنيوي، ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب، فيعض الكافر على يديه نادماً على ما فات، ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن الذين أضلوه السبيل، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر[1] مقالاتهم الباطلة، وتعنتهم الظالم في الرسول من نحو قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وقولهم في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، وقولهم فيه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.. أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه بأن قومه قد هجروا كتابه، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم، ورعاية لمصالحهم في دينهم ودنياهم، ثم سلاه سبحانه على ذلك بأن هذا ليس دأب قومك فحسب، بل إن كثيراً من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا، فاقتد بأولئك الأنبياء، ولا تجزع، ثم وعده وعداً كريماً بأن يهديه إلى مطلبه، وينصره على عدوه، وكفى به هادياً ونصيراً.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] مطاعنهم في كتابه الكريم، كقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.. قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم؛ وهي قولهم: لو كان القرآن من عند الله حقاً لأنزله جملة واحدة، كما أنزلت التوراة جملة على موسى، والإنجيل جملة على عيسى، والزبور على داود، فرد الله عليهم مقالتهم، وبين لهم فوائد إنزاله منجماً، فذكر منها تثبيت فؤاد ﷺ بتيسير الحفظ وفهم المعنى وضبط الألفاظ إلى نحو أولئك، ثم وعده بأنهم كلما جاؤوا بشبهة دحضها بالجواب الحق والقول الفصل الذي يكشف وجه الصواب، وبعدئذ ذكر حال المشركين، وأنهم حين يحشرون يكونون في غاية الذل والهوان، ويجرون على وجوههم إلى جهنم، وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما تكلم في دلائل وحدانيته ونفي الأنداد، وفي النبوة، وأجاب عن شبهات المنكرين لها، وفي أحوال يوم القيامة وأهوالها التي يلقاها الكافرون، وفي النعيم الذي يتفضل به على عباده المتقين.. أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم الذين كذبوهم، فحل بهم النكال والوبال؛ ليكون في ذلك عبرة لقومه المشركين الذين كذبوا رسوله حتى لا يحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم إذا هم تمادوا في تكذيبهم، وأصروا على بغيهم وطغيانهم، وقد ذكر من ذلك خمس قصص: قصة موسى مع فرعون وقومه، وقصة نوح وقومه، وقصة هود مع قومه عاد، وقصة صالح مع قومه ثمود، وقصة أصحاب الرس.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[2] مطاعن المشركين في النبي ﷺ، وأورد

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

شبهاتهم في ذلك.. أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم، وليتهم اقتصروا عليه، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والحط من قدره، حتى لقد قال بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، بل لقد غالوا في ذلك فسموا دعوته إضلالاً، فرد الله عليهم مقالهم، وأبان لهم أنه سيظهر عليهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء يبعد أن يزدجروا عما هم فيه من الغي بنصحك وإرشادك، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين(١) جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد، وسخيف مذاهبهم وآرائهم.. أعاد الكرة مرة أخرى، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عياناً، وتتوارد علينا ليلاً ونهاراً، وتكون دليلاً على وجود الإله القادر الحكيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط، فحياه، فلم يرد عليه التحية، فقال: ما لك لا ترد عليّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت، فقال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: فما يبرىء صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه، وتبزق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم، ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح

---

(١) المراغي.

وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال: «إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً»، فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا، قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين وحل به جمله ـ وقع في الوحل ـ في جدد من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط، فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم بما بزقت في وجهي، فأنزل الله في أبي معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أخرجه السيوطي في «الدر المنثور» (ج ٥/ ص ٦٨).

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة، وهذه الجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ...﴾ الخ؛ أي: وقال المشركون الذين لا يأملون وعدنا على الطاعة بالثواب، ولا يخافون وعيدنا على المعصية بالعقاب، وأصل الرجاء[1]: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة. واللقاء: يقال في الإدراك بالحس بالبصر وبالبصيرة، وملاقاة الله سبحانه عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه تعالى؛ أي: الرجوع إلى حيث لا حاكم، ولا مالك سواه. والمعنى: وقال الذين لا يتوقعون الرجوع إلينا للمجازاة؛ أي: ينكرون البعث والحشر والحساب والجزاء؛ وهم كفار مكة: ﴿لَوْلَآ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: بطريق الرسالة لكون البشرية منافية للرسالة بزعمهم؛ أي: قالوا: هلا أنزلت الملائكة علينا، فيخبرونا أن محمداً صادق فيما يدعيه، أو هلا أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله تعالى إلينا؛ لأن البشر لا يصلح للرسالة ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرة وعياناً، فيأمرنا بتصديق محمد ﷺ واتباعه؛ لأن هذا الطريق أحسن وأقوى في الإفضاء إلى

---

(١) روح البيان.

الإيمان وتصديقه، ولما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه.

ومن لطائف الشيخ نجم الدين في تأويلاته أنه قال[1]: يشير سبحانه إلى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة والحشر من الكفرة يتمنون رؤية ربهم بقولهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فالمؤمنون الذين يدعون أنهم يؤمنون بالآخرة والحشر، كيف ينكرون رؤية ربهم وقد وردت بها النصوص، فلمنكري الحشر عليهم فضيلة بأنهم طلبوا رؤية ربهم، وجوزوها كما جوزوا إنزال الملائكة، ولمنكري الرؤية ممن يدعي الإيمان شركة مع منكري الحشر في جحد ما ورد الخبر والنقل؛ لأن النقل كما ورد بكون الحشر ورد بكون الرؤية لأهل الإيمان، انتهت.

ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ واللام في قوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أضمر هؤلاء القائلون الاستكبار عن الحق والعناد به ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في قلوبهم، كما في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، أو المعنى[2]: لقد أظهروا الكبر والعظم والترفع في شأن أنفسهم، يعني: وضعوا لأنفسهم وجعلوا لها قدراً ومنزلة ورفعة حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة، ورؤية الرب تعالى ﴿وعتو﴾؛ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿عُتُوًّا﴾؛ أي: تجاوزاً ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: بالغاً إلى أقصى غاياته من حيث أنهم عاينوا المعجزات القاهرة، وأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة معاينة الملائكة الطيبة، ورؤية الله تعالى التي لم ينلها أحد في الدنيا من أفراد الأمم وآحاد الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ، وهو إنما رآه تعالى بعد العبور عن حد الدنيا، وهو الأفلاك السبعة التي هي من عالم الكون والفساد.

ووصفه[3] بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في

---

(١) التأويلات النجمية.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذاك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله، أو تعد من المستعدين له، وهكذا كل من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده.

وإنما قال هنا[1]: ﴿عُتُوًّا﴾ على الأصل، وفي سورة مريم: ﴿عِتِيًّا﴾ على استثقال اجتماع الواوين، والقلب لمناسبة الفواصل هناك.

وحاصل معنى الآية: أي[2] وقال الذين ينكرون البعث والحشر، ويطعنون في صدق الرسول فيما أوحي به إليه: هلا أنزل علينا الملائكة، فيخبرونا بأن محمداً صادق فيما يدعي، فإنّا في شك من أمره، وفي ريب مما يخبر به، وإن لم يكن هذا فلنر ربنا، ونعلم أنه هو حقاً بأمارات لا يعتريها لبس، ثم يقول لنا: إني أرسلت إليكم محمداً من لدني بشيراً ونذيراً، فإن تم لنا ذلك صدقناه وآمنا به، وما مقصدهم من هذا وذاك إلا التمادي في الإنكار والعناد والعتو، ومن ثم قال: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: والله لقد استكبروا في شأن أنفسهم، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان تجاوزاً بلغ أقصى الغاية تكذيباً برسوله، وشموخاً بأنوفهم عن أن ينصاعوا إليه ويتبعوه، ولم يأبهوا بباهر معجزاته، ولا كثرة آياته، وإنهم لقد بلغوا غاية القحة في الطلب. وفي الحق أن شأنهم لعجب، وأن العقل ليحار في أمرهم ويدهش لقصور عقولهم، وسذاجة آرائهم، وضعف أحلامهم ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾، ولله در القائل:

وَمَـنْ جَـهِـلَـتْ نَـفْـسُـهُ قَـدْرَهُ ... رَأَىٰ غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مَـا لاَ يَـرَىٰ

ثم بين أنهم سيلقون الملائكة حين الهول يوم القيامة، لا على الوجه الذي طلبوه، ولا على الصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر لم يمر ببالهم، فقال:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

وفي «الأسئلة المقحمة»[1]: فإذا كان رؤية الله جائزة، فكيف وبخهم على سؤالهم لها؟ قلنا: التوبيخ بسبب أنهم طلبوا ما لم يكن لهم طلبه؛ لأنهم بعد أن عاينوا الدليل قد طلبوا دليلاً آخر، ومن طلب الدليل بعد الدليل.. فقد عتا عتواً ظاهراً، ولأنهم كلفوا الإيمان بالغيب فطلبوا رؤية الله، وذلك خروج عن موجب الأمر وعن مقتضاه، فإن الايمان عند المعاينة لا يكون إيماناً بالغيب، فلهذا وصفهم بالعتو.

وانتصاب ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بفعل محذوف؛ أي: واذكر لهم يا محمد أهوال يوم يرى الكفار الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه، والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت، أو يوم القيامة.

ثم أخبر، فقال: ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾؛ أي: لا بشارة بالمغفرة ودخول الجنة ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم يرى الكفار الملائكة ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: للكافرين، وهذا إظهار في مقام الإضمار، أي: لا بشرى لهم.

ويجوز[2] أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدل عليه قوله: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والمعنى: لا يبشر المجرمون يوم يرون الملائكة. و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ مؤكد لـ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ والمعنى: أنهم يمنعون البشرى في ذلك اليوم، أو لا توجد لهم البشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة وهو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى. والمراد بالملائكة: ملائكة العذاب. قال الزجاج: المجرمون في هذا الموضع هم الذين اجترموا الكفر بالله واقترفوه أياً كانوا، لا خصوص القائلين الذين سبق ذكرهم.

---

(١) الأسئلة المقحمة.

(٢) زاد المسير.

وعبارة «روح البيان» هنا: قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لم يقل: يوم تنزل الملائكة... إلخ. إيذاناً[1] من أول الأمر بأن رؤيتهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود، و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأنه في معنى: لا يبشر يومئذ المجرمون، لا بنفس بشرى؛ لأنه مصدر، والمصدر لا يعمل فيما قبله، وكذا لا يجوز أن يعمل ما بعد لا فيما قبلها، وأصل الجرم: قطع الثمرة عن الشجر، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ووضع المجرمون موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكرير للتأكيد، بين الله تعالى أن الذي طلبوه سيوجد، ولكن يلقون منه ما يكرهون حيث لا بشرى لهم، بل لهم إنذار وتخويف وتعذيب بخلاف المؤمنين، فإن الملائكة تتنزل عليهم ويبشرونهم ويقولون لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول الكفرة المجرمون عند مشاهدة الملائكة، وهو معطوف على ما ذكر من الفعل المنفي المقدر المعلوم من ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾؛ أي: لا يبشر المجرمون يومئذ، ويقولون: إذا رأوا الملائكة، وفزعوا منهم عند الموت ويوم القيامة: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: استعاذة مستعاذة منكم، وهي كلمة كانوا يقولونها عند لقاء العدو ونزول الشدة، ويضعونها موضع الاستعاذة، والحجر: المنع. والمحجور: الممنوع، جعل صفة لحجر؛ لقصد التأكيد كيوم أَيْوَمٍ. وَليل أَلْيَلٍ. والمعنى نسأل الله تعالى أن يحجر المكروه عنا حجراً، ويمنع شركم عنا منعاً أكيداً بحيث لا يلحقنا شركم وتعذيبكم إيانا. وقيل[2]: معنى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ بعداً بعيداً بيننا وبينكم.

ويقال: إن قريشاً كانوا إذا استقبلهم أحد بشر يقولون: حاجوراً حاجوراً، حتى يعرف أنهم من الحرم، فيكف عنهم، فأخبر تعالى أنهم يقولون يوم القيامة، فلا ينفعهم. وقيل: الضمير في ﴿يقولون﴾ يعود إلى الملائكة. قال ابن عباس:

---

(١) روح البيان.

(٢) تنوير المقباس.

معناه: تقول[1] الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل: إذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة: حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم البشرى.

وقرأ الجمهور: ﴿حِجْرًا﴾ ـ بكسر الحاء ـ، وقرأ أبو رجاء والحسن والضحاك وقتادة ومعاذ القارىء: ﴿حُجرا﴾ ـ بضم الحاء ـ، وقرىء أيضاً بفتحها كما في «المراح». والمعنى؛ أي:[2] يوم يرى هؤلاء المجرمون الملائكة، فلا بشرى لهم بخير؛ إذ يقولون لهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: محرم عليكم البشرى بالغفران والجنة؛ أي: جعلهما الله تعالى حراماً عليكم؛ إذ هما لا يكونان إلاّ لمن اعترف بوحدانية الله تعالى، وصدق رسوله.

والخلاصة: لا بشرى يومئذ للكافرين، وتقول لهم الملائكة: حرام أن نبشركم بما نبشر به المتقين.

ثم بين السبب في وبالهم وخسرانهم، فقال: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾؛ أي: عمدنا وقصدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ أي: إلى ما عمل الكفار في الدنيا من أعمال الخير التي لوعملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها من صلة رحم وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف وفك أسير، وإكرام يتيم مثلاً؛ أي: قصدنا إلى إبطالها في الآخرة﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: فجعلنا عملهم ذلك ﴿هَبَآءً﴾؛ أي: غباراً ﴿مَّنثُورًا﴾؛ أي: مفرقاً؛ أي: كالهباء المنثور في الحقارة وعدم الانتفاع بها؛ أي: تعلقت إرادتنا أزلاً بإبطال ثوابها، فأظهرنا بطلانها في الآخرة. والقدوم في الأصل عبارة عن مجيء المسافر بعد مدة ولكن المراد هنا إراد الله سبحانه. والهباء: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، فلا يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل. والمنثور: المفرق المنعدم كما سيأتي. ووصفه بالمنثور؛ لأن الهباء تراه منتظماً مع الضوء، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

مثل[1] سبحانه وتعالى حالهم وحال أعمالهم التي يعملونها في الدنيا من صلة وصدقة وعتاقة ونحو ذلك من المحاسن التي لو عملوها مع الإيمان.. لنالوا ثوابها بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقصد إلى ما تحت أيديهم من الدار والعقار ونحوهما، فهدمها ومزقها وأبطلها بالكلية ولم يبق لها أثراً؛ أي: قصدنا إليها، وأظهرنا بطلانها بالكلية لعدم شرط قبولها، وهو الإيمان، فليس هناك قدوم على شيء ولا نحوه، وهذا هو تشبيه الهيئة بالهيئة، فهو استعارة تمثيلية، وفي مثله تكون المفردات مستعملة في معانيها الأصلية، وشبه أعمالهم المحبطة بالغبار في الحقارة وعدم الجدوى، ثم بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه.

وبعد أن بين سبحانه حال الكافرين يومئذ.. ذكر حال أضدادهم المؤمنين، فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يرون الملائكة ويقولون: حجراً محجوراً، وهو يوم القيامة ﴿خَيْرٌ﴾ من المجرمين ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾: تمييز؛ أي: من جهة المكان الذي[2] يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون فيه ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: من جهة المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمي مكان استراحتهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وفي لفظ الأحسن تهكم بهم، قال الأزهري: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم. قال النحاس: والكوفيون يجيزون العسل أحلى من الخل.

فإن قلت[3]: كيف يكون أصحاب الجنة خيراً مستقراً من أهل النار ولا خير في النار، ولا يقال: العسل أحلى من الخل؟

قلتُ: إنه من قبيل التقريع والتهكم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ كما سبق، فليست المفاضلة على بابها. ويمكن[1] إبقاؤها على بابها، ويكون التفضيل وقع بين المستقرين والمقيلين باعتبار الزمان الواقع ذلك فيه، فالمعنى: خير مستقراً في الآخرة من الكفار المترفين في الدنيا، وأحسن مقيلاً في الآخرة من أولئك في الدنيا. وقيل: خير مستقراً منهم لو كان لهم مستقر، فيكون التقدير: لو وجد لهم مستقر.. يكون مستقر المؤمنين خيراً من مستقرهم.

والمعنى: أي[2] إن منازل أهل الجنة خير من منازل أولئك المشركين الذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من الترف والنعيم في الدنيا، وأحسن فيها قراراً حين القائلة من مثلها لهم في الدنيا؛ لما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وجمال التنوق والأبّه والزخرف وغيرها من المحاسن التي لا يوجد مثلها في الدنيا في بيوت المترفين، ولما فيه من نعيم لا يشوبه كدر ولا تنغيص، بخلاف مقيل الدنيا.

والمراد بالمقيل هنا المكان الذي ينزل فيه للاستراحة بالأزواج، والتمتع بمغازلتهن؛ أي: محادثتهن ومراودتهن، وإلا فليس في الجنة حر ولا نوم، بل استراحة مطلقة من غير غفلة، ولا ذهاب حس من الحواس، وكذا ليس في النار مكان استراحة ونوم للكفار، بل عذاب دائم وألم باق، وإنما سمي بالمقيل؛ لما روي أن أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنون مساكنهم في الجنة، وأهل النار في النار، وأما المحبوسون من العصاة، فتطول عليهم المدة مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا. والعياذ بالله تعالى. ثم في ﴿أحسن﴾ رمز إلى أن مقيل أهل الجنة مزين بفنون الزين والزخارف كبيت العروس في الدنيا.

وفي الحديث: «من سعادة المرء المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء»، وسئل بعضهم عن الغنى، فقال: سعة البيت ودوام القوت. ثم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

إن سعادات الدنيا كلها مذكرة لسعادات الآخرة، فالعاقل من لا تغره الدنيا الدنية، فجنة العارف هي القلب المطهر ومعرفة الله فيه، كما قال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى الجنة، قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه بعض حوادث يوم القيامة، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ منصوب بـ اذكر مقدراً، وهو معطوف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وكذا قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ...﴾ إلخ؛ أي: واذكر يا محمد لهم أهوال يوم تشقق وتتقطع وتتخرق فيه السماء؛ أي: كل سماء ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾؛ أي: بسبب ثقل الغمام، وهو سحاب[1] أبيض مثل الضباب فوق السموات السبع، ثخنه كثخن السموات السبع، وثقله كثقل السموات السبع، فينزل على السماء السابعة، فيخرقها بثقله ويشققها، وهكذا حتى ينزل إلى الأرض وفيه الملائكة؛ أي: ملائكة كل سماء، فينزل أولاً ملائكة الدنيا، وهم أزيد من أهل الأرض من إنس وجن، ثم ملائكة السماء الثانية، وهم أزيد من ملائكة سماء الدنيا، وهكذا، ثم ينزل الكروبيون، وإذا نزل ملائكة سماء الدنيا اصطفوا حول العالم المجموع في المحشر صفاً، وإذا نزل ملائكة السماء الثانية اصطفوا خلف هذا الصف صفاً آخر، وهكذا حتى تصير الصفوف سبعة، كلهم يحرسون أهل المحشر من الفرار والهرب. قال الإمام النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: الغمام فوق السموات السبع، وهو سحاب أبيض غليظ كغلظ السموات السبع، ويمسكه الله سبحانه اليوم بقدرته، وثقله أثقل من ثقل السموات، فإذا أراد الله سبحانه أن يشقق السموات ألقى ثقله عليها فانشقت، فذلك قوله تعلى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾؛ أي: بثقل الغمام، فيظهر الغمام، ويخرج منها، وفيه الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾؛ أي: تنزيلاً عجيباً غير معهود.

فإن قيل[2]: قد ثبت بالنقل أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة، وهكذا سماء الدنيا بالنسبة إلى السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة،

---

(1) زاده.

(2) روح البيان بتصرف.

فكيف تسع الأرض لملائكة السموات السبع بأسرها؟

أجيب: بأن الله سبحانه وتعالى يمد الأرض يوم القيامة مد الأديم، فتتسع مع أن السموات مقبية، فكلما زالت واحدة منها ونزلت تتسع الأرض بقدرها، فيكفي لملائكتها أطرافها، وقد ثبت أن الملائكة أجسام لطيفة رقيقة، فلا تتصور بينهم المزاحمة كمزاحمة الناس.

وقرأ الحرميان[1] ـ نافع وابن كثير ـ وابن عامر: ﴿تشّقق﴾ بتشديد الشين، فأدغموا التاء في الشين؛ لأن أصله تتشقق، قرؤوا كذلك هنا وفي قٓ، وباقي السبعة بحذف تلك التاء: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بلا تشديد الشين.

وقرأ الجمهور: ﴿وَنُزِّلَ﴾ ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول. وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء ﴿ونزل﴾ ماضياً مشدداً مبنياً للفاعل، وعنه أيضاً: ﴿وأنزل﴾ مبنياً للفاعل، وجاء مصدره تنزيلاً، وقياسه إنزالاً؛ لأنه لما كان معنى أنزل ونزل واحداً جاز مجيء مصدر أحدهما للآخر. وقرأ الأعمش وعبد الله في نقل ابن عطية ﴿وأنزل﴾ ماضياً رباعياً مبنياً للمفعول، مضارعه ينزل. وقرأ جناح بن حبيش والخفاف عن أبي عمرو ﴿ونزل﴾ ثلاثياً مخففاً مبنياً للفاعل. وقرأ هارون عن أبي عمرو ﴿وتنزل﴾ بالتاء من فوق مضارع نزل مشدداً مبنياً للفاعل. وقرأ أبو معاذ وخارجة عن أبي عمرو ﴿ونزل الملائكة﴾ بضم النون وشد الزاي، أسقط النون من ﴿وننزل﴾. وفي بعض المصاحف ﴿وننزل﴾ بالنون مضارع نزل مشدداً مبنياً للفاعل، ونسبها ابن عطية لابن كثير وحده، قال: وهي قراءة أهل مكة، ورويت عن أبي عمرو. وعن أبي أيضاً ﴿وتنزلت﴾، وقرأ أبي: ﴿ونزلت﴾ ماضياً مشدداً مبنياً للمفعول بتاء التأنيث. وقال صاحب «اللوامح» عن الخفاف عن أبي عمرو ﴿ونزل﴾ مخففاً مبنياً للمفعول. ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ رفعاً، والوجه في هذه القراءة أن يكون مثل: زكم الرجل وجن، فإنه لا يقال إلا: أزكمه الله وأجنه، فهذه إحدى عشرة قراءة.

---

(١) البحر المحيط.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾[1]: مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرفه ﴿ٱلْحَقُّ﴾: نعته، ومعناه: الثابت؛ لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلاّ ملكه ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾[4]: خبره.

والمعنى[2]: إن السلطة القاهرة والاستيلاء الكلي العام صورة ومعنى بحيث لا زوال له أصلاً ثابت للرحمن يومئذ؛ أي: يوم إذ تشقق السماء بالغمام. وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يوم القيامة، وأما ما عداه من أيام الدنيا، فيكون غيره أيضاً له تصرف صوري في الجملة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ أي: يوماً شديداً هوله على الكافرين، وأما على المؤمنين فيكون يسيراً بفضل الله تعالى، وقد جاء في الحديث: «أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا»؛ أي: وكان[3] هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة.

والحاصل: أن الكافرين يرون ذلك اليوم عسيراً عظيماً من دخول النار وحسرة فوات الجنان بعدما كانوا في اليسير من نعيم الدنيا، وأهل الإيمان والجد والاجتهاد يرون فيه اليسر من نعيم الجنان ولقاء الرحمن بعد أن كانوا في الدنيا راضين بالعسر، تاركين لليسر، موقنين أن مع العسر يسراً. وقيل للشبلي - رحمه الله تعالى - في الدنيا أشغال، وفي الآخرة أهوال، فمتى النجاة؟ قال: دع أشغالها تأمن من أهوالها، فلله در قوم فرغوا عن طلب الدنيا وشهواتها، ولم يغتروا بجمعها، ولم يلتفتوا إليها، نسأل الله سبحانه وتعالى الوقوف عند الأمر إلى حلول الأجل وانتهاء العمر.

والظرف في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ منصوب بمحذوف كسابقه تقديره: واذكر لهم يا محمد لهؤلاء المشركين أهوال يوم يأكل الكافر يديه إلى

---

(١) النسفي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) الشوكاني.

المرفق، ثم ينبتان، ثم يأكلهما، وهكذا كلما نبتتا أكلهما تحسرا وندامة على التفريط والتقصير، فلا يزال كذلك كما قاله الضحاك وعطاء. ف﴿عَلَىٰ﴾ زائدة على هذا التأويل، وهو يوم القيامة، والظاهر أن العض هنا حقيقة، ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله. وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة؛ أي: فعض اليدين عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك، وكذا عض الأنامل، وأكل البنان، وحرق الأسنان، ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها.

والمراد بالظالم: كل ظالم يرد ذلك المكان، وينزل ذلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، وهو عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما مر في الأسباب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وحاصل قصة عقبة بن أبي معيط: أنه كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً، وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أراد، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ، ويعجبه حديثه، فقدم ذات يوم من سفره، وصنع طعاماً، ودعا رسول الله ﷺ إلى طعامه، فأتاه رسول الله ﷺ، فلما قدم الطعام إليه أبى أن يأكل، فقال: «ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، وكان عندهم من العار أن يخرج من عندهم أحد قبل أن يأكل شيئاً، فألح عليه بأن يأكل، فلم يأكل، فشهد بذلك عقبة، فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان أبي بن خلف الجمحي غائباً، وكان صديق عقبة، فلما قدم أخبر بما جرى بين عقبة وبين رسول الله ﷺ، فأتاه فقال: صبوت يا عقبة؛ أي: ملت عن دين آبائك إلى دين حادث؟ فقال: لا والله ما صبوت، ولكن دخل علي رجل، فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم، فشهدت، فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى منك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتشتمه وتكذّبه ـ نعوذ بالله تعالى ـ فأتاه، فوجده ساجداً في دار الندوة، ففعل ذلك ـ والعياذ بالله تعالى ـ فقال رسول الله ﷺ لعقبة: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فأسر يوم بدر، فأمر عليه السلام علياً

ـ رضي الله عنه ـ أو عاصم بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فقتله، وطعن عليه السلام بيده الطاهرة الكاسرة أبياً اللعين يوم أحد في المبارزة، فرجع إلى مكة، فمات في الطريق بسَرِف ـ بفتح السين المهملة وكسر الراء ـ وهو مناسب لوصفه، لأنه مسرف. قال في «إنسان العيون»: ولم يقتل النبي ﷺ بيده الشريفة قط أحداً إلا أبي بن خلف، لا قبل ولا بعد.

حال كون ذلك الظالم ﴿يَقُولُ﴾: حال من فاعل ﴿يَعَضُّ﴾ ﴿يا﴾ هؤلاء، فالمنادى محذوف، ويجوز أن تكون ﴿يا﴾ لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه؛ أي: يا قوم ﴿ليتني اتخذت﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً إلى النجاة من هذه الورطات؛ أي: صاحبته في اتخاذ سبيل الهدى؛ أي: واذكر يوم يعض المشرك بربه على يديه ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وعلى ما أعرض عنه من الحق الواضح الذي جاء به رسوله حالة كونه يقول: ليتني اتخذت مع الرسول طريقاً إلى النجاة، ولم تتشعب بي طرق الضلالة.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾؛ أي: يا هلكتي تعالي واحضري لأتعجب منك، فهذا أوان حضورك، والنداء وإن كان أصله لمن يتأتى منه الإقبال؛ وهم العقلاء إلا أن العرب تتجوز وتنادي ما لا يعقل إظهاراً للتحسر ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾ كأبي بن خلف ﴿خَلِيلًا﴾؛ أي: صديقاً، من الخلة وهي المودة لأنها تتخلل النفس؛ أي: تتوسطها والمراد من أضله في الدنيا كائناً من كان من شياطين الإنس والجن، فيدخل فيه أبي المذكور؛ أي: لم أتخذ فلاناً الذي أضلني وصرفني عن طريق الهدى خليلاً وصديقاً.

وهذا[1] دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضلَّه في الدنيا. وفلان: كناية عن الأعلام. قال النيسابوري: زعم بعض أهل اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلا حكاية، لا يقال: جاءني فلان، ولكن يقال:

---

(١) البحر المحيط.

قال زيد: جاءني فلان؛ لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم، وكذلك جاء في كلام الله. وقيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عمن يعقل من الإناث. والظاهر أنه منصرف. وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء. وقيل: يختص بالنداء إلا في ضرورة الشعر، كقوله:

فِـيْ لُـجَّـةٍ أَمْـسِـكْ فُـلاَنـاً عَـنْ فُـلِ

وفل[1]: كناية عن نكرة الإنسان نحو يا رجل، وهو مختص بالنداء، وفلة بمعنى يا امرأة كذلك، ولام فل ياء أو واو على الخلاف فيه، وليس مرخماً من فلان، خلافاً للفراء. وَوهم ابن عصفور وابن مالك وصاحب البسيط في قولهم: فل كناية عن العلم كفلان. وفي كتاب سيبويه: ما قلناه بالنقل عن العرب.

وقرأ الحسن وابن قطيب ﴿يا ويلتي﴾ بكسر التاء والياء الصريحة، فالياء فيه ياء المتكلم، وهو الأصل. وقرأ الدوري وجماعة بالإمالة. قال أبو علي: وترك الإمالة أحسن؛ لأن أصل هذه اللفظة الياء، فأبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فرّ منه.

والله ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى﴾ وصرفني ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: عن القرآن المذكر لكل مرغوب ومرهوب، وعن موعظة الرسول ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِىۗ﴾ الذكر من ربي بواسطة الرسول، وتمكنت من العمل به، وعمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

وهٰهنا[2] تم الكلام، ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: إبليس الحامل بوسوسته على مخالة المضلين ومخالفة الرسول وهجر القرآن ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾؛ أي: كثير الخذلان له، ومبالغاً في حبه، يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وكذا حال من حمله على صداقته. والخذلان: ترك النصرة ممن يظن به أن ينصر. وفي وصفه بالخذلان إشعار بأنه كان يعده في الدنيا ويمنيه بأن ينفعه في الآخرة.

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

وهذا[1] اعتراض مقرر لمضمون ما قبله؛ إما من جهته تعالى كما مر، وإما من تمام كلام الظالم، قال بعضهم: المراد بالشيطان: قرين السوء، سماه شيطاناً؛ لأنه الضال المضل، يضل كما يضل الشيطان الحقيقي. وهذه الآية عامة في كل متحابين اجتمعا على معصية الله، والخلة الحقيقية هي أن لا تكون لطمع ولا لخوف، بل في الدين. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالّ» أخرجه أبو داود والترمذي. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي». وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة». قال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل الخبيص مع الفجار، نسأل الله الخلاص والالتحاق بأرباب الاختصاص، والعمل بالقرآن في كل زمان وعلى كل حال.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ شكاية لله مما صنع قومه، وفي هذا[2] تخويف لقومه؛ لأن الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل الله لهم العذاب. وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وما بينهما اعتراض؛ أي: قالوا: كيت وكيت، وقال الرسول محمد ﷺ إثر ما شاهد منهم غاية العتوّ، ونهاية الطغيان بطريق البث والشكوى ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾؛ أي: متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، وصدّوا عنه، ولم يتأثروا بتخويفه ووعيده. والمعنى[3]: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه. وقيل: هو من هجر إذا هذى، والمعنى: إنهم اتخذوه هجرا وهذيانا. وقيل:

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.

معنى ﴿مَهْجُورًا﴾ مهجوراً فيه، ثم حذف الجار. وهجرهم فيه قولهم: إنه باطل، إنه سحر وشعر وأساطير الأولين. وهذا حكاية لقوله ﷺ في الدنيا. وقيل: يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة. والمعنى حينئذ: ويقول الرسول يوم القيامة. فالماضي بمعنى المضارع. وفي ذكره ﷺ بلفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ تحقيق للحق ورد عليهم؛ إذ كان ما أوردوه قدحاً في رسالته ﷺ. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿إن قومي اتخذوا﴾ بتحريك الياء، وأسكنها عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي اهـ ابن الجوزي.

وفي هذه الآية[1]: تلويح بأن حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن؛ أي: التحفظ والقراءة كل يوم وليلة كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. وفي الحديث: «من تعلم القرآن وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه.. جاء يوم القيامة متعلقاً به، يقول: يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه». ومن أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل آية من القرآن أو سورة ثم ينساها. والنسيان: أن لا يمكنه القراءة من المصحف كما في «القنية». وفي الحديث: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: وما جلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الله».

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقيه من الشدائد والأهوال بأن له في سلفه من الأنبياء قبله أسوة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جعلنا لك يا محمد أعداء من مجرمي قومك كأبي جهل وأضرابه ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء المتقدمين ﴿عَدُوًّا﴾؛ أي: أعداء، فإنه يحتمل الواحد والجمع ﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: من مجرمي قومهم كنمروذ لإبراهيم، وفرعون لموسى، واليهود لعيسى، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

والمعنى[2]: أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك ما يتقولون من الترهات والأباطيل، ويفعلون من السخف ما يفعلون، جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين سلفوا وأوتوا من الشرائع ما فيه هدى للبشر أعداء لهم من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

شياطين الإنس والجن، وكانوا لهم بالمرصاد، وقاوموا دعوتهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فلا تجزع أيها الرسول، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، واصبر كما صبروا، قال ابن عباس: كان عدو النبي ﷺ أبا جهل، وعدو موسى قارون، وكان قارون ابن عمّ موسى، ونحو الآية قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

ثم وعده بالهداية والنصر والتأييد وغلبته لأعدائه، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾؛ أي: كفاك ربك. والباء صلة لتأكيد ﴿هَادِيًا﴾: تمييز؛ أي: من جهة هدايته لك إلى كافة مطالبك، ومنها انتشار شريعتك وكثرة الآخذين بها ﴿وَنَصِيرًا﴾؛ أي: ومن جهة نصرته لك على جميع أعدائك، فلا تبال بمن يعاديك وسيبلغ حكمك إلى أقطار الأرض وأكناف الدنيا. ويصح أن يكون: ﴿هَادِيًا﴾ حالاً من ﴿ربك﴾؛ أي: حالة كونه هادياً لك، وناصراً لك.

والمعنى(١): أي وكفاك ربك هادياً لك إلى مصالح الدين والدنيا، وسيبلغك أقصى ما تطلب من الكمال، وسينصرك على أعدائك، وستكون لك الغلبة عليهم آخراً، فلا يهولنك كثرة عَددهم وعُددهم، فإني لا محالة جاعل كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى، فاصبر لأمري وامض لتبليغ رسالتي حتى يبلغ الكتاب أجله.

دلت الآية(٢) بالعبارة والإشارة على أن لكل نبي وولي عدواً يمتحنه الله به، ويظهر شرف اصطفائه. قال أبو بكر بن طاهر رحمه الله تعالى: رفعت درجات الأنبياء والأولياء بامتحانهم بالمخالفين والأعداء، وفي الخبر: «لو أن مؤمناً ارتقى على ذروة جبل لقيض الله إليه منافقاً يؤذيه فيؤجر عليه»، ثم لم يغادر الله المجرم المعاند العدو لوليه حتى أذاقه وبال ما استوجبه على معاداته، كما قال في الحديث الرباني: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، وقال: «وأنا أنتقم لأوليائي كما ينتقم الليث الجريء لجروه».

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة كأبي جهل وأصحابه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ فـ﴿لَوْلَآ﴾ تحضيضية بمعنى: هلا. والتنزيل هنا: مجرد عن معنى التدريج، فـ﴿نُزِّلَ﴾ هنا بمعنى: أنزل كـ: خبَّر بمعنى: أخبر؛ لئلا يناقض قوله: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: دفعة واحدة كالكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والزبور. حال من ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ إذ هي في معنى: مجتمعاً، وهذا اعتراض حيرة وبهت، لا طائل تحته؛ لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً، وقد تحدوا بسورة واحدة فعجزوا عن ذلك، حتى أخلدوا إلى بذل المهج والأموال دون الإتيان بها، مع أن للتفريق فوائد كثيرة سيأتي تفصيلها.

أي: وقال الذين كفروا من أهل مكة في تعنتاتهم: هلا أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ حالة كونه جملة واحدة في مرة واحدة كسائر الكتب السالفة إن كان من عند الله تعالى، وما له أنزل على التفاريق؟. وهذا[1] اعتراض فاسد، لأنهم تحدوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم، حتى لاذوا بالمناصبة، وفزعوا إلى المحاربة، وبذلوا المهج ومالوا إلى الحجج. وقيل: المراد بالذين كفروا هنا اليهود، والمعنى عليه: أي[2]: وقال اليهود: هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة كما أنزلت الكتب السالفة على الأنبياء كذلك. وهذا زعم باطل ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت متفرقة، فقد أنزلت التوراة منجمة في ثماني عشرة سنة، كما تدل عليه نصوص التوراة، وليس هناك دليل قاطع على خلاف ذلك من كتاب أو سنة كما نزل القرآن، لكنهم معاندون أو جاهلون لا يدرون كيف نزلت كتب الله على أنبيائه، وهو اعتراض بما لا طائل تحته؛ لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً فرد الله عليهم ما قالوا، وأشار إلى السبب الذي لأجله نزل القرآن منجماً، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ والكاف في محل نصب على أنها صفة لمصدر محذوف[3] مؤكد معلل بما بعده، و﴿ذلك﴾: إشارة إلى ما يفهم من كلامهم؛ أي: مثل ذلك التنزيل المفرق الذي

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

قدحوا فيه نزلناه، لا تنزيلاً مغايراً له ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ونقوي. وقرأ عبد الله ﴿ليثبت﴾ بالياء؛ أي: ليثبت الله ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك التنزيل المفرق ﴿فُؤَادَكَ﴾؛ أي: قلبك، فإن فيه تيسيراً لحفظ النظم وفهم المعنى، وضبط الأحكام والعمل بها، ألا ترى أن التوراة أنزلت دفعة، فشق العمل على بني إسرائيل، ولأن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزلنا القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور تحدث في أوقات مختلفة، ففرقناه ليكون أدعى لرسول الله ﷺ، وأيسر على العامل به، ولأنه كلما نزل عليه وحي جديد في كل أمر وحادثة ازداد هو قوة قلب وبصيرة.

وبالجملة: فإن إنزال القرآن منجماً فضيلة خص بها نبينا ﷺ من سائر النبيين، فإن المقصود من إنزاله أن يتخلق قلبه المنير بخلق القرآن ويتقوى بنوره، ويتغذى بحقائقه وعلومه، وهذه الفوائد إنما تكمل بإنزاله مفرقاً، ألا ترى أن الماء لو نزل من السماء جملة واحدة لما كانت تربية الزروع به مثلها إذا نزل مفرقاً إلى أن يستوي الزرع.

وقيل: إن هذه الكلمة أعني: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هي من تمام كلام المشركين؛ أي: وقال الذين كفروا: لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك؛ أي: كالتوراة والإنجيل والزبور، فيوقف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثم يبتدىء بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ على معنى أنزلناه عليك متفرقاً لغرض تثبيت فؤادك. قال ابن الأنباري: وهذا أجود وأحسن. قال النحاس: وكان ذلك؛ أي: إنزال القرآن منجماً من أعلام النبوة؛ لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم.

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ معطوف على ذلك الفعل المقدر. والترتيل[1]: التفريق ومجيء الكلمة بعد الأخرى بسكوت يسير دون قطع النفس، وأصله في

---

(١) روح البيان.

الأسنان، وهو تفريجها. والمعنى: كذلك نزلناه وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تؤدة وتمهل في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين سنة.

خلاصة تلك الفوائد(١):

١. أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلو أنزل عليه القرآن جملة واحدة كان من الصعب عليه أن يضبطه، وجاز عليه السهو والغلط.

٢. أنه أنزل هكذا ليكون حفظه له أكمل، ويكون أبعد عن المساهلة وقلة التحصيل.

٣. أنه لو أنزل جملة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة عليهم، ولا يخفى ما في ذلك من حرج عليهم بكثرة التكاليف مرة واحدة، ولكن بإنزاله منجماً جاء التشريع رويداً رويداً، فكان احتمالهم له أيسر، ومرانهم عليه أسهل.

٤. أنه ﷺ إذا شاهد جبريل الفينة بعد الفينة قوي قلبه على أداء ما حمّل به، وعلى الصبر على أعباء النبوة، وعلى احتمال أذى قومه، وقدر على الجهاد الذي استمر عليه طول حياته الشريفة.

٥. أنه أنزل هكذا بحسب الأسئلة والوقائع، فكان في ذلك زيادة بصر لهم في دينهم.

٦. أنه لما نزل هكذا، وتحداهم بنجومه وبما ينزل منه، وعجزوا عن معارضته.. كان عجزهم عن معارضته جملة أجدر وأحق في نظر الرأي الحصيف.

٧. أن بعض أحكام الشريعة جاء في بدء التنزيل على وفق حال القوم الذين أنزلت عليهم، وبحسب العادات التي كانوا يألفونها، فلما أضاء الله بصائرهم

---

(١) المراغي.

بهدي رسوله تغيرت بعض أحوالهم، واستعدت أنفسهم لتشريع يزيدهم طهراً على طهر، ويذهب عنهم رجس الجاهلية الذي كانوا فيه، فجاء ذلك التشريع الجديد الكامل المناسب لتلك الحال الجديدة، ولو أنزل القرآن جملة واحدة لم يتسن شيء من هذا.

ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون في كل أوان، مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة، فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يا محمد ﴿بِمَثَلٍ﴾؛ أي:[1] بسؤال عجيب وكلام غريب، كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في حقك وحق القرآن ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ﴾ في مقابلته، فالباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتعدية أيضاً؛ أي: بالجواب الحق الثابت المبطل لما جاؤوا به، القاطع لمادة القيل والقال ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ عطف على ﴿الحق﴾. والتفسير: تفعيل من الفسر؛ وهو كشف ما غطي.

والمعنى: وبما هو أحسن بياناً وتفصيلاً لما هو الحق والصواب ومقتضى الحكمة، بمعنى أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، لا أن ما يأتون به له حسن في الجملة، وهذا أحسن منه، لأن سؤالهم مثل في البطلان، فكيف يصح له حسن، اللهم إلا أن يكون بزعمهم. يعني: لما كان السؤال حسناً بزعمهم.. قيل: الجواب أحسن من السؤال. والمعنى؛ أي[2]: لا يأتيك يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك في مقابلة مثلهم وسؤالهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاؤوا به من المثل ويدمغه ويدفعه، فالمراد بالمثل هنا السؤال والاقتراح، وبالحق جوابه الذي يقطع ذريعته، ويبطل شبهته، ويحسن مادته.

والاستثناء في قوله[3]: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ﴾ مفرغ، محله النصب على الحالية؛ أي: لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا حال إتياننا إياك بالحق الذي لا محيد عنه، وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأسئلة، وبصحة جميع الأجوبة،

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

وبإشارته منبىء عن بطلان السؤال الأخير وصحة جوابه؛ إذ لولا أن التنزيل على التدريج.. لما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة، أو يقال: كل نبي إذا قال له قومه قولاً.. كان النبي ﷺ هو الذي يرد عليهم، وأما النبي ﷺ إذا قالوا له شيئاً.. فالله يرد عليهم.

وحاصل المعنى(١): ولا يأتيك هؤلاء المشركون بصفة غريبة من الصفات التي يقترحونها، ويريدون بها القدح في نبوتك إلا دحضناها بالحق الذي يدفع قولهم، ويقطع عروق أسئلتهم السخيفة، ويكون أحسن بياناً مما يقولون، ونحو الآية قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾.

والخلاصة: أنهم لا يقترحون اقتراحاً من فاسد مقترحاته إلا أتيناك بما يدفعه، ويوضح بطلانه.

وبعد أن وصفوا رسوله بتلك الأوصاف السالفة تحقيراً له.. سلاه على ذلك، وطلب إليه أن يقول لهم: ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ أول ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة، ويسحبون ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ويجرون ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان ﴿شَرٌّ﴾: خبر المبتدأ الثاني ﴿مَكَانًا﴾؛ أي: مكانة ومنزلة، أو مسكناً ومنزلاً في الآخرة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: أخطأ طريقاً عن الحق والهدى من كل أحد في الدنيا.

والمعنى: أي إني لا أقول لكم كما تقولون، ولا أصفكم بمثل ما تصفونني به، بل أقول لكم: إن الذين يسحبون إلى جهنم، ويجرون بالسلاسل والأغلال هم شرّ مكاناً، وأضل سبيلاً، فانظروا بعين الإنصاف، وفكروا من أولى بهذه الأوصاف منا ومنكم؛ لتعلموا أن مكانكم شر من مكاننا، وسبيلكم أضل من سبيلنا، وهذا على نسق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾، ويسمون هذا الأسلوب في المناظرة بـ إرخاء العنان للخصم؛ ليسهل إفحامه وإلزامه.

والمراد أن الملائكة تسحبهم وتجرهم على وجوههم إلى جهنم، أو كون

---

(١) المراغي.

الحشر على الوجوه عبارة عن الذلة والخزي والهوان، أو هو من قول العرب: مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين يذهب. روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاةً، وصنفاً ركبانا، وصنفاً على وجوههم». قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذين أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك».

ولما استكبر الكفار واستعلوا حتى لم يخروا ساجدين لله تعالى.. حشرهم الله تعالى على وجوههم، ولما تواضع المؤمنون.. رفعهم الله على النجائب، فمن هرب عن المخالفة، وأقبل إلى الموافقة نجا، ومن عكس هلك، وأين يهرب العاصي والله تعالى مدركه.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد آتينا موسى التوراة؛ أي: أنزلناها عليه بعد إغراق فرعون وقومه.

واعلم: أن الله سبحانه ذكر هنا طرفاً من قصص الأولين تسلية له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله، وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ. وفي «الإرشاد»: والتعرض في مطلع القصة لإيتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم، ولم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه السلام غاية الكمال، ونيله نهاية الآمال التي هي إنجاء بني إسرائيل من ملك فرعون، وإرشادهم إلى طريق الحق بما في التوراة من الأحكام ﴿وجعلنا معه﴾؛ أي: مع موسى، والظرف متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ ﴿أَخَاهُ﴾ الشقيق، مفعول أول له ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿أَخَاهُ﴾، أو عطف بيان وهو اسم أعجمي، ولم يرد في شيء من كلام العرب. ﴿وَزِيرًا﴾ مفعول ثان؛ أي: معيناً يوازره ويعاونه في الدعوة إلى الله وإعلاء الكلمة، فإن الموازرة المعاونة كما سيأتي في مبحث اللغة.

---

(١) روح البيان.

تنبيه: والواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لا تفيد ترتيباً، فإن من المعلوم أن إيتاء التوراة كان بعد إيتاء الرسالة لموسى وهارون بنحومن ثلاثين سنة، لأن إرسالهما كان في واقعة الطور عند مجيء، موسى من الشام، ثم جاء مصر، ومكث يدعو فرعون وقومه ثلاثين سنة، ثم خرج من مصر، فانفلق له البحر، فغرق فرعون وقومه، فذهب موسى إلى الشام، فآتاه الله التوراة هناك، فقوله: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا﴾ معطوفة على ﴿جعلنا﴾، وكل من الجعل والقول كان قبل إيتاء التوراة كما علمت. اهـ شيخنا.

أي[1]: ولقد أنزلنا على موسى التوراة كما أنزلنا عليك الفرقان، وجعلنا معه أخاه هارون معيناً وظهيراً له، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ فإنه وإن كان نبياً فالشريعة لموسى عليه السلام، وهو تابع له فيها، كما أن الوزير متبع لسلطانه.

وفي «الروح»[2]: فإن قلت: كون هارون وزيراً كالمنافي لكونه شريكاً له في النبوة؛ لأنه إذا صار شريكاً له خرج عن كونه وزيراً؟

قلتُ: لا ينافي ذلك مشاركته في النبوة؛ لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه، وقد كان هارون في أول الأمر وزيراً لموسى، ولاشتراكهما في النبوة قيل لهما: اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا.

ثم ذكر ما أمرا به من تبليغ الرسالة مع بيان أن النصر لهما آخراً على أعدائهما بقوله: ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما ﴿اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الإلهية[3]؛ وهي مصنوعات الله تعالى الدالة على انفراده تعالى بالملك والعبادة، حيث عبدوا فرعون، فذهبا إليهم، فأرياهم الآيات التسع كلها؛ وهي آيات النبوة، فكذبوهما حيث أنكروا رسالتهما كما كذبوا الآيات الإلهية ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾؛ أي: أهلكناهم عقب ذلك التكذيب إهلاكاً عجيباً؛ أي: فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

وقومه الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق، فلما ذهبا إليهم كذبوهما، فأهلكناهم أشد إهلاك، ونحو الآية قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وفي ذلك تسلية لرسوله، وأنه ليس أول من كذب من الرسل، فله أسوة بمن سلف منهم. قيل[1]: المراد بالآيات هي المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، ولم يوصف القوم عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن الأمر به، بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير. وقيل: المراد: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التكوينية؛ أي: العلامات التي خلق الله في الدنيا، كما جرينا عليه في حلنا. وقيل: المراد بها الرسل وكتب الأنبياء الذين قبل موسى، كما في قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ فالباء على كل تقدير متعلقة بـ﴿كَذَّبُوا﴾ لا بـ﴿اذْهَبَا﴾، وإن كان الذهاب إليهم بالآيات، كما في قوله في الشعراء: ﴿فاذهبا بآياتنا﴾. وأما التكذيب فتارة يتعلق بالآيات، كما في قوله في الأعراف: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: بالآيات، وقوله في طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، وتارة بموسى وهارون، كما في قوله في المؤمنون: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾.

وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ قبله حذف تقديره: فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا فكذبوهما تكذيباً مستمراً، فأهلكناهم إثر ذلك التكذيب المستمر إهلاكاً عجيباً هائلاً لا يدرك كنهه. فاقتصر على حاشيتي القصة؛ أي: أولها وآخرها اكتفاء بما هو المقصود منها؛ وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل والتدمير بالتكذيب، والفاء للتعقيب باعتبار نهاية التكذيب؛ أي: باعتبار استمراره، وإلا فالتدمير متأخر عن التكذيب بأزمنة متطاولة. وقيل: إن المراد بالتدمير هنا الحكم؛ لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم، بل بعده بمدة. وقرأ[2] علي والحسن ومسلمة بن محارب: ﴿فدمراهم﴾ على الأمر لموسى وهارون. وعن علي كذلك إلا أنه مؤكد بالنون الشديدة. وعنه أيضاً: ﴿فدمرا بهم﴾ أمراً لهما بزيادة باء الجر. ومعنى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الأمر: كونا سبب تدميرهم.

قصة قوم نوح عليه السلام

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً، يدل عليه ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ودمرنا قوم نوح ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: نوحاً ومن قبله من الرسل كشيث وإدريس، أو نوحاً وحده؛ لأن تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والإسلام. ويقال: إن نوحاً كان يدعو قومه إلى الايمان به وبالرسل الذين بعده، فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل، كما ثبت أن كل نبي أخذ العهد من قومه أن يؤمنوا بخاتم النبيين إن أدركوا زمنه. وقيل: معطوف على الهاء في: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾.

﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان؛ أي: أهلكناهم بمائه، والإغراق السفول في الماء كما سيأتي. وهو استئناف مبين لكيفية تدميرهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وجعلنا إغراقهم، أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها، وهو مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾ و﴿لِلنَّاسِ﴾ ظرف لغو له؛ أي: جعلنا قصتهم عبرة لكل الناس على العموم، يتعظ بها كل مشاهد لها وسامع لخبرها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: أعددنا وهيأنا في الآخرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لهم؛ أي: للمغرقين من قوم نوح، والإظهار في موضع الإضمار للتسجيل بظلمهم، والايذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب. فالمراد بالظالمين قوم نوح على الخصوص، ويجوز أن يكون المراد بهم كل من سلك مسلكهم في التكذيب: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: وجيعاً سوى ما حل بهم من عذاب الدنيا.

وحاصل معنى الآية: أي[1] وكذلك فعلنا بقوم نوح حين كذبوا رسولنا نوحاً عليه السلام، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويحذرهم نقمته ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فأغرقناهم، ولم نترك منهم أحداً إلا

---

(١) المراغي.

أصحاب السفينة، وجعلناهم عبرة للناس، كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: أبقينا لكم السفينة؛ لتذكروا نعمة الله عليكم بإنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق بأمره.

وفي قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ وهم لم يكذّبوا إلا رسولاً واحداً؛ وهو نوح إيماء إلى أن من كذب رسولاً واحداً.. فقد كذب جميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول وآخر؛ إذ جميعهم يدعون إلى توحيد الله ونبذ الأصنام والأوثان، قاله الزجاج.

ثم ذكر مآل المكذبين، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: وأعددنا لكل من كفر بالله، ولم يؤمن برسله عذاباً أليماً في الآخرة. وفي ذلك رمز إلى أن قريشاً سيحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة مثل ما حل بأولئك المكذبين إذا لم يرعووا عن غيهم.

قصص عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم

وانتصاب ﴿وَعَادًا﴾ بالعطف على ﴿قومَ﴾. وقيل: على محل ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾. وقيل: على المفعول الأول لـ﴿جعلنا﴾؛ أي: وأهلكنا عاداً قوم هود ﴿وَثَمُودَا۟﴾ قوم صالح. قرأ حمزة وحفص وعبد الله وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى ﴿وَثَمُودَا۟﴾ غير مصروف على تأويل القبيلة، وقرأ غيرهم ﴿وثموداً﴾ بالصرف على تأويل الحي ﴿و﴾ أهلكنا ﴿أصحاب الرس﴾ الرس في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية. وأصحاب الرس هم قوم يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، فبينما هم حول الرس؛ أي: بئرهم الغير المبنية التي يشربون منها ويسقون مواشيهم انهارت، فخسف بهم وبديارهم. قاله الكلبي ووهب. وقيل: الرس: قرية بفلج اليمامة، كان فيها بقايا ثمود، فبعث إليهم نبي، فقتلوه، فأهلكوا. وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان عليه السلام، ابتلاهم بطير عظيم، فيها من كل لون تسمى بالعنقاء لطول عنقها فتخطف صبيانهم وعُرَسَهُمْ ـ أي طعامهم ـ، فدعا عليها حنظلة، فأصابتها الصاعقة، فكفوا شرها،

ثم إنهم قتلوا حنظلة عليه السلام، فأهلكوا. وقيل: إن الرس بئر في أنطاكية الشام، كذبوا حبيباً النجار؛ وهو صاحب يّس الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقتلوه، فدسوه في تلك البئر، فأهلكوا.

وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ: أن أهل الرس أخذوا نبيهم، فرسوه في بئر، وأطبقوا عليه صخرة، فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى تلك البئر، فيعينه الله تعالى على تلك الصخرة فيقلعها، فيعطيه ما يغذيه به، ثم يرد الصخرة، إلى أن ضرب الله يوماً على أذن ذلك الأسود بالنوم أربع عشرة سنة، وأخرج أهل القرية نبيهم، فآمنوا؛ به في حديث طويل. قال الطبري: فيمكن[1] أنهم كفروا بعد ذلك، فذكرهم في هذه الآية، وكثر الاختلاف في أصحاب الرس، فلو صح ما نقله عكرمة ومحمد بن كعب كان هو القول الذي لا يمكن خلافه.

وملخص هذه الأقوال: أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم، والله سبحانه أعلم بمن هم.

﴿وَقُرُونَۢا﴾؛ أي: وأهلكنا أيضاً أهل قرون وأزمنة. جمع قرن؛ وهم القوم المقترنون في زمن واحد. قيل: القرن: مئة سنة. وقيل: مئة وعشرون سنة. وقيل: القرن أربعون سنة. وفي «القاموس»: الأصح أنه مئة سنة؛ لقوله ﷺ لرجل: «عش قرناً، فعاش مئة سنة» ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الطوائف والأمم من قوم نوح وما بعده ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لـ﴿قرونا﴾. والإفراد باعتبار الجمع، أو العدد كقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾، أو لأن فعيلاً يستوي فيه المفرد والجمع؛ أي: وأهلكنا أقواماً كثيراً بين هؤلاء الأمم المذكورة لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: أي[2] ودمرنا عاداً قوم هود عليه السلام بالريح الصرصر العاتية، وثمود قوم صالح بالصيحة، وأهلكنا أصحاب الرس الذين كانوا باليمامة أو

---

(١) الطبري. (٢) المراغي.

بغيرها ـ على الخلاف السابق ـ وقتلوا نبيهم ـ واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، وسيأتي ذكر قصصهم ـ وأهلكنا أمماً كثيرة بين أولئك المذكورين.

ثم ذكر أنه أنذر أولئك المكذبين، وحذرهم قبل أن يوقع بهم، فقال: ﴿وَكُلًّا﴾: منصوب بمضمرٍ يفسره ما بعده؛ أي: ذكرنا وأنذرنا وخوفنا كل واحد من الأمم المذكورين المهلكين ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؛ أي: بينا له الأشباه والقصص العجيبة الغريبة التي تشبه الأمثال في الغرابة، الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل ﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: وكل واحد منهم بعد التكذيب والإصرار ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾؛ أي: أهلكنا إهلاكاً عجيباً هائلاً. والتتبير[1]: الإهلاك بالعذاب، قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته. قال المؤرخ والأخفش: معنى: ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ دمرنا تدميراً، أبدلت التاء والباء من الدال والميم.

ثم ذكر مشركي مكة بما يرونه من العبر في حلهم وترحالهم، وما يشاهدونه مما حل بأولئك الأمم المكذبة من المثلات، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أتى قوم قريش في متاجرهم إلى الشام ومروا ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي[2] قرية سدوم ـ بالدال المهملة، وقيل: بالذال المعجمة ـ وهي عظمى قرى قوم لوط، أمطرت عليها الحجارة، وأهلكت، فإن أهلها كانوا يعملون العمل الخبيث. واعلم أن قرى قوم لوط خمس، ما نجا منها إلا واحدة؛ وهي أصغرها؛ لأن أهلها كانوا لا يعملون العمل الخبيث، وسدوم من التي أهلكت. وتخصيصها هنا؛ لكونها في ممر تجار قريش، وكانوا في مرورهم بها يرونها مؤتفكة ولا يعتبرون. وانتصاب[3] ﴿مطر﴾ على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أمطرت إمطار السوء والشر والضرر، و﴿مطر﴾ مجهولاً في الخير، و﴿أُمطر﴾ في الشر. وقيل: هما لغتان. و﴿ٱلسَّوْءِ﴾ ـ بفتح السين وضمها ـ: كل ما يسوء الإنسان، ويغمه من البلاء والآفة. وقرأ زيد بن علي: ﴿مطرت﴾ ثلاثياً مبنياً للمفعول، و﴿مطر﴾ متعد. وقرأ أبو السماك ﴿مطر السوء﴾ بضم السين، ذكره في «البحر».

والمعنى: والله لقد مر هؤلاء المكذبون في رحلة الصيف على سدوم عظمى قرى قوم لوط، وقد أهلكها الله سبحانه بأن أمطر عليها حجارة من سجيل، لأن قومها كانوا يعملون الخبائث، وحذرهم لوط، فما أغنت عنهم الآيات والنذر، ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة ما يوجبه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؛ أي: أفلم يكونوا يرون آثارها وآثار ما حل بأهلها؟ والاستفهام فيه: للتقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه؛ وهو ما بعد النفي؛ أي: ليقروا بأنهم رأوها حتى يعتبروا بها. اهـ. وفي «أبي السعود»[1]: والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام؛ أي: ألم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها، أو أكانوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها في مرات مرورهم؛ ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب، فالمنكر في التقدير الأول: ترك النظر وعدم الرؤية معاً، والمنكر في التقدير الثاني: عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها» اهـ.

والمعنى: ألم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرون ما نزل بتلك القرية من عذاب الله تعالى بتكذيب أهلها رسول ربهم، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله؟ ثم أبان سبحانه أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية، بل منشؤه إنكار البعث والنشور، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ أي: بعثاً. وهذا إما إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة، وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى

---

(١) أبو السعود. (٢) بيضاوي.

التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور» اهـ «أبو السعود»؛ أي[1]: بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة، فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا كما مرت ركابهم، أو لا يؤملون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية «اهـ «بيضاوي». فالرجاء هنا؛ إما بمعنى التوقع، أو الأمل، أو الخوف.

والمعنى: أي أنهم ما كذبوا محمداً ﷺ فيما جاءهم به من عند الله تعالى؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ما حل بالقرية التي وصفت، بل كذبوه من قبل أنهم قوم لا يخافون نشوراً بعد الممات، ولا يوقنون بعقاب، ولا ثواب، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله تعالى؛ أي[2]: فإنهم ينكرون النشور المستتبع للجزاء الأخروي، ولا يرون لنفس من النفوس نشوراً وبعثاً أصلاً مع تحققه حتماً، وشموله للناس عموماً، واطراده وقوعاً، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك، وإنما يحملونه على الاتفاقات.

واعلم: أن النشور لا ينكره إلا الكفور، وقد جعل الله في الدنيا شاهداً له، ومشيراً لوقوعه، وفي الخبر: «إذا رأيتم الربيع فاذكروا النشور». والربيع مثل يوم النشور؛ لأن الربيع وقت إلقاء البذر، ويكون الزارع قلبه معلقاً إلى ذلك الوقت أيخرج أم لا؟ فكذلك المؤمن يجتهد في طاعته وقلبه يكون معلقاً بين الخوف والرجاء إلى يوم القيامة، أيقبل الله تعالى منه أم لا؟ ثم إذا خرج الزرع وأدرك يحصد ويداسى ويذرى، ثم يطحن ويخبز، وإذا خرج من التنور بلا احتراق يصلح للخوان، ولو احترق ضاع عمله وبطل سعيه، وكذلك العبد يصلي ويصوم ويزكي ويحج، فإذا جاء ملك الموت، وحصد روحه بمنجل الموت، وجعلوه في القبر يكون فيه إلى يوم القيامة، وإذا جاء يوم القيامة وخرج من قبره، ووقع الحشر والنشور أمر به إلى الصراط، فإذا جاوز الصراط سالماً فقد صلح للرؤية، وإلا

---

(١) روح البيان.

فقد هلك، فعلى العاقل أن يتفكر في النشور، ويتذكر عاقبة الأمور.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾؛ أي: وإذا أبصرك يا محمد هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم يعني: قريشاً كأبي جهل وأصحابه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ﴿إِنْ﴾: نافية؛ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: إلا موضع هزءٍ وسخرية؛ أي: إلا مهزوءاً بك؛ أي: يستهزئون بك قائلين بطريق الاستحقار والتهكم: ﴿أَهَٰذَا﴾ الإنسان هو ﴿الذي بعث﴾ه ﴿ٱللَّهُ﴾ إلينا حالة كونه ﴿رَسُولًا﴾ ليثبت الحجة علينا يعني[1]: أنهم لم يقتصروا على ترك الإيمان، وإيراد الشبهات الباطلة، بل زادوا عليه الاستخفاف والاستهزاء إذا رأوه؛ وهو قول أبي جهل لأبي سفيان، وهذا نبي بني عبد مناف. والاستفهام فيه للتعجب المضمن للإنكار والتهكم.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن أهل الحس لا يرون النبوة والرسالة بالحسّ الظاهر؛ لأنها تدرك بنظر البصيرة المؤيدة بنور الله عز وجل، وهم عميان بهذا البصر، فلما سمعوا منه ما لم يهتدوا به من كلام النبوة والرسالة ما اتخذوه إلا هزواً، وقالوا مستهزئين: أهذا الذي بعث الله رسولاً وهو بشر مثلنا محتاج إلى الطعام والشراب.

﴿إِن كَادَ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، وضمير الشأن محذوف؛ أي: إنه كاد، واللام في ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ هي الفارقة بين النافية والمخففة؛ أي: إنه كاد محمد وقارب أن يضلنا ويصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: عن عبادتها صرفاً كلياً بحيث يبعدنا عنها؛ أي ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده، والدعاء إلى التوحيد، وكثرة ما يورده مما يسبق إلى الذهن أنه حجج ومعجزات ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا﴾ وثبتنا ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على آلهتنا، واستمسكنا بعبادتها، وحبسنا أنفسنا عليها، وجواب ﴿لولا﴾ معلوم مما قبله؛ أي: لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا كاد ليضلنا عن آلهتنا.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وفي هذا:[1] إيماء إلى وجوه من الفائدة:

١. أنه ﷺ قد بلغ من الاحتفال في الدعوة إلى التوحيد وإظهار المعجزات، وإقامة الحجج والبينات مبلغاً شارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط عنادهم وتناهي عتوهم ولجاجهم.

٢. الدلالة على تناقضهم واضطرابهم، فإن في استفهامهم السابق ما يدل على التحقير له، وفي آخر كلامهم ما يدل على قوة حجته ورجاحة عقله، فذكره تحميق لهم، وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه.

وبعد أن حكى مقالتهم سفّه آراءهم من وجوه ثلاثة:

١. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ البتة وإن تراخى ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم، ومن العذاب عذاب بدر أيضاً؛ أي: سوف يعلمون حين يرون العذاب في الآخرة عياناً ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: من هو أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أهم أم المؤمنون؟ نسبوه ﷺ إلى الضلال في ضمن الإضلال، فإن أحداً لا يضل غيره إلا إذا كان ضالاً في نفسه، واعلم أنه لا يهملهم وإن أمهلهم. ووصف السبيل بالضلال مجازاً. والمراد سالكوها، و﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جملة استفهامية معلقة لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾، فهي سادة مسد مفعوليه.

أي[2]: إنهم حين يشاهدون العذاب الذي استوجبوه بكفرهم وعنادهم يعلمون من الضال ومن المضل؛ وفي هذا رد لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ كما أن فيه وعيداً شديداً على التعامي والإعراض عن الاستدلال والنظر. ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى، فقال معجباً لرسوله ﷺ:

٢. ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب. كلمة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تستعمل تارة للإعلام، وتارة للسؤال، وههنا للتعجب من جهل من هذا وصفه ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

---

(١) المراغي.

هَوَنهُ﴾ ﴿إِلَـٰهَهُۥ﴾ مفعول ثان قدم على الأول للاعتناء به؛ لأنه الذي يدور عليه أمر التعجب. والهوى مصدر هويه إذا أحبه واشتهاه، ثم سمي به المهوي المشتهى، محموداً كان أو مذموماً، ثم غلب على غير المحمود، فقيل: فلان اتبع هواه إذا أريد ذمه، فالهوى ما يميل إليه الطبع وتهواه النفس بمجرد الاشتهاء من غير سند منقول، ودليل معقول.

والمعنى(١): أرأيت يا محمد من جعل هواه إلهاً لنفسه بأن أطاعه، وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة والبرهان بالكلية، كأنه قيل: ألا تعجب ممن جعل هواه بمنزلة الإله في التزام طاعته وعدم مخالفته، فانظر إليه وتعجب منه. وهذا الاستفهام للتقرير والتعجيب. قال أبو سليمان ـ رحمه الله تعالى ـ: من أتبع نفسه هواها فقد سعى في قتلها؛ لأن حياتها بالذكر، وموتها وقتلها بالغفلة، فإذا غفل اتبع الشهوات، وإذا اتبع الشهوات صار في حكم الأموات.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي، وحاله هذا؛ أي: الاتخاذ. والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أتطمع في هدايته، فتكون عليه وكيلاً؛ أي: لست موكلاً على حفظه، بل أنت منذر، وليس هذا نهياً عن دعائه إياهم، بل الإعلام بأنه قد قضى ما عليه من الإنذار والإعذار. وقال بعض المفسرين: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

والمعنى: أي انظر في حال هذا الذي جعل هواه إلهه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة والبرهان الجلي الواضح، واعْجب ولا تأبه به، فإنك لن تكون حفيظاً على مثل هذا، تزجره عما هو عليه من الضلال، وترشده إلى الصراط السوي.

وخلاصة ذلك: كأنه سبحانه يقول لرسوله: إن هذا الذي لا يرى معبوداً له

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إلا هواه لا تستطيع أن تدعوه إلى الهدى، وتمنعه من متابعة الهوى، إن عليك إلا البلاغ. ونحو الآية قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، وقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. وفي هذا الأسلوب[1] تعجيب لرسوله من سوء أحوالهم بعد أن حكى قبيح أقوالهم وأفعالهم، وتنبيه له إلى سوء عاقبتهم، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، فأنزل الله الآية.

٣. ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ ﴿أَمْ﴾: منقطعة تقدر بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أتظن يا محمد ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليهم من الآيات حق سماع؛ أي: سماع تفهم وتدبر واعتبار واتعاظ ﴿أَوْ﴾ أنهم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن، فتهتم بشأنهم، وتطمع في إيمانهم، لا تحسبنّ ذلك. وتخصيص[2] الأكثر؛ لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكباراً وخوفاً على الرسالة.

قال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: لا تظن أنك تسمع نداءك، إنما تسمعهم إن سمعوا نداء الأزل، وإلا فإن نداءك لهم ودعوتك لا تغني عنهم شيئاً، وإجابتهم دعوتك هو بركة جواب نداء الأزل ودعوته، فمن غفل وأعرض فإنما هو لبعده عن محل الجواب في الأزل ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم في عدم انتفاعهم بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات ﴿إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة، وعلم في الضلالة.

وفي «التأويلات النجمية»: ليس لهم نهمة إلا في الأكل والشرب واستجلاب حظوظ النفس كالبهائم التي نهمتها الأكل والشرب ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأجهل وأخطأ ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إلى مصالحهم من الأنعام؛ لأنها تنقاد لمن يقودها، وتميز من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها،

---

(١) روح البيان.

وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار، ولأنها لم تعتقد حقاً، ولا تكتسب خيراً ولا شراً بخلاف هؤلاء، ولأن جهالتها لا تضر بأحد، وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، فلا تقصير منها ولا ذم، وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

وقيل: إنما كانوا أضل من الأنعام؛ لأنه لا حساب عليها، ولا عقاب لها. وقيل: إنما كانوا أضل؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك بخلاف هؤلاء، فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً ومكابرة وتعصباً وغمطاً للحق.

واعلم: أن[1] الله تعالى خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم، وخلق البهائم وركب فيها الشهوة، وخلق الإنسان، وركب فيه الأمرين؛ أي: العقل والشهوة، فمن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم، ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ لأن الإنسان بقدمي العقل المغلوب والهوى الغالب ينقل إلى أسفل دركة لا تبلغ البهائم إليها بقدم الشهوة فقط، ومن غلب عقله هواه؛ أي: شهوته، فهو بمنزلة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ومن كان غالباً على أمره فهو خير من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾، فعلى العاقل الاحتراز عن الأفعال الحيوانية، فإنها سبب لزوال الجاه الصوري والمعنوي، فمدار الخلاص هو ترك الراحة، والعمل بسبب مخالفة النفس والطبيعة.

وحاصل معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾؛ أي[2]: بل أتظن يا محمد أن أكثرهم

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما تتضمنه من المواعظ الداعية إلى الفضائل ومحاسن الأخلاق، حتى تجتهد في دعوتهم، وتحتفل بإرشادهم وتذكيرهم، وتطمع في إيمانهم، فما حالهم إلا حال البهائم في تركهم للتدبر فيما يشاهدون من البينات والحجج، بل هم أضل منها سبيلاً؛ إذ هي قد تنقاد لصاحبها الذي يتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ومن يسيء، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى معاطنها ومرابضها، لكن هؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم وإساءة الشيطان لهم، وهو الذي قد زين لهم اتباع الشهوات إلا أنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، إلا أن جهالة الأنعام مقصورة عليها، وجهالة هؤلاء تؤدي إلى وقوع الفتنة والفساد، وصد الناس عن سنن السداد، ووقوع الهرج والمرج بين العباد، إلا أن البهائم إذ لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً ومكابرة وتعصباً وغمطاً للحق، إلا أنها لم تعطل قوة من القوى المودعة فيها، فلا تقصير من قبلها عن الكمال، أما هؤلاء فهم مبطلون لقواهم العقلية، مضيعون للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقد قالوا: الملائكة روح وعقل، والبهائم نفس وهوى، والبشر مجمع الكل للابتلاء والاختبار، فإن غلبته النفس والهوى فضلته البهائم، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام.

ولما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم.. أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد، مع ما فيها من عظيم الإنعام، وحاصل ما ذكره منها خمسة: الأول منها: مد الظل، والثاني: جعل الليل لباساً، والثالث: إرسال الرياح، **والرابع**: مرج البحرين، **والخامس**: خلق البشر من الماء.

فأولها: الاستدلال بأحوال الظل، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الخطاب[1] لرسول الله ﷺ، ولكن المراد منه العموم؛ لأن المقصود بيان إنعام الله تعالى

(١) روح البيان.

بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في تنبيههم على هذه النعمة اهـ «مراح».

والهمزة للتقرير. والرؤية؛ إما رؤية العين، والمعنى عليه: ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى، فإن المنظور يجب أن يكون مما يصح أن يتعلق به رؤية العين ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، سأل بها عن الحال، منصوبة على الحال بقوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ أي: بسط الظل؛ أي: ألم تبصر إلى صنع ربك، أو لم تبصر إلى الظل كيف مده ربك، وإما قلبية بمعنى العلم، فإن الظل متغير، وكل متغير حادث، ولكل حادث موجد، قال الزجاج: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، وهذا من رؤية القلب، قال: وهذا الكلام على القلب، والتقدير: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك يعني: الظل من الفجر إلى طلوع الشمس، وهو ظل لا شمس معه.

وعبارة أبي السعود: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ أي[1]: كيف أنشأ ظلاً لأي مظل كان من جبل، أو بناء، أو شجر، عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً، لا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار إلى غروبها، فإن ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم، وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وأنه أطيب الأوقات فغير سديد؛ إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه، فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف، مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضَحِّ الشمس، وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي لكنهم لا يعدونه ظلاً، ولا يصفونه بأوصافه المعهودة» اهـ باختصار.

والمراد[2]: أن الشمس تنسخ الظل وتزيله شيئاً فشيئاً إلى الزوال، ثم ينسخ الظل ضوء الشمس، ويزيله من وقت الزوال إلى الغروب، فالظل الآخذ في التزايد الناسخ لضوء الشمس يسمى فيئاً؛ لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، فهو من الزوال إلى الغروب، والظل من الطلوع إلى الزوال.

---

(١) أبو السعود.

(٢) روح البيان.

والمعنى: انظر أيها الرسول إلى صنع ربك كيف أنشأ الظل، وكذا الفيء من طلوع الشمس إلى غروبها، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ربك سكون ذلك الظل وثباته على حالة واحدة ﴿لَجَعَلَهُۥ﴾؛ أي: لجعل ذلك الظل ﴿سَاكِنًا﴾؛ أي: ثابتاً على حالة واحدة، لا يتغير بالنقصان والزيادة، لكنه[1] جعله متغيراً في ساعات النهار المختلفة، وفي الفصول المتعاقبة، ومن ثم اتخذ مقياساً للزمن منذ القِدم، فاتخذ المصريون المسلات، وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة، وطرق حكيمة منوعة، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة، فقالوا: يجب الظهر عند الزوال؛ أي: إذا تحول الظل إلى جانب المشرق، والعصر حين بلوغ ظل كل شيء مثله عند الأئمة عدا أبا حنيفة، فإنه قال: لا يجب إلا إذا بلغ ظل كل شيء مثليه.

والمعنى[2]: ولو شاء الله سبحانه سكونه ودوامه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً، لا تنسخه الشمس. وقيل: المعنى: لو شاء لمنع الشمس من الطلوع. والأول أولى، والتعبير بالسكون عن الإقامة والاستقرار سائغ، ومنه قولهم: سكن فلان بلد كذا إذا أقام به واستقر فيه. وهذه الجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، اعترض بها للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل فيما ذكر من المد للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ معطوف على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، داخل في حكمه ولم يقل: دالة؛ لأن المراد ضوء الشمس؛ أي: ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهور الظل، ومشاهدته للحسّ والعيان، والأشياء تستبين بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة ما عرف النور.

والمعنى[3]: جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعاً حسبما نطقت به الشرطية المعترضة، وذلك لأن

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص. والالتفات إلى نون العظمة؛ لما في جعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وهو السر في إيراد كلمة التراخي ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ معطوف أيضاً على ﴿مَدَّ﴾، داخل في حكمه. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني؛ أي: ثم أزلنا ذلك الظل الممدود بعدما أنشأناه ممتداً، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه، من غير أن يكون له تأثير في ذلك أصلاً، وإنما عبر عنه بالقبض المنبىء عن جمع المنبسط وطيه؛ لما أنه قد عبر عن إحداثه بالمد الذي هو البسط طولاً، وقوله: ﴿إِلَيْنَا﴾ تنصيص على كون مرجعه إلى الله تعالى، كما أن حدوثه عنه عز وجل. وقيل: معنى ﴿إِلَيْنَا﴾: علينا؛ أي: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً علينا؛ أي: محواً يسيراً؛ أي: على مهل وتدريج قليلاً قليلاً بحسب ارتفاع دليله؛ أي: الشمس يعني أنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، فلو قبضه الله تعالى دفعة.. لتعطلت منافع الظل والشمس، فقبضه يسيراً يسيراً لتبقى منافعهما والمصالح المتعلقة بهما.

والمعنى(١): أي ثم أزلناه بضوء الشمس يسيراً يسيراً، ومحوناه على مهل جزءاً جزءاً بحسب سير الشمس.

وثاني الأدلة: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله تعالى وحده ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ أيها العباد، ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي: كاللباس يستركم بظلامه كما يستر اللباس لابسه، فشبه ظلامه باللباس في الستر، قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيهاً له من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها. واللام متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾.

فإن قلت(٢): إذا كانت ظلمة الليل لباساً فلا حاجة إلى ستر العورة في صلاة الليل؟

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قلتُ: لا اعتبار لستر الظلمة فإن ستر العورة باللباس ونحوه لحق الصلاة، وهو باق في الظلمة والضوء ﴿و﴾ جعل لكم ﴿النوم سباتا﴾؛ أي: راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم، والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد، والسبت: قطع العمل، ويوم سبتهم: يوم قطعهم للعمل، وسمي يوم السبت لذلك، أو لانقطاع الأيام عنده؛ لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، كما في «المفردات».

والمعنى[1]: وجعل النوم الذي يقع في الليل غالباً راحة للأبدان بقطع المشاغل والأعمال المختصة بحال اليقظة، أو المعنى: جعل النوم موتاً، فعبر عن القطع بالسبات الذي هو الموت؛ لما بينهما من المشابهة التامة في انقطاع الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ فالموت والنوم من جنس واحد، خلا أن الموت هو الانقطاع الكلي؛ أي: انقطاع ضوء الروح عن ظاهر البدن وباطنه، والنوم هو الانقطاع الناقص؛ أي: انقطاع ضوء الروح عن ظاهره دون باطنه، والمسبوت: الميت لانقطاع الحياة عنه، والمريض: المغشي عليه لزوال عقله وتمييزه، وعليه قولهم: مثل المبطون والمفلوج والمسبوت ينبغي أن لا يبادر إلى دفنه حتى يمضي يوم وليلة ليتحقق موتهم.

﴿وَجَعَلَ﴾ لكم ﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ والنهار: الوقت الذي ينتشر فيه الضوء، وهو في الشرع ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي الأصل ما بين طلوع الشمس إلى غروبها. والنشور؛ إما من الانتشار؛ أي: وجعل النهار ذا نشور؛ أي: انتشار، ينتشر فيه الناس لطلب المعاش وابتغاء الرزق، كما قال: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أو من نشر الميت إذا عاد حيا؛ أي: وجعل النهار زمان بعث من ذلك السبات، والنوم كبعث الموتى، فهو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور،

---

(١) روح البيان.

وعن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر. وفي الآية رخصة للنوم بقدر دفع الضرورة، وهو فتور البدن. قال بعضهم: النوم راحة للبدن، والمجاهدات اتعاب البدن، فيتضادان.

فائدة: والحكمة في النوم أن الروح القدسي، أو اللطيفة الربانية، أو النفس الناطقة غريبة جداً في هذا الجسم السفلي، مشغولة بإصلاحه وجلب منافعه، ودفع مضارّه، محبوسة فيه ما دام المرء يقظان، فإذا نام ذهب إلى مكانه الأصلي ومعدنه الذاتي، فيستريح بواسطة لقاء الأرواح ومعرفة المعاني والغيوب مما يتلقى في حين ذهابه إلى عالم الملكوت من المعاني التي يراها بالأمثلة في عالم الشهادة، وهو السر في تعبير الرؤيا كذا قال في «الروح» والله أعلم.

ومعنى الآية: أي[١] ومن آثار قدرته وروائع رحمته الفائضة على خلقه أن جعل لنفعكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، وجعل النوم كالموت؛ لتعطيله الحواس ووظائفها المختلفة، وجعل النهار زمان بعث من ذلك الموت.

وثالث الأدلة: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه وحده الإله ﴿الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ﴾؛ أي: أطلقها وبعثها حالة كونها ﴿بُشْرًا﴾ لكم؛ أي: مبشرات لكم بمجيء المطر؛ أي: أرسلها ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: قدام رحمته ومطره سبحانه وتعالى؛ لأنه أولاً تكون ريح، ثم سحاب، ثم مطر. والإرسال: التسخير. والريح معروفة؛ وهي فيما قيل: الهواء المتحرك، وقيل في الرحمة: رياح بلفظ الجمع؛ لأنها تجمع الجنوب والشمال والصبا، وقيل في العذاب: ريح؛ لأنها واحدة؛ وهي الدبور التي أهلكت عاداً، وهو عقيم لا يلقح، ولذا ورد في الحديث: «اللهم اجعلها لنا رياحاً، ولا تجعلها ريحاً». والمعنى؛ أي: والله الذي أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار.

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

وقرأ ابن كثير[1]: ﴿الريح﴾ بالإفراد. وقرأ: ﴿نُشُراً﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين؛ أي: ناشرات للسحاب. وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين. وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: متفرقة. وقرأه عاصم بالباء الموحدة المضمومة وسكون الشين؛ أي: مبشرات.

وقال ابن عطية[2]: وقراءة الجمع أوجه؛ لأن عرف الريح متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة، فإنما هي رياح؛ لأن ريح المطر تتشعب وتتداءب وتتفرق، وتأتي ليِّنة، وتأتي من ههنا وههنا، وشيئاً إثر شيء، وريح العذاب تخرج لا تتداءب، وإنما تأتي جسداً واحداً، ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه، قال الرماني: جمعت رياح الرحمة؛ لأنها ثلاثة: لواقح الجنوب والصبا والشمال. وأفردت ريح العذاب؛ لأنها واحدة لا تلقح؛ وهي الدبور انتهى. ولا يسوغ أن يقال: هذه القراءة أوجه؛ لأن كلاً من القراءتين متواترة.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ بعظمتنا. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بالإنزال؛ لأنه نتيجة إرسال الرياح ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من جهة الفوق يعني: من السحاب ﴿مَآءً طَهُورًا﴾؛ أي: بليغاً في الطهارة، وهو الذي يكون طاهراً في نفسه، ومطهراً لغيره من الحدث والنجاسة. والطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار، والوضوء لما يتوضأ به؛ أي: وأنزلنا من السحاب ما تتطهرون به في غسل ملابسكم وأجسامكم، وتنتفعون به في طبخ مطاعمكم، وتشربونه عذباً فراتاً، روي أن النبي ﷺ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي.

قال في «فتح الرحمٰن» الطهور: هو الباقي على أصل خلقته من ماء المطر والبحر والعيون والآبار، على أي صفة كان من عذوبة، وملوحة، وحرارة،

---

(١) البحر المحيط.

وبرودة، وغيرها، وما تغير بمكثه أو بطاهر لا يمكن صونه عنه كالتراب والطحلب وورق الشجر ونحوها.. فهو طاهر في نفسه، مطهر لغيره، يرفع الأحداث ويزيل الأنجاس بالاتفاق، فإن تغير عن أصل خلقته بطاهر يغلب على أوصافه يستغني الماء عنه غالباً.. لم يجز التطهير به عند الثلاثة، وجوّز أبو حنيفة رحمه الله الوضوء بالماء المتغير بالزعفران ونحوه من الطاهرات، ما لم تزل رقته، وقال أيضاً: يجوز إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة كالخل وماء الورد ونحوهما، وخالفه الثلاثة ومحمد بن الحسن وزفر كما فصل في الفقه.

فإن قلت: لم[1] وصف الماء بالطهور مع أن وصف الطهارة لا دخل له في ترتيب الأحياء والسقي على إنزال الماء؟

قلتُ: وصفه بالطهارة إشعاراً بزيادة النعمة؛ لأن وصف الطهارة نعمة زائدة على إنزال ذات الماء، وتتميماً للمنّة المستفادة من قوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾؛ ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه مما يزيل طهوريته، وتنبيهاً على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها كانت بواطنهم بذلك أولى؛ لأن باطن الشيء أولى بالحفظ عن التلوث من ظاهره، وذلك لأن نظر الحق جل جلاله إلى باطن الإنسان، لا ظاهره.

ثم ذكر سبحانه علة الإنزال، فقال ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾؛ أي: بما أنزلنا من السماء من الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: أرضاً يابسة، لا أشجار فيها ولا ثمار ولامرعى، وإحياؤها: بإنبات النبات من المكان الذي لا نبات فيه. والمراد بالبلدة؛ القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غيرها. والتذكير حيث لم يقل: بلدة ميتة؛ لأنه بمعنى البلد، أو الموضع، أو المكان، ولأنه غير جار على الفعل بأن يكون على صيغة اسم الفاعل، أو المفعول، فأجري مجرى الجامد.

وقرأ عيسى وأبو جعفر ﴿ميّتا﴾ بالتشديد ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾؛ أي: نسقي ذلك الماء

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر.

الطهور عند جريانه في الأودية؛ أي: اجتماعه في الحياض، أو المنابع والآبار. وسقى وأسقى لغتان بمعنى، يقال: سقاه الله الغيث وأسقى، والاسم: السقيا كما سيأتي. وقرأ[١] عبد الله وأبو مجلز وأبو رجاء والضحاك وأبو حيوة وابن أبي عبلة والأعمش وعاصم وأبو عمرو في رواية عنهما ﴿ونَسقيه﴾ بفتح النون، ورويت عن عمر بن الخطاب.

والمعنى: أي وأنزلناه لنحيي به أرضاً طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها، وبذلك الماء يزدهر الشجر والنبات والأزهار، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان، وأنزلناه ليشرب منه الحيوان والإنسان.

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ متعلق بـ﴿نسقيه﴾ ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ بدل[٢] من محل الجار والمجرور؛ أي: ولنسقي ذلك الماء بعض خلقنا من الأنعام والأناسي، ويجوز أن يكون ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾ مفعول ﴿نُسقيه﴾، و﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ متعلق بمحذوف حال من: ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها؛ أي: ولنسقيه أنعاماً وأناسي كثيراً كائنات مما خلقنا. والأنعام: جمع نعم؛ وهي الأموال الراعية. والأناسي جمع إنسان كما سيأتي بسطه. و﴿كَثِيرًا﴾: صفة ﴿أناسي﴾؛ لأنه بمعنى بشراً، والمراد بهم أهل البوادي الذين يعيشون بالمطر، ولذا نكر الأنعام والأناسي، يعني: أن التنكير للإفراد النوعي، وتخصيصهم بالذكر؛ لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والمنابع، فلا يحتاجون إلى سقيا السماء، وسائر الحيوانات من الوحوش والطيور تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب غالباً.

يقال: أعوزه الشيء إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه.

وخص الأنعام بالذكر[٣]؛ لأنها قنية للإنسان؛ أي: يقتنيها ويتخذها لنفسه، لا لتجارة، وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها، فلذا قدّم سقيها على سقيهم،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

كما قدم على الأنعام إحياءَ الأرض، فإنه سبب لحياتها وتعيّشها، فانظر يا أخي كيف رتب سبحانه ذكر ما هو رزق الإنسان ورزق رزقه، فإن الأنعام رزق الإنسان، والنبات رزق الأنعام، والمطر رزق النبات، فقدم ذكر المطر، ورتّب عليه ذكر حياة الأرض بالنبات، ورتّب عليه ذكر الأنعام.

وفي «المراح»: قوله: ﴿كَثِيرًا﴾ إما راجع لـ﴿أناسي﴾، وذلك لأن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأنهار وينابيع الماء، فهم في غنية في شرب الماء عن المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي، فلا يجدون المياه للشرب إلاّ عند نزول المطر، وإما راجع إلى ﴿نسقيه﴾، وذلك لأن الحيوان يحتاج الماء حالاً بعد حال ما دام حياً، وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين، حتى لو زيد عليه بعض ذلك.. لكان أقرب إلى الضرر، اهـ. وقرأ يحيى بن الحارث الذماري وأبو مجلز والضحاك وأبو العالية وعاصم الجحدري[1]: ﴿وأناسِيْ﴾ بتخفيف الياء، ورويت عن الكسائي.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كرّرنا هذا القول الذي هو إنشاء السحاب، وإنزال المطر لما مرّ من الغايات الجليلة في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾؛ أي: ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك، ويقوموا بشكره حق القيام. وأصله: ﴿ليتذكروا﴾ من التذكر؛ وهو التفكر ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ وامتنع ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: كفران النعمة وقلة المبالاة بشأنها، فإن حقها أن يتفكر فيها، ويستدل بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة.

وأكثر المفسرين[2]: على أن الضمير في ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ راجع إلى نفس الماء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

الطهور الذي هو المطر، فالمعنى عليه؛ أي: وعزتي وجلالي ﴿لقد صرفناه﴾؛ أي: فرقنا المطر بينهم بإنزال له في بعض البلاد والأمكنة دون غيرها، أو في بعض الأوقات دون بعض، أو على صفة دون أخرى بجعله تارة وابلاً وهو المطر الشديد، وأخرى طلا وهو المطر الضعيف، ومرة ديمة وهو المطر الذي يدوم أياماً ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ إلاّ جحوداً للنعمة، وكفراً بالله تعالى بأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا؛ أي: بسقوط كوكب كذا، كما يقول المنجمون، فجعلهم الله سبحانه بذلك كافرين، حيث لم يذكروا صنع الله تعالى ورحمته، بل أسندوا مثل هذه النعمة إلى الأفلاك والكواكب، فمن لا يرى الأمطار إلاّ من الأنواء فهو كافر بالله بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى.

والأنواء أمارات بجعل الله تعالى، والأنواء النجوم التي يسقط واحد منها في جانب المغرب وقت طلوع الفجر، ويطلع رقيبه في جانب المشرق من ساعته، والعرب كانت تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقيل: إلى الطالع منها؛ لأنّه في سلطانه. وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، والمعنى: ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به، ويعتبروا بما فيه، فأبى أكثرهم إلاّ كفوراً به. وقيل: راجع إلى الريح. وقرأ عكرمة[1]: ﴿صَرَفناه﴾ مخففاً، وقرأ الباقون بالتثقيل. وقرأ حمزة والكسائي ﴿لِيَذْكُروا﴾ مخففة الذال من الذكر، وقرأ الباقون بالتثقيل من التذكر.

ومعنى الآية: وعزتي وجلالي لقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى، فلا تمر ساعة في ليل ولا نهار إلاّ كان فيه دليل على آثار قدرتنا، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين، فنحن صرفناه بينهم، كما صرّفنا الليل والنهار، فالشمس تجري من عند قوم، وتذهب إلى الآخرين ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ أي: إلا أن الماء قد يكون جامداً يشبه الحجر، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات، وحيناً بخارياً يشبه الهواء، وهو أيضاً غاد ورائح في الجو، وفي

---

(١) الشوكاني.

الأنهار، وفي الغدران، وفي أجسام النبات والحيوان والإنسان؛ ليذكورا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيشكروا، ولكن أكثر الناس أبوا إلاّ جحوداً للنعمة، وكفراناً بخالقها.

ثم بين منّته على رسوله، وأنه كلفه الأحمال الثقال من أعباء النبوة؛ ليزداد شرفاً ويعظم قدراً، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾؛ أي: ولو[1] أردنا أن نرسل رسولاً إلى أهل كل قرية ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ أي: لأرسلنا في كل مصر ومدينة نذيراً؛ أي: نبياً ينذر أهلها، وخفت عنك أعباء النبوة، ولكن بعثناك إلى القرى كلها، وحمّلناك ثقل النذارة؛ لتستوجب بصبرك ما أعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة، فقابل ذلك بشكر النعمة، وبالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق، كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وثبت في «الصحيحين»: «بعثت إلى الأحمر والأسود»؛ أي: إلى العجم والعرب.

والخلاصة: أنا عظّمناك بهذا الأمر، وجعلناك مثقلاً بأعبائه؛ لتحوز ما ادخر لك من عظيم جزائه وكبير مثوبته، فعليك بالمجاهدة والمصابرة، ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا توافقهم فيما ندبوك إليه من عبادة الآلهة واتباع دين الآباء، وأغلظ عليهم ولا تداهنهم، واثبت على الدعوة وإظهار الحق ﴿وَجَٰهِدْهُم﴾؛ أي: جادلهم ودافعهم عن الدين الحق ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن؛ أي: بتلاوة ما في تضاعيفه من المواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة لرسلها ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً تاماً شديداً، لا يخالطه فتور، فإن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف. وإنما لم يحمل المجاهدة على القتال بالسيف؛ لأنه إنما ورد الإذن فيه بعد الهجرة بزمان، والسورة مكية، قال بعضهم: ويجوز أن يكون الجهاد بالألسنة بترك المداهنة في حقهم وإغراء الناس على دفع فسادهم، كما أن الجهاد بالأموال بالدفع إلى من يحاربهم ويستأصلهم.

---

(١) المراغي.

والمعنى: أي فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم، وجاهدهم بالشدة والعنف، لا بالملاينة والمداراة؛ لتكسب ودّهم ومحبتهم، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر، وذكّرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها، وذلك منتهى الجهاد الذي لا يقادر قدره، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

والخلاصة: أنك مبعوث إلى الناس كافة لتنذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم، فاجتهد في دعوتك، ولا تتوان فيها، ولا تحفل بوعيدهم، فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون.

ورابع الأدلة: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: خلاهما[1] وأرسلهما، وأجراهما في مجاريهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان، ولا يلتبس أحدهما بالآخر.

وجملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾ إما مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، وهذا ملح، أو في محل نصب على الحال من ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بتقدير القول؛ أي: هو الذي مرج البحرين حال كونهما مقولاً في حقهما: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: أحدهما ﴿عَذْبٌ﴾؛ أي: حلو طيب ﴿فُرَاتٌ﴾؛ أي: سائغ قاطع للعطش لغاية عذوبته صفة ﴿عَذْبٌ﴾ والتاء فيه أصلية وهذا أي: الآخر ﴿مِلْحٌ﴾؛ أي: مرّ ﴿أُجَاجٌ﴾؛ أي: زعاق بليغ الملوحة، صفة ﴿مِلْحٌ﴾، وقرأ طلحة وقتيبة عن الكسائي ﴿مَلِح﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وكذا في فاطر ﴿وَجَعَلَ﴾: عطف على الصلة ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بين البحرين العذب والملح ﴿بَرْزَخًا﴾؛ أي: حاجزاً وحائلاً من قدرته سبحانه غير مرئي ﴿وَحِجْرًا﴾؛ أي: ستراً ﴿مَّحْجُورًا﴾؛ أي: ممنوعاً به تغيير أحدهما طعم الآخر، وهو صفة مؤكدة لـ﴿حِجْرًا﴾ كليل أليل ويوم أيوم. وقيل: هذه كلمة استفادة كما سبق في هذه السورة. والمعنى ههنا على التشبيه؛ أي: تنافراً بليغاً، كأن كلاً منهما يتعوذ من الآخر

---

(١) روح البيان.

بتلك المقالة، ويقول: حراماً محرماً عليك أن تغلب عليّ، وتزيل صفتي وكيفيتي.

واعلم: أن أكثر المفسرين حمل البحرين على بحري فارس والروم، فإنهما يلتقيان في البحر المحيط، وموضع التقائهما هو مجمع البحرين المذكور في الكهف، ولكن يلزم على هذا أن يكون البحر الأول عذباً، والثاني ملحاً، مع أنهم قالوا: لا وجود للبحر العذب هناك، وذلك لأنهما في الأصل خليجان من المحيط، وهو مرّ، والأوجه أن يمثّل البحران بالنيل المبارك والبحر الأخضر، وهو بحر فارس الذي هو شعبة من البحر الهندي الذي يتصل بالبحر المحيط، وبحر فارس مر، وذلك أن بحر النيل يدخل في البحر الأخضر قبل أن يصل إلى بحيرة الزنج ويختلط به، وهو معنى المرج، ولولا اختلاطه بملوحته.. لما قدر أحد على شربه لشدة حلاوته كما في «إنسان العيون».

والمعنى: أي[1] ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين، وجعلهما لا يمتزجان، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه، وحجزه عنه بقدرته، فكأن بينهما حاجزاً يمنع أحدهما إفساد الآخر، وكأن بينهما ساتراً يجعله لا يبغي عليه.

والخلاصة[2]: أنه تعالى جعل البحرين مختلطين في مرأى العين، منفصلين في التحقيق بقدرته تعالى بحيث لا يختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح، ولا يتغير طعم أحدهما بالآخر ولا يفسده، ونحو الآية قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

وخامس الأدلة: ما ذكره بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الأله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ أي[3]: من ماء الذكر والأنثى؛ وهو النطفة، أو من الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: آدمياً، والبشرة ظاهر

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الجلد كما أن الأدمة ـ محركة ـ باطنه الذي يلي اللحم، وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف سائر الحيوانات التي عليها الصوف، أو الشعر أو الوبر، كالضأن والمعز والإبل. وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر، واستوى فيه الواحد والجمع ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾؛ أي: البشر أو الماء ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾؛ أي: قسمه قسمين ذوي نسب، أي: ذكوراً ينسب إليهم، فيقال: فلان ابن فلان، ووفلانة بنت فلان، وذوات صهر؛ أي: إناثاً يصاهر بهن ويخالط. وقيل: النسب ما لا يحل تزويجه من القرابة. والصهر ما يحل التزويج من القرابة وغيرها. وقيل: النسب ما يوجب الحرمة، والصهر ما لا يوجبها. وقيل: النسب من القرابة، والصهر الخلطة التي تشبه القرابة؛ وهو السبب المحرّم للنكاح، وقد حرّم الله بالنسب سبعاً، وبالسبب سبعاً، ويجمعها قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ...﴾ الآية، وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه في تفسير سورة النساء.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾؛ أي: مبالغاً في القدرة حيث قدر أن يخلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة عجيبة الصنع، بديع الخلق، كبير العقل، عظيم التفكير، سخر ما على ظاهر الأرض وباطنها لنفعه وفائدته ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من مادة واحدة توءمين ذكراً وأنثى.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ الواو: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلاّ. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: نائب فاعل لـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة التحضيضية مقول ﴿قال﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: فعل

ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على المتكلمين، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿لَقَدِ﴾: اللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق: ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مسوقة لدرء شبهاتهم وتعنتاتهم بعد قيام الحجة عليهم. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾، بمعنى: أنهم لتكبرهم عدّوا أنفسهم كبيرة الشأن، وأصله من استكبره إذا عدّه كبيراً، فنزله منزلة اللازم فعدّاه بـ﴿فِى﴾. ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول مطلق وصفة معطوفة على ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف تقديره: اذكر لهم أهوال يوم يرون الملائكة، أو يمنعون البشرى يوم يرون الملائكة، وليس متعلقاً بالبشرى؛ لأن المصدر لا يعمل فيما قبله. ﴿يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿بُشْرَىٰ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لا﴾، أو تأكيد لفظي لـ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ على التقدير الثاني. ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ مقول لقول محذوف وقع حالاً من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: حالة كون الملائكة قائلين: لا بشرى للمجرمين يومئذ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَرَوْنَ﴾، فالضمير فيه للكفار. ﴿حِجْرًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: حجرنا من شركم أيها الملائكة ومنعنا منه حجراً. ﴿مَّحْجُورًا﴾: صفة مؤكدة لـ﴿حِجْرًا﴾. ﴿وَقَدِمْنَآ﴾: الواو: استئنافية. ﴿قدمنا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قدمنا﴾. ﴿عَمِلُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: عملوه. ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول

أول. ﴿هَبَآءً﴾: مفعول ثان. ﴿مَّنثُورًا﴾: صفة ﴿هَبَآءً﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قدمنا﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مكان إلى مثله متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل والجملة مستأنفة ﴿وَأَحْسَنُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿مَقِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب بـ﴿أحسن﴾. ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر يوم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: في هذه الباء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها للسببية؛ أي: بسبب الغمام، يعني: بسبب طلوعه منها، ونحوه قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، كأنه الذي تشقق به السماء، فيتعلق الجار والمجرور بـ﴿تَشَقَّقُ﴾.

وثانيها: أنها للملابسة، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

والثالث: أنها بمعنى عن؛ أي: عن الغمام كقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾، فتتعلق بـ﴿تَشَقَّقُ﴾ أيضاً اهـ «سمين». ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿تَشَقَّقُ﴾. ﴿تَنزِيلًا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ﴿نُزِّلَ﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبر المبتدأ، والجلمة مستأنفة. ﴿وَكَانَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود

على اليوم؛ أي: وكان ذلك اليوم. ﴿يَوْمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿عَسِيرًا﴾. ﴿عَسِيرًا﴾: صفة ﴿يَوْمًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها عطف فعلية على اسمية؛ لأنها في الأصل جملة اسمية، أو مستأنفة. ﴿وَيَوْمَ﴾ الواو: عاطفة. ﴿يوم﴾: منصوب باذكر محذوفا، وهو معطوف على قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وكذا قوله السابق: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾. ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يَعَضُّ﴾. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلظَّالِمُ﴾، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلظَّالِمُ﴾؛ أي: حالة كونه قائلاً، ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء، أو يا قوم، وجملة المنادى في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾، أو الياء حرف تنبيه. ﴿ليتني﴾: ﴿ليت﴾: حرف تمن ونصب، والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لـ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول أول لـ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾، وجملة ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿ويلتي﴾: منادى مضاف مصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف في محل الجر مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿لَيْتَنِي﴾: ناصب واسمه ونون وقاية. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿أَتَّخِذْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على المتكلم. ﴿فُلَانًا﴾: مفعول أول. ﴿خَلِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿لَّقَدْ﴾: ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَضَلَّنِي﴾: فعل

ماض ونون وقاية، وفاعل مستتر يعود على ﴿فُلَانًا﴾ ومفعول به. ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول القول على كونها معللة للتمني المذكور. ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿أَضَلَّنِي﴾، أو حال من ﴿ٱلذِّكْرِ﴾. ﴿جَآءَنِي﴾: فعل ماض ونون وقاية، وفاعل مستتر يعود إلى ﴿ٱلذِّكْرِ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿خَذُولًا﴾. ﴿خَذُولًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً؛ لأنه من كلام الرب سبحانه.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾. ﴿يَٰرَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: فعل وفاعل ﴿هَٰذَآ﴾: في محل النصب مفعول أول. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: بدل من اسم الإشارة ﴿مَهْجُورًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿كذلك﴾: الكاف اسم بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف، ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِكُلِّ نَبِىٍّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل المفعول الثاني. ﴿عَدُوًّا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿عَدُوًّا﴾، والتقدير: وجعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين جعلاً مثل ذلك الجعل الذي جعلنا لك، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ. ﴿وَكَفَىٰ﴾ الواو: عاطفة. ﴿كفى﴾: فعل ماض. ﴿بِرَبِّكَ﴾: فاعل ﴿كفى﴾، والباء زائدة. ﴿هَادِيًا﴾: حال من ﴿ربك﴾. ﴿وَنَصِيرًا﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كونه هادياً لك للطريق التي ستنتصر بها عليهم كالغزو. اهـ شيخنا، أو تمييز له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان شبهة منهم. تتعلق بالقرآن. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَوْلَآ﴾: تحضيضية بمعنى هلا. ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، والجار والمجرور متعلق به. ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل. ﴿جُمْلَةً﴾: حال من القرآن؛ أي: مجتمعاً. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿جُمْلَةً﴾، والجملة التحضيضية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، والعالم فيه محذوف تقديره: نزلناه عليك تنزيلاً مثل ذلك التنزيل المرتل، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿لِنُثَبِّتَ﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿نثبت﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله تقديره: نحن. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿فُؤَادَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بالفعل المحذوف، والتقدير: نزلناه عليه تنزيلاً مثل ذلك التنزيل لتثبيت فؤادك به. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿تَرْتِيلًا﴾: مفعول مطلق، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَأْتُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِمَثَلٍ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿جِئْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من مفعول يأتونك؛ أي: ولا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا في حال إتياننا إياك بالحق وبما هو أحسن تفسيراً. ﴿وَأَحْسَنَ﴾: معطوف على ﴿الحق﴾، مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل. ﴿تَفْسِيرًا﴾: تمييز.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿يُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول،

ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الذي يحشرون. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من نائب فاعل ﴿يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم مقلوبين على وجوههم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿شَرٌّ﴾: خبر له. ﴿مَكَانًا﴾: منصوب على التمييز.. ﴿وَأَضَلُّ﴾: معطوف على ﴿شَرٌّ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية، واللام موطئة لقسم محذوف، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آتَيْنَا﴾، والواو لا تفيد ترتيباً كما مر في مبحث التفسير. ﴿مَعَهُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿أَخَاهُ﴾: مفعول أول. ﴿هَارُونَ﴾: بدل من ﴿أَخَاهُ﴾: أو عطف بيان له. ﴿وَزِيرًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿فَقُلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿اذْهَبَا﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَى الْقَوْمِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلنا﴾. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿الْقَوْمِ﴾. ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، ﴿دمرناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿تَدْمِيرًا﴾: مفعول مطلق، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديرها: فذهبا إليهم، فكذبوهما، فدمرناهم تدميراً.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾: مفعول لفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال تقديره: وأغرقنا قوم نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتَيْنَا﴾، ولك أن تعطفه على الهاء في ﴿دمرناهم﴾؛ أي: ودمرنا قوم نوح. ﴿لَمَّا﴾: حينية في

محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿أغرقنا﴾. ﴿كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَّمَّا﴾. ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لِلنَّاسِ﴾: حال من ﴿ءَايَةً﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿أعتدنا﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾، أو معترضة، وهذه الجملة تحتمل التخصيص، فيكون فيها وضع الظاهر موضع المضمر، وتحتمل العموم، فتكون معترضة. ﴿وَعَادًا﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: وأهلكنا عاداً، أو دمرنا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾. ﴿وَثَمُودَاْ﴾: معطوف على ﴿عادا﴾، يصرف ولا يصرف كما مر. ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿وَقُرُونَۢا﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة أولى لـ﴿قرونا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة ثانية له.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾: الواو: عاطفة. ﴿كلا﴾: منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يلاقي ﴿ضَرَبْنَا﴾ في المعنى تقديره: خوفنا كلا، أو أنذرنا كلا، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَعَادًا﴾. ﴿ضَرَبْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: مفعول به، والجملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكُلًّا﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَبَّرْنَا﴾؛ لأنه فارغ له لم يشتغل بضميره. ﴿تَبَّرْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿تَتْبِيرًا﴾: مفعول مطلق، والجملة معطوفة على جملة ﴿دمرنا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف

تحقيق. ﴿أَتَوْا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾: متعلق به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ ﴿أُمْطِرَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ مفعول مطلق لـ﴿أُمْطِرَتْ﴾: بمعنى: إمطار السوء على حد ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾. ﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري المضمن للإنكار داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم يكونوا﴾: جازم وفعل ناقص، واسمه مجزوم بحذف النون. ﴿يَرَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿يَكُونُوا﴾، وجملة ﴿يَكُونُوا﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: ألم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة كان جملة إضرابية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَأَوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أو. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان لـ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة.

فائدة: ويرد على هذا الجواب بأنه منفي بإن، والجواب المنفي يجب قرنه بالفاء؟ ويجاب بأن إذا اختصت من بين أدوات الشرط بأن جوابها المنفي لا يقترن بالفاء. اهـ. شيخنا، وفي «السمين»: واختصت إذا بأن جوابها إذا كان منفياً بما، أو إن، أو لا يحتاج إلى الفاء، بخلاف غيرها من أدوات الشرط، اهـ.

﴿أَهَٰذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري المضمن للتعجب. ﴿هذا﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره. ﴿بَعَثَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بعثه الله. ﴿رَسُولًا﴾: حال من الضمير المحذوف مؤكدة لعاملها، والجملة الاسمية مقول لقول محذوف وقع حالاً من الواو في ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ تقديره: إن يتخذونك إلا هزواً حال كونهم قائلين: أهذا الذي بعثه الله رسولاً.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة، اسمها محذوف؛ أي: إنه. ﴿كَادَ﴾: فعل ماضٍ ناقص من أفعال المقاربة، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿الرسول﴾. ﴿لَيُضِلُّنَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يضلنا﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على ﴿الرسول﴾. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يضلنا﴾، وجملة ﴿يضلنا﴾ في محل النصب خبر ﴿كَادَ﴾، وجملة ﴿كَادَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾: المخففة، وجملة ﴿إِنْ﴾: المخففة في محل النصب ومن تتمة المقول للقول المحذوف. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿صَبَرْنَا﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾: المصدرية. ﴿عَلَيْهَاۚ﴾: متعلق بـ﴿صَبَرْنَا﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً تقديره: لولا صبرنا عليها موجود. وجواب ﴿لَوْلَآ﴾: محذوف تقديره: لولا صبرنا موجود لصرفنا عنها، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ في محل النصب من تتمة المقول للقول المحذوف. ﴿وَسَوْفَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستقبال. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة للرد عليهم من الله تعالى. ﴿حِينَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿يَعْلَمُونَ﴾. ﴿يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه. لـ﴿حِينَ﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَضَلُّ﴾: خبره. ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يَعْلَمُونَ﴾ التي علقت بالاستفهام عن العمل في لفظه.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستخباري، ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل بمعنى أخبرني. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأيت﴾. ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماض ناسخ من أخوات ظن وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾. ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾: مفعول ثان لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾: قدم على الأول اهتماماً به. ﴿هَوَىٰهُ﴾: مفعول به أول، وجملة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة. ﴿أَفَأَنتَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري للتيئيس من إيمانهم، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿وَكِيلًا﴾. ﴿وَكِيلًا﴾: خبر ﴿تَكُونُ﴾، وجملة تكون في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة تقديره: أأنت تحرص على إيمانه فأنت تكون عليه وكيلاً، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها في محل النصب مفعول ثان لـ﴿رأيت﴾. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿تَحْسَبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿تَحْسَبُ﴾: مستأنفة. ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾. ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾: معطوف على ﴿يَسْمَعُونَ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَحْسَبُ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب وابتداء. ﴿هُمْ أَضَلُّ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعله مستتر مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق به،

ولكنه على حذف مضاف؛ أي: إلى صنع ربك. و﴿ترى﴾ هنا بصرية. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال من ﴿الظِّلَّ﴾. ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية سادة مسد مفعولي ﴿ترى﴾؛ لأنها معلقة عنها باسم الاستفهام؛ أي ألم تر إلى صنع ربك مد الظل في آية حال شاء، وجملة الرؤية مستأنفة مسوقة لبيان أدلة التوحيد ﴿وَلَوْ﴾: الواو: حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شَاءَ﴾: فعل ماض وفاعله مستتر، فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَجَعَلَهُ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة الجواب، ﴿جعله﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿سَاكِنًا﴾: مفعول ثان، والجملة جواب ﴿لو﴾، وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للتفاضل بين أوقات ظهور الظل، لا للتراخي الزماني؛ لأنه لا يصح هنا. ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿دَلِيلًا﴾. ﴿دَلِيلًا﴾: مفعول ثان، لـ﴿جعل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَدَّ﴾.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للتفاضل بين الأمور الثلاثة، وهي: مد الظل وسكونه وقبضه، كأن الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما. ﴿قَبَضْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿إِلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿قَبَضْنَاهُ﴾. ﴿قَبْضًا﴾: مفعول مطلق. ﴿يَسِيرًا﴾: صفة ﴿قَبْضًا﴾. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿الَّذِي﴾: خبره، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان دليل آخر من أدلة التوحيد. ﴿جَعَلَ﴾: فعل وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿لَكُمُ﴾: حال من ﴿لِبَاسًا﴾. ﴿اللَّيْلَ﴾: مفعول أول. ﴿لِبَاسًا﴾: مفعول ثان. ﴿وَالنَّوْمَ﴾: معطوف على ﴿اللَّيْلَ﴾. ﴿سُبَاتًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ مبتدأ وخبر معطوف على

جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾. ﴿أَرْسَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مفعول به. ﴿بُشْرًا﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَرْسَلَ﴾. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلَ﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به. ﴿طَهُورًا﴾: صفة ﴿مَآءً﴾. ﴿لِّنُحْـِۧىَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿نحيي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿بَلْدَةً﴾: مفعول به. ﴿مَّيْتًا﴾: صفة لـ﴿بَلْدَةً﴾ لأنه بمعنى مكانا، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أنزلنا﴾؛ أي: أنزلنا من السماء ماءً طهوراً لإحيائنا به بلدة ميتاً. ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿نحيي﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ﴾. ﴿خَلَقْنَآ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: خلقناه. ﴿أَنْعَٰمًا﴾: مفعول ثان لـ﴿نسقي﴾. ﴿وَأَنَاسِىَّ﴾: معطوف عليه. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لـ﴿أناسي﴾؛ لأنه بمعنى بشراً كما مر.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿صرفنا﴾، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يذكروا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لتذكرهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿صرفنا﴾. ﴿فَأَبَىٰٓ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أبى أكثر الناس﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿صرفنا﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿كُفُورًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿شِئْنَا﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَبَعَثْنَا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿بعثنا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لو﴾. ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ﴾: جار ومجرور

ومضاف إليه متعلق بـ﴿بعثنا﴾. ﴿نَذِيرًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أدلة التوحيد المذكورة، وبلغتها إليهم، فأبوا عليك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿لا تطع﴾: ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَجَٰهِدْهُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿تُطِعِ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بجاهد. ﴿جِهَادًا﴾: مفعول مطلق. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة لـ﴿جِهَادًا﴾. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجمل السابقة. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به صلة الموصول. ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿فُرَاتٌ﴾: خبر ثان، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، تقديره: حالة كونهما مقولاً فيهما: هذا عذب فرات. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿أُجَاجٌ﴾: خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر معطوف على ﴿مَرَجَ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بـ﴿جعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿بَرْزَخًا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَحِجْرًا﴾: معطوف على ﴿بَرْزَخًا﴾. ﴿مَّحْجُورًا﴾: صفة مؤكدة لـ﴿حِجْرًا﴾. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر معطوف على الجمل السابقة. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿بَشَرًا﴾: مفعول به. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿نَسَبًا﴾: مفعول ثان. ﴿وَصِهْرًا ۗ﴾: معطوف على ﴿نَسَبًا﴾، والجملة معطوفة على ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أصل الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة، وملاقاة الله عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه تعالى بالبعث؛ أي: الرجوع إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه. وأصل اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾: الاستكبار أن يشبع، فيظهر من نفسه ما ليس له. ذكره في «الروح».

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾ وأصل العتو الغلو والنبو عن الطاعة. وأصل عتوا عتووا بواوين أولاهما مضمومة، فيقال: تحركت ﴿الواو﴾ وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها فصار عتوا، فالمحذوفة واو لام الكلمة، وأصل عتيا عتوواً بوزن فعول بواوين الأولى ساكنة، فكسرت التاء، فيقال: سكنت ﴿الواو﴾ إثر كسرة فقلبت ياء فصار عتيو، ثم يقال: اجتمعت ﴿الواو﴾ والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت ﴿الواو﴾ ياء، وأدغمت الياء في الياء فصارت عتيا. اهـ شيخنا. وأمَّا أصل عتواً عتوواً فكرهوا توالي المثلين، فأدغمت ﴿الواو﴾ في ﴿الواو﴾ فصار عتواً. والعتو هنا معناه: تجاوز الحد في الظلم تجاوزاً بلغ أقصى الغاية حيث كذبوا الرسول الذي جاء بالوحي، ولم يكترثوا بالمعجزات التي أتاهم بها.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الحجر: مصدر حجره إذا منعه، والمحجور: الممنوع، وهو صفة ﴿حِجْرًا﴾ إرادة للتأكيد كيوم أيوم، وهي كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو، أو هجوم نازلة هائلة يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذي يلحقهم، والمكروه الذي يلم بدارهم؛ أي: نسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً.

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ القدوم: عبارة عن مجيء المسافر بعد مدة كما مر.

﴿هَبَآءً﴾ والهباء: الغبار الذي يرى في شعاع الشمس، يطلع من الكوة من الهبوة؛ وهو الغبار، قال في «القاموس» و «تاج العروس» الهباء: الغبار ودقائق

التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض، والقلِيلُو العقول من الناس، وفعله هبا يهبو هبواً. وقال الزمخشري: والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه الغبار، وفي أمثالهم: أقل من الهباء، قال: ولام الهباء واو بدليل الهبوة. والكوة ـ بفتح الكاف وضمها ـ الطاقة في الحائط.

﴿مَّنثُورًا﴾: صفته، بمعنى مفرقاً.

﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقر: اسم مكان من استقر السداسي، والمستقر: المكان الذي يجلس فيه المرء في أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة.

﴿مَقِيلًا﴾ المقيل: المكان الذي يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن، سمي بذلك؛ لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالباً، والمقيل أيضاً: موضع القيلولة، والقيلولة: الاستراحة نصف النهار في الحر، يقال: قلت قيلولة نمت نصف النهار، والمراد هنا المعنى الأول. وفي «السمين»: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ في أفعل هنا قولان:

أحدهما: أنه على بابه من التفضيل، والمعنى: أن للمؤمنين في الآخرة مستقراً خيراً من مستقر الكفار وأحسن مقيلاً من مقيلهم، لو فرض أن يكون لهم ذلك، أو على أنهم خير في الآخرة منهم في الدنيا.

والثاني: أن يكون لمجرد الوصف من غير مفاضلة، اهـ.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أصله: تتشقق بتاءين، أولاهما تاء المضارعة والثانية تاء المطاوعة، فحذفوا إحدى التاءين كما في تلظى. والغمام هو السحاب، سمي به؛ لكونه ساتراً لضوء الشمس، والغم ستر الشي؛ أي: بسبب طلوع الغمام منها؛ وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ وفي «المصباح»: عضضت اللقمة، وبها، وعليها أمسكتها بالأسنان، وهو من باب تعب في الأكثر، لكن المصدر ساكن، ومن باب نفع لغة قليلة، وفي أفعال ابن القطاع: من باب ردّ، اهـ.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ ألفه عوض عن ياء المتكلم، أصله: يا ويلتي بكسر التاء وفتح الياء، ثم فتحت التاء فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فهذه الألف اسم لا حرف كما هو معلوم، وبسطت البحث عنها في رسالتي «هدية أولي الإنصاف في إعراب المنادى المضاف» فراجعها إن شئت. وفي «الروح»: والويل والويلة: الهلكة، ويا ويلتا: كلمة جزع وتحسّر، وأصله: يا ويلتي بكسر التاء، فأبدلت الكسرة فتحة، وياء المتكلمة ألفاً فراراً من اجتماع الكسر مع الياء؛ أي: يا هلكتي تعالي واحضري فهذا أوان حضورك. والنداء وإن كان أصله لمن يتأتّى منه الإقبال؛ وهم العقلاء، إلاّ أن العرب تتجوّز وتنادي ما لا يعقل إظهاراً للتحسّر كما مرّ.

﴿خَذُولٗا﴾ يقال: يخذله بوزن نصره ينصره، وهو في المعنى ضده، والمصدر الخذلان، وهو ترك النصرة بعد الموالاة والمعاونة.

﴿مَهۡجُورٗا﴾؛ أي: متروكاً؛ أي: تركوه وصدّوا عن الإيمان به. وقيل: هو من هجر إذا هذى؛ أي: جعلوه مهجوراً فيه، فحذف الجار، وهو يحتمل بهذا المعنى وجهين:

أحدهما: أنهم زعموا أنه هذيان وباطل وأساطير الأولين.

وثانيهما: أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه، فهو إما من الهجر بالفتح؛ أي: ضد الوصل وإما من الهجر بالضم، وهو الهذيان وفحش القول، ثم المهجور إما اسم مفعول، وإما مصدر بمعنى الهجر، أطلق على القرآن على طريق التسمية بالمصدر كالمجلود والمعقول والميسور والمعسر بمعنى الجلد والعقل واليسر والإعسار.

﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾؛ أي: دفعة واحدة. ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾؛ أي: لنقوّي به قلبك. ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾؛ أي: أتينا ببعضه إثر بعض على تؤدة ومهل لنيسّر حفظه وفهمه، من قولهم: ثغر مرتل؛ أي: متفلج الأسنان.

﴿بِمَثَلٍ﴾؛ أي: بنوع من الكلام، جار مجرى المثل في تنميقه وتحسينه،

ورشاقة لفظه وصدق معناه. ﴿تَفۡسِيرًا﴾؛ أي: بياناً وإيضاحاً، والتفسير تفعيل من الفسر، وهو كشق ما غطّي وإظهاره. ﴿وَزِيرًا﴾ وفي «القاموس»: الوزر ـ بالكسر ـ الثقل والحمل الثقيل، والوزير حبأ الملك الذي يحمل ثقله، ويعينه برأيه، وحاله الوزارة بالكسر ويفتح. والجمع وزراء. والحبأ ـ محركة ـ جليس الملك وخاصته. وقال بعضهم: الوزير الذي يرجع إليه، ويتحصن برأيه، من الوزر ـ بالتحريك ـ وهو ما يلتجأ إليه ويعتصم به من الجبل، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: لا ملجأ يوم القيامة. والوزر ـ بالكسر ـ الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم، كما يعبر عنه بالثقل لقوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالًا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾.

﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرًا﴾ التدمير: إدخال الهلاك على الشيء، والدمار الاستئصال بالهلاك، والدمور الدخول بالمكروه. ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾والإغراق والغرق الرسوب في الماء؛ أي: السفول فيه إلى قعره كما مر. ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ أي: هيأنا، أصله أعددنا، قلبت الدال الأولى تاء.

﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرس: البئر، وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجرّ فهو رس، كما قال في «الكشاف»: الرس: البئر الغير المطوية؛ أي: المبنية انتهى. وفي «القاموس»: «الرس: بئر كانت لبقية من ثمود، كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر» انتهى. أي: دسّوه وأخفوه فيها، فنسبوا إلى فعلهم بنبيهم، فالرس مصدر، ونبيهم هو حنظلة بن صفوان، كان قبل موسى على ما ذكره ابن كثير، وحين دسوه فيها غار ماؤها وعطشوا بعد ريهم، ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم، بعد أن كان ماؤها يرويهم ويكفي أرضهم جميعاً، وتبدلوا بعد الأنس الوحشة، وبعد الاجتماع الفرقة، لأنهم كانوا ممن يعبد الأصنام.

﴿وَكُلًّا تَبَّرۡنَا﴾؛ أي: فتّتنا، من التتبير، وهو التفتيت والتكسير والتقطيع. قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته، ومنه التبر لفتات الذهب والفضة قبل أن يصاغا، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة.

﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل في: أنبته الله نباتا؛ أي: إمطار السوء. والسوء ـ بفتح السين وضمها ـ كل ما يسوء الإنسان ويغمّه من البلاء والآفة. وفي «القاموس»: «وساء سوءاً ـ بالفتح ـ: فعل به ما يكره، والسوء ـ بالضم ـ اسم منه» اهـ.

﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ أي: لا يتوقعون بعثاً للحساب والجزاء. وحقيقة الرجاء انتظار الخير، وظن حصول ما فيه مسرة، وليس النشور ـ أي: إحياء الميت ـ خيراً مؤدياً إلى المسرة في حق الكافر، فهو مجاز عن التوقع، والتوقع يستعمل في الخير والشر، فأمكن أن يتصور النسبة بين الكافر وتوقع النشور.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ أي: لم تنظر ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى صنعه ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ أي: بسطه، أصل المد الجزء من المدة للوقت الممتد، والظل ما يحدث من مقابلة جسم كثيف كجبل، أو بناء، أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها. ﴿سَاكِنٗا﴾؛ أي: ثابتاً على حاله في الطول والامتداد بحيث لا يزول ولا تذهبه الشمس. ﴿دَلِيلٗا﴾؛ أي: علامة. ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾؛ أي: محوناه. ﴿يَسِيرٗا﴾؛ أي: على مهل قليلاً قليلاً بحسب سير الشمس في فلكها. ﴿لِبَاسٗا﴾ وأصل اللبس ستر الشيء؛ أي: ساتراً لكم بظلامه.

﴿وَٱلنَّوۡمَ﴾ النوم استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد كما مر بسطه. ﴿سُبَاتٗا﴾ والسبات: الموت لما في النوم من زوال الإحساس، وفي «المصباح»: والسبات ـ وزان غراب ـ: النوم الثقيل، وأصله الراحة، يقال منه: سبت يسبت من باب قتل، اهـ. وفي «القاموس»: أنه من بابي قتل وضرب، ثم قال: والسبات النوم، أو خفيفه، أو ابتداؤه في الرأس حتى يبلغ القلب، اهـ. وسبت الرأس إذا حلقه، والسبت مصدر ويوم من أيام الأسبوع بين الجمعة والأحد، وجمعه أسبت وسبوت، والسبت أيضاً النوّام، والفرس الجواد، والرجل الداهية.

﴿نُشُورٗا﴾؛ أي: ذا نشور؛ أي: انتشار، ينتشر الناس فيه للمعاش، اهـ

«بيضاوي» والنشور: مصدر من باب قعد كما في «المصباح و «المختار».

﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ أي: المبشرات؛ وهي الصبا والجنوب والشمال، بخلاف الدبور؛ فإنها ريح العذاب التي أهلكت بها عاد، اهـ شيخنا. يقال: أرسلت الطائر، وأرسلت الكلب المعلّم. وفي «الفردات»: قد يكون الإرسال للتسخير كإرسال الريح، والريح معروفة، وهي فيما قيل الهواء المتحرك. وفي «المصباح»: والريح أربع:

الأولى: الشمال وتأتي من ناحية الشام.

والثانية: الجنوب تقابلها وهي الريح اليمانية.

والثالثة: الصبا وتأتي من مطلع الشمس، وهي القبول أيضاً.

والرابعة: الدبور وتأتي من ناحية المغرب. والريح مؤنثة على الأكثر، فيقال: هي الريح، وقد تذكر على معنى الهواء، فيقال: هو الريح وهب الريح، نقله أبو زيد. وقال ابن الأنباري: «الريح مؤنثة لا علامة فيها، وكذلك سائر أسمائها إلاّ الإعصار فإنه مذكر.

﴿طَهُورًا﴾ الطهور له استعمالان في العربية: صفة واسم غير صفة، فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر. والاسم قولك لما يتطهر به: طهور كالوضوء لما يتوضأ به، والوقود لما توقد به النار، كقولك: وضوءاً حسناً؛ ذكره سيبويه.

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ وسقى وأسقى لغتان بمعنى. قال الإمام الراغب: السقي والسقيا أن تعطيه ماء ليشربه، والإسقاء أن تعجل له ذلك حتى يتناوله كيف يشاء، والإسقاء أبلغ من السقي؛ لأن الإسقاء هو أن تجعل له ماء يستقي منه ويشرب، كقوله: أسقيته نهراً. فالمعنى: مكناهم من أن يشربوه ويسقوا منه أنعامهم.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. وقال في «المغرب»: الأنعام: الأزواج الثمانية في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا

﴿ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: جمع إنسان عند سيبويه على أن أصله: أناسين، أبدلت النون ياءً وأدغمت فيها الياء التي قبلها. وقال الفرّاء والمبرد والزجاج: إنَّه جمع إنسي. وفيه نظر؛ لأن فعاليّ إنما يكون جمعاً لما فيه ياء مشددة لا تدل على نسب نحو كراسيّ في جمع كرسي، فلو أريد بكرسي النسب لم يجز جمعه على كراسي، ويبعد أن يقال: إن الياء في إنسي ليست للنسب، وكان حقه أن يجمع على أناسية نحو مهالية في جمع المهلي، كذا في «حواشي ابن الشيخ». وقال الراغب: الإنسي منسوب إلى الأنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس به، وجمع الإنسي أناسي. وقال في الكرسي: «إنه في الأصل منسوب إلى الكرسي؛ أي: التلبد، ومنه الكراسة للمتلبد من الأوراق»، انتهى.

قوله: ﴿كَثِيرًا﴾: صفة ﴿أناسي﴾؛ لأنه بمعنى بشر كما سبق. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أصله: ليتذكّروا، والتذكّر التفكر. ﴿فَأَبَىٰ﴾ الإباء: شدة الامتناع، ورجل أبيّ ممتنع من تحمل الضيم. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً كما في «المفردات»، والمعنى؛ أي: إلاّ كفرناً للنعمة، وإنكاراً لها. ﴿لَبَعَثْنَا﴾ قال الراغب: البعث: إثارة الشيء وتوجيهه.

﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ القرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس. ﴿نَذِيرًا﴾؛ أي: منذراً، والإنذار: إخبار فيه تخويف. ﴿وَجَٰهِدْهُم﴾ والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ من مرج الدابة خلاها وأرسلها ترعى، ومرج أمرهم اختلط. والبحر: الماء الكثير الذي لا قعر له، عذباً كان أو ملحاً عند الأكثر. وأصله: المكان الواسع الجامع للماء الكثير كما في «المفردات». وفي «المصباح»: المرج: أرض ذات نبات ومرعى، والجمع

مروج، مثل فلس وفلوس، ومرجت الدابة مرجاً ـ من باب قتل ـ رعت في المرج، ومرّجتها مرجاً أرسلتها ترعى في المرج.

﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ عذب؛ أي: طيب حلو من عذب الماء ـ من باب ظرف ـ إذا حلا، ولم يكن ذا ملوحة. فرات؛ أي: شديد العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة. والتاء فيه أصلية لام الكلمة، ووزنه فعال كغراب، وبعض العرب يقف عليها هاء، ويقال: سمي الماء العذب فراتاً؛ لأنه يفرت العطش؛ أي: يشقه ويقطعه. وفي «المصباح»: الفرات: الماء العذب، يقال: فرت الماء فروته ـ وزان سهل سهولة ـ إذا عذب ولا يجمع إلاّ نادراً على فرتان كغربان. والفرات أيضاً: نهر عظيم بالكوفة، عذب طيب، مخرجه من أرمينية. وفي «الملكوت»: أصله في قرية من جابلقا ينحدر إلى الكوفة، وآخر مصبّه بعضاً في دجلة، وبعضاً في بحر فارس، اهـ من الروح».

﴿مِلْحٌ﴾ قال الراغب: الملح الماء الذي تغير طعمه التغير المعروف وتجمد، ويقال: ملح إذا تغير طعمه وإن لم يتجمد، فيقال: ماء ملح، وقلما تقول العرب: ماء مالح.

﴿أُجَاجٌ﴾: بليغ الملوحة، صفة الملح. وقيل: البالغ في الحرارة. وقيل: البالغ في المرارة. وفي الأساس: وماء أجاج يحرق بملوحته. وفي «القاموس»: أجّ الماء يؤجّ صار أجاجاً؛ أي: ملحاً مرّا.

قالوا: إن الله تعالى خلق ماء البحر مرّا زعاقا؛ أي: مرّا غليظا بحيث لا يطاق شربه، وأنزل من السماء ماء عذباً، فكل ماء عذب من بئر أو نهر أو عين فمن ذلك المنزل من السماء، وإذا اقتربت الساعة بعث الله ملكاً معه طست لا يعلم عظمه إلاّ الله تعالى، جمع تلك المياه، فردها إلى الجنة.

واختلفوا في سبب ملوحة ماء البحر: فزعم قوم أنه لما طال مكثه وأحرقته الشمس صار مراً ملحاً، واجتذب الهواء ما لطف من أجزائه فهو بقية صفته الأرض من الرطوبة، فغلظ لذلك. وزعم آخرون أن في البحر عروقاً تغير ماء

البحر، ولذلك صار مراً زعاقاً، اهـ من «روح البيان».

﴿بَرْزَخًا﴾؛ أي: حاجزاً خلفياً لا يحس، بل بمحض قدرة الله تعالى يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر. ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: تقدم تفسيرهما.

﴿نَسَبًا﴾ قال الإمام الراغب: النسب اشتراك من جهة الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول كالاشتراك بين الآباء والأبناء. ونسب بالعرض كالنسبة بين الإخوة وبني العم. وقيل: فلان نسيب فلان؛ أي: قريبه، انتهى.

﴿وَصِهْرًا﴾ الصِهر ـ بالكسر ـ القرابة كما في «القاموس» والختن. وجمعه: أصهار. وفي «المصباح»: الصهر جمعه أصهار. قال الخليل: الصهر أهل بيت المرأة. وقال: ومن العرب من يجعل الأحماء والأختان جميعاً أصهاراً. وقال الأزهري: الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوي المحارم وذوات المحارم، كالأبوين والإخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات، فهؤلاء أصهار زوج المرأة، ومن كان من قبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضاً. وقال ابن السكيت: كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه فهم الأحماء، ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان، ويجمع الصنفين الأصهار. وصاهرت إليهم، ولهم، وفيهم إذا تزوجت منهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: هلاّ أنزل علينا.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾، وقوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

ومنها: المبالغة بنفي الجنس في قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ومعناه: لا يبشر يومئذ المجرمون، وإنما عدل عنه للمبالغة.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال لهم تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر.

ومنها: تكرير ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لتأكيد ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأن الإجرام في الأصل قطع الثمرة من الشجرة، ثم استعير لاكتساب كل مكروه.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ لأنه وصف الحجر بالمحجور؛ لقصد التأكيد كيوم أيوم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ مثل سبحانه وتعالى حالهم وحال أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من صلة رحم، وإغاثة ملهوف مثلاً بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقصد إلى ما تحت أيديهم من الدور والعقار ونحوهما، فمزّقها وأبطلها ـ اهـ «روح» بالكلية، ولم يبق لها أثراً.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾؛ أي: كالغبار المنثور في الجو، شبّه أعمالهم المحبطة بالغبار في الحقارة وعدم الجدوى، ثم بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، فصار بليغاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ كنى بالمستقر عن أحاديث العشايا والبكر التي يتبادلونها، وهي أحاديث كانت في الدنيا تدور بين المترفين وأصحاب النعيم واليسار، وكنى بالمقيل وهو وقت استراحة نصف النهار عن قضائهم وقت الاستجمام، والاستراحة مع أزواجهم.

ومنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ فإنه كناية عن الندم والحسرة، كما أن لفظة فلان كناية عن الخليل الذي أضله.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ لرعاية الفاصلة.

ومنها: تنزيل غير العاقل منزلة العاقل وندائه إظهاراً للتحسر والندامة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ لأنَّ الضلال لا ينسب إلى المكان، ولكن إلى أهله.

ومنها: قوة اللفظ لقوة المعنى في قوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾؛ لأن: لفظة رتّل على وزن فعل الدال على التكثير نظير قتل، ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى رباعي، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة الحسنة المخصوصة من القراءة، كذا في إعراب القرآن.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ شبه السؤال بالمثل بجامع البطلان في كل؛ لأن أكثر الأمثال أمور متخيلة.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾؛ لأن تقدير الكلام: فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم تدميراً، وفيه أيضاً جناس الاشتقاق أعني في قوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾. للتسجيل بظلمهم، والإيذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب.

ومنها: التجوز بالرجاء عن التوقع في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ لأن حقيقة الرجاء انتظار الخير وما فيه سرور، والكفار ليس لهم خير في نشورهم فينتظرونه.

ومنها: الاستفهام للتهكم والاستهزاء والاستحقار، في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى

بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

ومنها: الاستفهام التعجيزي في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وفيه أيضاً تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه، والأصل: اتخذ هواه إلهاً له.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهو أن يذكر الشيء ليكون مثالاً للمعنى المراد وإن كان معناه ولفظه غير المعنى المراد ولفظه، كأنهم لثبوتهم على الضلالة بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أضل سبيلاً؛ لأن البهائم تنقاد لمن يتعهدها، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، أما هؤلاء فقد أسفوا إلى أبعد من هذا الدرك.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: كاللباس الذي يغطي البدن ويستره، حذف منه الأداة ووجه الشبه، فأصبح بليغاً.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار، والنوم والانتشار، في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدامه، كما تقول: بين يدي الموضوع أو السورة.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم للتعظيم في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: نهاية في الحلاوة، ونهاية في الملوحة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أستعير فيها لفظة المشبه به، وهو البعد والتراخي للمشبه، وهو تفاضل الأمور.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ فقد شبه بهما الماءين الكثيرين الواسعين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَآ
أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨)
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)
تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا
(٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ
وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا
وَعُمْيَانًا (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا
(٧٥) خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا (٧٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بسط[1] أدلة التوحيد،

---

(١) المراغي.

وأرشد إلى ما في الكون من باهر الآيات وعظيم المشاهدات التي تدل على بديع قدرته وجليل حكمته.. أعاد الكرّة مرة أخرى، وبيّن شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم؛ إذ هم مع كل ما يشاهدون لا يرعوون عن غيهم، بل هم عن ذكر ربهم معرضون، فلا يعظمون إلا الأحجار والأوثان، وما لا نفع فيه إن عبد، وما لا ضر فيه إن ترك، إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان، ويناوئون أولياء الرحمن، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارّون من جاء لنفعهم؛ وهو الرسول الذي يبشرهم بالخير العميم إذا هم أطاعوا ربهم، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه، ثم هو على ذلك لا يبتغي أجراً، ثم أمر رسوله بأن لا يرهب وعيدهم، ولا يخشى بأسهم، بل يتوكل على ربه ويسبح بحمده، ويسبحه عما لا يليق به من صفات النقص كالشريك والولد، وهو الخبير بأفعال عباده، فيجازيهم بما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته، والنفور من طاعته، والسجود له سبحانه.. ذكر هنا أوصاف خلّص عباده المؤمنين، وبيّن ما لهم من فاضل الصفات وكامل الأخلاق التي لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم، وأكرم لأجلها مثواهم، وقد عدّ من ذلك تسع صفات مما تشرئبّ إليها أعناق العاملين، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة، ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال، وأتوا به من جليل الأعمال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود قال[2]: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . . .﴾ الآية.

وأخرج الشيخان وغيرهما أيضاً عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنا لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ. . .﴾ الآية، ولا مانع أن تكون الآية نزلت للسببين معاً، والله أعلم.

وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: لما أنزلت في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . . .﴾ الآية، قال مشركوا مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ. . .﴾ الآية.

وأخرج البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال: أمرني عبد الرحمن بن أبزي قال: سئل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما؟ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فسألت ابن عباس، فقال: لما أنزلت التي في الفرقان قال مشركوا أهل مكة: فقد قتلنا النفس التي حرم الله، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وقد أتينا الفواحش، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، وأما التي في «النساء»: أن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل فجزاؤه جهنم خالداً فيها، فذكرته لمجاهد، فقال: إلاّ من ندم.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ويعبد هؤلاء المشركون حالة كونهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: متجاوزين عبادة الله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الدنيا، ولا

في الآخرة إن عبدوه، مفعول ﴿يَعۡبُدُونَ﴾. والنفع[1]: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير، والنفع الخير، وضده الضر ﴿وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ فيهما إن لم يعبدوه، وما ليس من شأنه النفع والضر أصلا وهو الأصنام وما في حكمها من المخلوقات؛ إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر فلا فائدة في عبادته، والاعتماد عليه واتباعه.

والمعنى: أي[2] ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله آلهة لا تنفعهم إذا هم عبدوها، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها، فهم عبدوها لمجرد التشهي والهوى، وتركوا عبادة من أنعم عليهم بهذه النعم التي لا كفاء لأدناها، ومن ذلك ما ذكره قبل بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ...﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر لهم جرماً آخر، فقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ﴾ بشركه وعدوانه للحق ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي رباه بنعمته، متعلق بقوله: ﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: عوناً للشيطان، فالظهير بمعنى المظاهر؛ أي: المعين، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله أو على دينه، قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله تعالى؛ لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. والمراد[3] بالكافر الجنس، أو أبو جهل، فإنه أعان الشيطان على الرحمن في إظهار المعاصي، والإصرار على عداوة الرسول، وتشجيع الناس على محاربته ونحوها. وقال أبو عبيدة: المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً.

والمعنى: أي وكانوا مظاهرين للشيطان على معصية الرحمن، وذلك دأبهم وديدنهم، فهم يعاونون المشركين، ويكونون أولياء لهم على رسوله، وعلى المؤمنين بمساعدتهم على الفجور وارتكاب الآثام، وخذلان المؤمنين إذا أرادوا منعها والتنفر منها كما قال: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وقد يكون المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً، لا قدر له ولا وزن له عنده، كما مر عن أبي عبيدة من قول العرب: ظهرت به؛ أي: جعلته خلف ظهرك، ولم تلتفت إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ وقول الفرزدق:

تَمِيْمَ أَبْنَ قَيْسٍ لاَ تَكُونَنَّ حَاجَتِيْ بِظَهْرٍ فَلاَ يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

قال ابن عباس: نزلت الآية في أبي الحكم بن هشام الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام.

ثم بين عظم حمقهم ونفورهم ممن جاء لجلب الخير لهم، ودفع الأذى عنهم فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونك ﴿مُبَشِّرٗا﴾ للمؤمنين بالجنة والرحمة. والتبشير: إخبار فيه سرور ﴿ونذيرا﴾ أي: منذراً ومخوفاً للكافرين بالنار والغضب. والإنذار: إخبار فيه تخويف.

والمعنى: أي كيف تطلبون العون على الله ورسوله، والله قد أرسل رسوله لنفعكم؛ إذ قد بعثه ليبشركم على فعل الطاعات، وينذركم على فعل المعاصي، فتستحقوا الثواب، وتبتعدوا عن العقاب.

وخلاصة ذلك: لا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء من يرجو نفعه في دينه ودنياه، وفي هذا تسلية لرسوله حتى لا يحزن على عدم إيمانهم.

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أنه مع كونه يريد نفعهم لا يبغي لنفسه نفعاً، فقال: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أيها المشركون ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على تبليغ الرسالة التي ينبىء عنها الإرسال، أو على التبشير والإنذار، أو على القرآن، أقوال ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وجعل من جهتكم، فتقولوا: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه، والأجر ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾؛ أي: إلا فعل من يريد ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾؛ أي: أن يجعل لنفسه سبيلاً موصلاً إلى ربه؛ أي: يريد أن يتقرب إلى ربه ويطلب الزلفى عنده

بالإيمان والطاعة والإنفاق حسبما أدعوكم إليه، يعني[1]: إن أعطيتم لي أجراً فأعطوني ذلك الفعل، فإني لا أسأل غيره.

والظاهر: أن الاستثناء منقطع، والمعنى عليه: لا أطلب من أموالكم جعلاً لنفسي، لكن من شاء إنفاقه لوجه الله تعالى فليفعل، فإني لا أمنعه عنه. وقيل: هو متصل، والمعنى عليه: إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول.

وفي «الفتوحات المكية»: مذهبنا أن للواعظ أخذ الأجرة على وعظ الناس، وهو من أحل ما يأكل، وإن كان ترك ذلك أفضل. وإيضاح ذلك أن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الإجارة، فإن ما من نبي دعا إلى الله إلا قال: إن أجرى إلاّ على الله، فأثبت الأجر على الدعاء، ولكن اختار أن يأخذه من الله، لا من المخلوق انتهى.

وأفتى المتأخرون بصحة الأجرة للأذان والإقامة، والتذكير والتدريس والحج والغزو، وتعليم القرآن والفقه وقراءتهما؛ لفتور الرغبات اليوم، ولو كانت الإجارة على أمر واجب، كما إذا كان المعلم والإمام والمفتي واحداً، فإنها لا تصح إجماعاً كما في الكرماني وغيره. وكذا إذا كان الغسّال في القرية واحداً، فإنه يتعين عليه غسل الميت، ولا يجوز له طلب الأجرة.

والمعنى: أي[2] قل يا محمد لمن أرسلت إليهم: لا أسألكم على ما جئت به من عند ربي أجراً، فتقولوا إنما يدعونا ليأخذ أموالنا، ومن ثم لا نتبعه حتى لا يكون له في أموالنا مطمع ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: لكن من شاء منكم أن يتقرب إلى الله بالإنفاق في الجهاد وغيره، ويتخذ ذلك سبيلاً إلى رحمته ونيل ثوابه فليفعل.

وخلاصة ذلك: لا أسألكم عليه أجراً لنفسي، وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم لنيل مثوبته ومغفرته.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتة أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار وجلب المنافع، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾؛ أي: واعتمد يا محمد في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم ﴿عَلَى﴾ الإله ﴿ٱلْحَيِّ﴾؛ أي: المتصف بالحياة الدائمة أزلاً وأبداً ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ أي: لا يطرأ عليه الموت الذي هو ضد الحياة، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم.

وأصل التوكل(١): أن يعلم العبد بأن الحادثات كلها صادرة من الله تعالى، ولا يقدر أحد على الإيجاد غيره تعالى، فيفوض أمره إلى الله تعالى فيما يحتاج إليه، وهذا القدر فرض، وهو من شرط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما زاد على هذا القدر من سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطراب فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه الكمال. كذا في «التأويلات النجمية».

والحاصل: أن معنى التوكل اعتماد العبد على الله في كل الأمور، والأسباب وسائط أمرنا باتباعها من غير اعتماد عليها، ومثل الآية قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: نزّهه تعالى عن صفات النقصان، وعن كل ما يرد على الوهم والخيال حال كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: مثنياً عليه بنعوت الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه، وفي الحديث: «من قال كل يوم: سبحان الله وبحمده مئة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»، وهما الكلمتان الخفيفتان على اللسان، الثقيلتان في الميزان. وقيل: معنى ﴿سبحْ﴾ صلّ، والصلاة تسمى تسبيحاً.

والمعنى: أي وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه، واجعله

---

(١) روح البيان.

ملجأك وذخرك، وفوض إليه أمرك، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه، فإنه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد، ونزّهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان، فهو لا كفء له ولا ند، ولم يكن له كفواً أحد.

وفي قوله: ﴿ٱلْحَيِّ﴾ إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن، ولا على من لا بقاء له ممن يموت؛ لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه، وحكي عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال: لا ينبغي لذي لب أن يثق بعدها بمخلوق.

ثم أنذرهم وحذّرهم بأن ربهم محص أعمالهم عليهم، ومجازيهم عليها يوم القيامة، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ سبحانه. الباء زائدة للتأكيد؛ أي: حسبك الحي الذي لا يموت، وقوله: ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهر منها وما بطن متعلق بقوله: ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاء وافياً، أراد أنه ليس إليه من أمور عباده شيء آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأحوالهم كاف في جزاء أعمالهم.

والمعنى: أي وحسبك بالحي الذي لا يموت حالة كونه خبيراً بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن، فهو لا يخفى عليه شيء منها، وهو محصيها عليهم، ومجازيهم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا عليك إن آمنوا أو كفروا، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ ووعيد لأولئك الكافرين على سوء أفعالهم وإعراضهم عن اتباع رسوله ومناصبته العداء، وكأنه قيل: إذا أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة، وفي «الأخبار»: كفى بك ظفراً أن يكون عدوك عاصياً. وهي كلمة يراد بها المبالغة، تقول: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً؛ أي: هو حسبك لا تحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير بأحوالهم، قادر على مكافأتهم.

ولما أمره بالتوكل والتسبيح، وذكر صفة الحياة الدائمة.. ذكر ما دل على القدرة التامة؛ وهو إيجاد هذا العالم، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ محل

الموصول الجر على أنه صفة ثانية لـ﴿ٱلْحَيِّ﴾، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه، وتحريض على الثبات والتأني في الأمر، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج. ذكره «البيضاوي»؛ أي: وتوكل على الحي الذي أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وأوجد ما بينهما من الأركان والمواليد. وقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾، ولم يقل: بينهن؛ لأنه أراد النوعين كما قال القطامي:

أَلَـمْ يُـحْـزِنْـكَ أَنَّ جِـبَـالَ قَـيْـسٍ   وَتَـغْـلِـبَ قَـدْ تَـبَـايَـنَـتَـا ٱنْـقِـطَـاعَـا

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي[1]: في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا؛ لأنه لم يكن ثمة شمس ولا قمر، فخلق الأرض في يومي الأحد والاثنين، وما بينهما في يومي الثلاثاء والأربعاء، والسموات في يومي الخميس والجمعة، وفرغ من آخر ساعة من يوم الجمعة، وذلك مع قدرته على خلقهن في أسرع لمحة؛ ليعلم العباد أن التأني مستحب في الأمور.

فائدة: وأيام الأسبوع سبعة، وأسماؤها الجارية على الألسنة تسمية إسلامية، وقد كان لها أسماء عند العرب؛ وهي الأحد: الأَوْهَلُ، والاثنين: أَوْهَنُ، والثلاثاء: جَبَارُ، والأربعاء: دَبَارُ، والخميس: مُؤْنِسْ، والجمعة: عَرُوبَةُ، والسبت: شَيَارُ.

﴿ثُمَّ﴾ بعد فراغه من خلق السموات والأرض وما بينهما ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وارتفع سبحانه استواء يليق به، نثبته ونعتقده، لا نكيّفه ولا نمثله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعظم المخلوقات. فإن قيل[2]: يلزم من نظم القرآن أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض كما تفيده ﴿ثُمَّ﴾؟ يقال: إن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لم تدخل على خلق العرش، بل على استوائه سبحانه على العرش. والأولى أن يقال: إن ﴿ثُمَّ﴾ هنا لا تفيد الترتيب الزماني.

---

(١) المراح.   (٢) الشوكاني بتصرف.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الرحمن؛ أي: الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية وما بينهما هو الرحمن، وهو تمهيد لما يأتي من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، وبيان أن المراد من الاستواء المذكور في الحقيقة تعيين مرتبة الرحمانية، فالوقف[١] على العرش تام إن أعرب الرحمن على المدح خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود إلا له، وهو في الحقيقة صفة ثالثة لـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، كما قرأ زيد بن علي بالجر؛ لأن المنصوب، والمرفوع على سبيل المدح وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما لفظاً، فهما تابعان له معنى، ولا يوقف على العرش إن أعرب ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بدلاً من الضمير المستكن في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، فحينئذ فالوقف على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ وهو وقف كاف. وفي «البيضاوي»: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: خبر للذي خلق السموات إن جعلته مبتدأ، أو خبر لمحذوف إن جعلت الموصول صفة لـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، أو بدل من المستكن في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ انتهى. وفي «تنوير المقياس»: قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: فيه تقديم وتأخير؛ أي: ثم استوى الرحمن على العرش اهـ. قرأ زيد بن علي ﴿الرحمن﴾ بالجر، والجمهور بالرفع.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، وهو ﴿خَبِيرٗا﴾ كما في قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ونظائره، والباء على معناه، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش؛ أي: فاسأل يا محمد خبيراً بما ذكر من الخلق والاستواء. والمراد بالخبير الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ وقيل: الباء بمعنى عن، متعلقة بالسؤال. والضمير أيضاً يعود إلى ما ذكر من الخلق والاستواء. أي[٢]: فاسأل يا محمد عما ذكر من الخلق والاستواء خبيراً يخبرك بحقيقته، وهو الله تعالى، أو جبريل، أو من وجده في الكتب المتقدمة؛ ليصدقك فيه.

وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للرحمن، والباء بمعنى عن؛ أي: إن أنكر هؤلاء

---

(١) المراح.

(٢) البيضاوي.

المشركون إطلاق الرحمن على الله فاسأل عنه؛ أي: عن إطلاقه على الله خبيراً من أهل الكتاب يخبرك؛ ليعرفوا؛ أي المشركون، مجيء ما يرادفه في كتبهم؛ أي: أهل الكتاب، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: مبتدأ، والخبر ما بعده، والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالباء؛ لتضمنه معنى الاعتناء.

قال ابن جرير: يجوز أن تكون الباء في ﴿بِهِۦ﴾ زائدة، والضمير للرحمن، و﴿خَبِيرًا﴾ حال من الضمير؛ أي: فاسأل الرحمن عما ذكر من الخلق والاستواء حال كونه خبيراً بما ذكر. وقال الشوكاني: وأقرب هذه الوجوه الأول. وفي الصاوي: قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، قدم[1] لرعاية الفاصلة، والمعنى: اسأل يا محمد خبيراً بصفاته تعالى، وليس خبيراً بصفاته إلا هو سبحانه وتعالى. ويصح أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بـ﴿اسأل﴾، والباء بمعنى عن، والمعنى: اسأل عنه خبيراً؛ أي: عالماً بصفاته يطلعك على ما خفي عليك، والخبير حينئذ يختلف باختلاف السائل، فإن كان السائل النبي ﷺ فالخبير هو الله تعالى، وإن كان السائل أصحابه فالخبير هو النبي ﷺ، وإن كان السائل التابعين فالخبير هو الصحابة، وإن كان السائل العوام فالخبير هو العلماء، والمعنى: فاسأل يا محمد، أو فاسأل أيها الإنسان.

وخلاصة ذلك[2]: توكلوا على من لا يموت؛ وهو رب كل شيء، وخالقه وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها، وما فيها من عوالم لا يعلم كنهها إلا هو، وخالق الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يدبر الأمر ويقضي الحق ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ أي: فاسأل عن خلق ما ذكر خبيراً به يخبرك بحقيقته، وهو الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، فالأيام التي تم فيها الخلق إنما هي أطوار ستة، سار عليها طوراً بعد طور، وحالاً بعد حال، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا

(١) الصاوي.

(٢) المراغي.

﴿عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وفي «الفتوحات المكية»[1]: لما كان الحق تعالى هو السلطان الأعظم، ولا بد للسلطان من مكان يكون فيه، حتى يقصد بالحاجات مع أنه تعالى لا يقبل المكان اقتضت المرتبة أن يخلق عرشاً، ثم ذكر أنه استوى عليه حتى يقصد بالدعاء وطلب الحوائج منه، كل ذلك رحمة للعباد، وتنزلاً لعقولهم، ولولا ذلك لبقي العبد حائراً، لا يدري أين يتوجه بقلبه، وقد خلق الله تعالى القلب ذا جهة فلا يقبل إلا ما كان له جهة، وقد نسب الحق تعالى لنفسه الفوقية من سماء وعرش، وإحاطة بالجهات كلها بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وبقوله عليه السلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، وبقوله: «إن الله في قبلة أحدكم».

وحاصله: أن الله تعالى خلق الأمور كلها للمراتب، لا للأعيان انتهى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين؛ أي: إذا قال لهم محمد ﷺ ﴿اسْجُدُوا﴾؛ أي: صلوا، وعبر عن الصلاة بالسجدة؛ لأنها من أعظم أركانها ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي برحمته أوجد الموجودات ﴿قالوا﴾؛ أي: قال المشركون لمحمد ﷺ: ﴿وما الرحمن﴾؛ أي:[2] أي شيء هو، أو من هو؟؛ لأن وضع ﴿ما﴾ أعم، وهو سؤال عن المسمى بهذا الاسم؛ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله، ولا يعرفون كونه تعالى مسمى بهذا الاسم، وإن كان مذكوراً في الكتب المتقدمة أنه من أسمائه تعالى، أو لأنهم كانوا يعرفون كونه تعالى مسمى بهذا الاسم، إلا أنهم يزعمون أنه قد يراد به غيره تعالى؛ وهو مسيلمة الكذاب باليمامة، فإنه يقال له: رحمان اليمامة، وكان المشركون يكذّبونه، ولذلك غالطوا بذلك وقالوا: إن محمداً يأمرنا بعبادة رحمان اليمامة.

أي: وما نعرف الرحمان إلا مسيلمة الكذاب؛ أي: فإنهم اعترفوا بالله لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى؛ أي: وإذا قيل لهؤلاء الذين

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم: اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصاً دون الآلهة والأوثان.. قالوا على طريق التجاهل: وما الرحمن؟ أي: نحن لا نعرف الرحمن فنسجد له، ونحو هذا قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حين قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو قد كان عليماً به كما يؤذن بذلك قول موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

ثم عجبوا أن يأمرهم بذلك، وأنكروه عليه بقوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ أي: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا هو، وهو استفهام إنكاري؛ أي: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بسجودنا له. وقرأ[1] ابن مسعود والأسود بن يزيد وحمزة والكسائي ﴿يأمرنا﴾ بالياء من تحت؛ أي: يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ باقي السبعة بالتاء، خطاباً للرسول ﷺ.

ثم بين أنه كلما أمرهم بعبادته ازدادوا عناداً واستكباراً، فقال: ﴿وَزَادَهُمْ﴾؛ أي: وزاد أولئك المشركين هذا الأمر بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ وبعداً مما دعوا إليه من الإيمان، وقد كان من حقه أن يكون باعثاً لهم على القبول ثم الفعل. روى الضحاك أن أصحاب رسول الله ﷺ سجدوا، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين.

فمن[2] جهل وجود الرحمن أو علم وجوده، وفعل فعلاً، أو قال قولاً لا يصدر إلا من كافر فكافر بالاتفاق، كما في «فتح الرحمن»، وذلك كما إذا سجد للصنم، أو ألقى المصحف في المزابل، أو تكلم بالكفر يكفر بلا خلاف لكونه علامة التكذيب.

فصل

وهذه السجدة من عزائم السجدات، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

سماعها وقراءتها، وهي سنة عقب التلاوة فوراً، وإذا أخرت عن وقت القراءة تكون قضاء.

واختلفوا في سجود الشكر عند تجدد النعمة أو اندفاع النقمة، فقال: أبو حنيفة ومالك: يكره، فيقتصر على الحمد والشكر باللسان. وقال الشافعي وأحمد: يسن، وحكمه عندهما كسجود التلاوة، لكنه لا يفعل في الصلاة. كذا في «فتح الرحمن». قال الشافعي: فيكبر مستقبل القبلة، ويسجد فيحمد الله تعالى ويشكره ويسبح، ثم يكبر فيرفع رأسه، أما السجود بغير سبب فليس بقربة ولا مكروه؛ وأما ما يفعل عقب الصلاة فمكروه؛ لأن الجهال يعتقدونها سنة أو واجبة، وكل مباح يؤدي إليه فمكروه، انتهى.

قال السرخسي(١): السجود لغير الله تعالى على وجه التعظيم كفر، وما يفعلونه من تقبيل الأرض بين يدي العلماء فحرام. وذكر الصدر الشهيد: لا يكفر بهذا السجود؛ لأنه يريد به التحية، انتهى. لكنه يلزم عليه أن لا يفعل ذلك؛ لأنه شريعة منسوخة، وهي شريعة يعقوب عليه السلام، فإن السجود في ذلك الزمان كان يجري مجرى التحية كالتكرمة بالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الناشئة في التعظيم والتوقير، ويدل عليه قوله تعالى في حق إخوة يوسف وأبيه: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾، وأما الانحناء للسلطان أو لغيره فمكروه؛ لأنه يشبه فعل اليهود، كما أن تقبيل يد نفسه بعد المصافحة فعل المجوس.

ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾؛ أي: تكاثر خير الإله الفياض. قال في «برهان القرآن»: خص هذا الموضع بذكر ﴿تَبَارَكَ﴾ لأنه من عظائم الأمور، حيث ذكر البروج والسيارات والشمس والقمر والليل والنهار، ولولاها ما وجد في الأرض حيوان ولا نبات ﴿جَعَلَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: منازل وطرقاً تسير فيها الكواكب السبعة السيارة المنظومة في قول بعضهم:

---

(١) روح البيان.

زُحَلٌ شَرَىٰ مَرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ ... فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارُ

وتلك البروج اثنا عشر برجاً منظومة في قول بعضهم:

حَمَلَ ٱلثَّوْرُ جَوْزَةَ ٱلسَّرَطَانِ ... وَرَعَىٰ ٱللَّيْثُ سُنْبُلَ ٱلْمِيْزَانِ

وَرَمَىٰ عَقْرَبٌ بِقَوْسٍ لِجَدْيٍ ... نَزَحَ ٱلدَّلْوُ بُرْكَةَ ٱلْحِيْتَانِ

وسميت هذه المنازل بالبروج، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها، واشتقاقها من التبرج؛ وهو الظهور وهذه البروج لكل واحد منه منزلتان وثلث منزلة من منازل القمر - وهي ثمانية وعشرون نجماً - مجموعة في قول بعضهم:

أَوَّلُهَا ٱلشَّرَطَيْنُ ثُمَّ ٱلْبُطَيْنُ ... ثُمَّ ٱلثُّرَيَّا ٱلْوَاضِحُ ٱلْمُسْتَبِيْنُ

وَدَبْرَانِ هَقْعَةٌ وَهَنْعَةْ ... ذِرَاعُ نَثْرَةٍ وَطَرْفُ جَبْهَةْ

وَٱلْخَرْتَانِ زُبْرَةٌ تُسَمَّىٰ ... وَٱلصَّرْفَةُ ٱلْعَواْ ٱلسِّمَاكُ ثُمَا

غَفْرُ زُبَانَا إِكْلِيْلٌ قَلْبُ بَعْدَهْ ... وَشَوْلَةٌ نَعَايِمُ وَبَلْدَةْ

سَعْدُ ذَابِحٌ سَعْدُ بَلْعَةْ ... سَعْدُ سُعُودُ سَعْدُ ٱلأَخْبِيَةْ

وَٱلْفَرْعُ ذُو ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلْفَرْعُ الأَخِيْرُ ... وَبَطْنُ حُوْتٍ وَٱلرِّشَا فِيْهِ شَهِيْرُ

وتستمر الشمس في كل منزلة من هذه المنازل ثلاثة عشر يوماً إلا الجبهة، فتكون عنده أربعة عشر يوماً، كما هو مقرر في علم الميقات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾؛ أي[1]: في تلك البروج، لا في السماء؛ لأن البروج أقرب مذكور، فعود الضمير إليها أولى ﴿سِرَاجًا﴾؛ أي: شمساً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سِرَاجًا﴾ بالإفراد؛ وهو الشمس. وقرأ عبد الله وعلقمة والأعمش وحمزة والكسائي ﴿سُرُجا﴾ - بضمتين بالجمع -؛ أي: النجوم العظام الوقادة. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج في تأويل قراءة حمزة

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والكسائي: أراد الشمس والكوكب. وقرأ الأعمش أيضاً والنخعي وابن وثاب كذلك بسكون الراء للتخفيف. وأصل السراج المصباح المضيء بفتيلة شبهت الشمس به في الإنارة والإشراق، كما سيأتي في مبحث المفردات.

﴿وَقَمَرًا﴾؛ أي: وجعل فيها كوكباً يسمى قمراً، وهو الهلال بعد ثلاث ليال سمي قمراً لبياضه كما في «المختار»، أو لابيضاض الأرض به، والأقمر: الأبيض كما في «كشف الأسرار». وقرأ الحسن والأعمش والنخعي وعصمة عن عاصم ﴿وقُمْرا﴾ - بضم القاف وسكون الميم - وهي قراءة ضعيفة شاذة، فالظاهر أنه لغة في القمر، كالرشد والرشد، والعَرب والعرب ﴿مُّنِيرًا﴾؛ أي: مضيئاً بالليل. قال في «نفائس المجالس»: في الآية دلالة على كمال قدرته تعالى، فإن هذه الأجرام العظام والنيرات من آثار قدرته سبحانه. ومعنى الآية؛ أي[1]: تقدس ربنا الذي جعل في السماء نجوماً كباراً، عدَّها المتقدمون نحو ألف، وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديث - التلسكوبات - أكثر من مئتي ألفِ ألفٍ، ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديداً. وجعل فيها شمساً متوقدة وقمراً مضيئاً.

ثم ذكر آية أخرى من آيات قدرته، وفيها الدليل على وحدانيته تعالى، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿الَّذِى جَعَلَ﴾ بحكمته التامة ﴿الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ الخلفة[2]: مصدر للنوع، فلا يصلح أن يكون مفعولاً ثانياً لـ﴿جعل﴾، ولا حالاً من مفعوله، فلا بد من تقدير المضاف، ويستعمل بمعنى كان خليفته، أو بمعنى جاء بعده:

فالمعنى على الأول: جعلهما ذوي خلفة يخلف كل واحد منهما عن الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، فمن فرط في عمل أحدهما قضاه الآخر، فيكون توسعة على العباد في نوافل العبادات والطاعات، ويؤيد هذا المعنى قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد فاتته قراءة القرآن: «يا ابن الخطاب لقد أنزل تعالى فيك آية قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(1) المراغي. (2) روح البيان.

خِلۡفَةً...﴾ الآية، ما فاتك من النوافل بالليل فاقضه في نهارك، وما فاتك في النهار فاقضه بالليل».

والمعنى على الثاني: وهو الذي جعلهما ذوي اعتقاب يجيء الليل ويذهب النهار، ويجيء النهار ويذهب الليل، ولم يجعل نهاراً لا ليل له، وليلاً لا نهار له؛ ليعلم الناس عدد السنين والحساب، وليكون للانتشار في المعاش وقت معلوم، وللاستقرار والاستراحة وقت معلوم. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان، ففي الآية تذكير لنعمته، وتنبيه على كمال حكمته وقدرته.

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾؛ أي[1]: أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه، فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب بالذات، رحيم على العباد، فالمراد بـ﴿من﴾ هو الكافر. ثم أشار إلى المؤمن بقوله: ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ - بضم الشين - مصدر بمعنى الشكر؛ أي: أراد أن يشكر الله بطاعته على ما فيهما من النعم، فتكون ﴿أَوۡ﴾ على حالها، فتكون للتقسيم والتنويع، وهي مانعة خلوٌّ، فتجوّز الجمع، اهـ شيخنا. ويجوز أن تكون بمعنى ﴿الواو﴾، فالمعنى: جعلناهما خلفة ليكونا وقتين للذاكرين والشاكرين، من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخر، ووجه التعبير بـ (أو) التنبيه على استقلال كل واحد منهما بكونه مطلوباً من الجعل المذكور، ولو عطف بالواو؛ لتوهم أن المطلوب مجموع الأمرين. وقرأ النخعي وابن وثاب وزيد بن علي وطلحة وحمزة: ﴿يذْكر﴾ - خفيفة الذال، مضمومة الكاف - مضارع ذكر الثلاثي، وهو في معنى يتذكر.

واعلم: أن الشكر ثلاثة أضرب: شكر بالقلب وهو تصور النعمة، وشكر باللسان وهو الثناء على النعمة، وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

والمعنى: أي وهو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين، يخلف أحدهما الآخر، فيكون في ذلك عظة لمن أراد أن يتّعظ باختلافهما، ويتذكر آلاء الله

---

(١) روح البيان.

فيهما، ويتفكر في صنعه، أو أراد أن يشكر نعمة ربه ليجني ثمار كل منهما؛ إذ لو جعل أحدهما دائماً لفاتت فوائد الآخر، ولحصلت السآمة والملل، وفتر العزم الذي يثيره دخول وقت الآخر إلى نحو أولئك من الحكم التي أحكمها العلي الكبير، وفي الحديث الصحيح: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»، وعن الحسن: من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب. روي أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ...﴾ الخ.

ثم وصف الله سبحانه عباده المخلصين بصفات تسع:

الأولى: ما ذكره بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحي عباد الله سبحانه، دون عباد الدنيا والشيطان والنفس والهوى، فإنهم وإن كانوا عباداً بالإيجاد، لكنهم ليسوا بأهل لإضافة التشريف والتفضيل من حيث عدم اتصافهم بالصفات الآتية التي هي آثار رحمته تعالى الخاصة المفاضة على خواص العباد، والمعنى: وعباد الرحمن المقبولون؛ وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾؛ أي: هم الذين يمشون ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي غاية في الطمأنينة والسكون والتحمل، حال كونهم ﴿هَوْنًا﴾؛ أي: هيّنين ليّني الجانب من غير فظاظة، أو يمشون مشياً هيناً على أنه مصدر وصف به، والمعنى: أنهم يمشون بسكينة وتواضع، لا بفخر وفرح ورياء وتجبر، ولا يضربون بأقدامهم الأرض، ولا يخفقون بنعالهم، وذلك لما طالعوا من عظمة الحق وهيبته، وشاهدوا من كبريائه وجلاله، فخشعت لذلك أرواحهم، وخضعت نفوسهم وأبدانهم.

والمعنى: أي[1] وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والمثوبة من ربهم هم الذين يمشون في سكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشراً

---

(١) المراغي.

وبطراً. روي أن عمر رأى غلاماً يتبختر في مشيته، فقال: إن البخترة مشية تكره إلاّ في سبيل الله، وقد مدح الله أقواماً، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فاقصد في مشيتك. وقال ابن عباس: هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلماء ذوي وقار وعفة. وفي الحديث: إن النبي ﷺ قال: «أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس في الإيضاع». السير السريع. وفي صفته ﷺ: (أنه إذا زال.. زال تقلعاً، ويخطو تكفؤا، ويمشي هوناً ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحطّ من صبب).

التقلّع رفع الرجل بقوة، والتكفؤ الميل إلى سنن القصد، والهون الرفق والوقار، والذريع الواسع الخطا؛ أي: أنه كان يرفع رجله بسرعة في مشيه، ويمد خطوه خلاف مشية المختال، وكل ذلك برفق وتثبّت دون عجلة، ومن ثم قيل: كأنما ينحط من صبب، قاله القاضي عياض في «الشفاء». وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع في مشيه جبلة لا تكلّفاً.

وخلاصة هذا: أنهم لا يتكبرون، ولا يتجبرون، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

وثاني الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ أي: وإذا كلّمهم السفهاء مواجهة بالكلام القبيح ﴿قَالُوا۟﴾ في جوابهم قولاً ﴿سَلَٰمًا﴾؛ أي: سداداً يسلمون فيه من الأذى والإثم، فسلاماً صفة لمصدر محذوف، وعليه أكثر المفسرين، ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا يسافهون أهل السفه، أو منصوب بفعل مضمر كما في «المفردات». أي: نطلب منكم سلامة، أو إنا سلمنا من إثمكم، وأنتم سلمتم من شرنا كما في «إحياء العلوم». والمعنى؛ أي: وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، وكان رسول الله ﷺلا تزيده شدة الجاهل عليه إلاّ حلماً. وعن الحسن البصري: هم حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا ولم يسفهوا، هذا نهارهم فكيف ليلهم؟ خير ليل، صفوا أقدامهم، وأجروا دموعهم، يطلبون إلى الله جل ثناؤه

فكاك رقابهم. قال النحاس: ليس هذا السلام من التسليم، إنما هو من التسلم، تقول العرب: سلاماً؛ أي: تسلما منك؛ أي: براءة منك. ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق.. ذكر ما بينهم وبينه.

وثالث الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ عطف على الموصول الأول ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لا لحظ أنفسهم، وهو متعلق بما بعده، والتقديم للتخصيص مع مراعاة الفاصلة ﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد؛ أي: ساجدين على وجوههم. وقرأ أبو البرهشيم: ﴿سجوداً﴾ على وزن قعود ﴿وَقِيَامًا﴾ جمع[1] قائم مثل نيام ونائم، أو مصدر أجري مجراه؛ أي: قائمين على أقدامهم. وتقديم السجود على القيام مع أنه مؤخر طبعاً لرعاية الفواصل، وليعلم أن القيام في الصلاة مقدّم مع أن السجدة أحق بالتقديم لما ورد: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، والكفرة يستكبرون عنها، حتى قال بعضهم: لا أفعلها لأني لا أحب أن تعلو رأسي أستيَ. والمعنى: والذين يكونون في الليل ساجدين لربهم على وجوههم، وقائمين على أقدامهم طلباً لرضاه سبحانه؛ أي: يحيون الليل كلاً أو بعضاً بالصلاة، كما قال في حق المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وتخصيص البيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أشقّ وأبعد من الرياء، وهو بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم، ووصف ليلهم بعد وصف نهارهم. قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً وقائماً. وروى مسلم عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة».

فإن قلت: ما معنى هذا الحديث، فإنه يرفع مؤنة قيام الليل؟

قلت: هذا الحديث ترغيب في الجماعة، وبيان للرخصة وتأثير النية، فإن من نوى وقت العشاء أن يقيم الفجر بجماعة كان كمن انتظرها في المسجد، فرب همة عالية تسبق الأقدام، ولكن العمل مع النية أفضل من النية المجردة، والعزيمة

(١) روح البيان.

فوق الرخصة.

ومن حرم قيام الليل كسلاً وفتوراً في العزيمة، أو تهاوناً بقلة الاعتداد بذلك، أو اغتراراً بحاله.. فليبك عليه، فقد قطع عليه طريق كثير من الخير، والذي يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بأمور الدنيا، وكثرة أشغال الدنيا، وإتعاب الجوارح، والامتلاء من الطعام، وكثرة الحديث واللهو واللغط، وإهمال القيلولة، والموفق من يغتنم وقته، ويعرف داءه ودواءه، ولا يهمل فيهمل، واعلم أن الأصل في كل عمل هو تحقيق النية وتصحيح الإخلاص، وجهنا الله وإياكم إلى وجهه.

ورابع الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلواتهم وأدبارها، أو في عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ﴾ واردد ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ وشديد آلامها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: شراً دائماً، وهلاكاً لازماً غير مفارق لمن عذب به من الكفار، والعذاب الإيجاع الشديد. قال محمد بن كعب القرظي: إن الله سبحانه سأل الكفار شكر نعمته فلم يؤدّوها إليه فأغرقهم، فأدخلهم النار، وقال: كل غريم مفارق غريمه إلاّ جهنم؛ أي: والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها.

وقوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها في أنفسها إثر تعليله بسوء حال عذابها، فهو من تمام كلامهم، ويجوز أن يكون من كلامه تعالى. وانتصاب[1] ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ على الحال، أو التمييز، قيل: هما مترادفان، وإنما عطف أحدهما لاختلاف لفظيهما. وقيل: بل هما مختلفان معنى، فالمستقر للعصاة، فإنهم يخرجون، والمقام للكفار، فإنهم يخلدون فيها. وساءت من أفعال الذم بمعنى: بئست. والضمير[2] فيها لا يعود إلى اسم ﴿إن﴾ وهو جهنم، ولا إلى شيء آخر بعينه، بل هو ضمير مبهم يفسّره ما بعده من التمييز، وهو ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، وذلك لأن فاعل أفعال الذم يجب أن

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يكون معرّفاً باللام، أو مضافاً إلى المعرّف، أو مضمراً مميزاً بنكرة منصوبة، والمعنى: إن جهنم بئست هي من جهة كونها موضع قرار وإقامة لهم، والمخصوص بالذم هي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مقاما﴾ بضم الميم، وقرأت فرقة بفتحها وفي «السمين»: يجوز أن يكون ﴿سَآءَتْ﴾ بمعنى: أحزنت، فتكون متصرفة ناصبة للمفعول، وهو هنا محذوف؛ أي: أنها؛ أي: جهنم أحزنت أصحابها وداخليها حالة كونها مستقراً ومقاماً لهم، أو من جهة كونها مستقراً ومقاماً لهم. وفي الآية إيذان بأنهم مع حسن معاملتهم من الخلق، واجتهادهم في عبادة الخالق وحده لا شريك له يخافون عذابه، ويبتهلون إليه في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كما قال في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يعني يجتهدون غاية الجهد، ويستفرغون نهاية الوسع، ثم عند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التذلل كما قيل:

وَمَا رُمْتُ ٱلدُّخُوْلَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ ... حَلَلْتُ مَحِلَّةَ ٱلْعَبْدِ ٱلذَّلِيْلِ

وذلك لعدم اعتدادهم بأعمالهم، ووثوقهم على استمرار أحوالهم. قال[2] ابن نجيد: لا يصْفُ لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء، وأحواله كلها دعاوى. وقال النهر جوري: من علامة من تولاه الله أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقراً إلى الله تعالى في فقره ويسره حتى يفنى عن كل ما دونه. ودلت الآية على مشروعية الدعاء مطلقاً، خصوصاً في أعقاب الصلوات، وهو مخ العبادة، فليدع المصلي منفرداً، وفي الجماعة، إماماً كان أو مأموماً.

وخامس الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ أموالهم على أنفسهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وعلى أهاليهم، أو في جميع مصارف الخير ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾؛ أي: لم يجاوزوا الحد المشروع في ذلك الإنفاق ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾؛ أي: ولم يضيّقوا تضييق الشحيح. وقرأ[1] الحسن وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ولم يقتروا﴾ بفتح الياء وضم التاء، وقرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ نافع وابن عامر بضم الياء وكسر التاء مشددة، وكلها لغات في التضييق، وأنكر أبو حاتم لغة ﴿أقتر﴾ رباعياً هنا، وقال: أقتر إذا افتقر، ومنه ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾، وغاب عنه ما حكاه الأصمعي وغيره من أقتر بمعنى ضيّق.

﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم[2] المدلول عليه بقوله: أنفقوا كائناً ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بين ما ذكر من الإسراف والتقتير، وهو خبر ﴿كان﴾ كما قدرنا، وقوله: ﴿قَوَامًا﴾ خبر بعد خبر، أو هو الخبر، و﴿بين ذلك﴾ ظرف لغو لـ﴿كان﴾ على رأي من يرى إعمالها في الظرف؛ أي: وسطاً عدلاً، سمي به لاستقامة الطرفين واعتدالهما بحيث لا ترجح لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه لكونه وسطاً بينهما كمركز الدائرة، فإنه يكون نسبة جميع الدائرة إليه على السواء. وقرأ[3] حسان بن عبد الرحمن: ﴿قواما﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون بفتحها، فقيل: هما بمعنى، وقيل: القوام بالكسر ما يدوم عليه الشيء ويستقر، وبالفتح العدل والاستقامة، قاله ثعلب، وقيل: بالفتح العدل بين الشيئين، وبالكسر ما يقام به الشيء، لا يفضل عنه ولا ينقص، وقيل: بالكسر السداد والمبلغ.

والمعنى: أي[4] والذين هم ليسوا بالمبذرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا ببخلاء على أنفسهم وأهليهم، فيقصّرون فيما يجب نحوهم، بل ينفقون عدلاً وسطاً، وخير الأمور أوسطها. وقد قيل:

وَلاَ تَغْلُ فِيْ شَيْءٍ مِنَ ٱلأَمْرِ وَٱقْتَصِدْ ... كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيْمُ

وقد قيل:

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَعْطَىٰ نَفْسَهُ كُلَّ مَا ٱشْتَهَتْ وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إِلَىٰ كُلِّ بَاطِلِ
وَسَاقَتْ إِلَيْهِ ٱلإِثْمَ وَٱلْعَارَ بِٱلَّذِيْ دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلاَوَةِ عَاجِلِ

قال يزيد بن أبي حبيب: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقوّيهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويقيهم من الحرّ والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ قال عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال لابنه عاصم: يا بني كل في نصف بطنك، ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله تعالى في بطونهم، وعلى ظهورهم. قال عمر بن الخطاب: كفى سرفاً أن لا يشتهي شيئاً إلاّ اشتراه فأكله.

وسادس الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ ولا يعبدون ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كالصنم فيجعلونه شريكاً له تعالى؛ أي: والذين لا يعبدون مع الله سبحانه إلهاً آخر، فيشركون في عبادتهم إياه، بل يخلصون له العبادة، ويفردونه بالطاعة.

يقال: الشرك ثلاثة(١):

أولها: أن يعبد غيره تعالى.

والثاني: أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية.

والثالث: أن يعمل لغير وجه الله تعالى. فالأول كفر، والآخران معصية.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني لا يرفعون حوائجهم إلى الأغيار، ولا يتوهمون منهم المسارّ والمضارّ، وأيضاً لا يشوبون أعمالهم بالرياء والسمعة، ولا يطلبون مع الله مطلوباً، ولا يحبون معه محبوباً، بل يطلبون الله من الله، ويحبونه به.

---

(١) روح البيان.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ﴾ها ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي[1]: حرَّم قتلها. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم، والمراد نفس المؤمن والمعاهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ المبيح لقتلها؛ أي: لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلاّ بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كما إذا قتل أحدا فيقتصّ به، أو زنى وهو محصن فيرجم، أو ارتدّ أو سعى في الأرض بالفساد فيقتل ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾؛ أي: ولا يطؤون في قبل المرأة بغير عقد شرعي أو ملك يمين، وكذا اللواط وإتيان البهيمة.

وقد نفى[2] عنهم هذه القبائح مع أن وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس، ومزيد خوفهم من الله، وإحياء الليل يقتضي نفيها عنهم تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، وتنبيهاً إلى الفرق بين سيرة المؤمنين وسيرة المشركين، فكأنه قيل: وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وأنتم تدعون، ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموءودة، ولا يزنون وأنتم تزنون.

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من الثلاثة كما هو دأب الكفرة المذكورين؛ أي: فعل شيئاً من الأفعال الثلاثة: عبادة غير الله تعالى، والقتل، والزنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾؛ أي[3]: جزاء إثمه وعقوبته، والأثام كالوبال والنكال وزناً ومعنى، يقال: أثمه يأثمه أثاماً جازاه على ذنبه وعاقبه عليه. وفي «القاموس»: الأثام كسحاب، واد في جنهم، والعقوبة. وقال أبو مسلم: الأثام الإثم والذنب. ومعناه: يلق جزاء آثامه، فأطلق اسم الشيء على جزائه.

وقرىء[4]: ﴿يُلَقَّ﴾ بضم الياء وفتح اللام والقاف المشددة، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء ﴿يلقى﴾ بألف، كأنه نوى حذف الضمة المقدرة على الألف فأقرّ الألف، وقرأ ابن مسعود ﴿أيّاما﴾ جمع يوم يعني شدائد، يقال: يوم ذو أيام لليوم العصيب.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يزاد له العذاب يوم القيامة بقدر معاصيه، وذلك لانضمام المعاصي إلى الكفر، فلا يعارض قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾، أو المعنى: يتزايد عذابه وقتاً بعد وقت، فهو كناية عن كونه مؤبدا. وفي «التأويلات النجمية»: يكون معذباً بعذابين، على كل ذنب عذاب دركات النيران، وعذاب فوات درجات الجنان، وقربات الرحمن. والضعف تركب قدرين متساويين كما سيأتي في مبحث المفردات، والجملة بدل من ﴿يَلۡقَ﴾ لاتحادهما في المعنى؛ لأن مضاعفة العذاب نفس لقي الآثام فلذلك جزمت، كما قال الشاعر:

مَتَىٰ تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِيْ دِيَارِنَا ... تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

لأن الإلمام هو نفس الإتيان، فجزم تلمم؛ لأنه بمعنى تأتي.

والضمير في قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ عائد إلى العذاب المضاعف؛ أي: يخلد في العذاب المضاعف حالة كونه ﴿مُهَانًا﴾؛ أي: ذليلاً حقيراً، جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني لا يغاث. وقرأ[1] نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ مبنياً للمفعول وبألف ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ مبنيا للفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن كثير كذلك، إلاّ أنهم شددوا العين، وطرحوا الألف، وقرأ أبو جعفر أيضاً وشيبة وطلحة بن مصرف ﴿يضاعِف﴾ بالياء مبنياً للفاعل ﴿العذاب﴾ بالنصب وقرأ طلحة بن سليمان ﴿نضعّف﴾ بضم النون والعين المشددة بالجزم ﴿وتخلد﴾ بتاء الخطاب على الالتفات مرفوعاً؛ أي: وتخلد أيها الكافر، وقرأ أبو حيوة ﴿ويخلّد﴾ مبنياً للمفعول مشدد اللام مجزوماً، ورويت عن أبي عمرو، وعنه كذلك مخففاً، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿يضاعف ويخلد﴾ بالرفع فيهما، وكذا ابن عامر، والمفضّل عن عاصم ﴿يضاعف ويخلد﴾ مبنياً للمفعول مرفوعاً مخففاً، وقرأ الأعمش بضم الياء مبنياً للمفعول مشدداً مرفوعاً، فالرفع على الاستئناف،

---

(١) البحر المحيط.

كأنّ قائلاً قال: ما لقي الآثام؟ فقيل: يضاعف للإثم العذاب. أو على الحال، والجزم على البدل من ﴿يلق﴾، وقرأ ابن كثير وحفص: ﴿فيهي مهانا﴾ بإشباع كسرة الياء، ووصلها بالياء في الوصل.

والمعنى[1]: ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة يلق في الآخرة جزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل يضاعف له ربه العذاب يوم القيامة، ويجعله خالداً أبداً في النار مع المهانة والاحتقار، فيجتمع له العذاب الجسمي والعذاب الروحي.

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين، فيفوزون بجنات النعيم، فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك والقتل والزنا ﴿وَءَامَنَ﴾؛ أي: صدّق بوحدانية الله تعالى، ورسالة رسوله ﷺ: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ذكر[2] الموصوف هنا مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به، وللتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة. والاستثناء من الجنس؛ لأن المقصود الإخبار بأن من فعل ذلك فإنه يحل به ما ذكر إلاّ أن يتوب، وأما إصابة أصل العذاب وعدمها فلا تعرض لها في الأية. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ الثلاثة المذكورة في الدنيا ﴿حَسَنَٰتٖۗ﴾؛ أي: يبدلهم الإيمان عن الشرك، وقتل الكافرين عن قتل المؤمنين، والعفة والإحصان عن الزنا، أو[3] يوفّقهم للمحاسن بعد القبائح، أو يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، ولم يرد به أن السيئة بعينها تكون حسنة، ولكن المراد ما ذكرنا.

قال الزجاج: ليس المراد أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن المراد أن السيئة تمحى بالتوبة، وتكتب الحسنة مع التوبة. انتهى. وعبارة «أبي السعود»:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.

قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم، أو يبدّل ملكة المعصية ودواعيها في النفس بملكة الطاعة، بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية مكانها. وقيل: يبدّل بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمن قتل الكافر، وبالزنا عفة وإحصانا. اهـ. فعلى هذا يكون التبديل في الدنيا.

وفي «القرطبي» قال النحاس: من أحسن ما قيل في التبديل أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع، قال الحسن: وقوم يقولون: التبديل في الآخرة. وليس كذلك، إنما التبديل في الدنيا، يبدلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران؛ أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أنه يبدلها حسنات. قلت: ولا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحّت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة، وقد قال ﷺ لمعاذ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، اهـ. وقرأ[1] البرجمي ﴿يُبْدِلُ﴾ مخففاً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب من الشرك والمعاصي، ولذلك بدل السيئات حسنات، ﴿رَّحِيمًا﴾ له، ولذلك أثاب على الحسنات، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من التبديل.

﴿وَمَن تَابَ﴾؛ أي رجع عن المعاصي مطلقاً بتركها بالكلية والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بتدارك به ما فرّط منه، أو المعنى: ومن تاب؛ أي: خرج عن المعاصي، وعمل صالحاً؛ أي: دخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ بما فعل ﴿يَتُوبُ﴾ ويرجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بعد الموت ﴿مَتَابًا﴾؛ أي: رجوعاً حسناً، عظيم الشأن، مرضياً عنده تعالى، ماحياً للعقاب، محصّلاً للثواب، فلا يتحد الشرط والجزاء؛ لأن في الجزاء معنى زائداً على ما في الشرط، فإن الشرط هو التوبة بمعنى الرجوع عن المعاصي، والجزاء هو الرجوع إلى الله تعالى بعد

(١) النسفي.

الموت رجوعاً مرضياً، وهذا تعميم بعد التخصيص؛ لأن متعلق التوبة في الآية الأولى الشرك والقتل والزنا فقط، وههنا مطلق المعاصي.

والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرّط، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة، قال ابن عطاء: التوبة الرجوع من كل خلق مذموم، والدخول في كل خلق محمود، وهي توبة الخواص. وقال بعضهم: التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله تعالى، وهي توبة الأخص، فعليكم أيها الإخوان بالتوبة والاستغفار، فإنها صابون الأوزار.

والمعنى: أي ومن تاب عن المعاصي التي فعلها، وندم على ما فرط منه، وزكّى نفسه بصالح الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحاً مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصّلة لجزيل الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن الضير، وفي هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصي بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها، نسأل الله تعالى توبة نصوحا ومن آثار رحمته فيضاً ونوالاً وفتوحاً.

وسابع الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾؛ أي[1]: لا يحضرون مواضع الكذب، فإن حضور مجامع الفسّاق مشاركة لهم في تلك المعصية، ولأن النظر إليها دليل الرضا بها. وقيل: معنى ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يشهدون[2] أعياد المشركين واليهود والنصاى. وقيل: لا يشهدون مواضع النوح والندب. وقيل: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقيل: لا يشهدون مواضع اللهو واللعب والغناء. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع. والأولى التعميم، فيقال: لا يشهدون مواضع المعاصي كلها، أياً كانت. أو المعنى: لا يشهدون الشهادة الكاذبة.

والحاصل: أنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ إن كان من الشهادة بمعنى الإخبار.. ففي

(١) المراح. (٢) الخازن.

الكلام حذف مضاف؛ أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود بمعنى الحضور، كما ذهب إليه الجمهور.. فقد اختلفوا في معناه على الأقوال التي ذكرناها أولاً.

واختلف الأئمة في عقوبة شاهد الزور[1]: فقال أبو حنيفة: لا يعزّر، بل يوقف في قومه، ويقال لهم: إنه شاهد زور. وقال الثلاثة: يعزّر ويوقف في قومه، ويعرّفون أنه شاهد زور. وقال مالك: يشهر في الجوامع والأسواق والمجامع. وقال أحمد: يطاف به في المواضع التي يشتهر فيها، فيقال: إنا وجدنا هذا شاهد زور فاجتنبوه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه ـ أي: يطليه بمادة سوداء ـ ويحلق رأسه، ويطوف به في الأسواق كما في «كشف الأسرار». وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس، فقال ـ: ألا وقول الزور، أو شهادة الزور»، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. متفق عليه.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾؛ أي: بمجالس اللغو واللهو والباطل ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾؛ أي: مروا بها معرضين عنها، مسرعين مكرمين أنفسهم بترك الالتفات إليها، منزّهين لها عن هذه المجالس السيئة، يقال: فلان يكرم نفسه عما يشينه؛ أي: يتنزه عن الدخول في اللغو والاختلاط بأهله. واللغو: كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها. والمعنى: مرّوا معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به.

وحاصل معنى الآية: أي والذين لا يؤدّون الشهادات الكاذبة، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيه كاللغو في القرآن، وشتم الرسول، والخوض فيما لا ينبغي. ونحو الآية قوله:

---

(١) روح البيان.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

وثامن الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾؛ أي: وعظوا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المشتملة على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا﴾؛ أي[1]: لم يسقطوا، ولم يقعوا ولم يقفوا عليها حالة كونهم ﴿صُمًّا﴾ عن استماعها وإصغائها. جمع أصم وهو فاقد حاسة السمع وبه يشبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿عميانا﴾ عن رؤية تاليها. جمع أعمى؛ وهو فاقد حاسة البصر.

والمعنى: أي[2] والذين إذا وعظوا بالآيات المشتملة على الأحكام والمواعظ أكبوا على تلك الآيات حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، وانتفعوا بها، لا كالذين يظهرون الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم والعيمان كالمنافقين والكفرة كأبي جهل والأخنس بن شريق، فالمراد من النفي نفي الصمم والعمى، لا نفي الخرور وإن دخلت الأداة عليه، فالنفي متوجه إلى القيد الذي هو ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، لا إلى المقيد الذي هو الخرور الداخل عليه. وفي هذا تعريض بما عليه الكفرة والمنافقون الذي إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به، ولم يتحولوا عما كانوا عليه، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم، فكأنهم صم لا يسمعون، وعمي لا يبصرون.

وتاسع الصفات: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في دعائهم لربهم ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ أي: بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل؛ أي: اجعل لنا ما يحصل به سرور أعين من أزواجنا وأولادنا بأن نراهم صالحين مطيعين لله. وعن محمد بن كعب: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله تعالى. وقرة العين

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

سرورها، والمراد به ما يحصل به السرور، فـ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ إما[1] بيانية كما فسّرنا، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بينت القرة وفسرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾، أو ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، وإنما قيل: ﴿أَعْيُنٍ﴾ على وزن القلة، دون عيون؛ لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، ويجوز أن يقال في تنكير أعين: إنها أعين خاصة وهي أعين المتقين. والمعنى أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً علماء لله تعالى، يسرون بمكانهم، وتقرّ بهم عيونهم.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ أي: اجعلنا أئمة لهم بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم علينا، وبالتوفيق للعمل الصالح. ولفظ ﴿إمام﴾ يستوي فيه الجمع وغيره، فالمطابقة حاصلة. اهـ شيخنا.

وفي «البيضاوي»[2]: وتوحيد ﴿إِمَامًا﴾ لدلالته على الجنس وعدم اللبس، كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد: واجعل كل واحد منا إماماً، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم. وقيل: جمع آثم كصائم وصيام، فيكون من المقلوب، والمعنى: واجعل المتقين لنا إماماً، واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم. قال بعضهم: وفي هذا دليل على أن الرئاسة في الدين مطلوبة مرغوب فيها. والمعنى؛ أي[3]: والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه، وسر قلبه، وتوقع نفعهم له في الدنيا حياً وميتاً، وكانوا من اللاحقين به في الآخرة، ويسألون أيضاً أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من واسع العلم، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به من بعده، وصدقة جارية».

والخلاصة: أنهم طلبوا من ربهم أمرين: أن يكون لهم من أزواجهم وذرياتهم من يعبدونه، فتقرّ بهم أعينهم في الدنيا والآخرة، وأن يكونوا هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

وقرأ ابن عامر وابن كثير ونافع وحفص عن عاصم[1]: ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ على الجمع، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وطلحة: ﴿وذريتنا﴾: على الإفراد، وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة وأبو الدرداء وأبو هريرة: ﴿قُرّات﴾: على الجمع، والجمهور على الإفراد.

تنبيه[2]: وإعادة الموصول في المواضع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حدته، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء من ذلك تتمة لذلك، وتوسط العاطف بين الصفة والموصوف لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي.

ولما بين سبحانه صفات المتقين المخلصين.. ذكر إحسانه إليهم بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الثمانية السابقة، والمستجمعون لتلك الخصال الفاضلة ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾؛ أي: يثابون أعلى منازل الجنة، والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والغرفة: الدرجة العالية من كل بناء مرتفع، وهي اسم جنس أريد به الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾، ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾؛ أي: بسبب صبرهم على مشاق التكاليف، وقمع الشهوات، وتحمل المجاهدات. فـ﴿ما﴾ مصدرية، و﴿الباء﴾: سببية ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: في الغرفة من جهة الملائكة؛ أي: يستقبلون فيها، ويجدون من الملائكة ﴿تَحِيَّةً﴾؛ أي: دعاء بطول حياة ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ أي: دعاء بسلامة من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

الآفات؛ أي: يستقبلون فيها بالتحية وبالسلام؛ أي: تحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، فإن التحية هي الدعاء بالتعمير، والسلام هو الدعاء بالسلامة.

وقال شيخ الإسلام: جمع بين التحية والسلام مع أنهما بمعنى واحد لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ﴾، ولخبر: «تحية أهل الجنة في الجنة السلام»؛ لأن المراد هنا بالتحية سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، وبالسلام سلام الله عليهم لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، أو المراد بالتحية إكرام الله لهم بالهدايا والتحف، وبالسلام سلامه عليهم بالقول، ولو سلم أنهما بمعنى واحد لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظاً «فتح الرحمن».

حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الغرفة لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ﴾ تلك الغرفة من جهة كونها ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ لهم؛ أي: موضع قرار ودوام وإقامة واستراحة لهم، وهو مقابل قوله في جهنم: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ معنى، ومثله إعرابا. فعلى العاقل أن يتهيأ لمثل هذه الغرفة العالية الحسنة بما سبق من الأعمال الفاضلة المستحسنة، ولا يقع في مجرد الأماني والآمال، فإن الأمنية كالموت بلا إشكال:

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ   وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ

والمعنى: أي[1] أولئك المتصفون بصفات الكمال، الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب، يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصبرهم على فعل الطاعات، واجتنابهم للمنكرات، ويبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، ونحو الآية: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾، ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: مقيمين فيها، لا يظعنون، ولا يموتون، حسنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً.

---

(١) المراغي.

وقرأ[1] ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن وشيبة وأبو جعفر وأبو بكر ﴿يلقون﴾ بضم الياء وفتح اللام والقاف المشددة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وطلحة ومحمد اليماني ﴿يَلْقون﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف.

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم.. أمر رسوله أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس كافة ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ و﴿ما﴾: إما استفهامية محلها النصب على المصدر؛ أي[2]: ما يصنع بأجسامكم، وما يفعل بصوركم ربي، أو أي وزن ومقدار لكم عنده ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾؛ أي: لولا عبادتكم إياه، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. وقيل: لولا إيمانكم. وقيل: لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان، فإذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر، وإما نافية؛ أي: لا يبالي بكم ربي لولا دعاؤكم واستغاثتكم إياه في الشدائد، فقوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ بيان لحال المؤمنين، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ معلوم مما قبله، تقديره: لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم. والمعنى[3] على الاستفهامية: أي عبء يعبأ بكم ربي، وأي مبالاة يبالي بكم ربي، وأي اعتبار يعتبركم ربي، وأي اعتناء يعتني بشأنكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم له تعالى؟ فإن شرف الإنسان وكرامته عند الله تعالى بالمعرفة والطاعة، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء، هذا وفي الآية معان أخر، والأظهر عند المحققين ما ذكرناه.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيان لحال الكفرة من الناس؛ أي: فقد كذبتم أيها الكفرة بما أخبرتكم به حيث خالفتموه وخرجتم عن أن يكون لكم عند الله اعتناء بشأنكم واعتبار، أو وزن ومقدار ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ جزاء تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾؛ أي: لازماً لكم يحيق بكم لا محالة، حتى يكبكم في النار؛ أي: يصرعكم على وجوهكم في النار، كما يعرف عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن بزيادة.
(٣) روح البيان.

وإنما أضمر اسم ﴿يَكُونُ﴾ من غير ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره، للتنبيه على أنه مما لا يكتنهه الوصف والبيان، وعن بعضهم: أن المراد بالجزاء جزاء الدنيا، وهو ما وقع يوم بدر، قتل منهم سبعون، وأسر منهم سبعون، ثم اتصل به عذاب الآخرة لازماً لهم.

وقال الزمخشري في هذه الآية[1]: لما وصف الله سبحانه عبادة العباد، وعدد صالحاتهم وحسناتهم، وأثنى عليهم من أجلها، ووعدهم رفع الدرجات.. أتبع ذلك ببيان أنه إنما اكترث بأولئك، وعبأ بهم، وأعلى ذكرهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله بأن يقول لهم: إن الاكتراث بهم عند ربهم إنما هو لأجل عبادتهم وحدها، لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث بهم البتة، ولم يعتد بهم، ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به اهـ «كشاف».

وقال زاده: أي إن مبالاة الله تعالى واعتناءه بشأنهم حيث خلق السموات والأرض وما بينهما إرادة للانتظام إنما هو ليعرفوا حق المنعم، ويطيعوه فيما كلفهم به اهـ.

ومعنى الآية: أي[2] قل لهؤلاء الذين أرسلت إليهم: إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما ذكر من تلك المحاسن، ولولاها لم يعتد بهم ربهم، ومن ثم لا يعبأ بكم إذا لم تعبدوه، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه، ويطيعه وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أما أنتم إذ خالفتم حكمي، وعصيتم أمري، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل، وكذبتم رسولي.. فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم، وهو العقاب الذي لا مناص منه، فاستعدوا له، وتهيؤوا لذلك اليوم، فكل آت قريب.

وخلاصة ذلك: لا يعتد بكم ربي لولا عبادتكم إياه، أما الكافرون منكم

---

(١) الكشاف. (٢) المراغي.

الذين قصروا في العبادة فسيكون تكذيبهم مفضياً لعذابهم وهلاكهم في الدنيا والآخرة.

وقال أبو حيان[1]: والذي يظهر أن قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي﴾ خطاب لكفار قريش القائلين: أنسجد لما تأمرنا؟ أي: لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه عند الشدائد، فقد كذبتم بما جاء به الرسول ﷺ، فتستحقون العقاب، فسوف يكون العقاب لزاماً؛ أي: لازماً لكم لا تنفكون منه، ونفس لهم في حلوله بلفظة ﴿فَسَوْفَ﴾، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن الزبير: ﴿فقد كذب الكافرون﴾ فهو محمول على أنه تفسير لا قرآن، وفي هذه القراءة دليل[2] بين على أن الخطاب لجميع الناس.

وقرأ ابن جريج ﴿فسوف تكون﴾ بتاء التأنيث؛ أي: فسوف تكون العاقبة، وقرأ الجمهور: ﴿لِزَامًا﴾ بكسر اللام، وقرأ[3] المنهال وأبان بن تغلب وأبو السماك بفتحها مصدراً، تقول: لزم لزوماً ولزاماً مثل ثبت ثبوتاً وثباتاً، وأنشد أبو عبيدة على كسر اللام لصخر الغي:

فَإِمَّا يَنْجُ مِنْ حَتْفِ أَرْضٍ ... فَقَدْ لَقِيَا حُتُوفَهُمَا لِزَامَا

ونقل ابن خالويه عن أبي السماك أنه قرأ: ﴿لزام﴾ على وزن حذام، جعله مصدراً معدولاً عن اللزمة، كفجار معدول عن الفجرة.

فائدة: قال الإمام الراغب[4]: الإنسان في هذه الدار الدنيا كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الناس سفر، والدار دار ممر، لا دار مقر، وبطن أمه مبدأ سفره، والآخرة مقصده، وزمان حياته مقدار مسافته، وسنوه منازله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطاه، ويسار به سير السفينة براكبها، كما قال الشاعر:

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيًا ... أَخَا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهُوَ لاَ يَدْرِيْ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

وقد دعي إلى دار السلام، لكن لما كان الطريق إليها مشكلة مظلمة جعل الله لنا من العقل الذي ركبه فينا، وكتبه التي أنزلها علينا نوراً هادياً، ومن عبادته التي كتبها علينا، وأمرنا بها حصناً واقياً، فمن قال: هذه الطاعات جعلها الله عذاباً علينا من غير تأويل فقد كفر، فإن أول مراده بالتعب فلا يكفر، ولو قال: لو لم يفرض الله تعالى علينا كان خيراً لنا بلا تأويل فقد كفر؛ لأن الخير فميا اختاره الله، إلا أن يُؤوِّل ويريد بالخير الأهون والأسهل. نسأل الله تعالى أن يسهلها علينا في الباطن والظاهر، والأول والآخر بمنّه وكرمه، وجوده وإحسانه، إنه خير مسؤول وأفضل مأمول.

الإعراب

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائح المشركين. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلقان بـ﴿يعبدون﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَنفَعُهُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَنفَعُهُمْ﴾. ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ظَهِيرًا﴾. ﴿ظَهِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَعْبُدُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حال رسوله ﷺ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿مُبَشِّرًا﴾: حال من ضمير المفعول. ﴿وَنَذِيرًا﴾: معطوف عليه، والتقدير: أي: وما أرسلناك في حال من الأحوال إلاّ حال كونك

مبشراً ونذيراً. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول أول. ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرٍ﴾؛ لأنه كان في الأصل صفة لـ﴿أَجْرٍ﴾ قدمت عليه. ﴿مِنْ﴾: زائدة ﴿أَجْرٍ﴾: مفعول ثان لسأل، وجملة سأل في محل النصب مقول القول. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من ضمير المخاطبين. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَتَّخِذَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: في محل المفعول الثاني لـ﴿يَتَّخِذَ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول أول له، وجملة ﴿يَتَّخِذَ﴾ في تأويل منصوب على المفعولية لـ﴿شَآءَ﴾، تقديره: إلا من شاء اتخاذه سبيلاً إلى ربه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ﴾، وهذه الجملة متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾. ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿توكل﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة أولى لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾. ﴿لَا يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَسَبِّحْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿توكل﴾. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: حالة كونك متلبساً بحمده. ﴿وَكَفَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كفى﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: الباء زائدة في فاعل ﴿كفى﴾، والهاء ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه فاعل ﴿كفى﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿توكل﴾، أو مستأنفة. ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾. ﴿خَبِيرًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كفىٰ﴾، أو حال منه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾، أو نعت، أو بدل من قوله: ﴿بِهِۦ﴾، أو مبتدأ خبره ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآتي. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف ومضاف إليه صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول معطوف على ﴿خَلَقَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: بالرفع، في إعرابه أوجه: أحدها أنه خبر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الرحمن، أو بدل من الضميرفي ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، أو مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ على رأي الأخفش، أو صفة لـ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إذا قلنا إنه مرفوع، وأما على قراءة زيد بن علي بالجر، فيتعين أن يكون نعتاً لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾. ﴿فَسْـَٔلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته من الخلق والاستواء، وأردت بيان تفاصيله.. فأقول لك: ﴿اسأل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿بِهِۦ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر بمعنى عن، ﴿والهاء﴾: ضمير الغائب عائد على ما ذكر من الخلق والاستواء، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: فاسأل عن تفاصيل ما ذكر متعلق بـ﴿اسأل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿اسأل﴾. ﴿خَبِيرًا﴾: مفعول أول لـ﴿اسأل﴾؛ أي: فاسأل رباً خبيراً عن تفاصيله، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وفي المقام أوجه آخر من الإعراب على اختلاف تفاسيره، فأجر عليه تلك الأوجه بحسب المعنى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾ على كونها مقولاً له، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: زائدة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: مبتدأ مؤخر، أو بالعكس، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَنَسْجُدُ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري ﴿نسجد﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على المتكلمين ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نسجد﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿تَأْمُرُنَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد و ﴿نا﴾: مفعول به، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لما تأمرنا السجود له، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: نسجد لأجل أمرك إيانا. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾: فعل ماض ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على القول المذكور، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب إذا لا محل لها من الإعراب.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض بمعنى أوجد، يتعدى لمفعول واحد، وفاعله ضمير مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿بُرُوجًا﴾: مفعول به. ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به. ﴿سِرَٰجًا﴾: مفعول ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَقَمَرًا﴾: معطوف على ﴿سِرَٰجًا﴾. ﴿مُّنِيرًا﴾: صفة ﴿قمرا﴾. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَبَارَكَ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة صلة

الموصول. ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول أول.. ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾. ﴿خِلۡفَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى صير، أو حال من المفعول به إن كان بمعنى خلق، وأفرده لأن المعنى: يخلف أحدهما الآخر، فلا يتحقق هذا إلا منهما. قيل: ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: ذوي خلفة. ﴿لِّمَنۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿خِلۡفَةً﴾. ﴿أَرَادَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادَ﴾؛ أي: لمن أراد تذكرة. ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أَرَادَ﴾ الأول.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان الأوصاف التي تميز بها عباد الرحمن المخلصون. ﴿يَمۡشُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿يَمۡشُونَ﴾. ﴿هَوۡنٗا﴾: إما مصدر واقع موقع الحال من فاعل ﴿يَمۡشُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم هينين لينين، أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: مشياً مطلقاً. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿سَلَٰمٗا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً سلاماً، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿يَمۡشُونَ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول على كونه خبر المبتدأ. ﴿يَبِيتُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، والواو: اسمها. ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿سُجَّدٗا﴾. ﴿سُجَّدٗا﴾: خبر ﴿يَبِيتُونَ﴾، والجملة

صلة الموصول. ﴿وَقِيَـٰمًا﴾: معطوف على ﴿سُجَّدًا﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول أيضاً. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول يقولون: ﴿ٱصْرِفْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله. ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصْرِفْ﴾. ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على العذاب، وجملة ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول على كونها معللة لقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿سَآءَتْ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر مبهم مفسر بنكرة. ﴿مُسْتَقَرًّا﴾: تمييز لفاعل ﴿سَآءَتْ﴾. ﴿وَمُقَامًا﴾: معطوف عليه، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، وهو مبتدأ، خبره جملة ﴿سَآءَتْ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ويجوز أن تكون ﴿سَآءَتْ﴾ بمعنى أحزنت، فلا تكون حينئذ من أفعال الذم، كما مر في مبحث التفسير.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع معطوف على الموصول الأول. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾، وجملة ﴿إِذَآ﴾ صلة الموصول. ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الإنفاق. ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿قَوَامًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿قَوَامًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: وكان انفاقهم قواماً كائناً بين ذلك. قال الزمخشري: ويجوز أن

يكون المنصوبان خبرين لـ﴿كَانَ﴾، أعني ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ و﴿قَوَامًا﴾، وأن يكون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرفاً لغواً متعلق بـ﴿كَانَ﴾، و﴿قَوَامًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وأن يكون الظرف خبراً، و﴿قَوَامًا﴾: حالاً مؤكدة، وجملة ﴿كَانَ﴾ إما معطوفة على جملة الصلة، أو حال من واو ﴿يُسْرِفُوا﴾.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على الموصول الأول. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَعَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به. ﴿آخَرَ﴾: صفة له. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿الَّتِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿النَّفْسَ﴾. ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: حرمها الله. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿يَقْتُلُونَ﴾، أو بمحذوف حال، فالاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: إلا متلبسين بالحق. ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَقْتُلُونَ﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿يَلْقَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواب شرط لها. ﴿أَثَامًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿يُضَاعَفْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة بدل من ﴿يَلْقَ﴾ بدل كل من كل؛ لأن مضاعفة العذاب نفس لقي الآثام. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿يُضَاعَفْ﴾. ﴿الْعَذَابُ﴾: نائب فاعل. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يُضَاعَفْ﴾ أيضاً. ﴿وَيَخْلُدْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ معطوف على ﴿يُضَاعَفْ﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يخلد﴾. ﴿مُهَانًا﴾: حال من فاعل ﴿يخلد﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، فهو مستثنى متصل من فاعل ﴿يَلْقَ﴾. ﴿تَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾: معطوفان على ﴿تَابَ﴾. ﴿عَمَلًا﴾: مفعول مطلق أو مفعول به. ﴿صَٰلِحًا﴾: صفة له. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية جرياً على القاعدة المطردة من أن الفاء بعد الاستثناء للتعليل. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿حَسَنَٰتٍۗ﴾: مفعول ثان، أو منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعللية، وتلك اللام متعلقة بمعلول محذوف، تقديره: وإنما قلنا: إلا من تاب لتبديل الله سيئاتهم إلخ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿كَانَ﴾ معترضة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو اعتراضية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب. ﴿تَابَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، أو مطلق معطوف على ﴿تَابَ﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاء رابطة الجواب ﴿إنه﴾ ناصب واسمه. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق به. ﴿مَتَابًا﴾: مفعول مطلق لأنه مصدر ميمي، وجملة يتوب في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معترضة أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، معطوف على الموصول الأول. ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿وإذا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَرُّوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: متعلق بـ﴿مَرُّوا۟﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿مَرُّوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿كِرَامًا﴾: حال من فاعل ﴿مَرُّوا۟﴾، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ذُكِّرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذُكِّرُوا۟﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به. ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: حالان من فاعل ﴿يَخِرُّوا۟﴾، جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿هَبْ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر. ﴿لَنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾: معطوف على ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾. ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: مفعول به لـ﴿هَبْ﴾. ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: حال من ﴿إِمَامًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿إِمَامًا﴾: مفعول ثان لـ﴿اجعلنا﴾، وجملة ﴿اجعلنا﴾ معطوفة على جملة ﴿هَبْ لَنَا﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿ما﴾: مصدرية،

وجملة ﴿صَبَرُواْ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب صبرهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿صَبَرُواْ﴾، وجملة ﴿يُجْزَوْنَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو الجملة خبر ﴿عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ كما مرت الإشارة إليه. ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يُجْزَوْنَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ما بعده. ﴿تَحِيَّةً﴾: مفعول ثان لـ﴿يلقون﴾. ﴿وَسَلَٰمًا﴾: معطوف عليه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾.

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾: حال من واو ﴿يُجْزَوْنَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَۚ﴾. ﴿حَسُنَتۡ﴾: فعل ماض من أفعال المدح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً مبهم مفسر بما بعده. ﴿مُسۡتَقَرّٗا﴾: تمييز لفاعل ﴿حسن﴾. ﴿وَمُقَامٗا﴾: معطوف عليه، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي يعود على الغرفة، وهو مبتدأ خبره جملة ﴿حَسُنَتۡ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل النصب على المفعولية المطلقة. ﴿يَعۡبَؤُاْ﴾: فعل مضارع. ﴿بِكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿رَبِّي﴾: فاعل؛ أي: أي عبء يعبأ بكم ربي، أو ﴿ما﴾ نافية، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿لَوۡلَا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿دُعَآؤُكُمۡۖ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف وجوباً تقديره: لولا دعاؤكم موجود، وجواب ﴿لَوۡلَا﴾ معلوم مما قبلها تقديره: لولا دعاؤكم موجود ما يعبأ بكم ربي، وجملة ﴿لَوۡلَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿فَقَدۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة لمحذوف تقديره: فكيف يعبأ بكم ربي وقد كذبتم، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلۡ﴾، وصحّ عطفها؛ لأنها بمعنى النفي؛ لأن الاستفهام فيها إنكاري. ﴿فَقَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير المخاطبين في قوله: فكيف يعبأ بكم، أو الفاء عاطفة على جملة ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ

يكن﴾، أو الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه لا يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم، وأردتم بيان حالكم ومآل أمركم.. فأقول لكم: ﴿قد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على العذاب. ﴿لِزَامًا﴾: خبر ﴿يَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ معطوفة على جملة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ظَهِيرًا﴾ الظهير والمظاهر: المعاون، فهو يعاون الشيطان على ربه؛ أي: على رسوله وإطفاء نوره بالعداوة، أو المعنى: هيناً مهيناً، لا وقع له عند الله ولا قدر، من قولهم: ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك، فيكون كقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾، اهـ «بيضاوي». ومنه قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾؛ أي: هيناً. وقيل: إن المعنى: وكان الكافر على ربه الذي يعبده - وهو الصنم - قوياً غالباً يعمل به ما يشاء؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ولا نفع، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ والمعنى: أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله ﷺ، أو على دينه. والمراد بالكافر الجنس، ولا ينافيه كون سبب النزول كافراً معيناً كما قيل: إنه أبو جهل، اهـ «شوكاني».

﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾: من التبشير، والتبشير: إخبار فيه سرور. ﴿وَنَذِيرًا﴾ والإنذار: إخبار فيه تخويف، واقتصر على صيغة المبالغة في الإنذار لتخصصه بالكافرين إذ الكلام فيهم، والإنذار الكامل لهم، ولو قيل: إن المبالغة باعتبار الكم لشموله للعصاة جاز، اهـ «شهاب» باختصار.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ والأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: نزهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بأوصاف الكمال، طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه، اهـ «بيضاوي».

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ يقال: كفى بالعلم جمالاً؛ أي: حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره.

﴿خَبِيرًا﴾ والخبير بالشيء: العليم بظاهره وباطنه وبكل ما يتصل به. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ والنفور: الإنزعاج عن الشيء والتباعد عنه. ﴿بُرُوجًا﴾؛ أي: طرقاً ومنازل للسبعة السيارة، سميت بروجاً؛ لاستنارتها وحسنها وضوئها، والأبرج الواسع ما بين الحاجبين. ﴿سِرَاجًا﴾ قال الراغب: السراج الزاهر بفتيلة، ويعبر به عن كل شيء مضيء، والمراد به ههنا الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ شبهت الشمس والكواكب الكبار بالسرج والمصابيح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ في الإنارة والإشراق ﴿قمرا﴾ سمي قمراً؛ لبياضه كما في «المختار».

﴿خِلْفَةً﴾؛ أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، فالخلفة مصدر هيئة. وعبارة «القرطبي»: قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء، فكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه، ويقال للمبطون: أصابه خلفة؛ أي: قيام وقعود يخلف هذا ذاك، ومنه خلفة النبات وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصعيد. وقال مجاهد: خلفة من الخلاف، هذا أبيض وهذا أسود، والأول أقوى. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان. ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة.

﴿هَوْنًا﴾ والهون: الرفق والسكينة والوقار، كما في «القاموس»، وهو مصدر وضع موضع الصفة للمبالغة، وتذلل الإنسان في نفسه بما لا يلحق به غضاضة، كما في «المفردات». وهين لين، وقد يخففان.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ الجهل: خلو النفس من العلم، واعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، اهـ «روح».

﴿يَبِيتُونَ﴾: من بات يبيت بيتوتة، والبيتوتة خلاف الظلول، وهي أن

يدركك الليل نمت أو لم تنم، ولذلك يقال: بات فلانٌ قلقاً؛ أي: مضطرباً.

﴿سُجَّدًا﴾: جمع ساجد، كركع جمع راكع. ﴿وَقِيَٰمًا﴾: جمع قائم كصيام جمع صائم. غراماً: أي: هلاكاً وخسراناً وعذاباً لازماً. وفي «المختار»: الغرام: الشر الدائم والعذاب، قال بشر بن أبي خازم:

وَيَوْمَ ٱلنِّسَارِ وَيَوْمَ ٱلْفِجَا ... رِ كَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَامَا

والنسار ماء لبني عامر، والفجار ماء لبني تميم، وقد جرت فيهما هاتان الواقعتان، وكانتا عذاباً على أهلهما وهلاكاً دائماً. قال الراغب: مأخوذ من قولهم: هو مغرم بالنساء؛ أي: يلازمهن ملازمة الغريم؛ أي: ملازمة من له الدين لغريمه؛ أي: من عليه الدين، فكلاهما غريم.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ الإسراف: مجاوزة الحد في الإنفاق.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ من الإقتار، والقتر والتقتر والإقتار هو التضييق الذي هو ضد الإسراف، وفي «المختار»: وقتر على عياله؛ أي: ضيق عليهم في النفقة، وبابه ضرب ودخل، وقتر تقتيراً وأقتر أيضاً ثلاث لغات.

﴿قَوَامًا﴾ - بفتح القاف وكسرها - وقد قرىء بهما، والقوام - بالفتح - العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، والقوام - بالكسر - ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى ما تقام به الحاجة لا يزيد عنها ولا ينقص.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ الزنا: وطء المرأة من غير عقد شرعي، أو ملك يمين كما مر، اهـ روح.

﴿أَثَامًا﴾ الآثام كالوبال والنكال وزناً ومعنى، وجزاء الإثم الذي هو الذنب نفسه، قال الشاعر:

جَزَىٰ ٱللَّهُ ٱبْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَىٰ ... عُقُوقاً وَٱلْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ

وفي «المختار»: أثمه الله في كذا بالقصر يأثمه بضم الثاء وكسرها أثاما عده عليه إثماً فهو مأثوم. وقال الفراء: أثمه الله يأثمه إثماً وأثاماً جازاه جزاء الإثم فهو مأثوم؛ أي: مجزى جزاء إثمه.

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قال الراغب: التبديل جعل الشيء مكان آخر، وهو أعم من العوض، فإن العوض أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل يقال للتغيير وإن لم تأت ببدله، اهـ «روح».

﴿مَتَابًا﴾ قال الراغب: متاباً مصدر ميمي؛ أي: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل، اهـ.

﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ والزور: الكذب، وأصله تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. وقال الراغب: الأزور المائل الزور؛ أي: الصدر. وقيل للكذب زور؛ لكونه مائلاً عن جهته.

﴿بِٱللَّغْوِ﴾ وقال الراغب: اللغو من الكلام ما لا يعتد به، هو يعد ذلاقه روية وفكرٍ فيجري مجرى اللغا، وهو صوت العصافير نحوها من الطيور ﴿كِرَامًا﴾: جمع كريم، يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه. قال الراغب: الكرم إذا وصف الله به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه.

﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا﴾ يقال: خر إذا سقط سقوطاً يسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو. ﴿صُمًّا﴾: جمع أصم، وهو فاقد حاسة السمع. ﴿وَعُمْيَانًا﴾: جمع أعمى، وهو فاقد حاسة البصر. ﴿هَبْ لَنَا﴾: وهو أمر من وهب يهب وهباً وهبة، والهبة ضابطها أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، ويوصف الله بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه.

﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾: جمع زوج، يقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج، وأما زوجة فلغة رديئة كما في «المفردات».

﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾: جمع ذرية، أصلها صغار الأولاد، ثم صار عرفاً في الكبار أيضاً. قال في «القاموس»: ذرأ الشيء كثره، ومنه الذرية ـ مثلثة ـ لنسل الثقلين.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿هَبْ﴾، وهي إما من القرار ومعناه أن يصادف قلبه من يرضاه، فتقر عينه عن النظر إلى غيره، ولا تطمح إلى ما فوقه، وإما من القر بالضم؛ وهو البرد، والعرب تتأذى من الحر، وتستريح إلى البرد، فقرور العين على هذا يكون كناية عن الفرح والسرور فإن دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حار، فالمراد بالقرور المسؤول تفضيلهم بالفضائل الدينية، لا بالمال والجاه والجمال ونحوها، اهـ «روح».

﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ والإمام المؤتم به إنساناً كان يقتدى بقوله وفعله، أو كتاباً، أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً، كما في «المفردات» وفي صيغته أربعة أوجه:

الأول: أنه مصدر مثل قيام وصيام، فلم يجمع لذلك، والتقدير هنا: ذوي إمام.

والثاني: أنه جمع إمامة مثل قلادة وقلاد.

والثالث: أنه جمع آم من أم يؤم.

والرابع: أنه واحد أكتفي به عن أئمة، كما قال تعالى: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، اهـ «إعراب القرآن».

﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ قال القرطبي: الغرفة الدرجة الرفيعة؛ وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا، حكاه ابن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة، اهـ. والغرف: رفع الشيء أو تناوله، يقال: غرفت الماء والمرق، وهي هنا اسم جنس أريد به الجمع؛ أي: يثابون أعلى منازل الجنة.

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ يقرأ بالتشديد، ومعناه يعطون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، وبالتخفيف، ومعناه: يجدون ويصادفون، ففي «المصباح»: لقيته ألقاه، من باب تعب لقيا، والأصل فعول، ولقى بالضم مع القصر، ولِقاً بالكسر مع المد والقصر، وكل شيء استقبل شيئاً أو صادفه فقد لقيه، اهـ.

﴿تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ والفرق بين التحية والسلام أن التحية الدعاء بالتعمير، والسلام الدعاء بالسلامة من الآفات، اهـ «زكريا». وعبارة «الشهاب»: قوله: الدعاء بالتعمير؛ أي: طول العمر والبقاء؛ لأن التحية أصل معناها قول حياك الله وأبقاك، وهي مشتقة من الحياة، والمراد من الدعاء به التكريم وإلقاء السرور، وإلا فهو متحقق لهم، اهـ. وعبارة «أبي السعود»: معنى يلقون فيها تحية وسلاماً؛ أي: تحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات، اهـ.

﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ وفي المختار: عبأ الطيب والمتاع هيأه، وبابه قطع، وعبأه تعبئة مثله، والعبء - بالكسر - الحمل، وجمعه أعباء، وما عبأ به؛ أي: ما بالى به، وبابه قطع»، اهـ.

﴿لِزَامًا﴾ مصدر لازم الرباعي كقاتل قتالاً، والمراد به هنا اسم الفاعل، فهو مصدر أقيم مقام الفاعل، كما أقيم العدل مقام العادل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: طباق السلب في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وسماها القدامي استعارة تخييلية، فالمستعار الاستواء، والمستعار منه كل جسم مستو، والمستعار له الحق عز وجل ليتخيل السامع عند سماع هذه اللفظة ملكاً فرغ من ترتيب

ممالكه، وتشييد ملكه، وجميع ما تحتاج إليه رعاياه، وجنده من عمارة بلاده، وتدبير أحوال عباده، استوى على سرير ملكه استيلاء عظمة، فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هو متخيله من أمر المملكة الدنيوية عند سماع هذا الكلام، ولهذا لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الإخبار بالفراغ من خلق السموات والأرض وما بينهما، وإن لم يكن ثم سرير منصوب، ولا جلوس محسوس، ولا استواء معقول لنا.

فائدة: في الاستواء مذهبان:

أحدهما: مذهب السلف، وهو لا يفسر الاستواء، بل يقول: إنه استواء يليق به سبحانه، لا نكيفه، ولا نمثله، وهو الأسلم الأعلم.

وثانيهما: مذهب الخلف، وهو يفسره بالاستيلاء عليه بالتصرف فيه، وفي سائر المخلوقات.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بُرُوجًا﴾؛ لأنها في الأصل القصور العالية، استعيرت لمنازل الكواكب السيارة بجامع الارتفاع في كل.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

ومنها: تقديم السجود على القيام في قوله: ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾؛ لرعاية الفاصلة مع أن السجود مؤخر عنه طبعاً، وليعلم أن القيام في الصلاة مقدم مع أن السجدة أحق بالتقديم.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ لإفادة التهويل.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

ومنها: الاستعارة البديعة في قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ لأن

المراد أنهم لم يتغافلوا من قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر، وهذا من أحسن الاستعارات. وفيها التقريع والتعريض للكافرين بأنهم صم عمي، لا ينتفعون بما يقرؤون، ولا يعتبرون بما يشاهدون، ولا يتجاوز آذانهم ما يسمعون.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿قُـرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ فإنه كناية عن الفرحة والمسرة، كما أن ﴿ٱلۡغُـرۡفَـةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة، وفيها أيضاً نكتتان:

الأولى: تنكير ﴿أَعۡيُنٖ﴾، وإنما جنح إلى تنكيره لأجل تنكير ﴿قُـرَّةَ﴾، والمضاف لا يمكن تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه؛ ليكون السرور غير متناه ولا محدود.

الثانية: تقليل ﴿أَعۡيُنٖ﴾؛ أي: جمعها جمع قلة، وإنما قللها؛ لأن أعين المتقين قليلة بالنسبة إلى غيرهم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار في قوله: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مقابل قوله في أهل النار ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الأحكام

اشتملت هذه السورة على عدة مقاصد:

١. إثبات النبوة والوحدانية والنعي على عبدة الأوثان والأصنام، وإثبات البعث والنشور وجزاء المكذبين بذاك، مع ذكر شبهاتهم التي قالوها في النبي ﷺ وفي القرآن، ثم تفنيدها.

٢. قصص بعض الأنبياء السالفين، وتكذيب أممهم لهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٣. العجائب الكونية من مد الظل، وجعل الليل لباسا، وجعل النهار معاشاً، وإرسال الرياح مبشرات بالأمطار، ومروج البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وجعل البروج في السماء، وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً.

٤. الأخلاق والآداب من قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ...﴾ إلى آخر السورة[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وقد تم تفسير سورة الفرقان بحمده وعونه في الساعة الخامسة من ليلة الجمعة المباركة من شهور سنة ١٤١٣/٢/٢٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية كلها عند الجمهور، إلا أربع آيات من آخرها نزلت بالمدينة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ إلى آخر السورة.

وهي[1] مئتان وسبع وعشرون آية، وألف ومئتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمس مئة واثنان وأربعون حرفاً.

التسمية: واسمها سورة الشعراء، سميت باسم بعضها على عادته سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه يسمي كل سورة ببعض ما فيها من الكلمات.

فضلها: وورد في فضلها أحاديث[2]:

منها: ما أخرجه القرطبي في تفسيره عن البراء ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصَّل، ما قرأهن نبي قبلي».

وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصَّل نافلة». قال ابن كثير في تفسيره: ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها بسورة الجمعة.

وعن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء[3].. كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وبعدد من كذب بعيسى، وصدق بمحمد» صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين. ولكنه ضعيف.

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) البيضاوي.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١. أن فيها بسطاً وتفصيلاً لبعض ما ذكر في موضوعات سالفتها.

٢. أن كلتيهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم.

٣. أن كلتيهما ختمت بإيعاد المكذبين.

وقال أبو حيان[2]: ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها: أنه تعالى قال في آخر السابقة: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ففيه إيعاد المكذبين، وقال في أول هذه إثر إخباره بتكذيبهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⦗٦⦘﴾، وفيه أيضاً إيعاد الكفرة المكذبين.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «الناسخ والمنسوخ»: جميع[3] هذه السورة محكم إلا قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ⦗٢٢٤⦘﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ⦗٢٢٦⦘﴾، ثم نسخ في شعراء المسلمين، فاستثناهم بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ⦗٢٢٧⦘﴾ الآية، فصارت ناسخة للآيات التي قبلها، ومن الذكر ههنا الشعر في الطاعة انتهى.

والله أعلم

* * *

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأۡ
نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا
كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ (٥) فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٦) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ
كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ
رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمۡ عَلَيَّ
ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥) فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ
إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦) أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ
عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢١) وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٦)
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ
(٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ (٣٠)
قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ
بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم
بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأۡتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٖ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر سوء حال المشركين، وشدة عنادهم، وقبيح

لجاجهم.. سلّى رسوله ﷺ على ذلك بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، وأنه ليس بالأوحد في الأنبياء المكذبين، فقد كذّب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات وعظيم المعجزات، ولم تغن الآيات والنذر، فحاق بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون، وأخذهم الله بذنوبهم، وأغرقهم في اليم جزاء اجتراحهم للسيئات، وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ الحروف المقطعة[١] في أوائل السور يجمعها قولك: سر حصين قطع كلامه، وأول ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف: الله أعلم بمراده؛ لأنها من الأسرار الغامضة كما قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: إن لكل كتاب سراً، وسرّ القرآن في المقطعات.

في «رياض الأذكار»: والمعاني المتعلقة بالأسرار والحقائق لا يعلمها إلا الله ومن أطلعه الله عليها من الراسخين في العلم، وهم العلماء بالله، فلا معنى للبحث عن مرتبة ليس للسان حظٌّ منها، ولا للقلم نصيب، وقيل: أقسم الله تعالى به.

وقال أهل الإشارة[٢]: هو إشارة إلى طاء طَوْله تعالى في كمال عظمته، وإلى سين سلامته عن كل عيب ونقص، وهو منفرد في تنزهه عنه، وإلى ميم مجده في عزة كرم لا نهاية لها، وإشارة أيضاً إلى طاء طهارة قلب نبيه محمد ﷺ عن تعلقات الكونين، وإلى سين سيادته على الأنبياء والمرسلين، وإلى ميم مشاهدته لجمال رب العالمين، وإشارة أيضاً إلى طاء طيران الطائرين بالله، وإلى سين سير السائرين إلى الله، وإلى ميم مشي الماشين لله مشي العبودية، لا مشي التفخر والتكبر.

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف إن كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر، أو على أنه مبتدأ خبره محذوف، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير: اذكر، أو اقرأ. وأما إن كان مسروداً على نمط التعديد بطريق التحدي فلا محل له من الإعراب.

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وأبو بكر والمفضّل وحمزة والكسائي وخلف وأبان[1]: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ و﴿طس﴾ النمل بإمالة الطاء فيهما، وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ الباقون بفتح الطاء مشبعاً، وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإدغام النون من هجاء سين ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ في الميم، وقرأ الأعمش وحمزة بإظهارها، قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، قال النحاس: وحكى الزجاج في كتابه فيما يجري وما لا يجري: أنه يجوز أن يقال: ﴿طاسين ميم﴾ بفتح النون وضم الميم، كما يقال: هذا معدي كرب، وقرأ عيسى ويروى عن نافع بكسر الميم على البناء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿ط س م﴾ هكذا حروفاً مقطعة، فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر.

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، والإشارة به إلى السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ خبر المبتدأ؛ أي[2]: هذه السورة التي نحن بصددها آيات القرآن الظاهر إعجازه، وصحة أنه كلام الله سبحانه، ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بمثله، ولما عجزوا عن المعارضة، فهو من أبان بمعنى بان أوظهر، أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها؛ أي: هذه آيات القرآن البيّن الواضح الذي يفصل بين الحق والباطل، والغيّ والرشاد.

و﴿لعل﴾ في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ للاستفهام[3] الذ يراد به الإنكار؛

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أي: أقاتل أنت نفسك يا محمد أسفاً وحزناً على ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بهذا الكتاب المبين. وقال العسكري: إنها للنهي، والمعنى على هذا: لا تبخع نفسك يا محمد ولا تهلكها أسى وحسرة على عدم إيمانهم.

وقيل: إنها على معناها الأصلي؛ أي: للإشفاق؛ أي: الخوف، والله تعالى منزه عنه، فهو بالنسبة إلى النبي ﷺ، ولكن الإشفاق هنا بمعنى الأمر. والبخع في الأصل أن يبلغ بالذبح النخاع ـ بالنون كما في «القاموس» ـ وهو عرق مستبطن في فقار القفا، والمعنى عليه: أشفق يا محمد على نفسك، وخف أن تقتلها بالحزن بلا فائدة، وهو حث على ترك التأسف، وتصبير وتسلية له ﷺ.

وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مفعول له بحذف المضاف؛ أي: خيفة أن لا يؤمن قريش بذلك الكتاب المبين، فإن الخوف والحزن لا ينفع في إيمان من سبق حكم الله بعدم إيمانه، كما أن الكتاب المبين لم ينفع في إيمانه، فلا تهتمّ فقد بلّغت. والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الأسف لما يراه من إعراضهم.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى تأديب النبي ﷺ؛ لئلا يكون مفرطاً في الرحمة والشفقة على الأمة، فإنه يؤدي إلى الركون إليهم، وأن التفريط في ذلك يؤدي إلى الفظاظة وغلظ القلب، بل يكون مع الله مع المقبل والمدبر.

وقرأ قتادة وزيد بن علي(١): ﴿باخع نفسك﴾ على الإضافة، وقرأ الباقون بالقطع. ونحو الآية قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

ثم بيّن(٢): أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى، فقال: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم، أي: لو شئنا إيمانهم، وتعلقت به إرادتنا أزلاً ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على مشركي قومك ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دالة على كمال قدرتنا، ملجئة لهم إلى الإيمان كإنزال الملائكة، أو بليّة قاسرة عليه كآية من آيات القيامة، ولكن سبق

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

القضاء بأنّا لا ننزل ذلك ﴿فَظَلَّتْ﴾؛ أي: فصارت؛ أي: فتظل ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾؛ أي: رقابهم ﴿لَهَا﴾؛ أي: لتلك الآية ﴿خَٰضِعِينَ﴾؛ أي: منقادين، فلا يكون أحد منهم يميل عنقه إلى معصية الله تعالى، ولكن لم نفعل؛ لأنه لا عبرة بالإيمان المبني على القسر والإلجاء كالإيمان يوم القيامة. وأصله: فظلوا لها خاضعين، فإن الخضوع صفة أصحاب الأعناق حقيقة، فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وترك الخبر على حاله. وفيه بيان أن الإيمان والمعرفة موهبة خاصة خارجة عن اكتساب الخلق في الحقيقة، فإذا حصلت الموهبة نفع الإنذار والتبشير، وإلاّ فلا، فليبك على نفسه من جبل على الشقاوة.

وقرأ أبو رزين وأبو المتوكل وأبو عمرو في رواية هارون عنه[1]: ﴿إن يشأ ينزل﴾ على الغيبة؛ أي: إن يشأ الله ينزل، وفي بعض المصاحف: ﴿لو شئنا لأنزلنا﴾ وقرأ الجمهور: ﴿فَظَلَّتْ﴾ ماضياً بمعنى المستقبل؛ لأنه معطوف على ﴿نُنَزِّلْ﴾ وقرأ طلحة ﴿فتظلل﴾.

وقال مجاهد وابن زيد والأخفش: معنى ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾: جماعاتهم، يقال: جاءني عنق من الناس؛ أي: جماعة، وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدّموهم شبّهوا بالأعناق، وقيل: أريد به الجارحة، فقال ابن عيسى: هو حينئذ على حذف مضاف؛ أي: أصحاب الأعناق حيث قال: ﴿خَٰضِعِينَ﴾، ولم يقل: خاضعة، وقرأ عيسى وابن أبي عبلة: ﴿خاضعة﴾.

ومعنى الآية: أي لو شئنا أن ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان وتقسرهم عليه، كما نتقنا الجبل فوق قوم موسى حتى صار كالظلة فصار جماعاتهم خاضعين منقادين لها كرها.. لفعلنا، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان اختيارياً لا قسرياً، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

ومن ثم نفذ قدرنا، ومضت حكمتنا، وقامت حجتنا على الخلق بإرسال

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

والخلاصة: أن القرآن، وإن بلغ في البيان الغاية، غير موصل لهم إلى الإيمان، فلا تبالغ في الأسى والحزن، فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن يقتل نفسه، ثم لا ينتفع بذلك، فكما أن الكتاب على وضوحه لم يفدهم شيئاً فحزنك عليهم لا يجدي نفعاً، وقد كان في مقدورنا أن نلجئهم إلى الإيمان إلجاء، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان طوعاً لا كرهاً، ومن جرّاء هذا أرسلنا رسلنا بالعظات والزواجر، وأنزلنا الكتب لتهديهم إلى سواء السبيل، لكنهم ضلوا وأضلوا، وما ربك بظلام للعبيد.

ثم بين شدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما هم عليه من الكفر والضلال بغير الآيات الملجئة تأكيداً لصرف رسول الله ﷺ عن الحرص على إسلامهم، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾؛ أي: أهل مكة وما يجيئهم ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾: ﴿من﴾: زائدة لتأكيد العموم، وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ابتدائية؛ أي: بوحيه إلى نبيه، دل[1] هذا الاسم الجليل على أن إتيان الذكر من آثار رحمة الله تعالى على عباده؛ أي: وما يأتي أهل مكة تذكير وموعظة من المواعظ القرآنية مبتدأ مجيئه من الرحمَن ﴿مُحْدَثٍ﴾؛ أي: مجدّد إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير، فلا يلزم حدوث القرآن؛ أي: فهو محدث التنزيل، وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول، ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: إلاّ جدّدوا إعراضاً عن ذلك الذكر، وعن الإيمان به، وإصراراً على ما كانوا عليه؛ أي[2]: وما يجدد الله سبحانه لهم بوحيه موعظة وتذكيراً إلاّ جدّدوا إعراضاً عنه، وكفراً به. والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، محله النصب على الحالية من مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ بإضمار قد، وبدونه على الخلاف المشهور في محله؛ أي: ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلاّ حال كونهم معرضين عنه.

وقد سبق نظير هذه الآية في سورة الأنبياء. فإن قلت: لم قال هناك ﴿مِّن

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.

ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾، وقال هنا ﴿مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾؟

قلت: غاير بينهما ليوافق كل ما في سياقه؛ لأنه ذكر هناك: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ لموافقة قوله بعد ذلك: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾، وقال هنا: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ليوافق قوله فيما بعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾؛ لأن الرحمٰن والرحيم من مادة واحدة، فهما أخوان، اهـ من «فتح الرحمٰن» بتصرف.

والمعنى: أي[1] وما يجيء هؤلاء المشركون الذين يكذبونك، ويجحدون ما أتيتهم به ذكر من عند ربك لتذكرهم به إلاّ أعرضوا عن استماعه، وتركوا إعمال الفكر فيه، ولم يوجهوا هممهم إلى تدبره وفهم أسراره ومغازيه، وما كان أحراهم بذلك، وهم أهل الذكن والفطنة، ولكن طمس الله على قلوبهم فأكثرهم لا يعقلون، وخلاصة ذلك أنه لا يجدّد لهم موعظة وتذكيراً إلاّ جدّدوا ما هو نقيض ذلك من إعراض وتكذيب واستهزاء.

ثم أكد إعراضهم بقوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ بالذكر عقب الإعراض، فالفاء للإفصاح؛ أي: جعلوه تارة سحرا، وأخرى شعراً، ومرة أساطير الأولين؛ أي[2]: فقد كذبوا بالذكر الذي جاءهم تكذيباً صريحاً، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض. وقيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب؛ لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله فقد كذبه، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح، والأول أولى، فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه، ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشد منه؛ وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشد منه؛ وهو الاستهزاء، كما يدل عليه قوله: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾ البتة من غير تخلف أصلاً، والفاء للتفريع؛ أي: لإعراضهم المؤدي إلى التكذيب المؤدّي إلى الاستهزاء يأتيهم ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ أي: أخبار[3] الذكر الذي كانوا يستهزئون به، ومآله وعواقبه من العقوبات العاجلة والآجلة التي بمشاهدتها يقفون

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

على حقيقة حال القرآن بأنه كان حقاً أو باطلاً، وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم قدره، أو يكذب فيستخف أمره، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء، وفيه تهويل له؛ لأن النبأ لا يطلق إلاّ على خبر خطير له وقع عظيم.

أي: فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذي أتاهم من عند الله تعالى، ثم انتقلوا من التكذيب إلى الاستهزاء، وسيحل بهم عاجل العذاب وآجله في الدنيا والآخرة، كما قال ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾، وقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وقصارى ذلك أنهم كذبوا بما جئتهم به من الحق، وأنه سيأتيهم لا محالة صدق ما كانوا يستهزئون به من قبل، بلا تدبر ولا تفكير في العاقبة.

وبعد أن بين أنهم أعرضوا عن الآيات المنزلة من عند ربهم.. ذكر أنهم أعرضوا عن الآيات التي يشاهدونها في الآفاق، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ الهمزة[1] فيه للإنكار التوبيخي، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أفعل المكذبون من قريش ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا، الداعية إلى الإقبال إلى ما أعرضوا ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: جنس ونوع وصنف ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام.

قال أهل التفسير: ﴿كَمْ﴾: خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية، والجمع بينها وبين ﴿كُلِّ﴾؛ لأن ﴿كُلِّ﴾ للإحاطة بجميع أزواج النبات، و﴿كَمْ﴾ لكثرة المحاط به من الأزواج. و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف تمييز، والكريم من كل شيء مرضيه ومَحْمُودُه، والمعنى: كثيراً من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها، وتخصيص النبات النافع بالذكر دون ما عداه من أصناف الضارّ، وإن

(١) روح البيان.

كان كل نبت متضمنا لفائدة وحكمة؛ لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معاً.

واعلم: أنه سبحانه كما أنبت من أرض الظاهر كل صنف ونوع من النبات الحسن الكريم، كذلك أنبت في أرض قلوب العارفين كل نبت من الإيمان والتوكل واليقين والإخلاص والأخلاق الكريمة، كما قال عليه السلام: «لا إله إلاّ الله ينبت الإيمان كما ينبت البقل»، قال أبو بكر بن طاهر: أكرم زوج من نبات الأرض آدم وحواء، فإنهما كانا سبباً في إظهار الرسل والأنبياء والأولياء والعارفين. اهـ. وقال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

والمعنى: أغفل هؤلاء المشركون وأصروا على ما هم عليه من الكفر بالله، وتكذيب رسوله، ولم يتأملوا في الأرض وكثرة ما فيها من أصناف النبات المختلفة الأشكال والألوان مما يدل على باهر القدرة وعظيم سلطان ذلك العلي الكبير؟!

والخلاصة: كيف اجترؤوا على مخالفة الرسول وتكذيب كتابه، وإلٰهه هو الذي خلق الأرض، وأنبت فيها الزرع والثمار والكروم على ضروب شتى وأشكال مختلفة تبهر الناظرين، وتسترعي أنظار الغافلين.

ثم بيّن أنهم قوم فقدوا وسائل الفكر، وعدموا التأمل والنظر في الأكوان، ومن ثم فهم جاحدون، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنبات المذكور، أو في كل واحد من تلك الأصناف ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها، وغاية وفور علمه، ونهاية سعة رحمته، موجبة للإيمان، زاجرة عن الكفر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم النبي ﷺ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مع ذلك؛ لغاية تماديهم في الكفر والضلال وانهماكهم في الغي والجهالة.

و﴿كَانَ﴾[1] صلة عند سيبويه؛ لأنه لو حمل على معنى ما كان أكثرهم في

---

(١) روح البيان.

علم الله وقضائه لتوهم كونهم معذورين في الكفر بحسب الظاهر، وبيان موجبات الإيمان من جهته تعالى يخالف ذلك.

قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم...﴾ الآية، ونظائره يدل على المعنى الثاني، ولا يلزم من ذلك المعذورية؛ لأنهم صرفوا اختياراً إلى جانب الكفر والمعصية، وكانوا في العلم الأزلي غير مؤمنين بحسب اختيارهم ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم؛ لأن منهم من سيؤمن.

والمعنى[1]: أنّ في ذلك الإنبات على هذه الأوضاع البديعة لدلالات لأولي الألباب على قدرة خالقه على البعث والنشور، فإن من أنبت الأرض بعد جدبها، وجعل فيها الحدائق الغنّاء والأشجار الفيحاء لن يعجزه أن ينشر فيها الخلائق من قبورهم، ويعيدهم سيرتهم الأولى، ولكن أكثر الناس غفلوا عن هذا، فجحدوا بها وكذبوا بالله ورسله وكتبه، وخالفوا أوامره، واجترحوا معاصيه، ولله درّ القائل:

تَأَمَّلْ فِيْ رِيَاضِ ٱلْوَرْدِ وَٱنْظُرْ   إِلَىٰ آثَارِ مَا صَنَعَ ٱلْمَلِيْكُ
عُيُوْنٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ   عَلَىٰ أَهْدَابِهَا ذَهَبٌ سَبِيْكُ
عَلَىٰ قُضُبِ ٱلزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ   بِأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكُ

والخلاصة: أن في هذا وأمثاله لآية عظيمة، وعبرة جليلة دالة على ما يجب الإيمان به، ولكن ما آمن أكثرهم مع موجبات الإيمان، بل تمادوا في الكفر والضلالة، وانهمكوا في الغي والضلالة، وفي هذا ما لا يخفى من تقبيح حالهم، وبيان سوء مآلهم.

ثم بشّره بنصره وتأييده وغلبته لأعدائه، وإظهاره عليهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يأخذهم بغتة. وقال في «كشف الأسرار»: يرحم المؤمنين الذين هم الأقل بعد الأكثر. وفي «التأويلات النجمية»: بعزته قهر الأعداء العتاة، وبرحمته ولطفه أدرك أولياءه بجذبات العناية. اهـ.

---

(١) المراغي.

والمعنى: أي وإن ربك أيها الرسول الكريم لهو الغالب على أمره، والقادر على كل ما يريد وسينتقم لك من هؤلاء المكذبين على تكذيبهم بك، وإشراكهم بي، وعبادتهم للأوثان والأصنام، وهو ذو الرحمة الواسعة بمن تاب من كفره ومعصيته، فلا يعاقبه على ما سلف من جرمه بعد توبته، بل يغفر له حوبته.

والخلاصة: أن ربك عزَّ كل شيء وقهره، ورحم خلقه، فلا يعجل بعقاب من عصاه، بل يؤجله وينظره لعله يرعوي عن غيه، فإن تمادى أخذه أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الآية كرّرها[١] في ثمانية مواضع: أولها في قصة موسى، ثم إبراهيم، ثم نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب، ثم في ذكر نبينا ﷺ، وإن لم يذكر صريحاً إشارة إلى أنه منتقم من أعدائه، ورحيم بأوليائه في كل زمان، وفي كل أمة من الأمم السالفة واللاحقة.

قصص موسى عليه السلام

وجملة قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ...﴾ إلخ مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء، والعامل في الظرف محذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة وقت ندائه تعالى وكلامه موسى؛ أي: ليلة رأي الشجرة والنار حين رجع من مدين، وذكرهم يا محمد بما جرى مع قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه، وحذّرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

و﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ مفسرة بمعنى: أي، والإتيان[٢]: المجيء بسهولة، والمعنى: وإذ قال ربك يا موسى ائت ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم، وكان بنو إسرائيل في ذلك الوقت ست مئة ألف وثلاثين ألفاً، ومدة استعبادهم أربع مئة سنة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، أو عطف بيان له، والاقتصار على القوم؛ للإيذان بشهرة أن

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) روح البيان.

فرعون أول داخل في الحكم.

والمعنى[1]: واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، وأمره له بالذهاب إلى أولئك القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي، والظالمين لبني إسرائيل باستعبادهم وذبح أبنائهم، قوم فرعون ذي الجبروت والطغيان والعتوّ والبهتان؛ ليكون لهم في ذلك عبرة، لو تذكروا فيرعووا عن غيهم، ويثوبوا إلى رشدهم حتى لا يحيق بهم ما حاق بأولئك المكذبين من قبلهم؛ إذ ابتلعهم اليمّ، وأغرقوا جميعاً، ولا شك أن الأمر بذكر الوقت إنما هو ذكر لما جرى فيه من القصة كما أشرنا إليه آنفاً.

ثم اتبع ذكر إرساله عليه السلام بإنذارهم وتسجيل الظلم عليهم، وتعجيب موسى من حالهم التي بلغت غاية الشناعة، ومن أمنهم العواقب، وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله تعالى، فقال: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه لموسى: ألا يتقي هؤلاء القوم ربهم، ويحذرون عاقبة بغيهم وكفرهم به. وهذا[2] استئناف لا محل له من الإعراب. و﴿أَلَاَ﴾: حرف تحضيض على الفعل؛ أعني: التقوى، أتبعه إرساله إليهم إنذاراً لهم، وتعجيباً من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان؛ أي: ألا يخافون الله، ويصرفون عن أنفسهم عقابهم بالإيمان والطاعة. وقيل: المعنى: قل لهم: ألا تتقون. وجاء بالياء التحتية؛ لأنهم غيبٌ وقت الخطاب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وشقيق بن سلمة وحماد بن سلمة وأبو قلابة وعبيد بن عمير وأبو حازم بتاء الخطاب على طريقة الالتفات إليهم إنكاراً وغضباً عليهم وإن لم يكونوا حاضرين؛ لأنه مبلغهم ذلك ومكافحهم، قال ابن عطية: معناه: قل لهم، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم، وأمرهم بالتقوى اهـ.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى إظهاراً لعجزه، وطلباً للمعونة، وهذا[1] استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا قال موسى؟ فقيل: قال موسى تضرعاً إلى الله تعالى يا ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ والخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ أي: أن ينكروا نبوتي وما أقول من أول الأمر. قال بعضهم: خوفه كان شفقة عليهم، وأصله يكذبونني، فحذفت ياء المتكلم استغناء بكسر نون الوقاية، ومثلها[2]: ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾، ﴿سَيَهْدِينِ﴾، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، ﴿كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، فهذه ثمان آيات أثبت الياء في جميعها يعقوب في الحالين.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ معطوفان على ﴿أَخَافُ﴾؛ أي: يضيق صدري لتكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة، واللسان: الجارحة وقوّتها. قال تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧﴾ يعني من قوة لساني، فإن العقدة لم تكن في الجارحة، وإنما كانت في قوّتها التي هي النطق بها كما في «المفردات»، والمراد هنا القوّة التي هي النطق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَيَضِيقُ﴾ و﴿لا ينطلق﴾ بالرفع فيهما عطفاً على ﴿أَخَافُ﴾، فالمعنى: أنه يفيد ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، أو على الاستئناف، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى وزيد بن علي وأبو حيوة وزائدة عن الأعمش ويعقوب بنصبهما عطفاً على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، فيكون التكذيب وما بعده يتعلق بالخوف، قال الفرّاء: كلا القراءتين له وجه، قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، وهذا بعيد اهـ. وحكى أبو عمرو الداني عن الأعرج أنه قرأ بنصب ﴿وَيَضِيقُ﴾ ورفع ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾، وعدم انطلاق اللسان هو بما يحصل من الخوف وضيق الصدر؛ لأن اللسان إذ

---

(١) روح البيان.

(٢) زاد المسير.

(٣) البحر المحيط.

ذاك يتلجلج، ولا يكاد يبين عن مقصود الإنسان. وقال ابن عطية: وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب لها ألفاظ محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق الصدر لم ينطلق اللسان.

ومعنى الآية: أي[١] قال موسى: رب إني أخاف تكذيبهم إياي، فيضيق صدري تأثراً منه، ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة، بل يتلجلج بسبب ذلك كما يرى كثيراً من ذوي اللسن والبلاغة إذا اشتدّ بهم الغمّ، وضاق منهم الصدر. تلجلجت ألسنتهم حتى لا تكاد تبين عن مقصدهم.

وفي هذا[٢]: تمهيد العذر في استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه، فإن ما ذكر ربما أوجب الإخلال بالدعوة، وعدم إلزام الحجة، ومن ثم قال: ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبريل ﴿إِلَىٰ﴾ أخي ﴿هَـٰرُونَ﴾ ليكون رسولاً مصاحباً لي في دعوة فرعون وقومه، فإنه أفصح مني لساناً، وكان هارون إذ ذاك بمصر، وموسى في المناجاة في الطور.

ثم ذكر سبباً آخر في الحاجة إلى طلب العون، وهو خوفه أن يقتل قبل تبليغ الرسالة، فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لقوم فرعون ﴿عَلَيَّ﴾؛ أي: بذمتي ﴿ذَنۢبٌ﴾؛ أي: جزاء ذنب وموجبه، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمراد به: قتل القبطي الذي هو خبّاز فرعون بالوكزة التي وكزها دفعاً عن القبطي، وإنما سماه ذنباً على زعمهم ﴿فَأَخَافُ﴾ إن أتيتهم وحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغي، فيفوت المقصود من الرسالة، وأما هارون فليس له هذا الذنب، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء.

قال بعضهم[٣]: ليس بعجب طريان خوف الطبيعة وصفات البشرية على الأنبياء، فالقلب ثابت على المعرفة. واعلم أن هذا وما قبله ليس تعللاً وتوقفاً من جانب موسى، وتركاً للمسارعة إلى الامتثال، بل هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقوعها، واستظهار في أمر الدعوة، وحقيقته: أن موسى عليه السلام أظهر التلوين من نفسه ليجد التمكين من ربه وقد أمنه الله، وأزال عنه كل كلفة حيث ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ارتدع عما تظن يا موسى، فإنهم لا يقدرون على قتلك به؛ لأني لا أسلطهم عليك، بل أسلطك عليهم ﴿فَاذْهَبَا﴾؛ أي: اذهب أنت والذي طلبت وهو هارون، فالخطاب إليهما على تغليب الحاضر، وفي ضمن هذا الجواب دليل على إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه؛ أي: اذهبا ولا تخافا من القبط حال كونكما متلبسين ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع التي هي دلائل القدرة، وحجة النبوة، وهو رمز إلى دفع ما يخافه ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، وأجراهما مجرى الجمع حيث قال: ﴿مَعَكُم﴾؛ لكون الاثنين أقل الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى وهارون وفرعون وقومه، فمع موسى وهارون بالنصر والعون، ومع فرعون بالقهر والكسر، أو لكون المراد هما مع بني إسرائيل. و﴿مَعَكُم﴾ خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾؛ خبر ثان لها، أو هو الخبر وحده، و﴿مَعَكُم﴾ ظرف لغو متعلق به، وحقيقة الاستماع طلب السمع بالإصغاء، وهو تعالى منزه عن ذلك، فاستعير للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات من غير إصغاء.

والمعنى: سامعون لما يجري بينكما وبينه، فأظهركما عليه. مثَّل حاله سبحانه بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يسمع ما يجري بينهم؛ ليمدّ الأولياء منهم، ويظهرهم على الأعداء مبالغة في الوعد بالإعانة، وجعل الكلام استعارة تمثيلية؛ لكون وجه الشبه هيئة منتزعة من عدة أمور، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فائت أنت وأخوك هارون فرعون اللعين؛ وهو[1] الوليد بن مصعب، وكنيته أبو العباس. وقيل: اسمه مغيث، وكنيته أبو مرّة. قيل: إنه عاش أربع مئة وستين سنة. وقيل فوق ذلك ﴿فَقُولَا لَهُ﴾؛ أي: لفرعون ﴿إِنَّا﴾؛ أي: إنّ كل واحد منا ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك وإلى قومك. وإفراد الرسول لاتحادهما بسبب الأخوة واتفاقهما على شريعة واحدة، أو لأن المعنى:

---

(١) روح البيان.

أن كل واحد منا رسول رب العالمين. وعبارة «النسفي» هنا[1]: ولم يثنّ الرسول هنا كما ثنّى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ لأن الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثمة بمعنى المرسل، فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل هنا بمعنى الرسالة، فيستوي في الوصف به الواحد والتثنية والجمع، كقول الساعر:

لَقَدْ كَذَبَ ٱلْوَاشُوْنَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُوْلِ

أي: برسالة، ولكن لا بد من تقدير مضاف على هذا التأويل، والتقدير: إنّا ذووا رسالة رب العالمين، أو لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد، أو أريد أن كل واحد منا. اهـ انتهت بزيادة من «البيضاوي».

و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ مفسرة بمعنى: أي؛ لتضمن[2] الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول، والإرسال هنا التخلية والإطلاق، أي: أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكن آبائهم، وكان فرعون استعبدهم أربع مئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ست مئة وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى من محل المناجاة جبل الطور إلى مصر، وهارون كان بها، فلما تلاقيا ذهبا إلى باب فرعون ليلاً، ودقّ موسى الباب بعصاه، ففزع البوابون، وقالوا: من بالباب؟ فقال موسى: أنا رسول رب العاليمن، فذهب البواب إلى فرعون، فقال: إن مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين، فأذن له في الدخول من ساعته ـ كما قاله السدي ـ أو ترك حتى أصبح ثم دعاهما، فدخلا عليه، وأدّيا رسالة رب العالمين.

وقال قتادة: إنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البوّاب: ههنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له حتى نضحك منه، فأدّيا إليه الرسالة.

وروى وهب وغيره[3]: أنهما لـمّا دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج

---

(١) النسفي.
(٢) روح البيان.
(٣) القرطبي.

سباعاً من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سوّاسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتُبصبِصُ إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك. فقال: من أنتما؟ قالا: إنّا رسول رب العالمين، فعرف موسى؛ لأنه نشأ في بيته، فشتمه، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى على سبيل الامتنان: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾؛ أي: في منازلنا وحجرنا حالة كونك ﴿وَلِيدًا﴾؛ أي: طفلاً صغيراً، سمّي الصبي وليداً لقربه من الولادة، وهو فعيل بمعنى مفعول، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: ألم تكن صغيراً، فربّيناك في منازلنا وبيوتنا، ولم نقتلك في جملة من قتلنا ﴿وَلَبِثْتَ﴾؛ أي: جلست ﴿فِينَا﴾؛ أي: بيوتنا ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ حال من ﴿سِنِينَ﴾؛ أي: جلست في بيوتنا سنين من عمرك وحياتك، وأنعمنا عليك ردحاً من الزمن، ثم تقابل الإحسان بكفران النعمة، وتواجهنا بمثل تلك المقالة، فمتى هذا الذي تدّعيه.

روي[1]: أنه لبث فيهم ثماني عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين وأقام بها عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة، ثم بقي بعد الغرق خمسين سنة، فيكون عمر موسى مئة وعشرين سنة. قال الراغب: العمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة قليلة أو كثيرة كما سيأتي.

وقرأ أبو عمرو في رواية: ﴿من عمرك﴾ بإسكان الميم.

ثم قرر بقتل القبطي، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ﴾ يا موسى ﴿فَعْلَتَكَ﴾ القبيحة ﴿الَّتِي فَعَلْتَ﴾ ببعض خواصي. والفعلة ـ بالفتح ـ المرة الواحدة. يعني: قتل القبطي الذي كان خباز فرعون، واسمه: فاتون.

وبعدما عدد نعمته عليه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال.. نبهه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظمه. قال ابن الشيخ: تعظيم تلك الفعلة يستفاد من عدم التصريح باسمها الخاص، فإن تنكير الشيء وإبهامه قد يقصد به التعظيم، وقوله:

---

(١) روح البيان.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حال من إحدى التاءين؛ أي: والحال أنك من المنكرين لنعمتي، والجاحدين لحق تربيتي، حيث عمدت إلى رجل من خواصي، والمعنى: فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا، وقتلت منا نفساً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَعْلَتَكَ﴾ - بفتح الفاء؛ - إذ كانت وكزة واحدة، وقرأ الشعبي بكسر الفاء يريد الهيئة؛ لأن الوكزة نوع من القتل.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه عدد نعماءه عليه أولاً من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال، ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه، وهو من خواصه، وهو بهذا أيضاً يكون قد كفر نعمته وجحد فضله، فأجاب موسى عن الأمر الثاني، وترك أمر التربية؛ لأنها معلومة مشهورة، ولا دخل لها في توجيه الرسالة، فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم سواء أكانوا أنعموا عليه أم لم ينعموا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿فَعَلْتُهَآ﴾؛ أي: تلك الفعلة ﴿إِذًا﴾؛ أي: حين فعلت، وهو حرف جواب فقط؛ لأن ملاحظة المجازاة ههنا بعيدة؛ أي: قال موسى مجيباً لفرعون: فعلت هذه الفعلة التي ذكرت، وهي قتل القبطي وأنا إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: من الجاهلين بأن وكزتي تأتي على نفسه، فإني إنما تعمدت الوكز للتأديب، لا القتل، فأدى ذلك إلى القتل. وقيل: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريق الصواب، وقيل: من المخطئين.

وقرىء[3]: ﴿من الجاهلين﴾ والمعنى: من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه، أو من المخطئين؛ لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكز؛ لأنه أراد به التأديب، أو الناسين، نظير قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾. وقيل: المعنى: من الضالين عما أتاني الله بعدها من العلم والرسالة، وربأ بمحل النبوة عن تلك الصفة التي أطلقها عليه فرعون، وهي قوله له: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فقال: ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: من المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البيضاوي.

﴿فَفَرَرْتُ﴾؛ أي: ذهبت من بيتكم هارباً ﴿مِنكُمْ﴾ إلى مدين حذراً على نفسي ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تصيبوني بمضرة، وتؤاخذوني بما لا أستحقه بجنايتي من العقاب؛ لأني قتلت القتيل خطأ، وأنا ابن اثنتي عشرة سنة مع كونه كافراً، وروي عن حمزة: ﴿لما خفتكم﴾ ـ بكسر اللام، وبما المصدرية ـ أي: لتخوفي منكم، وقرأ الجمهور بتشديد الميم ظرفاً بمعنى حين.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ حين رجعت من مدين ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: علماً وفهماً، أو نبوةً، وقال الزجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إليكم بعد تلك الفعلة. وفي «فتح الرحمن» ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: نبوة، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ درجة ثانية للنبوة، فرب نبي ليس برسول، وقرأ عيسى: ﴿حُكُماً﴾ ـ بضم الكاف ـ والجمهور بالإسكان، والحكم: النبوة.

والمعنى: أي فخرجت هارباً منكم حين توقعت مكروهاً يصيبني حين قيل لي: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فوهب لي ربي علماً بالأشياء على وجه الصواب، وجعلني من المرسلين من قبله لهداية عباده، وإرشادهم إلى النجاة من العذاب.

وخلاصة ما قال[١]: إن القتل الذي توبخني به لم يكن مقصوداً لي، بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب، فلا أستحق التخويف الذي أوجب فراري، وإن أنتم أسأتم إلي فقد أحسن إلي ربي فوهب لي فهم الأمور على حقائقها، وجعلني من زمرة عباده المخلصين.

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾؛ أي: التربية المدلول عليها بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؛ أي: تمن بها عليّ ظاهراً، وهي في الحقيقة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وسبب[٢] تلك النعمة في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم؛ أي: فإن السبب في وقوعي عندك، وحصولي في تربيتك تعبيدك بني إسرائيل، يعني:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

لو لم يفعل فرعون ذلك؛ أي: قهر بني إسرائيل وذبح أبناءهم.. لتكفلت أم موسى بتربيته، ولما قذفته في اليم، حتى يصل إلى فرعون، ويربى بتربيته، فكيف يمتن عليه بما كان بلاؤه سبباً له، فقوله: ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، و﴿نِعْمَةٌ﴾: خبرها، و﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾: صفة، و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: وهي في الحقيقة تعبيد قومي، يقال: عبدته إذا أخذته وقهرته وذللته.

رد موسى عليه السلام أولاً ما وبخه فرعون قدحاً في نبوته، ثم يرجع إلى ما عده عليه نعمة، ولم يصرح برده حيث كان صدقاً غير قادح في دعواه، بل نبه على أن ذلك كان في الحقيقة نقمة لكونه مسبباً عنها، وهي تعبيد بني إسرائيل وذبح أبنائهم.

وقرأ الضحاك[1]: ﴿وتلك نعمة ما لك أن تمنها﴾، وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وهذا التأويل فيه مخالفة لفرعون، ونقض كلامه كله. وقيل: هذا الكلام إقرار من موسى عليه السلام بالنعمة، كأنه يقول: وتربيتك لي نعمة علي من حيث أن عبدت غيري، وتركتني واتخذتني ولداً، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وإلى هذا التأويل ذهب السدي والطبري. وقيل: الكلام على تقدير[2] همزة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: أتمن علي أن ربيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة، أو يريد: كيف تمن علي بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه فقد ذل، فتعبيد بني إسرائيل قد أحبط حسناتك إلي؛ ولو لم تستعبدهم، ولم تقتل أولادهم.. لم أرفع إليك حتى تربيني وتكفلني، ولكان من أهلي من يربيني، ولم يلقوني في اليم.

وخلاصة ذلك[3]: أفي إحسانك إلى رجل منهم بما أسألت به إلى مجموعهم؟ فهو ليس بشيء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع، وكأنه قال: إن هذا ليس بنعمة؛ لأن الواجب عليك أن لا تقتلهم، ولا تستعبدهم، فإنهم قومي،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص، وتنسى استعباد الشعب كله.

ولما دخل موسى وهارون على فرعون، وقالا له: إنا رسولا رب العالمين، أرسلنا إليك لهدايتك إلى الحق، وإرشادك إلى طريق الرشد، وغلباه بالحجة.. رجع فرعون إلى معارضة موسى في قوله: ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما بينه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لموسى: إنك تدعي أنك رسول رب العالمين ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ما﴾: استفهامية؛ أي: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله، وما حقيقته الخاصة، ومن أي جنس هو؟ منكراً لأن يكون للعالمين رب سواه؛ إذ كان قد قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولم يقل فرعون: ومن رب العالمين؛ لأنه كان منكراً لوجود الرب، فلا ينكر عليه التعبير بـ﴿مَا﴾؛ أي[1]: يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه، وهو سؤال عن جنس الشيء، والله تعالى منزه عن الجنسية والماهية، فلهذا عدل موسى عن جوابه، وأجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التي تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها، كما بينه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ موسى مجيباً له بما يصح في وصفه تعالى رب العالمين الذي أرسلني هو سبحانه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: وما بين النوعين من الهواء؛ أي: هو خالق العالم العلوي، وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات والعالم السفلي، وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات، وما بين ذلك من هواء وطير ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنه خالقهما، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته لكم، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا أنه لا جواب لكم عن هذا السؤال إلا ما ذكرته من الجواب.

والإيقان[2]: العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال: الله موقن، فمعنى العلم بالله العلم به من حيث الارتباط بينه وبين الخلق، وإنشاء العالم منه بقدر الطاقة البشرية؛ إذ منه ما لا توفيه الطاقة البشرية، وهو ما وقع فيه الكمَّل في ورطة الحيرة، وأقروا بالعجز عن حق المعرفة. فإن قلت: كيف علق كونه رب

---

(١) الخازن. (٢) النسفي.

السموات والأرض بكون فرعون وقومه موقنين، مع أن هذا الشرط منتف والربوبية ثابتة؟

قلت: معناه: إن كنتم موقنين أن السموات والأرض موجودات، وهذا الشرط موجود. أو المعنى[1]: إن كنتم موقنين بالأشياء المحققين لها بالنظر الصحيح الذي يؤدّي إلى الإيقان.. علمتم أن العالم عبارة عن كل ما يعلم به الصانع من السموات والأرض وما بينهما، وأن ربها هو الذي خلقها، ورزق من فيها، ودبر أمورها، فهذا تعريفه، وجواب سؤالكم لا غير، والخطاب في ﴿كُنتُم﴾ لفرعون وأشراف قومه الحاضرين؛ وهم القبط.

فلما قال ذلك موسى عجب فرعون من كلام موسى، والتفت إلى الملأ حوله معجباً لهم من ذلك المقال، ومتحيراً فيه، كما بيّنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من أشراف قومه القبطيين، قال ابن عباس: كانوا خمس مئة رجل، عليهم الأساور التي لا يلبسها إلا السلاطين ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ما يقول في جوابه، فقد سألته عن حقيقته، وهو يذكر أفعاله وآثاره، أو[2] لأنهم يزعمون قدمهما، وينكرون حدوثهما، وأن لهما رباً، فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه، فاستدل به فـ﴿قَالَ﴾ موسى ـ زيادة في البيان، وحطاً له عن مرتبة الربوبية إلى مرتبة المربوبية؛ لأنه كان يدّعي الربوبية ـ: رب العالمين هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين. قيل[3]: إن فرعون كان يدّعي الربوبية على أهل عصره وزمانه، فلم يدع ذلك على من كان قبله، فبين بهذه الآية أن المستحق للربوبية هو رب كل عصر وزمان.

وقد انتقل[4] بهم موسى من النظر في الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر في الأنفس وما فيها من عجيب الصنع، فإن التناسل المستمر في النبات

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

والحيوان والإنسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر في الآفاق.

ولما لم يستطع رداً لما جاء به، وخاف من قومه تأثراً بما يقول موسى أورد ما يشكك قومه في حسن تقديره للأمور، وفهمه لما يقول، فـ﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعون من سفاهته، وصرفاً لقومه عن قبول الحق، مخاطباً لخاصة قومه، وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ أي: لا عقل له؛ إذ يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه، فهو يدعي أن ثمة إلهاً غيري، وسماه رسولاً على السخرية، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه.

وقرأ مجاهد وحميد الأعرج: ﴿أَرسل إليكم﴾ بالبناء للفاعل؛ أي: أرسله ربه إليكم.

ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان، ورب الزمان والمكان حيث ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى: رب العالمين هو ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ أي: هو خالق موضع طلوع الشمس وغروبها ووقتهما وما بينهما، فتشاهدون في كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب على وجه نافع، تنتظم به أمور الكائنات، وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة إلى محدث قادر عليم حكيم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، أو من جملة من له عقل وتمييز.. علمتم أن الأمر كما قلته، وأن لا جواب فوقه، واستدللتم بالأثر على المؤثر، وفيه تلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، متصفون بما رموه بِهِ عليه السلام من الجنون، فمن كمال ضدّية موسى وفرعون، وكذا القلب والنفس، يعد كل منهما ما يصدر من الآخر من الجنون، والمعنى: إن كنت يا فرعون أنت ومن معك من العقلاء.. عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك.

وقرأ عبد الله وأصحابه والأعمش: ﴿رب المشارق والمغارب﴾ على الجمع فيهما.

فإن قلت[1]: ذكر السموات والأرض مستوعب جميع المخلوقات، فما

---

(١) فتح الرحمن.

فائدة قوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؟

قلتُ: فائدتهما تمييزهما في الاستدلال على وجود الصانع، أما الأول: فإن أقرب ما للإنسان نفسه وما يشاهده من تغييراته وانتقاله من ابتداء ولادته، وأما الثاني: فلما تضمنه ذكر المشرق والمغرب وما بينهما من بديع الحكمة في تصريف الليل والنهار واختلافهما، وتغيير الفصول بطلوع الشمس من المشرق، وغروبها في المغرب على تقدير مستقيم في فصول السنة.

فإن قلت[1]: لمَ قال أولاً: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وقال ثانياً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

قلتُ: لاطفهم أولاً بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فلما رأى عنادهم وشدة شكيمتهم خاشنهم وأغلظ عليهم في الرد، وعارضهم بمثل مقالهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه في قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

ولما قامت الحجة على فرعون.. عدل إلى القهر واستعمال القوة، فتوعده بالسجن، ولم يقل: ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه اعترافاً بأن ثم إلٰهاً غيره، كما بينه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ فرعون لشدة تمرده، وميلاً إلى العقوبة كما يفعله الجبابرة، وعدولاً إلى التهديد عن المحاجة بعد الانقطاع، وغيظاً على نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله[2] كان دهرياً، أعتقد أن من ملك قطراً، وتولى أمره بقوة طالعه.. استحق العبادة من أهله، فبألوهيتي وربوبيتي ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ﴾ وجعلت لنفسك ﴿إِلَٰهًا غَيْرِى﴾؛ أي: معبوداً غيري كما تدعيه ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ اللام فيه للعهد؛ أي: لأجعلنك من الذين عرفت أحوالهم في سجوني، فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا، ولذلك لم يقل: لأسجنك. وعبارة شيخ الإسلام هنا[3]: فإن قلت: لم عدل إلى هذه العبارة عن قوله: لأسجنك، مع أنه

---

(١) فتح الرحمن.

(٢) روح البيان.

(٣) فتح الرحمن.

أخصر منه؟

قلتُ: عدل إليه لإرادة تعريف العهد؛ أي: لأجعلنك ممن عرفت حالهم في سجني، وكان إذا سجن إنساناً طرحه في هوة عميقة مظلمة، لا يبصر فيها ولا يسمع، انتهت.

والمعنى: أي: قال له: لأجعلنك في زمرة الذين في سجوني على ما تعلم من فظاعة أحوالها وشديد أهوالها، وكانت سجونه أشد من القتل؛ لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت، وكان يطرحه في هوة عميقة تحت الأرض وحده، وفي توعده بالسجن ضعف منه؛ لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعاً شديداً، حتى كان اللعين لا يمسك بوله بعد ذلك.

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهرياً، ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات فـ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى لفرعون حين توعده بالسجن ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو للحال؛ أي: أتفعل بي ذلك السجن، ولو جئتك بشيء موضح لصدق دعواي، يعني: المعجزة، فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع، والدلالة على صدق مدعي نبوته؛ أي: أتفعل بي ذلك حالة كوني آتياً بشيء مبين. وجعلها بعضهم للعطف على فعل محذوف؛ أي: أتفعل بي ذلك لو لم أجيء بشيء مبين، ولو جئتك به؛ أي: أتفعل به على كل حال من عدم المجيء والمجيء، وتقدم لنا الكلام على هذه ﴿الواو﴾ الداخلية على لو في مثل هذا السياق في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فأغنى عن بسطه.

وقال الحوفي[1]: واو العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير، والمعنى: أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسجن وأنا ملتبس بها، اهـ والمعنى؛ أي: أتفعل هذا ولو جئتك بحجة بينة واضحة على صدق دعواي، وهي المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته، وعلى صدق

---

(١) البحر المحيط.

دعوى من ظهرت على يديه.

ولما سمع فرعون هذا من موسى.. طمع أن يجد موضع معارضة من موسى فـ﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعون لموسى ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الشيء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة، وأن لك برهاناً عليها، وكان[1] في يد موسى عصاً من شجر الآس من الجنة، وكان آدم جاء بها من الجنة، فلما مات قبضها جبريل، ودفعها إلى موسى وقت الرسالة، فقال موسى لفرعون: ما هذه التي بيدي؟ قال فرعون: هذه عصا ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى من يده ﴿عَصَاهُ﴾ قال ابن عباس: عصا موسى اسمها ماشا. وقيل: نبعة؛ أي: طرح موسى عصاه من يده ﴿فَإِذَا هِىَ﴾؛ أي: تلك العصا ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ أي: حية عظيمة صفراء ذكر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر الثعبانية للناظرين بحركاته، وبسائر العلامات، وليس بتمويه كما يفعله السحرة.

وروي: أنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، فقال: بالذي أرسلك إلا أخذتها، فأخذها موسى، فعادت عصاً كما كانت، ولا تناقض بين قوله هنا: ﴿ثُعْبَانٌ﴾، وبين قوله في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، وهو الصغير من الحيات؛ لأن خلقها خلق الثعبان العظيم، وحركتها وخفتها كالجان، والحية جنس يشمل الصغير والكبير، كما في قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

وروي: أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال: فهل لك غيرها؟ فأخرج موسى يده، فقال لفرعون. ما هذه؟ قال فرعون: هذه يدك فما فيها؟ فأدخلها في إبطه، ثم نزعها ﴿فَإِذَا هِىَ﴾؛ أي: تلك اليد ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها؛ ذات بياض من غير برص، تضيء الوادي من شدة بياضها، لها شعاع كشعاع الشمس، كاد يغشي الأبصار وسد الأفق، تعجب الناظرين إليها.

---

(١) روح البيان.

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعناد، وذكر لأشراف قومه أموراً ثلاثة:

١. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ﴾؛ أي: لأشراف قومه حال كونه مستقرين ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾ فهو ظرف وضع موضع الحال، وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يحول إليه وينقلب كما سيأتي ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الرجل يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: فائق في علم السحر، والسحر تخيلات لا حقيقة لها، فالساحر المحتال المخيل بما لا حقيقة له.

فإن قلت: أسند القول هنا إلى فرعون حيث قال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ وأسند في سورة الأعراف إلى الملأ حيث قال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ فبين الآيتين معارضة، فما وجه الجمع بينهما؟

قلتُ: وجه الجمع بينهما أن فرعون قاله للحاضرين عنده، والحاضرون قالوه للغائبين عنه، فنظر هنا إلى قوله للحاضرين، وهناك إلى قول الحاضرين للغائبين، فبهذا يزول الإشكال. كما في «كشف الأسرار».

والمعنى: أي قال فرعون لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى: إن هذا الرجل لبارع في السحر، حاذق في الشعوذة، ومراده من هذا: أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر، لا من وادي المعجزات، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به، والتنفير منه بقوله:

٢. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾؛ أي: من أرض مصر، ويتغلب عليكم ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾؛ أي: يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر، فيكثر أعوانه وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم.

٣. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؛ أي: فماذا تشيرون به علي في دفعه ومنعه، أو فأي شيء تأمرونني به في شأنه؟ قهره سلطان المعجزة، وحيره حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مقام مشاورة عبيده بعدما كان مستقلاً بالرأي والتدبير، وأظهر

استشعار الخوف من استيلائه على ملكه. ونسبة الإخراج والأرض إليهم لأجل تنفيرهم عن موسى ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الملأ لفرعون ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أخر أمر موسى وأخيه هارون حتى تنظر، ولا تعجل بقتلهما قبل أن يظهر كذبهما، حتى لا يسيء عبيدك الظن بك، وتصير معذوراً في القتل. من أرجأته إذا أخرته. وقيل: المعنى: احبسهما.

وقرأ قالون: ﴿أَرْجِهْ﴾ بغير همز، وباختلاس كسر الهاء، وورش والكسائي بإشباع كسرة الهاء، وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وبصلة الهاء المضمومة، أبو عمرو بضم الهاء مع الاختلاس، وابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء مع الاختلاس، وعاصم وحمزة بغير همز وإسكان الهاء.

﴿وَٱبْعَثْ﴾؛ أي: وأرسل ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾؛ أي: في الأمصار والبلدان وأقطار مملكتكم، وفي «فتح الرحمن»: هي مدائن الصعيد من نواحي مصر ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: شُرَطاً يحشرون الناس، ويجمعونهم إليك. فـ﴿حَٰشِرِينَ﴾: صفة لموصوف محذوف هو مفعول ﴿ابعث﴾ كما قدرنا. والشُرَط ـ بضم أوله وفتح ثانيه ـ جمع شُرْطة ـ بالضم وسكون الراء وفتحها، ـ، وهم طائفة من أعوان الولاة معروفة كما في «القاموس»، والشَّرط ـ بالفتح ـ العلامة، ومنه سمى الشرط، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها.

وذلك لظنهم أن السحرة إذا كثرت غلبوا موسى عليه السلام وكشفوا حاله ﴿يَأْتُوكَ﴾؛ أي: الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾؛ أي: بليغ في صناعة السحر ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: فائق في معرفتها، يعارضوا موسى بمثل سحره، بل يفضلوا عليه، ويتضح للعامة كذبه، فتقتله حينئذ، وهذا تدبير النفس وإلقاء الشيطان في دفع الحق الصريح، وكل تدبير هكذا في كل عصر فصاحبه مدمَّر البتة، وإنما يجيء خبث القول والفعل لمن خبث النفس؛ إذ كل إناء يترشح بما فيه، ولو ترك فرعون وقومه التدبير في أمر موسى، وقابلوه بالقبول.. لسلموا من كل آفة، لكن منعهم حب الجاه عن الانتباه، وحبك الشيء يعمي ويصم.

وقرأ الأعمش وعاصم في رواية: ﴿بكل ساحر﴾، وأمال ﴿سحار﴾ ابن

عامر والكسائي وأبو عمرو.

ومعنى الآية: أي[1] قالوا له: أخر البت في أمرهما، ولا تعاجلهما بالعقوبة، حتى تجمع لهما من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم، ثم تقابلهم به وجهاً لوجه، ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة، وقرعت الدليل بمثله، ويكون لك النصر والتأييد عليه، وتجتذب قلوب الشعب إليك.

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله تعالى وحججه للناس في وضح الهار جهرة. روي أن فرعون أراد قتله، فقال له الملأ: لا تفعل فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة في أمره، وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليم ظناً منهم أنهم إذا كثروا غلبوه على أمره، وتم لفرعون الغلب فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم.

الإعراب

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف إن قلنا: إنه علم للسورة، تقديره: هذه طسَمّ؛ أي: سورة اسمها طسَمّ، والخبر مرفوع بالمبتدأ، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الوقف، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب، وتقدمت فيه أوجه أخرى في مبحث التفسير فراجعها. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَعَلَّكَ﴾: لعل حرف نصب

(١) المراغي.

وترجّ وإشفاق، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطب في محل النصب اسمها. ﴿بَٰخِعٞ﴾: خبرها. ﴿نَّفۡسَكَ﴾: مفعول به لـ﴿بَٰخِعٞ﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكُونُواْ﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ خبره، وجملة يكون مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المحذوف إليه المنصوب على أنه مفعول لأجله، تقديره: لعلك باخع نفسك خيفة عدم إيمانهم بهذا الكاتب، وبما جئت به من ربك. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿نَّشَأۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: إيمانهم. ﴿نُنَزِّلۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿عَلَيۡهِم﴾: متعلق بـ﴿نُنَزِّلۡ﴾. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: حال من ﴿ءَايَةٗ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿ءَايَةٗ﴾: مفعول به لـ﴿نُنَزِّلۡ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه من الاسترسال في التحسّر والغم على عدم إيمانهم. ﴿فَظَلَّتۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ظلت﴾: فعل ماضٍ ناقص من أخوات كان. ﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾: اسمها. ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰضِعِينَ﴾، و﴿خَٰضِعِينَ﴾: خبر ﴿ظلت﴾، وجملة ﴿ظلت﴾ معطوفة على جملة ﴿نُنَزِّلۡ﴾، وهي بمعنى فتظل أعناقهم.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦﴾.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَأۡتِيهِم﴾: فعل مضارع ومفعول به. ﴿مِّن﴾ زائدة. ﴿ذِكۡرٖ﴾: فاعل مرفوع بضمة مقدرة. ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿ذِكۡرٖ﴾. ﴿مُحۡدَثٍ﴾: صفة ثانية له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿مُعۡرِضِينَ﴾. ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَأۡتِيهِم﴾، والتقدير: وما يأتيهم من ذكر من الرحمن في حال من الأحوال إلاّ

حالة كونهم معرضين عنه. ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إعراضهم عن الذكر، وأردت بيان موقفهم بعد الإعراض.. فأقول لك. ﴿قد كذبوا﴾: ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾: ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتعقيب، و﴿السين﴾: حرف تنفيس، ﴿يأتيهم﴾: فعل ومفعول ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾. ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري المضمّن للتعجب، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوۡاْ﴾: فعل مضارع وفاعل، من رأى البصرية، مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿يَرَوۡاْ﴾، وهو في محل المفعول، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أفعل المكذبون من أهل مكة ما فعلوا، ولم يروا إلى الأرض، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿كَمۡ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾. ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿أنبت﴾: فعل ماض مبني على السكون. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾. ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾: تمييز لـ﴿كَمۡ﴾ الخبرية، و﴿مِن﴾: زائدة. ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة ﴿زَوۡجٖ﴾، وجملة ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، والتقدير: ألم يروا إلى الأرض حالة كونها أنبتنا فيها كثيراً من كل زوج كريم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آية﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من واو ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾،

وقيل ﴿كَانَ﴾ زائدة عند سيبويه كما مر. ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إنّ ربك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿هو﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ نادى، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿نَادَىٰ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿أَنِ﴾: مفسرة بمعنى أي، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بأن. ﴿ٱئْتِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود إلى ﴿مُوسَىٰٓ﴾، مبني على حذف حرف العلة. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿نَادَىٰ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: بدل من ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أو عطف بيان منه، ولعله أولى؛ لأنهما عبارتان تعتقبان على مدلول واحد، ولما كان القوم الظالمين يوهم الاشتراك.. أتى بعطف البيان لإزالته. ﴿أَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول ﴿يَتَّقُونَ﴾: محذوف؛ أي: ألا يتقون عقاب الله، والجملة مستأنفة. وقيل: ﴿أَلَا﴾: حرف تحضيض. وقيل: حرف عرض. وقيل: حرف تنبيه. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُكَذِّبُونِ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أنْ﴾، وعلامة نصبه حذف النون، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفواصل في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إني أخاف تكذيبهم إياي. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾:

فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَخَافُ﴾، فهو مرفوع مثله، ويجوز عطفه على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، فهو منصوب مثله، وقد قرىء به، والفرق بين المعنيين أن الرفع يفيد فيه ثلاث علل أو معاذير، وهو خوف التكذيب وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان، وأما النصب فيفيد أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة. ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَخَافُ﴾، أو على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾. ﴿فَأَرْسِلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا سمعت اعتذاري إليك، وأردت فعل ما هو الأصلح لهم.. فأقول لك. ﴿أرسل إلى هارون﴾: ﴿أرسل﴾ فعل أمر معناه الالتماس، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾: متعلق بـ﴿أرسل﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لهم﴾ خبر مقدم. ﴿عَلَيَّ﴾: حال من ﴿ذَنۢبٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت. ﴿ذَنۢبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَخَافُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أخاف﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾: ناصب وفعل وفاعل ونون وقاية، وياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفواصل في محل النصب مفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: فأخاف قتلهم إياي، وجملة ﴿أخاف﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها مفرّعة عليها.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿كَلَّاۖ﴾: حرف ردع وزجر نابت عن الفعل، وهو ارتدع يا موسى، ولذلك عطف عليها بالفاء في قوله: ﴿فَٱذْهَبَا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والألف ضمير التثنية في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي دلت عليها حرف الردع، كأنه قيل: ارتدع عما تظن يا موسى فاذهب أنت وأخوك، وجملة ارتدع مستأنفة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿اذهبا﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَكُم﴾: حال من اسم ﴿إنّ﴾،

أو متعلق بـ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾، أو خبر ثان لـ﴿إن﴾ ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، ومعفول ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ محذوف تقديره: مستمعون ما يدور بينكما وبين فرعون وقومه، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَأْتِيَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ائتيا﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿فِرْعَوْنَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿اذهبا﴾. ﴿فَقُولَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قولا﴾: فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿ائتيا﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خبره ومضاف إليه، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قولا﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَرْسِلْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة. ﴿مَعَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَرْسِلْ﴾ ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: فقولا: إنّا رسول رب العالمين بإرسالك معنا بني إسرائيل.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿نُرَبِّكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِينَا﴾: متعلق بـ﴿نُرَبِّكَ﴾. ﴿وَلِيدًا﴾: حال من مفعول ﴿نُرَبِّكَ﴾. ﴿وَلَبِثْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِينَا﴾: متعلق بـ﴿لبثت﴾. ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾: حال من ﴿سِنِينَ﴾. و﴿سِنِينَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿لبثت﴾ أيضاً، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة الاستفهام على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَفَعَلْتَ﴾: فعل وفاعل معطوف على الجملة التي قبلها. ﴿فَعْلَتَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، أو مفعول مطلق. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿فَعْلَتَكَ﴾، وجملة ﴿فَعَلْتَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فعلتها. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل

﴿فَعَلْتَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَعَلْتُهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب مهملة لا عمل لها. ﴿وَأَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿فَعَلْتُهَآ﴾؛ أي: من الضالين عما أتاني الله بعدها من الرسالة والعلم.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَفَرَرْتُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿فررت﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿فررت﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَعَلْتُهَآ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين في محل النصب مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿فررت﴾، وقال سيبويه: إنها رابطة. ﴿خِفْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿فَوَهَبَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿وهب﴾: فعل ماض. ﴿لِى﴾: متعلق به. ﴿رَبِّى﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿حُكْمًا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فررت﴾. ﴿وَجَعَلَنِى﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول به أول معطوف على ﴿وهب﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَتِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿نِعْمَةٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿تَمُنُّهَا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ومفعول به. ﴿عَلَىَّ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿نِعْمَةٌ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿عَبَّدتَّ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: سببها تعبيدك بني إسرائيل، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿نِعْمَةٌ﴾ و﴿تمن﴾ يتعدى بالباء، فقيل: هي محذوفة؛ أي: تمنُّ بها، وقيل: ضمِّن تمنُّ فمعنىٰ تذكر كما في «السمين».

وفي «السمين»: قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ فيه سبعة أوجه:

أحدها: أنه في محل رفع عطف بيان لـ﴿تِلْكَ﴾، موضح له، فتلك إشارة إلى

شيء مبهم، وقد وضّح وبيّن بقوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾، نظير قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

والثاني: أنه في محل نصب مفعولاً من أجله.

والثالث: أنه بدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾.

والرابع: أنه بدل من الهاء في ﴿تَمُنُّهَا﴾.

والخامس: أنه مجرور بباء مقدرة؛ أي: بأن عبّدت.

والسادس: أنه خبر مبتدأ مضمر؛ أي: هي.

والسابع: أنه منصوب بإضمار أعني.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة تعطف قول فرعون على قول موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أو زائدة، أو استئنافية. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وإنما عبر بما؛ لأنه سأل عن صفاته وأفعاله، ولو أراد عينه.. لقال: ومن رب العالمين. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو رب السموات، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: معطوفة على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم موقنين هذا الجواب، فهو كاف لكم في جواب سؤالكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿من﴾ الموصولة ﴿أَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، ﴿لا﴾: نافية، أو ﴿أَلَا﴾: حرف عرض، أو تحضيض. ﴿تَسْتَمِعُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعول محذوف تقديره: جوابه الذي لا يطابق السؤال، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو ربكم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَرَبُّ﴾: معطوف على ﴿رَبُّكُمْ﴾. ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة لـ﴿رَسُولَكُمُ﴾. ﴿أُرْسِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿لَمَجْنُونٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء زحلقت إلى خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿مجنون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو رب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن كنتم تعقلون علمتم أن الأمر كما قلته، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب

مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لَئِنِ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّخَذْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرِى﴾: صفة له، أو ﴿غَيْرِى﴾: مفعول أول ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول ثان قدّمه اعتناء به، والتقدير: لئن اتخذت غيري إلهاً. ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿أجعلنك﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، ونون توكيد في محل الرفع لتجرده من الناصب والجازم مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لجعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: أسجنك، وجملة الشرط في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معترضة بين القسم وجوابه.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَوَلَوْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف تقديره: أتفعل ذلك. والواو: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿جِئْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِشَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿جِئْتُكَ﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة، وجواب ﴿لو﴾ الشرطية محذوف تقديره: ولو جئتك بشيء مبين تسجنني، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من مفعول الفعل المحذوف الداخل عليه همزة الاستفهام، والتقدير: أتسجنني حالة كوني جائياً بشيء مبين على صدقي، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَأْتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت توعدي لك بالسجن، وأردت بيان ما هو المخلص لك.. فأقول لك:

ائت. ﴿ائت﴾: فعل أمر، فاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مبني على حذف حرف العلة. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت من الصادقين فائت به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قاله فرعون لموسى، وأردت بيان ما فعله موسى فأقول لك: ألقى عصاه. ﴿ألقى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿عَصَاهُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: فجائية، حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿هِىَ ثُعْبَانٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿ثُعْبَانٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: فجائية. ﴿هِىَ بَيْضَآءُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَيْضَآءُ﴾، تقديره: بيضاء معجبة للناظرين، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لِلْمَلَإِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿حَوْلَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿الملأ﴾؛ أي: حالة كونهم كائنين حوله. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: صفة لـ﴿ساحر﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿ساحر﴾. ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾: ناصب وفعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ ومفعول به. ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجَكُم﴾. ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد إخراجه إياكم من أرضكم بسحره، وهذه الجملة بيت كامل من مجزوء الرجز، وليس شعراً لانتفاء القصد. ﴿فَمَاذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر. ﴿تَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة المصول، والعائد محذوف تقديره: فما الذي تأمرونني به، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على كونها مقولا لـ﴿قَالَ﴾، أو ﴿فَمَاذَا﴾ اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول لـ﴿تَأْمُرُونَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَرْجِهْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ومفعول به مبني على حذف حرف العلة؛ وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها؛ لأنه من أرجيت. ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على ضمير المفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَٱبْعَثْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على ﴿أَرْجِهْ﴾. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: متعلق بـ﴿وَٱبْعَثْ﴾. ﴿حَٰشِرِينَ﴾: مفعول به. ﴿يَأْتُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف النون. ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَأْتُوكَ﴾. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿سَحَّارٍ﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ لعل هنا للاستفهام الذي يراد به الإنكار، وقال العسكري: إنها للنهي، ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾؛ أي: مهلكها من شدة الحزن، قال ذو الرمة.

أَلاَ أَيُّهَا البَاخِعُ الوُجْدِ نَفْسَهُ   لِشَيْءٍ نَحَتَهُ عن يديهِ المَقَادِيرُ

وأصل البخع: أن يبلغ بالذبح البخاع، وذلك أقصى حد الذبح، والبخاع - بكسر الباء -: عرق في الصلب غير النخاع - بالنون مثلثة، - فإنه الخيط الذي في جوف الفقار، ينحدر من الدماغ، ويتشعب منه شعب في الجسم. وفي «المصباح»: وبخع نفسه بخعا من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ، وبخع لي بالحق بخوعاً انقاد وبذله.

﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ والأعناق: الجماعة، يقال: جاءت أعناق الناس؛ أي: جماعة منهم. ﴿ذِكْرٍ﴾؛ أي: موعظة. ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ والمراد بالأنباء: ما سيحل بهم من العذاب. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده، يقال: وجه كريم؛ أي: مرضي في حسنه وجماله، وكتاب كريم مرضي في معانيه وفوائده، وفارس كريم مرضي في شجاعته وبأسه.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ والمناداة والنداء: رفع الصوت، وأصله من الندى؛ وهو الرطوبة، واستعارته للصوت من حيث إنّ من تكثر رطوبة فمه حسن كلامه، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أمر من الأتيان، والإتيان: المجيء بسهولة. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة.

﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ أي: سامعون، والفرق بين السماع والاستماع أن السماع وكذا السمع مطلق إدراك الحروف والأصوات، فيوصف به سبحانه، والاستماع طلب السمع بالإصغاء بالأذن، وهو محال عليه تعالى؛ لأن سمعه ليس بالجارحة.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ والإرسال ههنا: التخلية والإطلاق، كما تقول: أرسلت الكلب إلى الصيد؛ أي: خلّهم وشأنهم ليذهبوا إلى أرض الشام مسكن آبائهم.

﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ والعمر - بضمتين - مصدر عمر؛ أي: عاش وحيي، قال الراغب: العمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، قليلة كانت أو كثيرة.

﴿فَعْلَتَكَ﴾ الفعلة - بالفتح -: المرّة الواحدة، والفِعلة - بالكسر - الهيئة، كما قال ابن مالك:

لِمَرَّةٍ فَعْلَةٌ، وَفِعْلَةٌ وَضَعُوْا لِهَيْئَةٍ غَالِباً، كَمِشْيَةِ ٱلْخُيَلاَ

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقال: ضل فلان الطريق أخطأه؛ أي: ضللت طريق الصواب وأخطأته من غير تعمّد، كمن رمى سهماً إلى طائر وأصاب آدمياً، وذلك لأن مراد موسى كان تأديبه، لا قتله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾؛ أي: ذهبت من بينكم إلى مدين، وهو من المضاعف اللازم، يجب كسر عين مضارعة، كما قال ابن مالك:

ذَا ٱلْوَاوَ فَاءً أَوِ ٱلْيَا عَيْنَاً أَوْ كَأَتَىٰ كَذَا ٱلْمُضَاعَفُ لاَزِماً كَحَنَّ طَلاَ

تقول: فرّ يفرّ فراراً، ودبّ يدبّ دبيباً، وحنّ يحنّ حنيناً.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقال: عبّدته إذا أخذته عبداً وقهرته وذللته.

﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرب: المربي والمتكفل لمصلحة الموجودات، والعالم اسم لما سوى الله تعالى من الجواهر والأعراض، سمّي عالماً؛ لأنه علامة على وجود صانعه وخالقه.

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ والجنون: مرض حائل بين النفس والعقل، كما في «المفردات».

﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾؛ أي: من المحبوسين عندي، وفي «المصباح»: سجنته

سجناً ـ من باب قتل ـ حبسته، والسِجن ـ بالكسر ـ: الحبس، والجمع سجون مثل حمل وحمول، اهـ.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ والإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه وتراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح.

﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر الثعبانية حقيقة، لا متخيلاً بالسحر، كما تفعله السحرة، والثعبان أعظم الحيات، وهو مشتق من ثعب بمعنى جرى لجريه بسرعة من غير رجل، كأنه ماء سائل، وأما كونه من ثعبت الماء فانثعب إذا فجرته فانفجر، وإن كان مآله ذلك فليس بمراد، اهـ «شهاب»، والثعبان يطلق على الذكر والأنثى، ويجمع على ثعابين. ﴿بَيْضَآءُ﴾؛ أي: ذات بياض ونور من غير برص. ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ وحول الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحول إليه وينقلب، والملأ جماعة يجتمعون على رأي يملؤون العيون رواء، والنفوس جلالة وبهاء. ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ والسحر: تخيلات لا حقيقة لها، فالساحر المحتال المخيل بما لا حقيقة له. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: من المؤامرة، لا من الأمر؛ وهي المشاورة، وقيل للتشاور: ائتمار؛ لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به.

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخّرته، ومنه المرجئة، وهما لغتان، أي أخر أمرهما، ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة قبل أن يظهر كذبهما.

﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: جمع مدينة؛ أي: في الأمصار والبلدان، وأقطار مملكتك.

﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: شرطاً يحشرون الناس ويجمعونهم.

﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ولما قال فرعون أولاً: إن هذا لساحر عليم عارضوا بقولهم: بكل سحار عليم، فجاء بكلمة الاستغراق والبناء الذي للمبالغة؛ لينفسوا عنه بعض ما لحقه من الكرب، ذكره أبو حيان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾؛ لأنه كناية عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء.

ومنها: المجاز العقلي في إسناد الخضوع للأعناق، فقد يقال: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق، والخضوع من خصائص العقلاء، وقد كان أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين؟ والسر في ذلك أنه لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء.. قيل: خاضعين، كما تقدم في قوله: ﴿لِي سَـٰجِدِينَ﴾، وههنا أقوال أخرى أوصلها علماء البيان إلى سبعة نلخصها فيما يلي:

١. المراد الرؤساء، كما قيل: لهم وجوه وصدور، يقال لهم: أعناق.

٢. أنه على حذف مضاف؛ أي: فظل أصحاب الأعناق، ثم حذف وبقي الخبر على ما كان عليه قبل الحذف مراعاة للمحذوف.

٣. أنه لما أضيف إلى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم، كما يكتسب التأنيث بالإضافة.

٤. أن الأعناق جمع عنق من الناس؛ وهم الجماعة، يقال: جاءنا عنق من الناس؛ أي: فوج، وليس المراد الجارحة المعلومة.

٥. إقحام الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله.

٦. ما ذكرناه من أنها عوملت معاملة العقلاء لما أسند إليها ما يكون عادة من أفعال العقلاء على طريق المجاز العقلي.

٧. أنه لما أضاف الأعناق إلى المذكورين، وكانت الأعناق متصلة بهم في الخلقة والتكوين.. أجرى عليها حكمهم.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ حيث جمع بين ﴿كَمْ﴾ و﴿كُلِّ﴾، مع إغناء أحدهما عن الآخر، وضابط التتميم أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو في

صفاته، ولفظه تام، والمقصود من الآية آحاد الأزواج، ولو أسقطت ﴿كلاً﴾، فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلاني.. لكنت مكنياً عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت كلاً فقد أديت بذكره آحاد كل صنف، وفائدة الجمع بين ﴿كُلِّ﴾ و﴿كَمْ﴾ أن ﴿كلاً﴾ إنما دخلت للإحاطة بأزواج النبات، و﴿كَمْ﴾ دلت على أن هذا المحاط مفرط بالكثرة، وفي ذلك تنبيه على تمام القدرة وكمالها، وهذا هو مقتضى التتميم الذي تقدمت الإشارة إليه.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ومنها: التوبيخ والإنكار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الاستفهام فيه للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾؛ لأن النداء رفع الصوت مأخوذ من الندى؛ وهو الرطوبة، فاستعيرت للصوت من حيث إن من تكثر رطوبة فمه حسن كلامه، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق، ذكره في «روح البيان».

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ حيث استعار الاستماع الذي هو طلب السمع بالإصغاء بالأذن للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات من غير إصغاء. والمعنى: إنا سامعون لما يجري بينكما وبينه، فأظهركما عليه. مثل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يسمع ما يجري بينهم، ليمد الأولياء منهم، ويظهرهم على الأعداء مبالغة في الوعد بالإعانة، وجعل الكلام استعارة تمثيلية؛ لكون وجه الشبه هيئة منتزعة من عدة أمور اهـ «روح».

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿رَسُولُ﴾ و﴿أَرْسِلْ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي؛ لإفادة التعظيم والتفخيم، فإن في عدم التصريح باسمها الخاص تعظيم تلك الفعلة، فإن قوله: ﴿ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يذهب فيها الوهم كل مذهب، ويحتمل الكثير من المعاني، وهو كثير شائع في القرآن الكريم.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿فَعَلْتَ﴾ و: ﴿فَعْلَتَكَ﴾ فقد اتفقت الحروف فيهما، واختلف الشكل، فصار جناساً غير تام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ دل على هذا الحذف السياق، تقديره: فأتيا فرعون فقولا له ذلك، فقال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

ومنها: إفادة التعجيب في قوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فكأنه قال: استمعوا ما يقول، وتعجبوا منه.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ فإنه استوعب به الخلائق كلها، ثم عاد إلى التخصيص بذكرهم وذكر آبائهم.

ومنها: التأكيد بـ ﴿إنّ﴾ واللام واسمية الجملة في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأن السامع متشكك ومتردد.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ في قوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

ومنها: لام العهد في قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾؛ أي: لأجعلنك من الذين عرفت أحوالهم في سجوني، فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة، ويتركهم حتى يموتوا، ولم يقل: لأسجننك للإشارة إلى أن ذلك ديدنه وعادته.

ومنها: الاستغراق والمبالغة في قوله: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأن كلمة ﴿كل﴾ تفيد الإحاطة والاستغراق، وكلمتي ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفيدان المبالغة؛

لأنهما من أوزان المبالغة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ
لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ
فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ
﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في أول السورة شدة حزنه ﷺ على كفر قومه

وعدم استجابتهم دعوته، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون في ذلك تسلية له، وليعلم أنه ليس ببدع في الرسل، وأن قومه ليسوا بأول الأمم عناداً واستكباراً، فقد أتى موسى بباهر المعجزات وعظيم الآيات، ولم يؤمن به من قومه إلا القليل، ولم يؤمن به من المصريين إلاّ النذر اليسير.. أردف ذلك بقصص إبراهيم أبي الأنبياء، وخليل الرحمن؛ ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد، وآلامه كانت أمضىٰ، فهو كان يرى أن أباه وقومه صائرون إلى النار، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم، وقد أكثر حجاجهم حتى حجهم، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغني عنهم شيئاً، فهي لا تسمع دعاءهم ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾، ولو سمعت لم تغن عنهم شيئاً، ثم ذكر لهم صفات الرب الذي ينبغي أن يعبد، وفصلها أتم التفصيل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي: بعث فرعون الشرط في المدائن لجمع السحرة، فجمعوا وهم اثنان وسبعون، أو سبعون ألفاً كما يدل عليه كثرة الحبال والعصي التي خيلوها، وكان اجتماعهم بالإسكندرية على ما رواه الطبري. ﴿لِمِيقَـٰتِ﴾ وميعاد ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ عندهم. والميقات[1]: الوقت المضروب للشيء؛ أي: اجتمعت السحرة في الوقت الذي وقت به موسى، وعين لهم من ساعات يوم معين، وذلك الوقت وقت الضحى من يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم، كانوا يتزينون ويجتمعون فيه كل سنة، روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه وافق يوم السبت في أول يوم من السنة؛ وهو يوم النيروز، وهو أول يوم من فروردين ماه، ومعنى نيروز بلغة القبط: طلع الماء؛ أي: علا ماء النيل، وبلغة العجم نوروز؛ أي: اليوم الجديد، وهو أول السنة المستأنفة عندهم.

وإنما وقت لهم موسى وقت الضحى من يوم الزينة في قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ

---

(١) روح البيان.

﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار، واختاره فرعون أيضاً، ليظهر كذب موسى بمحضر الجمع العظيم، فكان ما كان.

﴿وَقِيلَ﴾ من طرف فرعون ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لأهل مصر وغيرهم ممن يمكن حضوره ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لتنظروا ما يفعل الفريقان، ولمن تكون له الغلبة، وليس المراد بـ﴿هَلْ﴾ حقيقة الاستفهام بقرينة عدم الجواب، بل المراد بالاستفهام الحث على المبادرة إلى الاجتماع والترجي للغلبة، لا لاتباع السحرة؛ لأنه مقطوع به. والمعنى؛ أي[1]: احضروا لتشاهدوا ما يكون من الجانبين ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى، لا لموسى؛ أي: فإنا نرجو أن تكون الغلبة للسحرة، فنتبعهم في دينهم، لا نتبع موسى. قال ابن جرير: ﴿لعل﴾ هنا بمعنى كي. والمراد[2] باتباع السحرة في دينهم: هو البقاء على ما كانوا عليه؛ لأن دين السحرة إذ ذاك هو دينهم، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى. وقيل[3]: أرادوا بالسحرة موسى وهارون، وقالوا ذلك على طريقة الاستهزاء.

والمعنى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ...﴾ إلخ؛ أي[4]: إن الملأ بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت في أمر موسى، وبأن من الخير له أن يجمع السحرة؛ ليظهر عند حضورهم فساد قوله.. رضي بما أشاروا به واستقروا عليه، وأحب أن تقع المناظرة في يوم عيد لهم؛ لتكون بمحضر الجمّ الغفير من الناس، ويتم الله نوره، ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ حثاً لهم على المبادرة إلى الاجتماع، ومشاهدة ما يكون من الجانبين ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ في ذلك الميقات لتروا ما سيكون في ذلك اليوم المشهود، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وقد طلب أن يكون بمجمع من الناس؛ لئلا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع من موسى الموقع الذي يريده؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين، وقهر للمبطلين ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾؛ أي: إنا نرجوا أن يكون لهم الغلبة فنتبعهم ونستمر على دينهم، ولا نتبع دين موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ فرعون ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: السحرة ﴿لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي: جعلاً عظيماً، أو لجزاء تجزينا به من مال أو جاه، وقيل: أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا: ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لا موسى، ووافقهم فرعون على ذلك، و﴿قَالَ نَعَمْ﴾ نعم ذلك عندي. وقرأ[1] الكسائي ﴿نعم﴾ بكسر العين، وهما لغتان. اهـ «بيضاوي». ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذا غلبتم ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، تكونون أول من يدخل علي، وآخر من يخرج من عندي. وكان[2] ذلك من أعظم المراتب عندهم، وهكذا حال أرباب الدنيا في حب قربة السلطان ونحوه، وهو من أعظم المصائب عند العقلاء.

فلما تقابلوا مع موسى ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ﴾؛ أي: اطرحوا ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: ما أنتم تريدون إلقاءه، لم يرد به أمرهم بالسحر والتمويه؛ لأن ذلك غير جائز، بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل، قال في «كشف الأسرار»: ظاهر الكلام أمر، ومعناه التهاون في الأمر، وترك المبالاة بهم وبأفعالهم، وتهديد لهم. وعبارة «الكرخي»: هذا[3] جواب سؤال صورته: كيف يجوز على النبي المعصوم الأمر بالكفر؟

وحاصل الجواب: أن صيغة الأمر ليست على حقيقتها، بل هي مجاز عن الإذن، فإن قيل: الإذن يستلزم الرضا فيعود الإشكال؟ فالجواب: أن الممتنع هو الرضا في حال كونه مستحسناً، ولا يلزم ذلك هنا، بل اللازم هو الرضا به للتوسل إلى إبطاله، وهذا عين استقباحه، فليس فيه محظور، اهـ.

---

(١) البيضاوي.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

فإن قلت: إن ما هنا يدل على أن البادىء بالكلام هو موسى عليه السلام، وفي سورة طه: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾، فيدل على أن البادىء هم السحرة، فبين الآيتين معارضة في تعيين البادىء، فبين وجه الجمع بينهما؟

قلتُ: يجمع بينهما بحمل ما هنا على أنه قال لهم: ألقوا، بعد أن قالوا هذا القول، فحينئذ البادىء بالكلام هم السحرة.

﴿فـ﴾ بعد أن قال لهم موسى ألقوا ﴿ألقوا حبالهم﴾: جمع حبل ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾: جمع عصا، اثنين وسبعين ألف حبل، واثنتين وسبعين ألف عصا ﴿وَقَالُوا﴾ عند الإلقاء حالفين ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وعظمته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على موسى وهارون. أقسموا[1] بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى من السحر، والقسم بغير الله من أيمان الجاهلية، وفي الحديث: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت، ولا تحلفوا إلا بالله إلا وأنتم صادقون».

وقال الشوكاني: قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين:

الأول: أنه قسم، وجوابه: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

والثاني: أنه متعلق بمحذوف، والباء للسببية؛ أي: نغلب بسبب عزته. قال بعضهم[2]: رأوا كثرة تمويهاتهم وقلة العصا، فنظروا إليها بنظر الحقارة، وظنوا غلبة الكثير على القليل، وما علموا أن القليل من الحق يبطل الكثير من الباطل، كما أن قليلاً من النور يمحو كثيراً من الظلمة، اهـ.

قال أبو حيان[3]: وعدلوا عن الخطاب إلى اسم الغيبة، في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ تعظيماً له، كما يقال للملوك: أمروا بكذا، فيخبر عنه إخبار الغائب، وهذا من نوع أيمان الجاهلية، وقد سلك كثير من المسلمين في الأيمان ما هو

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

أشنع من أيمان الجاهلية، لا يرضون بالقسم بالله، ولا يعتدون به، حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان، وبإغاثة شيخه، وبرأس المحلف، فحينئذ يستوثق منه.
وقال ابن عطية: بعد أن ذكر أنه قسم قال: والأحسن أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه، كما تقول إذا ابتدأت بعمل شيء: بسم الله وعلى بركة الله، ونحو هذا.

والمعنى: أي[1] قال لهم موسى: ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم على إبطال ما أدعيه من المعجزات، فألقوا ما معهم من الحبال والعصي، وقد كانت مطلية بالزئبق، والعصي مجوفة مملوءة به، وقالوا: بقوة فرعون وجبروته إنا لنحن الغالبون، فلما حميت حرارة الشمس اشتدت حركتها، وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم، وجاء في سورة طه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾، وقد استفرغوا الوسع، وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية، بل ما فوقها، وأن النصر قد كتب لهم ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ بالأمر الإلهي ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: عصاه ﴿تَلْقَفُ﴾؛ أي: تبتلع بسرعة. وقرأ حفص: ﴿تَلْقَفُ﴾ بالتخفيف، اهـ. «بيضاوي» ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يقلبونه؛ أي: وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون ويغيرون صورته وحاله الأولى من الجمادية بتمويههم وتخييل الحبال والعصي أنها حيات تسعى، وجاء في آية أخرى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

والمأخوذ عند بعض المحققين[2]: أنها التقفت صور الحيات من حبال السحرة وعصيهم، حتى بدت للناس حبالاً وعصياً كما هي في نفس الأمر، كما يبطل الخصم بالحق حجة خصمه، فيظهر بطلانها، لا نفس الحبال والعصي كما هو عند الجمهور، وإلا لدخل على السحرة الشبهة في عصا موسى، والتبس عليهم الأمر، فكانوا لم يؤمنوا، وكان الذي جاء به موسى حينئذ من قبيل ما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

جاءت به السحرة، إلا أنه أقوى منهم سحراً، ويدل على ما قلنا قوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿تلقف ما صنعوا﴾، وما أفكوا الحبال وما صنعوا العصي بسحرهم، وإنما صنعوا وأفكوا في أعين الناظرين صور الحيات، وهي التي تلقفته عصا موسى، ذكره الإمام الشعراني في «الكبريت الأحمر».

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ على وجوههم حالة كونهم ﴿سَٰجِدِينَ﴾ لله تعالى؛ أي: ألقوا إثر ما شاهدوا ذلك من غير تردد غير متمالكين، كأن ملقياً ألقاهم لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر، وأنه أمر إلهي قد ظهر على يده لتصديقه.

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: فاعل الإلقاء ما هو لو صرّح به؟

قلت: هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق وإيمانهم، أو بما عاينوا من المعجزة الباهرة، انتهى.

وفي هذا[2]: دليل على أن التبحر في كل فن نافع، فإن السحرة ما تيقنوا بأن ما فعل موسى معجزهم إلا بمهارتهم في فن السحر، وعلى أن منتهى السحر تمويه وتزوير وتخييل شيء لا حقيقة له، وجه الدلالة أن حقيقة الشيء لو انقلبت إلى حقيقة شيء آخر بالسحر.. لما عدوا انقلاب العصا حية من قبيل المعجزة الخارجة عن حد السحر، ولما خروا ساجدين عند مشاهدته، وقد سبق تفصيل السحر في سورة طه.

قال بعضهم: السِّحر: مأخوذ من السَّحر، وهو ما بين الفجر الأول والفجر الثاني، وحقيقته اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار، فكذلك ما فعله السحرة ما هو باطل محقق فيكون عدماً، فإن العين أدركت أمراً لا تشك فيه، وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفسه كما تشهد العين ويظنه الرائي. قال الشعراني بعدما نقله: هو كلام نفيس ما سمعنا مثله قط.

---

(١) الكشاف. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي فخروا سجداً لله؛ لأنهم قد علموا أن هذا الذي فعلوه هو منتهى التخييل السحري، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا، وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى، وحينئذ خروا سجداً لله القوي القاهر فوق عباده.

وفي التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا، ثم فاهوا بما يجيش في صدورهم، وتنطوي عليه جوانحهم ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: السحرة، بدل اشتمال من ﴿فَأُلْقِىَ﴾، فلذلك لم يتخلل بينهما عاطف، أو[1] حال بإضمار قد ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون، انظر كيف أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء مسلمين مؤمنين، فالمغرور من اعتمد على شيء من أعماله وأقواله وأحواله، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بدل من[2] ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لدفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك، ولو وقفوا على رب العالمين.. لقال فرعون: أنا رب العالمين؛ إياي عنوا، فزادوا ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، فارتفع الإشكال، وفي هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية، وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله تعالى على يدي موسى وهارون من المعجزات، وأضافوه سبحانه إليهما؛ لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحال، وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس برب، وأن الرب في الحقيقة هو هذا.

وبعد أن حصحص الحق، ووضح الصبح لذي عينين.. لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة، وشرع يهدد ويتوعد، ولكن ذلك لم يجد في السحرة شيئاً، ولم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً إذ كان حجاب الكفرة قد انكشف، واستبان لهم نور الحق وعلمهم ما جهل قومهم، وأن القوة التي تؤيد موسى قوة غيبية، قد أيده الله بها وجعلها دليلاً على صدق ما يدعي.

فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجودهم لله.. ﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعون

---

(١) بيضاوي. (٢) روح البيان.

للسحرة ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾؛ أي: لموسى، وصدقتم به بصيغة الخبر، ويجوز تقدير همزة الاستفهام كما في الأعراف. وقرأ[1] حمزة والكسائي وأبو بكر وروح: ﴿أأمنتم﴾ بهمزتين أولاهما للاستفهام التقريري المضمن للتهديد ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ أي[2]: بغير إذن لكم من جانبي، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لا أن إذن الإيمان ممكن أو متوقع، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا، وموهماً للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾؛ أي: لعالمكم وأستاذكم ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء، ولذلك غلبكم أو فوادعكم على ما فعلتم وتواطأتم عليه قبل أن تخرجوا إلى هذا الموضع، كما قال في الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. وإنما[3] اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة.. فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الرب الذي يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال: ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ﴾؛ أي: وبال ما فعلتم، واللام[4] للتأكيد، لا للقسم، ولا للحال، فلذلك اجتمعت بحرف الاستقبال أجمل ما أوعدهم أولاً للتهويل، ثم فصله، فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾؛ أي: أقسمت لكم بقهري وسلطاني لأقطعن منكم أكفكم وأقدامكم حالة كونها من خلاف؛ أي: متخالفات من كل شق طرفاً، وهو أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، وذلك زمانة من جانبي البدن، كما في «كشف الأسرار». وهو أول من قطع من خلاف وصلب كما في «فتح الرحمن».

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

وصيغة التفعيل وهو التقطيع لكثرة الأيدي والأرجل، كما تقول: فتحت الباب، وفتحت الأبواب. وقال بعضهم: من للتعليل؛ أي: من أجل[1] خلاف ظهر منكم، وذلك[2] لأن القطع المذكور لكونه تخفيفاً للعقوبة، واحترازاً عن تفويت منفعة البطش على الجاني لا يناسب حال فرعون ولما هو بصدده، إلا أن يحمل على حمقه حيث أوعد لهم في موضع التغليظ بما وضع للتخفيف، انتهى. وذلك وهم محض؛ لأنه يدفعه قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ على شاطىء البحر كلكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ قال في «الكشف»؛ أي: أجمع عليكم التقطيع والصلب، روي أنه علقهم على جذوع النخل حتى ماتوا، ولكن ليس في الآية ما يدل على أن فرعون فعل ذلك أو لم يفعل، وفي الأعراف ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فأوقع المهلة؛ ليكون هذا التصليب بعذابهم أشد. ويجمع بين ما في الموضعين بجعل ﴿الواو﴾ هنا بمعنى ثم؛ لأن المهلة أغلظ في التعذيب.

وحاصل معنى الآية: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؛ أي[3]: قال لهم فرعون: أتؤمنون به قبل أن تستأذنوني، وقد كان ينبغي أن تفعلوا ذلك، وأن لا تفتاتوا علي، فإني أنا الحاكم المطاع، ثم التمس لايمانهم عذراً آخر غير انبلاج الحق؛ ليعمي على العامة، ويصرفهم عن وجه الحق، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، فأنتم فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبينه، ولا شك أن هذا تضليل لقومه، ومكابرة ظاهرة البطلان، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون هو كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر، ثم توعدهم، فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم، وسوء عاقبة ما اجترحتم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ الخ؛ أي: لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم، والرجل اليسرى، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك.

فأجابوه غير مكترثين بقوله، ولا عابئين بتهديده بأمرين كل منهما دليل على

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

اطمئنان النفس وبرد اليقين:

١. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: السحرة المؤمنون ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ أي: لا ضرر علينا في تنفيذ وعيدك، ولا نبالي به؛ لأن كل حي لا محالة ميت:

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَعَدَّدَتِ ٱلْأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

ونحو ذلك قول علي ـ كرم الله وجهه ـ: لا أبالي أوقعت على الموت، أم وقع الموت عليّ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون فيثيبنا بالصبر على ما فعلت، ويجازينا على الثبات على التوحيد، وفي الآية دلالة على أن للإنسان أن يظهر الحق وإن خاف القتل.

والمعنى: أي[1] لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا، فإن ذلك يزول ويذهب، وننقلب بعده إلى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحد ولا يوصف، قال الهروي: لا ضير، ولا ضرر، ولا ضرّ بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة:

فَإِنَّكَ لاَ يَضُرُّكَ بَعْدَ حَوْلٍ   أَظَبْيٌ كَانَ أُمَّكَ أَمْ حِمَارُ

قال الجوهري: ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً؛ أي: ضره، قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني.

٢. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ ونرجوا ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ السالفة من الشرك وغيره، ثم عللوا هذا بقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح همزة ﴿أَن﴾، والجملة في المعنى تعليل ثان لنفي الضير، أو تعليل للعلة المتقدمة كما في «البيضاوي»؛ أي: لأن كنا أول المؤمنين بموسى من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد بعد ظهور الآية. وقال الفراء: أول مؤمني زمانهم. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معهم ست مئة ألف وسبعون ألفاً؛ وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾، وأجاز الفراء والكسائي كسر همزة إن على أن يكون مجازاة، والمعنى؛ أي: ولأنا نأمل أن يغفر لنا ربنا ما فعلنا من

---

(١) الشوكاني.

السحر، واعتقدناه من الكفر من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا هذا الموقف انقياداً للحق، وإعراضاً عن زخرف الدنيا وزينتها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أن كنا﴾ بفتح الهمزة، وفيه الجزم بإيمانهم، وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ ﴿إن كنا﴾ ـ بكسر الهمزة ـ قال صاحب «اللوامح»: على الشرط، وجاز حذف الفاء من الجواب؛ لأنه متقدم، وتقديره: إن كنا أول المؤمنين فإنا نطمع، وحسن الشرط لأنهم لم يتحققوا مآلهم عند الله تعالى من قبول الإيمان. انتهى وهذا التخريج على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد حيث يجيزون تقديم جواب الشرط عليه، ومذهب جمهور البصريين أن ذلك لا يجوز، وجواب مثل هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. وقال البيضاوي[2]: وقرىء ﴿إن كنا﴾: على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المدل بأمره: إن أحسنت إليك فلا تنس حقي اهـ.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ قاله هنا بحذف[3] لام التأكيد، وفي الزخرف قاله بإثباتها ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ فإن قلت: فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: لأن ما هنا كلام السحرة حين آمنوا، ولا عموم فيه، فناسب عدم التأكيد، وما في الزخرف عام لمن ركب سفينة أو دابة فناسبه التأكيد.

قال ابن عطاء[4]: من اتصلت مشاهدته بالحقيقة احتمل معها كل وارد عليه من محبوب أو مكروه، ألا ترى أن السحرة لما صحت مشاهدتهم كيف قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾.

وكان جعفر ابن عم النبي ﷺ آخذ اللواء في بعض الغزوات بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضده حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) فتح الرحمن.
(٤) روح البيان.

فأثابه الله تعالى بذلك جناحين في الجنة، يطير بهما حيث شاء، ولذلك قيل له: جعفر الطيار، وهكذا شأن من هو صادق في دعواه فليخفف ألم البلاء عنك علمك بأن الله تعالى هو المبتلي، لكن هذا العلم إذا لم يكن من مرتبة المشاهدات لا يحصل التخفيف التام، فحال السحرة كانت حال الشهود والجذبة، وكان حال عمر ـ رضي الله عنه ـ حين الإيمان كحال السحرة، وبالجملة أن الإيمان وسيلة الإحسان، فمن سعى في إصلاح حاله في باب الأعمال أوصله الله تعالى إلى ما أوصل إليه أرباب الأحوال، كما قال عليه السلام: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعد ثلاثين سنة ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: بمن آمن معك من بني إسرائيل، والإيحاء: إعلام في خفاء، ويقال: سرى يسري سُرىً إذا سار ليلاً، كما سيأتي في مبحث التصريف، وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به، والمعنى[1]: وقلنا لموسى بطريق الوحي: يا موسى اذهب ببني إسرائيل بالليل، وسر بهم حتى تنتهي إلى بحر القلزم، فيأتيك هناك أمري فتعمل به، وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق، ويظهر لهم الآيات، فلم يزيدوا إلا عتواً وفساداً وعلم الانتهاء إلى البحر من الوحي؛ إذ من البعيد أن يؤمر بالمسير ليلاً وهو لا يعرف جهة الطريق، ومن قول جبريل حين خرجوا من مصر: موعد ما بيني وبينك يا موسى البحر؛ أي: شط بحر القلزم. تقدم[2] الخلاف في ﴿أَسْرِ﴾، وأنه قرئ بوصل الهمزة، وبقطعها في سورة هود، وقرأ اليماني: ﴿أن سر﴾ أمر من سار يسير. وجملة قوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: يتبعكم فرعون وجنوده تعليل للأمر بالإسراء؛ أي: أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر، بل يكونون على أثركم حين تدخلون البحر، فيدخلون مداخلكم، فأطبقه عليهم فأغرقهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ثم[1] إن قوم موسى قالوا لقوم فرعون: إن لنا في هذه الليلة عيداً، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر. قال القرطبي: فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره، وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أمرت، فلما أصبح فرعون، وعلم بسري موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، وقوى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم، ووصف قوم نفسه بصفة المدح، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبر بمسيرهم في الليل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾؛ أي: في مدائن مصر وبلدانها ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: شرطاً جامعين للعساكر ليتبعوهم. قيل: كان له ألف مدينة واثنا عشر ألف قرية، وقال لهم حين جمع عساكر المدائن ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾؛ أي: لطائفة قليلة، وكانوا ست مئة ألف مقاتل، ليس فيهم من دون عشرين سنة، ولا من يبلغ ستين سوى الحشم، وفرعون يقللهم؛ إذ روي أنه أرسل في أثرهم ألف ألف ملك وخمسة آلاف ملك إلخ. وخمس مئة ألف ملك مسور، ومع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبع مئة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة.

وعن ابن عباس: خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث. وروي أن فرعون خرج على حصان أدهم، وفي عسكره على لون فرسه ثلاث مئة ألف، والشرذمة الطائفة القليلة. وقال: قليلون دون قليلة باعتبار أنهم أسباط، كل سبط منهم سبط قليل ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن بني إسرائيل ﴿لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾؛ أي: لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم ديننا، وذهابهم بأموالنا التي استعاروها أن لهم عيداً في هذه الليلة، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا، وهم منخرطون في سلك عبادنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: لجماعة متيقظون غير مغفلين، يستعملون الحزم والاحتياط في الأمور.

---

(١) المراح.

يريد أن بني إسرائيل لقلتهم وحقارتهم لا يبالي بهم، ولا يتوقع علوهم وغلبتهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق بها صدورنا، ونحن جمع وقوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرة فساده، قاله فرعون لأهل المدائن؛ لئلا يظن به أنه خاف من بني إسرائيل.

وقيل: معنى ﴿حَٰذِرُونَ﴾؛ أي: خائفون من شرهم. وقيل: ذووا قوة وأداة، شاكون السلاح؛ أي: متسلحون.

وقرأ الكوفيون وابن ذكوان وزيد بن علي ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بالألف بعد الحاء؛ أي: شاكون السلاح، وقرأ باقي السبعة ﴿حذرون﴾ بغير ألف؛ أي: متيقظون. وقال الزجاج: مؤدون؛ أي: متسلحون، وقرأ سميط بن عجلان وابن أبي عمار وابن السميقع: ﴿حادرون﴾ بالدال المهملة؛ أي: أقوياء أشداء.

فصل في بيان كيفية خروجهم من مصر

وقد جاء في سفر الخروج من التوراة في الإصحاح الحادي عشر: إن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه، وكل امرأة من صاحبتها أمتعة ذهب وأمتعة فضة، وأن الله سبحانه سيميت كل بِكْرٍ في أرض مصر من الإنسان والحيوان، وأمرهم أن يذبح أهل كل بيت شاة في اليوم الرابع عشر من شهر الخروج، وأن يلطخوا القائمتين والعتبة العليا من الدار بالدم، وأن يأكلوا اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير، وأمرهم أن يأكلوا بعجلة، ويأكلوا الرأس مع الأكارع والجوف، وهذا هو فصح الرب، وهذا الدم علامة على بيوت بني إسرائيل حتى يحفظ كل بكر معهم، ويتخطاهم إلى أبكار المصريين، ويكون أكل الفطير سبعة أيام، ويكون هذا فريضة أبدية تذكاراً بالخروج من مصر من يوم (١٤) من شهر أبيب إلى (٢١) من هذا الشهر كل سنة، وهكذا أمر موسى قومه بذلك، ففعلوا كل هذا، ونجا أولادهم، وصار ذلك سنة أبدية، ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان في جميع بلاد مصر في نصف الليل اشتغل الناس بالأموات، وأخذ بنوا

إسرائيل غنمهم وبقرهم وعجينهم قبل أن يختمر، ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم، وفعللوا ما أمرهم به الرب، فارتحلوا من رَعْمَسِيس إلى سكوت، وكانوا ست مئة ألف ماشٍ من الرجال ما عدا الأولاد، وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز ملة، فطيراً، اهـ.

وكانت[1] إقامة بني إسرائيل في مصر (٤٣٠) سنة، وليلة الخروج هي عيد الفصح عندهم إلى الأبد، فلما أسرى بهم موسى، وأخبر فرعون بما صنعوا أرسل في مدائن مصر رجالاً من حرسه ليجمعوا الجند، فيتبعوهم ويردوهم إلى مصر، ويعذبوهم أشد التعذيب على ما فعلوا، ثم قوى فرعون جنده في اقتفاء آثارهم بأمور:

١. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ فيسهل اقتفاؤهم وإرجاعهم، وكبح جماحهم في الزمن الوجيز.

٢. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥﴾؛ أي: وإنهم بين آونة وأخرى يصدر منهم ما يخل بالأمن، فيحدثون الشغب والاضطراب في البلاد، إلى أنهم ذهبوا بأموالنا التي استعاروها.

٣. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾؛ أي: وإن لنا أن نحذر عاقبة أمرهم قبل أن يستفحل خطبهم، ويصعب رأب صدعهم، ونحن قوم من دأبنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور.

وخلاصة مقاله: أنّ هؤلاء عدد لا يعبأ به، وأن في مقدورنا أن نبيدهم بأهون الوسائل، ولا خوف منهم إذا نحن اتبعنا آثارهم، ورددناهم على أعقابهم خاسئين، حتى لا يعودوا كرة أخرى إلى الإخلال بالأمن والهرج والمرج والاضطراب في البلاد، وهذا ما يقتضيه الحزم واليقظة في الأمور.

والذي نقول به ونجزم: أن بني إسرائيل كانوا أقل من جند فرعون، لكنا لا

---

(١) المراغي.

نجزم بعدد معين، وما في كتب التاريخ والتوراة مبالغات يصعب تصديقها كما ذكرنا، ولا ينبغي التعويل عليها، فخير لنا أن لا نشغل أنفسنا باستقصاء تفاصيلها، وقد فند ابن خلدون في مقدمة تاريخه هذه الروايات، وأبان ما فيها من مغالاة لا يقبلها العقل، ولا تثبت أمام البحث العلمي الصحيح.

وقد جازى الله فرعون وجنوده بما أرادوا أن يجازوا به بني إسرائيل، فأهلكوا جميعاً، كما قال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾؛ أي:[1] فأخرجنا فرعون وقومه بأن خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب، فحملتهم عليه، يعني أنهم وإن خرجوا باختيارهم إلا أنه أسند الإخراج إليه تعالى من حيث الخلق المذكور ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: من بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل من أسوان إلى رشيد ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية من الماء ﴿وَكُنُوزٍ﴾؛ أي: وأموال ظاهرة من الذهب والفضة ونحوهما. سمّاها كنزاً؛ لأن ما لا يؤدي منه حق الله تعالى فهو كنز، وإن كان ظاهراً على وجه الأرض، وما أدي منه فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، والكنز: المال المجموع المحفوظ.

فائدة: والفرق بين الكنز والركاز والمعدن أن الركاز: المال المركوز؛ أي: المدفون في الأرض مخلوقاً كان أو موضوعاً. والمعدن: ما كان مخلوقاً. والكنز: ما كان موضوعاً. قال في «خريدة العجائب»: وفي أرض مصر كنوز كثيرة، ويقال: إن غالب أرضها ذهب مدفون حتى قيل: إنه ما فيها موضع إلا وهو مشغول من الدفائن.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: مجلس حسن. قيل[2]: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت لهم. قيل: إنه إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاث مئة كرسي من ذهب، يجلس عليها الأشراف من قومه والأمراء، وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب. وقيل: أراد به المنازل الحسنة، وهذا أظهر، ومن ذلك قول الشاعر:

وَفِيْهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إما[1] مصدر تشبيهي لـ﴿أخرجنا﴾؛ أي: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه، فهو في محل نصب، أو في محل جر صفة لـ﴿مقام﴾؛ أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم، أو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: إخراجنا كذلك؛ أي: كما وصفنا فيهم، أو الأمر كذلك، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيَ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معطوف على ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾؛ أي: ملكنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل على طريقة تمليك مال المورث للوارث، كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها. والمعنى: جعلناهم متملكين لتلك النعيم بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: المعنى؛ أي: وملكنا بني إسرائيل جنات وعيوناً مماثلة لها في أرض الميعاد التي ساروا إليها، وفي هذا بيان أن حالهم تحول من الاستعباد والرق إلى الشرف والنعيم والعيون والمقام الكريم.

والمعنى: أي[2] فأخرجناهم من النعيم إلى الجحيم، وتركوا المنازل العالية، والبساتين والأنهار والأموال والملك والجاه العظيم الذي لم يسمع بمثله، وأورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾؛ أي: لحق فرعون وقومه موسى وأصحابه حالة كون فرعون وقومه ﴿مُّشْرِقِينَ﴾؛ أي: داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها، أو حالة كون موسى وأصحابه داخلين في الشروق، فهو حال إما من الفاعل، أو من المفعول، أو منهما جميعاً؛ لأن الدخول المذكور قائم بهم جميعاً، والمعنى: فجعلوا أنفسهم تابعة لبني إسرائيل وقت شروق الشمس وطلوعها.

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ بقطع الهمزة؛ أي: جعلوا أنفسهم تابعة. وقرأ الحسن والحارث الديناري بوصلها وتشديد التاء؛ أي: لحقوهم.

والخلاصة: أي فخرجوا من مصر في حفل عظيم وجمع كثير من أولي الحل والعقد من الأمراء والوزراء والرؤساء والجند، فوصلوا إليهم حين شروق

---

(١) مراح. (٢) المراغي.

الشمس.

ثم ذكر ما عَزَا بني إسرائيل من الخوف حين رؤيتهم فرعون وقومه، فقال: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: فلما رأى كل من الفريقين صاحبه. وقرأ الجمهور: ﴿تَرَٰٓءَا﴾ بتخفيف الهمزة مثل تراعى، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿تراي الجمعان﴾ بغير همز على مذهب التخفيف، وقرأ حمزة: ﴿تريء﴾ بكسر الراء وبمد ثم همز، وروى مثله عن عاصم، وقرىء: ﴿تراءت الفئتان﴾، والصواب قراءة الجمهور؛ لأنه من باب تفاعل؛ أي: فلما رأى أحد الفريقين الآخر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ أي: ملحقون، قالوا ذلك حين رأوا العدو القوي وراءهم والبحر أمامهم، وساءت ظنونهم؛ أي: إنا لملحقون من ورائنا، ولا طاقة لنا بقوم فرعون، وهذا البحر أمامنا، لا منفذ لنا فيه. قرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بإسكان الدال اسم مفعول من أدرك، ومنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير بفتح الدال مشددة وكسر الراء على وزن مفتعلون، وهو لازم بمعنى الفناء، والاضمحلال، يقال منه: أدرك الشيء بنفسه إذا فني تتابعاً، ولذلك كسرت الراء على هذه القراءة. وقال الزمخشري: إن معنى هذه القراءة: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، وقال الفراء: معناهما؛ أي: معنى القراءتين واحد.

والخلاصة: أنا لمتابعون، وسنهلك على أيديهم، حتى لا يبقى منا أحد؛ لأنا قد انتهى بنا المسير إلى سيف البحر ـ ساحله ـ، وقد أدركنا فرعون وجنوده، فأجابهم موسى وطمأنهم وقوى نفوسهم حيث ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن ذلك المقال، فإنهم لا يدركونكم فإن الله تعالى وعدكم الخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصر والرعاية والعناية ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيدلني إلى طريق النجاة منهم البتة.

أي: قال موسى لهم: إنه لن يصلكم شيء مما تحذرون، فإن الله هو الذي

---

(١) البحر المحيط.

أمرني أن أسير بكم إلى هنا، وهو تعالى لا يخلف وعده، فهو سيهدين إلى طريق النجاة والخلاص وسينصرني عليهم ويتكفل بمعونتي.

روي[1]: أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه كان بين يدي موسى عليه السلام، فقال: يا كليم الله أين أمرت؟ قال ههنا، فحرك فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه، ثم أقحمه البحر، فارتسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدروا، فأوحى الله إليه بضرب البحر بعصاه، فإذا الرجل واقف على فرسه، ولم يبتل سرجه، ولا لبده، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: قلنا له يا موسى اضرب بعصاك البحر. ف﴿أَنِ﴾ مفسرة بمعنى أي، و﴿ٱلْبَحْرَ﴾[2]: هو بحر القلزم؛ وهو طرف من بحر فارس، والقُلْزُم ـ بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي ـ: بليدة كانت على ساحل البحر من جهة مصر، بينها وبين مصر نحو ثلاثة أيام، وقد خربت، ويعرف موضعها اليوم بالسويس تجاه عجرود، منزل ينزله الحاج المتوجه من مصر إلى مكة، وبالقرب منها غرق فرعون، وبحر القلزم بحر مظلم وحش، لا خير فيه ظاهراً وباطناً، وعلى ساحل هذا البحر مدينة مدين؛ وهي خراب، وبها البئر التي سقى موسى عليه السلام منها غنم شعيب، وهي معطلة الآن.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ عاطفة على محذوف تقديره: فضربه موسى فانفلق ماء البحر؛ أي: انشق فصار اثني عشر فرقاً بعدد الأسباط بينهن مسالك ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾؛ أي: كل جزء تفرق منه وتقطع ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: كالجبل المرتفع في السماء الثابت في مقره، فدخلوا في شعاب تلك الفرق، كل سبط في شعب منها، فقال كل سبط: قتل أصحابنا، فعند ذلك دعا موسى ربه، فجعل في تلك الجدران المائية مناظرة كالكوى حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة.

قال الراغب: الطود: الجبل العظيم، ووصفه بالعظم؛ لكونه فيما بين

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

الأطواد عظيماً، لا لكونه عظيماً فيما بين سائر الجبال. وحكى[1] يعقوب عن بعض القراءة أنه قرأ: ﴿كل فلق﴾ باللام عوض الراء.

قيل: لما انتهى موسى ومن معه إلى البحر هاجت الرياح، فصار البحر يرمي بموج كالجبال، قال يوشع: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا، والبحر أمامنا؟ قال موسى: ههنا، فخاض يوشع الماء لا يواري حافر دابته، وقال الذي يكتم إيمانه من آل فرعون: يا كليم الله أين أمرت؟ قال: ههنا، فكبح فرسه، فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء إلى آخر ما تقدم آنفاً. قيل: دخلوا البحر بالطول وخرجوا في الصفة التي دخلوا منها بعد مسافة، وكان بين موضع الدخول وموضع الخروج أوعار وجبال لا تسلك.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾؛ أي: قربنا ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: هناك؛ أي: في موضع انفلاق البحر ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾؛ أي: فرعون وقومه حتى دخلوا عقب قوم موسى مداخلهم. وعن[2] عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين قوم فرعون، يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويقول للقبط: رويدكم ليلحق آخركم أولكم، فكان بنو إسرائيل يقولون: ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل، وكان قوم فرعون يقولون: ما رأينا أحسن دعة من هذا الرجل.

وقيل المعنى: وقربناهم إلى الموت؛ لأنهم قربوا من أجلهم في ذلك الوقت. وقيل: المعنى: وحبسنا فرعون وقومه في الضبابة عند طلبهم موسى بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم، فوقفوا حيارى.

وقرأ الحسن وأبو حيوة[3]: ﴿وزلفنا﴾: بلا ألف ثلاثياً، وقرأ أبي وابن عباس وعبد الله بن الحارث: ﴿وأزلقنا﴾ بالقاف بدل الفاء؛ أي: أزللنا وأهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

والمعنى: أي[1] وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضرب فانفلق، فكان كل قطعة من الماء كالجبل العالي، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، لكل سبط منهم طريق، وصار فيه طاقات ينظر منها بعضهم إلى بعض، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبساً كوجه الأرض، كما قال في آية أخرى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: وقربنا فرعون وجنوده من البحر، وأدنيناهم منه.

وقوله: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ قبله محذوف تقديره: ودخل موسى وبنو إسرائيل البحر، وأنجيناهم ومن اتبعهم على دينهم كلهم أجمعين، فلم يهلك منهم أحد؛ أي: أنجيناهم من الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: فرعون وقومه بإطباق البحر عليهم، ولم نبق منهم أحداً.

والخلاصة: أنه لما خرج أصحاب موسى، وتتام أصحاب فرعون.. انطبق عليهم البحر، فأغرقهم جميعاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: إن في جميع ما فصل من قصة موسى وفرعون خصوصاً في الإنجاء والغرق ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة عظيمة للمعتبرين، وسطوة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه، وعظيم سلطانه؛ أي: إن في الذي حدث في البحر لعبرة دالة على قدرته تعالى، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كونه معجزة له، وتحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله، وأمر رسوله ﷺ، ثم بين أنهم لم تجدهم الآيات والنذر شيئاً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: أكثر المصريين وهم قوم فرعون؛ أي: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل وابنته وآسية امرأة فرعون والعجوز التي دلت على قبر يوسف عليه السلام حين الخروج من مصر، واسمها مريم بنت ناموشا، وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا

---

(١) المراغي.

في البحر جميعاً، بل المراد من كان معه من الأصل، ومن كان متابعاً له ومنتسباً إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال. وقال سيبويه: إن ﴿كَانَ﴾ زائدة، وإن المراد الإخبار عن المشركين بعدما سمعوا الموعظة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب المنتقم من أعدائه كفرعون وقومه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه كموسى وبني إسرائيل. قال بعضهم: هذا التأويل هو الذي يقتضيه ظاهر السياق، فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ...﴾ الخ. ذكر في هذه السورة في ثمانية مواضع: أولها في ذكر النبي عليه السلام وقومه كما سبق، وذكر النبي عليه السلام وإن لم يتقدم صريحاً فقد تقدم كناية. والثاني في قصة موسى، ثم إبراهيم، ثم نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب، عليهم الصلاة والسلام، فتعقيب القول المذكور بكل قصة من هذه القصص يدل على أن المراد بالأكثر هو من لم يؤمن من قوم كل نبي من الأنبياء المذكورين، وقد ثبت في غير هذه المواضع أيضاً أن أكثر الناس من كل أمة هم الكافرون، فكون كل قصة آية وعبرة إنما يعتبر بالنسبة إلى من شاهد الواقعة، ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة، فيدخل فيهم قريش؛ لأنهم سمعوا قصة موسى وفرعون مثلاً من لسان النبي ﷺ، فكانت آية لهم مع أن بيانها من غير أن يسمعها من أحد آية أخرى موجبة للإيمان، حيث دل على أنه ما كان إلا بطريق الوحي الصادق.

وقد رجّح بعضهم رجوع ضمير ﴿أَكْثَرُهُم﴾ إلى قومه ﷺ، فيكون المعنى أن في ذلك المذكور لآية لأهل الاعتبار، كما في المذكور في أول السورة آية أيضاً، وما كان أكثر هؤلاء الذين يسمعون قصة موسى وفرعون ـ وهم أهل مكة ـ مؤمنين لعدم تدبرهم واعتبارهم، فليحذروا عن أن يصيبهم مثل ما أصاب آل فرعون، وإن ربك لهو العزيز الغالب على ما أراد من انتقام المكذبين، الرحيم البالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآيات العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك.

وفي الآية[1]: تسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان يغتم قلبه المنير بتكذيب قومه

---

(١) روح البيان.

مع ظهور المعجزات على يديه، فنبهه بذكر أمثال هذه القصص على أنه له أسوة بموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام، فإن ما ظهر على يد موسى من المعجزات التي تبهر العقول لم يمنع من تكذيب القبط له، وكفرهم به مع ما شاهدوه في البحر وغيره، وتكذيب بني إسرائيل، فإنهم بعد أن نجوا عبدوا العجل، وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة؛ ليقتدي بهم في الصبر على عناد قومه، وفي انتظار الفرج والنصر، كما قيل: اصبروا تظفروا كما ظفروا. وفي قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ بشارة عظيمة لنبينا ﷺ بأن النصر سيكتب له، والظفر سيكون حليفه، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

فائدة: وأخرج[1] الفريابي بسنده عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: أيكم يدري أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل عاشت من العمر نحو سبع مئة سنة، فأرسل إليها موسى، فقال: دلينا على قبر يوسف، فقالت: لا والله حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة، فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، فأعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء، ففعلوا، قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار.

قصص إبراهيم عليه السلام

قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ يا محمد على مشركي العرب، وأخبر أهل مكة ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام؛ أي: خبره العظيم الشأن، معطوف على العامل في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ وهو (اذكر) المقدر، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم منصوب بـ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: واقرأ عليهم خبر إبراهيم الخليل وقصته

(١) الشوكاني.

وقت قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، وهو تارخ ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ أهل بابل، وهو كصاحب موضع بالعراق، وإليه ينسب السحر ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أي شيء تعبدونه؟ والاستفهام فيه للتقرير المضمن للتوبيخ، سألهم وقد علم أنهم عبدة الأوثان؛ لينبههم على ضلالهم، ويريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة، وليلزمهم الحجة.

فإن قلت[1]: لم قال إبراهيم هنا في السؤال ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقال في الصافات؛ ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بزيادة (ذا)، فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: الفرق بينهما أنه لما وقع الجواب منهم هنا بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ سألهم بـ﴿مَا﴾ الموضوعة لمجرد الاستفهام، وهناك لما لم يجيبوه سألهم بـ﴿ماذا﴾ مبالغة في توبيخهم، ولهذا زاد هناك في التوبيخ، فقال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فذكر في كل سورة ما يناسب ما ذكر فيها، والله أعلم بأسرار كلامه.

والمعنى: أي[2] واتل يا محمد على أمتك أخبار إبراهيم الخليل إمام الحنفاء؛ ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل على الله وعبادته وحده لا شريك له، والتبري من الشرك، وقد أوتي الرشد من صغره، فهو من حين نشأ وترعرع أنكر على قومه عبادة الأوثان، فقال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ وهو مشاهد راء له ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل، روي أن أصنامهم كانت من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب، فأجابوه إجابة المفتخر بما يفعل المزهو بجميل ما يصنع، كما ذكره بقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أبوه وقومه ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وهي اثنان وسبعون صنماً، جمع صنم، والصنم: ما كان على صورة ابن آدم من حجر أو غيره، كما في «فتح الرحمن» ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾؛ أي: فنقيم على عبادتها طول النهار، وإنما قالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو معناه الدوام، وإنما لم يقتصروا على قولهم: ﴿أَصْنَامًا﴾ بل أطنبوا في الجواب بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنافهم ابتهاجاً

---

(١) فتح الرحمن بتصرف. (٢) المراغي.

وافتخاراً بذلك، وصلة العكوف كلمة على، وإيراد اللام لإفادة معنى زائد، كأنهم قالوا: فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها، ومستديرين حولها.

وقال أبو الليث: إن إبراهيم عليه السلام ولدته أمه في الغار، فلما خرج وكبر دخل المصر، وأراد أن يعلم على أي مذهب هم، وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم، فإن وجدهم على الاستقامة دخل معهم، وإن وجدهم على غير الاستقامة أنكر عليهم.

فلما قال إبراهيم: ما تعبدون، وقالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، وأراد أن يبين عيب فعلهم ﴿قَالَ﴾ إبراهيم، استئناف بياني ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾؛ أي: هل يسمعون دعاءكم؛ أي: هل تسمع تلك الأصنام دعاءكم، فهو على حذف المضاف، فإن ﴿كم﴾ ليس من قبيل المسموعات، والتعبير عنها بالواو بحسب زعمهم، فإنهم كانوا يجرون الأصنام مجرى العقلاء، وقرأ الجمهور: ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ بفتح الياء من سمع الثلاثي، وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر بضم الياء وكسر الميم من أسمع الرباعي؛ أي: هل يسمعونكم أصواتهم في الاستجابة لكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾؛ أي: وقت دعائكم إياهم لحوائجكم فيستجيبون لكم، وقرىء بإظهار ذال ﴿إِذْ﴾، وبإدغامها في تاء ﴿تَدْعُونَ﴾ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ في معايشكم بسبب عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ في معايشكم بترككم لعبادتها؛ إذ لا بد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضر.

﴿قَالُوا۟﴾ ما رأينا منهم ذلك السمع أو النفع أو الضر ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ﴾: منصوب بقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ وهو مفعول ثان لـ﴿وَجَدْنَآ﴾؛ أي: وجدناهم يعبدون مثل عبادتنا، فاقتدينا بهم، اعترفوا بأنها بمعزل من السمع والمنفعة والمضرة بالكلية، واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ للتقرير؛ أي: فإنها إذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضر فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلا رجوعهم إلى التقليد

البحث، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك؛ أي: يفعلون هذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها، وهذا الجواب هو العصي التي يتوكأ عليها كل عاجز، ويمشي بها كل أعرج، ويغتر بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع.

وفي الآية: دليل على إبطال التقليد في الدين وذمه، ومدح الأخذ بالاستدلال ﴿قَالَ﴾ إبراهيم متبرئاً من الأصنام ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. ورأى؛ إما بصرية تتعدى لمفعول واحد، أو علمية بمعنى عرف تتعدى لمفعول واحد أيضاً، والتقدير: أنظرتم فأبصرتم، أو تأملتم فعلمتم ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: الأولون حق الإبصار، أو حق العلم، فإن الباطل لا ينقلب حقاً بكثرة فاعليه، وكونه دأباً قديماً، و﴿مَا﴾ موصولة عبارة عن الأصنام، و﴿الفاء﴾ في: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ تعليلية؛ أي: فأنا لا أعبدها؛ لأنها عدو لي؛ أي: هل تأملتم ما كنتم تعبدونه أنتم وآباؤكم، فعلمتم أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تستحق العبادة، وأنا لا أعبدها معكم؛ لأنها عدو لي إلا رب العالمين. وقيل: أرأيتم بمعنى أخبروني؛ أي: أخبروني عن حال ما كنتم تعبدون هل هي تنفع، أو تضر، أم لا، أو أخبروني ما كنتم تعبدون هل هو حقيق بالعبادة أم لا، وهذا استهزاء بعبدة الأوثان.

أي: لم تنظروا ولم تقفوا على حالها أنها لا تنفع ولا تضر، ولو وقفتم على حالها ما عبدتموها، فاعلموا أن الأصنام أعداء لعابديهم؛ لما أنهم يتضررون بهم يوم القيامة فوق ما يتضرر الرجل من عدوه، فسمى الأصنام أعداء، وهي جمادات على سبيل الاستعارة، وصور الأمر في نفسه حيث قال: ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ لا لكم تعريضاً لهم، فإنه أنفع في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول. وقال الفراء: هو من المقلوب، ومعناه: فإني عدو لهم، فإن من عاديته عاداك، وأفرد العدو؛ لأنه يطلق بلفظه كالصديق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر؛ لأنه في الأصل مصدر، أو بمعنى النسب؛ أي: ذووا

عداوة كتامر لذي تمر.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: إما[1] منقطع، فالمعنى عليه: فاعلموا أن معبوداتكم عدوّ لي، لا أعبدها، لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وليي في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضل عليّ بمنافعهما فأعبده، أو متصل، فالمعنى عليه: فإن كل معبود عدوّ لي إلا رب العالمين، فإنه ليس بعدوّي بل هو وليي ومعبودي.

والحاصل: أن إبراهيم عليه السلام صوّر الأمر في نفسه كما مر آنفاً تعريضاً بهم، فالمعنى: إني تفكرت في أمري، فرأيت عبادتي للأصنام عبادة للعدو؛ لأن من يغري على عبادتها هو الشيطان؛ فإنه أعدى عدو الإنسان، فاجتنَبتها، وأراهم إبراهيم أن تلك الكلمة نصيحة نصح بها نفسه، فإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إبراهيم إلاّ بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى للقبول، وأبعث إلى الاستماع منه.

ومعنى الآية: أي[2] إن كانت هذه الأصنام لها تأثير كما تدعون، وتستطيع أن تضر وتنفع فتخلص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها، لا أبالي بها، ولا آبَهُ بشأنها، ولكن رب العالمين هو وليي في الدنيا والآخرة، ولا يزال متفضلاً علي فيهما.

ونحو الآية قول نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، وقول هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم وصف معبوده رب العالمين الذي يستحق العبادة بأوصاف استحق لأجلها أن يعبد، فقال:

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

١ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ وصورني من النطفة بالتكوين في القرار المكين، ﴿فَهُوَ﴾ وحده ﴿يهدين﴾ي ويرشدني إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة. والاستقبال[١] في ﴿يهديني﴾ مع سبق العناية بالهداية؛ لأنه يحتمل يهديني للأهم الأفضل، والأتم الأكمل، أو الذي خلقني لأسباب خدمته، فهو يهديني إلى آداب خلته، أي: رب العالمين هو الخالق الذي خلقني وصوّرني فأحسن صورتي، فهو الذي يهديني إلى كل ما يهمني من أمور المعاش والمعاد هداية تتجدد على جهة الدوام والاستمرار.

٢ـ ﴿و﴾ هو الإله ﴿الذي هو﴾ وحده ﴿يُطْعِمُنِى﴾؛ أي: طعام شاء ﴿وَيَسْقِينِ﴾ي أي شراب شاء؛ أي: هو وحده رازقي بكل منافع الرزق وأنواعها، فمن عنده طعامي وشرابي، وليس الإطعام والسقي عبارتين عن مجرد خلق الطعام والشراب له، وتمليكهما إياه، بل يدخل فيهما إعطاء جميع ما يتوقف الانتفاع بالطعام والشراب عليه، كالشهوة وقت المضغ والابتلاع والهضم والدفع ونحو ذلك، ومن دعاء أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ اللهم اجعل لي ضرساً طحوناً، ومعدة هضوماً، ودبراً بشوراً.

والمعنى[٢]: وهو رازقي بما يسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء، فأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً، يسقيه ما خلق من الأنعام والأناسي.

فإن قلت: لِمَ زاد ﴿هُوَ﴾ عقب ﴿ٱلَّذِىَ﴾ في الإطعام والسقي؟

قلت: لأنهما مما يصدران من الإنسان عادة، فيقال: زيد يطعم ويسقي، فذكر ﴿هُوَ﴾ تأكيداً وإعلاماً بأن ذلك منه تعالى، لا من غيره بخلاف الخلق والموت والحياة، لا تصدر من غير الله تعالى: اهـ من «فتح الرحمن».

وتكرير[٣] الموصول في المواضع الثلاثة المعطوفة للإيذان بأن كل واحد من

---

(١) النسفي.
(٢) المراغي.
(٣) أبو السعود.

الصلات نعت جليل مستقل في إيجاب الحكم.

٣- ﴿و﴾ الذي ﴿إذا مرضت﴾؛ أي: أصابني مرض ﴿فَهُوَ﴾ وحده ﴿يَشْفِينِ﴾ي؛ أي: يبرئني ويعافيني من المرض؛ أي: ينعم علي بالشفاء إذا حصل لي مرض، لا الأطباء، وذلك أنهم كانوا يقولون: المرض من الزمان، ومن الأغذية، والشفاء من الأطباء والأدوية، فأعلم إبراهيم أن الذي أمرض هو الذي يشفي، وهو الله تعالى.

والخلاصة: أني إذا مرضت لا يقدر على شفائي أحد غيره مما يقدر من الأسباب الموصلة إلى ذلك، وحكي عن بعضهم أنه مرض وضعف حتى اصفر لونه، فقيل له: ألا ندعو لك طبيباً يداويك من هذا المرض؟ فقال: الطبيب أمرضني.

فإن قلت: لِمَ[١] نسب المرض إلى نفسه حيث قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: وإذا أمرضني، والشفاء إلى الله تعالى حيث قال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ مع أنهما من الله تعالى؟

قلت: أراد الثناء على ربه، فأضاف إليه الخير المحض الذي هو الشفاء، وأضاف المرض الذي هو النقمة إلى نفسه لرعاية حسن الأدب؛ لأنه لو قال: وإذا أمرضني لعد قومه ذلك عيباً، ونظيره قصة الخضر حيث قال في العيب: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الخير المحض ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، وكذا الجن راقبوا هذا الأدب بعينه، حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

فإن قيل: فهذا يرده قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾؟.

فالجواب: أن القوم كانوا لا ينكرون الموت، وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله تعالى، فأضافه إبراهيم إلى الله عز وجل. اهـ. من «زاد المسير».

---

(١) زاد المسير بتصرف.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ معطوف على ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾، وإنما نظمهما في سلك صلة واحدة، لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالباً، فإن البطنة تورث الأسقام والأوجاع، والخمصة أصل الراحة والسلامة، قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم، وفي الحكمة: ليس للبطنة خير من خمصة تتبعها.

٤ـ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ في الدنيا بقبض روحي عند انقضاء الأجل ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ي بالبعث في الآخرة لمجازاة العمل. أدخل ﴿ثُمَّ﴾ هنا؛ لأن بين الإماتة الواقعة في الدنيا وبين الإحياء الحاصل في الآخرة تراخياً، ونسبة الإماتة إلى الله تعالى؛ لأنها من النعم الإلهية في الحقيقة حيث إن الموت وصلة لأهل الكمال إلى الحياة الأبدية، والخلاص من أنواع المحن والبلية.

٥ـ ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ﴾ وأرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ بترك الأولى، أو هي كذباته الثلاث، وقد تقدم الكلام عليها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء والحساب، روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، أكان ذلك نافعاً له؟ قال: لا ينفع؛ إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وابن جدعان اسمه عبد الله، وهو ابن عم عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكان في ابتداء أمره فقيراً، ثم ظفر بكنز استغنى به، فكان ينفق من ذلك الكنز، ويفعل المعروف.

وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه أنه لا يصلح للإلهية إلا من يفعل هذه الأفعال.

وخلاصة مقاله: أن جميع النعم التي يتمتع بها المرء من النشأة الأولى إلى آخر الدهر هي من الله وحده، ولا قدرة لأصنامكم على شيء منها. قرأ الجمهور: ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾ بالإفراد، والحسن ﴿خطاياي﴾ بالجمع.

واستغفار الأنبياء عليهم السلام تواضع منهم لربهم، وتعليم لأممهم؛ ليكونوا على حذر وطلب، لأن يغفر الله سبحانه لهم ما فرط منهم.

وبعدما ذكر فنون الألطاف الفائضة عليه من الله تعالى من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى، ودعائه لربط العتيد، وجلب المزيد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ إلى آخر ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الإعراب

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٖ مَّعْلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَجُمِعَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فبعث فرعون في المدائن حاشرين، فجمع السحرة ﴿جمع السحرة﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جمع﴾. ﴿مَّعْلُومٖ﴾: صفة ﴿يَوْمٖ﴾. ﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿جمع﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الاستبطائي، فيه معنى الحث على الفعل. ﴿أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. ﴿لَعَلَّنَا﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج ونصب، و﴿نا﴾: اسمها. ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾ على كونها معللة للاجتماع. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كانوا هم الغالبين نتبعهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذٗا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر

تقديره: إذا عرفت أن السحرة جمعت، وأردت بيان ما قالوا بعدما جمعوا: فأقول لك: لما جاء السحرة. ﴿لَمَّا﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان. ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ومحلها الجر بالإضافة ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِفِرۡعَوۡنَ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَئِنَّ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿لَأَجۡرًا﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿أجرا﴾: اسم ﴿إن﴾ مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿نَحۡنُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنا نحن الغالبين فلنا أجر، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿نَعَمۡ﴾ حرف جواب قائم مقام الجواب المحذوف تقديره: نعم لكم أجر، والجواب المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَإِنَّكُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنكم﴾ ناصب واسمه. ﴿إِذٗا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل لا عمل لها. ﴿لَّمِنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿من المقربين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّكُمۡ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على الجواب المحذوف.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُم﴾: متعلق به. ﴿مُّوسَىٰٓ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلۡقُواْ﴾ فعل أمر وفاعل. ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَلۡقُواْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما أنتم ملقونه. ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألقوا﴾: فعل ماض وفاعل. ﴿حِبَالَهُمۡ﴾: مفعول به

ومضاف إليه. ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَلْقَوْا﴾. ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: الباء: حرف جر وقسم، ﴿عزة﴾: مقسم به مجرور بباء القسم. ﴿فِرْعَوْنَ﴾: مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: نحلف ونقسم بعزة فرعون، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَنَحْنُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿نحن﴾: ضمير فصل. ﴿الْغَالِبُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها جواب القسم.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨)﴾.

﴿فَأَلْقَى﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألقى موسى عصاه﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على قوله: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ﴾. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: حرف فجأة. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ. ﴿تَلْقَفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على العصا. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَلْقَفُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾ عطف اسمية على فعلية. ﴿يَأْفِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يأفكونه. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على قوله: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾. ﴿سَاجِدِينَ﴾: حال من ﴿السَّحَرَةُ﴾، والأصل: فألقى الله السحرة ساجدين. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال ثانية من ﴿السَّحَرَةُ﴾، ولكن بتقدير قد. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿آمَنَّا﴾، وجملة ﴿آمَنَّا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿رَبِّ﴾: بدل من ﴿رب العالمين﴾: ﴿مُوسَى﴾: مضاف إليه. ﴿وَهَارُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَى﴾.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَبْلَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بآمن أيضاً. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب. ﴿ءَاذَنَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، ﴿أَىَّ﴾ قبل إذني لكم. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لكبيركم﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾: خبر ﴿إن﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لإيمانهم. ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿كبيركم﴾. ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان، والجملة صلة الموصول. ﴿فَلَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم واستمررتم على فعلكم، وأردتم بيان عاقبتكم.. فأقول لكم. ﴿لسوف تعلمون﴾: و﴿اللام﴾: زائدة زيدت لتأكيد معنى الكلام، وليست للقسم كما مر في مبحث التفسير. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أقطعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده من الناصب والجازم مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾. ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَأَرْجُلَكُم﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مفسرة لقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾؛ أي: حالة كونها متخالفات النوع والاسم. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أصلبنكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المخاطبين، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأولى.

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا ضَيْرَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿ضَيْرَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف تقديره: لا ضير كائن علينا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿مُنقَلِبُونَ﴾. ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها معللة لعدم الضير. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَطْمَعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، وجملة ﴿نَطْمَعُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها علة ثانية لعدم الضير. ﴿أَن يَغْفِرَ﴾: ناصب وفعل منصوب. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرَ﴾. ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل. ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: في غفران خطايانا، أو منصوب على المفعولية على تضمين نطمع معنى نرجو. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿كُنَّآ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر كان ومضاف إليه، وجملة كان مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف؛ أي: لكوننا أول المؤمنين، أو بسبب كوننا أول المؤمنين، والجار المحذوف متعلق بـ﴿يَغْفِرَ﴾؛ أي: أول من آمن من أتباع فرعون ورعيته.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أوحينا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: متعلق بـ﴿أوحينا﴾. ﴿أَنْ﴾: مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول دون حروفه. ﴿أَسْرِ﴾: فعل أمر من أسرى إذا سار ليلاً، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿بِعِبَادِىٓ﴾: متعلق بـ﴿أَسْرِ﴾، أو حال من فاعل ﴿أَسْرِ﴾؛ أي: متلبساً بعبادي. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإسرار. ﴿فَأَرْسَلَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أرسل فرعون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿أوحينا﴾. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: متعلق بـ﴿أرسل﴾، أو حال من

﴿حَٰشِرِينَ﴾. ﴿حَٰشِرِينَ﴾: مفعول به. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿قَلِيلُونَ﴾: صفة لـ﴿شرذمة﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فرعون؛ أي: حالة كونه قائلاً: إن هؤلاء لشرذمة قليلون. ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿غائظون﴾. ﴿لَغَآئِظُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَجَمِيعٌ﴾: خبر ﴿إن﴾، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿حَٰذِرُونَ﴾: صفة ﴿جميع﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخرجناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ﴾. ﴿مِّن جَنَّٰتٖ﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾. ﴿وَعُيُونٖ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ معطوفة على ﴿جَنَّٰتٖ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: أخرجنا إخراجاً مثل ذلك الإخراج العجيب الذي وقع لهم، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر كذلك؛ أي: آمرنا كائن كذلك؛ أي: مثل ما فعلنا بهم من الإخراج المذكور، أو صفة ثانية لـ﴿مقام﴾. ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿أخرجنا﴾. ﴿فَأَتۡبَعُوهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أتبعوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان، والمفعول الأول محذوف تقدير: فأتبعوا أنفسهم إياهم؛ أي: لحقوهم. ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾: حال؛ إما من الفاعل، أو من المفعول، والجملة معطوفة على ﴿أخرجناهم﴾، وذلك لأن إعطاء البساتين وما بعدها لبني إسرائيل إنما كان بعد هلاك فرعون وقومه اهـ. شيخنا.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم. في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان. ﴿تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط في

محل جر بالإضافة لـ﴿لما﴾. ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مدركون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر بمعنى ارتدعوا وانزجروا. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿مَعِىَ﴾: ظرف ومضاف متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿رَبِّى﴾: اسمها مؤخر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿يَهْدِينِ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة، والنون نون الوقاية، وفاعله ضمير يعود على الله، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أوحينا﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. ﴿أَنِ﴾: مفسرة بمعنى أي. ﴿ٱضْرِب﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾. ﴿بِّعَصَاكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱضْرِب﴾. ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: مفعول به، والجملة جملة مفسرة لجملة ﴿أوحينا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱنفَلَقَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿انفلق﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْبَحْرَ﴾، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فضربه فانفلق. ﴿فَكَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كان كل فرق﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة لـ﴿الطود﴾، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿انفلق﴾.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أوحينا﴾. ﴿ثَمَّ﴾: اسم إشارة للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿أزلفنا﴾.

﴿ٱلْآخَرِينَ﴾: مفعول به. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أزلفنا﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿مَّعَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أنجينا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر لـ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿لَءَايَةً﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آية﴾: اسمها مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿هو﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطف. ﴿اتل﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على اذكر المقدر عاملاً في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والظرف بدل من ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل اشتمال، فيكون العامل فيه ﴿أتل﴾، وقيل: منصوب بـ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: وقت قوله لأبيه. ﴿لِأَبِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾: معطوفة على ﴿أبيه﴾. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على قوم إبراهيم وأبيه، والجملة في

محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿فَنَظَلُّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿نظل﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على قوم إبراهيم. ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿عَاكِفِينَ﴾. ﴿عَاكِفِينَ﴾: خبر ظل، وجملة ﴿نظل﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَعْبُدُ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التوبيخي. ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ولكنه على تقدير محذوف؛ أي: يسمعون دعاءكم، أو يسمعونكم إذ تدعون، فعلى الأول تكون متعدية لواحد اتفاقاً، وعلى الثاني هي متعدية للاثنين، فقامت الجلمة المقدرة مقام المفعول الثاني؛ وهو قول أبي علي الفارسي، وعند غيره الجملة المقدرة حال كما هو مبسوط في محله، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾. ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي أفادوا بها الإجابة عن استفهامة. ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: يفعلون فعلاً مثل ذلك الفعل، أو تجعل الكاف مفعولاً به مقدماً لـ﴿يَفْعَلُونَ﴾، ولعله أولى، وجملة قوله: ﴿بَلْ وَجَدْنَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى الاستهزاء والسخرية، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿رأيتم﴾: فعل وفاعل؛ وهي إما بصرية تتعدى لمفعول واحد، أو علمية بمعنى عرف تتعدى لمفعول واحد أيضاً. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به، والتقدير: أنظرتم فأبصرتم ما كنتم تعبدون، أو تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون،

والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ويحتمل أن تكون رأيتم بمعنى أخبروني، فتكون متعدية لمفعولين؛ أولهما اسم الموصول، وثانيهما محذوف، وهو جملة استفهامية، والتقدير: أخبروني ما كنتم تعبدون هل هو جدير بالعبادة. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كنتم تعبدونه.

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَنتُمْ﴾: تأكيد للضمير في ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ ليصح العطف عليه. ﴿وَءَابَآؤُكُمُ﴾: معطوف على ﴿الواو﴾ في ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿ٱلْأَقْدَمُونَ﴾: صفة لـ﴿آباؤكم﴾. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبره. ﴿لِّيٓ﴾: صفة لـ﴿عَدُوٌّ﴾، أو متعلق به؛ لأنه بمعنى معاد لي. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿رَبَّ﴾: منصوب على الاستثناء، والاستثناء منقطع، وإلا تقدر بـ: لكن، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تعليلية لمحذوف تقديره: فلا أعبدهم لأنهم عدو لي إلاّ رب العالمين ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.: مضاف إليه. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أو بدل منه، أو عطف بيان له، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الذي خلقني. ﴿خَلَقَنِى﴾: فعل ماض ونون وقاية، وفاعل مستتر يعود على الموصول ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿يَهْدِينِ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية على كونها صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِى﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿يُطْعِمُنِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَيَسْقِينِ﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على

جملة ﴿يُطْعِمُنِى﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط. ﴿مَرِضْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في حل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْفِينِ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَٱلَّذِى﴾: معطوف على الموصول الأول وجملة ﴿يُمِيتُنِى﴾: صلة الموصول. ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾: معطوف على ﴿يُمِيتُنِى﴾. ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿أَطْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿أَن يَغْفِرَ﴾: ناصب وفعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿لِى﴾: متعلق به. ﴿خَطِيٓـَٔتِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَغْفِرَ﴾، وجملة ﴿يَغْفِرَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَطْمَعُ﴾ على تضمينه معنى أرجو؛ أي: والذي أرجو غفرانه لي يوم الدين، وجملة ﴿أَطْمَعُ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير مستتر في ﴿يَغْفِرَ﴾، ويجوز أن يكون في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض تقديره: والذي أطمعه في غفران خطيئتي.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الميقات: ما وقت به؛ أي: حدّد من مكان أو زمان، ومنه مواقيت الإحرام ومواقيت الصلاة. أصله: موقات؛ لأنه من وقت قلبت ﴿الواو﴾ ياء؛ لوقوعها إثر كسرة، واليوم المعلوم هو يوم الزينة الذي حدده موسى في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾. وفي «الروح»: الميقات: الوقت المضروب للشيء؛ أي: لما وقت به وعين من ساعات يوم معين، وهو

وقت الضحى من يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم، كانوا يتزينون ويجتمعون فيه كل سنة.

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قوته التي يمتنع بها من الضيم.

﴿تَلْقَفُ﴾؛ أي: تبتلع بسرعة، من لقفه ـ كسمعه ـ إذا تناوله بسرعة، كما في «القاموس».

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾؛ أي: نرجو، قال في «المفردات»: الطمع: نزوع النفس إلى شيء شهوة له.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ الإيحاء: إعلام في خفاء، ويقال: سرى يسري ـ بالكسر ـ سرى ـ بالضم ـ وسرى ـ بالفتح ـ وأسرى أيضاً؛ أي: سار ليلاً.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ والشرذمة: الطائفة القليلة، والجمع الحقير القليل يجمع على شراذم. قال الجوهري: الشرذمة: الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء، وثوب شراذم؛ أي: قطع، ومنه قول الشاعر:

جَاءَ ٱلشِّتَاءُ وَقَمِيْصِيْ أَخْلَاقُ   شَرَاذِمٌ يَضْحَكُ مِنْهَا ٱلْخَلَاقْ

﴿قَلِيلُونَ﴾ قال الفراء: يقال: عصبة قليلة وقليلون، وكثيرة وكثيرون، وقال المبرد: الشرذمة: القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها الشراذم، قال المفسرون: وكان الشرذمة الذين قللهم ست مئة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون.

﴿لَغَآئِظُونَ﴾؛ أي: فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا، يقال: غاظني كذا وأغاظني، ومنه التغيظ والاغتياظ، والغيظ أشد الغضب؛ وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يقال للمجموع: جمع وجميع وجماعة، والحذر: الاحتراز عن المخاوف. قال الفراء: الحاذر الذي يحذرك الآن، والحذر المخلوق كذلك لا تلقاه إلاّ حذراً، وقال الزجاج: الحاذر المستعد، والحذر

المتيقظ، وبه قال الكسائي ومحمد بن يزيد: قال النحاس: ﴿حذرون﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو، و﴿حَٰذِرُونَ﴾ قراءة أهل الكوفة، قال: وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى ﴿حذرون﴾ و﴿حَٰذِرُونَ﴾ واحد؛ وهو قول سيبويه، وأنشد سيبويه:

حَــذِرٌ أُمُــوْراً لاَ تَــضِــيْــرُ وَآمِــنٌ ... مَــا لَــيْــسَ يُــنْــجِــيْــهِ مِــنَ الأَقْــدَارِ

وفي «المصباح» حذر حذراً من باب تعب، واحتذر واحترز كلها بمعنى استعد وتأهّب، فهو حاذر وحذر، والاسم منه الحذر مثل حمل، وحذر الشيء إذا خافه، فالشيء محذور؛ أي: مخوف، وحذرته الشيء فحذره، اهـ.

﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين، جمع جنة. ﴿وَعُيُونٍ﴾: جمع عين من الماء، قال الراغب: يقال لمنبع الماء عين تشبيهاً بالعين الجارحة؛ لما فيها من الماء. ﴿وَكُنُوزٍ﴾؛ أي: أموال كنزوها وخزنوها في باطن الأرض.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: قصور عالية، ودور فخمة. قال السهيلي في كتاب «التعريف والإعلام»: المقام الكريم الفيوم من أرض مصر في قول طائفة من المفسرين، ومعنى الفيوم ألف يوم، كما في «التكملة»؛ وهي مدينة عظيمة بناها يوسف الصديق عليه السلام، ولها نهر يشقها، ونهرها من عجائب الدنيا، وذلك أنه متصل بالنيل، وينقطع أيام الشتاء، وهو يجري في سائر الزمان على العادة، ولهذه المدينة ثلاث مئة وستون قرية عامرة كلها مزارع وغلال، ويقال: إن الماء قد أخذ أكثرها في هذا الوقت، وكان يوسف جعلها على عدد أيام السنة، فإذا أجدبت الديار المصرية كانت كل قرية منها تقوم بأهل مصر يوماً، وبأرض الفيوم بساتين وأشجار وفواكه كثيرة رخيصة وأسماك زائدة الوصف، وبها من قصب السكر كثير. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾؛ أي: ملكناها لهم تمليك الميراث.

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ بقطع الهمزة، يقال: أتبعه إتباعاً إذا طلب الثاني اللحوق بالأول، وتبعه تبعاً إذا مرّ به ومضى معه.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرق وأصبح وأمسى وأظهر إذا دخل في الشروق والصباح والمساء والظهيرة. قال الزجاج: يقال:

شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت.

﴿تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ أي: سيدركوننا ويلحقون بنا، اسم مفعول من أدرك الرباعي، ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾.

﴿ٱلْبَحْرَ﴾: وهو بحر القلزم كما مر، وسمّي البحر بحراً لاستبحاره؛ أي: اتساعه وانبساطه. ﴿فَٱنفَلَقَ﴾؛ أي: انشق.

﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾ الفرق: الجزء المنفرق منه. قال في «المفردات»: الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرق يقال اعتباراً بالانفصال، والفرق القطعة المنفصلة، وكل فرق بالتفخيم والترقيق لكل القراء، والتفخيم أولى.

﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ الطود: الجبل، ويجمع على أطواد، يقال: طاد يطود إذا ثبت قال امرؤ القيس:

فَبَيْنَا ٱلْمَرْءُ فِيْ ٱلأَحْيَاءِ طَوْدٌ   رَمَاهُ ٱلنَّاسُ عَنْ كَثَبٍ فَمَالاَ

وقال الأسود بن يعمر:

حَلّوا بِأَنْقَرَةٍ يَسِيْلُ عَلَيْهِمُ   مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيْءُ مِنْ أَطْوَادِ

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: قربناهم إلى البحر يعني فرعون وقومه، قال الشاعر:

وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَىٰ أَوْ لَيْلَةٍ سَلَفَتْ   فِيْهَا ٱلنُّفُوْسُ إِلَىٰ ٱلآجَالِ تَزْدَلِفُ

قال أبو عبيدة: أزلفنا جمعنا، ومنه قيل لليلة مزدلفة: ليلة جمع.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: من التلاوة، وهي القراءة على سبيل التتابع، والقراء أعم.

﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ والقوم: جماعة الرجال في الأصل دون النساء، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء

جميعاً، كما في «المفردات».

﴿أَصْنَامًا﴾: جمع صنم، قال في «المفردات»: الصنم: جثة متخذة من فضة، أو نحاس، والوثن: حجارة كانت تعبد.

﴿فنظل﴾ يقال: ظللت أعمل كذا ـ بالكسر ـ ظلولاً إذا عملت بالنهار دون الليل.

﴿عَٰكِفِينَ﴾ العكوف: اللزوم، ومنه المعتكف لملازمته المسجد على سبيل القربة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير بين ﴿فَجُمِعَ﴾ و﴿مُّجْتَمِعُونَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، وفي قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم، وقد زاد هذه الاستعارة حسنا المشاكلة؛ لأنه عبر بـ﴿ألقى﴾ عن الخرور، فلم يقل: فخروا ساجدين؛ لمشاكلة الإلقاءات المتقدمة.

ومنها: الإبهام والتفصيل في قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أبهم ما أوعدهم به، ثم فصله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ الخ.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾؛ أي: فضرب فانفلق.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: كالجبل في رسوخه وثباته، ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾؛ لأنه كان مقتضى جواب السؤال؛ وهو ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أن يقولوا: أصناماً؛ لأنه سؤال عن المعبود فحسب، ولكنهم أضافوا إلى الجواب زيادة شرحوا بها قصتهم كاملة؛ لأنهم قصدوا إظهار ابتهاجهم وإعلان افتخارهم، وذلك شائع في الكلام، وقالوا: نظل؛ لأنهم كانوا يعكفون على عبادتها في النهار دون الليل، وهذه هي مزية الإطناب.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فإنه صور المسألة في نفسه والعداوة مستهدفة شخصه، كأنه يعرض بهم قائلاً: لقد فكرت في المسألة ملياً، وأمعنت النظر فيها طويلاً، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو الذي يتربص بي الدوائر.

ومنها: الطباق بين ﴿يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

ومنها: مراعاة الأدب في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ لم يقل وإذا أمرضني، بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله سبحانه؛ لأن الشر لا ينسب إليه تعالى أدباً، وإن كان المرض والشفاء كلاهما بيده تعالى وقدرته، وللإشارة إلى أن كثيراً من الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مأكله ومشربه وغير ذلك.

ومنها: حسن النسق في هذه الجمل، فإنه قدم الخلق الذي يجب تقديم الاعتداد به من الخالق على المخلوق، واعتراف المخلوق بنعمته فإنه أول نعمة، وفي إقرار المخلوق بنعمة الإيجاد من العدم إقراره بقدرة الخالق على الإيجاد والاختراع وحكمته، ثم ثنَّى بنعمة الهداية التي هي أولى بالتقديم بعد نعمة الإيجاد من سائر النعم، ثم ثلّث بالإطعام والإسقاء اللذين هما مادة الحياة،

وبهما من الله استمرار البقاء إلى الأجل المحتوم، وذكر المرض وأسنده إلى نفسه أدباً كما قلنا مع ربه، ثم أعقب ذكر المرض بذكر الشفاء مسنداً ذلك إلى ربه، ثم ذكر الإماتة مسنداً فعلها إلى ربه لتكميل المدح بالقدرة المطلقة على كل شيء من الإيجاد والإعدام، ثم أردف ذكر الموت بذكر الإحياء بعد الموت، وفيه مع الإقرار بهذه النعمة الاعتراف بالقدرة والإيمان بالبعث، وكل هذه المعاني جمل ألفاظها معطوف بعضها على بعض بحروف ملائمة لمعاني الجمل المعطوفة.

ومنها: صحة التقسيم، فقد استوعبت هذه الآيات أقسام النعم الدنيوية والأخروية من الخلق والهداية، والإطعام والإسقاء، والمرض والشفاء، والموت والحياة، والإيمان بالبعث وغفران الذنب.

ومنها: التخلص؛ وهو فن عجيب بأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في غيره آخر، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً، فمما جاء من التخلص هذه الآية التي تسكر العقول، وتسحر الألباب، ألا ترى ما أحسن ما رتب إبراهيم كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرّر، لا سؤال مستفهم، ثم ألحى على آلهتهم باللائمة فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تعي ولا تسمع، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره، وأخرجه من أن يكون شبهة، فضلاً عن أن يكون حجة، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذي لا تجب العبادة إلاّ له، ولا ينبغي الرجوع والأنابة إلاّ إليه، فصور المسألة في نفسه دونهم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ على معنى أني فكرت في أمري، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها، وآثرت عبادة من بيده الخير كله، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا، فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلاّ بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى إلى القبول لقوله، وأبعث على الاستماع منه، ولو قال: إنهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة، فتخلص عند تصوره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى، فأجرى عليه تلك الصفات العظام، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وأنشأه إلى حين يتوفاه مع

ما يرجى في الآخرة من رحمته؛ ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة، واجب على الخلق الخضوع له، والاستكانة لعظمته، ثم تخلص من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه فدعا الله بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوابين؛ لأن الطالب من مولاه إذا قدّم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة.. كان ذلك أسرع للإجابة، وأنجح لحصول الطلبة، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله من آمن به واتقاه بالجنة، ومن ضل عن عبادته بالنار، فتدبر هذه التخلصات البديعة المودعة في أثناء هذا الكلام.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)
وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ
الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣)
فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن
شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ
الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا
أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ
(١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ
وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ
عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
(١٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ الآية، مناسبة

هذه الآية لما قبلها: أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما أثنى[1] على ربه سبحانه بما أثنى عليه.. ذكر مسألته ودعاءه إياه بما ذكره، كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه؛ ليستغرق في معرفة ربه ومحبته، ويصير أقرب شبهاً بالملائكة الذين يعبدون الله سبحانه بالليل والنهار لا يفترون، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به في دينه ودنياه، وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدي إلى ما يريد، ومن ثم جاء في الأثر حكاية عن الله تعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر[2] إبراهيم عليه السلام أنه لا ينفع في هذا اليوم مال ولا بنون، وإنما ينفع البعد عن الكفر والنفاق.. ذكر هنا من وصف هذا اليوم أموراً تبين شديد أهواله وعظيم نكاله.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما قص على رسول الله ﷺ قصص أبيه إبراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد، وما حجّهم به من الآيات.. أردف هذا بقصص الأب الثاني؛ وهو نوح عليه السلام، وفيه ما لاقاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان، وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدهم ذلك إلاّ عتواً واستكباراً، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾، فأغرقهم الطوفان، ولم ينج منهم إلاّ من حملته السفينة، وهذا القصص مجمل هنا تقدم تفصيله في سورتي الأعراف وهود، وسيأتي بسطه أتم البسط في سورة نوح.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر قصص نوح وقومه، وأن نوحاً دعاهم وحذّرهم عقاب الله

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

وطال عليه المطال، ولم يزدهم ذلك إلاّ عتواً ونفوراً فدعا ربه، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.. أردف ذلك بقصص هود عليه السلام مع قومه عاد، وكانوا بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل القريبة من حضرموت ببلاد اليمن، وكانت لهم أرزاق دارّة وأموال وجنات وأنهار وزروع وثمار، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان، فبعث الله فيهم نبياً منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويحذرهم نقمته وعذابه، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله.

التفسير وأوجه القراءة

ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه والاعتراف بنعمته.. عقبَّه بالدعاء؛ ليقتدي به غيره في ذلك، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾؛ أي[1]: علماً وفهماً في الدين. وقيل: نبوة ورسالة. وقيل: معرفة بحدود الله تعالى وأحكامه. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بالنبيين من قبلي. وقيل: بأهل الجنة. ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: اجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فإن كل أمة تتمسك به وتعظِّمه.

وقيل معنى الآية: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾؛ أي[2]: كمالاً في العلم والعمل، أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق، فإن من يعلم شيئاً ولا يأتي من العمل بما يناسب علمه لا يقال له حكيم، ولا لعلمه حكم، ولا حكمة ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وفقني من العلوم والأعمال والأخلاق لما ينظمني في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح، المتنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها، أو اجمع بيني وبينهم في الجنة، فقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ روي أن النبي ﷺ قال في دعائه: «اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين».

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾؛ أي: جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما من أمة إلاّ وهم محبون له، مثنون عليه، فحصل بالأول الجاه، وبالثاني حسن الذكر، فقوله: «في الآخرين»؛ أي: في الأمم بعدي، وعبّر عن الثناء الحسن والقبول العام باللسان؛ لكون اللسان سبباً في ظهوره وانتشاره، وبقاء الذكر الجميل على ألسنة العباد إلى آخر الدهر دولة عظيمة من حيث كونه دليلاً على رضى الله عنه، ومحبته له، والله تعالى إذا أحب عبداً يلقي محبته إلى أهل السموات والأرض، فيحبه الخلائق كافة حتى الحيتان في البحر، والطيور في الهواء.

وحاصل معنى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ...﴾ إلخ؛ أي[1]: واجعل لي جاهاً وذكراً جميلاً باقياً إلى يوم الدين، فإن من صار ممدوحاً بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل يصير داعياً لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل، فيكون له مثل أجورهم، أو المعنى: اجعل لي من ذريتي في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى، وقد أجاب الله دعاءه، فما من أمة إلاّ وهي تثني عليه، وجعله الله تعالى شجرة فرّع الله منها الأنبياء.

ولما طلب عليه السلام سعادة الدنيا بهذه الدعوة.. طلب سعادة الأخرة، فقال: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي﴾ في الآخرة وارثاً ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أو اجعلني بعض الذين يرثون جنة النعيم، شبّه[2] الجنة التي استحقها العامل بعد فناء عمله وانقطاعه بالميراث الذي استحقه الوارث بعد فناء مورّثه وموته، فأطلق عليها اسم الميراث، وعلى استحقاقها اسم الوارثة، وعلى العامل اسم الوارث، والمعنى: واجعلني من المستحقين لجنة النعيم، والمتمتعين بها كما يستحق الوارث مال مورثه، ويمتع به، أو واجعلني ممن يدخلون الجنة[3]، ويتمتعون بنعيمها كما

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

يتمتع المالك بما يملكه ميراثاً، ويؤول إليه أمره من شؤون الدنيا، ومعنى جنة النعيم؛ أي: بستان النعيم الدائم، وفيه إشارة إلى أن الجنة لا تنال إلاّ بكرمه تعالى، وفيه أيضاً إشارة إلى أن طلب الجنة لا ينافي طلب الحق سبحانه، وترك الطلب مكابرة للربوبية.

وبعد أن طلب السعادة الدنيوية والأخروية لنفسه.. طلبها لأقرب الناس إليه؛ وهو أبوه، فقال: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ ذنوبه؛ أي: اهد أبي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: من المشركين الضالين عن طريق الهداية، و﴿كَانَ﴾: زائدة على مذهب سيبويه، وكان أبوه قد وعده أنه يؤمن به، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

واعلم[1]: أن المغفرة مشروطة بالإيمان، وطلب المشروط يتضمن طلب شرطه، فيكون الاستغفار لأحياء المشركين عبارة عن طلب توفيقهم وهدايتهم للإيمان. روي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل توضأ، فأسبغ الوضوء، ثم خرج من بيته يريد المسجد، فقال حين خرج: بسم الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلاّ هداه الله لصواب الأعمال، ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ إلاّ أطعمه الله من طعام الجنة، وسقاه من شرابها، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ إلاّ شفاه الله تعالى، ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ إلاّ أحياه الله حياة الشهداء، وأماته ميتة الشهداء، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ إلاّ غفر الله خطاياه ولو كانت أكثر من زبد البحر، ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ إلاّ وهب له حكماً، وألحقه بصالحي من مضى، وصالحي من بقي، ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ إلاّ كتب عند الله صديقاً، ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ إلاّ جعل الله له القصور والمنازل في الجنة»، وكان الحسن يزيد فيه ﴿واغفر لوالديّ كما ربّياني صغيراً﴾، كذا في

---

(1) روح البيان.

«كشف الأسرار».

ثم طلب من ربه عدم خزيه وهوانه يوم القيامة، فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ من الخزي بمعنى الهوان والذل؛ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي على ما فرطت، أو بنقص مرتبتي عن بعض الوارثين ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: يوم يبعث الناس من قبورهم كافة وهو يوم القيامة، أو لا تعذبني يوم القيامة. والإضمار في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ مع عدم سبق المرجع؛ لكونه معلوماً؛ لأن البعث عام فيدل عليه.

ولما كانت مغفرة الخطيئة في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ...﴾ إلخ لا تستلزم ترك المعاتبة.. أفرد الدعاء بتركها بعد ذكر مغفرة الخطيئة، وقيّد عدم الإخزاء بيوم البعث؛ لأن الدنيا مظهر اسم الستار.

قال أبو الليث: إلى ههنا كلام إبراهيم، وقد انقطع كلامه، ثم إن الله سبحانه وتعالى وصف ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، ومفعول الفعل محذوف، والتقدير: يوم لا ينفع مال أحداً، وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات، ولا ينفع بنون ولا بنات فرداً، وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة جداً ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ سبحانه، وجاء يوم القيامة ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والنفاق؛ أي: إلاّ من أتى الله سبحانه وتعالى مخلصاً سليم القلب من مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان، قال في «كشف الأسرار»: إلا بنفس سليمة من الكفر والمعاصي، وإنما أضاف إلى القلب، لأن الجوارح تابعة للقلب، فتسلم بسلامته، وتفسد بفساده، وفي الخبر: «إن في جسد ابن آدم لمضغة، إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب». قال الليث: كان الكفار يقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، فأخبر الله سبحانه أنه لا ينفعهم ذلك اليوم المال والبنون؛ لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا، وأما المسلمون فينفعهم خيراتهم، وينفعهم البنون أيضاً؛ لأن المسلم إذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجراً، وإن تخلف بعده فإنه يذكره بصالح دعائه، ويتوقع منه الشفاعة من حيث صلاحه. انتهى.

والمعنى: أي[1] لا يقي المرء من عذاب الله تعالى المال، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعاً، ولكن ينفعه أن يجيء خالصاً من الذنوب وأدرانها وحب الدنيا وشهواتها.

وخص الابن بالذكر؛ لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أولى، وأما من أتى بقلب سليم فينفعه ماله الذي أنفقه في الخير، وولده الصالح بدعائه، كما جاء في خبر: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

واختلف في معنى القلب السليم[2]، فقيل: السليم من الشرك، أما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قاله أكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض. وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة، المطمئن إلى السنة. وقيل: السالم من آفة المال والبنين. وقيل: السليم الخالص. قال الرازي: أصح الأقوال أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة. وسئل أبو القاسم الحكيم عن القلب السليم؟ فقال: له ثلاث علامات؛ أولاها: أن لا يؤذي أحداً، والثانية: أن لا يتأذى من أحد، والثالثة: إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحداً فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذ من أحد فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة بالاصطناع فقد جاء بالإخلاص، اهـ.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قرّبت وأدنيت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي؛ ليدخلوها بحيث يشاهدونها من الموقف، ويطلعون على ما فيها من فنون المحاسن، فيفرحون بأنهم المحشورون إليها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها، ونظرهم إليها، وهو عطف على لا ينفع، وصيغة الماضي لتحقق وقوعه، كما أن صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

فإن قلت[1]: كيف قرّبت مع أنها لم تنقل من مكانها؟

قلتُ: فيه قلب؛ أي: وأزلف المتقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة: قربت مكة إلينا، وفي هذا تعجيل لمسرتهم كفاء ما عملوا لها، ورغبوا عن الدنيا وزخرفها.

﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ أي: ويوم برزت وأظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾؛ أي: نارها ﴿لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: للضالين عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى؛ أي[2]: جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأهوال، ويوقنون بأنهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مصرفاً، فيزدادون غماً، والمعنى أنها أظهرت لهم قبل أن يدخلها المؤمنون ليشتد حزن الكافرين، ويكثر سرور المؤمنين، وفي اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد، فإن التبريز لا يستلزم التقريب، ثم في تقديم إزلاف الجنة إيماء إلى سبق رحمته على غضبه. وقرأ الأعمش[3]: ﴿فبرزت﴾ بالفاء بدل ﴿الواو﴾، وقرأ مالك بن دينار ﴿وبَرَزَتْ﴾ بالفتح والتخفيف، ﴿الْجَحِيمُ﴾ بالرفع بإسناد الفعل إليها اتساعاً، ذكره أبو حيان.

وفي هذا تعجيل للغم والحسرة؛ إذ نسوا في دنياهم هذا اليوم، كما جاء في قوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤)﴾.

ثم ذكر أنه يسأل أهل النار تقريعاً لهم، فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للغاوين يوم القيامة على سبيل التوبيخ، والقائلون الملائكة من جهة الحق تعالى ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنها شفعاؤكم في هذا الموقف، وتقربكم إلى الله زلفى ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم. و﴿هَلْ﴾ هنا للاستفهام الإنكاري؛ أي: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها؟ هل ينفعونكم بنصرتهم

---

(١) فتح الرحمن.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

لكم، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنفسهم؟ لا، وإنهم وآلهتهم وقود النار.

والخلاصة[1]: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله سبحانه من الأصنام والأوثان بمغنية عنكم اليوم شيئاً، ولا هي بدافعة عن نفسها شيئاً، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون، وباب افتعل ههنا مطاوع فعل، قال في «كشف الأسرار»: النصر المعونة على دفع الشر والسوء عن غيره، والانتصار أن يدفع عن نفسه، وإنما قال[2]: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾؛ لأن رتبة النصر بعد رتبة الانتصار؛ لأن من نصر غيره فلا شك في الانتصار، وقد ينتصر من لا يقدر على نصر غيره.

ثم هذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب، ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾؛ أي: فألقي المعبودون في الجحيم مرة بعد أخرى منكوسين على رؤوسهم إلى أن يستقروا في قعرها ﴿هُمْ﴾؛ أي: المعبودون، تأكيد لمرفوع ﴿كبكبوا﴾: ليعطف عليه قوله: ﴿وَالْغَاوُونَ﴾؛ أي: العابدون الذين ضلوا وغووا بعبادتهم ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ أي: شياطينه وأعوانه؛ أي: ذريته الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون إليهم، ويسولون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام وسائر فنون الكفر والمعاصي، ليجتمعوا في العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه. وقيل: المراد بجنود إبليس كل من يدعو إلى عبادة الأصنام، وقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد لضمير ﴿هُمْ﴾ وما عطف عليه. والمعنى؛ أي[3]: فألقي الآلهة والغاوون الذين عبدوها في النار، والشياطين والداعون إلى عبادتها على رؤوسهم، أو ألقِي بعضهم على بعض، وتأخير الغاوين في الكبكبة عن آلهتهم ليشاهدوا سوء حالهم، فينقطع رجاؤهم منهم قبل دخول الجحيم، ثم ذكر ما يحدث من المخاصمة والمحاجة بين الآلهة والغاوين عبدتها، والشياطين الذين دعوهم إلى تلك العبادة بقوله: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وجملة قوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: العابدون حين فعل بهم ما فعل معترفين بخطاياهم ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم في الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوداتهم على أن الله تعالى يجعل الأصنام صالحة للاختصام بأن يعطيها القدرة على النطق والفهم. قال أبو الليث: ومعناه: قالوا وهم يختصمون فيها على معنى التقديم جملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل، ومقول القول ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، و﴿اللام﴾: هي الفارقة بينها وبين النافية؛ أي: نقسم ونحلف بالله سبحانه إن الشأن كنا في ضلال وخطأ واضح لا خفاء فيه ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾: ظرف لكونهم في ضلال مبين، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية؛ أي[1]: تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾؛ أي: وما دعانا إلى الضلال عن الهدى ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: إلا الرؤساء والكبراء البالغون غاية الإجرام والإشراك.

والمعنى: أي[2] قال الغاوون وهم يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين تالله إننا كنا في ضلال واضح، لا لبس فيه حين سويناكم يا هذه الأصنام برب العالمين في استحقاق العبادة، وعظمناكم تعظيم المعبود الحق، وما أضلنا إلا المجرمون من الرؤساء والكبراء، كما جاء في آية ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾.

وخلاصة ذلك: أنهم حين رأوا صور تلك الآلهة اعترفوا بالخطأ العظيم الذي كان منهم، وندموا على طاعتهم لأولئك الرؤساء والسادة الذين حملوهم على عبادتها وتعظيم شأنها، ثم أكدوا ندمهم على ما فرط منهم، وحسرتهم على ما صنعوا، فقالوا:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿فَمَا لَنَا﴾ اليوم ﴿مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون لنا من العذاب، كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام ﴿وَلَا﴾ من ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ذي قرابة؛ أي: صديق قريب موافق في الدين، كما نرى أن للمؤمنين أصدقاء؛ لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم التباغض والتعادي. والصديق من صدقك في مودته، والحميم القريب المشفق، مأخوذ من حامة الرجل؛ أي: أقربائه، وأفرد الصديق؛ لأنه يطلق على الواحد والإثنين والجماعة والمذكر والمؤنث.

وإنما جمع[1] الشافع لكثرة الشفعاء عادة، ألا ترى أن السلطان إذا غضب على أحد ربما شفع فيه جماعة، كما أن إفراد الصديق لقلته. ولو قيل بعدمه لم يبعد، والمعنى؛ أي: فليس لنا اليوم شفيع يشفع لنا مما نحن فيه من ضيق، أو ينقذنا من هلكة، ولا صديق شفيق يعنيه أمرنا، ويودنا ونوده، ونحو الآية ما جاء في آية أخرى حكاية عنهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾، وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع، وقد نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعة، ثم ترقوا ونفوا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم، ويتوجع لهم، وإن لم يخلصهم.

والخلاصة: أن الأمر قد بلغ من الهول ما لا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع، وقد مر لك آنفاً أنما جمع الشافع وأفرد الصديق لكثرة الشفعاء عادة وقلة الصديق، ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه:

مَا فِيْ زَمَانِكَ مَنْ تَرْجُوْ مَوَدَّتَهُ وَلاَ صَدِيْقٌ إِذَا جَارَ ٱلزَّمَانُ وَفَىٰ
فَعِشْ فَرِيْداً وَلاَ تَرْكَنْ إِلَىٰ أَحَدٍ هَا قَدْ نَصَحْتُكَ فِيْمَا قُلْتُهُ وَكَفَىٰ

ثم حكى عنهم تمنيهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله يعلم أنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، فقال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا

---

(١) روح البيان.

كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصب بأن المضمرة بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التمني، فلو هنا للتمني، وأقيم فيه ﴿لَوْ﴾ مقام ليت؛ لتلاقيها في معنى التقدير: أي: تقدير المعدوم وفرضه؛ أي: فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل حتى إذا متنا وبعثنا مرة أخرى لا ينالنا من العذاب مثل ما نحن فيه.

وهذا كلام التأسف والتحسر، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، فإن من يضلل الله فما له من هاد، ولو رجع إلى الدنيا مراراً، ألا ترى إلى الأمم في الدنيا، فإن الله تعالى أخذهم بالبأساء والضراء كراراً، ثم كشفه عنهم فلم يزيدوا إلا إصراراً، جعلنا الله وإياكم من المستمعين المعتبرين، لا من المعرضين الغافلين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فيما ذكر من قصة إبراهيم مع قومه ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة لمن يعبد غير الله تعالى، ليعلم أنه يتبرأ منه في الآخرة، ولا ينفعه أحد، ولا سيما لأهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم إبراهيم مؤمنين كحال أكثر قريش، وقد روي أنه ما آمن لإبراهيم من أهل بابل إلا لوط وابنه نمرود، أو أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ إبراهيم؛ وهم قريش ومن دان بدينهم، وهذا أصح؛ لأن قوم إبراهيم كلهم غير مؤمنين، كذا قاله الشوكاني.

والمعنى: أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجة عليهم في التوحيد لآية واضحة جلية على أنه تعالى لا رب غيره، ولا معبود سواه، ومع كل هذا ما آمن به أكثرهم، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ على ما يجده من تكذيب قومه له مع ظهور الآيات وعظيم المعجزات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ المحسن إليهم بإرسالك لهدايتهم ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: لهو القادر على الانتقام منهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم؛ إذ لم يهلكهم، بل أخر ذلك، وأرسل إليهم الرسل، ونصب لهم الشرائع ليؤمنوا بها هم أو ذريتهم.

قصص نوح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ تكذيباً مستمراً من حين الدعوة إلى انتهائها، وأنث[1] الفعل لكونه مسنداً إلى ﴿قَوْمُ﴾، وهو في معنى الجماعة، أو الأمة، أو القبيلة، والقوم الجماعة من الرجال والنساء، وأوقع التكذيب على المرسلين؛ وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل، أو لاجتماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع، وقيل: كذبوا نوحاً وحده في الرسالة، وكذبوه فيما أخبرهم من مجيء المرسلين بعده ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾: ظرف للتكذيب على أنه عبارة[2] عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر ﴿أَخُوهُمْ﴾ في النسب، لا في الدين؛ لئلا يجهل أمره في الصدق والديانة، ولتعرف لغته، فيؤدي ذلك إلى القبول ﴿نُوحٌ﴾: عطف بيان لـ﴿أَخُوهُمْ﴾ الله بترك عبادة الأصنام، وإجابة دعوة رسوله الذي أرسله إليكم.

والمعنى: أي كذبت قوم نوح رسل الله حين قال لهم أخوهم نوح: ألا تتقون فتحذروا عقابه على كفركم به وتكذيبكم رسله، وقد حكى سبحانه عن نوح عليه السلام أنه خوفهم أولاً بقوله: ألا تتقون لأن القوم إنما قبلوا تلك الأديان تقليداً والمقلد إذا خوف خاف، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل بالاستدلال والنظر، وقد وصف نوح نفسه بأمرين:

١. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من جهته تعالى ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: مشهور بالأمانة فيما بينكم، ومن كان أميناً على أمور الدنيا كان أميناً على الوحي والرسالة، أو أمين فيما بعثني به أبلغكم رسالاته، لا أزيد فيها، ولا أنقص منها ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى، فإني لا أخونكم ولا أريدكم بسوء، والفاء لترتيب ما بعدها على الأمانة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقدم[1] الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن التقوى هي ملاك الأمر كله في هذه الحياة، وكرر الأمر بها؛ لأنها العمدة في جميع الأعمال، فيجب على العالم ملاحظتها إذا أراد الإحسان وتجويد العمل.

٢. ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ الرسالة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: جعل أصلاً، وذلك لأن الرسل إذا لم يسألوا أجراً كان أقرب إلى التصديق، وأبعد عن التهمة ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما ثوابي فيما أتولاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن من عمل لله فلا يطلب الأجر من غير الله.

وبه يشير إلى أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء يتأدبون بآداب أنبيائهم، فلا يطلبون من الناس شيئاً في بث علومهم ونشرها، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، ولا بالتذكير لهم، فإن من ارتفق من المسلمين المستمعين في بث ما يذكره من الدين ويعظ به لهم فلا يبارك الله للناس فيما يسمعون، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما يأخذون منهم، يبيعون دينهم بعرض يسير، ثم لا بركة لهم فيه، كذا قالوا.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وضح الأمر لكم وبان نصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه. والفاء[2] لترتيب ما بعدها على تنزهه عن الطمع، والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلاً من الأمانة وقطع الطمع مستقل في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا.

ونظير هذا ما يقول الوالد لولده: ألا تتقي الله في عقوقي، وقد ربيتك صغيراً، ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً. وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علة لطاعته.

تنبيه: قوله[3]: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ذكر في خمسة مواضع: في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وإنما كررت هذه الآية الكريمة في تلك المواضع للتنبيه على أن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) فتح الرحمن.

دعوة الرسل الكرام واحدة، وهدفهم واحد، وطريقتهم واحدة، فهم لا يطلبون من أحد أجراً، ولا مالاً، ولا شيئاً من حطام الدنيا على تبليغهم الرسالة، إنما يطلبون الأجر من الله وحده.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ذكر مكرراً للتأكيد في ثلاثة مواضع: في قصة نوح، وهود، وشعيب، فإن قلت: لِمَ خصت الثلاثة بالتأكيد؟.

قلت: اكتفاء عنه في قصة لوط بقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾، وفي قصة شعيب بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ لاستلزامهما له.

وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته وعظيم نصحه وأمانته لهم.. أرادوا أن يتنصلوا من اتباع دعوته بحجة هي أوهى من بيت العنكبوت، كما ذكره بقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قوم نوح ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ الاستفهام للإنكار؛ أي: لا نؤمن لك ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾؛ أي: والحال أنه قد اتبعك الأخسون؛ أي: الأقلون مالاً وجاهاً، والمراد[1] بهم هنا فقراء الناس وضعفاؤهم، وإنما بادروا للاتباع قبل الأغنياء؛ لاستيلاء الرئاسة على الأغنياء وصعوبة الانفكاك منها، والأنفة عن الانقياد للغير، والفقير خلي من تلك الموانع، فهو سريع الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا اهـ. «قرطبي» من سورة هود.

وهذا[2] من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على الدنيا، وكون الأشرف عندهم من هو أكثر منها حظاً، والأرذل من حرمها، وجهلهم أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرف من فاز به، والأرذل من حرمه، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء ضعفاء الناس، وقس أتباع العلماء على أتباعهم من حيث وراثتهم لدعوتهم وعلومهم وأذواقهم، ومحنهم وابتلائهم، وذلك لأن العلوم من أرباب المال والجاه والثروة لم تأت إلا نادراً.

---

(١) قرطبي.
(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] قالوا: كيف نتبعك ونصدقك ونؤمن بك، ونأتسى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك، ومرادهم أن هذا لن يكون أبداً، وهذه شبهة لا ينبغي لعاقل أن يركن إليها؛ لأن نوحاً عليه السلام بعث إلى الخلق كافة، لا فارق بين غني وفقير وصعلوك وأمير، ولا بين ذوي البيوتات والحسب، وذوي الوضاعة والخسة في النسب، فليس له إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش والبحث عن البواطن، ومن ثم أجابهم بقوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وأبو حيوة والضحاك وابن السميقع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري وطلحة ويعقوب ﴿وأتباعُك﴾: - بالرفع - جمع تابع كصاحب وأصحاب. وقيل: جمع تبيع كشريف وأشراف، وعن اليماني: ﴿وأتباعِك﴾ - بالجر - عطفاً على الضمير في ﴿لَكَ﴾، وهو قليل وقاسه الكوفيون.

﴿قَالَ﴾ نوح جواباً عما يشير إليه قولهم من أنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنهم عملوه إخلاصاً أو نفاقاً، وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم، والظاهر أن ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار في محل الرفع على الابتداء، و﴿عِلْمِى﴾ خبرها؛ أي: وأيّ شيء[3] يعلمني ما كان يعمل أتباعي؟ إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، فمن أظهر الحسن ظننت به حسناً، ومن أظهر السوء ظننت به ذلك، ولم أكلف العلم بأعمالهم، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والاعتبار به، لا بالحرف والصناعات، والفقر والغنى، وهم كأنهم يقولون: إن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح، بل لتوقع مال ورفعة.

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم، لا عليه، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم، فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾؛ أي: ما محاسبتهم على ما تحويه سرائرهم ﴿إِلَّا

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾ المطلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك، ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون حيث عيرتموهم بصنائعهم(١)، قرأ الجمهور: ﴿تَشْعُرُونَ﴾ - بالفوقية -، وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميقع والأعرج وأبو زرعة بالتحتية كأنه ترك الخطاب، والتفت إلى الإخبار عنهم.

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هؤلاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ومبعدهم عن مجلسي؛ أي: وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعني وصدق ما جئت به من عند الله تعالى، قال ابن عطاء: وما أنا بمعرض عمن أقبل على ربه، ثم بين وظيفة الرسول، فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾؛ أي(٢): ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء، فكيف يليق بي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، والمعنى أي: إنما بعثت منذراً ومخوفاً بأس الله وشديد عذابه، فمن أطاعني كان مني وأنا منه، شريفاً كان أو وضيعاً، جليلاً كان أو حقيراً.

ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا مما راموا.. لجؤوا إلى التهديد، كما بينه بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما تدعو إليه من التوحيد، وعما تقول من الطعن في آلهتنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: من المقتولين بالحجارة أقبح قتلة، قالوا ذلك - قاتلهم الله - في أواخر الأمر؛ أي: لنرجمنك بالحجارة ولنقتلنك بها إن لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا.

ولما طال مقامه بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وكلما كرر عليهم الدعوة صموا آذانهم وصمموا على تكذيبه، وتمادوا في عتوهم واستكبارهم.. استغاث بربه وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم، وأن يهلكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم لرسولهم، وينجيه والمؤمنين به، كما بينه بقوله: ﴿قَالَ﴾ نوح: يا ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾؛ أي: أصروا على التكذيب بعدما دعوتهم هذه

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الأزمنة المتطاولة، ولم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ أي: احكم بيني وبينهم حكماً عدلاً؛ أي: احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا من الفتاحة؛ وهي الحكومة؛ أي: إن قومي كذبوني فيما أتيتهم به من الحق من عندك فاحكم بيني وبينهم حكماً تهلك به المبطل، وتنتقم منه، وتنصر به الحق وأهله، وجاء في آية أخرى ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ قال ابن الشيخ: أراد به الحكم بإنزال العقوبة عليهم؛ لقوله عقبه: ﴿وَنَجِّنِى﴾؛ أي: خلصني ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من العذاب، ومن إذاية الكفار، وكان المؤمنون ثمانين من الرجال، وأربعين من النساء.

فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛ أي: فأنجينا نوحاً ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين حسب دعائه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء بهم، وبكل صنف من الحيوان، وبما لا بد لهم منه من الأمتعة والمأكولات ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾؛ أي: بعد إنجائهم، أو بعد ركوب نوح والمؤمنين على السفينة ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه من لم يركب السفينة بالطوفان. وفيه تنبيه على أن نوحاً كان مبعوثاً إلى من على وجه الأرض، ولذا قال في قصة الباقين، وفي قصة موسى ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

والمعنى: أي فأنجينا نوحاً ومن اتبعه على الإيمان بالله وطاعة رسوله، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره، وفي قوله ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ إيماء إلى كثرتهم، وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإهلاك، أو إن في ذلك الذي فعل بقوم نوح لاستكبارهم عن قبول الحق واستخفافهم بفقراء المسلمين ﴿لَءَايَةً﴾؛ أي: لعبرة لمن بعدهم.

والمعنى: أي إن في إنجاء المؤمنين وإنزال سطوتنا وبأسنا بالكافرين لعبرة وعظة لقومك يا محمد المصدقين منهم والمكذبين على أن سنتنا إنجاء رسلنا وأتباعهم إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين من قومهم، وكذلك هي سنتي فيك وفي قومك ﴿وَمَا كَانَ﴾: ﴿كَانَ﴾: زائدة عند سيبويه كما تقدم ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم نوح ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ فلم يؤمن من قومه إلا ثمانون من الرجال وأربعون من النساء؛

أي: ومع كل ما حذر به نوح وأنذر لم يؤمن به إلا القليل، وفي هذا إيماء إلى أنه لو كان أكثرهم مؤمنين.. لما عوجلوا بالعقاب، أو المعنى: وما كان أكثر قومك يا محمد وهم قريش مؤمنين، فاصبر على أذاهم كما صبر نوح على أذى قومه.. تظفر كما ظفر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على ما أراد من عقوبة الكفار ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب، أو بتأخير العذاب، والمعنى؛ أي[1]: وإن ربك يا محمد لهو العزيز في انتقامه ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بالتائب منهم أن يعاقبه بعد توبته.

وفي «التأويلات النجمية»: كرر في كل قصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١)﴾ دلالة على أن الله وعظمته اقتضت أن يكون أكرم الخلق مؤمناً به، مقبولاً له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولا ريب أن أكثر الخلق لئام، والكرام قليلون، كما قال الشاعر:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عِدَادُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

قصص هود عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾؛ أي: كذبت قوم هود هوداً وسائر الرسل الذين ذكرهم هود. فعاد اسم قبيلة هود، سميت باسم أبيها الأعلى، وكان من نسل سام بن نوح عليه السلام. وأنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب، لا في الدين. ظرف للتكذيب ﴿هُودٌ﴾ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، قال بعضهم[2]: كان اسم هود عابراً، وسمي هوداً لوقاره وسكوته، عاش مئة وخمسين سنة، أرسل إلى أولاد عاد حين بلغ الأربعين. وفي «المراح»: وكان هود تاجراً جميل الصوت يشبه آدم، وعاش من العمر أربع مئة وأربعاً وستين سنة. انتهى. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله سبحانه وتعالى، فتفعلون ما تفعلون ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من جهته تعالى ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: مشهور بالأمانة بينكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تعالى وخافوا عقابه ﴿وأطيعون﴾ي فيما أمركم به من الحق ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

على تبليغ الرسالة وأدائها ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ وجعل ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾؛ أي: ما أجري وثوابي على تبليغ الرسالة إليكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنه هو الذي أرسلني، فكان أجري عليه، وهو بيان لتنزهه عن المطاع الدنية والأغراض الدنيوية.

وقد[1] جاءت هذه المقالات من قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى هنا على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ للتنبيه على أن بعثة الأنبياء أسسها الدعاء إلى معرفة الله سبحانه وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب، وأن الأنبياء مجتمعون على ذلك، وإن اختلفوا في تفصيل الأحكام تبعاً لاختلاف الأزمنة والعصور، وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية، لا يأبهون بها، ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ومحط رحالهم.

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان.. أتبعه بإنكار بعض ما هم عليه، فقال: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ - بكسر الراء وفتحها - جمع ريعة، كذلك؛ أي في كل مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: بناء عالياً متميزاً عن سائر الأبنية تفاخراً حال كونكم ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ تلعبون[2] ببنائه، فإن بناء ما لا ضرورة فيه، وما كان فوق الحاجة، عبث. وقيل: المعنى؛ أي[3]: تبنون بكل مكان مرتفع علامة تعبثون فيها بمن يمر بكم وتسخرون منهم؛ لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق، فتؤذون المارة وتسخرون منهم. قال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم، حكاه الماوردي. وقيل: إنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة؛ ليعرف بذلك غناهم تفاخراً.

﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: وتجعلون لأنفسكم ﴿مَصَانِعَ﴾ وحياضاً عظيمة ومخازن للماء تحت الأرض تجمعون فيها ماء المطر ونحوه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾؛ أي: راجين أن تخلدوا في الدنيا؛ أي: عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تحكمون بناءها. وقيل: ﴿لعل﴾ هنا للتشبيه؛ أي: كأنكم تخلدون. وقيل: للاستفهام التوبيخي؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

أي: هل أنتم تخلدون في الدنيا. قال أبو حيان: الظاهر[1] أن ﴿لعل﴾ على بابها من الرجاء وكأنه تعليل للبناء والاتخاذ؛ أي: الحامل لكم على ذلك هو الرجاء للخلود، ولا خلود. وفي قراءة عبد الله ﴿كي تخلدون﴾، وفي حرف أبي: ﴿كأنكم تخلدون﴾، وقرىء ﴿كأنكم خالدون﴾. وقرأ الجمهور ﴿تخلدون﴾ مبنياً للفاعل، وقتادة مبنياً للمفعول، وقرأ أبي وعلقمة وأبو العالية مبنياً للمفعول مشدداً ومخففاً مع ضم التاء.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾؛ أي: إذا أخذتم بالعقوبة على أحد بأن ضربتم أحداً بسوط، أو قتلتم بالسيف ﴿بَطَشْتُم﴾؛ أي: فعلتم ذلك حالة كونكم ﴿جَبَّارِينَ﴾؛ أي: متسلطين ظالمين بلا رأفة ولا قصد تأديب، ولا نظر في العاقبة، فأما بالحق والعدل فالبطش جائز، والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب، وهو مذموم في وصف البشر.

والحاصل[2]: أنهم أحبوا العُلُوَّ وبقاء العُلُوِّ، والتفرد بالعلوِ، وكل ذلك ينبه على أن من حب الدينار رأس كل خطيئة، وعنوان كل معصية.

والخلاصة: إذا ضربتم.. ضربتم بالسياط ضرب الجبارين، وإذا عاقبتم قتلتم بلا استحقاق؛ أي: إنكم قوم قساة غلاظ الأكباد ذووا جبروت وعتو، فإذا عاقبتم عاقبتم دون شفقة ولا رأفة، وخلاصة ما قال: إن أفعالكم تدل على حب الدنيا، وعلى الكبرياء والتسلط على الناس بجبروت وعسف.

ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتو والتمر والتجبر.. أمرهم بالتقوى، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: خافوا عقاب الله سبحانه، واتركوا هذه الأفعال الذميمة من بناء الأبنية العالية، واتخاذ الأمكنة الشريفة، وإسراف المال في الحياض والرياض، والبطش بغير حق ﴿وأطيعونـ﴾ـي فيما أدعوكم إليه من التوحيد والعدل والإنصاف، وترك الأمل ونحوها، فإنه أنفع لكم وأجدى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بالتنبيه إلى نعم الله التي غمرتهم وفواضله التي عمتهم، وذكرها أولاً مجملة ثم فصلها؛ ليكون ذلك في نفوسهم، فيحتفظوا بها، ويعرفوا عظيم قدرها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾؛ أي: وخافوا عقاب الله الذي أعطاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مما لا خفاء فيه عليكم من أنواع النعم الحاصلة لكم، أجملها هود عليه السلام أولاً، ثم فصلها بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ﴾ وأنعمكم ﴿بِأَنْعَامٍ﴾ من الإبل والبقر والغنم. وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿وَبَنِينَ﴾ ذكور، ولم يذكر البنات؛ لأنها لا تعد عندهم من النعم، كما في قوله: ما هي بنعم الولد ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾؛ أي: بساتين وأنهار وأبيار، والمعنى؛ أي[1]: واتقوا عقاب الله بطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه، فابتعدوا عن اللعب واللهو وظلم الناس والفساد في الأرض، واحذروا سخط من أعطاكم من عنده ما تعلمون من الأنعام والبنين والبساتين والأنهار، تتمتعون بها كما شئتم حتى صرتم مضرب الأمثال في الغنى والثروة والزخرف والزينة، فاجعلوا كفاء هذا عبادة من أنعم بها، وتعظيمه وحده.

ثم بين السبب في أمرهم بالتقوى، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي[2]: شديد عذابه في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها. ووصف اليوم بالعظم؛ لعظم ما يحل فيه، وهو هبوب الريح الصرصر ههنا.

والمعنى: أي إني أخاف عليكم إن أصررتم على كفركم، ولم تشكروا هذه النعم عذاب يوم شديد الهول، تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس فيه سكارى حيارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

وبعد أن بلغ الغاية في إنذارهم وتخويفهم وترغيبهم وترهيبهم.. كانت خاتمة مطافه أن قابلوه بالاستخفاف وقلة الاكتراث والاستهانة بما سمعوا، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قومه في جواب تذكير هود ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا

(١) المراغي. (٢) روح البيان،

﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾؛ أي: وعظك وتذكيرك وتخويفك إيانا من العذاب وعدم وعظك سواء عندنا؛ أي: مستوٍ عندنا، لا نبالي بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله ولا نسمعه.

والمعنى[1]: أي هون عليك، وأرح نفسك، فكل هذا تعب ضائع، وجهاد في غير عدو، وضرب في حديد بارد، فإنا لن نرجع عما نحن عليه، وقد حكى الله سبحانه قولهم في سورة هود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وعادل[2] ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بقوله: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ وإن كان قد يعادله: أم لم تعظ، كما قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾؛ لأجل الفاصلة، كما عادلت في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، ولم يأت التركيب: ﴿أم صمتم﴾، وكثيراً ما يحسن مع الفواصل ما لا يحسن دونه. وقال الزمخشري: بينهما فرق؛ يعني بين ما جاء في الآية وبين: أم لم تعظ؛ لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ.

وقرأ الجمهور: ﴿وعظت﴾ بإظهار الظاء، وروي عن أبي عمرو والكسائي وعاصم إدغام الظاء في التاء، وبالإدغام قرأ ابن محيصن والأعمش، إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول، فقرأ: ﴿أوعظتنا﴾.

ثم ذكروا السبب في أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة[3]: ﴿خُلُقُ﴾ بضمتين، والمعنى عليه: أي ما هذا الذي جئتنا به من الكذب إلا عادة الأولين، كانوا يسطرونه، أو ما هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد، فنحن سالكون سبيلهم، مقتدون بهم، أو ما هذا الذي نحن عليه من الموت والحياة، والبلاء

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

والعافية، ومن اعتقاد أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء إلا عادة قديمة، لم يزل الناس عليها من قديم الدهر.

وقرأ عبد الله وعلقمة والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير والكسائي[1]: ﴿خَلْق﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، والمعنى: أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا خلق الأولين؛ أي: اختلاقهم وكذبهم، فأنت على مناهجهم، أو ما خلقنا هذا إلا خلق الأمم الماضية، نحيا كحياتهم، ونموت كمماتهم، ولا بعث ولا معاد، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار. وقرأ أبو قلابة والأصعمي عن نافع بضم الخاء وسكون اللام، وتحتمل هذه القراءة ذينك الاحتمالين اللذين في ﴿خُلُقُ﴾ بضمتين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نحن عليه من الأعمال والعادات ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذبوا هوداً، وأصروا على تكذيبه ومخالفة أمره ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ أي: عاداً بسبب تكذيبهم بريح صرصر عاتية؛ ريح عظيمة ذات برد شديد، كما جاء في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ تلخيصه: أن هوداً أنذر قومه وعظهم، فلم يتعظوا فأهلكوا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة وعظة لقومك ـ يا محمد ـ المكذبين بك فيما أتيتهم به من عند ربك ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم عاد ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبرسولهم هود عليه السلام. أو: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علمنا. أو: وما كان أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم من قوم محمد ﷺ مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المنتقم الشديد في انتقامه ممن يعمل عمل الجبارين، ولا يقبل موعظة واعظ ونصيحة ناصح. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأصلحوا.

وهذا تهديد لهذه الأمة كيلا يسلكوا مسالكهم[2]. قيل: خير ما أعطي الإنسان عقل يردعه، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فخوف يقمعه، فإن

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد، كالأرض إذا استولى عليها الشوك فلا بد من نسفها وإحراقها بتسليط النار عليها، حتى تعود بيضاء، فعلى العاقل أن يعتبر ويخاف من عقوبة الله سبحانه، ويترك العادات والشهوات والملاهي والتلفازات، ولا يصر على المخالفات والمنهيات، وقد أهلك الله سبحانه قوم عاد مع شدة قوتهم وشوكتهم بأضعف الأشياء وهو الريح، فإنه إذا أراد يجعل الأضعف أقوى كالبعوضة، ففي الريح ضعف للأولياء، وقوة على الأعداء، ولأن للكمل معرفة تامة بشؤون الله تعالى، لم يزالوا مراقبين خائفين، كما أن الجهلاء ما زالوا غافلين آمنين، ولذا قامت عليهم الطامة في كل زمان ـ قوّانا الله وإياكم بحقائق اليقين، وجعلنا وإياكم من أهل المراقبة في كل حين ـ.

الإعراب

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول قال إبراهيم. ﴿هَبْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿حُكْمًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، على كونها جواب النداء. ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هَبْ لِي﴾. ﴿وَاجْعَل﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر معطوف على ﴿هَبْ لِي﴾. ﴿لِي﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿اجعل﴾. ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: مفعول أول لـ﴿اجعل﴾، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف. ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾. ﴿وَاجْعَلْنِي﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية، ومفعول به أول معطوف على ﴿هَبْ لِي﴾. ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لموصوف محذوف وقع مفعولاً ثانياً لجعل؛ أي: واجعلني

وارثاً من ورثة جنة النعيم. ﴿وَٱغْفِرْ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿هَبْ﴾. ﴿لِأَبِيٓ﴾: متعلق بـ﴿اغفر﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمها مستتر يعود على الأب. ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الغفران على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: دعائية جازمة. ﴿تُخْزِنِي﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الدعائية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء، وفاعله ضمير يعود على الله، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هَبْ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُخْزِنِي﴾. ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: في محل النصب على الظرفية بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأول. ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿وَلَا بَنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَالٌ﴾ مرفوع بالواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، والمستثنى منه محذوف تقديره: يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من المستثنى منه المحذوف المذكور. ﴿أَتَى ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِقَلْبٍ﴾: متعلق بـ﴿أَتَى﴾. ﴿سَلِيمٍ﴾: صفة ﴿قلب﴾، والجملة صلة الموصول.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾: فعل ونائب فاعل أيضاً معطوف على: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾: متعلق به. ﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة. ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾، وجملة ﴿قيل﴾ في محل النصب حال من الغاوين، ولكنها بتقدير قد. وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق

بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من واو ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله في عبادتكم.

فائدة: واختلفت المصاحف في رسم ﴿مَا﴾ في ﴿أَيْنَ مَا﴾ موصولة بـ﴿أَيْنَ﴾، أو مفصولة عنها، والفصل أظهر هنا، فليست هذه كالتي في قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فهي زائدة، وترسم موصولة باتفاق، اهـ «كرخي». ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام التوبيخي. ﴿يَنصُرُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَنصُرُونَكُمْ﴾.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿فَكُبْكِبُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كبكبوا﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿قيل﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به. ﴿هُمْ﴾: تأكيد للضمير المرفوع في ﴿كبكبوا﴾، ليصح العطف عليه. ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ معطوف على ﴿الواو﴾ في ﴿كبكبوا﴾، وسوغ العطف عليهما الفصل بالجار والمجرور، وبضمير التوكيد. ﴿وَجُنُودُ﴾: معطوف على ﴿الواو﴾ أيضاً. ﴿إِبْلِيسَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿أَجْمَعُونَ﴾: تأكيد للواو في ﴿كبكبوا﴾ وما عطف عليه. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿قَالُوا﴾. ﴿تَٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: نقسم تالله، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، تقديره: تالله إنه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿في ضلال﴾: جار ومجرور خبر كان. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة

﴿ضلال﴾، وجملة كان في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب على كونها مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كُنَّا﴾. ﴿نُسَوِّيكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر. ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُسَوِّيكُم﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَضَلَّنَآ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة القسم. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم. ﴿مِن شَٰفِعِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَضَلَّنَآ﴾. ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾: معطوف على ﴿شَٰفِعِينَ﴾. ﴿حَمِيمٍ﴾: صفة ﴿صَدِيقٍ﴾.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَلَوْ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف تمن بمعنى نتمنى نائب عن الفعل. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم لـ﴿أَنَّ﴾ ﴿كَرَّةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لفعل محذوف دلت عليه ﴿لو﴾ والتقدير: فنتمنى كون كرة لنا إلى الدنيا، ويجوز أن تكون ﴿لو﴾ شرطية، وجملة ﴿أَنَّ﴾ حينئذ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف بعد ﴿لو﴾، تقديره: لو ثبت كون كرة لنا إلى الدنيا، والجملة المحذوفة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف تقديره: فلو ثبت كون كرة لنا لفعلنا كيت وكيت، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَنَكُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية إن قلنا: ﴿لو﴾ للتمني. ﴿نكون﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التمني، واسمها ضمير مستتر فيها. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور في محل النصب خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متقيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: نتمنى كون كرة لنا إلى الدنيا فكوننا من المؤمنين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن ربك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿الْعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿الرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿أَخُوهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه مرفوع بالواو. ﴿نُوحٌ﴾: بدل من ﴿أَخُوهُمْ﴾، أو عطف بيان منه، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَلَا﴾: أداة عرض. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رَسُولٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لعرضه عليهم الجنوح إلى التقوى. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أني رسول لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم. ﴿اتقوا﴾: فعل وفاعل: ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾الواو: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿نُوحٍ﴾ ومفعول أول ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من ﴿أَجۡرٍ﴾. ﴿مِنۡ﴾: زائدة. ﴿أَجۡرٍ﴾: مفعول ثان لسأل، والجملة في محل النصب. مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنۡ﴾: نافية. ﴿أَجۡرِيَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به محذوف، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

تنبيه: وقد صدرت القصص الخمس بالأمر بالتقوى؛ للدلالة على اتفاق الأديان السماوية على وجوب معرفة الحق واتباعه، وكررت الجملة نفسها تأكيداً لهذه الغاية السامية كما مر.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿نؤمن﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على قوم ﴿نُوحٍ﴾. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اتبعك﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من كاف ﴿لَكَ﴾، ولكنها على تقدير قد. ﴿قَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿نُوحٍ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿عِلۡمِي﴾: خبرها ومضاف إليه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عِلۡمِي﴾، ويحتمل كون ﴿مَا﴾ نافية. ﴿عِلۡمِي﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿بِمَا﴾: متعلق به، والخبر محذوف تقديره: وما

علمي بما كانوا يعملون حاصل، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.
﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿حِسَابُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب قول ﴿قَالَ﴾.
﴿لَوْ﴾: حرف امتناع وشرط. ﴿تَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول ﴿تَشْعُرُونَ﴾ محذوف، تقديره: ذلك، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: ما عيرتموهم وما نسبتم إليهم شيئاً من نقص، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿أَنَا﴾: اسمها. ﴿بِطَارِدِ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿طارد المؤمنين﴾: خبرها مجرور لفظاً منصوب محلاً. ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿أَنَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر. ﴿مُبِينٌ﴾: صفة له، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَنتَهِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿يَا نُوحُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها معترضة. ﴿لَتَكُونَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، كررت لتدل على أن ما بعدها جواب القسم لا جواب الشرط. ﴿تكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على ﴿نُوحٍ﴾. ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تكونن﴾، وجملة ﴿تكونن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، وجواب الشرط محذوف جرياً على القاعدة المشهورة المذكورة في قول ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

تقديره: إن لم تنته يا نوح تكن من المرجومين، وجملة الشرط في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها معترضة بين القسم وجوابه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿نُوحٍ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿كَذَّبُونِ﴾: فعل ماض وفاعل ونون وقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَافْتَحْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية؛ لكون ما قبلها علة لما بعدها. ﴿افتح﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿افتح﴾. ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾. ﴿فَتْحًا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾ عطف فعلية على اسمية. ﴿وَنَجِّنِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نَجِّنِى﴾: فعل دعاء وفاعل ونون وقاية ومفعول به، معطوف على ﴿فَافْتَحْ﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ياء المتكلم، أو مفعول معه. ﴿مَعِىَ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الصلة. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿أنجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ضمير المفعول، أو مفعول معه. ﴿مَّعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿فِى الْفُلْكِ﴾: متعلق بـ﴿أنجيناه﴾، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف. ﴿الْمَشْحُونِ﴾: صفة لـ﴿الْفُلْكِ﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَغْرَقْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أنجينا﴾. ﴿بَعْدُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الضم؛ لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى، والمراد: بعد إنجائهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾: مفعول ﴿أَغْرَقْنَا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم. ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على جملة ﴿إن﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾: ضمير فصل، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبره. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في القصة الرابعة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَخُوهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿هُودٌ﴾: بدل من ﴿أَخُوهُمْ﴾، أو عطف بيان له، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَلَا﴾: أداة عرض. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: تتقون الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: حال من ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة له، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللة لعرضه عليهم التقوى. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة كما تقدم. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول محذوف معطوف على ﴿اتقوا الله﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، والجملة معطوفة على

جملة ﴿إن﴾. ﴿عَلَيۡهِ﴾: حال. ﴿مِنۡ﴾: زائدة. ﴿أَجۡرٍ﴾: مفعول ثان لسأل. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿أَجۡرِيَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾.

﴿أَتَبۡنُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي. ﴿تبنون﴾: فعل وفاعل. ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تبنون﴾. ﴿ءَايَةٗ﴾: مفعول به، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تَعۡبَثُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تبنون﴾. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تبنون﴾. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَخۡلُدُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَخۡلُدُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم راجين ومؤملين أن تخلدوا في الدنيا. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿بَطَشۡتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿بَطَشۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، والظرف متعلق بالجواب. ﴿جَبَّارِينَ﴾: حال من فاعل ﴿بَطَشۡتُمۡ﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ﴾. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم اتقوا الله ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول محذوف معطوف على ﴿اتقوا الله﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿أَمَدَّكُم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به صلة الموصول. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَمَدَّكُم﴾، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: تعلمونه. ﴿أَمَدَّكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة بدل من جملة ﴿أَمَدَّكُم﴾ الأولى بدل بعض من كل؛ لأنها أخص من الأولى باعتبار متعلقيهما، فتكون داخلة في الأولى لأن ﴿ما تعلمون﴾: يشمل الأنعام وغيرها. وقيل: هي مفسرة للجملة الأولى، فلا محل لها من الإعراب، وشرط إبدال الجملة من الجملة أن تكون الثانية أوفى من الأولى بتأدية المعنى المراد، ولذلك لا يقع البدل المطابق في الجمل، وإنما يقع بدل البعض من الكل. ﴿بِأَنْعَامٍ﴾: متعلق بـ﴿أَمَدَّكُم﴾. ﴿وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: معطوفة على ﴿أنعام﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿هُودٌ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَخَافُ﴾. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿سَوَاءٌ﴾: خبر مقدم لمبتدأ متصيد من الجملة التي بعدها من غير سابك لإصلاح المعنى. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿سَوَاءٌ﴾؛ لأنه بمعنى مستو، والهمزة للاستفهام. ﴿أَوَعَظْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَمْ﴾: حرف معادل لهمزة التسوية عاطف. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمها ضمير يعود على ﴿هُودٌ﴾. ﴿مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾: خبر ﴿تَكُنْ﴾، وجملة ﴿تَكُنْ﴾ معطوفة على جملة وعظت، وجملة وعظت في تأويل مصدر من غير سابك لإصلاح المعنى مرفوع على الابتداء، والتقدير: وعظك إيانا وعدمه سواء علينا في عدم مبالاتنا لوعظك، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿إن﴾: نافية. ﴿هَذَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾:

خبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿نَحۡنُ﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾: خبرها، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿كذبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أهلكناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف مفرع على ﴿كذبوه﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم على اسمها ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾: اسمها مؤخر عن خبرها. و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَهُوَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿هو﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الحكم: هو العلم بالخبر والعمل به. واللحوق بالصالحين يراد به التوفيق للأعمال التي توصل إلى الانتظام في زمرة الكاملين المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها.

﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾؛ أي: ذكراً جميلاً بين الناس، بتوفيقي إلى الطريق الحسنة حتى يقتدي بي الناس من بعدي، وهذا هو الحياة الثانية، كما قال:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِيْ ٱلنَّاسِ أَحْيَاءُ

﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: من الذين يستمتعون بالجنة وسعادتها، فيكون ذلك غنيمة لهم، كما يستمتع الناس بالميراث في الدنيا.

﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾ من أخزى يخزي إخزاء أصله من الخزي بمعنى الهوان والذل، وقيّد عدم الإخزاء بيوم البعث؛ لأن الدنيا مظهر اسم الستار كما مر.

﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ والقلب السليم: هو البعيد عن الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة.

﴿أزلفت﴾؛ أي: قرّبت الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾؛ أي: جعلت بارزة؛ أي: ظاهرة ﴿لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: الضالين عن طريق الهدى.

﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ وباب افتعل ههنا مطاوع فعل، قال في «كشف الأسرار» النصر: المعونة على دفع الشر والسوء عن غيره، والانتصار أن يدفع عن نفسه.

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ والكبكبة: تكرير الكب؛ وهو الإلقاء على الوجه بتكرير معناه، كأن من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها، اهـ «بيضاوي». وفي «روح البيان»: الكبكبة: تدهور الشيء في هوة؛ وهو تكرير الكب، وهو الطرح والإلقاء منكوساً، وجعل تكرير اللفظ دليلاً على تكرير المعنى، كرر عين الكبّ بنقله إلى باب التفعيل، فأصل كبكبوا كبّبوا، فاستثقل اجتماع الباءات، فأبدلت الثانية كافاً، كما في زحزح، فإن أصله زحح من زحّه يزحّه؛ أي: نحا عن موضعه، ثم نقل إلى باب التفعيل، فقيل: زحّحه، فأبدلت الحاء الثانية زاياً، فقيل: زحزحه؛ أي: باعده، اهـ.

﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: اسم فاعل من غوى يغوى غواية إذا ضل عن طريق الهدى.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين. فافتعل هنا بمعنى فاعل الذي للمشاركة.

﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من الإجرام؛ وهو الإشراك، وأصل الجرم: قطع الثمرة عن الشجرة، والجرامة رديء الثمر، وأجرم إذا صار ذا جرم، نحو أثمر وألبن، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكسب المحمود.

﴿مِن شَٰفِعِينَ﴾: جمع شافع من الشفاعة؛ وهو طلب الخير من الغير للغير.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: من الصداقة، والصداقة: أن يفرح الشخص

لفرحك، ويحزن لحزنك، والعداوة على الضد من ذلك. والحميم: هو الذي يهمّه ما أهمّك؛ من الاحتمام؛ وهو الاهتمام، أو من الحامة؛ وهي الخاصة؛ وهو الصديق المشفق. والنفي هنا يحتمل نفي الصديق من أصله، أو نفي صفته فقط، والصديق يحتمل أن يكون مفرداً، وأن يكون مستعملاً في الجمع، كما يستعمل العدو فيه، كما يقال: هم صديق، وهم عدو، اهـ «كشاف». وفي «البيضاوي»: جمع الشافع، ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصديق، ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدو؛ لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل، اهـ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: تأنيث الفعل المسند إلى القوم باعتبار معناه، وهو الأمة والجماعة، وتذكير الضمير العائد إليه في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ باعتبار لفظه. وفي «البيضاوي»: القوم مؤنث، ولذلك يصغر على قويمة». وفي «المصباح»: «القوم يذكر ويؤنث، فيقال: قام القوم، وقامت القوم، وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه، نحو رهط ونفر»، اهـ. فقوله: مؤنث؛ أي: على الأغلب، لا أنه ذهب إلى أنه جمع قائم، والأصل تأنيثه، اهـ «شهاب».

﴿أَخُوهُمْ﴾؛ أي: أخوة نسب، كما يقال: يا أخا العرب، ويا أخا تميم، يريدون: يا من هو واحد منهم، قال الحماسي:

لاَ يَسْأَلُوْنَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ   فِيْ اَلنَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا

﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: جمع الأرذل، والرذالة الخسة والدناءة، والرذال: المرغوب عنه لرداءته، يعنون أن لا عبرة لاتباعهم لك؛ إذ ليس لهم رزانة عقل وإصابة رأي، قد كان ذلك منهم في بادىء الرأي، وقد استرذلوهم لاتضاع نسبهم، وقلة حظوظهم من الدنيا.

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾: وهو من الباب الأول، وأما الشعر بمعنى النظم فهو من الباب الخامس.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾: من الطرد، وهو الإزعاج والإبعاد على سبيل

الاستخفاف.

﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: من المقتولين رجماً بالحجارة، قال الراغب في «المفردات»: الرجام الحجارة، والرجم الرمي بالرجام، يقال: رجم فهو مرجوم، قال تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: المقتولين أقبح قتلة، انتهى.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾؛ أي: أحكم بيننا، والفتح هنا من الفتاحة بمعنى الحكومة، والفتّاح الحاكم، سمي بذلك لفتحه مغاليق الأمور، ، كما سمي فيصلاً لفصله بين الخصومات. وفي «القاموس»: الفُتاحة ـ بالضم والكسر ـ ويقال: بينهما فتاحات؛ أي: خصومات.

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء بهم وبكل ما معهم، ومنه الشحناء؛ وهي عداوة امتلأت منها النفوس.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾الريع ـ بكسر الراء وفتحها ـ: جمع ريعة؛ وهو في اللغة المكان المرتفع، وقال أبو عبيدة: هو الطريق اهـ. «سمين». وقيل: هو الجبل. اهـ «مصباح» وفي «القاموس»: والرِيع ـ بالكسر والفتح ـ المرتفع من الأرض، أو كل فجّ، أو كل طريق، أو الطريق المنفرج في الجبل، والجبل المرتفع، الواحدة بهاء، وبالكسر: الصومعة، وبرج الحمام، والتل العالي، وبالفتح: فضل كل شيء كريع العجين والدقيق والبذر. اهـ.

﴿ءَايَةً﴾ الآية: العلم يهتدي به المارة، وكان بناؤها للعبث واللهو؛ لأنهم كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم، فلا يحتاجون إليها. وقيل: المراد بها القصور المشيدة، ترفعون بناءها وتجتمعون فيها، فتعبثون بمن يمر بكم.

﴿تَعْبَثُونَ﴾ في «المصباح»: عبث عبثاً ـ من باب تعب ـ إذا لعب وعمل ما لا فائدة فيه فهو عابث.

﴿مَصَانِعَ﴾: جمع مَصنعَةُ ـ بفتح الميم مع فتح النون، أو ضمها ـ؛ وهي الحوض أو البركة، فقوله: ﴿مَصَانِعَ﴾؛ أي: حيضاناً وبُركاً تجمعون فيها الماء، فهي من قبيل الصهاريج. اهـ، شيخنا وفي «المختار»: المَصنُعَة ـ بفتح الميم وصم

النون، أو فتحها ـ كالحوض يجمع فيه ماء المطر، والمصانع الحصون. اهـ. وفي «القاموس»، وشرحه «التاج»: المَصنَعة والمَصنُعة ـ بفتح الميم وفتح النون وضمها ـ: ما يجمع فيه ماء المطر كالحوض، والجمع المصانع، والمصانع أيضاً القرى والحصون والقصور، والمصنعة أيضاً الدعوة للأكل، يقال: كنا في مصنعة فلان، وموضع يعزل النحل بعيداً عن البيوت، وجميع هذه المعاني صالحة للتفسير بها. وقيل: ﴿مَصَانِعَ﴾؛ أي: قصوراً مشيدة وحصوناً منيعة، أو مآخذ الماء تحت الأرض، كما في «الصحاح» و «القاموس».

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ البطش: السطوة والأخذ بعنف، وتناول الشيء بصولة أو قهرٍ أو غلبة.

﴿جَبَّارِينَ﴾والجبّار: الذي يضرب ويقتل على الغضب، والجبّار أيضاً المتسلط العاتي بلا رأفة ولا شفقة.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِيَ أَمَدَّكُم﴾ والإمداد: اتباع الثاني بما قبله شيئاً بعد شيء على انتظام، وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه، وأما قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فهو من مددت الدواة أمدها، لا من القبيل المذكور. اهـ «روح».

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ﴾ والوعظ: زجر يقترن بتخويف، وكلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة والموعظة الاسم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التقديم في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ فقد استوعب الحكم أولاً، ثم طلب الإلحاق بالصالحين، والسر فيه دقيق جداً، ذلك أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية؛ لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل

به، وعكسه غير ممكن؛ لأن العلم صفة الروح، والعمل صفة البدن، وكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أفضل من الإصلاح.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ إذ المراد باللسان الثناء الحسن والقبول العام، وذكر اللسان مجاز علاقته السببية؛ لأنه سبب ذلك الثناء، فهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب. وقيل: هو مجاز من إطلاق الجزء على الكل؛ لأن الدعوة باللسان.

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في لسان صدق؛ أي: اللسان الصادق، والثناء الحسن، وإضافة المحل إلى الحال فيه في قوله: ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: الجنة التي هي محل النعيم الدائم.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ حيث استعار الورثة لمستحقي الجنة، شبّه الجنة التي استحقها العامل بعد فناء عمله بالميراث الذي استحقه الوارث بعد فناء مورثه، فأطلق عليها اسم الميراث، وعلى استحقاقها اسم الوراثة، وعلى العامل اسم الوارث. اهـ روح».

ومنها: المقابلة البديعة في قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ فإنه مقابل قوله في السعداء: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

ومنها: إضافة ما للكل إلى الجزء؛ لكونه رئيسه في قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أضاف السلامة إلى القلب؛ لأن الجوارح تابعة للقلب، فتسلم بسلامته، وتفسد بفساده.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾، وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾؛ للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع.

ومنها: قوة اللفظ لقوة المعنى في قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا مما انفرد في التنبيه إليه ابن جنّي في كتاب «الخصائص»، فإن الكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد أخرى، حتى يستقر في قعرها، وليست الزيادة في اللفظ دالة على قوة المعنى بصورة مطردة، بل إن المدار في ذلك على الذوق، خذ لك مثالاً زيادة التصغير، فهي زيادة نقص، فرجيل أنقص من رجل في المعنى، ولكنه أكثر حروفاً منه.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ لاستحضار الصورة الماضية.

ومنها: الإيضاح في قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾؛ وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، ثم يوضحه في بقية كلامه، فإن الصديق الموصوف بصفة حميم هو الذي يفوق القرابة، ويربو عليه، وهو أن يكون حميماً، فالحميم من الاحتمام؛ وهو الاهتمام؛ أي: صديق يهمه أمرنا ويهمنا أمره.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهما بسبب؛ وهو الأمانة في الأول، وقطع الطمع في الثاني، ونظيره قولك لولدك: ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً، ألا تتقي في عقوقي وقد علمتك كبيراً.

ومنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ حيث عبّر بالمرسلين عن نوح عليه السلام، وكذا فيما بعده من الأنبياء، وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له، وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

ومنها الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ أي: احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل، استعار الفتّاح للحاكم، والفتح للحكم؛ لأنه

يفتح المنغلق من الأمر، ففيه استعارة تصريحية تبعية.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ ومحل التوبيخ هو الجملة الحالية؛ أي: تعبثون.

ومنها: إعادة الفعل لزيادة التقرير في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ بعد قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن التفصيل بعد الإجمال، والتفسير بعد الإبهام أدخل في ذلك، وأوقع في النفس. اهـ «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ
فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ
(١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥)
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ
ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ
أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)
وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١)...﴾ الآيات، مناسبة هذه القصة لما

قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص على رسوله ﷺ قصص عاد وهود.. قصّ أيضاً قصص ثمود وصالح، وقد[1] كانوا عرباً مثلهم، يسكنون مدينة الحجر الذي بين وادي القرى والشام، ومساكنهم معروفة، تتردد عليها قريش في رحلة الصيف وهم ذاهبون إلى بلاد الشام، دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم، فأبوا وكذبوا بعد أن أتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته فأخذهم العذاب، وزلزلت بهم الأرض، ولم تبق منهم دياراً ولا نافخ نار.

التفسير وأوجه القراءة

قصص صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ أنث[2] اعتباراً بمعنى القبيلة، أو الجماعة، أو الأمة، وهو اسم جدهم الأعلى، وهو ثمود بن عبيد بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صالحاً ومن قبله من المرسلين، أو إياه وحده، والجمع باعتبار أن تكذيب واحد من الرسل في حكم تكذيب الجميع؛ لاتفاقهم على التوحيد وأصول الشرائع.

ثم بيّن الوقت الممتد للتكذيب المستمر، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ النسبي، لا الديني، فإن الأنبياء محفوظون قبل النبوة، معصومون بعدها، وفائدة كونه منهم أن تعرف أمانته ولغته، فيؤدّي ذلك إلى فهم ما جاء به وتصديقه ﴿صَالِحٌ﴾ بن عبيد بن آسف بن كاشح بن حاذر بن ثمود، وعاش صالح من العمر مئتين وثمانين سنة، وبينه وبين هود مئة سنة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يا قوم عقاب الله سبحانه بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عند الله ﴿أَمِينٌ﴾ في جميع ما أرسلت به إليكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: عقاب الله سبحانه في مخالفتي؛ لأني رسول الله إليكم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه؛ لأني أمين على ما أرسلت به إليكم؛ أي: فإن شهرتي فيما بينكم بالأمانة موجبة لتقوى الله، وإطاعتي فيما أدعوكم إليه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على نصحي لكم وتبليغ ما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أرسلت به إليكم ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: أجراً وجعلا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما أجر تبليغي وثواب دعوتي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه الذي أرسلني، فالأجر عليه، بل هو الآجر لعباده الخلّص.

والمعنى: أي[1] كذبت ثمود أخاهم صالحاً حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم إياه، وخلافكم أمره بطاعتكم أمر المفسدين في الأرض، إني لكم رسول من عند الله، أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبته، أمين على رسالته التي أرسلها معي إليكم فاتقوه وأطيعوني، وما أسألكم على نصحي وإنذاري جزاء ولا ثواباً، ما جزائي إلاّ على رب السموات والأرض وما بينهما.

ثم خاطب قومه واعظاً لهم، ومحذّراً نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعمه عليهم فيما آتاهم من الأرزاق الدارّة، والجنات والعيون، والزروع والثمرات، والأمن من المحذورات، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ الاستفهام[2] فيه للإنكار والتوبيخ؛ أي: أتظنون أن تتركوا ﴿فِي﴾؛ أي: في النعم التي أعطاكم الله سبحانه ﴿مَا هَٰهُنَآ﴾؛ أي: في هذه الدار الدنيا حالة كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والعذاب، باقين في الدنيا، وأن لا دار للمجازاة؛ أي: لا تظنوا ذلك فإنكم لا تتركون فيها، ولا بد من المجازاة؛ أي: لا ينبغي لكم أن تعتقدوا أنكم تتقلبون في النعم التي في دياركم هذه آمنين من الزوال والعذاب، فلا تطمعوا في ذلك.

ثم فسّر ذلك المكان بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أتتركون في بساتين يانعة وأنهار جارية ﴿وَزُرُوعٍ﴾ زاهرة ﴿وَنَخْلٍ﴾ ناضرة ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؛ أي: لطيف ليّن في جسمه، والطلع ثمر النخل في أول ما يطلع، وبعده يسمى خلالاً، ثم بلحاً، ثم بسراً، ثم رطباً، ثم تمراً. وأفرد النخل مع دخولها في أشجار الجنات؛ لفضلها على سائر الأشجار، وقد خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولكن لا أصل له.

والمعنى: أي لا تظنوا أنكم تتركون في دياركم آمنين متمتعين بالجنات

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والعيون والزورع والثمار اليانعة، وأن لا دار للجزاء على العمل، بل عليكم أن تتذكروا أن ما أنتم فيه من نعم وأمن من عدو لن يدوم، وأنكم عائدون إلى ربكم مجازون على أعمالكم خيرها وشرها.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ معطوف[1] على ﴿تتركون﴾ فهو في حيّز الاستفهام التوبيخي، ومحل التوبيخ الحال؛ وهي قوله: ﴿فَرِهِينَ﴾؛ أي: وهل تنحتون وتبرون ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومساكن حالة كونكم ﴿فَرِهِينَ﴾ بالألف؛ أي: ماهرين وحاذقين في نحتها وبرايتها. وقرىء ﴿فرهين﴾ بلا ألف، كما سيأتي لاحقاً؛ أي: فرحين مرحين بطرين. فهو على الأول من ﴿فَرُه﴾ بالضم فراهة إذا مهر في العمل وحذق، وعلى الثاني من ﴿فره﴾ بالكسر فرهاً إذا فرح ومرح.

وفي «الكرخي» في سورة الأعراف: وإنما كانوا ينحتون بيوتاً في الحبال لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم. وفي «الخطيب» في سورة هود: وكان الواحد منهم يعيش ثلاث مئة سنة إلى ألف سنة، وكذا كان قوم هود. اهـ.

واعلم: أن[2] ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الخيالية؛ وهو طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية؛ وهو طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة، وكل هذه اللذات من لذات أهل الدنيا الغافلين، وفوقها لذات أهل العقبى المتيقظين؛ وهي اللذات القلبية من المعارف والعلوم، وما يوصل إليها من التواضع والوقار والتجرد والاصطبار ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقابه في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ي فيما أمرتكم به.

والمعنى[3]: أي وهل تتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً من غير حاجة إلى سكناها مع الجدّ والاهتمام في بنائها، فاتقوا الله، وأقبلوا على

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم وتسبيحه بكرة وأصيلا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ بالتاء للخطاب، وكسر الحاء، وقرأ أبو حيوة وعيسى والحسن بفتح الحاء، وعن الحسن بألف بعد الحاء إشباعاً، وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه ﴿ينحتون﴾ بالياء من أسفل وكسر الحاء، وعن أبي حيوة والحسن أيضاً ﴿ينحتون﴾ بالياء من أسفل وفتح الحاء، وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن علي والكوفيون وابن عامر ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بألف، وباقي السبعة بغير ألف، وقرأ مجاهد: ﴿متفرهين﴾ اسم فاعل من تفرّه، والمعنى: نشطين مهتمين.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ خطاب لجمهور قومه ﴿أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ وهم كبراؤهم ورؤساؤهم في الكفر والإضلال، وكان[2] مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تطيعوا المسرفين، بلا إقحام ﴿أَمۡرَ﴾ فإن الطاعة إنما تكون للأمر ـ على صيغة الفاعل ـ كما أن الامتثال إنما يكون للأمر ـ على صيغة المصدر ـ فشبّه الامتثال بالطاعة من حيث إن كل واحد منهما يفضي إلى وجود المأمور به، فأطلق اسم المشبّه به وهو الطاعة، وأريد الامتثال؛ أي: لا تمتثلوا أمر المجاوزين للحد بالإشراك والإضلال. وقيل يعني التسعة الذين عقروا الناقة. وفي «النسفي»: جعل الأمر مطاعاً على المجاز الإسنادي، والمراد الآمر، فكأنه قال: ولا تطيعوا المسرفين فيما أمروا به. أو المعنى[3]: ولا تطيعوا وتتبعوا المستكثرين من لذات الدنيا وشهواتها، بل اكتفوا واقتصروا منها بقدر الكفاف.

ثم وصف المسرفين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في أرض الحجر بالكفر والظلم، وهو وصف موضح لإسرافهم ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بالإيمان والعدل عطف على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان خلو إفسادهم عن مخالطة الإصلاح؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

المراد بهذه الجملة بيان أن فسادهم خالص، ليس معه شيء من الصلاح، فإن حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

والمعنى: أي ولا تطيعوا أمر رؤسائكم الذين تمادوا في معصية ربكم، واجترؤوا على سخطه، وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ وهو المذكورون في قوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: يسعون في أرض الله بمعاصيه، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعته.

وخلاصة هذا: لا تطيعوا رؤساءَكم وكبراءَكم الدعاة إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم إليه.. عدلوا إلى التخييل إلى عقول الضعفاء والعامة ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال قومه في جواب مقاله ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا صالح؛ أي: ما أنت إلا ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي: من الذين سحروا كثيراً، حتى غلب على عقولهم؛ أي: من المسحورين مرة بعد أخرى حتى اختل عقله، واضطرب رأيه، فلا يقبل لك قول، ولا يسمع لك نصح. فبناء التفعيل لتكثير الفعل، أو: إلاّ من البشر الذين لهم السحر والرئة، يأكلون كما نأكل، ويشربون كما نشرب، كما قال الفراء، فيكون قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: مماثل لنا، تأكل كما نأكل، وتشرب كما نشرب تأكيداً له. والمعنى[1]: أنت بشر مثلنا، ولست بملك، فلا نؤمن بك ﴿فائت بآية﴾؛ أي: بعلامة تدل على صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك أنك رسول إلينا.

فإن قلت[2]: لم قال هنا ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ بلا واو، وفي قصة شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ بواو، فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: ما هنا بدل مما قبله، وثَمَّ معطوف على ما قبله، وخص ما هنا بالبدل؛ لأن صالحاً قلل في الخطاب، فقلّلوا في الجواب، وأكثر شعيب في

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمن.

الخطاب فأكثروا في الجواب.

والمعنى: أي إنك بشر مثلنا، فكيف أوحي إليك دوننا، كما حكي عنهم في آية أخرى: ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

روي: أن[1] صالحاً عليه السلام قال لهم: أي آية تريدون؟ قالوا: نريد ناقة عشراء - الحامل في عشرة أشهر - تخرج من هذه الصخرة، فتلد سقبا، فأخذ صالح يتفكر، فقال له جبريل: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم، ونتجت سقباً مثلها في العظم. وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: رأينا مبركها فإذا هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً.

فـ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ البهيمة التي خرجت من الصخرة ﴿نَاقَةٌ﴾ دالة على نبوتي، أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾؛ أي: حظ ونصيب من الماء، تشرب منه يوماً كالسقي للحظ من السقي ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ أي: ولكم نصيب وحظ من الماء، تشربون منه يوماً، فاقتصروا على شربكم، ولا تزاحموا على شربها، بل تشربون من لبنها فإن فيه كفاية لكم. قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، ولا تشرب في يومهم ماء.

وقرأ الجمهور: ﴿شِرْبٌ﴾ في الموضعين بكسر الشين، وقرأ ابن أبي عبلة بالضم فيهما.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾؛ أي: ولا تمسوا هذه الناقة ﴿بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بضرر كضرب وعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾؛ أي: فيحل بكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: شديد عذابه، فعظم اليوم بالنسبة إلى عظم ما حل فيه، وهو ههنا صيحة جبريل.

ثم حكى عنهم أنهم خالفوا أمر نبيهم، فقال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: قتلوها بطعنة السهم وضربة السيف. وأسند[2] العقر إلى كلهم مع أن العاقر بعضهم

(١) المراح. (٢) روح البيان.

لرضاهم به، ولذلك أخذوا جميعاً؛ أي: عقروها بعد أن مكث بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل المرعى.

روي[1]: أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق، فرماها بسهم، فسقطت، ثم ضربها قدار بالسيف في ساقيها. وكان قدار هذا قصيراً دميماً وابن زنا، اهـ شيخنا. قال مقاتل: فخرج في أبدانهم خراج مثل الحمص، فكان في اليوم الأول أحمر، ثم صار في الغد أصفر، ثم صار في الثالث أسود، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، وهلاكهم يوم الأحد، انفقعت فيه تلك الجراحات، وصاح عليهم جبريل صيحة، فماتوا بالأمرين، وكان ذلك ضحوة؛ أي: فعقروها وقتلوا مثل هذه الآية العظيمة ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾؛ أي: صاروا ﴿نَٰدِمِينَ﴾ ومتحسرين على عقرها، وقتلها ندم الخائفين من العذاب العاجل، أو ندم التائبين عند معاينة العذاب، فلذلك لم ينفعهم الندم كفرعون حين ألجمه الغرق ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الموعود على عقرها؛ أي: أهلكهم واستأصلهم، وهو صيحة جبريل عليه السلام.

فإن قلت[2]: كيف أخذهم العذاب بعدما ندموا على جنايتهم، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»؟

قلتُ: ندمهم كان عند معاينة العذاب، وهي ليست وقت التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، وقيل: كان ندمهم ندم خوف من العذاب العاجل، لا ندم توبة فلم ينفعهم.

والمعنى: أي[3] فعقروا الناقة فندموا على ما فعلوا حين علموا أن العذاب نازل بهم؛ إذ أنظرهم ثلاثة أيام، وفي كل يوم منها تظهر مقدمات نزوله كما مر، فندموا حيث لا ينفع الندم، فأخذهم العذاب، وزلزلت أرضهم زلزالاً شديداً وجاءت صيحة عظيمة اقتلعت منها قلوبهم، ونزل بهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

---

(١) المراح.

(٢) فتح الرحمن.

(٣) المراغي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ العذاب النازل بثمود ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم ثمود، أو أكثر الذين سمعوا هذه القصة منك وهم قريش ومن دان دينهم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبرسوله الذي أرسل إليهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على ما أراد من الانتقام من قوم ثمود بسبب تكذيبهم، فاستأصلهم، فليحذر المخالفون لأمره، حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السالفة المكذبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم حيث لا يعاجلهم بالعذاب، وكانت[1] الناقة علامة لنبوة صالح عليه السلام، فلما أهلكوها، ولم يعظموها صاروا نادمين حيث لا ينفعهم الندم، والقرآن علامة لنبوة محمد ﷺ، فمن رفضه، ولم يعمل بما فيه، ولم يعظمه يصير نادماً غداً، ويصيبه العذاب، ومن جملة ما فيه الأمر بالاعتبار، فعليك بالامتثال ما ساعدت العقول والأبصار، وإياك ومجرد القال، فالفعل شاهد على حقيقة الحال.

قصص لوط عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾؛ أي: جماعته وأمته يعني أهل سدوم وما يتبعها من القرى ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: لوطاً وإبراهيم ومن تقدمهما من الرسل، أو المراد بالمرسلين نفس لوط، وإنما جمعه اعتباراً بأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لاتفاقهم في دعوة التوحيد وأصول العقائد ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف للتكذيب ﴿لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في البلد والسكنى، لا في الدين، ولا في النسب؛ لأنه ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهما من بلاد الشرق من أرض بابل، فكان لوط أجنبياً عنهم، مجاوراً لهم في قريتهم، وهو لوط بن هاران أخي إبراهيم، أو عم إبراهيم على الخلاف، إذ روى أنه هاجر مع عمه إبراهيم إلى أرض الشام، فأنزله إبراهيم الأردن، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وما والاها، وقوله: ﴿لُوطٍ﴾ بن هاران بن تارخ بدل من ﴿أخوهم﴾، أو عطف بيان له ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تخافون عقاب الله تعالى على الشرك والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ أي: مرسل من جانب

---

(١) روح البيان.

الحق ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: مشهور بالأمانة، ثقة عند كل أحد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقابه على مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه، فإن قول المؤتمن معتمد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على التعليم والتبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: جعلاً ومكافأة دنيوية، فإن ذلك تهمة لمن يبلغ عن الله تعالى ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما ثوابي على التبليغ ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: مِن رَبِّ العالمين وخالقهم ومصلحهم، بل ليس متعلق الطلب إلا إياه تعالى.

وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره.. وبّخهم على قبيح ما ابتدعوه بقوله، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ والاستفهام[1] فيه للإنكار والتوبيخ، وعبر عن الفاحشة بالإتيان، كما عبر به عن الحلال في قوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ والذكران جمع الذكر ضد الأنثى، و﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تأتون﴾، والمراد به الناكحون من الحيوان، فالمعنى عليه: أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران وتجامعونهم وتعملون ما لا يشارككم فيه غيركم، يعني أنه منكر منكم ولا عذر لكم فيه، ويجوز أن يكون ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حالاً من ﴿الذُّكْرَانَ﴾، والمراد به الناس، فالمعنى عليه: أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرة الإناث فيهم، كأنهم قد أعوزنكم؛ أي: أفقرنكم وأعدمنكم، روي أن هذا العمل الخبيث علمهم إياه إبليس اللعين.

والمعنى: أتجامعون أدبار الرجال من أولاد آدم مع كون النساء أليق بالاستمتاع ﴿وَتَذَرُونَ﴾؛ أي: وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾؛ أي: ما خلق ربكم لأجل استمتاعكم به حال كونه ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وحلائلكم. و﴿من﴾ لبيان الجنس إن أريد بما جنس الإناث، وللتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن، وهو القبل تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون بنسائهم أيضاً، فتكون الآية دليلاً على حرمة أدبار الزوجات والمملوكات، وفي الحديث: «من أتى امرأة في دبرها فهو بريء مما أنزل على محمد، ولا ينظر الله إليه»، والمعنى؛ أي: وتتركون إناثاً أباحها لكم ربكم هي أزواجكم لأجل استمتاعكم، أو وتتركون فروجاً أحل لكم ربكم حال كونها بعض أزواجكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾؛ أي: معتدون مجاوزون الحلال إلى

---

(١) روح البيان.

الحرام، أو متجاوزون الحد في جميع المعاصي بإتيانكم هذه الفاحشة، أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث زدتم هذه الفاحشة على سائر الحيوانات.

أي: بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان وتجاوز الحدود التي تسيغها العقول، وتبيحها الشرائع بارتكابكم هذا الجرم الذي لم يخطر ببال.

ولما اتضح لهم وجه الحق، وانقطعت حجتهم لجؤوا إلى التهديد، واستعمال القوة، كما بينه بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال قوم لوط مهددين له والله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ وتنزجر ﴿يَٰلُوطُ﴾ عن تقبيح أمرنا، وإنكارك علينا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾؛ أي: من المعهودين بالنفي والإخراج من قريتنا على عنف، ورغم أنف، وسوء حال.

والمعنى: أي لئن لم تنته عما أنت عليه من إنكارك ما تنكره من أمرنا وعملنا لننفينك من قريتنا، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعنف والعسف، واحتباس الأموال، كما هو شأن الظلمة إذا أجلوا بعض من يبغضونهم صادروا أملاكهم. ﴿قَالَ﴾ لوط عليه السلام معلناً لهم بأن إبعاده لا يمنعه من الإنكار عليهم ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم﴾ الخبيث، يعني: إتيان الرجال ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾؛ أي[1]: من المبغضين له أشد البغض ـ كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته؛ أي: ينضح ـ لا أقف عن إنكار عليه بالإيعاذ. وهو اسم فاعل من القلي وهو البغض الشديد، وهو متعلق بمحذوف؛ أي: لقال من القالين، ومبغض من المبغضين. وذلك المحذوف وهو قال خبر ﴿إن﴾، و﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ صفته. وقوله: ﴿لِعَمَلِكُم﴾: متعلق بالخبر المحذوف، ولو جعل ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾.. لعمل القالين ﴿لِعَمَلِكُم﴾ فيفضي إلى تقديم الصلة على الموصول، ولكنه يتوسع في المجرورات ما لا يتوسع في غيرها. وإنما قال: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ دون قالٍ إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه، كما يقال: فلان من العلماء، فإنه أشد مدحاً من قولك: فلان عالم، إذ الأول تدل على أنه في عداد زمرة

---

(١) روح البيان.

العلماء المعروفين بمساهمته لهم في العلم.

أي: إني[1] بريء مما تعملون مبغض له لا أحبه، ولا أرضاه، ولا يضيرني تهديدكم ولا وعيدكم. وإني لراغب في الخلاص من سوء جواركم. ولعله عليه السلام أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجه إلى الله سبحانه أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله، قال: ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي، ويا مالك أمري ﴿نَجِّنِى﴾؛ أي: خلصني أنا ﴿وَأَهْلِى﴾؛ أي: وأهل بيتي ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من شؤم عملهم الخبيث، وعذابه، وأبعدني من عذابك الدنيوي والأخروي، أو من عقوبة عملهم التي ستصيبهم. فأجاب الله سبحانه دعاءه، وأغاثه بعد أن استغاثه، حيث قال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ أي: نجينا لوطاً ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: أهل بيته بنتيه. قيل: وامرأته المؤمنة، ومن تابعه على دينه وأجاب دعوته كلهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بإخراجهم من بينهم وقت مشارفة حلول العذاب بهم. ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي[2] امرأة لوط المنافقة اسمها والهة، استثنيت من أهله، فلا يضره كونها كافرة؛ لأن لها شركة في الأهلية بحق الزوج. ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: إلا عجوزاً مقدراً كونها من الباقين في العذاب؛ لأنها كانت راضية بفعل قومه، وقد أصابها الحجر في الطريق فأهلكها.

وذكر أن امرأة لوط حين سمعت الرجفة التفتت وحدها فمسخت حجراً، وذلك الحجر في رأس كل شهر يحيض، كذا في كتاب «التعريف والأعلام» للسهيلي. قال في «المفردات»: الغابر: الماكث بعد مضي من معه. قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ يعني: فيمن طال أعمارهم. وقيل: فيمن بقي، ولم يسر مع لوط، وقيل: فيمن بقي في العذاب.

والمعنى: أي فنجيناه[3] وأهله جميعاً مما حل بأهل القرية من العذاب، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم العذاب، إلا عجوزاً قد بقيت ولم تخرج

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

معه، وهي امرأته، كما جاء في سورة هود. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطاً في الدين، ولم تخرج معه.

والخلاصة: فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلاً عند حلول العذاب بهم إلا عجوزاً قدر الله سبحانه بقاءها لسوء أفعالها، وقبح طويتها، ولما لها من ضلع في استحسان أفعالهم.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾؛ أي: أهلكناهم أشد الإهلاك وأفظعه، بقلب بلدتهم؛ أي: أهلكناهم بالخسف والحصب. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على الخارجين من بلادهم والكائنين مسافرين وقت الائتفاك والقلب. ﴿مَّطَرًا﴾؛ أي: غير معتاد. وهو الحجارة فأهلكتهم. ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: بئس[1] مطر من أنذر فلم يؤمن، لم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم، فإن شرط أفعال المدح والذم أن يكون فاعلهما معرفاً بلام الجنس، أو يكون مضافاً إلى المعرف به، أو مضمراً مميزاً بنكرة، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً؛ وهو مطرهم؛ أي: فبئس مطر جنس المنذرين بعذاب الله، فلم يقبلوا الإنذار، والمخصوص بالذم مطر قوم لوط بالحجارة.

والخلاصة: أي[2] ثم أهلكنا المؤخرين عن لوط، فأمطرنا عليهم حجارة من السماء. قال وهب بن منبه: أنزل الله عليهم الكبريت والنار، وبئس المطر هذا، وما أشد وطأته، وما أقسى وقعه، فقد أحدث بأرضهم زلزالاً جعل عاليها سافلها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل بقوم لوط ﴿لَـَٔايَةً﴾؛ أي: لعبرة لمن بعدهم، فليجتنبوا عن قبيح فعلهم، كيلا ينزل بهم ما نزل بقوم لوط من العذاب، أو لدلالة واضحة على شدة بأس الله سبحانه، وعظيم انتقامه من أعدائه. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر قوم لوط بل أقلهم، أو ما كان أكثر من تلوت عليهم هذه القصة ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن أكثر الخلق لئام؛ وهم الكفار، وكرامهم قليل؛ وهم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

المؤمنون. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بقهر الأعداء ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بنصرة الأولياء، أو[1] لا يعذب قبل التنبيه والإرشاد. وتعذيبه أهل العذاب من كمال رحمته على أهل الثواب. ألا ترى أن قطع اليد المتآكلة سبب لسلامة البدن كله. فالعالَم بمنزلة الجسد، وأهل الفساد بمنزلة اليد المتآكلة، وراحة أهل الصلاح في إزالة أهل الفساد. ولو لم يكن في العزة والقهر فائدة.. لما وضعت الحدود. وقد قيل: إقامة الحدود خير من خصب الزمان.

قال إدريس عليه السلام: من سكن موضعاً ليس فيه سلطان قاهر، وقاض عادل، وطبيب عالم، وسوق قائمة، ونهر جار.. فقد ضيع نفسه وأهله وماله وولده، فعلى العاقل أن يحترز عن الشهوات، ويهاجر عن العادات، ويجاهد نفسه من طريق اللطف والقهر في جميع الحالات.

إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون[2]

كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلاً قالت فيه: روت الكتب المنزلة أن الله سبحانه أهلك مدينتي سدوم وعمورة، وثلاث مدن أخرى بجوارهما بأن أمطر عليهم ناراً وكبريتاً من السماء، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته، ولوط وابنتيه، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن، بل نزح إليها من الشمال طلباً للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحل في ذلك الزمن.

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه القصة خرافية، وبعضهم يقول: إنها قصة واقعية، كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط).

وقد قام الدكتور أولبرابط بمباحث واسعة في وادي نهر الأردن، وعلى سواحل البحر الميت، حيث يظن أن سذوم وعمورة والثلاثة المدن الأخرى كانت فيها، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها، وعلم أن إبراهيم عليه السلام انحدر حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

فلسطين، ومعه أهل بيته، وابن أخيه لوط وأهله، ومعهما أنعام كثيرة، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة، فرأى لوط حفظاً للسلام أن يفترق عن إبراهيم، واختار منطقة وادي الأردن التي كانت فيها سذوم وعمورة، وأقام بسذوم، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال، وضرب خيامه هنالك.

وكشف الدكتور آثاراً تدل على صدق هذه القصة؛ إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمس مئة قدم، وبجواره المذبح هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة، يرجح أن الوثنيين في ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قرابينهم، ويرجح أن البحر الميت طغى على الخمس التي كانت في منطقة الأردن. اهـ.

وبعض علماء الجيولوجيا ـ طبقات الأرض ـ يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلاداً كانت آهلة بالسكان. وفي التوراة: إن إبراهيم كان ذات يوم جالساً بباب خيمته في حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة من الملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة، واحتفى بهم، وفي أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سذوم، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم، وانغماسهم في شهواتهم البهيمية، ولا سيما المحرمة منها، فلما وصلوا إلى سذوم ساروا تواً إلى منزل لوط ابن أخي إبراهيم ليبيتوا عنده، وعلم أهل سذوم بقدومهم، فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقاً، ولكن لوطاً دافع عنهم، وعرض أن يزوجهم ـ من بنات قومه ـ لينقذهم، فأبى أهل سذوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء، وقد تمكن الضيوف من الفرار، وأقنعوا لوطاً وأهل بيته بالفرار، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط ـ صوعر ـ فأمطر الرب على سذوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء، وقلب تلك المدن، وجميع سكانها، ونظرت امرأة لوط إلى الوراء، فصارت عمود ملح. (اختنقت بالغازات الكثيرة التي التهبت؛ إما بحدوث زلزلة، أو بسقوط صاعقة من الجو).

وفي التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات جيولوجية شبيهة بحادثة سذوم وعمورة، فقد يثور بركان، ويتدفق حممه على البلاد المجاورة، فيغمرها ويهلك

أهلها، وقد تغور بلاد واسعة، فيطمو عليها البحر، وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان. وقد تنشق الأرض فتبتلع مدناً بأسرها.

والخلاصة[١]: أن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين، وكانت ذات غناء وغياض غنية، بوفرة مائها وخيراتها، وشمل أهلها الفساد، ورتعوا في شهواتهم البهيمية، ولم يبق فيها بر إلا لوط وأهله، فانتقم الله منهم فأمطر عليهم ناراً وكبريتاً من السماء، فألهب البراكين النارية التي فيها، فعجلت دمارهم وخسفت الأرض بهم، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن.

قصص شعيب عليه السلام

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾؛ أي: شعيباً ومن قبله عليهم السلام، أو الجمع للتعظيم، أو لأن من كذب رسولاً فكأنما كذب الجميع، كما مر مراراً. والأيكة[٢]: الغيضة التي تنبت ناعم الشجر، كالسدر والأراك، وهي غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة من الناس، فبعث الله إليهم شعيباً بعد بعثه إلى مدين، ولكن لما كان أخا مدين في النسب.. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾، ولما كان أجنبياً من أصحاب الأيكة.. قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم شعيب، وهو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، أو هو ابن ميكيك بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل، وأم ميكيك بنت لوط.

ووقع لفظ الأيكة في القرآن في أربع مواضع[٣]، في الحجر، وفي ق، وهنا، وفي ص، والأولان بأل وبالجر لا غير، والآخران يقرآن بأل وبالجر[٤]، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر في هذه السورة، وفي ص خاصة ﴿ليكة﴾ بلام واحدة وفتح التاء، وهو غير منصرف للعلمية والتأنيث، واللام جزء الكلمة، وهو اسم البلدة لأصحاب الحجر. وقال أبو عبيدة: إن ليكة اسم للقرية التي كانوا عليها، والأيكة اسم للبلاد كلها، كمكة وبكة. وقرأ باقي السبعة ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾ بلام

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الفتوحات.
(٤) المراح والبحر المحيط.

التعريف. والمعنى: أي: كذب أصحاب شجر ملتف بقرب مدين شعيباً، وجملة المرسلين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ نبيهم ﴿شُعَيْبٌ﴾ عليه السلام، ظرف للتكذيب، كما مر نظائره ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله الذي تفضل عليكم بنعمه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عند الله، فهو أمرني أن أقول لكم ذلك. ﴿أَمِينٌ﴾ لا خيانة عندي. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المحسن إليكم بهذه الغيضة وغيرها. ﴿وأطيعون﴾ي فيما أمرتكم به؛ لما ثبت من نصحي لكم. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على دعائي لكم إلى الإيمان بالله تعالى، أو على أداء الرسالة والتبليغ، والتعليم المدلول عليه بقوله رسول ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: أجراً وجعلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما ثواب تبليغي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: المحسن إلى الخلائق كلهم، فإني لا أرجو أحداً سواه، فإن الفيض وحسن التربية منه تعالى على الكل، خصوصاً على من كان مأموراً بأمر من جانبه.

وبعد أن نصحهم بتلك النصائح.. وعظهم بعظة أخرى، فنهاهم عن نقيصة كانت شائعة بينهم؛ وهي التطفيف في الكيل والميزان، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾؛ أي: أتموا الكيل لمن أراده وعامل به. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾؛ أي: من الناقصين حقوق الناس بالتطفيف، يقال: أخسرت الكيل والوزن؛ أي: نقصته؛ أي: إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملاً، ولا تبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصاً، وإذا اشتريتم فخذوا كما لو كان البيع لكم.

وخلاصة ذلك: خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾؛ أي: بالميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: السوي العدل.

وقد جاء في سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه، فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص[1]: ﴿القسطاس﴾ ـ بكسر القاف ـ والباقون

---

(١) المراح.

بالضم، ثم عمم النهي عن البخس في كل حق، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ أي: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في كيل، أو وزن، أو غيرهما، كالمزروعات والمعدودات، كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير. وهكذا يقال: بخس حقه إذا نقصه إياه؛ وهو تعميم بعد تخصيص. قال في «كشف الأسرار»: ذكر بأعم الألفاظ يخاطب به القافلة، والوزان، والنخاس، والمحصي، والصيرفي. انتهى. أي: ولا تنقصوا[1] شيئاً من حقوق الناس، أي حق كان، كنقص العد، والزرع، ودفع الزيف مكان الجيد، والغصب، والسرقة والتصرف بغير إذن صاحبه، ونحو ذلك.

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأناً، وأشد خطراً؛ وهو الفساد في الأرض بجميع ضروبه وأشكاله، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا تعتدوا على الناس في الأرض حالة كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: قاصدين الإفساد والظلم بالقتل، والغارة، وقطع الطريق، والسلب والنهب، والغصب، ونحوها. كإهلاك الزرع والنسل، والدعاء إلى عبادة غير الله، فإنهم كانوا يفعلون ذلك.

والعثي[2]: أشد الفساد فيما لا يدرك حساً. وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مقيدة؛ أي: لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيده به وإن غلب العثي في الفساد؛ لأنه قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً، كقتل الخضر الغلام، وخرقه السفينة.

وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذي خلقهم، وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشاً وعتواً، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يا أصحاب الأيكة ﴿و﴾ خلق ﴿الجبلة الأولين﴾؛ أي: الخلائق الماضين الذين كانوا على خلقة عظيمة، وطبيعة غليظة، كقوم هود وقوم لوط. والجبلة: الخليقة، قاله مجاهد وغيره. يعني الأمم المتقدمة؛ أي: وخافوا بأس الذي خلقكم من العدم للإصلاح في الأرض، وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وأولاداً، كقوم هود الذين قالوا من أشد منا قوة؟ فأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ بكسر الجيم والباء وشد اللام. وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن بخلاف عنه، والأعرج وشيبة بضمهما وتشديد اللام وتشديد اللام في القراءتين في بناءين للمبالغة. وقرأ السلمي: ﴿والجبلة﴾: بكسر الجيم وسكون الباء، وفي نسخة عنه بفتح الجيم وسكون الباء، وهي من جبلوا على كذا؛ أي: خلقوا. ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: أصحاب الأيكة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي: ما أنت يا شعيب إلا رجل من المسحورين؛ أي: ممن سحر عقله مرة بعد أخرى، فصار كلامه جزافاً لا يعبر عن حقيقة، ولا يصيب هدف الحق، أو من المجوفين مثلنا ولست بملك. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: مماثل لنا تأكل وتشرب كما نفعل، فلا مزية لك علينا، فما وجه تخصيصك بالرسالة، وإرسالك رسولاً إلينا.

وإدخال ﴿الواو﴾[2] بين الجملتين هنا؛ للدلالة على أن كلاً من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة في التكذيب، بخلاف قصة ثمود، فإنه ترك ﴿الواو﴾ هناك؛ لأنه لم يقصد إلا معنى واحد هو التسحير، وقد مر توجيهه بوجه آخر نقلاً عن شيخ الإسلام.

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم: ﴿وَإِن﴾؛ أي: وإن الشأن ﴿نَّظُنُّكَ﴾؛ أي: نعتقد كونك ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة، فـ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة واسمها محذوف؛ أي: وإنا لنظنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول، ولم يرسلك الله نبياً إلينا. وقيل[3]: ﴿إن﴾: نافية، واللام بمعنى إلا؛ أي: ما نظنك إلا من الكاذبين، والأول أولى.

ثم إن شعيباً كان هددهم بالعذاب إن استمروا على التكذيب، فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أي: قطعاً من السحاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك النبوة؛ أي: فإن كنت صادقاً في دعواك الرسالة، فأنزل علينا من السحاب قطعاً يكون فيها العذاب لنا.

وقرأ حفص[1]: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين، والباقون بالسكون. وهذا شبيه بما قالته قريش لنبينا محمد ﷺ فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وإنما طلبوا ذلك لتصميمهم على التكذيب واستبعادهم وقوعه، فعند ذلك فوض شعيب عليه السلام أمرهم إلى الله ف﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ من تطفيف الكيل والميزان، فيجازيكم به، فإن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره إلى أجل معلوم، وليس العذاب إليّ، وما علي إلا الدعوة والتبليغ، وأنا مأمور به، فلم أنذركم من تلقاء نفسي، ولا أدعي القدرة على عذابكم، وأمره إلى الله تعالى، فينزله في وقته المقدر له لا محالة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فأصروا على تكذيبه بعد وضوح الحجة، وانتفاء الشبهة. ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ والسحابة التي أقامها الله سبحانه فوق رؤوسهم حتى أظلتهم، فأمطرت عليهم ناراً فهلكوا، وقد أصابهم الله سبحانه بما اقترحوا؛ لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر، وإن أرادوا بها القطعة من السماء.. فقد نزل عليهم العذاب من جهتها.

وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة[2]، لا إلى الظلة نفسها إيذان بأن لهم يوماً آخر غير هذا اليوم، كالأيام السبعة مع لياليها التي سلط الله فيها عليهم الحرارة الشديدة، وكان ذلك من علامة أنهم يؤخذون بجنس النار؛ أي: في[3] تلك الإضافة إعلام بأن لهم عذاباً آخر غير عذاب السحاب، كما روي أن الله

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

سبحانه فتح عليهم باباً من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هدة وحراً شديداً مع سكون الريح سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا بيوتهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء، فأنضجهم الحر، فخرجوا هرباً، فأرسل الله تعالى سحابة فأظلتهم، فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا تحت السحابة.. ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي فصاروا رماداً،

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن عذاب يوم الظلة ﴿كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: شديد هوله وعذابه، فعظم اليوم لعظم العذاب الواقع فيه وشدته، قال قتادة: إن شعيباً أرسل إلى أمتين؛ أصحاب مدين، ثم أصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

والمعنى: أي[1] وهكذا دأبوا على التكذيب، فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء، فجعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب، فاضطروا أن يخرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا كلهم تحتها، فأمطرتهم شواظاً من نار فاحترقوا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة قوم شعيب﴿لَأٓيَةٗ﴾؛ أي: لدلالة واضحة على صدق الرسل، أو المعنى: أي: إن في ذلك الإنجاء لكل رسول ومن أطاعه، والعذاب لكل من عصاه في كل العصور لدلالة واضحة على صدق الرسل. ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾؛ أي[2]: أكثر أصحاب الأيكة، بل كلهم؛ إذ لم ينقل إيمان أحد منهم بخلاف أصحاب مدين، فإن جماعة منهم آمنوا. ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالله سبحانه، وبرسوله شعيب عليه السلام، أو[3] وما كان أكثر قومك يا محمد بمؤمنين مع أنك قد أتيتهم بما لا يكون معه شك من الدليل والبرهان، لو لم يكن

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

لهم معرفة بك من قبل، فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة أصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، وأغزرهم عقلاً، وأبعدهم عن كل ذي دنس.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء. ومن عزته نصر أنبيائه على أعدائه. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال، فلا يعاجل العقوبة لمن استحقها.

وهذا آخر[1] القصص السبع التي ذكرها الله سبحانه تسلية لرسوله ﷺ، وتهديداً للمكذبين له. وكل قصة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول، قد أتاهم من الله تعالى وما كان أكثرهم مؤمنين بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة، بأن لا يعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي إلى الإيمان، والزواجر عن الكفر والطغيان، وبأن لا يتأملوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه، مع علمهم بأنه ﷺ لم يسمع شيئاً منها من أحد أصلاً، وصاروا كأنهم لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن الكفر والضلال واستمروا على ذلك.

تتمة: وقد كرر[2] سبحانه في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريراً لمعانيها في الصدور؛ ليكون أبلغ في الوعظ والزجر، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به.

تنبيه: جاءت[3] هذه القصص السبع مختصرة هنا، وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب، فإن النتائج التي حصل عليها النبي ﷺ، ولم يكن حين نزولها ذا شوكة ولا ذا قوة، وأن ما أصيب به من التكذيب والأذى وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله.

---

(١) المراح.
(٢) النسفي.
(٣) المراغي.

فائدة: فإن قلت[1]: لم لا يجوز أن يقال: إن العذاب النازل بعاد وثمود، وقوم لوط وغيرهم.. لم يكن لكفرهم، وعنادهم، بل كان كذلك بسبب اقترانات الكواكب، واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم، ومع قيام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص. وأيضاً أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين، وابتلاء لهم، وقد ابتلى المؤمنون بأنواع البليات، فلا يكون نزول العذاب على هؤلاء الأقوام دليلاً على كونهم مبطلين مؤاخذين بذلك؟

قلت: إطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به واقتراحهم لهم استهزاء، وعدم مبالاة به يدفع أن يقال: إنه كان بسبب اتصالات فلكية، أو كان ابتلاء لهم، لا مؤاخذة على تكذيبهم؛ لأن الابتلاء لا يطرد.

الإعراب

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ولم ينون ﴿ثَمُودُ﴾؛ لمنعه من الصرف بالعلمية والتأنيث المعنوي. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَخُوهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿صَالِحٌ﴾: بدل من ﴿أَخُوهُمْ﴾، أو عطف بيان له. ﴿أَلَا﴾: أداة عرض. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: حال من ﴿رَسُولٌ﴾. و﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أني رسول الله، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم اتقوا الله. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول،

(١) روح البيان.

والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أطيعون﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اتقوا الله﴾.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرٍ﴾، و﴿مِنْ﴾: زائدة، و﴿أَجْرٍ﴾: مفعول ثان لسأل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة إن على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَجْرِيَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، ﴿تتركون﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تتركون﴾. ﴿مَا هَٰهُنَآ﴾: ﴿ها﴾: حرف تنبيه، ﴿هنا﴾: اسم إشارة للمكان القريب في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من ﴿الواو﴾ في ﴿تتركون﴾. ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾: بدل من قوله: ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ بإعادة الجار. ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾: معطوفات على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿نخل﴾. ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تتركون﴾، فهو في حيز الاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾: متعلق بـ﴿تنحتون﴾. ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول به. ﴿فَٰرِهِينَ﴾ حال من واو ﴿تنحتون﴾. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في النصب مقول لجواب إذا

المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ومفعول محذوف ونون وقاية معطوف على ﴿اتقوا الله﴾.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِيعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة وأطيعوا الله، أو الجملة في محل النصب حال من فاعل أطيعوا. ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لـ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. ﴿يُفْسِدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُصْلِحُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُفْسِدُونَ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، أو حرف كاف ومكفوف. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر. ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَأْتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلنا لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فنقول لك ائت. ﴿ائت﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنت من الصادقين فات بآية، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على صالح، والجملة مستأنفة. ﴿هَٰذِهِۦ﴾ مبتدأ. ﴿نَاقَةٌ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّهَا﴾: خبر مقدم. ﴿شِرْبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لـ﴿نَاقَةٌ﴾. ﴿وَلَكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿شِرْبُ يَوْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿مَّعْلُومٍ﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾ والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ فكأنه قال: هذه ناقة لها، شرب، وأنتم أقوام لكم شرب يوم معلوم. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَمَسُّوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿بِسُوٓءٍ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿يأخذكم﴾: فعل ومفعول به منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿عَذَابُ يَوْمٍ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن مسكم إياها بسوء فأخذ عذاب يوم عظيم إياكم. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿عقروها﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره معطوف على ﴿فَعَقَرُوهَا﴾. ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصبحوا﴾. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ تقدم إعراب هذه الجمل مراراً فراجعه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة

لبيان قصة قوم لوط. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَخُوهُمْ﴾: فاعل. ﴿لُوطٌ﴾: بدل منه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف عرض. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: حال. ﴿رَسُولٌ﴾: خبره. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به محذوف معطوف على ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾؛ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ متعلقاً به. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَجْرِيَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتَأْتُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿تأتون﴾: فعل وفاعل. ﴿الذُّكْرَانَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: حال من ﴿الذُّكْرَانَ﴾. ﴿وَتَذَرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تأتون﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصوف في محل النصب مفعول به. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبُّكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما خلقه. ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: حال من ﴿مَا﴾، أو من العائد المحذوف. ﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي. ﴿أَنْتُمْ قَوْمٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَادُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَنتَهِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إن لم تنته تكن من المخرجين، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها معترضة بين القسم وجوابه. ﴿يَٰلُوطُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها معترضة. ﴿لَتَكُونَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأول. ﴿تكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿لوط﴾ ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿تكونن﴾ جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لِعَمَلِكُم﴾: متعلق بـ﴿ٱلْقَالِينَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿نَجِّنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول به. ﴿وَأَهْلِي﴾: معطوف على ياء المتكلم، أو مفعول معه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَجِّنِي﴾، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد محذوف تقديره: مما يعملونه. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿نجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: معطوف على هاء المفعول، أو مفعول معه. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ﴿أهله﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿عَجُوزًا﴾: مستثنى. ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: صفة لـ﴿عَجُوزًا﴾. كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿نجيناه﴾. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَمَّرْنَا﴾. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿أمطرنا﴾. ﴿مَّطَرًا﴾: مفعول به. ﴿فَسَآءَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿ساء﴾: فعل ماض من أفعال الذم، ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على ﴿أمطرنا﴾، أو مستأنفة، والمخصوص بالذم

محذوف تقديره: مطرهم، والجمل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾. تقدم إعرابها فراجعه إن شئت.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قصة قوم شعيب. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿شُعَيْبٌ﴾: فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَلَا﴾: أداة عرض. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: حال من ﴿رَسُولٌ﴾، و﴿رَسُولٌ﴾: خبره. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فعل وفاعل ومفعول محذوف معطوف على ﴿اتقوا الله﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول. ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرٍ﴾. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿أَجْرِيَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَوْفُوا﴾. ﴿وَزِنُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿زنوا﴾ فعل وفاعل معطوف على

﴿أَوْفُواْ﴾. ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾: متعلق بـ﴿زنوا﴾. ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: صفة لـ﴿القسطاس﴾. ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَوْفُواْ﴾. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَوْفُواْ﴾. ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال مؤكدة لمعنى عاملها. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَوْفُواْ﴾. ﴿خَلَقَكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾: معطوفة على الكاف. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿جبلة﴾، وجملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾: صلة الموصول. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: إنه ﴿نَّظُنُّكَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿لَمِنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿من الكاذبين﴾: في محل المفعول الثاني لظن، وجملة ظنّ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿فَأَسْقِطْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر وتقديره: إذا سمعت يا شعيب ما قلنا لك، وأردت إثبات نبوتك. فنقول لك أسقط. ﴿أسقط﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على شعيب. ﴿عَلَيْنَآ﴾: متعلق به. ﴿كِسَفًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿كِسَفًا﴾، والجملة الفعلية في

محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبله تقديره: إن كنت من الصادقين فأسقط علينا، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾: بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كذبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخذهم﴾: فعل ومفعول به. ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كذبوه﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ﴿يَوۡمٍ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ تقدم إعرابه مراراً فلا عود ولا إعادة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَنَخۡلٖ﴾ النخل والنخيل: شجر التمر المعروف، له ساق مستقيم طويل ذو عقد، واحدته نخلة ونخيلة. وفي «المصباح» ما ملخصه: النخل: اسم جمع، الواحدة نخلة، وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر، وأما النخيل بالياء فمؤنثة اتفاقاً. اهـ.

﴿طَلۡعُهَا﴾: هو ثمرها في أول ما يطلع، وبعده يسمى خلالاً، ثم بلحاً، ثم بسراً، ثم رطباً، ثم تمراً. وفي «البيضاوي»: طلعها: وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو، وتشبيهه بنصل السيف من حيث الهيئة والشكل. وفي «المختار»: ويقال للطلع ﴿هَضِيمٞ﴾ ما لم يخرج؛ لدخول بعضه في بعض، من قولهم: كشح هضيم. وفي «القاموس» و«التاج»: الطلع: المقدار، تقول:

الجيش طلع ألف، ومن النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، والطرف محدد، أو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، والهضيم: النضيح الرخص اللين اللطيف.

وفي «أبي السعود»: والهضيم: اللطيف اللين للطف الثمر، أو لأن النخل أنثى وطلع الإناث ألطف؛ وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو، أو مدل متكسر من كثرة الحمل، وإفراد النخل؛ لفضله على سائر أشجار الجنات، أو لأن المراد به غيرها من الأشجار. اهـ.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ يقال: نحته ينحته ـ من باب ضرب ـ نحتاً ونحاتة، والنحت: النجر والبري، والنحاتة البراية، والمنحت ما ينحت به.

﴿فَرِهِينَ﴾ قال الراغب: معنى قراءة من قرأ: ﴿فَرِهِينَ﴾ ـ بالألف ـ حاذقين؛ أي: ماهرين في العمل، من الفراهة؛ وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب. ومن قرأ: ﴿فرهين﴾ جعله بمعنى مرحين أشرين بطرين، فهو على الأول من فره بالضم، وعلى الثاني من فره بالكسر.

﴿شِرْبٌ﴾ ـ بالكسر ـ الحظ والنصيب من الماء، كالسقي من السقي. قال الفراء: الشرب: الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه: شرب شرباً وشُرباً، وأكثرها المضموم، والشرب بفتح الشين جمع شارب. والمراد هنا الشِرب بالكسر.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يقال: عقرت البعير: نحرته، وأصل العقر ضرب الساق بالسيف، كما في «كشف الأسرار» والمعنى هنا؛ أي: رموها بسهم، ثم قتلوها، كما مر في مبحث التفسير.

﴿نَدِمِينَ﴾: اسم فاعل من ندم من باب فرح، والندم والندامة التحسر من تغير رأي في أمر فائت.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ والذكران والذكور جمع الذكر ضد الأنثى من كل حيوان، وجعل الذكر كناية عن العضو المخصوص، كما في «المفردات».

﴿وَتَذَرُونَ﴾؛ أي: تتركون، يقال: فلان يذر الشيء؛ أي: يقذفه لقلة إعداده به، ولم يستعمل ماضيه.

﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾: من المبغضين، جمع قال، اسم فاعل من قليته أقليه قلى: وقلاء، والقلى أشد البغض؛ وهو مما يجب كسر عين مضارعه؛ لوجود داعي الكسر، وهو كون لامه ياء، كما هو مقرر في محله. وفي «المصباح»: قليت الرجل أقليه ـ من باب رمى ـ قلى بالكسر والقصر، وقد يمد إذا أبغضه، ومن باب تعب لغة. وعبارة «القاموس»: قلاه ـ كـ: رماه ورضيه ـ قلى وقلا وقليه أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه، أو قلاه في الهجر وقليه في البغض.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ قال الراغب: سميت العجوز عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور. قال في «المفردات»: الغابر: الماكث بعد مضي من معه. قال في «الكشاف»: ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك: غير الناجين. وفي «المصباح»: غبر غبورا ـ من باب قعد ـ بقي، وقد يستعمل فيما مضى أيضاً فيكون من الأضداد. وقال الزبيدي: غبر غبوراً مكث، وفي لغة بالمهملة للماضي، وبالمعجمة للباقي. وغُبَّر الشيء ـ وزان سكر ـ بقيته. وفي «القاموس»: غبر غبوراً مكث وذهب، ضدٌّ، وهو غابر من غُبَّر كرُكَّع، وغُبر الشيء ـ بالضم ـ بقيته، اهـ.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ والتدمير: إدخال الهلاك على الشيء، والدمار: الهلاك على وجهه عجيب هائل.

﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ في اللغة: الشجرة الكثيفة، وجمعها أيك. قال في «القاموس»: أيك يأيك ـ من باب تعب ـ أيكاً، واستأيك الشجر التف وصار أيكة، والأيك: الشجر الكثيف الملتف، الواحدة أيكة، فتطلق الأيكة على الواحدة من الأيك، وعلى غيضة شجر ملتفة قرب مدين. قالوا: وكان شجرهم الدوم، وهي قرية شعيب سميت باسم بانيها مدين بن إبراهيم، بينها وبين مصر مسير ثمانية أيام.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ يقال: خسرته وأخسرته: نقصته.

﴿وَزِنُوا﴾: أمر من وزن يزن وزناً وزنة، والوزن معرفة قدر الشيء.

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ قال في «القاموس»: القُسطاس بكسر القاف وضمّها، وقد قرىء بهما الميزان، أو أقوم الموازين، فإن كان من القسط وهو العدل، وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس، وإلا فهو رباعي. وقيل: هو بالرومية العدل.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا تفسدوا، يقال: عثا في الأرض وعثي فيها، وذلك نحو قطع الطريق والغارة، وإهلاك الزروع. وفي «المختار» عثا في الأرض أفسد، وبابه سما، وعثي بالكسر عثواً أيضاً، وعثى بفتحتين بوزن فتى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قلت: قال الأزهري: القراء كلهم متفقون على فتح الثاء دل على أن القرآن نزل باللغة الثانية. وفي «القاموس»: عثى كسعى ورمى ورضي. اهـ.

﴿الجبلة﴾ - بكسر الجيم والباء وتشديد اللام المفتوحة -: الخلق المتحد الغليظ، وفي «القاموس»: الجبلة والجبلة والجبلة وهي التي قرىء بها الوجه وما استقبلك منه، والخلقة والطبيعة، والأصل والقوة وصلابة الأرض. والجبل - بفتح الجيم مع سكون الباء -: مصدر جبله الله على كذا؛ أي: طبعه وخلقه، واسم الطبيعة جبلة. ويقال: جبل فلان على كذا؛ أي: خلق، والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة.

﴿كِسَفًا﴾: جمع كسفة، مثل سدر وسدرة، كقطعة وقطع وزناً ومعنىً. وقال الجوهري: الكسفة: القطعة من الشيء، يقال أعطني كسفة من ثوبك؛ أي: قطعة، ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ ﴿كسفاً من السماء﴾ جعله واحداً، ومن قرأ ﴿كسفاً﴾ جعله جمعاً.

﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ والظلة: السحابة التي استظلوا بها، والمظلة الضيِّقة وما يستظل به من الحر أو البرد، وما أظله كالشجر، والجمع ظلل وظلال. ويوم الظلة اشتهر بعذابهم، فقد وقفت فوقهم سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إطلاق الجمع على المفرد في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ للتعظيم؛ لأن المراد بالمرسلين صالح.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾؛ لأن الأمر لا يطاع وإنما هو صاحبه؛ أي: ولا تطيعوا المسرفين في أمرهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾؛ أي: ولا تمتثلوا، حيث شبه الامتثال الذي للأمر على صيغة المصدر بالطاعة التي للأمر على صيغة اسم الفاعل، من حيث إن كلاً منهما يفضي إلى وجود المأمور به، فأطلق اسم المشبه به؛ وهو الطاعة على المشبه؛ وهو الامتثال، فاشتق من الطاعة بمعنى الامتثال لا تطيعوا بمعنى لا تمتثلوا، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعيَّة.

ومنها: الطباق بين ﴿يُفْسِدُونَ﴾ و﴿يُصْلِحُونَ﴾.

ومنها: الإرداف في قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فقد كان يكفي أن يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولكنه لما كان قوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ لا ينفي صلاحهم أحياناً أردفه بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ لبيان كمال إفسادهم وإسرافهم فيها.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ للتعظيم والتفخيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

ومنها: الجناس غير التام في قوله: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ الأول

من القول، والثاني من قلى إذا أبغض.

ومنها: إطلاق ما للبعض على الكل في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ لرضاهم به واتفاقهم عليه.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ فإن فيه الإبهام بقوله: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ وقد أراد به أقبالهن، وفي ذلك مراعاة للحشمة والتصون.

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الصفة في قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذه السورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، كقول فرعون: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وأمثاله كثيرة في القرآن، والسر في ذلك أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو الصفة المذكورة كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به، كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت من هذا النوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة.

ومنها: الإطناب في قول: ﴿أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾؛ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهي عن الخسران، وفائدته زيادة التحذير من العدوان.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿يُصْلِحُونَ﴾ ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأن الإفساد نفس العثي، فهي حال مؤكدة لعاملها. فائدتها: إخراج ما ليس من العثي والعدوان بفساد كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، وكقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: التكرير في هذه القصص السبع، فإنه كرر في أول كل قصة، وفي آخرها ما كرر مما أشرنا إليه؛ لأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وترسيخاً لها في الصدور، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة وبالتطويل مرة أخرى.

والتكرير ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: التكرير في اللفظ والمعنى، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع.

والثاني: التكرير في المعنى دون اللفظ، كقولك: أطعني ولا تعص أوامري، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية، وعلى كل حال ليس في القرآن مكرر لا فائدة فيه.

ونعود إلى الآيات فنقول: إنما كرر القرآن هذه الآيات في أول كل قصة وآخرها؛ لأن هذه القصص قرعت بها آذان أصابها وقر، وقلوب غلف، فلم يكن بد من مراجعتها بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح مغالقها، ويجلو ما صدأها من رين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾
وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ
﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ
﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ
فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ
فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ
أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ
﴿٢٢٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما اختتم هذا القصص(١)، وبين ما دار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر في العاقبة لرسله المتقين، فإن سنته في كل صراع بين الحق والباطل أن تدول دولة الباطل وينتصر الحق وإن طال الزمن ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾

---

(١) المراغي.

وفي ذلك سلوة لرسوله، وعدة له بأنه مهما أوذي من قومه ولقي منهم من الشدائد، فإن الفلج والفوز له. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.. أردف هذا ببيان أن هذا القرآن الذي جاء بذلك القصص وحي من الله سبحانه أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بلسان عربي مبين؛ لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين، وأن ذكره في الكتب المتقدمة المأثورة عن الأنبياء الذين بشروه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بالغ في تسلية رسوله ﷺ، وأقام الحجة على نبوته، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه.. أردف ذلك بأمره بعبادته وحده، وإنذار العشيرة الأقربين، ومعاملة المؤمنين بالرفق، ثم ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده، فإنه هو العليم بكل شؤونه وأحواله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أبان امتناع تنزل الشياطين بالقرآن، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين.. أعقب هذا ببيان استحالة تنزلهم على رسول الله ﷺ، فإنها لا تنزل إلا على كل كذاب فاجر، ورسول الله صادق أمين، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم، وهو تخيلات لا تطابق الحق والواقع، وبعدئذ ذكر أن محمداً ﷺ ليس بشاعر؛ لأن الشعراء يهيمون في كل واد من أودية القول من مدح وهجو، وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة، فأقوالهم لا تترجم عن حقيقة، وليس بينها وبين الصدق نسب، ومحمد ﷺ لا يقول إلا الصدق، فأنى له أن يكون شاعراً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي جهم قال: رؤي النبي ﷺ كأنه متحير،

---

(١) المراغي.

فسألوه عن ذلك، فقال: «ولِمَ! ورأيت عدوي يكون من أمتي بعدي» فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ فطابت نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ النبي ﷺ بأهل بيته وفصيلته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ سبب نزوله ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار والآخر من قوم أخرين، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه؛ وهم السفهاء، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ . .﴾ الآيات. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه. وأخرج عن عروة قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ . .﴾ قال عبد الله بن رواحة: قد علم الله إني منهم، فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج[1] ابن جرير والحاكم عن أبي حسن البراد قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ . . .﴾ الآية. . جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، قالوا يا رسول الله: والله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء هلكنا، فأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فتلاها عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ راجع إلى القرآن، وإن لم يجر له ذكر للعلم به؛ أي: إن هذا القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي[2]: لمنزل من خالق المخلوقين، فليس بشعر، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين، ولا غير ذلك مما قالوه فيه، بل

---

(١) لباب النقول. (٢) المراح.

هو من عند الله سبحانه، وكأنه عاد أيضاً إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر؛ ليتناسب المفتتح والمختتم. ذكره أبو حيان.

وصيغة التكثير[١]: تدل على أن نزوله كان بالدفعات في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهو مصدر بمعنى المفعول، سمي به مبالغة، وفي وصفه تعالى بربوبية العالمين إيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل.

والمعنى: إن هذا القرآن الذي من جملته ما ذكر من القصص السبع لمنزل من جهته تعالى، وإلا لما قدرت على الإخبار، وثبت به صدقك في دعوى الرسالة؛ لأن الإخبار من مثله لا يكون إلا بطريق الوحي.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ ﴿الباء﴾: إما للتعدية؛ أي: أنزله ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام، أو للملابسة؛ أي: نزل الروح الأمين حالة كونه ملابساً بهذا القرآن.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم[٢]: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخففاً ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ بالرفع. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿نزل به﴾: مشددة الزاي. ﴿الرُّوحَ الأَمِينَ﴾ بالنصب، والفاعل هو الله سبحانه على هذه القراءة. وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. وقرىء[٣]: ﴿نزل﴾ مشدداً مبنياً للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً على النيابة.

والمراد بالروح الأمين جبريل عليه السلام، سمي أميناً؛ لأنه أمين على وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه، وروحاً لكونه سبباً لحياة قلوب المكلفين بنور المعرفة والطاعة، حيث إن الوحي الذي فيه الحياة من موت الجهالة يجري على يده، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وفي

---

(١) روح البيان.
(٢) زاد المسير.
(٣) الشوكاني.

«كشف الأسرار» سمي جبريل روحاً؛ لأن جسمه روح لطيف روحاني. وكذا الملائكة روحانيون خلقوا من الروح؛ وهو الهواء.

قال بعضهم[1]: لا شك أن للملائكة أجساماً لطيفة، وللطافة نشأتهم غلب عليهم حكم الروح، فسموا أرواحاً. ولجبريل مزيد اختصاص بهذا المعنى؛ إذ هو من سائر الملائكة كالرسول عليه السلام من أفراد أمته.

واعلم: أن القرآن كلام الله وصفته القائمة به، فكساه الألفاظ بالحروف العربية، ونزله على جبريل، وجعله أميناً عليه؛ لئلا يتصرف في حقائقه، ثم نزل به جبريل كما هو على قلب محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ أي[2]: نزل به الروح الأمين، وتلاه على قلبك يا محمد حتى وعيته بقلبك، فخص القلب بالذكر؛ لأنه محل الوعي والحفظ والتثبيت، ومعدن الوحي والإلهام، وليس شيء في وجود الإنسان يليق بالخطاب والفيض غيره، وهو ﷺ مختص بهذه الرتبة العلية، والكرامة السنية من بين سائر الأنبياء، فإن كتبهم منزلة في الألواح والصحائف جملة واحدة على صورتهم، لا على قلوبهم، كما في «التأويلات النجمية».

قال في «كشف الأسرار»: الوحي إذا نزل بالمصطفى ﷺ نزل بقلبه أولاً، كما هو ظاهر الآية؛ لشدة تعطشه إلى الوحي، ولاستغراقه به، ثم انصرف من قلبه إلى فهمه وسمعه، وهذا تنزل من العلو إلى السفل، وهو رتبة الخواص، فأما العوام فإنهم يسمعون أولاً فيتنزل الوحي على سمعهم أولاً، ثم على فهمهم، ثم على قلبهم، وهذا ترق من السفل إلى العلو، فشتان ما بينهما.

وفي «الفتاوى الزينية»: سئل عن الوحي الأمين جبريل عليه السلام كم نزل على النبي ﷺ؟ أجاب نزل عليه أربعة وعشرين ألف مرة، وعلى سائر الأنبياء لم ينزل أكثر من ثلاثة آلاف مرة. انتهى.

قلتُ: وهذا مما لا نقل فيه ويجب الوقف عنه.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: من المخوفين مما يؤدي إلى عذاب الله من فعل أو ترك، وهو متعلق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، مبين لحكمة الإنزال والمصلحة منه، وهذا من جنس ما يذكر فيه أحد طرفي الشيء، ويحذف الطرف الآخر لدلالة المذكور على المحذوف، وذلك أنه أنزله ليكون من المبشرين والمنذرين.

قال بعضهم: الإنذار أصل، وقدم لأنه من باب التخلية بالخاء المعجمة، فاكتفى بذكره في بعض المواضع من القرآن. ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ متعلق أيضاً بـ﴿نَزَلَ﴾ وتأخيره للاعتناء بأمر الإنذار. واللسان بمعنى اللغة؛ لأنه آلة التلفظ بها؛ أي: نزل به بلسان عربي ظاهر المعنى، واضح المدلول؛ لئلا يبقى لهم عذر ما؛ أي: لئلا يقولوا: ما نصنع بما لا نفهمه.

فالآية صريحة في أن القرآن إنما أنزل عليه عربياً، لا كما زعمت الباطنية من أنه تعالى أنزله على قلبه غير موصوف بلغة ولسان، ثم إنه ﷺ أداه بلسانه العربي المبين من غير أن ينزل كذلك. وهذا فاسد مخالف للنص والإجماع، ولو كان الأمر كما قالوا.. لم يبق الفرق بين القرآن والحديث.

وفي الآية: تشريف للغة العرب على غيرها، حيث أنزل القرآن بها، لا بغيرها وقد سماها مبيناً. ولذلك اختار هذه اللغة لأهل الجنة، واختار لغة العجم لأهل النار. قال سفيان: بلغنا أن الناس يتكلمون يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة بالسريانية، فإذا دخلوا الجنة تكلموا بالعربية.

فإن قلت: كيف[1] يكون القرآن عربياً مبيناً مع ما فيه من سائر اللغات أيضاً على ما قالوا كالفارسية؛ وهو ﴿سِجِّيلٍ﴾ والرومية؛ وهو ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ والأرمينية؛ وهو ﴿فِي جِيدِهَا﴾ والسريانية؛ وهو ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ والحبشية؛ وهو ﴿كِفْلَيْنِ﴾؟

قلتُ: لما كانت العرب يستعملون هذه اللغات، ويعرفونها فيما بينهم صارت بمنزلة العربية. قال الفقيه أبو الليث: اعلم بأن العربية لها فضل على سائر

---

(١) روح البيان.

الألسنة، فمن تعلمها أو علم غيره فهو مأجور؛ لأن الله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب. واعلم أن الفارسية شعبة من لسان العجم المقابل للسان العرب. ولها فضل على سائر لغات العجم. وروي أن النبي ﷺ تكلم بها، ولذلك اختيرت في الترجمة عن التكبير في الصلاة لمن لا يعرف التكبير بالعربية.

وقال الزمخشري: ﴿بِلِسَانٍ﴾؛ إما[1] أن يتعلق بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان؛ وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد ﷺ، وإما أن يتعلق بـ﴿نَزَلَ﴾ فيكون المعنى: نزله باللسان العربي المبين لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي.. لتجافوا عنه أصلاً، وقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه، ويفهمه قومك. ولو كان عجمياً.. لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها. انتهى.

ومعنى الآية: أي[2] وإن هذا القرآن الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أنزله الله سبحانه إليك، وجاء به جبريل عليه السلام، فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك لتنذر به قومك بلسان عربي بيِّن واضح؛ ليكون قاطعاً للعذر مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة، هادياً إلى الرشاد، مصلحاً لأحوال العباد.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إيماء إلى أن ذلك المنزل محفوظ، وأن الرسول متمكن منه إلى أن القلب هو المخاطب في الحقيقة؛ لأنه موضع التمييز، والعقل والاختيار، وسائر الأعضاء مسخرة له، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ وقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» أخرجاه في «الصحيحين» ولأن القلب إذا غشي عليه، وقطع سائر الأعضاء.. لم يحصل له

(١) الكشاف.

(٢) المراغي.

شعور بالألم، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات.

وفي قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ تقريع لمشركي قريش بأن الذي حملهم على التكذيب هو الاستكبار، والعناد، لا عدم الفهم؛ لأنه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن ذكر القرآن لا عينه. والمراد بذكره: الإخبار بأنه ينزل على محمد، وبأنه من عند الله، وأنه صدق وحق، فهذا الإخبار موجود في كتب الأولين. ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: واحدها زبور، بمعنى كتاب، مثل رسل ورسول؛ أي: لفي الكتب المتقدمة، يعني أن الله تعالى أخبر في كتبهم عن القرآن وإنزاله على النبي المبعوث في آخر الزمان.

وقيل: إن الضمير في ﴿إنه﴾ يعود إلى رسول الله ﷺ. قاله مقاتل. وقرأ[(١)] الأعمش: ﴿لَفِي زُبْرِ﴾ بتسكين الباء للتخفيف، والأصل الضم، كما قالوا في ﴿رُسُل﴾ بضمتين ﴿رُسْل﴾ بسكون السين. والمعنى[(٢)]: أي: وإن ذكر هذا القرآن، والتنويه بشأنه لفي كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، وقد أخذ عليهم الميثاق بذلك، وبه بشر عيسى بقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧﴾؛ لإنكار[(٣)] النفي، وإنكاره إثبات، فهي للتقرير داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿لَهُمْ﴾ حال من ﴿ءَايَةً﴾، والضمير راجع إلى مشركي قريش، و﴿ءَايَةً﴾ خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ...﴾ إلخ، للاعتناء بالمقدم، والتنويه بالمؤخر، والتقدير: أغفل أهل مكة عن القرآن، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه في زبر الأولين أن يعرفه علماء بني إسرائيل بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا من أنزل عليه؟ أي: قد

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

كان علمهم بذلك آية على صحة القرآن، وحقية الرسول، وكان علماؤهم خمسة: أسد وأسيد وابن يامين وثعلبة وعبد الله بن سلام، فهؤلاء الخمسة من علماء اليهود، وقد أسلموا وحسن إسلامهم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بعث أهل مكة إلى اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد نعته في التوراة، فكان آية على صدقه ﷺ.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالياء من تحت، ﴿ءَايَةً﴾: بالنصب، وهي قراءة واضحة الإعراب، توسط خبر ﴿يَكُن﴾، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ هو الاسم، كما مر. قال الزجاج: والمعنى عليه: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً ﷺ نبي حق، علامة ودلالة على نبوته؛ لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذِكره في كتبهم.

وقرأ ابن عامر والجحدري: ﴿تكن﴾ بالتاء من فوق، ﴿آية﴾ ـ بالرفع ـ على أنها اسم كان، وخبرها ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾. ويجوز أن تكون تامة. وفي قراءة ابن عامر نظر؛ لأن جعل النكرة اسماً، والمعرفة خبراً غير سائغ، وإن ورد شاذاً كقول الشاعر:

فَلاَ يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ ٱلْوَدَاعَا

وقول الآخر:

وَكَانَ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وأحسن ما يقال في توجيه هذه القراءة: أن يقال: إن ﴿يَكُن﴾ تامة. وقرأ ابن عباس: ﴿تكن﴾ بالتاء من فوق، ﴿ءَايَةً﴾: بالنصب، كقراءة من قرأ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بتاء التأنيث، ﴿فتنتَهم﴾: بالنصب ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ وقرأ الجحدري[1]: ﴿أن تعلمه﴾: بتاء التأنيث، كما قال الشاعر:

قَالَتْ بَنُو عَامِرٍ خَالُوا بِنِي أَسَدِ ... يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضِرَاراً لأَقْوَامِ

(١) البحر المحيط.

وكتب في المصحف ﴿علموا﴾ بواو بين الميم والألف. قيل على لغة من يميل ألف علموا إلى الواو، كما كتبوا الصلوة والزكوة والربوا على تلك اللغة.

والمعنى: أي[1] أغفل أهل مكة عن الإيمان، وليس بكاف لهم شهادة على صدقه أن العلماء من بني إسرائيل نصوا على أن مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ﷺ بصفته ونعته، وقد كان مشركوا قريش يذهبون إليهم ويتعرفون منهم هذا الخبر.

وبعد أن أثبت بالدليلين السالفين نبوة محمد ﷺ.. ذكر أن هؤلاء المشركين لا تنفعهم الدلائل ولا تجديهم البراهين، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾؛ أي: نزلنا هذا القرآن، كما هو بنظمه المعجب المعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية، جمع أعجمي بالتخفيف، ولذا جمع جمع السلامة، ولو كان جمع أعجم لما جمع بالواو والنون؛ لأن مؤنث أعجم عجماء، وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة.

﴿فَقَرَأَهُۥ﴾؛ أي: فقرأ ذلك الأعجمي القرآن ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على مشركي مكة قراءة صحيحة خارقة للعادات ﴿مَّا كَانُوا۟﴾؛ أي: ما كان أهل مكة ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا القرآن ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي إلى إعجاز القرآن المقروء لفرط عنادهم، وشدة شكيمتهم في المكابرة.

وقيل المعنى[2]: ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم بلغته.. لم يؤمنوا به، وقالوا: ما نفقه هذا ولا نفهمه، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ويقال: رجل أعجمي، ورجل أعجم إذا كان غير فصيح اللسان وإن كان عربياً، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم وإن كان فصيحاً. إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمي بمعنى أعجمي. والأعجمي هو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وقرأ الحسن: ﴿على بعض الأعجميين﴾، وكذلك قرأ الجحدري. قال أبو الفتح بن جني أصل الأعجمين: الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب للتخفيف، كما قالوا: الأشعرون؛ أي: الأشعريون بحذف ياء النسبة، ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة؛ لأن مؤنثه عجماء.

وحاصل المعنى: أي إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوه، وفهموه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وبشرت به الكتب السالفة، ومع هذا لم يؤمنوا به، بل جحدوه وسموه تارة شعراً وأخرى كهانة، فلو أنا نزلنا على بعض الأعجمين الذي لا يحسن العربية، فقرأه عليهم لكفروا به أيضاً، ولتمحلوا لجحودهن عذراً، وقالوا له: لا نفقه ما يقول. وفي هذا تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ على ما حصل من قومه؛ لئلا يشتد حزنه بإدبارهم عنه وإعراضهم عن الاستماعه له.

والخلاصة[1]: أنا لو نزلناه على بعض الأعجمين، لا عليك فإنك رجل منهم، ويقولون لك: ما أنت إلا بشر مثلنا، وهلا نزل به ملك، فقرأه ذلك الأعجم عليهم، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق، وأنه منزل من عندنا.. ما كانوا به مصدقين، فخفض من حرصك على إيمانهم به، فإنهم لا يؤمنون به على كل حال.

ثم أكد هذا الإنكار أشد تأكيد، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أدخلنا التكذيب بهذا القرآن بقراءة الأعجم عليهم؛ أي: على كفار مكة لو فرض ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾؛ أي: أدخلنا التكذيب بهذا القرآن ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: في قلوب المشركين من كفار مكة بقراءتك عليهم؛ أي[2]: سلكنا التكذيب وأدخلناه في قلوبهم، وقررناه فيها، فكيفما فعل بهم، وعلى أي وجه دبر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ وفي ذلك

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

إيماء إلى أن ذلك التكذيب صار متمكناً في قلوبهم أشد التمكن، وصار كالشيء الجبلي لا يمكن تغييره.

وقيل المعنى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك السلك البديع ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾؛ أي: أدخلنا القرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: في قلوب مشركي مكة فعرفوا معانيه وإعجازه.

وعبارة «الجمل» هنا قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ معمول لـ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾. والضمير في ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ للقرآن، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: سلكنا تكذيبه؛ أي: التكذيب به بقراءة النبي مثل إدخالنا التكذيب به في قلوبهم بقراءة الأعجمي. وفي أن الأعجمي لم يقرأه ولم ينزل عليه. قلنا: إن الجملة الشرطية؛ وهي قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ..﴾ إلخ لا تستلزم الوقوع، اهـ شيخنا.

فقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ استئناف مسوق لبيان عنادهم؛ أي: فهم مع ذلك السلك المذكور لا يؤمنون بهذا القرآن. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجيء إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان؛ أي: إنهم لا يتأثرون بالأمور الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب حين لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار؛ أي: لا يؤمنون إلى هذه الغاية، وهي مشاهدتهم العذاب الأليم.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾؛ أي: فيأتي هؤلاء المكذبين بهذا القرآن العذاب الأليم ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة في الدنيا والآخرة، فهو معطوف على ﴿يَرَوْا﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يعلمون قبل بمجيئه حتى يفجأهم.

وقرأ الحسن[1]: ﴿فتأتيهم﴾: بالتاء الفوقية؛ أي: الساعة. وقرأ ﴿بغتة﴾ بفتح الغين. وعبارة «الجمل» هنا قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ مقدم من تأخير. وأصل الكلام: حتى يأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون، فيرونه فيقولون هل نحن منظرون؛ أي: مؤخرون عن الإهلاك، ولو طرفة عين لنؤمن، فيقال لهم:

---

(١) البحر المحيط.

لا، أي: لا تأخير ولا إمهال، اهـ شيخنا.

وقال الزمخشري: فإن قلت[1]: ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؟

قلت: ليس المعنى يراد برؤية العذاب ومفاجأته، وسؤال النظرة فيه الوجود، وإنما ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم العذاب، فما هو أشد منها؛ وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه، وهو سؤالهم النظرة. ونظير ذلك أن تقول: إن أسأت مقتك الصالحون، فمقتك الله سبحانه، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله انتهى، فوجب أن لا تكون الفاء للترتيب الزماني، بل للترتيب الرتبي.

ثم بين أنهم يتمنون التأخير حينئذ ليتداركوا ما فات ﴿فَيَقُولُوا﴾؛ أي: كل أمة معذبة على وجه الحسرة والأسف. والتمني للإمهال ليتداركوا ما فرطوا فيه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؛ أي: مؤخرون إلى حين لنؤمن ونصدق، وهو استفهام طمع في المحال. وهو إمهالهم بعد مجيء العذاب، وهم في الآخرة يعلمون أن لا ملجأ لهم، لكنهم يذكرون ذلك استرواحاً.

ولما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب قالوا: إلى متى توعدنا به، ومتى هذا العذاب؟ كما قال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[2] والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي التهكمي بهم، حيث استعجلوا ما فيه ضررهم، وحتف أنفسهم، داخلة على محذوف يقتضيه المقام والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكون حالهم كما ذكر من طلب الإنظار عند نزول العذاب الأليم، وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد، أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره، فيستعجلون... إلخ.

وإنما قدم الجار والمجرور للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون

---

(١) الكشاف. (٢) أبو السعود.

المستعجل به عذابه تعالى مع ما فيه من رعاية الفواصل؛ أي: كيف[1] يستعجلون بعذابنا بنحو قولهم تارة: أمطر علينا حجارة من السماء، وأخرى فائتنا بما تعدنا. وقد تبين لهم كيف أخذنا للأمم الماضية، والقرون الخالية، والأقوام العاتية.

ثم أبان أن طول العمر لا يغني عنهم شيئاً، وأن العذاب واقع لا محالة، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ معطوف على ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ وما بينهما اعتراض للتوبيخ. والهمزة مقدمة على الفاء، والأصل: فأرأيت بمعنى فأخبرني. والخطاب لكل من يصلح له كائناً من كان. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها.. شاع استعمال أرأيت في معنى أخبرني. فالمعنى[2]: أخبرني يا من يصلح للخطاب.

﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: إن جعلنا مشركي مكة متمتعين منتفعين ﴿سِنِينَ﴾ كثيرة مع طيب العيش، ولم نهلكهم ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ من العذاب ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾؛ أي: لم يغن عنهم شيئاً، ولم ينفعهم تمتعهم المتطاول في رفع العذاب وتخفيفه. فـ﴿مَا﴾ في ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾: نافية، ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف، وفاعله ﴿مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾؛ أو أي شيء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتيع المؤبد على أن ﴿ما﴾ في ﴿ما كانوا﴾ مصدرية، أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها، فـ﴿مَا﴾ في ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ مفعول مقدم لـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والاستفهام للنفي. و﴿مَا كَانُواْ﴾ هو الفاعل. وهذا المعنى أولى من الأول؛ لكونه أوفق بصورة الإخبار، وأدل على انتفاء الإعناء على أبلغ وجه، وآكده كأن كل من شأنه الخطاب قد كلف بأن يخبر بأن تمتيعهم ما أفادهم، وأي شيء أغنى عنهم فلم يقدر أن يخبر بشيء من ذلك أصلاً. وقرىء ﴿يمْتَعون﴾ بإسكان الميم وتخفيف التاء، من أمتع الله زيداً بكذا.

والمعنى: أي[3] إن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

ولا لاحق بهم، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ أشراً وبطراً واستهزاءً واتكالاً على الأمل الطويل.

ثم قال: هو أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معايشهم؛ أي: هل[١] الأمر كما يعتقدون من عيشهم في النعيم، فأخبرني أن متعناهم في الدنيا برغد العيش، وصافي الحياة، ثم جاءهم بعد تلك السنين المتطاولة ما كانوا يوعدون به من العذاب، فهل ما كانوا فيه من النعيم يدفع عنهم شيئاً منه، أو يخففه عنهم.

والخلاصة: أن طول التمتع ليس بدافع شيئاً من عذاب الله سبحانه، وكأنهم لم يمتعوا بنعيم قط، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، وقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، وقال: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة وكان يتمنى لقاءه، فقال: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال: ميمون لقد وعظت فأبلغت.

وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يقرأ هذه الآية كل صباح إذا جلس على سريره تذكراً واتعاظاً. وقال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية، والتذ بموداته الواهية، وسكن إلى مألوفاته.

كان الرشيد حبس رجلاً، فقال الرجل للموكل عليه: قل لأمير المؤمنين كل يوم مضى من نعمتك ينقص من محنتي، والأمر قريب، والموعد الصراط، والحاكم الله، فخر الرشيد مغشياً عليه، ثم أفاق وأمر بإطلاقه.

ثم بين سبحانه أنه لا يهلك قرية إلا بعد الإنذار، وإقامة الحجة عليها،

---

(١) المراغي.

فقال: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى المهلكة ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ أي: إلا بعد إرسالنا إليهم رسلاً ينذرونهم بأساً، ويخوفونهم عذابنا على كفرهم.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف تركت الواو من الجملة بعد ﴿إِلَّا﴾ هنا، ولم تترك منها في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾؟

قلتُ: الأصل ترك ﴿الواو﴾؛ لأن الجملة صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، وما هنا فقد جاء على الأصل فلا اعتراض. وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف، كما في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. اهـ «سمين».

قال في «كشف الأسرار»: جمع منذرين؛ لأن المراد بهم النبي وأتباعه المظاهرون له. قوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾: إما مفعول لأجله لـ﴿مُنذِرُونَ﴾؛ أي: تنذرهم لأجل التذكير والموعظة لهم، وإلزام الحجة لهم، وتنبيهاً إلى ما فيه النجاة من عذابنا، أو مفعول مطلق منصوب بـ﴿مُنذِرُونَ﴾؛ لأن التذكرة بمعنى الإنذار؛ أي: يذكرون ذكرى. قال النحاس: وهذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلا لها مذكرون، أو منصوب بفعل مقدر هو صفة لـ﴿مُنذِرُونَ﴾؛ أي: إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى. وقيل: غير ذلك.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في إهلاكهم، فتهلك قوماً غير ظالمين وقبل الإنذار؛ لأنهم جحدوا نعمتنا، وعبدوا غيرنا بعد الإنذار إليهم، ومتابعة الحجج، ومواصلة المواعيد، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

والتعبير[1] عن ذلك بنفي الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم أصلاً على ما تقرر من قاعدة أهل السنة؛ لبيان كمال نزاهته عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من الظلم.

---

(١) روح البيان.

ولما كان المشركون يقولون: إن محمداً كاهن، وما يتنزل عليه من نوع ما تتنزل به الشياطين. أكذبهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾؛ أي: بهذا القرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة من أخبار السماء، بل نزل به الروح الأمين ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾؛ أي: وما ينبغي التنزل به، ولا يمكن ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للشياطين؛ أي: وما يصح، وما يستقيم لهم أن ينزلوا بالقرآن من السماء ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: وما يقدرون على ذلك أصلاً.

ثم إنه تعالى ذكر سبب ذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن الشياطين بعد مبعث الرسول وقبله ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لما يوحي به إلى الأنبياء ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾؛ أي: لممنوعون حفظاً للوحي عن التخليط قبل نزول الملك به. أما ما لا تعلق له بالوحي من الأخبار المغيبات فقد يستمعون قبل مبعث النبي ﷺ، وأما بعد بعثته فقد انسد باب السماء على الشياطين، وانقطع نزول الشياطين على الكهنة؛ أي: إن الشياطين لممنوعون عن الاستماع للوحي، كيف لا، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة، غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه أصلاً من فنون الشرور.

والمعنى: أي[1] وما نزلت الشياطين بالقرآن ليكون كهانة، أو شعراً أو سحراً. وما ينبغي لهم أن ينزلوا به، وما يستطيعون ذلك وإن عالجوه بكل وسيلة، وإنهم عن سمع الملائكة لمحجوبون بالشهب.

والخلاصة: أن الشياطين لا تنزل به لوجوه ثلاثة:

١. أنه ليس من مبتغاهم؛ إذ من سجاياهم الإضلال والإفساد، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو هدى ونور وبرهان مبين، فبينه وبين مقاصد الشياطين منافاة عظيمة.

٢. أنه لو انبغى لهم ما استطاعوا حمله وتأديته، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) المراغي.

٣. أنهم لو انبغى واستطاعوا حمله وتأديته.. لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لئلا يخلطوا الوحي.

وقرأ الحسن[١] وابن السميقع والأعمش: ﴿وما تنزلت به الشياطون﴾ ـ بالواو والنون ـ إجراءً له مجرى جمع السلامة. قال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين. قال: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، وإنما يكون بشبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً، وهو في موضع رفع.. اشتبه عليه بالجمع السالم، فغلط.

ثم لما قرر سبحانه حقية القرآن، وأنه منزل من عنده.. أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الفاء فيه للإفصاح؛ أي: إذا عرفت يا محمد حال الكفار، وأردت بيان ما هو اللازم لك من الأوامر والنواهي.. فأقول لك: لا تعبد مع الله سبحانه إلهاً غيره. ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ على إشراكه، الخطاب[٢] للنبي ﷺ، والمراد به غيره؛ لأنه معصوم من ذلك.

قال ابن عباس: يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليّ، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك، فكيف بغيرك من العباد، وذلك من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد الخطاب لأحد وجهه إلى الرؤساء في الظاهر.

وقيل: خوطب به النبي ﷺ مع استحالة وقوع المنهي عنه[٣]؛ لأنه معصوم، تهييجاً لعزيمته، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً بسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبيح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه، وأن من كان أكرم الخلق عليه إذا عذب على تقدير اتخاذ إله آخر، فغيره أولى.

وحاصل ما في هذه الآيات: أنَّ الله سبحانه أمر نبيه بأربعة أوامر ونواه[٤]:

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

١. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾؛ أي: أخلص العبادة لله وحده، ولا تشرك به سواه، فإن من أشرك به فقد عصاه، ومن عصاه فقد استحق عقابه. وفي هذا حث لرسوله على ازدياد الإخلاص. وبيان أن الإشراك قبيح بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فيكون الوعيد لغيره أزجر، وله أقبل. وبعد أن بدأ بالرسول وتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر.. أمره بدعوة الأقرب فالأقرب؛ لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً، ثم ثنى بالأقرب فالأقرب.. كان قوله لسواهم أنفع، وتأثيره أنجع، فقال:

٢. ﴿وَأَنذِرْ﴾؛ أي: خوف العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: الجماعة الذين كانوا أقرب الناس إليك في النسب، فأقرب الناس إليه بنو هاشم، ثم بنو المطلب، ثم سائر بطون قريش على ترتيب الأقرب فالأقرب؛ أي: وخوف الأقربين من عشيرتك وأهلك بأس الله سبحانه، وشديد عقابه لمن كفر به وأشرك به سواه.

وإنما أمره بإنذار الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أهم، فالبداية بهم في الإنذار أولى، كما أن البداية بهم في البر والصلة وغيرهما أولى. وهذه النذارة الخاصة جزء من النذارة العامة التي بعث بها النبي ﷺ، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعم وخص، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً، ألا إن لكم رحماً وسأبلها ببلالها، أصلكم في الدنيا، ولا أغني عنكم من الله شيئاً».
وهذا الحديث منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين.

وفي الحديث والآية[1]: دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، وعلى جواز صلة المؤمن والكافر، وإرشاده ونصحه بدليل قوله: «إن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

وروى مسلم قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وبعد أن أمره بإنذار المشركين من قومه.. أمره بالرفق بالمؤمنين، فقال:

٣. ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾؛ أي: ألن جانبك وحالك وتواضع ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، واقتدىٰ بك ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالله سبحانه وبك، وترفق بهم وتجاوز عنهم، فإن ذلك أجدى لك، وأجلب لقلوبهم، وأكسب لمحبتهم، وأفضى إلى معونتك والإخلاص لك. و﴿مِنَ﴾ للتبيين؛ لأن (من اتبع) أعم ممن اتسع لدين، أو قرابة، أو نسب، أو للتبعيض، على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان والمصدقون باللسان.

فإن قلتَ: لِمَ قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل: واخفض جناحك للمؤمنين، فما النكتة في هذا العدول؟

قلتُ: النكتة في هذا العدول إلى هذا الأسلوب إخراج المؤمن الغير المتابع؛ لأن كل متابع مؤمن، وليس كل مؤمن متابعاً، ولئلا يغتر المؤمن بدعوى الإيمان وهو بمعزل عن حقيقته التي لا تحصل إلا بالمتابعة. انتهى من «التأويلات النجمية».

يقال: خفض جناحه إذا ألانه، وفيه استعارة تصريحية، كما سيأتي في مبحث البلاغة. والمعنى: ألن جناحك، وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة والكرامة، وتجاوز عما يبدو منهم من التقصير، واحتمل منهم سوء الأحوال، وعاشرهم بجميل الأخلاق، وتحمل عنهم كلهم، فإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم، وإن قصروا في حقي فاعف عنهم واستغفر لهم.

(١) المراغي.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾؛ أي خالفوا أمرك: ولم يتبعوك؛ أي: فإن خرجت عشيرتك عن الطاعة وخالفوك، ولم يتبعوك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من عملكم، أو من الذي تعملونه؛ أي: فإني بريء من عبادتكم لغير الله تعالى، ولا تبرأ منهم، وقل لهم قولاً معروفاً بالنصح والعظة لعلهم يرجعون إلى طاعتك، وقبول الدعوة منك.

وهذا[1] يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصدقون باللسان؛ لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ولا يخالفونه. والمعنى: أي: فإن[2] عصاك من أنذرتهم من العشيرة فلا ضير عليك، وقد أديت ما أمرت به، ولا عليك إثم مما يعملون، وقل لهم: إني بريء منكم ومن دعائكم مع الله إلهاً آخر، وإنكم ستجزون بجرمكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والخلاصة: فبعد الإنذار من آمن منهم فتواضع له، ومن خالفك فتبرأ منه ومن عمله، وقل له: ﴿إني بريء...﴾ إلخ، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال:

٤. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في جميع حالاتك ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يذل من والاه، ولا يعز من عاداه، فهو يقدر على قهر أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم من توكل عليه، وفوض أمره إليه بالظفر والنصرة، فهو ينصر أولياءه، ولا تتوكل على الغير، فإن الله تعالى هو الكافي لشر الأعداء لا الغير، والتوكل على الله تعالى في جميع الأمور، والإعراض عما سواه ليس إلا من خواص الكمل. جعلنا الله سبحانه وإياكم من الملحقين بهم. والتوكل: عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره، وهو الله سبحانه وتعالى العزيز الرحيم.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة[3]: ﴿فتوكل﴾ - بالفاء - على الإبدال من جواب الشرط. وقرأ باقي السبعة: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ - بالواو - على العطف على

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿أنذر﴾؛ ثم أتبع به قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ...﴾ إلخ؛ لأنه كالسبب لتلك الرحمة؛ أي: توكل على من يراك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك إلى التهجد والصلاة وحدك في جوف الليل، في قول أكثر المفسرين، فإن المعروف من القيام في العرف الشرعي إحياء الليل بالصلاة.

وقال مجاهد: حين تقوم حيثما كنت. ﴿و﴾ يرى ﴿تقلبك﴾ وتنقلك في أركان الصلاة بالقيام والركوع والاعتدال والسجود والجلوس ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: مع المصلين جماعة إذا كنت إماماً لهم؛ أي: ويراك إذا صليت جماعة راكعاً وساجداً وقائماً. كذا قال أكثر المفسرين. وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فتلا هذه الآية.

وقيل[1]: يراك منتقلاً في أصلاب المؤمنين، وأرحام المؤمنات من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة، فجميع أصول سيدنا محمد ﷺ رجالاً ونساء مؤمنون، فلا يدخلهم الشرك ما دام النور المحمدي في الذكر والأنثى، فإذا انتقل منه لمن بعده.. أمكن أن يعبد غير الله، وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لإبراهيم. وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله تعالى، كذا قالوا، ولكن لا أصل له والله أعلم.

وقيل[2]: المراد بقوله: ﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قيامك إلى التهجد. وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ يريد ترددك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة وتقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد.

ومعنى الآية: أي[3] وفوض جميع أمورك إلى القادر على دفع الضر عنك، والانتقام من أعدائك الذين يريدون السوء بك، الرحيم إذ نصرك عليهم برحمته، وهو الذي يراك حين تقوم للصلاة بالناس، ويرى تنقلك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام فيما بين المصلين إذا كنت إماماً لهم. وفي الخبر: «أعبد الله كأنك

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وعبر عن المصلين بالساجدين؛ لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده فيسمع ما تقول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم وبسرهم ونجواهم، فيعلم ما تنويه وتعمله، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

وقصارى ذلك: أنه هو القادر على نفعكم وضركم، فهو الذي يجب أن تتوكلوا عليه، وهو الذي يكفيكم ما أهمكم.

ولما قال[1] المشركون: لم لا يجوز أن يقال: إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد ﷺ، كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة، وبالشعر على الشعراء.. فرق الله سبحانه وتعالى بين محمد ﷺ وبين الكهنة والشعراء، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ بتقدير همزة الاستفهام قبل حرف الجر، وبحذف إحدى التاءين من ﴿تَنَزَّلُ﴾؛ أي: هل أخبركم أيها المشركون جواب على من تتنزل الشياطين؟ أقول لكم في جوابه ﴿تَنَزَّلُ﴾ الشياطين ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: كثير الإفك والكذب ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والمعاصي، وهو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب؛ أي: تتنزل[2] الشياطين على المتصفين بالإفك والإثم الكثير من الكهنة والمتنبئة كمسيلمة الكذاب، وسطيح، وطليحة؛ لأنهم من جنس الشياطين، وبينهم مناسبة بالكذب والافتراء والإضلال. فإن مسيلمة من المتنبئة، وسطيح وطليحة من الكهنة ـ جمع كاهن؛ وهو الذي يخبر عن الأمور المستقبلة، والعراف الذي يخبر عن الأمور الماضية. اهـ شيخنا.

وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ منزهة عن هذه الأوصاف استحال تنزلهم عليه.

وجملة قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ في محل الجر على أنها صفة لـ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

﴿أَثِيمٍ﴾؛ لكونه في معنى الجمع؛ أي: يلقى الأفاكون الإذن إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأمارات لنقصان علمهم، فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: أكثر الأفاكين؛ أي: كلهم ﴿كَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوه من الأقاويل، وليس محمد كذلك، فإنه صادق في جميع ما أخبر به من المغيبات، والأكثر هنا: بمعنى الكل، كما أن البعض يأتي بمعنى الكل في قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: كله. والأظهر[1] أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجني. والمعنى: وأكثر أقوالهم كاذبة، لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقاً على الإطلاق. اهـ «أبو السعود».

وقيل: الضمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ عائد إلى ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، والجملة[2] في محل النصب حال من الضمير المستتر في ﴿تَنَزَّلُ﴾ العائد إلى ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم حالة كون الشياطين ملقين السميع؛ أي: ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان. ويجوز أن يكون المعنى: أن الشياطين يلقون السمع؛ أي: ينصتون إلى الملأ الأعلى؛ ليسترقوا منهم شيئاً من المغيبات، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ راجعة إلى ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعونه من الملأ الأعلى، فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب، كما جاء في الحديث: «تلك الكلمة الصادقة الكلمة التي يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، ويزيد معها أكثر من مئة كذبة». والكهنة أيضاً يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم.

فإن قلت: كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون

---

(١) أبو السعود. (٢) الشوكاني.

بعدما وصفوا جميعاً بالإفك؟

قلتُ: يجاب عنه بأن المراد بالأفاك الذي يكثر الكذب، لا الذي لا ينطق إلا بالكذب. فالمراد بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أنه قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الشياطين، وقد سبق الجواب عنه بوجه آخر.

وقال شيخ الإسلام: فإن قلت[1]: كيف قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ بعد ما حكم بأن كل أفاك أثيم؛ أي: فاجر؟

قلتُ: الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لـ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، لا للأفاكين، ولو سلم فالأفاكون هم الذين يكثرون الكذب، لا أنهم الذين لا ينطقون إلا بالكذب. انتهى.

وقال في «كشف الأسرار»: استثني منهم بذكر الأكثر سطيحاً وشقاً وسواد بن قارب الذين كانوا يلهجون بذكر رسول الله وتصديقه، ويشهدون له بالنبوة، ويدعون الناس إليه. انتهى.

والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام[2]: رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشياطين السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق، فكيف يكون كما زعموا، ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبي المرسل ﷺ من عند الله سبحانه برسالته إلى الناس يذمهم ويلعنهم، ويأمر بالتعوذ منهم.

وحاصل معنى الآيات: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾؛ أي: هل أخبركم خبراً جلياً نافعاً في الدين، عظيم الجدوى في الدنيا، تعلمون به الفارق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ببيان جواب سؤال ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، ثم أشار إلى الجواب عن هذا السؤال بوجهين:

١. ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾؛ أي: هي تنزل على كل كذاب فاجر من

---

(١) فتح الرحمن. (٢) الشوكاني.

الكهنة، نحو شق بن رهم وسطيح بن ربيعة. قال في «حياة الحيوان»: هما كاهنان، فكان شق نصفَ إنسان، له يد واحدة ورجل واحدة، وعين واحدة، وكان سطيح ليس له عظم ولا بنان، إنما كان يطوى كالحصير، لم يدرك أيام بعثة النبي ﷺ، وكان في زمن ملك كسرى؛ وهو ساسان. انتهى.

٢. ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾؛ أي: يلقي الأفاكون سمعهم إلى الشياطين، ويصغون إليهم أشد إصغاء، فيتلقون منهم ما يتلقون، وهؤلاء قلما يصدقون في أقوالهم، بل هم في أكثرها كاذبون. وهذا رد على من زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق، وأنه شيء أتاه به رئي من الجن، فنزه الله سبحانه رسوله ﷺ عن قولهم وافترائهم، ونبه إلى أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم، وأنه ليس من قبل الشياطين.

والخلاصة: أن هناك فارقاً بين محمد ﷺ والكهنة، ومحمد ﷺ لا يكذب فيما يخبر عن ربه، وما عرف منه إلا الصدق، والكهنة كذابون فيما يقولون، وقلما عرف منهم الصدق في أخبارهم.

ولما كان بعض المشركين يقول: إن النبي ﷺ شاعر.. بيّن سبحانه حال الشعراء، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾؛ أي: شعراء الكفار الذين يهجون رسول الله ﷺ وأصحابه، ويعيبون الإسلام، ويطعنون فيه منهم عبد الله بن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة عمرو بن عبد الله وأمية بن أبي الصلت وأبو سفيان بن حرب الأموي ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ أي: يتبعهم سفهاء العرب، حيث كانوا[1] يحفظون هجاءهم للمسلمين، وينشدونه في المجالس والمجامع، ويضحكون منه؛ أي: إن القرآن ليس بشعر، ولا محمد بشاعر؛ لأن الشعراء يتبعهم الضالون الحائدون عن السنن القويم، والسفهاء المائلون إلى الفساد الذي يجر إلى الهلاك، وأتباع محمد ليسوا كذلك، بل هم الراشدون المراجيح الرزان والساجدون الراكعون الباكون

(١) روح البيان.

الزاهدون.

وكان[1] الشعراء يتكلمون بالكذب والباطل، ويقولون: نحن نقول مثل ما قال محمد، وقالوا: الشعر، واجتمع إليهم غواة قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون محمداً ﷺ وأصحابه، وكانون يروون عنهم قولهم، فذلك قوله: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين. وقيل: ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ هم الشياطين. وقيل: هم السفهاء الضالون.

والشعراء[2] عام يدخل فيه كل شاعر، والمذموم من يهجو ويمدح شهوة محرمة، ويقذف المحصنات، ويقول الزور وما لا يسوغ شرعاً. واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب.

قال في «الكواشي»: لا شك أن الشعر كلام حسنه كحسنه، وقبيحه كقبيحه، ولا بأس به إذا كان توحيداً، أو علماً ينتفع به، أو حثاً على مكارم الأخلاق من جهاد وعبادة وحفظ فرج وغض بصر وصلة رحم وشبهه، أو مدحاً للنبي ﷺ والصالحين بما هو الحق، انتهى.

وقد وردت أحاديث في ذمه وذم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه:

فمنها: ما روى مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء»؟ قلت: نعم. قال: «هيه». فأنشدته بيتاً، فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتاً آخر، فقال: «هيه»، حتى أنشدته مئة بيت. وفي هذا دليل على العناية بحفظ الأشعار إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً. وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً، ألا ترى قوله ﷺ: «لقد كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» حين سمع قوله:

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللَّهَ بَاطِلُ   وَكُلُّ نَعِيْمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

والكلام في تحقيق ذلك يطول.

وقال الإمام المرزوقي شارح «الحماسة»: تأخر الشعراء عن البلغاء؛ لتأخر المنظوم عند العرب؛ لأن ملوكهم قبل الإسلام وبعده يتبجحون بالخطابة، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة، ويعدون الشعر دناءة؛ لأن الشعر كان مكسبة وتجارة، وفيه وصف اللئيم عند الطمع بصفة الكريم، والكريم عند تأخر صلته بوصف اللئيم، ومما يدل على شرف النثر أن الإعجاز وقع في النثر دون النظم؛ لأن زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة.

وقرأ عيسى بن عمر[1]: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ بالنصب على الاشتغال، والجمهور بالرفع على الابتداء والخبر، وقرأ نافع وشيبة والحسن بخلاف عنه، والسلمي ﴿يَتْبَعُهُمُ﴾ بسكون التاء مخففاً من تبع الثلاثي وقرأ باقي السبعة مشدداً. والوجهان حسنان. يقال: تبعت واتبعت مثل حقرت واحتقرت. وسكن العينَ الحسنُ، وعبد الوارث عن أبي عمرو. وروى هارون نصبها عن بعضهم، وهو مشكل. ذكره أبو حيان.

ثم بين تلك الغواية بأمرين، فقال:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا من[2] شأنه الرؤية؛ أي: قد رأيت وعلمت. والاستفهام فيه للتقرير، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: أن الشعراء ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾؛ أي: في كل فن من فنون الكذب، وفي كل شعب من شعاب الزور، وفي كل نوع من أنواع المدح أو الذم، والهجاء والشتم، والفحش واللعن، والافتراء والدعاوى، والتكبر والمفاخر، والتحاسد والعجب، والإراءة وإظهار الفضل، والدناءة والخسة، والطمع والتَّكَدِّي، والذلة والمهانة، وأصناف الأخلاق الرذيلة، والطعن في الأنساب والأعراض، وغير ذلك من الآفات التي هي من توابع الشعر ﴿يَهِيمُونَ﴾ يقال: هام على وجهه - من باب باع - هيماناً، بفتحتين،

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

إذا ذهب من العشق أو غيره، كما في «المختار»؛ أي: يذهبون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين، بل يتحيرون في أودية القيل والقال، والوهم والخيال، والغي والضلال، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، ويذمون الحق ويمدحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات، كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة.

والمعنى: أي[(١)] ألم تعلم أن الشعراء يسلكون الطرق المختلفة من الكلام، فقد يمدحون الشيء حيناً بعد أن ذموه، أو يعظمونه بعد أن احتقروه، والعكس بالعكس، وذلك دليل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق، ولا تحري الصدق، لكن محمداً ﷺ جبلته الصدق، ولا يقول إلا الحق، وقد بقي على طريق واحد؛ وهو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا.

وثاني الأمرين: ذكره بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ في أشعارهم عند التصلف والدعاوى ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفاعيل، فهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس لأدنى الأسباب، ويرتكبون الفواحش، وذلك تمام الغواية. ومحمد ﷺ على خلاف ذلك؛ لأنه منزه عن كل ذلك، متصف بمحاسن الأوصاف ومكارم الأخلاق، مستقر على المنهاج القويم، مستمر على الصراط المستقيم، فقد بدأ بنفسه إذ قال له ربه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ ثم بالأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ فليست حاله حال الشعراء.

ولما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة استثنى منهم من اتصف بأمور أربعة:

١. الإيمان.

---

(١) المراغي.

٢. والعمل الصالح.

٣. وكثرة قول الشعر في توحيد الله والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق.

٤. وأن لا يهجو أحداً إلا انتصاراً ممن يهجوه اتباعاً لقوله سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ كما كان يفعل عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير حين كانوا يهجون المشركين منافحة عن رسول الله ﷺ.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك: «أهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل»، وكان يقول لحسان بن ثابت: «قل وروح القدس معك» وفي رواية: «أهجهم وجبريل معك»، وإلى هذا أشار بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله. استثناء للشعراء المسلمين. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ في أشعارهم بأن كان أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة، والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة، أو بأن لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله سبحانه، ولم يجعلوه همهم وعادتهم. قال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة، لكنه بالحضور.

﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾؛ أي: انتقموا ممن هجاهم بالهجو ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾؛ أي: من بعد ما ظلمهم الكفار بالهجو؛ أي: ردوا هجاء من هجا رسول الله ﷺ والمسلمين. وأحق الخلق بالهجو من كذب رسول الله ﷺ وهجاه، كما وقع ذلك الانتصار من شعراء رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من هجاه ويحمون عنه، ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم. ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة وكافح أهل البدعة، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السنة المطهرة، كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله، المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر الله بالقيام به.

وروى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه لما نزلت هذه الآية.. جاء

حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: أنتم ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: أنتم ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾: قال أنتم؛ أي بالرد على المشركين، ثم قال النبي ﷺ: «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والأمهات». فقال حسان لأبي سفيان بن حرب:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ ٱللَّهِ فِيْ ذَاكَ ٱلْجَزَاءُ
وَإِنَّ أَبِيْ وَوَالِدَهُ وَعِرْضِيْ ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
أَتَشْتُمُهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ
لِسَانِيْ صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيْهِ ... وَبَحْرِيْ لاَ تُكَدِّرُهُ ٱلدِّلاَءُ

وقال كعب: يا رسول الله إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» وقال كعب:

جَاءَتْ سَخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ ٱلْغَلاَّبِ

فقال النبي ﷺ: «لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بيديه؛ وهو يقول:

خَلُّوا بَنِيْ ٱلْكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ ... ٱلْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيْلِهِ
ضَرْبَاً يُزِيْلُ ٱلْهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ ... وَيُذْهِلُ ٱلْخَلِيْلَ عَنْ خَلِيْلِهِ

فقال عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عُنْقَهُ يا عمر، فَلَهِيَ أسرع فيهم من نضح النبل». أخرجه الترمذي والنسائي.

فصل في مدح الشعر[1]

روى البخاري عن أبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر لحكمة». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فجعل يتكلم بكلام، فقال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً» أخرجه أبو داود.

وروى مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه، قال: ردفت وراء النبي ﷺ يوماً: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت نعم. قال: «هيه»، فأنشدته بيتاً. الحديث كما مر آنفاً.

وعن جابر بن سمرة قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسم معهم. أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: الشعر كلام: فمنه حسن، ومنه قبيح، فخذ منه الحسن، ودع منه القبيح. وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان علي أشعر منهما. وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر، ويستنشده في المسجد، فيروى أنه دعا عمر بن ربيعة المخزومي، فاستنشده القصيدة التي قالها، فقال:

أَمِنْ آلِ نُعْمَىٰ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ

فأنشده القصيدة إلى آخرها، وهي قريب من تسعين بيتاً، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرة واحدة.

وبعد أن[2] ذكر الله سبحانه من الدلائل العقلية، وأخبار الأنبياء المتقدمين ما يزيل الحزن عن قلب رسول الله ﷺ، ثم بين الدلائل على صدق نبوته، ثم

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

أرشد إلى الفارق بينه وبين الكهنة، وبينه وبين الشعراء.. ختم[1] السورة بالتهديد العظيم والوعيد الشديد للكافرين، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بالشعر المنهي عنه وغيره، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفراً بها وعناداً، فهو عام لكل ظالم، والسين للتأكيد. ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ أي: أي مرجع يرجعون إلى الله تعالى بعد الموت، وأي معاد يعودون إليه، إنهم ليصيرون إلى نار لا يطفأ سعيرها، ولا يسكن لهيبها؛ أي: ينقلبون انقلاب سوء، ويرجعون رجوع شر؛ لأن مصيرهم إلى النار.

فإن[2] في قوله: ﴿سيعلم﴾ تهويلاً عظيماً، وتهديداً شديداً، وكذا في إطلاق ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، وإبهام ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. وخصص بعضهم هذه الآية بالشعراء، ولا وجه لذلك، فإن الاعتبار بعموم اللفظ.

وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: ينقلبون منقلباً أي منقلب، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه ﴿سيعلم﴾؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه.

والمعنى[3]: أي وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وهَجْوِ رسول الله وأصحابه، وبالإعراض عن تدبر هذه الآيات أنهم ينقلبون كمال انقلاب؛ لأن مصيرهم إلى النار؛ وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العذاب؛ وهو شر مرجع، فالمنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع هو العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها، فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً.

وقرأ ابن عباس والحسن وابن أرقم عنه[4]: ﴿أَيَّ مُنفَلَتٍ يَنفَلِتُونَ﴾ بالفاء مكان القاف، والتاء مكان الباء، من الإنقلاب بالنون والتاء الفوقية. والمعنى على هذه القراءة: أن الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله تعالى، والانفكاك منه، ولا يقدرون على ذلك؛ أي: وسيعلم الظالمون أن ليس لهم وجه من وجوه

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط والشوكاني.

الانفلات والفرار، فإنهم يطمعون أولاً أن ينفلتوا من عذاب الله سبحانه فينجوا منه. وقرأ الباقون بالقاف والباء الموحدة من الانقلاب بالنون والقاف والموحدة.

الإعراب

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حقيقة تلك القصص، وتأكيد نبوة محمد ﷺ، فإن إخباره عن الأمم المتقدمة؛ وهو الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ لا يكون إلا عن طريق الوحي. ﴿نَزَلَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِ﴾: متعلق بمحذوف حال من الروح؛ أي: متلبساً به، فالباء للملابسة. ﴿ٱلرُّوحُ﴾: فاعل. ﴿ٱلْأَمِينُ﴾: صفة له، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿تنزيل﴾، أو حال منه. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: متعلق بـ﴿نَزَلَ﴾. ﴿لِتَكُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل وعاقبة، ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾: خبرها، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لكونك من ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَزَلَ﴾.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿بِلِسَانٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ لأنه اسم فاعل؛ أي: لتكون من جملة الذين أنذروا بهذا اللسان العربي؛ وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام، أو بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿بِهِ﴾ بإعادة العامل؛ أي: نزل بلسان عربي؛ أي: باللغة العربية. ﴿عَرَبِيٍّ﴾: صفة أولى لـ﴿لسان﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ثانية له، أو صفة لـ﴿عَرَبِيٍّ﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه.

﴿لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر إن، وجملة ﴿إنه﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمن للتقرير داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفل أهل مكة عن هذا القرآن، ولم يكن علم علماء بني إسرائيل إياه آية لهم على حقيقته، ﴿لم﴾ حرف نفي وقلب وجزم ﴿يَكُن﴾ مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾ وجملة ﴿يَكُن﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿لَّهُمْ﴾ متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لآية وتقدم عليها ﴿ءَايَةً﴾ خبر ﴿يكن﴾. ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ في تأويل مصدر اسم ﴿يكن﴾ ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَوْ﴾: شرطية. ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قرأه﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر معطوف على ﴿نَزَّلْنَٰهُ﴾. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بقرأ. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿مُؤْمِنِينَ﴾. و﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجملة كان جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والتقدير: سلكناه في قلوب المجرمين سلكاً كائناً مثل ذلك السلك البديع، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والجملة مستأنفة، أو حال من الهاء في ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، أو من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَرَوُاْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾: صفة له، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى،

تقديره: إلى رؤيتهم العذاب الأليم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يأتيهم﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَرَوُا﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿الْعَذَابَ﴾. ﴿بَغْتَةً﴾: حال من فاعل يأتي، ولكنه في تأويل مشتق؛ أي: حالة كونه باغتاً. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿يأتيهم﴾. ﴿فَيَقُولُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يأتيهم﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الاستبعادي المضمن للتحسر. ﴿نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿يقولوا﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي والتهكمي والإنكاري داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿بعذابنا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾. ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكون حالهم كما ذكر من طلب الإنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا، والجملة المحذوفة مستأنفة، هكذا قدره بعض المعربين، ولكنه لا يخلو من إيهام، فالأولى أن يقدر: أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون بعذابنا، وقدم الجار والمجرور لأمرين: لفظي؛ وهو مراعاة الفواصل، ومعنوي؛ وهو الإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به العذاب. ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستخباري، و﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَيَقُولُوا﴾، وما بينهما اعتراض، و﴿رأيت﴾: بمعنى أخبرني، فتتعدى إلى مفعولين: أحدهما مفرد والآخر جملة استفهامية غالباً. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿مَّتَّعْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿سِنِينَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿مَّتَّعْنَاهُمْ﴾، وجواب الشرط محذوف يقدر من معنى المفعول الثاني لـ﴿رأيت﴾ تقديره: إن متعناهم سنين لم يغن عنهم تمتعهم، أي: لم ينفعهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة معترضة لا

محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول به. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الشرط. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يوعدون، ومفعول ﴿أرأيت﴾ الأول محذوف معلوم من فاعل ﴿جاء﴾؛ لأن ﴿أرأيت﴾ و﴿جاء﴾ تنازعاً في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، والتقدير: إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون أفرأيته؛ أي: ذلك الموعود.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به. ﴿مَّا﴾: مصدرية، أو موصولة. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُمَتَّعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة ﴿مَّا﴾ المصدرية، أو الموصولة، والمصدر المؤول من ﴿مَّا﴾ المصدرية في محل الرفع فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾: تقديره: ما أغنى عنهم تمتعهم، أو ﴿مَّا﴾ الموصولة في محل الرفع فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ أي: ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون به، وجملة ﴿أَغْنَىٰ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أرأيت﴾: لأنها جملة استفهامية، وهذا كله مفهوم مما تقدم في سورة الأنعام مبسوطاً في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: مفعول به لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. و﴿مِن﴾: زائدة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مُنذِرُونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، أو حال منها، وسوغ مجيء الحال منها سبق النفي. ﴿ذِكْرَىٰ﴾: مفعول لأجله لـ﴿مُنذِرُونَ﴾ منصوب به؛ أي: ينذرونهم؛ لأجل تذكير العواقب والموعظة، أو مصدر معنوي لـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ منصوب به؛ أي: أي إلا لها مذكرون ذكرى، وأعربها الكسائي حالاً؛ أي: حال كونهم مذكرين لها. ﴿وَمَا﴾:

﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿تَنَزَّلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تَنَزَّلَتْ﴾. ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَنۢبَغِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على القرآن. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَنۢبَغِى﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَنَزَّلَتْ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾: متعلق بـ﴿معزولون﴾، ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿معزولون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل عدم استطاعتهم. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أحوال الكفار، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لا تدع. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿إِلَـٰهًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿إِلَـٰهًا﴾: مفعول به. ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة ﴿إِلَـٰهًا﴾، وجملة ﴿تَدْعُ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَتَكُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تكون﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿تكون﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن دعاؤك إلهاً آخر فكونك من المعذبين.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على قوله:

﴿فَلَا تَدْعُ﴾. ﴿عَشِيرَتَكَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: صفة لـ﴿عَشِيرَتَكَ﴾. ﴿وَٱخْفِضْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف عليه أيضاً. ﴿جَنَاحَكَ﴾: مفعول به. ﴿لِمَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اخفض﴾. ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الضمير المستتر في ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿فَإِنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا امتثلت ما أمرتك به، وأردت بيان ما هو اللازم لك إذا خالفوك.. فأقول لك: إن عصوك. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿عَصَوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقُلْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما تعملونه. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿توكل﴾: فعل أفعل، وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على الجواب؛ أي: على جملة ﴿فَقُلْ﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿توكل﴾. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾. ﴿يَرَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة صلة الموصول. ﴿حِينَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَرَىٰكَ﴾. ﴿تَقُومُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾، ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾: معطوف على الكاف في ﴿يَرَىٰكَ﴾. ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: حال من كاف ﴿تقلبك﴾، و﴿فِى﴾ بمعنى مع؛ أي: حالة كونك مصلياً مع الجماعة. ﴿إِنَّهُۥ﴾:

ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبره. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، أو على محمد إن قدرنا القول، و﴿الكاف﴾: في محل النصب مفعول أول. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ﴿عَلَىٰ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، وإنما قدم؛ لأن له صدر الكلام، وهو معلق ما قبله من التنبئة عن العمل فيما بعده. ﴿تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿تَنَزَّلُ﴾ في محل النصب ساد مسد المفعول الثاني والثالث إن جعل ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ متعدياً لثلاثة، ومسد الثاني فقط إن جعل متعدياً لإثنين. ﴿تَنَزَّلُ﴾: فعل مضارع، وهو على حذف إحدى التاءَين، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾. ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾. ﴿أَثِيمٍ﴾: صفة ﴿أَفَّاكٍ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان المستفهم عنه. ﴿يُلْقُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾، إن قلنا: إن ﴿الواو﴾ في ﴿يُلْقُونَ﴾ يعود على ﴿ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾، أو الجملة مستأنفة، أو صفة لـ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، إن قلنا: إن ﴿الواو﴾ تعود على ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أكثرهم كاذبون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿يُلْقُونَ﴾.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾: مبتدأ. ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع

مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَهِيمُونَ﴾، وجملة ﴿يَهِيمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾ تقديره: ألم تر هيامهم في كل واحد، وفن من فنون القيل والقال. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يفعلونه. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء. ﴿الَّذِينَ﴾: مستثنى من ﴿الشعراء﴾ المذمومين. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً، أو منصوب على الظرفية الزمانية؛ لأنه صفة لظرف محذوف؛ أي: وقتاً كثيراً. ﴿وَانتَصَرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿مِن بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿انتصروا﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿ظُلِمُوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد ظلمهم. ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، والسين حرف استقبال. ﴿يعلم الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بـ﴿ينقلبون﴾؛ أي: ينقلبون أي انقلاب؛ لأن أياً تعرب بحسب ما تضاف إليه، وقد علقت ﴿يعلم﴾ عن العمل فيما بعدها، والناصب لـ﴿أَيَّ﴾ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾، كما بينا، وقدم عليه لتضمنه معنى الاستفهام. وأسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها للزومها الصدارة. قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى، وما قبله معنى آخر، فلو عمل فيه لدخل بعض المعاني في بعض، «اهـ. ﴿يَنقَلِبُونَ﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ في محل النصب ساد مسد مفعولي ﴿يعلم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَتَنزِيلُ﴾: مصدر نزل المضعف، بمعنى اسم المفعول، سمي به مبالغة، وصيغة التفعيل فيه تدل على أن نزوله كان بالدفعات في مدة ثلاث وعشرين سنة، كما مر في مبحث التفسير.

﴿ٱلْأَمِينُ﴾: صفة مشبهة من أمن، فهو أمن من باب فعل المكسور اللازم إذا اتصف بالأمانة. والأمانة ضد الخيانة؛ لأنه أمين على وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ أي: على روحك؛ لأنه المدرك والمكلف دون الجسد. وفي «الفتوحات»: إن أريد بالقلب الروح فظاهر، وإن أريد به العضو فتخصيصه؛ لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تصعد منه إلى الدماغ، فتنتعش بها المتخيلة.

وفي «الكرخي» قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ خصه بالذكر، وهو إنما أنزل عليه ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ، والرسول متمكن من قلبه، لا يجوز عليه التغير، ولأن القلب هو المخاطب حقيقة؛ لأنه موضع التميز والاختيار.

والقلب في الأصل لحمة صنوبرية الشكل؛ أي: التي شكلها كشكل الصنوبر، وهو شجر ينبت في البرية دقيق أحد الطرفين غليظ الآخر مع نوع استدارة كقمع السكر، فهذه اللحمة على شكله، فهي دقيقة أحد الطرفين غليظة الآخر مع نوع استدارة كقمع السكر، كما يشاهد ذلك في قلب الدجاجة وغيرها، لكن هنا بمعنى اللطيفة الربانية التي تسمى روحاً ونفساً، لا بمعنى اللحمة الصنوبرية، اهـ. من «البيجوري على السلم» في المنطق.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ اللسان في الأصل الجارحة المعروفة، ولكن المراد بها هنا معنى اللغة؛ لأنها آلة التلفظ بها. ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جمع زبور بمعنى الكتاب، مثل رسل ورسول؛ أي: لفي الكتب المتقدمة.

﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ قال صاحب «التحرير»: الأعجمين جمع أعجمي،

ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع سلامة. قلت: وكأن سبب منع جمعه أنه من باب أفعل فعلاء، كأحمر حمراء، والبصريون لا يجيزون جمعه جمع سلامة إلا ضرورة، وقد جعله ابن عطية جمع أعجم، فقال: الأعجمون جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب، يقال له: أعجم، والأعجمي هو الذي نسبه في العجم، وإن كان فصيح اللسان. وقال الزمخشري: الأعجم الذي لا يفصح، وفي لسانه عجمة أو استعجام، والأعجمي مثله، إلا أن فيه زيادة بياء النسب توكيداً، اهـ من «السمين».

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾؛ أي: أدخلنا تكذيب القرآن، أو معرفة معانيه وإعجازه.

﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: اسم مفعول من الإنظار، والإنظار: التأخير والإمهال؛ أي: هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدق.

﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستعجال: طلب عجلة العذاب. ﴿مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من الإيعاد. والإيعاد: التخويف بالعذاب. ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرة وعبرة وموعظة لغيرهم. ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ يقال: تنزل إذا نزل في مهلة.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾؛ أي: وما يصح وما يستقيم، وما يتيسر لهم أن ينزلوا بالقرآن من السماء. ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: وما يقدرون على ذلك. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾؛ أي: عن استماع الوحي أصلاً من أول الأمر، أو عن استماع خبر السماء. ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾؛ أي: لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين من استماع خبر السماء لا الوحي.

﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ العشيرة: أهل الرجل الذي يتكثر بهم؛ أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وذلك أن العشيرة هو العدد الكامل، فصارت العشيرة اسماً لكل جماعة من أقارب الرجل يتكثر بهم، والعشير: المعاشر قريباً كان أو مقارناً، كذا في «المفردات».

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ والخفض ضد الرفع والدعة، والسير اللين. ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ مضارع تنزل من باب تفعل، أصله: تتنزل، حذفت منه إحدى التائين.

﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: كثير الإفك والكذب. قال الراغب: الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه. ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم، وهو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، أصله: يلقيون السمع، من ألقى الرباعي استثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان الياء والواو، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، لأنها جزء كلمة، وحذفها أولى من حذف كلمة مستقلة.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾: جمع شاعر، كعلماء جمع عالم قال: في «المفردات»: شعرت: أصبت الشعر، ومنه استعير شعرت كذا؛ أي: علمته في الدقة كإصابة الشعر. قيل: وسمي الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته، فالشعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم ليت شعري، وصار في التعارف اسماً للموزون المقفى من الكلام على تفاعيل أجزاء العروضيين، والشاعر: المختص بصناعته.

﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: جمع غاو، كقاضون جمع قاض، وهم الضالون المائلون عن السنن القويم. ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾ قال الراغب: أصل الوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً، ويستعار للطريقة كالمذهب والأسلوب، فيقال: فلان في واد غير واديك.

﴿يَهِيمُونَ﴾؛ أي: يسيرون سير البهائم حائرين، لا يهتدون إلى شيء، يقال: هام على وجهه من باب باع يهيم هيماً وهيوماً وهياماً وهيماناً وتهياماً إذا ذهب وهو لا يدري أين يتوجه؛ أي: يذهبون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين، بل يتحيرون في أودية القيل والقال، يعني أساليب الكلام من المدح والهجاء والجدل والغزل وغير ذلك من الأنواع؛ أي: في كل نوع من الكلام يغلون. قال في «الوسيط»: فالوادي مثل لفنون الكلام، وهيمانهم فيه قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل وغلو في مدح أو ذم، اهـ.

﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ والانتصار: الانتقام ممن ظلمك.. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ والظلم هو: الانحراف عن العدالة، والعدول عن الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة. ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ والمنقلب: المرجع؛ وهو مصدر ميمي بمعنى الانقلاب؛

أي: الرجوع.

فائدة: والظلمة ثلاثة أقسام: الظالم الأعظم: وهو الذي لا يدخل تحت شريعة الله، وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

والأوسط هو الذي لا يلزم حكم السلطان، والأصغر هو الذي يتعطل عن المكاسب والأعمال، فيأخذ منافع الناس، ولا يعطيهم منفعته.

ومن فضيلة العدالة أن الجور الذي هو ضدها لا يثبت إلا بها، فلو أن لصوصاً تشارطوا فيما بينهم شرطاً فلم يراعوا العدالة فيه، ولم ينتظم أمرهم، فعلى العاقل أن يصيخ إلى الوعيد والتهديد الأكيد، فيرجع عن الظلم والجور، وإن كان عادلاً فنعوذ بالله من الحور بعد الكور. والله المعين لكل سالك، والمنجي في المسالك من المهالك. اهـ «روح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بمؤكدات ثلاث؛ بإن وباللام واسمية الجملة، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾؛ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن، فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾ ففيه إطلاق آلة الشيء؛ لأن اللسان هنا بمعنى اللغة؛ لأنه آلة التلفظ بها.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: والمبشرين، وهو ذكر أحد المتقابلين وحذف الآخر لدلالة المذكور على المحذوف، واختير ذكر الإنذار وحذف مقابله دون العكس؛ لأن باب التخلية بالخاء المعجمة مقدم على باب التحلية بالحاء المهملة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾؛ أي: وإن

ذكر القرآن لا عينه.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من إطلاق المحل وإرادة الحال؛ أي: أهلها.

ومنها: بيان كمال نزاهته بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره منه من الظلم في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ إذ هلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم أصلاً.

ومنها: التهييج والإلهاب في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول بطريق التهييج لزيادة إخلاصه وتقواه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنه مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط. فشبه التواضع ولين الأطراف والجوانب عند مصاحبة الأقارب والأجانب بخفض الطائر جناحه؛ أي: كسره عند إرادة الانحطاط، فأطلق على المشبه اسم الخفض بطريق الاستعارة التصريحية، فاشتق منه خفض بمعنى: ألان على طريقة التبعية.

ومنها: صيغتا المبالغة في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ لأن فعالاً وفعيلاً من صيغ المبالغة؛ أي: كثير الكذب، كثير الفجور.

ومنها: الطباق بين ﴿يَقُولُونَ﴾ و﴿يَفْعَلُونَ﴾، وبين ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾. و ﴿ظُلِمُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية البديعة في قوله: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ شبه جولانهم في أفانين القول بطريق المدح والذم والتشبب وأنواع الشعر، وضلالهم عن سنن الهدى بهيام الهائم في الصحراء الذي هام في مقصده، وخبط في طريقه، ولا يقصد موضعاً معيناً، فهو لا يدري أين يذهب. وهذا من ألطف

الاستعارات ومن أرشقها وأبدعها.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

ومنها: مراعاة الفواصل؛ لأنها تزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يَهِيمُونَ﴾ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ - ﴿يَقُولُونَ﴾ - ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

وحكي أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾، ثم بكى وهو ينشد:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَىٰ لَكَ لَازِمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَىٰ وَتَفْرَحُ بِالْمُنَىٰ ... كَمَا سُرَّ بِاللَّذَّاتِ فِيْ النَّوْمِ حالِمُ
وَتَسْعَىٰ إِلَىٰ مَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ فِيْ الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة

١. مقدمة في تسلية الرسول ﷺ على إعراض قومه عن الدين، وبيان أنهم ليسوا ببدع في الأمم، وأنه ﷺ ليس بأول الرسل الذين كذبوا، وأن الله قادر على إنزال القوارع التي تلجئهم إلى الايمان، ولكن جرت سنته أن يجعل الإيمان في القلوب اختيارياً لا اضطرارياً.

٢. الاستدلال بخلق النبات، وأطواره المختلفة، وأشكاله المنوعة على وجود الإله ووحدانيته.

٣. قصص الأنبياء مع أممهم؛ لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين.

٤. إثبات أن القرآن وحي من رب العالمين، لا كلام تنزل به الشياطين.

٥. بيان أن محمداً ﷺ ليس بكاهن ولا بشاعر.

٦. التهديد والوعيد لمن يعبد مع الله سواه من الأصنام والأوثان، ويكذب بالرسول والنور الذي أنزل معه(١).

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الشعراء، فللّه الحمد والشكر حمداً كثيراً طيباً مباركاً يوافي نعمه ويكافيء مزيده، في تاريخ ٢٤/ ٣/ ١٤١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة النمل

سورة النمل مكية، قال القرطبي[1]: وهي مكية كلها في قول الجميع. وأخرج ابن الضريسي والنحاس وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وهي أربعة وتسعون آية، وقيل: ثلاث وتسعون آية، وألف مئة وتسع وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وسبع مئة وسبع وستون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ: جميع السورة[2] محكم غير آية واحدة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ...﴾ الآية (٢٧) نسخت بآية السيف، وقد اشتملت هذه السورة على خمس قصص؛ الأولى: قصة موسى مع فرعون، الثانية: قصة النمل، الثالثة: قصة بلقيس، الرابعة: قصة صالح مع قومه، الخامسة: قصة لوط مع قومه، وما بقي منها حكم ومواعظ.

التسمية: وأمَّا تسميتها بسورة النمل فلذكر النمل فيها.

المناسبة: ومناسبتها لِمَا قبلها من وجوه[3]:

أولاً - أنها كالتتمة لها؛ إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمان.

ثانياً - أن فيها تفصيلاً وبسطاً لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى عليهما السلام.

ثالثاً - أن كلتيهما قد اشتمل على نعت القرآن، وأنه منزل من عند الله.

---

(١) القرطبي.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

(٣) المراغي.

رابعاً ـ تسلية رسوله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم وإصرارهم على الكفر به والإعراض عنه.

وقال أبو حيان: مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة[1]؛ لأنه قال في السابقة: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ وقبله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾، وقال هنا: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: الذي هو تنزيل رب العالمين.

والله أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم
بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا
وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ
أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ
ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ
مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي
بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ
ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ
بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ
وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي
يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن المؤمنين يزيدهم القرآن هدى وبشرى؛ إذ هم به يستمسكون ويؤدون ما شرع من الأحكام على أتم الوجوه.. أردف هذا ببيان أن من لا يؤمن بالآخرة يتمادى في غيه، ويعرض عن القرآن أشد الإعراض، ومن ثم تراه حائراً متردداً في ضلاله فهو في عذاب شديد في دنياه؛ لتبلبله وقلقه واضطراب نفسه، وفي الآخرة له أشد الخسران؛ لما يلحقه من النكال والوبال والحرمان من الثواب والنعيم الذي يتمتع به المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما وصف القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين، وأن من أعرض عنه كان له الخسران المبين.. أردف بذكر حال المنزل عليه وهو الرسول ﷺ مخاطباً له.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر قصص موسى عليه السلام تقريراً لما قبله ببيان أنه تلقاه من لدن حكيم عليم.. أردفه قصص داود وسليمان عليهما السلام، وذكر أنه آتى كلاً منهما طائفة من علوم الدين والدنيا، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب، وعلم سليمان منطق الطير، ثم بين أن سليمان طلب من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه، وأن يمكنه من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في[1] سابق الآيات أنه سخر لسليمان الجن والإنس والطير، وجعلهم جنوداً له.. ذكر هنا أنه احتاج إلى جندي من جنوده؛ وهو الهدهد، فبحث عنه فلم يجده، فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذراً يبرئه، فحضر بعد قليل وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها، تحكمها امرأة هي بلقيس ملكة سبأ، ووصف له ما لها من جلال الملك وأبهته، وأنها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس العليم بكلِّ شيء في السموات والأرض، والعليم بما نخفي وما نعلن، والعليم بالسر والنجوى، وهو رب العرش العظيم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن الهدهد أبدى المعاذير لتبرئة نفسه.. أردف ذلك بإجابة سليمان عن مقالة الهدهد، ثم أمره بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ، والتنحي جانباً ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصَّتها.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر فيما سلف أن الهدهد حينما ألقى الكتاب أحضرت بطانتها وأولي الرأي لديها، وقرأت عليهم نص الكتاب.. بين هنا أنها طلبت إليهم إبداء آرائهم فيما عرض عليهم من هذا الخطب المدلهم والحادث الجلل حتى ينجلي لهم صواب الرأي فيما تعمل ويعملون؛ لأنها لا تريد أن تشيد بالأمر وحدها، فقلبوا وجوه الرأي واشتد الحوار بينهم، وكانت خاتمة المطاف أن قالوا: الرأي لَدَيْنَا القتال، فإنا قوم أولو بأسٍ ونجدةٍ، والأمر مفوض إليك فافعلي ما بدا لك، وقالت: إني أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلاً، وإني أرى أن نهاديه ونرسل إليه بهدية، ثم ننظر ماذا يكون رده عَلَّه

(١) المراغي.

يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك، وبذلك يترك قتالنا وحربنا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿طسٓ﴾؛ أي: هذه طس؛ أي: هذه السورة مسماة به، وقد مر الكلام مفصلاً في فواتح السور أنها إن كانت اسماً للسورة، فمحلها الرفع على أنها خبر مبتدأ كما قدرنا، أو على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، وإن لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة بل مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب، وقد مر أيضاً أن القول الأسلم في تفسيرها أن يقال: الله أعلم بمراده بذلك. وقيل[1]: الطاء من اللطيف، والسين من السميع، حكاه الثعلبي، وقيل: ﴿الطاء﴾: إشارة إلى طوله؛ أي: فضله، و﴿السين﴾: إلى سنائه؛ أي: علوه.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير بطائه إلى طيب قلوب محبيه، وبالسين إلى سر بينه وبين قلوب محبيه، لا يسعهم فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل. وقيل: إنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه قال: هو اسم الله الأعظم، وفي «كشف الأسرار»: ﴿الطاء﴾: إشارة إلى طهارة قدسه، و﴿السين﴾ إشارة إلى سناء عزه. يقول تعالى بطهارة قدسي وسناء عزي: لا أخيب أمل من أمل لطفي، انتهى. وقيل غير ذلك، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي[2]: هذه السورة العظيمة الشأن، أو آيات هذه السورة. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: بعض آيات القرآن المعروف بعلو الشأن، والإشارة بـ﴿تِلْكَ﴾ إلى السورة المترجم عنها باسم خاص، والإتيان بإشارة البعيد؛ لتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحسي، والقرآن عبارة عن جميع القرآن، أو عن جميع المنزل عند نزول هذه السورة؛ إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق.

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

﴿وَكِتَابٍ﴾؛ أي: وآيات من كتاب عظيم الشأن. ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب، إن قلنا: إنه من أبان بمعنى أظهر، أو ظاهر إعجازه وصحته، على أنه من أبان بمعنى بان؛ أي: ظهر، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، مثل غافر الذنب وقابل التوب.

أي: هذه السورة آيات الكلام الجامع بين القرآنية والكتابية، وكونه قرآناً من جهة أنه يقرأ، وكونه كتاباً بسبب أنه يكتب، وقدم الوصف الأول؛ لتقدم القرآنية على حال الكتابية، وأخَّره في سورة الحجر حيث قال: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ نظراً إلى حالته التي قد صار عليها، فإنه مكتوب والكتابة سبب القراءة، وقيل: نظراً إلى أن الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح، فإن وصفه بالكتابية مفصح عن اشتماله على صفة كمال الكتب الإلهية، فكأنه كلها.

وأما تعريف القرآن هنا[1] وتنكير الكتاب، وتعريف الكتاب في سورة الحجر وتنكير القرآن؛ فلصلاحية كل واحد منهما للتعريف والتنكير. وفي «كشف الأسرار»: القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد ﷺ، ووصفان لأنه يُقرأ ويُكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ النكرة فهو الوصف.

وقال شيخ الإسلام: إن قلت[2]: الكتاب المبين هو القرآن، فكيف عطفه عليه من أن العطف يقتضي المغايرة؟

قلتُ: المغايرة تصدق بالمغايرة لفظاً ومعنى، وباللفظ فقط، وهو هنا من الثاني، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. أو المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، فهو هنا من الأول. فإن قلت: لم قدم القرآن هنا على الكتاب وعكس في الحجر؟

---

(١) شوكاني.
(٢) فتح الرحمن.

قلت: جرياً على قاعدة العرب في تفننهم في الكلام، انتهى.

وقال أبو حيان[1]: وأضاف الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم، والكتاب المبين؛ إما اللوح المحفوظ وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين، وإما السورة، وإما القرآن وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع، وأن إعجازهما ظاهر مكشوف، ونكر ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له، كقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾. وإذا أريد به القرآن فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى؛ لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة من حيث إن مدلول القرآن الاجتماع، ومدلول كتاب الكتابة، انتهى. ونظيره قولهم: هذا فعل السخي والجواد الكريم.

ومعنى الآية: أي إن[2] هذه الآيات التي أنزلتها إليك أيها الرسول لآيات القرآن وآيات كتاب بين واضح لمن تدبَّره، وفكَّر فيه أنه من عند الله سبحانه أنزله إليك، لم تتقوله أنت ولا أحد من خلقه؛ إذ لا يستطيع ذلك مخلوق ولو تظاهر معه الجن والإنس.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بجر ﴿وَكِتَابٍ﴾ عطفاً على ﴿الْقُرْآنِ﴾؛ أي: تلك آيات القرآن وآيات كتاب مبين. وقرأ ابن أبي عبلة وأبو المتوكل وأبو عمران: ﴿وكتاب مبين﴾ بالرفع فيهما عطفاً على ﴿ءَايَاتُ﴾، والأصل: وآيات كتاب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فأعرب بإعرابه حالة كون تلك الآيات. ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾؛ أي: هادية لهم ومبشرة لهم بالجنة، فأقيم المصدر مقام الفاعل؛ للمبالغة كأنها نفس الهدى والبشارة.

ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنَّها تزيدهم هدى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر؛ لأنها تبشرهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) زاد المسير والبحر المحيط.

برحمة من الله ورضوان، وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها. فـ﴿هُدًى﴾ و﴿بشرى﴾ إما حالان من ﴿الآيات﴾، أو من الكتاب، كما فسرنا، ويجوز أن يكونا خبرين آخرين لـ﴿تِلْكَ﴾، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدر؛ أي: يهدي هدى ويبشر بشرى.

ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: يؤدون الصلوات الخمس بأركانها وشرائطها في مواقيتها. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: يعطون الصدقة المفروضة للمستحقين. وتخصيص[1] الصلاة والزكاة بالذكر؛ لأنهما قرينتا الإيمان، وقطرا العبادات البدنية والمالية، مستتبعان لسائر الأعمال الصالحة، والموصول في محل جر صفة لـ﴿لمؤمنين﴾، أو بدل، أو عطف بيان منه، أو منصوب على المدح، أو مرفوع على تقدير مبتدأ. وجملة قوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ في محل النصب حال من ﴿الواو﴾ في الصلة، فهي من تتمة الصلة؛ أي: الذين[2] يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، والحال أنهم يصدقون بالآخرة بأنها آتية مع ما فيها، ويعلمونها علماً يقيناً لا شك فيه، فإن تحمل مشاق العبادات إنما يكون لخوف العاقبة والوقوف على المحاسبة. وكرر[3] الضمير للدلالة على الحصر، كأنه قيل: أي: لا يوقن بالأخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لا من عداهم، وجعل الخبر مضارعاً؛ للدلالة على التجدد في كل وقت، وعدم الانقطاع.

وقال أبو حيان[4]: ولما كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مما يتجدد ولا يستغرق إلا زمان.. جاءت الصلة فعلية، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت عندهم مستقر الديمومة.. جاءت الجملة اسمية، وأكد المسند إليه فيها بتكراره.

وفي «زاده» ولما كان[5] إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) زاده.

أوقاتهما.. أتى بهما فعلين، ولمَّا كان الإيقان بالآخرة أمراً ثابتاً مطلوباً دوامه.. أتى به جملة اسمية، وجعل خبرها مضارعاً؛ للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد. اهـ.

ومعنى الآية: أي[1] إن المؤمنين حق الإيمان هم الذين يعملون الصالحات، فيقيمون الصلاة المفروضة على أكمل وجوهها، ويؤدون الزكاة التي تطهر أموالهم وأنفسهم من الأرجاس، ويوقنون بالمعاد إلى ربهم، وأن هناك يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم خيرها وشرها، فيذلون أنفسهم في طاعته رجاء ثوابه، وخوف عقابه، وليسوا كأولئك المكذبين الذين لا يبالون أحسنوا أم أساؤوا، أطاعوا أم عصوا، لأنهم إن أحسنوا لا يرجون ثواباً وإن أساؤوا لم يخافوا عقابا.

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ولا يصدقون بالبعث بعد الموت؛ وهم الكفار. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، كما ينبىء عنه قوله عليه السلام: «حفَّت النار بالشهوات»؛ أي: جعلت محفوفة ومحاطة بالأمور المحبوبة المشتهاة.

واعلم[2]: أن كل مشيئة وتزيين وإضلال ونحو ذلك منسوبة إلى الله تعالى بالأصالة، وإلى غيره بالتبعية. وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته هنا، وأسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَالَهُمْ﴾؟.. قلت: بين الإسنادين فرق، وذلك أن اسناده إلى الشيطان حقيقة، وإسناده إلى الله مجاز. اهـ وهذا تأويل منه على طريق الاعتزال.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يترددون في ضلالتهم، كما يكون حال الضال عن الطريق، وقيل: أي: يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها، والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من الضرر والعقوبة، لا يهتدون

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

إلى طريقة ولا يقفون على حقيقة، والفاء لترتيب المسبب على السبب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر والعمه: مبتدأ، خبره ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أشد العذاب وأقبحه في الدنيا، كالقتل والأسر يوم بدر، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أي: أشد الناس خسراناً وأعظمهم خيبة؛ لاشترائهم الضلالة بالهدى، فخسروا الجنة ونعيمها وحرموا النجاة من النار.

قال بعضهم[1]: واعلم أن أهل الدنيا في خسارة الآخرة، وأهل الآخرة في خسارة المولى، فمن لم يلتفت إلى الكونين ربح المولى. والمعنى: أي[2]: إن الذين لا يصدقون بالآخرة وقيام الساعة، والمعاد إلى الله بعد الموت، وبالثواب والعقاب.. حببنا إليهم قبيح أعمالهم، ومددنا لهم في غيهم، فهم في ضلالهم حيارى تائهون، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لا يفكرون في عقبى أمرهم، ولا ينظرون إلى ما يؤول إليه سلوكهم. قال الزجاج: أي: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه بأن جعلناه مشتهى بالطبع محبوباً إلى النفس، أولئك الموصوفون هم الذين لهم سوء العذاب في الدنيا بقتلهم وأسرهم حين قتال المؤمنين، كما وقع في بدر، وهم في الآخرة أعظم خسراناً مما هم فيه في الدنيا؛ لأن عذابهم فيها مستمر لا ينقطع، وعذابهم في الدنيا ليس بدائم، بل هو زائل لا بقاء له.

ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: لتعطى القرآن بطريق التلقية والتلقين. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾؛ أي: من عند رب حيكم فيما دبره لخلقه. ﴿عَلِيمٍ﴾ بأحوال خلقه؛ أي: تلقن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى بواسطة جبريل، لا من عند نفسك، ولا من تلقاء غيرك، كما يزعم الكفار. و﴿لَّدُنْ﴾ بمعنى: عند، وتنوين[3]

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الاسمين للتعظيم؛ أي: من عند حكيم؛ أيّ: حكيم وعليم، أيّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن، وتنصيص على طبقته ﷺ في معرفة القرآن، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإن من تلقى الحكم والعلوم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علماً في رصانة العلم والحكمة، وفي الجمع بين الحكيم والعليم إشعارٌ بأن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية.

والمعنى: أي وإنك أيها الرسول لتحفظ القرآن وتعلمه من عند حكيم بتدبير خلقه عليم بأخبارهم وما فيه الخير لهم، فخبره هو الصدق، وحكمه هو العدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

قصص موسى عليه السلام

ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم، فقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة قول موسى لزوجته ومن معها من ولده وخادمه في وادي الطور، وذلك أنه مكث بمدين عند شعيب عشر سنين، ثم سار بأهله بنت شعيب إلى مصر لزيارة أمه وأخيه هارون فضل الطريق في ليلة مظلمة شديدة البرد، وقد أخذ امرأته الطلق، فقدح فأصلد زنده، فبدا له من جانب الطور نار، فقال لأهله: اثبتوا مكانكم. ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾.

قال مقاتل: النار هو النور، وهو نور رب العزة رآه ليلة الجمعة عن يمين الجبل بالأرض المقدسة. ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا﴾؛ أي: من تلك النار؛ أي: ممن عندها. ﴿بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن حال الطريق أين هو. و﴿السين﴾[1]: للدلالة على بعد المسافة، أو لتحقيق الوعد بالإتيان. وإن أبطأ فيكون للتأكيد. ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ منها. ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ أي: بشعلة نار مقبوسة؛ أي: مأخوذة من معظم النار ومن أصلها إن لم أجد عندها من يدلني على الطريق، فإن سنة الله سبحانه أن لا يجمع حرمانين على عبده، يقال: اقتبست منه ناراً، أو علماً: استفدته منه، والشهاب:

---

(١) روح البيان.

الشعلة، والقبس: النار المقبوسة، فعل بمعنى مفعول؛ وهو القطعة من النار في عود أو غيره.

وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب إلا زيداً[1]: ﴿بِشِهَابٍ﴾ منوناً. فـ﴿قَبَسٍ﴾: بدل منه، أو صفة له؛ لأنه بمعنى المقبوس. وقرأ باقي السبعة بالإضافة غير منون؛ وهي قراءة الحسن. قال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. وقال النحاس: هي إضافة النوع إلى الجنس، كما تقول: ثوب خزٍّ وخاتم حديد.

فإن قلت: قال[2] في سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ وفي القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بصيغة الترجي في السورتين، وقال هنا: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بصيغة الإخبار والتيقن، فبين الإخبار والترجي تناقض، فكيف يجمع بينهما؟

قلتُ: لا تناقض بينهما؛ لأن الراجي إذا قوي رجاؤه يقول: سأفعل كذا بصيغة الاخبار وإن كانت الخيبة يمكن أن تقع. وعبارة شيخ الإسلام: كيف قال هنا ذلك، وفي طه: ﴿نَارًا لَّعَلِّيٓ﴾، وأحدهما قطع وجزم، والآخر ترجّ، والقضية واحدة؟

قلتُ: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه عدم الجزم.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: رجاء أن تستدفئوا بها، أو لكي تستدفئوا بها، وتدفعوا البرد بحرها، وكان الزمان شتاء والليلة مثلجة، يقال: صلى بالنار واصطلى بها إذا استدفأ بها، والصلاء النار العظيمة، والاصطلاء الاستدفاء بها. قال بعضهم: الاصطلاء بالنار يقسي القلب، ولم يرو أنه ﷺ اصطلى بالنار.

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) روح البيان بتصرف.

والمعنى: أي[١] واذكر أيها الرسول الكريم لقومك قصة قول موسى لأهله، وقد سار بهم فضل الطريق في ليل دامس وظلام حالك، فرأى ناراً تأجج وتضطرب، فقال إني أبصرت ناراً سآتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخير عظيم، واقتبس نوراً جليلاً.

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه سوى امرأته، وكانا يسيران ليلاً، فاشتبه عليهما الطريق والبرد شديد، وفي مثل هذه الحال يستبشر النَّاس بمشاهدة النار من بعد؛ لما يرجى فيها من زاول الحيرة، وأمن الطريق، ومن الانتفاع بها للاصطلاء، ومن ثم قال لها هذه المقالة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾؛ أي: فلما جاء موسى النار ووصل إليها، أي: جاء ذلك النور الذي ظنه ناراً. قال السدي: كان في النار ملائكة، والنار هنا مجرد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نوراً، وكانت الشجرة سمرة. ﴿نُودِىَ﴾ موسى من قبل الله تعالى؛ أي: جاءه النداء؛ وهو الكلام المسموع من جانب الطور، وأن في قوله: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ إما مفسرة بمعنى أي؛ لأن في النداء معنى القول؛ أي: قيل له[٢]: بورك من في النار، وبورك: مجهول بارك، وهو خبر لا دعاء؛ أي: جعل مباركاً، وهو ما فيه الخير والبركة؛ أي: بورك من في مكان النار؛ وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ واستعملت ﴿مَن﴾ بمعنى (ما) حينئذ، ويدل عليه قراءة أبي: ﴿تباركت الأرض ومن حولها﴾ وعنه أيضاً: بوركت النار ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: ومن حول مكان النار.

والظاهر[٣]: أن المبارك فيه عام في كل من في تلك البقعة وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات؛ لكونها مبعث الأنبياء، وكفاتهم أحياء وأمواتاً،

---

(١) المراغي.
(٢) النسفي.
(٣) روح البيان.

وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى.

وقرأ أبيّ وابن عباس ومجاهد: ﴿أن بوركت النار ومن حولها﴾، أو مصدرية؛ أي: نودي موسى بأن بورك من في النار ومن حولها، أو مخففة من الثقيلة؛ أي: نودي بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن. وقيل[1]: المراد بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو موسى عليه السلام لقربه منها. و﴿من حولها﴾ الملائكة؛ أي: نودي ببركة من في النار؛ أي: بتطهيره مما يشغل قلبه عن الله سبحانه، وتخليصه للنبوة والرسالة؛ أي: ناداه الله سبحانه وتعالى بأنا قدسناك يا موسى، واخترناك للرسالة، وهذه تحية من الله سبحانه لموسى، وتكرمة له، وبارك يتعدّى بنفسه، كما هنا، وبـ «على» كما في قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾، وبـ ﴿في﴾ كما في قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

وفي ابتداء[2] خطاب الله سبحانه موسى بذلك عند مجيئه بشارة بأنه قد قضي له أمر عظيم ديني تنتشر بركاته في أقطار الأرض المقدسة، وهو تكليمه تعالى إياه، واستنباؤه له وإظهار المعجزات على يده، وكل موضع يظهر فيه مشاهدة الحق ومكالمته يكون ذا بركة، ألا ترى إلى قول القائل:

إِذَا نَزَلَتْ سَلْمَىٰ بِوَادٍ فَمَاؤُهُ ... زُلَالٌ وَسِلْسَالٌ وَجَنَّاتُهُ وَرْدُ

وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من تمام ما نودي به؛ لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً، وللتعجيب من عظمة ذلك الأمر. وعبارة «المراح» هنا: وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ من كلام الله مع موسى، نزه الله تعالى نفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته؛ ليكون ذلك مقدمة في صحة رسالة موسى عليه السلام، وإعلاماً بأن ذلك الأمر مكونه رب العالمين، ولدفع ما قد يتوهمه بحسب الطبع البشري الجاري على العادة الخلقية من أن الله سبحانه المتكلم به في مكان، أو في جهة. ومن أن الكلام الذي يسمعه في ذلك المكان بحرف وصوت حادث ككلام

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) المراح.

(٤) المراغي.

الخلق، وقد علم موسى عليه السلام أن النداء من الله تعالى؛ لما دل على ذلك من أن النار كانت مشتعلة على شجرة خضراء لم تحترق. وقال السدي: هو من كلام موسى؛ لما سمع النداء قال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن سمات المحدثين.

وحاصل معنى الآية: أي[١] فلما وصل موسى إلى النور الذي ظنه ناراً.. نودي بأن بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، ومكانها هي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ ومن حولها هو من في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات، ومهبط الخيرات؛ لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه لنفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته، وإيذان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ﴾؛ أي[٢]: إن مكلمك ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: القوي القادر على ما يبعد من الأوهام، كقلب العصا حية، وأمر اليد الفاعل ما أفعله بحكمة بالغة، وتدبير تامّ، و﴿أَنَا﴾ خبر ﴿إن﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ عطف بيان له، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: صفتان لله ممهدتان؛ لما أراد الله أن يظهره على يد موسى عليه السلام من المعجزات.

قيل[٣]: معناه أن موسى قال: من المنادي؟ قال: إنه أنا الله. وقال أكثر المفسرين: إن الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، وجملة ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملة مفسرة للشأن. وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على ﴿بُورِكَ﴾، فكلاهما تفسير لـ﴿نُودِيَ﴾؛ أي: نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك.

فإن قلت: لم قال هنا: و﴿ألق﴾ بدون ذكر أن، وفي القصص بذكرها؟

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.

قلتُ: لأن ما هنا تقدمه فعل بعد ﴿أَنْ﴾، وهو ﴿بُورِكَ﴾ فحسن عطف الفعل عليه، وما هناك لم يتقدمه فعل بعد ﴿أَنْ﴾، فذكرت ﴿أَنْ﴾؛ لتكون جملة ﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فألقاها موسى من يده، فانقلبت حية تسعى، فلما رآها وأبصرها موسى حالة كونها تهتز وتضطرب وتتحرك بحركة شديدة، وتذهب إلى جانب، وحال كونها ﴿كَأَنَّهَا﴾؛ أي: كأن تلك العصا ﴿جان﴾؛ أي: حية صغيرة في سرعة الحركة وخفتها، فشبه الحية العظيمة المسماة بالثعبات بالجان في سرعة الحركة والالتواء، والجان[1] ضرب من الحيات؛ أي: حية كحلاء العين لا تؤذي كثيرة في الدور، كما في «القاموس».

قال أبو الليث: الصحيح أن الثعبان كان عند فرعون، والجان عند الطور، وقرأ الحسن[2] والزهري وعمرو بن عبيد: ﴿جأن﴾ بهمزة مكان الألف، كأنه فر من التقاء الساكنين.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾؛ أي: هرب موسى منها مدبراً؛ أي: رجع وأعرض عنها هارباً خوفاً منها. قال في «كشف الأسرار»: أي أدبر عنها، وجعلها خلف ظهره. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: ولم يرجع على عقبه، من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر، وإنما اعتراه الرعب؛ لظنّه أن ذلك الأمر أريد به هلاك نفسه، ويدل عليه قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: قال الله تعالى: يا موسى ﴿لَا تَخَفْ﴾ من الحية وضررها، أو لا تخف من غيري مطلقاً ثقة بي لقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾؛ أي: عندي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ في حالة الإيحاء والإرسال، لا في جميع الأوقات، بل حين يوحي إليهم في وقت الخطاب، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤون الله تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلاً. أما الخوف في غير هذه الحالة فلا يفارقهم، قال النبي عليه السلام: «أنا أخشاكم»، ولا يخاف من الملك العدل إلا ظالم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء متصل من ﴿المرسلين﴾؛ أي: إلا من ظلم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

نفسه من المرسلين بذنب صدر منه، كآدم ويونس وداود وموسى عليهم السلام، والتعبير فيهم بالظلم؛ لقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وموسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾؛ أي: توبة وندما. ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؛ أي: بعد عمل سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ للتائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مشفق عليهم بقبول توبتهم، وهذا تعريض لطيف بما وقع من موسى عليه السلام من وكزه القبطي. و[1] اختار النحاس هذا القول؛ أي: جعله استثناء متصلاً، وقال: علم من عصى منهم فاستثناه، فقال: إلا من ظلم، وإن كنت قد غفرت له كآدم وداود وموسى، ولا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول: «وددت أني شجرة تعضد».

وقيل: الاستثناء منقطع؛ أي: لكن من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء. وقيل: الاستثناء من محذوف، تقديره: أي: لا يخاف لدي المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل حسناً إلخ. قاله الفراء، ورده النحاس. والمعنى: على الانقطاع؛ أي: لكن[2] من ظلم من سائر العباد فإنه يخاف إلا إذا تاب فبدل بتوبته حسناً بعد سوء فإني أغفر له، وأمحو ذنوبه، وجميع آثارها، كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى. وفي هذا بشارة عظيمة لسائر البشر، فإن من عمل ذنباً ثم أقلع عنه وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

وقال أبو حيان: والأظهر[3] أن قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: استثناء منقطع؛ إذ الأنبياء معصومون من وقوع الظلم والواقع من غيرهم. وقال الأخفش وأبو عبيدة: ﴿إِلَّا﴾: حرف عطف بمعنى ﴿الواو﴾ في التشريك في اللفظ، والمعنى: والتقدير: ولا من ظلم، وهذا ليس بشيء؛ لأن معنى ﴿إِلَّا﴾ مباين لمعنى

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿الواو﴾ مباينة كثيرة؛ إذ ﴿الواو﴾ للإدخال؛ و﴿إلا﴾: للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر.

وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم[1]: ﴿ألا من ظلم﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام حرف استفتاح وتنبيه، و﴿من﴾ شرطية، وجوابها ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿حُسْنًۢا﴾ بضم الحاء وإسكان السين منوناً. وقرأ محمد بن عيسى الأصبهاني كذلك إلا أنه لم ينون، جعله فعلى فامتنع الصرف، وابن مقسم بضم الحاء والسين منوناً. وقرأ مجاهد وأبو حيوة وابن أبي ليلى والأعمش وأبو عمرو في رواية الجعفي وأبو زيد وعصمة وعبد الوارث وهارون وعياش بفتحهما منوناً.

قال شيخ الإسلام زكريا: قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإن قلت[2]: قال ذلك هنا، وقال في سورة القصص: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ بزيادة ﴿أَقْبِلْ﴾، فلم خالف بين الموضعين؟

قلتُ: لأن ما هنا بني عليه كلام يناسبه، وهو ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فناسبه الحذف، وما هناك لم يبن عليه شيء فناسبه زيادة ﴿أَقْبِلْ﴾ جبراً له، وليكون في مقابلة مدبراً؛ أي: أقبل آمناً غير مدبر ولا تخف.

وقال أيضاً: قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ...﴾ الآية، إن قلت: كيف وجه صحة الاستثناء فيه مع أن الأنبياء معصومون من المعاصي؟

قلتُ: الاستثناء منقطع؛ أي: لكن من ظلم من غير الأنبياء فإنه يخاف، فإن تاب وبدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم، أو متصل بحمل الظلم على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل، أو ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: ولا، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وإنما خص المرسلين بالذكر؛ لأن الكلام في قصة موسى وكان من المرسلين، وإلا فسائر الأنبياء كذلك وإن لم يكن بعضهم رسلاً.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمن.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾: معطوف على ﴿بُورِكَ﴾ أيضاً، والجيب مدخل الرأس من القميص المفتوح إلى الصدر؛ أي: وأدخل يدك في جيب مدرعتك، واجعلها تحت إبطك، ولم يقل[1]: في كمِّك؛ لأنه كان عليه مدرعة من صوف، لا كم لها ولا إزار، فكانت يده الكريمة مكشوفة، فأمر بإدخال يده في مدرعته، وهي جبة صغيرة يتدرع بها؛ أي: تلبس بدل الدرع، وهو القميص؛ أي: وأدخل يدك في جيبك وأخرجها.

﴿تَخْرُجْ﴾ يدك حالة كونها ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ أي: براقة لها شعاع كشعاع الشمس؛ أي: إن أدخلتها تخرج على هذه الصفة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ أي: من غير آفة وعلة ومرض، كبرص وبهق ونحوهما مما يبيض الجسم.

فإن قلت: لِمَ[2] أتى هنا بلفظ ﴿أدخل﴾، وفي القصص بلفظ ﴿اسلك﴾ فلم خالف بين الموضعين؟

قلتُ: أتى هنا بلفظ ﴿أدخل﴾ وهناك بلفظ ﴿اسلك﴾؛ لأن الإدخال أبلغ من السلوك؛ لأن ماضيه أكثر حروفاً من ماضي السلوك، فناسب ﴿أدخل﴾ كثرة الآيات في قوله: ﴿تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات﴾؛ أي: معها مرسلاً إلى فرعون، وناسب ﴿اسلك﴾ قلتها، وهي سلوك اليد وضم الجناح المعبر عنهما بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

وقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هاتان الآيتان المذكورتان؛ الأولى منهما تغيير ما في يده، وقلبها من جماد إلى حيوان، والثانية تغيير يده نفسها، وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية؛ أي[3]: هما داخلتان في جملة تسع آيات، فتكون الآيات تسعاً بالعصا واليد؛ وهن: العصا، واليد البيضاء، والجدب في البوادي، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والدم، والضفادع، حالة كونك مبعوثاً بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ اللعين ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمن.

(٣) روح البيان.

القبطيين، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ تعليل للبعث؛ أي: وإنما بعثناك إليهم بهذه الآيات التسع؛ لأن فرعون وقومه كانوا قوماً فاسقين؛ أي: خارجين عن الحدود في الكفران والعدوان؛ أي: خرجوا عما تقتضيه الفطرة ويوجبه العقل بادعاء فرعون الألوهية وتصديقهم له في ذلك.

والظاهر[1]: أن قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ألق﴾ و﴿أدخل﴾، وأن قوله: ﴿فِى تِسْعِ﴾ متعلق بمحذوف حال من مفعولهما؛ أي: ألق عصاك، وأدخل يدك حالة كون العصا واليد مع جملة الآيات التسع، فإن الآيات إحدى عشرة: العصا واليد، والفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم، وحالة كونك مرسلاً بها إلى فرعون وقومه القبط إنهم كانوا قوماً خارجين عن ربقة الانقياد لأمري والعبودية لألوهيتي.

فإن قلت: قال هنا[2]: بلفظ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾، وفي القصص بلفظ ﴿وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: الفرق بينهما أن الملأ أشراف القوم، ولم يوصفوا ثَمَّ بما وصف به القوم من قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ الآية، فناسب ذكر القوم هنا؛ ليعم هذا الوصف الكل، وذكر الملأ ثم.

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنا بعثناه إلى فرعون وقومه في تسع آيات، وأردت بيان حالهم حين جاءهم موسى بآياتنا.. فأقول لك: لما جاءهم موسى بآياتنا التسع، وظهرت على يده حالة كون تلك الآيات ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مستنيرة واضحة. وعبارة «الجمل»؛ أي: مضيئة إضاءة معنوية في كلها، وحسية أيضاً في بعضها؛ وهو اليد. اهـ. شيخنا.

---

(١) المراح. (٢) فتح الرحمن.

فقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسم فاعل[1] أطلق على المفعول إشعاراً بأنها لفرط إنارتها ووضوحها للأبصار كانت بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر. ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ الذي جئت به يا موسى من الخوارق التي تشاهدها ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح سحريته؛ أي[2]: فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعي أنكروها، وقالوا: هذا سحر وخيال لا حقيقة له، بين لائح في أنه خيال يدل على مهارة فاعله، وحذق صانعه.

وقرأ علي بن الحسين وقتادة مبصرة بفتح الميم والصاد؛ أي: مكاناً يكثر فيه البصر.

ثم بين أن هذا التكذيب إنما كان باللسان فحسب، لا بالقلب، فقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ أي: وكذبوا بتلك الآيات بألسنتهم، ولم يقروا أنها من عند الله سبحانه، والواو: في قوله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ للحال؛ أي: وقد أيقنتها أنفسهم، وعلمتها قلوبهم وضمائرهم علماً يقينياً أنها من عند الله وليست بسحر؛ أي: كذبوها بألسنتهم حالة كون أنفسهم مستيقنة لها. قال أبو الليث: وإنما استيقنتها قلوبهم؛ لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى، وسألوا منه بأن يكشف عنهم، فكشف عنهم، فظهر لهم بذلك أنها من الله تعالى.

وقوله: ﴿ظُلْمًا﴾ نفسانياً ﴿وَعُلُوًّا﴾؛ أي: استكباراً شيطانياً، علتان لـ﴿جحدوا﴾؛ أي: جحدوا بها ظلما لتلك الآيات؛ إذ حطوها عن مرتبتها العالية، وسموها سحراً وعلواً؛ أي: ترفعاً عن الإيمان بها، وهم يعلمون أنها من الله سبحانه، أو حالان من ﴿الواو﴾ في ﴿جحدوا﴾؛ أي: حالة كونهم ظالمين لتلك الآيات ومترفعين عن الإيمان بها.

وقرأ عبد الله وابن وثاب والأعمش وطلحة وأبان بن تغلب: ﴿وعلياً﴾ بقلب ﴿الواو﴾ ياء، وكسر العين واللام، وأصله فعول، لكنهم كسروا العين إتباعاً. وروي ضمها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة. والمعنى: أي وكذبوا بها

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

بألسنتهم، وأنكروا دلالتها على صدقه، وأنه رسول من ربه، لكنهم علموا في قرارة نفوسهم أنها حق من عنده، فخالفت ألسنتهم قلوبهم ظلماً للآيات، إذ خطوها عن مرتبتها العالية، وسموها سحراً ترفعاً عن الإيمان بها، كما قال في آية أخرى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾.

والخلاصة: أنهم تكبروا عن أن يؤمنوا بها، وهم يعلمون أنها من عند الله سبحانه وتعالى. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد وفكر ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة، أي فانظر أيها الرسول ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الذي فيه العبر للظالمين ومن إخراجهم من الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم.

وفي هذا تحذير للمكذبين بمحمد ﷺ الجاحدين لما جاء به من عند ربه أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك؛ لعلهم يقلعون عن عنادهم واستكبارهم حتى لا تنزل بهم القوارع، ويأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون، فمن قدر على إهلاك فرعون كان قادراً على إهلاك من هو على صفته، وذلك إلى يوم القيامة، فإن جلال الله سبحانه دائم للأعداء، كما أن جماله باق للأولياء، مستمر في كل عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره، ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة، ويصلح حاله بالعدل والتواضع، وغير ذلك مما هو من ملكات القلب.

قصة داود وسليمان عليهما السلام

ولما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود بن إيشا وقصة ابنه سليمان عليهما السلام، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبيان والتقرير لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ فقال: ﴿و﴾ عزتي وجلالي. ﴿لقد آتينا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ ابنه عليهما السلام ﴿عِلْمًا﴾؛ أي: طائفة عظيمة من العلم، فعلمنا داود صنعة الدروع ولبوس الحرب، وعلمنا سليمان منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال ونحو ذلك، مما لم نؤته أحداً ممن قبلهما، فشكرا الله سبحانه على ما أولاهما من منته ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا

من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لم يؤتهم مثل ما آتانا.

تنبيه: وعاش داود مئة سنة، وبينه وبين موسى خمس مئة وتسع وستون سنة. وعاش سليمان نيفاً وخمسين سنة، وبينه وبين محمد ألف وسبع مئة سنة. اهـ. شيخنا نقلاً عن «التحبير».

فائدة: قال في «مشكاة الأنوار»: قالت نملة لسليمان عليه السلام: يا نبي الله أتدري لم صار اسم أبيك داود، واسمك سليمان؟ قال: لا. قالت: لأن أباك داوى قلبه عن جراحة الالتفات إلى غير الله سبحانه فَوُدَّ، وأنت سليم تصغير سليم آن لك، أي: حان لك أن تلحق بأبيك، انتهى.

فائدة أخرى: وعلم[١] سبحانه وتعالى سبعة أنفار سبعة أشياء: علم آدم أسماء الأشياء، فكان سبباً في حصول السجود والتحية، وعلم الخضر علم الفراسة، فكان سبباً لوجدان موسى ويوشع تلميذاً له، وعلم يوسف التعبير، فكان سبباً لوجدان الأهل والمملكة، وعلم داود صنعة الدروع، فكان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة، وعلم سليمان منطق الطير فكان سبباً لوجدان بلقيس، وعلم عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فكان سبباً لزوال التهمة عن الشر، وعلم محمداً ﷺ الشرع والتوحيد، فكان سبباً لوجود الشفاعة.

وقال الزمخشري: قوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإن قلت: أليس[٢] هذا موضع الفاء دون ﴿الواو﴾، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟

قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم، وشيء من موجبه، فأضر ذلك، ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة، وقالا الحمد لله. والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً، أو من لم يؤت مثل علمهما، كذا قال أبو حيان. وقال غيره: والمفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما، لا من

---

(١) روح البيان. (٢) الكشاف.

لم يؤت علماً أصلاً، فإنه قد بين الكثير بالمؤمنين وخلوهم من العلم بالكلية مما لا يمكن، وفي تخصيصهما الكثير بالذكر رمز إلى أن البعض مُفَضَّلُون عليهما.

وقال الماوردي: المراد بقوله: ﴿عِلْمًا﴾ علم الكيمياء، وذلك لأنه من علوم الأنبياء والمرسلين والأولياء العارفين، والكيمياء في الحقيقة القناعة بالموجود، وترك التشوق إلى المفقود. وفي الآية إيماء[1] إلى فضل العلم وشرف أهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنحا شرفاً جليلاً حيث شكرا عليه، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا شيئاً دونه مما أوتياه من الملك العظيم.

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ وفيها تحريض للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله، وأن يتواضعوا، ويعتقدوا أن في عباد الله من يفضلهم فيه، وفوق كل ذي علم عليم، ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كل الناس أفقه من عمر.

وروي[2]: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال؟ فقال: «العلم بالله والفقه في دينه». وكررهما عليه، فقال يا رسول الله أسألك عن العمل؟ فتخبرني عن العلم، فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل من العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل». والمتعبد بغير علم كحمار الطاحونة، يدور ولا يقطع المسافة.

وهذا التفضيل سبب لمزيد الحمد والشكر لله تعالى، فإن الثناء بقدر الموهبة والعطية، نحمد الله تعالى على آلائه ونعمائه، ونستزيد العلم وقطراته من دَأْمَائِه، ونسأله التوفيق في طريق التحقيق، والثبات على العمل الصالح بالعلم النافع الذي هو للهوى قامع، وللشهوات دافع، إنه المتفضل المنعم الكبير والوهاب الفياض الرحيم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ﴾ بن داود أباه ﴿دَاوُدَ﴾ عليهما السلام؛ أي قام مقامه في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

النبوة والملك بعد موته، وسخرت له الريح والشياطين؛ أي: صار إليه العلم والنبوة والملك بعد موت أبيه دون سائر أولاده، فسمي ميراثاً تجوزاً؛ لأن حقيقة الميراث في المال، والأنبياء إنما يرثون الكمالات النفسانية، ولا قدر للمال عندهم. وقال قتادة والكلبي[1]: كان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً، فورث سليمان من بينهم نبوته، ولو كان المراد وراثة المال لم يَخُصَّ سليمانَ بالذكر؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء، وكذا قال جمهور المفسرين: فهذه الوراثة هي وراثة مجازية، كما في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

وقال قتادة في معنى الآية[2]: ورث نبوته وملكه وعلمه، وأعطي ما أعطي داود، وزيد له تسخير الريح والشياطين، وكان أعظم ملكاً منه، وأقضى منه، وكان داود أشد تعبداً من سليمان، شاكراً لنعم الله تعالى، اهـ.

ثم ذكر بعض نعم الله عليه، ﴿وَقَالَ﴾؛ أي: سليمان تشهيراً لنعمة الله تعالى عليه ودعاء للناس إلى الايمان إلى التصديق به بذكر المعجزات الباهرة التي أوتيها؛ أي: لا فخراً وتكبراً.

قال البقلي[3]: إن سليمان عليه السلام أخبر الخلق بما وهبه الله تعالى؛ لأن المتمكن إذا بلغ درجة التمكين يجوز له أن يخبر الخلق بما عنده من موهبة الله؛ لزيادة المؤمنين، وللحجة على المنكرين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾؛ أي قال سليمان متحدثاً بنعمة ربه ومنبها إلى ما شرفه به يكون أجدر ﴿يا أيها الناس علمنا﴾ (النون)[4] نون الواحد المطاع على عادة الملوك، فإنهم متكلمون مثل ذلك، رعاية لقاعدة السياسة، لا تكبراً وتجبراً. وكذا في ﴿أوتينا﴾ وقال بعضهم: ﴿عُلِّمْنَا﴾؛ أي: أنا وأبي، وهذا ينافي اختصاص سليمان بفهم منطق الطير على ما هو المشهور؛ أي: علمنا الله سبحانه وتعالى ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾؛ أي: صوت الطير؛ أي: قال سليمان مخاطباً للناس، تحدثاً بما أنعم الله به عليه،

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

وشكراً للنعمة التي خصه بها: يا أيها الناس إن ربي يسر لي فهم ما يريده الطائر إذا صوت، فأعطاني قوة أستطيع بها أن أتبين مقاصده التي يومىء إليها فضلاً منه ونعمة. والمعنى: علمنا فهم ما يقوله كل طائر إذا صوت.

وقدم منطق الطير[١]؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جنداً من جنوده يسير معه لتظليله من الشمس. وقال قتادة والشعبي: إنما علم منطق الطير خاصة، ولا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع كلامها وفهمه.

وسميت[٢] أصوات الطير منطقاً اعتباراً بسليمان الذي كان يفهمه، فمن فهم من شيء معنى.. فذلك الشيء بالنسبة إليه ناطق وإن كان صامتاً، وبالنسبة إلى من لا يفهم عنه صامت وإن كان ناطقاً.

وقد اجتهد[٣] كثير من الباحثين في العصر الحاضر فعرفوا كثيراً من لغات الطيور؛ أي: تنوع أصواتها لأداء أغراضها المختلفة، من حزن وفرح، وحاجة إلى طعام وشراب، واستغاثة من عدو إلى نحو ذلك من الأغراض القليلة التي جعلها الله سبحانه للطير.

وفي هذا معجزة لكتابه الكريم؛ لقوله في آخر السورة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾.

وإنك لتعجب إذ ترى اليوم أن كثيراً من الأمم تبحث في لغات الطيور والحيوان والحشرات، كالنمل والنحل، وتبحث في تنوع أصواتها لتنوع أغراضها، فكأنه تعالى يقول: إنكم لا تعرفون لغات الطيور الآن، وعلمتها سليمان، وسيأتي يوم ينتشر فيه علم أحوال مخلوقاتي، ويطلع الناس على عجائب صنعي فيها.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

﴿وَأُوتِينَا﴾؛ أي: أعطينا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما نحتاج إليه في تدبير الملك، ويعيننا في ديننا ودنيانا، كالعلم والحكمة، والنبوة والمال، وتسخير الجن والإنس، والطير والرياح، والوحوش والدواب، وكل ما بين السماء والأرض. وهذا أسلوب يراد به الكثرة من أي شيء، كما يقال: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه، وسيأتي في مقال الهدهد عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

فإن قلت: كيف[1] سوى بينه في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وبين بلقيس في قول الهدهد ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

قلتُ: الفرق بينهما أنها أوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا فقط؛ لعطف ذلك على تملكهم، وسليمان أوتي من كل شيء من أسباب الدين والدنيا؛ لعطف ذلك على المعجزة؛ وهي: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

قال مقاتل: كان سليمان عليه السلام جالساً إذ مر به طير يصوت، فقال لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر الذي مر بنا؟ قالوا: أنت أعلم. قال سليمان: إنه قال لي: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل، أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى فروخي، ثم أمر بك الثانية. وإنه سيرجع إلينا الثانية، فانظروا إلى رجوعه، قال: فنظر القوم إذ مر بهم، فقال: السلام عليك أيها الملك، إن شئت إيذن لي كيما أكتسب على فروخي حتى أشبعها ثم آتيك، فتفعل ما شئت، فأخبرهم سليمان بماقال، فأذن له.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور من التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الواضح الذي لا يخفى على أحد. وفي «الوسيط»: لهو الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا، قاله على سبيل الشكر والحمد، كما قال

---

(١) فتح الرحمن.

رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ أي: أقول هذا القول شكراً، لا فخراً.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: جمع له بقهر وإكراه بأيسر أمر ﴿جُنُودُهُۥ﴾ وعساكره ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ من مختلف النواحي؛ ليحارب بهم من لم يدخل في طاعته، وإنما[1] قال: ﴿جُنُودُهُۥ﴾؛ لاختلاف أجناس عساكره، فكل جنس من الخلق جند على حدة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالبعوض لنمرود جند، والأبابيل لأصحاب الفيل جند، والمعنى: أخرج لسليمان وجمع له عساكره في مسير وسفر كان له من الشام إلى طرف اليمن.

وفي «فتح الرحمن»: من إصطخر إلى اليمن، وإصطخر ـ بكسر الهمزة وفتح الخاء ـ بلدة من بلاد فارس كانت دار السلطنة لسليمان عليه السلام. من الجن والإنس والطير؛ أي: جمع له بمباشرة الرؤساء من كل جنس؛ لأنه كان إذا أراد سفراً أمر فجمع له طوائف من هؤلاء الجنود؛ ليجمعوا له أجناسهم، وقدم الجن للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه من أول أمر؛ لما أن الجن طائفة طاغية بعيدة من الحشر والتسخير ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يحبسون ويمنعون من الانتشار والتفرق، حتى يرد أولهم على آخرهم، من الوزع بمعنى الكف والمنع عن التفرق والانتشار. والوازع الذي يكف الجيش عن الانتشار، ويكف الرعية عن التظالم والفساد، وجمعه وزعة، والمعنى يحبس أوائلهم على أواخرهم ليتلاحقوا، ويجتمعوا ولا ينتشروا حتى ساقوا، كما هو حال الجيش الكثير، وكان لكل صنف من جنوده وزعة ومنعة ترد أولادهم على أخراهم صيانة من التفرق.

قال محمد بن القرظي[2]: كان مُعَسْكَرُ سليمان عليه السلام مئة فرسخ في مئة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من القوارير مصنوعة على الخشب، فيها ثلاث مئة منكوحة؛ يعني حرة، وسبع مئة سرية. وقد نسجت له

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب فيقعد عليه، وحوله ست مئة ألف كرسي من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر.

وفي «أبي السعود» قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يحبس أوائلهم على أواخرهم؛ أي: يوقف أوائل العسكر حتى يلحقهم الأواخر، فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر، وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير، وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق آخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً؛ لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وهذا كله إذا لم يكن سيرهم بتيسير الله الريح في الجو، اهـ.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابتدائية؛ لدخولها على الجملة، وغائية؛ لكونها غاية لمحذوف يدل عليه قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ تقديره: فساروا حتى ﴿إِذَآ أَتَوْا﴾؛ أي: ساروا مشاة على الأرض، وركباناً حتى إذا أتوا وأشرفوا ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ من فوق، وبلغوا آخره، ولعلهم أرادوا أن ينزلوا عند منتهى الوادي؛ إذ حينئذ يخافهم ما في الأرض لا عند مسيرهم في الهواء، كما في «الإرشاد»، ولعل هذه القصة قبل تسخير الله له الريح. والوادي مسيل الماء، والنمل معروف، الواحدة نملة.

ومعنى واد النمل[1]: وادٍ يكثر فيه النمل، كما يقال: بلاد الثلج لبلد يكثر فيه الثلج، والمراد هنا: واد بالشام أو بالطائف كثير النمل، والمشهور أنه النمل الصغير. وقيل: كان نمل ذلك المكان كالذئاب والبخاتي، ولذا قال بعضهم: ﴿في وادي النمل﴾: هو واد يسكنه الجن والنمل مراكبهم، ووقف القراء[2] جميعهم على ﴿وَادِ﴾ بدون ياء إتباعاً للرسم، حيث لم يكن الحذف عندهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) زاد المسير.

للالتقاء الساكنين، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ إلا الكسائي، فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل.

والمعنى: فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض، حتى إذا أتوا على وادِ النمل، وقطعوه، وبلغوا آخره، وأرادوا النزول. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ من نمال الوادي؛ وهي ملكة النملة، وكانت عرجاء ذات جناحين في عظم الديك، أو النعجة، أو الذئب، واسمها منذرة أو طاخية، أو جرمى، سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الإنجيل، أو في بعض الصحف الإلهية، سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان، وخصت بالتسمية لنطقها، وإلا فكيف يتصور أن يكون للنملة اسم علم، والنمل لا يسمي بعضهم بعضاً، ولا يتميز للآدميين صورة بعضهم من بعض حتى يسمونهم، ولا هم واقعون تحت ملك بني آدم كالخيل والكلاب ونحوهما، كما في كتاب التعريف والأعلام للسهيلي رحمه الله، وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة.

أي: قالت قولاً مشتملاً على حروف وأصوات على وجه النصيحة، وهو جواب ﴿إِذَآ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾؛ أي: حجركم ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لا يكسرنكم من الحطم؛ وهو الكسر. ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يحطمنكم، ولا يعلمون بمكانكم، والجملة الاسمية حال من فاعل ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: والحال[1] أنهم لا يشعرون أنهم يحطمونكم؛ إذ لو شعروا لم يفعلوا؛ أي: إن من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بأن لا يشعروا، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والأذى إلا على سبيل السهو.

وجعل خطاب النمل كخطاب العقلاء؛ لفهمها لذلك الخطاب، وجملة ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ نهي لهم عن الحطم، والمراد: نهيها عن التوقف والتأخر في دخول مساكنهم بحيث يحطمونها، قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال،

---

(١) روح البيان.

وكان لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح حتى تلقيه إلى مسامع سليمان.

وقرأ الحسن[1] وطلحة بن مصرف ومعتمر بن سليمان وأبو سليمان التيمي وأبو مجلز وأبو رجاء وعاصم الجحدري: ﴿نمُلة﴾ ـ بضم الميم ـ على وزن سمرة، وعن سليمان التيمي ﴿نُمُلة﴾ ونمل بضم النون والميم فيهما، وقرأ شهر بن حوشب وأبي بن كعب وأبو المتوكل وعاصم الجحدري ﴿مسكنكم﴾ على الإفراد، وعن أبي ﴿ادخلن مساكنكن لا يحطمنكم﴾ مخففة النون التي قبل الكاف.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى بن عُمر الهمداني الكوفي ونوح القاضي: ﴿لا يُحطمنكم﴾ بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون، مضارع حطم المضعف. وقرأ[2] أبي بن كعب وأبو رجاء: ﴿ليحطمنكم﴾ بغير ألف بعد اللام. وقرأ ابن مسعود ﴿لا يَحْطمكم﴾ بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وسكون الميم وحذف النون.

وقرأ عمرو بن العاص وأبان ﴿يَحْطِمَنْكم﴾ بفتح الياء وسكون الحاء والنون ساكنة أيضاً والطاء خفيفة. وقرأ أبو المتوكل وأبو مجلز: ﴿لا يحطمنكم﴾: بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون جميعاً، أصله لا يحتطمنكم من الاحتطام. وقرأ ابن السميقع وابن يعمر وعاصم الجحدري: ﴿يحطمنكم﴾ بضم الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وتشديد النون من الإحطام.

وفي «القرطبي»[3]: قال الثعلبي: كان للنملة جناحان، فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها، ولولا ذلك لما علمه. قال أبو إسحق الثعلبي: ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل، أخفت من ظلمي أم علمت أني نبي عدل، فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده؟ فقالت النملة: أما سمعت قولي وهم لا يشعرون، مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) القرطبي.

خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت ويفتتن بالدنيا، ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر، فلما تكلمت مع سليمان مضت مسرعة إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيء نهديه إلى نبي الله؟ قالوا: وما قدر ما نهدي له، والله ما عندنا إلا نبقة واحدة. قالت: حسنة ائتوني بها، فأتوها بها، فحملتها بفيها، وانطلقت تجرها، وأمر الله الريح فحملتها وأقبلت تشق الجن والإنس والأنبياء والعلماء على البساط حتى وقفت بين يديه، فوضعت تلك النبقة من فيها في فيه، وأنشأت تقول:

أَلَـمْ تَـرَنَـا نَـهْـدِيْ إِلَـىٰ ٱلـلَّـهِ مَـالَـهُ ... وَإِنْ كَـانَ عَـنْـهُ ذَا غِـنَـىً فَـهْـوَ قَـابِـلُـهْ
وَلَـوْ كَـانَ يُـهْـدَىٰ لِـلْـجَـلِـيْـلِ بِـقَـدْرِهِ ... لأَقْـصَـرَ عَـنْـهُ ٱلْـبَـحْـرُ يَـوْمـاً وَسَـاحِـلُـهْ
وَلَـكِـنَّـنَـا نَـهْـدِيْ إِلَـىٰ مَـنْ نُـحِـبُّـهُ ... فَـيَـرْضَـىٰ بِـهَـا عَـنَّـا وَيُـشْـكَـرُ فَـاعِـلُـهْ
وَمَـا ذَاكَ إِلاَّ مِـنْ كَـرِيْـمِ فِـعَـالِـهِ ... وإِلاَّ فَـمَـا فِـيْ مُـلْـكِـنَـا مَـا يُـشَـاكِـلُـهْ

فقال لها: بارك الله فيكم، فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله، وأكثر خلق الله، والنمل حيوان معروف، شديد الإحساس والشم، حتى أنه يشم الشيء من بعيد، ويدخر قوته، ومن شدة إدراكه أنه يفلق الحبة فلقتين خوفاً من الإنبات، ويفلق حبة الكزبرة أربع فلق؛ لأنها إذا فلقت فلقتين نبتت، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي باقيه عدة. اهـ.

وهذه النملة التي تكلمت مع سليمان مؤنثة حقيقة بدليل لحاق علامة التأنيث لفعلها؛ لأن نملة تطلق على الذكر والأنثى، فإذا أريد تمييز ذلك.. قيل: نملة ذكر، ونملة أنثى، نحو حمامة ويمامة.

وحكى الزمخشري عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنه وقف على قتادة، وهو يقول: سلوني، فأمر أبو حنيفة شخصاً أن يسأل قتادة عن نملة سليمان، هل كانت ذكراً أو أنثى؟ فلم يجب قتادة، فقيل لأبي حنيفة في ذلك، فقال: كانت أنثى، واستدل على ذلك بلحاق علامة التأنيث بالفعل المسند إليه. اهـ. ورده بعضهم؛ لأنه يصح أن يقال في الذكر: قالت نملة على إرادة الواحدة.

وقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ﴿ضَاحِكًا﴾؛ أي: شارعاً في الضحك متعجباً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ كلام مفرع[1] على محذوف تقديره: فسمع قولها المذكور، فتبسم. وكل[2] من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح في الفم، لكن الأول انفتاح بلا صوت أصلاً، والثاني انفتاح مع صوت خفيف، والثالث انفتاح مع صوت قوي، اهـ عن «شرح على المواهب» يعني: أنه بالغ في تبسمه حتى بلغ نهايته التي هي أول مراتب الضحك، فهو حال مقدرة، أو مؤكدة على معنى: تبسم متعجباً من حذرها وتحذيرها، واهتدائها إلى مصالحها ومصالح بني نوعها، فإن ضحك الأنبياء التبسم، والإنسان إذا رأى أو سمع ما لا عهد له به يتعجب ويتبسم.

قال بعضهم: ضحك سليمان كان ظاهره تعجباً من قول النملة، وباطنه فرحاً بما أعطاه الله سبحانه من فهم كلام النملة، وسروراً بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات، فإنه لا يسر نبي بأمر الدنيا وإنما كان يسر بما كان من أمر الدين. وقرأ ابن السمقيع: ﴿ضحكا﴾ جعله مصدراً؛ لأن تبسم بمعنى ضحك، فانتصابه على المصدرية، أو على أنه مصدر في موضع الحال كقراءة ﴿ضَاحِكًا﴾.

﴿وَقَالَ﴾ سليمان ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ أي: ألهمني، وفقني. وقرأ البزي وورش بفتح ياء ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾ من النبوة والملك والعلم والعدل وفهم كلام الطير ونحوها. ﴿وَ﴾ أنعمت بها ﴿على والدي﴾؛ أي: والدي ووالدتي، وأدرج فيه[3] ذكر والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما، لاسيما الدينية. اهـ «بيضاوي».

قال أهل الكتاب[4]: وأمه هي زوجة أوريا بوزن قوتلا التي امتحن الله سبحانه بها داود.

أي[5]: وأنعمت بها على والدي داود بن إيشا بالنبوة، وتسبيح الجبال

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.
(٤) القرطبي.
(٥) روح البيان.

والطير معه وصنعة اللبوس، وإلانة الحديد وغيرها، وعلى والدتي بتشايع بنت اليائن، كانت امرأة أوريا التي امتحن بها داود؛ وهي امرأة مسلمة زاكية طاهرة، وهي التي قالت له: يا بني لا تكثرن النوم بالليل، فإنه يدع الرجل فقيراً يوم القيامة، كذا في «كشف الأسرار».

قال ابن قتيبة(١): معنى ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾: ألهمني، وأصل الإيزاع: الإغراء بالشيء، يقال: أوزعته بكذا؛ أي: أغريته به، وهو موزع بكذا، مولع بكذا. وقال الزجاج: تأويله في اللغة: كفني عن الأشياء، إلا عن شكر نعمتك. والمعنى: كفني عما يباعدني منك.

﴿و﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: مخلصاً لوجهك ﴿تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: تقبله مني قيد العمل الصالح بذلك؛ لأن العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص في العامل، كما قيل:

إِذَا كَانَ ٱلْمُحِبُّ قَلِيلَ حَظٍّ فَمَا حَسَنَاتُهُ إِلاَّ ذُنُوبُ

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ﴾ وفضلك ﴿فِى﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين، كما قاله ابن عباس؛ لأن الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى، ولا يهم بمعصية؛ أي: أثبت اسمي في أسمائهم، واحشرني في زمرتهم. وقيل: أدخلني الجنة برحمتك؛ لأنه لا يدخل الجنة أحد إلا بالرحمة والفضل، لا بالعمل مع عبادك الصالحين؛ أي: الكاملين في الصلاح. قال المفسرون: إنما شكر الله عز وجل؛ لأن الريح أبلغت إليه صوتها ففهم ذلك.

فإن قيل(٢): درجات الأنبياء أفضل من درجات الصالحين، فما السبب في أن الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين، وقد تمنى يوسف عليه السلام ذلك بقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟

---

(١) زاد المسير. (٢) الفتوحات.

أجيب: بأن الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله سبحانه، ولا يفعل معصية، ولا يهم بها، وهذه درجة عالية. اهـ «خطيب».

وإصلاح الله تعالى[١] الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من الفساد، والأول أعز وأندر.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ والتفقد: تطلب ما غاب عنك، وتعرف أحواله. والطير: اسم جنس لكل ما يطير، وكانت تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها؛ أي: تعرف سليمان أحوال الطير، وبحث عنها ـ فلم ير الهدهد فيما بينها، أي[٢]: نزل سليمان منزلاً، واحتاج إلى الماء، فطلبوه فلم يجدوه، فطلب الهدهد ليدل على الماء؛ لأنه يعرف موضع الماء قربه وبعده، فينقر الأرض ثم تجيء الشياطين فيحفرونها ويستخرجون الماء في ساعة يسيرة. ﴿فَقَالَ﴾ سليمان ﴿مَا لِيَ﴾؛ أي: أي شيء ثبت لي حال كوني ﴿لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ وكان رئيس الهداهد، واسمه يعفور، وقيل: عنبر، كما أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن؛ أي: ما لي لا أراه، هل ذلك لساتر ستره عني، أو لشيء آخر؛ ثم ظهر له أنه غائب، فقال: ﴿أَمْ كَانَ﴾؛ أي الهدهد ﴿مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: من الذين غابوا عني، و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر ببل وبالهمزة. أي[٣]: بل أكان من الغائبين، كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر، ولا يراه لساتر أو غيره، فقال: ما لي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائب، فأضرب عن ذلك، وأخذ يقول: أهو غائب، كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

والصحيح[٤]: أن ﴿أَمْ﴾ في هذا الموضع هي المنقطعة؛ لأن شرط المتصلة تقدم همزة الاستفهام، فلو تقدمها أداة الاستفهام غير الهمزة كانت أم منقطعة، وهنا تقدم عليها ﴿ما﴾ ففات شرط المتصلة.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) البيضاوي.

(٤) البحر المحيط الشوكاني وزاد المسير.

(٥) البحر المحيط الشوكاني وزاد المسير.

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب هنا وفي يس[1]: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بفتح الياء، وقرأ حمزة ويعقوب والبزار بإسكانها في الموضعين، وقرأ الباقون بفتح التي في «يس» وإسكان التي هنا. قال أبو عمرو: لأن هذه التي هنا استفهام، والتي في «يس» نفي، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان.

وخلاصة ذلك: أغاب عني الهدهد الآن، فلم أره حين تفقدته، أم كان قد غاب من قبل ولم أشعر بغيبته.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الواجب على الملوك التيقظ في مملكتهم وحسن قيامهم وتكفلهم بأمور رعاياهم، وتفقد أصغر رعيتهم، كما يتفقدون أكبرها بحيث لم يخف عليهم غيبة الأصاغر والأكابر منهم، كما أن سليمان تفقد حال أصغر طير من الطيور، ولم يخف عليه غيبته ساعة، ثم غاية شفقته على الرعية أحال النقص والتقصير إلى نفسه، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ وما قال: ما للهدهد لم أره؛ لرعاية مصالح الرعية، وتأديبهم، قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ يعني: من الذين غابوا عني بلا إذني.

روي: أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس.. تجهز للحج، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، وكان ينحر في كل يوم طول مقامه فيه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً، فوافى صنعاء وقت الزوال، فرأى أرضاً حسناء أعجبته خضرتها، فنزل بها ليتغذى ويصلي، فلم يجد الماء، فتفقد الهدهد، وكان حين اشتغل سليمان بالنزول ارتفع نحو السماء، فنزل إلى بستان بلقيس، فإذا هو بهدهد آخر، وكان اسم هدهد سليمان يعفور، وهدهد اليمن عفير، فقال: عفير ليعفور: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الإنس والجن والشياطين، والطير والوحش والرياح، قال يعفور: ومن ملك هذه البلاد؟ قال عفير: امرأة يقال لها: بلقيس، وإن ـ لصاحبك ملكاً عظيماً، ولكن ليس ملك بلقيس دونه،

فإنها تملك اليمن، وتحت يدها أربع مئة ملك، كل ملك على كورة، مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل، ولها ثلاث مئة وزير يدبرون ملكها، ولها اثنا عشر ألف قائد، مع كل قائد مئة ألف مقاتل، وذهب معه لينظر إلى بلقيس وملكها، فما رجع يعفور إلا بعد العصر، فلما دخل العصر سأل سليمان الإنس والجن والشياطين عن الماء، فلم يعلموا، فتفقد الهدهد فلم يره فدعا عريف الطير؛ وهو النسر، فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو، وما أرسلته إلى مكان! فغضب سيلمان عند ذلك، وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾؛ أي: والله لأعذبن الهدهد بسبب غيبته فيما لم آذن فيه، ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: عذاباً موجعاً بنتف ريشه وإلقائه في الشمس، أو حيث النمل تأكله، أو جعله مع ضده في قفص، فهذا عذاب الطير، ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ بالسكين، ليعتبر به أبناء جنسه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ الهدهد ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة تبين عذره، فلا أذبح ولا أعذب، يشير[1] إلى أن حفظ المملكة يكون بكمال السياسة، وكمال العدل، فلا يتجاوز عن جرم المجرمين، ويقبل منهم العذر الواضح بعد البحث عنه، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين على عدم الثالث، فكلمة ﴿أَوْ﴾ بين الأولين للتخيير، وفي الثالث للترديد بينه وبينهما.

وفيه[2]: دليل على الإغلاظ على العاصين وعقابهم، وبدأ أولاً بأخف العقابين؛ وهو التعذيب، ثم أتبعه بالأشد؛ وهو إذهاب المهجة بالذبح، وأقسم على هذين؛ لأنهما من فعله، وأقسم على الإتيان بالسلطان وليس من فعله لما نظم الثلاثة في الحكم بـ﴿أَوْ﴾، كأنه قال: ليكونن أحد الثلاثة.

ثم دعا العقاب[3]؛ وهو أشد الطير طيراناً، فقال له: عليَّ بالهدهد الساعة، فارتفع العقاب في الهواء، فالتفت يميناً وشمالاً، فرأى الهدهد من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه، يريده، وعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء، فقال: بحق الله الذي قواك، وأقدرك علي، وإلا ما رحمتني، ولم تتعرض لي بسوء، فتركه

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

العقاب، وقال له: ويلك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك، أو يذبحك، فطارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهى إلى العسكر تلقاه النسر والطير، فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا؟ فلقد توعدك نبي الله، وأخبروه بما قال سليمان، فقال الهدهد: أو ما استثنى نبي الله؟ فقالوا: بلى إنه قال: أو ليأتيني بلسطان مبين، فقال: نجوت إذاً، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان، وكان قاعداً على كرسيه، فقال: العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله.

قرأ[١] ابن كثير وحده بنون التوكيد المشددة بعدها نون الوقاية. وقرأ الباقون بنون مشددة فقط؛ وهي نون التوكيد. وقرأ عيسى بن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء. وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بنون مشددة بعدها ياء المتكلم.

قال شيخ الإسلام[٢]: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ توعد به سليمان الهدهد مع أنه غير مكلف بياناً لكونه خص بذلك، كما خص بعلم منطقه. اهـ.

﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان إياه مكثاً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: غير طويل، أو مكث زماناً غير مديد، يشير إلى أن الغيبة، وإن كانت موجبة للعذاب الشديد؛ وهو الحرمان من سعادة الحضور ومنافعه، ولكنه من أمارات السعادة سرعة الرجوع، وتدارك الفائت.

قرأ الجمهور: ﴿فمكث﴾: بضم الكاف. وقرأ عاصم وحده بفتحها، ومعناه على القراءتين: أقام زماناً غير طويل. قال سيبويه: مكث مكوثاً من باب قعد قعوداً. وقيل: إن الضمير في مكث لسليمان. والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والتوعد زماناً غير طويل، والأول أولى.

وقرأ ابن مسعود: ﴿فتمكث﴾: بزيادة تاء من باب تفعل. ﴿فَقَالَ﴾ معطوف على محذوف تقديره: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء فعوتب على مغيبه، فقال معتذراً عن ذلك: ﴿أَحَطتُ﴾ علماً ومعرفة ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ علماً ومعرفة؛ أي:

---

(١) الشوكاني.   (٢) فتح الرحمن.

علمت من الأمر ما لم تعلمه، ويجوز[١] إدغام التاء في الطاء، فقال: ﴿أحط﴾، وإدغام الطاء في التاء، فيقال: أحت.

وقيل: هنا محذوفات تقديرها[٢]: فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه، وقال له: أين كنت؟ لأعذبنك عذاباً شديداً، فقال: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد، وعفا عنه، ثم سأله، فقال: ما الذي أبطأك عني؟ فقال الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ أي: علمت ما لم تعلم أيها الملك، وبلغت إلى ما لم تبلغ.

وذلك[٣] لأنه كان مما لم يشاهده سليمان، ولم يسمع خبره من الجن والإنس يشار إلى سعة كرم الله تعالى ورحمته بأن يختص طائراً بعلم ما لم يعلمه نبي مرسل، وهذا لا يقدح في حال النبي ﷺ والرسول بأن لا يعلم علماً غير نافع في النبوة.

والحاصل: أن الذي أحاط به الهدهد كان من الأمور المحسوسة التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، ولا الغفلة عنها نقيصة؛ لعدم توقف إدراكها إلا على مجرد إحساس يستوي فيه العقلاء وغيرهم. وفي «القرطبي»: فإن قلت: كيف يخفى على سليمان مكانها، وكانت المسافة بينهما قريبة؛ وهو مسيرة ثلاث مراحل بين صنعاء ومأرب؟ فالجواب أن الله عز وجل أخفى ذلك عنه لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب. اهـ.

وفي «الأسئلة المقحمة»: هذا سوء أدب في المخاطبة، فكيف واجهه بمثله، وقد احتمله وعفاه؟ والجواب أنه لا بأس به؛ لأنه عقبه بفائدة، والخشونة المصاحبة بفائدة قد يحتملها الأكابر، انتهى.

ثم أشار إلى أنه بصدد إقامة خدمة مهمة له، كما قال: ﴿وَجِئْتُكَ﴾ أيها

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

الملك ﴿مِن﴾ مدينة ﴿سَبَإٍ﴾ وهي مدينة من اليمن تعرف بمأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وعلى هذا فسبأ غير منصرف للعلمية والتأنيث المعنوي. وقيل: اسم لحي باليمن، سموا باسم أبيهم الأكبر، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام. قالوا: اسمه عبد الشمس، لقب به لكونه أول من سبى، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، وعلى هذا فسبأ مصروف.

﴿بِنَبَإٍ﴾؛ أي: بخبر خطير ﴿يَقِينٍ﴾؛ أي: صادق محقق لا شك فيه، يشير إلى أن شرط المخبر أن لا يخبر عن شيء إلا أن يكون متيقناً فيه لا سيما عند الملوك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِن سَبَإٍ﴾ - بكسر الهمزة مصروفاً هنا -، وفي قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ على جعله اسماً لحي، أو الموضع، أو للأب، كما في حديث فروة بن مسيك وغيره عن رسول الله ﷺ، أنه اسم رجل ولد عشرة من الأولاد، تيامن ستة منهم، وتشاءم أربعة، والستة الذين تيامنوا: حمير، وكندة، والأزد، وأشعر، وخشعم، وبجيلة، والأربعة الذي تشاءموا: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة غير مصروف فيهما. وقرأ قنبل من طريق النبال بإسكانها فيهما. وقرأت[2] فرقة: ﴿بنبأ﴾: بألف عوض الهمزة، وكأنها قراءة من قرأ: ﴿لسبا﴾ بالألف لتوازن الكلمتين، كما توازنتا في قراءة من قرأهما بالهمزة المكسور والتنوين.

وقرأ الأعمش: ﴿من سبأ﴾ بكسر الهمزة من غير تنوين، حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية. ويبعد توجيهها، وقرأ ابن كثير في رواية: ﴿من سبًا﴾ بتنوين الباء على وزن رحى، جعله مقصوراً مصروفاً. وذكر أبو معاوية أنه قرأ: ﴿من سبْأ﴾ بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة، بناء على فعلى، فامتنع الصرف للتأنيث اللازم. وروى ابن حبيب عن اليزيدي ﴿من سبأ﴾ بألف ساكنة، كقولهم:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

تفرقوا أيدي سبأ.

قال الزمخشري[1]: ألهم الله سبحانه الهدهد، فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة، والعلوم الجمة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به سليمان لتتحاقر إليه نفسه، ويصغر إليه علمه، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة، اهـ.

ولما أبهم الهدهد أولاً، ثم أبهم ثانياً دون ذلك الإبهام.. صرح بما كان أبهمه، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ﴾ ورأيت ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ أي: تملك أهل سبأ، وهذه الجملة كالبيان والتفسير للجملة التي قبلها؛ أي: ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء.

وإيثار ﴿وَجَدتُّ﴾ على رأيت؛ لأنه أراه عليه السلام كونه عند غيبته بصدد خدمته بإبراز نفسه في معرض من يتفقد أحوال تلك المرأة، كأنها ضالة ليعرضها على سليمان، والضمير في ﴿تملكهم﴾ لسبأ على أنه اسم للحي، أو لأهل المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها، يعني أنها تملك الولاية والتصرف عليهم ولم يرد به ملك الرقبة، والمراد بها بلقيس بنت شرحبيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وورث الملك من أربعين أباً، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على الملك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها يعبدون النار، وكان أبوها يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها: قارعة، أو ريحانة بنت السكن، فولدت بلقيس، وتسمى بلقة، وبلقيس ـ بالكسر ـ، كما في «القاموس». وذلك يدل على إمكان العلوق بين الإنسي والجني، كما قيل. وذلك لأن الجن وإن كانوا من النار، لكنهم ليسوا بباقين على عنصرهم الناري، كالإنس ليسوا بباقين على عنصرهم الترابي، فيمكن أن يحصل الازدواج

---

(١) الكشاف.

بينهما على ما حقق في «آكام المرجان» قيل في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم أنه كان كثير الصيد، فربما اصطاد من الجن وهم على صورة الظباء فيخليْ عنهم، فظهر له ملك الجن، وشكره على ذلك، اتخذه صديقاً فخطب ابنته فزوجه إياها، اهـ «خازن».

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك، من الخيل وعتاد الحرب والسلاح، والسياسية، والهيبة، والمال، والنعيم ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾؛ أي: سرير ﴿عَظِيمٌ﴾؛ أي: كبير؛ أي: بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها من الملوك. ووصفه[1] بالعظم؛ لأنه كما قيل كان طولها ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وطوله في الهواء ثمانين ذراعاً، مقدمه من ذهب مفصص بالياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلل بأنواع الجواهر، له أربع قوائم قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من زبرجد، وقائمة من در، وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعة أبيات لكل بيت باب مغلق، وكان عليه من الفرش ما يليق به.

والحاصل: أنه[2] بين في هذه الآية شؤونهم الدنيوية، وذكر منها ثلاثة أمور:

١. أن ملكتهم امرأة؛ وهي بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها من قبلهم ملكاً جليل القدر، واسع الملك.

٢. أنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك، وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح، وآلات القتال الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى.

٣. أن لها سريراً عظيماً تجلس عليه، مرصعاً بالذهب وأنواع اللآلىء والجواهر، في قصر كبير رفيع الشأن، وفي هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته، ورفعة شأنه بين الممالك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وبعد أن بين شؤونهم الدنيوية ذكر معتقداتهم الدينية، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا﴾؛ أي: وجدت تلك المرأة ﴿وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ لا لرب العرش وخالق الكون المحيط بكل شيء علماً. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: متجاوزين عبادة الله تعالى، قيل: كانوا مجوساً.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: حسن لهم ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ القبيحة التي هي عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ﴾؛ أي: صدهم الشيطان بسبب ذلك التزين ومنعهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق الحق والصواب، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: تلك المرأة وقومها بسبب صد الشيطان إياهم ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى ذلك السبيل.

والمعنى: أي لقيتها وقومها في ضلال مبين، فهم يعبدون الشمس لا رب الشمس وخالق الكون، وزين لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، فظنوا حسناً ما ليس بالحسن، وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسل؛ وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾: مفعول له للصد على حذف اللام منه؛ أي: فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله، وهو ذم لهم على ترك السجود، فلذا وجب السجود عند تمام هذه الآيات.

قرأ الجمهور: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد[1]، خرجت على أن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ في موضع نصب على أن يكون بدلاً من قوله: ﴿أَعْمَـٰلَهُمْ﴾؛ أي: فزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، وما بين المبدل منه والبدل معترض، أو في موضع جر على أن يكون بدلاً من ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: فصدهم عن أن لا يسجدوا، وعلى هذا التخريج تكون ﴿لا﴾ زائدة؛ أي: فصدهم عن أن يسجدوا لله، فيكون قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ معترضاً بين المبدل منه والبدل، ويحتمل أن يكون على تقدير اللام على أنه مفعول به لـ﴿زين﴾، أو ﴿صدهم﴾؛ أي: زين لهم أعمالهم لئلا

(١) البحر المحيط.

يسجدوا لله، أو صدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله. وقيل: العامل في قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ ﴿يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون ﴿لا﴾ على هذا زائدة، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾.

وعلى قراءة الجمهور ـ أعني التشديد ـ ليست هذه الآية موضع سجدة؛ لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود؛ إما بالتزيين، أو بالصد، أو بمنع الاهتداء، وقد رجح كونه علة للصد الزجاج. ورجح الفراء كونه علة لـ﴿زين﴾. قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذفت اللام.

وقرأ ابن عباس[1] وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن والزهري وقتادة وأبو العالية وحميد الأعرج والأعمش وابن أبي عبلة والكسائي ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ بتخفيف ﴿أَلَّا﴾ على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا فتكون ﴿أَلَّا﴾ على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح، وما بعدها حرف نداء، والمنادى محذوف، واكتفى منه بـ﴿يا﴾، و﴿اسجدوا﴾ فعل أمر، ويكون الوقف على قوله: ﴿ألا يا﴾ والابتداء بـ﴿اسجدوا﴾. وكان[2] حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ﴿ألا يا اسجدوا﴾، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا، وهمزة الوصل من ﴿اسجدوا﴾ خطاً، ووصلوا الياء بسين ﴿اسجدوا﴾ فصارت صورة الخط هكذا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ والمنادى محذوف، تقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا. وقد حذفت[3] العرب المنادى كثيراً من كلامها. ومنه قول الشاعر:

أَلاَ يَا ٱسْلَمِيْ يَا دَارَمَيَّ عَلَىٰ ٱلْبِلَىٰ ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ ٱلْقَطْرُ

وقول الآخر:

يَا ٱسْلَمِيْ يَا هِنْدُ هِنْدَ بَنِيْ بَدْرِ ... وَإِن كَانَ جَبَانَاً عِدَا آخِرُ ٱلدَّهْرِ

وقول الآخر:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

فَقَالَتْ أَلاَ يَا ٱسْمَعْ أَعِظْكَ بِخُطْبَةٍ   فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَٱنْطُقِيْ وَأَصِيْبِيْ

وسُمع بعض العرب يقول: ألا يا ارحمونا ألا تَصَدَّقوا علينا. وقال[1] أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف، يعني: ألا يا أيها الناس اسجدوا، وعلى هذه القراءة أعني قراءة التخفيف تكون الآية آية سجدة. قال الزجاج: ولقراءة التخفيف وجه حسن، إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم. قال النحاس: وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ معترضة[2] من كلام الهدهد، أو من كلام سليمان، أو من كلام الله سبحانه. والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً، لا انقطاع في وسطه. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿هلا تسجدوا﴾ بالفوقية وبالهاء. وفي قراءة أبي ﴿ألا تسجدوا﴾: بالفوقية أيضاً. وعن عبد الله: ﴿هلا تسجدون﴾. وعن أبي ﴿ألا تسجدون﴾.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: من أين للهدهد الهدي إلى معرفة الله ووجوب السجود له، وإنكار السجود للشمس، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟

قلتُ: لا يبعد أن يلهمه الله سبحانه، كما ألهم غيره من الطيور، وسائر الحيوانات والمعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء يهتدون لها. ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب «الحيوان» خصوصاً في زمان نبي سخرت له الطيور، وعلم منطقها، وجعل ذلك معجزة له، انتهى.

وقال الزمخشري أيضاً: فإن قلت أَسَجْدَةُ التلاوة واجبة في قراءتي التشديد والتخفيف جميعاً، أو في واحدة منهما؟

قلتُ: هي واجبة فيهما، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك. وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه. انتهى.

---

(١) زاد المسير.

(٢) الشوكاني.

(٣) الكشاف.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة، أو بدل منه، أو عطف بيان له؛ أي: للإله الذي ﴿يُخْرِجُ﴾؛ أي: يظهر ﴿ٱلْخَبْءَ﴾؛ أي: الشيء المدخر المستور ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[1]: يظهر للناس ما كان مخبؤاً ومخفياً ومستوراً فيهما كائناً ما كان، كالثلج والمطر في السموات والنبات، والماء في الأرض. وقيل: خبء الأرض كنوزها ونباتها، والمعنى: يعلم الغيب في السموات والأرض. وقال ابن جرير: ﴿فِى﴾ بمعنى من، فتقديره: يخرج الخبء من السموات والأرض.

وقرأ أبي وعيسى بن عمر[2]: ﴿الخب﴾: بنقل حركة الهمزة إلى الباء، وحذف الهمزة تخفيفاً. وقرأ عبد الله بن مسعود وعكرمة ومالك بن دينار: ﴿الخبا﴾ بالألف بدل الهمزة، فلزم فتح ما قبلها. قال أبو حاتم: وهذا لا يجوز في العربية، ورد عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْخَبْءَ﴾ بسكون الباء والهمزة. وفي قراءة عبد الله: ﴿يخرج الخبء من السموات والأرض﴾ قال الفراء: ومن وفي يتعاقبان. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في القلوب ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالألسنة والجوراح. وذكر ﴿ما تلعنون﴾؛ لتوسيع دائرة العلم؛ للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي.

وقرأ الجمهور[3]: بالتحتية في الفعلين. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص عن عاصم والكسائي بالتاء فيهما للخطاب. أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهري والكسائي فيهما الأمر بالسجود، والخطاب لهم بذلك فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب.

والمعنى: أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء بعلمه له، كما يخرج ما خفي في السموات والأرض.

ثم بعد ما وصف الرب سبحانه بما تقدم مما يدل على عظيم قدرته، وجليل

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

سلطانه، ووجوب توحيده، وتخصيصه بالعبادة.. قال: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الجملة خبره ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: خبر بعد خبر.

قرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالجر نعتاً لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾. وقرأ ابن محيصن والضحاك بالرفع نعتاً لـ الرب، وخص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، كما ثبت ذلك في الحديث المرفوع إلى رسول الله ﷺ، ووصفه بالعظيم؛ لأنه أعظم ما خلق الله سبحانه من الأجرام، وما سواه في ضمنه.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف العظيم؟

قلت: بين الوصفين فرق؛ لأن وصف عرشها تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله سبحانه بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق الله من السموات والأرض، فبين العظمين تفاوت عظيم.

وقال ابن زيد: من قوله: ﴿أَحَطتُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ كلام الهدهد. انتهى. وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ محل سجود بالاتفاق، كما في «فتح الرحمن»، يستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها.

وحاصل معنى الآيتين: أي[2] فصدهم عن السبيل حتى لا يهتدوا ويسجدوا لله الذي يظهر المخبوء في السموات والأرض، كالمطر والنبات، والمعادن المخبوءة في الأرض، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ ولما بين أن كل العوالم مفتقرة إليه، ومحتاجة إلى تدبيره.. ذكر ما هو كالدليل على ذلك، فأبان أن أعظمها قدراً؛ وهو العرش الذي هو مركز تدبير شؤون العالم هو الخالق به، وهو محتاج إليه، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: هو الله الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو رب

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

العرش العظيم، فكل عرش وإن عظم فهو دونه فأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئاً.

ولما ذكر الهدهد[١] قصة بلقيس.. لم يتغير سليمان عليه السلام لذلك، ولم يستفزه الطمع لما سمع من ملكها، كعادة الملوك في الطمع في ملك غيرهم، فلما ذكر الهدهد عبادة بلقيس وقومها غير الله سبحانه اغتاظ سليمان، وأخذته حمية الدين، وجعل يبحث عن تحقق ذلك. و﴿قَالَ﴾؛ أي: سليمان للهدهد، استئناف بياني، كأنه قيل: فما فعل سليمان بعد فراغ الهدهد من كلامه، فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ فيما أخبرتنا، وسنتعرف في مقالتك بالتجربة من النظر بمعنى التأمل، والسين للتأكيد. ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما قلت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه، هذه الجملة استفهامية في محل نصب على أنه مفعول ﴿سَنَنظُرُ﴾، و﴿أَمْ﴾ هي المتصلة، وقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أبلغ من قوله: أم كذبت؛ لأن المعنى من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقاً لهم؛ أي: قال له: سنختبر مقالك ونتعرف حقيقته بالامتحان، أصادق أنت فيما تقول أم كاذب فيه؛ لنتخلص من الوعيد.

وفي هذا[٢]: دلالة على أن خبر الواحد، وهو الحديث الذي يرويه الواحد والاثنان فصاعداً ما لم يبلغ حد الشهرة والتواتر لا يوجب العلم، فيجب التوقف فيه على حد التجويز، وفيه دليل على أن لا يطرح، بل يجب أن يتعرف هل هو صدق أو كذب، فإن ظهرت أمارات صدقه قبل، وإلا لم يقبل.

فكتب سليمان ـ أي: في المجلس أو بعده ـ كتاباً إلى بلقيس، فقال فيه: من عبد الله سليمان بن داود إلى ملكة سبأ بلقيس: بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا علي وائتوني مسلمين، ثم طبعه بالمسك، وختمه بخاتمه المنقوش على فصه اسم الله الأعظم، ودفعه إلى الهدهد فأخذه بمنقاره، أو علقه بخيط، وجعل الخيط في عنقه، وقال: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾؛ أي: اذهب بهذا الكتاب، فالباء للتعدية، وتخصيصه بالرسالة دون سائر

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

ما تحت ملكه من أبناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف؛ لما عاين فيه من علامات العلم والحكمة وصحة الفراسة، ولئلا يبقى لها عذر.

وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أنه لما صدق فيما أخبر، وبذل النصح لملكه، وراعى جانب الحق.. عوض عليه حتى أهل لرسالة رسول الحق على ضعف صورته ومعناه.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: اطرحه على بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معها في قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا﴾. وفي «الإرشاد»: وجمع الضمير؛ لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل إلى الإسلام. قال الزجاج[1]: في ﴿ألقه﴾ خمسة أوجه: إثبات الياء في اللفظ وحذفها، وإثبات الكسرة للدلالة عليها، وبضم الهاء، وإثبات ﴿الواو﴾، وبحذف ﴿الواو﴾ وإثبات الضمة للدلالة عليها، وبإسكان الهاء. وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو وحمزة وأبو بكر. وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء، وروي عن هشام وجهان: إثبات الياء لفظاً، وحذفه مع كسر الهاء، وقرأ الباقون إثبات الياء في اللفظ. وفي «الروح» قوله: ﴿فألقه﴾ بسكون الهاء تخفيفاً لغة صحيحة، أو على نية الوقف يعني: أن أصله ﴿ألقه﴾ بكسر القاف والهاء على أنه ضمير مفعول راجع إلى الكتاب، فسكن لما ذكر. اهـ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم بترك وليهم وقربهم، وأبتعد إلى مكان تتوارى فيه، وتسمع ما يجيبونه. أمره بالتولي؛ لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك، والمراد التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع. ﴿فَانْظُرْ﴾؛ أي: أي تأمل وتعرف ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

قال ابن الشيخ: ﴿مَاذَا﴾ اسم واحد استفهام منصوب بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، أو مبتدأ، و﴿ذا﴾ بمعنى الذي، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ صلتها، والعائد محذوف؛ أي: أي شيء الذي يرجعونه؟

---

(١) الشوكاني.

وقيل: في[1] الآية تقديم وتأخير، تقديرها: فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم؛ أي: انصرف إلي. فأخذ الهدهد الكتاب، وأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض مأرب من اليمن على ثلاثة مراحل من صنعاء، فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الأبواب، ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فألقى الكتاب على نحرها، وتوارى في الكوة، فانتبهت فزعة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت؛ لأن ملك سليمان كان في خاتمه، فعند ذلك ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس لأشراف قومها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن أهل مشورتها كانوا ثلاث مئة واثني عشر رجلاً. ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ وهم عظماء قومها، يجمع على أملاء كنبأ وأنباء ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: مختوم، وفي الكلام حذف، والتقدير: فذهب الهدهد، فألقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم؛ أي[2]: مكرم علي معظم لدي؛ لكونه مختوماً بخاتم عجيب وأصلاً على نهج غير معتاد، كما قال في «الأسئلة المقحمة»: معجزة سليمان كانت في خاتمه، فختم الكتاب بالخاتم الذي فيه ملكه، فأوقع الرعب في قلبها حتى شهدت بكرم كتابه إظهاراً لمعجزته، انتهى.

ويدل على أن الكريم هنا بمعنى المختوم. قوله ﷺ: «كرم الكتاب ختمه». وقيل: معنى ﴿كَرِيمٌ﴾: مرضي في لفظه ومعانيه، أو ﴿كَرِيمٌ﴾: شريف؛ لأنه صدر بالبسملة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: ممن هو، وماذا مضمونه فقالت: إنه من سليمان؛ أي: إن هذا الكتاب مرسل من سليمان. ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ أي[3]: وإن ما اشتمل عليه من الكلام، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية، وبعد التسمية ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾؛ أي: لا تتكبروا عليَّ كما

---

(١) الخازن بتصرف.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

يفعله جبابرة الملوك.

و﴿أن﴾ هي المفسرة، أو مصدرية، و﴿لا﴾ ناهية، وقيل: نافية، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من ﴿كِتَٰبٌ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو أن لا تعلوا، وهذه[1] البسملة ليست بآية تامة مثل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بخلاف ما وقع في أوائل السور، فإنها آية منفردة نزلت مئة وأربع عشرة مرة، عدد السور، كذا قاله بعضهم.

قرأ الجمهور[2]: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ بكسرهما على الاستئناف، وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجر؛ أي: لأنه. وقرأ أبي: ﴿أن من سليمان وأن بسم الله﴾ بحذف الضميرين وإسكان النونين على أنهما مفسرتان، أو مخففتان من الثقيلة. وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿وإنه من سليمان﴾ بزيادة ﴿الواو﴾ عطفاً على ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ﴾. وروى ذلك أيضاً عن أبي. وقرأ أشهب العقيلي وابن السميقع: ﴿أن لا تغلوا﴾ بالغين المعجمة من الغلو؛ وهو تجاوز الحد في الكبر.

فإن قلت: لم قدم[3] سليمان اسمه على اسم الله سبحانه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾؟.

قلت: قدم سليمان اسمه على اسم الله تعالى مع أن المناسب عكسه؛ لأنه عرف أن بلقيس تعرف اسمه دون اسم الله تعالى، فخاف أن تستخف باسم الله تعالى أول ما يقع نظرها عليه، أو كان اسمه على عنوان الكتاب واسم الله تعالى في باطنه.

﴿وَأْتُونِى﴾ حال كونكم ﴿مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين للدين مؤمنين بما جئت به، فإن الإيمان لا يستلزم الإسلام والانقياد، دون العكس. وهذا[4] الكلام كان في غاية الإيجاز مع كمال الدلالة على المقصود؛ لاشتماله على البسملة الدالة على

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمن.
(٣) البيضاوي.
(٤) البحر المحيط.

ذات الصانع وصفاته صريحاً، أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل، والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته، حتى يكون استدعاء للتقليد، فإن إلقاء الكاتب إليها على تلك الحالة من أعظم الأدلة.

وروي[1]: أنه لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام، والظاهر أن الكاتب هو ما نص الله عليه فقط، واحتمل أن يكون مكتوباً بالعربي؛ إذ الملوك يكون عندهم من يترجم بعدة ألسن، فكتب بالخط العربي، واللفظ العربي؛ لأنها كانت عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري، واحتمل أن يكون باللسان الذي كان سليمان يتكلم به، وكان عندها من يترجم لها؛ إذ كانت هي عارفة بذلك اللسان.

ونص هذا الكتاب مع وَجازَتِه يدل على أمور:

١. إنه مشتمل على إثبات الإله ووحدانيته وقدرته، وكونه رحماناً رحيماً.

٢. نهيهم عن اتباع أهوائهم، ووجوب اتباعهم للحق.

٣. أمرهم بالمجيء إليه منقادين خاضعين. وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لا بد منه في الدين والدنيا.

الإعراب

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

﴿طسٓۚ﴾ قد تقدم إعراب هذه الكلمة، وتقدم لنا أن القول الأسلم في معنى هذه الكلمة تفويض علمها إلى الله سبحانه، وعلى هذا القول ليس لهذه الكلمة محل من الإعراب؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى ﴿تِلۡكَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ

(١) روح البيان.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَكِتَابٍ﴾: معطوف على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿كتابٍ﴾. ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾: حالان من ﴿ءَايَٰتُ﴾، والعامل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ من معنى الإشارة؛ أي: هادية ومبشرة، ويجوز فيهما الرفع على أنهما خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: هي هدى وبشرى، ومعنى هداها للمؤمنين، وهم مهديون، زيادتها في هداهم. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لـ﴿المؤمنين﴾، ويجوز قطعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين. ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يُقِيمُونَ﴾. ﴿وَهُم﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة. ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾. ﴿هُمْ﴾: تأكيد لفظي للمبتدأ، ولما فصل بين المبتدأ والخبر بالمتعلق الذي هو ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾.. أعيد المبتدأ ثانياً؛ ليتصل بخبره في الصورة، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾، أو معطوفة على جملة الصلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿زَيَّنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. ﴿هُمُ﴾: تأكيد للمبتدأ. ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿وَإِنَّكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتُلَقَّى﴾:

﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تلقى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على محمد. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول ثان لـ﴿تلقى﴾ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تلقى﴾. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿حَكِيمٍ﴾، وجملة ﴿تلقى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال موسى، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾: ﴿السين﴾: حرف تنفيس واستقبال، ﴿آتيكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور حال من خبر؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿بِخَبَرٍ﴾: متعلق بـ﴿ءَاتِيكُم﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع، وهي مانعة خلو. ﴿ءَاتِيكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَاتِيكُم﴾ الأول. ﴿بِشِهَابٍ﴾: متعلق بـ﴿ءَاتِيكُم﴾. ﴿قَبَسٍ﴾: بدل من ﴿شهاب﴾، أو نعت له على تأويله بمشتق؛ أي: شهاب مقتبس؛ أي: مأخوذ من نار. ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَصْطَلُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق تقديره: فذهب موسى من عند أهله، فلما جاءها نودي. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان. ﴿جَآءَهَا﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر

يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة فعل شرط ومحلها الجر بالإضافة لـ﴿لمّا﴾. ﴿نُودِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنۢ﴾: مفسرة بمعنى أي؛ لأن في النداء معنى القول دون حروفه، والمعنى: قيل له بورك، ويجوز أن تكون مصدرية، ودخلت هنا على الماضي، أو مخففة من الثقيلة، و﴿أَنۢ﴾ ما بعدها ﴿بُورِكَ﴾ في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بأن بورك. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿بُورِكَ﴾. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ﴿مَن﴾ الموصولة؛ أي: استقر في مكان النار، وجملة ﴿بُورِكَ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، و﴿مَن﴾ الثانية: معطوفة على ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿حَوْلَهَا﴾: ظرف صلة ﴿مَن﴾ الثانية. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿سبحانَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً. ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: بدل منه، أو نعت له، والجملة المحذوفة مستأنفة، وهي من جلمة لمّا نودي.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥٓ﴾: ناصب واسمه والهاء: إما ضمير الشأن، أو عائدة إلى ما دل عليه ما قبلها، يعني إن مكلمك. ﴿أَنَا﴾: مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: صفتان للجلالة. ﴿وَأَلْقِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ألق﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿عَصَاكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على ﴿بُورِكَ﴾؛ لأن المعنى: نودي أن بورك من النار وأن ألق عصاك، وهذا مما يرجح كون ﴿أن﴾ مفسرة. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فألقاها فاستحالت حية فلما رآها. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم. في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان ﴿رَءَاهَا﴾: فعل وفاعل مستتر

ومفعول به، و﴿رأى﴾ هنا بصرية تتعدى إلى مفعول واحد. ﴿تَهْتَزُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على العصا، والجملة في محل النصب حال من مفعول رآها. ﴿كَأَنَّهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿جَآنٌّ﴾: خبره، وجملة كأن في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿رَءَاهَا﴾، أو هي حال من ضمير ﴿تَهْتَزُّ﴾ فتكون حالا متداخلة. ﴿وَلَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿مُدْبِرًا﴾: حال من فاعل ولى، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿وَلَمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُعَقِّبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَّىٰ﴾. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قال الله سبحانه يا موسى. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخَفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها جواب النداء. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع. ﴿لَدَىَّ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَخَافُ﴾. ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها معللة لما قبلها ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء بمعنى لكن؛ لأن الاستثناء منقطع. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿ظَلَمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿بَدَّلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿حُسْنًۢا﴾: مفعول به. ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿حُسْنًۢا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ظَلَمَ﴾. ﴿فَإِنِّى﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، والجملة في محل النصب مقول القول المحذوف على كونها معلل للاستثناء.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَدْخِلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أدخل﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿يَدَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فِي جَيْبِكَ﴾: متعلق بـ﴿أدخل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ألق﴾، ﴿تَخْرُجْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿يَدَكَ﴾. ﴿بَيْضَآءَ﴾: حال من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة ﴿بَيْضَآءَ﴾، أو حال أخرى من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾. ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال أخرى من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾؛ أي: حالة كونها آية مندرجة في جملة الآيات التسع ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أدخل﴾؛ أي: أدخل يدك في جيبك حال كونك مرسلاً بها إلى فرعون. ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿فَٰسِقِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالذهاب. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنا بعثناه إلى فرعون وقومه في تسع آيات، وأردت بيان حالهم حين جاءهم موسى.. فأقول لك. ﴿لما جَآءَتْهُمْ﴾: ﴿لما﴾: اسم شرط. ﴿جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾: فعل ومفعول به وفاعل. ﴿مُبْصِرَةً﴾: حال من ﴿ءَايَٰتُنَا﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَجَحَدُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿جحدوا﴾. ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿استيقنتها﴾: فعل ومفعول به. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جحدوا﴾ ولكنها على تقدير قد. ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول لأجله لـ﴿جحدوا﴾، أو حال من فاعل ﴿جحدوا﴾؛ أي: ظالمين ومستكبرين. ﴿وَعُلُوًّا﴾: معطوف على ﴿ظُلْمًا﴾. ﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت جحدهم بآيات الله سبحانه، وأردت بيان ما هو اللائق بك.. فأقول لك انظر وفكر واعجب. ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على

محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام التعجبي في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليه وجوباً ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: فعل واسمه ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول به لـ﴿انظر﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام. وعبارة «السمين»: والجملة في محل نصب على إسقاط الخافض؛ لأنها معلقة لـ﴿انظر﴾ بمعنى: تفكر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾: معطوف على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿عِلْمًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَقَالَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فعملا بما أعطياه بالقلب بالعزم وعملا به بالجوارح بالمباشرة، وعملا به باللسان، وقالا الحمد لله، والجملة المحذوفة معطوفة على ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿قالا﴾: فعل وفاعل معطوف على الجملة المحذوفة. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالا﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿فَضَّلَنَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿فَضَّلَنَا﴾. ﴿مِّنْ عِبَادِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿كَثِيرٍ﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿عِبَادِهِ﴾. ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ معطوف على ﴿ورث﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عُلِّمْنَا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: مفعول ثان لـ﴿عُلِّمْنَا﴾، والجملة في

محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَأُوتِينَا﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿عُلِّمْنَا﴾. ﴿مِن﴾: زائدة، أو تبعيضية. ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿وَأُوتِينَا﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿هو﴾: ضمير فصل. ﴿الْفَضْلُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿الْمُبِينُ﴾: صفة ﴿الْفَضْلُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَحُشِرَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة. ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾: متعلق به. ﴿جُنُودُهُ﴾: نائب فاعل لـ﴿حُشر﴾، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾: حال من ﴿جُنُودُهُ﴾. ﴿وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾: معطوفان على ﴿الْجِنِّ﴾. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حشر جنوده، وأردت بيان حالهم عند الحشر.. فأقول لك هم. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿يُوزَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية لمحذوف تقديره: فساروا حتى إذا أتوا. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَتَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿وَادِ﴾: مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾، وحذفت الياء في الخط تبعاً للفظ. ﴿النَّمْلِ﴾: مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَتَوْا﴾. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل الخفض بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة تقديره: فساروا إلى قول النملة وقت إتيانهم وادي النمل. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿النَّمْلُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به على السعة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾ على كونها جواب

النداء. ﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: فعل مضارع، ونون توكيد ثقيلة، ومفعول به في محل الجزم بـ﴿لَا﴾ الناهية مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾: فاعل. ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾: معطوف عليه، والجلمة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾ على كونها مستأنفة؛ لأنها لا تعلق لها بما قبلها. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾. ﴿فَتَبَسَّمَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فسمع قولها فتبسم ﴿تبسم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾. ﴿ضَاحِكًا﴾: حال مؤكدة من فاعل ﴿تبسم﴾، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾: متعلق بـ﴿ضَاحِكًا﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿تبسم﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ومفعول به ونون وقاية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَشْكُرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾. ﴿نِعْمَتَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: صفة لـ﴿نِعْمَتَكَ﴾، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ لأنه بمعنى: ألهمني، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: رب أوزعني شكر نعمتك. ﴿أَنْعَمْتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أنعمتها. ﴿عَلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنْعَمْتَ﴾. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾: معطوف على قوله: ﴿عَلَىَّ﴾. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾: ناصب وفعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. ﴿تَرْضَىٰهُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صفة ﴿صَٰلِحًا﴾. ﴿وَأَدْخِلْنِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أدخلني﴾: فعل دعاء ونون وقاية وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾. ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أدخلني﴾، والباء سببية، أو بمحذوف حال من مفعول ﴿أدخلني﴾؛ أي: حالة كوني متلبساً برحمتك. ﴿فِى عِبَادِكَ﴾: متعلق بـ﴿أدخلني﴾ أيضاً. ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: نعت لـ﴿عِبَادِكَ﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة في سرد أمر آخر حدث لسليمان أثناء مسيره الذي كان فيه قصة النمل. ﴿فَقَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿تفقد﴾. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون. ﴿لي﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَرَى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من ياء المتكلم. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾. ﴿مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾: ﴿أَمۡ﴾: منقطعة، كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى﴾، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك، وأخذ يقول: أهو غائب، كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. اهـ. «بيضاوي». وعلى هذا فتقدر ببل والهمزة، أو ببل وحدها، أو بالهمزة وحدها، اهـ.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أعذبن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد القيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به ﴿عَذَابٗا﴾: مفعول مطلق. ﴿شَدِيدًا﴾: صفة له، والجملة جواب القسم. ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بالنون، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾. ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾ ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف، و﴿اللام﴾: حرف موطئة للقسم. ﴿يأتيني﴾: فعل مضارع في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾، ونون الوقاية حرف لا محل لها من الإعراب؛ لأن أصله: ليأتينني بثلاث نونات، و﴿الياء﴾: مفعول به. ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: متعلق بـ﴿يأتيني﴾.

﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿سلطان﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَمَكَثَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿مكث﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية؛ أي: زماناً غير بعيد، أو على المكانية؛ أي: مكاناً غير بعيد. ﴿فَقَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾، معطوف على ﴿مكث﴾. ﴿أَحَطتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿أَحَطتُ﴾. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تُحِطْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تُحِطْ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجِئْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَحَطتُ﴾. ﴿مِن سَبَإٍۭ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿نبأ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿بِنَبَإٍ﴾: متعلق بـ﴿جئتك﴾. ﴿يَقِينٍ﴾ صفة ﴿نباء﴾.

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ووجد هنا يتعدى لمفعول واحد؛ لأنه من وجدان الضالة، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱمْرَأَةً﴾، ومفعول به، والجملة صفة لـ﴿ٱمْرَأَةً﴾. ﴿وَأُوتِيَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱمْرَأَةً﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أوتيت﴾. ﴿وَلَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿عَرْشٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَرْشٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿أوتيت﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَدتُّهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَقَوْمَهَا﴾: معطوف على الهاء، أو مفعول معه، والجملة الفعلية بدل من جملة قوله: ﴿وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾، فهي داخلة في

حيز خبر ﴿إِنَّ﴾، ووجد يتعدى لواحد، كما مر آنفاً؛ لأنه بمعنى لقيتها. ﴿يَسْجُدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلشَّمْسِ﴾: متعلق به. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: مجاوزين الله، وجملة ﴿يَسْجُدُونَ﴾: في محل النصب حال من مفعول ﴿وَجَدتُّ﴾ وما عطف عليه. ﴿وَزَيَّنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿زين﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَسْجُدُونَ﴾. ﴿فَصَدَّهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿صدهم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿زين﴾. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: متعلق بـ﴿صدهم﴾. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿فَصَدَّهُمْ﴾.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر مبني بسكون على النون المدغمة في لام ﴿لا﴾، وحذفت في الخط اتباعاً لرسم المصحف العثماني، ﴿لا﴾: زائدة. ﴿يَسْجُدُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بحذف النون، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾، لكن بنزع الخافض، وهو إلى. والمعنى: فهم لا يهتدون إلى السجود، وعلى هذا الإعراب لا يصح الوقف على ﴿يَهْتَدُونَ﴾. ويجوز أن يكون المصدر بدلاً من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، و﴿لا﴾: نافية حينئذ، والتقدير: وزين لهم الشيطان أعمالهم عدم السجود، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾، و﴿لا﴾: زائدة، وفيه أوجه آخر كما أشرنا إليها في مبحث التفسير. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَسْجُدُوا۟﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾. ﴿مَا﴾: مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿تُخْفُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: ما تخفونه.

﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُخْفُونَ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: خبر ثان للجلالة. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: بالجر صفة لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، وبالرفع صفة لـ﴿رَبُّ﴾.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سَنَنظُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَصَدَقْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام، ﴿صدقت﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ﴿ننظر﴾ معلق عنها بهمزة الاستفهام. ﴿أَمْ﴾: متصلة معادلة للهمزة. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿صدقت﴾. ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾: قبله محذوف تقديره: ثم كتب سليمان كتاباً، فقال اذهب بكتابي هذا. ﴿ٱذْهَب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾. ﴿بِّكِتَٰبِى﴾: متعلق به. ﴿هَٰذَا﴾: صفة لـ﴿كتابي﴾، أو بدل منه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف، كما قدرنا. ﴿فَأَلْقِهْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألقه﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱذْهَب﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿تَوَلَّ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿ألق﴾. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَوَلَّ﴾، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿تَوَلَّ﴾؛ أي: متجاوزاً إياهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿تَوَلَّ﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿يَرْجِعُونَ﴾. ﴿يَرْجِعُونَ﴾: فعل وفاعل؛ أي: أي شيء يرجعون؟، أو ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبره، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: صلة ﴿ذا﴾، والعائد محذوف تقديره: أي شيء الذي يرجعونه؟ وعلى كلا التقديرين، فالجملة الاستفهامية قد علق عنها العامل، وهو ﴿انظر﴾ بالاستفهام، فمحلها

النصب على نزع الخافض؛ أي: ثم انظر في أي شيء يرجعونه.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أُلْقِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَىَّ﴾: متعلق به. ﴿كِتَٰبٌ﴾: نائب فاعل. ﴿كَرِيمٌ﴾: صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، وجملة ﴿أُلْقِىَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة للرد على سؤال مقدر، كأنهم قالوا: ممن هو وما هي منطوياته. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة البسملة خبرها، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: مفسرة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَعْلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿عَلَىَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مفسرة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لتضمنه معنى القول دون حروفه؛ أي: ألقي إلى أن لا تعلوا علي. ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ مصدرية ناصبة للفعل، و﴿لا﴾: نافية، و﴿أن﴾ وما في حيزها مصدر مؤول في محل رفع بدل من ﴿كِتَٰبٌ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: مضمونه أن لا تعلوا، أو في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: بأن لا تعلوا. ﴿وَأْتُونِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَأْتُونِى﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به. ﴿مُسْلِمِينَ﴾: حال من فاعل ﴿وَأْتُونِى﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾: هما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يترددون ويتحيرون في أودية الضلال من العمه، وهو التردد في الأمر من التحير؛ أي: يترددون بين تركها؛ لأنها واضحة البطلان، ظاهر السوء، وبين الاستمرار عليها. وقيل: معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يستمرون من غير تردد؛ إذ لم يدر في خلدهم لحظة الإقلاع عنها. ويقال في تصريفه: عمه يعمه - من باب ضرب وفتح - عمهاً وعموهاً وعموهية وعمهاناً إذا تحير في طريقه أو أمره، وتردد في الضلال فهو عمه، وجمعه عمهون وعامه، وجمعه عامهون وعمه.

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ والسوء: كل ما يسوء الإنسان ويغمه.

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أي: أشد الناس خسراناً لحرمانهم الثواب، واستمرارهم في العذاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: لتلقن وتعطي، يقال: تلقى الكلام من فلان ولقنه إذا أخذه من لفظه وفهمه. وعبارة «القرطبي»: أي: يلقى إليك فتتلقاه، وتعلمه وتأخذه من لدن حكيم عليم. وفي «السمين»: لقي مخففاً يتعدى لواحد، ومضعفاً يتعدى لاثنين، فأقيم أولهما هنا مقام الفاعل، والثاني: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾. اهـ.

﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾؛ أي: أبصرت إبصاراً حصل لي به أنس، يقال: آنست ناراً، وآنست فزعاً، وآنست منه رشداً، فهو يطلق على المادي والمعنوي.

﴿بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن الطريق وحاله. ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ أي: بشعلة نار قبس؛ أي: بقطعة من النار مقبوسة، ومأخوذة من أصلها. يقرأ بإضافة ﴿شهاب﴾ إلى ﴿قَبَسٍ﴾، فالإضافة فيه للبيان؛ لأن الشهاب يكون قبساً وغيره، كالكوكب فهو من إضافة النوع إلى جنسه، كخاتم حديد وثوب خز، وهي بمعنى من؛ أي: شهاب من قبس، ويقرأ بتنوين ﴿شهاب﴾، فـ﴿قَبَسٍ﴾ على هذا بدل منه، أو نعت له على تأويله بالمفعول؛ أي: شهاب مقتبس؛ أي: مأخوذ من نار، فالشهاب الشعلة، والقبس النار. والشهاب في الأصل كل مضيء متولد من النار، وما يرى كأنه كوكب انقض، والكوكب عموماً، والسنان لما فيه من البريق، وجمعه شهب وشُهبان وشِهبان وأشهب، ويقال: فلان شهاب حرب إذا كان ماضياً فيها،

والقَبَس ـ بفتحتين ـ: النار المقبوسة. تقول: خذ لي قبساً من النار ومقبساً ومقباساً، واقبس لي ناراً واقتبس، ومنه: ما أنت إلا كالقابس العجلان؛ أي: المقتبس، وما زورتك إلا كقبسة العجلان. وتقول: ما أنا إلا قبسة من نارك وقبضة من آثارك، وقبسته ناراً وأقبسته، كقولك بغيته الشيء وأبغيته، ومن المجاز قبسته علماً وخبراً وأقبسته.

وفي «المفردات»: الشهاب: الشعلة الساطعة من النار المتوقدة، والقبس: المتناول من الشعلة، والاقتباس، ثم استعير لطلب العلم والهداية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: فيه الإبدال من تاء الافتعال؛ لأن أصله تصتلون، فقلبت التاء طاء لوقوعها بعد حرف الإطباق، وهو الصاد على القاعدة التصريفية، وهو من صلي بالنار ـ بكسر اللام ـ من باب تعب. وفي «المصباح»: صلى بالنار وصليها صلى ـ من باب تعب ـ: وجد حرها، والصلاء ـ بوزن كتاب ـ حر النار، والنار العظيمة، وصليت اللحم أصليه ـ من باب رمى ـ شويته. وفي «الأساس»: وصلي النار وصلى بها يصلى النار الكبرى وتصلاها وتصلى بها، وأصلاه وصلاه، وشاة مصلية: مشوية، وقد صليتها. ومعنى ﴿تَصْطَلُونَ﴾: تستدفئون بها.

قال الشاعر:

اَلنَّارُ فَاكِهَةُ ٱلشِّتَاءِ فَمَنْ يُرِدْ   أَكْلَ ٱلْفَوَاكِهِ شَاتِيَاً فَلْيَصْطَلِ

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان: حية صغيرة سريعة الحركة، هذا بالنظر إلى أصل معناها، وإلا فجثتها كانت كبيرة جداً. وفي «القاموس» و «التاج»: والجان: اسم جمع للجن، وحية أكحل العين لا تؤذي كثيره في الدور.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يقال: ولى عنها: أعرض عنها، وأدبر عنها: جعلها تلي ظهره. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: لم يعطف ولم ينتظر من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر.

قال الشاعر:

فَمَا عَقَّبُوْا إِذْ قِيْلَ هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ   وَلاَ نَزَلُوا يَوْمَ ٱلْكَرِيْهَةِ مَنْزِلاَ

يصف قوماً بالجبن، وأنهم إن قيل لهم: هل من معقب وراجع على عقبه

للحرب لم يرجعوا إليها، ولا نزلوا يوم الحرب منزلاً من منازلها.

﴿فِي جَيْبِكَ﴾؛ أي: طوق قميصك، وسمي جيبك؛ لأنه يجاب؛ أي: يقطع ليدخل فيه الرأس. ﴿جحدوا بها﴾؛ أي: كذبوها. ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: علمت علماً يقينياً أنها من عند الله، والجحود: إنكار الشيء بعد المعرفة والإيقان تعنتاً، وأريد هنا التكذيب؛ لئلا يلزم استدراك قوله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾؛ أي: قام مقامه في النبوة والملك.

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾؛ أي: أعطينا فهم ما يريده كل طائر إذا صوت. والمنطق: مصدر ميمي لنطق ينطق ـ من باب ضرب ـ نطقاً ومنطقاً ونطوقاً؛ أي: تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعاني، والمنطق: الكلام، وقد يستعمل في غير الإنسان. يقال: سمعت منطق الطير.

وقال البيضاوي: والنطق والمنطق في المتعارف: كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً، مفيداً كان أو غير مفيد، وقد يطلق على ما يصوت به على التشبيه أو التبع، كقولهم: نطقت الحمامة إذا صوتت، ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد، وعلم المنطق: هو علم يبحث في صحيح الفكر وفاسده، فهو يضع القواعد التي تعصم الذهن من الوقوع في الأخطاء.

والطير جمع طائر، كركب وراكب، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء ويجري، وكان سليمان يعرف نطق غير الطير أيضاً، كما يجيء من قصة النمل، لكنه أدرج هذا في قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وخص منطق الطير؛ لشرف الطير على سائر الحيوان.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ الحشر: إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يحبس أولهم ليلحق آخرهم، فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد. وفي «المختار»: وزعه يزعه وزعاً مثل وضعه يضعه وضعاً؛ أي: كفه فانتزع هو؛ أي: كف، وأوزعه بالشيء أغراه به، واستوزعت الله

شكره، فأوزعني؛ أي: استلهمته، فألهمني. والوازع: الذي يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر، وجمعه وزعة. وقال الحسن: لا بد للناس من وازع؛ أي: سلطان يكفهم. يقال: وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ النَمل والنُمل ـ بضم الميم ـ حيوان حريص على جمع الغذاء، يتخذ قرى تحت الأرض، فيها منازل ودهاليز، وغرف وطبقات منعطفة يملؤها حبوباً وذخائر للشتاء. الواحدة: نملة، ونملة للذكر والأنثى. والجمع: نمال كرملة ورمال. وفي «الروح»: ونملة مؤنث حقيقي بدليل لحوق علامة التأنيث فعلها؛ لأن نملة تطلق على الذكر والأنثى، فإذا أريد تمييزها احتيج إلى مميز خارجي، نحو نملة ذكر، ونملة أنثى، وكذلك لفظة حمامة ويمامة من المؤنثات اللفظية. اهـ

﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ والوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، والنمل معروف، الواحدة: نملة، سميت نملة لتنملها؛ وهي كثرة حركتها وقلة قوائمها، ومعنى وادي النمل: واد يكثر فيه النمل، والمراد: واد بالشام أو بالطائف كثير النمل، والمشهور أنه النمل الصغير.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لا يكسرنكم ويهشمنكم سليمان وجنوده. وفي «المختار»: حطمه من باب ضرب؛ أي: كسره فانحطم وتحطم، والتحطيم: التكسير، والحطام: ما تكسر من اليبس. اهـ، وسمي حجر الكعبة الحطيم؛ لأنه كسر منها.

﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني، وحقيقته: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، وأكفه وارتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك، وقد تقدم شرح هذه المادة قريباً.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ قال في «القاموس»: تفقده طلبه عن غيبة. وفي «كشف الأسرار»: التفقد: طلب المفقود، وإنما قيل له التفقد؛ لأن طالب الشيء يدرك بعضه ويفقد بعضه. في المفردات: التفقد التعهد، لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان

الشيء، والتعهد: تعرف العهد المقدم، والطير: اسم جامع للجنس كما في «الوسيط».

﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ ـ بضمتين مع سكون الدال ـ والهُدَهِد ـ بضم ففتح فكسر ـ والهداهد: طائر ذو خطوط وألوان كثيرة، الواحدة: هدهدة بضمتين بينهما سكون، وهدهدة بضم ففتح فكسر، وهداهدة، والجمع: هداهد وهداهيد.

ويقولون: هو أبصر من هدهد؛ لأنهم يزعمون أنه يرى الماء تحت الأرض، وفي «حياة الحيوان»: الهدهد: منتن الريح طبعاً؛ لأنه يبني أفحوصه في الزبل. وهذا عام في جنسه وإن بخر المجنون بعرف الهدهد أبرأه ولحمه إذا بخر به معقود عن المرأة، أو مسحور أبرأه. وفي «الفتاوى الزينية»: سئل عن أكل الهدهد أيجوز أم لا؟ أجاب نعم يجوز. انتهى.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ العذاب: الإيجاع الشديد، وعذبه تعذيباً أكثر حبسه في العذاب. ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ وأصل الذبح شق حلق الإنسان. اهـ. «روح».

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾ بنون مشددة مفتوحة؛ هي نون التوكيد الثقيلة بعدها نون مكسورة؛ هي نون الوقاية، وقرىء ﴿لَيَأۡتِيَنِّي﴾ بنون مشددة مكسورة أصله: ليأتينني بثلاث نونات، فحذفت النون التي قبل ياء المتكلم لتوالي الأمثال.

﴿فَمَكَثَ﴾ بضم الكاف وفتحها، والأول من باب قرب، والثاني من باب نصر، وفي «القاموس» وغيره: مكث يمكث ـ من باب نصر ـ مكثاً بفتح فسكون ومكثاً بفتحتين ومكوثاً ومكيثي بالمكان أقام ولبث فهو ماكث. والاسم المكث بضم الميم، والمِكث بكسرها، ومكث يمكث ـ من باب قرب ـ مكاثة نبت ورزن. اهـ والمكث: ثبات مع انتظار.

﴿بِمَا لَمۡ تُحِطۡ﴾ والإحاطة بالشيء علماً: أن يعلمه من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه معلوم ما. اهـ «خازن».

﴿مِن سَبَإِۭ﴾ وسبأ: بلاد واقعة جنوبي غربي الجزيرة العربية في اليمن،

ذكرت في كتاب العهد القديم، وفي مؤلفات العرب، واليونان، والرومان كانت على جانب عظيم من الحضارة، كان يتعاطى سكانها تجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ أي: تسوسهم وتدبر أمورهم، لا ملك الرقبة. ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ والعرش في الأصل: شيء مسقف، ويراد به هنا سرير عظيم، أعني: سرير الملك. ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والسبيل من الطريق ما هو معتاد السلوك.

﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾: مصدر بمعنى المخبوء، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ ـ من باب نفع ـ؛ أي: سترته، والخبء في السموات المطر وفي الأرض النبات.

﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر بمعنى التأمل، والسين للتأكيد؛ لنعرف بالتجربة البتة.

﴿تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولونه بسمع منك. ﴿فَٱنظُرۡ﴾؛ أي: تأمل وفكر. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ والملأ: عظماء القوم الذين يملؤون العيون مهابة، والقلوب جلالة، جمعه أملاء كنبأ وأنباء. ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ﴾؛ أي: ألا تتكبروا ولا تنقادوا للهوى والنفس. ﴿مُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين خاضعين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف.

ومنها: التنكير للتعظيم والتفخيم في قوله: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

ومنها: الإتيان بالمصدر بدل اسم الفاعل؛ للمبالغة في قوله: ﴿هُدٗى

وَبُشْرَىٰ﴾؛ أي: هادياً ومبشراً، كأنها نفس الهدى والبشارة.

ومنها: تكرير الضمير في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص، وأما وجه تكراره هنا فهو أنه كان أصل الكلام هم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عناية به، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره. وقد حال المجرور بينهما، فطرّي ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالجار والمجرور حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعدما يوجب التطرية. ومثله ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين.

ومنها: العدول في الصلة عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية؛ لإفادة التأكيد والمبالغة والدوام، فإن الإيمان والإيقان بالآخرة أمر ثابت مطلوب دوامه، ولذلك أتي به جملة اسمية، وجعل خبرها فعلاً مضارعاً، فقال: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد، أما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد في أوقاتهما المعينة، ولذلك أتى بهما فعلين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ واللام في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: لوجود المتشككين في القرآن.

ومنها: تنوين الاسمين للتعظيم في قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

ومنها: الجمع بين الحكيم والعليم إشعاراً بأن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية.

ومنها: استعمال أو بدل ﴿الواو﴾ في قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ آثر ﴿أو﴾ على ﴿الواو﴾؛ لنكتة بلاغية رائعة، فإن ﴿أو﴾ تفيد التخيير، وقد بنى رجاءهُ على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً فلن يعدم بواحدة منهما، وهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار هضماً لنفسه، واعترافاً بقصوره نحو ربه.

ومنها: إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ حذفت قبل الرؤية جمل تقديرها: فألقاها فانقلبت إلى حية الخ.

ومنها: التعجيب من عظمة ما رأى في قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيث شبه الحية العظيمة المسماة بالثعبان بالجان؛ أي: الحية الصغيرة في سرعة الحركة والالتواء.

ومنها: التعريض بظلم موسى بقتل القبطي في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾.

ومنها: الطباق بين الحسن والسوء في قوله: ﴿حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، وبين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْۚ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذفت وجه الشبه، فصار مرسلاً مجملاً.

ومنها: المجاز العقلي في إسناد الإبصار إلى الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ حيث نسب الإبصار إليها مجازاً؛ لأنه بها يبصر، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً، والعلاقة السببية؛ لأنها سبب الإبصار، وهذا أولى من قول بعضهم: إن مبصرة اسم فاعل بمعنى اسم المفعول نحو ماء دافق؛ أي: مدفوق إشعاراً بأنها لفرط وضوحها وإنارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر.

ومنها: التنوين والتنكير في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ﴾؛ لتعظيم العلم الذي أوتياه وتكثيره، كأنه قال: علماً أي، علم، وهو كذلك فإن علمهما كان مما يستغرب ويستعظم، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات على أن كل علم بالإضافة إلى علم الله سبحانه قليل ضئيل.

ومنها: استعمال حرف الاستعلاء لإفادة الفوقية في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ فعدى ﴿أَتَوْاْ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأن الإتيان كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء.

ومنها: التوليد في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإن هذه الآية اشتملت على أحد عشر نوعاً من البلاغة يتولد بعضها من بعض: **أولها**: النداء بـ﴿يا﴾، **وثانيها**: كنت بـ﴿أي﴾، **وثالثها**: نبهت بـ﴿ها﴾ التنبيه، **ورابعها**: سمت بقولها: ﴿ٱلنَّمْلِ﴾، **وخامسها**: أمرت بقولها: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، **وسادسها**: نصت بقولها: ﴿مَسَـٰكِنَكُمْ﴾، **وسابعها**: حذرت بقولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، **وثامنها**: خصصت بقولها: ﴿سُلَيْمَـٰنُ﴾، **وتاسعها**: عممت بقولها: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾، **وعاشرها**: أشارت بقولها؛ ﴿وَهُمْ﴾، **وحادي عشرها**: عذرت بقولها: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾. هذا وقد أنشدوا ملغزين في نملة سليمان وبقرة بني إسرائيل.

فَمَا مَيْتٌ أَحْيَا لَهُ ٱللَّهُ مَيِّتاً   لِيُخْبِرَ قَوْماً أُنْذِرُوا بِبَيَانِ
وَعَجْفَاءُ قَدْ قَامَتْ لِتُنْذِرَ قَوْمَهَا   وَأَهْلَ قُرَاهَا رَهْبَةَ ٱلْحَدَثَانِ

ومنها: أسلوب التعجب في قوله: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾.

ومنها: التأكيد المكرر في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾، ﴿أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى﴾؛ لتأكيد الأمر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.

ومنها: جناس التصريف في قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وهو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف إما من مخرجه، أو من قريب من مخرجه؛ وهو من محسنات الكلام المتعلقة باللفظ. وقال أبو حيان في تعريفه: وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف. انتهى.

قال صاحب «الكشاف»: وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، ولقد حسن في الآية، وبدع لفظاً ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان ﴿بِنَبَإٍ﴾ لفظة بخبر.. لكان المعنى صحيحاً، ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام، والتي يطابقها وصف الحال؛ لأنه جاء منغوماً عذب الجرس؛ لاتفاق سبأ ونبأ.

ومنها: الطباق في اللفظ في قوله: ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو
قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ
(٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ
بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ
تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ
فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ
أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)
قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
(٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) وَلُوطًا إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ﴾؛ أي: بلقيس قبله حذف معلوم من السياق، تقديره:

فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت لهم: يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ وكرر[١] ﴿قَالَتۡ﴾؛ للإيذان بغاية اعتنائها بما قالت؛ أي: قالت: يا أيها الأشراف أفتوني في أمري؛ أي: أجيبوني في الذي ذكرت لكم بما يقتضيه الحزم، واذكروا ما تستصيبون فيه، وأشيروا علي وبينوا لي الصواب فيه، وعبرت عن جواب المشورة بالفتوى الذي هو الجواب في الحوادث المشكلة غالباً، إشعاراً بأنهم قادرون على حل المشكلات النازلة، وليكون في ذلك حل لما أشكل عليها من الأمر. قال بعضهم: الفتوى من الفتى؛ وهو الشاب القوي، وسميت الفتوى بذلك؛ لأن المفتي؛ أي: المجيب الحاكم بما هو صواب يقوي السائل في جواب الحادثة.

ثم زادت في التأدب لهم، واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾؛ أي: فاصلة ومنفذة أمراً من الأمور ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾؛ أي: حتى تحضروا عندي، وتشيروا علي؛ أي: لا أقطع أمراً إلا بمحضركم وبموجب آرائكم؛ أي: عادتي معكم أن لا أفعل أمراً من الأمور المتعلقة بالملك حتى أحضركم وأشاوركم.

وفيه استمالة لقلوبهم[٢]؛ لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير، وفيه إشارة إلى أن المرء لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه، ويكون مشاوراً في جميع ما سنح له من الأمور، لا سيما الملوك يجب أن يكون لهم قوم من أهل الرأي والبصيرة، فلا يقطعون أمراً إلا بمشاورتهم. والمعنى: أي[٣]: قالت بلقيس لأشراف قومها: أيها الملأ أشيروا علي في أمر هذا الكتاب الذي ألقي إلي، فإني لا أقضي فيه برأي حتى تشهدوني فأشاوركم فيه.

وفي قولها هذا دلالة على إجلالهم، وتكريمهم ليمحضوها النصح، ويشيروا عليها بالصواب، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وإمضاءهم على الطاعة لها، علماً منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها.. لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم.. كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم.. لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، وتعمية في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم، وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على ما لها من عقل راجح وأدب جم في التخاطب. وعلى هذا النهج سار الإسلام، فقد قال سبحانه لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وقد مدح سبحانه صحابة رسوله بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وفي قراءة عبد الله[1]: ﴿ما كنت قاضية أمراً﴾ وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ بكسر النون[2] والفتح لحن، لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع، وهذا في موضع النصب. وأصله: حتى تشهدونني، فحذفت النون الأولى للنصب والياء؛ لدلالة الكسرة عليها، وبالياء في الوصل والوقف. قرأ يعقوب: أي: حتى تحضروني، أو تشيروني، أو تشهدوا أنه صواب؛ أي: لا أبت الأمر إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً.

وقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الملأ مجيبين لها، استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾ في العدد والعدة؛ أي: ذووا قوة في الآلات والأجساد والعدد. ﴿وَأُوْلُوا بَأْسٍ﴾ وأخذ ﴿شَدِيدٍ﴾ لأعدائنا عند الحرب واللقاء؛ أي: لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا؛ أي: لنا شجاعة مفرطة، وبطش شديد، فلا نخاف أعداءنا.

وهذا تعريض[3] منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم فوضوا الأمر إليها؛ لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها، فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ﴾ في شأننا هذا، بل في كل

---

(١) البحر المحيط.
(٢) النسفي.
(٣) روح البيان.

أمورنا مفوض ﴿إِلَيْكِ﴾ أيتها الملكة، وموكول إلى رأيك ونظرك. ﴿فَانظُرِي﴾ وفكري ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ وتشيرين علينا؛ أي: تأملي ماذا تأمرينا به سامعون لأمرك، مطيعون له، فمري بنا بأمرك.

وفيه إشارة إلى أن شرط أهل المشاورة أن لا يحكموا على الرئيس المستشير بشيء، بل يخيرونه فيما أراد من الرأي الصائب، فلعله أعلم بصلاح حاله منهم، فلما أحست منهم الميل إلى الحرب، والعدول عن سنن الصواب، بادعائهم القوى الذاتية والعرضية لم ترض به، لما علمت أن من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شيء يريده، ومالت إلى الصلح، وبينت السبب في رغبتها فيه. فـ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ من القرى، ومدينة من المدن على منهاج الحراب والقتال.

قال الزجاج: أي إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾؛ أي[1]: خربوا مبانيها، وغيروا مغانيها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾؛ أي: ذليلين بالقتل والأسر، والإجلاء وغير ذلك من أنواع الإهانة والإذلال؛ أي: أهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة. وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة، وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة، والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صدقها الله سبحانه فيما قالت، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل من الإفساد، وجعل الأعزة أذلة يفعلون؛ أي: وكما قالت هي تفعل الملوك.

قال ابن الأنباري: الوقف على قوله: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وقف تام. فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وقيل[2]: هذه الجملة من تمام كلامها، ذكرته توكيداً لما وصفته من حال الملوك، وتقريراً بأن ذلك من عادتهم المستمرة؛ أي: إن الذين أرسلوا الكتاب يفعلون مثل الذي تفعله الملوك،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

فإن ذلك عادتهم المستمرة.

وفي ذلك إشارة إلى أن العاقل مهما تيسر له دفع الخصوم بطريق صالح لا يوقع نفسه في خطر الهلاك بالمحاربة والمقاتلة بالاختيار، إلا أن يكون مضطراً. قال بعضهم: من السؤدد الصلح وترك الإفراط في الغيرة.

وفي «الفتوحات المكية»: للملك أن يعفو عن كل شيء إلا عن ثلاثة أشياء، وهي: التعرض للحرم، وإفشاء سره، والقدح في الملك. نسأل الله حسن الأدب في طريق الطلب.

ومعنى الآية: أي قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان: إنّ الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرها، وإتلاف أموالها، وأذلوا أهلها بالأسر والإجلاء عن موطنهم، أو قتلوهم تقتيلاً ليتم لهم الملك والغلبة، وتتقرر لهم في النفوس المهابة، وهكذا يفعلون معنا، وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم.

ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة، وبينت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة.. أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾؛ أي: إلى سليمان وقومه رسلاً ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ عظيمة، وهي[1] اسم للشيء المهدى بملاطفة ورفق ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾؛ أي: فمنتظرة. قال في «كشف الأسرار»: الناظر ههنا بمعنى المنتظر، و﴿الفاء﴾ فيه للعطف على مرسلة.

﴿بِمَ﴾ أصله بما، على أنه استفهام؛ أي: بأي شيء. ﴿يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بالجواب من عنده حتى أعمل بما يقتضيه الحال، و﴿بِمَ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجِعُ﴾؛ أي: إني أجرب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك، وكفينا أمره، وإن كان نبياً لم يرضه ذلك؛ لأن غاية مطلبه، ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته، والتدين بدينه، وسلوك طريقته، وإني ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية

---

(١) روح البيان.

من قبول أو رد، فعاملة بما يقتضيه ذلك.

والمعنى: أي[1] وإني سأرسل إليه هدية من نفائس الأموال؛ لأتعرف حاله، وأختبر أمره، أنبي هو أم ملك، فإن كان نبياً لم يقبلها، ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه، وإن كان ملكاً قبل الهدية، وانصرف إلى حين، فإن الهدايا مما تورث المودة، وتذهب العداوة. وفي الحديث: «تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء». ولقد أحسن من قال:

هَدَايَا ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمُ لِبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ فِيْ قُلُوْبِهِمُ ٱلْوِصَالاَ
وَتَزْرَعُ فِيْ ٱلضَّمِيْرِ هَوَى وَوِدّاً ... وَتُكْسِبُهُمْ إِذَا حَضَرُوْا جَمَالاَ

وحاصل القصة[2]: أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فأهدت وصفاء ووصائف. قال ابن عباس: مئة وصيف، ومئة وصيفة. وقال وهب وغيره: عمدت بلقيس إلى خمس مئة غلام، وخمس مئة جارية، فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لباس الجواري، وجعلت في أيديهم أساور الذهب، وفي أعناقهم أطواق الذهب، وفي آذانهم أقرطة، وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمس مئة فرس، والغلمان على خمس مئة برذون، على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج، وبعثت إليه لبنات من ذهب، ولبنات من فضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود والألنجوج، وعمدت إلى حقة جعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وخرزة جرع معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها ـ يقال له: المنذر بن عمرو ـ وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وكتبت مع المنذر كتاباً تذكر فيه الهدية، وقالت: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنا بما في الحقة قبل أن تفتحها، وأثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأدخل في خرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان، فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث

(١) المراغي.
(٢) الخازن.

وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظراً فيه غضب.. فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره، فإنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً.. فاعلم أنه نبي فتفهم قوله، ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سلميان فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسع فراسخ، وأن يفرش فيه لبن الذهب والفضة، وأن يخلوا قدر تلك اللبنات التي معهم، وأن يعملوا حول الميدان حائطاً مشرفاً من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال سليمان: أي دواب البر والبحر أحسن، فقالوا يا نبي الله رأينا في بحر كذا دواب مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، قال: عليَّ بها، فأتوه بها، فقال: شدوها عن يمين الميدان وشماله، وقال للجن: عليَّ بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان وشماله، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع أربعة آلاف كرسي على يمينه وعلى شماله، وأمر الجن والإنس والشياطين والوحوش والسباع والطير، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان، ورأوا الدواب التي لم يروا مثلها تروث على لبن الذهب والفضة.. تقاصرت إليهم أنفسهم، ووضعوا ما معهم من الهدايا، وقيل: إن سليمان لما فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة.. ترك من طريقهم موضعاً على قدر ما معهم من اللبنات، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً خافوا أن يتهموا بذلك، فوضعوا ما معهم من اللبن في ذلك الموضع، ولما نظروا إلى الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم، وكانوا يمرون على كراديس الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان، فأقبل عليهم بوجه طلق، وتلقاهم متلقى حسناً، وسألهم عن حالهم، فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا فيه، وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقة؟ فأتي بها، فحركها فجاءه جبريل عليه السلام، فأخبره بمافيها، فقال لهم: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة فقال الرسول صدقت فأثقب الدرة، وأدخل الخيط في الجزعة، فقال سليمان: من لي بثقبها؟ وسأل الإنس

والجن فلم يكن عندهم علم ذلك، ثم سأل الشياطين، فقالوا: نرسل إلى الأرضة، فلما جاءت الأرضة، أخذت شعرة في فمها، ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: يكون رزقي في الشجرة، فقال لها: لك ذلك، ثم قال: من لهذه الخرزة؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبيَّ الله، فأخذت الدودة خيطاً في فمها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: يصير رزقي في الفواكه، فقال لها: لك ذلك، ثم ميز بين الغلمان والجواري بأن أمرهم بأن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها، وتضرب بها الأخرى، وتغسل وجهها، والغلام يأخذ الماء بيديه، ويضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها، والغلام يصبه على ظهره، فميز بين الغلمان والجواري، ثم رد سليمان الهدية، كما أخبر الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾؛ أي: الرسول المبعوث من قبل بلقيس وهو المنذر بن عمرو ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ بالهدية، والمراد بهذا المضمر الجنس، فلا ينافي كونهم جماعة، كما يدل عليه قولها: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿فلما جاؤوا﴾ وقرأ: ﴿ارجعوا﴾ جعله عائداً على قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ سليمان مخاطباً للرسول والمرسل تغليباً على الغائب؛ أي: قال بعد ما جرى بينه وبينهم من قصة الحقة وغيرها، لا أنه خاطبهم أول ما جاؤوه، كما يفهم من ظاهر العبارة.

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ حقير، أصله: أتمدونني[2]، فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة الدالة عليها، والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: لا ينبغي لكم يا أهل سبأ أن تمدوني وتعاونوني بالمال، ثم علل هذا الإنكار بقوله: ﴿فَمَآ﴾ موصولة ﴿ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة، والملك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾ من المال ومتاع الدنيا، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وقع لها عندي؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

أي: لأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاني منه ما لم يعط أحداً، ومع ذلك أكرمني بالنبوة والدين.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[1]: ﴿أتمدونني﴾ بنونين وياء في الوصل. وروي المسيبي عن نافع: ﴿أتمدوني﴾ بنون واحدة خفيفة وياء في الوصل والوقف. وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ حمزة ﴿أتمدوني بمال﴾ بنون واحدة مشددة ووقف على الياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿فما آتان الله﴾ بكسر النون من غير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص عن عاصم: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ﴾ بفتح الياء، فكأنهم فتحوا التاء، غير الكسائي، فإنه أمالها من ﴿أتاني الله﴾.

أي: قال منكراً لإمدادهم له بالمال مع علو سلطانه، وكثرة أمواله[2]: أتساعدونني وتكرمونني بمال حقير، فما آتاني الله من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾؛ أي: بما يهدى إليكم من الأموال. فالمضاف إليه ضمير المهدي إليه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ حباً لزيادة المال وكثرته لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنّبوة. والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزدراء بهم والحط عليهم.

وفي «الإرشاد»[3]: إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه افتخاراً وامتناناً، واعتداداً بها، كما ينبىء عنه ما ذكر من حديث الحقة والجزعة وتغيير زي الغلمان والجواري وغير ذلك. انتهى.

---

(١) زاد المسير.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

يقول الفقير: إنهم لما رأوا ما أنعم الله به على سليمان من الملك الكبير.. استقلوا بما عندهم حتى هموا بطرح اللبنات، إلا أنه منعتهم الأمانة من ذلك، فكيف امتنوا على سليمان بهديتهم، وافتخروا على أن حديث الحقة ونحوه إنما كان على وجه الامتحان لا بطريق الهدية كما عرف.

وفي «التأويلات» يشير إلى أن الهدية موجبة لاستمالة القلوب، ولكن أهل الدين لما عارضهم أمر ديني في مقابلة منافع كثيرة دنيوية.. رجحوا طرف الدين على طرف المنافع الكثيرة الدنيوية، واستقلوا كثرتها؛ لأنها فانية، واستكبروا قليلاً من أمور الدين؛ لأنها باقية، كما فعل سليمان لما جاءه الرسول بالهدية.. استغل كثرتها، وقال: فما آتاني الله من كمالات الدين والقربات والدرجات الأخروية خير مما آتاكم من الدنيا وزخارفها. ﴿بَلْ أَنتُم﴾ أي: أمثالكم من أهل الدنيا بمثل هديتكم الدنيوية الفانية تفرحون؛ لخسة نفوسكم، وجهلكم عن السعادات الأخروية الباقية.

قال جعفر الصادق: الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيء منها، أو يحزنوا عليه، فلا ينبغي لعالم ولا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا.

وعبارة المراح هنا: قوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ فالمصدر[1] إما مضاف لفاعله؛ أي: تفرحون بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، واعتداداً به من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثله، وإما مضاف لمفعوله؛ أي: تفرحون بما يهدى إليكم حباً في كثرة أموالكم، وحالي خلاف حالكم، فلا أفرح بالدنيا، وليست الدنيا من حاجتي. وقيل: بل أنتم بهديتكم هذه تفرحون بأخذها إن رددت إليكم.

ثم قال سليمان عليه السلام للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول[2]، أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق، لأن الرجوع مختص بالرسول، والإمداد ونحوه عام. أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا،

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

وخاطبهم معه فيما سبق افتناناً في الكلام. وقرأ عبد الله: ﴿ارجعوا﴾. وقيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد.

﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى بلقيس وقومها بهديتهم؛ ليعلموا أن أهل الدين لا ينخدعون بحطام الدنيا، وإنما يريدون الإسلام فليأتوا مسلمين مؤمنين، وإلا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾؛ أي: بجموع من الجن والإنس والتأييد الإلهي ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم﴾؛ أي: لا طاقة لهم ﴿بِهَا﴾؛ أي: بمقاومتها، ولا قدرة لهم على مقابلتها. وقرأ ابن مسعود: ﴿بهم﴾ بضمير جمع الذكور، واللام في ﴿لنأتينهم﴾ موطئة للقسم المحذوف. وقوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ معطوف على جواب القسم؛ أي: فوالله لنأتين بلقيس وقومها في أرضهم سبأ بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: من سبأ وأرضهم التي هم فيها حالة كونهم ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز؛ أي: ذليلين بذهاب ملكهم وعزهم. بعدما كانوا أعزة أهلها، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ أي: أسارى مهانون بوقوعهم في أسر واستعباد بأغلال أيمانهم إلى أعناقهم، حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق الإجلاء. وقيل(١): هي حال مؤكدة؛ لأن الصَّغار هو الذلة. وقيل: إن المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد. وقيل: إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة.

ولما رجع رسل بلقيس إليها، وأخبروها بخبر سليمان.. قالت: والله قد علمت أنه ليس بملك، ولا لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، وتجهزت للمسير إلى سليمان. وقيل: أخبر جبريل سليمان بذلك، فقال سليمان: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها... إلخ.

وروي عن ابن عباس(٢) ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان، وأخبروها الخبر.. قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك، ولا لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها، فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في داخل بعض، ثم غلقت عليه سبعة أبواب، وجعلت عليها حراساً يحفظونه، ثم تجهزت للمسير، فارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملك من ملوكها تحت كل ملك ألوف، فخرج سليمان يوماً فجلس على سريره فسمع وهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس، وقد نزلت بهذا المكان؛ أي: الذي على مسيرة فرسخ من سليمان عليه السلام. فأقبل سليمان على جنوده فـ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ والأشراف ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؛ أي: من الذي منكم يأتيني بعرشها وسريرها؛ أي: بعرش بلقيس الذي تقدم وصفه بالعظم ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى﴾؛ أي: قبل أن تأتيني هي وقومها حالة كونهم ﴿مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مؤمنين بالله وبرسوله؛ لأنه قد أوحي إليه أنها سوف تسلم.

قيل: أراد سليمان أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى صدقه في نبوته، وكان سليمان إذ ذاك في بيت المقدس، وعرشها في سبأ بلدة باليمن، وبينها وبين بيت المقدس مسيرة شهرين، وأن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه؛ لأن العرش سرير المملكة، وقيل: إنما أراد أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها.. لم يحل أخذ أموالهم بغير رضاهم، وهذا[1] بعيد عند أهل التحقيق، أو أراد أن يؤتي به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره، اختباراً لعقلها، ولهذا قال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾.

قال ابن عطية: وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها ورده إياها وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأولين. انتهى. وقيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم. والقول الأول هو الذي عليه الأكثر.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾؛ أي: مارد خبيث ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيان له؛ إذ يقال للرجل

---

(١) النسفي.

الخبيث المنكر المعفر لأقرانه عفريت. قيل: اسم[1] هذا العفريت كودت. ذكره النحاس عن وهب بن منبه. وقال السهيلي: اسمه ذكوان. وقيل: اسمه دعوان. وقيل: صخر. وفي «فتح الرحمن»: اسمه كوذى أو اصطخر سيد الجن، وكان قبل ذلك متمرداً على سليمان. واصطخر فارس تنسب إليه، وكان الجني كالجبل العظيم يضع قدمه عند منتهى طرفه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عِفْرِيتٌ﴾ ـ بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء وسكون المثناة التحتية وبالتاء ـ، وقرأ أبي بن كعب وأبو العالية وابن يعمر وعاصم الجحدري: ﴿عَفْريت﴾ ـ بفتح العين وكسر الراء ـ وقرأ أبو رجاء وأبو السمال وعيسى الثقفي وابن السميقع ورويت عن أبي بكر الصديق: ﴿عفْريَة﴾ ـ بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث ـ، وقرأت فرقة: ﴿عفر﴾ بلا ياء ولا تاء. ويقال في لغة طي وتميم: ﴿عفراة﴾ بالألف وتاء التأنيث، وفيه لغة سادسة: ﴿عفارية﴾، ويوصف بها الرجل، ولما كان قد يوصف به الإنس.. خص بقوله: ﴿من الجن﴾. وقرأ ابن مسعود وابن السميقع أيضاً: ﴿عفراة﴾ بكسر العين وفتح الراء وبألف من غير ياء.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾؛ أي: بعرشها ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾؛ أي: من مجلسك للحكومة بين الناس، وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم. وقيل: المعنى قبل أن تستوي من جلوسك قائماً. وقوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾: فعل مضارع، أصله: أأتيك بهمزتين، فأبدلت الثانية ألفاً، وكذا في الموضع الآتي. وقيل: هو اسم فاعل، وهو[3] الأنسب لمقام ادعاء الإتيان بلا محالة، وأوفق بما عطف عليه من الجملة الاسمية؛ أي: أنا آت به في تلك المدة البتة.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾؛ أي: على حمله والإتيان به ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لا يثقل علي حمله ﴿أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة، لا أغيره ولا أبدله

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط. وزاد المسير.

(٣) روح البيان.

بغيره، والمعنى أنه سيأتي بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين الناس.

ولما قال سليمان عليه السلام: أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو آصف بن برخيا بن خالة سليمان، وكان وزيره وكاتبه ومؤدبه في حال صغره، وكان رجلاً صديقاً يقرأ الكتب الإلهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وقد خلقه الله لنصرة سليمان ونفاذ أمره.

فالمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة على موسى وإبراهيم وغيرهما، أو اللوح المحفوظ وأسراره المكنونة. قال ابن عطية: وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، ويكون الخطاب على هذا للعفريت، كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت، فقال له تحقيراً له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾؛ أي: بعرشها ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ أي: بصرك مما نظرت إليه يعني أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك.

والمعنى على هذا القول الأخير؛ أي[1]: قال سليمان للعفريت محدثاً بنعمة الله وعظيم فضله عليه: أنا أفعل ما لا تستطيع أنت، أنا أحضره في أقصر ما يكون مدة، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك، وقد كان كما قال. وقال المعتزلة: هو جبريل؛ وذلك لأنهم لا يرون كرامة الأولياء، وقيل: الخضر، والأول أولى، وقيل: غير ذلك مما لا أصل له. والله أعلم.

ويروى[2]: أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد عينيه، فنظر نحو اليمن، فدعا آصف فغار العرش في مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل أن يرتد طرفه. قيل: كان الدعاء الذي دعا به آصف يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: يا حي يا قيوم، وروي ذلك عن عائشة، وروي عن الزهري قال: دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها. والمراد بالطرف تحريك

---

(١) المراغي. (٢) النسفي.

الأجفان وفتحها للنظر، وارتداده انضمامها.

قال شيخ الإسلام[1]: القائل في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو كاتب سليمان واسمه آصف. فإن قلت: كيف قدر مع أنه غير نبي على ما لم يقدر عليه سليمان من إحضار عرش بلقيس في طرفة عين؟ قلت: يجوز أن يخص غير النبي بكرامة لا يشاركه فيها النبي، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا لم يرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، وقد نقل أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أراد الخروج إلى الغزاة.. قال لفقراء المهاجرين والأنصار ادعو لنا بالنصرة، فإن الله سبحانه ينصرنا بدعائكم، ولم يكونوا أفضل منه مع أن كرامة التابع من جملة كرامة المتبوع.

ويحكى: أن العلم الذي كان عند آصف هو اسم الله الأعظم، فدعا به، فأجيب له في الحال، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنيجي اسم الله، وقيل: يا حي يا قيوم، وقيل: يا ذام الجلال والإكرام، وقيل: الله يا رحمن، وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت. انتهى.

قال بعضهم[2]: أراد سليمان أن يظهر كرامة أمته؛ ليعلم أن في أمم الأنبياء أهل الكرامات؛ لئلا ينكروا من كرامات الأولياء. وقال محمد بن المنكدر: إنما الذي عنده علم هو سليمان نفسه، قال له عالم من بني إسرائيل: أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه منك عند الله، فإن دعوت الله كان العرش عندك، فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

قال الرازي: وهذا القول أقرب، والمخاطب العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار المعجزة فطالبه أولاً، ثم بين أنه يتحصل له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت. قيل: خر سليمان ساجداً ودعا باسم الله الأعظم، فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسي سليمان. وإنما هذا

---

(١) فتح الرحمن. (٢) المراح.

أقرب؛ لأن سليمان كان أعرف بالكتاب من غيره؛ لأنه نبي، وإن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف.. لاقتضى ذلك تفضيله على سليمان، ولو افتقر إليه في ذلك.. لاقتضى ذلك نقص حال سليمان في أعين الخلق، ولأن ظاهر قوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ يقتضي أن يكون إتيان العرش بدعاء سليمان. انتهى.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ قبله حذف، تقديره: فأذن له سليمان، فدعا الله، فأتي به فلما رآه سليمان؛ أي: فلما رأى سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾؛ أي: حاضراً لديه؛ أي: متحولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف ﴿قَالَ﴾ سليمان شاكراً لربه لما آتاه الله سبحانه من هذه الخوارق ﴿هذا﴾؛ أي: إتيان العرش في هذه المدة القصيرة ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾؛ أي: من إحسانه إلي من غير استحقاق له من قبلي أكرمني به ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾؛ أي: لكي يختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ه بذلك، واعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة. ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ه بترك الشكر عليه، وعدم القيام به، أو بأن أثبت لنفسي تصرفاً في ذلك.

قال الأخفش: المعنى لينظر أأشكر أم أكفر. والابتلاء: الاختبار، وإذا قيل[1]: ابتلي فلان بكذا وبلاه.. يتضمن أمرين:

أحدهما: تعرف حاله، والوقوف على ما يجهل من أمره.

والثاني: ظهور جودته ورداءته، وربما قصد به الأمران، وربما يقصد به أحدهما، فإذا قيل بلاه الله كذا، وابتلاه.. فليس المراد إلا ظهور جودته، أو رداءته دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يجهل منه؛ إذ كان تعالى علام الغيوب.

﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراني محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة، وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد لنفسي مدخلاً في البين، وأقصر في إقامة موجبه، و﴿أَمْ﴾ هنا متصلة.

---

(١) روح البيان.

﴿وَمَن شَكَرَ﴾ فضل الله سبحانه وإحسانه إليه ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنه غني عنه وعن شكره؛ أي: لغرض نفسه ونفعها، فإن نفع شكره يعود إليه؛ وهو أن يخرج عن علقة وجوب الشكر عليه، ويستوجب به تمام النعمة ودوامها؛ لأن[1] الشكر قيد النعمة الموجودة، وصيد النعمة المفقودة.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: ترك شكر الله سبحانه على فضله وإحسانه إليه بأن لم يعرف النعمة، ولم يؤد حقها، فإن مضرة كفره ووباله عليه، لا يضر الله سبحانه كفرانه. ﴿فَإِنَّ رَبِّي﴾؛ أي: لأن ربي سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ عن شكره، لا يضره ذلك الكفران ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضال عليه، لا يقطع نعمه عنه بسبب إعراضه عن الشكر وكفران النعمة. قال الواسطي: ما كان منا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا.

قال في «المفردات»: المنحة والمحنة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر. والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر، ولهذا قال أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله. وقال الواسطي أيضاً في الشكر: إبطال رؤية الفضل كيف يوزاي شكر الشاكرين فضله، وفضله قديم وشكرهم محدث. اهـ.

قال في «الأسئلة المقحمة»: في الآية دليل على إثبات الكرامات من وجهين:

أحدهما: أن العفريت من الجن لما ادعى إحضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه.. لم ينكر عليه سليمان، بل قال: أريد أعجل من ذلك، فإذا جاز أن يكون مقدوراً لعفريت من الجن.. فكيف لا يكون مقدوراً لبعض أولياء الله تعالى.

---

(١) الخازن.

والثاني: أن الذي عنده علم من الكتاب؛ وهو آصف وزير سليمان لم يكن نبياً، وقد أحضره قبل أن يرتد طرفه إليه، كما نطق به القرآن، فدل على جواز إثبات الكرامات الخارقة للعادات للأولياء خلافاً للقدرية حيث أنكروا ذلك.

فصل

والكرامة[1]: ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص صالح غير مقرون بدعوى النبوة والرسالة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يسمى استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يسمى معجزة. قال بعضهم: لا ريب عند أولي التحقيق أن كل كرامة نتيجة فضيلة من علم أو عمل أو خلق حسن، فلا يعول على خرق العادة بغير علم صحيح، أو عمل صالح، فطي الأرض إنما هو نتيجة عن طي العبد أرض جسمه بالمجاهدات، وأصناف العبادات، وإقامته على طوال الليالي بالمناجاة، والمشي على الماء لمن أطعم الطعام وكسا العراة؛ إما من ماله، أو بالسعي عليهم، أو علم جاهلاً، أو أرشد ضالاً؛ لأن هاتين الصفتين سر الحياتين، الحسية والعلمية، وبينهما وبين الماء مناسبة بينة.

وترك الظهور بالكرامات الحسية والعلمية أليق للعارف؛ لأنه محل الآفات، وللعارف استخدام الجن أو الملك في غذائه من طعامه وشرابه وفي لباسه. قال في «كشف الأسرار»: قد تحصل الكرامة باختيار الولي ودعائه، وقد تكون بغيره، وفي الحديث: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين - إزار ورداء باليين - لا يؤبه - يبالي - له لو أقسم على الله لأبره».

وكرامات الأولياء ملحقة بمعجزات الأنبياء؛ إذ لو لم يكن النبي صادقاً في معجزته ونبوته. . لم تكن الكرامة تظهر على من يصدقه، ويكون من جملة أمته، ولا ينكر كرامات الأولياء إلا أهل الحرمان سواء أنكروها مطلقاً، أو أنكروا كرامات أولياء زمانهم، وصدقوا كرامات الأولياء الذين ليسوا في زمانهم

---

(١) روح البيان.

كالصحابة والسلف الصالح، كمن صدق بموسى وكذب بمحمد عليهما السلام. وما هي إلا خصلة إسرائيلية، نسأل التوفيق وحسن الخاتمة لنا ولجميع المسلمين أجمعين. آمين.

﴿قَالَ﴾ سليمان، كرر الحكاية تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة؛ لما أن الأول من باب الشكر، والثاني أمر لخدمه: ﴿نَكِّرُوا﴾؛ أي: غيروا ﴿لَهَا﴾؛ أي: لأجل إدراك مستوى عقلها. ﴿عَرْشَهَا﴾؛ أي: سريرها الذي جيء به؛ أي: غيروا هيئته وشكله بوجه من الوجوه، بحيث ينكر ويجهل، والأمر للشياطين، فجعل الشياطين أسفله أعلاه، وبنوا فوقه قباباً أخرى هي أعجب من تلك القباب، وجعلوا موضع الجوهر الأحمر الأخضر وبالعكس؛ أي: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته بزيادة أو نقصان.

قال الفراء وغيره: إنما أمرهم بتنكيره؛ لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها. وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان، فيولد له منها ولد، فيبقوا مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار.

وقوله: ﴿نَنظُرْ﴾ قراءة الجمهور بالجزم على أنه جواب الأمر(١). وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف؛ أي: نختبر ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته فتظهر رجاحة عقلها. ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته فتظهر سخافة عقلها. وذلك(٢) أن الشياطين خافوا أن تفشي بلقيس أسرارهم إلى سليمان؛ لأن أمها كانت جنية، وأن يتزوجها سليمان، ويكون بينهما ولد جامع للجن والإنس فيرث الملك، ويخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأفظع، ولا ينفكون من التسخير، ويبقون في التعب والعمل أبداً، فأرادوا أن يبغضوها إلى سليمان، فقالوا: إن في عقلها خللاً وقصوراً، وإنها شعراء الساقين، وإن رجليها كحافر الحمار، فأراد سليمان أن يختبرها في عقلها فأمر بتنكير العرش، واتخذ الصرح كما سيأتي؛

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ليتعرف ساقيها ورجليها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيس سليمان والعرش بين يديه ﴿قِيلَ﴾ لها من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة امتحاناً لعقلها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؛ أي: أمثل هذا عرشك الذي تركته في قصرك، وأغلقت عليه الأبواب، وجعلت عليه حراساً، ولم يقل: هذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً لها، فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، وهو اختيار عقلها ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس جواباً له: ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: كأن عرشي ﴿هُوَ﴾؛ أي: هذا العرش الحاضر، أو كأن هذا الحاضر هو عرشي، فلوحت لما اعتراه بالتنكير من نوع مغاير في الصفات مع اتحاد الذات، فاستدل سليمان بذلك على كمال عقلها، حيث لم تقر ولم تنكر، ولم تقل لا، ولا قالت: نعم، بل شبهوا عليها فشبهت عليهم مع علمها بحقيقة الحال، ولو قيل لها: هذا عرشك؟ لقالت: نعم، لمعرفتها للعرش. وقال عكرمة: كانت حكيمة، لم تقل: نعم، خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب لها.

وكأنها ظنت أن سليمان أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي[1]: وأعطينا العلم بكمال قدرته تعالى، وصحة نبوتك ﴿مِن قَبْلِهَا﴾؛ أي: من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها الآن في العرش بما سمعناه من رسولنا المنذر بن عمرو من الآيات الدالة على ذلك ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين خاضعين لأمر سليمان من ذلك الوقت. وهذا من تتمة كلام بلقيس.

والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبلها؛ أي: من قبل الآية الظاهرة في العرش. وقيل: هو من كلام سليمان، والمعنى عليه: وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، وبمجيئها طائعة من قبلها؛ أي: من قبل مجيئها، وكنا مسلمين منقادين لأوامر الله تعالى.

ويكون الغرض من هذا[2]: شكر نعمة الله تعالى عليه أن خصه بمزيد العلم

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

والتقدم في الإسلام، وقيل: هو من كلام قوم سليمان، والقول الثاني أرجح[1] من سائر الأقوال.

وخلاصة المعنى على القول الأول: وعليه أكثر المفسرين؛ أي: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه من أمر الهدهد، وبما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك، وكنا منقادين لك من ذلك الحين، فلا حاجة إلى إظهار معجزات أخرى.

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾؛ أي: منع بلقيس من إظهار ما ادعته من الإسلام إلى الآن. ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من الإسلام؛ أي: منعها عن عبادة الله سبحانه عبادة ما كانت تعبده من دون الله تعالى قديماً؛ وهو الشمس، فـ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعل ﴿صد﴾، ويحتمل كون[2] فاعل ﴿صد﴾ ضميراً عائداً على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، و﴿مَا﴾ مجرورة بحرف جر محذوف.

والمعنى: وصدها سليمان؛ أي: منعها وصرفها عن الذي كانت تعبده من دون الله، وحال بينها وبينه؛ وهو الشمس، أو المعنى[3]: وصدها الله سبحانه عن عبادتها القديمة بالتوفيق للإيمان، فيكون الفاعل ضميراً يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه، و﴿مَا﴾: مفعول على الوجهين الأخيرين، وفاعل على الأول، والأول أولى، والجملة مستأنفة للبيان، كما ذكرنا.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: تعليل لسببية عبادتها المذكورة؛ للصد عن عبادة الله سبحانه؛ أي: إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إسلامها، وهي بين ظهرانيهم إلى أن دخلت تحت ملك سليمان؛ أي: فصارت من قوم مؤمنين، أو استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من مجوس يعبدون الشمس، فلا تعرف إلا عبادتها.

قرأ الجمهور[4]: بكسر الهمزة. وقرأ سعيد بن جبير وأبو حيوة وابن أبي

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح بتصرف.
(٣) البيضاوي.
(٤) البحر المحيط.

عبلة بفتحها، فإنا على تقدير الجر؛ أي: لأنها، وإما على أن يكون بدلاً من الفاعل الذي هو ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾؛ أي: ومنعها عن إظهار دعواها الإسلام كونها من قوم كافرين، أو وصرفها سليمان عن صيرورتها كافرة.

والمعنى: أي[1] ومنعها ما كانت تعبده من دون الله تعالى؛ وهو الشمس عن إظهار الإسلام، والاعتراف بوحدانيته تعالى من قبل أنها من قوم كانوا يعبدونها، ونشأت بين أظهرهم، ولم تكن قادرة على إظهار إسلامها إلى أن مثلت بين يدي سليمان، فاستطاعت أن تنطق بما كانت تعتقده في قرارة نفسها، ويجول في خاطرها.

روي: أن سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه ـ أي أرضه ـ من زجاج أبيض شفاف يجري من تحته الماء، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره، فلما قدمت إليه استقبلها فيه، وجلس في صدره، فحين أرادت الوصول إليه.. حسبته ماء، فكشفت عن ساقيها؛ لئلا تبتل أذيالها، كما هي عادة من يخوض الماء، فقال لها سليمان: إن ما تظنينه ماء ليس بالماء، بل هو صرح قد صنع من الزجاج، فسترت ساقيها وعجبت من ذلك، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها، وسلطان أعز من سلطانها، ودعاها سليمان إلى عبادة الله سبحانه، وعابها على عبادة الشمس دون الله سبحانه، فأجابته إلى ما طلب، وقالت: رب إني ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء، وأخلصت له العبادة.

وإلى ما تقدم أشار سبحانه بقوله: ﴿قِيلَ لَهَا﴾ من جهة سليمان ﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾؛ أي: الصحن والبلاط المتخذ من زجاج. قال أبو عبيدة[2]: الصرح: القصر. وقال الزجاج: الصرح الصحن. يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها. وقال ابن قتيبة: الصرح: بلاط اتخذ من قوارير، وجعل تحته ماء وسمك.

﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ﴾؛ أي: فلما رأت بلقيس الصرح؛ أي: ذلك الصحن المتخذ من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

زجاج شفاف ﴿حَسِبَتۡهُ﴾؛ أي: ظنت ذلك الصرح ﴿لُجَّةٗ﴾؛ أي: ماء غمرا ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ على عادة من أراد خوض الماء، تثنية ساق؛ وهي[1] ما بين الكعبين، كعب الركبة وكعب القدم.

وقرأ ابن كثير وقنبل في رواية الأخريط عن وهب بن واضح: ﴿عن سأقيها﴾ بالهمز. قال أبو عليّ: وهي ضعيفة، وكذلك في قراءة قنبل ﴿يوم يكشف عن سأق﴾، وأما همزة السؤق وعلى سؤقه، فلغة مشهورة في همز ﴿الواو﴾ التي قبلها ضمة، ذكره أبو حيان.

أي: تَشَمَّرَت؛ لئلا تبتل أذيالها؛ لأجل أن تصل إلى سليمان، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، خلا أنها شعراء. قال وهب بن منبه: فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنها قصد بها الغرق، وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بدّ من امتثال الأمر، فرفعت ثيابها عن ساقيها فرآهما، فإذا هي أحسن النساء ساقاً وقدماً سليمة مما قالت الجن فيها إلا أنها كانت كثيرة الشعر في ساقيها، فلما علم الحال صرف بصره عنها.

﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام حين رأى منها الدهشة والرعب لا تكشفي ساقيك ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن ما توهمته ماء ﴿صَرۡحٞ﴾؛ أي: بلاط ﴿مُّمَرَّدٞ﴾؛ أي: مملس؛ أي: أملس مصنوع ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾؛ أي: من زجاج صاف شفاف، وليس بماء؛ جمع قارورة؛ أي: إن الذي ظننته ماء سقف مملس مصنوع من زجاج تحته ماء، فلا تخافي واعبري.

وحاصل ما في المقام كما مر قريباً: أن سليمان[2] أمر الشياطين قبل قدوم بلقيس بأن يحفروا على طريقها حفيرة، ويجعلوا سقفها زجاجاً أبيض شفافاً، ويصنعوا فيها ماء وسمكاً وضفدعاً وغير ذلك من حيوانات الماء، وصار الماء وما فيه يرى من هذا الزجاج، فمن أراد مجاوزته يمر فوق السطح الذي تحته الماء، ولا يمسه الماء، ومن لم يكن عالماً بالحال يظن هذا ماء مكشوفاً ليس له

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

سقف يمنع من الخوض فيه، ووضع سليمان عليه السلام سريره في صدر ذلك السطح، فجلس عليه، فدعاها إليه وقال لها: ﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾. فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت، و﴿قَالَتۡ﴾ حين عاينت تلك المعجزة أيضاً بعد أن دعاها سليمان إلى الاسلام ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بعبادة الشمس، والثبات على الكفر فيما تقدم من الزمان، وقيل بسوء ظني بسليمان أنه يغرقني في اللجة. ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: ودخلت في دين الإسلام مصاحبة له في الدين مقتدية به. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: معبود العالمين، التفتت من الخطاب إلى الغيبة؛ أي: إلى الاسم الجليل، والوصف بالربوبية لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرده باستحقاق العبودية، وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس. والمعنى[(١)]: أخلصت له التوحيد تابعة لسليمان مقتدية به.

وقال القيصري: أسلمت إسلام سليمان؛ أي: كما أسلم سليمان. و﴿مَعَ﴾ في هذا الموضع كـ﴿مع﴾ في قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾؛ إذ لا شك أن زمان إيمان المؤمنين ما كان مقارناً لزمان إيمان الرسل، وكذا إسلام بلقيس ما كان عند إسلام سليمان، فالمراد كما أنه آمن بالله آمنت بالله، وكما أنه أسلم لله أسلمت لله. انتهى.

ويجوز أن يكون ﴿مَعَ﴾ هنا واقعاً موقع بعد، كما في قوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ وقال[(٢)] شيخ الإسلام: حقيقة المعية الاتفاق في الزمان، وسليمان كان مسلماً قبلها، ولم يقل بدل ﴿مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ على يد سليمان؛ لأنها كانت ملكة فلم تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها، وإن كان الواقع كذلك. انتهى.

قيل لما أراد سليمان أن يتزوجها، وكره شعر ساقيها.. أمر الشياطين أن يتخذوا النورة والحمام لأجل إزالته، فكانتا من يومئذ، فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً حتى بقيت على نكاحه إلى أن مات عنها، ورزق منها بولد اسمه داود.

---

(١) روح البيان. (٢) فتح الرحمن.

وأقرها على ملكها، وأمر الجن فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة قصور لم يرَ الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً، وكان يزورها في الشهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وكان يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان، فسبحان من لا يزول ملكه.

فائدة: روي[1] أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فمدة ملكه أربعون سنة، ووفاته في أواخر سنة خمس وسبعين وخمس مئة لوفاة موسى عليه السلام، وبين وفاته والهجرة الشريفة الإسلامية ألف وسبع مئة وثلاث وسبعون سنة، ونقل أن قبره ببيت المقدس عند الجيسمانية، وهو وأبوه داود في قبرٍ واحد، وعاش أبوه داود مئة سنة.

قصص صالح عليه السلام

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ معطوف[2] على قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُردَ﴾، واللام فيه موطئة للقسم، وهذه القصة من جملة بيان قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهي قبيلة من العرب كانوا يعبدون الأصنام ﴿أَخَاهُمْ﴾ النسبي المعروف عندهم بالصدق والأمانة، وقوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ عطف بيان من ﴿أَخَاهُمْ﴾، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن حاذر بن ثمود، وعاش[3] صالح مئتين وثمانين سنة، وبينه وبين هود مئة سنة، وعاش هود أربع مئة سنة وأربعاً وستين سنة، وبينه وبين نوح ثمان مئة سنة.

أي: أرسلناه إليهم بـ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي: وحدوه بالعبادة، ولا تعبدوا غيره معه، فـ﴿إن﴾ مصدرية في محل الجر بالباء المحذوفة، ويصح كونها مفسرة؛ لأن الإرسال بمعنى الوحي يتضمن معنى القول، كما في «الكرخي».

و﴿إذا﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فجائية؛ أي: ففاجأ إرساله تفرقهم واختصامهم، فآمن فريق وكفر فريق؛ أي: استمروا على كفرهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) الفتوحات.

و﴿هُمۡ﴾: مبتدأ و﴿فَرِيقَانِ﴾: خبره، وجملة ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: صفة ﴿فَرِيقَانِ﴾، والواو: فيه مجموع الفريقين، كما في «البيضاوي». وهو العامل في إذا على القول بظرفيتها؛ أي: ففي الوقت الحاضر أعني: وقت الإرسال اختصم الفريقان في الدين، كل فريق يقول الحق معي.

والمراد بالفريقين[1]: المؤمنون منهم والكافرون، ومعنى الاختصام: أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه، ويزعم أن الحق معه. وقيل: إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟. وقيل: أحد الفريقين صالح، والفريق الآخر جميع قومه؛ وهو ضعيف.

والمعنى[2]: إذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون في الدين، فيقول كل فريق الحق معي، وهو مبين في قوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾ وقال الفريق الكافر: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

ومعنى الآية: وعزتي وجلالي لقد بعثنا إلى ثمود أخاهم صالحا، وقلنا لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره. وحين دعاهم إلى ذلك افترقوا فرقتين؛ فريق صدق صالحاً، وآمن بما جاء به من عند ربه، وفريق كذبه، وكفر بما جاء به وصارا يتجادلان ويتخاصمان، وكل منهما يقول: أنا على الحق، وخصمي على الباطل.

ثم ذكر أن صالحاً استعطف المكذبين، وكانوا أكثر عدداً وأشد عتوا وعناداً، حتى قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ ﴿قَالَ﴾ صالح ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بالعقوبة التي يسوءُكم نزولها بكم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) النسفي.

﴿قَبۡلَ﴾ حصول ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ والخيرات التي بشرتكم بها في الدنيا والآخرة إن أنتم مؤمنون.

والاستعجال: طلب الشيء قبل أوانه، وأصل ﴿لِمَ﴾ لما على أنه استفهام، حذفت ألفها فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة في صورة الجر بالحرف؛ أي: قال لهم: لأي غرض تطلبون عجلة العقوبة حيث قلتم ائتنا بما تعدنا قبل التوبة، فتؤخرونها إلى حين نزول العذاب، فإنهم كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون: إن وقع تبنا حينئذٍ وإلا فنحن على ما كنا عليه.

ثم نصحهم، وطلب إليهم أن يستغفروا ربهم لعلهم يرحمون، فقال: ﴿لَوۡلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا؛ أي: هلا ﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتتوبون إليه من كفركم، فيغفر لكم عظيم جرمكم، ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الخطايا. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بقبولها؛ إذ قد جرت سنته أن لا تقبل التوبة بعد نزول العقوبة، أي[(١)]: رجاء أن ترحموا أو لكي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً؛ إما لأن العذاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال الفريق الكافر منهم لصالح ومن معه: إنا قد ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ وتشاءمنا ﴿بِكَ﴾ يا صالح ﴿و﴾ بـ﴿مَن﴾ دخل ﴿مَّعَكَۚ﴾ في دينك؛ أي: كرهنا فألكم وفأل دينكم، حيث[(٢)] تتابعت علينا الشدائد والمصائب. من القحط والاختلاف منذ اخترعتم دينكم هذا، وكانوا قحطوا عند مبعثه بسبب تكذيبه، فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك فنسبوه إلى مجيئه، يعنون: شدتنا من شؤمك ومن شؤم من آمن معك؛ أي: من قبح حالكم وقبح دينكم، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا ـ حركوا ـ طائراً من وكره، فإن طار يمنةً ساروا وفعلوا ما عزموا، وإن طار يسرةً تركوا ذلك.

---

(١) الشوكاني.   (٢) المراح.

وفي «الفتوحات»: تشاءمنا؛ أي: أصابنا الشؤم؛ أي: الضيق والشدة. وفي «القرطبي»: الشؤم النحس، ولا شيء أضر ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة، أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً.. فقد جهل. اهـ.

وأصل ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ تطيرنا، وقد قرىء بذلك فادغمت التاء في الطاء، واجتلبت الهمزة لسكون الطاء، فإذا ابتدأت قلت: اطيرنا، وإذا وصلت لم تذكر الهمزة وتسقط لأنها همزة وصل.

فلما قالوا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾؛ أي: حظكم ونصيبكم من الخير والشر مكتوب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ومقدر عليكم من عنده تعالى، لا من عندنا. وقيل: طائركم؛ أي: شدتكم ورخاؤكم من عند الله تعالى، لا من عندنا. وقال ابن عباس: الشؤم: الشدة التي أتتكم من عند الله بكفركم. وقيل: طائركم؛ أي: عملكم عند الله سمي طائراً؛ لسرعة صعوده إلى السماء. وقيل طائركم؛ أي: سببكم الذي جاء منه شركم عند الله؛ وهو قدره، سمي القدر طائراً لسرعة نزوله، ولا شيء أسرع من قضاء محتوم.

والمعنى: أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله تعالى بسبب كفركم، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾؛ أي: تختبرون[1] بتعاقب السراء والضراء؛ أي: الخير والشر، والدولة والنكبة، والسهولة والصعوبة، أو تعذبون بذنوبكم. وقيل: يفتنكم غيركم. وقيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب عن ذكر طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

واختبار الله تعالى[2]: إنما هو لإظهار الجودة والرداءة، ففي الأنبياء والأولياء والصلحاء تظهر الجودة، ألا ترى أن أيوب عليه السلام امتحن فصبر، فظهر للخلق درجته وقربه من الله تعالى، وفي الكفار والمنافقين والفاسقين تظهر

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الرداءة. حكي أن امرأة مرضت مرضاً شديداً طويلاً، فأطالت على الله تعالى في ذلك وكفرت، ولذا قيل: عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان.

والابتلاء مطلقاً؛ أي: سواء كان في صورة المحبوب، أو في صورة المكروه رحمة من الله تعالى في الحقيقة؛ لأن مراده جذب عبده إليه، فإن لم ينجذب حكم عليه بالغضب في الدنيا والآخرة، كما ترى في الأمم السالفة، ومن يليهم في كل عصر إلى آخر الزمان.

والمعنى: أي[1] بل أنتم قوم يختبركم ربكم حين أرسلني إليكم أتطيعونه فتعملوا بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه، أم تعصونه فتعملوا بخلافه فيحل بكم عقابه.

ثم ذكر أن قريته كانت كثيرة الفساد، فقال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: في مدية ثمود، وهي الحجر، وتقدم في سورة الحجر أن الحجر واد بين المدينة والشام، وهو ديار ثمود. ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾؛ أي: تسعة أشخاص، وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة، لا باعتبار لفظه، فإن مميز الثلاثة إلى العشرة مخفوض مجموع. قال[2] ابن عباس - رضي الله عنهما -: أسماؤهم: رهي، ورعيم، وهرمي، وهريم، وداب، وصواب، ورباب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة، وأسماؤهم عن وهب بن منبه قد نظمها بعضهم في بيتين، فقال:

رَبَابٌ وَغَنْمٌ وَٱلْهُذَيْلُ وَمِسْطَعٌ   عُمَيْرٌ بَسِيْطٌ عَاصِمٌ وَقِدَارُ
وَسَمْعَانُ رَهْطِ ٱلْمَاكِرِيْنَ بِصَالِحٍ   أَلاَ إِنَّ عُدْوَانَ ٱلنُّفُوْسِ جَوَارُ

وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح، وكانوا من أبناء أشرافهم.

ثم وصف التسعة بقوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعملون الفساد في أرض الحجر بالشرك، وسائر أنواع المعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفعلون

---

(١) المراغي.   (٢) المراح.

شيئاً من الإصلاح، ففائدة العطف بيان أن إفسادهم لا يخالطه شيء ما من الإصلاح.

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف لبيان[(١)] بعض ما فعلوا من الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة، وتوعدهم بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾؛ أي: تحالفوا، وهو أمر مقول لـ﴿قالوا﴾، أو ماض وقع حالاً من ﴿الواو﴾ في ﴿قالوا﴾ بإضمار قد؛ أي: والحال أنهم تقاسموا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: احلفوا لنباغتنه وأهله بالهلاك ليلاً؛ أي: لنأتين صالحاً ليلاً بغتة، فلنقتلنه وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾؛ أي: لولي دم صالح وأهله إن سألنا عنه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: ما حضرنا هلاكه وهلاكهم فضلاً عن أن نتولى إهلاكهم فيكون مصدراً، أو وقت هلاكهم فيكون زماناً، أو مكان هلاكهم فيكون اسم مكان. ولا ندري من قتله ولا قتل أهله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾؛ أي: ونحلف إنا لصادقون فيما نقول، فهو من تمام القول، وإذا كانوا لم يشهدوا هلاكهم فهم لم يقتلوهم بالأولى، وأيضاً فهم إذا لم يقتلوا الأتباع فأحر بهم أن لا يقتلوا صالحاً.

وقرأ الجمهور[(٢)]: ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ وابن أبي ليلى: ﴿تقسموا﴾ بغير ألف وتشديد السين، وكلاهما من القسم، والتقاسم والتقسيم كالتظاهر والتظهير، والظاهر أن قوله: ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ فعل أمر محكي بالقول، وهو قول الجمهور. وقرأ[(٣)] حمزة والكسائي: ﴿لتبيتنه﴾ بتاء فوقية بعد اللام، وبالرفع للجمع ﴿ثم لتقولن﴾ بتاء فوقية وبالرفع للجمع. وقرأ مجاهد وأبو رجاء وحميد بن قيس: ﴿ليبيتنه﴾ بياء وتاء مضمومتين. ﴿ثم ليقولن﴾ بياء مفتوحة وقاف مضمومة وواو ساكنة ولام مضمومة.

وعبارة أبي حيان: وقرأ الجمهور[(٤)]: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنون فيهما، والحسن وحمزة والكسائي بتاء خطاب الجمع، ومجاهد وابن وثاب

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

وطلحة والأعمش بياء الغيبة، والفعلان مسندان للجمع، وحميد بن قيس بياء الغيبة في الأول مسنداً للجمع؛ أي: ﴿ليبيتنه﴾؛ أي: قوم منا، وبالنون في الثاني؛ أي: جميعنا يقول: لوليه، والبيات: مباغتة العدو.

وقرأ الجمهور: ﴿مهلك﴾ - بضم الميم وفتح اللام - من أهلك الرباعي. وقرأ حفص والمفضل: ﴿مَهْلِكَ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وأبو بكر وأبان عن عاصم بفتحهما، فأما القراءة الأولى فتحتمل المصدر والزمان والمكان؛ أي: ما شهدنا إهلاك أهله، أو زمان إهلاكهم، أو مكان إهلاكهم. ويلزم من هذين أنهم إذا لم يشهدوا الزمان، ولا المكان أن لا يشهدوا الإهلاك. وأما القراءة الثانية فالقياس يقتضي أن يكون للزمان والمكان؛ أي: ما شهدنا زمان هلاكهم ولا مكانه. والثالثة يقتضي القياس أن يكون مصدراً؛ أي: ما شهدنا هلاكه.

والمعنى: أنهم توافقوا[1] وحلفوا بالله لندخلن على صالح ومن آمن به، وهم أربعة آلاف ليلاً بغتة، ونقتلهم جميعاً، ثم لنقولن لولي دم صالح: ما حضرنا قتلهم أو وقته أو مكانه، فلا ندري من قتلهم وإنا لصادقون في إنكارنا لقتلهم؛ أي: لو اتهمنا قوم صالح حلفنا لهم أنا لم نحضر.

قال الزجاج: كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه، وكان هذا مكراً منهم، ومن ثم قال سبحانه محذراً لهم ولأمثالهم: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾؛ أي[2]: غدروا غدراً بهذه المحالفة حين قصدوا تبييت صالح وأهله ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾؛ أي: جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب لهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا؛ أي: وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح؛ إذ ساروا إليه ليلاً ليقتلوه وأهله وهو لا يشعر بذلك فأخذناهم بعقوبتنا، وعجلنا لهم العذاب من حيث لا يشعرون بمكر الله بهم، والمكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة.

﴿فَانْظُرْ﴾؛ أي: فكر يا محمد في أنه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾؛

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

أي: على أيّ حال وقع وحدث عاقبة مكرهم، وهي ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: استأصلناهم بالهلاك؛ أي: أهلكنا هؤلاء التسعة الماكرين بصالح ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييت ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ.

أي: ففكر[1] يا محمد كيف آل أمرهم، وكيف كانت عاقبة مكرهم؟ فقد أهلكناهم وقومهم الذين لم يؤمنوا على وجه يقتضي النظر، ويسترعي الاعتبار، ويكون عظة لمن غدر كغدرهم في جميع الأزمان.

روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه، ولما قال لهم بعد عقرهم الناقة: إنكم تهلكون إلى ثلاثة أيام.. قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقعت عليهم صخرة من جبالهم طبقت عليهم الشعب، فهلكوا وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه.

ومعنى الآية[2]: أن الله دمر التسعة الرهط المذكورين، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك. ومعنى التأكيد بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أنه لم يشذ منهم أحد، ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، فهو تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه.

وقال ابن الجوزي في صفة إهلاكهم أربعة أقوال[3]:

أحدها: أنهم أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم، قاله ابن عباس.

والثاني: رماهم الله تعالى بصخرة فأهلكتهم، قاله قتادة.

والثالث: أنهم دخلوا غاراً ينتظرون مجيء صالح، فبعث الله صخرة سدت باب الغار، قاله ابن زيد.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) زاد المسير.

والرابع: أنهم نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً؛ ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، قاله مقاتل. اهـ.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿إنا دمرناهم﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وحمزة والكسائي بفتحها على أن جملة ﴿أنا﴾ بدل من ﴿عاقبة مكرهم﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي؛ أي: العاقبة تدميرهم، أو يكون على تقدير حرف الجر؛ أي: لأنا دمرناهم، وقرأ أبيّ: ﴿أن دمرناهم﴾ وهي أن التي شأنها أن تنصب المضارع، ويجوز فيها الأوجه الجائزة في أنا بفتح الهمزة.

ثم أكد ما تقدم، وقرره بقوله: ﴿فَتِلْكَ﴾ الآثار الموجودة في ديار ثمود ﴿بُيُوتُهُمْ﴾؛ أي: بيوت الذين كذبوا صالحاً حالة كونها ﴿خَاوِيَةً﴾؛ أي: خالية عن الأهل والسكان، من خوى البطن إذا خلا، أو حالة كونها ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط، وقال ابن عباس: أي: ساقط أعلاها على أسفلها.

﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب ظلمهم المذكور وغيره كالشرك؛ أي: فتلك مساكنهم أصبحت خالية منهم؛ قد أهلكهم الله سبحانه بظلمهم أنفسهم بشركهم به وتكذيبهم برسوله. والمعنى: فانظر إلى بيوتهم خاوية.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿خَاوِيَةً﴾ بالنصب على الحال. قال الزمخشري: عمل فيها ما دل عليه ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة. وقرأ عيسى بن عمر وعاصمَ بن عمرَ ونصر بن عاصم والجحدري برفع ﴿خاوية﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي خاوية، أو على الخبر عن ﴿تلك﴾ و﴿بُيُوتُهُمْ﴾ بدل من ﴿تلك﴾، أو عطف بيان له، أو على أنه خبر كان لـ﴿تلك﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في فعلنا بثمود ما قصصناه عليك، وهو استئصالنا إياهم بالتدمير، وخلاء مساكنهم منهم، وبيوتهم هي بوادي القرى بين المدينة والشام. ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة وعبرة بليغة وعظة زاجرة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

أي: يتصفون بالعلم فيتعظون بها؛ أي: لمن كان من أولي العلم والمعرفة، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها، بحسب السنن التي وضعت في الكون. يعني[1]: اعلم يا محمد أني فاعل ذلك العذاب بكفار قومك في الوقت المؤقت لهم، فليسوا خيراً منهم، كما في «كشف الأسرار».

وبعد أن ذكر من هلكوا.. أردفهم بمن أنجاهم، فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صالحاً ومن معه من المؤمنين من نقمتنا وعذابنا الذي أحللناه بثمود. وقوله ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: الكفر والمعاصي اتقاء مستمرا، معطوف على الصلة، فلذلك خصوا بالنجاة؛ أي: وإنما نجوا[2]؛ لأنهم كانوا يتقون سخط الله، ويخافون شديد عذابه، وأليم عقابه بتصديقهم رسوله الذي أرسله إليهم، وكانوا أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، وهي مدينة من مدن اليمن، وسميت حضرموت؛ لأن صالحاً لما دخلها مات، ثم بنوا مدينة يقال لها: حاضوراء.

وفي هذا إيماء[3] إلى أن الله ينجي محمداً وأتباعه عند حلول العذاب بمشركي قريش، حين يخرج من بين ظهرانيهم، كما أحل بقوم صالح ما أحل حين خرج هو والمؤمنون به إلى أطراف الشام، ونزل رملة وفلسطين.

وفيه أيضاً إشارة[4] إلى أن الهجرة من أرض الظلم إلى أرض العدل لازمة خصوصاً من أرض الظالمين المؤاخذين بأنواع العقوبات؛ إذ مكان الظلم ظلمة فلا نور للعبادة فيه، وإن الإنسان إذا ظلم في أرض ثم تاب، فالأفضل له أن يهاجر منها إلى مكان لم يعص الله تعالى فيه.

فإن قلت[5]: لم قال الله سبحانه هنا: ﴿أنجينا﴾ بصيغة أفعل، وقال: في حم السجدة ﴿ونجينا﴾ بصيغة فعل المضعف، فما الفرق بين الموضعين؟.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.
(٥) فتح الرحمن بتصرف.

قلت: قال هنا: ﴿أنجينا﴾ بصيغة أفعل موافقة لما بعده، حيث قال هنا فيما بعد: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ وَأَمْطَرْنَا﴾ وقال هناك: ﴿نجّينا﴾ بصيغة فعل المضعف موافقة لما قبله حيث قال قبله: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ وموافقة لما بعده أيضاً، حيث قال بعده: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ والله أعلم بأسرار كتابه.

قصة لوط عليه السلام

وقوله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ في صدر قصة صالح. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف للإرسال المحذوف، على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال، وما جرى بينه وبين قومه من الأفعال والأقوال. والمعنى: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا لوطاً بن هاران وقت قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ الساكنين معه في قرية سدوم على وجه الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ﴿أَتَأْتُونَ﴾؛ أي: هل تفعلون الفعلة ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾؛ أي: المتناهية في القبح. والمراد بها هنا اللواطة، والإتيان في الأدبار. وقال بعضهم: انتصاب ﴿لوطا﴾ بإضمار أذكر و﴿إذ﴾ بدل منه؛ أي: واذكر لوطاً إذ قال لقومه على وجه الإنكار عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ إما من بصر القلب وهو العلم. والمعنى[1]: أي: تأتونها، والحال أنكم تعلمون فحشها علماً يقينياً، وتعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح من غيره، ولذا قيل: فساد كبير جاهل متنسك وعالم متهتك، أو من نظر العين؛ أي: وأنتم تبصرونها بعضكم من بعض؛ لما أنهم كانوا يعلنون بها، ولا يستترون حال فعل الفاحشة عتواً وتمرداً، فيكون أفحش. وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ في محل النصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار.

والمعنى[2]: واذكر يا محمد لقومك قصة لوط إذ قال لقومه منذراً ومحذِّراً لهم: إنكم لتفعلون فاحشة لم يسبقكم بها أحد من بني آدم مع علمكم بقبحها لدى العقول والشرائع، واقتراف القبائح ممن يعلم قبحها أشنع.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم بين ما يأتون من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام؛ ليكون أوقع في النفس، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾؛ أي: لتطؤون أدبار الرجال ﴿شَهْوَةً﴾؛ أي: لأجل الشهوة والتلذذ فقط، كالبهائم ليس فيها قصد إعفاف، ولا قصد ولد. ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين النساء اللاتي هن محالُّ الشهوة. وفي قوله: ﴿ائنكم...﴾ إلخ تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي اللواطة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ التحريم، أو العقوبة على هذه المعصية؛ أي: بل أنتم قوم سفهاء ماجنون متجاهلون، حيث لا تعملون بموجب علمكم، فإن من لا يجري على مقتضى بصارته وعلمه، ويفعل فعل الجاهل هو والجاهل سواء، و﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾، والتاء فيه؛ لكون الموصوف في معنى المخاطب.

فإن قلت[1]: إذا فسرنا ﴿تُبْصِرُونَ﴾ بالعلم، وقد قال بعده ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فيكون العلم جهلاً فبينهما مناقضة؟

قلت: معناه تفعلون فعل الجاهلين، وتعلمون أنه فاحشة، وقيل: تجهلون العاقبة، وقيل: أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها.

وقرىء[2]: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وبتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما على الوجهين أو تركه، فالقراءات أربع. واختار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام. ذكره القرطبي».

ومعنى الآية: أي[3] أينبغي أن تأتوا الرجال، وتقودكم الشهوة إلى ذلك، وتذروا النساء اللاتي فيهن محاسن الجمال وفيهن مباهج الرجال، إنكم لقوم جاهلون سفهاء حمقى ماجنون.

وقد أشار سبحانه إلى قبيح فعلهم، وعظيم شناعته من وجوه:

---

(١) الخازن.

(٢) الجلالين.

(٣) المراغي.

١. قوله: ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ فيه الإشارة إلى أن الحيوان الأعجم لا يرضى بمثل هذا.

٢. قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وفي ذلك إيماء إلى أن تركهن، واستبدال الرجال بهن خطأ شنيع، وفعل قبيح.

٣ ـ قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وفي هذا إيماء إلى أنهم يفعلون فعل الجهلاء الذين لا عقول لهم، ولا يدرون عظيم قبح ما يفعلون.

ونحو الآية قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

الإعراب

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على بلقيس، والجملة مستأنفة. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى . . .﴾، إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿أَفْتُونِى﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾ متعلق بـ﴿أَفْتُونِى﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كُنتُ قَاطِعَةً﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به. لـ﴿قَاطِعَةً﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَشْهَدُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وعلامة نصبه حذف النون، والنون الموجودة نون الوقاية، والواو فاعل، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره إلى شهودكم إياي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كان﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة

مستأنفة. ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿أُوْلُواْ﴾: خبر مرفوع بالواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿قُوَّةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ﴾: معطوف عليه. ﴿شَدِيدٍ﴾: صفة ﴿بَأْسٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَيْكِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ أي: والأمر موكول إليك، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَٱنظُرِى﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلنا لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فنقول لك. ﴿انظري ماذا تأمرين﴾: ﴿انظري﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تَأْمُرِينَ﴾. مقدم عليه وجوباً للزومه الصدارة، وهو معلق للنظر عن العمل في لفظ ما بعده. ﴿تَأْمُرِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والمفعول الأول محذوف تقديره: تأمريننا.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿دَخَلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿قَرْيَةً﴾: مفعول به على التوسع، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿أَفْسَدُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَجَعَلُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾: مفعول ﴿جعلوا﴾ الأول ومضاف إليه. ﴿أَذِلَّةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلوا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَتْ﴾، والتقدير: ويفعلون فعلاً كائناً كذلك المذكور

من جعل الأعزة أذلة.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِنِّي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إني﴾: ناصب واسمه. ﴿مُرْسِلَةٌ﴾: خبره، ومفعوله محذوف تقديره: رسلاً، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾. ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿مُرْسِلَةٌ﴾. ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾: معطوف على ﴿مُرْسِلَةٌ﴾. ﴿بِمَ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر بالباء مبني بسكون على الألف المحذوف، فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَرْجِعُ﴾، ولا يجوز تعلقه بـ﴿ناظرة﴾؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله. ﴿يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول ﴿ناظرة﴾ معلق عنه باسم الاستفهام ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فأعدت الهدية فأرسلتها مع رسول إلى سليمان. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على الرسول. ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿تمدونن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء المحذوفة مفعول به. ﴿بِمَالٍ﴾: متعلق به؛ أي: تعاونونني بالمال، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَآ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية معللة؛ لما تقدم من إنكاره عليهم وتوبيخه إياهم. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿ءَاتَىٰنِۦَ﴾: فعل ماض ونون وقاية ومفعول به مقدم. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل مؤخر، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما آتانيه الله. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على

كونها معللة للإنكار. ﴿مِّمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما آتاكموه، وهو العائد على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب للإضراب الانتقالي؛ لبيان السبب الذي حداهم إلى إمداده بالمال. ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ. ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما بعده، وجملة ﴿تَفْرَحُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱرْجِعْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود إلى رسول بلقيس. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نأتينهم﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على سليمان ومن معه تقديره: نحن، و﴿الهاء﴾: مفعول به، و﴿الميم﴾: علامة الجمع الذكور. و﴿بِجُنُودٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس. ﴿قِبَلَ﴾: في محل النصب اسمها مبني على الفتح. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَّا﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿قِبَلَ﴾ لتضمنه معنى المصدر؛ لأن حقيقته المقابلة والمقاومة، يقال: مالي به قبل؛ أي: طاقة، وجملة ﴿لَّا﴾ في محل الجر صفة لـ﴿جنود﴾. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نخرجنهم﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿نخرج﴾، والضمير يعود إلى سبأ؛ أي: بلادهم. ﴿أَذِلَّةً﴾: حال من ضمير المفعول. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم صاغرون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال ثانية من الهاء في ﴿لنخرجنهم﴾.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على سليمان، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَيُّكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿يَأْتِينِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿أي﴾ ونون وقاية ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِعَرْشِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَأْتِينِي﴾ ﴿قَبْلَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَأْتِينِي﴾ ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَأْتُونِي﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿أَنْ﴾، علامة نصبه حذف النون، والواو: فاعل، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به. ﴿مُسْلِمِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتُونِي﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. والتقدير: قبل إتيانهم إياي منقادين خاضعين. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: صفة لـ﴿عِفْرِيتٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿ءَاتِيكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿عِفْرِيتٌ﴾ ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَاتِيكَ﴾، وكذا الظرف في قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ﴾: متعلق به. ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿تَقُومَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾. ﴿مِن مَّقَامِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقُومَ﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. تقديره قبل قيامك من مقامك. ﴿وَإِنِّي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إني﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بما بعده. ﴿لَقَوِيٌّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿قوي﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: خبر ثان لها؛ أي: قوي على حمله أمين على ما فيه، لا أختلس منه شيئاً، ولا أعبث به، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ

﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِى﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿عِلْمٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: صفة لـ﴿عِلْمٌ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿أَنَا﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَبْلَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿ءَاتِيكَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدر ونصب. ﴿يَرْتَدَّ﴾: منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿طَرْفُكَ﴾: فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: قبل ارتداد طرفك إليك. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف. تقديره: ودعا آصف بالعلم الذي عنده، فغار العرش في مكانه بمأرب، ثم نبع بمجلس سليمان، فلما رآه. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية. ﴿رَءَاهُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ ومفعول به. ﴿مُسْتَقِرًّا﴾: حال من ضمير المفعول، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿ما﴾ في محل جر بالإضافة. ﴿عِندَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَقِرًّا﴾؛ أي: ساكناً عنده. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يبلو﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبِّي﴾، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لبلائه إياي، الجار والمجرور متعلق بمحذوف معلوم من السياق تقديره: تفضل عليّ بإحضار هذا العرش في قدر طرفة عين لبلائه إياي، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَأَشْكُرُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الذي يطلب به تعيين أحد الشيئين. ﴿أشكر﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، وجملة ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ في محل النصب بدل من الياء في ﴿يبلوني﴾، فهي بمثابة المفعول به. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف متصلة، وجملة ﴿أَكْفُرُ﴾ معطوفة على جملة

﴿أشكر﴾.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿شَكَرَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَشْكُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَشْكُرُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وإنما جزمت المحل مع كونه مضارعاً؛ ليشاكل الجواب الشرط، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب. ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿رَبِّى﴾: اسمها. ﴿غَنِىٌّ﴾: خبر أول لها. ﴿كَرِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿نَكِّرُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهَا﴾: متعلق به. ﴿عَرْشَهَا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿نَنظُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿سليمان﴾ ومن معه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وقرىء بالرفع على الاستئناف. ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الذي يطلب به تعيين أحد الشيئين. ﴿تهتدي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة في محل النصب مفعول ﴿نَنظُرْ﴾ علق عنها بالاستفهام. ﴿أَمْ﴾:

حرف عطف معادلة للهمزة. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على بلقيس. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تهتدي﴾، وجملة ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فجاءت بلقيس. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية. ﴿جَآءَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصغة. ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستخباري. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿كذا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَرْشُكِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، والأصل اتصال هاء التنبيه باسم الاشارة، فكان مقتضاه أن يقال: أكهذا عرشك. وهذا الفصل جائز إذا كان حرف الجر كافاً، فلو قلت: أبهذا أمرت، أو لهذا فعلت.. لم يجز فيه ذلك الفصل، فلا يجوز أن يقال: أها بذا أمرت، أها لذا فعلت؛ لعدم السماع. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة مستأنفة. ﴿كَأَنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع خبره، وجملة ﴿كأن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿وَأُوتِينَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فلما سمعوا قولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قالوا: أصابت في الجواب. ﴿وَأُوتِينَا﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل. ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أوتينا﴾. ﴿مِن قَبْلِهَا﴾: متعلق بـ﴿أوتينا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على تلك المحذوفة على كونها مقول ﴿قالوا﴾ المقدر. ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿أوتينا﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَصَدَّهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوتينا﴾؛ لأنها من جملة كلام سليمان. ﴿كَانَت﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على بلقيس، وجملة ﴿تَعْبُدُ﴾ في محل النصب خبر

﴿كان﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَّعْبُدُ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على بلقيس. ﴿مِن قَوْمٍ﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿كَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْخُلِى﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿ٱلصَّرْحَ﴾: مفعول به على التوسع، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فدخلته. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في نصب على الظرفية الزمانية. ﴿رَأَتْهُ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿حَسِبَتْهُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على بلقيس ومفعول أول. ﴿لُجَّةً﴾: مفعول ثان لحسب، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿وَكَشَفَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على بلقيس معطوف على ﴿حَسِبَتْهُ﴾. ﴿عَن سَاقَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿كشفت﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿مُّمَرَّدٌ﴾: صفة أولى لـ﴿صَرْحٌ﴾. ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾: صفة ثانية لـ﴿صَرْحٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على بلقيس، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ظَلَمْتُ﴾. ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أسلمت﴾؛ أي: حالة كوني مصاحبة

لسليمان. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أسلمت﴾. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مضاف إليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾. ﴿أَخَاهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿صَٰلِحًا﴾: بدل من ﴿أَخَاهُمْ﴾، أو عطف بيان له، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان قصة صالح ﴿أَنِ﴾: مصدرية. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبني على حذف النون، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة؛ أي: بعبادة الله، والجار المقدر متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ويصح كونها مفسرة؛ لأن الإرسال يتمضن معنى القول. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فَرِيقَانِ﴾: خبر، وجملة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة لـ﴿فَرِيقَانِ﴾ على المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾؛ لأن كل فريق يضم جماعة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ...﴾ الخ؛ لأنها في معنى: ولقد أرسلنا صالحاً إلى ثمود، ففاجأ الإرسال افتراقهم واختصامهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿صالح﴾، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، حذفت ألفها لدخول الجار عليه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾. ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في

محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: متعلق بـ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾. ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿السيئة﴾، والمراد بـ﴿السيئة﴾ العذاب، وبـ﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ الرحمة. ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى: هلا. ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة لما قبلها. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾. ﴿وَبِمَن﴾: معطوف على ﴿بِكَ﴾. ﴿مَّعَكَ﴾: منصوب على الظرفية الاعتبارية متعلق بمحذوف صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿صالح﴾. ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب أضرب بها عن بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿تُفْتَنُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿تِسْعَةُ﴾ اسمها مؤخر. ﴿رَهْطٍ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿يُفْسِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿تِسْعَةُ﴾، وجملة ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُفْسِدُونَ﴾.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَقَاسَمُواْ﴾: فعل أمر وفاعل بمعنى: احلفوا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً، وحينئذ يجوز أن يكون مفسراً لـ﴿قَالُواْ﴾، كأنه قيل: ما قالوا، فقيل تقاسموا، ويجوز أن يكون مع فاعله جملة في محل نصب على الحال؛ أي:

قالوا متقاسمين بإضمار قد ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نبيتن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾: معطوف على ﴿الهاء﴾، أو مفعول معه، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نقولن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن. ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: متعلق به، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿شَهِدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مَهْلِكَ﴾: مفعول به. ﴿أَهْلِهِۦ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿لَنَقُولَنَّ﴾. ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿صادقون﴾: خبر ﴿إنا﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَنَقُولَنَّ﴾، أو في محل النصب على الحال من فاعل ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿وَمَكَرُواْ﴾ فعل وفاعل، ﴿مَكْرًا﴾: مفعول مطلق، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَكَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مكروا﴾. ﴿مَكْرًا﴾: مفعول مطلق أيضاً. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿مكرنا﴾ المحذوف؛ أي: ومكرناهم وهم لا يشعرون مكرنا بهم، أو حال من فاعل ﴿مكروا﴾. ﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها للزومه الصدارة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول

﴿انظر﴾؛ لأن الاستفهام علقه عن العمل في لفظه، أو في محل النصب بنزع الخافض. ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾: معطوف على ضمير المفعول. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه، وجملة ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنا﴾، وجملة ﴿إن﴾ بالكسر مستأنفة، وبالفتح بدل من ﴿العاقبة﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير. ﴿فَتِلْكَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿بُيُوتُهُمْ﴾: خبر. ﴿خَاوِيَةً﴾: حال من ﴿بُيُوتُهُمْ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ مقررة لها. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء؛ أي: بسبب ظلمهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿خَاوِيَةً﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَةً﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آية﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة ﴿قوم﴾. ﴿وَأَنجَيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أنجينا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به لـ﴿أنجينا﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿وَلُوطًا﴾: مفعول به لفعل محذوف تقديره: ولقد أرسلنا لوطاً، والجملة المحذوفة إما مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ: أرسلنا المقدر، أو بـ: اذكر المحذوف. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿لوط﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتَأْتُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي.

﴿تأتون﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تُبْصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تأتون﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿إنكم﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتَأْتُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تأتون﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلرِّجَالَ﴾: مفعول به. ﴿شَهْوَةً﴾: مفعول لأجله، أو حال من الفاعل، أو من المفعول. و﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾: حال من الفاعل؛ أي: متجاوزين النساء إلى الرجال، وجملة ﴿تأتون﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف اضراب. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَفْتُونِى﴾؛ أي: أشيروا إلي بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث. والفتوى: الجواب في الحادثة، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتي في السن. والمراد بالفتوى هنا: الإشارة إليها بما عندهم، وكما ذكرنا فيما حدث لها من الرأي والتدبير. والفتوى في العرف: هو الجواب في الحوادث المشكلة. قال بعضهم: الفتوى من الفتى؛ وهو الشاب القوي، وسميت الفتوى؛ لأن المفتي؛ أي: المجيب الحاكم بما هو صواب يقوي السائل في جواب الحادثة، كما مر.

﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾؛ أي: باتة فيه منفذته. ﴿تَشْهَدُونِ﴾؛ أي: تحضروني. ﴿أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ﴾ وأولو: اسم جمع بمعنى أصحاب، والواحد: ذو بمعنى صاحب، وقيل: جمع ذو على غير لفظه، وهو من ملحقات جمع المذكر السالم في إعرابه، والمؤنث أولات، وواحدتها: ذات، تقول: جاء أولو العلم وأولات الفضل، والمراد بالقوة: القوة الجسمية وكثرة الآلات، والمراد بالبأس: النجدة والثبات في الحرب.

﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾: جمع عزيز بمعنى القاهر الغالب، والشريف العظيم، مأخوذ من العزة؛ وهي حالة مانعة للإنسان من أن يغلب. ﴿أَذِلَّةً﴾: جمع ذليل؛ أي:

بالقتل والأسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال.

﴿بِهَدِيَّةٍ﴾: وهي اسم للشيء المهدي بملاطفة ورفق. قال في «المفردات»: الهدية مختصة باللطف الذي يهدي بعضنا إلى بعض. اهـ.

هذا، والهدية اسم الشيء المهدىٰ، كما أن العطية اسم للشيء المعطى، فتضاف إلى المهدي والمهدى إليه. تقول: هذه هدية فلان تريد هي التي أهداها، أو أُهديَت إليه، والمضاف إليه في قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هو المهدى إليه؛ أي: بما يُهدىٰ إليكم، وأما نحن فلسنا كذلك.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ والهدية: مصدر بمعنى الإهداء مضاف لفاعله؛ أي: تفرحون بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، أو لمفعوله؛ أي: تفرحون بما يهدى إليكم حباً في كثرة أموالكم، فإن الهدايا مم يورث المودة ويذهب الشحناء، وفي الحديث: «تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا» ولقد أحسن من قال شعراً:

هَدَايَا ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمُ لِبَعْضٍ ... تُوَلِّدُ فِيْ قُلُوْبِهِمُ ٱلْوِصَالاَ
وَتَزْرَعُ فِيْ ٱلضَّمِيْرِ هَوَىً وَوِدّاً ... وَتُكْسِبُهُمْ إِذَا حَضَرُوْا جَمَالاَ

كما مرَّ. ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ سمي المال مالاً؛ لكونه مائلاً أبداً ونائلاً، ولذلك يسمى عرضاً، وعلى هذا دل من قال: «المال قحبة: يكون يوماً في بيت عطار، ويوماً يكون في بيت بيطار، كما في «الفردات» يقال: أمده بالمال إذا ساعده به وزاده منه.

﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي: لا طاقة لهم بمقاومتها، ولا قدرة لهم على مقابلتها. قال في «المختار»: رآه قبلاً ـ بفتحين ـ وقبلا ـ بضمتين ـ وقبلاً ـ بكسر بعده فتح ـ؛ أي: مقابلة وعيانا. قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ولي قبل فلان حق؛ أي: عنده. وما لي به قبل؛ أي: طاقة. انتهى. والذي يفهم من «المفردات»: أنه في الأصل بمعنى عند، ثم يستعار للقوة والقدرة على المقابلة؛ أي: المجازاة، فيقال: لا قبل لي بكذا؛ أي: لا يمكنني أن أقابله، ولا قبل لهم

بها؛ أي: لا طاقة لهم على دفاعها.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ يقال: صغر صغراً بالكسر في ضد الكبر، وصغاراً بالفتح في الذلة، والصاغر الراضي بالمنزلة الدنيئة، وكل من هذه الذلة والصغار مبني على الإنكار والإصرار، كما أن كلاً من العز والشرف مبني على التصديق والإقرار.

﴿عِفْرِيتٌ﴾ العفريت من البشر الخبيث الماكر الذي يعفر أقرانه، ومن الشياطين والجن المارد، وجمعه: عفاريت، ومؤنثه: عفريته، والعفرية: مثله.

﴿مِن مَّقَامِكَ﴾؛ أي: مجلسك الذي تجلس فيه للحكم. ﴿لَقَوِيٌّ﴾؛ أي: قادر على حمله لا أعجز عنه. ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: على ما فيه من اللآلىء والجواهر وغيرها.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾: يحتمل أنه مضارع أصله: أأتي بهمزتين، فوزنه أفعل، فالهمزة الأولى زائدة للمضارعة، والثانية أصلية فاء الكلمة، ويحتمل أنه اسم فاعل فوزنه فاعل، فالهمزة الأولى أصلية فاء الكلمة، والألف بعدها زائدة كالتي في ضارب وقائم اهـ. شيخنا.

﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال أبو السعود: الطرف: تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء، وارتداده انضمامها، ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد آثر الارتداد على الرد. اهـ شيخنا. وفي «القاموس»: إن الطرف كما يطلق على نظر العين يطلق على العين نفسها. اهـ.

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ وفي «المفردات»: يقال: بلى الثوب بلى خلق، وبلوته اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له.

﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ أي: غيروا هيئته وشكله بحيث لا يعرف بسهولة. قال الراغب: التنكير: جعل الشيء بحيث لا يعرف ضد التعريف، ومنه نقل إلى مصطلح أهل العربية. اهـ. «شهاب».

﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ قال في «الكشاف»: الصرح القصر، وكل بناء عال سمي

بذلك اعتباراً بكونه صرحاً من الثوب؛ أي: خالصاً. فإن الصرح بالتحريك الخالص من كل شيء، وقيل: صحن الدار، وأصله من التصريح، وهو الكشف، وكذب صُراح؛ أي: ظاهر مكشوف، ولؤم صُراح، ولبن صُريح؛ أي: ذهبت رغوته وخلص، وكأس صراح لم تمزج، وصرحت الخمرة: ذهب عنها الزبد، ولقيته مصارحة؛ أي: مجاهرة، وصَرَح النهار ذهب سحابه وأضاءت شمسه.

﴿لُجَّةً﴾ واللجة: الماء الكثير. وفي «المفردات»: لجة: البحر تردد أمواجه. وفي «كشف الأسرار»: اللجة: الضحضاح من الماء، وهو الماء اليسير، أو إلى الكعبين وأنصاف السوق، أو ما لا غرق فيه، كما في «القاموس». والمعنى: ظننت أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان.

﴿عَن سَاقَيْهَاۚ﴾: تثنية ساق؛ وهي ما بين الكعبين، كعب الركبة وكعب القدم؛ أي: تشمرت لئلا تبتل أذيالها.

﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾؛ أي: ذو سطح أملس، ومنه الأمرد؛ لملاسة وجه؛ أي: نعومته لعدم وجود الشعر به. وفي «القاموس»: التمريد في البناء التمليس والتسوية، وبناء ممرد مطول، والمارد: المرتفع العالي، وشجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق.

﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾؛ أي: مصنوع من الزجاج الصافي، وليس بماء. جمع قارورة، وفي «المصباح»: القارورة: إناء من زجاج، والجمع القوارير، والقارورة أيضاً وعاء الرطب والتمر؛ وهي القوصرة. وتطلق القارورة على المرأة؛ لأن الولد أو المني يقر في رحمها، كما يقر الشيء من الإناء، أو تشبيهاً بآنية الزجاج لضعفها. قال الأزهري: والعرب تكني عن المرآة بالقارورة والقوصرة. وفي «القاموس»: والقارورة: حدقة العين، وما قر فيه الشراب، أو نحوه، أو يخص بالزجاج. و﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: من زجاج في بياض الفضة وصفاء الزجاج.

﴿فَرِيقَانِ﴾؛ أي: طائفتان؛ طائفة مؤمنة، وأخرى كافرة. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: يجادل بعضهم بعضاً ويحاجه، من الاختصام، وأصله: أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر بالضم؛ أي: بجانبه. ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ العقوبة التي تسوء صاحبها. ﴿قَبْلَ

﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ التوبة.

﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض، بمعنى: هلاً، وهي كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها. ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾؛ أي: تطايرنا، وتشاءمنا بك وبمن معك في دينك، حيث تتابعت علينا الشدائد، وأصل اطيرنا: تطيرنا أدغمت التاء في الطاء، فتعذر الابتداء بالساكن، واجتلبت همزة الوصل، فصار اطيرنا.

وأصل ذلك أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين، فمروا بطائر يزجرونه، فإن مر سانحاً تيمنوا، وإن مر بارحاً تشاءموا، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطير استعير لما كان سبباً لهما من قدر الله سبحانه وقسمته، أو عمل العبد. وفي «القاموس»: البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك، وبرح الظبي بروحاً: ولاّك مياسره ومر، وسنح سنوحاً ضد برح، ومن لي بالسانح بعد البارح؛ أي: المبارك بعد المشؤوم. انتهى.

قال في «كشف الأسرار»: هذا كان اعتقاد العرب في بعض الوحوش والطيور أنها إذا صاحت في جانب دون جانب دل على حدوث آفات وبلايا. ونهى رسول الله ﷺ عنها. وقال: «أقروا الطير على مكناتها»؛ لأنها أوهام لا حقيقة معها. والمكنات بيض الضبة، واحدتها: مكنة. قال ابن الملك: كان أهل الجاهلية إذا قصد واحد إلى حاجة، وأتى من جانبه الأيسر طير وغيره يتشاءم به فيرجع، هذا هو الطيرة.

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: هي البلد. من أخذها من مدن بالمكان يمدن إذا أقام فيه، فهي فعيلة، والجمع: مدائن بالهمز والميم أصلية والياء زائدة، ومن أخذها من دان يدين فالميم زائدة والياء أصلية، وهي مفعولة، ويقال: دنت الرجل: ملكته. ودنت له: خضعت له وأطعت، ويقال: للأمة مدينة؛ لأنها مملوكة. وفي معاجم اللغة: مدن بالمكان يمدن ـ من باب نصر ـ مدوناً إذا أقام، وهو فعل ممات. ومدن المدينة آتاها، ومدن المدائن ـ بالتشديد ـ بناها ومصرّها، وتمدّن: تخلق بأخلاق أهل المدن، وانتقل من الهمجية إلى حالة الأنس والظرف، وتجمع المدينة على مدن بسكون الدال، ومدن بضمها، ومدائن. والمدينة: علم أطلق

على يثرب. ومدينة السلام بغداد، والمدائن مدينة قرب بغداد كان فيها إيوان كسرى، وسميت بالجمع؛ لكبرها، والنسبة إليها مدائني.

﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ الرهط: قوم الرجل وقبيلته، وعدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة، وليس فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، وجمعه أرهط وأرهاط. وجمع الجمع أراهط وأراهيط، وإذا أضيف إلى الرهط عدد كان المراد به الشخص والنفس، نحو عشرون رهطاً؛ أي: شخصاً. ويقال: نحن ذوو رهط؛ أي: مجتمعون. وفي «المصباح»: الرهط: ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة. وسكون الهاء أفصح من فتحها، وهو جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: الرهط من سبعة إلى عشرة، وما دون السبعة إلى الثلاثة نفر، والفرق بينه وبين النفر أن الرهط من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة، ليس فيهم امرأة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ والبيات: مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلاً. ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾؛ أي: لمن له حق القصاص من ذوي قرابته إذا قتل. ﴿مَهۡلِكَ﴾ بضم الميم وفتح اللام؛ أي: إهلاكهم مصدر ميمي من أهلك الرباعي، وبفتح الميم واللام؛ أي: هلاكهم مصدر ميمي من هلك الثلاثي، وبفتح الميم وكسر اللام؛ أي: وقت هلاكه أو مكانه، فهو للظرف؛ لأنه من باب ضرب.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ والمكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. وقيل: المكر: التدبير الخفي لعمل الشر، ومكرهم: هو ما أخفوه من تدبير القتل بصالح ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون على سبيل الاستعارة المنضمة إلى المشاكلة، كما في «الكشاف» وشروحه اهـ «شهاب»؛ أي: تشبيهاً له بالمكر من حيث كونه إضراراً في خفية؛ لأن المكر قصد الإضرار على طريق الغدر والحيلة اهـ «زاده». ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ التدمير: استئصال الشيء بالهلاك.

﴿خَاوِيَةَۢ﴾؛ أي: خالية عن السكان، من خوى البطن إذا خلا، أو ساقطة متهدمة، من خوى النجم إذا سقط. اهـ «بيضاوي». وخوى بالمعنَيَيْن من باب رمى.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ والفاحشة: كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. والمراد بها هنا اللواطة، والإتيان في الأدبار. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من بصر القلب؛ وهو العلم، أو من بصر العين؛ وهو النظر. ﴿شَهْوَةً﴾ وأصل الشهوة: نزوع النفس إلى ما تريده.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ حيث عبرت عن الماضي بالمضارع.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ لأن هذه الجملة سيقت لتأكيد ما قبلها.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؛ لأنه معطوف على محذوف تقديره: فأعدت الهدية مع رسول بكتاب فأرسلته، فلما جاء سليمان الخ.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فإن ارتداد الطرف كناية عن الإسراع. والطرف: هو تحريك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال الطرف وصف برد الطرف، ووصف الطرف بالارتداد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَن شَكَرَ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾؛ أي: كأنه عرشي في الشكل والوصف.

ومنها: التجنيس، وهو تألف الكلمتين في تأليف حروفهما في قوله:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿السيئة﴾ و﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ في قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يُفْسِدُونَ﴾ و﴿يُصْلِحُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾؛ لأنه مستعار لما كان سبباً للخير والشر من قدر الله تعالى وقسمته، أو من عمل العبد، كما في «الروح».

ومنها: التمام كما سماه قدامة في نقد الشعر، أو التميم كما سماه الحاتمي في قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهو أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت منه نقص معناه في ذاته، أو في صفاته، ولفظه تام؛ لأن قوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مفهومه أن شأنهم الإفساد البحت، ولكن قوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يدفع أن يندر منهم، أو من أحدهم بعض الصلاح فتمم الكلام بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دفعاً لتلك الندرة أن تقع، أو أن يخالج بعض الأذهان شك في أنها ستقع، وبذلك قطع كل رجاء في إصلاح أمرهم، وحسن حالهم. اهـ من الدرويش.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ والمشاكلة معناها: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته؛ لأن الله تعالى تقدس أن يستعمل في حقه المكر، إلا أنه استعمل هنا مشاكلة، وهو كثير في القرآن، أما مكرهم: فهو ما بيتوه لصالح، وما انتووه من إهلاكه وأهله خفية. وأما مكر الله تعالى بهم: فهو إهلاكهم من حيث لا يشعرون.

وفيه أيضاً الاستعارة المنضمة إلى المشاكلة، فقد شبه الاهلاك بالمكر في كونه إضراراً في الخفاء؛ أي: من حيث لا يشعرون.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما بشرني الله سبحانه به في تفسير هذا المجلد العشرون، وأسأله عم نواله أن ييسر لي ويوفقني فيما بقي من كتابه الكريم شرحاً موافقاً لما هو المعنى عنده سبحانه، ونحمده سبحانه حمداً كثيراً طيباً مباركاً يوافي نعمهم، ويكافىء مزيده حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين وأوليائه الصالحين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد بعون الملك ذي الكبرياء في أوائل ليلة الأربعاء من الثلث الثالث من الشهر الرابع من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاثة عشر من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية من تاريخ ٢٥/ ٤/ ١٤١٣هـ.

انتهى المجلد العشرون بعون الله وتوفيقه، ويليه المجلد الحادي العشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ . . .﴾ الآية.

شعرٌ

وَقُـلْ بِـذُلٍّ رَبِّ لاَ تَـقْـطَـعَـنِّـي عَـنْـكَ بِـقَـاطِـعٍ وَلاَ تَـحْـرِمَـنِّـيْ
مِنْ سِرِّكَ ٱلأَبـهَىٰ ٱلْمُزِيْلِ لِلْعَمَىٰ وَٱخْتُـمْ بِـخَـيْـرٍ يَـا رَحِـيْـمَ ٱلـرُّحَـمَـا

من كلام زين العابدين

أَلاَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَأْمُوْلُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ
أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الحادي والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد الماجد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توصلنا إلى رضاه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه، صلى الله سبحانه عليه، وعلى آله وصحبه الذين رقوا في ذرى المجد بتقاه، وسلَّم عليهم وعلى كل عاضّ بسنته وهداه، ما تعاقب الجديدان وتصارع الحق والبطلان.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء التاسع عشر من القرآن الكريم بعون الله سبحانه وتيسيره.. تفرغت وتصديت بقدر مكانتي لتفسير الجزء العشرين منه إن شاء الله سبحانه وتعالى، مع ما بي من العوائق والمعائق، مستمطراً من سحائب كرمه وجوده، ومستمداً من وابل فيضه وإمداده، فقلت: وبالله التوفيق:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ
فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن
يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص[1] على رسوله ﷺ قصص أولئك الأنبياء السالفين، وذكر أخبارهم الدالة على كمال قدرته، وعظيم شأنه، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم، وصدق أخبارهم، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد، وبطلان الشرك والكفر، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى، ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوي الردى، ثم شرح صدره ﷺ بما في تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية، والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس، مقرراً بذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.. أردف هذا بأمره ﷺ بأن يحمده تعالى على تلك النعم، ويسلم على الأنبياء كافة عرفاناً لفضلهم، وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين، وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير، ووجوب عبادته وحده، وأنه لا ينبغي عبادة شيء سواه من الأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآية، مناسبة

---

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أثبت تفرده بالألوهية، لاختصاصه بالقدرة التامة والرحمة العامة.. أعقب هذا بذكر لوازمها، وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف جهلهم بالآخرة وعماهم عنها.. أردف بيان ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا تراباً، وأنهم قالوا: تلك مقالة سمعناها من قبل، وما هي إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا، بالسير في الأرض حتى يروا عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثم صبر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين، ووعده بالنصر عليهم، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود، وأنهم يسألون عن ذلك سخرية واستهزاء، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريباً، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لا يعجل لهم العذاب مع استحقاقهم له، إذ هم لا يشكرونه على ذلك، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والنجوى، وأنه مطلع على ما تكنه القلوب، وأنه ما من شيء مهما خفي فالله عليم به، وهو مثبت عنده في كتاب مبين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: قوم لوط، وقرأ الجمهور[1] بنصب ﴿جَوَابَ﴾ على أنه خبر ﴿كَانَ﴾، واسمها: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ أي: إلا قولهم؛ أي: إلا قول بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ أي: أخرجوا لوطاً وابنتيه زعوروا

---

(١) البحر المحيط.

ورويثا وزوجته المؤمنة ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ سذوم.

وقرأ الحسن وابن إسحاق برفع ﴿جوابُ﴾ على أنه اسم ﴿كَانَ﴾ وخبرها ما بعده؛ أي: فلم يكن جواب قومه إلا قولهم، والأول أولى. ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضاً من الإخراج بقولهم: ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ أي: إن آل لوط ﴿أُنَاسٞ﴾ جمع إنس، والناس مخفف منه، ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: يتنزهون عن أدبار الرجال، وعن جميع أفعالنا أو عن الأقذار، ويعدون أفعالنا قذراً.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قالوا ذلك استهزاء منهم بهم. وهذا الجواب[1] هو الذي صدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المواعظ بالأمر والنهي، لا أنه لم يصدر منهم كلام آخر غيره.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾؛ أي لوطاً ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾؛ أي: بنتيه زعورا ورويثا وامرأته المؤمنة بأن أمرناهم بالخروج من القرية، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ الكافرة المسماة بواهلة، لم ننجها بل ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ وقضينا كونها ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: من الباقين في العذاب، فلذا لم تخرج من القرية مع لوط، أو خرجت ومُسِخت حجراً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قدَّرْنا﴾ بتشديد الدال، وقرأ أبو بكر بتخفيفها، ومعنى القراءتين واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ بعد قلب قريتهم، وجعل عاليها سافلها، أو على شذاذهم، ومن كان منهم في الأسفار، ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ غير معهود، وهو حجارة السجيل، والتأكيد بالمصدر يدل على شدة المطر، وأنه غير معهود، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ أي: بئس وقبح مطر من أُنذر بعذاب الله فلم يخف منه، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: مطرهم هذا.

وحاصل معنى الآيات[3]: أي فلم يكن جوابهم للوط - إذ نهاهم عما أمره

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

الله سبحانه بنهيهم عنه من إتيان الذكور - إلا قول بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله من قريتنا، وقد عدوا سكناه بينهم منة ومكرمة عليه، إذ قالوا: من قريتكم، ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: إنهم يتحرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على ما تفعلون من صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لجواركم في بلدكم.

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: فأهلكناهم وأنجينا لوطاً وأهله، إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين في العذاب، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبيح أفعالهم، وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله عليه السلام لا كرامة لها.

ثم بين ما أهلكوا به، فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم...﴾ إلخ؛ أي: وأمطرنا عليهم مطراً غير ما عُهد من نوعه، فقد كان حجارة من سجيل، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذرهم الله سبحانه عقاباً لهم على معصيتهم إياه، وخوَّفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم.

﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ سبحانه على جميع نعمه التي من جملتها إهلاك أعداء الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الصديقين، فإنهم لما كانوا إخوانه عليه السلام كانت النعمة عليهم نعمة عليه، ﴿وَسَلَٰمٌ﴾؛ أي: وسلامة ونجاة ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لعباده ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ أي: الذين اصطفاهم الله تعالى، وجعلهم صفوة خليقته في الأزل، وهداهم واجتباهم للنبوة والرسالة والولاية في الأبد، فهم الأنبياء والمرسلون وخواصهم المقربون الذين سلموا من الآفات، ونجوا من العقوبات مطلقاً.

وقرأ أبو السماك: ﴿قل الحمد لله﴾، وكذا ﴿قل الحمد لله سيريكم﴾ بفتح اللام، ذكره أبو حيان.

وفيه[1]: رمز إلى هلاك أعدائه ﷺ، ولو بعد حين، وإشعار له ولأصحابه بحصول السلامة والنجاة من أيديهم، وهكذا عادة الله تعالى مع الورثة الكمل وأعدائهم في كل زمان، هذا هو اللائح للبال في هذا المقال، وهو المناسب لسوابق الآيات العظام.

والحاصل[2]: أن الله سبحانه أمر رسوله أن يحمده شكراً له على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته، وهم أنبياؤه الكرام ورسله الأخيار.

ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه، وحلول الخزي والنكال بأعدائه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

وفي هذا تعليم حسن وأدب جميل، وبعث على التيمُّن بالذِكْرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قَبول ما يلقى إلى السامعين والإصغاء إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله، وصلوا على رسوله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون، فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن.

ثم شرع يوبخ المشركين، ويتهكم بهم، وينبههم إلى ضلالهم وجهلهم، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار، فقال: ﴿ءَآللَّهُ﴾[3] بالمد بمقدار الألفين، أصله (أألله) على أن الهمزة الأولى استفهام، والثانية وصل، فمدوا الأولى تخفيفاً، والمعنى: آلله الذي ذُكرت شؤونه العظيمة ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أنفع لعابديه ﴿أَمَّا﴾؛ أي: أم الذي، فأم متصلة وما موصولة، ﴿يُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام؛ أي: أم الأصنام أنفع لعابديها، يعني: الله خير.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وكان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية قال: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم»، فإن قيل لفظ[1] الخير يُستعمل في شيئين فيهما خير، ولأحدهما مزية، ولا خير في الأصنام أصلاً! قلنا: المراد به إلزام المشركين، والتشديد عليهم والتهكم بهم، أو هو على زعم أن في الأصنام خيراً، ثم هذا الاستفهام والاستفهامات الآتية بعد تقرير وتوبيخ، لا استرشاد.

وقرأ أبو عمرو وعاصم والحسن وقتادة ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء التحتية على الغيبة؛ أي: آلله الذي ذُكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير أمّا يشركون به تعالى من الأصنام، وقرأ الباقون: بالتاء الفوقية على الخطاب؛ أي: آلله خير أم آلهة تشركونها بالله تعالى يا أهل مكة، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم.

وفي ذلك[2] ما لا يخفى من تسفيه آرائهم، وتقبيح معتقداتهم وإلزامهم الحجة، إذ من البيِّن أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الخير، فهو من وادي ما حكاه سيبويه، تقول العرب: «السعادة أحب إليك أم الشقاء»، وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب، ويمدح النبي ﷺ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

ثم انتقل من التوبيخ تعريضاً إلى التبكيت تصريحاً فقال: ﴿أَمَّ﴾ هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة، ﴿مَنْ﴾ موصولة مبتدأ خبره محذوف، وكذا في نظائره الآتية، والمعنى: بل أمن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الكائنات المحسوسة ومبادي النفع خير أم ما يشركون؛ يعني: أن الخالق للأجرام العلوية والسفلية خير لعابديه أو للمعبودية، كما هو الظاهر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وفي الأربعة بعدها بشد الميم، وهي ميم

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

﴿أَمَّ﴾ أدغمت في ميم ﴿مَن﴾، وقرأ الأعمش بتخفيفها جعلها همزة الاستفهام أدخلت على ﴿مَن﴾، و﴿مَن﴾ في القراءتين مبتدأ، خبره محذوف، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ معطوف على صلة ﴿مَن﴾ الموصولة؛ أي: ومن أنزل لأجل منفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿ماء﴾ أي نوعاً منه هو المطر.

ثم[1] عدل على الغيبة إلى التكلم لتأكيد الاختصاص بذاته فقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط، من الإحداق وهو الإحاطة، قال الفراء: الحديقة البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة، وقال قتادة وعكرمة: الحدائق النخل، وقوله: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ صفة لحدائق، ولم يقل[2]: ذوات بهجة على الجمع، لأن المعنى جماعة حدائق؛ أي: صاحبة حسن ورونق يبتهج ويسر به النظار، والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه.

وقرأ الجمهور: ﴿ذَاتَ﴾ بالإفراد، ﴿بَهۡجَةٖ﴾ بسكون الهاء، وجمع التكسير يجري في الوصف مجرى الواحدة، كقوله: ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ وهو على معنى جماعة، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿ذوات﴾ بالجمع، ﴿بهجة﴾ بتحريك الهاء بالفتح، ذكره أبو حيان.

﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾؛ أي: ما صح وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾؛ أي: شجر الحدائق فضلاً عن ثمرها؛ أي: ما كان لكم مقدرة على أن تنبتوا شجر البساتين فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة، ومعنى[3] هذا النفي الحظر والمنع من فعل هذا؛ أي: ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك، ولا يدخل تحت مقدرتهم، لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

والمعنى[4]: أي أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

كواكب نيرة، ونجوماً زاهرة، وأفلاكاً دائرة، وخلق الأرض، وجعل فيها جبالاً وأنهاراً وسهولاً وأوعاراً، وفيافي وقفاراً، وزروعاً وأشجاراً، وحيوانات مختلفة الأصناف والأشكال والألوان، وأنزل لكم من السماء مطراً جعله رزقاً للعباد، فأنبت به بساتين مونقة تسر الناظرين، ولولاه ما نبت الشجر ولا ظهر الثمر، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

ثم زاد في التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفي الخيرية عنها، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ﴾؛ أي: هل إله آخر ومعبود سواه كائن ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي تقدم ذكر بعض أفعاله، التي لا يكاد يقدر عليها غيره، حتى يقرَّ به، ويُجعل شريكاً له في العبادة. وقرىء: ﴿أإلٰهاً﴾ بالنصب على تقدير أتدعون إلٰهاً، أو أتشركون، وقرىء[1]: ﴿أإله﴾ بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين، وترك الإدخال فيهما في مواضعه الخمسة، فالقراءات أربعة كلها سبعية.

والمعنى: أي أإله غيره يقرون به، ويجعلونه شريكاً له في العبادة، مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل.

أي: بل[2] هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن جادة الاستقامة في جميع شؤونهم، ومن ثم يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح، وهو التوحيد، ويعكفون على الضلال المبين، وهو الإشراك، وفي معنى الآية قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟

---

(1) الجلالان. (2) المراغي.

لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: فهم جاروا وظلموا بوضع الكفر موضع الإيمان، والشرك محل التوحيد، وهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم، وحكاية لغيرهم.

ثم أضرب وانتقل إلى التبكيت بوجه آخر أدخل في الإلزام فقال: ﴿أَمَّ﴾ منقطعة ﴿مَنْ﴾ موصولة ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ صلتها؛ أي: بل[1] أمن جعل الأرض مستقراً لمن فيها، يستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء بالارتفاع، وتسويتها حسبما يدور عليه منافعهم، خير من الذين يشركون من الأصنام، وذكر بعض الآيات بلفظ الماضي لأن بعض أفعاله تقدم وحصل مفروغاً منه، وبعضها يفعلها حالاً بعد حال.

﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على الصلة، ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ مفعول ثان لجعل - جمع خلل - وهي الفرجة بين الشيئين، ﴿أَنْهَٰرًا﴾ مفعول أول له، قدم الثاني عليه لكونه ظرفاً، وعلى هذا المفاعيل للفعلين الآتيين؛ أي: وجعل أنهاراً جارية ينتفعون بها في خلال الأرض وأوساطها، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت تمنعها أن تميل بأهلها وتضطرب، ويتكون فيها المعادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يخفى، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: العذب والمالح، أو خليجي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾؛ أي: برزخاً مانعاً من الممازجة والمخالطة؛ أي: جعل بين البحرين العذب والمالح حاجزاً من قدرته، فلا يختلط أحدهما بالآخر، فلا هذا يغيِّر ذاك، ولا ذاك يدخل في هذا، وقد مر بيانه في سورة الفرقان.

ولما كانت كل[2] هذه المذكورات نعمة عظيمة مستقلة تكرر العامل فيها في قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ فكانت من عطف الجمل المستقل كل واحدة منها بالامتنان ولم يشرك في عامل واحد فيكون من عطف المفردات.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي أعبادة ما تشركون أيها الناس بربكم ـ مع أنه لا يضر ولا ينفع ـ خير أم عبادة الذي جعل الأرض مستقراً للإنسان والدواب، وجعل في أوساطها أنهاراً تنتفعون بها في شربكم وسقي أنعامكم ومزارعكم، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا تميد بكم، وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة، وقد أنزل الماء على شواهقها، وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزاً يمنعهما من الاختلاط، حتى لا يفسد هذا بذاك، والحكمة تقضي ببقاء كل منهما على حاله، فالعذبة لسقي الناس والحيوان والنبات والثمار، والملحة تكون مصادر للأمطار التي تجري منها، وكذلك هي وسيلة لإصلاح الهواء.

﴿أَءِلَٰهٌ﴾؛ أي: هل معبود آخر كائن ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه في الوجود، أو في إبداع هذه الكائنات، وإيجاد هذه الموجودات، يعني ليس معه غيره، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره، أو لا يعلمون قدر عظمة الله تعالى، وما عليهم من ضر في إشراكهم غيره به، وما لهم من نفع في إفرادهم إياه بالألوهية، وإخلاصهم العبادة له، وبراءتهم من كل معبود سواه.

ثم زادهم توبيخاً من وجه ثالث فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾؛ أي: بل أمن[2] يجيب دعوة المضطر المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة، وقيل: المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر، يعني: إذا نزلت بأحد نازلة بادر إلى الالتجاء والتضرع إلى الله تعالى، وقيل: هو المذنب إذا استغفر، واللام[3] في المضطر للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك، بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه، وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه.

والحكمة في إجابة دعاء المضطر: أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عما سوى الله تعالى، فقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، وإن كانوا كافرين، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فأجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم.

والمضطر من الاضطرار إفتعال من الضرورة، وهي الحالة المحوجة إلى اللجاء، والمضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجاء إلى الله والتضرع إليه تعالى؛ أي: بل أمن يجيب دعاء المضطر المكروب ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ ذلك المضطر إلى كشف ما به من الضرر، والضمير المنصوب راجع إلى ﴿مَنْ﴾ الموصولة التي أريد بها الله سبحانه، والمستتر الفاعل يعود على المضطر.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ معطوف على الصلة عطف تفسير، و﴿إِذَآ﴾ مجردة عن معنى الشرط؛ أي: أمن يجيب الملجأ إلى ضيق من الأمر ﴿وَيَكْشِفُ﴾؛ أي: يزيل عنه ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ والضر الذي نزل به خير أم الذي يشركون به من الأصنام؟ وقال(١) بعضهم: فصل بين الإجابة وكشف السوء، فالإجابة بالقول والكشف بالطول، والإجابة بالكلام، والكشف بالإنعام، ودعاء المضطر لا حجاب له، ودعاء المظلوم لا مرد له، ولكل أجل كتاب اهـ.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سكانها؛ أي: يجعلكم خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن كان قبلكم من الأمم، يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله، ومعنى هذا: أي يجعلكم متوارثين سكناها ممن قبلكم بعد انقراضهم، فتعمرون الدنيا وتزينونها بأنواع الصنائع والحرف، بمعنى: يهلك قرناً

(١) روح البيان.

وينشيء آخرين، وقيل: يجعل أولادكم خلفاء عنكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً عن الكفار ينزلون أرضهم وديارهم.

وحاصل المعنى[1]: أي أمن تشركون بالله خير أم من يجيب المكروب الذي يحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللجاء، والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطراره، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض، ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض، فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها.

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أسألك بالله أن تدعو لي، فأنا مضطر، قال: إذاً فاسأله، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه. وقال الشاعر:

وَإِنِّيْ لأَدْعُوْ ٱللَّهَ وَٱلأَمْرُ ضَيِّقٌ ... عَلَيَّ فَمَا يَنْفَكُّ أَنْ يَتَفَرَّجَا

وَرُبَّ أَخٍ سُدَّتْ عَلَيْهِ وُجُوْهُهُ ... أَصَابَ لَهَا لَمَّا دَعَا ٱللَّهَ مَخْرَجَا

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت»، وجاء في الخبر: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده».

وفي «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن: «واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب» وقرأ الحسن في رواية: ﴿ونجعلكم﴾ بنون المتكلم المعظم، كأنه استئناف إخبار ووعد.

﴿أَءِلَٰهٌ﴾؛ أي: هل معبود آخر كائن ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام. ثم بيَّن أن من طبيعة الإنسان أن لا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلاً حيث قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتذكرون آلاء الله ونعمه تذكراً قليلاً، وزماناً قليلاً، ومن ثم أشركتم به غيره في العبادة، و﴿مَا﴾ مزيدة[2] لتأكيد معنى

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

القلة التي أريد بها العدم، أو ما يجري مجراه في الحقارة وقلة الجدوى، وفيه إشارة إلى أن مضمون الكلام مركوز في ذهن كل ذكي وغبي، وإنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تذكرون﴾ بالفوقية على الخطاب، والحسن والأعمش وأبو عمرو وهشام ويعقوب: بالتحتية على الخبر رداً على قوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾، واختار هذه القراءة أبو حاتم، والذال في القراءتين مشددة لإدغام التاء فيها، وقرأ أبو حيوة شاذاً: ﴿تتذكرون﴾ بتاءين.

ثم زادهم تأنيباً وتهكماً من ناحية أخرى فقال: ﴿أمن يهديكم﴾؛ أي: بل أمن يهديكم ويرشدكم إلى مقاصدكم ﴿في ظلمات البر والبحر﴾؛ أي: في ظلمات الليالي فيهما بالنجوم وعلامات الأرض، على أن الإضافة للملابسة، أو في مشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء أو عمياء للتي لا منار بها، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها؛ أي: أهو خير أم الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، و﴿من﴾ موصولة كما سبق؛ أي: وأمن ﴿يرسل الرياح﴾ حال كونها ﴿بشرا﴾؛ أي: مبشرة بالمطر ﴿بين يدي رحمته﴾؛ أي: قدام المطر - وقيل: نزوله - خير أم الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

والمعنى[2]: أي أمن تشركون بالله خير أم من يرشدكم في ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم السبل، فضللتم الطريق، بما خلق من الدلائل السماوية، كما قال: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ وقال: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾، ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذي يحيي موات الأرض.

ولما اتضحت الأدلة، ولم يبق لأحد في ذلك عذر ولا علة قال: ﴿أإله﴾؛ أي: هل معبود آخر كائن ﴿مع الله﴾ سبحانه يقدر على مثل ذلك ﴿تعالى الله﴾ سبحانه وترفع ﴿عما يشركون﴾ به؛ أي: تعالى الخالق القادر عن مشاركة العاجز

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

المخلوق، وقرىء: ﴿عما تشركون﴾ بتاء الخطاب.

أي: تنزه ربنا المنفرد بالألوهية، ومن له صفات الكمال والجلال، ومن تخضع له جميع المخلوقات، وتذل لقهره وجبروته عن شرككم الذي تشركونه به، وعبادتكم معه ما تعبدون.

ثم أضاف إلى ذلك برهاناً آخر لعلهم يرتدعون عن غيهم فقال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾؛ أي: بل أمن يوجد الخلق وينشىء أول مرة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يعيد الخلق بعد الموت بالبعث؛ أي: يوجده بعد إماتته، خير أم الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق، فألزمهم الإعادة؛ أي: إذا قدر على الابتداء فهو أقدر على الإعادة.

وفي «الكواشي»: وسألوا عن بدء خلقهم وإعادتهم، مع إنكارهم البعث، لتقدم البراهين الدالة على ذلك من إنزال الماء وإنبات النبات وجفافه ثم عوده مرة ثانية، والعقل يحكم بإمكان الإعادة بعد الإبلاء، وهم يعلمون أنهم وُجدوا بعد أن لم يكونوا، فإيجادهم بعد أن كانوا أيسر.

و﴿أَمْ﴾ في الجُمل الخمس للانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر[1]، أدخل في الإلزام بجهة من الجهات، ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِۗ﴾؛ أي: بأسباب سماوية وأرضية، كالمطر والحر والبرد والنبات والمعادن والحيوان؛ أي: أهو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك.

والمعنى: أمن تشركون به خير أم الذي ينشىء الخلق بادىء بدء، ويبتدعه من غير أصل سلف، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه، والذي يرزقكم من السماء والأرض، فينزل من الأولى غيثاً، وينبت من الثانية نباتاً لأقواتكم وأقوات أنعامكم.

وهم وإن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يُلتفت إلى ذلك الإنكار، لظهور

(١) المراح.

أدلته، فلم يبق لهم عذر فيه، وبعد أن وضَّح الدليل على نفي الشريك بكَّتهم وقال: ﴿أَءِلَٰهٌ﴾؛ أي: هل إله آخر كائن ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى يفعل هذا حتى يُجعل شريكاً له.

وبعد[1] أن ذكر البرهان تلو البرهان، وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح.. زاد في التهكم بهم، والإنكار عليهم، والتسفيه لعقولهم، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان على صدق ما يدَّعون، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ وحجتكم عقلياً أو نقلياً بما يدل على أن معه تعالى إلهاً آخر، والبرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: في تلك الدعوى.

فائدة[2]: قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ذُكر هنا في خمسة مواضع متوالية، وختم الأول بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، والثانية بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والثالثة بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، والرابعة بقوله: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والخامسة بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومعناه: أي عدلوا، وأول الذنوب العدول عن الحق، ثم لم يعلموا، ولو علموا ما عدلوا، ثم لم يتذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال، فأشركوا من غير حجة وبرهان، قل لهم يا محمد: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ثم بيَّن تعالى تفرده بعلم الغيب تكميلاً لما قبله من اختصاصه بالقدرة التامة، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لكافة الناس تعليماً لهم ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾؛ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن الغيب الذي استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة، ونزول المطر، وبأي أرض تموت النفس، وماذا تكسب غداً، فـ﴿من﴾ الموصولة فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مفعوله، ولفظ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، والاستثناء

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن.

منقطع؛ أي: لكن الله سبحانه يعلمه، لأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض. ورفع[1] ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعاً، هو على اللغة التميمية، كما في قولهم: إلا اليعافير وإلا العيس، وقيل إن فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ ما بعد ﴿إِلَّا﴾، وهو لفظ الجلالة، و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعوله مقدم على الفاعل، و﴿ٱلْغَيْبَ﴾ بدل من ﴿مَن﴾؛ أي: لا يعلم غيب من في السماوات والأرض إلا الله؛ أي: لا يعلم الأشياء التي تحدث في السماوات والأرض الغائبة عنا إلا الله تعالى.

والحاصل[2]: أن الله سبحانه يقول آمراً رسوله ﷺ: أن يُعلم جميع خلقه أنه لا يعلم الغيب أحد من أهل السماوات والأرض، بل الله وحده هو الذي يعلم ذلك، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية.

والمراد بالغيب: الشؤون التي تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها، وشؤون الدنيا التي لا تقع تحت حسِّنا، وليست في مقدورنا، وعن مسروق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، أنها قالت: مَن زعم أن النبي ﷺ يعلم ما يكون في غد فقد أعظم الفرية على الله، لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ثم ذكر بعض ذلك فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يشعر من في السماوات من الملائكة، ولا من في الأرض من الإنس والجن، ولا يعلمون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: متى ينشرون من قبورهم لقيام الساعة، والله سبحانه تفرد بعلم ذلك؛ أي: وما يدري من في السماوات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها، بل تأتيهم بغتة، فـ﴿أَيَّانَ﴾[3] مركبة من أي وآن، فأي للاستفهام، وآن بمعنى الزمان، فلما ركبا

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وجُعلا اسماً واحداً بنيا على الفتح كبعلبك.

وقرأ السلمي[1]: ﴿إيان﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة قبيلته بني سليم، وهي منصوبة بـ﴿يبعثون﴾، ومعلقة ليشعرون، فتكون وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: وما يشعرون بوقت بعثهم، ومعنى أيان معنى متى.

ثم أكد[2] جهلهم بهذا اليوم بقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾؛ أي: بل انتهى وانقطع وانعدم ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: علمهم بالآخرة، فـ﴿في﴾ بمعنى الباء، والضمير للكفرة؛ أي: انعدم علمهم بالآخرة، وتبين عجزهم عن معرفة وقتها، فلم يكن لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعاً، مع توافر أسباب العلم من الأدلة العقلية والنقلية، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة، فانتفى شيئاً فشيئاً، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت في اعتبارهم وفكرهم شيئاً فشيئاً كلما تأملوا فيها، حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن.

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الحيرة في الآخرة نفسها، أتكون أولا تكون، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾؛ أي: بل هم اليوم في الدنيا في حيرة عظيمة من تحققها ووجودها، أكائنة هي أم غير كائنة، كمن يحار في الأمر لا يجد عليه دليلاً، فضلاً عن تصديق ما سيحدث فيها من شؤون أخبرت عنها الكتب السماوية، كالثواب والعقاب والنعيم والعذاب والأهوال التي لا يُدرك كنهها العقل.

ثم ارتقى من وصفهم بالشك في أمرها إلى وصفهم بالعمى واختلال البصيرة، بحيث لا يدركون الدلائل التي تدل على أنها كائنة لا محالة، فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ أي: بل هم في عماية وجهل عظيم من أمرها، وعن كل ما يوصلهم إلى الحق في شأنها، والنظر في دلائلها، فلا يُدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وقيل: معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[1] اجتمع علمهم واتفق على أن الآخرة لا تكون ﴿بَلۡ هُمۡ﴾؛ أي: الكفرة ﴿فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾؛ أي: من قيام الساعة ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا﴾؛ أي: من قيام الساعة ﴿عَمُونَ﴾ عمي لا يبصرون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ أصله تدارك فادغمت التاء في الدال فسكنت، فاجتلبت همزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وحُميد وأهل مكة: ﴿بل أدرك﴾ على وزن أفعل، بمعنى تفاعل، ورُويت هذه القراءة عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ أبي: ﴿أم تدارك﴾ على الأصل، وجعل ﴿أم﴾ بدل ﴿بل﴾، وقرأ سليمان بن يسار وأخوه عطاء بن يسار والأعمش: ﴿بل ادرك﴾ بنقل الهمزة إلى اللام وشد الدال، بناء على أن وزنه افتعل، فأُدغم الدال، وهي فاء الكلمة في التاء بعد قلبها دالاً فصار قلب الثاني للأول، لقولهم: اثَّرَدَ، وأصله اشتَرَدَ من الشَّرْد، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام، أُدخلت على ألف الوصل، فانحذفت ألف الوصل، ثم انحذفت هي، وألقيت حركتها على لام بل.

وقرأ أبو رجاء والأعرج وشيبة وطلحة وتوبة العنبري وابن عباس والأعمش وعاصم: ﴿بل إدرك﴾ بكسر لام بل وإثبات الياء بعدها وبهمزة قطع.

وقرأ عبد الله في رواية وابن عباس في رواية، وابن أبي جمرة وغيره عنه والحسن وقتادة وابن محيصن: ﴿بل آدرك﴾ بمدة بعد همزة الاستفهام، أصله أأدرك، فقلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين، وأنكر أبو عمرو ابن العلاء هذه القراءة، ووجَّهها، وقال أبو حاتم: لا يجوز الاستفهام بعد بل، لأن بل إيجاب والاستفهام في هذا الموضع إنكار، بمعنى لم يكن، فلا يصح وقوعهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار انتهى.

وقرأ مجاهد: ﴿أم أدرك﴾ جعل ﴿أم﴾ بدل ﴿بل﴾، وأدرك على وزن أفعل، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿بل ادارك﴾ بهمزة داخلة على أدَّارك، فيسقط

---

(١) تنوير المقياس. (٢) البحر المحيط.

همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالساكن، وقرأ ابن مسعود أيضاً: ﴿بل أأدرك﴾ بهمزتين، همزة الاستفهام وهمزة أفعل، وقرأ الحسن أيضاً والأعرج: ﴿بل ادّرك﴾ بهمزة وإدغام فاء الكلمة، وهي الدال في تاء افتعل بعد صيرورة التاء دالاً، وقرأ ورش في رواية: ﴿بل ادرك﴾ بحذف همزة ادرك، ونقل حركتها إلى اللام، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿بلى ادرك﴾ بحرف الإيجاب الذي يوجب به المستفهم المنفي، وقرىء: ﴿بل آأدرك﴾ بألف بين الهمزتين.

فأما قراءة من قرأ بالاستفهام فقال ابن عباس: هو للتقريع بمعنى لم يُدرك علمهم على الإنكار عليهم، وقال الزمخشري: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك قراءة من قرأ ﴿أم أدرك﴾، و﴿أم تدارك﴾، لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة، وأما قراءة من قرأ على الخبر فقال ابن عباس: المعنى بل تدارك علمهم ما جهلوه في الدنيا؛ أي: علموه في الآخرة، بمعنى: تكمل علمهم في الآخرة، بأن كل ما وُعدوا به حق، وهذا حقيقة إثبات العلم لهم، لمشاهدتهم عياناً في الآخرة ما وُعدوا به في الدنيا غيباً، وكونه بمعنى المضي، ومعناه الاستقبال، لأن الإخبار به صدق، فكأنه قد وقع.

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاث ما معناها؟

قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يتخبطون في شك ومرية، فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدَّاه بمن دون عن، لأن العاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يبصرون، انتهى.

فائدة: قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله[2]: ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل، قيل: يا أبا محمد هل تعرفُ شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم الجهل بالجهل، فالجهل جهلان: جهل بسيط، هو سلب العلم، وجهل

---

(١) الكشاف. (٢) روح البيان.

مركب هو خلافه، والأول ضعيف، والثاني قوي لا يزول إلا أن يتداركه الله تعالى. قيل:

سَقَامُ ٱلْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءٌ   وَدَاءُ ٱلْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طَبِيْبُ

وقيل أيضاً:

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ   وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ ٱلْقُبُوْرِ قُبُوْرُ
وَإِنَّ ٱمْرَأً لَمْ يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ مَيِّتٌ   وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ ٱلنُّشُوْرِ نُشُوْرُ

ولما ذكر الله سبحانه أن المشركين في شك من البعث، وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبههم، وهي مجرد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: مشركو مكة ﴿أ﴾ نخرج من قبورنا ﴿إذا كنا﴾ وصرنا ﴿تُرَٰبًا﴾ وعظاماً رميماً ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ معطوف على ضمير ﴿كُنَّا﴾ بلا تأكيد لفصل تراباً بينهما، والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، هو العامل في إذا كما قدرنا، وكذا في قوله: ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ والضمير في ﴿أَئِنَّا﴾ شامل لهم ولآبائهم لأن كونهم تراباً يتناولهم وآباءهم، والعامل في إذا ما دل عليه ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو نخرَج، كما قدرنا آنفاً، لا مخرجون، لأن كلاً من الهمزة وإنا واللام مانع من عمله فيما قبلها، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار، وتقييد الإنكار بوقت كونهم تراباً لتقويته بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له، وإلا فهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً؛ أي: سواء كانوا تراباً أو لا.

والمعنى: أنخرج نحن وآباؤنا من القبور إذا صرنا تراباً وعظاماً رفاتاً، لا والله ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ الإخراج من القبور كما كنا أول مرة ﴿نَحْنُ﴾ وتقديم الموعود على نحن، لأنه المقصود بالذكر، وحيث أخر ـ كما في سورة المؤمنون ـ قصد به المبعوث، ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ معطوف على ضمير ﴿وُعِدْنَا﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل وعد محمد إياه، يعني إن آباءنا وُعدوا به في الأزمنة المتقدمة ثم لم يبعثوا، ولن يبعثوا.

﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الوعد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أحاديثهم العاطلة، وأكاذيبهم الباطلة التي سطروها وكتبوها كذاباً، مثل أحاديث رستم وإسفنديار، والأساطير الأحاديث التي ليس لها حقيقة ولا نظام، والمعنى، أي: ما هذا الذي تعدنا يا محمد إلا أحاديث الأولين التي لا حقيقة لها.

وعبارة الخطيب هنا[1]: والله لقد وُعدنا هذا؛ أي: الإخراج من القبور كما كنا أول مرة نحن وآباؤنا من قبل؛ أي: من قبل محمد، فقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شيء، فذلك دليل على أنه لا حقيقة له، فكأنه قيل: فما الفائدة المرادة به، فقالوا: إن هذا إلا أساطير الأولين؛ أي: أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ولا حقيقة لها.

فإن قيل: لِمَ قدَّم في هذه الآية ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾، وفي سورة المؤمنون قدم ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على ﴿هَٰذَا﴾؟

أجيب: بأن التقديم دليل على أن المقدم في كل موضع هو المعني بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله، ففي هذه الآية دليل على أن إيعاد البعث والإخراج هو الذي قُصد بالكلام، وفي آية المؤمنون دليل على أن إيعاد المبعوث بذلك الصدد، انتهت.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: ﴿أئذا﴾ ﴿أئنا﴾ بالجمع بين الاستفهامين، وقلب الثانية ياء، وفصل أبو عمرو بينهما بألف، وقرأ عاصم وحمزة بهمزتين، وقرأ نافع ﴿إذا﴾ بهمزة مكسورة، و﴿أينا﴾ بهمزة الاستفهام، وقلب الثانية ياء وبينهما مدة، وقرأ الباقون: ﴿أئذا﴾ باستفهام ممدوداً، ﴿إننا﴾ بنونين من غير استفهام، ورجَّح أبو عبيد قراءة نافع، وردَّ على من جمع بين استفهامين.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يُرشدهم إلى وجه الصواب، مع التهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك ﴿سِيرُواْ﴾ وامشوا أيها المكذبون المنكرون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في أرض

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.

من كان قبلكم من المكذبين وديارهم، مثل الحجر والأحقاف والمؤتفكات ونحوها، ﴿فَانظُرُوا﴾ بأبصاركم، وفكروا بقلوبكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: آخر أمر المكذبين لرسلهم بسبب التكذيب، حيث أهلكوا بأنواع العذاب؛ أي: فانظروا كيف كانت هي، ألم يخربها الله تعالى، ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم، وردهم عليهم نصائحهم، فخلت منهم الديار، وعفت عنهم الرسوم والآثار، وكان ذلك عاقبة إجرامهم، وتلك سنة الله في كل من سلك سبيلهم في تكذيب رسله، وفيه تهديد لهم على التكذيب، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم، إن داموا على التكذيب، ولم يبادروا إلى الإنابة من كفرهم وتكذيبهم رسوله.

والمعنى[(١)]: فانظروا كيف كان آخر أمر المنكرين للبعث، المكذبين للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وهو هلاكهم بالعذاب الدنيوي، لأن في مشاهدة ذلك ما فيه كفاية لمن اعتبر.

ثم سلى رسوله ﷺ على ما وقع منهم من الإصرار على الكفر فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على ما وقع لهم فيما مضى من تكذيبهم لك، وإصرارهم على كفرهم، لأنهم خُلقوا لهذا، وليس النهي عن تحصيل الحزن، لأن الحزن ليس يدخل تحت اختيار الإنسان، فالنهي في الحقيقة إنما هو عن تعاطي ما يورث الحزن واكتسابه.

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ وحرج وغم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في المستقبل؛ أي: من مكرهم وكيدهم، وتدبيرهم الحيل في إهلاكك، ومنع الناس عن دينك، فإنه لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، والله يعصمك من الناس، ويُظهر دينك على من خالفك في المشارق والمغارب.

وقرأ ابن كثير: ﴿ضيق﴾ بكسر الضاد، وغيره بفتحها، يقال: ضاق الشيء ضَيقاً بالفتح، وضيقاً بالكسر، قرىء بهما، وهما لغتان، قال ابن السكيت: يقال:

---

(١) المراح.

في صدر فلان ضيق وضيق، وهو ما تضيق عنه الصدور.

ثم أشار إلى أنهم لم يقصروا إنكارهم على الساعة، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى يكون هذا العذاب الذي تعدنا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

ثم أمر رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستعجلين حلول العذاب ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾؛ أي: أترجى أن يكون الشأن ﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ أي: تبعكم ولحقكم، وقرب منكم قرب الرديف من مردفه، واللام زائدة ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله بكم، فحل بهم عذاب يوم بدر، وسائر العذاب لهم مدخر ليوم البعث.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى اقترب لكم ودنا منكم، فتكون غير زائدة، والمراد به ما حل بهم يوم بدر من النكال والوبال، وقيل هو عذاب القبر؛ أي: عسى أن يكون قد قرب ودنا وأزف بعض ذلك.

قال صاحب «الكشاف»: عسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده، وما لا مجال للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإذلالهم بقهرهم وغلبتهم، وتوقعهم أن عدوهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم، وهي كالتصريح من غيرهم، وعلى ذلك جرى وعد الله سبحانه ووعيده اهـ.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿ردِف﴾ بكسر الدال، وقرأ الأعرج: ﴿ردَف لكم﴾ بفتح الدال، وهي لغة، والكسر أشهر، وقرأ ابن عباس: ﴿أزف لكم﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ثم بين سبحانه السبب في ترك تعجيل العذاب، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ أي: إفضال وإنعام ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: على كافة الناس، ومن جملة إنعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي التي من جملتها استعجال العذاب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يعرفون حق النعمة، فلا يشكرون فضله وإنعامه عليهم.

والمعنى: أي وإن ربك لهو المنعم المتفضل على الناس جميعاً، بتركه المعاجلة بالعقوبة على المعصية والكفر، ولكن أكثرهم لا يعرفون حق فضله عليهم، فلا يشكره إلا القليل منهم، وفيه[1] إشارة إلى أن استعجال منكري البعث في طلب العذاب الموعود لهم من غاية جهلهم بحقائق الأمور، وإلا فقد ردفهم أنموذج من العذاب الأكبر، وهو العذاب الأدنى من البليات والمحن.

ثم بيَّن أنه مطلع على ما في صدورهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ وتُخفي وتستر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ وقلوبهم من الخواطر ﴿و﴾ يعلم ﴿ما يعلنون﴾؛ أي: ما يظهرون لغيرهم من الأقوال والأفعال، التي من جملتها ما حُكي عنهم من استعجال العذاب، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم.

والمعنى: أي وإن ربك يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، وقال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾

وقصارى ذلك: أنه يعلم ما يخفون من عداوة الرسول ومكايدهم له، وما يعلنون، وهو محصيها عليهم، ومجازيهم بذلك.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ بضم التاء من أكنَّ الشيء إذا أخفاه، وقرأ ابن محيصن وحميد وابن السميقع: ـ بفتح التاء وضم الكاف ـ من كنَّ الشيء من باب نصر، يقال: كننته بمعنى سترته وأخفيت أثره.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ثم ذكر أن كل ما يحصل في الوجود فهو محفوظ في اللوح المحفوظ، فقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾؛ أي: وما من شيء غائب، وأمر يغيب عن الخلق، فالتاء فيه للمبالغة كتاء علاَّمة، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا﴾ وهو مكتوب محفوظ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: مظهر حافظ للكائنات، وهو اللوح المحفوظ، أو كتاب ظاهر واضح لمن ينظر إليه من الملائكة.

والمعنى: أي وما من أمر مكتوم، وسر خفي يغيب عن الناظرين في السماء، أو في الأرض إلا وهو مثبت في أم الكتاب، الذي أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة، وهو بيِّن لمن نظر إليه، وقرأ ما فيه مما أثبته ربنا جلَّت قدرته، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وقال الزمخشري[1]: سميِّ الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة، وخافية، فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العاقبة والعافية، ونظيرهما النطيحة والذبيحة، والرمية في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة، كالراوية والداعية، كما في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به، وأثبته في اللوح المبين الظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة انتهى.

والخلاصة: أي وما من خافية فيهما إلا في لوح محفوظ ظاهر لمن يطالعه من الملائكة، ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب، فإنه مؤقت بوقت، ومؤجل بأجل، علمه عند الله سبحانه، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له.

ثم إنه ينبغي للمؤمن أن يكون سليم الصدر، ولا يجعل في نفسه حقداً وحسداً وعداوة لأحد، والنصيحة في هذا للعقلاء أن لا يصيخوا إلى الواشي والنمام، والغيَّاب والعيَّاب، فإن عرض المؤمن كدمه، ولا ينبغي إساءة الظن في حق المؤمن بأدنى سبب. وقد ورد: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها».

---

(١) الكشاف.

الإعراب

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً عن خبرها، والتقدير: فما كان جواب قومه إلا قولهم: أخرجوا آل لوط، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُنَاسٌ﴾: خبره، وجملة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: صفة لـ﴿أُنَاسٌ﴾ وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معللة للإخراج.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف؛ تقديره: فخرج لوط من قريتهم بأهله فأنجيناه. ﴿أنجيناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: معطوف على الهاء، أو مفعول معه، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾؛ أي: حالة كونها مقدراً كونها من الغابرين. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمطرنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أنجيناه﴾. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به. ﴿مَّطَرًا﴾: مفعول به ﴿فَسَآءَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿ساء﴾: فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أمطرنا﴾، أو مستأنفة مسوقة لإنشاء الذم.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة لأمر رسوله ﷺ بحمده تعالى، وبالسلام على المصطفين الأخيار من خلقه، وكان هذا الحمد براعة استهلال؛ لما سيلقيه من البراهين والدلائل على الوحدانية والعلم والقدرة التي سيسرد ذكرها، وذلك بعد أن فرغ من قصص هذه السورة الخمس؛ ليكون نموذجاً يتأسى به كل كاتب وخطيب، ويحتذي به في كل علم مفاد. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ، ﴿لِلَّهِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء. ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿عِبَادِهِ﴾، ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: اصطفاهم الله سبحانه. ﴿ءَآللَّهُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام، يُطلب بها وبـ﴿أَمْ﴾ تعيين أحد الشيئين، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة لتوفر شروطها، وهو تقدم همزة الاستفهام عليها، ودخولها على المفرد ﴿مَا﴾: اسم موصول معطوف على الجلالة. ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف؛ تقديره: أي أم الأصنام التي يشركونها به تعالى، وقيل: ﴿مَا﴾: مصدرية، والكلام حينئذٍ على حذفه مضاف من الأول؛ أي: توحيد الله خير أم شرككم .اهـ «سمين».

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

﴿أَمَّنْ﴾: ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى همزة التقرير، أو التوبيخ، وبل الإضرابية لعدم شرط كونها متصلة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: أمن خلق السماوات والأرض خير أم ما يشركون، والجملة الاسمية في محل النصب

معطوفة على جملة قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ على كونها مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر معطوف على ﴿خَلَقَ﴾. ﴿لَكُم﴾: حال من ﴿مَآءً﴾ أو متعلق بـ﴿أنزل﴾، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزل﴾ أيضاً، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنبتنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أنزل﴾ على طريق الالتفات، كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به، ﴿حَدَآئِقَ﴾: مفعول به، ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾: صفة لـ﴿حَدَآئِقَ﴾، وسوَّغ إفراده كون المنعوت جمع كثرة لما لا يعقل.

﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَكُم﴾: خبرها، مقدم على اسمها، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُنۢبِتُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بحذف النون، ﴿شَجَرَهَآۗ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: ما كان إنبات شجرها كائناً لكم، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب صفة ثانية لـ﴿حَدَآئِقَ﴾، أو حال منها لتخصصها بالصفة ﴿أَءِلَٰهٌ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿إله﴾ مبتدأ، سوَّغ الابتداء بالنكرة تقدم الاستفهام عليه، ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: هل إله آخر كائن مع الله سبحانه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وانتقال من تبيكتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم، ﴿هُمۡ قَوۡمٌ﴾: مبتدأ وخبر، وجملة ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ صفة ﴿قَوۡمٌ﴾، والجملة معترضة بين المقولات.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَمَّن﴾: ﴿أم﴾: منقطعة، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: خير أمَّا يشركون؟ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿جَعَلَ﴾

الأول، ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ ظرف مكان في محل المفعول الثاني، ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾ مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿رَوَٰسِيَ﴾: مفعول أول له. ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: ظرف في محل المفعول الثاني. ﴿حَاجِزًاۗ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿أَءِلَٰهٞ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، ﴿إله﴾: مبتدأ. ﴿مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب وانتقال. ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة معترضة بين المقولات.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن﴾ ﴿أم﴾: منقطعة، بمعنى همزة الاستفهام وبل الإضرابية، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: خير، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. و﴿يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ﴿يُجِيبُ﴾. ﴿دَعَاهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والتقدير: أمن يجيب المضطر وقت دعوته إياه؟ ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يُجِيبُ﴾. ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُجِيبُ﴾. ﴿أَءِلَٰهٞ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام، ﴿إله﴾: مبتدأ. ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿قَلِيلٗا﴾: صفة لمصدر محذوف، منصوب بما بعده؛ أي: تذكراً قليلاً، أو لوقت محذوف، و﴿مَا﴾: زائدة؛ زيدت لتأكيد القلة، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ

أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَمَّن﴾: ﴿أم﴾: منقطعة، ﴿مَن﴾: مبتدأ خبره محذوف؛ أي: أمن يهديكم خير أما يشركون؟ والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿يَهْدِيكُمْ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَهْدِيكُمْ﴾، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبَرِّ﴾، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿مَنْ﴾ الأول، ﴿يُرْسِلُ﴾: فعل وفاعل مستتر، صلة الموصول، ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مفعول به، ﴿بُشْرًا﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُرْسِلُ﴾. ﴿أَءِلَٰهٌ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿إله﴾: مبتدأ، ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة معترضة، ﴿عَمَّا﴾: متعلّق بـ﴿تَعَٰلَى﴾، ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والعائد محذوف؛ والتقدير: تعالىٰ الله سبحانه عن الأصنام التي يشركونها به.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَمَّن﴾ ﴿أم﴾: منقطعة، ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: خير، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول معطوف على ﴿من﴾ الأول، ﴿يَرْزُقُكُم﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به صلة الموصول، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يَرْزُقُكُم﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿أَءِلَٰهٌ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿إله﴾: مبتدأ، ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط،

﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿صَادِقِينَ﴾: خبره، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿الْغَيْبَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: لكن الله يعلم ذلك، والجملة الاستدراكية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾، ويصح أن تكون ﴿مَن﴾: في محل نصب مفعولاً به، ﴿الْغَيْبَ﴾: بدل اشتمال منها، ﴿اللَّهُ﴾: فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾. والمعنى: قل لا يعلم الأشياء التي تحدث في السماوات والأرض الغائبة عنا إلا الله تعالى. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا يَعْلَمُ﴾، ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام بمعنى متى، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ﴿يُبْعَثُونَ﴾، وهي معلقة لـ﴿يَشْعُرُونَ﴾ عن العمل فيما بعدها، ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلِ﴾: حرف إضراب انتقالي، ﴿ادَّارَكَ﴾: فعل ماض بمعنى انعدم واضمحل، ﴿عِلْمُهُمْ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿ادَّارَكَ﴾، أو بـ﴿عِلْمُهُمْ﴾، وادارك وإن كان ماضيا لفظا فهو مستقبل معنى، لأنه كان حتما، كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِي شَكٍّ﴾: خبر، ﴿مِّنْهَا﴾: صفة لـ﴿شَكٍّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾:

حرف إضراب انتقالي أيضاً، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿عَمُونَ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، والأصل عميون، استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها فالتقى ساكنان، فحذفت الياء فصار ﴿عَمُونَ﴾، كما سيأتي.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَءِذَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، تقديره: أنخرج من قبورنا إذا كنا تراباً، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط متعلق بنخرج المحذوف، لا بمخرجون، لأن ما بعد الهمزة وإن واللام لا يعمل فيما قبلها، ﴿كُنَّا تُرَٰبًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾: معطوف على اسم ﴿كان﴾ لوجود الفصل بـ﴿تُرَٰبًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، تقديره: أنخرج من قبورنا وقت كوننا تراباً وأباؤنا؟، لا، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَئِنَّا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مخرجون﴾: خبر إن، وهذه الجملة مع استفهامها مؤكدة للجملة التي قبلها، ﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿وُعِدْنَا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿هَٰذَا﴾: مفعول ثان لـ﴿وُعِدْنَا﴾، ﴿نَحْنُ﴾: تأكيد لضمير ﴿وُعِدْنَا﴾، ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ معطوف عليه، وجاز العطف عليه بوجود الفصل بالضمير المنفصل والمفعول الثاني، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وُعِدْنَا﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر المبتدأ، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة،

﴿سِيرُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُواْ﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها للزومه الصدارة، ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾، علق عنها باسم الاستفهام. ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَحْزَنْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلْ﴾، ﴿وَلَا تَكُن﴾: جازم وفعل ناقص مجزوم، معطوف على ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، واسمها ضمير يعود على محمد، ﴿فِي ضَيْقٍ﴾: خبرها، ﴿مِّمَّا﴾ ﴿من﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، وجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، الجار والمجرور صفة لـ﴿ضَيْقٍ﴾؛ أي: في ضيق كائن من مكرهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿هَٰذَا﴾، و﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿ٱلْوَعْدُ﴾: بدل منه، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فمتى هذا الوعد، والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على النبي، والجملة مستأنفة، ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، يرفع الاسم، وينصب الخبر، واسمها ضمير مستتر فيه، تقديره: هو، يعود على الشأن، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير مستتر يعود على الشأن، والمصدر المؤول من ﴿أَن يَكُونَ﴾: خبر ﴿عَسَىٰٓ﴾، ﴿رَدِفَ﴾: فعل ماض بمعنى قرب، ﴿لَكُم﴾ متعلق به، ﴿بَعْضُ﴾:

فاعل، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف. تقديره: بعض الذي تستعجلونه، وجملة ﴿رَدِفَ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكُونَ﴾، والتقدير: عسى أن يكون رديفاً قريباً لكم بعض العذاب الذي تستعجلونه، وجملة ﴿أَن يَكُونَ﴾: خبر ﴿عَسَىٰٓ﴾، والتقدير: عسى هو ـ أي الشأن ـ كون العذاب الذي تستعجلونه رديفاً قريباً لكم، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾: خبره ومضاف إليه، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿فَضْلٍ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ خبرها، وجملة الاستدراك في محل النصب حال من ﴿ٱلنَّاسِ﴾، والتقدير: وإن ربك لذو فضل على الناس حالة كون أكثرهم غير شاكرين له.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيَعْلَمُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يعلم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، و﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يعلم﴾، وجملة ﴿يعلم﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تكنه صدورهم. ﴿وَمَا﴾: معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولى، وجملة ﴿يُعْلِنُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: وما يعلنونه، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿غَآئِبَةٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء، بالنكرة تقدم النفي عليها، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿غَآئِبَةٍ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر واستثناء مفرغ، ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: خبر ﴿غَآئِبَةٍ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٍ﴾،

والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: ينزهون أنفسهم، ويتباعدون عما نفعله، ويزعمون أنه من القاذورات.

﴿قَدَّرْنَاهَا﴾؛ أي: قضينا وحكمنا، ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ هذا التأكيد يدل على شدة المطر، وأنه غير معهود.

﴿حَدَائِقَ﴾ جمع حديقة؛ أي: بستان من أحدق بالشيء إذا أحاط به، ولما كان البستان محوَّطاً بالحيطان سمي حديقة، وإلا فلا يسمى بها، وفي «المصباح»: والحديقة البستان يكون عليه حائط، فعيلة بمعنى مفعولة، لأن الحائط أحدق بها؛ أي: أحاط، ثم توسعوا حتى أطلقوا الحديقة على البستان، وإن كان بغير حائط، والجمع الحدائق، وفي «الصحاح»: الحديقة كل بستان عليه حائط، ومن أقوالهم: ورد عليَّ كتابك فتنزهت في آنق رياضه وبهجة حدائقه، وقال في «المفردات»: الحدائق جمع حديقة، وهي قطعة من الأرض ذات ماء سميت بها تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها، وحدقوا به وأحدقوا أحاطوا به، تشبيهاً بإدارة الحدقة. انتهى.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ البهجة حسن اللون، وظهور السرور فيه؛ أي: صاحبة حسن ورونق يبتهج به النظار، وكل موضع ذي أشجار مثمرة محاط عليه فهو حديقة، وكل ما يسر منظره فهو بهجة، و﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ نعت لحدائق. وسوَّغ إفراده كون المنعوت جمع كثرة لما لا يعقل. قال بعضهم:

وَجَمْعُ كَثْرَةٍ لِمَا لاَ يَعْقِلُ الأَفْصَحُ ٱلإِفْرَاد فِيْهِ يَا فُلُ

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: قوم عادتهم العدول والميل عن الحق الذي هو التوحيد، والعكوف على الباطل الذي هو الإشراك، أو يعدلون يجعلون له عديلاً، ويثبتون له نظيراً. قال في «المفردات»: قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يصح أن

يكون من قولهم: عدل عن الحق إذا جار عدولاً انتهى، فهم جاروا وظلموا بوضع الكفر موضع الإيمان، والشرك محل التوحيد.

﴿قَرَارًا﴾؛ أي: مستقراً؛ أي: دحاها وسواها بحيث يمكن الاستقرار عليها، يقال: قر في مكانه يقر قراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله القر، وهو البرد، لأجل أن البرد يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَآ﴾ جمع خلل، وهي الفرجة بين الشيئين، نحو خلل الدار، وخلل السحاب ونحوهما، أوساطها.

﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت، قال في «كشف الأسرار»: الرواسي جمع الجمع، يقال: جبل راس وجبال راسية، ثم تُجمع الراسية على الرواسي.

﴿بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾؛ أي: مانعاً معنوياً، وهو القدرة القاهرة، قال في «المفردات»: الحجز المنع بين الشيئين بفاصل بينهما، وسمي الحجاز بذلك لكونه حاجزاً بين الشام والبادية، والحاجز هنا المانع الإلٰهي، إذ ليس هناك حاجزٌ حسيٌّ كما هو مشاهد.

﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ والمضطر هنا اسم مفعول من الاضطرار، وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة. والاضطرار افتعال من الضرورة، أصله المضتر قلبت تاء الافتعال طاء لوقوعها إثر مطبق، وهو الضاد، والضرورة هي الحالة المحوجة إلى اللجاء، والمضطر الذي أحوجته شدة من الشدائد إلى اللجاء والضراعة إلى الله تعالى، كالمرض والفقر والدين والغرق والحبس والجور والظلم وغيرها من نوازل الدهر، فكشفها بالشفاء والإغناء والإنجاء والإطلاق والتخليص. ذكره في «الروح».

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والسوء كل ما يسوء الإنسان؛ أي: يحزنه سواء كان في نفسه، أو في غيره، كولده أو صديقه أو أهله أو ماله. فذكره بعد الضر، من ذكر العام بعد الخاص .اهـ شيخنا.

﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ من الخلافة، وهي الملك والتسلط، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أصله تتذكرون، لأنه من باب تفعل الخماسي فأدغمت التاء في الذال، فالذال والتاء مفتوحتان، و﴿مَّا﴾ مزيدة لتقليل القليل، وهو كناية عن العدم بالكلية فالمراد نفي تذكرهم رأساً .اهـ. شيخنا، وفي «الكرخي»: والمعنى: نفي التذكر، والقلة تُستعمل في معنى النفي .اهـ، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أي: يوجده أول مرة، فالخلق بمعنى المخلوق.

﴿قُلْ هَاتُوا۟﴾ قال الحريري: تقول العرب للواحد المذكر: هات بكسر التاء، والجمع هاتوا، وللمؤنث هاتي، ولجماعة الإناث هاتين، وللاثنين من المذكر والمؤنث هاتيا دون هاتا، من غير أن يفرقوا في الأمر لهما، كما لم يفرقوا بينهما في ضمير المثنى، في مثل قولك غلامهما، وضربهما، ولا في علامة التثنية التي في قولك: الزيدان والهندان.

وكان الأصل في هات: آت المأخوذ من أتي؛ أي: أعطي، فقُلبت الهمزة هاء كما قُلبت في أرقت الماء، وفي إياك، فقيل: هرقت وهيَّاك. وفي «ملح العرب»: أن رجلاً قال لأعرابي: هات. فقال: والله ما أهاتيك؛ أي: ما أعطيك.

﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ والبرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً، ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ وهو كل ما غاب عن العباد، كالساعة وأمور الآخرة، ونحوها، ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: متى يحشرون من القبور، فـ﴿أَيَّانَ﴾ مركبة من أي وآن. فأي للاستفهام، وآن بمعنى الزمان، كما مر في مبحث التفسير.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أصله تدارك فأبدلت التاء دالاً، وأسكنت للإدغام، واجتُلبت همزة الوصل للابتداء، ومعناه تلاحق وتدارك. قال في «القاموس»: جهلوا علمها ولا علم عندهم من أمرها. انتهى، والمراد التتابع في الاضمحلال والفناء، ﴿فِى شَكٍّ﴾؛ أي: في حيرة عظيمة.

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ أي: جاهلون بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية، جمع عم، وهو أعمى القلب، قال في «المفردات»:

العمى يقال: في افتقاد البصر، وافتقاد البصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: عميٌ وعمٍ، وعمى القلب أشد، ولا اعتبار لافتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة، إذ رُب أعمى في الظاهر بصير في الباطن، ورب بصير في الصورة أعمى في الحقيقة، كحال الكفار والمنافقين والغافلين، وعلاج هذا العمى إنما يكون بضده، وهو العلم الذي به يُدرك الآخرة وما تحويه من الأمور .اهـ «الروح»، وأصله عميون استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الميم بعد حذف حركتها.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير الأحاديث التي ليس لها حقيقة ولا نظام، جمع إسطار وإسطير بالكسر، وأسطور بالضم، وبالهاء في الكل، جمع سطر.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من الإجرام، وأصل الجرم قطع الثمر عن الشجر، والجرامة رديء الثمر المجروم، واستعير لكل اكتساب مكروه، ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ وفي «القاموس»: ردفه ـ كسمع ونصر ـ تبعه، ولكنه ضمن هنا معنى دنا أو قرب. ولذلك عدي باللام، أو أن اللام زائدة كما مر.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: ما تخفيه، من أكن إذا أخفى، والإكنان جعل الشيء في الكن، وهو ما يحفظ فيه الشيء.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ وفي «السمين»: في هذه التاء قولان:

أحدهما: أنها للمبالغة، كراوية وعلامة.

والثاني: أنها كالتاء الداخلة على المصادر، نحو العافية، والعاقبة، قال الزمخشري: ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات .اهـ.

قوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ بثبوت النون هنا على الأصل. وقد حذفت من هذا المضارع في القرآن في عشرين موضعاً، تسعة منها مبدوءة بالتاء، وثمانية بالياء، واثنان بالنون، وواحد بالهمزة. وهو قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ اهـ شيخنا.
﴿فِى ضَيْقٍ﴾؛ أي: في حرج وضيق صدر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

ومنها: براعة الاستهلال في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإنه كان هذا الحمد براعة استهلال لما سيلقيه من البراهين والدلائل على الوحدانية، والعلم والقدرة التي سيذكرها.

ومنها: أسلوب التبكيت والتهكم في قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فقد انتقل في نقل الأخبار من الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ والسر فيه تأكيد اختصاص فعل الإنبات بذاته تعالى، وللإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف، وما يبدو فيها من تزاويق الألوان، وتحاسين الصور ومتباين الطعوم، ومختلف الروائح المتفاوتة في طيب العرف والأريج. كل ذلك لا يقدر عليه إلا قادر خالق، وهو الله وحده، ولذلك رشح هذا الاختصاص بقوله بعد ذلك: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ وقد أدرك أبو نواس هذه الحقيقة، فقال:

تَـأَمَّـلْ فِـيْ رِيَـاضِ ٱلأَرْضِ وَٱنْـظُـرْ ... إِلَـىٰ آثَـارِ مَـا صَـنَـعَ ٱلْـمَـلِـيْـكُ
عُـيُـوْنٌ مِـنْ لُـجَـيْـنٍ شَـاخِـصَـاتٌ ... بِـأَنْـظَـارٍ هِـيَ ٱلـذَّهَـبُ ٱلـسَّـبِـيْـكُ
عَـلَـىٰ قُـضُـبِ ٱلـزَّبَـرْجَـدِ شَـاهِـدَاتٌ ... بِـأَنَّ ٱلـلَّـهَ لَـيْـسَ لَـهُ شَـرِيْـكُ

ومنها: الزيادة في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لتأكيد القلة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ أي: أمام نزول المطر، فاستعار اليدين للأمام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله سبحانه.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾.

ومنها: تكرير همزة الإنكار في قوله: ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لأن أصل الإجرام قطع الثمر عن الشجر، فاستعير لكل اكتساب مكروه.

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لأن معنى تكن تخفي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ
إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ
بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ
نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم
بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ
﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾
وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ
﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ
هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ
فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما يتعلق بالنشأة الأولى، وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وما يتصل بالبعث والنشور، وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد.. أردف ذلك بالكلام على نبوة محمد ﷺ، وأقام الأدلة على صحتها، وصدق دعواه فيما يدعي، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم، لا جرم، بيَّن الله تعالى إعجازه من وجوه:

١ ـ أن ما فيه من القصص موافق لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ﷺ كان

أمياً، ولم يخالط أحداً من العلماء للاستفادة والتعلم، فلا يكون ذلك إذاً إلا من وحي إلهي من لدن حكيم خبير.

٢ ـ أن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر في دنياهم وآخرتهم، لا يوجد له نظير في كتاب آخر، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله تعالى.

٣ ـ أنه قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته، مع حرصهم عليها أشد الحرص، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر، وأنه من الملأ الأعلى، ومن لدن خالق القوى والقدر.

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكماً على بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، فأبان لهم الحق في هذا، كاختلافهم في أمر المسيح فمن قائل هو الله، ومن قائل هو ابن الله، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة، وقوم يقولون: إنه كاذب في دعواه النبوة، كما نسبوا مريم إلى ما هي منزهة عنه، وقالوا: إن النبي المبشَّر به في التوراة هو يوشع عليه السلام، أو هو نبي آخر يأتي آخر الدهر، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه، وأنه لا يحكم إلا بالعدل، فقوله الحق وقضائه الفصل.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يتوكل عليه، فإنه حافظه، وناصره. وأن يُعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته، لأنهم صم بكم لا يعقلون، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعي، وآذان تسمع دعوة الداعي إلى الحق فتستجيب لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما يدل على كمال علمه وقدرته، وأبان بعدئذٍ إمكان البعث والحشر والنشر، ثم فصل القول في إعجاز القرآن، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة محمد ﷺ.. أردف ذلك بذكر مقدمات القيامة، وما يحدث من الأهوال حين قيامها، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم، وأنه حينئذ يُنفخ في الصور فيفزع من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله تعالى، وأن الجبال تجري وتمر مر السحاب.

ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك، وجعلهم قسمين:

مطيعين: يعملون الصالحات، فيثابون عليها بما هو خير منها، ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذٍ.

وعاصين: يكبون في النار على وجوههم، ويقال لهم حينئذٍ: هذا جزاء ما كنتم تعملون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيَّن أحوال المبدأ والمعاد، وفصَّل أحوال القيامة.. أمر رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة، تنبيهاً لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله تعالى، والاستغراق في مراقبته غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا، صلحوا أو فسدوا، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم، وتحصيل ما ينفعهم، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التي تكفي في إرشادهم، وتشفي عللهم وأمراضهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ المنزل عليك يا محمد ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اليهود والنصارى، ويبيِّن لهم، ﴿أَكْثَرَ﴾ الأمر ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ﴾ لجهالتهم ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ مثل اختلافهم في شأن المسيح، فمن قائل هو الله، ومن قائل هو ابن الله، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة، وقوم يقولون: إنه كاذب في دعواه النبوة، كما نسبوا مريم إلى ما هي بريئة منه، وكاختلافهم في أمر عزير فمن قائل إنه ابن الله، ومن قائل إنه نبي، ومن قائل إنه رجل صالح، وكاختلافهم في المعاد الجسماني والروحاني، وصفات الجنة والنار، وتناكرهم في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، فلو أنصفوا وأخذوا بالقرآن، وأسلموا لسلموا من هذا الاختلاف، ووجدوا ما يرفع تفرقهم.

فإن قلت[1]: إن قوله: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يناقض قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فكيف الجمع بينهما؟

قلت: إنه يبين الكل لكن أكثره بالتصريح والتنصيص، وأقله بالرمز والإشارة، كما في «الكرخي».

والمعنى: أي إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك أيها الرسول يقص على بني إسرائيل الحق في كثير مما اختلفوا فيه، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه لكنهم لم يفعلوا، وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله، كما تفعلون أنتم أيها المشركون.

ثم وصف القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ﴿لَهُدًى﴾ للمؤمنين؛ أي: لهاد لهم إلى سبيل الرشاد، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا به وصدقوه، وعملوا بما فيه مطلقاً، سواء كانوا من بني إسرائيل، أو من غيرهم، وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون به.

وبعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه بدليل عدله، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ﴾؛ أي: بعدله؛ أي: بحكمه العادل الحق الذي لا جور فيه، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن بما يستحق من الجزاء، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيُظهر ما حرَّفوه.

وقرأ الجمهور: ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف، وقرأ[2] أبو المتوكل وأبو عمران الجوني وعاصم الجحدري: ﴿بحكمه﴾ بكسر الحاء وفتح الكاف، جمع حكمة. وفي «فتح الرحمٰن»: تجوَّز بحكمه عما يحكم به، وهو العدل، وإلا فالقضاء والحكم واحد .اهـ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر، الذي لا يرد حكمه

---

(١) الفتوحات بتصرف.
(٢) زاد المسير.

وقضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعال العباد وأقوالهم، فقضاؤه موافق لواسع علمه.

ولما كان[1] القضاء يقتضي تنفيذ ما يقضي به، والعلم بما يحكم به.. جاءت هاتان الصفتان عقبه، وهو العزة؛ أي: الغلبة والقدرة، والعلم، وبعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة، أمر رسوله ﷺ أن يتوكل عليه وحده، فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: فإذا كان الله موصوفاً بهذه الشؤون الجليلة فتوكل على الله؛ أي: فوِّض جميع أمورك إلى الله سبحانه، وثق به فيها، ولا تبال بمعاداتهم، فإنه كافيك كل ما أهمك، وناصرك على أعدائك حتى يبلغ الكتاب أجله.

والتوكل[2] التبتل إلى الله، وتفويض الأمر إليه، والإعراض عن التشبث بما سواه، وأيضاً هو سكون القلب إلى الله، وطمأنينة الجوارح عند ظهور الهائل، ثم علل التوكل أولاً بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ أنت يا محمد ﴿عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: على الدين الحق، الظاهر الواضح الذي لا خفاء في حقيقته، وهو دين الإسلام، وإن خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء، وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره.

ثم علله ثانياً بقطع طمعه في إيمان قومه، وأنه لا أمل في استجابتهم لدعوته، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي[3]: لا تقدر على إسماع الحق لموتى القلوب، وهم الكفار؛ أي: لا تقدر أن تُفهم الحق من طبع الله سبحانه على قلوبهم، فأماتها، فإن كونهم كالموتى موجب لقطع الطمع في مشايعتهم، ومعاضدتهم رأساً. وتخصيص الاعتماد به تعالى، وهو المعني بالتوكل عليه، لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم.

وإطلاق الإسماع على المعقول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وإنما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بما يُتلى عليهم من الآيات، والمراد الذين طُبع على قلوبهم، فلا يخرج ما فيها من الكفر، ولا يدخل ما لم يكن فيها من الإيمان.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾؛ أي: ولا تقدر أن تُسمع الصم الدعوة إلى أمر من الأمور، جمع أصم، والصمم فقدان حاسة السمع، وبه شُبِّه من لا يصغي إلى الحق، ولا يقبله، كما شبه هنا؛ أي: ولا تقدر أن تسمع الحق من أصمهم الله عن سماعه، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لا أمل في استجابتهم للدعوة، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعي بحال.

وفي «التأويلات النجمية»: ولا تُسمع الصم الذين أصمهم الله بحب الشهوات، فإن حبك الشيء يُعمي ويصم؛ أي: يعمي عن طريق الرشد، ويصم عن استماع الحق.

ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده، فقال: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: لا تسمع الصم إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، وانصرفوا حال كونهم مدبرين؛ أي: معرضين عن الحق، تاركين ذلك وراء ظهورهم فتقييد[١] النفي بإذا لتكميل التشبيه، وتأكيد النفي، فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد؛ أي: إن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه، معرضاً عنه، مولياً مدبراً.

وظاهر نفي سماع الموتى العموم[٢]، فلا يخص منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت في الصحيح: إنه ﷺ خاطب القتلى في قليب - بئر - بدر، فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» أخرجه مسلم، وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق[١]: ﴿لا يسمع﴾ بالتحتية المفتوحة وبفتح الميم، ﴿الصم﴾ بضم الميم، فاعله، وقرأ الباقون: ﴿تُسمع﴾ بضم الفوقية وكسر الميم، ﴿الصمَّ﴾ بفتح الميم من أسمع الرباعي.

قال قتادة: الأصم إذا ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يُدعى إليه من الإيمان.

وقصارى ما سلف: أنه تعالى أمر نبيَّه ﷺ بالتوكل عليه، والإعراض عما سواه، لأنه على الحق المبين، ومن سواه على الباطل، ولأنه تعالى مؤيده وناصره، ولأنه لا مطمع في مشايعة المشركين، ومعاضدتهم، لأنهم كالموتى، وكالصم البكم، فلا أمل في استجابتهم للدعوة، ولا في قبولهم للحق.

ثم أكد ما سلف وقطع أطماعه في إيمانهم على أتم وجه، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾؛ أي: بمرشد العميان وصارفهم، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ وغوايتهم إلى الحق هداية موصلة إلى المطلوب، فإن الاهتداء لا يحصل إلا بالبصر، و﴿عَن﴾ متعلقة بالهداية[٢]، باعتبار تضمنها لمعنى الصرف، والعُميُ جمع أعمى، والعمى فقدان البصر، فشُبِّه من افتقد البصيرة بمن فَقَدَ البصر في عدم الهداية.

قال في «المفردات»: لم يعد تعالى افتقاد البصر في جانب افتقاد البصيرة عمى، حيث قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه، وهو الإيمان، وليس في وسعك ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ بإضافة هادي إلى العمي، وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة: ﴿بهادٍ﴾ منوناً ﴿العميَ﴾ بالنصب، وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وابن يعمر وحمزة: ﴿تهدي﴾ مضارع هدى ﴿العميَ﴾ بالنصب، وقرأ ابن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

مسعود: ﴿وما أن تهتدي﴾ بزيادة ﴿أن﴾ بعد ﴿ما﴾، وتهتدي، وتهتدي مضارع اهتدى، ﴿العمي﴾ بالرفع، والمعنى: ليس في وسعك إدخال الهدى في قلب من عمي عن الحق، ولم ينظر إليه بعين قلبه؛ أي: أنت أيها الرسول لا تستطيع أن تصرف العمي عن ضلالتهم، وتهديهم إلى الطريق السوي. والمراد: إنك لا تهدي من أعماهم الله عن الهدى والرشاد، فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جئت به نظراً يوصلهم إلى معرفة الحق، وسلوك سبيله.

ثم زاد ذلك توكيداً فقال: ﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ أي: ما تُسمع دعوتك سماعاً نافعاً للسامع، ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التنزيلية، ويصدق بها، وهي القرآن، لا من يكفر بها؛ أي: لا تُسمع إلا من سبق في علمنا إيمانه بآياتنا وتصديقه بكتابنا، ولما كان طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية قال: ﴿إن تسمع﴾، دون إن تهدي، مع قرب ذكر الهداية، وجملة قوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم بها، كأنه قيل يؤمنون بآياتنا لكونهم منقادين للحق، مخلصين في إيمانهم.

والمعنى[1]: أي إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة، خاضع لربه متبتل إليه، مجيب لدعوة رسله.

والخلاصة: أنك لا تقدر أن تُفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بآياتنا وحججنا، فإنهم هم الذين يسمعون منك ما تقول، ويتدبرونه، ويعملون به، إذ هم ينقادون للحق في كل حين.

واعلم[2]: أن الأصل هو العناية الأزلية، وما سبق في علم الله سبحانه من السعادة الأبدية، فالسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله سبحانه وتعالى، وإنما الأعمال بالخواتيم، اللهم اجعلنا بجزيل فضلك ووسيع كرمك من السعداء، ولا تجعلنا من الأشقياء.

ثم هدد العباد بذكر طرق من أشراط الساعة وأهوالها، فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وإذا وجب وثبت، وحل على الناس أجل ما قلنا في القرآن،

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

ووعدناهم فيه، والمراد بالقول[1]: ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كان يستعجل بها المشركون، والمراد بالوقوع: الدنوُّ والاقتراب، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: إذا دنا واقترب قيام الساعة التي ذكرناها وبيَّناها في القرآن، قيل: اقترابها بموت العلماء، وذهاب العلم، وقيل: برفع القرآن، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر.

﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ﴾؛ أي: للناس ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: من جبل الصفا بمكة وهي فصيل ناقة صالح عليه السلام، فإنه لما عُقرت أمه هرب، فانفتح له حجر فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه الحجر، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله تعالى في آخر الزمان.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنها تخرج في ثلاثة أيام، والناس ينظرون إليها، فلا يخرج كل يوم إلا ثلثها، وعن الحسن: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام، وفي الحديث: «إن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام، لا يُدركها طالب، ولا يفوتها هارب»، وقيل: اسم الدابة الجسَّاسة لتجسُّسها الأخبار للدجال، لأن الدجال كان موثقاً في دير في جزيرة بحر الشام، وكانت الجسَّاسة في تلك الجزيرة، كما في حديث المشارق في الباب الثامن.

وروى[2] البغوي بإسناده عن الثعلبي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ذكر رسول الله ﷺ الدابة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله، فبينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون.. إذ تضطرب الأرض، وينشق الصفا مما يلي المسعى، وتخرج الدابة من الصفا أول ما يخرج منها رأسها، ملمعة ذات وبر وريش، لن يدركها الطالب، ولن يفوتها هارب، تسِمُ الناس مؤمناً وكافراً، فأما المؤمن: فتترك وجهه كأنه كوكب دري، وتكتب بين عينيه مؤمن. وأما الكافر: فتنكت بين عينيه نكتة

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

سوداء، وتكتب بين عينيه كافر».

وروي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم، وقال: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه، وعن ابن عمر، قال: تخرج الدابة ليلة جمع، والناس يسيرون إلى منى، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «بئس الشعب شعب أجياد»، مرتين أو ثلاثاً، قيل: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «تخرج منه الدابة، تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين».

وروي عن ابن الزبير، أنه وصف الدابة، فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً.

وعن عبد الله بن عمرو: تخرج الدابة من شعب أجياد، فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض، وروي عن علي، قال: ليست بدابة لها ذنب، ولكن لها لحية، وقال وهب: وجهها وجه رجل، وسائر خلقها كخلق الطير، فتُخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون.

قال القرطبي[١]: قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة، فليعتمد عليه.

واختلف في أي موضع تخرج؟ فقال عبد الله بن عمر: تخرج من الصفا، وروي عن قتادة: أنها تخرج في تهامة، وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنُّور نوح ـ عليه السلام ـ، وقيل: من أرض الطائف، قال أبو قبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله، وقال: من هنا تخرج الدابة التي تكلم الناس، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته.

وما جاء[٢] في وصف الدابة، والمبالغة في طولها وعرضها وزمان

---

(١) القرطبي.
(٢) المراغي.

ا، ومكانه مما لا يُركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم ﷺ.

وجملة قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ صفة للدابة؛ أي: تكلم تلك الدابة الناس المعاصرين لخروجها، وتخبرهم ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ العصريين والمكلفين الموجودين الآن ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بآيات ربنا، ودلائل قدرته التي منها خروجي الدال على قرب الساعة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بها؛ أي: تكلم تلك الدابة من وُجد وقت خروجها على العموم الكفرة وغيرهم باللسان العربي الفصيح، أو تُكلِّم العرب بالعربي، والعجم بالعجمي، وتُخبرهم بأن الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله الناطقة بمجيء الساعة، وقربها كخروجي.

وقال الشوكاني: والمراد بالناس في الآية: هم الناس على العموم فيدخل في ذلك كل مكلف، وقيل: المراد بهم الكفار خاصة، وقيل: كفار مكة. والأول أولى .اهـ.

قال أبو حيان: والظاهر[1] أن قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بالتشديد، وهي قراءة الجمهور من الكلام، ويؤيده قراءة أبي ﴿تنبئهم﴾، وفي بعض القراءات ﴿تحدثهم﴾ وهي قراءة يحيى بن سلام، وقرأ عبد الله وأبو عمران الجوني ﴿تكلمهم بأن الناس﴾ قال السدي: تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام، وقيل: تخاطبهم فتقول للمؤمن هذا مؤمن، وللكافر هذا كافر، وقيل: معنى تكلمهم تجرحهم من الكلم والتشديد للتكثير، ويؤيده قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جُبير وأبي زرعة والجحدري وأبي حيوة وابن أبي عبلة: ﴿تكلمهم﴾ بفتح التاء وسكون الكاف مخفف اللام، وقراءة من قرأ ﴿تجرحهم﴾ مكان تكلمهم، وسأل أبو الحوراء ابن عباس تُكلِّم أو تَكْلِم؟ فقال: كل ذلك تفعل، تُكلِّم المؤمن وتَكْلِمُ الكافر. انتهى، وروي أنها تسم الكافر في جبهته وتربده، وتمسح على وجه المؤمن فتبيضه.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ الكوفيون حمزة والكسائي وعاصم وزيد بن علي ﴿أن الناس﴾ بفتح الهمزة على تقدير تكلمهم بأن الناس، وقرأ ابن مسعود ﴿بأن﴾ وتقدم، وقرأ باقي السبعة بكسر الهمزة، فاحتمل الكسر أن يكون من كلام الله، وهو الظاهر لقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فتكون الجملة مستأنفة، واحتمل أن يكون من كلام الدابة، وروي هذا عن ابن عباس، وكُسرت إن على هذا القول، إما على إضمار القول؛ أي: تكلمهم وتقول لهم: إن الناس، أو على إجراء تكلمهم مجرى تقول لهم، ويكون قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على حذف مضاف؛ أي: بآياتنا ربنا، كما مر في حلنا، أو لاختصاصها بالله، كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا، وعلى قراءة الفتح فالتقدير بأن، كقراءة عبد الله، كما مر، والظاهر أنه متعلق بتكلمهم؛ أي: تخاطبهم بهذا الكلام، ويجوز أن تكون الباء المنطوق بها، أو المقدرة سببية؛ أي: تخاطبهم، أو تجرحهم بسبب انتفاء إيقانهم بآياتنا. انتهى.

ثم بيَّن سبحانه حال المكذبين حين مجيء الساعة بعد بيان بعض مباديها وأشراطها فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ والمراد[١] بهذا الحشر هو الحشر الخاص بهم للعذاب بعد الحشر العام لكل الخلق؛ أي: واذكر يا محمد قصة يوم يُجمع من كل أمة من الأمم جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عند ذلك الحشر ﴿يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُرد أولهم على آخرهم، أو يُدفعون والفوج الجماعة من الناس، وقوله: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ بيان للفوج؛ أي: فوجاً مكذبين بآياتنا، لأن كل أمة، وكل عصر لم يخل من كفرة بالله من لدن تفريق بني آدم، لأن كل أمة منقسمة إلى مصدِّق ومكذب.

والمراد بالفوج هنا[٢]: رؤساء الأمم المتبوعون في الكفر والتكذيب، فهم يحبسون حتى يلتحق بهم أسافلهم التابعون، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وهكذا

(١) أبو السعود.

(٢) روح البيان.

يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار، وفي الحديث: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار»، ومعنى يوزعون: يُحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة، وهو عبارة عن كثرة عددهم، وتباعد أطرافهم، كما سبق في هذه السورة في قصة سليمان عليه السلام، والمراد بالآيات بالنسبة إلى هذه الأمة الآيات القرآنية.

والمعنى: واذكر يا محمد لقومك ـ تحذيراً لهم وترهيباً ـ هول يوم جمعنا على وجه الإكراه من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة، مكذبين بكتابنا فهم يوقف أولهم حتى يجتمعوا ويتلاحقوا في موقف الحساب والمناقشة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه موبخاً لهم على التكذيب، والالتفات فيه لتربية المهابة كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا التي أنزلتُها على رسلي، وأمرتُهم بإبلاغها إليكم.

﴿و﴾ الحال أنكم ﴿لم تحيطوا بها علما﴾؛ أي: لم تعرفوا ببطلانها فتُعرضوا عنها، والواو للحال، ونصب ﴿عِلْمًا﴾ على التمييز، كما سيأتي؛ أي: أكذبتم بها بادي الرأي، جاهلين لها غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها، ولا مستدلين على صحتها وبطلانها، تمرداً وعناداً وجراءة على الله وعلى رسله.

وفي هذا[1]: مزيد توبيخ وتقريع لهم، لأن من كذب بشيء ولم يحط به علماً فقد كذب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل، وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدَّى لذم علم من العلوم الشرعية، أو لذم علم هو مقدمة من مقدماتها، ووسيلة يتوسل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعقل معانيها، كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علماً، وعلم أصول الفقه، فإنه يُتوسل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها

---

(١) الشوكاني.

التفصيلية، مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله وسُنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل، طاعن في العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ولا يعلم به، ولا يحيط بكنهه، حتى يصير عبرة لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول، وركاك الأديان، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً وكذباً.

﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي المنقطعة، وقرأ أبو حيوة ﴿أماذا﴾ بتخفيف الميم، أدخل همزة الاستفهام على اسم الاستفهام على سبيل التوكيد والمعنى: بل أي شيء كنتم تعملون حتىٰ شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكر من معانيها، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم. يعني[1]: لم يكن لهم عمل غير الجهل والتكذيب، والكفر والمعاصي، كأنهم لم يُخلقوا إلا لها، مع أنهم ما خُلقوا إلا للعلم والتصديق والإيمان والطاعة، يخاطبون بذلك تبكيتاً، فلا يقدرون أن يقولوا: فعلنا غير ذلك.

ثم يكبون في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: حل بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب ظلمهم الذي هو التكذيب بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب، أو لختم أفواههم.

والمعنى[2]: أي وحل بأولئك المكذبين بآيات الله السخط والغضب والعذاب بسبب تكذيبهم بها، فهم لا ينطقون بحجة، ولا معذرة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم.

ونحو الآية قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وبعد أن خوَّفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة، فقال:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾[1] من رؤية القلب، وهو العلم، لا من رؤية البصر، لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات، والاستفهام فيه للتوبيخ المضمن للإنكار؛ أي: ألم يعلم هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: ليستريحوا فيه بالنوم والقرار، ففيه حذف مظلماً يدل عليه قوله: ﴿و﴾ جعلنا ﴿النهار مبصرا﴾؛ أي: مضيئاً ليتحركوا فيه، وينتشروا لطلب معاشهم، ففيه حذف ليتحركوا دل عليه قوله: ﴿لِيَسْكُنُواْ﴾ ففي الكلام احتباك كما سيأتي في مبحث البلاغة؛ أي: ألم يتفكر أهل مكة، ولم يعلموا أنا جعلنا الليل مظلماً ليستريحوا فيه بالقرار والنوم، والنهار مضيئاً لينتشروا فيه ويطلبوا معايشهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن في جعل الليل والنهار، كما ذكر ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالات ظاهرة على التوحيد والبعث والنبوة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بها، فيعتبرون. خصوا بالذكر، لأنهم المنتفعون بها دون الكافرين.

وحاصل معنى الآية[2]: أي ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بجعل ذاك سكناً لهم يسكنون فيه، ويهدؤون راحة لأبدانهم من تعب التصرف، والتقلب نهاراً، وجعل هذا مضيئاً يبصرون في الأشياء، ويعاينونها، فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكرون في ذلك، ويتدبرون، ويعلمون أن مصرِّف ذلك كذلك هو الإله الذي لا يُعجزه شيء، ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء، وإحياء الأموات بعد الممات.

وفي ذلك أيضاً دليل على النبوة، لأنه كما يُقلِّب الليل والنهار لمنافع المكلفين، ففي بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس في دنياهم ودينهم. فما المانع إذاً من بعثهم إليهم، بل الحاجة إلى ذلك أمس.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إن فيما ذُكر لدلالة على قدرته على

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

البعث بعد الموت، وعلى توحيده لمن آمن به، وصدَّق برسله، فإن من تأمل في تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم تحار في فهمها العقول، ولا يحيط بعلمها إلا الله، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالكة المشابهة للموت بضياء النهار المضاهي للحياة، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وجزم بأن الله جعل هذا دليلاً على تحققه، وأن الآيات الناطقة به حق، وأنها من عند الله سبحانه وتعالى.

قال حكيم: الدهر مقسوم بين حياة ووفاة، فالحياة اليقظة، والوفاة النوم، وقد أفلح من أدخل في حياته من وفاته .اهـ، فعلى العاقل أن يجدَّ في طريق الوصول، ليكون من أهل الوصال والحصول، ويتخلَّص من العذاب مطلقاً، فإن غاية العمر الموت، ونهاية الموت الحشر، ونتيجة الحشر إما السوق إلى الجنة، وإما السوق إلى النار، والمسوق إلى النار إما مؤمن عاص فعذابه التأديب والتطهير، وإما كافر مكذب فعذابه عذاب القطعية والتحقير.

والمؤمنون يتفاوتون في الدنيا في عقوباتهم على مقادير جرائمهم، فمنهم من يعذب ويُطلق، ومنهم من يعذب ويُحبس مدة على قدر ذنبه، ومنهم من يُحَدَّ، والحدود مختلفة، فمنهم من يقتل، وليس بعجب أن لا يسوى بين أهل النار إلا من لا خير فيه، وهم الكفار الذين ليسوا بموضع الرحمة، لأن الله تعالى رحمهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فاختاروا الغضب بسلوك طريق التكذيب والعناد، فهم على السوية في عذاب الفرقة، إذ ليس لهم وصلة أصلاً، لا في الدنيا، ولا في العقبى، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، نسأل الله تعالى أن يفتح عيون بصائرنا عن سنات الغفلات، ويجعلنا من المتبعين لدينه في جميع الحالات، إنه قاضي الحاجات، ومانح المرادات، آمين آمين، يا مجيب الدعوات.

وبعد أن ذكر الحشر الخاص، وأقام الدليل عليه، ذكر الحشر العام فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو معطوف على ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ منصوب بناصبه المتقدم

تقديره، والنفخ[1]: إدخال الريح في الشيء، كما سيأتي في مبحث اللغة، والصور: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السلام ـ للموت والحشر، فكأن أصحاب الجيوش من ذلك أخذوا البوقات لحشر الجند، وفي الحديث: «لما فرغ الله من خلق السماوات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخصٌ بصره إلى العرش متى يؤمر»، قال أبو هريرة ـ راوي الحديث ـ رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: «القرن». قلت: كيف هو؟ قال: «عظيم، والذي نفسي بيده إنَّ أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض» فيؤمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخة لا يبقى عندها في الحياة أحد إلا من شاء الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإلى قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ثم يؤمر بأخرى، فينفخ فيه نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ الآية، ومعنى النفخ في القرن أن الأرواح تُجمع في القرن، ثم ينفخ فيه فتذهب إلى الأجساد فتحيا بها الأجساد، والمراد بالنفخ هٰهنا هي النفخة الثانية.

أي: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم يُنفخ في الصور نفخة ثانية ينفخها إسرافيل لرد الأرواح إلى أجسادها، وهو يوم القيامة ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: فيفزع منها، ويخاف جميع من في السمٰوات والأرض لشدة ما سمعوا، والتعبير بالماضي في الفزع للدلالة على تحقق وقوعه، لأن المستقبل من فعل الله تعالى متيقَّن الوقوع كتيقن الماضي من غيره، لأن إحياءه تعالى حق.

والمراد بالفزع هٰهنا ما يعتري الكل ـ مؤمناً وكافراً ـ من الرعب والتهيُّب الضروريَّين الجبليَّين عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق، وقيل: المراد بالفزع هنا الإسراع والإجابة إلى النداء، من قولهم: فزعتُ إليك في كذا، أسرعتُ إلى إجابتك، والأول أولى بمعنى الآية.

والنفخات في الصور ثلاث[2]: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

والثالثة نفخة البعث، وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القول القشيري والقرطبي وغيرهما.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه أن لا يفزع عند تلك النفخة بأن يثبت قلبه، وهم الأنبياء والمرسلون، والشهداء والصالحون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والملائكة الأربعة، وحملة العرش، والخزنة، والحور ونحوهم.

والمعنى(١): أي واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ في الصور، إذ يفزع من في السمٰوات ومن في الأرض، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور، بمشاهدة الأهوال الخارقة للعادة في الأنفس والآفاق، إلا من ثبَّت الله قلبه.

﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: جميع الخلائق ﴿أَتَوْهُ﴾ سبحانه وتعالى وحضروه ﴿دَٰخِرِينَ﴾؛ أي: ذليلين صاغرين؛ أي: وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين حين النفخة يحضرون الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب، والمناقشة والحساب أذلاء صاغرين، لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿أَتَوْهُ﴾ بضم التاء على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله تعالى، وقرأ عبد الله وحمزة وحفص عن عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب: ﴿أتوه﴾ فعلاً ماضياً، وفي القراءتين رُوعي معنى كل من الجمع، وقرأ قتادة: ﴿وكل أتاه﴾ فعلاً ماضياً مسنداً لضمير كل على لفظها، وجمع داخرين على معناها، وقرأ الجمهور: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ بالألف بعد الدال، وقرأ الحسن والأعمش: ﴿دَخِرِينَ﴾ بغير ألف.

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ معطوف على ﴿يُنفَخُ﴾، داخل معه في حكم التذكير،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، و﴿ترى﴾ هنا بصرية لا علمية؛ أي: واذكر يا محمد لقومك هول يوم ترى وتبصر الجبال حال كونك ﴿تَحْسَبُهَا﴾ وتظنها ﴿جَامِدَةً﴾ ثابتة في أماكنها، وقرأ أهل الكوفة: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها، ﴿وَهِيَ﴾؛ أي: والحال أن تلك الجبال ﴿تَمُرُّ﴾ وتمضي ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ والغيم؛ أي: تراها رأي العين ساكنة، والحال أنها تمر وتمشي مثل مرور السحاب التي تسيِّرها الرياح سيراً سريعاً، حتى تقع على الأرض فتسوَّى بها، وذلك لأن كل شيء عظيم، وكل جمع كثير يقصر عنه البصر، ولا يحيط به لكثرته وعظمته، فهو في حسبان الناظر واقف، وهو يسير.

وهذا أيضاً[1]: مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، فإن الله تعالى يبدل الأرض غير الأرض، ويغيِّر هيئتها، ويسيِّر الجبال عن مقارِّها على ما ذُكر من الهيئة الهائلة، ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكَّت وتصدعت عند النفخة الأولى فتسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ فإن صيغة الماضي في المعطوف الذي هو ﴿حشرناهم﴾ مع كون المعطوف عليه مستقبلاً وهو ﴿نُسَيِّرُ﴾ للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك، ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾؛ أي: ذلك الصنع العظيم صنع الله الذي أحكم كل شيء، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، وانتصاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ على المصدرية عند الخليل وسيبويه وغيرهما بفعل محذوف وجوباً، تقديره: صنع الله الذي أتقن كل شيء؛ أي: أحسن خلق كل شيء، وأتى به على وجه الحكمة، ذلك النفخ في الصور، وما تفرَّع منه من الأمور الهائلة صنعاً، أي: صنع ذلك النفخ وما تفرع عليه صنعاً، وفعله فعلاً بديعاً، وهو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله؛ أي: فإن نفخ الصور المؤدي إلى الفزع العام، وحضور الكل الموقف، وما فعل بالجبال إنما هو من صنع الله لا يحتمل غيره.

---

(١) الخازن.

والصنع[1]: إجادة الفعل، فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعاً، أي: صنع الله ذلك صنعاً، وفعله فعلاً متقناً محكماً، قال في «الإرشاد»: قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل، وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم، وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن تدعو إليها داعية، ويكون لها عاقبة، بل هي من قبيل بدائع صنع الله المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة، التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع، على الوجه المتين والمنهج الرصين.

ثم علل ما تقدم من النفخ في الصور والقيام للحساب، ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾؛ أي: عالم بظواهر أفعالكم وبواطنها أيها المكلفون، ولذلك فعل ما فعل من النفخ، والبعث ليجازيكم على أعمالكم، وهو الخبير المطلع على الظواهر والضمائر.

وقرأ الجمهور[2]: بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على الغيبة، والمعنى: أي إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر، وطاعة ومعصية، وهو مجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

ثم بيَّن حال السعداء والأشقياء يومئذٍ، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: بكلمة الشهادة[3] والإخلاص فإنها الحسنة المطلقة، وأحسن الحسنات، ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾؛ أي: نفع وثواب حاصل ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: من جهتها، ولأجلها، وهو الجنة، فاسم التفضيل لا يدل على المفاضلة إذ لا يوجد شيء خير من (لا إلٰه إلا الله)، ويجوز أن يكون اسم التفضيل على بابه إذا أريد بالحسنة غير الكلمة المشرفة من الطاعات، أيَّ طاعة كانت، والمعنى: من جاء يوم القيامة بالحسنة أياً كانت.. فله من الجزاء والثواب ما هو خير وأفضل وأكثر منها، إذ ثبت له الشريف بالخسيس، والباقي بالفاني، وعشرة بل سبع مئة بواحدة، وقيل: المراد بالحسنة

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

أداء الفرائض، وقيل: هي الإخلاص في العبادة، والتعميم أولى[1]، ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعض السلف.

قيل: وهذه الجملة بيان لقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، وقيل: بيان لقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾.

﴿وَهُم﴾؛ أي: الذين جاؤوا بالحسنات ﴿مِّن فَزَعٍ﴾؛ أي: عظيم هائل لا يقادر قدره، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة، وظهور الحسنات والسيئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾، وعن الحسن: هو الفزع حين يؤمر بالعبد إلى النار، وقال ابن جريج: الفزع حين يذبح الموت، وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت. وقرأ عاصم والكسائي وحمزة[2]: ﴿من فزعٍ﴾ بالتنوين.

و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ ينفخ في الصور، منصوب على الظرفية، معمول لقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ أو لـ﴿فَزَعٍ﴾، ويدل على أنه معمول له قراءة من أضافه إليه، أو في موضع الصفة لـ﴿فَزَعٍ﴾؛ أي: كائنٍ في ذلك الوقت، والمعنى عليه؛ أي: والذين جاؤوا بالحسنات آمنون من فزع كائن يوم إذ وقعت هذه الأهوال العظيمة اهـ «مراح».

وقرأ باقي السبعة بإضافة ﴿فَزَعٍ﴾ إلى ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ فكسرَ الميمَ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير وإسماعيل بن جعفر عن نافع، وفتحها بناء لإضافته إلى غير متمكن نافع في غير رواية إسماعيل، والتنوين في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ تنوين عوض عن الجملة المحذوفة، ويكون التقدير يوم إذ جاء بالحسنة، أو يوم إذ ترى الجبال، أو يوم إذ يُنفخ في الصور.

﴿ءَامِنُونَ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلاً، وأما الفزع الذي يعتري كل من في السمٰوات ومن في الأرض غير من استثناه الله تعالى فإنما هو التهيُّبُ والرعبُ الحاصل في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة، وإن كان آمناً من لحوق الضرر.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت[1]: كيف نفى الفزع هنا، وقد قال قبله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟

قلت: إن الفزع الأول هو ما لا يخلو عنه أحد عند الإحساس بشدة تقع، وهول يفجأ من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه، فأما الفزع الثاني فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه، وأما ما يلحق الإنسان من الرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك عنه أحد، اهـ.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بالشرك الذي هو أسوأ المساوىء ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ألقوا وطرحوا فيها على وجوههم منكوسين، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم، كما أريدت بالأيدي في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فإن الوجه والرأس والرقبة واليد يعبر بها عن جميع البدن، وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان، لاجتماع الحواس فيها، وقال جماعة[2] من الصحابة ومن بعدهم: حتى قيل إنه مجمع عليه بين أهل التأويل أن المراد بالسيئة هنا الشرك، ووجه التخصيص قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك.

وجملة قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقول لقول محذوف، والقائل خزنة جهنم، والاستفهام فيه للإنكار، فهو بمعنى النفي؛ أي: حالة كونهم مقولاً لهم ما تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الشرك؛ أي: تقول لهم خزنة جهنم ما تجزون الآن إلا جزاء أعمالكم من الشرك والمعاصي في الدنيا.

وفي الحديث[3]: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك يجثوان بين

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

يدي الرب تعالى، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾.

ويقال: لا إله إلا الله مفتاح الجنة، ولا بد للمفتاح من أسنان حتى يفتح الباب، ومن أسنانه لسان ذاكر طاهر من الكذب والغيبة، وقلب خاشع طاهر من الحسد والخيانة، وبطن طاهر من الحرام والشبهة، وجوارح مشغولة بالخدمة طاهرة من المعاصي.

ولما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أمرت أن أخص الله سبحانه بالعبادة وحده لا شريك له، تنبيهاً لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله، والاستغراق في مراقبته، غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا، وأشار إليها إشارة تعظيم لأنها موطن نبيِّه ومهبط وحيه.

والمراد بالبلدة مكة المشرفة، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون بيت الله الحرام فيها، ولكونها أحب البلاد إلى رسوله ﷺ قال في «التكملة»: خص البلدة بالذكر، وهي مكة، وإن كان رب البلاد كلها ليعرف المشركون نعمته عليهم، وأن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه، هو الذي حرَّم بلدتهم. انتهى.

وعبارة «الخازن»: وإنما ذكر أنه هو الذي حرمها، لأن العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة، وأن تحريمها من الله، لا من الأصنام. انتهى.

والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ أي: حرم هذه البلدة وشرفها وعظمها بتحريمه على خلقه أن يسفكوا فيها دماً، ويظلموا فيها أحداً، صفة للرب، هكذا قرأ الجمهور، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود ﴿التي حرمها﴾ على أن الموصول صفة للبلدة، والتعرض لتحريمه تعالى إياها إجلال لها بعد إجلال، ومعنى تحريمها جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها.

وفي الحديث «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس»؛ أي: كان تحريمها من الله سبحانه بأمر سماوي، لا من الناس باجتهاد شرعي، وأما قوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة» فمعناه: أظهر الحرمة الثابتة، أو دعا فحرمها الله تعالى حرمة دائمة.

ومعنى الآية(١): قل لقومك يا محمد: أمرت من قبل الله أن أخصه وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً، فاعبدوه أنتم، ففيه عزكم وشرفكم، ولا تتخذوا له شريكاً، وقد ثبتت عليكم نعمته بتحريم بلدتكم، قال بعضهم: العبادة لباس الأنبياء والأولياء.

ولما أخبر سبحانه وتعالى أنه مالك هذه البلدة. أخبر أنه يملك كل شيء فقال: ﴿وَلَهُۥ﴾؛ أي: ولرب هذه البلدة خاصة ﴿كلُّ شيء﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، دون أن يشركه في ذلك أحد؛ أي: جميع الأشياء داخلة في ربوبيته، فشرفت البلدة بذكر اندراجها تحت ربوبيته على جهة الخصوص، وعلى جهة العموم، وفيه تنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة للتفخيم مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي(٢): وأمرني ربي أن أسلم وجهي له، فأكون من الموحدين المخلصين له، المنقادين لأمره، المستسلمين بطاعته بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والمراد بقوله: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ أن أثبُتَ على ما أنا عليه.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: وأمرت أن أداوم على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وأواظب على ذلك، لتنكشف لي أسراره المخزونة في تضاعيفه، واستطلع أدلة الكون المتفرقة في آيه، فأعرف حقائق الحياة، وسر الوجود، ويفاض عليَّ من فيوضاته الإلهية، وأسراره القدسية، ما شاء الله أن يُفيض.

وقد روي أنه ﷺ قام ليلة يصلي فقرأ قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فما زال يكررها، ويظهر له من أسرارها ما يظهر، ويتجلى له من مقاصدها ما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

تسمو به نفسه إلى الملأ الأعلى حتى طلع الفجر. ونحو الآية: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

قال أبو حيان[1]: قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إما من التلاوة؛ أي: وأن أتلو عليكم القرآن، وهذا هو الظاهر، إذ بعده التقسيم المناسب للتلاوة، وإما من التلو، وهو الاتباع؛ أي: وأن أتبع القرآن، كقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟﴾ بأثبات الواو بعد اللام، على أنه من التلاوة وهي القراءة، أو من التلو، وهو الاتباع، وقرأ عبد الله: ﴿وأن أتل﴾ بغير واو، أمراً له ﷺ من تلا، فجاز أن تكون ﴿أن﴾ مصدرية وُصلت بالأمر، وجاز أن تكون مفسرة على إضمار وأمرت أن أتل؛ أي: أتل، كذا وجَّهه الفراء، وقال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف، وقرأ أبي: ﴿وأتل هذا القرآن﴾ جعله أمراً دون ﴿أن﴾.

فعليك[2]: أيها المؤمن بتلاوة القرآن كل يوم، ولا تهجره كما يفعل ذلك طلبة العلم، وبعض المشيخة، زاعمين بأنهم قد اشتغلوا بما هو أهم من ذلك، وهو كذب، فإن القرآن مادة كل علم في الدنيا والدين، ويُستحب لقارىء القرآن في المصحف أن يجهر بقراءته، ويضع يده على الآية يتبعها، فيأخذ اللسان حظه من الرفع، ويأخذ البصر حظه من النظر، واليد حظها من المس.

واعلم: أن خُلُقَ النبي ﷺ كان القرآن، فانظر في تلاوتك إلى كل صفة مدح الله بها عباده، فافعلها أو اعزم على فعلها، وكل صفة ذم الله بها عباده على فعلها فاتركها، أو اعزم على تركها، فإن الله تعالى ما ذكر لك ذلك، وأنزله في كتابه إلا لتعمل به، فإذا حفظت القرآن عن تضييع العمل به، كما حفظته تلاوة فأنت الرجل الكامل.

وقل لهم يا محمد أيضاً: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي في العبادة والإسلام وتلاوة القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فإنما منافع اهتدائه عائدة إليه لا إلى

---

(١) البحر المحيط.　　　(٢) روح البيان.

غيره، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتي فيما ذكر؛ أي: ضل بالكفر، وأعرض عن الهداية ﴿فَقُلْ﴾ في حقه: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: من المخوِّفين من عذاب الله تعالى، فقد بلَّغت، وأنذرت، وخرجت من عهدة الإنذار والتخويف من عذاب الله وسخطه، فليس عليَّ من وباله شيء، وإنما هو عليه فقط، وقيل[1]: الجواب محذوف؛ أي: فوبال ضلاله عليه، وأقيم ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ مقامه لكونه كالعلة له، وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والنبوة، وعلى ما وفقني من القيام بأداء الرسالة، وقل لهم يا محمد أيضاً: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ الله سبحانه أيها المشركون عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم، وفي غيركم، وهو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله، ﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾؛ أي: فتعرفون أنها آياته ودلائل قدرته ووحدانيته، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار، لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، وذلك عند حضور الموت. أو المعنى[2]: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ الله تعالى في الدنيا ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الباهرة كخروج الدابة، وسائر أشراط الساعة ﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾؛ أي: فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة، وقيل[3]: هو في يوم بدر، وهي ما أراهم من القتل والسبي، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقيل آياته في السمٰوات والأرض وفي أنفسكم.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ أي: بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عما تعمل أنت من الحسنات، وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات، فيجازي كلاً منكم بعمله، وقُرىء: ﴿عما يعملون﴾ بالياء؛ أي: وما ربك بغافل عن أعمالهم، فسيعذبهم، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

عن أعمالهم المسببة للعذاب، وهذا[1] من كلامه تعالى غير داخل تحت الكلام الذي أُمر النبي ﷺ أن يقوله، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عما يعملون﴾ بياء الغيبة التفاتاً من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، وقرأ نافع وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، لقوله: ﴿سيريكم﴾، ولما قسمهم أولاً إلى مهتد وضال أخبر تعالى أنه محيط بأعمالهم غير غافل عنها.

وعبارة البروسوي هنا قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام[3] مسوق من جهته تعالى، مقرِّر لما قبله من الوعد والوعيد، كما ينبىء عنه إضافة الرب إلى ضمير النبي عليه السلام، وتخصيص الخطاب أولاً به وتعميه ثانياً للكفرة تغليباً؛ أي: وما ربك يا محمد بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات، فيجازي كلاً منكم بعمله، وكيف يغفل عن أعمالكم، وقد خلقكم وما تعملون، كما خلق الشجرة وخلق فيها ثمرتها، فلا يخفى عليه حال أهل السعادة والشقاوة، وإنما يُمهل لحكمة لا لغفلة، وإنما الغفلة لمن لا ينتبه لهذا فيعصي الله بالشرك وسيئات الأعمال، وأعظم الأمراض القلبية نسيان الله سبحانه، ولا ريب أن علاج أمر إنما هو بضده، وهو ذكر الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المجدِّين في الدين إلى أن يأتينا اليقين.

عبارة المراغي هنا: ثم أمره سبحانه بترغيب قومه وترهيبهم، فقال[4]: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: وقل الحمد لله على ما أفاض عليَّ من نعمائه، التي من أجلِّها نعمة النبوة، المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية، ووفقني لتحمل أعبائها، وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين الساطعة، ووفقني لاتباع الحق الذي أنتم عنه عمون.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾؛ أي: سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون

---

(1) الشوكاني.
(2) البحر المحيط.
(3) روح البيان.
(4) المراغي.

بها حقيقة نصحي، وسيتبيَّن لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لا تُجدي المعرفة، ولا تُفيد التبصرة شيئاً، ونحو الآية قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

ثم ذيَّل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وما ربك بغافل عما يعمله هؤلاء المشركون، ولكنه مؤخِّر عذابهم إلى أجل هم بالغوه، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فلا يحزنك تكذيبهم، فإني لهم بالمرصاد، وأيقن بأني ناصرك وخاذل عدوك، ومذيقهم الذل والهوان.

روي: أن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مُغْفَلاً شيئاً لأغفل ما تُعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم، وكان الإمام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْمَاً فَلاَ تَقُلْ   خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيْبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً   وَلاَ أَنَّ مَا تُخْفِيْهِ عَنْهُ يَغِيْبُ

الإعراب

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: بدل من اسم الإشارة، ﴿يَقُصُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾، ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَقُصُّ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَكْثَرَ﴾: مفعول به لـ﴿يَقُصُّ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الإسمية صلة الموصول. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَهُدًى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿هدى﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: معطوف على ﴿هدى﴾، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور، تنازع فيه هدى ورحمة على كونه صفة لهما، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَقْضِى﴾: فعل

مضارع وفاعل مستتر يعود على الرب، ﴿بَيْنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾، ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾ أيضاً، وجملة ﴿يَقْضِى﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى بعاطف مقدر، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقْضِى﴾.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَتَوَكَّلْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله هو العزيز العليم، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك توكل على الله، ﴿توكل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿توكل﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَى ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة للحق، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، مسوقة لتعليل الأمر بالتوكل. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿إن﴾ الأولى، على كونها تعليلاً ثانياً للأمر بالتوكل، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿تُسْمِعُ﴾ الأول، ﴿ٱلصُّمَّ﴾: مفعول به أول، ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾: مفعول ثان، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ﴿وَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال من الفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ﴿تُسْمِعُ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا

يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿أَنتَ﴾: في محل الرفع اسم ﴿ما﴾، ﴿بِهَٰدِي﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿هادي العمي﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية منصوب محلاً مجرور لفظاً، ﴿ٱلْعُمْيِ﴾: مضاف إليه، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿هادي﴾، عداه بـ﴿عن﴾ لتضمنه معنى تصرفهم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿إن﴾ نافية، ﴿تُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور مضاف إليه متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿فَهُم﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿هم مسلمون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة الصلة، عطف اسمية على فعلية. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾، ﴿أَخْرَجْنَا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة مسوقة لبيان بعض أشراط الساعة، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾، ﴿دَآبَّةً﴾: مفعول ﴿أَخْرَجْنَا﴾، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾، ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الدابة، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿دابة﴾، ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾ وجملة ﴿أنَّ﴾ بفتح الهمزة في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة؛ أي: تخبرهم بعدم إيقان الناس بآيات ربنا، وأما بكسر الهمزة فمقول لقول محذوف، تقديره: تكلمهم وتقول لهم إن الناس كانوا بآياتنا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق

بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم نحشر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نَحْشُرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَحْشُرُ﴾، ﴿فَوْجًا﴾: مفعول به لـ﴿نَحْشُرُ﴾، ﴿مِّمَّن﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿فَوْجًا﴾، وجملة ﴿يُكَذِّبُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُوزَعُونَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿نَحْشُرُ﴾، عطف اسمية على الفعلية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل، ومتعلق ﴿جَآءُو﴾: محذوف، تقديره: حتى إذا جاءوا إلى موضع الحساب، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والجار والمجرور أعني ﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلق بـ﴿يُوزَعُونَ﴾، أو بـ﴿نَحْشُرُ﴾، والتقدير: فهم يوزعون إلى قوله سبحانه وقت مجيئهم موضع الحساب: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي التقريعي، ﴿كذبتم﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾: متعلق بـ﴿كذبتم﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لم تحيطوا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُحِيطُوا۟﴾، ﴿عِلْمًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿كذبتم﴾ مؤكدة للإنكار والتوبيخ، ﴿أَمَّاذَا﴾ ﴿أم﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر المبتدأ، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبر

﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ذا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: كنتم تعملونه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ماذا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تعملون﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَوَقَعَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾، ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية وجملة ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب ظلمهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿وَقَعَ﴾ أيضاً، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَقَعَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التقريري، أو الإنكاري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْاْ﴾: فعل مضارع وفاعل، مجزوم بـ﴿لم﴾، والرؤية هنا قلبية، لا بصرية كما مر، والجملة الفعلية مستأنفة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، إن كان جعل بمعنى خلقنا، أو مفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: مظلماً، إن كان بمعنى صيَّرنا، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّا﴾، وجملة ﴿أَنَّا﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَرَوْاْ﴾؛ أي: ألم يروا جعلنا الليل مظلماً، ﴿لِيَسْكُنُواْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يسكنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يسكنوا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لسكونهم فيه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ﴿مُبْصِرًا﴾: حال، أو مفعول ثان، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة

لآيات، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يوم﴾: منصوب باذكر محذوفاً، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم ينفخ في الصور، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾، ﴿يُنفَخُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿يُنفَخُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿فَفَزِعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿فزع﴾: فعل ماض بمعنى يفزع، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ينفخ، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: إلا من شاء الله عدم فزعه، ﴿وَكُلٌّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿كلٌّ﴾: مبتدأ سوغ الابتداء بالنكرة قصد العموم، أو نية المضاف إليه؛ أي: وكلهم، ﴿أَتَوْهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿دَٰخِرِينَ﴾: حال من فاعل ﴿أَتَوْهُ﴾، وجملة ﴿أَتَوْهُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿فزع﴾، ﴿وَتَرَى﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ورأى هنا بصرية، ﴿ٱلْجِبَالَ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُنفَخُ﴾، ﴿تَحْسَبُهَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿جَامِدَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿تحسب﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿ترى﴾، ﴿وهي﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هي﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَمُرُّ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، ﴿مَرَّ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿جَامِدَةً﴾، ﴿ٱلسَّحَابِ﴾ مضاف إليه ﴿صُنْعَ

﴿ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: صنع الله ذلك صنعاً، والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: في محل الجر صفة للجلالة، ﴿أَتْقَنَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: مفعول به، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿خَبِيرٌۢ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره تفعلونه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَن﴾: على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿فَلَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾: الشرطية، ﴿له﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿خَيْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾: الشرطية مستأنفة، ﴿وَهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿مِّن فَزَعٍ﴾: متعلق بـ﴿ءَامِنُونَ﴾، ﴿ءَامِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، ﴿يوم﴾: مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿فَزَعٍ﴾، تقديره: من فزع كائن في ذلك اليوم، وقرىء بإضافة ﴿فَزَعٍ﴾ إلى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿فَكُبَّتْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب داخلة على قد محذوفة؛ أي: قد كبت، ليصح اقتران الجواب بها، ﴿كبت﴾: فعل ماض مغير الصيغة، في

محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواباً لها، ﴿وُجُوهُهُمْ﴾: نائب فاعل، ومضاف إليه، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿كبت﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾ ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. وجملة ﴿تُجْزَوْنَ﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من ﴿وُجُوهُهُمْ﴾، تقديره: فكبت وجوههم في النار حالة كونهم مقولا لهم هل تجزون إلا ما كنتم تعملون.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: قل لهم: إنما أمرت، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَعْبُدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿رَبَّ﴾: مفعول به، ﴿هَٰذِهِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إنما أمرت بعبادة رب هذه البلدة، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿رَبَّ﴾، ﴿حَرَّمَهَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿له﴾: خبر مقدم، ﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿حَرَّمَهَا﴾، ﴿وَأُمِرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُمِرْتُ﴾ الأولى، ﴿أَنْ﴾ حرف مصدر، ﴿أَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير يعود على النبي ـ عليه السلام ـ، ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: خبر ﴿أَكُونَ﴾، وجملة ﴿أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأمرت بكوني من المسلمين.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَأَنۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبكٍ من أن أكون، تقديره: وأمرت بكوني من المسلمين وبتلاوتي القرآن، ﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما أمرت به، وأردتم بيان عاقبة من اهتدى ومن ضل منا ومنكم فأقول لكم، ﴿من اهتدى﴾ ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً، لشبه الجواب بالجملة الاسمية بدخول ﴿إن﴾ المكفوفة عليها، ﴿إنما﴾: أداة حصر، أو ﴿إن﴾: حرف نصب مكفوف، و﴿ما﴾: كافة، ﴿يَهۡتَدِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾، ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها وجملة من الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر إما جملة الشرط، أو الجواب، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَقُلۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب وجوباً، ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط محذوف، تقديره: فقل له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى، ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿وَقُلِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال، جيء بها لتأكيد مضمون الكلام، ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان، لأنه من أرى البصرية، تعدت إلى مفعولين بالهمزة، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ ﴿الفاء﴾:

عاطفة، ﴿تعرفونها﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿سَيُرِيكُمْ﴾، ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿رَبُّكَ﴾: اسمها، ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: خبرها. و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى، مقررة لما قبلها، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿غافل﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والصم جمع الأصم، كالغُرِّ جمع الأغرّ، والصمم فُقدان حاسة السمع، كما مر، وشُبِّه به مَنْ لا يُصْغي إلى الحق ولا يقبله كما شُبّه هٰهنا، والدعاء: الدعوة إلى أمر من الأمور.

﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ يقال: ولَّى عن الشيء إذا أعرض عنه، وترك قربه، ويقال: أدبر إذا أعرض، وولى دبره، ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ والعمي جمع الأعمى، والعمى: افتقاد حاسة البصر، فشبه سبحانه من افتقد البصيرة بمن افتقد البصر، في عدم الاهتداء إلى المقصود، والمعنى: ما أنت بمرشد من أعماه الله سبحانه عن الهدى، وأعمى قلبه عن الإيمان اهـ. «سمين».

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وقع حدث وحصل، والمراد من القول ما دل من الآيات على مجيء الساعة، ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ أي: تنبئهم وتخبرهم، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ والحشر: الجمع، والمراد به هنا هو الحشر للعذاب، بعد الحشر الكلي الشامل لكافة الخلق، والأمة: جماعة أرسل إليهم رسول كما في «القاموس»، والفوج: الجماعة من الناس كالزمرة كما في «الوسيط»، والجماعة المارة المسرعة كما في «المفردات»، وكان هذا هو الأصل، ثم أطلق وإن لم يكن مرور ولا إسراع، والجمع أفواج وفؤوج، وجمع الجمع أفاوج وأفايج وأفاويج، والفائجة الجماعة، ومتَّسع ما بين كل مرتفعين من رمل.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة، ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾؛ أي: ولم تدركوا حقيقة

كنهها، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ والصور هو: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السلام ـ للموت والحشر.

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والفزع: انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخوف، ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه، والمراد بالفزع هنا ما يعتري الكل مؤمناً وكافراً عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق، من الرعب والتهيب الضروريِّين الجِبْلِيِّين، ﴿دَٰخِرِينَ﴾؛ أي: أذلاء صاغرين، وفي «القاموس»: دخر الشخص كمنع وفرح دخراً ودخوراً صغر وذل، وأدخرته بالألف للتعدية، ويقال: أدخرته فدخر؛ أي: أذللته فذل.

﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾؛ أي: ثابتة في أماكنها، من جمد الماء وكل سائل قام وثبت ضد ذاب. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والصنع: إجادة الفعل فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنعاً، ولا يُنسب إلى الحيوانات كما يُنسب إليها الفعل كما في «المفردات»، والإتقان: الإتيان بالشيء على أكمل حالاته، وهو مأخوذ من قولهم: تقن أرضه إذا ساق إليها الماء الخاثر بالطين لتصلح للزراعة، وأرض تقنة، والتقن فعل ذلك بها، والتقن أيضاً ما رُمي به في الغدير من ذلك أو الأرض، ويقال: أتقن الشيء إذا أحكمه، يقال: رجل تقن، بكسر التاء وسكون القاف؛ أي: حاذق بالأشياء.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾؛ أي: ألقيت منكوسة، والكب إسقاط الشيء على وجهه، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ والعبادة هي غاية التذلل والخضوع، والبلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه، وإقامتهم فيه، ولاعتبار الأثر قيل: بلدة؛ أي: أثر.

﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ أي: جعلها حراماً؛ أي: ممنوعاً منه، ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والتلاوة قراءة القرآن متتابعة كالدراسة والأوراد الموظفة، والقراءة أعم، يقال: تلاه تبعه متابعة ليس بينهما ما ليس منهما.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ حيث أسند القص إلى القرآن، لأن القص لا يوصف به إلا الناطق المميز، ولكن القرآن لما تضمن نبأ الأولين كان كالشخص الذي يقص على الناس الأخبار.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ حيث أطلق الحكم على المحكوم به على سبيل التجوز.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لأن فعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إلخ. حيث مثل أحوال الكفار في عدم انتفاعهم بما يتلى عليهم من الآيات بالموتى، وفي عدم إصغائهم إلى الحق وقبولهم له بالصم الذين لا يسمعون النداء، وفي عدم اهتدائهم إلى الحق والصواب بالعمي الذين لا يهتدون إلى المقصود.

ومنها: تقييد نفي عدم الاسماع بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟﴾ لتكميل التشبيه وتأكيد النفي، فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد؛ أي: إن الأصم لا يسمع الدعاء، مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ لتربية المهابة، وكان مقتضى السياق أن يقال: قلنا، لأن قبله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ بالتكلم.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للتأنيب.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فقد أسند الإبصار إلى الزمان، وهو لا يعقل، لأن المعنى: ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب في

أمور المعاش، فبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس حالاً له، ووصفاً من أوصافه التي جعل عليها بحيث لا ينفك عنها.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ والاحتباك عند البديعيين هو: الحذف من أحد المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، لأن أصل التركيب: ألم يروا أنا جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ليتحركوا فيه، فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه، وحذف ليتحركوا فيه لدلالة ليسكنوا عليه.

ومنها: الإخبار بالماضي عن المستقبل في قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكان السياق يقتضي بأن يأتي بالمستقبل أيضاً، ولكنه عدل إلى الماضي للإشعار بتحقق الفزع، وأنه كائن لا محالة، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ففيه طباق عجيب بين الجمود والحركة السريعة، حيث جعل ما يبدو لعين الناظر من الأجرام العظام كالجبل في جموده ورسوخه، ولكنه سريع يمر مروراً حثيثاً كما يمر السحاب.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾؛ أي: تمر كمر السحاب في السرعة، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل: محمد قمر.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وفي قوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ و﴿مَن ضَلَّ﴾.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ لأن الإضافة تكون لتشريف المضاف إليه، كما أنها تكون لتشريف المضاف في نحو ناقة الله، وبيت الله، وروح الله.

ومنها: الاحتراس في قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ففيه احتراس بديع، فقد

أضاف سبحانه اسمه إلى مكة تشريفاً لها، وذكراً لتحريمها، ولما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة بهذا التشريف أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف لا لأنها ملك الله تعالى خاصة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

جملة ما حوته هذه السورة من حكم وأحكام وقصص

اشتملت هذه السورة على الأمور التالية:

١ ـ وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين.

٢ ـ قصص موسى عليه السلام.

٣ ـ قصص سليمان عليه السلام.

٤ ـ قصص ثمود، وقصص قوم لوط.

٥ ـ النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان، وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى.

٦ ـ إنكار المشركين للبعث والنشور، وقولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

٧ ـ علم الله بما في الصدور.

٨ ـ حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل.

٩ ـ قطع الأطماع في إيمان المشركين، وتشبيههم بالعُمْيِ الصُّمِّ.

١٠ ـ أشراط الساعة كخروج الدابة من الأرض، وحشر فوج من كل أمة وتسيير الجبال.

١١ ـ الجزاء على العمل خيراً كان أو شراً.

١٢ ـ أمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين: إنه إنما أمر بعبادة رب مكة، لا بعبادة الأصنام والأوثان.

١٣ ـ أمره بحمد الله والثناء عليه، وطلبه تلاوة القرآن.

١٤ ـ أنه سبحانه سيُري المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة، حين لا يفيدهم ذلك شيئاً. وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[١].

والله أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه لنا في تفسير سورة النمل، وكان الفراغ في أوائل ليلة الأربعاء، السادسة عشر من شهر الجمادى الأولى، من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاثة عشر من تاريخ الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

سورة القصص

سورة القصص[1] نزلت بعد النمل، وهي مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة، وقال مقاتل: مكية إلا من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٥٢) إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٥٥) فمدنية، وإلا آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ (٨٥) فإنها نزلت بالجحفة، أثناء الهجرة إلى المدنية، فليست مكية ولا مدنية.

وهي ثمان وثمانون آية[2]، وألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة. وخمسة آلاف وثمان مئة حرف.

التسمية: سميت سورة القصص، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ مفصلة موضحة، من حين ولادته إلى حين رسالته، ولاشتمالها على الحكاية والأخبار العجيبة، والقصص مصدر بمعنى الإخبار، وتسمى أيضاً سورة موسى، واعلم أن أسماء السور توقيفية، وكذا ترتيبها وترتيب الآيات، فلا بد فيها من ملاحظة المناسبة.

المناسبة: ووجه مناسبة هذه السورة لما قبلها أمور[3]:

١ ـ أنه سبحانه بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام، وفصَّل هنا ما أجمله هناك، فشرح تربية فرعون لموسى، وذبح أبناء بني إسرائيل، الذي أوجب إلقاء موسى حين ولادته في اليم، خوفاً عليه من الذبح، ثم ذكر قتله القبطي، ثم فراره إلى مدين، وما وقع له مع شعيب من زواجه ببنته، ثم مناجاته لربه.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

٢ ـ أنه أجمل في السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة، وبسطه هنا أتم البسط.

٣ ـ أنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح، وقوم لوط، وأجمله هنا في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ...﴾ الآيات.

٤ ـ بسط هناك حال من جاء بالحسنة، وحال من جاء بالسيئة، وأوجز ذلك هنا، وهكذا من المناسبات التي تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة أول هذه السورة لآخر السورة التي قبلها: أن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ بحمده، ثم قال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وكان مما فُسِّر به آياته تعالى معجزات الرسول، وأنه أضافها تعالى إليه، إذ كان هو المخبر بها على قدمه فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إذ كان الكتاب هو أعظم المعجزات، وأكبر الآيات البينات اهـ.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله[2] محمد بن حزم الأندلسي: سورة القصص كلها محكم إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ...﴾ الآية (٥٥) نسخت بآية السيف اهـ.

والله أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ
يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ
فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟
خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا
عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ
لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى
فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ
﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ
نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] ما أفاض به على موسى من نعمه في الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه في التابوت وإلقائه في النيل، وإنجائه من الذبح الذي عم بني إسرائيل.. أردفه بذكر ما أنعم به عليه في كبره من إيتائه العلم والحكمة، ثم إرساله رسولاً ونبياً إلى بني إسرائيل والمصريين، ثم ذكر ما حصل منه من قتل المصري الذي اختصم مع اليهودي بوكزه بجُمْع يده، وكان ذلك سبباً في موته، ثم طلبه المغفرة من ربه على ما فعل، ثم تصميمه وعزمه أن لا يناصر غوياً مجرماً، ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودي وقبطي آخر، وقد هم موسى بإغاثته أيضاً فقال له المصري: أتريد الإصلاح في الأرض، أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿طسٓمٓ ①﴾ يشير[2] إلى القسم بطاء طَوله تعالى، وطاء طهارة قلب حبيبه ﷺ عن محبة غيره، وطاء طهارة أسرار موحديه عن شهود سواه، وبسين سرِّه مع محبيه، وبميم مننه على كافة مخلوقاته بالقيام بكفاياتهم على قدر حاجاتهم، كذا في «التأويلات النجمية»، وقد تقدم[3] قولنا: إن أحق الآراء وأجدرها بالقبول في معنى هذه الحروف المقطعة أنها حروف يُراد بها التنبيه كما يراد مثل ذلك من معنى «يا» في النداء، و«ألا» في الاستفتاح، ونحوهما، ويُنطق بها بأسمائها هكذا (طا، سين، ميم) وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿طسٓمٓ ①﴾ طاء طَوله وقدرته، وسين سنائه ورفعته، وميم ملكه.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: آيات مخصوصة من القرآن الظاهر إعجازه، فاسم الإشارة إلى آيات هذه السورة، فالإشارة لمحقق

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

حاضر في علم الله تعالى، والظاهر أن الكتاب هو القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ؛ أي[1]: إن آيات هذه السورة آيات الكتاب الذي بيَّن بفصاحته أنه من كلام الله، وبيَّن صدق نبوة محمد ﷺ، وبيَّن خبر الأولين والآخرين، وبيَّن الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، وبيَّن كيفية التخلص من شبهات أهل الضلال.

والخلاصة[2]: أي هذه آيات الكتاب الكريم الذي أنزلته إليك أيها الرسول واضحاً جلياً، كاشفاً لأمور الدين وأخبار الأولين، لم تتقوَّله، ولم تتخرَّصه، كما زعم المشركون المنكرون له ولرسالة مَنْ أوحي إليه.

ثم ذكر ما هو الدليل على أنه وحي يوحى، وليس هو من وضع البشر فقال: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: نقرأ عليك يا محمد بواسطة جبريل ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾؛ أي: بعض خبر موسى وفرعون، حال كون ذلك الخبر متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق الذي لا كذب فيه، فهو حال من النبأ أو حالة كوننا متلبسين بالحق، فهو حال من فاعل ﴿نَتْلُواْ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لأجل قوم يصدقون بك وبالقرآن، وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل، لأنهم المنتفعون به.

والمعنى[3]: أي نتلو عليك بعض أخبار موسى ومحاجته لفرعون وغلبته إياه بالحجة، وأخبار فرعون وجبروته وطغيانه، وكيف قابل الحق بالباطل، ولم تُجْدِ معه البراهين الساطعة والمعجزات الواضحة، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر، فكانت عاقبته الدمار والوبال، وأُغرق هو ومن معه من جنده أجمعين، نتلوها عليك تلاوة على وجه الحق، كأنك شاهد حوادثها، مبصر وقائعها، تصف ما ترى وتُبصر عياناً لقوم يصدقون بك وبكتابك، لتطمئن به قلوبهم، وتثلج به صدورهم، ويعلموا أنه الحق من ربهم، وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هي

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

سنته فيمن عادى موسى، ومن آمن معه من بني إسرائيل، وأن النصر دائماً للمتقين، ويخزي الله المكذبين، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين فقط، وهو يُتلى على الناس أجمعين لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع، وأُذن سامعة تذكَّر وتتعظ بآياته، أما من أعرض عنه وأبى واستكبر، وقال: إن هذا إلا سحر يؤثر.. فلا تفيده الآيات والنذر، ولا يلقي له بالاً، ولا يعي ما فيه من حكمة، ولا ما يسوقه من عبرة، فهو على نحو ما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

ثم فصل هذا المجمل، ووضحه بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو[1] استئناف بياني لذلك النبأ كأن سائلاً قال: وكيف نبأهما؟ فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده؛ أي: إن فرعون اللعين تجبَّر وطغى في أرض مصر، وقهر أهل مملكته، وجاوز الغاية في الظلم والعدوان، وساس البلاد سياسة غاشمة.

ومما مكن له في ذلك ما بيَّنه الله سبحانه بقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ فرعون ﴿أَهْلَهَا﴾؛ أي: أهل أرض مصر؛ أي: أهل مملكته ﴿شِيَعًا﴾؛ أي: فرقاً يشيعونه ويتبعونه ويطيعونه في كل ما يريد من الشر والفساد، أو جعلهم أصنافاً في استخدامه، يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية.

والمعنى[2]: أي وفرَّقهم فرقاً مختلفة، وأحزاباً متعددة، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء كيلا يتفقوا على أمر، ولا يُجمعوا على رأي، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض، وبذا يلين له قيادهم، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم، وتلك هي سياسة الدول الكبرى في العصر الحاضر بل وفي الصغرى، كما تفعله الحُبُوشُ بين شعوب الأرمية الإسلامية استئماراً لم يُسمع قط في العالم قديماً

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وحديثاً، وذلك هو دستورها في حكمها لمستأمراتها، وقد نقش حكامها في صدورهم ذلك الدستور الذي ساروا عليه: فَرِّقْ تَسُدْ، وطالما أجدى عليهم في سياسة تلك البلاد التي يعمها الجهل، ويطغى على أهلها حب الظهور، ويرضون بالنفاية والقشور، رحماك اللهم رحماك! بسطت لعبادك سننك في الأكوان، وأبنت لهم طبيعة الإنسان، وأنه محب للظلم والعدوان:

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِـفَّـةٍ فَـلِـعِـلَّـةٍ لاَ يَـظْـلِـمُ

وجملة قوله[1]: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ حال من فاعل جعل؛ أي: جعلهم شيعاً حال كونه مستضعفاً طائفة منهم، أو مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً، كأنه قيل: كيف جعلهم شيعاً؟ فقال: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل مصر، وتلك الطائفة بنو إسرائيل، ومعنى الاستضعاف: إنهم عجزوا وضعفوا عن دفع ما ابتلوا به عن أنفسهم.

قال ابن عباس[2]: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا المعاصي، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط، فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه موسى - عليه السلام -؛ أي: يجعل جماعة منهم أذلاء مقهورين يسومهم الخسف، ويعاملهم بالعسف.

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ كثيراً صغاراً، وأصل الذبح شق حلق الحيوان، والتشديد للتكثير؛ أي: يقتل أبناء تلك الطائفة كثيراً، بعضهم إثر بعض، حتى قتل تسعين ألفاً من أبناء بني إسرائيل صغاراً، وقرأ الجمهور ﴿يذبّح﴾ مضعفاً، وأبو حيوة وابن محيصن بفتح الياء وسكون الذال.

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾؛ أي: يترك بناتهم أحياء لأجل الاستخدام، وذلك لأن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيء موسى عليه السلام، وفرعون كان قد سمع ذلك، فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل عند الولادة، وهذا

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الوجه أولى بالقبول مما سيأتي، وقيل: إن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل.

وجملة قوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾[1] بدل من جملة ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، والمعنى[2]: أي يذبح أبناءهم حين الولادة، وقد وكَّل بذلك عيوناً تتجسس، فكلما ولدت امرأة من بني إسرائيل ذكراً ذبحوه، ويستبقي إناثهم، لأنه يتوجس خيفة من الذكران الذي يتمرسون الصناعات، وبأيديهم زمام المال، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة، وغلبوا المصريين عليها، والغلب الاقتصادي في بلد ما أشد وقعاً وأعظم أثراً في أهلها من الغلب الاستئماري، ومن ثم لم يشأ أن يقتل النساء.

وروى السدي[3]: أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه، فأخذ يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم.

قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون! فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل؟ وإن كان كاذباً فلا فائدة فيه اهـ.

ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شيء، فسواء صحت أو لم تصح، فإن السر المعقول ما قصصناه عليك أولاً.

ثم علل اجتراحه لتلك الجرائم وإزهاقه للأرواح البريئة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: إن فرعون[4] كان من الراسخين في التجبر والإفساد بقتل خلق كثير من المعصومين، ومن ثم سوَّلت له نفسه الخبيثة أن يفعل ما فعل من تلك الفظائع، وقتل سلائل الأنبياء بلا جريمة ارتكبوها، ولا ذنب جنوه. وقد كانت هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى اتقاء شرور اليهود بحسب ما يزعم، وكان

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) المراغي.

له فيها غنية من سفك الدماء، ولكن قساة القلوب، غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى الولوع في الدم، ويجعلونه الترياق الشافي لحزازات نفوسهم، وسخائم أفئدتهم.

ثم ذكر سبحانه ما أكرم به هذه الأمة المستضعفة، وما أتاح لها من السلطان الديني والدنيوي فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاؤوا فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: وأردنا أن نتفضل بإحساننا بإرسال موسى عليه السلام على من استضعفهم فرعون، وأذلهم، وهم بنو إسرائيل، وننجيهم من بأسه، ونريهم في أنفسهم وفي أعدائهم فوق ما يحبون، وأكثر مما يؤملون بخلاصهم من فرعون، وإغراقه.

وقوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ معطوف على جملة قوله: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا﴾ وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسباً من حيث إنَّ كل واحدة منهما وقع بياناً وتفسيراً لنبأ موسى وفرعون، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يستضعف، بتقدير مبتدأ؛ أي: ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، والأول أولى، والتعبير[1] في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، واستحضار صورتها.

﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً﴾؛ أي: قادة في الخير، ودعاة إليه، وولاة على الناس، وملوكاً فيهم، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين لآخرين، وفي «كشف الأسرار»: أي أنبياء، وكان بين موسى وعيسى عليهما السلام ألف نبي من بني إسرائيل.

﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لملك فرعون ومساكن القبط، وأملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، ويسكنون في مساكنه، ومساكن قومه، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم، وأخر الوراثة عن الإمامة مع تقدمها عليها زماناً، لانحطاط رتبتها عنها.

ونمكن لهم في الأرض؛ أي: ونسلطهم على أرض مصر والشام، يتصرفون فيهما كيف ما شاؤوا، بتأييدهم بكليم الله، ثم بالأنبياء من بعده، وأصل[2]

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

التمكين أن تجعل لشيء مكاناً يتمكن فيه، ثم استُعير للتسليط، كما سيأتي في مبحث البلاغة؛ أي: نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها، مسلطين على ذلك يتصرفون به كيف شاؤوا. وقرأ الجمهور[1]: ﴿نمكن﴾ بدون لام عطفاً على نمن، وقرأ الأعمش ﴿ولنمكن﴾ بلام كي؛ أي: وأردنا ذلك لنمكن أو ولنمكن فعلنا ذلك.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ رؤية بصرية، وقرأ الجمهور[2]: ﴿ونُري﴾ بالنون المضمومة وكسر الراء مضارع أرى الرباعي، وبنصب ما بعده على أن الفاعل هو الله سبحانه، وقرأ عبد الله وحمزة والكسائي والأعمش وخلف: ﴿ويرى﴾ بفتح الياء والراء مضارع رأى الثلاثي، والفاعل فرعون، وما بعده، والقراءة الأولى ألصق بالسياق، لأن قبلها نريد، ونجعل ونمكن بالنون، وأجاز الفراء: ﴿ويري﴾ فرعون بضم الياء التحتية وكسر الراء؛ أي: ويُري الله فرعون.

﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وزير فرعون وأحد رجاله، وذُكر لنباهته في قومه، ومحله من الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾، ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾؛ أي: عساكرهما، وإضافة الجنود إليهما إما للتغليب، أو أنه كان لهامان جنود مخصوصة به، وإن كان وزيراً، أو لأن جند السلطان جند لوزيره اهـ «شهاب».

﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾؛ أي: ما كان فرعون وهامان وجنودهما يخافونه من المستضعفين، ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، والموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى، والمفعول الأول على القراءة الثانية، والمعنى: أن الله يريهم، أو يرونهم الذي كانوا يحذرون منه ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين.

والخلاصة[3]: أي ونري أولئك الأقوياء والأعداء الألداء على أيدي بني

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

إسرائيل من المذلة والهوان، وما كانوا يتوقعونه من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم، ولكن لا يُنْجي حذر من قدر، فنفذ حكم الله الذي جرى به القلم من القدم على يد هذا الغلام، الذي احترز من وجوده، وقتل بسببه ألوفاً من الولدان، وكان منشؤه ومرباه على فراشه، وفي داره، وغذاؤه من طعامه، وكان يُدَلِّلُهُ ويتبنَّاهُ، وحتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه، ليعلم أن رب السمٰوات والأرض هو الغالب على أمره الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وخلاصة ما سلف:

١ ـ أن فرعون علا في الأرض.

٢ ـ استضعف حزباً من أحزاب مصر.

٣ ـ قتل الأبناء.

٤ ـ استحيا النساء.

٥ ـ أنه كان من المفسدين.

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمة لبني إسرائيل:

١ ـ أنه مَنَّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته.

٢ ـ أنه جعلهم أئمة مقدَّمين في الدارين.

٣ ـ أنه ورَّثهم أرض الشام.

٤ ـ أنه مكَّن لهم في أرض الشام ومصر.

٥ ـ أنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون، من ذهاب ملكهم على أيديهم.

هذان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر، كما يعقب الليل النهار، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ انظر

إلى الدولتين الفارسية والرومية، وما كان لهما من مجد بازخ، وملك واسع كيف دالت دولتهما، وذهب ريحهما بظلم أهلهما، وتقسم ملكهما، ثم قامت بعدهما الدولة العربية، وعاشت ما شاء الله أن تعيش، ثم قام بعدها بنو عثمان، وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية ثم هرمت دولتهم، وشاخت، واستولت عليها ممالك أوروبا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

ولما ذكر الله سبحانه أنه سيمن على بني إسرائيل الذين استُضعفوا في الأرض.. أردف ذلك تفصيل بعض نعمه عليهم فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ألهمنا أم موسى ـ يوحانذ بنت لاوي بن يعقوب ـ وفي «القرطبي»: قال الثعلبي: كان اسم أم موسى لوخا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب اهـ.

وقذفنا في قلبها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ أي: أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك، وذلك أن أم موسى حبلت بموسى، فلم يظهر بها أثر الحبل من نشوء البطن، وتغير اللون، وظهور اللبن، وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل، حتى ولدت موسى ليلة لا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطَّلع عليها أحد من القوابل الموكَّلة من جهة فرعون بحبالى بني إسرائيل، ولا من غيرهن إلا أخته مريم، فأوحى إليها أن أرضعيه، قيل: أرضعته ثمانية أشهر، وقيل: أربعة أشهر، وقيل ثلاثة، وكانت ترضعه وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها.

وليس الوحي الذي أوحى الله إليها هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل، بل إيحاء الله تعالى إليها إلهام، وقذف في القلب، قاله ابن عباس وقتادة، أو منام قاله قوم، أو إرسال ملك قاله قطرب وقوم، وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وأجمعوا على أنها لم تكن نبية، فإن كان الوحي بإرسال ملك كما هو الظاهر، فهو كإرساله للأقرع والأبرص والأعمى، كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما.

وقد سلَّمت على عمران بن حصين الملائكة، كما في الحديث الثابت في الصحيح، فلم يكن بذلك نبياً، والظاهر أن هذا الإيحاء هو بعد الولادة، فيكون

ثم جملة محذوفة؛ أي: ووضعت موسى أمه في زمن الذبح، وخافت عليه، وأوحينا إليها أن أرضعيه، و﴿أَنْ﴾ في ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ مفسرة، لأن في الوحي معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بأن أرضعيه، وقرأ عمرو بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز ﴿أن أرضعيه﴾ بكسر نون ﴿أن﴾ ووصل همزة ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، فالكسر لالتقاء الساكنين، وحُذفت همزة الوصل على غير القياس، لأن القياس فيه نقل حركة الهمزة، وهي الفتحة إلى النون، كقراءة ورش.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على موسى من جواسيس فرعون ونقبائه، الذين يقتلون أولاد بني إسرائيل اتباعاً لأمره، أو من الجيران أن ينمُّوا عليه إذا سمعوا صوته ﴿فَأَلْقِيهِ﴾؛ أي: فألقي موسى ﴿فِي الْيَمِّ﴾؛ أي: في بحر النيل؛ أي: فاطرحيه في التابوت، والتابوت في البحر، وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾؛ أي: من غرقه وضياعه، ومن التقاطه فيُقتل ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ لفراقه إياك.

رُوي: أن دارها كانت على الشاطىء، فاتخذت تابوتاً مطلياً بالقار، ومهَّدت فيه مهداً، وألقته في النيل، وليس هناك من دليل على الزمن الذي قضته بين الولادة والإلقاء في اليم.

ثم وعدها سبحانه بما يسلِّيها، ويطمئن قلبها، ويملؤه غبطة وسروراً، وهو رده إليها، وجعله رسولاً نبياً، فقال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ﴾؛ أي: رادو ولدك ﴿إِلَيْكِ﴾ عن قريب، لتكوني أنت المرضعة له، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى فرعون وقومه؛ أي: وباعثوه رسولاً إلى هذا الطاغية، وجاعلو هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه.

وهذه الآية هي من معجزات الإيجاز، لأنها اشتملت على أمرين: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿ألقيه﴾، ونهيين ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾، وخبرين، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، و﴿جاعلوه﴾ وبشارتين في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين، حُكي عن الأصمعي قال: سمعت أعرابية تُنشد:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ قَبَّلْتُ إِنْسَاناً بِغَيْرِ حِلِّهِ

مِـثْـلُ ٱلْـغَـزَالِ نَـاعِـمَـاً فِـيْ دَلِّـهِ   فَـٱنْـتَـصَـفَ ٱلـلَّـيْـلُ وَلَـمْ أُصـلِّـهِ

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك، قالت: أو يُعدُّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ...﴾ الآية. فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، في أسهل نظم وأوجز عبارة.

فإن قلت: ما فائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى بإرضاعه مع أنها ترضعه طبعاً وإن لم تؤمر بذلك؟

قلت: أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها به ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت المقصود.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ هو معطوف على جواب الشرط، فيلزم عليه التناقض بين إثبات الخوف في قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ وبين نفيه في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ لأن التركيب يكون حينئذٍ هكذا: فإذا خفت عليه فلا تخافي، وذلك تناقض؟

قلت: لا يلزم التناقض، لأن معناه إذا خفت عليه القتل فألقيه في اليم، ولا تخافي عليه الغرق.

فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية؟

قلت: الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه في المستقبل، والحزن غم يصيبه لأمر وقع ومضى.

فصل في ذكرِ القصة في ذلك

قال ابن عباس[(١)] ـ رضي الله عنهما ـ: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها بأن أحست بالطلق أرسلت إلى قابلة، وكانت مصافية لأم موسى، وقالت لها:

---

(١) المراح.

لينفعني اليوم حبك إياي، فجلست القابلة تعالجها، فلما نزل موسى إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى قلبها فقالت: يا هذه ما جئتك إلا لقتل مولودك، ولكني وجدت لابنك هذا حباً شديداً، فاحفظي ابنك، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى، فقالت أخته: يا أماه هذا الحارس بالباب، فلفته بخرقة ووضعته في تنور مسجور، فطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع فدخل، فإذا التنور مسجور، ورأى أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقال: لِمَ دخلَتْ القابلة عليك؟ قالت: إنها حبيبة لي، دخلت للزيارة، فخرج من عندها فرجع إليها عقلها، فقالت لأخت موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاءً في التنور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فأخذته، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت جد فرعون في طلب الولد خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتاً، ثم تقذف التابوت في النيل، فذهبت إلى نجار من قوم فرعون، فاشترت منه تابوتاً صغيراً طوله خمسة أشبار وعرضه كذلك، فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: لي ابن أخبؤه فيه، فلما انصرفت ذهب النجار إلى الذباحين ليخبرهم بذلك، فلما جاءهم أمسك الله لسانه، وجعل يشير بيده فضربوه، وطردوه، فلما عاد إلى موضعه رد الله عليه نطقه، فذهب مرة أخرى ليخبرهم، فأخذ الله لسانه وبصره، فجعل لله تعالى إنه إن رد عليه بصره ولسانه لا يدلهم عليه، فعلم الله تعالى منه الصدق، فرد الله عليه ذلك، وانطلقت أم موسى وألقته في النيل، وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها، وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها، فقالوا: أيها الملك لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر، يوجد منه شبه الإنسان، فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها، فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا، في شهر كذا، حين تشرق الشمس، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس له كان على شفير النيل، ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت بنت فرعون في جواريها، حتى جلست على شاطىء النيل، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج، وتعلق بشجرة، فقال: ائتوني به، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب، فلم

يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فنظرت آسية، فرأت نوراً في جوف التابوت لم يره غيرها، فعالجته ففتحته، فإذا هي بصبيٍّ صغير، وإذا نور بين عينيه، فألقى الله محبته في قلوب آسية وفرعون، فأخرجوه من التابوت، وعمدت بنت فرعون إلى ريقه فلطَّخت به برصها، فبرئت في الحال، فقبلته وضمَّته إلى صدرها، فقالت الغواة من قوم فرعون: أيها الملك إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه، رُمي في البحر خوفاً منك، فهم فرعون بقتله، فاستوهبته آسية من فرعون، فوهبه لها، فترك قتله وتبنته، فقيل لآسية: سمِّيه، فقالت: سمَّيته موشى ـ بالشين المعجمة ـ لأنا وجدناه في الماء والشجر، فإن معنى مو: ماء، ومعنى شا: شجر، فأصل موسى ـ بالمهملة ـ موشى بالمعجمة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط إصابة الشيء من غير طلب. والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر. والفاء عاطفة على محذوف، تقديره: فألقته أم موسى في اليم بعدما جعلته في التابوت، فالتقطه من وجده من آل فرعون.

قال الزجاج[1]: كان فرعون من أهل فارس من اصطخر اهـ؛ أي: فأخذ موسى أهل فرعون ـ يعني جواريه ـ من بين الماء والشجر يوم الاثنين صبيحة الليل الذي ألقي فيه التابوت، أخذ اللقطة التي يُعنى بها، وتصان عن الضياع.

روي أن الموج أقبل به يرفعه مرة، ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين الأشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري امرأته إلى الشط فوجدن التابوت فأدخلنه إليها، وظنن أن فيه مالاً، فلما فتحنه وجدن فيه غلاماً، فوقعت عليها رحمته فأحبته حباً شديداً، ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه، إذ قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هلاكنا على يديه، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها.

ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ما قصدت، فقال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾

---

(١) النسفي.

موسى في عاقبة أمره ﴿عَدُوًّا﴾ في[1] دينهم ﴿وَحَزَنًا﴾ لما يصنعه بهم، وقيل: عدواً لرجالهم، وحزناً على نسائهم، فقتل الرجال بالغرق، واستذل النساء؛ أي: التقطوه ليصير بهم الأمر إلى ذلك، إذ أراد الله ذلك، لا أنهم أخذوه له، وجعل موسى نفس الحزن إيذاناً لقوة سببيته لحزنهم، واللام هنا[2] لام العاقبة والصيرورة، لا لام العلة والإرادة، لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً، بل إنما أخذوه ليكون لهم ولداً وقرة عين، ولكن لما صار عاقبة أمرهم إلى ذلك أبرز مدخولهم في معرض العلة لالتقاطهم، تشبيهاً له في الترتب عليه بالغرض الحامل عليه، وهو المحبة والتبني.

وهذا[3]: مثل ما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله، وهو يظن نفسه محسناً فيه، وأدى الأمر إلى مساءة وضر قد لحقه: فعلت هذا لضر نفسك، وهو قد كان حين الفعل راجياً نفعه، غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما كان يرجو، وكقولهم: اشترى فلان بضاعة كذا ليخسر، مع أن الحامل له على الشراء الاسترباح، وهذا جار على سنن العرب في كلامهم، فيذكرون الحال بالمآل، قال شاعرهم:

وَلِلْمَنَايَا تُرَبِّيْ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ... وَدُوْرُنَا لِخَرَابِ ٱلدَّهْرِ نَبْنِيْهَا

وقال آخر:

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُوْ ٱلْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا ... كَمَا لِخَرَابِ ٱلدَّهْرِ تُبْنَى ٱلْمَسَاكِنُ

وقال آخر:

لِدُوْا لِلْمَوْتِ وَٱبْنُوْا لِلْخَرَابِ ... فَكُلُّكُمُ يَصِيْرُ إِلَىٰ ٱلتُّرَابِ

فعاقبة البناء الخراب، وإن كان في الحال مفروحاً به، وعاقبة تغذية السخال الذبح، وإن كانت الآن تُغذَّى لتسمن.

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

والخلاصة[1]: أن الله قيَّضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً، ويستبين بطلان حذرهم منه، وهذا الذي ذكرنا باختصار ما عليه جمهرة المفسرين والبيانيين، ولا تغتر بقول من شذَّ بإنكار وقوع المجاز في القرآن، مع كونه نزل بلسان عربي مبين، والكلام العربي يجري على طريقتين: إما على الحقيقة، وإما على المجاز، والقرآن إنما نزل على قانون لغتهم لكون من أُنزل عليه عربياً فصيحاً.

قلت: ويحتمل كون الكلام هنا على حذف، بدليل ما سيأتي، فتكون اللام على معناها الأصلي، أعني لام كي، فلا مجاز، والتقدير: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم ولداً وقرة عين، فصار لهم عدواً وحزناً، ومعنى عداوته إياهم: مخالفته لهم في دينهم، وحملهم على الحق، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه، بالغرق بعد أن يظهر فيهم الآيات، ولم يستجيبوا لدعوته، فحلت بهم القوارع، كما هي سنة الله تعالى في خلقه المكذبين للرسل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ بفتح الحاء والزاي، وهي لغة قريش، وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وابن سعدان: بضم الحاء وإسكان الزاي، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم، وهما لغتان، كالعدم والعُدْم، والرشد والرُشْدِ، والسَّقَم والسُّقْم.

ثم بيَّن أن القتل الذي يفعله فرعون وهامان وجنودهما لبني إسرائيل حمق وطيش، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ تعليل لما قبله، أو اعتراض لقصد التأكيد لاعتراضه بين المعطوف الذي هو: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وبيَّن المعطوف عليه الذي هو: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾؛ أي: كانوا[3] خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن رُبّي عدوهم، ومن هو سبب هلاكهم على يديه، أو كانوا خاطئين في كل ما يأتون، وما يذرون، فليس ببدع

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله، ثم أخذوه يربونه ليكبر، ويفعل بهم ما كانوا يحذرون.

وأُضيف الجند هنا وفيما قبل إلى فرعون وهامان[(١)]، وإن كان هامان لا جنود له، لأن أمر الجنود لا يستقيم إلا بالملك والوزير، إذ بالوزير تحصل الأموال، وبالملك وقهره يتوصل إلى تحصيلها، ولا يكون قوام الجند إلا بالأموال.

وقرىء ﴿خاطيين﴾ بغير همز، فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحذفت، وهو الظاهر، وقيل: من خطا يخطو؛ أي: خاطين الصواب. ولما التقطوه همُّوا بقتله، وخافوا أن يكون المولود الذي يحذرون زوال ملكهم على يديه، فألقى الله محبته في قلب آسية امرأة فرعون ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ حين رآه فرعون وهم بقتله، وهي آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام، وقيل: كانت من بني إسرائيل من سبط يوسف عليه السلام.

أي: قالت لفرعون حين أخرجته من التابوت، وهمَّ فرعون بقتله لقول الكهنة، كما سيأتي: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٍ﴾؛ أي: لذة عين، ومسرة قلب؛ أي: هذا الغلام قرة عين ﴿لِّي وَلَكَۖ﴾ يا فرعون ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾؛ أي: لا تقتلوا يا فرعون هذا الغلام، خاطبته بلفظ الجمع تعظيماً له، ليساعدها فيما تريده.

قال ابن عباس: لما قالت آسية ذلك، قال فرعون: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه، وروي أنه لو قال: لي، كما هو لك لهداه الله كما هداها.

قال ابن إسحاق: إن الله تعالى ألقى محبته عليه السلام في قلبها، لأنه كان في وجهه ملاحة، فكل من رآه أحبه، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور، ولأنها لما فتحته رأته يمتص أصبعه، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال.

---

(١) البحر المحيط.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ هذا الغلام؛ أي: أترجى نفعه لنا لو كان له أبوان معروفان، ﴿أَوْ﴾ عسى أن ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ونتبناه إذا لم يُعرف له أبوان، لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التي تجعله أهلاً لتبني الملوك، وكانت آسية لا تلد، ولم يكن لفرعون ولد ذكر، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال[1] من آل فرعون، والتقدير: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وقالت امرأة فرعون: كذا وكذا، والحال أنهم لا يشعرون؛ أي: لا يعلمون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط، ورجاء النفع منه، والتبني له.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ. . .﴾ الآية، اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطأهم، كما مر آنفاً، وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان، وقيل[2]: هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ أي: وهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه وبسببه، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل، وقال ابن عباس: أي: وهم لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون: هذا من تمام كلام امرأة فرعون، أي: بنو إسرائيل وأهل مصر لا يشعرون أنا التقطناه، وأنه ليس منا، وهذا بعيد، كما قاله الشوكاني.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا لنفعه الله، ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه، روي أنه قالت الغواة من قوم فرعون: إن نظن إلا أنَّ هذا هو الذي يحذر منه، رُمي في البحر خوفاً منك فاقتله، فهمّ فرعون بقتله، فقالت آسية: إنه ليس من أولاد بني إسرائيل، فقيل لها: وما يدريك؟ فقالت: إن نساء بني إسرائيل يشفقن على أولادهن، ويكتمنهم مخافة أن تقتلهم، فكيف يُظنُّ بالوالدة أنها تُلقي الولد بيدها في البحر؟ أو قالت: إن هذا كبير، ومولود قبل هذه المدة التي أُخبرت لك، فاستوهبته لما رأت عليه من دلائل النجاة، فتركه، وسمَّته آسية موسى، لأن تابوته وُجد بين الماء والشجر، والماء في لغتهم: مو، والشجر: شا.

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

وبعد أن أخبر الله سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبَّر عن حال من فارقه بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾؛ أي: صار قلب أم موسى ﴿فَٰرِغًا﴾؛ أي: خالياً عن كل شيء إلا من ذكر موسى وهمِّه، و﴿أصبح﴾ هنا بمعنى صار[١]، والفؤاد القلب، لكن يقال له: فؤاد إذا اعتُبر فيه معنى التفؤد؛ أي: التحرق والتوقد، كما في «المفردات» و«القاموس»، فالفؤاد من القلب، كالقلب من الصدر، يعني الفؤاد وسط القلب وباطنه الذي يحترق بسبب المحبة ونحوها، وقال بعضهم: الصدر معدن نور الإسلام، والقلب معدن نور الإيقان، والفؤاد معدن نور البرهان، والنفس معدن القهر والامتحان، والروح معدن الكشف والعيان، والسر معدن لطائف البيان اهـ.

أي: صار فؤاد أم موسى صفراً من العقل، وخالياً من الفهم لما غشيها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون، دل عليه الربط الآتي، فإنه تعالى قال في وقعة بدر: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ إشارة إلى نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه لم تكن أفئدتهم هواء؛ أي: خالية فارغة عن العقل والفهم لفرط الحيرة.

وقيل معناه[٢]: ناسياً للوحي الذي أوحى الله ـ عز وجل ـ إليها حين أمرها أن تُلقيه في اليم، ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذي عهد إليها أن يرده إليها، ويجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان، وقال: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه، وتولَّيتَ أنت قتله، وألقيته في البحر وأغرقته، ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت: إنه قد وقع في يد عدوه الذي فررت منه، فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها، والمعنى الأول أولى، وقال أبو عبيدة: فارغاً من الحزن إذ لم يُغرق، وهذا فيه بُعدٌ، وتُبْعِدُهُ القراءات الشواذُّ التي في اللفظة.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري[1]، والحسن، ويزيد بن قطيب، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، ومحمد بن السميقع، وأبو العالية، وابن محيصن: ﴿فزعاً﴾ بالفاء والزاي والعين المهملة من الفزع؛ أي: خائفاً وجلاً.

وقرأ ابن عباس: ﴿قرعاً﴾ بالقاف المفتوحة والراء المهملة المكسورة والعين المهملة، من قرع رأسه إذا انحسر شعره، كأنه خلا من كلا شيء إلا من ذكر موسى، وقيل: ﴿قرعاً﴾ من القارعة، وهي الهم العظيم، وقرأ بعض الصحابة ﴿فزغاً﴾ بالفاء المكسورة والزاي الساكنة والغين المنقوطة، ومعناه ذاهباً هدراً تالفاً من الهم والحزن، وقرأ الخليل بن أحمد ﴿فُرُغاً﴾ بضم الفاء والراء.

﴿إِنْ﴾؛ أي: إنها، فإن شأنية ﴿كَادَتْ﴾؛ أي: قاربت[2] من ضعف البشرية وفرط الاضطراب ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾؛ أي: لتظهر بموسى، وأنه ابنُها، وتُفشي سرها، وأنها ألقته في النيل، قال في «كشف الأسرار»: الباء زائدة؛ أي: تُبديه، أو المفعول مقدر؛ أي: تُبدي القول به؛ أي: بسبب موسى.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ أي: شددنا عليه بالصبر والثبات بتذكير ما سبق من الوعد، وهو رده إليها، وجعله من المرسلين، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدقين بما وعدها الله بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولم يقل من المؤمنات تغليباً للذكور، وفيه إشارة إلى أن الإيمان من مواهب الحق، إذ المبني على الموهبة وهو الوحي أولاً، ثم الربط بالتذكير ثانياً موهبة، وجواب لولا محذوف، تقديره: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت به، واللام في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بربطنا، وهذا شبيه بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

والمعنى: أي أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها شُعاعاً لما دهمها من الجزع والحزن، وتوقع الهلاك الذي لا مندوحة منه جرياً على عادته مع أنداده ولداته، ولولا أن عصمناها، وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها، وأظهرت أنه

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ابنها، وقالت من شدة الوجد: (وا ولداه)، وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدقين بوعدنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم أخبر عن فعلها في تعرف خبره، بعد أن أخبر عن كتمها إياه بقوله: ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾؛ أي: لأخت موسى عليه السلام الشقيقة؛ أي: وقالت لابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يُقال لها، ولم يقُل لبنتها للتصريح بمدار المحبة، وهو الأخوة، إذ به يحصل امتثال الأمر، واسم أخته مريم بنت عمران، وافق اسم مريم أم عيسى، واسم زوجها غالب بن يوشا.

وقال الضحاك: اسمها كلثمة، وقال السهيلي: اسمها كلثوم، وهي شقيقته وأمهما يوحانذ، وأبوهما عمران، وهو غير عمران أبي مريم أم عيسى، لأن بين عمرانين ألف سنة وثمان مئة سنة اهـ. شيخنا.

قال بعضهم: والأصح أن اسمها كلثوم، لا مريم، لما روى الزبير بن بكار: أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة رضي الله عنها، وهي مريضة، فقال لها: «يا خديجة، أشعرت أن زوجتي معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلثوم أخت موسى، وهي التي علَّمت ابن عمها قارون الكيمياء، وآسية امرأة فرعون». فقالت: آلله أخبرك بهذا يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقالت: بالرفاء والبنين، وأطعم رسول الله ﷺ خديجة من عنب الجنة، وقولها: بالرفاء والبنين أعرست؛ أي: اتخذت العروس حال كونك متلبساً بالالتئام والاتفاق؛ أي: بالملاءمة والموافقة بينكما، وهو دعاء يدعى به في الجاهلية لمن تزوج، ولعل هذا قبل ورود النهي عن ذلك، كذا في إنسان العيون.

وفيه أن[1] هؤلاء النسوة حماهن الله تعالى عن أن يطأهن أحد، فقد ذُكر أن آسية لما ذُكرت لفرعون أحب أن يتزوجها، فتزوجها على كره منها ومن أبيها، مع بذله لها الأموال الكثيرة، فلما زُفَّت له وهمَّ بها أخذه الله تعالى عنها، وكان ذلك حاله معها، وكان قد رضي عنها بالنظر إليها، وأما مريم، فقيل: إنها تزوجت

---

(١) روح البيان.

بابن عمها يوسف النجار، ولم يقربها، وإنما تزوجها لمرافقتها إلى مصر، لما أرادت الذهاب إلى مصر بولدها عيسى ـ عليه السلام ـ وأقاموا بها اثنتي عشرة سنة، ثم عادت مريم وولدها إلى الشام، ونزلا الناصرة، وأخت موسى لم يُذكر أنها تزوجت. انتهى.

﴿قُصِّيهِۖ﴾؛ أي: اتَّبعي أثر موسى وتتبعي خبره، وفتشي نبأه، وانظري أين وقع حتى تعرفي خبره. وقوله: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فاتَّبعته أخته، فبصرت به؛ أي: أبصرته.

﴿عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: عن بُعد، ولا توهم أنها تراه ﴿وَهُمۡ﴾؛ أي: والحال أن آل فرعون ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أنها تقصه، وتتعرف حاله، أو أنها أخته.

والمعنى: أي قالت أم موسى لأخته مريم: تتبعي أثره، وتسمعي خبره، وانظري أين وقع، وإلى من صار، فتتبعته فأبصرته من مكان بعيد اختفاء من الناس، والحال أنهم لا يشعرون أنها تقصه، وتتعرف حاله، وأنها أخته، وتطلبه وتبصره.

وقرأ الجمهور(١): ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بضمتين، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن علي: ﴿جنب﴾ بفتح وسكون، وعن قتادة بفتحهما أيضاً، وعن الحسن بضم الجيم وإسكان النون، وقرأ النعمان بن سالم عن جانب، والجُنُب والجانب والجنابة والجناد بمعنى واحد، وقال قتادة: معنى عن جنب أنها تنظر إليه كأنها لا تريده، وقرأ الجمهور: ﴿فَبَصُرَتۡ﴾ بفتح الباء وضم الصاد، وقرأ قتادة: ﴿فبصَرت﴾ بفتح الصاد، وعيسى: بكسرها.

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ التحريم هنا بمعنى المنع، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لأنه لا معنى للتحريم على صبي غير مكلف؛ أي(٢): منعنا موسى أن يرضع من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

المرضعات، ويشرب لبن غير أمه، بأن أحدثنا فيه كراهة ثدي النساء والنفار عنها، ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل تقصي أخته أثره، أو من قبل أن نرده على أمه، كما قال في «الجلالين»، أو من قبل مجيء أمه كما قاله أبو الليث، أو في القضاء السابق، لأنا أجرينا القضاء بأن نرده إلى أمه كما في «كشف الأسرار».

أي[1]: منعنا موسى أن يرتضع من المرضعات التي أحضرها فرعون من قبل مجيء أمه، قال الضحاك: كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها، وروي[2] أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثدياً وهو يصيح، فقالوا لأخت موسى بعد نظرها له، وقربها منه: هل عندك مرضعة تدلينا عليها، لعله يقبل ثديها.

﴿فَقَالَتۡ﴾؛ أي: أخت موسى لآل فرعون، عند عدم قبوله ثدي أحد من المرضعات ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ﴾؛ أي: يربونه ﴿لَكُمۡ﴾ ويضمنون رضاعه، ويقومون بجميع مصالحه ﴿وَهُمۡ﴾؛ أي: والحال أن أهل ذلك البيت ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لهذا الغلام ﴿نَٰصِحُونَ﴾؛ أي: حافظون يبذلون النصح في أمره، ولا يقصرون في إرضاعه وتربيته.

قال السدي: لما قالت مريم ذلك أخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام، فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، روي أنهم قالوا لها: من يكفل؟ قالت: أمي، قالوا: ألأمك لبن؟ قالت: نعم لبن هارون، وكان هارون وُلد في سنة لا يُقتل فيها صبي، فقالوا صدقت.

روي[3]: أن هامان لما سمعها قال: إنها لتعرفه وأهله، خذوها حتى تخبر من له؟ فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، تعني أرجعت الضمير إلى الملك، لا إلى موسى، تخلصاً من يده، فقال هامان: دعوها لقد صدقت، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه، وموسى على يد فرعون يبكي،

---

(1) المراح.
(2) المراح.
(3) روح البيان.

وهو يعلله، أو في يد آسية فدفعه إليها، فلما وجد ريحها استأنس بها، والتقم ثديها، وجعل يمصه حتى امتلأت جنباه رياً، فقال فرعون: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها، فقالوا: أقيمي عندنا، فقالت: لا أقدر على فراق بيتي، إن رضيتم أن أكفله في بيتي وإلا فلا حاجة لي به، وأظهرت عدم الرغبة فيه نفياً للتهمة، فرضوا بذلك، فرجعت به إلى بيتها، فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر، فأبدلها الله بعد خوفها أمناً، وهي موفورة العز والجاه، والرزق الواسع.

وقد جاء في الأثر: «مثل الذي يعمل الخير ويحتسب كمثل أم ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾؛ أي: فرددنا موسى، وصرفناه ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ ووالدته ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وتطيب نفسها بوصول ولدها إليها، وتربيتها له في بيتها، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على موسى بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أن جميع ما وعده من رده إليها، وجعله من المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا خلف فيه بمشاهدة بعضه، وقياس بعضه عليه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر آل فرعون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بذلك، بل كانوا في غفلة عن القدر وسر القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون أن المقصود الأصلي من رده إليها علمها بأن وعد الله حق، لا خُلف فيه بمشاهدة بعضه، وقياس بعضه عليه، فهذا هو الغرض الديني، وما سواه من قرة العين، وذهاب الحزن تبع، فمكث موسى عند أمه إلى أن فطمته، وأمر فرعون بإجراء أجرتها لكل يوم دينار، فأتت به فرعون، واستمر عنده، يأكل من مأكوله، ويشرب من مائه، ويلبس من ملبوسه إلى أن كمل.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: كمال قوته الجسمانية، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وهو[1] مفرد على بناء الجمع، كما سبق في سورة

---

(١) روح البيان.

يوسف ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: انتهى شبابه، وتكامل عقله، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، وقال في يوسف: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ فقط، لأنه أوحي إليه في صباه حين كان في البئر، وموسى عليه السلام أوحي إليه بعد أربعين سنة، كما قال سبحانه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أعطينا موسى ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: نبوة[1] ﴿وَعِلْمًاۚ﴾؛ أي: فقهاً في الدين، أو علماً بمصالح الدارين، أو علم الحكماء والعلماء، أو سمتهم قبل استنبائه، فلا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً يُستجهل فيه، وهو أوفق لنظم القصة، لأنه تعالى استنبأه بعد الهجرة والمراجعة اهـ. «أبو السعود».

والمراد بالهجرة خروجه إلى مدين، وبالمراجعة رجوعه منها اهـ «شهاب»، وكان عمره عند رجوعه من مدين أربعين سنة، لأنه أقام في مصر ثلاثين سنة ثم ذهب إلى مدين، وأقام فيها عشر سنين، ووقعة قتل القبطي كانت قبل ذهابه إلى مدين فهو السبب فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جزينا موسى وأمه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم؛ أي: وكما جزينا موسى على طاعته إيانا، وصبره على أمرنا بالحكم والعلم، وجزينا أمه على استسلامها أمرنا، حين ألقت ولدها في البحر تصديقاً لوعدنا؛ أي: كما جزيناها برد ولدها إليها، وجعله من المرسلين، نجزي كل من أحسن من عبادنا، وأطاع أمرنا، وانتهى عما نهيناه عنه، على إحسانه أياً كان، والمراد العموم، وفي الآية تنبيه على أنهما كانا محسنين في عملهما، متَّقين في عنفوان عمرهما، فمن أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جازاه الله بأحسن الجزاء.

حكي[2]: أن امرأة كانت تتعشى، فسألها سائل، فقامت ووضعت في فمه لقمة، ثم وضعت ولدها في موضع، فاختلسه الذئب، فقالت: يا رب ولدي، فأخذ آخذ عنق الذئب، واستخرج الولد من فيه بغير أذىً، وقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل.

وبعد أن أخبر بتهيئته للنبوة، ذكر ما كان السبب في هجرته إلى مدين،

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

وتوالي الأحداث الجسام عليه، فقال: ﴿وَدَخَلَ﴾ موسى عليه السلام ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾؛ أي: مدينة منف، وهي مدينة فرعون موسى، التي كان ينزلها، وفيها كانت الأنهار تجري تحت سريره، وكانت في غربي النيل، على مسافة اثني عشر ميلاً من مدينة فسطاط مصر، المعروفة يومئذ بمصر القديمة، ومنف بفتح الميم وسكون النون، وقيل: بضم الميم وسكون النون، يمنع من الصرف للعلمية والعجمة، أو التأنيث، أصلها مآفة، ومعناها[1] بلغة القبط ثلاثون، لأنها أول مدينة عُمِّرت بأرض مصر بعد الطوفان، نزلها مصر بن حام بن نوح في ثلاثين رجلاً، فسُمِّيت مآفت، ثم عُرِّبت فصارت منف، وكانت دار الملك بمصر في قديم الزمان.

قيل: إن موسى عليه السلام لما بلغ أشده، وآتاه العلم في دينه ودين آبائه علم أن فرعون وقومه على الباطل، فتكلم بالحق، وعاب دينهم، واشتهر ذلك منه، حتى آل الأمر إلى أن خافوه وخافهم، وكان له من بني إسرائيل شيعة يقتدون به، ويسمعون منه، وبلغ في الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً فدخلها يوماً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: حال كونه مستخفياً، في وقت غفلة كائنة من أهل المدينة؛ أي: وقت غفلتهم من دخوله؛ أي: دخلها في وقت لا يُعتاد دخولها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: دخلها في الظهيرة عند المقيل، وقد خلت الطرق؛ أي: دخلها وقت كونهم قائلين غافلين، مشغولين بنوم القيلولة، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾؛ أي: في المدينة بعد دخولها ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ ويتضاربان، ويلازمان مقدمات القتل من الضرب والقتل.

﴿هَٰذَا﴾؛ أي: أحدهما ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: ممن شايعه وتابعه في دينه، وهم بنو إسرائيل، قيل: هو السامري ﴿وَهَٰذَا﴾؛ أي: الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: من المعادين له على دينه، وهم قوم فرعون.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾؛ أي: طلب من موسى أن ينصره ويعينه ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

أي: من شيعة موسى ﴿عَلَى﴾ خصمه ﴿ٱلَّذِى﴾ كان ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: من عدو موسى، فأغاثه، لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل، فالقبطي الذي سخر الإسرائيلي كان طباخ فرعون، استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه، واسمه فليثون، أو فأثون، والإشارة في هذا على الحكاية، وإلا فهو والذي من عدوه ما كانا حاضرين حال الحكاية لرسول الله ﷺ، ولكنهما لما كانا حاضرين يشار إليهما وقت وجدان موسى إياهما حكى حالهما وقتئذٍ، أو لحكاية الحال عبر عن غائب ماض باسم الإشارة الذي هو موضوع للحاضر، وقال المبرِّد: العرب تشير بهذا إلى الغائب، قال جرير:

هَـذَا ٱبْـنُ عَـمِّـيْ فِـيْ دِمَـشْـقَ خَـلِـيْـفَـةٌ ... لَـوْ شِـئْـتُ سَـاقَـكُـمُ إِلَـيَّ قَـطِـيْـنَـا

ذكره أبو حيان اهـ.

وقرأ أبو طالب القارىء[1]: ﴿على حين﴾ بنصب نون حين، ووجهه أنه أجرى المصدر مجرى الفعل، كأنه قال: على حين غفل أهلها، فبناه كما بناه حين أضيف إلى الجملة المصدرة بفعل ماض كقوله:

عَلَىٰ حِيْنَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيْبَ عَلَىٰ ٱلصِّبَا

وهذا توجيه فيه شذوذ

وقرأ نعيم بن ميسرة ﴿يقتلان﴾ بإدغام التاء في التاء، ونقل فتحها إلى القاف، وقرأ الجمهور: ﴿فاستغاثه﴾؛ أي: طلب غوثه، ونصره على القبطي، وقرأ سيبويه وابن مقسم والزعفراني بالعين المهملة والنون بدل الثاء؛ أي: طلب الإعانة على القبطي، قال أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة: والاختيار قراءة ابن مقسم، لأن الإعانة أولى في هذا الباب، وقال ابن عطية: ذكرها الأخفش، وهي تصحيف لا قراءة. انتهى.

وليست تصحيفاً فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه، وابن جبارة عن ابن

---

(١) البحر المحيط.

مقسم والزعفراني، وروي أنه لما اشتد التناكر بينهما قال القبطي لموسى: لقد هممت أن أحمله عليك ـ يعني الحطب ـ فاشتد غضب موسى وكان قد أوتي قوة فوكزه فمات، كما قال: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛ أي[1]: ضربه موسى بجمع كفه، وقيل: الوكز الضرب في الصدر، وقيل: الوكز الدفع بأطراف الأصابع، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قتله موسى، وفرغ من أمره، فندم موسى عليه، ولم يكن قصده القتل بل دفعه، ودفنه في الرمل، وكل شيء فرغت منه وأتممته فقد قضيت عليه.

وقرأ عبد الله[2]: ﴿فلكزه﴾ باللام بدل الواو، وعنه ﴿فنكزه﴾ بالنون، والظاهر أن فاعل ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ضمير عائد على موسى، وقيل: يعود على الله؛ أي: فقضى الله عليه بالموت، ويحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكزه؛ أي: فقضى الوكز عليه، وكان موسى لم يتعمد قتله بل قصد دفعه، فندم على قتله.

و﴿قَالَ هَٰذَا﴾ القتل ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما أضاف العمل إلى الشيطان، لأنه كان بإغوائه ووسوسته، وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل، لأنه لم يكن حنيئذٍ مأموراً بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً عندهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح ذلك في عصمته، لكونه خطأ، وإنما عده من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، ولو كان من محقرات الصغائر، أو كان هذا قَبْلَ النبوة.

وقيل[3]: إن هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه، والمعنى إن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، والمراد بيان كونه مخالفاً لأمر الله تعالى، مستحقاً للقتل، وقيل: هذا إشارة إلى المقتول، يعني أنه من جُنْدِ الشيطان وحزبه، ثم وصف الشيطان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشيطان ﴿عَدُوٌّ﴾ لابن آدم ﴿مُّضِلٌّ﴾ له عن طريق الحق والاعتدال ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر العداوة والإضلال.

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

ثم ﴿قَالَ﴾ موسى مناجياً مع الله سبحانه، وتوسيط[1] ﴿قَالَ﴾ بين كلاميه لإبانة ما بينهما من المخالفة، من حيث إنه مناجاة ودعاء بخلاف الأول، يا ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل نفس لم أؤمر بقتلها، يعني القبطي، وقيل[2]: هو على سبيل الاتضاع لله تعالى، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي، واستر علي، ولا تؤاخذني بما فعلت، قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر اهـ.

ثم لم يزل موسى عليه السلام يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفر له، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه: إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح، وإنما عده ذنباً وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ مع كون المقتول كافراً من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر بالقتل.

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له، فقال: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ربه؛ أي: فعفا عن ذنبه، ولم يعاقبه عليه. ثم ذكر ما هو كالعلة لما قبله. فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾[3] بإزالة الزلل ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بإزالة الخجل؛ أي: إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه، المتفضل عليه بالعفو عنها، الرحيم له بأن لا يعاقبه بعد أن أخلص توبته، ورجع عن حوبته.

وفي «الشوكاني»: ووجه استغفاره[4]: أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى، كما هو سنة المرسلين، أو أراد: إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو عرف ذلك لقتلني به، والمعنى[5] عليه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل القبطي من غير أمر، فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلني به، ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾؛ أي: فاستره علي، ولا توصل خبره إلى فرعون،

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراح.

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ أي: فستره عن الوصول إلى فرعون ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: المبالغ في ستر ذنوب عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في رحمتهم بستر ذنوبهم وهذا خلاف الظاهر، فإن موسى عليه السلام ما زال نادماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه، كم ذُكر اشتكاؤه من ذلك في حديث الشفاعة الصحيح.

وقيل: إن هذا كان قبل النبوة، وقيل: كان ذلك قبل بلوغه سن التكليف، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل.

وفي «فتح الرحمٰن»(١): إن قلت: كيف جعل موسى قتله القبطي الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؟

قلت: أما جعله ذلك من عمل الشيطان، فلكونه كان الأولى له تأخير قتله إلى زمن آخر، فلما عجله ترك الأولى المندوب إليه، فجعله من عمل الشيطان، ولم يكن قصد موسى قتل القبطي، إنما كان يريد دفع أذاه عن الإسرائيلي بدليل أنه لم يضربه بشيء يقتل، وإنما ضربه بجمع يده، بلكمة كانت هي القاضية، فلذلك ندم على فعله، واستغفر ربه، لأن في قتل القبطي فتنة، والشيطان تفرحه الفتنة، فلذلك نسبه إلى الشيطان.

وأما تسميته ظلماً فمن حيث إنه حرم نفسه الثواب بترك المندوب، أو من حيث أنه قال ذلك على سبيل الانقطاع إلى الله، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن ثمة ذنب، وأما استغفاره من ذلك فمعناه اغفر لي ترك ذلك المندوب انتهى.

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التي أنعم بها عليه، فقال: ﴿قَالَ﴾ موسى يا ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ إما قسم محذوف الجواب، و﴿ما﴾ إما مصدرية أو موصولة؛ أي: أقسم عليك بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد

---

(١) فتح الرحمٰن.

هذا أبداً ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: معيناً لهم، يقال: ظاهرته؛ أي: قويت ظهره بكوني معه؛ أي[1]: أقسم يا رب بإنعامك علي بالقوة والمعرفة، فلن أكون معيناً لأحد من المشركين، بل أكون معاوناً للمسلمين؛ أي: إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع. قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله ﴿فلا تجعلني ظهيراً للمجرمين﴾.

وإما استعطاف؛ أي: بحق إحسانك علي اعصمني، فلن أكون معيناً لمن تؤدي معاونته إلى الجرم. والجرم فعل يوجب قطيعة فاعله، وأصله القطع، قال ابن عطاء: العارف بنعم الله من لا يوافق من خالف ولي نعمته، والعارف بالمنعم من لا يخالفه في حال من الأحوال انتهى.

وأراد[2] بمظاهرة المجرمين، إما صحبة فرعون، وانتظامه في جماعته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بمركبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون، وإما مظاهرة من أدَّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى قتل الذي لم يحل له قتله، وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أُومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً، ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع. وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً، وإنما قيل له إنه من شيعته، لأنه كان إسرائيلياً، ولم يرد الموافقة في الدين فعلى هذا ندم، لأنه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكون بعد هذا ظهيراً للكافرين، وقيل ليس هذا خبراً بل هو دعاء؛ أي: فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين، كما تدل عليه قراءة عبد الله، وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أَوْفَى، وأشبه بنسق الكلام اهـ.

ثم إن[3] هذا الدعاء، وهو قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ إلخ حسن إذا وقع

---

(١) المراح.

(٢) القرطبي.

(٣) روح البيان.

بين الناس اختلاف وفرقة في دين أو ملك أو غيرهما، وإنما قال موسى هذا عند اقتتال الرجلين، ودعا به ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عند قتال علي ومعاوية، كذا في «كشف الأسرار».

﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى؛ أي: دخل في الصباح، فأصبح إما تامة؛ أي: دخل في الصباح حالة كونه ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي قتل فيها القبطي، وفي هذا إشارة إلى أن دخول المدينة والقتل كانا بين العشاءين، حين اشتغل الناس بأنفسهم، كما ذهب إليه البعض، حال كونه ﴿خَآئِفًا﴾ على نفسه من آل فرعون أن يقتلوه بسبب القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يتوقع المكروه، وينتظر متى يؤخذ به. وهو الاستفادة منه، والترقب: انتظار المكروه، أو ينتظر الأخبار، وما يقال فيه، وقال ابن عطاء[1]: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه، وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله، بخلاف ما يقوله بعض الناس: إنه لا يسوغ الخوف من دون الله تعالى.

وإما ناقصة، والمعنى عليه؛ أي: فصار موسى عليه السلام في تلك المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً من جنايته التي جناها، بقتله النفس التي قتلها، وصار يتجسس الأخبار، ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطي، وما هم بالغوه به، وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة؛ أي: فإذا الإسرائيلي ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: طلب من موسى النصرة قبل هذا اليوم على دفع القبطي المقتول ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾؛ أي: يستغيثه من بعد؛ أي: يستغيث موسى بعالي الصوت من بعيد من الصراخ، وهو الصوت أو شديده كما في «القاموس».

والمعنى: إن الإسرائيلي الذي خلَّصه موسى بالأمس يستغيث به الآن ثانياً من قبطي آخر، فـ﴿قَالَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الإسرائيلي المستغيث ثانياً على قبطي آخر؛ أي: قال له ﴿مُوسَىٰٓ إِنَّكَ﴾ أيها المستغيث ﴿لَغَوِىٌّ﴾؛ أي: لذو غواية وضلال، وهو فعيل بمعنى الغاوي، ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن الغواية والضلالة لا شك

---

(١) النسفي.

فيه، لأنك تسببت لقتل رجل في الأمس، وتُقاتل اليوم رجلاً آخر، يعني: إني وقعت في الأمس فيما وقعت فيه بسببك، فالآن تريد أن توقعني في ورطة أخرى، ثم دنا منهما ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ﴾ ويأخذ ﴿بِـ﴾ الشدة والعنف القبطي ﴿الذي هو عدو لهما﴾؛ أي: عدو لموسى والإسرائيلي، إذ لم يكن على دينهما، ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل على الإطلاق، وقرأ الجمهور ﴿يَبْطِشَ﴾ بكسر الطاء، والحسن وأبو جعفر بضمها.

﴿قَالَ﴾ ذلك الإسرائيلي ظاناً أن موسى يريد أن يبطش به بناء على أنه خاطبه بقوله: إنك لغوي مبين، ورأى غضبه عليه، فلما سمع القبطي ذلك.. أفشاه، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، حتى أفشى عليه الإسرائيلي، هكذا قال جمهور المفسرين.

أو قال له القبطي منكراً: أتريد أن تفعل معي كما فعلت بالأمس، وتقتلني كما قتلت من قتلت، وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه. أو من هذا الإسرائيلي وهذا هو الظاهر.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ يعني القبطي المقتول. ﴿إِن تُرِيدُ﴾؛ أي: ما تريد يا موسى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾؛ أي: قاهراً عالياً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر، تضرب وتقتل دون أن تنظر في العواقب، والجبار هو الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل، ولا ينظر في العواقب، ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾ يا موسى ﴿أَن تَكُونَ﴾ في الأرض ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل، فتدفع التخاصم بالحسن، أو من المتورعين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولما قال هذا انتشر الحديث، وارتقى إلى فرعون وملئه، وظهر أن القتل الواقع في الأمس صدر من موسى، حيث لم يطلع على ذلك إلا ذلك الإسرائيلي، فهموا بقتل موسى، فخرج مؤمن من آل فرعون وهو ابن عم موسى ليخبر موسى. كما قال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآية.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ إن قلنا إنه علم للسورة فهو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة طسم؛ أي: مسماة بهذا اللفظ، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: طسم هذا محله، أو مفعول لفعل محذوف أو لاسم فعل محذوف، فهو مثل أسماء التراجم، وإن قلنا فيه: الله أعلم بمراده به، فلا يحكم عليه بالإعراب، ولا بالبناء، لأن الإعراب والبناء فرعان عن إدراك المعنى، وعلى إعرابه، فالجملة مستأنفة. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبر ومضاف إليه، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿نَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: معطوف على موسى، وهما ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة، الجار والمجرور صفة لمفعول محذوف، تقديره: نتلو عليك شيئاً كائناً من نبأ موسى وفرعون، ويجوز أن تكون من زائدة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبأ موسى وفرعون والأول أولى، لأنه لا ضرورة إلى زيادتها، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان آيات الكتاب المبين، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما حال من فاعل ﴿نَتْلُوا۟﴾؛ أي: نتلو عليك حال كوننا متلبسين بالحق والصدق، أو من مفعوله؛ أي: حال كونه؛ أي: الخبر متلبساً بالحق اهـ. شيخنا ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَتْلُوا۟﴾، فهو بمثابة التعليل؛ أي: لأجل قوم، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان نبأ فرعون، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان في محل الرفع معطوف على جملة ﴿عَلَا﴾. ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على فرعون، ﴿طَآئِفَةً﴾: مفعول

به، ﴿مِنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿طَآئِفَةً﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿شِيَعًا﴾، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب بدل اشتمال من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، لأن الاستضعاف مشتمل على الذبح والاستحياء، ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يُذَبِّحُ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر، ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، على كونها مسوقة لبيان نبأ موسى وفرعون، أو في محل النصب حال من ﴿طَآئِفَةً﴾ لتخصصه بالصفة؛ أي: يستضعف طائفة منهم حالة كوننا نريد المن عليهم. ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿نَّمُنَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿نَّمُنَّ﴾، وجملة ﴿نَّمُنَّ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿نريد﴾؛ أي: ونريد المن على الذين استضعفوا في الأرض، ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان معطوف على ﴿نَّمُنَّ﴾ على كونها منصوباً بأن المصدرية، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿نَّمُنَّ﴾ أيضاً، ﴿وَنُمَكِّنَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿نَّمُنَّ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به أيضاً، أو حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿وَنُرِىَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿نَّمُنَّ﴾ أيضاً، وهو من رأى البصرية تعدى بالهمزة إلى مفعولين،

﴿فِرْعَوْنَ﴾: مفعول أول، ﴿وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾: معطوفان عليه، ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ﴿نري﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نري﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَحْذَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو صفة للموصوفة، إن قلنا إنها موصوفة، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يحذرونه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على كونها مسوقة لبيان نبأ موسى وفرعون، ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأوحينا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: أن مفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه، ﴿أَرْضِعِيهِ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة مفسرة لـ﴿أوحينا﴾ لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾: مصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، تقديره: وأوحينا إلى أم موسى بإرضاعك إياه، والجار المحذوف متعلق بـ﴿أوحينا﴾. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿خِفْتِ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿ألقيه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾: متعلق بـ﴿ألقيه﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ على كونها مفسرة لـ﴿أوحينا﴾، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾: جازم وفعل مجزوم وفاعل معطوف على ﴿ألقيه﴾، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾: معطوف على أيضاً، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿رَآدُّوهُ﴾: خبره مرفوع بالواو، ﴿إِلَيْكِ﴾: متعلق بـ﴿رَآدُّوهُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله، ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾: معطوف على ﴿رَآدُّوهُ﴾، وهو اسم فاعل أضيف إلى مفعوله الأول، ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في محل نصب مفعوله الثاني.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فأرضعته وألقته، فالتقطه آل فرعون، ﴿التقطه﴾: فعل ومفعول، ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ويجوز أن تكون الفاء فصيحة، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾: اللام، حرف جر وتعليل، أو لام العاقبة، ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد اللام، واسمها ضمير يعود على موسى، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوًّا﴾؛ أو حال منه، ﴿عَدُوًّا﴾: خبر ﴿يكون﴾، ﴿وَحَزَنًاۗ﴾: معطوف عليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لكونه عدواً لهم وحزناً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿التقط﴾. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾: ناصب واسمه، ﴿وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾: معطوفان على فرعون، ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، أو جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المعطوف عليه، وهو ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، والمعطوف وهو ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، معطوف على ﴿فَالْتَقَطَهُۥ﴾، ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو قرة عين، ﴿لِّى﴾: صفة لـ﴿قُرَّتُ﴾، ﴿وَلَكَۖ﴾: معطوف على ﴿لِّى﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَقْتُلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بلا الناهية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾، ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء تعمل عمل كان، واسمها ضمير يعود على موسى، ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰٓ﴾، ولكنه على تأويل اسم فاعل، أو على تقدير مضاف، والتقدير عسى هذا الغلام نافعاً لنا، أو ذا نفع لنا، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على ﴿يَنفَعَنَآ﴾، ﴿وَهُمْ﴾

﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وهي من كلام الله تعالى، ويبعد أن يكون من كلام آسية.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أصبح﴾: فعل ماض ناقص، ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ اسمها ومضاف إليه، ﴿فَارِغًا﴾: خبرها، والجملة مستأنفة، ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿كَادَتْ﴾: فعل ناقص من أفعال المقاربة، واسمها ضمير يعود على ﴿أُمِّ مُوسَىٰ﴾، ﴿لَتُبْدِي﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تبدي﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أُمِّ مُوسَىٰ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تبدي﴾؛ أي: لتبدي القول به، أو ﴿الباء﴾ زائدة؛ أي: لتبديه، وجملة ﴿تبدي﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿رَّبَطْنَا﴾: فعل ماض وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: متعلق بـ﴿رَّبَطْنَا﴾، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: لولا ربطنا على قلبها موجود، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف، تقديره: لأبدت به، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ مستأنفة. ﴿لِتَكُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، واسمها ضمير يعود على أم موسى، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿تكون﴾، وجملة ﴿تكون﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لكونها من المؤمنين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿رَّبَطْنَا﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على أم موسى، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصبح﴾، ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قالت﴾، ﴿قُصِّيهِۖ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿فَبَصُرَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فذهبت ترتاده وتقص آثاره فبصرت به، ﴿بصرت﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على أخت موسى، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿عَن جُنُبٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿بصرت﴾؛ أي: بصرت به حالة كونها مستخفية كائنة عن جنب وبُعد، أو حال من ضمير ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بعيداً، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿بصرت﴾، والرابط مقدر، والتقدير: فبصرت به وهم لا يشعرون بها. ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿حرمنا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿حرمنا﴾، ﴿ٱلْمَرَاضِعَ﴾: مفعول به، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حرمنا﴾؛ أي: من قبل رده إلى أمه، أو حال من ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾، ﴿فَقَالَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على أخت موسى، والجملة معطوفة على جملة ﴿بصرت﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الاستخباري، ﴿أَدُلُّكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَدُلُّكُمْ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بما بعده، ﴿نَٰصِحُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿رددناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على محذوف، تقديره: فأذنوا لها في إرضاعه فرددناه، ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿رددنا﴾، ﴿كَيْ﴾: حرف نصب، ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: فعل وفاعل منصوب بكي، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة، تقديره: فرددناه إلى أمه لقرة عينها، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَحْزَنَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على أم موسى، معطوف على ﴿تَقَرَّ﴾. ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تعلم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على أم موسى، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولعلمها ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المقدر في قوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تعلم﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، ومفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾: محذوف، تقديره: كون وعد الله حقاً، وجملة ﴿لكن﴾: في محل النصب حال من اسم ﴿أن﴾ ولكن على تقدير الرابط؛ أي: ولتعلم أن وعد الله حق والحال أن أكثرهم لا يعلمون كون وعد الله حقاً.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿بَلَغَ﴾، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿حُكْمًا﴾ مفعول ثان، ﴿وَعِلْمًا﴾: معطوف على ﴿حُكْمًا﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، ﴿نَجْزِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفعول به، والتقدير: ونجزي المحسنين جميعاً جزاء مثل

جزائنا لموسى وأمه، والجملة معطوفة على جملة ﴿لما﴾. ﴿وَدَخَلَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: وغاب عن فرعون مدة طويلة ثم رجع ودخل المدينة، ﴿دخل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾: مفعول به على السعة، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾، أو من فاعل ﴿دخل﴾؛ أي: مختلساً، ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿غَفْلَةٍ﴾، ﴿فَوَجَدَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿وجد﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، معطوف على ﴿دخل﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿وجد﴾، ﴿رَجُلَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾، لأنه من وجدان الضالة، فيتعدى لمفعول واحد، وجملة ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾: صفة لـ﴿رَجُلَيْنِ﴾، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿رَجُلَيْنِ﴾، وقيل في محل النصب حال من ﴿رَجُلَيْنِ﴾، لأن سيبويه جوز مجيء الحال من النكرة من غير شرط، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿استغاثه الذي﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وجد﴾، ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، ﴿عَلَى ٱلَّذِى﴾: متعلق بـ﴿استغاثه﴾، ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: صلة الموصول، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿استغاثه﴾، ﴿فَقَضَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على موسى، أو على الوكز المفهوم من وكزه، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿قضى﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة مستأنفة، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَدُوٌّ﴾: خبره، ﴿مُّضِلٌّ﴾: صفة لـ﴿عَدُوٌّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿مُّضِلٌّ﴾، أو صفة ثانية لـ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة مستأنفة،

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَاغْفِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿اغفر﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿لِي﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿فَغَفَرَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿غفر﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق بغفر، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْغَفُورُ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿الرَّحِيمُ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وقسم، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَنْعَمْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنْعَمْتَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بباء القسم، والجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك علي بالمغفرة، وجواب القسم محذوف، تقديره: لأتوبن، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿عَلَيَّ﴾ متعلقان به ﴿فَلَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على الجواب المحذوف، ﴿لن أكون﴾: ناصب وفعل ناقص، واسمه مستتر فيه يعود على موسى، ﴿ظَهِيرًا﴾: خبره، ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿ظَهِيرًا﴾، وجملة ﴿أَكُونَ﴾: معطوفة على جواب القسم المحذوف.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أصبح﴾: فعل ماض تام بمعنى دخل في الصباح، وفاعله ضمير يعود على موسى، ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿أصبح﴾، أو حال من الفاعل، ﴿خَائِفًا﴾: حال من فاعل ﴿أصبح﴾، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة الفعلية حال ثانية، أو ثالثة، أو حال من

الضمير في ﴿خَآئِفًا﴾ فتكون حالاً متداخلة، ومفعول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ محذوف، تقديره: يترقب المكروه، ويجوز أن يكون ﴿أصبح﴾ ناقصاً واسمها مستتر فيها، ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ حال ﴿خَآئِفًا﴾ خبرها، وجملة ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال ثانية. أو خبر ثان لها، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ حرف فجأة، ﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ، ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ومتعلق ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ محذوف، تقديره: على قبطي آخر، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أصبح﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به، ﴿مُوسَىٰٓ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَغَوِىٌّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿غوي﴾: خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿غوي﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَن﴾: زائدة لاطراد زيادتها بعد ﴿لما﴾ كما هنا. وقيل لو مسبوقة بقسم كقوله:

فَأُقْسِمُ أَنْ لَوِ ٱلْتَقَيْنَا وَأَنْتُمُ لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ ٱلشَّرِّ مُظْلِمُ

وإنما زاد ﴿أن﴾ بعد ﴿لما﴾ للإشعار بأن موسى لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول، بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك الإبطاء بزيادة ﴿أن﴾، وقد تقدم في سورة يوسف ما يماثل هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿أَن يَبْطِشَ﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب، وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: فلما أن أراد بطشه، ﴿بِٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْطِشَ﴾، ﴿هُوَ عَدُوٌّ﴾: مبتدأ وخبر صلة الموصول، ﴿لَّهُمَا﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، أو صفة له، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر

يعود على الإسرائيلي المستغيث، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَتُرِيدُ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿تريد﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر وجوباً يعود على موسى، ﴿أَن تَقْتُلَنِى﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب، وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أتريد قتلك إياي، وجملة ﴿أَتُرِيدُ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿قَتَلْتَ نَفْسًۢا﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ متعلق بـ﴿قَتَلْتَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿ما﴾: المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، والتقدير: أن تقتلني قتلاً كائناً كقتلك نفساً بالأمس. ﴿إن﴾: نافية، ﴿تُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير يعود على موسى، ﴿جَبَّارًا﴾ خبرها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة ﴿جَبَّارًا﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿تُرِيدُ﴾، والتقدير: إن تريد يا موسى إلا كونك جباراً في الأرض. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على موسى، ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: وما تريد كونك من المصلحين. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ننزل عليك، والتلاوة: الإتيان بالثاني بعد الأول في القراءة؛ أي: نقرأ قراءة متتابعة بواسطة جبريل، يعني يقرأ عليك جبريل بأمرنا،

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ والنبأ الخبر العجيب العظيم الشأن.

﴿عَلَا﴾؛ أي: تجبر واستكبر، ﴿شِيَعًا﴾؛ أي: فرقاً يستخدم كل صنف في عمل من بناء وحفر وحرث، إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة، وهو جمع شيعة بالكسر، وهو مَنْ يتقوَّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، لأن الشياع الانتشار والتقوية، يقال: شاع الحديث؛ أي: كثر وقوي. وشاع القوم انتشروا وكثروا.

وفي «القاموس»: و«التاج»: وغيرهما من كتب اللغة: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، والجمع شيع وأشياع، والشيعة الفرقة، وتقع على الواحد والاثنين، والجمع مذكراً ومؤنثاً، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته، حتى صار لهم اسماً خاصاً، والواحد شيعي. وقال الزمخشري: ﴿شِيَعًا﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه. قال في «كشف الأسرار»: كان القبط إحدى الشيع، وهم شيعة الكرامة.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ والاستضعاف جعلهم ضعفاء مقهورين، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وأصل الذبح شق حلق الحيوان، والتشديد هنا للتكثير، والمعنى: يقتل بعضهم إثر بعض، حتى قتل تسعين ألفاً من أبناء بني إسرائيل صغاراً.

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ والاستحياء الاستبقاء؛ أي: يتركهن أحياء للخدمة لقول بعض الكهنة له: إن مولوداً يُولد في بني إسرائيل يكون سبب زوال ملكك، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ جمع إمام، وهو من يقتدى به في الدين، أو في الدنيا، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقال: مكَّن له إذا جعل له مكاناً موطَّأً ممهداً يجلس عليه، والمراد هنا نسلطهم على أرض مصر والشام، يتصرفون فيهما كيف يشاؤون .اهـ «أبو السعود».

﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون المذكور هنا، وهامان عدو اليهود، وزير إحشو يروش الفارسي، ذُكر في سفر استير من كتب العهد القديم، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ والحذر الاحتراز عن مخيف كما في «المفردات»؛ أي: ما كانوا

يتوقعونه من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وأصل الوحي الإشارة السريعة، ويقع على كل تنبيه خفي، والإيحاء إعلام في خفاء، قال الإمام الراغب: يقال: للكلمة الإلهية التي تُلْقى إلى أنبيائه وحي، وذلك:

١ ـ إما برسول مشاهد يرى ذاته ويُسمع كلامه، كتبليغ جبريل للنبي ﷺ في صورة معينة.

٢ ـ وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلام الله تعالى.

٣ ـ وإما بإلقاء في الروع، كما ذكر ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي».

٤ ـ وإما بإلهام، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾.

٥ ـ وإما بتسخير نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾.

٦ ـ وإما بالمنام كقوله ﷺ: «انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن» انتهى بإجمال، فالمراد هنا وحي الإلهام، كما ذكره الراغب، فجملة أقسام الوحي ستة. فافهم.

﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: في بحر النيل، ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ والفرق بين الخوف والحزن: أن الخوف غم يلحق الإنسان بسبب توقع مكروه يحدث في المستقبل، والحزن ـ بفتحتين وبضم فسكون ـ كالرَّشَدِ والرُّشْدِ، والسَّقَمِ والسُّقْمِ، غم يلحق الإنسان بسبب مكروه قد حصل.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط إصابة الشيء وأخذه فجأة، من غير طلب له، ومنه اللقطة، وهو مال بلا حافظ، ثم يُعرف مالكه، واللقيط هو طفل لم يعرف نسبه، يطرح في الطريق أو غيره، خوفاً من الفقر أو الزنى، ويجب أخذه

إن خيف هلاكه بأن وجده في الماء، أو بين يدي سبع، وتفصيله في كتب الفقه، وآل الرجل: خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة، أو الصحبة، أو الموافقة في الدين.

﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ والمراد من الخطأ هنا الخطأ في الرأي، وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان لله، والخطا مقصوراً العدول عن الجهة، والخاطىء من يأتي بالخطأ، وهو يعلم أنه خطأ، وهو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان. يقال: خطىء الرجل إذا ضل في دينه وفعله، والمخطىء من يأتي به، وهو لا يعلم؛ أي: يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه بخلاف ما يريد، يقال: أخطأ الرجل في كلامه وأمره إذا زل وهفا.

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي﴾ يقال: قرَّت به العين إذا فرحت به وسرت، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ والفؤاد القلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتُبر فيه معنى التفؤد؛ أي: التحرق والتوقد، كما في «المفردات» و«القاموس»، كما مر في مبحث التفسير بأبسط مما هنا، ﴿فَٰرِغًا﴾؛ أي: خالياً من العقل، لما دهمها من الخوف والحيرة، حين سمعت بوقوعه في يد عدوه، نحو ما جاء في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾؛ أي: خلاء لا عقول بها، والفراغ خلاف الشغل.

﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ يقال: بدا الشيء بُدُواً وبَدْواً ظهر ظهوراً بيِّناً، وأبداه أظهره إظهاراً بيناً، والإبداء إظهار الشيء، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ والربط الشد وهو العقد القوي، والربط على القلب شده، والمراد هنا تثبيته، ﴿قُصِّيهِ﴾؛ أي: اقتفى أثره، وتتبعي خبره، أمر من قص أثره قصاً وقصصاً من باب شد.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: أبصرته، ﴿عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: عن بعد، يقال: جنبته وأجنبته ذهبت عن ناحيته وجنبه، ومنه الجنب لبعده عن الصلاة ومس المصحف ونحوهما، والجار الجنب؛ أي: البعيد، ويقال: الجار الجنب أيضاً للقريب اللاصق بك إلى جنبك.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ التحريم هنا بمعنى المنع، لأنه لا معنى للتحريم

الشرعي على صبي غير مكلف، والمراضع جمع مرضع ـ بضم الميم وكسر الضاد ـ وهي المرأة التي ترضع؛ أي: من شأنها الإرضاع، وإن لم تكن تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فهي بدون التاء، لأنها من الصفات الثابتة، والمرضعة بالتاء هي التي في حالة إرضاع الولد بنفسها، ففي الحديث: «ليس للصبي خير من لبن أمه، أو ترضعه امرأة صالحة كريمة الأصل، فإن لبن المرأة الحمقاء يسري وأثر حمقها يظهر يوماً». وفي الحديث أيضاً: «الرضاع يغيِّر الطباع»، قالوا: العادة جارية بأن من ارتضع امرأة، فالغالب عليه أخلاقها من خير وشر، كما في «المقاصد الحسنة» للإمام السخاوي.

﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يضمنون رضاعه والقيام بشؤونه، والكفالة الضمان والعيالة، يقال: كفل به كفالة وهو كفيل إذا تقبل به، وضمنه وكفله فهو كافل إذا عاله، ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ والنصح ضد الغش، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، وفي «المفردات»: النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. انتهى، والمراد أنهم يفعلون ما ينفعه في غذائه وتربيته، ولا يقصرون في خدمته.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ واحدة الأشد شدة، كأنعم ونعمة، وقيل: مفرد على وزن الجمع، كما مر، والشدة القوة والجلادة، وبلوغ الأشد استكمال القوة الجسمانية، وانتهاء النمو المعتد به، ﴿وَاسْتَوَى﴾ والاستواء اعتدال العقل وكماله، ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال.

﴿حُكْمًا﴾ والحكم الحكمة، ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ﴾؛ أي: في وقت لا يتوقعون دخولها فيه ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾؛ أي: ممن شايعه وتابعه في الدين، وهم بنو إسرائيل، ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾؛ أي: من مخالفيه في الدين، وهم القبط، والعدو يُطلق على الواحد والجمع، ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾؛ أي: طلب غوثه ونصره.

﴿فَوَكَزَهُ﴾؛ أي: فضربه بجمع يده؛ أي: بيده مجموعة الأصابع، والوكز ـ كالوعد ـ: الدفع والطعن والضرب بجمع الكف، وهو بالضم والكسر حين يقبضها، وقال أبو حيان: والوكز الضرب باليد مجموعة كعقد ثلاثة وسبعين .اهـ.

وفي «المصباح»: وكزه وكزاً ـ من باب وعد ـ إذا ضربه ودفعه، ويقال: ضربه بجمع كفه على ذقنه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾؛ أي: فقتله وأنهى حياته، ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾؛ أي: من تزيينه، ﴿مُّبِينٞ﴾؛ أي: ظاهر العداوة والإضلال، ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾؛ أي: فاستر ذنوبي، ﴿ظَهِيرٗا﴾؛ أي: معيناً.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: ينتظر ما يناله من أذى، وفي «المفردات»: ترقب احترز راقباً؛ أي: حافظ، وذلك إما لمراعاة رقبة المحفوظ، وإما لرفعه رقبته، ﴿ٱسۡتَنصَرَهُۥ﴾؛ أي: طلب نصرته ومعونته، ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾؛ أي: يطلب الاستغاثة برفع الصوت، ﴿لَغَوِيّٞ﴾؛ أي: ضال من غوى يغوي كرمى يرمي، وغواية كعداوة.

﴿يَبۡطِشَ﴾؛ أي: يأخذ بصولة وسطوة، ﴿جَبَّارٗا﴾ والجبار هو الذي يفعل ما يفعل من غير نظر في العواقب، وقيل: هو الذي يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله تعالى، ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾؛ أي: ممن يبغون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسن.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ تنزيلاً لبعد مرتبته في الكمال منزلة بعده الحسي.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث شبه التسليط بالتمكين بجامع استحقاق التصرف في كل، فاستعار له اسمه، فاشتق من التمكين ـ بمعنى التسليط ـ نمكن، بمعنى نسلط على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإضافة للتغليب في قوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ لأن الجنود إنما كانت لفرعون.

ومنها: نوع عجيب من الإطناب في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ وهو من أجمل الإطناب، وهو أن يذكر الشيء فيؤتي فيه بمعان متداخلة، إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر، فقد قلنا في باب اللغة: إن الخوف هو غم يصيب الإنسان لأمر يُتوقع نزوله في المستقبل، وأما الحزن فهو غم يصيبه لأمر وقع فعلاً ومضى، فنُهيت عنهما جميعاً.

ومنها: إيثار الجملة الاسمية على الفعلية في قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً، وذلك للاعتناء بالبشارة، لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ فإن ذلك كناية عن فقدان العقل، وطيش اللب، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طاش صوابها، وطار عقلها لما انتابها من فرط الجزع والدهش.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ الربط للصبر.

ومنها: الاستعارة أو المجاز المرسل في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ لأن من حرم عليه شيء فقد منعه، لأن الصبي ليس من أهل التكليف.

ومنها: صيغة التعظيم في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تخاطب فرعون، ولم تقل: لا تقتله، تعظيماً له، ليساعدها على ما تريده من ترك قتله.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾ لأنه كناية عن إرضاعه والقيام بتربيته.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: الإشارة على الحكاية في قوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ وإلا فهو والذي

من عدوه ما كانا حاضرين حال الحكاية لرسول الله ﷺ، ولكنهما لما كانا حاضرين يشار إليهما وقت وجدان موسى إياهما حكى حالهما وقتئذٍ، كما مر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ لأنه كناية عن الموت، والقضاء في الأصل فصل الأمر.

ومنها: توسيط في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ لإبانة ما بينهما من المخالفة، من حيث أنه مناجاة ودعاء، بخلاف الأول كما مر.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي بين ﴿جَبَّارًا﴾ ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لأن الجبار المفسد المخرب المكثر للقتل، ففيه طباق في المعنى.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ
إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ
تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ
مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ
يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ
أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ (٢٤) فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ
لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ (٢٦) قَالَ
إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ
عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي
وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ (٢٨) ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ
مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ
ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن
شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
(٣٠) وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ (٣١) ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ
مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (٣٢)
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا
فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ﴾ قيل: المراد[1] بهذا الرجل حزقيل، هو مؤمن آل فرعون،

---

(١) الشوكاني.

وكان ابن عم موسى، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: طالوت، وقيل: شمعان، ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: من آخر المدينة، أو من أبعدها، وفي سورة يس: قدم ﴿مِّنْ أَقْصَا﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ لأنه لم يكن من أقصاها، وإنما جاء منها، وهنا وصفه بأنه من أقصاها، وهما رجلان مختلفان، وقضيتان متباينتان .اهـ «سمين»، فما هنا في قضية موسى، وما هناك في قضية حوراي عيسى .اهـ، وسيأتي التعليل بغير ذلك عن «فتح الرحمٰن».

وجملة قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يُسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم، حتى وصل إلى موسى عليه السلام، صفة لرجل، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال، لأن لفظ رجل وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾. ويجوز أن يتعلق ﴿مِّنْ أَقْصَا﴾ بـ﴿جاء﴾، أو صفة لرجل، أي: جاء إلى موسى مسرعاً فوصل إليه.

فـ﴿قَالَ﴾ الرجل ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾؛ أي: إن أشراف قوم فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ ويتشاورون ﴿بِكَ﴾؛ أي: بسببك، وإنما سمي[1] التشاور ائتماراً لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ أي: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، فاتفقوا على أن يحتالوا فيك ليهلكوك، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في أمري إياك بالخروج، ومن المشفقين عليك، واللام في قوله: ﴿لَكَ﴾ للبيان، كأنه قيل: لك أقول هذه النصيحة، وليس صلة للناصحين، لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول، وهو اللام في الناصح، وقيل: يجوز، لأنه يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها.

﴿فَخَرَجَ﴾ موسى عليه السلام ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من المدينة حالة كونه ﴿خَآئِفًا﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يتوقع لحوق الطالبين والتعرض له في الطريق، ويكثر الالتفات، وينظر هل يلحقه أحد يطلبه.

﴿قَالَ﴾ عند ذلك يا ﴿رَبِّ نَجِّنِى﴾؛ أي: خلصني ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وادفع

---

(١) روح البيان.

عني شر الكافرين وحل بيني وبينهم، واحفظني من لحوقهم، يعني: قوم فرعون، وهذا يدل على أن قتله عليه السلام لذلك القبطي لم يكن ذنباً، فاستجاب الله دعاءه ونجاه كما سيأتي.

قال بعضهم: إن الله سبحانه إذا أراد بعبده أن يكون له فرداً أوقعه في واقعة شنيعة، ليفر من دون الله إلى الله، فلما فر إليه خائفاً من الامتحان وجد جمال الرحمٰن، وعلم أن جميع ما جرى عليه واسطة الوصول إلى المراد، نسأل الله الوصول إليه وهو خير مسؤول، وقصد الذهاب إلى مدين، لأنها ليست تحت سلطنة فرعون، ولأنه وقع في نفسه أن بينه وبين أهل مدين قرابة، لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو من ذرية إبراهيم أيضاً.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: جعل وجهه نحو مدين، قاصداً لها؛ أي: سلك في الطريق الذي تلقاء مدين، وينتهي إليها، و﴿تِلْقَآءَ﴾ تفعال بمعنى حذاء ومقابل، وأصله من اللقاء كما سيأتي في مبحث اللغة إن شاء الله تعالى، ومدين قرية شعيب عليه السلام على بحر القلزم، سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام من امرأته قنطور، كان اتخذها لنفسه مسكناً فنسبت إليه، ولم تكن في ملك فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، كما بين الكوفة والبصرة، وكان هناك ثلاث طرق فأخذ موسى أوسطها، وأخذ طالبوه في الآخرين، وقالوا: المريب لا يأخذ أعظم الطرق، ولا يسلك إلا بنياتها، فبقي في الطريق ثماني ليال وهو حافٍ، لا يطعم إلا ورق الشجر.

والمعنى: ولما جعل موسى وجهه نحو مدين، وصار متوجهاً إلى جانبها ﴿قَالَ﴾ موسى توكلاً على الله وحسن ظن به، وكان لا يعرف الطرق، ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ أي: أرجو ربي ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الطريق الوسط المستقيم الذي يرميني إلى مدين، وكان لمدين ثلاث طرق فأخذ موسى الطريق الوسطى، وجاء الطلاب عقيبه، فقالوا: إن الفار لا يأخذ الطريق الوسط خوفاً على نفسه، بل الطرفين فشرعوا في الآخرين فلم يجدوه.

وقال ابن إسحاق: خرج موسى من مصر إلى مدين بغير زاد ولا مركوب، وبينهما مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه.

فائدة: قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآية. قاله هنا بتقديم ﴿رَجُلٌ﴾ على ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، وعكس في سورة يسٓ حيث قال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ...﴾ الآية، قيل موافقة هنا لقوله قبل فوجد فيها رجلين يقتتلان، واهتماماً ثَمَّ بتقديم ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، لما روي أن الرجل حزقيل، وقيل: حبيب، كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً .اهـ من «فتح الرحمٰن».

وحاصل معنى الآيات: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: وجاء[1] رجل مؤمن من آل فرعون، يُخفي إيمانه عن فرعون وآله لأسباب، هو بها عليم، يُسرع للحاق بموسى، إشفاقاً وخوفاً عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله، وقال: يا موسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد، وينصبون لك الحبائل، يريدون أن يقتلوك، فالبدار البدار، والهرب الهرب، قبل أن يقبضوا عليك، وينفذوا ما دبروه، ويقتلوك فاخرج من المدينة مسرعاً، وإني لك لناصح أمين.

فانتصح بنصحه، وتقبل قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾؛ أي: فخرج من مدينة فرعون خائفاً، يترقب لحوق الطالبين، ويلتفت يميناً وشمالاً، وينظر أيتبعه أحد أم لا؟ ثم لجأ إلى الله تعالى، علماً منه أن لا ملجأ إلا إليه.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: قال: رب نجني من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف، ووضع الأمور في غير مواضعها، فيقتلون من لا يستحق القتل، ومن لا يُجرم إلى أحد، فاستجاب الله دعاءه، ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين.

---

(١) المراغي.

ولما اتجه نحو مدين ماضياً إليها خارجاً عن مدينة فرعون قال: رب اهدني إلى سواء السبيل، وأرشدني إلى الطريق القويم، ونجني من هؤلاء الظلمة، وقد قال هذا توكلاً على الله، وثقة بحسن توفيقه، وقد كان لا يعرف الطريق، فعنَّ له ثلاث طرائق، فسار في الوسطى، وأخذ طالبوه في الآخرين، وقالوا: المريب لا يسلك أعظم الطرق، بل يأخذ بنياتها ـ أضيقها غير المشهور ـ، وقد روي: أنه بقي ثماني ليال وهو حاف لا يطعم إلا ورق الشجر، إذ ليس معه زاد، ولا دابة يركبها.

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث، فقال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾؛ أي: ولما وصل موسى وجاء ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو[1] بئر على طرف المدينة على ثلاثة أميال منها أو أقل كانوا يسقون منها، قال[2] ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ورد موسى عليه السلام ماء مدين وإنه ليتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على جانب البئر وفوق شفيرها ﴿أُمَّةً﴾؛ أي: جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من أهل مدين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم من مائها، قيل: كانوا أربعين رجلاً.

﴿وَوَجَدَ﴾ موسى ﴿مِن دُونِهِمُ﴾؛ أي: من دون الناس الذين يسقون، أي: في مكان أسفل منهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ﴾ صفورياء وليا، ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب. قاله السهيلي في «كتاب التعريف»، ﴿تَذُودَانِ﴾؛ أي[3]: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن التقدم إلى الماء حتى يفرغ الناس، وتخلو لهما البئر. وقيل: تكفان أغنامهما عن أن تختلط بأغنام الناس، وقيل تمنعان أغنامهما عن أن تَنِدَّ، وتذهب، والقول الأول أولى لما بعده، وقوله: ﴿قَالَ﴾ موسى للمرأتين ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؛ أي: ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس، والخطب[4] الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب؛ أي: ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود، ولم لا تباشران

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

السقي كدأب هؤلاء.

قال بعضهم: كيف استجاز موسى أن يكلم امرأتين أجنبيتين؟

والجواب: كان آمناً على نفسه معصوماً من الفتنة، فلأجل علمه بالعصمة كلمهما، كما يقال: كان للرسول ﷺ التزوج بامرأة من غير شهود، لأن الشهود لصيانة العقد عن التجاحد، وقد عُصم الرسول من أن يجحد نكاحاً، أو يُجحد نكاحه، دون غيره من أفراد أمته.

وقرأ شَبَمْرٌ[1]: ﴿خِطبكما﴾ بكسر الخاء؛ أي: من زوجكما، ولم لا يسقي هو، وهذه القراءة نادرة، ﴿قَالَتَا﴾؛ أي: البنتان ﴿لَا نَسْقِى﴾، أي: لا نقدر أن نسقي أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾؛ أي: حتى يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء.

والمعنى[2]: عادتنا أن لا نسقي مواشينا حتى يصرف الرعاء مواشيهم بعد ريها، ويرجعوا، عجزاً عن مساجلتهم وحذراً من مخالطة الرجال، فإذا انصرفوا سقينا من فضل مواشيهم، وحذف مفعول السقي والذود والإصدار، لما أن الغرض هو بيان تلك الأفعال أنفسها، إذ هي التي دعت موسى إلى ما صنع في حقهما من المعروف، فإنه عليه السلام إنما رحمهما لكونهما على الذياد والعجز والعفة، وكونهم على السقي غير مبالين بهما، وما رحمهما لكون مذودهما غنماً ومستقيهم إبلاً مثلاً.

وقرأ ابن مصرف[3]: ﴿لا نُسقي﴾ بضم النون، وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وقتادة وأبو عمر وابن عامر: ﴿يصدر﴾ بفتح الياء وضم الدال؛ أي: يصدرون بأغنامهم، وقرأ باقي السبعة والأعرج وطلحة والأعمش وابن أبي إسحاق وعيسى: بضم الياء وكسر الدال؛ أي: يصدرون أغنامهم.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ بكسر الراء جمع تكسير، قال الزمخشري: وأما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

الرِعاء بالكسر فقياس، كصيام وقيام. انتهى، قلتُ وليس بقياس، لأنه جمع راع، وقياس فاعل الصفة للعاقل أن تُكسر على فُعلة، كقاض وقضاة، وما سوى جمعه هذا، فليس بقياس، وقرىء ﴿الرعاء﴾ بضم الراء، وهو اسم جمع كالرحال والثناء، قال أبو الفضل الرازي، وقرأ عياش عن أبي عمرو: ﴿الرعاء﴾ بفتح الراء وهو مصدر أقيم مقام الصفة، فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه، وقد يجوز أنه حذف منه المضاف.

وقولهما: ﴿وَأَبُونَا﴾ وهو شعيب عليه السلام ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ السن، أو القدر والشرف، لا يستطيع أن يخرج، فيرسلنا للرعي والسقي اضطراراً، اعتذار إلى موسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ ماشيتهما رحمة عليهما، وطلباً لوجه الله تعالى، قيل: عمد موسى إلى بئر على رأسه صخرة، لا يرفعها إلا عشرة رجال، فنحاها بنفسه، واستقى الماء من ذلك البئر، روي[1] أن الرجال كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يرفعه إلا سبعة رجال، أو عشرة أو أربعون، فرفعه وحده، مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم، ولعله زاحمهم في السقي لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عن ذلك، وهو الذي يقتضيه سوق النظم الكريم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد فراغه من السقي ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: أعرض وانصرف موسى ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ أي: ظلُّ سَمْرةٍ هناك، فجلس فيه ليستريح من حر الشمس، وهو جائع لم يذق طعاماً سبعة أيام، والظل هو المكان الذي لم يقع عليه شعاع الشمس ﴿فَقَالَ﴾ يا ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ أي: إلى ما تنزله إلي من خير، واللام بمعنى إلى متعلق بـ﴿فقير﴾، و﴿أَنزَلْتَ﴾ بمعنى المضارع، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾ ﴿فَقِيرٌ﴾ خبر ﴿إن﴾، والمعنى: يا إلهي إني محتاج فقير إلى ما تنزله إلي من خزائن جودك ورزقك أي رزق كان، ولو شق تمرة.

---

(١) روح البيان.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لقد قال موسى ذلك، وهو أكرم خلق الله عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة، ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع، وقال المفسرون: تعرض لما يطعمه لما ناله من الجوع، ولم يصرح بالسؤال، وحكى ابن جرير: أنه أسمع المرأتين هذا الكلام تعريضاً أن تطعماه.

ويحتمل أن يريد[١]: رب إني بسبب ما أنزلت إلي من خير الدين، وهو النجاة من الظالمين، صرت فقيراً في الدنيا، وذلك لأن موسى كان عند فرعون في ثروة وملك، فقال ذلك رضاً بهذا البدل الديني، وفرحاً به، وشكراً له.

ولما كان موسى عليه السلام جائعاً سأل من الله ما يأكل، ولم يسأل من الناس ففطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما قفلت، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، ثم تولى إلى الظل فقال: رب إلخ، فقال أبوهما: هذا رجل جائع، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لنا.

﴿فَجَآءَتْهُ﴾؛ أي: فجاءت موسى ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾؛ أي: إحدى البنتين، عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، وهي الكبرى عند الأكثرين، واسمها صفورياء أو صفوراء، فإن قلت: كيف جاز لشعيب إرسال ابنته لطلب أجنبي؟ قلت: لأنه لم يكن له من الرجال من يقوم بأمره، ولأنه ثبت عنده صلاح موسى وعفته، بقرينة الحال، وبنور الوحي.

وقرأ ابن محيصن[٢]: ﴿فجاءته احداهما﴾ بحذف همزة إحداهما تخفيفاً، على غير قياس، مثل ويل امه، في ويل أمه، ويا بافلان، والقياس أن يُجعل بين وبين، ذكره أبو حيان.

حالة كونها ﴿تَمْشِى﴾ حال من فاعل جاءته ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾؛ أي: على ما

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

هو عادة الأبكار، مائلة عن الرجال، رافعة كمها على وجهها؛ أي: جاءته مستحية متحفزة، قد سترت وجهها بكم درعها، قال أبو بكر بن طاهر[1]: لتمام إيمانها، وشرف عنصرها، وكريم نسبها، أتته على استحياء، وفي الحديث: «الحياء من الإيمان»؛ أي: شعبة منه، قال أعرابي: لا يزال الوجه كريماً ما غلب حياؤه، ولا يزال الغصن رطباً ما بقي لحاؤه.

والجمهور على أن الداعي أباهما، هو شعيب عليه السلام، وهما ابنتاه[2]، وقال الحسن: هما ابنتا أخي شعيب، وهو مروان، وأن شعيباً كان قد مات، وقال أبو عبيدة: هارون، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب يُنسب، وقيل: كان عمهما صاحب الغنم، وهو المزوج، عبَّرت عنه بالأب، إذ كان بمثابته، والأول أرجح، وهو ظاهر النظم القرآني.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته؟ ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾؛ أي: ليكافئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ أي: جزاء سقيك لنا.

فإن قلت: إن موسى[3] لم يسق لابنتي شعيب طلباً للأجر، فكيف أجاب دعوة شعيب في قول ابنته له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؟

قلت: يجوز أن يكون أجاب دعوته لوجه الله تعالى، على وجه البر والمعروف لا طلباً للأجر، وإن سمي في الدعوة أجراً .اهـ «فتح الرحمٰن»، ولأنه[4] كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً فأجابها.

فانطلقا وهي أمامه، فألزقت الريح ثوبها بجسدها، فوصفته أو كشفته عن ساقيها، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي إليَّ الطريق، فتأخرت، وكانت تقول: عن يمينك وشمالك وقدامك، حتى أتيا دار شعيب، فبادرت المرأة إلى أبيها فأخبرته، فأذن له في الدخول، وشعيب يومئذٍ شيخ كبير، وقد كُفَّ بصره، فسلَّم موسى فرد عليه السلام وعانقه، ثم أجلسه بين يديه، وقدَّم إليه طعاماً فامتنع منه،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) فتح الرحمٰن.
(٤) روح البيان.

وقال: أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيته، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، لأنه كان من بيت النبوة من أولاد يعقوب، فقال شعيب: لا والله يا شاب، ولكن هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فتناول هذا، وإنَّ مَنْ فعل معروفاً فأُهدي إليه شيء لم يحرم أخذه، وفي «الكشاف»: أنَّ طلب الأجرة لشدة الفاقة غير منكر، وهو جواب آخر، ويشهد لصحته ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ اهـ.

والمعنى[1]: أي فجاءته إحدى المرأتين تمشي، وهي حيية، قد سترت وجهها بثوبها، قائلة: إن أبي يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان، وأسديت إلينا من المعروف بسقي غنمنا، قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعاً من النساء ـ جريئة على الرجال ـ خرَّاجة ولاَّجة، وقد أسندت إلى أبيها وعللتها بالجزاء، حتى لا يتوهم من كلامها شيء من الريبة، كما أن في كلامها دلالة على كمال العقل، والحياء والعفة كما لا يخفى.

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركاً بالشيخ وزيارة له، لا طمعاً في الأجر، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: فلما جاء موسى هذا الشيخ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾؛ أي: وحدثه حديثه مع فرعون وآله، في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد، وتآمرهم على قتله، وهربه منهم بعد الذي علمه.

والقصص مصدر، سمي به المفعول كالعلل؛ أي: المقصوص، يعني: أخبره بجميع ما اتفق له، من عند قتله القبطي إلى عند وصوله إلى ماء مدين، ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿لَا تَخَفْ﴾ من حولهم وطولهم، إنك قد ﴿نَجَوْتَ مِنَ﴾ سطوة أولئك ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من فرعون وقومه، فإنه لا سلطان لهم بأرضنا، ولسنا في مملكتهم، أو المعنى: قَبِل الله دعاءك في قولك: ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفيه[2]: إشارة إلى أن مَنْ وقع في الخوف يقال له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ كما أن من وقع في الأمن يقال له: خف، وقال أويس القرني ـ رحمه الله تعالى ـ: كن في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أمر الله كأنك قتلت الناس كلهم، يعني: خائفاً مغموماً .اهـ.

ثم إن موسى قد تربى عند فرعون بالنعمة الظاهرة، ولما هاجر إلى الله، وقاسى مشاق السفر والغربة عوَّضه الله عند شعيب النعمة الظاهرة والباطنة، وقد قيل:

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّنْ تُفَارِقُهُ ... وَٱنْصَبْ فَإِنَّ ٱكْتِسَابَ ٱلْمَجْدِ فِيْ ٱلنَّصَبِ

فَٱلأُسْدُ لَوْلاَ فِرَاقُ ٱلْخِيْسِ مَا ٱفْتَرَسَتْ ... وَٱلسَّهْمُ لَوْلاَ فِرَاقُ ٱلْقَوْسِ لَمْ يُصِبِ

وقيل أيضاً:

بِلاَدُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ فَضَاءٌ ... وَرِزْقُ ٱللَّهِ فِيْ ٱلدُّنْيَا فَسِيْحُ

فَقُلْ لِلْقَاعِدِيْنَ عَلَىٰ هَوَانٍ ... إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيْحُوْا

ألا ترى أن موسى عليه السلام وُلد بمصر، ولما ضاقت به هاجر إلى أرض مدين، فوجد السعة مطلقاً، فالكامل لا يكون زمانياً ولا مكانياً، بل يسيح إلى حيث أمر الله تعالى، من غير ليِّ العنق إلى ورائه، ولو كان وطنه، فإن الله تعالى إذا كان مع المرء فالغربة له وطن، والمضيق له وسيع.

ولما أمَّنه وطمأنه على نفسه دار الحديث، وكان ذا شجون و﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾؛ أي: قالت واحدة من البنتين، وهي الكبرى التي استدعته إلى أبيها، وهي التي تزوجها موسى ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي ويا والدي ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لنا؛ أي: اتخذ موسى أجيراً لرعي الغنم، والقيام بأمرها.

وفيه(١): دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة، وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم، فإنه من سماع أدلتها أصم.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى؛ أي: إنه حقيق باستئجارك له، لكونه جامعاً

---

(١) الشوكاني.

بين خصلتي القوة والأمانة؛ أي: إن خير من استعملت على عملك من قوي على عملك وأدى الأمانة.

ورُوي: أن أباها قال لها: ما رأيت من قوته وأمانته، فأخبرته بالأمر الذي كان، قالت: أما قوته فإنه قلب الحجر وحده، وكان لا يقلبه إلا النفر، وأما أمانته، فإنه قال: امشي خلفي وأرشديني الطريق، لأني امرؤ من عنصر إبراهيم، لا يحل لي منك ما حرمه الله تعالى.

فخصَّت[1] هاتين الخصلتين بالذكر، لأنها كانت تحتاج إليهما في ذلك الوقت، أما القوة فلسقي الماء، وأما الأمانة فلحفظ البصر، وصيانة النفس عنها، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ لأن الحفظ والعلم كان محتاجاً إليهما، أما الحفظ فلأجل ما في خزانة الملك، وأما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخرج، واللام في القوي الأمين للجنس، لا للعهد، فيكون موسى مندرجاً تحته، ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة، لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان: الأمانة والكفاية في القائم بأداء أمر من الأمور تكلل عمله بالظفر، وكفل له أسباب النُّجْح، وقيل القوي في دينه، الأمين في جوارحه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وأبو بكر في عمر.

قال المفسرون: فرغب فيه شعيب فـ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾؛ أي: أزوجك يا موسى ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾؛ أي: الحاضرتين أمامك، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما، وفيه مشروعية عرض وليِّ المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان. والقصة معروفة.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ نفسك أو على أن تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾؛ أي: ثماني سنوات ترعى لي فيها غنمي؛ أي: حال كونك مشروطاً عليك أن تكون لي

(١) روح البيان.

أجيراً في رعي غنمي ثماني سنوات، وقوله[1]: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يدل على أنه كان له غيرهما، وهذه مواعدة منه، ولم يكن ذلك عقد نكاح، إذ لو كان عقداً لقال: قد أنكحتك.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ﴾ الثماني السنين التي شرطتها عليك، فجعلتها ﴿عشراً فـ﴾ إحسان ﴿مِّنۡ عِندِكَۖ﴾؛ أي: فإتمامها من عندك تفضلاً، لا من عندي إلزاماً عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾؛ أي: وما أحب أن أشاقك بمناقشة، أو مراعاة أوقات، ولا إتمام عشر، ولا غير ذلك.

ثم رغبه في قبول الإجارة فقال: وإنك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن الصحبة، والوفاء بالعهد ولين الجانب؛ أي: ممن تحسن صحبتهم، ويوفون بما تريد من خير لك ولنا، وقيل[2]: أراد بالصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أولياً.

ومراده بالاستثناء[3]: التبرك به، وتفويض الأمر إلى توفيقه، لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى، وقرأ ورش أحمد بن موسى عن أبي عمرو: ﴿أنكحك احْدَى﴾ بحذف الهمزة، ذكره أبو حيان.

واعلم: أن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ شرط، وليس بصداق، لقوله: تأجرني نفسك، دون تأجرها نفسك. ويجوز أن يكون النكاح جائزاً في تلك الشريعة بشرط أن يكون منعقد العمل في المدة المعلومة لولي المرأة، كما يجوز في شريعتنا، بشرط رعي غنمها في مدة معلومة.

واعلم: أن المهر لا بد وأن يكون مالاً متقوماً؛ أي: في شريعتنا لقوله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ وأن يكون مسلماً إلى المرأة لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ فلو تزوجها على تعليم القرآن، أو خدمته لها سنة يصح النكاح، ولكن يصار إلى مهر المثل، لعدم تقويم التعليم والخدمة، هذا إن كان الزوج

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

حراً، وإن كان عبداً فلها الخدمة، فإن خدمة العبد ابتغاء بالمال، لتضمنها تسليم رقبته، ولا كذلك الحر، فالآية سواء حُملت على الصداق، أو على الشرط، فناظرة إلى شريعة شعيب، فإن الصداق في شريعتنا للمرأة، لا للأب. والشرط وإن جاز عند الشافعي، لكنه لكونه جراً لمنفعة المهر ممنوع عند الإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالى، وقال بعضهم: ما حُكي عنهما بيان لما عزما عليه، واتفقا على إيقاعه، من غير تعرض لبيان موجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلاً.

واعلم: أن في فرار موسى من فرعون إلى شعيب إشارة إلى أنه ينبغي لطالب الحق أن يسافر من مقام النفس الأمارة إلى عالم القلب، ويفر من سوء قرين، كفرعون إلى خير قرين كشعيب، ويخدم المرشد بالصدق والثبات.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قاله هنا[1] بلفظ الصالحين، وفي الصافات بلفظ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأن ما هنا من كلام شعيب، وهو المناسب للمعنى هنا، إذ المعنى ستجدني من الصالحين في حسن العشرة والوفاء بالعهد، وما هناك من كلام إسماعيل، وهو المناسب للمعنى، ثم إذ المعنى ستجدني من الصابرين على الذبح.

ثم ذكر جواب موسى بقوله: ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام لشعيب ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قلته وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه قائم وثابت ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ جميعاً، لا أنا أخرج عما شرطت عليَّ، ولا أنت تخرج عما شرطت على نفسك، ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ الثمانية الأعوام والعشرة الأعوام، فأي شرطية[2]، منصوبة بـ﴿قَضَيۡتُ﴾، وما زائدة مؤكدة لإبهام أي في شياعها، والأجل مدة الشيء.

والمعنى: أي الأجلين أكثرهما أو أقصرهما ﴿قَضَيۡتُ﴾ وأتممت ووفيتك بأداء الخدمة فيه، وجواب الشرط قوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾؛ أي: لا تعدي علي، ولا تجاوز بطلب الزيادة، فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) روح البيان.

على الثمان، أو أيَّما الأجلين قضيت فلا إثم علي، يعني: كما لا إثم علي في قضاء الأكثر، كذلك لا إثم علي في قضاء الأقصر. والأول أظهر.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: شاهد وحفيظ، فلا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلاً. فجمع شعيب المؤمنين من أهل مدين، وزوجه ابنته صفورياء، ودخل موسى البيت، وأقام يرعى غنم شعيب عشر سنين، كما في «فتح الرحمٰن».

وقرأ الحسن والعباس عن أبي عمرو[1]: ﴿أيما﴾ بحذف الياء الثانية، كما قال الشاعر:

تَنَظَّرْتُ نَصْراً وَٱلسِّمَاكَيْنِ أَيَمَا عَلَيَّ مِنَ ٱلْغَيْثِ ٱسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ

وقرأ عبد الله ﴿أي الأجلين ما قضيت﴾ بزيادة ما بين ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ و﴿قَضَيْتُ﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما الفرق بين موقع المزيدة في القراءتين؟

قلت: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام أي زائدة في شياعها، وفي الشاذة تأكيداً للقضاء، كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه، وجرَّدتُ عزيمتي له، وقرأ أبو حيوة وابن قطيب: ﴿فلا عدوان﴾ بكسر العين.

قال أبو حيان[2]: وظاهر قوله: ﴿أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أن الإنكاح إلى الولي، لا حق للمرأة فيه، خلافاً لأبي حنيفة في بعض صوره، بأن تكون بالغة عالمة بمصالح نفسها، فإنها تعقد على نفسها بمحضر من الشهود.

وفيه دليل على عرض الولي وليته على الزوج، وقد فعل ذلك عمر، كما مر، ودليل على تزويج ابنته البكر من غير استئمار، وبه قال مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: إذا بلغت البكر فلا تزوج إلا برضاها، قيل: وفيه دليل على قول من قال: لا ينعقد النكاح إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج، وبه قال ربيعة والشافعي

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وأبو ثور وأبو عبيد وداود، و﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ مبهم، وهذا عرض، لا عقد، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾، وحين العقد يعين من شاء منهما، وكذلك لم يحد أول أمد الأجارة، والظاهر جواز النكاح بالإجارة، وبه قال الشافعي وأصحابه، وابن حبيب، وقال الزمخشري لهاتين: فيه دليل على أنه كانت له غيرهما. انتهى كما مر، ولا دليل في ذلك لأنهما كانتا هما اللتين رآهما تذودان، وجاءته إحداهما فأشار إليهما، والإشارة إليهما لا تدل على أن له غيرهما.

رُوي[1]: أنه لما أتم العقد قال شعيب لموسى: ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي، وكانت عنده عصيُّ الأنبياء، فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب، فمسَّها وكان مكفوفاً، فلم يرضها له خوفاً من أن لا يكون أهلاً لها، وقال: غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلِمَ أن لموسى شأناً، وحين خرج للرعي قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ عن يمينك، فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً - التنين بوزن السكيت: الحية العظيمة، كما في «القاموس» - أخشى منه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفها، ومشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم يُرَ مثله فنام، فإذا بالتنين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً.. سُرَّ، ولما رجع إلى شعيب أخبره بالشأن، ففرح شعيب، وعلم أن لموسى والعصا شأناً، وقال: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع، ودرعاء - أبلق وبلقاء - والدرع البياض في صدور الشاء ونحورها، فأوحى الله سبحانه إليه في المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذي هو في مستقى الأغنام، ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وامرأته، فوفى له بالشرط، وسلَّم إليه الأغنام، قال أبو الليث: مثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب، إلا أن الوعد من الأنبياء واجب، فوفاه بوعده. انتهى.

---

(١) روح البيان.

والفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فعقد شعيب العقدين، وباشر موسى ما التزمه، وأتم أبعد الأجلين، وهو عشر سنين، فلما قضى موسى وأتم الأجل المشروط بينهما، وفرغ منه استأذن موسى شعيباً في زيارة أهله في مصر، فبكى شعيب وقال: يا موسى كيف تفارقني وقد ضعفت وكبرت الآن، فقال له موسى: قد طالت غيبتي عن أمي وخالتي وهارون أخي وأختي في مملكة فرعون، فقام شعيب وبسط يديه، وقال: يا رب بحرمة إبراهيم الخليل وإسماعيل الصفي وإسحاق الذبيح ويعقوب الكظيم ويوسف الصديق رُدَّ عليَّ قوَّتي وبصري، فأمَّن موسى على دعائه، فردَّ الله عليه بصره وقوَّته، ثم أذن له في الذهاب، وأوصاه بابنته.

﴿وَسَارَ﴾ موسى وذهب بإذن شعيب نحو مصر، لصلة رحمه وزيارة أمه وأخيه وأخته، حالة كونه متلبساً ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: بزوجته صفورياء وولده منها ـ فإنها ولدت منه قبل السير ـ والخادم، وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، وكان في البرية والليلة مظلمة باردة، فضرب خيمته على الوادي، وأدخل أهله فيها، وأوى أغنامه حولهم، وقد كان ساقها معه، وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق فأراد أن يقدح، فلم يظهر له نار فاغتم لذلك، فحينئذٍ ﴿ءَانَسَ﴾ وأبصر ﴿مِن جَانِبِ﴾ جبل ﴿ٱلطُّورِ نَارًا﴾؛ أي: من الجهة التي تلي جبل الطور على يسار الطريق ناراً مضيئة، قال بعضهم: أبصر ناراً دالة على الأنوار، لأنه رأى النور على هيئة النار، لكون مطلبه النار، والإنسان يميل إلى الأشياء المعهودة المأنوسة، ولا تخلو النار من الاستئناس خاصة في الشتاء، وكان شتاء، تجلِّى الحق بالنور في لباس النار على حسب إرادة موسى، وهذه سنته تعالى، ألا ترى إلى جبريل أنه عَلِمَ أن النبي عليه السلام أحب دحية، فكان أكثر مجيئه إليه في صورة دحية.

فلما آنس ناراً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ هٰهنا، واثبتوا فيه، وانتظروني حتى أرجع إليكم فـ﴿إني أنست﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾ مضيئة من جانب الطور، فـ﴿لعلي آتيك منها﴾؛ أي: من عند النار ﴿بِخَبَرٍ﴾ الطريق إلى مصر، وقد كان

ضل الطريق وتحيَّر ﴿أَوْ﴾ آتيكم بـ﴿جَذْوَةٍ﴾؛ أي: بعود غليظ متقد ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وتتسخنون بتلك النار؛ أي: لكي تتدفؤوا بها، والجذوة العود الغليظ، سواء كانت في رأسه نار أو لا، ولذلك وصفها بقوله من النار.

وقرأ حمزة[1]: ﴿لأهله امكثوا﴾ في الوصل بضم الهاء، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿إني﴾ بفتح الياء، وقرأ الجمهور[2]: ﴿جذوة﴾ بكسر الجيم، وقرأ حمزة ويحيى بن وثاب والأعمش وطلحة وأبو حيوة: بضمها، وقرأ عاصم والسلمي وذر بن حبيش: بفتحها.

ومعنى الآية[3]: أي فلما وفى موسى الأجل الذي اتفق عليه مع حميه تحمَّل بأهله، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، وسلك بهم الطريق في ليلة مطيرة وظلمة باردة، ونزل منزلاً، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فعجب لذلك، وبينا هو كذلك رأى ناراً تضيء عن بُعد، فقال لأهله: انتظروا قليلاً إني أبصرت ناراً، لعلي آتيكم منها بخبر الطريق، وكانوا قد ضلوا عنه، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار، لتستدفئوا بها من البرد، وكان الوقت شتاء، فترك موسى أهله في المنزل الذي أنزلهم فيه، وذهب إلى النار التي أبصرها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ أي: أتى النار التي أبصرها وجاءها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾؛ أي: من طرف الوادي وجانبه، وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفة للشاطىء، وهو إما من اليُمْن بمعنى البركة، لكونه مباركاً فيه على موسى، أو من اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى؛ أي: من الطرف الذي يلي يمينه دون يساره؛ أي: أتاه النداء من الطرف الأيمن من الوادي.

وقوله: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متعلق بنودي؛ أي: نودي موسى في البقعة المباركة على موسى، والبقعة قطعة من الأرض لا شجر فيها، كما سيأتي في مباحث اللغة، وُصفت بكونها مباركة، لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة، وتكليم الله

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

إياه، أو متعلق بمحذوف حال من الشاطىء.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ﴾ بضم الباء، وقرأ أبو سلمة والأشهب العقيلي ومسلمة: بفتحها، وهي لغة حكاها أبو زيد، قال: سمعت العرب تقول هذه بقعة طيِّبة بفتح الباء.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال من شاطىء الواد، لأنها كانت ثابتة على الشاطىء، وبقيت إلى عهد هذه الأمة، كما في «كشف الأسرار»، وكانت[2] عُنَّاباً أو سمرة أو سدرة أو زيتوناً أو عوسجاً، والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد، بالغين المعجمة. وفي الحديث: «إنها شجرة اليهود ولا تنطق» يعني إذا نزل عيسى وقتل اليهود فلا يختفي منهم أحد تحت شجرة إلا نطقت، وقالت: يا مسلم هذا يهودي فاقتله إلا الغرقد، فإنه من شجرهم فلا ينطق، كما في «التعريف والأعلام» للإمام السهيلي.

﴿أَن﴾ مفسرة بمعنى أي، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أنا الله الذي ناديتك ودعوتك باسمك، وأنا رب الخلائق أجمعين، وهذا أول كلامه لموسى، وهو وإن خالف لفظاً لما في طه والنمل لكنه موافق له في المعنى المقصود، ويجوز[3] أن تكون أن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، وجملة النداء مفسرة له. والأول أولى.

وقرأ الجمهور بكسرة همزة ﴿إني﴾ على إضمار القول، أو على تضمين النداء، معناه: وقُرىء بالفتح فهي معمولة لفعل مضمر، تقديره: أي يا موسى اعلم أني أنا الله رب العالمين.

ومعنى الآية: أي فلما جاء إلى النار التي أبصرها من جانب الطور ناداه ربه من جانب الوادي الأيمن؛ أي: عن يمين موسى في البقعة المباركة من ناحية

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

الشجرة: يا موسى إني أنا الله ربك ورب العالمين جميعاً، وقد خلق الله فيه علماً يقينياً بأن المتكلم هو الله تعالى، وأن ذلك الكلام كلامه، وقد جُعلت الشجرة مباركة، لأنه تعالى كلم موسى هناك، وبعثه نبياً، ثم أمره الله سبحانه أن يُلقي عصاه لديه آية على نبوته، فقال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، وكلاهما مفسِّر لـ﴿نُودِىَ﴾، أي: ونودي أن ألق واطرح من يدك عصاك، فألقاها فصارت حية فاهتزت.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾؛ أي: فلما رأى موسى عصاه حية ﴿تَهْتَزُّ﴾؛ أي: تتحرك تحركاً شديداً حالة كونها ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ أي: حية صغيرة في سرعة الحركة، مع عظم جسمها، أو في الهيئة والجثة، فإنها إنما كانت ثعباناً عند فرعون، والجان حية كحلاء العين لا تؤذي، كثيرة في الدور، ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عنها حالة كونه ﴿مُدْبِرًا﴾؛ أي: منهزماً وهارباً من الخوف.

﴿و﴾ حالة كونه ﴿لم يعقب﴾ ولم يرجع إليها، ولم يلتفت، فنودي ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ إليها وارجع ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ من شرها، فإني لا يخاف لدي المرسلون، فأخذها موسى فإذا هي عصا كما كانت.

فإن قلت(١): ما الفائدة في إلقائها؟

قلتُ: أن يألفها ولا يخافها عند فرعون إذا ناظره بقلب العصا وغيره من المعجزات، كما في «الأسئلة المقحمة»، وقيل: المعنى أقبل إليَّ يا موسى ولا تخف مما تهرب منه، فإنك آمن من أن ينالك سوء، إنما هي عصاك، أردنا أن نريك فيها آية كبرى، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر.

وفيه(٢): إشارة إلى إلقاء كل متوكأ، غير الله، فمن اتكأ على الله أمن، ومن اتكأ على غيره وقع في الخوف، ويقال: شتَّان ما بين نبينا محمد ﷺ وبين موسى عليه السلام، موسى رجع من سماع الخطاب، وأتى بثعبان سلَّطه على عدوه، ونبينا عليه السلام أُسري به إلى محل الدنو فأوحي إليه ما أوحي، ورجع وأتى

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

لأمته بالصلاة التي هي المناجاة، فقيل له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ثم أراه آية أخرى زيادة في طمأنينته، وأمره بقوله: ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ﴾؛ أي[1]: ادخل كفك اليمين ﴿فِى جَيْبِكَ﴾؛ أي: في طوق قميصك وأخرجها ﴿تَخْرُجْ﴾ تلك اليد إذا أخرجتها حالة كونها ﴿بَيْضَآءَ﴾ لها ضوء كضوء الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وعيب كالبرص، وقيل[2]: المعنى ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾؛ أي: أدخلها في مِدْرعتك، وهي ثوب من صوف يُلبس بدل القميص، ولا يكون له كم بل ينتهي كمه عند المرفقين، ثم أخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ أي: حال كونها مضيئة مشرقة لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وعيب منفِّر كالبرص ﴿وَاَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: وأدخل الكف اليمين التي حصل فيها البياض في جيبك. ﴿مِنَ اَلرَّهْبِ﴾ أي: لأجل إزالة الرهب والخوف والفزع الحاصل لك من بياضها فتعود إلى حالها، فيزول عنك الفزع الذي حصل لك منها، فعلى هذا المعنى فلا يكون تكراراً مع ما قبله، فالإدخال الأول لطلب بياضها، والثاني لإزالة بياضها.

وقيل: معنى ﴿وَاَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾؛ أي: اضمم يديك المبسوطتين، تتقي بها الحية، كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى، وبالعكس، أو بإدخالهما في الجيب، فيكون تكريراً لـ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ﴾ لغرض آخر، وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جرأة، ومبدأ لظهور معجزة، ويجوز أن يكون المراد بالضم التجلد، والثبات عند انقلاب العصا حية، استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، فعلى هذا يكون تتميماً لمعنى ﴿إِنَّكَ مِنَ اَلْأَمِنِينَ﴾، لا تكريراً لـ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ﴾، ﴿مِنَ اَلرَّهْبِ﴾؛ أي: من أجل الرهب؛ أي: إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً، أو ضبطاً لنفسك.

وعبارة المراغي هنا[3]: ولما اعترى موسى الخوف من العصا تارة، ومن

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الدهشة بشعاع يده مرة أخرى أمره ربه أن يضع يده على صدره، ليزول ما به من الخوف، فقال: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ أي: وضع يدك على صدرك يذهب ما بك من خوف، كما يشاهد من حال الطائر، إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، وكان موسى يرتعد خوفاً، إما من آل فرعون، وإما من الثعبان، قال ابن عباس: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه.

وعبارة أبي حيان: ومعنى قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء، وفي الثاني إخفاء الرهب.

فإن قلت: قد جعل الجناح ـ وهو اليد في أحد الموضعين ـ مضموماً، وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله هنا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وفي طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ فما التوفيق بينهما؟.

قلت: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى، وكل واحد من يمنى اليدين ويسراهما جناح.

وقرأ الحرميان نافع وابن كثير وأبو عمرو[1]: ﴿من الرَهَب﴾ بفتح الراء والهاء، وحفص: بفتح الراء وسكون الهاء، وباقي السبعة: بضم الراء وإسكان الهاء، وقرأ قتادة والحسن وعيسى والجحدري بضمهما، وقال بعض أهل المعاني: الرَّهْبُ الكُمُّ، بلغة حمير وبني حنيفة، قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لآخر: أعطني ما في رهبك، فسألته عن الرهب، فقال: الكم، فعلى هذا يكون معناه: أضمم إليك يدك، وأخرجها من الكم، ذكره الشوكاني.

والإشارة في قوله[2]: ﴿فَذَانِكَ﴾ إلى العصا واليد، وهما مؤنثان، ولكن ذكِّرا لتذكير الخبر، كما أنه قد يؤنث المذكر لتأنيث الخبر، كقراءة من قرأ ﴿ثم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾ بالياء في ﴿تكن﴾، ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾؛ أي: حجتان نيِّرتان، ومعجزتان باهرتان، ودليلان واضحان كائنان ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يا موسى واصلان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ ومنهيان إليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن فرعون وملئه ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن حدود الله وطاعته أبلغ خروج، فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين، والجملة تعليل لما قبلها.

ومعنى ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ...﴾ إلخ؛ أي: فما[1] تقدم من جعل العصا حية تسعى، وخروج اليد بيضاء من غير سوء، بعد وضع اليد في الجيب، دليلان واضحان على قدرة ربك، وصحة نبوة من جريا على يده، أرسلناهما إلى فرعون وملئه.

ثم أظهر العلة له في إظهار الآيات لهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله سبحانه، مخالفين لأمره منكرين لكل دين جاء به الرسل، فكانوا جديرين بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: ﴿فذانك﴾ بتشديد النون، وباقي السبعة: بتخفيفها، وقرأ ابن مسعود وعيسى وأبو نوفل وابن هرمز وشبل: ﴿فذانيك﴾ بياء بعد النون المكسورة، وهي لغة هذيل، وقيل: بل لغة تميم، ورواها شبل عن ابن كثير، وعنه أيضاً: ﴿فذانيك﴾ على لغة من فتح نون التثنية، نحو قوله:

عَلَىٰ أَحْوَذِيَّيْنَ ٱسْتَقَلَّتْ عَشِيَّةً ... فَمَا هِيَ إِلاَّ لَمْحَةٌ وَتَغِيْبُ

وقرأ ابن مسعود: بتشديد النون مكسورة بعدها ياء، قيل: وهي لغة هذيل، وقال المهدوي بل لغتهم تخفيفها.

ولما سمع موسى قول الله سبحانه ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه فـ﴿قال﴾؛ أي: موسى يا ﴿رَبِّ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

يا مربي ويا مالك أمري ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من القوم، وهم القبط ﴿نَفْسًا﴾ وهو فاتون خباز فرعون، الذي وكزه موسى فقضى عليه ﴿فَأَخَافُ﴾ منهم ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ي بمقابلتها، ﴿وَأَخِي هَارُونُ﴾ بن عمران ﴿هُوَ أَفْصَحُ﴾ وأبين ﴿مِنِّي لِسَانًا﴾؛ أي: كلاماً، وكان في لسان موسى عقدة من قبل الجمرة التي تناولها، وأدخلها فاه، تمنعه عن إعطاء البيان حقه، ولذلك قال فرعون ولا يكاد يبين ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾؛ أي: فأرسل أخي هارون إلى فرعون وقومه ﴿مَعِيَ﴾ حال كونه ﴿رِدْءًا﴾؛ أي: معيناً ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرفع إما صفة لـ﴿رِدْءًا﴾؛ أي[1]: معيناً مصدقاً لي بتلخيص الحق، وتقرير الحجة وتوضيحها وتزييف الشبهة وإبطالها، لا بأن يقول له: صدقت، أو للقوم: صدِّقوه، يؤيد ذلك المعنى قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لأن ذلك يقدر عليه الفصيح وغيره، كما في «فتح الرحمٰن»، أو حال من مفعول ﴿أرسله﴾، أو مستأنف، وبالجزم على جواب الأمر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رِدْءًا﴾ بالهمز، وأبو جعفر ونافع والمدنيَّان بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى الدال، والمشهور عن أبي جعفر بالنقل، ولا همز ولا تنوين، ووجهه: أنه أجرى الوصل مجرى الوقف، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿يصدقني﴾ بضم القال، فيحتمل الأوجه الثلاثة السابقة، وقرأ باقي السبعة: بالإسكان، وقرأ أُبيُّ وزيد بن علي: ﴿يصدقوني﴾ والضمير لفرعون وقومه، قال ابن خالويه: هذا شاهد لمن جزم، لأنه لو كان رفعاً لقال: يصدقونني. انتهى، والمعنى في يصدقوني: أرجو تصديقهم إياي.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ي إذا لم يكن معي هارون، لعدم انطلاق لساني بالمحاجة؛ أي: أخاف أن يردوا كلامي، ولا يقبلوا مني دعوتي، ولساني لا يطاوعني عند المحاجة.

ومعنى الآية: أي قال موسى: يا رب إني قتلت من قوم فرعون نفساً،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

فأخاف إن أتيتهم ولم أُبن عن نفسي بحجة أن يقتلوني، لأن ما في لساني من عقدة يحول بيني وبين ما أريد من الكلام، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، وأحسن بياناً، فأرسله معي عوناً، يُلخِّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين، وإني أخاف أن يكذبوني، ولساني لا يطاوعني حين المحاجة.

الإعراب

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فذهب القبطي الذي سمع ما قاله الإسرائيلي، وقد علم أن موسى هو قاتل القبطي الأول إلى فرعون، وأخبره بجلية الأمر، فغضب فرعون، فأمر بقتل موسى، وإلقاء القبض عليه، وجاء رجل إلى موسى بطريق أقرب من طريقهم. ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاء﴾، أو صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه، إن قلنا إن الجار والمجرور فيما قبله صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، لتخصصه بالصفة حينئذٍ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٌ﴾، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿جَآءَ﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿بِكَ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾؛ أي: يتشاورون فيك، من الائتمار بمعنى التشاور، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يقتلوك﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لقتلهم إياك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾. ﴿فَٱخْرُجْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلت لك، وأردت بيان ما

هو النصيحة لك فأقول لك: اخرج، ﴿اخرج﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ﴿مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَخَرَجَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فقبل موسى نصيحته فخرج، ﴿خرج﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿خرج﴾، ﴿خَآئِفًا﴾: حال من فاعل ﴿خرج﴾، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ومفعول يترقب محذوف؛ أي: الشر، أو لحوقهم به، وقيل: يترقب غوث الله، والأول أنسب بالسياق، وجملة ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿خرج﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثالثة من فاعل ﴿خرج﴾، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿نَجِّنِى﴾: فعل دعاء، ونون وقاية، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَبِّ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ متعلق بـ﴿نَجِّنِى﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَوَجَّهَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة فعل شرط للما، لا محل لها من الإعراب، ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾: ظرف مكان ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَوَجَّهَ﴾، و﴿مَدْيَنَ﴾: ممنوع الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لَمّا﴾، وجملة ﴿لَمّا﴾ مستأنفة، ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ماض جامد من أفعال الرجاء، ﴿رَبِّىٓ﴾: اسمها، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَهْدِيَنِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ونون وقاية، ومفعول به، ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: منصوب بنزع الخافض، أو مفعول ثان على

التوسع، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾، ولكنه على تأويل اسم الفاعل؛ أي: عسى ربي هادياً لي إلى سواء السبيل، وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿وَرَدَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، مجرور بالفتحة، لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والتأنيث المعنوي، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿وَجَدَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿وَجَدَ﴾، لأن وجد هنا بمعنى لقي، يتعدى لمفعول واحد، ﴿أُمَّةً﴾: مفعول به لـ﴿وَجَدَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: صفة لـ﴿أُمَّةً﴾، وجملة ﴿يَسْقُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿أُمَّةً﴾، وجملة ﴿وَجَدَ﴾ جواب ﴿لَمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿لَمّا﴾ الأولى. ﴿وَوَجَدَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على جملة ﴿وَجَدَ﴾ الأولى، ﴿مِن دُونِهِمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَجَدَ﴾؛ أي: في مكان أسفل منهم، ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ﴾ مفعول به، وجملة ﴿تَذُودَانِ﴾ صفة لـ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف بعاطف مقدر على ﴿وَجَدَ﴾ الثاني؛ أي: فقال لهما، ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستخباري، في محل الرفع مبتدأ، ﴿خَطْبُكُمَا﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿قَالَتَا﴾ ﴿قال﴾: فعل ماض، و﴿التاء﴾ علامة تأنيث الفاعل، وحركت بالفتح لمناسبة ألف التثنية، والألف فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نَسْقِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتَا﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُصْدِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾: فاعل مرفوع، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾

بمعنى إلى، والتقدير: إلى إصدار الرعاء عن الماء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَسۡقِي﴾، ﴿وَأَبُونَا﴾: مبتدأ، ﴿شَيۡخٌ﴾: خبر، ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة ﴿شَيۡخٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿نَسۡقِي﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾.

﴿فَسَقَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿سقى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَتَا﴾، ﴿لَهُمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سقىٰ﴾، ومفعول السقي محذوف؛ أي: فسقى غنمهما لأجلهما، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿سقى﴾، ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾: متعلق بـ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾. ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿قال﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، معطوف على ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿لِمَآ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: اسم موصول، أو موصوفة في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿فَقِيرٞ﴾، ﴿أَنزَلۡتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: لما أنزلته، ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلۡتَ﴾، ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾: حال من ﴿ما﴾، أو من العائد المحذوف، ﴿فَقِيرٞ﴾: خبر ﴿إن﴾، وعدي ﴿فَقِيرٞ﴾ باللام، لأنه ضمن معنى سائل، أو طالب، وإلا فهو يتعدى بإلى، و﴿أَنزَلۡتَ﴾ بمعنى المضارع، والتقدير: يا رب إني فقير؛ أي: سائل وطالب لما تنزله إلي، حال كونه من خير ورزق.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾.

﴿فَجَآءَتۡهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف يفهم من سياق الكلام، تقديره: فرجعتا إلى أبيهما، في زمن أقل مما يرجعان إليه في العادة، فسألهما عن سبب

ذلك، فأخبرتاه بقصة من سقى لهما، فقال لإحداهما: ادعيه لي، فجاءته، ﴿جاءته إحداهما﴾: فعل وفاعل، ومفعول به وتاء تأنيث، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿تَمْشِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب حال من ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾، ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: حال من فاعل ﴿تَمْشِى﴾؛ أي: حالة كونها مستحية خفرة، وقيل: واضعة كم درعها على وجهها حياء منه. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف بعاطف مقدر على ﴿جاءته﴾، ﴿إِنَّ أَبِى﴾: ناصب واسمه، ﴿يَدْعُوكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿يجزيك﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿أَجْرَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَدْعُوكَ﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿سَقَيْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿أَجْرَ﴾ إليه؛ أي: ليجزيك جزاء سقيك إيانا. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فأجابها، لا ليأخذ الأجر، ولكن لأجل التبرك بأبيهما، لما سمع منهما أنه شيخ كبير، ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَآءَهُۥ﴾: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿وَقَصَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿جاء﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على ﴿جَآءَهُۥ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَخَفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿نَجَوْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للنهي عن الخوف.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أبت﴾: منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، المعوضة عنها تاء التأنيث، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتۡ﴾، ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنَّ خَيۡرَ﴾: ناصب واسمه، ﴿خَيۡرَ﴾: مضاف، و﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، ﴿ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: استأجرته، ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، مسوقة لتعليل الأمر بالاستئجار.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على شعيب، والجملة مستأنفة، ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أُنكِحَكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول أول، ﴿إِحۡدَى﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: إني أريد إنكاحي إياك إحدى ابنتي، ﴿إِحۡدَى﴾ مضاف، ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء المدغمة في ياء المتكلم، لأنه من المثنى. ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ مضاف، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، ﴿هَٰتَيۡنِ﴾: صفة لـ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾، والإشارة لتمييزهما من بين بقية أخواتهما، فقد كان له ـ كما يروى ـ سبع بنات، ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَأۡجُرَنِي﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: نفسك، ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق

بـ﴿تَأْجُرَنِي﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بعلى، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال، إما من الفاعل في ﴿أُنكِحَكَ﴾، أو من المفعول؛ أي: مشروطاً عليَّ، أو عليك ذلك. ﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلت لك، وأردت بيان حقيقة الأمر فأقول لك إن أتممت، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أَتْمَمْتَ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿عَشْرًا﴾: مفعول به، ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، ﴿من عندك﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف، لكونه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فالإتمام كائن من عندك، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أَنْ أَشُقَّ﴾: ناصب وفعل منصوب، وفاعل مستتر، في تأويل مصدر على المفعولية، والتقدير: وما أريد إدخال المشقة عليك، ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشُقَّ﴾، ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال لتأكيد الاستقبال، ﴿تجدني﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به، معطوف على ما قبله، ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، والجواب محذوف، تقديره: إن شاء الله تجدني صالحاً، والجملة معترضة جيء بها للتبرك، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلق بـ﴿تجدني﴾، أو حال من الياء في ﴿تجدني﴾، أو مفعول ثان لوجد. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، خبر المبتدأ، تقديره:

ذلك المشروط قائم وثابت بيننا لا نحيد عنه، كلانا فيه سواء، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ ﴿أي﴾: اسم شرط جازم يجزم فعلين، منصوب على المفعولية، مقدماً على عامله وجوباً. ﴿ما﴾: زائدة لتأكيد الإبهام المستفاد من ﴿أي﴾، ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾: مضاف إليه، ﴿قَضَيْتُ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿أي﴾ على كون فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿عُدْوَٰنَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿عَلَيَّ﴾: خبرها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿أي﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿أي﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَكِيلٌ﴾، وجملة ﴿نَقُولُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: على ما نقوله، ﴿وَكِيلٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فتم العقد على النكاح والإجارة، ومارس موسى العمل المشروط عليه في الأجل المضروب، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿وَسَارَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قَضَىٰ﴾، ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سار﴾، أو حال من فاعل ﴿سار﴾؛ أي: متلبساً بأهله، ﴿ءَانَسَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ءَانَسَ﴾، أو حال من ﴿نَارًا﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف بعاطف مقدر على ﴿ءَانَسَ﴾، ﴿لِأَهْلِهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قال﴾،

﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للأمر بالمكث، ﴿لَّعَلِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَاتِيكُم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿مِّنۡهَا﴾: حال من ﴿خبر﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿بِخَبَرٍ﴾: متعلق ﴿ءَاتِيكُم﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَانَسۡتُ﴾، ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾: معطوف على ﴿خبر﴾، ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: صفة لـ﴿جَذۡوَةٖ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجلمة ﴿تَصۡطَلُونَ﴾ خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، على كونها معللة للإتيان.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه المقام، تقديره: فسار إليها، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَتَىٰهَا﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿نُودِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مِن شَٰطِيِٕ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نُودِيَ﴾، ﴿شَٰطِيِٕ﴾: مضاف، ﴿ٱلۡوَادِ﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، وحُذفت في الخط تبعاً للفظ في الرسم العثماني، ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: صفة لـ﴿شَٰطِيِٕ﴾، ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ﴾: حال من ﴿شَٰطِيِٕ﴾، ﴿ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡبُقۡعَةِ﴾، ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: بدل من قوله: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ﴾ بدل اشتمال، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء؛ أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة، ﴿أَن﴾: مفسرة بمعنى أي، لأن النداء قول، والتقدير: أي يا موسى، وأجاز أبو البقاء وغيره أن تكون مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف يفسره جملة النداء؛ أي: نودي بأنه؛ أي: الشأن، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى

مفرد العلم، وجملة النداء مفسرة لجملة ﴿نُودِيَ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنَا﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ، ﴿اللَّهُ﴾: خبر ﴿إن﴾، أو خبر ﴿أنا﴾، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة للجلالة، أو بدل منه، أو خبر ثان لـ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة مفسرة للنداء لا محل لها من الإعراب.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾.

﴿وَأَنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿أن﴾: مفسرة معطوفة على ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾، ﴿أَلْقِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿عَصَاكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ على كونها مفسرة للنداء. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فألقاها فصارت ثعباناً، فلما رآها تهتز إلخ، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿رَآهَا﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ ومفعول به، لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿تَهْتَزُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على العصا، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿رَآهَا﴾، ﴿كَأَنَّهَا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَانٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهْتَزُّ﴾، ﴿وَلَّىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿مُدْبِرًا﴾: حال من فاعل ﴿وَلَّىٰ﴾، وجملة ﴿وَلَّىٰ﴾: جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يُعَقِّبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَّىٰ﴾، ﴿يَا مُوسَىٰ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء معمول لمحذوف، تقديره: فنودي يا موسى، ﴿أَقْبِلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَخَفْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقْبِلْ﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنَ الْآمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾،

وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالإقبال، والنهي عن الخوف.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على قوله: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بعاطف مقدر، لأنه من جملة ما نودي به، ﴿فِي جَيْبِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اسْلُكْ﴾، ﴿تَخْرُجْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على اليد، مجزوم بالطلب السابق، ﴿بَيْضَاءَ﴾: حال من فاعل ﴿تَخْرُجْ﴾، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿بَيْضَاءَ﴾، أو صفة له. ﴿وَاضْمُمْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿اسْلُكْ﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿جَنَاحَكَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾: متعلق بـ﴿اضمم﴾ على سبيل التعليل له؛ أي: من أجل الرهب، وقيل: بـ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي: هرب من الفزع، وقيل: بـ﴿مُدْبِرًا﴾، وقيل: بمحذوف؛ أي: يسكن من الرهب. ﴿فَذَانِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا امتثلت ما أمرناك به، وأردت بيان حكمته فأقول لك ذانك إلخ. ﴿ذانك﴾: اسم إشارة، يشار به إلى المثنى المذكر القريب، في محل الرفع مبتدأ، مبني على الألف لكونه على صورة المثنى، أو مبني على الكسر، و﴿الكاف﴾: حرف دال على الخطاب، ﴿بُرْهَانَانِ﴾: خبر مرفوع بالألف، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بُرْهَانَانِ﴾؛ أي: مرسلان من ربك، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق بمرسلان، ﴿وَمَلَإِيهِ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿فَاسِقِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل إرسال البرهانين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة مستأنفة،

﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿قَتَلْتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من ﴿نَفْسًا﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿نَفْسًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن وجلمة إن في محل النصب مقول قال على كونها جواب النداء. ﴿فَأَخَافُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية لكون ما قبلها علة لما بعدها، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَقْتُلُونِ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، لأن أصله يقتلونني، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية، أو لرعاية الفاصلة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَقْتُلُونِ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أخاف﴾؛ أي: فأخاف قتلهم إياي، وجملة ﴿أخاف﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿قَتَلْتُ﴾.

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَأَخِي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أخي﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿هَـٰرُونُ﴾: بدل عنه، أو عطف بيان له، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿أَفْصَحُ﴾: خبر له، ﴿مِنِّي﴾: متعلق بـ﴿أَفْصَحُ﴾، ﴿لِسَانًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للمبتدأ الأول. وجملة الأول معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أرسله﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿مَعِيَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أرسله﴾، والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، ﴿رِدْءًا﴾: حال من مفعول ﴿أرسله﴾؛ أي: حالة كونه عوناً لي على تبليغ الرسالة، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم على قراءة الرفع، أو مجزوم بالطلب السابق على قراءة الجزم، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أخي﴾، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب

صفة لـ﴿رِدْءًا﴾، أو حال من مفعول ﴿أرسله﴾، أو مستأنفة على قراءة الرفع، ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿أَخَافُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل طلب الإرسال، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُكَذِّبُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، لأن أصله أن يكذبونني، حذفت النون الأولى للناصب، والثانية للوقاية، و﴿الواو﴾: فاعل، والياء المحذوفة للفاصلة مفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: إني أخاف تكذيبهم إياي في الرسالة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ اسمه حزقيل، وقيل: شمعون، وقيل: سمعان، وهو الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ...﴾ إلخ. ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: أبعدها مكاناً، يقال: قصوت عنه وأقصيت: أبعدت، والقصي البعيد، ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يسرع في مشيه.

﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ الملأ أشراف الدولة ووجوهها، ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾؛ أي: يتشاورون من الائتمار، وهو التشاور، يقال: الرجلان يتآمران ويأتمران بمعنى واحد، لأن كل واحد فيهما يأمر صاحبه بشيء، أو يشير عليه بأمر. وقيل: معناه يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، ولعل هذا أوضح. وقد أورد صاحب «التاج» المعنيين، قال: «ائتمروا وتآمروا: تشاوروا، وائتمروا بفلان هموا به، وأمر بعضهم بعضاً بقتله، وقال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً، كما قال: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾» وقال النمر بن تولب:

أَرَىٰ ٱلنَّاسَ قَدْ أَحْدَثُوا شِيْمَةً   وَفِيْ كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرْ

﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يلتفت يمنة ويسرة، ﴿تَوَجَّهَ﴾ إلى الشيء إذا صرف وجهه إليه، ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: جهتها، والتلقاء تفعال من لقيت، وهو مصدر اتسع فيه فاستُعمل ظرفاً، يقال: جلس تلقاءه؛ أي: حذاءه ومقابلته ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛

أي: مستقيمه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والسبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: وصل والورود إتيان الماء، وضده الصدور، وهو الرجوع عنه، وفي «المفردات»: الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره، ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: جماعة كثيرة منهم.

﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ والمراد بماء مدين البئر التي كانوا يستقون منها، ومدين بلدة على بحر القلزم، محاذية لتبوك، فيها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، ﴿تَذُودَانِۖ﴾؛ أي: تطردان أغنامهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ سَلَبَتْ عَصَاكَ بَنُوْ تَمِيْمٍ فَمَا تَدْرِيْ بِأَيِّ عَصَا تَذُوْدُ

﴿مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾؛ أي: ما شأنكما، ولم لا تردان مع هؤلاء، قال الزمخشري: وحقيقته ما مخطوبكما؛ أي: ما مطلوبكما من الذياد، فسُمِّي المخطوب خطباً، كما سُمِّي المشؤون شأناً في قولك: ما شأنك، يقال: شأنت شأنه؛ أي: قصدت قصده، وفي «القاموس»: وشرحه الخطب ـ مصدر ـ والشأن، يقال: ما خطبك؛ أي: ما شأنك، وما الذي حملك عليه، والخطب الأمر صغر أو عظم، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه، ولهذه المادة معان كثيرة يرجع إليها في المعاجم المطولة.

﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ الصدر عن الشيء الرجوع عنه، يقال في فعله: صدر من باب ضرب ونصر ودخل، والصدر بفتحتين اسم مصدر منه، ويتعدى بنفسه، فيقال صدره غيره؛ أي: رجَّعه وردَّه، ويُستعمل رباعياً، فيقال: أصدره غيره .اهـ. من «القاموس» و«المختار».

والرعاء جمع راع على غير قياس، لأن فاعلاً ـ الوصف المعتل اللام، كقاض ـ قياسه فُعَلَةٌ، كقضاة ورُماة، خلافاً للزمخشري في قوله: إنه جمع راع على فعال قياس، كصيام وقيام، قال ابن مالك:

فِيْ نَحْوِ رَامٍ ذُوْ اطِّرَادٍ فُعَلَهْ

أما جمع فعال فيطرد في ستة أنواع نوردها فيما يلي:

١ ـ اسم أو صفة ليست عينهما ياء، على وزن فعل أو فعلة، فالاسم ككعب وكعاب، وثوب وثياب، ونار ونيار، وقصعة وقصاع، وجنة وجنان، والصفة كصعب وصعبة وصعاب، وضخم وضخمة وضخام، وندر مجيئه من معتل العين كضيعة وضياع، وضيف وضياف.

٢ ـ اسم صحيح اللام غير مضاعف، على وزن فعل أو فعلة، كجمل وجمال، وجبل وجبال، ورقبة ورقاب، وثمرة وثمار.

٣ ـ اسم على وزن فعل كذئب وذئاب، وظل وظلال، وبئر وبئار.

٤ ـ اسم على وزن فعل ليست عينه واواً، ولا لامه ياءً، كرمح ورماح، ودهن ودهان، وأما الدِّهان في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فسيأتي أنه اسم مفرد، ومعناه الجلد الأحمر.

٥ ـ صفة صحيحة اللام على وزن فعل أو فعيلة، ككريم وكريمة وكرام، ومريض ومريضة ومراض، وطويل وطويلة وطوال.

٦ ـ صفة على وزن فعلان، أو فعل أو فعلانة أو فُعلانة، كعطشان وعطشى وعطاش، وريان وريا ورواء، وندمان وندمى وندام، وخمصان وخمصانة وخماص.

وما جُمع على فعال من غير ما ذكر فهو على غير القياس، وذلك كراع وراعية ورعاء، وقائم وقائمة وقيام، وصائم وصائمة وصيام، وأعجف وعجفاء وعجاف، وخير وخيار، وجيد وجياد، وجواد وجياد، وأبطح وبطاح، وقلوص وقلاص، وأنثى وإناث، ونطفة ونطاف، وفصيل وفصال، وسبع وسباع، وضبع وضباع، ونُفَسَا ونِفَاس، وعُشراء وعشار، هذا ولا ندري كيف ندَّ هذا عن الزمخشري، فقال في كشافه: وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام وقيام.

والرَّعْي ـ بالفتح ـ في الأصل: حفظ الحيوان؛ إما بغذائه الحافظ لحياته، أو بذبِّ العدو عنه، والرِعْيُ ـ بالكسر ـ: ما يرعاه، والمرعى: موضع الرعي،

ويُسمى كل سائس لنفسه أو لغيره راعياً، وفي الحديث: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته»، وقيل: الرعاء هم الذين يرعون المواشي، والرعاة هم الذين يرعون الناس، وهم الولاة.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ والخير يكون بمعنى الطعام، كما في الآية، وبمعنى المال، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وبمعنى القوة، كما في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، وبمعنى العبادة، كما في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: جعل ظهره يلي ما كان يليه وجهه.

﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الاستحياء والحياء: الحشمة، والانقباض، والانزواء، قال في «المصباح»: يقال: استحيت بياء واحدة وبياءين، ويتعدى بنفسه وبالحرف فيقال: استحييته واستحيت منه.

﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ القصص بفتحتين مصدر بمعنى المقصوص، وقد سُمِّي به فيما بعْدُ المقصوص، يقال: قصَّ عليه الخبر حدَّثه به، ومصدره قصص بفتحتين، أما القصص بكسر القاف فهو جمع قصة، ﴿حِجَجٍ﴾ جمع حجة بكسر الحاء، وهي السنة.

﴿أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾؛ أي: أن أُدخل عليك مشقة، واشتقاق المشقة من الشق، فإن ما يصعب عليك يشق اعتقادك في إطاقته، ويوزع رأيك في مزاولته.

﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾؛ أي: الأطول أو الأقرب، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ والطور اسم جبل مخصوص، والنار يقال: للَّهب الذي يبدو للحاسة، وللحرارة المجردة، ولنار جهنم، ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ المكث ثبات مع انتظار؛ أي: قفوا مكانكم واثبتوا فيه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ والجذوة عود غليظ، سواء كانت في رأسه نار أو لا، وفي «المفردات»: الجذوة التي يبقى من الحطب بعد الالتهاب.

﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ والشاطىء الجانب، وهو شفير الوادي، وكذلك الشط والسيف والساحل، كلها بمعنى واحد. والوادي في الأصل الموضع الذي

يسيل فيه الماء، ومنه سمي المفرج بين الجبلين وادياً.

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ والبقعة قطعة من الأرض لا شجر فيها، وُصفت بكونها مباركة، لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله إياه.

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ الجانُّ الحية الصغيرة التي توجد في كثير من الدور ولا تؤذي، ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ من سلك الشيء إذا أنفذه فيه، وفي «المصباح»: السلك بالفتح والسلوك كل منهما مصدر لسلك الشيء في الشيء، إذا أنفذه فيه، فإنه من بابي قعد ونصر .اهـ. ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ والجيب الفتحة في القميص ونحوه من حيث يخرج الرأس.

﴿جَنَاحَكَ﴾ جناح الإنسان عضده، ويقال: اليد كلها جناح، ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ الرهب مخافة مع تحزن واضطراب؛ أي: من أجل الرهب، ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ تثنية برهان، والبرهان فعلان، من قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان، أو من قولهم: بره الرجل إذا ابيض، ويقال: برهاء وبرهة للمرأة البيضاء، ونظيره تسمية الحجة سلطاناً من السليط، وهو الزيت لإنارتها، وقيل: هو فعلال، لقولهم: برهن.

وقال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ سُمِّيت الحجة برهاناً؟

قلت: لبياضها وإنارتها، من قولهم للمرأة البيضاء: برهرهة، بتكرير العين واللام معاً، وهذا تعليل لطيف لا يُحسِّن استنباطه غير هذا الإمام، ومعنى ذلك أن النون في البرهان زائدة، يقولون: أَبْرَهَ الرجل إذا جاء بالبرهان، وفي معاجم اللغة: وأبره أتى بالبرهان، أو بالعجائب، وغلب الناس، وهذا هو قول الزمخشري، والمحققين، وزعم صاحب «القاموس» في أحد قوليه أن النون أصلية، قال: وبرهن عليه أقام البرهان، والبرهان بالضم الحجة فتدبر.

﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ من الفصاحة، والفصاحة لغة الخلوص، يقال: فصح اللبن، وأفصح، فهو فصيح؛ أي: خلص من الرغوة، ومنه فصح الرجل جادت لغته، وأفصح تكلم بالعربية، وقيل: الفصيح الذي ينطق، والأعجم الذي

لا ينطق، وأما في اصطلاح أهل البيان: فالفصاحة خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد.

﴿رِدْءًا﴾ والردء المعين من أردأته على عدوه إذا أعنته، يقال: فلان ردء فلان إذا كان ينصره ويشد ظهره، ومنه قول الشاعر:

ألم تر أن أصرم كان ردئي وخير الناس في قل ومال

وفي «الفتوحات»: والردء العون، وهو فعل بمعنى مفعول، كالدفء بمعنى المدفوء به، وردأته على عدوه أعنته عليه، وردأت الحائط دعمته بخشبة لئلا يسقط. وقال النحاس: يقال: ردأته وأردأته.

فائدة: قال بعضهم في قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين، الذي يقدر صاحبه على أن يُخبر عن الحق وأسراره بعبارة لا تكون ثقيلة في موازين العلم، وهذا حال نبينا ﷺ حيث قال: «أنا أفصح العرب، وبُعثت بجوامع الكلم» اهـ «الروح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن واللام في قوله إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك مطابقة لمقتضى الحال.

ومنها: إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: السبيل الوسط.

ومنها: تنكير أمة في قوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ للدلالة على الكثرة.

ومنها: كثرة الإيجاز في هذه الآيات، أعني قوله: ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ

يَسۡقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فقد حذف المفعول به في أربعة أماكن، أحدها مفعول ﴿يَسۡقُونَ﴾؛ أي: مواشيهم، والثاني مفعول ﴿تَذُودَانِۖ﴾؛ أي: مواشيهما، والثالث ﴿لَا نَسۡقِي﴾؛ أي: مواشينا، والرابع ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾؛ أي: مواشيهما، وعلة الحذف أن الغرض هو أن يُعلم أنه كان من الناس سقي، ومن البنتين ذود، وأنهما قالتا: لا نسقي؛ أي: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى سقي، فأما كون المسقي غنماً أو إبلاً أو غير ذلك، فذلك أمر خارج عن نطاق الغرض.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ فقد أرادتا أن تقولا له: إننا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ طاعن في السن، فقد أضعفه الكبر وأعياه، فلا مندوحة لنا عن ترك السقيا، وإرجائها إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء، وبذلك طابق جوابهما سؤاله، لأنه سألهما عن علة الذود، فقالتا ما قالتاه.

ومنها: الاستعطاف والترحم في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ وفيه أيضاً التعبير بالماضي عن المضارع في قوله: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ﴾؛ أي: إلى ما تنزله إلي.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ فقد أشار بلمح خاطف يشبه لمح الطرف، وبلغة هي لغة النظر إلى وصف جمالها الرائع الفتان باستحياء، لأن الخفر من صفات الحسان، ولأن التهادي في المشي من أبرز سماتهن.

قال الأعشى:

كَـأَنَّ مِـشْـيَـتَـهَـا مِـنْ بَـيْـتِ جَـارَتِـهَـا ... مَـرُّ ٱلـسَّـحَـابَـةِ لاَ رَيْـثٌ وَلاَ عَـجَـلُ

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾.

ومنها: الإتيان بالكلام الجامع المانع الحكيم في قوله: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان في القائم بأمرك والمتعهد لشؤونك، وهما الكفاية والأمانة فقد فرغ بالك، وتم أمرك، وسهل

مرادك، ولأنه ذهب مذهب المثل المضروب ليذهب في مر العصور، وقادمات الدهور، وفيه التعميم الذي هو أجمل وأليق في مدح النساء للرجال من المدح الخاص، وأبقى للتحشم والتصوُّن، وخصوصاً بعد أن فهمت غرض أبيها، وهو تزويجها منه.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.

ومنها: الطباق بين ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ و﴿يُكَذِّبُونِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ كنى عن اليد بالجناح، لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ
ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا
سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ
إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ
بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ
بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ
﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟
سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ
أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ
بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما قال لموسى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ علم[1] أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه، وحينئذٍ طلب منه أن يؤتيه ما يقوي به قلبه، ويزيل خوفه من فرعون، لأنه إنما خرج من ديار مصر فراراً منه، وهرباً من سطوته، فيُرسل معه أخاه هارون وزيراً.. فأجابه إلى ما طلب، وأرسله هو وهارون إلى فرعون وملئه، ومعهما المعجزات الباهرة، والأدلة الساطعة فلما عاينوا ذلك، وأيقنوا صدقه لجؤوا إلى العناد والمكابرة، فقالوا: ما هذا إلا سحر مفتعل، وما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، فقال لهم موسى: ربي أعلم بالمهتدي منا ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ويجعل النصر والتأييد للصالحين من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه[2] لما رغب موسى فرعون وقومه في التوحيد، والنظر في الكون تارة، ورهَّبهم من عذاب الله، وشديد نكاله تارة أخرى.. أجابه فرعون بتلك المقالة التي تدل على الجهل المطبق، ونقصان العقل، وأنه بلغ غاية لا حد لها في الإنكار، وأنه لا مطمع في إيمانه لعتوه وطغيانه، واستكباره في الأرض، حتى قال ما قال. ومن ثم كانت عاقبته في الدنيا الهلاك بالغرق هو وجنوده، واللعن من الله والناس، وفي الآخرة الطرد من رحمة الله، ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة وجعلها نوراً للناس يهتدون بها، وتكون لهم تذكرة من عقاب الله وشديد عذابه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن فيما سلف أنه أرسل موسى، بعد أن أهلك القرون الأولى، ودرست الشرائع، واحتيج إلى نبي يُرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم.. أردف ذلك ببيان الحاجة

---

(١) المراغي.   (٢) المراغي.

إلى إرسال رسوله محمد ﷺ، لمثل تلك الدواعي التي دعت إلى إرسال موسى عليه السلام لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولأن رحمته اقتضت أن لا يعذب أحداً إلا إذا أرسل رسولاً، ويتضمن ذلك كون القرآن وحياً من عند الله سبحانه، لأن ما فُصل فيه من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها، وقد انتفى كلاهما، فتبين أنه بوحي من علام الغيوب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعاً لمعذرتهم، حتى لا يقولوا حين نزول بأسنا بهم: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبعه.. أردفه ببيان أنه حين مجيء الرسول، وإنزال القرآن عليه جحدوا به، وكذبوا رسالته، ولم يعتدوا بكتابه، وطلبوا مجيء معجزات كمعجزات موسى، من مجيء التوراة جملة، وقلب العصا، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء، وقد كفر المعاندون من قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات، وقالوا: ما هي إلا سحر مفترى، وما هي إلا أساطير الأولين، وإن موسى ومحمد ساحران، تعاونا على الخداع والتضليل، وإنا لكافرون بكل منهما.

ثم أمر رسوله أن يقول لهم: إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيهما، موصل إلى الحق، هاد إلى سبيل الرشد فافعلوا، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون للهوى، سالكون سبيل الضلال، ولا أضل ممن يسلك هذه السبيل، ثم ذكر أنه ما أنزل الكتاب منجماً على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة وذكرى لهم، بين آن وآخر، لعلهم يرتدعون عن غيِّهم، ويثوبون إلى رشدهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما أثبت أن القرآن وحي من عند الله، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه، وموافقته لمافي كتبهم من وصف، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في عشرة أنفار أنا أحدهم. وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب، منهم رفاعة - يعني أباه - إلى النبي ﷺ فآمنوا، فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، وأخرج عن قتادة قال: كنا نتحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على الحق حتى بعث الله سبحانه محمداً ﷺ فآمنوا، منهم عثمان، وعبد الله بن سلام.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ...﴾ الآية، قال[2] سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ، فلما قدموا عليه قرأ عليهم ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون، وأسلموا.

وأخرج[3] الطبراني في «الأوسط» بسند فيه من لا يُعرف عن ابن عباس: أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ﷺ، فشهدوا معه أحداً، فكانت فيهم جراحات، ولم يقتل منهم أحد، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة، قالوا: يا رسول الله إنا أهل ميسرة، فأذن لنا نجيء بأموالنا، نواسي بها المسلمين، فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات. فلما نزلت قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فخرج مؤمنوا أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ فقالوا: لنا أجران،

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول في سورة الحديد.

ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ الآية. فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب.

التفسير وأوجه القراءة

فأجاب الله سبحانه موسى إلى ما طلب من إرسال هارون معه، حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾؛ أي: سنقوي ظهرك ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون، ونعينك به على أمرك، فشد العضد كناية عن التقوية، والعضد[١] ما بين المرفق والكتف، وهي قوام اليد، وبشدتها تشتد؛ أي: سنقويك به، لأن الإنسان يقوى بأخيه، كقوة اليد بعضدها، وكان هارون يومئذٍ بمصر، ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي الشر: فت الله في عضدك.

وقرأ الجمهور ﴿عَضُدَكَ﴾ بفتح العين وضم الضاد، وقرأ زيد[٢] بن علي والحسن: ﴿عُضُدك﴾ بضمتين، وعن الحسن: بضم العين وإسكان الضاد، وعن بعضهم: بفتح العين وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: بفتحهما، ويقال: فيه عضد بفتح العين وسكون الضاد، ولا أعلم أحداً قرأ به.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجة وبرهاناً، أو تسلطاً على فرعون وقومه، وغلبة عليهم؛ أي[٣]: نجعل لكما غلبة بالحجة في الحال، وغلبة في المملكة في ثاني الحال، ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾؛ أي: فلا يصل فرعون وقومه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ بالقتل والأذى، ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بسبب آياتنا التي تظهر على أيدكما، فالآية التي هي قلب العصا حية، تمنع من وصول ضرر فرعون وقومه إلى موسى وهارون عليهما السلام، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، وإن أراد إرسالها إليهم أهلكتهم.. زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما بسوء، فصارت مانعة من وصولهم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

إليهما بالقتل وغيره. وقوله: ﴿بآياتنا﴾ إما متعلق بـ﴿لا يصلون﴾.

والمعنى عليه: أي سنقويك ونعينك بأخيك، ونجعل لكما تسلطاً عظيماً، وغلبة على عدوكما، فلا يصلون إليكما بوسيلة من وسائل الغلب، بسبب كون آياتنا معكما، وهي العصا واليد، أو بـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ من قوله ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أي أنتما ومن تبعكما الغالبون لفرعون وقومه، بسبب آياتنا وحججنا وسلطاننا الذي نجعله لكما، وفي هذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به، لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم في سبيل الله سبحانه.

وقال أبو السعود: في سورة طه جمعهما في صيغة أمر الحاضر، مع أن هارون لم يكن حاضراً مجلس المناجاة، بل كان في ذلك الوقت بمصر للتغليب، فغلَّب الحاضر على غيره، وتقدم هناك أن الله في ذلك الوقت أرسل جبريل بالرسالة لهارون، وهو بمصر .اهـ.

وقال أبو حيان[1]: قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ﴾، أو بـ﴿يصلون﴾، أو بـ﴿الغالبون﴾، وإن كان موصولاً، على مذهب من يجوز عنده أن يتقدم الظرف والجار والمجرور على صلة أل، لأنهم يتوسعون فيهما أو بفعل محذوف؛ أي: اذهبا بآياتنا كما عُلِّق في تسع آيات بـ﴿اذهب﴾، أو تمتنعان منهم بآياتنا، وهذه أعاريب منقولة انتهى.

وقال الأخفش وابن جرير: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا.

ثم أبان ما صدر من فرعون عقب مجيء موسى إليه فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾؛ أي: فلما جاء فرعون وقومه ﴿مُّوسَىٰ﴾ عليه السلام حال كونه متلبساً ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ ومعجزاتنا، حالة كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على صحة رسالته منه تعالى، والمراد[2] بالآيات المعجزات حاضرة كانت كالعصا واليد، أو

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

مترقبة كغيرها من الآيات التسع، فإن زمان المجيء وقت ممتد يسع الجميع، فلهذا جمع الآيات مع أن الظاهرة منها ثنتان فقط، العصا واليد، وقيل: جمعها لأن العصا في نفسها آيات عديدة، باعتبار أحوالها.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال فرعون وقومه: ﴿مَا هَٰذَا﴾؛ أي: ما هذا الذي جئت به يا موسى ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾؛ أي: سحر مختلق مكذوب، اختلقته من قبل نفسك، لم يُفعل قبل هذا مثله، وذلك لأن النفس خُلقت من أسفل عالم الملكوت متنكسة، والقلب خلق من وسط عالم الملكوت، متوجهاً إلى الله سبحانه، فما كذب الفؤاد ما رأى، وما صدقت النفس ما رأت، فيرى القلب إذا كان سليماً من الأمراض والعلل الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنفس ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه». وكان ﷺ مقصوده في ذلك سلامة القلب من الأمراض والعلل، وهلاك النفس، وقمع هواها، وكسر سلطانها، كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ السحر الذي جئت به، أو بهذا الذي جئت به من دعوى النبوة والرسالة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: واقعاً في أيامهم وكائناً، أو المعنى: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه من التوحيد، والذي تدَّعيه من الرسالة عن الله تعالى واقعاً ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا، فإنهم سمعوا ذلك على أيام يوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، قرىء بالواو وبدونها، على كونها واقعة في جواب سؤال مقدر ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يريد نفسه، فيعلم أني محق، وأنتم مبطلون، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده، قبل أن يوضح لهم الحجة. والله أعلم.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: عاقبة دار الدنيا، وهي الجنة، لأنها خلقت ممراً إلى الآخرة ومزرعة لها، والمقصود منها بالذات هو الثواب، وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيآتهم، فالعاقبة المطلقة الأصلية للدنيا هي

العاقبة المحمودة دون المذمومة، ولا اعتداد بعاقبة السوء، ويكون العقاب إنما قصد بالتبعية.

﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يظفر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإهلاكها في الكفر والتكذيب؛ أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجون من محذور، ومن المحذور العذاب الدنيوي، ففيه إشارة إلى نجاة المؤمن وهلاك الكافر، وإلى أن الواجب على كل نفس السعي في نجاتها، ولو هلك غيرها لا يضرها.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بالواو، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن: ﴿قال موسى﴾ بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ومناسبة[1] قراءة الجمهور: أنه لما جاءهم بالبينات قالوا: كيت وكيت، وقال موسى: كيت وكيت، فيتميز الناظر فصل ما بين القولين، وفساد أحدهما، إذ قد تقابلا، فيعلم يقيناً أن قول موسى هو الحق والهدى، ومناسبة قراءة ابن كثير[2]: أنه إذا كانت الجملة الثانية كالمتصلة بالأولى، لكونها جواباً لسؤال اقتضته الأولى، تنزل الأولى منزلة السؤال، فتفصل الثانية عنها، كما يفصل الجواب عن السؤال .اهـ. «زاده»، كأنه قيل هنا: ماذا قال موسى في جوابهم: فقال: قال موسى ربي أعلم.. إلخ.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف والمفضل[3]: ﴿ومن يكون له عاقبة الدار﴾ بالتحتية، على أن اسم يكون عاقبة الدار، والتذكير لوقوع الفصل، ولأنه تأنيث مجازي. وقرأ الباقون: ﴿تكون﴾ بالفوقية، وهي أوضح من القراءة الأولى.

وعبارة النسفي هنا: أي ربي أعلم منكم بحال من أَهّله الله سبحانه للفلاح الأعظم، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى، ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أَهَّلَهُ لذلك، لأنه غني حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زادة.
(٣) زاد المسير.

ينبىء الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون. انتهت.

وفي هذا الأسلوب من أدب الخطاب في الحجاج والمناظرة ما لا يخفى[1]، فهو لم يؤكد أن خصمه في ضلال، كما لم ينسبه إلى نفسه بل ردده بينهما، وهو يعلم أنه لأيهما، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبي ﷺ للمشركين بقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الكاذب، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: إنه لا ينجح الكافرون، ولا يدركون طلبتهم، وفي هذا إيماء إلى أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة، بل يحصلون على ضد ذلك، ولله در القائل من بحر الطويل:

فَلَيْتَكَ تَحْلُوْ وَٱلْحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَٱلْأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ ٱلَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱلْعَالَمِيْنَ خَرَابُ

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ الآية. قاله[2] هنا بزيادة الباء في قوله: ﴿بِمَن جَآءَ﴾ وفي قوله في آخر السورة: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بدون زيادة الباء، تقوية للعامل هنا بحسب الظاهر، لضعفه عن العمل، لكونه اسم تفضيل، وحذفه هناك اكتفاء بدلالة الأول عليه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ بعدما جمع السحرة وتصدى للمعارضة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ والأشراف؛ أي: يا أيها القوم ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم﴾ في أي زمن ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾؛ أي: إلهاً غيري، كما يدَّعي موسى، والأمر محتمل أن يكون، وسأحقق ذلك لكم، وهذا الكلام ظاهره الإنصاف، ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك في شأن الإله، وتسليمهم إياه اعتماداً على ما رأوا من عظيم نصفته في القول؛ أي: ليس لكم إله غيري في الأرض.

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان قالهما فرعون، قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ كان بينهما أربعون سنة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى».

وخلاصة مقاله[1]: لا علم لي برب غيري فتعبدوه، وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به، من أن لكم وله رباً غيري، ومعبوداً سواي، ونحو الآية قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ وقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قال الرازي: ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السمٰوات والأرض، والبحار والجبال، وخالق الناس، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذي عقل، بل مراده بذلك وجوب عبادته فهو ينفي وجود الإله، ويقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا مليكهم، وينقادوا لأمره .اهـ بتصرف.

ثم خاطب وزيره هامان، آمراً له على سبيل التهكم أمام موسى، ليشكك قومه في صدق مقالته، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ وهو التراب والماء المختلط؛ أي: أوقد النار على الطين بعد اتخاذه لبناً، حتى يصير آجراً، ولم يقل فرعون: اطبخ لي الآجر، لأنه أول من عمل الآجر، ولذلك أمره باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة.

﴿فَاجْعَل لِّي﴾ من ذلك الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجراً ﴿صَرْحًا﴾؛ أي: قصراً عالياً مشرفاً كالمنارة ﴿لَّعَلِّي﴾ أصعد إليه و﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأنظر إليه واقفاً عليه؛ أي: فاصنع لي آجراً، واجعل لي منه قصراً شامخاً، وبناء عالياً، أصعد وأرتقي إلى إله موسى، الذي يعبده في السماء، ويدّعي أنه يؤيده وينصره، وهو الذي أرسله إلينا. وبمعنى الآية قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي

---

(١) المراغي.

﴿صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾.

وإنما[١] حذف هنا ﴿أَتَىٰهُمْ كِبْرٌ وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ وذكره في غافر، لأن ما هنا تقدَّمه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ من غير ذكر أرض، ولا غيرها، فناسبه الحذف، وما هناك تقدمه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ فناسبه مقابلته بالسماء في قوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

ثم زاد قومه شكاً في صدقه بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ أي: أظن موسى ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادعائه أن له إلهاً غيري، وأنه رسوله. قاله تلبيساً وتمويهاً على قومه، لا تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وإني لأظنه كاذباً فيما يدعي من أن له معبوداً في السماء، ينصره ويؤيده، وأنه هو الذي أرسله.

قال في «الأسئلة المقحمة»: ولا يُظن بأن فرعون كان شاكاً في عدم استحقاقه لدعوى الإلهية في نفسه، إذ كان يعلم حال نفسه من كونها أهل الحاجات ومحل الآفات، ولكن كان معانداً في دعواه، مجاحداً من غير اعتقاد له في نفسه بالإلهية.

وإنما قال هنا[٢]: ﴿لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وقال في غافر: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ موافقة للفاصلة هنا، وعلى الأصل بلا معارض ثَمَّ.

واعلم[٣]: أن فرعون أوهم قومه أن إله موسى يمكن الوصول إليه والقدرة عليه، وهو عالم متيقن أن ذلك لا يمكن له، وقومه لغباوتهم وجهلهم، وإفراط عمايتهم يمكن ذلك عندهم، ونفس إقليم مصر يقضي لأهله تصديقهم بالمستحيلات، وتأثرهم بالموهمات والخيالات، ولا يُشك أنه كان من قوم فرعون من يعتقد أنه مبطل في دعواه، ولكن يوافقه مخافة سطوه، واعتدائه، كما

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) البحر المحيط.

رأيناه يعرض لكثير من العقلاء، إذا حدَّث رئيس بحضرته بحديث مستحيل يوافقه على ذلك الحديث.

ولا يدل الأمر ببناء الصرح على أنه بني، وقد اختُلف في ذلك، فقيل: بناه، وذُكر من وصفه بما الله أعلم به، وقيل: لم يبن. قال أهل السير: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال والفعلة، حتى اجتمع عنده خمسون ألف بنَّاء، سوى الأتباع والأجراء، وطبخ الآجر والجص، ونجر الخشب وضرب المسامير، وأمر بالبناء، فبنوه ورفعوه وشيدوه، حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، واشتد ذلك على موسى وهارون، لأن بني إسرائيل كانوا معذبين في بنائه، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه، وأمر بنشَّابة فرمى بها نحو السماء فرُدَّت إليه، وهي ملطخة دماً، فقال قد قتلت إله موسى، وكان فرعون يقصده راكباً على البراذين، فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحيه، فقطعه ثلاث قطع، فوقعت قطعة منه على عسكره، فقتلت منهم ألف ألف رجل، ووقعت قطعة منه في البحر، وقطعة في المغرب، فلم يبق أحد عمل فيه شيئاً إلا هلك إلا من آمن بموسى.

قال أبو الليث: كان بلاط القصر خبث القوارير، وكان الرجل لا يستطيع القيام عليه من طوله، مخافة أن ينسفه الريح، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع.

كلمة غريبة: وكتب بهلول على حائط من حيطان قصر عظيم بناه الخليفة هارون الرشيد: يا هارون رفعت الطين ووضعت الدين، رفعت الجص ووضعت النص، إن كان من مالك فقد أسرفت، إن الله لا يحب المسرفين، وإن كان من مال غيرك فقد ظلمت، إن الله لا يحب الظالمين.

ثم ذكر سبحانه ما هو السبب في العناد والجحود، فقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ﴾؛ أي: فرعون ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾؛ أي: جموعه القبط؛ أي: تعظموا عن الإيمان، ولم ينقادوا للحق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر وما يليها، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: حالة كونهم متلبسين بغير الحق؛ أي: بالباطل والكفر، أو استكبروا بغير

استحقاق للتكبر، فالاستكبار[1] بالحق لله سبحانه وتعالى، وهو المتكبر على الحقيقة؛ أي: المستحق للكبرياء، كما حكى النبي ﷺ عن ربه «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»، وكل مستكبر سواه تعالى فاستكباره بغير الحق، والاستكبار التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان، لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾؛ أي: وظن فرعون وجنوده ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: لا يردون بالبعث للجزاء.

وقرأ حمزة والكسائي ونافع وعلي وخلف ويعقوب[2]: ﴿لا يرجعون﴾ مبنياً للفاعل، والجمهور: مبنياً للمفعول، والمعنى؛ أي: ورأى هو وجنوده كل من سواهم في أرض مصر حقيراً، عتواً منهم على ربهم، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبعثون، ولا يُثابون، ولا يعاقبون. ومن ثم ركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وأنه مجازيهم على خبيث أعمالهم وسيىء أقوالهم.

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة، فقال: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾؛ أي: أخذنا فرعون وجموعه عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات.

ونظيره[3]: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ أي: فجمعنا فرعون وجنوده من القبط، ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾؛ أي: فطرحناهم، وألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: في بحر القلزم، وقيل: هو بحر سمي إسافاً من وراء مصر، حكاه ابن عساكر؛ أي: عاقبناهم بالإغراق فيه، وفيه تعظيم شأن الآخذ، وتحقير شأن المأخوذين، حيث إنهم مع كثرتهم، كحصيات تؤخذ بالكف، وتُطرح في البحر.

---

(١) النسفي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البيضاوي.

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد بعين قلبك ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: كيف كان آخر أمر المشركين، حتى صاروا إلى الهلاك، وبيِّنه لقومك، ليعتبروا به، فإنك منصور عليهم.

وفي هذا[1]: ما لا يخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه، وشديد احتقاره لفرعون وقومه، واستقلاله لهم، وإن كانوا عدداً كثيراً وجمّاً غفيراً، فما مثلهم إلا مثل حصيات صغار قذفها الرامي من يده في البحر.

ثم أمر رسوله ﷺ وقومه بالنظر والاعتبار، والتأمل في العواقب، ليعلموا أن هذه سنة الله في كل مكذب برسله، حيث قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: فانظر أيها المعتبر بالآيات كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، وكفروا بربهم، وردوا على رسوله نصيحته، ألم نهلكهم، ونورث ديارهم وأموالهم أولياءنا، ونخوِّلهم ما كان لهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، بعد أن كانوا مستضعفين، تُقتَّل أبناؤهم، وتُستحيا نساؤهم، وإنا بك وبمن آمن بك فاعلون، فمخوِّلوك وإياهم ديار من كذبك وردَّ عليك ما أتيتهم به من الحق وأموالهم، بعد أن تستأصلوهم قتلاً بالسيف، سنة الله سبحانه في الذين خلوا من قبله.

ثم ذكر ما يوجب سوء عاقبتهم وعذابهم في النار، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾؛ أي: صيَّرنا فرعون وقومه في عهدهم ﴿أَئِمَّةً﴾؛ أي[2]: رؤساء، وقرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير أيمة بإبدال الهمزة الثانية ياء، ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: إلى ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي؛ أي: جعلناهم قدوة يقتدي بهم أهل الضلال والفساد، فيكون عليهم وزرهم، ووزر من تبعهم، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادي فيه يدعون أتباعهم إلى النار، لأنهم اقتدوا بهم، وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدي بهم أهل العتو والكفر بالله تعالى، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام، التي تلقي بفاعلها في النار، وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله ورسوله، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزائين، جزاء الضلال، وجزاء الإضلال، وقد جاء في الحديث: «من سن سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ثم ذكر أنه لا نصير لهم، ولا شفيع في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه؛ أي: ويوم القيامة لا يجدون نصيراً، يدفع عنهم عذاب الله سبحانه إذا حاق بهم، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون، فكان لهم مطمع في النصرة يومئذٍ بحسب ما يعرفون.

ثم ذكر ما هو كالفذلكة لما تقدم، وبيَّن سوء حالهم في الدارين فقال: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ﴾؛ أي: ألحقناهم ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ وألزمناهم ﴿لَعْنَةً﴾؛ أي: طرداً وإبعاداً من الرحمة، أو لعناً من اللاعنين، لا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خلفاً عن سلف، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم، والأول أولى، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ أي: من المطرودين المبعدين. وقيل: من المهلكين الممقوتين، وقال ابن عباس[2]: من المشوَّهين بسواد الوجوه، وزرقة العيون.

و﴿يَوْمَ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على أن اللام معرفة لا موصولة، يقال: قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً؛ أي: أبعد من كل خير، فهو مقبوح، كما في «القاموس» وغيره. وعليه بنى الراغب، حيث قال في «المفردات»: ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ أي: من الموسومين بحالة منكرة، كسواد الوجوه وزرقة العين، وسحبهم بالأغلال

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

والسلاسل وغيرها. انتهى باختصار، قال في «الوسيط»: فيكون بمعنى المُقَبَّحِين. انتهى.

والمعنى[1]: أي وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزياً وغضباً منا عليهم، ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والبوار، وسوء الأحدوثة، ونحن متبعوهم لعنة أخرى يوم القيامة، فمخزوهم الخزي الدائم، ومهينوهم الهوان اللازم، الذي لا فكاك عنه.

ودلت الآية[2] على أن الاستكبار من قبائحهم المؤدية إلى هذه القباحة والطرد، قال عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه سبحانه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار» وصف الحق سبحانه نفسه بالرداء والإزار، دون القميص والسراويل، لكونهما غير مخيطين، فبَعُدا عن التركيب الذي هو من أوصاف الجسمانيات.

واعلم: أن الكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق، ولذا عظَّم الله أمره، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل، ولذلك قال عليه السلام: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل والكبر» ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره، ومن تفكر في تركيب ذاته، فعرف مبدأه ومنتهاه وأوسطه عرف نقصه، ورفض كبره، ومن كان تكبره لغنية، فليعلم أن ذلك ظل زائل، وعارية مستردة.

ثم بيَّن سبحانه الحاجة التي دعت إلى إرسال موسى، ليكون كالتوطئة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا موسى الكتاب، وأنزلنا عليه التوراة،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وفصَّلنا فيها الأحكام التي فيها سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ في الدنيا بالعذاب ﴿ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: الأمم التي من قبل موسى وقومه، كقوم نوح وهود وصالح[1]، ودُرست معالم الشرائع وطُمست آثارها، واختلَّت نُظُم العالم، وفشا بينهم الشر والفساد، ورُفع الخير فاحتاج الناس إلى تشريع جديد، يُصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم، بتقرير أصول في ذلك التشريع تبقى على وجه الدهور، وترتيب فروع تتبدل بتبدل العصور، واختلاف أحوال الناس حالة كون ذلك الكتاب، ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: أنواراً لقلوب بني إسرائيل، تبصر بها الحقائق وأصول الدين، وتميز بها بين الحق والباطل، حيث كانت عمياء عن الفهم والإدراك بالكلية، ﴿وَ﴾ حالة كونه ﴿هُدًى﴾ للناس؛ أي: هادياً لهم إلى الشرائع والأحكام، التي هي سبيل الله سبحانه.

قال في «إنسان العيون»[2]: التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، بخلاف ما قبلها من الكتب، فإنها لم تشتمل على ذلك، وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وحده، وتوحيده، ومن ثمة قيل لها: صحف، وإطلاق الكتب عليها مجاز.

﴿وَ﴾ حالة كونه ﴿وَرَحۡمَةً﴾؛ أي: ذا رحمة لهم، حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وجنته، ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يتذكروا، ويتعظوا بما فيه فيؤمنوا به، ويشكروه عليه، ولا يكفروه، ويجيبوا داعيه إلى ما فيه خير لهم.

قال أبو سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء، ولا من الأرض منذ أنزل التوراة على موسى، غير القرية التي مُسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾».

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ولما قص الله سبحانه وتعالى من أنباء موسى وغرائب ما جرى له من الحمل به في وقت ذبح الأبناء[1]، ورميه في البحر في تابوت، ورده إلى أمه، وتبني فرعون له، وإيتائه الحكم والعلم، وقتله القبطي، وخروجه من منشئه فاراً، وتصاهره مع شعيب، ورعيه لغنمه السنين الطويلة، وعوده إلى مصر، وإضلاله الطريق ومناجاة الله له، وإظهار تينك المعجزتين العظيمتين على يديه، وهما العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون ومحاورته معه، وتكذيب فرعون، وإهلاكه وإهلاك قومه، والامتنان على موسى بإيتائه التوراة، وأوحى تعالى بجميع ذلك إلى محمد رسوله ﷺ.

ذكره بإنعامه عليه بذلك، وبما خصه من الغيوب التي كان لا يعلمها لا هو ولا قومه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد حاضراً مع موسى ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ من موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ وأوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى﴾ في حال رجوعه من مدين إلى مصر ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه؛ أي: ما كنت حاضراً معه إذ ناديناه، وألزمناه بالذهاب إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من الحاضرين قصته مع شعيب، فتُخبره للناس على الوجه الذي أتيناك به في هذه الأساليب المعجزة.

وخلاصة ذلك[2]: إن إخبارك بالغيوب الماضية، التي لم تشهدها، وقد قصصتها كأنك سامع راء لها، وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب، وقد نشأت بين قوم أميين لا يعرفون شيئاً من ذلك، لهو من أعظم البراهين على نبوتك، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحي من الله سبحانه كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

فإن قلت[3]: إن هذا الآية يُغني أولها، أعني قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ عن آخرها، أعني قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأي فائدة في ذكر آخرها؟

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) فتح الرحمٰن بتصرف.

قلتُ: لا يُغني أولها عن آخرها، إذ معنى أولها وما كنت يا محمد حاضراً إذ أوصلنا إلى موسى الوحي في الجانب الغربي من جبل الطور، ومعنى آخرها وما كنت من الشاهدين؛ أي: من الحاضرين قصته مع شعيب عليهم السلام، فاختلفت القصتان فلا إيراد على الآية.

وقوله: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ إما على[1] حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه؛ أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي، أو بجانب المكان الغربي الذي وقع فيه مناجاة موسى مع ربه، أو من إضافة الموصوف إلى صفته كمسجد الجامع؛ أي: بالجانب الغربي، وعلى كلا التقديرين فجبل الطور غربي من موسى عليه السلام.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾؛ أي: أوجدنا وخلقنا ﴿قُرُونًا﴾ كثيرة، وأمماً عديدة، بين زمانك يا محمد، وبين زمان موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على أولئك القرون ﴿ٱلْعُمُرُ﴾ والأمد والحياة والأجل، فلم يؤمنوا، فأهلكناهم قرناً بعد قرن؛ أي[2]: طالت أعمارهم، وامتدت مهلتهم، وتمادت حياتهم، وفترت النبوة، واندرست العلوم، ووقع التحريف في كثير منها، فتغيرت الشرائع والأحكام، وعميت عليهم الأنباء، وكادت الأخبار تخفى، لا سيما على آخرهم، فاقتضى الحال التشريع الجديد، فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار، مبيناً ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى، كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك، ليكون إخبارك عن قصته معجزة لك، وبرهاناً على صدقك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة، ودل به على المسبب الذي هو الوحي، اختصاراً.

وعبارة أبي حيان: فإن قلت: كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام، ومن أي جهة يكون استدراكاً؟

قلت: اتصاله به وكونه استدراكاً من حيث إن معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم، وهو القرن الذي أنت فيهم

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.

العمر؛ أي: أمد انقطاع الوحي، واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك، وكسبناك العلم بقصص الأنبياء، وقصة موسى.

وقد استُدل بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد إلى موسى عهوداً في محمد ﷺ، وفي الإيمان به، فلما طال عليهم العمر، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، وتركوا الوفاء بها، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا﴾؛ أي: مقيماً ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾؛ أي: مع موسى وشعيب والمؤمنين به، نفي لاحتمال كون معرفته للقصة بالسماع ممن شاهدها؛ أي: وما كنت مقيماً بين أهل مدين، كما أقام موسى فيهم، حالة كونك ﴿تَتۡلُواْ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على أهل مدين ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقة بالقصة بطريق التعلم منهم، فتقرأ على أهل مكة خبرهم، وتقص عليهم من جهة نفسك، وإنما أتتك بطريق الوحي الإلهي، فإخبارك لأهل مكة إنما هو عن وحي، لا عن مشاهدة للمخبر عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ إياك[1]، وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها، لتتلوها على أهل مكة، فتكون آية على صدقك، ولولا ذلك لما علمتها أنت، ولم تخبرهم بها. قال الزجاج: المعنى: إنك لم تشاهد قصص الأنبياء، ولا تُليت عليك، ولكنا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ أي: بجانب الجبل المسمى بالطور ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾؛ أي: وقت ندائنا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، واستنبائنا إياه، وإرسالنا له إلى فرعون وقومه، والمراد[2] جانب الطور الأيمن، كما قال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ ولم يذكره هنا احترازاً عن إيهام الذم، فإنه ﷺ لم يزل بالجانب الأيمن من الأزل إلى الأبد، ففيه إكرام له، وحسن عبارة معه.

وقيل معناه: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ليلة المناجاة والتكليم، لما أتى الميقات مع السبعين، لأخذ التوراة، إذ قلنا له: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾.

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

وقال وهب بن منبه[1]: لما ذكر الله سبحانه فضل محمد وأمته قال موسى: يا رب أرنيهم، فقال الله: إنك لن تصل إلى ذلك، ولكن إن شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أمة محمد، فأجابوه من أصلاب آبائهم.

وقال ابن عباس: قال الله تعالى: «يا أمة محمد، فأجابوه من أصلاب الآباء والأرحام؛ أي: أرحام الأمهات، لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك، لا شريك لك، قال الله تعالى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عقابي، قد أعطيتكم قبل أن تسألوني، وقد أجبتكم قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم قبل أن تستغفروني، ومن جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة، وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر».

وعلى ما قاله وهب يكون المنادى هو أمة محمد ﷺ، فيكون معنى الآية: وما كنتَ يا محمد بجانب الطور إذ كلَّمْنا موسى، فنادينا أمتك ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك بالقرآن العظيم الناطق بما ذكر ﴿رَّحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: لأجل رحمة كائنة منا لك، وللناس.

وقال الأخفش[2]: هو منصوب، يعني رحمة على المصدر؛ أي: رحمناك رحمة بإرسالك، والوحي إليك، وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك، وقال الزجاج: هو مفعول لأجله؛ أي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة.

وقرأ الجمهور: ﴿رَّحْمَةً﴾ بالنصب، فقُدِّر: ولكن جعلناك رحمة، وقُدِّر أعلمناك ونبأناك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر وأبو حيوة: بالرفع، وقُدِّر: ولكن هو رحمة، أو أنت رحمة، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ وتخوِّف بأس الله وعذابه بالقرآن ﴿قَوْمًا﴾ هم أهل مكة[3]، متعلقة بالفعل المعلل بالرحمة، وجملة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾؛ أي: لم يأتهم نذير ينذرهم من بأس

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

الله، لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مئة وخمسون سنة، أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى مختصة ببني إسرائيل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون بإنذارك.

وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر، والثواء في أهل مدين، والنداء، للتنبيه على أن كلاً من ذلك برهان مستقل، على أن حكايته عليه السلام للقصة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذكر أولاً نفي ثوائه ﷺ في أهل مدين، ثم نفي حضوره ﷺ عند قضاء الأمر، كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لربما توهم أن الكل دليل واحد كما في «الإرشاد».

ثم من التذكير تجديد العهد الأزلي، وذلك بكلمة الشهادة، وهي سبب النجاة في الدارين.

واعلم[1]: أن الله سبحانه لما بيَّن قصة موسى عليه السلام لرسوله ﷺ جمع بين هذه الأحوال الثلاثة العظيمة، التي اتفقت لموسى، فالمراد بقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ هو إنزال التوراة عليه حتى تكامل دينه، واستقر شرعه.

والمراد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أول أمر موسى، والمراد بقوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ ليلة المناجاة، فهذه أعظم أحوال موسى، ولما بيَّنها لرسوله، ولم يكن في هذه الأحوال حاضراً بيَّن الله سبحانه أنه بعثه، وعرَّفه هذه الأحوال الدالة على نبوته ﷺ، ومعجزته، كأنه قال: في إخبارك عن هذه الأشياء، من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك.

وحاصل معنى الآية[2]: أي وما كنت بجانب جبل الطور ليلة المناجاة، وتكليم الله موسى حتى تُحدث أخبارها، وتفصِّل أحوالها، حديث الخبير العليم ببواطن أمورها وظواهرها، ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار، وبغيرها مما فيه صلاح البشر وسعادتهم، في معاشهم ومعادهم، لتنذر قوماً لم يأتهم قبلك

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

نذير، وتحذرهم بأس الله، وشديد عقابه على إشراكهم به، وعبادتهم الأوثان والأنداد، لعلهم يرجعون عن غيِّهم، ويتذكرون عظيم خطئهم، وكبير جرمهم، فينيبوا إلى ربهم، ويقروا بوحدانيته، ويفردوه بالعبادة دون سواه من الآلهة.

ثم ذكر الحكمة في إرسال الرسول ﷺ، إليهم وأن في ذاك قطعاً لمعذرتهم، حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾؛ أي: أهل مكة، والمصيبة العقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما اقترفوا من الكفر والمعاصي، وأسند[1] التقديم إلى الأيدي، لأنها أقوى ما يُزاول به الأعمال، وأكثر ما يُستعان به في الأفعال.

﴿فَيَقُولُواْ﴾ عند رؤية العذاب، عطف على ﴿تُصِيبَهُم﴾، داخل في حيِّز ﴿لَوْلَآ﴾ الامتناعية، على أن مدار امتناع ما يُجاب به هو امتناعه، لا امتناع المعطوف عليه، وإنما ذُكر في حيِّزها للإيذان بأنه السبب الملجىء لهم إلى قولهم، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف، تقديره: ولولا قولهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ عند إصابة المصيبة إياهم، بسبب ما قدمت أيديهم في الدنيا موجود لما أرسلناك إليهم، أو لعاجلناهم بالعقوبة بسبب كفرهم، وكلمة ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ هي التحضيضية، بمعنى هلا، ﴿رَسُولًا﴾ مؤيداً من عندك بالآيات، ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرة على يده، وهو جواب ﴿لَوْلَآ﴾ الثانية ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ الأولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه.

والمعنى[2]: لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التي قدموها ما أرسلناك، لكن لما كان قولهم ذلك محققاً لا محيد عنه، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلية، وإلزاماً للحجة عليهم.

وعبارة النسفي هنا: ﴿لَوْلَآ﴾ الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، والفاء الأولى للعطف، والثانية جواب لولا التحضيضية، لكونها في

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

حكم الأمر، إذ الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد. والفاء تدخل في جواب الأمر، والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عُوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين علينا بذلك، لما أرسلنا إليهم رسولاً، يعني أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة، ولا يُلزموها كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

فإن قلت: كيف[1] استقام هذا المعنى، وقد جُعلت العقوبة هي السبب في الإرسال، لا القول، لدخول لولا الامتناعية عليها دونه؟.

قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول، وكان وجوده بوجودها جُعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فأُدخلت عليها لولا، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤَوَّل معناها إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلناك إليهم رسولاً.

وحاصل معنى الآية[2]: أي ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يحل بهم بأسنا، ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم، واجتراحهم للمعاصي قبل أن نرسلك إليهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن يحل بنا سخطك، وينزل بنا عذابك، فنتبع أدلتك وآي كتابك التي تُنزلها عليه، ونكون من المؤمنين بألوهيتك، المصدقين برسولك.. لعاجلناهم العقوبة على شركهم، لكنا بعثناك إليهم نذيراً ببأسنا، كما هو سنتنا في أمثالهم، كما جاء في الآية الكريمة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

والخلاصة: أنا أزحنا العذر، وأكملنا البيان، فبعثناك أيها الرسول إليهم، وقد حكمنا بأنا لا نُعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان، والحجة، وبعثة الرسل.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾؛ أي: أهل مكة، وكفار العرب ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: القرآن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

لقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: بأمرنا ووحينا، كما في «كشف الأسرار».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما جاءهم محمد ﷺ ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال كفار مكة تعنتاً واقتراحاً، قال بعضهم: قاله قريش بتعليم اليهود ﴿لَوْلَآ﴾؛ أي: هلا ﴿أُوتِيَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب جملة لا مفرقاً.

قال بعض العلماء[1]: حجبوا بكفرهم عن رؤية كماليته ﷺ، وإلا لقالوا: لولا أوتي موسى مثل ما أوتي محمد من الكمالات؛ أي: فلما جاء محمد ﷺ هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله بالكتاب الكريم، وهم أهل مكة، قالوا تمرداً وعناداً وتمادياً في الغي والضلال: هلا أُعطي محمد مثل ما أعطي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة، ومن قلب العصا حية، ومن اليد البيضاء، وتظليل الغمام وغير ذلك.

ثم ذكر أن هذه شنشنة المعاندين في كل زمان لا يريدون بما يقولون إظهار الحق، بل يقصدون التمادي والإنكار، ألا ترى أن من أرسل إليهم موسى قالوا مثل هذه المقالة، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيقولون ذلك، أعني قولهم: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى؛ أي: أيقول كفار مكة ذلك ولم يكفروا ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ وأُعطي من الكتاب.

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا القرآن، فإن كفار قريش كانوا منكرين لجميع النبوَّات، فلما طلبوا من محمد ﷺ معجزات موسى عليه السلام رد الله تعالى عليهم بذلك القول، لأنه لا غرض لهم من هذا الاقتراح إلا التعنت.

ثم بين سبحانه كيفية كفرهم فقال: ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال كفار مكة هما

---

(١) روح البيان.

﴿سِحْرَانِ﴾؛ أي: ما أوتي محمد، وما أوتي موسى عليهما السلام سحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾؛ أي: تعاونا بتصديق كل منهما الآخر، وذلك أن قريشاً بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا: إن موسى ساحر كما أن محمداً ساحر.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾؛ أي: بكل واحد من الكتابين ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: منكرون، والمعنى: إنا بكل من السحرين، أو بكل من الساحرين كافرون، على اختلاف القراءة فيه.

وقرأ الجمهور وابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ساحران﴾ بصيغة اسم الفاعل، وفيمن عنوا به ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: موسى ومحمد، قاله: ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير، فعلى هذا هو من قول مشركي العرب.

والثاني: موسى وهارون، قاله مجاهد، فعلى هذا هو من قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة.

والثالث: محمد وعيسى، قاله قتادة. قال ابن كثير: وهذا فيه بُعدٌ، لأن عيسى لم يجر له ذكرها هنا، وعلى هذا هو من قول اليهود، الذين لم يؤمنوا بنبينا.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وعبد الله وزيد بن علي ﴿سِحْرَانِ﴾ بكسر السين وسكون الحاء. وفيه ثلاثة أقوال أيضاً:

أحدها: التوراة والقرآن، قاله ابن عباس والسدي.

والثاني: الإنجيل والقرآن، قاله قتادة.

والثالث: التوراة والإنجيل، قاله أبو مجلز وإسماعيل بن أبي خالد، ومعنى

---

(١) زاد المسير.

الكلام: كل منهما سحر يقوي الآخر، فنسب التظاهر إلى السحرين توسعاً في الكلام.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿تَظَـٰهَرَا﴾ فعلاً ماضياً على وزن تفاعل. وقرأ طلحة والأعمش: ﴿اظَّاهرا﴾ بهمزة الوصل، وشدِّ الظاء، وكذا هي في حرف عبد الله، وأصله تظاهراً، فادغم التاء في الظاء فاجتلبت همزة الوصل، لأجل سكون التاء المدغمة، وقرأ محبوب عن الحسن ويحيى بن الحراث الذماري وأبو حيوة وأبو خلا عن اليزيدي: ﴿تظاهراً﴾ بالتاء وتشديد الظاء، وقال ابن خالويه: وتشديده لحن، لأنه فعل ماض، وإنما يشدد في المضارع.

وقال بعضهم: المعنى[٢]: أولم يكفر أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم القبط، بما أوتي موسى من قبل القرآن، قالوا: إن موسى وهارون سحران؛ أي: ساحران تظاهرا، وقالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾، يقول الفقير: إنه وإن صح إسناد الكفر إلى أبناء الجنس، من حيث إن ملل الكفر واحدة في الحقيقة، فكُفْر ملة واحدة بشيء في حكم كفر الملل الأخرى به، كما أسند أفعال الآباء إلى الأبناء من حيث رضاهم بما فعلوا لكن يلزم على هذا أن يخص ما أوتي موسى بما عدا الكتاب من الخوارق، فإن إيتاء الكتاب إنما كان بعد إهلاك القبط.

فالمعنى الأول هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، ويدل عليه صريحاً قوله تعالى: ﴿قُلْ فَـأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتحدى قومه، بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر، وأصلح لحالهم في المعاش والمعاد من التوراة والقرآن، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يقولون هذا القول تعجيزاً لهم، وتوبيخاً ﴿قُلْ فَـأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾؛ أي: ذلك الكتاب ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أكثر هداية للبشر وأصلح لهم ﴿مِنْهُمَآ﴾؛ أي: مما أوتياه من التوراة والقرآن؛ أي: إذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين، وقلتم فيهما ما قلتم فأتوا بكتاب من عند الله هو أوضح

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

في هداية الخلق منهما.

﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب الأمر؛ أي: فإن أتيتم بذلك الأهدى، وجئتم به فإني لأتركهما وأتبع ما تجيئون به، ومثل هذا الشرط يقوله من وضحت حجته وسنحت محجته، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيِّن الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام والتعجيز المشوب بالتوبيخ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن التوراة والقرآن سحران مختلفان، وفي إيراد كلمة ﴿إن﴾ مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم، وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين: ﴿سحران﴾ أقوى من قراءة الجمهور، لأنه رجع الكلام إلى الكتابين، لا إلى الرسولين، ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم فيما وصفتم به الكتابين أو الرسولين صادقين جادين.

وقرأ زيد بن علي برفع[1]: ﴿أتبعه﴾ على الاستئناف؛ أي: فأنا أتبعه، قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾؛ أي: فإن لم يستجب لك يا محمد هؤلاء الكفرة دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ولن يستجيبوا، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فحذف المفعول به، وهو دعاؤك للعلم به، ولأن فعل الاستجابة يتعدى بنفسه إلى الدعاء، وباللام إلى الداعي، فإذا عدي إليه حذف الدعاء غالباً. كقوله:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيْبُ إِلَىٰ ٱلنِّدَا   فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيْبُ

أي: فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط قوله: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: إنما يتبع هؤلاء الكفرة ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة، واختراعاتهم الفاسدة، بلا حجة ولا برهان، إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به.

---

(١) الشوكاني.

وقيل المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ إنكاري، بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أضل ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ومشتهاه في الدين ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ وبيان وحجة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ سبحانه، بل هو الفرد الكامل في الضلال، وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله لزيادة التقرير، والإشباع في التشنيع والتضليل، وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة. وقال بعضهم: هوى النفس قد يوافق الحق، فلذا قيَّد الهوى به، فيكون في موضع الحال منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَا يَهْدِي﴾ ولا يرشد إلى دينه ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

وينبغي للعاقل أن يكون من أهل الهدى، لا من أهل الهوى، وإذا عرض له أمران فلم يدر أيهما أصوب فعليه بما يكرهه، لا بما يهواه، ففي حمل النفس على ما تكرهه مجاهدة، وأكثر الخير في الكراهية والعمل بما أشار إليه العقل السليم واللب الخالص.

والمعنى: أن الله سبحانه لا يوفِّق لإصابة الحق، واتباع سبيل الرشد من خالفوا أمره، وتركوا طاعته، وكذبوا رسله، وبدلوا عهده، واتبعوا هوى أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمٰن.

ولما أثبت نبوة محمد ﷺ بيَّن الحكمة في إنزال القرآن منجماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾، قرأ الجمهور ﴿وَصَّلْنَا﴾ مشدد الصاد، والحسن وأبو المتوكل وابن يعمر: بتخفيفها، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ لقريش، والتوصيل مبالغة في الوصل، وحقيقة الوصل رفع الحائل بين الشيئين؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أكثرنا لقريش القول موصولاً بعضه ببعض، بأن أنزلنا عليهم القرآن آية بعد آية، وسورة بعد سورة، حسبما تقتضيه الحكمة، ليتصل التذكير، ويكون أدعى لهم؛ أي: أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً، ويُخبر عن الأمم الخالية كيف عذبوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون فيؤمنون.

والمعنى: أي ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلاً بعضه إثر بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة، وترشد إليه المصلحة العامة، وهي أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبيه، فهم في كل يوم يطلعون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة، فيكون ذلك أدعى إلى إيمانهم ورسوخه في نفوسهم، وامتلاء قلوبهم نوراً به، أو تابعنا لهم المواعظ والزواجر، وبيَّنا لهم ما أهلكنا من القرون قرناً بعد قرن، فأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا، وقوم هود بكذا، وقوم صالح بكذا، لعلهم يتعظون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ وأعطيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوارة والإنجيل. والمراد بالكتاب الجنس الصادق بالكتابين، وهم مؤمنو أهل الكتاب، ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل إيتاء القرآن، أو من قبل محمد ﷺ. والموصول مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿هم به﴾؛ أي: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون كونه من عند الله سبحانه؛ أي: الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب، ثم أدركوا محمداً ﷺ، كعبد الله بن سلام وأضرابه، هم يؤمنون بالقرآن، لأنهم قد وجدوا في كتبهم البشرى به، وانطباق الأوصاف عليه. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ثم بيَّن ما أوجب إيمانهم به بقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ هذا القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: صدَّقنا بأنه كلام الله سبحانه، وقالوا: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي نزل ﴿مِن﴾ عند ﴿رَّبِّنَآ﴾ حقاً و﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل نزوله وقراءته علينا ﴿مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مخلصين لله بالتوحيد، مؤمنين بمحمد ﷺ، أنه نبي حق؛ أي: وإذا تُلي هذا القرآن عليهم قالوا: صدقنا بأنه نزل من عند ربنا حقاً، وقد كنا مصدقين به قبل نزوله، لأنا وجدنا في كتبنا نعت محمد، ونعت كتابه. وفي هذا إيماء إلى أن إيمانهم به أمر متقادم العهد، لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة، وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات، أي: أولئك

الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يعطون ثوابهم في الآخرة ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، أو بإيمانهم بنبيهم أولاً، وبإيمانهم بمحمد ﷺ، أو بإيمانهم بمحمد قبل بعثته وبعد بعثته. والباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ للسببية أي: بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين، والعمل بالشريعتين.

وفي «التأويلات النجمية»[1]: على مخالفة هواهم، وموافقة أوامر الشرع ونواهيه، وفي الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل كانت له جارية، فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم تزوجها فله أجره مرتين، وعبد أدى حق الله وحق مواليه، ورجل آمن بالكتاب الأول، ثم آمن بالقرآن، فله أجره مرتين» متفق عليه.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾؛ أي: يدفعون ﴿بِـ﴾الخصلة ﴿الحسنة﴾ وبالطاعة الخصلة ﴿السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: القبيحة والمعصية، أو بالقول الحسن القول القبيح، أو بالاحتمال والصفح ما يلاقونه من الأذى. وقيل بالتوبة والاستغفار الذنوبَ. وقيل: بشهادة أن لا إله إلا الله الشركَ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: وينفقون مما أعطاهم الله من فضله من المال الحلال النفقات الواجبة لأهلهم، وذوي قرباهم، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم، ويساعدون البائسين وذوي الخصاصة المعوزين.

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾؛ أي: ما لا ينفع في دين ودنيا ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾؛ أي: عن اللغو ﴿وَقَالُوا﴾ لِلْلاَّغين ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ من الحلم والصفح ونحوهما ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ من اللغو والسفاهة وغيرهما، فكل مطالب بعمله، فلا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء ﴿سَلَامٌ﴾ وأمنة منا، وبراءة من ضررنا عليكم، فلا نقابلكم بمثل ما فعلتم بنا، ولا نجازيكم عليه، لأن المراد بالسلام هنا سلام متاركة وإعراض عن

---

(١) روح البيان.

سوءهم، لا سلام تحية وإكرام.

﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: لا نطلب صحبتهم، ولا نريد مخالطتهم ومخاطبتهم، والتخلق بأخلاقهم، ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم، فإن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب، ويقولون: تباً لكم تركتم دينكم، فيُعرضون، ولا يردون عليهم، قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال، وقال صاحب «الروح»: وحكم الآية وإن كان منسوخاً بآية السيف إلا أنَّ فيها حثاً على مكارم الأخلاق.

وفي الحديث: «ثلاث من لم يكنَّ فيه فلا يعتد بعلمه، حلم يرد به جهل جاهل، وورع يحجز عن معاصي الله، وحسن خلق يعيش به في الناس». وما أحسن قول بعضهم:

إِذَا رَأَيْتَ أَثِيْمَا كُنْ سَاتِرَاً وَحَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ لَغْوِيْ لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

والمعنى[1]: أي وإذا سمعوا ما لا ينفع في دين ولا دنيا من السب والشتائم، وتكذيب الرسول.. أعرضوا عن قائليه، ولم يخالطوهم، وإذا سفه عليهم سفيه، وكلمهم بما لا ينبغي رده من القول.. لم يقابلوه بمثله، إذ لا يصدر منهم إلا طيب الكلام، وقالوا: لنا أعمالنا، لا تثابون على شيء منها، ولا تعاقبون، ولكم أعمالكم لا نطالب بشيء منها، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم، سلام عليكم، سلام متاركة وتوديع، فإنا لا نريد طريق الجاهلين، ومثل الآية، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

روى محمد بن إسحاق أنه قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو يزيدون من نصارى الحبشة، حين بلغهم خبره، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلته عما أرادوا دعاهم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت

---

(١) المراغي.

أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال، ما رأينا ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه.

واعلم: أن اللغو عند أهل المعرفة كل ما يشغلك عن العبادة وذكر الحق، وكل كلام بغير خطاب الحال والواقعة، وطلب ما سوى الله سبحانه وتعالى.

الإعراب

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة، ﴿سَنَشُدُّ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال لتأكيد معنى الفعل، ﴿نشد﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿عَضُدَكَ﴾: مفعول به، ﴿بِأَخِيكَ﴾ متعلق بـ﴿نشد﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَنَجْعَلُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿نشد﴾، ﴿لَكُمَا﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول أول له، ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نجعل﴾، ﴿إِلَيْكُمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَصِلُونَ﴾، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: إما متعلق بـ﴿نجعل﴾، أو بـ﴿يَصِلُونَ﴾، أو بمحذوف، تقديره: اذهبا، أو بسلطاننا؛ أي: نسلطكما بآياتنا، أو بمحذوف حال، أو من لغو القسم، ولا أرى موجباً لترجيح بعضهم على بعض. فاختر منها ما ترى ترجيحه. ﴿أَنتُمَا﴾: مبتدأ، ﴿وَمَنِ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿أَنتُمَا﴾، ﴿اتَّبَعَكُمَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿الْغَالِبُونَ﴾: خبر ﴿أَنتُمَا﴾ وما عطف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فجاءهم موسى بآياتنا فلما جاءهم قال إلخ، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاء﴾، أو بمحذوف حال من ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿آياتنا﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿سِحۡرٞ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مُّفۡتَرٗى﴾: صفة ﴿سِحۡرٞ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلق بـ﴿سَمِعۡنَا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية في قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾، ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: حال كونه كائناً في آبائنا، ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ صفة لـ﴿ءَابَآئِنَا﴾. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُواْ﴾، ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿مِنۡ عِندِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الهدى﴾، ﴿ومن﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿من﴾ الأولى، ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم لـ﴿تَكُونُ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى

ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: وجمع فرعون السحرة وقال، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على تلك الجملة المحذوفة، ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، أو عطف بيان منه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلِمْتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَكُم﴾: حال من ﴿إِلَٰهٍ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿إِلَٰهٍ﴾: مفعول به، ﴿غَيْرِي﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿فَأَوْقِدْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أوقد﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿هامان﴾. ﴿لِي﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ﴾، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَٱجْعَل﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اجعل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿أوقد﴾، ﴿عَلَى ٱلطِّينِ﴾: متعلق بـ﴿أوقد﴾، ﴿لِي﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لـ﴿اجعل﴾، ﴿صَرْحًا﴾: مفعول أول له. ﴿لَّعَلِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَطَّلِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَطَّلِعُ﴾، ﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إني﴾ ناصب واسمه، ﴿لَأَظُنُّهُۥ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿أظنه﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿أظن﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لعل﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿استكبر﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود

على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾، ﴿هُوَ﴾: تأكيد لضمير الفاعل المستتر في ﴿استكبر﴾ يعطف عليه ما بعده، ﴿وَجُنُودُهُ﴾: معطوف على الفاعل المستتر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿استكبر﴾، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿استكبر﴾ وما عطف عليه؛ أي: متلبسين بغير الحق. ﴿وَظَنُّوٓا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استكبر﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿يُرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظن﴾، تقديره: وظنوا عدم رجوعهم إلينا. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخذناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿استكبر﴾، ﴿وَجُنُودَهُ﴾: معطوف على مفعول ﴿أخذنا﴾، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به معطوف على ﴿أخذناه﴾، ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ متعلق بـ﴿نبذناهم﴾، ﴿فَٱنظُرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت التعجب من شأنهم فأقول لك انظر، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام للتعجب في محل النصب خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب ساد مسد مفعول ﴿انظر﴾، لأن الاستفهام علقه عن العمل فيما بعده.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلناهم أئمة﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿نبذناهم﴾، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿أَئِمَّةً﴾، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يوم القيامة﴾: متعلق بـ﴿يُنصَرُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ ﴿فِي هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور حال من

ضمير المفعول، ﴿الدُّنْيَا﴾ بدل من اسم الإشارة، ﴿لَعْنَةً﴾: مفعول ثان، ﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ إن قلنا: إن أل فيه معرفة، أو بمحذوف دل عليه قوله: ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ إن قلنا: إن أل فيه موصولة، تقديره: وقبحوا يوم القيامة، وإنما قدرنا محذوفاً لأن تعلقه بـ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ - وهو الظاهر - يمنع منه وجود أل الموصولة فيه، لأن ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله، على أنهم قد اتسعوا في الظروف والمجرورات ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لقد﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، لأن ﴿أتى﴾ هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿آتَيْنَا﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿الْأُولَى﴾: صفة لـ﴿الْقُرُونَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد إهلاكنا القرون الأولى، ﴿بَصَائِرَ﴾: حال من ﴿الْكِتَابَ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: ذا بصائر، أو جعله نفس البصائر مبالغة، أو مفعول لأجله، ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور نعت لـ﴿بصائر﴾، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على ﴿بَصَائِرَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإيتاء.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤)﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنْتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِجَانِبِ﴾: جار ومجرور خبر كان، ﴿الْغَرْبِيِّ﴾: مضاف إليه، وهو على حذف

الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ أي: بجانب الجبل الغربي، حيث ناجى موسى ربه، فتخبر الناس تلك القصة، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، ﴿قَضَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَىٰ مُوسَى﴾ متعلق بـ﴿قَضَيْنَآ﴾، ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى، والأمر المقضي هو الوحي الذي أوحي إليه.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكنا﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿قُرُونًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾، ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تطاول﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ﴿تطاول﴾، ﴿ٱلْعُمُرُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَا﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنتَ ثَاوِيًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ثَاوِيًا﴾، و﴿مَدْيَنَ﴾ ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، والجملة معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى، ﴿تَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿تَتْلُوا۟﴾، ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿ثَاوِيًا﴾، أو خبر ثان لـ﴿كان﴾. ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكنا﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُرْسِلِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿كان﴾، وجملة

﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿كان﴾ الأولى، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، ﴿نَادَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، ﴿وَلَكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل، لأنها مخففة، ﴿رَّحْمَةً﴾: مفعول لأجله لفعل محذوف، تقديره: ولكن أرسلناك رحمة، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَّحْمَةً﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿لِتُنذِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿تنذر﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولكن أرسلناك لإنذارك قوماً، وإنما جر باللام لاختلاف الفاعل، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿أَتَاهُم﴾: فعل ومفعول به، ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: فاعل، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: صفة ﴿نَّذِيرٍ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإنذار.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿تُصِيبَهُم﴾: فعل مضارع ومفعول به منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿مُّصِيبَةٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: ولولا إصابة المصيبة إياهم موجود، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف أيضاً، تقديره: لما أرسلناك رسولاً، وجملة ﴿لَوْلَا﴾ مع جوابها مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو معطوفة على ما قبلها، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تُصِيبَهُم﴾، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما قدمته أيديهم. ﴿فَيَقُولُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يقولوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تُصِيبَهُم﴾: منصوب بحذف النون، ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب

مقول لـ﴿يقولوا﴾، ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا، ﴿أَرْسَلْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾ على كونها جواب النداء ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿نتبع﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التحضيض، ﴿ءَايَٰتِكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَنَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، معطوف على ﴿نتبع﴾، واسمها ضمير مستتر يعود على المتكلمين، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ معطوف على جملة ﴿نتبع﴾، وجملة ﴿نتبع﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: هلا إرسالك إلينا رسولاً، فاتباعنا آياتك، فكوننا من المؤمنين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاءهم الحق من عندنا فلما جاءهم الحق، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿مِنْ عِندِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جاء﴾، أو حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا، ﴿أُوتِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على محمد، ﴿مِثْلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتِىَ﴾، وهو مضاف، و﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مثل ما أوتيه موسى. ﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيقول أهل مكة ذلك، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي، ﴿يَكْفُرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾،

﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما أوتيه موسى، ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُوتِيَ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جملة مفسرة لكفرهم لا محل لها من الإعراب، ﴿سِحۡرَانِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هما؛ أي: التوراة والقرآن، أو موسى ومحمد عليهما السلام سحران، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿تَظَٰهَرَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿سِحۡرَانِ﴾. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُواْ﴾ الأول، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِكُلّٖ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، و﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَأۡتُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلتم هذان سحران تظاهرا، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم ائتوا، ﴿أئتوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، ﴿بِكِتَٰبٖ﴾ متعلق به، ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿كتاب﴾؛ أي: بكتاب كائن من عند الله تعالى، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿هُوَ أَهۡدَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنۡهُمَآ﴾: متعلق بـ﴿أَهۡدَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿كتاب﴾، ﴿أَتَّبِعۡهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق، والجملة الفعلية جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن، الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب إن الشرطية معلوم مما قبلها،

تقديره: إن كنتم صادقين فاتوا بكتاب من عند الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فإن أجابوا لك إلى ما طلبته منهم، ولن يجيبوا فالأمر واضح، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم، ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف النون، ﴿لَكَ﴾: متعلق به، ﴿فَٱعْلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿اعلم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ولكنها كفت عن العمل فيما بعدها بـ﴿ما﴾ الزائدة، ﴿ما﴾: كافة لكفِّها ما قبلها عن العمل فيما بعدها، أو يقال: أنما أداة حصر، ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية سادة مسد مفعولي ﴿اعلم﴾. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضَلُّ﴾: خبره، ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَضَلُّ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الشرطية، أو مستأنفة، ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿ٱتَّبَعَ﴾، أو من مفعوله، ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾: صفة لـ﴿هُدًى﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ خبره، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ
هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ
﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ
﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿وَصَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق بـ﴿وَصَّلْنَا﴾، ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة،

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: حال من ﴿الْكِتَابَ﴾، أو متعلق بـ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ﴾ ﴿هُم﴾: مبتدأ ثان، ﴿بِهِ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ الثاني، وجملة الثاني مع خبره: خبر للأول، وجملة الأولى مع خبره مستأنفة. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿يُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على القرآن، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ على كونها خبر المبتدأ، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿مِن رَّبِّنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿الْحَقُّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل الإيمان به، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: حال من ﴿مُسْلِمِينَ﴾، ﴿مُسْلِمِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أن إيمانهم ليس بدعاً ولا مستحدثاً، وإنما هو أمر متقادم العهد. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿يُؤْتَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿أَجْرَهُم﴾: مفعول ثان لأتى، لأنه بمعنى أعطى، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: منصوب على المصدرية؛ أي: إيتاءين، أو على الظرفية؛ أي: في وقتين، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿صَبَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب صبرهم الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُؤْتَوْنَ﴾. ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾: متعلق بـ﴿يدرؤون﴾، ﴿السَّيِّئَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿يُؤْتَوْنَ﴾، ﴿وَمِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مما﴾: متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: مما

رزقناهموه، ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يدرؤون﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿سَمِعُواْ اللَّغْوَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَعْرَضُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَعْرَضُواْ﴾، ﴿لَنَآ﴾: خبر مقدم، ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، معطوف على ما قبله، ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة كونه في الأصل دعاء، أو وصفه بمحذوف، تقديره: منا، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نَبْتَغِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿الْجَٰهِلِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير المتكلمين في قوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾؛ أي: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، أو سلام منا عليكم، حالة كوننا لا نطلب صحبة الجاهلين ومعاشرتهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ العضد ما بين المرفق والكتف، وفي «إعراب القرآن»: العَضُد بفتح العين وضم الضاد، وبالضم وبالكسر: غليظ الذراع، وهو من المرفق إلى الكتف، جمعه أعضاد وأعضد، وهو قوام اليد، وبشدته تشتد اليد، والمراد بشد العضد التقوية والإعانة، ﴿سُلْطَٰنًا﴾ والسلطان: التسلط والغلبة، ﴿مُّفْتَرًى﴾؛ أي: مختلق لم يفعل قبل هذا الوقت مثله، أو تعلمته ثم افتريته على الله، اهـ «أبو السعود».

﴿عَلَى الطِّينِ﴾ والطين هو التراب والماء المختلط؛ أي: أوقد لي على الطين

بعد جعله لبناً فتكون آجراً، ﴿أَطَّلِعُ﴾؛ أي: أصعد وأرتقي، والطلوع والاطلاع الصعود، يقال: طلع الجبل واطلع بمعنى، وإن نفسك لطلعة إلى هذا الأمر، وإنها لتطلع إليه؛ أي: تُنازع.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ والاستكبار إظهار الكبر باطلاً، بخلاف التكبر، فإنه أعم، والكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره، ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: لا يُردون بالبعث للجزاء، من رُجع رجعاً، إذا رُد وصُرف، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾؛ أي: فطرحناهم، قال الراغب: النبذ إلقاء الشيء وطرحه، لقلة الاعتداد به، ﴿أَئِمَّةً﴾؛ أي: قدوة يقتدي بهم أهل الضلال، فيكون عليهم وزرهم وزر من تبعهم، ﴿لَعْنَةً﴾؛ أي: طرداً من الرحمة.

﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ جمع مقبوح، والمقبوح المطرود؛ أي: من المخزيين، يقال: قبَّحه الله إذا طرده ونحاه من كل خير، وفي «المصباح»: قبح الشيء قبحاً فهو قبيح، من باب قرب، وهو خلاف حسن، ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ أي: من المبعدين عن الفوز، والتثقيل مبالغة، وقبَّح عليه فعله تقبيحاً، وقال أبو زيد: قبح الله فلاناً قُبْحاً وقُبوحاً: أبعده من كل خير، وقال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبَّحْتُ بالتشديد، ومثله قول الشاعر:

أَلاَ قَبَحَ ٱللَّهُ ٱلْبَرَاجِمَ كُلَّهَا ... وَقَبَحَ يَرْبُوعاً وَقَبَحَ دَارِمَا

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال الراغب: الهلاك الموت، لم يذكره الله سبحانه حيث يُفقد الذمُّ إلا في قوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، والقرون جمع قرن، وهو القوم المقترنون في زمان واحد.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ والبصائر جمع بصيرة، وهي نور القلب الذي به يُستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر، والبصيرة العقل والفطنة والعبرة والشاهد والحجة، يقال: جوارحه بصيرة عليه؛ أي: شهود، وفراسة ذات بصيرة؛ أي: صادقة، والجمع بصائر، وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: أنواراً لقلوبهم تبصر بها

الحقائق، وتميز بها بين الحق والباطل، بعد أن كانت عُمياً عن الفهم والإدراك بالكلية.

﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ والعَمْر والعُمْر بالفتح والضم وبضمتين: الحياة، قال الراغب: العمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة؛ أي: طال عليهم الحياة وتمادى الأمد، ﴿ثَاوِيًا﴾؛ أي: مقيماً، يقال: ثوى يثوى ـ من باب ضرب ـ ثواءً وثوياً، فهو ثاو المكان وفيه وبه أقام، وثوى الرجل إذا مات. قال عُبيد بن الأبرص في مطلع معلَّقته:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ ٱلثُّوَاءُ

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ والمصيبة العقوبة، قال الراغب: أصلها في الرمية ثم اختص بالمعاقبة، ﴿تَظَٰهَرَا﴾؛ أي: تعاونا وتناصرا، والتظاهر التعاون.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ والتوصيل مبالغة في الوصل، وحقيقة الوصل رفع الحائل بين الشيئين، والتوصيل ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض، قال شاعرهم:

فَقُلْ لِبَنِي مَرْوَانَ مَا بَالُ ذِمَّتِي بِحَبْلٍ ضَعِيفٍ مَا يَزَالُ يُوَصَّلُ

والمراد به هنا إنزال القرآن منجماً مفرقاً يتصل بعضه ببعض.

﴿ٱللَّغْوَ﴾ اللغو الساقط من الكلام، وكل ما حقه أن يُلغى ويُترك من العبث وسخف القول، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الابتغاء الطلب، والجهل معرفة الشيء على خلاف ما هو عليه؛ أي: لا نطلب صحبتهم ولا مخالطتهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ على طريق إطلاق السبب وإرادة المسبب، بمرتبتين تتبع إحداهما ثانيتهما، فإن شدة العضد سبب مستلزم لشدة اليد، وشدة اليد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية،

واختار الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» أن يكون كناية تلويحية، قال: الشد التقوية، فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشد العضد، والجملة تشد بشد اليد، أو استعارة تمثيلية شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بالعضد.

ومنها: الإطناب البديع في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقل اطبخ لي الآجر، لأنه تركيبه مع سهولة لفظه ليس بفصيح، وذلك أمر يقرره الذوق وحده، فعبر عن الآجر بالوقود على الطين، فإن هذه العبارة أحسن مطابقة لفصاحة القرآن وعلو طبقته.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس، حُذف أداة الشبه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً. قال في «حاشية البيضاوي»: أي: مشبهاً بأنوار القلوب، من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء، لا تستبصر، ولا تعرف حقاً من باطل.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ أي: أهل قرون، لأن المراد به الأمم، لأنهم يُخلقون في تلك الأزمنة، فنُسبوا إلى القرون بطريق المجاز العقلي.

ومنها: جناس التحريف في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وهو ما يفوق فيه بين الكلمتين، أو بعضهما بضبط الشكل، مثاله في الشعر قول أبي العلاء المعري:

وَٱلْحُسْنُ يَظْهَرُ فِيْ شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ ٱلشَّعْرِ

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن المراد بما كسبوا، وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، قال الزمخشري: ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جُعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي.

ومنها: حذف الجواب لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ حُذف منه الجواب، تقديره: ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم، وهو من باب الإيجاز بالحذف.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: هلا أوتي، فهي للتحضيض، وليست حرف امتناع لوجود.

ومنها: تكرار حرف الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾، وبقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا﴾، وبقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: تكرار لولا بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ وبقوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ وبقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ﴾، ولكن الأولى حرف امتناع لوجود، والأخيرتان حرفا تحضيض.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

ومنها: تكرار ﴿أُوتِىَ﴾ ثلاث مرات.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

ومنها: التعجيز في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ﴾ فالأمر خرج فيه عن حقيقته إلى معنى التعجيز.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوٓاْ
إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ
رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ
فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَٰلِمُونَ (٥٩) وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ
(٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦)
فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ
بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ...﴾

الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] فيما سلف أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به، وجاؤوا إليه زرافات ووحداناً من كل فج عميق، وجابوا الفيافي، وقطعوا البحار للإيمان به، بعد أن سمعوا أخباره، وترامت لهم فضائله وشمائله، وقد كان في هذا مقنع لقومه أن يؤمنوا به، وأن تُحدِّثه نفسه الشريفة بالطمع في إيمانهم، ودخول الهدى في قلوبهم، والانتفاع بما آتاه الله من العرفان، فتكون لهم به السعادة في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك الآية الأولى تسلية له ﷺ، إذ لم ينجع في قومه الذين يُحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص إنذاره وإبلاغه، فيقبلوا ما جاء به، بل أصروا على ما هم عليه، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه آمنوا بما جاء به، وقالوا: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه يكون وبالاً على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب.. أردف ذلك بيان ما يحصل في هذا اليوم من الإهانة والتقريع للمشركين، حين يسألهم سؤالات يحارون في الجواب عنها، ويشتد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصاً، ومعذرة تُبرِّر لهم ما كانوا يقترفون، فيسألهم أولاً عن الآلهة التي كانوا يعبدونها في الدنيا، من أصنام وأوثان، هل ينصرونهم أو ينتصرون، ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم رداً، ثم يسألهم عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الإيمان بربهم، فتخفى عليهم الحجج التي تُنجيهم من العذاب الذي لا مفر لهم منه، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضاً عما يلقنه من حجة لهول الموقف، واشتداد الخطب، ثم ذكر بعدئذٍ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الأعمال، وبيَّن أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلاً من ربهم ورحمة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وبخهم[1] فيما سلف على اتخاذهم الشركاء، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكماً بهم، وتقريعاً لهم.. أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه، واصطفائهم إياه للعبادة، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض واصطفاءه على غيره من حق الله، لا من حقكم أنتم، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة، فما أنتم إلا جهال ضلال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم، وتفضل به من المنن.. أردف هذا تفصيل ما يجب أن يُحمد عليه منها، ولا يقدر عليه سواه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] وبَّخ المشركين أولاً على فساد رأيهم في اتخاذ الشركاء لله، ثم ذكر التوحيد ودلائله.. عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانياً، ببيان أن إشراكهم لم يكن عن دليل صحيح، بل كان عن محض الهوى، كما يُرشد إلى ذلك قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[3] مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبي ﷺ، وقال: «يا عماه قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله يوم القيامة»، فقال: لولا أن تعيِّرني قريش، يقولون: ما حمله على ذلك إلا

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

جزعه من الموت لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

قوله: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس: أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن نتبعك يخطفنا الناس، فنزلت هذه الآية. وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، ونحن أكلة رأس - يريد أنا قليلو العدد - أن يتخطفونا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ . . .﴾ الآية.

قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، وفي أبي جهل بن هشام. وأخرج عنه من وجه آخر أنها نزلت في حمزة وأبي جهل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي﴾ هداية موصلة إلى المقصود لا محالة، ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته[1]، وقيل: أحببته لقرابته؛ أي: إنك يا محمد لا تستطيع هداية من أحببت من قومك، أو من غيرهم هداية موصلة إلى البغية، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية الطاقة، وسعيت كل السعي، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته فيدخله في الإسلام؛ أي: إن الله سبحانه يقذف في قلب من يشاء نور الهداية فينشرح صدره للإسلام، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة في ذلك، وإنما عليك البلاغ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: بالمستعدين للهداية من غيرهم، فلا يهدي إلا المستعد لها، فيُمْنَحونها، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب، دون من هم من أهل الغواية، كقومك وعشيرتك. وفي «الخازن»: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: بمن قدر له في الأزل أن يهتدي .اهـ.

---

(١) الخازن.

قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب، وقد تقرر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولاً أولياً، وذلك أن النبي ﷺ قال لأبي طالب عند الموت: «يا عم قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» قال: لولا أن تعيرني قريش - يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع - لأقررت بها عينك، ثم أنشد مخاطباً لرسول الله ﷺ:

وَدَعَـوْتَـنِـيْ وَعَـلِـمْـتُ أَنَّـكَ صَـادِقٌ وَلَـقَـدْ صَـدَقْـتَ وَكُـنْـتَ قَـبْـلُ أَمِـيْـنَـا
وَلَـقَـدَ عَـلِـمْـتُ بِـأَنَّ دِيْـنَ مُـحَـمَّـدٍ مِـنْ خَـيْـرِ أَدْيَـانِ ٱلْـبَـرِيَّـةِ دِيْـنَـا
لَـوْلاَ ٱلْـمَـلاَمَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَـسَـبَّـةٍ لَـوَجَـدْتَـنِـيْ سَـمْـحَـاً بِـذَاكَ مُـبِـيْـنَـا

ولكن أنا على ملة الأشياخ، عبد المطلب وهاشم وعبد مناف، ثم مات فأتى علي ابنه للنبي ﷺ، وقال له: عمك الضال قد مات، فقال له: «اذهب فواره»، وما تقدم من أنه لم يؤمن حتى مات هو الصحيح.

وبمعنى الآية قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

فإن قلت[1]: إن بين هذه الآية وآية ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تناقضاً فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: يُجمع بينهما بأن المنفي هنا خلق الهداية التي هي عبارة عن تقليب القلب من الباطل - وهو ما سوى الله - إلى الحق، وهو الله سبحانه، فليس هذا من شأن غير الله سبحانه، والمثبت هناك الدلالة على الدين القويم، وهذا هو الذي كان من شأن النبي ﷺ وغيره من كل مرشد.

ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباعهم للهدى، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال مشركو مكة ومن تابعهم ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ وندخل في

---

(١) البيضاوي بتصرف وزيادة.

دينك يا محمد ﴿نُتَخَطَّفْ﴾؛ أي: نؤخذ ونُخرج ﴿مِنْ أَرْضِنَآ﴾ مكة. ومعنى اتباع الهدى معه الاقتداء به ﷺ في الدين والسلوك إلى طريق الرشاد، والتخطف هو الانتزاع والاختلاس بسرعة.

وقرأ الجمهور: ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ بالجزم جوابا للشرط. وقرأ المنقري: بالرفع على الاستئناف، مثل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ برفع الكاف؛ أي: فهو يدرككم الموت، والمعنى؛ أي: وقال كفار مكة: لقد نعلم يا محمد أنك على الحق، وأنك ما كذبت كذبة قط فنتهمك اليوم، ولكنا نخاف ونخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا العرب أن يتخطفونا؛ أي: أن يأخذونا ويسلبونا ويقتلونا، ويخرجونا من مكة والحرم لإجماعهم على خلافنا، وهم كثيرون، ونحن أكلة رأس؛ أي: قليلون، لا نستطيع مقاومتهم.

ثم رد الله ذلك عليهم رداً مصدراً باستفهام تقرير مضمن للتوبيخ، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ والهمزة فيه للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نعصمهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن، لحرمة البيت الذي فيه، وذلك[1] أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب، والحمام من الحدأة.

ثم وصف هذا الحرم بقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يُجلب إلى ذلك الحرم، ويُجمع إليه، ويُحمل من الشام ومصر والعراق ومن أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكيا وغيرها براً وبحراً وجواً ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع الثمار والفواكه والحبوب؛ أي: يُحمل ويُجلب إليه أنواع الثمرات والفاكهات والخضروات والأبازير والبضاعات، من مشارق الأرض ومغاربها، براً وبحراً وجواً، فلا ترى شرقي الفواكه ولا غربيَّها مجمعة إلا في مكة، لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث

---

(١) الخازن.

قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ومعنى[1] الكلية الكثرة، والجملة صفة أخرى لحرماً، دافعة لما عسى يُتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة، وهو الطعام المجلوب من بلد إلى بلد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ بالتحتية اعتباراً بتذكير كل شيء، ووجود الفاصل بين الفعل وثمرات، وأيضاً ليس تأنيث ثمرات بحقيقي، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، وقرأ نافع وجماعة عن يعقوب وأبو حاتم عن عاصم: ﴿تُجبى﴾ بالتاء الفوقية اعتباراً بثمرات، وقرأ[3] الجمهور أيضاً: ﴿ثَمَرات﴾ بفتحتين، وقرأ أبان بن تغلب: بضمتين، جمع ثُمُر بضمتين، وقرأ بعضهم: ﴿ثمرات﴾ بفتح الثاء وإسكان الميم، وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على أنه مصدر مؤكد لمعنى يُجبى، لأن فيه معنى يرزق؛ أي: يرزقون رزقاً.

﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا، لا من عند المخلوقات، فإذا كان حالهم هذا، وهم عبدة الأصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن ذلك الرزق هو من عندنا، أي: أكثر أهل مكة جهلة، لا يتفطنون له ولا يتفكرون، ليعلموا ذلك لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم، وعدم تفكرهم في أمر معادهم ورشادهم، لكونهم ممن طبع الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

وحاصل المعنى: أي إن ما اعتذرتم به لا يصلح أن يكون عذراً، لأنا جعلناكم في بلد أمين، وحرم معظَّم منذ وجد، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لكم حال كفركم وشرككم، ولا يكون أمناً لكم وقد أسلمتم، واتبعتم الحق.

قال يحيى بن سلام: يقول سبحانه: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذ عبدتموني، وآمنتم بي، وقد تفضل عليكم ربكم،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

وأطعمكم من كل الثمرات، التي تُجلب من أرجاء الأرض ونواحيها، من كل بلد رزقاً منه لكم، ولكن أكثر أهل مكة جهلة، لا يفطنون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، ومن ثم قالوا ما قالوا، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم، فهو الذي يُخشى ويُتقى، لا سواه من المخلوقين.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: وأهلكنا كثيراً من أهل قرية بطرت وطغت، وكفرت في معشيتها، وأساءت في حقوق نعم الله عليها من الشكر، تخويف[1] لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة، وقابلوها بالبطر فأُهلكوا، ورد لقولهم[2]: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ . . .﴾ إلخ، فقد اعتقدوا أنهم ما داموا على دينهم فإنهم في أمن، وإن اتبعوا الرسول نزل بهم البلاء، فبيَّن الله لهم أن الأمر بالعكس، وهو إن تركوا دينهم وأسلموا أمنهم الله من عذاب الدنيا والآخرة، وإن داموا على دينهم لم يؤمنهم الله من عذاب الدارين، بدليل أنه أهلك كثيراً من القرى بأنواع العذاب لكفرهم.

وهذا هو الرد الثاني على شبهتهم، فإنه بعد أن بين ما خص به أهل مكة من النعم، أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية، الذين كانوا في رغد من العيش، فكذبوا الرسل، فأزال عنهم تلك النعم، وأحل بهم النقم.

وفي «أبي السعود»: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ . . .﴾ إلخ، بيَّن الله[3] بهذا أن الأمر بالعكس، وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله، ولا يغتروا بالأمن الحاصل لهم؛ أي: وكثيراً من أهل القرى كان حالهم كحال هؤلاء في الأمن والخصب، فبطروا وطغوا فدمرهم الله، وخرَّب ديارهم .اهـ.

قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام .اهـ وإجمال

---

(١) النسفي.

(٢) الفتوحات.

(٣) أبو السعود.

هذا: إن قولكم لا نؤمن خوفاً من زوال النعم ليس بحق، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم.

﴿فَتِلْكَ﴾ القرى التي تمرون عليها في أسفاركم إلى الشام، كديار ثمود وقوم شعيب، ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾؛ أي: مساكن الذين ظلموا ـ ومنازلهم قد خربت ـ باقية الآثار، تشاهدونها في ذهابكم وإيابكم، حالة كونها ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هلاكهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الزمن للمارة، فإنهم يلبثون فيها يوماً أو بعض يوم للاستراحة والعبرة، ويحتمل[1] أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فلم يبق من يسكنها من أعقابهم إلا قليلاً، إذ لا بركة في سُكنى الأرض الشؤم، وقال بعضهم: سكنها الهام والبوم، ولذا كان من تسبيحها سبحان الحي الذي لا يموت، وقيل: لم يُعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم لتلك المساكن، لأنهم لم يتركوا وارثاً يرث منازلهم وأموالهم، ولم يخلفوا أحداً يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم، وصار أمرها إلى الله تعالى، لأنه الباقي بعد فناء الخلق، والشيء إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله، لأنه هو الباقي بعد خلقه. ونحو الآية قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه عن عدله، وأنه لا يُهلك أحداً إلا بعد الإنذار، وقيام الحجة بإرسال الرسل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: وما كانت عادة ربك يا محمد وسنته في كل زمان أن يُهلك أهل القرى قبل الإنذار ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾؛ أي: في أصلها وكُبْراها التي تلك القرى سوادها وأتباعها، وخص الأصل والكبرى لكون أهلها أفطن وأشرف، والرسل إنما تبعث غالباً إلى الأشراف، وهم غالباً يسكنون المدن والقصبات ـ جمع قصبة ـ وهي العاصمة.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقة بالحق، ويدعوهم إليه بالترغيب حيناً

---

(١) روح البيان.

والترهيب حيناً آخر، وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة.

والمعنى[1]: أي وما صح ولا استقام أن يكون الله سبحانه مهلك القرى الكافرة حتى يبعث في أمها رسولاً، يُنذرهم ويتلو عليهم آيات الله، الناطقة بما أوجبه الله عليهم، وما أعده من الثواب للمطيع، والعقاب للعاصي، ومعنى أمها أكبرها وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأي، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى، وقال الحسن: أم القرى أولها.

وفي «التكملة»: الأم هي مكة، والرسول محمد ﷺ، وذلك لأن الأرض دُحيت من تحتها، فيكون المعنى: وما كان ربك يا محمد مهلك البلدان التي هي حوالي مكة في عصرك وزمانك حتى يبعث في أمها؛ أي: في أم القرى التي هي مكة رسولاً، هو أنت.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بالعقوبة بعد بعثنا في أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق، ويرشدهم إليه في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: إلا حال كون أهلها ظالمين بتكذيب رسولنا، والكفر بآياتنا، فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية، لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث، وهذه الجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ والاستثناء فيها مفرَّغ من أعم الأحوال، كما قدَّرنا.

ودلت الآية[2]: على أن الظلم سبب الهلاك، ولذا قيل: الظلم قاطع الحياة ومانع النبات، وكذا الكفران، يقال: النعم محتاجة إلى الأكفاء، كما تحتاج إليها الكرائم من النساء، وأهل البطر ليسوا من أكفاء النعم، كما أن الأراذل ليسوا أكفاء عقائل الحُرُم - جمع عقيلة - وعقيلة كل شيء أكرمه، وحرم الرجل أهله، فكما أن الكريمة من النساء ليست بكفءٍ للرذيل من الرجال، فيفرَّق بينهما للحوق العار، فكذا النعمة تُسْلب من أهل البطر والكبر والغرور والكفران، وأما أهل

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الشكر فلا يضيع سعيهم بل يزداد حسن حالهم، ولله تعالى رزق واسع في البلاد، ولا فرق فيه بين الشاكر والكفور من العباد.

فعلى[١] العاقل أن يعرف الله تعالى، ويعرف قدر النعمة، فيقيِّدها بالشكر، ولا يضع الكفر موضع الشكر، فإنه ظلم صريح يحصل منه الهلاك مطلقاً، إما للقلب بالإعراض عن الله تعالى ونسيان أن العطاء منه، وإما للقالب بالبطش الشديد، وكم رأينا في الدهر من أمثاله من خرب قلبه، ثم خرب داره، ووجد آخر الأمر بواره، ولكن الإنسان من النسيان، لا يتذكر ولا يعتبر، بل يمضي على حاله من الغفلة، أيقظنا الله وإياكم من نوم الغفلة في كل لحظة، وشرفنا في جميع الساعات باليقظة الكاملة المحضة.

﴿وَمَا﴾ مبتدأ متضمنة لمعنى الشرط لدخول الفاء في خبرها، بخلاف الثانية، ﴿أُوتِيتُم﴾ أي: أُعطيتم، والخطاب لكفار مكة كما في «الوسيط»، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾، أي: فهو شيء شأنه أن يُتمتع ويُتزين به أياماً قلائل، ثم أنتم وهو إلى فناء وزوال، سمي منافع الدنيا متاعاً، لأنها تفنى ولا تبقى كمتاع البيت.

أي[٢]: وما أُعطيتم يا معشر قريش من أسباب الدنيا كالمال والخدم فهو شيء عادته أن يُنتفع به، ويُتزين به أيام حياتكم، وقُرِىء: ﴿فمتاعاً الحياة الدنيا﴾ بنصب الكلمتين، الأولى على المصدرية، والثانية على الظرفية؛ أي: يتمتعون متاعاً في الحياة الدنيا.

﴿وَمَا﴾ موصولة؛ أي: والجزاء الذي ادُّخِر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة من شوائب الألم، وبهجة كاملة عارية من مسة الهمم ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبدي، وهذا ينقضي بسرعة؛ أي: فمنافع الآخرة لمن آمن بالله وبرسوله أعظم وأدوم مما لكم في الدنيا، فتصيب كل أحد في الآخرة بالقياس إلى منافع الدنيا كلها، كالذرة بالقياس إلى البحر، فكيف

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.

قلتم: تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا؟!.

وقيل: ﴿مَآ﴾ شرطية ﴿من شيء﴾ بيان لها، وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة جوابها، أي: فهو متاع الحياة الدنيا. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الدنيا فانية، والآخرة باقية؛ أي: ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتؤثرون الشقاوة الحاصلة من الكفر والمعاصي على السعادة المتولدة من الإيمان والطاعات.

وقرأ الجمهور(١): ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالتاء الفوقانية على خطابهم وتوبيخهم، في كونهم أهملوا العقل في العاقبة، ونسب هذه القراءة أبو علي في «الحجة» إلى أبي عمرو وحده، وفي «التحرير والتحبير» بين الياء والتاء عن أبي عمرو، وقرأ أبو عمرو: ﴿يعقلون﴾ بالياء إعراض عن خطابهم، وخطاب لغيرهم، كأنه قال انظروا إلى هؤلاء وسخافة عقولهم، وقراءة الجمهور أرجح لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

ومعنى الآية(٢): أي وما أُعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد فإنما هو متاع، تتمتعون به في الحياة الدنيا، وتتزينون به فيها، وهو لا يُغني عنكم شيئاً عند ربكم، ولا يُجديكم شروى نقير لديه، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته، لدوامه وبقائه، بخلاف ما عندكم، فإنه ينفد وينقطع بعد أمد قصير، ونحو الآية قوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾، وقوله: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾. وفي الحديث: «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر ماذا يرجع إليه».

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا عقول لكم أيها القوم، تتدبرون بها فتعرفوا الخير من الشر، وتختاروا لأنفسكم خير المنزلتين على شرهما، وتؤثروا الدائم الذي لا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نفاد له على الفاني الذي ينقطع، ومن أجل هذا أثر عن الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس، صُرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى، وكأنه ـ رحمه الله ـ أخذه من هذه الآية.

قوله تعالى[1]: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ فإن قلت: لم قاله هنا بالواو وفي الشورى بالفاء، حيث قال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؟ قلت: لأن ما هنا لم يتعلق بما قبله كبير تعلق، فناسب الإتيان به بالواو المقتضية لمطلق الجمع، وما هناك متعلق بما قبله أشد تعلق، لأنه عقَّب مالهم من المخافة بما لهم من الأمنة، فناسب الإتيان به بالفاء المقتضية للتعقيب.

فإن قلت: قال هنا بزيادة ﴿وَزِينَتُهَا﴾ وفي الشورى بحذفه؟

قلت: لأن ما هنا لسبقه قصد ذكر جميع ما بُسط من رزق أعراض الدنيا، فذكر ﴿وَزِينَتُهَا﴾ مع المتاع، ليستوعب جميع ذلك، إذ المتاع ما لا بد منه في الحياة، من مأكول ومشروب وملبوس ومسكن ومنكوح، والزينة ما يتجمل به الإنسان، وحذفه في الشورى اختصاراً لعلمه من المذكور هنا.

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما في الدنيا من زينة فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أمتاع الدنيا وزينتها كما عند الله، فمن وعدناه وعداً حسناً كمن متعناه متاع الحياة الدنيا.

وعبارة «أبي السعود» هنا: والفاء لترتيب إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله .اهـ، و﴿من﴾[2] موصولة مبتدأ؛ أي: فمن وعدناه على إيمانه وطاعته ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعم التي لا تُحصى، فإن حسن الوعد بحسن الموعود به.

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) روح البيان.

﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الموعود له ﴿لَٰقِيهِ﴾؛ أي: لاقي ذلك الوعد الحسن، ورائيه ومصيبه ومدركه لا محالة، لاستحالة الخلف في وعده تعالى محمداً وأصحابه، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، ﴿كَمَن﴾ موصولة خبر للأولى؛ أي: كمن ﴿مَّتَّعْنَٰهُ﴾ وأعطيناه ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من المال والخدم، كأبي جهل وأضرابه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو النار والعذاب، معطوف[1] على قوله: ﴿مَّتَّعْنَٰهُ﴾ داخل معه في حيز الصلة، مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له.

والمعنى: ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المحضرين بالذين أُحضروا للعذاب اقتضاه المقام، والاستفهام للإنكار كما مر؛ أي: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وُعد به، مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن، وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا، يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ لا.

وقرأ طلحة: ﴿أمن وعدناه﴾ بغير فاء، وقرأ الجمهور: ﴿ثم هو﴾ بضم الهاء، وقرأ الكسائي وقالون: بسكون الهاء إجراءً لثم مجرى الواو والفاء.

وعبارة البروسوي هنا قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[2] وثم للتراخي في الزمان؛ أي: لتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع، أو في الرتبة. ومعنى الفاء في ﴿أَفَمَن﴾ ترتيب إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله؛ أي: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين؛ أي: لا يسوَّى بينهما، فليس من أكرم بالوعد الأعلى ووجدان المولى، وهو المؤمن، كمن أُهين بالوعيد والوقوع في الجحيم في العقبى، وهو الكافر، وذلك بإزاء شهوة ساعة وجدها في الدنيا،

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

ويقال: رب شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً.

والمعنى[1]: أي أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها، مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، فآمن بما وعدناه وأطاعنا، فاستحق أن ننجز له وعدنا، فهو لاقيه حتماً وصائر إليه، كمن متعناه الحياة الدنيا، ونسي العمل بما وعدنا به أهل الطاعة، وآثر لذة عاجلة على لذة آجلة لا تنفد، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله كان من المحضرين لعذابه وأليم عقابه؟

وهذه الآية تبين حال كل كافر متمتع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة، وخلاصة ذلك: أفمن سمع كتاب الله فصدق به، وآمن بما وعده الله فيه، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا، وقد كفر بالله وآياته، ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه، الجواب الذي لا ثاني له أنهما لا يستويان في نظر العقل الراجح.

وتلخيص المعنى: أنهم لما قالوا: تركنا الدين للدنيا.. قيل لهم: لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضي بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وبعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم، وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إما معطوف على يوم القيامة، أو منصوب باذكر المقدر، والمراد به يوم القيامة، والضمير للكفار؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم ينادي الكفار ربهم، وهو عليهم غضبان ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء؛ أي[2]: فيقول الله سبحانه لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم، ومفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان؛ أي: تزعمونهم شركائي، لدلالة الكلام عليهما؛ أي: أين الذين عبدتموهم من دوني، وأثبتم لهم شركة معي في استحقاق العبادة، وتزعمون في الدنيا أنهم يشفعون لكم في

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الآخرة، أين هم لينصروكم من هذا الذي نزل بكم.

والمعنى[1]: أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادي رب العزة هؤلاء الذين يضلون الناس، ويصدون عن سبيل الله، فيقول لهم: أين شركائي من الملائكة والجن والكواكب والأصنام، الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم لي شركاء؟ ليخلصوكم من هذا الذي نزل بكم من العذاب، وهذا السؤال للإهانة والتحقير، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قال في «كشف الأسرار»: وسؤالهم عن ذلك ضرب من ضروب العذاب، لأنه لا جواب لهم إلا ما فيه فضيحتهم، واعترافهم بجهل أنفسهم.

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال، فقال: ﴿قَالَ﴾[2] استئناف مبني على حكاية السؤال، كأنه قيل: فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل: قال: ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ في الأزل بأن يكونوا من أهل النار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ...﴾ الآية، كما في «التأويلات النجمية».

وقال بعض أهل التفسير: معنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ثبت مقتضاه، وتحقق مؤداه، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وغيره من آيات الوعيد، والمراد بهم شركاؤهم من الشياطين، أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله، بأن أطاعوهم في كل ما أمروهم به ونهوهم عنه.

وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضاً، لأصالتهم في الكفر، واستحقاق العذاب، ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة، لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحقارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يا مالك أمرنا ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الأتباع والعبدة، مبتدأ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبره ﴿أَغْوَيْنَآ﴾ صلة الموصول، حذف منها العائد، ومرادهم بالإشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم، وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده؛ أي: قال الرؤساء: يا ربنا هؤلاء الأتباع والعبدة هم الذين أغويناهم، وأضللناهم بتسويلنا لهم، ودعوناهم إلى الغي والضلال ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَآ﴾؛ أي: أضللناهم كما ضللنا، فغووا غياً مثل غيّنا.

والمعنى: هؤلاء أتباعنا آثروا الكفر على الإيمان، كما آثرناه نحن، ونحن كنا السبب في كفرهم فقبلوا منا، وهو استئناف[1] للدلالة على أنهم غووا باختيارهم، وأنهم لم يفعلوا لهم إلا وسوسة وتسويلاً، وهذا هو الجواب في[2] الحقيقة، وما قبله تمهيد له؛ أي: ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغوينا بما قضيت لنا ولهم الغواية والضلالة، يعنون[3] أنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم، لأن إغوائنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذاً بين غيّنا وغيّهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

ولم يقولوا: أغويناهم كما أغويتنا، كما قال إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ تأدباً مع الرب سبحانه، وقرأ[4] أبان عن عاصم وبعض الشاميين: ﴿كَمَا غَوِيْنَا﴾ بكسر الواو، قال ابن خالويه، وليس ذلك مختاراً، لأن كلام العرب غويت من الضلالة، وغويت من البشم.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا رب منهم، ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوىً منهم، وهو تقرير لما قبله، ولذا لم يُعطف عليه، قوله: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إيانا مفعول ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم،

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.
(٤) البحر المحيط.

ويطيعون شهواتهم، والمعنى: أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرؤوا ممن أطاعهم، قال الزجاج: بريء بعضهم من بعض، وصاروا أعداء، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وحاصل معنى الآية: أي قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر - الذين حق عليهم غضب الله، ولزمهم الوعيد بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فدخلوا النار -: ربنا هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم أغويناهم باختيارهم، كما غوينا نحن كذلك، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل، لا القسر والإلجاء، فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال.

وخلاصة ذلك: أن تبعة غيِّهم واقعة عليهم، لا علينا، إذ لم نلجئهم إلى ذلك، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب، فإن كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان، بما وضع من الأدلة العقلية، وبعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد، والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر داعياً إلى الإيمان.

ثم زاد الجملة الأولى توكيداً بقوله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر والمعاصي، اتباعاً لهوى أنفسهم، فلا لوم علينا في الحقيقة بسببهم، ونحو الآية ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

ثم ذكر ما هو كالعلة لنفي الشبهة عنهم، فقال: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: هم ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم، ثم طلب إليهم دعاء الشركاء توبيخاً لهم وتهكماً بهم، فقال: ﴿وَقِيلَ﴾ لمن عبد غير الله تعالى توبيخاً وتهديداً، والقائلون الخزنة ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم العذاب.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ أي: فدعا العابدون معبوداتهم عند ذلك لشدة حيرتهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾؛ أي: المعبودون ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للعابدين ولا نفعوهم بوجه من وجوه

النفع، ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، ﴿وَرَأَوُا﴾؛ أي: كل من العابدين والمعبودين ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم، وتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ في الدنيا؛ أي: وتمنوا عندئذٍ كونهم مهتدين في الدنيا، على أن ﴿لَوْ﴾ مصدرية معمولة لمحذوف، وقيل: إن ﴿لَوْ﴾ شرطية جوابها محذوف، تقديره: لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لما رأوا العذاب في الآخرة، وقيل: ﴿لَوْ﴾ هنا للتمني؛ أي: تمنوا كونهم مهتدين، لا ضالين[1]، وقيل: المعنى لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب.

وحاصل المعنى[2]: أي وقيل للمشركين بالله الآلهة والأنداد في الدنيا: ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلاً منكم شركتهم لله، ليدفعوا العذاب عنكم، فدعوهم لفرط الحيرة وغلبة الدهشة، فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة، والمقصود من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رؤوس الأشهاد، بدعاء من لا نفع له، ولا فائدة منه.

ثم بيَّن حالهم حينئذٍ، وتمنِّيهم أن لو كانوا وُفِّقوا في الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد، فقال: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: وأيقن الداعون والمدعوون أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وودوا حين عاينوا لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا، ونحو الآية قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

وبعد أن سُئِلوا عن إشراكهم بالله ـ توبيخاً لهم ـ سُئلوا عن تكذيبهم الأنبياء، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة يوم ينادي الله سبحانه وتعالى الكفار نداء تقريع وتوبيخ ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه تفسيراً للنداء ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلتهم إليكم حين دعوكم إلى توحيدي وعبادتي، ونهوكم عن الشرك والمعاصي؛ أي: أي شيء كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين، حين بلَّغوكم رسالتي، أبالتصديق أم بالتكذيب؟ فهو معطوف

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

على ما قبله، فسُئلوا أولاً عن إشراكهم، وثانياً عن جوابهم الرسل الذين نهوهم عن ذلك. ذكره «أبو السعود».

والمعنى[١]: أي واذكر يا محمد يوم ينادي المشركين ربُّهم، وقد برز الناس في صعيد واحد، منهم المطيع، ومنهم العاصي، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام، وتراكبت الأقدام على الأقدام، فيقول لهم: ماذا أجبتم المرسلين، فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام.

ثم بيَّن أنهم لا يحارون جواباً، ولا يجدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم، فقال: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾؛ أي: فخفيت عليهم الأخبار يوم إذ سُئلوا عن ذلك، ولم يجدوا معذرة يُجيبون بها، فلم يكن لهم إلا السكوت جواباً، والمراد بالأنباء[٢] ما أجابوا به الرسل أو ما يعمها، وإذا كانت الرسل يفوِّضون العلم في ذلك المقام الهائل إلى علاَّم الغيوب، مع نزاهتهم عن غائلة السؤال، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾، فما ظنُّك بهؤلاء الضلال.

قال أهل التفسير: أي صارت الأنباء كالعمى عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنباء؛ أي: الأخبار، وقد عكس بأن أثبت العمى الذي هو حالهم للأنباء مبالغة، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه.

ثم بيَّن أنه تخفي عليهم كل طرق العلم التي كانت تجديهم في الدنيا، فقال: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: فلا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب النافع، كما يتساءل الناس في المشكلات، لأنهم يتساوون جميعاً في العجز عن الجواب المنجي، لما اعتراهم من الدهشة، وعظيم الهول فلا نطق ولا عقل، أو لعلمهم بأن الكل سواء في الجهل، وفي «الخازن»: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: لا يجيبون ولا يحتجون، وقيل: يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضاً .اهـ.

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم، وقرأ الأعمش وجُناح بن حُبيش وأبو زرعة هرم بن عمرو بن جرير: بضم العين وتشديد الميم، والمعنى: أُظلمت عليهم الأمور فلم يستطيعوا أن يُخبروا بما فيه نجاة لهم. وأتى بلفظ الماضي لتحقق وقوعه، وقرأ طلحة: ﴿يساءلون﴾ بإدغام التاء في السين؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً فيما يتحاجون به، إذ أيقنوا أنه لا حجة لهم، فهم في عمى وعجز عن الجواب، والمراد بالنبأ الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله.

ولما ذكر تعالى أحوال الكفار يوم القيامة، وما يكون منهم فيه أخبر بأن من تاب من الشرك وآمن وعمل صالحاً، فإنه مرجوٌّ له الفلاح والفوز في الآخرة، وهذا ترغيب للكافر في الإسلام، وضمان له بالفلاح، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بما جاء به النبي ﷺ ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله ﴿فَعَسَىٰٓ﴾؛ أي: فحق ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ أي: من الفائزين بالمطلوب عند الله تعالى الناجين من المكروه.

و﴿عسى﴾ وإن كانت في الأصل للرجاء فهو من الله سبحانه واجب، مفيد للتحقق، على ما هو عادة الكرام، وقيل: إن الترجي هو من التائب المذكور، لا من جهة الله سبحانه، بمعنى فليتوقع الفلاح، والمعنى[2]: فأما من تاب من المشركين وراجع الحق، وأخلص لله بالألوهية، وأفرد له العبادة وصدَّق نبيَّه، وعمل بما أمر به في كتابه على لسان نبيه فهو من الفائزين الذين أدركوا مطالبهم، وفازوا بجنات النعيم، خالدين فيها أبداً.

قال في «كشف الأسرار»: إنما قال: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾[3] يعني إن دام على التوبة والعمل الصالح، فإن المنقطع لا يجد الفلاح، ونعوذ بالله من الحور بعدالكور، فينبغي لأهل الآخرة أن يباشروا الأعمال الصالحة، ويدوموا على أورادهم، وللأعمال تأثير عظيم في تحصيل الدرجات، وجلب المنافع والبركات، ولها نفع

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

لأهل السعادة في الدنيا والآخرة، ولأهل الشقاوة لكن في الدنيا فقط، فإنهم يجلبون بها المقاصد الدنيوية من المناصب والأموال والنعم، وقد عوَّض الله سبحانه عن عبادة الشيطان قبل كفره طول عمره، ورأى أثرها في الدنيا، فلا بد من السعي بالإيمان والعمل الصالح .اهـ.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء اختياره واصطفاءه من خلقه كمحمد ﷺ؛ أي: فكما أن الخلق إليه فكذا الاختيار في جميع الأشياء له، لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون، قال الزجاج: الوقف على ﴿وَيَخْتَارُ﴾ تام، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نافية؛ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم، وهذا[1] متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم، وقيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود، حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به.

ولم يُدخل[2] العاطف في ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ لأنه بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، إذ المعنى: أن الخيرة لله سبحانه، وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه، ومن جعل ﴿مَا﴾ موصولة ووصل الكلام على معنى: ويختار الذي لهم فيه الخيرة فقد أبعد، بل ﴿مَا﴾ لنفي اختيار الخلق، وتقرير اختيار الحق سبحانه، ومن قال معناه: ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال، و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ يستعمل بمعنى المصدر، وهو التخير، وبمعنى المتخير، كقولهم محمد خيرة الله من خلقه.

ومعنى الآية[3]: أي وربك يا محمد يخلق ما يشاء خلقه، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفي ما يريد أن يصطفيه ويختاره، فيختار أقواماً لأداء الرسالة وهداية الخلق، وإصلاح ما فسد من نظم العالم، ويميز بعض مخلوقاته

---

(١) الشوكاني.
(٢) النسفي.
(٣) المراغي.

عن بعض، ويفضله بما شاء، ويجعله مقدماً عنده، وليس لهم إلا اتباع ما اصطفاه، وهو لم يصطف شركاءهم، الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة، فما هم إلا في ضلال مبين، صُدوا عن عمل ما يجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله، وتصدوا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال.

ونحو الآية قوله[1]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وقال الشاعر:

ٱلْعَبْدُ ذُوْ ضَجَرٍ وَٱلرَّبُّ ذُوْ قَدَرٍ وَٱلدَّهْرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلرِّزْقُ مَقْسُوْمُ
وَٱلْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا ٱخْتَارَ خَالِقُنَا وَفِيْ ٱخْتِيَارِ سِوَاهُ ٱللَّوْمُ وَٱلشُّوْمُ

وروت عائشة عن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خر لي واختر لي». وروى أنس أن النبي ﷺ قال له: «يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك، فإن الخير فيه»، ويُستحب أن لا يقدم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة فيه، وذلك بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾. وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وعن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»، قال: ويسمي حاجته.

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: ليس لهم أن

---

(١) المراغي.

يختاروا على الله شيئاً، وله الخيرة عليهم، فله أن يرسل من يشاء رسولاً بحسب ما يعلمه من الحكمة والمصلحة، دون أن يكون ذلك منوطاً بمال أو جاه، كما خُيّل إلى بعض المشركين، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه في سلطانه أحد، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزه الله بذاته تنزهاً خاصاً به من أن ينازعه أحد، ويشاركه مشارك، ويزاحم اختيارَهُ اختيارَهُ ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكهم، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى مشيئته الأزلية في الخلق والاختيار، وأنه فاعل مختار، يخلق ما شاء، كيف يشاء، ممن يشاء، ولما يشاء، متى يشاء، وله اختيار في خلق الأشياء، فيختار وجود بعض الأشياء في العدم فيُبقيه فانياً في العدم ولا يوجده، وله الخيرة في أنه يخلق بعض الأشياء جماداً، وبعض الأشياء نباتاً، وبعض الأشياء حيواناً، وبعض الأشياء إنساناً، وأن يخلق بعض الإنسان كافراً، وبعض الإنسان مؤمناً، وبعضهم ولياً، وبعضهم نبياً، وبعضهم رسولاً، وأن يخلق بعض الأشياء شيطاناً، وبعضها جناً، وبعضها ملكاً، وبعض الملك كروبياً وبعضهم روحانياً، وله أن يختار بعض الخلق مقبولاً، وبعضهم مردوداً. انتهى.

والمعنى[1]: أي تنزيهاً له وعلواً عن إشراك المشركين، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاحمه فيه، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحيتهم للاصطفاء، فإذا أراد النبي ﷺ أن يهدي أحداً ممن يحب، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولاً من عظمائهم قال الله لهم: ليس لكم من الأمر شيء، فلا النبي ﷺ بقادر على هدي عمه، ولا أهل مكة يصلون إلى أن تكون الرسالة في عظمائهم.

ثم بيَّن أن اختياره تعالى مبني على العلم الصحيح، لا اختيارهم، فقال:

---

(١) المراغي.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد يعلم ﴿مَا تُكِنُّ﴾؛ أي: تضمر وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: قلوبهم من الشرك أو من عداوة النبي ﷺ، وحقد المؤمنين، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يظهرون بألسنتهم وجوارحهم كالطعن في النبوة وتكذيب القرآن.

قرأ الجمهور[1]: ﴿تُكِنُّ﴾ بضم التاء الفوقية وكسر الكاف، وقرأ ابن محيصن وحميد بفتح الفوقية وضم الكاف، أي: إن اختياره من يختار منهم للإيمان مبني على علم منه بسرائر أمورهم وبواديها، فيختار للخير أهله، فيوفقهم له، ويولي الشر أهله، ويخليهم وإياه. ونحو الآية قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

ولما كان علمه بذلك جاء من كونه إلهاً واحداً فرداً صمداً، وكان غيره لا يعلم من علمه إلا ما علمه، قال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المستحق للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا أحد يستحقها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه جل وعلا.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ يصلح للألوهية ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو المتوحد بعز إلهيته، المتفرد بجلال ربوبيته، لا شبيه يساويه، ولا نظير يضاهيه، فلا معبود سواه، ولا يحيط الواصفون بكنه عظمته وهو العليم بكل شيء، القادر على كل شيء.

ثم ذكر بعض صفات كماله، فقال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ استحقاقاً على عظمته والشكر استيجاباً على نعمته، ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿وَ﴾ في ﴿الآخرةِ﴾؛ أي[2]: هو المحمود في جميع ما يفعل في الدنيا والآخرة، لأنه المعطي لجميع النعم كلها عاجلها وآجلها، والمفيض لها على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، وبقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾. ابتهاجاً وفرحاً بفضله، والتذاذاً بحمده؛ أي: بلا كلفة.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ فيما يخلق ويختار، ويعز ويذل، ويحيي ويميت؛ أي: له

---

(١) الشوكاني.   (٢) المراغي.

القضاء النافذ في كل شيء، من غير مشاركة فيه لغيره، فلا معقِّب لحكمه، ولا راد لفضله، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث من القبور يوم القيامة، فيجزي كل عامل جزاء عمله، إن خيراً وإن شراً، ولا يخفى عليه منهم خافية.

ويقال[1]: ثمانية أشياء تعم الخلق كلهم: الموت، والحشر، وقراءة الكتاب، والميزان، والحساب، والصراط، والسؤال، والجزاء، فظهر أن الحكم النافذ بيد الله تعالى، ولو كان شيء منه في يد الخلق لمنعوا عن أنفسهم الموت، ودفعوا ملاقاة الأعمال في الحشر، وطريق النجاة التسليم والرضى، والرجوع إلى الله تعالى بالاختيار، فإنه إذا رجع العبد إلى الله تعالى بالاختيار لم يلق عنده شدة، بخلاف ما إذا رجع بالاضطرار، ومن علامات الرجوع إلى الله إصلاح السر والعلانية، والحمد له على كل حال، فإن الجزع والاضطراب من الجهل بمبدأ الأمر ومبديه، وليخفف ألم البلاء عنك علمك بأن الله هو المبتلي، وقل في الضراء والسراء: لا إله إلا هو، والتوحيد أفضل الطاعات، وخير الأذكار والحسنات، وصورته منجية، فكيف بمعناه.

وروي: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى لا تسأل مني الغنى فإنك لا تجده، وكل خلق مفتقر إلي، وأنا الغني، ولا تسأل علم الغيب، فإنه لا يعلم الغيب غيري، ولا تسألني أن أكف لسان الخلق عنك، فإني خلقتهم ورزقتهم وأُميتهم وأُحييهم، وهم يذكرونني بالسوء، ولم أكف لسانهم عني، ولا أكف لسانهم عنك، ولا تسأل البقاء، فإنك لا تجده، وأنا الدائم الباقي».

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين من أهل مكة وغيرهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني، عبر عن الإخبار بالرؤية، لأنها سببه؛ أي: أخبروني أيها القوم ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾؛ أي: دائماً مستمراً لا نهار معه

(١) روح البيان.

من السرد، وهو المتابعة والاطراد، والميم زائدة، وقيل: إن ميمه أصلية ووزنه فعلل، لا فعمل، وهو الظاهر، وقدم ذكر الليل على ذكر النهار، لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل، كذا في «برهان القرآن»؛ أي: دائماً مستمراً ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفق الغائر[1] ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لإله.

﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفة أخرى له، عليها يدور أمر التبكيت والإلزام، قصد انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة؛ أي: أيُّ معبود غير الله سبحانه يأتيكم بضياء النهار، فتستضيئون به، ولم يقل[2] هل إله، فذكر بمن لإيراد الإلزام على زعمهم أن غيره آلهة، وفي هذا الأسلوب من التقريع والتبكيت والإلزام ما لا يخفى، وأتى بضياء[3]، وهو نور الشمس، ولم يجيء التركيب بنهار تتصرفون فيه، كما جاء بليل تسكنون فيه، لأن منافع الضياء متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده.

بيَّن لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة، ليقوموا بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً إلى يوم القيامة لم يتمكنوا فيه من الحركة فيه، وطلب ما لا بد لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس، ثم امتن عليهم فقال: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؛ أي: هل لكم إله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء؛ أي: بنور تطلبون فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به ثماركم وتزهو عنده زرائعكم، وتعيش فيه دوابكم، وعن ابن كثير[4]: ﴿بضئاء﴾ بهمزتين.

---

(١) الغائر، أي: الغير المرئي وليس تحت الأرض بالكلية حتى يكون تكراراً .اهـ شهاب.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البيضاوي.

﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ ما يقال لكم سماع تدبر وتفكر، فتتعظوا وتعلموا أن ربكم هو الذي يأتي بالليل، ويزيل النهار إذا شاء، وإذا أراد أتى بالنهار وأذهب الليل، ولا يقدر على ذلك سواه تعالى، والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي المضمَّن للإنكار داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: ألا تتفكرون فتسمعون ما يقال لكم.

وختم هذه الآية به بناء على الليل لا على الضياء. وقال بعضهم قرن بالضياء السمع، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر، يعني استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا﴾؛ أي: دائماً، لا ليل معه أبداً ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء، أو تحريكها فوق الأرض ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أيُّ معبود غير الله الذي له عبادة كل شيء ﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ﴾ استراحة من متابعة الأسفار وأشغال النهار؛ أي: تستقرون فيه وتهدؤون، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتعرضون عن هذه النعم العظيمة، فلا تبصرون الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك، دون غيره، ومن له القدرة التي خالف بها بين الليل والنهار، وإذا أقروا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل فقد لزمتهم الحجة، وبطل ما يستمسكون به من الشبه الساقطة، وقرن بالليل قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك.

وجاء تذييل الآيتين بقوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ و﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لبيان أنهم لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر، وعبارة «فتح الرحمٰن»: هنا ختم آية الليل بقوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ وآية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لمناسبة الليل المظلم الساكن للسماع، ومناسبة النهار النيِّر للأبصار، وإنما قدم الليل على النهار ليستريح الإنسان فيه، فيقوم إلى تحصيل ما هو مضطر

إليه من عبادة وغيرها بنشاط وخفة، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم، إذ لا تعب فيها يحتاج إلى ليل يستريح أهلها فيه. انتهى.

واعلم[١]: أن فلك الشمس يدور في بعض المواضع رحوياً لا غروب للشمس فيه، فنهاره سرمدي فلا يعيش الحيوان فيه، ولا ينبت النبات فيه من قوة حرارة الشمس فيه، وكذلك يدور فلك الشمس في بعض المواضع بعكس هذا تحت الأرض ليس للشمس فيه طلوع فليله سرمدي، فلا يعيش الحيوان أيضاً فيه، ولا ينبت النبات ثمة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، و﴿مِن﴾ هنا للسبب؛ أي: وبسبب[٢] رحمته إياكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: خلقهما لمنفعتكم.

ثم علل جعل كل واحد منهما، فبدأ بعلة الأول، وهو الليل، وهي ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: في الليل، ثم بعلة الثاني، وهو النهار، وهي ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: في النهار بأنواع المكاسب، وفي هذا مدح للسعي في طلب الرزق، كما ورد في الحديث: «الكاسب حبيب الله» وهو لا ينافي التوكل.

ثم ذكر بما يشبه العلة لجعل هذين الشيئين، وهو ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا الله سبحانه وتعالى على هذه الرحمة والنعمة العظيمتين، وهذا النوع من علم البديع يسمى التفسير، وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها، كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله سبحانه.

أي[٣]: ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار، وخالف بينهما، فجعل الليل ظلاماً لتستقروا فيه، راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهاراً في شؤونكم المختلفة، وجعل النهار ضياء لتتصرفوا فيه بأبصاركم لمعايشكم، وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم بفضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم، وتخلصوا له الحمد، لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

شريك، ومن ثم ينبغي أن لا يكون له شريك يُحمد.

والخلاصة: أن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مر الزمان، والمرء في حاجة إليهما، إذ لا غنى له عن الكدح في الحياة لتحصيل قوته، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضي لولا ضوء النهار، كما لا يكمل له السعي على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل، ولا يقدرعلى شيء من ذلك إلا الله الواحد القهار، وقال الزجاج: يجوز أن يكون معنى الآية: لتسكنوا فيهما، ولتبتغوا من فضل الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله فيه. انتهى.

واعلم[١]: أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً، وطلب الرزق في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشيء مما له نور، كالسراج والكهرباء، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد، فلا اعتبار به.

قال إمام الحرمين وغيره من الفضلاء[٢]: لا خلاف أن الشمس تغرب عند قوم وتطلع عند قوم آخرين، والليل يطول عند قوم، ويقصر عند آخرين، وعند خط الاستواء يكون الليل والنهار مستوياً أبداً. وسُئل الشيخ أبو حامد عن بلاد بلغار كيف يصلون، لأن الشمس لا تغرب عندهم إلا مقدار ما بين المغرب والعشاء، ثم تطلع فقال: يُعتبر صومهم وصلاتهم بأقرب البلاد إليهم. والأصح عند أكثر الفقهاء أنهم يقدرون الليل والنهار، ويعتبرون بحسب الساعات. كما قال عليه السلام في أيام الدجال: «يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة» فيقدَّر الصيام والصلاة في زمنه، كذا ورد عن سيد البشر.

قال في «القاموس»: بلغر كقرطق، والعامة تقول: بلغار، مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال شديدة البرد. انتهى، والفجر يطلع في تلك الديار قبل غيبوبة الشفق في أقصر ليالي السنة، فلا يجب على أهاليها العشاء والوتر لعدم سبب

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الوجوب، وهو الوقت، لأنه كما أنه شرط لأداء الصلاة، فهو سبب لوجوبها، فلا تجب بدونه على ما تقرر في الأصول، وكذلك لا تجبان على أهالي بلدة يطلع فيها الفجر لما تغرب الشمس، فيسقط عنهم ما لا يجدون وقته، كما أن رجلاً إذا قطع يداه مع المرفقين أو رجلاه مع الكعبين ففرائض وضوئه ثلاث، لفوات محل الرابع، كذا في كتب الفقه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بـ﴿اذكر﴾؛ أي[1]: واذكر يا محمد لقومك يوم ينادي الله سبحانه وتعالى المشركين ﴿فَيَقُولُ﴾ توبيخاً لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء لي، كرر التقريع والتوبيخ لهم على اتخاذ الشركاء، للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله سبحانه من الإشراك، كما لا شيء أدخل في مرضاة الله تعالى من توحيده، ولاختلاف الحالتين، لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام، وينادون أخرى فيسكتون.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ عطف على ينادي، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقق؛ أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيداً عليهم بما كانوا عليه من الخير والشر، قال مجاهد: هم الأنبياء، وقيل: المراد بالشهيد: العدول من كل أمة، وذلك أنه سبحانه لم يخل عصراً من الأعصار عن عدول يرجع إليهم في أمر الدين، ويكونون حجة على الناس يدعونهم إلى الدين، فيشهدون على الناس بما عملوا من العصيان. والأول أولى.

والمعنى[2]: أي وأحضرنا من كل أمة شهيدها، وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابته أمته فيما أتاهم به عن الله برسالته. ونحو الآية قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ وهذا في موقف من مواقف القيامة، وفي موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

ثم بين ما يطلب منهم بعد هذه الشهادة، فقال: ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل من الأمم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿هَاتُواْ﴾؛ أي: جيبوا، وأصله آتوا ﴿بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ادعيتموه من أن معي شركاء مع إعذار الرسل إليكم، وإقامة الحجج عليكم، فعند ذلك خرسوا عن إقامة الحجة، فلم يجيبوا جواباً، وأيقنوا حينئذٍ بعذاب دائم ونار تتلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى، وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون، كما قال: ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ وأيقنوا يومئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ في الألوهية ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: غاب ﴿عَنْهُم﴾ غيبة الضائع، وذهب وبطل ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: كانوا يختلقونه في الدنيا من الكذب بأن لله شركاء، يستحقون العبادة معه، وهم الأصنام والطواغيت، ولم ينتفعوا بعبادتهم.

قال بعضهم: واعلم أن الشركاء لا تنحصر في الأصنام الظاهرة، بل الأنداد ظاهرة وباطنة، فمنهم من صنمه نفسه، ومنهم من صنمه زوجته، حيث يحبها محبة الله، ويطيعها إطاعة الله، ومنهم من صنمه تجارته، فيتكل عليها، ويترك طاعة الله لأجلها، فهذه كلها لا تنفع يوم القيامة.

حكي: أن مالك بن دينار رحمه الله تعالى كان إذا قرأ في الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ غشي عليه، فسئل فقال: نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونعبد أنفسنا؛ أي: نطيعها في أمرها، ونقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ونرجع إلى أبواب غيره.

روي: أن زكريا عليه السلام لما هرب من اليهود بعد أن قُتل يحيى عليه السلام وتوابعه ورائه تمثل له الشيطان في صورة الراعي، وأشار إليه بدخول الشجرة، فقال زكريا للشجرة: أكتميني فانشقت فدخل فيها، وأخرج الشيطان هدب ردائه، ثم أخبر به اليهود، فشقوا الشجرة بالمنشار، فهذا الشق إنما وقع له لالتجائه إلى الشجرة. واعلم أن الشرك أقبح جميع السيئات وأساسها، كما أن التوحيد أحسن جميع الحسنات وأساسها.

الإعراب

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾.

﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، ﴿أَحْبَبْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: من أحببته. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَٰكِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَهْدِى مَن﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّكَ﴾، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَهْدِى﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾: جازم وفعل مضارع مجزوم، وفاعل مستتر يعود على المتكلمين، ومفعول به، ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَّتَّبِعِ﴾ ﴿نُتَخَطَّفْ﴾: فعل مضارع مجزوم على كونه جواب الشرط، ونائب فاعل مستتر، ﴿مِنْ أَرْضِنَآ﴾: متعلق بنتخطف، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري داخلة على محذوف. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نعصمهم وألم نمكن لهم حرماً آمناً، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿نُمَكِّن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق به، ﴿حَرَمًا﴾: مفعول به، ﴿ءَامِنًا﴾: صفة لـ﴿حَرَمًا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿يُجْبَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿حَرَمًا﴾، ﴿رِّزْقًا﴾: حال من ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ لتخصصه بالإضافة، ولكنه على تأويل المشتق؛ أي:

مرزوقاً، ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾: صفة لـ﴿رِّزْقًا﴾ أو مفعول مطلق معنوي لـ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، لأن معنى الجباية والرزق واحد؛ أي: يرزقون رزقاً. وقيل: مفعول لأجله لـ﴿يُجْبَىٰٓ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو حالية، ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة الاستفهامية أو حال من ضمير ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: أولم نمكن لهم حرماً آمناً، حالة كون أكثرهم لا يعلمون ذلك.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كم﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتخويف قومه من سوء مغبة من كانوا في نعمة فغمطوها وقابلوها بالبطر، ﴿مِن قَرْيَةٍۭ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾ الخبرية مجرور بـ﴿من﴾ الزائدة، ﴿بَطِرَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَرْيَةٍۭ﴾، ﴿مَعِيشَتَهَا﴾: منصوب بنزع الخافض، والخافض المحذوف متعلق بـ﴿بَطِرَتْ﴾، وقيل: منصوب على الظرفية الزمانية؛ أي: أيام معيشتها. ويجوز تضمين ﴿بَطِرَتْ﴾ معنى خسرت، فتكون ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ مفعولاً به، واقتصر عليه أبو البقاء. ﴿فَتِلْكَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾: خبر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية؛ أعني: أهلكنا، ﴿لَمْ تُسْكَن﴾: جازم وفعل مغير ونائب فاعل، ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿تلك﴾، أو في محل النصب حال من ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، ﴿إلاَّ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: سكنى قليلاً، أو صفة لظرف محذوف؛ أي: إلا زماناً قليلاً، أو مكاناً قليلاً، ﴿وَكُنَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية ﴿كنا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: خبره، والجملة إما معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أو حال من فاعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان عادة الله تعالى في عباده، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يَبْعَثَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، ﴿فِيٓ أُمِّهَا﴾ متعلق بـ﴿يَبْعَثَ﴾، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى بعثه رسولاً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿كان﴾. ﴿يَتْلُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿رَسُولًا﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿وَأَهْلُهَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿أهلها ظالمون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، لأن المضاف كان مما يقتضي العمل؛ أي: وما كنا نهلكهم في حال من الأحوال إلا في حال كونهم ظالمين. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿أُوتِيتُم﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها، و﴿التاء﴾: نائب فاعل، ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: حال من ﴿مَآ﴾، أو من الضمير المحذوف الواقع مفعولاً ثانياً لأتى، لأنه بمعنى أعطى، ﴿فَمَتَٰعُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، ﴿فَمَتَٰعُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو متاع الحياة الدنيا، ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾: معطوف على ﴿متاع﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾. ﴿وَمَا﴾

﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿متاع الحياة الدنيا﴾، ولكنه على تقدير رابط؛ أي: حالة كون ما عند الله خيراً منه وأبقى، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾. ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف معلوم من السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تتفكرون فلا تعقلون، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ومفعول ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ محذوف، تقديره: أفلا تعقلون أن الباقي خير من الفاني، يعني أن من لا يُرجِّح منافع الآخرة على منافع الدنيا فإنه يكون خارجاً عن حد العقل، ورحم الله سبحانه الإمام الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله سبحانه، كما مر.

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أمتاع الدنيا وزينتها كما عند الله سبحانه، فمن وعدناه وعداً حسناً كمن متعناه متاع الحياة الدنيا، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَعۡدًا﴾: مفعول مطلق، ﴿حَسَنٗا﴾: صفة ﴿وَعۡدًا﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿لَٰقِيهِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة الصلة، ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿مَتَٰعَ﴾: مفعول مطلق، ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة للحياة، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ،

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم يناديهم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿فَيَقُولُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يقول﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ على كونها مفسرة لها، ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على الفتح، والظرف متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً، ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿شُرَكَآءِىَ﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَزْعُمُونَ﴾: خبره، ومفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان، تقديرهما: تزعمونهم شركائي، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف من ﴿تَزْعُمُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، ﴿أَغْوَيْنَآ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: هؤلاء أتباعنا الذين أغويناهم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر، و﴿ما﴾: مصدرية، ﴿غَوَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مع ﴿ما﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، معمول لفعل محذوف، معطوف على ﴿أَغْوَيْنَآ﴾، تقديره: أغويناهم فغووا غياً كائناً كغينا، وهذا الإعراب

على ما جرى عليه أبو علي الفارسي، وإعراب الزمخشري بأن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفته، ﴿أَغْوَيْنَآ﴾: صلته، وجملة ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ خبره، وهذا الوجه فيه اعتراض، كما تعرفه بالمراجعة إلى المطولات.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿تَبَرَّأْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة لما قبلها، مقررة لها، في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿إِيَّانَا﴾: في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وجملة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾، وجملة ﴿قيل﴾ معطوفة على جملة ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿دعوهم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به. والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، ﴿فَلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَسْتَجِيبُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾. ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿دعوهم﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف، هو فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: لو ثبت كونهم مهتدين في الدنيا لما رأوا العذاب في الآخرة، وجملة ﴿لَوْ﴾ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم يناديهم، والجملة معطوفة على الجملة السابقة، ﴿يَوْمَ﴾: مضاف، وجملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه، كما مر نظيره قريباً، ﴿فَيَقُولُ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ على وجه التفسير له، ﴿مَاذَآ﴾ اسم استفهام مركب في محل النصب على المفعولية المطلقة، لا مفعول به، لأن أجاب لا يتعدى إلى الثاني بنفسه بل بالباء، وإسقاط الجار ليس بقياس، ﴿أَجَبْتُمُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: مفعول به لـ﴿أَجَبْتُمُ﴾، والمعنى: أي إجابة أجبتم المرسلين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿فَعَمِيَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عميت﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يقول﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ﴿عميت﴾، والتنوين فيه عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿عميت﴾.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال المشركين، وأردت بيان حال المؤمنين فأقول لك أما، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿تَابَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾: معطوفان عليه، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، ﴿عسى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، واسمها ضمير مستتر، تقديره: هو يعود على ﴿مَن تَابَ﴾ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾: خبر ﴿يَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر خبر ﴿عسى﴾، تقديره: فعسى كونه من

المفلحين، وجملة ﴿عسى﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، وإن أردت البسط عن إعراب ﴿أما﴾ الشرطية وفاء الفصيحة فراجع شرحنا «الباكورة الجنية في إعراب الآجرومية» عند قول المتن: فأما الضمة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ربك﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَخْلُقُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، والعائد محذوف؛ أي: ما يشاء خلقه، وجملة ﴿وَيَخْتَارُ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَخْلُقُ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَهُمُ﴾: خبرها مقدم، ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: اسمها مؤخر، والجملة مفسرة لما قبلها مقررة لها، لا محل لها من الإعراب. ويجوز أن تكون مستأنفة. وهنا أوجه من الإعراب لا تخلو عن اعتراض. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً؛ أي: سبحوا الله أيها العباد تسبيحاً، أو أسبح الله سبحاناً، والجملة مستأنفة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة على جملة التسبيح، ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو المصدرية، ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَرَبُّكَ﴾ الأول، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما تكنه صدورهم، ﴿وَمَا﴾ عطف على ﴿مَا﴾ الأولى، وجملة ﴿يُعْلِنُونَ﴾ صلتها.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿وَرَبُّكَ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً، تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبر ثان لـ﴿هو﴾، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ثالث لـ﴿هو﴾، ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ﴾: حال من ضمير ﴿لَهُ﴾، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾، ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ عطف فعلية على اسمية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الاستخباري، ﴿رأيتم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿عَلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿سَرْمَدًا﴾، أو حال منه، ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿سَرْمَدًا﴾: مفعوله الثاني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سَرْمَدًا﴾، لأنه بمعنى دائماً، أو بـ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿سَرْمَدًا﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة فأخبروني ماذا تفعلون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين الفعل ومعموله، في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره، ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، ﴿يَأْتِيكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِضِيَآءٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ معلقة عنها باسم

الاستفهام، ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تتفكرون فلا تسمعون ما يقال لكم، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَسْمَعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك الجملة المحذوفة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿عَلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ﴿سَرْمَدًا﴾، ﴿ٱلنَّهَارَ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿سَرْمَدًا﴾: مفعول ثان له، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿سَرْمَدًا﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فأخبروني ماذا تفعلون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين الفعل ومعموله على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾. ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره، ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، وجملة ﴿يَأْتِيكُم﴾ صفة ثانية لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، ﴿بِلَيْلٍ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتِيكُم﴾، وجملة ﴿تَسْكُنُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿ليل﴾ ولكنها سببية، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تَسْكُنُونَ﴾، وهو الرابط بين الصفة والموصوف، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعتبرون فلا تبصرون، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿لا تبصرون﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. كما مر نظير هذه الآية آنفاً.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق

بـ﴿جَعَلَ﴾، و﴿مِن﴾ هنا بمعنى الباء السببية، كما مر، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿الَّيْلَ﴾ مفعول أول له، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ معطوف على ﴿الَّيْلَ﴾، ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تسكنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لسكونكم فيه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾: معطوف على ﴿لِتَسْكُنُوا﴾، ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعل﴾ معطوفة على جملة ﴿تسكنوا﴾ على كونها في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يوم يناديهم، وجملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، وجملة ﴿فَيَقُولُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، ﴿أَيْنَ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَاءِيَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿يقول﴾، ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَاءِيَ﴾، وجملة ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ صلة الموصول، وقد مر إعراب هذه الآية بلفظها تفصيلاً فجدد به عهداً. ﴿وَنَزَعْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿نزعنا﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ على كونها مضافاً إليه ليوم، ﴿شَهِيدًا﴾: مفعول به لـ﴿نزعنا﴾، ﴿فَقُلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نزعنا﴾، ﴿هَاتُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلنا﴾، ﴿فَعَلِمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قلنا﴾، ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ ناصب واسمه، ﴿لِلَّهِ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، ﴿وَضَلَّ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿علموا﴾، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق بـ﴿ضل﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿ضل﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾

الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما كانوا يفترونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ الهداية تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير، وهي التي أثبتها الله سبحانه لرسوله في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وتارة يراد بها هداية التوفيق، وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب، كما جاء في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ وهي بهذا المعنى نفيت عن رسول الله ﷺ في هذه الآية.

وفي «روح البيان»: الهداية من الله عبارة عن تقليب القلب من الباطل ـ وهو ما سوى الله ـ إلى الحق، وهو جانب الله سبحانه، فليس هذا من شأن غير الله تعالى، وفي «عرائس البيان»: الهداية مقرونة بإرادة الأزل، ولو كانت إرادة نبينا محمد ﷺ في حق أبي طالب مقرونة بإرادة الأزل لكان مهتدياً، ولكن كانت محبته وإرادته في حقه من جهة القرابة، ألا ترى أنه إذ قال: «اللهم أعز الإسلام بعمر» كيف أجابه. انتهى.

﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ معنى اتباع الهدى معه الاقتداء به عليه السلام في الدين والسلوك إلى طريق الرشاد.

﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ التخطف الاختلاس والانتزاع بسرعة، ويراد به هنا الإخراج من البلاد، ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: جمعه فيه، والجابية الحوض العظيم الجامع له.

﴿بَطِرَتْ﴾؛ أي: طغت وتمردت وتجبرت وكفرت، ﴿مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: في عيشها وحياتها، وفي «الكرخي»: بطرت معيشتها؛ أي: كفرت نعمة معيشتها، والمعيشة ما يُعاش به من النبات والحيوان وغيرهما .اهـ، والبطر الطغيان في النعمة، قال بعضهم: البطر والأشر واحد، وهو دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها، ويقاربه الطرب، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح، وفي «القاموس»: البطر محرك النشاط، والأشر

وقلة احتمال النعمة، والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة، وفعل الكل كفرح، وبطر الحق؛ أي: تكبر عنده فلا يقبله.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ بيان للعادة الربانية؛ أي: ما صح وما استقام، وما كان، وما ثبت في حكمه الماضي، وقضائه السابق أن يُهلك القرى قبل الإنذار، بل حتى يبعث إلخ .اهـ «أبو السعود».

﴿فِيٓ أُمِّهَا﴾؛ أي: في أعظمها وأكبرها بالنسبة إلى ما حواليها فعادة الله أن يبعث الرسل في المدائن، لأن أهلها أعقل وأنبل وأفطن، وغيرهم يتبعهم اهـ. شيخنا؛ أي: أكثر نبالة، وهي الفضل والشرف، يقال: نبل فلان فهو نبيل؛ أي: شرف فهو شريف.

﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: الذين يحضرون للعذاب، وقد اشتهر ذلك في اصطلاح القرآن كما قال ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لأن في ذلك إشعاراً بالتكليف والإلزام، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات، بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار.

﴿تَزْعُمُونَ﴾ والزعم القول الفاسد، والحكم بلا دليل، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: وجب وثبت.

﴿ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: مدلول القول ومقتضاه، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما مر في مبحث التفسير، ﴿أَغْوَيْنَآ﴾ من أفعل الرباعي كأكرم ثلاثية غوى يغوي كضرب يضرب من الغواية، وهو الضلال.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ من استجاب السداسي، فهو من استفعل بمعنى أفعل الرباعي؛ أي: فلم يجيبوا لهم، فالسين والتاء فيه زائدتان، ﴿فَعَمِيَتْ﴾؛ أي: خفيت، ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾؛ أي: الحجج التي تنجيهم، ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ من التساؤل الذي يدل على المشاركة من الجانبين؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختيار عليه، وهو نفي لاختيارهم الوليد

وعروة .اهـ من «الروح»، والخيرة التخير كالطيرة بمعنى التطير، والخيرة الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض، وفي «المفردات»: الخيرة الحالة التي تحصل للمستخير والمختار، نحو القعدة والجلسة لحال القاعد والجالس. انتهى، وفي «الوسيط»: اسم من الاختيار يقام مقام المصدر، وهو اسم للمختار أيضاً. يقال: محمد خيرة الله من خلقه.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً لله أن ينازعه أحد في الاختيار، ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: تخفي، يقال: أكننت الشيء إذا أخفيته في نفسك، وكننته إذا سترته في بيت أو ثوب أو غير ذلك من الأجسام، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يظهرونه للغير، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾؛ أي: القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة لغيره فيه، قال ابن عباس: حكم لأهل طاعته بالمغفرة، ولأهل معصيته بالشقاء والويل .اهـ.

﴿سَرْمَدًا﴾ السرمد الدائم المتصل، قال طرفة:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِيْ عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَارِيْ وَلاَ لَيْلِيْ عَلَيَّ بِسَرْمَدِ

وقد اختلف العلماء في اشتقاقه، فقيل: هو من السرد، وهو الاطراد والمتابعة، والميم مزيدة، ووزنه فعمل، كميم دلامص بضم الدال المهملة وكسر الميم من الدلاص، يقال درع دلاص؛ أي: ملساء متينة، وعبارة «زكريا»: الدلامص درع براق، يقال: درع دلاص، وأدرع دلاص، الواحد والجمع على لفظ واحد. قاله الجوهري .اهـ، وهذا ما رجحه الزمخشري وغيره، واختار صاحب «القاموس» وبعض النحاة أن الميم فيه أصلية، ووزنه فعلل، لأن الميم لا تنقاس زيادتها في الوسط والآخر .اهـ «شهاب».

﴿وَنَزَعْنَا﴾ يقال: نزع الشيء إذا جذبه من مقره كنزع القوس من كبده.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: طباق السلب في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿يَهْدِى﴾ و﴿المهتدين﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ حيث نسب الأمن إلى الحرم، وهو لأهله، ومثله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ لأن المراد أهلها، بدليل قوله فيما بعد: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لأن الكلية كناية عن الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ومنها: أسلوب السخرية والتهكم في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ قال الشهاب: استعير العمى لعدم الاهتداء، بجامع عدم الوصول إلى المقصود في كل، ثم اشتق من العمى بمعنى عدم الاهتداء، عميت عليهم الأنباء بمعنى لا تهتدي إليهم الأنباء، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وقيل: إنه من باب القلب، وأصله فعموا عن الأنباء، والقلب من محسنات الكلام، وفيه أيضاً التضمين، لأنه ضمن العمى معنى الخفاء فعداه بعلى، ففيه ثلاثة أنواع من البلاغة: الاستعارة ـ والقلب ـ والتضمين.

ومنها: الطباق بين ﴿تُكِنُّ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾، وبين ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ و﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الإدماج في قوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وحد الإدماج أن يدمج المتكلم، إما غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين، أو أحد البديعين، والآخر مدمج في الغرض الذي هو موجود في الكلام، فإن هذه الآية أدمجت فيها المبالغة في المطابقة، لأن انفراده سبحانه بالحمد في الآخرة ـ وهي الوقت الذي لا يحمد فيه سواه ـ مبالغة في وصف ذاته بالانفراد والحمد، وهذه وإن خرج الكلام فيها مخرج المبالغة في

الظاهر، فالأمر فيها حقيقة في الباطن، لأنه أولى بالحمد في الدارين، ورب الحمد والشكر والثناء الحسن في المحلين حقيقة، وغيره من جميع خلقه إنما يُحمد في الدنيا مجازاً، وحقيقة حمده راجعة إلى ولي الحمد سبحانه.

ومنها: التبكيت والتوبيخ في قوله: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، ومثله ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾.

ومنها: فن المناسبة في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والمناسبة قسمان: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، فالمعنوية هي أن يبتدىء المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، فإنه سبحانه لما أسند جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لنفسه، وهو القادر الذي جعل الشيء لا يقدر غيره على مضادته قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، لمناسبة السماع للطرف المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار، لعدم نفوذ البصر في الظلمة، ولما أسند جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة لنفسه، كأن لم يُخلق فيه ليل البتة قال في فاصلة هذه الآية: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لمناسبة ما بين النهار والإبصار. وأما المناسبة اللفظية فستأتي في غير هذا الموضع.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فإنه جمع الليل والنهار، ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فأعاد السكون إلى الليل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار، وسماه علماء البديع باللف والنشر المرتب، لأنه أعاد الأول على الأول والثاني على الثاني.

وضابطه: أن يذكر متعدد على وجه التفصيل، أو الإجمال، ثم يذكر ما لكل واحد من المتعدد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يميز ما لكل منها، ويرده إلى ما هو له، فقد زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: أولها ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ في أحدهما، وهو الليل، و﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في ثانيهما، وهو النهار، ولإرادة شكركم في ثالثهما، وهذا النوع من علم البديع يسمى التفسير أيضاً، وهو أن يذكر

أشياء، ثم تفسرها بما يناسبها.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ للدلالة على التحقق، وفيه الالتفات أيضاً، لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ
ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ
وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ
يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن
ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا
كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ
إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ
إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] حديث أهل الضلالة، وما يلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة، ومناداتهم على رؤوس الأشهاد بما يفضحهم،

(١) المراغي.

ويبيّن لهم سوء مغبتهم.. أعقبه بقصص قارون، ليبين عاقبة أهل البغي والجبروت في الدنيا والآخرة، فقد أهلك قارون بالخسف، وزُلزلت به الأرض، وهوت من تحته، ثم أصبح مثلاً يضرب للناس في ظلمه وعتوه، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة، وما يكون لهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة، فيندمون على ما فعلوا.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف بغي قارون وعتوه وجبروته، وكثرة ما أوتيه من المال، الذي تنوء به العصبة أولو القوة.. أردف ذلك تفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه، فذكر أنه خرج على قومه وهو في أبهى حليّه وحلله، والعدد العديد من أعوانه وحشمه، قصداً للتعالي على العشيرة، وأبناء البلاد، وفي ذلك كسر للقلوب وإذلال للنفوس، وتفريق للكلمة فلا تربطهم رابطة، ولا تجمعهم جامعة فيذلون في الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم، وقد غرَّت هذه المظاهر بعض الجهال، الذين لا همَّ لهم إلا زخرف الحياة وزينتها، فتمنوا أن يكون لهم مثلها، فرد عليهم من وفَّقهم الله لهدايته: بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتي قارون، ولا يناله إلا من صبر على الطاعات واجتنب المعاصي، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره، ولم يجد معيناً ينصره، ويدفع العذاب عنه، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به، قائلين: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ لا لفضل منزلته عنده، وكرامته لديه كما بسط لقارون، ويضيِّق على من يشاء، لا لهوانه عليه، ولا لسخط عمله، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قول أهل

---

(١) المراغي.

العلم بالدين ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ـ وهو الدار الآخرة ـ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يترفعون على الناس، ولا يتجبرون عليهم، ولا يفسدون فيهم بأخذ أموالهم بغير حق، ثم بيَّن بعدئذٍ ما يحدث في هذه الدار جزاء على الأعمال في الدنيا.. فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبع مئة ضعف إلى ما لا يحيط به إلا علاَّم الغيوب، فضلاً من الله ورحمة، وجزاء السيئة مثلها لطفاً منه بعباده وشفقة عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] قصص موسى وقومه مع قارون، وبيَّن بغي قارون واستطالته عليهم، ثم هلاكه ونصرة أهل الحق عليه.. أردف هذا قصص محمد ﷺ وأصحابه مع قومه وإيذائهم إياه، وإخراجهم له من مسقط رأسه، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة وفتحه إياها منصوراً ظافراً.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما حكم بأن العاقبة للمتقين.. أكد ذلك بوعد المحسنين، ووعيد المسيئين، ثم وعده بالعاقبة الحسنى في الدارين. ذكره في «الفتوحات».

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ الآية[2]، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ﴾ على[1] وزن فاعول اسم أعجمي، كهارون، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وليس بعربي اشتق من قرن. قال الزجاج: لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف.

﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، قال النخعي وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال ابن إسحاق: كان عم موسى لأب وأم، فجعله أخاً لعمران، وهما ابنا قاهث، وقيل: هو ابن خالة موسى، وكان ممن آمن بموسى، وكان من السبعين الذين اختارهم موسى للمناجاة فسمع كلام الله، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، وأحفظهم لها، وكان يسمى المنور لحسن صوته، ثم تغير حاله بسبب الغنى، فنافق كما نافق السامري، وخرج عن طاعة موسى، وهو معنى قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي[2]: فتطاول قارون وتكبر على موسى وهارون وقومهما، وطلب الفضل عليهم، وحسدهما، وذلك أنهم لما عبروا البحر جُعلت الحبْوَرَة لهارون، وقال يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة، وهي رياسة مذبح القرابين، ولست في شيء، وأنا أقرأ بني إسرائيل للتوراة، وليس لي على هذا صبر، ولا أرضى بهذا، ورد على موسى نبوته، فقال موسى: ما أنا جعلتها لهارون، بل الله جعلها له من فضله، قال قارون: والله لا أصدقك في ذلك حتى تريني آية تدل عليه، فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل بوضع عصيهم في القبة التي كان يعبد الله فيها، وينزل الوحي عليه فيها، ففعلوا وباتوا يحرسونها فأصبحت عصا هارون مورقة خضراء تهتز؛ أي: صارت ذات ورق أخضر، وكانت من شجرة اللوز، فقال موسى: يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون؟ فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير من أتباعه من بني إسرائيل، وما كان يأتي موسى ولا يجالسه،

(١) الشوكاني. (٢) تنوير المقياس.

وجعل موسى يداريه لما بينهما من القرابة، وهو لا يلتفت إليه، بل يؤذيه، ولا يزيد إلا تجبراً وبغياً.

وقال قتادة: بغيه بنسبته ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته، وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وقيل: كان بغيه بغير ذلك، مما لا يناسب معنى الآية.

ثم ذكر سبب بغيه وعتوه بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ أي: وأعطينا قارون ﴿مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾؛ أي: من الأموال المدخرة ﴿مَآ﴾ موصولة بمعنى الذي، وهي في محل النصب على أنها ثاني مفعولي آتينا؛ أي: أعطيناه من الأموال المدَّخرة المال الكثير الذي ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾؛ أي: إن مفاتح صنادقه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾؛ أي: لتثقل على الجماعة الكثيرة ﴿أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾؛ أي: أصحاب القوة؛ أي: لتثقلهم وتميل بهم إذا حملوها لثقلها؛ أي: وأعطينا قارون المال المذخور، الذي يثقل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الكثير من أقوياء الناس، قال أبو حيان: ذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذب أو يقارب الكذب فلم أكتبه.

قيل: كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتح كنوزه، وكانت من حديد، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن مفاتح خزائنه كان يحملها أربعون رجلاً من الأقوياء، وكانت أربع مئة ألف، يحمل كل رجل عشرة آلاف، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوي يعسر الوصول إليه، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الكثرة دون تحديد شيء معين.

وقرأ الأعمش(١): ﴿مفاتيحه﴾ بياء جمع مفتاح، وقرأ بديل بن ميسرة: ﴿ما إن مفتاحه﴾ بالإفراد، وقرأ أيضاً: ﴿لينوء﴾ بالياء التحتانية، وضمير الفاعل يعود على المفتاح، وقال أبو مسلم: المراد من المفاتح العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، والمعنى حينئذٍ: وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع

---

(١) البحر المحيط.

عليها ليثقل على العصبة؛ أي: هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها يُتعب حفظها القائمين بحفظها، انتهى.

والظرف في قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾: متعلق بمحذوف، ويظهر أن يكون تقديره: فأظهر التفاخر والفرح بما أوتي من الكنوز، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ﴾؛ أي: لقارون قومُه؛ أي: المؤمنون من بني إسرائيل على طريق النصيحة، وقال الفراء: هم موسى وحده، فهو جمع أريد به الواحد.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾؛ أي: لا تبطر ولا تأشر بكثرة المال والأولاد، فإن الفرح بالدنيا من حيث إنها دنيا مذموم مطلقاً، لأنه نتيجة حبها والرضى بها، والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقه لا محالة يوجب الترح[1] حتماً، ولذا قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ولم يرخص في الفرح إلا قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، والفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية، والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير، وقال الشاعر:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا ٱلدَّهْرُ سَرَّنِيْ وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ ٱلْمُتَحَوِّلِ

وقال أبو الطيب:

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِيْ فِيْ سُرُوْرٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ٱنْتِقَالاَ

أي: إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتي، حين قال له قومه من بني إسرائيل: لا تُظهر الفرح والبطر بكثرة مالك، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا، وتتلهى عن شؤون الآخرة وفعل ما يُرضي ربك.

ثم علل النهي عن الفرح بكونه مانعاً محبة الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ أي[2]: بزخارف الدنيا، فإن الدنيا مبغوضة عند الله تعالى، وإنما

---

(١) التَّرَح ـ بفتحتين ـ ضد الفرح اهـ. (٢) روح المعاني.

يحب من يفرح بإقامة العبودية وطلب السعادة الأخروية؛ أي: لا يحب البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، قال الزجّاج: المعنى لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه.

وقرىء[1]: ﴿الفارحين﴾ حكاه عيسى بن سليمان الحجازي، قال الزجاج: الفرحين والفارحين سواء، وقال الفراء: معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل، وقال مجاهد: معنى لا تفرح لا تبغ، إن الله لا يحب الفرحين الباغين، وقيل معناه: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين، وقيل[2] معناه: أي إنه تعالى لا يُكرم الفرحين بزخارف الدنيا، ولا يقربهم من جواره، بل يبغضهم ويبعدهم من حضرته.

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا:

١ - ﴿وَٱبْتَغِ﴾؛ أي: واطلب، ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فيما أعطاك الله سبحانه وتعالى، لم يقل[3]: بما آتاك الله، لأنه لم يُرد بمالك، وإنما أراد: وابتغ في حال تملكك، وفي حال قدرتك بالمال والبدن، كما في «كشف الأسرار».

﴿ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ﴾؛ أي: ثواب الله فيها، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، من مواساة الفقراء، وصلة الأرحام، وفك الأسارى، ونحوها من أبواب الخير[4]، وقرىء: ﴿واتبع﴾ والمعنى؛ أي: واستعمل ما وهبك من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة.

٢ - ﴿وَلَا تَنسَ﴾؛ أي: لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أن تُحصّل بها آخرتك، أو تأخذ منها ما يكفيك وتُخرج الباقي؛ أي: ولا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب، لأن حقيقة نصيب الإنسان من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم، وقيل: لا تنسى صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة.

وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «إغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». وهذا حديث مرسل، وعمرو بن ميمون لم يلق النبي ﷺ.

وقيل المعنى: أي ولا تترك حظك من لذات الدنيا في مآكلها ومشاربها وملابسها، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني، كما ذكره «الشوكاني».

وعن ابن عمر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وعن الحسن: قدِّم الفضل وأمسك ما يُبلِّغ.

٣ ـ ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله إحساناً ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم به عليك، فأعن خلقه بمالك وجاهك وطلاقة وجهك وحسن لقائهم، والثناء عليهم في غيبتهم.

٤ ـ ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا تطلب الفساد بعمل المعاصي في الأرض؛ أي[1]: ولا تصرف همتك بما أنت فيه إلى الفساد في الأرض، والإساءة إلى خلق الله، وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض، ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم، بل يُحب المصلحين لحسن أعمالهم، أي: إن الله لا يكرم المفسدين، بل يهينهم ويُبعدهم من حظيرة قربه ونيل مودته ورحمته، ويعاقبهم بسوء أفعالهم.

ثم بيَّن أنه مع كل هذه المواعظ أبى وزاد في كفران النعمة فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾؛ أي: إنما أعطيت هذا المال حالة كوني ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ أي[2]:

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

متصفاً بالعلم الذي عندي، وفُضِّلت به على الناس بالمال والجاه، فكان ذلك لفضل علمي بالتوراة واستحقاقي لذلك؛ أي: لأني أقرأ بني إسرائيل للتوراة، كما قاله قتادة ومقاتل والكلبي؛ أي: فهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا، قيل: هو علم التوراة، وقيل: علمه بوجوه المكاسب والتجارات، وقيل: معرفة الكنوز والدفائن، وقيل: علم الكيمياء.

قال سعيد بن المسيب والضحاك: كان موسى عليه السلام أُنزل عليه علم الكيمياء من السماء، فعلَّم قارون ثلث العلم، ويوشع ثلثه، وكالب ثلثه، فخدعهما قارون حتى ضم علمهما إلى علمه، فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة، والنحاس فيجعله ذهباً، وكان ذلك سبب كثرة أمواله، وقيل[1] المعنى: إن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها، لفضل علمه مني، واختار الزجاج هذا المعنى، وأنكر ما عداه. وتلخيص ذلك: إني إنما أعطيته لعلم الله أني له أهلٌ.

وقال في «روح البيان»: والمعنى أوتيته حال كوني مستحقاً لما فيَّ من علم التوراة، وكان أعلمهم بها، ادعى استحقاق التفضيل على الناس واستيجاب التفوق بالمال والجاه بسبب العلم، ولم ينظر إلى منة الله تعالى وفضله، ولذا هلك، وهكذا كل من كان على طريقه في الادعاء والافتخار والكفران، فإنه يهلك يوماً بشؤم معصيته وصنيعه. انتهى.

قال الزجاج[2]: علم الكيمياء لا حقيقة له، وفي «الكواشي»: ومتعاطي هذا العلم الكثير كذبه، فلا يلتفت إليه، قال بعضهم: وهذا أولى من قول الزجاج، فإن فيه إقراراً بأصله في الجملة، وكذا بوجوده، والكيمياء له حقيقة صحيحة، وقد عمل به بعض الأنبياء، وكُمل الأولياء، فإنه لا شك في الاستحالة والانقلاب بعد تصفية الأجساد، وتطهيرها من الكدورات، وقد بُيِّن في موضعه، ورأيت من وصل إليه بلا تكبر، والله العليم الخبير.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾[1] للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعلم ما ادعاه ونسي، ولم يعلم حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علم عنده، فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل قارون ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكافرة والأمم الماضية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ بالعدد والعدد؛ أي: من هم أشد من قارون بطشاً ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للأموال كنمرود وغيره.

وقال بعضهم: وأكثر جمعاً للعلم والطاعة، مثل إبليس، ولو كان الله سبحانه يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه، وخير عنده، ورضاه عنه.. لم يُهلك من أهلك من أرباب الأموال، الذين كانوا أكثر منه مالاً، لأن من يرضى الله عنه فمحال أن يهلكه وهو عنه راض، وإنما يُهلك من كان عليه ساخطاً، ألم يشاهد فرعون وهو في أبهة ملكه وحقق أمره يوم هلكه، وفي هذا[2] الأسلوب تعجيب من حاله، وتوبيخ له من جهته تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك الإهلاك، قراءة في التوراة وتلقيناً من موسى، وسماعاً من حُفَّاظ التواريخ، فالمعنى: ألم يقرأ التوراة، ويعلم ما فعله الله سبحانه بأضرابه من أهل القرون السابقة، حتى لا يغتر بما اغتر به.

وبعد[3] أن هدد سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا أردف ذلك تهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة، وهو عدم سؤالهم، إذ إنه يؤذن بشدة الغضب عليهم، والإيقاع بهم لا محالة، فقال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عند إهلاكهم، لئلا يشتغلوا بالاعتذار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها إذا أراد أن يعاقبهم، اهـ «رازي».

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

أي: إنه تعالى حين أراد عقابهم لا يسألهم عن مقدار ذنوبهم، ولا عن كنهها، لأنه عليم بها، ولا يعاتبهم عليها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة، كما جاء في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾ مبنياً للمفعول، و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ رُفع به، وهو متصل بما قبله، قاله محمد بن كعب، والضمير في ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾ عائد على من أُهلك من القرون؛ أي: لا يسأل غيرهم ممن أجرم، ولا ممن لم يجرم عمن أهلكه الله، بل كل نفس بما كسبت رهينة، وقيل: هو مستأنف مسوق لبيان حال يوم القيامة، قال قتادة: لا يُسألون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، لأنهم يدخلون النار بغير حساب، وقال قتادة أيضاً ومجاهد: لا تسألهم الملائكة عن ذنوبهم، لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه، كقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾.

وقرأ أبو جعفر في روايته: ﴿ولا تسأل﴾ بالتاء والجزم ﴿المجرمين﴾ بالنصب، وقرأ ابن سيرين وأبو العالية كذلك في: ﴿ولا تسأل﴾ على النهي للمخاطب، وكان ابن أبي إسحاق لا يجوّز ذلك إلا أن يكون المجرمين بالياء في محل النصب بوقوع الفعل عليه، قال صاحب «اللوامح»: فالظاهر ما قاله، ولم يبلغني في نصب المجرمين شيء، فإن تركناه على رفعه فله وجهان:

أحدهما: أن يكون هاء الضمير في ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ عائدة إلى ما تقدم من القرون، وارتفاع المجرمين بإضمار المبتدأ، تقديره: هم المجرمون، أو أولئك المجرمون، ومثله التائبون العابدون في سورة التوبة.

والثاني: أن يكون بدلاً من أصل الهاء في ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾ لأنها وإن كانت في محل الجر بالإضافة إليها فإن أصلها الرفع، لأن الإضافة إليها بمنزلة إضافة

---

(١) البحر المحيط.

المصدر إلى اسم الفاعل، ذكره أبو حيان.

والفاء في قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[1] للعطف على ﴿قَالَ﴾ وما بينهما اعتراض، وقوله: ﴿فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ إما متعلق بخرج أو بمحذوف، هو حال من فاعله؛ أي: خرج قارون من بيته حالة كونه كائناً في زينته الدنيوية من المال والأثاث والجاه.

قيل[2]: خرج قارون يوم السبت، وكان آخر يوم من عمره، متزيناً على بغلته مع أتباعه، وكانوا أربعة آلاف على زيه، وكان عن يمينه ثلاث مئة غلام، وعن يساره ثلاث مئة جارية بيض عليهن الحلي والديباج، وكانت بغلته شهباء - بيضاء - سرجها من ذهب، وكان على سرجها الأرجوان بضم الهمزة والجيم، وهو قطيفة حمراء، وكانت خيولهم وبغالهم متحلية بالديباج الأحمر، ومعهم ألوان السلاح.

وقال ابن زيد: خرج في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات، وهو أول يوم رؤي فيه اللباس المعصفر، وهو المصبوغ بالعصفر، وهو صبغ أحمر معروف، وقد نُهي الرجال عن لبس المعصفر، لأنه من لباس الزينة وأسباب الكبر، ولأن له رائحة لا تليق بالرجال، وهذا الذي ذكره مفسرو السلف في قصة قارون من الإسرائيليات التي لا أصل لها ولا نقل فيها.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها من مؤمني بني إسرائيل، على طريقة الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار: ﴿يا﴾ قوم ﴿ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ من هذه الأموال وهذه الزينة؛ أي: نتمنى أن يكون لنا مثل ما أعطي قارون من هذه الزينة، قالوه[3] غبطة، والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه كهذه الآية، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون له

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح وروح البيان.

(٣) النسفي.

نعمة صاحبه دونه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضر الغبطة؟ قال: «لا، إلا كما يضر العضاه الخبط».

والمعنى[1]: أي قال من كان همه الدنيا وزينتها: يا ليت لنا من الأموال والمتاع مثل ما لقارون منها، حتى نُنعم عيشاً، ونتمتع بزخارف الحياة، كما يتمتع هو بها.

وإن مثل هذا التمني ليشاهد كل يوم وفي كل بلد وفي كل قرية، فترى الرجل والشاب والمرأة والفتاة يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتي فلان وفلانة من ثوب جميل، أو دابة فارهة، أو مزرعة يحصد غلتها، أو قصر مشيد، أو نحو ذلك.

ثم عللوا تمنيهم وأكدوه بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن قارون ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: لصاحب نصيب وافر من الدنيا؛ أي: إن الله سبحانه قد تفضل عليه وآتاه من بسطة الرزق حظاً عظيماً، ونصيباً كبيراً يغبط عليه، والقائلون هذه المقالة إما جماعة من المؤمنين، قالوا ذلك جرياً على الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار، وإما عصبة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله، ولم يتمنوا زوال نعمته، ومثل هذا لا ضرر فيه كما مر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بما أعد الله لعباده في الآخرة، وصدقوا به رداً على أولئك المتمنين ﴿وَيْلَكُمْ﴾؛ أي: تباً لكم وخسراً، كيف تتغالون في طلب الدنيا، ويسيل لعابكم عليها، وهو[2] دعاء بالإهلاك بمعنى ألزمكم الله ويلاً؛ أي: عذاباً وهلاكاً، وقد شاع استعماله في الزجر عما لا يُرتضى، وقد سبق في سورة طه، قال الزمخشري: ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استُعمل في الزجر والردع، والحث على ترك ما لا يرتضى، اهـ.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنون ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله وصدق به، وآمن برسله ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ونعيمه، فإن هذا باق، وذاك فان، وهذا خالص مما يشوبه وينغصه من الأكدار، وذلك مشوب بالأحزان والمنغصات.

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: ولا يوفق إلى هذه الكرامة، والمراد بالكرامة الثواب والجنة، أو لا يُعطى هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء، وهي ثواب الله خير، أو لا يُعطى هذه الطريقة التي هي الإيمان والعمل الصالح، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مخالفات النفس وموافقات الشريعة.

والمعنى[1]: أي ولا يتبع هذه النصيحة، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات، واجتنب المحرمات، ورضي بقضاء الله في كل ما قُسم له من المنافع والمضار، وأنفق ماله في كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع، وكان قدوة صالحة في حفظ مجد أمته، ورفع صيتها بين الأمم، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها وإعلاء شأنها، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس، ويلقى المثوبة من ربه.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بقارون ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: زلزلنا به وبمنزله الأرض، وابتلعته جزاء بطره وعتوه؛ أي: إن الله سبحانه غيَّبه وغيَّب داره في الأرض.

وفي هذا[2]: عبرة لمن اعتبر، فيترك التعالي والتغالي في الزينة، لئلا يخسف الله به وبماله الأرض، وفي هذا تحذير لنا أيما تحذير، فكثير ممن يُظهرون النعم إنما يريدون التعالي والتفاخر، وكم ممن يقيم الزينات أو يصنع الولائم لعرس، أو مأتم، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه وسعة ماله بين عشيرته وبني جلدته، فيكون قارون زمانه، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال، ويذهب ثراؤه، ويجعله عبرة لمن اعتبر.

فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالي ليس وبالهما في الآخرة فحسب، بل يحصل شؤمهما في الدنيا قبل الآخرة، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم، وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

المال، فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة، فضاعت دورهم وأموالهم وأصبحت ملكاً لغيرهم، وهذا هو الخسف العظيم، وما خُسف قارون بشيء إذا قيس بهذا، فإن الخسف الآن خسف الأمم، لا خسف الأفراد، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيداً له، وضحية مطامعه، وخسف أمة أدهى من خسف فرد، فليخسف الفرد ولتبق الأمة، وهكذا دخلت البلاد تباعاً في ملك الغاصب واحدة إثر أخرى، ولم يبق منها إلا ما رحم الله، وما ذاك إلا بجهلها لدينها، وعدم اتباعها أحكامه، وغفلتها عن مقاصده.

ذكر قصة قارون

قال أهل العلم بالأخبار والسير[١]: كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون، وأقرأهم للتوراة، وأجملهم وأغناهم، وكان حسن الصوت فبغى وطغى، وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يُعلِّقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة، في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء، يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء، ويعلمون أني منزل منها كلامي، فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً، فإن بني إسرائيل تستصغر هذه الخيوط، فقال له ربه: يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير، فإذا لم يُطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى فقال: إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء، لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها، ففعل بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى، واستكبر قارون، فلم يطعه، وقال: إنما فعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم، فكان هذا بدء عصيانه وبغيه، فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جُعلت الحبورة لهارون، وهي رئاسة المذبح، فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون، فيضعها على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجد قارون من ذلك في نفسه، فأتى إلى موسى فقال له: يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة، ولست في شيء من

(١) الخازن.

ذلك، وأنا أقرأ التوراة، لا صبر لي على هذا، فقال: أما أنا ما جعلتها لهارون، بل الله جعلها له، فقال له قارون: والله لا أصدقك حتى تريني بيانه، فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل، فقال: هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها، وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون ترى هذا؟ فقال له قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه، وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما، وهو يؤذيه كل وقت، ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداة لموسى، حتى بنى داراً، وجعل لها باباً من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون، فيُطعمهم الطعام، ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس: فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار، وعلى كل ألف درهم عنها درهم، وكل ألف شاة عنها شاة، وكذلك سائر الأشياء، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده شيئاً كثيراً، فلم تسمح نفسه بذلك، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، قال: آمركم أن تجيؤوا فلانة البغيّ، وتجعلوا عليكم لها جُعلاً على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه، فدعوها، فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم، وقيل: طستاً من ذهب، وقيل: قال لها قارون: أُنزلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل، ثم أتى موسى، فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في مرج من الأرض، فقام فيهم، فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مئة جلدة، ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت، فقال قارون: وإن كنت أنت، قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي، قال: ادعوها، فلما جاءت قال لها موسى: بالذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة إلا صدقت،

فتداركها الله بالتوفيق، فقالت في نفسها أُحدث توبة أفضل من أن أوذي رسول الله، فقالت: لا والله، ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبكي، ويقول: اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله إليه: أني أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم، وقيل: كان على سريره وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وأصحابه في ذلك يتضرعون إلى موسى، ويناشده قارون الله والرحم، حتى قيل: إنه ناشده أربعين مرة، وقيل: سبعين مرة، وموسى في ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله سبحانه إلى موسى: ما أغلظ قلبك! يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تُغثه، أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته، وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد.

قال قتادة: خُسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل، لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور، والله أعلم.

حكى المفسرون في أسباب الخسف أموراً كثيرة، هي غاية في الغرابة، يبعد أن تصدقها العقول، ومن ثم قال الرازي: إنها مضطربة متعارضة، فالأولى طرحها، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .اهـ.

وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم: إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله، فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض، ثم بيَّن سبحانه أنه لم يجد له شفيعاً ولا نصيراً يدفع عنه العذاب حينئذٍ فقال: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ﴾؛ أي: لقارون ﴿مِن فِئَةٍ﴾؛ أي: من جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ

﴿ٱللَّهِ﴾؛ أي: يمنعونه من عذاب الله سبحانه حين نزل به، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾؛ أي: من الممتنعين بأنفسهم من عذاب الله بوجه من الوجوه، أو من[1] المنتقمين من موسى.

أي: ما أغنى عنه ماله ولا خدمه ولا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله، ولا استطاع أن ينتصر لنفسه.

وقصارى ذلك: أنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها، الجاهلة بمقاصد شريعتها في إنفاق الأموال أن تجد مناصاً من خراب الديار، وإضاعة المجد الطارف والتالد، ولا بد أن تقع فريسة للغاصبين الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة، وقد كان ذلك جزاء وفاقاً لجهلها وسوء تصرفها وظلمها لأنفسها، ولا يظلم ربك أحداً، وهكذا حال من تصرف في ماله تصرف السفهاء وركب رأسه، وصار يبعثره يمنة ويسرة، فإنه سيندم ولات ساعة مندم.

وقد أبان الكتاب الكريم أن النصر للصابرين، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول، وكل الفضائل التي حث عليها الدين وسلك سبيلها السلف الصالح.

ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى، وداعياً إلى الرضى بقضاء الله تعالى وبما قسمه، وإلى إظهارالطاعة والانقياد لأنبيائه ورسله، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ﴾؛ أي: وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟﴾ واغتبطوا ﴿مَكَانَهُۥ﴾؛ أي: مثل منزلته ورتبه وجاهه، والكلام على حذف مضاف ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: بالوقت القريب منه، وهو ظرف لتمنوا، ولم يرد بالأمس خصوص اليوم الذي قبل يومه، بل الوقت القريب، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر ﴿أصبح﴾.

﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ و﴿وي﴾: كلمة تعجب، والكاف للتعليل؛ أي[2]: وصار

---

(١) النسفي. (٢) المراح.

الذين تمنوا مثل رتبة قارون من الدنيا من زمان قريب يقولون منتبهين على خطئهم في تمنيهم، لما شاهدوا الخسف به؛ أي: يقول كل واحد منهم: أعجب أنا من خطئي في ذلك التمني، وأندم عليه، لأن الله سبحانه وتعالى ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسع المال ﴿مَن يَشَآءُ﴾ البسط عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو مكر منه تعالى كما كان لقارون.

﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيّق الرزق ويقلله على من يشاء من عباده، اختباراً منه تعالى، يقال: قدر على عياله بالتخفيف مثل قتر؛ إذا ضيَّق عليهم بالنفقة، فإن القوم لما شاهدوا ما نزل بقارون من الخسف ندموا على تمنيهم، حيث علموا أن بسط الرزق لا يكون لكرامة الرجل على الله، ولا تضييقه لهوانه عنده، فالكل بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فتعجبوا من أنفسهم كيف وقعوا في مثل هذا الخطأ، و﴿وَيْ﴾ اسم فعل بمعنى أعجب أنا، والكاف للتعليل، وأن حرف نصب ومصدر.

وقال أبو الحسن: ﴿وَيْ﴾ اسم فعل، والكاف حرف خطاب، وأن على إضمار اللام، وقيل: ﴿وَيْ﴾ اسم فعل، وكأن للتحقيق بمعنى قد؛ أي: أعجب أنا، وقد علمت أن كلاً من البسط والقبض بمقتضى مشيئته تعالى، وليس البسط للكرامة، والقبض للهوان.

وعبارة الخازن هنا[1]: أي وصار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من الأموال والزينة يندمون على ذلك التمني ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ألم تعلم أن الله، وقيل: ألم تر أن الله، وقيل: هي كلمة تقرير معناها: أما ترى صنع الله وإحسانه، يبسط الرزق لمن يشاء، وقيل: ويك بمعنى ويلك اعلم أن الله، وروي أن ﴿وَيْ﴾ مفصولة من ﴿كأن﴾، والمعنى: أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم: وَيْ وكأن، معناها: أظن وأُقَدِّر أن الله يبسط الرزق. انتهت.

وعبارة «الفتوحات» هنا: قوله: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ و﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ فيه[2] مذاهب:

---

(١) أنوار التنزيل.

(٢) الجمل.

أحدها: أن ﴿وَيْ﴾ كلمة برأسها، وهي اسم فعل معناها أعجب؛ أي: أن والكاف للتعليل، وأن وما في حيزها مجرورة بها؛ أي: أعجب، لأن الله يبسط الرزق إلخ، وقياس هذا القول أن يوقف على ﴿وَيْ﴾ وحدها، وقد فعل ذلك الكسائي.

الثاني: قال بعضهم: كأن هنا للتشبيه، إلا أنه ذهب منها معناه، وصارت للخبر واليقين، وهذا أيضاً يناسبه الوقف على ﴿وَيح﴾.

الثالث: أن ﴿وَيْكَ﴾ كلمة برأسها، والكاف حرف خطاب، وأن معمولة لمحذوف؛ أي: أعلم أن الله يبسط... إلخ، قاله الأخفش، وهذا يناسبه الوقف على ﴿ويك﴾، وقد فعله أبو عمرو.

الرابع: أن أصلها ويلك، فحُذفت اللام، وهذا يناسبه الوقف على الكاف أيضاً، كما فعل أبو عمرو.

الخامس: أن ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ كلها كلمة مستقلة بسيطة، ومعناها ألم تر، وربما نُقل ذلك عن ابن عباس، ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى أما ترى إلى صنع الله، وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى رحمة لك في لغة حمير، ولم يُرسم في القرآن إلا ويكأن وويكأنه متصلة في الموضعين، فعامة القراء اتبعوا الرسم، والكسائي وقف على ﴿وَيْ﴾، وأبو عمرو على ﴿وَيْكَ﴾ .اهـ «سمين».

والمعنى[1]: أي فلما خسف الله بقارون الأرض أصبح قومه يقولون: إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا لا تدل على رضا الله عن صاحبه، فالله يُعطي ويمنع ويوسع ويضيق، ويرفع ويخفض، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة لا معقب لحكمه، وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب».

---

(١) المراغي.

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله، يصرفه كيف يشاء أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل ما يريد من رزق وغيره، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ وأنعم ﴿عَلَيْنَا﴾ فلم يعطنا ما تمنينا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأرض، كما خسف بقارون، لتوليد الاستغناء فينا مثل ما ولده فيه من الكبر والبغي، ونحوهما من أسباب الهلاك والعذاب، أو المعنى: لولا أن منَّ الله علينا بالإيمان، ولطف بنا برحمته، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغي، ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمني لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله.

وقرأ الأعمش: ﴿لولا منَّ الله﴾ بحذف ﴿أن﴾، وهي مرادة، لأن لولا هذه لا يليها إلا المبتدأ، وعنه أيضاً: ﴿لولا منُّ الله﴾ برفع النون وجر الجلالة، وهي واضحة. اهـ «سمين».

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ قيل: ﴿وَيْ﴾ كلمة للزجر، والكاف حرف خطاب، وأن معمولة لمحذوف، والتقدير: انزجروا عن تمنيكم، واعلموا أن الشأن والحال ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ولا يفوزون بمطلب من مطالبهم؛ أي: لا ينجو الكافرون لنعمه، المكذبون برسله، وبما وُعدوا به من ثواب الآخرة، كما كان شأن قارون، قال في «كشف الأسرار»: حب الدنيا حمل قارون على جمعها، وجمعها حمله على البغي عليهم، وصارت كثرة ماله سبب هلاكه، وفي الخبر: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وأعاد[1] ﴿ويكأن﴾ هنا لاتصال كل منهما بما لم يتصل به الآخر، والقصد منه تأكيد ما قبله.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لخسف بنا﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ حفص وعصمة وأبان عن عاصم وابن أبي حماد عن أبي بكر: مبنياً للفاعل، وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش: ﴿لا نخسف بنا﴾ كقولك: انقطع بنا، كأنه فعل مطاوع، والمقام مقام الفاعل، هو ﴿بنا﴾، ويجوز أن يكون المصدر؛ أي: لا نخسف الانخساف،

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) البحر المحيط.

ومطاوع فعل لا يتعدى إلى مفعول به، فلذلك بُني إما لـ﴿بنا﴾، وإما للمصدر، وعن ابن مسعود أيضاً: ﴿لتُخسِّف﴾ بتاء وشد السين مبنياً للمفعول.

والإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الجنة، أشار إليها بإشارة البعيد، لقصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها، وهي مبتدأ ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ صفة لها، وجملة ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبر المبتدأ، كأنه قال: تلك الجنة التي سمعت خبرها، وبلغك شأنها نجعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ارتفاعاً وغلبة وتسلطاً على المؤمنين، كما أراد فرعون، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها، أو ظلماً وعدواناً على الناس، كما أراد قارون، كما قال تعالى في حقه على لسان الناصح: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفي[1] تعليق الوعد بترك إرادتهما، لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما.

وذكْر[2] العلو والفساد مُنكَّريْن في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يُطلق عليه أنه علوٌّ، وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان، وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس، وليس منه طلب العلو في الحق والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للذين يتقون العلو والفساد في الأرض، وما لا يرضاه الله سبحانه من الأقوال والأفعال، والمعنى؛ أي: تلك[3] الدار التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبراً عن الحق، ولا إعراضاً عنه، ولا ظلم الناس ومعصية الله.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

وثبت في «الصحيح»[1] أن النبي ﷺ قال: «إنه أُوحي إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»، وروى مسلم وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

وروى أبو هريرة: أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ، وكان جميلاً فقال: يا رسول الله إني رجل حُبِّب إليَّ الجمال، وأُعطيت منه ما ترى، حتى ما أُحبُّ أن يفوقني أحد بشراك نعل، أفمن ذلك؟ قال: «لا، ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس».

وعن عدي بن حاتم قال: لما دخل على النبي ﷺ ألقى إليه وسادة، وجلس على الأرض، فقال: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً، فأسلم، أخرجه ابن مردويه، وكان النبي ﷺ يحلب الشاة، ويركب الحمار، ويُجيب دعوة المملوك، ويجالس الفقراء والمساكين، قال بعضهم: واحذر أن[2] تتزهد أو تتعبد أو تتكرم وفي نفسك استجلاب ذلك، لكونه يرفعك على أقرانك، فإن ذلك من إرادة العلو في الأرض، وما استكبر مخلوق على آخر إلا لحجابه عن معية مع الحق ذلك المخلوق الآخر، ولو شهدها لذل وخضع.

وقال بعضهم: العلو النظر إلى النفس، والفساد النظر إلى الدنيا، والدنيا خمر إبليس، من شرب منها شربة لا يفيق إلا يوم القيامة، وقيل العلو الخطرات في القلب، والفساد في الأعضاء، فمن كان في قلبه حب الرياسة والجاه وحظوظ الدنيا، وفي أعماله الرياء والسمعة فهو لا يصل إلى مقام القرب، وكذا من في قلبه سوء العقيدة، وفي جوارحه عبادة غير الله، والدعوة إليها، وأخذ الأموال، وكسر الأعراض، واستحلال المعاصي فهو لا يصل إلى الجنة أيضاً، وهو قرين الشيطان، والشياطين في النار مع قرنائهم.

---

(١) روح البيان.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة وهي الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات، وترك المحرمات، ولم يكن كفرعون في الاستكبار على الله بعدم امتثال أوامره والارتداع عن زواجره، ولا كقارون في إرادة الفساد في الأرض.

ثم بيَّن ما يكون في تلك الدار من الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿مَن جَآءَ﴾ الله يوم القيامة متصفاً ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ المقبولة الأصلية المعمولة ﴿فَلَهُۥ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: ثواب خير منها، ذاتاً ووصفاً وقدراً بالمضاعفة[(١)]، أما الخيرية ذاتاً فظاهرة في أجزية الأعمال البدنية، لأنها أعراض وأجزيتها جواهر، وكذا في المالية إذ لا مناسبة بين زخارف الدنيا ونفائس الآخرة في الحقيقة، وأما وصفاً فلأنها أبقى وأنقى من الآلام والأكدار، وأما قدراً فللمقابلة بعشر أمثالها لا أقل، يعني: أنه يجازي بالحسنة الواحدة عشراً، فيكون الواحد ثواباً مستحقاً، والتسعة تفضلاً وجوداً، والتسعة خير من الواحد من ذلك الجنس.

ومثل المعمولة ما في حكمها[(٢)]، كما لو تصدق عنه غيره، فخرج بالمعمولة ما لو هم بحسنة فلم يعملها لمانع، فإنه يجازى عليها من غير تضعيف، وخرجت الحسنة المأخوذة في نظير الظلامة، فلا تضاعف له، كما لو ضرب زيد عمراً ضربة، وكان لزيد حسنات موجودة، فيؤخذ منها وَيُعطى لعمرو، وخرج بالأصلية الحسنات الحاصلة بالتضعيف فلا تضاعف، والتضعيف خاص بهذه الأمة، وأما غير هذه الأمة من بقية الأمم فلا تضعيف لهم.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي ما يذم فاعلها شرعاً، كالشرك والرياء والجهل ونحوها ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم، وفائدة هذه الصورة انزجار العقلاء عن ارتكاب السيئات، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا مثل ما كانوا يعملونه، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في المماثلة، ومن فضله العظيم أن لا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبع مئة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ﴾؛ أي: إن الله الذي ﴿فَرَضَ﴾ وأنزل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأوجب عليك تلاوته وتبليغه، والعمل به ﴿لَرَآدُّكَ﴾ ومرجِّعك بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: إلى مرجع عظيم، يغبطك به الأولون والآخرون، وهو المقام المحمود الموعود ثواباً على إحسانك في العمل، وتحمُّل هذه المشقات التي لا تحملها الجبال.

وأكثر أهل التفسير على أن المراد بالمعاد مكة، تقول العرب: رُدَّ فلان إلى معاده، يعني إلى بلده، يتصرف في الأرض، ثم يعود إلى بلده، والآية نزلت[1] بالجحفة بتقديم الجيم المضمومة على الحاء الساكنة، موضع بين مكة والمدينة، وهو ميقات أهل الشام، وكانت قرية جامعة على اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وكانت تسمى مهيعة، فنزلها بنو عبيد، وهم أخوة عاد، وكان أخرجهم العماليق من يثرب، فجاءهم سيل فأجحفهم؛ أي: ذهب بهم، فسُمِّيَتْ جحفة.

وروى مقاتل: أنه ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - عدل عن الطريق مخافة الطلب، فلما أمن رجع إلى الطريق، ونزل بالجحفة وعرف الطريق إلى مكة، واشتاق إليها، وذكر مولده وموطنه، ومولد آبائه، وبها عشيرته، وحرم إبراهيم عليه السلام فنزل عليه الملك فقال له: أتشتاق إلى بلدك، ومولدك، فقال النبي ﷺ: نعم، فقال جبريل: فإن الله سبحانه يقول لك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: لراجعك إلى مكان هو لعظمته أهل لأن يقصد العود إليه كل من خرج منه، وهو مكة المشرَّفة وطنك الدنيوي.

والمعنى عليه[2]: أي إن الذي أوجب عليك العمل بأحكام القرآن وفرائضه لرادك إلى محل عظيم القدر، اعتدته وألفته، وهو مكة، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح، وقد كان للعود إليها شأن عظيم، لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها عنوة،

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقهره أهلها، وإظهار عز الإسلام، وإذلال المشركين، وهذا وعد من الله سبحانه لرسول الله ﷺ، وهو بمكة في أذى، وغلبة من أهلها، أنه يهاجر منها، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً، وهذه إحدى معجزاته ﷺ، لأنه أخبر عن الغيب، ووقع كما أخبر؛ أي: فلا تظن أنه يسلك بك سبيل أبويك إبراهيم في هجرته من حران بلد الكفر إلى الأرض المقدسة فلم يعد إليها، وإسماعيل من الأرض المقدسة إلى أقدس منها فلم يعد إليها.

ولما قال المشركون لرسول الله ﷺ: إنك لفي ضلال مبين.. نزل قوله تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد لمن خالفك وكذبك من قومك المشركين ومن تبعهم ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾؛ أي: يعلم ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ من عنده وما يستحقه من الثواب في المعاد، والإعزاز والنصرة في الدنيا مني ومنكم، يريد به نفسه، ﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: بيِّن، وما يستحقه من العقاب في الآخرة والإذلال في الدنيا، يريد به المشركين.

ودلت الآية الكريمة[1] على أن الله تعالى يفتح على المهتدي ويقهر الضال، ولكل عسر يسر، فسوف يراه من يصبر، فلا ينبغي للعاقل أن ييأس من روح الله، روي أن رجلاً ركب البحر فانكسرت السفينة فوقع في جزيرة فمكث ثلاثة أيام لا يرى أحداً، ولم يذق شيئاً فتمثل بقوله:

إِذَا شَابَ ٱلْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِيْ ... وَصَارَ ٱلْقِيْرُ كَٱللَّبَنِ ٱلْحَلِيْبِ
وَصَارَ ٱلْبَرُّ مَسْكَنَ كُلِّ حُوْتٍ ... وَصَارَ ٱلْبَحْرُ مَرْتَعَ كُلِّ ذِيْبِ

فسمع هاتفاً يهتف:

عَسَىٰ ٱلْكَرْبُ ٱلَّذِيْ أَمْسَيْتَ فِيْهِ ... يَكُوْنُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ
فَيَأْمَنُ خَائِفٌ وَيُفَكُّ عَانٍ ... وَيَأْتِيْ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْغَرِيْبُ

قال: فما لبث ساعة إلا فرج الله عنه.

(١) روح البيان.

وفي تفسير الآية إشارة إلى أن حب الوطن من الإيمان، وكان رسول الله ﷺ يقول كثيراً: الوطن الوطن، فحقق الله سبحانه سؤله، ويقال: الإبل تحن إلى أعطانها، وإن كان عهدها بعيداً، والطير إلى وكره وإن كان موضعاً مجدباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً.

واعلم[1]: أن الميل إلى الأوطان، وإن كان لا ينقطع عن الجنان، ولكن يلزم للمرء أن يختار من البقاع أحسنها ديناً، حتى يتعاون بالإخوان، قيل لعيسى عليه السلام: من نجالس يا روح الله، قال: من يزيد في علمكم منطقه، ويذكركم الله رؤيته، ويرغّبكم في الآخرة عمله، والعاقل يختار الفراق عن الأحباب والأوطان، ولا يجترىء على الفراق عن الملك الديان:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

فاقطع الألفة عما سوى الله اختياراً قبل الانقطاع اضطراراً.

ثم ذكره سبحانه نعمه، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَرْجُوٓا۟﴾ وتطمع قبل إرسالك ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: أن يوحى إليك القرآن، والمعنى: سيردك يا محمد إلى معادك وبلدك، كما ألقى إليك القرآن وما كنت ترجوه، فهو تقرير للوعد السابق.

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ أي: ولكن ألقاه إليك رحمة لك منه، فاعمل به، خصك بهذه الرحمة عن جميع الأنبياء، لأن كتبهم أنزلت في الألواح والصحف على صورتهم وذاتهم، وكتابك نزل به الروح الأمين على قلبك، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى، كأنه قيل: وما ألقي إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك، والأول أولى، وبه جزم الكسائي والفراء.

والمعنى[2]: أي وما كنت يا محمد قبل مجيء الرسالة إليك ترجو أن تكون نبياً، وينزل عليك القرآن، فتعلم أخبار الماضين من قبلك وما سيحدث من بعدك، وما فيه من تشريع فيه سعادة البشر في معاشهم ومعادهم، وآداب هي

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

منتهى ما تسمو إليه نفوسهم، وتطمح إليها عقولهم، ثم تتلو ذلك على قومك، فإنزاله عليك ليس عن ميعاد، وكونك نبياً ليس عن تطلب سابق منك، ولكن أنزل إليك القرآن، وجعلك نبياً لأجل الترحم من ربك.

ثم بيَّن ما يجب أن يعمله كفاء هذه النعم المتظاهرة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: معيناً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على دينهم بمداراتهم، والتجمل معهم، والإجابة إلى طلبتهم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه، فذكره بنعمه عليه، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه، وقيل: هو تعريض بغيره من الأمة.

والمعنى[1]: أي فاحمد ربك على ما أنعم به عليك بإنزاله الكتاب إليك، ولا تكونن عوناً لمن كفروا به، ولكن فارقهم ونابذهم.

ثم شدد عزمه وقواه بأن لا يأبه بمخالفتهم، فقال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾؛ أي: لا يصرفنك ويمنعنك الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن قراءتها، والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ﴾ تلك الآيات القرآنية ﴿إِلَيْكَ﴾ وقرئت عليك، وذلك حين دعوه ﷺ إلى دين آبائهم، وتعظيم أوثانهم، والموافقة إلى أباطيلهم؛ أي: ولا تبال بهم، ولا تهتم بمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقتك، فإن الله معك، ومؤيدك، ومظهر دينك وما أرسلك به على سائر الأديان.

قرأ الجمهور[2]: بفتح الياء وضم الصاد من صده يصده، وشددوا النون، ويعقوب كذلك، إلا أنه خففها، وقرىء: ﴿يصدنك﴾ بضم الياء وكسر الصاد، من أصده بمعنى صده، حكاه أبو زيد عن رجل من كلب. وقال الشاعر:

أُنَاسٌ أَصَدُّوْا ٱلنَّاسَ بِٱلسَّيْفِ عَنْهُمُ ... صُدُوْدَ ٱلسَّوَاقِيْ عَنْ أُنُوْفِ ٱلْحَوَائِمِ

ثم أمره أن يصدع بالدعوة، ولا يألوا جهداً في تبليغ الرسالة. فقال: ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس كافة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى توحيده، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ أي: وبلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم، واعبده وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور، وفيه تعريض بغيره، كما

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

تقدم، لأنه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال لكونه معصوماً، والمعنى: ولا تتركن الدعاء إلى ربك، وتبليغ المشركين رسالتك، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصيته، ومخالفة أمره.

ثم فسر هذا، وبينه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: ولا تعتمد على غير الله، ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك، وهذا تعريض أيضاً لغيره من الأمة.

فإن قلت[1]: النبي ﷺ كان معصوماً من أن يدعو مع الله إلهاً آخر فما فائدة هذا النهي؟

قلت: الخطاب معه ﷺ والمراد به غيره، وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلاً على أمورك كلها، ولا تعتمد غيره، كما مر آنفاً في حلّنا.

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ من الإنسان والحيوان والجن والشياطين والملك ونحوها ﴿هَالِكٌ﴾؛ أي: معدوم فان زائل في حد ذاته، فإن وجوده كلا وجود، لأن وجوده ليس ذاتياً ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: ذاته سبحانه وتعالى، فإنه تعالى واجب الوجود وكل ما عداه ممكن في حد ذاته عرضة للهلاك والعدم، والوجه يعبر به عن الذات، وقال أبو العالية وسفيان[2]: كل شيء فان إلا ما أريد به وجهه من الأعمال؛ أي: ما يقصد إليه بالقربة. قال الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ ٱلْعِبَادِ إِلَيْهِ ٱلْوَجْهُ وَٱلْعَمَلُ

والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله:

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ ٱلْبَقَاءِ يَعُمُّهَا ... مِنَ ٱلْخَلْقِ وَٱلْبَاقُوْنَ فِيْ حَيِّزِ ٱلْعَدَمْ
هِيَ ٱلْعَرْشُ وَٱلْكُرْسِيُّ وَنَارٌ وَجَنَّةٌ ... وَعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا ٱللَّوْحُ وَٱلْقَلَمْ

﴿لَهُ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: القضاء النافذ في الخلق في

---

(١) الخازن.
(٢) القرطبي.

الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى، لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون أيها الخلائق عند البعث من القبور، وليجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقرأ عيسى[1]: ﴿ترجعون﴾ مبنياً للفاعل. والجمهور مبنياً للمفعول، ومعنى الآية: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي[2]: ولا تعبد أيها الرسول مع الله ـ الذي له عبادة كل شيء ـ معبوداً آخر سواه.

ثم علل هذا بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لأنه لا معبود تصلح له العبادة إلا الله، ونحو الآية قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

ثم بيَّن صفاته تعالى، فقال:

١ ـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: هو الدائم الباقي الحي القيوم الذي لا يموت إذا ماتت الخلائق، كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها لبيد»:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللَّهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

٢ ـ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: له الملك والتصرف والقضاء النافذ في الخلق.

٣ ـ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الإعراب

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿قَٰرُونَ﴾: اسمها منصوب، ولم ينون لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والعجمة، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿قَـٰرُونَ﴾، ﴿مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان قصة قارون وما تنطوي عليه من عظات وعبر. ﴿فَبَغَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿بغى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿قَـٰرُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾: متعلق بـ﴿بغى﴾، ﴿وَءَاتَيۡنَـٰهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ءَاتَيۡنَـٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾: متعلق بـ﴿آتيناه﴾.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾.

﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿آتيناه﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾: اسمها، ﴿لَتَنُوٓأُ﴾: ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿تنوء﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر يعود على المفاتح، ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ متعلق بـ﴿تنوء﴾، ﴿أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾: صفة لـ﴿العصبة﴾ مجرور بالياء المحذوفة لالتقاء الساكنين لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿ٱلۡقُوَّةِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿تنوء﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿تنوء﴾، وقيل: باذكر مقدراً، وقال أبو البقاء: ظرف لآتيناه، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل محذوف دل عليه الكلام؛ أي: بغى، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿قال﴾، ﴿قَوۡمُهُۥ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَفۡرَحۡۖ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿قَـٰرُونَ﴾، وجملة ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿ٱلۡفَرِحِينَ﴾: مفعول به منصوب بالياء، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾.

﴿وَٱبۡتَغِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر مجزوم بحذف حرف العلة، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾، ﴿فِيمَا﴾ ﴿في﴾ حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة في محل الجر بفي، ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فيما آتاكه الله؛ أي: وابتغ بإنفاق ما أعطاك الله في سبيل الخير، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ابتغ﴾، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل ﴿ابتغ﴾؛ أي: متقلباً فيما آتاك، ﴿ٱلدَّارَ﴾: مفعول ﴿ابتغ﴾، ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾: صفة له، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿تَنسَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿نَصِيبَكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾، ﴿مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: جار ومجرور حال من ﴿نَصِيبَكَ﴾. ﴿وَأَحۡسِن﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿وَٱبۡتَغِ﴾، ﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿أَحۡسَنَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿إِلَيۡكَۖ﴾ متعلق بـ﴿أَحۡسَنَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: وأحسن إحساناً مثل الإحسان الذي أحسن الله به إليك. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿تَبۡغِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾: مفعول به، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: متعلق بتبغ أو بالفساد، لأنه بمعنى الإفساد، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿قَٰرُونَ﴾، والجملة مستأنفة

مسوقة للإجابة عن قولهم: إن ما عندك تفضل وإنعام من الله فأنفق منه شكراً لمن أنعم به عليك، ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل ومفعول ثان، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من نائب فاعل، ﴿أوتيت﴾، ﴿عِندِيٓۚ﴾ ظرف ومضاف إليه صفة لعلم؛ أي: إنما أوتيته حال كوني متصفاً بعلم كائن عندي، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعلم ما ادعاه ولم يعلم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَعْلَمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿قَٰرُونَ﴾ مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَهْلَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَهْلَكَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: جار ومجرور حال. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ﴾ مقدمة عليه، ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَهْلَكَ﴾، ﴿هُوَ أَشَدُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿قُوَّةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، وجملة ﴿أَهْلَكَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾؛ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَعْلَمْ﴾، ﴿وَأَكْثَرُ﴾: معطوف على ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿جَمْعًاۚ﴾: تمييز محول عن المبتدأ منصوب بـ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة لتربط الجملة بما قبلها على سبيل التهديد والوعيد، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿يُسْـَٔلُ﴾، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أن﴾؛ أي: ألم يعلم أنه لا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿خرج﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على قارون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾، وما بينهما اعتراض، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿خرج﴾، ﴿فِى زِينَتِهِۦۖ﴾: جار ومجرور حال من

فاعل ﴿خرج﴾؛ أي: حال كونه متبختراً في زينته متقلباً في تعاجيبه، ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ﴾: فعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة للحياة، ﴿يَٰلَيْتَ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء والمنادى محذوف، تقديره: يا قوم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ليت﴾: حرف تمنٍ ونصب، ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم لليت، ﴿مِثْلَ﴾: اسم ﴿ليت﴾: مؤخر، وهو مضاف، و﴿مَا﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونه جواب النداء، ﴿أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أوتيه قارون، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذُو﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿ذو حظ﴾: خبره، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿حَظٍّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا الصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿قال﴾، ﴿أُوتُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿الْعِلْمَ﴾: مفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿وَيْلَكُمْ﴾ منصوب بفعل محذوف وجوباً لجريانه مجرى المثل على سبيل الردع، تقديره: ألزمكم الله ويلكم، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطبين في محل الجر مضاف إليه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، ﴿لِّمَنْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿وَعَمِلَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُلَقَّىٰهَا﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، و﴿الهاء﴾: مفعول ثان، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿الصَّٰبِرُونَ﴾: نائب فاعل مؤخر وهو المفعول الأول، والضمير يعود على الإثابة

أو الأعمال الصالحة، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أو مستأنفة.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَخَسَفْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال قارون، وما قال له قومه، وأردت بيان ما صار إليه، وما آل إليه أمره فأقول لك ﴿خسفنا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بخسفنا، ﴿وَبِدَارِهِ﴾: جار ومجرور معطوف على ﴿بِهِۦ﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿فِئَةٍ﴾: اسمها مؤخر، ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع صفة لفئة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿فِئَةٍ﴾ لتخصصه بالصفة، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿خسفنا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿قَـٰرُونَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أصبح﴾: فعل ماض ناقص، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿تَمَنَّوْا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مَكَانَهُۥ﴾: مفعول به، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمَنَّوْا۟﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿أصبح﴾، وجملة ﴿أصبح﴾ معطوفة على جملة ﴿خسفنا﴾، ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ ﴿وي﴾: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره أنا، والجملة في محل النصب مقول ﴿يقول﴾،

و﴿الكاف﴾: حرف جر بمعنى لام التعليل، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: لمن يشاء البسط له، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: حال من ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَبْسُطُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، الجار والمجرور متعلق بـ﴿وي﴾، لأنه اسم فعل مضارع؛ أي: أتعجب لبسط الله الرزق على من يشاء من عباده.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، و﴿أَن﴾ وما في حيزها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: لولا مَنُّ الله علينا موجود، ﴿لَخَسَفَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْلَآ﴾، ﴿خسف﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿بِنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْلَآ﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ ﴿وي﴾: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، و﴿الكاف﴾ حرف جر وتعليل، ﴿أنه﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الكاف﴾، والجار والمجرور متعلق بـ﴿وَيْ﴾، وجملة ﴿وَيْ﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ مذكورة لتأكيد ﴿وَيْ﴾ الأولى، ومقررة لها.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلدَّارُ﴾: بدل من اسم الإشارة، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة لـ﴿ٱلدَّارُ﴾، ﴿نَجْعَلُهَا﴾: فعل مضارع ومفعول أول وفاعل مستتر يعود على

﴿اللهِ﴾، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نجعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. وجملة ﴿نَجْعَلُهَا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان أن الآخرة معدة للمتقين. ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عُلُوًّا﴾: مفعول به. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿عُلُوًّا﴾، أو صلة له. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: معطوف على ﴿عُلُوًّا﴾. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية قبلها.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿جَاءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَ﴾. ﴿فَلَهُ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً له، خبر مقدم. ﴿خَيْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط مبتدأ. ﴿جَاءَ﴾: فعل وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية. ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿لا﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُجْزَى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿الَّذِينَ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿إلاَّ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يجزى﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى﴾: ناصب واسمه. ﴿فَرَضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول به. ﴿لَرَآدُّكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿رادك﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: متعلق بـ﴿رادك﴾؛ لأنه اسم فاعل. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿رَّبِّىٓ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنه بمعنى عالم؛ لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: متعلق به. والجملة صلة الموصول. ﴿ومن﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على ﴿من﴾ الأولى. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَرْجُوٓا۟﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَن يُلْقَىٰٓ﴾: ناصب وفعل مضارع، مغير الصيغة منصوب. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿يُلْقَىٰٓ﴾. ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: نائب فاعل لـ﴿يُلْقَىٰٓ﴾. ﴿إلاَّ﴾: أداة استثناء منقطع، بمعنى: لكن. ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول لأجله. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: لكن ألقي إليك الكتاب لأجل رحمة، كائنة من ربك لك ولأمتك. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ﴿لا تكونن﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص، في محل الجزم بلا الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، واسمها ضمير مستتر فيها وجوباً، يعود على محمد. ﴿ظَهِيرًا﴾: خبرها. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿ظَهِيرًا﴾، وجملة ﴿تَكُونَنَّ﴾: في محل النصب مقول

لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة: لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة مبني على الفتح، والكاف: ضمير المخاطب، في محل النصب مفعول به. ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: فلا تكونن. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف، حال من آيات الله. ﴿بَعْدَ﴾: مضاف. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه؛ لأن إذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك حينئذ ويومئذ، ويصح أن تكون إذ بمعنى: أن المصدرية، كما ذكره أبو السعود. ﴿أُنزِلَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الآيات. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَٱدْعُ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص، في محل الجزم بـ﴿لا﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، مبني على الفتح، واسمها ضمير مستتر يعود على محمد ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱدْعُ﴾. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَدْعُ﴾. ﴿إِلَٰهًا﴾:

مفعول به. ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف، تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾. وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من الجلالة. ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾: مبتدأ. ﴿هَالِكٌ﴾: خبره. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿وَجْهَهُۥ﴾: منصوب على الاستثناء، والهاء مضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿وَإِلَيْهِ﴾: الواو عاطفة. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾. ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ قَٰرُونَ﴾ اسم أعجمي على وزن فاعول، كهارون، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية، كما مر. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: تكبر وتجبر وطلب الفضل عليهم، وأن يكونوا تحت أمره .اهـ «بيضاوي». ومن تكبره أن زاد في ثيابه شبراً وهو أول من جر الثياب على الأرض للخيلاء، قال الراغب: البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرى تجاوزه، أولم يتجاوزه.

﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ جمع كنز. والكنز المال المدفون في باطن الأرض، قال الراغب: الكنز جمع المال بعضه فوق بعض وحفظه، من كنزت التمر في الوعاء، انتهى. والمراد به هنا المال المدخر. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مفتح بالكسر، وهو ما يُفتح به، أو جمع مفتح بفتح الميم، وهو الخزانة، والمراد هنا المعنى الأول.

﴿لَتَنُوٓأُ﴾ وفي «القاموس»: ناء بالحمل نهض مثقلاً، وناء به الحمل أثقله وأماله كأناءه، وناء فلان أثقل فسقط ضد، اهـ. وفي «المصباح»: ناء ينوء نوءاً، مهموز من باب قال، نهض بجهد ومشقة، وناء به الحمل أثقله وأماله، وناء النجم سقط في المغرب مع الفجر، وطلع آخر يقابله من ساعته في المشرق.

﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ والعصبة الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض، بلا تعيين

عدد خاص. ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ الشدة. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾؛ أي: لا تبطر وتتمسك بالدنيا ولذاتها، حتى تتلهى عن الآخرة. قال بيهس العذري:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا ٱلدَّهْرُ سَرَّنِي وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ ٱلْمُتَقَلِّبِ

والفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية.

﴿وَلَا تَنسَ﴾؛ أي: لا تترك ترك المنسي. قال في «المفردات»: النسيان ترك الإنسان ضبط ما استُودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، أو عن قصدٍ حتى ينحذف عن القلب ذكره، انتهى.

﴿نَصِيبَكَ﴾ والنصيب ما يكفيك، ويسد حاجتك، ويُصلح أمورك، وفسر بعضهم النصيب بالكفن، وعليه قول الشاعر:

نَصِيْبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ ٱلدَّهْرَ كُلُّهُ رِدَاءَانِ تُدْرَجُ فِيْهِمَا وَحَنُوْطُ

وفسره البيضاوي بما يحتاج إليه منها، اهـ.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾؛ أي: على حسن تصرف في المتاجر واكتساب الأموال. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد. ﴿لَذُو حَظٍّ﴾ قال الراغب: الحظ النصيب المقدر.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ والخسف له معان كثيرة، منها خسف المكان، يقال: خسف المكان يخسف خسوفاً، من باب ضرب؛ أي: ذهب في الأرض وغرق، كما في «القاموس». وخسف القمر زال ضوؤه، وخسفت العين ذهب ضوؤها وغاب. وعين خاسفة إذا غابت حدتها، وخسف في الأرض وخُسف به فيها غاب.

وفي حديث ابن عباس وأبي هريرة، بسند ضعيف، عن النبي ﷺ «مَنْ لبس ثوباً جديداً فاختال فيه، خُسف به من شفير جهنم، فهو يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها». قال في «فتح الباري»: إن مقتضى الحديث، أن الأرض لا تأكل جسده فيمكن أن يلغز، ويقال لنا: كافر لا يبلى جسده بعد الموت، وهو قارون، قال

في «القاموس»: التجلجل: السُّؤوخ في الأرض والتحرك والتضعضع، والجلجلة: التحريك .اهـ.

﴿مِن فِئَةٍ﴾ قال الراغب: الفئة: الجماعة المتظاهرة، التي يرجع بعضها إلى بعض في التعاضد، انتهى. من فاء إذا رجع. ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ يقال: نصره من عدوه فانتصر؛ أي: منعه فامتنع.

﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟﴾ والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، وأكثره تصور ما لا حقيقة له، والأمنية الصورة الحاصلة في النفس، من تمني الشيء. ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ قال الجوهري: وَيْ كلمة تعجب، وقد تدخل على كأن، فتقول ويكأن، وقيل: إنها كلمة تُستعمل عند التنبه للخطأ، وإظهار الندم، قال الخليل: إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم وَيْ.

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ والحسنة ما يحمد فاعلها شرعاً، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها في القيامة. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ والسيئة ما يُذم فاعلها شرعاً، صغيرة كانت أو كبيرة، وسميت سيئة؛ لأن فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها، اهـ «بيجوري على الجوهرة».

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: أوجب عليك. ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ومعاد الرجل بلده؛ لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه، تقول العرب: رُدَّ فلان إلى معاده؛ أي: إلى بلده.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أصله يصدوننّك بنونين، أولاهما: مخففة هي نون علامة الرفع، وثانيتهما: مشددة هي نون التوكيد، فدخل عليه الجازم فحذف النون الأولى، فصار ولا يصدُّونُّك، فالتقى ساكنان الواو والنون المدغمة، فحذفت الواو لاعتلالها، ووجود دليل يدل عليها، وهو ضمة الدال، وأثر فيه الجازم لعدم مباشرة الفعل بنون التوكيد لوجود الفاصل، وهو واو الجماعة، ولم يؤثر الجازم في لفظ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ لبنائه على الفتح، لمباشرته بنون التوكيد بلا وجود فاصل،

وإن أثر في محله. ﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: معيناً. ﴿هَالِكٌ﴾؛ أي: معدوم.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الحكم: القضاء النافذ، الذي لا معقب له في الدنيا والآخرة، كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: القلب في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾؛ لأن أصل الكلام لتنوء العصبة بالمفاتح؛ أي: لتنهض بها بجهد.

ومنها: المبالغة في وصف كنوز قارون، حيث ذكرها جمعاً، وجمع المفاتح أيضاً، وذكر النوء والعصبة وأولي القوة، وهذه المبالغة في القرآن من أحسن المبالغات وأغربها عند الحذاق، وهي أن يتقصى جميع ما يدل على الكثرة وتعدد ما يتعلق بما يملكه.

ومنها: حسن التعليل في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فإن التعليل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ تعليل حسن جميل؛ لأن الفرح المحض في الدنيا، من حيث إنها دنيا مذموم على الإطلاق، وأي فرح بشيء زائل وظل حائل.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ﴾ و﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ و﴿ٱلْفَسَادَ﴾ و﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾؛ لأنه تتميم لا بد منه؛ لأنه إذا لم يغتنمها ليعمل للآخرة، لم يكن له نصيب في الآخرة. ففي الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ واللام واسمية الجملة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ﴾؛ لأن السامع شاك ومتردد.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ كنى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾؛ لأن نفي الإرادة أبلغ من نفي العلو.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى﴾ الآية.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ لأن أصله فلا يجزون، تشنيعاً عليهم، وتهجيناً لحالهم، بتكرير إسناد السيئة إليهم وفائدة هذه الصورة إنزجار العقلاء عن ارتكاب السيئات قال الزمخشري إنما كرر ذكر السيئات؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون، فحُذف المثل، وأقيم ما كانوا يعملون مقامه، مبالغة في المماثلة.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ للتفخيم، كأن هذا المعاد قد أعد لك دون غيرك من البشر.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: إلا ذاته، وقد جرت عادة العرب في التعبير بالأشرف عن الجملة.

ومنها: تقديم المعمول على عامله لإفادة الحصر، في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

لطيفة: قال بعضهم: من لم تُشبِعْه القناعة لم يكفه ملك قارون، وأنشدوا:

هِيَ ٱلْقَنَاعَةُ لاَ تَبْغِيْ بِهَا بَدَلاً فِيْهَا ٱلنَّعِيْمُ وَفِيْهَا رَاحَةُ ٱلْبَدَنِ
انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ ٱلدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ ٱلْقُطْنِ وَٱلْكَفَنِ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

١ ـ استعلاء فرعون وإفساده في الأرض.

٢ ـ استضعافه بني إسرائيل وقتله أبناءهم، واستبقاؤه نساءهم.

٣ ـ منته تعالى على بني إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون، وجعلهم أئمةً في أمر الدين والدنيا، ووراثتهم أرض الشام.

٤ ـ إغراق فرعون وجنوده.

٥ ـ إلقاء موسى في اليم، والتقاط آل فرعون له، ثم رده إلى أمه.

٦ ـ قتل موسى للقبطي ثم هربه إلى أرض مدين، وتزوجه ببنت شعيب وبقاؤه بها عشر سنين.

٧ ـ عودة موسى إلى مصر ومناجاته ربه.

٨ ـ معجزات موسى من العصا واليد البيضاء.

٩ ـ طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ليكون له وزيراً، وإجابته إلى ذلك.

١٠ ـ تبليغه رسالة ربه إلى فرعون، وتكذيب فرعون له، واستكباره في الأرض بغير الحق.

١١ ـ إثبات نبوة محمد ﷺ بإخباره عن قصص الماضين دون أن يكون حاضراً معهم، ولا أن يتعلم ذلك من معلم.

١٢ ـ إنكار قريش لنبوته بعد أن جاءهم بالحق من ربهم، وقولهم: إن ما جاء به سحر مفترى.

١٣ ـ إيمان أهل الكتاب بالقرآن، وإعطاؤه أجرهم مرتين.

١٤ ـ إثبات أن الهداية بيد الله سبحانه، لا بيد رسوله ﷺ، فلا يمكنه أن يهدي من يحب.

١٥ ـ معاذير قريش في عدم إيمانهم بالرسول ﷺ، ثم دحضها.

١٦ ـ بيان أن الله لا يعذب أمة، إلا إذا أرسل إليهم رسولاً، حتى لا يكون لهم حجة على الله.

١٧ ـ نداء المشركين على رؤوس الأشهاد، وأمرهم بإحضار شركائهم، ونداؤهم ليسألهم عما أجابوا به الرسل، فلم يستطيعوا لذلك رداً.

١٨ ـ بيان أن اختيار الرسل لله لا للمشركين، فهو الذي يصطفي من يشاء لرسالته.

١٩ ـ التذكير بنعمته على عباده، باختلاف الليل والنهار.

٢٠ ـ شهادة الأنبياء على أممهم.

٢١ ـ ذكر قارون وبغيه في الأرض، ثم خسف الأرض به.

٢٢ ـ بيان أن ثواب الآخرة، لا يكون إلا لمن لا يريد العلو في الأرض، ولا الفساد فيها.

٢٣ ـ مضاعفة الله للحسنات، وجزاء السيئة بمثلها.

٢٤ ـ الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله، وفتحه لمكة.

٢٥ ـ بيان أن كل ما في الوجود فهو هالك، إلا الله تبارك وتعالى.

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) فرغنا من تفسير هذه السورة في تاريخ ١٣/٧/١٤١٣ من الهجرة النبوية، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت تسع وستون آية[1]، وألف وتسع مئة وثمانون كلمة، وأربعة آلاف وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفاً.

واختلف[2] في كونها مكية أو مدنية، أو بعضها مكياً وبعضها مدنياً، على ثلاثة أقوال:

الأول: أنها مكية كلها، أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وبه قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة ومقاتل.

القول الثاني: أنها مدنية كلها، قال القرطبي، وهو أحد قولي ابن عباس وقتادة.

والقول الثالث: أنها مكية، إلا عشر آيات من أولها فمدنية. قال القرطبي: وهو أحد قولي ابن عباس وقتادة، وهو قول يحيى بن سلام، وقال غيره بالعكس؛ أي: إنها مدنية إلا عشر آيات من أولها فمكية، وحكي عن علي ابن أبي طالب، أنها نزلت بين مكة والمدينة. **وهذا قول رابع**.

فضلها: ومن فضائلها ما أخرجه الدارقطني في «السنن» عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان يصلي في كسوف الشمس والقمر، أربع ركعات وأربع سجدات، يقرأ في الركعة الأولى: العنكبوت، أو الروم، وفي الثانية يسٓ.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[3]:

١ ـ إنه ذكر في السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته، وجعله أهلها شيعاً، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين، الذين فتنهم المشركون وعذبوهم على

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني وزاد المسير.

(٣) المراغي.

الإيمان دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل، تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم، وحثاً لهم على الصبر كما قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢ ـ إنه ذكر في السورة السابقة: نجاة موسى من فرعون، وهربه منه، ثم عوده إلى مصر رسولاً نبياً، ثم ظفره من بعد، بغرق فرعون وقومه، ونصره عليهم نصراً مؤزراً، وذكر هنا: نجاة نوح عليه السلام، وأصحاب السفينة، وإغراق من كذبه من قومه.

٣ ـ إنه نعي هناك على عبدة الأصنام والأوثان، وذكر: أنه يفضحهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهنا نعي عليهم أيضاً، وبيَّن أنهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت.

٤ ـ هناك قص قصص قارون وفرعون، وهنا ذكرهما أيضاً، وبيَّن عاقبة أعمالهما.

٥ ـ ذكر هناك في الخاتمة: الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۢ﴾ وفي خاتمة هذه، أشار إلى هجرة المؤمنين، بقوله: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾.

تسميتها: سورة العنكبوت؛ لأن الله سبحانه، ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا...﴾ الآيات.

الناسخ والمنسوخ: سورة العنكبوت جميعها محكم[1] إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية، فإنها نُسخت بالآية التي في سورة التوبة، وهي قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾(٢٩).

والله أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ لابن حزم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢) وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣) أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن
يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ
(٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٧) وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ
حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا
كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا
هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ
وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (١٣) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ
وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٥) وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
(١٨) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (١٩) قُلۡ سِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لما قال في أواخر السورة السالفة: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ وكان في الدعاء إليه توقع الطعن والضرب في الحرب؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون، ويستجيبوا بالدعاء، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين.. أردف ذلك بتنبيههم، إلى أن المؤمنين لا يتبين إيمانهم الحق إلا إذا فُتنوا.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف: أن العبد لا يترك في الدنيا سدًى، وأن من ترك ما كلف به عذب.. أردف ذلك ببيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها... لا يضيع الله عمله، ولا يخيب أمله.

ثم ذكر: أن طلب ذلك من المكلف، ليس لنفع يعود إلى الله تعالى، فهو غني عن الناس جميعاً، ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح، تكفير السيئات ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها، فضلاً منه ورحمة.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضاعف الحسنات أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما؛ لأنهما سبب وجوده، فلهما عليه الإحسان والطاعة، فالإحسان إلى الوالد بالإنفاق، وإلى الوالدة بالإشفاق، إلا إذا حرَّضاه على الشرك وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين، فإنه لا يطيعهما في ذلك، ثم بين أن من يعمل الصالحات، يدخله الله في زمرة الأنبياء والأولياء، ويؤتيه من الكرامة والدرجة الرفيعة، والزلفى عنده، مثل ما أوتي هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية

---

(١) المراغي.

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر القسمين الأولين من أقسام الناس الثلاثة، وهما المؤمن الصادق، والكافر المجاهر، بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وبين أحوالهما بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.. أردف ذلك بذكر القسم الثالث بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ، واعلم أن الناس في الدين أقسام ثلاثة:

١ ـ مؤمن، حسن الاعتقاد والعمل.

٢ ـ كافر، مجاهر بالكفر والعناد.

٣ ـ ومذبذب بينهما، يظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر في فؤاده.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه، لما ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر، وإلزامهم إياه بالأذى والوعيد.. أردف ذلك ذكر دعوتهم إياهم إليه بالرفق واللين حيناً آخر، بنحو قولهم لهم: لا عليكم بذلك من بأس، إننا نحمل تبعات ذنوبكم، ثم رد مقالتهم ببيان كذبهم، فإن أحداً لا يحمل وزر أحد يوم القيامة، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم، ويكون لهم العذاب على كلا الجرمين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام الأدلة على الوحدانية، ثم الرسالة بقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.. شرع يبين الأصل الثالث، وهو البعث والنشور، وهذه الأصول الثلاثة، لا يكاد ينفصل بعضها من بعض في الذكر الإلهي، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن الشعبي، قال: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا

(١) لباب النقول.

بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة، أنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم، فنزلت هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر[1]: أن ناساً ممن كانوا بمكة آمنوا، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة، لما نزلت آية الهجرة، لا يُقبل منكم إسلام حتى تهاجروا، فخرجوا إلى المدينة، فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآيات، فكتبوا إليهم أنزلت فيكم آية كذا وكذا، فقالوا نخرج، فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قال مقاتل: نزلت في مهجع، مولى عمر بن الخطاب، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ يومئذٍ: «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» وجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟...﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: نزلت في عمار بن ياسر، إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه الترمذي وغيره: أن[2] هذه الآية نزلت في سعد ابن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان، لما أسلم وكان من السابقين الأولين، وكان باراً بأمه، قالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت، والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أو أموت فتتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلةً، لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت وقد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلةً، لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني، فكلي إن شئت، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك به، وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية، روي أن هذه الآية نزلت في عياش ابن أبي ربيعة أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرب فارتد، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث، وكانا أخويه لأمه، ثم عاش بعد ذلك دهراً وحسن إسلامه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ①﴾تقدم أن[1] قلنا أنه يُنطق بالحروف المقطعة في أوائل السور بأسمائها ساكنةً، فيقال: ألف، لام، ميم، والحكمة في البداءة بها التنبيه، وطلب إصغاء السامعين إلى ما يُلقى بعدها، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال، قدم على المقصود شيئاً غيره، ليلتفت المخاطب بسببه إليه، فحيناً يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل: اسمع، أو ألق بالك إلي، وحيناً يكون في معنى الكلام المفهوم، كقولك يا علي، وحيناً يكون صوتاً غير مفهوم المعنى، كمن يُصفّر خلف إنسان ليلتفت إليه.

فالنبي ﷺ، وإن كان يقظ الجنان، فهو إنسان يشغله شأن عن شأن، فحسن عن الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفاً، هي كالمنبهات، لا يُفهم منها معنى، لتكون أتم في إفادة التنبيه؛ لأنه إذا كان المقدم قولاً مفهوماً، فربما ظن السامع أنه هو المقصود، ولا كلام للمتكلم بعد ذلك، ليصغي إليه، أما إذا سمع صوتاً لا معنى له، جزم بأن هناك كلاماً آخر سيرد بعد، فيُقبل إليه تمام الإقبال،

---

(١) المراغي.

ويُرهف السمع إلى ما سيأتي.

وقد ثبت بالاستقراء، أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي، بُدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلا ثـــلاث سور: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾.

وقد بُدئت هذه السورة بالحروف وليس فيها البَدْءُ بالقرآن، أو الكتاب من قِبَلِ أن فيها ذكر جميع التكاليف، وهي شاقة على النفس، فحسن البدء بحروف التنبيه للإيقاظ إلى ما يُلقى بعدها.

وقد[1] حصل التنبيه في القرآن، بغير الحروف التي لا يُفهم معناها كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ من قِبَلِ أن تقوى الله أمر عظيم، ومثلها تحريم ما أحل الله والهمزة في قوله: ﴿أَحَسِبَ﴾؛ أي: أظن ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للاستفهام الإنكاري، وقوله: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾؛ أي: أن يُهملوا[2] ساد مسد مفعولي حسب، لاشتماله على مسند ومسند إليه، وقوله: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ بألسنتهم ﴿ءَامَنَّا﴾ على تقدير الجار؛ أي: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يقولوا، وقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ أي: لا يُمتحنون في دعواهم بما يظهرها ويثبتها، حال من نائب فاعل يتركوا؛ أي: أظنوا أنفسهم متروكين بلا فتنة وامتحان، بمجرد أن يقولوا آمنا بالله؛ أي: أظن الناس الذين نطقوا بكلمة الشهادة، أنهم يتركون غير ممتحنين بمجرد ذلك النطق، لا بل يُمتحنون ليتميَّز الراسخ في الدين من غيره، وكلاً نجازي بحسب مراتب عمله، يعني أن الله يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، ليتميَّز المخلص من المنافق، والراسخ في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نزلت هذه الآية في قوم من المؤمنين، كعمار بن ياسر وعياش ابن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق بذلك، ويجزعون، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية.

قال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب في هذه الجماعة، فهي في معناها، باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين، بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك .اهـ.

واعلم[١]: أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة، والمقصد الأعلى في العبادة، حصول محبة الله، وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله، فهو أعظم درجة عند الله، لكن للقلب ترجمان، وهو اللسان، وله مصدقات هي الأعضاء، ولها مزكيات، فإذا قال الإنسان باللسان: آمنت، فقد ادعى محبة الله في الجنان، فلا بد له من شهود، فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه من أركان الإسلام، حصل له على دعواه شهود مصدقات، فإذا بذل نفسه، وما له في سبيل الله تعالى، وزكّى أعماله بترك ما سوى الله تعالى، زكّى شهوده الذين صدقوه فيما قاله، فحينئذٍ يحرر اسمه في جرائد المحبين، ويقرر قسمه في أقسام المقربين.

قال الزجاج[٢]: لفظ الآية استخبار، ومعناه: معنى التقرير والتوبيخ، والمعنى: أحسب الناس أن يتركوا بأن يقولوا آمنا، ولأن يقولوا آمنا؛ أي: أحسبوا أن يقنع منهم، بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط، ولا يمتحنون بما يبين حقيقة إيمانهم ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه.

ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾.

والخلاصة[٣]: أيظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا، دون أن يبتلوا

---

(١) المراح.
(٢) زاد المسير.
(٣) المراغي.

بالفرائض البدنية والمالية، كالهجرة من الأوطان والجهاد في سبيل الله، ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين، وإغاثة البائسين والملهوفين.

ثم ذكر ما هو كالتسلية لهم، بما نال من قبلهم بالمشاق، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متصل بأحسب، أو بلا يفتنون؛ أي: وعزتي وجلالي لقد اختبرنا الأمم الذين من قبل هذه الأمة من الأنبياء، وأتباعهم؛ أي: ولقد اختبرنا الأمم السالفة من الأنبياء وأتباعهم، وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء، فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ، فابتلينا بني إسرائيل بفرعون وقومه، وأصابهم منه البلاء العظيم، والجهد الشديد. وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه، لا جرم ليصيبن أتباعك أذى شديد وجهد عظيم، ممن خالفهم وناصبهم العداء؛ أي[1]: هذه سنة الله في عباده، وأنه يختبر مؤمن هذه الأمة، كما اختبر من قبلهم من الأمم، كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء، وما وقع مع قومه من المحن، وما اختبر الله به أتباعهم.

روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»، وعن أبي سعيد الخدري، قال: دخلت على النبي ﷺ، وهو يوعك، فوضعت عليه يدي، فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله، ما أشدها عليك؟ قال: «إنا كذلك يضعّف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر»، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء». قلت: ثم من؟ قال: «ثم الصالحون، إن أحدهم كان ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها»

(١) الشوكاني.

ـ يمزقها ـ وإن أحدهم كان ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء»، ونحو الآية قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بالامتحان ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منهم في ذلك، ومعنى[1]: علمه تعالى: وهو عالم بذلك، فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده، كما علمه قبل وجوده أنه يوجد، والمعنى[2]: وليتميزن الصادق منهم من الكاذب، والمعنى: فوالله ليتعلقن علمه تعالى بالامتحان، تعلقاً حالياً، يتميز به الذين صدقوا في الإيمان بالله، والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب، ويرتب عليهم أجزيتهم من الثواب والعقاب، ولذلك قيل المعنى: ليميزن أو ليجازين يعني: أن بعضهم فسر العلم بالتمييز والمجازاة على طريق إطلاق السبب وإرادة المسبب، فإن المراد بالعلم تعلقه الحالي الذي هو سبب لهما.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء، وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، اهـ.

واعلم: أن البلاء كالملح، يصلح وجود الإنسان بإذن الله تعالى، كما أن الملح يصلح الطعام، وإذا أحب الله عبداً جعله للبلاء عرضاً ـ أي: هَدَفاً ـ وكل محنة مقدمة لراحة، ولكل شدة نتيجة شريفة.

أي: وليظهرن الله سبحانه[3]، الصادقين منهم في إيمانهم من الكاذبين، بما يشبه الامتحان والاختبار، وليجازين كلا بما يستحق.

وخلاصة ما سلف: أيها الناس، لا تظنوا أني خلقتكم سدًى، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم، وأرقى منه في كل شؤونه، ولا يتم ذلك إلا

---

(١) النسفي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بتكليفكم بعلم وعمل، واختباركم من آنٍ إلى آخر، بإنزال النوازل والمصائب في الأنفس، والأموال والثمرات، والتخلي عن بعض الشهوات وفعل التكاليف، من الزكاة والصيام والحج ونحوها، فحياتكم حياة جهاد وشقاء، شئتم أو أبيتم، وبمقدار ما تصبرون على هذا الاختبار، وتفوزون بالنجاح فيه، يكون مقدار الجزاء والثواب، وتلك سنة الله تعالى فيكم، وفي الأمم من قبلكم، وتاريخ الأديان مليء بأخبار هذا البلاء، وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسل.

فإن قلت[1]: لِمَ غاير بين الأسلوبين، حيث عبَّر في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ بصيغة الفعل، وفي قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل؟

قلت: فيه نكتة، وهي أن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل، ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه؛ لأن وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام، وعن قوم مستمرين على الكفر، فعبر عن حق الأولين بلفظ الفعل، وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات، اهـ «زاده».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بفتح الياء واللام في الموضعين؛ أي: ليظهرن الله الصادق والكاذب في قولهم، ويميز بينهم، وقرأ علي ابن أبي طالب وجعفر بن محمد في الموضعين: بضم الياء وكسر اللام من أعلم الرباعي، وقرأ الزهري **الأولى**: كقراءة الجماعة، **والثانية**: كقراءة علي، ذكره أبو حيان.

والمعنى عليه: فليعلمن الطائفتين في الآخرة بمنازلهم، أو يُعلِمُ الناس بصدق من صدق، ويفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها، وتتميز عن غيرها.

وأم في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾[3] منقطعة، فتقدر بالهمزة التي للاستفهام التوبيخي، وبل التي للإضراب الانتقالي من قصة إلى قصة، فالكلام انتقال من توبيخ الأول، على حسبانهم بلوغ الدرجات من غير مشاق، بل بمجرد الإيمان،

---

(١) زاده بتصرف.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

فانتقل منه إلى توبيخ أشد، وهو حسبانهم أن يفوتوا عذاب الله ويفروا منه[1]، وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى، ولم يحدثوا نفوسهم بذلك، لكنهم حيث أصروا على المعاصي، ولم يتفكروا في العاقبة، نُزِّلوا منزلة من يحسب ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

أي: بل أظن الذين ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾؛ أي: أن يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، وهو ساد مسد مفعولي حسب، لاشتماله على مسند ومسند إليه؛ أي: بل أحسب المشركون أنهم يفرون منا، ويفوتون عذابنا فلا نقدر على مجازاتهم بعصيانهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس وقبح الحكم الذي يحكمونه، حكمهم ذلك، وهو سبقهم إيانا وهربهم منا، فحُذف المخصوص بالذم.

قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة ابن أبي معيط وحنظلة ابن أبي سفيان والعاص بن وائل.

وحاصل معنى الآية[2]: أي بل أيظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم، ولا نستطيع أن نُجري العدل فيهم، وما قضت به سنتنا في الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر، بئس حكماً يحكمونه هذا الحكم، وكيف يدور ذلك بخلدهم وإنا لم نخلق الخلق سدى، بل ربيناهم وهذبناهم بضروب من التهذيب والعلم، لعلهم يلمحون في هذا العالم نور جمالي وجلالي.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ ويتوقع ويخاف ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً، فليستعد لأجل الله، باختياره من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب، واجتنابه عما يسوقه إلى سوء العذاب، والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ تعليل للجواب المحذوف، والأجل عبارة عن غاية زمان ممتد عُيِّنت لأمر من

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

الأمور؛ أي: فإن الوقت الذي عينه تعالى لذلك ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة، وكائن ألبتة، لأن[1] أجزاء الزمان على الانقضاء والانصرام دائماً، فلا بد من إتيان الوقت المعيَّن، وإتيانه موجب لإتيان اللقاء والجزاء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يفوته شيء ما، فبادروا العمل قبل الفوت، وفي الآية من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب ما لا يخفى.

ومعنى الآية[2]: أي من كان يطمع في ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ما ينفعه، وعمل ما يوصله إلى مرضاته، ويُبعده من سخطه، فإن أجل الله الذي أجَّله لبعث خلقه للجزاء لآت لا محالة، والله هو السميع لأقوال عباده، العليم بعقائدهم وأعمالهم، ويجازي كلاً بما هو أهل له، وفي هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجو والمخوف وعداً ووعيداً.

ثم بيَّن سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس بنفع يعود إليه، بل لفائدة المكلف، فقال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله تعالى، وجاهد الكفار بالسيف، وجاهد الشيطان بدفع وساوسه، والمجاهدة استفراغ الجهد - (بالضم)؛ أي: الطاقة - في مدافعة العدو، كما سيأتي.

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لا لله سبحانه؛ لأن منفعة مجاهدته عائدة إليها أي: ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله من نفع ذلك شيء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: فلا حاجة به إلى طاعتهم ومجاهدتهم، وإنما أمرهم بها رحمة عليهم، لينالوا الثواب الجزيل، كما قال: خلقت الخلق ليربحوا عليَّ لا لأربح عليهم فالعالمون هم الفقراء إلى الله تعالى، والمحتاجون إليه في الدارين، وهو مستغن عنهم.

وحاصل معنى الآية: أي ومن بذل جهده في جهاد عدو، أو حرب نفس، فإنما يجاهد لنفع نفسه؛ لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده،

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

وهرباً من عقابه، وليس بالله إلى فعله حاجة، فهو غني عن جميع خلقه، له الملك وله الأمر، يفعل ما يشاء، ونحو الآية قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

ثم بيَّن بالتفصيل جزاء المطيع، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنسترن عنهم ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ من الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ الجزاء على العمل ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات، فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح، فالمؤمن يدخل الجنة بإيمانه وتكفَّر سيئاته به، فلا يُخلَّد في النار، فحينئذ يكون الجزاء الأحسن غير دخول الجنة، وهو ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فللعبد ثلاثة أمور من أصناف حسناته[1]:

١ ـ عمل قلبه: فهو لا يُرى ولا يسمع، وإنما يُعلَم.

٢ ـ وعمل لسانه: فهو يُسمع.

٣ ـ وعمل أعضائه: وهو يُرى. فإذا أتى بهذه الأشياء الثلاثة، يجعل الله لمسموعه مالا أذن سمعت، ولمرئيِّه ما لا عين رأت، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر.

والمراد نجزينهم أحسن جزاء أعمالهم، بأن نُعطي بواحد عشر أمثاله أو أكثر، لا جزاء أحسن أعمالهم فقط، والمراد بأحسن هنا مجرد الوصف. قيل: لئلا يلزم أن جزاءهم بالحسن مسكوت عنه، وهذا ليس بشيء؛ لأنه من باب الأولى، فإنه إن جازاهم بالأحسن جازاهم بما دونه، فهو من باب التنبيه على الأدنى بالأعلى اهـ. «سمين».

ومعنى الآية[2]: أي والذين آمنوا بالله ورسوله، وصح إيمانهم حين

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

ابتلائهم، فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم، وعملوا صالح الأعمال فأدوا فرائضه، وقاموا بها حق القيام، فواسوا البائس الملهوف، وأغاثوا المظلوم، وقدموا لوطنهم ما هو شديد الحاجة إليه، فرأبوا صدعه وسدوا ثغره، وكانوا للمؤمنين سنداً ومعيناً حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضاً.. لنكفرن عنهم سيئاتهم التي فُرِّطت منهم في شركهم، أو صدرت منهم لماماً في إيمانهم، وندموا على ما اجترحوه منها، ولنثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون، فنقبل القليل من الحسنات، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ونجزي على السيئة بمثلها أو نعفو عنها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

فإن قلت: إن قوله: ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يستدعي وجود السيئات حتى تكفَّر، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقتضي عدمها، فمن أين تكون لهم سيئة؟

قلت: الجواب عن ذلك أن يقال: إنه ما من مكلف إلا وله سيئة، أما غير الأنبياء فظاهر، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ اهـ. «كرخي».

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ أي: أمرنا الإنسان بالبر بوالديه والعطف عليهما؛ لأنهما سبب وجود الولد؛ أي(1): أمرناه بأن يُحسن إليهما بكل ما يمكنه من وجوه الإحسان، فيشمل ذلك إعطاء المال والخدمة، ولين القول وعدم المخالفة لهما وغير ذلك، وانتصاب حسنا على أنه نعت لمصدر محذوف؛ أي إيصاءً حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف؛ أي: ذا حسن، هذا عند البصريين، وأما عند الكوفيين فهو منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف، تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حُسْناً.

وقرأ الجمهور ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وإسكان السين، وقرى أبو رجاء وأبو

---

(1) الفتوحات.

العالية والضحاك وابن مسعود: ﴿حسنا﴾ بفتحهما، وقرأ أبي بن كعب وأبو مجلز وعاصم الجحدري: ﴿إحسانا﴾، قال الزجاج[1]: من قرأ حسنا بضم الحاء وإسكان السين فمعناه: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن، ومن قرأ إحساناً، فمعناه: ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والديه. وكان (حسنا) أعم في البر.

فإن قلت: ذكر هنا[2] ﴿حُسْنًا﴾ وفي الأحقاف ﴿إِحْسَٰنًا﴾ حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ الآية، وحذفه في لقمان، حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مع أن الثلاثة نزلت في سعد بن مالك، وهو سعد ابن أبي وقاص على خلاف فيه، فما الفرق بينه وبينهما؟

قلت: ذكر هنا وفي الأحقاف؛ لأن الوصية فيهما جاءت في سياق الإجمال فحسن ذكره، وفي لقمان جاءت مفصلة لما تقدمهما من تفصيل كلام لقمان لابنه، ولأن قوله بعدها: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ قائم مقامه، فحسن حذفه.

فائدة: ويجب على الأبوين أن لا يحملا الولد على العقوق بسبب الجفاء وسوء المعاملة، ويعيناه على البر، فمن البر وهما حيان أن ينفق عليهما، ويمتثل أمرهما في الأمور المشروعة، ويجامل في معاملتهما، ومن البر بعد موتهما التصدق لهما، وزيارة قبرهما في كل جمعة، والدعاء لهما في أدبار الصلاة، وتنفيذ عهودهما ووصاياهما.

وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ مقول لقول محذوف، تقديره؛ أي[3]: وقلنا له: وإن جاهداك وكلفاك أيها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾؛ أي: على أن تشرك بي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: بآلهيته، وهذا القيد[4] لموافقة الواقع فلا مفهوم له؛ لأنه ليس ثم إلٰه لك به علم وإلٰه لا علم لك به، بل الإله واحد، وقيل: عبَّر بنفي العلم عن

---

(١) زاد المسير.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.

نفي الإله، لأن ما لا يُعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما عُلم بطلانه.

والمعنى: وقلنا له: وإن طلبا منك وألزماك أن تشرك بي إلهاً ليس لك به علم بكونه إلهاً ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾؛ أي: لا توافقهما في الإشراك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما ورد في الحديث الصحيح، ويدخل فيه الأستاذ والأمير إذا أمر بغير معروف وهو ما أنكره الشرع، فلا طاعة لهما.

والخلاصة: أي وإن حرَّضاك على أن تتعابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك أن تفعل ذلك.

فإن قلت[1]: لِمَ قال هنا ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ باللام، وقال في لقمان: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ بعلى؟

قلت: قال هنا باللام، موافقةً للفظ اللام في قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ وقال في لقمان بعلى، حملاً على المعنى بطريق التضمين، إذ التقدير: وإن حملاك على أن تشرك بي.

وإذا لم تجز[2] طاعة الوالدين في هذا المطلب، مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، ويُلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ.

﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم يوم القيامة جميعاً؛ أي: مرجع من آمن منكم ومن أشرك، ومرجع من برَّ بوالديه ومن عقّ بهما، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، ثم أجازيكم على أعمالكم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فلا تظنوا أني غائب عنكم، وآباؤكم حاضرون فتوافقوا الحاضرين في الحال، فإني حاضر معكم، أعلم ما تفعلون ولا أنسى، فأنبئكم بجميعه، فأجازيكم عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) كرماني بتصرف.   (٢) الشوكاني.

عبَّر[1] عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم؛ أي: أظهر لكم على رؤوس الأشهاد، وأعلمكم أي شيء كنتم تفعلون في الدنيا على الاستمرار، وأرتب عليه جزاءه اللائق به. ففي الآية بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين، والموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في محل رفع على الابتداء خبره ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح، ولنحشرنهم معهم، وهم الأنبياء والأولياء، وكل من صلحت سيرته مع الله، والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين، وغاية مأمول الأنبياء والمرسلين.

والمعنى: أي والذين آمنوا بالله، وصدقوا رسوله، وعملوا ما يصلح نفوسهم، ويزكي أرواحهم ويطهرها، لندخلنهم في زمرة الصالحين، ونجعلهم في عدادهم، فندخلهم الجنة معهم.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ باعتبار مضمونه، والخبر جملة يقول في قوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾؛ أي: وبعض الناس يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أقررنا بواحدانية الله ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ﴾ مجهول آذى يؤذي، كما سيأتي في مباحث الصرف؛ أي: إذا فُتن ﴿فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شأن الله تعالى ولأجله.

والأذى[2]: ما يصل إلى الإنسان من ضرر، إما في نفسه أو في جسمه، أو في حرمه أو في ماله، كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات، من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه في الآخرة في الشدة والهول، ويستولي عليه خوف البشرية، إذ من لم يكن في حماية خوف الله وخشيته، يفترسه خوف الخلق، فيساوي بين العذابين، فيخاف العاجل الذي هو ساعة، ويهمل الآجل الذي هو باق لا ينقطع، فيرتد عن

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

الدين، ولو علم شدة عذاب الله، وأن لا قدر لعذاب الناس عند عذابه تعالى لما ارتد، ولو قطع إرباً إرباً، ولما خاف من الناس وعذابهم، وفي الحديث «من خاف الله خوف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله يخوِّفه الله من كل شيء».

وقال بعضهم: جعل فتنة الناس في الصرف عن الإيمان كعذاب الله في الصرف عن الكفر.

وحاصل المعنى[1]: أي ومن الناس فريق يقول: آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه جعل فتنة الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئناً بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفةً له عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب الله ليس له دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده العقاب الأليم.

والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذاباً، كما تُقطع السلعة المؤذية ولا تُعدُّ عذاباً، واعلم أن الأقسام ثلاثة: مؤمن ظاهراً وباطناً، ومؤمن ظاهراً لا باطناً، وكافر ظاهراً وباطناً .اهـ «رازي» كما مر.

قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله، أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وأبو يعلي وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي وغيرهم، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أُخفتُ في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثالثة، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال».

وخلاصة ذلك: أن من الناس من يدَّعون الإيمان بألسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم، فارتدوا عن الإسلام، ورجعوا إلى الكفر الذي كان متغلغلاً في حنايا ضلوعهم، وشغاف

---

(١) المراغي.

قلوبهم، ونحو الآية قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن جاء نصر قريب من عند ربك للمؤمنين، وفتح وغلبة للأعداء، وغنيمة يغنمونها منهم، فالآية مدنية ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام(1) نظراً إلى معنى من، كما أن الإفراد فيما سبق بالنظر إلى لفظه، وقرىء: ﴿ليقولن﴾ بفتح اللام، ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري، ذكره أبو حيان في «البحر».

أي: ليقولن هؤلاء المنافقون: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ داخلين ﴿مَعَكُمْۚ﴾ في دينكم ومعاونين لكم على عدوكم فأشركونا في المغنم، وهم كاذبون فيما يدعون. ونحو الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾.

وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم، وكانوا يكتمونه من المسلمين، فرد الله عليهم وتوعدهم، وذكر أنه عليم بما في صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِأَعْلَمَ﴾ منهم ﴿بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: بما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء، وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ للاستفهام التقريري، المضمن للتوبيخ، داخلة على محذوف تقديره: أيحسبون أن الله لا يعلم ما في صدورهم من النفاق، وليس الله سبحانه بأعلم بما في صدور العالمين، وبما في قلوب المنافقين وما تكنه صدورهم، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان، فكيف يخادعون من لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سر، والمعنى: قد علم ما انطوت عليه الضمائر من خير أو شر.

---

(1) روح البيان.

والظاهر[١]: أن هذا النظم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ نازل في المنافقين، لما يظهر من السياق، ولقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان نفاقهم بأذية الكفرة أو لا، فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيده؛ أي: ليميزن الله بين الطائفتين، ويُظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين، فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى. ويصبر في حق الله الصبر، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله، والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم، وكفر بالله عز وجل، وإن خفقت ريح الإسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع إلى الإسلام، وزعم أنه من المسلمين.

والمعنى: أي وعزتي وجلالي، ليختبرن الله[٢] عباده بالسراء والضراء، ليميز صادق الإيمان من المنافق، من يطيع الله في كل حال يصبر على اللاواء إذا مسته، ويعدها اختباراً له، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوَّض فيها إليه. ومن يعصيه إذا حزبه الأمر، واشتد به الخطب لا يجد الصبر إلى قلبه سبيلاً، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

فإن قلت[٣]: لِمَ غاير بين أسلوب الجملتين، حيث عبر في الأولى بالفعل حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفي الثانية باسم الفاعل، حيث قال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؟

قلت: للتفنن أو لرعاية الفاصلة، كما في «البيضاوي».

واعلم[٤]: أن حقيقة الإيمان نور، إذا دخل قلب المؤمن لا تخرجه أذية الخلق، بل يزيد بالصبر على أذاهم، والتوكل على الله، فإنه نور حقيقي، أصلي ذاته، لا يتكدر بالعوارض، كنور الشمس والقمر فإنهما إذا طلعا يزداد نورهما

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات بتصرف.
(٤) روح البيان.

بالارتفاع، ولا يقدر أحد أن يطفيء نورهما. وكنور الحجر الشفاف المضيء بالليل، فإنه لا يقبل الانطفاء مثل الشمعة؛ لأن نوره أصلي، ونور الشمعة عارضي.

ثم إن في المحن والأذى تفاوتاً، فمن كانت محنته بموت قريب من الناس، أو فقد حبيب من الخلق أو نحوه.. فحقير قدره وكثير من الناس مثله، ومن كانت محنته لله وفي الله.. فعزيز قدره وقليل مثله، وقد كان كفار مكة يؤذون النبي ﷺ بأنواع الأذى فصبر.

ولما ذكر حال المؤمنين والمنافقين ذكر مقالة الكافرين قولاً واعتقاداً، وهم رؤساء قريش فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله، يعني: كفار مكة كالوليد بن المغيرة وأبي جهل وأصحابهما ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله كعلي وسلمان وغيرهما، واللام للتبليغ؛ أي: قال كفار مكة مخاطبين للمؤمنين استمالة ليرتدوا ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾؛ أي: اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين من عبادة الأوثان، عبر عن ذلك بالاتباع الذي هو المشي خلف ماش آخر، تنزيلاً للمسلك منزلة السالك فيه.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾؛ أي: ذنوبكم عنكم يوم القيامة، إن كان اتباع سبيلنا خطيئةً، تؤاخذون بها عند البعث والنشور، كما تقولون؛ أي: لا بعث ولا مؤاخذة، وإن وقع فرضاً نحمل آثامكم منكم.

واللام: في ﴿لنحمل﴾ لام الأمر، كأنهم أمروا أنفسهم بذلك، وقال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، وقرأ الحسن وعيسى بكسر لام الأمر، وهو لغة الحجاز.

ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾. قرأ[1] الجمهور: ﴿مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم﴾ وقرأ داوود ابن أبي هند، فيما ذكر أبو الفضل الرازي ﴿من خطيئتهم﴾ بالإفراد، قال: ومعناه الجنس، ودل على ذلك إضافته لضمير

---

(١) البحر المحيط.

الجمع، وذكر ابن خالويه وأبو عمرو الداني، أن داوود هذا قرأ: ﴿من خطيئاتهم﴾ بجمع خطيئة جمع السلامة، بالألف والتاء، وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ: ﴿من خطيئهم﴾ بفتح الطاء وكسر الياء، وينبغي أن يُحمل كسر الياء على أنها همزة سُهِّلت بين بين فأشبهت الياء؛ لأن قياس تسهيلها هو ذلك.

أي: والحال أنهم ليسوا بحاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها، فمن الأولى بيانية، والثانية مزيدة للاستغراق، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مقالتهم فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم.

ومعنى الآية[1]: أي وقال الكافرون من قريش، لمن آمن منهم، واتبعوا الهدى: ارجعوا إلى ديننا الذي كنتم عليه، واسلكوا طريقنا، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها، وهي في رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، فرد الله عليهم كذبهم، فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ أي: وإن الكفرة لا يحملون ذنوب المؤمنين إذا اتبعوهم في الكفر يوم القيامة، فإن أحداً لا يحمل وزر أحد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

ثم أكد ما سبق وقرره بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا من أنهم يحملون عنهم الخطايا. قال صاحب «الكشاف»: وترى[2] من المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك، فيقول لصاحبه، إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم كالقتل: افعل هذا وإثمه في عنقي، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم .اهـ.

وبعد أن بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم.. بيَّن ما يستتبعه ذلك القول من المضرة لأنفسهم، فقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، ليحملن هؤلاء القائلون ذنوب أنفسهم التي عملوها يوم القيامة، والتعبير عنها بالأثقال

(١) المراغي. (٢) الكشاف.

للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿و﴾ يحملون ﴿أثقالاً﴾ وذنوباً أخرى لإضلالهم ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ أي: مع أثقال ضلالهم، فيعذبون بضلال أنفسهم وإضلال غيرهم، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء ما أصلاً، فتكون أثقال المضلين زائدةً على أثقال الضالين؛ لأن من دعا إلى ضلالة فاتُّبع، فعليه حمل أوزار الذين اتبعوه، وكذا من سن سنةً سيئة، كما ورد في حديث أبي هريرة الثابت في «صحيح مسلم» وغيره.

ثم ذكر أنهم يُسألون يوم القيامة عن افترائهم على ربهم، فقال: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ سؤال تقريع وتبكيت لِمَ فعلوه، ولأيٍّ حجة ارتكبوه ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: عما كانوا يختلقونه من الأكاذيب والأباطيل التي أضلوا بها من قولهم، ولنحمل خطاياكم، فإنه صادر من اعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ومن اعتقادهم أن لا حشر، ويقال لهم: احملوا خطاياهم فلا يحملون، ويقال لهم: افتريتم في الدنيا بحملها، فأين ذلك الوعد والافتراء الآن.

قصص نوح عليه السلام

ثم أجمل سبحانه قصة نوح عليه السلام تصديقاً لقوله في أول السورة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ للدعوة إلى التوحيد وطريق الحق، من قبل إرسالنا إياك يا محمد ﴿نُوحًا﴾ واسمه عبد الغفار، كما ذكره السهيلي في كتاب «التعريف»، وعبد الشاكر، كما ذكره أبو الليث في «البستان»، وسمي نوحاً لكثر نوحه وبكائه من خوف الله تعالى، وُلد بعد مضيّ ألف وست مئة واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم عليه السلام، قال في «التحبير»[1] روى ابن جرير عن ابن عباس، أن نوحاً بعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين، وهو نوح بن لمك بفتح اللام وسكون الميم والكاف ابن متوشلخ ـ بضم الميم وفتح التاء الفوقية، والواو وسكون الشين وكسر اللام وبالخاء المعجمة، كما ضبطه ابن الأثير ـ بن إدريس بن بزد بن أهاليل بن قيتان بن أنوش بن شيث بن آدم، وبين

(١) التحبير.

آدم ونوح ألف سنة، اهـ.

وفي «القرطبي»: وكان اسم نوح السكن، وإنما سمي السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم. ووُلد له سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولد حام القبط والسودان وبربر، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وليس في كل هؤلاء خير، وقال ابن عباس: في ولد سام بياض وأدمة، وفي ولد حام سواد وبياض قليل، وفي ولد يافث الصفرة والحمرة، وكان له ولد رابع وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسميه يام.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهم أهل الدنيا كلها، والفرق[1] بين عموم رسالته وبين عموم رسالة نبينا ﷺ: أن نبينا ﷺ مبعوث إلى من في زمانه، وإلى من بعده إلى يوم القيامة، بخلاف نوح، فإنه مرسل إلى جميع أهل الأرض في زمانه لا بعده. كما في «إنسان العيون».

وهو أول نبي بُعث إلى عبدة الأصنام؛ لأن عبادة الأصنام أول ما حدثت في قومه، فأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك، وأيضاً أول نبي بُعث إلى الأقارب والأجانب، وأما آدم فأول رسل الله إلى أولاده بالإيمان به وتعليم شرائعه، وهو؛ أي: نوح عليه السلام أبونا الأصغر، وقبره بكرك (بالفتح) من أرض الشام، كما في «فتح الرحمٰن». وفي «الخطيب»:[2] وأما قبره: فقد روى ابن جرير والأزرقي حديثاً مرسلاً، أن قبره بالمسجد الحرام، وقيل: ببلد البقاع يُعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بُني بسبب ذلك، اهـ.

﴿فَلَبِثَ﴾ نوح عليه السلام؛ أي: مكث وأقام ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في قومه بعد الإرسال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته فلم يجيبوه، والألف العدد المخصوص، سمي بذلك لكون الأعداد فيه مؤلفة، فإن الأعداد أربعة آحاد وعشرات ومئون وألوف، فإذا بلغ الألف فقد ائتلف وما بعده ويكون مكرراً، قال

---

(١) روح البيان. (٢) الخطيب.

بعضهم: الألف من ذلك؛ لأنه مبدأ النظام ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ قال ابن عباس: كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بُعث على رأس أربعين سنة، ولبث في قومه تسع مئة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة.

والعام[1] كالسنة، لكن كثيراً ما تُستعمل السنة في الحول الذي فيه الشدة والجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام فيما فيه الرخاء.

فإن قلت: لِم غاير بين تمييز العددين، فقال في الأول: سنة، وفي الثاني عاماً؟

قلت: فراراً من ثقل التكرار؛ لأن التكرار في الكلام الواحد مجتنب في البلاغة، إلا إذا كان لغرض من تفخيم أو تهويل أو تنويه، ذكره أبو حيان.

فإن قلت: لِمَ خص لفظ العام بالخمسين والألف بالسنة ولم يعكس؟

قلت: إيذاناً بأن نوحاً عاش بعد إغراق قومه ستين سنة في طيب زمان وصفاء عيش، وراحة بال، والعرب تعبر عن الخصب بالعام، وعن الجدب بالسنة .اهـ «سمين». وقيل: سمى السنة عاماً لعوم الشمس في جميع بروجها. والعوم السباحة، ويدل على معنى العوم قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فإن قلت: ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟

قلت: كان رسول الله ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام، فقال الله سبحانه له: إن نوحاً لبث هذا العدد الكثير، ولم يؤمن من قومه إلا القليل، فصبر وما ضجر، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك .اهـ «رازي».

فإن قلت[2]: ما فائدة العدول إلى ما قاله عن تسع مئة وخمسين مع أنه عادة الحُسَّاب؟

قلت: عدل إلى ما قاله؛ لأن: الاستثناء يدل على التحقيق، وتركه قد يُظنُّ

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

به التقريب، فهو كقول القائل: عاش فلان مئة سنة، فقد يُتوهم السامع أنه يريد مئة سنة تقريباً لا تحقيقاً. فإن قال: مئة سنة إلا شهراً.. زال ذلك التوهم وفُهم منه التحقيق، والاستثناء من الألف استُدل به على جواز الاستثناء من العدد، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف مذكور في النحو، وقد عمل الفقهاء المسائل على جواز ذلك.

ومعنى الآية[1]: فلبث بين أظهرهم تسع مئة وخمسين سنة يخوِّفهم من عذاب الله، ولا يلتفتون إليه، وإنما ذكر الألف تخييلاً لطول المدة إلى السامع؛ أي: ليكون أفخم في أذنه، ثم أخرج منها الخمسين إيضاحاً لمجموع العدد.

والفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ للتعقيب؛ أي: أغرقهم عقيب تمام المدة المذكورة الماء الكثير، المحيط بهم، المرتفع على أعلى جبل أربعين ذراعاً، أو خمسة عشر ذراعاً. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم مستمرون على ظلمهم وكفرهم.

قال ابن عباس: مشركون، والطوفان - كما سيأتي - يُطلق على كل ما يطوف بالشيء ويحيط به، على كثرة وشدة وغلبة، من السيل والريح والظلام والقتل والموت والطاعون والجدري والحصبة والمجاعة، وقد غلب على طوفان الماء، وقد طاف الماء ذلك اليوم بجميع الأرض، والحال أنهم مستمرون على الظلم والكفر، لم يستمعوا إلى داعي الحق هذه المدة المتمادية، ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، وذكَّرهم هذه المدة بطولها ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾؛ أي: فأنجينا نوحاً من الغرق والابتلاء بمشاق الكفرة ﴿و﴾ أنجينا ﴿أصحاب السفينة﴾؛ أي: ومن ركب معه فيها من أولاده وأتباعه.

واختُلف في عددهم على أقوال: قيل[2]: كانوا ثمانين، وقيل: ثمانيةً وسبعين، وقيل: عشرة، نصفهم ذكور ونصفهم أناث. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: السفينة ﴿ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: عبرةً عظيمةً لمن بعدهم من الأهالي يتعظون بها، أو دلالةً

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

يستدلون بها على قدرة الله سبحانه، وقيل: إن الضمير في جعلناها عائد إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق، قال أبو الليث في «تفسيره»: وقد بقيت السفينة على الجودي إلى قريب من وقت خروج النبي ﷺ، وبين الطوفان والهجرة الشريفة ثلاثة آلاف وتسع مئة وأربع وسبعون سنة، على ما في «فتح الرحمٰن»، وكان ذلك علامةً وعبرةً لمن رآها ولمن لم يرها؛ لأن الخبر قد بلغه، وقال بعضهم: سفينة نوح أول سفينة في الدنيا، فأبقيت السفن آيةً وعبرةً للخلائق وعلامةً من سفينة نوح، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾.

روي[1]: أن نوحاً بُعث على رأس الأربعين، ودعا قومه تسع مئة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا، وذلك من أولاد حام وسام ويافث؛ لأنهم لما خرجوا من السفينة ماتوا كلهم إلا أولاد نوح، كما في «البستان»، فيكون عمره ألفاً وخمسين عاماً، وهو أطول الأنبياء عمراً، فلما حضره الموت قال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتها كدار لها بابان دخلت وخرجت. وما أحسن ما قيل فيها:

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلِّ سَحَابَةٍ أَظَلَّتْكَ يَوْماً ثُمَّ عَنْكَ اضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَاناً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ وَلاَ تَكُ جَزْعَاناً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

قال الحسن: أفضل الناس يوم القيامة المؤمن المعمر، انتهى. اللهم أركبنا جواري الشريعة، وأوصلنا بها إلى صحارى الجنة، فليجِدَّ مَنْ وقع في طوفان نفسه حتى يجد الخلاص، وإليه الملجأ والمناص.

وحاصل معنى الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى أرسل[2] نوحاً إلى قومه فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهراً، وما زادهم ذلك إلا فراراً من الحق، وإعراضاً عنه، وتكذيباً له، وما آمن معه إلا قليل منهم، فأنزل الله عليهم الطوفان، فأهلكهم وهم مستمرون في الظلم، لم

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات، ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة، فأنجى الله نوحاً ومن معه ممن ركب السفينة من أتباعه، وكانت تلك السفينة عبرةً وموعظة أمداً طويلاً مدة بقائها على جبل الجودي، ينظر إليها الناس، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان، كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة هود.

العبرة من هذا القصص: لا يحزننك أيها الرسول ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى، فإني وإن أمليت لهم وأطلت إملاءهم، فإن مصيرهم إلى البوار، ومصيرك ومصير أصحابك إلى العلو والنصر كفعلنا بقوم نوح، إذ أغرقناهم بالطوفان، وأنجينا نوحاً وأتباعه من راكبي السفينة، وجعلناها عبرة للعالمين، وفي ذلك إيماء إلى أن نوحاً قد لبث هذا الأمد الطويل، يدعو قومه ولم يؤمن إلا القليل فصبر وظفر، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد أمتك.

قصة إبراهيم عليه السلام

وقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ منصوب عطفاً على نوحاً؛ أي: ولقد أرسلنا إبراهيم عليه السلام، من قبل إرسالنا إياك يا محمد، أو منصوب باذكر مقدراً، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾[1] بدل اشتمال من إبراهيم؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها؛ أي: واذكر إبراهيم وقت قوله لقومه، أو ظرف لأرسلناك المقدر؛ أي: ولقد أرسلنا إبراهيم حين بلغ من السن، أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه، ويأمرهم بالعبادة والتقوى.

قرأ الجمهور[2]: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بالنصب، ووجهه ما قدمنا، وقرأ النخعي وأبو جعفر وأبو حنيفة: بالرفع على الابتداء، والخبر مقدر، تقديره؛ أي: ومن المرسلين إبراهيم.

---

(١) النسفي. (٢) الشوكاني.

وهذه القصة تمثيل لقريش، وتذكير لحال أبيهم إبراهيم، من رفض الأصنام، والدعوى إلى عبادة الله سبحانه؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة إبراهيم إذ قال: ﴿لِقَوْمِهِ﴾ أهل بابل، ومنهم نمرود، وكان نمرود وأهل مدينته عباد أصنام، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: خافوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فقوله[1]: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى إثبات الإله الواحد، وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى نفي غيره. وقيل: فاعبدوا الله، إشارة إلى الإتيان بالواجبات، فيدخل فيه الاعتراف بالله، واتقوه: إشارة إلى الامتناع من المحرمات، فيدخل فيه الامتناع من الشرك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور من عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: أفضل لكم مما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، ومعنى التفضيل مع أنه لا خير قطعاً باعتبار زعمهم الباطل ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميزون أحدهما عن الآخر، أو كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل، أو إن كان لكم علم بما هو خير لكم، مما هو شر لكم فاعبدوه واتقوه.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر يا محمد لقومك قصص إبراهيم حين كمل عقله، وقدر على النظر والاستدلال، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في السر والعلن، واتقاء سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

ثم بين لهم فائدة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فذلك الذي آمركم به خير لكم مما أنتم عليه، إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم، تميزون بها الخير من الشر، وتعلمون ما ينفعكم في مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية.

ثم أرشدهم إلى فضل ما يدعوهم إليه، وفساد ما هم عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾؛ أي: أحجاراً لا تستحق العبادة ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ أي: وتكذبون حيث تسمونها آلهة، وتدعون أنها شفعاؤكم؛ أي: ما تعبدون من دون الله إلا تماثيل هي مصنوعة بأيديكم لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، وتفترون كذباً حين تسمونها آلهة، وتدعون أنها تشفع لكم عند ربكم، والأوثان هي الأصنام.

وقال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، وقال الجوهري: الوثن الصنم، والجمع أوثان، وقال بعضهم[١]: الصنم هو الذي يؤلف على صورة الإنسان سواء كانت من ذهب أو فضة أو حجر أو غيرها، والوثن هو ما يؤلف من حجر أو شجر على غير صورة الإنسان، يقال خلق واختلق؛ أي: افترى لساناً أو يداً كنحت الأصنام، كما في «كشف الأسرار». والإفك: أسوأ الكذب، والمعنى: وتكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة، وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله، وهو استدلال على شرارة ما هم عليه، من حيث إنه زور وباطل.

· وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ مضارع خلق الثلاثي ﴿إِفْكًا﴾ بكسر الهمزة وسكون الفاء، وقرأ علي والسلمي وعون العقيلي وعبادة وابن أبي ليلى وزيد بن علي ﴿تخلقون﴾ بفتح التاء والخاء واللام مشددة، قال ابن مجاهد: رويت عن ابن الزبير، وأصله تتخلقون، بتاءين فحذفت إحداهما على الخلاف الذي في المحذوفة، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الأهوازي ﴿تُخَلِّقون﴾ من خلَّق المضعف، وقرأ ابن السميفع وأبو المتوكل: ﴿تختلقون﴾ بزيادة التاء، من اختلق من باب افتعل الخماسي، وقرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان ﴿أَفِكًا﴾ بفتح الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر مثل الكذب. قال ابن عباس: وتخلقون إفكا هو نحت الأصنام وخلقها، سماها إفكاً توسعاً من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) زاد المسير.

ثم استدل على شرارة ذاك، من حيث إنه لا يجدي بطائل، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من الأوثان ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق. ﴿فَابْتَغُوا﴾؛ أي: فاطلبوا يا قوم ﴿عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه القادر على إيصال الرزق إليكم؛ أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله سبحانه، فهو الذي عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ دون غيره لكونه مستحقاً للعبادة لذاته، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيدين للنعمة بالشكر، ومستجلبين بالمزيد، فإن الشكر موجب لبقائها، وسبب للمزيد عليها، قال[1] ابن عطاء: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة، وقال سهل: اطلبوا الرزق في التوكل، لا في الكسب، وهذا سبيل العوام. ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بالموت ثم بالبعث، فافعلوا ما أمرتكم به فهو خير لكم.

فائدة[2]: ذكر الرزق أولاً، ثم عرَّفه ثانياً، في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؛ لأنه أراد بذلك أن الذين تعبدون من دون الله لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله، فإنه هو الرازق لا غيره، وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إما من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمعنى عليه أي[3]: وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به، من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث، فلا تضروني بتكذيبكم، فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبلي من الرسل، وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام، فلم يضروهم بتكذيبهم شيئاً، أو من قول الله سبحانه في شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، معترض بين أول قصة إبراهيم وآخرها، والمعنى عليه أي: وإن تكذبوا محمداً ﷺ، فذلك عادة الكفار مع من سلف من الرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ الذي أرسل إلى أمة من الأمم ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: إلا التبليغ الواضح الذي لا يبقى معه شك ولا إشكال، ولا شبهة

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) المراح.

إلى القوم الذي أرسل إليهم، وليس عليه هدايتهم وليس ذلك في وسعه.

وحاصل معنى الآيتين[1]: أي إن أوثانكم التي تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئاً من الرزق، الذي لا قوام لكم بدونه، فكيف تعبدونها، ثم ذكر لهم من ينبغي أن يعبد ويبتغى منه الرزق، فقال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ إلخ؛ أي: فالتمسوا الرزق عند الله لا عند أوثانكم، تدركوا ما تطلبون، واعبدوه وحده، واشكروا له نعمه عليكم، مستجلبين بذلك المزيد من فضله، وبعد أن ذَكَر أنه هو الرازق في الدنيا والمنعم على عباده، بيَّن أن المرجع إليه في الآخرة، فهو الذي يُطلب رضاه، والتقرب إليه والزلفى عنده، فقال: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: واستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر له، فإنكم إليه ترجعون فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلبون، ومن رزقه تأكلون.

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق.. حذرهم من تركه وهددهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل، فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ إلخ؛ أي: وإن تصدقوني فقد فزتم بسعادة الدارين، وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به فلا تضروني بتكذيبكم، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم، كقوم إدريس ونوح، فجرى الأمر على ما سنه الله تعالى في الخلق، من نجاة المصدقين للرسل وهلاك العاصين لهم. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: وما ضر ذلك الرسل شيئاً، بل هم قد ضروا أنفسهم، فما على الرسول إلا التبليغ الذي لا يبقى معه شك، وهو المقترن بآيات الله ومعجزاته، وما عليه أن يصدقه قومه، وقد خرجت من عهدة التبليغ، ولا عليَّ بعد ذلك أصدقتم أم كذبتم.

ولما بين الله سبحانه وتعالى[2] الأصل الأول وهو التوحيد، وأشار إلى الثاني وهو الرسالة، بقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر، وهذه الأصول الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض في

---

(١) المراغي.

(٢) النهر.

الذكر الإلهي، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري؛ أي[1]: لإنكار عدم رؤيتهم، الموجب لتقريرها داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم ينظروا؛ أي: أهل مكة وكفار قريش، ولم يروا؛ أي: ولم يعلموا علماً، جارياً مجرى الرؤية في الجلاء والظهور ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾؛ أي: يخلقهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويخلقهم من نطفة من غذاء، هو ماء وتراب، وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة، فإن الإعادة مثل البدء؛ أي: ألم يعلموا كيفية خلق الله ابتداءً من مادة ومن غير مادة؛ أي: قد علموا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ أي: ثم هو يعيد الخلق، ويردهم إلى الوجود في الآخرة عند البعث، وهو معطوف[2] على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على يبدأ، لعدم وقوع الرؤية عليه، فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق، قياساً على الإبداء.

فإن قلت: أوليس هذا من عطف الخبر على الإنشاء؟

أجيب: بأن الاستفهام فيه لما كان للإنكار، وتقرير الرؤية، كان إخباراً من حيث المعنى؛ أي: قد رأوا ذلك وعلموه .اهـ «زاده».

وقد جُوِّز العطف على (يبدأ) بتأويل الإعادة، بإنشائه تعالى كل سنة ما أنشأه في السنة السابقة، من النبات والثمار وغيرهما، فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث، ووقوعه من غير ريب. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإعادة، أو من الخلق الأول والخلق الثاني ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل لا نصب فيه، إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء من الأسباب؛ لأنه إذا أراد أمراً قال: له كن، فيكون.

وحاصل المعنى[3]: أن إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام، أرشد قومه إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلقهم، بعد أن لم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة وتصرفهم في الحياة إلى حين، ثم موتهم بعد ذلك، والذي بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه، كما قال في آية أخرى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وخلاصة هذا: أنتم قد علمتم ذلك، فكيف تنكرون الإعادة، وهي أهون عليه.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه[1]: ﴿تروا﴾ بتاء الخطاب، وباقي السبعة بالياء، والجمهور ﴿يُبْدِئُ﴾ مضارع أبدأ الرباعي، وقرأ الزبير وعيسى وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿يبدأ﴾ مضارع بدأ الثلاثي، وقرأ الزهري ﴿كيف بدا الخلق﴾ بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً، فذهبت في الوصل، وهو تخفيف غير قياسي وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين.

والمعنى: ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرجه إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات، وسائر النباتات، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد أولاً، فهو القادر على الإعادة.

ثم أمر الله سبحانه إبراهيم[2] أن يأمر قومه بالمسير في الأرض، ليتفكروا ويعتبروا، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا إبراهيم، لقومك المنكرين للبعث ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سافروا في أقطار الأرض ونواحيها ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أي: فانظروا إلى الأشياء المخلوقة، كيف خلقها ابتداء على كثرتها، واختلاف ألوانها وطبائعها، وألسنتها وأفعالها ومعيشتها، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية، والأمم الخالية وآثارهم، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وقيل: إن المعنى: قل يا محمد لمشركي العرب، ومنكري البعث: سيروا في نواحي الأرض فانظروا بأعينكم كيف خلق الله الخلق ابتداء على تلك الأشكال العجيبة، والأحوال الغريبة، لتعلموا قدرة الصانع الحكيم والمدبر العليم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ الذي بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية العجيبة والأشكال الغريبة ﴿ينشئ﴾ها ﴿النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: نشأة ثانية عند البعث.

والنشأة[1] مصدر مؤكد لينشيء بحذف الزوائد، والأصل الإنشاءة، قال الراغب: الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان، اهـ. أو على حذف العامل؛ أي: ينشيء فينشؤون النشأة الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: فنبتت نباتاً حسناً، والنشأة الآخرة هي النشأة الثانية، وهي نشأة القيام من القبور، والجملة معطوفة على جملة سيروا في الأرض، داخلة معها في حيز القول، وعطف الإخبار على الإنشاء جائز فيما له محل من الإعراب، وإنما لم تُعطف على قوله: ﴿بَدَأَ الْخَلْقَ﴾؛ لأن النظر غير واقع على إنشاء النشأة الآخرة، فإن الفكر يكون في الدليل، لا في النتيجة.

والمعنى: ثم الله يوجد الإيجاد الآخر، ويحيي الحياة الثانية؛ أي: بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها، وهي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث إن كلاً إبداع وإخراج من العدم إلى الوجود.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبلها؛ لأن قدرته لذاته، ونسبة ذاته إلى كل الممكنات على حد سواء، فيقدر على النشأة الأخرى، كما قدر على النشأة الأولى، فمن علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التي منها النشأة الآخرة، لا يتصور أن يتردد في وقوع الإعادة بعد ما أخبر الله به.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: ﴿النشآءة﴾ هنا، وفي النجم والواقعة على وزن فعالة، وباقي السبعة النشأة على وزن فعلة، وهما كالرآفة والرأفة وهما لغتان، والقصر أشهر، وفي الآية الأولى صرح سبحانه باسمه في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ ثم أضمر في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهنا عكس أضمر في بدأ، ثم أبرزه في قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ﴾ حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه، ودل إبرازه هنا على تفخيم النشأة الآخرة وتعظيم أمرها، وتقرير وجودها إذ كان نزاع

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الكفار فيها، فكأنه قيل: ثم ذلك الذي بدأ الخلق هو الذي ينشأ النشأة الآخرة، فكان التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه.

وحاصل معنى الآية(١): أي سيروا في الأرض وشاهدوا السمٰوات وما فيها من الكواكب النيِّرة ثوابتها وسياراتها، والأرض، وما فيها من جبال ومهاد وبراري وقفار وأشجار وثمار وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الذي يقول للشيء كن فيكون، أوليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى، ويوجده مرة ثانية. وهو القادر على كل شيء، وشبيه بالآية قوله في الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

ولما أقام الدليل على الإعادة، رتب عليها ما سيكون بعدها، فقال: ﴿يُعَذِّبُ﴾ سبحانه بعد النشأة الآخرة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويريد تعذيبه من الكفار والعصاة، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته من المؤمنين به، المصدقين لرسله، العاملين بأوامره ونواهيه، وتقديم(٢) التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب؛ لأن الكلام مع الكفار مكذبي الرسل. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: تردون بالبعث، فيفعل بكم ما يشاء من التعذيب والرحمة، مجازاة على أعمالكم.

والمعنى: أي يعذب سبحانه من يشاء منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة، بعدله في حكمه بحسب سننه في خلقه، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته، فهو الحاكم المتصرف يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: وإليه سبحانه تردون بعد موتكم.

والمراد: أنه إن تأخر ذلك عنكم، فلا تظنوا أنه قد فات، فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم، وعنده يُدَّخر ثوابكم وعقابكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي:

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بممتنعين عن إجراء حكمه وقضائه عليكم، وإن هربتم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواسعة بالتواري فيها ﴿وَلَا﴾ بالتحصن ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أوسع من الأرض، لو استطعتم الترقي فيها، يعني كنتم في الأرض أو في السماء لا تقدرون أن تهربوا منه، فهو يُدرككم لا محالة، ويُجرى عليكم أحكام تقديره، والخطاب فيها لجميع الناس.

والمعنى[1]: أنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سمٰواته ولا أرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء فقير إليه، فلو صعد إلى السماكين أو هبط إلى موضع السُّمولِ في الماء ما خرج من قبضته، وما استطاع الهرب منه، وقيل[2]: هذا خطاب لقوم فيهم النمرود الذي حاول الصعود إلى السماء، وزاد هنا لفظة ﴿ولا في السماء﴾، واقتصر في الشورى على ﴿في الأرض﴾؛ لأن ما هنا خطاب لقوم فيهم النمرود، الذي حاول الصعود إلى السماء فأخبرهم بعجزهم، وأنهم لا يفوتون الله لا في الأرض ولا في السماء، وما في الشورى خطاب للمؤمنين بقرينة قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ وقد حذفا معاً للاختصار في قوله في الزمر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ .اهـ زكريا.

ولما بيَّن أنهم مقدور عليهم جميعاً، لا يفلتون منه، ذكر أنه لا يستطيع أحد نصرهم، فقال: ﴿وَمَا﴾ كان ﴿لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: قريب يلي أموركم ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضي أو سماوي ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عذاب الله عنكم إن قُدِّر عليكم، يعني ليس غيره تعالى يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء، ويدفعه عنكم إن أراد بكم ذلك، قال بعضهم: الولي[3] الذي يدفع المكروه عن الإنسان والنصير الذي يأمر بدفعه عنه، والولي أخص من النصير، إذ قد ينصر من ليس بولي، انتهى.

ولما قرر التوحيد والبعث، هدد من خالفهما وتوعده فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: بدلائله التكوينية والتنزيلية، الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على تحقق البعث، والآيات الناطقة دخولاً أولياً، قال في «كشف الأسرار»: الكفر بآيات الله أن لا يستدل بها عليه، وتُنسب إلى غيره، ويجحد موضع النعمة فيها.

﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الذي تنطق به تلك الآيات، ومعنى[1] الكفر بلقاء الله: جحود الورود عليه، وإنكار البعث وقيام الساعة والحساب والجنة والنار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ قنطوا منها في الدنيا، لإنكارهم البعث والجزاء، فلا يرجون الجنة؛ لأنه لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله، ولا ما أخبرتهم به رسله، أو ييأسون منها يوم القيامة، والتعبير بصيغة الماضي للدلالة على تحققه، واليأس: انقطاع الطمع، كما في «المفردات».

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر بالآيات واللقاء، وباليأس من الرحمة الممتازون بذلك عن سائر الكفرة ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب تلك الأوصاف القبيحة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: وجيع لا يقادر قدره في الشدة والإيلام.

وقرأ الجمهور: ﴿يَئِسُواْ﴾ بالهمز، وقرأ الذماري وأبو جعفر بغير همز، بل بياءٍ بدل الهمز، ذكره أبو حيان.

كرر سبحانه الإشارة للتأكيد[2]، ووصف العذاب بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة، وأضاف[3] الرحمة إلى نفسه، ولم يُضف العذاب إليها لسبق رحمته، وإعلاماً لعباده بعمومها لهم، ويأسهم من رحمة الله تعالى؛ لأنه سبحانه له في كل شيء آية دالة على وحدانيته، فإذا أشرك أحد كفر بآيات الله، وإذا أنكر الحشر كفر بلقاء الله، وأخرج نفسه عن محل رحمة الله، وإذا جعل له آلهة لم يقر

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

بالحاجة إلى طريق متعين، فييأس من رحمة الله، ولما أنكر الحشر وقال: لا عذاب عذبه الله سبحانه تحقيقاً للأمر عليه، فعدم الرحمة يناسب الإشراك، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر.

وقال في «الخازن» قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آخر الآيات في تذكير أهل مكة، ثم عاد إلى قصة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ إلخ. قال أبو حيان[1]: والظاهر أن قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ﴾ من كلام الله حكاية عن إبراهيم إلى قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقيل: هذه الآيات اعتراض من كلام الله تعالى، بين كلام إبراهيم والإخبار عن جواب قومه؛ أي: وإن تكذبوا محمداً، فتقدير هذه الجمل اعتراضاً يردُّ على أبي علي الفارسي، حيث زعم أن الاعتراض لا يكون جملتين فأكثر.

وفائدة هذا الاعتراض: أنه تسلية للرسول ﷺ، حيث كان قد ابتلي بمثل ما كان أبوه إبراهيم قد ابتلي به، من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، وتكذيبهم إياه، ومحاولتهم قتله، وجاءت الآيات بعد الجملة الشرطية، مقررة لما جاء به الرسول من توحيد الله ودلائله، وذكر آثار قدرته والمعاد، انتهى.

ومعنى الآية: أي والذين كفروا بالدلائل التي نصبها سبحانه في الكون، دالةً على توحيده، والدلائلَ التي أنزلها على رسله مرشدة إلى ذلك، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة، أولئك لا أمل لهم في رحمته؛ لأنهم لم يخافوا عقابه، ولم يرجوا ثوابه، ولهم عذاب مؤلم موجع في الدنيا والآخرة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

(١) البحر المحيط.

﴿الٓمٓ ①﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا ألَمّ، أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ألَمّ هذا محله، أو مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اقرأ ألَمّ، أو مفعول لاسم فعل محذوف، تقديره: هاك ألَمّ، أو مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: أنظر في ألَمّ، وإعرابه على كل من الأوجه الخمسة، بحركة مقدرة منع من ظهورها سكون الوقف، هذه الأوجه كلها إن قلنا إنه علم للسورة، وإن قلنا إنه من الحروف التي استأثر الله سبحانه بعلمها، فلا محل لها من الإعراب؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، وقد تقدم لنا مراراً بيان ما فيه من الأقوال المتلاطمة فيه من جهة المعنى والإعراب فجدد العهد بها.
﴿أَحَسِبَ﴾: الهمزة: فيه للاستفهام التقريري المضمن للتوبيخ. ﴿حسب الناس﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يُتْرَكُوٓاْ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية، في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حَسِبَ﴾. ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة مع ﴿أَن﴾: المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره أن يتركوا لأجل قولهم آمنا، والجار المحذوف متعلق بـ﴿يُتْرَكُوٓاْ﴾. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولوا﴾.
﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو لا يتركوا. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿واللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول.
﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿واللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يعلمن﴾ فعل مضارع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم وجملة القسم معطوفة على الجملة التي قبلها. وجملة ﴿صَدَقُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿واللام﴾ موطئة للقسم. ﴿يعلمن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الله.
﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يعلمن﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة تقدر ببل التي للإضراب الانتقالي، وبهمزة الاستفهام التقريري، المضمن للتوبيخ. ﴿حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَسْبِقُونَاۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾؛ لأن أصله يسبقوننا، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حَسِبَ﴾؛ أي: أم حسب الذين يعملون السيئات سبقهم إيانا. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: هو. ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التميز، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ في محل النصب صفة لـ﴿ما﴾، والرابط محذوف، تقديره: ساء هو شيئاً محكوماً لهم، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: حكمهم. ويجوز أن تعرب ما اسما موصولاً فاعل ﴿سَآءَ﴾، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾: صلتها. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: حكمهم، وعلى هذين الوجهين يكون التمييز محذوفاً؛ أي: ساء الذي يحكمونه حكماً، أو ساء حكمهم حكماً، وعلى كل التقادير فجملة ﴿سَآءَ﴾ مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿يَرْجُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه، كما صرح به في سورة الكهف، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إن أجل الله﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿لَأٓتٍۚ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آت﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص. وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية، المتعلقة بالجواب المحذوف ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾:

خبر ثان، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الجلالة، أو مستأنفة.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿جَٰهَدَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: رابطة الجواب. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أو يقال: حرف كاف ومكفوف. ﴿يُجَٰهِدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿لِنَفۡسِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب الشرط، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب، واسمه. ﴿لَغَنِيٌّ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بـ﴿غني﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، من تقرير أن جهاد الشخص لا يصل منه إلى الله نفع.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نكفرن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نجزين﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿والهاء﴾: مفعول أول. ﴿أَحۡسَنَ ٱلَّذِي﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبلها.

﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وصينا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: مفعول به. ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿وصينا﴾. ﴿حُسْنًا﴾: نعت لمصدر محذوف، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: إيصاءً ذا حسن، أو هو في نفسه حسن على المبالغة، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان حق الوالدين، وتحديد طاعتهما بعدم معصية الله تعالى. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿جَـٰهَدَاكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿لِتُشْرِكَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تشرك﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الإنسان. ﴿بِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تشرك﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإشراكك بي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاهد﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿لِتُشْرِكَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾. ﴿عِلْمٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِعْهُمَآ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾. ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿أنبئكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنبئكم﴾، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية مفرعة عليها. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة

﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّـٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، أو منصوب على الاشتغال كما في «السمين». ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿ندخلن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. والهاء مفعول به. ﴿فِى الصَّـٰلِحِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: خبر مقدم. ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حال المنافقين. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَإِذَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أُوذِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿فِى اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿أُوذِىَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لـ﴿إذا﴾. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتتر. ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَآءَ نَصْرٌ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ صفة ﴿نَصْرٌ﴾. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات

النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون الثقيلة نون التوكيد؛ لأن أصله ليقولونن، كما سيأتي في مبحث التصريف، والجملة الفعلية جواب القسم، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: وإن جاء نصر من ربك يقولون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه، وجملة القسم مع جوابه معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مَعَكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري المضمن للتوبيخ، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيحسبون أن الله لا يعلم ما في صدورهم وليس الله إلخ، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لَيْسَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِأَعْلَمَ﴾: خبره. والباء: زائدة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿أعلم﴾. ﴿فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يعلمن الله﴾: فعل مضارع ونون توكيد وفاعل. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿آمَنُوا﴾ صلة الموصول، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يعلمن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر في محل الرفع، مبني على الفتح، والنون للتوكيد. ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبلها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿سَبِيلَنَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿اللام﴾: لام أمر وجزم. ﴿نحمل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بلام الأمر. ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾. ﴿وَمَا هُم﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: حجازية تعمل عمل ﴿لَيْسَ﴾. ﴿هُم﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾: خبرها، والباء: زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالَ﴾. ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾: جار ومجرور حال من شيء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَىْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿حاملين﴾: مجرور لفظاً منصوب تقديراً. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿كاذبون﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة لتعليل الجزم بعدم حملهم شيئاً من خطاياهم. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يحملن﴾: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون المشددة للتوكيد. ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَثْقَالًا﴾: معطوف على ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾. ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أثقالا﴾، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾: الواو: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يسئلن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، والنون المشددة للتوكيد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يسألن﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يسألن﴾، وهو في موضع المفعول الثاني لـ﴿سأل﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لما الموصولة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لتأييد التكليف الذي ألزم محمد ﷺ به أتباعه؛ أي: إنه ليس مختصاً بمحمد وأتباعه. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿فَلَبِثَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لبث﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿فِيهِمْ﴾: متعلق به. ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لبث﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿خَمْسِينَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿عَامًا﴾ تمييز لـ﴿خَمْسِينَ﴾ منصوب به. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، معطوف على محذوف، تقديره: فكذبوه فأخذهم الطوفان. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أخذهم﴾. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾. ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾: معطوف على الضمير، أو مفعول معه. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول معطوف على ﴿أنجيناه﴾. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لـ﴿ءَايَةً﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: منصوب بفعل محذوف، تقديره: واذكر إبراهيم، والجملة مستأنفة، مسوقة لسوق قصة ثانية بعد قصة نوح. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من إبراهيم، ويصح أن يكون إبراهيم معطوفاً على نوحاً، و﴿إِذْ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى حينئذٍ: ولقد أرسلنا إبراهيم حين بلغ من السن مبلغاً، يخاطب فيه قومه بعبارات الوعظ والإرشاد. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿لِقَوْمِهِ﴾: متعلق به، والجملة في

محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾: خبرها، وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم تعلمون خيرية ذلك، فاعبدوا الله واتقوه، والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم مجاوزين الله. ﴿أَوْثَٰنًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من فاعل تعبدون ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿رِزْقًا﴾. و﴿رِزْقًا﴾: مفعول به. لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنه بمعنى المرزوق، أو مصدر مؤول من أن والفعل؛ أي: لا يقدرون أن يرزقوكم، ويجوز نصبه على المصدر وناصبه لا يملكون؛ لأنه في معناه، وجملة لا يملكون في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: ابتغوا عند الله الرزق. ﴿ابتغوا﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلرِّزْقَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ابتغوا﴾. ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ابتغوا﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿اشكروا﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾. و﴿تُرْجَعُونَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول قال.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ

﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، إن قلنا إنه من كلام إبراهيم، أو اعتراضية إن قلنا إنه من كلام الله سبحانه، يخاطب قريشاً في شأن محمد ﷺ. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُكَذِّبُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بقد. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبَ أُمَمٌ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٌ﴾، وقيل جواب الشرط محذوف، و﴿الفاء﴾: تعليلية للمحذوف؛ أي: فلا يضرني تكذيبكم فقد كذب أمم من قبلكم أنبياءهم ورسلهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، أو معترضة لاعتراضها بين كلام إبراهيم وجواب قومه. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿عَلَى الرَّسُولِ﴾: خبر مقدم. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿الْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿الْبَلَاغُ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجمل الشرطية. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير ألم ينظر كفار مكة ولم يروا كيف. ﴿لم يروا﴾: جازم وفعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال. من ﴿الْخَلْقَ﴾. ﴿يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنها علقت عن العمل في اللفظ بالاستفهام، والرؤية هنا قلبية. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُعِيدُهُ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على ﴿يُبْدِئُ﴾. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرٌ﴾. و﴿يَسِيرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود إما إلى ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، أو إلى محمد ﷺ،

والجملة مستأنفة. ﴿سِيرُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُواْ﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب حال من مفعول ﴿بَدَأَ﴾. ﴿بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾ علق عنها باسم الاستفهام. وفي «البيضاوي»: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حكاية كلام الله سبحانه لإبراهيم أو محمد عليهما السلام، اهـ؛ أي: وليس من مقالة إبراهيم لقومه من عند نفسه، على تقدير أن تكون الآيات المذكورة من قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ من قصة إبراهيم، ومن مقالة محمد ﷺ من عند نفسه، على جعلها معترضة بين أجزاء قصة إبراهيم إذ لا وجه لهما أن يقولا من عند أنفسهما ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، بل الظاهر أنه كلام أحدهما لقومه على حكاية كلام الله لهم؛ أي: قال الله لي: قل لهم: سيروا في الأرض؛ أي قل لمنكري البعث يسيروا في الأرض ليشاهدوا كيف أنشأ الله جميع الكائنات، ومن قدر على إنشائها بدءاً يقدر على إعادتها .اهـ «زاده». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُنشِئُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾: منصوب على المصدرية المحذوفة الزوائد، والأصل الإنشاءة. ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾: صفة لـ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾، وجملة ﴿يُنشِئُ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سِيرُواْ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بقدير. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يُعَذِّبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿مَن﴾: اسم موصول مفعول به لـ﴿يُعَذِّبُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، والعائد محذوف، تقديره من يشاء تعذيبه، وجملة ﴿يُعَذِّبُ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في قدير، أو خبر ثان لـ﴿إن﴾ أو مستأنفة ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ معطوف على ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَإِلَيْهِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُقْلَبُونَ﴾. ﴿تُقْلَبُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعَذِّبُ﴾. ﴿وَمَآ أَنتُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: نافية حجازية. ﴿أَنتُم﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: خبرها. والباء: زائدة. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: حال من الضمير المستكن في معجزين، ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوف على في الأرض، و﴿لَا﴾ زائدة لتأكيد النفي المستفاد من ﴿مَآ﴾؛ أي: بفائتين الله هرباً، حالة كونكم في الأرض أو في السماء، والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ولي الآتي. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿يَئِسُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن رَّحْمَتِي﴾: متعلق به والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: معطوف على ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على كونه مبتدأ ثانياً. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ حروف مقطعة، عجزت الخلائق عن معرفة حقائقها. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبان بالكسر، الظن كما في «القاموس». وقال في «المفردات»: الحسبان هو أن يحكم لأحد النقيضين أحدهما على الآخر.

﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ الترك: الإهمال. ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: لا يختبرون من فتن

فلان فلاناً، يفتنه من باب ضرب خبره وأحرقه، وأصله يقال فتن الصائغ الذهب، أذابه بالبوتقة ليختبره وليميز الجيد من الرديء، ويقال فتنه يفتنه، من باب ضرب أيضاً إذا أعجبه، واستماله وأوقعه في الفتنة.

﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ السبق الفوت، والمراد الفوت عن المجازاة، وأصل السبق التقدم في السير، ثم تجوز به في غيره من التقدم. ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ الرجاء: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة، وتفسيره بالخوف؛ لأن الرجاء والخوف متلازمان، ولقاء الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجل: عبارة عن غاية زمان ممتد، عينت لأمر من الأمور، وقد يطلق على كل ذلك الزمان، والأول هو الأشهر في الاستعمال.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ والمجاهدة استفراغ الجهد (بالضم)؛ أي: الطاقة في مدافعة العدو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو العباس المشتهر بزروق في شرح الأسماء الحسنى: الغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، إذ لا يلحقه نقص، ولا يعترضه عارض، ومن عرف أنه الغني استغنى به عن كل شيء، ورجع إليه بكل شيء، وكان له بالافتقار في كل شيء، وللتقرب بهذا الاسم تعلق بإظهار الفاقة والفقر إليه أبداً، وخاصية هذا الاسم وجود العافية في كل شيء، فمن ذكره على مرض أو بلاء، أذهبه الله عنه، وفيه سر للغني، ومعنى الاسم الأعظم لمن استأهل به، انتهى.

وفي «الإحياء» يستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة: اللهم يا غني يا حميد، يا مبدىء يا معيد، يا رحيم يا ودود، أغني بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، فيقال: من داوم على هذا الدعاء، أغناه الله تعالى عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب. انتهى.

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وتكفير الإثم: ستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، قال بعضهم: التكفير إذهاب السيئة وإبطالها بالحسنة، وسترها وترك العقوبة عليها. ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ وصى: يجري مجرى أمر معنًى وتصرفاً غير أنه يُستعمل

فيما إذا كان في المأمور به نفع عائد إلى المأمور وغيره، يقال: وصيت زيداً بعمرو، أمرته بتعهده ومراعاته، قال الراغب: الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ مصدر ميمي بمعنى الرجوع.

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أوذي ماض مبني للمجهول، من آذى الرباعي، يقال: آذى يؤذي أذًى وأذية، ولا تقل إيذاءً، كما في «القاموس»، والأذى ما يصل إلى الإنسان من ضرر، إما في نفسه أو في جسمه أو في قنياته، دنيوياً كان أو أخروياً كما مر.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ والفتنة الامتحان والاختبار، تقول: فتنت الذهب، إذا أدخلته النار لتظهر جودته من رداءته، وأطلقت على المحنة؛ لأنها سبب نقاوة القلب.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾ الجمهور على ضم اللام، ففيه إسناد الفعل لضمير الجماعة، حملاً على معنى: من بعد أن حمل على لفظها كما مر، وأصله ليقولونن بواو الضمير وثلاث نونات، إحداها نون الرفع، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الجماعة لالتقاء الساكنين فصار ليقولن.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جمع خطيئة من الخطأ، وهو في الأصل العدول عن الجهة والطريق، وهي هنا الآثام. ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ جمع ثقل بكسر المثلثة وسكون القاف كحمل وأحمال، والثقل بكسر أوله وفتح ثانيه والخفة متقابلان، وكل ما يترجح على ما يوزن به، أو يقدر به، يقال: هو ثقيل، وأصله في الأجسام ثم يقال في المعاني أثقله الغرم والوزر، قال الراغب: أثقالهم؛ أي: آثامهم التي تثقلهم وتثبطهم عن الثواب.

﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والألف العدد المخصوص، سمي بذلك لكون الأعداد به مؤلفة، فإن الأعداد أربعة: آحاد، وعشرات، ومئات، وألوف، فإذا بلغ الألف، فقد ائتلف وما بعده ويكون مكرراً، قال بعضهم: الألف من ذلك؛ لأنه مبدأ النظام، كما مر. والسنة أصلها سنهة لقولهم: سانهت فلاناً؛ أي: عاملته سنة

فسنةً، وقيل: أصلها من الواو لقولهم: سنوات، والهاء للوقف .اهـ «الروح».

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ والطوفان كل ما طاف؛ أي: أحاط بالإنسان لكثرته ماء كان أو غيره، كالظلمة، ولكنه غلب في الماء، كما هو المراد هنا، اهـ «شهاب». ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ والسفينة من سفنه يسفنه قشره ونحته، كأنها تسفن الماء؛ أي: تقشره فهي فعيلة، بمعنى: فاعلة.

﴿أَوْثَٰنًا﴾ جمع وثن، والفرق بين الصليب والصنم والوثن، أن الصليب: ما نحت على صورة آدمي وعبد، سواء كان من ذهب أو فضة أو غيرهما، والصنم: ما نُحِت على صورة حيوان كعجل وعبد، سواء من شجر أو حجر أو غيرهما، والوثن: كل ما عُبد من دون الله، سواء كان منحوتاً على أي صورة، أو غير منحوت كشجر وحجر وقبر وإنسان، فكل أخص مما بعده، هكذا عرفه بعضهم.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ أي: وتكذبون كذباً، حيث سميتموها آلهةً، قال الراغب: الخلق لا يُستعمل في كافة الناس إلا على وجهين، أحدهما في معنى التقدير، والثاني في الكذب، انتهى. يقال: خلق واختلق؛ أي: افترى لساناً أو يداً كنحت الأصنام، والإفك أسوأ الكذب، وسمي الكذب إفكاً؛ لأنه مأفوك؛ أي: مصروف عن وجهه، ويجوز في الإفك هنا أن يكون مصدراً وأن يكون صفة؛ أي خلقاً إفكاً؛ أي: ذا إفكٍ وباطل.

﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يقال: ملكت الشيء إذا قدرت عليه، ومنه قول موسى: ﴿لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾؛ أي: لا أقدر إلا على نفسي وأخي، ورزقاً مصدر، وتنكيره للتقليل، كما سيأتي، والمعنى: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، كما مر.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ قال الراغب: الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان، انتهى. يقال: نشأ نشأة إذا حيي وربا وشب، والنشأة مصدر مؤكد لينشيء بحذف الزوائد، والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل؛ أي: ينشيء فينشأون النشأة الآخرة، كما مر.

﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال بعضهم: الفرق بين الولي والنصير، أن الولي هو الذي يدفع المكروه عن الإنسان بنفسه لولايته ومباشرته الدفع، والنصير هو الذي يأمر بدفعه عنه لمناصرته ومعاونته في الدفع، والولي أخص من النصير، إذ قد ينصر من ليس بولي. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ واليأس انتفاء الطمع وانقطاعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار في قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿صَدَقُواْ﴾ و﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وبين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وبين ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يرحم﴾ وبين ﴿يبدىء﴾ و﴿يعيد﴾.

ومنها: مغايرة الأسلوب في قوله: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ حيث عبر في الأول: بصيغة الفعل الماضي، وهي ﴿صَدَقُواْ﴾ وفي الثاني: بصيغة اسم الفاعل وهي ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾. والنكتة في هذه المخالفة كما مر، أن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه؛ لأن الآية وقت نزولها كانت حكايةً عن قوم قريبي عهد بالإسلام، وعن قوم مستمرين على الكفر، فعبر عن حق الأولين بلفظ الفعل، وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات والدوام.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ فإن جواب الشرط فيه محذوف، كما سبق.

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾، في قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾؛ لأن المخاطب منكر.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ومنها: تغيير الأسلوب في قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ حيث عبر في الأول: بالفعل، وفي الثاني: باسم الفاعل، تفنناً لرعاية الفاصلة. كما في «البيضاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ حيث استعار الإتباع الذي هو المشي خلف ماش، لسلوك طريقتهم في الدين، فاشتق من الإتباع الذي هو بمعنى السلوك، اتبعوا، بمعنى: اسلكوا على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: مجيء الأمر بمعنى الخبر في قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ والأصل فيه: إن تتبعونا نحمل خطاياكم، فعدل عنه إلى ما ذكر مما هو خلاف الظاهر من أمرهم بالحمل، إفادةً للمبالغة.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ حذف منه وجه الشبه، فهو مجمل.

ومنها: التفنن في التعبير في قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفنناً؛ لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة، إلا إذا كان لغرض من تفخيم أو تهويل، نحو ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ شبه الذنوب بالأثقال؛ لأنها تُثقل كاهل الإنسان.

ومنها: تنكير الرزق في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ ثم تعريفه، بقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ لأن الأول مقصور عليهم، فاستوجب أن يكون ضئيلاً قليلاً، فنكره تدليلاً على قلته وضآلته، ولما كان الثاني مبتغًى عند الله، استوجب أن يكون كثيراً؛ لأنه كله عند الله فعرَّفه تدليلاً على كثرته وجسامته.

ومنها: الإضمار ثم الإظهار اهتماماً بشأن الأمر الأخير، في قوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ألا ترى أنه صرح باسمه تعالى، في

قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ لتفخيم شأن النشأة، وكان القياس أن يقول: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشيء النشأة الآخرة، فأفصح باسمه بعد إضماره، للتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة.

والأصل في الكلام: الإظهار ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية.

ومنها: الجناس غير التام في قوله: ﴿يَسِيرٌ﴾ و﴿سِيرُوا﴾.

ومنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الأوثان.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾؛ أي: ييأسوا منها يوم القيامة.

ومنها: إضافة الرحمة إلى نفسه دون العذاب في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إشعاراً بسبق رحمته على غضبه، وإعلاماً لعباده بعمومها لهم .اهـ. أبو السعود.

ومنها: تقديم التعذيب على الرحمة في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب، كما مر.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾؛ أي: أهلكهم من إسناد الشيء إلى سببه.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

ومنها: التعبير عن الإعادة بالنشأة، في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ للتنبيه على أن البدء يسمى نشأة كإعادة، والتغاير بينهما بالوصف، حيث قالوا: نشأة أولى، ونشأة أخرى .اهـ «رازي» .اهـ من «الفتوحات».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه جل وعلا أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي
ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ
إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ
إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ
(٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا
مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ
رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ
(٣٥) وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٣٧) وَعَادٗا
وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ (٣٨) وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا
وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ
يَعۡلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤٢)
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ (٤٣) خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن أبراهيم عليه السلام، لما أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية، وإرسال الرسل، والحشر، والجزاء.. أردف[١] ذلك ببيان أنهم جحدوا وعاندوا، ودفعوا الحق بالباطل، بعد أن ألزمهم الحجة ولم يجدوا للدفاع سبيلاً، وحينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره، فقالوا لقومهم: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ فأنجاه الله من كيدهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً فعاد إلى لومهم بعد أن أُخرج من النار، وقال: إن تَمسُّككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة، ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب وتستبين الأمور للَّبيب الأريب، ويكفر بعضكم بعضاً، فيقول العابد: ما هذا معبودي، ويقول المعبود: ما هؤلاء بعبدتي، ويلعن بعضكم بعضاً، فيقول هذا لذاك: أنت الذي أوقعتني في العذاب حيث عبدتني، ويقول ذاك لهذا: أنت الذي أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادته، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه، وأنى لهما ذلك وهما مجتمعان في النار، وما لهما ناصر يخلِّصهما منها، كما خلَّصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها.

وعبارة أبي حيان[٢]: لما أمرهم إبراهيم بعبادة الله، وبيَّن سفههم في عبادة الأوثان، وظهرت حجته عليهم.. رجعوا إلى الغلبة، فجعلوا القائم مقام جوابه فيما أمرهم به قولهم: اقتلوه أو حرقوه، والآمرون بذلك إما بعضهم لبعض، أو كبراؤهم، قالوا لأتباعهم اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً، أو حرقوه بالنار، فإما أن

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

يرجع إلى دينكم إذا أو مضته النار، وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه، انتهت.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر إنجاء إبراهيم من النار، وأن ذلك معجزة له، لا يفقه قدرها إلا من كان ذكي الفؤاد، قوي الفطنة، يفهم الدلائل التي أودعها الله في الكون.. أردف ذلك ببيان أنه لم يصدق بما رأى إلا لوط عليه السلام، فقد آمن به واستقر الإيمان في قلبه، ثم بيَّن أن إبراهيم لما أيس من إيمان قومه، هاجر إلى بلاد الشام فراراً بدينه، وقصداً إلى إرشاد الناس وهدايتهم، ثم عدد نعمه العاجلة عليه في الدنيا، بأن آتاه بنين وحفدة، وجعل فيهم النبوة وأنزل عليهم الكتب، وآتاه الذكر الحسن إلى يوم القيامة، ونعمه الآجلة أنه مكتوب في عداد الكملة في الصلاح والتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما قص علينا قصص إبراهيم عليه السلام، وما لاقاه من قومه من العتو والجبروت، ثم نصره له نصراً مؤزراً.. أعقبه بقصص لوط، إذ كان معاصراً له، وسبقه إلى الدعوة إلى الله، وقد افتنَّ قومه في فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سذوم العذاب جاؤوا ضيوفاً لإبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أنه لما استنصر لوط عليه السلام بربه، بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ استجاب دعاءه، وبعث لنصرته ملائكة وأمرهم بإهلاك قومه، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاؤوا وبشروه بذرية طيبة، ثم قالوا له: إنا مهلكوا أهل هذه القرية لتمادي أهلها في الشر، وإصرارهم على الكفر والمعاصي، فأشفق إبراهيم على لوط، وقال: إن في القرية لوطاً، فقالوا:

(١) المراغي.

إنا منجوه وأهله إلا امرأته، ثم ننزل عليهم من السماء عذاباً بما اجترحوا من السيئات، واجترموا من الذنوب والآثام، ثم ندعهم عبرةً وآيةً بينةً لقوم يعقلون.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أسلف أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب، وسيعذبه بشديد العذاب، ولا ينفعه في الدارين معبوده، ولا يجديه ركوعه وسجوده.. أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبوداً دون الله بحال العنكبوت، وقد اتخذت لها بيتاً لا يريحها إذا هي أوت، ولا يجيرها من حر وبرد إذا هي ثوت، ثم زاد الإنكار توكيداً، فذكر أن ما يدعونه ليس بشيء، فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة من ليس بشيء، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس، وأنه لا يُدرك مغزاها إلا ذوو الألباب الذين يفهمون خبيء الكلام، وظاهره وسره وعلانيته.

ثم ذكر أنه لم يخلق السمٰوات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون، ويدركها المستبصرون، وهي ما أرشد إليها بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وبعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه، وأظهر الحق ببرهانه، ولم يهتد بذلك المشركون، سلّى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفي النهار وزلفاً من الليل، وإرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده، وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير وشر.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ...﴾ إلخ، رجوع[1] إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض، بما تقدم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال إن قوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، وأما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام في سياقه سابقاً ولاحقاً؛ أي: قال إبراهيم عليه السلام لقومه: اعبدوا الله واتقوه، فما كان جواب قومه آخر الأمر، وهو بالنصب على أنه خبر

---

(١) الشوكاني.

كان، واسمها قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾؛ أي: إلا قول بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: لا تجيبوا إبراهيم عن براهينه الثلاثة، الدالة على التوحيد والنبوة والحشر.

﴿اقْتُلُوهُ﴾؛ أي: اقتلوا إبراهيم بسيف أو نحوه، فتستريحوا منه عاجلاً ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: حرقوا إبراهيم بالنار، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا أوجعته النار، وإما أن يموت بها إذا أصر على دينه، وفيه[1] تسفيه لهم، حيث أجابوا من احتج عليهم بأن يُقتل أو يحرق، وهكذا ديدن كل محجوج مغلوب، وإنما أجابوه بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح، كما قاله الرازي.

والفاء في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ بجعلها برداً، عاطفة على محذوف، تقديره: فألقوه في النار فأنجاه الله سبحانه من أذاها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً.

رُوي أنه لم ينتفع أحد بالنار يومئذ في موضع أصلاً، وذلك لذهاب حرها؛ أي: تشاوروا فيما بينهم، وقالوا: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريقه فأضرموا ناراً عظيمة، فألقوه فيها، فأنجاه الله سبحانه منها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء؛ أي: في إنجاء الله تعالى إبراهيم من تلك النار ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ أي: لدلالات عجيبة، وآيات واضحة، وعلامات ظاهرة، وبراهين ساطعة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا أثرت فيه أثراً إلا ما أحرقت من وثاقه، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة والإحراق.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بوجود الله وكمال قدرته، حيث أخمدها في زمن يسير، وأنشأ في مكانها روضاً زاهراً، وبستاناً فاخراً وأنيساً باراً على ما قيل، وإنما خص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بآيات الله سبحانه بالتفحص عنها، والتأمل فيها، وأما الكافرون فمحرومون من الفوز بمغانم آثارها، وغافلون عن التفكر في حقائقها.

---

(١) روح البيان.

فإن قلت: لِمَ جمع[1] الآيات هنا، حيث قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وأفردها فيما بعدُ في قوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾؟

قلت: إن ما هنا إشارة إلى إثبات النبوة القائمة بالنبيين، وهم كثيرون فناسبه الجمع، وما بعدُ إشارة إلى التوحيد القائم بواحد، وهو الله لا شريك له فناسبه الإفراد .اهـ. «زكريا».

وعبارة أبي حيان: وجمع هنا[2] فقال: ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ لأن الإنجاء من النار وجعلها برداً وسلاماً، وأنها أثرت في الحبل الذي كانوا أوثقوه به دون الجسم، وأن مكانها حالة الرمي صار بستاناً يانعاً إن صح، هو مجموع آيات، فناسب الجمع بخلاف الإنجاء في السفينة فإنه آية واحدة، فلذلك أفرد آية هناك، انتهت.

وقرأ الجمهور: ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، وما بعده اسمها، وقرأ الحسن وسالم الأفطس وعمرو بن دينار برفعه على أنه اسم ﴿كَانَ﴾، وما بعده في محل نصب على الخبر.

ثم ذكر ما قاله إبراهيم عليه السلام لهم، بعد إنجائه من النار، بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم مخاطباً لقومه، ومؤنباً لهم، وموبخاً على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾؛ أي[3]: إنما اتخذتموها آلهة، لا لحجة قامت بذلك، بل ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: بل لأجل أن تتوادوا وتتحابوا بينكم، وتتلاطفوا بسبب اجتماعكم على عبادتها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: مدة بقائكم في الدنيا.

والمعنى[4]: أي إنما اجتمعتم على عبادتها في الدنيا، للصداقة والألفة التي بين بعضكم وبعض، فأنتم تتحابون على عبادتها، وتتوادون على خدمتها، كما يتفق الناس على مذهب، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم، لا لقيام الدليل

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

عندكم على صحة عبادتها.

وقصارى ذلك: أن مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى عبادتها، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها، فعبدتموها موافقةً لهم لمودتكم إياهم، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودةً له.

ثم ذكر أن حالهم في الآخرة ستكون على نقيض هذا، فقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بعد الخروج من الدنيا تنقلب الأمور، ويتبدل التواد تباغضاً، والتلاطف تلاعناً، حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العبدة ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يلعن ويشتم كل فريق منكم ومن الأوثان ـ حيث ينطقها الله ـ الفريق الآخر.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أي: مثواكم جميعاً العابدون والمعبودون والتابعون والمتبوعون ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه، ولا تُرجعون منه أبداً ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾؛ أي: من مانعين يخلصونكم منها ما خلصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها، وجمع الناصر لوقوعه في مقابلة الجمع؛ أي: وما لأحد منكم من ناصر أصلاً، والخطاب فيه لعبدة الأوثان جميعاً القادة والأتباع.

والمعنى: أي ثم تنعكس الحال يوم القيامة، فتنقلب الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً، وتتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن بعضكم بعضاً، فيلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، كما قال ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ثم مرجعكم إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله تعالى.

وقرأ الحسن[1] وأبو حيوة وابن أبي عبلة، وأبو عمرو في رواية الأصمعي والأعمش عن أبي بكر، وابن وثاب وابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة: ﴿مودةٌ﴾ برفعها منونة، ﴿بينَكم﴾ بالنصب، فالرفع على أنها خبر إن، وما موصولة، ومودة إما مصدر بمعنى اسم المفعول، أو على حذف مضاف؛ أي: إن

(١) البحر المحيط، والشوكاني، وزاد المسير.

الأوثان التي اتخذتموها آلهة مودودة محبوبة بينكم، أو سبب مودةٍ وصلة ولقاء بينكم، واجتماع عندها، أو ما مصدرية؛ أي: إن اتخاذكم أوثاناً مودة وصلة واجتماع بينكم؛ أي: سببها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿مودةُ بينكم﴾ برفع مودة غير منونة وإضافتها إلى بينكم، وروى عن عاصم[1]: ﴿مودةُ﴾ بالرفع من غير تنوين و﴿بينَكم﴾ بالفتح؛ أي: بفتح النون جعله مبنياً لإضافته إلى مبني، وهو في موضع خفض بالإضافة، ولذلك سقط التنوين من مودة.

وقرأ نافع وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بنصب[2]: ﴿مودةً﴾ منوناً ونصب ﴿بينَكم﴾ على الظرفية، والعامل فيه المودة، قال أبو علي: المعنى اتخذتم الأصنام للمودة، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بنصب مودة مع إضافته إلى بينكم، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لما أضيف إليه. قال المفسرون: معنى الكلام إنما اتخذتموها لتتصل المودة بينكم واللقاء والاجتماع في الحياة الدنيا، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضر.

والفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ عاطفة على محذوف تقديره: فكذبه قومه فآمن له، أي: لإبراهيم لوط. يقال: آمن له وآمن به متقارب في المعنى. قال[3] ابن إسحاق: أول من آمن بإبراهيم لوط، وكان ابن أخيه هاران، وآمنت به سارة، وكانت بنت عمه.

والمعنى[4]: صدَّقه في جميع مقالاته لا في نبوته وما دعا إليه من التوحيد فقط، فإنه كان منزهاً عن الكفر؛ لأن الأنبياء لا يتصور فيهم الكفر، وما قيل: إنه آمن له حين رأى النار لم تحرقه، ينبغي أن يُحمل على ما ذكرنا، أو على أنه يراد بالإيمان الرتبة العالية منه، وهي التي لا يرتقي إليها إلا همم الأفراد.

أي: فقال لوط لإبراهيم: صدقتك يا إبراهيم. ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم للوط

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) القرطبي.
(٤) روح البيان.

وسارة، وهي ابنة عمه، وكانت آمنت به، وكانت تحت نكاحه ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾؛ أي: تارك لقومي وذاهب ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ أي: إلى مكان أمرني ربي بالتوجه إليه. قال قتادة: هاجر إبراهيم من كوثي، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران مع لوط وسارة زوجته، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين، ونزل لوط سذوم، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك خمساً وسبعين سنة، وهو أول من هاجر من أرض الكفر.

وقال زاده[1]: يجب الوقف على لوط؛ لأن قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من مقول إبراهيم، فلو وُصل لتوهم أن الفعل الثاني للوط فيفسد المعنى .اهـ وهذا على قول الجمهور، إن الضمير في ﴿قَالَ﴾ لإبراهيم، وقيل: إنه للوط؛ أي: وقال لوط إني مهاجر إلى ربي، إلخ، حكاه القرطبي، وعلى هذا فلا يتعين الوقف على لوط، بل يصح وصله بما بعده، اهـ. والأول أولى لرجوع الضمير في ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ إلى إبراهيم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على أمره فيمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة، فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي، ومن لم يقدر في بلدة على طاعة الله، فليخرج إلى بلدة أخرى، وفي «التأويلات النجمية» ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: إن الله أعز من أن يصل إليه أحد، إلا بعد مفارقته لغيره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يقبل بمقتضى حكمته إلا طيباً من لوث أنانيته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ أي: لإبراهيم من عجوز عاقر، وهي سارة ﴿إِسْحَٰقَ﴾ ولداً لصلبه؛ أي: من بعد ما وهبنا له إسماعيل من هاجر بأربع عشرة سنة. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة، وهي ولد الولد حين أيس من الولادة، قال القاضي[2]: ولذلك لم يذكر إسماعيل، يعني أن المقام مقام الامتنان، والامتنان بهما أكثر لما ذكر، روي أن الله تعالى وهب له أربعة أولاد، إسحاق من سارة، وإسماعيل من هاجر، ومدين ومداين من غيرهما.

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾؛ أي: في ذرية إبراهيم ونسله، يعني: في بني إسماعيل وبني إسرائيل ﴿النُّبُوَّةَ﴾ والرسالة، فكثر منهم الأنبياء، يقال أخرج من ذريته ألف نبي، وكان شجرة الأنبياء ﴿وَالْكِتَابَ﴾؛ أي: جنس الكتاب المتناول الكتب الأربعة، يعني التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فلم ينزل بعده كتاب إلا على ذريته. ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾؛ أي: أتينا إبراهيم وأعطيناه ﴿أَجْرَهُ﴾ وجزاءه بمقابلة هجرته إلينا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه، والمال والذرية الطيبة، واستمرار النبوة فيهم، وانتماء أهل الملل إليه، والثناء الحسن، والصلاة عليه إلى آخر الدهر.

أي[1]: فبدل الله سبحانه وحدته بكثرة الذرية، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب، وكان لا مال له ولا جاه، وهما غاية اللذة في الدنيا، فكثر ماله وعظم جاهه، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء، وصار معروفاً بأنه شيخ الأنبياء، بعد أن كان خاملَ الذكر حتى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وهذا لا يقال إلا في المجهول بين الناس، إلى أنه تعالى اتخذه خليلاً وجعله للناس إماماً، وقيل[2]: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً وعاقبةً حسنةً.

﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: وإن إبراهيم ﴿فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: لفي عداد الكاملين في الصلاح والتقوى، والمستحقين لتوفير الأجر، وكثرة العطاء، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العلمين، وهم الأنبياء وأتباعهم صلوات الله وسلامه عليهم، وقصارى أمره أنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين، وآتاه الحسن في الحياتين.

ثم اعلم[3]: بأن الله سبحانه وتعالى منَّ على إبراهيم عليه السلام بهبة الولد، والولد الصالح الذي يدعو لوالديه من الأجور الباقية الغير المنقطعة،

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

كالأوقاف الجارية، والمصاحف المتلوة، والأشجار المنتفع بها ونحوها، وكذلك منَّ عليه بأن جعل في ذريته النبوة.

ومن الإشارة في الآية من السعادات أن يكون في ذرية الرجل أهل الولاية الذين هم ورثة الأنبياء، فإن بهم تقوم الدنيا والدين، وتظهر الترقيات الصورية والمعنوية للمسلمين، وتسطع الأنوار إلى جانب أرواح المقربين وأعلى عليين، فيحصل الفخر التام، والشرف الشامل، والانتفاع العام، وهؤلاء إن كانوا من النسب الطيني فذاك، وإن كانوا من النسب الديني فالأولاد الطيبون، والأحفاد الطاهرون مطلقاً من نعم الله الجليلة:

نِعَمُ ٱلإِلٰهِ عَلَىٰ ٱلْعِبَادِ كَثِيْرَةٌ وَأَجَلُّهُنَّ نَجَابَةُ ٱلأَوْلَادِ

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً، آمين.

فإن قلت[1]: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، ذكر ذلك في معرض المدح لإبراهيم عليه السلام أو الامتنان عليه، وأجر الدنيا فانٍ منقطع بخلاف أجر الآخرة، فكيف ذكره دون أجر الآخرة؟

قلت: بل ذكره أيضاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذ المعنى إن له في الآخرة أجر الصالحين وافياً كاملاً، لكن أخَّره موافقةً للفواصل.

قصص لوط عليه السلام

قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بالعطف على نوحاً، أو على إبراهيم أو بتقدير أذكر. و﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للعامل في لوطاً، قال الكسائي: والمعنى: ولقد أرسلنا لوطاً من قبلك يا محمد، أو أنجينا لوطاً حين قال لقومه من أهل المؤتفكات ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا قوم ﴿لَتَأْتُونَ﴾ وتفعلون ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: الخصلة المتناهية في القبح والفحش، وهي اللِّواطة.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر[2] ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بالاستفهام الإنكاري

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الشوكاني.

التوبيخي، وقرأ الباقون بلا استفهام. وجملة قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾؛ أي: بتلك الفاحشة ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الزمخشري: جملة[1] مستأنفة، مقررة لكمال قبح تلك الخصلة، وأنهم منفردون بها لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس، على اختلاف أجناسهم، كأن سائلاً قال: لم كانت فاحشة؟ فقيل: لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم، لإفراط قبحها، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم، قالوا: لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط؛ أي: مع طول الزمان وكثرة القرون، انتهى. ويظهر[2] أن ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ جملة حالية كأنه قال: أتأتون الفاحشة مبتدعين لها، غير مسبوقين بها.

والمعنى: أي[3] واذكر يا محمد لقومك قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سذوم، الذين سكن فيهم وصاهرهم، وانقطع إليهم فصاروا قومه فأنكر عليهم سوء صنيعهم، وقبيح أفعالهم التي اختصوا بها، ولم يسبقهم إليهم أحد من قبلهم لفظاعتها، ونفرة الطباع السليمة منها.

ثم فصل وبيَّن هذه الفاحشة، وكرر الإنكار عليها فقال:

١ - ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ إتيان الشهوة وتلوطونهم، وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء، والاستفهام هنا وفيما سبق على قراءة، للإنكار والتوبيخ والتقريع.

٢ - ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: تقطعون المارة والمسافرين عن مرورهم في الطريق، قيل إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب، قال الفراء: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث، وقيل: كانوا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم ونهبهم، والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، قيل: كانوا يفعلون ذلك لكيلا يدخل الناس في بلدهم،

---

(١) الكشاف.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ولا يتناولوا من ثمارهم.

والمعنى: أي وتقفون في الطرقات تتعرضون للمارة تقتلونهم وتأخذون أموالهم، وقيل المعنى: تقطعون سبيل الولد، بتعطيل الفرج ووطء أدبار الرجال.

٣ - ﴿وَتَأْتُونَ﴾؛ أي: تفعلون وتتعاطون من غير مبالاة ﴿فِي نَادِيكُمُ﴾؛ أي: في متحدثكم ومجلسكم، ومجتمعكم الجامع لأصحابكم، وهو اسم جنس[(١)] إذا أنديتهم في مدائنهم كثيرة، ولا يسمى نادياً إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يُطلق عليه ناد إلا مجازاً ﴿الْمُنكَرَ﴾ وهو كل ما تنكره العقول السليمة، والشرائع، والمروءات، وتحكم بقبحه، كاللواطة، والجماع بحضرة الناس، والضراط، وحل الإزار في المجالس، وحل أزراء القباء، والحذف بالبندق، وضرب الأوتار والمزامير، قيل: إنهم كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى، فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه، كان يأخذ ما معه ويلوطه ويغرمه ثلاثة دراهم، ولهم قاض يقضي بينهم بذلك، ومنه (هواجور) من قاضي سذوم، ومن أخلاقهم الصفير، وتطريف الأصابع بالحناء، والفرقعة؛ أي: مد الأصابع؛ أي: جرها حتى تصوِّت، ولذا كُرهت في الصلاة وخارجها لئلا يلزم التشبه بهم، ومن أخلاقهم مضغ العلك - اللبان -. ولا يكره[(٢)] للمرأة إن لم تكن صائمةً لقيامه مقام السواك في حقهن، لأن سنها أضعف من سن الرجال، كسائر أعضائها، فيخاف من السواك سقوط سنها، وهو ينقِّي الأسنان ويشد اللثة كالسواك، ويكره للرجل إذا لم يكن من علة كالبخر، لما فيه من التشبه بالنساء، ومن أخلاقهم السباب والفحش في المزاح، يقال المزاح يجلب صغيرة الشرك، وكبيرة الحرب، ومن أخلاقهم اللعب بالحمَام، قيل: كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون بين الكباش، وقيل: كانوا يلعبون بالنرد والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ومن أخلاقهم لباس النساء للرجاء، والمكوس على كل عابر، وهم أول من لاط ومن ساحق، ولا مانع أنهم كانوا يفعلون جميع ذلك.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وفي هذا إعلام، أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المناكير، ولا ينبغي لهم أن يجتمعوا على الهزء والمناهي والملاهي.

وحاصل المعنى[١]: أي وتفعلون من الأفعال والأقوال في أنديتكم ومجتمعاتكم ما لا يليق، ويخجل منه أرباب الفطر السليمة، والعقول الراجحة الحصيفة.

زعمت الهند[٢]: أن حبس الضراط داء، وإرساله دواء، ولا يحبسون في مجالسهم ضرطة، ولا يرون ذلك عيباً، وأفلتت من معاوية ريح على المنبر فقال: أيها الناس إن الله خلق أبداناً وجعل فيها أرياحاً، فمتى يتمالك الناس أن لا تخرج منهم، فقام صعصعة بن صوحان فقال: أما بعد فإن خروج الأرياح في المتوضاة سنة، وعلى المنابر بدعة، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: فلما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح، ما كان جوابهم إذ نهاهم عما يكرهه الله سبحانه، من إتيان الفواحش التي حرمها الله عليهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ له استهزاءً؛ أي: إلا قولهم ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي تعدنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب؛ أي: إن كنت صادقاً فيما تقول، ومنجزاً ما تعد، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك.

وهذا الجواب[٣] صدر منهم في أول مواعظه، فلما ألح عليهم في الإنكار والنهي، قالوا: أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون، كما جاء في سورة الأعراف، وفي هذا إيماء إلى شديد كفرهم، وعظيم عنادهم؛ أي: فما أجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعاً إلى التكذيب واللجاج والعناد.

وقد تقدم في سورة النمل ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وتقدم في سورة الأعراف ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ فما بين ما هنا وما في السورتين السابقتين معارضة. وقد جُمع[1] بين هذه الثلاثة المواضع، بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، ومكرراً للنهي لهم، والوعيد عليهم، فقالوا له أولاً: ائتنا بعذاب الله، كما في هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم، كما في الأعراف والنمل، وقيل: إنهم قالوا أولا: أخرجوهم، من قريتكم، ثم قالوا ثانياً: ائتنا بعذاب الله، ثم إن لوطاً لما أيس من إيمانهم وقبولهم نصحه طلب من الله سبحانه نصره عليهم فـ﴿قَالَ﴾؛ أي: لوط بطريق المناجاة والدعاء يا ﴿رَبِّ﴾ ويا ناصري ﴿ٱنصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى﴾ هؤلاء ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين ابتدعوا الفواحش ورسخوا فيها، وجعلوها سنةً لمن بعدهم، وأصروا عليها، وجعلوا وعيدك لهم تهكماً وسخرية.

وإنما[2] وصفهم بالإفساد، ولم يقل عليهم، أو على قومي، مبالغةً في استنزال العذاب عليهم، وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب. قال الطيبي: الكافر إذا وُصف بالفسق أو الإفساد كان محمولاً على غلوه في الكفر.

فاستجاب الله سبحانه دعاءه، وبعث لعذابهم ملائكته، وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة، وهم جبريل ومن معه ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد، وهو إسحاق، وبالنافلة، وهو يعقوب، وبإهلاك قوم لوط فبشروه بأمرين، بالذرية الطيبة، وبإهلاك قوم لوط، فجاؤوه مبشرين ومنذرين، لكن لما كانت البشارة أثر الرحمة، والإنذار بالإهلاك أثر الغضب، ورحمته سبقت غضبه قدم البشارة على الإنذار، ولما كان في الإهلاك إخلاء الأرض من العباد، قدم على ذلك بشارة إبراهيم بأنه يملأ الأرض من العباد الصالحين اهـ «أبو السعود» بتصرف.

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قالت الرسل لإبراهيم في تضاعيف الكلام ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي هي قرية سذوم، التي كان فيها لوط، والإضافة فيه لفظية؛ لأن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا﴾؛ أي: أصحاب هذه القرية ﴿كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: مستمرين على الظلم بإصرارهم على الكفر والتكذيب وأنواع المنكرات، والجملة تعليل للإهلاك؛ أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب ولما قالت الملائكة لإبراهيم ذلك: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للرسل إشفاقاً على المؤمنين ومجادلةً عنهم ﴿إِنَّ فِيهَا﴾؛ أي: إن في هذه القرية التي تريدون إهلاكها ﴿لُوطًا﴾ رسول الله، وهو غير ظالم، فكيف تهلكونها؟ قيل سمي بلوط لأن حبه ليط بقلب عمه إبراهيم، أي علق ولصق، وكان إبراهيم يحبه حباً شديداً. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الملائكة في جواب إبراهيم ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك يا إبراهيم ﴿بِمَن فِيهَا﴾؛ أي: بمن في تلك القرية من لوط وغيره، ولسنا بغافلين عن حال لوط، فلا تخف أن يقع حيف على مؤمن، وعزة الله وكبريائه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ أي: لننجين لوطاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: ابنتيه زاعورا ورويثا من العذاب.

قرأ الأعمش وحمزة والكسائي ويعقوب(1): ﴿لَنُنْجِيَنَّهُ﴾ بالتخفيف، مضارع أنجى الرباعي من باب أعلم، وقرأ باقي السبعة بالتشديد مضارع نجى المضعف، وقرأ الجمهور بتشديد النون، وفرقة بتخفيفها.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾؛ أي: إلا امرأة لوط وزوجته المنافقة واعلة ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: كانت في علم الله وحكمه الأزلي من الباقين في العذاب، المنغمسين فيه بسبب أن للدال على الشر نصيباً من العذاب كفاعله، وهي كانت تدل القوم على أضياف لوط، وقيل: المعنى من الباقين في القرية، التي سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم، ولا تنجو فيمن نجا.

ومعنى الآية(2): أي قال إبراهيم إشفاقاً على لوط ليعلم حاله: إن في القرية لوطاً، وهو ليس من الظالمين لأنفسهم، بل هو من رسل الله تعالى وأهل الإيمان به، والطاعة له، فقال الرسل: نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين، وبأن لوطاً ليس منهم.

---

(1) البحر المحيط. (2) المراغي.

ثم زادوا ما سلف إيضاحاً، وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم: لننجينه وأهله... إلخ؛ أي: لننجين لوطاً وأتباعه من الهلاك، الذي هو نازل بأهل القرية إلا امرأته، فإنها من الباقين في العذاب لممالأتها إياهم على الكفر والبغي، وفعل الخبائث.

ثم ذكر ما كان من أمر لوط، حين مجيء الرسل ضيوفاً لديه، فقال: ﴿وَلَمَّا﴾: حرف شرط لا ظرف، خلافاً للفارسي، كما هو مذكور في علم النحو.

﴿أَن﴾ زائدة زيدت بعد لما، وهو قياس مطرد، وقال الزمخشري[1]: (أن) صلة أكدت وجود الفعلين، مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحدٍ من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم، فاجأت المساءة من غير وقت خيفةً عليهم من قومه، انتهى.

أي: ولما ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ المذكورون بعد مفارقة إبراهيم ﴿لُوطًا سِيٓءَ﴾؛ أي: حزن ﴿بِهِمْ﴾؛ أي: بسببهم؛ أي[2]: اعتراه المساءة والحزن بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء؛ أي: بفاحشة؛ لأنهم كانوا يتعرضون للغرباء، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة، وإنما رأى شباناً مرداً، حساناً، بثياب حسان، وريح طيبة، فظن أنهم من الإنس ﴿وَضَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: بشأنهم ﴿ذَرْعًا﴾؛ أي: قلباً؛ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه؛ أي: طاقته؛ أي: عجز عن تدبير شأنهم، فلم يدر أيأمرهم بالخروج أم بالنزول، كقولهم: ضاقت يده، وبإزائه رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً به، قادراً عليه، وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿سِيٓءَ﴾ بكسر السين، وضمها نافع وابن عامر والكسائي، وقرأ عيسى وطلحة: ﴿سوء﴾ بضمها، وهي لغة بني هذيل وبني وبير يقولون في قيل وبيع ونحوهما قول وبوع.

---

(١) الكشاف.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

﴿وَ﴾ لما شاهدت الملائكة ما حل به من الحزن والتضجر ﴿قَالُوا۟﴾ للوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾ علينا من قومك ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لأجلنا فإنا ملائكة لا يقدرون علينا، أو المعنى: لا تخف علينا، ولا تحزن على هلاك قومك.

والمعنى: أي ولما جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه، خاف عليهم من قومه، وحصلت له مساءة وغم بسببهم، مخافة أن يقصدهم أحد بسوء، وهو عاجز عن مدافعة قومه، وتدبير الحيلة لحمايتهم، ودفع الأذى عنهم، وحين رأوه على هذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له: هوِّن على نفسك، ولا تخف علينا، ولا تحزن بما نفعله بقومك، فإنهم قد بلغوا في الخبث مبلغاً لا مطمع في رجوعهم عنه، مهما نصحْت وألحفت في الإرشاد.

ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه، وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ من العذاب الذي سينزل بقومك ﴿وَ﴾ منجو ﴿أهلك﴾ وأتباعك معك، فلن يصيبكم ما يصيبهم منه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فإنها ﴿كَانَتْ﴾ في سابق علم الله وحكمه الأزلي ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: من الهالكين لمظاهرتها إياهم، والميل إلى شد أزرهم، والدفاع عنهم، فقد كانت تدلهم على ضيوفه، فيقصدونهم بالسوء، فصارت شريكة لهم في الجرم.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر ونافع وحفص[(١)]: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ بالتشديد، وقرأ حمزة والكسائي وشعبة ويعقوب والأعمش ﴿منجوك﴾ بالتخفيف والكاف في مذهب سيبويه في موضع جر، ولا يجوز عطف الظاهر على الضمير المخفوض، وحينئذ (أهلك) منصوب على إضمار فعل؛ أي: وننجي أهلك، ومن راعى هذا الموضع عطفه على موضع الكاف، والكاف على مذهب الأخفش وهشام في موضع نصب، وأهلك معطوف عليه؛ لأن هذه النون كالتنوين، وهما على مذهبهما يحذفان، للطافة الضمير وشدة طلبه الاتصال بما قبله.

---

(١) البحر المحيط.

وبعد أن بشروه بالنجاة قالوا له: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني سذوم، وكانت مشتملة[1] على سبع مئة ألف رجل، كما في «كشف الأسرار». ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: نازلاً من جهتها، وهذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله، والرجز: العذاب الذي يقلق المعذب؛ أي: يزعجه، وهو الرمي بالحجارة، وقيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، وقيل: هو الخسف والحصب، كما في غير هذا الموضع، ومعنى كون[2] الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء.

وقرأ ابن عامر ﴿منزّلون﴾ بالتشديد، وبها قرأ ابن عباس. وقرى الباقون بالتخفيف، وقرأ ابن محيصن ﴿رُجزاً﴾ بضم الراء، والباء في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ للسببية؛ أي: بسبب فسقهم المستمر، وفعلهم الخبيث، وقرأ أبو حيوة والأعمش بكسر سين ﴿يَفْسِقُونَ﴾ فانتسف جبريل المدينة وما فيها بأحد جناحيه، فجعل عاليها سافلها، وانصبت الحجارة على من كان غائباً عنها؛ أي: بعد خروج لوط مع بناته منها.

وأشهر الآراء[3] أن الزلزلة خسفت بهم الأرض، وابتعلتهم في باطنها، وصار مكان قريتهم بحيرةً مِلحة (البحر الميِّت).

ثم بيَّن أن ما حل بهم عبرة لمن اعتبر وادَّكر، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾؛ أي: ولقد أبقينا من القرية، و﴿من﴾[4] للتبيين، لا للتبعيض؛ لأن المتروك الباقي ليس بعض القرية بل كلها. ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾؛ أي: علامة ودلالة واضحة ظاهرة، وهي قصتها العجيبة، وحكايتها السابقة، أو آثار ديارها الخربة، أو الحجارة الممطورة التي رُجموا بها، التي على كل واحد منها اسم صاحبها، فإنها كانت باقية بعدها، وأدركها أوائل هذه الأمة.

وقال مجاهد: ظهور الماء الأسود الباقي على وجه أرضيهم حين خسف

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

بهم، وهي بين القدس والكرك، وكان منتناً يتأذى الناس برائحته من مسافة بعيدة، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في الاعتبار، وهو متعلق إما بتركنا أو بينة، وفيه إشارة إلى شرف العقل، فإنه هو الذي يعتبر ويردع الإنسان عن الذنب، والوقوع في الخطر، وخص من يعقل؛ لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها.

قيل: كل شيء إذا كثر رخص غير العقل، فإنه إذا كثر غلا، قال أعرابي: لو صُوِّر العقل لأظلمت معه الشمس، ولو صُوِّر الحمق لأضاء معه الليل؛ أي: لكان الليل مضيئاً بالنسبة إليه، مع أنه لا ضوء فيه من حيث إنه ليل.

والخلاصة: أي وعزتي وجلالي، لقد أبقينا بما فعلنا بهم عبرةً بينة، وعظة زاجرة، لقوم يستعملون عقولهم في الاستبصار، وجعلناها مثلاً للآخرين. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قصة شعيب عليه السلام

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾متعلق بمحذوف، تقديره: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ﴾ من النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ عطف بيان، أو بدل من أخاهم؛ لأنه من نسبهم؛ أي: ولقد أرسلنا إلى مدين نبيهم شعيباً. ﴿فَقَالَ﴾ شعيب بطريق الدعوة ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وحده؛ أي: أفردوه بالعبادة، وخصوه بها، وأخلصوها له ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾؛ أي: وارجوا بعبادتكم إياه اليوم جزاء اليوم الآخر وثوابه، وقيل: المعنى خافوا اليوم الآخر، وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم.

قال يونس النحوي: معناه: اخشوا الآخرة، التي فيها الجزاء على الأعمال، اهـ. والمراد به يوم القيامة؛ لأنه آخر الأيام، والمعنى؛ أي: توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأحوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تنتفعون به في

العاقبة، وتأمنون من عذاب الله، وقيل: معناه وارجوا يوم الموت؛ لأنه آخر عمرهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مدين؛ أي: لا تفسدوا فيها، ولا تبغوا على أهلها، فتنقصوا المكيال والميزان، وتقطعوا الطريق على الناس حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ فيها؛ أي: مظهرين ومجاهرين الفساد فيها بالتطفيف؛ أي: لا تعتدوا حال إفسادكم، بل توبوا إلى ربكم، وأنيبوا إليه، وإنما قيد[1] العثو بالإفساد وإن غلب فيه؛ لأنه قد يكون فيه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً، كقتل الخضر الغلام، وخرقه السفينة، ويمكن[2] أن يقال: نصب ﴿مفسدين﴾ على المصدر، كما يقال: قم قائماً؛ أي: قياماً، واجلس قاعداً؛ أي: قعوداً.

فائدة: قال الفخر الرازي[3]: وأضيف شعيب هنا إلى قومه حيث قال: ﴿أخاهم شعيباً﴾ بخلاف ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم ولوط، فإنه أضاف القوم إليهم حيث قال: قوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط؛ لأن الأصل في جميع المواضع أن يُذكر القوم، ثم يُذكر رسولهم؛ لأن الله سبحانه لا يبعث رسولاً إلى غير معين، غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص، ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها، فعرفوا بالإضافة لنبيهم، فقيل: قوم نوح وقوم لوط وقوم إبراهيم، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس، فجرى الكلام على أصله، فقال: وإلى مدين أخاهم شعيباً، وإلى عاد أخاهم هوداً .اهـ.

وقال الرازي أيضاً: قوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ في قصة شعيب لم يُذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد، وذُكر عن غيره ذلك؛ لأن لوطاً كان في زمن إبراهيم، وإبراهيم سبقه بذلك حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق، وإنما ذكر عنه ما اختص به من النهي عن الفاحشة، وأما غيره فجاؤوا في زمن غير

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) التفسير الكبير بتصرف.

مشتهر بالتوحيد فأمروا به، اهـ.

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذبوا شعيباً فيما جاءهم به من عند ربهم، ولم يمتنعوا من الفساد.

فإن قيل[1]: كيف يكذب شعيب في قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا﴾ مع أنه لا يكذب الآمر ولا الناهي، وإنما يكذب المخبر لكون الكذب معناه: عدم مطابقة الخبر للواقع؟

قلنا: ما ذكره من الأمر والنهي يتضمن جملاً إخباريةً، فكأنه قال: الله واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه، فالتكذيب يرجع إلى الإخبارات الضمنية .اهـ زاده.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ أي: أهلكتهم ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة حتى تهدمت عليهم دورهم، فإن قيل[2]: قال هنا وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وفي هود ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل، فإنها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاوره من الأرض، والقصة واحدة؟ قلنا: يجوز أن يجتمع على إهلاكهم سببان الزلزلة والصيحة، وقيل: لا معارضة؛ لأن المعنى: إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته، فرجفت في قلوبهم، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب .اهـ. «زاده».

﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ أي: صاروا ﴿فِي دَارِهِمْ﴾؛ أي: في بلدهم أو في منازلهم، ولم يجمع[3] هنا بأن يقال في ديارهم لأمن اللبس ﴿جَاثِمِينَ﴾؛ أي: باركين على الركب، ميِّتين مستقبلين بوجوههم الأرض؛ أي: فصاروا في مجمعهم ميِّتين لا يتحركون، وذلك بسبب عدم استماعهم إلى داعي الحق، وتزلزل باطنهم، فالجزاء من جنس العمل، وقد تقدمت هذه القصة مبسوطة في هذه السور الأعراف وهود والشعراء.

---

(١) زادة.

(٢) زاده.

(٣) روح البيان.

قصص هود وصالح عليهما السلام

قوله: ﴿وَعَادًا﴾ منصوب بإضمار فعل دل عليه ما قبله، وهو قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: وأهلكنا عاداً قوم هود ﴿وَثَمُودَاْ﴾ قوم صالح، وهو غير مصروف على تأويل القبيلة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾؛ أي: وقد ظهر لكم يا أهل مكة إهلاكنا إياهم ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾؛ أي: من جهة بقية منازلهم الكائنة باليمن ديار عاد، والحجر ديار ثمود، وهو واد بين المدينة والشام، إذا نظرتم إليها عند مروركم بها في أسفاركم إلى الشام واليمن.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: وما سبب ذلك الإهلاك إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، من فنون الكفر والمعاصي، وحسنها في أعينهم بوسوسته وإغوائه ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان، وصرفهم بهذا التزيين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق السوي، الذي وجب عليهم سلوكه، الموصل إلى الحق الذي هو التوحيد والطاعة.

﴿و﴾ الحال أنهم ﴿كانوا مستبصرين﴾؛ أي: والحال أن عاداً وثمود قد كانوا ذوي بصيرة، عقلاء، متمكنين من النظر والاستدلال بواسطة الرسل التي أرسلت إليهم، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لمتابعتهم الشيطان، فلم ينتفعوا بعقولهم في تمييز الحق من الباطل، فكانوا كالحيوان الغير العاقل، وقيل: المعنى: وكانوا مستبصرين في كفرهم وضلالتهم، معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا، باعتبار ما عند أنفسهم.

وقرأ ثمود بغير تنوين حمزة والحسن وحفص، وباقي السبعة بالتنوين. وقرأ ابن وثاب ﴿وعاد وثمود﴾ بالخفض فيهما والتنوين عطفاً على مدين؛ أي: وأرسلنا إلى عاد وثمود، وقرأ الأعمش مساكنهم بالرفع من غير من، فيكون فاعلاً لـ﴿تبين﴾، ذكره أبو حيان في «البحر».

ومعنى الآية[1]: أي وأهلكنا أيضاً عاداً قوم هود عليه السلام، وكانوا

---

(١) المراغي.

يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى مع ما كانوا عليه من العتو والتكبر، وكانت العرب تعرف مساكنهم معرفة تامة، وتمر عليهم كثيراً، وترى ما حل بهم، وما سبب ما جرى عليهم، إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله تعالى، وصدهم عن الطريق السوي الذي يوصلهم إلى النجاة، وقد كانوا متمكنين من النظر والاستبصار، فلم يكن لهم عذر في الغفلة، وعدم التدبر في العواقب.

قصص موسى عليه السلام

قوله: ﴿وَقَـٰرُونَ﴾ معطوف على عاداً؛ أي: وأهلكنا قارون ابن عم موسى، وقدمه على فرعون لشرف نسبه بقرابته من موسى، ففيه[1] تنبيه لكفار قريش على أن شرف نسبهم لا يخلِّصهم من العذاب، كما لم يخلص قارون.

﴿و﴾ أهلكنا ﴿فرعون﴾ اللعين ﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وزير فرعون؛ أي: أهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل فاستكبروا عن الحق، كما ذكره بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد جاء هؤلاء الثلاثة المذكورين، وأتباعهم، موسى عليه السلام بالبينات، والدلالات الواضحة، والمعجزات الباهرة. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة الله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر، وتعظموا عن قبول الحق الذي جاء به موسى.

وفي قوله[2]: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: عن الإقرار بالصانع وعبادته في الأرض، إشارة إلى قلة عقولهم؛ لأن من في الأرض يشعر بالضعف، ومن في السماء يُشعر بالقوة، ومن في السماء لا يستكبرون عن عبادة الله سبحانه، فكيف من في الأرض.

﴿وَمَا كَانُوا۟﴾؛ أي: وما كان هؤلاء وأتباعهم ﴿سَـٰبِقِينَ﴾ عذابنا فائتين مفلتين منه، بل أدركهم أمر الله فهلكوا، من قولهم: سبق طالبه، إذا فاته ولم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

يدركه، وقيل: المعنى وما كانوا سابقين غيرهم إلى الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة؛ أي تلك عادة الأمم مع رسلهم.

ومعنى الآية: أي وأهلكنا أيضاً قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة، وفرعون ملك الملوك في عصره ومصره، ووزيره هامان، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات، تدل على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض، وأبوا أن يصدقوه، وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله ولا هاربين من عقابه، بل هو قادر عليهم، وآخذهم أخذ عزيز مقتدر.

عاقبة الأمم المكذبة لرسلها

والفاء في قوله: ﴿فَكُلًّا﴾ من الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا﴾ وعاقبنا ﴿بِذَنْبِهِۦ﴾؛ أي: بكفره وتكذيبه، تفسيرية؛ لأنها دخلت على الكلام المفسر، لما يُنبيء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام؛ أي: كل واحد من الأمم المذكورة أخذنا بذنبه، أي عاقبناه بجنايته، لا بعضهم دون بعض، كما يُشعر به تقديم المفعول.

وفيه دليل على أنه تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وأنهم يقولون إنه تعالى لو عاقب ابتداءً جاز، والجواب: نحن لا ننكر أنه تعالى يعاقب الكفار على كفرهم، والمذنبين بذنبهم، وإنما الكلام في أنه لو عاقب ابتداء لا يكون ظالماً؛ لأنه يفعل ما يشاء بحكم الملك المطلق، والفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ تفصيلية؛ لأنها دخلت على الجملة المفصلة للأخذ المذكور؛ أي[1]: أهلك الله سبحانه الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب:

١ - ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً عاصفاً فيه حصباء، وهي الحصى الصغار، كقوم عاد إذا قالوا: مَن أشد منا قوة، فجاءتهم ريح صرصر، عاتية، باردة، شديدة الهبوب، تحمل الحصباء فألقتها عليهم، أو أرسل عليهم ملكاً رماهم بها، وهم قوم لوط.

(١) المراغي.

٢ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ﴾ وأهلكته ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل كمدين وثمود، حين قامت عليهم الحجة، ولم يؤمنوا، بل استمروا في طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، فصاح بهم جبريل صيحة واحدة فانشقت قلوبهم، وزهقت أرواحهم، وأخمدت منهم الأصوات والحركات.

٣ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون وأصحابه الذي طغى وبغى، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وتاه بنفسه عجباً، فخسف الله به وبداره الأرض، وهو الجزاء الوفاق لعمله؛ لأن المال الكثير يوضع غالباً تحت الأرض.

٤ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ه في الماء، كقوم نوح أغرقوا بالطوفان، وفرعون وهامان وجنودهما، أغرقوا في صبيحة يوم واحد.

ثم بيَّن أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب، ولم تكن ظلماً لهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم، بأن يضع العقوبة في غير موضعها، فإن ذلك محال في جهته تعالى؛ لأنه قد أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم طريق الحق والنجاة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باستمرارهم على الكفر، وتكذيبهم للرسل، وعملهم بالمعاصي الموجبة للعقوبة والعذاب.

والمعنى: أي ولم يكن الله ليهلكهم بغير جرم اجترموه؛ لأن ذلك ليس من سننه تعالى، وهو لا يوافق منهج الحكمة، فلا يصدر عن الحكيم، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، وتقلبهم في آلائه، وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم.

قال وهب بن منبه[1]: قرأت في بعض الكتب حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وظمأ الدنيا ريُّ الآخرة، وريُّ الدنيا ظمأ الآخرة، وفرح الدنيا حزن الآخرة، وحزن الدنيا فرح الآخرة، ومن قدَّم شيئاً من خير أو

---

(١) روح البيان.

شر وجده، والأمر بآخره، ألا ترى أن هؤلاء المذكورين، لما صار آخر أمرهم التكذيب أوخذوا عليه، ولو صار آخر أمرهم التصديق لسومحوا فيما صدر عنهم أولاً.

والحاصل: أنهم لما عاشوا على الإصرار هلكوا على العذاب، ويحشرون على ما ماتوا عليه، ولذا يقولون عند القيام من قبورهم: واويلاه، فقد وعظ الله سبحانه بهذه الآيات أهل مكة، ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، ليعتبروا وينتفعوا بعقولهم، ويجتنبوا عن الظلم والأذى والاستكبار والإفساد، فإن فيه الصلاح والنجاة والفوز بالمراد، لكن التربية والإرشاد إنما تؤثر في المستعد من العباد، والقرآن كالبحر، وإنما يتطهر به من كان من شأنه ذلك، كالإنسان، وأما الكلب فلا. نسأل الله سبحانه الخروج من موطن النفس، والإقامة في حظيرة القدس.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ وجعلوا لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وآلهة وأنصاراً يوالونهم، ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سبحانه، سواء كانوا من الجماد أو الحيوان، ومن الأحياء أو من الأموات؛ أي: صفتهم العجيبة فيما اتخذوه معتمداً وملجأ ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ التي ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ ونسجت لنفسها ﴿بَيْتًا﴾؛ أي: كمثلها فيما نسجته في الوهن، بل ذلك أوهن من هذا؛ لأن له حقيقة وانتفاعاً في الجملة.

فالآية[1] من قبيل تشبيه الهيئة بالهيئة لتشبيه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها، واعتمد عليها راجياً نفعها وشفاعتها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فكما أن بيتها لا يدفع عنها حراً ولا برداً، ولا مطراً ولا أذًى، وينتقض بأدنى ريح، فكذلك الأصنام لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً، ولا خيراً ولا شراً.

ومن تخيل السراب شراباً، لم يلبث إلا قليلاً حتى يعلم أنه كان تخييلاً، ومن اعتمد شيئاً سوى الله، فهو هباء لا حاصل به، وهلاكه في نفس ما اعتمد. ومن اتخذ سواه ظهيراً، قطع من نفسه سبيل العصمة، ورد إلى حوله وقوته.

---

(١) روح البيان.

وقيل[1]: معنى هذا المثل: إن المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل العنكبوت تتخذ بيتاً من نسجها بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص، أو نحته من صخر له حائط، يحول عن تطرق الشرور إلى من فيه، وسقف مظل يدفع عنه البرد والحر، فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان؛ لأنها لا تضر ولا تنفع.

قال الفراء[2]: ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه بيتها الذي لا يقيها من شيء، شُبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به، وقد جوز الوقف على العنكبوت الأخفش، وغلّطه ابن الأنباري، قال؛ لأن ﴿اتخذت﴾ صلة للعنكبوت، كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، والعنكبوت هي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً، كما سيأتي في التصريف.

وحاصل المعنى[3]: أي مثل الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء، يرجون نصرهم ونفعهم لدى الشدائد في قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم، كمثل العنكبوت في ضعفها وقلة حيلتها، اتخذت لنفسها بيتاً يكنها من حر وبرد، ويدفع أذى، فلم يُغن عنها شيئاً حين حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون، لم يُغن عنهم أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحله الله بهم، من سوء العذاب بكفرهم به وعبادتهم سواه.

وخلاصة ذلك: أن بيت العنكبوت لا يكن ولا يمنع أذى الحر والبرد، كما هو شأنها فيما ترون، فكذلك المعبود، ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق، وجر المنافع ودفع المضار، وما عبده الكافرون لم يفدهم شيئاً من ذلك، فكيف يُصرون على عبادتهم؟

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا، فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ وأضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أضعف منه، وأوهن فيما يتخذه الهوام بيتاً، ولا يدانيه في الوهي والوهن شيء من ذلك؛ لأنه بلا أساس، ولا جدار، ولا سقف، لا يدفع الحر والبرد، ولذا كان سريع الزوال، وفيه إشارة إلى أنه لا أصل لموالاة ما سوى الله، فإنه لا أس لبنيانها.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: شيئاً من الأشياء لجزموا أن هذا مثلهم وابتعدوا عن اعتقاد ما هذا مثله، أو لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأولياء من دون الله، كاتخاذ العنكبوت بيتاً، ما اتخذوهم أولياء.

والمعنى: أي لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتيلاً ولا قطميراً، كما لا يجدي بيت العنكبوت عنها شيئاً.. ما فعلوا ذلك الاتخاذ، لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء التقدير حداً لا يستطيعون معه العلم بعواقب ما يفعلون، ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى.

ثم زاد الإنكار توكيداً وتثبيتاً، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فهو على تقدير القول؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة، تهديداً لهم أن الله سبحانه يعلم ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون، وما استفهامية منصوبة بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ويعلم معلق عنها؛ أي: يعلم أي شيء يعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من للتبيين؛ أي: سواء كان ما يدعون صنماً أو نجماً أو ملكاً أو جنياً أو غيره لا يخفى عليه ذلك، فهو يجازيهم على كفرهم؛ أي: إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان والجن والإنس، وإنها لا تنفعكم ولا تضركم، إن أراد الله بكم سوءاً، وإن مثلها في قلة غنائها لكم كمثل بيت العنكبوت في قلة غنائه لها، ويحتمل كون ﴿مَا﴾ موصولة؛ أي: إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه، وكونها نافية، والمعنى؛ أي: إن الله يعلم أنه ليس الذين يدعون من دونه شيئاً، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لا يسمى شيئاً.

وقرأ أبو عمرو وسلاَّم[1]: ﴿يعلم ما﴾ بالإدغام، والجمهور بالفك. وقرأ الجمهور: ﴿تدعون﴾ بتاءالخطاب، وقرأ أبو عمرو وعاصم بخلاف عنه بياء الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيدة لذكر الأمم قبل هذه الآية.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب، القادر على الانتقام ممن كفر به، وأشرك معه في عبادته غيره، فاتقوا أيها المشركون به عقابه بالإيمان به، قبل نزوله بكم، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم في هذه السورة، فإنه إن نزل بكم، لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئاً، وهو سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة البالغة في ترك المعاجلة بالعقوبة، أو الحكيم في تدبير خلقه، فمهلك من استوجب عمله الهلاك، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصلاح والاستقامة.

ولما كان[2] الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالذباب والبعوضة والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، بيَّن فائدة ضرب الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ والأشباه؛ أي: هذا المثل وغيره من الأمثال المذكورة في القرآن، والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول؛ أي: تشبيه حال الثاني بالأول.

﴿نَضْرِبُهَا﴾؛ أي: نذكرها ونبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لأهل مكة وغيرهم تقريباً لما بعد عن أفهامهم، وإيضاحاً لما أشكل عليهم أمره واستعصى عليهم حكمه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾؛ أي: وما يفهم حسن تلك الأمثال، وفائدتها التي ضربناها لأجلها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ بالله، الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، المتفكرون فيما يُتلى وما يشاهدونه، وهم الذين عقلوا عن الله؛ أي: ما صدر عنه، فعملوا بطاعته، واجتنبوا سخطه، والعالم في الحقيقة من حجزه علمه عن المعاصي، فالعاصي جاهل وإن كان عالماً صورة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

فإن قيل: لِمَ[1] لَمْ يقل وما يعلمها إلا العاقلون، والعقل يسبق العلم؟

قلنا: لأن العقل آلة، تُدرك بها معاني الأشياء بالتأمل فيها، ولا يمكن التأمل فيها والوصول إليها بطريقها إلا بالعلم، ودلت الآية على فضل العلم على العقل، ولا عالم منا إلا وهو عاقل، فأما العاقل فقد يكون غير عالم.

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه، ولا ناصر لمن خذله، أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنشأ وأوجد سبحانه وتعالى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على غير مثال سابق، حالة كونه سبحانه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي[2]: مراعياً للحكم والمصالح، على أنه حال من فاعل خلق، أو حالة كونها متلبسة بالحق الذي لا محيد عنه، مستتبعةً للمنافع الدينية والدنيوية، على أنه حال من مفعوله، فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على وحدانيته، وعظم قدرته، وسائر صفاته، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في خلقهما ﴿لَأٓيَةً﴾ دالة على شؤونه؛ أي: لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفرده بالإلٰهية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية، والإرشاد في خلقهما للكل؛ لأنهم المنتفعون بذلك.

والمعنى: أي: خلق الله السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية، ولم يخلقهما عبثاً ولهواً، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم، واقتضت الإرادة إيجاده، وأمكن معرفة الخالق الذي أوجدها، وعبادته كفاء نعمه، كما جاء في الحديث القدسي، حكايةً عن الله عز وجل: «كنت كنزا مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني» وفيه مقال.

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله؛ لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثرها، كما أثر عن بعض العرب: البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير.

ثم خاطب رسوله مسلياً له بقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اقرأ يا محمد

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ما أنزل إليك ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من القرآن، وأدم تلاوته تقرباً إلى الله بقراءته، وتحفظاً لنظمه، وتذكراً لمعانيه وحقائقه، فإن القارىء المتأمل ينكشف له في كل مرة ما لم ينكشف قبل، وتذكيراً للناس، وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، كما رُوي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ أُتي بسارق فأمر بقطع يده، فقال: لِم تقطع يدي؟ وكان جاهلاً بالأحكام، فقال له عمر: بما أمر الله في كتابه، فقال: اتل عليَّ، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فقال السارق: والله ما سمعتها ولو سمعتها ما سرقت، فأمر بقطع يده ولم يعذره. فسن عمر التراويح بالجماعة ليسمع الناس القرآن، وهذا هو السبب في مشروعية التراويح.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة، كان له بكل حرف مئة حسنة، ومن قرأ وهو جالس في الصلاة، فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن قرأ وهو في غير الصلاة، وهو على وضوء، فخمس وعشرون حسنة، ومن قرأ على غير وضوء فعشر حسنات.

وعن الحسن البصري، قراءة القرآن في غير الصلاة، أفضل من صلاة لا يكون فيها كثير القراءة، قال الفقهاء أفضل التلاوة على الوضوء والجلوس نحو القبلة، وأن يكون غير مربع ولا متكىء ولا جالس جلسة متكبر، ولكن يجلس نحو ما يجلس بين يدي من يهابه ويحتشم منه.

﴿وَأَقِمِ﴾ يا محمد أنت وأمتك ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: داوم على إقامتها وأدائها على الوجه القيم، مريداً بذلك وجه الله تعالى، والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له، والمراد بالصلاة هنا الصلوات المفروضة، ولما كان أمره ﷺ بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها، علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المعروفة، وهي المقرونة بشرائطها الظاهرة والباطنة، المستوفية لأركانها وآدابها ﴿تَنْهَىٰ﴾ الناس وتمنعهم؛ أي: من شأنها وخاصيتها أن تنهاهم وتمنعهم ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: عن الفعلة القبيحة كالزنا والسرقة مثلاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: وعن كل ما أنكره الشرع

والعقل، من الذنوب والمعاصي، ففيه عطف العام على الخاص، فكأنها[1] تقول له كيف تعصي رباً هو أهل لما أتيت به، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه، وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال، تدل على عظمة المعبود وكبريائه، وإخباتك له وإنابتك إليه، وخضوعك لجبروته وقهره، إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله.

أي: تكون[2] الصلاة سبباً للانتهاء عن المعاصي كبائرها وصغائرها، حال الاشتغال بها وغيرها، من حيث إنها تذكر الله وتورث للنفس خشية منه، قيل[3]: من كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً، فقد رُوي أنه قيل لرسول الله ﷺ إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه».

وروي أن فتى من الأنصار، كان يصلي معه ﷺ الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له، فقال: «إن صلاته ستنهاه، فلم يلبث أن تاب». وعن الحسن: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه.

فإن قلت[4]: لم أمر بهذين الشيئين، تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة فقط؟

قلت: لأن العبادة المختصة بالعبد ثلاثة:

قلبية: وهي الاعتقاد الحق.

ولسانية: وهي الذكر الحسن.

وبدنية: وهي العمل الصالح. لكن الاعتقاد لا يتكرر، فإن من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى، بل ذلك يدوم مستمراً فبقي الذكر والعبادة البدنية، وهما ممكنا التكرار، فلذلك أمر بهما.

وقيل[5]: معنى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: عن التعطيل

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) النسفي.
(٤) الخازن.
(٥) المراح بتصرف.

وهو إنكار وجود الله سبحانه. ﴿وَٱلْمُنكَرِۗ﴾؛ أي: عن الإشراك، وهو إثبات الألوهية لغير الله تعالى، فالعبد أول ما يشرع في الصلاة يقول: الله أكبر، فبقول الله ينفي التعطيل، وبقوله: أكبر ينفي الإشراك؛ لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر، فيما فيه الاشتراك، فإذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ نفى التعطيل، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نفى الإشراك؛ لأن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من يعطي الوجود بالخلق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ من يعطي البقاء بالرزق، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أثبت خلاف التعطيل، وإذا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أثبت خلاف الإشراك، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نفى التعطيل والإشراك، وكذا إذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ نفى التعطيل؛ لأن طالب الصراط له مقصد، والمعطل لا مقصد له، وإذا قال: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ نفى الإشراك؛ لأن ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الأقرب، والمشرك يعبد الأصنام، ويظنون أنهم يشفعون لهم، وعبادة الله من غير واسطة أقرب، وعلى هذا إلى آخر الصلاة، فإذا قال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، فقد نفى الإشراك والتعطيل.

ومعنى نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر(١): أنها سبب للانتهاء عنهما؛ لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراض عن معاصيه .اهـ من «المراح».

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى إياكم برحمته ونعمته في الدنيا، وبالثواب والثناء عليكم منه في الآخرة ﴿أَكْبَرُۗ﴾ من ذكركم إياه بعبادتكم وصلواتكم، واختار هذا المعنى ابن جرير، ويؤيده حديث «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»، وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة ولا غرض، وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم لا يبقى .اهـ. أو المعنى: ولذكر الله بسائر أنواعه، من تهليل وتحميد وتسبيح وغير ذلك أكبر؛ أي: أفضل من

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

الطاعات التي ليس فيها ذكر؛ لأن[1] ثواب الذِّكر هو الذِّكر، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. أو المعنى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: والصلاة ﴿أَكْبَرُ﴾ وأفضل من سائر الطاعات، وإنما عبر عنها بالذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذِكره تعالى، هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات.

وقيل المعنى[2]: أن ذِكر الله أكبر ـ مع المداومة ـ من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال الضحاك: ولذكر الله عندما يحرم، فيترك أجل الذكر، وقيل: المعنى: ولذكر الله، للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر؛ أي: كبير، وقيل: ولذكر الله في الصلاة أكبر منه خارج الصلاة؛ أي: أكبر ثواباً، وقيل: أكبر من سائر أركان الصلاة، وقيل: ولذكر الله نهيه أكبر من نهي الصلاة.

والذكر النافع: هو الذي كان مع العلم وإقبال القلب، وتفرغه إلا من الله، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ وتفعلون من الذكر ومن سائر الطاعات، فيجازيكم به أحسن المجازاة؛ أي: يعلم ما تأتون به من خير أو شر، لا يخفى عليه شيء من أمركم، وهو يجازيكم كفاء أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما جرت بذلك سنته في خلقه، وهو الحكيم الخبير، ولا يخفى ما في ذلك من وعد ووعيد، وحث على مراقبة الله تعالى في السر والعلن. ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ نسأل الله أن يوفقنا للفعل الحسن والصنع الجميل، ويسعدنا بالمقام الأرفع، والأجر الجزيل، بمنه وكرمه. آمين.

فصل في ذكر نبذة من أحاديث الذكر

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء

---

(١) القرطبي.

الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله» أخرجه الترمذي.

وله عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»، قالوا: يا رسول الله، والغازي في سبيل الله؟ فقال: «لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر، ويختضب في سبيل الله دماً، لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». ويروى «المفردون» بتشديد الراء وتخفيفها، والتشديد أتم، يقال فرد الرجل بتشديد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وحده مراعياً للأمر والنهي، وقيل هم المتخلفون عن الناس بذكر الله، لا يخلطون به غيره، أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، أخرجه البخاري.

وروي أن أعرابياً قال: يا رسول الله؛ أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا، ولسانك رطب بذكر الله».

الإعراب

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة محذوف معلوم من السياق، تقديره: فدعا إبراهيم قومه إلى التوحيد ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: خبرها مقدم ومضاف إليه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم

﴿كَانَ﴾مؤخراً، والتقدير: فما كان جواب قومه إلا قولهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾. ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فقذفوه في النار فأنجاه الله سبحانه وتعالى. ﴿أنجاه الله﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ متعلق بـ﴿أنجاه﴾. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، خبرها مقدم على اسمها. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل الإنجاء المذكور.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، معطوف على ﴿أنجاه الله﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿اتخذ﴾. ﴿أَوْثَٰنًا﴾: مفعول أول له. ﴿مَّوَدَّةَ﴾: مفعول لأجله. ﴿بَيْنِكُمْ﴾: مضاف إليه لـ﴿مَّوَدَّةَ﴾. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾، أو حال من فاعل ﴿اتخذ﴾، وجملة ﴿اتخذ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وقد جرينا في الإعراب على قراءة حفص، واخترنا أمثل الأوجه وأسهلها، وهذه الآية قد شغلت المعربين كثيراً لاختلاف قرائتها، وجهات النظر فيها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَكْفُرُ﴾. ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿يَكْفُرُ﴾ أيضاً، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾. ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يَكْفُرُ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾: مبتدأ أو خبر مقدم. و﴿ٱلنَّارُ﴾: خبر أو مبتدأ مؤخر،

والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية في قوله: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر. و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلها.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَـَٔامَنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فكذبه قومه فآمن له لوط. ﴿آمن﴾: فعل ماض. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به. ﴿لُوطٌۘ﴾: فاعل ﴿آمن﴾. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على إبراهيم معطوف على ﴿آمن﴾. ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾: متعلق بـ﴿مُهَاجِرٌ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان لها. وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول قال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على مقدر، مأخوذ من لفظ العزيز؛ أي: أعززناه ووهبنا له، إلخ. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿وهبنا﴾. ﴿إِسْحَـٰقَ﴾: مفعول به. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وهبنا﴾. ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾. ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾. ﴿وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ معطوف على النبوة. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿أَجْرَهُۥ﴾ مفعول ثان لـ﴿آتينا﴾. لأنه بمعنى أعطينا. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: حال من ضمير أجره. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: حال من ضمير إنه. ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنَّ﴾، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿آتيناه﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾: معطوف على إبراهيم، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر لوطاً. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من ﴿لُوطًا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِقَوْمِهِ﴾ متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتَأْتُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿تأتون الفاحشة﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية ﴿سَبَقَكُم﴾: فعل ومفعول. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿سبق﴾. ﴿مِن﴾ حرف جر زائد. ﴿أَحَدٍ﴾: فاعل. ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير فحشها وهجنة فاعلها، ورجح أبو حيان أن تكون هذه الجملة حالاً من فاعل ﴿تأتون﴾؛ أي: أتأتون الفاحشة حال كونكم مبتدعين لها غير مسبوقين بها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتَأْتُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿تأتون الرجال﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تأتون﴾. ﴿وَتَأْتُونَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿فِى نَادِيكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تأتون﴾. ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: مفعول به. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فنهاهم عن الفاحشة، فما كان جواب قومه. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم ومضاف إليه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أن﴾، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على أنه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر؛ أي: فما كان جواب قومه إلا قولهم. ﴿ٱئْتِنَا﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط: ﴿كُنتَ﴾:

فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبره وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنت من الصادقين، فائتنا به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول قالوا.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿لُوطٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الرب، والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ﴾: متعلق بـ﴿ٱنصُرۡنِي﴾. ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾. ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فاستجاب الله دعاء لوط، وأرسل ملائكةً لإهلاكهم، وأمرهم أن يبشروا إبراهيم بالذرية، فجاؤوا أولاً إلى إبراهيم. ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَتۡ﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، أعني، قولنا: فجاؤوا أولاً إلى إبراهيم. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿مُهۡلِكُوٓاْ﴾: خبره مرفوع بالواو. ﴿أَهۡلِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف ﴿هَٰذِهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾: صفة لـ﴿هَٰذِهِ﴾ أو عطف بيان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم لـ﴿إن﴾. ﴿لُوطًاۚ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿ننجين﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء: ضمير متصل في محل النصب مفعول به. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: معطوف على الضمير. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: منصوب على الاستثناء، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص واسمها يعود على ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾. ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: خبرها، وجملة كان في محل النصب حال من ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

﴿وَلَمَّآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاؤوا لوطاً. ﴿لَمَّآ﴾: حرف شرط. ﴿أن﴾: زائدة كما مر. ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لُوطًاۚ﴾: مفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿سِىٓءَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة كقيل وبيع، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿لُوطًاۚ﴾. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة جواب لما لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّآ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿وَضَاقَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿سِىٓءَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿لُوطًاۚ﴾. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿ضاق﴾. ﴿ذَرْعًا﴾: تمييز محول عن نائب الفاعل؛ أي: ضاق ذرعه بهم.

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيٓءَ﴾ على كونه جواب لما. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخَفۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿لُوطٗ﴾ مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡۖ﴾ معطوف على ﴿لَا تَخَفۡ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿مُنَجُّوكَ﴾: خبره مرفوع بالواو ومضاف إلى مفعوله. ﴿وَأَهۡلَكَ﴾: منصوب بفعل محذوف، تقديره: وننجي أهلك. ولا يجوز عطفه على الكاف لعدم الفاصل، والجملة المحذوفة في محل الرفع معطوفة على ﴿مُنَجُّوكَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱمۡرَأَتَكَ﴾: منصوب على الاستثناء، وجملة ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱمۡرَأَتَكَ﴾، كما مر آنفاً. ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُنزِلُونَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿رِجۡزٗا﴾: مفعول ﴿مُنزِلُونَ﴾. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رِجۡزٗا﴾. ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر وسبب. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفۡسُقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية. ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء؛ أي: بفسقهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مُنزِلُونَ﴾. ﴿وَلَقَد﴾: الواو استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّرَكۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنۡهَآ﴾: متعلق بـ﴿تَّرَكۡنَا﴾، أو هو المفعول الثاني لها. ﴿ءَايَةَۢ﴾: مفعول به، أو مفعولها الأول؛ لأن ﴿ترك﴾ اختلف فيها النحاة، فمنهم من جعلها تتعدى إلى واحد، ومنهم من جعلها بمعنى صيَّر فتتعدى إلى مفعولين، وهو اختيار ابن مالك. ﴿بَيِّنَةٗ﴾: صفة ﴿ءَايَةَۢ﴾. ﴿لِّقَوۡمٖ﴾: متعلق بـ﴿تَّرَكۡنَا﴾، أو بـ﴿ءَايَةَۢ﴾، أو بـ﴿بَيِّنَةٗ﴾، وهو أظهر، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾ وجملة ﴿تَّرَكۡنَا﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾.

﴿وَإِلَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إلى مدين﴾: متعلق بمحذوف معطوف على أرسلنا في قصة نوح؛ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ﴿أَخَاهُمْ﴾: مفعول به. ﴿شُعَيْبًا﴾: بدل، أو عطف بيان منه. ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على شعيب، والجملة معطوفة على أرسلنا المحذوف. ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ٱعْبُدُواْ﴾. ﴿ٱلْأَخِرَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْيَوْمَ﴾. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَعْثَوْاْ﴾ مؤكدة لعاملها، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱعْبُدُواْ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كذبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿فقال﴾. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾. ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿كذبوه﴾. ﴿فِى دَارِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جَٰثِمِينَ﴾. ﴿جَٰثِمِينَ﴾: خبر ﴿أصبح﴾. ﴿وَعَادًا﴾: مفعول لفعل محذوف معلوم من قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، تقديره: وأهلكنا عاداً، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾، أو على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. ﴿وَثَمُودَاْ﴾: معطوف على ﴿عاداً﴾ ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنى القبيلة. ﴿وَقَد﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّبَيَّنَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر، يعود على الإهلاك المفهوم من أهلكنا المقدر؛ أي: وقد تبين لكم إهلاكهم. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿تَّبَيَّنَ﴾. ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَّبَيَّنَ﴾ أيضاً؛ أي: والحال أنه قد تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم حين مررتم عليها، والجملة معطوفة على

أهلكنا المقدر، أو حالية. ﴿وَزَيَّنَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿زين﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعل. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب إهلاكهم. ﴿فَصَدَّهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿صدهم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿زين﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾: الواو: حالية. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من ضمير لهم.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿عاداً﴾. ﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾: معطوفان عليه. ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾: فعل ومفعول وفاعل مؤخر. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استكبروا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاء﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿استكبروا﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿استكبروا﴾.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

﴿فَكُلًّا﴾: ﴿الفاء﴾: تفسيرية؛ لأنها فسرت الأخذ الذي يدل عليه قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قولنا وما كانوا سابقين، وأردت بيان عاقبة أمرهم فأقول لك: ﴿كلاً أخذنا﴾. ﴿كلاً﴾: مفعول مقدم لـ﴿أَخَذْنَا﴾ ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، أو الجملة تفسيرية لا محل لها من الإعراب. ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَخَذْنَا﴾.

﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَا﴾ مفصلة لها. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿حَاصِبًا﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: فمنهم من أرسلنا. ﴿أَخَذَتْهُ﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على جملة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا﴾. ﴿خَسَفْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِ﴾: متعلق به ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على الجملة الأولى. ﴿أَغْرَقْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أغرقناه. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾: اللام حرف نفي وجحود. ﴿يظلمهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لظلمهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾، تقديره: وما كان الله مريداً لظلمهم، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم. لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾، أو حال من مفعول ﴿يظلمهم﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿مَثَلُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾؛ أي: حال كونهم مجاورين الله. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول به. ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾. ﴿بَيْتًا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، كما في الجمل، أو استئنافية. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. واللام حرف ابتداء، والجملة مستأنفة، أو حال من ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما عبدوها، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما يدعونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿مِن شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: نافية. و﴿مِن شَىْءٍ﴾: مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ على أن ﴿مِن﴾: زائدة لسبقها بالنفي، وجملة ﴿مَا يَدْعُونَ﴾: في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْأَمْثَٰلُ﴾: بدل، أو عطف بيان له، وجملة ﴿نَضْرِبُهَا﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿نَضْرِبُهَا﴾، ويجوز أن

تكون الأمثال خبر ﴿تلك﴾، وجملة ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ حالاً، أو خبراً ثانياً له. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَعۡقِلُهَآ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من مفعول ﴿نَضۡرِبُهَا﴾. ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو من مفعوله. والباء للملابسة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾: مقدم. ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اسمها مؤخر. و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَايَةٗ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ٱتۡلُ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وهو الواو، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿أُوحِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: حال من نائب فاعل أوحي. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱتۡلُ﴾. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَنۡهَىٰ﴾: خبر ﴿إنّ﴾. ﴿عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: متعلق بـ﴿تَنۡهَىٰ﴾. ﴿وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل إقامة الصلاة. ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿ذكر الله﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَكۡبَرُۗ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ وجملة ﴿تَصۡنَعُونَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تصنعونه.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ﴾ أصل[1] القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتُبر بفعل المتولي لذلك، يقال: قتل، وإذا اعتُبر بفوت الحياة، يقال: موت. ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ والفرق بين التحريق والإحراق، وبين الحرق، أن الأول: إيقاع ذات لهب في الشيء، ومنه استُعير أحرقني بلومه إذا بالغ في أذيته بلوم، والثاني: إيقاع حرارة في الشيء من غير لهب، كحرق الثوب بالدق، كما في «المفردات». كما مر.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وآمن به متقارب في المعنى، كما مر. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ قال في «المفردات»: الهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، قال بعضهم: معناه إني راجع من نفسي ومن الكون إليه، فالرجوع إليه بالانفصال عما دونه، ولا يصح لأحد الرجوع إليه، وهو متعلق بشيء من الكون، حتى ينفصل عن الأكوان أجمع ولا يتصل بها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وأجر الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الصالحة والثناء الجميل والذِكرُ الحسن، ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جمع صالح وهو الباقي على ما ينبغي، يقال: طعام بعد صالح؛ أي: هو باق على حال حسنة.

﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفاحشة الفعلة القبيحة، التي تنفر منها النفوس الكريمة. ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ والسبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك، وفيه سهولة، وقطع الطريق يقال: على وجهين:

أحدهما: يراد به قطع السير والسلوك.

والثاني: يراد به الغصب من المارة والسالكين للطريق؛ لأنه يؤدي إلى انقطاع الناس عن الطريق، فجُعل قطعاً للطريق، وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال.

---

(١) روح البيان.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ قال في «كشف الأسرار»: النادي مجمع القوم للسمر والأنس، وجمعه أندية اهـ والنادي والندوة والمنتدى مجلس القوم نهاراً أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه وجمعه أندية ولا تقل في جمعه نوادٍ، وغلط صاحب المنجد حيث جمعه على نواد، ويقال: ما يندوهم النادي؛ أي: ما يُسمعهم المجلس. من كثرتهم. وقال الزمخشري: ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً. ﴿الْمُنكَرَ﴾ قال الراغب: المنكر كل شيء تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه العقول وتحكم بقبحه الشريعة، انتهى.

﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ أي: قرية سذوم ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، أو القرية، وهو لفظ مشترك في الماضي والباقي، يقال: فيما غبر من الزمان؛ أي: فيما مضى. ويقال الفعل ماض وغابر؛ أي: باق.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾؛ أي: اعتراه المساءة بسببهم، مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء؛ أي: فاحشة. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ الذرع الطاقة والقوة، وفي المصباح ضاق بالأمر ذرعاً عجز عن احتماله، وذرع الإنسان طاقته التي يبلغها وعبارة الزمخشري: وقد جعلت العرب ضيق الذراع، والذرع عبارةً عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه: أن الرجل إذا طالت ذراعه، نال ما لا يناله قصير الذراع، فضُرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة، والذراع من الرجل من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى، والذراع من المقاييس طوله بين الخمسين والسبعين سنتيمتراً.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الرجز والرجس العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب وارتعش لما يلحق المعذب من القلب والاضطراب.

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾؛ أي: ولا تفسدوا، وفي «المصباح» عثا يعثو وعثي يعثى، من باب قال وتعب أفسد، فهو عاث. وفي «القاموس»: وعثا كرمى وسعى ورضي عثياً وعثيًّا وعثياناً وعثا يعثو عثواً أفسد.

﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، وفي «الأساس»: ورجفت الأرض فأخذتهم الرجفة. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ ورجف الشجر وأرجفته الريح، ورجف البعير

تحت الرحل، والمطي تحت رحالها إذا اضطرب.

﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: مقيمين من جثم الطائر إذا قعد ولصق بالأرض، والمراد أنهم ماتوا. ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يقال استبصر في أمره إذا كان ذا بصيرة. ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ من قولهم: سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه، قال الراغب: أصل السبق التقدم في السير، ثم تجوّز به في غيره من التقدم، كما قال بعضهم: إن الله تعالى طالب كل مكلف بجزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ قال بعضهم: الأخذ أصله باليد، ثم يستعار في مواضع، فيكون بمعنى القبول، كما في قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾؛ أي: قبلتم عهدي، وبمعنى التعذيب في هذا المقام، قال في «المفردات»: الأخذ حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتناول، نحو ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ وتارةً بالقهر، نحو ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ويقال: أخذته الحمي، ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ.

﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب الريح العاصفة فيها حصباء، وفي «المختار»: عصفت الريح اشتدت، وبابه ضرب وجلس .اهـ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ والإغراق كما في «التاج»: والغرق الرسوب في الماء؛ أي: السفول والنزول فيه.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مثل الشيء بفتحتين صفته، كما في «المختار»، والاتخاذ افتعال من الأخذ، والمراد بالأولياء الآلهة والأصنام.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والغالب في الاستعمال التأنيث، وتاؤه كتاء طاغوت؛ أي زائدة لا للتأنيث، وهي دويبة معروفة تنسج من لعابها خيوطاً، وتصيد بذلك النسيج طعامها، والجمع عناكب وعنكبوتات، والعنكب ذكرها، والجمع عناكب وعناكيب والعنكبة والعنكباة والعكنباة أنثاها، والجمع عناكب وعناكيب.

وقال علماء التصريف: والعنكبوت معروف، ونونه أصلية، والواو والتاء مزيدتان بدليل قولهم: في الجمع عناكب وفي التصغير عنيكيب، ويذكّر ويؤنّث، وهذا مطرد في أسماء الأجناس، وقال ابن يعيش في شرح المفصل: ومن ذلك

فعللوت، قالوا عنكبوت وتخربوت، ولم يأت صفةً فالعنكبوت معروفة، وهي دويبة تنسج لها بيوتاً من خيوط واهية، والتخربوت الناقة الفارهة، والواو والتاء في آخرهما زائدتان زيداً في آخر الرباعي، كما زيدا في آخر الثلاثي من نحو ملكوت ورهبوت.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ جمع مثل، والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول؛ أي: تشبيه حال الثاني بالأول. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ قال في «المفردات»: ضرب المثل هو من ضرب الدرهم اعتباراً بضربه بالمطرقة، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ قال الإمام الراغب في «المفردات»: العقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ:

أَقُولُ ٱلْعَقْلُ عَقْلاَنِ ... فَمَطْبُوْعٌ وَمَسْمُوْعُ
وَلاَ يَنْفَعُ مَطْبُوْعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَسْمُوْعُ
كَمَا لاَ تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ ... وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوْعُ

وإلى الأول: أشار عليه السلام بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»، وإلى الثاني: أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى، ويرده عن ردى»، وهذا العقل هو المعني بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وكل موضع ذم فيه الكفار بعدم العقل، فإشارة إلى الثاني دون الأول، وكل موضع رُفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول، انتهى.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ التلاوة القراءة على سبيل التوالي، والإيحاء إعلام في الخفاء، ويقال: للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى الأنبياء وحي، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الترديد بين قتله وإحراقه في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فقد يكون ذلك من قائلين ناس أشاروا بالقتل، وناس أشاروا بالإحراق، وفي سورة الأنبياء ﴿حَرِّقُوهُ﴾ اقتصروا على أحد الأمرين، وهو الذي فعلوه، فرموه في النار ولم يقتلوه، اهـ من «النهر». وعبارة الرازي: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ﴾؛ أي: قال رؤساء القوم لأتباعهم؛ لأن الجواب لا يصدر إلا من الأكابر، والقتل لا يباشره إلا الإتباع اهـ.

ومنها: أسلوب الإيجاز في قوله: ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: حرقوه في النار، وفي قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فقذفوه في النار، فأنجاه الله من النار.

ومنها: التأكيد بعدة مؤكدات، والإطناب بتكرار الفعل، تهجيناً لعملهم القبيح، وتوبيخاً لهم، في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾.

ومنها: الاستهزاء والسخرية في قوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كنت صادقاً فائتنا به.

ومنها: فن الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾؛ لأنه ليس المراد إخبارهم بكون لوط في القرية، وإنما هو جدال في شأنه؛ لأنهم ذكروا أن أهلها سيهلكون بسبب إمعانهم في الظلم، فاعترض عليهم، بأن فيها من هو بريء الساحة من الذنب، لم يجترح ذنباً، ولم يقترف إثماً، ولم يشارك قومه فيما هم ممعنون فيه من غي وارتكاس، وفي هذا كله أيضاً، إشارة إلى أن من واجب الإنسان المؤمن أن يتحزن لأخيه، وأن يسارع إلى رد الحيف عنه، ويتشمر للدفع عنه، وهذا من بليغ الإشارة وخفيِّها.

ومنها: التنكير لإفادة التهويل في قوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: رجزاً عظيماً هائلاً.

ومنها: تقديم المفعول على عامله للعناية والاهتمام في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا

بِذَنۢبِهِۦ﴾.

ومنها: الإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾؛ لأن فيه إجمالاً، وفي قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ إلخ، لأن فيه تفصيلاً لما أجمل أولاً.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ حيث شبه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها، واعتمد عليها راجياً نفعها وشفاعتها، بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فكما أن بيتها لا يدفع عنها حراً، ولا برداً ولا مطراً ولا أذًى، وينتقض بأدنى ريح، فكذلك الأصنام لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، فالآية من قبيل تشبيه الهيئة بالهيئة، لتشبيه حال الكفار بحال العنكبوت، وسمي تمثيلياً، لأن وجه المشبه فيه صورة منتزعة من متعدد.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير، وما فيه من جرس عذب بديع، مثل ﴿ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ - ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ومثل ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ - ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مثلاً، وهو من خصائص القرآن.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ لأنه كناية عن ضيق صدره وغم قلبه.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

ومنها: الحال المؤكدة في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ تفخيماً لشأنها.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

﴿وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

الحمد لله الذي تتم به الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل الكائنات، سيدنا محمد وعلى آله وجميع الصحابات[1].

* * *

(١) وهذا آخر ما يسره الله لنا، من تفسير هذا الجزء الكريم، بتوفيقه ومنه الجسيم، وفضله وكرمه العميم، وكان الفراغ منه منتصف النهار قبيل صلاة الظهر في مكة المكرمة، في المسفلة في اليوم السادس من شهر شعبان، من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاث عشرة سنة، ٦/٨/ ١٤١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

وهذا آخر المجلد الحادي والعشرين، ويليه المجلد الثاني والعشرين وأوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ انتهى التصحيح في ١٦/١/ ١٤١٨هـ.

وما أحسن قول القائل:

إِذَا رَأَيْـــــتَ أَثِـــــيْـــــمَـــــا ... كُـــنْ سَـــاتِـــراً وَحَـــلِـــيْـــمَـــا
يَـــا مَـــنْ يُـــقَـــبِّـــحُ شَـــرْحِـــيْ ... لِـــمَ لاَ تَـــمُـــرُّ كَـــرِيْـــمَـــا

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثاني والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

كُـنْ مِـنَ الـخَـلْـقِ جَـانِـبَـا　　وَٱرْضَ بِـٱلـلَّـهِ صَـاحِـبَـا
قَـلِّـبِ الـخَـلْـقَ كَـيْـفَ شِـئْـ　　ـتَ تَـجِـدْهُ عَـقَـارِبَـا

آخرُ

أَلاَ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ　　أَظَلَّتْكَ يَوْماً ثُمَّ عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَاناً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ　　وَلاَ تَكُ جَزْعَاناً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

آخرُ

سَقَامُ ٱلْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءُ　　وَدَاءُ ٱلْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طَبِيْبُ

آخرُ

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ　　وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ ٱلْقُبُورِ قُبُورُ
وَإِنِ ٱمْرَأً يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ مَيِّتٌ　　وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ ٱلنُّشُوْرِ نُشُوْرُ

آخرُ

تَسَاوَىٰ ٱلْكُلُّ مِنَّا فِيْ ٱلْمَسَاوِيْ　　فَأَفْضَلُنَا فَتِيْلاً مَا يُسَاوِيْ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أطلق ألسن من شاء من عباده بالقرآن العظيم، وأطلع قلوبهم على خبايا معانيه بالفهم القويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، وعلى آله وصحبه أولي المعارف والفضل الجسيم.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء العشرين من القرآن الكريم. . تفرغت - إن شاء الله تعالى - لتفسير الجزء الحادي والعشرين منه، مستمداً من الله التوفيق والهداية، لأقومِ الطريق في تفسير كتابه بما يناسب ويليق، فقلت: وهذا قولي:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ
ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠
نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ
وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ
بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ
ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ
ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول، والمبالغة في تسفيه آرائهم، وتوهين شبههم.. أردف ذلك بذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسن، ولا يسفه آراءهم، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم.

ذلك أن المشركين جاؤوا بالمنكر من القول، ونسبوا إلى الله سبحانه ما لا ينبغي من الشريك والولد، أما أهل الكتاب فقد اعترفوا بالله وأنبيائه، لكنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: إن شريعتهم باقية على وجه الدهر، لا تنسخ بشريعة أخرى، فينبغي إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول، ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته، وصدق رسالته، بما يكون لهم فيه مقنع، وبما لو

(١) المراغي.

تأملوا فيه.. وصلوا إلى الصواب، وأدركوا الأمر على الوجه الحق، إلا من ظلموا منهم وعاندوا، ولم يقبلوا النصح والإرشاد، فاستعملوا معهم الغلظة في القول، والأسلوب الجاف في الحديث، لعلهم يتوبون إلى رشدهم، ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين، ثم أمر رسوله أن يقول لهم: آمنا بالذي أنزل إلينا من القرآن، وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وإن إلٰهنا وإلٰهكم واحد، ونحن مطيعون له.

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من أهل مكة من يؤمن به، وما يجحد به إلا من توغل في الكفر، وعدم حسن التأمل والفكر، إذ لا ريب في صدق رسوله، وأن كتابه منزل من عند ربه، فإن رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم العلم، ولم يدارس إنساناً مدى حياته، يأتي بهذه الحكم والأحكام، وجميل الآداب ومكارم الأخلاق، مما لم يكن له مثيل في محيط نشأ به، ولا في بلد كان يأويه، لمن أكبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر، بل أوتيه من لدن حكيم خبير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله تعالى، وليس بمفترىً من عند محمد ﷺ.. أردف هذا شبهةً أخرى لهم، وهي أنهم طلبوا من النبي - ﷺ - أن يأتي لهم بمعجزة محسوسة، كما أتى بذلك الأنبياء السابقون، كناقة صالح وعصا موسى، فأجابهم بأن أمر ذلك إلى الله سبحانه، لا إليه، فلو علم أنكم تهتدون بها.. لأجابكم إلى ما طلبتم، ثم بين سخف عقولهم، وطلبهم الآيات الدالة على صدقه، بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر، وهي القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار، فيه خبر من قبلهم، ونبأ من بعدهم، وحكم ما بينهم، وفيه بيان الحق ودحض الباطل، وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين.

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه، وهو العليم بما في السماوات والأرض، ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم،

ويؤمن بالجبت والطاغوت.. فقد خسرت صفقته، وسينال العقاب من ربه، جزاءً وفاقاً على جحوده وإنكاره.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما أنذر المشركين بالعذاب، وهددهم أعظم تهديد.. قالوا له تهكماً واستهزاءً: إن كان هذا حقاً فائتنا به، وهم يقطعون بعدم حصوله، فأجابهم بأنه لا يأتيكم بسؤالكم، ولا يعجل باستعجالكم، لأن الله أجله لحكمة، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته، وارتضته رحمته.. لعجله لكم، ولأوقعه بكم، وإنه ليأتيكم فجأةً وأنتم لا تشعرون به، ثم تعجب منهم في طلبهم الاستعجال، وهو سيحيط بهم في جميع نواحيهم، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون.

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أحوال المشركين، وأنذرهم بالخسران، وجعلهم من أهل النار.. اشتد عنادهم للمؤمنين، وكثر أذاهم لهم، ومنعوهم من العبادة، فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى، إن تعذرت عليهم العبادة في ديارهم.

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس، كريهة لديها.. بين لهم أن المكروه واقع لا محالة، إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت، فأولى لكم أن يكون ذلك في سبيل الله، لتنالوا جزاءه، ومرجعكم إلى ربكم، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهنالك الغرف التي تجري من تحتها الأنهار، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين، المتوكلين على ربهم، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته، وهو السميع لدعائهم، العليم بحاجتهم.

---

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين الأمر للمشركين، وذكر لهم سوء مغبة أعمالهم. . خاطب المؤمنين بما فيه ذكر لهم، وإرشاد للمشرك لو تأمله، وفكر فيه، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان: أحدهما رشيد، والآخر مفسد، فهو ينصح للمفسد أولاً، فإن لم يسمع. . يعرض عنه ويلتفت إلى الرشيد قائلاً: إن هذا لا يستحق أن يخاطب، فاسمع أنت، ولا تكن كهذا المفسد، فيكون في هذا نصيحة للمصلح، وزجر للمفسد، ودعوة له إلى سبيل الرشاد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الرازق، وهم بعد ذلك يتركون عبادته، ويعبدون من دونه شركاء، اغتراراً بزخرف الدينا وزينتها. . أردف ذلك أن ما في هذه الدنيا باطل، وعبث زائل، وإنما الحياة الحقة هي الحياة الآخرة، التي لا فناء بعدها، فلو أوتوا شيئاً من العلم. . ما آثروا تلك على هذه.

ثم أرشد إلى أنهم ـ مع إشراكهم بربهم ـ سواء في الدعاء والعبادة، إذا هم ابتلوا بالشدائد، كما إذا ركبوا البحر، وعلتهم الأمواج من كل جانب، وخافوا الغرق. . نادوا الله معترفين بوحدانيته، وأنه لا منجي سواه، وليتهم استمروا على ذلك، ولكن سرعان ما يرجعون القهقرى، ويعودون سيرتهم الأولى، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجؤوا إلى الله وحده، مخلصين له العبادة. . ذكر هنا أنهم حين الأمن، كما إذا كانوا في حصنهم الحصين، وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به، ويعبدون معه سواه، وتلك حال من التناقض لا

---

(١) المراغي.

يرضاها لنفسه عاقل، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص، ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاه منه لا من سواه، فكيف يكفرون به حين الأمن، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا تجديهم فتيلاً ولا قطميراً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارمي في «مسنده»، وأبو داود من طريق عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «كفى بقوم ضلالةً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية.

وعن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال[2]: دخل عمر بن خطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً، لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال: «ولو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني.. لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم» أخرجه عبد الرزاق.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم والبيهقي، وابن عساكر بسند ضعيف، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟» قلت: لا أشتهيه، قال: «لكني أشتهيه، وهذا صبح رابعةٍ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو

(١) لباب النقول.
(٢) المراغي.
(٣) لباب النقول.

شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوماً يخبئون رزق سنتهم، ويضعف اليقين». قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أَخْبَأ رزقاً لغدٍ».

وروى ابن عباس: أن النبي ـ ﷺ ـ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة» قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا، ولا من يسقينا، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك.. اختطفتنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا...﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولا تخاصموا اليهود والنصارى أيها المؤمنون ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ إلا بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ وأسهل[1] كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة ـ أي: تحريك الشر وإثارته ـ بالنصح؛ أي: بتحريك الخير وإثارته، والعجلة بالتأني والاحتياط، على وجه لا يؤدي إلى الضعف، ولا إلى إعظام الدنيا الدنية، يعني: جادلوهم على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه، رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ حرف استثناء، وقرأ ابن عباس: ﴿ألا﴾:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

حرف تنبيه واستفتاح، تقديره: ألا جادلوهم بالتي هي أحسن.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[1] بالإفراط في الاعتداء والعناد، فإن الكافر إذا وصف بمثل الفسق والظلم.. حمل على المبالغة فيما هو فيه، أو بإثبات الولد لله، وهم أهل نجران، أو بنبذ العهد ومنع الجزية ونحو ذلك، كقولهم: يد الله مغلولة، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم، فإنه يجب حينئذ الموافقة بما يليق بحالهم، من الغلظة باللسان، وبالسيف والسنان.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: ولا تخاصموا[2] اليهود والنصارى إلا بالأحسن؛ أي: بعدم استخفاف آرائهم، وبعدم نسبة آبائهم إلى الضلال، لأنهم جاؤوا بكل حسن، غير الاعتراف بالنبي - ﷺ - فإنهم آمنوا بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وبالحشر، ففي مقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن، إلا الذين أشركوا منهم، بإثبات الولد لله، وبالقول بثالث ثلاثة، فيجادلون حينئذٍ بالأخشن، من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، كالمشرك الذي جاء بالمنكر من غيرهم، فاللائق أن يجادل بالأخشن، ويبالغ في تهجين مذهبه، وتوهين شبهه. اهـ.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أبوا أن يعطوا الجزية، ونصبوا الحرب ففاجؤوهم بالسيف، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ومعنى الآية: إلا الذين ظلموكم، لأن جميعهم ظالم بالكفر، وقيل: هم أهل الحرب ومن لا عهد له، وقيل: الآية منسوخة بآية السيف اهـ.

هكذا[3] فسر الآية أكثر المفسرين، بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا من آمن بمحمد - ﷺ - من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم، إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

على هذا القول: هم الباقون على كفرهم، وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل، قال النحاس: من قال: هي منسوخة، احتج بأن الآية مكيّة، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: إن المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ الذين نصبوا القتال للمسلمين بالسيف، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

فإن قلت[1]: كيف قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مع أن جميع أهل الكتاب ظالمون، لأنهم كافرون، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

قلتُ: المراد بالظلم هنا: الامتناع عن قبول عقد الذمة، أو نقض العهد بعد قبوله.

﴿وَقُولُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون للذين قبلوا الجزية، إذا حدثوكم بشيء مما في كتبهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بالصدق والإخلاص ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿والذي أنزل إليكم﴾ من التوراة والإنجيل؛ أي: آمنّا بأنهما منزلان من عند الله تعالى، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية، ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له في الألوهية، ولا ضد له ولا ند، ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر أمة محمد ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مطيعون له منقادون خاصةً، ولا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نتخذ أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله.

ويحتمل أن يراد[2]: ونحن جميعاً منقادون له، ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب، وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم، وفيه تعريض بحال الفريقين، حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

وأخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه،

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الشوكاني.

والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وفي روايةٍ: وقولوا: «آمنا بالله وبكتبه وبرسله، فإن قالوا باطلاً.. لم تصدقوهم، وإن قالوا حقاً.. لم تكذبوهم».

قال ابن الملك[1]: إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم، لأنهم حرفوا كتابهم، وما قالوه إن كان من جملة ما غيروه، فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك.. يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق، وهذا أصل في وجوب التوقف فيما يشكل من الأمور والعلوم، فلا يقضى فيه بجواز ولا بطلانٍ، وعلى هذا كان السلف رحمهم الله تعالى.

والمعنى[2]: أي إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن أن يكونوا صادقين فيه، وأن يكونوا كاذبين، ولم تعلموا حالهم في ذلك.. فقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، والتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم، ومعبودنا ومعبودكم واحد، ونحن خاضعون له، منقادون لأمره ونهيه.

ثم بين أنه لا عجب في إنزال القرآن على الرسول، فهو على مثال ما أنزل من الكتب من قبل، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خطاب للرسول ـ ﷺ ـ والإشارة فيه إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما بيناه في مواضع كثيرة؛ أي: ومثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب، أنزلنا عليك القرآن، وقيل: المعنى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أيها الرسول، أنزلنا إليك هذا الكتاب؛ أي: القرآن.

و﴿الفاء﴾[3] في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من الطائفتين، لترتيب ما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بعدها على ما قبلها، فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، يعني مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتاب خاصة، وخصهم بإيتائهم الكتاب، لكونهم العاملين به، وكأن غيرهم لم يؤتوه، لعدم عملهم بما فيه، وجحدهم لصفات رسول الله - ﷺ - المذكورة.

وقيل: المراد بهم، من تقدم عهد الرسول - ﷺ - حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابهم، ومنهم قس بن ساعدة، وبحيرا، ونسطورا، ورقة وغيرهم، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب: للإيذان بأن من بعدهم من معاصري رسول الله - ﷺ - قد نزع منهم الكتاب بالنسخ، فلم يؤتوه.

والإشارة في قوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا القرآن، وهم من أسلم منهم، وقيل: الإشارة إلى جميع العرب.

والمعنى: أي كما أنزلنا الكتب من قبلك أيها الرسول، أنزلنا إليك هذا الكتاب، فالذين آتيناهم الكتب ممن تقدم عهدك من اليهود والنصارى، يؤمنون به إذ كانوا مصدقين بنزوله، بحسب ما علموا عندهم من الكتاب، ومن كفار قريش وغيرهم من يؤمن به.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بالكتاب[1] المعظم بالإضافة إلينا، يعني: القرآن، عبر عنه بالآيات: للتنبيه على ظهور دلالته على معانيه، وعلى كونه من عند الله. ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر، والمصممون عليه من المشركين وأهل الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وأبي جهل وأضرابه، فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيقتها.

والمعنى[2]: أي وما يكذب بآياتنا ويجحد بحقيقتها، إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، ويغمط حق النعمة عليه، وينكر التوحيد عناداً واستكباراً.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

واعلم[1]: أن المجادلة في الدين، تبطل ثواب الأعمال إذا كانت تعنتاً وترويجاً للباطل، وأما الجدال بالحق لإظهاره، فمأمور به، وقد جادل علي ـ رضي الله عنه ـ شخصاً قال: إني أملك حركاتي وسكناتي، وطلاق زوجتي، وعتق أمتي، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: أتملكها دون الله، أو مع الله؟ فإن قلت: أملكها دون الله.. فقد أثبت مالكاً دون الله، وإن قلت أملكها مع الله.. فقد أثبت له شريكاً، كذا في «شرح المواقف».

ثم ذكر ما يؤيد إنزاله، ويزيل الشبهة في افترائه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَتْلُوا۟﴾ وتقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن؛ أي: وما كانت عبادتك يا محمد قبل إنزالنا إليك القرآن، أن تتلو وتقرأ شيئاً. ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ من الكتاب المنزلة، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾؛ أي: ولا أن تكتب كتاباً من الكتب المذكورة ﴿بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: بيدك، وذكر اليمين[2] لكون الكتابة غالباً باليمين، لا أنه لا يخط بيمينه ويخط بشماله، فإن الخط بالشمال من أبعد النوادر.

قال الشيعة: إنه ـ ﷺ ـ كان يحسن الخط قبل الوحي، ثم نهي عنه بالوحي، وقالوا: إن قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ نهي، فليس بنفي الخط.

قال في «كشف الأسرار»: قرىء ﴿ولا تخطه﴾ بالفتح على النهي، وهو شاذ، والصحيح: أنه لم يكتب. انتهى.

وفي «الأسئلة المقحمة» قول الشيعة مردود، لأن ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ لو كان نهياً.. لكان بنصب الطاء، أو قال: لا تخططه بطريق التضعيف.

﴿إِذًا﴾؛ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، أو ممن يعتادهما.. ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ وشك في نبوتك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: المشركون، وقالوا: لعله التقط ما يتلوه علينا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب، لم يكن هناك موضع للريبة، ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكر، وكفر من كفر مجرد عنادٍ وجحود بلا شبهة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وخلاصة ما سلف[1]: أنك قد لبثت يا محمد في قومك عمراً طويلاً، قبل أن تأتي بهذا القرآن لا تقرأ ولا تكتب، وكل واحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهذه صفتك في الكتب المتقدمة، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

فلا وجه إذاً للشك في أن هذا القرآن منزل من عند الله، وليس مفتعلاً من صنع يدك، تعلمته من الكتب المأثورة عمن قبلك، كما حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

فإن قلت[2]: لم سماهم المبطلين، ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا محقين، ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه، فإنه رجل قارىء كاتب؟

قلت: لأنهم كفروا به، وهو أمي بعيد من الريب، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به، لو لم يكن أمياً.. لارتابوا أشد الريب، فحيث إنه ليس بقارىءٍ ولا كاتب، فلا وجه لارتيابهم، قيل: وسماهم مبطلين، لأن ارتيابهم على تقدير أنه - ﷺ - يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، ووضوح معجزاته.

قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف منّ الله على نبيه بأنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وهما من قبيل الكمال، لا من قبيل النقص؟

والجواب: إنما وصفه بعدم القراءة والكتابة، لأن أهل الكتاب كانوا يجدون من نعته في التوراة والإنجيل، بأنه لا يقرأ ولا يكتب، فأراد تحقيق ما وعدهم به على نعته إياه، ولأن الكتابة في قبيل الصناعات، فلا توصف بالمدح ولا بالذم، ولأن المقصود من الكتابة والخط: هو الاحتراز عن الغفلة والنسيان، وقد خصه الله تعالى بما فيه غنية عن ذلك، كالعين بها غنية عن العصا والقائد. انتهى.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقال في «أسئلة الحكم»: كان ـ عليه السلام ـ يعلم الخطوط ويخبر عنها، فلماذا لم يكتب؟

والجواب: أنه لو كتب لقيل: قرأ القرآن من صحف الأولين. انتهى.

قال النيسابوري: إنما لم يكتب، لأنه إذا كتب وعقد الخنصر يقع ظل قلمه وإصبعه على اسم الله تعالى وذكره، فلما كان ذلك قال الله تعالى: لا جرم يا حبيبي لَمَّا لَمْ ترد أن يكون قلمك فوق اسمي، ولم ترد أن يكون ظل القلم على اسمي، أمرت الناس أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوتك تشريفاً لك وتعظيماً، ولا أدع بسبب ذلك ظلك يقع على الأرض صيانةً له أن يوطأ بالأقدام. انتهى.

فائدة: قيل أول من كتب الكتاب العربي، والفارسي، والسرياني، والعبراني، وغيرها من بقية الاثني عشر، وهي: الحميري، واليوناني، والرومي، والقبطي، والبربري، والأندلسي، والهندي، والصيني ـ آدم عليه السلام، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض وانفرق.. وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل ـ عليه السلام ـ الكتاب العربي، وأما ما جاء «أول من خط بالقلم: إدريس ـ عليه السلام ـ». فالمراد به: خط الرمل.

ثم أكد ما سلف، وبين أنه منزل من عند الله حقاً، فقال: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: بل هذا القرآن ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾؛ أي: آيات واضحات الإعجاز، ثابتات راسخات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ به، يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ـ ﷺ ـ وحفظوه بعده.

أي[1]: بل القرآن آيات واضحات، ثابتة راسخة في قلوب الذين أعطوا العلم بالقرآن، فليس مما يشك فيه، لكونه محفوظاً، من غير أن يلتقط من كتاب، بحيث لا يقدر على تحريفه أحد، بخلاف غيره من الكتب، فإنه لا يقرأ إلا في المصاحف.

(١) المراح.

والمعنى: أن المؤمنين يقرؤون القرآن بالحفظ عن قلب تلقياً منك، وبعضهم من بعض، وأنت تلقيته من جبريل عن اللوح المحفوظ، فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه.

يعني[1]: كونه محفوظاً في الصدور من خصائص القرآن، لأن من تقدم كانوا لا يقرؤون إلا نظراً، فإذا أطبقوها.. لم يعرفوا منها شيئاً، سوى الأنبياء، وما نقل عن قارون: من أنه كان يقرأ التوراة على ظهر قلب فغير ثابت.

وقال قتادة ومقاتل[2]: إن الضمير يرجع إلى النبي - ﷺ -؛ أي: بل محمد آيات بينات؛ أي: ذو آيات.

وقرأ ابن مسعود: ﴿بل هي آيات بينات﴾. قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات، واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع ﴿بل هذا آيات بينات﴾ ولا دليل في هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن، كما جاز أن تكون إلى النبي - ﷺ - بل رجوعها إلى القرآن أظهر، لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾[3] إضراب عن ارتيابهم؛ أي: ليس القرآن مما يرتاب فيه، لكونه في الصدور، وكونه محفوظاً بخلاف غيره من الكتب، فإنه لا يقرأ إلا في المصاحف، ولذا جاء في وصف هذه الأمة: صدورهم أناجيلهم. ا هـ. «شهاب». وهو جمع إنجيل، والمعنى: أنهم يقرؤون كتاب الله عز وجل عن ظهر قلب، وهو مثبت محفوظ في صدورهم، كما كان كتاب النصارى مثبتاً في أناجيلهم؛ أي: كتبهم ا هـ. «زاده».

وفي بعض الآثار: «ما حسدتكم اليهود والنصارى على شيء كحفظ القرآن» قال أبو أمامة: إن الله لا يعذب بالنار قلباً وعى القرآن. وقال - عليه السلام -: «القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن، كالبيت الخراب». وفي الحديث

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

الصحيح: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل من عقالها»؛ أي: من الإبل المعقلة إذا أطلقها صاحبها، والتعاهد والتعهد، التحفظ؛ أي: المحافظة وتجديد الأمر به، والمراد هنا، الأمر بالمحافظة على تلاوته، والمداومة على تكراره.

فمن سنة القارىء[1]: أن يقرأ القرآن كل يوم وليلة، كيلا ينساه، وعن النبي - ﷺ -: «عرضت علي ذنوب أمتي، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة أوتيها الرجل، ثم نسيها». والنسيان أن لا يمكنه القراءة من المصحف، كذا في «القنية». وكان ابن عيينة يذهب إلى أن النسيان الذي يستحق صاحبه اللوم، ويضاف إليه الإثم: ترك العمل به، والنسيان في «لسان العرب»: الترك. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوا. وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾؛ أي: تركوا طاعته، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: فترك رحمتهم.

قال شارح «الجزرية»: وقراءة القرآن من المصحف أفضل من قراءته من حفظه. هذا هو المشهور عن السلف، ولكن ليس هذا على إطلاقه، بل إن كان القارىء من حفظه يحصل له التدبر والتفكر، وجمع القلب والبصر، أكثر مما يحصل له من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن تساويا فمن المصحف أفضل، لأن النظر في المصحف عبادة، واستماع القرآن من الغير في بعض الأحيان من السنن.

قال إبراهيم الخواص - رحمه الله تعالى -: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر والخلاء، وقيام الليل، والتضرع إلى الله عند السحر، ومجالسة الصالحين. جعلنا الله وإياكم من أهل الصلاح والفلاح، إنه القادر الفتاح فالق الإصباح، خالق المصباح.

﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ وما ينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع كونها كما ذكر ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد والعناد؛ أي[2]: وما يكذب

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

بآياتنا، ويبخس حقها، ويردها إلا المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

وإنما قال أولاً: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وثانياً: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وثالثاً: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع أن المراد بكل من الثلاثة: اليهود والمشركون، للتفتن وتسجيلاً عليهم باسم كل من الثلاثة.

﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال كفار قريش ﴿لَوْلَآ﴾ تحضيضية بمعنى هلا؛ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تكوينية ﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: آيات كآيات الأنبياء قبله، وذلك كعصا موسى ويده، وناقة صالح، ومائدة عيسى - عليهم السلام -.

وقرأ[1] نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله بعد: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة والكسائي: ﴿آية من ربه﴾ بالإفراد.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ﴾؛ أي: إنما أمرها وشأنها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: في قدرته وحكمه، ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على إنزالها، فليس بيدي شيء من أمرها فآتيكم بما تقترحونه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾؛ أي: ما أنا إلا مخوف لكم من عذاب الله سبحانه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين الإنذار والتخويف، أنذركم كما أمرت، وأبين لكم كما ينبغي، ليس قدرتي غير ذلك؛ أي: ليس[2] من شأني إلا الإنذار والتخويف من عذاب الله، بما أعطيت من الأيات.

قال في «كشف الأسرار»: والحكمة في ترك إجابة النبي - ﷺ - إلى الآيات المقترحة: أنه يؤدي إلى ما لا يتناهى؛ وأن هؤلاء طلبوا آيات تضطرهم إلى الإيمان، فلو أجابهم إليها، ولم يؤمنوا.. لاستؤصلوا، وعذاب الاستئصال مرفوع عن هذه الأمة ببركة النبي ﷺ.

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

ومعنى الآية: أي[1] وقال كفار قريش تعنتاً وعناداً: هلا أنزل على محمد آية من الآيات التي أنزل مثلها على رسل الله الماضين، كناقة صالح وعصا موسى وأشباههما من المعجزات المحسوسة، التي ترى رأي العين، فيكون ذلك أقبل لدى النفوس، وأدهش للعقول، فتلجىء إلى التصديق بمن تظهر على يده المعجزة، فأمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قل لهم: إنما أمر الآيات ونزول المعجزات إلى الله، ولو علم أنكم تهتدون.. لأجابكم إلى ما سألتم، لأن ذلك سهل يسير عليه، ولكنه يعلم أنكم إنما قصدتم بذلك التعنت والامتحان، فهو لا يجيبكم إلى ما طلبتم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: وليس من شأني إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات، إلا الإتيان بما اقترحتموه منها، فعلي أن أبلغكم رسالة ربي، وليس علي هداكم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾. وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

ثم بيّن سبحانه سخفهم وجهلهم، إذ كيف يطلبون الآيات مع نزول القرآن عليهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلام[2] مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم، وبياناً لبطلانه. و﴿الهمزة﴾: فيه: للإنكار، والنفي داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقصر هذا القرآن عن درجة الإعجاز، ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات.

﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطق بالحق، المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية، وأنت بمعزل من مدارستها وممارستها؛ أي: إنزالنا عليك هذا الكتاب.

---

(١) المراغي.

(٢) أبو السعود.

وفي «القرطبي»: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا[1] جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز، الذي قد تحداهم بأن يأتوا بمثله أو سورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى.. لقالوا: هذا سحر، ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ا هـ.

حال كون ذلك الكتاب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بلغتهم[2] في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان، فهو معجزة ظاهرة باقية، أتم من كل معجزة، وقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، بخلاف قلب العصا ثعباناً، فإنه لم يبق لنا منه أثر، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان.

والمعنى: أي أما كفاهم دليلاً على صدقك، إنزالنا الكتاب عليك، يتلونه ويتدارسونه ليلاً ونهاراً، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، وقد جئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، وبينت الصواب فيما اختلفوا فيه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

ثم بين فضائل هذا الكتاب ومزاياه فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب العظيم الشأن، الباقي على ممر الدهور والأزمان ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة عظيمة في الدنيا والآخرة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرةً في الدنيا يتذكرون بها، وترشدهم إلى الحق، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بما جئت به من عند الله، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك؛ أي: لقوم همّهم الإيمان، لا التعنت كأولئك المقترحين.

والمعنى: أي[3] إن في هذا الكتاب الباقي على وجه الدهر، لرحمةً لمن

---

(١) القرطبي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

آمن به، ببيان الحق وإزالة الباطل، وتذكرةً بعقاب الله الذي حل بالمكذبين قبلكم، وبما سيحل بهم من النكال والوبال، وبما سيكون لمن اتبع سنتهم، وكذب بالآيات بعد وضوحها.

وبعد أن أقام الأدلة على صدق رسالته، وبين أن المعاندين من أهل الكتاب والمشركين، لم يؤمنوا به، أمره أن يكل علم ذلك إلى الله، وهو العليم بصدقه وكذبه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين من اليهود والمشركين ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كفى اللَّهُ سبحانه، و﴿الباء﴾: صلة. ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بما صدر عني وعنكم؛ أي: كفى اللَّهُ سبحانه عالماً بما صدر مني، من التبليغ والإنذار، وبما صدر منكم، من مقابلة ذلك بالتكذيب والإنكار، وهو المجازي كلاً بما يستحق، وإني لو كنت كاذباً عليه.. لانتقم مني، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بل إني صادق فيما أخبرتكم به، ومن ثم أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات، ثم علل كنايته وأكدها بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

أي: هو سبحانه وتعالى العليم بكل ما فيهما، ومن جملته شأني وشأنكم، فيعلم ما تنسبونه إلى من التقول عليه، وبما أنسبه إليه من القرآن الذي يشهد لي به عجزكم عن الإتيان بمثله، فهو حجتي الفالجة عليكم، التي لم تستطيعوا لها رداً ولا دفعاً.

ولما بين طريق الجدل، مع كل من أهل الكتاب والمشركين.. عاد إلى تهديد المشركين، وبين مآل أمرهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا يجوز الإيمان به، كالصنم والشيطان وغيرهما ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ الذي يجب الإيمان به مع تعاضد موجبات الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفة ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة، المغبونون في صفقتهم الأخروية، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، وضيعوا الفطرة الأصلية، والأدلة

السمعية الموجبة للإيمان؛ أي: والذين يعبدون الأوثان والأصنام، ويكفرون بالله مع تظاهر الأدلة التي في الآفاق والأنفس على الإيمان به، ويكفرون برسوله، مع تعاضد البراهين على صدقه، أولئك هم الأخسرون أعمالاً، المغبونون في صفقتهم، من حيث أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، فاستوجبوا العقاب حين الوقوف بين يدي الملك الديان.

وخلاصة ذلك[1]: أن الله سيجزيهم على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم للباطل، وتكذيبهم برسول الله، مع قيام الأدلة على صدقه، ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى.

فإن قلت: من آمن بالباطل فقد كفر بالله، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد؟

قلت: نعم، فائدته: أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول، فهو كقول القائل: أتقول الباطل، وتترك الحق، لبيان أن الباطل قبيح.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يا محمد استهزاءً وتكذيباً منهم بذلك، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معين قد جعله الله لعذابهم وعينه، وهو القيامة.

وقال الضحاك: الأجل: مدة أعمارهم، لأنهم إذا ماتوا.. صاروا إلى العذاب.

﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: لولا ذلك الأجل المضروب.. لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلاً.

وقيل[2]: المراد بالأجل المسمى: النفخة الأولى، وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

والحاصل: أن لكل عذاب أجلاً، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، كما في قوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ وفي الآية[1] إشارة إلى أن الاستعجال في طلب العذاب في غير وقته المقدر لا ينفع، وهو مذموم، فكيف الاستعجال في طلب مرادات النفس وشهواتها في غير أوانها.

والمعنى: أي: ويستعجلك كفار قريش بنزول العذاب بنحو قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولولا أجل مسمى ضربه الله لعذابهم لجاءهم حين استعجالهم إياه.

وجملة قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بغتة: فجأة؛ أي: وعزتي وجلالي ليأتينهم العذاب الذي عين لهم عند حلول الأجل فجأة، كوقعة بدر، فإنها أتتهم بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يعلمون بإتيانه، بل يكونون في غفلة عنه، واشتغال بما ينسيهموه.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه تأكيد لمعنى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ كما يقول القائل: أتيته على غفلةٍ منه بحيث لم يدر، فقوله: بحيث لم يدر: أكد معنى الغفلة.

والثاني: يفيد فائدةً مستقلةً، وهي أن العذاب يأتيهم بغتةً، وهم لا يشعرون هذا الأمر، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً ا هـ. «كرخي».

فإن قلت[2]: عذاب الآخرة ليس من قبيل المفاجأة، فكيف يأتي بغتةً؟

قلت: الموت يأتيهم بغتةً؛ أي: في وقت لا يظنون أنهم يموتون فيه، وزمانه متصل بزمان القيامة، ولذا عد القبر أول منزل من منازل الآخرة، ويدل عليه قوله ـ ﷺ ـ: «من مات فقد قامت قيامته». وفي البرزخ عذاب، ولو كان نصفاً من حيث أنه حظ الروح فقط.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

ثم زاد في التعجيب من جهلهم بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا، كرره للتأكيد، أو ذكره أولاً إخباراً عنهم، وثانياً تعجيباً منهم. ا هـ. «كرخي»؛ أي: يطلبون منك يا محمد إيقاع العذاب ناجزاً في غير ميقاته، ويلحون في ذلك، ولو علموا ما هم صائرون إليه.. لتمنوا أنهم لم يخلقوا، فضلاً عن أن يستعجلوا، ولأعملوا جميع جهدهم في الخلاص منه.

ثم بين السبب في جهلهم وحمقهم فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: والحال أن محل العذاب الذي لا عذاب فوقه ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المستعجلين للعذاب يوم القيامة، أي: سيحيط بهم عن قريب، لأن ما هو آت قريب.

قال في «الإرشاد»: وإنما جيء بالاسمية دلالةً على تحقق الإحاطة واستمرارها، وتنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، فإن الكفر والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم. انتهى.

وقال بعضهم: إن الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة، ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة.

والمعنى عليه[1]: هي كالمحيطة بهم الآن، لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للعهد على وضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على موجب الإحاطة، أو للجنس، فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم.

قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لقوله: محيطة، كما في «السمين» أو ظرف لمحذوف، تقديره: يوم يعلوهم العذاب الذي أشير إليه بإحاطة جهنم بهم ويسترهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. والمراد: من جميع جهاتهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال.

---

(١) البيضاوي.

فإن قيل[1]: لم خصَّ الجانبين، ولم يذكر اليمين ولا الشمال، ولا الخلف ولا الأمام؟

فالجواب: أن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا، ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع، فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه، ويمينه وشماله، وأما النار من فوق فلا تنزل، وإنما تصعد من أسفل في العادة، وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم، بل تطفأ، ونار جهنم تنزل من فوق، ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم.

﴿وَيَقُولُ﴾ معطوف على ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾؛ أي: يقول الله، أو بعض الملائكة بأمره لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿ذُوقُواْ﴾ وباشروا ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات، التي من جملتها الاستعجال بالعذاب، فلا تفوتونا.

وقرأ[2] الكوفيون، ونافع ﴿وَيَقُولُ﴾؛ أي: الله أو بعض الملائكة، بياء الغيبة، واختار أبو عبيد هذه القراءة لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وباقي السبعة: بالنون، نون العظمة، أو نون جماعة الملائكة.

وقرأ أبو البرهشيم: ﴿وتقول﴾ بالتاء الفوقية؛ أي: جهنم، كما نسب القول إليها في ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: ﴿ويقال﴾ مبنياً للمفعول.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعة من جهة الكفار، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم، وأضافهم إليه بعد خطابهم تشريفاً لهم، وتكريماً، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: صفة موضحة، أو مبينة.

---

(١) الرازي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عامر[1] بفتح الياء، والباقون بتسكينها.

﴿إِنَّ أَرْضِى﴾؛ أي: إن بلاد المواضع التي خلقتها ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ لا مضايقة لكم فيها، ففيه تحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام؛ أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له، هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تجاوروا الظلمة، فأرض الله واسعة.

قال مقاتل[2]: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها، وأمااليوم، فإنا بحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب، وأحث على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن، وأظهر لأمر الدين من مكة حرسها الله تعالى. ا هـ. «قاري».

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي: فخصوني بالعبادة، ولا تعبدوا أحداً سواي، فـ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول، مع إفادة تقديم المفعول معنى الاختصاص والإخلاص؛ أي: فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرض، فأخلصوها لي في غيرها.

وقرأ يعقوب[3]: ﴿فاعبدوني﴾ بالياء.

وقيل المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة، فاعبدوني حتى أورثكموها.

ولما أخبر تعالى[4] عن سعة أرضه، وكان ذلك إشارةً إلى الهجرة، وأمر بعبادته، فكان قد يتوهم متوهم: أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلها من أهل الكفر، إلى دار الإسلام، لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه، وربما أدى ذلك إلى هلاكه.. أخبر أن كل نفس لها أجل تبلغه، وتموت في أي مكان حل، وأن رجوع الجميع إلى جزائه يوم القيامة، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس، سواء كانت نفس إنسانٍ أو غيرها، وهو مبتدأ، وجاز الابتداء

---

(1) المراح.
(2) زاد المسير.
(3) نسفي.
(4) البحر المحيط.

بالنكرة لما فيها من العموم.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾؛ أي: واجدة مرارة الموت، ومتجرعة غصص المفارقة، كما يجد الذائق ذوق المذوق، وهذا مبني على أن الذوق يصلح للقليل والكثير، كما ذهب إليه الراغب، وقال بعضهم: أصل الذوق بالفم فيما يقل تناوله، فالمعنى إذاً: إن النفوس تذوق بملابسه البدن جزءاً من الموت.

واعلم[1]: أن للإنسان روحاً وجسداً، وبخاراً لطيفاً بينهما هو: الروح الحيواني، فما دام هذا البخار باقياً على الوجه الذي يصلح أن يكون علاقةً بينهما، فالحياة قائمة، وعند انطفائه وخروجه عن الصلاحية تزول الحياة، ويفارق الروح البدن مفارقةً اضطرارية، وهو الموت الصوري، ولا يعرف كيفية ظهور الروح في البدن ومفارقته له وقت الموت إلا أهل الانسلاخ التام.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ أي: إلى حكمنا وجزائنا ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ تردون[2] من الرجع، وهو: الرد، فمن كانت هذه عاقبته.. ينبغي أن يجتهد في التزود والاستعداد لها، ويرى مهاجرة الوطن سهلةً، واحتمال الغربة هوناً، هذا إذا كان الوطن دار الشرك، وكذا إذا كان أرض المعاصي والبدع، وهو لا يقدر على تغييرها، والمنع منها، فيهاجر إلى أرض المطيعين من أرض الله الواسعة.

والمعنى: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لامحالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره، فكل حي في سفر إلى دار القرار، وإن طال لبثه في هذه الدار، فيوفيكم جزاء ما تعملون، فقدموا له خير العمل تفوزوا بنعيم مقيم، وجنة عرضها السماوات والأرض.

وقرأ علي[3]: ﴿ترجعون﴾ مبنياً للفاعل من الرجوع، والجمهور: مبنياً للمفعول بتاء الخطاب، وروى عن عاصم: بياء الغيبة، وقرأ أبو حيوة: ﴿ذائقة﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

بالتنوين، ﴿الموت﴾ بالنصب.

والخلاصة: أي أينما تكونوا يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وافعلوا ما أمركم به، فذلك خير لكم فإن الموت لا محالة آتٍ، ولله در القائل:

ٱلْمَوْتُ فِيْ كُلِّ حِيْنٍ يُنْشِدُ ٱلْكَفَنَا وَنَحْنُ فِيْ غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا
لاَ تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَإِنْ تَوَشَّحْتَ مِنْ أَثْوَابِهَا ٱلْحَسَنَا
أَيْنَ الأَحِبَّةُ وَٱلْجِيْرَانُ مَا فَعَلُوْا أَيْنَ ٱلَّذِيْنَ هُمُ كَانُوْا لَهَا سَكَنَا
سَقَاهُمُ ٱلْمَوْتُ كَأْساً غَيْرَ صَافِيَةٍ صَيَّرَتْهُمْ تَحْتَ أَطْبَاقِ ٱلثَّرَىٰ رَهَنَا

ثم إلى الله مرجعكم، فمن كان مطيعاً له.. جازاه خير الجزاء، وآتاه أتم الثواب.

ثم بين جزاء المؤمن بربه، المهاجر بدينه فراراً من شرك المشركين، فقال: و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وصدقوا رسوله فيما جاء به من عنده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ومن الصالحات: الهجرة للدين؛ أي: وعملوا بما أمرهم به، فأطاعوه، وانتهوا عما نهاهم عنه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لننزلنهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ مفعول ثان لـ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ أي: قصوراً[1] عالية من الدر والزبرجد والياقوت، وإنما قال ذلك، لأن الجنة في جهة عالية، والنار في سافلة، ولأن النظر من الغرف إلى المياه والخضر أشهى وألذ.

﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة صفة لـ﴿غُرَفًا﴾ حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الغرف مكثاً مؤبداً لا نهاية له، جزاءً لهم على ما عملوا ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الأعمال الصالحة، والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: نعم أجر العاملين أجرهم.

وقرأ ابن مسعود[2]، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط مع الشوكاني.

والربيع بن خثيم، وزيد بن علي: ﴿لنثوينهم﴾ بالثاء المثلثة الساكنة، مكان الباء الموحدة بعد النون، وياء مفتوحة بعد الواو المكسورة المخففة، من الثواء، وهو: الإقامة؛ أي: لنقيمنهم وننزلنهم منزلاً يقيمون فيه.

وقرأ الباقون: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بالباء الموحدة من المباءة؛ أي: لنجعلن لهم مكاناً مباءةً؛ أي: مرجعاً يأوون إليه، وبوأ: يتعدى لاثنين، قال تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

وروي عن ابن عامر: ﴿غرفاً﴾ بضم الراء، وقرأ ابن وثاب ﴿فنعم﴾ بالفاء. والجمهور: بغير فاء.

ثم بين صفات هؤلاء العاملين، الذين استحقوا تلك الجنات بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على مفارقة أوطانهم والهجرة، وجميع المشاق، من امتثال الأوامر واجتناب المناهي، والموصول: صفة لـ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أو نصب على المدح.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون في أمورهم ديناً ودنيا؛ أي: يفوضون أمورهم إليه تعالى في كل إقدام وإحجام.

وهذا التوكل من قوة الإيمان، فإذا قوي الإيمان.. يخرج من القلب ملاحظة الأوطان والأموال والأرزاق وغيرها، وتصير الغربة والوطن سواءً، ويكفي ثواب الله بدلاً من الكل، وفي الحديث: «من فر بدينه من أرض إلى أرض، ولو كان شبراً.. استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد».. ـ عليهما السلام ـ.

أما استيجابه الجنة والغرف، فلتركه المسكن المألوف لأجل الدين، وامتثال أمر رب العالمين، وأما رفاقته لهما فلمتابعتهما في باب الهجرة، وإحياء سنتهما، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هاجر إلى الأرض المقدسة، ونبينا ـ عليه السلام ـ هاجر إلى أرض المدينة، وفيه إشارة إلى أن السالك ينبغي له أن يهاجر من أرض الجاه ـ وهو قبول الخلق ـ إلى أرض الخمول.

والمعنى[1]: أي هؤلاء العاملون، هم الذين صبروا على أذى المشركين، وشدائد الهجرة، وغيرهما من الجهود والمشاق، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون وما يذرون، كأرزاقهم، وجهاد أعدائهم، فلا ينكلون عنهم، ولا يتراجعون ثقةً منهم بأن الله معلي كلمتهم، وموهن كيد الكافرين، وأن ما قسم لهم من الرزق لن يفوتهم.

ثم ذكر سبحانه: أن مما يعين على التوكل عليه: معرفة أنه كافي أمر الرزق في الوطن والغربة، فقال: ﴿وَكَأَيِّن﴾ اسم مركب من كاف التشبيه، وأي، آخره نون بمعنى كم الخيرية، في محل الرفع مبتدأ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تمييز له، وهي كل ما يدب على الأرض عاقلاً كان أم لا، من الطيور والسباع والهوام، وجملة: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ صفة لدابة، وجملة ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾: خبر المبتدأ؛ أي[2]: وكثير من دابة ذات حاجة إلى الغذاء، لا تطيق حمل رزقها لضعفها، أو لا تدخر، وإنما تصبح ولا معيشة عندها، الله يرزقها؛ أي: يعطيها رزقها يوماً فيوماً، حيث توجهت، ﴿و﴾ يرزق ﴿إياكم﴾ حيث كنتم؛ أي: ثم إنها مع ضعفها وتوكلها، وإياكم مع قوتكم واجتهادكم، سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة والخروج إلى دار الغربة؛ أي: فكيف لا يتوكلون على الله مع قوتهم وقدرتهم على أسباب العيش، كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كل مسموع، أو المبالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا في أمر الرزق ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل معلوم، أو المبالغ في العلم فيعلم ضمائركم.

ومعنى الآية: أي[3] هاجروا أيها المؤمنون بالله ورسوله وجاهدوا أعداءه، ولا تخافوا عيلةً ولا إقتاراً، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم، لا تطيق جمع قوتها، ولا حمله، فترفعه من يومها لغدها، عجزاً منها عن ذلك، الله يرزقها وإياكم، يوماً بيوم، وساعةً فساعةً، وهو السميع لقولكم: فلا نخشى من

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

فراق أوطاننا العيلة، ﴿العليم﴾ بما في أنفسكم، وإليه يصير أمركم وأمر عدوكم، من إذلال الله إياه ونصرتكم عليه، ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه.

وقال ابن عباس: لا يدخر الرزق إلا الآدمي والنمل والفأرة والعقعق. وقيل عن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضنيه، وروى ابن عباس: أن النبي - ﷺ - قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة، وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة». قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا، ولا من يسقينا، فنزلت الآية.

ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه، ولا يتركون عباده غيره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿مَّنْ﴾ استفهام ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد، حيث يجريان على الدوام، أتى[1] بشيئين:

أحدهما: يتعلق بالذوات، وهو خلق السماوات والأرض.

والثاني: يتعلق بالصفات، وهو تسخير الشمس والقمر لإصلاح الأقوات، ومعرفة الأوقات، وغير ذلك من المنافع.

﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليقولن أهل مكة: خلقهن الله - سبحانه وتعالى - إذ لا سبيل لهم إلى الإنكار لما تقرر في العقول، من وجوب انتهاء الممكنات، إلى واحد واجب الوجود، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي[2]: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده في الإلٰهية، مع إقرارهم بتفرده فيما ذكر من الخلق والتسخير، فهو إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجب العلم، وتوبيخ وتقريع عليه، وتعجيب منه.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله: من خلق السماوات والأرض فسواهن، وسخر الشمس، والقمر يجريان دائبين لمصالح خلقه، ليقولن: الذي خلق ذلك وفعله هو الله، فأنى يؤفكون؛ أي: فكيف يصرفون عن توحيده، وإخلاص العبادة له بعد إقرارهم بأن خالق كل ذلك.

تنبيه: ذكر في السماوات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمةً، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد، لا تتحرك.. ما حصل الليل والنهار، ولا الصيف والشتاء، فحينئذٍ الحكمة إنما هي في تحريكهما وتسخيرهما. ا هـ. «كرخي».

والخلاصة[2]: أنهم يعترفون بأنه هو الخالق للسماوات والأرض، والمسخر للشمس والقمر، ثم هم مع ذلك يعبدون سواه، ويتوكلون على غيره، فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر القرآن توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية، التي كانوا يدينون بها، نحو قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

ولما ذكر اعترافهم بالخلق.. ذكر حال الرزق من قبل أن كمال الخلق ببقائه، ولا بقاء له إلا بالرزق، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَبْسُطُ﴾ ويوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ مؤمنين وكافرين ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر ﴿لَهُۥٓ﴾؛ أي: لمن يشاء أن يقدر عليه منهم، كائناً من كان، على أن[3] الضمير مبهم حسب إبهام مرجعه، ويحتمل أن يكون الموسع له، والمضيق عليه واحداً، على أن البسط والقبض على التعاقب؛ أي: يقدر لمن يبسط له على التعاقب.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وقرأ علقمة الحمصي: ﴿ويقدر﴾ بضم الياء وفتح القاف وشد الدال، ذكره في «البحر».

قال الحسن: يبسط الرزق لعدوه مكراً به، ويقدر على وليه نظراً له، فطوبى لمن نظر الله إليه؛ أي: إن الله سبحانه يوسع رزقه على من يشاء من خلقه، ويقتر على من يشاء، فالأرزاق وقسمتها بيده تعالى، لا بيد أحدٍ سواه، فلا يؤخرنكم عن الهجرة، وجهاد عدوكم، خوف العيلة والفقر، فمن بيده تكوين الكائنات، لا يعجز عن أرزاقها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم علل التفاوت في الرزق بين عباده بعلمه بالمصلحة في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم، ويعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق، فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسط له، ويعلم من يليق بقبضه فيقبض له، أو فيعلم أن كلاً من البسط والقبض في أي وقتٍ يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاً منهما في وقته، وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته.. لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته.. لأفسده ذلك».

ثم ذكر اعترافهم بهذا بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد مشركي العرب ﴿مَّن نَّزَّلَ﴾ مرة بعد مرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَأَحْيَا﴾ وأخصب ﴿بِهِ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بإخراج الزرع والنبات والأشجار منها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾؛ أي: يبسها وقحطها ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ أي: ليقولن المشركون جواباً لك، نزله ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه، وأحيا به الأرض، إذ لا جواب غيره؛ أي: يعترفون بأنه الموجد للممكنات بأسرها، أصولها وفروعها، لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته، الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً.

والمعنى: أي ولئن سألتهم: من ينزل من السحاب ماءً، فيحيي به الأرض القفر، فتصير خضراء تهتز بعد أن لم تكن كذلك، لم يجدوا في الجواب إلا سبيلاً واحدةً هي الاعتراف الذي لا محيص عنه بأنه الله، فهو الموجد لسائر

المخلوقات، ومن عجبٍ أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته، التي لا تقدر على شيء من ذلك.

فإن قلت: لِمَ[1] زاد ﴿مِنۢ﴾ هنا في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ وحذفها في البقرة، حيث قال هناك: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وفي الجاثية أيضاً، حيث قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؟

قلت: زادها هنا موافقةً لما قبله من قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بخلاف ذلك في البقرة والجاثية.

ثم لما اعترفوا[2] هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك، وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة.. أمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يحمد الله على إقرارهم، وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد، وتشددهم في رد كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد متعجباً من حالهم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ والشكر له على إظهار الحجة، واعترافهم بأن النعم كلها منه تعالى؛ أي: أحمد الله على أن جعل الحق معك، وأن أظهر حجتك عليهم.

وعبارة «القرطبي» هنا: قل الحمد لله على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم بذلك، وقيل: قل الحمد لله على إنزال الماء، وإحياء الأرض بالنبات. ا هـ.

ثم ذمهم فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: شيئاً من الإشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم، فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته، وهو الصنم؛ أي: ولكن أكثر المشركين لا يعقلون ما لهم فيه النفع في دينهم، وما فيه الضر لهم، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الأصنام دون الله ينالون بها الزلفى والقرب عنده تعالى.

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الشوكاني.

والخلاصة: أن أقوالهم تخالف أفعالهم، فهم يقرون بوحدانية الله، وعظيم قدرته وجلاله، ثم هم يعبدون معه سواه، مما هم معترفون بأنه خلقه.

قال بعضهم[1]: قد ذكر الله تعالى آية الرزق، ثم آية التوحيد، ثم كررهما في صورتين أخريين، تنبيهاً منه لعباده المؤمنين على أنه سبحانه لا يقطع أرزاق الكفار، مع وجود الكفر والمعاصي، فكيف يقطع أرزاق المؤمنين مع وجود الإيمان والطاعات، وأنه سبحانه لا يسأل من العباد إلا التوحيد والتقوى والتوكل، فإنما الرزق على الله الكريم، وقد قدر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وما قدر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور، لا تدخر شيئاً إلى الغد، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً؛ أي: ممتلئة البطون والحواصل، لاتكالها على الله تعالى، بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، فكيف يهتم الإنسان لأجل رزقه، ويدخر شيئاً لغده، ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره، ويصل إلى غده، ولذلك كان ـ ﷺ ـ لا يدخر لغد إذ الأرزاق مجددة كالأنفاس المجددة في كل لمحة، والرزق يطلب الرجل كما يطلبه أجله. انتهى.

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب واللهو، وأن الدار على الحقيقة هي دار الآخرة فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ إشارة تحقير للدنيا، وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة، قال الإمام الراغب: الحياة[2] باعتبار الدنيا والآخرة ضربان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، فهي إشارة إلى أن الحياة الدنيا بمعنى الحياة الأولى بقرينة المقابلة بالآخرة، فإنه قد يعبر بالأدنى عن الأول المقابل للآخر، والمراد بالحياة الأولى ما قبل الموت، لدنوه؛ أي: لقربه، وبالآخرة: ما بعد الموت لتأخره.

﴿إِلَّا لَهۡوٞ﴾؛ أي: إعراض عن الآخرة ﴿وَلَعِبٞۚ﴾؛ أي: شغل بما لا يعني ولا يهم، قال الرازي: اللهو: هو الإعراض عن الحق بالكلية، واللعب: الإقبال

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

على الباطل اهـ.

وقيل[1]: اللهو: الاشتغال بما فيه نفع عاجل، واللعب: الاشتغال بما لا نفع فيه أصلاً.

وقيل: اللهو: هو الاستمتاع بلذات الدنيا، وقيل: هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه، واللعب: هو العبث، فاللهو: كل ما يشغل الإنسان عما يهمه ويعنيه، والملاهي: آلة اللهو، ويقال: لعب فلان: إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً؛ أي: إن[2] الدنيا سريعة الزوال، فالاشتغال بلذاتها كاشتغال الصبيان بلهوهم وعبثهم، فإنهم يجتمعون عليه، ويفرحون به ساعةً، ثم يتفرقون عنه، فالإعراض عن الحق لهو، والإقبال على الباطل لعب.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن هذه الحياة التي يعيش بها المرء في الدنيا، بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة، وجوار الحق تعالى لهو ولعب، وإنما شبهها باللهو واللعب لمعنيين:

أحدهما: أن أمر اللهو واللعب سريع الانقضاء، لا يداوم عليه؛ فالمعنى: أن الدنيا وزينتها، وشهواتها لظل زائل، لا يكون لها بقاء، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها، والركون إليها.

والثاني: أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء، دون العقلاء وذوي الأحلام، ولهذا كان النبي - ﷺ - يقول: «ما أنا من دِدٍ ولا الدد مني». والدد: اللهو واللعب، فالعاقل يصون نفسه منه. انتهى.

قال في «كشف الأسرار»: فإن قيل: لما سماها لهواً ولعباً، وقد خلقها لحكمةٍ ومصلحةٍ؟

قلنا: إنه سبحانه بنى الخطاب على الأعم الأغلب، وذلك أن غرض أكثر الناس من الدنيا اللهو واللعب. انتهى.

---

(١) صاوي.
(٢) المراح.

وورد في الخبر النبويّ، حين سُئل عن الدنيا، فقال: «دنياك ما يشغلك عن ربك». قيل: الشر[1] كله في بيت واحد، ومفتاحه حب الدنيا. وما أحسن من شبهها بخيال الظل حيث قال:

رَأَيْتُ خَيَالَ ٱلظِّلِّ أَعْظَمَ عِبْرَةٍ ... لِمَنْ كَانَ فِيْ عِلْمِ ٱلْحَقَائِقِ رَاقِيْ
شُخُوْصٌ وَأَصْوَاتٌ يُخَالِفُ بَعْضُهَا ... لِبَعْضٍ وَأَشْكَالٌ بِغَيْرِ وِفَاقِ
تَمُرُّ وَتَقْضِي أَوْبَةً بَعْدَ أَوْبَةٍ ... وَتَفْنَىٰ جَمِيْعاً وَٱلْمُحَرِّكُ بَاقِيْ

والمعنى: أي وما هذه الحياة الدنيا التي يتمتع بها هؤلاء المشركون، إلا شيء يتعلل به، ثم هو منقض عما قريب، لا بقاء له ولا دوام، ومن ثم قيل: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها، وأنشدوا:

تَرُوْحُ لَنَا ٱلدُّنْيَا بِغَيْرِ ٱلَّذِيْ غَدَتْ ... وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ ٱلأُمُوْرِ أُمُوْرُ
وَتَجْرِيْ ٱللَّيَالِيْ بِٱجْتِمَاعٍ وَفِرْقَةٍ ... وَتَطْلُعُ فِيْهَا أَنْجُمٌ وَتَغُوْرُ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ٱلدَّهْرَ بَاقٍ سُرُوْرُهُ ... فَذَاكَ مُحَالٌ لاَ يَدُوْمُ سُرُوْرُ
عَفَا ٱللَّهُ عَمَّنْ صَيَّرَ ٱلْهَمَّ وَاحِداً ... وَأَيْقَنَ أَنَّ ٱلدَّائِرَاتِ تَدُوْرُ

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: وإن الحياة الثانية ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ أي: لهي الحياة الدائمة، التي لا موت فيها، ولا زوال ولا انقطاع ﴿لَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: لو كان هؤلاء المشركون ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن الحياة المعتبرة هي حياة الآخرة.. لما آثروا عليها الحياة الدنيا، السريعة الزوال، الوشيكة الاضمحلال.

وقيل المعنى[2]: وإن الدار الآخرة لهي الحياة الدائمة الخالدة، التي لا موت ولا فناء فيها، ذهب المفسرون إلى أن معنى الحيوان هنا: الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان، والغليان، واللهيان، والجولان، والطوفان، وقد قيل في شأن الدنيا:

أَحْلاَمُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ ٱللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لاَ يُخْدَعُ

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

ثم أخبر سبحانه، بأن تلك حال المشركين في الرخاء، فإذا ابتلوا بالشدائد.. دعوا الله وحده ليخلصهم منها، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: فإذا ركب هؤلاء المشركون في السفينة، لتجاراتهم وتصرفاتهم، وهاجت الرياح، واضطربت الأمواج، وخافوا الغرق.. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى إنجاءَهم من الغرق، حالة كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء والتضرع والاستغاثة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ليخلصوهم من تلك الشدة، لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه وتعالى. أو المعنى: دعوا الله كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون مع الله آخر، وفي المخلصين ضرب من التهكم.

ثم بين[1] سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكاً، فقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ وخلصهم مما كانوا فيه من الضيق، ونجاهم من الهلاك والغرق، ووصلوا ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ جواب ﴿لما﴾؛ أي: فاجأ التنجية إشراكهم بالله، ورجعوا القهقرى، وعاودوا سيرتهم الأولى، وجعلوا مع الله الشركاء، ودعوا الآلهة والأنداد، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

روى محمد بن إسحاق في «السيرة» عن عكرمة بن أبي جهل، قال: لما فتح رسول الله ـ ﷺ ـ مكة.. ذهبت فاراً منها، فلما ركبت البحر إلى الحبشة.. اضطربت بنا السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا منجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليّ عهد، لئن خرجت.. لأذهبن، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك.

وقال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في البحر.. حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتد عليهم الريح.. ألقوها فيه، وقالوا: يا رب يا رب. قال

(١) المراغي.

الرازي في «اللوامع»: وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان، وأنهم إن غفلوا في السراء.. فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء. ا هـ.

واللام[١] في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام كي، معللة بمحذوف معلوم من السياق، تقديره: فاجؤوا المعاودة إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا﴾؛ أي: ليكونوا كافرين بما آتيناهم، وأعطيناهم من نعمة النجاة، التي حقها أن يشكروها ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ أي: ولينتفعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام، وتوادّهم عليها، ويجوز أن تكون في كليهما لام أمر، ومعناه التهديد، كما في ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾؛ أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة، وتمتعوا، ويدل على هذا الوجه الأخير، قراءة أبيّ ﴿وتمتعوا﴾ واحتمالها للأمرين، إنما هو على قراءة أبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وورش: بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور: بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وقولنا: لام كي فيه شيء، لأنه ليس الحامل لهم على الإشراك قصد الكفر، والظاهر: أنها لام العاقبة والمآل، كما أشار له «الشهاب».

فائدة[٢]: قال الشيخ الشهير، بزورق الفارسي في «شرح حزب البحر»: ومن أوراد البحر: الحي القيوم، ويقول عند ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾. فإنه أمان من الغرق. انتهى. اقتداءً بنوح ـ عليه السلام ـ وكذا يقال في كل مركوب غير حيوان، كالسيارة، والباخرة، والطائرة إلى غير ذلك.

وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم لهم؛ أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الوبال عليهم، حين يرون العذاب يوم القيامة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ بالتاء فيهما؛ أي: قيل لهم: ﴿تمتعوا فسوف تعلمون﴾، وكذا في مصحف أبيّ، وقرأ أبو العالية ﴿فيتمتعوا﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ومن قرأ: ﴿وليتمتعوا﴾ بسكون اللام، وكان عنده ﴿اللام﴾ في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ لام كي، فـ﴿الواو﴾: عاطفة كلاماً على كلام، لا عاطفة فعلٍ على فعلٍ، وحكى ابن عطية عن ابن مسعود: ﴿لسوف تعلمون﴾ باللام.

ثم ذكرهم[2] الله تعالى نعمه، حيث أسكنهم بلدةً أمنوا فيها، لا يغزوهم أحد مع كونهم قليلي العدد، قارين في مكان غير ذي زرع، وهذه من أعظم النعم التي كفروا بها، وهي نعمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يشاهد هؤلاء المشركون من قريش، ولم يروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾؛ أي: محترماً ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله، آمناً من كل سوء ﴿و﴾ الحال أنه ﴿يتخطف الناس﴾ والعرب؛ أي[3]: يختلسون ويؤخذون ﴿مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ وجوانبهم، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله في تغاورٍ وتناهبٍ.

والمعنى[4]: أي أولم ير هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من النعمة، دون سائر عبادنا، فأسكناهم بلداً حرمنا على الناس أن يدخلوه لغارة، أو حرب، وآمناً من سكنه من القتل والسبي والنهب، فصاروا في سلامة وعافيةٍ، مما صار فيه غيرهم من العرب، لأن الناس حولهم يقتلون ويسبون في كل حين، وتطرقهم الغارات، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها، فيشكرونا على ذلك، ويزدجروا عن كفرهم بنا، وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) النهر.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والخلاصة: أنه تعالى يمتن على قريش بما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس، سواءً العاكف فيه، والباد، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمنٍ عظيم، والأعراب حولهم نهب مقسم، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ثم هم مع ذلك يكفرون به، ويعبدون معه سواه.

ونحو الآية قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

ثم بين سبحانه: أن العقل كان يقضي بشكرهم على هذه النعمة، لكنهم كفروا بها، وما جنحوا إلى مرضاة ربهم، فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه بالباطل، وهو الصنم أو الشيطان، يؤمنون دون الحق، وتقديم الصلة[1]: لإظهار شناعة ما فعلوه.

وكذا في قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المستوجبة للشكر ﴿يَكْفُرُونَ﴾ حيث يشركون به غيره.

وعبارة «البيضاوي» هنا: وتقديم الصلتين للاهتمام، أو الاختصاص على طريق المبالغة، و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي التقريعي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكذبون رسوله محمداً - ﷺ - فيؤمنون بالباطل، ويكفرون بنعمة الله.

وقرأ الجمهور: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾ بالياء فيهما، وقرأ السلمي، والحسن: بتاء الخطاب فيهما، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي[2] أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة، أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، وبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والخلاصة: أنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم، إخلاص العبادة له، وأن لا يشركوا به، وأن يصدقوا برسوله ويعظموه ويوقروه، لكنهم كذبوه، فقاتلوه، وأخرجوه من بين أظهرهم، ومن ثم سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، بقتل من قتل منهم ببدر، وأسر من أسر، حتى قطع دابرهم يوم الفتح، وأرغم آنافهم، وأذل رقابهم.

والخلاصة[1]: أنكم يا أهل مكة في أخوف ما كنتم دعوتم الله تعالى، وفي أمنٍ ما حصلتم عليه كفرتم بالله، وهذا متناقض، لأن دعاءكم في وقت الخوف على سبيل الإخلاص، لم يكن إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير، وقد اعترفتم بأن تلك النعمة العظيمة من الله، كيف تكفرون بها، وقد قطعتم في حال الخوف أنه لا أمن من الأصنام، حيث ألقيتموها في البحر، كيف آمنتم بها في حال الأمن.

ولما استنارت الحجة، وظهر الدليل، ولم يكن لهم فيه مقنع.. بين أنهم قوم ظلمة مفترون، وضعوا الأمور في غير مواضعها، بكذبهم على الله، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ والاستفهام فيه للإنكار بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه كذباً، بأن زعم أن له تعالى شريكاً، وأنه إذا فعل فاحشة.. قال: إن الله أمرني بها، والله لا يأمر بالفحشاء، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالرسول، أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾؛ أي: حين جاءه الحق من غير توقف؛ أي: كذبه حين مجيئه عناداً دون أن يتأمل فيه أو يتوقف، بل سارع إلى التكذيب أول ما سمعه. وفي قوله[2]: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ من تسْفيه آرائهم وتقبيح طرائقهم، ما لا يخفى، حين كذبوا الحق من غير توقف وتأمل.

فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك، فمن جعل الشريك لملك مستقل في الملك كان ظالماً يستحق العقاب منه، فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك، ومن كذَّب صادقاً يجوز عليه الكذب كان ظالماً، فكيف من

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

كذَّب صادقاً لا يجوز عليه الكذب، فإذاً ليس أحد أظلم ممن يكذب على الله بالشرك، ويكذب الله في تصديقه نبيه ـ ﷺ ـ ويكذب النبي في رسالة ربه، ويكذب القرآن المنزل من الله تعالى إلى الرسول ـ ﷺ ـ.

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريري، وهو أبلغ في إثبات المطلوب، وهددهم وتوعدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ ومنزل ومأوى ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: مكان يستقرون فيه؛ أي: ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء والإقامة في جهنم، فقد افتروا على الله الكذب، فكذبوا بالكتاب أو الرسول لما جاءهم بلا توقف ولا تأمل.

والخلاصة: أن مثوى هؤلاء، وأشباههم جهنم وبئس المصير، فهو[1] تقرير لثوائهم وإقامتهم فيها، فإن همزة الاستفهام الإنكاري إذا دخلت على النفي صار إيجاباً؛ أي: ألا يستوجبون الإقامة والخلود في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء والتكذيب بالحق الصريح، مثل هذا التكذيب الشنيع، أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على الافتراء والتكذيب؛ أي: ألم يعلموا أن في جهنم مثوىً للكافرين، حتى اجترؤوا هذه الجرأة، وقوله[2]: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر؛ أي: مثواهم.

وبعد أن بين عاقبة أولئك الكافرين، ذكر عاقبة المؤمنين الذين اهتدوا بهُدى الله، وجاهدوا في سبيله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾؛ أي[3]: والذين جدوا واجتهدوا في طاعتنا، وبذلوا وسعهم، وطاقتهم في شأننا وحقنا، وأخلصوا عملهم لوجهنا، والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وأطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعداء الظاهرة والباطنة، أما الأول فكجهاد الكفار المحاربين، وأما الثاني فكجهاد النفس والشيطان. وفي الحديث: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم». ويكون الجهاد باليد واللسان. كما قال ـ عليه السلام ـ: «جاهدوا

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الكفار بأيديكم وألسنتكم»؛ أي: بما يسوءهم من الكلام، كالهجوِ ونحوهِ، قال ابن عطاء: المجاهدة: صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه، وقال عبد الله بن المبارك: المجاهدة: علم أدب الخدمة، فإن أدب الخدمة أعز من الخدمة، وفي «الكواشي»: المجاهدة: غض البصر، وحفظ اللسان، وخطرات القلب، ويجمعها الخروج عن العادات البشرية. انتهى.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنرشدنهم ﴿سُبُلَنَا﴾؛ أي: أي سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ولنوفقنهم طرق مرضاتنا، وإنما جمع السبل، لأن الطريق إلى الله تتعدد بعدد أنفاس الخلائق، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد المهاجرين والأنصار؛ أي: والذين جاهدوا المشركين، وقاتلوهم في نصرة ديننا، لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾[1]: مبتدأ، خبره: القسم المحذوف، وجوابه هو ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾، وبهذا ونظيره رد على أبي العباس ثعلب، في منعه أن تقع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ، ونظيره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: لمع المخلصين في القول والعمل، بالتوفيق والنصرة والإعانة والعصمة في الدنيا، والثواب والمغفرة في العقبى.

وفي «التأويلات النجمية»: لمع المحسنين، الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن كان الله معه.. لم يخذل ولم يذل.

ودخلت[2] ﴿لام﴾ التوكيد على ﴿مع﴾، وفي ﴿مع﴾ قولان: قيل: اسم، وقيل: حرف، فدخول ﴿اللام﴾ عليها ظاهر على القول الأول، و﴿لام﴾ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، وكذا على الثاني من حيث أن فيها معنى الاستقرار، كما في نحو إن زيداً لفي الدار، و(مع) إذا سكنت عينها تكون حرفاً، لا غير، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثر أن تكون حرفاً جاء

(١) البحر المحيط. (٢) القرطبي.

لمعنى. ا هـ. «قرطبي». وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر، إظهاراً لشرفهم بوصف الإحسان. ا هـ. «سمين».

فإن قلت[1]: المجاهدة في دين الله إنما تكون بعد الهداية، فكيف جعل الهداية من ثمرتها؟

قلت: معناه: جاهدوا في طلب العلم، لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها، أو جاهدوا في نيل درجةٍ، لنهدينهم إلى أعلى منها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

والمعنى: أي والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله الكذب، المكذبين لما جاءهم به رسوله، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا، لنزيدنهم هدايةً إلى سبل الخير، وتوفيقاً لسلوكها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

وجاء في الحديث: «من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا على علم ما جهلنا، تقصيرنا في العمل بما علمنا ولو عملنا ببعض ما علمنا.. لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا، وقال سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ذا الرحمة ﴿لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: لمع من أحسن من خلقه، فجاهد أهل الشرك، مصدقاً رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة، على من جاهد من أعدائه وبالمغفرة والثواب في العقبى. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي، قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

---

(١) فتح الرحمٰن.

الإعراب

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مفعول به، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان كيفية إرشاد أهل الكتاب ومجادلتهم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلَّتِي﴾: متعلق بـ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾. ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، وموصوف الموصول محذوف، تقديره: إلا بالمجادلة التي هي أحسن وأسهل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنۡهُمۡۖ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَقُولُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول: ﴿قولوا﴾. ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿إِلَيۡنَا﴾: متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ معطوف على ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾. وفي الكلام حذف الموصول الاسمي؛ أي: والذي أنزل إليكم. ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾: مبتدأ. ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿وَٰحِدٞ﴾: خبر له، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿وَنَحۡنُ﴾: مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿مُسۡلِمُونَ﴾. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ خبر له، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف

صفةٍ لمصدر محذوف، تقديره: وأنزلنا إليك الكتاب، إنزالاً كائناً كالإنزال الذي أنزلناه على من قبلك. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت من ذكرته لك، من إنزال الكتاب إليك، وأردت بيان من يؤمن به، ومن لا يؤمن به فأقول لك: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾. ﴿الذين﴾: مبتدأ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: صلة الموصول. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذاالمقدرة مستأنفة. ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من هؤلاء﴾: خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾. ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَجْحَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجْحَدُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تَتْلُوا۟﴾ أو حال من ﴿كِتَٰبٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿كِتَٰبٍ﴾: مفعول ﴿تَتْلُوا۟﴾. وجملة ﴿تَتْلُوا۟﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة. ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَخُطُّهُۥ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِيَمِينِكَ ۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب

وجزاء مهمل، دال على شرط محذوف، تقديره: لو كان شيء من التلاوة والخط. ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ و﴿اللام﴾: واقعة في جواب لو المحذوفة. ﴿ارتاب المبطلون﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب لو المحذوفة، وجملة لو المحذوفة: مستأنفة.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾.

﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب. ﴿هُوَ ءَايَٰتُۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بَيِّنَٰتٞ﴾: صفة ﴿ءَايَٰتُۢ﴾. ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة ثانية لـ﴿ءَايَٰتُۢ﴾؛ أي: راسخة في صدورهم. ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول ثان، لأن أتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَجۡحَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير نوع آخر من أنواع لجاجهم. ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى: هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتٞ﴾: نائب فاعل. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٞ﴾ أو متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَإِنَّمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿نَذِيرٞ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٞ﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقصر هذا القرآن عن حد الإعجاز ولم يكفهم، والجملة المحذوف: مستأنفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَكْفِهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة. ﴿أَنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَنزَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَكْفِهِمْ﴾، والتقدير: أقصر هذا القرآن عن حد الإعجاز، ولم يكفهم إنزالنا عليك الكتاب من جهة كونه معجزةً، وجملة ﴿يُتْلَىٰ﴾: في محل نصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَرَحْمَةً﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رحمة﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على ﴿رحمة﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لِقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿ذكرى﴾ و﴿رحمة﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿الباء﴾: حرف جر زائد. ولفظ جلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ فاعل ﴿كَفَىٰ﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: في محل النصب حال من لفظ الجلالة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُوا۟﴾:

فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿وَكَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: في محل الرفع خبر الأول، وجملة الأول: مستأنفة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به، والجملة: مستأنفة مسوقة للتعجب منهم، أو للاستهزاء بهم. ﴿وَلَوْلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أَجَلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة: وقوعه بعد ﴿لولا﴾ أو وصفه بما بعده. ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة لـ﴿أَجَلٌ﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: موجود. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿جاءهم العذاب﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية: جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾: معطوفة على جملة ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يأتين﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابُ﴾. ﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿بَغْتَةً﴾: حال من فاعل ﴿يأتين﴾؛ أي: حال كون العذاب باغتاً. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿الهاء﴾ في ﴿يأتينهم﴾، وجملة ﴿يأتينهم﴾: جواب القسم، وجملة القسم: معطوفة على جملة ﴿يستعجلون﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: مستأنفة، مكررة لتأكيد الجملة السابقة، أو للتعجب من حماقتهم، لأن

من هدد بشيء.. التمس أسباب الوقاية منه، أما هؤلاء فيستعجلون. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿إن جهنم﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿محيطة﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب حال من ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ والرابط: إعادة صاحب الحال بمعناه، لأن ﴿جَهَنَّمَ﴾ بمعنى ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وعبر بالحال وأراد الاستقبال؛ أي: ستحيط بهم للدلالة على التحقق والمبالغة.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿محيطة﴾. ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، أو متعلق بـ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾. ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾. ﴿وَيَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يقول﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، أو على الملك الموكل بالعذاب، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾. ﴿ذُوقُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰعِبَادِىَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿عبادي﴾. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنَّ أَرْضِى﴾: ناصب واسمه، ﴿وَٰسِعَةٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة واقعة في جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِيَّٰىَ﴾: ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، حذف وعوض عنه تقديم المفعول على عامله، تقديره: إن لم تتيسر لكم عبادتي في أرض.. فهاجروا منها إلى أخرى، واعبدوا إياي فيها. ﴿إياي﴾: ضمير

نصب في محل النصب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: فاعبدوا إياي. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجزم جواب للشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف: مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: ﴿الفاء﴾ زائدة لتحسين الخط. ﴿اعبدون﴾: فعل أمر وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة: مفعول به، والجملة الفعلية: جملة مفسرة للمحذوفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم: ﴿نبوئن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: مفعول به أول. ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾: حال من غرفاً. ﴿غُرَفًا﴾: مفعول ثان، لأن بوأ يتعدى إلى مفعولين، والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب صفة لـ﴿غُرَفًا﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿نبوئنهم﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض في أفعال المدح، ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿نِعْمَ﴾: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر مقدم للمخصوص بالمدح، المحذوف وجوباً، تقديره: نعم أجر العاملين أجرهم، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للعاملين، ﴿صَبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ﴿الواو﴾:

عاطفة. ﴿على ربهم﴾: متعلق بما بعده، ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿صَبَرُوا﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كأين﴾: اسم مركب بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ أول، مبني على السكون لشبهة بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى رب التكثيرية، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: تمييز ﴿كأين﴾: مجرور بـ﴿مِّن﴾. ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿رِزْقَهَا﴾: مفعول به، والجملة: في محل الجر صفة لـ﴿دَآبَّةٍ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثان، وجملة ﴿يَرْزُقُهَا﴾: خبر له، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول: مستأنفة، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: معطوف على الضمير في ﴿يَرْزُقُهَا﴾، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾: الشرطية، محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: يقولون خلقهن الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ معلقة لسأل عن العمل في المفعول الثاني. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: خبر لـ﴿مَّنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لسأل، معلقة عنها باسم الاستفهام، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾:

فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله، أو مبتدأ، والخبر: محذوف، تقديره: الله خلقهن، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، مستأنفة. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت جوابهم هذا، وأردت التعجب منهم.. فأقول لك: قل: ﴿أنى يؤفكون﴾، ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي بمعنى كيف في محل النصب حال من واو ﴿يُؤْفَكُونَ﴾. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بثبوت النون، و﴿الواو﴾، نائب فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ﴾: في جواب شرط مقدر؛ أي: إن صرفهم الهوى والشيطان، فأنى يؤفكون اهـ. «شهاب».

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: لمن يشاء البسط له، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: حال من العائد المحذوف، أو من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يقدر﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية

على كونها فعل شرط لها، ﴿مَّن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وهو معلق لـ﴿سأل﴾ عن المفعول الثاني، ﴿نَّزَّلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾ الاستفهامية. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، وجملة ﴿نَّزَّلَ﴾ خبر ﴿مَّن﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف، دل عليه جواب القسم، تقديره: يقولون الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم واجوابه ﴿فَأَحْيَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أحيا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أحيا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نَّزَّلَ﴾، ﴿بَعْدِ مَوْتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أحيا﴾، أو حال من الأرض. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، لأنها مماثلة لها، أو مستأنفة. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿هَٰذِهِ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: بدل منه. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿لَهْوٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَلَعِبٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن الدار﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ نعت ﴿ٱلدَّارَ﴾. ﴿لَهِىَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿هي﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل،

﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾: خبر ﴿هو﴾، أو خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: شرط لـ﴿لَوۡ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لَوۡ﴾ الشرطية: محذوف دل عليه ما قبله، وتقديره: ما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، وجملة ﴿لَوۡ﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَكِبُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوُاْ﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخۡلِصِينَ﴾. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية ومتعلق بجوابه. ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة لـ﴿لما﴾. ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لما﴾ وجوباً، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُشۡرِكُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا ركبوا﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، أو لام العاقبة، ﴿يكفروا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿إن﴾ المضمرة بعد اللام ﴿بِمَآ﴾ جار و مجرور متعلق بـ﴿يكفروا﴾ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول والثاني محذوف تقديره بما آتيناهموه، وهو العائد على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾، معطوف على ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾، وجملة

﴿يكفروا﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: إذا هم يشركون لقصد كفرهم بما آتيناهم، ولقصد تمتعهم وتوادهم بالاجتماع على عبادة الأصنام، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، ويحتمل كون اللامين لام الأمر، كما مر، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتاتهم واضطراباتهم هذه، وأردت بيان عاقبة أمرهم، فأقول لك: سوف يعلمون ذلك، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: ألم يشاهد هؤلاء المشركون، ولم يروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لم يروا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم معطوف على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول الأول محذوف، تقديره: جعلنا بلدهم. ﴿حَرَمًا﴾: مفعول ثان. ﴿ءَامِنًا﴾ صفة ﴿حَرَمًا﴾، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى، تقديره: أولم يروا جَعْلنا بلدهم حرماً آمناً. ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿يتخطف الناس﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسُ﴾، والجملة الفعلية، في محل النصب حال من ضمير المفعول الأول المحذوف، تقديره: أولم يروا أنا جعلنا بلدهم حرماً آمناً، والحال أن الناس يتخطفون من حول بلدهم؛ أي: جعلناهم آمنين قارين في بلدهم، والناس متخطفون من حولهم. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بالباطل﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة: مستأنفة،

والتقدير: أيكذبون رسولنا فيؤمنون بالباطل: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿بنعمة الله﴾ متعلق بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام إنكاري، في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿جَآءَهُۥٓ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الحق، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: خبر مقدم لـ﴿ليس﴾، ﴿مَثْوًى﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثْوًى﴾، والجملة الاستفهامية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَٰهَدُوا۟﴾: صلة الموصول، ومفعول ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ محذوف لقصد التعميم، تقديره: والذين جاهدوا الكفار والنفس والهوى والشيطان، ﴿فِينَا﴾: متعلق بـ﴿جَٰهَدُوا۟﴾، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نهدين﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، وضمير الغائبين: في محل النصب مفعول أول، ﴿سُبُلَنَا﴾: مفعول ثان، أو منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَعَ﴾:

﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مع المحسنين﴾: ظرف ومضاف إليه خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المجادلة، والجدال، مصدران لجادل من باب فاعل، كما في «التاج». قال الراغب: الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله: من جدلت الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد آخر عن رأيه، والمعنى: ولا تخاصموا اليهود والنصارى، والجدل: الحجاج والمناظرة.

﴿مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: خاضعون مطيعون.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والجحد: إنكار الشيء بعد معرفته، وقيل: الجحد: نفي ما في القلب ثبوته، أو إثبات ما في القلب نفيه، والمراد به هنا، الإنكار عن علم.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾. والخط: كالمد ويقال لما له: طول ويعبر عن الكتابة بالخط.

﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: الارتياب: الشك، وفي «المختار»: الريب: الشك. قال الراغب: الريب: أن يتوهم بالشيء أمراً ينكشف عما يتوهمه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ والإرابة: أن يتوهم فيه أمراً فلا ينكشف عما يتوهمه، والارتياب: يجري مجرى الإرابة، ونفى عن المؤمنين الارتياب، كما قال: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

والمبطل: من يأتي بالباطل، وهو نقيض المحق، وهو من يأتي بالحق، لما أن الباطل نقيض الحق، قال في «المفردات»: الإبطال: يقال في إفساد الشيء وإزالته، حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ والكفاية: ما فيه سد الخلة، وبلوغ المراد في الأمر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ والاستعجال: طلب الشيء قبل أوانه.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ قال الراغب: البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب، يقال: بغتة: إذا دهمه على حين غفلة.

﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله: مما يقل تناوله، فإذا أكثر يقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب، لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل، فهو مستصلح للكثير، فخصه بالذكر ليعلم الأمرين، كما في «المفردات».

﴿إِنَّ أَرْضِي﴾: الأرض: الجرم المقابل للسماء.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾: ﴿كأين﴾: للتكثير بمعنى كم الخبرية، ركب كاف التشبيه مع أي، فجرد عنها معناها الإفرادي، فصار المجموع كأنه اسم مبني على السكون، آخره نون ساكنة، كما في من، لا تنوين تمكين، ولهذا يكتب بعد الياء نون، مع أن التنوين صورة له في الخط.

والدابة: كل حيوان يدب ويتحرك على الأرض، مما يعقل ومما لا يعقل.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ الحمل بالفتح: الجنين، وبالكسر: اسم للمحمول على الرأس وعلى الظهر.

﴿رِزْقَهَا﴾ والرزق لغة: كل ما ينتفع به، واصطلاحاً: اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ والتسخير: جعل الشيء منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: الإفك بالفتح: الصرف والقلب، وبالكسر: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه.

﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ واللهو: كل ما يلهي الإنسان ويشغله عما يهمه، والملاهي: آلات اللهو، لأنها تلهي عن الأذكار والصلوات.

﴿وَلَعِبٌ﴾ يقال: لعب فلان: إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً، كفعل الصبيان، وقد قدمنا الكلام فيهما مبسوطاً، فراجعه.

﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ والحيوان: مصدر حيِيَ، سمي به ذو الحياة، وأصله: حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، لئلا يحذف إحدى الألفين، وهو أبلغ من الحياة، لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحيوان، كالنزوان واللهيان، لذلك اختير على الحياة في هذا المقام، المقتضى للمبالغة ا هـ. من «الروح».

والحياة: حركة كما أن الموت: سكون، فمجيئه على بناءٍ دالٍ على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر، ولهذا الفعل خصائص عجيبة، فهو يتوزع على طائفة من المعاني سنذكرها فيما يلي:

يقال: قدر الرزق: قسمه وبابه نصر وضرب، وقدر وقدر على عياله: ضيق وقتر، قال في «الأساس»: وقدر عليه رزقه، وقدر: قتر، وقدر يقدر من باب علم، قدراً وقدرةً، ومقدَرةً، ومقدُرةً ومِقداراً وقدراً على الشيء: قوي عليه، وقدر يقدر من باب: ضرب قدراً الأمر: إذا دبره، وقدر الشيء بالشيء: قاسه به، وجعله على مقداره، وقدر يقدر ويقدر: من بابي: نصر وجلس، الله عظمه، وقدر الرجل: فكر في تسوية أمره، وتدبيره، وقدر يقدر ـ من باب تعب ـ قدراً: بفتحتين قصرت عنقه، وقدر على الشيء اقتدر.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والركوب: هو الاستعلاء على الشيء المتحرك، وهو متعد بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة ﴿في﴾: للإيذان بأن المركوب في نفسه، من قبيل الأمكنة، وحركته قسرية غير إرادية.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ البر: خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، كما في «المفردات».

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ الخطف: أخذ الشيء بسرعة.

﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: وفي «المختار»: ثوى بالمكان يثوى، بالكسر: ثواءً ثوياً أيضاً بوزن مضي؛ أي: أقام به، ويقال: ثوى البصرة، وثوى بالبصرة، وأثوى بالمكان لغةً: في ثوى وأثوى غيره، يتعدى ويلزم، وثوى غيره أيضاً تثوية ا هـ. والمثوى: المنزل والمحبس.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ الهداية: الدلالة إلى ما يوصل إلى المطلوب.

﴿سُبُلَنَا﴾ والسبل: جمع سبيل، وهو من الطرق: ما هو معتاد السلوك، ويلزمه السهولة، ولهذا قال الإمام الراغب: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعريض في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فإن فيه تعريضاً بكفر أهل الكتاب، حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

ومنها: التعبير عن القرآن بالآيات، في قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ للتنبيه على ظهور دلالته على معانيه، وعلى كونه من عند الله تعالى.

ومنها: الإضافة فيه للتشريف.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط، فيه زيادة في التصوير، واستحضار لنفي كونه كاتباً. والإطناب يكون حقيقةً ومجازاً، وهذا من النوع الأول، ومثله قولهم: رأيته بعيني، وقبضته بيدي، ووطِئته بقدمي، وذقته بفمي، وكل هذا يظنه الظان

المبتدىء: أنه من قبيل الزيادة والفضول، وأنه لا حاجة إليه، ويقول: إن الرؤية لا تكون إلا بالعين، والقبض لا يكون إلا باليد، والوطْء لا يكون إلا بالقدم، والذوق لا يكون إلا بالفم، وليس الأمر كما توهم، بل هذا يقال في كل شيء يعظم مناله، ويعز الوصول إليه، وهو كثير في القرآن الكريم.

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: رحمةً عظيمةً.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، و﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لا غيرهم.

ومنها: الإطناب بذكر العذاب مرات، للتشنيع على المشركين في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ومنها: التعبير بما يدل على الحال عما في المستقبل في قوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والمعنى: ستحيط بهم عن قريب، لأن ما هو آت قريب عبر عنه بالاسم الدال على الحال، دلالةً على تحقق الإحاطة بهم، ومبالغةً فيه.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه كناية عن مباشرة العذاب ودخوله.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حيث شبه تجرعها مرارة الموت، بذوق الذائق الطعام.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمناً أهله.

ومنها: الإشارة للتحقير في قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ تحقيراً للدنيا.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾؛ أي: كاللهو وكاللعب، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً على حدّ قولهم: زيد أسد.

ومنها: الإيجاز بحذف جواب الشرط، لدلالة السياق عليه، في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانوا يعلمون حقارة الدنيا.. ما آثروها على الآخرة.

ومنها: تقديم الصلة؛ لإظهار شناعة ما فعلوه، في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ الخ.

ومنها: الاستفهام الإنكاري، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري، في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأن مقتضى السياق: أن يقال: مثوى لهم.

ومنها: مراعاة الفواصل، لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، مثل: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخ.

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إظهاراً لشرفهم بوصف الإحسان.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال بعض العلماء: النبوة والرسالة: كالسلطنة، اختصاص إلٰهي لا مدخل لكسب العبد فيها، وأما الولاية: كالوزارة، فلكسب العبد مدخل فيها، كما تمكن الوزارة بالكسب، كذلك تمكن الولاية بالكسب، ولقد أحسن من قال في شأن الدنيا:

تَـأَمَّـلْ فِـيْ ٱلْـوُجُـوْدِ بِـعَـيْـنِ فِـكْـرٍ   تَـرَىٰ ٱلـدُّنْـيَـا ٱلـدَّنِـيَّـةَ كَـٱلْـخَـيَـالِ
وَمَـنْ فِـيْـهَـا جَـمِـيْـعَـاً سَـوْفَ يَـفْـنَـىٰ   وَيَـبْـقَـىٰ وَجْـهُ رِبِّـكَ ذُوْ ٱلْـجَـلاَلِ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

١ ـ اختبار المؤمنين، ليعلم صدقهم في إيمانهم.

٢ ـ في الجهاد فائدة للمجاهد، والله غني عن ذلك.

٣ ـ الحسنات يكفرن السيئات.

٤ ـ الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وبرهما، مع عدم طاعتهما في الإشراك بالله.

٥ ـ حال المنافق الذي يظهر الإيمان، ولا يحتمل الأذى في سبيل الله تعالى.

٦ ـ حال الكافرين الذين يضلون غيرهم، ويقولون للمؤمنين: نحن نحمل خطاياكم إن كنتم ضالين.

٧ ـ قصص الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، وموسى، وهارون، وبيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر، وأمر أممهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب.

٨ ـ حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم، مما فيه تقريعهم وتأنيبهم.

٩ ـ حجاج أهل الكتاب، والنهي عن جدلهم بالفظاظة والغلظة.

١٠ ـ إثبات النبوة، ببيان صدق معجزته ﷺ.

١١ ـ ذكر بعض شبههم في نبوته، والرد على ذلك.

١٢ ـ استعجالهم بالعذاب تهكماً.

١٣ ـ أمر المؤمنين بالفرار بدينهم، من أرض يخافون فيها الفتنة.

١٤ ـ العاقبة الحسنى للذين يعملون الصالحات.

١٥ ـ اعترافهم بأن الخالق الرازق هو: الله.

١٦ ـ بيان أن الدار الآخرة هي: دار الحياة الحقة.

١٧ ـ امتنانه على قريش بسكناهم البيت الحرام، ثم كفرانهم بهذه النعمة، بإشراكهم به سواه.

والله أعلم

* * *

سورة الروم

سورة الروم مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، فمدنية. قال القرطبي: كلها مكية بلا خلاف، وهي ستون أو تسع وخمسون آيةً، نزلت بعد سورة الانشقاق، وثمان مئة وتسع عشرة كلمةً، وثلاثة آلافٍ وخمس مئةٍ وأربعة وثلاثون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[١]:

١ ـ أن السورة السابقة بُدِئت بالجهاد وختمت به، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على مهاد الراحة، بل خلقوا ليجاهدوا، حتى يلاقوا ربهم، وأنّهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل، والأمم التي يكونون فيها، وهذه السورة قد بدِئت بما يتضمن نصرة المؤمنين، ودفع شماتة أعدائهم المشركين، وهم يجاهدون في الله ولوجهه، فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة.

٢ ـ أن ما في هذه السورة، من الحجج على التوحيد، والنظر في الآفاق والأنفس، مفصل لما جاء منه مجملاً في السورة السالفة، إذ قال في السالفة: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ إلخ، وهنا بين ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ. وقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

تسميتها: سميت بالروم لما فيها من ذكر لفظ الروم، وقصتهم.

فضلها: ومن فضائلها: ما[٢] روي عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الروم.. كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته». ولكنه من «الموضوعات».

---

(١) الخازن.

وأخرج عبد الرزاق، عن معمر عن عبد الملك بن عمير: أن النبي - ﷺ - قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم.

الناسخ والمنسوخ: وقال ابن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة الروم آياتها كلها محكمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾
فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ
مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ
أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ
فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي
ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ
وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ
أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا
وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ
﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

وقد قدمنا بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، فراجعها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده، وأنكروا البعث كما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.. أردف هذا: أن الإدلة متظاهرة في الأنفس والآفاق، على وجوده وتفرده بخلقها، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنها لم تخلق سدىً، ولا باطلاً، بل خلقت بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، ثم أمرهم بالسير في أقطار الأرض، ليعلموا حال المكذبين، من الأمم قبلهم، وقد كانوا أشد منهم بأساً وقوةً، فكذبوا رسلهم، فأهلكهم الله تعالى، وصاروا كأمسِ الدابر، والمثل الغابر، وما كان ذلك إلا بظلمهم، وفساد أنفسهم، لا بظلم الله تعالى لهم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين أن عاقبة المجرمين النار، وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر.. لم يتركه دعوىً بلا بينة، بل أقام عليه الدليل، بأن أبان: أن من خلق الخلق بقدرته وإرادته.. لا يعجز عن رجعته، ثم بين ما يكون حين الرجوع، من إفلاس المجرمين، وتحقق بأسهم وحيرتهم، إذ لا تنفعهم شركاؤهم، بل هم يكفرون بهم، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، فالأولون يمتعون بسرور وحبور، والآخرون يصلون النار دأباً، لا يغيبون عنها أبداً.

قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين حال الفريقين، المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والكافرين المكذبين بالآيات، وما أعد لكل منهما من الثواب والعقاب.. أرشد إلى ما يفضي إلى الحال الأولى، وينجي من الثانية،

---

(١) المراغي.

وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به، وحمده والثناء عليه، بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال، ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم، التي هي أشبه بالموت منها إلى اليقظة، وكأنها حياة بعد موت.. أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقةً.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: لما بين سبحانه وتعالى عظيم قدرته في خلق السماوات والأرض بالحق، وهو حالة ابتداء العالم، وفي مصيرهم إلى الجنة والنار، وهي حالة الانتهاء.. أمر تعالى بتنزيهه من كل سوء، والظاهر أنه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات، لما يتجدد فيها من النعم، ويحتمل أن يكون كنايةً عن استغراق زمان العبد، وهو أن يكون ذاكراً ربه، واصفه بما يجب له على كل حال، وقال الزمخشري: لما ذكر الوعد والوعيد.. أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد. انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أمر بتنزيهه عن الأسواء والنقائص، التي لا تليق بجلاله وكماله، وذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.. ذكر هنا أدلةً باهرةً، وحججاً ظاهرةً على البعث والإعادة، منها خلقكم من التراب الذي لم يشم رائحة الحياة، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد، فإذا مات الأب.. قام ابنه مقامه، لتبقى سلسلة الحياة متصلةً بهذا النوع، وبسائر الأنواع الأخرى، بالازدواج والتوالد، إلى الأجل الذي قدره الله لأمد هذه الحياة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] دلائل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وجوده، بما ذكره في خلق الإنسان.. أعقبه بذكر الدلائل في الأكوان المشاهدة، والعوالم المختلفة، وفي اختلاف ألوان البشر ولغاتهم، التي لا حصر لها، مع كونهم من أبٍ واحد، وأصل واحد، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلاً، وحركتهم نهاراً في السعي على الأرزاق، والجد والكد فيها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات، إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ما ذكره المفسرون[1]: أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم، لأن فارساً كانوا مجوساً أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يقال له: شهرمان، وبعث قيصر رجالاً وجيشاً، وأمّر عليهم رجلاً يدعى بخين، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فإنكم إن قاتلتمونا.. لنظهرن عليكم، فأنزل الله هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا محمد - ﷺ - فقام إليه أبيّ بن خلف الجمحيّ، فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، والمناحبة بالحاء المهملة: القمار والمراهنة؛ أي: أراهنك على عشر قلائص مني، وعشر قلائص منك، فإذا ظهرت فارس على الروم.. غَرمتَ، وإذا ظهرت الروم على فارس.. غَرمتُ، ففعلوا، وجعلوا الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى النبي - ﷺ - وأخبره بذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي - ﷺ -: «ما هكذا

---

(١) الخازن.

ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع، فزايده في الخطر، وماده في الأجل» فخرج أبو بكر، فلقي أبياً، فقال: لعلك ندمت، فقال: فتعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل، فاجعلها مئة قلوص، ومئة قلوص إلى تسع سنين، فقال: قد فعلت، فلما خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة.. أتاه ولزمه وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة، فأقم لي ضامناً كفيلاً، فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أبيّ بن خلف أن يخرج إلى أحد.. أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، وقال: والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد، قال: ثم حين رجع أبي بن خلف إلى مكة، ومات بها من جراحته التي جرحه النبي - ﷺ - حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم، وقيل: كان يوم بدر، وربطت الروم خيولهم بالمدائن، وبنوا بالعراق مدينةً، وسموها روميةً، فقمر أبو بكر، وأخذ مال الخطر من ورثته، وجاء به للنبي - ﷺ -، وذلك قبل أن يحرم القمار، فقال النبي - ﷺ -: «تصدق به».

وكان سبب غلبة الروم فارساً، على ما قاله عكرمة وغيره: أن شهرمان لما غلب الروم.. لم يزل يطؤهم، ويخرب مدائنهم، حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب، قال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى، فكتب إلى شهرمان: إذا أتاك كتابي.. فابعث إليّ برأس أخيك فرحان، فكتب إليه: أيها الملك إنك لا تجد مثل فرحان، إن له نكاية وصولة في العدو فلا تفعل، فكتب إليه إن في رجال فارس خلفاً عنه، فعجل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس: أني قد عزلت عنكم شهرمان، واستعملت عليكم فرحان، ثم بعث مع البريد صحيفةً صغيرةً، وأمره فيها بقتل شهرمان، وقال: إذا ولي فرحان الملك، وانقاد له أخوه.. فأعطه الصحيفة، فلما وصل البريد إلى شهرمان.. عرض عليه كتاب كسرى، فلما قرأه قال: سمعاً وطاعةً، ونزل عن سرير الملك، وأجلس عليه أخاه فرحان، فدفع البريد الصحيفة إلى فرحان، فلما قرأها.. استدعى بأخيه شهرمان، وقدمه ليضرب عنقه، فقال له: لا تعجل حتى أكتب وصيتي، قال: نعم، فدعا

بسفطٍ ففتحه، وأعطاه ثلاث صحائف منه، وقال: كل هذا راجعت فيك كسرى، وأنت تريد قتلي بكتابٍ واحدٍ، فرد فرحان الملك إلى أخيه شهرمان، فكتب إلى قيصر ملك الروم: أما بعد، إن لي إليك حاجةً لا تحملها البريد، ولا تبلغها الصحف، فألقني في خمسين رومياً، حتى ألقاك في خمسين فارسياً، فأقبل قيصر في خمس مئة ألف رميٍّ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق، مخافة أن يريد أن يمكر به، حتى أتاه عيونه فأخبروا: أنه ليس معه إلا خمسون فارسياً، فلما التقيا.. ضربت لهما قبة فيها ديباج، قد خلاها، ومع كل واحد سكين، ودعيا بترجمان يترجم بينهما، فقال شهرمان: إن الذي خرب بلادك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا، وأراد أن يقتل أخي فأبيت عليه، ثم أمر أخي بقتلي فأبى عليه، وقد خلعناه جميعاً، ونحن نقاتله معك، فقال: قد أصبتما، وأشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين، فإن جاوزهما.. فشا، فقتلا الترجمان معاً بسكينهما، فأديلت الروم على فارس عند ذلك، وغلبوهم وقتلوهم، ومات كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية، ففرح هو ومن كان معه من المسلمين بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾. وهذه آية بينة على صحة نبوته - ﷺ - وأن القرآن من عند الله، لأنها أنباء عن علم الغيب.

وعن قتادة: وكان ذلك قبل تحريم القمار، ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد، أن العقود الفاسدة، كعقد الربا وغيره: جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ...﴾ الآية.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾؛ أي: هذه سورة ألم، قال بعضهم: الحروف المقطعات مبادي السور، ومفاتيح كنوز العبر، والإشارة هنا بهذه الحروف الثلاثة إلى قوله: أنا الله، ولي جميع صفات الكمال، ومني الغفران والإحسان، إلى غير ذلك.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ وقهرت، وهم أهل الكتاب على دين عيسى ـ عليه السلام ـ غلبتهم فارس، وهم المجوس عبدة النيران، والغلبة: القهر والاستعلاء على القرن، بما يبطل مقاومته في الحرب، والروم: اسم قبيلة سميت باسم جدّها[١] روم بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ. وقيل: هم بنو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ سمي عيص، لأنه كان مع يعقوب في بطن، فعند خروجهما تزاحما، وأراد كل أن يخرج قبل صاحبه، فقال عيص ليعقوب: إن لم أخرج قبلك.. خرجت من جنب أمي، فتأخر يعقوب شفقة لها، فلذا كان أبا الأنبياء، وعيص أبا الجبارين، والفُرْس بسكون الراء: قوم معروفون، نسبوا إلى فارس بن سام بن نوح عليه السلام؛ أي: غلبتها فارس.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[٢]: في أقرب أرض الشام إلى أرض العرب وفارس، وهي أذرعات وكشكر، أو غلبت الروم في أدنى أرضهم، وأقربها إلى عدوهم. ﴿وَهُم﴾؛ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾؛ أي: من بعد مغلوبيتهم على يد فارس، فهو من إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل: متروك، والأصل: من بعد غلبة فارس إياهم، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس[٣]، ولا وقف عليه، لتعلق ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ به، وهو ما بين الثلاث إلى العشرة؛ أي: فالروم سيغلبون فارس، فيما بين الثلاث والتسع سنوات من الحرب الأولى، فوقع الغلب للروم على رأس سبع سنين من الحرب الأولى، وعبر بالبضع[٤]، ولم يعين إبقاءً للعباد في ربقة نوع من الجهل، تعجيزاً لهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) والواحدي.
(٣) النسفي.
(٤) روح البيان.

والمعنى: أي[1] غلبت فارس الروم في أقرب أرض الروم بالنسبة إلى أرض العرب، إذ الوقعة كانت بين الأردن وفلسطين، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس في بضع سنين، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الواقعة الأولى، ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم، يعد من أكبر الدلائل على إعجازه، وأنه كلام الله، العليم بكل شيء لا كلام البشر، وهذا المعنى على القراءة المشهورة، وقرأ علي[2]، وأبو سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، ومعاوية بن قرة، والحسن: ﴿غلبت﴾ مبنياً للفاعل ﴿سيغلبون﴾ مبنياً للمفعول، ويجوز على هذه القراءة، أن يكون ﴿غلبت﴾ مبنياً للفاعل على أن الضمير فيه لفارس، والروم بالنصب مفعوله؛ أي: غلبت فارس الروم. ﴿وَهُم﴾؛ أي: فارس ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ للروم ﴿سَيُغْلَبُون﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: يكونون مغلوبين في أيدي الروم، ويجوز أن يكون ﴿ٱلرُّومُ﴾ فاعل ﴿غُلِبَتِ﴾ على البناء للفاعل؛ أي: غلبت الروم أهل فارس، وهم؛ أي: الروم بعد غلبهم لفارس ﴿سَيُغْلَبُون﴾ بالبناء للمجهول؛ أي: يكونون مغلوبين في أيدي المسلمين، فكان ذلك في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وقرأ الجمهور: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ مبنياً للمفعول، ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بالبناء للفاعل، وهي القراءة المشهورة التي جرينا عليها في تفسيرنا، وقرأ الجمهور: ﴿غَلَبِهِمۡ﴾ بفتح الغين واللام، وقرأ علي، وابن عمر، ومعاوية بن قرة، وأبو حيوة الشامي، وابن السميفع: بإسكان اللام.

﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ والقضاء والتصرف ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل غلبة الروم على فارس، وهو وقت كونهم مغلوبين ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ﴾؛ أي: ومن بعد غلبة الروم على فارس، وهو وقت كونهم غالبين. والمعنى[3]: أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخراً، ليس إلا بأمر الله وقضائه، كما قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ فمن غلب.. فهو بأمر الله وقضائه

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

وقدره، فهو يقضي في خلقه بما يشاء، ويحكم بما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه.

وقرأ الجمهور ﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُۚ﴾ بضمهما[1]؛ أي: من قبل غلبة الروم، ومن بعدها، ولما كانا مضافين إلى معرفة، وحذفت.. بنيا على الضم، والكلام على ذلك، مذكور في علم النحو، وقرأ أبو السماك، والجحدري، وعون العقيلي: ﴿من قبلٍ ومن بعدٍ﴾ بالكسر والتنوين فيهما، قال الزمخشري: على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنه قيل: قبلاً وبعداً، بمعنى أولاً وآخراً. انتهى.

وقال ابن عطية: ومن العرب من يقول: من قبلٍ ومن بعدٍ، بالخفض والتنوين، وحكى الكسائي عن بعض بني أسد ﴿لله الأمر من قبلٍ ومن بعدُ﴾ الأول مخفوض منون، والثاني مضموم بلا تنوين.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: ويوم إذٍ يغلب الروم على فارس، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم في بضع سنين ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِۚ﴾ للروم، لكونهم أهل كتاب، كما أن المسلمين أهل كتاب، وفيه فأل حسن، لغلبة المؤمنين على الكافرين، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم أولاً، وقد فرح المؤمنون بذلك، وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر، بنزول جبريل بذلك فيه، مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه، قد اجتمعت لهم فرحتان: فرحة بنصر الروم على فارس، وفرحة بنصرهم على المشركين، وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارس، والأول أولى.

وقال بعضهم: يفرح المؤمنون بقتل الكفار بعضهم بعضاً، لما فيه من كسر شوكتهم، وتقليل عددهم، لا بظهور الكفار، كما يفرح بقتل الظالمين بعضهم بعضاً.

---

(١) البحر المحيط.

ثم أكد قوله: لله الأمر بقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أن ينصره من ضعيف وقوي من عباده، وهذا كلام مستأنف، مقرر لمضمون قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والغلبة، فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه، كائناً من كان. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في الرحمة، فينصر من يشاء أن ينصره أي فريق كان، أو لا يعز من عادى، ولا يذل من والى، وتقديم وصف العزة لتقدمه في الاعتبار.

والمعنى: أي[1] ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه، ويغلبه عليه على مقتضى السنن التي وضعها في الخليقة، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر[2] مؤكد لنفسه؛ أي: وعدهم الله سبحانه بالنصر وبالفرح وعداً، لأن ما قبله، وهو ﴿يومئذ﴾ إلخ: في معنى الوعد، إذ الوعد هو: الإخبار بإيقاع شيء نافع قبل وقوعه، وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ إلخ من هذا القبيل، ومثل هذا المصدر، يجب حذف عامله كما قدرنا، يعني انظروا وعد الله، ثم استأنف تقرير معنى المصدر، فقال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لا هذا الذي في أمر الروم، ولا غيره مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه سبحانه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المشركون، وأهل الاضطراب ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة وعده لجهلهم، وعدم تفكرهم في شؤون الله تعالى، نفى عنهم العلم النافع للآخرة، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فيما سيأتي، والضمير في ﴿يعلمون﴾: راجع للأكثر.

والمعنى: أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس، والله لا يخلف ما وعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لجهلهم بشؤونه تعالى، وعدم تفكرهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

في النواميس والسنن، التي وضعها في الكون، فإنه قد جعل من تلك السنن: أن وعده لا يخلف، إذ هو مبني على مقدمات ووسائل هو يعلمها، وقد رتب عليها تلك العدة التي وعدها، وجعل قانون الغلب في الأمم والأفراد، مبنياً على الاستعداد النفسي، والاستعداد الحربي، فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر، من أناةٍ وصبرٍ وتضحيةٍ بما تملك من عزيز لديها من مال ونفس.

وهكذا حكم الفرد، فهو لا ينجح في الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام، حتى يغلبها بجده وكده، فهذه الأمور وأمثالها، تحتاج إلى دقة نظر، لا يدركها إلا ذوو البصائر.

﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: يعلم أكثرهم ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: ما أدته إليه حواسهم من زخارفها وملاذها، وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم، الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها، وعكوفهم عليها، فكأن علومهم هي علوم البهائم، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها وفناؤها، وتنكير ﴿ظَٰهِرٗا﴾ للتحقير والتخسيس؛ أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا، يعني: أمر معاشهم، كيف يكسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يشققون أنهارها، ويبنون قصورها، وقال الحسن: إن أحدهم يأخذ بيده درهماً ويقول: وزنه كذا، ولا يخطىء، وكذا يعرف رداءته وجودته، وهو لا يحسن يصلي.

وقيل: يعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها، وقوله: ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها: أنها مجاز للآخرة تتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، ذكر أبو حيان.

ولا فرق[1] بين عدم العلم، وبين العلم المقصور على الدنيا، وفي

---

(١) روح البيان.

«التيسير»: قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفي للعلم بأمور الدين، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾: إثبات للعلم بأمور الدنيا فلا تناقض، لأن الأول: نفي الانتفاع بالعلم بما ينبغي، والثاني: صرف العلم إلى ما لا ينبغي، ومن العلم القاصر: أن يهيىء الإنسان أمور شتائه في صيفه، وأمور صيفه في شتائه، وهو لا يتيقن بوصوله إلى ذلك الوقت، ويقصر في الدنيا في إصلاح أمور معاده، ولا بد له منها.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى، والمطلب الأسنى، والنعمة الدائمة، واللذة الخالصة، ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: ساهون، لايلتفتون إليها، ولا يعدون لها ما يحتاج إليه فيها بل لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدي إلى معرفتها من أحوالها، ولا يتفكرون فيها، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها.

و﴿هُمْ﴾ الثانية: تكرير للأولى للتأكيد، يفيد أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، أو مبتدأ و﴿غافلون﴾ خبر، والجملة: خبر للأولى، وفي الآية تشبيه لأهل الغفلة بالبهائم، المقصور إدراكاتها من الدنيا على الظواهر الحسية، دون أحوالها التي هي من مبادي العلم بأمور الآخرة، وغفلة المؤمنين: بترك الاستعداد لها، وغفلة الكافرين بالجحود بها، وقال بعضهم: من كان عن الآخرة غافلاً.. كان عن الله أغفل، ومن كان عن الله غافلاً.. فقد سقط عن درجات المتعبدين. انتهى.

والمعنى[1]: أي وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت، وأنها ستلبس ثوباً آخر في حياة أخرى، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة.. لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق، ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلاً، وهي ما قبلت تلك الآلام واحتملتها، إلا لأنها توقن بسعادة أخرى، وراء ما تقاسي من المتاعب في هذه الحياة، ولله در القائل:

وَمِنَ ٱلْبَلِيَّةِ أَنْ تَرَىٰ لَكَ صَاحِباً فِيْ صُوْرَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلسَّمِيْعِ ٱلْمُبْصِرِ

---

(١) المراغي.

فَـطِـنٌ بِـكُـلِّ مُـصِـيْـبَـةٍ فِـيْ مَـالِـهِ   وَإِذَا يُـصَـابُ بِـدِيْـنِـهِ لَـمْ يَـشْـعُـرِ

و﴿الهمزة﴾: في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾: ظرف للتفكر، وذكره مع ظهور استحالة كونه في غيرها، لتصوير حال المتفكر، فهو من بسط القرآن نحو: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾.

والتقدير[1]: أقصر كفار مكة نظرهم على ظاهر الحياة الدنيا، ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ﴾؛ أي: لم يخلق السماوات والأجرام العلوية ﴿وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: الأجرام السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وما بين السماوات والأرض من المخلوقات، ملتبسة بشيء من الأشياء ﴿إِلَّا﴾ حالة كونها ملتبسةً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والمصلحة، ليعتبروا بها، ويستدلوا بها على وجود الصانع ووحدته وقدرته، وإنما جعل متعلق الفكر والعلم هو الخلق دون الخالق، لأن الله تعالى منزه عن أن يوصف بصورة في القلب، ولهذا روي: «تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله».

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على الحق؛ أي: وإلا بأجل معين، قدره الله تعالى لبقائها، لا بد لها من أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة، وقوله[2]: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية، وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إشارة إلى معاد الإنسان، فإن مجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات.

وقيل: إن قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾: مفعول للتفكر، والمعنى عليه؛ أي: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك في خلق الله لهم ولم يكونوا شيئاً، ثم تصريفهم أحوالاً وتارات، حتى صاروا كاملي الخلق، كاملي العقل، فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء منهم بإساءته، لا يظلم أحداً منهم فيعاقبه بدون جرم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

صدر منه، ولا يحرم أحداً منهم جزاء عمله، لأنه العدل الذي لا يجور، فهو ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالعدل، وإقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى، فإذا حل الأجل.. أفنى ذلك كله، وبدل الأرض غير الأرض، وبرزوا للحساب جميعاً.

ثم ذكر أن كثيراً من الناس غفلوا عن الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع غفلتهم عن الآخرة، وإعراضهم عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بلقاء حسابه وجزائه بالبعث، و﴿الباء﴾: متعلقة بقوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾، و﴿اللام﴾: هي المؤكدة، فلا تمنع تعلق ما قبلها بما بعدها، والمراد بهؤلاء الكفار: مطلق الكفار، أو كفار مكة؛ أي: منكرون جاحدون، يحسبون أن الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون بحلول الأجل المسمى، لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم، ولو تفكروا فيها، ودرسوا عجائبها.. لأيقنوا بلقاء ربهم، وأن معادهم إليه بعد فنائهم.

ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل الواضحة، من إهلاك من جحد نبوتهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التوبيخي، المضمن للتقرير، داخلة على محذوف معلوم من السياق. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد هؤلاء المكذبون من كفار مكة في أماكنهم، ولم يسيروا ويمشوا في أقطار الأرض ونواحيها ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ويشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كيف كان جزاء الأمم الذين كانوا من قبلهم؛ أي: من قبل أهل مكة، وكيف كان مآلهم حين كذبوا رسلهم، فأهلكوا، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وقد ساروا وقت التجارات في أقطار الأرض، وشاهدوا آثارهم، فكيف لا يتعظون.

ثم بين سبحانَهُ مبدأ أحوال تلك الأمم ومآلها، فقال: ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ أي: كان الذين من قبلهم ﴿أَشَدَّ﴾ وأقوى ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ في الجسم، وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَثَارُواْ﴾؛ أي: أثار الذين من قبلهم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: حرثوها وقلبوها للزراعة والغرس، وزاولوا أسباب ذلك، ولم

يكن أهل مكة أهل حرث وزرع ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾؛ أي: عمر أولئك الأمم الأرض بفنون العمارات، من الزراعة، والغرس، والبناء، وغيرها مما يعد عمارة ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾؛ أي: عمارة أكثر كماً وكيفاً وزماناً من عمارة أهل مكة إياها، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالأبنية، والزراعة، والغراس، كيف لا، وأهل مكة أهل وادٍ غير ذي زرع، ما لهم إثارة الأرض أصلاً، ولا عمارة لهم رأساً، فما هو إلا تهكم بهم، وتضعيف حالهم في دنياهم.

وقرأ أبو جعفر[1]: ﴿وأثاروا الأرض﴾ بمدة بعد الهمزة. وقال مجاهد: ليس بشيء، وخرجه أبو الفتح على الإشباع. وقرأ أبو حيوه: ﴿وآثروا الأرض﴾ بحذف ألف بين المثلثة والراء، من الأثرة، وهو الاستبداد بالشيء، وقرىء: ﴿وأثروا الأرض﴾؛ أي: أبقوا عنها آثاراً.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرات، والآيات الواضحات، والحجج القاطعات، فكذبوهم، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بما فعل بهم من العذاب والإهلاك ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ من غير جرم يستدعيه من جانبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب.

والمعنى[2]: أي أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة في البلاد التي يسلكونها تجراً، فينظروا إلى آثار الله فيما كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرهم في تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد منهم قوةً، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء، ثم أهلكهم الله تعالى بكفرهم وتكذيبهم رسله، وما كان الله بظالم لهم بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، بمعصيتهم ربَّهم.

والخلاصة[3]: أنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر، فقد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

كانوا أكثر منكم أموالاً وأولاداً، ومكنوا في الدنيا تمكيناً، لم تبلغوا معشاره، وعمروا فيها أعماراً طوالاً، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ولما جاءتهم الرسل بالبينات.. كذبوهم، وفرحوا بما أوتوا، فأخذوا بذنوبهم، ولم تغن عنهم أموالهم شيئاً، ولم تحل بينهم وبين بأس الله تعالى.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿عاقبة﴾ بالرفع، على أنها اسم ﴿كَانَ﴾، وتذكير الفعل حينئذٍ لكون تأنيثها مجازياً، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبرها، والمعنى؛ أي: ثم بعد إهلاكهم في الدنيا، كان عاقبة الذين عملوا السيئات في الآخرة الدار السيئة، التي هي نار جهنم، والعقوبة التي هي أسوأ العقوبات وأفظعها، وهي العقوبة بالنار.

وفيه وضع الظاهر، وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مقام المضمر، لأن مقتضى السياق أن يقول: ثم كان عاقبتهم، وقوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول لأجله، علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوي والأخروي؛ أي: أهلكهم الله سبحانه في الدنيا، ثم كان عاقبتهم في الآخرة الدار السيئة، لأجل أن كذبوا بآيات الله، المنزلة على رسله، ومعجزاته الظاهرة على أيديهم.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾ داخل معه في حكم العلة؛ أي: لأجل تكذيبهم بأيات الله تعالى، واستهزائهم بها، وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده.

وقرأ الكوفيون وابن عامر[1]: ﴿عاقبة﴾ بالنصب، على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مصدر أساؤوا، كالرجعى، أو صفة لمصدر محذوف، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾: اسمها المؤخر، والتقدير: ثم كان التكذيب والاستهزاء عاقبة الذين عملوا السوأى، أو عملوا الأعمال السيئة، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: تأنيث الأسوأ، كالحسنى، تأنيث الأحسن، أو مصدر كالبشرى والرجعى، وصف به العقوبة مبالغةً، كأنها نفس السوأى، وقيل: السوأىٰ: اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم

---

(١) البحر المحيط.

للجنة، وإنما سميت سوأى، لأنها تسوء صاحبها، وقرأ الأعمش، والحسن: ﴿السوى﴾ بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو فيها، كقراءة من قرأ ﴿بالسو﴾ بالإدغام في يوسف، وقرأ ابن مسعود: ﴿السوء﴾ بالتذكير.

وحاصل معنى الآيات[1]: أن الأمم السالفة المكذبة، عذبوا في الدنيا والآخرة، بسبب تكذيبهم واستهزائهم، وسائر معاصيهم، فلم تنفعهم قوتهم، ولم تمنعهم أموالهم من العذاب والهلاك، فما الظن بأهل مكة، وهم دونهم في العدد وقوة الجسد.

فائدة: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قاله[2] هنا وفي فاطر وفي أول المؤمن بالواو، وفي آخر سورة المؤمن قاله بالفاء، حيث قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأن ما هنا موافق لما قبله، وهو: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ ولما بعده، وهو ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وما في فاطر موافق أيضاً لما قبله، وهو ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولما بعده وهو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ وما في أول المؤمن موافق لما قبله، وهو ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وما في آخرها موافق لما قبله، وهو ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وما بعده، وهو: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ فناسب فيه الفاء، وفي الثلاثة قبله الواو.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[3] قاله هنا بحذف ﴿كَانُوٓا۟﴾ قبل قوله: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ وحذف الواو بعده، وقاله في فاطر بحذف ﴿كَانُوٓا۟﴾ أيضاً، وبذكر الواو، حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وفي أوائل غافر بذكر ﴿كَانُوٓا۟﴾ دون الواو وزيادة ﴿هُمْ﴾ حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) فتح الرحمٰن.

﴾ وفي آخرها بحذف الجميع، لأن ما في أوائلها وقع فيه قصة نوح، وهي مبسوطة فيه، فناسب فيه البسط، وحذف الجميع في أواخرها، اختصاراً لدلالة ذلك عليه، وذكر هنا وفي فاطر موافقة لذكرها قبل وبعد.

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أي: ينشئهم ويخلقهم أولاً في الدنيا، وهو الإنسان المخلوق من النطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا؛ أي: يحييهم في الآخرة، ويبعثهم بعد الموت، وتذكير الضمير وإفراده، باعتبار لفظ الخلق، ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم وإعادتكم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى موقف حسابه تعالى وجزائه ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون، لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب، والإتيان بضمير الجمع باعتبار معنى الخلق.

وقرأ عبد الله وطلحة[1]: ﴿يبدىء﴾ بضم الياء وكسر الدال، والجمهور: بفتحها، وقرأ أبو بكر، وأبو عمرو، وروح: ﴿يرجعون﴾ بالتحتية على الأصل، والجمهور: بالفوقية على الخطاب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة التي هي وقت إعادة الخلق، ورجعهم إليه للجزاء، والساعة[2]: جزء من أجزاء الزمان، عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك، لسرعة حسابها، كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أو لما نبه عليه قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يسكت المشركون سكوت من انقطعت عن الحجة، متحيرين آيسين من الاهتداء إلى الحجة، أو من كل خير حين عاينوا العذاب، وقرأ[3] الجمهور: ﴿يبلس﴾ بكسر اللام على البناء للفاعل، وقرأ علي، والسلمي: بفتحها على البناء للمفعول، من أبلسه: إذا أسكته.

ومعنى الآيتين: أي[4] الله سبحانه ينشىء جميع الخلق بقدرته، وهو منفرد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

بإنشائه من غير شريك ولا ظهير، ثم يعيده خلقاً جديداً بعد إفنائه وإعدامه، كما بدأه خلقاً سوياً ولم يك شيئاً، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم، فيجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم بين ما سيحدث في ذلك اليوم من الأهوال للأشقياء، والنعيم والحبور للسعداء، فقال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.. إلخ؛ أي: ويوم تجيء الساعة التي فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم، وحشرهم إلى موقف الحساب، يسكت الذين أشركوا بالله، واجترحوا في الدنيا مساوي الأعمال، إذ لا يجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال.

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام.. نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم﴾؛ أي: ولا يكون لهؤلاء المشركين ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ أي: من أوثانهم التي عبدوها رجاء الشفاعة، أو رؤسائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ يستنقذونهم، ويجيرونهم من عذاب الله، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم، إذ قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وعبر[١] بالمضارع المنفي بـ﴿لم﴾ الذي كان ماضي المعنى، لتحققه في علم الله، وكذا يقال فيما بعده، وصيغة الجمع في قوله: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ لوقوعها في مقابلة الجمع؛ أي: لم يكن لكل واحد منهم شفيع أصلاً، وأضاف الشركاء إليهم في قوله: ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ لأنهم أشركوهم في أموالهم، وقيل: لأنهم اتخذوها بزعمهم شركاء لله.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾ بالياء التحتية، وقرأ خارجة، والأريس كلاهما عن نافع، وابن سنان عن أبي جعفر، والأنطاكي عن شيبة، بتاء التأنيث.

وكتب في المصحف[٣]: ﴿شفعوا﴾ بواو قبل الألف كما كتب: ﴿علمؤا﴾ بني إسرائيل في الشعراء، و﴿السوأى﴾ بالألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم.. ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله: ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: وكان عبدة الأصنام يومئذٍ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: بآلهتهم ﴿كَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: جاحدين متبرئين منهم، يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين؛ أي: ويكونون يكفرون بآلهتهم حيث يئسوا منهم، وعبر بالماضي أيضاً، إشارةً إلى تحققه في علم الله تعالى، كما سبق.

ثم بين سبحانه أن الله يميز الخبيثين من الطيبين، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: ويوم تجيء الساعة التي يحشر فيها الخلق إلى الله، أعيد لتهويله، وتفظيع ما يقع فيه، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيد لفظي لما قبله؛ أي: يوم إذ تقوم الساعة ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾؛ أي: يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به، فأما أهل الإيمان به.. فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والمراد: تفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾ لا تفرق المجرمين خاصة، والمراد بالتفرق: أن كل طائفة تنفرد، وليس المراد: تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً، قال قتادة: فرقة والله لا اجتماع بعدها، وقال الحسن: لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا.. ليتفرقن يوم القيامة، هؤلاء في أعلى عليين، وهؤلاء في أسفل السافلين.

ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ عظيمة؛ أي: في رياض الجنة، وهي محاسنها وملاذها، وخص الروضة بالذكر، لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً، ولا أطيب نشراً من الرياض، ففيه تقريب المقصود من أفهامهم ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يسرون سروراً تهللت له وجوههم، وبألوان الزهر والسندس الأخضر يتمتعون، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنيء، وقيل: ينعمون، وقيل: يكرمون، والأولى أولى.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل ﴿وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: البعث بعد الموت،

والنشور للدار الآخرة، صرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات، للاعتناء بأمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر والتكذيب ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: مدخلون في العذاب على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً، قال بعضهم: الإحضار: إنما يكون على إكراه، فيجاء به على كراهة؛ أي: يحضرون العذاب في الوقت الذي يحبر فيه المؤمنون في روضات الجنان، فيكون على عذاب وويل وثبور، كما يكون المؤمنون على ثواب وسماع وحبور، أما من يؤمن ويعمل السيئات.. فليس دائم الحضور في العذاب، وليس من المحبورين غاية الحبور في رياض الجنة، فعلى العاقل أن يجتنب عن القيل والقال، ويكسب الوجد والحال، من طريق صالحات الأعمال، فإن لكل عمل صالح أثراً، ولكل ورع وتقوى ثمرة، فمن حبس نفسه في زاوية العبادة والطاعة، وتخلى في خلوة الذكر والفكر.. تفرج في رياض الجنان بما قاسى الأعضاء والجنان، ومن أغلق باب سمعه عن سماع الملاهي، وصبر عنه.. فتح له باب سماع في الجنة، وإلا فقد حرم من أمثل اللذات، كما أن من شرب الخمر في الدنيا.. لم يشربها في الآخرة.

وأشار بالإحضار: إلى أن جهنم سجن الله تعالى، فكما أن المجرم في الدنيا يساق إلى السجن، وهو كاره له، فكذا المجرم في العقبى يساق ويجر إلى النار بالسلاسل والأغلال، فيذوق وبال كفره وتكذيبه، وحضوره محاضر أهل الهوى من أهل الملاهي، وربما يحضر في العذاب من ليس بمكذب، إلحاقاً له في بعض الأوصاف، وإن كان غير مخلد فيه، وربما تؤدي الجراءة على المعاصي، والإصرار عليها إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، والتسبيح محمول على حقيقته وظاهره الذي هو تنزيه الله تعالى عن السوء، والثناء عليه بالخير.

والمعنى: إذا علمتم أيها العقلاء المميزون، أن الثواب والنعيم للمؤمنين العاملين، والعذاب والجحيم للكافرين المكذبين، فسبحوا الله؛ أي: نزهوه عن كل ما لا يليق بشأنه تعالى، وقولوا: سبحان الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في

المساء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وتدخلون في الصباح، والإمساء: الدخول في المساء، كما أن الإصباح: الدخول في الصباح، كما سيأتي في مبحث اللغة.

والمعنى: وسبحوه تعالى وقت دخولكم في المساء، وساعة دخولكم في الصباح، وجملة قوله: ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره، يحمده خاصةً أهل السماوات والأرض، ويثنون عليه[1]، معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح، كما في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

وفيه لطيفة: وهو أن الله تعالى، لما أمر العباد بالتسبيح.. كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله سبحانه لنفعهم، لا لنفع يعود على الله تعالى، فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه، لأجل نعمة هدايتهم إلى التوفيق ا هـ. «رازي».

والمعنى: احمدوه على نعمهِ العظام في الأوقات كلها، فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى، ووجوبه على أهل التمييز، من خلق السماوات والأرض في معنى الأمر على أبلغ وجه، وتقديم التسبيح على التحميد، لأن التخلية بالمعجمة، مقدمة على التحلية بالمهملة، كشرب المسهل مقدم على شرب المصلح، وكالأساس مقدم على الحيطان، وما يبنى عليها من النقوش، والجار والمجرور في قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بنفس الحمد.

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾؛ أي: آخر النهار، معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾؛ أي: وسبحوه وقت العشي، وتقديمه على قوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾؛ أي: تدخلون في الظهيرة التي هي وسط النهار، لمراعاة الفواصل، وتغيير الأسلوب، لأنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي، كالمساء والصباح والظهيرة.

وإنما خص[2] بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح، لأن الإنسان لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح، لكونه محتاجاً إلى تحصيل مأكول ومشروب

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

وملبوس ومركوب، كما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه، فإن الله يطهره في أولهِ، وهو دنياه، وفي آخره وهو عقباه، وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره، وتخصيص[1] التسبيح والتحميد بتلك الأوقات، للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته، وأنواع رحمته، ونعمته، شواهد ناطقة بتنزهه تعالى، واستحقاقه الحمد موجبة لتسبيحه، وتحميده حتماً.

وعبارة «المراغي» هنا: وتخصيص[2] هذه الأوقات من بين سائرها، لما فيها من التبدل الظاهر في أجزاء الزمن، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة، كالانتقال من الضياء إلى الظلام في المساء، ومن الظلام إلى النور في الصباح، ومن ضياءٍ تامٍ وقت الظهيرة، إلى اضمحلالٍ لذلك الضياء وقت العشي. وهكذا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها: ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. فالمعنى عليه: فصلوا لله في هذه الأوقات، الصلاة المشتملة على التسبيح والتحميد، وسائر الأذكار.

والأولى أن يفسر التسبيح بالتنزيه[3]؛ أي: نزهوا الله سبحانه في هذه الأوقات عن صفات النقص، وصفوه بصفات الكمال، لأنه يتضمن الصلاة، لأنَّ التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم، ويتناول التنزيه باللسان، وهو الذكر الحسن، ويتناول التنزيه بالأركان، وهو العمل الصالح، والثاني ثمرة الأول، والثالث ثمرة الثاني، فالإنسان إذا اعتقد شيئاً.. ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال.. ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله، فاللسان: ترجمان الجنان، والأركان: ترجمان اللسان، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان، فهي مشتملة على الذكر باللسان، والتصديق بالجنان، فهو نوع من أنواع التنزيه،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الرازي.

والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع، فيجب حمله على كل ما هو تنزيه، الذي من جملته الصلاة ا هـ. «رازي».

وقدم[1] الإمساء على الإصباح، كما قدم في قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ والظلمات على النور، وقابل بالعشي الإمساء، وبالإظهار الإصباح، لأن كلا منهما يعقب بما يقابله، فالعشي يعقبه الإمساء، والإصباح يعقبه الإظهار، ولما لم يتصرف من العشي فعل لا يقال أعشى، كما يقال: أمسى وأصبح وأظهر.. جاء التركيب ﴿وَعَشِيًّا﴾.

وقرأ عكرمة: ﴿حينا تمسون وحينا تصبحون﴾ بتنوين ﴿حين﴾، والجملة: صفة حذف منها الرابط، تقديره تمسون فيه، وتصبحون فيه.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث الواردة في فضل التسبيح

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، في كل يوم مئة مرة.. حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر».

وعنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة.. لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه». أخرجهما الترمذي، وقال فيهما: حسن صحيح.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، متفق عليه، واللفظ للبخاري.

وعن جويرية رضي الله عنها بنت الحارث زوج النبي ـ ﷺ ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ خرج ذات غداة من عندها، وهي في مسجدها، فرجع بعد ما تعالى النهار فقال: «ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجت بعد» قالت: نعم، فقال: «لقد قلتُ بعدَك أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مرات، لو وزنت بكلماتك لوزنتهن: سبحان الله وبحمده

(١) البحر المحيط.

عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» أخرجه مسلم.

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة؟» فسأله سائل من جلسائه، قال: كيف يكتسب ألف حسنة؟ قال: «يسبح الله مئة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة». أخرجه مسلم، وفي رواية غير مسلم: «يحط عنه أربعين ألفاً».

وأخرج أبو داود، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه: عن ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يصبح ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في ليلته، ومن قال حين يمسي: أدرك ما فاته في يومه»، وإسناده ضعيف.

وعن النبي ـ ﷺ ـ[1]: «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى.. فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآية».

ولما ذكر الإبداء والإعادة.. ناسبه ذكر إخراج الحي من الميت وعكسه، حيث قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة، وأيضاً المؤمن من الكافر، والمصلح من المفسد، والعالم من الجاهل، وأيضاً القلب الحي بنور الله من النفس الميتة عن صفاتها وأخلاقها الذميمة، إظهاراً للطفه ورحمته. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان، وأيضاً الكافر والمفسد، والجاهل من المؤمن والمصلح والعالم، وأيضاً القلب الميت عن الأخلاق الحيوانية الشهوانية، من النفس الحية بالأخلاق الحميدة الروحانية.

قيل: ووجه[2] تعلق هذه الآية بالتي قبلها: أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم، إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم، فإحياء الميت عنده تعالى، كتنبيه النائم، وإماتة الحي، كتنويم المنتبه.

---

(١) البيضاوي. (٢) الشوكاني.

﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالمطر والنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؛ أي: بعد قحلها ويبسها، وهو شبيه بإخراج الحي من الميت ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإخراج ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياءً إلى موقف الحساب، فإنه أيضاً يعقب الحياة الموت.

خلاصته: أن الإبداء والإعادة في قدرته سواء، قال مقاتل: يرسل الله يوم القيامة ماء الحياة من السماء السابعة، من البحر المسجور، بين النفختين، فينشر عظام الموتى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ فكما ينبت النبات من الأرض بالمطر، فكذا ينبت الناس من القبور بمطر البحر المسجور كالمني، ويحيون به.

والمعنى: أي وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه، وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها، يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تخرجون﴾ بالتاء المضمومة مبنياً للمفعول، وقرأ حمزة والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: بفتح تاء الخطاب وضم الراء، مبنياً للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾.

ثم ذكر سبحانه آياته من بدء خلق الإنسان آيةً آيةً إلى حين بعثه من القبر، فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن آياته سبحانه وتعالى، وعلاماته الدالة على بعثكم ﴿أَنۡ خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم في ضمن خلق آدم، لأنه خلقه منطوياً على خلق ذرياته انطواءً إجمالياً، أو بوساطة خلق غذائكم ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ لم يشم رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه ولا بين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم، وإنما خلق الله[2] الإنسان من التراب، ليكون متواضعاً ذلولاً حمولاً مثله، والأرض وحقائقها دائمة في الطمأنينة والإحسان بالوجود، ولذلك لا تزال ساكنةً وساكتةً، لفوزها بوجود مطلوبها، فكانت أعلى مرتبةً، وتحققت في مرتبة العلو في عين السفل، وقامت بالرضي.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم﴾ يا بني آدم ﴿بَشَرٌ﴾؛ أي: آدميون من لحم ودم، عقلاء ناطقون ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض، وتتصرفون فيما هو قوام معايشكم، و﴿إِذَآ﴾ فجائية، والانتشار: التصرف في الحاجات.

والمعنى: أي[1] ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض، وتتفرقون فيها لطلب معايشكم، فدل بدء خلقكم على إعادتكم، و﴿إِذَآ﴾ الفجائية[2] وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ﴿ثُمَّ﴾ بالنظر إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان، كما حكاه الله سبحانه في مواضع، من كونه نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظماً مكسواً لحماً، فاجأ البشرية والانتشار.

وهذا مجمل[3] ما فصل في قوله تعالى في أوائل سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: إن كنتم في شك من البعث بعد الموت.. فانظروا إلى ابتداء خلقكم، وقد خلقناكم بالأطوار، لتظهر لكم قدرتنا على البعث، فتؤمنوا به، وأنشد بعضهم:

خُلِقْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصاً ... بَصِيْراً بِٱلسُّؤالِ وَبِٱلْجَوَابِ
وَعُدْتُ إِلَىٰ ٱلتُّرَابِ فَصِرْتُ فِيْهِ ... كَأَنِّيْ مَا بَرِحْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى، الدالة على البعث والجزاء ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾؛ أي: لأجلكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم في البشرية والإنسانية، لا من جنس آخر.

وقيل: المراد: حواء، فإنه خلقها من ضلع آدم، فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم، متضمن لخلقهن من أنفسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: إناثاً، والمعنى

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

الأول هو الأوفق بقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ وتميلوا ﴿إِلَيْهَا﴾؛ أي: إلى تلك الأزواج، وتألفوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضام، والتعارف التآنس، كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه، وهذه الحكمة في بعث الرسل من جنس بني آدم.

وقد ذهب بعض العلماء من الفقهاء وغيرهم، إلى جواز المناكحة والعلوق بين الجن والإنس، فقد جعل الله سبحانه أزواجاً من غير الجنس.

والجواب: إن ذلك من النوادر، فلا يعتبر، وليس السكون إلى الجنية كالسكون إلى الإنسية، وإن كانت متمثلة في صورة الإنس.

﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه ﴿بَيْنَكُم﴾ وبين أزواجكم من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، أو رابطة قرابة ورحم ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: شفقة؛ أي: تواداً وتراحماً، بسبب عصمة النكاح، يعطف به بعضكم على بعض، من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة، فضلاً عن مودةٍ ورحمةٍ، وقال(١) مجاهد والحسن، وعكرمة: المودة(٢) النكاح، والرحمة الولد، كنى بذلك عنهما، وقيل: مودةً للشابة، ورحمةً للعجوز، وقيل: مودة للكبير، ورحمةً للصغير، قاله ابن عباس، وقيل: هما اشتباك الرحم، وقيل: المودة من الرحمٰن، والبغض من الشيطان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من خلقهم من تراب، وخلق أزواجهم من أنفسهم، وإلقاء المودة والرحمة بينهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً، ودلائل باهرة على عظمة الله سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتأملون في صنع الله وفعله، فيعلمون ما في ذلك من الحكم والمصالح، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال، لكون التفكر مادةً له يتحصل عنه، وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن الفكر يؤدي إلى الوقوف على المعاني المذكورة، من التوانس والتجانس بين الأشياء، كالزوجين،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وقال في «روح البيان»: لعل الوجه في الختم به: أن إدراك ما ذكر، ليس مما يختص بخواص أهل التفكر، وهم العلماء، بل يدركه من له أدنى شيء من التفكر، والتفكر دون التذكر، ولذا لم يذكر التذكر في القرآن، إلا مع أولي الألباب. انتهى.

وحاصل معنى الآيتين[1]: أي ومن حججه الدالة على أنه القادر على ما يشاء، من إنشاء وإفناء وإيجاد وإعدام، أن خلقكم من تراب بتغذيتكم، إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان غذاؤه النبات، والنبات من التراب، فإن النواة لا تصير شجرة إلا بالتراب الذي ينضم إليه أجزاء مائية، تجعلها صالحة للتغذية، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون في الأرض، تتصرفون فيها في أغراضكم المختلفة، وأسفاركم البعيدة، تكدحون وتجدون لتحصيل أرزاقكم من فيض ربكم، وواسع نعمه عليكم.

ومن آياته الدالة على البعث والإعادة: أن خلق لكم أزواجاً من جنسكم، لتأنسوا بها، وجعل بينكم المودة، والرحمة، لتدوم الحياة المنزلية على أتمّ نظام، إن فيما ذكر من خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم من أنفسكم، وإبقاء المودة والرحمة، لعبرةً لمن تأمل في تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح، فهي لم تخلق عبثاً، بل خلقت لأغراضٍ شتى، تحتاج إلى الفكر، حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذهن والعقل الراجح.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ودلائل وجوده وبراهين قدرته على البعث والنشور ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على عظمهما وكثافتهما، وكثرة أجزائهما بلا مادة، فهو أظهر قدرة على إعادة ما كان حياً قبل ذلك؛ أي: خلقه السماوات المزدانة بالكواكب، والنجوم الثوابت، والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء وخلق الأرض ذات الجبال والوديان، والبحار والقفار، والحيوان والأشجار، فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة، التي هي أجرام السماوات والأرض، وجعلها باقيةً مادامت هذه

---

(١) المراغي.

الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع، وغرائب التكوين، ما هو عبرة للمعتبرين، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم، وينشركم من قبوركم.

﴿و﴾ من آياته وقدرته ﴿اختلاف ألسنتكم﴾ ولغاتكم اختلافاً لا حد له، من عربية، وفارسية، وفرنسية، وإنجليزية، وهندية، وصينية، وتركية، ورومية، وأورمية، إلى نحو ذلك، مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها مع اتحاد المدلول، عجائب وغرائب في المفردات والمركبات.

وعن وهب[1]: إن الألسنة اثنان وسبعون لساناً، منها في ولد حامٍ سبعة عشر، وفي ولد سامٍ تسعة عشر، وفي ولد يافثٍ ستة وثلاثون.

وهذا من قديم الزمان، وأما الآن فقد صارت تعد بالمئات، وقيل: المراد باللغات الأصوات والنغم، قال الراغب: اختلاف الألسنة، إشارة إلى اختلاف اللغات، واختلاف النغمات، فإن لكل لسان نغمةً يميزها السمع، كما أن له صورةً مخصوصةً يميزها البصر، انتهى. فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجهٍ، متفقين في همسٍ واحدٍ، ولا جهارةٍ واحدةٍ، ولا رخاوةٍ ولا فصاحةٍ، ولا لكنةٍ، ولا نظمٍ، ولا أسلوبٍ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، قاله الزمخشري.

﴿و﴾ من آياته اختلاف ﴿ألوانكم﴾ وأشكالكم من البياض والسواد والحمرة، والصفرة والزرقة والخضرة والأدمة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم، لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد، ولولا ذلك الاختلاف.. لوقع الالتباس، وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها، وفي هذا من بديع القدرة، وعجيب الحكمة، ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون.

---

(١) البحر المحيط.

فاختلاف الألسنة والأشكال، يحصل به التمييز بين الأشخاص في الأصوات والألوان، وهذا مما لا غنى عنه في منازع الحياة، ومختلف أغراضها، فكثيراً ما نميز الأشخاص بالأصوات، وبذا نعرف الصديق من العدو، فنتخذ ما يلزم من العدة لكل منهما، كما نميزها بلغاتها، فنعرف من أي الأجناس هي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة، ودلائل واضحة، كثيرة عددها ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام؛ أي: لأولي العلم، الذين يفكرون فيما خلق الله تعالى، الذين هم من جنس هذا العالم، من غير فرق بين بر وفاجر، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقه لحكمة بالغة، فيها عبرة لمن تذكر، وخص[1] العلماء، لأنهم أهل النظر والاستدلال، دون الجهال المشغولين بحطام الدنيا وزخارفها، فلما كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره إنما يمكن بالعلم ختم الآية بالعالمين، ففيه إشارة إلى كمال وضوح الآيات، وعدم خفائها على أحد من الخلق، من ملك وإنس وجن وغيرهم، وقال في «فتح الرحمن»[2]: ختم الآية به، لأن الكل يظلهم السماء، ويقلهم الأرض، وكل منهم متميز بلطيفة يمتاز بها عن غيره، وهذا يشترك فيه جميع العالمين.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿للعالمين﴾ بفتح اللام، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم، وقرأ حفص، وحماد بن شعيب عن أبي بكر، وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو بكسر اللام، إذ المنتفع بها، إنما هم أهل العلم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: ومن أعلام قدرته تعالى، على مجازاة العباد في الآخرة ﴿مَنَامُكُم﴾ مفعل من النوم؛ أي[4]: نومكم الذي هو راحة لأبدانكم، وقطع لأشغالكم، ليدوم لكم به البقاء إلى آجالكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ كما هو المعتاد،

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أيضاً على حسب الحاجة ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾؛ أي: وطلبكم معاشكم فيهما، ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من رزقه، فإن كلاً من المنام، وطلب القوت، يقع في الليل والنهار، وإن كان الأغلب وقوع المنام في الليل، والطلب في النهار.

والمعنى عليه: ومن آياته العظيمة: أنكم تنامون في الليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، كوقت القيلولة، وخصوصاً من كان مشتغلاً في حوائجه في الليل، وابتغاؤكم من فضله فيهما، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل في الليل، كالمسافرين والحراس في الليل وغيرهم، وهذا المعنى هو المناسب للنظم القرآني هاهنا، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أي ومن أياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله في النهار، وهذا المعنى هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى.

قال الزمخشري: والظاهر هو الأول، لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن. انتهى.

وجعلهما[1] من جملة الأدلة على البعث، أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات، والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت.

وقدم[2] الليل على النهار، لأن الليل لخدمة المولى، والنهار لخدمة الخلق، ومعارج الأنبياء - عليهم السلام - كانت بالليل، ولذا قال الإمام النيسابوري: الليل أفضل من النهار، وقال بعضهم: الليل محل السكون، وهو الأصل، والنهار محل الحركة، وهو الفرع، وقال بعض الكبار: لم يقل تعالى: وبالنهار، ليتحقق لنا أن يريد أننا في منام في حال يقظتنا المعتادة؛ أي: أنتم في منام ما دمتم في هذه الدار، يقظةً ومناماً بالنسبة لما أمامكم، فهذا سبب عدم ذكر الباء في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾، والاكتفاء بباء الليل. انتهى.

يعني لو قيل: وبالنهار.. كان لا يتعين فيه ذلك، لجواز أن يكون الجار والمجرور معمولاً لمحذوف معطوف على المبتدأ، تقديره: ويقظتكم بالنهار، ثم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

حذف لدلالة معمولة، أو مقابله عليه، كقوله:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

أي: وسقيتها ماء بارداً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من إيجاد النوم بعد النشاط، والنشاط بعد النوم، الذي هو الموت الأصغر، وإيجاد كل من الملوين بعد إعدامهما، والجد في الابتغاء، مع المفارقة في التحصيل ﴿لَآيَاتٍ﴾ عديدةً على القدرة والحكم، لاسيما البعث ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات والمواعظ، سماع متفكر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث؛ أي: شأنهم أن يسمعوا الكلام من الناصحين، سماع من انتبه من نومه، فجسمه مستريح نشيط، وقلبه فارغ عن مكدرٍ للنصح، مانع عن قبوله، وفيه إشارة إلى أن من لم يتأمل في هذه الآيات.. فهو نائم، لا مستيقظ، فهو غير مستأهل لأن يسمع.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لأن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم، لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفعه إذا ورد.. تيقن أن له صانعاً مدبراً.

قال الخطيب: معنى يسمعون هنا: يستجيبون لما يدعوهم إليه الكتاب.

واعلم[1]: أن النوم فضل من الله سبحانه للعباد، ولكن للعباد أن لا يناموا إلا عند الضرورة، وبقدر دفع الفتور المانع من العبادة، ومن آداب النوم: أن ينام على الوضوء، وإذا استطاع الإنسان أن يكون على الطهارة أبداً فليفعل، لأن الموت على الوضوء شهادة، ويستحب أن يضطجع على يمينه، مستقبلاً للقبلة عند أول اضطجاعه، فإن بدا له أن ينقلب إلى جانبه الآخر.. فعل، ويقول حين يضطجع: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، وكان ـ عليه السلام ـ يقول: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك

(١) روح البيان.

أرفعه، إن أمسكت نفسي.. فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها». ويقول عندما يقوم من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، ورد إلينا أرواحنا، وإليه البعث والنشور».

الإعراب

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④﴾.

﴿الٓمٓ ①﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الٓم، إن قلنا: إنه علم للسورة، والجملة مستأنفة، وتقدم البسط في إعرابها مراراً، فراجعه، ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ②﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿غُلِبَتِ﴾. ﴿وَهُم﴾﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾، و﴿غَلَبِهِمْ﴾: مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: من بعد مغلوبيتهم، وجملة ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة الفعلية، ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، كأنه جواب لسؤال مقدر، وهو أي فائدة في ذكر قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ لأن قوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ لا يكون إلا بعد الغلبة؟ فأجيب بأن فائدته إظهار تمام القدرة، وبيان أن ذلك بأمر الله تعالى وحده. ﴿مِن قَبْلُ﴾: دار ومجرور حال من الضمير المستكن في متعلق الخبر، ﴿وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ معطوف على ﴿مِن قَبْلُ﴾. وهما ظرفان، بنيا على الضم، لقطعهما عن الإضافة لفظاً، لا معنىً، ثم جرا بمن، وبقيا على ضمهما؛ أي: من قبل غلب الروم ومن بعده، ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يومئذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ﴿يَفْرَحُ﴾. ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑥ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَفۡرَحُ﴾ أيضاً. ﴿يَنصُرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: مستأنفة. ﴿يَشَآءُۖ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: من يشاء نصره. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: مصدر نائب مناب فعله، منصوب بفعله المحذوف، تقديره: وعدهم الله النصر وعداً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد مضمون الجملة التي قبلها، وهي قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، و﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخۡلِفُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَعۡدَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة: إما مفسرة مقررة لمعنى المصدر، فلا محل لها من الإعراب، أو حال من المصدر؛ أي: حالة كونه غير مخلف، كما في «الكرخي»، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، أو استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب حال من ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾، والرابط محذوف، تقديره: حالة كون أكثر الناس لا يعلمونه، أو مستأنفة. ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ظَٰهِرٗا﴾، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾، ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿غَٰفِلُونَ﴾، ﴿هُمۡ﴾ تأكيد لـ﴿هُمۡ﴾ الأول، ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر لـ﴿هُمۡ﴾ الأول، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقصر كفار مكة نظرهم على ظاهر الحياة الدنيا، ولم يتفكروا في أنفسهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم

يتفكروا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزون بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بـ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة: مستأنفة، لا تعلق لها بما قبلها، أو معلقة للتفكر، فتكون في محل نصب بإسقاط الخافض، كما في «الجمل». ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، أو حال من الجلالة، ﴿وَأَجَلٍ﴾: معطوف على ﴿الحق﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة لـ﴿أجلٍ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿كَثِيرًا﴾ اسمها، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كافرون﴾، و﴿اللام﴾: لا تمنع ذلك، لأنها وقعت في غير موضعها، وهو خبر ﴿إن﴾. ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿كافرون﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه السياق، ﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد هؤلاء المشركون من أهل مكة في أماكنهم، ولم يسيروا في الأرض، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَسِيرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوفة على ﴿يَسِيرُواْ﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾: مقدم عليها للزومه الصدارة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة: ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ينظروا﴾ معلق عنها باسم الاستفهام، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾:

فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿قُوَّةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، الذي كان اسم ﴿كان﴾: منصوب باسم التفضيل، وجملة ﴿كان﴾: جملة تفسيرية لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كَانُوا﴾، ﴿وَعَمَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَانُوا﴾، ﴿أَكْثَرَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: عمارة أكثر، ﴿مِمَّا﴾ ﴿من﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿عَمَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿من﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿أَكْثَرَ﴾، والتقدير: عمارة أكثر من عمارتهم. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل معطوف على ﴿كَانُوا﴾. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق بـ﴿جاءتهم﴾. ﴿فَمَا كَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فكذبوهم فأهلكهم الله، والجملة المحذوفة: معطوفة على ﴿جاءتهم﴾، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿اللَّهُ﴾ اسمها، ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود، ﴿يظلمهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور: متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ على مذهب البصريين، والتقدير: فما كان الله مريداً لظلمهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَلَكِن﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، والتقدير: ولكن كانوا ظالمين أنفسهم، والجملة الاستدراكية في محل النصب حال من مفعول ﴿يظلمهم﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَاقِبَةَ الَّذِينَ﴾: خبرها مقدم ومضاف إليه، ﴿أَسَاءُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿السُّوأَىٰ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، أي: ثم كانت ﴿السُّوأَىٰ﴾؛ أي: جهنم، عاقبةَ الذين

أساؤوا، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: فأهلكهم الله في الدنيا، ثم كانت ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ عاقبتهم في الآخرة. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: ثم كانت السوأى: عاقبتهم، لتكذيبهم بآيات الله تعالى، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانُوٓا۟﴾: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائهم بها، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، قد تركتها خوفاً من الإطالة.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق، بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ على كونها خبر المبتدأ، ولكنها خبر سببي، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، والظرف: متعلق بـ﴿يُبْلِسُ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿لَّهُم﴾: خبر مقدم لها، ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ حال من ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾: اسم ﴿يَكُن﴾ مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾: معطوفة على جملة ﴿يُبْلِسُ﴾، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرِينَ﴾، ﴿كَٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُبْلِسُ﴾ أيضاً، لأنه في تأويل: ويكونون كافرين بشركائهم، كما سبق في مبحث التفسير، ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: مضاف إليه للظرف، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، تأكيد لفظي للظرف قبله، وجملة

﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾: مستأنفة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يتفرقون يوم القيامة، وأردت بيان مأوى كل فريق، فأقول لك، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، لأن موضعها موضع ﴿أما﴾، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يُحْبَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه: خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: خبر للأول، وجملة الأول، مع خبره جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها، وجوابها: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَفَرُواْ﴾: صلته ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿كذبوا﴾، ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿أولئك﴾: مبتدأ ثان، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾. ﴿مُحْضَرُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مع خبره: جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، من تفرق الناس يوم القيامة فرقتين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وأردتم أن تكونوا من أهل الجنة، فأقول لكم

سبحوا الله سبحاناً، ﴿سبحان الله﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿سبحان﴾، وجملة ﴿تُمْسُونَ﴾: مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿حين تمسون﴾. ﴿وَلَهُ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿له﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، كما في «الشوكاني»، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية: جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿وَعَشِيًّا﴾: ظرف معطوف على ﴿حِينَ﴾، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة مستأنفة، أو حال من الجلالة في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُ﴾، و﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾: معطوف على جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ الأول. ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾ أيضاً: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُحْيِ﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿تُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والتقدير: وتخرجون من قبوركم إخراجاً مثل ذلك الإخراج، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿أَنْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ ﴿خَلَقَكُم﴾ المصدرية، ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية، في تأويل مصدر مرفوع على الابتدائية، والتقدير: وخلقكم من تراب من آياته، والجملة مستأنفة، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِذَآ﴾: فجائية ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ،

﴿بَشَرٌ﴾: خبره، وجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾: أو حال منه، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: خبر مقدم والمصدر المؤول من ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على سابقتها، ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ معطوفة على ما سبق ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور حال من أزواجاً، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول ﴿خَلَقَ﴾، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تسكنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، ﴿إِلَيْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾؛ أي: لسكونكم إليها، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مَّوَدَّةً﴾: هو المفعول الأول، ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿مَّوَدَّةً﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾: مقدم على اسمها، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: خبر مقدم، ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة: معطوفة على سابقتها أيضاً، ﴿وَٱخْتِلَٰفُ﴾: معطوف على ﴿خَلْقُ﴾، ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾ مضاف إليه، ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿مَنَامُكُم﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على سابقتها، ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ﴿مَنَامُكُم﴾ لأنه مصدر ميمي لـ﴿نام﴾، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿الليل﴾، ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾: معطوف على ﴿مَنَامُكُم﴾. ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿ابتغاؤكم﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم،

﴿لَآيَـٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ صفة ﴿لَآيَـٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوۡمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ الغلبة: القهر، كما في «المفردات»، والاستعلاء على القرن بما يبطل مقاومته في الحرب، كما في «كشف الأسرار»، والروم: تارة يطلق على الصنف المعروف، وتارة تطلق على جمع رومي، كفارسي وفرس، وهم بنو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - والروم الأول: منهم بنو روم بن يونان بن يافث بن نوح - عليه السلام -، والفرس: بنو فارس بن سام بن نوح - عليه السلام - كما مر.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأدنى: ألفه منقلبة عن واو، لأنه من دنا يدنو، وهو يتصرف على وجوه: فتارةً يعبر عن الأقل والأصغر، فيقابل بالأكثر والأكبر، وتارةً عن الأحقر والأذل، فيقابل بالأعلى والأفضل، وتارةً عن الأول، فيقابل بالآخر، وتارةً عن الأقرب، فيقابل بالأبعد، وهو المراد في هذا المقام؛ أي: أقرب أرض العرب من الروم، إذ هي الأرض المعهودة عندهم، وهي أطراف الشام، أو في أقرب أرض الروم من العرب، على أن اللام عوض عن المضاف إليه، وهي أرض جزيرة ما بين دجلة والفرات، انتهى من «الروح».

وليس المراد بها جزيرة العرب، وروى عن الأصمعي: أن حد جزيرة العرب، من أقصى عدن إلى ريف العراق، طولاً، ومن جدة وما والاها، إلى أطراف الشام عرضاً، وسبب تسميتها جزيرةً إحاطة البحار والأنهار العظيمة بها، كبحر الحبشة، وبحر فارس، ودجلة، والفرات ا هـ. «زاده»، وقال ابن جزي في «تفسيره»: الجزيرة هنا: بين الشام والعراق، وهي أول الروم إلى فارس، وفي «الخازن» في أدنى الأرض، يعني: أقرب أرض الشام إلى فارس، وقيل: هي أذرعات، وقيل: الأردن، وقيل: الجزيرة ا هـ.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وفي «القاموس» البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وفي

«كشف الأسرار» البضع اسم للثلاث والخمس والسبع والتسع، وفي «تفسير المناسبات»: وذلك من أدنى العدد، لأنه في المرتبة الأولى، وهي مرتبة الآحاد.

وقال المبرد: البضع ما بين العقدين في جمع الأعداد، وعبر بالبضع، وأبهم ولم يعين، وإن كان معلوماً له ـ ﷺ ـ إبقاءً للعباد في ربقة الجهل، تعجيزاً لهم أو لإدخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت، كما يؤخذ ذلك من «الرازي».

والبضع بالفتح: قطع اللحم، وبالكسر: العدد المنقطع عن العشرة، ويقال: ذلك لما بين الثلاث إلى العشر، وقيل: بل: هو فوق الخمس دون العشر ا هـ. «روح».

قال الراغب: الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية، ولم يرخص في الفرح إلا في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي «كشف الأسرار»: اليوم ترح، وغداً فرح، اليوم عبرة، وغداً خبرة، اليوم أسف، وغدا لطف، اليوم بكاء، وغداً لقاء ا هـ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ والتفكر: تصرف القلب في معاني الأشياء، لدرك المطلوب، وهو، قبل أن يتصفى اللب، والتذكر بعده، ولذا لم يذكر في كتاب الله تعالى مع اللب إلا: التذكر، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب الفرك، ولكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها، طلباً للوصول إلى حقيقتها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والسير: المضي في الأرض.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ والعاقبة: إذا أطلقت تستعمل في الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة، كما في هذه الآية، وهي آخر الأمر.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: ثار الغبار والسحاب، انتشر ساطعاً، وقد أثرته، فالإثارة: تحريك الشيء حتى يرتفع غباره، والثور: اسم البقر الذي يثار به

الأرض، فكأنه في الأصل: مصدر جعل في موضع الفاعل، والبقر: من بقر: إذا شق، لأنها تشق بالأرض بالحراثة، ومنه قيل لمحمد بن الحسين بن علي: الباقر، لأنه شق العلم ودخل فيه مدخلاً بليغاً، والمعنى: وقلبوا الأرض للزراعة والحراثة واستنباط المياه، واستخراج المعادن، كما سبق ا هـ. من «الروح».

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ والعمارة: ضد الخراب؛ أي: عمروا الأرض، بفنون العمارات من الزراعة، والغرس، والبناء وغيرها.

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، أو مصدر كالبشرى، وصف به العقوبة مبالغةً، كأنها نفس السوأى، وقيل: السوأى، أي: اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم للجنة، وإنما سميت سوأى، لأنها تسوء صاحبها، كما سبق.

قال الراغب: السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال، وفقد حميم، وعبر بـ﴿السوأى﴾ عن كل ما يقبح، ولذلك قوبل بالحسنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ انتهى.

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال الراغب: الإبلاس: الحزن المعترض من شدة اليأس.. ومنه اشتق إبليس، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت، وينسى ما يعينه، قيل: أبلس فلان، إذا سكت وانقطعت حجته ا هـ.

ويقال: أبلس فلان، فهو مبلس: إذا سكت عن يأس، ويقال: أبلس الرجل: انقطعت حجته فسكت، فهو لازم، لا يتعدى.

وفي «الكشاف»: الإبلاس: أن يبقى ساكناً يائساً متحيراً، يقال: ناظرته فأبلس: إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج، ومنه الناقة المبلاس: التي لا ترغو.

وفي «القاموس»: وأبلس: يئس وتحير، ومنه إبليس، أو هو أعجمي، فقول صاحب «المنجد»: إنه يقال: أبلسه غلط فظيع، وقد علل علماء التصريف قراءة ﴿يُبْلَسُ﴾ بالبناء للمفعول، بأن القائم مقام الفاعل مصدر الفعل، ثم حذف

المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، إذ الأصل يبلس إبلاس المجرمين.

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ والروضة: كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة، والمراد بها الجنة، وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة، يريدون بيضة النعامة.

وفي «الأساس» و«اللسان»: بأرضه روضة وروضات ورياض، وروض الغيث الأرض، وأراض المكان واستراض؛ أي: كثرت رياضه. ا هـ.

قال الراغب: الروض: مستنقع الماء والخضرة، وقوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ عبارة عن رياض الجنة، وهي: محاسنها وملاذها انتهى.

﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يسرون سروراً، تهللت له وجوههم، وفي «المفردات»: يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم؛ أي: أثره، يقال: حبره: إذا سره سروراً تهلل له وجهه، ويقال: حبر فلان، إذا بقي بجلده أثر من فرح، والحبر: العالم، لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدى بها، وإلى هذا المعنى، أشار أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - بقوله: والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة، ويقال: التحبير: التحسين الذي يسر به، يقال لعالم: حبر، لأنه يتخلق بالأخلاق الحسنة، وللمداد: حبر، لأنه يحسن به الأوراق، فيكون الحبرة كل نعمة حسنة ا هـ. من «الروح».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ والسبح: هو المر السريع في الماء أو الهواء، والتسبيح: تنزيه الله، وأصله: المر السريع في عبادة الله، جعل عاماً في العبادات، قولاً كان أو فعلاً أو نيةً، والسبوح والقدوس: من أسماء الله تعالى، وليس في كلامهم فعول سواهما، وسبحان هنا: مصدر كغفران، موضوع موضع الأمر، مثل ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾. والتسبيح: محمول على حقيقته، وظاهره الذي هو تنزيه الله تعالى عن السوء، والثناء عليه بالخير، والحين: بالكسر وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان، طال أو قصر، يتخصص بالمضاف إليه، كما في هذا المقام.

والإمساء: الدخول في المساء، كما أن الإصباح: الدخول في الصباح، والمساء والصباح: ضدان، قال بعضهم: أول اليوم: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الضحوة، ثم الهجير، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة عند مغيب الشفق.

﴿وَعَشِيًّا﴾: من عشى العين: إذا نقص نورها، ومنه الأعشى.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم﴾ والخلق: عبارة عن تركيب الأجزاء، وتسوية الأجسام.

﴿مِن تُرَابٍ﴾ والتراب: جماد لا حس فيه، ولا حركة.

﴿بَشَرٌ﴾ قال في «المفردات»: البشرة ظاهر الجلد، وعبر عن الإنسان بالبشر، اعتباراً بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف، أو الشعر، أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع، وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته، وظاهره بلفظ البشر.

﴿تَنتَشِرُونَ﴾ قال الراغب: انتشار الناس تصرفهم في الحاجات ا هـ.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ والأزواج: جمع زوج وهو: الفرد المزاوج لصاحبه، وكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى، وزوجةً لغةً رديئةً، وجمعها زوجات، كما في «المفردات».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿غُلِبَتِ﴾، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ للتفخيم، ولإدخال الرعب في

قلوب المشركين في كل وقت، وللتعجيز لهم بإبقائهم في ربقة الجهل.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ومنها: تنكير ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ للتحقير والتخسيس؛ أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا، وفائدته: تقليل معلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه، وهو وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا ما يرجح البدلية.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والمبالغ في الرحمة.

ومنها: التعطف في قوله: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ والتعطف: إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام، أو البيت من الشعر، فقد وردهم للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة، حتى كأنهم معدن للغفلة، وفيه إفادة الحصر بتكرير الضمير، وفيه الإيتان بالجملة الاسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ الآية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

ومنها: إيراد الاستهزاء في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بصيغة المضارع، للدلالة على استمراره وتجدده.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وفي قوله: ﴿تُمْسُونَ﴾ و﴿تُصْبِحُونَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للمبالغة في الترهيب.

ومنها: الإتيان بلفظ ماضي المعنى في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ وماضي اللفظ والمعنى في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ إشارةً إلى تحققه في علم الله تعالى.

ومنها: الإتيان بصيغة الجمع في قوله: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ لوقوعها في مقابلة الجمع، مع أن المعنى لم يكن لكل واحد منهم شفيع أصلاً.

ومنها: إعادة قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ إفادةً لتهويله، وتفظيع ما يقع فيه، وفي قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ تهويل له إثر تهويل.

ومنها: المقابلة بين حال السعداء والأشقياء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآىِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾؛ أي: في روضة عظيمة.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ استعار الحي للمؤمن والميت للكافر، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال.

ومنها: اللف والنشر في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين، بالقرينين الأخيرين، لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه، كشيءٍ واحدٍ، مع إعانة اللف على الاتحاد، ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم فيهما، والظاهر: هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، يسمعونه بالآذان الواعية.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ للدلالة على عظم شأنها؛ أي: لآياتٍ عظيمةٍ باهرةٍ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ
لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم
مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ
ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟
شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ
أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ
رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟
فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ
﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى
ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ
لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه[1] سبحانه لما ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف.. ذكر ما يعرض للأكوان والآفاق،ونشاهده رأى العين، الفينة بعد الفينة، مما فيه العبرة لمن ادكر، ونظر في العوالم نظرة متأمل معتبر، في بدائع الأكوان، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها، الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام الأدلة على الوحدانية، وهي الأصل الأول، وعلى القدرة على الحشر، وهي الأصل الثاني.. أعقب ذلك بهاتين الآيتين، وجعلهما كالنتيجة لما سلف.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لم قبلها: أن الله سبحانه لما بين قدرته على الإعادة، بإقامة الأدلة عليها، ثم ضرب لذلك مثلاً.. أعقب ذلك بذكر المثل على الوحدانية، بعد إقامة الدليل عليها.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد البينات والأدلة على وحدانيته، وأثبت الحشر، وضرب لذلك المثل، وسلى رسوله، ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم، لأن الله تعالى قد ختم على قلوبهم، فلا مخلص لهم مما هم فيه، ولا ينقذهم من ذلك، لا هو ولا غيره ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.. أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه، وعدم المبالاة بأمرهم، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنةً ولا يسرةً، فهو فطره الله التي خلق العقول معترفةً بها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ الآيات[2]، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أرشد إلى التوحيد، وأقام الأدلة عليه، وضرب المثل.. أعقبه بذكر حالٍ للمشركين يعرفون بها، وسيما لا ينكرونها،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

وهي أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم، وينيبون إليه، فإذا خلصوا منها.. رجعوا إلى شنشنتهم الأولى، وأشركوا به الأوثان، والأصنام، فليضلوا ما شاؤوا، فإن لهم يوماً يرجعون فيه إلى ربهم، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون، بل هو الهوى المطاع، والرأي المتبع، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا، فإن آتاهم ربهم منها.. رضوا، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده، وقد جعل لذلك أسباباً، متى سلكها فاعلها.. وصل إلى ما يريد، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى ما يكون، فكله بقدر الله وقضائه، وعلينا أن نستسلم له، ونعمل ما طلب إلينا عمله، من الأخذ في العمل جهد الطاقة.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.. أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوي القربى وذوي الحاجات من المساكين وأبناء السبيل، فإنه إذا بسط الرزق.. لم ينقصه الإنفاق، وإذا قدر.. لم يزده الإمساك.

إِذَا جَادَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا ... عَلَىٰ ٱلنَّاسِ طُرّاً إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ
فَلاَ ٱلْجُوْدُ يُفْنِيْهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ ... وَلاَ ٱلْبُخْلُ يُبْقِيْهَا إِذَا هِيَ تَذْهَبُ

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه، وأشركوا به غيره، والشرك سبب الفساد، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.. أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله، واجترحوا المعاصي، وفشا بينهم الظلم والطمع، وأكل القوي مال الضعيف، فصب عليهم ربهم سوط عذابه، فكثرت الحروب، وافتن الناس في أدوات التدمير والإهلاك، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة إلى مدافع تحصد الناس حصداً إلى دبابات سميكة الدروع تهد

المدن هداً، وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية، والمجازر البشرية التي سلط الله فيها العالم بعضه على بعض، فارتكب المظالم، واجترح المآثم، والإنسان في كل عصر هو الإنسان، وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم، فليجعلوا من سبقهم مثلاً لهم، ليتذكروا عقاب الله، وشديد عذابه للمكذبين.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] نهى الكافر عن بقائه على الحالة التي هو عليها، خيفة أن يحل به سوء العذاب.. أردف ذلك أمر رسوله، ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه، بعبادتهم الواحد الأحد، قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي يتفرق فيه العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير، فمن كفر.. فعليه وبال كفره، ومن عمل صالحاً.. فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه، بما قدم من صالح العمل، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه، ما لا يخطر له ببال، ولا يدور له في حسبان، والكافر سيلقى في هذا اليوم العذاب والنكال، لأن ربه يبغضه ويمقته، جزاء ما دسى به نفسه من سيىء العمل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، عن ابن عباس، قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.

ملك، فأنزل الله هذه الآية. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم...﴾ الآية.

وأخرج جويبر مثله عن داود بن أبي هند، عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته سبحانه وتعالى ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾؛ أي: أن يريكم البرق؛ أي: إراءَته إياكم البرق، أصله: أن يريكم، فلما حذف (أن) لدلالة الكلام عليه سكن الياء، كما في «برهان القرآن» كما في قول طرفة:

ألا أيهذا اللائمي أحضرَ الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

والتقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف في الآية والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها (أن) قياساً، أو على إنزال الفعل منزلة المصدر من غير ما يسبكه له، فيكون التقدير في هذين الوجهين: ومن آياته إراءته إياكم البرق، فـ﴿من آياته﴾: مقدم على أنه خبر المبتدأ، وقيل: غير ذلك. والبرق: لمعان السحاب كما سيأتي.

وقوله: ﴿خَوْفًا﴾: مفعول لأجله، بمعنى الإخافة، كقوله: فعلته رغماً للشيطان؛ أي: إرغاماً له.

والمعنى(١): يريكم ضوء السحاب، إخافة من الصاعقة، خصوصاً لمن كان في البرية من أبناء السبيل.

﴿وَطَمَعًا﴾؛ أي: إطماعاً في الغيث، لا سيما لمن كان مقيماً. قاله الضحاك.

---

(١) روح البيان.

فإن قلت: المقيم يطمع لضرورة سقي الزروع والكروم والبساتين ونحوها، وأما المسافر فلا؟

قلت: يطمع المسافر أيضاً في الأرض القفر، لضرورة شربه، وشرب دوابه، وطهارته، وقال يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع، وقال ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلياً، لا يمطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لاَ يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقاً خُلَّباً إِنَّ خَيْرَ ٱلْبَرْقِ مَا ٱلْغَيْثُ مَعَهْ

ويحتمل انتصاب ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ على أنهما مصدران في موضع الحال من ضمير المخاطبين؛ أي: حالة كونكم خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ومن آياته ودلائل قدرته: أن ينزل من السماء والسحاب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1]: بسكون النون.

﴿مَآءٗ﴾؛ أي: مطراً ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾؛ أي: يبسها.

فإن قلت[2]: ما حد المطر؟

قلت: المطر: هو الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت رجعت نحو الأرض.

فإن قلت: ما حد الأرض؟

قلت: الأرض: جسم غليظ، أغلظ ما يكون من الأجسام، واقف في مركز العالم، مبين لكيفية الجهات الست، فالمشرق: حيث تطلع الشمس، والمغرب حيث تغيب، والشمال: حيث مدار الجدي، والجنوب: حيث مدار السهيل،

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

والفوق: ما يلي المحيط، والأسفل: ما يلي مركز الأرض.

فإن قلت: ما النبات؟

قلت: النبات ما الغالب عليه المائية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إراءة البرق، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ أي: لدلالات على قدرة الفاعل المختار، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يفهمون عن الله سبحانه حججه وأدلته، فكما أنه تعالى قادر على أن يحيي الأرض بعد موتها، كذلك قادر على أن يحيي الموتى، ويبعث من في القبور.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل ملاك الأمر في هذه الأبواب، وهو المؤدي إلى العلم. انتهى.

قال بعض العلماء: العاقل: من يرى بأول رأيه آخر الأمور، ويهتك عن مهماتها ظلم الستور، ويستنبط دقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب.

قال حكيم: العقل والتجربة في التعاون، بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق أحدهما بدون الآخر إنباتاً.

ومعنى الآية(١): أي ومن آياته الدالة على عظيم قدرته: أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق، وتطمعون فيما يجلبه من المطر، الذي ينزل من السماء، فيحيي الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا شجر، إن في ذلك المذكور لبرهاناً قاطعاً، ودليلاً ساطعاً على البعث والنشور، وقيام الساعة، فإن أرضاً هامدةً، لا نبات فيها، ولا شجر، يجيئها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، لهي المثال الواضح، والدليل اللائح، على قدرة من أحياها، على إحياء العالم بعد موته، حين يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وحججه الدالة على قدرته على ما يشاء ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ

---

(١) المراغي.

﴿وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه من الهيئات، إلى الأجل المقدر لقيامهما، وهو يوم القيامة ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: بإرادته وقدرته سبحانه، بلا عمد يعمدهما، ولا مستقرٍ يستقران عليه، والتعبير[1] عن الإرادة بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادىء والأسباب، والأمر: لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، كما في «المفردات».

﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ومصيركم في القبور ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وناداكم أيها العباد، ﴿دَعْوَةً﴾ واحدةً بالنفخة الأخيرة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بدعاكم؛ أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إلي، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾، لأن ما بعد إذا، لا يعمل فيما قبلها.

والمعنى: ثم إذا دعاكم بعد انقضاء الأجل، وأنتم في قبوركم دعوةً واحدةً، بأن قال: أيها الموتى أخرجوا، والداعي في الحقيقة هو إسرافيل - عليه السلام - فإنه كما قيل: يدعو الخلق على صخرة بيت المقدس، حين ينفخ النفخة الأخيرة من النفختين.

﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض. إذا للمفاجأة، ولذلك ناب مناب الفاء في الجواب، فإنهما يشتركان في إفادة التعقيب، أي: فاجأتم الخروج منها بلا توقف ولا إباء، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾.

وقال الزمخشري[2]: قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بمنزلة قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السماوات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوةً واحدةً، يا أهل القبور اخرجوا، وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بـ﴿ثُمَّ﴾ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، انتهى.

---

(١) روح البيان.

(٢) الكشاف.

وقرأ حمزة والكسائي[1]: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بفتح التاء وضم الراء، وباقي السبعة بضمها وفتح الراء. وقال الشوكاني: وقد أجمع القراء على فتح التاء في ﴿تخرجون﴾ هنا، وغلط من قال: إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول وإنما قرئ بضمها في الأعراف. انتهى.

والمعنى[2]: أن إمساك هذه العوالم وإقامتها، وتدبيرها وإحكامها، من الآيات التي ترشد إلى إله مدبر لها، ولا يزال الأمر هكذا حتى ينتهي أجل الدنيا، ويختل نظام العالم، فتبدل الأرض غير الأرض، وتدك الجبال دكاً، وحينئذٍ تخرجون من قبوركم سراعاً، حينما يدعوكم الداعي، ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾. وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه خاصةً، لا لغيره ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿و﴾ من في ﴿الأرض﴾ من الإنس والجن خلقاً وملكاً وتصرفاً، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل من فيهما وفي غيرهما ﴿لَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وهو متعلق بقوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ من القنوت، وهو الطاعة، والمراد: طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة؛ أي: منقادون لما يريده بهم من حياة وموت وبعث وصحة وسقم وعز وذل وغنى وفقر وغيرها، لا يمتنعون عليه تعالى في شأن من شؤونه، فهم مسخرون تحت حكمه على كل حال، وقال الحسن[3]: ﴿قَانِتُونَ﴾؛ أي: قائمون بالشهادة على وحدانيته، كما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وقيل: قائمون يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ بمعنى المخلوق؛ أي: ينشئهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

في الدنيا ابتداءً، فإنه أنشأ آدم وحواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يعيد الخلق بعد موتهم بالبعث من القبور، فيحييهم الحياة الدائمة، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الخلق؛ أي: ثم يعيدهم في الآخرة بنفخ صور إسرافيل، فيكونون أحياءً كما كانوا.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الإعادة، وذكر الضمير نظراً للخبر أو لأن التاء فيه تاء المصدر، أو نظراً للمعنى، لأنه بمعنى العود، كما في قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: مكاناً ميتاً. ﴿أَهْوَنُ﴾؛ أي: أسهل وأيسر ﴿عَلَيْهِۚ﴾ سبحانه وتعالى من البدء[1] بالنسبة إلى قدرتكم أيها الآدميون، وبالقياس على قوانينكم، وإلا فهما عليه تعالى سواء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ سواء هناك مادة أم لا، يعني: إن ابتداء الشيء، أشد عند الخلق من إعادته، وإعادته أهون من ابتدائه، فتكون الآية واردةً على ما يزعمون فيما بينهم، ويعتقدون عندهم، وإلا فما شق على الله ابتداء الخلق، فيكون إعادتهم أهون عليه.

وقال بعضهم: أفعل هنا ليس للتفضيل، بل هو بمعنى فعيل، فيكون أهون بمعنى هين، مثل الله أكبر بمعنى كبير، قال الفرزدق:

إِنَّ ٱلَّذِيْ سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَىٰ لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أي: عزيزة طويلة، وقيل: الضمير في عليه للخلق، وهو؛ أي: العود أهون؛ أي: أيسر أو أسرع عليهم؛ أي: على الخلق، لأنه يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون دفعةً، ويقال لهم: كونوا فيكونون، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفةً، ثم علقةً ثم مضغةً إلى النشأة، وقرأ[2] عبد الله بن مسعود: ﴿وهو عليه هين﴾.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: لم أخر الصلة في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الكشاف.

عَلَيۡهِۚ﴾ وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾؟

قلت: هنالك قصد الاختصاص، وهو تجبره، فقيل: و﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، وإن كان مستصعباً عندك أن يولد بين هرم وعاجز، وأما هنا: فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. انتهى.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ أي[1]: الوصف الأعلى، العجيب الشأن، من القدرة العامة، والحكمة التامة، وسائر صفات الكمال، التي ليست لغيره تعالى ما يدانيها، فضلاً عما يساويها، فالمثل بمعنى الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي﴾ وقوله: ﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ أي: صفتها وصفتهم، قاله الخليل، وقال مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إله إلا الله، وبه قال قتادة، أراد به الوصف بالوحدانية، يعني له الصفة العليا، وهي: أنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه: وقيل: المثل الأعلى: هو أنه ليس كمثله شيء، وقيل: هو أنه ما أراده كان بقول: كن.

وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلق[2] بمضمون الجملة المتقدمة، على معنى أنه تعالى قد وصف بالمثل الأعلى، وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق؛ أي: نطقاً، وألسنة الدلائل؛ أي: دلالةً، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أو من ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾، أو من الضمير في ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في ملكه القادر الذي لا يغالب، أو القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن ما، وإعادته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله الذي يجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة.

قال بعضهم[3]: دلت الآية على أن السماوات والأرض مشحونة بشواهد وحدته، ودلائل قدرته تعالى، والعجب منك، أنك إذا دخلت بيت غني.. فتراه

---

(1) روح البيان.

(2) الشوكاني.

(3) روح البيان.

مزيناً بأنواع الزين، فلا ينقطع تعجبك عنه، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك، وأنت تنظر أبداً إلى الآفاق والأنفس، وهي بيوت الله المزينة بأسمائه وصفاته، وآثاره المتجلية بقدرته، وعجيب آياته، ثم أنت فيما شاهدته أعمى عن حقيقته لعمى باطنك، وعدم دخولك في بيت القلب، الذي بالتفكر المودع فيه يستخرج الحقائق، وبالتذكر الموضوع فيه يرجع الإنسان إلى ما هو بالرجوع لائق، وبالشهود الذي فيه يرى الآيات، ويدرك البينات، ولولا هداية الملك المتعالي.. لبقي الخلق في ظلمات الضلال، فعليك بتوحيد الله تعالى في الليل والنهار، فإنه خير أوراد وأذكار، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وذكر الله سبب الحضور، وموصل إلى مشاهدة المذكور، ولكن الكل بعناية الله الملك الغفور. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

يَا ذَا ٱلَّذِيْ أَنِسَ ٱلْفُؤَادُ بِذِكْرِهِ ... أَنْتَ ٱلَّذِيْ مَا إِنْ سِوَاكَ أُرِيْدُ

تَفْنَىٰ ٱللَّيَالِيْ وَٱلزَّمَانُ بِأَسْرِهِ ... وَهَوَاكَ غَضٌّ فِيْ ٱلْفُؤَادِ جَدِيْدُ

وحاصل معنى الآية(١): أي وهو الذي يبدأ الخلق من غير أصل له، فينشئه بعد أن لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده كما بدأ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور في عقول المخاطبين، من أن من فعل شيئاً مرةً كانت الإعادة أسهل عليه.

والخلاصة: أن الإعادة أسهل على الله من البدء، بالنظر لما يفعله البشر، مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى، أهو عليهم من إيجاده ابتداءً، والمراد بذلك: التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء، وقصارى ذلك: أنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم، وبالقياس إلى أقداركم.

روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ يقول الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما

---

(١) المراغي.

تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولو يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: وله الوصف البديع في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو، ليس كمثله شيء، تعالى عن الشبيه والنظير، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يغلب، الحكيم في تدبير خلقه، وتصريف شؤونه، فيما أراد على وفق الحكمة والسداد.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾؛ أي: بين الله سبحانه وتعالى لكم أيها المشركون، شبهاً لما تشركون به، مأخوذاً ذلك المثل ﴿مِّنْ﴾ أحوال ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم، بين به بطلان شرككم، فمن ابتدائية، والمثل تشبيه شيء خفي بشيء جلي، قال أبو الليث: نزلت في كفار قريش، كانوا يعبدون الآلهة، ويقولون في إحرامهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. ثم صور المثل، فقال: ﴿هَل لَّكُم﴾ والاستفهام فيه للإنكار، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وأيديكم من العبيد والإماء: تبعيضية، وفي قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ زائدة، لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام.

﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال والأسباب؛ أي: هل ترضون لأنفسكم شركة في ذلك، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم من الأموال، كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم، وهم العبيد والإماء، وجملة قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: فيما رزقناكم ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: مستوون يتصرفون فيه كتصرفكم، من غير فرق بينكم وبينهم، جواب للاستفهام الإنكاري الذي بمعنى النفي، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم، وجملة قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبر آخر لـ﴿أنتم﴾ داخل تحت الاستفهام الإنكاري، كما في «الإرشاد»؛ أي: تخافون مماليككم أن يستقلوا وينفردوا بالتصرف فيه، و﴿الكاف﴾ في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ نعت لمصدر محذوف، ومعنى قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ ههنا أمثالكم من الأحرار، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: بعضكم بعضاً.

والمعنى: خيفةً كائنةً مثل خيفتكم من أمثالكم من الأحرار المشاركين لكم فيما ذكر من الحرية، وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود: نفي الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم وخوفهم، وليس المراد ثبوت الشركة، ونفي الاستواء والخوف، كما قيل في قولهم: ما تأتينا فتحدثنا. والمراد: نفي مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية.

والمعنى[1]: أي لا ترضون بأن يشارككم فيما بأيديكم من الأموال المستعارة مماليككم، وهم عندكم أمثالكم في البشرية، غير مخلوقين لكم، بل الله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية - التي هي من خصائصه الذاتية - مخلوقه، بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم، ثم تعبدونه.

والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة.. بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أنفسكم﴾ بالنصب، على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبي عبلة، وابن أبي عبيدة: بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله، وهما وجهان حسنان، ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول، مع وجود الفاعل، وفي الآية دليل على أن العبد لا ملك له، لأنه أخبر: أن لا مشاركة للعبيد فيما رزقنا الله سبحانه من الأموال.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التفصيل الواضح المذكور في هذا المثل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نبين ونوضح دلائل الوحدة، تفصيلاً واضحاً، وبياناً جلياً، لا تفصيلاً أدنى منه، فإن التمثيل: تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، فيكون في غاية البيان والإيضاح.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿نُفَصِّلُ﴾ بالنون، حملاً على رزقناكم. وقرأ عباس عن ابن عمر: بياء الغيبة، مراعياً لضرب إذ هو مسند للغائب ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في تدبر الأمور والأمثال، لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية، باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها.

وحاصل معنى الآية[1]: أي بين الله تعالى إثبات وحدانيته، بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها، التي هي أقرب الأمور إليكم، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام، فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه، إذ كانوا يقولون في التلبية والدعاء حين أداء مناسك الحج: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وخلاصة المثل: أن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده في التصرف في أمواله، فيكف تجعلون لله الأنداد من خلقه.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: مثل هذا التفصيل البديع، بضرب الأمثال الكاشفة للمعاني، المقربة لها إلى العقول، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس، التي هي به ألصق، ولإدراكه أقرب، نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض، التي لأجلها ضربت، ولمثلها استعملت، فيستبين الرشد من الغي، والحق من الباطل، ولأمرٍ ما كثرت الأمثال في جلاء الحقائق، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين.

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم، وجهلاً، لا ببرهان قد لاح لهم؛ أي: أعرض عن مخاطبتهم، وبين استحالة تبعيتهم للحق، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بالشرك، وكفروا بالله؛ أي[2]: لم يعقلوا شيئاً

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من الآيات، بل اتبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ وشهواتهم للتسجيل عليهم، ففي الكلام إضراب مع الالتفات، ووضع الظاهر، أعني: الموصول موضع المضمر، للتسجيل عليهم، بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون، لأن مقتضى: السياق أن يقال: بل اتبعتم أهواءكم بغير علم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الموصول؛ أي: بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم الزائغة، وآراءهم الفاسدة، حال كونهم جاهلين، ما أتوا به من الضلالة، لا يكفهم عنه شيء، فإن العالم إذا اتبع هواه.. ربما ردعه علمه.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: خلق فيه الضلالة بصرف اختياره إلى كسبها: إنكاري؛ أي: لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشاد والهداية، بتقدير الله تعالى وإرادته ﴿وَمَا لَهُم﴾؛ أي: لمن أضله الله تعالى، والجمع باعتبار المعنى، والمراد بهم المشركون ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلال، ويحفظونهم من آفاته؛ أي: ليس لأحدٍ منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع؛ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه؛ أي: هؤلاء ممن أضلهم الله فلا هادي لهم.

ومعنى الآية[1]: أي ولكن الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بالله، اتبعوا أهواءهم جهلاً منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ولو قلبوا وجوه الرأي، واستعملوا الفكر والتدبر.. لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق، ووصلوا إلى سبيل الرشد، ولكن أنى لهم ذلك.

فمن يهدي من خلق الله فيه الضلال، وجعله كاسباً له باختياره، لسوء استعداده، وميله بالفطرة إليه، وعلم الله فيه ذلك، وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله، وشديد انتقامه إذا حل بهم، لأنه ما شاء.. كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي الآية إشارة إلى[2] أن العمل بمقتضى العقل السليم هدى، والميل إلى

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

التقليد للجهلة هوى، فكما أن أهل الهدى منصورون أبداً، فكذا أهل الهوى، مخذولون سرمداً وإلى أن الخذلان واتباع الهوى من عقوبات الله المعنوية في الدنيا، فلا بد من قرع باب العفو بالتوبة، والسلوك إلى طريق التحقيق، والإعراض عن الهوى والبدعة، فإنهما شر رفيق.

ثم أمر الله سبحانه رسوله - ﷺ بتوحيده وعبادته فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ أي: قوم ذاتك وعدلها واصرفها ﴿لِلدِّينِ﴾ الحنيفي، وأقبل بكليتك عليه، غير ملتفت عنه يميناً وشمالاً، أو أخلص عملك لله تعالى، وهذا تمثيل[1] لإقباله على الدين، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء.. عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه.

و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان[2] حال المشركين اتباع الهوى، والإعراض عن الهدى.. فقوم وجهك يا محمد للدين الحق، الذي هو دين الإسلام، وعدله غير ملتفت يميناً وشمالاً، أو سدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك لطاعته، وهو الدين القيم دين الفطرة.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ حال من فاعل ﴿أقم﴾؛ أي: حال كونك مائلاً إليه عن سائر الأديان، مستقيماً عليه لا ترجع عنه إلى غيره، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الدين﴾؛ أي: حال كون ذلك الدين قويماً لا اعوجاج فيه، وقال بعضهم: في الآية الوجه، ما يتوجه إليه، وعمل الإنسان ودينه مما يتوجه الإنسان إليه، لتسديده وإقامته، والمعنى عليه: أخلص دينك، وسدد عملك مائلاً إليه عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة.

والخطاب عام للنبي - ﷺ - ولجميع الأمة، والإفراد في ﴿أقم﴾ لما أن الرسول إمام الأمة، فأمره مستتبع لأمرهم، وقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ منصوب على الإغراء؛ أي: الزموا أيها الناس فطرت الله سبحانه؛ أي: دينه وتوحيده، وترسم

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

﴿التاء﴾ فيه مجرورةً وليس في القرآن غيرها. ا هـ. «الفتوحات».

﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾؛ أي: خلق جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم عليها في بطون أمهاتهم، وحيث أخذهم الله من ظهر آدم، وسألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾ فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ والموصول صفة لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر، فإن خلق الله الناس على فطرته التي هي عبارة عن قبولهم للحق، وتمكنهم من إدراكه، أو عن ملة الإسلام، من موجبات لزومها، والتمسك بها قطعاً.

المعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا وما خلقوا عليه ما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن.

ومنه قوله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه: «كل عبادي خلقت حنفاء، فاجتالتهم - استخفتهم وأضلتهم - الشياطين عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري».

ومنه قوله - ﷺ - في الحديث المتفق عليه، الذي رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» يعني تكونون أنتم تجدعونها؛ أي: تقطعون أنفها أو أذنها، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

ومعناه: كل مولود إنما يولد في مبدأ الخلقة، وأصل الجبلة على الفطرة السليمة، والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها.. استمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن هذا الدين حسنه العقل السليم، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية والتقليد، فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره.

وحكي عن عبد الله بن المبارك[1]: أنه قال في معنى الحديث: «إن كل مولود يولد على فطرته»؛ أي: خلقته التي خلقه الله عليها في علمه، من السعادة

---

(١) روح البيان.

والشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه، وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها، فمن أمارات الشقاوة للطفل: أن يولد بين يهوديين، أو نصرانيين، فيحملانه على اعتقاد دينهما.

فإن قلت: الحديث الذي ورد عنه ـ ﷺ ـ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً» يعارضه حديث أبي هريرة: «كل مولود يولد على الفطرة» فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: يجمع بينهما بأن المراد بالفطرة: استعداده لقبول الإسلام، كما مر، وذلك لا ينافي كونه شقياً في جبلته، أو يراد بالفطرة قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ حين قال الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. قال النووي: لما كان أبواه مؤمنين.. كان هو مؤمناً أيضاً، فيجب تأويله بأن معناه ـ والله أعلم ـ: إن ذلك الغلام لو بلغ لكان كافراً. انتهى.

ثم لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي، المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهودانه» فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه، محكوم له بحكم أبويه الكافرين، كما في «كشف الأسرار».

والمعنى: أي الزموا خلقة الله، التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد، وموقنين به، لكونه موافقاً لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث المتفق عليه، لأبي هريرة الذي سبق آنفاً، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لدينه وتوحيده تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى لوجوب الامتثال به؛ أي: لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه، وعدم مقتضاه عليه بقبول الهوى، واتباع وسوسة الشيطان، أو هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه.

وقال ابن عباس: لا تبديل لقضاء الله بسعادتهم وشقاوتهم.

وفي «التأويلات النجمية»: لا تحويل لما له خلقهم، فطر الناس كلهم على التوحيد، فأقام قلب من خلقه للتوحيد والسعادة، وأزاغ قلب من خلقه للإلحاد

والشقاوة. انتهى.

وقيل: هو نفي معناه النهي؛ أي: لا تبدلوا خلق الله ودينه بالشرك، بيان[1] هذا: أن العقل الإنساني كصحيفة بيضاء، قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها، كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها، فهي تنبت حنظلاً وفاكهةً ودواءً وسماً، والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها، والخير أغلب عليها من الشر، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعي، والقليل منه سم لا ينتفع به، ولا تغير بالآراء الفاسدة، إلا بمعلم يعلمها ذلك، كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين، ولو ترك الطفل وشأنه.. لعرف أن الإله واحد، ولم يسقه عقله إلى غير ذلك، فإن البهيمة لا تجدع إلا بمن يجدعها من الخارج، هكذا صحيفة العقل، لا تغير إلا بمؤثر خارجي يضلها بعد علم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرتكم به من التوحيد، أو ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء، أو الفطرة إن فسرت بالملة، والتذكير بتأويل المذكور، أو باعتبار الخير ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو وصف بمعنى المستقيم المستوي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامته حتى يفعلوه، ويعملوا به، فينحرفون عنه انحرافاً، وذلك لعدم تدبرهم وتفكرهم في البراهين الواضحة الدالة عليه، ولو علموا ذلك حق العلم.. لاتبعوه، وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره، وما سدلوا الحجب التي تحجب عنهم ضياءه.

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ تعالى؛ أي: راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له في أوامره ونواهيه: حال من الضمير في الناصب المقدر لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أو في ﴿أقم﴾ لعمومه للأمة، وما بينهما اعتراض، وقيل: منصوب على أنه خبر لكان المحذوفة؛ أي: وكونوا منيبين إليه، لدلالة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ

(١) المراغي.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على ذلك، وهو من أناب إذا رجع مرةً بعد أخرى.

والمعنى: الزموا فطرة الله، أو فأقيموا وجوهكم للدين، حال كونكم راجعين إليه وإلى كل ما أمر به، مقبلين عليه بالطاعة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ سبحانه وتعالى باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الزموا المقدر الناصب لـ﴿مُنِيبِينَ﴾.

والمعنى: أي فأقم وجهك أيها الرسول، أنت ومن اتبعك حنفاء لله منيبين إليه، وخافوه وراقبوا أن تفرطوا في طاعته، وترتكبوا معصيته ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخمس؛ أي: أدوها في أوقاتها على شرائطها وحقوقها.

قال الراغب: إقامة الشيء: توفية حقه، ولم يأمر الله بالصلاة حيث أمر، ولا مدح بها حيثما مدح، إلا بلفظ الإقامة، تنبيهاً على أن المقصود منها توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئاتها.

والمعنى: أي وداموا على إقامتها، فهي عمود الدين، وهي التي تذكر المؤمن ربه، وتجعله يناجيه في اليوم خمس مرات، وتحول بينه وبين الفحشاء والمنكر، لأنها تعوِّد النفس الخضوع والإخبات له، ومراقبته في السر والعلن، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ به غيره المبدلين لفطرة الله تبديلاً، بل أخلصوا له العبادة، ولا تريدوا بها سواه، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإعادة الجار، وتفريقهم لدينهم: اختلافهم فيما يعبدون على اختلاف أهوائهم، وفائدة[(١)] الإبدال: التحذير عن الانتماء إلى ضرب من أضراب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين. وكانوا شيعاً؛ أي: فرقاً مختلفة يشايع كل منها - أي يتابع - إمامها الذي هو أصل دينها.

وقرأ حمزة والكسائي[(٢)]: ﴿فارقوا دينهم﴾ ورويت هذه القراءة عن علي بن

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

أبي طالب؛ أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد؛ أي: ولا تكونوا من المشركين، الذين بدلوا دين الفطرة وغيروه، وكانوا في ذلك فرقاً مختلفة، كلها جانبت الحق، وركنت إلى الباطل، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر الأديان الباطلة.

والخلاصة: أن أهل الأديان قبلنا، اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة، كل منها تزعم أنها على شيء.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ وطائفة وجماعة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق وأحدثوا من البدع ما أحدثوا، ﴿بما لديهم﴾؛ أي: بما عندهم من الدين المعوج، المؤسس على الزيغ والزعم الباطل ﴿فَرِحُونَ﴾؛ أي: مسرورون راضون، ظناً منهم أنه الحق والصواب لا يعدوهم إلى غيرهم من النحل، والمذاهب الأخرى.

﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وأصاب ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: ضرر وشدة وسوء حال، كجوع ووباء وقحط وفقر وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به حال كونهم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: راجعين إليه من دعاء غيره، ملتجئين به، لا يعولون على غيره، لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام، ولا يقدر على كشف ذلك عنهم غير الله، وقيل: مقبلين إليه بكل قلوبهم.

والمعنى(١): أي وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلٰهاً آخر ضر، فأصابهم جدب وقحط مثلاً.. أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالتضرع إليه، واستغاثوا به منيبين إليه، تائبين من شركهم وكفرهم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم﴾ ومنحهم ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من عنده سبحانه ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: خلاصاً وعافيةً من الضر النازل بهم بإجابة دعائهم، وذلك بالخصب والغنى والعافية مثلاً ﴿إِذَا﴾: فجائية، وقعت في جواب الشرط، لأنها كالفاء في إفادة

(١) المراغي.

التعقيب. ﴿فَرِيقٌ﴾ وجماعة ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أولئك المشركين ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كشف عنهم الضر ﴿يُشْرِكُونَ﴾ غيره؛ أي: فاجأ فريق منهم بالعود إلى الإشراك بربهم، الذي عافاهم وخلصهم من ذلك الضر. وتخصيص[1] هذا الفعل ببعضهم: لما أن بعضهم ليسوا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّنْهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: مقيم على الطريق القصد، أو متوسط في الكفر، لانزجاره في الجملة.

وهذا كلام مسوق للتعجيب من أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله تعالى عند نزول الشدايد، والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم؛ أي: ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر، وفرجه عنهم، وأصابهم برخاء وخصب وسعةٍ. . إذا جماعة منهم يشركون به، فيعبدون معه الآلهة والأوثان.

والخلاصة: أنهم حين الضرر يدعون الله وحده لا شريك له، وإذا أسبغ عليهم نعمه. . إذا فريق منهم يشركون به سواه، ويعبدون معه غيره.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَهُمْ﴾؛ أي: أعطيناهم من نعمة الخلاص والعافية: هي لام كي، وقيل: لام الأمر، أمرهم أمر تهديد، كما يقول السيد لعبده متوعداً، إذا راه قد خالف أمره، اعصني ما شئت، وقيل: هي لام العاقبة؛ أي: ليكون عاقبة أمرهم كفران ما آتيناهم بنسبته إلى الأصنام، أو إلى النجم الفلاني، والمعنى على الأمر؛ أي: فليجحدوا[2] نعمي عليهم، وإحساني إليهم كيف شاؤوا، فإن لهم يوماً نحاسبهم فيه، يوم يؤخذون بالنواصي، ويجرون بالسلاسل والأغلال، ويقال لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون.

ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بكفركم قليلاً إلى وقت آجالكم، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والأمر فيه: للتهديد أيضاً؛ أي: فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء، وسعة النعمة في الدنيا فما هي إلا أوقات قصيرة تمضي كلمح البصر، ثم هددهم أشد التهديد بقوله:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا وردتم علي عاقبة تمتعكم، وما يصيبكم من شديد عذابي، وعظيم عقابي على كفركم بي في الدنيا.

روي عن بعض السلف أنه قال: والله لو توعدني حارس درب.. لخفت فيه، فكيف والمتوعد هو الله، الذي يقول للشيء: كن فيكون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء فيهما، وقرأ أبو العالية: ﴿فيمتعوا﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وهو معطوف على ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ ﴿فسوف يعلمون﴾ بالياء على التهديد لهم، وعن أبي العالية: بياء قبل التاء عطف أيضاً على ﴿ليكفروا﴾؛ أي: لتطول أعمارهم على الكفر، وعنه عن عبد الله: ﴿فليتمتعوا﴾ باللام. وقال هارون: وفي مصحف عبد الله: ﴿يُمتعوا﴾.

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره تعالى بلا دليل، فقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ و﴿أَمْ﴾: منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري المضمن لتوبيخ؛ أي: بل: أأنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة كالكتاب ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ﴾ تعالى ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ أي[2]: بإشراكهم به تعالى، وصحته على أن ﴿ما﴾ مصدرية، أو بالأصنام التي يشركون به تعالى في ألوهيته على أنها موصولة، وهي أولى من جعلها مصدرية، لوجود العائد، والمراد بالاستفهام، النفي والإنكار؛ أي: لم ننزل عليهم ذلك، ويجوز أن تكون الباء سببية؛ أي: بالأمر الذي بسببه يشركون.

والمعنى[3]: أي أأنزلنا على هؤلاء الذين يشركون في عبادتنا الآلهة والأصنام، كتاباً فيه تصديق لما يقولون، وإرشاد إلى حقيقة ما يدعون، وإجمال القصد: أنه لم ينزل بما يقولون كتاباً، ولا أرسل به رسولاً، وإنما هو شيء افتعلوه اتباعاً لأهوائهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجبلته، إلا من عصمه الله فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: إذا منحنا ورزقنا جنس الإنسان ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: خصباً ونعمةً وعافيةً ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الرحمة فرح بطر وأشر لا فرح شكر بها وحمد عليها، وابتهاج بوصولها إليهم، وغرتهم الحياة الدنيا، وأعرضوا عن عبودية المولى.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾؛ أي: شدة من بلاء وضيق مثلاً. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾؛ أي: بسبب شؤم ما قدمته واقترفته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي والذنوب، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وييئسون من رحمة الله تعالى؛ أي: فاجأهم القنوط واليأس من رحمة الله تعالى، والقنوط: اليأس من رحمة الله، كذا قال الجمهور، وقال الحسن: القنوط: ترك فرائض الله سبحانه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿يقنطون﴾ بضم النون. وقرأ أبو عمرو، والكسائي ويعقوب: بكسرها.

أي: إن الإنسان قد ركب في طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة، كما حكى الله سبحانه عنه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ وإذا أصابته شدة بجهله بسنن الحياة، وعصيانه أوامر الدين.. قنط من رحمة الله، وآيس منها، فهو كما قيل:

كَـحِـمَـارِ ٱلـسُّـوْءِ إِنْ أَعْـلَـفْـتَـهُ   رَمَـحَ ٱلـنَّـاسَ وَإِنْ جَـاعَ نَـهَـقْ

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإنهم راضون بما قسمه لهم من خير أو شر، علماً منهم أن الله حكيم لا يفعل إلا ما فيه خير للعبد، وفي الحديث الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء.. شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء.. صبر فكان خيراً له».

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: ألم يشاهد الناس؛ أي: أهل مكة، ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الرزاق ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يوسع عليه من

---

(١) الشوكاني.

عباده ويمتحنه بالشكر؛ أي: يوسع لمن يرى صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: ويضيق الرزق على من يرى نظام حاله في ذلك، ويمتحنه بالصبر ليستخرج منهم بذلك معلومه من الشكر والكفران والصبر والجزع، فما لهم لا يشكرون في السراء، ولا يتوقعون الثواب بالصبر في الضراء كالمؤمنين.

والمعنى: ألم يشاهدوا ويعلموا أن الأمرين من الله، فما بالهم لم يشكروا في السراء، ويحتسبوا في الضراء، كما يفعل المؤمنون، فإن من فطر هذا العالم لا ينزل الشدة بعباده إلا لما لهم فيها الخير، كالتأديب والتذكير والامتحان، فهو كما يربي عباده بالرحمة، يربيهم بالتعذيب، فلو أنهم شكروه حين السراء، وتضرعوا إليه في الضراء.. لكان خيراً لهم.

والخلاصة: أنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه في الرخاء والشدة، ولا يعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تبطرهم، ولا شدة تحدث في قلوبهم اليأس، بل يكونون في السراء والضراء منيبين إليه، قال شقيق رحمه الله تعالى: كما لاتستطيع أن تزيد في خلقك ولا في حياتك، كذلك لا تستطيع أن تزيد في رزقك، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق.

فإن قلت: قال هنا(1): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بلفظ الرؤية، وفي الزمر ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ بلفظ العلم، فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: الفرق بينهما: أن بسط الرزق مما يرى، فناسبه ذكر الرؤية، وما في الزمر تقدمة ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فناسبه ذكر العلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ أي: لدلالات على قدرته التامة، وحكمته البالغة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بها فيستدلون بها على وجود الصانع الحكيم، قال أبو بكر محمد بن سابق:

فَكَمْ قَوِيٌّ قَوِيٌّ فِي تَقَلُّبِهِ ... مُهَذَّبِ ٱلرَّأْيِ عَنْهُ ٱلرِّزْقُ يَنْحَرِفُ

---

(1) فتح الرحمن بتصرف.

وَكَمْ ضَعِيْفٍ ضَعِيْفٍ فِيْ تَقَلُّبِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيْجِ ٱلْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَـذَا دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ ٱلإِلٰهَ لَهُ فِيْ ٱلْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

وحكي[1]: أن بعض العلماء سئل فقيل له: ما الدليل على أن للعالم صانعاً واحداً؟

قال: ثلاثة أشياء: ذل اللبيب، وفقر الأديب، وسقم الطبيب.

قال في «التأويلات النجمية»: الإشارة فيه إلى أن لا يعلق العباد قلوبهم إلا بالله سبحانه، لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي يسرهم ويؤنسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصوله، فالواجب لزوم بابه سبحانه بالإسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار. انتهى.

إذ لا يفيد للعاجز طلب مراده من عاجز مثله، فلا بد من الطلب من القادر المطلق، الذي هو الحق سبحانه، نسأل الله سبحانه أن يوقظنا من سنة الغفلة، ولا يجعلنا من المعذبين بعذاب الجهالة، إنه الجواد الكريم، البر الرؤوف الرحيم.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَئَاتِ﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها المكلف: أن البسط والقبض كليهما بيد الله سبحانه، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك آت؛ أي: أعط يا من بسط الله عليه الرزق ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: صاحب القرابة لك ﴿حَقَّهُۥ﴾؛ أي: ما يستحقه عليك، إما على سبيل الوجوب، أو الندب من الصلة والصدقة وسائر المبرات.

والخطاب فيه[2] للنبي ـ ﷺ ـ وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال واسع، وقدم الإحسان إلى القرابة، لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وبهذه الآية يحتج أبو حنيفة على وجوب النفقة لذوي الأرحام المحارم عند الاحتياج، ويقيسهم الشافعي على ابن العم، فلا يوجب النفقة إلا على الولد والوالدين، لوجود الولادة.

﴿و﴾ آت ﴿المسكين﴾ سواء كان ذا قرابة أم لا ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: المسافر ما يستحقانه من الصدقة والإعانة والضيافة، فإن ابن السبيل هو الضيف، كما في «كشف الأسرار»، والمراد بحقه: الصدقة المندوبة، ولا يصح حملها على الواجبة، وهي الزكاة، لأن السورة مكية، والزكاة ما فرضت إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة. ا هـ. «شيخنا».

ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر[1]: أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول.

وقد اختلف في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هي منسوخة بآية الميراث، وقيل: محكمة، وللقريب في مال قريبه الغني حق واجب، وبه قال مجاهد وقتادة، قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج، وقال الحسن: إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب، وقيل: المراد بالقربى: قرابة النبي ﷺ، قال القرطبي: والأول: أصح، لأن حقهم مبين في كتاب الله سبحانه في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

والمعنى: أي[2] أعط أيها الرسول أنت ومن تبعك من المؤمنين الأقارب الفقراء، جزءاً من مالك، صلةً للرحم، وبراً بهم، لأنهم أحق الناس بالشفقة، وكذا المسكين الذي لا مال له، إذا وقع في ورطة الحاجة.. فيجب على من عنده مقدرة دفع حاجته، وسد عوزه.

ومثله: المسافر البعيد عن ماله الذي لا يستطيع إحضار شيء منه، لانقطاع السبل به، فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته، حتى يصل إلى مأمنه، وسرعة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إيتاء الحق وإخراجه من المال ﴿خَيْرٌ﴾ من الإمساك ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: يقصدون بمعروفهم إياه تعالى، خالصاً، فيكون الوجه[1] بمعنى الذات، أو جهة التقرب إليه، لا جهة أخرى من الأغراض والأعواض فيكون بمعنى الجهة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعطون حقوق من ذكر، لمن ذكر، لوجه الله تعالى، وطلب رضاه سبحانه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بالمطلوب في الآخرة، حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم.

والمعنى: لهم في الدنيا خير، وهو البركة في أموالهم، لأن إخراج الزكاة يزيد في المال، وفي الآخرة خير، وهو الجزاء الجميل، والثواب الجزيل على إخراجهم المال لطاعة الله تعالى.

ومعنى الآية[2]: أي ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم من فعل الخير الذي يتقبله الله تعالى، ويرضى عن فاعليه، ويعطيهم جزيل الثواب، وأولئك قد ربحوا في صفقتهم، فأعطوا ما يغني، وحصلوا على ما يبقى من النعيم المقيم، والخير العميم، وإنما كان هذا العمل خيراً لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة، وتعاونها في السراء والضراء، وتعاون الأسرة العامة، وهي الأمة الإسلامية جمعاء، كما جاء في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً»، ولا يخفى ما لذلك من أثرٍ في تولد المحبة والمودة، وفي التكاتف لدفع عوادي الأيام، ومحن الزمان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من يتصرف في ماله على غير الجهة المرضية فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾؛ أي: وما أعطيتم من عطية خالية من العوض، أو ما[3] أعطيتم من زيادةٍ محرمة في المعاملة، أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾؛ أي: ليزيد لكم ذلك المعطى، ويتسبب لكم ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في أخذكم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البيضاوي.

من أموال الناس؛ أي: ليحصل لكم شيئاً أكثر منه، بأن تعطوا شيئاً وتطلبوا ما هو أفضل منه ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ ذلك المعطى ولا يزيد لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه فائدةً، ولا يبارك الله لكم فيه، فليس لكم فيه أجر، وليس عليكم فيه إثم إن كانت في غير المعاملة؛ أي: وما أعطيتم من عطية بلا مقابل ليربح لكم في أموال الناس، بتحصيل مكافأةٍ زائدةٍ عليه.. فلا يربح لكم عند الله سبحانه، فليس لكم عليه أجر.

وقيل: الآية في الرجل، يعطي صديقه أو قريبه، ليكثر ماله لا يريد به وجه الله، وقيل: هو الرجل يلتزق بالرجل، فيخدمه ويسافر معه، فيجعل له ربح ماله، لالتماس عونه، لا لوجه الله تعالى، فلا يربو عند الله تعالى، لأنه لم يرد بعمله وجه الله تعالى.

قرأ الجمهور[1]: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمد، بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد، وحميد، وابن كثير: ﴿أتيتم﴾ بالقصر، بمعنى: ما فعلتم على وجه الإعطاء، فهي راجعة إلى قراءة المد، وأجمعوا على القراءة بالمد في قوله الآتي: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. ﴿من ربوا﴾ كتب[2] بالواو للتفخيم على لغة من يفخم في أمثاله من الصلاة والزكاة، أو للتنبيه على أصله، لأنه من ربا يربو: إذا زاد، وزيدت الألف تشبيهاً بواو الجمع، وقرأ الجمهور: ﴿ليربو﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي، ونافع، وأبو حيوة: بالتاء مضمومةً ﴿لتربوا﴾ وإسناد الفعل إليهم؛ أي: لتأخذوا الربا من أموال الناس، أو لتكونوا ذوي زيادات، وقرأ أبو مالك: ﴿ليربوها﴾ بضمير المؤنث.

والربا لغةً: مطلق الزيادة، وشرعاً: عقد مخصوص، مشتمل على الزيادة في المقدار، بأن يباع أحد مطعوم بمطعوم، أو نقدٍ بنقد بأكثر منه من جنسه، ويقال له: ربا الفضل، أو في الأجل بأن يباع أحدهما إلى أجل، ويقال له: ربا النساء، وكلاهما محرم، والمعنى عليه: وما أعطيتم من زيادة خالية من العوض عند

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

المعاملة، ليربو ويزيد في أموال الناس، فلا يربو عند الله؛ أي: لا يزيد عنده، ولا يبارك لكم فيه، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

وقال بعضهم: المراد بالربا في الآية: هو أن يعطي الرجل العطية، أو أن يهدي الهدية ويثاب ما هو أفضل منها، فهذا رباً حلال جائز، ولكن لا يثاب في القيامة، لأنه لم يرد به وجه الله تعالى.

والمعنى على هذا القول: أي ومن أهدى هديةً يريد أن ترد بأكثر منها.. فلا ثواب له عند الله تعالى، وقد حرم الله ذلك على رسوله - ﷺ - على الخصوص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾؛ أي: ولا تعط العطاء تريد أكثر منه.

روي عن ابن عباس أنه قال: الربا ربوان.. رباً لا يصح، وهو ربا بالبيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها، ثم تلا هذه الآية.

وقال عكرمة: الربا ربوان: رباً حلال، ورباً حرام، فأما الربا الحلال: فهو الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه، وعن الضحاك في هذه الآية: هو الربا الحلال الذي يهدي ليثاب ما هو أفضل منه، لا له ولا عليه، ليس له أجر، وليس عليه فيه إثم.

ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله، ولا يثاب عليه، لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً له.

واختلف[1] العلماء فيمن وهب هبة يطلب عوضها، وقال: إنما أردت العوض، فإن كان مثله ممن يطلب العوض من الموهوب له.. فله ذلك عند مالك، وذلك كهبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الشخص لمن فوقه، ولأميره، وقال أبو حنيفة: لا يكون له عوض إذا لم يشترط، وهذان القولان جاريان للشافعي.

---

(١) المراح.

قال صاحب «روح البيان»: تشير الآية على القول الأول، إلى أنه لو قال المعطي للآخذ: أنا لا أعطي هذا المال إياك على أنه ربا، وجعله في حل.. لا يكون حلالاً، ولا يخرج عن كونه رباً، لأن ما كان حراماً بتحريم الله تعالى، لا يكون حلالاً بتحليل غيره، وإلى أن المعطي والآخذ سواء في الوعيد، إلا إذا كانت الضرورة قويةً في جانب الآخر، فلم يجد بداً من الأخذ بطريق الربا، بأن لا يقرضه أحد بغير معاوضةٍ.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وأعطيتم ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ أي: من صدقة تطوع إلى المساكين، سميت[1] زكاة لأنها تزكو وتنمو حالة كونكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وتقصدون ثوابه ورضاه، لا ثواب غيره من المكافأة، ولا رضاه بأن يكون رياءً وسمعةً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعطون على الصفة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: الذين أضعفت صدقاتهم في الآخرة بكثرة الثواب من عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وبحفظ أموالهم في الدنيا، وبالبركة لها، و﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ بكسرالعين على قراءة الجمهور: جمع مضعف، والمضعف: ذو الإضعاف في الأجر، كالمقوي لذي القوة، والموسر لذي اليسار، وقرأ أبيّ: ﴿المضعفون﴾ بفتح العين اسم مفعول، وفي عدوله عن الخطاب إلى الإخبار إيماء إلى أنه لم يخص به المخاطبون، بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة.

واعلم: أن المال عارية مستردة في يد الإنسان، ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الدائم بما لا يبقى في يده، وقد تكفل الله سبحانه بإعواض المنفق.

ولما بين أنه لا زيادة، إلا فيما يزيده، ولا خير إلا فيما يختاره.. أكد ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي لا تصح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم من العدم، ولم تكونوا شيئاً؛ أي: خلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً، ثم أخرجكم وفيكم الروح ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ ما به قوام شؤونكم في هذه

---

(١) روح البيان.

الحياة، وأطعمكم ما عشتم ودمتم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في الدنيا وقت انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة بالنفخة الأخيرة، ليجازيكم بما عملتم في الدنيا من الخير والشر، فهو سبحانه المختص بهذه الأشياء.

ثم وبخ هؤلاء المشركين، الذين يعبدون الآلهة والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت بقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ التي زعمتم أنها شركاء لله، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم. ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء.

﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي[1]: لا يفعل أحد قط شيئاً من تلك الأفعال، والاستفهام فيه: للإنكار بمعنى النفي، و﴿مِّن﴾ الأولى والثانية، تفيدان شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال، والثالثة مزيدة لتعميم المنفي، وكل منها مستعملة للتأكيد، لتعجيز الشركاء، والتقدير: من الذي يفعل شيئاً من ذلكم من شركائكم؟ ومعلوم أنهم يقولون: ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة.

والمعنى: أي هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لي في العبادة من يخلق أو يرزق أو ينشر الميت يوم القيامة؟ وإجمال المعنى: أن شركاءكم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يعبدون من دون الله تعالى.

ثم برأ سبحانه نفسه من هذه الفرية التي افتروها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه الله، أو نزهوه تنزيهاً بليغاً ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعالياً كبيراً ﴿عما يشركون﴾؛ أي: عن إشراك المشركين؛ أي: تنزه عن الشريك، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يشركون﴾ بياء الغيبة، والأعمش، وابن وثاب: بتاء الخطاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قيل[1]: الشرك على أقسام: أعظمها اعتقاد شريك لله في الذات، ويليه اعتقاد شريك لله في الفعل، كقول من يقول: العباد خالقون أفعالهم الاختيارية، ويليه الشرك في العبادة، وهو الرياء، وهذا هو المراد بحديث: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري.. تركته وشركَه» بفتح الكاف؛ أي: مع شريكه، والضمير في «تركته» لمن، يعني أن المرائي في طاعته آثم، لا ثواب له فيها.

قال الشيخ أبو حامد رحمه الله: إذا كان مع الرياء قصد الثواب راجحاً.. فالذي نظنه ـ والعلم عند الله ـ أن لا يحبط أصل الثواب، ولكن ينقص منه، فيكون الحديث محمولاً على ما إذا تساوى القصدان، أو يكون قصد الرياء أرجح.

قال الكلاباذي رحمه الله: العمل إذا صح في أوله.. لم يضره فساد بعد، ولا يحبطه شيء دون الشرك، لأن الرياء: هو ما يفعل العبد من أوله ليرائي به الناس، ويكون ذلك قصده ومراده عند أهل السنة والجماعة، لقوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولو كان الأمر على ما زعم المعتزلة: من إحباط الطاعات بالمعاصي.. لم يجز اختلاطها واجتماعها، كذا في «شرح المشارق» لابن الملك.

قال في «الأشباه»: لو افتتح الصلاة خالصاً لله تعالى، ثم دخل في قلبه الرياء، فهو على ما افتتح، والرياء: أن يكون الشخص بحيث لو خلا عن الناس لا يصلي، وإذا كان معهم يصلي، فأما لو صلى مع الناس يحسنها، ولو صلى وحده.. لا يحسن، فله ثواب أصل الصلاة دون الإحسان، ولا يدخل الرياء في الصوم. انتهى.

فعلى العاقل أن يجتهد في طريق المراقبة والمشاهدة، حتى يلاحظ الله تعالى في كل فعل باشره من مأموراته، ولا يلاحظ غيره من مخلوقاته، حتى إن الراعي إذا صلى عند الأغنام، لا يلتفت إليها، إذ وجودها وعدمها سواء، فالرياء

---

(١) روح البيان.

لها هواء، والله تعالى خلق العبد، وخلق القدرة على الحركة، ورزقه القيام بأمره، فما معنى الشركة، نسأل الله سبحانه وتعالى الخلاص من الأغيار، وإخراج الملاحظات والأفكار من القلب الذي خلق للتوجه إليه، والحضور لديه.

﴿ظَهَرَ﴾؛ أي: كثر وشاع ﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾[1] كالجدب، وقلة النبات والربح في التجارات، والريع في الزراعات، والدر والنسل في الحيوانات، ومحق البركات من كل شيء، ووقوع الموتان بضم الميم كبطلان، الموت الشائع في الماشية، وظهور الوباء والطاعون في الناس، وكثرة الحرق - بفتحتين - اسم من الإحراق، وغلبة الأعداء، ووجود الفتن والحرب، ونحو ذلك من المضار.

﴿و﴾ في ﴿البحر﴾ كالغرق بفتحتين - اسم من الإغراق - وعمي دواب البحر، بانقطاع المطر، فإن المطر لها كالكحل للإنسان، وإخفاق الغواصين؛ أي: خيبتهم من اللؤلؤ، فإنه يتكون من مطر نيسان، فإذا انقطع.. لم ينعقد.

والظاهر من الآية[2]: ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه، بسبب ذنوبهم، كالقحط وكثرة الخوف، والبر والبحر: هما المعروفان المشهوران، وقيل: البر: الفيافي، والبحر: القرى التي على ماء، قاله عكرمة، والعرب تسمي الأمصار: البحار، قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر: ما كان على شط نهر، والأول أولى.

والباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ للسببية، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية؛ أي: بسبب شؤم المعاصي، التي كسبها الناس في البر والبحر، بمزاولة الأيدي غالباً، أو بسبب كسبهم، ففيه إشارة إلى أن الكسب من العبد، والتقدير والخلق من الله تعالى، فالطاعة كالشمس المنيرة، تنتشر أنوارها في الآفاق، فكذا الطاعة، تسري بركاتها إلى الأقطار، فهي من تأثيرات لطفه تعالى، والمعصية

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

كالليلة المظلمة، فكما أن الليلة تحيط ظلمتها بالجوانب، فكذا المعصية تتفرق شآمتها إلى الأقارب والأجانب، فهي من تأثيرات قهره تعالى.

قيل[١]: أول فساد ظهر في البر قتل قابيل أخاه هابيل، وفي البحر أخذ الجلندي الملك كل سفينة غصباً، وفي المثل: أظلم من ابن الجلندي، بزيادة ابن كما في «إنسان العيون»، وكان من أجداد الحجاج، بينه وبينه سبعون جدّاً، وكانت الأرض خضرةً معجبة بنضارتها، لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرةً، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا تقصد الأسود البقر، فلما وقع القتل المذكور.. تغير ما على الأرض، وشاكت الأشجار؛ أي: صارت ذات شوك، وصار ماء البحر ملحاً مراً جداً، وقصد بعض الحيوان بعضاً، وتعلقت شوكة بنبي، فلعنها، فقالت: لا تلعني فإني ظهرت من شؤم ذنوب الآدميين.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ للعلة، والذوق: وجود الطعم بالفم، وكثر استعماله في العذاب، يعني: أفسد أسباب دنياهم بسوء صنيعهم، ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا، واقترفوا من الذنوب، والإعراض عن الحق، ويعذبهم بالبأساء والضراء والمصائب، وإنما[٢] قال: ﴿بَعْضَ﴾ لأن تمام الجزاء في الآخرة، ويجوز أن تكون اللام للعاقبة؛ أي: كان عاقبة ظهور الشرور منهم ذلك، نعوذ بالله من سوء العاقبة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي والغفلات، وتتبع الشهوات، وتضييع الأوقات إلى التوحيد والطاعة، وطلب الحق والجهد في عبوديته، وتعظيم الشرع والتأسف على ما فات.

ففيه تنبيه على أن الله تعالى إنما يقضي بالجدوبة، ونقص الثمرات والنبات، لطفاً من جنابه في رجوع الخلق عن المعصية.

وقرأ الجمهور: ﴿ليذيقهم﴾ بالياء، وقرأ السلمي، والأعرج، وأبو حيوة، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسان، وقنبل من طريق مجاهد، وابن الصباح،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وأبو الفضل الواسطي عنه، ومحبوب عن أبي عمرو: ﴿لنذيقهم﴾ بالنون، ذكره أبو حيان.

ومعنى الآية[1]: أي ظهر الفساد في العالم، بالحروب والغارات والجيوش والطائرات والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس، من الظلم وكثرة المطامع وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت في الأرض فساداً إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلهم يرجعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوماً يحاسب الناس فيه على أعمالهم، إنْ خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر، فيخيم العدل على المجتمع البشري،ويشفق القوي على الضعيف، ويكون الناس سواسية في المرافق العامة وحاجَّ المجتمع بقدر الطاقة البشرية.

واعلم: أن الله تعالى[2] غيَّر بشؤم المعصية أشياء كثيرة، غير صورة إبليس واسمه، وكان اسمه الحارث وعزازيل فسماه: إبليس، وغير لون حام بن نوح، بسبب أنه نظر إلى سوأة أبيه فضحك، وكان أبوه نوح نائماً، فأخبر بذلك فدعا عليه، فسوده الله تعالى فتولد منه الهند والحبشة، وغير الصورة على قوم موسى فصيرهم قردة، وعلى قوم عيسى فصيرهم خنازير، وغير ماء القبط ومالهم فصيرهما دماً وحجراً، وغير العلم على أمية بن أبي الصلت، وكان من بلغاء العرب ـ حيث كان نائماً فأتاه طائر، وأدخل منقاره في فيه، فلما استيقظ نسي جميع علومه، وغير اللسان على رجل بسبب العقوق، حيث نادته والدته، فلم يجب فصار أخرس، وغير الإيمان على برصيصا، بسبب شرب الخمر والزنا بعد ما عبد الله تعالى مئتين وعشرين سنة إلى غير ذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة[١]: أن ظهور الفاحشة في قوم وإعلانها سبب لفشو الطاعون والأوجاع، ونقص الميزان، والمكيال سبب القحط وشدة المؤونة وجور السلطان، ومنع الزكاة سبب لانقطاع المطر، ولولا البهائم.. لم يمطروا، ونقض عهد الله وعهد رسوله سبب لتسلط العدو، وأخذ الأموال من أيدي الناس، وعدم حكم الأئمة بكتاب الله سبب لوقوع السيف والقتال بين الناس، وأكل الربا سبب للزلزلة والخسف، فضرر البعض يسري إلى الجميع، ولذا يقال: من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر خصماؤه يوم القيامة، فلا بد من الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والطاعة والإصلاح، فإن فيه الفوز والفلاح.

وبعد أن بين[٢]: أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم، أرشدهم إلى أن من كان قبلهم، وكانت أفعالهم كأفعالهم، أصابهم بعذاب من عنده، وصاروا مثلاً لمن بعدهم، وعبرةً لمن خلفهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة: ﴿سِيرُوا﴾ أيها المشركون وسافروا ﴿فِي﴾ نواحي ﴿الْأَرْضِ﴾ وأرجائها؛ أي: في أرض الأمم المكذبة المهلكة ﴿فَانْظُرُوا﴾ بأعينكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كيف صار آخر آمر الذين كذبوا رسلهم من قبلهم، حين أهلكوا فكانوا كأمس الدابر، فإن منازلهم كانت خاويةً، وأراضيهم مقفرةً، موحشةً، كعاد وثمود وقوم لوط من طوائف الكفار.

والنظر على وجهين[٣]: يقال: نظر إليه، إذا نظر بعينه، ونظر فيه: إذا تفكر بقلبه، وههنا قال: فانظروا، ولم يقل: إليه أو فيه، ليدل على مشاهدة الآثار ومطالعة الأحوال.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: كان أكثر الذين من قبل ﴿مُشْرِكِينَ﴾ فأهلكوا بشركهم، وهو استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم، أو كان الشرك

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم فإذا أصابهم العذاب بسبب شركهم ومعاصيهم.. فليحذر من كان على صفتهم من مشركي قريش وغيرهم، أن يصيبهم العذاب إن أصروا على ذلك.

والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسله، كيف أهلكناهم بعذاب منا، وجعلناهم عبرةً لمن بعدهم.

ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب، فقال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فما حل بهم من العذاب، كان جزاء وفاقاً لكفرهم بآيات ربهم، وتكذيبهم رسله.

ولما بين[1] الله تعالى أن المعاصي والشرك سبب لسخط الله سبحانه.. أمر رسوله بأن يستقيم على الدين القويم، تثبيتاً للمؤمنين على ما هم عليه، إلا أنه خاطب به سيدهم تعظيماً له، ولكونه واسطةً بين الله وبين الأمة، فقال: ﴿فَأَقِمْ﴾ يا محمد واصرف وحول ﴿وَجْهَكَ﴾؛ أي: ذاتك قلباً وقالباً ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾؛ أي: إلى الدين البليغ الاستقامة، الذي ليس فيه عوج أصلاً، وهو دين الإسلام، والخطاب هنا: للنبي - ﷺ - ولكن المراد أمته، والفاء فيه: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه قد ظهر الفساد في الأرض بسبب ما كسبت أيدي الناس، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: فأقم أنت وأمتك وجوهكم للدين القيم، واثبتوا عليه.

وقيل المعنى: أوضح الحق وبالغ في الإعذار ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾؛ أي: لذلك اليوم، وهو مصدر بمعنى الرد ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ إما[2] متعلق بيأتي؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد؛ أي: لا يقدر أحد على رده ودفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولا ينفع نفساً إيمانها حينئذٍ، أو متعلق بمرد، لأنه مصدر؛ أي: لا يرده الله تعالى بعد أن يجيء به، لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وقد وعد ولا خلف في وعده ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ

---

(١) زادة. (٢) النسفي.

جاء ذلك اليوم ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يتفرقون بعد محاسبة الله تعالى أهل الموقف، فريق في الجنة، وفريق في السعير، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: وبال كفره وجزاؤه، وهو النار المؤبدة، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: وحد الله سبحانه، وعمل بالطاعة الخالصة بعد التوحيد ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ وحدها ﴿يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يسوون منزلاً في الجنة، ويفرشون ويهيئون له، وأصل[1] المهد: إصلاح المضجع للصبي، ثم استعير لغيره، كما في «كشف الأسرار» ومن التمهيد: تمهيد المضاجع في القبور، فإنه بالعمل الصالح يصلح منزل القبر ومأوى الجنة، وتقديم الظرف في الموضعين: للدلالة على الاختصاص.

ثم بين العلة في تفرقهم، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا به وبرسوله في الدنيا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورات، وهي ما أريد به وجه الله تعالى ورضاه الجزاء الجميل، والأجر الجزيل ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وكرمه وإحسانه لا وجوباً عليه، وهو متعلق بـ﴿يجزي﴾، وهو متعلق بيصدعون؛ أي: يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين، ليجزي كلاً منهما بحسب أعمالهم، فيجازي المؤمنين بالحسنى من فضله، فيكافىء الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف إلى ما شاء الله من المنح والعطايا.

وقال ابن عطية: ومقابله محذوف لدلالة ما بعده عليه، تقديره: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله، والكافرين بعدله.

وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات، أبرز ذلك في معرض الغاية، وعبر عنه بالفضل، لما أن الإثابة عند أهل السنة بطريق التفضل، لا بطريق الوجوب، كما عند المعتزلة.

وأشار إلى جزاء الفريق الآخر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به وبرسوله؛ أي: إنه يبغضهم ولا يرضى أعمالهم، وذلك يستدعي

---

(١) روح البيان.

عقابهم، ولا يخفى ما في ذلك من تهديد ووعيد.

وروي أن الله سبحانه، أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما خلقت النار بخلاً مني، ولكن أكره أن أجمع أعدائي وأوليائي في دار واحدة». نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينزلنا دار أوليائه، ونستعيذ به أن يدخلنا دار أعدائه، مع أحبابنا وأحبائنا، وجميع المسلمين. آمين.

الإعراب

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿وَمِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿يُرِيكُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم. ﴿ٱلْبَرْقَ﴾: مفعول ثان، لأن الرؤية هنا بصرية تعدت بالهمزة إلى مفعولين، والجملة الفعلية، مع أن المصدرية المحذوفة ـ لأن أصله أن يريكم ـ: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأً مؤخراً، تقديره: وإراءته إياكم البرق من آياته تعالى، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: منصوبان على أنهما مفعولان لأجله، وقد اعترض على هذا الإعراب، بأن من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل، والخوف والطمع ليسا كذلك؟ والجواب عن هذا الاعتراض بأن يقال: بأنه على حذف مضاف؛ أي: يريكم إراءة خوف وإراءة طمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وانتصب انتصابه، ويجوز أن يكونا حالين من كاف يريكم؛ أي: خائفين وطامعين. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ينزل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿ينزل﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به، والجملة: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُرِيكُمُ﴾. ﴿فَيُحْىِۦ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يحيي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿ينزل﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلقان بـ﴿يحيي﴾ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من الأرض. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار

ومجرور خبر مقدم لـ﴿إنّ﴾. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، واللام: حرف ابتداء، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾. والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً، والتقدير: وقيام السماء والأرض بأمره كائن من آياته، والجملة الاسمية: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَقُومَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿دَعَاكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿دَعْوَةً﴾: مفعول مطلق، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿دَعَاكُمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل الخفض بـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿إِذَآ﴾: فجائية قائمة مقام الفاء في ربط الجواب بالشرط، حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَخْرُجُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب إذا لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إِذَآ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَن تَقُومَ﴾ على كونها مبتدأ مؤخراً، والتقدير: وقيام السماء والأرض بأمره، ثم خروجكم من الأرض وقت دعوته إياكم كائن من آياته.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به العموم، ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق بـ﴿قَٰنِتُونَ﴾. ﴿قَٰنِتُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾. ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَلَيۡهِۚ﴾: متعلق بـ﴿أَهۡوَنُ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الإعادة المفهومة من ﴿يعيد﴾؛ أي: حالة كون الإعادة أهون عليه من البدء بالنظر إلى ما نعرفه. ﴿وَلَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾، والجملة: معطوفة على ما قبلها، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: حال من ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾، أو من ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أو من الضمير فيه، ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: معطوفة على ما قبلها، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ضَرَبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿ضَرَبَ﴾، ﴿مَّثَلٗا﴾: مفعول أول له، ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: صفة لـ﴿مَّثَلٗا﴾، ﴿هَل﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿لَّكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن مَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: مما ملكته أيمانكم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿شُرَكَآءَ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِي مَا﴾: متعلق بشركاء، ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: فيما رزقناكموه، والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، مبينة لضرب المثل. ﴿فَأَنتُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة واقعة في جواب الاستفهام، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿سَوَآءٞ﴾. ﴿سَوَآءٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة الاستفهامية، وجملة ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾: في

محل الرفع خبر ثان لـ﴿أنتم﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: فأنتم متساوون فيه حالة كون بعضكم خائفاً من بعض مشاركته له في المال، ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: خيفةً مثل خيفتكم، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، و﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾: مفعوله. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿نُفَصِّلُ﴾، وجملة: ﴿يَعْقِلُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، والتقدير: نفصل الآيات لقوم يعقلون، تفصيلاً مثل ذلك التفصيل المذكور هنا.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول ﴿ٱتَّبَعَ﴾، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾: جار ومجرور حال من الموصول، ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِي﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّبَعَ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِي﴾، ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: من أضله الله. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة. ويجوز أن تجعل ﴿ما﴾: حجازية عند من يجيز تقديم خبرها على اسمها، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة قبلها.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَقِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان حال المشركين اتباع الهوى، والإعراض عن الهدى، وأردت

بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: أقم وجهك للدين القيم، ﴿أقم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد وأمته أسوة له. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿أقم﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: حال من فاعل ﴿أقم﴾، أو من مفعوله، أو من الدين، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على الإغراء بفعل محذوف وجوباً، تقديره: الزموا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾. والجملة المحذوفة: مقول لجواب إذا المقدرة ﴿ٱلَّتِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿فطر﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: نافية للجنس ﴿تَبْدِيلَ﴾: اسمها ﴿لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: خبرها وجملة ﴿لا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكن أكثر الناس﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية: في محل النصب حال من ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، ولكنها على تقدير رابط بينها وبين صاحب الحال؛ أي: والحال أن أكثر الناس لا يعلمون كونه ديناً قيماً، ﴿مُنِيبِينَ﴾: حال من فاعل الزموا المضمر، وهو أحسن من جعله حالاً من فاعل ﴿أقم﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿مُنِيبِينَ﴾، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على الزموا المضمر، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور بدل من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإعادة الجار، ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على جملة الصلة، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: مبتدأ

ومضاف إليه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحُونَ﴾، ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فَرِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ، والجملة: مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة، ﴿مُّنِيبِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوْا﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿مُّنِيبِينَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَذَاقَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿مِّنْهُ﴾: حال من ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿أَذَاقَهُم﴾، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾. وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: معطوفة على جملة ﴿إِذَآ﴾ الأولى.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، أو لام العاقبة، وقيل: هي لام الأمر، والمراد بالأمر، التهديد والوعيد، ﴿يكفروا﴾: فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد ﴿اللام﴾: و﴿الواو﴾: فاعله، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: تقديره: لكفرهم بما آتيناهم. والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني: محذوف، تقديره: بما آتيناهموه، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿تمتعوا﴾: فعل أمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿يكفروا﴾، ولكن فيه التفات عن

الغيبة إلى الخطاب للمبالغة، فكأنه قال: ليكفروا بما آتيناهم فيتمتعوا به، ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿سوف﴾: حرف استقبال، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تمتعوا﴾.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، و﴿همزة﴾: الاستفهام الإنكاري، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وفيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة، للإيذان بالإعراض عنهم، وبعدهم عن ساحة الخطاب. ا هـ. «شيخنا». كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول به، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هو﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَتَكَلَّمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَكَلَّمُ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أَذَقْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿النَّاسَ﴾: مفعول أول، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَرِحُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُصِبْهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به مجزوم بـ﴿إن﴾: الشرطية. ﴿سَيِّئَةٌ﴾: فاعل، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تُصِبْهُمْ﴾. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما قدمته أيديهم، ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقْنَطُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل الجزم على كونها جواب

﴿إن﴾: الشرطية، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألم يشاهد هؤلاء المشركون، ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: خبره، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَرَوْا۟﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾. وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة قوم. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَـَٔاتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره، إذا عرفت أن القبض والبسط كليهما بيد الله سبحانه، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك أيها المكلف: آت. ﴿آت﴾: فعل أمر وفاعل مستتر مبني على حذف حرف العلة، ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: مفعول به أول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿حَقَّهُۥ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾: معطوف على ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. وجملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿هُمُ﴾: مبتدأ ثان، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني: خبر للأول، وجملة الأول: مقول لجواب إذا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿ءَاتَيْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية على كونها فعل شرط لها، والمفعول الثاني لـ﴿آتِ﴾ محذوف، تقديره: وما آتيتموه ﴿مِّن رِّبًا﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يربو﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿يربو﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ أو على ﴿رِّبًا﴾. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يربو﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: تقديره لربائه في أموال الناس، والجار والمجرور متعلق بـ﴿ءَاتَيْتُم﴾، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بالشرط وجوباً لاقترانه بـ﴿لا﴾ النافية. ﴿يربوا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾: الشرطية في محل النصب معطوف على جملة قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: الشرطية، ﴿ءَاتَيْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية. ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَاتَيْتُم﴾. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة للجواب ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية: في محل الجزم على كونها جواباً لـ﴿ما﴾: الشرطية، وجملة ﴿ما﴾: الشرطية: معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الأولى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر. ﴿خَلَقَكُمْ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية، متسأنفة، ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾:

معطوف على ﴿رَزَقَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُمِيتُكُمْ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مَّن﴾: للتبعيض. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿يَفْعَلُ﴾: صلة الموصول، ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾: حال من ﴿شَيْءٍ﴾، لأنه كان في الأصل صفة له، ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿يَفْعَلُ﴾. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً؛ أي: سبحوه سبحاناً، أو أسبحه سبحاناً، والجملة: مستأنفة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾. و﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: صلة لها؛ أي: عن إشراكهم، أو عن الشريك الذي يشركونه به.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير ما عم في مختلف الأنحاء من البر والبحر، من مفسدة وظلم ولهو ولعب وسائر ما يطلق عليه الفساد الذي هو ضد الصلاح، ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾ أو حال من الفساد، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾ أيضاً، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: فعل وفاعل. والجملة: صلة لـ﴿ما﴾: المصدرية؛ أي: بسبب كسبهم، أو صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: بسبب الذي كسبوه. ﴿لِيُذِيقَهُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل متعلقة بمحذوف، تقديره: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وعاقبهم ﴿لِيُذِيقَهُم﴾. وقيل: ﴿اللام﴾: لام العاقبة والصيرورة، لأن ذلك هو مآلهم وعاقبتهم، وأجاز أبو البقاء تعلق ﴿اللام﴾ بـ﴿ظَهَرَ﴾. ﴿يذيقهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ تقديره: لإذاقته إياهم بعض الذين عملوا؛ أي: جزاءه في الدنيا، ﴿عَمِلُوا۟﴾: فعل وفاعل

صلة الموصول. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿سِيرُوا﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَانْظُرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿انظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُوا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كان﴾ مقدم. ﴿كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. وجملة ﴿كان﴾: في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾: معلق عنها باسم الاستفهام، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان أن ما أصابهم كان لفشو الشرك في أكثرهم والفساد والمعاصي في أقلهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾.

﴿فَأَقِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه قد ظهر الفساد في الأرض، بسبب ما كسبت أيدي الناس، وأردت بيان ما هو اللازم لك ولأمتك.. فأقول لك: ﴿أقم وجهك﴾ الخ، ﴿أقم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿أقم﴾. ﴿الْقَيِّمِ﴾: صفة ﴿لِلدِّينِ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أقم﴾، أو من ﴿الدين﴾. ﴿أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من

قبل إتيان يوم لا مرد له من الله، ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، ﴿مَرَدَّ﴾: اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: خبرها، والجملة: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوۡمٌ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: إما متعلق بـ﴿يَأۡتِيَ﴾ أو بمحذوف دل عليه المصدر؛ أي: لا يرده من الله أحد، ولا يجوز تعلقه بـ﴿مَرَدَّ﴾، لأنه حينئذٍ يكون شبيهاً بالمضاف فيعرب بالفتحة الظاهرة، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾. ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿مَن كَفَرَ﴾: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَن﴾: على كونه فعل شرط لها، ﴿فَعَلَيۡهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾: الشرطية وجوباً، ﴿عليه﴾: خبر مقدم، ﴿كُفۡرُهُۥۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾: الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾: لشرطية، وجملة مفسرة لقوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: فلا محل لها من الإعراب، ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، أو فعل الشرط خبره. ﴿عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به في محل الجزم بـ﴿مَن﴾: الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً. مشاكلة للجواب الماضي ﴿لأنفسهم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾. ﴿يَمۡهَدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿لِيَجۡزِيَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، أو بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك كائن لجزائه الذين آمنوا الخ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف عليه. ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿يجزي﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل جملة محذوفة معلومة من السياق، تقديره: ويعاقب الكافرين بعدله، لأنه لا يحب الكافرين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ البرق: لمعان السحاب. وفي «إخوان الصفا»: البرق: نار وهواء. ﴿خَوْفًا﴾؛ أي: إخافةً من الصاعقة، خصوصاً لمن كان في البرية، كقولهم: فعلته رغماً للشيطان؛ أي: إرغاماً له.

﴿وَطَمَعًا﴾؛ أي: إطماعاً في الغيث، لا سيما لمن كان مقيماً.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مطراً، قال في «إخوان الصفا»: المطر: هو الأجزاء المائية، إذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت رجعت إلى الأرض.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: والأرض: جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام، واقف في مركز العالم مبين لكيفية الجهات الست كما مر.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: من القنوت، وهو الطاعة، والمراد: طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة؛ أي: منقادون لما يريده بهم من حياة وموت وبعث وصحة وسقم وعز وذل، لا يمتنعون عليه تعالى في شأن من شؤونه.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أسهل وأيسر بالنظر إلى ما نعرفه، قال في «القاموس»: هان هوناً، بالضم، وهواناً ومهانةً: ذل، وهوناً: سهل، فهو هين، بالتشديد والتخفيف وأهون. ا هـ.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الوصف الأعلى: العجيب الشأن من القدرة العامة، والحكمة التامة، وسائر صفات الكمال التي ليس لغيره ما يدانيها، فضلاً عما يساويها.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: يقال: ضرب الدرهم اعتباراً بضربه بالمطرقة، وقيل له: الطبع اعتباراً بتأثير السكة فيه، وضرب المثل: هو من ضرب الدرهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره، والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، لتبيين أحدهما بالآخر وتصويره.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ وأقم من أقام العود وقومه، إذا عدله، والمراد:

الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه، والوجه في الأصل: الجارحة المخصوصة، سميت وجهاً لأن بها تحصل المواجهة، وقد يعبر به عن الذات، كما في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥ﴾ وهذا المعنى هو المراد هنا، والدين: في الأصل الطاعة والجزاء، واستعير هنا للشريعة، والفرق بينه وبين الملة اعتباري، فإن الشريعة من حيث إنها يطاع لها وينقاد: دين، ومن حيث إنها تملى وتكتب: ملة، والإملاء: كالإملال، هو حكاية القول لمن يكتبه.

﴿حَنِيفًا﴾: وفي «المفردات» الحنف: ميل عن الضلال إلى الاستقامة، وتحنف فلان: تحرى طريق الاستقامة، وسمت العرب كل من اختتن أو حج: حنيفاً، تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ والفطرة: الخلقة وزناً ومعنىً، وقولهم: صدقة الفطرة؛ أي: صدقة إنسانٍ مفطورٍ؛ أي: مخلوق فيؤول إلى قولهم: زكاة الرأس، والمراد بالفطرة ههنا: هي الحالة التي خلق الله الناس عليها، من القابلية للتوحيد ودين الإسلام، والتهيؤ لإدراكه عن غير إباء عنه وإنكار له. قال الراغب: فطرة الله ما فطر؛ أي: أبدع وركز في الناس من قوتهم على معرفة الإيمان.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: هو فطرته المذكورة أولاً.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: هو من أناب الرباعي إذا رجع مرةً بعد أخرى، ويقال: ناب نوبةً ونوباً: إذا رجع مرة بعد أخرى؛ أي: راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾؛ أي: فرقاً تشايع كل فرقة إمامها الذي مهد لها دينها. وقرره ووضع أصوله.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: الحزب: الجماعة من الناس، والسلاح، وجند الرجل، وأصحابه الذين على رأيه، والنصيب والقسم من القرآن أو غيره، والجمع أحزاب، وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، وإن لم يلق بعضهم بعضاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ قال في «المفردات»: المس: يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى.

﴿سُلْطَٰنًا﴾: والسلطان: الحجة، تقول: له سلطان مبين؛ أي: حجة واضحة، وعبارة «القاموس»: والسلطان: الحجة وقدرة الملك. ا هـ.

والسلطان: يذكر؛ لأنه بمعنى الدليل، ويؤنث، لأنه بمعنى الحجة. وقيل: هو جمع سليط للدهن، كرغيف ورغفان.

﴿يَقْنَطُونَ﴾؛ أي: ييئسون من الرحمة، وفي «المصباح»: هو بفتح النون وكسرها سبعيتان، وبابه ضرب وتعب. وفي «القاموس»: قنط كنصر وضرب وحسب وكرم قنوطاً، وكفرح قنطاً وقناطةً، كمنع وحسب، وهاتان على الجمع بين اللغتين، يئس فهو قنط كفرح، وقنطه تقنيطاً آيسة، والقنط: المنع، وزبيب الصبي. انتهى.

﴿حَقَّهُۥ﴾: هو صلة الرحم والبر به.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾: هو المعدم الذي لا مال له.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافر، احتاج إلى مال وعز عليه إحضاره من بلده، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة.

﴿رِّبًا﴾؛ أي: زيادة، والمراد بها هنا: الهدية التي يتوقع بها مزيد مكافأة.

﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فلا يبارك فيه.

﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب، جمع مضعف، وهو اسم فاعل من أضعف، إذا صار ذا ضعف بكسر فسكون، كأن يضاعف له ثواب ما أعطاه، كأقوى وأيسر، إذا صار ذات قوةٍ ويسار فهو لصيرورة الفاعل، ذا أصلهُ.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ في «القاموس»: فسد كنصر وكرم فساداً: ضد صلح، فهو فاسد، والفساد أخذ المال ظلماً، والجدب والمفسدة: ضد المصلحة. ا هـ.

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أصله يتصدعون، فأدغمت التاء في الصاد وشددت، والصدع: الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما، ومنه استعير صدع الأمر؛ أي: فصله، والصداع وهو: الانشقاق في الرأس من الوجع، ومنه الصديع للفجر، لأنه ينشق من الليل، والمعنى: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير، وفي «المصباح»: صدعته صدعاً من باب نفع، شققته فانصدع، وصدعت القوم صدعاً فتصدعوا، أي فرقتهم فتفرقوا، وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، قيل: مأخوذ من هذا؛ أي: شق جماعاتهم بالتوحيد، وقيل: افرق بذلك بين الحق والباطل. وقيل: أظهر ذلك، وصدعت بالحق تكلمت به جهاراً، وصدعت الفلاة: قطعتها. ا هـ.

﴿يَمۡهَدُونَ﴾: وفي«المختار»: ومهد الفراش بسطه ووطأهُ. ا هـ؛ أي: يتخذون ويهيئون منازلهم، ولتسببهم في تهيئة المنازل لهم وتمهيدها واتخاذها نسب إليه. ا هـ. «شيخنا».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين قوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ وبين ﴿يَبۡسُطُ﴾، ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ وبين ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾، و﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ وبين ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾، و﴿يُعِيدُهُۥ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ وفي قوله: ﴿تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ للتسجيل عليهم بوصف الظلم؛ أي: بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون، وفيه أيضاً الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إهانةً لهم، وإيذاناً بأنهم لايتسحقون الخطاب.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ شبه إقباله على الدين واستقامته واهتمامه بترتيب أسبابه، بحال من اهتم بشيء محسوس بالبصر، عقد عليه طرفه، ومد إليه نظره، وقوم له وجهه مقبلاً عليه، وفيه المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَجْهَكَ﴾: حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: توجه إلى الله بكليتك، وفيه أيضاً الاستعارة التصريحية حيث استعار الدين، الذي هو بمعنى الجزاء للشريعة للمجازاة عليها.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وبين قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ كما تقول كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه الدلالة والشهادة، فهو يشهد بشركهم، أو بالذي يشركون به.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، وفيه الكناية أيضاً لأن قوله: ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ كناية، لأن الزيادة التي يأخذها المرابي من أموال الناس، لا يملكها أصلاً، فالظرفية: هي موضع الكناية.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة للتعظيم، فهو أمدح من أن يقول لهم: فأنتم المضعفون، وفيه حذف المفعول به؛ أي: ثوابهم.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾.

ومنها: الطباق بين البر والبحر في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بإطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن

﴿ذَٰلِكُمْ﴾.

ومنها: جناس المناسبة اللفظي؛ لأن الجناس أصلين: وهما: جناس المزاوجة، وجناس المناسبة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ حيث استعار الصدع بمعنى: الشق في الأجسام الصلبة، للصدع بمعنى التفريق، فاشتق من الصدع بمعنى التفريق ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ بمعنى يتفرقون على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ شبه من قدم الأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويوطئه للنوم عليه، لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه، وينغص عليه مرقده.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن عدم محبته تعالى، كناية عن بغضه الموجب لغضبه، المستتبع للعقوبة لا محالة.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك.. ذكر ظهور الصلاح، والكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً، ويذكر لعقابه سبباً، لئلا يتوهم به الظلم، فذكر من أعلام القدرة: إرسال الرياح مبشرات

---

(١) البحر المحيط.

بالمطر لأنها متقدمة.

وعبارة «المراغي» هنا: لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر في البر والبحر، بسبب الشرك والمعاصي.. نبّههم إلى دلائل وحدانيته، بما يُشاهدونه أمامهم، من إرسال الرياح بالأمطار فتحيا به الأرض بعد موتها، وجري الفلك حاملةً لما هم في حاجة إليه، مما فيه غذاؤهم، وعليه مدار حياتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر[1] البراهين الساطعة، الدالة على الوحدانية والبعث والنشور، ولم يرعوِ بها المشركون، بل لجوافي طغيانهم يعمهون.. سلى رسوله - ﷺ - فذكر له أنك لست أول من كُذب، فكثير ممن قبلك جاؤوا أقوامهم بالبينات، فلم تغنهم الآيات والنذر، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم، فلا تبتئس بما كانوا يعملون، ولنجرين عليك وعلى قومك سنّتنا، ولننتقمن منهم، ولننصرنك عليهم فالعاقبة للمتقين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] سلى رسوله - ﷺ - على ما يلاقيه من أذى قومه، ببيان أنه ليس ببدع في الرسل، فكأين من رسول قبله قد كُذب، ثم دالت الدولة على المكذبين، ونصر الله رسوله والمؤمنين.. أعاد الكرة مرة أخرى، فأتبع البرهان بالبرهان، لإثبات الوحدانية، وإمكان البعث والنشور، بما يشاهد من الأدلة في الآفاق، مرشدةً إلى قدرته وعظيم رحمته، ثم بما يرى في الأرض الموات من إحيائها بالمطر، وهو دليل لائح يشاهدونه ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين، والفينة بعد الفينة، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لمن ادكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر صنوف الأدلة، ثم ضرب المثل على توحيده،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة، ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد، ثم ما زادهم دعاء الرسول إلا إعراضاً، ولا تكرار النصح إلا إصراراً، وعناداً.. أردف هذا تسليته على ما يراه من التمادي في الإعراض، وكثرة العناد، واللجاج، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى، فأنى لك أن تُسمعهم، وكأنهم صم، فكيف يسمعون دعاءَك حتى يستجيبوا لك،إنما الذي يستجيب من يؤمن بآيات الله، فهو إذا سمع كتابه.. تدبره وفهمه، فيخضع لك بطاعته، ويتذلل بمواعظ كتابه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته.. أردفها دلائل الأنفس، فذكر خلق الأنفس في أطوارها المختلفة، من ضعف إلى قوة، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف، ثم إلى شيخوخة وهرم، وبين أنه العليم بها في مختلف أحوالها، القدير على تغييرها، واختلاف أشكالها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى، وذكر الإعادة والبعث، وأقام عليه الأدلة في شتى السور، وضرب له الأمثال.. أردف ذلك بذكر أحوال البعث، وما يجري فيه من الأفعال والأقوال، من الأشقياء والسعداء، ليكون في ذلك عبرة لمن يذكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر[2] من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر، وأعاد وكرر بشتى البراهين، وبديع الأمثال.. أردف ذلك بأنه لم يبق بعد هذا زيادةً لمستزيد، وأن الرسول - ﷺ - قد أدى واجبه، وأن من طلب شيئاً بعد ذلك.. فهو معاند مكابر، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل، ولقد أجاد من قال:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ومن الدلائل الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته، وهو خبر مقدم لقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾؛ أي: إرساله سبحانه وتهييجه وتحريكه الرياح؛ أي: رياح الرحمة لمنفعة الخلق، وهي ريح الشمال والصبا والجنوب، فإنها رياح الرحمة، وأما الدبور، فإنها ريح العذاب، ومنه قوله عليه السلام: «اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً». قال في «القاموس»[١]: الشمال بالفتح ويكسر، ما مهبه بين مطلع الشمس وبنات نعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، ولا تكاد تهب ليلاً، والجنوب: ريح تخالف الشمال، مهبه من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، والصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ومقابلتها الدبور، والصبا: موصوفة بالطيب والروح، لانخفاضها عن برد الشمال، وارتفاعها عن حر الجنوب، وفي الحديث: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها».

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ بالجمع، وقرأ[٢] ابن كثير، وحمزة، والكسائي، والأعمش: ﴿الريح﴾ بالإفراد على إرادة الجنس.

حالة كونها ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ أي: حالة كون تلك الرياح مبشرات للخلق بالمطر ونحوه، قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ الله سبحانه ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ونعمته، معطوف على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، والمراد بالرحمة: المنافع التابعة لنزول المطر، كالخصب المتسبب عن المطر، والروح: الذي يحصل بهبوب الريح، وزكاء الأرض وتصفية الهواء من العفونة، فكأنه قال: ومن آياته: إرسال الرياح ليبشركم بها وليذيقكم من رحمته.

---

(١) القاموس.

(٢) البيضاوي.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ والسفن في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته وتدبيره ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾؛ أي: ولتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه بالتجارة في البحر، فالسفن تجري بالرياح، والرياح بأمر الله، فهي في الحقيقة جارية بأمره وقدرته، وفي «الأسرار المحمدية»: لا تعتمد على الريح في استواء السفينة وسيرها، وهذا شرك في توحيد الأفعال، وجهل بحقائق الأمور، ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه.. علم أن الريح لا يتحرك بنفسه، بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول، الذي لا محرك له، ولا يتحرك هو في نفسه أيضاً، بل هو منزه عن ذلك، وعما يضاهيه سبحانه وتعالى. ا هـ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، فتفردون الله بالعبادة، وتستكثرون من الطاعة.

ومعنى الآية[1]: أي ومن الأدلة على وحدانيته تعالى، والحجج القائمة على أنه رب كل شيء: أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر، مبشرات بالغيث، الذي به تحيا الأرض، وينبت الثمر والزرع، فتأكلون منه ما لذّ وطاب، وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلاً من ربكم، وتجري السفن ماخرة للبحار، حاملةً للأقوات وأنواع الثمار، متنقلةً من قطر إلى قطر، فتأتي بما في أقصى المعمور من الشرق، إلى أقصاه في الغرب، والعكس بالعكس، فلا تحتجب الثمرات والأقوات في أماكنها، وتكون وقفاً على قومٍ بأعيانهم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: وليعدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة، وخيراته العميمة، التي لا تحصى، كما قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

تنبيه: فإن قلت[2]: لم أسقط هنا لفظة ﴿فِيهِ﴾ حيث قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وزادها في الجاثية حيث قال: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ فما الفرق بين الموضعين؟.

قلت: الفرق بينهما: أن ما هنا لم يتقدمه مرجع الضمير وهو البحر، وهناك

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن بتصرف.

تقدم مرجعه حيث قال: ﴿اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ﴾.

ولما بين سبحانه الأصلين: المبدأ والمعاد.. بين الأصل الثالث، وهو النبوة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ أي: إلى أقوامهم الكافرين، كما أرسلناك إلى قومك عابدي الأوثان، من دون الله ﴿فَجَاءُوهُم﴾؛ أي: فجاءت الرسل أقوامهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج الواضحة، والبراهين القاطعة، الدالة على صدقهم، وعلى أنها من عند الله، و﴿الباء﴾: تصلح[1] للتعدية وللملابسة؛ أي: جاء كل رسول قومه بما يخصه من الدلائل الواضحة على صدقه في دعوى الرسالة، كما جئت قومك بالبراهين النيرة، الدالة على صدقك.

وقوله: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾؛ أي: كفروا، والنقمة: العقوبة، ومنها الانتقام، والإجرام: تكذيب الأنبياء، والإصرار عليه، وإنما وضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه على مكان المحذوف، والإشعار بكونه علةً للانتقام؛ أي: عاقبناهم وأهلكناهم، ونجينا الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، ونحن فاعلو ذلك بمجرمي قومك، وبمن آمن بك، سنة الله التي شرعها لعباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

﴿وَكَانَ حَقًّا﴾؛ أي: واجباً ﴿عَلَيْنَا﴾ وجوب[2] كرم، لا وجوب إلزام. وفي «الوسيط» واجباً وجوب من أوجبه على نفسه. ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنجاؤهم من شر أعدائهم، ومما أصابهم من العذاب نصر عزيز، وإنجاء عظيم، وهذا تأكيد لبشارة المؤمنين، لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم، فإذا قال ﴿حَقًّا﴾ أكد ذلك المعنى، والنصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، والكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات، لا يكون ذلك نصرةً، إذ لا عاقبة له. ا هـ. من «المراح».

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفيه[1]: إخبار من الله سبحانه: بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو لا يخلف الميعاد، أخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه والترمذي، عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولفظ الترمذي: «من رد عن عرض أخيه.. رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». وقال: حديث حسن.

ووقف[2] بعض القراء على ﴿حَقًّا﴾ وجعل اسم ﴿كان﴾ ضميراً فيها وخبرها ﴿حَقًّا﴾. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح: أن ﴿نصر المؤمنين﴾ اسمها، و﴿حَقًّا﴾ خبرها، و﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿حَقًّا﴾ أو بمحذوف هو صفة له.

﴿ٱللَّهُ﴾: الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ﴾ ويحرك ويبعث ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ أي: رياح الرحمة كالصبا ونحوها ﴿فَتُثِيرُ﴾؛ أي: تزعج وترفع ﴿سَحَابًا﴾ ثقالاً بالمطر من حيث هو، وأضاف الإثارة إلى ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، وإنما المثير هو الله تعالى، لأنه سَببها، والفعل قد ينسب إلى سببه كما ينسب إلى فاعله.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وابن محيصن: ﴿يرسل الريح﴾ بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع. قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو مفرد، وهذه الجملة: مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معترضةً.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾؛ أي: يمد السحاب وينشره سبحانه وتعالى ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في سمتها، ﴿كيف يشاء﴾؛ أي: على كيفية وهيئة شاءها سبحانه وتعالى، سائراً وواقفاً، مسيرة يوم أو يومين، أو أقل أو أكثر من جانب الجنوب أو ناحية الشمال، أو سمت الدبور، أو جهة الصبا إلى غير ذلك؛ أي: يجعله متصلاً تارةً ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾؛ أي: قطعاً تارةً أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة: جمع

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

كسفه، وهي قطعة من السحاب، أو القطن أو غير ذلك من الأجسام، كما سيأتي.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، أو يا من يتأتى منه الرؤية ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ أي: المطر ﴿يخرج﴾ بالأمر الإلهي ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من خلال السحاب ووسطه وفرجه وشقوقه وثقبه في التارتين، قيل[1]: السحاب كالغربال، ولولا ذلك.. لأفسد المطر الأرض: روي عن وهب بن منبه: أن الأرض شكت إلى الله عز وجل أيام الطوفان، لأن الله تعالى أرسل الماء بغير وزن ولا كيل، فخرج الماء غضباً لله تعالى، فخدش الأرض وخددها فقالت: يا رب إن الماء خددني وخدشني، فقال الله تعالى فيما بلغني، والله أعلم: إني سأجعل للماء غربالاً، كيلا يخددك ولا يخدشك، فجعل السحاب غربال المطر.

والضمير[2] في ﴿خِلَٰلِهِۦ﴾ الظاهر أنه عائد على السحاب، إذ هو المحدث عنه، وذكر الضمير، لأن السحاب اسم جنس، يجوز تذكيره وتأنيثه، قيل: ويحتمل أن يعود على ﴿كسفاً﴾ في قراءة من سكن العين، وقرأ أبو العالية والضحاك: ﴿يخرج من خلله﴾؛ أي: من ثقبه.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الودق ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: أرض من يشاء إصابتها من عباده وبلادهم ﴿إذا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط ﴿هُمْ﴾؛ أي: عبادة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون بذلك المطر،؛ أي: فاجؤوا الاستبشار والفرح بمجيء الخصب، وزوال القحط، لحاجتهم إليه أشد الحاجة.

﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة؛ أي: وإن الشأن، وقيل: إن بمعنى قد؛ أي: وقد كانوا، وتكون الجملة حينئذٍ حالاً من فاعل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: أهل المطر ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل التنزيل، كرره للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه، وقيل: الضمير لإرسال الرياح، أو للسحاب فلا تكرار، ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين من

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

نزوله، خبر ﴿كَانُوا﴾، واللام فارقة، وقد سبق معنى الإبلاس في أول السورة.

أي: وقد كانوا[1] من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله، فلما جاءهم على فاقة وحاجة.. وقع منهم موقعاً عظيماً.

والخلاصة: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبل ذلك أيضاً، إذ هم ترقبوه في إبانة فتأخر، ثم مضت فترة فترقبوه فيها، فتأخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط، وبعد أن كانت أرضهم هامدةً، أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد نظر اعتبارٍ واستبصارٍ ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وفوائد المطر، لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب.

والمراد برحمة الله[2]: المطر، لأنه أنزله برحمته على خلقه، وآثارها: فوائدها ونتائجها من النبات والأشجار والأزهار والثمار والحبوب. و﴿الفاء﴾: للدلالة على سرعة ترتب هذه الأشياء على تنزيل المطر، والخطاب فيه، وإن توجه إلى النبي - ﷺ - فالمراد به جميع المكلفين.

والمعنى: فانظروا إلى آثار المطر من النبات والأشجار، وأنواع الثمار والأزهار والزرائع التي بها يكون الخصب.

﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بالآثار والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: بعد يبسها. قال في «الإرشاد»: ﴿كيف..﴾ إلخ. في حيز النصب بنزع الخافض، وكيف معلق لانظر؛ أي: فانظروا إلى كيفية الإحياء البديع للأرض بعد موتها، والمراد بالنظر: التنبيه على عظيم قدرته، وسعة رحمته مع ما فيه من تمهيد أمر البعث.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإله العظيم الشأن، الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾؛ أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة، وبعثهم ومجازاتهم، فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض بالمطر إحياء لمثل ما كان فيها من القوى النباتية.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده، ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر تام القدرة؛ أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياء قالب الإنسان بعد موته في الحشر، وإحياء قلبه بعد موته في الدنيا، لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على حدّ سواء، رجع كل شيء إلى قدرته فلم يعظم عليه شيء، فقدرة الله سبحانه هي الكاملة، بخلاف قدرة العبد، فإنها مستفادة من قدرة الله تعالى.

وقرأ الحرميان[1] ـ نافع وابن كثير ـ وأبو بكر وأبو عمرو: ﴿إلى أثر﴾ بالإفراد وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿آثار﴾ بالجمع. وقرأ سلام: ﴿إثر﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء، وقرأ الجحدري وابن السميقع وأبو حيوة: ﴿تحي﴾ بالتاء للتأنيث، والضمير عائد على الرحمة أو على الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، وقرأ زيد بن علي: ﴿نحي﴾ بنون العظمة، والجمهور: ﴿يحيي﴾ بياء الغيبة والضمير لله.

ومعنى الآية: أي فانظر[2] أيها الرسول أثر الغيث، الذي أنبت به ما أنبت، من الزرع والأشجار والثمار، وفيه الدليل الكافي على عظيم القدرة، وواسع الرحمة، وإذ قد ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها، وتفرقها وتمزقها إرباً إرباً، ومن ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾؛ أي: إن ذلك الذي قدر على إحياء الأرض، قادر على إحياء الأجسام حين البعث، ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، فإحياؤكم من قبوركم هين عليه، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ثم ذمهم على تزلزلهم، وسوء اضطرابهم، فإذا أصابهم الخير. فرحوا به، وإن أصابهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

السوء.. يئسوا وأبلسوا، وانقطع رجاؤهم من الخير، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن أرسلنا ﴿رِيحًا﴾ مضرة حارةً أو باردةً كالدبور ونحوها، فأفسدت زرع الكفار ﴿فَرَأَوْهُ﴾ ذلك الزرع ﴿مُصْفَرًّا﴾ متغيراً بتأثير الريح بعد خضرته؛ أي: قد اصفر بعد خضرته، وقرب من الجفاف والهلاك.

وقال ﴿مُصْفَرًّا﴾، لأن ذلك صفرة حادثة، وقيل: المعنى فرأوا السحاب مصفراً، لأن السحاب الأصفر لا يمطر، والريح التي تصفر النبات: صر حرور، وهما مما يصبح به النبات هشيماً، والحرور جنب الشمال إذا عصفت، وقرأ صباح بن حبيش ﴿مصفاراً﴾ بألف بعد الفاء، ذكره أبو حيان.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَرَأَوْهُ﴾ عاطفة على محذوف كما قدرنا، و﴿اللام﴾[1] في قوله: ﴿لَظَلُّوا﴾ لام جواب القسم الساد مسد الجوابين، ولذلك فسر الماضي بالاستقبال؛ أي: يظلون ويصيرون ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من اصفرار وتغير الزرع والنبات ﴿يَكْفُرُونَ﴾ من غير توقف ولا تأخر.

والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارةً أوباردةً فضرب زرعهم بالصفار.. لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، يعني يقيمون على الكفر بالله وبنعمته، وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهِم، وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان.

يعني[2]: أن الكفار لا اعتماد لهم على ربهم، فإن أصابهم خير وخصب.. لم يشكروا الله، ولم يطيعوه، وأفرطوا في الاستبشار، وإن نالهم أدنى شيء يكرهونه.. جزعوا ولم يصبروا، وكفروا سالف النعم، ولم يلتجئوا إليه بالاستغفار، وليس كذلك حال المؤمن، فإنه يشكر عند النعمة، ويصبر عند المحنة، ولا ييئس من روح الله، ويلتجيء إليه بالطاعة والاستغفار، ليستجلب الرحمة في الليل والنهار.

وحاصل المعنى: أي ولئن أرسلنا ريحاً حارةً أو باردةً على الزرع الذي

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

زرعوه، ونما واستوى على سوقه، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته.. لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم، ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة في احتقارهم، لتزلزلهم في عقيدتهم، إذ كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله في كل حال، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر، ولا ييئسوا من روح الله، ويبادروا إلى الشكر والطاعة إذا أصابهم ـ جلّ وعلا ـ برحمته، ويصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة، ولا يكفروا بنعمائه، لكنهم قد عكسوا الأمر، وأبوا ما يجديهم، وأتوا بما يؤذيهم.

ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الدعاء إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لا يسمعون دعاءَك إلى الحق، لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفتهم للصواب.

وهذه الجملة تعليل[1] لمحذوف، تقديره؛ أي: لا تجزع يا محمد ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإنهم موتى صم عمي، ومن كان كذلك لا يهتدي. ا هـ. «شيخنا».

فالكفار في التشبيه كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق، وهم الذين علم الله قبل خلقهم أنهم لا يؤمنون به ولا برسله، وفي الآية دليل على أنّ الأحياء قد يسمون أمواتاً إذا لم يكن لهم منفعة الحياة، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أجسادهم مفقودة، وآثارهم بين الورى موجودة.

واعلم: أن الكفر موت القلب، كما أن العصيان مرضه، فمن مات قلبه بالكفر.. بطل سمعه بالكلية، فلا ينفعه النصح أصلاً، ومن مرض قلبه بالعصيان، فيسمع سمعاً ضعيفاً كالمريض.. فيحتاج إلى المعالجة في إزالته، حتى يعود سمعه إلى الحالة الأولى.

ثم أشار إلى تشبيه آخر بقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ يا محمد ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم

---

(١) الفتوحات.

وهو فاقد السمع ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن الداعي حال كونهم ﴿مُدۡبِرِينَ﴾؛ أي: تاركين له وراء ظهرهم، فارين منه، وتقييد[1] الحكم بإذا إلخ، لبيان كمال سوء حال الكفرة، والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء، بنبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان فيهم إحداهما.. لكفتهم، فكيف وقد جمعوهما، فإن الأصم المقبل إلى المتكلم، ربما يتفطن منه بوساطة أوضاعه، وحركات فمه، وإشارات يده ورأسه شيئاً من كلامه، وإن لم يسمعه أصلاً، وأما إذا كان معرضاً عنه.. فلا يكاد يفهم منه شيئاً.

ومعنى الآية: أي[2] إنك لا تقدر يا محمد أن تفهم هؤلاء المشركين، الذين قد ختم الله على أسماعهم، فسلبهم فَهْمَ ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله كما لا تقدر أن تفهم الموتى، الذين سلبوا أسماعهم، بأن تجعل لهم أسماعاً، ولا تقدر أن تهدي من تصاموا عن فهم آيات كتابه، فتجعلهم يسمعونها ويفهمونها، كما لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ولوا عنك مدبرين هاربين منك.

ثم أشار إلى تشبيهٍ آخر بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ وصارفهم، جمع أعمى، وهو: فاقد البصر ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ وخطئهم، متعلق بالهداية، باعتبار تضمنها معنى الصرف سماهم عمياً إما لفقدهم المقصود والحقيقي من الإبصار، أو لعمى قلوبهم كما في «الإرشاد»، فإنهم ميتون، والميت لا يبصر شيئاً، كما لا يسمع شيئاً، فكيف يهتدي؛ أي: ليس في طوقك أن تهدي من أضله الله، فترده عن ضلالته، بل ذلك إليه وحده، فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ففيه بيان أن الهداية والضلالة بيده تعالى لا بيد الرسول.

والخلاصة: أن هذا ليس من عملك، ولا بعثت لأجله.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

﴿إِن تُسۡمِعُ﴾؛ أي[1]: ما تسمع مواعظ القرآن ولا نصائحه ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التنزيلية والتكوينية، فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، وتلقيها بالقبول؛ أي: ما تسمع إلا هؤلاء، لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر، يعني أن الإيمان حياة القلب، فإذا كان القلب حياً.. يكون له السمع والبصر واللسان، ويجوز أن يراد بالمؤمن: المشارف للإيمان؛ أي: إلا من يشارف الإيمان بها، ويقبل عليها إقبالاً حقيقياً، وقوله: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم؛ أي: منقادون لما تأمرهم به من الحق متبعون له.

والمعنى: أي لا تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه، فيتبعه، إلا من يؤمن بآياتنا، لأنه هو الذي إذا سمع كتاب الله.. تدبره وفهمه وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدوده التي حدها، فهو مستسلم خاضع له، مطيع لأوامره، تارك لنواهيه.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة مبتدأ وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾؛ أي: أوجدكم أيها الإنسان ﴿مِّن ضَعۡفٍ﴾؛ أي: من أصل ضعيف هو النطفة أو التراب على تأويل المصدر باسم الفاعل، والضعف خلاف القوة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: خلق لأنه عدي لمفعول واحد.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ﴾ آخر، وهو الضعف الموجود في الجنين والطفل ﴿قُوَّةً﴾ هي القوة التي تجعل للطفل من التحرك، واستدعائه اللبن، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ أخرى، هي التي بعد البلوغ، وهي قوة الشباب ﴿ضَعۡفًا﴾ آخر، وهو ضعف الشيخوخة والكبر، ﴿وَشَيۡبَةً﴾؛ أي: شيبة الهرم، والشيب والمشيب بياض الشعر، ويدل[2] على أن كل واحد من قوله ﴿ضَعۡفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة غير الحالة الأولى، ذكره منكراً، والمنكر متى أعيد ذكره معرفاً أريد به ما تقدم، كقولك: رأيت رجلاً فقال لي الرجل كذا، ومتى أعيد منكراً أريد به غير الأول، ولذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾: لن يغلب عسر يسرين، هكذا حققه الإمام الراغب، وتبعه أجلاء المفسرين، وهو الموافق للقاعدة المشهورة عندهم، التي نظمها السيوطي في «عقود الجمان» بقوله:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهِرَه ... إِذَا أَتَتْ نَكِرَةً مُكَرَّرَه
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِي ... تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

يقول[1] سبحانه وتعالى محتجاً على المشركين المنكرين للبعث: إن الذي خلقكم من نطفة وماء مهين، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، ثم جعل لكم قوةً على التصرف، من بعد ضعف الصغر والطفولة، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر، بعد أن كنتم أقوياء في شبابكم، قادر أن يعيدكم مرةً أخرى بعد البلى، وبعد أن تكونوا عظاماً نخرةً.

والخلاصة: أن تنقل الإنسان في أطوار الخلق، حالاً بعد حال، من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى ضعف، دليل على قدرة الخالق الفعال لما يشاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعجزه أن يعيدكم مرة أخرى.

﴿يَخْلُقُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبابٍ وشيبةٍ؛ أي: يخلق الأشياء كلها، التي من جملتها الضعف والقوة والشباب والشيبة، فليس هذا كله طبعاً، بل بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيء أراده، وهو كما يفعل هذا، قادر على أن يميت خلقه ويحييهم إذا شاء.

فائدة: فإن قلت[2]: كيف قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مع أن الضعف صفة ومعنى من المعاني، والمخاطبون لم يخلقوا من صفة، بل من عين وهي الماء، أو التراب؟

قلت: المراد بالضعف: الضعيف، من إطلاق المصدر على اسم الفاعل،

---

(١) المراغي.
(٢) فتح الرحمٰن.

كقولهم رجل عَدْلٌ؛ أي: عادل، فمعناه من ضعيف وهو النطفة.

وقرأ الجمهور[1]: بضم الضاد في ﴿ضَعْفٍ﴾ في المواضع الثلاثة، وقرأ عاصم وحمزة: بفتحها فيها، وهي قراءة عبد الله وأبي رجاء، وروي عن أبي عبد الرحمن الجحدري والضحاك: الضم والفتح في الثاني، وقرأ عيسى: بضمتين فيهما، والظاهر: أن الضم والفتح بمعنى واحد، قال كثير من اللغويين: الضم في البدن، والفتح في العقل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: توجد وتحصلت القيامة، سميت[2] بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً وبداهةً، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، والكوكب للزهرة، وفي «فتح الرحمٰن»: ويوم تقوم الساعة التي فيها القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يحلف الكافرون، ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾؛ أي: ما أقاموا في القبور و﴿مَا﴾ نافية ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ أي: إلا ساعة واحدة، وهي جزء من أجزاء الزمان، واستقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً، ويقال: ما لبثوا في الدنيا، والأول هو الأظهر، لأن لبثهم مغيٌّ بيوم البعث، كما سيأتي، وليس لبثهم في الدنيا كذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الصرف الواقع منهم يوم القيامة ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: كان المشركون في الدنيا، بإنكار البعث، والحلف على بطلانه، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: يصرفون عن الحق والصدق، فيأخذون في الباطل والإفك والكذب، يعني: كذبوا في الآخرة، كما كانوا يكذبون في الدنيا.

والمعنى[3]: أي ويوم تجيء ساعة البعث، فيبعث الله الخلق من قبورهم، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، إنهم ما أقاموا في قبورهم إلا قليلاً من الزمان، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم في

---

(١) البحر المحيط بتصرف.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

البرزخ على طولها، وهم قد صرفوا في الآخرة عن معرفة مدة مكثهم في ذلك الحين.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كذبوا في قولهم: ما لبثنا غير ساعة، كما كانوا في الدنيا يحلفون على الكذب، وهم يعلمون، والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها، وتحقير ما يتمتعون به من مباهجها ولذاتها، كي يقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبل الرشاد، وكأنه قيل: مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون في الدنيا، اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات وزخارف الحياة.

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم، وتهكمهم بهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بكتاب الله، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بالله في الدنيا من الملائكة والإنس لأولئك المنكرين، رداً لقولهم، وإنكاراً لكذبهم، والله ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي[1]: في علمه وقضائه الأزلي في أم الكتاب؛ أي: بحسب ما في علم الله تعالى في قبوركم من يوم مماتكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وهو مدة مديدة، وغاية بعيدة لا ساعة حقيقة، وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون»، وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام، والظاهر أربعون سنة، أو أربعون ألف سنة.

ثم أخبروا بوقوع البعث تبكيتاً لهم، لأنهم كانوا ينكرونه فقالوا: ﴿فَهَٰذَا﴾ اليوم، (الفاء): واقعة في جواب شرط محذوف؛ أي: إن كنتم منكرين البعث.. فهذا اليوم الحاضر هو ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ والحشر الذي أنكرتموه وكنتم توعدون في الدنيا؛ أي: فقد تبين بطلان إنكاركم.

وقرأ الحسن[2]: ﴿البعث﴾ بفتح العين في الموضعين، وقرىء: بكسرها، وهو اسم، والمفتوح: مصدر. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ من فرط الجهل، وتفريط النظر ﴿كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق سيكون فتستعجلون به استهزاءً.

والمعنى: أي فهذا اليوم الحاضر، هو اليوم الذي أنكرتموه في الدنيا،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وزعمتم أنه لن يكون، لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة عليه.

ولما كانت الأدلة تترى على أن الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء.. ذكر أن المعاذير لا تجدي في هذا اليوم، فلا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا، لإصلاح ما فسد من أعمالهم فقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقوم القيامة أو يوم، إذ يقع ذلك من إقسام الكفار، وقول أولي العلم لهم ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أشركوا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: عذرهم، وهو فاعل ينفع؛ أي: لا ينفعهم اعتذارهم من ذنوبهم.

وقرأ الجمهور وابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر[1]: ﴿لا تنفع﴾ بالتاء الفوقية، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: بالياء التحتية هنا، وفي الطول، وافقهم نافع في الطول، لأن التأنيث غير حقيقي. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا يطلبون بإرضاء الله سبحانه وتعالى بالتوبة الصادقة عن الشرك والمعاصي، ولا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم؛ أي: إزالة عتبهم وغضبهم من التوبة والطاعة، كما دعوا إليه في الدنيا، إذ لا يقبل حينئذ توبة ولا طاعة، وكذلك لا يصح رجوع إلى الدنيا، لإدراك فائت من الإيمان والعمل؛ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة؛ أي: لا يطلب منهم الإعتاب؛ أي: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة.

فإن قلت[2]: كيف قال هنا ذلك مع قوله في فصلت: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ حيث جعلهم هنا مطلوباً منهم الإعتاب، وجعلهم ثم طالبين له؟

قلت: معنى قوله هنا: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يقالون عثراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: إن يستقيلوا.. فما هم من المقالين، فلا تنافي.

والمعنى[3]: ففي هذا اليوم لاتنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا، كقولهم: ما علمنا أن هذا اليوم كائن، ولا أنا نبعث فيه، ولا هم يرجعون إلى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) المراغي.

الدنيا ليتوبوا، لأن التوبة لا تقبل حينئذ، فالوقت وقت جزاءٍ، لا وقت عمل، وقد حقت عليهم كلمة ربهم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

والخلاصة: أنهم لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون عليها، ولا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضى الله سبحانه من التوبة والعمل الصالح، وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ضربنا وبينا، وأوضحنا للناس ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الكريم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي[1]: من كل صفة كأنها في غرابتها كالأمثال، وذلك كالتوحيد والحشر وصدق الرسل وسائر ما يحتاجون إليه، من أمر الدين والدنيا، مما يهتدي به المتفكر، ويعتبر به الناظر المتدبر، أو المعنى: ولقد[2] وصفنا لهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة، كالأمثال مثل صفة المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بينا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله تعالى وعلى البعث وصدق الرسل، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك.

ففيه[3]: إشارة إلى إزالة الأعذار وقطعها عنهم والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار وكلمة من في قوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للتبعيض، كما في «الكرخي».

والمعنى: أي ولقد أوضحنا لهم الحق، وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الخالق الرازق، وعلى البعث وصدق الرسول، ليستبينوا الحق ويتبعوه، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعناداً، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن جئت كفار مكة ﴿بِآيَةٍ﴾ تنزيلية من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو بآية تكوينية تدل على صدق الرسل، كالعصا واليد والناقة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة وغيرهم من فرط عنادهم وقساوة

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

(٣) الخازن.

قلوبهم مخاطبين للنبي - ﷺ - والمؤمنين ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم أيها المؤمنون ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: مزورون؛ أي: ما أنت وأصحابك يا محمد إلا أصحاب أباطيل، تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان.

والمعنى: أي والله لئن جئتهم بكل الآيات لا يؤمنون بها، بل يعتقدون أنها سحر مفترىً، وما هي إلا أساطير الأولين، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فإن قلت: لم[1] أفرد الخطاب في قوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ وجمعه في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؟

قلت: في ذلك لطيفة، وهي كأن الله تعالى قال: ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل.. أجابوا بقولهم: أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون.

﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع، الذي طبع على هؤلاء المشركين ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: يختم الله بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان. ﴿عَلَى قُلُوبِ﴾ كل الجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله تعالى، ولا يطلبون العلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل، ويصرون على خرافات اعتقدوها، وترهات ابتدعوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق.

والمعنى[2]: أي كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به من العبر والعظات، والآيات البينات، فلا يفقهون الأدلة ولا يفهمون ما يتلى عليهم من آي الكتاب، لسوء استعدادهم، ولما دسوا به أنفسهم من سوء القول والفعل، فهم في طغيانهم يعمهون.

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم، وعدم الالتفات إلى

---

(١) الفخر الرازي بتصرف.

(٢) المراغي.

عنادهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها الرسول على ما ينالك من أذى المشركين، قولاً وفعلاً، وبلغهم رسالة ربك فـ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك في الأرض ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه ولا بد من إنجازه والوفاء به ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون، فإنهم ضلال شاكون، فلا تستغرب منهم ذلك أو لا يستفزنك عن دينك وما أنت عليه من الحق، أو لا يستحمقنك ولا يستجهلنك، أو لا يحملنك على العجلة في الدعاء عليهم بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، ولا يعتقدون البعث بعد الموت فيثبطوك عن أمر الله تعالى، والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته.

وفي هذا إرشاد لنبيه - ﷺ - وتعليم له بأن يتلقى المكاره بصدر رحب، وسعة حلم، روي[1]: أنه لما مات أبو طالب عم النبي - ﷺ - بالغت قريش في أذاه، حتى إن بعض سفهائهم نثر على رأسه الشريف التراب، فدخل عليه السلام بيته، والتراب على رأسه فقام إليه بعض بناته، وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله - ﷺ - يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك» وكذا أوذي الأصحاب كلهم فصبروا، وظفروا بالمراد، فكانت الدولة لهم ديناً ودنيا وآخرةً.

يقال: استخف فلان فلاناً؛ أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي.

وقرأ الجمهور: ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ بالخاء المعجمة والفاء، من الاستخفاف، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: بالحاء المهملة والقاف ﴿يستحقنك﴾ من الاستحقاق؛ أي: لا يزيغنك، فيكونوا أحق بك من المؤمنين، وسكن النون ابن أبي عبلة ويعقوب: ﴿يستخفنك﴾ والنهي في الآية من باب لا أرينك ها هنا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي: أن رجلاً من الخوارج نادى علياً، وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ فأجابه وهو في

---

(١) روح البيان.

الصلاة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من علي - كرم الله وجهه - وهو مدينة العلم.

فائدة[1]: واعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الصدق، فظهر من ظله الإيمان والإخلاص، وخلق الكذب، فظهر من ظله الكفر والنفاق، فأنتج الإيمان المتولد من الصدق، أو يقول المؤمنون يوم القيامة: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون، ونحوه، وأنتج الكفر المتولد من الكذب أن يقول الكافرون يومئذ: والله ما كنا مشركين، وما لبثوا غير ساعة، ونحوه من الأكاذيب.

الإعراب

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم. ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾، والمصدر المؤول من الجملة الفعلية: في محل الرفع مبتدأ مؤخر؛ أي: وإرساله تعالى الرياح مبشرات كائن من آياته ودلائل قدرته، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لبيان الآيات. ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يذيقكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: معطوفة على جملة مأخوذة من ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ تقديرها: ومن آياته: أن يرسل الرياح ليبشركم برحمته، وليذيقكم من رحمته، وقيل: ﴿الواو﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: متعلقة بـ﴿يُرْسِلَ﴾. وعبارة الزمخشري هنا: فإن قلت:[2] بما يتعلق ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾؟

---

(١) روح البيان.

(٢) الكشاف.

قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم، وأن يتعلق بمحذوف، تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا أرسلناها، انتهت. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل معطوف على ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْفُلْكُ﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: معطوفة على جملة محذوفة مماثلة لها، معللة لمعلول محذوف، تقديره: أكرمكم بهذه النعم المذكورة، لعلكم تفردوه بالعبادة والطاعة، ولعلكم تشكرون نعمه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: حال من ﴿رُسُلًا﴾. و﴿رُسُلًا﴾: مفعول به، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة مسوقة لتسليته - ﷺ - وتأنيسه وإيذاناً بنصره، ﴿فَجَآءُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاءوهم﴾. ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فكذبوهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ منهم، ﴿أَجْرَمُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، ﴿حَقًّا﴾: خبرها مقدم على اسمها، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿حَقًّا﴾ أو صفة له، ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿يُرْسِلُ﴾: فعل وفاعل

مستتر، ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿فَتُثِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تثير﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿سَحَابًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يُرۡسِلُ﴾، ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿تثير﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يبسط﴾، ﴿كَيۡفَ﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الحال بالفعل بعده، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يشاء﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: كيف ﴿يَشَآءُ﴾ بسطه، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: فعل شرط لـ﴿كَيۡفَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿كَيۡفَ﴾ محذوف دل عليه ما قبلها، تقديره: كيف يشاء بسطه يبسطه، وجملة ﴿كَيۡفَ﴾ معترضة، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه.

فائدة: قال ابن هشام: وتستعمل ﴿كَيۡفَ﴾ على وجهين[1]:

أحدهما: أن تكون شرطاً فتقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين، نحو كيف تصنع أصنع، ولا يجوز كيف تجلس أذهب باتفاق من النحاة، ولا كيف تجلس أجلس بالجزم عند البصريين، إلا قطرباً، لمخالفتهما لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مر.

والثاني: قيل: يجوز مطلقاً، وإليه ذهب قطرب والكوفيون، وقيل: يجوز بشرط اقترانها بما قالوا، ومن ورودها شرطاً: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ ﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾: وجوابها في ذلك كله: محذوف لدلالة ما قبلها عليه. ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿يبسط﴾، ﴿فَتَرَى﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، وهي بصرية، ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يجعله﴾، وجملة ﴿يَخۡرُجُ﴾: حال من ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾، ﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَخۡرُجُ﴾. ﴿فَإِذَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَصَابَ﴾،

---

(١) المغني.

والجملة: في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَصَابَ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، أو من العائد ﴿إِذَا﴾: فجائية، رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿ترى﴾.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة، ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مبلسين﴾، ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب ب بـ﴿أن﴾، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلْوَدْقَ﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿يُنَزَّلَ﴾، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿قَبْلِ﴾ إليه، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾: جار ومجرور مؤكد للجار والمجرور في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾، ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مبلسين﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أو معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾؛ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن من آياته تعالى أن يرسل الرياح مبشرات، وأردت معرفة ما يترتب عليه من الآثار.. فأقول لك انظر، ﴿انظر﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿انظر﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب حال من الأرض، وهي معلقة لـ﴿انظر﴾ عن العمل في ما بعدها. ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: متعلق

بـ﴿يُحْيِ﴾، والجملة الفعلية: بدل من ﴿ءَاثَرِ﴾، فهي في حيز النصب بنزع الخافض. والمعنى: بعد كل هذا فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها، والمراد التنبيه على عظم قدرته وسعة رحمته. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿محي﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط بها، ﴿رِيحًا﴾: مفعول به، ﴿فَرَأَوْهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿رأوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مُصْفَرًّا﴾: حال من مفعول ﴿رأوه﴾، لأن الرؤية هنا بصرية، ﴿لَّظَلُّوا۟﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿ظلوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَكْفُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾: خبر ﴿ظل﴾، وجملة ﴿ظل﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن أرسلنا ريحاً، فرأوه مصفراً.. يكفرون على القاعدة المشهورة:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَإِنَّكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، والجملة الاسمية: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بـ﴿الفاء﴾ التعليلية المعللة لمحذوف، تقديره: لا تجزع ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإنهم موتى صم عمي، ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿ٱلصُّمَّ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة: في محل الرفع معطوفة على الجملة التي

قبلها، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ﴿وَلَّوْا﴾: فعل وفاعل، ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال من الواو، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿تُسْمِعُ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية، ﴿أنت﴾: في محل الرفع اسمها، ﴿بِهَٰدِ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، و﴿الباء﴾: زائدة، ﴿ٱلْعُمْيِ﴾: مضاف إليه، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿هادي﴾: على تضمين هادي معنى صارف. وجملة ﴿ما﴾: الحجازية معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿إن﴾: نافية، ﴿تُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُسْمِعُ﴾. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: صلة ﴿مَن﴾: الموصولة، ﴿فَهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هم مسلمون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُ﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾: متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. لأنه بمعنى خلق، ﴿قُوَّةً﴾: مفعول به لـ﴿جَعَلَ﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ضَعْفًا﴾: مفعول به لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿وَشَيْبَةً﴾: معطوف على ﴿ضَعْفًا﴾، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَخْلُقُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلته، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم﴾ أو مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾: خبر ثان، والجملة

الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَخْلُقُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يُقْسِمُ﴾، ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَبِثُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: لا محل لها من الإعراب، لأنها واقعة في جواب القسم، ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لَبِثُوا۟﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة؛ أي: يصرفون عن الحق، وهو الصدق، كما صرفوا عن الحق، وهو البعث.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتى﴾، لأنه بمعنى أعطى، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْعِلْمَ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿لَبِثْتُمْ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حالة كون مدة لبثكم محسوبة في كتاب الله وعلمه. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾: متعلق بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَهَٰذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هذا﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿لَبِثْتُمْ﴾. وفي «البيضاوي»: و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، تقديره: إن كنتم منكرين للبعث.. فهذا يومه؛ أي: فقد تبين بطلان إنكاركم. اهـ. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكنكم﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه،

وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾: في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾. ولكنه على تقدير رابط، والتقدير: فهذا يوم البعث، والحال أنكم لا تعلمونه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما أقسم عليه المجرمون، وما رد به عليهم أهل العلم والإيمان، وأردت بيان حال ذلك اليوم.. فأقول لك ﴿يومئذ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿ينفعُ﴾، ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول، ﴿ظَلَمُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: فاعل ﴿يَنفَعُ﴾، وجملة ﴿يَنفَعُ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: من الفعل المغير ونائبه: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ينفعُ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَرَبْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿فِي هَٰذَا﴾: جار ومجرور، ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: بدل منه الجار والمجرور حال من ﴿كُلِّ مَثَلٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها أو متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: ضربنا موعظة أو قصة من كل مثل، أو مفعول به لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿جِئْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: معطوفة على جملة القسم قبله، ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة

للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: وإن جئتهم بآية.. يقول الذين كفروا، وجملة الشرط مع جوابه: جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿إِنۡ﴾: نافية، ﴿أَنتُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مُبۡطِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿ليقولن﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: مثل ذلك الطبع، ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَطۡبَعُ﴾، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن حالهم بهذه المثابة، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر، ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه، ﴿حَقّٞ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية، ﴿يستخفن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾: أحد جموع الريح، والريح: مؤنثة، وتجمع أيضاً على أرواح وأرياح وريح، كفيل وفيلة، وجمع الجمع: أراويح وأراييح، والرياح أربع:

الجنوب وهي القبلية، والشمال: وهي الشمالية، والصبا: وهي الشرقية، والدبور: وهي الغربية، والثلاثة الأول: رياح الرحمة، والرابعة: هي ريح العذاب.

قال وكيع: لولا الريح والذباب.. لأنتنت الدنيا، قيل: الريح تموج الهواء بتأثير الكواكب، وسيلانه إلى إحدى الجهات، والصحيح عند أهل الشرع: ما ذكر في الحديث من أنها من روح الله تعالى.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: يقال: ثار الغبار والسحاب، انتشر ساطعاً، وقد أثرته، والسحاب: اسم جنس يصح إطلاقه على سحابة واحدة وما فوقها، قال في «المفردات»: أصل السحب: الجر، ومنه السحاب: إما لجر الريح له، أو لجره الماء.

والمعنى: فتنشره تلك الرياح وتزعجه، وتخرجه من أماكنه.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾؛ أي: ينشره متصلاً بعضه ببعض؛ أي: ينشره كمال الانتشار، وإلا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائماً.

﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في جهتها؛ أي: في جهة العلو، وليس المراد حقيقة السماء المعروفة.

﴿كِسَفًا﴾: بكسر ففتح، ويجوز تسكين السين: جمع كسفة، وهي قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة، كما في «المفردات» وفي «القاموس»: الكسفة بالكسر: القطعة من الشيء، والجمع: كسف بكسر فسكون، وجمع الجمع.. أكساف وكسوف، وكسفه يكسفه: قطعه.

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: المطر، قيل: الودق في الأصل: ما يكون خلال المطر، كأنه غبار، وقد يعبر به عن المطر.

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من فرج السحاب وشقوقه، قال الراغب: الخلل فرجة بين الشيئين، وجمعه خلال، نحو خلل الدار والسحاب. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين، في «المصباح»: أبلس الرجل إبلاساً: سكت، وأبلس: أيس، وفي

التنزيل: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. ا هـ.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: قد اصفر بعد خضرته، وقرب من الجفاف، والاصفرار، الاتصاف بالصفرة، والصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهو إلى البياض أقرب.

﴿لَّظَلُّوا﴾: من ظل يظل بالفتح، أصله: العمل، بالنهار، ويستعمل في موضع صار كما في هذا المقام.

﴿الصُّمَّ﴾: جمع الأصم، والصم: فقدان حاسة السمع، وبه شبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله، كما في «المفردات».

﴿الْعُمْيِ﴾: جمع الأعمى، وهو: فاقد البصر.

﴿مِّن ضَعْفٍ﴾: الضعف: بالفتح والضم: خلاف القوة، وفرقوا بأن الفتح لغة تميم، واختاره عاصم وحمزة في المواضع الثلاثة، والضم: لغة قريش، واختاره الباقون، ولذا لما قرأه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ على رسول الله ـ ﷺ ـ بالفتح أقرأه بالضم، وفي «المصباح»: الضعف بفتح الضاد في لغة تميم، وبضمها في لغة قريش: خلاف القوة والصحة، فالمضموم مصدر ضعف، مثال قرب قرباً، والمفتوح: مصدر ضعف ضعفاً من باب قتل، ومنهم من يجعل المفتوح في الرأي، والمضموم في الجسد، وهو ضعيف، والجمع: ضعفاء وضعاف أيضاً. ا هـ.

﴿قُوَّةً﴾: قال بعض العلماء: أول ما يوجد في الباطن حول، ثم ما يجريه في الأعضاء قوة، ثم ظهور العمل بصورة البطش والتناول قدرة.

﴿ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾؛ أي: شيباً، وهو بياض الشعر الأسود، ويحصل أوله في الغالب في السنة الثالثة والأربعين، وهو أول سن الاكتهال، والأخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين، وهو أول سن الشيخوخة، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعالى. ا هـ. «الخطيب».

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾؛ أي: توجد وتحصل الساعة؛ أي: القيامة، وهي

النفخة الثانية، وسميت القيامة ساعةً، لحصولها في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً وبديهةً، كما مر، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، وفي «القاموس»: والساعة: جزء من أجزاء الجديدين، والوقت الحاضر، والجمع: ساعات وساع، والقيامة أو الوقت الذي تقوم فيه القيامة، والهالكون كالجاعة للجياع، والساعة أيضاً: آلة يعرف بها الوقت بحسب الساعات.

مُولّدة: ومنها الساعة الرملية، والساعة المائية، والساعة الشمسية.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يحلف الكافرون، يقال: أقسم: إذا حلف، أصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسماً لكل حلف.

﴿مَا لَبِثُواْ﴾: يقال: لبث بالمكان: إذا أقام به ملازماً له.

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أفك فلان: إذا صرف عن الصدق والخير.

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: عذرهم، والعذر تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، بأن يقول: لم أفعل، أو فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً، أو فعلت ولا أعود، ونحو ذلك، وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر، وليس كل عذر توبةً، وأصل الكلمة من العذرة، وهي الشيء النجس، تقول: عذرت الصبي: إذا طهرته وأزلت عذرته وكذا عَذرت فلاناً: إذا أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه، كذا في «المفردات»، وقال في «كشف الأسرار»: أخذ من العذار وهو الستر.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: الإعتاب: إزلة العتب؛ أي: الغضب والغلظة، والاستعتاب: طلب ذلك من قولهم: استعتبني فلان فأعتبته؛ أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كنت جانياً عليه، وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه، ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامراً   يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضاباً ثم قال: فأعتبوا؛ أي: أزيل غضبهم، والغضب في معنى العتب، والصيلم: ماء لبني عامر، والصيلم: الداهية والسيف كما في «الصحاح».

وفي «المصباح»: عتب عليه عتباً من بابي ضرب وقتل، ومعتباً أيضاً: إذا لامه في سخط، فهو عاتب وعتاب مبالغة، وبه سمي، ومنه عتاب بن أسيد، وعاتبه معاتبة وعتاباً، قال الخليل: حقيقة العتاب: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، وأعتبني الهمزة للسلب؛ أي: أزال الشكوى، والعتاب واستعتب طلب الإعتاب. والعتبى كالرجعى وزناً ومعنى، اسم مصدر من أعتب إعتاباً.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: مزورون، يقال: أبطل الرجل: إذا جاء بالباطل، وأكذب: إذا جاء بالكذب، وفي «المفردات»: الإبطال: يقال في إفساد الشيء وإزالته، حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾. وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: (اللام): فيه: مؤكدة، واقعة في جواب القسم، و﴿يقولن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، فـ(اللام): مفتوحة باتفاق القراء، والفاعل: هو الاسم الموصول الذي هو من قبيل الظاهر، وهو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: إذا علمت هذا فقد علمت أن ما وقع هنا في «الجلالين» من أنه حذف منه نون الرفع لتوالي النونات، والواو: ضمير الجمع لالتقاء الساكنين سبق قلم، فليس بصواب.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾: واعلم أن الطبع أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقض، والطابع والخاتم: ما يطبع به ويختم، والطابع: فاعل ذلك، وبه اعتبر الطبع والطبيعة، التي هي السجية، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة ما، إما من حيث الخلقة أو من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من جهة الخلقة أغلب.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ قال في «المفردات»: لا يزعجنك ولا يزيلنك عن اعتقادك ودينك بما يوقعون من الشبه.

﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: الإيقان واليقين: أخذ من اليقين، وهو الماء الصافي، كما في «كشف الأسرار».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الآية. وذلك لتعداد النعم الكثيرة، وكان يكفي أن يقول: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لأنه مجاز مرسل علاقته الحالية، لأن الرحمة تحل في الخصب والمطر، فأطلق الحال وأريد المحل، وفسر بعضهم الرحمة بقوله؛ أي: من نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزؤوا بهم.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ لأن مقتضى السياق أن يقال: فانتقمنا منهم، فوضع الموصول الذي هو من قبيل الظاهر، موضع الضمير، للتنبيه على مكان المحذوف، وللإشعار بكونه علة للانتقام.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فأسند الإثارة إلى الرياح، مع أن المثير حقيقةً هو الله تعالى، لأنه سببها، والفعل قد ينسب إلى سببه، كما ينسب إلى فاعله. ا هـ. «روح».

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للتأكيد، والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: بعد

يبسها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الخ. شبه الكفار بالموتى وبالصم والعمي في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين، بطريق الاستعارة التصريحية، لانسداد مشاعرهم عن الحق.

ومنها: إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: من أصل ضعيف.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَعْفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ المراد بالساعة أولاً: القيامة، وبالثانية: الجزء من الزمان، فبينهما جناس كامل.

ومنها: الاستعارة التمثيلية التبعية في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ الخ. شبه إحداث الله تعالى في نفوس الكفار هيئة تمرنهم وتعودهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات، بسبب إعراضهم عن النظر الصحيح، بالختم والطبع على الأواني، ونحوها في أنهما مانعان، فإن هذه الهيئة مانعة من نفوذ الحق في قلوبهم، كما أن الختم على الأواني ونحوها مانع من التصرف فيها، ثم استعير الطبع لتلك الهيئة، ثم اشتق منه ﴿يَطْبَعُ﴾ فيكون استعارةً تبعية. ا هـ. «روح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما احتوت عليه هذه السورة من الموضوعات

١ ـ إثبات النبوة بالإخبار بالغيب.

٢ ـ البراهين الدالة على الوحدانية.

٣ ـ الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم.

٤ ـ الأدلة التي في الآفاق، شاهدة على وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته.

٥ ـ الأدلة على صحة البعث.

٦ ـ ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يجدونهم فتيلاً، ولا قطميراً يوم القيامة.

٧ ـ الأمر بعبادة الله وحده، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها.

٨ ـ النهي عن اتباع المشركين، الذين فرقوا دينهم بحسب أهوائهم.

٩ ـ من طبيعة المشرك: الإنابة إلى الله إذا مسه الضر، والإشراك به حين الرخاء.

١٠ ـ من دأب الناس: الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

١١ ـ الأمر بالتصدق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل.

١٢ ـ الدلائل التي وضعها سبحانه في الأنفس شاهدة على وحدانيته.

١٣ ـ للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت.

١٤ ـ في النظر في آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر.

١٥ ـ تسلية الرسول على عدم إيمان قومه، بأنهم صم عمي لايسمعون ولا يبصرون.

١٦ ـ بيان أن الكافرين يكذبون في الآخرة، كما كانوا يكذبون في الدنيا.

١٧ ـ الإرشاد إلى أن الرسول قد بلغ الغاية في الإعذار والإنذار، وأن قومه قد بلغوا الغاية في التكذيب والإنكار.

١٨ ـ أمره ـ ﷺ ـ بإدامة التبليغ، مهما لاقى من الأذى، فإن العاقبة والنصر له، والخذلان لمن كذب به[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير سورة الروم وما يتعلق بها من العلوم، بعون الله ذي الإمداد على كافة العباد، أوائل يوم الأربعاء، السابع عشر من شهر الله رمضان المبارك، المنتظم في شهور سنة ثلاث عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة لقمان

سورة لقمان مكية، إلا ثلاث[1] آيات: أولاهن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث.. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه، وحكى القرطبي عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين: أولاهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ إلى آخر الآيتين. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه أنها مكية ولم يستثن، وأخرج النسائي وابن ماجه عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي - ﷺ - الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات.

آياتها: أربع وثلاثون آية، وقيل[2]: ثلاث وثلاثون آية. وكلماتها: خمس مئة وثمان وأربعون كلمة. وحروفها: ألفان ومئة وعشرة أحرف.

التسمية: سميت سورة لقمان، لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم، التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات، وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة، التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي - ﷺ - أنه قال[3]: «من قرأ سورة لقمان.. كان لقمان رفيقاً له يوم القيامة، وأعطي من الحسنات عشراً، بعدد من عمل بالمعروف، ونهى عن المنكر، ولكن فيه مقال.

وعن الزهري[4] - رحمه الله -: أكثروا قراءة سورة لقمان، فإن فيها أعاجيب، والله أعلم.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) البيضاوي.
(٤) النسفي.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أنه تعالى قال في السورة السالفة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وأشار إلى ذلك في مُفْتَتحِ هذه السورة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾.

٢ ـ أنه قال في آخر ما قبلها: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وقال في هذه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.

٣ ـ أنه قال في السورة السالفة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال في هذه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ففي كلتيهما إفادة سهولة البعث.

٤ ـ أنه ذكر في السابقة قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝﴾. وقال في هذه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، فذكر في كل من الآيتين قسماً لم يذكره في الآخر.

٥ ـ أنه ذكر في السورة التي قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا، وذكر في هذه السورة قصة عبد مملوك زهد في الدنيا، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة، وذلك يقتضي ترك المحاربة، وبين الأمرين التقابل، وشاسع البون، كما لا يخفى.

الناسخ والمنسوخ منها: وجميع[2] هذه السورة محكم، إلا آيةً واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الآية (٢٣).

سبب نزولها: سبب نزول هذه السورة إلا ما استثني منها[3]: أن قريشاً سألت النبي ـ ﷺ ـ عن قصة لقمان مع ابنه، وعن بره والديه، فنزلت: وأما

(١) المراغي.
(٢) ابن حزم.
(٣) المراغي.

الآيات المدنية منها: (٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠) فسبب نزولها: أن النبي ـ ﷺ ـ لما هاجر إلى المدينة. . قال له أحبار اليهود: بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ اعنيتنا أم قومك؟ قال: «كلا عنيت». فقالوا: إنك تعلم أنا أوتينا التوراة، وفيها بيان كل شيء، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «ذلك في علم الله قليل»، فأنزل الله سبحانه هؤلاء الآيات ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ. . .﴾ الآيات الثلاث.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ
أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي
ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ
كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿١١﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ
عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ
لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ
وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ
أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ
عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ
﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ .

المناسبة

قد تقدم لك ذكر مناسبة السورة للسورة، هنا نذكر مناسبة الآيات بعضها لبعض، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله تعالى، وينتفعون بسماعه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. . أردف ذلك بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله تعالى، وأقبلوا على استماع كلام المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال من أعرض عن الآيات، وبين مآله. . عطف على ذلك ذكر مآل من قبل تلك الآيات، وأقبل على تلاوتها والانتفاع بها.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف كمال قدرته وعلمه، وإتقان عمله. . أردف ذلك بالاستشهاد لما سلف بخلق السماوات والأرض، وما بعده، مع تقرير وحدانيته، وإبطال أمر الشرك، وتبكيت أهله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[2] فساد اعتقاد المشركين، بإشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء، ثم بين أن المشرك ظالم ضال. . أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة في السماوات والأرض، والباطنة من العلم والحكمة، ترشد إلى وحدانيته، وقد آتاها لبعض عباده، كلقمان الذي فطر عليها دون نبي أرشده، ولا رسول بعث إليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

---

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن لقمان أوتي الحكمة، فشكر ربه على نعمه الظاهرة عليه، وهو يرى آثارها في الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار.. أردف ذلك ببيان: أنه وعظ ابنه بذلك أيضاً، ثم استطرد في أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامةً، وصى بها سبحانه الأولاد في معاملة الوالدين رعايةً لحقوقهم، ورداً لما أسدوه من جميل النعم إليهم، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، على أن لا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التي يتعلق بعضها بحقوقه، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أقام الأدلة على التوحيد، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبي.. عاد إلى خطاب المشركين، وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك، مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحةً للعيان، يشاهدونها في كل آن في السماوات والأرض، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم في المعاش والمعاد، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة، المعروفة لهم وغير المعروفة، ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون في توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلي على ما يدعون، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين.. لم يجدوا جواباً إلا تقليد الآباء والأجداد، بنحو قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وما ذاك إلا من نزغات الشيطان، والشيطان لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار وبئس القرار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: نزلتا في النضر بن الحارث، اشترى قينة ـ مغنية ـ وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها

(١) المراغي.

إليه، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه.

وروي عن مقاتل: أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون سماع القرآن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾؛ أي: هذه[1] سورة ﴿ألم﴾. قال بعضهم: الحروف المقطعات مبادىء السور ومفاتيح كنوز العبر، والإشارة هنا بهذه الحروف الثلاثة إلى قوله: أنا الله ولي جميع صفات الكمال، ومني الغفران والإحسان، وقال بعضهم الألف إشارة إلى ألفة العارفين، واللام إلى لطف صنعه مع المحسنين، والميم إلى معالم محبة قلوب المحبين، وقال بعضهم: يشير بالألف إلى آلائه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبآلائه رفع الحجاب عن قلوب الأولياء، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده، وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه السورة وآياتها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب المحكم المحروس من التغيير والتبديل، والممنوع من الفساد والبطلان، فهو فعيل بمعنى المفعل، وإن كان قليلاً في كلامهم، كما قالوا: أعقدت اللبن فهو عقيد؛ أي: معقداً، أو ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو الحاكم بين عباده ببيان الأحكام من الحلال والحرام مثلاً.

وقوله: ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب بالنصب على الحالية من الآيات، والعامل فيها ما في الإشارة من معنى الفعل؛ أي: حالة كون تلك

---

(١) روح البيان.

الآيات هاديةً من الضلالة إلى الرشاد، وذات رحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: العاملين للحسنات، وبالرفع: خبران آخران لاسم الإشارة.

وقال بعضهم[1]: سماه هدىً لما فيه من الدواعي إلى الفلاح، والألطاف المؤدية إلى الخيرات، فهو هدى ورحمة للعابدين، ودليل وحجة للعارفين. ا هـ.

وفي «التأويلات النجمية»: هدى يهدي إلى الحق، ورحمة لمن اعتصم به، يوصله بالجذبات المودعة فيه إلى الله تعالى، وفي تخصيص كتابه بالهدى والرحمة للمحسنين: دليل على أنه ليس يهدي غيرهم، والمحسن لا يقع مطلقاً إلا مدحاً للمؤمنين، والمحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد الله تعالى كأنه يراه، كما ثبت في الحديث الصحيح: أنه - ﷺ - لما سأله جبريل عن الإحسان.. قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من الآيات، وقرأ حمزة والأعمش والزعفراني، وطلحة وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي: بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر على مذهب من يجيز ذلك.

ثم بين عمل المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة وغيرها؛ أي: يؤدونها بحقوقها وشروطها في أوقاتها، وعبر عن الأداء بالإقامة، إشارةً إلى أن الصلاة عماد الدين، وفي «المفردات»: إقامة الصلاة: توفية شرائطها لا الإتيان بهيئتها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: يعطونها بشرائطها إلى مستحقيها المذكورين في آية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الآية. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: بمجيء الدار الآخرة بما فيها من الحساب والميزان، والجزاء على الأعمال، سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون فلا يشكون في البعث والحساب والجزاء، وإعادة لفظة ﴿هم﴾ للتوكيد في الإيقان بالبعث والحساب، ولما حيل بينه وبين خبره بقوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾. وخص هذه العبادات الثلاث، لأنها عمدة العبادات.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[١]: أي هذه آيات الكتاب الهادي من الزيغ، الشافي من الضلال، لمن أحسنوا العمل واتبعوا الشريعة، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل، الذي رسمه الدين في أوقاتها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، ورغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا به جزاءً ولا شكوراً، ولما كان المتصفون بهذه الخصال هم الغاية في الهداية والفلاح.. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المحسنون المتصفون بتلك الصفات الجليلة كائنون ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ وبيان كائن ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بين لهم طريقهم ووفقهم، وفي الآية[٢] دليل على أن العبد لا يهتدي بنفسه إلا بهداية الله تعالى، ألا ترى أنه قال: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو رد على المعتزلة، فإنهم يقولون: العبد يهتدي بنفسه، قال بعضهم: ثلاث من علامات الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، وترك الامتنان عند العطية.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: المذكورون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بكل مطلوب، والناجون من كل مهروب، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح، وكرر اسم الإشارة تنبيهاً على عظم قدرهم، قال في «المفردات»: الفلاح: الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، والأخروي: أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنىً بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «المؤمن لا يخلو عن قلة أو علة أو ذلة» يعني: ما دام في الدنيا، فإنها دار البلايا والمصائب والأوجاع.

ولما ذكر[٣] من صفات القرآن الحكمة وأنه هدى ورحمة، وأن متبعه فائز.. ذكر حال من بدل الحكمة باللهو، وذكر مبالغته في ارتكابه، حتى جعله مشترياً له وباذلاً فيه رأس عقله، وذكر علته وأنها الإضلال عن طريق الله سبحانه

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وتعالى فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: وبعض الناس، فهذا مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مَن يَشْتَرِى﴾؛ أي: وبعض الناس يشتري ويستبدل ويختار ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وسفاسفه على ذكر الله وعبادته، و﴿من﴾[1] مفرد لفظاً، جمع معنى، وروعي لفظها أولاً في ثلاثة ضمائر: ﴿يشتري﴾ و﴿يضل﴾ و﴿يتخذ﴾. وروعي معناها ثانياً في موضعين: وهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ ثم رجع إلى مراعاة اللفظ في خمسة ضمائر: وهي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾.. إلخ. اهـ. «شيخنا».

والاشتراء: دفع الثمن وأخذ المثمن، والبيع: دفع المثمن وأخذ الثمن، وقد يتجوز بالشراء والاشتراء في كل ما يحصل به شيء.

والمعنى هٰهنا: يستبدل ويختار ما يشغله عن مهماته، وليس بمهم بدل مهماته، وقال الحسن: لهو الحديث: كل ما يشغل عن عبادة الله وذكره، من السمر والأضاحيك والخرافات والمغنيات، والمزامير والمعازف والملاهي، والإضافة في لهو الحديث على معنى من، لأن اللهو يكون حديثاً وغيره، فهو كثوب خز.

وقال القرطبي: إن أول ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة والتابعين. اهـ. «شيخنا»

أي: يختار ويأخذ لهو الحديث بدل ما ينفعه في الآخرة، وهو استماع القرآن والعمل به، وعبارة «الروح» ههنا[2]: ولهو الحديث: كل ما يلهي ويشغل صاحبه عما يعني من المهمات، كالأحاديث التي لا أصل لها، والأساطير التي لا اعتداد بها، والأضاحيك، وسائر ما لا خير فيه من الكلام، والحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره، لأنه يحدث شيئاً فشيئاً.

وقال أبو عثمان النهدي: كل كلام سوى كتاب الله، أو سنة رسوله، أو سيرة الصالحين فهو لهو، وفي «التأويلات النجمية»: كل ما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه، فهو لهو الحديث، والإضافة فيه بمعنى من البيانية، كما مر، إن أريد بالحديث المنكر، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فأضيف

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

العام إلى الخاص للبيان، كأنه قيل: من يشتري اللهو الذي هو الحديث، وبمعنى من التبعيضية إن أريد به الأعم من ذلك، كأنه قيل: من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه، وأكثر أهل التفسير على أن الآية نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة، قتله رسول الله - ﷺ - صبراً، حين فرغ من وقعة بدر.

أي: كان يشتري بماله كتباً فيها لهو الحديث، وباطل الكلام من فارس، ويحدث بها قريشاً في أنديتهم، ولعلها كانت مترجمة بالعربية. ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ويصرفهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: عن دينه الحق الموصل إليه، أو ليضلهم ويمنعهم بتلك الكتب المزخرفة عن قراءة كتاب الله الهادي إليه، وإذا أضل غيره فقد ضل هو أيضاً، واللام فيه للتعليل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء؛ أي: ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضل غيره فقد ضل في نفسه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد وورش وابن أبي إسحاق: بفتح الياء، أي: ليضل هو في نفسه، قال الزجاج: من قرأ بضم الياء.. فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره.. فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء.. فمعناه ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيده سبب نزول الآية.

حال كونه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: حال كونه جاهلاً بحال ما يشتريه ويختار، هل ينفعه أو يضره، أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن؛ أي: أو جاهلاً بحال تجارته هل تخسره أو تربح له، فلهذا استبدل الخير بما هو شر محض ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، والضمير المنصوب لـ﴿سَبِيلِ﴾، فإنه مما يذكر ويؤنث؛ أي: وليتخذها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها ومستهزأةً، وبالرفع عطفاً على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أعني العطف على

---

(١) الشوكاني.

يشتري أولى من الاستئناف.

والمعنى: ومن الناس من يشتري لهو الحديث، ويتخذ آيات الله هزواً ليضل عن سبيل الله.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وحفص[1]: ﴿ويتخذها﴾ بالنصب عطفاً، على ﴿لِيُضِلَّ﴾. وقرأ باقي السبعة: بالرفع عطفاً على ﴿يَشْتَرِى﴾.

وحاصل معنى الآية: أي[2] ومن الناس فريق يتخذ ما يتلهى به عن الحديث النافع للإنسان في دينه، فيأتي بالخرافات والأساطير والمضاحيك، وفضول الكلام، كالنضر بن الحارث، الذي كان يشتري الكتب ويحدث بها الناس، وربما اشترى الفتيات وأمرهن بمعاشرة من أسلم، ليحملهم على ترك الإسلام، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال والصد عن دين الله، وقراءة كتابه واتخاذه هزواً ولعباً.

وعن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في الطريق، فسمع مزماراً فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع؟ قلت: لا، فأخرج إصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله - ﷺ - صنع. وعن ابن عوف أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان».

والخلاصة: أن سماع الغناء الذي يحرك النفوس، يبعثها على اللهو والمجون، بكلام يشبب فيه بذكر النساء، ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات، لا خلاف في تحريمه، أما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد، وحين التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق، وحدو أنجشة - عبد أسود - كان يقود راحلة نساء النبي - ﷺ - عام حجة الوداع، وأما طبل الحرب فلا حرج فيه، لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

فقد ضرب بين يدي النبي - ﷺ - يوم دخل المدينة، فهم أبو أبكر بالزجر فقال رسول الله - ﷺ -: «دعهن يا أبا بكر، حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح» فكن يضربن ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ النَّجَّارِ حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

ولا بأس في استعمال الطبل والدف في النكاح، وكذا الآلات المشهرة به، والغناء بما يحسن من الكلام مما لا رفث فيه، وسماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز.

ثم بين عاقبة أمرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الاشتراء والإضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شديد ﴿مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة وإذلال لهم، لإهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه، وترغيب الناس فيه؛ أي: إنه كتب لهم العذاب والخزي يوم القيامة، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل.. جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق.

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا داء قد استشرى في نفسه، فكلما تليت عليه آية.. ازداد إباءً ونفوراً، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا المشتري المستهزىء[1]، أفرد الضمير فيه وفيما بعده، كالضمائر الثلاثة الأولى باعتبار لفظ من وجمع في ﴿أولئك﴾ باعتبار معناه كما مر، قال في «كشف الأسرار»: وهذا دليل على أن الآية السابقة نزلت في النضر بن الحارث.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: آيات كتابنا القرآنية ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض هذا المستهزىء عنها غير معتد بها حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: مبالغاً في التكبر ودفع النفس عن الطاعة والإصغاء، وجملة قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾ أو من ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والأصل: كأنه، فحذف ضمير الشأن، وخففت المثقلة؛ أي: كأن ذلك المعرض المتكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع؛ أي: حال كونه مشابهاً حاله حال من ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وهو

---

(١) روح البيان.

سامع، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار، لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها.

وجملة قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾[1] حال ثانية أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير ﴿لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾؛ أي: حال كونه مشابهاً حاله حال من في أذنيه، وقر؛ أي: ثقل مانع من السماع، ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾؛ أي: فبشر ذلك المعرض ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم؛ أي: فأخبره بأن العذاب لمفرط في الإيلام، لاحق به لا محالة، وذكر البشارة للتهكم.

أي[2]: وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذي اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.. يعرض عن سماعها ويولي مستكبراً، كأن في أذنيه ثقلاً فلا يصيخ لها، ولا يأبه لتلقفها وتأملها، ونحو الآية قوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾؛ أي: فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذي يؤلمه ويقض مضجعه يوم القيامة.

فإن قلت[3]: لم زاد هنا ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ وحذفه في الجاثية حيث قال هنا: ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨﴾ مع أنهما نزلا في النضر بن الحارث، حيث كان يعدل عن سماع القرآن إلى اللهو وسماع الغناء؟

قلت: لأنه تعالى بالغ في ذمه هنا، فناسب زيادة ذلك بخلاف ما في الجاثية.

ولما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بآياتنا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا بموجبها، قال في «كشف الأسرار»: الإيمان التصديق بالقلب، وتحقيقه بالأعمال الصالحة،

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) فتح الرحمٰن.

ولذلك قرن بينهما، وجعل الجنة مستحقة بهما، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: إن الذين آمنوا بالله وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿لهم﴾ بمقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: نعيم الجنات، فعكسه للمبالغة. وقيل: جنات النعيم: اسم لإحدى الجنات الثمانية، وهي دار الجلال، ودار السلام، ودار القرار، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. كما روى وهب بن منبه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فجعل لهم جنات النعيم، كما جعل للفريق الأول العذاب المهين.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. وقرأ زيد بن علي: خالدون[1] فيها على أنه خبر ثان لـ﴿إن﴾. وقرأ الجمهور بالياء. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعدهم الله سبحانه جنات النعيم وعداً، فهو مصدر مؤكد لنفسه، لأن معنى ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعدهم بها ﴿حَقًّا﴾؛ أي: حق ذلك الوعد حقاً، فهو تأكيد لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أيضاً، لكنه مصدر مؤكد لغيره، لأن قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد، وليس كل وعد حقاً.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لايغلب به غالب فيمنعه من إنجاز وعده أو تحقيق وعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وأقواله، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ومعنى الآية[2]: أي إن الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة، فأتوا بما أمرهم به ربهم في كتابه، على لسان رسله، وانتهوا عما نهاهم عنه، لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات والمسار، من المآكل والمشارب والملابس والمراكب، ومما لم يخطر لأحدهم ببال، وهم فيها مقيمون دائماً، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: ما أخبرنا به كائن لا محالة، لأنه وعد الله الذي لا يخلف وعده، وهو الكريم المنان على عباده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: وهو الشديد في انتقامه من أهل الشرك به،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الصادين عن سبيله الحكيم، في تدبير خلقه، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم.

ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع وكذا الكرسي والعرش ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾؛ أي: بغير دعائم وسواري، على أن الجمع لتعدد السماوات، والعمد، بفتحتين: جمع عماد، كأهب وإهاب، وهو ما يعمد به؛ أي: يسند، والأولى أن تكون جملة ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ مستأنفة، جيء بها للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى إياها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك، ويحتمل أن تكون في محل جر صفة لعمد؛ أي: خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز، على أنه تعالى عمدها بعمدٍ لا ترى، هي عمد القدرة.

واعلم: أن وقوف السماوات وثبات الأرض على هذا النظام، من غير اختلال، إنما هو بقدرة الله الملك المتعال. ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ سبحانه وتعالى وطرح ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت في نفسها، وثبت بها الأرض، شبه الجبال الرواسي استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً بحصيات قبضهن قابض بيده، فنبذهن في الأرض، وما هو إلا تصوير وتمثيل لقدرته، وإن كل فعل عظيم يتحير فيه الأذهان، فهو هين عليه، والمراد: قال لها: كوني، فكانت فأصبحت الأرض قد أرسيت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً؛ أي: تضطرب اضطراباً، فلم يدر أحد مم خلقت.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ الأرض، تتحرك وتضطرب ﴿بِكُمۡ﴾ في محل نصب على العلة؛ أي: ألقى فيها رواسي كراهية أن تميد بكم، والكوفيون يقدرونه لئلا تميد بكم.

والمعنى[1]: أنه خلقها وجعلها مستقرةً ثابتةً لا تتحرك، بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها، والميد[2]: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض، والمعنى: كراهية أن تميل بكم، فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته، أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ أي: وفرق الله سبحانه في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من كل نوع من أنواع الدواب مع كثرتها واختلاف أجناسها، وبث الشيء: تفريقه، كبث الريح التراب، فبث كل دابة في الأرض إشارة إلى إيجاده تعالى، ما لم يكن موجوداً وإظهاره إياه، والدب والدبيب: مشي خفيف ـ كما سيأتي ـ ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، لأن السماء في اللغة: ما علاك وأظلك، ﴿مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض بسبب ذلك الماء، والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: كثير المنفعة، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه وكثرة منافعه، وقيل المراد بذلك: الناس، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار، قاله الشعبي وغيره، والأول أولى.

واعلم: أن كل ما في العالم فهو زوج، من حيث إن له ضداً ما، أو مثلاً ما، أو تركباً ما، من جوهر وعرض مادة وصورة، وفيه تنبيه على أنه لا بد للمركب من مركب، وهو الصانع الفرد.

ومعنى الآية(١): أي ومن الأدلة على قدرته البالغة، وحكمته الظاهرة: أن خلق السماوات السبع بغير عمد تستند إليه، بل هي قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الرعد، وأن ألقى في الأرض، وجعل على ظهرها ثوابت الجبال، لئلا تضطرب بكم وتميد بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها، وأن بث فيها من كل دابة؛ أي: وأن ذرأ فيها من أصناف الحيوان ما لا يعلم عددها، ومقادير أشكالها وألوانها، إلا الذي فطرها، وأن أنزلنا من السماء ماء، فكان ذلك سبباً لإنبات كل صنف كريم من النبات ذي المنافع الكثيرة، ثم

---

(١) المراغي.

بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه، فأروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة فقال: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر من السماوات والأرض والجبال والحيوان والنبات ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مخلوقة، كضرب الأمير؛ أي: مضروبه، فأقيم المصدر مقام المفعول توسعاً؛ أي: هذا الذي تشاهدونه من السماوات والأرض وما فيهما من الخلق، مخلوق الله وحده، دون أن يكون له شريك في ذلك.

﴿فَأَرُونِي﴾؛ أي[1]: فأخبروني أيها المشركون الذين يعبدون هذه الأصنام والأوثان ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: أي شيء خلق الذين من دونه تعالى مما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة، حتى استحقوا به العبودية، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عددتها لكم، و﴿مَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد بمعنى: أي شيء، نصب بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ما مرفوع بالابتداء وخبره ذا وصلته، و﴿أروني﴾: معلق عنه على كلا التقديرين، والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت.

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم، المستدعي للإعراض عنهم، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول، لاستحالة أن يفهموا منه شيئاً فيهتدوا إلى بطلان ما هم عليه فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: بل المشركون بالله، العابدون معه غيره من أهل مكة وغيرهم ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأ واضح ظاهر لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه، فأنى لهم أن يرعووا عن غي أو يهتدوا إلى رشد وحق.

فقرر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

---

(١) المراغي.

قصة لقمان الحكيم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشك. ا هـ. «أبو السعود». واختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي، مشتق من اللقم، مرتجلاً إذ لا يعلم له وضع في النكرات، فمن قال: إنه عجمي.. منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربي.. منعة للتعريف وزيادة الألف والنون، واختلفوا أيضاً هل هو نبي أم رجل صالح، فذهب أكثر أهل العلم أنه ليس بنبي، وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي: أنه كان نبياً، والأول أرجح، وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً، وهو لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ، وهو آزر أبو إبراهيم، فعلى هذا هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن سرون، كان عبداً نوبياً من أهل أيلة، ذكره السهيلي، أسود اللون ولا ضير، فإن الله تعالى لا يصطفي عباده اصطفاء نبوة أو ولاية وحكمة على الحسن والجمال، وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم، وقيل: كان ابن أخت أيوب، وقيل: كان ابن خالته، وقيل: إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود وأخذ عنه العلم، كان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له: فقال: ألا أكتفي إذ كفيت.

وفي بعض الكتب: قال لقمان: خدمت أربعة آلاف نبي، واخترت من كلامهم ثماني كلمات: إن كنت في الصلاة.. فاحفظ قلبك، وإن كنت في الطعام.. فاحفظ حلقك، وإن كنت في بيت الغير.. فاحفظ عينيك، وإن كنت بين الناس.. فاحفظ لسانك، واذكر اثنين، وأنس اثنين، أما اللذان تذكرهما: فالله والموت، وأما اللذان تنساهما: إحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك.

وقيل: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعي غنم، فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة، فقال: ألست فلاناً الراعي؟ قال: بلى، قال: فبم بلغت ما بلغت، قال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالا

يعنيني. وقيل: كان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين، وقيل: خير السودان بلال بن رباح، ومهجع مولى عمر، ولقمان، والنجاشي رابعهم، وأوتي الحكمة والعقل والفهم.

واتفق العلماء على أنه كان حكيماً، ولم يقل نبياً إلا عكرمة والشعبي، فقالا بنبوته، وعلى هذا تكون الحكمة هي النبوة، ويؤيد كونه حكيماً لا نبياً كونه أسود اللون، لأنه تعالى لم يبعث نبياً إلا حسن الشكل حسن الصوت، وما روي أنه قيل له: ما أقبح وجهك يا لقمان، فقال: أتعيب بهذا على النقش أم على النقاش، وما قال عليه السلام: «حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة» وهي إصابة الحق باللسان، وإصابة الفكر بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إن تكلم.. تكلم بحكمة، وإن تفكر.. تفكر بحكمة، وإن تحرك.. تحرك بحكمة.

أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا لقمان الحكمة؛ أي: العقل والفطنة والإصابة في القول، وقيل: الحكمة: توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير، كقوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو ولا أراك ناجياً وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه.. زاده الله بذلك عزاً، والذلّ في طاعة الله، أقرب من التعزز بالمعصية وقوله: يا بني، لا تكن حلواً فتبتلع، ولا مراً فتلفظ. وقوله: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً.. فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه.. فآخه، وإلا فاحذره.

ولما كانت الحكمة من إنعام الله تعالى على لقمان، ونعمة من نعمه.. طالبه بشكره فقال: وقلنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى على ما أعطاك من الحكمة، إذ آتاك الله إياها وأنت نائم غافل عنها جاهل بها، والشكر لله: هو الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به.

والظاهر: أن ﴿أَنِ﴾: زائدة على هذا التفسير؛ أي: قلنا له: اشكر لله على ما أعطاك، وقيل: هي مفسرة، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، لأنه تعليم أو وحي.

والمعنى عليه: ولقد أعطينا لقمان الحكمة ووفقناه إياها، وهي شكره وحمده على ما آتاه من فضله، بالثناء عليه بما هو أهل له، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له.

ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ له تعالى على نعمه ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعة شكره التي هي دوام النعمة واستحقاق مزيدها، عائدة إليها مقصورة عليها، ولأن الكفران من الوصف اللازم للإنسان، فإنه ظلوم كفار، والشكر من صفة الحق تعالى، فإن الله شاكر عليم، فمن شكر.. فإنما يشكر لنفسه بإزالة صفة الكفران عنها، واتصافها بصفة شاكرية الحق تعالى، فيفوز بالثواب الجزيل على شكره، وينجو من العذاب الأليم، كما قال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة ربه فعليه وبال كفره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ عنه وعن شكره ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود في ذاته وصفاته وأفعاله، سواء حمده العباد وشكروه، أم كفروه، ولا يحصي عليه أحد ثناء كما يثني هو على نفسه، وعدم التعرض لكونه تعالى شكوراً، لما أن الحمد متضمن للشكر، وهو رأسه، كما قال عليه السلام: «الحمد رأس الشكر، لم يشكر الله عبد لم يحمده» فإثبات الحمد له تعالى إثبات للشكر، قال في «كشف الأسرار»: رأس الحكمة: الشكر لله ثم المخافة منه، ثم القيام بطاعته. ولا شك أن لقمان امتثل أمر الله في الشكر وقام بعبوديته.

والمعنى: أي ومن كفر نعم الله عليه.. فإلى نفسه أساء، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها، والله غني عن شكره، لأن شكره لا يزيد في سلطانه، وكفرانه لا ينقص من ملكه، وهو محمود على كل حال كفر العبد أو شكر. وقال يحيى بن سلام: غني عن خلقه، حميد في فعله.

وعن عبد الله بن دينار: أن لقمان قدم من سفر، فلقي غلامه في الطريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله، ملكت أمري، قال: وما فعلت أمي؟ قال: قد ماتت، قال: ذهب همي، قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جدد فراشي، قال: ما فعلت أختي: قال: ماتت، قال: سترت عورتي، قال: ما فعل أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري، وانكسر جناحي، ثم قال: ما فعل ابني؟ قال: مات، قال انصدع قلبي.

وقال في «فتح الرحمٰن»: وقبر لقمان بقرية صرفند، ظاهر مدينة الرملة من أعمال فلسطين ـ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين ـ وهي البلاد التي بين الشام وأرض مصر، منها الرملة وغزة وعسقلان، وعلى قبره مشهد، وهو مقصود بالزيارة، وقال قتادة: قبره بالرملة ما بين مسجدها وسوقها، وهناك قبور سبعين نبياً ماتوا بعد لقمان جوعاً في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس، فألجؤوهم إلى الرملة، ثم أحاطوهم هنا. انتهى.

وجملة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ قيل: معطوفة على ما تقدم، والتقدير: ولقد آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره، والأولى أن تكون ﴿وَإِذْ﴾ معمولة لـ: اذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة وقت قول لقمان ﴿لابنه﴾ قيل: اسمه أنعم، فهو أبو أنعم؛ أي: يكنى به، كما قالوا. وقال السهيلي: اسم ابنه ثاران، في قول ابن جرير والقتيبي، وقال الكلبي: اسمه مكشم، وقال النقاش: أنعم، وقيل: ماتان، قال القشيري: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما، قيل: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جنبه، وجعل يعظ ابنه موعظةً موعظةً، ويخرج خردلةً خردلةً، فنفذ الخردل، فقال: يا بني وعظتك موعظةً، لو وعظتها جبلاً.. لتفطر، فتفطر ابنه ومات.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن لقمان ﴿يَعِظُهُۥ﴾؛ أي: يعظ الابن، والوعظ: زجر يقترن بتخويف؛ أي: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد، وتصده عن الشرك. ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتصغير والإضافة إلى ياء المتكلم ـ بالفتح والكسر ـ وهو تصغير

رحمة وشفقة وعطوفة، ولهذا أوصاه بما فيه سعادته إذا عمل بذلك.

وقرأ البزي وابن كثير[١]: ﴿يا بني﴾ بإسكان الياء، ﴿ويا بني إنها﴾ بكسر الياء. ﴿ويا بني أقم﴾ بفتحها. وقيل: بالسكون في الأولى والثالثة. والكسر في الوسطى، وقرأ حفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا، والاجتزاء عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر في الثلاثة.

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تعدل بالله شيئاً في العبادة، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافراً، كما تقدم، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: أنه تسوية من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك، لأنه أهم من غيره، وأما عظمه، فلأنه لا يغفر أبداً، قال الشاعر:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ... وَمَنْ أَبَاهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

وكان ابنه وامرأته كافرين، فما زال بهما حتى أسلما، بخلاف ابن نوح وامرأته، فإنهما لم يسلما، وبخلاف ابنتي لوط وامرأته، فإنه ابنتيه أسلمتا دون امرأته، ولذا ما سلمت فكانت حجراً، كما في بعض الروايات، كما سبق، قيل: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك، والوعظ: زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله، وهو التفريد للحق بالكل نفساً وقلباً وروحاً، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد بالتوحيد.

وقد اختلف في هذه الجملة[٢]، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: من كلام الله تعالى، فتكون منقطعةً عما قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح: أنها لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فطابت أنفسهم. أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

ومعنى الآية[1]: أي واذكر أيها الرسول الكريم لقومك موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه وأحبهم لديه، حين أمره أن يعبد الله وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم، أما كونه ظلماً فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو سبحانه وتعالى، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه، من شكر المنعم الأول، الذي لم يشركه أحد في إيجاده إياه، وذكر ما في الشرك من الشناعة.. أتبعه بوصيته الولد بالوالدين، لكونهما السبب في وجوده، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: اعتراض في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك؛ أي: وأمرنا[2] الإنسان ببر والديه وطاعتهما، والقيام بحقوقهما وبالإحسان إليهما، وكثيراً ما يقرن القرآن بين طاعة الله وبر الوالدين، كقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وفسر الوصية بقوله الآتي: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وما بينهما: اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، وفي جعل الشكر لها مقترناً بالشكر لله، دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدها وجوباً.

ومعنى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها ﴿وَهْنًا﴾؛ أي: حالة كونها ذات وهن وضعف بحمله، أو تهن وهناً ﴿عَلَى وَهْنٍ﴾؛ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها؛ أي: حملته وهي في ضعف بتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق، ثم مدة النفاس، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وهذه منة خاصة بالوالدة لما فيها من كبير المشقة.

وقرأ الجمهور: ﴿وهناً﴾ بسكون الهاء في الموضعين، وقرأ عيسى الثقفي - وهي رواية عن أبي عمرو: بفتحهما وهما لغتان، ثم أردفها بمنة أخرى، وهي الشفقة عليه، وحسن كفالته حين لا يملك لنفسه شيئاً، فقال: ﴿وَفِصَالُهُ﴾: مبتدأ

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

خبره ﴿فِي عَامَيْنِ﴾؛ أي[1]: وفطام الإنسان من اللبن يقع في تمام عامين من وقت الولادة، وهي مدة الرضاع عند الشافعي، فلا يثبت حرمة الرضاع بعدها، فالإرضاع عنده واجب إلى الاستغناء، ويستحب إلى الحولين، وجائز إلى حولين ونصفٍ، قال في «الوسيط»: المقصود ذكر مشقة الوالدة، بإرضاع الولد بعد الوضع عامين.

وقرأ الجمهور: ﴿وفصاله﴾ بالألف، وقرأ الحسن وأبو جعفر وقتادة والجحدري ويعقوب ﴿وفصله﴾ ومعناه الفطام، وهما لغتان.

والمعنى: أي وفطامه من الرضاع بعد وضعه في تمام عامين، تقاسي فيها الأم في رضاعه وشؤونه في تلك الحقبة جم المصاعب والآلام، التي لا يقدر قدرها إلا العليم بها، ومن لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد وصى[2] بالوالدين، لكنه ذكر السبب في جانب الأم فحسب، لأن المشقة التي تلحقها أعظم، فقد حملته في بطنها ثقيلاً، ثم وضعته وربته ليلاً ونهاراً، ومن ثم قال ﷺ لمن سأله من أبر: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم قال بعد ذلك: ثم أباك، ثم فسر هذه الوصية بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ والأولى أن تكون ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ أي: قلنا له: اشكر لي حيث أوجدتك وهديتك بالإسلام، واشكر لوالديك حيث ربياك صغيراً، وقاسا فيك ما قاسا من المشقة، حتى استحكمت قواك، وشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير، وقال الزجاج: هي مصدرية، والمعنى: بأن اشكر لي، وقال النحاس: وأجود منه أن تكون ﴿أَنِ﴾ مفسرة، وفي «شرح الحكم»: قرن شكرهما بشكره، إذ هما أصل وجودك المجازي، كما أن أصل وجودك الحقيقي فضله وكرمه، فله حقيقة الشكر، كما له حقيقة النعمة، ولغيره مجازه، كما لغيره مجازها.

وفي الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» فجعل شكر الناس شرطاً

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

في صحة شكره تعالى. ثم حق المعلم[1] في الشكر فوق حق الوالدين، سئل الاسكندر، قيل له: ما بالك تعظم مؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟ فقال: أبي حطني من السماء إلى الأرض، ومؤدبي رفعني من الأرض إلى السماء: وقيل لبعضهم: ما بالك تعظيمك لمعلمك أشد من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية.

ثم علل الأمر بشكره محذراً إياه بقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: إلي الرجوع لا إلى غيري، فأجازيك على شكرك وكفرك، ومعنى الرجوع إلى الله: الرجوع إليه، حيث لا حاكم ولا مالك سواه.

والمعنى: إليّ رجوعك بالبعث بعد الموت، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر منك مما يخالف أمري، وسائلك عما كان من شكرك لي، على نعمي عليك، وعلى ما كان من شكرك لوالديك وبرك بهما.

قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ: من صلى الصلوات الخمس.. فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس.. فقد شكر والديه. وفي الحديث: «من أحب أن يصل أباه في قبره.. فليصل إخوان أبيه من بعده، ومن مات والداه وهو غير بار لهما، وهي حي.. فليستغفر لهما ويتصدق لهما حتى يكتب باراً لوالديه، ومن زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة.. كان باراً».

فإن قلت[2]: كيف وقعت الآيتان في أثناء وصية لقمان لابنه؟.

قلت: هما من الجمل الاعتراضية التي لا محل لها من الإعراب، اعترض بها بين كلامين متصلين معنىً، تأكيداً لما في وصية لقمان لابنه من النهي عن الشرك.

فإن قلت: لم فصل بين الوصية ومفعولها بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

(١) روح البيان. (٢) فتح الرحمٰن.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيۡنِ﴾؟.

قلت: تخصيصاً للأم بزيادة التأكيد في الوصية، لما تكابده من المشاق.

وبعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين، وأكد حقهما ووجوب طاعتهما، استثنى من ذلك حقوقه تعالى؛ فإنه لا يجب طاعتهما فيما يغضبه، فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾؛ أي: وإن كلفك الولدان أيها الإنسان وحملاك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِى﴾ في العبادة ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: بشركته إياي في استحقاق العبادة ﴿عِلۡمٌ﴾[1] أراد بنفي العلم به نفيه من أصله؛ أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد الأصنام ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في الشرك، يعني أن خدمة الوالدين وطاعتهما - وإن كانت عظيمة - فلا يجوز للولد أن يطيعهما في معصية الله تعالى، أياً كانت شركاً أو غيره؛ أي: فلا تطعهما فيما أمراك به، وإن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به.

روي أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، قال: لما أسلمت.. حلفت أمي لا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً، فناشدتها أول يوم فأبت، وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها، فأبت، فقلت: والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجت واحدة واحدة.. لم أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك مني وعرفت أنني لست تاركاً له أكلت.

﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾؛ أي: وصاحب الوالدين، وعاشرهما أيها الولد ﴿فِى﴾ أمور ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ وشؤونها صحاباً ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾؛ أي: صحبةً معروفةً في الشرع، يرتضيها الدين ويقتضيها الكرم والمروءة، بإطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما، وعيادتهما إذا مرضاً، ومواراتهما في القبر إذا ماتا، وفي «الخطيب»؛ أي: صاحبهما في أمور الدنيا التي لا تتعلق بالدين ما دمت حياً ببرهما، إن كانا على دين يقران عليه، ومعاملتهما بالحلم والاحتمال، وما يقتضيه مكارم الأخلاق ومعالم الشيم. اهـ.

وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة[2] إلى تهوين أمر الصحبة، لأنها في أيام قلائل

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

وشيكة الانقضاء، فلا يصعب عليك تحمل مشقتها، وفي الحديث: «حسن المصاحبة: أن يطعمهما إذا جاعا، وأن يكسوهما إذا عريا» فيجب على المسلم نفقة الوالدين ولو كانا كافرين، وبرهما وخدمتهما وزيارتهما، إلا أن يخاف أن يجلباه إلى الكفر، وحينئذ يجوز أن لا يزورهما، ولا يقودهما إلى البيعة، ويقودهما منها إلى المنزل، وقال بعضهم: المعروف ههنا: أن يعرفهما مكان الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهما بالله تعالى.

ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن في الدين ببعض محاباة فيه.. نفى ذلك بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، وهم المؤمنون الكاملون من النبي - ﷺ - وأصحابه، ومن اتبعه إلى يوم الدين؛ أي: واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام، واتبع محمد ﷺ.

والخلاصة: واتبع سبيلي بالتوحيد والإخلاص والطاعة لا سبيلهما ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء حياتكم الدنيا ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فأخبركم وسائر العباد عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، فأجازي كلاً منكم بما صدر منه من الخير والشر، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

نبذة في ذكر أحاديث وآثار وردت في الحث على بر الوالدين

روي أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أمي هرمت، فأطعمها بيدي وأسقيها وأحملها على عاتقي، فهل جازيتها حقها؟ قال عليه السلام: «لا ولا واحداً من مئة» قال: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنها خدمتك في وقت ضعفك، مريدة حياتك، وأنت تخدمها مريداً مماتها، ولكنك أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً».

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لولا أن أخاف عليكم تغير الأحوال عليكم بعدي.. لأمرتكم أن تشهدوا

لأربعة أصناف بالجنة: أولهم امرأة وهبت صداقها لزوجها لأجل الله وزوجها راضٍ، والثاني: ذو عيال كثير، يجتهد في المعيشة لأجلهم حتى يطعمهم الحلال، والثالث: التائب من الذنب على أن لا يعود إليه أبداً كاللبن لا يعود إلى الثدي، والرابع: البار بوالديه». ثم قال ـ ﷺ ـ: «طوبى لمن بر بوالديه، وويل لمن عقهما».

وعن عطاء بن يسار: إن قوماً سافروا فنزلوا بريةً فسمعوا نهيق حمار حتى أسهرهم طول الليل، فلما أصبحوا.. نظروا فرأوا بيتاً من شعر فيه عجوز، فقالوا: سمعنا نهيق حمار وليس عندك حمار؟ فقالت: ذاك ابني كان يقول لي: يا حمارة، فدعوت الله أن يصيره حماراً، فذاك منذ مات ينهق كل ليلة حتى الصباح.

وعن وهب: لما خرج نوح عليه السلام من السفينة.. نام فانكشف عورته، وكان عنده حام ولده فضحك ولم يستره، فسمع سام ويافث صنع حام، فألقيا عليه ثوباً، فلما سمعه نوح عليه السلام.. قال: غير الله لونك، فجعل السودان من نسل حام، فصار الذل لأولاده إلى يوم القيامة.

ثم إن الآية قد تضمنت النهي عن صحبة الكفار والفساق، والترغيب في صحبة الصالحين، فإن المقارنة مؤثرة، والطبع جذاب، والأمراض سارية، وفي الحديث: «لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم.. فهو منهم، وليس منا»؛ أي: لا تسكنوا مع المشركين في المسكن الواحد، ولا تجتمعوا معهم في المجلس الواحد، حتى لا تسري إليكم أخلاقهم الخبيثة، وسيرهم القبيحة بحكم المقارنة، قال إبراهيم الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وإخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع إلى الله تعالى عند السحر، ومجالسة الصالحين. كذا في «البستان».

ثم عاد سبحانه إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه، بعد أن نهى في مطلعها عن الشرك، وأكده بالاعتراض الذي ذكره بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ قال مقاتل: إن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبتاه، إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف

يعلمها الله تعالى؟ فرد عليه لقمان، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾؛ أي: إن الخطيئة أو إن القصة كما قاله المولى الجامي، أو إن الفعلة من الإساءة، أو الإحسان إن تك تلك الخطيئة أو الفعلة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ أي: وزن حبة واحدة من خردل؛ أي: مقدار ما هو أصغر المقادير التي توزن بها الأشياء من جنس الخردل، الذي هو أصغر الحبوب المقتاتة ﴿فَتَكُن﴾ تلك الخطيئة مع كونها في أقصى غايات الصغر ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ تحت الأرضين، وهي التي عليها الثور كما قيل، وهي لا في الأرض ولا في السماء؛ أي: في أخفى مكان وأحرزه، كجوف صخرة ماء، وقال المولى الجامي: في صخرة، هي أصلب المركبات، وأشدها منعاً لاستخراج ما فيها، انتهى.

وقال بعضهم: المراد بالصخرة[1]: أية صخرة كانت، لأنه قال بلفظ النكرة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرةٍ، والصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماوات ولا في الأرض، كذا في «التكملة». هذا ضعيف ليس له أصل، ﴿أَوْ﴾ تكن ﴿فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ مع ما بعدها، وفي بعض التفاسير: في العالم العلوي كمحدب السماوات ﴿أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ مع طولها وعرضها، وفي بعض التفاسير: في العالم السفلي كمقعر الأرض ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾؛ أي: يحضرها فيحاسب عليها، لأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً.. يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً.. يره.

والمعنى: أي[2] يا بني، إن الفعلة من الإساءة والإحسان، إن تك وزن حبة من خردل، فتكن في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة أو في أعلى مكان، كالسماوات أو في أسفله كباطن الأرض، يحضرها الله يوم القيامة، حين يضع الموازين القسط، ويجازي عليها، إن خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وقرأ نافع: ﴿مثقال﴾ بالرفع على أن ﴿تَكُ﴾ تامة، وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة. وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر، وباقي السبعة بالنصب على أن ﴿تَكُ﴾ ناقصة، واسمها: ضمير يفهم من سياق الكلام، تقديره: هي؛ أي: التي سألت عنها، وقرأ عبد الكريم الجزري: ﴿فتكن﴾ بكسر الكاف وشد النون وفتحها من الكن، وهو الشيء المغطى، وقراءة محمد بن أبي فجة البعلبكي: ﴿فتكن﴾ بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة، وقرأ قتادة: ﴿فتكن﴾ بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون، من وكن الطائر يكن: إذا استقر في وكنته، ورويت هذه القراءة عن عبد الكريم الجزري أيضاً؛ أي: تستقر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى من قول لقمان ﴿لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي، فإن أحد معاني اللطيف هو العالم بخفيات الأمور، ومن عرف أنه العالم بالخفيات.. يحذر أن يطلع عليه فيما هو فيه، ويثق به في علم ما يجهله، ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بكنهه يعلم ظواهر الأمور وخوافيها.

قال في «شرح حزب البحر»: الخبير: هو العليم بدقائق الأمور، التي لا يتوصل إليها غيره إلا بالاختيار والاحتيال، ومن عرف أنه الخبير.. ترك الرياء والتصنع لغيره بالإخلاص له، فالله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر ويحاسب عليها، سواء كانت في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح، أو في أرض القلوب، وفيه تنبيه لأهل المراقبة، وتحذير من الملاحظات لاطلاع الحق على نوادر الخطرات وبطون الحركات.

ولما[1] نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته.. أمره بما يتوسل به إلى الله تعالى من الطاعات، فبدأ بأشرفها، وهو الصلاة، حيث يتوجه إليه بها، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها، أو على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف، ممن يبعثه عليه، والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك، وهذا إنما يريد

---

(١) البحر المحيط.

به بعد أن يمثل هو في نفسه فيأتي بالمعروف فقال:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي[1] هي أكمل العبادات، تكميلاً لنفسك من حيث العمل بعد تكميلها من العلم والاعتقادات، لأن النهي عن الشرك فيما سبق قد تضمن الأمر بالتوحيد، الذي هو أول ما يجب على الإنسان؛ أي[2]: أدّها كاملةً على النحو المرضي لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك.. صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفيةً لحق الله عليه، عطف على ذلك تكميله لغيره فقال: ﴿وَأۡمُرۡ﴾ غيرك بقدر استطاعتك ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾؛ أي: بالمستحسن شرعاً وعقلاً، وحقيقته: ما يوصل العبد إلى الله تعالى. ﴿وَٱنۡهَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ أي: عن المستقبح شرعاً وعقلاً وتكميلاً لغيرك، وحقيقته: ما يشغل العبد عن الله؛ أي: وانْهَهُمْ بقدر استطاعتك عن معاصي الله ومحارمه، التي توبق من اكتسبها، وتلقي به في عذاب السعير، في جهنم وبئس المصير.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من أذى الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر، أو على ما أصابك من الشدائد والمحن، كالأمراض والفقر والهم والغم، والصبر: حبس النفس عما يقتضي الشرع أو العقل والكف عنه، وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر، لأنهما عمادا الاستعانة إلى رضوان الله تعالى، كما قال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾.

ثم ذكر علة ذلك فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أوصيك به ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي جعلها الله تعالى محتومة واجبةً على عباده، لا محيص عنها لما لها من جزيل الفوائد وعظيم المنافع في الدنيا والآخرة، كما دلت على ذلك تجارب الحياة، وأرشدت إليه نصوص الدين.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ففيه[1] إطلاق المصدر؛ أي: العزم على المفعول؛ أي: المعزوم.

والمعنى: من معزومات الأمور ومقطوعاتها ومفروضاتها، بمعنى مما عزمه الله؛ أي: قطعه قطع إيجاب، وأمر به العباد أمراً حتماً، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل؛ أي: من عازمات الأمور وواجباتها ولازماتها من قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جد. وفي هذا[2] دليل على قدم هذه الطاعات والحث عليها في شريعة من تقدمنا، وبيان لهذه الأمة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ينبغي أن يكون صابراً على ما يصيبه في ذلك، إن كان أمره ونهيه لوجه الله، لأنه قد أصابه ذلك في ذات الله وشأنه.

وبعد أن أمره بأشياء، حذّره من أخرى فقال:

١ - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: ولا تعرض بوجهك، ولا تمل خدك عمن تكلمه من الناس، تكبراً واحتقاراً له، بل أقبل عليه بوجهك كله، متهللاً مستبشراً من غير كبرٍ ولا عتوٍ، ومن هذا ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وزيد بن علي[3]: ﴿تصعر﴾ بفتح الصاد وشد العين، وباقي السبعة: بألف. والجحدري: ﴿يصعر﴾ مضارع أصعر.

والمعنى: أقبل على الناس بجملة وجهك عند السلام والكلام واللقاء، تواضعاً، ولا تحول وجهك عنهم، ولا تغط شق وجهك وصفحته، كما يفعله المتكبرون استحقاراً للناس، خصوصاً الفقراء، وليكن الغني والفقير عندك على السوية في حسن المعاملة.

٢ - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال كونك ﴿مَرَحًا﴾؛ أي: ذا مرح وخيلاء وفرح

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

شديد ونشاط وعجب وخفةً؛ أي: مشياً كمشي المرح من الناس، كما يرى من كثيرهم، لا سيما إذا لم يتضمن مصلحة دينية أو دنيوية؛ أي: ولا تمش في الأرض مختالاً متبختراً، لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض، ويظلمون الناس، بل امش هوناً، فإن ذلك يفضي إلى التواضع، وبذا تصل إلى كل خير.

روى[١] يحيى بن جابر الطائي عن غضيف بن الحارث قال: جلست إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول: يا ابن آدم، ما غرك بي، ألم تعلم أني بيت الوحدة، ألم تعلم أني بيت الظلمة، ألم تعلم أني بيت الحق، يا ابن آدم، ما غرك بي لقد كنت تمشي حولي فداداً ـ ذا خيلاء وكبر ـ. وفي الحديث: «من جرّ ثوبه خيلاء.. لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

ثم ذكر علة النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ﴾ ولا يرضى ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ومتبختر في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس، والمختال من الاختيال، وهو التكبر عن تخيل فضيلة فيه، كما سيأتي؛ أي: لا يرضى عن المتكبر المتبختر في مشيته، بل يسخط عليه، وهو بمقابلة الماشي مرحاً، والفخور: هو الذي يفتخر على الناس بما لَهُ من المالِ أو الشرف أو القوة أو غير ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله عليه، فإن الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو بمقابلة المصعر خده، وتأخيره لرعاية الفواصل.

وفي الحديث: «خرج رجل يتبختر في الجاهلية، عليه حلّة، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

قال بعض الحكماء[٢]: إذا افتخرت بفرسك.. فالحسن والفراهة له دونك، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك.. فالجمال لها دونك، وإن افتخرت بآبائك.. فالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلمت هذه الأشياء.. لقالت: هذه محاسننا فما لك

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من الحسن شيء، فإن افتخرت.. فافتخر بمعنى فيك غير خارج عنك.

وإذا أعجبك شيء من الدنيا.. فاذكر فناءك وبقاءه، أو بقاءك وزواله، أو فناءكما جميعاً، فإذا راقك ما هو لك.. فانظر إلى قرب خروجه من يدك، وبعد رجوعه إليك، وطول حسابه عليك، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر.

حكي: أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجوهر، لم ير له نظير، ففرح به الملك فرحاً شديداً، فقال لمن عنده من الحكماء: كيف ترى هذا؟ فقال: أراه فقراً حاضراً ومصيبةً عاجلةً، قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر.. كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق.. صرت فقيراً إليه، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، فاتفق أنه انكسر القدح يوماً، فعظمت المصيبة على الملك، وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا.

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَرُؤْيَا فَرَّحَتْ مَنْ رَآهَا سَاعَةً ثُمَّ ٱنْقَضَّتْ

٣ - ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾؛ أي: توسط[1] فيه، والقصد: ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً، لا يدب دبيب المتماوتين، ولا يثب وثوب الشياطين.

وقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - كان إذا مشى.. أسرع، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة، وقال مقاتل: معناه: لا تختل في مشيتك، وقال عطاء: امش بالوقار والسكينة، كقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

والمعنى[2]: توسط بين الدبيب والإسراع، فلا تمش كمشي المظهرين الضعف في المشي، فكأنهم أموات، وهم المراؤون الذين ضل سعيهم، ولا كمشي الشطار ووثوبهم، وعليك بالسكينة والوقار.

وفي الحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن». قال بعضهم: إن للشيطان من آدم نزغتين، بأيتهما ظفر قنع: الإفراط والتفريط، وذلك في كل شيء

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يتصور فيه ذلك.

وقرئ[1]: ﴿وأقصد في مشيك﴾ بهمزة القطع.

والخلاصة: أي وامش مشياً مقتصداً، ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل امش هوناً بلا تصنع، ولا مراءة للخلق بإظهار التواضع أو التكبر، روي عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القراء ـ الفقهاء العالمين بكتاب الله ـ قالت: كان عمر سيد القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع.

ورأى عمر رجلاً متماوتاً فقال له: لا تمت علينا ديننا ـ أماتك الله ـ. ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه فقال له: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾؛ أي: وانقص من صوتك واخفضه واقصر على قدر الحاجة، ولا تتكلف رفعه في محل الخطاب، والكلام خصوصاً عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعند الدعاء والمناجاة، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، والخفض أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه، والصوت هو الهواء المنضغط عند قرع جسمين، كما سيأتي بسطه في مبحث المفردات.

ثم علل النهي وبينه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾؛ أي: إن أبشع الأصوات وأقبحها، الذي ينكره العقل الصحيح، ويحكم بقبحه برفعها فوق الحاجة بلا داعٍ ﴿لـ﴾ هو ﴿صوت الحمير﴾ وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيهاً بصوت الحمار في علوه، ورفعه، وهو البغيض إلى الله تعالى. وفي ذلك ما لا يخفى من الذم وتهجين رفع الصوت، والترغيب عنه، ومن جعل الرافع صوته كأنه حمار مبالغةً في التنفير من عمله، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح عند وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملةً، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت، فمن كان منهم أشد صوتاً.. كان أعز، وكان أخفض.. كان أذل، قال شاعرهم:

---

(1) البحر المحيط.

جَهِيْرُ ٱلْكَلَامِ جَهِيْرُ ٱلْعُطَاسْ   جَهِيْرُ ٱلرُّوَاءِ جَهِيْرُ ٱلنِّعَمْ
وَيَعْدُوْ عَلَىٰ ٱلأيْنِ عَدْوَ ٱلظَّلِيْمِ   وَيَعْلُو ٱلرِّجَالَ بِخَلْقٍ عَمِمْ(١)

وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق، قال المبرد: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر. ا هـ.

وأفرد الصوت مع إضافته إلى الجمع، لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس، فإن كل حيوان يفهم من صوته أنه يصيح من ثقل أو تعب، كالبعير أو لغير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح، ولو قتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوله زفير وآخره شهيق، وهما فعل أهل النار.

قال أبو الليث: صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر لناس بالقبح، وإن كان قد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان، وإنما ضرب الله المثل بما هو معروف عند الناس بالقبح، لأن أوله زفير وآخره شهيق، كصوت أهل النار، يتوحش من يسمعه ويتنفر منه كل التنفر.

والمعنى: أن أنكر أصوات الناس حين يصوتون ويتكلمون، لصوت من يصوت صوت الحمار؛ أي: يرفع صوته عند التصويت كما يرفع الحمار صوته.

قال سفيان الثوري: صوت كل شيء تسبيح إلا صوت الحمير، فإنها تصيح لرؤية الشيطان، ولذلك سماه منكراً. وفي الحديث: «إذا سمعتم نهاقة الحمير - وهو بالضم صوتها - فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً، وإذا سمعتم صياح الديكة، بفتح الياء جمع ديك.. فاسألوا من فضله، فإنها رأت ملكاً». وفي الحديث دلالة على نزول الرحمة عند حضور أهل الصلاح، فيستحب الدعاء في ذلك الوقت، وعلى نزول الغضب عند أهل المعصية، فيستحب التعوذ، كما في

---

(١) **الرواء** - بالضم -: المنظر الحسن، **والنعم**: الإبل، **والأين**: الإعياء، **والخلق**: العمم التام.

«شرح المشارق» لابن الملك.

ومن هنا قال النبي - ﷺ -: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب»؛ أي: يقطع كمالها وينقصها مرور هذه الأشياء بين يدي المصلي، أما المرأة فلكونها أحب الشهوات إلى الناس، وأشد فساداً للحال من الوسواس، وأما الكلب الأسود فلكونه شيطاناً، كما قال النبي - ﷺ -: «الكلب الأسود شيطان» سمي شيطاناً لكونه أعقر الكلاب وأخبثها وأقلها نفعاً وأكثرها نعاساً، ومن هذا قال الإمام أحمد بن حنبل: لا يحل الصيد به، وأما الحمار فلكون الشيطان قد تعلق بذنبه حين دخل سفينة نوح عليه السلام، فهو غير مفارق عنه في أكثر الأوقات، وهو السر في اختصاص الحمار برؤية الشيطان. والله أعلم.

كما أن وجه اختصاص الديك برؤية الملك، كون صياحه تابعاً لصياح ديك العرش، كما ثبت في بعض الروايات الصحيحة، فالملك غير مفارق عنه في غالب الحالات، وفي الحديث: «إن الله يبغض ثلاثة أصواتها، نهقة الحمير، ونباح الكلب، والداعية بالحرب».

ولما فرغ الله سبحانه من قصة لقمان.. رجع إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد، وتبكيتهم، وإقامة الحجج عليهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾؛ أي: ألم تعلموا يا بني آدم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَكُم﴾؛ أي: لمنافعكم، والتسخير سوق الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من[1] الكواكب السيارة، مثل الشمس والقمر وغيرهما، والملائكة المقربين، بأن جعلها أسباباً محصلة لمنافعكم، ومراداتكم، فتسخير الكواكب بأن الله تعالى سيرها في البروج على الأفلاك التي دبر لكل واحد منها فلكاً، وقدر لها القرانات والاتصالات، وجعلها مدبرات العالم السفلي من الزماني، مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان، وظهور الأحوال المختلفة بحسب

---

(١) روح البيان.

الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال قدرته وحكمته، جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وعوناً لها، كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها، والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر: «إن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر». والموكلين على البحور والفلوات والرياح والملائكة الكتاب للناس الموكلين عليهم.

ومنها المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم، يحفظونهم من أمر الله، حتى جعل على الأرحام ملائكةً، فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم. يأخذها الملك بيده اليمنى، وإذا وقعت نطفة المرأة.. يأخذها الملك بيده اليسرى، وإذا أمر بمشجها.. يمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ والملائكة الموكلون على الجنة والنار، كلهم مسخرون لمنافع الإنسان ومصالحهم، حتى الجنة والنار مسخرتان لهم تطميعاً وتخويفاً، لأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

﴿و﴾ سخر لكم ﴿ما في الأرض﴾ من الجبال والصحارى والبحار والأنهار والحيوانات والنباتات والمعادن، بأن مكنكم من الانتفاع بها بوسط أو بغير وسط، فيدخل في ذلك جميع مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم، من الأحجار والتراب والزرع والشجر، والثمر والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً.

فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرفه أم لا، ﴿و﴾ أن الله ﴿أسبغ﴾ وأتم وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ يقال: سبغت النعمة: إذا تمت وكملت وكثرت.

وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة[1]: ﴿وأصبغ﴾ بالصاد، وهي لغة لبني كلب يبدلونها من السين إذا جامعت الغين أو الخاء أو القاف صاداً، وباقي

---

(١) البحر المحيط.

القراء: بالسين على الأصل، وقرأ الحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وحفص ﴿نِعَمَهُۥ﴾ جمعاً مضافاً للضمير، وباقي السبعة وزيد بن علي: ﴿نعمةً﴾ على الإفراد.

حالة كون تلك النعم ﴿ظَٰهِرَةً﴾؛ أي[1]: محسوسةً مشاهدة، مثل حسن الصورة وامتداد القامة، والحواس الظاهرة من السمع والبصر والشم والذوق واللمس والنطق، وذكر اللسان والرزق والمال والجاه والخدم والأولاد والصحة والعافية والأمن، ووضع الوزر ورفع الذكر، والأدب الحسن، ونفس بلا ذلة، وقدم بلا زلة، والإقرار والإسلام من نطق الشهادتين، والصلاة والصوم والزكاة، والحج وتعلم القرآن وحفظه، ومتابعة الرسول إلى غير ذلك.

﴿و﴾ حالة كونها ﴿باطنه﴾؛ أي: معقولةً غير مشاهدة بالحس، كنفخ الروح في البدن، وإشراقه بالعقل والفهم والفكر والمعرفة، وتزكية النفس عن الرذائل، وتحلية القلب بالفضائل، ولذا قال عليه السلام: «اللهم كما حسنت خَلقي، فحسن خُلقي» ومحبة الرسول وزينه في قلوبكم، واتصال الذكر على الدوام والرضى والغفران وقلب بلا غفلة، وتوجهٍ بلا علةٍ، وفيض بلا قلةٍ».

والمعنى[2]: أي ألم تروا أيها الناس، أن الله هو الذي سخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم، تستضيئون بها ليلاً ونهاراً، وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وسحاب ينزل لكم الأمطار لسقي الناس والحيوان والمزارع المختلفة، وما في الأرض من الدواب والأشجار والمياه والبحار والسفن والمعادن التي في باطنها إلى نحو ذلك من المنافع التي جعلها لغذائكم وأقواتكم، فتتمتعون ببعض ذلك وتنتفعون بجميع ذلك، وأتم عليكم نعمة محسوسة وغير محسوسة.

والخلاصة: أنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم في الدنيا والآخرة، بأن سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والباطنة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح الشبه والعلل.

روي: أن النبي - ﷺ - قال لابن عباس، وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرة: الإسلام وما حسن من خلقك، والباطنة: ما ستر عليك من سيء عملك» وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل، وقيل: الظاهرة: ما يرى بالأبصار من المال والجاة والجمال وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفع عن العبد من الآفات، وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة.

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى وجادل بعض الناس دون برهان عقل، ولا مستند من نقل، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: وبعض الناس، فهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾؛ أي: وبعض الناس والمشركين يخاصم ﴿في﴾ توحيد ﴿الله﴾ سبحانه وصفاته وينكرها، كالنضر بن الحارث وأبي بن خلف، ويميل إلى الشرك حيث يزعم أن الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من عقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ مستفادٍ من جهة الرسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أنزله الله سبحانه ﴿مُّنِيرٍ﴾؛ أي: مضيء له بالحجة، بل يجادل بمجرد التقليد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المجادلين، والجمع باعتبار معنى من ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى على نبيه من القرآن الواضح، والنور البيّن، فآمنوا به ﴿قَالُواْ﴾ لا نتبعه ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الأقدمين من عبادة الأصنام والأوثان والملائكة، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح، فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق الذي كانوا به في دينهم، فوبخهم سبحانه على تلك المقالة التي هي من حبائل الشيطان ووساوسه، فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: يدعو آباءهم، والهمزة فيه[1] للاستفهام الإنكاري المضمن للتعجب من التعلق بشبهة هي في غاية البعد من مقتضى العقل، داخلة على محذوف، والضمير عائد إلى الآباء، والجملة في حيز النصب على الحالية من المحذوف.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم بما هم عليه من الشرك ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: إلى عذاب النار الشديدة الاتقاد والالتهاب، فهم مجيبون إليه حسبما يدعوهم؛ أي: أيتبعونهم في حال دعاء الشيطان آباءَهم إلى العذاب، مع أنه لا ينبغي أتباعهم في هذه الحال، لأنها حال تلفٍ وعذاب.

ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم، ويجوز[١] أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وفي الآية منع صريح من التقليد، وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائدته على من وقع فيه، فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله، كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق وعذاب السعير.

فائدة: والتقليد لغةً[٢]: وضع الشيء في العنق محيطاً به، ومنه القلادة، ثم استعمل في تفويض الأمر إلى الغير كأنه ربطه بعنقه، واصطلاحاً: قبول قول الغير بلا حجة، فيخرج الأخذ بقول النبي - ﷺ -، لأنه حجة في نفسه، وفي «التعريفات»[٣]: التقليد: عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقية فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادةً في عنقه. انتهى.

والمعنى[٤]: أي أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى الدليل، فربما كان اعتقادهم مبنياً على الهوى وترهات الأباطيل، سداه ولحمته: ما زينه لهم الشيطان من وساوس لا تستند إلى حجة ولا برهان.

والخلاصة: أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) التعريفات.
(٤) المراغي.

والصواب من الخطأ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال، وفي هذا ما لا يخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم، وأنهم بلغوا الدرك الأسفل في هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانت غايته، واستقامت محجته.

الإعراب

﴿الٓمٓ ① تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ② هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ⑤﴾.

﴿الٓمٓ ①﴾: تقدم إعراب هذه الكلمة مرةً بعد مرةً، فلا عودة ولا إعادة. ﴿تِلۡكَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وسيأتي معنى إسناد الحكمة إليه في مبحث البلاغة، ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾: حالان من ﴿الآيات﴾، والعامل فيهما ما في تلك من معنى الإشارة. ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أو بنفس المصدر، تنازع فيه كل من الحالين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كذلك معطوف على الصلة، ﴿وَهُم﴾: مبتدأ، ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، و﴿هُمۡ﴾: الثاني تأكيد للأول، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾: خبر لـ﴿هُم﴾ الأول، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة الصلة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾: خبره، ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾: صفة لـ﴿هُدٗى﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ومدحاً لهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ، والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ⑥﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، ﴿يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: فعل وفاعل مستتر، وهو عائد الموصول ومفعول به، والجملة الفعلية: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتقرير حال

اللاهين، الذين يضيعون أوقاتهم باللهو ومضاحيك الكلام، ﴿لِيُضِلَّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يضل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَشْتَرِى﴾؛ أي: يشتري غير عالم بحال ما يشتريه، وجملة ﴿يضل﴾: مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: يشتري اللهو لإضلاله الناس، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَشْتَرِى﴾. ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يتخذها﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول بالنصب معطوف على ﴿يضل﴾، وبالرفع معطوف على ﴿يَشْتَرِى﴾. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان لـ﴿يتخذ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: خبر للأول، وجملة الأول: مستأنفة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾. والجملة الفعلية: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿وَلَّىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: حال من فاعل ﴿وَلَّىٰ﴾، وجملة ﴿وَلَّىٰ﴾: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يَشْتَرِى﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: كأنه، وجملة: ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿كَأَن﴾: في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿وَلَّىٰ﴾، ﴿كأنَّ﴾: حرف نصب وتشبيه، ﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾: خبر مقدم لـ﴿كَأَنَّ﴾، ﴿وَقْرًا﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَأَنَّ﴾: حال من فاعل: ﴿يَسْمَعْهَا﴾ أو بدل من جملة ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، وأجاز الزمخشري أن تكون جملتا التشبيه مستأنفتين، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا عرفت حال ذلك المعرض، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك: بشره، ﴿بشره﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق به، ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿آمَنُوا﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿خَالِدِينَ﴾: حال مقدرة من ضمير لهم، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾. ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لنفسه منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: وعدهم الله ذلك وعداً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها، وإنما قلنا مؤكد لنفسه لأن معنى ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾: وعدهم الله بها، فأكد معنى الوعد بالوعد، ﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد لغيره، منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: حقه حقاً، أي: حق ذلك الوعد حقاً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها، وإنما قلنا مؤكد لغيره، لأن ﴿حَقًّا﴾: دال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر أول، ﴿الْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة للاستدلال على قدرته تعالى وعزته، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿السَّمَاوَاتِ﴾؛ أي: حالة كونها خاليةً من عمد، ﴿تَرَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والرؤية هنا بصرية، والجملة الفعلية: في محل الجر صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾؛ أي: بغير عمدٍ مرئية لكم.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ألقى﴾. ﴿رَوَٰسِيَ﴾: صفة لمفعول محذوف، تقديره: جبالاً رواسي، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَمِيدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَمِيدَ﴾، والمصدر المؤول من ﴿أَن﴾ المصدرية ومدخولها: مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، المعلل للفعل، تقديره: وألقى في الأرض رواسي كراهية ميدها بكم. ﴿وَبَثَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿ألقى﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿بث﴾، ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لمفعول به محذوف، تقديره: حيوانات كائنات من كل دابة. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ على طريق الالتفات عن الغيبة إلى التكلم، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أنزلنا﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بمحذوف حال ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: متعلق بـ﴿أنبتنا﴾ أو صفة لمفعول محذوف؛ أي: نباتاً من كل زوج، ﴿كَرِيمٍ﴾ صفة لـ﴿زَوْجٍ﴾. ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿فَأَرُونِي﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أروني﴾: بمعنى أخبروني فعل أمر وفاعل ومفعول أول، وهو يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل، وهذا أولها، والجملة الاستفهامية المعلقة: سدت مسد المفعولين ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول خبره، ﴿خَلَقَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما الذي خلقه الذين ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿بَلِ﴾: حرف للإضراب الانتقالي، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مبتدأ، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف

تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: بمعنى أعطينا فعل وفاعل، ﴿لُقْمَٰنَ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿أَنِ﴾: مفسرة لأن الإيتاء فيه معنى القول؛ أي: قلنا له: ﴿ٱشْكُرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة الفعلية: جملة مفسرة لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾: لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿أَنِ﴾: مصدرية مؤولة ما بعدها بمصدر منصوب على كونه بدلاً من ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾، والأول: أظهر ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱشْكُرْ﴾. ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَشْكُرْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾: على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة ﴿يَشْكُرُ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة. ﴿إن الله غني﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿حَمِيدٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال لقمان، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِٱبْنِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعِظُهُۥ﴾: خبره، والجملة الاسمية، في محل النصب حال من ﴿لُقْمَٰنُ﴾. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿بني﴾: منادى مضاف إلى ياء

المتكلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُشْرِكْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَظُلْمٌ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿لَظُلْمٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها معللة للنهي المذكور قبله.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿وصينا الإنسان﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية مع ما بعدها، إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين وصايا القمان لابنه، مؤكدة لما اشتملت عليه من النهي عن الشرك، ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿وصينا﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: معترضة بين المفسَّر الذي هو ﴿وصينا﴾ والمفسِّر الذي هو ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿وَهْنًا﴾: حال من ﴿أُمُّهُۥ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حالة كونه ذات وهن، أو مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالاً، تقديره حالة كونها تهن وهناً على. ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لـ﴿وَهْنًا﴾. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: مبتدأ، ﴿فِى عَامَيْنِ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿حَمَلَتْهُ﴾: على كونها معترضة. ﴿أَنِ﴾: مفسرة، ﴿ٱشْكُرْ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: مفسرة لـ﴿وصينا﴾، واختار الزجاج أن تكون ﴿أَنِ﴾ مصدرية، والمصدر المؤول منها: منصوب بنزع الخافض، والخافض المحذوف: متعلق بـ﴿وصينا﴾؛ أي: ولقد وصينا الإنسان بالشكر لي ولوالديه وليس ببعيدٍ ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱشْكُرْ﴾، ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾: معطوف عليه، ﴿إِلَىَّ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة لقول محذوف على ﴿وصينا﴾؛ أي: ولقد وصينا الإنسان بالشكر لي ولوالديه وقلنا له: ﴿إن جاهداك﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿جَٰهَدَاكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿تُشْرِكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿بِي﴾: متعلق به، والمصدر المؤول من ﴿أن﴾ المصدرية وما في حيزها: مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ والجار والمجرور متعلق بـ﴿جَٰهَدَاكَ﴾؛ أي: وإن جاهداك على الإشراك بي. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُشْرِكَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ناقص، ﴿لَكَ﴾: خبر مقدم لها. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾. ﴿عِلْمٌ﴾ اسم ليس مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُطِعْهُمَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول للقول المحذوف كما قدرنا آنفاً.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿صاحبهما﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على جواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: حال من ضمير المفعول، ﴿مَعْرُوفًا﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: بالمعروف، ﴿وَٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على الجواب أيضاً، ﴿سَبِيلَ﴾: مفعول به، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿أَنَابَ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق بـ﴿أَنَابَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَيَّ﴾: خبر مقدم، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿اتبع﴾، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنبئكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنبئكم﴾، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره،

وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء، معطوفة بعاطف مقدر على جملة النداء في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿إِنَّهَآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير مستتر جوازاً، تقديره: هي يعود على الخطيئة، ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾: خبرها، ﴿مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾: صفة لـ﴿حَبَّةٖ﴾، ﴿فَتَكُن﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿تَكُ﴾، واسمها ضمير يعود على الخطيئة أيضاً، ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ خبر ﴿تكن﴾، ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوفان على ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾، ﴿يَأۡتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأۡتِ﴾، ﴿ٱللَّهُۚ﴾: فاعل ﴿يَأۡتِ﴾. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ واسمها في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَطِيفٌ﴾: خبر أول له، ﴿خَبِيرٞ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: منادى مضاف معطوف بعاطف مقدر على قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ على كونه مقول ﴿قال﴾، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾: على كونها جواب النداء، ﴿وَأۡمُرۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ﴾، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱنۡهَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على أيضاً على ﴿أقم الصلاة﴾، ﴿عَنِ

﴿ٱلۡمُنكَرِۖ﴾: متعلق بـ﴿وَٱنۡهَ﴾، ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر على أقم. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اصبر﴾، ﴿أَصَابَكَۖ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُصَعِّرۡ خَدَّكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿تُصَعِّرۡ﴾، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿وَلَا تَمۡشِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمۡشِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿مَرَحًاۖ﴾: منصوب على الحالية، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: ذا مرح، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: مشياً مرحاً، أو مفعول لأجله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾: حرف ناف وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿فَخُورٖ﴾: صفة لـ﴿مُخۡتَالٖ﴾: أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾.

﴿وَٱقۡصِدۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿فِي مَشۡيِكَ﴾: متعلق بـ﴿اقصد﴾، ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿مِن صَوۡتِكَۚ﴾ متعلق بـ﴿اغضض﴾. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾: خبره ومضاف إليه، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تروا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والرؤية هنا قلبية، والجملة: مستأنفة مسوقة لتوبيخ المشركين على شركهم مع قيام الحجة، ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ﴿لَكُم﴾ متعلق به. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿سَخَّرَ﴾ وجملة ﴿سَخَّرَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿تروا﴾. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَأَسْبَغَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أسبغ﴾. ﴿نِعَمَهُ﴾: مفعول به، ﴿ظَاهِرَةً﴾: حال من ﴿نِعَمَهُ﴾، ﴿وَبَاطِنَةً﴾: معطوف على ﴿ظَاهِرَةً﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُجَادِلُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿فِي اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُجَادِلُ﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يُجَادِلُ﴾، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ﴾: معطوفان على ﴿علم﴾، ﴿مُّنِيرٍ﴾: صفة لـ﴿كِتَابٍ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾: في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، وإن شئت قلت: ﴿اتَّبِعُوا﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿مَا﴾: اسم موصول مفعول به، والجملة: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد: محذوف: ؛ أي: أنزله الله. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يُجَادِلُ﴾ على كونها

صلة لـ﴿مَآ﴾ الموصولة، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿نَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. والجملة معطوفة على محذوف، هو مقول ﴿قَالُواْ﴾، تقديره: قالوا لا نتبع ما أنزل الله بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾، لأنه من وجد الضالة، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أيتبعونه، ﴿ولو﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يَدْعُوهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدْعُوهُمْ﴾، وجملة ﴿يَدْعُوهُمْ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ الشرطية: محذوف، تقديره: ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يتبعونه، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب حال من فاعل الفعل المحذوف، الذي هو مدخول همزة الاستفهام، والتقدير: أيتبعونه حال كون الشيطان داعياً لهم إلى عذاب السعير.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: إما فعيل بمعنى مفعل؛ أي: المحكم المحروس من التغيير والتبديل، والممنوع من الفساد والبطلان، فهو فعيل بمعنى مفعل، وإن كان قليلاً في كلامهم، كقولهم: أعقدت الدبس فهو عقيد؛ أي: معقد، أو بمعنى فاعل؛ أي: الحاكم بين العباد ببيان الحلال والحرام، والصحيح والفاسد.

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وفي «المفردات»: إقامة الشيء، توفية حقه، وإقامة الصلاة: توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئتها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: والاشتراء: دفع الثمن وأخذ المثمن، والبيع: دفع المثمن وأخذ الثمن، وقد يتجوز بالشراء والاشتراء عن كل ما يحصل به شيء، واللهو: مصدر لها يلهو، والمراد به هنا: اسم الفاعل؛ أي:

ما يلهي ويشغل الإنسان عما يهمه من طاعة ربه، كالأحاديث التي لا أصل لها، وكل باطل ألهى عن الخير، والملاهي آلة اللهو، والملهى موضع اللهو، والحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره، وإضافة اللهو إلى الحديث للبيان، وضابطها: أن يكون المضاف بعد المضاف إليه صالحاً للإخبار به عنه، كخاتم فضة.

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ والوقر الصمم، قال في «المفردات»: الوقر: الثقل في الأذن، وفي «فتح الرحمٰن»: الوقر الثقل الذي يغير إدراك المسموعات. ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: والعمد: بفتحتين: جمع عماد، كأهب وإهاب، وهي السارية، وفي «المصباح»: وعمدت الحائط عمداً: دعمته، وأعمدته بالألف لغةً، والعماد: ما يسند به، والجمع عمد بفتحتين، وفيه أيضاً الدعامة بالكسر: ما يسند به الحائط إذا مال يمنعه السقوط، ودعمت الحائط دعماً من باب نفع.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ﴾ قال ابن عباس: هي الجبال الشامخات من أوتاد الأرض، وهي سبعة عشر جبلاً، منها: قاف ـ وأبو قبيس ـ والجودي ولبنان ـ وطور سنين ـ وطور سيناء، أخرجه ابن جرير في «المبهمات» للسيوطي. اهـ. ابن لقيمة على «البيضاوي»، وفي «المختار» رسا الشيء، ثبت، وبابه عدا وسما، والرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ، واحدتها راسية. اهـ. والإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه وتراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾: الميد: اضطراب الشيء العظيم، كاضطراب الأرض، يقال: ماد يميد ميداً وميداناً: إذا تحرك واضطرب.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: وأصل البث: إثارة الشيء، وتفريقه، كبث الريح التراب.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ وهي كل ما يدب على الأرض، من الدب، والدبيب، وكذا الدب: المشي الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان، وفي الحشرات أكثر.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، لأن السماء في اللغة: ما علاك وأظلك، كما مر.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف.

﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: كثير المنفعة، قال في «المفردات»: وكل شيء يشرف في بابه، فإنه يوصف بالكرم.

واعلم: وفقنا الله تعالى جميعاً للتفكر في عجائب صنعه، وغرائب قدرته، أن عقول العقلاء، وأفهام الأذكياء قاصرة متحيرة في أمر النباتات والأشجار، وعجائبها وخواصها وفوائدها ومضارها ومنافعها، وكيف لا؟ وأنت تشاهد اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وعجائب صور أوراقها، وروائح أزهارها، وكل لون من ألوانها ينقسم إلى أقسام، كالحمرة مثلاً كوردي وأرجواني وسوسني وشقائق وخمري وعنابي وعقيقي ودموي، ولكي وغير ذلك، مع اشتراك الكل في الحمرة، ثم عجائب روائحها ومخالفة بعضها بعضاً، واشتراك الكل في طيب الرائحة، وعجائب أشكال أثمارها وحبوبها وأوراقها، ولكل لون وريح وطعم وورقٍ وثمرة وزهر وحب خاصية لا تشبه الأخرى، ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله تعالى، والذي يعرف الإنسان من ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال الراغب: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعمل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات على ما هي عليه، وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في هذه الآية.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ والوعظ: زجر يقترن بتخويفٍ، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والاسم: العظة والموعظة.

﴿يَٰبُنَىَّ﴾: بالتصغير والإضافة إلى ياء المتكلم بالفتح والكسر، وتقدم البحث عن إعرابه، وأصله في سورة يوسف، فراجعه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: أمرناه، يقال: وصيت زيداً بعمرو: أمرته بتعهده ومراعاته.

﴿وَهْنًا﴾: والوهن: الضعف من حيث الخلق، والخلق. وفي «المختار»: الوهن: الضعف، وقد وهن من باب وعد، ووهنه غيره يتعدى ويلزم، ووهن بالكسر يهن وهناً: لغة فيه، وأوهنه غيره، ووهنه توهيناً.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ في «القاموس»: الفصال: فطم الولد، وفيه أيضاً: وفصل الولد عن الرضاع، وبابه ضرب، والفصال: التفريق بين الصبي والرضاع، ومنه الفصيل، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه، والعام بالتخفيف: السنة، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الشدة والجدب، ولذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام: فيما فيه الرخاء؛ أي: فطام الإنسان من اللبن، يقع في تمام عامين من وقت الولادة، وهي مدة الرضاع عند الشافعي، كما مر.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ المجاهدة: استفراغ الجهد؛ أي: الوسع في مدافعة العدو.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال في «المفردات»: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل، والشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما، ولهذا قيل للاقتصاد في الجود: معروف، لما كان ذلك مستحسناً في العقول بالشرع.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ أصله: تكون، حذف الواو لاجتماع الساكنين، الحاصل من سقوط حركة النون بـ﴿إن﴾ الشرطية، وحذفت النون أيضاً تشبيهاً لها بحرف العلة في امتداد الصوت، أو بالواو وفي الغنة، أو بالتنوين، وقال بعضهم: حذفت تخفيفاً لكثرة الاستعمال، فلا تحذف من مثل لم يصن ولم يخن، فإن وصلت بساكن.. ردت النون وتُحرك نحو ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ المثقال: ما يوزن به، وهو من الثقل، وذلك اسم لكل صنج. وفي «كشف الأسرار»: مثقال الشيء: ما يساويه في الوزن، وكثر الكلام فيه، فصار عبارةً عن مقدار الدنيا. انتهى، والحبة: واحد الحبوب، والخردل: نبات له حب صغير جداً أسود مقرح، الواحدة: خردلة، ويقال: خردل الطعام: أكل خياره، وخردل اللحم: قطع أعضاءه وافرةً صغاراً.

﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ الصخر: الحجر الصلب، والمراد بالصخرة: أية صخرة

كانت، لإيراده بلفظ النكرة، كذا قيل: كما مر.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، وعزم الأمور: ما لا يشوبه شبهة، ولا يدافعه ريبة.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ التصعر: التواء وميل في العنق من خلقة أو داء أو من كبر في الإنسان وفي الإبل، والتصعير: إمالته عن النظر كبراً كما في «تاج المصادر». ولما كان ذلك لغرض من الأغراض التي لا تدوم.. أشار إلى المقصود به بقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ بلام العلة؛ أي: لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم، وفي «المصباح»: الصعر، بفتحتين: ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشدقين، وربما كان الإنسان أصعر خلقةً، أو صعره غيره بشيء يصيبه، وهو مصدر من باب تعب وصعر خده بالتثقيل، وصاعره: أماله عن الناس إعراضاً وتكبراً. انتهى. وخد الإنسان: ما اكتنف الأنف عن اليمين والشمال، أو ما جاوز مؤخر العينين إلى منتهى الشدق، أو من لدن المحجر إلى اللحى، كما في «القاموس».

﴿مَرَحًا﴾ المرح: أشد الفرح والخفة الحاصلة من النعمة، كالأشر والبطر.

﴿مُخْتَالٍ﴾ الاختيالَ والخيلاء: التكبر عن تخيل فضيلة، ومنه لفظ الخيل، كما قيل: إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوةً، فالمختال: المتكبر المتبختر في مشيته.

﴿فَخُورٍ﴾ من الفخر، والفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان، كالمال والجاه، والفخور: الذي يعدد مناقبه تطاولاً بها، واحتقاراً لمن عدم مثلها.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ القصد: ضد الإفراط والتفريط، والمعنى: واعدل في المشي بعد الاجتناب عن المرح، فيه، حتى يكون مشياً بين مشيين، لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثب الشطار.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يقال: غض صوته وغض بصره: إذا خفض صوته

وغمض بصره، قال في «المفردات»: الغض النقص من الطرف والصوت، والصوت: هو الهواء المنضغط عند قرع جسمين، قال بعضهم: الهواء الخارج من داخل الإنسان، إن خرج بدفع الطبع.. يسمى نفساً، بفتح الفاء، وإن خرج بالإرادة وعرض له تموج بتصادم جسمين.. يسمى صوتاً، وإذا عرض للصوت كيفيات مخصوصة، بأسباب معلومة.. يسمى حروفاً، ويقال: صات يصوت صوتاً فهو صائت، ويقال: صوت تصويتاً فهو مصوت، ورجل صات؛ أي: شديد الصوت بمعنى صائت.

﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾: جمع حمار، قال بعضهم: سمي حماراً لشدته، من قولهم طعنة حمراء؛ أي: شديدة، وحمارة القيظ: شدته.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ﴾ أصل تروا تريوا: تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار تروا بوزن تفوا، والتسخير: سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ يقال: أسبغ الله عليه النعمة: أتمها، وأسبغ الثوب أوسعه وأطاله، وأسبغ الرجل: لبس درعاً سابغةً، وأسبغ له النفقة: وسع عليه وأنفق تمام ما يحتاج إليه، وفي «المصباح»: وسبغت النعمة سبوغاً: اتسعت، وأسبغها الله: أفاضها وأتمها، وأسبغت الوضوء: أتممته، وقرىء بالسين وبالصاد، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف، تقول في سلخ صلخ، وفي سقر صقر، وفي سالغ صالغ، ومعنى سالغ من سلغت البقرة والشاة، إذا أسقطت السن التي خلقت بها السديس، والسلوغ في ذوات الأظلاف، بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف.

﴿نِعَمَهُ﴾: جمع نعمة، وهي في الأصل: الحالة الطيبة التي يستلذها الإنسان، فأطلقت للأمور اللذيذة الملائمة للطبع المؤدية إلى تلك الحالة الطيبة.

﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يقال: جدلت الحبل، إذا أحكمت فتله، ومنه الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والسعر: التهاب النار، وعذاب السعير؛ أي: الحميم، كما في «المفردات».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لأن فيه وصف الشيء بصفة فاعله، ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وهو الضمير المجرور، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة، وهو من أحسن الصناعة.

فائدة: وصف الكتاب هنا بالحكيم مناسب لموضوع السورة، لأنه قد كرر في موضوعها الحكمة، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الخ. فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد على اصطلاحات القرآن، من التنسيق بين الألفاظ والموضوعات.

ومنها: وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة، في قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: للذين يعملون الحسنات، ففيه إيجاز بليغ، لأن الحسنات لا تحصى، ولكنه خص منها هذه الثلاث المذكورة هنا لفضلها وشرفها.

ومنها: الإشارة إلى القريب باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: هذه آيات الكتاب تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي.

ومنها: الإطناب بتكرار الضمير، وبتكرار اسم الإشارة في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ لزيادة الثناء عليهم والتشريف لهم، كما أن الجملة تفيد الحصر؛ أي: هم المفلحون لا غيرهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ شبه استبدالهم اللهو عن آيات الله باشتراء من اشترى سلعة خاسراً، فاستعار اسم الاشتراء له، ثم اشتق منه اشترى بمعنى استبدل، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ لأنه ذكر فيه أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل.

ومنها: أسلوب التهكم في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير، واستعمالها في الشر سخريةٌ وتهكمٌ.

ومنها: والمعاكسة في الإضافة للمبالغة في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لأن المعنى: لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة كما في «البيضاوي».

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ شبه الجبال الرواسي استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً بحصيات قبضهن قابض بيده، فنبذهن في الأرض، وما هو إلا تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته، وإن كل فعل يتحير فيه الأذهان فهو هين عليه تعالى.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: كراهية أن تميد بكم.

ومنها: الالتفات إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ ﴿وَبَثَّ﴾ كلها بضمير الغائب، التفت في الفعلين إلى نون العظمة، لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما، وتوفيةً لمقام الامتنان، وقال الفخر الرازي: وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة: أما الفصاحة: فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه، ألا ترى أنك إذا قلت: قال زيد كذا، وقال خالد كذا، وقال عمرو كذا، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً، وأما الحكمة: فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان، ومكان، فأسند الإنزال إلى نفسه صريحاً، ليتنبه

الإنسان لشكر النعمة، فيزيد له في الرحمة. ا هـ. من «التفسير الكبير».

ومنها: إطلاق المصدر على اسم المفعول في قوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مخلوقة.

ومنها: الاستفهام للتوبيخ والتبكيت في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل بإشراكهم في قوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الأصل أن يقال: بل هم في ضلال مبين.

ومنها: الطباق بين ﴿شكر﴾ و﴿كَفَرَ﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿فَخُورٍ﴾ لأن فعولاً من صيغ المبالغة؛ أي: كثير الفخر.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ لزيادة العناية والاهتمام بشأن الخاص.

ومنها: تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إلي المصير﴾، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: لا إلى غيري.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ مثل ذلك لسعة علم الله، وإحاطته بجميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها، وهذا من البديع.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فقابل بين اللفظين.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه، بل أخرجه

مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ ﴿وَبَاطِنَةً﴾.

ومنها: الإنكار والتوبيخ مع الحذف في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: أيتبعونهم ولو كان الشيطان إلخ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال المشرك المجادل في الله بغير علم.. أردف ذلك بذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله، وبيان عاقبته ومآله، ثم سلى رسوله على ما يلقاه من المشركين من العناد والكفران، وبين له أنه قد بلغ رسالات ربه، وتلك وظيفة الرسل، وعلي الحساب والجزاء، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ في جهنم، وبئس المصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام الأدلة[1] على وحدانيته بخلق السماوات بغير عمد، وبإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم.. أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك، غير جاحدين له، وهذا يستدعي أن يكون الحمد كله له وحده، ومن يستحق الحمد هو الذي يستحق العبادة، فأمرهم عجب، يعلمون المقدمات، ثم ينكرون النتيجة التي تستتبعها، فيعبدون من لا يستحق عبادةً، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً من الأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرةً وباطنةً، وأن له ما في السماوات وما في الأرض.. أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لا حصر لها، ولا يعلمها إلا خالقها، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ولما كانت تلك النعم لا نهاية لها، وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها، وتصريف شؤونها كما يريد.. دفع هذا بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه سخر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض.. ذكر هنا بعض ما فيهما بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ...﴾ إلخ. وبعض ما في السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. وبعض ما في الأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ثم ذكر أن كل المشركين معترفون بتلك الآيات، إلا أن البصير يدركها على الفور، ومن في بصيرته ضعف لا يدركها إلا إذا وقع في شدة وأحدق به الخطر، فهو إذ ذاك يعترف بأن كل شيء بإرادة الله تعالى.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة، وأشكال متنوعة.. أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم، يوم يحكم الله بين عباده، يوم لا تنفع فيه قرابة، ولا تجدي فيه صلة رحم، فلو أراد والد أن يفدي ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك، وهكذا الابن مع أبيه، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة، ولا يغرنكم الشيطان فيزينن لكم بوساوسه المعاصي والآثام. ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه مما في الكائنات، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة، مما لم يؤت علمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله - ﷺ - عن الروح، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ...﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة.. أتاه أحبار اليهود فقالوا: ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال: «كلاً عنيت»، قالوا: فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله - ﷺ -: «هي في علم الله قليل»، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية:

---

(١) لباب النقول.

ما أخرجه[1] ابن المنذر عن عكرمة قال: إنَّ رجلاً يقال له: الوارث بن عمرو بن الحارث جاء إلى النبي - ﷺ - فقال: يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب بلادنا؟ وقد تركت أمرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأيّ أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت: ﴿ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - قال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾: ﴿من﴾: شرطية. ﴿أسلم﴾[2] إذا عدي بإلى.. يكون بمعنى سلم، وإذا عدي باللام.. تضمن معنى الإخلاص، والوجه: بمعنى الذات؛ أي: ومن يسلم نفسه إلى الله تسليم المتاع للعامل، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكليته إليه، ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ أي: موحد مخلص في عمله؛ أي: والحال أنه محسن في عمله، آتٍ به على الوجه اللائق، الذي هو حسنه الوصفي المستلزم لحسنه الذاتي، ولا يحصل ذلك غالباً إلا على مشاهدة، ولذا فسر النبي - ﷺ - الإحسان في حديث جبريل عليه السلام، «بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وجواب الشرط قوله: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾؛ أي: تعلق وأخذ ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ أي: بعروة الحبل المعلق في الهواء، المحكمة: تلك العروة الموثقة المأمونة من الانقطاع وسقوط من تمسك وتعلق بها، والاستمساك هنا بمعنى: الإمساك، والسين والتاء فيه زائدتان، وإمساك الشيء: التعلق به، كما سيأتي في مباحث اللغة، والعروة: ما يعلق به الشيء، والمراد بها: مقبض نحو الدلو والكوز، والوثقى: تأنيث الأوثق؛ أي: الوثيقة القوية التي يؤمن من تمسك وتعلق

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بها من السقوط.

والمعنى[1]: فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواه، وهو تمثيل لحال المتوكل على الله، المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه، بحيث لا يخاف انقطاعه.

وخلاصة المعنى[2]: أي ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع، مع الإحسان في العمل بفعل الطاعات، وترك المعاصي والمنكرات.. فقد تعلق بأوثق الأسباب التي توصل إلى رضوان ربه، ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح.

ثم بين العلة في أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى أحد غيره ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: عاقبة أمر المتوكل وأمر غيره، فيجازيه أحسن الجزاء.

والمعنى: أي إن مصير أمور الخلائق ومرجعها إلى الله سبحانه، لا إلى غيره، فلا يكون لأحد إذ ذاك أمر ولا نهي، ولا عقاب ولا ثواب، فيجازي المتوكل عليه أحسن الجزاء، ويعاقب المسيء أنكل العذاب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ مضارع أسلم من باب أفعل، وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار: ﴿يسلم﴾ بتشديد اللام مضارع سلم المضعف.

ثم سلى رسوله على ما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالله من قريش أو غيرهم ولم يسلم وجه لله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا ولا في الآخرة، يقال: أحزنه من المزيد، ويحزنه من الثلاثي، كما سيأتي في مبحث التصريف، ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد الموت؛ أي: رجوعهم للمجازاة، ومعنى الرجوع إلى الله سبحانه الرجوع إلي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

حيث لا مالك ولا حاكم سواه، وهو يوم القيامة، ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي؛ أي: نُخبرهم بقبائح أعمالهم، فنجازيهم عليها بالعذاب والعقاب، وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أن الإفراد في الموضعين باعتبار لفظه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما في القلوب من الخير والشر؛ أي[1]: بالضمائر والنيات المصاحبة بالصدر الذي هو محل القلب؛ أي: عليم بما تسره صدورهم، لا تخفى عليه من ذلك خافية، فالسر عنده كالعلانية، فيجازي عليها كما يجازي على الأعمال الظاهرة.

والمعنى: أن مصيرهم يوم القيامة إلينا، فنخبرهم بما عملوا في الدنيا من خبيث الأعمال، حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار، ثم نجازيهم على ذلك أشد العذاب، ثم بين أنه عادل في الجزاء لسعة علمه، وعظيم إحاطته بكل شيء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجازيهم بكل ما عملوا سراً وعلانيةً، إذ لا يخفى عليه خافية.

ثم بين أن ما يمتعون به في الدنيا عرض قليل، وظل زائل، لا ينبغي لعاقل أن يقيم له وزناً بجانب العذاب الدائم، فقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾؛ أي: نمتع الكافرين وننعمهم بمنافع الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول وإن كان بعد أمد طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل؛ أي: نبقيهم في الدنيا مدةً قليلةً، يستمتعون بها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾؛ أي[2]: نلجئهم ونردهم في الآخرة قهراً ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ، فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ، أو نضم إلى الإحراق الضغط والتضييق، وفي «التأويلات النجمية»: غلظة العذاب: عبارة عن دوامه إلى الأبد، انتهى. والغليظ ضد الرقيق كما سيأتي.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] نمهلهم في الدنيا زمناً قليلاً، يتمتعون فيه بزخارفها، ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على نفوسهم، ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: خلق الأجرام العلوية والسفلية ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب لك: خلقهن ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، لغاية وضوح الأمر، بحيث اضطروا إلى الاعتراف به، وفي هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبلغاً لا يستطيعون معه الإنكار والجحود، ولما استبان بذلك صدقه ـ ﷺ وكذبهم.. قال آمراً رسوله ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على اعترافهم بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به في العبادة التي لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده، أو المعنى: فقل الحمد لله على ما هدانا من دينه.

ثم بين أنهم بلغوا الغاية في الجهل فهم يعترفون بالشيء ويعملون نقيضه، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: بل أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ من له الحمد، وأين موضع الشكر، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك، أو لا يعلمون شيئاً من الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم بأن يتركوا الشرك، ويعبدوا الله وحده.

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال.. استدل على ذلك بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له سبحانه وتعالى لا لغيره جميع ما في السماوات والأرض، ملكاً وخلقاً وتصرفاً، وليس ذلك لأحد سواه، فلا يستحق العبادة غيره تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته وصفاته قبل خلق السماوات والأرض وبعده لا حاجة به في وجوده وكماله الذاتي إلى شيء أصلاً، وغني عن

(١) المراغي.

عبادتهم، لأنهم ملكه، وهم المحتاجون إليه، وكلمة[1] ﴿هو﴾ للحصر؛ أي: هو الغني وحده، وليس معه غني آخر، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود في ذاته وصفاته، وإن لم يكن له حامد.. فهو الحامد لنفسه، أو المحمود على نعمه التي أنعمها عليهم، وفي هذه الآيات أمور:

منها: أنّ التفويض والتوكل وإخلاص القصد والإعراض عما سوى الله تعالى، والإقبال على الله بالتوحيد والطاعة من موجبات حسن العاقبة، وهي الجنة والقربة والوصلة، كما أن الكفر والشرك والرياء والسمعة من أسباب سوء العاقبة، وهي النار والعذاب الغليظ، والفرقة والقطيعة، فالتمسك بأحكام الدين هي العروة الوثقى لأهل اليقين، فإنها لا تنفصم، بخلاف سائر العرى.

ومنها: أنّ ليس لعمر الدنيا بقاء، بل هي ساعة من الساعات، فعلى العاقل أن لا يغتر بالتمتع القليل، بل يتأهب لليوم الطويل.

ومنها: أنّ الله تعالى قدر المقادير، ودبر الأمور، فالكل يجري في الأفعال والأحوال على قضائه وقدره، وليس على الناصح إلا التبليغ دون الجبر والحزن على عدم القبول، فإن الحجر يصير مرآةً بالصيقل.

ومنها: أنّ عدم الجريان بموجب العلم من الجهل في الحقيقة.

ومنها: أنّ الله تعالى خلق الخلق ليربحوا عليه، لا ليربح عليهم، فمنفعة الطاعات والعبادات راجعة إلى العباد، لا إلى الله تعالى، إذ هو غني عن العالمين، لا ينتفع بطاعاتهم، ولا يتضرر بمعاصيهم، فهو يمن عليهم أن هداهم للإيمان والطاعات، وليس لهم أن يمنوا عليه بإسلامهم، جعلنا الله سبحانه وإياكم من عباده المخلصين، وحفظنا في حصنه الحصين، بمنه وكرمه وتوفيقه الرصين.

---

(١) روح البيان.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السماوات والأرض.. أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ أي: ولو أن جميع ما في الأرض من جنس شجرة أقلام يكتب بها، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ حال من الموصول، ووجد الشجرة لما تقرر في علم المعاني: أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرةٍ شجرةٍ حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة، إلا وقد بريت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير، بحيث تعد كل شجرة من الأشجار أقلاماً، قال أبو حيان: وهذا من وقوع المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة، كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾.

والمعنى: لو ثبت أن الأشجار كلها أقلام، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ أي[1]: والحال أن البحر المحيط بسعته، وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنقطعة، وهو بحر لا يعرف له ساحل، ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى، والبحار التي على وجه الأرض خلجان منه، وفي هذا البحر عرش إبليس ـ لعنه الله ـ وفي مدائن تطفو على وجه الماء، وأهلها من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض، وفي هذا البحر ينبت شجر المرجان، كسائر الأشجار في الأرض، وفيه من الجزائر المسكونة والخالية ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وهو؛ أي: ﴿البحر﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾؛ أي: يزيده وينصب فيه، من مد الدواة: جعلها ذات مداد وزاده فيها، فلذا أغنى عن ذكر المداد، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد نفاده وفنائه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أخرى، نحو بحر الصين، وبحر تُبَّت كَسُكَّر على ما في «القاموس»، وبحر الهند، وبحر السند، وبحر فارس، وبحر الشرق، وبحر الغرب، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون المراد: الأنهار السبعة من الفرات، ودجلة، وسيحان، وسيحون، وجيحان، وجيحون، والنيل، لأن البحر عند العرب الماء الكثير.

والمعنى: يمده الأبحر السبعة مداً لا ينقطع أبداً، وكتبت بتلك الأقلام

---

(١) روح البيان.

وبذلك المداد كلمات الله.

وجواب ﴿لو﴾ ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما فنيت كلماته التي هي عبارة عن معلوماته، بل نفذت تلك الأقلام وذلك المداد قبل نفاذها، وإيثار جمع القلة في الكلمات للإيذان بأن ما ذكر لا يفي بالقليل من كلمات الله، فكيف بالكثير منها.

قال أبو علي الفارسي: المراد[1] بالكلمات - والله أعلم - ما في المقدور، دون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفال، فقال: المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته.. لم تنفد تلك العجائب، قال القشيري: رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات، وحمل الآية على الكلام القديم أولى، وهو الظاهر من النظم القرآني.

وفي «التأويلات النجمية»: المعنى[2]: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، والبحر يصير مداداً، وبمقدار ما يقابله ينفق القرطاس، ويتكلف الكتاب، حتى تنكسر الأقلام، وتفنى البحار، وتستوفى القراطيس، ويفنى عمر الكتاب.. ما نفدت معاني كلام الله تعالى، لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية، ومعاني كلامه لا تتناهى، لأنها قديمة، والمحصور لا يفي بما لا حصر له، انتهى. وقد قصر من جعل الأرض قرطاساً.

وقال النحاس[3]: قد تبين أن الكلمات هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق.

والمعنى عليه[4]: أي ولو أن أفنان الأشجار وأغصانها بريت أقلاماً وجُعل

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

البحر مداداً، وأمدته سبعة أبحر، والخلائق جميعاً يكتبون بها كلمات الله وعجائب صنعه الدالة على عظمته وجلاله.. لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولم تنفد كلمات الله تعالى، وعجائب صنعه، ونحو الآية قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾.

وإنما ذكر السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة، لا لقصد هذا العدد بعينه، وقد تقرر أن العرب تذكر السبعة والسبعين والسبع مئة، وتريد بذلك الكثرة، كما جاء في الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله» وفي الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾. كحديث «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر في سبعة أمعاء».

ولما كان لفظ سبعة ليس موضوعاً في الأصل للتكثير، وإن كان مراداً به التكثير.. جاء مميزه بلفظ القلة، وهو أبحر، ولم يقل بحور، وإن كان لا يراد به أيضاً إلا التكثير ليناسب بين اللفظين، فكما يجوز في سبعة واستعمل للتكثير، كذلك يجوز في أبحر واستعمل للتكثير، ذكره أبو حيان.

وقصارى ذلك: أنه سبحانه أخبر أن عظمته وكبرياءه وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد، ولا يصل البشر إلى معرفة كنهها وعدها، كما ورد في الحديث: «سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، و﴿يَمُدُّهُۥ﴾: خبره، والجملة: في محل الحال، وقال المبرد: مرتفع بفعل مقدر؛ أي: ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر، وقيل: مرتفع بالعطف على ﴿أن﴾ وما في حيزها، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق(٢): ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفاً على اسم ﴿أن﴾ أو بفعل مضمر يفسره ﴿يمده﴾. وقرأ عبد الله: ﴿وبحر يمده﴾ بالتنكير وبالرفع، والواو للحال، أو للعطف على ما تقدم، وإن كانت الواو للحال.. كان

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) البحر المحيط.

﴿بحر﴾: مبتدأ، وهو نكرة، وذكروا في مسوغات الابتداء بالنكرة: تقدم واو الحال عليها، كقوله:

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا مُحَيَّاكَ أَخْفَىٰ ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقِ

وقرأ الجمهور: ﴿يمده﴾ بالياء من مد الثلاثي، وابن مسعود وابن عباس: بتاء التأنيث، من مد أيضاً، وقرأ عبد الله أيضاً والحسن وابن مطرف وابن هرمز: بالياء من تحت، من أمد الرباعي، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿والبحر مداده﴾؛ أي: يكتب به من السواد، وقال ابن عطية: هو مصدر. انتهى.

وقال أبو حيان: وفي الكلام جملة محذوفة يدل عليها المعنى، تقديرها: وكتب بها الكتّاب كلمات الله ما نفذت.

والمعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله.. ما نفدت، ونفدت الأقلام والمداد الذي في البحر وما يمده. انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يعجزه شيء، قد عز كل شيء وقهره، فلا مانع لما أراد، ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه، لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفد كلماته المؤسسة عليها.

فائدة: وقال بعضهم[(١)]: وخاصية الاسم العزيز: وجود الغنى والعز صورةً ومعنىً، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أغناه الله وأعزه، فلم يحوجه إلى أحد من خلقه، وخاصية الاسم الحكيم: دفع الدواهي وفتح باب الحكمة، من أكثر ذكره.. صرف عنه ما يخشاه من الدواهي وفتح له باباً من الحكمة. انتهى.

ثم أبان أن هذا الخلق الذي لا حصر له محيط به علماً، ولا يعجزه شيء

---

(١) روح البيان.

فيه متى أراد، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ قال مقاتل وقتادة: إن كفار قريش قالوا: إن الله خلقنا أطواراً: نطفةً، علقةً، مضغةً لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟ فأنزل هذه الآية، وقال: ما خلقكم على الله يا أهل مكة إذ خلقكم ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾؛ أي: إحياؤكم وإخراجكم من القبور إذ يبعثكم ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أي: إلا كخلق نفس واحدة وبعثها في سهولة الحصول، فالكل هين عليه، إذ لا يشغله شأن عن شأن، لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته وقدرته، قلوا أو كثروا، ويقول كن فيكون، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾. وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ ومثاله في الدنيا: أن السلطان يضرب النقارة عند الرحيل فيتهيأ الكل في ساعةٍ واحدةٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع فيدخل فيه ما قالوا في أمر الخلق والبعث، مما يتعلق بالإنكار والاستبعاد، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر، لا يشغله علم بعضها عن بعض، فكذا الخلق والبعث، وقال بعضهم: بصير بأحوال الأحياء والأموات، والخطاب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكل أحد يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ؛ أي: ألم تعلم يا من يصلح للخطاب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل بقدرته وحكمته ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل الليل في النهار، ويضيفه إليه بأن يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار صيفاً بحسب مطالع الشمس ومغاربها، يعني: يصير النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.

قال عبد الله بن سلام(١): أخبرني يا محمد عن الليل: لم سمي ليلاً؟ قال: «لأنه منال الرجال من النساء، جعله الله ألفةً ومسكناً ولباساً» قال: صدقت يا محمد، ولم سمي النهار نهاراً؟ قال: «لأنه محل طلب الخلق لمعايشهم، ووقت سعيهم واكتسابهم» قال: صدقت.

---

(١) روح البيان.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: يدخله فيه، ويضم بعض أجزائه إليه، بأن يزيد من ساعات النهار في ساعات الليل شتاءً بحسب المطالع والمغارب، فيصير الليل خمس عشرة ساعة، والنهار تسع ساعات.

أي: ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك: أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار، ويزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل.

والخلاصة: أنه يأخذ من الليل في النهار، فيقصر ذلك ويطول هذا، وذاك في مدة الصيف، إذ يطول النهار إلى الغاية، ثم يبتدىء النهار في النقصان، ويطول الليل إلى الغاية في مدة الشتاء.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم؛ أي: ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول، تقديراً للآجال، وتتميماً للمنافع، والجملة: معطوفة على ﴿يُولِجُ﴾ والاختلاف بينهما صيغةً، لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر أمر متجدد في كل حين، وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد، وإنما التعدد والتجدد في آثاره، وقد أشير إلى ذلك حيث قيل: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِيٓ﴾ بحسب حركته الخاصة القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام، جرياً مستمراً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى وقت معلوم، وأجل محدد، قدره الله تعالى لجريهما، إذا بلغه كورت الشمس والقمر، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسن، فإنهما لا ينقطع جريهما إلا حينئذٍ، وذلك لأنه تموت الملائكة الموكلون عليهما، فيبقى كل منهما خالياً كبدنٍ بلا روح، ويطمس نورهما، فيلقيا في جهنم، ليظهر لعبدة الشمس والقمر والنار أنها ليست بآلهة، ولو كانت آلهةً.. لدفعت عن أنفسها، فالجملة معترضة بين المتعاطفين، أعني: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ إلخ. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ مسوقة لبيان الواقع بطريق الاستطراد، هذا وقد جعل جريانهما عبارةً عن حركتهما الخاصة بهما في فلكهما، والأجل المسمى عبارة عن منتهى دورتهما، وجعل مدة الجريان للشمس سنةً، وللقمر شهراً، فالجملة حينئذٍ: بيان لحكم تسخيرهما، وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر، وكون ذلك

بحسب انقلاب جريان الشمس والقمر على مداراتهما اليومية.

فإن قلت[1]: لم قال هنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بلفظ ﴿إِلَىٰٓ﴾، وقال في فاطر والزمر بلفظ (اللام) حيث قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قلت: لأن ما هنا وقع بين جملتين دالّتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق، وهما قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ الآية، فناسب ذكر (إلى) الدالة على الانتهاء.

والمعنى: لا يزال كل من الشمس والقمر جارياً، حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، وما في فاطر والزمر خالٍ عن ذلك، إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهاء به، وما في الزمر ذكر مع ابتداءٍ به فناسب ذكر اللام المعدية.

والمعنى: يجري كل مما ذكر لبلوغ أجلٍ.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بكنهه، معطوف على ﴿أن الله يولج الليل﴾ إلخ، داخل معه في حيز الرؤية، فإن من شاهد ذلك الصنع الرائق، والتدبير اللائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها؛ أي: وأن الله سبحانه بأعمالكم من خير أو شر خبير بها، مطلع عليها، لا تخفى عليه خافية من أمرها، وهو مجازيكم بها.

قرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب، وقرأ السلمي ونصر بن عامر وعياش الدوري عن أبي عمرو: ﴿بما يعملون﴾ بياء الغيبة.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره، و(الباء) في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: للسببية؛ أي: ذلك المذكور من سعة العلم، وشمول القدرة، وعجائب الصنع، واختصاص الباري بها كائن بسبب أن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلهيته فقط الثابت وجوده، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾؛ أي: يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى من الأصنام

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الشوكاني.

﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إلهيته، لا يقدر على شيء من ذلك، فليس في عبادته نفع أصلاً، والتصريح[1] بالبطلان، مع أن الدلالة على اختصاص حقية إلهيته به تعالى، مستتبعة للدلالة على بطلان إلٰهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد؛ أي: وبسبب ظهور بطلان إلٰهيته ما يعبدونه من غيره تعالى.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص[2]: ﴿يَدْعُونَ﴾ بياء الغيبة، وغيرهم ﴿تدعون﴾ بالفوقية، وقال هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وفي الحج ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بزيادة هو لمقام التأكيد.

والمعنى: أي إنما يظهر الله آياته للناس، ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة، وأن كل ما سواه هو الباطل، الذي يضمحل ويفنى، فهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿وَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ في صفاته ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته؛ أي: وأنه تعالى المرتفع على كل شيء، والمتسلط على كل شيء، فكل شيء خاضع له تعالى، وهو الحكم العدل، اللطيف الخبير، وهذه الجملة معطوفةٌ أيضاً على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

والمعنى[3]: ذلك الصنع البديع، الذي وصفه في الآيات المتقدمة للاستدلال بها على حقية الله تعالى، وبطلان ما سواه، وعلوه وكبريائه بسبب أنه تعالى، وهو العلي، في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه.

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته تعالى، أشار إلى آيةٍ أرضيةٍ بجامع ما اشتركا فيه من الجريان، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية عيانيةً أيها الذي من شأنه الرؤية والمشاهدة ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿تَجْرِي﴾ وتسير ﴿فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي[4]: بإحسانه ورحمته، أو بالريح لأن الريح من نعم الله تعالى فالباء متعلقة بـ﴿تَجْرِي﴾ أو بمحذوف حال من فاعله؛ أي: متلبسةً بنعمته تعالى، وإحسانه في تهيئة أسبابه، وفي «الأسئلة المقحمة»: تجري برحمة الله،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.
(٤) النسفي.

حيث جعل الماء مركباً لكم لتقريب المزار. ا هـ؛ أي: تجري في البحر بلطفه بكم، وبرحمته لكم، وذلك من أعظم نعمة عليكم، لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق.

وقرأ الجمهور: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ على الإفراد اللفظي، وقرأ[1] الأعرج والأعمش وابن يعمر: ﴿بنعمات الله﴾ بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح النون وكسر العين بالألف والتاء، وقال أبو حيان: والباء تحتمل السببية؛ أي: تجري بسبب الريح، وتسخير الله تعالى، وتحتمل الحالية؛ أي: مصحوبةً بنعمة الله، وهي ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات. انتهى.

وقال ابن عطية: الباء للإلصاق. انتهى. وقرأ موسى بن الزبير: ﴿الفلك﴾ بضم اللام، ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ من للتبعيض[2]؛ أي: ليريكم بعض دلائل قدرته وعجائب صنعه، قال يحيى بن سلام: وهو جري السفك في البحر بالريح، وقال ابن شجرة: المراد بقوله: ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ ما يشاهدونه من قدرة الله تعالى، وقال النقاش: ما يرزقهم الله في البحر.

والمعنى: أي ألم تشاهد أيها الرسول السفن وهي تسير في البحر حاملة للأقوات والمتاع من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر هو في حاجة إليها، لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس في أيديهم، وفي هذا دليل على عجيب قدرته، التي ترشدكم إلى أنه الحق الذي أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء، الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها.

ثم ذكر من يستفيد من النظر في الآيات، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر الفلك والبحر ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ عظيمة في ذاتها، كثيرة في عددها، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: مبالغ في الصبر على المشاق، فيتعب نفسه في التفكر في الأنفس والآفاق ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الشكر على نعمائه، فبعث نفسه في التفكر في

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

عدم غرقه، وفي سيره إلى البلاد الشاسعة والأقطار البعيدة، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً تارة بريحين، وتارة بريح واحدة، وفي إنجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه، وإغراق غيرهم من جميع أهل الأرض، وفي غير ذلك من شؤونه وأموره. ا هـ. «خطيب».

وهما صفتا المؤمن، فكأنه قيل: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن؛ أي: إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار في الضراء، شكور في الرخاء. قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾. وقال ـ ﷺ ـ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

ثم بين أن المشركين ينسون الله تعالى في السراء، ويلجؤون إليه حين الضراء، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ يقال: غشيه: إذا ستره وعلاه، والضمير لمن ركب البحر مطلقاً، أو لأهل الكفر، ففيه التفات من ضمير الخطاب في ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿غَشِيَهُمْ﴾؛ أي: وإذا علاهم وأحاط بهم ﴿موج﴾: هو ما ارتفع من الماء ﴿كَالظُّلَلِ﴾؛ أي: كالجبال، أو كالسحاب في الارتفاع.

وقرأ محمد بن الحنفية: ﴿كالظلال﴾: جمع ظله، كقلال وقلة، شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما، وإنما شبه[1] الموج وهو مفرد بالظلل وهي جمع، لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً، وقيل: إن الموج في معنى الجمع، لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة والازدحام، ومنه يقال: ماج الماء: إذا تحرك، وماج الناس: إذا ازدحموا.

﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ وحده حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء والاستغاثة، لا يذكرون معه غيره، ولا يستغيثون بغيره، ولا يعولون على غيره في خلاصهم، لأنهم يعلمون أنه لا ينفع ولا يضر سواه، لزوال ما ينازع الفطرة من

(١) الشوكاني.

الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد، والإخلاص: إفراد الشيء من الشوائب.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى من البحر ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وجاد تحقيق مناهم بسبب إخلاصهم في الدعاء صاروا على قمسين ﴿فـ﴾ قسم ﴿مقتصد﴾؛ أي: آخذ بالطريق القصد، ومتمسك بالدين المستقيم، وهو التوحيد والطاعة لله سبحانه فيما أمر ونهى، قاله الحسن: وقيل؛ أي: موف بما عاهد عليه الله في البحر، من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالماً.

وقسم كافر جاحد، ففي الكلام حذف، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بدلائل قدرتنا التي منها إنجاء هؤلاء من البحر، والقرآن الذي أنزل على محمد ـ ﷺ ـ؛ أي: ما ينكر بحقيتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار نقاض للعهد؛ أي: كثير الختر والغدر لما عاهد على نفسه. ﴿كَفُورٍ﴾؛ أي: كثير الكفران لنعم الله تعالى، وإنما(١) يطلق هذا اللفظ على من صار الكفر عادةً ديدناً له، كما يقال: ظلوم، لمن كان الظلم عادةً له.

وختم هذه الآية بصيغتي مبالغة اللتين هما(٢): ﴿خَتَّارٍ﴾ و﴿كَفُورٍ﴾ ليكونا في مقابلة ما ختم به الآية التي قبلها، وهما: ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ فتوازنت الكلمات الأربع لفظاً ومعنىً، أما توازنها لفظاً فظاهر، وأما معنىً، فالختار: هو الغدار، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر، فإن الصبار يفوض أمره إلى الله تعالى وأما الغدار: فيعهد ويغدر فلا يصبر على العهد،وأما الكفور: فمقابلته معنىً للشكور واضحةٌ.

ومعنى الآية(٣): أي وإذا أحاطت بهؤلاء المشركين الذين يدعون من دون الله تعالى الآلهة والأصنام الأمواج العالية كالجبال، وأحدق بهم الخطر من كل

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط بتصرف.
(٣) المراغي.

جانب، حين يركبون السفن.. فزعوا بالدعاء إلى الله تعالى، مخلصين له الطاعة، لا يشركون به شيئاً، ولا يدعون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره، فلما نجوا من الأهوال التي كانوا فيها، وخلصوا إلى البر.. فمنهم متوسط في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء، موفٍ بما عاهد عليه الله في البحر، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة، وكفر بأنعم الله عليه.

ولما ذكر[1] الله تعالى الدلائل على الوحدانية والحشر من أول السورة إلى هنا.. أمر بالتقوى على سبيل الموعظة، والتذكير بهذا اليوم العظيم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء[2] عام لكافة المكلفين، وأصله لكفار مكة ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم بنعمه في جميع أطواركم، بقبول التوحيد، وامتثال المأمورات، والتبري من الكفر، واجتناب المنهيات؛ أي: اجعلوا التقوى وقايةً وستراً لكم من عذاب ربكم.

قال بعضهم: مرةً يخوفهم بأفعاله فيقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ﴿وَٱخْشَوْا۟﴾ الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى به ﴿يَوْمًا﴾، قال في «التيسير»: يجوز أن يكون على ظاهره، لأن يوم القيامة مخوف، وأن يكون على تقدير مضاف؛ أي: وخافوا عذاب يوم ﴿لَّا يَجْزِى﴾؛ أي: لا يدفع فيه، ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ شيئاً من العذاب، أو لا يقضي عنه شيئاً من الحقوق، أو لا يحمل والد عن ولده شيئاً من سيئاته، ولا يعطيه شيئاً من طاعته، يقال: جزاه دينه، إذا قضاه عنه.

والمعنى: أي لا يغني الوالد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَّا يَجْزِى﴾ بفتح الياء مضارع جزي الثلاثي، وقرأ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

عكرمة: بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول، وأبو السماك وعامر بن عبد الله وأبو السوار: ﴿لا يجزىء﴾ بضم الياء وكسر الزاي مهموزاً، ومعناه: لا يغني، يقال أجزأت عنه جزاء فلان؛ أي: أغنيت.

والولد[1] ولو كان يقع على القريب والبعيد؛ أي: ولد الولد، لكن الإضافة تشير إلى الصلبي القريب، فإذا لم يدفع عما هو ألصق به.. لم يقدر أن يدفع عن غيره بالطريق الأولى، ففيه قطع لأطماع أهل الغرور، والمفتخرين بالآباء والأجداد، المعتمدين على شفاعتهم من غير أن يكون بينهم جهة جامعة، من الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ للشخص بلا واسطة، فلا يطلق إلا على ولد الصلب، بخلاف الولد فإنه يطلق على ولد الولد كما في «الكشاف»، ﴿هُوَ جَازٍ﴾؛ أي: دافع أو قاض أو حامل ﴿عَن وَالِدِهِۦ﴾ بلا واسطة ﴿شَيْـًٔا﴾ من العذاب أو من الحقوق أو من الذنوب، وخص الولد والوالد بالذكر تنبيهاً على غيرهما، والمولود: خاص بالصلبي الأقرب كما مر، فإذا لم يقبل شفاعته للأب الأول الذي ولد منه.. لم يقبل لمن فوقه من الأجداد، وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، ولقطع طمع من توقع من المؤمنين: أيشفع أباه الكافر في الآخرة، ولذا قالوا: إن هذا الخبر خاص بالكفار، فإن أولاد المؤمنين وآباءهم ينفع بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: بشرط الإيمان.

قيل معنى هذا الكلام[2]: أن الله سبحانه ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة، وهما الوالد والولد، فنبه بالأعلى على الأدنى، وبالأدنى على الأعلى، فالوالد يجزي عن ولده لكمال شفقته عليه، والولد يجزي عن والده لما له من حق التربية وغيرها، فإذا كان يوم القيامة.. فكل إنسان يقول: نفسي نفسي، ولا يهتم بقريب ولا بعيد، كما قال ابن عباس: كل امرىء تهمه نفسه.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

ومعنى الآية: أي[1] يا أيها المشركون من قريش وغيرهم، اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه، في يوم لا يغني والد عن ولده، ولا مولود هو مغن عن والده شيئاً، لأن الأمور كلها بيد من لا يغالب، ومن لا تنفع عنده الشفاعة، ولا الوسائل التي تنفع في الدنيا، بل لا تجدي عنده إلا وسيلة واحدة، هي العمل الصالح الذي قدمه المرء في حياته الأولى.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بالحشر والجنة والنار والثواب والعقاب، والوعد: يكون في الخير والشر، بخلاف الوعيد، فإنه في الشر خاصة، كما سيأتي. ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: ثابت كائن لا محالة، ولا خلف فيه؛ أي: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حق، لأن الله سبحانه قد وعد به، ولا خلف لوعده.

ثم حذرهم من شيئين فقال:

١ - ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عن الآخرة، والمراد بالحياة الدنيا: زينتها وزخارفها وآمالها؛ أي: إذا عرفتم ما ذكروا وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: لا تخدعنكم زينة هذه الحياة القريبة الزوال ولذاتها عن الحياة الأخروية الأبدية، فتميلوا إليها، وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله في ذلك اليوم، وفي «التأويلات النجمية»: فلا تغرنكم بسلامتكم في الحال، وعن قريبٍ ستندمون في المآل. انتهى.

٢ - ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ أي: لا يخدعنكم ﴿بِٱللَّهِ﴾ بإطماعكم في سعة رحمة الله وعظيم حلمه وعفوه الشيطان ﴿ٱلْغَرُورُ﴾؛ أي: المبالغ في الغرور والخداع، بأن يرجيكم التوبة والمغفرة، فيجسركم على ارتكاب المعاصي، وينسيكم الرجوع إلى القبور، ويحملكم على الغفلة عن أحوال القيامة وأهوالها، فلا تتخذوا لها زاداً.

قال في «كشف الأسرار»[2]: الغرة بالله: حسن الظن به مع سوء العمل، وفي الخبر: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

هواها وتمنى على الله المغفرة»، ونعم ما قيل:

إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

فلا بد من الأعمال الصالحة، فإن بها النجاة، وبها يلتحق الأواخر الأوائل.

ففي الآية حسم لمادة الطمع في الانتفاع بالغير من إهمال الإسلام أو الطاعات، اعتماداً على صلاح الغير، فإن يوم القيامة يوم عظيم، لا ينفع فيه من له اتصال الولادة، فما ظنك بما سواها، ويشتغل كل أحد بنفسه، إلا من رحمة الله تعالى، وعن كعب الأحبار: تقول امرأة من هذه الأمة لولدها يوم القيامة يا ولدي، أما كان لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وثديي سقاءً، فاحمل عني واحداً فقد أثقلتني ذنوبي، فيقول: هيهات يا أماه، كل نفس بما كسبت رهينة، فإذا حملت عنك فمن يحمل عني.

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة ويعقوب: ﴿فلا تغرنكم﴾ بالنون الخفيفة وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة ﴿الغرور﴾ بالضم، وهو مصدر، والجمهور: بالفتح، صيغة مبالغة، ويمكن حمل قراءة الضم عليه مبالغة في جعل الشيطان نفس المصدر، على حد زيد عدل.

فائدة: قال بعضهم[1]: لا ينبغي للمؤمن أن يتطير ويعد نفسه من الأشقياء، فيتكاسل في العمل، بل ينبغي له أن يحسن الظن بالله تعالى، ويجاهد في طريقه، فإن للاعتقاد تأثيراً بليغاً، وقد وعد الله سبحانه، ووعد الشيطان، ووعد الله تعالى صدق محض، لأنه هو الولي، ووعد الشيطان كذب محض، لأنه هو العدو، فالإصغاء لكلام الولي خير من استماع كلام العدو، فلا تغتر بتغرير الشيطان والنفس، ولا بالحياة الدنيا، فإن دولتها ذاهبة، وزينتها زائلة، وليس لها لأحدٍ وفاء.

---

(١) روح البيان.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يختم لنا على أفضل الأعمال، الذي هو التوحيد، وذكر رب العرش المجيد، ويجعلنا في جنات تجري من تحتها الأنهار، ويشرفنا بجوار المصطفى المختار، مع آله الأخيار، وصحابته الأبرار، عليه وعليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء، لا يعلمها إلا هو، فقال:

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ﴾ وقت قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: لا عند غيره، قال الفراء[١]: إن معنى هذا الكلام النفي؛ أي: ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل، والساعة: جزء من أجزاء الجديدين، سميت بها القيامة، لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا؛ أي: عنده تعالى علم وقت قيام الساعة، وما يتبعه من الأحوال والأهوال، وهو متفرد بعلمه، فلا يعلمه أحد سواه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا يدري أحد من الناس في أي سنة، وفي أي شهر، وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار تقوم القيامة.

٢ - ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في وقته المقدر له، ومكانه المعين في علمه تعالى، والفلكيون[٢] وإن علموا الخسوف والكسوف ونزول الأمطار بالأدلة، فليس ذلك غيباً، بل بأمارات وأدلةٍ تدخل في مقدور الإنسان، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحياناً في مرتبة الظن، لا في مرتبة اليقين.

وهذه الجملة: معطوفة على ما يقتضيه الظرف في قوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من الفعل، تقديره: إن الله سبحانه يثبت عنده علم الساعة، وينزل الغيث، كما في «المدارك»، وهذا من[٣] حيث ظاهر التركيب، وأما من حيث المعنى فهو معطوف على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ فيكون العلم مسلطاً عليه؛ أي: وعنده علم وقت نزول الغيث، وسمي المطر غيثاً، لأنه غياث الخلق، به رزقهم، وعليه بقاؤهم فالغيث مخصوص بالمطر النافع.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

والمعنى[1]: أي وينزل الغيث في زمانه الذي قدره من غير تقديم ولا تأخير إلى محله الذي عينه في علمه، من غير خطأ، وَلا تبديل، فهو منفرد بعلم زمانه ومكانه وعدد قطراته، روي مرفوعاً: «ما من ساعة من ليل، ولا نهار، إلا السماء تمطر فيها، يصرفه الله حيث يشاء»، وفي الحديث: «ما سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي.. حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً.. صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار». فمن أراد استجلاب الرحمة.. فعليه بالتوبة والندامة والتضرع إلى قاضي الحاجات بأخلص المناجاة.

قرأ الجمهور: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ مشدداً، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: مخففاً.

٣ ـ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ما في أرحام النساء من الجنين؛ أي: يعلم ذاته، أذكر أم أنثى، حي أم ميت، وصفاته، أتام الخلق أن ناقصة، حسن أم قبيح، أحمر أم أسود، سعيد أم شقي؛ أي: يعلم أوصافه في حالة كونه نطفةً قبل تمام خلقه، وما يعرفه الناس الآن بالعلم الحديث، فبعد تمام خلقه، والأرحام: جمع رحم: بيت منبت الولد ووعاؤه.

٤ ـ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ من النفوس وما تعرف ﴿ماذا﴾؛ أي: أيّ شيء ﴿تَكْسِبُ﴾ وتفعل ﴿غَدًا﴾؛ أي: يوماً تالياً ليومها الذي هي فيها؛ أي: لا يعرف[2] أحد من الناس ماذا يفعل غداً، وماذا يحصل له فيه من خير أو شر، ووفاق وشقاق، وربما يعزم على خير فيفعل الشر وبالعكس، وإذا لم يكن للإنسان طريق إلى معرفة ما هو أخص به من كسبه، وإن أعمل حيله، وأنفذ فيها وسعه.. كان من معرفة ما عداه، مما لم ينصب له دليل عليه أبعد، وكذا إذا لم يعلم ما في الغد مع قربه فما يكون بعده لا يعلمه بطريق الأولى.

والمعنى: أي وما تدري نفس من النفوس كائنةً ما كانت، من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس، ماذا تكسب غداً من كسب دين أو كسب دنيا.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

٥ - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ من النفوس وإن أعملت حيلها ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ ومكان ﴿تَمُوتُ﴾؛ أي: لا تدري أين مضجعها من الأرض، أفي بحر أم في بر أم في سهل أم في جبل، كما لا تدري في أي وقت تموت، وإن كانت تدري أنها تموت في الأرض في وقت من الأوقات، وربما أقامت بمكان ناوية أن لا تفارقه إلى أن تدفن به، ثم تدفن في مكان لم يخطر لها ببال قط، ومن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن، لأنه خالفه.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾، وقرأ أبي بن كعب وموسى الأهوازي وابن أبي عبلة: ﴿بأية أرض﴾ بتاء التأنيث لإضافتها إلى المؤنث، وجوز الفراء ذلك، وهي لغة ضعيفة قليلة.

فإن قلت[٢]: لم قال تعالى: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ولم يقل: بأي وقت تموت، مع أن كلاً منهما غير معلوم لغيره تعالى، بل نفي العلم بالزمان أولى، لأن من الناس من يدعي علمه بخلاف المكان؟

قلت: إنما خص المكان بنفي علمه، لأن الكون في مكان دون مكان في وسع الإنسان واختياره، فاعتقاده علم مكان موته أقرب، بخلاف الزمان، ولأن للمكان دون الزمان تأثيراً في جلب الصحة والسقم، أو تأثيره فيهما أكثر.

تنبيه[٣]: أضاف في الآية العلم إلى نفسه في الثلاثة الأولى من الخمسة المذكورة، ونفى العلم عن العباد في الأخيرتين منها، مع أن الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها، وانتفاء علم العباد بها، لأن الثلاثة الأولى أمرها أعظم وأفخم، فخصت بالإضافة إليه تعالى، والأخيرتان من صفات العباد، فخصتا بالإضافة إليهم، مع أنه إذا انتفى عنهم علمهما.. كان انتفاء علم ما عداهما من الخمسة أولى. ا هـ. «كرخي».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال خرج علينا رسول الله - ﷺ - يطوف

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) الفتوحات.

ببعض نواحي المدينة، فإذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه، فقال: «لمن هذا»: قيل لرجل من الحبشة، فقال: «لا إله إلا الله، سيق من أرضه وسمائه، حتى دفن في الأرض التي خلق منها، تقول الأرض يوم القيامة: يا رب هذا ما استودعتني» وأنشدوا:

إِذَا مَا حَمَامُ ٱلْمَرْءِ كَانَ بِبَلْدَةٍ دَعَتْهُ إِلَيْهَا حَاجَةٌ فَيَطِيرُ

وفي قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ تنبيه العبد على التيقظ للموت، والاستعداد له بحسن الطاعة، والخروج عن المظلمة، وقضاء الدين، وإثبات الوصية بماله وما عليه في الحضر، فضلاً عن أوان الخروج عن وطنه إلى سفر، فإنه لا يدري أين كتبت منيته من بقاع الأرض، وأنشد بعضهم:

مَشَيْنَا فِيْ خُطَىً كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَىً مَشَاهَا
وَأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَرِّقَاتٌ فَمَنْ لَمْ تَأْتِهِ مِنَّا أَتَاهَا
وَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوْتُ فِيْ أَرْضٍ سِوَاهَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها، هذه الخمسة وغيرها، ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

فإن قلت: لم عد هذه الخمسة المذكورة في الآية فقط، مع أن كل المغيبات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى؟

قلت: خصها لما أن السؤال عنها ورد كما سبق في سبب النزول، وكان أهل الجاهلية يسألون المنجمين عن هذه الخمسة، زاعمين أنهم يعرفونها، وتصديق الكاهن فيما يخبره من الغيب كفر، لقوله - ﷺ -: «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول.. فقد كفر بما أنزل الله على محمد». والكاهن: هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، وكان في العرب كهنة يدعون معرفة الأمور، فمنهم من يزعم أن له رئياً من الجن يلقى إليه الأخبار.

وفي الحديث: «من سأل عرافاً.. لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». والعراف: من يخبر عن المسروق ومكان الضالة، والمراد: من سأله على وجه

التصديق لخبره، وتعظيم المسؤول، يعني إذا اعتقد أنه ملهم من الله، أو أن الجن يلقون إليه مما يسمعون من الملائكة.. فصدقه فهو حرام، وإذا اعتقد أنه عالم بالغيب.. فهو كفر، كما في حديث الكاهن، وأما إذا سأل ليمتحن حاله، ويخبر باطن أمره، وعنده ما يميز به صدقه من كذبه.. فهو جائز، فعلم أن الغيب مختص بالله تعالى، لا يعلمه أحد من المخلوقات، إلا أن علم بعضهم بعضه باطلاع الله تعالى، إياه عليه، كالأنبياء.

الإعراب

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُسْلِمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾: مفعول به، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُسْلِمْ﴾، و﴿يُسْلِمْ﴾ يتعدى باللام، ولكنه عدي هنا بإلى ليكون معناه أنه سلم نفسه إليه، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد به: التوكل والتفويض إليه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿الواو﴾ فيه: حالية، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿يُسْلِمْ﴾. ﴿فَقَدِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ صفة لـ﴿العروة﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أو مستأنفة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو اعتراضية، ﴿إلى الله﴾: خبر مقدم، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، أو معترضة.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَحْزُنكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾: فاعل، والجملة: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على سابقتها. ﴿إِلَيْنَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ننبئهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، كأنه قيل: إلينا يرجعون فننبئهم بما عملوا، ﴿عَمِلُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلِيمُۢ﴾: خبره، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق بـ﴿عليمٌ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: مستأنفة، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾، ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾، ﴿غَلِيظٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾. ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّنْ﴾ الموصولة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: واقعة في جواب القسم، مؤكدة للأولى،

﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، لأن أصله ليقولونن، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، أو مبتدأ، خبره، محذوف؛ أي: الله خالقها، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه: مستأنفة، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ يقولون: الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مقول لـ﴿قُلِ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الإضرابية: مستأنفة.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: خبره الأول، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أن﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: حال من ﴿ما﴾، أو من ضمير الاستقرار، ﴿أَقْلَٰمٌ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: من اسمها وخبرها في تأويل مصدر فاعل لفعل محذوف وقع فعل شرط لـ﴿لو﴾ تقديره: ولو ثبت كون ما في

الأرض من شجرة أقلاماً، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿البحر﴾: مبتدأ، ﴿يَمُدُّهُۥ﴾: فعل ومفعول به، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: فاعل لـ﴿يَمُدُّهُۥ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿ما﴾ الموصولة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. والرابط: ﴿الواو﴾: أو ضمير محذوف، تقديره: والحال أن بحرها؛ أي: بحر الأرض يمده سبعة أبحر من بعده. ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبره الأول، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبره الثاني، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، ﴿خَلْقُكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلْقُكُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة الاستثناء مفرغ، ﴿كَنَفْسٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة ﴿نفس﴾، والجملة الاسمية: مسأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌ﴾: خبره الأول، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره الثاني، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ﴿يُولِجُ﴾. والجملة الفلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تر﴾. وجملة قوله: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سخر﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ مفعول به ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُولِجُ﴾ على كونها خبر لـ﴿أن﴾، وسيأتي لك بيان حكمة المخالفة بين صيغتي المتعاطفين في مبحث البلاغة. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿يَجْرِىٓ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿يَجْرِىٓ﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أجل﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: جار ومجرور وخبره، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿أن﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبرها. وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كون الله تعالى هو الحق، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: وأن ما يدعونه، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، وجملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: معطوفة عليها أيضاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾:

فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والجملة الفعلية: مستأنفة، ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾، ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: حالة كونها مصحوبة بنعمة الله أو متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾ أيضاً؛ أي: بسبب الريح التي هي النعمة، وجملة ﴿تَجْرِي﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾. ﴿لِيُرِيَكُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يريكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول، لأن رأى هنا بصرية تعدت إلى المفعولين بهمزة النقل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني ﴿لِيُرِيَكُم﴾، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لاراءَته إياكم بعض آياته، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إن﴾، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿لِّكُلِّ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لَأَيَٰتٍ﴾، ﴿صَبَّارٍ﴾: مضاف إليه ﴿لِّكُلِّ﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة لـ﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أو مستأنفة، ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مَّوْجٌ﴾. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من الواو في ﴿دَعَوُا۟﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخْلِصِينَ﴾، لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: اسم

شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بجوابه، ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة، وجواب ﴿لما﴾: محذوف، تقديره: صاروا قسمين، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفصيلية، ﴿منهم﴾ خبر مقدم، ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: فقسم مقتصد كائن منهم، والجملة الاسمية: معطوفة على جواب ﴿لما﴾ المحذوف على كونها تفصيلاً له، ومقابل قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: محذوف دل عليه ما بعده، تقديره: ومنهم جاحد كافر. ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَجْحَدُ﴾: فعل مضارع، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَجْحَدُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾: فاعل ﴿يَجْحَدُ﴾، ﴿كَفُورٍ﴾: صفة ﴿خَتَّارٍ﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل لـ﴿أي﴾، وجملة النداء: مستأنفة، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱتَّقُوا۟﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَجْزِى وَالِدٌ﴾: فعل وفاعل ﴿عَن وَلَدِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَجْزِى﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، والرابط: محذوف، تقديره: لا يجزي فيه، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾: مبتدأ أول، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿جَازٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، لأن أصله: جازي، فأعمل به إعمال قاضٍ، وجملة المبتدأ الثاني: خبر للمبتدأ الأول، أعني: مولود، وجوز الابتداء به مع كونه نكرةً وقوعه في سياق النفي، وجملة المبتدأ الأول: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا

﴿يَجْزِي وَالِدٌ﴾ على كونها صفة لـ﴿يَوْمًا﴾؛ أي: واتقوا يوماً لا مولود هو جاز عن والده شيئاً، والرابط: محذوف أيضاً، تقديره: هو جاز فيه ﴿عَن وَالِدِهِ﴾: متعلق بـ﴿جَازٍ﴾. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول ﴿جَازٍ﴾ أو ﴿يَجْزِي﴾، فالمسألة من باب التنازع. وفي «السمين»: قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾: جوزوا فيه وجهين:

أحدهما: أنه مبتدأ، وما بعده الخبر.

والثاني: أنه معطوف على ﴿وَالِدٌ﴾، وتكون الجملة صفة له. انتهى.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من المواعظ، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: لا تغرنكم، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تغرن﴾: في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و﴿الكاف﴾: مفعول به ﴿الْحَيَاةُ﴾: فاعل ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الْحَيَاةُ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾: فعل ومفعول به معطوف على سابقتها، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿الْغَرُورُ﴾: فاعل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عِندَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها خبراً

لـ﴿أن﴾ فهو بمثابة خبر ثان لـ﴿إن﴾. ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف أيضاً على جملة ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فهو بمثابة خبر ثالث لها، ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا تَدْرِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَدْرِى نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَكْسِبُ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿ذا﴾: اسم موصول خبر لـ﴿ما﴾، وجملة ﴿تَكْسِبُ﴾: صلة لـ﴿ذا﴾ الموصولة، والجملة الاسمية سادة مسدّ مفعولي ﴿تَدْرِى﴾. ﴿تَكْسِبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿نَفْسٌ﴾، ﴿غَدًا﴾: ظرف زمان منصوب متعلق بـ﴿تَكْسِبُ﴾، وجملة ﴿تَكْسِبُ﴾ في محل النصب ساد مسد مفعولي ﴿تَدْرِى﴾ المعلقة بالاستفهام. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل معطوفة على سابقتها، ﴿بِأَىِّ أَرْضٍ﴾: متعلق بـ﴿تَمُوتُ﴾، وهو معلق للدراية عن العمل فيما بعده، ﴿تَمُوتُ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب ساد مسد مفعولي ﴿تَدْرِى﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول له. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر ثان له، والجملة: مستأنفة مقررة لما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾؛ أي: يفوض أمره، إلى الله، مأخوذ من أسلمت المتاع إلى الزبون. ا هـ. «بيضاوي»، والزبون بفتح الزاي: المشتري من الزبن، وهو: الدفع. ا هـ. «شهاب»، لأنه يدفع غيره عن أخذ المبيع، وأسلم إذا عدي بإلى، يكون بمعنى سلم، وإذا عدي باللام، تضمن معنى الإخلاص، والوجه: بمعنى الذات، والمعنى: أقبل بكليته إلى الله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: مطيع لله في أمره ونهيه.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ قال في المفردات»: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء: إذا تحربت بالإمساك، انتهى. والسين والتاء فيه زئداتان.

﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾، والعروة: بضم أوله: ما يعلق به الشيء من عروته بالكسر؛ أي: ناحيته، والمراد: مقبض نحو الدلو والكوز، وفي «القاموس»: العروة من الدلو، والكوز المقبض، ومن الثوب أُخْتُ زِرّهِ كالعثرى، وفي «الأساس» و«اللسان»: وتستعار العروة لما يوثق به ويعول عليه، فيقال للمال النفيس - والفرس الكريم: لفلان عروة.

و﴿ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾: الموثقة المحكمة، تأنيث الأوثق، كالصغرى تأنيث الأصغر، والشيء الوثيق: ما يأمن صاحبه من السقوط.

والمعنى: فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواه، وأصله: أن من يرقى إلى جبلٍ شاهقٍ، أو يتدلى منه، يستمسك بحبل متينٍ مأمون الانقطاع.

﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ يقال: أحزنه، من المزيد، ويحزنه من الثلاثي، وأما حزن الثلاثي ويحزن المزيد، فليس بشائع في الاستعمال.

﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: تمتيناً أو زماناً قليلاً، فهو إما صفة لمصدر أو ظرف محذوف.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾: الاضطرار: حمل الإنسان على ما يضره، وهو في التعارف: حمل الإنسان على أمر يكرهه؛ أي: نلجئهم ونردهم في الآخرة قسراً إلى العذاب.

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: ثقيل، ثقل الأجرام الغلاظ، والغليظ: ضد الرقيق، وأصله: أن يستعمل في الأجسام، لكن قد يستعمل في المعاني، كما في «المفردات».

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ بضم اللام لإسناده إلى ضمير الجماعة، أصله: يقولونن، بواو الضمير وثلاث نونات، فهو مرفوع بالنون المحذوفة لعدم مباشرته بنون التوكيد، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الواو لبقاء دالها وهو ضم اللام، فصار: ﴿يقولن﴾ بضم اللام.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ الشجر: اسم جنس يفرق بينه وبين مفرده بالتاء، كتمرة وتمر، والشجر ضد النجم، وهو ما له ساق قوي.

﴿أَقْلَٰمٌ﴾: جمع قلم، وأصل القلم، القص من الشيء الصلب كالظفر، وخص ذلك بما يكتب به، وفي «كشف الأسرار»: سمي قلماً لأنه قط رأسه، والإقليم: القطعة من الأرض، وتقليم الأظفار: قطعها، والفرق بين القط والقد: أن القط: القطع عرضاً، والقد: القطع طولاً، والقطع: فصل الجسم بنفوذ جسم آخر فيه.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ أي: المحيط، لأنه المتبادر من التعريف، إذ هو الفرد الكامل. ا هـ.«شهاب». وهو البحر الأعظم، الذي منه مادة جميع البحار المتصلة به، كبحر الغرب والشرق، والمنقطعة عنه.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: يدخل، والمراد: أنه يضيف الليل إلى النهار والعكس بالعكس، فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادةً ونقصاناً، فالإيلاج: الإدخال، والولوج: الدخول في مضيق.

﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: تسير سيراً سريعاً. قال في «المفردات»: الجري: المر السريع، وأصله لمر الماء ولما يجري بجريه.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: مبالغ في الصبر على المشاق.

اعلم: أن الصبر تحمل المشاق بقدر القوة البدنية، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر، كما يحصل للجسوم الخشنة، وفي الانفعال كالصبر على المرض، واحتمال الضرب والقطع، وكل ذلك ليس بفضيلة تامة، بل الفضيلة في الصبر عن تناول مشتهى لإصلاح الطبيعة، والصبر على الطاعات لإصلاح النفس، فالصبر كالدواء المر وفيه نفعٌ.

﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الشكر على نعمائه، والشكر: تصور النعمة بالقلب والثناء على المنعم باللسان، والخدمة بالأركان، وجعل الصبر مبدأ، والشكر منتهىً في الآية يدل على كون الشكر أفضل من الصبر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ يقال: غشيه: إذا ستره وعلاه وغطاه ﴿مَّوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿كَالظُّلَلِ﴾: الظلل: جمع ظلة بضم الظاء، وهو كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو شجر أو غيرها، شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها، وجعل الموج وهو واحد، كالظلل، وهو جمع، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء.

﴿مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: سالك للقصد؛ أي: للطريق المستقيم، وهو التوحيد لايعدل عنه إلى غيره، أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة.

﴿خَتَّارٍ﴾: مبالغة من الختر، من بابي ضرب ونصر، والختر: أشد الغدر وأقبحه، قال في «المفردات»: الختر: غدر يختر فيه الإنسان؛ أي: يضعف ويكسر لاجتهاده فيه. اهـ. ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً من الغدر، إلا مددناك باعاً من ختر. قال الشاعر:

وَإِنَّـكَ لَـوْ رَأَيْـتَ أَبَـا عُـمَـيْـرٍ ... مَـلأْتَ يَـدَيْـكَ مِـنْ غَـدْرٍ وَخَـتْـرِ

وقوله: ملأت يديك من غدرٍ وخترٍ، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل الاستعارة المكنية وملء اليدين تخييل ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ﴾ يقال: جزاه دينه: إذا قضاه، وفي «المفردات»: الجزاء الغناء والكفاية.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ والوعد: يكون في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر وعداً وميعاداً، والوعيد في الشر خاصةً.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ يقال: غره: إذا خدعه وأطمعه بالباطل فاغتر هو، كما في «القاموس».

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ قال في «المفردات»: الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان، إذ هو أخبث الغاوين.

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والساعة في الأصل: جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الملوين، وسميت القيامة بلفظ الساعة، لأنها تقوم في آخر جزء من تلك الأجزاء.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: المطر، سمي المطر بالغيث، لأن به يغاث الخلق

من الجدب والقحط، وبه رزقهم وبقاؤهم، كما مر، ولا يسمى بالغيث إلا المطر النافع.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ جمع رحم، والرحم: بيت منبت الولد ووعاؤه.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ والدراية: المعرفة المدركة بضرب من الحيل، ولذا لا يوصف الله سبحانه بها، ولا يقال: الله الداري.

وأما قول الشاعر:

لَاهُمَّ لاَ أَدْرِيْ وَأَنْتَ ٱلدَّارِيْ

فقول عربي جلف جاهل، جاهل بما يطلق على الله من الصفات، وما يجوز منها وما يمتنع، أو بطريق المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ، مثل كسب المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أن يجلب به منفعةً أو يدفع به مضرة، والغد: اليوم يلي يومك الذي أنت فيه، كما أن أمس اليوم الذي قبل يومك بليلة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل، لأن الوجه هنا بمعنى الذات، لا خصوص العضو الذي تقع به المواجهة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ فقد مثلت حال المتوكل المشتغل بالطاعة، بحال من أراد أن يتدلى من جبل شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، وقيل: هو

تشبيه تمثيلي، لذكر طرف التشبيه، فقد شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل، فتمسك بأوثق حبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ حيث شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه؛ أي: يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ.

ومنها: الاستعارة المصرحة في لفظ ﴿غَلِيظٍ﴾ لأن الغليظ ضد الرقيق، فهو حقيقة في الأجسام، فاستعاره للتعذيب الذي هو معنى من المعاني، لأنه بمعنى عذاب شديد، فالشدة معنىً من المعاني، فاستعار لها لفظ الغلظ على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لجرياتها في المشتق بعد جريانها في الجامد.

ومنها: تقديم ما حقه التأخير لغرض الحصر في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: إليه تعالى، لا إلى أحد غيره.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ حيث أطلق المحل الذي هو الصدر، وأراد به الحال الذي هو القلب، لأن المعنى: عليم بخطرات القلوب.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لأن كلمة ﴿هُوَ﴾ هنا للحصر؛ أي: هو الغني وحده، وليس معه غني آخر، كما مرّ.

ومنها: توحيد لفظ ﴿شَجَرَةٍ﴾ لإفادة الاستغراق في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ فكأنه قال من كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة، إلا وقد بريت أقلاماً.

ومنها: جمع الأقلام لقصد التكثير.

ومنها: المخالفة في الصيغة بين ﴿سخر﴾ المعطوف و﴿يُولِجُ﴾ المعطوف عليه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لاختلاف مفادهما، لأن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد كل حين، فعبر عنه بالصيغة المتجددة حيناً بعد حين، وأما تسخير النيرين، فهو أمر لا يتجدد ولا

يتعدد، بل هو ديمومة متصلة متتابعة، فعبر عنه بالصيغة الماضية الكائنة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ـ و﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

ومنها: كمال الاعتناء بشأن التوحيد في قوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ حيث صرحه مع أن ثبوت حقيقة إلٰهيته تعالى، مستتبع لبطلان إلٰهيةِ ما عداه.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

فائدة: فإن قيل: إذا أمكن العلم بالغيب لخلص عباده تعالى بتعليمه إياهم، فلم لم يعلم الله سبحانه نبيه ـ ﷺ ـ الغيوب المذكورة في الآية؟

فالجواب: أن الله تعالى إنما لم يعلمه ذلك، إشعاراً بأن المهم للعبد أن يشتغل بالطاعة ويستعد لسعادة الآخرة، ولا يسأل عما لا يهم، ولا يشتغل بما لا يعنيه، فافهم جدّاً، واعمل لتكون عاقبتك خيراً، انتهى من «روح البيان».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما احتوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ القرآن هداية، ورحمة للمؤمنين.

٢ ـ قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم، واتخذ آيات الله هزواً.

٣ ـ وصف العالم العلوي والعالم السفلي، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله تعالى.

٤ ـ قصص لقمان وإيتاؤه الحكمة، وشكره لربه على ذلك، ثم نصائحه لابنه.

٥ ـ الأمر بطاعة الوالدين، إلا فيما لا يرضي الخالق.

٦ ـ النعي على المشركين في ركونهم إلى التقليد، إذا دعوا إلى النظر في الكون، وعبادة الخالق له.

٧ ـ لا نجاة للإنسان إلا بالإخبات إلى الله سبحانه.

٨ ـ تسلية الرسول على عدم إيمان المشركين.

٩ ـ تعجيب رسوله من المشركين، بأنهم يقرون بأن الله هو الخالق لكل شيء، ثم هم يعبدون معه غيره، ممن هو مخلوق مثلهم.

١٠ ـ نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها.

١١ ـ الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه، لنسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها.

١٢ ـ تحميق المشركين بأنهم في الشدائد يدعون الله وحده، وفي الرخاء يشركون معه سواه.

١٣ ـ الأمر بالخوف من عقاب الله، يوم لا يجزي والد عن ولده.

١٤ ـ مفاتيح الغيب الخمسة، التي استأثر الله بعلمها.

١٥ ـ إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات، ظاهرها وباطنها[١].

والله أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما كتبناه على هذه السورة الكريمة، وقد فرغنا من تفسيرها قبيل ظهر يوم الأربعاء المبارك، اليوم الثاني من شهر شوال، من شهور سنة ٢/ ١٠/ ١٤١٣ هـ. ألف وأربع مئة وثلاث عشرة سنة، من الهجرة النبوية، عليه أفضل الصلوات، وأزكى التحية.

سورة السجدة

سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع، مكية كلها كما رواه ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير، وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هي مكية، سوى ثلاث آيات.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى تمام الآيات الثلاث، فمدنية، وكذا قال الكلبي ومقاتل، وقيل: إلا خمس آيات من قوله.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

وآياتها: ثلاثون آية، وقيل: تسع وعشرون[١] بناء على الاختلاف في أنّ آخر الآية: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أو هو ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فعلى الأول تكون ثلاثين آية، وعلى الثاني تكون تسعاً وعشرين. ا هـ.«شيخنا». وكلماتها: ثلاث مئة وثمانون كلمة. وحروفها: ألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفاً، نزلت بعد سورة المؤمنون.

تسميتها: سميت بسورة السجدة لاشتمالها على آية السجدة.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها: أن الله[٢] سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها دلائل التوحيد، من بدء الخلق، وهو الأصل الأول، ثم ذكر المعاد والحشر، وهو الأصل الثاني، وختم به السورة.. ذكر في بدء هذه السورة الأصل الثالث، وهو تبيين الرسالة.

وعبارة المراغي هنا: ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه[٣]:

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

١ ـ اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية.

٢ ـ أنه ذكر في السورة السالفة دلائل التوحيد، وهو الأصل الأول، ثم ذكر المعاد، وهو الأصل الثاني، وهنا ذكر الأصل الثالث وهو النبوة.

٣ ـ أن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب، التي ذكرت في خاتمة ما قبلها، فقوله:

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ شرح لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ شرح لقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ تفصيل لقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إيضاح لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ وقوله: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلخ شرح لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الناسخ والمنسوخ منها: قال ابن حزم: سورة السجدة جميع[1] آياتها محكمة غير آخرها، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٣٠) الآية. نسخت بآية السيف.

فضلها: ومن فضائلها ما أخرجه[2] مسلم وأصحاب «السنن» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بـ﴿الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾. وأخرجه البخاري وغيره أيضاً من حديثه، وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم، وصححه، وابن مردويه عن جابر قال: كان النبي ـ ﷺ ـ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

وأخرج أبو نصر والطبراني والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من صلى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة، قرأ في

---

(١) ابن حزم.
(٢) الشوكاني.

الركعتين الأوليين: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ - و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وفي الركعتين الأخيريين: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ - و﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة.. كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ - و﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، بين المغرب والعشاء الآخرة.. فكأنما قام ليلة القدر.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ في ليلة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، ويس و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.. كن له نوراً وحرزاً من الشيطان، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة».

وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع: أن النبي - ﷺ - قال: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ تجيء لها جناحان يوم القيامة، تظل صاحبها وتقول: لا سبيل عليه، لا سبيل عليه».

قال الدارمي[1]: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثنا عبدة عن خالد بن معدان قال: اقرؤوا المنجية، وهي ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا، فنشرت جناحها عليه، وقالت: رب اغفر له، فإنه كان يكثر قراءتي، فشفعها الرب فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنةً وارفعوا له درجة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) القرطبي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ
هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ
مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ
أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ
﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ
﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ
يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ
رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا
لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ
﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ
﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

تقدم لنا بيان المناسبة بين السورة والسورة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أن الله سبحانه لما أثبت الرسالة في الآية التي قبلها.. بين هنا ما يجب على الرسول من الدعاء إلى توحيد الله تعالى، وإقامة الأدلة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الرسالة بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والوحدانية بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ.. أردف ذلك ذكر البعث، واستبعاد المشركين له، ثم الرد عليهم.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أثبت[1] البعث والرجوع إليه.. بين حال المشركين حين معاينة العذاب، ووقوفهم بين يدي الله تعالى أذلاء ناكسي رؤوسهم من الحياء والخجل، طالبي الرجوع إلى الدنيا لتحسين أعمالهم، ثم بين أنه لا سبيل إلى العودة، لأنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه، وأنه قد ثبت في قضائه، وسبق في وعيده: أن جنهم تمتلىء من الجِنة والناس، ممن ساءت أعمالهم، وقبحت أفعالهم، فلا يصلحون لدخول الجنة، ويقال لهم: ذوقوا عذاب النار، جزاء ما عملتم في الدنيا، وقد نسيتم لقاء ربكم، فجازاكم بفعالكم، وجعلكم كالمنسيين من رحمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر علامة أهل الكفر، من طأطأة الرؤوس خجلاً وحياءً مما صنعوا في الدنيا، وذكر ما يلاقون من العذاب المهين يوم القيامة.. عطف على ذلك ذكر علامة أهل الإيمان، من تذللهم لربهم، وتسبيحهم بحمده، ومجافاة جنوبهم للمضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ثم أردفه ذكر ما يلاقون من نعيم مقيم، وقرة أعين، جزاءً لهم على جميل أعمالهم، ومحاسن أقوالهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ. . .﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

البزار عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ وفي إسناده عبد الله بن شبيب ضعيف. وأخرج الترمذي وصححه عن أنس، إن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة.

وأخرج[1] البخاري في «تاريخه» وابن مردويه عنه: نزلت في صلاة العشاء. وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً في الآية: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء. وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عنه أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ راقداً قط قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها، فإن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾. قال البقلي ـ رحمه الله ـ: الألف إشارة إلى الإعلام، واللام إلى اللزوم، والميم إلى الملك، أعلم من نفسه أهل الكون لزوم العبودية عليهم، وملكهم قهراً وجبراً، حتى عبدوه طوعاً وكرهاً. ا هـ.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير[2] بالألف: إلى أنه ألف المحبون بقربتي فلا يصبرون عني، وألف العارفون بتمجيدي فلا يستأنسون بغيري، والإشارة في اللام، لأني لأحبائي مدخر لقائي، فلا أبالي أقاموا على صفائي، أم قصروا في وفائي، والإشارة في الميم: ترك أوليائي مرادهم لمرادي، فلذلك آثرتهم على جميع عبادي. ا هـ. وهذا كله مما لا نقل ولا أصل له.

وقال أهل التفسير: ﴿الٓمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه السورة مسماة بـ﴿الٓمٓ ۝١﴾. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المتلو عليك يا محمد، وهو القرآن، في

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

هذا المقام وجوه من الإعراب، الأوجه الأنسب بما بعده، أنه مبتدأ، وجملة قوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك حال، من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: حال كونه لا شك فيه عند أهل الاعتبار ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر المبتدأ، فإن كونه من رب العالمين، حكم مقصود الإفادة، وإنما كان منه لكونه معجزاً، والضمير[1] في ﴿فِيهِ﴾: عائد إلى مضمون الجملة.

والمعنى: تنزيل الكتاب، كائن من رب العالمين، حال كونه لا ريب فيه؛ أي: في كونه منزلاً من رب العالمين، لأنه معجز للبشر؛ أي: إن الكتاب المتلو عليك يا محمد، لا ريب ولا شك في أنه منزل من رب العالمين، وأنه ليس بكذب، ولا سحر ولا كهانةٍ ولا أساطير الأولين.

فلما أنكرت قريش كونه منزلاً من رب العالمين.. قال: ﴿أَمْ﴾ منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: أيقول أهل مكة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن واختلقه من عند نفسه، لا ينبغي ولا يليق منهم هذا القول، فهذا القول منهم منكر متعجب منه، لغاية ظهور بطلانه.

فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار، مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ، حيث قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: هذا القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ليس هو كما قالوا مفترىً، بل هو الحق من ربك.

ونظم الكلام[2]: أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له، وتعجيباً منه، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله، وبين المقصود من تنزيله والعلة فيه فقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ وتخوف يا محمد ﴿قَوْمًا﴾ هم العرب، والظاهر أن المفعول الثاني للإنذار: محذوف،

---

(١) النسفي. (٢) البيضاوي.

و﴿قَوْمًا﴾ هو الأول؛ أي: لتنذر قوماً العقاب.

وجملة قوله: ﴿مَّآ﴾: نافية ﴿أَتَىٰهُم﴾ وجاءهم ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿نَّذِيرٍ﴾ مخوف ﴿مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل إنذارك، أو من قبل زمانك، جملة منفية في محل نصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾؛ أي: أنزله إليك لتنذر عذاب الله قوماً ما جاءهم منذر من قبلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم؛ أي: رجاء أن يهتدوا أو كي يهتدوا، والترجي معتبر من جهته ـ ﷺ ـ؛ أي: لتنذرهم[1] راجياً لاهتدائهم إلى التوحيد والإخلاص.

وفي «الخازن»: المراد بالقوم العرب، لأنهم كانوا أمةً لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، إذ كانت قريش أهل الفطرة، وأضل الناس وأحوجهم إلى الهداية، لكونهم أمةً أمية، وقال ابن عباس: يعني أهل الفترة، الذين كانوا بين عيسى ومحمد ﷺ. ا هـ.

وفي الحديث: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: ليس بيني وبين عيسى نبي من العرب، أما إسماعيل عليه السلام، فكان نبياً قبل عيسى، مبعوثاً إلى قومه خاصةً، وانقطعت نبوته بموته، وأما خالد بن سنان، فكان نبياً بعد عيسى، ولكنه أضاعه قومه، فلم يعش إلى أن يبلغ دعوته، فعلم من هذا أن أهل الفطرة ألزمتهم الحجة العقلية، لأنهم كانوا عقلاء قادرين على الاستدلال، لكنهم لم تلزمهم الحجة الرسالية.

وعلم من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أن المقصود من البعثة تعريف طريق الحق، وكل يهتدي بقدر استعداده، إلا أن لا يكون له استعداد أصلاً، كالمصرين، فإنهم لن يقبلوا التربية والتعريف، وكذا من كان على جبلتهم إلى يوم القيامة.

ألا ترى أن أبا جهل رأى النبي ﷺ، ووصل إليه، لكن لما رآه بعين الاحتقار، وأنه يتيم أبي طالب، لا بعين التعظيم، وأنه رسول الله، ووصل إليه

---

(١) روح البيان.

وصول عناد وإنكار، لا وصول قبول وإقرار.. لم يصر جوهراً للهداية، وهكذا حال ورثته من المصرين والمنكرين.

ومعنى الآيتين: أن[1] هذا القرآن الذي أنزل على محمد، لا شك أنه من عند الله، وليس بشعر ولا كهانة، ولا مما تخرصه محمد ـ ﷺ ـ بل هو الحق والصدق من عند ربك، أنزله إليك لتنذر قومك بأس الله وسطوته، أن تحل بهم على كفرهم به، وأنه لم يأتهم نذير من قبلك، ليبين لهم سبيل الرشاد، وأن محمداً لم يختلقه كما يزعمون، وفي هذا رد لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة أيها الناس، هو الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على غير مثال سبق؛ أي: أبدع الأجرام العلوية والسفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: ما بين السماوات والأرض من السحاب والرياح وغيرهما؛ أي: خلقهما وما فيهما وما بينهما ﴿فِى﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، التي أولها الأحد وآخرها الجمعة، قاله[2] الحسن، وقيل: مقدار اليوم منها ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحاك، فعلى هذا: المراد بالأيام هنا: هي من أيام الآخرة، لا من أيام الدنيا، أو المعنى: خلقهما[3] وما فيهما وما بينهما في ستة أطوارٍ في نظر الناظرين إليها، وليس المراد اليوم المعروف، لأنه قبل خلق السماوات لم يكن ليل ولا نهار، وإنما خلقها في ستة أيام مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، بأن يقول لها: كوني فتكون، ليعلم عباده الرفق والتأني، والتثبت في الأمور وعدم العجلة، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: علا وارتفع سبحانه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله، لا يكيف ولا يمثل ولا يشبه؛

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

أي: نُثبِتُه من غير تشبيه ولا تمثيل ولاتعطيل، ونؤمن به ونعتقده على الوجه الذي يليق بجنابه، مع تنزيهه عما لا يجوز عليه من صفات النقص والحدوث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقته، وكيفيته، لأنه لا يعرف الله إلا الله عز وجل، فالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ومن بعدهم من الأئمة، لم يشتبه أحد منهم فيه، وقال القرطبي: ليس ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بل هي بمعنى الواو. ا هـ.

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أخبار الصفات وأحاديثها وآياتها تمر كما جاءت، بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف ولم؟ نؤمن بأن الله سبحانه على العرش كيف شاء هو، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف، أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل. وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته. ا هـ.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمٰن، وإحاطته بالسماوات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا، وقد قدمنا البحث عن هذا المقام بأبسط مما هنا في سورة الأعراف وطه الفرقان.

﴿مَا لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أموركم وناصر ينصركم بدفع عذابه عنكم ﴿وَلَا﴾ من ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفعكم عنده تعالى، فينقذكم من عذابه، إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه؛ أي: ليس[1] لكم أيها الناس من يلي أموركم، وينصركم منه إن أراد بكم ضراً، ولا يشفع لكم عنده إذ هو عاقبكم.

والخلاصة: فإياه فاتخذوه ولياً، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم، فإنه

---

(١) المراغي.

يَمنعكم ممن أراد بكم سوءاً، ولا يقدر أحد على دفع السوء عنكم إذا هو أراد وقوعه بكم، لأنه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.

ثم أمرهم بالتذكر والتدبر في الأدلة فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير[1]: ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها، فالإنكار متوجه إلى عدم الاستماع وعدم التذكر، أو تسمعونها فلا تتذكرون بها، فالإنكار متوجه إلى عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع.

والفرق بين التذكر والتفكر[2]: أن التفكر عند فقدان المطلوب لاحتجاب القلب بالصفات النفسانية، وأما التذكر: فهو عند رفع الحجاب والرجوع إلى الفطرة الأولى، فيتذكر ما انطبع في الأزل من التوحيد والمعارف.

والمعنى[3]: أي أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها العابدون غيره تعالى، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس عن أن يكون له نظير أو شريك، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

ولما بين سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، وما بينهما.. بين تدبيره لأمرها فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: أمر الدنيا وشأنها وحالها، والأمور التي تقع فيها؛ أي: ينزّل قضاءه وقدره ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مدبراً بوساطة الملائكة الموكلين بأمر الدنيا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مدة دوام الدنيا.

وروى[4] عمرو بن مرة عن عبد الرحمٰن بن سابط، يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل صلوات الله عليهم وسلامه، فأما: جبريل، فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والماء، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) الإرشاد.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ ويصعد الأمر المدبر من السماء، المفعول لأهل الأرض، ويرجع ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى التصرف في المخلوقات بالحشر والحساب ووزن الأعمال والتعذيب والتنعيم وغير ذلك، مما يقع في ذلك اليوم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾؛ أي: قدره وطوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ أي: قدر ألف سنة ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا من أيامها، وهو يوم القيامة.

والمعنى: أي[1] ينتقل التصريف الظاهري من أيدي العبيد يوم القيامة، ويكون لله وحده ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ أي: يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ثم يصير الأمر كله إليه، ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة مما كنا نعده في هذه الحياة. ا هـ. «مراغي».

فإن قلت: قال هنا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وفي سورة المعارج: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فبين الآيتين معارضة من حيث العدد، فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: يجمع بينهما بأن المراد من ذكر الألف، وذكر الخمسين: التنبيه على طوله، والتخويف منه، لا العدد المذكور بخصوصه.

وقيل: يجمع بينهما: بأن موقف القيامة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة، فهذه الآية بينت أحد المواقف، وآية ﴿سأل﴾ بينت المواقف كلها، وهذا القول هو الأقرب في الجمع، وقيل: يجمع بيهما: بأن العذاب مختلف، فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة.

وقيل معنى الآية[2]: أي يدبر أمر الدنيا من السماء على عباده، ويصعد إليه آثار الأمر، وهي أعمالهم الصالحة، الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون عليهم؛ أي: على غير الملائكة، فإن بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة سنة، فينزل في مسيرة خمس

---

(١) الصاوي. (٢) المراح.

مئة سنة، ويعرج في مسيرة خمس مئة سنة، فهو مقدار ألف سنة.

والمراد[1] بالألف على القول الأول الأرجح: الزمن المتطاول، وليس المقصود منه حقيقة العدد، إذ هو عند العرب منتهى المراتب العددية، وأقصى غاياتها، وليس هناك مرتبة فوقه، إلا ما يتفرع منه من أعداد مراتبها. قال القرطبي: المعنى: إن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة، قاله ابن عباس، والعرب تصف أيام المكروه بالطول، وأيام السرور بالقصر.

وخلاصة معنى الآية على ما اختاره بعضهم ـ وهو الظاهر ـ أي[2]: يدبر الله سبحانه وتعالى أمر الدنيا مدة أيام الدنيا، فينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض، ثم يعود الأمر والتدبير إليه تعالى حين ينقطع أمر الأمراء، وحكم الحكام، وينفرد الله بالأمر في يوم؛ أي: يوم القيامة، كان مقداره ألف سنة، لأن يوماً من أيام الآخرة مثل ألف سنة من أيام الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ فمعنى خمسين ألف سنة على هذا: أنه يشتد على الكافرين، حتى يكون كخمسين ألف سنة في الطول، ويسهل على المؤمنين، حتى يكون كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا، فقيامة كل واحد على حسب ما يليق بمعاملته، ففي الحشر مواقف ومواطن بحسب الأشخاص من جهة الأعمال والأحوال والمقامات.

وقد اختلف العلماء في تفسير الآية على وجوه شتى، ضربنا عن ذكرها صفحاً، لأنه لا طائل تحتها، هذا ما سنح لي والعلم عند الله العلي.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يعرج﴾ بالبناء للمفعول، والجمهور: مبنياً للفاعل، وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ السلمي وابن وثاب والأعمش والحسن: بياء الغيبة بخلاف عن الحسن، وقرأ جناح بن حبيش: ﴿ثم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

تعرج الملائكة﴾ بزيادة الملائكة، ولعله تفسير منه، لسقوطه في سواد المصحف.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن المخلوقات، وعالم ما شوهد لهم، أو عالم الغيب؛ أي: الآخرة، والشهادة؛ أي: الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الله سبحانه، باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ خبره ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، وفي هذا معنى التهديد، لأنه تعالى إذا علم بما يغيب ويحضر.. فهو مجاز لكل عامل بعمله، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب القاهر، الذي لا يغالب على ما أراده، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده؛ أي: ذلك[١] الله العظيم الشأن، المتصف بالخلق والاستواء وانحصار الولاية والنصرة فيه، وتدبير أمر الكائنات، هو عالم ما غاب عن الخلق وما حضر لهم، ويدبر أمرهما حسبما يقتضيه الغالب على أمره، الرحيم بعباده في تدبيره، وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعي المصالح، تفضلاً وإحساناً، لا إيجاباً، وهذه أخبار لذلك المبتدأ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: خبر آخر لذلك المبتدأ؛ أي: الذي جعل كل خلقه على وجه حسن في الصورة والمعنى، على ما يقتضيه استعداده، وتوجبه الحكمة والمصلحة، فالقبيح كالقردة والخنازير حسن في ذاته، وقبحه بالنظر إلى ما هو أحسن منه، لا في ذاته، طول رجل البهيمة والطائر وطول عنقهما، لئلا يتعذر عليهما ما لا بد لهما منه من قوتهما، ولو تفاوت ذلك لما يكن لهما معاش، وكذلك كل شيء من أعضاء الإنسان، مقدر لما يصلح به معاشه، فجميع المخلوقات حسنة، وإن اختلفت أشكالها وافترقت إلى حسن وأحسن، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وحسنها من جهة المقصد الذي أريد بها، ولذلك قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة. ا هـ.

---

(١) روح البيان.

أيضاً[1]: ذلك المدبر لهذه الأمور، هو العالم بما يغيب عن أبصاركم، مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وما لم يكن بعد مما هو كائن، وبما شاهدته الأبصار وعاينته، وهو الشديد في انتقامه ممن كفر به وأشرك معه غيره وكذب رسله، وهو الرحيم بمن تاب من ضلالته، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله، وعمل صالحاً، وهو الذي أحسن خلق الأشياء وأحكمها.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بخفض الأوصاف الثلاثة، وأبو زيد النحوي: بخفض ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقرأ الجمهور: برفع الثلاثة على أنها أخبار لذلك، أو الأول خبر والتاليان وصفان له، ووجه الخفض: أن يكون ذلك إشارة إلى الأمر، وهو فاعل بـ﴿يَعْرُجُ﴾؛ أي: ثم يعرج إليه ذلك؛ أي: الأمر المدبر، ويكون ﴿عَٰلِمُ﴾ وما بعده: بدلاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾، وفي قراءة أبي زيد النحوي: يكون ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ﴾: مبتدأ وخبراً، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالخفض بدلاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بإسكانها، فعلى القراءة الأولى، هو فعل ماض نعتاً لـ﴿شَيْءٍ﴾، فهو في محل جر، وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه:

الأول: أن يكون بدلاً من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بدل اشتمال، والضمير عائد إلى ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة.

الثاني: أنه بدل كل من كل، والضمير: راجع إلى الله سبحانه، ومعنى ﴿أَحْسَنَ﴾: حسن؛ لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة.

الثالث: أن يكون ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: هو المفعول الأول، و﴿خَلَقَهُۥ﴾: هو المفعول الثاني على تضمين ﴿أَحْسَنَ﴾ معنى أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء

---

(1) المراغي.

(2) البحر المحيط.

(3) الشوكاني.

خلقه الذي خصه به، وقيل على تضمينه معنى ألهم، قال الفراء: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه.

الرابع: أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة؛ أي: خلقه خلقاً، كقوله: صنع الله، وهذا قول سيبويه، والضمير يعود إلى الله سبحانه.

والخامس: أنه منصوب بنزع الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه.

ومعنى الآية: أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها: معنى أعطى كل شيء خلقه؛ أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولم يخلق البهيمة على خلق الإنسان، وقيل: هو عام في اللفظ خاص في المعنى؛ أي: أحسن خلق كل شيء حسن، ذكره الشوكاني.

قال بعضهم[1]: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار.. لو جدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعلمت عدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل.. لما استطاع أن يبرك بجمسه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك الله أحسن الخالقين.

ولما ذكر خلق السماوات والأرض.. شرع يذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾؛ أي: بدأ خلق آدم أبي البشر عليه السلام من بين جميع المخلوقات ﴿مِنْ طِينٍ﴾؛ أي: من تراب، فصار على صورة بديعة وشكل حسن، والطين: التراب والماء المختلط، وقد يسمى بذلك وإن زال عنه قوة الماء، وقد يكون المعنى: إن الطين ماء وتراب مجتمعان، والآدمي أصله: مني، والمني من

---

(١) أوضح التفاسير.

الغذاء، والأغذية إما: حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية ترجع إلى النباتية، والنبات وجوده بالماء والتراب، وهو الطين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بدأ﴾ بالهمز، والزهري: بالألف بدلاً من الهمزة، وليس بقياس أن تقول في هدأ: هدا، بإبدال الهمزة ألفاً، بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين، على أن الأخفش حكى في قرأت، قريت ونظائره، وقيل هي لغة الأنصار، تقول في بدأ: بدي، بكسر عين الكلمة وياء بعدها، وهي لغة لطي، فيحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة، أصله بدا ثم صار بدأ، أو على لغة الأنصار، وقال ابن رواحة:

بِـاْسْـمِ ٱلإِلٰـهِ وَبِـهِ بَـدَيْـنَـا ... وَلَـوْ عَـبَـدْنَـا غَـيْـرَهُ شَـقِـيْـنَـا

﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وخلق ﴿نَسْلَهُۥ﴾؛ أي: نسل الإنسان الذي هو آدم وذريته، ﴿من سلالة﴾؛ أي: من نطفة مسلولة؛ أي: منزوعة من صلب الإنسان، ثم أبدل منها قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: ثم خلق نسل آدم وذريته من ماء ضعيف حقير، أو من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس، يخرج من بين الصلب والترائب، وهو المني؛ أي: ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك، من نطفة تخرج من بين الصلب والترائب، في كل من الرجل والمرأة، كما دل على ذلك علم الأجنة، وسيأتي إيضاح هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾؛ أي: سوى ذلك النسل وقومه وعدله، بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويره على أحسن صورة، وقيل: المعنى: ثم سوى ذلك الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو آدم أبو البشر، وعدل خلقه وسوى شكله، وناسب بين أعضائه، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾؛ أي: في النسل الذي سواه في الرحم، أو في الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو آدم، ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ أي: من روح الله سبحانه وتعالى، والإضافة للتشريف والتكريم، وهذه[2] الإضافة تقوي: أن الكلام في آدم، لا في ذريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع؛ أي: ونفخ فيه

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

روحه، وجعلها تتعلق ببدنه، فيبدأ يتحرك وتظهر فيه آثار الحياة، ثم ينطق ويتكلم، وأضاف الروح إلى نفسه تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب، ومخلوق شريف، وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية، ولأجله قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

وفي «الكواشي» جعل فيه الشيء الذي اختص به تعالى، ولذلك أضاف إليه، فصار بذلك حياً حساساً، بعد أن كان جماداً، لا أن ثمة حقيقة نفخٍ. ا هـ.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1]: الروح: ليس بجسم يحل في البدن حلول الماء في الإناء، ولا هو عرض يحل في القلب أو الدماغ حلول السواد في الأسود، والعلم في العالم، بل هو جوهر لا يتجزأ باتفاق أهل البصائر، فالتسوية عبارة عن فعل في المحل القابل، وهو الطين في حق آدم عليه السلام، والنطفة في حق أولاده، بالتصفية وتعديل المزاج، حتى ينتهي في الصفاء ومناسبة الأجزاء إلى الغاية، فيستعدّ لقبول الروح وإمساكها، والنفخ: عبارة عما اشتعل به نور الروح في المحلل القابل، فالنفخ سبب الاشتعال، وصورة النفخ في حق الله تعالى والمسبب غير محال، فعبر عن نتيجة النفخ وهو الاشتعال بالنفخ.. إلى آخر ما ذكره الشيخ.

فإن قلت[2]: قال هنا بلفظ: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي المؤمنين بلفظ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فلم غاير بين الأسلوبين؟

قلت: لأن المذكور هنا صفة ذرية آدم، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام.

ثم خاطب جميع النوع فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ أي: خلق ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم يا بني آدم ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا الآيات التنزيلية الناطقة بالبعث وبالتوحيد، وإفراد ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لكونه مصدراً يشمل القليل والكثير. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتبصروا الآيات التكوينية المشاهدة فيهما ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتعقلوا وتستدلوا بها على حقيقة

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.

الآيتين، جمع فؤاد بمعنى القلب، لكن إنما يقال: فؤاد: إذا اعتبر في القلب معنى التفؤد؛ أي: التوقد.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون رب هذه النعم شكراً قليلاً، على أن القلة بمعنى النفي والعدم، فهو بيان لكفرهم بتلك النعم وربها، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ إلى الخطاب، والنكتة: أن الخطاب إنما يكون مع الحي، فلما نفخ فيه الروح.. حسن خطابه. ا هـ. «صاوي».

وخص[1] ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم، ولهذا جمعا، لأن السمع قوة واحدة، ولها محل واحد، وهو الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء، وكذلك الفؤاد، له نوع اختيار في إدراكه، فيتعقل هذا دون هذا، ويفهم هذا دون هذا.

والمعنى: أي وأنعم عليكم فأعطاكم السمع تسمعون به الأصوات، والأبصار تبصرون بها المرئيات، والأفئدة تميزون بها بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وجاء الترتيب[2] هكذا بتقديم السمع ثم البصر ثم الفؤاد، لما ثبت من أن الطفل بعد الولادة يسمع ولا يبصر مدى ثلاثة أيام، ثم يبتدىء يبصر، ثم يبتدىء يدرك ويميز، كما هو مشاهد، ثم إن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران، إلا من رحم الله تعالى، فقال: ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: شكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تشكرون ربكم على هذه النعم، التي أنعم بها عليكم باستعمالها في طاعته، وعمل ما يرضيه، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله، وتركهم لشكرها، إلا فيما ندر من الأحوال.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: وقال[1] كفار مكة، كأبي بن خلف وأضرابه من المنكرين للبعث بعد الموت: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنبعث ويجدد خلقنا إذا متنا وغبنا في الأرض بالدفن فيها، وذهبنا عن أعين الناس، وصرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض، بحيث لا نتميز منه؟! و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، وذلك المحذوف هو العامل في ﴿إذا﴾، و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار السابق وتذكيره؛ أي: ﴿أَءِنَّا﴾ ﴿لـ﴾ نبعث ونكون ﴿في خلق جديد﴾ بعد موتنا وانعدامنا، ونصير أحياء كما كنا قبل موتنا، يعني هذا منكر عجب، فإنهم كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه، وإنما ينكرون البعث، فالاستفهام الإنكاري متوجه إلى البعث دون الموت، وقد تقدم اختلاف القراء في همزة ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ والتي بعدها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضللنا﴾ بفتح اللام، والمضارع يضل بكسر عين الكلمة، وهي اللغة الشهيرة الفصيحة، وهي لغة نجد، وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب، بكسر اللام، والمضارع بفتحها، وهي لغة أهل العالية، وقرأ أبو حيوة ﴿ضللنا﴾ بالضاد المنقوطة، وضمها وكسر اللام مشددة، ورويت عن علي، وقرأ علي وابن عباس والحسن والأعمش وأبان بن سعيد بن العاص ﴿صللنا﴾ بالصاد المهملة وفتح اللام، ومعناه: أنتنّا، وعن الحسن: ﴿صللنا﴾ بكسر اللام، يقال: صل يصل بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع، وصل يصل بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع، وأصل يصل بالهمزة على وزن أفعل، وقال الفراء: معناه صرنا بين الصلة، وهي الأرض اليابسة الصلبة، وقال النحاس: لا نعرف في اللغة: صللنا، ولكن يقال أصل اللحم وصل، وأخم وخم: إذا أنتن، وحكاه غيره.

والمعنى[3]: أي وقال المشركون بالله، المكذبون بالبعث: أئذا صارت

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

لحومنا وعظامنا تراباً في الأرض، أنبعث خلقاً جديداً.

وخلاصة مقالهم: استبعاد الإعادة، بأنها كيف تعقل، وقد تمزقت الجسوم، وتفرقت في أجزاء الأرض وهم قد قاسوا قدرة الخالق، الذي بدأهم أول مرة، وأنشأهم من العدم، بقدرة المخلوق العاجز، شتان ما بينهما ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم أضرب[1] وانتقل من بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة، وما يلقونه فيها من الأهوال، فقال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ما بهؤلاء المشركين جحود قدرة الله تعالى على ما يشاء فحسب، بل هم تعدوا ذلك إلى الجحود بلقاء ربهم، حذر عقابه، وخوف مجازاته إياهم على معاصيهم، ولقاء الله: عبارة عن القيامة وعن المصير إليه؛ أي: بل هم جاحدون بلقاء ربهم مكابرةً وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبتدىء للخلق، يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة، فمن أنكر لقاء الله.. لقيه وهو عليه غضبان، ومن أقره.. لقي الله وهو عليه رحمٰن.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، بياناً للحق، ورداً على زعمهم الباطل ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم ملك الموت عزرائيل، بحيث لا يترك منها شيئاً، بل يستوفيها، ويأخذها تماماً على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها، من ضرب وجوهكم وأدباركم، أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحداً، ولا يبقي شخصاً من العدد الذي كتب عليهم الموت، وأما ملك الموت، فيتوفاه الله تعالى، كما روي: «أنه إذا أمات الله الخلائق، ولم يبق شيء له روح.. يقول الله لملك الموت: من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول: يا رب أنت أعلم بمن بقي، لم يبق إلا عبدك الضعيف ملك الموت، فيقول الله: يا ملك الموت قد أذقت أنبيائي ورسلي وأوليائي وعبادي الموت، وقد سبق في علمي القديم، وأنا علام الغيوب، أن كل شيء هالك إلا وجهي، وهذه نوبتك، فيقول: إلٰهي: ارحم

---

(١) روح البيان.

عبدك ملك الموت، والطف به، فإنه ضعيف، فيقول سبحانه وتعالى: ضع يمينك تحت خدك الأيمن، واضطجع بين الجنة والنار ومت فيموت بأمر الله تعالى».

وفي الآية[١]: رد على الكافرين، حيث زعموا أن الموت من الأحوال الطبيعية، العارضة للحيوان بموجب الجبلة.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ أي: جعل موكلاً بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لا إلى غيره، ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تبعثون وتردون إلى لقاء ربكم للحساب والمجازاة فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿ترجعون﴾ مبنياً للمفعول، وزيد بن علي: مبنياً للفاعل.

ومعنى الآية: أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم، يستوفي العدد الذي كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته. وفي هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة، قادر على الإحياء.

فإن قلت[٣]: إن الله تعالى أخبر هنا أن ملك الموت هو المتوفي والقابض، وفي آيةٍ أخرى: أن القابض هو الرسل؛ أي: الملائكة، وفي أخرى أنه هو تعالى، فما وجه الجمع بين هذه الآي؟

قلت: يجمع بينها: بأن ملك الموت يقبض الأرواح، والملائكة أعوان له يعالجون ويعملون بأمره، والله تعالى يزهق الروح، فالفاعل لكل فعل حقيقة، والقابض لأرواح جميع الخلائق هو الله تعالى، وأن ملك الموت وأعوانه وسائط.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

قال ابن عطية: إن البهائم كلها يتوفى الله تعالى أرواحها دون ملك الموت، كأنه يعدم حياتها، وكذلك الأمر في بني آدم، إلا أن لهم نوع شرف بتصرف ملك الموت والملائكة معه في قبض أرواحهم. انتهى.

والخطاب في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يصلح له، وقال في «الكواشي»: ﴿لو﴾ و﴿إذ﴾ للماضي ودخلتا على المستقبل هنا، لأن المستقبل من فعله تعالى كالماضي، لتحقق وقوعه، و﴿لو﴾ امتناعية، جوابها: محذوف، والمراد بالمجرمين: هم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ إلخ، أو عام لكل مجرم، والرؤية بصرية.

والمعنى: ولو ترى يا محمد إذ المجرمون القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ.

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مطرقوا رؤوسهم ومطأطئوها في موقف العرض على الله من الحياء والحزن والغم.

وقرأ زيد بن علي: ﴿نكسوا رؤوسهم﴾ فعلاً ماضياً ومفعولاً، وقرأ الجمهور: باسم فاعل مضافاً، حالة كونهم يقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ أي: صرنا ممن يبصر ويسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والمسموعة، وكنا من قبل عمياً لا ندرك شيئاً ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾؛ أي: فارددنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن صدق الرسول، ومؤمنون بك وبكتابك، وجواب ﴿لو﴾: محذوف كما مر، تقديره: لرأيت أمراً عجيباً، وشأناً فظيعاً، فهذا[1] الأمر مستقبل في التحقيق، ماض بحسب التأويل، كأنه قيل: قد انقضى الأمر ومضى، لكنك ما رأيته، ولو رأيته لرأيت أمراً فظيعاً.

قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ مقول لقول محذوف، معطوف على قول مقدر قبل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ تقديره: ونقول رداً لقولهم ذلك: ولو شئنا؛ أي: ولو تعلقت

---

(١) روح البيان.

مشيئتنا وإرادتنا تعلقاً فعلياً، بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح بالتوفيق لها، ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ أي: لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب، فلم يكفر منهم أحد، وما أخرنا ذلك الإعطاء إلى دار الجزاء.

قال النحاس في معنى هذا قولان: أحدهما أنه في الدنيا، والآخر أنه في الآخرة؛ أي: ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا. ا هـ.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: ثبت قضائي، وسبق وعيدي، وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لأجعلن نار جهنم ملأى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ بالكسر، جماعة الجن، والمراد: الشياطين وكفار الجن ﴿وَ﴾ من ﴿النَّاسِ﴾ الذين اتبعوا إبليس في الكفر والمعاصي ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر، هذا[1] هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول: أنه لا يعطي كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم مما يختار الضلالة على الهدى؛ أي: ولولا ذلك.. لأكرمت كل نفس بالمعرفة والتوحيد.

وقال بعضهم[2]: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ...﴾ الآية. ﴿لأملأن...﴾ إلخ. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في الأزل هدايتكم وهداية أهل الضلالة ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ بإصابة رشاش النور على الأرواح ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ قبل وجود آدم وإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إلخ؛ أي: ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم، كما تعلقت بإهداء قوم، وأردنا أن يكون للنار قطان، كما أردنا أن يكون للجنة سكان، إظهاراً لصفات لطفنا، وصفات قهرنا، لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي، والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني فعال لما أريد. انتهى.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

فإن قلت[1]: لم قدم الجن على الإنس في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟

قلت: قدمها لأن المقام مقام تحقير، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل، ولا يلزم من قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ دخول جميع الإنس والجن فيها، لأنها تفيد عموم الأنواع لا الأفراد، فالمعنى: لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً، كما ذكره بعض المحققين، ورد: بأنه لو قصد ما ذكر.. كان المناسب التثنية دون الجمع، بأن يقول: كليهما، فالظاهر أنها لعموم الأفراد، والتعريف فيهما للعهد، والمراد عصاتهما، ويؤيده قوله في آية أخرى خطاباً لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فتأمل.

ومعنى الآيتين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ...﴾ إلخ؛ أي[2]: ولو ترى أيها الرسول هؤلاء القائلين: أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد، ناكسي رؤوسهم عند ربهم، حياءً وخجلاً منه لما سلف منهم، من معاصيهم له في الدنيا، قائلين: ربنا أبصرنا الحشر، وسمعنا قول الرسول، وصدقنا به، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالح الأعمال.. لرأيت أمراً فظيعاً، وهذا منهم عود على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار، كما حكى عنهم سبحانه قولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ثم ادعوا اطمئنان قلوبهم حينئذٍ، وقدرتهم على فهم معاني الآيات، والعمل بموجبها، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنا قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا جهالاً من وحدانيتك، وأنه لا يصلح للعبادة سواك، وأنك تحيي وتميت، وتبعث من في القبور بعد الممات والفناء، وتفعل ما تشاء، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا...﴾ الآية.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ أي: ولو أردنا أن نلهم كل نفس ما

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح.. لفعلنا، ولكن تدبيرنا للخلق على نظمٍ كاملةٍ كفيلة بمصالحه، قضى أن نضع كل نفس في المرتبة التي هي أهل لها، بحسب استعدادها، كما توضع في الإنسان العين في موضع لا يصلح له الظفر، والإصبع والمعدة في موضع لا يصلح له القلب، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ إلخ؛ أي: ولكن سبق وعيدي بملء جهنم من الجنة والناس، الذين هم أهل لها بحسب استعدادهم، ولا يصلحون لدخول الجنة، كما لا يعيش البعوض والذباب إلا في الأماكن القذرة، ليخلص الجو من العفونات، ولو جعلا في القصور النظيفة النقية.. ما عاشا فيها، إذ لا يجدن فيها غذاءً ولا منفعةً لهما.

وهكذا هؤلاء، إذا رأوا العالم المضيء المشرق، والأنوار المتلألئة، والحياة الطيبة في الجنة.. لم يستطيعوا دخولها، وعجزوا عن ذلك، فما مثلهم إلا كمثل السمك، الذي لا يعيش في البر، ومثل ذوات الأربع التي لا تعيش في البحر.

فلما بين لهم أنه لا رجوع لهم إلى الدنيا.. أنبهم على ما عملوا من تدسية نفوسهم بفعل المعاصي وترك الطاعة له، فقال: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه لا رجوع لكم إلى الدنيا، وأردتم بيان مآلكم.. فأقول لكم، ذوقوا. و﴿الباء﴾: في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾: للسببية، أتى بها[1] إشارةً إلى أنه وإن سبق القول في حق التعذيب، لكنه كان بسبب موجبٍ من جانبهم أيضاً، فإن الله قد علم منهم سوء الاختيار، وذلك السبب هو نسيانهم لقاء هذا اليوم الهائل، وتركهم التفكر فيه، والاستعداد له بالكلية، بالاشتغال باللذات الدنيوية وشهواتها، فإن التوغل فيها يذهل الجن والإنس عن تذكر الآخرة وما فيها، من لقاء الله تعالى، ولقاء جزائه ويسلط عليهم نسيانها، وإضافة اللقاء إلى اليوم، كإضافة

(١) روح البيان.

المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: لقاء الله في يومكم هذا.

وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوماً، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم؛ أي: فإذا دخلوا النار.. قالت لهم الخزنة: ذوقوها وجربوها بسبب نسيانكم وترككم الاستعداد للقاء ربكم في يومكم هذا، بترك الإيمان والطاعات.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنكم كنتم في الغفلة، والنائم لا يذوق ألم ما عليه من العذاب ما دام نائماً، ولكنه إذا انتبه من نومه.. يذوق ألم ما به من العذاب، فالناس نيام، ليس لهم ذوق ما عليهم من العذاب، فإذا ماتوا انتبهوا، فقيل لهم: ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ أي: تركناكم في العذاب ترك المنسي بالكلية، استهانة بكم، ومجازاةً لما تركتم، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ من الرحمة، كما نسيتمونا من الخدمة.

أي[1]: فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم، واستبعادكم وقوعه، وعملكم عمل من لا يظن أنه راجع إلى ربه فملاقيه، ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل المعاصي، فقال: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، وهذا أسلوب في الكلام، يسمى أسلوب المشاكلة، ونحوه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: ذوقوا وباشروا العذاب المخلد في جهنم، الدائم الذي لا ينقطع أبداً، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، مثل عذاب الحريق، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب الذي كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهو تكرير[2] للأمر للتأكيد وإظهار الغضب عليهم، وتعيين المفعول المطوي للذوق، والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان، بل له أسباب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أخر، من فنون الكفر والمعاصي، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا.

أي: وذوقوا عذاباً تخلدون فيه إلى غير نهاية، بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم، واجتراحكم للشرور والآثام، قال الشوكاني: واختلف[1] في النسيان المذكور، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر، وقيل: هو الترك، والمعنى على الأول: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له، الذين لا يذكرونه، وعلى الثاني: لا بد من تقدير مضاف قبل لقاء؛ أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد، وكذا قال الضحاك ويحيى بن سلام: إن النسيان هنا بمعنى الترك، قال يحيى بن سلام: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم، تركناكم من الخير، وقال مجاهد: تركناكم في العذاب. انتهى.

وقال الرازي في «تفسيره»: إن[2] اسم الإشارة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب. انتهى.

وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[3]: مستأنفة لبيان من يستحق الهداية إلى الإيمان، ومن لا يستحقها، تسلية للنبي - ﷺ -؛ أي: إنكم أيها المجرمون لا تؤمنون بآياتنا، ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، و﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ ووعظوا ﴿بِهَا﴾؛ أي: بآياتنا ﴿خَرُّوا۟﴾ وسقطوا على وجوههم حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله سبحانه وتعالى؛ أي: ساجدين خوفاً من عذاب الله ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾؛ أي: نزهوه تعالى عن كل ما لا يليق به من الشرك والشبه والعجز عن البعث وغير ذلك، حال كونهم ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على نعمائه، كتوفيق الإيمان والعمل الصالح وغيرهما.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الرازي.
(٣) الشوكاني.

والمعنى: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو: سبحان ربي الأعلى وبحمده، وقال سفيان: صلوا حمداً لربهم، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: إما حال من فاعل: ﴿خَرُّواْ﴾؛ أي: خروا حال كونهم غير متكبرين عن السجود لله تعالى، كما استكبر أهل مكة، أو عطف[1] على صلة ﴿الذين﴾؛ أي: لا يتعظمون عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن سجودك، كما استكبر إبليس أن يسجد لك إلى قبلة آدم، ولو سجد لآدم بأمرك.. لكان سجوده في الحقيقة لك، وكان آدم قبلة للسجود، كما أن الكعبة قبلة لنا في سجودنا لك. انتهى.

قال بعضهم: وليس الإنسان بمعصوم عن إبليس في صلاته، إلا في سجوده، لأنه حينئذٍ يتذكر الشيطان معصيته فيحزن، ويشتغل بنفسه، ويعتزل عن المصلي، فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان، غير معصوم من النفس، فخواطر السجود، إما ربانية، أو ملكية، أو نفسية، وليس للشيطان عليه من سبيل، فإذا قام من سجوده.. غابت تلك الصفة عن إبليس، فزال حزنه واشتغل بك.

فصل: هذا محل سجود بالاتفاق

وهذه الآية من عزائم سجود القرآن، فيسن السجود عند تلاوتها للقارىء والمستمع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد، ويسجدون حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته في غير وقت الصلاة. متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم

---

(١) روح البيان.

السجدة فسجد.. اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلتا، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» أخرجه مسلم.

وينبغي[1] أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها، ففي هذه الآية يقول: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وكره مالك رحمه الله تعالى قراءة السجدة في قراءة صلاة الفجر جهراً وسراً، فإن قرأ هل يسجد؟ فيه قولان، كذا في «فتح الرحمٰن».

قال في «خلاصة الفتاوى»: رجل قرأ آية السجدة في الصلاة، إن كانت السجدة في آخر السورة، أو قريباً من آخرها، بعدها آية أو آيتان إلى آخر السورة، فهو بالخيار، إن شاء ركع بها ينوي التلاوة، وإن شاء سجد ثم يعود إلى القيام فيختم السورة، وإن وصل بها سورة أخرى كان أفضل، وإن لم يسجد للتلاوة على الفور حتى ختم السورة، ثم ركع سجد لصلاته. سقط عنه سجدة التلاوة. انتهى.

وجملة قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾؛ أي: ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ أي: أضلاعهم ﴿عن المضاجع﴾؛ أي: عن الفرش ومواضع النوم، إما مستأنفة مسوقة لبيان بقية محاسن المؤمنين، أو حال من فاعل ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: وهم لا يستكبرون عن السجود حالة كون جنوبهم متجافية مبتاعدة عن مضاجعهم للصلاة، وهم[2] المتهجدون في الليل، الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور، والمراد بالصلاة: صلاة التنفل بالليل من غير تقييد، وقال قتادة وعكرمة: هو التنفل ما بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن وعطاء، وقال الضحاك: صلاة العشاء والصبح جماعةً، وقيل: هم الذين يقومون لذكر الله، سواء كان في صلاة أو غيرها.

وفي إسناد التجافي إلى الجنوب دون أن يقال: يجافون جنوبهم إشارة إلى

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

أن حال أهل اليقظة والكشف، ليس كحال أهل الغفلة والحجاب، فإنهم لكمال حرصهم على المناجاة، ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم، كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[١]: أنه قال في الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: كلما استيقظوا.. ذكروا الله عز وجل، إما في الصلاة، وإما في قيام أو قعود أو على جنوبهم، لا يزالون يذكرون الله تعالى.

وجملة قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال من ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ أي: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، حال كونهم يدعون ربهم على الاستمرار ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته منهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وثوابه، وانتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على العلة، أو على المصدرية بعامل محذوف.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: ومما أعطيناهم من المال ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: يصرفون في وجوه الخير والحسنات، معطوف على ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾. قال بعضهم[٢]: وهذا الإنفاق عام في الواجب والتطوع، وذلك على ثلاثة أضرب: زكاة من نصاب، ومواساة من فضل، وإيثار من قوت.

ومعنى الآيتين[٣]: أي ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا، إلا الذين إذا وعظوا بها.. خروا لله سجداً تذللاً واستكانة لعظمته، وإقراراً بعبوديته، ونزهوه في سجودهم عما لا يليق به، مما يصفه به أهل الكفر، من الصاحبة والولد والشريك، يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن طاعته، كما يفعل أهل الفسق والفجور حين يسمعونها، فإنهم يولون مستكبرين، كأن لم يسمعوها.

ثم ذكر بقية محاسنهم بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلخ؛ أي: يتنحون عن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

مضاجعهم التي يضطجعون فيها لمنامهم، فلا ينامون، داعين ربهم خوفاً من سخطه وعذابه، وطمعاً في عفوه عنهم وتفضله عليهم برحمته ومغفرته، ومما رزقناهم من المال، ينفقون في وجوه البر، ويؤدون حقوقه التي أوجبها عليهم فيه.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عمن عداهم، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا تعلم نفس من النفوس؛ أي: نفس كانت ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾؛ أي: ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة من التجافي والدعاء والإنفاق.

والمراد: لا تعلم نفس ما أخفي لهم علماً تفصيلياً، وإلا فنحن نعلم ما أعد للمؤمنين من النعيم إجمالاً، من حيث إنه غرفٌ في الجنة وقصور وأشجار وأنهار وملابس ومآكل وغير ذلك، ذكره أبو السعود.

ومحل الجملة: نصب بـ﴿لا تعلم﴾ سدت مسد المفعولين ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾؛ أي: مما تقر به أعينهم، إذا رأوه، وتسكن به أنفسهم، وتطمئن إليه قلوبهم من النعيم واللذات، التي لم يطلع على مثلها أحد مما يحصل به الفرح.

جوزوا ذلك ﴿جَزَآءً﴾ وفاقاً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا، من إخلاص النية وصدق الطوية في الأعمال الصالحة، أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

روى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ -: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر،

ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنه لفي القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذه عدة عظيمة، لا تبلغ الأفهام كنهها، بل ولا تفاصيلها، وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة، وهي معروفة، فلا نطيل الكلام بذكرها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾، فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وحمزة والأعمش ويعقوب: بسكون الياء، فعلاً مضارعاً للمتكلم، وابن مسعود: ﴿ما نخفى﴾ بنون العظمة، والأعمش أيضاً: ﴿أخفيت﴾ وقرأ محمد بن كعب: ﴿ما أخفي﴾، فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿من قرة﴾ على الإفراد، وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعوف العقيلي: ﴿من قرات﴾ على الجمع بالألف والتاء، وهي رواية عن أبي جعفر والأعمش.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف، إن قلنا إنه علم على السورة، تقديره: هذه السورة: ﴿الٓمٓ ۝١﴾؛ أي: مسماة به، والجملة مستأنفة، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية للجنس، ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿فِيهِ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر ﴿تَنزِيلُ﴾، والجملة: مستأنفة، وههنا أعاريب آخر، ضربنا عنها صفحاً، لئلا يطول الكلام، وقد تقدم في أول البقرة ما يشبه هذا. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب إبطال لإبطال قولهم، ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ

---

(١) البحر المحيط.

وخبر، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الْحَقُّ﴾، ﴿لِتُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: لإنذارك قوماً، والمفعول الثاني: للإنذار، محذوف، والجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أنزلناه إليك لتنذر قوماً العقاب، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿مَّا أَتَاهُم﴾: ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿أَتَاهُم﴾: فعل ومفعول به، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: فاعل، والجملة: صفة ﴿قَوْمًا﴾، ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: صفة لـ﴿نَّذِيرٍ﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿أَتَاهُم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول، ﴿السَّمَاوَاتِ﴾: مفعول به، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف عليه، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ولكنها هنا بمعنى الواو، ﴿اسْتَوَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: متعلق بـ﴿اسْتَوَىٰ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن دُونِهِ﴾: حال من ﴿وَلِيٍّ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ أو ﴿اسْتَوَىٰ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفلا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تتذكرون﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُدَبِّرُ﴾، و﴿مِنَ﴾ للابتداء، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به أيضاً.. و﴿إِلَى﴾ للانتهاء، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَمْرَ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَعْرُجُ﴾، والجملة الفعلية: حال من الأمر، أي: حال كون ذلك الأمر المدبر يرجع إليه، ﴿فِي يَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْرُجُ﴾ أيضاً، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: خبره، وجملة ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿سَنَةٍ﴾، وجملة ﴿تَعُدُّونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: مما تعدونه.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ثان لاسم الإشارة، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثالث له، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبر رابع له، ويجوز أن يكون نعتاً لـ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو رفعه أو نصبه على القطع، ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الجر صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾ أو في محل النصب صفة لـ﴿كُلَّ﴾، وقرىء: خلقه بسكون اللام، فيكون بدل اشتمال من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾، والضمير عائد على ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ ﴿وَبَدَأَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿أَحْسَنَ﴾. ﴿خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾: مفعول به، ﴿مِن طِينٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلْقَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على

الله، ومفعول به معطوف على ﴿بدأ﴾، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى الخلق، أو في محل نصب على أنه مفعول ثان له، ﴿مِن مَّآءٍ﴾ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة لـ﴿مَّآءٍ﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿سَوَّىٰهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ إن كان الضمير لـ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، أو معطوف على ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ إن كان الضمير للنسل، ﴿وَنَفَخَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿سَوَّىٰهُ﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخ﴾، ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نفخ﴾ أيضاً، أو مفعوله إن قلنا ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿نفخ﴾، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول به لـ﴿جعل﴾، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلسَّمْعَ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أو على الظرفية، والعامل فيه: ﴿تَشْكُرُونَ﴾، ﴿مَّا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد القلة، ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل؛ أي: تشكرون شكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، مسوقة لبيان ضروب من أباطيلهم، ﴿أَءِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، مقدمة على محلها، لأنها داخلة على جواب، ﴿إذا﴾ المقدر، تقديره: إذا ضللنا في الأرض أنبعث، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿ضَلَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب

المحذوف، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري أيضاً، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في خلق﴾: خبر ﴿إن﴾، ﴿جَدِيدٍۭ﴾: صفة ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ أيضاً. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي من بيان كفرهم بالبعث، إلى ما هو أدل على قبح صنيعهم، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. و﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبرهم، والجملة: مستأنفة، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به، ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، ﴿وُكِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله: ضمير يعود على الموصول، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿وُكِّلَ﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل معطوف على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على كونه مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: مبتدأ، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: خبر ومضاف إليه، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿نَاكِسُوا۟﴾، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه، والظرف: متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ لتحقق وقوعه، كـ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وجعله أبو البقاء مما وقعت فيه، ﴿إِذِ﴾: موقع إذا، و﴿تَرَىٰٓ﴾ بصرية، مفعولها محذوف، أغنى عنه المبتدأ، وجواب ﴿لو﴾: محذوف، والتقدير: ولو ترى المجرمين وقت نكوسهم رؤوسهم عند ربهم.. لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، ﴿أَبْصَرْنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول محذوف؛ أي: صدق وعدك

ووعيدك، ﴿وَسَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَبْصَرْنَا﴾، ومفعوله محذوف؛ أي: تصديق رسلك، وجملة ﴿أَبْصَرْنَا﴾: جواب النداء، وجملة النداء مع جوابه: مقول لقول محذوف، منصوب على الحال من الضمير المستكن في ﴿نَاكِسُوا﴾، تقديره: ناكسوا رؤوسهم، حالة كونهم قائلين: ربنا أبصرنا وسمعنا، فارجعنا نعمل صالحاً، ﴿فَارْجِعْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿ارجعنا﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري، مبني على السكون، وفاعله: ضمير يعود على الله، و﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَبْصَرْنَا﴾ وإن كانت إنشائية لجوازه، ﴿نَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على المتكلمين، ﴿صَالِحًا﴾: مفعول به، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مُوقِنُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة لقول محذوف على قول محذوف عند قوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا، ونقول لهم: لو شئنا لآتينا كل نفس هداها في الدنيا إلخ، أو استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط ﴿لو﴾، ﴿لَآتَيْنَا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿آتينا﴾: بمعنى أعطينا، فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب مقول للقول المحذوف، أو مستأنفة، ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾: مفعول أول لـ﴿أتينا﴾، ﴿هُدَاهَا﴾: مفعول ثانٍ له. ﴿وَلَكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنِّي﴾: متعلق بـ﴿حَقَّ﴾، أو حال من ﴿الْقَوْلُ﴾: وجملة الاستدراك: معطوفة على جملة ﴿لو شئنا﴾، ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أملأن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله: ضمير يعود على الله، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿أملأن﴾،

﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه: في محل الرفع بدل من القول، على كونه فاعلاً محكياً، لـ﴿حَقَّ﴾ بدل كل من كل.

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل، والمفعول: محذوف لدلالة ما بعده عليه؛ أي: فذوقوا العذاب، والجملة الفعلية: معطوفة مفرعة على جملة ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿نَسِيتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: فذوقوا العذاب بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿ذوقوا﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَذُوقُواْ﴾: مؤكدة لها، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر بـ﴿الباء﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: بما كنتم تعملونه، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿ذوقوا﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق

بالجواب، ﴿بِهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾. ﴿خَرُّواْ﴾: فعل وفاعل ﴿سُجَّدًا﴾: حال من واو ﴿خَرُّواْ﴾، وجملة ﴿خَرُّواْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب أيضاً، ﴿وَسَبَّحُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿خَرُّواْ﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿سبحوا﴾؛ أي: سبحوا حالة كونهم ملتبسين بحمد ربهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَرُّواْ﴾ أو معطوفة على صلة ﴿الَّذِينَ﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾: فعل مضارع، ﴿جُنُوبُهُمْ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان بقية خصالهم الحميدة، أو حال من فاعل ﴿سبحوا﴾، ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَجَافَىٰ﴾، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ لأن المضاف جزء من المضاف إليه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: منصوبان، إما: على التعليل، أو على الحال، أو على المصدرية لفعل محذوف؛ أي: يخافون خوفاً، ويطمعون طمعاً، ﴿وَمِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: ومما رزقناهموه ﴿يُنفِقُونَ﴾، فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ على كونها مستأنفة. ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية أو فصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت الخصال الحميدة المذكورة لهؤلاء، وأردت معرفة جزائهم عند الله تعالى.. فأقول لك: لا تعلم نفس، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة: ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، لـ﴿تَعْلَمُ﴾، لأن علم هنا بمعنى عرف، ﴿أُخْفِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿أُخْفِيَ﴾، ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: جار ومجرور حال من

نائب فاعل ﴿أُخْفِيَ﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: جوزوا ذلك جزاءً، والجملة المحذوفة: مستأنفة على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَزَآءً﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: يعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افتعله واختلقه من عند نفسه.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: التدبير: التفكر في دبر الأمور، والنظر في عاقبتها، وهو بالنسبة إليه تعالى التقدير: وتهيئة الأسباب، وله تعالى مدبرات سماوية كما قال: ﴿فالمدبرات أمراً﴾.

والمعنى: يدبر الله تعالى أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها. وأضاف التدبير إلى ذاته، إشارة إلى أن تدبير العباد عند تدبيره لا أثر له.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ العروج: ذهاب في صعود، من عرج بفتح الراء، يعرج بضمها، من باب نصر، إذا صعد؛ أي: يصعد ذلك الأمر إليه تعالى، ويثبت في علمه موجوداً بالفعل.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم، كما قال الشاعر:

يَـوْمَـانِ يَـوْمُ مَـقَـامَـاتٍ وَأَنْـدِيَـةٍ   وَيَـوْمُ سَـيْـرٍ إِلَىٰ ٱلأَعْـدَاءِ تَـأْوِيْـبُ

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم شطرين، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الخلق.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما شوهد لهم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالب على أمره، الذي لا يغالب على ما أراده.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: المنعم على عباده.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: قال الراغب: الإحسان: يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان من فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً، وعلى هذا قول أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ: الناس على ما يحسنون؛ أي: منسوبون إلى ما يعلمون من الأفعال الحسنة. انتهى.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: خلق آدم أبي البشر عليه السلام.

﴿مِن طِينٍ﴾: الطين: التراب والماء المختلط.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾؛ أي: ذريته، سميت به لأنها تنسل من الإنسان؛ أي: تنفصل، كما قال في «المفردات»: النسل الانفصال من الشيء، والنسل: الولد، لكونه ناسلاً عن أبيه. انتهى.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾؛ أي: من نطفة مسلولة؛ أي: منزوعة من صلب الإنسان.

﴿مَّهِينٍ﴾؛ أي: ضعيف حقير، كما في «القاموس».

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾؛ أي: قوم النسل بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: جمع فؤاد، بمعنى: القلب، لكن إنما يقال: فؤاد، إذا اعتبر في القلب معنى التفؤد؛ أي: التوقد، كما مرّ.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قال في «القاموس»: ضل صار تراباًوعظاماً وخفي وغاب. انتهى. وأصله: ضل الماء في اللبن: إذا غاب وهلك.

والمعنى: هلكنا وصرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض، بحيث لا يتميز منه،

أو غبنا فيه بالدفن، وذهبنا عن أعين الناس.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: التوفي: أخذ الشيء تاماً وافياً، واستيفاء العدد، قال في «الصحاح»: توفاه الله: قبض روحه، والوفاة: الموت، والملك: جسم لطيف نوراني، يتشكل بأشكال مختلفة، قال بعض المحققين: المتولي من الملائكة شيئاً من السياسة، يقال له: ملك بالفتح، ومن البشر يقال له: ملك بكسر اللام، فكل ملك ملائكة، وليس كل ملائكة ملكاً، بل الملك هم المشار إليهم بقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: ونحو ذلك، ومنه ملك الموت. انتهى. والموت: صفة وجودية، خلقت ضداً للحياة.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ التوكيل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائباً عنك، والتوكل: أن تكون نائباً عن غيرك.

فائدة في التفعل والاستفعال: قال الزمخشري: والتوفي: استيفاء النفس، وهي الروح، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾.

وإن قلت: كيف نفسر التوفي بالاستيفاء؟

قلت: إنه معلوم أن التفعل فيما يلي:

١ ـ مطاوعة الرباعي المضعف، نحو نبهته فتنبه، وجمعته فتجمع، وكسرته فتكسر، وقطعته فتقطع.

٢ ـ التكلف: نحو تصبر وتكرم وتشجع؛ أي: تكلف الصبر والكرم والشجاعة.

٣ ـ الاتخاذ: نحو توسد ذراعه؛ أي: اتخذه وسادةً، وتورك البعير؛ أي: اتخذ وركه مطية، وتبنيت يوسف؛ أي: اتخذته ابناً.

٤ ـ التجنب: نحو تأثم؛ أي: تجنب الإثم، وتهجد؛ أي: تجنب الهجود وهو النوم، وتذمم؛ أي: تجنب الذم.

٥ ـ التدريج: نحو تحفظت الدرس؛ أي: حفظته قسماً بعد قسم، وتجرعت

الدواء؛ أي: أخذته جرعةً.

٦ ـ الصيرورة: نحو تأيمت المرأة؛ أي: صارت أيماً؛ أي: لا زوج لها.

٧ ـ الطلب نحو تعجل الشيء؛ أي: طلب عجلته، وتبينه؛ أي: طلب بيانه.

٨ ـ الانتساب: نحو تبدى؛ أي: انتسب إلى البادية.

وأشهر معاني الاستفعال ما يأتي:

١ ـ الطلب: نحو استقدمت فلاناً؛ أي: طلبت قدومه، واستخرجت حل المسألة؛ أي: حصلت عليه بعد طلبٍ.

٢ ـ الصيرورة: نحو استحجر الطين؛ أي: صار حجراً، واستنوَق الجمل؛ أي: صار كالناقة، واسترجلت المرأة؛ أي: صارت كالرجل.

٣ ـ النسبة: نحو استوصبت رأيه؛ أي: أي نسبت إليه الصواب، واستقبحت فعله؛ أي: نسبت إليه القبح.

٤ ـ اختصار اللفظ: نحو استرجع القوم؛ أي: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٥ ـ القوة: نحو استهتر؛ أي: اشتد هتاره، واستكبر؛ أي: قوي كبره، وقد تأتي هذه الصيغة بمعنى أفعل، نحو استجاب بمعنى أجاب، وقد تكون مطاوعاً له، نحو أحكمت البناء، فاستحكم، وأقمت اعوجاجه فاستقام.

﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ النكس: قلب الشيء على رأسه؛ أي: مطرقوا رؤوسهم.

﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ قال في المفردات: خر الشيء إذا سقط سقوطاً، وسمع منه خرير، والخرير: يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من العلو، فاستعمال الخرور في الآية تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح، وقوله: بعد ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله، لا شيئاً آخر. انتهى.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ التجافي: النبوّ والبعد. أخذ من الجفاء، فإن من لم يوافقك... فقد جافاك، وتجنب وتنحى عنك.

﴿جُنُوبُهُمْ﴾: جمع جنب، وهو شق الإنسان وغيره.

﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: جمع مضجع، كمقعدٍ، بمعنى: موضع الضجوع؛ أي: وضع الجنب على الأرض، قال عبد الله بن رواحة:

وَفِيْنَا رَسُوْلُ ٱللَّهِ يَتْلُوْ كِتَابَهُ ... إِذَا ٱنْشَقَّ مَعْرُوْفٌ مِنَ ٱلصُّبْحِ سَاطِعُ
أَرَانَا ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ فَقُلُوْبُنَا ... بِهِ مُوْقِنَاتٌ مَا إِذَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِيْ جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا ٱسْتَثْقَلَتْ بِٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱلْمَضَاجِعُ

﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾؛ أي: خبىء لهم.

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: القرة: بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ما يحصل به القرير؛ أي: الفرح والسرور؛ أي: من شيء نفيس تقربه أعينهم وتسر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تنذر﴾ - و﴿نَّذِيرٍ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. وفي قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: إطلاق المعين، وإرادة المطلق، في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ لأن المراد هنا: مطلق المدة، لا اليوم الذي هو بين ليلتين.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وبين ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: مثل ناقة الله، وبيت الله، إظهاراً بأنه خلق عجيب ومخلوق شريف.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ والأصل وجعل له السمع، والنكتة: أن الخطاب إنما يكون مع الحي، فلما نفخ

تعالى الروح فيه.. حسن خطابه مع ذريته.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وغرضهم: الاستهزاء والاستبعاد.

ومنها: الإضمار في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لأن المتوفي حقيقة: هو الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

ومنها: حذف جواب ﴿لو﴾ للتهويل، في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: لرأيت أمراً مهولاً.

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية، في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حيث لم يقل ولو ترى إذ ينكس المجرمون رؤوسهم، عدل عن الفعلية إلى الاسمية، لتقرير ثباتهم على نكس رؤوسهم، خجلاً وحياءً وخزياً عند ما تبدو مثالبهم، وهناتهم بصورة دميمة شوهاء، تبعث على الهزء بهم، والسخرية منهم، كأنما استمر ذلك منهم لا يرتفع لهم رأس، ولا يمتد منهم طرف.

وكذلك عدل عن الفعلية إلى الاسمية المؤكدة في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنهم ثابتون على الإيقان، راغبون فيه، بعد أن ظهرت لهم المغاب، منادية عليهم بالويل والثبور.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، لأن الله سبحانه لا ينسى ولا يذهل، وإنما المعنى: نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي المرمي ظهرياً.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأن الذوق حقيقة في الشيء اللذيذ.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ للتأكيد والتشديد، ولتبيين المفعول المطوي للذوق الأول، وللإشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا.. ا هـ. «أبو السعود».

ومنها: الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ حيث أسند التجافي إلى الجنوب، ولم يقل يجافون جنوبهم، إشارةً إلى أن حال أهل اليقظة ليس كحال أهل الغفلة، فإنهم لكمال حرصهم على المناجاة، ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك، كما سبق.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته للتأكيد، في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ مثل عذاب الحريق؛ لأن المعنى العذاب المخلد.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ لقصد العموم؛ أي: أي نفس كانت من ملك مقرب، ونبي مرسل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: ما يؤمن بآياتنا إلا الذين إذا ذكروا بآيات ربهم إلخ.

ومنها: حذف العامل في قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لقصد الإيجاز؛ أي: جوزوا جزاءً بما كانوا إلخ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن
يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ
رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم
مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] حال المجرمين والمؤمنين.. عطف على ذلك سؤال العقلاء: هل يستوي الفريقان؟ وبين أنهما لا يستويان، ثم فصل ذلك ببيان مآل كل منهما يوم القيامة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في أول السورة الرسالة والتوحيد والبعث.. عاد في آخرها إلى ذكرها مرةً أخرى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن

---

(١) المراغي.

الله سبحانه لما ذكر الرسالة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد، مع ذكر البرهان عليه بما يرونه من المشاهدات التي يبصرونها.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أثبت الرسالة والتوحيد فيما سبق.. عطف على ذلك ذكر الحشر، وبذلك صار ترتيب آخر السورة متناسقاً مع ترتيب أولها، فقد ذكر الرسالة في أولها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وذكر التوحيد في أولهابقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ وذكر الحشر في أولها بقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾.

أسباب النزول

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الواحدي، وابن عساكر، عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال: الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب: أنا أحد منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت، فإنما أنت فاسق فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله.

وأخرج ابن عدي، والخطيب في «تاريخه» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله.

وأخرج الخطيب وابن عساكر، من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس: أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط، وذلك في سباب كان بينهما، كذا في هذه الرواية: أنها نزلت في عقبة بن الوليد لا الوليد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

---

(١) لباب النقول.

أخرجه ابن جرير عن قتادة، قال الصحابة: إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننعم، فقال المشركون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾؛ أي: مصدقاً في إيمانه، كعلي بن أبي طالب وأضرابه ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: كافراً منافقاً في إيمانه كالوليد بن عَقبة بن أبي معيط وأضرابه. وفي «السمين» أنه ﷺ كان يتعمد الوقف على قوله: ﴿فَاسِقًا﴾ ويبتدىء بقوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: الفريقان: المؤمنون والفاسقون في الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالثواب والكرامة عند الله تعالى، وكان بينهما كلام وتنازع، حتى قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: يا فاسق، وفي «الكرخي»: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: شرفاً ومثوبةً، والضمير في ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ لمن الواقعة على الفريقين، وفيه مراعاة لمعنى ﴿من﴾ بعد مراعاة لفظها.

وعبارة «أبي السعود»: قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ إلخ. الهمزة فيه: للإنكار، داخلة على مقدر؛ أي: أفبعد ما بينهما من التفاوت والتباين، يتوهم كون المؤمن من الذي حكيت أوصافه، كالفاسق الذي ذكرت أحواله، لا، والتصريح بقوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ مع إفادة الإنكار، لنفي المساواة على أبلغ وجه وآكده للتأكيد، وليبني عليه التفصيل الآتي. انتهت.

فالاستفهام للإنكار؛ أي: ليس المؤمن كالفاسق، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، ففيه زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام، قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ لأجل معنى ﴿من﴾، وقيل: لكون الاثنين أقل الجمع.

والمعنى: أي فهذا الكافر المكذب وعد الله ووعيده، المخالف أمره ونهيه، كهذا المؤمن بالله، المصدق وعده ووعيده، المطيع لأمره ونهيه، كلا، لا يستوون عند الله، ولا يتعادل الكفار به والمؤمنون.

وخلاصة ذلك: أبعد ظهور ما بينهما من تفاوت بين، يظن أن المؤمن الذي حكيت أوصافه، كالكافر الذي ذكرت قبائح أعماله؟ كلا، إن الفصل بينهما لا يخفى على ذي عينين.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ الآية.

وبعد أن نفى استواءهما، أتبعه بذكر حال كل منهما على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وصدقوهما ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: مساكن فيها البساتين والدور والغرف العالية.

وفي «الإرشاد»[1] أضيفت الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، ولذلك سميت قنطرةً، لأنها معبر للآخرة لا مقر، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: جنة المأوى كلها من الذهب، وهي إحدى الجنان الثمان، التي هي دار الجلال، ودار القرار، ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّٰتُ﴾ بالجمع.

حالة كون تلك الجنات ﴿نُزُلًۢا﴾ لهم؛ أي: ثواباً وأجراً يكرمون به، كما يكرم الضيف بما يعد له من الطعام النفيس، والنزل، بضمتين في الأصل: ما يعد للنازل والضيف من طعام وشراب، كما سيأتي، ثم صار عاماً في كل عطاء؛ أي: فلهم جنات المأوى ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب أعمالهم الحسنة، التي عملوها في الدنيا نزلاً وجزاءً لهم عليها.

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نزلا﴾ بضم الزاي، وأبو حيوة: بإسكانها، والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً فيما يعد للضيف ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾؛ أي: خرجوا عن دائرة الإيمان والطاعة، بإيثار الكفر والمعصية عليهما، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: منزلهم ومقرهم ومرجعهم، الذين يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل جنات المأوى للمؤمنين ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ أي: من النار.. ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: في النار بمقامع الحديد؛ أي: إذا أرادوا الخروج منها.. ردوا إليها راغمين مكرهين، وهذا عبارة عن الخلود فيها، فإنه لا خروج ولا إعادة في الحقيقة، وقيل: إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها.. ردوا إلى مواضعهم، ويروى: أنه يضربهم لهيب النار، فيرتفعون إلى طبقاتها، حتى إذا قربوا من بابها، وأرادوا أن يخرجوا منها.. يضربهم لهيب النار، أو تتلقاهم الملائكة بمقامع، فتضربهم فيهوون إلى قعرها سبعين خريفاً، وهكذا يفعل بهم أبداً، وكلمة ﴿في﴾ للدلالة على أنهم مستقرون فيها، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ والقائل[2] لهم هذه المقالة، هم خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم هو الله سبحانه جلّ وعلا، وفي هذا القول لهم، حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة ما لا يخفى؛ أي: وقيل لهم إهانةً وتشديداً عليهم، وزيادة في غيظهم: ﴿ذُوقُوا۟﴾ وباشروا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا، وتقولون: لا جنة ولا نار.

قال في «برهان القرآن»: قال هنا[3]: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾. وقال في سبأ: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا﴾ لأن النار في هذه السورة، وقعت موقع الكناية، لتقدم ذكرها، والكنايات لا توصف بوصف العذاب، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار، فحسن وصف النار، وهذه لطيفة فاحفظها. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) برهان القرآن.

وقال في «فتح الرحمٰن»[1] ذكر الوصف والضمير هنا، نظراً للمضاف، وهو، العذاب، وأنثهما ثم نظراً للمضاف إليه، وهو: النار، وخص ما هنا بالتذكير، لأن النار وقعت موقع ضميرها لتقدم ذكره، والضمير لا يوصف، فناسب التذكير، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار، ولا ضميرها فناسب التأنيث. انتهى.

ثم بين أن عذاب الآخرة له مقدمات في الدنيا، لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلاً أو أجلاً، فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي[2]: الأقرب، وهو عذاب الدنيا، وهو ما محنوا به من القحط سبع سنين، بدعاء النبي ﷺ، حين بالغوا في الأذية، حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام المحترقة والعلهز، وهو الوبر والدم، بأن يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، وكذا ابتلوا بمصائب الدنيا وبلاياها، مما فيه تعذيبهم، حتى آل أمرهم إلى القتل والأسر يوم بدر، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: قبل العذاب الأكبر، الذي هو عذاب الآخرة، فـ﴿دُونَ﴾ بمعنى قبل. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل من بقي منهم وشاهده، ولعل في مثل هذا بمعنى كي ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ويتوبون عما هم فيه من الكفر والمعاصي، بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عما كانوا فيه.

والمعنى: أي وعزتي وجلالي[3]، لنبتلينهم بمصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، من المجاعات والقتل، ونحو ذلك، عظةً لهم، ليقلعوا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة.

ثم ذكر حال من قابل آيات الله بالإعراض، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام: إنكاري، بمعنى

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ووعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾؛ أي: عن تلك الآيات، فلم يتفكر فيها، ولم يقبلها، ولم يعمل بموجبها، بل تناساها كأنه لا يعرفها، لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك.

والإتيان[1] بـ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها، مع غاية وضوحها، وإرشادها إلى سعادة الدارين، كقولك لصاحبك: دخلت المسجد، ثم لم تصل فيه، استبعاداً لتركه الصلاة فيه.

والمعنى: هو أظلم من كل ظالم، وإن كان سبك التركيب على نفي الأعظم من غير تعرض لنفي المساوي.

ثم بين جزاءه على ذلك فقال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: من كل من اتصف بإجرام، وإن هانت جريمته ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بالعذاب، فكيف من كان أظلم من كل ظالم، وأشد جرماً من كل مجرم، يقال: انتقمه: إذا عاقبه على جريمته؛ أي: إنا سننتقم أشد الانتقام من الذين اجترحوا السيئات، واكتسبوا الآثام والمعاصي، روى ابن جرير بسنده عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ثلاث من فعلهن.. فقد أجرم، من عقد لواءً في غير حق، أو عقّ والديه، أو مشى مع ظالم لينصره، يقول الله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾».

واعلم: أن الظلم أقبح الأمور، ولذلك حرمه الله على نفسه، فينبغي للعاقل أن يتعظ بمواعظ الله، ويتخلق بأخلاقه، ويجتنب عن أذية الروح ـ بموافقة النفس والطبيعة ـ وأذية عباد الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة؛ أي: وعزتي وجلالي لقد آتينا وأعطينا موسى بن عمران التوراة، كما آتيناك القرآن ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي[2]: من لقائك موسى عليه السلام ليلة المعراج، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

وقرأ الحسن: ﴿في مرية﴾ بضم الميم، ذكره أبو حيان.

عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق، إلى الحمرة وإلى البياض، سبط الشعر، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه». متفق عليه.

وعن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال: «أتيت على موسى ليلة أسري بي، عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره». أخرجه مسلم.

فإن قلت: قد صحّ في حديث المعراج: أنه رآه في السماء السادسة عند مراجعته في الصلوات، فكيف الجمع بين هذين الحديثين؟

قلت: يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الأحمر كان قبل صعوده إلى السماء، وذلك في طريقه إلى بيت المقدس، ثم لما صعد إلى السماء السادسة.. وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عزّ وجل، وهو على كل شيء قدير.

فإن قلت: كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت، وقد سقط عنه التكليف وهو في دار الآخرة، وليست دار عمل؟ وكذلك رأى النبي - ﷺ - جماعة من الأنبياء وهم يحجون، فما الجواب عن هذا؟

قلت: يجاب عنه بأجوبة:

منها: أن الأنبياء كالشهداء، بل هم أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا أو يصلوا كما صح في الحديث، وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا، وإن كانوا قد ماتوا، لأنهم بمنزلة الأحياء في هذه الدار، التي هي دار العمل، إلى أن تفنى، ثم يرحلون إلى دار الجزاء، التي هي الجنة.

ومنها: أنه ﷺ رأى حالهم الذي كانوا عليه في حياتهم، ومثلوا له كيف كانوا، وكيف كان حجهم وصلاتهم.

ومنها: أن التكليف وإن ارتفع عنهم في الآخرة، لكن الذكر والشكر

والدعاء لا يرتفع، قال الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ إلى غير ذلك.

وقيل: معنى ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي[1]: من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول، وعبارة النسفي هنا: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي[2]: من لقاء موسى الكتاب، أو من لقائك موسى ليلة المعراج، أو يوم القيامة، أو من لقاء موسى ربه في الآخرة، كذا عن النبي - ﷺ - انتهى. وعبارة «المراح»: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي: فلا تكن يا أشرف الخلق في شك من لقاء الكتاب الذي هو القرآن؛ أي: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، فلا تكن في شك من أنك لقيت نظيره. ا هـ. كذا في «البيضاوي».

وقيل المعنى[3]: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب، فإنا ألقينا عليه التوراة، وهذا المعنى هو الذي يستدعيه ترتيب الفاء على ما قبلها.

فإن قلت[4]: ما معنى النهي وليس له ﷺ في ذلك شك أصلاً؟

قلت: فيه تعريض للكفار بأنهم في شك من لقائه، إذ لو لم يكن لهم فيه شك.. لآمنوا بالقرآن، إذ في التوراة وسائر الكتب الإلٰهية ما يصدق القرآن من الشواهد والآيات، فإيتاء الكتاب ليس ببدع حتى يرتابوا فيه، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

وعبارة «المراغي» هنا: أي[5] ولقد آتينا موسى التوراة، مثل ما آتيناك القرآن، وأنزلنا عليك الوحي، مثل ما أنزلناه عليه، فلا تكن في شك من لقائك الكتاب، فأنت لست ببدع من الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وذكر موسى من بين سائر الرسل، لقرب عهده من النبي - ﷺ -، ووجود من كان على دينه بينهم، إلزاماً لهم، ولم يذكر عيسى، لأن اليهود ما كانوا

---

(١) الخازن.
(٢) النسفي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

يعترفون بنبوته، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى، فذكر المجمع عليه.

وقد يكون ذكره لآن الآية جاءت تسلية لرسوله ﷺ، فإنه لما أتى بكل آية، وذكرهم، وأعرض قومه عنها.. حزن حزناً شديداً، فقيل له: تذكر حال موسى ولا تحزن، فإنه قد لقي مثل ما لقيت، وأوذي كما أوذيت، فإن من لم يؤمن به.. آذاه، كفرعون وقومه، ومن آمنوا به من بني إسرائيل آذوه أيضاً بالمخالفة له، كقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ وغيره من الأنبياء لم يؤذه إلا من لم يؤمن به.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾؛ أي: وجعلنا الكتاب الذي آتيناه موسى، أو جعلنا موسى، فالضمير إما للكتاب أو لموسى ﴿هُدًى﴾ مرشداً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من الضلالة إلى طريق الهدى، كما جعلناك مرشداً لأمتك، لأنه أنزل إليهم وهم متعبدون به دون بني إسماعيل، وعليهم يحمل الناس في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾؛ أي: رؤساء وعلماء، وقيل: أنبياء، قاله قتادة. ﴿يَهْدُونَ﴾ يرشدون الخلق إلى الحق بما في التوراة من الشرائع والأحكام، والحكم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بذلك، أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ على الحق في جميع الأمور والأحوال، و﴿لَمَّا﴾[1] إما شرطية لما فيها من معنى الجزاء، نحو: أحسنت إليك لما جئتني، وجوابها معلوم مما قبلها، والتقدير: لما صبر الأئمة والعلماء من بني إسرائيل على المشاق وطريق الحق.. جعلناهم أئمة، أو ظرفية بمعنى: حين، فلا جواب لها؛ أي: جعلناهم أئمة حين صبروا على المشاق.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟﴾؛ أي: أئمة بني إسرائيل ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون أنها من عند الله تعالى، لإمعانهم فيها

---

(١) روح البيان.

النظر، ولا يشكون فيها كما يشك الكفار من قومك في حق القرآن، ويحتمل[1] كونه معطوفاً على ﴿صَبَرُوا۟﴾ فيكون داخلاً في التعليق، ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾.

والمعنى[2]: أي وجعلنا من بني إسرائيل رؤساء في الخير، يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم، وتقويتنا إياهم، لأنهم صبروا على طاعتنا، وعزفت أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها، وكانوا من أهل اليقين بحججنا، وبما تبين لهم من الحق.

وفي ذلك إيماء إلى أن الكتاب الذي آتيناكه سيكون هداية للناس، وسيكون من أتباعه أئمة يهدون مثل تلك الهداية، بل رجحهم على الكل بكل كمال، فإن الأفضل أولى بإحراز الفضائل كلها.

وقرأ الكوفيون[3]: ﴿أَئِمَّةً﴾. قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، وقرأ الجمهور[4]: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، على أنها شرطية أو ظرفية، كما مر، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وورش عن يعقوب ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش: بكسر اللام وتخفيف الميم؛ أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، مستدلاً بقراءة ابن مسعود: ﴿بما صبروا﴾ بالباء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ لا غيره ﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ويحكم؛ أي: بين المؤمنين والكفار، أو بين بني إسرائيل، أو بين الأنبياء وأممهم المكذبين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، وكلمة ﴿هُوَ﴾ للتخصيص والتأكيد، وإن ذلك الفصل يوم القيامة، ليس إلا إليه وحده، لا يقدر عليه أحد سواه، ولا يفوض إلى من عداه ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين في الدنيا.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

أي: إن ربك يقضي بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون، من أمور الدين والثواب والعقاب، فيدخل الجنة أهل الحق، ويدخل النار أهل الباطل.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ تخويف لكفار مكة، و(الهمزة) فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أغفلوا ولم يبين مآل أمرهم، والفاعل: ما دل عليه قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: كثرة إهلاكنا، لأن كم لا يقع فاعلاً، فلا يقال: جاءني كم رجل، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: من قبل أهل مكة ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾؛ أي: من الأمم الماضية، كعاد وثمود حالة كون أهل مكة ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ أي: في مساكن أولئك القرون، والجملة: حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: أغفلوا من حالهم ومآلهم، ولم يبين لهم مآلهم، وهو الإهلاك إن استمروا على التكذيب كثرة إهلاكنا من قبلهم من القرون، مثل عاد وثمود وقوم لوط، حالة كون أهل مكة يمرون في متاجرهم إلى الشام على ديار الهالكين وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم وخراب منازلهم.

والخلاصة: أولم يرشد هؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم لرسلهم، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من سبل الحق، فلم يبق منهم باقية، والحال أنهم يمشون في مساكنهم في متاجرهم إلى الشام، ونحو الآية قوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾. وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ بالياء التحتية، وقرأ السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: بالنون، وهذه القراءة واضحة، قال النحاس: والقراءة بالياء فيه إشكال، لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل ليهدوا؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدمنا ذكره. ا هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك وما يتعلق به من الآثار ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ومواعظ بليغة، وحججاً قاطعةً لكل مستبصر ومعتبر بها؛ أي: إن في خلاء مساكن القرون

الذين أهلكناهم من أهلها لما كذبوا برسلنا، وجحدوا بآياتنا، وعبدوا غيرنا، لآيات لهم وعظات يتعظون بها، لو كانوا من أولي الحجا.

و(الهمزة): في قوله: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾: للتوبيخ المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيعرضون عن آياتنا وعظاتنا وتذكيرنا إياهم، وصموا عنها فلا يسمعونها سماع تدبر وتفكر، ليعتبروا بها، وينتهوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

و(الهمزة): في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾: للاستفهام التوبيخي، المضمن للتقرير، داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذاك المحذوف، ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ﴾ والمراد: سوق السحاب الحامل للماء، لأنه هو الذي ينسب إلى الله تعالى، وأما السقي بالأنهار فمنسوب إلى العبد، وإن كان الإنبات من الله تعالى، ولما كان هذا السوق وما بعده من الإخراج محسوساً.. حمل بعضهم الرؤية على البصرية، ويدل عليه أيضاً آخر الآية، وهو ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾.

وقال في «بحر العلوم»: حملاً على المقصود من النظر؛ أي: قد علموا أنا نسوق الماء ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾؛ أي: التي جرز وقطع نباتها وأزيل بالكلية، لعدم المطر أو لغيره كالرعي، لا التي لا تنبت، لقوله: ﴿فَنُخۡرِجُ﴾ من تلك الأرض ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء المسوق ﴿زَرۡعٗا﴾؛ أي: نباتاً ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ﴾؛ أي: من ذلك الزرع؛ أي: من بعضه ﴿أَنۡعَٰمُهُمۡ﴾ ودوابهم ومواشيهم، كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿و﴾ تأكل من بعضه ﴿وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ كالحبوب التي يقتاتها الإنسان والثمار.

والتقدير: أي ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت والنشر بعد الفساد، ولم يروا أنا نسوق بقدرتنا السحاب الحامل للماء إلى الأرض اليابسة، التي لا نبات فيها، فننزل بها مطراً، فنخرج به زرعاً أخضر، تأكل منه ماشيتهم، وتتغذى به أجسامهم، فيعيشون به؛ أي: قد علموا ذلك، وشاهدوه، فلا عذر لهم في تكذيبهم البعث بعد الموت.

و﴿الهمزة﴾: في قوله: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ للتوبيخ داخلة على محذوف،

و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا ينظرون ذلك بأعينهم، وعموا عنه فلا يبصرون هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحدونه، لكونه المنفرد بإيجاد ذلك، فيعلموا أن القدرة التي بها فعلنا ذلك لا يتعذر عليها أن تحيى الأموات وتنشرهم من قبورهم، وتعيدهم بهيئتهم التي كانوا عليها قبل موتهم.

والمعنى: ألا ينظرون[1] فلا يبصرون ذلك، فيستدلون به على وحدته وكمال قدرته وفضله تعالى، وأنه الحقيق بالعبادة، وأن لا يشرك به بعض خلقه، من ملك وإنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع، وأيضاً فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم وإحيائهم.

وقرىء[2]: ﴿الجرز﴾ بسكون الراء، قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وخص الزرع بالذكر، وإن كان يخرج الله به أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعشب المنتفع به في الطب وغيره تشريفاً للزرع، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات، وأوقع الزرع موقع النبات.

قوله تعالى: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ قدمت الأنعام في الذكر، لأن ما ينبت يأكله الأنعام أول فأول، من قبل أن يأكل بنو آدم الحب، ألا ترى أن القصيل، وهو شعير يزرع، تأكله الأنعام قبل أن يسبل، والبرسيم والفصفصة وأمثال ذلك تبادره الأنعام بالأكل منه قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع، أو لأنه غذاء الدواب، والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره، أو بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف وهم بنو آدم.

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية: ﴿يأكل﴾ بالياء من أسفل، وقرأ الجمهور: ﴿يُبْصِرُونَ﴾ بياء الغيبة، وابن مسعود: بتاء الخطاب، وجاءت الفاصلة ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن ما سبق مرئي، وفي الآية قبله مسموع، فناسب ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سوء صنيع الكفرة، باستعجال فصل القضاء

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

بينهم وبين الرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المشركون عموماً، أو مشركو مكة على طريق الاستهزاء والاستبعاد والتكذيب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ الذي تدعي يا محمد؛ أي: في أيّ وقت يكون لك الفتح والنصر علينا والظفر بنا، وكلمة ﴿مَتَىٰ﴾[١]: في موضع رفع على الخبرية، أو في موضع نصب على الظرفية، والاستفهام فيها: استفهام استهزاء، لا استفهام سؤال، وذلك[٢] أن المؤمنين كانوا يقولون لكفار مكة: إن لنا يوماً يفتح الله فيه بيننا وبينكم؛ أي: يحكم ويقضي، يريدون يوم القيامة، أو إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوه.. يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ أي: في أي وقت يكون الحكم والفصل، أو النصر والظفر علينا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كائن.

أي[٣]: متى تنصر علينا أيها الرسول كما تزعم، ومتى ينتقم الله منا، وما نراك وأصحابك إلا مختفين خائفين، أذلة، إن كنتم صادقين في الذي تقولون، من أنا معاقبون على تكذيبنا الرسول، وعبارة الآلهة والأوثان، وهم ولا شك لا يستعجلونه، إلا لاستبعادهم حصوله، وإنكارهم إياه، وتكذيبهم له، وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيبهم عن استبعادهم موبخاً لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد تبكيتاً لهم، وتحقيقاً للحق: لا تستعجلوا ولا تستهزئوا فإن ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة، فإن أصله: إزالة الإغلاق والأشكال، أو يوم الغلبة على الأعداء ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مفعول به ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾ فاعل، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون.

أما[٤] إذا كان المراد به يوم القيامة، فإن الإيمان يومئذ لا ينفع الكافر لفوات الوقت، ولا يمهل أيضاً في إدراك العذاب، ولا في بيان العذر، فإنه لا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

عذر له، وأما إذا كان المراد يوم النصرة كيوم بدر، فإنه لا ينفع إيمانه حال القتل، إذ هو إيمان يأس، كإيمان فرعون حين ألجمه الغرق، ولا يتوقف في قتله أصلاً.

والمعنى[١]: أي قل لهم: إذا حل بكم بأس الله وسخطه في الدنيا وفي الآخرة.. لا ينفعكم إيمانكم الذي تحدثونه في هذا اليوم، ولا تؤخرون للتوبة والمراجعة.

والخلاصة: لا تستعجلوه ولا تستهزئوا، فكأني بكم، وقد حل ذلك اليوم، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم حلول العذاب فلم تنظروا، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً غنياً عن الإخبار، وكذا إيمانهم واستنظارهم يومئذ، وإنما المحتاج إلى البيان، عدم نفع ذلك الإيمان، وعدم الإنظار.

ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم، وانتظار الفتح بينه وبينهم، فقال: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ يا محمد ﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين، ولا تبال بهم، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ ما الله صانع بهم، فإنه سينجزك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد، ﴿إِنَّهُم﴾؛ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾؛ أي: متربصون بك الدوائر، كما قال تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾.

أي[٢]: وانتظر النصرة عليهم وهلاكهم، لصدق وعدي، إنهم منتظرون الغلبة عليك، وحوادث الزمان بك، من موت أو قتل، فيستريحوا منك، أو إهلاكهم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، ويقرب منه ما قيل: وانتظر عذابنا فإنهم منتظرون، فإن استعجالهم المذكور، وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي، في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة.

وسترى عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة ربك بنصرك وتأييدك،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وسيجدون نحب ما ينتظرون فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وقد أنجز الله وعده، فنصر عبده،وفتح للمؤمنين، وحصل أمانيهم أجمعين، والآية منسوخة بآية السيف، وقيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ بكسر الظاء على صيغة اسم الفاعل؛ أي: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك، قال أبو حاتم: والصحيح: الكسر، وقرأ ابن السميقع واليماني: ﴿منتظرون﴾ بفتح الظاء على صيغة اسم المفعول، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن، قال الفراء: لا يصح إلا بإضمار؛ أي: إنهم منتظريهم.

وفي «فتح الرحمٰن» قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

إن قلت[2]: هذا سؤال عن وقت الفتح، وهو يوم القيامة، فكيف طابقه الجواب بقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾؟

قلت: لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة، لا سؤال استفهام.. أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء، لا ببيان حقيقة الموقت، وإن فسر الفتح بفتح مكة، أو بيوم بدر.. كان المراد أن المتولين لم ينفعهم إيمانهم حال القتل، كإيمان فرعون، بخلاف الطلقاء الذين آمنوا بعد الأسر، فالجواب بذلك مطابق للسؤال من غير تأويل. انتهى.

الإعراب

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف،

---

(١) البحر المحيط. (٢) فتح الرحمٰن.

و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيتوهم كون المؤمن كالفاسق بعد ما ثبت ما بينهما من التفاوت، ﴿فمن كان﴾ ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مُؤْمِنًا﴾: خبرها، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿من﴾ الموصولة، ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿كَانَ فَاسِقًاۚ﴾: فعل ناقص واسمه المستتر وخبره صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾: فعل مضارع مرفوع بالنون وفاعل، والجملة: مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ومتعلقه محذوف؛ أي: لا يستوون في المآل. ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾ ﴿لهم﴾؛ خبر مقدم ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة وخبره في محل الرفع خبر للأول وجملة الأول مع خبره جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ من فعل شرطها وجوابها: مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿نُزُلًۢا﴾: حال من ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب عملهم أو صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: سبب الذي كانوا يعملونه، الجار والمجرور صفة لـ﴿نُزُلًۢا﴾؛ أي: نزلاً كائناً بسبب عملهم، أو بسبب العمل الذي يعملونه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، ﴿فَسَقُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿مأواهم﴾: مبتدأ، ﴿ٱلنَّارُ﴾: خبره، والجملة: في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول: جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾: معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿كُلَّمَآ﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَرَادُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط

لـ﴿كُلَّمَآ﴾: في محل جر بالإضافة. ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾: ناصب وفاعل وفاعل في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادُوٓاْ﴾، ﴿مِنۡهَآ﴾: متعلق بـ﴿يَخۡرُجُواْ﴾؛ أي: كلما أرادوا الخروج منها، ﴿أُعِيدُواْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية: جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾: مستأنفة مسوقة لبيان كيفية مأواهم فيها.

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿قيل﴾، ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: نائب فاعل لـ﴿قيل﴾ محكي، لأن مرادنا لفظه، لا معناه. وهو مقول له أيضاً. وجملة ﴿قيل﴾: معطوفة على جملة ﴿أُعِيدُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل أمر وفاعل مبنى على حذف النون، ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿ذُوقُواْ﴾: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿ٱلَّذِي﴾ صفة لـ﴿عَذَابَ﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نذيقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير المتكلمين يعود على الله، تقديره: نحن، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿دُونَ﴾: ظرف زمان بمعنى قبل متعلق بمحذوف حال ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾: صفة له، ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام

الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾: ﴿ذُكِّرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذُكِّرَ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَعْرَضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿ذُكِّرَ﴾، ﴿عَنْهَآ﴾ متعلق بـ﴿أَعْرَضَ﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ متعلق بـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، و﴿مُنتَقِمُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٣)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ، ﴿فَلَا تَكُن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها: ضمير يعود على محمد، ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُن﴾، ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: صفة لـ﴿مِرْيَةٍ﴾، وجملة ﴿لا تكن﴾: معطوفة على جملة القسم، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾، ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: متعلق بـ﴿هُدًى﴾، أو صفة له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جعلنا﴾ الأول. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، ﴿أَئِمَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يَهْدُونَ﴾ صفة لـ﴿أَئِمَّةً﴾، ﴿بِأَمْرِنَا﴾: حال من فاعل ﴿يَهْدُونَ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿جعلنا﴾؛ أي: جعلناهم أئمةً حين صبروا، ﴿صَبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لما﴾ أو فعل شرط لها، وجوابها: محذوف، تقديره: لما صبروا جعلنا منهم أئمة،

﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: متعلقة بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كانوا﴾: إما معطوفة على ﴿صَبَرُوا﴾ أو على ﴿جعلنا﴾ كما مر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَفْصِلُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَفْصِلُ﴾، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف مضاف إليه متعلق بـ﴿يَفْصِلُ﴾ ﴿فِيمَا﴾: متعلق به أيضاً، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿فيه﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أغفلوا ولم يهد لهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾. وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله: محذوف دلت عليه ﴿كَمْ﴾ الخبرية، تقديره: ولم يهدِ لهم كثرة إهلاكنا القرون، والجملة الفعلية: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَهْدِ﴾، ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول به مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حال ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أو متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾: حال من ﴿كَمْ﴾ لأنه في الأصل تمييز ﴿لَكَمْ﴾ دخلت عليه ﴿من﴾ البيانية، وجملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جملة مفسرة لفاعل ﴿يَهْدِ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿يَمْشُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾، أو مستأنفة مسوقة لبيان وجه

هدايتهم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أصموا فلا يسمعون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَسْمَعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا ولم يروا، أو التقدير ألم يشاهدوا ولم يروا إلخ، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾: متعلق به، ﴿الْجُرُزِ﴾: صفة لـ﴿الْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿رأى﴾؛ أي: سوقنا الماء إلى الأرض الجرز. ﴿فَنُخْرِجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿نَسُوقُ﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿نخرج﴾، ﴿زَرْعًا﴾: مفعول به، ﴿تَأْكُلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾: فاعل، ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تَأْكُلُ﴾: صفة لـ﴿زَرْعًا﴾، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أعموا فلا يبصرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على تلك المحذوفة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية مبني على السكون

لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْفَتْحُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، والظرف: متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً، تقديره: هذا الفتح كائن متى؛ أي: في أيّ وقت يكون، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين فمتى هو، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لَا يَنفَعُ﴾، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنفَعُ﴾: فعل مضارع، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَفَرُوٓا﴾: صلة الموصول، ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾: فاعل ﴿يَنفَعُ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول، لـ﴿قُلْ﴾ ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنظَرُونَ﴾: من الفعل المغير ونائب فاعله خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا يَنفَعُ﴾: على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: أعرض عنهم. ﴿أعرض﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أعرض﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: النصر عليهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، ومفعول: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ محذوف، تقديره: النصر عليكم، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل الأمر بالانتظار.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾: أصل الفسق: الخروج، من فسقت التمرة: إذا خرجت من قشرها، ثم استعمل في الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقاً،

فهو أعم من الكفر، وقد يخص به كما في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: المأوى: المسكن، قال الراغب: المأوى: مصدر أوى إلى كذا: انضم إليه، وجنة المأوى: كقوله: دار الخلد في كون الدار مضافاً إلى المصدر، وفي «الإرشاد»: أضيفت الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، كما مر.

﴿نُزُلًۢا﴾: وهو في الأصل ما يعد للنازل والضيف، من طعام وشراب وصلة، ثم أطلق على كل عطاء، والمراد به هنا: الثواب والجزاء.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾: اسم مكان؛ أي: ملجَؤُهم ومنزلهم.

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: الأقرب، والمراد به عذاب الدنيا، فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه، وقد ابتلاهم الله بسني جدب وقحط، أهلكت الزرع والضرع، والعذاب الأكبر، هو عذاب يوم القيامة.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: قبل العذاب الأكبر، فدون هنا بمعنى قبل، كما مر، وذلك لأنه في الأصل أدنى مكان من الشيء، فيقال: هذا دون ذلك: إذا كان أحط منه قليلاً، ثم استعير منه للتفاوت في الأموال.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جمع مجرم، اسم فاعل من أجرم الرباعي، يقال: أجرم زيد: إذا فعل الجريمة؛ أي: السيئة، منتقمون: جمع منتقم، اسم فاعل من انتقم الخماسي، يقال: نقمت الشيء ونقمت منه: إذا أنكرته، إما باللسان، وإما بالعقوبة، والنقمة: العقوبة، والانتقام: العقوبة على الجريمة.

﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ وفي «المفردات»: المرية: التردد في الأمر، وهو أخص من الشك.

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يقال: لقيه كرضيه: إذا رآه، قال الراغب: يقال: ذلك في الإدراك بالحس بالبصر وبالبصيرة، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله.

﴿أَيِمَّةً﴾: جمع إمام بمعنى المؤتم، والمقتدى به قولاً وفعلاً، وأصله أأممة بوزن أفعلة جمع إمام، كأسلحة وسلاح، ولكن لما اجتمع المثلان، وهما الميمان، أدغمت الأولى في الثانية، ونقلت حركتها إلى الهمزة فصار أئمة بهمزتين، فأبدل من الهمزة المكسور ياء، كراهة اجتماع الهمزتين. ا هـ. «شرح العقائد».

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: الجرز: الأرض اليابسة الجرداء، التي لا نبات فيها، قال الزمخشري: الجرز: الأرض التي جرز؛ أي: أزيل نباتها، قيل: هي مشتقة من قولهم: رجل جروز: إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكله، ومنه قول الراجز:

خَبٌّ جَرُوْزٌ إِذَا جَاعَ بَكَىٰ ... وَيَأْكُلُ ٱلتَّمْرَ وَلاَ يُبْقِيْ ٱلنَّوَىٰ

وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده، وفي «المختار»: أرض جرز وجرز، كعسر وعسر: لا نبات بها؛ أي: قطع وأزيل بالمرة، وقيل: هو اسم موضع باليمن. وفي «المصباح»: الجرزة: القبضة من القث ونحوه، أو الحزمة، والجمع: جرز كغرفةٍ وغرف، وأرض جرز بضمتين: قد انقطع الماء عنها فهي يابسة لا نبات فيها.

﴿ٱلْفَتْحُ﴾: الحكم، ويقال: للحاكم: الفاتح والفتاح، لأنه يفصل بين الناس بحكمه، ومعنى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ أي: الفصل بيننا وبينكم في الخصومة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار في قوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

ومنها: الشماتة في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي فن من فنون البديع، لم يذكره أحد من الذين كتبوا في فنون البديع، ما عدا ابن أبي الإصبع، وهي: أعني: الشماتة. ذكر ما أصاب عدوك من آفات ومحن جزاء ما اقترفت يداه مع المبالغة في تصوير غمائه، وما يتخبط به من أهوال، وإظهار اغتباطك بما أصابه شماتةً به وتشفياً منه، وفي هذه الآية من ضرورب التشفي والشماتة ما لا يخفى، وهو شائع في القرآن وفي الشعر، ومنه قصيدة فتح الفتوح لأبي تمام.

ومنها: الاستبعاد المستفاد بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ لأن الإعراض عن الآيات مع غاية وضوحها وإشراقها، مستبعد في حكم العاقل الراجح.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ فإنه تعريض للكفار بأنهم في شك من لقائه، إذ لو لم يكن لهم فيه شك.. لآمنوا بالقرآن.

ومنها: التأكيد والتخصيص المستفاد من كلمة ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن المعنى: إن ذلك الفصل يوم القيامة، ليس إلا إليه وحده، لا يقدر عليه أحد سواه، ولا يفوض إلى من عداه، كما سبق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

ومنها: الاستفهامات للتقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن المقصود في الكل الإنكار والتوبيخ.

ومنها: المناسبة المعنوية بين أول الآية وآخرها في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وهي؛ أي: المناسبة المعنوية: أن يبتدىء المتكلم بمعنى، ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، وهذه الآية قال في أولها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وهي موعظة سمعية، لكونهم لم ينظروا إلى القرون الهالكة، وإنما سمعوا بها، فناسب أن يأتي بعدها بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾. وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ بدأ هذه الآية بهذه الكلمة، وهي موعظة مرئية، فناسب

أن يقول في آخرها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن الزرع مرئي، لا مسموع، ليناسب آخر كل كلام أوله.

ومنها: التعميم بعد التخصيص، أو الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأنه إن عم غير المستهزئين.. فهو تعميم بعد تخصيص، وإن خص بهم.. فهو إظهار في مقام الإضمار، تسجيلاً عليهم بالكفر، وبياناً لعلة عدم النفع وعدم إمهالهم. اهـ. «شهاب».

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١- إثبات رسالة النبي ﷺ، وبيان أن مشركي العرب لم يأتهم رسول من قبله.

٢ - إثبات وحدانية الله تعالى، وأنه المتصرف في الكون، المدبر له على أتم نظام وأحكم وجه.

٣ - إثبات البعث والنشور، وبيان أنه يكون في يوم كألف سنة مما تعدون.

٤ - تفصيل خلق الإنسان في النشأة الأولى، وبيان الأطوار التي مرت به، حتى صار بشراً سوياً.

٥ - وصف الذلة التي يكون عليها المجرمون يوم القيامة، وطلبهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح أحوالهم، ورفض ما طلبوا لعدم استعدادهم للخير والفلاح.

٦ - تفصيل أحوال المؤمنين في الدنيا، وذكر ما أعده الله لهم من النعيم، والثواب العظيم في الآخرة.

٧ - استعجال الكفار لمجيء يوم القيامة، استبعاداً منهم لحصوله[١].

والله أعلم

* * *

(١) ختمت تسويد هذه السورة بعون الله تعالى، في عصر يوم الجمعة، بعد صلاتها، في تاريخ ١٠/١٠/١٤١٣ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية كلها بالاتفاق[1]. وآياتها: ثلاث وسبعون آية. وكلماتها: ألف ومئتان وثمانون كلمة. وحروفها: خمسة آلاف وسبع مئة وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الأحزاب، لأنه ذكر فيها قصة المشركين الذين تحزبوا على المسلمين، من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين، وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم[2]: سورة الأحزاب فيها آيتان من المنسوخ:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية (٤٨) نسخت بآية السيف.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ الآية (٥٢) نسخها الله تعالى بآية قبلها في النظم، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية (٥٠).

المناسبة: مناسبتها لما قبلها: تشابه[3] مطلع هذه السورة وخاتمة السالفة، فإن تلك ختمت بأمر النبي - ﷺ - بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره - ﷺ - بالتقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحي إليه من ربه، ومع التوكل عليه.

---

(١) الخازن.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

(٣) المراغي.

فضلها: ومن فضائلها[1]: ما روى عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب، وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه.. أعطي الأمان من عذاب القبر».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها: ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾ ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، وقد روي عنه نحو هذا من طرق.

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب، قلت: ثنتين أو ثلاثاً وسبعين، قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها لآية الرجم.

وأخرج البخاري في «تاريخه» عن حذيفة قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول الله - ﷺ -، فنسيت منها سبعين آيةً ما وجدتها.

وأخرج أبو عبيد في «الفضائل» وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة تقرأ في زمان رسول الله - ﷺ - مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف.. لم يقرر منها إلا على ما هو الآن.

وعن أبي بن كعب قال: كانت سورة الأحزاب تقارب سورة البقرة، أو أطول منها، وكان فيها آية الرجم، وهي: ﴿إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ ثم رفع أكثرها فيما رفع، قال ابن كثير: إسناده حسن.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا
(١) وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (٢) وَتَوَكَّلۡ عَلَى
ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ
ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ
ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ
ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا
تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٥) ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ
أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ
أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا (٦) وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا
(٧) لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ
ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا
(١١) وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا (١٢) وَإِذۡ
قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا (١٣) وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ
ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا (١٤) وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ
وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (١٦) قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ
بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبات بين بداية هذه السورة، ونهاية السورة السالفة، وأما قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر نبيه[1] بتقواه والخوف منه، وحذر من طاعة الكفار والمنافقين والخوف منهم.. ضرب لنا الأمثال، ليبين أنه لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان، حتى يطيع بأحدهما ويعصي بالآخر، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة، والبنوة الحقيقية والتبني في إنسان.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان[2] فيما سلف أن الدعي ليس ابناً لمن تبناه، فمحمد - ﷺ - ليس أباً لزيد من حارثة، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن في الدين، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر أنت أخي في الدين.. أردف ذلك ببيان أن محمداً - ﷺ - ليس أباً لواحدٍ من أمته، بل أبوته عامة، وأزواجه أمهاتهم، وأبوته أشرف من أبوة النسب، لأن بها الحياة الحقيقية. وهذه بها الحياة الفانية، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه.. فذلك لارتقائهم الروحي، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك، وهو أشفق عليهم من الآباء، بل من أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية بما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان فيما سلف أحكاماً شرعها لعباده، وكان فيها أشياء مما كان في الجاهلية، وأشياء مما كان في الإسلام، ثم أبطلت ونسخت.. أتبع ذلك بذكر ما فيه حث على التبليغ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم، ولا سيما أولو العزم منهم، وهم الخمسة

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

المذكورون في الآية، كما ذكر في آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له، ليكون في ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر عباده بتقواه وعدم الخوف من سواه.. ذكر هنا تحقيق ما سلف، فأبان أنه أنعم على عباده المؤمنين، إذ صرف عنهم أعداءهم، وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ سبب نزول هذه الآية: ما[1] روى الضحاك عن ابن عباس، قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، دعوا النبي - ﷺ - أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوف المنافقون واليهود بالمدينة؛ إن لم يرجع قتلوه، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي وحسنه عن ابن عباس، قال: قام النبي - ﷺ - يصلي، فخطر خطرةً، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين، قلباً معكم، وقلباً معه، فأنزل الله عز وجل ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله، وزاد: وكان يقول: لي نفس تأمرني، ونفس تنهاني.

وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني

---

(١) لباب النقول.

فهم قال: إن في جوفي لقلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمع، يقال له: جميل بن يعمر.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ...﴾ الآية[1]، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي، في جماعة آخرين عن ابن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ـ ﷺ ـ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ الآية. فقال النبي ﷺ: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل.

وكان من خبره أنه سبي من قبيلته «كلب»، وهو صغير، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ. . وهبته له، ثم طلبه أبوه وعمه، فخير بين أن يبقى مع رسول الله ـ ﷺ ـ أو أن يذهب مع أبيه، فاختار البقاء مع رسول الله ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب، وكانت زوجاً لزيد، وطلقها. . قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهى عن ذلك، فنزلت الآية لنفي أن يكون للمتبنى حكم الابن حقيقةً في جميع الأحكام التي تعطى للابن.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمةً، ولا أشد ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ـ ﷺ ـ، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون إذا استقبلنا النبي ـ ﷺ ـ رجلاً رجلاً، حتى علي فقال: ائتني بخبر القوم، فجئت فإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة

---

(١) لباب النقول.

في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم بها، وهم يقولون: الرحيل الرحيل، فجئت فأخبرته خبر القوم، وأنزل الله سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خط رسول الله - ﷺ - الخندق عام الأحزاب، فأخرج الله سبحانه من بطن الخندق صخرةً بيضاء مدورةً، فأخذ رسول الله - ﷺ - المعول، فضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضرب الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: ضربت الأولى فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور قيصر من أرض الروم، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فأضاء لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، فقال المنافقون: ألا تعجبون، يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق، لا تستطيعون أن تبرزوا، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾. قال: ابن أبي حاتم. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في متعب بن قشير الأنصاري، وهو صاحب هذه المقالة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي[2]: يا أيها النبي الكريم، خف الله بطاعته وأداء

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

فريضته، وواجب حقوقه عليك، وترك محارمه، وانتهاك حدوده.

والخلاصة: يا أيها المخبر عنا، المأمون على وحينا، اثبت ودم على تقوى الله تعالى.

وناداه[1] تعالى بالنبي لا باسمه؛ أي: لم يقل يا محمد، كما قال يا آدم ويا نوح ويا موسى ويا عيسى ويا زكريا ويا يحيى، تشريفاً له، فهو من الألقاب المشرفة، الدالة على علو جنابه ﷺ، وله ﷺ أسماء وألقاب غير هذا، وكثرة الأسماء والألقاب تدل على شرف المسمى، وأما تصريحه باسمه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فلتعليم الناس أنه رسول الله، وليعتقدوه كذلك، ويجعلوه من عقائدهم الحقة.

وقيل المعنى: يا أيها النبي اتق في نقض العهد، ونبذ الأمان، واثبت على التقوى، وزد منها، فإنه ليس لدرجات التقوى نهاية، وإنما حملت على الدوام، لأن المشتغل بالشيء لا يؤمر به، فلا يقال للجالس مثلاً: أجلس، أمره الله تعالى بالتقوى تعظيماً لشأن التقوى، فإن تعظيم المنادي، ذريعة إلى تعظيم شأن المنادى له.

وقال ابن عطاء: معناه يا أيها المخبر عن خبر صدق، والعارف بي معرفةً حقيقةً، اتق الله في أن يكون لك الالتفات إلى شيء سواي. انتهى.

ولما وجه إلى رسوله - ﷺ - الأمر بتقوى الولي الودود.. أتبعه بالنهي عن الالتفات نحو العدو والحسود، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾؛ أي: لا توافق ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المجاهرين للكفر كأهل مكة، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: المظهرين للإسلام، المضمرين للكفر، كأهل المدينة فيما طلبوا منك، ولا تساعدهم على شيء، واحترس منهم، فإنهم أعداء الله والمؤمنين.

روي[2]: أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جعل وأبا الأعور عمر بن سفيان

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.

السلمي، قدموا المدينة بعد غزوة أحد فنزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول، وأعطاهم النبي الأمان على أن يكلموه، فقالوا: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تنفع وتشفع وندعك وربك، ووازرهم المنافقون على ذلك، فهم المسلمون بقتلهم فنزلت الآية؛ أي: اتق الله في نقض العهد، ولا تطع الكافرين من أهل مكة، والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك.

وقيل المعنى[١]: أي ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك: اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المؤمنين حتى نجالسك، والمنافقين الذين يظهرون الإيمان والنصيحة، وهم لا يألونك وأصحابك إلا خبالاً، فلا تقبل لهم رأياً، ولا تستشرهم مستنصحاً بهم، فإنهم أعداؤك، ويودون هلاكك، وإطفاء نور دينك.

روي: أنه لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقاً، وكان يلين لهم جانبه، ويظهرون له النصح خداعاً، فحذره الله منهم، ونبهه إلى عداوتهم، ثم علل ما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كان﴾[٢] على الاستمرار والدوام، لا في جانب الماضي فقط ﴿عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم بما تقتضيه الحكمة البالغة.

قال أبو السعود: وهذه الجملة للأمر والنهي: مؤكدة لمضمون وجوب الامتثال. أو المعنى: أي إن الله سبحانه عليم بما تضمره نفوسهم، وما الذي يقصدونه من إظهار النصيحة، وبالذي تنطوي عليه جوانحهم، حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك، وسائر شؤون خلقه، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع.

والخلاصة: أنه تعالى هو العليم بعواقب الأمور، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه، ثم أكد وجوب الامتثال، بأن الأمر هو مربيك في نعمه، الغامر لك بإحسانه، فهو الجدير أن يتبع أمره، ويجتنب نهيه، فقال: ﴿واتبع﴾ يا

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن؛ أي: واعمل بما ينزله إليك ربك من وحيه، وآي كتابه في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين، ولا من الرأي البحث، فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك.

ثم علل ذلك بما يرغبه في اتباع الوحي، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين والمنافقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما تعمل أنت وأصحابك ﴿خَبِيرًا﴾ لا يخفى عليه شيء منه، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء، وجملة ﴿إن﴾ معللة لأمره باتباع ما أوحي إليه، والأمر له - ﷺ - أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمور باتباعه، ولذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على قراءة الجمهور، بالفوقية للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم.

وقرأ أبو عمرو السلمي وابن أبي إسحاق[1]: ﴿بما يعملون﴾ بياء الغيبة هنا، وفيما سيأتي في قوله: ﴿وكان الله بما يعملون بصيراً﴾؛ أي: بما يعمل الكفار والمنافقون، ويحتمل أن يكون من باب الالتفات، وقرأ باقي السبعة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب في الموضعين.

ثم بعد أن أمره باتباع ما أوحي إليه من القرآن، وترك مراسيم الجاهلية، أمره بتفويض أموره إليه وحده، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعتمد عليه في شؤونك، وفوض أمورك إليه وحده ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً يحفظ من توكل عليه، وكفيلاً له في جميع شؤونه، فلا تلتفت في شيء من أمرك إلى غيره.

والخلاصة: حسبك الله، فإنه إن أراد لك نفعاً.. لم يدفعه عنك أحد، وإن أراد بك ضراً.. لم يمنعه منك أحد. قال الزروقي في «شرح الأسماء الحسنى»: الوكيل: هو المتكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في كل أمر، ومن عرف أنه الوكيل.. اكتفى به في كل أمره، فلم يدبر معه، ولم يعتمد إلا عليه، وخاصيته

---

(١) البحر المحيط.

نفي الجوائح والمصائب وصرفها، فمن خاف ريحاً أو صاعقة أو نحوهما.. فليكثر منه، فإنه يصرف ويفتح له أبواب الخير والرزق.

ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئةً وتمهيداً لما يعقبه من الأحكام القرآنية، التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما خلق الله سبحانه وتعالى ﴿لِرَجُلٍ﴾؛ أي: لشخص، وهو مخصوص بالذكر من الإنسان، والتنكير[١] فيه، و﴿من﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ لإفادة التعميم، والقلب: مضغة صغيرة في هيئة الصنوبرة، خلقها الله تعالى في الجانب الأيسر من صدر الإنسان، معلقة بعرق الوتين، وجعلها محلاً للعلم ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾؛ أي: في صدره، وذكره لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

وقيل: ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾: زائدة في المفعول، وإنما[٢] امتنع تعدد القلب، لأنه معدن الروح الحيواني، المتعلق للنفس الإنساني، ومنبع القوى بأسرها، فيمتنع تعدده، لأنه يؤدي إلى التناقض، وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى، وغير أصل لها. ا هـ. «كرخي».

قيل[٣]: نزلت هذه الآية في أبي معمر جميل بن أسد الفهري، كما سبق، كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا من أجل أن له قلبين، وكان هو يقول: لي قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر.. انهزم أبو معمر، فلقيه أبو سفيان، وإحدى نعليه بيده، والأخرى برجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ فقال: انهزموا، فقال: ما بال إحدى نعليك في يدك، والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنهما في رجلي، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراح.

وقيل[1]: هي مثل ضربه الله للمظاهر؛ أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه، حتى يكون لَهُ أُمَّان، وكذلك لا يكون الدعي ابناً لرجلين، وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب ينهاني عن كذا، فنزلت الآية لرد النفاق، وبيان أن النفاق لا يجتمع مع الإسلام، كما لا يجتمع قلبان في جوف واحد.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾؛ أي: نساءكم وزوجاتكم أيها الرجال جمع زوج ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ جمع التي ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: تقولون لهن، أنتن علينا كظهور أمهاتنا؛ أي: في التحريم، فإن معنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت علي كظهر أمي، فهو مأخوذ من الظهر بحسب اللفظ، كما يقال: لبى المحرم: إذا قال: لبيك، وأفف الرجل: إذا قال: أفٍّ، وتعديته بـ﴿من﴾ لتضمينه التجنب، وكان طلاقاً في الجاهلية، وكانوا يجتنبون المظاهر، منها كما يجتنبون المطلقة.

فمعنى أنت علي كظهر أمي[2]: أنت علي حرام كبطن أمي، فكنوا عن البطن بالظهر، لئلا يذكروا البطن، الذي ذكره يقارب ذكر الفرج، وإنما جعلوا الكناية بالظهر عن البطن، لأنه عمود البطن قوام البنية، ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: كأمهاتكم في الحرمة.

والمعنى: ما جمع الله الزوجية والأمومة في امرأة، لأن الأم مخدومة لا يتصرف فيها، والزوجة خادمة يتصرف فيها، والمراد بذلك: نفي ما كانت العرب تزعمه، من أن الزوجة المظاهر منها كالأم؛ أي: ولم يجعل[3] الله سبحانه لكم أيها الرجال نساءكم اللاتي تقولون لهن: أنتن علينا كظهور أمهاتنا أمهاتكم، بل جعل ذلك من قبلكم كذباً، لا من قبل الله سبحانه، بل ألزمكم عقوبةً وكفارةً على ذلك، كما سيأتي بيانها في سورة المجادلة.

وقد كان الرجل في الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته.. صارت حراماً

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

حرمةً مؤبدةً، فجاء الإسلام ومنع هذا التأبيد، وجعل الحرمة مؤقتة، حتى تؤدى كفارة ـ غرامة ـ لانتهاكه حرمة الدين، إذ حرم ما أحل الله له.

وقرأ قالون وقنبل[1]: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ هنا، وفي المجادلة والطلاق بالهمز من غير ياء، وقرأ ورش: بهمزة مكسورة مسهلة كالياء، بدون ياء بعدها، وقرأ البزي وأبو عمرو: بياء ساكنة بعد ألف محضة بدلاً من الهمزة، وهو بدل مسموع لا مقيس، قال أبو عمرو بن العلاء: هي لغة قريش التي أمر الناس أن يقرؤوا بها، وقرأ باقي السبعة: بالهمز وياء بعدها.

وقرأ عاصم: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ هنا بتاء الخطاب المضمومة مع كسر الهاء أيضاً، مضارع ظاهر، من باب فاعل الرباعي، وقرأ الحرميان: نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿تظهرون﴾ بشد الظاء والهاء وفتح التاء بدون ألف، أصله: تتظهرون، وقرأ ابن عامر: ﴿تظاهرون﴾ بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء، مضارع تظاهر، من باب تفاعل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تظاهرون﴾ بتخفيف الظاء وبالألف بحذف إحدى التاءين، لأن أصله: تتظاهرون، ووافقهما ابن عامر في المجادلة، وقرأ باقي السبعة في المجادلة: ﴿تظاهرون﴾ بشد الظاء، وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية: ﴿يظهرون﴾ بضم الياء وسكون الظاء وكسر الهاء، مضارع أظهر، وفيما حكى أبو بكر الرازي عنه: بتخفيف الظاء، لحذفهم تاء المطاوعة وشد الهاء، وقرأ الحسن: ﴿تظهرون﴾ بضم التاء وتخفيف الظاء وشد الهاء، مضارع ظهر مشدد الهاء، وقرأ هارون عن أبي عمرو: ﴿تظهرون﴾ بفتح التاء والهاء وسكون الظاء مخفف الهاء، من ظهر الثلاثي، وفي مصحف أبي: ﴿تتظهرون﴾ بتاءين فتلك تسع قراءات.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ الذين تبنيتم، جمع دعي فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مدعو، وهو الذي يدعى ولداً لغير أبيه ويتخذ ابناً؛ أي: متبنى، بتقديم الباء الموحدة على النون، ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: كأبنائكم حقيقة في

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

حكم الميراث والحرمة والنسب؛ أي[1]: ما جعل الدعوة والنبوة في رجلٍ واحدٍ، لأن الدعوة عرض، والبنوة: أصل في النسب، ولا يجتمعان في الشيء، وهذا أيضاً ردّ لما كانوا يزعمون، من أن دعي الرجل ابنه، فيجعلون له من الميراث مثل نصيب الذكر من أولادهم، ويحرمون نكاح زوجته إذا طلقها أو مات عنها.

والمعنى[2]: أي ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه، وهو ابن غيره ابناً له بدعواه فحسب، وفي هذا إبطال لما كان في الجاهلية وصدر الإسلام، من أنه إذا تبنى الرجل ابن غيره.. أجريت عليه أحكام الابن النسبي، وقد تبنى رسول الله - ﷺ - قبل البعثة زيد بن حارثة، والخطَّاب عامر بن ربيعة، وأبو حذيفة سالماً.

ويجوز أن يكون نفي القلبين لتمهيد أصل يحمل عليه نفي الأمومة عن المظاهر منها، والبنوة عن المتبنى، كما مر.

والمعنى[3]: لما لم يجعل الله قلبين في جوف واحدٍ لأدائه إلى التناقض، وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى، وغير أصلٍ، كذلك لم يجعل الله الزوجة أماً، والدعي ابناً لأحدٍ، يعني كون المظاهر منها أماً، وكون الدعي ابناً؛ أي: بمنزلة الأم والابن في الآثار والأحكام المعهودة بينهم في الاستحالة، بمنزلة اجتماع قلبين في جوف واحد.

وفيه إشارة إلى أن في القرابة النسبية خواص لا توجد في القرابة السببية، فلا سبيل لأحد أن يضع في الأزواج بالظهار وما وضع الله في الأمهات، ولا أن يضع في الأجانب بالتبني ما وضع الله في الأبناء، فإن الولد سر أبيه، فما لم يجعل الله فليس في مقدور أحد أن يجعله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور[4] من قولكم للزوجة: أنت علي كظهر أمي، أو للدعي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) النسفي.

أنت ابني ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فقط؛ أي: قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له ولا تأثير له إذ الإبن يكون بالولادة وكذلك الأم فلا تصير به المرأة أماً، ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة والبنوة، وقيل: الإشارة[1] إلى الأخير فقط، لأنه المقصود من سياق الكلام؛ أي: دعاؤكم الدعي بقولكم: هذا ابني قولكم بألسنتكم، لا تأثير له في الأعيان، فهو بمعزل عن أحكام البنوة كما زعمتم، والأفواه جمع فم، كما سيأتي. قال الراغب: وكل موضع علق الله فيه حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب، وتنبيه على أن الاعتقاد لا يطابقه.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ﴾ القول ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والصدق، والكلام المطابق للواقع الذي يجب اتباعه لكونه حقاً في نفسه، لا باطلاً، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم، أو يحكم الحكم الحق، وهو أن غير الابن لا يكون ابناً، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَهْدِى﴾ ويرشد ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: سبيل الحق لا غيره، فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله هذا؛ أي: يدل على الطريق الموصلة إلى الحق.

وقرأ الجمهور: ﴿يَهْدِى﴾ مضارع هدى، وقتادة: بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال. ذكره أبو حيان.

والمعنى[2]: أي والله هو الصادق الذي يقول الحق، وبقوله يثبت نسب من أثبت نسبه، وبه تكون المرأة أماً إذا حكم بذلك، وهو يبيّن لعباده سبيل الحق، ويهديهم إلى طريق الرشاد، فدعوا قولكم وخذوا بقوله عزّ اسمه.

وفي هذا: إرشاد للعباد إلى قول الحق، وترك قول الباطل والزور.

وخلاصة ما سلف:

١ ـ أنه لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، وهذا يؤدي إلى التناقض في أعمال الإنسان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فيكون مريداً للشيء كارهاً له، وظاناً له موقناً به في حال واحدة، وهذا لن يكون.

٢ ـ أنه لم ير أن تكون المرأة أماً لرجل وزوجاً له، لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح، والمرأة مستخدمة في المصالح الزوجية على وجوه شتى.

٣ ـ لم يشأ في حكمته أن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له، لأن البنوة نسب أصيل عريق، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً وغير أصيلٍ.

ولما ذكر أنه يقول الحق.. فصل هذا الحق بقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾؛ أي: أنسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم ﴿لِآبَآئِهِمْ﴾؛ أي: إلى آبائهم الذين ولدوهم، فقولوا: زيد بن حارثة، ولا تقولوا: زيد بن محمد، وكذا غيره ﴿هُوَ﴾؛ أي: الدعاء لآبائهم، فالضمير[1] لمصدر ﴿ادعوا﴾، كما في قوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿أَقْسَطُ﴾ وأعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وأصوب في حكمه من دعائكم إياهم لغير آبائهم، وأقسط أفعل تفضيل، قصد به الزيادة المطلقة.

والمعنى: بالغ في العدل والصدق، وهذه الجملة معللة لما قبلها.

وفي «كشف الأسرار»: هو أعدل وأصدق من دعائهم إياهم لغير آبائهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أنتم أيها الناس، ولم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم، حتى تنسبوهم إليهم، وتلحقوهم بهم ﴿فـ﴾ هم ﴿إخوانكم في الدين﴾ إن كانوا قد دخلوا في دينكم ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محررين؛ أي: قولوا: هو مولى فلان، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى حذيفة، وكان قد تبناه من قبل، قال الزجاج: ويجوز[2] أن يكون ﴿مواليكم﴾ أولياؤكم في الدين، وقيل المعنى: فإن كانوا محررين، ولم يكونوا أحراراً.. فقولوا: موالي فلان.

---

(١) المراغي.   (٢) الشوكاني.

فائدة: قال بعضهم[1]: متى عرض ما يحيل معنى الشرط.. جعلت إن بمعنى إذ، وإذ: يكون للماضي، فلا منافاة ههنا بين حرفي الماضي والاستقبال، قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ إن تفعلوا جزم بـ﴿لَمْ﴾ فإنها لما صيرته؛ أي: المضارع ماضياً صارت كالجزء منه، وحرف الشرط كالداخل على المجموع، وكأنه قال: فإن تركتم الفعل، ولذلك ساغ اجتماعهما؛ أي: حرف الشرط ولم. انتهى.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: ذنب وإثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: فيما فعلتموه من تلك الدعوة مخطئين قبل النهي أو بعده، نسياناً أو سبق لسان.

قال ابن عطية: لا تتصف التسمية بالخطأ إلا بعد النهي، والخطأ: العدول عن الجهة المقصودة؛ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأً من غير عمد بالنسيان، أو سبق اللسان، فقول القائل لغيره: يا بني، بطريق الشفقة، أو يا أبي، أو يا عمي، بطريق التعظيم، فإنه مثل الخطأ لا بأس به، ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان.

﴿وَلَٰكِن﴾ الجناح والإثم فيـ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: فيما قصدت قلوبكم به بعد النهي، على أن ما في محل الجر عطفاً على ﴿ما أخطأتم﴾، أو المعنى: ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، على أن محل ﴿ما﴾ الرفع على الابتداء محذوف الخبر؛ أي: ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين، من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأً غير مقصود، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وعن قتادة، أنه قال في الآية: لو دعوت رجلاً

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه.. لم يكن عليك بأس، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه.

وفي الحديث: «من دعي إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه.. فالجنة عليه حرام».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: ستاراً لذنب من ظاهر زوجته، وقال الزور والباطل من القول، وذنب من ادعى ولد غيره ابناً له، إذا تابا ورجعا إلى أمر الله، وانتهيا عن قيل الباطل، بعد أن نهاهما - ﴿رَّحِيمًا﴾ بهما بقبول توبتهما، فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما.

فالمغفرة[1]: هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته، والرحمة: هو أن يميل إلى شخص بالإحسان لعجز المرحوم إليه، لا لعوض.

ثم ذكر سبحانه لرسوله مزيةً عظيمةً، وخصوصيةً جليلةً لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد - ﷺ - ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ أي: أرأف وأشفق وأحرس ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: النبي أشد[2] ولايةً ونصرةً لهم من أنفسهم، فإن النبي ﷺ لا يأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم، ولا ينهاهم إلا عما يضرهم ويؤذيهم في دنياهم وآخرتهم، أما النفس، فإنها أمارة بالسوء، وقد تجهل بعض المصالح، وتخفى عليها بعض المنافع.

روي: أن النبي ﷺ أراد غزوة تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال ناس: نشاور آباءنا وأمهاتنا فنزلت.

والمعنى[3]: النبي ﷺ أحرى وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق على معنى أنه لو دعاهم إلى شيء ودعتهم نفوسهم إلى شيء آخر.. كان النبي أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من

---

(1) المراح.
(2) المراغي.
(3) روح البيان.

إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم لأن النبي - ﷺ - لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وبوارهم، كما قال تعالى حكايةً عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فيجب أن يكون عليه السلام أحب إليهم من أنفسهم، وأمره أنفذ عليهم من أمرها، وآثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه، ويجعولها فداءه في الخطوب والحروب، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه، ويجعلوه مقدماً على ما يختارونه لأنفسهم، كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى علم شفقته - ﷺ - على أمته، وشدة نصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وفي الحديث: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة»؛ أي: في الشفقة من أنفسهم ومن آبائهم، وفيه أيضاً: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وهو يذب عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي». وفيه أيضاً: «لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين».

قال في «الأسئلة المقحمة»: وفي الآية إشارة إلى أن اتباع الكتاب والسنة أولى، من متابعة الآراء والأقيسة، حسبما ذهب إليه أهل السنة والجماعة.

وقيل[1]: المراد بـ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ في الآية بعضهم، فيكون المعنى: أن النبي - ﷺ - أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض، وقيل: هي خاصة بالقضاء؛ أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم، وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس دونه، والأول أولى.

﴿وَأَزْوَاجُهُ﴾؛ أي: زوجاته - ﷺ - ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ أي: مثل أمهاتهم، ومنزلات منزلتهن في التحريم والاحترام والتوقير والإكرام، فلا يحل لأحد منهم أن يتزوج

(١) الشوكاني.

بواحدة منهن، كما لا يحل له أن يتزوج أمه كما قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن وبالتعظيم لجنابهن، وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن، والخلوة بهن، والمسافرة معهن، والميراث، فهن كالأجنبيات، فلا يحل النظر إليهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ولا الخلوة بهن، ولا المسافرة معهن، ولا يرثن المؤمنين، ولا يرثونهن.

ثم إن[١] حرمة نكاحهن من احترام النبي - ﷺ - واحترامه واجب على الأمة، وتخصيص التحريم بهن، يدل على أنه لا يتعدى إلى عشيرتهن فلا يقال لبناتهن: أخوات المؤمنين، ولا لإخوانهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، ولهذا قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، وهي أخت أم المؤمنين، ولم يقل: هي خالة المؤمنين.

وقال القرطبي: الذي يظهر لي: أنهن أمهات الرجال والنساء، تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء، كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً قال: ثم إن في مصحف أبي بن كعب: ﴿وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾، وقرأ ابن عباس: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم﴾.

قيل: كن[٢] أمهات الرجال دون النساء، بدليل ما روي عن مسروق: إن امرأة قالت لعائشة: يا أمه، فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، فبان بذلك أن معنى الأمومة: إنما هو تحريم نكاحهن.

وظاهر قوله[٣]: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾: عموم كل من أطلق عليها أنها زوجة له ﷺ؛ أي: سواء دخل بهن أو لا، وسواء مات عنهن أو طلقهن، وقيل: لا يثبت هذا الحكم لمطلقة، وقيل: من دخل بها ثبتت حرمتها قطعاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

وفي «فتح الرحمٰن»: وإنما[1] جعلهن الله كالأمهات، ولم يجعل نبيه كالأب حتى قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لأنه تعالى أراد أن أمته يدعون أزواجه بأشرف ما تنادى به النساء، وهو الأم، وأشرف ما ينادى به النبي - ﷺ - لفظ الرسول، ولأنه تعالى جعلهن كالأمهات، إجلالاً لنبيه، لئلا يطمع أحد في نكاحهن بعده، ولو جعله أباً للمؤمنين.. لكان أباً للمؤمنات أيضاً فيحرمن عليه، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه، ولأنه تعالى جعله أولى بنا من أنفسنا، وذلك أعظم من الأب في القرب والحرمة، إذ لا أقرب للإنسان من نفسه، ولأن من الآباء من يتبرأ من ابنه، ولا يمكنه أن يتبرأ من نفسه. انتهى.

ثم بين سبحانه: أن القرابة أولى بالإرث بها من الأخوة في الدين، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ذوو القربات النسبية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق ﴿بـ﴾إرث ﴿بعض﴾ آخر منهم، فالكلام على حذف مضاف.

وهذه الآية كانت ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، وكان[2] التوارث في بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، فكان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته، وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله - ﷺ - حين الهجرة، فقد آخى بين أبي بكر - رضي الله عنه - وخارجة بن زيد، وبين عمر وشخص آخر، وبين الزبير وكعب بن مالك، ثم نسخ ذلك بهذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: يجوز[3] أن يتعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ لأن أفعل التفضيل يعمل في الظروف.

والمعنى: هذه الأولوية، وهذا الاستحقاق، كائن وثابت في كتاب الله تعالى، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الضمير في ﴿أَوْلَىٰ﴾، والعامل فيها ﴿أَوْلَىٰ﴾ لأنها شبيهة بالظرف؛ أي: حالة كون أولويتهم ثابتةً في كتاب الله تعالى، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿أولوا﴾ للفصل بالخبر، ولأنه لا عامل فيها

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

على مذهب الجمهور. انتهى. من «الكرخي».

والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية المواريث، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الأنصار ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يجوز في ﴿من﴾ وجهان:

أحدهما: أنها من الجارة للمفضل عليه، كهي في زيد أفضل من عمرو، المعنى عليه: وأولو الأرحام والقرابات، أولى بالإرث من المؤمنين والمهاجرين الأجانب.

والثاني: أنها للبيان، جيء بها بياناً لأولي الأرحام، فتتعلق بمحذوف، **والمعنى**: وأولو الأرحام الكائنون من المؤمنين والمهاجرين، أولى بالإرث من الأجانب. ا هـ. «سمين».

والمعنى[1]: أي وأولو الأرحام أولى بالإرث بحق القرابة، من إرث المؤمنين بحق الدين، ومن إرث المهاجرين بحق الهجرة، فيما كتبه الله سبحانه، وفرضه على عباده.

والخلاصة: أن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها، وأبطلت حكماً شرع لضرورةٍ عارضةٍ في بدء الإسلام، وهو الإرث بالتآخي في الدين، والتآخي حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار، حين كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرابته وذوي رحمه.

ثم استثنى من ذلك الوصية، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ وأصدقائكم؛ أي: إلا أن تحسنوا إلى أصدقائكم من الأجانب ﴿مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: وصيةً من الثلث؛ أي[2]: إن أوصيتم فغير الوارثين أولى، وإن لم توصوا.. فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم.

وهذا الاستثناء إما متصل من أعم ما تقدر فيه الأولوية من النفع، كقولك: القريب أولى من الأجنبي، إلا في الوصية، تريد أحق منه في كل نفع، من

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

ميراثٍ وهبةٍ وهديةٍ وصدقة وغير ذلك، إلا في الوصية، والمراد بالأولياء: من يوادونهم ويصادقونهم، ومن يوالونهم ويؤاخونهم، وبفعل المعروف الوصية؛ أي: التوصية بثلث المال، أو أقل منه، لا بما زاد عليه.

والمعنى: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل نفع، من ميراثٍ وهبةٍ وهديةٍ وصدقةٍ وغير ذلك، إلا أن تفعلوا إلى أصدقائكم معروفاً بتوصيةٍ لهم من ثلث المال، فهم أولى بالوصية، لأنه لاوصية لوارث، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ أي: الأقارب أحق بالميراث من الأجانب، لكن فعل التوصية أولى للأجانب من الأقارب، لأنه لا وصية لوارث.

ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة.. أباح أن يوصى لهم.

ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل في الإرث، وهو الحكم الثابت في كتابه، الذي لا يغير ولا يبدل، فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور في الآيتين: من أولوية النبي - ﷺ - بأنفسهم، ونسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة، ورده إلى ذوي الأرحام من القرابات ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مكتوباً؛ أي: كان ذلك المذكور من الحكمين مثبتاً في اللوح المحفوظ، أو مكتوباً في القرآن الكريم.

والمعنى: أي[1] إن هذا الحكم، وهو كون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض: حكم من الله تعالى مقدر مكتوب في الكتاب، الذي لا يبدل ولا يغير وإن كان قد شرع غيره في وقتٍ ما لمصلحةٍ عارضةٍ، وحكمةٍ بالغةٍ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي، وقضائه التشريعي.

واعلم: أنه[2] لا توارث بين المسلم والكافر، ولكن صحت الوصية بشيء من مال المسلم للذمي، لأنه كالمسلم في المعاملات، وصحت الوصية بعكسه؛ أي: من الذمي للمسلم، ولذا ذهب بعضهم إلى أن المراد بالأولياء: هم الأقارب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من غير المسلمين؛ أي: إلا أن توصوا لذوي قرابتكم بشيء، وإن كانوا من غير أهل الإيمان، وذلك فإن القريب غير المسلم، يكون كالأجنبي، فتصح الوصية له مثله، وأما الوصية لحربي فلا تصح مطلقاً؛ أي: قريباً أو أجنبياً، لأنه ليس من أهل المواساة، والمعروف له كتربية الحية الضارة لتلدغه، وندبت الوصية.عند الجمهور في وجوه الخير، لتدارك التقاصير.

والظرف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك، أو ليكن ذكر منك، يعني لا تنس قصة وقت أخذنا من الأنبياء كافةً عند تحميلهم الرسالة ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: عهودهم المؤكدة باليمين على تبليغ الرسالة، والدعوة إلى التوحيد والدين الحق.

ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال: ﴿وَمِنكَ﴾؛ أي: وأخذنا منك يا حبيبي خاصةً، وقدم تعظيماً وإشعاراً بأنه أفضل الأنبياء وأولهم في القرب، وإن كان آخرهم في البعث، وفي الحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ أي: لا أقول هذا بطريق الفخر، ﴿و﴾ أخذنا ﴿من نوح﴾ شيخ الأنبياء وأول الرسل بعد الطوفان ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَمُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ روح الله وكلمته خصهم[1] بالذكر مع اندراجهم في النبيين، للإيذان بمزيد فضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم من الرسل، قال الزجاج: وأخذ الميثاق حين أخرجوا من صلب آدم مثل الذر، ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق، بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾؛ أي: من النبيين ﴿مِّيثَاقًا﴾؛ أي: عهداً مؤكداً وثيقاً ﴿غَلِيظًا﴾؛ أي: شديداً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالات، وأداء الأمانات، وهذا هو الميثاق الأول بعينه، والتكرير لبيان هذا الوصف، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي واذكر أيها الرسول الكريم، العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء، ليقيمن دينه ويبلغن رسالته، ويتناصرن، كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولاً وأمره بشيء، وقبله.. كان ذلك ميثاقاً عليه، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول، ويفعل.. كان ذلك تغليظاً للميثاق، حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة.

فإن قلت: لم[2] قدم النبي - ﷺ - في هذه الآية، وقدم نوحاً في آية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية؟

قلت: قدمه - ﷺ - هنا إظهاراً لشرفه وفضله عليهم - ﷺ - عليهم أجمعين، وقدم نوحاً هناك، لأن الآية سيقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم، وما بعث به نبينا من العهد الحديث، وما بعث به من توسطهما من الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبةً للمقصود من بيان أصالة الدين وقدمه. ا هـ. «كرخي».

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين، فقال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: الأنبياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ في تبليغ الرسالة إلى قومهم، وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم.

وقيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم، كما في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ و(اللام) فيه: لام كي، إما متعلقة بـ﴿أَخَذْنَا﴾؛ أي: وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم، لكي نسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، وما فعل أقوامهم فيما بلغوهم عن ربهم من الرسالة، وقيل: متعلق بمحذوف مستأنف، مسوق لبيان ما هو داع، إلى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية

---

(1) المراغي. (2) الفتوحات.

له، لا بـ﴿أخذنا﴾ فإن المقصود نفس الميثاق، ثم بيان الغرض منه بياناً قصدياً، كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة.

والمعنى: فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوا لقومهم وفي الخبر: «أنه يسأل القلم يوم القيامة، فيقول: ما فعلت بأمانتي؟ فيقول: يا رب سلمتها إلى اللوح، ثم يصير القلم يرتعد مخافة أن لا يصدقه اللوح، فيسأل اللوح، فيقر بأن القلم قد أدى الأمانة، وأنه قد سلمها إلى إسرافيل، فيقول لإسرافيل: ما فعلت بأمانتي التي سلمها إليك اللوح؟ فيقول: سلمتها إلى جبريل، فيقول لجبريل: ما فعلت بأمانتي؟ فيقول: سلمتها إلى أنبيائك، فيسأل الأنبياء فيقولون: سلمناها إلى خلقك، فذلك قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال القرطبي: إذا كان الأنبياء يسألون، فكيف من سواهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ في الآخرة ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: للمكذبين الرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: وجيعاً معطوف على محذوف، دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ...﴾ إلخ، فكأنه قال: فأثاب المؤمنين بهم، وأعد للكافرين بهم عذاباً أليماً، وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول، ومن الأول ما أثبت مقابلة في الثاني، والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم، وأعد لهم عذاباً أليماً.

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ وتكون جملة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مستأنفة، لبيان ما أعده للكفار.

غزوة الأحزاب المسماة بغزوة الخندق

وخلاصة هذه القصة، على ما قاله أرباب السير: أن نفراً من اليهود قدموا على قريش في شوال سنة، خمس من الهجرة بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ ﷺ ـ، وقالوا لهم: إن دينكم خير من دينه، ثم جاؤوا غطفان وقيساً وغيلان، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه، فخرجت هذه القبائل، ومعها قادتها وزعماؤها، ولما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بمسيرهم.. أمر المسلمين

بحفر خندق حول المدينة، بإشارة سلمان الفارسي، وعمل فيه رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون، وأحكموه، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يرتجز بكلمات ابن رواحة، ويقول:

لاَهُـمَّ لَـوْلاَ أَنْـتَ مَـا ٱهْـتَـدَيْـنَـا وَلاَ تَـصَـدَّقْـنَـا وَلاَ صَـلَّـيُـنَـا

فَـأَنْـزَلَـنْ سَـكِـيْـنَـةً عَـلَـيْـنَـا وَثَـبِّـتِ ٱلأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَـيْـنَـا

وَٱلْـمُـشْـرِكُـوْنَ قَـدْ بَـغَـوْا عَـلَـيْـنَـا إِذَا أَرَادُوْا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَـا

وفي أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء في بطن الخندق، فكسرت حديدهم، وشقت عليهم، فلما علم بها ـ ﷺ ـ.. أخذ المعول من سلمان، وضربها به ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ـ جانبي المدينة ـ حتى كأن مصباح في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ـ ﷺ ـ تكبير فتح، وكبر المسلمون، وهكذا مرة ثانيةً وثالثةً، فكانت تضيء وكان التكبير، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ضربت ضربتي الأولى، فبرق البرق الذي رأيتم، فأضاء لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق البرق الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة، فبرق البرق الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فابشروا» فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فقال المنافقون: ألا تعجبون! يمنيكم، ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وإنكم إنما تحفرون الخندق من الفرق، لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ إلخ. ونزل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ...﴾ الآية.

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب، الذين حزبهم اليهود، وأتوا إلى المدينة.. رأوا الخندق حائلاً بينهم وبينها، فقالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، ووقعت مصادمات بين القوم كراً وفراً، فمن المشركين من كان يقتحم

الخندق فيرمى بالحجارة، ومنهم من يقتحمه بفرسه فيهلك.

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان، أتى رسول الله - ﷺ - فأعلمه أنه أسلم، وأن قومه لم يعلموا بذلك، فقال - ﷺ -: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» فأتى قريظة وقال لهم: لا تحاربوا مع قريش وغطفان، إلا إذا أخذتم منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم تقية لكم، على أن يقاتلوا معكم محمداً، لأنهم رجعوا وسئموا حربه، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه، وذهب إلى قريش وإلى غطفان، فقال لهم: إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهناً، يدفعوها لمحمد فيضرب أعناقها، ويتحدون معه على قتالكم، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد، وتابوا، وهذا هو المخرج الذي اتفقوا عليه.

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب، دب بينهم ودبيب الفشل، ومما زاد في فشلهم أن بعث الله عليهم ريحاً في ليلةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فجعلت تكفىء قدورهم، وتطرح آنيتهم، وقد قام رسول الله - ﷺ - ليلةً يصلي على التل الذي عليه مسجد الفتح، ثم يلتفت ويقول: «هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم» فعل ذلك ثلاث مراتٍ، فلم يقم رجل واحد من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فدعا حذيفة بن اليمان، وقال: «ألم تسمع كلامي منذ الليلة» قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر، قال: «انطلق حتى تدخل في القوم، فتسمع كلامهم، وتأتيني بخبرهم، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، حتى ترده إلي، انطلق ولاتحدث شيئاً حتى تأتيني»، فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله - ﷺ - يده يقول: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي»، فنزل جبريل وقال: إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك، فخر رسول الله - ﷺ - على ركبتيه، وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي»، وذهب حذيفة إلى القوم، فسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف

وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، وشرع القوم يقولون: الرحيل الرحيل، والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة، ولم تجاوز عسكرهم، ورحلوا وتركوا ما استثقلوا من متاعهم، فلما رجع أخبر رسول الله - ﷺ -، فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، وقال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا». ا هـ. ملخصاً من كتب السيرة، وقد بسط أهل السير في هذه الوقعة بما هو معروف، فلا نطيل بذكرها.

ثم شرع سبحانه في تفصيلها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بالله ورسوله ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: اشكروا إنعام الله عليكم بالنصرة، فمعنى ذكر النعمة: شكرها، ﴿إِذْ﴾ ظرف للنعمة؛ أي: إنعام الله عليكم بالنصرة حين ﴿جَآءَتْكُمْ﴾ وأحاطت بكم ﴿جُنُودٌ﴾ مجندة، وجموع مجمعة، وعساكر مسلحة، والمراد بهم: جنود الأحزاب، الذين تحزبوا على رسول الله - ﷺ -، وغزوه بالمدينة، وهم أبو سفيان بن حرب بقريش، ومن معهم من الألفاف، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قريظة والنضير، فضايقوا المسلمين مضايقةً شديدةً، كما وصف الله سبحانه في هذه الآية، وكانت هذه الغزوة في شوالٍ سنة خمس من الهجرة، قاله ابن إسحاق، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: كانت في سنة أربع، وكانت جملة الأحزاب اثني عشر ألفاً، وجملة المسلمين ثلاثة آلاف، ومكثوا في حفر الخندق ستة أيام، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعةً وعشرين، وقيل: شهراً، فلما فرغوا من حفره أقبلت قريش، والقبائل، فحاصروا المسلمين خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعةً وعشرين يوماً، والخندق بينهم وبين المسلمين، حتى هزمهم الله سبحانه وتعالى بريح وجنود لم يروها، بلا مقاتلة أحدٍ من المسلمين.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ليلاً من جانب القهار، عطف على جاءتكم ﴿رِيحًا﴾ شديدةً ناصرةً لكم، وهي ريح الصبا، وهي تهب من جانب المشرق، والدبور من قبل المغرب، قال ابن عباس: قالت الصبا للدبور؛ أي: للريح الغريبة: اذهبي بنا

ننصر رسول الله - ﷺ -، فقالت: إن الحرائر لا تهب ليلاً، فغضب الله عليها فجعلها عقيماً، وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

﴿و﴾ أرسلنا عليهم أيضاً ﴿جنوداً﴾ عظيمةً هائلةً ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ أي: لا ترون أنتم أيها المسلمون تلك الجنود، وهم الملائكة، قيل: كانوا ألفاً، روي[1] أن الله تعالى بعث على المشركين ريحاً باردةً، في ليلة شاتية، ولم تجاوز عسكرهم، فأحصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وبعث الله عليهم أيضاً الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، ونفثت في روعهم الرعب، وكبرت في جوانب معسكرهم، حتى سمعوا التكبير وقعقعة السلاح، واضطربت الخيول، ونفرت، فصار سيد كل حي يقول لقومه: يا بني فلان: هلموا إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء؛ أي: الإسراع الإسراع، فانهزموا من غير قتال، وارتحلوا ليلاً، وحملوا ما خف عليهم من متاعهم، وتركوا ما استثقلوه منه.

والمعنى[2]: أي تذكروا أيها المؤمنون نعم الله، التي أسبغها عليكم، حين حوصرتم أيام الخندق، وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان، ويهود بني النضير أجلاهم رسول الله - ﷺ - من المدينة إلى خيبر، فأرسلنا عليهم ريحاً باردةً، في ليلة باردةً، أحصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وأمر ملائكته فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف الرعب في قلوب الأعداء، حتى قال طليحة بن خويلد الأسدي: إن محمداً قد بدأكم بالسحر، فالنجاة النجاة، فانهزموا من غير قتال.

والخلاصة: أنه تعالى يمتن على عباده المؤمنين بذكر النعم التي أنعم بها عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم حين تألبوا عليهم، وتحزبوا عام الخندق.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ الحسن[1]: ﴿وجنوداً﴾ بفتح الجيم، والجمهور: بالضم، وقرأ أبو عمرو في رواية وأبو بكر في رواية: ﴿لم يروها﴾ بياء الغيبة؛ أي: الكفار، وباقي السبعة والجمهور: بتاء الخطاب؛ أي: أيها المسلمون.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ[2] الجمهور: بتاء الخطاب؛ أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الأسباب، وحفر الخندق، واستنصاركم به، وتوكلكم عليه، ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: رائياً، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم، وعصمتكم من شرهم، فلا بد لكم من الشكر على هذه النعمة الجليلة، باللسان والجنان والأركان.

وقرأ أبو عمرو بالتحتية؛ أي: بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله، والتحزب للمسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة؛ أي: وكان الله سبحانه عليماً بجميع أعمالكم، من حفركم للخندق، وترتيب وسائل الحرب، لإعلاء كلمته، ومقاساتكم من الجهد والشدائد ما لا حصر له، بصيراً بها، لا يخفى عليه شيء منها، وهو يجازيكم عليها، ولا يظلم ربك أحداً.

ثم زاد الأمر تفصيلاً وبياناً، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾: ﴿إِذْ﴾: هذه وما بعدها: بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، والعامل في هذه: هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحذوف، هو اذكر؛ أي: اذكروا أيها المؤمنون: هول إذ جاءكم أعداؤكم الأحزاب ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ أي: من أعلى الوادي من جهة المشرق، والذين جاؤوا من هذه الجهة هم غطفان، وسيدهم عيينة بن حصن، وهوازن، وسيدهم عوف بن مالك، وأهل نجد، وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضم إليهم عوف بن مالك، وبنو النضير.

﴿و﴾ جاؤوكم ﴿من أسفل منكم﴾؛ أي: من أسفل الوادي من جهة المغرب، من ناحية مكة، وهم قريش ومن معهم من الأحابيش، وسيدهم أبو سفيان بن حرب، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي، في

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: معطوف على ما قبله، داخل في حكم التذكير، والزيغ: الميل عن الاستقامة؛ أي: وإذ مالت الأبصار عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب، وقيل: شخصت من فرط الهول والحيرة.

والمعنى[1]: واذكروا حين مالت الأبصار عن مستوى نظرها، حيرةً وشخوصاً، لكثرة ما رأت من العَدد والعُدد، فإنه كان مع قريش ثلاث مئة فرس، وألف وخمس مئة بعير.

﴿و﴾ إذ ﴿بلغت﴾ ووصلت ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾: جمع حنجرة، وهي منتهى الحلقوم؛ أي: ارتفعت القلوب عن أماكنها للخروج، فزعاً وخوفاً، ووصلت في الارتفاع إلى رأس الحلقوم وأسفله، وهو مدخل الطعام والشراب، والحنجرة: منتهى الحلقوم وطرفه الأسفل؛ أي: بلغت رأس الغلصمة والحنجرة من خارج رعباً وغماً، لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع والغم، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهو مشاهد في مرض الخفقان من غلبة السوداء.

قال قتادة: شخصت عن أماكنها، فلولا أنه ضاق الحلقوم بها عن أن تخرج.. لخرجت، وقال بعضهم: كادت تبلغ، فإن القلب إذا بلغ الحنجرة، مات الإنسان، فعلى هذا يكون الكلام تمثيلاً، لاضطراب القلوب من شدة الخوف، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقةً.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ يا من يظهر الإسلام على الإطلاق ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ المختلفة، المخلصون يظنون النصر والظفر، والمنافقون يظنون خلاف ذلك، معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾. وصيغة المضارع فيه لاستحضار الصورة، والدلالة على الاستمرار، وقال الحسن: ظن المنافقون أنه يستأصل محمد وأصحابه، وظن المؤمنون أنه ينصر، وقيل: الآية خطاب للمنافقين، والأولى[2] ما قاله الحسن.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

واختلف القراء في الألف التي في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، وكذا ﴿السبيلا﴾ و﴿الرسولا﴾، كما سيأتيان في آخر هذه السورة، فأثبت هذه الألفات نافع وابن عامر وأبو بكر وصلاً ووقفاً، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وبخط جميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، إلا أنه قال: لا ينبغي للقارىء أن يدرج القراءة بعدهن، بل يقف عليهن، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا، وأنشد أبو عمرو في «كتاب الألحان»:

إِذَا ٱلْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ ٱلثُّرَيَّا ظَنَنْتَ بِآلِ فَاطِمَةَ ٱلظُّنُونَا

وقرأ[1] أبو عمرو وحمزة والجحدري ويعقوب، بحذفها في الوصل والوقف معاً، وقالوا هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها، وأما في الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره، وقرأ ابن كثير والكسائي وحفص وابن محيصن: بإثباتها وقفاً وحذفها وصلاً، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، أما[2] إثباتها وقفاً، ففيه اتباع الرسم، وموافقة لبعض مذاهب العرب، لأنهم يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم، وفي تصاريفها؛ اتباعاً للفتحة، والفواصل في الكلام كالمصارع، وقال أبو علي: هي رؤوس الآي، تشبه بالقوافي، من حيث إنها كانت مقاطع كما كانت القوافي مقاطع، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو.

﴿هُنَالِكَ﴾ هو[3] في الأصل ظرف للمكان البعيد، لكن العرب تكني بالمكان عن الزمان، وبالزمان عن المكان، فهو إما ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده؛ أي: في ذلك المكان الهائل، أو في ذلك الدحض الذي تدحض فيه الأقدام ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ واختبروا بالحصر والرعب والخوف والجوع والبرد؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

عوملوا معاملة من يختبر، فظهر المخلص من المنافق، والراسخ من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾؛ أي: حركوا تحريكاً شديداً، وأزعجوا إزعاجاً قوياً، وذلك أن الخائف يكون قلقاً مضطرباً، لا يستقر على مكان، وتكرير حروف لفظه، تنبيه على تكرر معنى الزلل، ولكن صبروا وقاسوا الشدائد في طريق الحق ونصره، واجتهدوا إلى أن فتح الله مكة، واتسع الإسلام وبلاده وأهاليه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زلزلوا﴾ بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية، على ما هو الأصل في المبني للمفعول، وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤي عن أبي عمرو: بكسر الزاي الأولى، قاله ابن خالويه، وقال الزمخشري: وعن أبي عمرو إشمام زاي: ﴿زلزلوا﴾. انتهى، كأنه يعني إشمامها الكسر، ووجه الكسر في هذه القراءة الشاذة: أنه أتبع حركة الزاي الأولى بحركة الثانية، ولم يعتد بالساكن، كما لم يعتد به من قال: منتن، بكسر الميم إتباعاً لحركة التاء، وهو اسم فاعل من أنتن، وقرأ الجمهور: ﴿زلزالاً﴾ بكسر الزاي، والجحدري وعيسى بفتحها، وكذا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، ومصدر فعلل من المضاعف يجوز فيه الكسر والفتح، نحو قلقل قلقالاً، وقد يراد بالمفتوح معنى اسم الفاعل، كصلصال بمعنى مصلصل؛ أي: مصوت.

ومعنى الآيتين: أي واذكروا حين مالت الأبصار عن سننها، وانحرفت عن مستوى نظرها، حيرةً ودهشةً، وخاف الناس خوفاً شديداً، وفزعوا فزعاً عظيماً، وظنوا مختلف الظنون، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز الله وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه، ويقول هذا ما وعدنا الله ورسوله، ومنهم منافق وفي قلبه مرض، يظن أن محمداً وأصحابه سيستأصلون، ويستولي المشركون على المدينة، وتعود الجاهلية سيرتها إلى نحو ذلك من ظنون لا حصر لها، تجول في قلوب المؤمنين والمنافقين، على قدر ما يكون القلب عامراً بالإخلاص، مكتوباً له السعادة، أو متشككاً في اعتقاده، ليست له عزيمة صادقة، ثم ذكر أن هذه الشدائد محصت

---

(١) البحر المحيط.

المؤمنين، وأظهرت المنافقين فقال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: حين ذاك اختبر الله المؤمنين، ومحصهم أشد التمحيص، فظهر المخلص من المنافق، والراسخ في الإيمان من المتزلزل، واضطربُوا اضطرباً شديداً من الفزع وكثرة العدو.

وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: معطوف على ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾، والتعبير بالمضارع، لحكاية الحال الماضية كما سيأتي؛ أي: واذكروا حين قال المنافقون، كمعتب بن قشير: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: ضعف اعتقاد في الإيمان، لقرب عهدهم بالإسلام، والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك والاضطراب.

فإن قلت[1]: ما الفرق بين المنافق والمريض؟

قلت: المنافق من كذب الشيء تكذيباً لا يعتريه فيه شك، والمريض: من قال الله تعالى في حقه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ كذا في «الأسئلة المقحمة».

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من النصر والظفر على العدو، وإعلاء الدين وهم لم يقولوا رسول الله ـ ﷺ ـ، وإنما قالوه باسمه، ولكن الله ذكره بهذا اللفظ، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: إلا وعد غرور، وهو بالضم لا غير، والقائل لذلك معتب بن قشير ومن تبعه، كما سبق؛ أي: إلا وعداً باطلاً يغرنا به، ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، ويسلخنا عن دين آبائنا، ويقول: إن هذا الدين سيظهر على الدين كله، وإنه سيفتح لنا فارس والروم، وها نحن أولاء قد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته.

وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق والشك[2]، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة؛ أي: كان ظن هؤلاء هذا الظن، كما كان ظن المؤمنين النصر وإعلاء كلمة الله، ﴿وَ﴾ اذكروا

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

﴿إذ قالت طائفة﴾ وجماعة، ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من المنافقين، قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين، وقال السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قيظي وأصحابه، والطائفة: تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾؛ أي: يا أهل المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا إقامة ولا استقرار لكم ههنا في العسكر، أو لا موضع إقامة لكم ههنا جنب هذا العسكر العظيم لكثرة العدو، وغلبة الأحزاب، يريدون لا معسكر لكم ههنا.

وقرأ السلمي والأعرج واليماني وحفص والجحدري وأبو حيوة[1]: بضم الميم، فاحتمل أن يكون مكاناً؛ أي: لا مكان إقامة، واحتمل أن يكون مصدراً؛ أي: لا إقامة، وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعي وعبد الله بن مسلم وطلحة، وباقي السبعة: بفتحها، واحتمل أيضاً المكان؛ أي: لا مكان قيام، واحتمل المصدر؛ أي: لا قيام لكم.

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم بالمدينة ليكون ذلك أسلم لكم من القتل، وقد يكون المعنى: لا مقام لكم في دين محمد، فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك، وأسلموا محمد إلى أعدائه، ومرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم، وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم، وقد ثبطوا الناس عن الجهاد، والرباط لنفاقهم ومرضهم، ولم يوافقهم إلا أمثالهم، فإن المؤمن من المخلص لا يختار إلا الله ورسوله.

وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين خرجوا عام الخندق، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينهم وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وفي «المختار» التثريب: التعبير والاستقصاء في اللوم، وثرب عليه تثريباً: قبح عليه فعله. ا هـ.

فائدة: يثرب[2] هو اسم للمديمة المنورة، لا ينصرف للتعريف وزنة الفعل،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وفيه التأنيث أيضاً، وقد نهى النبي ـ ﷺ ـ أن تسمى المدينة بيثرب، وقال: «هي طيبة أو طابة والمدينة» كأنه كره هذا اللفظ، لأن يثرب يفعل من التثريب، وهو التقريع والتوبيخ واللوم، الذي لا يستعمل إلا فيما يكره غالباً، ولذلك نفاه يوسف عليه السلام، حيث قال لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، وكأن المنافقين ذكروها بهذا الاسم مخالفةً له ـ ﷺ ـ، فحكى الله عنهم كما قالوا.

وقال الإمام السهيلي: سميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عبيل بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاود بن إرم، وعبيل: هم الذين سكنوا الجحفة، وهي ميقات الشاميين، فأجحفت بهم السيول فيها؛ أي: ذهبت بهم فسميت الجحفة، وقال بعضهم: هي من الثَرب بالتحريك، وهو الفساد، وكان في المدينة الفساد واللؤم بسبب عفونة الهواء، وكثرة الحمى، فلما هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ. كره ذلك فسماها طيبة، على وزن بصرة، من الطيب، وقد أفتى الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فيمن قال: تربة المدينة رديئة بضربه ثلاثين درةً، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ، يزعم أنها غير طيبة.

وفي الحديث: «من سمى المدينة بيثرب.. فليستغفر الله، فليستغفر الله، هي طيبة، هي طيبة». وقوله ـ ﷺ ـ حين أشار إلى دار الهجرة: «لا أراها إلا يثرب» ونحو ذلك من كل ما وقع في كلامه ـ ﷺ ـ من تسميتها بذلك، كان قبل النهي عن ذلك، وإنما سميت طيبة؛ لطيب رائحة من مكث بها، وتزايد روائح الطيب بها، ولا يدخلها طاعون ولا دجال، ولا يكون بها مجذوم، لأن ترابها يشفي المجذوم، وهو كغراب، علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيآتها، وربما انتهى إلى تآكل الأعضاء وسقوطها عن تقرحٍ. انتهى.

وفيه إشارة إلى حال أهل الفساد والإفساد في هذه الأمة، إلى يوم القيامة، نسأل الله تعالى أن يقيمنا على نهج الصواب، ويجعلنا من أهل التواصي بالحق، والصبر دون التزلزل والاضطراب.

وقوله: ﴿وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ والتعبير فيه بالمضارع لحكاية الحال الماضية أيضاً؛ أي: ويطلب جماعة منهم من النبي - ﷺ - الإذن في الرجوع إلى بيوتهم، وتركهم للقتال، معتذرين بمختلف المعاذير، وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من قوله: ﴿يستأذن﴾ أو حال، أو مستأنف جواباً لسؤال مقدر، والقول الذي قالوه هو قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا﴾ ومنازلنا في المدينة ﴿عَوْرَةٌ﴾؛ أي: غير حصينة، وغير محرزة لما فيها، لأنها قصيرة الحيطان، وفي أطراف المدينة، فيخشى عليها من السراق، وأصل العورة في اللغة: الخلل في البناء ونحوه، بحيث يمكن دخول السارق فيها، كما سيأتي.

والمعنى: أنها غير حصينة متخرقة، ممكنة لمن أرادها، فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر، وكان عليه السلام يأذن لهم، وفي الحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون، وهم مضمرون غير ذلك، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾؛ أي: والحال أن بيوتهم ليست بضائعةٍ، يخشى عليها السراق، بل هي حصينة محرزة.

وقرأ ابن عباس وابن يعمر وقتادة وأبو رجاء العطاردي وعكرمة ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة، وأبو طالوت وابن مقسم وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير: ﴿عورة﴾ ﴿بعورة﴾ بكسر الواو فيهما؛ أي: قصيرة الجدران، والجمهور: بإسكانها فيهما، أطلقت على المختل مبالغةً.

ثم بيّن سبب استئذانهم وما يريدونه به، فقال: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾؛ أي: ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ وهرباً من القتال، وعدم مساعدة عسكر رسول الله - ﷺ -، أو فراراً من الدين والإسلام.

ثم بيّن وهن الدين وضعفه في قلوبهم إذ ذاك، وأنه معلق بخيط دقيق، ينقطع بأدنى هزةٍ، فقال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بيوتهم أو المدينة، أسند الدخول إلى بيوتهم، وأوقع عليهم، لما أن المراد فرص دخولها وهم فيها، لا فرص دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: من جميع جوانبها، لا من بعضها دون بعض؛ أي:

لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية، ودخلها كل من أراد الخبث والفساد، ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾؛ أي: الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة.. ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد؛ أي: لأعطوا تلك الفتنة السائلين لها؛ أي[1]: أعطوهم مرادهم غير مبالين بما دهاهم من الداهية والغارة بالقصر؛ أي: لفعلوا تلك الفتنة وجاؤوا بها.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾؛ أي: وما مكثوا وما تأخروا عن الإتيان بتلك الفتنة ﴿إِلَّا﴾ زمناً ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: قليلاً قدر ما يسمع السؤال والجواب، فضلاً عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها، كما فعلوا الآن، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام، وشدة بغضهم لأهله، وحبهم بالكفر وأهله، وتهالكهم على حزبه.

والمعنى[2]: لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم، وهم الأحزاب، من نواحي المدينة وجوانبها، أو دخلوا بيوتهم من جوانبها جميعاً، لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة، واستبيحت ديارهم، وهتكت حرمهم ومنازلهم، ثم سئلوا الفتنة والردة والرجعة إلى الكفر، الذي يبطنونه ويظهرون خلافه من جهة أخرى، عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم.. لآتوها؛ أي: لجاؤوا، وفعلوا تلك الفتنة، أو أعطوا تلك الفتنة لسائلها، وما تلبثوا وجلسوا بها؛ أي: بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثاً يسيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن والسدي والفراء والقتيبي، وقال أكثر المفسرين: إن المعنى: وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، بل هم مسرعون إليها، راغبون فيها، لا يقفون عنها إلا قدر زمن وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة، مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة، كماتعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة.

وقال ابن عطية: والمعنى: ولو دخلت المدينة من أقطارها، واشتد الحرب الحقيقي، ثم سئلوا الفتنة، والحرب لمحمد - ﷺ -.. لطاروا إليها، وأتوها

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن والشوكاني.

مجيبين فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً، قيل: قدر ما يأخذون سلاحهم. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُئِلُوا﴾، وقرأ الحسن: ﴿سولوا﴾ بواو ساكنة بعد السين المضمومة، قالوا: وهي من سال يسال، كخاف يخاف، لغة: من سأل المهموز العين، وحكى أبو زيد هما يتساولان. انتهى.

ويجوز أن يكون أصلها الهمز، لأنه يجوز أن يكون سولوا على قول من يقول في ضرب ضرب ثم سهل الهمزة، بإبدالها واواً، على قول من قال: في بؤس بوس، بإبدال الهمزة واواً لضم ما قبلها، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو والأعمش: ﴿سيلوا﴾ بكسر السين من غير همز، نحو قيل، وقرأ مجاهد: ﴿سويلوا﴾ بواو بعد السين المضمومة، وياء مكسورة بدلاً من الهمزة، وقرأ الجمهور ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد؛ أي: لأعطوها، وقرأ نافع وابن كثير: ﴿لأتوها﴾ بالقصر؛ أي: لجاؤوها.

وفي هذا إيماء[2] إلى أن الإيمان لا قرار له في نفوسهم، ولا أثر له في قلوبهم، فهو لا يستطيع مقابلة الصعاب، ولا مقاومة الشدائد، فلا تعجب لاستئذانهم، وطلبهم الهرب من ميدان القتال.

والخلاصة: أن شدة الخوف والهلع الذي تمكن في قلوبهم، مع خبث طويتهم، وإضمارهم النفاق، تحملهم على الإشراك بالله، والرجوع إلى دينهم، عند أدنى صدمةٍ تحصل لهم من العدو، فإيمانهم طلاء ظاهري، لا أثر له في نفوسهم بحال، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذاً، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ.

ثم بيّن أن لهم سابقة عهدٍ بالفرار وخوف اللقاء من الكماة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان الفريق الذين استأذنوك للرجوع إلى منازلهم في المدينة، وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وحلفوا له ﴿مِن

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل واقعة الخندق، يعني: يوم أحد، حين هموا بالانهزام، ثم تابوا لما نزل فيهم مانزل كما سبق في آل عمران، وقال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله لأهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً.. لنقاتلن.

﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾: جواب قسم، لأن ﴿عَاهَدُوا﴾: بمعنى حلفوا، كما في «الكواشي»؛ أي: لا يتركون العدو خلف ظهورهم ولا يفرون من القتال ولا ينهزمون ولا يعودون لمثل ما في يوم أحد، ثم وقع منهم هذا الاستئذان نقضاً للعهد، وقال أبو البقاء: ويقرأ بتشديد النون وحذف الواو على تأكيد جواب القسم. ا هـ. «سمين».

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَسْئُولًا﴾ عنه صاحبه يوم القيامة، ومطلوباً بالوفاء به في الدنيا، ومجازىً على ترك الوفاء به يوم القيامة، يسأل عنه: هل وفى المعهود به، أو نقضه فيجازى عليه؟ وهذا وعيد.

والمعنى: أي[1] ولقد كان هؤلاء المستأذنون، وهم بنو حارثة وبنو سلمة، قد هربوا يوم أحد، وفروا من لقاء عدوهم، ثم تابوا وعاهدوا الله أن لا يعودوا إلى مثلها، وأن لا ينكثوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله - ﷺ -، ثم بين ما للعهد من حرمةٍ فقال: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾ يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويجازى عليه.

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن فراركم لا يؤخر آجالكم، ولا يطيل أعماركم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء لمستأذنين الفارين من قتال العدو ومنازلته في الميدان: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ والهرب، ولا يدفع عنكم ما أبرم في الأزل، من موت أحدكم حتف أنفه، ﴿إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ﴾ قتلة بسيف أو نحوه، إن فررتم من ﴿الْقَتْلِ﴾، والقتل: فعل يحصل به زهوق الروح، فإنه لا بد لكل شخص من الفناء والهلاك، سواء كان بحتف أنف أو بقتل سيف في وقت

(١) المراغي.

معين سبق به القضاء، وجرى عليه القلم، ولا يتغير أصلاً، فإن المقدر كائن لا محالة، والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار، وكان علي بن أبي طالب يقول عند اللقاء: دهم الأمر وتوقد الجمر.

أَيَّ يَوْمَيَّ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَفِرّ   يَوْمَ لاَ يَقْدِرُ أَمْ يَوْمَ قَدِرْ
يَوْمَ لاَ يَقْدِرُ لاَ أُرْهِبُهُ   وَمِنَ ٱلْمَقْدُوْرِ لاَ يُنْجِيْ ٱلْحَذِرْ

﴿وَإِذًا﴾؛ أي: وإن نفعكم الفرار مثلاً، فمتعتم بالتأخير ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا﴾ تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ أو إلا زماناً قليلاً بعد فراركم إلى أن تنقضي آجالكم، وكل ماهو آتٍ قريب، وعمر الدنيا كله قليل، فكيف مدة آجال أهلها، وقد قال من عرف مقدار: عمرك في جنب عيش الآخرة، كنفس واحد، وقد أجاد من قال:

ٱلْمَوْتُ كَأْسٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ شَارِبُهُ   وَٱلْقَبْرُ بَابٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ دَاخِلُهُ

وعن بعض المروانية: أنه مر بحائط مائلٍ فأسرع، فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل أطلب.

والمعنى[1]: أي وإن نفعكم الفرار، بأن دفع عنكم الموت، فمتعتم.. لم يكن ذلك التمتع إلا قليلاً، فإن أيام الحياة وإن طالب قصيرة، فعمر تأكله الدقائق قليل، وإن كثر، ولله در أحمد شوقي حيث يقول:

دَقَّاتُ قَلْبِ ٱلْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ   إِنَّ ٱلْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِيْ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تمتعون﴾ بالفوقانية، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه: بالتحتية، وفي بعض الروايات: ﴿لا تمتعوا﴾ بحذف النون إعمالاً لإذن، وعلى قراءة الجمهور: هي ملغاة.

ولما كانوا ربما يقولون: بل ينفعنا، لأنا طالما رأينا من هرب فسلم، ومن ثبت فاصطلم.. أمره الله سبحانه بالجواب عن هذا فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستأذنين ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ ويحفظكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من قضائه،

---

(١) المراغي.   (٢) الشوكاني.

والاستفهام فيه إنكاري، ومذهب[1] سيبويه على أن ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية: مبتدأ، و﴿ذا﴾: خبره، و﴿ٱلَّذِى﴾: صفة أو بدل منه، وذهب بعض النحاة إلى كون: ﴿مَن ذَا﴾ خبراً مقدماً، والعصمة: الحفظ والمنع؛ أي: قل لهم: من الذي يحفظكم ويدفع عنكم قضاء الله وحكمه ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله سبحانه ﴿بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ أي: شراً وضرراً وهلاكاً في أنفسكم، أو نقصاً في الأموال، وجدباً مرضاً ﴿أَوْ﴾ من الذي يصيبكم بسوء وضرر إن ﴿أَرَادَ﴾ الله سبحانه ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ أي: نصرةً وإطالة عمر في عافيةٍ وسلامةٍ وخصباً وكثرة مال، أو المعنى: من يمنع الله من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمةً، لما في العصمة من معنى المنع، ففي الكلام اختصار كما في قوله: متقلداً سيفاً ورمحاً؛ أي: ومعتقلاً رمحاً، والاعتقال: أخذ الرمح بين الركب والسرج، وكما في قوله: علفتها تبناً وماءً بارداً.

والمعنى: لا أحد يستطيع أن يدفع عنكم شراً قدره الله سبحانه عليكم، من قتل أو غيره، ولا أحد يستطيع أن يصيبكم بسوء، إن أراد الله بكم رحمةً، من خصب وملامة وعافيةٍ.

وإجمال القول[2]: أن النفع والضر بيده سبحانه، وليس بغيره في ذلك تصريف ولا تبديل.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾؛ أي: ولا يجد هؤلاء المنافقون لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين الله سبحانه ﴿وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوء قبل الوقوع ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم من السوء، والضرر بعدالوقوع.

واعلم[3]: أن الآية دلت على أمور:

الأول: أن الموت لا بد منه، قال بعضهم: إذا بلغ الرجل أربعين سنة.. ناداه منادٍ من السماء: دنا الرحيل فأعد زاداً، وقال الثوري: ينبغي لمن كان له

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

عقل إذا أتى عليه عمر النبي - ﷺ - أن يهيىء كفنه.

والثاني: أن الفرار لا يزيد في الآجال، ومن أسوأ حالاً ممن سعى لتبديل الآجال والأرزاق، ورجاء دفع ما قدر له أنه لاقٍ، وأنه لا يقيه منه واقٍ.

والثالث: أن من اتخذ الله سبحانه ولياً ونصيراً.. نال ما يتمناه قليلاً وكثيراً، ونصر أميراً وفقيراً، وطاب له وقته مطلقاً وأسيراً، فثبت ثبات الجبال، وعامل معاملة الرجال، نسأل الله سبحانه أن يعصمنا من الفرار من نحو بابه، والإقبال على الإدبار عن جنابه، إنه الولي النصير، ذو الفضل الكثير.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة النداء: مستأنفة، ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ ومفعول به، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَا تُطِعِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُطِعِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول له، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ ﷺ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿مِن

رَبِّكَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿يُوحَىٰٓ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿خَبِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿ٱتَّبِعْ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱتَّبِعْ﴾، ﴿وَكَفَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿بِٱللَّهِ﴾: فاعل، و﴿الباء﴾: زائدة، ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كفى﴾. والجملة: مستأنفة.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة للرد على مزاعم المشركين، بأن لبعضهم قلبين، فهو أعقل من محمد، ﴿لِرَجُلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿قَلْبَيْنِ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ صفة لـ﴿قَلْبَيْنِ﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿و﴾: عاطفة، ﴿جعل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿ما﴾ نافية ﴿جَعَلَ﴾ الأولى، ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾: اسم موصول للجمع المؤنث في محل النصب صفة لـ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾. ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنْهُنَّ﴾: متعلق به، ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾: مفعول ثان، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْلُكُم﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: حال من ﴿قَوْلُكُم﴾؛ أي: كائناً بأفواهكم فقط، من غير أن تكون له حقيقة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو﴾: مبتدأ ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع

وفاعل مستتر ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يَهْدِى﴾، والأول محذوف؛ أي: من يشاء، أو منصوب بنزع الخافض، وجملة ﴿يَهْدِى﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقُولُ﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان أن نسبة كل مولود إلى والده أقوم وأعدل. ﴿لِآبَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿أَقْسَطُ﴾: خبره. والجملة: مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَقْسَطُ﴾ أو حال من الضمير في ﴿أَقْسَطُ﴾، ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: هذا إن علمتم آباءهم. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَعْلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إخوانكم﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم. ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: حال من ﴿إخوانكم﴾، ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿إخوانكم﴾. والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جُنَاحٌ﴾. وجملة ﴿ليس﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فإن لم تعلموهم﴾. ﴿أَخْطَأْتُم﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَخْطَأْتُم﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ما في قوله فيما ﴿أَخْطَأْتُم﴾. ويجوز أن يكون في محل الرفع مبتدأ، وخبره:

محذوف تقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم تؤاخذون به. ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ولكن ما تعمدته قلوبكم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لكان. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾. والجملة: مستأنفة. ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً. ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾: مبتدأ أول. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ ثان أو بدل من أولوا. ﴿أَوْلَىٰ﴾: خبر للمبتدأ الثاني. وجملة الثاني: خبر الأول. وجملة الأول: معطوفة على الجمل التي قبلها. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق ﴿أَوْلَىٰ﴾، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: بإرث بعض. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً، لأن أفعل التفضيل يعمل في الظرف؛ أي: هذه الأولوية، وهذا الاستحقاق، كائن وثابت في كتاب الله، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، على أنه حال من الضمير في ﴿أَوْلَىٰ﴾ والعامل فيها ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ لأنها شبيهة بالظرف، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿وَأُو۟لُوا۟﴾ للفصل بالخبر، ولأنه لا عامل فيها. اهـ. «كرخي». ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً. ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: معطوف عليه، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَفْعَلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾: متعلق بـ﴿تَفْعَلُوٓا۟﴾: بتضمينه معنى تحسنوا أو تسدوا. ﴿مَّعْرُوفًا﴾: مفعول به. والجملة الفعلية، مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ، وخبره: محذوف، والتقدير: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، والجملة الاستدراكية: مستأنفة. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿مَسْطُورًا﴾. ﴿مَسْطُورًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ أخذنا إلخ. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: متعلق به. ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾: مفعول به. والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾: معطوفان على ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: عطف خاص على عام. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾: معطوفات على ﴿نُّوحٍ﴾. ﴿ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿وَعِيسَى﴾. ﴿وَأَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ الأول للتأكيد. ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿مِّيثَٰقًا﴾: مفعول به لـ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿غَلِيظًا﴾: صفة ﴿مِّيثَٰقًا﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يسأل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: فعل ذلك ليسأل الصادقين. إلخ. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يسأل﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿أعد﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له. وفي «الفتوحات»: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوف على ما دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، إذ التقدير: فأثاب الصادقين وأعد للكافرين.

والثاني: أنه معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾؛ لأن المعنى: أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لإثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذاباً أليماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل أو عطف بيان. وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱذْكُرُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. والجملة: جواب النداء. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه مصدر بمعنى: إنعام الله عليكم، أو بمحذوف حال من ﴿النعمة﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿ٱذْكُرُواْ﴾، وهو بمنزلة بدل اشتمال من ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، والمراد بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: نصرهُ في غزوة الأحزاب. ﴿جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْكُمْ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رِيحًا﴾: مفعول به، ﴿وَجُنُودًا﴾: معطوف على ﴿رِيحًا﴾. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَوْهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. والجملة الفعلية: صفة لـ﴿جنوداً﴾. ورأى هنا بصرية. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرًا﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿أرسلنا﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾. ﴿جَآءُوكُم﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُوكُم﴾. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ﴾: معطوف على ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَسْفَلَ﴾. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، معطوف على ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾. ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾. ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، أو على التوسع.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تظنون﴾. ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، و﴿الألف﴾: مزيدة تشبيهاً للفواصل بالقوافي. ﴿هُنَالِكَ﴾: ﴿هنا﴾: اسم إشارة للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، و﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، و﴿الكاف﴾: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿ٱبْتُلِىَ﴾. ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿ٱبْتُلِىَ﴾. ﴿زِلْزَالًا﴾: مصدر مبين للنوع. ﴿شَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿زِلْزَالًا﴾.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ يقول المنافقون، والجملة المحذوفة، مستأنفة، أو معطوفة على ما سبق. ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: صلة الموصول. ﴿مَّا وَعَدَنَا﴾: ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿غُرُورًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: وعد غرور. ﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على ﴿إذ يقول﴾. ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿طَّآئِفَةٌ﴾. ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: منادى مضاف، ويثرب ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، أو التأنيث المعنوي، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿مُقَامَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: خبر ﴿لَا﴾. وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها

أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعتم كلامي، وقبلتم نصحي.. فأقول لكم: ارجعوا. ﴿ارجعوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يستأذن فريق﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَت﴾. ﴿مِّنْهُمُ﴾: صفة ﴿فَرِيقٌ﴾. ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾: مفعول به. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة: في محل النصب حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ لوصفه بما بعده. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا﴾: ناصب واسمه. ﴿عَوْرَةٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَمَا هِىَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: حجازية تعمل عمل ليس. ﴿هِىَ﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِعَوْرَةٍ﴾: خبرها. و﴿الباء﴾: زائدة. وجملة ﴿ما﴾: في محل النصب حال من ﴿بيوتنا﴾. ﴿إن﴾: نافية. ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿فِرَارًا﴾: مفعول به. والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دُخِلَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود إلى ﴿بيوتهم﴾، أو إلى المدينة. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: حال من مرفوع ﴿دُخِلَتْ﴾. والجملة: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿سُئِلُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿دُخِلَتْ﴾. ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: مفعول ثان لـ﴿دُخِلَتْ﴾. ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿أتوها﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والمفعول الثاني: محذوف إن قرأنا بالمد؛ لأنه بمعنى أعطي، تقديره: لأعطوها السائلين. والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَلَبَّثُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهَآ﴾: متعلق بـ﴿تَلَبَّثُوا۟﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿يَسِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تلبثاً يسيراً، أو لزمن محذوف؛

أي: زمناً يسيراً، والجملة: معطوفة على جواب ﴿لو﴾ الشرطية.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية، في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَاهَدُوا﴾. وجملة ﴿كان﴾: جملة قسمية لا محل لها من الإعراب؛ لأنه بمعنى: ولقد أقسموا بالله من قبل. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُوَلُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْأَدْبَارَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يُوَلُّونَ﴾، والمفعول الأول: محذوف، تقديره: لا يولون العدو الأدبار، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. وجاء على حكاية اللفظ، فجاء بلفظ الغيبة، ولو جاء على حكاية المعنى.. لقيل: لا نولي. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كان عهد الله﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مَسْئُولًا﴾: خبره. والجملة: معطوفة على جملة القسم. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يَنفَعَكُمُ﴾: فعل ومفعول به منصوب بـ﴿لَّن﴾. ﴿الْفِرَارُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿فَرَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِن﴾: الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿مِّنَ الْمَوْتِ﴾: متعلق بـ﴿فَرَرْتُم﴾، ﴿أَوِ الْقَتْلِ﴾: معطوف عليه، وجواب ﴿إِن﴾: الشرطية معلوم مما قبله، تقديره: إن فررتم من الموت.. لن ينفعكم الفرار، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَإِذًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذاً﴾: حرف جواب وجزاء مهمل لعدم تصدرها في أول الكلام المجاب بها، كما هو الغالب والشرط فيها. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تُمَتَّعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زمناً قليلاً.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿مَن ذَا﴾: اسم استفهام مركب للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع خبر مقدم. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَعْصِمُكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. والجملة: صلة الموصول ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿بِكُمْ﴾ متعلقان به ﴿سُوٓءًا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبله، تقديره: إن أراد بكم سوءاً فمن الذي يعصمكم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَوْ أَرَادَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَرَادَ﴾ الأول. ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول به، ولا بد من تقدير محذوف هنا كما مر؛ أي: أو من الذي يصيبكم بسوء، إن أراد بكم رحمة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، أو متعلق به إن كان من وجد الضالة. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿وَلِيًّا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول أول لـ﴿يَجِدُونَ﴾ أو مفعول به له. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿وَلِيًّا﴾. والجملة الفعلية: مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾: النبي: إما مأخوذ من النبأ، وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن، وسمي نبياً؛ لأنه منبىء؛ أي: مخبر عن الله بما تسكن إليه العقول الزكية، أو من النبوة؛ أي: الرفعة؛ لأنه مرفوع الرتبة على سائر الخلائق، أو رافع رتبة من تبعه، فهو فعيل: إما بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول، فأصله على الأول نبييء؛ وعلى الثاني: نبيو.

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: دم على التقوى، قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل

بطاعة الله سبحانه على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله. ا هـ.

واعلم: أن التقوى في اللغة بمعنى: الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة هو، الاحتراز بطاعة الله من عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة، من فعل أو ترك، فالتقوى اسم مصدر من اتقى يتقي اتقاءً: إذا جعل لنفسه وقاية عما يخافه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: دم على ما أنت عليه من انتقاء الطاعة لهم، فيما يخالف شريعتك، ويعود بوهنٍ في الدينِ، وذلك أن رسول الله - ﷺ - لم يكن مطيعاً لهم، حتى ينهى عن إطاعتهم، لكنه أكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، والإطاعة: الانقياد، والطاعة: اسم مصدر من أطاع يطيع إطاعةً وطاعةً، والفرق بين الطاعة والعبادة: أن الطاعة فعل يعمل بالأمر، بخلاف العبادة.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ﴾؛ أي: نساءكم، جمع زوج، كما أن الزوجات جمع زوجة، والزوج، أفصح، وإن كان الثاني أشهر.

﴿ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ يقال: ظاهر الرجل من زوجته: إذا قال لها: أنت علي **كظهر** أمي، يريدون: أنت محرمة علي كما تحرم الأم، وكانوا في الجاهلية يجرون على المظاهر منها حكم الأم، فهو مضارع ظاهر، ومصدره: الظهار بكسر الظاء، كقاتل قتالاً، وهو كما في «القاموس» قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وقد ظاهر وتظهر وظهر، وخصوا الظهر دون غيره؛ لأنه موضع الركوب، والمرأة مركوب الزوج، ففي قول المظاهر: أنت علي كظهر أمي كناية تلويحية لأنه ينتقل من الظهر إلى المركوب، ومن المركوب إلى المرأة، لأنها مركوب الزوج، فكان المُظاهر يقول: أنت محرمة علي لا تركبين، كتحريم ركوب أمي.

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: كأمهاتكم، جمع أم، زيدت الهاء فيه كما زيدت في إهراق، من أراق، وشذت زيادتها في الواحدة بأن يقال: أمه.

﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾: جمع دعي، وهو من يُدعى لغير أبيه؛ أي: يتخذ ولداً وابناً له، وهو المتبنى بتقديم الباء الموحدة على النون، فهو فعيل بمعنى مفعول، ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس، لأن أفعلاء، إنما يكون جمعاً لفعيل المعتل اللام، إذا كان بمعنى فاعل، نحو تقي وأتقياء، وغني وأغنياء، وهذا وإن كان فعيلاً معتل اللام، إلا أنه بمعنى مفعول، فكان القياس جمعه على فعلى، كقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، بأن يقال: دعياً، فكأنه شبه فعيل بمعنى مفعول في اللفظ، بفعيل بمعنى فاعل، فجمع جمعه.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: والأفواه: جمع فم، وأصل فم: فوه بالفتح، مثل ثوب وأثواب، وهو مذهب سيبويه والبصريين، أوفوه بالضم، مثل سوق وأسواق، وهو مذهب الفراء، حذفت الهاء حذفاً غير قياسي لخفائها، ثم الواو لاعتلالها، ثم أبدلت الواو المحذوفة ميماً لتجانسهما، لأنهما من حروب الشفة، فصار فماً.

﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾: والسبيل من الطرق: ما هو معتاد السلوك وما فيه سهولة.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ يقال: فلان يدعى لفلان؛ أي: ينسب إليه، ووقوع اللام ههنا للاستحقاق.

﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: القسط بالكسر: العدل، بالفتح: هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك غير إنصاف، ولذلك قيل: قسط الرجل: إذا جار، وأقسط: إذا عدل. حكي أن امرأة قالت للحجاج: أنت القاسط، فضربها، وقال: إنما أردت القسط بالفتح، وأقسط هنا أفعل تفضيل، قصد به الزيادة المطلقة، والمعنى بالغ في العدل والصدق.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم، يقال: جنحت السفينة؛ أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمي الإثم: المائل بالإنسان عن الحق جناحاً، ثم سمي كل إثم جناحاً، وقال بعضهم: إنه معرب، كناه على ما هو عادة العرب في الإبدال، ومثله الجوهر: معرب كوهر.

﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ بقطع الهمزة؛ لأن همزة باب الإفعال مقطوعة وفرق بين الخاطئ والمخطيء، بأن الخاطيء من يأتي بالخطأ: وهو يعلم أنه خطأ، والمخطيء: من يأتي بالخطأ، وهو لا يعلم أنه خطأ، يقال: أخطأ الرجل في كلامه وأمره، إذا زلّ وهنا وخطأ الرجل إذا ضلّ في دينه وفعله، ومنه قوله: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: أرأف وأشفق وأجدر بهم.

﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: فيما دعاهم إليه من أمر الدين والدنيا، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم.

والمعنى: أن طاعتهم للنبي أولى من طاعتهم لأنفسهم. ا هـ. «شيخنا».

ويقال: فلان أولى بكذا: أحرى وأليق به.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: جمع رحم، وهو القرابة؛ أي: ذوو القرابات.

﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ أي: مكتوباً، يقال: سطر فلان كذا؛ أي: كتب سطراً سطراً، والسطر: الصف من الكتابة.

﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: الميثاق: عقد يؤكد بيمين. ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إنعام الله عليكم بالنصر على الأحزاب، وذكر النعمة: شكرها.

﴿جُنُودٞ﴾: جمع جند، ويقال للعسكر: الجند؛ اعتباراً بالغلظ من الجند، وهي الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ثم يقال لكل مجتمع جند، نحو: الأرواح جنود مجندة؛ أي: مجمعة، والمراد بالجنود هنا: الأحزاب، وهم قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير من اليهود ورؤسائهم: حيي بن أخطب، وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد، فنبذه كعب بسعي حيي، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف، أو نحو ذلك.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: انحرفت عن مستوى نظرها حيرةً ودهشةً، والزيغ: الميل عن الاستقامة، والأبصار: جمع بصر، والبصر: الجارحة الناظرة.

﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾: جمع حنجرة، وهي: رأس الغلصمة، والغلصمة: رأس الحلقوم، والحلقوم: مجرى الطعام والشراب، وقيل: الحلقوم: مجرى النفس، والمريء: مجرى الطعام والشراب، وهو تحت الحلقوم. وقال الراغب: الحنجرة: رأس الغلصمة من خارج. ا هـ. وهي منتهى الحلقوم وطرفه من أسفله. ا هـ. «سمين».

﴿هُنَالِكَ﴾: هو في الأصل للمكان البعيد، لكن العرب تكنى بالمكان عن الزمان، وبالزمان عن المكان.

﴿زِلْزَالًا﴾ الزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، يقال: زلت رجله تزل، والمزلة: المكان الزلق، وقيل: للذنب من غير قصد: زلة، تشبيهاً بزلة الرجل، والتزلزل: الاضطراب، وكذا الزلزلة: شدة الحركة، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرر معنى الزلل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: قال الراغب: المرض: الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وهو ضربان: جسمي ونفسي، كالجهل والجبن والنفاق ونحوها من الرذائل الخلقية، وهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم، لقرب عهدهم بالإسلام.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: بضم الغين لا غير، لأنه مصدر؛ أي: وعد غرور لا حقيقة له.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا ينبغي لكم الإقامة هاهنا.

﴿عَوْرَةٌ﴾ بسكون الواو، وفي الأصل: أطلقت على المختل مبالغةً، يقال: عور المكان عوراً: إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق، وفلان يحفظ عورته؛ أي: خلله، والعورة أيضاً: سوءة الإنسان، وذلك كناية، وأصلها من

العار، وذلك لما يلحق في ظهورها من العار؛ أي: المذمة، ولذلك سمي النساء عورة، ومن ذلك العوراء، للكلمة القبيحة.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: جمع قطر بالضم، وهو الجانب والناحية.

﴿ٱلْفِتْـنَةَ﴾: الردة ومقاتلة المؤمنين.

﴿عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، والمعاهدة: المعاقدة.

﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾: جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل، يقال: ولاه دبره: إذا انهزم.

﴿مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مطلوباً حتى يوفى، يقال: سألت فلاناً حقي؛ أي: طالبته به.

﴿أَوِ ٱلْقَتْـلِ﴾ والقتل: فعل يحصل به زهوق الروح، قال الراغب: أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد، كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت. انتهى.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾: وإذاً: حرف جواب وجزاء كما مر، ولما وقعت هنا بعد عاطف.. جاءت على الأكثر، وهو عدم إعمالها، ولم يشذ ما هنا ما شذ في الإسراء، فلم يقرأ بالنصب. ا هـ. «سمين».

﴿يَعْصِمُكُم﴾: والعصمة: الإمساك والحفظ.

﴿سُوٓءًا﴾: والسوء: كل ما يسوء الإنسان ويغمه، والمراد هنا: القتل والهزيمة ونحوهما.

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: الولي هو الدافع عنهم قبل وقوع السوء بهم والناصر المخرج لهم من السوء بعد وقوعهم فيه، كذا فرق بينهما.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: النداء بوصف النبي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إجلالاً له وتعظيماً.

ومنها: تنكير رجل في قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ لإفادة الاستغراق والشمول، وإدخال حرف الجر الزائد؛ لتأكيد الاستغراق في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾.

ومنها: ذكر الجوف في قوله: ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ لزيادة التصوير في الإنكار.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: مثل أمهاتكم في التحريم، ومثل أبنائكم في الميراث، وفي قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً، وأصل الكلام: وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم والإجلال والتكريم.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ أي: أولى بإرث بعض.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام، إظهاراً لشرفه وفضله في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ إلخ. فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين، ولكنه خصهم بالذكر؛ تنويهاً بشأنهم، وتشريفاً لهم، لأن هؤلاء الخمسة المذكورين هم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل، فآثرهم بالذكر؛ للتنويه بإنافة فضلهم على غيرهم، وقدم النبي محمداً - ﷺ - مع أنه مؤخر عن نوح ومن بعده؛ لأنه هو المخاطب من بينهم، والمنزل عليه هذا المتلو، فكان تقديمه لهذا السبب.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ حيث شبه الميثاق بجرم

محسوس، واستعار له شيئاً من صفات الإجرام، وهو الغلظ؛ للتنويه لعظم الميثاق وحرمته وثقل حمله.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ لغرض بيان وصف الغلظ.

ومنها: الالتفات من التكلم في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ لغرض التبكيت والتقبيح للمشركين.

ومنها: الطباق بين ﴿أَخْطَأْتُم﴾ و﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وبين ﴿سُوٓءًا﴾ و﴿رَحْمَةً﴾؛ لأن المراد بالسوء: الشر، وبالرحمة: الخير، وبين ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ حيث صور القلوب في خفقانها، واضطرابها، بارتفاعها إلى الحناجر.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ لاستحضار الصورة الماضية، وللدلالة على الاستمرار، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ للدلالة على استحضار القول، واستحضار صورته، وفي قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ لأنه كناية عن الفرار من الزحف.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنه كناية عن كونها غير حصينة.

ومنها: العدول إلى الغيبة في قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ على إرادة حكاية اللفظ، ولو جاء على حكاية المعنى.. لقيل: لا نولي الأدبار على، صيغة التكلم.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو مما يزيد رونق الكلام، وعذوبته، لما له من وقعٍ رائعٍ وجذب سامع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا
﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم
بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ
إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما نصر[1] نبيه ـ ﷺ ـ، فرد عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير.. ظن أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ أنه اختص بنفائس اليهود

(١) المراغي.

وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والإماء والخول ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال، ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا، من التمتع بزخرفها من المأكل والمشرب، ونحو ذلك، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في شأنهن.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ . . .﴾الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] البخاري بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين. . ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون. . قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنةً برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾. إلى آخر الآية.

والحديث أخرجه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي وأحمد والطيالسي وابن جرير وأبو نعيم في «الحلية» وعبد الله بن المبارك في «الجهاد».

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

(١) البخاري.

وَزِينَتَهَا...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر - رضي الله عنه - عن المرأتين من أزواج النبي - ﷺ -، اللتين قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس: عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي - ﷺ -، فينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصاحت علي امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي - ﷺ - ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره النهار حتى الليل، فأفزعني، فقلت: خابت من فعلت منهن بعظيمٍ، ثم جمعت على ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة، أتغاضب إحداكن رسول الله - ﷺ - حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت، أفتأمن من أن يغضب اللَّهُ رسوله فتهلكين، لا تستكثري على رسول الله - ﷺ - ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك ولا تغرنك إن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى رسول الله - ﷺ - يريد عائشة - وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائم هو، ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله - ﷺ - نساءه، قال: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي - ﷺ -، فدخل مشربةً له فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك، أولم أكن حذرتك، أطلقكن رسول الله - ﷺ -؟ قالت: لا أدري هوذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي - ﷺ - ثم خرج فقال: ذكرتك له

فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني، قال: أذن لك رسول الله - ﷺ -، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، وقد أثر الرمال بجنبه، متكىء على وسادةٍ من أدم حشوها ليف، فسلمت عليه، ثم قلت: وأنا قائم: أطلقت نساءك يا رسول الله؟ فرفع بصره إليّ فقال: «لا» ثم قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله لورأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي - ﷺ -، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي - ﷺ -، يريد عائشة، فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: أدع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكأ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي، فاعتزل النبي - ﷺ - من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة على عائشة، وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهن شهراً، من موجدته عليهن حين عاتبه الله سبحانه، فلما مضت تسع وعشرون ليلةً. . دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلةً أعدها عداً، فقال النبي - ﷺ -: الشهر تسعٌ وعشرون، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين، قالت عائشة: فأنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول مرةٍ، فقال: «إني ذاكر لك أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: إن الله سبحانه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ قلت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءَه، فقلن: مثل ما قالت عائشة.

الحديث أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن

الجارود وابن جرير.

وأخرج[1] مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ -، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لهما فدخلا، والنبي - ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي - ﷺ - لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر، سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي - ﷺ - حتى بدا ناجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة آنفاً، فقام أبو بكر، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقول: تسألان النبي - ﷺ - ما ليس عنده، وأنزل الخيار فبدأ بعائشة، فقال النبي - ﷺ -: «إني ذاكر لك أمراً، ما أحب أن تتعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك» قالت: ما هو؟ فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ. . .﴾ الآية. قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾: ﴿قد﴾[2] فيه لتأكيد العلم بالتعويق، ومرجع العلم إلى توكيد الوعيد، والتعويق: التثبيط، يقال: عاقه وعوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده، كما سيأتي. ومنه عوائق الدهر، والخطاب فيه لمن أظهر الإيمان مطلقاً.

والمعنى: قد علم الله سبحانه المثبطين للناس عن نصرة رسول الله - ﷺ -، الصارفين عن طريق الخير، وهم المنافقون أياً من كان منهم.

﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ من منافقي المدينة، فالمراد: الأخوة في الكفر والنفاق ﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ أي: احضروا وارجعوا إلينا، ودعوا محمداً - ﷺ -، فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك، وهذا يدل على أنهم عند هذا القول

---

(١) مسلم.

(٢) روح البيان.

خارجون عن العسكر، متوجهون نحو المدينة فراراً من العدو، و﴿هَلُمَّ﴾: اسم فعل بمعنى أقبل وأحضر وقرب، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين، وكلمة ﴿إلى﴾ صلة التقريب الذي تضمنه ﴿هَلُمَّ﴾. والمعنى: قربوا أنفسكم إلينا.

قيل[1]: هم أناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي - ﷺ -، ويقولون لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأسٍ، ويريدون أنهم قليلو العدد، ولو كانوا لحماً لالتهمهم؛ أي: ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا الرجل فإنه هالك، وقيل: نزلت في المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلت إليهم: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرة.. لم يبقوا منكم أحداً، وإنا نشفق عليكم، فأنتم إخواننا وجيراننا، هلموا إلينا، فأقبل عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه على المؤمنين، يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا: لئن قدر اليوم عليكم لم يبق منكم أحداً، أما ترجعون عن محمد، ما عنده خير، ما هو إلا أن يقتلنا ههنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا؛ يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾؛ أي: الحرب والقتال، وهو في الأصل الشدة ﴿إِلَّا﴾ إتياناً ﴿قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت، فإنهم يعتذرون ويتأخرون ما أمكن لهم، أو يخرجون مع المؤمنين، يوهمونهم أنهم معهم، لا تراهم يبارزون ويقاتلون، إلا شيئاً قليلاً، إذا اضطروا إليه، وهذا على تقدير عدم الفرار، وقيل: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياءً وسمعةً من غير احتساب، وقال أبو حيان: وقلته: إما لقصر زمانه، وإما لقلة عقابه، وأنه رياء وتلميع لا تحقيق، انتهى.

وقال ابن السائب:[2] هي في عبد الله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة، فإذا جاءهم المنافق.. قالوا له: ويحك، اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر: أن ائتونا فإنا ننتظركم، وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم.. عادوا إلى المدينة، فنزلت هذه الآية؟

والمعنى(1): أي إن ربك أيها الرسول، ليعلم حق العلم من يثبطون الناس عن رسول الله - ﷺ -، يصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلام، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم خلطائهم من أهل المدينة: تعالوا إلى ما نحن فيه من الظلال والثمار، ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه مشهداً، فإنا نخاف عليكم الهلاك، ولا يأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون، فإذا غفلوا عنهم.. تسللوا لواذاً، وعادوا إلى بيوتهم.

ثم ذكر بعض معايبهم، من البخل والخوف والفخر الكاذب فقال:

١ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم بخلاء عليكم، لا يعاونونكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة والنصرة في سبيل الله، فهم لا يودون مساعدتكم، لا بنفس ولا بمالٍ، قاله مجاهد وقتادة، وقيل: بخلاء بالقتال معكم، وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم، وقيل: أشحةً بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي. وقرأ الجمهور: بالنصب، وقرأ ابن أبي عبلة: بالرفع.

٢ - ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾؛ أي: الخوف من العدو ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾؛ أي: رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب أولئك المعوقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد في تلك الحالة، حالة كونهم ﴿تَدُورُ﴾ وتتحرك ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ وأبصارهم في أحداقهم يميناً وشمالاً، وذلك شأن الجبان، إذا شاهد ما يخافه، و(الكاف) في قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عين المغشي عليه من معالجة سكرات الموت وأسبابه، حذراً وخوفاً

---

(1) المراغي.

والتجاءً بك، يقال: غشي على فلان: إذا نابه ما غشي فهمه وستر عقله، كما سيأتي؛ أي: تدور أعينهم كدوران عين الذي غشيته أسباب الموت، وأحاطت به سكراته، فيذهل عن كل شيء، ويذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف، كذلك هؤلاء، تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه.

والمعنى: أي[1] فإذا بدأ الخوف بِكَرِّ الشجعان وفرِّهم في ميدان القتال.. رأيتهم ينظرون إليك، وقد دارت أعينهم في مواضعها، فرقاً وخوفاً، كدوران عين الذي قرب من الموت، وعشيته أسبابه، فإنه إذ ذاك يذهب لبه وعقله، ويشخص بصره، فلا يتحرك طرفه.

٣ - ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحصل الأمن من العدو وجمعت الغنائم.. ﴿سَلَقُوكُم﴾؛ أي: جرحوكم وآذوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي: بألسنة سليطةٍ ذربةٍ بذيةٍ خفيفة الحياء، جهروا فيكم بالسوء من القول، قال قتادة: ومعنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، وقالوا: وفروا لنا قسمتنا وسهمنا، فإنا قد ساعدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم، وبنا نصرتم عليه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَلَقُوكُم﴾ بالسين، وابن أبي عبلة: بالصاد.

أي: فإذا كان الأمن.. تكلموا فصيح الكلام، وفخروا بما لهم من المقامات المشهودة في النجدة والشجاعة، وهم في ذلك كاذبون، قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوؤهم مقاسمةً، يقولون: أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذَ لُهم للحق. ا هـ.

ثم بيّن ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾: حال من فاعل سلقوكم؛ أي: طعنوكم بألسنةٍ حدادٍ؛ أي: مؤثرة في الإعراض تأثير الحديد في الأجسام، حالة كونهم بخلاء على المال، حريصين على أخذ الغنائم.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿أَشِحَّةً﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿أشحة﴾ بالرفع؛ أي: هم بخلاء حريصون على الغنائم، إذا ظفر بها المؤمنون، لا يريدون أن يفوتهم شيء مما وصل إلى أيديهم.

والخلاصة: أنهم حين البأس جبناء، وحين الغنيمة أشحاء.

أَفِيْ السلم أعيار جفاءً وغلظةً وَفِيْ ٱلْحَرْبِ أَمْثَالَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْعَوَاتِكِ

وبعد أن وصفهم بما وصفهم به، من دنيء الصفات.. بين ما دعاهم إليها، وهو قلة ثقتهم بالله، لعدم تمكن الوازع النفسي في قلوبهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ بالإخلاص، حيث أبطنوا خلافاً ما أظهروا، فصاروا أخبث الكفرة، وأبغضهم إلى الله ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال تقتضي الثواب فتبطل، لأنهم منافقون، وفي هذا[1] دلالة على أن المعتبر عند الله هو العمل المبني على التصديق، وإلا فهو كبناء على غير أساس، أو المراد[2] أبطل تصنعهم ونفاقهم، فلم يبق مستتبعاً لمنفعةٍ دنيوية أصلاً.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟

قلت: لا، ولكن تعليم لمن يظن أن الإيمان باللسان إيمان، وإن لم يواطئه القلب، وأن ما يعمله المنافق من الأعمال يجزى عليه، فبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل، انتهى.

والمعنى: أي هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدقوا الله ورسوله، ولم يخلصوا له العمل، لأنهم أهل نفاق، فأبطل أعمالهم، وأذهب أجورها، وجعلها هباءً ومنثوراً.

---

(١) روح البيان.
(٢) أبو السعود.
(٣) الكشاف.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: هيناً على الله، لا يبالي به، لتعلق الإرادة به، إذ هم قوم فعلوا ما يستوجب الإحباط ويستدعيه، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله، وتدل عليه حكمته.

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذي لحق بهم فقال: هم ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون لجبنهم المفرط، يظنون أن الأحزاب باقون في معسكرهم، لم يذهبوا، إلى ديارهم، ولم ينهزموا، ففروا إلى المدينة، والأحزاب: هم الذين تحزبوا وتجمعوا على محاربة النبي - ﷺ - يوم الخندق، وهم قريش وغطفان وبنو قريظة والنضير من اليهود، كما مر.

أي: هم[1] من شدة الهلع والخوف، وعظيم الدهشة والحيرة، لا يزالون يظنون أن الأحزاب لم يرحلوا، وقد هزمهم الله، ورحلوا وتفرقوا في كل وادٍ.

وإجمال القول: أنهم لم يقاتلوا لجبنهم وضعف إيمانهم، فكأنهم غائبون، فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا، وقد كانوا راحلين منهزمين، لا يلوون على شيء.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرةً ثانية إلى المدينة ﴿يَوَدُّوا۟﴾ ويتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾؛ أي: خارجون من المدينة إلى البادية ساكنون ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ لئلا يقاتلوا، والود[2]: محبة لشيء وتمني حصوله، والبادون: هم الساكنون في البادية، وهم خلاف الحاضرين، والبدو وكذا البادية: خلاف الحضر، كما سيأتي. والأعراب: سكان البادية مطلقاً.

حال كونهم ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ أي: عن أخباركم وعما جرى عليكم من الأحزاب؛ أي: يودون أنهم غائبون عنكم، يسمعون أخباركم بسؤالهم عنها من غير مشاهدة.

أي: وإن يأت الأحزاب ويعودوا مرةً أخرى.. تمنوا أن لو كانوا مقيمين في البادية، بعيدين عن المدينة، حتى لا ينالهم أذىً ولا مكروه، ويكتفون بأن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يسألوا عن أخباركم كل قادم من جانب المدينة، وفي هذا كفاية لديهم لجبنهم، وخور عزائمهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ بالهمز مضارع سأل، وحكى ابن عطية أن أبا عمرو وعاصماً، والأعمش قرؤوا: ﴿يسلون﴾ بغير همز نحو قوله: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولا يعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم، ولعل ذلك في شاذهما، ونقلهما صاحب «اللوامح» عن الحسن والأعمش، وقرأ زيد بن علي وقتادة والجحدري والحسن ويعقوب بخلاف عنهما: ﴿يسأل بعضهم بعضاً﴾؛ أي: يقول: بعضهم لبعض: ماذا سمعت وماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول: ترائينا الهلال.

ثم سلى نبيه - ﷺ - عنهم، وحقر شأنهم، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: ولو كان هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُم﴾ أيها المؤمنون في الخندق في هذه الغزوة مشاهدين للقتال، ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا﴾ قتالاً ﴿قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعةً وخوفاً من التعبير من غير حسبةٍ.

والمعنى: أي ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم في الكرة السابقة، ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان القتال قتال جلاءٍ وكرٍّ وفرٍّ وطعنٍ وضربٍ ومحاربةٍ بالسيوف، ومبارزة في الصفوف ما قاتلوا إلا قتالاً يسيراً رياءً وخوفاً من العار، لا قتالاً يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر.

وحاصل معنى الآية[2]: أي وإن يأت الكفار بعدما ذهبوا كرةً ثانية.. تمنى هؤلاء المنافقون أن لو كانوا ساكنين خارج المدينة بين الأعراب، بعداء عن تلك الكفرة، يسألون كل قادم من جانب المدينة عما جرى عليكم مع الكفار، والحال أن هؤلاء المنافقين، لو كانوا فيكم هذه الكرة، ولم يرجعوا إلى المدينة، ووقع قتال آخر.. ما قاتلوا معكم إلا قليلاً رياءً وخوفاً من التعيير.

وبعد أن فصل أحوالهم، وشرح نذالتهم، وعظيم جبنهم.. عاتبهم أشد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

العتب، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله - ﷺ - معتبر لو اعتبروا، وأسوة لو أرادوا التأسي، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وهو الظاهر من قوله فيما بعد: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ الخ ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ - ﷺ - ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصلة صالحة، حقها أن يقتدى بها على سبيل الإيجاب في أمور الدين، وعلى سبيل الاستحباب في أمور الدنيا، والقدوة: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، يقال: تأسيت به؛ أي: اقتديت به.

والمعنى[١]: لقد كان لكم أيها المؤمنون في محمد - ﷺ - خصلة حسنة، وسنة صالحة، حقها أن يؤتى بها؛ أي: يقتدى فيها، كالثبات في الحرب، ومقاساة الشدائد، فإنه قد شج فوق حاجبه وكسرت رباعيته، وقتل عمه حمزة يوم أحد، وأوذي بضروب الأذى، فوقف ولم ينهزم، وصبر ولم يجزع، فاستسنوا بسنته وانصروه، ولا تتخلفوا عنه.

وقال بعضهم: كلمة ﴿فِى﴾ تجريدية، جرد من نفسه شيء وسمي قدوة، وهي هو؛ يعني أن رسول الله - ﷺ - في نفسه أسوة وقدوة، يحسن التأسي به، والاقتداء، كقولك: في البيضة عشرون مناً حديداً؛ أي: هي نفسها هذا القدر من الحديد.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الهمزة، وقرأ عاصم: بكسرها، وهما لغتان، كما قال الفراء وغيره، وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله - ﷺ -؛ أي: لقد كان لكم في رسول الله، حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإن كان سببها خاصاً.. فهي عامة في كل شيء، ومثلها ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وهذه الجملة: خبرية لفظاً، إنشائيةً معنىً قصد بها الأمر؛ أي: اقتدوا به اقتداءً حسناً، وهو أن تنصروا دين الله، كما نصر هو بنفسه بالخروج إلى الغزو.

و(اللام) في قوله: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ويأمل ثوابه ﴿و﴾ يرجو ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ أي: نعيمه، أو يخاف الله واليوم الآخر، فالرجاء يحتمل الأمل والخوف متعلقه بحسنة، أو بمحذوف، هو صفة لحسنة؛ أي: كائنة لمن كان يرجو الله، وقال الزمخشري: إنه بدل من ﴿لَكُمْ﴾، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾. انتهى. ولا يجوز[1] على مذهب جمهور البصريين أن يبدل من ضمير المتكلم، ولا من ضمير المخاطب اسم ظاهر في بدل الشيء، وأجاز ذلك الكوفيون والأخفش، ويدل عليه قول الشاعر:

بِكُمْ قُرَيْشٍ كَفَيْنَا كُلَّ مُعْضِلَةٍ وَأَمَّ نَهْجَ ٱلْهُدَىٰ مَنْ كَانَ ضِلِّيلاً

والمراد بـ﴿من كان يرجو الله﴾: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى يرجون الله: يرجون ثوابه أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم الآخر: إنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصدقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة: تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بلسانه، وجنانه ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ في جميع أوقاته وأحواله معطوف على ﴿كان﴾؛ أي: ولمن ذكر الله سبحانه في جميع أحواله، ذكراً كثيراً، وجمع[2] بين الرجاء لله، وكثرة الذكر له، المؤدية إلى ملازمة الطاعة، لأن بهما يتحقق الائتساء برسول الله - ﷺ -.

قال الحكيم الترمذي: الأسوة في الرسول: الاقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول وفعل.

ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش، التي أحاطت بهم كالبحر المحيط، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾؛ أي: الجنود المجتمعة لمحاربة النبي - ﷺ - وأصحابه يوم الخندق، والحزب: جماعة فيها غلظ، كما في «المفردات».. ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال المؤمنون ﴿هَٰذَا﴾ البلاء العظيم، والإشارة[1] بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما رأوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذي نزل بهم، والبلاء الذي دهمهم ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وأخبرنا به، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ - ﷺ - بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الآية. وبقوله - ﷺ -: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم»، وبقوله عليه السلام: «إن الأحزاب سائرون، إليكم بعد تسع ليال أو عشر» كما روي عن ابن عباس قال: قال النبي - ﷺ - لأصحابه: «إن الأحزاب سائرون، إليكم تسعاً أو عشراً؛ أي: في آخر تسع ليال أو عشر، فلما رأوهم قد أقبلوا من حين الإخبار.. قالوا ذلك، وهذا القول استبشار بحصول ما وعدهم الله تعالى ورسوله - ﷺ -، من مجيء هذه الجنود، وأنه يعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله تعالى.

ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: ظهر صدق خبر الله ورسوله - ﷺ - ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوه ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله وتصديقاً بمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره، وقال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿وما زادوهم﴾ بالواو وضمير الجميع يعود على الأحزاب؛ أي: ولما أبصر[3] المؤمنون الصادقون المخلصون لله في القول والعمل الأحزاب، الذين أدهشت رؤيتهم العقول، وتبلبلت لها الأفكار، واضطربت الأفئدة.. قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، من الابتلاء والاختبار، الذي يعقبه النصر في نحو قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

خَلَوْا مِن قَبْلِكُم . . .﴾ الآية. وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ وقوله ـ ﷺ ـ: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم» إلخ، وقوله: «إنهم سائرون إليكم تسعاً أو عشراً»؛ أي: في آخر تسع ليال أو عشر من حين الأخبار، وصدق الله ورسوله في النصرة والثواب، كما صدق الله ورسوله في البلاء والاختبار، وما زادهم ذلك إلا صبراً على البلاء، وتسليماً للقضاء، وتصديقاً بتحقيق ما كان الله ورسوله وعدهم. ووجه إظهار الاسم الشريف والرسول في قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هو قصد التعظيم كما في قول الشاعر:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لاَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وأيضاً لو أضمرهما.. لجمع بين ضمير الله وضمير رسوله في لفظٍ واحدٍ، وقال صدقا، وقد ورد النهي عن جمعهما، كما في حديث: «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى، ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء واحتملوا البأساء والضراء بقوله:

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المؤمنين المخلصين لله، المصدقين برسوله ﴿رِجَالٌ﴾ كمله، فالتنوين فيه للتعظيم، والكمال ﴿صَدَقُوا۟﴾ ووفوا ﴿مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أوفوا بما عاهدوا الله عليه، ونذروا على أنفسهم من الثبات مع الرسول، والمقاتلة لإعلاء الدين، والصبر في اللأواء وحين البأساء؛ أي[1]: حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم، وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ـ ﷺ ـ.. ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا.

وقيل المعنى[2]: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسوله ـ ﷺ ـ ليلة العقبة، من الثبات معه، والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وهم المنافقون.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

قال الحكيم الترمذي ـ رحمه الله ـ: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من بين الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين، فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ فحقيقة الرجولية الصدق، ومن لم يدخل في ميادين الصدق.. فقد خرج من حدّ الرجولية.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ﴾ ووفى نحبه ونذره فاستشهد بعض يوم بدر، وبعض يوم أحد، وبعض في غير هذه المواطن، كحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نذره ووفاءه والقتل في سبيله؛ لكون موقناً كعثمان وطلحة وغيرهما، فإنهم على نذورهم وقد قضوا بعضها، وهو الثبات مع رسول الله ـ ﷺ ـ، والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة، ومنتظرون قضاء بعضها الباقي، وهو القتال إلى الموت شهيداً، وفي وصفهم بالانتظار إشارة إلى كمال اشتياقهم إلى الشهادة.

تفصيل[1] لحال الصادقين، وتقسيم لهم إلى قسمين، والنحب في الأصل: النذر المحكوم بوجوبه، وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه، وقضاؤه الفراغ منه والوفاءُ به، يقال: قضى فلان نحبه؛ أي: وفى بنذره، ويعبر بذلك عمن مات كقولهم: قضى أجله واستوفى أكله، وقضى من الدنيا حاجته، وذلك، لأن الموت كنذر لازم في عنق كل حيوان.

وقال أبو السعود: ويجوز[2] أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت شهيداً، إما: بتنزيل أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه، وإيراده الالتزام عليه، وهو الأنسب بمقام المدح، وأما ما قيل من أن النحب استعير للموت؛ لأنه كنذر لازم في رقبة الحيوان، فهو تقبيح للاستعارة، وإذهاب لرونقها. انتهى.

ومعنى الآية[3]: أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمنيتهم، وقضوا حاجتهم، ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك كما في يوم أحد، كحمزة بن عبد

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو السعود.

(٣) الشوكاني.

المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، ومنهم من ينتظر قضاء نحبه حتى يحضر أجله، كعثمان بن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم، فإنهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه، من الثبات مع رسوله - ﷺ -، والقتال لعدوه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم، وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة.

وجملة قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ عهدهم وما غيروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ وتغييراً ما، لا أصلاً، ولا وصفاً، كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً، راغبين فيه، مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، معطوفة على ﴿صَدَقُوا۟﴾ وفاعله: فاعله.

أما الذين قضوا نحبهم فظاهر، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في جماعة آخرين عن أنس، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله - ﷺ - فيما بعد.. ليرين الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهاً: لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، من ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم.. فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا، ولم يغيروا ولا بدلوا، فيشهد به انتظارهم أصدق الشهادة، روي أن طلحة - رضي الله عنه - ثبت مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد يحميه، حتى أصيبت يده فشلت، وجرح أربعاً وعشرين جراحةً، فقال عليه السلام: «أوجب طلحة الجنة» وسماه النبي - ﷺ - يومئذ طلحة الخير، ويوم حنين طلحة الجود، ويوم غزوة ذات العشيرة طلحة الفياض، وقتل يوم الجمل، وفي الآية تعريض[1] بأرباب النفاق، وأصحاب مرض القلب، فإنهم ينقضون العهود، ويبدلون العقود.

(١) روح البيان.

و(اللام): في قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿صَدَقُواْ﴾ أو بـ﴿زَادَهُمْ﴾ أو بـ﴿ما بدَّلوا﴾ أو بمحذوف، تقديره: وقع جميع ما وقع؛ ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولاً وفعلاً، قال في «كشف الأسرار»: في الدنيا بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميل الثواب، وجزيل المآب، والخلود في النعيم المقيم، والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر منهم من الأقوال والأعمال المحكية في التغيير والتبديل ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم؛ أي: إن لم يتوبوا فإن الشرك لا يغفر البتة.

جعل[1] المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها، بسبب تبديلهم وتغييرهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبها، والسعي لتحصيلها، ومفعول ﴿إِن شَآءَ﴾ وجوابها: محذوفان؛ أي: إن شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق، ولم يتركوه ويتوبوا عنه، كما مرّ.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يقبل توبتهم إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا﴾؛ أي: ستوراً على من تاب محاءً لما صدر منه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: منعماً عليه بالجنة والثواب.

والمعنى[2]: أي إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال؛ ليتميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر كل منهما جلياً واضحاً، كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ وقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾. ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ووفائهم له به، ويعذب المنافقين الناقضين لعهده، المخالفين لأوامره، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلقوه، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم، وعملوا صالح الأعمال.. غفر لهم ما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أسلفوا من السيئات، واجترحوا من الآثام والذنوب، ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة.. قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين، والرحمة بهم، فلا يعاقبهم بعد التوبة، وفي هذا حث عليها في كل حين، وبيان نفعها للتائبين.

ثم رجع يحكي بقية القصص، وفصل ذلك تتميماً للنعمة التي أشار إليها إجمالاً بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ووسط بينهما بإيضاح ما نزل بهم من الطامة التي تحير العقول والأفهام، والداهية التي زلت فيها الأقدام، وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال؛ لإظهار عظمة النعمة، وإبانة جليل خطرها، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وصرف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهم الأحزاب، معطوف على قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أو على محذوف؛ أي: وقع ما وقع من الحوادث، ورد الله الذين كفروا من الذين تحزبوا وتجمعوا لمحاربة النبي - ﷺ - إلى بلدانهم، حال كونهم ملتبسين ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ وغضبهم وحسرتهم، لم يشف صدورهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ حال بعد حال؛ أي: حال كونهم لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة، وسماها خيراً؛ لأن ذلك كان خيراً عندهم، فجاء على استعمالهم وزعمهم.

والمعنى: أن الله سبحانه ردهم بغيظهم، لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً، أي خير، بل رجعوا خاسرين، لم يربحوا إلا عناء السفر وغرم النفقة. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿المؤمنين القتال﴾؛ أي: أغناهم عن قتال الأحزاب بما أرسله عليهم من الريح الشديدة والجنود من الملائكة.

وحاصل المعنى(١): أي فأرسلنا ريحاً وجنوداً لم تروها، ورددنا الذين كفروا بالله ورسوله من قريش وغطفان بغمهم، بفوت ما أملوا من الظفر، وخيبتهم، فيما كانوا طمعوا فيه من الغلبة، والنصر على محمد وصحبه، إذ لم

---

(١) المراغي.

يصيبوا مالاً ولا إساراً، ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم، بل كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

روى الشيخان من حديث أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». ورويا أيضاً عن عبد الله بن أوفى: قال: دعا رسول الله ـ ﷺ ـ على الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

وروى محمد بن إسحاق: أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق.. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». وقد تحقق هذا، فلم تغزهم قريش بعد ذلك، بل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يغزوهم، حتى فتح الله تعالى مكة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريده، وإيجاده، إذ قال له: كن فكان، ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً قاهراً على كل شيء، لا يغالبه أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته؛ أي: وكان الله عزيزاً بحوله وقوته، فردهم خائبين لم ينالوا خيراً.

ولما قص أمر الأحزاب، وذكر ما انتهى إليه أمرهم.. ذكر حال من عاونوهم من اليهود، فقال: ﴿وَأَنزَلَ﴾ الله سبحانه اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾؛ أي: عاونوا الأحزاب المردودين على رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين، حين نقضوا العهد وعاضدوهم عليهم حالة كون المظاهرين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذٍ سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: من حصونهم وقصورهم، جمع صيصية بالكسر، وهي[1] ما يتحصن به، ويجعل وقايةً من المهالك، ولذلك يقال لقرن الثور

(١) روح البيان.

والظبي وشوكة الديك، وهي في مخلبته التي في ساقه، لأنه يتحصن بها ويقاتل.

أي: وأنزل الله[1] يهود بني قريظة الذي عاونوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأخرجهم من حصونهم وقصورهم، بعد أن نقضوا العهد، بسفارة حيي بن أخطب النضيري، إذ لم يزل بزعيمهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وكان مما قاله له: جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان، وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله جئتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل يحاوله حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون أسوتهم.

ولما أيد الله المؤمنين، وكبت أعداءهم وردهم خائبين، ورجعوا إلى المدينة، ووضع الناس سلاحهم.. أوحي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ: أن انهض إلى بني قريظة من فورك، فأمر الناس بالسير إليهم، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر، وقال ـ ﷺ ـ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس، فأدركتهم الصلاة فصلى بعض في الطريق، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين.

﴿وَقَذَفَ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ أي: ألقى ورمى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ أي: في قلوب اليهود الذين ظاهروا الأحزاب ﴿ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوف والفزع الشديد، حتى سلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر، حسبما ينطق به قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني رجالهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني نساءهم وصبيانهم من غير أن يكون من جهتهم حركة، فضلاً عن المخالفة، وهذه الجملة: مبينة ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تقتلون وتأسرون﴾ بالفوقية على الخطاب وكسر السين، وقرأ أبو حيوة: بضمها، وقد حكى الفراء كسر السين وضمها، فهما لغتان. وقرأ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

اليماني: بالفوقية في الأول، والتحتية في الثاني، وقرأ ابن ذكوان في رواية عنه: بالتحتية فيهما.

ووجه تقديم مفعول الفعل الأول، وتأخير مفعول الثاني[١]: أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين، وهو القتل.. كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين، فقيل: كان المقتولون من ست مئة إلى سبع مئة، وقيل: ست مئة، وفيل: سبع مئة، وقيل: ثمان مئة، وقيل: تسع مئة. وكان المأسورون سبع مئة. وقيل: سبع مئة وخمسين، وقيل: تسع مئة.

والمعنى: أي وألقى الله الرعب والخوف الشديد في قلوبهم حين نازلهم رسول الله - ﷺ -، وحاصرها خمساً وعشرين ليلةً، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم، فأحضره رسول الله - ﷺ - وقال له: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت» فقال - رضي الله عنه -: وحكمي نافذ فيهم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «نعم، فقال: إني أحكم أن تقتل مقاتليهم، وتسبى ذراريهم وأموالهم، فقال له رسول الله - ﷺ -: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله»، ثم أمر رسول الله - ﷺ - بالأخادية، فخدت في الأرض، وجيء بهم مكتوفي الأيدي، فضربت أعناقهم، وكانوا ما بين سبع مئة وثمان مئة، وسبي من لم ينبت منهم مع النساء، وسبي أموالهم.

والخلاصة[٢]: أنه قذف الرعب في قلوبهم، حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأموالهم للأسر.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ملَّككم ملكاً، كالميراث في حصوله بلا مقابل ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ أي: مزارعهم وحدائقهم ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: منازلهم وحصونهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: حليهم وأثاثهم ومواشيهم وسلاحهم ونقودهم التي ادخروها، شبهت[٣] في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على الوارثين، إذ ليسوا في

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

علقةٍ منهم من قرابةٍ ولا دين، ولا ولاءٍ، فأهلكهم الله تعالى على أيديهم، وجعل أملاكهم وأموالهم غنائم لهم باقيةً عليهم كالمال الباقي على الوارث. ﴿و﴾ أورثكم في علمه وتقديره ﴿أرضا لم تطؤها﴾ الآن بأقدامكم، ولم تقبضوها كفارس والروم وما ستفتح على المسلمين إلى يوم القيامة من الأراضي والممالك، من وطيء على الأرض، يطأ وطئاً: إذا مشى عليها بالأقدام، قاله عكرمة، واختاره أبو حيان.

قال الشوكاني: واختلف[1] المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة، فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل: إنها خيبر، فإنها فتحت بعد بني قريظة بسنتين، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم الله بها، وقال قتادة: كنا نتحدث: إنها مكة، وقال الحسن: فارس والروم، وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة، وقرأ زيد بن علي: ﴿لم تطوها﴾ بفتح الطاء وواوٍ ساكنة أبدل همزة تطأ ألفاً على حد قوله:

إِنَّ ٱلسِّبَاعَ لَتَهْدَا فِيْ مَرَابِضِهَا   وَٱلنَّاسُ لاَ يُهْتَدَىٰ مِنْ شَرِّهِمْ أَبَدَا

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت، كقوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المقدورات ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: قادراً، فقد شاهدتم بعض مقدوراته من إيراثكم الأرض التي تسلمتموها ونصركم عليهم، فقيسوا عليها ما بعدها، إذ لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه شيء شاءه.

وقال أبو حيان: وختم تعالى هذه الآية بقدرته على كل شيء، فلا يعجزه شيء، وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، وأنه لا يستبعد ذلك، فكما ملكهم هذه، فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿قُل﴾ أمر إيجاب في تخييرهن، وهو من خصائصه عليه السلام ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ ونسائك، قيل[1]: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي ـ ﷺ ـ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات، قال الواحدي: قال المفسرون: إن أزواج النبي ـ ﷺ ـ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ـ ﷺ ـ منهن شهراً، وأنزل الله سبحانه آية التخيير هذه، وكن يومئذٍ تسعاً: عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة ـ واسمها رملة بنت أبي سفيان ـ وأم سلمة ـ واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية ـ وسودة بنت زمعة العامرية، وهذه الخمسة من قريش، وأربع من غيرهم: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية الهارونية وجويرية بنت الحارث الخزاعية والمصطلقية، وهذه كلها بعد وفاة خديجة الكبرى ـ رضي الله عنها وعنهن ـ.

﴿إِن كُنتُنَّ﴾ أنتن ﴿تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: التنعم فيها، والسعة في معاشها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: زخارفها ونضارتها ورفاهيتها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ أي: أقبِلْنَ إلي بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين، وأجبن إلى ما أعرض عليكن وأسمعنه، وليس المراد حقيقة الإقبال والمجيء، كما يقال: أقبل يكلمني، وذهب يخاصمني، وقام يهددني، كما سيأتي في مبحث التصريف.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ بالجزم جواباً للأمر؛ أي: أعطيكن متعة الطلاق، وتقديم التمتع[2] على التسريح المسبب عنه من باب الكرم وحسن الخلق، وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر، وقيل: لأن الفرقة كانت بإرادتهن كاختيار المخيرة نفسها، فإنه طلقة رجعية عند الشافعي، وبائنة عند أبي حنيفة. ا هـ. «بيضاوي».

والمتعة لغة: اسم مصدر بمعنى التمتع والتلذذ بالأمور، وشرعاً: مال يجب على الزوج لمطلقة قبل وطء لم يجب لها شطر مهر، بأن كانت مفوضةً لم يفرض

---

(١) الشوكاني. (٢) البيضاوي.

لها شيء، وهي واجبة في المطلقة التي لم يدخل بها، ولم يسم لها مهراً عند العقد، ومستحبة في غيرها، والحكمة في[1] إيجابها: الجبر لما أوحشها الزوج بالطلاق، فيعطيها لتنتفع بها مدة عدتها، ويعتبر قدرها بحسب حال الزوج يساراً وإعساراً، كما هو مقرر في محله.

وقوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾؛ أي: أطلقكن، بالجزم معطوف على ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: طلاقاً حسناً من غير ضرار ولا بدعة ولا صريح اللفظ، الذي يقع به الطلاق من غير نيةٍ، وهو لفظ الطلاق عند أبي حنيفة وأحمد، والطلاق والفراق والسراح عند الشافعي ومالك.

وقرأ[2] الجمهور: ﴿أمتعكن﴾ بالتشديد من متع، وزيد بن علي: بالتخفيف من أمتع، وقرؤوا أيضاً: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بالجزم في الفعلين، وقرأ حميد الخراز: بالرفع في الفعلين على الاستئناف، والجزم على قراءة الجمهور على أنهما جواب الطلب، وقيل: على أنهما جواب الشرط، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ اعتراضاً بين الشرط وجزائه، ولا يضر دخول الفاء على جملة الاعتراض كقول الشاعر:

وَٱعْلَمْ فَعِلْمُ ٱلْمَرْءِ يَنْفَعُهُ ... أَنْ سَوْفَ يَأْتِي كُلُّ مَا قُدِرَا

واتفق الأئمة[3] على أن السنة في الطلاق أن يطلقها واحدةً، في طهر لم يصبها فيه، ثم يدعها، حتى تنقضي عدتها، وإن طلق المدخول بها في حيضها أو طهرٍ أصابها فيه، وهي ممن تحبل.. فهو طلاق بدعة محرم، ويقع بالاتفاق، وجميع الثلاثة بدعة عند أبي حنيفة ومالك، وقال أحمد: هو محرم، خلافاً للشافعي، ويقع بلا خلافٍ بينهم.

واعلم: أن الشارع إنما كره الطلاق ندباً إلى الألفة وانتظام الشمل، ولما علم الله أن الافتراق لا بد منه لكل مجموع مؤلف، لحقيقةٍ خفيت عن أكثر

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الناس.. شرع الطلاق رحمةً لعباده، ليكونوا مأجورين في أفعالهم، محمودين، غير مذمومين، إرغاماً للشيطان، فإنهم في ذلك تحت إذن إلهي.

وإنما كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى، لأنه رجوع إلى العدم، إذ بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب، وبعد الائتلاف كل العدم، فمن أجل هذه الرائحة كرهت الفرقة بين الزوجين؛ لعدم عين الاجتماع، كذا في «الفتوحات».

ومعنى الآية: أي يا أيها النبي الكريم والرسول العظيم، قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى خصلتين: أولاهما: إن تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها، والتمتع بزخرفها، فليس لكن عندي مقام، إذ ليس عندي شيء منها، فأقبلن علي أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق، تطييباً لخاطرهن، وتعويضاً عما لحقهن من ضرر بالطلاق، وهي كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر، واليسار والإقتار، كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾. ثم أسرحكن وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب عباده بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وحين نزلت هذه الآية، عرض عليهن رسول الله - ﷺ - ذلك، وبدأ بعائشة، وكانت أحب أهله إليه فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ففرح رسول الله - ﷺ -، ثم تابعها بقية نسائه، ثم ذكر ثانية الخصلتين، فقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: إن كنتن تردن طاعة الله وطاعة رسوله، أو المعنى: إن كنتن تردن رسوله وصحبته ورضاه، وذكر الله للإيذان بكرامته - ﷺ - عنده تعالى: ﴿وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعاً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعَدَّ﴾ وهيأ في الآخرة، ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ﴾؛ أي: لمن عمل الصالحات منكن بمقابلة إحسانهن، و﴿من﴾ للتبيين، لأن كلهن محسنات أصلح نساء العالمين، ولم يقل: لكن، إعلاماً بأن كل الإحسان في إيثار مرضاة الله ورسوله على مرضاه أنفسهن.

وقال أبو حيان: وأوقع الظاهر موقع المضمر، حيث قال: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ ولم يقل: لكن تنبيهاً على الوصف الذي ترتب لهن به الأجر العظيم، وهو الإحسان،

كأنه قال: أعد لكن، لأن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة كان محسناً. ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: ثواباً ﴿عَظِيمًا﴾؛ أي: كبيراً في ذاته، حسناً في صفاته، باقياً في أوقاته.

والمعنى[1]: أي وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله، وثواب الدار الآخرة.. فأطعنهما، فإن الله أعد للمحسنات منكن في أعمالهن القولية والفعلية ثواباً عظيماً، تستحقر الدنيا وزينتها دونه كفاء إحسانهن.

والخلاصة: أنتن بين أحد أمرين: أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن، وتطعن الله، وأن يمتعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك.

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله، أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبي ﷺ، وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الكريم، توجيه[2] الخطاب إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن، ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه ﷺ؛ لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام ﴿مَن يَأْتِ﴾ ويفعل ﴿مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾؛ أي: بسيئةٍ بليغةٍ في القبح، وهي الكبيرة، وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن.

وقرأ زيد بن علي والجحدري وعمرو بن فائد الأسواري ويعقوب[3]: ﴿تأت﴾ بتاء التأنيث، حملاً، على معنى ﴿من﴾، والجمهور: بالياء، حملاً على لفظ ﴿من﴾ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ قرىء بكسر الياء، وقرىء بفتحها كما مر في سورة النساء؛ أي: ظاهرة القبح، من بين بمعنى تبين، قيل: هذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لا أن منهن من أتت بفاحشة؛ أي: معصية ظاهرة.

قال أبو حيان: ولا يتوهم أنها الزنا لعصمة رسول الله - ﷺ - من ذلك، لأنه وصفها بالتبيين والزنا مما يتستر به، وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته. انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق، وقال بعضهم: لعل[1] وجه قول ابن عباس أن الزلة منهن، كسوء الخلق مما يعد فاحشة بالنسبة إليهن؛ لشرفهن وعلو مقامهن، خصوصاً إذا حصل بها أذية النبي ـ ﷺ ـ، ولذا قال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾؛ أي: يعذبن ضعفي عذاب غيرهن؛ أي: مثليه، إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن، ولما كان مكانهن مهبط الوحي من الأوامر والنواهي.. لزمهن بسبب ذلك، وكونهن تحت الرسول أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب، وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع، أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات، يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تضعيف العذاب لهن ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾؛ أي: سهلاً لا يصعب عليه ولا يتعاظمه، لا يمنعه عنه كونهن نساء النبي ـ ﷺ ـ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه، وليس أمر الله كأمر الخلق، حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة شفعائهم.

ومعنى الآية[2]: يا أزواج النبي، من يعص منكم الرسول ـ ﷺ ـ، ويطلب ما يشق عليه ويضيق به ذرعاً، ويغتم لأجله.. يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين؛ أي: تعذب ضعفي عذاب غيرها، لأن قبح المعصية أشد، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصي أشد منه للجاهل العاصي، وكان ذلك سهلاً يسيراً على الله الذي لا يحابي أحداً، لأجل أحد، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغنٍ عنهن شيئاً بل هو سبب لمضاعفة العذاب.

روي: أن رجلاً قال لزين العابدين ـ رضي الله عنه ـ: إنكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب، وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله سبحانه في أزواج النبي ـ ﷺ ـ، من أن نكون كما قلت، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب، وقرأ هذه الآية التي بعدها.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقرأ نافع وحمزة وعاصم والكسائي[1]: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ بألف وفتح العين، والحسن وعيسى وأبو عمرو: بالتشديد وفتح العين، والجحدري وابن كثير وأبو عامر: بالنون وشد العين مكسورةً، وزيد بن علي وابن محيصن وخارجة عن أبي عمرو: بالألف والنون والكسر، وفرقة: بياء الغيبة والألف والكسر، ومن فتح العين، رفع العذاب، ومن كسرها نصبه، ومعنى ضعفين؛ أي: عذابين، فيضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر.

قال في «الأسئلة المقحمة»: ما وجه تضعيف العذاب لزوجات النبي - ﷺ -؟ الجواب: لما كان فنون نعم الله عليهن أكثر، وعيون فوائده لديهن أظهر، من الاكتحال بميمون غرة النبي - ﷺ -، وترداد الوحي إلى حجراتهن، بإنزال الملائكة، فلا جرم كانت عقوبتهن عند مخالفة الأمر من أعظم الأمور وأفخمها، ولهذا قيل: إن عقوبة من عصى الله تعالى عن العلم، أكثر من عقوبة من يعصيه عن الجهل، وعلى هذا أبداً. وحد الحر أعظم من حدّ العبد، وحدّ المحصن أعظم من حدّ غير المحصن؛ لهذه الحقيقة. انتهى. وعوتب[2] الأنبياء بما لا يعاتب به الأمم.

والحاصل: أن الذنب يعظم بعظم جانبه، وزيادة قبحه تابعة لزيادة شرف المذنب والنعمة، فلما كانت الأزواج المطهرة أمهات المؤمنين، وأشراف نساء العالمين.. كان الذنب منهن أقبح، على تقدير صدوره، وعقوبة الأقبح أشد وأضعف.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها، يزيد وينقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة، كحدّ الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

تتمة في حكم الخيار المذكور في الآية

اختلف[1] العلماء في هذا الخيار: هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم: إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق، وإنما خيرهن على أنهن إذا اخترن الدنيا.. فارقهن، لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور، وأنه قال لعائشة: لا تعجلي حتى تستشيري أبويك، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور.

وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق، ولو اخترن أنفسهن.. كان طلاقاً.

التفريع على حكم الآية: اختلف أهل العلم في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود وابن عباس: وإذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها.. لا يقع شيء، وإن اختارت نفسها.. يقع طلقةً واحدةً، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي وأصحاب الرأي، إلا أن عند أصحاب الرأي يقع طلقةً بائنةً، إذا اختارت نفسها، وعند الآخرين رجعيةً، وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج.. يقع طلقةً واحدةً، وإذا اختارت نفسها.. فثلاث، وهو قول الحسن، وبه قال مالك: وروى عن علي رضي الله عنه: أنها إذا اختارت زوجها.. طلقةً واحدةً، وإذا اختارت نفسها.. فطلقةً بائنة، وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها.. لا يقع شيء.

وعن مسروق قال: ما أبالي خيرت امرأتي واحدةً أو مئةً أو ألفاً بعد أن تختارني، ولقد سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: خيرنا رسول الله ـ ﷺ ـ فما كان طلاقاً، وفي روايةٍ: فاخترناه، فلم يعد ذلك شيئاً. متفق عليه.

فصل

وجملة[2] أزواجه ﷺ، اللاتي كن تحته وقت هذا التخيير تسع: وهن اللاتي

---

(١) الخازن. (٢) الفتوحات.

مات عنهن، وفي «المواهب»: واختلف في عدة أزواجه - ﷺ - وترتيبهن، وعدة من مات منهن قبله ومن مات عنهن، ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها، ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه، والمتفق على دخوله بهن إحدى عشرة امرأةً، ست من قريش: خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وأم سلمة بنت أبي أمية وسودة بنت زمعة.

وأربع عربيات: زينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت خزيمة الهلالية «أم المساكين» وجويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية.

وواحدة غير عربية من بني إسرائيل، وهي صفية بنت حيي من بني النضير.

ومات ﷺ عن تسع دخل بهن باتفاق.

وقد ذكر أنه - ﷺ - تزوج نسوةً غير من ذكرنَ، وجملتهن ثنتا عشرة امرأة: الأولى: الواهبة نفسها له - ﷺ - وهي أم شريك القرشية، الثانية: خولة بنت الهذيل بن هبيرة، الثالثة: عمرة بنت يزيد، الرابعة: أسماء بنت النعمان، الخامسة: مليكة بنت كعب، السادسة: فاطمة بنت الضحاك، السابعة: عالية بنت ظبيان، الثامنة: قتيلة بنت قيس، التاسعة: سبأ بنت أسماء، العاشرة: شراق بنت خليفة أخت دحية الكلبي، الحادية عشرة: ليلى بنت الخطيم، الثانية عشرة: امرأة من غفار، فهؤلاء. الاثنتا عشرة، جملة من ذكر من أزواجه ﷺ،وفارقهن في حياته، بعضهن قبل الدخول، وبعضهن بعده على خلاف فيه.

فجملة من عقد عليهن ثلاث وعشرون امرأةً، دخل ببعضهن دون بعضٍ، مات عنده منهن بعد الدخول خديجة وزينب بنت خزيمة، ومات منهن قبل الدخول اثنتان: أخت دحية وبنت الهذيل باتفاق، واختلف في مليكة وسبأ: هل ماتتا أو طلقهما، مع الاتفاق على أنه لم يدخل بهما، وفارق بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان، وقبله باتفاق عمرة وأسماء والغفارية، واختلف في أم شريك: هل دخل بها؟ مع الاتفاق على الفرقة، والمستقيلة التي جهل حالها، فالمفارقات باتفاقٍ سبع، وثنتان على خلفٍ، والميتات في حياته باتفاق أربع،

ومات - ﷺ - عن عشرة، واحدة لم يدخل بها، وهي قتيلة بنت قيس، وخطب - ﷺ - ثماني نسوة لم يعقد عليهن باتفاق، وأما سراريه التي دخل عليهن بالملك فأربعة: مارية القبطية وريحانة بنت شمعون من بني قريظة، وقيل: من بني النضير، وأخرى وهبتها له زينب بنت جحش، واسمها نفيسة، والرابعة: أصابها في بعض السبي ولم يعرف اسمها. ا هـ. من «المواهب» من المقصد الثاني، وقد بسط الكلام عليهن هناك جداً فارجع إليه إن شئت.

الإعراب

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من المعوقين. ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿القائلين﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة لتصوير حال المنافقين، ﴿هَلُمَّ﴾: اسم فعل أمر بمعنى أقبلوا عند الحجازيين، مبني على الفتح، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنتم، ويلزم عندهم صيغةً واحدةً في المفرد والمذكر وغيرهما، وجاء هنا على لغتهم، وعند بني تميم فعل أمر، وتلحقه علامات التثنية والجمع والتأنيث، ويستعمل لازماً كما هنا، ومتعدياً كما في الأنعام، ﴿إِلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة اسم الفعل: في محل النصب مقول ﴿القائلين﴾. ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَأْتُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْبَأْسَ﴾؛ أي: القتال مفعول به. والجملة الفعلية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿القائلين﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: إلا إتياناً قليلاً، أو على الظرفية الزمانية؛ أي: إلا إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾.

﴿أَشِحَّةً﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ(إذا) على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، لأن رأى هنا بصرية، يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، وجملة ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: حال من مفعول ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهو ﴿الواو﴾. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور نعت لمصدر محذوف، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: تدور أعينهم دوراناً كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت. ﴿يُغْشَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُغْشَىٰ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ متعلق بـ﴿يُغْشَىٰ﴾. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾: فعل وفاعل. والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿سَلَقُوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾. ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾: متعلق بـ﴿سَلَقُوكُم﴾. ﴿حِدَادٍ﴾: صفة لـ﴿ألسنة﴾: ﴿أَشِحَّةً﴾ حال من فاعل ﴿سَلَقُوكُم﴾، أو منصوب على الذم؛ أي: أذم أشحةً ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشِحَّةً﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿فَأَحْبَطَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿أحبط الله أعمالهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ بمعنى: ما آمنوا. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾. ﴿يَسِيرًا﴾ خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة أو حال من فاعل ﴿أحبط﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿حسب﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿وَإِن يَأْتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾: فعل وفاعل مجزوم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة. ﴿يَوَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، والجملة الشرطية: معطوفة على جملة ﴿يَحْسَبُونَ﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ومدخولها محذوف، تقديره: لو ثبت أنهم بادون. ﴿أَنَّهُم﴾: ناصب واسمه ﴿بَادُونَ﴾: خبره ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، تقديره: لو ثبت كونهم في البادية، وجملة الفعل المحذوف: صلة ﴿لو﴾ المصدرية، وجملة ﴿لو﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَوَدُّوا۟﴾، تقديره: يودوا كونهم في البادية مع الأعراب. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: متعلق به. وجملة ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿بَادُونَ﴾: وقول المعربين هنا حال من الواو في ﴿بادون﴾ غلط فاحش لأنّ الواو في ﴿بادون﴾ حرف جيء به علامة على الرفع، فلا يصلح أن يكون صاحب حال؛ لأنه لا يكون إلا اسماً. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيكُم﴾: خبره. والجملة: فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿قَـٰتَلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا قتالاً قليلاً أو لزمن محذوف؛ أي: إلا زمناً قليلاً، والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَقَدۡ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمۡ﴾: خبره مقدم. ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿أُسۡوَةٌ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أُسۡوَةٌ﴾: اسمه مؤخر. ﴿حَسَنَةٞ﴾ صفة لـ﴿أُسۡوَةٌ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: لكم بدل بعض من كل. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على من. ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿كَثِيرٗا﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً، أو على الظرفية؛ أي: زماناً كثيراً.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بجوابه. ﴿رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، لأن رأى هنا بصرية يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾ الشرطية، وجملة ﴿لما﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿هَٰذَا مَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مقول لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما وعدناه الله، وهو المفعول الثاني لوعد. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿زَادَهُمۡ﴾: فعل ومفعول به أول، وفاعله: ضمير يعود على رؤية الأحزاب، وذكر الضمير؛ لأن تأنيثها غير حقيقي، أو ضمير يعود على الوعد. والجملة معطوفة

على جملة ﴿قَالُوا﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿إِيمَٰنًا﴾: مفعول ثان لـ﴿زاد﴾. ﴿وَتَسۡلِيمًا﴾: معطوف عليه.

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾.

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: خبر مقدم. ﴿رِجَالٞ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان حال الصالحين من الصحابة. ﴿صَدَقُواْ﴾: فعل وفاعل صفة ﴿رِجَالٞ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿صَدَقُواْ﴾. ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿عَٰهَدُواْ﴾، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿فَمِنۡهُم﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت من المؤمنين رجال، وأردت بيان مراتبهم.. فأقول لك: منهم. ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿قَضَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾. ﴿نَحۡبَهُۥ﴾: مفعول به. والجملة: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَمِنۡهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يَنتَظِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿بَدَّلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿تَبۡدِيلٗا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَنتَظِرُ﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي الله الصادقين﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بلام كي، والجار والمجرور: متعلق بمعلول محذوف، تقديره: وقع جميع ما وقع لجزاء الله سبحانه الصادقين: ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾:

متعلق بـ﴿يجزي﴾، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لبيان ما دعا إلى وقوع ما حكى من الأقوال والأحوال. ﴿وَيُعَذِّبَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يجزي﴾ منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ومفعول ﴿شَآءَ﴾: محذوف؛ أي: إن شاء تعذيبهم، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف أيضاً، والتقدير: إن شاء تعذيبهم يعذبهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يعذب﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتُوبَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول له. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من الموصول؛ أي: ملتبسين بغيظهم. ﴿لَمْ يَنَالُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿خَيْرًا ۚ﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب حال ثانية من الموصول. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿عَزِيزًا﴾: خبر ثان له. والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾. ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ظاهروهم. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: متعلق

بـ﴿أنزل﴾، وهو اسم منقوص مجرور بكسرة مقدرة، ويحتمل كون جملة ﴿أنزل﴾: مستأنفة مسوقة لبيان قصة غزوة بني قريظة. ﴿وَقَذَفَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أنزل﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق بقذف. ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾: مفعول به لـ﴿قذف﴾. ﴿فَرِيقٗا﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَقۡتُلُونَ﴾. ﴿تَقۡتُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مبينة ومقررة لقذف الله الرعب في قلوبهم. ﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَقۡتُلُونَ﴾.

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾.

﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿أنزل﴾. ﴿وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا﴾: معطوفات على ﴿أَرۡضَهُمۡ﴾. ﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل المصب صفة لـ﴿أرضا﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٗا﴾. ﴿قَدِيرٗا﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة النداء: مستأنفة مسوقة لتقرير موقف الإسلام من أزواج النبي - ﷺ -. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾. ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾: متعلق به. والجملة: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُنَّ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿تُرِدۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة: في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾. ﴿وَزِينَتَهَا﴾: معطوف على الحياة، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿كان﴾؛ أي: مريدات الحياة الدنيا. ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب

﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿تعالين﴾: فعل أمر مبني على السكون ونون النسوة فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على النبي مجزوم بالطلب السابق و﴿الكاف﴾: ضمير الإناث في محل النصب مفعول به والنون علامة جمع الإناث، الجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾، ﴿سَرَاحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلًا﴾: صفة له.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿كنتنّ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿تُرِدْنَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة. ﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: صفة لـ﴿الدار﴾. وجملة ﴿تُرِدْنَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿مِنكُنَّ﴾: حال من المحسنات ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾. وجملة ﴿أَعَدَّ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾. ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء، في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾: مجزوم بحذف حرف العلة، على كونه فعل شرط لـ﴿مَن﴾. ﴿مِنكُنَّ﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِ﴾. ﴿بِفَـٰحِشَةٍ﴾: متعلق

بـ﴿يَأْتِ﴾: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ صفة لـ﴿فاحشة﴾. ﴿يُضَٰعَفْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿يُضَٰعَفْ﴾. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: نائب فاعل ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مصدر مبين لعدد عامله، منصوب على المفعولية المطلقة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية. ﴿كان ذلك﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: في محل النصب حال من العذاب أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾؛ أي: المثبطين، الذين يخذلون المسلمين من التعويق، وهو: التثبيط، يقال: عاقه وهوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده، والعائق: الصارف عما يراد منه خير، ومنه عوائق الدهر، وتقول: فلان صحبه التعويق فهجره التوفيق.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ أي: أقبلوا إلينا، وهو اسم فعل أمر عند الحجازيين، ويلزم صيغة واحدة في خطاب الواحد وغيره، والمذكر وغيره، وعند بني تميم: فعل أمر وتلحقه علامات التثنية والجمع والتأنيث، فيقولون: هلم يا رجل، وهلموا يا رجال، وهلما يا رجلان، هلمّي يا هندُ وهلمّا يا هندان وهلمُمْن يا هندات.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾: والبأس في الأصل: الشدة، والمراد به هنا: الحرب والقتال.

﴿أَشِحَّةً﴾: جمع شحيح، وهو البخيل والحريص، وهو جمع لا ينقاس، إذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من وادٍ واحد، أن يجمع على أفعلاء، نحو خليل وأخلاء، وظنين وأظناء، وضنين وأضناء، وقد سمع أشحاء، وهو القياس. قال الراغب: الشح بخل مع حرصٍ، وذلك فيما كان عادةً، يقال: رجل شحيح، وقوم أشحة.

﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ أي: تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف.

﴿كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: يقال: غشى على فلان: إذا نابه ما غشي فهمه؛ أي: ستره.

﴿سَلَقُوكُم﴾؛ أي: آذوكم بالكلام، يقال: سلقه بالكلام: إذا آذاه، كما في «القاموس». وأصل السلق: بسط العضو للضرب، وهو من باب ضرب. ا هـ. «شيخنا». وفي «المختار»: سلقه بالكلام آذاه، وهو شدة القول باللسان، وقال تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وسلق البصل والبيض أغلاه بالنار إغلاءً خفيفاً، وباب الكل ضرب. ا هـ. وفي «المصباح»: أنه من باب قتل أيضاً. ا هـ. قال القتيبي: المعنى: آذوكم بالكلام الشديد، وعبارة الشهاب: أصل السلق: بسط العضو ومدة للقهر، سواء كان يداً أو لساناً، كما قال الراغب، فتفسيره بالضرب مجاز.

والحاصل عليه: توصيف الألسنة بالحداد، ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية، والضرب: تخييل. ا هـ. وفي «السمين»: يقال: سلقه، اجترأ عليه في خطابه، وخاطبه مخاطبةً بليغة، وأصله البسط، ومنه سلق امرأته؛ أي: بسطها وجامعها، والسليقة: الطبيعية. ا هـ. وسلقه بالرمح: طعنه؛ وسلقه بالسوط: ضربه إلى أن نزع جلده، وسلق اللحم عن العظم: قشره، وعلى كل حال فالعامة تستعمل هذه الكلمة استعمالاً عاماً لا غبار عليه.

﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾: جمع لسان، كأسلحة جمع سلاح، وهي الجارحة المعروفة.

﴿حِدَادٍ﴾: جمع حديد، يقال: لسان حديد، نحو لسان صارم وماض، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد؛ أي: ذربةٍ سلطة تفعل فعل الحديد.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾؛ أي: بخلاء حريصين على مال الغنيمة.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الأحزاب: جمع حزب، وهم الذين تحزبوا لحرب رسول الله - ﷺ -.

﴿يَوَدُّوا﴾؛ أي: يتمنوا، والود: محبة الشيء وتمني كونه وحصوله.

﴿بَادُونَ﴾: جمع بادٍ، وهو ساكن البادية، يقال: بدا يبد وبداوةً: إذا خرج

إلى البادية، وهي خلاف الحاضرة، يقال: لقد بدوت يا فلان؛ أي: نزلت البادية وصرت بدوياً، وما لك والبداوة، وتبدى الحضري: إذا سكن البادية، ويقال: أين الناس؟ فتقول: لقد بدوا؛ أي: خرجوا إلى البادية، وكانت لهم غنيمات يبدون إليها.

﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: قال في «القاموس وشرحه»: العرب: بالضم والتحريك، خلاف العجم مؤنث، وهم سكان الأمصار، أو عام، والأعراب منهم: سكان البادية، لا واحد له، ويجمع على أعاريب، وعرب وعاربة وعرب عرباء، وعرب وعربة صرحاء، وعرب متعربة، وعرب مستعربة، دخلاء، والمعنى هنا: خارجون إلى البدو، مقيمون بين أهله.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾: قال الراغب: الأسوة بضم الهمزة والإسوة بكسرها: كالقدوة، والقدوة: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، حسناً كان أو غيره، ضاراً أو غيره، ويقال: تأسيت به؛ أي: اقتديت. اهـ. والأسوة: بمعنى الاقتداء، وهي اسم وضع موضع المصدر، وهو الائتساء كالقدوة من الاقتداء، وائتسى فلان بفلان؛ أي: اقتدى به. اهـ. «سمين».

وفي «المصباح»: الإسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة، وتأسيت به وائتسيت: اقتديت. اهـ.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ أي: مات، والنحب: النذر، ووقع قولهم: قضى نحبه عبارة عن الموت، لأن كل حي لا بد له من أن يموت، فكأنه نذر لازم في رقبته، فإذا مات.. فقد قضى نحبه؛ أي: نذره، والنذر: بفتح النون، وقد وهم صاحب «المنجِد» فضبطه بكسرها، وهذا غريب. وفي «المصباح»: نحب نحباً من باب ضرب بكى، والاسم: النحيب، ونحب نحباً من باب قتل نذر، وقضى نحبه مات أو قتل في سبيل الله، وفي التنزيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. انتهى. وفي «القرطبي»: والنحب: النذر والعهد والموت والحاجة والمدة. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: والغيظ أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: من حصونهم، جمع صيصية بالكسر، وهي كل ما

يتحصن به ويمتنع، قال الشاعر:

فَأَصْبَحَتِ ٱلنِّيْرَانُ صَرْعَىٰ وَأَصْبَحَتْ   نِسَـاءُ تَـمِـيْـمٍ يَبْـتَـدِرْنَ ٱلـصَّـيَـاصِـيَـا

وفي «القاموس»: والصيصية: شوكة الحائك يسوي بها السدى واللحمة، وشوكة الديك التي في رجله، وقرن البقر والظباء، والحصن وكل ما امتنع به. انتهى.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ والأسر: الشد بالقيد، وسمي الأسير بذلك، ثم قيل لكل مأخوذٍ مقيدٍ، وإن لم يكن مشدوداً بذلك.

﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾: من وطىء يطأ وطئاً: إذا مشى على الأرض.

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: فعل أمر مبني على سكون الياء ونون النسوة فاعل، كما مر، وأصل الأمر أن يكون الآمر أعلى مكاناً من المأمور، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل، وقال صاحب «الروح» أصل تعالى أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المنخفض، ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة كلها، ولم يرد حقيقة الإقبال والمجيء، بل أراد أجبن على ما أعرض عليكن، وأقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين، كما مر.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: السرح: شجرة له ثمرة، وأصله: سرحت الإبل: إذا أرسلتها لرعي السرح، ثم جعل لكل إرسال في الرعي، والتسريح في الطلاق: مستعار من تسريح الإبل؛ كالطلاق في كونه مستعاراً من طلاق الإبل.

﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: قال الراغب: الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. انتهى.

﴿ضِعْفَيْنِۚ﴾: مثنى ضعف بكسر الضاد، يقال: ضعف الشيء: مثله في المقدار أو مثله وزيادة غير محصورة، فقولهم: لك ضعفه، يعني لك مثلاه أو ثلاثة أمثاله أو أكثر، وفي «المصباح»: ضعف الشيء: مثله، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله. وقال الخليل: التضعيف: أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثليه وأكثر، وكذلك الأضعاف والمضاعفة، وقال الأزهري: الضعف في كلام

العرب المثل، هذا هو الأصل، ثم استعمل الضعف في المثل وما زاد، ليس للزيادة حد، يقال: هذا ضعف هذا؛ أي: مثله، وهذان ضعفان؛ أي: مثلاه. قال: وجاز في كلام العرب أن يقال: هذا ضعفه؛ أي: مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن الضعف زيادة غير محصورة، فلو قال في الوصية: أعطوه ضعف نصيب ولدي.. أعطي مثليه، ولو قال: ضعفيه، أعطي ثلاثة أمثاله، حتى لو حصل للابن مئة؟.. أعطي مئتين في الضعف، وثلاث مئة في الضعفين، وعلى هذا جرى عرف الناس واصطلاحهم، والوصية تحمل على العرف، لا على دقائق اللغة هذا، وللضعف بفتح الضاد والضعف بكسرها والضعف بضمها معان، نظمها بعضهم بقوله:

وَفِيْ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعَقْلِ يَكُوْنُ ٱلضَّعْفُ ... وَٱلْوَهْنُ فِيْ ٱلْجِسْمِ فَذَاكَ ٱلضَّعِيْفُ
زِيَادَةُ ٱلْمِثْلِ كَذَا وَٱلضِّعْفُ ... جَمْعُ ضَعِيْفٍ زَهْوَ شَاكِيْ ٱلضُّرِّ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد المستفاد من قد في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ فإنها لتأكيد العلم بالتعويق، ومرجع العلم إلى توكيد الوعيد.

ومنها: التنذير في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وحده: أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة، أو نكتة مستظرفة، وهو يقع في الجد والهزل، وهو لا يدخل في نطاق التهكم، ولا في نطاق الهزل الذي يراد به الجد، ويجوز أن يدخل في نطاق باب المبالغة، وذلك واضح في مبالغته تعالى في وصف المنافقين بالخوف والجبن، حيث أخبر عنهم أنهم تدور أعينهم حالة الملاحظة، كحالة من يغشى عليه من الموت.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: شبه اللسان بالسيف المصلت، وحذف ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق، بمعنى الضرب، على طريقة الاستعارة المكنية، ولفظ حداد: ترشيح.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وفيه أيضاً مجاز بالحذف، لأنه على حذف مضاف، تقديره: تدور أعينهم كعين الذي يغشى عليه من الموت.

ومنها: الإطناب بتكرار الاسم الظاهر في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كرر الاسم الشريف؛ للتكريم والتعظيم، ولأنه لو أعادهما مضمرين.. لجمع بين اسم الله تعالى واسم رسوله في لفظة واحدةً، فكان يقول: وصدقا، وقد كره النبي - ﷺ - ذلك ورد على من قاله حيث قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له: بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله قصداً إلى تعظيم الله، وقيل: إنه إنما رد عليه؛ لأنه وقف على يعصهما، وعلى الأول استشكل بعضهم بقوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فقد جمع بينهما في ضمير واحد، وأجيب: بأن النبي ﷺ، أعرف بقدر الله تعالى منا، فليس لنا أن نقول كما يقول. ا هـ. «سمين».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ لأن النحب حقيقة في النذر، فاستعير للموت؛ لأنه نهاية كل حي، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان، ولكن في هذا تقبيح للاستعارة، وإذهاب لرونقها، ولكن الأنسب بمقام المدح أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت، شهيداً، إما بتنزيل أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه، وإيراده الالتزام عليه. ا هـ. «جمل».

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ وفيه التعريض بأرباب النفاق، وأصحاب مرض القلب، فإنهم ينقضون العهود، ويبدلون العقود.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بجملة ﴿إِن شَآءَ﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة، موكول لمشيئته تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ شبهت هذه المذكورات في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على

الوارثين، فعبر فيها بالميراث.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾؛ لأن التسريح حقيقة في تسريح الإبل للرعي، فاستعير التسريح بمعنى إرسال الإبل للرعي لإطلاق الزوجة عن عقد النكاح، فاشتق منه سرح بمعنى طلق، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ لأنه كناية عن الاختيار والإرادة، والعلاقة، هي أن المخير يدنو إلى من يخيره. ا هـ. «خطيب».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) وكان الفراغ من تسويد الجزء الحادي والعشرين من القرآن الكريم ليلة الاثنين المبارك، الليلة الثانية عشرة من شهر ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاث عشرة سنة، ١٢/ ١١/ ١٤١٣ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ويتلوه الجزء الثاني والعشرون من القرآن الكريم بحول الله تعالى وتيسيره، نسأل الله سبحانه الإعانة لنا على الإتمام والإكمال، كما أعان لنا على الابتداء والافتتاح، وأن يجعل في عمرنا البركة إلى إكماله وطبعه والتدريس عليه، وانتفاع المسلمين به، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، آمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، و- ﷺ - على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تمّ المجلد الثاني والعشرون من تفسير حدائق الروح والريحان، ويليه المجلد الثالث والعشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ . . .﴾ الآية.

شعرٌ

إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا كُنْ سَاتِراً وَحَلِيْمَا
يَا مَنْ يَعِيْبُ قَوْلِي لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتِ نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْتِ

آخرُ

أَلاَ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ أَظَلَّتْكَ يَوْمَاً عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَاناً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ وَلاَ تَكُ جَزْعَاناً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

الفهرس